

# مِنْهَا كَالْقَاصِدِ

وَمِنْهُ الصَّادِقِينَ

أَبِي الْفَرَجِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَلِيٍّ

ابْنِ أَبِي زَيْدٍ

مُتَحَقِّقٍ  
كَامِلٍ مُحَمَّدٍ أَخْطَاطٍ

الْمَجْلَدُ الْأَوَّلُ

الْعِبَادَاتُ - الْعَادَاتُ

دار التوفيق

للطباعة والنشر والتوزيع



العنوان : منهاج القاصدين ومفيد الصادقين  
المؤلف : أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي  
المحقق : كامل محمد الخراط  
عدد المجلدات : ٣ مجلدات  
عدد الصفحات : ١٥٧٦ صفحة  
عدد الألوان : ٢ لون



الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

ISBN 978 - 9933 - 411 - 16 - 9



**دار التوفيق**  
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - سورية

Email: [tawfiqdar@hotmail.com](mailto:tawfiqdar@hotmail.com)

[tawfiqdar@yahoo.com](mailto:tawfiqdar@yahoo.com)

هاتف : ١١ ٦٦٦٠٩٠٥ ٠٠٩٦٣

فاكس : ١١ ٦٦٦٠٩٠٥ ٠٠٩٦٣

موبايل : ٩٤٤ ٤٦٣٣٧٥ ٠٠٩٦٣

ص.ب/١٦٣٥٠

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه  
بكل طرق الطبع والتصوير والنقل  
والترجمة إلا بإذن خطي من الناشر

الكتب التي تنشرها الدار تعبر عن آراء واجتهادات  
أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر



## مقدمة الناشر

الحمد لله ربّ العالمين والصَّلَاة والسَّلَام على سيّدنا محمّد وعلى آله وأصحابه أجمعين. نحمد الله سبحانه وتعالى ونشكره على نعمه التي لا تحصى ونستغفره ونستهديه ونسترشده.

نقدم بين يدي القراء الكرام والمكتبة العربية والإسلامية هذا الكتاب الجامع النفيس الذي طالما سألت وسأل مثلي كثيرون عن هذا الكتاب الذي لم يرَ التور إلى وقتنا هذا، مع كثرة طبعات كتاب «إحياء علوم الدين» وكذلك كتاب «مختصر منهاج القاصدين»، وكنت دائم البحث عن مخطوطات هذا الكتاب منذ سنوات عديدة وعزمت على أن أبذل كل الجهد للعمل على إظهار هذا السفر العظيم.

وبفضل الله عثرت على نسخة خطية كاملة بعد جهد جهيد في مكتبة جور ليلي بتركيا، فأخبرت صديقي الأستاذ كامل الخراط عن المخطوط وطلبت منه تحقيق الكتاب فكانت سعادته كبيرة بظهور هذا الكتاب، وبذل كل الجهد لإعطاء الكتاب حقه، مستفيداً من خبرته الطويلة في هذا المجال فقد أمضى جلّ عمره في العلم والبحث والتحقيق وكانت له مشاركات كثيرة في مجال التحقيق والبحث نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: «سير أعلام النبلاء»، «مسند الإمام أحمد»، «تفسير الطبري». وقام مشكوراً بتحقيق الكتاب فجزاه الله خير الجزاء وبارك له في علمه ووقته.

وقد رأينا أن يخرج الكتاب محققاً مدققاً مخرّج الأحاديث والآيات مع شرح غريب الكلمات والمصطلحات والتعريف ببعض الأعلام والأماكن دون إسهاب يرهق القارئ أو اختصار يضيع حق الكتاب، فكان أن ظهر الكتاب بهذه الحلة التي تليق به ككتاب نفيس جامع.

وبكل تواضع تفخر دار التوفيق للنشر والتوزيع بإظهار كتاب منهاج القاصدين للعالم الإسلامي بعد أن بقي لمئات السنين راقداً بين المخطوطات النادرة والنفيسة بانتظار الظهور والطبع ليستفيد منه القاصي والداني على امتداد العالم الإسلامي.

ونرجو من الله العليّ القدير أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتنا وأن يتقبل منا صالح أعمالنا ويغفر لنا ذنوبنا وخطايانا انه على كل شيء قدير.

والحمد لله ربّ العالمين والصَّلَاة والسَّلَام رسوله الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين.



## المقدمة

الحمدُ لله نَحْمَدُه ونُسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذ بالله من سُرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فكثيراً ما كنتُ أقرأ - وأنا في بدايات مرحلة الطَّلب - في كتاب (مختصر منهاج القاصدين)، للعلامة أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي (ت ٧٤٢هـ)، حيث كان يَشْدُنِي إليه كثرة ما فيه من علمٍ جَمٍّ وَوَعِظٍ وتذكير تحتأجبه النَّفسُ بين الفينة والفينة، لكبح جماح شهوتها وضبط عنان سَطوتها، وسألتُ كثيراً أنا وعدد من الأصحاب عن أصل هذا المختصر وهو كتاب (منهاج القاصدين) للعلامة أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، ولكننا لم نظفر به، ولم نقف له على أثر، حيث إنه مازال مخطوطاً لم يُطبع بعد، وكم كانت سعادتِي كبيرة عندما أخبرني صديقي الأستاذ محمد توفيق القوتلي - صاحب دار التوفيق - أنه قد وقف على نسخة خطية للمنهاج في إحدى مكاتب المخطوطات بتركيا، وأنه قام بتصويرها، وطلب مني أن أقوم بتحقيقه لكي يخرج إلى النور، ولا يظلَّ حَبِيسَ خزائن مكاتب المخطوطات، وليُنتَفَعَ بما فيه من علمٍ عَزِيزٍ، فشَحَدَ هِمَّتِي وشَدَّ عَزِيمَتِي، وبحثتُ عن نسخٍ خطيةٍ أخرى له، فوقفْتُ على نسخةٍ خطيةٍ في المكتبة الظاهرية بدمشق، أُدرِجَتُ خطأً تحت اسم (مختصر منهاج القاصدين)، وبعد البحث والتدقيق تبين أنها نسخة للمنهاج، ووقفْتُ على نسخةٍ أخرى في مكتبة جامعة برنستون بأمريكا، منها نسخة مصورة في مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض، عندها عقدتُ العزمَ على خوض غمار تحقيق هذا السِّفر العظيم، مستعيناً بالله عزَّ وجلَّ، وطالباً منه التوفيق والسداد.

الكتاب من تأليف العلامة المحدّث الواعظ صاحب التصانيف السائرة أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عبيد الله بن الجوزي القرشي التيمي البكري البغدادي، المتوفى سنة (٥٩٧هـ)، ولشهرته وغناؤه عن التعريف لم أذكر له ترجمة خشية الإطالة.

ومن المؤكد نسبة كتاب (منهاج القاصدين) لابن الجوزي، حيث نسبه له ابن قدامة في مقدمة المختصر، ومعظم المصادر التي ترجمت له ذكرته ضمن مصنفاته، والمصنف نفسه ذكره في مقدمته فقال: «وسميت كتابي هذا: منهاج القاصدين ومفيد الصادقين». وكذلك ذكره باسم آخر وهو يخاطب ولده أبا القاسم قائلاً: «وعليك بكتاب منهاج المریدين، فإنه يُعلمك السلوك، فاجعله جليساك ومعلمك...»، وذلك في رسالته المسماة: «لفتة الكبد في نصيحة الولد»<sup>(١)</sup>. ويؤكد نسبه له أيضاً ذكره الكثير من أسماء مصنفاته الأخرى ضمنه، ككتاب (تلبس إبليس)، وكتاب (ذم الهوى)، وكتاب (صفة الصفوة) وغيرها.

### بين الإحياء والمنهاج والمختصر:

من المعروف أن ابن الجوزي رحمه الله، اختصر كتابه (المنهاج) من كتاب (إحياء علوم الدين) للعلامة حجة الإسلام أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى، ولكنه تصرّف في اختصاره تصرفاً كبيراً، فهو لم يلتزم بذكر ما أورده الغزالي فحسب، وإنما أضاف وزاد من عنده الكثير، وأوضح ذلك في مقدمته حيث قال: «وسأكتبه لك في كتاب لا يخلُ بفوائده، ويخلو عن مفايسده، أعتد فيه من المنقول الأصح والأشهر، ومن المعنى الأثبت والأجود، وأحذف ما يصلح حذفه، وأزيد ما يصلح أن يزداد، ولا أطيل بما لا طائل فيه، شحاً عليك وعلى أمثالك أن يتشاغلوا بفاسد، ويحملوا في مفاوز المخاطرة المتاع الكاسد، وربما رأيتني أقصر في بعض الأبواب والفصول، وأحذف كثيراً من الأخبار والآثار، فلا تظنن ذلك مني سهواً بل عمداً؛ لأنني لم أترك

(١) طبعت في مطبعة الترقي بدمشق سنة (١٩٥٥م)، تقديم وتعليق الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله، ومحمود مهدي استانبولي.

ذلك إلا لآفة في المتروك، فربما كانت الأحاديث لا تثبت، والآثار لا تصح، وربما قَلَّتْ فائدتها، وربما تكون قد سبقت فاعرف ذلك».

وقد أورد ابن الجوزي في المنهاج العديد من الأبواب والفصول التي ليست في الإحياء، ففي كتاب أسرار الصلاة ذكر فصلاً كثيراً ليست في الإحياء، كفصل في رفع الصوت بالأذان، وإجابة المؤذن بمثل قوله، وذكر ما يُقال عند الأذان من الدعاء، والدعاء بين الأذان والإقامة، وفضيلة الخطأ إلى المساجد، وفضيلة الصف الأول وغيرها.

وقد يُخالف ابن الجوزي في بعض الأحيان الغزالي فيما أورده، ففي كتاب رياضة النفس وأمراض القلوب في فصل بيان الشواهد على أن الطريق في معالجة أمراض القلوب بترك الشهوات، خالف ابنُ الجوزي الغزاليَّ فيما ذكره في هذا الفصل من ترك المباحات والمشتهيات، وذكر أمثلةً عن النبي ﷺ أنه كان يحب الحلواء والعسل وذراع الشاة وغير ذلك، وكذلك في كتاب الصبر ذكر فصلاً لم يذكرها الغزالي، كذكر آداب الصبر، والصبر على مصائب البدن، كالحُمى والصداع والطاعون، والصبر على موت الولد وغير ذلك، وفي باب معاقبة النفس على تقصيرها من كتاب المحاسبة ذكر الغزالي قصصاً عن عقوبات كثيرة للنفس فيها جورٌ عليها، فقال ابنُ الجوزي: «ولا يغترَّ بما يسمع من أن رجلاً من بني إسرائيل وضع يده على فخذ امرأة، فوضعها في النار حتى شَلَّتْ، وأن آخر حوَّلَ رجله لينزل إلى امرأة، ثم تفكَّر فقال: ماذا أردتُ أن أصنع؟! فلما أراد أن يُعيد رجله قال: هيهات! رجلٌ خرجت إلى معصية الله لا ترجع معي. فتركها حتى تقطعت بالمطر والرياح، وأن آخر نظر إلى امرأة فقلع عينه، فهذا كله ربما كان جائزاً في شريعتهم، فأما في شرعنا فمُحرَّم، وقد سلك نحوه خَلَقٌ من أهل مِلَّتِنَا، حملهم على ذلك الجهل بالعلم، مع كون أكثرهم من أهل الخير، ولكن العلم شيء آخر».

وكثيراً ما يستشهد ابن الجوزي في فصول الكتاب بأحاديث من روايته عن مشايخه لم يذكرها الغزالي في الإحياء، فيذكر حديثاً أو حديثين مما ذكره الغزالي، ويرد ذلك بعشرة أحاديث أو أكثر، وبقصص وروايات عن الصالحين توضح المقصود.

ويمتاز المنهاج أيضاً بسلاسة الأسلوب وعضوية العبارة، فابن الجوزي فارس لا يُشق له غبار في ميدان البلاغة والفصاحة، فقد كان يَخْلُبُ الألبابَ وَيَسحر العقول في مجلس وَعِظِه .

أما ابن قدامة فقد اختصر المنهاج، وحذف في مختصره الكثير من الأبواب والفصول، ولم يكتفِ باختصار العبارة فقط، فالمقارن بين الكتب الثلاثة يجد أن في الإحياء بعض التطويل الممل، وفي المختصر بعض الحذف المُخِل، ويبقى المنهاج وسطاً بينهما، وهي ميزة له عليهما .

### وصف النسخ الخطية:

١- نسخة محفوظة في مكتبة جورليلي علي باشا باستانبول برقم (٢٩٨)، وهي نسخة كاملة، نُسخَت عن نسخة المصنف، وقد أثبت ناسخها أرقام أجزاء نسخة المصنف بهامشها، وفي الورقة (٢٠٠) منها ورد بياض بقدر سطر واحد، فقال الناسخ: «هذا السطر كان قد انطمس بالتصاق جزء المصنف، فليُحَقَّق من مناقب الحسن» .

وورد في عدة صفحات منها ختم وقفية نصها: «هذا مما وَقَّفه الوزير الأعظم علي باشا ابن الحاج محمد آغا عفا الله عنهما سنة ١١٣٠هـ»، وقد نُسخَت بخط نسخي جميل مجوّد، نسخها أحمد بن عمر الشهير بحافظ كلام الله القديم سنة (١٠٨٤هـ)، وعدد أوراقها (٣٩٤) ورقة، ومسطرتها (٢٦) سطراً، ورغم تأخر تاريخ نسخها فقد اتَّخذتها أصلاً لكمالها وجودة خطها، ولأنها منسوخة عن أصل المصنف .

٢- نسخة محفوظة في المكتبة الظاهرية بدمشق، برقم (٢٤) تصوف، وهي تُشكل الجزء الأول من الكتاب، وقد نقص من أولها اثنا عشر ورقةً، فظنَّ أحدهم أن هذا الكتاب هو المختصر لابن قدامة، فكتب بخط مغاير الورقات الناقصة، نقلها من المختصر وأثبتها في بداية هذه النسخة من المنهاج، فمن هنا جاء اللَّبسُ بأن هذا الكتاب هو المختصر وليس المنهاج، وظنه أحد مالكيه - وهو عبد الله باشا - أنه الإحياء حيث كتب على غلافه ما يلي: «الواقع أن هذا هو الجزء الأول من الإحياء... عبد الله باشا»، ولكن أحدهم اهتدى إلى أن الكتاب لابن الجوزي دون

معرفة اسمه، وذلك من كثرة ذكره لمصنفاته العديدة داخل الكتاب، فكتب على صفحة الغلاف ما يلي: «التحقيق أن هذا الكتاب للعلامة ابن الجوزي كما يظهر من أسماء التأليف فيه».

وعلى الغلاف وقفية نصها: «جدّد وقف هذا الكتاب فقير عفو الله تعالى خليل بركات وقفاً صحيحاً، وشرطه أن يوضع في مدرسة المرحوم الحاج عبد الله باشا عظم زاده، فمن بدّله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه، وذلك في ذي الحجة سنة (١٢٤٣هـ)، غفر الله له ولوالديه، ولمن دعا لهما بالمغفرة وللمسلمين أجمعين إنه غفور رحيم».

وعليه تملك نصه: «الحمد لله على كل حال، ملكه من فضل الله تعالى ولطفه الخفي، الفقير رمضان بن موسى المطيعي الحنفي، غفر الله تعالى له ولوالديه ولجميع المسلمين أجمعين آمين».

تقع هذه النسخة في (٢١٨) ورقة، ومسطرتها (٢٥) سطراً، ونُسخت بخط نسخي جميل، نسخها محمد بن محمد بن الحسين بن محمد بن الحسين بن الخراساني سنة (٥٩٢هـ)، أي في حياة المصنّف رحمه الله، وقد رمزت لها بالحرف (ظ).

٣- نسخة محفوظة في مكتبة جامعة برنستون في الولايات المتحدة الأمريكية، ضمن مجموعة برقم (٢١٤٦)، منها صورة محفوظة في مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض، وهي ناقصة من أولها وآخرها، تبدأ من كتاب ذم الجاه والرياء، وتنتهي بنهاية كتاب الصبر والشكر، وهي منقولة من أصل المصنّف وخطه كما ورد في آخرها، وهي خلوّ من صفحة الغلاف واسم الناسخ وتاريخ النسخ، وخطها نسخي معتاد، ولكن ناسخها حرّف وصحّف الكثير من الكلمات، وعدد ورقاتها (١٩٤) ورقة، ومسطرتها (١٩) سطراً، وقد رمزت لها بالحرف (ف).

#### منهج التحقيق:

قمت أولاً بنسخ الكتاب بكامله عن نسخة الأصل، ثم قمت بمقابلة المنسوخ على الأصل، ثم على الموجود من النسخة (ظ) والنسخة (ف) وأثبت فوارق النسخ المهمة في الحاشية، وقد صبّبتُ جُلَّ اهتمامي على إخراج نص الكتاب بشكلٍ

سليم، خالٍ من التصحيف والتحريف، وخاصةً في القسم الذي اعتمدت فيه على نسخة الأصل فقط، حيث كانت ترد كلمةً مطموسة أو محرّفة أو مصحّفة، فكنت أعود إلى الإحياء أو إلى المختصر أو إلى المصادر التي نقل عنها المصنف لتكميل النقص وتصحيح الخطأ، ثم قمت بضبط النص وترقيمه وتفصيله، وتخريج الآيات والأحاديث، ثم التعريف ببعض الأعلام والأماكن والفرق باختصار خشية الإطالة، وشرح الكلمات الغريبة والمصطلحات الواردة، وذلك بالرجوع إلى كتب اللغة وكتاب «إتحاف المتّقين بشرح إحياء علوم الدين» للزبيدي.

ولا بد لي من أن أشكر زوجتي (منى محمد زياد خراط) التي ساعدتني في مقابلة النسخ الخطية كلها، وفي استخراج الكثير من النصوص من مصادرها والتأكد من صحتها، وغير ذلك، مما قرّب لي الغاية وأدنى لي الهدف في تحقيق هذا الكتاب العظيم، فجزاها الله عني خير الجزاء، ووفقها لكل خير.

وأسأله تعالى أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يعم بنفعه المسلمين، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

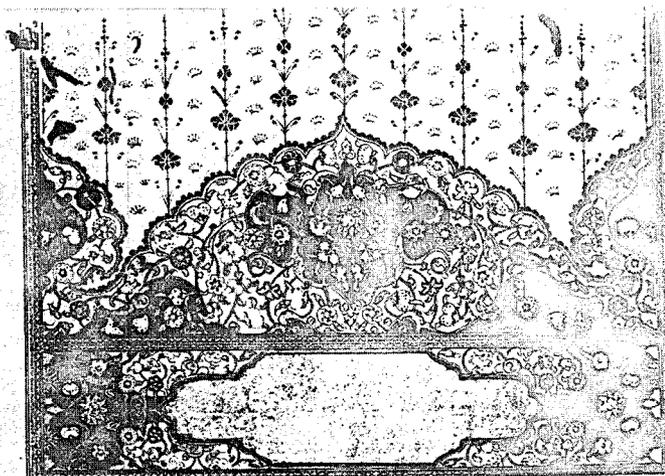
وصلّى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم.

كامل محمد الخراط

دمشق

١٧/ محرم ١٤٢٨ هـ

٤/٢/٢٠٠٧ م



**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه انبث  
 أحمد لله منتهى الأقدارين غفلا منهم بمرحلتنا لا قاط **١** ومنزه الثنائين من معولانهم بملامح  
 أو قاط **٢** ومحدث الأهارين في جلواتهم لا بالكلمات والألفاظ **٣** ومخدران الزاهدين شرب شرباتهم  
 حتى قدوا على الظاهر المفاظ **٤** وعضوا عن غضن لشمعنا بصارا لنا ونشهد قوامن اللطاف **٥** وقاموا  
 إلى بخارية الموتى في قيام ألثيب الصبوس الحروب المفاظ **٦** وحفظوا ما استخفظوا وحفظوا ما لم يخط  
 أحسن هذا كثيرا فابت الهدايم الألفاظ **٧** وأصل على نبية الذي غير الغضا بما جاء به فهو  
 فن نور عكاظ **٨** وعلى خصابه أهل العين والفقير والاستيقاظ **٩** وعلى زواجعه اللذات من قول  
 كل جطر في جواظ **١٠** صلالة التي بها نور البص حرقا وشواظ **١١** نار وفودها الناس والمخارة  
 عليها ملائكة غلاظ **١٢** أما جسد فاني رايتك ايها المراد في الحازم الكا زرق وقت فضلت  
 على الخن عن حصول الدنيا الشاغلة وصحمت على الأقطاع إلى الامتعة خلفا منك ان خالطه المخلوق  
 الخطيئة وانما الالحاسه للنفس اسهل القويط **١٣** وأن الصبر ان لم يندرك اذرك الموت وان ملاحد  
 الانفس تسرع بالركاب في منزل الموت فظرت اي ايس من الكتب تستعجبه خلوتك وتستعطفه في حال  
 صمتك فاذا انت قور كتاب احياء علوم الدين وصلم اغزاده عن جبهه ونفاسته في حسه فاعتكك الأهم  
 مستندا لسهل والمستند بنيران يكون وشقا وفي كتاب احياء افات لا يصلها الا الهللاء وأهل الأخ  
 الباطنة المرصوبه والمؤفة وقد جعلنا من روعة وانما ضلنا كما اغزاهها لان اغزاهنا فلا يدبر الغند  
 بجدت موضوع ولا اغزار بلفظ مضوع **١٤** وكيف اغزاهك ان تصل سلوات الايام وليا لها اليه كما  
 عن الرسول وسطرنا وليس فيها كلمة فالها رسول الله ولا ذكرها وكيف أوثران يطرق سمعك من كلام  
 المتصوفة الذي جهه وندب الما لصل له ما لا حاصل له ولا عين ان شرمه منه غير وكان شرمه انما  
 القوم مثل الكلام في الفناء والامرين بين الخوج والقتل الخارج عن العهود والمخروج في الشامة  
 لا في حاجة ودخول الغلاة غير زار اليه ذلك مما قد كشفت عن عوارفه في كتابي السني ليس ليس قلت  
 ليقرا وحشيتي من هذا الكتاب بعد اني قلت انما اردت لك ما اردت لنفسه وسأكتبه لك في كتاب لا يخلد

كما ضفها ساج

الصفحة الأولى من نسخة الأصل

عندنا وحسبته فيها لرجل فيقول لا يارب فيقول بلى ان لك عندنا حسنة واحدا في اليوم  
 عليك فيخرج له بطاقة فيها اشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله فيقول  
 فيقول يارب ما هذه البطاقة مع هذه التخلات فيقال انك لا تعلم قال فوضع النبي صلى الله  
 والبطاقة في كفة قال فحاشا التخلات وثقلت البطاقة ولا يغفل شي اسم الله وكان الفضيل  
 بن عياض يقول ما من ليلة اخلط ظلامها الا نادى الجليل جل جلاله من اعظم مني جودا  
 في غاسون وانا اكاد وهم في مضاجعهم كانوا لم يعصوني واتولى خطيهم كانوا لم يذبوا  
 يا فضل على العاصي يا فضل على السعي من ذا الذي دعا في فلم اليه او من ذا الذي سألني فلم  
 انا ابجود ومتى اجود انا الكريم وسخا نكرم فابن عتي هربا الخلق وان عن يدي ينجي العاصون  
 ونصر الفضيل الى سبع الناس وكانهم يوم عرفه فقال ارايت لو ان هؤلاء صادوا الى رجل  
 فانوه ذاتا اكان يردهم قبل الاضال والله للمعرفة عند الله عز وجل اهون من اجل  
 لهم بذوق اننا ابننا اصبر عن ابى القاسم بن البصري عن ابى عبد الله بن بطه قال بنا ابو بكر بن  
 الصديق وبن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن عن محمد بن عمرو بن حبان العمري قالما بقية بن الوليد  
 عن ابراهيم بن اذهر قال دخلنا الى الطواف في ليلة مظلمة شديد العطر فلم ازل اطوف الى المسجد  
 الا اني لم رخصت يدنا الى السماء ونقلت اللهم اني اسئلك ان تعفمني عن جميع ما كرت فاذا  
 قال يقول من لواء انت تسلي القصة وكل حلقى تسالني القصة فاذا عصمتك فلي من اسر  
 فلما الامارات مع ما ذكرناه في كتاب الرجا بلسنا بسعة رحمة الله تعالى وجوده ونحن  
 زوجه من الله عز وجل ان لا يعاملنا بما نستحقه وان يتفضل علينا بما هو اشد به ونحن  
 نستغفر الله عز وجل من قولنا اننى مخالفنا عمالنا ومن كل نفع تريناه فلنا من  
 كل كتاب افتاء او علم افدناه ومن كل علم وعمل صدناه به ثم خاطبه ما بكروه فكانه  
 يستغفر ان كرمه ويجوده نسال من وجوده انه قريب مجيب ثم الكتاب والله لجه  
 وائمة ومن نسال الله عز وجل ان يقضاه والمسلمين اجمعين فمن قرأه واستغفر  
 به فيندع مؤمنه بالعفو وبس دغاه لا يرد وصلى الله على سيدنا محمد النبي  
 وآله وصحبه وسلم وقد وقع الفراغ من كتابة هذه النسخة الشريف

في شهر ربيع الاول سنة هجرة من له الفزوا الشريف  
 سنين وخمسين و الف و راجع من  
 الله تعالى العفو والجلي



١٢٥٠

كتاب شعاع الناصرين  
وغيره من مؤلفات  
الشيخ محمد باقر

الحمد

الكتاب من مؤلفات  
الشيخ محمد باقر  
الكليني

الكتاب من مؤلفات  
الشيخ محمد باقر  
الكليني



جددوا في هذا الكتاب في عهد  
الشيخ محمد باقر الكليني  
في مدينة قم في مدرسة  
المصطفى عليه السلام  
في شهر ربيع الثاني سنة  
١٢٥٠ هـ



سارع ان هذا هو الحق  
من مؤلفات الشيخ محمد باقر



الكتاب من مؤلفات  
الشيخ محمد باقر  
الكليني

الكتاب من مؤلفات  
الشيخ محمد باقر  
الكليني

صفحة الغلاف من نسخة الظاهرية

العاده اجوال غريبه في الشخص المحمور بهذين الاسباب من حيث ان معرفه السنه من ذمومه  
ولكنها السنه يصلح الالاضرا بالظلم والوسيله الى الشتر شتر وذلك وقع الدم قد  
التي ان حوزن خضرا باصاحبه في غالب الامر كعلم نجوم فانه مسمان اجيد  
حسابي والساني الاحكام فهم يعرفون انهم يستدلون على الحوادث بالاسباب وهذا مخرج منه في  
الشرع للمنه اوجبه لاجلها انه لدا الغي الى الناس ان هذه الامار تحدث عن غير سبب الكواكب وفتح في  
انفسهم ان الكواكب هي الموتره والمدبره معظم وقعها في القلوب فانفسها بها ورائها الحيزه فحوا منها  
والشرع في راجعها فمن حجي حينئذ ذكر الله تعالى عن القلب ما حشره الخلق لا شرف في نظرهم بل يوقف  
على الاسباب الغريبه ان الشان ان احكام النجوم تخبر عن محض الخلق به حكم بحجول وانما يقع  
الاصابه اتفاقا في بعض الاجوال كالثالث انه حوض في فضول لا تخفى وتضيع العلم النقيض  
بغير قايده فاما السبب الثالث في ذم بعض العلوم فهو الخوض في علم الاستفاد الخاطي  
فنه به كعلم دس العلوم بل جعلها والبحث عن اسرار الالهة فان الفلاسفة  
والمفكرين تطلعوا لذلك ولم يستفادوا منه فصحف الناس علم الخيالات عن ذلك  
ورزاهم الى ما نطق الشرع به معه ففتح فمخاض ذلك فاستنصره وقد يضر العلم  
بعض الناس كما نضره العلم الطفيل فاقصر على اتباع السنه واجيد من الخيالات  
لانهم عاقبه الخيالات فاعلم ان الانبياء كالأطباء وهم يعرفون بالدواء ووزن شاكل  
الى الطبيب مرض يدره النبي وصفه ان يعبد الاله الاخرى واستبعد ذلك لجهله باستنطاق  
الاعصاب ومباينها فكذلك امور العقائد والاحكام فيها لطايف ليس في قوة العقل الاطاعه  
بها فكان في حواش الاصحاح امور اخفى علمها عن ارباب الصلحة حتى انه لم يعرف احد  
منهم السبب الذي يجذب المغناطيس الحديد فليست في منفعه العقل ان يدرك على  
صوت الرنوا صلح الله عليه وسلم ونبيهم كموارد اسازانه ثم اعلمه عن النظر ولازم الاتباع  
سلكه بيان ما يدل من الفناط العلوم  
اعلم ان منشا الناس العلوم المفهومه بالعلوم الشرعية كتحليل الاسامي المحموره ونبدالها  
ونقلها بالاعراض الفاسده الى معان لم يرد لها السلف الصالح هي خمسة الفناط  
الفقه والعلم والتوحيد والذكور والجمعه كاما الفقه فانه نضر قو  
فه بالخصيص لا التقل فخصوه معرفه الفروع وعللها ولقد كان اسم الفقه في العصور



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ رَبِّ سَدِّدْ

## كتاب زكاة الكاه والربا

الغريب الخاوارزمي كتاب الذنوب العالم بكوا من العيوب البصير بواطن العيوب

لا يعزب عنه ما بعد من في السر والعلانية ولا خالص القصد من الطلب المشبوب  
كما على الأبرار به وجهه ويضمحل ويدوب وكل طاعة يتزقن بها الخلفه الأذروب

احمد محمد معترف بأنه مريب وأصل على رسوله محمد ابن مولى رجب بن مسعود  
وعلى اصحابه واتباعه ما اختلف الثمال والمجبوب واسلم سلماً لثراً أمراً

بعده فتدري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان اخوفنا الخاف على امي العرب

والشهوة الخفية والربا من الشهوة الخفية وهذه الشهوة الخفية تعجز عن

الوقوف على عواليها كإرار العلماء فضلاً عن عامة العباد والأتباع وهي من أجز

عوالي النفس وبواطن ما يدها وانما ينجلي بها العلماء والعباد المشركون عرواق

الحمد لسلك سبيل الآخرة فانهم لما نضروا نفوسهم وجاهدوها ونظموها

عن الشهوات وصانوها عن الشبهات وجموها بالفتور على اصناف العبادات

لم يطع في المعاصي الطاهرة الواقعة على الجوارح واستراحت الى النظاهة

بالعلم والعمل ووجدت مخلصاً من شدة المجاهدة في لغة القبول عند الخلق

ونظرهم اليه بعين الوفاء والتعظيم فتوصلوا الى اطلاع الخلق ولم يتبعوا

باطلاع الخلق ومنزحوا به الناس ولم يتبعوا به الله وحده وعلموا ان الناس

اذا عرفوا منهم ترك الشهوات ونحل العبادات بالغوا في مدحهم واحترامهم

وتبركوا بمشاهدتهم لغابهم ودعابهم وسامحهم في المعاصيات ونواضعوا

الادب من يدي النعم شكرة وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام  
صغيرها فيما يندرج من الاعمال والاحوال تحت اسم الشكر والصبر لا  
يختصر وهي درجات مختلفة فكيف يمكن احتمال القول بتفصيل  
احدهما على الاخر الا على سبيل رادة للخصوص باللغة العام قال  
بعض السلف زابت في سفر في شفا كبيرا فد طعن في السوفسائت  
عن حاله قال ان كنت على بند بحر اهورى ابنة عم لي وكانت تهاوي  
تزوجتها فقلت لها ليلة زفافها تعالي حتى تحيي هذه الليلة شكرا  
لله على حمصا فضلتنا تلك الليلة ولم يتفرغ احدا لصاحبه فلما  
كانت الليلة الثانية فلما مثل ذلك فضلتنا طول الليل فمذ سبعين  
او ثمانين نحن على تلك الحالة كل ليلة اليس كذلك بافلاذ فقالت العجوز  
هو كما قال الشيخ وما نظر الهازين لو صبر اعلى الا الفرقة ان لو  
لم يجمع الله بينهما وانست صبر الفرقة الى شكر الوصال على هذا  
الوجه فلا يخفى عليك ان هذا الشكر افضل فاذا وافوق على خفايق  
المفضلات لا يتفضل كما سبق والله اعلم احذ حجاب الصبر والشكر  
وهو اخر الجزء الثالث من كتاب منهاج القاصدين من اصل  
المصنف وحظه وبله كتاب الرجا والخوف والحمد لله العاقل  
وصل الله على رسنا محمد وآله وصحبه

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تقديم

في مكتبتنا الإسلامية كتبٌ عديدة يعتزُّ بها المسلمون، ويفخرون أنهم قدموا للإنسانية أنواعاً من المعارف تميّزوا بها عن سائر الأمم، وذلك ككتاب «الرسالة» للإمام الشافعي، في علم الأصول، وكتاب «الموافقات» للإمام الشاطبي في مقاصد الشريعة، و«مقدمة» ابن خلدون في علم الاجتماع، وغير ذلك من المؤلفات في سائر المجالات.

ومن هذه الكتب التي تُشكل معالم هامة في تاريخ العلوم الإنسانية كتابُ «إحياء علوم الدين» للإمام المجدّد حجة الإسلام أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى، هذا الكتاب الذي يعدُّ من أعظم الكتب في مجال تزكية النفوس وتهذيبها، من خلال كشف أمراضها وعللها، ووصف أدويتها وسُبل علاجها، فقد سلط الغزاليُّ فيه الضوء على أعماق النفس الإنسانية، وما يُلمُّ بها من أمراضٍ، وما يعيشُ فيها من آفات، وما يطوف بها من خواطر، وما يعصفُ بها من وساوس، وما يعتريها من المهلكات، ويذكر بتفصيلٍ دقيق كيف تتسرّب هذه الأخطار إلى منحنيات النفس،

وكيف تستقرُّ فيها وتمكن منها، وما تُحدث فيها من خلل واضطراب، وما يتبع ذلك من اختلال في السلوك الشخصي، وفي الحياة الاجتماعية، والعلاقات الإنسانية، ثم يذكر الغزاليُّ بعد ذلك السبيلَ إلى معالجة هاتيك الآفات، والطريقَ إلى اجتثاثها واستئصالها، ويصفُ الدواء الناجع للتخلُّص منها ومحو آثارها السيئة، ويفصّل القول في المنجيات من تلك المهلكات، لترقى نفسُ المؤمن إلى مقام النفس المطمئنة ويغدو قلبه ذلك القلب السليم النقي الصالح، وإذا صلح قلبُ المرء صلح جسده كله، وصلحت حياته كلها، وصفتُ صلته بخالقه سبحانه وتعالى، وصار قلبه مرآة صافيةً للأنوار الإلهية، ومهبطاً للنفحات الربانية، ويغدو إنساناً حراً قد انعتق من كل ما يعكر عليه صفو حياته، ويضيّق عليه سعة صدره ورحابة عيشه، وانفتحت له أبواب السعادة الحقة والحياة الحقة، ويوم القيامة يتبوأ الدرجات العلى، ويتقلب في النعيم المقيم، ذلك لأن صلاح القلب وتزكية النفس هما سبيلُ نجاة المرء يوم القيامة، كما أشار إليه ربنا سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

وقد كان كتابُ «الإحياء» موضعَ تقدير العلماء والباحثين وإعجابهم، ومحلَّ عنايتهم واهتمامهم، فمن شارحٍ له، أو مختصر، أو مخرجٍ لأحاديثه، وكان من بين هؤلاء المعجبين به الإمامُ الحافظ المفسر شيخ الإسلام أبو الفرح ابن الجوزي، وقد لمس أهمية الكتاب، ورأى إقبالَ المريدين على قراءته، وعكوفهم على مطالعته، غير أنه أخذَ عليه ما أودعه الإمام الغزالي فيه من أحاديث لا تثبت، أو روايات لا أصل لها،

وذلك لعدم اشتغاله بعلوم الحديث، وما أورده فيه من حكايات غريبة، ذكر فيها ما جرى لبعض الصالحين من أحوال خاصة، وما أتوه من مجاهدات ورياضات غالوا فيها، فنأت بهم عن حد الاعتدال الشرعي، ومن ثم لم تعد صالحة لأن تذكر في مقام القدوة، إذ فيها مجافاةً لهدي النبي صلى الله عليه وسلم وتوجيهه لمريدي الآخرة أن يُوغلوا في الدين برفق، وأن يأخذوا من الأعمال ما يطيقون، حيث قال صلى الله عليه وسلم: «والقصدُ القصدُ تبلغوا».

وإدراكاً من ابن الجوزي لأهمية كتاب «الإحياء» وإشفاقاً منه على محبيه أن يأخذوا بكل ما فيه، عكف على الكتاب يهذبُه ويُنقيُه مما يزيغُ بقارئه عن القصد، أو يُجاوز به الحد، وسمى تأليفه هذا «منهاج القاصدين»، للإشارة إلى أنه التزم فيه القصد النبوي، والمنهج الوسطي، وأبان في مقدمته للكتاب ما الذي حدا به إلى هذا العمل ودفعه إلى هذا التأليف، وذكر ما الذي حذفه منه، وما الذي زاده فيه، مع تعليل ذلك كله، وإن فاتته أشياء لم يتنبه لها أو لم ينبه عليها<sup>(١)</sup>.

وقد بقي هذا الكتاب «منهاج القاصدين» إلى زماننا هذا بعيداً عن أعين الباحثين، محجوباً في تضاعيف ما تركه علماءنا من تراثهم العظيم، إلى أن يسرَّ الله تعالى العُثور على نُسخ خطية منه، وُضعت بين يدي الأستاذ كامل الخراط، وهو الذي عمل في مجال تحقيق التراث مدة طويلة من الزمن، وكانت لديه رغبة قوية في تحقيق الكتاب، فقام بتحقيقه، بغية إصداره ووضع بين أيدي الناس، لينتفعوا مما فيه من علم بديع، وأدب رفيع.

(١) وقد نبه على بعض ما فات الإمام ابن الجوزي محقق الكتاب في مقدمته له.

وأَتَبَعَ الأستاذَ كاملَ في إخراجِه هذهَ الحِلَّةَ القشبيَّةَ ما اصطلحَ عليه الباحثونَ في منهجِ تحقيقِ المخطوطاتِ من توثيقِ النصِّ وضبطه، وشرحِ غريبه، والتعريفِ بالأعلامِ الواردةِ فيه، وعزو ما فيه من الآياتِ الكريمةِ إلى موضعها من كتابِ الله عز وجل، وتخريجِ ما فيه من الأحاديثِ الشريفةِ، إلى غيرِ ذلكِ مما هو معروفٌ عند أهلِ الصنعةِ، وبذلِ في ذلكِ جهداً طيباً مشكوراً، فجزاه اللهُ عن المسلمينَ خيرَ الجزاءِ، ونفعَ الأمةَ بهذا الكتابِ، ورجعها إلى جادَّةِ الحقِّ والصوابِ.

اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزكِّها أنتَ خيرَ من زكَّها، أنتَ وليها ومولاها

وكتبه

محمد نعيم عرقسوسي

دمشق ٢٣ / ذي الحجة / ١٤٣٠ هـ

١٠ / ١٢ / ٢٠٠٩ م



## وما توفيقي إِلَّا بالله عليه توكلت وإليه أنيبُ

الحمد لله مُنِّبَهُ الرَّاqِدِينَ فِي غَفَلَاتِهِمْ بِمُزْعَجَاتِ الْإِيْقَاطِ، وَمُنَزَّهُ التَّائِبِينَ مِنْ هَفْوَاتِهِمْ بِمَلَاطِفَاتِ الْوَعَّاطِ، وَمُحَدِّثِ الْعَارِفِينَ فِي خَلَوَاتِهِمْ لَا بِالْكَلِمَاتِ وَالْأَلْفَاطِ، وَمُحَدِّرِ الزَّاهِدِينَ شَوْبَ<sup>(١)</sup> شَهَوَاتِهِمْ حَتَّى قَذَفُوا عَلَى الظُّلْمَاءِ يَسِيرَ اللَّمَّاطِ<sup>(٢)</sup>، وَغَضُّوا عَنِ الْغَضِّ الْمُسْتَهْيِ أَبْصَارَ الْمُنَى، وَاسْتَوْثَقُوا مِنَ اللَّحَاطِ<sup>(٣)</sup>، وَقَامُوا إِلَى مُحَارَبَةِ الْهَوَى قِيَامَ اللَّيْثِ الْعَبُوسِ الْحَرْبِ<sup>(٤)</sup> الْمُغْتَاطِ، وَحَفِظُوا مَا اسْتَحْفِظُوا فَحَفِظُوا، وَإِنَّمَا الْحِفْظُ لِلْحُقَاطِ.

أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا فَائَتْ الْعَدَدِ، دَائِمَ الْإِلْطَاطِ<sup>(٥)</sup>، وَأُصْلِي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ، الَّذِي أَعْجَزَ الْفُصْحَاءَ بِمَا جَاءَ بِهِ، فَنَسِيَ قُسَّ<sup>(٦)</sup> يَوْمَ عُكَاظِ<sup>(٧)</sup>، وَعَلَى

(١) الشَّوْبُ: الْخَلْطُ، وَالشَّوْبَةُ: الْخَدِيعَةُ. الْقَامُوسُ (شَوْب).

(٢) اللَّمَّاطُ: جَمْعُ لُمْطَةٍ، وَهِيَ النَّكْتَةُ مِنَ الْبِيَاضِ.

(٣) اللَّحَاطُ: مُؤَخِّرُ الْعَيْنِ، وَالْجَمْعُ لُحَاطٌ.

(٤) يُقَالُ: رَجُلٌ حَرْبٌ، أَي: شَدِيدُ الْحَرْبِ شَجَاعٌ.

(٥) الْإِلْطَاطُ: لَزُومُ الشَّيْءِ وَالْمُتَابَرَةُ عَلَيْهِ، وَالْفِعْلُ: أَلْطَطَ، أَي: لَازَمَ وَدَامَ، وَفِي الْحَدِيثِ: «أَلْطَطُوا بِيَاذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ».

(٦) هُوَ قُسٌّ بِنِ سَاعِدَةِ الْإِيَادِي، خَطِيبُ الْعَرَبِ وَحَكِيمُهُمْ، مُعَمَّرٌ مِنْ أَهْلِ الْفَتْرَةِ. أَدْرَكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ الْبِعْثَةِ. تَوَفَّى نَحْوَ سَنَةِ ١٠ قَبْلَ الْبِعْثَةِ. الْإِصَابَةُ ١/٥، وَالْأَعْلَامُ ٥/١٩٦.

(٧) عُكَاظُ: سَوْقٌ بَيْنَ نَخْلَةٍ وَالطَّائِفِ، كَانَتْ تَقُومُ هَلَالِ ذِي الْقَعْدَةِ، وَتَسْتَمِرُّ عَشْرِينَ يَوْمًا، تَجْتَمِعُ فِيهَا قِبَائِلُ الْعَرَبِ، فَيَتَعَاكُظُونَ، أَي: يَتَفَاخَرُونَ وَيَتَنَاشَدُونَ مَا أَحْدَثُوا مِنَ الشَّعْرِ. اللِّسَانُ (عُكْظ).

آله<sup>(١)</sup> وأصحابه أهل اليقين والتقى والاستيقاظ، وعلى أزواجه المبررات من قول  
كُلُّ جَعْظَرِيٍّ<sup>(٢)</sup> جَوَّازٍ<sup>(٣)</sup>، صلاة أتقي بها يوم البعث حرّ لظى وشواظ<sup>(٤)</sup> نارٍ  
وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ.

أما بعد:

فإنّي رأيتك أيّها المرید الصادق، الحازم العازم، قد وظنت نفسك على التّخلي  
عن فضول الدنيا الشاغلة، وصممت على الانقطاع إلى الآخرة، علماً منك أن مخالطة  
الخلق توجب التخليط، وإهمال المحاسبة للنفس أصل التّفريط، وأنّ العمر إن لم  
يُستدرك أدركه<sup>(٥)</sup> الفوت، وأنّ مراحل الأنفاس تُسرّع بالراكب إلى منزل الموت.

فنظرت، أيّ أنيس من الكتب تستصحبه في خلوتك؟ وتستنطقه في حال  
صمتك؟ فإذا أنت تُؤثر كتاب «إحياء علوم الدين»<sup>(٦)</sup>، وتعلم انفراده عن جنسه،  
ونفاسته في نفسه، فأخبرتك أنّ العلم مُستند العمل، والمُستند ينبغي أن يكون  
وثيقاً.

وفي كتاب (الإحياء) آفات لا يعلمها إلا العلماء، وأقلها الأحاديث الباطلة  
الموضوعة، والموقوفة، وقد جعلها مرفوعة<sup>(٧)</sup>، وإنما نقلها كما اقتراها<sup>(٨)</sup>، لا أنّه  
اقتراها. فلا ينبغي التعمد بحديث موضوع، ولا اغترار بلفظ مصنوع.

(١) سقطت من الأصل، واستدركت من المختصر.

(٢) الجعظري: اللفظ الغليظ، المتكبر الجافي عن الموعظة، البطر الكفور. اللسان (جعظ).

(٣) الجوّاز: الضخم الغليظ، المتكبر المختال، الكثير الكلام والجلبة في الشر، الفاجر  
الشريّر الصّخر البطر. اللسان (جوظ).

(٤) الشواظ: لهب لا دخان فيه. اللسان (شوظ).

(٥) في الأصل: «أدرك»، والمثبت من «المختصر».

(٦) هو تأليف العلامة حجة الإسلام، أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، وكتابه  
(الإحياء) أصل هذا الكتاب الذي بين أيدينا، كما هو مبين في المقدمة.

(٧) الحديث الموقوف هو: ما روي عن الصحابة رضي الله عنهم من أقوالهم أو أفعالهم،  
والحديث المرفوع هو: ما أضيف إلى رسول الله ﷺ. (إرشاد طلاب الحقائق) ص ٧٥.

(٨) اقتراها: أي نقلها قراءة كما رويت.

وكيف أرتضي لك أن تُصَلِّيَ صلوات الأيام ولياليها، التي حكاها عن الرسول ﷺ وسَطَّرها، وليس فيها كلمة قالها رسولُ الله ﷺ ولا ذَكَرها؟

وكيف أُوثرُ أن يَطْرُقَ سمعَكَ من كلامِ المتصوِّفةِ، الذي جمعه، ونَدبَ إلى العملِ به ما لا حاصلَ له، ولا عندَ الشريعةِ منه خبرٌ؟ وكأنَّه شريعةٌ ابتداها القومُ، مثلَ الكلامِ في الفناءِ والبقاءِ، والأمرِ بشدَّةِ الجوعِ، والتقلُّلِ الخارجِ عن المعهودِ، والخروجِ إلى السَّيَاحَةِ لا في حاجةٍ، ودخولِ الفلاةِ بغيرِ زادٍ، إلى غيرِ ذلك ممَّا قد كَشَفْتُ عن عُوَّارِهِ<sup>(١)</sup> في كتابي المسمَّى بـ «تَلْيِيسِ إبْلِيسِ»<sup>(٢)</sup>.

فقلتُ لي: قد أوحشتني من هذا الكتابِ<sup>(٣)</sup> بعد أنسي. فقلتُ: إنَّما أردتُ لك ما أردتُ لنفسِي، وسأكتبُه لك في كتابٍ لا يُخِلُّ بفوائده، ويخلو عن مَفسدِهِ، أَعتمدُ فيه من المُنقولِ الأصحَّ والأشهرَ، ومنَ المعنى الأثبَتِ والأجودِ، وأحذفُ ما يَصْلُحُ حَذْفُه، وأزيدُ ما يَصْلُحُ أن يُزَادَ، ولا أُطيلُ بما لا طائلَ فيه، شُحاً عليك وعلى أمثالك، أن يتشاغلوا بفسادِ، ويحملوا في مفاوزِ<sup>(٤)</sup> المخاطرةِ المتاعِ الكاسدِ، وقد جاء في الأخبارِ الصحيحةِ: «الدينُ النصيحةُ»<sup>(٥)</sup>.

## فصل

### [في المحذوف من كتاب الإحياء]

ورُبِّمَا رَأَيْتَنِي أَقْصِرُ فِي بَعْضِ الْأَبْوَابِ وَالْفُصُولِ، وَأَحْذِفُ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ

- (١) العُوَّارُ: بضم العين وفتحها: العيبُ. القاموس واللسان: (عور).
- (٢) كتاب (تلييس إبليس) لابن الجوزي، طبعته كثيرة، منها نشر المكتب الثقافي، وأخرى نشر المكتب الإسلامي. ينظر «مؤلفات ابن الجوزي»: ص ١١٢.
- (٣) يعني: كتاب «إحياء علوم الدين».
- (٤) المفاوز: جمع مفازة، وهي: المنجاة والمهلكة، والفلاة لا ماء بها، وهي من الأضداد، القاموس واللسان: (فوز).
- (٥) أخرجه مسلم (٥٥) (٩٦)، وأبو داود (٤٩٤٤)، والنسائي في المجتبى ٧ / ١٥٦ - ٧ وأحمد (١٦٩٤٠)، وعلقه البخاري في صحيحه كما في الفتح ١ / ١٣٧. من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

والآثار، فلا تُظنَّن ذلك مِنِّي سهواً، بل عمداً؛ لأنِّي لم أترك ذلك إلا لآفة في المتروك، فربَّما كانت الأحاديث لا تثبت، والآثار لا تصحُّ، وربَّما قلت فائدتها، وربَّما تكون قد سبقت، فاعرف ذلك.

## فصل

### [في تصنيف كتاب بأغلاط الإحياء]

ولمَّا خِفْتُ أَنْ تَتَوَقَّ<sup>(١)</sup> إِلَى ذلك الكتابِ لمكانِ أُلْفِكَ له، أفرَدْتُ في كتاب<sup>(٢)</sup> ذَكَرَ عُيُونَ عُيُوبِهِ، وَأورَدْتُ هُنَالِكَ بعضَ رَلَّاتِهِ، لَتَعْلَمَ عِلَّةَ نَهْيِي، وتكتفي عن ثَمَدِهِ<sup>(٣)</sup> بِنَهْيِي<sup>(٤)</sup> وإنما لم أذكر أغلاطه ها هنا لئلا يتكدر قلبٌ قد شرعنا في تصفيته، أو يتأذى بالتخليط سقيمٍ قد رأينا أولَ عافيته.

## فصل

### [في ذكر السببِ الباعثِ على حذفِ أكثرِ الأسانيدِ]

وقد كنتُ أوثِرُ أن لا أذكرَ منقولاً إلا بإسناده، غيرَ أنني رأيتُ الإطالةَ سبباً للملل، فحذفتُ أكثرَ الأسانيدِ، ولم أرَ حذفَ الكلِّ، لأنَّ الإسنادَ أقوى للأسناد.

## فصل

### [في بيان أهمية العلم لإصلاح النفس والتحذير من أهل الأهواء]

وإذ قد صحَّ عزمك على العزلة لاستيفاء حقِّ الحقِّ من النفس، والأخذ على يدها، فليكن وكيلك عليها العلم، وكن باحثاً عن دَفَائِنِ هواها لعلك تسلم، واحذر

(١) تاق إليه توقاً، أي: اشتاق. القاموس واللسان (تاق).

(٢) يريد المصنف كتابه: «إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء»، ذكره حاجي خليفة في «كشف الظنون» ١/ ٢٤، وإسماعيل البغدادي في «هدية العارفين» ٥/ ٥٢١، وابن رجب في «الذيل على طبقات الحنابلة» ١/ ٤١٦-٤٢١، وانظر «مؤلفات ابن الجوزي» ص ٩٤.

(٣) الثَّمَدُ: الماء القليل، لا مادة له. القاموس واللسان: (ثمد).

(٤) التَّهْيِي: بكسر النون وفتحها: العدير. القاموس واللسان: (تهى).

سبيلَ أحدِ رَجُلَيْنِ: عالمَ عَرَفَ الجَدَالَ في الفِقه، فاقْتَنَعَ برئاستِهِ، أو نَالَ القِضَاءَ فسعى في حَفْظِ منزلتِهِ، أو زَحَرَفَ المواعِظَ فَضَيَّقَ أَعْيُنَ شِبْكَتِهِ. أو زَاهَدِ يَتَقَلَّبُ برأيه الفاسدِ في جَهَالَتِهِ، وَيُتَقَرَّبُ بِتَقْبِيلِ يَدِهِ واعْتَادِ بركتِهِ، وَيُعْمَلُ بهوَاهُ دونَ شرعِ الله وَسُنَّتِهِ، فهذانِ عادلانِ عن<sup>(١)</sup> منهجِ الصوابِ، مقتنعانِ بقشورِ الأعمالِ عن خالصِ اللُّبَابِ، خادعانِ للمبتدئينِ بلامعِ السَّرَابِ، وطريقُهُما بمعزلٍ عن سَنَنِ<sup>(٢)</sup> السَّلَفِ الصالحِ، الذي هو جادَّةُ الاستقامةِ، ولَقَمُ<sup>(٣)</sup> السلامةِ، وسأدرُجُ لك في هذا الكتابِ - إن شاء الله - مِنْ أخبارِهِمْ<sup>(٤)</sup>، ما يَدُلُّكَ على آثارِهِمْ.

وكتابُنَا هذا يحتاجُ إليه المُنْتَهِي، كما يفتقرُ إليه المُبْتَدِي، لأنَّ فيه أسرارَ العباداتِ، والتحذيرَ<sup>(٥)</sup> من آفاتِ المعاملاتِ، وقد أتيْتُكَ به على ترتيبِ كتابِ الإحياءِ، لعلمي بإيثاركِ ذلكَ الترتيبِ، وما توفيقِي إِلَّا باللهِ عليه تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ.

<sup>(٦)</sup> وسميتُ كتابي هذا: «منهاجِ القاصدينِ ومُفيدِ الصادقين»، وأسألُ الله سبحانه وتعالى أن ينفَعَنَا به، ومن قرأه، أو سمعَه، أو نظرَ فيه، وأن يجعلَه خالصاً لوجهه الكريمِ، وأن يختَمَ لنا بخيرٍ، ويوفِقَنَا لما يُرضيه من القولِ والعملِ والنيَّةِ، وأن يُسامحَنَا في تقصيرِنا وتفریطِنا، ولا يَكِلْنَا إلى أَنْفُسِنَا طرفَةً عينٍ، ولا إلى أحدٍ من خلقِهِ، فَإِنَّهُ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوكيلُ<sup>(٦)</sup>.

(١) في الأصل: «على»، والمثبت من المختصر.

(٢) السَّنَنِ: المنهج والطريقة. القاموس واللسان: (سنن).

(٣) اللَّقَمُ: معظم الطريق ووسطه ومَتْنُهُ. القاموس واللسان: (لقم).

(٤) في الأصل: «آثارهم»، والمثبت من المختصر.

(٥) في الأصل: «يحذر»، والمثبت من المختصر.

(٦-٦) سقط من الأصل، وأثبت من المختصر.

## بابُ بَيَانِ وَضْعِ الْكِتَابِ

هذا الكتابُ مقسومٌ أربعةً أرباعٍ:

الأولُ: رُبُعُ العباداتِ، والثاني: رُبُعُ العاداتِ، والثالثُ: رُبُعُ المهلكاتِ، والرابعُ: رُبُعُ المنجياتِ.

فأما رُبُعُ العباداتِ، فيشتمِلُ على عَشْرَةِ كُتُبٍ:

١- كتابُ العلم. ٢- كتابُ قواعدِ العقائد. ٣- كتابُ أسرارِ الطهارة. ٤- كتابُ أسرارِ الصلاة. ٥- كتابُ أسرارِ الزكاة. ٦- كتابُ أسرارِ الصوم. ٧- كتابُ أسرارِ الحجِّ. ٨- كتابُ تلاوةِ القرآن. ٩- كتابُ الأذكارِ والدعوات. ١٠- كتابُ الأورادِ في الأوقاتِ.

وأما رُبُعُ العاداتِ، فيشتمِلُ على عَشْرَةِ كُتُبٍ:

١- كتابُ آدابِ الأكلِ. ٢- كتابُ آدابِ النكاحِ. ٣- كتابُ أحكامِ الكسبِ. ٤- كتابُ الحلالِ والحرامِ. ٥- كتابُ آدابِ الصحبةِ والمعاشرةِ مع الخلقِ. ٦- كتابُ العُزلةِ. ٧- كتابُ آدابِ السفرِ. ٨- كتابُ السَّماعِ والوَجْدِ. ٩- كتابُ الأمرِ بالمعروفِ. ١٠- كتابُ آدابِ المعيشةِ وأخلاقِ النبوةِ.

وأما رُبُعُ المهلكاتِ، فيشتمِلُ على عَشْرَةِ كُتُبٍ:

١- كتابُ سِرِّ عجائبِ القلبِ. ٢- كتابُ رياضةِ النفسِ. ٣- كتابُ آفةِ الشَّهوتينِ، البطنِ والفرجِ. ٤- كتابُ آفاتِ اللِّسانِ. ٥- كتابُ آفةِ الغضبِ والحقدِ والحسدِ. ٦- كتابُ دَمِّ الدنيا. ٧- كتابُ دَمِّ المالِ والبُخلِ. ٨- كتابُ دَمِّ الجاهِ والرِّياءِ. ٩- كتابُ دَمِّ الكبرِ والعُجبِ. ١٠- كتابُ العُرورِ.

وأما رُبُعُ المنجياتِ، فيشتمِلُ على عَشْرَةِ كُتُبٍ:

- ١- كتابُ التوبة. ٢- كتابُ الصبرِ والشُّكرِ. ٣- كتابُ الخوفِ والرجاءِ. ٤-
- كتابُ الفقرِ والرُّهدِ. ٥- كتابُ التوحيدِ والتوكلِ. ٦- كتابُ المحبَّةِ والشوقِ والرضا.
- ٧- كتابُ النيَّةِ والصدقِ والإخلاصِ. ٨- كتابُ المراقبةِ والمحاسبةِ. ٩- كتابُ
- التفكُّرِ. ١٠- كتابُ ذكرِ الموتِ.

فندكرُ في كلِّ كتابٍ خفايا آدابه، ودقائق سنِّه، وأسرارَ معانيه، والله الموقِّعُ.







# ربع العبادات



# كتاب العلم

وفيه سبعة أبواب:

## الباب الأول

في فضيلة العلم والتعلم والتعليم

فضيلة العلم:

أما فضل العلم، فقد دلَّ عليه القرآن والسنة والمعقول.

أما القرآن، فقولُه تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]. فبدأ بنفسه، ثم ثنى بملائكته، ثم ثلث بأهل العلم، وناهيك<sup>(١)</sup> بهذا شرفاً. وقال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمئة درجة، ما بين الدرجتين مسيرة خمسمئة عام»<sup>(٢)</sup>. وقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعُلَمَاءُ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

(١) ناهيك: أي حسبك ويكفيك.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ٢٢، من حديث ابن عباس مرفوعاً بلفظ: «فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد سبعون درجة». وإسناده ضعيف.

وأما السُّنَّةُ: فأخبرنا هبةُ الله بنِ محمدِ ابنِ الحُصَيْنِ، قال: أخبرنا الحسن بنُ علي ابنِ المُذْهَبِ، قال: أخبرنا أحمد بن جَعْفَرِ، قال: حدثنا عبد الله بنُ أحمد ابنِ حنبلٍ، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا كثير بن هشام، قال: حدثنا جعفر، قال: حدثنا يزيد بن الأصمِّ، قال: سمعتُ معاويةَ بنَ أبي سفيان رضي الله عنه روى عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» أخرجاه في الصحيحين<sup>(١)</sup>.

أخبرنا ابن الحُصَيْنِ، قال: أخبرنا ابن المُذْهَبِ، قال: أخبرنا أحمد بن جعفر، قال: حدثنا عبد الله بنُ أحمد ابنِ حنبلٍ، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا هيثم بن خارجة، قال: حدثنا رِشْدِينُ بنُ سعد، عن عبد الله بن الوليد، عن أبي حفص، حدِّثَه أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مَثَلَ الْعُلَمَاءِ فِي الْأَرْضِ كَمَثَلِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ، يُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، فَإِذَا انْظَمَسَتِ النُّجُومُ أَوْشَكَ أَنْ تَضِلَّ الْهُدَاةُ»<sup>(٢)</sup>. أبو حفص اسمه: عُمَرُ بنُ مهاجرِ الأنصاري<sup>(٣)</sup>.

أخبرنا عبد الملك بن أبي القاسم الكَرُوخِي، قال: حدثنا أبو بكر العُورَجِي وأبو عامر الأزدي، قالوا: أخبرنا الجَرَّاحِي، قال: أخبرنا المحبوبي، قال: حدثنا الترمذي، قال: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، قال: حدثنا سلمة بن رجاء، قال: حدثنا الوليد بن جميل، قال: حدثنا القاسم أبو عبد الرحمن، عن أبي أمامة رضي الله عنه، قال: ذُكِرَ لرسولِ الله ﷺ رجلانِ، أحدهما عابدٌ، والآخرُ عالمٌ، فقال رسول الله ﷺ: «فَضَّلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ»<sup>(٤)</sup>.

(١) أخرجه البخاري (٧١)، (٣١١٦)، (٧٣١٢)، ومسلم (١٠٣٧).

(٢) إسناده ضعيف جداً، أخرجه أحمد في المسند في الأمثال (٥١)، والخطيب في الفقيه والمتفقه ٧٠ / ٢.

(٣) ذكره ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» مرتين؛ الترجمة (٧٣٩) و(١٦٤٢) ولم يذكر فيه شيئاً. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١ / ١٢١: مجهول.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥)، والطبراني في الكبير (٧٩١١) وابن عبد البر في «جامع بيان العلم»، والخطيب البغدادي في تاريخه ٨ / ١٠٧.

وقد روى النعمان بن بشير رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، أنه قال: «يُوزَنُ مِدَادُ<sup>(١)</sup> الْعِلْمَاءِ مَعَ دَمِ الشُّهَدَاءِ، فَيَرْجَحُ مِدَادُ الْعِلْمَاءِ عَلَى دَمِ الشُّهَدَاءِ»<sup>(٢)</sup>.

وروى أبو الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ، أنه قال: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعِلْمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا<sup>(٣)</sup> وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظِّ وَافِرٍ»<sup>(٤)</sup>.

وروى أبو بكر الصديق رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ تَعَلَّمَ بَاباً مِنْ الْعِلْمِ فَعَمِلَ بِهِ، أَوْ عَلَّمَهُ جَاهِلاً يَعْمَلُ بِهِ، كَانَ خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَهُ ذَهَبَةٌ حُمْرَاءَ، فَأَنْفَقَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(٥)</sup>.

### ذَكَرَ الْأَثَارِ فِي فَضْلِ الْعِلْمِ

أخبرنا عبد الله بن علي المقرئ، قال: أخبرنا حمزة بن محمد الزُّبَيْرِي، قال: أخبرنا عبد الرحمن بن عبيد الله، أبو القاسم الحُرْفِي، قال: حدثنا حبيب بن الحسن بن داود القُرَازِي، قال: حدثنا موسى بن إسحاق الأنصاري، قال: حدثنا ضِرَارُ بْنُ صُرْدٍ، قال: حدثنا عاصم بن حُمَيْدٍ، عن أبي حمزة الثَّمَالِيِّ، عن

(١) المِداد: الجِبر.

(٢) أخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية»: (٨٥) وقال: لا يصح، ويروى عن ابن عمر، وابن عمرو، وعمران بن حصين، وأنس، وأبي الدرداء، ولا يخلو إسناد واحد منهم من كذاب أو وُضَّاع أو متروك. وذكره الذهبي في «ميزان الاعتدال» ١٧ / ٣ وقال: مَتَنُهُ مَوْضُوعٌ، وَتَبِعَهُ ابْنُ حَجْرٍ فِي «لِسَانِ الْمِيزَانِ» ١٢٥ / ٥ وَنَقَلَ عَنْ شَيْخِهِ فِي ٢٢٦ / ٥ قَوْلُهُ: إِنَّهُ كَذَبٌ. وَيُرْوَى عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ مِنْ كَلَامِهِ كَمَا فِي «الْمَقَاصِدِ الْحَسَنَةِ»: (١٠٠٥).

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٤١) و(٣٦٤٢)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٣٩) وأحمد (٢١٧١٥)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» ١ / ٣٧.

(٥) لم أجده بلفظه، لكن أخرج ابن ماجه (٢١٩) من حديث أبي ذر مرفوعاً بلفظ: «وَلَأَنْ تُعْدُو فَتَعَلَّمَ بَاباً مِنَ الْعِلْمِ، عَمِلَ بِهِ أَوْ لَمْ يَعْمَلْ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ أَلْفَ رَكْعَةٍ». وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ. وَأَخْرَجَ الْخَطِيبُ فِي (الْفَقِيهِ وَالْمُتَفَقِّهِ) ١ / ١٦ نَحْوَهُ مَوْقُوفاً عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، وَأَخَّرَ مِنْ كَلَامِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

عبد الرحمن بن جُنْدُب، عن كَمَيْلِ بْنِ زِيَادِ النَّخَعِيِّ، قَالَ: أَخَذَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِيَدِي، فَأَخْرَجَنِي إِلَى نَاحِيَةِ الْجَبَّانِ<sup>(١)</sup>، فَلَمَّا أَصَحَرْنَا<sup>(٢)</sup> جَلَسَ، ثُمَّ تَنَفَّسَ الصُّعْدَاءَ<sup>(٣)</sup>، ثُمَّ قَالَ:

يَا كَمَيْلُ بْنُ زِيَادٍ، الْقُلُوبُ أَوْعِيَّةٌ، فَخَيْرُهَا أَوْعَاها، فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ:

النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: عَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَّجٌ<sup>(٤)</sup> رَعَاعٌ<sup>(٥)</sup> أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجِئُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ.

الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ، وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ، الْمَالُ تَنْقُضُهُ النَّفَقَةُ، وَالْعِلْمُ يَزُكُّو عَلَى الْإِنْفَاقِ<sup>(٦)</sup>، وَصَنِيعَةُ الْمَالِ تَزُولُ بِزَوْلِهِ، وَمَحَبَّةُ الْعَالِمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، تُكْسِبُهُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ الْأُحْدُوثَةِ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ، وَالْمَالُ مُحَكَّمٌ عَلَيْهِ.

مَاتَ خُزَّانُ الْمَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ، أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ، هَاهُ. إِنَّ هَاهُنَا - وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ - عِلْمًا، لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً، بَلَى أَصَبْتُهُ لَقِنَّا غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ، يَسْتَعْمَلُ آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا، يَسْتَظْهَرُ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَبِحُجَجِهِ عَلَى كِتَابِهِ، أَوْ مُنْقَادًا لِأَهْلِ الْحَقِّ، لَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ<sup>(٧)</sup>، يَنْقَدِحُ الشُّكُّ فِي قَلْبِهِ بِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ، لَا ذَا وَلَا ذَاكَ،

(١) الجبَّان والجبَّانة: المقبرة والصحراء. القاموس: (جبن).

(٢) كذا في «تهذيب الكمال» و«حلية الأولياء»، وفي الأصل: (أصحر). يُقال: أصحر القوم، إذا برزوا في الصحراء. القاموس واللسان: (صحر).

(٣) ليست في الأصل، بل زيدت من العقد الفريد ونهج البلاغة ص ٥٩٤، يُقال: تَنَفَّسَ الصُّعْدَاءَ: إِذَا تَنَفَّسَ تَنَفُّسًا طَوِيلًا أَوْ بِتَوَجُّعٍ. القاموس واللسان: (صعد).

(٤) الهَمَّج: الحَمَقِيّ وَالْهَمَلُ الَّذِينَ لَا نِظَامَ لَهُمْ وَلَا مَرُوءَةَ وَلَا عَقْلَ، وَأَرَادَ النَّاسَ. اللسان: (همج).

(٥) الرَّعَاع: الْأَحْدَاثُ الْأَوْغَادُ مِنَ النَّاسِ وَسُقَاطُهُمْ وَسَفَلَتُهُمْ. اللسان: (ررع).

(٦) فِي الْأَصْلِ: «وَالْعِلْمُ»، وَالْمَثْبُوتُ مِنَ «الْإِحْيَاءِ» وَ«نَهْجِ الْبَلَاغَةِ».

(٧) أَحْنَائِهِ: جَوَانِبُهُ وَأَطْرَافُهُ، مَفْرَدُهَا: جِنُودُهَا. اللسان: (حنو).

فَمَنْهُوْمٌ بِاللَّذَاتِ، سَلِسُ الْقِيَادِ لِلشَّهَوَاتِ، أَوْ مُغْرَى بِجَمْعِ الْأَمْوَالِ وَالْأَدْخَارِ،  
'لَيْسَا مِنْ رُعَاةِ الدِّينِ فِي شَيْءٍ' (١)، أَقْرَبُ شَبَهًا بِهِمَا الْأَنْعَامُ السَّائِمَةُ، كَذَلِكَ يَمُوتُ  
الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ.

اللَّهُمَّ بَلَى! لَا تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْ قَائِمِ اللَّهِ بِحُجَّةٍ، (٢) إِمَّا ظَاهِرًا مَشْهُورًا، أَوْ خَائِفًا  
مَغْمُورًا (٣)، لَيْلًا تَبْطُلُ حُجُجُ اللَّهِ وَبَيِّنَاتُهُ، وَكَمْ ذَا... وَأَيْنَ أَوْلِيكَ؟

أَوْلِيكَ وَاللَّهِ (٣) الْأَقْلُونَ عَدَدًا، الْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرًا، بِهِمْ يَحْفَظُ اللَّهُ تَعَالَى  
حُجَجَهُ، حَتَّى يُؤَدُّوْهَا إِلَى نُظْرَائِهِمْ، وَيَزْرَعُوْهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ، هَجَمَ بِهِمْ  
الْعِلْمُ عَلَى حَقِيْقَةِ الْأَمْرِ، (٤) وَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِيْنِ (٤)، فَاسْتَلَانُوا مَا اسْتَوْعَرَ مِنْهُ  
الْمُتْرَفُونَ، وَأَنْسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ، صَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانِ أَرْوَاحِهَا  
مُعَلَّقَةً بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى.

يَا كُمْبِلُ، أَوْلِيكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، وَالذُّعَاةُ إِلَى دِيْنِهِ، هَاهَا، شَوْقًا إِلَى  
رُؤْيَيْهِمْ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلِكَ، إِذَا شِئْتَ فَعْمُ (٥).

وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ الْعَالِمَ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ، الْغَازِي فِي  
سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِذَا مَاتَ الْعَالِمُ انْتَلَمَتْ فِي الْإِسْلَامِ ثُلْمَةٌ (٦)، لَا يَسُدُّهَا شَيْءٌ إِلَى يَوْمِ  
الْقِيَامَةِ (٧).

(١-١) سقط من الأصل، واستدرك من «الحلية» و«العقد الفريد». و«تهذيب الكمال».

(٢-٢) سقط من الأصل، واستدرك من «الحلية» و«العقد الفريد».

(٣) ليست في الأصل.

(٤-٤) سقط من الأصل، واستدرك من «الحلية» و«العقد الفريد».

(٥) إسناده تالف، كُمبيل بن زياد من المفرطين في علي رضي الله عنه يروي عنه المعضل؟؟؟  
ويضع فيه الموضوعات، والأثر في «حلية الأولياء» ١/ ٧٩، و«تهذيب الكمال» ٦/ ٧٦،  
١٧٧، و«تذكرة الحفاظ» ١/ ١١، و«العقد الفريد» ٢/ ٢١١، و«تاريخ بغداد» ٦/ ٣٧٩.  
و«الفتاوى والمتفق» ١/ ٥٠، و«التدوين» للقرظيني ٣/ ٢٠٨.

(٦) الثُّلْمَةُ: الْفُرْجَةُ وَالْكَسْرُ فِي الْحَائِطِ وَالْبِنَاءِ وَغَيْرِهِ «اللسان»: (ثلم).

(٧) أخرجه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٣٥٠) بتمامه، بإسناد ضعيف مُعْضَل،  
يرويه محمد بن سلام الجَمَحِي المولود سنة ١٥٠هـ، عن علي رضي الله عنه المتوفى

وأخبرنا محمد بن عبد الباقي البزار، قال: أخبرنا أبو محمد الجوهري، قال: أخبرنا علي بن محمد ابن لؤلؤ، قال: أخبرنا حمزة بن محمد الكاتب، قال: حدثنا نعيم بن حماد، قال: أخبرنا خارجة بن مصعب، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: والله لعالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد<sup>(١)</sup>. وقد روي مرفوعاً، ولا يصح رفعه<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلي من إحيائها<sup>(٣)</sup>.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] قال: أولو العلم. وفي رواية عنه: هم الفقهاء والعلماء<sup>(٤)</sup>.

وكذلك روى أبو زرعة عن الإمام أحمد - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿وَأُولَى﴾

= سنة ٤٠هـ، وابن سلام لا يكتب حديثه (ميزان الاعتدال) ٣ / ٥٦٧ - ٥٦٨. ويروى مرفوعاً، ولا يصح. وأخرجه أحمد في «الزهد» ص ٣٢١، والدارمي (٣٣٣)، عن الحسن البصري قال: كانوا يقولون: إذا مات العالم... فذكره، ولم يسم الذين كانوا يقولون. لكن أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»: (١٧١٩) عن الحسن البصري قال: قال ابن مسعود... فذكره موقوفاً. ولا يعرف للحسن البصري سماع من ابن مسعود.

(١) إسناده تالف ساقط، أخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية»: (١٩٣) والبيهقي في شعب الإيمان (١٧١٣) و(١٧١٦)، والخطيب في «الفتاوى والمتفق» ١ / ١٨.

(٢) روي مرفوعاً عن ابن عباس، أخرجه الترمذي (٢٦٨١)، وابن ماجه (٢٢٢)، والبيهقي في (شعب الإيمان) (١٧١٥)، وابن الجوزي في (العلل المتناهية) (١٩٢)، كلهم من طريق روح بن جناح. قال البيهقي: تفرد به روح.

وروح هذا حديثه منكر جداً، واتهمه ابن حبان بالوضع، وقال أبو سعيد النقاش: يروي عن مجاهد أحاديث موضوعة، «تهذيب التهذيب» ٣ / ٢٩٢ - ٢٩٣.

(٣) ذكره ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله»: ٢٤.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره: ٧ / ١٧٩، وسعيد بن منصور في سننه (٦٥٣) وأبو خيثمة في العلم (٦٢) ومن طريقه تمام في الفوائد (١٣٣٥ - الروض البسام)، وأبو نعيم في الحلية ٣ / ٩٢ والخطيب في الفتاوى والمتفق (٩٣، ٩٤)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٢ / ١٧٦ إلى عبد بن حميد.

الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴿ [النساء: ٥٩] قال: هم أهلُ العلم، ألا تراه سبحانه يقول: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ <sup>(١)</sup>؟ [النساء: ٨٣].

وقال سعيد بن جبیر: الربّانيون: الفقهاء العلماء <sup>(٢)</sup>.

وقال مجاهد: الربّانيون: الفقهاء المعلمون <sup>(٣)</sup>.

وقال في قوله سبحانه: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] قال <sup>(٤)</sup>: الفقه والعلم <sup>(٥)</sup>.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] قال: بعلمائهم <sup>(٦)</sup>.

وقال زيد بن أسلم في قوله سبحانه: ﴿نَزَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣] ويوسف: [٧٦] قال: بالعلم <sup>(٧)</sup>.

وقال الزبير بن بكار: كتب إليّ أبي: عليك بالعلم، فإن افتقرت كان لك مالا، وإن استغنيت كان جمالا.

وقال عبيد الله ابن عائشة: إذا استردّل الله عبداً حَظَرَ عليه العلم.

وكان بعض الحكماء يقول: ليت شعري، أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فات من أدرك العلم؟!.

وقد روينا عن ابن المبارك أنه سُئِلَ: من الناس؟ فقال: العلماء. وإنّما أخرج

(١) أخرجه الطبري في التفسير ٧ / ١٨٠ من كلام أبي العالية، ولم أف أف عليه من كلام الإمام أحمد.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير ٥ / ٥٢٨ عن سعيد بلفظ: حكما أتقياء.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ٥ / ٥٢٧.

(٤) يعني: مجاهداً.

(٥) أخرجه الطبري في التفسير ٥ / ٩.

(٦) تفسير القرطبي ١٠ / ٢٩٧.

(٧) أوردته السيوطي في «الدر المثور» ٣ / ١٨، ونسبه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

الْجَهَّالَ مِنَ النَّاسِ؛ لِأَنَّ الْخَاصِيَّةَ الَّتِي تَمَيَّزَ بِهَا الْآدَمِيُّ الْعِلْمُ، فَإِنَّهُ لَمْ يُفْضَلْ بِقُوَّتِهِ، فَإِنَّ الْجَمَلَ أَقْوَى مِنْهُ، وَلَا بِشَجَاعَتِهِ، فَإِنَّ الْأَسَدَ أَشْجَعُ مِنْهُ، وَلَا بِكَثْرَةِ أَكْلِهِ، فَإِنَّ بَطْنَ الْبَعِيرِ أَوْسَعُ مِنْ بَطْنِهِ، وَلَا بِكَثْرَةِ سِفَادِهِ<sup>(١)</sup>، فَإِنَّ الْعُصْفُورَ أَقْوَى عَلَى السِّفَادِ مِنْهُ، وَإِنَّمَا خَصِيصَتُهُ الَّتِي بِهَا فَضِّلَ: الْعِلْمُ، وَبِتِلْكَ الْعِلَّةِ أَسْجَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَلَائِكَةَ لِآدَمَ، وَمِنْ أَعْجَبِ فَضَائِلِ الْعِلْمِ أَنَّهُ يَفْرَحُ مِنْ نُسَبٍ إِلَيْهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَيَحْزَنُ مِنْ سُلْبٍ عَنْهُ وَإِنْ كَانَ جَاهِلًا.

### الشواهد العقلية

إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ فَضِيلَةَ الشَّيْءِ، فَافْهَمْ مَا الْفَضِيلَةُ، فَإِنَّكَ لَوْ أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ هَلْ زَيْدٌ فِقِيهٌ أَمْ لَا؟ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى تَعْرِفَ مَا الْفَقْهُ.

وَالْفَضِيلَةُ مَأْخُودَةٌ مِنَ الْفَضْلِ، وَهُوَ الزِّيَادَةُ، فَإِذَا اشْتَرَكَ شَيْئَانِ فِي أَمْرٍ، وَزَادَ أَحَدُهُمَا فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ، قِيلَ: لَهُ فَضِيلَةٌ، غَيْرَ أَنَّ تِلْكَ الزِّيَادَةَ إِنَّمَا تَكُونُ فِيمَا هُوَ كِمَالُ ذَلِكَ الشَّيْءِ، كَمَا يُقَالُ: الْفَرَسُ أَفْضَلُ مِنَ الْحِمَارِ. بِمَعْنَى: أَنَّهُ يُشَارِكُهُ فِي قُوَّةِ الْحَمْلِ، وَيَزِيدُ عَلَيْهِ فِي الْكُرِّ وَالْفَرِّ، وَحُسْنِ الصُّورَةِ، وَلَوْ زَادَ بَعْضُ النَّاسِ زِيَادَةً أَصْبَحَ، كَانَتْ تِلْكَ الزِّيَادَةُ نَقْصًا فِي الْمَعْنَى؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْكِمَالِ فِي شَيْءٍ، فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الْعِلْمَ فَضِيلَةٌ؛ لِأَنَّهُ زِيَادَةٌ يَتِمُّ الْمَعْنَى، وَعَلَى مِقْدَارِ التَّزْيِيدِ مِنْهُ تَزِيدُ الْفَضِيلَةُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الشَّيْءَ النَّفْسِ الْمَرْغُوبَ فِيهِ يَنْقَسِمُ إِلَى مَا يُطَلَّبُ لِغَيْرِهِ، كَالدِّرَاهِمِ، وَإِلَى مَا يُطَلَّبُ لِذَاتِهِ، كَالسَّعَادَةِ فِي الْآخِرَةِ، وَإِلَى مَا يُطَلَّبُ لِذَاتِهِ وَلِغَيْرِهِ، كَسَلَامَةِ الْبَدَنِ، فَإِنَّهَا تُطَلَّبُ لِنَفْسِهَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا سَلَامَةٌ مِنَ الْأَلَمِ، وَمَطْلُوبَةٌ لِغَيْرِهَا مِنْ جِهَةِ التَّوَصُّلِ بِهَا إِلَى الْمَآرِبِ.

فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى الْعِلْمِ رَأَيْتَهُ مَطْلُوبًا لِذَاتِهِ، وَوَسِيلَةً إِلَى تَحْصِيلِ الْمَنَافِعِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَذَرِيعَةً إِلَى الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ إِلَّا بِهِ، وَإِذَا كَانَ الْعِلْمُ سَبَبًا لِذَلِكَ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَفْضَلُ الْأَشْيَاءِ.

(١) السِّفَادُ: نَزْوُ الذِّكْرِ عَلَى الْأُنْثَى، وَهُوَ الْجَمَاعُ.

ومن وجهٍ آخر؛ وهو أَنَّكَ إذا أردتَ أن تعرفَ فضلَ الشيءِ، فانظر في ثمرتهِ، ومعلومٌ أنَّ ثمرةَ العلمِ في الدنيا العزُّ والوقارُ، ونفوذُ الحُكْمِ على الملوكِ، ونيلُ الاحترامِ مِنَ الخلقِ، حتى إنَّ أغبياءَ التُّركِ، وأجلافَ العربِ، يُعظِّمونَ أشياخَهُم، لاختصاصِهِم بمزيدِ علمٍ مُستفادٍ من التجربةِ، بل البهيمَةُ بطبعِها تُوقِّرُ الإنسانَ، لشعورها بِتَمييزِهِ بكمالٍ مُجاوِزٍ لدرجتها.

وأما ثمرتهِ في الآخرةِ، فالتقربُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ونيلُ السعادةِ التامةِ الأبديةِ، ويوضِّحُ ما ذكرنا؛ أنَّ مقاصدَ الخلقِ مجموعةٌ في الدينِ والدنيا، ولا يَنتَظِمُ الدينُ إلَّا بانتظامِ الدنيا؛ لأنَّها مزرعةُ الآخرةِ، ولا يَنتَظِمُ أمرُ الدنيا إلَّا بصناعةِ الأدميينَ، وصناعاتِهِم على ثلاثةِ أقسامٍ: أحدها: أصولٌ لا قِوامَ<sup>(١)</sup> للعالمِ بدونها، وهي أربعةٌ: ١- الزراعةُ، وهي للمطعمِ، ٢- والحياكةُ، للملبسِ، ٣- والبناءُ، للسكنى، ٤- والسياسةُ، للتأليفِ والاجتماعِ، والتعاونِ على أسبابِ المعاشِ.

والقسمُ الثاني: ما هو كالخادمِ لهذهِ الأصولِ، كالحدادةِ، فإنَّها تَخدِمُ الزراعةَ، والغزلَ والحلجَ<sup>(٢)</sup>، فإنَّه كالخادمِ للحياكةِ.

والقسمُ الثالثُ: ما هو مُتمِّمٌ للأصولِ ومُزيِّنٌ لها، كالطحنِ والخبزِ للزراعةِ، والقِصارةِ<sup>(٣)</sup> والخياطةِ للحياكةِ، وذلك بالإضافةِ إلى قِوامِ أمرِ العالمِ الأرضيِّ، مثلُ أجزاءِ الشخصِ بالإضافةِ إليه، فإنَّها على ثلاثةِ أضربٍ:

- ١- أمَّا الأصولُ: فكالقلبِ والكبدِ والدماغِ.
- ٢- وأمَّا الخادمُ لها: فكالعروقِ والمعدةِ والأعصابِ ونحوها.
- ٣- وأمَّا المُكَمِّلُ والمُزيِّنُ: فكالأظفارِ والأصابعِ والحاجيينِ.

(١) القِوامُ: بكسر القاف: نظام الأمرِ، وعماده وملاكه. اللسان: (قوم).  
 (٢) الحلج: ويقال: حلَجَ القطنَ يَحْلِجُهُ وَيَحْلُجُهُ حَلْجاً بِالمِخْلَاجِ: نَدَفَهُ. تاج العروس: (حلج).  
 (٣) القِصارةُ، بكسر القاف: تبييضُ الثيابِ بالمُقَصِّرةِ وهي: خشبةٌ تُدَقُّ بها الثيابُ، والعاملُ فيها: قِصَّارٌ ومُقَصِّرٌ، والفعلُ: قِصَّرَ يَقْصِرُ. اللسان وتاج العروس: (قصر).

وأشرف هذه الصناعاتِ أصولها، وأشرف أصولها السياسة؛ لأنها سبب لإصلاح الأمور واستقامتها، ولذلك تستدعي السياسة من كمال القائم بها ما لا تستدعي سائر الصناعات، ولذلك يَسْتَخْدِمُ السائِسُ<sup>(١)</sup> سائر الصناعات، فقد بان فضل السائِسِ على غيره لمزية العلم بالتصريف، وشرف الصناعة يُعرف إمَّا بالآلة التي يُتَوَصَّلُ بها إلى تحصيلها، كفضل العلوم العقلية على اللغوية، من جهة أنَّ الحكمة تُدرِّكُ بالعقل، واللغة بالسمع، والعقل أشرف من السمع، وإمَّا بالنظر إلى عموم النَّفَعِ، كفضل الزراعة على الصياغة، وإمَّا بملاحظة المحل الذي فيه التصريف، كفضل الصياغة على الدباغة، لأنَّ محلَّ أحدهما الذهب، ومحلَّ الآخر جلد الميتة، وهذه الأمور قد اجتمعت في العلم.

أمَّا الآلة، فإنَّ العلم يُدرِّكُ بصفاء الذكاء، وكمال العقل، وجودة الفهم.

وأمَّا عموم النَّفَعِ، فإنَّ نفع العلم أعمُّ، وثمرته سعادة الآخرة، وأمَّا المحلُّ، فإنَّ أشرف الموجودات على ظهر الأرض جنس الإنس، وأشرف جزء من الإنسان قلبه، والمعلم مُشْتَغِلٌ بتطهيره وتكميله، فهو كالخليفة عن الله تعالى في تثقيف عبده، وإصلاحه لخدمته، وهو بذلك مُتَعَبِّدٌ لله عزَّ وجلَّ، وكيف لا، وهو واسطة بين الربِّ والعبد؟!.

## فصل

### [الاشتغال بالعلم خيرٌ من الاشتغال بالنافلة]

وقد يقع لبعض من يقلُّ فهمه أن العمل أفضل من العلم، ويُشير بذلك إلى التفلُّ بالصلاة والصوم، ويحتجُّ بأنَّ المراد من العلم العمل، وهذا غلط؛ لأنَّ العلم يحصل بسعي القلب، وإنشاء<sup>(٢)</sup> راحلة الفكر، فكيف لا يكون أفضل من أعمال

(١) السائِسُ: من يقوم على الشيء بما يُولِّحُه، أو الوالي يسوس رعيته، أو القائم على شؤون الدواب وتذليلها. القاموس واللسان: (سوس).

(٢) يقال: نضاً الرجلُ السيف، إذا سلَّه من غمده. اللسان: (نضو).

الجوارح الظاهرة، وهو عملُ أشرفِ الجوارحِ الباطنة؟! فالتعلمُ والتعليمُ أفضلُ من كلِّ نافلةٍ. قال مطرفُ بن عبد الله: فضل العلم خيرٌ من فضلِ العبادة<sup>(١)</sup>.

قلت: وكَم من عابدٍ قلَّ علمه، فحرَّكهُ الشيطانُ إلى التَّخاشعِ وإقامةِ الناموسِ<sup>(٢)</sup>، فربَّما توقَّعَ إجابةَ دعائه عاجلاً، لِمكانِ ما يَعْتَقِدُهُ من الجاهِ لَهُ عندَ الله، فإذا لم يَرَ لذلكِ أثراً تَأَقَّفَ في باطنه تَأَقَّفَ الأجيرِ الذي لم يُوفَّ أجرته، وكلُّ هذه الآفاتِ سببها قِلَّةُ العلمِ.

ولقد حَسَنَ إبليسُ لأقوامٍ كثيرينَ دَفَنَ كُتُبِ العلمِ ليمشوا في الظُّلُمَةِ؛ لأنَّ العلمَ نورٌ.

فإيَّاكَ إيَّاكَ والإعراضَ عنِ العلمِ، أو أن تُؤثِّرَ عليه التَّعَبَدَ بغيره.

### فَضِيلَةُ التَّعَلُّمِ

أَمَّا الآيَاتُ: فقد قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وقال: ﴿فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣ والأَنْبياء: ٧].

وأما الأخبار: فقد أخبرنا ابنُ الحُصَيْنِ، قال: أخبرنا ابنُ المُذْهِبِ، قال: أخبرنا أحمدُ بنُ جعفرٍ، قال: أخبرنا عبدُ الله بنُ أحمدَ، قال: حدثني أبي، قال: أخبرني يونسُ، قال: أخبرنا حمادٌ - يعني ابنَ سلمة -، عن عاصمِ، عن زُرِّ، عن صفوانِ بنِ عَسَّالٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضَىٰ بِمَا يُطَلَّبُ»<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٧ / ١٤٢، وأبو خيثمة في «العلم»: (١٣) والفسوي في «المعرفة والتاريخ» ٢ / ٨٢ - ٨٣، والبيهقي في «شعب الإيمان»: (١٧٠٦)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» ١ / ٢٣ - ٢٤ بإسناد صحيح من قول مطرف.

(٢) الناموس: بيت الراهب. تاج العروس: (نمس).

(٣) أخرجه أحمد (١٨٠٨٩) و(١٨٠٩٥) و(١٨١٠٠) والطيالسي (١١٦٥)، والترمذي (٣٥٣٥) و(٣٥٣٦)، والنسائي ١ / ٩٨، وابن ماجه (٢٢٦) وابن حبان (١٣١٩) و(١٣٢١)

وقد ذكر أبو سليمان الخطابي<sup>(١)</sup> في معنى وضع الملائكة أجنحتها ثلاثة أقوال:  
أحدها: أنه بسط الأجنحة.

والثاني: أنه بمعنى التواضع من الملائكة تعظيماً للطالب.

والثالث: أن يراد به النزول عند مجالس العلم، وترك الطيران، كقوله ﷺ: «ما من قوم يذكرون الله إلا حقت بهم الملائكة»<sup>(٢)</sup>.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من خرج في طلب العلم، فهو في سبيل الله حتى يرجع»<sup>(٣)</sup>.

وقال ﷺ: «من سلك طريقاً يتبغي فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة»<sup>(٤)</sup>.

وقال ﷺ: «من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليُحيى به الإسلام، فبينه وبين الأنبياء في الجنة درجة واحدة»<sup>(٥)</sup>.

= و(١٣٢٥)، والطبراني في الكبير ٨ / (٧٣٥٢) و(٧٣٥٣) و(٧٣٥٩) و(٧٣٦٠) وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» ١ / ٣٢-٣٣، وأبو خيثمة في «العلم»: (٥).

(١) في كتابه «معالم السنن» ٥ / ٢٤٣-٢٤٤.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٠)، والترمذي (٣٣٧٨)، وابن ماجه (٣٧٩١) وأحمد (٧٤٢٧) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٤٧)، والطبراني في «الصغير»: (٣٨٠) من حديث أنس.

(٤) حديث صحيح، أخرجه أحمد (٧٤٢٧)، ومسلم (٢٦٩٩)، وأبو داود (٣٦٤٣)، والترمذي

(٢٦٤٦) و(٢٩٤٥)، وابن ماجه (٢٢٥) من حديث أبي هريرة. وتقدم تخريجه ص ١٤ من

حديث أبي الدرداء.

(٥) حديث ضعيف، أخرجه الطبراني في (الأوسط): (٩٤٥٠)، والخطيب في «الفيح والتمتفه»

٢ / ٨٥، وتاريخ بغداد: ٣ / ٧٨: وابن عبد البر في جامع بيان العلم: ١ / ٩٥، بإسناد

تالف عن ابن عباس. وأخرجه ابن النجار في الذيل على تاريخ بغداد ١٨ / ١٣٦ عن

أنس، قال العراقي: وإسناده ضعيف (إتحاف السادة المتقين) ١ / ١٠١.

وأخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم ١ / ٤٦، عن الحسن مرسلًا. وفيه اختلاف كبير

في وصله وإرساله.

وأما الآثار: فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: دَلَّلْتُ طالباً، فعَزَزْتُ مطلوباً.

وقال أبو الدرداء: لَأَنْ أتعَلَّمَ مَسْأَلَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ<sup>(١)</sup>. وقال أيضاً: العالمُ والمتعلمُ شريكانِ في الخير، وسائرُ الناسِ همَجٌ لا خيرَ فيهم<sup>(٢)</sup>. وقال أيضاً: كُنْ عالماً أو مُتعلِّماً أو مُستمعاً أو مُحبِّباً، ولا تكنِ الخامسَ فهلك<sup>(٣)</sup>.

وقال لقمانُ لابنه: جالسِ العلماءَ، وزاحمهم برُكبتيك، فإنَّ الله يُحيي القلوبَ بنورِ الحكمةِ، كما يُحيي الأرضَ بوابِلِ السماءِ<sup>(٤)</sup>.

وقال سفيانُ الثوري: ليسَ بعدَ الفرائضِ عملٌ أفضلُ من طلبِ العلمِ<sup>(٥)</sup>.

- (١) أخرجه الخطيب في (الفيح والتمتفه) ١ / ١٦ و ١٧، بإسنادين فيهما انقطاع.
- (٢) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) (٥٤٣)، وابن أبي شيبة في (المصنف): (٦١٧٢) و (٦١٧٣)، والقسوي في (المعرفة والتاريخ) ٣ / ٣٩٨، وأبو نعيم في (الحلية) ١ / ٢١٢ - ٢١٣، وابن عبد البر في (جامع بيان العلم) ١ / ٢٧ و ٢٨، بإسنادين فيهما انقطاع موقوفاً على أبي الدرداء، وروي مرفوعاً عن أبي الدرداء وأبي سعيد وابن مسعود وأبي أمامة وابن عباس رضي الله عنهم، ولا يخلو إسنادٌ واحدٌ من مقال، وانظر (إرواء الغليل) (٤١٤).
- (٣) أخرجه القسوي في (المعرفة والتاريخ) ٣ / ٣٩٨، وابن عبد البر في (جامع بيان العلم) ١ / ٢٨ - ٢٩، عن أبي الدرداء موقوفاً بإسناد منقطع.
- وأخرجه ابن عبد البر ١ / ٢٩ عن ابن مسعود موقوفاً بأسانيد مجموعها حسن.
- وأخرجه أيضاً في ١ / ٣٠ عن أبي بكرة مرفوعاً بإسناد ضعيف.
- وقوله: (ولا تكن الخامس) أي: لا تكن مبتدعاً، أو لا تكن مبغضاً لعلم وأهله.
- (٤) أخرجه الطبراني في (الكبير) ٨ / (٧٨١٠)، عن أبي أمامة الباهلي، مرفوعاً بإسناد ضعيف جداً.
- وأخرجه ابن المبارك في (الزهد) (١٣٨٧) عن عبد الوهاب بن بُحْتِ المكي، وابن عبد البر في (جامع بيان العلم) ١ / ١٠٦، عن سليمان بن طرخان التيمي، وعن سليمان بن حبيب المحاربي، فرَّقهما، قالوا: قال لقمان لابنه: . . . فذكروه، والثلاثة تابعيون، لم يذكروا ممن سمعوه، ورجال ابن المبارك، ورجال أحد إسنادي ابن عبد البر ثقات.
- (٥) أخرجه البيهقي في (مناقب الشافعي) ٢ / ١٣٨، بإسناد صحيح من كلام الشافعي رحمه الله، وهو الصواب.

وأخرجه ابن عبد البر في (جامع بيان العلم) ١ / ٢٥، بإسناد ضعيف، عن الثوري بلفظ: (لا أعلم من العبادة شيئاً أفضل من أن يُعَلَّمَ الناسُ العلم).

وقال المعافى بنُ عمرانَ: كتابَةُ حَدِيثٍ وَاحِدٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ صَلَاةِ لَيْلَةٍ<sup>(١)</sup>.

وقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: عَجِبْتُ لِمَنْ لَمْ يَطْلُبِ الْعِلْمَ كَيْفَ تَدْعُوهُ نَفْسُهُ إِلَى مَكْرُمَةٍ<sup>(٢)</sup>.

وقال الشافعي رحمه الله: طَلِبُ الْعِلْمِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ نَافِلَةٍ<sup>(٣)</sup>.

وَسَأَلَ رَجُلٌ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَقَالَ: أُنْسَخُ فِي اللَّيْلِ أَوْ أُصَلِّي؟ فَقَالَ لَهُ: إِنْ كُنْتَ مُتَعَلِّمًا تَنْسَخُ.

وقال يوسف بنُ أسباط: بَابٌ مِنَ الْعِلْمِ تَتَعَلَّمُهُ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ غَزْوَةً<sup>(٤)</sup>.

### فَضِيلَةُ التَّعْلِيمِ

أَمَّا الْآيَاتُ: فَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾، [آل عمران: ١٨٧]. وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلْيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾، [التوبة: ١٢٢]. وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾، [النحل: ١٢٥]. وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، [فصلت: ٣٣]. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

وَأَمَّا الْأَخْبَارُ: فَأَخْبَرَنَا هَبَةُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُصَيْنِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْمُدْهِبِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرِ الْقَطِيعِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، قَالَ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ

(١) أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث»: (١٨٤)، وذكره ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» ١ / ٢٤.

(٢) ذكره ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» ١ / ٥٧ و ٦٠.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ٩ / ١١٩، والبيهقي في «مناقب الشافعي» ٢ / ١٣٨، وابن

عبد البر في «جامع بيان العلم» ١ / ٢٥، والرازي في آداب الشافعي: ٩٧.

(٤) أخرجه الخطيب في «الفتية والمتفق» ١ / ١٦ عن أبي هريرة بنحوه موقوفاً عليه.

لعلي رضي الله عنه: «والله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيراً لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَمِ» أخرجاه في الصحيحين<sup>(١)</sup>.

أخبرنا يحيى بن علي المدير، قال: أخبرنا عبد الصمد بن المأمون، قال: أخبرنا علي بن عمر الدار قُظني، قال: أخبرنا القاضي المَحَامِلي، قال: حدثنا يوسف بن موسى، قال: حدثنا حَمَادُ بْنُ أُسَامَةَ، عن بُرَيْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عن أَبِي بُرْدَةَ، عن أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتِ الْكَلَاءَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَفَعَّ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا»<sup>(٢)</sup>، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قَيْعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَاءً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ اللَّهُ بِمَا بَعَثَنِي بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِهِ<sup>(٣)</sup> رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ» أخرجاه في الصحيحين<sup>(٤)</sup>.

فانظر - رَحِمَكَ اللَّهُ - إلى هذا الحديث، ما أَوْقَعَهُ<sup>(٥)</sup> على الخَلْقِ!! فَإِنَّ الْفُقَهَاءَ أَوْلِي الْفَهْمِ كَمَثَلِ الْبِقَاعِ الَّتِي قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ؛ لِأَنَّهَا عَلِمُوا وَفَهَّمُوا، وَفَرَعُوا وَعَلَّمُوا، وَإِنَّ عَامَّةَ النَّاقِلِينَ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ الَّذِينَ لَمْ يُرْزَقُوا الْفِقْهَ وَالْفَهْمَ، كَمَثَلِ الْأَجَادِبِ، حَفِظَتِ الْمَاءَ، وَهَؤُلَاءِ حَفِظُوا مَا عِنْدَهُمْ فَانْتَفَعُوا بِهِ. وَأَمَّا الَّذِينَ سَمِعُوا وَلَمْ يَتَعَلَّمُوا وَلَمْ يَحْفَظُوا، فَهُمْ الْعَوَامُّ الْجَهْلَةُ.

أخبرنا هبة الله بن محمد، قال: أخبرنا الحسن بن علي<sup>(٦)</sup>، قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثنا أبي، قال: حدثنا

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٢) كذا في الأصل والبخاري، وعند مسلم: «وَرَعَوْا».

(٣) كذا في الأصل، وفي الصحيحين: «بذلك».

(٤) أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

(٥) ما أوقعه على الخلق، أي: كم هو موافق لأحوال وأنواع الخلق.

(٦) هو: ابن المذهب.

وكيع، قال: أخبرنا هشام، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِماً اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوساً جُهَالاً، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا» أخرجاه في الصحيحين<sup>(١)</sup>.

أخبرنا سعيد بن أحمد بن الحسن بن البنا، قال: أخبرنا أبو القاسم بن البُسري، قال: أخبرنا أبو طاهر المُخَلَّص، قال: أخبرنا ابن صاعد، قال: حدثنا الربيع بن سليمان، قال: حدثنا عبد الله بن وهب، عن سليمان بن بلال، قال: أخبرنا العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ» انفرد بإخراجه مسلم<sup>(٢)</sup>.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى خُلَفَائِي» قيل: وَمَنْ خُلَفَاؤُكَ؟ قال: «الَّذِينَ يُحْيُونَ سُنَّتِي، وَيُعَلِّمُونَهَا عِبَادَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(٣)</sup>.

وأما الآثار: فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مَنْ حَدَّثَ بِحَدِيثٍ فَعَمِلَ بِهِ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ ذَلِكَ الْعَمَلِ<sup>(٤)</sup>.

وقال أيضاً: الأُمَّةُ: الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ<sup>(٥)</sup>. وكذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: الأُمَّةُ: مُتَعَلِّمُ الْخَيْرِ وَمُعَلِّمُهُ<sup>(٦)</sup>.

أخبرنا عبد الوهاب الأنماطي، قال: أخبرنا أبو محمد الصّريفي، قال:

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٣١)، والبخاري في «الأدب المفرد»: (٣٨)، وأبو داود (٢٨٨٠)، والترمذي (١٣٧٦)، والنسائي ٦ / ٢٥١.

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط»: (٥٨٤٢)، والرامهرمزي في «المحدث الفاصل»: (٢)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث»: ٥٨.

(٤) أخرجه ابن عبد البر في (جامع بيان العلم) ١ / ٥٢.

(٥) ذكره ابن كثير في التفسير ٢ / ٥٩٠.

(٦) أخرجه الطبري في التفسير ١٧ / ٣١٦-٣١٧.

أخبرنا أبو حفص الكتّاني، قال: حدثنا البَغَوِي، قال: حدثنا زهير بن حرب، قال: حدثنا محمد بن خازم، قال: حدثنا الأعمش، عن شَمْر، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: إن الذي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ تَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ دَابَّةٍ حَتَّى الْحَوْتِ فِي الْبَحْرِ<sup>(١)</sup>.

فإن قيل: ما وجه استغفار الحوت للمعلم؟ فالجواب: إن نفع العلم يُعْمُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْحَوْتِ، فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ عَرَفُوا بِالْعِلْمِ مَا يَحِلُّ مِمَّا يَحْرَمُ، وَأَوْصُوا بِالْإِحْسَانِ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى إِلَى الْمَذْبُوحِ وَالْحَوْتِ، فَأَلْهَمَ اللَّهُ الْكَلَّ الْاسْتِغْفَارَ لَهُمْ جَزَاءً لِحُسْنِ صَنِيعِهِمْ.

وقال معاذ بن جبل: تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ، فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ لِلَّهِ خَشِيَّةٌ، وَطَلَبَهُ عِبَادَةٌ، وَمُدَارَسَتُهُ تَسْبِيحٌ، وَالْبَحْثُ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمُهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ، وَبِذَلِكَ لِأَهْلِهِ قَرَبَةٌ، وَهُوَ الْأَنْسُ فِي الْوَحْدَةِ، وَالصَّاحِبُ فِي الْخَلْوَةِ<sup>(٢)</sup>.

وقال كعب<sup>(٣)</sup>: أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ: أَنْ تَعْلَمْ يَا مُوسَى الْخَيْرَ، وَعَلِّمَهُ النَّاسَ، فَإِنِّي مُنَوِّرٌ لِمُعَلِّمِ الْخَيْرِ وَمَتَعَلِّمِهِ فِي قُبُورِهِمْ، حَتَّى لَا يَسْتَوْحِشُوا بِمَكَانِهِمْ<sup>(٤)</sup>.

وقال عيسى عليه السلام: مَنْ تَعَلَّمَ وَعَلَّمَ وَعَمِلَ، فَذَاكَ يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ<sup>(٥)</sup>.

(١) أخرجه أبو خيثمة في «العلم»: (٦). وقد صحَّ الحديث بشواهده مرفوعاً، أخرجه الترمذي (٢٦٨٥) من حديث أبي أمامة، وأخرجه الطبراني في «الأوسط»: (٦٢١٥) من حديث جابر وأخرجه أحمد ٥/ ١٩٦، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» ١/ ٥٤- ٥٥.

(٣) يعني كعب بن ماته الحميري، المشهور بكعب الأخبار، التابعي، أسلم زمن أبي بكر رضي الله عنه، وقدم المدينة زمن عمر رضي الله عنه، وتوفي زمن عثمان رضي الله عنه سنة ٣٢هـ «الإصابة» ٥/ ٦٤٧.

(٤) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» ١/ ٦١.

(٥) أخرجه أبو خيثمة في «العلم»: (٧)، والخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب

وقال الحسن<sup>(١)</sup>: لولا العلماء لصارَ الناسُ مثلَ البهائم. وإنما أرادَ بذلك: أنَّ الناسَ يخرجون بالتعليم عن حدِّ البهيمة إلى حدِّ الإنسانيَّة.

وقال عطاء: دخلتُ على سعيدِ بنِ المسيَّبِ وهو يبكي، فقلتُ: ما يبكيك؟ فقال: ما يسألني أحدٌ عن شيءٍ.

ودخلَ سفيانُ الثوريُّ إلى عسقلان<sup>(٢)</sup>، فمكثَ لا يسألهُ أحدٌ عن شيءٍ، فقال: اكْتُروا<sup>(٣)</sup> لي لأخرجَ من هذا البلد، هذا بلدٌ يموتُ فيه العلمُ.



= السامع»: (٣٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان»: (١٧٩٩).

(١) يعني: الحسن البصري.

(٢) عسقلان: بلدة في فلسطين بين غزة وبيت جبرين. «معجم البلدان» ٤ / ١٢٢.

(٣) أي: استأجروا لي دابة لأرحل عليها.

## الباب الثاني

### في بيان العلم المحمود والمذموم وما هو فرض عين

أخبرنا محمد بن أبي منصور، قال: أخبرنا أبو سهل بن سعدويه، قال: أخبرنا أبو الفضل محمد بن الفضل القرشي، قال: أخبرنا أبو بكر بن مردويه، قال: حدثني علي بن الفضل، قال: أخبرنا عبد الله بن سليمان، قال: أخبرنا جعفر بن مسافر، قال: أخبرنا يحيى بن حسان، عن سليمان بن قرم، عن ثابت، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»<sup>(١)</sup>.

قال علي بن الفضل: قال ابن أبي داود: سمعت أبي يقول: ليس في: «طلب العلم فريضة» أصح من هذا.

قلت: وقد اختلف الناس في العلم الذي هو فريضة على كل مسلم:

فقال المتكلمون: هو علم الكلام، إذ به يُدْرَكُ التوحيدُ ومعرفةُ الله عزَّ وجلَّ.

وقال الفقهاء: هو علم الفقه، إذ به يُعْرَفُ الحلالُ والحرامُ.

وقال المفسرون والمحدثون: هو علم الكتاب والسنة، إذ بهما يُتَوَصَّلُ إلى العلوم كلها.

وقالت الصوفية: هو علم الإخلاص، وآفات النفوس. إلى غير ذلك من الأقوال التي ليس فيها مرضي:

(١) إسناده ضعيف، وهذا حديث حسن بطرقه وشواهد، أخرجه ابن ماجه (٢٢٤) بإسناد ضعيف، لكن ذكر في الزوائد نقلاً عن السيوطي أنه روي من طرق تبلغ رتبة الحسن، رآها نحواً من خمسين طريقاً، والله أعلم.

وقد روي عن جمع من الصحابة بطرق لا يخلو إسناده واحد منهم من مقال، ترتقي بمجموعها إلى رتبة الحسن إن شاء الله تعالى.

وقال أبو طالب المكي رحمه الله: هو العلم بمباني الإسلام الخمس .  
والصحيح: أنه علمُ معاملةِ العبدِ لربِّه . والمعاملة التي كُلِّفَها على ثلاثةِ أقسامٍ:  
اعتقادٌ، وفعلٌ، وتركٌ .

فإذا بلغَ الصبيُّ فأولُّ واجبٍ عليه تعلُّمُ كلمتي الشهادة، وفهمُ معناها، وإن لم يُحَصِّلْ ذلكَ بالنَّظرِ والدليلِ، فإنَّ النبيَّ ﷺ اكتفى من أجلافِ العربِ بالتَّصديقِ من غيرِ تعليمٍ دليلٍ، فذلك فرضُ الوقتِ، ثم يجبُ عليه النَّظرُ والاستدلالُ المؤديانِ إلى معرفةِ الله عز وجل، فإذا جاء وقتُ الصلاةِ وجبَ عليه تعلُّمُ الطَّهارةِ والصلاةِ، فإذا عاشَ إلى رمضانَ وجبَ عليه تعلُّمُ الصومِ، فإنَّ كانَ له مالٌ، فدارَ عليه الحولُ، وجبَ عليه تعلُّمُ الزكاةِ، فإذا جاء وقتُ الحجِّ، وهو مستطيعٌ، وجبَ عليه تعلُّمُ المناسكِ .  
وأما المتروكُ فبحسبِ ما يتجدَّدُ مِنَ الأحوالِ، إذ لا يجبُ على الأعمى تعلُّمُ ما يحرمُ مِنَ النَّظرِ، ولا على الأبكمِ تعلُّمُ ما يحرمُ مِنَ الكلامِ، فإنَّ كانَ في بلدٍ يُتَعاطى فيه شُرْبُ الخمرِ ولبسُ الحريرِ وجبَ أن يَعْرِفَ تحريمَ ذلكِ .

وأما الاعتقاداتُ فيجبُ عِلْمُها بحسبِ الخواطرِ، فإنَّ خَطَرَ له شكُّ في المعاني التي تدلُّ عليها كلمتا الشهادة، وجبَ عليه تعلُّمُ ما يتوصَّلُ به إلى إزالةِ الشكِّ، وإن كانَ في بلدٍ قد كَثُرَت فيه البدعُ، وجبَ أنْ يُلَقِّنَ الحقَّ، كما لو كانَ تاجراً في بلدٍ قد شاعَ فيه التعاملُ بالرِّبا، وجبَ عليه تعلُّمُ الحذرِ مِنَ الرِّبا .  
وينبغي أن يتعلمَ الإيمانَ بالبعثِ والجنةِ والنارِ، فبانَ بما ذكَّرنا أنَّ المرادَ بطلبِ العلمِ الذي هو فرضٌ عينيٌّ ما يتعيَّنُ وُجوبُهُ على الشَّخصِ .

### بيان العلم الذي هو فرضٌ كفايةٌ

العلومُ بالإضافةِ إلى الغرضِ الذي نحنُ بصدده تنقسمُ إلى:  
شرعية: وهي ما يُستفادُ مِنَ الأنبياءِ، ولا يُرشِدُ العقلُ إليها كالْحِسَابِ،  
ولا التجربةُ كالطَّبِّ، ولا السَّماعُ كاللغةِ .

والعلومُ التي ليست شرعيةً تنقسمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

- ١- محمود ٢- ومذموم ٣- ومباح .

١- فالمحمود ما ترتبط به مصالح الدنيا، كالطبِّ والحساب، وذلك ينقسم إلى:  
أ - ما هو فرضٌ كفاية. ب - وإلى ما هو فضيلةٌ لا فريضةً:

أ - أمّا فرضُ الكفاية: فهو كلُّ علمٍ لا يُستغنى عنه في قِوامِ أمورِ الدنيا كالطبِّ، إذ هو ضروريٌّ في حاجةِ بقاءِ الأبدانِ على الصحة، وكالحساب، فإنّه ضروريٌّ في قسمةِ الموارثِ والوصايا وغيرها، فهذه العلومُ هي التي لو خلا البلدُ عمَّن يقومُ بها حَرَجٌ<sup>(١)</sup> أهلُ البلدِ، وإذا قام بها واحدٌ كفى، وسقطَ الفرضُ عن الآخرين، ولا تتعجب من قولنا: إنّ الطبَّ والحسابَ من فروضِ الكفاية، فإنَّ أصولَ الصناعاتِ أيضاً من فروضِ الكفاية، كالفلاحةِ والحياكةِ والسياسةِ، بل الحجامَةِ، فإنّه لو خلا البلدُ عن حَجَّامٍ حاذقٍ لأسرعَ الهلاكُ إليهم، ولحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاكِ، فإنَّ الذي أنزلَ الداءَ أنزلَ الدواءَ، وأرشد إلى استعماله، فلا يجوزُ التعرُّضُ للهلاكِ بإهماله.

ب - وأما ما يُعدُّ فضيلةً لا فريضةً؛ فالتعمُّقُ في دقائقِ الحسابِ، وحقائقِ الطبِّ وغير ذلك، مما يُستغنى عنه، ولكنه يُفيدُ زيادةً قوّةً في قدرٍ ما يُحتاجُ إليه.

٢- وأما المذمومُ منه فعِلْمُ السحرِ والطلّسماتِ<sup>(٢)</sup> والشّعْبذة<sup>(٣)</sup> والتّليساتِ<sup>(٤)</sup>.

٣- وأما المباحُّ منه؛ فالعلمُ بالأشعارِ التي لا سُخْفَ فيها، وتواريخِ الأخبارِ، وما يجرى مَجْرَى ذلك.

فأمّا العلومُ الشرعيّةُ، فكلُّها محمودٌ، ولكن قد يَلْتَبِسُ بها ما يُظنُّ أنه شرعيٌّ، ويكون مذموماً، فلنقسمِ المحمودَةَ والمذمومةَ، فنقول:

(١) حَرَجٌ: أَيْمٌ. اللسان (حرج).

(٢) الطلّسمات: جمع طلّسم، وهو لفظ غير عربي، معناه: عبارة عن علم بأحوال تمزيح القوى الفعالة السماوية بالقوى المنفَعلة لأجل التمكن من إظهار ما يخالف العادة، والمنع مما يوافقها «قصد السبيل فيما في اللغة العربية من الدخيل»: ٢ / ٢٦٤، وفي «المحيط في اللغة» ٨ / ٤٢٦: هي ضرب من السحر.

(٣) الشعْبذة: بمعنى الشعوذة، وهي خفّة في اليد وشيءٌ كالسحر. «اللسان»: (شعوذة).

(٤) التليسات: هو تخليط الأمر، والتدليس فيه «اللسان»: (لبس).

أما المحمودَّة، فلها أصولٌ وفروعٌ ومقدِّماتٌ ومُتمِّماتٌ، فهي أربعةٌ أُضربَ:  
**الضربُ الأوَّلُ: الأصولُ**، وهي أربعةٌ: كتابُ اللهِ تعالى، وسُنَّةُ رسوله ﷺ،  
 وإجماعُ الأُمَّةِ، وآثارُ الصحابةِ رضوان الله عليهم.

وإنما كان الإجماعُ أصلاً لأنَّه يَدُلُّ على السُنَّةِ، وكذلك أقوالُ الصحابةِ؛ لأنَّهم  
 قد شاهدوا الوحيَ والتَّنزيلَ، وأدركوا بقرائنِ الأحوالِ ما غابَ عن غيرهم، وربَّما  
 لا تُحيطُ العباراتُ بما أدركوا بالقرائنِ.

**الضربُ الثاني: الفروعُ**، وهو ما فهم من هذه الأصولِ، لا بموجب ألفاظها،  
 بل بمعانٍ تَنبَهَتْ لها العقولُ، فَاتَّسَعَ بسببها الفهمُ، حتى فهمَ مِنَ اللَّفْظِ المَلْفُوظُ  
 وغيره، كما فهمَ من قوله ﷺ: «لا يَقْضِي القَاضِي وهو غَضْبَانٌ»<sup>(١)</sup> أَنَّهُ لا يَقْضِي  
 حَاقِناً<sup>(٢)</sup> ولا جائعاً.

**الضربُ الثالثُ: المقدماتُ**، وهي التي تجري مَجْرَى الآلاتِ، كعلمِ النحوِ  
 واللغةِ، فإنهما آلةٌ لَعَلِمِ كتابِ اللهِ تعالى وسُنَّةِ رسوله ﷺ.

**الضربُ الرابعُ: المتمماتُ**، وذلك يَنْقَسِمُ في علمِ القرآنِ إلى ما يَتَعَلَّقُ بِاللَّفْظِ،  
 كعلمِ القراءاتِ، ومخارجِ الحروفِ، وإلى ما يَتَعَلَّقُ بِالْمَعْنَى كالتفسيرِ، وإلى ما  
 يَتَعَلَّقُ بِأَحْكَامِهِ، كَمَعْرِفَةِ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ، وَالْعَامِّ وَالْخَاصِّ، وَالنَّصِّ وَالظَّاهِرِ،  
 وَهُوَ الْعِلْمُ الَّذِي يُسَمَّى: أصولَ الفقهِ، وَيَتَنَاوَلُ السُّنَّةَ أَيضاً.

وأما المُتَمِّماتُ في الأخبارِ والآثارِ، فهي: العلمُ بالرجالِ وأسمائهم، وأسماءِ  
 الصحابةِ وصفاتهم، وعدالةِ الرواةِ وأحوالهم، والعلمُ بأعمارهم لَتَمَيِّزِ المُسْنَدِ مِنَ  
 المرسلِ.

فهذه هي العلومُ الشرعيةُ، وكلُّها محمودٌ، بل كُلُّها مِنْ فُرُوضِ الكفایاتِ.

(١) أخرجه البخاري (٧١٥٨)، ومسلم (١٧١٧)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ مَرْفُوعاً، وَلَفْظِ  
 البخاري: «لا يَقْضِيَنَّ حَكْمٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانٌ»، وَلَفْظِ مُسْلِمٍ: «لا يَحْكُمُ أَحَدٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ  
 وَهُوَ غَضْبَانٌ».

(٢) الحاقن: من رَحَمَهُ البَوْلُ أو احتبسَ عليه: «اللسان»: (حقن).

## فَصْلٌ

### [في بيان علم المعاملة]

فأمّا علمُ المعاملة، وهو علمُ أحوالِ القلبِ، كالخوفِ والرجاءِ، والرضا، والصدقِ، والإخلاصِ، إلى غير ذلك فيه ارتفع كبارُ العلماءِ، وبتحقيقه اشتهرت أذكأرُهُم، كسفيانَ، ومالكِ، والشافعيِّ، وأحمدَ رحمهم الله، وسيأتي من أخبارهم في غضونِ كتابنا ما يدلُّ على بلوغهم نهايةَ المعاملة.

وقد أفردتُ لسفيانَ كتاباً كبيراً<sup>(١)</sup>، جمعتُ فيه أخباره وفوائده، وللإمام أحمدَ أيضاً<sup>(٢)</sup>، وذكرْتُ مالكاَ والشافعيَّ<sup>(٣)</sup> في كتابي المسمى بـ «صفة الصفة»، فلتطالع أخبارهم من تلكَ المواضع.

وإنما انحطت رتبُ المُتَسَمِّينَ بالفقهاءِ والعلماءِ عن تلكَ المقاماتِ لتشاغلهم بصُورِ العلمِ من غيرِ أخذٍ على النفسِ أن تبلغَ إلى حقائقه، وتعملَ بحفاياه، وأنت تجدُ الفقيهَ يتكلمُ في اللعانِ، والظهارِ، والسَّبْقِ، والرَّميِّ، ويُفرِّعُ التفرعاتِ التي تَمْضي الدهورُ ولا يُحتاجُ إلى مسألةٍ منها، ولا يتكلمُ في الإخلاصِ، ولا يُحذِرُ مِنَ الرِّياءِ، وهذا فرضٌ عينه الذي في إهماله هلاكُه، والأوَّلُ فرضُ كفايةٍ.

ولو أنه سُئِلَ عن علة تركه المناقشةَ للنفسِ في الإخلاصِ والرياءِ لم يكن له جوابٌ، ولو سُئِلَ عن علة تشاغله بمسائلِ اللعانِ والرَّميِّ لقال: هذا فرضُ كفايةٍ. ولقد صدق، ولكن خفي عليه أن الحسابَ فرضُ كفايةٍ أيضاً، فهلاً تشاغل به؟! وإنما تُبهرجُ<sup>(٤)</sup> عليه النفسُ، لأنَّ مقصودها مِنَ الرِّياءِ والسُّمعةِ يَحْصُلُ بالمناظرةِ لا بالحسابِ.

(١) يعني كتابه: «مناقب سفيان الثوري». انظر «مؤلفات ابن الجوزي» لعبد الحميد العلوجي: ٢٢٦-٢٢٧.

(٢) يعني كتابه: «مناقب الإمام أحمد» وقد طبع بدار هجر في القاهرة سنة ١٤٠٩هـ، ١٩٩٨م، بتحقيق الدكتور عبد الله التركي.

(٣) للمؤلف كتاب بعنوان «مناقب الشافعي». انظر «مؤلفات ابن الجوزي»: ٢٢٤.

(٤) البهرجُ: الباطل والرديء، والبهرجة: أن يعدل بالشيء عن الجادة، أي: أن ينحرف عن الصواب. القاموس واللسان: (بهرج).

## الباب الثالث

فيما يَعُدُّهُ الْعَامَّةُ مِنَ الْعُلُومِ الْمَحْمُودَةِ وَلَيْسَ مِنْهَا فِيهِ بَيَانُ الْوَجْهِ  
الَّذِي يَكُونُ بِهِ بَعْضُ الْعُلُومِ مَذْمُومًا وَبَيَانُ تَبْدِيلِ أَسَامِي الْعُلُومِ وَهِيَ  
الْفَقْهُ وَالْعِلْمُ وَالتَّوْحِيدُ وَالتَّذْكِيرُ وَالْحِكْمَةُ  
وَبَيَانُ الْقَدْرِ الْمَحْمُودِ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْقَدْرِ الْمَذْمُومِ مِنْهَا

اعلم أن العلم لا يُدْمُ لِعَيْنِهِ، إِنَّمَا يُدْمُ فِي حَقِّ النَّاسِ لِأَحَدِ أَسْبَابِ ثَلَاثَةٍ:

الأوَّلُ: أن يكونَ مُؤَدِّيًّا إِلَى ضَرَرٍ، إِمَّا بِصَاحِبِهِ أَوْ بِغَيْرِهِ، كَمَا يُدْمُ عِلْمُ السَّحْرِ  
وَالظَّلْسَمَاتِ، وَقَدْ سَجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَرِضَ بِسَبَبِهِ (١).

وَالسَّحْرُ نَوْعٌ يُسْتَفَادُ مِنَ الْعِلْمِ بِخَوَاصِّ الْجَوْهَرِ بِأُمُورٍ حَسَابِيَّةٍ فِي مَطَالِعِ  
النُّجُومِ، فَيَتَّخَذُ مِنْ تِلْكَ الْجَوْاهِرِ هَيْكَلٌ عَلَى صُورَةِ الشَّخْصِ الْمَسْحُورِ، وَيُتَرَصَّدُ لَهُ  
وَقْتُ مَخْصُوصٌ فِي الْمَطَالِعِ، وَيُقَرَّنُ بِهِ كَلِمَاتٌ يَتَلَفَّظُ بِهَا مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُحْشِ،  
وَيَتَوَسَّلُ بِسَبَبِهَا إِلَى الْإِسْتِعَانَةِ بِالشَّيَاطِينِ، وَيَحْصُلُ مِنْ مَجْمُوعِ ذَلِكَ بِحُكْمِ إِجْرَاءِ اللَّهِ  
سَبْحَانَهُ الْعَادَةِ (٢) أَحْوَالٌ غَرِيبَةٌ فِي الشَّخْصِ الْمَسْحُورِ، فَمَعْرِفَةُ (٣) هَذِهِ الْأَسْبَابِ مِنْ

(١) حَدِيثُ سِحْرِ لَبِيدِ بْنِ الْأَعْصَمِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثٌ صَحِيحٌ، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٧٦٣) وَمُسْلِمٌ (٢١٨٩) وَغَيْرُهُمَا، وَهَذَا الْأَمْرُ لَا يُنَافِي الْعِصْمَةَ كَمَا يَعْتَقِدُ جَهْلَةُ النَّاسِ، بَلْ هُوَ كَأَيِّ مَرِيضٍ، لَمْ يُؤَثِّرْ عَلَى الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَلَا عَلَى قَلْبِهِ وَعَقْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

(٢) مِنْ هُنَا بَدَأَتْ نَسْخَةُ الْمَكْتَبَةِ الظَّاهِرِيَّةِ، وَمَا قَبْلَهُ سَاقِطٌ، ضَاعَتْ أَوْرَاقُهُ بِمَا يَعَادِلُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ وَرَقَةً، فَحَسَبَهُ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ، فَكَتَبَتْ اثْنَتَا عَشْرَةَ وَرَقَةً مِنَ الْإِحْيَاءِ، وَجَعَلَهَا فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ بَدَلَ الْأَوْرَاقِ السَّاقِطَةِ، وَهِيَ مَكْتُوبَةٌ بِخَطِّ مُخْتَلَفٍ وَنَوْعِ الْوَرَقِ مُخْتَلَفٍ أَيْضًا.

(٣) سَقَطَتْ مِنْ (ظ)، وَجَاءَ بَعْدَهَا: (فَهَذِهِ) بَدَلَ: (هَذِهِ).

حيث أنها معرفة ليست مذمومة، ولكنها ليست تصلح إلا للإضرار بالخلق،  
والوسيلة إلى الشرُّ شرٌّ<sup>(١)</sup>، فلذلك وَقَعَ الذمُّ<sup>(٢)</sup>.

والثاني: أن أحكام النجوم تخمينٌ محضٌ، فالْحُكْمُ به حُكْمٌ بجهل، وإنما تقع  
الإصابة اتفاقاً في بعض الأحوال<sup>(٣)</sup>.

والثالث: أنه خوضٌ في فضولٍ لا تُغني، وتَضْيِيعُ العمرِ النفيسِ بغيرِ فائدةٍ.

وأما السببُ الثالثُ في ذمِّ بعضِ العلوم: فهو الخوضُ في علمٍ لا يَسْتَقِلُّ  
الخاصُّ فيه به، كَتَعَلُّمِ<sup>(٤)</sup> دقيقِ العلومِ قبلِ جليِّها، والبحثِ عن أسرارِ الإلهيةِ،  
فإنَّ الفلاسفةَ والمتكلمينَ تطلَّعوا إلى ذلك ولم يَسْتَقِلُّوا به، فيجبُ كُفُّ الناسِ  
عن البحثِ عن ذلك، وردُّهم إلى ما نطقَ الشرعُ به، ففيه مَقْنَعٌ، فكم ممن  
خاضَ في ذلك فاستَصَرَّ، وقد يَضُرُّ العلمُ بعضَ الناسِ، كما يَضُرُّ اللحمُ الطفلَ  
الصغيرَ<sup>(٥)</sup>، فاقْتَصِرْ على اتِّباعِ السنَّةِ، واحذِرْ من البحثِ عما لا تُؤمِّنُ عاقبَةُ  
البحثِ فيه<sup>(٦)</sup>.

واعلم أن الأنبياءَ كالأطباءِ، وهم أعرَفُ بالدواءِ، ورَبُّ شاكٍ إلى الطبيبِ مَرَضٌ  
يده اليمنى وصفَ له أن يعالج اليدَ الأخرى، فاستَبَعَدَ ذلك لجهله بانشعابِ

(١) سقطت من (ظ).

(٢) جمهور العلماء على تحريم تَعَلُّمِ السحر، أما ما هو مشتهر على ألسنة الناس «تعلموا  
السحر ولا تعملوا به» فهو حديث باطل لا أصل له، وهو كذب وافتراء على رسول الله ﷺ  
بل الصحيح حديث رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله والسحر»  
الحديث أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

(٣) ومثل هذا ما هو منتشر بين الجهلة من الناس من سماع وقراءة الأبراج من وسائل الإعلام،  
وهذه بدعة قبيحة منكرة، يصدق عليها حديث رسول الله ﷺ: «من أتى كاهناً أو عَرِافاً  
فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» وهذا حديث صحيح، أخرجه أحمد في  
المسند ٢ / ٤٢٩، ورجاله رجال الشيخين. وانظر البخاري (٥٧٦٢)، ومسلم (٢٢٢٨).

(٤) كذا في (ظ) والإحياء، وفي الأصل: «كتعليم».

(٥) سقطت من (ظ).

(٦) كذا في (ظ)، وفي الأصل: «عنه».

الأعصابِ ومنابتها<sup>(١)</sup>، فكَذَلِكَ أُمُورُ الْعَقَائِدِ وَالْآخِرَةِ، فِيهَا لَطَائِفٌ لَيْسَ فِي قُوَّةِ الْعَقْلِ الْإِحَاطَةُ بِهَا، كَمَا أَنَّ فِي خَوَاصِّ الْأَحْجَارِ أُمُورًا خَفِيًّا عِلْمُهَا عَلَى<sup>(٢)</sup> أَرْبَابِ الصَّنَاعَةِ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ<sup>(٣)</sup> مِنْهُمْ السَّبَبَ الَّذِي بِهِ يَجْذِبُ الْمَغْنَطِيسُ الْحَدِيدَ، فَلِيَكْفِكَ مِنْ مَنفَعَةِ الْعَقْلِ أَنْ يَدُلَّكَ عَلَى صَدَقِ الرَّسُولِ ﷺ، وَيُفَهِّمَكَ مَوَارِدَ إِشَارَاتِهِ، ثُمَّ اعْزَلْهُ عَنِ التَّصَرُّفِ<sup>(٤)</sup>، وَلَا زِمِ الْإِتِّبَاعَ تَسْلَمَ.

### بيان ما بُدِّلَ من ألفاظِ العلوم

اعلم أن مَنْشَأَ التَّبَاسِ الْعِلْمِ الْمَذْمُومَةِ بِالْعِلْمِ الشَّرْعِيَّةِ تَحْرِيفُ الْأَسْمَاءِ الْمَحْمُودَةِ وَتَبْدِيلُهَا، وَنَقْلُهَا بِالْأَغْرَاضِ الْفَاسِدَةِ إِلَى مَعَانٍ لَمْ يُرْذَها السَّلْفُ الصَّالِحُ، وَهِيَ خَمْسَةُ أَلْفَافٍ: الْفِقْهُ وَالْعِلْمُ وَالتَّوْحِيدُ وَالتَّذْكِيرُ وَالحِكْمَةُ.

أَمَّا الْفِقْهُ فَإِنَّهُمْ تَصَرَّفُوا فِيهِ بِالتَّخْصِيصِ لَا بِالنَّقْلِ، فَخَصُّوه بِمَعْرِفَةِ الْفُرُوعِ وَعَلَلِهَا، وَلَقَدْ كَانَ اسْمُ الْفِقْهِ فِي الْعَصْرِ الْأَوَّلِ مُطْلَقًا عَلَى عِلْمِ طَرِيقِ الْآخِرَةِ، وَمَعْرِفَةِ دَقَائِقِ آفَاتِ النُّفُوسِ وَمُفْسِدَاتِ الْأَعْمَالِ، وَقُوَّةِ الْإِحَاطَةِ بِحَقَارَةِ الدُّنْيَا، وَشِدَّةِ التَّلَطُّعِ إِلَى نَعِيمِ الْآخِرَةِ، وَاسْتِيْلَاءِ الْخَوْفِ عَلَى الْقَلْبِ، وَيَدُلُّكَ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَنَّفَقَهُوْا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وَإِنَّمَا يَحْصُلُ<sup>(٥)</sup> الْإِنْدَارُ بِمَا ذَكَرْنَا.

وَقَدْ سُئِلَ سَعْدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ<sup>(٦)</sup>: أَيُّ أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَفْقَهُ؟ فَقَالَ: أَتَقَاهُمْ. وَقَالَ الْحَسَنُ<sup>(٧)</sup>: إِنَّمَا الْفَقِيهُ الزَّاهِدُ فِي الدُّنْيَا، الرَّاغِبُ فِي الْآخِرَةِ، الْبَصِيرُ بِدِينِهِ،

(١) كذا في الأصل والإحياء، وفي (ظ): (مبانيها).

(٢) في (ظ): «عن».

(٣) كذا في (ظ) والإحياء، وفي الأصل: «واحد».

(٤) في (ظ): «النظر».

(٥) في (ظ): «الأصل».

(٦) هو سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، تابعي جليل، توفي سنة ١٢٥ هـ. «سير

أعلام النبلاء» ٥/ ٤١٨.

(٧) يعني الحسن البصري.

المدائم على عبادة ربه، الورع، الكاف عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لهم.

قُلْتُ<sup>(١)</sup>: ولسنا نعني أن اسمَ الفقه لم يكن مبتناوياً للفتاوي، ولكن كان بطريق العموم والشمول والاستتباع، وكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر، فبان من هذا التخصيص تلبيس بعث الناس على التجرد<sup>(٢)</sup> لعلم الفتاوى الظاهرة، والإعراض عن علم المعاملة للآخرة.

اللفظ الثاني: العلم، وقد كان ذلك<sup>(٣)</sup> يُطلق على العلم بالله تعالى وبآياته، وأفعاله في عباده، فخصَّصوه، وسَمَّوا به في الغالب المناظر في مسائل الفقه، وإن كان جاهلاً بالتفسير والأخبار.

اللفظ الثالث: التوحيد، وقد كان ذلك إشارة إلى أن ترى الأمور كلها من الله رؤية تقطع الالتفات إلى الأسباب والوسائط، فيثمر ذلك التوكل والرضا، وقد جعل الآن عبارة عن صناعة<sup>(٤)</sup> الكلام في الأصول، وذلك من المنكرات عند السلف.

اللفظ الرابع: الذكر والتذكير، وقد قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقال ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا» قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «مجالس الذكر»<sup>(٥)</sup>.

فنقلوا ذلك إلى القصص وما يحتوي عليه اليوم مجلس القاص من الشطح<sup>(٦)</sup>

(١) في (ظ): «قال المصنف».

(٢) تجرد للأمر: جد فيه وتفرغ له دون غيره.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) في (ظ): «صياغة».

(٥) أخرجه أحمد ٣/ ١٥٠، والترمذي (٣٥١٠)، وأبو يعلى (٣٤٤٢) من حديث أنس، وقال الترمذي حديث حسن غريب. وأخرجه الحاكم ١/ ٤٩٤ من حديث جابر، والطبراني في (الكبير) (١١١٥٨) من حديث ابن عباس، فالحديث حسن بشواهده.

(٦) الشطح: هو كلام غير متزن، فيه رائحة رعونة ودعوى، يصدر في حال اضطراب، لا مساع له في الشريعة، فلا يقبل بحال؛ لأنه صادر ممن لا عصمة له، ولأن ظاهره مخالف

والطامات. وقد جمعتُ كتاباً في القُصَّاص والمُذَكِّرين<sup>(١)</sup>، وذكرْتُ المحمودَ والمذمومَ هنالك، إلَّا أنني أُشيرُ هاهنا إلى ذلك، فأقول:

مَنْ تشاغل بقصصِ الأوَّلِين في مجلسٍ وعظه، فليعلم أن أكثرَ ما يُحكى في ذلك لا يثبت، كما ينقلون أن يوسف عليه السلام حلَّ تِكَّتَه<sup>(٢)</sup>، وأنه رأى يعقوب عليه السلام عاصباً على يده، وأن داود عليه السلام بَدَّرَقَ<sup>(٣)</sup> بأورِيَاءَ حتى قُتِلَ<sup>(٤)</sup>، ومثُلُ هذا يَضُرُّ<sup>(٥)</sup> سماعه، وإن كانت تلك القِصَّةُ<sup>(٦)</sup> من مجاهدات الرُّهبان فأكثرُ ما ينقل عنهم لا يجوز في شرعنا، فيستضرُّ العاميُّ بسماعِ ذلك؛ لأنَّه يُظنُّ أن مثلَ ذلك يُحتذى، كما يروى أن بعضهم ثقب تَرْفُوتَهُ<sup>(٧)</sup>.

وأما الشُّطْحُ والطَّاماتُ فمن أشدِّ ما يؤذي العوام؛ لأنها تشتملُ على ذِكْرِ المحبةِ والوِصالِ، وألمِ الفِراقِ، وعامةِ الحاضرينَ أَجْلافٌ، وبواطنهم محشوَّةٌ بالشَّهواتِ، وقلوبهم ممتلئةٌ بحبِّ الصورِ، فلا يُحرِّكُ ذلك من قلوبهم إلَّا ما هو مُستَكْبِرٌ فيها، فتشتعلُ فيها نارُ الشَّهوةِ، فيصيحون، وكلُّ ذلك فسادٌ، وربما احتوى الشُّطْحُ على الدعاوى العريضة في محبةِ الله عزَّ وجلَّ، وربما استشهدوا بقول أبي

= للشريعة، ولم يذكر هذا اللفظ أئمة اللغة في كتبهم، والظاهر أنها لفظة عامية. «تاج العروس»، و«كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم»: (شطح).

(١) هو كتاب «القُصَّاص والمُذَكِّرين» صدر عن المكتب الإسلامي، بتحقيق د. محمد لطفني الصبَّاح.

(٢) التَّكَّةُ: بكسر التاء: رباط السراويل، «القاموس المحيط»: (تك).

(٣) البَدَّرَقَةُ: الحراسة والخفارة، وبَدَّرَقَ بالرجل: أرسله يُقاتل حتى يُقتل. «تاج العروس»: (بدرق).

(٤) يدعي اليهود كذباً أن داود عليه السلام أرسل أورِيَاءَ - أحد قادة جنده - إلى الحرب، وتركه يُقاتل حتى قُتِلَ، ليتزوج زوجته، وهذا من الإسرائيليات الباطلة، التي يجب على المسلم تنزيهُ سمعه عنها.

(٥) في (ظ): «مُضِرٌّ».

(٦) في (ظ): «القضية».

(٧) التَّرْفُوتَةُ: بفتح التاء ليس غير، وهو العظم بين ثُعْرَةَ النحر والعاتق، والجمع: تراقي وترايق، «القاموس المحيط»: (ترق).

يزيد<sup>(١)</sup>: سبحاني. وبقول الحلاج<sup>(٢)</sup>: أنا الحق. وهذا فنُّ عَظْمِ ضرره، حتى ترك جماعة من الفلاحين فلاحتهم، وأظهروا مثل هذه الدعاوي.

اللفظ الخامس: الحكمة، والحكمة: العلم والعمل به. قال ابن قتيبة<sup>(٣)</sup> رحمه الله: لا يكون الرجل حكيماً حتى يجمع العلم والعمل. وقد صار هذا الاسم يُطلق على الطيب والمنجم.

### بيان القدر المحمود من العلوم المحمود

اعلم أن العلم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام:

- ١- قسم هو<sup>(٤)</sup> مذموم قليله وكثيره.
- ٢- وقسم هو محمود قليله وكثيره، وكلما كان أكثر كان أحسن وأفضل.
- ٣- وقسم يُحمد منه مقدار الكفاية، ولا يُحمد الفاضل عليه والاستقصاء فيه. وهو مثل أحوال البدن، فإن منه ما يُحمد قليله وكثيره، كالصحة والجمال، ومنه ما يُذم قليله وكثيره، كالقبح وسوء الخلق، ومنه ما يُحمد الاقتصاد فيه، كبذل المال،

(١) هو أبو يزيد طيفور بن عيسى السطامي، زاهد متصوف، كان جده مجوسياً فأسلم، قال الذهبي: وردت عنه أشياء مُشكلة لا مساغ لها، فطوى ولا يحتج بها، توفي بسطام سنة ٢٦١هـ. «سير أعلام النبلاء» ١٣ / ٨٦.

(٢) هو حسين بن منصور الحلاج، متألهٌ زنديقٌ، كان يدعي العلم وهو فارغ من ذلك، ادعى النبوة أول أمره، ثم الإلهية، وقال بالحلول، ورجَّح له أهل الضلال والجهلة من الناس، أفتى علماء عصره بقتله بالإجماع لكفره وزندقته، فقبض عليه وسُجن سنة ٣٠١هـ، ثم أمر الخليفة المقتدر بقتله وإحراق جثته، فقطعت يداه ورجلاه، وضربت عنقه، وأُحرقت جثته، ونُصب رأسه على جسر بغداد، وذلك سنة ٣٠٩هـ. وقد صنَّف ابن الجوزي فيه كتاباً بعنوان: «القاطع بمحال المحاج بحال الحلاج». يُنظر سير أعلام النبلاء ١٤ / ٣١٣.

(٣) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، لغويٌ أديب، وعلامةٌ مُصنَّف من أهم كتبه: تأويل مختلف الحديث، أدب الكاتب، أدب القاضي، الشعر والشعراء، عيون الأخبار، وغيرها كثير، توفي سنة ٢٧٦هـ. «سير أعلام النبلاء» ١٣ / ٢٩٦.

(٤) سقطت من الأصل، وأثبتت من (ظ) والإحياء.

فَإِنَّ التَّبْدِيرَ لَا يُحْمَدُ فِيهِ وَهُوَ بَدَلٌ، وَكَالشَّجَاعَةِ، فَإِنَّ التَّهَوُّرَ لَا يُحْمَدُ فِيهَا، وَإِنْ كَانَ مِنْ جِنْسِ الشَّجَاعَةِ، وَكَذَلِكَ الْعِلْمُ.

فالقسم المذموم قليله وكثيره: ما لا فائدة فيه في دينٍ ولا دنيا، أو فيه ضررٌ يغلبُ<sup>(١)</sup> نفعه، كعلم السحرِ والظلمساتِ والنجومِ، فصرفُ العمرِ - الذي هو أنفُس ما يملكه الإنسان - إليه إضاعة، وإضاعة النفائس مذموم.

وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات<sup>(٢)</sup> الاستقصاء: فهو العلم بالله تعالى بصفاته وأفعاله، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فَإِنَّ هَذَا عِلْمٌ مَطْلُوبٌ لِدَاتِهِ، وَلِلتَّوَضُّعِ بِهِ إِلَى سَعَادَةِ الْآخِرَةِ، وَهُوَ الْبَحْرُ الَّذِي لَا يُدْرِكُ غَوْرَهُ<sup>(٣)</sup>، وَإِنَّمَا يَحُومُ الْمُحَوِّمُونَ عَلَى سَوَاحِلِهِ وَأَطْرَافِهِ بِقَدْرٍ مَا يُسَّرُّ لَهُمْ، وَمَا خَاضَ أَطْرَافَهُ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ، وَالْأَوْلِيَاءُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ عَلَى اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهِمْ، بِحَسَبِ اخْتِلَافِ قُوَّتِهِمْ، وَيُعَيَّنُ عَلَى نَيْلِ بَعْضِهِ الْمَجَاهِدَةُ وَالرِّيَاضَةُ، وَتَصْفِيَةُ الْقَلْبِ، وَتَفْرِغُهُ مِنْ عِلَاقِقِ الدُّنْيَا.

وأما العلوم التي لا يُحْمَدُ مِنْهَا إِلَّا مَقْدَارٌ مُخْصِووسٌ: فَهِيَ الْعُلُومُ الَّتِي أوردناها فِي فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ، فَإِنَّ فِي كُلِّ عِلْمٍ مِنْهَا اقْتِصَارًا، وَهُوَ الْأَقْلُ، وَاقْتِصَادًا، وَهُوَ الْوَسْطُ، وَاسْتِقْصَاءً وَرَاءَ الْاِقْتِصَادِ، لَا مَرَدًّا لَهُ إِلَى آخِرِ الْعَمْرِ.

فكُنْ أَحَدَ رَجُلَيْنِ: إِمَّا مُشْغُولًا بِنَفْسِكَ، وَإِمَّا مُتَفَرِّغًا إِلَى غَيْرِكَ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْ نَفْسِكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَشْتَغَلَ بِمَا يُصْلِحُ غَيْرَكَ قَبْلَ إِصْلَاحِ نَفْسِكَ، فَإِنْ كُنْتَ مُشْغُولًا بِنَفْسِكَ، فَلَا تَشْتَغَلَ إِلَّا بِالْعِلْمِ الَّذِي هُوَ فَرَضُ عَيْنِكَ، بِحَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ حَالُكَ، وَانظُرْ فِي الْمَهْمِ الْمَهْمَلِ، وَهُوَ صِفَاتُ الْقَلْبِ وَمَا يُحْمَدُ مِنْهَا وَيُذَمُّ، كَالْحِرْصِ وَالْحَسَدِ وَالرِّيَاءِ وَالْعُجْبِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَكُلُّهَا مَهْلَكَاتٌ، وَالِاسْتِغْثَالُ

(١) بَعْدَهَا فِي (ظ): «عَلَى».

(٢) فِي الْأَصْلِ: «غَايَةً».

(٣) الْغَوْرُ: الْقَعْرُ مِنَ الشَّيْءِ وَعَمَقُهُ وَبُعْدُهُ. «اللِّسَانُ»: (غَوْرًا).

بالأعمال الظاهرة عن إصلاح هذه الأحوال، كطلاء ظاهر البدن عند التأذي بالجرب والدمامل<sup>(١)</sup>، مع التهاون بإخراج المادّة بالفصد<sup>(٢)</sup> والإسهال.

وعلماء الآخرة إنّما يُشيرون إلى تطهير الباطن، وقطع موادّ الشرّ بقلع مغارسه التي في القلب، وإنّما فزع الأكثرين إلى الأعمال الظاهرة، وأعرضوا عن تطهير القلوب لسهولة أعمال الجوارح، وصعوبة أعمال القلوب، كما يختار طليّ البدن من يستصعب شرب الدواء المرّ.

فإن كنت مُريداً للآخرة وطالباً للنّجاة، فانظر إلى العلل الباطنة، وعالجها بما سيأتي في ربيع المهلكات، فحينئذٍ تتأهّل للمقامات المحمودة، وإن لم تتفرّغ لذلك، فلا تشتغل بفروض الكفايات، ففي الخلق خلق كثيرٌ يقومون بذلك، فإن مهلك نفسه في طلب صلاح غيره سفيهٌ، ومثله كمثل من دخلت العقارب تحت ثيابه، وهو يذبّ الذباب عن غيره، وإن تفرغت من نفسك وتطهيرها، وقدّرت على ترك ظاهر الإثم وباطنه - وما أبعد ذلك - فاشتغل بفروض الكفايات، وراع التدرّج في ذلك، فابتدئ بكتاب الله عز وجل، ثم بسنة رسوله ﷺ، ثم بعلوم القرآن من تفسيرٍ، وناسخ ومنسوخ، ومُحكّمٍ ومُتشابه، إلى غير ذلك، وكذلك في السنّة، ثم اشتغل بالفروع، وأصول الفقه، وهكذا إلى بقية العلوم<sup>(٣)</sup>، على ما يتسع له العُمُر، ويُساعد فيه الوقت، ولا تستغرق عُمرك في فنٍّ واحد منه طالباً للاستقصاء، فإنّ العلم كثيرٌ، والعُمُر قصيرٌ، وهذه العلوم آلات، يُراد بها غيرها، وكلُّ شيءٍ يُطلب<sup>(٤)</sup> لغيره، فلا ينبغي أن يُنسى فيه المطلوب، وقد بيّنا: أنه ما من علمٍ إلّا ولّه اقتصار واقتصاد واستقصاء، ونحن نُشير إلى ذلك:

(١) الدماميل: جمع دُمَل ودُمَل، وهي: القروح. «اللسان»: (دمل).

(٢) الفصد: هو إخراج الدم عن طريق شقّ العرق للتداوي. «اللسان»: (فصد).

(٣) في (ظ): «العلم».

(٤) تحرفت في (ظ) إلى: «مطلب».

## بيان الكتب المهمة لطالب العلم

فأما الاقتصار في الأصول: فالاعتمادُ فيه يصلحُ على ما رتّبناه في كتاب: «منتقد المعتقد»<sup>(١)</sup>، وأبسَط<sup>(٢)</sup> منه ما رتّبناه في كتاب: «منهاج الوصول إلى علم الأصول»<sup>(٣)</sup>، ولا يصلح ما يزيد على ذلك.

وأما الاقتصارُ في النحو: فيصلحُ الاعتمادُ<sup>(٤)</sup> فيه على «اللّمع»<sup>(٥)</sup>، وكتابِ الجرمي<sup>(٦)</sup>، وإذا اتّسعَ الزمانُ لما يزيدُ على ذلك من الكتبِ التي هي أكثرُ من ذلك، فلا بأس.

وأما اللغة: فينبغي الاعتمادُ منها على معرفة ما في كتاب الله عز وجل، وسُنّة رسوله ﷺ، وكلام السلف، ويكفي في ذلك كتاب: «الغريبين»<sup>(٧)</sup> للهروي<sup>(٨)</sup>.

(١) كتاب «منتقد المعتقد»: هو جزء في علم أصول الفقه للمصنف، ذكره سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان»، وابن رجب الحنبلي في «الذيل على طبقات الحنابلة»، وانظر «مؤلفات ابن الجوزي»: (٥٠٢).

(٢) في (ظ): «أوسط».

(٣) كتاب «منهاج الوصول» ذكره سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان»، وابن رجب في «الذيل»، والذهبي في «تاريخ الإسلام»، وحاجي خليفة في «كشف الظنون»، وانظر «مؤلفات ابن الجوزي».

(٤) في (ظ): «الاقتصار».

(٥) هو كتاب «اللّمع في العربية»، ومؤلفه: أبو الفتح عثمان بن جني، من أحذق أئمة العربية في النحو والأدب والتصريف، مولده بالموصل قبل ٣٣٠هـ، توفي ببغداد سنة ٣٩٢هـ. سير أعلام النبلاء ١٧/١٧، ومعجم الأدباء ٤/ ٣٨١.

(٦) هو كتاب «مقدمة في النحو» ويعرف بالمختصر، كان الجرمي كلما صنف منه باباً صلى ركعتين بالمقام، ودعا بأن يُنتفعَ به. والجرمي هو: أبو عمر صالح بن إسحاق البصري النحوي. من كبار علماء العربية، من كتبه: شرح غريب سيوييه، الأبنية، العروض، السّير، القوافي، التثنية والجمع، التنبيه في النحو، توفي سنة ٢٢٥هـ: «سير أعلام النبلاء» ١٠/ ٥٦١.

(٧) هما كتاب: «غريب القرآن» و«غريب الحديث».

(٨) هو: أبو عُبيد القاسم بن سَلّام الهروي، من رؤوس اللغة والحديث والفقه في عصره، من

ومما يُفْتَقَرُّ إلى معرفته في الكلام الدائر بين الناس كتاب: «إصلاح المنطق»<sup>(١)</sup>، و«أدب الكاتب»<sup>(٢)</sup>، و«معرفة ما يلحن فيه العوام»<sup>(٣)</sup>، وفي كتابنا المسمى بـ «تقويم اللسان»<sup>(٤)</sup> كفاية في ذلك.

وأما الاقتصار في التفسير، فيصلحُ الاعتمادُ<sup>(٥)</sup> فيه على كتابنا المسمى بـ «تذكرة الأريب في غريب الغريب»<sup>(٦)</sup>، وأما الاقتصادُ فيه فيصلحُ الاعتمادُ فيه<sup>(٥)</sup> على كتابنا المسمى بـ «زاد المسير في علم التفسير»<sup>(٧)</sup>، وأما الاستقصاء فيه، فيصلحُ الاعتمادُ فيه<sup>(٨)</sup>

= كتبه: «الطهور»، و«الأمثال»، و«الأموال»، وغيرها، توفي سنة ٢٢٤هـ. «سير أعلام النبلاء» ٤٩٠/١٠.

(١) كتاب «إصلاح المنطق» هو لابن السكّيت، طبع في دار المعارف (مصر)، بتحقيق الأستاذين أحمد شاکر وعبد السلام هارون، وابن السكّيت هو: أبو يوسف، يعقوب بن إسحاق البغدادي النحوي، إمامُ حجةٍ في العربية، من كتبه: «الألفاظ»، «الأضداد»، «القلب والإبدال»، «الأجناس»، توفي سنة ٢٢٤هـ. «سير أعلام النبلاء» ٩٦/١٢.

(٢) كتاب «أدب الكاتب» هو لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، طبع في مؤسسة الرسالة بتحقيق الدكتور محمد الدالي.

(٣) كتاب «معرفة ما يلحن فيه العوام» هو لأبي الحسين علي بن حمزة الكسائي، نشرته مكتبة الخانجي بتحقيق رمضان عبد التواب.

وفي هذا الباب كتب منها: «خطأ العوام» للجواليقي، و«لحن العوام» لأبي بكر الزبيدي، ولابن الجوزي «غلطات العوام» منه نسخة مخطوطة في مكتبة يحيى أفندي (استنبول) برقم (٤٣٩)، وله «ما يلحن فيه العامة» منه نسخة مخطوطة في مكتبة جامعة برنستون (أمريكا) برقم (٢٧٤٥).

(٤) كتاب: «تقويم اللسان» طبع بدار المعرفة بالقاهرة، بتحقيق عبد العزيز مطر، ولابن الجوزي كتاب آخر بعنوان: «تقويم اللغة»، وانظر «مؤلفات ابن الجوزي»: (١٠٠) و(١٠١).

(٥-٥) سقط من (ظ).

(٦) هذا الكتاب طبع بعنوان: «تذكرة الأريب في تفسير الغريب» بدار المعارف (الرياض) بتحقيق علي حسين البواب، وانظر «مؤلفات ابن الجوزي» فله أسماءٌ أُخرى.

(٧) كتاب «زاد المسير» صدر عن المكتب الإسلامي في تسعة أجزاء محققاً، سنة ١٣٨٤هـ.

(٨) سقطت من (ظ).

على كتابنا المسمى بـ «المغني في التفسير»<sup>(١)</sup>، وما وراء ذلك لا مُتَّهَى له .

وأما الحديث: فاعتمد على الصَّحِيحَيْن، وقد لَحِصَ متونَهُمَا أبو عبد الله الحُمَيْدِي<sup>(٢)</sup> فأحسن، وقد فسرناهما في كتابنا المسمى بـ «الكشف لمشكل الصحيحين»<sup>(٣)</sup>، فإن شئتَ أن تُضَيَّفَ إلى ذلك زيادةً ففي كتابنا المسمى<sup>(٤)</sup> بـ «الحدائق»<sup>(٥)</sup> مقصودك، وإذا أردتَ الزيادة فطالع مسند الإمام أحمد<sup>(٦)</sup> رحمه الله، وسُنن أبي داود رحمه الله،<sup>(٧)</sup> وكتابنا الجامع للمسانيد<sup>(٨)</sup> عَلاَّه يَغْنِي عن غيره،<sup>(٧)</sup> وأما

- (١) كتاب «المغني في التفسير» ذكره ابن الجوزي في «القصاص والمذكرين» وابن رجب في «الذيل على الطبقات» والذهبي في «تاريخ الإسلام»، وانظر «مؤلفات ابن الجوزي»: (٤٥٣).
- (٢) هو: أبو عبد الله محمد بن قُتُوح بن عبد الله الأزدي الحميدي، الإمام الحافظ، من كتبه: «الذهب المسبوك في وعظ الملوك»، و«تسهيل السبيل إلى علم الترسيل» و«تفسير غريب ما في الصحيحين» توفي ببغداد سنة ٤٨٨ هـ. «سير أعلام النبلاء» ١٩ / ١٢٠.
- أما كتابه الذي أشار إليه المصنف فهو: «الجمع بين الصحيحين» رتبه مؤلفه على المسانيد لتسهيل مراجعة الطرق، وقد صدر عن دار ابن حزم في أربع مجلدات، بتحقيق: علي حسين البواب. وممن صنف في الجمع بين الصحيحين: أبو الفضائل الصاغاني، وأبو حفص عمر الموصلي.
- (٣) كتاب «الكشف لمشكل الصحيحين» صدر عن دار الحديث بتحقيق د. مصطفى الذهبي، وقد رتبه محققه على صحيح البخاري، وهذا أنفع، وكان مؤلفه قد رتبه على المسانيد.
- (٤) سقطت من (ظ).
- (٥) كتاب «الحدائق» صدر عن دار الكتب العلمية بتحقيق مصطفى السبكي، وتوجد نسخة منه مخطوطة في مكتبة بايزيد خان في استنبول، وانظر (مؤلفات ابن الجوزي): (١٢٨).
- (٦) صدر «مسند الإمام أحمد» عن مؤسسة الرسالة مؤخراً في طبعه جديدة في (٥٠) جزءاً بتحقيق عدد من الأساتذة وإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، وقد حُققت هذه الطبعة تحقيقاً علمياً من حيث ضبط النص، والحكم على الحديث، وجمع طرقه، وبيان علله وكشف مُشكله، وحلُّ مُعضلاته، وأُتبعت بفهارس علمية كثيرة تجعل المسند داني الجنى لكل طالب علم. ومن فضل الله عليَّ أني كنت من المشاركين في تحقيق هذا السُفر العظيم.
- (٧-٧) سقط من (ظ).

(٨) هو كتاب «الجامع للمسانيد بالخص الأسانيد» ذكره ابن الجوزي في كتاب: «القصاص والمذكرين»، وابن رجب في «الذيل على طبقات الحنابلة»، وسيط ابن الجوزي في «مرآة الزمان»، وورد في (فهرست كتب ابن الجوزي): أنه استوعب غالب مسند أحمد

الاستقصاء فهو الذي لا يسعه العمر، من معرفة الرجال وأسمائهم، وجرحهم وتعديلهم، واستيعاب الطرق<sup>(١)</sup>، وكل ذلك فضيلة في حق كل شخص، ولو أن العمر يتسع كنا أمرنا بالاقتصاد في شيء من هذه العلوم؛ لأن الزيادة فيها مطلوبة، غير أن العمر يضيق، فمتى صح التزُّيد مع إحكام الأصول المتعلقة بتهذيب النفس، فذلك الغاية.

وأما الفقه: فالإقتصار فيه على كتابنا المسمى بـ «أسباب الهداية لأرباب البداية»<sup>(٢)</sup>، فإننا قد أشرنا فيه إلى العبادات الخمس<sup>(٣)</sup>، فمن أراد الاطلاع على ما يزيد على ذلك، فكتابنا المسمى بـ «المُدَّهَبُ فِي المَذْهَبِ»<sup>(٥)</sup>، فمن أراد الاطلاع على ما يزيد على ذلك، فكتاب الخِرَقِي<sup>(٧)</sup>، فإن أراد أكثر من ذلك فكتاب «الهداية»<sup>(٨)</sup> لأبي الخطاب<sup>(٤)</sup>، ومن طلب الاستقصاء فعليه بكتاب

= والصحيحين وجامع الترمذي، ومنه نسخة مخطوطة في جامعة الدول العربية. انظر (مؤلفات ابن الجوزي): (١١٢) و(١١٣).

(١) من الكتب التي تختص بها: «تهذيب الكمال» للمزي، و«الجرح والتعديل» للرازي، و«ميزان الاعتدال» للذهبي، و«لسان الميزان» لابن حجر، و«التاريخ الكبير» و«الأوسط» للبخاري، وكتب الضعفاء وغيرها.

(٢) كتاب «أسباب الهداية» ذكره سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان» وابن رجب في «الذيل على طبقات الحنابلة»، والذهبي في «تاريخ الإسلام». انظر «مؤلفات ابن الجوزي»: (٣١).

(٣) سقطت من الأصل.

(٤-٤) سقط من (ظ).

(٥) كتاب «المُدَّهَبُ فِي المَذْهَبِ» ذكره سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان»، وابن رجب في «الذيل»، والذهبي في «تاريخ الإسلام»، وانظر «مؤلفات ابن الجوزي»: (٤٢٠).

(٦) سقط من الأصل.

(٧) هو الكتاب المشهور بـ (مختصر الخرقى) صدر عن المكتب الإسلامي بتحقيق الأستاذ زهير شايوش، وللكتاب شروح من أجلها: (المغني) لابن قدامة، صدر عن دار هجر بتحقيق د. عبد الله التركي.

أما الخِرَقِي فهو: أبو القاسم عمر بن الحسين بن عبد الله البغدادي الخِرَقِي الحنبلي، من كبار شيوخ الحنابلة، من أهل بغداد، ونسبته إلى بيع الثياب والخِرَق، تفقه بوالده، وأكثر التصنيف، رحل عن بغداد لما ظهر فيها سب الصحابة، وأودع كتبه داراً فاحترقت، بقي من كتبه «المختصر»، قدم دمشق وتوفي فيها سنة ٣٣٤هـ، ودُفِن في مقبرة الباب الصغير. «تاريخ بغداد» ١١ / ٢٣٤، و«سير أعلام النبلاء» ١٥ / ٣٦٣.

(٨) كتاب «الهداية» في الفروع، ذكره حاجي خليفة في (كشف الظنون) ٢ / ٢٠٣١، والذهبي

«الفصول»<sup>(١)</sup> لابن عقيل رحمه الله .

وأما علم الخلاف والمناظرة فقد رتبنا فيه كتباً منها (جُنة النظر)<sup>(٢)</sup>، ومنها «الدلائل الزواهر في المسائل الظواهر»<sup>(٣)</sup>، فمن حسن قصده لمعرفة الدليل فلا بأس له بالمناظرة، وقد كان السلف رضي الله عنهم يقصدون بالنظر استخراج الحق والاطلاع على علل الشرع، فأحدث المتأخرون الجدل<sup>(٤)</sup> الذي يبعد عن ذوق الفقه، ويخرج إلى المناقشة والمباهاة.

= في «السير» ١٩ / ٣٤٩، وإسماعيل البغدادي في «هدية العارفين» ٦ / ٦، ومصنفه هو أبو الخطاب محفوظ بن أحمد بن الحسن الكلوذاني البغدادي شيخ الحنابلة في عصره، صنّف: التمهيد، والانتصار، وعقيدة أهل الأثر، توفي ببغداد سنة (٥١٠هـ). «سير أعلام النبلاء» ١٩ / ٣٤٨.

(١) كتاب «الفصول» ذكره إسماعيل البغدادي في «هدية العارفين» ٥ / ٦٩٥، وابن رجب في «الذيل» ترجمة (٦٦)، وتوجد قطعة منه في مكتبة الأسد بدمشق برقم (٢٧٥٢)، ومصنفه هو: أبو الوفاء علي بن عقيل البغدادي الظفري شيخ الحنابلة في وقته، من تصانيفه كتاب «الفنون»، و«الواضح» في أصول الفقه، والجدل وغيرها، توفي سنة (٥١٣هـ)، «سير أعلام النبلاء» ١٩ / ٤٤٣.

(٢) كتاب «جنة النظر» ذكره ابن رجب في «الذيل» والبغدادي في «هدية العارفين»، وانظر «مؤلفات ابن الجوزي»: (١٢٠).

(٣) لم نقف عليه بهذا الاسم، لكن ورد في «تذكرة الحفاظ» للذهبي «الدلائل في منشور المسائل»، وفي «الوافي بالوفيات» للصفدي: «الدلائل في مشتبهِ المسائل» وفي «مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي: «الدلائل في مشهور المسائل». وينظر «مؤلفات ابن الجوزي»: (١٥٠) و(١٧٧).

(٤) الجدل: طريقة في المناقشة والاستدلال صورها الفلاسفة بصورٍ مختلفة وهو عند مناطق المسلمين: قياس مؤلف من مشهوراتٍ أو مُسلّمات. وقد صنّف فيه مصنّفات عدة، منها: كتاب «الجدل على طريقة الفقهاء»، لابن عقيل البغدادي، وكتاب «علم الجدل في علم الجدل» للطوفي، و«الكافية في الجدل» للجويني.

## الباب الرابع

### في سبب إقبال الناس على علم الخلاف وتفصيل آفات المناظرة والجدل، وشروط إباحتها

لما تولّى الخلافة بعد رسول الله ﷺ الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم، وكانوا أئمة علماء بالله، فقهاء في أحكام شرعه، فلم يحتاجوا إلى الاستعانة بالفقهاء إلا على سبيل الندور، في وقائع لا يُستغنى فيها عن المشاورة، فَتَفَرَّغَ العلماء لعلم الآخرة، وَتَجَرَّدُوا لها، وكانوا يتدافعون الفتوى.

فلما صارت السُّلْطَنَةُ إلى أقوام يفتقرون إلى الفقهاء، طلبوا الفقهاء، وكان قد بقي من التابعين مَنْ هو مُسْتَمِرٌّ على الطريق الأوَّل، فكانوا يهربون منهم، فاشتغل أقوامٌ بالفقه - إذ رأوا عِزَّةَ أهله - لإدراك الجاه، وتحصيل الدنيا، وطلب الولايات، ثم مالَ بعضُ السلاطين إلى الكلام في المعتقدات، فاشتغل الناسُ بعلم الكلام، وَصَنَّفُوا فيه، وزعموا: إنَّ غرضنا الذبُّ عن دين الله.

ثمَّ ظهرَ من السلاطين مَنْ لم يَسْتَضِوِبِ الخوضَ في الأصول، واستحسنَ النظرَ في الفقه، فاشتغلَ الناسُ بمسائل الخلاف بين أبي حنيفة والشافعي، وأعرضوا عن الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله.

وزعموا أنَّ غرضهم استنباط دقائق الشرع، وتقرير علل المذهب، ورتَّبوا<sup>(١)</sup> أنواعَ المجادلات، والله أعلم بالضمائر، وعليها يُجازي، ومن هذا الجنس مِيلُ أكثرِ الناسِ إلى الوعظ لاستجلابِ العوامِ بما يُميلُهم، و«إنما الأعمال بالنيات»<sup>(٢)</sup>.

(١) في (ظ): «وزينوا».

(٢) أخرجه البخاري(١)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر رضي الله عنه.

## بيان التلبيس

في تشبيه هذه المناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات<sup>(١)</sup> السلف

أما التعاونُ على طلبِ الحقِّ فَمِنَ الدينِ، إلَّا أنَّ له علاماتٍ، منها:

أن لا يشتغلَ بالمناظرة - التي هي من فروضِ الكفايات - من لم يتفرَّغَ مِن فروضِ الأعيانِ، فإنَّه إن فعلَ ذلكَ وزعمَ أنَّ مقصودهَ الحقُّ، فهو كاذبٌ، ويكونُ كمن يتركُ الصلاةَ ثم ينسُجُ الثيابَ ويتَّجِرُ فيها، ويزعمُ أنَّ غرضه من ذلك سترُ عورةٍ من يُصلي عُرياناً ولا يجدُ ثوباً، أو كمن توجَّهَ عليه ردُّ ودِيعَةٍ في الحالِ، فقام يُحرِّمُ بالصلاةَ فإنَّه لا يجوزُ له.

ومنه أن يقصدَ الحقَّ لا الغلبةَ.

ويُذعنُ للصوابِ.

وأن تكونَ المناظرةُ في الخلوةِ أحبَّ إليه من المناظرةِ في المحافلِ، وللأكابرِ الذين يُستفادُ منهم، لا لِمَن يُظنُّ به العجزُ فينقطعُ.

ولا يَمنعُ مناظرةً مِن الانتقالِ عن دليلٍ إلى دليلٍ، إن كان المقصودُ إصابةَ الصوابِ.

وأكثرُ المجالسِ اليومَ تنقضي في المدافعاتِ والمجادلاتِ، حتى إنَّ المستدلَّ يقيسُ على أصلٍ بعلَّةٍ يظنُّها، فيقالُ له: وما الدليلُ على أنَّ الحكمَ في الأصلِ معلَّلٌ بهذه العلة؟ فيقولُ: هذا<sup>(٢)</sup> الذي ظهر لي، فإنَّ ظهر لك ما هو أوضحُ من هذا فادُّكره لي حتى أنظرَ فيه. فيقولُ المعارضُ: فيه معانٍ غير ما ذكرتَ، ولا أدُّكره لك، ولا يلزمُني دُّكره. فإنَّ كان لا يعرفُ معنىً فقد كذب بدعواه: «أني أعرف<sup>(٣)</sup>، وإن كان صادقاً فقد أخفى ما علِّمه<sup>(٤)</sup>» من أمرِ الشرعِ عن أخيه المسلمِ، «ومَن كَتَمَ

(١) في (ظ): «ومشاورات».

(٢) في (ظ): «هو».

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) في (ظ): «عرفه».

علماً عَلِمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلْجَامٍ مِنْ نَارٍ»<sup>(١)</sup>. وإنما يريد بقوله: لا يلزمني ذكره. أي: في شرع الجدل الذي ابتدَعناه.

فأما مناظراتُ السلفِ فليسَ فيها من هذا الجنس، بل كانوا ينتقلون من دليلٍ إلى دليلٍ، ويذكرونَ كُلَّ ما يَخْطُرُ لهم.

## فصل

### في بيان آفات المناظرة ومذموم أخلاق المناظر

واعلم أنَّ المناظرةَ الموضوعَةَ لقصدِ العَلْبَةِ والمباهاةِ منبعُ الأخلاقِ<sup>(٢)</sup> المذمومة، ولا يَسْلَمُ صاحبُ هذه المناظرةِ من كِبيرِ لاحتقارِ المقصِّرينِ عنه، وعُجْبِ بنفسِه لارتفاعِه على كثيرٍ من نظرائِه، وحَسَدِ لمن هو أنظَرُ منه، وحقْدِ على مناظرِه إذا أحسَّ منه بِقَلَّةِ مبالاةِ بكلامِه، وغيبَةِ يحكي بها مِنْ كلامِ مُناظرِه ما يَدُلُّ على قصوره. فإن كَذَبَ عليه فبهتان، وكراهيةَ لظهورِ الحقِّ على لسانِ خصمِه. وقد قال الشافعي رحمه الله: ما ناظرني أحدٌ فباليْتُ مع أيُّنا كانت الحجة، فإن<sup>(٣)</sup> كانت معه صرْتُ إليه<sup>(٤)</sup>.

ومكابرة<sup>(٥)</sup> على الحقِّ بعد وضوحه، قال الشافعي رحمه الله: ما قَبِلَ أحدٌ مني الحُجَّةَ إلا عَظَّم في عيني، ولا دَفَعَهَا إلا هانَ عندي.

ورياء<sup>(٦)</sup>؛ لأن جمهورَ مقصودِ المناظرِ اليومَ عِلْمُ الناسِ بغلبته، وانطلاقُ

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦١) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وروي عن عبد الله بن عمرو، وابن عمر، وابن عباس، وابن مسعود، وأبي سعيد الخدري، وعمرو بن عبسة، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك وطلق بن علي رضي الله عنهم، ولا يخلو إسنادُ واحدٍ منهم من مقال، وأجودها حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (ظ): «للأخلاق».

(٣) في (ظ): «إن».

(٤) «مناقب الشافعي» للبيهقي ١/١٧٣.

(٥) في (ظ): «ولا أكابره».

(٦) في (ظ): «ثم لا يسلم من رياء الخلق».

ألسنتهم بشكره<sup>(١)</sup> ومدحه، فهو يُذهبُ عُمره في العلوم التي تُعينُ على المناظرة، مما لا ينفع في الآخرة، كتحسين<sup>(٢)</sup> اللفظ، وحفظ النوادر.

وتزكية النفس بمدح كلامها، وفرح بمساءة خصمه، فأين الإخاء المنعقد بالعلم بين أهله؟!

قال الشافعي رحمه الله: العلم<sup>(٣)</sup> بين أهل العقلِ رحمٌ متصل.

وكان الإمامُ أحمد رحمه الله يقول لابن الشافعي<sup>(٤)</sup> رحمه الله: أبوك من الستة الذين أدعو لهم وقت السحر<sup>(٥)</sup>.

وهذه الرذائلُ لا يكادُ المناظرُ يخلو من بعضها، وإنما غايةُ العاقلِ منهم أن يجاهدَ النفسَ في الحاصلِ منها.

فأما الرِّعاع<sup>(٦)</sup> من المناظرين فربما خَرَجوا إلى المجادلة<sup>(٧)</sup> عن المجادلة.

وهذه الآفاتُ المذكورةُ للواعظِ أيضاً، ولكلِّ من يَطْلُبُ علماً، إلا من وفقه الله لِحُسْنِ قَصْدِهِ، وقد قال النبي ﷺ: «أشدُّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ عالمٌ لا يَنْفَعُهُ اللهُ بعلمه»<sup>(٨)</sup>.

(١) في (ظ): «بكثره».

(٢) في (ظ): «لتحسين».

(٣) سقطت من (ظ).

(٤) هو محمد ابن الشافعي رحمهما الله، أكبر أولاد الشافعي، كان من أهل العلم، وتولى القضاء بالجزيرة وأعمالها، توفي فيها بعد سنة (٢٤٠ هـ). «طبقات الشافعية» للسبكي ٧١/٢.

(٥) أخرجه السبكي في «طبقات الشافعية» ٧٢/٢.

(٦) الرِّعاع هم سفلة الناس وسُقَاطهم وَعَوَاظهم: «اللسان»: (ررع).

(٧) المجادلة: أن يضرب القوم بعضهم. «اللسان»: (جلد).

(٨) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٥٠٧)، وابن عدي في «الكامل» ٤٧٤/٣ و٢٦٩/٦، والبيهقي في «شعب الإيمان»: (١٧٧٨)، والخطيب في «الكفاية» ص ٢١ - ٢٢، وابن عبد البر في (جامع بيان العلم) ١/١٦٢، وأخرجه أبو القاسم الهمداني في «الفوائد» ١/١٩٦ والبيهقي في «الشُّعَب»: (٧٨٨٨) عن ابن عباس، وأخرجه ابن المبارك في «الزهد»: (٤٠)، وأبو نعيم في «الحلية» ١/٢٢٣ عن أبي الدرداء.

## الباب الخامس

### في آداب المتعلم والمعلم

آداب المتعلم كثيرة، لكن تنظم تفاريقها تسع وظائف<sup>(١)</sup>:

الوظيفة الأولى: تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الصفات، إذ العلم عبادة القلب، وصلاة السر، وقربة الباطن إلى الله تعالى، وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأنجاس؛ فكذا لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف.

وخبائث الباطن أهم بالاجتناب من خبائث الظاهر، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب»<sup>(٢)</sup> فكيف يدخل نور العلم بيت القلب المشحون بالهوى والشهوة، والحسد والحقد، والكبر والعجب، وكلها كلاب نابحة؟ لا بل القلب المشحون بهذه الأشياء قلب في الصورة، وكتب في المعنى.

فإن قيل: إنما أزيل رذائل الأخلاق بالعلم، فكيف أرفعها قبل العلم؟

فالجواب: إنَّ الرفع لهذه الرذائل هو العلم بأمر الله، فإذا ارتفعت حصل العلم بالله، فأوجب معرفته.

الوظيفة الثانية: تقليل العلائق الشاغلة، ومتى تَوَزَّعتِ الفكرة قَصُرَتْ عن إدراك الحقائق، فتكون كجدول تفرق ماؤه، فأنشفت الأرض بعضه، واختطف الهواء

(١) في (ظ): «عشر جمل».

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٣٢٢٥)، ومسلم (٢١٠٦)، وغيرهما من حديث أبي طلحة، وتمامه: «ولا صورة»، وفي الباب عن علي وأبي أيوب وأبي أمامة وأبي رافع وابن عمر وابن عباس وابن عمرو وأسامة وبريدة وعائشة وميمونة رضي الله عنهم.

بعضه، فلا يبقى منه ما يبلغ المزدرع<sup>(١)</sup>، فإن بقي لم يف بالسقي.

وقد كان السلف يؤثرون العلم على كل شيء، فروي عن الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله، أنه لم يتزوج إلا بعد الأربعين<sup>(٢)</sup>.

وأهديت إلى أبي بكر ابن الأنباري<sup>(٣)</sup> جارية، فلما دخلت عليه تفكّر في استخراج مسألة، فعزبت<sup>(٤)</sup> عن خاطره، فقال: أخرجوها إلى النّخاس<sup>(٥)</sup>. فقالت: هل لي من ذنب؟ قال: لا، إلا أن قلبي اشتغل بك، وما قدرُ مثلك أن يمنعني من علمي<sup>(٦)</sup>.

وقد أنشدوا:

ما للمُعيلِ وللمعالي إنّما يسعى إلهنّ الفريدُ الواحدُ  
كالشمس تجتأب السماء وحيدةً وأبو بنات النّعش<sup>(٧)</sup> فيها قاعدُ

الوظيفة الثالثة: أن يلتقي زمامه إلى المعلم، إلقاء المريض زمام أمره إلى الطبيب، فيتواضع له، ويبالغ في خدمته، وقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يأخذ بركاب زيد بن ثابت رضي الله عنه، ويقول: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء<sup>(٨)</sup>.

(١) المزدرع: هو موضع الزرع، والشيء المزروع «القاموس واللسان»: (زرع).

(٢) مناقب الإمام أحمد» للمصنف: ٤٠٢.

(٣) هو محمد بن القاسم بن بشار ابن الأنباري، أبو بكر المقرئ النحوي اللغوي، توفي سنة ٣٢٨هـ، صنف «الوقف والابتدا» و«المشكل». يُنظر «سير أعلام النبلاء» ٢٧٤/١٥.

(٤) عزبت: غابت وذهبت. «اللسان»: (عزب).

(٥) النخاس: بائع الجواري والعييد. «اللسان»: (نخس).

(٦) «تاريخ بغداد» ٣/ ١٨٤ - ١٨٥.

(٧) بنات نعش: مجموعتا كواكب، كبرى وصغرى، كل منها سبعة كواكب، أربعة منها نعش، وثلاث بنات، والواحد: ابن نعش. قيل: شُبّهت بحملة النعش في تربيعها. «اللسان»: (نعش).

(٨) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٢/ ٣٦٠، والفسوي في المعرفة والتاريخ ١/ ٤٨٤، والطبري في الكبير ٥/ ٤٧٤٦، والحاكم في المستدرک ٣/ ٤٢٣ و٤٢٨، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٣١٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم ١/ ١٢٨، وصححه ابن حجر في الإصابة ٢/ ٥٩٤، والهيثمي في المجمع ٩/ ٣٤٥.

ومتى تكبر المتعلم أن يستفيد من غير مرموق بالتقدم، فهو جاهل؛ لأنَّ  
«الحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها أخذها»<sup>(١)</sup>.

ثم يُخَضِّرُ<sup>(٢)</sup> قلبه، وَيَجْمَعُ هَمَّهُ وَفَهْمَهُ، لتستوي أجزاء القلب في تناول العلم  
استواء الأرض الدميثة في نيل المطر، وَلِيدِعُ رَأْيَهُ لِرَأْيِ مَعْلَمِهِ، فَإِنَّ خَطَأَ الْمَعْلَمِ أَنْفَعُ  
لِلْمَتَعَلِّمِ مِنْ صَوَابِ نَفْسِهِ.

وقد نبه الله تعالى المتعلمين بقصة موسى والخضر بقوله: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا  
تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠].

فإن قلت: كيف يُمنَعُ عن السؤال وبالسؤال يُنال العلم؟

فالجواب: أَنَّهُ يَسْتَأْذِنُ فِي السُّؤَالِ، ثُمَّ يَسْأَلُ، وقد قال أمير المؤمنين عليٌّ  
رضي الله عنه: إِنَّ مِنْ حَقِّ الْعَالِمِ عَلَيْكَ أَنْ تُسَلِّمَ عَلَى الْقَوْمِ عَامَّةً وَتُخَصِّصَهُ بِالْحَيَّةِ،  
وَأَنْ تَجْلِسَ أَمَامَهُ، وَلَا تُشِيرَنَّ عِنْدَهُ بِيَدِكَ، وَلَا تَغْمِزَنَّ بَعَيْنِكَ، وَلَا تُكْثِرْ عَلَيْهِ  
السُّؤَالَ، وَلَا تُعْنِتَهُ<sup>(٣)</sup> فِي الْجَوَابِ، وَلَا تُلَجِّجْ عَلَيْهِ إِذَا كَسِلَ، وَلَا تُرَاجِعْهُ إِذَا امْتَنَعَ،  
وَلَا تَأْخُذْ بِثَوْبِهِ إِذَا نَهَضَ، وَلَا تُفْشِ لَهُ سِرًّا، وَلَا تَغْتَابَنَّ عِنْدَهُ أَحَدًا، وَلَا تَطْلُبَنَّ  
عَثْرَتَهُ، وَإِنْ زَلَّ قَبِلْتَ مَعْدْرَتَهُ، وَلَا تَقُولَنَّ لَهُ: سَمِعْتُ فَلَانًا يَقُولُ كَذَا، وَلَا أَنْ فَلَانًا  
يَقُولُ خِلَافَكَ، وَلَا تَصِفَنَّ عِنْدَهُ عَالِمًا، وَلَا تَعْرُضْ<sup>(٤)</sup> مِنْ طَوْلِ صُحْبَتِهِ، وَلَا تَرْفَعْ  
نَفْسَكَ عَنْ خِدْمَتِهِ، فَإِذَا عَرَضَتْ لَهُ حَاجَةٌ سَبَقَتْ الْقَوْمَ إِلَيْهَا، كَأَنَّمَا هُوَ بِمَنْزَلَةِ النَّخْلَةِ  
تَنْتَظِرُ مَتَى يَسْقُطُ عَلَيْكَ<sup>(٥)</sup> مِنْهَا شَيْءٌ<sup>(٦)</sup>.

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٦٩)، والقضاعي في مسند الشهاب (٥٢) من حديث  
أبي هريرة، وإسناده ضعيف جداً، وأخرجه القضاعي أيضاً (١٤٦) عن زيد بن أسلم مرسلًا.

(٢) في الأصل: «يخطر».

(٣) أي: ولا تُشدِّد عليه فيه وتُلزِمه بما يصعب عليه.

(٤) أي: لا تُضجِر.

(٥) في (ظ): «عليه».

(٦) أخرجه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٣٥٠)، و«الفيقهِ والمتفقهِ» ٩٩/٢، وابن  
عبد البر في «جامع بيان العلم» ١٢٩/١.

**الوظيفة الرابعة:** أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو علوم الآخرة، فإن ذلك يُحير عقله، ويُفتر ذهنه، ويُؤيسه من الإدراك للمقصود، بل ينبغي أن يستأنس بطريقة شيخه، ثم يُصغي بعد ذلك إلى المذاهب والشُّبه<sup>(١)</sup>، فإن لم يكن شيخه مُشغلاً<sup>(٢)</sup> برأي واحد، وإنما عاداته نقل المذاهب وما قيل فيها، فليحترز منه، فإن إضلال هذا أكثر من إرشاده.

**الوظيفة الخامسة:** أن لا يدع فتناً من العلوم المحمودة إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته، ثم إن ساعده العُمر طلب التبخر فيه، وإلا اشتغل بالأهم منه، فإن العلوم على درجاتها، إما سالكة بالعبد إلى الله سبحانه، أو معينة على السلوك نوعاً من الإعانة.

**الوظيفة السادسة:** أن يأخذ من كل شيء أحسنه؛ لأن العُمر لا يتسع لجميع العلوم، ثم يصرف جَمَام<sup>(٣)</sup> قوته إلى أشرف العلوم، وهو العلم المتعلق بالآخرة، الذي به يُكتسب اليقين الذي حصَّله أبو بكر رضي الله عنه، حتى شهد له الرسول ﷺ، فقال: «ولكن بشيءٍ وقر في صدره»<sup>(٤)</sup>.

**الوظيفة السابعة:** أن يعرف السبب الذي به يُدرك شرف العلوم، وأشرف العلوم<sup>(٥)</sup> العلم بالله وملائكته وكتبه ورُسله، والعلم بالطريق الموصول إلى هذه العلوم.

(١) في (ظ): «والسنة».

(٢) في الأصل: «مستقلاً».

(٣) جَمَام قوته، أي: كل قوته وتَمَامها.

(٤) قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٨٥): لا أصل لهذا مرفوعاً، وإنما يُعرف من قول بكر بن عبد الله المزني: وذكره مُلاً علي القاري في «الأسرار المرفوعة» ص ٤٥٤، وابن القيم في «المنار المنيف» (٢٤٦) وقال: ومما وضعه جهلة المنتسبين إلى السنة في فضل الصديق... - فساق أحاديث منها -: «ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، وإنما سبقكم بشيءٍ وقر في صدره». وهذا من كلام أبي بكر بن عياش.

وذكره الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول»: ٢٦١، ٣٤٥، من كلام بكر بن عبد الله المزني.

(٥) في الأصل: «العلم».

**الوظيفة الثامنة:** أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة، وفي المال القرب من الله سبحانه، والترقي إلى مجاورة المُقربين، ولا يقصد به الرياسة والمال، ومباهاة الأقران، ومتى صحَّ قصده هذا لم يطلب إلا علم الآخرة، فعلم الآخرة بالنسبة إلى غيره من العلوم، كقصد المجاهد وجه الله سبحانه، فهذا له المغنم<sup>(١)</sup> في الدنيا، والأجر في الآخرة، ولا شك في أن للردء<sup>(٢)</sup> في الجهاد ثواب، ولساقي الغزاة الماء أجر، ولحافظ الدواب، إلا أن الأعلى هو الصادق في جهاده.

**الوظيفة التاسعة:** أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد، ليؤثر الرفيع القريب على البعيد، والمهم على غيره، فإن علم الفقه كإعداد الزاد والراحلة، وتطهير الباطن عن الكدر كسلوك البوادي وقطع العقاب<sup>(٣)</sup>، والعلم بالله وصفاته وأفعاله يجري مجرى نفس الحج وأركانه، ولكل قوم مرتبة، فليس من أخبر فصّدق كمن شاهد وتحقق.

واعلم أن الساعي إلى الله عز وجل لينال قربه هو القلب دون البدن، ولسنا نعني بالقلب اللحم المحسّس، بل هو سرٌّ من أسرار الله تعالى، لا يدركه الحسّ، ولطيفة من لطائفه، تارة يعبر عنها بالروح، وتارة بالنفس المطمئنة.

وقد عبر الشرع عنه بالقلب؛ لأنه المطية الأولى، كذلك السرّ، وبواسطته صار جميع البدن مطية وآلة لتلك اللطيفة، فهو كالناقة للبدن في طريق الحج.

فالمتجرد لعلم الفقه إذا لم يجاهد نفسه ولم يصلح قلبه، كالمتجرد لشراء الناقة وعلفها، وشراء المزاودة وخرزها<sup>(٤)</sup>، ولم يسلك بادية الحج.

(١) في الأصل: «النعيم».

(٢) الردء: المعين والناصر، والقوي الذي يعتمد عليه، وفلان ردء فلان، أي: ينصره ويشد ظهره. «القاموس واللسان»: (ردء).

(٣) العقاب: جمع عقبة، وهي: طريق في الجبل وعز، أو هي: جبل طويل، يعرض للطريق، وهو صعب شديد «لسان العرب»: (عقب).

(٤) الخرز: خياطة الجلد بعضه على بعض (لسان العرب): (خرز).

والمستغرقُ عُمُرُهُ في مجادلاتِ الفقه، كالمُحكِمِ للخيوطِ التي بها تُخرزُ المَزَادَةُ، ونسبُهُ هذين إلى السالكِ لطريقِ إصلاحِ القلبِ كَنَسَبَتِهِم إلى سالكي طريقِ الحجِّ ومُباشري أركانِهِ.

### بَيَانُ وَظَائِفِ الْمُرْشِدِ الْمُعَلِّمِ

اعلم أنَّ للإنسانِ في علمِهِ أربعةُ أحوالٍ، كما له في اقتناءِ الأموالِ.

إذ لصاحبِ المالِ حالةٌ استفادةٍ، فيكونُ مكتسباً، وحالةٌ ادِّخارٍ لِمَا اكتسبَهُ، فيكونُ به غَنِيّاً عنِ السَّوَالِ، وحالةٌ إنفاقٍ على نفسه فيكونُ به منتفعاً، وحالةٌ بذلٍ لغيرِهِ، فيكونُ به سَخِيّاً مُتَفَضِّلاً، وهو أشرفُ أحوالِهِ، فكذلكَ العلمُ يُقتنى كالمالِ<sup>(١)</sup>، فَلَهُ حالةٌ طلبٍ واكتسابٍ، وحالةٌ تحصيلٍ تُغني عنِ السَّوَالِ، وحالةٌ استبصارٍ، وهو التفكُّرُ في المُحَصَّلِ والتمتُّعُ به، وحالةٌ تبصيرٍ وهو أشرفُ الأحوالِ.

فمن عَلمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ فهو الذي يُدعى عظيماً في ملكوتِ السماءِ؛ لأنَّهُ يكونُ كالشَّمْسِ<sup>(٢)</sup> المضيئةِ في نفسها<sup>(٣)</sup> المضيئةِ لغيرِها، وكالمسكِ الطيبِ في نفسه المُطيبِ لغيرِهِ.

فأمَّا الذي يُعَلِّمُ ولا يَعْمَلُ فكالكتابِ، يفيدُ غيره وهو خالٍ من العلمِ، والْمَسْنُونُ الذي يَشْحَدُ غيره ولا يَقْطَعُ، والإبرة تكسو غيرها وهي عاريةٌ، ودُبَالَةٌ<sup>(٣)</sup> المصباحِ تُضيءُ لغيرِها وهي تحترقُ.

وإذا أقبلَ العالمُ على التعليمِ فقد تَقَلَّدَ أمراً عظيماً، فليحفظُ آدابَهُ ووظائفَهُ، وأمهاؤها ثمانيةٌ:

الوظيفةُ الأولى: الشَّفَقَةُ على المتعلمين، وأن يُجريهم مجرى بنيه، فإنَّ النبيَّ ﷺ

(١) في (ظ): «بالمال».

(٢-٢) سقط من الأصل.

(٣) الدُّبَالَةُ هي: الفتيلة، وجمعها: دُبَالٌ. «اللسان»: (ذبل).

قال: «إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ كَالْوَالِدِ»<sup>(١)</sup>. فَإِنَّ قَصْدَهُ إِنْقَادُهُمْ مِنْ نَارِ الْآخِرَةِ، وَهُوَ أَهَمُّ مِنْ<sup>(٢)</sup> «إِنْقَادِ الْأَبْوِينِ وَلِدَهُمَا مِنْ نَارِ الدُّنْيَا»، وَلِذَلِكَ صَارَ حَقُّ الْمَعْلَمِ أَعْظَمَ مِنْ حَقِّ الْوَالِدَيْنِ، فَإِنَّ الْوَالِدَ سَبَبُ الْوُجُودِ الْحَاضِرِ، وَالْحَيَاةِ الْفَانِيَةِ، وَالْمَعْلَمُ هُوَ الْمَفِيدُ لِلْحَيَاةِ الْآخِرِيَّةِ الدَّائِمَةِ، وَكَمَا أَنَّ حَقَّ أَبْنَاءِ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ أَنْ يَتَحَابُّوا وَيَتَعَاوَنُوا، فَحَقُّ تَلَامِذَةِ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ التَّحَابُّ.

وَلَا يَصِحُّ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَقْصُودُهُمُ الْآخِرَةَ، فَأَمَّا إِنْ كَانَ مَقْصُودُهُمُ الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ يُوقِعُ بَيْنَهُمُ التَّحَاسُدَ وَالتَّبَاغُضَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ أَبْنَاءَ الْآخِرَةِ مُسَافِرُونَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَسَالِكُونَ إِلَيْهِ الطَّرِيقَ، وَالسَّنُونَ وَالشُّهُورُ مَنَازِلُ الطَّرِيقِ، وَالتَّرَافِقُ فِي الطَّرِيقِ لِلْمَسَافِرِينَ، إِلَى الْأَمْصَارِ سَبَبُ التَّوَادُّ وَالتَّحَابِّ، فَكَيْفَ السَّفَرُ إِلَى الْفَرْدُوسِ الْأَعْلَى، وَالتَّرَافِقُ فِي طَرِيقِهِ؟!

وَلَا ضَيْقَ فِي سَعَادَاتِ الْآخِرَةِ، فَلِذَلِكَ لَا يَكُونُ بَيْنَ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ تَنَازُعٌ. وَلَا سَعَةً فِي سَعَادَاتِ الدُّنْيَا، فَلِذَلِكَ لَا يَنْفَكُ عَنِ ضَيْقِ التَّرَاحُمِ.

وَالْعَادِلُونَ إِلَى طَلَبِ الرِّئَاسَةِ بِالْعُلُومِ خَارِجُونَ عَنْ مُوجِبِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] دَاخِلُونَ فِي مُقْتَضَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧].

**الوظيفة الثانية:** أَنْ يَقْتَدِيَ بِصَاحِبِ الشَّرْعِ ﷺ، فَلَا يَطْلُبُ عَلَى إِفَاضَةِ الْعِلْمِ أَجْرًا، وَلَا يَقْصُدُ بِهِ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا، بَلْ يُعَلِّمُ لَوْجِهَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، وَلَا يَرَى لِنَفْسِهِ مَنَّةً عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ، بَلْ يَرَى الْفَضْلَ لَهُمْ، إِذْ هَيَّأُوا قُلُوبَهُمْ لِلتَّقَرُّبِ إِلَى الْمُتَعَلِّمِينَ، بَلْ يَرَى الْفَضْلَ لَهُمْ، إِذْ هَيَّأُوا قُلُوبَهُمْ لِلتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ

(١) أَخْرَجَهُ الشَّافِعِيُّ فِي «الْمَسْنَدِ» (٦٤): بِتَرْتِيبِ السَّنَدِيِّ، وَأَحْمَدُ (٧٣٦٨) وَ(٧٤٠٩)، وَأَبُو دَاوُدَ (٨)، وَالنَّسَائِيُّ ٣٨/١، وَابْنُ مَاجَهَ (٣١٣)، وَابْنُ خَزِيمَةَ (٨٠)، وَابْنُ حِبَانَ (١٤٣١)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بزراعة العلم فيها، فهم كالذي يُعيرُ الأرضَ لمن يزرعُ فيها، فإنَّ انتفاعَ صاحبِ الزرع أكثرُ من انتفاعِ صاحبِ الأرضِ، فكذلك ثوابُ المُعلِّمِ أكثرُ من ثوابِ المُتعلِّمِ، ولولا المُتعلِّمُ ما نالَ المُعلِّمُ أجرَ التعليمِ.

ولا ينبغي أن يطلبَ المُعلِّمُ الأجرَ إلاَّ مِنَ اللهِ سبحانه، وقد كان مُعلِّمو السلفِ يمتنعونَ عن قبولِ هديَّةِ المُتعلِّمِ.

قال جريرُ بنُ عبد الحميد: مرَّ بنا حمزةُ الزيات، فاستسقى ماءً، فلما أردتُ أن أناوله قال: أنتَ هو؟ قلتُ: نعم. قال: أليسَ تحضُّرنا في القراءة؟ قلتُ: نعم. قال: رُدَّه. وأبى أن يشربَ<sup>(١)</sup>.

وقال مَثُ البلخي<sup>(٢)</sup>: أهديتُ لسفيانَ الثوريِّ رحمه اللهُ ثوباً، فردَّه عليَّ، فقلتُ: يا أبا عبد الله، لستُ أنا ممن يسمعُ الحديثَ حتى تردَّ عليَّ. فقال: قد علمتُ، ولكنَّ أخوك يسمعُ مِنِّي الحديثَ، فأخافُ أن يلينَ قلبي لأخيك أكثرَ مما يلينُ لغيره.

وقال الحسنُ بنُ الربيع: كنتُ عند عبد الله بنِ إدريس، فلما قمتُ قال: سلْ عن سعرِ الأشنانِ<sup>(٣)</sup>. فلما مشيتُ ردَّني وقال: لا تسألُ عنه، فإنَّك تكتبُ مِنِّي الحديثَ، وأنا أكرهُ أن أسألَ من يسمعُ مِنِّي الحديثَ حاجةً.

وجاء رجلٌ إلى الإمامِ أحمدَ رحمه اللهُ بدواءٍ لجربٍ كانَ به، فأخذه ثمَّ ردَّه عليه، فقيل له: لم ردَّدته؟ فقال: أنتم تسمعونَ مِنِّي<sup>(٤)</sup>.

الوظيفةُ الثالثةُ: أن لا يدخِرَ منْ نُصحِ المُتعلِّمِ شيئاً، مثل أن يمنعه من التشاغلِ

(١) «معرفة القراء الكبار» ١١٦/١.

(٢) هو عبد الله بن محمد بن سورة البلخي، ولقبه: مَثُ، وهو اسمٌ أعجميٌّ. «نزهة الألباب» (٢٤٨٨)، ولم أجد من ترجمه، وجاء في هامش (ظ): «البلخي مَثُ بالتاء المعجمة بنقطتين، كذا هو بخطُ الشيخ المصنِّف» اهـ. قلت: يدلُّ هذا على أن نسخة (ظ) نُسخَت عن نسخة الإمامِ ابنِ الجوزي المصنِّف رحمه اللهُ تعالى.

(٣) الأشنان: دواءٌ تُغسلُ به الأيدي والثياب، نافع للجرب والحكة وله منافع أخرى. «اللسان» (أشن).

(٤) «مناقب الإمام أحمد» للمصنِّف: ٣٥٥.

بِعلمِ خَفِيِّ قَبْلِ الفِراغِ مِنَ الجَلِيِّ، وَيَمْنَعُهُ مِنَ التَّصَدِي لِرُتْبَةٍ قَبْلَ اسْتِحْقاقِها، وَيَنْبَهُهُ عَلى أَنَّ المَطْلُوبَ مِنَ العِلْمِ القُرْبُ مِنَ اللهِ تَعَالى دُونَ الرِّياسَةِ وَالْمِباهاةِ، وَيقَدِّمُ تَقْبِيحَ ذلكَ فِي نَفْسِهِ، وَذلكَ يَبِينُ لَهُ بِما يَطْلُبُهُ المَتَعَلِّمُ مِنَ العِلْمِ، مِثْلَ عِلْمِ الجَدْلِ وَالكِلامِ، فَإِنْ رآه يَتَعَلَّمُ التَّفْسِيرَ وَالْحَدِيثَ وَالْمِواعِظَ وَعَلِمَ أَنَّ قَصْدَهُ بِذلكَ الدُّنيا لَمْ يَمْنَعُهُ مِنَ التَّعَلُّمِ، وَلَكِنَّهُ يُدْرِجُ لَهُ النِّصِيحَةَ وَيُنْبَهُهُ عَلَيْها؛ لِأَنَّ فِيمَا يَتَعَلَّمُهُ صَادِداً عَنِ ذلكَ القَصْدِ الفاسِدِ.

وقد رُوِيَ سَفيانُ الثَّورِيُّ يَوماً حَزيناً، فَقيلَ لَهُ: ما لَكَ؟ فَقالَ: صِرنا مَتَجِراً لِأبناءِ الدُّنيا، يَلْزِمُنَا أَحَدُهُم، فَإِذا تَعَلَّمَ جُعِلَ عامِلاً<sup>(١)</sup> أو قاضِياً.

**الوظيفة الرابعة:** وهى من دقائق التعليم، أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق، بطريق التعريض مهما أمكن، لا على وجه التوبيخ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجراءة على الهجوم بالخلاف، والتعريض يحرك الذهن إلى استنباط معاني ذلك.

**الوظيفة الخامسة:** أن المتكفل ببعض العلوم، لا ينبغي أن يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراء علمه، كمعلم اللغة، فإنه لا يجوز أن يقبح علم الفقه، ومعلم الفقه لا يجوز أن يقبح التشاغل بالحديث، بل ينبغي أن يوسع على المتعلم طريق التعلم<sup>(٢)</sup> من غيره<sup>(٣)</sup> ما لا يعرفه، وإن كان هو كافلاً بكثير من العلوم، درج المتعلم من رتبة إلى رتبة.

**الوظيفة السادسة:** أن ينظر في فهم المتعلم ومقدار عقله، فلا يلقي إليه ما لا يدرکه فهمه، ولا يحيط به عقله، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم»<sup>(٤)</sup>.

(١) أي: والياً.

(٢) في (ظ): «التعليم».

(٣) في (ظ): «غير».

(٤) حديث ضعيف، وانظر «كشف الخفاء» (٥٩٢)، و«تخريج أحاديث الإحياء»: (٣٣٠٢). وقد

وقال علي رضي الله عنه: إن ها هنا علماً جماً - وأشار إلى صدره - لو أصبت له حَمَلَةً<sup>(١)</sup>.

وهذا صحيح، فإنه لا يجوز لعالم، في جوهره فهم شيء، أن يلقى إلى من يعجز عن حملِه. وقد نبّه على هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النساء: ٥].

وقال الشافعي رحمه الله تعالى:

أَنْتُرُ دُرًّا بَيْنَ سَارِحَةِ النَّعْمِ      أَنْظِمُ مَنْشُورًا لِرَاعِيَةِ الْعَنَمِ  
وَمَنْ مَنَحَ الْجُهَّالَ عِلْمًا أَضَاعَهُ      وَمَنْ مَنَعَ الْمُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمَ<sup>(٢)</sup>

الوظيفة السابعة: أن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقى إليه الجلي اللائق به، ولا يُذكر له أن وراء هذا تدقيقاً، وأنه مستور عنك؛ لأن هذا يُفتر رغبتُه في الجلي، ويُخيلُ إليه البخلُ بذلك عنه؛ لأنه يظن من نفسه أنه يُدرك الخفي.

مثال هذا: أنك<sup>(٣)</sup> إذا رأيت العامي يعتقد المنقولات في الصفات، ويقول: لا أشبه ولا أتأول، فلا يُغيّر عليه حاله، فإنه لو ذكر له تأويل لبعض الظواهر انحل عنه قيد العوام، ولم يتيسر تقيده بقيد الخواص، فيتأذى.

ولا ينبغي أن يخاض بالعوام في حقائق العلوم الدقيقة، بل تملأ قلوبهم من الرغبة والرّهبة بذكر الجنة والنار، ولا يحرك عليهم شبهة؛ لأنه ربّما تعلقت الشبهة بقلوبهم وعسر حلّها فهلكوا.

= صح عن علي رضي الله عنه من كلامه: حدثوا الناس بما يعرفون، أحبون أن يكذب الله ورسوله. أخرجه البخاري (١٢٧)، ومن كلام ابن مسعود: ما أنت مُحدثاً قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة، أخرجه مسلم في (مقدمة صحيحه): (باب: ٣).

(١) تقدم في الصفحة: ١٨.

(٢) أوردهما البيهقي في «مناقب الشافعي» ٧٢/٢، وأبو نُعيم في «حلية الأولياء» ١٥٣/٩، والسبكي في «طبقات الشافعية» ٢٩٤/١.

(٣) ليست في الأصل.

وفي الجملة لا ينبغي أن يُفتح لهم باب البحث، فإنه يُحَبِّطُ عليهم العقائد، ويُبطلُ عليهم المعاش.

الوظيفة الثامنة: أن يكون المُعَلِّمُ عاملاً بعلمه، لا يُكذِّبُ قوله بفعله<sup>(١)</sup>؛ لأنَّ العِلْمَ يُدْرِكُ بالبصائر، والعمل بالأبصار، وأربابُ الأبصارِ أكثرُ، فإذا خالفَ العملُ العِلْمَ منع الرِّشْدُ، وكلُّ من تناول شيئاً وقال للناس: لا تتناولوه فإنه سُمُّ مُهلكٌ، سخر الناس به، واتهموه، وزاد حرصهم على ما منع منه، فيقولون: لولا أنه أطيَّبُ الأشياءِ وألذُّها ما كان يستأثرُ به، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤].

ويروى عن علي رضي الله عنه أنه قال: قَصَمَ ظهري رجلان: عالمٌ مُتَهَتِّكٌ، وجاهلٌ مُتَنَسِّكٌ، فالجاهلُ يغرُّ الناسَ بِتَنَسُّكِهِ، والعالمُ يُنْفِرُهُمْ بِتَهْتِكِهِ.

وقال الشاعر:

لا تَنهَ عن خُلُقٍ وتأتي مثلهُ عارٌ عليك إذا فَعَلتَ عظيمُ<sup>(٢)</sup>

(١) في الأصل: «فعله».

(٢) البيت لأبي الأسود الدؤلي على الأرجح، وهو في «ديوانه»: ٤٠٤، و«خزانة الأدب» ٣/ ٦١٨، و«شرح الشذور»: ٣١٠، وينسب البيت أيضاً للأحطل، والسابق البربري، والطَّرِمَاح كما في «خزانة الأدب»، وينسب للمتوكل الليثي كما في «العقد الفريد» ٢/ ٣١١، ولحسان بن ثابت كما في «شرح أبيات سيبويه» ١٨٨/٢.

## الباب السادس

### آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة وعلماء السوء

عُلماءُ السوء هم الذين قَصَدُهم من العلم التَّنعم بالدنيا، والتوصل إلى المنزلة عند أهلها، وقد ضَرَبَ اللهُ تعالى للعالم إذا لم يعمل بعلمه مثلاً فقال: ﴿مَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] وقد قال ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ العلم لِيُباهي به العلماء أو يُماري به السُّفهاء أو يَصرف به وجوه الناس، فهو في النار»<sup>(١)</sup>، وقال ﷺ: «لا تَعَلَّموا العلم لثبأهوا به العلماء، ولا لثماروا به السُّفهاء، ولا لثُحِّبِّروا»<sup>(٢)</sup> به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار»<sup>(٣)</sup>.

أخبرنا ابن الحُصَيْن قال: أخبرنا ابنُ المُذْهَب قال: أخبرنا أحمد بن جَعْفَر قال: حَدَّثنا عبد الله بن أحمد قال: حَدَّثني أبي قال: حَدَّثنا شُريح بن النُّعْمان قال: حَدَّثنا فُلَيْح عن عبد الله بن عبد الرحمن أبي طُوالة عن سعيد بن يَسار عن أبي هُريرة قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ علماً مما يُبْتَغى به وجهُ اللهِ عزَّ وجل، لا يتعلمه إلا لِيُصيب به عَرَضاً من الدنيا، لم يجد عَرَفَ الجنة يومَ القِيامة»<sup>(٤)</sup> يعني: ريحها.

قال أحمد: وحَدَّثنا وكيع قال: حَدَّثنا حَماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أنس بن مالك قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مررتُ ليلةً أُسري بي على قومٍ تُقرضُ

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥)، وقال: هذا حديث غريب، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير بنحوه.

(٢) تصحفت في (ظ) إلى: «لتخبروا».

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٥٤)، والحاكم ١/٨٦، وابن حبان في صحيحه (٧٧) من حديث جابر.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٥١٧)، وابن ماجه (٢٥٢)، والحاكم ١/٨٥ وقال: حديث صحيح سنده، ثقات رواته، على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي.

شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضٍ مِنْ نَارٍ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا: حُطْبَاءٌ مِنْ أُمَّتِكَ أَهْلُ الدُّنْيَا، كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسُونَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ»<sup>(١)</sup>.

أخبرنا عبدُ الأوَّل بن عيسى قال: أنبأنا الداودي قال: أنبأنا ابنُ أعين السَّرخسي قال: أنبأنا الفِرْبَري قال: أنبأنا البخاري قال: أنبأنا علي بنُ عبد الله قال: حدَّثنا سُفيان قال: حدَّثنا الأعمش عن أبي وائل عن أسامة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يُجاءُ بالرجلِ يومَ القيامةِ، فيُلقي في النارِ، فتندلقُ أفتابُهُ، فيدور كما يدور الحمارُ برحاهِ، فتجتمعُ أهلُ النارِ عليه، فيقولون: أي فلان، ما شأنك؟ أليسَ كنتَ تأمرنا بالمعروفِ وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنتُ أمرمكم بالمعروفِ ولا آتية، وأنهاكم عن المنكر وآتية» أخرجاه في الصحيحين<sup>(٢)</sup>. وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أولَ الناسِ يُقضي فيه يومَ القيامةِ ثلاثةٌ: . . . رجلٌ تعلَّم العِلْمَ، وعَلَّمه، وقرأ القرآنَ، فأُتي به فعرفه نعمة فَعَرَفَهَا، فقال: ما عَمِلتَ فيها؟ قال: تعلمتُ فيك العلمَ وعَلَّمته، وقرأتُ القرآنَ. فقال: كذبتَ، ولكنك تعلمتَ ليُقَالَ: هو عالمٌ، فقد قيل، وقرأتَ القرآنَ ليُقَالَ: هو قارئٌ، فقد قيل. ثم أمرَ به فُسْحِبَ على وجهه حتى أُلقي في النارِ»<sup>(٣)</sup> وذكر باقي الحديث، وسيأتي في كتاب الرِّياء إن شاء الله تعالى

وقال عيسى ابن مريم عليه السلام: يا معشر العلماء، إلى متى تصفون الطريق للمُدلجين وأنتم مُقيمون مع المُتحيِّرين، مثلكم مثل الدُّفلى<sup>(٤)</sup> يُعجبُ ورده من نظرٍ إليه ويُقتل طعمه من أكله، كلامكم يُبرئُ الدَّاءَ، وأعمالكم داءٌ لا يقبل الدواء، الحِكْمَةُ تخرج من أفواهكم وليس بينها وبين أذانكم إلا أربع أصابع ثم لا تعيها قلوبكم، معشر العلماء، كيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلامَ ليخبر به،

(١) أخرجه أحمد ٣/١٢٠، (١٢٢١١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

(٤) الدُّفلى: نبتٌ مرٌّ قَتال، زهره كالورد الأحمر، وحمله كالخرنوب. القاموس المحيط:

(دفل).

ولا يطلبه ليعمل به، العلم فوق رؤوسكم، والعمل تحت أقدامكم، فلا أحراراً كراماً، ولا عبيد أتقياء.

وقال بعضُ السلف: أشدُّ الناس ندامَةً عند الموت؛ عالم مُفرط.

وكتبَ حكيمٌ إلى حكيم: إنك قد أوتيتَ علماً فلا تُدنِّسِ علمكَ بظلمة الذنوب، فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم.

وقال سُفيان بن عُيينة: العلم يضرُّك إن لم ينفعك. وهذا صحيح، فإنه يزيد في الحجة على صاحبه، فالعالم الذي لا يعمل به أشدَّ عذاباً من الجاهل.

واعلم أن المأخوذ على العالم أن يقوم بالأوامر والنواهي، وليس عليه أن يكون زاهداً ولا مُعرضاً عن المُباحات، إلا أنه ينبغي له أن يتقلل من الدنيا مهما استطاع، فإن دليل الفعل أكد من دليل القول؛ لأن مَنْ ذَمَّ الدنيا واستوعب مُباحها لم تفهم العامة عنه ما ذَمَّ، على أنه إذا تحقق علمه قنع باليسير من الدنيا ودخل في جملة الزهاد عملاً بالفضائل ومزاحمةً على المناقب، إلا أنه ليس كل جسم يقبل التقلل، ولا يطبق خشونة العيش.

ومن العَلَط إنكارُ الجهال على العالم إذا رفق بنفسه في مطعمه وملبسه خصوصاً عند كبر السن، فقد كان الحسن البصري كثيراً ما يأكل اللحم، فيقال له، فيقول: نعم لا صحناه<sup>(١)</sup> فرقد، ولا رَغيفي مالك. ولبس يوماً ثوباً جيداً فجعل فرقد يلمسه ويتعجب، وكان على فرقد كساء فقال له الحسن: أما بلغك أن أكثر أهل النار أصحاب الأكسية. يشير إلى الرهبان.

وكان سُفيان الثوري حَسَنَ المطعم، وقال: إنَّ الدابة إذا لم تُحسن إليها في علفها لم تعمل.

وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يصبر من خشونة العيش على أمرٍ عظيم، فالطباع تتفاوت، فإياك أن تُنكر على العالم مباحاً استعمله، كما أنكر حاتم الأصم

(١) الصَّحْنَةُ: إدامٌ يُتخذ من السَّمَك الصغار مُشَوِّ مصحح للمعدة. القاموس المحيط: (صحن).

على محمد بن مقاتل قاضي الرِّي توسُّعه في المُباحات، وقد ذكرتُ حكايته معه في «تلبس إبليس» وبينتُ أن طلب العامي من الفقيه أن يكون معرضاً عن المباحات جهلٌ من العامي، وظنُّ أن المباح مذموم، وهذا فساد تلمُّح، فإنَّ الله تعالى لا يُبيح ما يُدْمُ فاعله. إلا أنا قد بيَّنا أن الأولى بالعالم رَفَض كل ما يُستَغنى عنه من المباحات لثلا يَستكثر منها مَنْ لم يعرف كيفية استعمال العالم لها؛ لأن العالم كالطبيب وإذا خلط لم يقبل قوله، وإن كان تخليطه بعلم. على أن الاستكثار من المباحات يوجب الأُنس بها ولا تكاد تُنال إلا بِشبهات.

فقد بانَ لك بما ذكرنا غلط من يذم المباحات مطلقاً من العوام وجُهاال الرُّهاد، وكل ذلك لقلَّة العلم حتى أن خلقاً من المُتزهِّدين دَفنوا كُتب العلم، وقالوا: المقصود العمل. وقد بيَّنا فيما تقدَّم أن العلم أفضل الأعمال؛ لأنه يحصل بالقلب بخلاف الأعمال التي تحصل بالبدن، ونشره مع صحَّة النية أفضل من كل نافلة، وقد حصل لهم في دَفن الكُتب محنٌ منها: إطفاء مصباح الطريق، وهو العلم، فإنه نورُ السالك. ومنها: إفسادُ المال، وذلك حرام. ومنها: محوُ الشَّرع، فإن العلماء تَعَبوا في جمع الأحاديث وتصنيفها، فَمَن دَفنها فقد محاهها وضادَّ المقصود من قوله ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي»<sup>(١)</sup> وقوله: «نَضَّرَ اللهُ امرأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاها، فأداها كما سمعها»<sup>(٢)</sup>.

وفيهم من احتج بأني اشتي أن أُحدِّث، فأنا أَمنع نفسي شهوتها. وهذه حيلةٌ من إبليس ليمنع نَشَرَ العلم، فإن فَرَحَ النفس بالإمارة لا يمكن دَفعه، والإمارة فضيلة، وكذلك الإمامة، وكذلك الالتدأُ بالجماع الذي يُطلَبُ منه الولد، فَميلُ النَّفسِ إلى هذه الأشياء مُعينٌ على تحصيلها ولا يمكن محو أثره من النفس، فمن تخايل له أنه يمكن أن يُجامع ولا يَلتذُّ، أو يُحدِّث ولا يَفرح بالرئاسة، فقد تخايل

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦١)، وأحمد (٦٤٨٦)، والترمذي (٢٦٦٩)، وعبد الرزاق (١٠١٥٧)

و(١٩٢١٠)، وابن أبي شيبة ٧٦٠/٨ من حديث عمرو بن العاص.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٧٣٨)، والدارمي ٧٤/١ - ٧٥، وابن ماجه (٢٣١)، والطبراني في

الكبير (١٥٤١)، والحاكم ٨٧/١، وقال محققو المسند: صحيح لغيره.

له الممتنع، وليس في وجود ذلك ما يؤذي الدين، إنما ينبغي أن تقع المجاهدة لقصد الرئاسة بالكبير والعجب، فأما أن يترك العلم، فلا.

فاعتمد على هذا، وانظر إلى أئمة الدين من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار هل فيهم من امتنع من نشر العلم لهذا الخاطر؟ وقد كان مالك بن أنس يتوضأ ويتطيب ويستند ويتمكن ويقول: حَدَّثْنَا فلان. ولا يلتفت إلى ما يُروى عن بشر الحافي أنه قال: حَدَّثْنَا، بَابٌ من أبواب الدنيا. وأنه دفن كُتبه، فإنه لو وافقه الأئمة في زمانه على هذا دَرَسَ العلم.

ولا ينكر أن للنفس في نشر العلم دَفينه، ولكن ينبغي أن تُجاهد وتترك أسبابها وقد حصلت السلامة. فإن قُلْتَ: فقد رُوي عن سفيان أنه دَفَنَ كُتبه. فاعلم أن سفيان كان يُحدِّث عن قوم ضعفاء فيُدلِّسهم، فَنَدِمَ على ذلك واختلط حديثه، فدَفَنَ الكُلَّ، فهذا سببٌ يُجيز ما منعنا منه.

## فصل

ومن صفات علماء الآخرة أن يعلموا أن الدنيا حقيرة، وأن الآخرة شريفة، وأنهما كالضَّرتين، فيؤثرون الآخرة، فلا تُخالف أفعالهم أقوالهم، ويكون ميلهم إلى العلم النافع في الآخرة، ويجتنبون العلوم التي يقلُّ نفعها إثارةً لما يعظم نفعه، كما روي عن شقيق البلخي أنه قال لحاتم: قد صَحِبْتَنِي مدة فماذا تَعَلَّمْتَ؟ قال: ثمان مسائل:

أما الأولى: فإنني نظرتُ إلى الخلق، فإذا كل شخص له محبوب، فإذا وصل إلى القبر فارقه محبوبه، فجعلتُ محبوبي حَسَناتي لتكون في القبر معي.

وأما الثانية: فإنني نظرتُ في قوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] فأجهدتها في دَفْعِ الهوى حتى استقرت على طاعة الله سبحانه.

وأما الثالثة: فإنني رأيت أن كلَّ من معه شيء له قيمة عنده يحفظه، ثم نظرت في قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَفْقَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]. فكلما وقع معي شيء له قيمة وجَهِتُهُ إليه ليبقى لي عنده.

وأما الرابعة: فإني رأيتُ الناس يرجعون إلى المال والحَسَب والشرف وليست بشيء، فنظرت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْقَدَكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فعملتُ في التقوى لأكون عنده كريماً.

وأما الخامسة: فإني رأيتُ الناس يتحاسدون، ونظرت في قوله تعالى: ﴿لَنْ يَخُنَّ قَوْمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾ [الزخرف: ٣٢] فتركتُ الحَسَد.

والسادسة: أني رأيتُهم يتعادون، فتركتُ عداوتهم واتَّخذت الشَّيطان وحده عدواً.

والسابعة: أني رأيتُهم يذلُّون في طلب الرزق، ونظرتُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] فاشتغلتُ بما له عليّ، وتركتُ مالي عنده.

والثامنة: أني رأيتُهم مُتوكِّلين على تجاراتهم وصناعاتهم وصِحَّة أبدانهم، فتوكلتُ على الله.

ومن صفات علماء الآخرة: أن يكونوا مُنقبضين عن السُّلاطين، محترزين من مخالطتهم، فإن الدنيا حلوة خَضِرَة، وزمامها بأيدي السُّلاطين، والمُخالطُ لهم بعيدُ السلامة من وجوه؛ منها: أنه يجب عليه الإنكار، وقد يقدر عليه فلا يَفعله، فيصير مُداهنأ، وربما حَسَنَ أحوالهم القبيحة طمعاً في أموالهم الكُدرة، وأقل الأحوال أن يرى نعيمهم فيزْدري نعمة الله عليه، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أتى السُّلطانَ افْتَنَّ»<sup>(١)</sup>. وقال: «سيكونُ بعدي أمراء عليكم تعرفون منهم وتتكرون، فمن أنكر فقد برئ، ومن كره فقد سلِم، ولكن من رَضِيَ وتابَع»<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه أحمد (٨٨٣٦)، والبزار (١٦١٨)، والبيهقي في السنن ١٠/١٠١، وفي الشُّعَب (٩٤٠٣)، وابن حبان في المجروحين ١/٢٣٣، وابن عدي في الكامل ١/٣١٢، من حديث أبي هريرة، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٤)(٦٤)، وأبو داود (٤٧٦٠)، والترمذي (٢٢٦٥)، وأحمد (٢٦٥٢٨)، وابن أبي شيبة ١٥/٧١، وأبو يعلى (٦٩٨٠)، والطبراني في الكبير ٢٣/٧٦١ و٧٦٢، والبيهقي في السنن ٣/٣٦٧، عن أم سلمة رضي الله عنها.

قال حذيفة: إياكم ومواقف الفتن، قيل: وما هي؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه.

وقال سعيد بن المسيّب: إذا رأيتم العالم يَغشى الأمراء فإنه لص، فاحترزوا منه.

وما أحسن قول بعض السلف: إنك لا تُصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك أفضل منه.

ومن صفات علماء الآخرة أن لا يتسرّعوا إلى الفتوى<sup>(١)</sup> وأن لا يُفتوا<sup>(٢)</sup> إلا بما يتيقنون صحته من غير تردّد، وقد كان السلف يتدافعون الفتاوى حتى يُرجع إلى الأول. قال عبد الرحمن بن أبي ليلى: أدركت في هذا المسجد<sup>(٣)</sup> مئة<sup>(٤)</sup> وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ ما منهم أحد يُسأل عن حديث أو فتوى إلا ودّ أن أخاه كفاه ذلك.

وكتب سلمان إلى أبي الدرداء: بلغني أنك قد أقيمت طبيباً، فاحذر أن تقتل مسلماً.

وكان ابن عمر رضي الله عنه إذا سُئل يقول: سلوا سعيد بن المسيّب. وكان مالك كثيراً ما يقول: لا أدري. وكان النخعي إذا سُئل عن مسألة بكى، وقال: لم تجدوا غيري.

ثم قد آل الأمر إلى إقدام أقوام - يدعون العلم اليوم - على الجواب في مسائل لو عرّضت لعمر بن الخطاب لجمع لها أهل بدر واستشارهم.

ومن صفات علماء الآخرة: أن يكون جُلّ اهتمامهم بمداواة الباطن والدلالة على طريق الآخرة، وأن يكثر اهتمامهم بتقوية اليقين، واليقين عرفان حاصل

(١-١) سقط من (ظ).

(٢) يعني المسجد النبوي في المدينة المنورة.

(٣) تحرفت في (ظ) إلى: «مئتين».

بالبرهان الذي لا يُشكُّ فيه، ولا يتصور التشكيك فيه، مثل وجود القديم، فإن العامة تُثبت قديماً على وجه الاعتقاد، ولا تعرف البرهان على ذلك، والعلماء يعرفون ذلك يقيناً؛ لأنهم يقولون: قد ثبت حدوث<sup>(١)</sup> المُحدثات، ولا يجوز حدوثها بلا سبب، فثبت وجود القديم ضرورة، فصار علمهم بذلك يقيناً، ومن ثمرات اليقين أن يرى الموقن جميع الأسباب من المُسبب، وأن الأسباب مُسخرّة لا حكم لها، بل هي كاليد والقلم في حق من يُوقّع له بنعمة. وأن ينصب الجزاء الموعود به بين يديه كأنه يراه، وأن الله يراه في كل حال، فيوجب هذا صدق المراقبة، وحسن الأدب، وحراسة الخواطر، فيكون كالجالس بين يدي ملكٍ معظّم، وهذا المقام يورث الحياء والخوف والخضوع والدّل، وكل خلة من هذه تورث أنواعاً من الطاعات.

ومن صفات علماء الآخرة: أن يكونوا أرباب حُزنٍ وانكسار وصمت، فتظهر عليهم الحُشية، فيعرفون بسماهم بخلاف علماء الدنيا الذين ليس عندهم ما يكف عن فقهية وتشدقٍ وبطرٍ، وقد روي عن علي رضي الله عنه أنه قال في حُطبة له: ذمتي رهينة وأنا زعيم، لا يهيج على التقوى زرع قوم، ولا يظماً على الهدى سنخ أصل، وإن أجهل الناس من لا يعرف قدره، وإن أبغض الخلق إلى الله تعالى رجلٌ قَمَش<sup>(٢)</sup> علماً حتى إذا ارتوى من ماء آجن وأكثر من غير طائل، جلس للناس مفتياً لتخليص ما التبس على غيره، وإن نزلت به إحدى المُهمّات هيأ حشو الرأي من رأيه، فهو من قطع الشبهات في مثل عزل العنكبوت لا يدري أخطأ أم أصاب، ركب جهالات، خباط عشوات، لا يعتذر مما لا يعلم فيسلم، ولا يعرض على العلم بضررٍ قاطع فيغنم، تبكي منه الدماء وتُستحلُّ بقضائه الفروج الحرام.

ومن صفات علماء الآخرة: أن يكون أكثر بحثهم في علم الأعمال عن ما يفسدها، ويكدر القلوب، ويهيج الوسوس، فإن صور الأعمال قريبة، وإنما التعب

(١) في (ظ): «حدث».

(٢) قَمَشَ علماً: أي جمعه من هنا وهناك.

في تصفيتها، وأصل الدين التَّوَقِّي من الشَّرِّ، ولا يصح أن يُتَوَقَّى حتى يُعْرَف، كما قال حذيفة: كان الناسُ يسألون رسولَ الله ﷺ عن الحَير، وأنا أسأله عن الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ أَقَعَ فِيهِ.

فالعناية بمقامات القلب وأحواله هو دأب علماء الآخرة؛ لأن القلب هو الساعي إلى قُرب الله عزَّ وجل، وقد صار هذا العلم مهجوراً غريباً حتى لو عرض به عالم قيل: هذا كلام الوعاظ. وسبب أكثر نفور الخلق منه أنه مُباينٌ لِطَبَاعِهِمْ شاقٌّ على أسماعهم؛ لأنه يأمر بمخالفة الهوى.

ومن صفات علماء الآخرة: البحث عن أسرار الأعمال الشرعية، والملاحظة لحكمها؛ لأن المقتصر على صور المنقولات وعاء، والباحث<sup>(١)</sup> عن العلل عالم، فإن عجز عن الاطلاع على العلة كَفَاهُ التسليم للشرع.

ومن صفاتهم: اتباع الصَّحابة وخيار التابعين، وتوقِّي كل مُحدث، وقد قال حذيفة: إنَّ مَعْرُوفَكُم اليَوْم منكَرُ زمانٍ قَدْ مَضَى، وإنَّ منكَرَكُم اليَوْم مَعْرُوفُ زمانٍ ما أتى. وهذا قولٌ صحيح، فإن من محاسن المعروف في زماننا زُخْرُفَةُ المساجد والمصاحف، وقراءة الألحان، والتشغل بدقائق الجدَل، والتكشف في النِّظَافَةِ، وتقدير الأسباب البعيدة في نجاسة الثياب مع التَّساهل في حِلِّ الأَطْعَمَةِ وتَحْرِيمِهَا إلى غير ذلك من البِدَع.

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الباعث».

## الباب السابع

### في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه بيان شرف العقل من جهة النقل

أخبرنا علي بن محمد بن أبي عمر قال: أخبرنا علي بن الحسين بن أيوب قال: أخبرنا عبد الغفار بن محمد المؤدب قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مخلد الجوهري، قال: حدثنا الحارث بن محمد بن أبي أسامة قال: حدثنا داود بن المحبر قال: حدثنا عباد بن كثير عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس أنه دخل على عائشة رضي الله عنها، فقال: يا أم المؤمنين أرايت الرجل يقلّ قيامه ويكثر رُقادَه، وآخر يكثر قيامه ويقلّ رقادَه أيهما أحب إليك؟ قالت: سألتُ رسول الله ﷺ كما سألتني فقال: «أحسنهما عقلاً» فقلتُ: يا رسول الله، إنما أسألك عن عبادتهما. فقال: «يا عائشة إنهما لا يُسألان عن عبادتهما إنما يُسألان عن عقولهما، فمن كان أعقل كان أفضل في الدنيا والآخرة»<sup>(١)</sup>.

أخبرنا ابن ناصر قال: أخبرنا الحسن بن أحمد قال: أخبرنا أبو الحسن أحمد بن علي قال: أخبرنا عبد الباقي قال: حدثنا بشر بن موسى قال: حدثنا منصور بن صُقَيْر قال: حدثنا موسى بن أعين عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل يكون من أهل الصيام، وأهل الصلاة، وأهل الحج، وأهل الجهاد فما يُجزى يوم القيامة إلا بقدر عقله»<sup>(٢)</sup>.

(١) موضوع، وأورده ابن عراق في تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعية ١/ ١٧٦، والمصنف في الموضوعات ١/ ١٧٦، والشوكاني في الفوائد المجموعة ٤٧٧، وقال الدارقطني: كتاب العقل وضعه أربعة أولهم ميسرة.

(٢) أورده ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٢٠٣، وقال: رواه الخطيب في تاريخه ١٣/ ٧٩ من حديث ابن عمر، ولا يصح. وأخرجه المصنف في الموضوعات ١/ ١٧٢، والذهبي في

أخبرنا محمد بن أبي منصور قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا أحمد بن عبد الله الأنماطي قال: أخبرنا أحمد بن الحسين المروزي قال: أخبرنا أحمد بن الحارث قال: حدثنا جدي محمد بن عبد الكريم قال: حدثنا الهيثم بن عدي قال: حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن عبد الرحمن بن سابط عن ابن عباس قال: «لما خلق الله العقل قال له: أدبر فأدبر، ثم قال له: أقبل فأقبل، فقال: وعزتي ما خلقت خلقاً قط أحسن منك، فبك أعطني، وبك آخذ، وبك أعاقب»<sup>(١)</sup>.

وقال وهب بن منبه: إني وجدت في بعض ما أنزل الله على أنبيائه: إن الشيطان لم يكابد شيئاً أشد عليه من مؤمن عاقل، وأنه يكابد مئة جاهل فيستجرهم حتى يركب رقابهم، فينقادون له حيث شاء، ويكابد المؤمن العاقل فيصعب عليه حتى ينال منه حاجته.

وقال معاذ بن جبل: لو أن العاقل أمسى وأصبح وله ذنوبٌ بعدد الرمل، كان وشيكاً بالسلامة والنجاة والتخلص منها، ولو أن الجاهل أمسى وأصبح وله من الحسنات وأعمال البرّ عدد الرمل، لكان وشيكاً أن لا يسلم له منها مثقال ذرة، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن العاقل إذا زلّ تدارك ذلك بالتوبة والعقل الذي قسم له، والجاهل إنما هو بمنزلة الذي يبني فيهدم فيأتيه من جهله ما يفسد صالح عمله. وقال الحسن: لا يتم دين الرجل حتى يتم عقله، وما أودع الله امرءاً عقلاً إلا استنقذه به يوماً ما.

= ميزان الاعتدال (٨٧٨)، والشوكاني في الفوائد المجموعة: ٤٧٥، وابن أبي الدنيا في كتاب العقل: ١٢، وابن حبان في المجروحين ٣/٤٠، وقال ابن معين: هذا الحديث باطل.

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٢/٣٩٠ و٦/١٤ من حديث أبي هريرة، وأورده ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/٢٠٣، والشوكاني في الفوائد المجموعة: ٤٧٧، والمصنف في الموضوعات ١/٧٤، والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/٢٨، والزبيدي في الإتحاف ١/٤٥٥.

## بيان شرف العقل من جهة المعنى

بيان شرف العقل أمرٌ ظاهر؛ لأن العقل مَنبَع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة، والنور من الشمس، وكيف لا يَشْرَف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة، وكيف يشك في ذلك والبهائم تحترم العاقل لشعورها بفضلها واحتياله، ولذلك ترى الأتراك والأكراد وأجلاف الخلق مع قُرب رتبهم من البهائم يوقِّرون المشايخ بالطبع، وقد تبين آثار العقل على وجه العاقل فيصير له بذلك سَمْتُ وَسِيمَا، ولهذا أذعن كثيرٌ من المعاندين لرسول الله ﷺ بنفس رؤيته، وقال عبد الله بن سلام: لَمَّا رَأَيْتُهُ عَلِمْتُ أَن وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ.

## بيان حقيقة العقل وأقسامه

اختلف الناس في حَدِّه وحقيقته، وذهل الأكثرون عن كون هذا الاسم ينطلق بالاشتراك على أربعة معانٍ، كما يُطلق اسم العين مثلاً على معانٍ عدة وما يجري هذا المجرى، فلا ينبغي أن يطلب لجميع أقسامه حدٌّ واحدٌ بل يفرد كل قسم بالكشف عنه.

فالأول: الوصف الذي به يفارق الإنسان البهائم، وهو الذي به استعدَّ لقبول العلوم النظرية وتدبير<sup>(١)</sup> الصناعات الحَفِيَّة الفِكْرِيَّة، وهو الذي أراده الحارث المُحَاسِبِي حين قال في حَدِّ العقل: إنه غريزة يتهيأ بها دَرَك العلوم النظرية، وكأنه نور يُقذف في القلب، به يستعد لإدراك الأشياء.

والثاني: ما وضع في الطباع من العلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين، وهذا الذي عناه بعضهم بقوله في حد العقل: إنه بعض العلوم الضرورية، وهو صحيح في نفسه؛ لأن هذه العلوم موجودة، وتسميتها عقلاً ظاهراً، وإنما الفاسد أن تُنكَّر تلك الغريزة، ويقال: لا موجود إلا هذه العلوم.

(١) سقطت من (ظ).

والثالث: علوم تُستفاد من التجارب تُسمى عقلاً.

والرابع: أن تنتهي قوة الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها، وإذا حصلت هذه القوة سُمي صاحبها عاقلاً من حيث أن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذا من خصائص الإنسان التي بها يتميز عن سائر الحيوانات.

فالأول هو الأصل، والثاني الفرع الأقرب إليه، والثالث فرع الأول والثاني، إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تُستفاد علوم التجارب، والرابع هو الثمرة الأخيرة والغاية القصوى.

والأول هو المراد بقوله ﷺ: «ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل»<sup>(١)</sup>.  
والأخير هو المراد بقوله: «إذا تقرب الناسُ بأبواب البر، فتقرب أنت بعقلك»<sup>(٢)</sup>.

وهذه العلوم كأنها مضمنة في تلك الغريزة بالفطرة، ولكنها تظهر إلى الوجود إذا جرى سبب يُخرجها إلى الوجود، كالدهن في اللوز وماء الورد في الورد، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] والمراد به: إقرار نفوسهم لا إقرار ألسنتهم، فإنهم انقسموا في إقرار الألسنة لما وجدت، ولذلك قال: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] أي: إن كل آدمي فطر على الإيمان بالله ومعرفة الأشياء على ما هي عليه ثم من الناس من أعرض فنسي، وهم الكفار، ومنهم من أجال خاطره فذكر، فكان كمن حُمِّلَ شهادة فنسيها ثم تذكرها، ولهذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢] و﴿وَلِيَذَكَّرَ أُولَئِىَ الْأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم: ٥٢] وهذا تذكر

(١) أورده العراقي في المغني عن حمل الأسفار ١/٨٥ و٣/١٦، وقال: رواه الحكيم الترمذي في النوادر بإسناد ضعيف من رواية الحسن البصري. وذكره الزبيدي في الإتحاف ١/٤٦١ و١/٧٠. والفُتني في تذكرة الموضوعات: ٢٩.

(٢) أورده الذهبي في ميزان الاعتدال (٦٢٥) في ترجمة أحمد بن المفضل الكوفي، وقال: قال الأزدي: منكر الحديث. وذكره الزبيدي في الإتحاف ١/٤٧٥.

صورة كانت في النفس مُضمنة بالفطرة ومن لم تكن بصيرته الباطنة ثابتة لم يعلق به من الدين إلا فُشوره وأمثله دون لُبابه وحَقائقه .

### بيان تفاوت الناس في العقل

التفاوت يتطرق إلى ثلاثة أقسام من الأربعة المتقدمة، ولا يتطرق إلى القسم الثاني، وهو العلم الضروري بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، فأما القسم الرابع؛ وهو استيلاء القوة على قَمع الشهوات، فلا يخفى تفاوت الناس فيه، وهذا التفاوت قد يكون لتفاوت الشَّهوة، وقد يكون لتفاوت العلم المُعرَّف لغائِلَةِ تلك الشهوة، ولهذا يقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأطعمة المُضِرَّة ولا يقدر من يساويه في العقل إذا لم يكن طبيياً، وكذلك يقدر العالم من ترك المعاصي على ما لا يقدر العامي، وقد يكون التفاوت في غريزة العقل، فإنها إذا قويت كان قَمعها للشهوة أشد، وهذه الغريزة كنور يُشرق على النفس، وتكون مبادئ إشراقه عند سن التمييز، ثم لا يزال ينمى ويزداد نمواً خفيّاً التَّدرِج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة، كما أن أوائل الصبح تخفى، ثم تتدرج إلى الوضوح إلى أن يكمل قرص الشمس، وكيف ننكر تفاوت الغريزة ولولاه ما اختلف الناس في فهم العلوم، ولما انقسموا إلى بليد لا يفهم بالتفهم، وإلى زكي يفهم بأدنى رمز وإشارة، وإلى كامل تنبعث من نفسه حقائق الأمور دون التعليم ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥] وذلك مثل الأنبياء صلوات الله عليهم، إذ تتضح لهم في باطنهم أمور غامضة من غير تعلُّم وسماع، ويعبر عن ذلك بالإلهام، وفي مثل هذا <sup>(١)</sup> قال ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي» <sup>(٢)</sup>.

(١-١) سقط من الأصل.

(٢) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١١٥١)، والبغوي في شرح السنة ٣٠٤/١٤، وابن عبد البر في التمهيد ٤٠٦/١٤ من حديث ابن مسعود.



## كتاب قواعد العقائد

وفيه أربعة فصول:

### الفصل الأول

#### في ترجمة عقيدة أهل السنة

الحمدُ لله الذي وفق أهل السنة لحسن الاعتقاد، وسلك بهم منهج الهدى والرشاد، وحفظهم من شك في العقائد وترداد، فعرفوه قديماً بلا بداية، مستمرّ الوجود بلا نهاية، لا يُشبهه المصنوعات بحال، ولا يُدرَك عرفانه بحسن ولا خيال، فلا بالتشبيه قالوا، ولا إلى التّعطيل مالوا، ولا عن حكم المنقول والمعقول زالوا.

أحمده حمد من ينزّهه عن شَبّه، وأوحده توحيداً خالياً عن شَبّه، وأصلي على خاتم أنبيائه وأكرم أصفِيائه، وعلى أصحابه وأتباعه وأزواجه وأشياعه وأسلم.

أما اعتقادُ أهل السنة، فهو: أن الله سبحانه موجود، واحد لا شريك له، فردٌ لا مثل له، صمدٌ لا ضدَّ له، مُتَفَرِّدٌ لا نِدَّ له، قديمٌ لا أول له، أزليٌ لا بداية له، مستمرُّ الوجود لا آخر له، وأنه ليس بجسم، ولا يماثل الأجسام لا في التقدير و لا في قبول الانقسام، وأنه ليس بجوهر، ولا تحلُّه الجواهر، ولا بعرض، ولا تحله الأعراض، ولا يماثل موجوداً، ولا يماثله موجود، وليس كمثله شيء، وأنه مُسْتَوٍ على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراد، استواءً منزهاً عن المماسّة والحلول، لا يحمله العرش، بل العرش وحملته محمولون بلطيف قُدرته ومقهورون في قبضته، وأنه لا يحل في شيء، ولا يحل فيه شيء، ولا تحلُّه الحوادث، ولا تعتريه العوارض، ولا يتغير، وأنه مرئي يراه المؤمنون في الجنة، وهو حي قادر

لا يعتريه عجز، ولا تأخذه سنّة ولا نوم، وأنه عالم بجميع المعلومات، لا يعزّب عنه مثقال ذرة<sup>(١)</sup> «في الأرض ولا في السماء»<sup>(١)</sup>، يعلم السرّ وأخفى، ويطلع على هواجس<sup>(٢)</sup> الضّمائر وحركات الخواطر، وخفّيات السرائر بعلم قديم لم يزل موصوفاً به، وأنه مريدٌ للكائنات، مديبرٌ للحادثات، فلا يجري أمرٌ إلاّ بقضائه وقدره وحُكمه ومشيّته، وأنه سميعٌ بصير لا يعزّب عن سمعه مسموع وإن خفي، ولا يغيب عن رؤيته مرئي وإن دقّ، وأنه متكلمٌ بكلام قديم وكلامه مسموع لقوله: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. وأنه خلق الخلق وأعمالهم، وقدّر أرزاقهم وآجالهم، وأنه يُثيبُ عباده على الطاعات بحكم الوعد والكرم، لا بحكم الاستحقاق واللزوم، إذ لا يجب عليه فعل، ولا يتصوّر منه ظلم، وأنه بعث النبيّ محمداً ﷺ إلى الخلق كافة، فنسخَ بشرعه الشرائع إلا ما قرره، وفصله على سائر الأنبياء، فيجب على العبد امتثال ما أمر به وتصديقه فيما وعد به بعد الموت من سؤال مُنكرٍ ونكيرٍ، وعذاب القبر، والميزان، والحساب، والصراط، والحوض، والشفاعة، وأن يعتقد فضلَ أبي بكرٍ ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم، وأن يُحسن الظن بجميع الصحابة، ويثني عليهم، فهذا مُعتقد أهل السنة<sup>(٣)</sup>.

## الفصل الثاني

### في وجه التدرّج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد

ينبغي أن يحفظ الصبي ما ذكرناه في المعتقد في أول نشوئه، فإذا ترعرع فهمه اعتقده، ثم أيقن به وصدقه، ولا تزال أدلّة القرآن وحججه تزيد هذا الاعتقاد عنده رسوخاً، كما ينمي<sup>(٤)</sup> البذر بالسقي والتربية، وينبغي أن يُصان سمعه عن الجدل

(١-١) سقط من (ظ).

(٢) هَجَس الشيء في صدره يَهْجَس: خطر بباله، أو هو أن يُحدّث نفسه في صدره مثل الوسواس. القاموس المحيط: (هجس).

(٣) ورد في هامش (ظ) ما نصه: «هذا مذهب السلف الصالح وما صحّ عن الرسول ﷺ، وما لا يصح يُترك ولا يُعتقد».

(٤) في (ظ): «يثمر».

والكلام غاية الحراسة، فإن ما يفسده الجدل أكثر مما يصلحه، خصوصاً للقلب الضعيف، فإن اشتغل الصبي بكسب الدنيا، ولم يُقبل على سلوك طريق المعاملة فقد يسلم في الآخرة بما اعتقد؛ لأن الشرع لم يكلف أجلاف العرب أكثر من التصديق الجزم بالظواهر، ولم يكلفهم البحث والتفتيش ونظم الأدلة، وإن سلك طريق الآخرة وساعده التوفيق على استعمال الرياضة والمجاهدة انفتحت له أبواب من الهدى تكشف له حقائق هذه العقيدة بنور إلهي يُقذف في قلبه بسبب المجاهدة، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] ومتى كان ممن له بحث ونظر، فسمع كلام أهل البدع، وعلقت بقلبه شبهة<sup>(١)</sup>، فينبغي أن يحذر عن مساكنتها، فإن لم يمكن، فليُنظر في كتابنا المسمى بمنهاج الوصول إلى علم الأصول<sup>(٢)</sup>، فإنه كافٍ.

### الفصل الثالث

#### في الإشارة إلى أدلة العقيدة التي ذكرناها

من تأمل وجود المخلوقات ونظر في ترتيبها المحكم علم قطعاً أنها لا تستغني عن موجد أوجدها وصانع دبرها، فإن الحادث لا يستغني في حدوثه عن سبب يحدثه، والعالم حادث، فلا يستغني عن مُحدث، ولو كان الخالق حادثاً لافتقر إلى مُحدث، فدل على أنه قديم، ولا يجوز أن ينعدم؛ لأن طريان العدم يحتاج إلى سبب كطريان الوجود، وما ثبت قَدَمه استحال عَدَمه، وليس بجوهر؛ لأن كل جوهر مختص بحيّزه، فهو ساكن فيه أو متحرك عنه، والحركة والسكون حادثان وما لا يخلو عن الحوادث حادث، وليس بجسم؛ لأن الجسم مؤلف، وإذا بطل كونه جوهرًا بطل كونه جسماً، وليس بعَرَض؛ لأن العَرَض ما يحل في الجسم، وقد كان قبل الأجسام، فكيف يحلها؟! فإذا لا يُشبهه شيء ولا يشبه شيئاً، وهو موصوف بالحياة؛ لأنه قد ثبت أنه عالم قادر، فتثبت بالضرورة حياته، وقد أخبر القرآن

(١) في (ظ): «شبهه».

(٢) تقدم الكلام عليه في الصفحة ٤٦.

بصفاته فَلْيُتْلَقَ منه، وذلك يكفي المبتدئ، وفي كتابنا المسمى بمنهاج الوصول ما يشفي في الأدلة من حيث المعنى في هذا وفي غيره مما ذكرناه متعلقاً بالأصول، فلم نَرِ التطويل ها هنا بذلك.

### الفصل الرابع

في ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما ووجه زيادة الإيمان ونقصانه. وكل ذلك مستوفى في كتابنا المسمى بالمنهاج، فليكتف بالإحالة عليه.



## كتاب أسرار الطهارة ومهماتهما

الحمد لله الذي بنى الأبدان على الأذران وأمر بالنظافة، وخلق الماء ذا رِقَّةٍ وقوةٍ ولطافة، وأكثر من إيجاده لعموم الحاجة إليه رحمةً ورأفةً.

أحمدته حَمْدَ من يعرف نِعْمه وألطافه، وأقر له بالتوحيد إقراراً سليماً من آفة، وأصلي على رسوله محمد الذي مَلَأَ بدعوته الكون وأكنافه، والعالم وأطرافه، وشفاه الضلال بالمحو فاستأصل منه الشأفة<sup>(١)</sup>، وعلى أصحابه أهل الفهم والعلم والظرافة، صلاةً تؤمن روعة المصلي عليهم يوم المخافة، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فقد أمر الله عز وجل بالطهارة، ومدح عليها، فقال عز وجل: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ كَأَبٍ وَإِلَى اللَّهِ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وفي أفراد مسلم من حديث أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «الطهور شَطْرُ الإِيْمَانِ»<sup>(٢)</sup>.

واعلم أن الطهارة لها أربع مراتب:

الأولى: تطهير الظاهر من الأحداث والأنجاس والفضلات.

والثانية: تطهير الجوارح من الذنوب والآثام.

(١) الشأفة: الأصل، يقال: استأصل الله شأفته، أي: أزاله من أصله. القاموس المحيط: (شأف).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣)، والترمذي (٣٥١٢).

والثالثة: تطهير القلب من الأخلاق المذمومة والردائل الممقوتة.

والرابعة: تطهير السرِّ عن ما سوى الله عز وجل، فهذا هو الغاية القصوى، فمن قويت بصيرته سَمَتَ<sup>(١)</sup> إلى هذا المطلوب، ومن عميت بصيرته لم يفهم من مراتب الطهارة إلا المرتبة الأولى، فتراه يُضيع أكثر زمانه الشريف في المبالغة في الاستنجاء وغَسَلَ الثياب ظناً منه بحكم الوسوسة وقلة العلم أن الطهارة المطلوبة هي هذه فقط، وجهلاً بسير المتقدمين واستغراقهم جميع الزمان في تطهير القلوب وتساؤلهم في أمر الظاهر حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه توضأ من جرة نصرانية<sup>(٢)</sup>، وكانوا لا يكادون يغسلون أيديهم من الزَّهْم<sup>(٣)</sup>، ويصلُّون على الأرض، ويمشون حفاة، ويقتصرون في الاستنجاء على الحجارة.

ثم قد انتهى الأمر إلى قوم يسمون الرُّعونة نظافة، ويقولون: هي من الدين، فأكثرُ زمانهم يمضي في تزيين الطواهر، وبواطنهم خراب محشوة بخبائث الكبر والعجب والجهل والرياء والنفاق، فلو رأو مقتصراً في الاستنجاء على الحجر أو حافياً يمشي على الأرض، أو مصلياً على بُواري<sup>(٤)</sup> المسجد من غير سجادة مفروشة، أو ماشياً على الفُرْش من غير غلافٍ للقدم، أو متوضئاً من آنية عجوز أقاموا في ذلك القيامة، وشددوا الإنكار، ولقبوه بالقَدِر، واستنكفوا من مؤاكلته، فسَمَّوا البذاذة<sup>(٥)</sup> التي هي من الإيمان قذاراً، والرُعونة نظافة، فانظر كيف كان المنكر معروفاً والمعروف منكراً.

فإن قال قائل: فما تقول فيما قد أحدثوه من هذه الأشياء أتدخل في المنكر أو في المباح؟

(١) سَمَتَ: قَصَدَ. القاموس المحيط: (سمت).

(٢) أخرجه الدارقطني في باب الوضوء بماء أهل الكتاب من كتاب الطهارة، سنن الدارقطني: ٣٢/١.

(٣) الزَّهْم: الرائحة التي تصيب اليد من الدسم. النهاية في غريب الحديث ٣٢٣/٢.

(٤) البواري، جمع بارية، وهي: الحصير المنسوج. القاموس المحيط: (بور).

(٥) البذاذة: رثاثة الهيئة والتواضع في اللباس.

فالجواب: إننا ننظر في كل شيء قد أحدثوه وفي المقصود به، فإن كان فعله مباحاً، وهو غير موجب لإسراف، والمقصود به زيادة النظافة لم يُنكَر، وإن كان موجِباً للإسراف؛ مثل استعمال الماء الكثير ثم اعتقد أن ذلك أصل الدين، فهذا منكر، وربما رأى العامي عالماً يُشَدِّد في الشَّيء فيظنه واجباً، وإن قصد به تزيين الظاهر لرؤية الخلق كان أفضح وأقبح، أخبرنا محمد بن أبي القاسم قال: أخبرنا حمد بن أحمد قال: أخبرنا أحمد بن عبد الله الحافظ قال: حدثنا أبو حامد بن محمد بن عبد الوهَّاب قال: حدثنا محمد بن إسحاق النيسابوري قال: حدثنا محمد بن الصباح قال: حدثنا حاتم - يعني بن إسماعيل - قال: حدثني جعفر عن أبيه أن علي بن الحسين قال: يا بُنَيَّ، لو اتَّخَذتَ [لي] <sup>(١)</sup> ثوباً للغائط، رأيتُ الذباب يقع على الشيء ثم يقع عليَّ، ثمَّ انتبه فقال: ما كان لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه إلا ثوبٌ <sup>(٢)</sup>.

### فصل

وينبغي للعالم بشرف الزمان أن لا يتفقه إلا في الأفضل، فإذا رأيتَ عالماً لا يلبس الثوب المقصور حتى يغسله مخافة أن يكون القصار قصر في الغسل، فهذا تدقيق لم يكن في الصحابة، فقد كانوا يصلُّون في ثياب الكفار إذا غنموها، ولا ينظرون في الاحتمالات الدقيقة في هذا الفن شحاً على الزمان وإنفاقاً له في الأفضل من النظر في دقائق المعاملات.

### فصل

وإذ قد بينا مراتب الطهارة فنحن نتكلم في نظافة الظاهر فحسب - فأما باقي المراتب، فستأتي في ربع المُنجيات وربع المُهلِكَات إن شاء الله تعالى - فنقول:

طهارة الظاهر ثلاثة أقسام:

أحدها: طهارة عن النَّجس.

والثاني: طهارة عن الحَدَث.

(١) ليست في النسخ، وهي من مصدر التخريج.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/ ١٣٣.

والثالث: طهارة عن فضلات البدن، كتقليم الأظفار والاستحداد، ونحو ذلك.

فأما القسم الأول: فإن غسل الأنجاس يجب سبغاً عندنا، ولا يُعفى عن يسير نجاسةٍ إلا أن تكون دماً أو قيحاً أو أثر استنجاء، واختلفت الرواية في ريق البغل والحمار وسباع البهائم وجوارح الطير وعرقهن، وبول الحُقَّاش، والنَّيِّذ، والمذي والمني، إذا قلنا: إنه نجس، فروي عن أحمد أنه لا يُعفى عن يسير ذلك، وروي عنه أنه كالدم، وجميع الدماء نجسة إلا الكبد والطحال ودم السمك، وفي دم البَق والبراغيث روايتان، ولترجع في معرفة الأنجاس إلى كتب الفقه، فإن هذا الكتاب إنما هو للآداب، ويندر ذكر الفقه فيه.

وأما القسم الثاني: هو طهارة الأحداث ففيه فصول:

## الفصل الأول

### فيه آداب قضاء الحاجة

ينبغي لمن أراد ذلك أن يبعد عن أعين الناظرين، وأن يستتر بشيء إن وجده، وإن كان معه شيء فيه ذكر الله تعالى أزاله، ويُقدم رجله اليسرى في الدخول واليمنى في الخروج، ويقول عند دخوله: بسم الله أعوذ بالله من الخُبث والخبائث، ومن الرَّجْسِ النَّجْسِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. ولا يكشف عورته قبل الوصول إلى موضع الجلوس، ويرتاد موضعاً رخواً لبوله لئلا يعود رشاشه عليه، ولا يستقبل الشمس ولا القمر ولا القبلة إذا كان في الفِضَاء، ولا يستدبرها، فإن كان بين البُنيان، فعلى روايتين، ويعتمد في جلوسه على رجله اليسرى وينصب اليمنى، ولا يبول في شَقِّ ولا سَرَبٍ<sup>(١)</sup>، ولا تحت شجرة مثمرة، ولا في ظل، ولا قارعة الطريق، ولا يتكلم، فإن عطس حمد الله بقلبه، وإذا انقطع البول مسح بيده اليسرى من أصل ذكره إلى رأسه، ثم يَنْثُرُهُ ثلاثاً، ولا يطيل المقام وأما ما قد أُلْفِه المتوسوسون من القيام والمشى والتَّنَحُّج الكثير ورفع رجلٍ وْحَطَّ أخرى، فإن ذلك يُضعف المثانة

(١) السرب: بيت يتخذه الوحش والديب في الأرض. اللسان: (سرب).

ويستجلب درور البول، وليس من الشريعة في شيء، وليرش المتوسوس على فرجه الماء ليدفع وسوسته إن عرضت.

وإن أراد الاستنجاء تحوّل عن موضعه، والاستنجاء واجب لكل ما يخرج من السبيلين إلا الريح، والأفضل أن يبدأ بالقُبْل، ويستجمر بالحجر ثم يتبعه الماء، وإن أراد الاقتصار على أحدهما فالماء أفضل، فإن عدل عن الماء إلى الحجر أجزاءه، ولا يُجزئ أقل من ثلاث مسحات، وإن حصل النقاء بدونها، فإن لم تزل العين بالثلاث زاد حتى ينقى، فإن حصل النقاء بالحجر بالربع أضاف إليه خامساً؛ لأنه يستحب الإيتار، وإنما يجوز الاستجمار إذا لم ينتشر الخارج إلى<sup>(١)</sup> المخرج إلا بقدر ما جرت به العادة، فإن انتشر إلى الصفحتين ومعظم الحشفة لم يُجزه غير الماء.

وصفة ما يجوز الاستجمار به أن يكون جامداً طاهراً مُنقياً غير مطعوم، لا حرمة له، غير متصل لحيوان، فيدخل في هذا الحجر وما قام مقامه من الخشب والخزف والخرق والتراب، ويخرج منه المأكولات والروث والرمة وإن كانا طاهرين؛ لأنهما من طعام الجن، وما فيه ذكر الله تعالى من الكاغد<sup>(٢)</sup> وغيره.

فأما صفة الاستجمار فعلى أي وجه حصل الإنقاء جاز، غير أن المستحب عند أكثر أصحابنا أن يُمرَّ حجراً من مُقدّم صفحته اليمنى إلى مؤخرها، ثم يُديره على اليسرى حتى يرجع به إلى الموضع الذي بدأ منه، ثم يُمرّ الثاني من مقدم صفحته اليسرى كذلك ثم يُمرّ الثالث على المسربة<sup>(٣)</sup> والصفحتين، وذهب الشريف أبو جعفر<sup>(٤)</sup> إلى أنه يعمُّ بكلّ حجرٍ جميع المحل؛ لأنه إذا لم يعمَّ كان تليقاً لا تكراراً،

(١) في (ظ): «عن».

(٢) الكاغد: القرطاس، وهي الصحيفة يكتب فيها.

(٣) المسربة: مجرى الغائط ومخرجه سميت بذلك لانسراب الخارج منها. الإنحاف للزبيدي ٥٤٦/٢.

(٤) هو عبد الخالق بن عيسى بن أحمد بن محمد العباسي الهاشمي البغدادي، إمام الحنابلة في عصره، صنف «رؤوس المسائل» و«شرح المذهب» و«أدب الفقه»، توفي سنة (٤٧٠هـ). طبقات الحنابلة ٢/٢٣٧.

وهذا اختيار ابن عقيل، ولا يستجمر بيمينه ولا يستعين بها في ذلك، ولا يُكره أن يستعين بها في استعمال الماء للحاجة إلى ذلك.

وقد تأملت في استعمال الماء صناعةً ما رأيتهَا في الكتب؛ وذلك أن حركة الكَفِّ في ذلك الدُّبر عند غسله ربما أصابت باطن جلد الأثنيين، وربما لم تأت الغسلة الثانية والثالثة على ما أصابته فيبقى نجسًا، فمن الاحتراز البداية بالقبْل، فإذا فرغ منه مدَّ جلده الأثنيين فجعلها بين الفخذ والبطن، فحينئذ ينكشف الدبر ويكفي فيه قليل الماء وتؤمن المخاطرة، فإذا فرغ ذلك يده بالحائط أو بالأرض ليزيل أثر الرائحة، فإذا خرج قال: «غُفرانك»<sup>(١)</sup>، «الحمدُ لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني»<sup>(٢)</sup>.

## الفصل الثاني

### في ذكر الوضوء

من المستحب لمن أحدث أن يتطهر ليستديم الطهارة، أخبرنا ابن الحصين قال: أنبأنا ابن المذهب قال: أنبأنا أحمد بن جعفر قال: أنبأنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يزيد بن الحباب قال: حدثني حسين بن واقد قال: أخبرني عبد الله بن بريدة قال: سمعتُ أبي يقول: أصبح رسول الله ﷺ فدعى بلالاً، فقال: «يا بلال بَمَ سَبقتني إلى الجنة؟ ما دخلتُ الجنة قط إلا سمعتُ خَشْخَشَتَكَ»<sup>(٣)</sup> بين يدي قال: ما أحدثتُ إلا توضأت وصليت ركعتين، فقال رسول الله ﷺ: «بهذا»<sup>(٤)</sup>.

وينبغي لمن أراد الوضوء أن يستقي الماء لنفسه، فقد روينا من حديث عمر بن

(١) أخرجه الترمذي (٧) من حديث عائشة

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٠١) من حديث أنس.

(٣) هي حركة لها صوت كصوت السلاح.

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٩٩٦)، والترمذي (٣٦٨٩)، وابن أبي شيبة (١٢/١٥٠)، وابن حبان

(٧٠٨٦)، و(٧٠٨٧)، والطبراني في الكبير (١٠١٢)، وابن أبي عاصم في السنة (١٢٦٩).

الخطاب أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ يستقي ماء لوضوئه، فبادرت أستقي له فقال: «مه يا عمر إني لا أريد أن يُعيني على صلاتي أحد»<sup>(١)</sup>.

وينبغي للمتوضىء تقديم السواك، وينوي بذلك تطهير فمه للذكر، أخبرنا عبد الأول قال: أنبأنا الداودي قال: أنبأنا ابن أعين السرخسي قال: أخبرنا الفِرْبَرِيُّ قال: حدثنا البخاري قال: أنبأنا عبد الله بن يوسف قال: أنبأنا مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لولا أن أشقَّ على أمتي - أو على الناس - لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة». وأخرجه مسلم أيضاً<sup>(٢)</sup>. وأخرجنا من حديث حذيفة قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يشوصُ فاه بالسواك<sup>(٣)</sup>. قال أبو عبيد: الشَّوْصُ والمَوْصُ: العَسَلُ. وقال ابن الأعرابي الشَّوْصُ: الدَّلْكُ والمَوْصُ: العَسَلُ.

وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «السَّوَاكُ مَطْهَرَةٌ للِّفْمِ، مَرَضَةٌ للرب عز وجل»<sup>(٤)</sup> وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «أمرت بالسواك حتى ظننت - أو حسبت<sup>(٥)</sup> - أنه سينزل عليَّ فيه قرآن»<sup>(٦)</sup>.

ويُستحب السواك عند كل وضوء، وعند كل صلاة، وعند تغيُّر النكهة بالنوم أو طول الأزم<sup>(٧)</sup> أو أكل ما تكره رائحته.

ويكون السواك عرضاً بعدوِّ أراك أو زيتون أو عرجون، ويكون يابساً قد نُدِّيَ بالماء، ويكره أن يَسْتَاكَ بما يتفتَّت في الفم أو يجرحه، فإن استاك بإصبعه أو بخرقةٍ لم يُصِبِ السُنَّةَ، وقيل: قد أصاب.

- (١) أخرجه أبو يعلى (٢٣١)، والبخاري (٢٦٠)، وذكره الهيثمي في المجمع ١/٢٣٧.
- (٢) أخرجه البخاري (٨٨٧)، ومسلم (٢٥٢)، وأبو داود (٤٦)، والترمذي (٢٢)، وأحمد (٧٨٥٣)، والنسائي في الكبرى (٣٠٤٢)، وابن ماجه (٢٨٧).
- (٣) أخرجه البخاري (٢٤٥)، ومسلم (٢٥٥) (٤٧).
- (٤) أخرجه أحمد (٧) و(٦٢)، وأبو يعلى (١٠٩) و(١١٠)، والمروزي (١٠٨) و(١٠٩).
- (٥) ليست في (ظ).
- (٦) أخرجه ابن أبي شيبة ١/١٧١، وأحمد (٢١٢٥)، وأبو يعلى (٢٣٣٠).
- (٧) الأزم: ترك الأكل. القاموس المحيط: (أزم).

فإذا جلس للوضوء نوى رفع الحدث أو الطهارة لكل أمرٍ لا يُستباح إلا بالطهارة، كالصلاة والطّواف ومسّ المصحف، ويستحب أن يأتي بالنية عند غسل يده فإن أخرجها إلى حين المضمضة جاز، ثم يعقب النية بالتسمية وهي واجبة، في أصح الروایتين، وفي الأخرى: هي سنة، ويغسل كفيه ثلاثاً، فإن كان قد قام من نوم الليل كان غسلهما ثلاثاً واجباً في إحدى الروایتين ينوي له ويُسمى، وفي الأخرى: سنة.

ثم يتمضمض ويستنشق ثلاثاً، فإن شاء جمع بينهما بغرفة، وإن شاء أفرد، ويبالغ فيهما إلا أن يكون صائماً، ثم يغسل وجهه ثلاثاً، وحثّ الوجه من منابت الشعر إلى ما انحدر من اللّحيين والدّقن طولاً، ومن وتد الأذن إلى وتد الأذن عرضاً، فإن كان عليه شعر كثيف لم يجب غسل ما تحته لكن يُستحب تخليله، وإن كن يصف البشرة وجب، ويجب غسل العذار<sup>(١)</sup> والعارض وما استرسل من اللّحية، ثم يغسل يديه إلى المرفقين ثلاثاً، ويدخل المرفقين في الغسل، ثم يمسح رأسه فيبدأ بيديه من مقدمه ثم يمرهما إلى القفا، ويعيدهما إلى الموضع الذي بدأ منه، ويمسح أذنيه بماء رأسه، وهل يستحب أخذ ماء جديد لهما؟ على روايتين. واستيعاب الرأس بالمسح واجب في أصح الروایتين، وفي الأخرى يجب مسح أكثره، ويستحب تكرار مسح الرأس في أصح الروایتين، ولا يستحب مسح العنق في أصح الروایتين، ثم يغسل رجليه ثلاثاً، ويدخل الكعبين في الغسل، وهما العظمان الناتان في آخر الساق ويُخلل بين أصابعه، ويبدأ بيمنى يديه ورجليه.

ويجب ترتيب الوضوء على ما ذكرنا، فإن<sup>(٢)</sup> لم يرتب لم يصح في الصحيح<sup>(٣)</sup> من المذهب، وعنه: أنه يصح<sup>(٤)</sup>.

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الإزار».

(٢) في (ظ): «فإن نكسه».

(٣) في (ظ): «المشهور».

(٤) ليست في الأصل.

وتفريق الوضوء إن كان يسيراً - وَحَدُّهُ أَنْ لَا يُتَشَفَّ مَا غَسَلَهُ قَبْلَهُ - لم يبطل، وإن كان فاحشاً أبطل في أصح الروايتين.

ويُكره الإكثار من الماء في الوضوء، فقد أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المُذَهَب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني محمد بن المثنى قال: حدثنا أبو داود قال: حدثنا خارجة بن مُصعب عن يونس بن عبيد عن الحسن عن يحيى<sup>(١)</sup> عن أبي عن النبي ﷺ أنه قال: «للوضوء شيطان يقال له: الوَلْهَان، فاتقوه - أو قال: فاحذروه»<sup>(٢)</sup>. قال عبد الله بن أحمد: وحدثني أبي قال: حدثنا قتيبة قال: حدثنا ابن لهيعة عن يحيى بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الجُبلي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ، مَرَّ بِسَعْدٍ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَقَالَ: «مَا هَذَا السَّرْفُ يَا سَعْدُ؟!» قال: أفي الوضوء سرف؟ فقال: «نعم، وإن كنتَ على نَهْرٍ جَارٍ»<sup>(٣)</sup>.

فأما تنشيف الأعضاء عند الفراغ من الوضوء<sup>(٤)</sup>، فليس بمستحب، وهل يُكره؟ فيه روايتان عن أحمد رضي الله عنه<sup>(٥)</sup> فإذا فرغ من الوضوء استحبَّ له أن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فإنه قد روى مسلم في أفرادهِ من حديث عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحدٍ يتوضأ، فيبلغ أو فيسبغ الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا فُتحت له أبواب الجنة الثمانية»، وفي بعض الألفاظ: «وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»<sup>(٦)</sup>.

(١) تحرفت في النسخ إلى: «عُني». ويحيى هو ابن ضمرة السعدي.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٢٣٨)، والطيالسي (٥٤٧)، وابن ماجه (٤٢١)، والترمذي (٥٧)، وابن خزيمة (١٢٢)، وابن عدي في الكامل ٩٢٣/٣، والضياء في المختارة (١٢٤٧) و(١٢٤٩)، والحاكم ١/١٦٢، والبيهقي في السنن ١/١٩٧.

(٣) أخرجه أحمد (٧٠٦٥)، وابن ماجه (٤٢٥).

(٤) ليس في (ظ).

(٥) ليس في الأصل.

(٦) أخرجه مسلم (٢٣٤)، وأحمد (١٧٣١٤)، وابن أبي شيبة ٣/١ - ٤، وأبو عوانة ١/٢٢٤، والترمذي (٥٥)، والبيهقي في السنن ١/٧٨، والنسائي في الكبرى (١٤١).

فأما ما يذكره أقوام من الذُّكر عند غَسَل الأَعْضاء، كقولهم عند غَسَل الوجه: اللهمَّ بِيَضِّ وَجْهِي يَوْمَ تَسْوَدُّ فِيهِ وَجْوه. وعند غَسَل اليد: اللهمَّ أَعْطِنِي كِتَابِي بِيَمِينِي وَلَا تُعْطِنِيهِ بِشِمَالِي وَلَا مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي. وعند مَسْح الرَأْس: اللهمَّ أَظْلِلْنِي بِظِلِّ عَرْشِكَ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّكَ. وعند غَسَل الرِجْلَيْن: «اللَّهُمَّ ثَبِّتْ قَدَمِي عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزَلُ فِيهِ الْأَقْدَام». فإنه لم يَثْبِتْ عِنْدَنَا فِي ذَلِكَ سُنَّةً، فَلَذَلِكَ لَمْ نَذْكُرْهُ، وَإِنْ قِيلَ، فَلَا بِأَسْ بِهِ».

### ذِكْرُ مَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الْوُضُوءُ مِنْ وَاجِبٍ وَسُنَّةٍ

واجبات الوضوء عشرة: التَّيَّةُ، والتَّسْمِيَةُ، والمَضْمُضَةُ، والاستنشاق، وغَسَلُ الوجه، وغَسَلُ اليَدَيْنِ، ومَسْحُ جَمِيعِ الرَأْسِ، وغَسَلُ الرِجْلَيْنِ، والترتيب، والموالاة.

ومَسْنُونَاتُهُ عَشْرَةٌ: غَسَلُ اليَدَيْنِ قَبْلَ إِدْخَالِهِمَا الْإِنَاءَ، وَالسَّوَاكَ، وَالْمَبَالِغَةَ فِي الْمَضْمُضَةِ وَالاسْتِنْشَاقِ، وَتَخْلِيلِ اللَّحْيَةِ، وَغَسَلِ دَاخِلِ الْعَيْنَيْنِ، وَالْبَدَايَةَ بِالْيَمِينِ، وَأَخْذَ مَاءٍ جَدِيدٍ لِلْأُذُنَيْنِ، وَمَسْحَ الْعُنُقِ، وَتَخْلِيلَ مَا بَيْنَ الْأَصَابِعِ، وَالغَسْلَةَ الثَّانِيَةَ وَالثَّلَاثَةَ<sup>(١)</sup>.

### ذِكْرُ فَضَائِلِ الْوُضُوءِ

رَوَى مُسْلِمٌ فِي أَفْرَادِهِ مِنْ حَدِيثِ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ»<sup>(٢)</sup>. وَفِي أَفْرَادِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ أَوْ الْمُؤْمِنُ فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَتْ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَتْ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ

(١) ورد في هامش النسخة (ظ) ما نصه: «آخر الجزء الأول من أجزاء الشيخ المصنف».

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٥) (٣٣)، وأحمد (٤٧٦)، والبزار (٤٣٣)، وابن أبي شيبة ٧/١، وأبو عوانة ٢٢٩/١.

بَطَشْتَهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ الْمَاءِ، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذَّنُوبِ»<sup>(١)</sup>. وفي أفرادهِ مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ عَبَّسَةَ قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْوُضُوءِ. قَالَ: «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ ثُمَّ يَتَمَضَّمُ وَيَسْتَنْشِقُ وَيَنْتَشِرُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمَرْفَقَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَطْرَافِ أَنْفِهِ، ثُمَّ يَمْسَحُ بِرَأْسِهِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا قَدَمَيْهِ مِنْ أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ مَعَ الْمَاءِ»<sup>(٢)</sup>. وفي أفرادهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا أَدْلِكُمْ عَلَى مَا يَرْفَعُ اللَّهُ بِهِ الدَّرَجَاتِ وَيَمْحُو بِهِ الْخَطَايَا: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ»<sup>(٣)</sup>. وفي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ أُمَّتِي يُدْعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحْجَلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ»<sup>(٤)</sup>.

وَيَسْتَحِبُّ لِمَنْ تَوَضَّأَ أَنْ يَرْكَعُ رَكَعَتَيْنِ، فَقَدْ ذَكَرْنَا فِي أَوَّلِ الْفَصْلِ حَدِيثَ بَلَالٍ: مَا أَحْدَثْتُ إِلَّا تَوَضَّأْتُ وَصَلَّيْتُ رَكَعَتَيْنِ<sup>(٥)</sup>. وفي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ تَوَضَّأَ، وَقَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَوَضَّأَ نَحْوًا مِنْ وَضُوءِي هَذَا ثُمَّ قَالَ: «مَنْ تَوَضَّأَ وَضُوءِي هَذَا ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفْرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»<sup>(٦)</sup>. وفي أفرادِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ

(١) أخرجه مسلم (٢٤٤)، وأحمد (٨٠٢٠)، والترمذي (٢)، والدارمي (٧١٨)، وابن خزيمة (٤)، وابن حبان (١٠٤٠)، والبيهقي ٨١/١.

(٢) أخرجه مسلم (٨٣٢)، وأحمد (١٧٠١٩)، وأبو عوانة (٣٨٦/١)، والبيهقي في السنن (٨١/١) و٤٥٤/٢، وابن عبد البر في التمهيد ٥٣/٤.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥١)، وأحمد (٨٠٢١)، ومالك في الموطأ (١٦٦/١)، وابن حبان (١٠٣٨)، والبيهقي في السنن (٨٢/١).

(٤) أخرجه البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٦)(٣٥).

(٥) تقدم في الصفحة ٩٠.

(٦) أخرجه البخاري (٦٤٣٣)، ومسلم (٢٢٦) و(٢٢٧) و(٢٢٩).

قال: «ما من مُسلم يتوضأ فيُحسن وضوءه ثم يقوم فيصلّي ركعتين مقبلاً عليهما بقلبه ووجهه إلا وَجبت له الجنة»<sup>(١)</sup>.

## فصل

ونواقض الوضوء سبعة: الخارج من السبيلين سواء كان ظاهراً، كالريّح، أو نجساً، كالبول والدود، وسواء كان قليلاً أو كثيراً، نادراً أو معتاداً.

والثاني: خروج النجاسات من بقية البدن، فإن كانت بولاً أو عذرةً فلا فرق بين قليلها وكثيرها، وإن كانت غير ذلك لم ينقض قليلها ونقض كثيرها، وهو ما فحش في النفس.

والثالث: زوال العقل إلا بالنوم اليسير جالساً أو قائماً أو راکعاً أو ساجداً، وعن الإمام أحمد: أن نوم الراكع والساجد ينقض بكل حال، وعنه: أن النوم ينقض في جميع الأحوال إلا اليسير في حال الجلوس<sup>(٢)</sup>.

والرابع: أن تمس بشرته بشرة أنثى لشهوة، وفي نقض وضوء الملموس روايتان.

والخامس: مس فرج الآدمي قبلاً كان أو دبراً، كبيراً أو صغيراً، حياً أو ميتاً، وهل ينقض مس الذكر بالذراع؟ على روايتين، وعن الإمام أحمد: لا ينقض مس الفرج بحال.

والسادس: أكل لحم الجزور في أظهر الروايتين، فإن شرب من ألبانها، فعلى روايتين، فإن أكل من كبدها أو طحالها، فعلى وجهين.

والسابع: غسل الميت.

(١) أخرجه مسلم (٢٣٤).

(٢) ينظر شرح منتهى الإرادات لمنصور البهوتي ١/١٣٩.

## فصول في ذكر الغُسل<sup>(١)</sup>

### فصل فيما يوجب الغُسل

الموجب للغسل سبعة أشياء<sup>(٢)</sup>:

أحدها: خُروج المني على وجه الدَّفَق واللَّذة، فأما إذا خرج لمرضٍ أو إِبْرَدَةٍ<sup>(٣)</sup> لم يجب الغسل، فإن أحسَّ بانتقال المني عند الشهوة فأمسك ذكره فلم يخرج، وجب الغُسل في المشهور من الروايتين، فإن خرج بعد الغُسل، فهو كبقية المني إذا ظهر بعد الغُسل، وفي ذلك ثلاث روايات، إحداها: لا يجب الغُسل، والثانية: يجب، والثالثة: إن ظهر قبل البول وجب الغُسل، وإن ظهر بعده لم يجب.

والثاني: تَغْيِيب الحَشْفَةِ في الفرج، وسواء في ذلك القُبل والدبر من جميع الحيوان الناطق والبهيم الحي من ذلك والميت.

والثالث: إسلام الكافر سواء كان أصلياً أو مُرتدّاً، وقال أبو بكر<sup>(٤)</sup> من أصحابنا: هو مُستحب.

والرابع: الموت، فهذه الأربعة يشترك فيها الرجال والنساء، ويختص النساء بوجوب الغُسل من الحيض والنَّفَاس والولادة على أحد الوجهين.

### فصل

### في ذكر كيفية الغُسل

الغُسل على ضربين؛ كامل، ومُجزئ، فالكامل يأتي فيه بعشرة أشياء: النية،

(١) ليس في (ظ).

(٢) ليست في (ظ).

(٣) الإبردة: بردٌ في الجوف. القاموس المحيط: (برد).

(٤) هو أبو بكر عبد العزيز بن جعفر بن أحمد بن يزداد البغدادي المعروف بـغلام الخَلَال صَنَّفَ الشافي والتنبية وزاد المسافر، وغيرها، توفي سنة ٣٦٣ هـ. طبقات الحنابلة ٢/١٢٠.

والتسمية، وغسل اليدين ثلاثاً، وغسل ما به من أذى، والوضوء، وأن يحثي على رأسه ثلاث حثيات من الماء يُروِّي بها أصول شعره، ويفيض الماء على سائر بدنه ثلاثاً، ويدلك بدنه بيده<sup>(١)</sup>، ويبدأ بشقّه الأيمن، وينتقل من موضع غسله، فيغسل قدميه؛ لأنه إذا غسلهما ثم وضعهما على الأرض احتاج إلى غسلهما مرة أخرى وضاع الماء الأول.

والمُجزئ: أن يغسل فرجه، وينوي، ويسمي، ويعم بدنه بالغسل، وبأي مقدار من الماء أسبغ أجزأه، غير أنه يُستحب أن لا ينقص في الغسل من صاع، وفي الوضوء من مُد.

### ذكر الأغسال المستحبة

وهي ثلاثة عشر غسلًا: للجمعة، والعيدين، والكسوفين، والاستسقاء، ومن غسل الميت، وغسل المجنون والمُغمى عليه، إذا أفاقا من غير احتلام، وغسل المستحاضة لكل صلاة، والغسل للإحرام، ولدخول مكة، والوقوف بعرفة، وللمبيت بمزدلفة، ولرمي الجمار، والطواف.

### ذكر التيمم

من فقد الماء أو منعه من استعماله مانع، كسبع، أو جراح، أو كان يحتاج إلى شربه، أو لم يُبع إلا بزيادة كثيرة جاز له التيمم.

ولا يجوز أن يتيمم لفريضة حتى يدخل وقتها، ولا لنافلة في وقت النهي عن فعلها، فإذا تيمم صلى المكتوبة وقضى به فوائت إن كانت عليه ما دام الوقت<sup>(٢)</sup>، فإن كان بعض بدنه صحيحاً وبعضه جريحاً غسل الصحيح وتيمم للجريح، وإن كان معه ماء يسير<sup>(٣)</sup> يكفي بعض أعضائه استعماله وتيمم لما لم يُصِبْه الماء، وإذا كان

(١) ليست في الأصل.

(٢) ليست في (ظ).

(٣) ليست في (ظ).

معه إنآن نجسٌ وطاهر واشتَبها عليه أراقهما وتيمم، ومتى رجا وجود الماء استُحب له تأخير التيمم إلى آخر الوقت.

ويقصد الصعيّد الطيب، وهو التراب الطاهر الذي له غبار يعلق باليد، فإن خالطه ما لا يجوز التيمم به كالنُورة<sup>(١)</sup> والجِصّ، فحكمه حكم الماء إذا خالطته الطاهرات، وينوي بتيممه استباحة صلاة مفروضة، فإن نوى نفلاً أو أطلق النية لم يجز أن يُصلي به إلا النافلة، فإن كان جنباً وجب عليه أن ينوي الجنابة والحدّث، ثم يُسمي، وينزع خاتمه إن كان في يده خاتم، ويضرب بيديه وهما مُفَرَّجَتَا الأصابع ضربةً واحدةً على التراب، ويمسح وجهه بباطن أصابع يديه، وظاهر كفيه بباطن راحتيه. قال أبو الخطّاب: هذا هو المَسنون عند الإمام أحمد رحمه الله، وقال القاضي أبو يعلى: هذا صفة المجزئ، وإنما المَسنون أن يضرب ضربتين يمسح بإحدهما جميع ما يجب غسله من الوجه مما لا يشق، ويمسح بالأخرى يديه إلى المرفقين، فيضع بطن أصابع يده اليسرى على ظهور أصابع يده اليمنى، ويُمَرُّها على ظهر الكف، فإذا بلغ الكوع قبض أطراف أصابعه على حرف الذراع، ثم يُمرُّها إلى مرفقه، ثم يُدير بطن كفه إلى بطن الذراع ويُمَرُّها عليها، ويرفع إبهامه، فإذا بلغ الكوع أمر الإبهام على ظهر إبهام يده اليمنى، ثم يمسح بيده اليمنى يده اليسرى كذلك، ثم يمسح إحدى الراحتين بالأخرى ويخلل بين أصابعهما، ويجب ترتيب الوجه على اليدين والموالاة في إحدى الروايتين.

وأما القسم الثالث من النظافة، وهو: التَّنْظُف عن الفضلات الظاهرة، وهي نوعان: أوساخ تُزال، وأجزاء تُحذف.

فأما الأوساخ فثمانية:

الأول: ما يجتمع في شعر الرأس من الدَّرن والقمل، فيُستحب تنظيفه بالغسل والترجل والتدهين لإزالة الشَّعث، وقد كان رسول الله ﷺ يدهن الشعر ويُرجِّله

(١) النُورة: حجر الكلس، ثم غلبت على أخلاط تُضاف إلى الكلس من زرنِخ وغيره، وتُستعمل لإزالة الشعر. «المصباح المنير»: (نور).

ويأمر بذلك، ويقول: «ادّهنوا غبّاً»<sup>(١)</sup>. ورُوي أن رجلاً دخل عليه وهو نائر الرأس أشعث اللحية، فقال: «أما كان لهذا دهنٌ يُسكّن به شعره»<sup>(٢)</sup>.

الثاني: ما يجتمع من الوسخ في معاطف الأذن، والمسح يزيل ذلك، وما يجتمع في قعر الصّماخ، فينبغي أن ينظف برفق عند الخروج من الحمام، فإن كثرة ذلك ربما أضرّ بالسمع.

الثالث: ما يجتمع في داخل الأنف من الرطوبات، والاستنشاق والاستنثار يزيل ذلك.

الرابع: ما يجتمع على الأسنان وأطراف اللسان من القلح، والسّواك، والمضمضة يُزيلانه.

الخامس: ما يجتمع في اللحية من الوسخ والقمل، وإزالة ذلك بالغسل والتسريح، وقد كان رسول الله ﷺ لا يفارقه المشط والمدرى في سفرٍ ولا حضر<sup>(٣)</sup>. وكان ينظر في المرأة، وربما ظنّ الجاهل أن هذا من حب التزين المذموم وليس كذلك، لأن الإنسان لا يؤثر أن يرى إلا على وجه حسن، وإذا قصد ذلك كان قصده صحيحاً.

السادس: وسخُّ البراجم<sup>(٤)</sup>.

السابع: تنظيف الرّواجب، فإن الوسخ قد يجتمع فيهن، قال ابن الأنباري: البراجم عند العرب الفُصوص التي في فصول ظهور الأصابع تبدو إذا جُمعت وتغمض إذا بُسطت، والرواجب: ما بين البراجم بين كل برجتين راجبة.

الثامن: الدّرَن الذي يجتمع على جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق وذلك يزيله الحّمَام.

(١) قال الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٦٢٦/٢: وأما قوله: ادهنوا غبّاً. فقال ابنُ الصلاح: لم أجد له أصلاً، وقال النووي: غير معروف.

(٢) أورده الزبيدي في الإتحاف ٦٢٧/٢.

(٣) أورده الزبيدي في الإتحاف ٦٢٨/٢، والمدرى: المرأة.

(٤) البراجم: معاطف ظهور الأنامل.

## فصل

ولا بأس بدخول الحمام، فقد دخله جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، لكن على داخله صيانة عورته من نظر الغير إليها ولمسه إياها.

وينبغي للداخل أن يتحین وقت فراغ الحمام فإنه أستر إذ لو اجتمع فيه أهل خير ودين لم يؤمن في حركاتهم من انعطاف الأزر فيقع بصر بعضهم على عورة بعض.

وينبغي دخول الحمام بتدریج إلى أن يدخل إلى المكان الحار، وأن لا يصب من الماء إلا ما يحتاج إليه خصوصاً من الماء الحار؛ لأن كلفته أكثر، وأن يتذكر بحرارته حرّ النار، فإن فكرة المؤمن لا تزال تجول في كل شيء من أمور الدنيا، فتذكر به أمور الآخرة؛ لأن الغالب على المؤمن أمر الآخرة، وكل إناء ينضح بما فيه، ألا ترى أنه لو دخل بزّاز ونجّار وبنّاء وحائك إلى دار معمورة رأيت البزّاز ينظر إلى الفرش يتأمل قيمته، والحائك ينظر إلى نسج الثياب، والنجار إلى السقف، والبنّاء إلى الحيطان، وكذلك المؤمن إن رأى ظلمة ذكر ظلمة القبر، وإن سمع صوتاً هائلاً تذكر نفتح الصّور، وإن رأى نعيماً ذكر الجنة، وإن رأى عذاباً ذكر النار.

ولا يُسنُّ في الحمام سلام، ويكره دخوله قريباً من الغروب وما بين العشاءين، فإنه وقت انتشار الشياطين، ولا بأس بالتدليك والتغميز لكنه يمنع المدلك من مسّ عورته، وقد ذكرت مما يُستعمل في الحمام من جهة الطب في كتاب «لَقَطُ الْمَنَافِعِ» أشياء نافعة ليس هذا الكتاب موضعها، فلتطالع من ثمّ.

## فصل

وأما الأجزاء التي تحذف فثمانية أيضاً:

الأول: شعر الرأس، وما كان رسول الله ﷺ يحلق رأسه إلا في الحج، وكذلك أصحابه، وعامة العلماء بعدهم، واختلفت الرواية عن الإمام أحمد رحمه الله: هل يكره حلق الرأس أم لا؟ ويكره القرع، وهو: أن يحلق بعض الشعر ويترك بعضه.

**والثاني:** شعر الشارب، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «أحْفُوا الشَّوَارِبَ»<sup>(١)</sup>. وذلك يكون بالاستقصاء في القَصِّ، ولما كانت الفرس تُطيل شواربها وتَقْصُّ لحاها أمر رسول الله ﷺ بعكس ذلك فقال: «أحْفُوا الشَّوَارِبَ واعفوا اللَّحَى». وأما حلق الشارب فمكروه.

**الثالث:** شعر الإبط ويُستحب نَتْفَه، وقد كان الشافعي رحمه الله يقول: إني لأعلمُ أن السنَّة نَتْفَه، ولكني لا أقوى على ذلك. وإذا كان المقصود النظافة جاز خَلْعُه إما بالنُّورَة أو بالحديد.

**الرابع:** شعر العانة، ويُستحب حَلْقُه بالموسى أو بالنُّورَة، ولا يؤخر أكثر من أربعين يوماً.

**الخامس:** تقليم الأظفار، وفي ذلك تحسينٌ للصورة وإزالة للوسخ، وقد روي أن النبي ﷺ بدأ بمسبحة يده اليمنى إلى الخنصر، وابتدأ في اليسرى بالخنصر إلى الإبهام، حَتَمَ بإبهام اليمنى<sup>(٢)</sup>، فإن ثبتَ هذا عنه فوجهه أنه بدأ باليد؛ لأنها أشرف من الرجل، ثم باليمنى؛ لأنها أشرفُ من اليسار، ثم بالمسبحة؛ لأنها المشيرة بالتوحيد، ثم بما عن يمينها لاستحباب إدارة الظهور وغيره عن اليمين، ثم إذا وضعت الكف على الكف كانت في حكم دائرة فاقتضى ترتيب الدور البداية بخنصر اليسرى.

فأما أصابع الرجل، فالأولى أن يبتدئ بخنصر اليمنى ويختتم بخنصر اليسرى، كما في التخليل إذ لا مسبحة في الرجل.

فهذه الأسرار لا تكادُ تَقَعُ للعالم ابتداءً إنما يدركها الأنبياء بنور النبوة ثم تنبّه العلماء لاستنباط معانيها ليتحقق الفضل بين الوارث والموروث، فإن الموروث هو الذي حصل المالُ له فاستقلَّ بتحصيله، والوارث لم يُحصِّله ابتداءً إنما تلقَّاه من المُحصِّل.

(١) أخرجه البخاري (٥٨٩٣)، ومسلم (٢٥٩)(٥٢)، والنسائي في الكبرى (٩٢٩٤) وابن أبي شيبة ٥٦٤/٨، والترمذي (٢٧٦٣)، وأحمد (٤٦٥٤) من حديث ابن عمر.

(٢) يُنظر المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف ١/٢٥٢ - ٢٥٣.

السادس: زيادة السُرَّة، وذلك يُقَطَّع في أول زمان الولادة.

السابع: القُلْفَة، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الخِتَان سُنَّة، وهو عندنا واجب، وينبغي أن لا يبالغ في حَفْضِ المرأة<sup>(١)</sup>، فقد قال ﷺ لأم عطية وكانت تَحْفِضُ: «أشمي ولا تُتْهَكِي، فإنه أسرى للوجه، وأحظى عند الزوج»<sup>(٢)</sup> أي: أكثر لماء الوجه ودَمَهُ، وأجودُ في الجِماع، فانظر إلى ما لاحظهُ ﷺ من مصالح الدين والدنيا لتعلم أنه أُعْطِيَ الكمال.

الثامن: ما طال من اللِّحية، فقد كان ابنُ عمر في جماعةٍ يقبضون على لحاهم ويأخذون ما بعد القَبْضَة وكرهه آخرون لقوله: «اعفوا اللِّحي»، والأول أصح؛ لأن التكثر ينبغي أن يكون إلى حدٍ ولا يخرج إلى التَّشويه.

## فصل

ويُكره للإنسان نَتْف الشَّيب، والمَسنون خِضابه، وقد أمر رسول الله ﷺ بتغيير الشَّيب، فروى الزُّبير، وعبد الرحمن بن عوف، وابن عمر، وأبو هريرة، وأنس، وعائشة، وأسماء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «غَيِّروا الشَّيب»<sup>(٣)</sup>، وفي بعض رواياتهم: «ولا تَشَبَّهُوا باليهود والنَّصارى». وأمر ﷺ بالخِضاب؛ ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن اليهود والنَّصارى لا يَصْبغون، فخالفوهم»<sup>(٤)</sup>. وروى ابنُ عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «اِحْتَضِبُوا فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ

(١) الحَفْضُ للمرأة كالخِتَان للرجل.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨١٣٧)، والحاكم ٥٢٥/٣، من حديث الضحاك بن قيس.

(٣) أخرجه من حديث الزبير: أحمد في المسند (١٤١٥)، ومن حديث ابن عمر: النسائي ٨/١٣٧، ومن حديث أبي هريرة: الترمذي (١٧٥٢)، والبيهقي ٣١١/٧، ومن حديث أنس أحمد (١٣٥٨٨)، والبزار (٢٩٨٠). ومن حديث أسماء: أحمد (٢٦٩٥٦)، وابن حبان (٣٢٠٨)، والطبراني في الكبير ٢٤/٢٣٧، والحاكم ٤٦/٣، والبيهقي ١٢١/٩، ولم أقف عليه من حديث ابن عوف وعائشة.

(٤) أخرجه البخاري (٥٨٩٩)، ومسلم (٢٦٠٣)(٨٠).

لَتَسْتَبْشِرَ لَخَضَابِ الْمُؤْمِنِ»<sup>(١)</sup>. وروى صالح ابن الإمام أحمد بن حنبل قال: دخل على أبي رجلٍ قد خَضَبَ، فقال: إني لأرى الرجلَ يُحْيِي شَيْئاً مِنَ السُّنَّةِ فَأَفْرَحُ بِهِ<sup>(٢)</sup>.

فأما ما يُخَضَّبُ به فقد كان قومٌ يخضبون بالحناء والكتم، أخبرنا ابنُ الحصين قال: أخبرنا ابن المذهب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي قال: حدثنا سَلَامُ بن أبي مُطِيع عن عثمان بن عبد الله بن مَوْهَب، قال: دَخَلْنَا عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَأَخْرَجَتْ إِلَيْنَا شَعْرًا مِنْ شَعْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَخْضُوبًا بِالْحِنَاءِ وَالكَتْمِ<sup>(٣)</sup>. وكذلك<sup>(٤)</sup> روى أبو رَمْثَةَ قال: كان رسول الله ﷺ يَخْضُبُ بِالْحِنَاءِ، وَالكَتْمِ<sup>(٥)</sup>. وكذلك<sup>(٦)</sup> كان يفعلُ أبو بكرٍ الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبو عُبيدة، وواثلة رضي الله عنهم، وكان آخرون يختضبون بالحناء البَحْتِ، أخبرنا علي بن عبيد الله قال: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد الصَّرِيفِينِي قال: أخبرتنا أُمَّةُ السَّلَامِ بنتُ أحمد بن كامل، قالت: أخبرنا محمد بن إسماعيل البُنْدَارِ، قال: أخبرنا أحمد بن عبد الله بن علي بن سُويد بن منجوف، قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، قال: حدثنا سفيان عن إِيَادِ ابن لَقِيط عن أبي رَمْثَةَ، قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَرَأَيْتُهُ قَدْ لَطَخَ لِحْيَتَهُ بِالْحِنَاءِ<sup>(٦)</sup>. وقد روينا عن عمر بن الخطاب، وُضْهِيب، وأبي هُرَيْرَةَ، وعبد الله بن أبي أَوْفَى، وأنس بن مالك أنهم كانوا يَخْضُبُونَ بِالْحِنَاءِ، وفعله من كبار التابعين ومن بعدهم محمد ابن الحَنْفِيَّةِ، وعطاء، وابن سيرين، وعمرو بن دينار، وجعفر بن محمد

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء ١/٦٦، وقال: كذب موضوع.

(٢) المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف ١/٢٦٤.

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٩٦) و(٨٥٩٨)، وأحمد (٢٦٥٣٥)، وابن ماجه (٣٦٢٣)، والطبراني في الكبير ٢٣/٧٦٥.

(٤-٤) سقط من (ظ).

(٥) أخرجه أحمد (١٧٤٩٧)، والطبراني في الكبير ٢٢/٧٢٦، والبيهقي في دلائل النبوة ١/

(٦) أخرجه أبو داود (٤٢٠٨).

وَمَنْصُورُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ، وَالثُّورِيُّ، وَابْنُ مَهْدِيٍّ، وَأَبُو سَلِيمَانَ الدَّارَنِيُّ، وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي آخِرِينَ.

وَكَانَ آخَرُونَ يَخْضِبُونَ بِالضُّفْرَةِ؛ أَخْبَرَنَا ابْنُ الْحَصِينِ قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ الْمَذْهَبِ قَالَ: أَخْبَرَنَا الْقَطِيعِيُّ، قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، قَالَ: حَدَّثَنَا مَالِكٌ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ جَرِيحٍ أَنَّهُ قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، رَأَيْتَكَ تَصْبِغُ بِالضُّفْرَةِ. فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَصْبِغُ بِهَا، فَأَنَا أَحَبُّ أَنْ أَصْبِغَ بِهَا. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ عَنْ عُبَيْدِ قَالَ: رَأَيْتُ ابْنَ عَمْرٍو يُصَفِّرُ لِحْيَتَهُ، فَقُلْتُ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُصَفِّرُ لِحْيَتَهُ<sup>(٢)</sup>. وَمِمَّنْ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَانَ، وَمَعَاوِيَةُ، وَابْنُ عَمْرٍو، وَالْمِقْدَادُ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَالْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، وَأَنْسٌ، وَسَهْلُ بْنُ سَعْدٍ، وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فِي آخِرِينَ.

وَكَانَ آخَرُونَ يَخْضِبُونَ بِالسَّوَادِ مِنْهُمْ: الْحَسَنُ، وَالْحُسَيْنُ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَعُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَالْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، وَجَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ أَيْضاً، وَمِنْ كِبَارِ التَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ: عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ، وَعَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَمَوْسَى بْنُ طَلْحَةَ، وَأَبُو سَلْمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَالزَّهْرِيُّ، وَهَشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَالْمَنْصُورُ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَمِرِ، وَالْحِجَّاجُ بْنُ أَرْطَاةٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، وَابْنُ أَبِي لَيْلَى، وَأَيُّوبُ السَّخْتِيَانِيُّ، وَأَبُو عُبَيْدِ الْقَاسِمِ بْنِ سَلَامٍ فِي آخِرِينَ.

وَإِنَّمَا يُكْرَهُ هَذَا إِذَا قُصِدَ بِهِ التَّدْلِيسُ، فَإِذَا سَلِمَ مِنْ تَدْلِيسٍ، فَلَا بَأْسَ بِهِ.

### آخِرُ كِتَابِ الطَّهَارَةِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٦٦) وَ(٥٨٥١)، وَمُسْلِمٌ (١١٨٧) (٢٥).

(٢) يَنْظُرُ التَّخْرِيجَ السَّابِقَ.



## كتاب أسرار الصلاة ومهماتهما

الحمد لله الذي لا حاجب له يرشئى، ولا وزير يُؤتى، ولا باب يُغلق عن من يناجي أو يطلب قوتاً، من شاء دخل عليه بالصلاة فقد هيأ لها بيوتاً جعل المتفل بها محبوباً، وكتب التارك لفرضها ممقوتاً ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، أحمدُه حمداً من إذا سجد اقترب، وأصلي على رسوله محمدٍ أشرف العجم والعرب، وعلى أصحابه وأتباعه ما دخل وقت فرضِ فوجب، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن الصلاة عماد الدين، وغرة الطاعات، ونحن نذكر ما لا بد للمريد منه من أعمالها الظاهرة وأسرارها الباطنة، ونكشف من دقائق معانيها الخفية في الخشوع والإخلاص والنية ما يصلح كشفه، فأما تفاريعها النادرة ووقائعها الشاذة، فإنما يؤخذ من كتب الفقه، وقد رتبنا هذا الكتاب سبعة أبواب:

الباب الأول: في فضائل الصلوات.

الباب الثاني: في تفصيل الأعمال الظاهرة من الصلوات.

الباب الثالث: في تفصيل الأعمال الباطنة منها.

الباب الرابع: في الإمامة والقدوة.

الباب الخامس: في صلاة الجماعة<sup>(١)</sup> وآدابها.

الباب السادس: في مسائل متفرقة تعم بها البلوى.

الباب السابع: في التَطَوُّعات.

(١) في (ظ): «الجمعة».

## الباب الأول

### في فضائل الصلوات والركوع والسجود والجماعة والأذان وغير ذلك

#### فضيلة الأذان والمؤذنين

قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣]، قيل: هو المؤذن، أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المذهب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الملك بن عمرو، قال: حدثنا هشام عن يحيى بن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا نُودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع الأذان، فإذا قُضي الأذان أقبل، فإذا ثُوبَ بها أدبر، فإذا قُضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء وقَلْبِهِ - أو قال: ونفسه - فيقول: اذكر كذا وكذا، لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لا يدرى كم صلى» أخرجاه في الصحيحين<sup>(١)</sup>. والتثويب ههنا الإقامة، كذلك قال الخطابي. وفي أفراد مسلم من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أذَّن المؤذن هرب الشيطان حتى يكون بالروحاء»<sup>(٢)</sup> وهي من المدينة على ستة وثلاثين ميلاً. أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا أبو علي بن المذهب، قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي قال: حدثنا ابن التميمي ويعلى قال: حدثنا طلحة - يعني بن يحيى - عن عيسى بن طلحة قال: سمعت معاوية يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن المؤذنين أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»

(١) أخرجه البخاري (٦٠٨)، ومسلم (٣٨٦)(١١).

(٢) أخرجه مسلم (٣٨٨).

انفرد بإخراجه مسلم<sup>(١)</sup>. وروى ابنُ عُمر عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَدَّنَ سَبْعَ سِنِينَ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بَرَاءَةً مِنَ النَّارِ»<sup>(٢)</sup>.

## رَفْعُ الصَّوْتِ بِالْأَذَانِ

أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المُذهب قال: حدثنا القَطِيعِي قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حَدَّثَنِي أَبِي قال: قرأتُ على عبد الرحمن: مالكُ عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة المازني عن أبيه أنه أخبره أن أبا سعيد قال له: إني أراك تُحبُّ الغنم والبادية، فإذا كنتَ في غنمك أو باديتك فأذنت بالصلاة، فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنُّ ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يومَ القيامة. قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله ﷺ. انفرد بإخراجه البخاري<sup>(٣)</sup>. وروى أبو داود في سننه من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤدَّنُ يُغفَرُ له مدى صوته، ويشهد له كل رطبٍ ويابسٍ»<sup>(٤)</sup>.

## إِجَابَةُ الْمُؤدَّنِ بِمِثْلِ قَوْلِهِ

أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثنا مُصعبُ الزبيري وعبد الله بن عون قالوا: حدثنا مالك بن أنس عن الزهري عن عطاء بن يزيد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمُ النَّدَاءَ فَقُولُوا كَمَا يَقُولُ الْمُؤدَّنُ» أخرجاه في الصحيحين<sup>(٥)</sup>. وفي أفراد مسلم من حديث عمر بن الخطاب قال: قال

(١) أخرجه مسلم (٣٨٧)(١٤).

(٢) أخرجه المصنف في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية (٦٦٧)، وقال: هذا حديث لا يصح.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٩)، و(٣٢٩٦)، و(٧٥٤٨). وهو في موطأ مالك ٦٩/١، ومسنَد الإمام أحمد (١١٣٠٥).

(٤) أخرجه أبو داود (٥١٥).

(٥) أخرجه البخاري (٦١١) ومسلم (٣٨٣)(١٠).

رسول الله ﷺ: «إِذَا قَالَ الْمُؤَذِّنُ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ أَحَدُكُمْ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، فَقَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، فَقَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ فَقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مِنْ قَلْبِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»<sup>(١)</sup>.

### ذَكَرَ مَا يُقَالُ عِنْدَ الْأَذَانِ مِنَ الدُّعَاءِ

أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أعين قال: أخبرنا الفِرْبَرِيُّ قال: حدثنا البُخَارِيُّ قال: حدثنا علي بن عيَّاش قال: حدثنا شعيب بن أبي حمزة عن مُحمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَةُ وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ، آتَ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ» انفرد بإخراجه البُخَارِيُّ<sup>(٢)</sup>. وفي أفراد مسلم من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مِنْ صَلَّيَ عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»<sup>(٣)</sup>.

### الدُّعَاءُ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ

أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المُذهب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي قال: حدثنا أسود وحسين بن

(١) أخرجه مسلم (٣٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٤).

(٣) أخرجه مسلم (٣٨٤).

محمد قالوا: حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن بُريد<sup>(١)</sup> بن أبي مريم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الدعاء لا يُرد بين الأذان والإقامة، فادعوا»<sup>(٢)</sup>. أخبرنا أبو القاسم الحريري، قال: أخبرنا أبو طالب العُشاري، قال: أخبرنا أبو الحسين بن سمعون قال: حدثنا أحمد بن محمد بن سَلْم الكاتب، قال: حدثنا حفص بن عمرو الرِّبالي، قال: حدثنا سَهْل بن زياد، قال: حدثنا سليمان التَّيمي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نودي بالصلاة فُتحت أبواب السماء، واستُجيب الدعاء»<sup>(٣)</sup>.

### فضيلة المسجد

أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي، قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الكبير بن عبد المجيد، قال: حدثنا عبد الحميد<sup>(٤)</sup>، يعني ابن جعفر، عن أبيه عن محمود بن لسيد عن عثمان بن عفان قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ بَنَى لَهِ مَسْجِدًا بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ»<sup>(٥)</sup> انفرد بإخراجه مسلم. وفي أفرادهِ من حديث أبي هُريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللهِ أَسْوَاقُهَا»<sup>(٦)</sup>.

وقال مالك بن دينار: لولا البُول ما خرجتُ من المسجد.

- (١) تصحفت في الأصل إلى: «يزيد».
- (٢) أخرجه ابن أبي شيبة ٢٢٦/١٠، وابن خزيمة (٤٢٧)، وأبو يعلى (٣٦٧٩)، وابن حبان (١٦٩٦)، وأحمد (١٢٥٨٤)، والترمذي (٢١٢).
- (٣) أخرجه الخطيب في تاريخه ٢٠٤/٨، والطيالسي (٢٢٢٠)، وابن أبي شيبة ٢٢٦/١٠، وأبو يعلى (٤١٠٩)، والطبراني في الدعاء (٤٨٥) و(٤٨٦).
- (٤) تحرفت في (ظ) إلى: «المجيد».
- (٥) أخرجه مسلم (٥٣٣).
- (٦) أخرجه مسلم (٦٧١).

## فضيلة الخطا إلى المساجد

روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ نَزْلاً كَلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ»<sup>(١)</sup>. وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ مَشَى إِلَى بَيْتٍ مِنْ بَيْوتِ اللَّهِ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ، كَانَتْ خُطْوَاتِهِ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً، وَالْأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً»<sup>(٢)</sup>. وفي لفظ آخر: «إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَرَفَعَهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةٌ»<sup>(٣)</sup>. وقال ابن مسعود: كُنَّا نُقَارِبُ بَنَ الْخُطَا. وفي أفراد مسلم من حديث أبي بن كعب قال: كَانَ رَجُلٌ لَا أَعْلَمُ رَجُلًا أَبْعَدَ مِنَ الْمَسْجِدِ مِنْهُ، وَكَانَ لَا تُخَطِّئُهُ صَلَاةٌ، فَقِيلَ لَهُ - أَوْ قُلْتُ لَهُ -: لَوْ اشْتَرَيْتَ حِمَارًا تَرْكَبُهُ فِي الظَّلْمَاءِ وَفِي الرَّمْضَاءِ، فَقَالَ: مَا يَسْرُنِي أَنْ مَنزِلِي إِلَى جَنْبِ الْمَسْجِدِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ يُكْتَبَ لِي مَمْشَايَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَرَجوعي إِذَا رَجَعْتُ إِلَى أَهْلِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ»<sup>(٤)</sup>. وقال ابن عباس: كَانَتْ الْأَنْصَارُ مَنَازِلَهُمْ بَعِيدَةً مِنَ الْمَسْجِدِ، فَأَرَادُوا أَنْ يَنْتَقِلُوا فَيَكُونُوا قَرِيبًا مِنَ الْمَسْجِدِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَنَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَرَهُمْ﴾ [يس: ١٢] فَقَالُوا: لَا بَلْ نَثَبْتُ مَكَانَنَا<sup>(٥)</sup>. أَخْبَرَنَا هِبَةُ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: حَدَّثَنَا هَاشِمٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا لَيْثٌ، قَالَ: حَدَّثَنِي سَعِيدٌ - يَعْنِي الْمَقْبُرِيُّ - عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَتَوَضَّأُ أَحَدٌ

(١) أخرجه البخاري (٦٦٢)، ومسلم (٦٦٩).

(٢) أخرجه مسلم (٦٦٦).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن ٦٢/٣.

(٤) أخرجه مسلم (٦٦٣).

(٥) أخرجه الطبري في التفسير ٤٠٩/١٦، والطبراني في الكبير (١٢٣١٠)، وابن ماجه

فِيْحَسِنُ وُضُوءِهِ، وَيُسَبِّغُهُ، ثُمَّ يَأْتِي الْمَسْجِدَ لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ فِيهِ، إِلَّا تَبَشَّشَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ كَمَا يَتَبَشَّشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِظَلْعَتِهِ»<sup>(١)</sup>.

### فضيلة الصَّفِّ الأول

أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المُذْهَب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي قال: قرأتُ على عبد الرحمن: مالك، عن سُمَيِّ، عن أبي صالح السَّمَان، عن أبي هريرة أن رسولَ الله ﷺ قال: «لو يعلم الناس ما في النداء والصفِّ الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا»<sup>(٢)</sup>، أخرجاه في الصحيحين.

### فضيلة المكتوبة

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] أخبرنا أبو الفتح الكروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر العُورَجِي قالوا: أخبرنا الجراحي قال: حدثنا المَحْبُوبِي قال: حدثنا الترمذي قال: حدثنا قُتَيْبَةُ قال: حدثنا اللَّيْثُ عن ابن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسولَ الله ﷺ قال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ؟ قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ. قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَاةِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا»<sup>(٣)</sup>، أخرجاه في الصحيحين. وقد روى جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «مَثَلُ الصَّلَاةِ الْخَمْسِ الْمَكْتُوبَاتِ، كَمَثَلِ نَهْرٍ جَارٍ بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَاتٍ»<sup>(٤)</sup>. وفي أفراد مسلم من حديث

(١) أخرجه ابن خزيمة (١٤٩١)، وأحمد (٨٠٦٥). والبَشُّ، قال ابن الأثير في النهاية ١/ ١٣٠: فَرَحُ الصَّدِيقِ بِالصَّدِيقِ، وَاللُّطْفُ فِي الْمَسْأَلَةِ وَالْإِقْبَالَ عَلَيْهِ، وَقَدْ بَشَّشْتُ بِهِ أَبَشُّ، وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ لِتَلْقِيهِ إِيَّاهُ بِبِرِّهِ وَتَقْرِيْبِهِ وَإِكْرَامِهِ.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٥)، ومسلم (٤٣٧).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

(٤) أخرجه مسلم (٦٦٨)، وابن أبي شيبة ٣٨٩/٢، وأحمد (١٤٤٠٨)، وأبو يعلى (١٩٤١).

عثمان عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ تَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ فَاسْبِغِ الوُضُوءَ، ثُمَّ مَشَى إِلَى الصَّلَاةِ المَكْتُوبَةِ، فَصَلَّاهَا مَعَ النَّاسِ أَوْ مَعَ الجَمَاعَةِ أَوْ فِي المَسْجِدِ، غَفَرَ اللهُ لَهُ ذُنُوبَهُ»<sup>(١)</sup>. وأُخْرِجَهُ بَلْفِظِ آخَرَ عَنِ عِثْمَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ أَمْرٍ مُسْلِمٍ تَحَضَّرَهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ فَيُحَسِّنُ وَضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يَأْتِ كَبِيرَةً، وَذَلِكَ الدَّهْرُ كُلُّهُ»<sup>(٢)</sup>. وَأُخْرِجَهُ بَلْفِظِ آخَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَطَهَّرُ، فَيُتِمُّ الطَّهَّارَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ، فَيَصَلِّي هَذِهِ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَاتٍ لِمَا بَيْنَهَا»<sup>(٣)</sup>. وَفِي حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَبْلَغَ الوُضُوءَ، ثُمَّ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، فَأَتَمَّ رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا والقِرَاءَةَ فِيهَا، قَالَتْ: حَفِظَكَ اللهُ كَمَا حَفِظْتَنِي، ثُمَّ يُصْعَدُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ وَلَهَا ضَوْءٌ وَنُورٌ فَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى اللهِ، فَتَشْفَعُ لِصَاحِبِهَا، وَإِذَا لَمْ يُتَمَّ وَضُوءُهَا وَلَا رُكُوعُهَا وَلَا سُجُودُهَا، وَلَا القِرَاءَةَ فِيهَا، قَالَتْ: ضَيَّعَكَ اللهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي، ثُمَّ أُصْعَدَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ وَعَلَيْهَا ظُلْمَةٌ فَعُلِّقَتْ دُونَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَلَقَّتْ كَمَا يُلْقَى الثُّوبُ الخَلْقُ، فَيُضْرَبُ بِهَا وَجْهُ صَاحِبِهَا»<sup>(٤)</sup>.

### فضيلة الجماعة

أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه بضعا وعشرين درجة»<sup>(٥)</sup>. قال أحمد: وقرأت على عبد الرحمن: مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ

(١) أخرجه مسلم (٢٣٢)(١٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٣١).

(٤) أورده المتقي الهندي في كنز العمال (١٩٠٥٣) ونسبه لسعيد بن منصور في سننه.

(٥) أخرجه البخاري (٤٧٧)، ومسلم (٢٧٢).

قال: «صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة»<sup>(١)</sup>. قال أحمد: وحدثنا أبو معاوية قال: حدثنا إبراهيم بن مسلم الهجري عن أبي الأحوص عن عبد الله<sup>(٢)</sup> قال: من سره أن يلقي الله عز وجل غداً مسلماً، فليحافظ على هؤلاء الصلوات المكتوبات حيث يُنادى بهن، فإنهن من سنن الهدى، وإن الله عز وجل شرع لنيكم سنن الهدى، وما منكم أحدٌ إلا وله مسجد في بيته، ولو صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ﷺ، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا مُنافقٌ معلومٌ نفاقه، ولقد رأيتُ الرجل يُهادى بين الرجلين حتى يُقام في الصف<sup>(٣)</sup>. انفراد بإخراج هذا الحديث مسلم واتفقا على الحديثين اللذين قبله.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء. وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوأً، ولقد هممتُ أن أمر بالصلاة فتقام، ثم أمر رجلاً يصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجالٍ معهم حُزْمُ الحطبِ إلى قوم يتخلفون عن الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار»<sup>(٤)</sup>. أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المذهب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا إسحاق بن يوسف قال: حدثنا سفيان عن أبي سهل يعني عثمان بن حكيم، قال: حدثنا عبد الرحمن بن أبي عمرة عن عثمان بن عفان قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى العشاء في جماعةٍ كان كقيام نصف ليلةٍ، وَمَنْ صَلَّى العشاء والفجر في جماعةٍ كان كقيام ليلةٍ»<sup>(٥)</sup> انفراد بإخراجه مسلم. وقد كان السلف يُبالغون في المحافظة على الجماعة، فروينا عن سعيد بن المسيب أنه قال: ما أذن منذ ثلاثين سنةً إلا وأنا في المسجد.

(١) أخرجه البخاري (٦٤٥)، ومسلم (٦٥٠)(٢٤٩).

(٢) يعني: ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٦٥٤) (٢٥٧).

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٤)، ومسلم (٦٥١)(٢٥٢).

(٥) أخرجه مسلم (٦٥٦).

## فضيلة السُّجود

أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا أبو علي التَّميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا الوليد بن مسلم قال: سمعتُ الأوزاعي يقول: حدثني الوليد بن هشام قال: حدثني مَعْدان بن طلحة اليَعْمري قال: لقيتُ ثوبان مولى رسول الله ﷺ، فقلتُ: أخبرني بعملٍ أعمله يُدخلني الله به الجنَّة، أو قال: قلت: بأحبِّ الأعمال إلى الله، فسكت، ثم سألته فسكت، ثم سألته الثالثة، فقال: سألتُ عن ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: «عليك بكثرة السجود، فإنه لا تسجد لله سجدةً إلا رفعك الله بها درجةً، وحطَّ عنك بها خطيئةً» قال مَعْدان: ثم لقيتُ أبا الدرداء فسألته، فقال لي مثل ما قال لي ثوبان. انفرد بإخراجه مسلم<sup>(١)</sup>. وفي أفرادهِ من حديث ربيعة بن كعب قال: كنت أبيتُ مع النبي ﷺ، فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي: «سَلْ» فقلت: أسألك مرافقتك في الجنَّة، قال: «أو غير ذلك؟» قلتُ: هو ذاك. قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود»<sup>(٢)</sup>. وفي أفرادهِ من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قرأ ابنُ آدم السَّجدة اعتزلَ الشيطانُ يبكي يقول: يا وَيلي أمر ابنُ آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرتُ بالسجود فأبيتُ فلي النار»<sup>(٣)</sup>. وفي أفرادهِ من حديث أبي هريرة أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجد، فأكثرُوا الدعاء»<sup>(٤)</sup>. وقال عمر بن الخطاب: لولا ثلاث لأحببتُ أن أكونَ قد لقيتُ الله عز وجل؛ لولا أن أضَعَ جبهتي لله عز وجل، أو أجلس في مجالس يُنتقى فيها طيب الكلام، كما يُنتقى جيّد التمر، أو أن أسيرَ في سبيل الله عز وجل. وقال كعب: إنَّ العبدَ ليحط عنه الخطايا ما دام ساجداً. وكان عليُّ بن عبد الله بن العباس يسجد كل يوم ألف سجدة فسُمِّي السَّجَاد. وقال سعيد بن جبيرة: ما آسى على شيءٍ من الدنيا إلا على السُّجود.

(١) أخرجه مسلم (٤٨٨).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٩)(٢٦).

(٣) أخرجه مسلم (٨١).

(٤) أخرجه مسلم (٤٨٢)(٢١٥).

## فضيلة الخشوع وجمع الهم في الصلاة

قد ذكرنا آنفاً من حديث عثمان بن عفان عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم تؤت كبيرة»<sup>(١)</sup>. ومن حديثه أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «من صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، غفر له»<sup>(٢)</sup>. وذكرنا عن عقبة بن عامر نحو ذلك<sup>(٣)</sup>. وقد أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المذهب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا شريح قال: حدثنا عبد العزيز - يعني الدراوردي - عن زيد بن أسلم عن زيد بن خالد الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى سجدتين لا يسهو فيهما غفر الله له ما تقدم من ذنبه»<sup>(٤)</sup>. وقال ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة والقلب ساوٍ. وكان ابن الزبير إذا قام في<sup>(٥)</sup> الصلاة كأنه عود من الخشوع، وكان يسجد فتنزل العصافير على ظهره ولا تحسبه إلا جذم حائط. وصلى يوماً في الحجر فجاء حجر قدأفة فذهب ببعض ثوبه فما انفتل. وقال ميمون بن جابان: ما رأيت مسلماً بن يسار ملتفتاً في صلاة قط، ولقد انهدمت ناحية من المسجد ففرع أهل السوق لهدمه وإنه لفي المسجد في صلاة فما التفت. وروى عنه ابنه عبد الله قال: كان أبي مسلم بن يسار إذا دخل المنزل سكت أهل البيت فلا يسمع لهم كلاماً وإذا قام يصلي تكلموا وضحكوا. وكان علي بن الحسين إذا توضأ اصفر لونه فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟!

(١) تقدم تخريجه في الصفحة ١١٤.

(٢) أخرجه البخاري (١٥٩) و(١٩٣٤)، ومسلم (٢٢٦) (٣).

(٣) تقدم في الصفحة ٩٥ - ٩٦.

(٤) أخرجه أحمد (٢١٦٩١).

(٥) في (ظ): «إلى».

أخبرنا المُحمَّدان: ابنُ ناصر وابنُ عبد الباقي قالا: أخبرنا حمَّد بن أحمد قال: أخبرنا أبو نُعيم الحافظ قال: أخبرنا عبد الله بن محمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: حدثني علوان بن الحسين الربيعي قال: حدثنا رباح ابن أحمد الهَرَوِي قال: مرَّ عصام بن يوسف بحاتم الأصم وهو يتكلم في مجلسه فقال: يا حاتم كيف تُصلي؟ قال حاتم: أقومُ بالأمر، وأمشي بالسَّكينة، وأدخُل بالتيَّة، وأكبر بالعظْمَة، وأقرأ بالتَّرتيل والتفكير، وأركعُ بالخُشوع، وأسجدُ بالتواضع، وأسلمُ بالسَّنة، وأسلمها بالإخلاص إلى الله تعالى، وأخاف أن لا تُقبَل مني. فقال: تكلم فأنت تُحسِنُ تُصَلِّي<sup>(١)</sup>.

## الباب الثاني

### في كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة

إذا قال المؤذن: قَد قامت الصلاة قامَ إلى الصلاة، ثم ينوي الصلاة بعينها، ويجوزُ أن يُقدم النية على التكبير بزمانٍ يسير بشرط أن لا يفسخها ويفتح الصلاة بقوله: اللهُ أكبرُ، ويمدُّ أصابعه، ويضم بعضها إلى بعض، ثم يرفع يديه مع ابتداء التكبير إلى منكبَيْهِ وإلى فروع أذنيه، فإذا انقضى التكبير حَطَّ يديه وأخذ بكفه الأيمن كوعه الأيسر ويجعلهما تحت سُرته، وعن الإمام أحمد: تحت صدره، وعنه أنه مُخَيَّر في ذلك وينظر إلى موضع سجوده، ثم يستفتح فيقول: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وبحمْدِكَ وتبارك اسمُكَ وتعالى جدُّكَ ولا إله غيرُكَ، ثم يستعيد فيقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم يقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، ولا يجهر بجميع ذلك، ثم يقرأ الفاتحة ويأتي فيها بإحدى عشرة تشديداً، فإذا ترك تشديداً منها أعاد، وإذا قال: ولا الضَّالِّين، قال: آمين، يجهر بها الإمام والمأموم فيما يجهر فيه بالقراءة، ثم يقرأ بعد الفاتحة سورة تكون في الصبح من طوال المفصل وفي المغرب من قصاره وفي بقية الصلوات من أوساطه.

ومن لا يحسن الفاتحة وضاق وقت الصلاة عن تعلُّمها قرأ بعدها في عدد الحروف فإن لم يُحسن إلا آية كررها بقدرها، ومن قرأ بما يخرج عن مصحف عثمان كقراءة ابن مسعود وغيره لم تصحَّ صلاته في إحدى الروايتين، ومن لم يُحسن شيئاً من القرآن بالعربية لكن قدر أن يُترجم عنه بلغةٍ أخرى لم يُجزه ذلك، ولزمه أن يقول: سُبْحَانَ اللَّهِ والحمدُ لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإن لم يُحسن شيئاً من الذكر وَقَف بقدر القراءة، ولا يكره قراءة آخر السُّور وأوساطها على أصحِّ الروايتين. ثم يرفع يديه ويركع مُكبِّراً حتى يَضَعَ يديه على ركبتيه، ويمدَّ ظهره مستوياً ويجعل رأسه حيال ظهره غير مرفوع ولا مخفوض،

ويجافي مرفقيه عن جَنِيه وقدرا الإجزاء أن يَنْحني حتى يمكنه مَسَّ ركبتيه بيديه، ويقول: سُبْحان ربي العظيم ثلاثاً، وهو أدنى الكمال، ثم يرفع رأسه قائلاً: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، ويرفع يديه، فإذا اعتدل قائماً قال: رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ مَلَأَ السَّمَاءَ وَمَلَأَ الْأَرْضَ وَمَلَأَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ. لا يزيد على ذلك، ثم يُكبر وَيَخِرُّ ساجداً، فيضع ركبتيه ثم يديه ثم جبهته وأنفه، ويجعل صدور أصابع قدميه على الأرض، والسجود على جميع هذه الأعضاء واجب إلا الأنف فإنه على روايتين. ولا يجب عليه مباشرة المصلّى بشيء من الأعضاء إلا الجبهة، فإنها على روايتين، ويُستحب له أن يُجافي عَضُدَيْهِ عَنِ جَنْبِيهِ وَبَطْنَهُ عَنِ فَخْذَيْهِ، ويضع يديه حذو منكبيه، ويفرق بين ركبتيه، ويقول: سُبْحانَ ربي الأعلى. ثلاثاً، وهو أدنى الكمال ثم يرفع رأسه مكبراً ويجلس مُفترشاً؛ وهو أن يفرش رجله اليسرى ويجلس عليها، وينصب اليمنى، ثم يقول: رَبِّ اغْفِرْ لِي. ثلاثاً، ثم يسجد السجدة الثانية مكبراً ويقول: سبحان ربي الأعلى. ثلاثاً<sup>(١)</sup>، ثم يرفع رأسه مُكبراً، وهل يجلس جلسة الاستراحة؟ على روايتين؛ إحداهما: لا يجلس، بل يقوم على صدور قدميه معتمداً على ركبتيه، والثاني: يجلس على قدميه وأَلْيَتَيْهِ، وَيَنْهَضُ مُكَبِّراً معتمداً على ركبتيه، ثم يصلي الركعة الثانية كذلك إلا أنه لا يَسْتَفْتَحُ ولا يَسْتَعِيدُ، فإن كانت صَلَاتُهُ رَكَعَتَيْنِ جَلَسَ مُفْتَرِشاً، وجعل يده اليمنى على فخذ اليمنى يقبض منها الخنصر والبِنصر، وَيُحَلِّقُ الإِبْهَامَ مَعَ الْوَسْطَى، ويشير بالسَّبَّاحَةِ في تشهده مراراً، ويبسط اليد اليسرى<sup>(٢)</sup> مضمومة الأصابع على الفخذ اليسرى، ويتشهد فيقول: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ الطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

ثم يصلي على النبي فيقول: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كما بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ. وعن الإمام أحمد رحمه الله أنه يقول:

(١) سقطت من الأصل.

(٢) تحرفت في (ظ) إلى: «اليمنى».

كما صَلَّيتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم . وكذلك : كما باركتَ على إبراهيم وآل إبراهيم .

ويُستحب له أن يستعيدَ من أربع ، فيقول : أعوذُ بالله من عذابِ القبر ، ومن عذاب النار ، ومن فِتنة المَسيح الدَّجال ، ومن فِتنة المَحيَا والممات .

ثم يدعو بما ورد في الأخبار؛ فمن ذلك أن يقول : اللهمَّ إني ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرةً من عندك ، وارحمني إنك أنت الغفورُ الرحيم ، اللهمَّ إني أسألكَ من الخيرِ كلِّه ما علمتُ منه وما لم أعلم ، وأعوذُ بك من الشرِّ كلِّه ما علمتُ منه وما لم أعلم ، اللهمَّ إني أسألكَ من خيرِ ما سألكَ عبادك الصالحون ، وأعوذُ بك من شرِّ ما استعاذ منه عبادك الصالحون ، اللهمَّ إني أسألكَ الجنةَ وما قرَّب إليها من قولٍ وعَمَلٍ ، وأعوذُ بك من النار وما قرَّب إليها من قولٍ وعَمَلٍ ، ربَّنَا آتِنَا فِي الدنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ .

ثم يسلم تسليمين ينوي بهما الخروجَ من الصلاة ، وهل نية الخروج واجبةٌ أم لا؟ على وجهين ، والتسليمتان واجبتان في إحدى الروايتين ، والأخرى : أن الثانية سُنة . وقدر الواجب : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ثم يستقبل المأمومين إن كان إماماً بوجهه بعد السلام في الفجر والعصر؛ لأنه لا صلاةَ بعدهما ، ويقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، اللهمَّ اجعل خيرا أعمارنا آخرها ، وخيرا أعمالنا آخرها ، وخيرا أيامنا يوم لقائك . ويدعو بما يجوز من أمر الدين والدنيا .

وإن كانت الصلاة رباعية أو مغرباً جلسَ بين الركعتين مُفترشاً ، ولم يزد على التشهد فإن نسي التشهد وقام إلى ثالثةٍ رجع إن لم يكن قد انتصب قائماً ، وإن انتصب لم يُستحب له الرجوع ، فإن شرع في القراءة لم يَجْزُ له الرجوع ، ثم يُصلي بقية صلاته مثل الركعة الثانية إلا أنه لا يقرأ شيئاً بعد الفاتحة ، ويجلس في تشهده الثاني مُتوركاً يفرش رجله اليسرى ، وينصب اليمنى ، ويخرجهما من تحته إلى جانب يمينه ، ويجعل أَلْيَمِيه على الأرض .

## ذِكْرُ مَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ مِنْ وَاجِبٍ وَمَسْنُونٍ

للصلاة شرائط، وأركان، وواجبات، ومسنونات، وهيئات: فشرائطها: ما يجب لها قبلها، وهي سِتٌّ: دُخُولُ الْوَقْتِ، وَالطَّهَارَةُ، وَالسَّتَارَةُ، وَالْمَوْضِعُ، وَاسْتِقْبَالُ الْقِبْلَةِ، وَالنِّيَّةُ.

### وأركانها خمسة عشر:

القيام، وتكبيرة الإحرام، وقراءة الفاتحة، والركوع، والطمأنينة فيه، والاعتدال، والطمأنينة فيه، والسجود، والطمأنينة فيه، والجلوس بين السجدين، والطمأنينة فيه، والتَّشْهَدُ الْأَخِيرُ، والجلوس له، والصلاة على النبي ﷺ، وترتيبها على ما ذكرنا.

وواجباتها تسعة: التكبير غير تكبيرة الإحرام، والتَّسْمِيعُ والتحميد في الرفع من الركوع، والتسبيح في الركوع والسجود مرةً مرةً، وسؤال المغفرة في الجلسة بين السجدين مرةً، والتشهد الأول، والجلوس له، ونية الخروج من الصلاة في سلامه.

ومسنوناتها أربعة عشر: الاستفتاح، والتَّعُوذُ، وقراءة بسم الله الرحمن الرحيم، وقول: آمين، وقراءة السورة بعد الفاتحة، وقول: ملء السماء، بعد التحميد، وما زاد على التسبيحة الواحدة في الركوع والسجود وعلى المرة في سؤال المغفرة، والسجود على الأنف، وجلسة الاستراحة على إحدى الروايتين، والتَّعُوذُ، والدعاء بعد الصلاة على النبي ﷺ في التَّشْهَدِ الْأَخِيرِ، ودعاء القنوت في الوتر، والتسليم الثانية في رواية.

وهيئاتها: مسنونات أيضاً إلا أنها صفات في غيرها، فلذلك سميت: هيئات، وهي خمس وعشرون: رَفْعُ الْيَدَيْنِ عِنْدَ الْاِفْتِتَاحِ وَالرُّكُوعِ وَالرَّفْعِ مِنْهُ، وَإِرْسَالُهُمَا بَعْدَ الرَّفْعِ، وَوَضْعُ الْيَمِينِ عَلَى الشَّمَالِ، وَجَعْلُهُمَا تَحْتَ السَّرَةِ، وَالنَّظْرُ إِلَى مَوْضِعِ السُّجُودِ، وَالجَهْرُ وَالْإِسْرَارُ بِالْقِرَاءَةِ وَبِأَمِينٍ، وَوَضْعُ الْيَدَيْنِ عَلَى الرُّكْبَتَيْنِ فِي الرُّكُوعِ، وَمَدُّ الظَّهْرِ وَمُجَافَاةُ عَضُدَيْهِ عَنِ جَنْبَيْهِ فِيهِ، وَالبداية بوضع الركبة ثم اليد

في السجود، ومُجافاة البطن عن الفخذين والفخذين عن الساقين فيه، والتفريق بين الركبتين، ووضع اليدين حذو المنكبين فيه، والافتراش في الجلوس بين السجديتين والتشهد الأول، والتورك في التشهد الثاني، ووضع اليد اليمنى على الفخذ اليمنى مقبوضة محلقة، والإشارة بالسباحة، ووضع اليسرى على الفخذ مبسوطة.

ومن أخلَّ بشرطٍ لغير عُذرٍ لم تنعقد صلاته، فإن ترك ركناً فلم يذكره حتى سلّم بطلت صلاته، سواء تركه عمداً أو سهواً.

وإن ترك واجباً عمداً بطلت صلاته<sup>(١)</sup>، وإن تركه سهواً سجد للسهو، وإن ترك سنةً أو هيئةً لم تبطل صلاته بحال<sup>(٢)</sup>، وهل يسجد للسهو؟ يُخرَجُ على روايتين.

### فصل

واعلم أن مثل الصلاة كالإنسان، فإنه لا يكون إنساناً كاملاً إلا بوجود أعضاء ظاهرة، ومعنى باطن وهو الروح، فمن الأعضاء ما يعدم الإنسان إذا عدم، كالقلب والكبد والدماع، ومنها ما لا يعدم بعدمه، ولكنه يُفوتُ بعض المقاصد، كالعين واليد والرجل، ومنها ما لا يُفوتُ عدمه الحياة ولا مقاصدها، ولكنه يُفوتُ الحُسن، كالحاجبين واللحية والأهداب، ومنها ما لا يُفوتُ عدمه أصل الحُسن، بل كماله، كتقويس الحاجبين وسواد الشعر، فكذلك الصلاة أركانها تجري مجرى أصول البدن، وهي: القلب والكبد والدماع، وواجباتها تجري مجرى العين واليد والرجل، وإن كان تعمد ترك الواجبات يُبطلُ، لكنها تنقص عن مرتبة الأركان في أن ترك تلك يُبطل كيف كان، ولا تُجبر بخلاف هذه. ومسنوناتها تجري مجرى الحاجبين واللحية والأهداب. وهيئاتها تجري مجرى تقويس الحاجبين وسواء الشعر.

وروح الصلاة النية، والإخلاص، والخشوع، وحضور القلب.

(١) سقطت من الأصل.

(٢) سقطت من (ظ).

## الباب الثالث

### في الشروط الباطنة من أعمال القلب

واعلم أن جميع العبادات ما عدا الصلاة قد لا يقدر فيها عدم حضور القلب؛ لأن الابتلاء بها يحصل مع عدم حضوره، كالحج؛ فإنه أفعال شاقة وإن لم يحضر القلب، والزكاة؛ فإنها إخراج مالٍ محبوبٍ، والصوم؛ فإنه تركُ شهوات النفس.

فأما الصلاة، فإنها تشتمل على أذكارٍ ومُناجاةٍ وأفعالٍ، ومع عدم حضور القلب لا يحصل المقصود بالأذكار والمناجاة؛ لأن النطق إذا لم يُعرب عما في الضمير كان هدياناً، وكذلك لا يحصل المقصود من الأفعال؛ لأنه إذا كان المقصود من القيام الخدمة، ومن الركوع والسجود الذل والتعظيم، ثم كان القلب غائباً عن ذلك لم يحصل المقصود، كما لو كان بين يدي الإنسان صنم وهو غافل عنه لجاز أن يُقال إنه مُعظَّم للصنم، فلما لم يقل ذلك دلَّ على أن العمل على القصد بالفعل، ومتى خرج الفعل عن مقصوده بقي صورةً لا اعتبار بها، وقد قال الله عز وجل:

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ النُّفُوسُ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

والمقصود: أن الواصل إلى الله عز وجل هو الوصف الذي استولى على القلب حتى حمل على امتثال الأوامر المطلوبة.

فإن قيل: أفتبطل الصلاة مع غيبة القلب؟ قلنا: لا بد من حضورٍ في الدخول في الصلاة ينسحب حكمه على باقيها، فتسامح<sup>(١)</sup> الشرع في غفلة تظراً، وأوجب سجود السهو فيما وقعت الغفلة عن الإتيان به، فالحضور حين الدخول كرمق الروح في البدن، وبقدر قوته تنبسط الروح في آخر الصلاة، وبقدر ضعفه تضعف قوى ذلك الحي، وكم قد رأينا من حيٍّ لا حراك به.

(١) في (ظ): «فسامح».

## بيان المعاني الباطنة التي بها تتم حياة الصلاة

هذه المعاني تكثر العبارات عنها، ولكن تجمعها ستُّ جُمْل: حُضُورُ القلب، والتَّفْهَم، والتَّعْظِيم، والهِبَةُ، والرَّجَاء، والحياء.

فلنذكر تفصيلها<sup>(١)</sup>، ثم أسبابها، ثم العلاج في اكتسابها:

### ذكر التفاصيل

الأول: حضور القلب: ونعني به: أن يُفْرغ القلب عن غير ما هو ملابس له.

والتَّفْهَم لمعنى الكلام أمر وراء حُضُور القلب، فربما كان القلب حاضراً مع اللفظ غير حاضر مع معنى اللفظ، واشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذي نُريدُ بالتَّفْهَم، وهذا مقامٌ يتفاوتُ الناس فيه؛ لأنهم لا يشتركون في تَفْهَمِ معاني التلاوة والأذكار، ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر؛ لأنها تُفْهَمُ أموراً تمنع تلك الأمور من الفواحش.

وأما التعظيم فهو أمرٌ وراء حُضُور القلب والفهم؛ لأن الرجل قد يخاطب عبده بكلام هو حاضر القلب فيه ومتفهمٌ لمعناه، ولا يكون معظماً له.

وأما الهيبة، فأمر زائد على التعظيم، بل هو عبارة عن خوف منشؤه التعظيم، فإن الخوف من العَقرَب لا يُسمى مهابةً بل من السلطان المعظَّم، فالهيبة خوفٌ مصدره الإجلال.

وأما الرجاء، فلا شك في أنه زائد، فكم من معظم ملكاً يهابه لخوفِ سطوته ولا يرجو برّه، والمصلي ينبغي ان يكون راجياً بصلاته الثواب، كما يخاف من تقصيره العقاب.

وأما الحياء، فإنه زائد على الجملة؛ لأن مُستنده استشعارُ تقصيرٍ وتوهُّمُ ذَنْبٍ.

(١) في (ظ): «تفصيلها».

## بيان أسباب هذه المعاني الستة

أما حضور القلب، فسببه الهمة؛ لأن القلب تابع للهمم<sup>(١)</sup> لا يحضر إلا فيما أهم، ومتى أهمك أمر حضر قلبك شاء أم أبي، فلا علاج لإحضار القلب إلا صرفُ الهمة إلى الصلاة، ولا تنصرف الهمة إليها ما لم يحصل الإيمان بالآخرة، وإن الصلاة وسيلة إليها، فإذا ضُمَّ إلى ذلك احتقار الدنيا زاد حضور القلب. ومتى رأيت قلبك لا يحضر في الصلاة، فاعلم أنه لا سبب لذلك إلا ضعف الإيمان فاجتهد في تقويته.

وأما التفهم، فسببه صرف الذهن إلى إدراك المعنى، وعلاجه علاج إحضار القلب مع الإقبال على الفكر، والتشهير لدفع الخواطر الشاغلة بقطع موادها، ومتى لم تقطع المواد لم تنصرف الخواطر عنها.

وأما التعظيم، فهو حالة للقلب تتحصل من شيئين، أحدهما: معرفة جلال الله وعظمته، والثانية: معرفة حقارة النفس وأنها مُستعبدة، فيتولد من المعرفتين الاستكانة والخشوع، فيحصل التعظيم.

وأما الهيبة والخوف، فحالة للنفس تتحصل من المعرفة بقدرة الله وسطوته، وأنه لو أهلك الخلق لم ينقص من ملكه ذرة، مع مطالعة ما قد جرى على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع عنهم، فكلما زاد العلم بالله زادت الهيبة، وستأتي أسباب ذلك في كتاب الخوف من ربيع المنجيات إن شاء الله.

وأما الرجاء، فسببه معرفة لطف الله وكرمه وإنعامه، وتصديق وعده، فإذا حصلت المعرفة بلطفه واليقين بوعدِهِ انبعث الرجاء.

وأما الحياء، فاستشعار التقصير في العبادة، والعلم بالعجز عن القيام بتعظيم حق الله تعالى، ويقوى ذلك بمعرفة عيوب النفس وأفاتها، وميلها إلى العاجل.

(١) في الأصل «الهمة».

فهذه أسبابُ [هذه]<sup>(١)</sup> الصفات، وكل ما طُلب تحصيله، فعلاجه إحضارُ سببه، ففي معرفة السبب معرفةُ العلاج، وقد ذكرنا عن جماعةٍ استغرقتهم الهَيِّيةُ في الصَّلَاةِ حتى فقدوا الإحساس بما يجري عندهم، منهم مُسلم بن يسار حين سقطت أُسطوانةٌ إلى جانبه وهو لا يعلم، ولا يستنكر مثل هذا، فإن الإنسان قد يدخل على ملكٍ من ملوك الدنيا فتجري بينهما محادثات، ثم يخرج فيُسال: مَنْ كانَ عند الملك؟ أو: أيُّ لونِ ثوبِ الملك؟ فلا يدري؛ لاشتغال قلبه بالملك عن جليسه وثوبه، فحظُّ كلِّ مصلٍ من صلَّاته على مقدارِ حُوفه وحُشوعه وتَعْظيمه، وذلك بمقدار يقينه ﴿وَإِكْثُلْ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلْتُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، وموضع نظر الله سبحانه إنما هو القلوب.

### بيان الدواء النافع في حضور القلب

اعلم أن المؤمن لا بد أن يكون مُعظماً لله سبحانه، وخائفاً له، وراجياً، ومستحيماً من تقصيره، وإن كانت هذه الصفات تقوى بقدر قوة اليقين، وليس لانفكاكه عن هذه الصفات في الصلاة سببٌ إلا تفرُّق الفكر وتقسُّم الخاطرِ وغيبةُ القلب عن المناجاة، والدواء في إحضار القلب دفع الخواطر، ولا يدفع الشيء إلا بدفع سببه، وسبب توارد الخواطر إما أن يكون أمراً خارجاً أو باطناً، فأما الخارج؛ فما يقرع السمع أو يظهر للبصر، فإن ذلك قد يختطف الهمَّ حتى يتبعه ويتصرف فيه ثم ينجرُّ منه الفكر إلى غيره، فيكون النظر سبباً للتفكير، ثم يصير بعض تلك الأفكار سبباً للبعض ومن قويت رتبته وعلت همَّته لم يُلْهِهِ ما يجري على حواسه، لكن الضعيف لا بد أن يتفرق به فكره، فعلاجه قطع هذه الأسباب بالقُرب من القبلة، والنظر إلى موضع السجود، وأن لا يترك عنده ما يشغل حسَّه، ويحترز من الصلاة في المواضع المنقوشة.

وأما الأسباب الباطنة فهي أشد، فإن من تشعَّبت به الهموم في أودية الدنيا لم ينحصر فكره في فنٍّ واحد، ولم يغنه غض البصر؛ لأن ما قد وقع في القلب كافٍ

(١) زيادة من الإحياء تستقيم بها العبارة.

في الاشتغال به، وطريق هذا أن يرد النَّفس قَهراً إلى فهم ما يقرأ في الصلاة ويشغلها به عن غيره، ويعينه على ذلك أن يستعد لذلك قبل الدخول في الصلاة بأن يفرغ قلبه عن ما يهمله، ويقضي أشغاله ثم يُجدد على نفسه ذكر الآخرة، وخطر القيام بين يدي الله عز وجل، وهؤل المطمع، فإن لم تَسكن الأفكار بذلك، فليعلم أنه إنما يفكر فيما أهمه، وإنما أهمه ما اشتهاه، فليترك تلك الشهوات، وليقطع تلك العَلائق<sup>(١)</sup> فإن النبي ﷺ لما صَلَّى في أُنبجَانِيَّة<sup>(٢)</sup> لها عَلَمٌ نَزَعَهَا وقال: «إنها ألْهتني آنفاً عن صَلَاتِي»<sup>(٣)</sup>، فهذا هو الدواء القامع لمادة العلة لا يُعني غيره.

وإنما الأول لتسكين ما يحوم حول حواشي القلب، ومع تمكن العلة لا ينفع إلا الدواء القوي، وهذه العلة إذا قويت جاذبت المصلِّي وجاذبها إلى أن تَنقضي الصلاة في المجاذبة، ومثاله مثال رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره، وكانت أصوات العصافير تُشوشُ عليه وهو يطيرها بخشبة في يده، فإذا عاد إلى فكره عادت، فقليل له: هذا سير السَّواني<sup>(٤)</sup>، وهو سفر لا ينقطع، فإذا أردت الخلاص فاقلع الشجرة، فكذلك شجرة الشهوة<sup>(٥)</sup>، إذا اشتعلت وتفرقت أغصانها انجذبت إليها الأفكار انجذاب العصافير إلى الأشجار والذباب إلى الأقدار، فذهب العمر النفيس في دَفْع ما لا يندفع<sup>(٦)</sup>، وسبب هذه الشهوات التي توجب هذه الأفكار حُبُّ الدنيا، قال معروف الكرخي يصف الصالحين: لو كان في قلوبهم حب الدنيا ما صحَّت لهم سجدة. قيل لعامر بن عبد قيس: هل تُحدثك نفسك بشيء من أمور الدنيا في الصلاة؟ فقال: لأن تختلف الأسنَّة فيَّ أحب إليَّ من أن أجد هذا.

(١) في الأصل «العوائق».

(٢) الأنبجانية: كساء غليظ منسوب إلى منبج - على غير قياس - وهي مدينة من أعمال حلب، وقيل: إلى موضع اسمه أنبجان.

(٣) أخرجه البخاري (٧١٩)، ومسلم (٥٥٦).

(٤) السواني: جمع سانية، وهي البعير يُستقى عليه، والسانية: الدولاب الذي يدور بالماء، ويضرب المثل في سير السواني في كل ما لا ثمرة في حركته، وأن آخره كأوله.

(٥) في (ظ): «السهو».

(٦) في الأصل: «ينفع».

واعلم أن قَلْعَ حُبِّ الدنْيا من القلب أمرٌ صعب، ولشدة مرارة الدواء بقيت العِللُ مُزمنة وصار الداءُ عُضالاً، وعلى قدر الاجتهاد في قَلْعِ ما يمكن يَحْصِلُ الصفاء، وزوالُ ذلك المُؤذي بالكُلِّيَّةِ أمرٌ عزيز، فليقع الاجتهاد في الممكن منه، والله الموقِّف.

### بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل شيء من الصلاة

إذا سمعتَ نداء المؤذن فَمَثَلُ نداء القيامة، وشمّر للإجابة، وانظر بماذا تُجيب وبأي بدنٍ تحضر، وإذا أتيت بالطهارة في مكان الصلاة وهو ظرفك الأبعد، ثم في الثياب وهي غلافك الأقرب، ثم في البدن وهو القشر الأدنى، فلا تغفل عن تطهير<sup>(١)</sup> لُبِّك، وهو القلب، فإنه محل نظر المعبود وتطهيره بالندم على ما فرط، والعزم على ترك العُود، وإذا سترت عورتك، فاعلم أن المراد من ذلك تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق، فما رأيك في عورات باطنك وفصائح سرك التي لا يطلع عليها إلا ربك، وليس لها عنه ساتر، وإنما يُكفرها النَّدَمُ والحياء والخوف.

وإذا استقبلت القبلة فقد صرفت وجهك عن الجهات إلى جهة بيت الله، فاعلم أن صرف قلبك إلى الله أوفى من ذلك المطلوب، وكما أنه لا يتوجه الوجد إلى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها، فكذلك القلب لا ينصرف إلى الله تعالى إلا بالانصراف عن ما سواه، وإذا استقام بدنك في قيامه، فأقم قلبك متواضعاً لعظمة ربهن وتذكر قيامك لديه في القيامة، فإن لم تعرف كُنْه جلاله فمَمَّ قيام عبد بين يدي ملكٍ من الملوك.

وإذا نويت الصلاة فاعزم على إجابته في امثال أوامره، وإذا كبرت فلا يُكذِّبَنَّ قلبُك لسانك؛ لأنه إذا كان في قلبك شيء أكبر من الله تعالى، فقد كذبت، واحذر أن يكون الهوى عندك أكبر بدليل إثارك موافقته على طاعة ربك، واحذر من الكذب في قولك: وجَّهْتُ وَجْهِي فإنه إن كان متوجهاً إلى هَواه فما توجَّه إلى الله.

(١) في (ظ): «تطهر».

فإذا استعدت فاعلم أن الاستعاذة لجأ إلى الله سبحانه، فإذا لم تلجأ إليه ولم تبرح من حيز الشيطان كان كلامك لغواً وتفهم معنى ما تتلو، وأخطر النعم بقلبك عند قولك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ٢]، ولطفه عند قولك: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [٣] [الفاتحة: ٣] وعظمته عند قولك: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وكذلك في جميع ما تتلو، وقد روينا عن زرارة بن أوفى أنه قرأ في صلاته: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨] فخر ميتاً، وما كان ذلك إلا لأنه صور تلك الحال فأثرت عنده التلّف.

واستشعر في ركوعك التواضع، وفي سجودك زيادة الذل؛ لأنك وضعت النفس موضعها، ورددت الفرع إلى أصله بالسجود على التراب الذي خلقت منه.

وتفهم معنى الأذكار بالذوق<sup>(١)</sup>.

واعلم أن أداء الصلاة بهذه الشروط الباطنة سبب لجلاء القلب من الصّدأ، وحصول الأنوار فيه التي بها يتلمح عظمة المعبود ويطلع على أسراره، وما يعقلها إلا العالمون، فأما من هو قائم بصورة الصلاة دون معانيها، فإنه لا يطلع على شيء من ذلك بل ينكر وجوده، كما أن الجنين لو كان له عقل لأنكر وهو في مكانه وجود مكانٍ مُتَّسع ولو كان للطفل تمييز لأنكر ما يُخبر به العقلاء من ملكوت السماوات والأرض.

(١) تحرفت في (ظ) إلى: «الذنوب».

## الباب الرابع

### في الإمامة والقُدوة

ينبغي للإمام أن لا يتقدم على قوم يكرهونه، فإن اختلفوا كان النظر إلى الأكثرين إلا أن يكون الأقلون أهل الدين، ولا يتقدم على من هو أفقه منه وأقرأ، وقد فضل أصحابنا الأذان على الإمامة، والذي أراه تفضيل الإمامة؛ لأن الأذان إنما يُراد للصلاة، ولأن رسولَ الله ﷺ وكبار أصحابه اختاروا الإمامة على الأذان.

وينبغي للإمام أن يراعي الوقت ليصلي في أوله، ففي الصحيحين من حديث ابن مسعود: سألتُ رسولَ الله ﷺ: أيُّ العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها»<sup>(١)</sup>. وينبغي أن يؤمَّ مُخلصاً لا لأجل<sup>(٢)</sup> أجر، وليحذر من الفسوق، وما يخرج به عن العدالة، ولينظر في طهارته من الأحداث والأنجاس، فإنه أمر لا يعلمه غيره، وينبغي له أن يأمر بتسوية الصفوف وأن يرفع صوته بالتكبير، وأن يُخفف، فقد قال النبي ﷺ: «أيُّكم ما أمَّ الناس فليتنجّز، فإن فيهم الضَّعيف والكبير وذا الحاجة»<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧٠)، ومسلم (٨٥)(١٣٩).

(٢) في (ظ): «لأخذ».

(٣) أخرجه البخاري (٧٠٣)، ومسلم (٤٦٧) (١٨٥).

## الباب الخامس

### في فضل الجمعة ووجوبها وآدابها

#### فضيلة الجمعة

قال الله عز وجل: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩] أخبرنا هبة الله بن محمد، قال: أخبرنا الحسن بن علي، قال: أخبرنا أحمد بن أحمد بن جعفر، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي قال: حدثنا علي بن إسحاق قال: حدثنا عبد الله، قال: حدثنا يونس عن الزهري قال: أخبرني عبد الرحمن الأعرج أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا»<sup>(١)</sup> انفرد بإخراجه مسلم. وفي بعض ألفاظه: «ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة»<sup>(٢)</sup>. وفي رواية أبي ثبابة البدرى عن النبي ﷺ أنه قال: «سيد الأيام يوم الجمعة، وأعظمها عنده، وفيه تقوم الساعة، وما من ملكٍ مُقَرَّبٍ ولا سماءٍ ولا أرضٍ ولا رياحٍ ولا جبالٍ ولا بحرٍ إلا هُنَّ يُشْفِقْنَ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ»<sup>(٣)</sup>. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناهم من بعدهم، فهذا يومهم الذي فرض عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له فهم لنا فيه تبع، ولليهود غداً وللنصارى بعد غد»<sup>(٤)</sup>.

(١) أخرجه مسلم (٨٥٤).

(٢) أخرجه مسلم (٨٥٤/١٨).

(٣) أخرجه أحمد (١٥٥٤٨)، وابن أبي شيبة ٢/١٥٠، وابن ماجه (١٠٨٤)، والطبراني في الكبير (٤٥١١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩٧٣).

(٤) أخرجه البخاري (٢٣٨) و(٨٧٦) و(٨٩٦) و(٢٩٥٦) و(٣٤٨٦) و(٦٦٢٤) و(٦٨٨٧) و(٧٠٣٦) و(٧٤٩٥)، ومسلم (٨٥٥).

## ذِكْرُ وَجُوبِ الْجُمُعَةِ

كل مَنْ لزمته المكتوبة لزمه فرض الجمعة إذا كان مُستوطنًا يسمع النداء، أو بينه وبين الموضوع الذي تُقام فيه الجمعة فَرَسَخَ إلا المرأة والخُنْثَى والعبد على إحدى الروايتين، فلا جُمعة عليهم، وهم مخيرون بينها وبين الظُّهر.

ومن لزمه فرض الجمعة لم يجز له أن يسافر بعد الزوال ويشترط في انعقاد الجمعة حضور أربعين نفساً ممن تجب عليهم الجمعة، وعن الإمام أحمد حضور خمسين، وعنه حضور ثلاثة، وأن يتقدمها حُطبتان من شرط صحتهما حَمَدَ اللهُ تعالى، والصلاة على رسوله محمد وقرآءة آية فصاعداً، والوصية بتقوى الله، وحضور العدد المشترط في الجمعة، وهل يُشترط في انعقاد الجمعة إذن الإمام؟ فيه روايتان.

وتصح إقامتها في القُرى، وفيما قارب البنيان من الصَّحراء، وفي موضعين من<sup>(١)</sup> البلد مع الحاجة، فإن لم تكن حاجة فالثانية باطلة، ومن أدرك منها ركعة مع الإمام أتمها جمعة، فإن أدرك أقل من ركعة أتمها ظهراً، وما الذي ينوي في حال دخوله معه؟ قال الخِرقي: ينوي ظهراً، وقال ابن شاقلاً: ينوي جمعة ثم يَبْنِي عليها ظهراً.

## بَيَانُ آدَابِ الْجُمُعَةِ

وهي عشرة:

الأول: أن يستعد لها من يوم الخميس، وفي ليلة الجمعة بالتَّنْظُفِ، وغَسَلِ الثياب، وإعداد ما يصلح للجمعة.

الثاني: الاغْتِسَالُ، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ، ثُمَّ رَاحَ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً»<sup>(٢)</sup>.

(١) في (ظ): «في».

(٢) أخرجه البخاري (٨٨١)، ومسلم (٨٥٠).

وفي أفراد البخاري من حديث سلمان الفارسي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طَهْرٍ، وَيَدَّهِنُ مِنْ دُهْنِهِ أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ، فَلَا يَفْرُقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يَصَلِي مَا كَتَبَ لَهُ، ثُمَّ يُنْصَتُ إِذَا تَكَلَّمَ الْإِمَامُ، إِلَّا عُفِّرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى»<sup>(١)</sup>. وروى الترمذي من حديث أوس بن أوس عن النبي ﷺ أنه قال: «من اغتسل يوم الجمعة وغسّل، وبكّرَ وابتكر، ودنا واستمع، وأنصتَ كان له بكلّ خطوةٍ يخطوها أجر سنة، صيامها وقيامها»<sup>(٢)</sup>. قال ابن المبارك: معنى الحديث: غَسَّلَ رَأْسَهُ وَاغْتَسَلَ. <sup>(٣)</sup> وقال وكيع<sup>(٣)</sup>: اغتسل هو، وغسّل امرأته.

واعلم أن من اغتسل بعد طلوع الفجر فقد أصاب السنة غير أن الأفضل أن يكون الاغتسال قبيل الرواح، لثلا يعود الوسخ.

والثالث: التزيّن، وذلك في ثلاثة أشياء:

أحدها: تنظيف البدن، وذلك بالغسل، وقصّ الأظفار، والسّواك، وغير ذلك مما قد تقدّم ذكره.

والثاني: تطيب الرائحة، فليتطيب بأطيب ما يمكنه.

والثالث: بالثياب، فليلبس أجود ثيابه، فقد قال عبد الله بن سلام: حَطَبْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ فَقَالَ: «مَا عَلَى أَحَدِكُمْ لَوْ اشْتَرَى ثَوْبَيْنِ لِيَوْمِ جُمُعَتِهِ سِوَى ثَوْبٍ مِهْنَتِهِ».

والرابع: البُكُور، أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي قال: حدثنا

(١) أخرجه البخاري (٨٨٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٤٩٦)، وأحمد (١٦١٧٨)، وابن خزيمة (١٧٦٧)، والنسائي في الكبرى (١٧٠٨)، والدارمي ٣٦٣/١، والحاكم ٢٨٢/١. وقال الترمذي: حديث أوس حديث

حسن.

(٣.٣) سقط من (ظ).

يزيد قال: حدثنا ابن ذئب عن الزهري عن أبي عبد الله الأغر عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم الجمعة وَقَفَتِ الملائكة على أبواب المسجد، فيكتبون الأول فالأول، فَمَثَلَ المُهَجَّر إلى الجمعة، كمثل الذي يُهْدِي بَدَنَةَ، ثم كالذي يُهْدِي بَقْرَةَ، ثم كالذي يُهْدِي كَبْشًا، ثم كالذي يُهْدِي دَجَاجَةً، ثم كالذي يُهْدِي بَيْضَةً، فإذا خَرَجَ الإمامُ وَقَعَدَ على المنبر طَوَّأُوا صُحُفَهُمْ، وَجَلَسُوا يَسْتَمْعُونَ الذِّكْرَ»<sup>(١)</sup> أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ.

وينبغي للساعي إلى الجامع أن يمشي بسكونٍ وخشوعٍ وينوي الاعتكاف في المسجد إلى وقت خروجه.

**والخامس:** أن لا يتخطى رقاب الناس ولا يُفِرَق بين اثنين، أخبرنا الكروخي قال: أنبأنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر العُورُجِي قالا: أخبرنا الجراحي قال: حدثنا المحبوبي قال: حدثنا الترمذي قال: حدثنا أبو كُرَيْب قال: حدثنا رِشْدِينُ بْنُ سَعْدٍ عن زَبَّانِ بن فائد، عن سَهْلِ بن مُعَاذِ بن أنس الجهنني عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ اتَّخَذَ جِسْرًا إِلَى جَهَنَّمَ»<sup>(٢)</sup>. وفي حديث الأرقم بن أبي الأرقم عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الَّذِي يَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَيُفِرَقُ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ بَعْدَ خُرُوجِ الْإِمَامِ، كَالجَارِ قُضِبَهُ»<sup>(٣)</sup> فِي النَّارِ»<sup>(٤)</sup>.

فإن قال قائل: فإن كان الصف الأول خالياً؟ فالجواب: أن التخطي إليه جائز؛ لأن المتأخرين ضيعوا حُظوظهم منه.

**السادس:** أن لا يمر بين أيدي المصلين، ففي الصحيحين من حديث أبي الجهم عن النبي ﷺ أنه قال: «لو يعلم المارء بين يدي المصلي ماذا عليه لكان أن

(١) أخرجه البخاري (٩٢٩)، ومسلم (٨٥٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٥١٣)، وأحمد (١٥٦٠٩)، وابن ماجه (١١٦)، والطبراني في الكبير ٢٠/٤١٨، وأبو يعلى (١٤٩١)، والبغوي في شرح السنة (١٠٨٦).

(٣) قُضِبَهُ: أَمَعَاه.

(٤) أخرجه أحمد (١٥٤٤٧)، والطبراني في الكبير (٩٠٨)، والحاكم ٣/٥٠٤.

يقف أربعين خيراً له من أن يمرَّ بين يديه». قال الراوي: لا أدري أقال أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين سنة<sup>(١)</sup>.

السابع: أن يطلب الصف الأول، وقد ذكرنا فضيلته في باب فضل المسجد إلا أن يخاف أن يرى منكراً أو يسمعه فله حينئذ في التأخر عذر.

الثامن: أن يقطع الصلاة والذكر عند خروج الإمام، ويشتغل بإجابة المؤذن، ثم باستماع الخطبة، فإن كان بعيداً من الإمام لا يسمع جاز له الكلام.

التاسع: أن يُراعي في الاقتداء بالإمام في الجمعة ما ذكرنا في غيرها، فإذا سمع قراءة الإمام لم يقرأ إلا الفاتحة في سَكَتَاتِهِ. ويُصلي بعد الجمعة ركعتين سنة، وإن شاء صلى ستَّ ركعات، وفي الصحيحين من حديث ابن عُمر عن النبي ﷺ أنه<sup>(٢)</sup> كان يصلي بعد الجمعة ركعتين<sup>(٣)</sup>. وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال<sup>(٤)</sup>: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُصَلِّياً بَعْدَ الْجُمُعَةِ فَلْيُصَلِّ أَرْبَعاً»<sup>(٤)</sup>.

قال الترمذي: وبحديث ابن عمر يقول الشافعي وأحمد، وإلى فعل ابن مسعود يذهب سفيان الثوري وابن المبارك. وقال إسحاق: إن صلى في المسجد صلى أربعاً وإن صلى في بيته صلى ركعتين.

العاشر: أن يقيم في المسجد حتى يُصلي العصر، فإن أقام إلى المغرب، فهو أفضل، أخبرنا ابن ناصر قال: أخبرنا أبو بكر بن خلف قال: أخبرنا أبو عبد الله الحاكم قال: حدثنا أحمد بن محبوب الرملي قال: حدثنا القاسم بن مهدي قال: حدثنا<sup>(٥)</sup> أبو مصعب الزهري قال: أخبرنا<sup>(٥)</sup> عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن

(١) أخرجه البخاري (٥١٠)، ومسلم (٥٠٧).

(٢-٢) سقط من (ط).

(٣) أخرجه البخاري (٩٣٧)، ومسلم (٨٨٢)(٧١).

(٤) أخرجه مسلم (٨٨١) (٦٩).

(٥-٥) سقط من (ط).

سهل بن سعد قال: قال النبي ﷺ: «إن لكم في كل جمعة حجة وعمرة، فالحجة التهجير للجمعة، والعمرة انتظار<sup>(١)</sup> العصر بعد الجمعة»<sup>(٢)</sup>.

## بيان الآداب والسنن الخارجة عن الترتيب السابق الذي يعم جميع النهار

وهي سبعة أمور:

الأول: أن يحضر في مجالس العلم بكرةً أو بعد الصلاة أو بعد العصر، ولا ينبغي أن يُخلي نفسه في جميع النهار من خيرٍ وذكرٍ ودُعاءٍ حتى تُوافيه الساعة الشريفة وهو على خير.

الثاني: أن يُراقب الساعة الشريفة التي في الجمعة بإحضار القلب وملازمة الذكر، فقد أخبرنا ابن الحُصَيْن قال: أخبرنا ابن المُذْهَب، قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا إسحاق قال: حدثنا مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: «فيه ساعة لا يُوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه» وأشار رسول الله ﷺ بيده يقللها<sup>(٣)</sup>. أخرجاه في الصحيحين، وفي لفظ متفق عليه: «في الجمعة ساعة لا يُوافقها مسلمٌ وهو يسأل ربّه شيئاً إلا آتاه إياه»<sup>(٤)</sup>، ولم يذكر الصلاة.

واختلفت الرواية في هذه الساعة؛ ففي أفراد مسلم من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تُقضى الصلاة»<sup>(٥)</sup> وروى

(١) سقطت من (ظ).

(٢) أخرجه البيهقي ٢٤١/٣، وابن عدي في الكامل ٣٨/٦، وأورده الهندي في الكنز (٢١١٧٣).

(٣) أخرجه البخاري (٩٣٥)، ومسلم (٨٥٢).

(٤) أخرجه مسلم (٨٥٢)(١٥).

(٥) أخرجه مسلم (٨٥٣).

كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ سئل عنها فقال: «ما بين فراغ الإمام من الخطبة إلى أن تقضى الصلاة»<sup>(١)</sup> وفي حديث جابر عن النبي ﷺ أنه ذكر الساعة التي في الجمعة فقال: «التمسوها آخر الساعات بعد العصر»<sup>(٢)</sup>. وفي حديث أنس عنه عليه السلام أنه قال: «التمسوها ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس»، وفي حديث فاطمة بنت رسول الله ﷺ أنها سألت النبي ﷺ عنها، فقال: «إذا تدلَّى نصف عين الشمس للغروب»<sup>(٣)</sup>.

قال الإمام أبو بكر الأثرم: لا تخلو هذه الأحاديث من وجهين: إما أن يكون بعضها أصح من بعض، وإما أن تكون هذه الساعة تنتقل في الأوقات كانتقال ليلة القدر في ليالي العشر، والصواب التماسها في جميع الأوقات.

**الثالث:** أنه يُكثر من الصلاة على النبي ﷺ في هذا اليوم، فقد روي عنه أنه قال: «من صَلَّى عليَّ في يوم الجمعة ثمانين<sup>(٤)</sup> مرة غُفر الله له ذنوب ثمانين سنة»<sup>(٥)</sup> وإن أحب زاد في الصلاة عليه الدعاء له كقوله: اللهم آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة، وارفعه الدرجة العظيمة والمقام المحمود الذي وعدته، اللهم اجزِ نبينا محمداً عنا ما هو أهلُه. وليضف إلى الصلاة عليه الاستغفار، فإنه مُستحب في ذلك اليوم.

**الرابع:** أن يُكثر من قراءة القرآن، وليقرأ سورة الكهف خاصة فقد أخبرنا محمد بن ناصر قال: أنبأنا الحسن بن أحمد قال: أخبرنا محمد بن أحمد الحافظ، قال: أخبرنا عبد الله بن أبي جعفر الوراق قال: حدثنا محمد بن جرير الآملي قال:

- (١) أخرجه الترمذي (٤٩٠)، وابن ماجه (١١٣٨)، والبغوي في شرح السنة ٢١٠/٤.
- (٢) أخرجه أبو داود (١٠٤٨)، والنسائي ٩٩/٣، والبيهقي ٢٥٠/٣، والحاكم ٢٧٩/١.
- (٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٩٧٧).
- (٤) سقطت من (ظ).
- (٥) أخرجه الخطيب في تاريخه ٤٨٩/١٣، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٧٩٦). وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة (٢١٥) وقال: موضوع.

حدثنا عمر بن عثمان الزُّهري قال: حدثنا عبد الرحمن بن هشام بن عبد الله بن عكرمة المخزومي قال: حدثني أبي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «ألا أحدثكم بسورةٍ ملاءَ عِظْمِها ما بين السماء والأرض، ولكاتبها من الأجر مثل ذلك، ومن قرأها يوم الجمعة عُفِرَ له ما بينها وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام، ومن قرأ الخمس الأواخر منها عند نومه بَعَثَهُ اللهُ أَيَّْ الليل شاء؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: سورة الكهف»<sup>(١)</sup>.

ويستحب للإنسان أن يختم القرآن في يوم الجمعة أو ليلتها إن قدر، فإن ختم في الليل ختم في ركعتي المغرب، وإن ختم في النهار ختم في ركعتي الفجر، فإننا قد روينا عن إبراهيم النخعي أنه قال: مَنْ ختم القرآن ليلاً صلَّت عليه الملائكة حتى يُصبح، ومن ختمه نهاراً صلَّت عليه الملائكة حتى يُمسي<sup>(٢)</sup>.

ويُستحب له أن يصلي صلاة التسبيح في يوم الجمعة، وسيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى.

**السادس:** أن يَصَدَّقَ بما أمكن، ولتكن صدقته خارجاً من المسجد؛ لأنه قد جاء الذم لسؤال المساجد، فإذا أعطاهم فيه أعانهم على المكروه.

**السابع:** أن يجعل يوم الجمعة لأعمال الآخرة، ويكف عن جميع أشغال الدنيا.

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٢٠٩/٤، والمتقي الهندي في الكنز (٢٦٠٢)، ونسبه لابن

مردويه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢٦/٥، وأورده السيوطي في الحبايك في أخبار الملائك

(٦٩٢) من حديث سعد بن أبي وقاص.

## الباب السادس

### في مسائل متفرقة تعم بها البلوى ويحتاج المُريد إلى معرفتها

مسألة الفعل القليل، وإن كان لا يُبطل الصلاة، فهو مكروه إلا لحاجة، كدفع المارّ وقتل العقرب والقملة والحكّ الذي يحتاج إليه، وإذا ثاءبَ وضع يده على فيه، وإن عطس حمد الله في نفسه، فإن بزقَ في صلاته لم تبطل؛ لأنه فعل قليل وما يحصل به من صوتٍ لا يُعد كلاماً إلا أنه مكروه.

مسألة: اختلف العلماء فيما يُدرکه المسبوق هل هو أول صلاته أو آخر صلاته؟ والصحيح: أنه آخر صلاته، وما يقضيه أولها، يأتي فيه بالاستفتاح والتعوذ وقراءة السورة.

مسألة: من صلى ثم رأى على ثوبه نجاسة، فالورع قضاء الصلاة، ولو رأى النجاسة في أثناء الصلاة رمى بالثوب، وأتم والورع الاستئناف.

مسألة: الوسوسة في نية الصلاة سببها خبل في العقل أو جهل في الشرع؛ لأن امتثال أمر الله مثل امتثال أمر غيره، وتعظيمه كتعظيم غيره في باب القصد، ومعلوم أن من دخل عليه عالم فقام له، فلو قال: نويت أن أنتصب قائماً تعظيماً لدخول زيد الفاضل لأجل فضله متصلاً بدخوله مقبلاً عليه بوجهي، سقّه في عقله بل كما يراه ويعلم فضله تَنبعت داعية التعظيم فتقيمه، ويكون معظماً إلا أن يقوم<sup>(١)</sup> لشغلٍ آخر أو في غفلة، فقيام الإنسان إلى الصلاة ليؤدي الفرض لقضاء حق الله تعالى أمر متصور في النفس في حالة واحدة لا يطول زمانه وإنما يطول زمان نظم الألفاظ الدالة عليه إما تلفظاً باللسان، وإما تفكيراً بالقلب، وفرقٌ بين حضور الشيء في

(١) في الأصل: «يكون».

النفس وبين تفصيله بالفكر، فمن لم يفهم نية الصلاة على هذا الوجه، فكأنه لم يفهم النية، فالوسوسة مَحْضُ الجهل، ومن الجهل بهذه الدقيقة يثور الوسواس، فإن الوسواس يكلف نفسه أن يحضر في قلبه الظُّهرية والأدائية والفرضية في حالة واحدة متصلةً بألفاظها، وهو يطالِعها، وذلك محال، ولو كلف نفسه ذلك في القيام للعالم على ما ذكرنا لتعذر ذلك عليه، وبهذه المعرفة يندفع الوسواس، وهو أن يعلم أن امتثال أمر الله في النية كامتثال أمر غيره، ثم أزيد عليه في باب السهولة والرخصة حتى أنه يجوز تقديم النية على التكبير بزمنٍ يسير ما لم يفسخها ولم يجز للصحابة من هذه الوسواس شيء، فدل على أن الأمر سهل.

مسألة: لا ينبغي أن يتقدم المأموم على الإمام في الركوع والسجود والرفع منهما وفي سائر الأعمال، ولا ينبغي أن يُساوَقَه<sup>(١)</sup> بل يتبعه ويقفو أثره، فإن النبي ﷺ قال: «إنما جعل الإمام ليؤتمَّ به، فإذا ركع فاركعوا»<sup>(٢)</sup>، فإن ساوَقَه<sup>(٣)</sup> عمداً لم تبطل صلاته، وإن تقدم عليه فركع أو سجد قبله، وجب عليه أن يرجع<sup>(٤)</sup> ليأتي بذلك معه، فإن لم يفعل حتى لحقه الإمام في الركن لم تبطل صلاته على قول القاضي أبي يعلى، وقال غيره من أصحابنا: تبطل، فإن ركع قبله ورفع قبل أن يركع الإمام عامداً فهل تبطل صلاته؟ على وجهين.

مسألة: من رأى من المصلي إساءةً في صلاته، كمسابقة الإمام أو إساءة في الركوع والسجود، فليأمره بالصواب، فإن ذلك من باب الأمر بالمعروف، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «أما يخاف الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يُحوَلَ اللهُ رأسه رأسَ حمار»<sup>(٥)</sup>. وفي أفراد البخاري من حديث حذيفة رضي الله عنه أنه رأى رجلاً لا يتم ركوعه ولا سُجوده، فلما انصرف قال له: منذ كم صليت هذه الصلاة؟ قال: منذ كذا وكذا. قال: ما صليت.

(١) في (ظ): «يُساوَقَه»، والمساوِقة: المُقارَنة.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٨)، ومسلم (٤١٢)(٨٢) وأحمد (٢٤٢٥٠).

(٣) في (ظ): «سابقه».

(٤) في الأصل: «يرفع».

(٥) أخرجه البخاري (٦٩١)، ومسلم (٩٦٣).

## الباب السابع

### في ذكر النوافل من الصلوات

اعلم أن ما عدا الفرائض من الصلوات ينقسم إلى ثلاثة أقسام: سنن، ومُسْتَحَبَات، وتَطَوُّعَات.

ونعني بالسنن: ما نُقِلَ عن رسول الله ﷺ المواظبةُ عليه، كالرواتبِ عَقِيبِ الفرائض، وصلاح الضحى، والوتر؛ لأن السنة عبارة عن الطريق المسلوك، ونعني بالمستحبات ما وردَ الخبرُ بفضله، ولم ينقل المواظبة عليه، كالصلاة عند دخول المنزل والخروج منه. ونعني بالتطوعات ما وراء ذلك ما لم يرد به خبر لكن العبد يتطوع بفعله.

وتسمى هذه الأقسام الثلاثة: نوافل؛ لأن النفل هو الزيادة وهذه زوائد على الفرائض.

واعلم أن أفضل تطوعات البدن الصلاة، وأكدها ما سُنَّ لها الجماعة، كصلاة الكُسوف، والاستسقاء، والتراويح، وبعد ذلك السنن الراتبية.

واعلم أن النوافل باعتبار الإضافة إلى مُتعلقاتها تنقسم إلى ما يتعلق بأسباب كالكسوف والاستسقاء، وإلى ما يتعلق بأوقات، والمتعلق بالأوقات ينقسم إلى ما يتكرر بتكرر اليوم والليلة أو بتكرر الأسبوع وبتكرر السنّة.

فالجمله ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يتكرر بتكرر الأيام والليالي، وهي ثمانية: خمسة هي رواتبُ الصلوات الخمس، وثلاثة وراءها، وهي: صلاة الضحى، وإحياء ما بين العشاءين، والتّهجد.

الأولى: راتبه الصبح وهي ركعتان، ويدخل وقتها بطلوع الفجر الثاني،

والمستحب أن يُصليهما في المنزل، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «رَكَعَتَا الصَّبْحِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»<sup>(١)</sup>.

الثاني: راتبة الظهر، وهي ركعتان قبل صلاة الظهر، وركعتان بعدها، ويُستحب أن يتطوع بأربع قبل الظهر، أخبرنا عبد الرحمن بن محمد قال: أنبأنا أحمد بن علي بن ثابت قال: أنبأنا علي بن أبي علي المعدل قال: أنبأنا علي بن عمر الحَرَبِيُّ قال: أخبرنا محمد بن إسحاق بن عبد الرحمن قال: أخبرنا أحمد ابن الأزهر قال: حدثنا علي بن عاصم قال: حدثنا يحيى البكاء قال: حدثني عبد الله بن عمر قال: سمعتُ عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ﷺ: «أربعٌ قبل الظهر بعد الزوال يعدلن بمثلهن من صلاة الليل، وليس من شيء إلا وهو يُسبح الله تعالى تلك الساعة»<sup>(٢)</sup> أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المُذَهَب قال: أخبرنا أبو بكر بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا عبيدة يعني ابن مُعْتَب عن إبراهيم عن سهم بن منجاب عن قزعة عن القَرْنَع عن أبي أيوب قال: أَدْمَنَ<sup>(٣)</sup> رسول الله ﷺ أربع ركعات عند زوال الشمس قال: فقلتُ: يا رسول الله، ما هذه الركعات التي أراك قد أَدْمَنْتَها؟ قال: «إن أبواب السماء تُفتح عند زوال الشمس فلا تُرْتَجَ<sup>(٤)</sup> حتى يُصَلِّيَ الظهر، فأحب أن يصعد لي فيها خير». قال: قلتُ: يا رسول الله تَقْرَأُ فيهن كلهن؟ قال: «نعم» فقلت: فيها سلام فاصل؟ قال: «لا»<sup>(٥)</sup>. قال الإمام أحمد رحمه الله: وأخبرنا وكيع، قال: حدثنا شُعبَة عن إبراهيم بن محمد بن المُنتَشِر عن

(١) أخرجه مسلم (٧٢٥)، والترمذي (٤١٦) من حديث عائشة.

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٢٨).

(٣) أَدْمَنَ، أي: واظب.

(٤) تُرْتَجَ: تُغْلَقُ.

(٥) أخرجه الترمذي في الشمائل (٢٨٧)، وأبو داود (١٢٧٠)، وأحمد (٢٣٥٣٢)، وابن ماجه

(١١٥٧)، وابن خزيمة (١٢١٤)، والحميدي (٣٨٥)، والطبراني في الكبير (٤٠٣٢)،

والبيهقي في السنن ٤٨٨/٢.

أبيه قال: سمعتُ عائشة تقول: كان رسول الله ﷺ لا يدَعُ أربعاً قبل الظهر، وركعتين قبل الفجر على كلِّ حالٍ<sup>(١)</sup>. انفردَ بإخراجه البخاري. وفي أفرادِ مُسلم من حديث أم حَبِيبَةَ عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من عبدٍ مُسلم يُصلي لله عز وجل كل يوم اثنتي عشرة ركعةً تطوعاً غير فريضة إلا بُنيَ له بهنَّ بيتٌ في الجنة»<sup>(٢)</sup>. وقد رواه الترمذي مُفسراً: أخبرنا به أبو الفتح الكروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر الغورجي قالا: حدثنا الجراحي قال: حدثنا المَحْبُوبِي قال: حدثنا الترمذي قال: حدثنا محمود بن غَيْلان قال: حدثنا مُؤمِّل قال: حدثنا سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن المُسيَّب بن رافع عن عَنبَسَةَ عن أم حَبِيبَةَ قالت: قال رسول الله ﷺ: «من صلى في يومٍ وليلةٍ اثنتي عشرة ركعةً بُنيَ له بيتٌ في الجنة؛ أربعاً قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبل صلاة الغداة»<sup>(٣)</sup>.

الثالثة: راتبة العصر، وهي: أربع ركعات قبلها، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «رَحِمَ اللهُ عبداً صلى أربعاً قبل العصر»<sup>(٤)</sup>.

الرابعة: راتبة المغرب، وهما ركعتان بعدها، وقد كانوا يتطوعون بركعتين قبل المغرب.

الخامسة: راتبة العشاء، وهما ركعتان أيضاً، ويُسْتَحَبُّ التَّطَوُّعُ بعدها بأربع، فقد أخبرنا ابن ناصر قال: أخبرنا جعفر بن أحمد قال: أخبرنا أحمد بن المُذْهَب قال: حدثنا القَطِيعِي قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني عَبَاد بن يعقوب

(١) أخرجه البخاري (١١٨٢).

(٢) أخرجه مسلم (٧٢٨)(١٠٣)، وأبو داود (١٢٥٠)، وابن ماجه (١١٤١).

(٣) أخرجه الترمذي (٤١٥)، والنسائي ٢٦٢/٣.

(٤) أخرجه أبو داود الطيالسي (١٩٣٦)، وأبو أحمد (١٢٧١)، والترمذي (٤٣٠)، وابن خزيمة

(١١٩٣)، وابن حبان (٢٤٥٣)، وأحمد (٥٩٨٠)، والبيهقي ٤٧٣/٢ من حديث ابن عمر

بلفظ: «رحم الله امرءاً».

قال: حدثنا عبد الله بن عبد القدوس عن الأعمش عن مُجاهد قال: أربع ركعات بعد عشاء الآخرة يُعدلن بمثلهنّ من ليلةِ القدر<sup>(١)</sup>.

السادسة: الوتر، وأقله ركعة، وأفضله إحدى عشرة ركعة، يسلم في كل ركعتين، ويوتر بواحدة، وأدنى الكمال ثلاث ركعات بتسليمتين، يقرأ في الأولى بعد الفاتحة ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ وفي الثانية: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وفي الثالثة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم يقنت فيها بعد الركوع، ويرفع يديه فيقول: اللهم إنا نستعينك ونستهديك، ونستغفرك، ونؤمن بك، ونتوكل عليه، ونُثني عليك الخير كله، ونشكرك ولا نكفرك، اللهم إياك نعبد، ولك نُصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخشى عذابك إن عذابك الجدّ بالكُفار مُلحِق<sup>(٢)</sup>.

اللهم اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، إِنَّهُ لَا يَنْدُلُ مِنَ الْيَمِينِ، وَلَا يَعْزُّهُ مِنَ الْعَادِيَةِ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ<sup>(٣)</sup>. اللهم إني أعوذ برضاك من سَخَطِكَ، وَبَعْفُوكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ<sup>(٤)</sup>.

وهل يُمرُّ يديه على وجهه على روايتين.

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء ١٠٢/٤.

(٢) أخرجه البيهقي ٢١١/٢ من حديث عمر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٤٦٤)، وأبو داود (١٤٢٥)، وأحمد (١٧١٨)، والبيهقي ٩/٢ والنسائي

٢٤٨/٣، عن الحسن رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ٣٠٦/٢، والطيالسي (١٢٣)، وأبو داود (١٤٢٧)، وأحمد (٧٥١)،

والنسائي في الكبرى (٧٧٥٣)، والبيهقي ٤٢/٣ من حديث علي رضي الله عنه. وأخرجه

مسلم (٤٨٦)، وابن أبي شيبة ١٠/١٩١، والنسائي في الكبرى (١٥٨)، وابن ماجه

(٣٨٤١) وابن خزيمة (٦٥٥) و(٦٧١)، وأحمد (٢٥٦٥٥)، والبيهقي ١/١٢٧، وابن حبان

(١٩٣٢)، وأبو داود (٨٧٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

والوتر أكد من جميع السُنن الراتبة؛ لأنه مختلَف في وجوبه، وقال أبو بكر في «التنبيه»: إنه واجب، وقد أومى إلى ذلك إمامنا أحمدُ رحمه الله، ووقته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر الثاني.

السابعة: صلاة الضُحى، وقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ للجنة باباً يُقال له: ضُحى، إذا كانَ يومُ القيامة قِيلَ للذين كانوا يدمون على صلاة الضُحى: هذا بابكم فادخلوه»<sup>(١)</sup>. ووقتها إذا علت الشمس واشتدَّ حرها، والأحاديث تختلف في عددها، فروى جبير بن مُطعم أن النبي ﷺ صلاها ركعتين<sup>(٢)</sup>. وأخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا همام بن يحيى عن قتادة عن مُعاذة عن عائشة أن النبي ﷺ كان يُصلي الضُحى أربعاً ويزيد ما شاء الله<sup>(٣)</sup>. انفرد بإخراجه مسلم، وقد روي عن جابر أن النبي ﷺ صلاها ستَّ ركعات. وقد أخبرنا ابن الحُصين قال: أخبرنا ابن المُذهب قال: أخبرنا القطيعي قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا شُعبة عن عمرو بن مُرَّة عن ابن أبي لَيْلى قال: ما أخبرني أحدٌ أنه رأى النبي ﷺ يُصلي الضُحى غير أم هانئ، فإنها حدثت أن النبي ﷺ دخل بيتها يوم فتح مكة، فاغتسل وصلى ثمان ركعات ما رآته صلى صلاةً قط أخف منها، غير أنه كان يُتم الركوع والسجود<sup>(٤)</sup> أخرجاه في الصحيحين. وقال الإمام أحمد رحمه الله: هو أصح حديث في الضُحى. وقد روي حديث أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ

(١) أخرجه المصنف مع غيره من أحاديث الضُحى في العلل المتناهية ١/٤٧٢ من حديث أبي هريرة وقال: هذه الأحاديث لا يصح منها شيء.

(٢) لم أوقف عليه من حديث جبير بن مطعم، والمعروف هو حديث أبي ذر عن مسلم (٧٢٠) أنه ﷺ قال: «يُصبح على كل سُلَامَى من أحدكم صدقة، فكل تسيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليل صدقة، وكل تكبير صدقة، وأمرٌ بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويُجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضُحى».

(٣) أخرجه مسلم (٧١٩)(٧٩).

(٤) أخرجه البخاري (١١٧٦)، ومسلم (٣٣٦).

صليت الصُّحى ركعتين لم تُكتب من الغافلين، وإن صليت أربعاً كُتبت من العابدين، وإن صليت ستاً لم يتبعك في ذلك اليوم ذنب، وإن صليت ثمانياً كُتبت من القائتين، وإن صليت اثنتي عشرة ركعة بنى الله عز وجل لك بيتاً في الجنة<sup>(١)</sup>. وقد روى الترمذي من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ صَلَّى الصُّحى اثنتي عشرة ركعة بنى الله له قصرًا في الجنة من ذهب»<sup>(٢)</sup> قال الترمذي: هذا حديث غريب. قلت: والذي قبله كذلك والاختيار العمل على حديث أم هانئ.

الثامنة: إحياء ما بين العشاءين، فقد قيل في قوله تعالى: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]: إنه إحياء ما بين العشاءين، وفي حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ صَلَّى الْمَغْرِبَ وَصَلَى بَعْدَهَا أَرْبَعًا كَانَ كَمَنْ كَانَ حَجَّ حَجَّةً بَعْدَ حَجَّةٍ» قلت: فَإِنْ صَلَّى بَعْدَهَا سِتًّا؟ قَالَ: «يُغْفَرُ لَهُ ذُنُوبَ خَمْسِينَ عَامًا»<sup>(٣)</sup>. وفي حديث عائشة عن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَلَّى بَعْدَ الْمَغْرِبِ أَرْبَعًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُكَلِّمَ جَلِيسًا بَنَى اللَّهُ لَهُ قَصْرَيْنِ مُكَلَّلَيْنِ بِالذَّرِّ وَالْيَاقُوتِ، فَإِنْ صَلَّى سِتًّا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُكَلِّمَ جَلِيسًا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذُنُوبَ أَرْبَعِينَ عَامًا»<sup>(٤)</sup>. وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ صَلَّى سِتَّ رَكَعَاتٍ بَعْدَ الْمَغْرِبِ لَمْ يَتَكَلَّمْ بَيْنَهُنَّ عُدْلُنَ بِعِبَادَةِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً»<sup>(٥)</sup>. وفي حديث عمار بن ياسر عن النبي ﷺ: «مَنْ صَلَّى بَعْدَ الْمَغْرِبِ سِتَّ رَكَعَاتٍ غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَيْدِ الْبَحْرِ»<sup>(٦)</sup>. وفي حديث ثوبان عن النبي ﷺ قال: «مَنْ عَكَفَ نَفْسَهُ مَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ فِي مَسْجِدِ جَمَاعَةٍ لَمْ يَتَكَلَّمْ إِلَّا بِصَلَاةٍ أَوْ قُرْآنٍ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ

(١) أخرجه البيهقي ٤٨/٣، والمنذري في الترغيب والترهيب ٤٦٦/١.

(٢) أخرجه الترمذي (٤٧٣).

(٣) أخرجه المصنف في العلل المتناهية ٤٥٨/١، وقال: لا يصح.

(٤) أخرجه المصنف أيضاً في العلل ٤٥٨/١، وقال: لا يصح.

(٥) أخرجه الترمذي (٤٣٥) وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث زيد بن الجباب عن عمر بن أبي خثعم.

(٦) أخرجه الطبراني في الصغير ٤٨/٢، وأبو نعيم في أخبار أصبهان ٢٢٣/٢ والمصنف في العلل المتناهية ٤٥٧/١.

يَبْنِي لَهُ قَصْرَيْنِ فِي الْجَنَّةِ، مَسِيرَةَ كُلِّ قَصْرٍ مِنْهُمَا مِئَةٌ عَامٌ، وَيُغْرَسُ لَهُ غِرَاساً لَوْ ضَافَهُ أَهْلُ الدُّنْيَا لَوْسَعَهُمْ»<sup>(١)</sup>.

**القسم الثاني:** ما يتكرر بتكرار السنين وهو صلاة العيدين والتراويح، فأما صلاة العيدين؛ ففرض على الكفاية، وأول وقتها إذا ارتفعت الشمس، وآخره إذا زالت، ويُسن تقديم الأضحى وتأخير الفطر، وأن يأكل في الفطر قبل الصلاة، ويمسك في الأضحى حتى يُصلي، ويسن التكبير بعد غروب الشمس من ليلة الفطر إلى فراغ الإمام من الخطبة الثانية في إحدى الروايتين، وفي الأخرى: إلى حين خروج الإمام للصلاة، وفي الأضحى يبتدئ به من صلاة الفجر يوم عرفة، وإن كان محرماً فمن صلاة الظهر يوم النحر إلى العصر من آخر أيام التشريق، وَصِفَةُ التَّكْبِيرِ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لا إِلَهَ إِلا اللهُ، والله أكبر الله أكبر والله الحمد. ويُكبر عَقِيبَ الفرائضِ دون النَّوافِلِ، وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يُبَاكَرَ المأموم بعد صلاة الصبح إلى صلاة العيد على أحسن هيئة وأكمل زينة إلا أن يكون معتكفاً فيخرج في ثياب اعتكافه، ويتأخر الإمام إلى الوقت الذي يصلي بهم فيه، ويستحب إقامتها في الصحراء، ويروح الناس إليها مشاة، ويرجعون في طريق أخرى، ويصلي بهم الإمام ركعتين يُكبر في الأولى بعد تكبيرة الإحرام ودعاء الاستفتاح وقَبْلَ التَّعَوُّذِ سِتَّ تكبيرات، وفي الثانية بعد قيامه من السجود خمس تكبيرات، ويرفع يديه مع كل تكبيرة، ويقول: اللهُ أَكْبَرُ كَبيراً وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيراً وَسُبْحَانَ اللَّهِ بَكْرَةً وَأَصِيلاً، وصلوات الله على محمد وآله وسلم تسليماً. وَيَقْرَأُ فِي الأُولَى بعد الفاتحة بِسَبْحِ<sup>(٢)</sup> وفي الثانية بالغاشية، وتكون القراءة بعد التكبير، وإذا أدركه المأموم في الركوع أحرم وتبعه، ولم يتشاغل بقضاء التكبير، فإن أدركه في التشهد قام إذا سلم الإمام فصلى ركعتين يأتي فيهما بالتكبير، فإن أدركه في الخطبة استحب له أن يجلس فيستمع، فإذا انقضت قُضِيَ العيد، وفي صفة القضاء ثلاث روايات:

إحداها: أن يُصلي كما يصلي مع الإمام ركعتين.

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٦١٧/٣.

(٢) يعني بسورة الأعلى.

والثانية: يقضيها أربعاً.

والثالثة: هو مخير بين ركعتين أو أربع.

والأضحية سنة مؤكدة، وعن الإمام أحمد رحمه الله أنها واجبة مع الغنى والمسنون أن يأكل الثلث، ويهدي الثلث، ويتصدق بالثلث، هذا إذا قلنا: إنها سنة، فإن قلنا: إنها واجبة احتمل أن يأكل كما نقول في دم التمتع والقران، واحتمل أن لا يأكل كما لو نذر هدياً. ولا يجوز بيع جلودها وجلالها<sup>(١)</sup> بل يتصدق به، ويكره لمن أراد أن يضحى أن يأخذ من بشرته وشعره وظفره شيئاً من حين دخول العشر<sup>(٢)</sup>.

وأما صلاة التراويح فهي عشرون ركعة، ويسن لها الجماعة، كما اختاره عمر رضي الله عنه، ويؤخر الوتر من له تهجد ويكره التطوع بين التراويح، وأما ما يذكر من صلاة الرغائب، وصلاة نصف شعبان<sup>(٣)</sup>، وصلوات الأسبوع فلم يثبت من ذلك شيء أصلاً، فلذلك أضربنا عنه.

القسم الثالث من النوافل: ما يتعلق بأسباب عارضة ولا يتعلق بالمواقيت وهي ثمانية:

#### الأولى: صلاة الكسوف:

وفي الصحيحين من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك، فافزعوا إلى الصلاة»<sup>(٤)</sup>.

(١) يعني: جلودها.

(٢) يعني: عشر ذي الحجة.

(٣) نقل الزبيدي في الإتحاف ٧٠٢/٣ عن العز بن عبد السلام أنه قال: لم يكن بيت المقدس قط صلاة الرغائب في رجب، ولا صلاة نصف شعبان، فحدث في سنة (٤٤٨هـ) أن قديم عليهم رجل من نابلس يُعرف بابن الحَي، وكان حسن التلاوة، فقام فصلى في المسجد الأقصى ليلة النصف من شعبان، فأحرم خلفه رجل ثم انضاف ثالث ورابع فما حُتم إلا وهم جماعة كثيرة، ثم جاء في العام القابل فصلى معه خلق كثير، وانتشرت في المسجد الأقصى وبيوت الناس ومنازلهم، ثم استقرت كأنها سنة إلى يومنا هذا.

(٤) أخرجه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١)(٣).

فأما وقت صلاة الكسوف؛ فمن حين الكسوف إلى حين التَّجَلِّي، وأما موضعها؛ فموضع الجمعة وينادى لها: الصلاةُ جامعة. وأما صِفتها؛ فهي أن يصلي بهم ركعتين يُحرم بالأولى وَيَسْتَفْتَح وَيَسْتَعِيدُ، ويقرأ الفاتحة وسورة البقرة يجهر بالقراءة، ثم يركع فيطيل الركوع، ويسبح بمقدار مائة آية، ثم يرفع فَيَسْمَعُ وَيَحْمَدُ<sup>(١)</sup>، ثم يقرأ الفاتحة وآل عمران، ثم يركع دون الركوع الأول، ثم يرفع فَيَسْمَعُ ويحمد، ثم يسجد سجدتين فيطيل التسبيح فيهما بقدر الركوع، ثم يقوم إلى الثانية فيفعل مثل ذلك إلا أنه يقرأ بالنساء في القيام الأول وبالمائدة في الثاني، ثم يسجد سجدتين، ويتشهد ويُسَلِّمُ، فيكون في كل ركعة قيامان وقراءتان وركوعان وسجودان.

وعن الإمام أحمد رحمه الله أنه يفعل في كل ركعة أربع ركوعات على نحو ما ذكرنا وسجدتين فإن تجلَّى الكسوف وهو في الصلاة خَفَّها.

#### والثانية: صلاة الاستسقاء:

وصفتها في موضعها وأحكامها صفة صلاة العيد. وَيُسْتَحَبُّ لَهُ التَّنْظِفُ، ولا يتطيب، وإذا أراد الخروج لذلك وَعَظَّ النَّاسَ وَأَمْرَهُمُ بِالتَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ، والخروج من المظالم، والصيام، والصدقة، ثم يخرج متواضعاً مُتَخَشِعاً مُتَذَلِّلاً، ويخرج معه الشيوخ والعجائز والصبيان، فإذا صَلَّى بِهِمْ خُطِبَ خُطْبَةٌ يَفْتَتِحُهَا بِالتَّكْبِيرِ كَمَا يَفْعَلُ فِي خُطْبَةِ الْعِيدِ، وَيُكْثِرُ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ويقرأ فيها: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] الآيات، ويرفع يديه فيدعو بدعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا مَرِيئًا هَنِيئًا مُرَبِّعًا غَدَقًا مُجَلِّلاً سَحًّا عَامًّا طَبَقًا دَائِمًا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا الْغَيْثَ وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْقَانِطِينَ، اللَّهُمَّ سُقِيَا رَحْمَةً لَا سُقِيَا عَذَابٍ وَلَا مَحْقٍ وَلَا بَلَاءٍ وَلَا هَدْمٍ، وَلَا غَرَقٍ، اللَّهُمَّ إِنْ بِالْعِبَادِ وَالْبِلَادِ وَالخَلْقِ مِنَ اللَّأْوَاءِ وَالْجَهْدِ وَالصَّنَكِ مَا لَا شَكْوَى مِنْهُ إِلَّا إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ أَنْبِثْ لَنَا الزَّرْعَ، وَأَدِرِّ لَنَا الصَّرْعَ، وَاسْقِنَا مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ، وَأَنْبِثْ لَنَا مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ، اللَّهُمَّ ارْفَعْ عَنَّا الْجَهْدَ وَالْجُوعَ وَالْعُرْيَ، وَاكْشِفْ عَنَّا مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَا يَكْشِفُهُ غَيْرُكَ»<sup>(٢)</sup>.

(١) أي يقول: سمع الله لمن حمده.

(٢) أخرجه بنحوه الطبراني في الأوسط (٧٦١٥)، من حديث أنس بن مالك.

ويستقبل القبلة في أثناء الخطبة، ويُحوّل رداءه فيجعل ما على عاتقه الأيمن على الأيسر وما على الأيسر على الأيمن، ولا يجعل أعلاه أسفله، ويفعل الناسُ كذلك، ويتركون ذلك حتى ينزعونه مع ثيابهم، ويدعو سراً في حال استقبال القبلة فيقول: اللهم إنك أمرتنا بدعائك وَوَعَدْتَنَا إِبْجَابْتِكَ وَقَدْ دَعَوْنَاكَ كَمَا أَمَرْتَنَا، فَاسْتَجِبْ لَنَا كَمَا وَعَدْتَنَا.

فإن لم يُسَقُوا عادوا ثانياً وثالثاً.

ويُستحب أن يَقِفَ في أول المطر، ويُخرج رَحْلَهُ وِثْيَابَهُ ليصيبها، وإذا سال الوادي اغتسل منه وتوضأ، فإذا زاد المطر بحيث يضر قال: «اللهم حَوَالِينَا وَلَا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الضَّرَابِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ»<sup>(١)</sup>. ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦] الآية.

### الثالثة: صلاة الجنائز:

وهي فرضٌ على الكفاية، وأولى الناس بها وَصِيُّهُ<sup>(٢)</sup>، ثم السلطان، ثم الأقرب من عَصَبَاتِهِ. وهل يُقدم الزَّوْجُ على العَصَبَاتِ على روايتين ويقف<sup>(٣)</sup> حِذَاءَ صَدْرِ الرجلِ ووسطِ المرأة، وينوي، ويكبر أربع تكبيرات يقرأ في الأولى بالفاتحة، ويصلي على النبي ﷺ في الثانية، ويدعو للميت في الثالثة، فيقول: اللهم اغفر لحينا وميتنا، وشاهدنا وغائبنا، وصغيرنا وكبيرنا وذكرنا وأنثانا إنك تعلم مُنْقَلَبَنَا وَمَثْوَانَا، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ مِنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالسَّنَةِ، وَمِنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فَتَوَفَّهُ عَلَيْهِمَا<sup>(٤)</sup>، اللهم إله عبدك ابن عبدك نزل بك وأنت خير منزلٍ به، اللهم إن كان مُحْسِنًا فَجَاوِزِهِ بِإِحْسَانِهِ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا فَتَجَاوَزْ عَنْهُ،

(١) أخرجه البخاري (١٠١٧)، ومسلم (٨٩٧) من حديث أنس.

(٢) يعني من وصى به الميت.

(٣) أي الإمام.

(٤) أخرجه أحمد (٨٨٠٩)، والترمذي (١٠٢٤)، وابن ماجه (١٤٩٨)، والحاكم ٣٥٨/١ من

حديث أبي هريرة.

اللهم إنا جئناكَ شُفَعَاءَ لَه فَشَفِّعْنَا فِيهِ، وَوَقِهْ فِتْنَةَ الْقَبْرِ وَعَذَابَ النَّارِ، وَاعْفُ عَنْهُ، وَأَكْرِمْ مَثْوَاهُ، وَأَبْدِلْهُ دَاراً خَيْراً لَه مِنْ دَارِهِ، وَجَوَاراً خَيْراً لَه مِنْ جَوَارِهِ، وَافْعَلْ لَكَ بِنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ وَلَا تُفْتِنَّا بَعْدَهُ.

ويقول في الرابعة: ربنا آتينا في الدنيا حَسَنَةً وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. وَيُسَلِّمُ وَاحِدَةً عَنْ يَمِينِهِ.

#### الرابعة: تحية المسجد ركعتين:

أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي قال: حدثنا مالك عن عامر بن عبد الله - يعني ابن الزبير - عن عمرو بن سليم عن أبي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَجْلِسَ»<sup>(١)</sup> أخرجاه في الصحيحين، وفي بعض الألفاظ الصحيحة: «فَلَا يَجْلِسُ حَتَّى يَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ»<sup>(٢)</sup>.

فإن اشتغل الداخلُ بفعل فريضةٍ أو قضاءٍ حصل المقصود من التحية؛ لأن المراد أن لا يخلو ابتداء الدخول من صلاة.

#### الخامسة: ركعتان بعد الوضوء:

مُستحبتان؛ لأن الوضوء قُرْبَةٌ مَقْصُودُهَا الصَّلَاةُ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فَضْلَ هَاتِيْنِ الرَّكَعَتَيْنِ فِي كِتَابِ الْوُضُوءِ<sup>(٣)</sup>، وَإِذَا صَلَّى نَوَاهَا نَافِلَةٌ، وَلَا يَقُولُ: رَكَعَتِي الْوُضُوءِ، كَمَا يَقُولُ: تَحِيَّةَ الْمَسْجِدِ.

#### السادسة: ركعتان عند دخول المنزل وعند الخروج منه:

فَقَدْ رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا خَرَجْتَ مِنْ مَنْزِلِكَ فَصَلِّ رَكَعَتَيْنِ تَمْنَعَانِكَ مَخْرَجَ السُّوءِ، وَإِذَا دَخَلْتَ إِلَى مَنْزِلِكَ فَصَلِّ رَكَعَتَيْنِ تَمْنَعَانِكَ مَدْخَلَ

(١) أخرجه البخاري (٤٤٤)، ومسلم (٧١٤)، من حديث أبي قتادة.

(٢) أخرجه البخاري (١١٦٣)، ومسلم (٧١٤)(٧٠).

(٣) تقدم في الصفحة (٩٥).

السوء»<sup>(١)</sup>. وفي معنى هذا كل أمر تبتدئ به، مما له وقع، ولذلك وردت ركعتان عند الإحرام<sup>(٢)</sup>، وركعتان عند ابتداء السفر<sup>(٣)</sup>.

### السابعة: صلاة الاستخارة:

أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا إسحاق بن عيسى قال: حدثنا عبد الرحمن بن أبي الموالي المدني قال: حدثنا محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ - يُسَمِّيهِ بِاسْمِهِ - خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُهُ شَرًّا لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي بِهِ» انفرد بإخراجه البخاري<sup>(٤)</sup>.

الثامنة: صلاة التسييح: أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المذهب، إذناً، قال: أخبرنا علي بن عمر الدارقطني قال: أخبرنا عبد الله بن سليم بن الأشعث

(١) أورده السيوطي في اللآلئ المصنوعة ٢/٤٥ ونسبه للبيهقي في الشعب والبخاري، وذكر الهيثمي في المجمع ٢/٢٨٣ - ٢٨٤ ونسبه للبخاري وقال: رجاله موثقون. وأورده المتقي الهندي في الكنز (٥٤٠).

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ حاجاً فلما صلى في مسجده بذي الحليفة ركعتيه أوجب في مجلسه فأهل بالحج حين فرغ من ركعتيه... أخرجه أبو داود (٧٧٠) والحاكم ١/٤٥١.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/٨١ عن المطعم بن مقدم قال: قال رسول الله ﷺ: «ما خلف عبد على أهله أفضل من ركعتين يركعهما عندهم حين يريد السفر».

(٤) أخرجه البخاري (١١٦٢) من حديث جابر.

قال: حدثنا عبد الرحمن بن بشر بن الحكم قال: حدثنا موسى بن عبد العزيز قال: حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال للعباس: «يا عمّاه، ألا أعطيك، ألا أعلمك، ألا أُجيزك، ألا افعل عشر خصال إذا أنت فعلت ذلك غفر الله لك ذنبك أوله وآخره، قديمه وحديثه، خطأه وعمده، صغيره وكبيره، سره وعلانيته، عشر خصال: أن تُصلي أربع ركعات تقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وسورة، فإذا فرغت من القراءة في أول ركعة وأنت قائم قلت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر خمس عشرة مرة، ثم تركع، فتقولها وأنت راکع عشراً، ثم ترفع رأسك من الركوع، فتقولها عشراً، ثم تهوي ساجداً، فتقولها وأنت ساجد عشراً، ثم ترفع رأسك من السجود، فتقولها عشراً، ثم تسجد فتقولها عشراً، ثم ترفع رأسك فتقولها عشراً، فذلك خمس وسبعون في كل ركعة، تفعل ذلك في أربع ركعات، إن استطعت أن تُصليها في كل يوم مرة فافعل، فإن لم تفعل، ففي كل جمعة مرة، فإن لم تفعل ففي كل شهر مرة، فإن لم تفعل ففي كل سنة مرة، فإن لم تفعل ففي عمرك مرة»<sup>(١)</sup>.

## فصل

ولا يتطوع في الأوقات المنهي عن الصلاة فيها بصلاة لا سبب لها، كصلاة التسبيح؛ لأن النهي مؤكد، وهذه الأشياء ضعيفة فلا يصلح صدمه بها، فأما مالها سبب، كصلاة الكسوف، والاستسقاء، وركعتي الفجر، وتحية المسجد، وركعتي الطواف، وسجود التلاوة والشكر، والوتر إذا فات، وإذا حضرت الجماعة مع إمام الحي وقد كان صلى، فإنه يفعل منها ركعتي الفجر وركعتي الطواف، ويعيد الجماعة رواية واحدة، وهل يفعل باقيها أم لا؟ على روايتين، أصحهما: أنه يفعلها.

## فصل

وللنهي عن الصلاة في الأوقات المنهي عنها ثلاثة أسرار:

(١) أخرجه أبو داود (١٢٩٧)، وابن ماجه (١٣٨٧)، وابن خزيمة (١٢١٦)، والبيهقي ٣/٥١، والحاكم ٣١٨/١.

أحدها: ترك التَّشْبُه بِعَبْدَةِ الشَّمْسِ.

والثاني: الحذر من السجود لمطلع قرن الشيطان، فإن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان، فإذا ارتفعت فارقتها، فإذا استوت قارنها، فإذا زالت فارقتها، وإذا تضيقت للغروب قارنها.

والثالث: إن سالكى طريق الآخرة مواظبون على العبادات، والمواظبة على نمط واحد تُورث الملل، فإذا وقع المنع زاد النشاط؛ لأن الإنسان حريص على ما مُنع عنه، فمِنَع من الصلاة ولم يُمنع من نوع آخر من التبعّد كالقراءة والتَّسْبِيح لِيَتَنَقَّل العابد من حالٍ إلى حالٍ، كما جعلت الصلاة متنوعة بين قيامٍ وقُعودٍ وركوعٍ وسُجودٍ إذ المَلَلُ مُقارنٌ للشيء الواحد.

آخر كتاب الصلاة





## كتاب أسرار الزكاة

### ومهماتهما

الحمدُ لله الذي فرض في أموال الأغنياء للفقراء قدر ما يحتاجون، وأمرهم بالصبر عن الفضول إن كانوا يفهمون، وأعلمهم أن الدنيا مجاز والكل يذهبون، ونهى الواجدين عن البخل فيما ألزم إن كانوا يسمعون، وأوعدهم على حبس الحق الواجب وسيعلمون ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [التوبة: ٣٥].

أما بعد: فإن الله عز وجل جعل الزكاة أحد مباني الإسلام، وقرنها بالصلاة التي هي أعلى الأعلام، فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] وفي الصحيحين من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان»<sup>(١)</sup>.

وقد شدد الله عز وجل الوعيد على من لا يخرج الزكاة، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ٣٤ - ٣٥] الآية، وقد أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا محمد بن عبيد قال: حدثنا الأعمش عن المَعْرُورِ بن سُويد عن أبي ذر قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في ظلِّ

(١) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦)(٢١).

الكعبة فقال: «هُم الْأَخْسَرُونَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، هُمُ الْأَخْسَرُونَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ» قال: فأخذني غَمٌّ وجعلتُ أتنفس، قال: قلتُ: هذا شيءٌ حدث فيّ، فقلت: مَنْ هُمُ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي؟ قال: «الْأَكْثَرُونَ إِلَّا مَنْ قَالَ فِي عِبَادِ اللَّهِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ، مَا مِنْ رَجُلٍ يَمُوتُ فَيَتْرِكُ غَنَمًا أَوْ إِبِلًا أَوْ بَقْرًا لَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهَا إِلَّا جَاءَتْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْظَمُ مَا تَكُونُ وَأَسْمَنُ حَتَّى تَطَّاهُ بِأَظْلَافِهَا وَتَنْطَحَهُ بِقَرُونِهَا حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ، ثُمَّ يَعُودُ أَوْلَاهَا عَلَى آخِرِهَا»<sup>(١)</sup> أخرجاه في الصحيحين. وأخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أعين السرخسي قال: حدثنا الفريري قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا عبد الله بن منير سمع أبا النضر قال: حدثنا عبد الرحمن - هو ابن عبد الله - بن دينار عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثْلَ لَهْ مَالِهِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبَيْتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ - يَعْنِي شِدْقَيْهِ - يَقُولُ: أَنَا مَالِكٌ أَنَا كَنْزِكَ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠] إلى آخرها»<sup>(٢)</sup>. وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ فَأَحْمِي عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ كُلَّمَا رُدَّتْ أُعِيدَتْ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيُرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ» قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالْإِبِلُ؟ قال: «وَلَا صَاحِبِ إِبِلٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرَقَرٍ أَوْ قَرَّ مَا كَانَتْ لَا يَفْقَدُ مِنْهَا فَصِيلًا وَاحِدًا تَطْوُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أَوْلَاهَا رَدَّ عَلَيْهِ آخِرَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيُرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»<sup>(٣)</sup>، وذكر في البقر مثل ذلك.

(١) أخرجه البخاري (٦٦٣٨)، ومسلم (٩٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٠٣).

(٣) أخرجه مسلم (٩٨٦)(٢٣).

## فصل

ونحن نكشف عن أسرار الزكاة وشروطها ومعانيها، وذلك في أربعة فصول:

الفصل الأول: في أنواع الزكوات وأسباب وجوبها.

الفصل الثاني: في آدابها وشروطها.

الفصل الثالث: في القابض وشروط استحقاقه وآداب قبضه.

الفصل الرابع: في صدقة التطوع وفضلها.

## الفصل الأول

### في أنواع الزكوات وأسباب الوجوب

الزكاة واجبة على كل حرٍّ مسلم تامِّ الملك، فأما العبد فلا زكاة عليه وإن قلنا: إنه يملك، وكذلك المكاتب وما لم يتم ملك الإنسان عليه، كالدين الذي على المكاتب، فلا زكاة فيه.

ولا يشترط في وجوب الزكاة البلوغ ولا العقل؛ لأنها تجب في مال الصبي والمجنون، فالزكوات باعتبار متعلقاتها ستة أنواع: زكاة النعم<sup>(١)</sup>، والنقدين، والتجارة، والمعدن، والمعشرات، وزكاة الفطر.

النوع الأول: زكاة النعم: وهي الإبل، والبقر، والغنم، فأما الإبل فلا شيء فيها حتى تبلغ خمساً ويحول عليه الحول، فيجب فيها شاة، فلو أخرج بعيراً لم يُجزه، وفي العشر شاتان، وفي خمسة عشر ثلاث شياه، وفي العشرين أربع شياه، ولا يجزي في الغنم المخرجة إلا الجذع من الضأن، وهو ماله ستة أشهر، والثني من المعز، وهو ماله سنة، وفي خمس وعشرين بنت مخاض وهي التي كمل لها سنة، فإن عدها قبل منه ابن لبون، وهو ماله ستان وقد دخل في الثالثة، وفي ست وثلاثين بنت لبون، وفي ست وأربعين حقة وهي ما كمل لها ثلاث سنين ودخلت

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الغنم».

في الرابعة وفي إحدى وستين جَدَعَة وهي ما كمل لها أربع سنين ودخلت في الخامسة، وفي ستٍ وسبعين بُتًا لبون، وفي إحدى وتسعين حِقَّتَان، ولا شيء في زيادتها حتى تبلغ عشرين ومئة، فإذا زادت استؤنفت الفريضة، فوجب في كل أربعين بنت لبون، وفي كل خمسين حِقَّة، وأما البقر فلا شيء فيها حتى تبلغ ثلاثين، فيجب فيها تَبِيعٌ أو تَبِيعَةٌ وهو ما كَمَلَّ له سَنَة، وفي الأربعين مُسِنَّة، وهي ما كَمَلَّ لها سَتَان إلى ستين فيجب فيها تبيعان، وعلى هذا أبدأ في كل ثلاثين تَبِيعٌ وفي كل أربعين مُسِنَّة.

ولا تجب الزكاة في الطِّبَاء، وهل تجب في بقر الوحش على روايتين، وتجب في المتولد بين الوحشي والأهلي. والجواميس جنس من البقر.

وأما الغنم فلا شيء فيها حتى تبلغ أربعين فيجب فيها شاة، وفي المائة وإحدى وعشرين شاتان، وفي مائتين وواحدة ثلاث شياه إلى أربعمائة، فيكون في كل مئة شاة، وعن الإمام أحمد رحمه الله أنها إذا بلغت ثلثمائة وواحدة ففيها أربع شياه، ثم في كل مئة شاة.

والفُضْلَان<sup>(١)</sup> والعَجَاجِيل<sup>(٢)</sup> والسُّخَال<sup>(٣)</sup> تتبع الأمهات في الحول إذا كانت الأمهات نصاباً، فإن لم تكن نصاباً لكن كملت بأولادها في أثناء الحول احتسب حَوْلُ الجميع من حين الكمال، وعن أحمد أنه يحتسب حَوْلُ الجميع من حين ملك الأمهات.

ولا يُؤخذ في الصدقة الرُّبِّي وهي التي تُرَبِّي ولدَها، ولا الماخِضُ، وهي الحامل، ولا ما طَرَقَها الفحل؛ لأن الغالب أنها حامل، ولا الأَكُولَة، وهي السَّمِينَة، ولا فحلُ الغنم المُعَدُّ للضَّرَاب، ولا حَزْرَات<sup>(٤)</sup> المال، وهي خياره، ولا هَرْمَة، ولا ذاتُ عوار.

(١) الفُضْلَان: جمع فَصِيل، وهو ولد الناقة إذا فصل عن أمه.

(٢) العَجَاجِيل: جمع عَجَل، وهو ولد البقرة.

(٣) السُّخَال: جمع سَخْلَة، وهو ولد الشاة ما كان.

(٤) ورد في هامش (ظ) ما نصه: «هو ما تحزره العين لأجل حُسْنِه». وحزرة الماء خياره،

وإذا اختلط نَفْسَانُ أو أكثر من أهل الزكاة في نصابٍ من الماشية حولاً، فحكم زكاتهم كحكم زكاة الواحد، ولا تُؤثر الخلطة في غير المواشي من الأثمان والحبوب والثمار في إحدى الروايتين، وفي الأخرى: تُؤثر.

**النوع الثاني: زكاة المُعَشَّرَات:** فتَجِبُ الزكاةُ في كل زرع يُكَالُ ويُدخِر سواء كان مُقْتَاتاً كالحِنطة والشعير والأرز والباقلَى والشَّهْدَانِج<sup>(١)</sup>، أو غير مُقْتَاتٍ كبِزْرِ الكِتَّانِ، وبِزْرِ الفُجْلِ، وَحَبِّ القِثَاءِ والكَمَّونِ، وسواء كان مما يُنبِثه الآدميون أو مما يَنْبُثُ بنفسه كبِزْرِ قَطُونَا، والأشنان. وكذلك يجب في الثمار التي تُكَالُ وتُدخِر كالتمر والزبيب واللوز والفستق، ولا تَجِبُ في الخوج والمشمش والإجاص والكمثري والتين، ولا في الخضراوات كالبطيخ والقثاء والبادنجان والبقول.

واختلفت الرواية في القطن والزيتون والزعفران فإن قلنا: تَجِبُ الزكاةُ في ذلك، فقال القاضي أبو يعلى: يتوجه أن يجعل نصابه ما قيمته قيمة خمسة أوسق من أدنى ما تُخرجه الأرض مما يجب فيه الزكاة ويخرج الورس<sup>(٢)</sup> والعصفر على وجهين قياساً على الزعفران في وجوب الزكاة فيه وفي مقدار نصابه.

ولا زكاةُ في جميع ذلك حتى يبلغ بعد تصفية الحبوب وجفاف الثمار خمسة أوسق الوسق ستون صاعاً، والصاع خمسة أرطالٍ وثلاثٌ بالعراقي فيكون ذلك ألفاً وستمائة رطل إلا الأرز والعَلَسُ، وهو نوعٌ من الحِنطة يُدخِر في قشره، فإن نصابه عشرة أوسق مع قشره.

ويجب في العسل العُشْرُ سواءً أخذه من موضع يملكه أو لا يملكه، ونصابه عشرة أفراقٍ، قال ابن حامدٍ: الفَرَقُ ستون رطلاً، وقال القاضي أبو يعلى: ستة وثلاثون رطلاً.

= والجمع: حَزْرَات، وفي الحديث: «لا تأخذ من حَزْرَاتِ أنفسِ الناسِ شيئاً» سميت كذلك لأن صاحبها لم يزل يحزرها في نفسه. اللسان: (حزر).

(١) الشَّهْدَانِج: حَبُّ القِثْبِ.

(٢) الورس: نبات كالسَّمْسَمِ، يُصَيِّغُ به.

النوع الثالث: زكاة النقدين: لا زكاة في الذهب حتى يبلغ عشرين ديناراً، فيجب فيه رُبع العُشر، ولا في الفضة حتى تبلغ مائتي درهم فيجب فيها خمسة دراهم وما زاد على النُّصاب فيهما فبحسابه، فإن نقص النصاب حبةً أو حبتين لم يمنع وجوب الزكاة، وإن نقص دانقاً أو دانقين فهل يمنع؟ فيه روايتان، وهل يُضم الذهب إلى الفضة في النُّصاب؟ فيه روايتان، فإن قلنا: يضم، ضم بالأجزاء لا بالقيمة، وقيل: يضم بما يكون أحوط للفقراء من الأجزاء أو القيمة.

ومن ملك ذهباً مغشوشاً أو فضة مغشوشةً فلا زكاة حتى يبلغ مقدار الذهب والفضة نصاباً، ويُخرج عن الصُّحاح صحاحاً من جنسها، فإن أخرج مُكسرةً أو بهرجةً<sup>(١)</sup> زاد فيما يُخرج مقدار ما بينهما من الفضل.

ولا زكاة في الحلي المباح إذا كان معداً للاستعمال، والمباح للرجال من الفضة الخاتم وقبيعة<sup>(٢)</sup> السيف، وفي حلية المنطقة روايتان، وعلى قياسها الجوشن<sup>(٣)</sup>، والخوذة، والخُف، والرَّان<sup>(٤)</sup>، والحمايل<sup>(٥)</sup>، ومن الذهب ما دعت إليه الضرورة كالأنف وما تُربط به الأسنان.

والمُباح للنساء من الذهب والفضة ما جرت العادة لهنَّ بلبسِه كالحلخال والسَّوار والطَّوق والتَّاج، فإن لم يُعدَّ ذلك للاستعمال لكن للكراء أو التَّفقة إن احتيج إليه؛ وجبت فيه الزكاة، وتجب الزكاة في الأواني المتخذة من الذهب والفضة.

النوع الرابع: زكاة التجارة: تجب الزكاة في قيمِ عُروض التجارة، وتؤخذ منها لا من العُروض.

النوع الخامس: المعدن: فمن كان من أهل الزكاة، فاستخرج من معدنٍ في أرضٍ مباحة أو مملوكة نصاباً من الذهب أو الفضة أو ما يبلغ قيمته نصاباً من جميع

(١) بهرجة، أي: رديئة باطلة.

(٢) قبيعة السيف: ما يُجعل على طرف القبضة.

(٣) الجوشن: الدرع.

(٤) الرَّان: شيء يُلبس تحت الخُف.

(٥) الحمايل: جمع حمالة، وهي علاقة السيف.

ما يقع عليه اسم المعدن، كالياقوت والزَّبَرَجَد والعَقِيق والصُّفْر والزَّيْبِق والكُحْل والنَّفِط والثُّورَة وما أشبه ذلك، ففيه الزكاة في الحال رُبْع العشر سواء استخرجه في دَفْعَةٍ أو دفعات بعد أن لا يترك العمل فيها ترك إهمال.

ولا يجب إخراج زكاته إلا بعد السَّبْكِ والتَّصْفِيَةِ، ومصرفه مصرف الزكوات.

وأما ما يُصِيبُه من البجر كاللؤلؤ والمرجان والعنبر والسَّمَك فهل حكمه حكم المعدن؟ فيه روايتان؛ أحدهما: حكمه حكم المعدن، والثانية: لا شيء فيه بحال.

وأما الرُّكَّاز، وهو ما وُجِدَ من دِفْنِ الجاهلية في مَوَاتٍ أو مَمْلوكٍ لا يُعرف مالِكه، فإنه يجب فيه الخُمس في الحال، أي نوع كان من المال قَلَّ أو كَثُرَ، فإن وجده في مكانٍ يُعرف مالِكه، فإن كان المالك مُسْلِمًا أو ذميًّا، فهو لمالك المكان وإن كان المالك حَرَبِيًّا وقدر عليه بنفسه، فهو رِكَاز، وإن لم يقدر عليه إلا بجماعةٍ من المسلمين، فهو غنِمةٌ.

ومصرف الرُّكَّاز مصرف خُمس الفِئَةِ، وعن الإمام أحمد أن مصرفه مصرف

الزكوات؟

النوع السادس: صدقة الفِطْرِ: فَرَضَهَا رسول الله ﷺ، ففي الصحيحين من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ فَرَضَ زكاة الفِطْرِ من رمضان صاعاً من تمر أو صاعاً من شَعِيرٍ على كل حُرٍّ أو عبْدٍ ذكْرٍ أو أنثى من المسلمين، وأمر بها أن تُؤَدَّى قبل خروج الناس إلى الصلاة.

والواجب في صدقة الفِطْرِ صاعٌ قدره خَمْسَةُ أَرْطال وثُلُثٌ بالعراقي يخرج من التَّمْرِ أو الزَّيْبِ أو البُرِّ أو الشَّعِيرِ أو دَقِيقَهُما أو سَوِيقَهُما، فأما الأَقِطُ فعن الإمام أحمد أنه لا يخرج مع وجود هذه الأصناف، وعنه: يخرج على الإطلاق. فأما ما عدا هذه الأصناف فلا يجزئ إخراجها مع وجودها، ويجوز إخراج صاعٍ من الأجناس المَنصُوصِ عليها، والأفضل التَّمْر، ثم الزَّيْبِ، ثم البُرِّ، ثم الشَّعِيرِ.

وزكاة الفِطْرِ واجبة على كل مُسْلِمٍ فَضَلَ عن قُوَّتِهِ وقُوَّتِ عِيَالِهِ يومَ العِيدِ وليتته صاعٌ، فإن فَضَلَ بعضُ صاعٍ فهل يلزمه إخراجُه؟ على روايتين.

ومن لزمته فطرته نفسه لزمته فطرة من يَمونه من المسلمين إذا وَجَد ما يؤدي عنهم، فإن وَجَد ما يؤدي عن بعضهم بدأ بمن يلزمه البداية بنفقته، فيبدأ بنفسه، ثم بزوجته، ثم برقيقه، ثم بولده، ثم بأمه، ثم بأبيه، ثم بإخوته، ثم ببني إخوته، ثم بأعمامه، ثم ببني أعمامه على ترتيب الأقرب في الميراث.

والأفضل إخراج الفِطْرَة قبل صلاة العيد، ويجوز إخراجها قبل ذلك بيومين، فإن أَخْرَها عن يوم العيد أْثَم، ووجب عليه القُضاء.

## الفصل الثاني

### في الأداء وشروطه الظاهرة والباطنة

بيان الشروط الظاهرة: يجب على مؤدي الزكاة مراعاة خمسة أمور:

الأول: النية: وهو أن ينوي بقلبه زكاة الفرض، ونية الولي تقوم مقام نية المجنون والصبي، ونية الإمام تقوم مقام نية المالك الممتنع من الزكاة، لكن في ظاهر حكم الدنيا؛ وهو قَطْع المُطالِبَة عنه لا في الآخرة، فإن ذِمَّته مشغولة لامتناعه، وإذا وَكَّل في أداء الزكاة ونَوَى عند التوكيل جاز.

الثاني: البدار عقيب الحول إلى الإخراج، فإن أَخْر مع القُدرة على الإخراج أْثَم، فإن تَلَف المَال قَبْل إمكان الإخراج وبعد حُؤول الحول لم تَسْقَط عنه، ويجوز تقديم الزكاة على الحول إذا كمل النُصاب، ولا يجوز تقديمها لأكثر من حول في إحدى الروايتين، وفي الأخرى يجوز، فإن <sup>(١)</sup> عَجَّلها ثم هَلَك المَال قَبْل الحَوْل فهل يرجع على المسكين؟ فيه وَجْهان. فإن <sup>(٢)</sup> عَجَّلها إلى فقيرٍ فاستغنى أو مات أو ارتدَّ قبل تمام الحول وتم الحول أجزأت عن المُزَكِّي.

الثالث: أن لا يخرج عوضاً باعتبار القيمة، بل يُخرج المنصوص عليه، وفي رواية أخرى عن الإمام أحمد: أنه يجوز<sup>(٢)</sup>، والأولى أصح. فإن من أجاز إنما

(١-١) سقط من الأصل.

(٢) في الأصل: «لا يجوز».

تَلَمَّحَ سَدَّ الحَلَّةِ فقط، وليس هو كل المقصود، فإن واجبات الشرع على ثلاثة أقسام: قسم هو تَعَبُدٌ مَحْضٌ كَرَمِي الجمرات، فمقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل لتظهر عبودية العبد بفعل ما لا يُعْقَلُ له معنى؛ لأن ما يُعْقَلُ معناه يُساعد عليه الطَّعَمُ ويدعو إليه، فلا يظهر به «خُلُوصُ العبودية»<sup>(١)</sup>، إذ خلوص العبودية يظهر بأن تكون الحركة لحق أمر المعبود فقط لا لمعنى آخر.

**والقسم الثاني:** من واجبات الشرع ما المقصود منه حظ معقول ولا يُقصد منه التَّعَبُدُ، كقضاء دين الآدميين، وَرَدُّ العُصُوبِ، فلا جرم لا يعتبر فيه الفعل ولا النية، بل كيف وَصَلَ الحق إلى مُستحقه حَصَلَ المقصود وسقط خطاب الشرع، فهذان قسما لا تركيب فيهما.

**والقسم الثالث:** هو المركب الذي يُقصد منه الأمران جميعاً؛ حَظُّ العِبَادِ وامتحان المكلَّف بالاستعباد، فيجتمع فيه تَعَبُدٌ رمي الجمار وحظ رد الحقوق، ولا ينبغي أن يُنسى أدق المعنيين وهو التَّعَبُدُ بسبب أجلاهما، فلعل الأدق هو الأهم، والزكاة من هذا القبيل، فحظ الفقير مقصودٌ في سَدِّ الحَلَّةِ وحق التَّعَبُدِ في اتِّبَاعِ التفاصيل مقصود للشرع، وباعتبار هذا صارت الزكاة قرينة الصلاة والحج لكونهما من مباني الإسلام، ولا شك في أن على المكلَّف تَعَبُداً في تمييز أجناس أمواله وإخراج حصة كلِّ مالٍ من نوعه وجنسه وصفته، والتَّسَاهُلِ في هذا غير قَادِحٍ في حَظِّ الفقير، ولكنه قَادِحٌ في التَّعَبُدِ، ويدل على أن التَّعَبُدَ مقصودٌ بتعيين الأنواع أن الشرع أوجب في خمسٍ من الإبل شاةً، فعدل عن الإبل إلى الشاء ولم يعدل إلى النَّقْدِينِ والتَّقْوِيمِ، فلو قُدِّرَ أن ذلك لِقَلَّةِ النقود في أيدي العرب، بطل بذكره عشرين درهماً في الجُبْران<sup>(٢)</sup> مع<sup>(٣)</sup> الشاتين، فهذا يدل على أن الزكاة لم تُترك خالية عن

(١-١) سقط من الأصل.

(٢) الجبران يكون على من وجبت عليه في زكاة إبله سنٌّ معينة ولم يجدها أخرج سنّاً أصغر منها ودفع معها شاتان أو عشرين درهماً، وهذا الفضل يُسمى جُبراناً. الموسوعة الفقهية ١٥/١٠٢ - ١٠٣، والمقنع مع الشرح الكبير والإنصاف ٦/٤١٤ - ٤١٥.

(٣) تحرفت في الأصل إلى: «بيع».

التَّعْبُدَات<sup>(١)</sup> غَيْرَ أَنَّ الْأُذْهَانَ الضَّعِيفَةَ تُقْصِرُ عَنْ دَرْكِ<sup>(٢)</sup> الْمَرْكَبَاتِ .

الرابع: أن لا ينقل الصدقة من بلد إلى بلد آخر تقصر بينهما الصلاة، وذاك لأن أعين المساكين في كل بلدة ممتدة إلى أموالها، فإن فعل، فهل يجزيه؟ على روايتين، أصحهما: الإجزاء .

الخامس: استيعاب الأصناف، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ [التوبة: ٦٠] وذلك يقتضي التشريك في التملك، فإن اقتصر على صنف واحد لم يُجزه، وهذا اختيار أبي بكر عبد العزيز، وأكثر أصحابنا على أن ذلك مستحب، وأنه يجوز الاقتصار على صنف واحد<sup>(٣)</sup>، ومتى قلنا: له أن يقتصر على صنف واحد. جاز أن يدفعها إلى مسكين واحد، وإذا قلنا: لا يقتصر، فلا يجزيه من كل صنف أقل من ثلاثة، إلا العامل فإن ما يأخذه أجرة، فجاز أن يكون واحداً .

### بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة

اعلم أن على مُريد طريق الآخرة في زكاته ثمانية وظائف:

الأولى: أن يفهم المراد من الزكاة، وهو ثلاثة أشياء:

أحدها: ابتلاء مُدَّعي محبة الله بإخراج محبوبه .

والثاني: التَّنَزُّه عن صفة البُخل المُهْلِك .

والثالث: شُكْر نِعْمَةِ الْمَالِ .

الثانية: البِدَار بالإخراج خَوْفاً من عَائِقٍ، وتَعْجِلاً لإيصال السرور إلى الفقير مع ما في ضمن التأخير من إثم .

الثالثة: الإِسْرَار، فإنه أبعد من الرياء والسُّمْعَةِ، وإذا كان المقصود بإخراج المال دَفْع محبوب النفس فحُبُّ الجاهِ أَشَدَّ اسْتِيْلَاءً على النفس من حُبِّ الْمَالِ،

(١) في الأصل: «التعبد» .

(٢) في الأصل: «إدراك» .

(٣) ورد في هامش (ظ) ما نصه: «الجزء الثاني من أجزاء الشيخ المصنف» .

فلا فائدة في مخالفة داعي البخل وإجابة داعي الرِّياء، ثم في الإظهار إذلالاً للفقير وهتكٌ لستر عفافه وصيانتته، وربما قال قائل: إذا أخفيتُ الزكاة اتُّهمتُ في الإخراج! فالجواب: أن الآخذين تختلفُ أحوالهم؛ فمنهم من لا يبالي إذا أعطي بين الجماعة، ومنهم من ينقبض عن ذلك لعلَّو همَّته، فيكفي في اشتهاه إخراجك إظهار ما تُعطي لمن لا يستنكف عن الإظهار، فلا ينبغي التعلل لطلب الرياسة بالإعطاء بهذه العلة، فالناقد بصير، فإن قال قائل: استحياءُ الفقير من أخذ الزكاة نوعٌ كبر فلا يُلْتَفَت إليه. فالجواب: إن الشَّرْع لا يُنْكَر على ذي المروءة عفافه وتَصَوُّونه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وإن تُخْفُوها وَتُؤْتُوها أَلْفُفْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. وقال بشر الحافي: تُعْطون بالليل وتتحدثون بالنهار!

الرابعة: أن يظهر الإخراج إما حيث يعلم أن في الإظهار ترغيباً للناس في الاقتداء ثم يحرس قلبه عن الرِّياء، أو لأن السائل إنما سأل في ملاء من الناس، فهذا قد هتك بالسؤال ستر نفسه، فلا وجه لتغطية حاله.

والخامسة: أن لا يُفسد صدقته بالمنِّ والأذى، والمنِّ على الفقير أن يقول له: قد أحسنتُ إليك ونَعَشْتُكَ<sup>(١)</sup>. وأما الأذى، فمثل أن يقول له: أنتُ أبدأً فقيراً! وقد بُليت بك! وأراحنى الله منك!

واعلم أن مَنِّعَ المنِّ أن يرى الإنسان نفسه محسناً إلى الفقير ومُنْعِماً عليه، ولو حَقَّقَ النظر لرأى الفقير مُحسناً إليه بقبول حق الله الذي هو طُهْرَةٌ له ولو كان على الإنسان دَيْنٌ لإنسانٍ فأحَالَ به عبده الذي هو مُتَكفِّلُ برزقه، فاعتقد مُؤدي الدين أن القابض تحت مَنِّته كان سفيهاً؛ لأن المحسن إليه هو المتكفل برزقه لا مؤدي الدين، ومن عرف ما ذكرنا في فهم وجوب الزكاة لم ير نفسه محسناً إلا إلى نفسه إما ببذل ماله لحبِّ الله، أو لتطهير نفسه عن رَذِيلَةٍ، أو لشكر نعمة المال، فلا يبقى بينه وبين الفقير معاملة، ولا يكون لطلبه شكره أو مكافأته وَجْهٌ.

فأما مَنِّعُ الأذى فأمران:

(١) يقال: نَعَشَ فلان فلاناً، أي: جبره بعد فقره.

أحدهما: كراهيته رَفَعَ اليد عن المال، وشدة ذلك على النفس، وذلك يضيق الخلق.

والثاني: رؤيته أنه خير من الفقير، وأن الفقير بسبب حاجته أنزل رتبةً منه، وكلا الأمرين مَنْشؤه الجهل، أما كراهةُ تسليم المال فهو حمقٌ لوجهين: أحدهما أن المنعم بالمال قد طلب منه شيئاً يسيراً، فلا وجه للبخل عليه، والثاني: أن المُضاعفة واقعةٌ بالمبدول، فالتوقف في البذل مع تيقن كثرة الربح حمق، وأما احتقار الفقير فجهلٌ إذ الفضل ليس بالمال ولا التَّقص بَعْدَمه.

السادسة: أن يَسْتَصْغِر العَطِيَّة، فإن المستعظم للفعل مُعْجَبٌ به والعُجْب مفسد، وقد قيل: لا يتم المعروف إلا بثلاث: تَصْغِيره وتَعْجِيله وسْتَره. ووجهُ استصغار العطية من أمرين:

أحدهما: أن يرى قِلَّةَ المفروض في كثير المال.

والثاني: أن يَسْتَحْيِي لإعطاء أخيه ما لا بد منه، ويخجل كيف لا يعطيه ما يتبرع به.

السابعة: أن ينتقي من ماله أَحْلَه وأجوده وأحَبَّهُ إليه.

أَمَّا الْحِلُّ، فَإِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا يقبل الله صدقةً من غُلُول»<sup>(١)</sup>.

وأما الأجود: فقد قال عز وجل: ﴿وَلَا تَيْمَمُوا الْخَيْبَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧] وينبغي أن يلاحظ في هذا أمرين:

أحدهما: حق الله سبحانه بالتعظيم له، فإنه أحق من اختيار له، ولو أنه قدم إلى ضيفه طعاماً ردياً لأوغر صدره، وقد قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢].

(١) أخرجه مسلم (٢٢٤)، والترمذي (١)، وابن ماجه (٢٧٢)، وأحمد (٥٢٠٥) وأبو يعلى (٥٦١٤)، وابن أبي شيبة ١/ ٤ - ٥ من حديث ابن عمر.

والثاني: حقّ نفسه، فإنّ الذي يُقدّمه هو الذي يلقاه في القيامة، فينبغي أن يختار الأجود من ماله لنفسه.

وأما أحبه إليه؛ فقد قال تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، أخبرنا عبدُ الأوّل، قال: أخبرنا الدّاودي قال: أخبرنا ابنُ أعين قال: أخبرنا الفِرْبَري قال: أخبرنا البُخاري قال: حدثنا عبد الله بن مَسْلَمَة عن مالك عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة أنه سمع أنس بن مالك يقول: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحبّ أمواله إليه بيّرحاء، وكانت مستقبله المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماءٍ فيها طيب، قال أنس: فلمّا نزلت: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قام أبو طلحة فقال: يا رسول الله ﷺ: إنّ الله يقول: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحبّ الأموال إليّ بيّرحاء، وإنها صدقةٌ لله أرجو برّها وذُخرها عند الله، فضعها حيث أراك الله. فقال: «بخ ذاك مالٌ رابح أو رائج» شكّ ابنُ مسلمة «وقد سمعتُ ما قلتُ وإنّي أرى لك أن تجعلها في الأقربين» قال أبو طلحة: أفعلُ ذلك يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمّه. أخرجاه في الصحيحين<sup>(١)</sup>.

وفي أفراد مُسلم من حديث عمر بن الخطّاب أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أصبتُ أرضاً لم أصب مالاً أحبّ إليّ ولا أنفَسَ عندي منها، فقال: «إن شئتُ تصدّقتُ بها» فتصدّق بها عمر<sup>(٢)</sup>.

قال نافع: وكان ابنُ عمر إذا اشتدَّ عُجبه بشيءٍ من ماله قرّبه لربّه عزّ وجلّ، وكان رقيقه قد عرفوا ذلك منه فربّما شمّر أحدُهم فيلزم المسجد، فإذا رآه ابنُ عمر على تلك الحال الحسنه أعتقه، فيقول له أصحابه: يا أبا عبد الرحمن، والله ما بهم إلّا أن يخدعوك، فيقول ابنُ عمر: فمن خدعنا بالله أنخدعنا له. قال نافع: ولقد رأيتنا ذاتَ عشيةٍ وراح ابنُ عمر على نجيب<sup>(٣)</sup> له قد أخذه بمال، فلمّا أعجبه سيره

(١) أخرجه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٣٢).

(٣) النجيب: الكريم من الإبل.

أَنَاخَهُ مَكَانَهُ ثُمَّ نَزَلَ عَنْهُ فَقَالَ: يَا نَافِعَ انزِعُوا زِمَامَهُ وَرَحْلَهُ وَحَلِّلُوهُ وَأَشْعِرُوهُ<sup>(١)</sup> وَأَدْخِلُوهُ فِي الْبُذْنِ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ أَبِي هَلَالٍ أَنَّ ابْنَ عَمْرِو بْنِ زَيْدٍ نَزَلَ الْجُحْفَةَ<sup>(٣)</sup> وَهُوَ شَاكٍ<sup>(٤)</sup> فَقَالَ: إِنِّي لِأَشْتَهِي حَيَاتَنَا. فَالْتَمَسُوا لَهُ فَلَمْ يَجِدُوا إِلَّا حَوْتًا، فَأَخَذَتْهُ امْرَأَتُهُ فَصَنَعَتْهُ ثُمَّ قَرَّبَتْهُ إِلَيْهِ، فَأَتَى مَسْكِينًا، فَقَالَ ابْنُ عَمْرِو بْنِ زَيْدٍ: خُذْهُ، فَقَالَ أَهْلُهُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! قَدْ عَنَيْتَنَا، وَمَعَنَا زَادٌ نُعْطِيهِ. فَقَالَ: إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ يُحِبُّهُ.

وَرَوَى نُسَيْرٌ أَنَّ سَائِلًا وَقَفَ بَبَابِ الرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ، فَقَالَ: أَطْعَمُوهُ سَكْرًا. فَقَالُوا: نُطْعِمُهُ خَبِرًا أَنْفَعَ لَهُ، فَقَالَ: وَيَحْكُمُ أَطْعَمُوهُ سَكْرًا، فَإِنَّ الرَّبِيعَ يُحِبُّ السُّكْرَ.

الثامنة: أن يطلب لصدقته من تزكوا به الصدقة، وهم خصوص من عموم الأصناف الثمانية ولهم صفات ست:

الأولى: التقوى، فليخص بصدقته المتقين، فإنه يرد بها هممهم إلى الله تعالى إذا شئت الحاجة.

وقد كان عامر بن عبد الله بن الزبير يتحيين العباد وهم سجدوا؛ أبا حازم وصفوان بن سليم وسليمان بن سحيم وأشباههم، فيأتيهم بالضرّة فيها الدنانير والدارهم فيضعها عند نعالهم بحيث يحسون بها ولا يشعرون بمكانه، فيقال له: ما يمنعك أن توجه بها إليهم؟ فيقول: أكره أن يتمرّ وجه أحدكم إذا نظر إلى رسولي أو لقيني.

وبعث ابن المنكدر شيئاً إلى صفوان بن سليم ثم قال لبيته: ما ظنكم بمن قرع صفوان للعبادة؟

(١) أشعروه: أعلموه لكي يعرف أنه من الهدى.

(٢) البذن: جمع بدنة، وهي ما يهدى للحرم من الإبل والبقر.

(٣) الجحفة: قرية على بعد اثنين وثمانين ميلاً من مكة، وهي ميقات أهل الشام.

(٤) أي: مريض.

الصفة الثانية: العلم، فإنّ في إعطاء العالم إعانةً على العلم، وبالعلم ينتشر الدين وذلك تقوية للشريعة.

الثالثة: أن يكون ممّن يرى الإنعام من الله وحده ولا يلتفت إلى الأسباب إلاّ بقدر ما نُدب إليه من شكرها، فأما الذي عادته المدح لأجل الإعطاء، فإنّه سيندم حين المنع.

الرابعة: أن يكون صائناً لفقره ساتراً لحاجته كاتماً للشكوى، إمّا لكونه من المعاملين بالفقر، أو لأنّه ممن كان يألف المروءة فذهبت نعمته وبقي عليه أثر التّجمل، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. ومثل هؤلاء لا يحصلون في شبكة طالبٍ إلاّ بعد البَحْث عنهم، وسؤال أهل كلّ محلّة عمّن هذه صفته.

الخامسة: أن يكون ذا عائلةٍ أو محبوساً بمرضٍ أو دين فهذا<sup>(١)</sup> من المُحصّرين، والتصدّق عليه إطلاقاً لحصره.

السادسة: أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام الذين لا تلزمه نفقتهم، فيكون التصدّق عليه صدقةً وصلّةً، وهو أولى من جميع البُعْداء، وإن كانت خِلالهم أزكى، فقد روى سلمان بن عامر عن النبي ﷺ أنّه قال: «الصدقة على ذي الرّحم اثنتان: صدقةٌ وصلّة»<sup>(٢)</sup>.

وروى أبو أيوب الأنصاري عن النبي ﷺ أنّه قال: «إنّ أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرّحم الكاشح»<sup>(٣)</sup>.

وكلُّ مَنْ جمعَ من هذه الخلال خلتين أو أكثر كان إعطاؤه أفضل على قدر ما جمع.

(١) تحرفت في الأصل إلى: «قهرًا».

(٢) أخرجه الترمذي (٦٥٨)، والنسائي ٩٢/٥.

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٥٣٠)، والطبراني في الكبير (٤٠١٥)، والأوسط (٣٣٠٣)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان ١٢/٢ - ١٣ من حديث أبي أيوب الأنصاري. والكاشح: القاطع المُعرض.

### الفصل الثالث

#### في القابض وأسباب استحقاقه ووظائف قبضه

اعلم أنه لا يستحق الزكاة إلا حرٌّ مسلمٌ ليس بهاشميٌّ وفي المُطَلَّبي روايتان .

ويكون في المستحقِّ صفة من أوصاف الأصناف الثمانية المذكورتين في القرآن .

**الصف الأول:** الفقراء، وهم الذين يقدرون على ما يقع موقعاً من كفياتهم،

وهم أشدَّ حاجةً من المساكين، فيدفع إليهم ما يسدُّ حاجتهم<sup>(١)</sup> .

**الصف الثاني:** المساكين، وهم الذين يقدرون على مُعظم كفياتهم فيدفع إليهم

ما تتم به الكفاية، ولا يُخرج المسكين عن المسكنة داراً يسكنها وأثاثها مما يحتاج

إليه وثوب يستره على قدر حاله، وكتب العلم التي يحتاج إليها، فإن حكمها حكم

الأثاث المحتاج إليه .

**الصف الثالث:** العاملون عليها، وهم السُّعاة الذين يجمعونها، ومن شرط

الساعي أن يكون بالغاً عاقلاً أميناً، ويجوز أن يكون غنياً أو عبداً أو من ذوي

القُربى؛ لأنَّ ما يأخذه أجرة معلومة يُقاطعه<sup>(٢)</sup> الإمام عليها، وهل يجوز أن يكون

كافراً؟ فيه روايتان عن أحمد .

**الصف الرابع:** المؤلِّفة قلوبهم، وهم السادة المطاعون في عَشائِهم، وهم

ضربان: كفارٌ ومُسلمون؛ فأما الكفار، فضربان: من يُرجى إسلامه، ومن يخاف

شره، فيجوز أن يتألَّفهم بمال الزكاة إن كان في ذلك مصلحة للإسلام في أشهر

الروايتين، ونقل حنبل أنَّ حكمهم انقطع .

وأما مؤلِّفة المسلمين، فعلى ضرب: منهم من له شرفٌ يُرجى بإعطائه إسلام

نظيره، ومنهم من يُشكُّ في حُسن إسلامه، ويُرجى بإعطائه تقويةً إيمانه ومُناصحةً

في الجهاد، ومنهم قومٌ في أطرافِ بلاد الإسلام إن أعطوا دَفَعوا عن المسلمين،

(١) في (ظ): «حَلَّتْهم» .

(٢) قاطع فلان فلاناً على كذا وكذا من الأجر والعمل، أي: ولأه إياه بأجرة معينة .

ومنهم قومٌ إذا أعطوا جَبَّوا الزكوات ممَّن لا يعطيها إلا أن يخاف، وكلّ هؤلاء يجوز الدفع إليهم من الزكاة.

الصنف الخامس: الرقاب، وفيهم روايتان عن الإمام أحمد رحمه الله:

إحدهما: أنهم المكاتبون فقط إذا لم يكن معهم ما يؤدُّون دفع إليهم بقدر ما يؤدُّون، والرواية الأخرى: أن الرقاب جميع الرقيق من المكاتبين وغيرهم، فيجوز أن يشتري من زكاته رقبته فيعتقها إذا كانت ممَّن لا يعتق عليه بالرحم، ويجوز أن يفتك<sup>(١)</sup> بزكاته أسيراً مسلماً في يد المشركين.

الصنف السادس: الغارمون، وهم صنفان: صنف غرم لإصلاح ذات البين، فيدفع إليه وإن كان غنياً، وصنف غرم لمصلحة نفسه في مباح، فيعطى مع العجز عن قضاء الدين، فإن غرم في معصية لم يُعط إلا أن يتوب.

الصنف السابع: العزاة الذين لا حقَّ لهم في الديوان، فيدفع إليهم ما يكفيهم لغزوهم وإن كانوا أغنياء، فإن لم يغزوا استرجع ذلك منهم.

الصنف الثامن: ابن السبيل، وهو المسافر المنقطع به دون المنشئ للسفر من بلده، فيعطى بقدر ما يوصله إلى بلاده ولا يُزاد على ذلك، فإن كان سفره في معصية لم يدفع إليه.

### بيان وظائف القابض

وهي أربع:

الوظيفة الأولى: أن يفهم أن الله تعالى إنما أوجب صرف الزكاة إليه ليكفيه مهمته ويجعل هُمومه همّاً واحداً في طلب رضى الله سبحانه، فإنه لما بثَّ النعم على الأغنياء وحمأ فضولها ثم ساق إليه قدر حاجته أنعم عليه بالسلامة من مخاطرة الأغنياء، فينبغي أن يعرف نعمته فيما زواه عنه، وفيما فرض له، فليستعين بذلك على تقوى الله عز وجلّ.

(١) في الأصل: «يفك».

الوظيفة الثانية: أن يشكر المعطي ويدعو له ويثني عليه، وليكن ذلك بمقدار شُكر السَّبب، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»<sup>(١)</sup>. وقال: «مَنْ أَسَدَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوا، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»<sup>(٢)</sup>.

ومن تمام الشكر أن لا يَحْتَقِر العَطَاءَ وإن قَلَّ ولا يَدْمَهُ، وَيُعْطِي ما فِيهِ مِنْ عَيْبٍ فَكَمَا أَنَّ وَظِيفَةَ الْمُعْطَى اسْتِصْغَارَ فَوْظِيفَةِ الْمُعْطَى اسْتِعْظَامٌ، وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُنَاقِضُ رُؤْيَةَ التَّعْمَةِ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنْ مِنْ لَا يَرَى الْوِاسِطَةَ وَاسِطَةً فَهُوَ جَاهِلٌ، وَإِنَّمَا الْمُنْكَرُ أَنْ يَرَى الْوِاسِطَةَ أَصْلًا. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا نَفَعَنِي مَالٌ كَمَا لِي أَبِي بَكْرٍ»<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ: «إِنَّ أَمَّنَ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ»<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ: «مَا لِأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إِلَّا وَقَدْ كَافَيْنَاهُ مَا خَلَا أَبِي بَكْرٍ، فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَدًا يُكَافِيهِ اللَّهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٥)</sup>.

الوظيفة الثالثة: أن ينظر فيما يُعْطَاهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ حِلٍّ لَمْ يَأْخُذْ أَصْلًا؛ لِأَنَّ إِخْرَاجَ مَالِ الْغَيْرِ لَيْسَ بِزَكَاةٍ، وَإِنْ كَانَ مِنْ شُبْهَةِ تَوَرَّعٍ عَنْهُ إِلَّا أَنْ يَضِيقَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ، فَإِنَّهُ إِذَا أَخْرَجَ الزَّكَاةَ مَنْ أَكْثَرُ كَسْبِهِ مِنَ الْحَرَامِ وَلَمْ يَعْرِفْ لِمَا أَخْرَجَهُ مَالُكَ مَعِينٍ كَانَتْ الْفَتْوَى أَنْ يَتَصَدَّقَ بِهِ، فَيَجُوزُ لِهَذَا الْفَقِيرِ أَنْ يَأْخُذَ قَدْرَ حَاجَتِهِ عِنْدَ ضَيْقِ الْأَمْرِ عَلَيْهِ وَعَجْزِهِ عَنِ كَمَالِ الصَّافِي فِيهِ.

- (١) أخرجه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤)، وأحمد (٧٥٠٤)، وابن حبان (٣٤٠٧)، والطيالسي (٢٤٩١)، والبخاري في الأدب المفرد (٢١٨) من حديث أبي هريرة.
- (٢) أخرجه أبو داود (٥١٠٩)، والنسائي في الكبرى (٢٣٤٨)، وأحمد (٥٣٦٥)، والطيالسي (١٨٩٥)، والبيهقي في السنن ٤/١٩٩، والحاكم ١/٤١٢، وأبو نعيم في الحلية ٩/٥٦ من حديث ابن عمر.
- (٣) أخرجه الترمذي (٣٧١٤)، وابن أبي عاصم في السنة ٢/٥٧٧، وابن الجوزي في العلل المتناهية ١/٢٥٣، والعقيلي في الضعفاء ٤/٢١٠ من حديث أبي هريرة.
- (٤) أخرجه البخاري (٤٦٦) و(٣٦٥٤)، ومسلم (٢٣٨٢)، وأحمد ٣/١٨، وابن أبي شيبة ٦/١٢، وابن حبان (٦٥٩٤)، وابن سعد ٢/٢٢٧، وابن أبي عاصم في السنة (١٢٢٧).
- (٥) هو قطعة من الحديث ما قبل السابق.

الوظيفة الرابعة: أن يتوقى مواقع الرِّيبة والاشْتِيَاه في مقدار ما يأخذ، فلا يأخذ إلا إذا تحقَّق أنه موصوف بصفة الاستحقاق، فيأخذ القَدْر المباح له، فإن كان يأخذ لأجل العُرْم لم يزد على مقدار الدين، أو لأجل العَزْو لم يزد على مقدار ما يحتاج إليه، فإن أخذ بالمسكنة، فليُنظر إلى أثاث بيته وثيابه وكُتبه هل فيها ما يُستغنى عنه وكلُّ ذلك موكولٌ إلى اجتهاده وقدر حاجته وحاجة عياله، والورع ترك ما يريب.

وقد اختلف العلماء في الغنى المانع من أخذ الزكاة؛ فقال قوم: خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب. وقال آخرون: هو أن يملك عشرين ديناراً.

والصحيح: أن الغنى المانع من أخذ الزكاة أن تكون له كفاية على الدوام إما من تجارة أو صناعة أو أجرة عقار أو غير ذلك، فإن كان له بعض الكفاية أخذ ما يُتمُّها به، وإن لم يكن له أصلاً أخذ ما يكفيه، وليكن ما يأخذه بقدر ما يكفي سنة، وأن لا يزيد على ذلك، وإنما اعتبرنا السنة؛ لأنها إذا ذهب جاء وقت الأخذ، فإذا أخذ لأكثر من سنة ضيَّق على الفقراء.

## الفصل الرابع

### في صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها

#### بيان فضيلة الصدقة من الأخبار والآثار والحث على الصدقة

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث حارثة بن وهب الحزاعي، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تصدَّقوا فيوشك الرجلُ يمشي بصدقته، فيقول الذي أعطيتها: لو جئتنا بها بالأمس قبلتُها، وأمَّا الآن فلا حاجة لي بها، فلا يجد من يقبلها»<sup>(١)</sup>، وفي أفراد البخاري من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أيُّكم مالٌ وارثه أحبُّ إليه من ماله؟» قالوا: يا رسول الله ما منَّا أحدٌ إلا ماله أحبُّ إليه، قال: «فإنَّ ماله ما قدَّم، ومال وارثه ما أخَّر»<sup>(٢)</sup>. وفي أفراد مسلم من حديث

(١) أخرجه البخاري (١٤١١)، و(١٤٢٤) و(٧١٢٠)، ومسلم (١٠١١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٤٢).

أبي سعيد الخدري قال: بينا نحن في سفرٍ مع النبي ﷺ إذ جاء رجلٌ على راحلةٍ له، فجعل يصرفُ بصره يميناً وشمالاً، فقال رسول الله ﷺ: «من كان معه فضلٌ ظهر، فليعدُّ به على من لا ظهر له، ومن كان له فضلٌ زادٍ فليعدُّ به على من لا زاد له» قال: فذكر من أصناف المال حتى رأينا أنه لا حقَّ لأحدٍ منا في فضلٍ<sup>(١)</sup>.

### فضيلة الصدقة

أبانا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر القطيعي قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدَّثني أبي قال: حدثنا أبو النَّضر وحسن بن موسى قالوا: حدثنا ورُقَاء عن عبد الله بن دينار عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تصدَّقَ بَعْدَلَ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا طَيِّبٌ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدَكُمْ فَلَوْهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ» أخرجاه في الصحيحين<sup>(٢)</sup>. وفيهما من حديث عدي بن حاتم عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشقِّ تَمْرَةٍ فليفعل»<sup>(٣)</sup>. وفي أفراد مُسلم من حديث أبي مسعود الأنصاري قال: جاء رجل بناقةٍ مخطومة<sup>(٤)</sup> فقال: هذه في سبيل الله. فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة»<sup>(٥)</sup>.

أخبرنا يحيى بن علي قال: أخبرنا أبو جعفر ابن المسلمة قال: أخبرنا أبو الحسين ابن أخي ميمي قال: حدثنا البَغوي قال: حدثنا عُقبة بن مكرم قال: حدثنا عبد الله بن عيسى الحَرَّاز عن يونس بن عبيد عن الحسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِئَ غَضَبَ الرَّبِّ، وَتُدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ»<sup>(٦)</sup>.

(١) أخرجه مسلم (١٧٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٤١٠) و(٧٤٣٠) ومسلم (١٠١٤)، والفلُّو: المُهر، والأثَى فلوة.

(٣) أخرجه البخاري (١٤١٧)، ومسلم (١٠١٦).

(٤) مخطومة: أي عليها خطامها، والخطام: الزمام.

(٥) أخرجه مسلم (١٨٩٢).

(٦) أخرجه الترمذي (٦٦٤).

أخبرنا سعيد بن أحمد قال: أخبرنا أبو القاسم بن البُسري قال: حدثنا المَحَلِّص قال: حدثنا ابن صاعد قال: حدثنا محمّد بن زُنبور قال: حدثنا الحارث بن عمير عن حميد عن أنس عن النبي ﷺ: «تصدقوا، فإن الصّدقة فكأكم من النار»<sup>(١)</sup>.

أخبرنا محمد بن عُبيد الله قال: أخبرنا عبد الله بن علي الدقاق قال: أخبرنا ابن بُشْران قال: أخبرنا إسماعيل الصَّفَّار قال: أخبرنا سَعْدان<sup>(٢)</sup> قال: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا الأعمش عن ابن بُريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يُخرج أحدٌ شيئاً من الصّدقة حتى يَفُكَّ عنها لَحْيِي سبعينَ شيطاناً»<sup>(٣)</sup>.

وقال مُغيث بن سُمي: تعبّد راهبٌ في صومعته ستينَ سنةً، ثم نزل يوماً ومعه رَغيف فعرضتْ له امرأةٌ فتكشّفت له فوقه عليها، فأدركه الموتُ على تلك الحال، وجاء سائلٌ فأعطاه الرغيف ومات، فجيء بعمل ستين سنة فوضع في كِفَّةٍ وجيء بخطيئته فوضعت في كِفَّةٍ فرجحت بعمله حتى جيء بالرغيف فوضع مع عمله فرجح بخطيئته<sup>(٤)</sup>.

وقال مالك بن دينار: أخذ السَّبْعُ صبيّاً فتصدّقت أمّه برغيفٍ، فرمى به السَّبْعُ فَنُودِيَت: لُقْمَةٌ بلُقْمَةٍ<sup>(٥)</sup>.

وقال بشر بن الحارث الحافي: الصدقة أفضل من الحجّ والعُمرة والجهاد.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط ٨/٩٠، والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/١٢، وأورده العجلوني في كشف الخفاء ١/٣٦٣، والهيثمي في مجمع الزوائد ٣/١٠٦.

(٢) هو سعدان بن نصر البراز.

(٣) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في الأموال (٩٠٤)، وابن زنجويه في الأموال (٣٣١)، وابن خزيمة (٢٤٥٧)، وأحمد (٢٢٩٦٢)، والطبراني في الأوسط (١٠٣٨)، والحاكم ١/٤١٧، والبيهقي في السنن ٤/١٨٧، وفي الشُعَب (٣٤٧٤)، واللَّحِيان: العظمان اللذان فيهما الأسنان من كل ذي لَحْيٍ.

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٧٨)، وأورده السيوطي في الجامع الكبير: ٤٧٣، والهندي في الكنز (١٦١٧٣).

(٥) أخرجه بنحوه أحمد في الزهد: ١٢٣.

## التصدق بما حضر

روت أم بُجَيد<sup>(١)</sup> أنها قالت: يا رسول الله، إنَّ المسكين ليقوم على بابي فما أجدُ له شيئاً أعطيه إياه، فقال: «إن لم تجدي له شيئاً تعطيه إياه إلا ظُلماً مُحَرِّقاً، فادفعه إليه في يده»<sup>(٢)</sup>.

وقد تصدقت عائشة رضي الله عنها بعنبة وقالت: إن فيها ذرّاً كثيراً<sup>(٣)</sup>.

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما نَقَصت صدقةً من مال»<sup>(٤)</sup>.

## بيان أن الباقي ما أُخْرِجَ اللهُ تعالى

روت عائشة رضي الله عنها أنهم ذَبَحُوا شاةً، فقال النبي ﷺ: «ما بقي منها؟» فقالت: ما بقي إلا كتفها، فقال: «بقي كلُّها غير كتفها»<sup>(٥)</sup>.

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول العبدُ: مالي مالي، وإنما له ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأفنتي، ما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس»<sup>(٦)</sup>.

## ذكر أفضل أوقات الصدقة

أخبرنا ابن الحُصَيْن قال: أخبرنا ابن المُذْهَب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر

- (١) هي أم بُجَيد الأنصارية الحارثية، واسمها حواء، وهي مشهورة بكنيتها.
- (٢) أخرجه أحمد (٢٧١٥٠)، والطيالسي (١٦٥٩)، وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (٣٣٨٦)، والطبراني في الكبير ٢٤/٥٦٠، وابن عبد البر في التمهيد ٤/٢٩٩، وابن سعد ٨/٤٥٩، وأبو داود (١٦٦٧)، والترمذي (٦٦٥)، وابن خزيمة (٢٤٧٣)، وابن حبان (٣٣٧٣)، والحاكم ١/٤١٧، والبيهقي ٤/١٧٧.
- (٣) أخرجه مالك في الموطأ (٢١٠٦)، وأبو عبيد في الأموال (٩١٠).
- (٤) أخرجه مسلم (٢٥٨٨).
- (٥) أخرجه الترمذي (٢٤٧٢).
- (٦) أخرجه مسلم (٢٩٥٩).

قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدّثني أبي قال: حدثنا جرير بن عبد الحميد عن عمارة بن القعقاع عن أبي زُرعة عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أيُّ الصدقة أفضل؟ قال: «أن تصدّق وأنت صحيحٌ شحيح، تأمل البقاء وتَخاف الفقر، ولا تُمهّلُ حتى إذا بلغت الحُلُقوم قلتَ: لفلانٍ كذا ولفلانٍ كذا ألا وقد كان لفلانٍ»<sup>(١)</sup> أخرجاه في الصحيحين.

## فصل

فأما الكلام في إخفاء الصدقة وإظهارها، فقد سبق في ذكر الآداب الباطنة في الزكاة<sup>(٢)</sup>، وقد اختلفوا أيّما أفضل للفقير: أن يأخذ من الزكاة أو من الصدقة؟ فقال قوم: من الصدقة، وعلّلوا بأنّ الأخذ من الزكاة مزاحمةٌ للمساكين وتضييقٌ عليهم، وربّما لم تكمل صفة الاستحقاق في حقّ الآخذ، والأمر في الصدقة أوسع. وقال قومٌ: بل من الزكاة، وعلّلوا بأنه إعانة على أداء الواجب، ولأنّها لا مينةٌ فيها للمخلوقين، ولأنّها أخذٌ بالحاجة، والإنسانُ يعلم حاجة نفسه، فأما الصدقة، فإنّها أخذٌ بالدّين؛ لأنّ الغالب في حق المتصدّق أنّه إنّما يُعطي مَنْ يعتقدُ فيه خيراً، ولأنّ موافقة المساكين أدخل في الدّلّ والمسكنة، وأبعد من الكبر.

والصوابُ أن يقال: إنّ الأحوال تختلف باختلاف أحوال الشخص وما يحضره من النية، فإن كان في ريبٍ من اتّصافه بصفة الاستحقاق كان ترك الزكاة في حقّه أولى، وإن علم أنه مستحقّ قطعاً ثم خيّر بين الزكاة والصدقة، فإن كان المتصدّق لا يُخرج ذلك المال إلا أن يأخذ هذا الفقير، فليأخذه لتُصرف الزكاة إلى مستحقّيها ويكثر الخير، وإن كان المال مُعرّضاً للصدقة ولم يكن في أخذ الزكاة تضييق على المساكين، فهو مُخيّر، والأمر فيهما متقارب، وأخذ الزكاة أشدّ في كُره النَّفس وإذلالها في أغلب الأحوال.

## آخر كتاب الزكاة.

(١) أخرجه البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢)(٩٣).

(٢) في الصفحة (١٦٦) وما بعدها.



## كتاب أسرار الصوم ومهماتَه

الحمد لله الذي فتح للمؤمنين باب القرب إلى الجنة، فجعل الصلاة لهم صلةً والصوم جنةً، وأعاد بالرياضة النفس الأمانة مطمئنةً، فقويت بالمنة عليهم في المجاهدة المنة، وأبعد الكافرين فسَّط عليهم الجنة، فمنعهم الهدى فقالوا: قلوبنا في أكنة.

أحمدُه على التوفيق لسنن السنة، وأصلي على رسوله محمدٍ أشرف ركبٍ جاذب الأئمة، وعلى آله وأصحابه أولي الفهوم المرجحة، وأسلم تسليماً كثيراً. أما بعد، فإن للصوم خصيصةً ليست لغيره، وهو إضافته إلى الله عز وجل من بين العبادات حين قال: «الصوم لي»<sup>(١)</sup>، والمقصود من هذا الكتاب ينحصر في أربعة فصول:

الفصل الأول: في بيان فضل الصوم، والثاني في الواجبات والسنن الظاهرة، واللوازم بإفساده، والثالث: في أسرار الصوم وشروطه الباطنة، والرابع في التطوع بالصيام وترتيب الأوراد فيه.

### الفصل الأول

#### في بيان فضل الصوم

أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثني أبي قال:

(١) سيأتي بتمامه في الصفحة التالية.

حدثنا وكيع قال: حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ عملٍ ابن آدم يُضَاعَفُ الحَسَنَةُ بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضِعْفٍ إلى ما شاء الله، يقول الله عزَّ وجلَّ: إِلَّا الصَّوْمُ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ يَدْعُ طَعَامَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ، وَلِخُلُوفٍ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ، الصَّوْمُ جُنَّةٌ الصَّوْمُ جُنَّةٌ»<sup>(١)</sup>.

قال الإمام أحمد: وحدثنا أحمد بن عبد الملك قال: حدثنا حماد بن زيد عن أبي حازم عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ لِلْجَنَّةِ بَاباً يُقَالُ لَهُ: الرِّيَّانُ، يُقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ هَلُمُّوا إِلَى الرِّيَّانِ، فَإِذَا دَخَلَ آخِرُهُمْ أُغْلِقَ ذَلِكَ الْبَابُ» وفي لفظ: «فلم يدخل منه أحدٌ غيرهم»<sup>(٢)</sup>.

قال أحمد: وحدثنا يعقوب قال: حدثنا أبي عن صالح عن ابن شهاب: حدثني نافع ابن أبي أنس أن أباه حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فَتُحْتَفَتُ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ، وَغُلِّقَتِ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلِّسَتِ الشَّيَاطِينُ»<sup>(٣)</sup> وفي لفظ: «فُتِحَتِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ»<sup>(٤)</sup> وفي لفظ: «أبواب السماء»<sup>(٥)</sup>. هذه الأحاديث الثلاثة متفق عليها.

وفي حديث أبي أمامة قال: قلتُ: يا رسول الله، مُرْنِي بِعَمَلٍ أَخْذُهُ عِنْدَكَ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهِ. قال: «عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ» قال: فكان أبو أمامة وامرأته وخادِمُهُ لَا يُلْقَوْنَ إِلَّا صِيَاماً وَإِذَا رَأَوْا نَاراً أَوْ دَخَاناً بِالنَّهَارِ فِي مَنْزِلِهِمْ عَرَفُوا أَنََّّهُمْ اعْتَرَاهُمْ ضَيْفٌ<sup>(٦)</sup>.

أخبرنا عبد الوهاب الأنماطي قال: حدثنا حمد بن أحمد الحداد قال: حدثنا

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١)(١٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٦٩)، ومسلم (١١٥٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٧٧)، ومسلم (١٠٧٩)(٢).

(٤) هو عند مسلم (١٠٧٩)(١).

(٥) هو عند البخاري (١٨٩٩).

(٦) أخرجه أحمد (٢٢١٤٠)، والطبراني في الكبير (٧٤٦٥)، وأبو نعيم في الحلية ١٧٥/٥.

أحمد بن عبد الله الأصبهاني قال: حدثنا حبيب بن الحسن قال: حدثنا عمر بن حفص السدوسي قال: حدثنا عاصم بن علي قال: حدثنا مهدي بن ميمون عن واصل مولى أبي عيينة عن لقيط عن أبي بردة عن أبي موسى قال: خرجنا غازين في البحر فبينما نحن والريح لنا طيبة والشراع لنا مرفوع سمعنا مُنادياً يُنادي: يا أهل السفينة قفوا أخبركم. حتى والى بين سبعة أصوات، قال أبو موسى: فقمْتُ على صدر السفينة فقلت: مَنْ أنت؟ ومن أين أنت؟ أو ماترى أين نحن وهل نستطيع وقوفاً؟! قال: فأجابني الصوت: ألا أخبركم بقضاءٍ قضاه الله على نفسه؟ قال: قلت: بلى أخبرنا. قال: فإن الله قضى على نفسه أنه من عطش نفسه الله في يومٍ حارٍّ كان حقاً على الله أن يرويه يوم القيامة. قال: فكان أبو موسى يتوخى ذلك اليوم الحارَّ الشديد الحرِّ الذي يكاد ينسلخ فيه الإنسان فيصومه<sup>(١)</sup>.

واعلم أن من أعظم فضائل الصوم إضافته إلى الله سبحانه حين قال: «الصومُ لي» وكفى بهذه الإضافة شرفاً، فإنَّ البيتَ إنما شُرف بإضافته إليه في قوله تعالى: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ [الحج: ٢٦] وإنما فضله لمعنيين: أحدهما: أنه سرٌّ وعملٌ بالباطن لا يراه الخلق ولا يدخله الرياء. والثاني: أنه قهرٌ لعدو الله لأن وسيلة العدو الشهوات، وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب، وما دامت أرض الشهواتٍ مُحصبة فالشياطين يترددون إلى ذلك المرعى.

## الفصل الثاني

### في الواجبات واللوازم بالإفطار والسنن الظاهرة

أما الواجبات الظاهرة، فسته<sup>(٢)</sup>:

الأول: مراقبة أول شهر رمضان، وذلك لرؤية الهلال، ويحصل ذلك بقولٍ عدلٍ واحدٍ، ولا يُقبل في سائر الشهور إلا عدلان، فإن حال دون مطلعهِ غيمٌ أو قترٌ ففيه ثلاث روايات عن الإمام أحمد رحمه الله؛ إحداهن: يجبُ صومه بنية رمضان.

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٦٠.

(٢) بعدها في الأصل: «أشياء».

والثانية: لا يجب صومه، والثالثة: الناس تبع للإمام، فإن صام صاموا، فإن رآه أهل بلد لزم جميع البلاد الصوم.

الثاني: النية، وهي واجبة في الليل لكل يوم من رمضان، وعن الإمام أحمد: تجزئ نية واحدة لجميع الشهر.

الثالث: الإمساك عن إيصال شيء إلى الجوف، فمن أكل أو شرب، أو استعظ<sup>(١)</sup>، أو اكتحل بما يصل إلى جوفه أو قطر في أذنه فوصل إلى دماغه، أو داوى المأمومة<sup>(٢)</sup> والجائفة<sup>(٣)</sup> بما يصل إلى جوفه، أو احتقن أو حجم أو احتجم، أو استقاء أو استمنى ذاكراً للصوم عالماً بالتحريم بطل صومه، وعليه أن يمسك بقية يومه ويقضي. وإن فعل ذلك ناسياً أو مكرهاً أو جاهلاً بالتحريم لم يبطل صومه.

فأما ما يصل بغير قصد مثل العُبار والذُّباب، فإنه لا يضر، وكذلك إذا وصل إلى جوفه ماء المضمضة والاستنشاق بغير اختياره، إلا أن يكون قد زاد على الثلاث فيهما أو بالغ<sup>(٤)</sup> في الاستنشاق، فإنه يفطر في أحد الوجهين.

الرابع: الإمساك عن الجماع فإنه يفسد صوم الرجل والمرأة، سواء كانا ذاكراً أو ناسيين، مختارين أو مكرهين.

فأما الكفارة؛ فإنها تلزم الرجل مع زوال العذر، وهل يلزمه الإكراه أو النسيان؟ على روايتين.

وأما المرأة فلا تلزمها الكفارة مع العذر، وهل تلزمها مع المطاوعة؟ على روايتين.

وقد نقل ابن القاسم عن الإمام أحمد أنه قال: كلُّ أمرٍ غلبَ عليه الصائم،

(١) استعظ: وضع دواءً في أنفه.

(٢) المأمومة: الطعنة تصل أمَّ الرأس وهي الدماغ.

(٣) الجائفة: الطعنة التي تصل إلى الجوف.

(٤) تحرفت في الأصل إلى: «تابع».

فليس عليه قضاء ولا غيره، وهذا يدل على إسقاط القضاء والكفارة مع الإكراه والنسيان.

فإن طلع الفجر وهو مُجمَعٌ فاستدام فعلية القضاء والكفارة، وإن نزع ففيه وجهان: أحدهما عليه القضاء والكفارة. والثاني: لا قضاء ولا كفارة.

فإن باشر في الصوم دون الفرج، أو قبَّل أو لمس أو كرَّرَ النَّظَرَ فَأَمَّنَى، فعليه القضاء، وفي الكفارة روايتان، وإن لمس فَأَمَّدَى؛ فالقضاء وحده.

والكفارة: عتق رقبة مؤمنة<sup>(١)</sup> سليمة عن العيوب<sup>(٢)</sup>، فإن لم يجد، فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع أطعم ستين مسكيناً، فإن لم يجد سقطت عنه.

وعن الإمام أحمد أن الكفارة على التَّخْيِيرِ بين العتق والصيام والإطعام.

الخامس: الإمساك عن الاستمناة بجماع أو بغير جماع، فإن فَكَّرَ فَأَنْزَلَ هل يفسد صومه؟ فيه وجهان.

السادس: الإمساك عن إخراج القيء، وقد ذكرنا أنه إذا استقاء ذاكراً للصوم عالماً بالتحريم بطل صومه، فأما إذا غلبه القيء فإنه لا يفطر، وهل يفسد صومه إذا ابتلع النخامة؟ فيه روايتان. فإن جمع ريقه في فمه ثم ابتلعه، فهل يفطر؟ فيه وجهان.

### ذِكْرُ اللَّوَاظِمِ بِالْإِفْطَارِ

وهي أربعة: القضاء، والكفارة، والفدية، وإمساك بقية النهار تشبهاً<sup>(٢)</sup> بالصائمين.

أما القضاء؛ فوجوبه عام<sup>(٣)</sup> على كلِّ مُسْلِمٍ مُكَلَّفٍ تَرَكَ الصَّوْمَ بِعُذْرٍ أَوْ غَيْرِ عُذْرٍ.

(١-١) سقط من (ظ).

(٢) في الأصل: «تشبيهاً».

(٣) ليست في الأصل.

فأما الكَفَّارَةُ فَتَجِبُ بِالْجَمَاعِ، وهل تجب بغيره؟ قد سبق ذكره هذا.

وأما الفِدْيَةُ فتجب على الحامل والمُرضع إذا أَفْطَرْتَا خَوْفًا عَلَى وَلَدَيْهِمَا مع القُضَاءِ.

وهي: إطعام مسكين ومقدارها مُدٌّ مِنْ بُرٍّ عن كل يوم أو نصفُ صَاعٍ من تمرٍ أو شعيرٍ.

فأما العاجز عن الصوم للكِبَرِ أو للمرض الذي لا يُرجى بُرُّوهُ، فإنه يُطعم عن كل يومٍ مسكينًا، ولا يجب عليه الصوم.

وأما إِمْسَاكُ بقية النهار تَشْبُهًا بالصائمين فيجب على من عَصَى بِالْفِطْرِ، فإن أسلم الكافر، أو بَلَغَ الصبي، أو أَفَاقَ المَجْنُونُ في أثناء النهار لَزِمَهُمُ الإِمْسَاكُ والقُضَاءُ في إحدى الروايتين، وفي الأخرى لا يلزمهم. فإن طَهَّرَتِ الحائضُ والنفساء، وَقَدِمَ المُسَافِرُ، وقامت البيئَةُ بِرُؤْيَةِ الهلال في أثناء النهار لَزِمَهُمُ القُضَاءُ روايةً واحدةً، وفي وجوب الإِمْسَاكِ روايتان.

### ذكر السنن

وهنَّ تِسْعٌ إِحْدَاهُنَّ: التَّسْحُرُ، ففي الصَّحِيحِينَ من حديث أنسٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السُّحُورِ بَرَكَةً»<sup>(١)</sup>. وفي حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «السُّحُورُ أَكْلُهُ بَرَكَةٌ، فلا تَدَعُوهُ ولو أَنْ يَجْرَعَ أَحَدُكُمْ جَرَعَةً من ماء، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَمَلَائِكَتُهُ يَصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ»<sup>(٢)</sup>.

الثانية: تأخير السُّحُورِ، ففي الصَّحِيحِينَ من حديث زيد بن ثابت قال: تَسَحَّرْنَا مع رسول الله ﷺ ثم قُمْنَا إِلَى الصَّلَاةِ. قيل له: كم كَانَ قَدْرُ مَا بَيْنَهُمَا؟ قال: قَدْرُ خَمْسِينَ آيَةٍ<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه البخاري (١٩٢٣)، ومسلم (١٠٩٥).

(٢) أخرجه أحمد (١١٠٨٦) و(١١٣٩٦).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٥)، ومسلم (١٠٩٧).

الثالثة: تَعَجِيلُ الْفِطْرِ، ففي الصحيحين من حديث سَهْل بن سَعْد عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزالُ الناس بخيرٍ ما عَجَّلوا الفِطْر»<sup>(١)</sup> وأخبرنا ابنُ الحَصِين قال: أخبرنا ابن المُذْهَب قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا الوليد - يعني ابن مُسَلِم - قال: حدثنا الأوزاعي، قال: حدثني قُرَّة عن الزُّهري عن أبي سَلَمَةَ عن أبي هُرَيْرَةَ عن النبي ﷺ قال: «يقولُ اللهُ عز وجل: إن أحبَّ عبادي إليَّ أَعَجَلُهُمْ فِطْرًا»<sup>(٢)</sup>.

الرابعة: الإفطار على التَّمْرِ، أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا أبو علي التميمي، قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا عاصم عن حَفْصَةَ عن الرَّبَاب عن سَلْمَانَ بن عامر الضَّبِّي قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا أفطَرَ أحدُكم فليُفطر على تمر، فإن لم يجد، فليُفطر على ماء، فإنه له طهور»<sup>(٣)</sup>. وفي حديث أنس قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ يُفطر على رُطَبات، فإن لم يكن رُطَبات فتمرات، فإن لم تكن تمرات حَسَى حَسَوَاتٍ من ماء<sup>(٤)</sup>. وقال وَهْبُ بن مُنْبَهٍ: إذا صامَ الإنسان زاعَ بصره، فإذا أفطَرَ على حلاوة عادَ بصره.

الخامسة: تَرْكُ السَّوَاكِ بعد الزَّوَالِ، فإنه مكروه في إحدى الروايتين عن الإمام أحمد.

السادسة: الجودُ في رمضان، وفعلُ المعروف، وكثرةُ الصدقة اقتداءً برسولِ اللهِ ﷺ، فإن في الصحيحين من حديث ابن عباسٍ قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ أجودَ بالخَيْرِ من الرِّيحِ المرسلَةِ، وكان أجودَ ما يكون في رَمَضانَ<sup>(٥)</sup>. ويظهر في

(١) أخرجه البخاري (١٩٥٧).

(٢) أخرجه أحمد (٧٢٤١)، والترمذي (٧٠٠)، وابن حبان (٣٥٠٧) و(٣٥٢٨)، والبخاري (١٧٣٣).

(٣) أخرجه أحمد (١٦٢٢٥) و(١٦٢٢٦)، والنسائي في الكبرى (٣٣٢٤) و(٣٣٢٥)، وأبو داود (٢٣٥٥)، والترمذي (٦٥٨) و(٦٨٥) وابن ماجه (١٦٩٩).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٣٥٦)، والترمذي (٦٩٦).

(٥) أخرجه البخاري (٦) و(١٩٠٢)، ومسلم (٢٣٠٨).

هذا من المعنى أن الرسول ﷺ وافق ربه عز وجل في الكرم، فإن آثاره تظهر في رمضان أكثر من غيره لكثرة العتق وعموم الغفران.

السابعة: دراسة القرآن، ففي الصحيحين من حديث ابن عباس قال: كان جبريل يأتي رسول الله ﷺ في رمضان فيُدارسُه القرآن<sup>(١)</sup>.

وقد كان الشافعي رحمه الله يختم القرآن كل يوم ختمةً، فإذا جاء رمضان ختم ستين ختمة<sup>(٢)</sup>.

الثامنة: الاعتكاف، لا سيما في العشر الأواخر، ففي الصحيحين من حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل<sup>(٣)</sup>.

ولا يصح اعتكاف الرجل إلا في مسجد تقام فيه الجماعة، ويصح من النساء في جميع المساجد. ويصح اعتكاف بعض يوم، ويستحب للمعتكف أن يتشاغل بما يُقربه إلى الله عز وجل، وإذا صح قصده في قراءة القرآن وتدريس العلم كان ذلك مستحباً.

التاسعة: زيادة الاجتهاد في العشر الأواخر، ففي الصحيحين من حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ في العشر الأواخر من رمضان يُحيي الليل، ويوقظ أهله، وَيَشُدُّ المِئْزَرَ<sup>(٤)</sup>. وفي لفظ أخرجه مسلم قالت: كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره<sup>(٥)</sup>.

وقد ذكر العلماء في معنى شد المئزر وجهين: أحدهما: الإعراض عن النساء، والثاني: الجد والتشمير في العمل. وقالوا: وكان سبب اجتهاده عليه الصلاة

(١) هو الحديث السابق.

(٢) أخرجه البيهقي في مناقب الشافعي ١٥٩/٢.

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٢٦)، ومسلم (١١٧٢).

(٤) أخرجه البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤).

(٥) أخرجه مسلم (١١٧٥).

والسلام في هذا العَشر طلب ليلة القَدْر، والأولى طلبها في ليالي الوتر، وأخصها ليلة سَبْعٍ وعشرين، ففي أفراد مُسلم من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ كان مُتَحَرِّياً فليتحرها ليلة سَبْعٍ وعشرين»<sup>(١)</sup>. وقد كان أَبِي بن كَعْبٍ يَحْلِفُ أنها ليلة سَبْعٍ وعشرين<sup>(٢)</sup>. وقد قال أَبُو قِلَابَةَ: ليلة القَدْر تَنْتَقِلُ في العَشر الأواخِر، فعلى هذا يَنْبَغِي لَطالِبِها أَنْ لا يَفْتَرَّ في ليالي العَشر خُصُوصاً في الأَفراد مِنْها. وفي الصَّحِيحِينَ من حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قام ليلَةَ القَدْرِ إِيماناً واحْتِساباً غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»<sup>(٣)</sup>. وقالت عائِشة: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، إن وافقتُ ليلةَ القَدْرِ فِيمَ أَدْعُو؟ قال: «قولِي: اللهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ فاعْفُ عَنِّي»<sup>(٤)</sup>.

### الفصل الثالث

#### في أسرار الصوم وشروطه الباطنة

للصوم ثلاث مراتب: صوم العموم، وصوم الخُصوص، وصوم خُصوص الخُصوص.

فأما صوم العموم؛ فهو كَفُّ البَطْنِ والفَرَجِ عَن قِضاءِ الشَّهْوَةِ.

وأما صوم الخُصوص؛ فكفُّ البَطْنِ والفَرَجِ واللِّسانِ واليَدِ والرَّجْلِ والسَّمْعِ والبَصَرِ وسائرِ الجوارِحِ عَنِ الآثامِ.

وأما صوم خُصوصِ الخُصوص؛ فصوم القلبِ عَنِ الهِمَمِ الدُّنْيِيَّةِ والأفكارِ المُبْعَدَةِ عَنِ اللهِ تَعَالَى، وَكَفُّهُ عَمَّا سِوَى اللهِ تَعَالَى بِالْكُلِّيَّةِ، وَهَذَا الصَّوْمُ لَهُ شَرُوحٌ تَأْتِي فِي غَيْرِ هَذَا المَوْضِعِ، وَصَوْمِ العَمُومِ قَدْ أَشْرنا إِلَيْهِ آنفاً، فَلنذكر آدابِ صَوْمِ الخُصوصِ، وَيَجْمَعُها ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ؛ شَيْئانِ ظاهِرانِ وَشَيْءٌ باطنِ.

(١) أخرجه البخاري (١١٦٥).

(٢) أخرجه مسلم (٧٦٢) (٢٢١).

(٣) أخرجه البخاري (٢٠١٤)، ومسلم (٧٦٠).

(٤) أخرجه أحمد (٢٥٤٩٥) والترمذي (٣٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٥٠).

فأما الظاهران: فأحدهما: غَضَّ البصر، وحِفظ اللِّسان عمَّا يُؤذي من كلامٍ محرمٍ أو مكروهٍ أو ما لا يُفيد، وحراسة باقي الجوارح، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الصيامُ جُنَّةٌ، فإذا كان أحدكم يوماً صائماً، فلا يَجْهَل ولا يَرْفُث، فإن امرؤُ قاتله أو شتمه، فليقل: إني صائم»<sup>(١)</sup>. وقد تأول العلماء قوله: «فليقل: إني صائم» تأويلين: أحدهما: أن يقول ذلك بلسانه، والثاني: أن يقول ذلك في نفسه، فكأنه يقول: كيف أُجيب وأنا صائم؟

وفي أفراد البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ لم يَدْعُ قولَ الزُّور والعملَ به والجهل، فليس لله حاجة في أن يدعَ طعامه وشرابه»<sup>(٢)</sup>. أخبرنا محمد بن أبي طاهر قال: أخبرنا الجوهري قال: أخبرنا علي بن محمد بن كَيْسان قال: أخبرنا يوسف القاضي قال: حدثنا أبو الربيع قال: حدثنا إسماعيل بن جَعفر قال: حدثنا عمرو بن أبي عمرو، عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «رُبَّ صائمٍ حَطَّه من صيامه الجوعُ والعطشُ، ورُبَّ قائمٍ حَطَّه من قيامه السَّهر»<sup>(٣)</sup>.

والثاني: أن لا يَمْتَلئ من الطعام في الليل بل يأكل بمقدارٍ، فإنه «ما ملأ ابنُ آدمَ وعاءَ شراً من بطنٍ»<sup>(٤)</sup>، ومتى شبعَ في أول الليل لم يَنْتفع بنفسه في باقيه، وإذا شَبِعَ وقتَ السَّحر لم يَنْتفع بنفسه إلى قريبٍ من الظهر؛ لأن ذلك يُورثه الكَسَل والفتور، ثم يفوت المقصود من الصيام؛ لأن المراد من الصائم أن يذوق طعم الجوع ويكون تاركاً لما يُشْتَهَى، فإنَّ الآدمي فوق رُتبة البهائم لمكان قُوته على كسر شهوته، ودون رُتبة الملائكة لاستيلاء الشَّهوات عليه، فإن غلبته شهواته كانت

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٠٣) و(٦٠٥٧).

(٣) أخرجه أحمد (٨٨٥٦)، والدارمي (٢٧٢٠)، وابن ماجه (١٦٩٠)، وابن خزيمة (١٩٩٧)، والبيهقي في السنن ٤/٢٧٠، وأبو يعلى (٦٥٥١)، والحاكم ١/٤٣١.

(٤) أخرجه أحمد (١٧١٨٦)، والترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وابن حبان (٥٢٣٦)، والبيهقي في الشعب (٥٦٤٩)، والنسائي في الكبرى (٦٧٦٩) من حديث المقدم بن معدي كَرِب.

البهائم أعذر إذ لا قوة لها تردُّ، وله قوة، وإن غلبها علا على الملائكة، إذ لا صاءً لهم وله صواء.

وأما الأمر الباطن؛ فاضطرابُ القلب عند الإفطار بين الخوف على صومه هل قبل، وبين رجائه أن يُقبل.

## الفصل الرابع

### في التطوع بالصيام وترتيب الأوراد فيه

اعلم أن استحباب الصوم يتأكد في الأيام الفاضلة، وفواضل الأيام بعضها يوجد في كل سنة، وبعضها في كل شهر، وبعضها في كل أسبوع.

فأما ما يوجد في السنة بعد أيام رمضان، فمنه أيامٌ، ومنه أشهر، فأما الأيام، فستة أيام من شوال، ويوم عرفة، ويوم عاشوراء، والعشر الأول من ذي الحجة، والعشر الأول من المحرم.

فأما الستة من شوال فقد روى مسلم في أفراده من حديث أبي أيوب عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ صام رمضان وأتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر»<sup>(١)</sup>.

وأما يوم عرفة، فقد روى مسلم في أفراده من حديث أبي قتادة عن النبي ﷺ أنه سُئِلَ عن صوم يوم عرفة، فقال: «كفارة سنتين»<sup>(٢)</sup>، وفي لفظ: «يُكفِّر السنة الماضية والباقية»<sup>(٣)</sup>.

وأما يوم عاشوراء، ففي أفراده من حديث أبي قتادة أيضاً أن النبي ﷺ سُئِلَ عن صوم عاشوراء، فقال: «كفارة سنة»<sup>(٤)</sup> وفي لفظ: «يُكفِّر السنة الماضية»<sup>(٥)</sup>.

(١) أخرجه مسلم (١١٦٤).

(٢) أخرجه مسلم (١١٦٢) (١٩٦).

(٣) أخرجه مسلم (١١٦٢) (١٩٧).

(٤) هو جزء من الحديث قبل السابق.

(٥) تقدم في التعليق رقم (٣).

وأما العشر الأول من ذي الحِجَّة، ففي أفراد البخاري من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «ما مِنْ أيامِ العملِ الصالح فيها أحب إلى الله عز وجل من هذه الأيام» يعني أيام العشر، قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلاً خرجَ بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء»<sup>(١)</sup>. أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: حدثنا محمد بن علي بن أبي عثمان قال: حدثنا ابن رِزْقويه قال: حدثنا حمزة بن محمد قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثنا محمد بن رُفيع القيسي قال: حدثنا مسعود بن واصل قال: حدثنا النَّهاسُ بنُ قَهْم عن قتادة عن سَعِيد بن المسيَّب عن أبي هريرة ذكر أن النبي ﷺ قال: «ما من أيام الدنيا أيامٌ أحب إلى الله عز وجل أن يُتَعَبَّدَ له فيها من أيام العشر، يعدل صيام كل يوم منها بصيام سنة، وقيام كل ليلة منها كقيام ليلة القدر»<sup>(٢)</sup>.

وأما العشر الأول من المُحرم، فقد قال أبو عثمان النهدي: كانوا يفضلون ثلاث عشرات: العشر الأول من ذي الحجة، والعشر الأول من المحرم، والعشر الأخير من رمضان.

وأما الشُّهور، فشعبان، والأشهر الحُرْم، فأما شعبان ففي الصحيحين من حديث عائشة قالت: ما كان رسولُ الله ﷺ يصوم من شهرٍ من السنة أكثر من صيامه من شعبان كان يصومه كله<sup>(٣)</sup>.

وأما الأشهر الحرم، فهي رَجَب، وذو القعدة، وذو الحِجَّة، والمُحرم، وقد كان جماعة من السلف يصومونها لمكان تعظيمها، منهم الحسن البصري.

فأما رَجَب فمن صامه لأنه شهر حرام فحَسَن، غير أنه يُكره له أن يصومه كله إلا أن يصله بشعبان ورمضان، وقد رُويت في صومه أحاديث ليس فيها ما يثبت.

(١) ليس هو من أفراد البخاري كما ذكر المصنف، وإنما أخرجه أحمد (١٩٦٨)، والترمذي

(٧٥٧)، وابن ماجه (١٧٢٧)، وابن حبان (٣٢٤)، وأبو داود (٢٤٣٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٧٢٨)، والخطيب البغدادي في تاريخه ٢٠٨/١١.

(٣) أخرجه البخاري (١٩٧٠)، ومسلم (١١٥٦) (١٧٦).

وأما ذو القعدة فليس فيه إلا أنه شهرٌ مُحَرَّم وكفى بذلك فضيلة.

وأما ذو الحجة، فقد جمع مع كونه حراماً أنه شهر الحج، وقد ذكرنا فضائل عشرة.

وأما المُحَرَّم، ففي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم»<sup>(١)</sup>. وفي لفظ: «الذي تدعونه المُحَرَّم»<sup>(٢)</sup>.

وأما ما يتكرر في الشهور؛ فأول الأشهر وأوسطها وآخرها، فمن صام أول يوم من الشهر، وأوسط يوم منه، وآخره فقد أحسن، غير أن الأفضل أن يصوم الثلاثة في أيام البيض<sup>(٣)</sup>، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: أوصاني خليلي بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام<sup>(٤)</sup>. وفي أفراد مسلم من حديث أبي قتادة عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث من كل شهر، ورمضان إلى رمضان هذا صيام الدهر كله»<sup>(٥)</sup>. وفي أفراد من حديث عائشة أنها سئلت: أكان رسول الله ﷺ يصوم من كل شهر ثلاثة أيام؟ قالت: نعم. قيل لها: من أي أيام الشهر كان يصوم؟ قالت: لم يكن يُبالي من أي أيام الشهر يصوم<sup>(٦)</sup>. إلا أنه قد روى أبو ذر عن النبي ﷺ أنه قال له: «إذا صُمت ثلاثة أيام من الشهر، فصم ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة»<sup>(٧)</sup>.

وأما المتكرر في كل أسبوع؛ فيوم الإثنين والخميس، وفي أفراد مسلم من

(١) أخرجه مسلم (١١٦٣).

(٢) هذا اللفظ عند ابن ماجه (١٧٤٢).

(٣) الأيام البيض هي ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة من الشهر، وسميت بالبيض لبياض ليلها كله بالقمر.

(٤) أخرجه البخاري (١٩٨١)، ومسلم (٧٢١).

(٥) أخرجه مسلم (١١٦٢) (١٩٦).

(٦) أخرجه مسلم (١١٦٠).

(٧) أخرجه أحمد (٢١٤٣٧)، والترمذي (٧٦١)، والنسائي ٢٢٣/٤.

حديث أبي قتادة عن النبي ﷺ أنه سُئِلَ عن صَوْمِ يَوْمِ الاثْنَيْنِ، فقال: فيه وُلِدْتُ، وفيه أُنزِلَ عَلَيَّ<sup>(١)</sup>.

وفي أفرادِهِ أيضاً من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أبواب الجنة تُفتح يوم الاثنين والخميس»<sup>(٢)</sup>. وفي حديث أسامة بن زيد قال: كان رسول الله ﷺ يَصُومُ الأيامَ يَسْرُدُ حتى نَقول: لا يُفْطِر، ويُفْطِر الأيامَ حتى لا يكاد يصوم، إلا يومين من الجمعة إن كانا في صيامه ولا صامهما، فقلت: يا رسول الله، إنك تصومُ لا تكاد تُفْطِر، وتُفْطِر حتى لا تكاد تصوم إلا يومين إن دخلا في صيامك<sup>(٣)</sup> وإلا صُمْتَهُمَا! قال: «أي يومين؟» قلت: يوم الإثنين ويوم الخُميس قال: «ذَانِكَ يَوْمَانِ تُعْرَضُ فِيهِمَا الأَعْمَالُ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأَحَبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ»<sup>(٤)</sup>.

وهذه الأيام الفاضلة التي ذكرناها يُسْتَحَبُّ صِيَامُهَا، وَفِعْلُ مَا يُمْكِنُ مِنَ الطَّاعَاتِ فِيهَا لِيَتَضَاعَفَ بِبَرَكَتِهَا الأَجْرُ.

وأما صَوْمُ بَعْضِ الأيامِ وإفطار بعضها، ففي أفرادِ مسلمٍ من حديث أبي قتادة أن عُمر بن الخطاب سأل رسولَ الله ﷺ فقال: كيف بمن يصوم يومين ويفطر يوماً؟ قال: «ويُطِيقُ ذلكَ أحدٌ؟» قال: كيف بمن يصوم يوماً ويفطر يومين؟ قال<sup>(٥)</sup>: «ووددتُ أني أطيعُ ذلكَ» قال: فكيف بمن يصوم يوماً ويفطر يوماً؟ قال: «ذلكَ صوم داود عليه السلام»<sup>(٦)</sup> وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا»<sup>(٧)</sup>.

(١) أخرجه مسلم (١١٦٢)(١٩٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٥).

(٣) في الأصل: «صومك».

(٤) أخرجه أحمد (٢١٧٥٣)، وعبد الرزاق (٧٩١٧)، وابن أبي شيبة (١٠٣/٣) والنسائي (٤/

٢٠١، والبيهقي في الشَّعْبِ (٣٨٢١)، والضياء في المختارة (١٣١٩) و(١٣٢٠).

(٥) سقط من (ظ).

(٦) أخرجه مسلم (١١٦٢).

(٧) أخرجه البخاري (١٩٧٦)، ومسلم (١١٥٩)(١٨٩).

وفي لفظ متفق عليه: «لا صَوْمَ فوق صَوْمِ داود»<sup>(١)</sup>.

واعلم أن صَوْمَ يوم وإفطار يوم يجمع ثلاثة معانٍ: الأول<sup>(٢)</sup>: أن النفس تُعطى يومَ الإفْطَر حَظَّها ويُسْتَوْفَى مِنْها يومَ الصومِ تَعْبُدُها، وذلك جَمْعُ ما بين مالِها وما عليها، وهو العدل.

والثاني: أن يوم الأكل شكرٌ، ويوم الصوم صَبْرٌ، والإيمان نصفان شكرٌ وصبرٌ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «أَجُوعُ يَوْمًا وَأَشْبَعُ يَوْمًا، فإذا جُوعتُ تَضَرَّعتُ إلى رَبِّي، وإذا شَبعتُ حَمَدتُه»<sup>(٣)</sup><sup>(٤)</sup>.

والثالث: أنه أشقُّ على النَّفس في المجاهدة؛ لأنها كلما أنست بحالة نُقلت عنها.

فأما صوم الدهر؛ ففي أفراد مسلم من حديث أبي قتادة أن عُمر سأل رسول الله ﷺ فقال: كيف بمن يصوم الدهر كله؟ فقال: «لا صامَ ولا أفطَرَ، أو لم يَصُمْ ولم يُفطَرَ»<sup>(٥)</sup>. وهذا محمولٌ على مَنْ سَرَدَ الصومَ في الأيام المنهي عن صيامها، فأما إذا أفطَرَ يَوْمِي العيدين وأيام منى، فلا بأس بذلك، فقد أخبرنا محمد بن أبي طاهر قال: أخبرنا الجوهري قال: أخبرنا إبراهيم بن أحمد الخِرقي قال: أخبرنا الفريابي قال: حدثنا إسحاق بن راهويه قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا سُفيان عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال: ما مات عُمر حتى سَرَدَ الصوم<sup>(٦)</sup>.

(١) أخرجه البخاري (١٩٨٠)، ومسلم (١١٥٩)(١٩١).

(٢) في الأصل: «أحدها».

(٣) سقط من (ظ).

(٤) أخرجه أحمد (٢٢١٩٠)، والترمذي بإثر الحديث (٢٣٤٧)، والبيهقي في الشُّعب (١٤٦٧)، والطبراني في الكبير (٧٨٣٥)، وأبو نعيم في الدلائل (٥٤٠) وأبو نعيم في الحلية ١٣٣/٨ من حديث أبي أمامة.

(٥) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

(٦) أورده المصنف في مناقب عمر: ١٦٩، وابن كثير في البداية والنهاية ١٠/١٨٥، وعبد الحي اللكنوي في إقامة الحجّة: ٦١.

قال الفريابي: وحدثنا قُتَيْبَةُ قال: حدثنا حَمَّادُ بن زيد عن هشام بن عروة أن أباه كان يَسْرُدُ الصوم. وكانت عائشة تَسْرُدُ<sup>(١)</sup>، وقد رَوَى أنس بن مالك قال: سَرَدَ أبو طلحة الصوم بعد رسول الله ﷺ أربعين عاماً<sup>(٢)</sup>.

واعلم أن من رَزِقَ فِطْنَةً<sup>(٣)</sup> عَلِمَ مقصودَ الصوم فَحَمَلَ نفسه قَدْرَ ما لا يُعْجِزُه عَمَّا هو أفضل منه، فقد كان ابن مسعود قليلَ الصوم، وكان يقول: إذا صُمْتُ ضَعُفْتُ عن الصلاة، وأنا أختارُ الصلاةَ على الصوم.

وكان آخرُ إذا صام ضَعُفَ عن تلاوة القرآن، فيكثر الفِطْرَ ليقدر على التلاوة، وكل إنسان أعلم بحاله وما يصلح.

ومما يُكره من الصيام إفرادُ يوم الجمعة بالصوم، ويوم السبت، ويُكره الوصال.

ولا يجوز لمن عليه صيام فرضٍ أن يتطَوَّعَ بالصوم في إحدى الروايتين عن الإمام أحمد.

### آخر كتاب الصوم



(١) طبقات ابن سعد ٧٥/٨.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٩٨١)، وابن عساکر في تاريخه ٤٢٠/١٩.

(٣) في (ظ): «فضيلة».

## كتاب أسرار الحج ومهمات

الحمد لله الذي دلَّ بالصُّور على المَعْنَى، وبالرَّمز<sup>(١)</sup> على ما يُرْمزُ إليه ويُعْنَى، بَنَى بَيْتاً لِنَفْسِهِ وقد جَلَّ عن سُكُونٍ وَسُكْنَى، ثم دَعَى عَبْدَهُ إِلَى زِيَارَتِهِ، وَقَالَ لَهُ: احْضُرْنَا: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آلِيَّتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْثَلًا﴾ [البقرة: ١٢٥] أَحْمَدُهُ حَمْدًا حَسَنًا يُوجِبُ نَيْلَ الْحُسْنَى، وَأَصْلِي عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ الَّذِي نَالَ مَرْتَبَةَ قَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانُوا جِرْزًا لِلدِّينِ وَحِصْنًا، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أما بعد؛ فإن الله سبحانه جعل الحج من بين أركان الإسلام ومبانيه عبادة العمر، وأنزل على رسوله وقد حجَّ ووقف بعرفة: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وروى أبو أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ لَمْ يَحْبِسْهُ مَرَضٌ، أَوْ حَاجَةٌ ظَاهِرَةٌ، أَوْ سُلْطَانٌ جَائِرٌ، وَلَمْ يَحْجِ فَلَيْمَتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا»<sup>(٢)</sup>.

وإذ قد عُرِفَ قَدْرُ هَذِهِ الْعِبَادَةِ، فَحَنَ نَذَرَ أَرْكَانَهَا وَسُنَنَهَا وَأَدَابَهَا وَأَسْرَارَهَا، وَجَمَلَةُ ذَلِكَ يَنْكَشِفُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي ثَلَاثَةِ أَبْوَابٍ:

الباب الأول: في فضائلها، وفضائل مكة والبيت، وجملة أركانها وشرائط وجوبها.

الباب الثاني: في أعمالها الظاهرة على الترتيب من مبدأ السفر إلى الرجوع.

الباب الثالث: في آدابها الدقيقة، وأسرارها الخفية، وأعمالها الباطنة.

(١) في (ظ): «بالأمر».

(٢) طبقات ابن سعد ٧٥/٨.

## الباب الأول

وفيه فصلان:

### الفصل الأول

في فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة

وشد الرحال إلى المشاهد

فضيلة الحج: قال عز وجل: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكُم مِّنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧ - ٢٨]. قال مُجاهد: هي منافع الدنيا والآخرة<sup>(١)</sup>. وقال ابن مسعود والحسن في قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمَسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]: إنه طريق مكة يمنعهم من الحج<sup>(٢)</sup>.

أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: حدثنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي قال: حدثنا سُفيان قال: حدثني سُمي عن أبي صالح عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الحجُّ المبرورُ ليس له جزاءٌ إلا الجنة، والعُمرتان - أو العمرة إلى العمرة - تكفِّر ما بينهما»<sup>(٣)</sup>. أخبرنا محمد بن محمد الوراق، قال: أخبرنا أبو بكر بن سياوش قال: أخبرنا أبو حامد الإسفراييني، قال: حدثنا إبراهيم بن عبدك، قال: حدثنا الحسن بن سُفيان قال: حدثنا العباس بن الوليد النُّرسي قال: حدثنا سُفيان بن عُيينة عن منصور بن المُعتمر عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حجَّ هذا البيت، فلم يرفُث ولم يفسُق، فرجع كان كما ولدته أمه»<sup>(٤)</sup>. أخبرنا أبو

(١) تفسير الطبري ١٦/٥٢١، وزاد المسير للمصنف ٥/٤٢٥.

(٢) زاد المسير ٣/١٧٦.

(٣) أخرجه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩).

(٤) أخرجه البخاري (١٥٢١) و(١٨١٩) و(١٨٢٠)، ومسلم (١٣٥٠).

سعد الزُّوزني قال: أخبرنا محمد بن الحسين القاضي، قال: أخبرنا عثمان بن عمرو بن المنتاب، قال: حدثنا ابنُ صاعد، قال: حدثنا الحسين بن الحسن، قال: حدثنا الهيثم بن جميل قال: حدثنا إبراهيم بن سعد عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: سئل رسولُ الله ﷺ: أيُّ الأعمالِ أفضل؟ قال: «إيمانٌ بالله عز وجل» ثم قيل: ماذا؟ قال: «ثم الجهاد في سبيل الله عز وجل» قيل: ثم ماذا؟ قال: «ثم الحجُّ المبرور»<sup>(١)</sup>. هذه الأحاديث الثلاثة مخرجةٌ في الصحيحين. وقد روى ابنُ مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقرَ والذنوبَ، كما ينفي الكيرُ خبثَ الحديدِ والفضةِ، وما لحجِّ مبرورٍ جزاءٌ إلا الجنة»<sup>(٢)</sup>. وروى ابنُ عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «دعوةُ الحاج لا تُرد حتى يرجع»<sup>(٣)</sup>. وروى عليُّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أراد دُنيا وآخرَةَ، فليؤمِّ هذا البيتَ، ما أتاهُ عبدٌ يسألُ الله دُنيا إلا أعطاهُ منها، ولا آخرَةَ إلا دَخَرَ له منها»<sup>(٤)</sup>. وروى جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ جاءَ هذا البيتَ حاجًّا، فطافَ به أسبوعاً»<sup>(٥)</sup> ثم أتى مقام إبراهيم، فصلَّى عنده ركعتين، ثم أتى زمزم فشرب من مائها، أخرجهُ الله تعالى من دُنوبه كيوم ولدته أمه»<sup>(٦)</sup>. وروى بُريدة عن النبي ﷺ أنه قال: «التَّفَقُّةُ في الحجِّ تُضاعفُ كالتَّفَقُّةُ في سبيلِ الله عز وجل الدرهم بسبعِ مئة»<sup>(٧)</sup>.

(١) أخرجه البخاري (٢٦) و(١٥١٩)، ومسلم (٨٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٦٩)، والترمذي (٨١٠)، والنسائي ١١٥/٥، وفي الكبرى (٣٦١٠)، وابن حبان (٣٦٩٣)، والطبراني في الكبير (١٠٤٠٦)، وأبو يعلى (٤٩٧٦)، و(٥٢٣٦)، وابن خزيمة (٢٥١٢).

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (١١٢٥)، والفاكهي في أخبار مكة ٤٢٠/١.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٨٨٣٤)، والفاكهي في أخبار مكة ٤٣٢/١ عن سعيد بن جبير.

(٥) أي: سبعة أشواط.

(٦) أورده القاري في المصنوع في معرفة الحديث الموضوع ١٨٨/١، والعجلوني في كشف الخفاء ٣٤٠/٢ وقال: رواه الواحدي في تفسيره والجندي في فضائل مكة.

(٧) أخرجه البخاري تعليقاً في تاريخه الكبير ٦٣/٣، وابن أبي عاصم في الجهاد (١٧٦) وأحمد (٢٣٠٠٠)، والبيهقي في السنن ٣٣٢/٤، وفي الشعب (٤١٢٤) و(٤١٢٥).

## ذكر فضيلة حَجِّ الماشي

أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك وعبد الرحمن بن محمد قالوا: أخبرنا عبد الصَّمَد بن المأمون قال: حدثنا الدَّارِقُطْنِي قال: حدثنا ابنُ صَاعِد قال: حدثنا علي بن سَعِيد بن مسروق قال: حدثنا عيسى بن سَوَادَة عن إسماعيل بن أبي خالد عن زَاذَان قال: مَرَضَ ابْنُ عَبَّاسٍ مرضاً شديداً، فدعى وَلَدَهُ فجمعهم، فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من حَجَّ من مكة ماشياً حتى يرجع إلى مكة، كتب الله له بكل خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم» قيل له: وما حسنات الحرم؟ قال: «بكل حسنة مائة ألف حسنة»<sup>(١)</sup>. وروى عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الملائكة لتُصافح رُكباناً»<sup>(٢)</sup> الحاج وتعتنق المشاة»<sup>(٣)</sup>. وقال مجاهد: حَجَّ إبراهيم وإسماعيل ماشيين<sup>(٤)</sup>. وقد حَجَّ الحسن بن علي بن أبي طالب خمس عشرة حجة ماشياً، وإن النجائب لتُقَادُ معه<sup>(٥)</sup>.

## فَضْلُ الْبَيْتِ

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦].

قال أبو هريرة: كانت الكعبة حشفة على الماء، عليها ملكان يُسبِّحان الليل والنهار، قبل الأرض بألفي سنة<sup>(٦)</sup>.

(١) أخرجه البيهقي في السنن ٣٣١/٤ و٧٨/١٠، وفي الشعب (٣٩٨١)، والطبراني في الكبير (١٢٦٠٦)، وابن خزيمة (٢٧٩١)، والحاكم ٤٦٠/١.

(٢) في (ظ): «ركاب».

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب [٤٠٩٩]، والسيوطي في جمع الجوامع (٥٩٣٩)، وفي الحباثك في أخبار الملائك (٦٧٦).

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ٥١٨/١٦، وابن أبي شيبة ٩٨/٤، والأزرقي في أخبار مكة ٣٤/١.

(٥) زاد المسير ٤٢٤/٥.

(٦) الحشفة: صخرة رخوة حولها سهل من الأرض. التاج (حشف)، ويروى بالخاء بدل الحاء، وبالخاء والعين بدل الحاء والفاء. النهاية ٣٤/٢ - ٣٥.

## فضل الحجر الأسود

أخبرنا الكرخي قال: أخبرني الغورجي قال: أخبرنا الجراحي قال: حدثنا المحبوبي قال: حدثنا الترمذي قال: حدثنا قتيبة قال: حدثنا جرير عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نزل الحجرُ الأسود من الجنة وهو أشدُّ بياضاً من اللبن، فسودته خطايا بني آدم»<sup>(١)</sup> وروى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لبيعتنَّ هذا الحجر يومَ القيامة له عينان يُبصر بهما، ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق»<sup>(٢)</sup>.

## ذكر الركن اليماني

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد قال: أخبرنا أحمد بن علي بن ثابت قال: أخبرنا أبو القاسم بن أبي عثمان قال: حدثنا محمد بن إسماعيل الوراق قال: حدثنا عمرو بن إسحاق قال: حدثنا سهل بن شاذويه قال: حدثنا عمر بن محمد بن الحسين قال: حدثنا أبي قال: حدثنا عيسى بن موسى عن محمد بن الفضل بن عطية، عن كُرْز<sup>(٣)</sup> بن وبرة عن طاوس، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «على الركن اليماني ملكٌ موكلٌ به منذ خلق الله السماوات والأرض، فإذا مررتم به قولوا: رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، فإنه يقول: آمين آمين»<sup>(٤)</sup>. وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «الركن اليماني وكل الله به سبعين ملكاً، فمن قال: أسألك العفو والعافية، ربنا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. قالوا: آمين»<sup>(٥)</sup>.

- (١) أخرجه الترمذي (٨٧٧)، وابن خزيمة (٢٧٣٣)، والفاكهي في أخبار مكة (٦).
- (٢) أخرجه أحمد (٢٦٤٣) و(٢٧٩٦)، والبيهقي ٧٥/٥، والدارمي (١٨٣٩)، والطبراني في الكبير (١٢٤٧٩).
- (٣) في الأصل: «كُرْز».
- (٤) أخرجه ابن أبي شيبة ٣٦٨/١٠، والفاكهي في أخبار مكة (٢٤) و(١٥٤).
- (٥) أخرجه ابن ماجه (٢٩٥٧)، والبيهقي ١٢٨/٥، والفاكهي في أخبار مكة (١٥٢).

## فضائل الطَّواف

أخبرنا عبد الله بن محمد الحاكم ويحيى بن علي بن المُدير قالاً: أخبرنا ابن النُّقُور قال: أخبرنا ابن حَبَابَةَ قال: حدثنا البَغَوِي قال: حدثنا هُدْبَةَ قال: حدثنا حماد بن الجَّعْد قال: حدثنا قَتَادَةَ قال: سمعتُ عطاء بن أبي رباح: أن مَوْلَى لعبد الله بن عمرو حَدَّثَهُ عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعاً، وَصَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ رَكَعَتَيْنِ، فَهُوَ عَدْلٌ مُحَرَّرٌ»<sup>(١)</sup>. أخبرنا يحيى بن علي قال: أخبرنا جابر بن ياسين وعبد العزيز بن علي وعبد الباقي بن محمد قالوا: أخبرنا المخلص قال: حدثنا ابنُ صاعد قال: حدثنا عبد الله بن عمران قال: حدثنا يوسف - وهو ابنُ السَّفَر - عن الأوزاعي، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَشْرِينَ وَمِئَةَ رَحْمَةٍ تَنْزِلُ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ، فَسْتَوْنَ لِلطَّائِفِينَ، وَأَرْبَعُونَ لِلْمُصَلِّينِ، وَعَشْرُونَ لِلنَّاظِرِينَ»<sup>(٢)</sup>. أخبرنا عبد الله بن علي قال: أخبرنا ابن العَلَّاف قال: حدثنا عبد الملك بن بِشْران قال: حدثنا أبو بكر الآجْرِي قال: حدثنا محمد بن اللَّيْث الجَوْهَرِي قال: حدثنا سفيان بن وكيع قال: حدثنا محمد بن فضل عن عطاء بن السائب عن عبد الله بن عُبيد بن عُمر عن ابن عمر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ لَمْ يَرْفَعْ قَدَمًا، وَلَمْ يَضَعْ أُخْرَى إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِهَا حَسَنَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، وَرَفَعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةً»، وسمعتَه يقول: «مَنْ أَحْصَى أَسْبُوعًا كَانَ كَعَتَقَ رَقَبَةٍ»<sup>(٣)</sup>. أخبرنا سعيد بن أحمد قال: أخبرنا أبو القاسم بن البُسْرِي قال: أخبرنا المخلص قال: أخبرنا

(١) أخرجه المصنف في العلل المتناهية ٨١/٢، وقال: هذا حديث لا يصح.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١١٤٧٥)، وابن عساكر في تاريخه ٣٤/٣٨٨، والمصنف في العلل المتناهية ٨٢/٢، وقال: هذا حديث لا يصح، وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة (١٨٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٩٥٩)، وابن خزيمة (٢٧٥٣)، وأحمد (٤٤٦٢)، وأبو يعلى (٥٦٨٧) و(٥٦٨٨) و(٥٦٨٩)، والبيهقي ١١٠/٥، والبغوي في شرح السنة (١٩١٦)، والحاكم ٤٨٩/١.

يحيى بن صاعد قال: حدثنا سُفيان بن وكيع قال: حدثنا يحيى بن يمان عن شريك عن أبي إسحاق عن عبد الله بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ خَمْسِينَ مَرَّةً خَرَجَ مِنْ ذَنْبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»<sup>(١)</sup>.

### ذكر فضل مكة

أخبرنا عبد الوهاب ويحيى بن علي قالوا: أخبرنا أبو محمد الصَّريفي قال: أخبرنا أبو بكر بن عبدان قال: حدثنا عبد الواحد بن المهدي بالله قال: حدثنا أيوب بن سليمان الصُّغدي قال: حدثنا أبو اليمان قال: حدثنا شُعيب عن الزهري قال: أخبرني أبو سلمة أن عبد الله بن عدي بن الحمرأ أخبره أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقفٌ بالحزورة من سوق مكة: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله تعالى، ولولا أنني أخرجتُ منك ما خرجتُ»<sup>(٢)</sup>.

### ذكر قبول الحاج

أخبرنا أبو منصور القزاز قال: أخبرنا أبو بكر الخطيب قال: أخبرنا مكي بن علي قال: حدثنا أبو إسحاق المُزكي قال: سمعتُ أبا الحسن البلخي يقول: سمعتُ عبد الرحمن بن عبد الباقي يقول: سمعتُ بعض مشايخنا يقول: قال علي بن الموفق<sup>(٣)</sup>: لما تمَّ لي ستون حجةً خرجتُ من الطواف، وجلستُ بحذاء الميزاب، وجعلت أفكر لا أدري أي شيءٍ حالي عند الله عز وجل، وقد كثر تردُّدي إلى هذا المكان، فغلبتني عيني، وكأنَّ قائلاً يقول لي: يا علي، أتدعوا إلى بيتك إلا من تُحبه؟ قال: فانتبهتُ وقد سُريَ عني ما كنتُ فيه<sup>(٤)</sup>.

(١) أخرجه الترمذي (٦٦٦)، وقال: هذا حديث غريب، والمصنف في العلل ٨٣/٢.

(٢) أخرجه الدارمي (٢٥١٠)، وأحمد (١٨٧١٥) و(١٨٧١٦)، والترمذي (٣٩٢٥)، والنسائي في الكبرى (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣١٠٨)، وابن حبان (٣٧٠٨)، والحاكم ٧/٣.

(٣) هو علي بن الموفق، أبو الحسن البغدادي العابد الزاهد، توفي سنة ٢٦٥هـ. تاريخ بغداد ١١٠/١٢، حلية الأولياء ٣١٢/١٠، صفة الصفوة ٣٨٦/٢.

(٤) تاريخ بغداد ١١١/١٢.

وَبَلَّغْنَا مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْمَوْفَّقِ قَالَ: حَجَّجْتُ فِي بَعْضِ السَّنِينَ، فَنَمْتُ لَيْلَةَ عَرَفَةَ فِي مَسْجِدِ الْخَيْفِ، فَرَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ مَلَكَ كَانَتْ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، فَنَادَى أَحَدَهُمَا صَاحِبَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ. فَقَالَ: لِيكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ، قَالَ: تَدْرِي كَمْ حَجَّ بَيْتَ رَبِّنَا فِي هَذِهِ السَّنَةِ؟ قَالَ: لَا أَدْرِي. قَالَ: حَجَّ بَيْتَ رَبِّنَا سِتِّ مِائَةٍ أَلْفٍ، فَتَدْرِي كَمْ قُبِلَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: قُبِلَ مِنْهُمْ سِتَّةَ أَنْفُسٍ. قَالَ: ثُمَّ ارْتَفَعَا فِي الْهَوَاءِ، فَعَابَا عَنِّي، فَانْتَبَهْتُ فَرِعَاً، فَاعْتَمَمْتُ غَمًّا شَدِيدًا، وَأَهْمَنِي أَمْرِي، وَقُلْتُ: إِذَا قُبِلَ سِتَّةَ أَنْفُسٍ فَأَيْنَ أَكُونُ أَنَا فِي سِتَّةِ أَنْفُسٍ؟ فَلَمَّا أَفْضْتُ مِنْ عَرَفَةَ وَبِئْتُ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ جَعَلْتُ أَفْكَرُ فِي كَثْرَةِ الْخَلْقِ وَفِي قَلَّةِ مَنْ قُبِلَ مِنْهُمْ، فَحَمَلَنِي النَّوْمُ، فَإِذَا الشَّخْصَانِ قَدْ نَزَلَا عَلَيَّ هَيْتَهُمَا، فَنَادَى أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ، فَأَعَادَ ذَلِكَ الْكَلَامَ بَعِينَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَفْتَدْرِي مَاذَا حَكَمَ رَبِّنَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَإِنَّهُ وَهَبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ السِّتَةِ مِئَةَ أَلْفٍ. فَانْتَبَهْتُ وَبِئْتُ مِنَ السُّرُورِ مَا يَجِلُّ عَنِ الْوَصْفِ.

### ذِكْرُ الْمُجَاوِرَةِ بِمَكَّةَ

اختلف العلماء في المجاورة بمكة، فكرهها أبو حنيفة، ولم يكرهها الإمام أحمد بن حنبل في خلق كثير من العلماء، بل استحبوها، فمن كرهها، فلأربعة أوجه:

أحدها: خوف الملل.

والثاني: قلة الاحترام لمداومة الأُنس بالمكان.

والثالث: يهيج الشوق بالمفارقة فتنشأ داعية العود، فإن تعلق القلب بالكعبة والإنسان في بيته خير من تعلق القلب بالبيت والإنسان عند الكعبة.

والرابع: خوف ارتكاب الذنوب هناك، فإن الخطأ ثم ليس كالخطأ في غيره؛ لأن المعصية هناك تتضاعف عقوبتها، ولا تُظنُّ أن كراهة المكان تُناقض فضل البُقعة؛ لأن علّة هذه الكراهة ضعف الخلق وقصورهم عن القيام بحق الموضع، وأما من استحبهما، فإنه نظر إلى فضل المكان ومضاعفة الحسنات.

## فضل المدينة

أخبرنا أبو القاسم هبة الله بن محمد قال: أخبرنا أبو علي التميمي قال: حدثنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي، قال: حدثنا أنس بن عياض قال: حدثني يزيد<sup>(١)</sup> بن خُصيفة عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صَعَصَعَة عن عطاء بن يسار عن السائب بن خلاد، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَخَافَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ ظُلْمًا أَخَافَهُ اللَّهُ، وَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا»<sup>(٢)</sup>. أخبرنا علي بن عبيد الله قال: أخبرنا ابن النُّقُور قال: حدثنا ابن مَرْدَك قال: حدثنا الحسن بن محمد قال: حدثنا محمد بن عَزِيز قال: حدثني سلامة عن عقيل عن ابن شهاب قال: أخبرني أنس بن مالك أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفِي مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنَ الْبِرَّةِ»<sup>(٣)</sup>. وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنْ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَى لِأَهْلِهَا، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، وَإِنِّي دَعَوْتُ فِي صَاعِهَا وَمُدَّهَا بِمَثَلِي مَا دَعَى بِهِ إِبْرَاهِيمُ لِأَهْلِ مَكَّةَ»<sup>(٤)</sup>. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «عَلَى أَنْقَابِ الْمَدِينَةِ مَلَائِكَةٌ، لَا يَدْخُلُهَا الطَّاعُونَ وَلَا الدَّجَالُ»<sup>(٥)</sup>. وفي أفراد البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يَكِيدُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَحَدٌ إِلَّا أَنْعَمَ كَمَا يَنْمَعُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ»<sup>(٦)</sup>. وفي أفراد مسلم من حديث سعد أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يَثْبُتُ أَحَدٌ عَلَى لَأْوَائِهَا وَجَهْدِهَا إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً أَوْ شَهِيداً يَوْمَ

(١) تحرفت في (ظ) إلى: «زيد».

(٢) أخرجه أحمد (١٦٥٥٧) و(١٦٥٥٩) و(١٦٥٦٢) و(١٦٥٦٥)، والطبراني في الكبير (٦٦٣٢) و(٦٦٣٣) و(٦٦٣٥) و(٦٦٣٧)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٨٨٥)، ومسلم (١٣٦٩)، وأحمد (١٢٤٥٢)، وأبو يعلى (٣٥٧٨) و(٣٦٢٠).

(٤) أخرجه البخاري (٢١٢٩)، ومسلم (١٣٦٠) (٤٥٤).

(٥) أخرجه البخاري (١٨٨٠) و(٧١٣٣)، ومسلم (١٣٧٩).

(٦) أخرجه البخاري (١٨٧٧).

القيامة»<sup>(١)</sup>. وفي حديث مَعْقِل بن يَسَار قال: قال رسولُ الله ﷺ: «المدينةُ مُهاجِري، فيها مَضَجعي، ومنها مَبْعثي، حَقِيقٌ على أمتي حِفْظُ جيرانِي ما اجْتَنَبُوا الكِبائرَ، مَنْ حَفِظَهُمْ كُنْتُ لَهُ شَهِيداً أَوْ شَفِيعاً يَوْمَ القِيامةِ، وَمَنْ لَمْ يَحْفَظْهُمْ سُقِي مِنَ طِينَةِ الحَبالِ» قيلَ للمزني وهو معقل: ما طِينَةُ الحَبالِ؟ قال: عَصارةُ أَهْلِ النارِ<sup>(٢)</sup>. وفي حديثِ ابنِ عُمَرَ عن النبي ﷺ أَنَّهُ قال: «مَنْ اسْتَطاعَ أَنْ يَموتَ بِالمدينةِ فَلِيمُتْ، فَإِنَّ مِنْ ماتَ بِالمدينةِ شَفَعْتُ لَهُ يَوْمَ القِيامةِ»<sup>(٣)</sup>. وفي حديثِ ثابِتِ بنِ قَيْسِ بنِ شَمَّاسٍ عَنِ النبي ﷺ أَنَّهُ قال: «غُبارُ المدينةِ شِفَاءٌ مِنَ الجُدامِ»<sup>(٤)</sup>.

### فضيلة مَسْجِدِ رسولِ الله ﷺ

أخبرنا عبد الأول بن عيسى، قال: أخبرنا محمد بن عبد العزيز، قال: أخبرنا عبد الرحمن بن أبي شريح قال: حدثنا يحيى بن صاعد قال: حدثنا هارون بن موسى قال: حدثنا عمر بن أبي بكر المؤملي عن القاسم بن عبد الله عن كثير المزني عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسولُ الله ﷺ: «صلاةٌ في مَسْجِدِي هذا كَأَلْفِ صلاةٍ فيما سواه، إلا المسجد الحرام». أخرجه مسلم في أفراده، وقال فيه: «أفضلُ من ألفِ صلاةٍ»<sup>(٥)</sup>. أخبرنا عبد الوهاب ويحيى بن علي قالوا: أخبرنا أبو محمد الصّريفيني قال: حدثنا أبو بكر بن عبدان قال: حدثنا عبد الواحد بن المهدي بالله قال: حدثنا أيوب بن سليمان الصّغدي قال: حدثنا أبو اليمان قال: حدثنا العَطّاف بن خالد عن عبد الله بن عثمان بن الأرقم بن أبي الأرقم عن أبيه عن جدّه قال: قلتُ لرسولِ الله ﷺ: إني أريد أن أخرجَ إلى بَيْتِ المَقْدِسِ، قال: «فلمَ؟»

(١) أخرجه مسلم (١٣٦٣).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٠/٤٧٠.

(٣) أخرجه أحمد (٥٤٣٧) و(٥٨١٨)، والترمذي (٣٩١٧)، وابن ماجه (٣١١٢)، وابن حبان (٣٧٤١)، والبيهقي في الشّعب (٤١٨٥) و(٤١٨٦).

(٤) ذكره الفيروزآبادي في المغانم المطابة ١/٣٨٥، والسيوطي في الحُجَج المبينة: ٨٥، والمتقي الهندي في الكنز (٣٤٨٢٨) ونسبه لأبي نُعيم في الطب.

(٥) أخرجه مسلم (١٣٩٥).

قلتُ: لصلاةٍ فيه قال: «الصلاةُ ها هنا أفضلُ من الصلاةِ هناك ألف مرّة»<sup>(١)</sup>.

### فضل الرّوضة

روى البخاري ومسلم في الصحيحين، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين بيتي ومبْري روضةٌ من رياضِ الجنّة»<sup>(٢)</sup>.

### فضل صلاة الجمعة وصيام رمضان بالمدينة

أخبرنا السُّجزي، قال: أخبرنا محمد بن عبد العزيز، قال: أخبرنا ابن أبي شريح، قال: حدثنا ابن صاعد، قال: حدثنا هارون بن موسى، قال: حدثنا عمر بن أبي بكر المؤملي، عن القاسم بن عبد الله، عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةُ الجمعة بالمدينة، كصيام ألف شهرٍ فيما سواها»<sup>(٣)</sup>.

ويتبع هذين الموضوعين في الفضل بيت المقدس، وقد قال ﷺ: «لا تُشدُّ الرحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»<sup>(٤)</sup>. ثم يتبع هذه المواضع الثغور التي يُرابطُ فيها.

### الفصل الثاني

#### في شروط وجوب الحج وأركانه وواجباته ومحظوراته

الحج يشتمل على خمسة أشياء: شرائط، وأركان، وواجبات، ومسنونات، وهيئات.

(١) أخرجه أحمد (١/٢٤٠٠٩)، والضياء في المختارة (١٣٠٠)، و(١٣٠١) و(١٣٠٢)، والطبراني في الكبير (٩٠٧)، والحاكم ٣/٥٠٤، وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (١٨٨) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦٠٧)، وابن كثير في البداية والنهاية ٨/٣٢٦.

(٢) أخرجه البخاري (١١٩٦) و(١٨٨٨) و(٦٥٨٨) و(٧٣٣٥)، ومسلم (١٣٩١).

(٣) أخرجه المصنف في العلل المتناهية ٢/٨٧، وقال: هذا حديث لا يصح.

(٤) أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧) (٥١١) من حديث أبي هريرة.

فأما الشرائط: فقد اشترط في محلّ الوجوب وجودَ خمس شرائط: البلوغُ، والعقلُ، والحُرّيّةُ، والإسلامُ، والزّاد والراحلة<sup>(١)</sup>.

وأما شرائط الأداء على العموم، فثلاثة:

[الأول]: تخلية الطريق، وهو أن لا يكون مانع يمنع ما يُخاف منه على النفس والمال.

والثاني: أن يُمكن الأداء، وهو أن يكون الوقت مُتَّسِعاً للفعل أو المسافرة إن كان على مسافة.

والثالث: أن يكون ممن يَسْتَمْسِكُ على الراحلة.

واشترط في حقّ الضّرير أن يكون له قائدٌ يُلائمه، واشترط في حق المرأة المَحْرَمِ، والمَحْرَمِ: الزَّوْجُ أو مَنْ لا يحل له نِكَاحُها من المُناسِبِينَ.

واختلفت الرواية عن الإمام أحمد في المَحْرَمِ، هل هو من شرائط الوجوب، أو من شرائط الأداء؟ على روايتين<sup>(٢)</sup>.

وأما الأركان: ففيها ثلاثة روايات عن الإمام أحمد، إحداهن: أنها أربعة: الإحرام، والوقوف، وطواف الزيارة، والسّعي.

والرواية الثانية: أنها ثلاثة، والسّعي سنة، إذا تركه فلا شيء عليه، وقال أصحابنا: عليه بتركه دم؛ لأنهم رأوه واجباً.

والرواية الثالثة: أنها رُكنان: الوقوف، والطّواف. فإنه قال فيمن وقف وزار البيت: عليه دمٌ، وحجته صحيحة.

وأما الواجبات: فسبعة: الإحرام من الميقات، والوقوف بعرفة إلى الليل، والمبيت بمزدلفة إلى بعد نصف الليل، والمبيت بمِنى في ليالي منى، إلا لأهل السّقاية والرّعاء، والرّمي، والحِلاق، وطواف الوداع.

(١) الزاد والراحلة شرط واحد وهو الاستطاعة.

(٢) يُنظر الكافي لابن قدامة ٢/٣٠٣ - ٣٠٤.

وأما المسنونات: فهي [عشرة]: الاغتسال، وصلاة الرّكعتين عند عقد الإحرام، وطواف القدوم، والجمع بين الليل والنهار في عرفات ما لم يكن بدأ بالوقوف نهاراً؛ لأنه مخير قبل الدخول في الوقوف بين الجمع بين الزّمانين وبين أفراد الليل، فإن وقف بالنهار وجب عليه أن يقف جزءاً من الليل، فإن أخلّ بذلك وجب عليه دم.

والتلبية، وركعتا الطواف، واستلام الركنين، والتقبيل، والمبيت بمنى ليلة عرفة إن كان خارجاً إلى عرفات من مكة إلى غداة عرفة، وجميع الأذكار في الحج.

وأما الهيئات [فعشرة]: رَفَع الصوت بالتلبية للرجال، والدخول إلى مكة من أعلاها، وإلى المسجد الحرام من باب بني شيبه، والاضطباع في الطواف والسعي، والإسراع في موضع الإسراع، والمشى في موضع المشى، والعلو على الصفا والمروة، حتى يشاهد البيت، وشدة السعي عند مُحَسَّر، والوقوف على المشعر الحرام، وعند الجمرات.

فمن ترك رُكناً لم يتم نسكه إلا به، ومن ترك واجباً فعليه دم، ومن ترك سنّة أو هيئَةً، فلا شيء عليه.

فإذا تكاملت الشُّروط وَجِب البِدَارُ إلى الحَجِّ، وهو قول عامة العلماء، خلافاً للشافعي رحمه الله.

ولا خلاف في جواز التمتع والإفراد والقران.

والتمتع: أن يحرم بالعمرة في أشهر الحج من الميقات، ويدخل مكة، ويطوف ويسعى، ويفعل أفعال العمرة، ويتحلل، فإذا كان يوم التروية أحرم بالحج من مكة، ثم يخرج إلى عرفة، ويفعل أفعال الحج.

والإفراد: أن يحرم بالعمرة في أشهر الحج من الميقات، ويدخل مكة، ويطوف ويسعى، ويفعل أفعال الحج، فإذا تحلّل خرج إلى التنعيم، فأحرم بالعمرة، وفعل أفعالها.

والقرآن: أن ينوي الحجَّ والعمرة من الميقات، ويطوف لهما.

والكلُّ جائز، لكن الخلاف في الأفضل، فمذهبُ أحمد أن التمتع أفضل، وعند أبي حنيفة أن القرآن أفضل، وعند مالكٍ والشافعي أن الإفراد أفضل.

فأما محظورات الإحرام فتسعة:

لُبْسُ الْمَخِيطِ، وَتَغْطِيَةُ الرَّأْسِ، وَحَلْقُ الشَّعْرِ، وَتَقْلِيمُ الْأظْفَارِ، وَشَمُّ الطَّيِّبِ، وَقَتْلُ الصَّيْدِ، وَالْوَطْءُ فِي الْفَرْجِ، وَدُونَ الْفَرْجِ، وَالْمُبَاشَرَةُ لَشَهْوَةٍ.

فإن لبس ناسياً، أو تَطَيَّبَ ناسياً، فعليه الفدية، وكذلك لو لبس بعض يومٍ.

ولا يجوز له تغطية رأسه، وهل يجوز له تغطية وجهه؟ فيه روايتان.

ولا يجوز له تظليل المحمل روايةً واحدةً، فإن ظَلَلَ، ففي وجوب الفدية روايتان. فإن حمل على رأسه شيئاً، أو نصبَ حياله ثوباً يقيه الشمس والبرد، أو جلسَ في خيمةٍ أو ظل شجرة، أو تحت سقْفٍ، فلا شيء عليه.

فإن طينَ رأسه أو عَصَبه لوجعٍ أو جرحٍ، فجعل عليه قرطاساً فيه دواءً أو خرقَةً لزمه الفدية.

ويجوز للمحرم أن يتَّشَحَّ بالرداء والقَمِيصِ، ولا يعقده، ويتزَّزَّرُ بالإزار ويعقده، فإن طرحَ على كتفيه القباء<sup>(١)</sup> فعليه الفدية، وإن لم يدخل يديه في الكَمِينِ<sup>(٢)</sup>.

فإن طيبَ المحرمُ بعضَ عُضْوٍ، وجبت الفدية.

ولا يجوزُ له لبس ثوبٍ مُبَحَّرٍ، وإذا ادَّهَنَ بالشَّيْرِجِ<sup>(٣)</sup> والزَّيْتِ، ففي وجوب الفدية روايتان.

ويحرم عليه شَمُّ الْأَدْهَانِ الْمُطَيَّبَةِ، وأكل ما فيه طيبٌ يظهر ريحه أو طعمه في

(١) القباء ثوب يُلبس فوق الثياب.

(٢) في (ظ): «كُمِيه».

(٣) الشَّيْرِج: زيت السمسم.

فمه، وشَمُّ الْمِسْكِ وَالْكَافُورِ وَالْعَنْبَرِ وَالرَّعْفَرَانِ وَالْوَرْسِ<sup>(١)</sup>. وَهَلْ تَلْزِمُهُ الْفِدْيَةُ بِشَيْءٍ مِنَ الرِّيحَاتِ؟ فِيهِ رَوَايَتَانِ.

وَيَجُوزُ لَهُ شَمُّ السَّفْرَجَلِ وَالتُّفَّاحِ وَالبَطِيخِ وَالأَثْرَجِ وَالشَّيْحِ وَالقَيْصُومِ.

فَإِنْ مَسَّ مِنَ الطَّيِّبِ مَا يَلْتَقِ بِيَدِهِ<sup>(٢)</sup> كَالْغَالِيَةِ<sup>(٣)</sup> وَمَاءِ الْوَرْدِ مُتَعَمِّدًا فَعَلَيْهِ الْفِدْيَةُ، وَإِنْ مَسَّ مَا لَا يَلْتَقِ بِيَدِهِ<sup>(٤)</sup>، كَقَطْعِ الْكَافُورِ وَالْعَنْبَرِ فَلَا فِدْيَةَ. فَإِنْ شَمَّ ذَلِكَ فِيهِ الْفِدْيَةُ.

فَإِنْ حَلَقَ ثَلَاثَ شَعْرَاتٍ فَعَلَيْهِ دَمٌ، فَإِنْ حَلَقَ مَا دُونَ الثَّلَاثِ فِي كُلِّ شَعْرَةٍ مُدًّا مِنْ طَعَامٍ، وَعَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ: قَبْضَةٌ مِنْ طَعَامٍ.

وَإِذَا غَسَلَ الْمُحْرَمُ رَأْسَهُ بِالسُّدْرِ وَالْحَطِيمِ، فَهَلْ تَلْزِمُهُ الْفِدْيَةُ؟ فِيهِ رَوَايَتَانِ.

فَإِنْ قَلَّمَ ثَلَاثَةَ أَظْفَارٍ لَزِمَهُ دَمٌ.

وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَعْقِدَ الْمُحْرَمُ عَقْدَ نِكَاحٍ لَا لِنَفْسِهِ وَلَا لِغَيْرِهِ، وَهَلْ تَصِحُّ مُرَاجَعَتُهُ؟ فِيهِ رَوَايَتَانِ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ.

وَيَكْرَهُ لَهُ الْخُطْبَةُ وَالشَّهَادَةُ عَلَى النِّكَاحِ، وَيَحْرُمُ عَلَيْهِ الْمُبَاشَرَةُ فِي الْفَرْجِ وَدُونِهِ لَشَهْوَةٍ، وَالِاسْتِمْنَاءُ، فَإِنْ فَعَلَ وَجِبَتْ عَلَيْهِ الْكُفَّارَةُ. فَإِنْ جَامَعَ قَبْلَ الْوُقُوفِ، وَجِبَتْ عَلَيْهِ بَدَنَةٌ، فَإِنْ جَامَعَ بَعْدَ الْوُقُوفِ وَقَبْلَ التَّحَلُّلِ الْأَوَّلِ؛ فَسَدَّ حَجُّهُ وَعَلَيْهِ بَدَنَةٌ، فَإِنْ وَطِئَ بَعْدَ التَّحَلُّلِ الْأَوَّلِ<sup>(٤)</sup>، لَمْ يَفْسُدْ حَجُّهُ، وَهَلْ تَلْزِمُهُ بَدَنَةٌ أَمْ شَاةٌ؟ فِيهِ رَوَايَتَانِ، وَيَسْتَأْنَفُ إِحْرَامَهُ مِنَ التَّنْعِيمِ وَيَأْتِي بِعَمَلِ عُمْرَةٍ وَبِالطَّوَافِ وَالسَّعْيِ وَبِقِيَّةِ أَفْعَالِ الْحَجِّ.

فَإِنْ وَطِئَ نَاسِيًا فَسَدَّ حَجُّهُ، فَإِنْ أَفْسَدَ الْعُمْرَةَ بِالْوَطْءِ لَزِمَهُ شَاةٌ، فَإِنْ وَطِئَ الْقَارِنُ لَزِمَهُ دَمٌ وَاحِدٌ.

(١) الْوَرْسُ: نَبَاتٌ كَالسَّمْسَمِ يُصْبَغُ بِهِ.

(٢-٢) سَقَطَ مِنَ الْأَصْلِ.

(٣) الْغَالِيَةُ: أَخْلَاطٌ مِنَ الطَّيِّبِ.

(٤) تَكَرَّرَ فِي الْأَصْلِ.

وإذا صادَ المحرم صيداً لم يملكه، فإن قتل المحرم صيداً له مثلٌ ضمَّنه بمثله إن كان له مثلٌ من النعم، ففي النعامَ بَدَنَة، وفي حِمَار الوحش والوَعْلِ بَقْرَة، وفي الضَّبِّع والضَّبِّ كبش، وفي العَزَال والثَّلْبِ عَنَزٌ، وفي الأرنبِ عَنَاقٌ<sup>(١)</sup>، فإن كان الصيدُ لا مثلاً له، كالعصافير والقنابر، ضمَّنه بقيمته إلا الحمامَ وما عبَّ<sup>(٢)</sup> وهَدَرَ<sup>(٣)</sup> كالقواخت<sup>(٤)</sup> والقَطَا والقَبَّحِ<sup>(٥)</sup>، ففي الواحدة شاةٌ، فإن جَنَى على صيدٍ ضمَّنه بما نقص، فإن قتله خطأً، ففي وُجُوبِ الجَزَاءِ روايتان.

(١) العناق: هي الأنثى من أولاد المَعَز.

(٢) أي: وضع منقاره في الماء وكَرَعَ كما تركه الشاة، ولا يأخذ قطرةً قطرة.

(٣) هَدَرَ: أي صَوَّت.

(٤) الفواخت: جمع فاخنة، وهي طائر معروف.

(٥) القَبَّحِ: الحَجَل.

## الباب الثاني

### في ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع

وهي عشرة جُمل:

الجملة الأولى: في السنن من أول الخروج إلى الإحرام:

وهي عشرة:

الأولى: في المال، فينبغي أن يبدأ بالتَّوْبَةِ، وردَّ المظالم، وقضاء الديون، وإعداد النفقة لكل من يلزمه نفقته إلى وقت الرجوع، ويرد ما عنده من الودائع ويستصحب من المال الحلال ما يكفيه لذهابه وإيابه من غير تَقْتِيرٍ على وجهٍ يمكنه معه التَّوَسُّعُ في الزاد، والرفق بالفقراء، ويستصحب ما يصلحه كالسَّوَاكِ والمَشْطِ والمِرْأَةِ والمُكْحَلَةِ، ويتصدق بشيءٍ قَبْلَ خُرُوجِهِ، وَلَيْسَتْ مَا يَحْمَلُهُ أَوْ يَكْتَرِيهِ، فَإِنْ أَكْتَرَى فَلْيُظْهِرْ لِلْمُكْرِي كُلِّ مَا يَرِيدُ أَنْ يَحْمَلَهُ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ، وَيَحْصُلُ رِضَاهُ فِيهِ، وَقَدْ قَالَ رَجُلٌ لَابِنِ الْمُبَارَكِ: أَحْمِلْ لِي هَذِهِ الرُّقْعَةَ إِلَى فُلَانٍ، فَقَالَ: حَتَّى أَسْتَأْذِنَ الْجَمَّالَ. وَقَدْ أَخْبَرَنَا ظَفَرُ بْنُ عَلِيٍّ قَالَ: أَبْنَا أَبُو مُطِيعِ الْمِصْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْدُويهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ الْمِصْرِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: حَدَّثَنَا دُجَيْنُ بْنُ ثَابِتٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَسْلَمُ عَنْ عَمْرِو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَجَّ بِمَالٍ حَرَامٍ، فَقَالَ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: لَا لَبَّيْكَ لَوْ سَعَدَيْكَ، وَحُجَّتْكَ مَرْدُودٌ عَلَيْكَ»<sup>(١)</sup>.

وفي حديث ابن عمر عن النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «رُدُّ دَانِقٍ مِنْ حَرَامٍ يَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ سَبْعِينَ حِجَّةً»<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه المصنف في العلل ٧٥/٢ وقال: هذا لا يصح عن رسول الله ﷺ، وأورده السيوطي في الدر المثور ٣٤٧/١، والمتقي الهندي في الكنز (١١٩٠٠).

(٢) أورده السيوطي في اللآلئ المصنوعة ١٧٥/٢، والعجلوني في كشف الخفاء ٤٢٨/١

الثانية: في الرفيق: ينبغي أن يلتمس رَفِيقاً صالحاً مُحَبَّباً للخير مُعِيناً عليه، إن نسي ذكْرَه، وإنْ ذَكَرَ أعانَه، وإن ضاقَ صدرُه صَبَّرَه، وليؤمِّر الرفقاء أحسنهم خُلُقاً، وأرفقهم بالأصحاب، وإنما يحتاجون إلى التأمير؛ لأنَّ الآراء تختلف فلا ينتظم التدبير إلا أن ينفرد بالرأي أمير<sup>(١)</sup>، ثم على الأمير الرفق والنظر في مصلحة القوم، وأن يجعل نفسه وقايةً لهم.

قال عبد الله الرباطي: صحبتُ عبد الله المروزي، فقال: أئنا الأمير؟ قلت: أنت. فلم يزل يحمل زاد نفسه وزادي، وجاء المطر فأجلسني في ظلِّ ميل<sup>(٢)</sup> وقام وغطاني بكسائه، وكلّما قلتُ له في شيء: لا تفعل. قال: ألم تقل: أنت الأمير؟! فوددت أني لم أصحبه لما كان يحمل على نفسه.

وينبغي أن يُطيب الكلام مع رُفقاءه، ويُطعم الطعام، ويُظهر محاسن الأخلاق، فإن السَّفر يُخرج خبايا الباطن، ومن كان في السَّفر الذي هو مَظِنَّة الضَّجر حَسَن الخُلُق كان في الحَضْر أحسن خُلُقاً.

و<sup>(٣)</sup> قد قيل: إذا أثنى على الرَّجل مُعاملوه في الحَضْر، ورُفقاؤه في السَّفر، فلا تشكوا في صلاحه<sup>(٣)</sup>.

الثالثة: أن يُودِّع رُفقاءه وإخوانه المُقيمين، ويلتمس أدعيتهم، ويقول لمن يُودِّعه: أستودعُ الله دينك وأمانتك وخواتيم عمَلِك. كذلك روى ابنُ عمر وأبو هريرة أن النبي ﷺ كان إذا ودَّع أحداً قال له ذلك<sup>(٤)</sup>.

= والقاري في الأسرار المرفوعة: ٢٠٧.

(١) في (ظ): «أمر».

(٢) في (ظ): «جبل». والميل: منارٌ يُبنى للمسافر في الطريق يهتدي به ويدل على المسافة. «المعجم الوسيط»: (ميل).

(٣-٣) سقط من (ظ).

(٤) حديث ابن عمر أخرجه أحمد (٤٥٢٤) و(٥٦٠٥) و(٥٦٠٦)، والترمذي (٣٤٤٣) والنسائي في الكبرى (٨٨٠٥) و(٨٨٠٦) و(١٠٣٥٧)، وابن خزيمة (٢٥٣١)، والحاكم ٩٧/٢، والبيهقي في السنن ٢٥١/٥، وابن ماجه (٢٨٢٦).

وفي رواية أخرى عن النبي ﷺ أنه كان إذا ودَّع رجلاً قال له: «زَوَّدَكَ اللهُ التقوى، وغَفَرَ ذَنْبَكَ، ووجَّهَكَ للخير حيث ما توجَّهْتَ»<sup>(١)</sup>.

الرابعة: أن يجعل خُروجه بُكرةً، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «اللهم بارك لأمتي في بُكورها»<sup>(٢)</sup>.

ولتكن يومَ الخميس، فقد روى كعبُ بن مالك، قال: قلَّما كان رسولُ الله ﷺ يخرجُ إلى سفرٍ إلا يومَ الخميس<sup>(٣)</sup>.

الخامسة: في الخروج من الدار: إذا همَّ بالخروج فليصل ركعتين، ثم ليقل: اللهم اصحبني في سفري واخلفني في أهلي ومالي وولدي، اللهم إني أستودعك جميع أهلي ومالي. ولا يُخصَّص، فقد أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أنبأنا محمد بن علي بن سكينه قال: أنبأنا أبو الحسين بن بشران قال: أنبأنا الحسين بن صفوان قال: حدثنا عبد الله بن محمد القرشي قال: حدَّثني محمد بن الحسين قال: حدَّثني عُبيد بن إسحاق قال: حدثنا عاصم بن محمد العمري عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: بينا عمر بن الخطاب يُعرض به<sup>(٤)</sup> الناس إذ مرَّ به رجل معه ابنٌ له على عاتقه، فقال عمر: ما رأيتُ غراباً أشبه بغرابٍ من هذا بهذا. فقال الرجل: أما والله

= وحديث أبي هريرة أخرجه أحمد (٨٦٩٤)، وابن ماجه (٢٨٢٥)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٠٧).

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٤٤)، والحاكم ٩٧/٢ من حديث أنس.

(٢) أخرجه من حديث علي رضي الله عنه أحمد (١٣٢٠) و(١٣٢٣) و(١٣٢٩) و(٣٣١)

و(١٣٣٩)، والبزار (٦٩٦)، وأبو يعلى (٤٢٥)، والمصنف في العلل ٣١٤/١ - ٣١٥،

والترمذي في العلل الكبير (١٨٤)، والعقيلي في الضعفاء ٣٢٣/٢، والرامهرمزي في

المحدِّث الفاصل ٢٥٦. وقال المنذري في الترغيب والترهيب ٥٢٩/٢: قد رواه جماعة

عن النبي ﷺ منهم: علي، وابن عباس، وابن مسعود، وابن عمر، وأبو هريرة، وأنس بن

مالك، وعبد الله بن سلام، والنواس بن سمعان، وعمران بن حصين، وجابر بن عبد الله

وبعض أسانيده جيدة.

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٤٩)، وأبو داود (٢٦٠٥)، وابن أبي شيبة ٥١٦/١٢، وأحمد

(١٥٧٨١)، والطبراني في الكبير ١٩/١١٠، والنسائي في الكبرى (٨٧٨٧).

(٤) سقطت من (ظ).

يا أمير المؤمنين لقد وَلَدته أمه وهي مَيِّتة. قال: ويحك، وكيف ذاك؟! قال: خرجتُ في بعث كذا وكذا وتركتها حاملاً، وقلت: أستودعُ الله ما في بطنك. فلَمَّا قدمتُ من سفري أُخبرتُ أنها قد ماتت، فبينما أنا ذات ليلة قاعدٌ في البقيع مع بني عمِّ لي إذ نظرتُ فإذا ضوءٌ شبيهٌ بالسراج في المقابر، فقلت لبني عمِّي: ما هذا؟ قالوا: لا ندري، غير أننا نرى هذا الضوء كلَّ ليلة عند قبر فلانة. فأخذتُ معي فأسأُ ثم انطلقت نحو القبر فإذا القبر مفتوح وإذا هو في حجر أمه، فَدنوتُ فنَادى لي مناد: أيها المستودع ربِّه خُذْ وديعتك أما والله لو استودعته أمه لوجدتها حيَّة<sup>(١)</sup>. فأخذت الصبي وانضم القبر.

السادسة: إذا حصل على باب الدار فليقل: بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، ربِّ أعوذ بك أن أضلَّ أو أزلَّ، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل عليَّ، اللهمَّ إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سمعة، خرجتُ اتقاء سَخَطك وابتغاء مرضاتك وقضاء لفرضك، واتباعاً لسنة نبيك، وشوقاً إلى لقائك، فإذا مَشى قال: اللهمَّ بك انتشرت، وعليك توكلت، وبك اعتصمت وإليك توجهت، اللهمَّ أنت ثقتي ورجائي فاكفني ما أهمني وما لا أهتمُّ به وما أنت أعلم به منِّي، عزَّ جارك، وجل ثناؤك ولا إله غيرك، اللهمَّ زوِّدني التقوى واغفر لي ذنبي، ووجِّهني للخير أينما توجهت. ويدعو بهذا الدعاء في كلِّ منزلٍ ترخَّل عنه.

السابعة: في الركوب؛ فإذا ركب الراحلة فليقل: بسم الله وبالله، الله أكبر الله أكبر، سبحان الذي سَخَّر لنا هذا وما كنَّا له مُقرنين، وإنا إلى ربِّنا لمنقلبون، اللهمَّ أنت المصاحبُ في السفر، والخليفة في الأهل والمال والولد، اللهمَّ إني أسألك في سفري هذا البرَّ والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهمَّ هوِّنْ عليَّ السفر واطوِّ لي البعيد، اللهمَّ إني أعوذ بك من وَعْثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل، ومن الحَوْر بعد الكور<sup>(٢)</sup>، اللهمَّ اقْبضْ لي الأرض وهوِّنْ عليَّ السفر.

(١) سقطت من (ظ).

(٢) ورد في هامش (ظ) ما نصه: «الوعْثاء هي المشقة، والحور بعد الكور الانقلاب من طاعة إلى معصية».

وليرفق بالدابة ولا يُحمّلها ما لا تُطيق، ولا يضرب وجهها ولا ينام عليها مهما أمكن، فقد قال أبو الدرداء لبعير له: أيها البعير لا تخاصمني إلى ربك فأني لم أكن أحمّلك فوق طاقتك. ولينزل عنها في وقت فيجمع بذلك بين ترويحها وطيب<sup>(١)</sup> قلب المُكاري ورياضة بدنه بالمشي، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «اركبوا هذه الدوابّ سالمة<sup>(٢)</sup> ولا تتخذوها كراسي<sup>(٣)</sup>».

وليكن أكثر سيره بالليل، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «عليكم بالدُّلجة، فإنّ الأرض تُطوى بالليل<sup>(٤)</sup>».

الثامنة: في النزول؛ فإذا نزل منزلاً فليجتنب النزول في الطريق، روى مسلم في أفراده من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنّه قال: «إذا عرّستم فاجتنبوا الطرق، فإنها طُرق الدوابّ، ومأوى الهوام بالليل<sup>(٥)</sup>». وفي أفراده من حديث خولة بنت حكيم عن النبي ﷺ أنّه قال: «مَنْ نزل منزلاً ثمّ قال: أعوذُ بكلمات الله التامّات من شرّ ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك<sup>(٦)</sup>».

وأخبرنا ابن الحصين قال: أنبأنا ابنُ المُذهب قال: أنبأنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو المغيرة قال: حدثنا صفوان عن شريح بن عبيد الحضرمي أنّه سمع الزبير بين الوليد يحدث عن عبد الله بن

(١) تحرفت في الأصل إلى: «طلب».

(٢) في الأصل: «سائرة».

(٣) أخرجه أحمد (١٥٦٣٩) و(١٥٦٤١)، والدارمي ٢/٢٨٦، وابن خزيمة (٢٥٤٤)، وابن حبان (٥٦١٩)، والطبراني في الكبير ٢٠/٤٣١، والحاكم ١/٤٤٤، والبيهقي في السنن ٥/٢٥٥ من حديث معاذ بن أنس.

(٤) أخرجه أحمد (١٤٢٧٧) و(١٥٠٩١)، وعبد الرزاق (٩٢٤٧) وابن خزيمة (٢٥٤٨) و(٢٥٤٩)، وابن السنن في عمل اليوم والليلة (٥٢٣) وابن ماجه (٣٢٩) بأطول مما هنا من حديث جابر. والدُّلجة: السير بالليل.

(٥) أخرجه مسلم (١٩٢٦)، وأحمد (٨٩١٨)، والترمذي (٢٨٥٨) وابن خزيمة (٢٥٥٠) و(٢٥٥٦)، وقوله: «عرّستم» أي: نزلتم آخر الليل.

(٦) أخرجه مسلم (٢٧٠٨) (٥٤)، وأحمد (٢٧١٢٠-٢٧١٢٣) و(٢٧١٢٦) و(٢٧٣١٠)، والبخاري في خلق أفعال العباد: ٨٩-٩٠، والترمذي (٣٤٣٧)، والنسائي في الكبرى (١٠٣٩٤).

عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا غزا أو سافر فأدركه الليل قال: «يا أرضُ ربِّي وربِّكَ الله، أعوذُ بالله من شرِّ ما فيك، وشرِّ ما خلق فيك، وشرِّ ما دبَّ عليك، أعوذُ بالله من شرِّ كلِّ أسدٍ وأَسود، وحيَّةٍ وعَقْرَب، ومن شرِّ ساكنِ البلدان ومن شرِّ والدٍ وما ولد»<sup>(١)</sup>.

فإذا أراد أن يرتحل من المنزل صَلَّى ركعتين، فقد روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه كان إذا سافر فتنزل منزلاً، فأراد أن يرتحل صلى ركعتين<sup>(٢)</sup>.

**التاسعة: في الحراسة، ينبغي أن لا يمشي وحده خصوصاً بالليل، وفي أفراد البخاري من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «لو يعلم الناس ما في الوَحْدَة ما سار أحدٌ وحده بليلٍ أبداً»<sup>(٣)</sup>.**

وليتناوب الرفقاء بالليل في الحراسة لثلاث نفوت الصلاة.

**العاشرة: أنه إذا علا نَشْرًا<sup>(٤)</sup> من الأرض كَبَّر ثلاثاً، وقال: «اللهم لك الشرف على كلِّ شرف، ولك الحمد على كلِّ حال»<sup>(٥)</sup> فإذا هبط سَبَّح<sup>(٦)</sup>.**

(١) أخرجه أحمد (٦١٦١)، وأبو داود (٢٦٠٣)، وابن خزيمة (٢٥٧٢)، والنسائي في الكبرى (١٠٣٩٨)، والحاكم ٤٤٦/١ - ٤٤٧ - ١٠٠/٢، والبيهقي في السنن ٢٥٣/٥، والأسود: هو الحية العظيمة التي فيها سواد، وهو أخبث الحيات، وساكن البلد: هم الجن الذين هم سكان الأرض، فالبلد من الأرض ما كان مأولاً للحيوان، وإن لم يكن فيه بناء ومنزل، وقيل: يحتمل أن المراد بالوالد إبليس، وما ولد: الشياطين، وقيل: يحتمل أن المراد كل والد ومولود على عموم النكرة في الإثبات.

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٣١٥) و(٤٣١٦)، والدارمي ٢/٢٨٩، والبخاري (٧٤٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٩٨)، وأحمد (٤٧٤٨) و(٤٧٧٠) و(٥٢٥٢)، وعبد بن حميد (٨٢٤) والدارمي ٢/٢٨٩، والبيهقي في السنن ٥/٢٥٧، وابن خزيمة (٢٥٦٩)، والحاكم ٢/١٠١.

(٤) أي: عالياً من الأرض.

(٥) أخرجه أحمد (١٢٢٨١)، وأبو يعلى (٤٢٩٧)، والطبراني في الدعاء (٨٤٩) وابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٢٢)، وابن عدي في الكامل ٥/١٧٣٥، والبيهقي في الدعوات الكبير (٤١٣).

(٦) لحديث جابر رضي الله عنه قال: كنا إذا صعدنا كَبَّرنا، وإذا نزلنا سَبَّحنا. أخرجه البخاري (٢٩٩٣) و(٢٩٩٤).

الجملة الثانية: في آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة، وهي خمسة:

الأول: أن يغتسل إذا بلغ الميقات، وينوي به غسل الإحرام، ويتنظف بتقليم الأظفار، وحلق العانة، وقصّ الشارب إلى غير ذلك، فإن لم يجد ماءً تيمّم.

الثاني: أن يفارق مخيط الثياب ويلبس ثوبي إحرامه، فيأترز بإزار ويرتدي برداء أبيضين نظيفين ويتطيّب لإحرامه، وفي الصحيحين من حديث عائشة قالت: طيَّبْتُ رسولَ الله ﷺ لحُرْمِهِ حين أحرم ولحلُّه حين أحل بطيبٍ فيه مسك<sup>(١)</sup>.

الثالث: أن يصلي ركعتين ثم يُحرم عقبيهما، وإن شاء أحرم إذا استوت به راحلته، فينوي الإحرام بقلبه ثم يلبي، فيقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك<sup>(٢)</sup>.

الرابع: أن يُعيّن ما أحرم به، ويشترط فيقول: اللهم إنّي أريد النُسك الفلاني فيسره لي وتقبّل منّي، ومحلي حيث حبستني.

الخامس: تجديد التلبية عقب الصلوات وإذا علا نَشْراً أو هبط وادياً، وإذا لقي ركباً، وفي إقبال الليل والنهار وبالأسحار، وإذا سمع مُلبياً أو فعل محظوراً ناسياً، وفي جميع مساجد الحرم وبقاعه.

الجملة الثالثة: في آداب دخول مكة إلى الطواف، وهي ستّة:

الأول: أن يغتسل لدخول مكة، وقد ذكرنا الأغسال المستحبّة فيما يتعلّق بالحجّ في كتاب الطّهارة<sup>(٣)</sup>.

الثاني: أن يقول عند الدخول إلى الحرم: اللهم هذا حرمك وأمنك، فحرم لحمي ودمي وبشري على النار، وأمني من عذابك، واجعلني من أوليائك.

(١) أخرجه البخاري (١٥٣٩) و(١٧٥٤) و(٥٩٢٢) و(٥٩٢٨)، ومسلم (١١٨٩) دون قولها: «بطيب فيه مسك» وهي رواية عند مسلم (١١٩١).

(٢) أخرجه البخاري (١٥٤٩)، ومسلم (١١٨٤) من حديث ابن عمر.

(٣) تقدم في الصفحة ٩٨.

الثالث: أن يدخل مكة من أعلاها من ثنية كداء، فإذا خرج خرج من أسفلها من ثنية كدى، والأول بفتح الكاف مع المد والثاني بضمها مع القصر.

ففي الصحيحين من حديث عائشة أن النبي ﷺ لما جاء إلى مكة دخلها من أعلاها وخرج من أسفلها<sup>(١)</sup>.

الرابع: أن يدخل المسجد الحرام من باب بني شيبه، وليقل: بسم الله، ومن الله، وإلى الله، اللهم افتح لي أبواب فضلك.

الخامس: أنه إذا وقع بصره على البيت يرفع يديه ويقول: اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام، اللهم زد هذا البيت تعظيماً وتكريماً وتشريفاً ومهابةً وبراً، وزد من عظمه وشرفه مَمَّن حَجَّه أو اعتمره تعظيماً وتشريفاً ومهابةً وبراً<sup>(٢)</sup>، الحمد لله رب العالمين كثيراً كما هو أهله، وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله، والحمد لله الذي بلغني بيته ورآني لذلك أهلاً، والحمد لله على كل حال، اللهم إنك دعوت إلى حج بيتك وقد جئناك لذلك، اللهم تقبل مني واعف عني، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت. يرفع بذلك صوته.

السادس: أن يقصد الحجر الأسود بعد ذلك ويمسه بيده اليمنى ويقبله، فإن لم يستطع وقف حياله، ثم يطوف طواف القدوم.

الجملة الرابعة: في الطواف:

ينبغي أن يراعى للطواف ستة أشياء:

الأول: شروط الصلاة؛ من طهارة الحدث والنجس في الثوب والبدن والمطاف وستر العورة، فإن الطواف بالبيت صلاة لكن الله تعالى أباح فيه الكلام، وليضطبع قبل الابتداء بالطواف، وهو أن يجعل وسط رداءه تحت عاتقه الأيمن ويطرح طرفه على عاتقه الأيسر.

(١) أخرجه البخاري (١٥٧٧) - (١٥٨١) و(٤٢٩٠) و(٤٢٩١)، ومسلم (١٢٥٨).

(٢) إلى هنا أخرجه الشافعي في مسنده ١/٣٣٨ - ٣٣٩ موقوفاً على سعيد بن المسيب.

الثاني: أن يجعل البيت عن يساره، ويبتدئ من الحجر الأسود، وليكن قدامه ليمرّ بجميع الحجر بجميع بدنه في ابتداء طوافه، وليقرب في طوافه من البيت قدر ثلاث خطوات لثلاث طواف على الشاذروان<sup>(١)</sup>، فإنه لا يُجزئه.

الثالث: أن يقول قبل مجاوزة الحجر في ابتداء الطواف: بسم الله والله أكبر، إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، ووفاءً بعهدك، واتباعاً لسنة نبيك محمد ﷺ. فأول ما يُجاوز الحجر ينتهي إلى باب البيت فيقول: اللهم هذا البيت بيتك، وهذا الحرم حرمك، وهذا الأمن أمنك، وهذا مقام العائذ بك من النار. فإذا بلغ الركن العراقي فليقل: اللهم إني أعوذ بك من الشرك والشك والكفر والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق. فإذا بلغ الميزاب قال: اللهم أظنني تحت عرشك يوم لا ظل إلا ظلك، اللهم اسقني بكأس محمد ﷺ شربة لا أظمأ بعدها أبداً. فإذا بلغ الركن الشامي قال: اللهم اجعله حجاً مبروراً، وسعيّاً مشكوراً، وذنباً مغفوراً، وتجارة لن تبور يا عزيز يا غفور، رب اغفر وارحم، وتجاوز عما تعلم، وأنت الأعزُّ الأكرم. فإذا بلغ الركن اليماني قال: ربنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار. فيطوف كذلك سبعة أشواطٍ ويدعو في طوافه بما أحب.

الرابع: أن يرمل في ثلاثة أشواط، ويمشي في الأربعة الأخيرة.

والرمل أسرع من المشي مع تقارب الخطأ، وكان المقصود منه ومن الاضطباع حين حج رسول الله ﷺ إظهار القوة والجلد؛ لأن الكفار استضعفوا المسلمين فأمروا بذلك، فبقيت تلك السنة، وفي الصحيحين من حديث ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه وقد وهنتهم حمى يثرب فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب ولقوا منها شراً، فجلس المشركون<sup>(٢)</sup> من الناحية التي تلي الحجر، فأطلع الله نبيه على ما قالوا، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة ليرى المشركون جلدهم، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط

(١) شاذروان الكعبة: هو القدر الذي ترك خارجاً عن عرض الجدار، مرتفعاً عن وجه الأرض

قدر ثلثي ذراع، بعد أن ضيق أعلى الجدار، وهو من البيت.

(٢) في (ظ): «المسلمون».

كُلُّهَا إِلَّا الْإِبْقَاءَ عَلَيْهِمْ، فقال المشركون: هؤلاء الذين زَعَمْتُمْ أَنَّ الْحَمَى قَدْ وَهَنْتَهُمْ؟! هؤلاء أجلد من كذا وكذا<sup>(١)</sup>.

ومن أمكنه أن يستلم الحجر في كلِّ شوطٍ فهو الأفضل، فإن منعه الرُّحَام أشار إليه بيده وقَبْل يده، وكذلك يستلم الركن اليماني ويُقبَل يده ولا يُقبَله ليختصَّ الحجر باللمس والتَّقِيل.

الخامس: إذا أتمَّ الطواف سَبْعاً<sup>(٢)</sup> فليأت الملتزم، وهو ما بين الحجر والباب، وليُصِصْ بطنه بالبيت، ويضع عليه خَدَّه الأيمن، ويبسط عليه ذراعيه وكَفَّيْهِ، ويقول: اللهمَّ يا رَبَّ البيت العتيق اعتق رَقَبتي من النار، هذا مقامُ العائذِ بك.

السادس: أن ينصرف بعد ذلك إلى المقام فيصلي خلفه ركعتين يقرأ في الأولى بعد الفاتحة بقل يا أيها الكافرون، وفي الثانية بقل هو الله أحد، ثم ليعد إلى الحجر فيستلمه.

### الجملة الخامسة في السَّعي:

إذا فرغ من الطواف فليخرج من باب الصِّفا، فيرقي عليه بقدر قامة الرجل ثم يُكَبِّرُ ثلاثاً ويقول: الحمد لله على ما هدانا، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لهُ الملك وله الحمد يحيي ويميت بيده الخير، وهو على كلِّ شيءٍ قدير، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونَصَرَ عبده،<sup>(٣)</sup> وأَعَزَّ جندَه<sup>(٣)</sup>، وهزَمَ الأحزاب وحده، لا إله إلا الله، لا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. ثم ينزل من الصفا ويمشي حتى يكون بينه وبين الميل الأخضر المعلق بفناء المسجد نحو ستة أذرع، ثم يسعى سعياً شديداً حتى يُحاذي الميلين الأخضرين اللذين بفناء المسجد وِجَاءَ دار العباس، ثم يمشي حتى يصعد المروة ويفعل مثل ما فعل على الصِّفا، ويُستحبُّ أن لا يسعى إلا مُتَطَهِّراً مُسْتَتِراً، وقد نقل الأثرم أنَّ الطهارة في

(١) أخرجه البخاري (١٦٠٢) و(٤٢٥٦)، ومسلم (١٢٦٦).

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «سَعياً».

(٣-٣) سقط من (ظ).

السعي كالظَّهارة في الطواف، والمُوالاة شرطٌ في الطواف والسعي، فإن خرج حاجةً وتطاول الفصل ابتداءً، أو إن كان يسيراً بنى، ويتخرَّج أن الموالاة سنة.

### الجملة السادسة في الوقوف وما قبله:

إن انتهى الحاج إلى عرفة يوم عرفة فإنه لا يتفرغ لطواف القدوم ودخول مكة قبل الوقوف، فإن وصل قبل ذلك بأيام وطاف طواف القدوم فمكث محرماً، فإنه إذا كان يوم التروية، وهو اليوم الثامن من ذي الحجة، يخرج إلى منى فيصلِّي بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ويبيت بها ثم يصلي بها الصبح، فإذا طلعت الشمس على ثبير<sup>(١)</sup> سار إلى الموقف<sup>(٢)</sup>، واغتسل للوقوف، وأقام بنمرة<sup>(٣)</sup>، وقيل: بعُرنة<sup>(٤)</sup>، حتى تزول الشمس، فإذا زالت خطب الإمام خطبةً يعلم الناس فيها مناسكهم من موضع الوقوف ووقته<sup>(٥)</sup>، والدفع من عرفة إلى غير ذلك، ثم ينزل فيصلِّي بالناس الظهر والعصر يجمع بينهما بإقامة لكل صلاة، ولا يجوز الجمع والقصر إلا لمن بينه وبين وطنه ستة عشر فرسخاً<sup>(٦)</sup> فصاعداً، ثم يروح إلى الموقف، والمستحب أن يقف عند الصخرات وجبل الرحمة<sup>(٧)</sup> بقرب الإمام، ويستقبل القبلة ويكثر من الدعاء، وسيأتي في كتاب الأدعية ما ترومه من ذلك، فأما المختص بهذا اليوم؛ فقد أخبرنا أبو الفتح الكروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو نصر الترياقى وأبو بكر العورجي قالوا: حدثنا أبو محمد الجراحي قال: حدثنا أبو العباس المحبوبي قال: أخبرني الترمذي قال: حدثنا مسلم بن عمرو<sup>(٨)</sup> الحداء

(١) ثبير: جبل بين مكة ومنى على يمين الداخل منها إلى مكة.

(٢) أي: إلى عرفات، وهو موضع وقوف الحجيج.

(٣) نَمْرَة: موضع قيل إنه من عرفات، وقيل: بقربها خارج عنها. المصباح المنير: (نمر).

(٤) عُرنة: وادٍ بحذاء عرفات غربي المسجد.

(٥) سقطت من (ظ).

(٦) الفرسخ مقياس طول يساوي ثلاثة أميال، ويُقدر حالياً بنحو ستة كيلو مترات. المكابيل

والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري ص ٩٤.

(٧) جبل الرحمة: جبل في وسط عرفات كانت العرب تسميه: الإل - بكسر الهمزة -.

(٨) سقط من الأصل.

قال: حدثني عبد الله بن نافع عن حماد بن أبي حميد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أنّ النبي ﷺ قال: «خَيْرُ الدُّعَاءِ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قَلَّتْ أُنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»<sup>(١)</sup>.

وفي حديث عليّ رضي الله عنه قال: كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ عشية عرفة: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي سَمْعِي نُورًا وَفِي بَصْرِي نُورًا وَفِي قَلْبِي نُورًا، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَاشْرَحْ لِي صَدْرِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَسْوَاسِ الصُّدْرِ، وَمِنْ شَتَاتِ الْأَمْرِ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا يَلْجُ فِي اللَّيْلِ وَشَرِّ مَا يَلْجُ فِي النَّهَارِ، وَشَرِّ مَا تَهَبُّ بِهِ الرِّيحُ، وَشَرِّ بَوَاقِ الدَّهْرِ»<sup>(٢)</sup>.

ووقف مُطرف و بكر بن عبد الله بعرفة فقال مُطرف: اللَّهُمَّ لَا تَرُدَّهُمْ مِنْ أَجْلِي. وقال بكر: ما أشرفه من موقفٍ وأرجاه لأهله لولا أنني فيهم.

ووقف الفضيل بعرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الشكلى المحترقة، فلما كادت الشمس تسقط قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: واسوءًا منك وإن عفوت.

الجملة السابعة: في بقية أعمال الحجّ بعد الوقوف من المبيت والرمي والنحر والحلاق والظّواف:

إذا أراد أن يفيض من عرفات، فليدفع بعد الغروب إلى المزدلفة على طريق المأزمين<sup>(٣)</sup>، وحدّ المزدلفة ما بين المأزمين ووادي مُحسّر، ويسير وعليه السكينة والوقار، فإذا وجد فرجةً أسرع، فإذا وصل إلى المزدلفة صلّى بها المغرب والعشاء

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٨٥).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن ١٧٤/٥.

(٣) هما جبلان بين عرفة ومزدلفة.

قبل حَطَّ الرَّحْلِ<sup>(١)</sup>، وإن صَلَّى المغرب في طريق المزدلفة أجزاءه، ثُمَّ بَيَّتَ بِهَا إِلَى أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرَ الثَّانِي، وَيَأْخُذُ مِنْهَا حَصَى الْجِمَارِ، وَمِنْ حَيْثُ أَخَذَ جَازًا، وَيَكُونُ الْحَصَى أَكْبَرَ مِنَ الْجَمِّصِ وَدُونَ الْبُنْدُقِ، وَعَدَدُهُ سَبْعُونَ حِصَاةً، وَهَلْ يُسَنَّ غَسْلَهُ؟ فِيهِ رَوَايَتَانِ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَإِنْ دَفَعَ بَعْدَ نِصْفِ اللَّيْلِ جَازًا، وَإِنْ دَفَعَ قَبْلَ نِصْفِ اللَّيْلِ لَزِمَهُ دَمٌ، فَإِنْ وَافَى مِزْدَلِفَةَ بَعْدَ نِصْفِ اللَّيْلِ، فَلَا دَمَ عَلَيْهِ، وَإِنْ وَافَاهُ بَعْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ، فَعَلَيْهِ دَمٌ، ثُمَّ يُصَلِّي صَلَاةَ الْفَجْرِ بِالْمِزْدَلِفَةِ فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ، ثُمَّ يَأْتِي الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ، فَيَرْقَى عَلَيْهِ إِنْ أَمَكَنَهُ وَإِلَّا وَقَفَ عِنْدَهُ، فَيُحَمِّدُ اللَّهَ وَيُهَلِّلُهُ وَيُكَبِّرُهُ وَيَدْعُو، وَيَقُولُ فِي دَعَائِهِ: اللَّهُمَّ كَمَا وَفَّقْتَنَا فِيهِ وَأَرَيْتَنَا إِيَّاهُ، فَوَفَّقْنَا لِدِكْرِكَ كَمَا هَدَيْتَنَا، وَاعْفُرْ لَنَا وَارْحَمْنَا كَمَا وَعَدْتَنَا بِقَوْلِكَ وَقَوْلِكَ الْحَقُّ: ﴿فَإِذَا أَفْضَيْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ يقرأ إلى قوله: ﴿عَفُورٌ رَجِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup> [البقرة: ١٩٨ - ١٩٩]. فإذا أسفر دفع قبل طلوع الشمس، فإذا بلغ وادي مُحَسَّرٍ سَعَى إِنْ كَانَ مَاشِيًا، وَحَرَّكَ إِنْ كَانَ رَاكِبًا قَدَرَ رَمِيَّةً بِحَجَرٍ، فَإِذَا وَصَلَ إِلَى مِئِنَى بَدَأَ بِجَمْرَةِ الْعَقَبَةِ فَيَرْمِي إِلَيْهَا بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ يُكَبِّرُ مَعَ كُلِّ حِصَاةٍ، وَيَعْلَمُ حِصُولَهَا فِي الْمَرْمَى، فَإِنْ رَمَى بِغَيْرِ الْحَصَى مِثْلَ الْكُحْلِ وَالرُّخَامِ وَالْبِرَامِ<sup>(٣)</sup> وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، أَوْ أَخَذَ حِجْرًا مِنَ الْمَرْمَى قَدَرُمِي بِهِ فَرُمِي بِهِ لَمْ يُجْزِهِ، وَيَرْفَعُ يَدَهُ فِي الرَّمِي حَتَّى يُرَى بِيَاضُ إِبْطِهِ، وَالْأَوْلَى أَنْ يَكُونَ مَاشِيًا، وَيَقْطَعُ التَّلْبِيَةَ وَالتَّكْبِيرَ مَعَ أَوَّلِ حِصَاةٍ، إِلَّا التَّكْبِيرَ عِنْدَ عَقِيبِ الْفَرَايِضِ، فَإِنَّهُ يُكَبِّرُ عَقِيبَ صَلَاةِ الظُّهْرِ يَوْمَ النَّحْرِ إِلَى عَقِيبِ الْعَصْرِ مِنْ آخِرِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، وَصِفَةُ التَّكْبِيرِ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ، وَإِنَّمَا يُكَبِّرُ إِذَا صَلَّى فِي جَمَاعَةٍ، وَهَلْ يُكَبِّرُ الْمُنْفَرِدُ؟ فِيهِ رَوَايَتَانِ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ.

فإذا رمى السبع لم يقف عندها، ويرمي بعد طلوع الشمس، فإن رمى بعد نصف الليل أجزاءه، ثم ليذبح الهدي إن كان معه، وقد روت عائشة عن النبي ﷺ أنه قال:

(١) في الأصل: «الرحال».

(٢) هو جزء من حديث جابر الطويل في حجة النبي ﷺ أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٣) البرام: جمع بُرْمَةٍ، وهي القدر من الحجر، فلا تجزئ الأحجار المكسرة منها في الرمي.

«ما عمل ابنُ آدم يوم النحر من عملٍ أحبَّ إلى الله من هِرَاقَة دم، وإنَّها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها، وإنَّ الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع إلى الأرض، فطيبوا بها نفساً»<sup>(١)</sup>.

والأولى أن يذبحها بيده، أخبرنا عبد الرحمن بن محمّد القزاز قال: أخبرنا عبد الصمد بن المأمون قال: أخبرنا ابن حبابة قال: حدثنا البغوي قال: حدثنا أبو نصر التمار قال: حدثنا أبان بن يزيد عن قتادة عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ ذبح أضحيته بيد نفسه وكبّر عليها<sup>(٢)</sup>.

فإن لم يُحسن الذبح فالأفضل أن يشهدها، فقد روى أبو سعيد عن النبي ﷺ أنّه قال لفاطمة رضي الله عنها: «قومي إلى أضحيتك فاشهديها، فإنّ لك بأوّل قطرةٍ تَقطر من دمها أن يُغفرَ لك ما سلفَ من ذنوبك»<sup>(٣)</sup>.

والأفضل عندنا في الأضاحي الإبل ثمّ البقر ثمّ الغنم. وأفضل الأضاحي الشَّهْب<sup>(٤)</sup> ثمّ الصُّفْر ثمّ السود، وتُجزئ الشاة الواحدة عن واحد، والبَدَنَة والبَقرة عن سبعة، والضأن أفضل من المَعز، ولا يجزئ ما فيه عيبٌ ينقص به اللحم، فلا تُجزئ العَضباء القَرْن والأذن، وهي التي ذهب أكثر قَرْنها وأذنها، ولأصحابنا في الجَمَاء<sup>(٥)</sup> وَجْهان، ولا تجزئ<sup>(٦)</sup> العوراء البَيِّن عورها، وهي التي قد انخسفت عَيْنُها وذهبت، والعَجفاء التي لا تُنقي، وهي الهزيلة التي لا تُنقي<sup>(٧)</sup> لها، والعرجاء البَيِّن ظَلُعُها فلا تَقدر على المشي مع الغنم ولا على مُشاركتهن في العَلْفِ،

(١) أخرجه الترمذي (١٤٩٣)، وابن ماجه (٣١٢٦)، والبغوي في شرح السنة ٤/٣٤٢، والحاكم ٤/٢٢١ - ٢٢٢.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٥٨) و(٥٥٦٥)، ومسلم (١٩٦٦).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن ٦/٢٨٣، والحاكم ٤/٢٤٧، والبزار في كشف الأستار (١٢٠٢)، والمنذري في الترغيب والترهيب (١٦٢٢).

(٤) الشَّهْب: جمع شهباء وهي البيضاء النقية البياض.

(٥) الجَمَاء: هي التي لم يُخلَق لها قرن.

(٦) في (ظ): «لا يجوز».

(٧) سقطت من (ظ).

والمريضة البين مرصها، وهي الجرباء لأن جربها يفسد اللحم.

فأما قول علي رضي الله عنه: «لا يضحى بمقابله ولا مدابرة ولا خرقاء ولا شرقاء»<sup>(١)</sup>. فإنه نهى تنزيهه، والإجزاء يقع، والمقابلة: التي قطع شيء من مقدم أذنها وبقي معلقاً، والمدابرة: التي قطع شيء من مؤخر أذنها، والخرقاء: التي قد ثقب الكئي أذنها، والشرقاء: التي شق الكئي أذنها، ويُجزئ الحصي.

ويستحب أن تنحر الإبل قائمة معقلة، ويذبح ما سواها. وأيام النحر ثلاثة؛ يوم العيد ويومان بعده، فإذا خرج وقت النحر ذبح الواجب قضاءً، وهل يجوز ذبح الأضاحي في الليل؟ فيه عن الإمام أحمد روايتان. ولا يجوز بيع جلودها ولا جلالها بل يتصدق به، والمسنون أن يأكل الثلث، ويتصدق بالثلث، ويهدي الثلث.

فإذا ذبح حلق أو قصر جميع<sup>(٢)</sup> رأسه في إحدى الروايتين، وفي الأخرى يُجزئه بعضه كالمسح<sup>(٣)</sup>، فإن لم يكن له شعر استحب أن يمر موسى على رأسه، والمرأة تقصر من شعرها قدر الأنملة، وإذا حلق حلقاً له كل محظور في الحج إلا النساء، ثم يفيض إلى مكة، ويطوف طواف الزيارة، وأول وقته بعد نصف الليل من ليلة النحر، وأفضل وقته يوم النحر، ولا آخر لوقته، إلا أنه يبقى معلقاً بعلقة الإحرام فلا تحل له النساء حتى يطوف، فإذا طاف سعى إلا أن يكون قد سعى بعد طواف القدوم، فيكفي، والأحسن أن يرمي ثم يذبح ثم يحلق ثم يطوف، فإن قدم الحلاق على الرمي أو على النحر جاهلاً بالسنة، فلا شيء عليه، فإذا فرغ من الطواف عاد إلى منى ليبيت بها ثلاث ليالٍ إلا أن يختار التعجيل في يومين، ويرمي الجمرات الثلاث في أيام التشريق بعد الزوال كل جمرة في كل يوم بسبع حصيات، كما وصفنا في جمرة العقبة، فيبدأ بالجمرة الأولى وهي أبعد الجمرات من مكة وتلي مسجد الخيف، فيجعلها عن يساره ويستقبل القبلة ويرميها، ثم يتقدم عنها إلى

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٠٤)، والنسائي في الكبرى (٤٤٤٦ - ٤٤٤٩)، وابن ماجه (٣١٤٢) -

(٣١٤٤)، والترمذي (١٤٩٨).

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) سقطت من (ظ).

موضع لا يصيبه الحصى، ويقف بقدر قراءة سورة البقرة يدعو الله تعالى، ثم يرمي الجمرَةَ الوسطى ويجعلها عن يمينه ويستقبل القبلة ويقف ويدعو كما فعل في الأولى، ثم يرمي جمرَةَ العقبة ويجعلها عن يمينه، ويستبطن الوادي ويستقبل القبلة ولا يقف عندها.

ومن ترك الرمي حتى انقضت أيام التشريق فعليه دمٌ، فإن ترك حصةً فيها أربع روايات: إحداهن: يلزمه دم، والثانية: مُدٌّ، وفي حصاتين مُدَّان، وفي ثلاثة دم. والثالثة: يلزمه نصفُ درهم. والرابعة: لا شيء عليه.

فإن ترك المبيت ليالي منى لزمه دم، فإن ترك ليلةً واحدةً ففيها الروايات الأربع. ومن نفر في اليوم الثاني قبل غروب الشمس دَفَنَ ما بقي معه من الحَصَى، وإن أقام إلى غروب الشمس لزمه البَيْتوتة والرَّمي من الغد، وإذا نفرَ اسْتَحَبَّ له أن يأتي الأبطح وهو المحصَّب وَحْدَهُ ما بين الجبلين إلى المقبرة، فيصلِّي به الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم يهجع سيراً ثم يدخل مكة.

### الجملة الثامنة في صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع:

العمرة واجبة، وأركانها: الإحرام، والطواف، والسَّعي على إحدى الروايتين. وواجبها: الحِلاق على إحدى الروايتين.

وأما سُننها: فالغُسل للإحرام، والأذكارُ المشروعة في الطواف والسَّعي، فمن أراد العمرة أحرم من الميقات بعد أن يغتسل ويتطيَّب، ويصلي ركعتين، فإن كان بمكة خرج إلى أدنى الحِلِّ فأحرم، والأفضل أن يُحرم من التَّنعيم ثم يطوف بالبيت ويسعى ويحلق أو يقصر، وقد حلَّ.

وينبغي للمقيم بمكة أن يُكثر من الاعتمار والطواف والنظر إلى البيت، وإذا دخله صلى بين العمودين المقدمين، ويكثر من شرب ماء زمزم، فقد قال ﷺ: «ماء زمزم لما شرب له»<sup>(١)</sup>. ويستحب لمن شرب منه أن يقول: بسم الله، اللهم اجعله

(١) أخرجه أحمد (١٤٨٤٩)، والطبراني في الأوسط (٨٥٣) و(٩٠٢٣)، وابن عدي في الكامل ١٤٥٥/٤ وابن أبي شيبة ٩٥/٨، وابن ماجه (٣٠٦٢)، والعقيلي في الضعفاء ٢/

لنا علماً نافعاً، ورزقاً واسعاً، وشفاء من كلِّ داء، واغسل به قلبي، واملاهُ من خَشيتك.

وليعتمر المقيم في رمضان، ففي الصحيحين من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال لامرأة من الأنصار يقال لها: أم سنان: «عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَقْضِي حَجَّةً» أو قال: «حَجَّةً مَعِي»<sup>(١)</sup>.

**الجملة التاسعة: في طواف الوداع:** إذا عزم على الخروج فَلْيُنْجِزْ أشغاله وليشدِّ رحله، وليجعل آخر عمله وداع البيت، وهو أن يطوف به سبعا من غير رَمَلٍ ولا اضْطِباع، فإذا فرغ صلَّى ركعتين خلف المقام وأتى الملتزم ودعا، قال مجاهد: لا يقوم عبدٌ ثمَّ فیدعو الله بشيءٍ إلاَّ استجاب له. وليكن من دعائه: اللهمَّ هذا بيتك، وأنا عبدك وابنُ أمتك، حملتني على ما سحَّرت لي من خلقتك، وسيرتني في بلادك حتى بلغتني بنعمتك بيتك، وأعتنتني على قضاء نُسُكي فإن كنت رَضيت عني فازدد عني رضا، وإلاَّ فَمُنَّ الآن قبل أن تنأى عن بيتك داري، هذا أو أن انصرفي إن أذنت لي غير مستبدل بك ولا ببيتك، ولا راغبٍ عنك ولا عن بيتك، اللهمَّ فأصحبني العافية في بدني، والصحة في جسمي، والعصمة في ديني، وأحسن مُنْقَلبي، وارزُقني طاعتك ما أبقيتني، واجمع لي خيرَ الدنيا والآخرة، إنك على كلِّ شيءٍ قدير.

**الجملة العاشرة في زيارة المدينة وآدابها:**

روى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «من حجَّ فزار قَبْرِي بعد موتي كان كمن زارني في حياتي وصحْبني»<sup>(٢)</sup> وفي لفظ آخر: «من زار قَبْرِي فقد وَجَبَتْ له شَفَاعَتِي»<sup>(٣)</sup>.

= ٣٠٣، والبيهقي في السنن ١٤٨/٥، والأزرقي في أخبار مكة ٥٢/٢ من حديث جابر.  
(١) أخرجه البخاري (١٧٨٢) و(١٨٦٣)، ومسلم (١٢٥٦) و(٢٢١) و(٢٢٢)، وأحمد (٢٠٢٥) و(٢٨٠٨)، وابن حبان (٣٦٩٩) و(٣٧٠٠).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٤٩٦) و(١٣٤٩٧)، وفي الأوسط (٣٣٧٦)، وابن عدي في الكامل ٧٩٠/٢، والبيهقي في السنن ٢٤٦/٥، والدارقطني ٢٧٨/٢، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٤٧٠/٢، والألباني في السلسلة الضعيفة (٤٧).

(٣) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ٦٧/٢، والبزار في كشف الأستار (١١٩٨)

فمن قصد زيارة المدينة، فإذا لاحت له فليقل: اللهم هذا حرمُ رسولك فاجعله لي وقايةً من النار. وليدخلها متواضعاً مُعظماً، وليقصد المسجد وليصل فيه، فقد سبق فضل الصلاة فيه<sup>(١)</sup>، ولتكن صلاته بين المنبر والقبر فهي الروضة، وقد سبق فضلها<sup>(٢)</sup>، وليأت قبر النبي ﷺ، وليقف عند وجهه وذلك بأن يستقبل القبر ويستدبر القبلة ويجعل القنديل الذي في القبلة عند القبر على رأسه، وقد ضرب مِسْمَارٌ من صُفْرِ<sup>(٣)</sup> في حائط الحجرة الشريفة فإذا حاذاه القائم كان القنديل تحت رأسه.

وليس من السنّة أن يَمَسَّ الجدار، ولا أن يُقبِّله بل الوقوف من بُعدٍ أقرب إلى الاحترام، وليسلم فليقل: السلامُ عليك يا نبيَّ الله، السلامُ عليك يا رسول الله، السلام عليك يا سيّد المرسلين، السلام عليك يا خاتم النبيين، جزاك الله عنا ما أنت أهله. ثم ليقرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] ثم ليقل: اللهم صلِّ على محمّد وعلى آل محمّد وسلِّم صلاةً تُرضيه، وآته الوسيلة والفضيلة، وارفعه الدرجة العظيمة والمقام المحمود الذي وعدته. ثم ليقل: أشهد أنك بلّغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، وجاهدت في الله حقَّ جهاده، فصلّى الله عليك وعلى آلك وسلّم.

ثم يتأخّر ذراعٍ ويُسلم على أبي بكر الصديق، ثم يتأخّر قدرَ ذراعٍ ويسلم على عُمر بن الخطّاب ويقول: السلامُ عليكما يا وزيرَي رسولِ الله، جزاكمما الله أحسن الجزاء. ثم ليرجع فليقف عند رأسِ رسولِ الله ﷺ، وليكثر من الدعاء والصلاة عليه، ثم ليقل: اللهم إنك قلت: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤] وإنّي قد سمعتُ قولك، واتبعتُ أمرَكَ، وقصدتُ نبيك مُستشفعاً به إليك في ذنوبي، وأنا

= وابن عدي في الكامل ٦/٢٣٥٠، والدارقطني في السنن ٢/٢٧٨، والبيهقي في السنن ٥/٢٤٥ وأورده السيوطي في الدر المنثور ٢/٤٧٠، وانظر إرواء الغليل (١١٢٨).

(١) تقدم في الصفحة ٢٠٦.

(٢) تقدم في الصفحة ٢٠٧.

(٣) الصُّفْر: النحاس.

تائب من زللي معترف بخطأي، فُتّب عليّ وشفّع نبيّك فيّ. ثمّ يأتي الروضة فيُصليّ فيها، ويُستحبّ له أن يزور أهل البقيع وشهداء أحد، وليزر مسجد فُباء، وليصلّ فيه، وكلّ موضع يعرفه من المواضع التي كان رسول الله ﷺ يصلّي فيها، أو بئر كان يشرب منها، فإذا أراد الخروج ودّع رسول الله ﷺ.

## فصل

### في سنن الرجوع من السفر

أخبرنا عبد الأوّل قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أعين قال: حدثنا الفِرَبْرِي قال: حدثنا البُخاري قال: حدثنا إسماعيل قال حدثني مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أنّ رسول الله ﷺ كان إذا قَفَلَ من غَزْوٍ أو حجّ أو عُمرة يكبّر على كلّ شَرَفٍ من الأرض ثلاث تكبيرات، ثمّ يقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير، آيئون تائبون، لربنا حامدون، صدق الله وَعده، ونَصْر عبده، وهزم الأحزاب وحده». أخرجاه في الصحيحين<sup>(١)</sup>.

وينبغي أن يرسل إلى أهله من يُعلمهم بقدمه ليتأهبوا له ولا يطرقهم ليلاً، ففي الصحيحين من حديث أنس أنّ النبي ﷺ كان لا يطرق أهله ليلاً، كان يدخل غدوةً أو عشياً<sup>(٢)</sup>. وفي الصحيحين من حديث جابر عن النبي ﷺ أنّه قال: «إذا أطال أحدكم العُيَّة فلا يطرق أهله ليلاً»<sup>(٣)</sup>. وإذا دخل البلد فليقصد المسجد أولاً وليصلّ ركعتين، ففي الصحيحين من حديث كعب بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ إذا قَدِم من سفرٍ بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثمّ جلس فيه<sup>(٤)</sup>. فإذا دخل إلى بيته فليقل: توباً توباً. ففي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنّه كان إذا دخل إلى أهله - يعني من السفر - قال: «توباً توباً، لربّنا أوباً، لا يغادر علينا حوباً»<sup>(٥)</sup>. فإذا استقرّ

(١) أخرجه البخاري (١٧٩٧) و(٢٩٩٥) و(٤١١٦) و(٦٣٨٥)، ومسلم (١٣٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٠٠)، ومسلم (١٩٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٤٤)، ومسلم في الإمارة ص ١٥٢٨ برقم خاص (١٨٣).

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٨٨)، ومسلم (٧١٦).

(٥) أخرجه أحمد (٢٣١١)، وابن أبي شيبة (٣٥٨/١٠ و٣٦٠، و٥١٧/١٢)، وأبو يعلى

في منزله فليذكر نعمة الله عليه فيما رَزَقه من قضاء الحجّ وبلوغ تلك المنازل،  
وليستشعر عُقران ما مَضَى من ذنوبه، وليحذر من العُود إلى التَّدنُّس بالذنُوب.

= (٢٣٥٣)، وابن حبان (٢٧١٦)، والطبراني في الكبير (١١٧٣٥) وفي الدعاء (٨٠٩)، وابن  
السني في عمل اليوم والليلة (٥٣١)، والبزار في كشف الأستار (٣١٢٧)، والحاكم ١/  
٤٨٨. والحُوبُ: الذنُب والإثم.

## الباب الثالث

### في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة

بيان دقائق الآداب، وهي عشرة:

الأول: أن تكون النفقة حلالاً، وتكون اليد خالية عن تجارة تشغل القلب وتُفرِّق الهمَّ ليجتمع في العبادة، أخبرنا أبو منصور القزاز قال: أخبرنا أبو بكر الخطيب قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد بن حمويه قال: حدثنا عبد الرحمن بن الحسن السرخسي قال: حدثني إسماعيل بن جُميع قال: حدثنا مُغيث بن أحمد البلخي، قال: حدثني سليمان بن أبي عبد الرحمن عن مَخلد بن عبد الرحمن الأندلسي عن محمد بن عطاء عن جعفر - يعني ابن سليمان - قال: حدثنا ثابت عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمانٌ يحجُّ أغنياءُ أمّتي للزّهة، وأوساطهم للتجارة، وقراءُهم للرياء والسمعة، وفقراءُهم للمسألة».

الثاني: أن لا يعاون الصادّين عن بيت الله بضرب المَكس من الأعراب فإنّ تسليم المال إليهم إعانةٌ على الظلم وتيسيرٌ لأسبابه عليهم، فهو كالإعانة بالنفس، وفي ذلك ذلٌّ وصغار على المسلم، وليلتطف في الخلاص منهم، فإن لم يقدر، فقد رأى بعض العلماء ترك التنقل بالحجّ لأجل ذلك.

الثالث: التوسّع في الزاد وطيبُ النَّفس بالبذل والإنفاق من غير تَقْتِيرٍ ولا إسرافٍ، فقد أخبرنا يحيى بن علي المُدير قال: أخبرنا القاضي أبو الحسين السّمْناني قال: أخبرنا أبو طاهر بن مهدي، قال: حدثنا عثمان بن أحمد السّمْرَقندي، قال: حدثنا أبو أمية قال: حدثنا عمرو بن عثمان قال: حدثنا موسى بن أعين عن عطاء بن السائب عن علقمة بن مرثد عن ابن بُريدة عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: «النّفقة في الحجّ تُضاعف، كالنفقة في سبيل الله الدرهم بسبعمائة». وفي حديث جابرٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «حجٌّ مبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنة» قالوا: يا

رسول الله ما برُّ الحجِّ؟ قال: «إطعامُ الطعام، وإفشاءُ السلام». وكان عبدُ الله بن المبارك يحجُّ بإخوانه فيطعمهم أطيبَ الطعام وأطيبَ الحلوى، وكان أبو الشعثاء لا يُماكِسُ<sup>(١)</sup> في الكراء إلى مكّة، ولا في الرقبة يشتريها للعتق، ولا في الأضحية ويقول: لا تُماكِسُ في كلِّ شيءٍ نتقَرَّبُ به إلى الله عزَّ وجلَّ.

واعلم أنَّ بذلَ المال في تلك الطريق أوفى من بذله في غيرها لأربعة معانٍ:

أحدها: أنَّ مَسَّ الحاجة هناك أشدَّ من مَسِّها في غيره. الثاني: أنه لا بلدٌ يلجأ إليه. الثالث: مُجاهدة النفس لقوَّة بخلها بالشيء مخافة الحاجة إليه. والرابع: أنه إعانة للقاصدين على القصد.

وقد رُئيَتْ زُبَيْدَة<sup>(٢)</sup> في المنام فقيل لها: ما فعلَ اللهُ بك؟ فقالت: عَفَّرَ لي في أولِ مِعْوَلٍ ضُرِبَ به في طريقِ مكّة.

الرابع: تَرَكُ الرَّفْثِ والفسوق والجدال، والرَّفْثُ اسمٌ جامعٌ للغو والخنا والفحش من الكلام، ويدخل فيه مُغازلةُ النساء ومداعبتهنَّ والتحدُّثُ بشأنِ الجماع ومقدّماته، فإنَّ ذلك يهيج داعية الجماع المحظور، والداعي إلى المحظور محظور. والفُسُوقُ اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يخرج عن طاعة الله تعالى. والجدال المبالغة في الخصومة والمماراة ممَّا يُورثُ الضَّغائن ويناقض حسن الخلق، فينبغي للمسافر إلى الحجِّ حُسْنَ الخلق، وليس هو كف الأذى فحسب بل احتمال الأذى، وإنما سُمِّيَ السَّفَرُ سَفَرًا؛ لأنَّه يُسفر عن أخلاق الرجال. قال مجاهد: صحبتُ ابنِ عمر وأنا أُريد أن أخدمه، فكان يخدمني أكثر.

(١) يقال: ماكسَه في البيع مُماكسَةً، أي طلب منه أن ينقص من الثمن.

(٢) هي زبيدة بنت جعفر بن المنصور العباسي، زوجة هارون الرشيد، تزوجها الرشيد سنة (٦٥) هجرية، وكانت شديدة البر تكثر من أعمال الخير، فقد سَقَت أهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار، فأسالت المياه من عشرة أميال إليها، ومهدت طريق الحجاج من بغداد إلى مكة وعملت فيه البرِّك والآبار والمنازل، توفيت سنة (٢١٦ هـ). أعلام النساء ١٧/٢.

الخامس: أن يحجَّ ماشياً إن قدر، وقد سبق ذكر فضل حجّ الماشي، والاستحباب في المشي في المناسك والتردد من مكة إلى الموقف وإلى منى أكد منه في الطريق. وقد قال بعض العلماء الركوب إلى مكة أفضل لما فيه من الإنفاق والمؤونة، وهذا بعيد؛ لأنَّ مشقة البدن عند أكثر الناس أعظم من مشقة إخراج المال، وقد علل بعضهم فقال: الركوب أبعد من ضجر النفس. ونحن نقول: من كان ضعيفاً يتأذى بالمشي فيؤديه إلى سوء خلق وقصور عن عمل، فالركوب له أفضل، ومن سهل عليه المشي فهو أفضل.

السادس: أن يجتنب المحمل ويركب الزاملة<sup>(١)</sup>، إلا أن يخاف أن لا يستمسك<sup>(٢)</sup> على الزاملة لعذر وفي ذلك معنيان: أحدهما: التخفيف عن البعير، فإنَّ المحمل يؤذيه. والثاني: اجتناب زي المترفين والمتكبرين، فإنَّ رسول الله ﷺ حجَّ على راحلةٍ وتحت رحل رث. وقيل: إنَّ أول من أحدث المحامل الحجاج.

السابع: أن يكون رثَّ الهيئة أشعث أغبر، غير مستكثرٍ من الزينة، ولا مائلٍ إلى أسباب التفاخر والتكاثر، ففي حديث جابرٍ عن النبي ﷺ: «إنَّ الله تعالى يُباهي بالحاجَّ الملائكة، فيقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً من كلِّ فج عميق أشهدكم أنني قد غفرتُ لهم. فتقول الملائكة: ربِّ فيهم فلان وفلانة. فيقول الله عزَّ وجلَّ: قد غفرتُ لهم. فقال رسول الله ﷺ: فما من يومٍ أكثر عتياً من يومِ عرفة ولا يُغفر فيه<sup>(٣)</sup> لمُختال».

الثامن: أن يرفق بالدابة ولا يُحمّلها ما لا تطيق، ولا ينام عليها، وقد سبق ذكر هذا في أول كتاب الحجّ<sup>(٤)</sup>.

التاسع: أن يتقرَّب بإراقة دم، ويجتهد أن يكون من سمين النعم ونفيسه، وليأكل منه إن كان تطوعاً ولا يماكس في شرائه، وقد سئل رسول الله ﷺ: «ما برُّ

(١) الزاملة: البعير الذي يُحمل عليه الزمالة وهي أداة المسافرين.

(٢) في الأصل: «يتمسك».

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) تقدم في الصفحة: ٢١٧.

الحجّ؟ فقال: العَجُّ والثَّجُّ»، والعَجُّ: رفع الصوت بالتلبية، والثَّجُّ: صبُّ الدم بالبحر. وقد سبقَ فَضْلُ الأَصْحَاحِي (١).

العاشر: أن يكون طَيِّب النفس بما أنفقه وبما أصابه من أذى في مالٍ أو بَدَن.

### بيان الأعمال الباطنة ووجه الإخلاص في النية

وطريق الاعتبار بالمَشَاهِد الشريفة وكيفية الافتكار فيها والتذكّر لأسرارها ومعانيها من أوّل الحجّ إلى آخره

اعلم أنّ أوّل الحجّ الفهم أعني: فهم موقع الحجّ من الدين، ثمّ الشوق إليه، ثمّ العزم عليه، ثمّ قطع العلائق المانعة منه، ثمّ شراء ثوب الإحرام، ثمّ شراء الزاد، ثمّ اكتراء الراحلة، ثمّ الخروج، ثمّ السّير في البادية، ثمّ الإحرام من الميقات بالتلبية، ثمّ دخول مكة ثمّ استتمام الأفعال كما سبق، وفي كلّ واحد من هذه الأمور تذكرة للمتذكّر، وعبرة للمعتبر، وتنبية للمريد الصادق، وإشارة للفقطن، فلنرمز إلى مفاتيحها حتى إذا انفتح بابها وعُرِفَت أسبابها انكشف لكلّ حاجّ من أسرارها ما يقتضيه صفاء قلبه وطهارة باطنه وغزارة علمه.

أمّا الفهم: فاعلم أنّه لا وصول إلى الله سبحانه إلا بالتجرّد له، والانفراد بخدمته، وقد كان الرّهبان ينفردون في الجبال طلباً للأنس بالله عزّ وجلّ، فجُعِلَ الحجّ رهبانيّةً لهذه الأمة، فَشَرَفَ اللهُ تعالى البيتَ بإضافته إليه، ونصبه مقصداً لعباده، وجعل ما حواليه حرماً له تفخيماً لأمره، وجعل عرفة كالميدان على فناء حرّمه، وأكّد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره، ووضع على مثال حضرة الملوك يقصده الزوّار من كلّ فجّ عميق شعناً غُبراً متواضعين لربّ البيت خضوعاً لجلاله، واستكانةً لعزّته مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيتٌ أو يكنه بلد ليكون ذلك أبلغ في عبوديتهم وأتمّ في دعائهم وانقيادهم، ولذلك وُظِفَ عليهم في الحجّ أعمالاً لا تأنسُ بها النفوس ولا تهتدي إلى معانيها العقول، كرمي الجِمار

بالأحجار، والتردد بين الصفا والمروة مراراً، وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية، وفي ذلك عزلٌ للعقل عن تصرفه، وصرفت للطبع عن محل أنسه على ما أشرنا إليه في إخراج القيم في الزكاة.

وأما الشوق فإنما ينبعث بعد الفهم والتحقق<sup>(١)</sup> بأن البيت بيت الله، وأن قاصده قاصدٌ إلى الله سبحانه وزائرٌ له، وأن هذا القاصد جدير بأن يُرزق الزيارة في الآخرة، وأن يُمدَّ بصره بقوة يستعدّ معها للنظر إلى الله سبحانه.

وأما العزم، فليعلم أنه بعزمه قاصد إلى مفارقة الأهل والوطن وهجر الشهوات، متوجه إلى زيارة بيت الله، فليعظم في نفسه قدر البيت، وليجعل عزمه خالصاً لله سبحانه، والإخلاص بصحة القصد وإفراجه له واجتناب كل ما فيه رياءً وسُمة.

وأما قطع العلائق، فمعناه: ردّ المظالم؛ لأن كل مظلمة علاقة، وكل علاقة غريمٌ حاضرٌ يتعلّق بتليب<sup>(٢)</sup> هذا القاصد ويقول: أين تتوجّه؟ أتقصد بيت الملك وأنت مُضَيِّع أمره في منزلك؟ أفما تخاف أن يردك إذا قدمت عليه؟ فنفد أوامره أولاً، وتب إليه لتكون متوجّهاً نحوه بوجه قلبك، كما أنك متوجه إلى بيته بوجه ظاهرك لئلا يكون نصيبك النَّصَب.

وليكتب وصيةً، فإن المسافر وماله لعلّى قلت<sup>(٣)</sup> إلا ما وقى الله عز وجل، وليذكر بذلك قطع العلائق لسفر الآخرة.

وأما الزاد، فليطلبه من جلّه، وإذا رأى نفسه تطلب من الزاد ما يبقى في طول السفر ولا يفسد، فليذكر زاد الآخرة، فليحذر أن تكون أعماله فاسدة بالرياء والتقصير فلا تصحبه، كالطعام الرطب الذي يفسد في أول منازل السفر، فيبقى صاحبه وقت الحاجة مُتَحِيرًا.

(١) في الأصل «التحقيق».

(٢) التليب واللبيب: ما يقع على اللبّة - وهي النحر - من الثياب.

(٣) القلت: الهلاك.

وأما الراحلة، فإذا أحضرها فليشكر الله تعالى على ما سخر له، وليذكر ركوب الجنازة، وربما ركبها قبل ركوب الناقة.

وأما شراء ثوب الإحرام، فليتذكر عنده الكفن، فإنه سيلقى الله في زيٍّ مخالف لزيِّ أهل الدنيا.

وأما الخروج عن البلد، فليحضر قلبه لذلك، وليتفكر في أنه زائر لربه وليرج الوصول والقبول ثقةً بفضل الله لا إدلالاً بأعماله، فإن لم يصل رجاً أن يجعل مع الواصلين لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وأما دخول البادية ومشاهدة تلك العقاب، فليتذكر به ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات القيامة وما بينهما من الأهوال، وليذكر من هول قطاع الطريق هول سؤال مُنكر ونكير، ومن سباع الأودية عقارب القبر وديدانه، ومن انفراده عن أهله وحشة القبر ووحده، فليتزود لتلك الشدائد.

وأما الإحرام والتلبية، فليعلم أن معناه إجابة نداء الله تعالى، فليرجُ القبول، وليخشَ أن يقال له: لا لبيك ولا سعديك. فقد حجَّ علي بن الحسين، فلما أحرم واستوت به راحلته اصفرَّ لونه وارتعد ولم يستطع أن يُلبِّي، فقيل: مالك لا تُلبِّي؟ فقال: أخشى أن يقول لي: لا لبيك ولا سعديك. فلما لبَّى غشي عليه. ولما حجَّ جعفر الصادق فأراد أن يُلبِّي تغيَّر وجهه، فقيل: ما لك يا ابن رسول الله؟ فقال: أريد أن ألبِّي فأخاف أن أسمع غير الجواب. وقال أحمد بن أبي الحواري: كنتُ مع أبي سليمان الداراني<sup>(١)</sup> حين أراد أن يُحرم فلم يُلبِّ حتى سرنا ميلاً ثم غشي عليه، فأفاق وقال: يا أحمد أوحى الله تعالى إلى موسى: مُرْ ظَلَمَةَ بني إسرائيل لا يذكروني، فإني أذكر من ذكرني منهم باللَّعنة، ويحك يا أحمد، بلغني أن من حجَّ من غير حلَّة ثم لبَّى قال الله عزَّ وجلَّ: لا لبيك ولا سعديك حتى تردَّ ما في يديك. فما نأمنُ أن يُقال لنا ذلك.

(١) ليست في (ظ).

أخبرنا أبو بكر بن حبيب قال: أخبرنا علي بن أبي صادق قال: أخبرنا ابن باكويه قال: <sup>(١)</sup> سمعت الحسن بن أحمد الفارسي يقول: سمعت محمد بن داود الدينوري يقول <sup>(١)</sup>: سمعت أبا عبد الله بن الجلاء يقول: كنت بذى الحليفة وشاباً يريد أن يُحرم، فكان يقول: يا رب، أريد أن أقول: لبيك اللهم لبيك، فأخشى أن تُجيبني بلا لبيك ولا سعديك. يُردّد ذلك مراراً، ثم قال: لبيك اللهم. مدّ بها صوته، وخرجت روحه.

وليتذكر المَلبّي لإجابة نداء الله تعالى إذ قال: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧] إجابة الخلق لنداء الصّور، وازدحامهم في عرصات القيامة مُنقسمين إلى مقبولٍ ومردود.

وأما دخول مكّة، فليتذكّر عنده أنّه قد انتهى إلى حرم آمن، فليرجُ الأمن من العقوبة، وليخش أن لا يكون أهلاً للقرب، غير أنّه ينبغي أن يكون الرجاء غالباً؛ لأنّ الكرم عميم، وحقّ الزائر مرعيّ، وذمام <sup>(٢)</sup> المستجير لا يُضَيّع.

وأما وقوع البصر على البيت، فينبغي أن يُحضر عنده عظمة البيت في القلب، فانظر إليه بعين الإضافة لا بعين أنّه حجر، وقدّر أنك مشاهدٌ لرب البيت وارجُ أن يَرزقك النظر إليه كما رزقك النظر إلى بيته، واشكر تبليغك هذه الرتبة، وإلحاقك بزُمة الوافدين.

وأما الطواف بالبيت، فإنّه صلاةٌ، فأحضر قلبك من التعظيم والرجاء ما تُحضره في الصلاة، واعلم أنّك مُتشبّه بالطواف بالملائكة الحافّين حول العرش، ولا تظنّ أنّ المقصود طواف جسمك بالبيت بل طواف قلبك بذكر ربّ البيت.

وأما الاستلام، فاعتقدْ عنده أنّك مُبايع لله على طاعته، فصمّم عزمك على الوفاء ببيعتك، فإنّ من عَدّر استحق المقمت. قال ابن عباس: الحجر الأسود يمينُ الله في الأرض يُصافح عباده كما يصافح أحدكم أخاه.

(١-١) سقط من (ظ).

(٢) الذّمام: العهد والأمانة والحق والحرمة.

وأما التعلُّق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم، فتذكَّر به لَجَأَ المذنبِ وقُرْبَ المُحِبِّ، أخبرنا محمد بن ناصر قال: أخبرنا أبو الحسين بن يعقوب قال: قال لنا القاضي أبو الحسن بن صخر الأزدي: تعلق رجلٌ بأستار الكعبة وأنشد:

سُتُورُ بَيْتِكَ ذِيْلُ الأَمْنِ مِنْكَ وَقَدْ عُلِّقْتُهَا مُسْتَجِيرًا أَيَّهَا البَارِي  
وَمَا أَظْنُكَ لَمَّا أَنْ عَلِيقْتُ بِهَا خَوْفًا مِنَ النَّارِ تُدْنِينِي إِلَى النَّارِ  
وَهَا أَنَا جَارُ بَيْتِ أَنْتَ قُلْتَ لَنَا حُجُّوا إِلَيْهِ وَقَدْ أَوْصَيْتَ بِالجَارِ

وأما السَّعْيُ بين الصفا والمروة، فإنه يُضاهي تردُّد العبد بفناء دار المَلِكِ إظهاراً لخلوص الخِدْمَةِ، ورجاء للملاحظة بعين الرحمة، كالذي دخل على الملك ثم خرج ولا يدري ما يقضي به الملك في حقه من قبول أو رد، فهو يتردد على فناء الدار مرَّةً بعد أخرى، وليتذكَّر عند تردده تردُّده بين كَفَّتِي الميزان في عَرَصات القيامة، وليُمثِّل الصِّفَا كَفَّةَ الحَسَنَاتِ، والمَرْوَةَ كَفَّةَ السَّيِّئَاتِ.

وأما الوقوف بعرفة، فاذكُر بما ترى من ازدحام الخلق، وارتفاع الأصوات، واختلاف اللُّغَاتِ، واتباع كلِّ فريق إمامهم في التردد في المشاعر اقتداءً باتباع الأمم أنبياءها، وطمعهم في شفاعتهم، وما يخلو ذلك الجمع من الأولياء وأرباب القلوب، فإذا اجتمعت همهم على طلب الرحمة، فلا تظننَّ أنَّ أملهم يخبِ.

وأما رمي الجمار، فاقصد به الانقياد للأمر إظهاراً للرقِّ والعبودية، وانتهاضاً لمجرّد الامتثال من غير حَظٍّ للعقل والنفس، ثم اقصد به التشبُّه بالخليل حين عرض له إبليسُ هناك، فإنَّ حَظَرَ لك أنَّ إبليسَ إنَّما عرض لذاك ولم يعرض لي فأرَمِيه، فاعلم أنَّ هذا من إلقاء الشيطان ليُفْتِرَّ عزمك ويُخَيِّلَ لك أنَّ الرمي فعلٌ لا فائدة فيه، فاطرُدْ هذا عن نفسك بالجدِّ في الرمي، وارمه لهذا الوسواس.

وأما ذبح الهدي، فاعلم أنه يُقَرَّب إلى الله عزَّ وجلَّ بحكم الامتثال فَجُودُهُ وارحُ ثوابه.

وأما زيارة المدينة، فإذا لاحت لك فتذكر أنها البلدة التي اختارها الله سبحانه  
لنبيه ﷺ، وجعل إليها هجرته، وشرع فيها فرائضه وسننه، وجعل فيها تربته، ثم مثل  
في نفسك مواقع أقدام النبي ﷺ عند تردده فيها، وتصوّر خُشوعه وسكينته في  
المشي، وتذكر ما من الله به على أصحابه وتأسّف على ما فاتك من ذلك، واذكر  
أنه قد فاتتك رؤيته في الدنيا، وأنت من رؤيته في الآخرة على خطر، ففي  
الصحيحين من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا فرطكم على  
الحوض، ليُختلجَ رجالٌ دوني، فأقول: يا رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما  
أحدثوا بعدك». وفي الصحيحين من حديث أبي حازم عن سهل بن سعد عن  
النبي ﷺ أنه قال: «ليردّ عليّ أقوامٌ أعرفهم ويعرفوني، ثم يُحال بيني وبينهم». قال أبو حازم: فسمعني النُّعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا الحديث، فقال:  
وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد: «فيقول: إنهم منّي. فيقال:  
لا تدري ما عملوا بعدك. فأقول: سُحقاً سُحقاً لمن بدّل بعدي». ثم ليرجّح في  
قلبك الرجاء بأنّه لا يُحال بينك وبينه، لما رزقك الله تعالى من الإيمان، وأشخصك  
لزيارته بمحض حبّ له<sup>(١)</sup> وشوقٍ إليه.

فإذا رأيت مسجده فتذكر أنها العرصة التي اختارها الله تعالى لنبيه، ولأول  
المسلمين وأفضلهم، وأنّ فرائض الله تعالى إنّما أُقيمت أولاً هنالك.

وأما زيارة قبره، فأحضر قلبك لتعظيمه والهيبة له، ومثّل صورته الكريمة في  
خيالك موضوعاً في اللحد بإزائك، وأحضر عظيم<sup>(٢)</sup> رُتبته في قلبك، واعلم أنه  
عالمٌ بحضورك وتسلميك؛ أخبرنا هبة الله بن محمّد قال: أخبرنا الحسن بن عليّ  
قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدّثني أبي قال:  
حدثنا عبد الله بن يزيد قال: حدثنا حيوة قال: حدّثني أبو صخر أنّ يزيد بن

(١) ليست في (ظ).

(٢) في الأصل: «عظم».

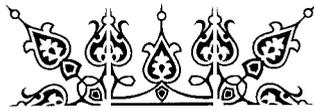
عبد الله بن قُسيط أخبره عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من أحدٍ يُسَلِّم عليَّ إلا رَدَّ اللهُ إليَّ»<sup>(١)</sup> رُوحِي حَتَّى أُرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ»<sup>(٢)</sup>.

قال الإمام أحمد: وحدثنا ابن نمير قال: حدثنا سُفيان بن عبد الله بن السائب عن زاذان قال: قال عبدُ الله<sup>(٣)</sup>: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ عِزًّا وَجَلًّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ سَيَّاحِينَ، يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلَامَ»<sup>(٤)</sup>.

ثم ائْتِ المنبرِ وتَوَهَّمْ صعوده ﷺ عليه، ومثَّلْ في قلبك طلعتَه البهيَّة، قائماً على المنبر، وقد أحْدَقَ به المهاجرون والأنصار، وهو يحْتُمُّهم على الخير.

فهذه وَظيفةُ القلب في أعمال الحجِّ، فإذا فرغ منه كلُّها، فينبغي أن يلزم قلبه الخوف، فإنَّه لا يدري أَقْبَلَ مِنْهُ حُجُّهُ أَمْ رُدُّ؟ وليتعرَّفْ ذلك من قلبه وأعماله، فإنَّ صادفَ قلبه قد تجافى عن دار الغرور وانصرفَ إلى الأُنسِ بالله سبحانه، ورأى أعماله قد اتَّزنت بميزان الشرع، فليعلم أنَّ هذا دليل القبول، وإن كان الأمر بخلاف ذلك، فيوشك أن يكون حُظُّه من السفر النَّصَب، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

### آخر كتاب أسرار الحج.



- (١) ليست في الأصل.  
 (٢) أخرجه أحمد (١٠٨١٥)، وأبو داود (٢٠٤١)، والبيهقي في السنن ٢٤٥/٥، والطبراني في الأوسط (٣١١٦).  
 (٣) يعني ابن مسعود رضي الله عنه.  
 (٤) أخرجه أحمد (٣٦٦٦) و(٤٢١٠) و(٤٣٢٠)، وعبد الرزاق (٣١١٦)، والنسائي في المجتبى ٤٣/٣، وفي عمل اليوم والليلة (٦٦)، والدارمي ٣١٧/٢، والبزار (٨٤٥) (زوائد)، والطبراني في الكبير (١٠٥٢٩) و(١٠٥٣٠)، والحاكم ٤٢١/٢، وأبو نعيم في الحلية ٢٠٠/٤، والبغوي في شرح السنة (٦٨٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٥٨٢).

## كتاب آداب تلاوة القرآن

الحمد لله الذي أنعم علينا بإنزال الكتاب، ودلنا على فنون الحكم والآداب، وأعلمنا بإعجازه أنه كلام ربّ الأرباب، لا تنتهي عجائبه وكله عجاب، هو حبل الله المتين أوثق الأسباب، وأهله أهل الله فيا شرف الانتساب، نبه ودل على ما قلّ وجلّ من خطأ أو صواب، تشاق إليه قلوب العلماء اشتياق الظمان إلى<sup>(١)</sup> الشراب، فإذا تلوه حادثهم فإذا الحاضر قد غاب ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّعَابِ﴾ فإذا استفادوا مادوا<sup>(٢)</sup> مَيْدَ الْعُصُونِ الرُّطَابِ، ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] أحمده إذا شغلنا بتلاوته عن مزهري<sup>(٣)</sup> ورياب<sup>(٤)</sup>، وأصلي على رسوله الذي شرف به على الأنبياء شرف المصحوب على الأصحاب، وعلى كل من آب إلى أتباعه إلى يوم الحشر والمآب.

أمّا بعد: فإنّ القرآن العزيز أعلم العلوم، وفهم ما فيه أوفى الفهوم؛ لأن شرف العلم بشرف المعلوم، ونحن نذكر ما يتعلّق بتلاوته وآدابه في أربعة أبواب، والله الموفق للصواب.

الباب الأول: في ذكر فضل القرآن وأهله.

الباب الثاني: في آداب التلاوة في الظاهر.

(١) سقطت من الأصل.

(٢) مادوا: أي تحركوا وتمايلوا طرباً.

(٣) المزهري: العود، الآلة الموسيقية المعروفة.

(٤) الرياب: آلة موسيقية شعبية ذات وتر واحد.

الباب الثالث: في الأعمال الباطنة عند التلاوة.  
الباب الرابع: في فهم القرآن<sup>(١)</sup>، وتفسيره بالرأي وغيره.

(١) تحرفت في الأصل إلى: «القراءة».

## الباب الأول

### في فضل القرآن وأهله وذمّ المقصّرين في تلاوته

أعظم فضائل القرآن أنّه كلام الله عزّ وجلّ، وقد مدحه الله عزّ وجلّ في آياتٍ كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢]، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢].

وفي أفراد البخاري<sup>(١)</sup> من حديث عثمان بن عفان عن النبي ﷺ أنّه قال: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ».

أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المذهب قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الصمد قال: حدثنا عبد الرحمن بن بُدَيْلِ الْعُقَيْلِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ». فقيل: من أهل الله منهم؟ قال: «أهل القرآن هم أهل الله وخاصّته».

أخبرنا علي بن عُبيد الله وأحمد بن الحسن البنّاء وعبد الرحمن بن محمّد القرّاز قالوا: أخبرنا عبد الصمد بن المأمون قال: حدثنا علي بن عمر السكري قال: حدثنا محمّد بن علي الحفّار قال: حدثنا داود بن رشيد قال: حدثنا داود بن الوليد بن مسلم عن ابن لهيعة عن مِشْرَحِ بْنِ هَاعَانَ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَعْذِبُ اللَّهُ قَلْبًا وَعَى الْقُرْآنِ».

أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التّميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن عاصم عن زرّ عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال:

(١) في (ظ): «وفي الصحيحين»، وهو خطأ فالحديث من أفراد البخاري.

«يُقال لصاحبِ القرآن: اقرأ، وارق، ورتّل كما كنت تُرتّل في الدنيا، فإنّ منزلتك عند آخر آيةٍ تَقْرؤها».

قال أحمد: وحدثنا أبو نعيم قال: حدثنا حسين بن المهاجر قال: حدّثني عبد الله بن بُريدة عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ القرآنَ ليلقى صاحبه يومَ القيامة حين ينشق عنه قبره، كالرجل الشاحب، فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك. فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأنتك في الهواجر<sup>(١)</sup>، وأسهرت ليلك، وإنَّ كلَّ تاجرٍ من وراء تجارته، وإنَّك اليوم من وراء كلِّ تجارة. فيعطى الملكَ بيمينه والخُلدَ بشماله، ويوضع على رأسه تاجُ الوقار ويكسى والداه حلتين لا تقوم لهما الدنيا، فيقولان: بما كُسينا هذا؟ فيقال: بأخذِ ولدكما القرآن. ثم يُقال له: اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ هذا<sup>(٢)</sup> كان أو ترتيلاً».

أخبرنا علي بن عبد الواحد الدينوري قال: أخبرنا الحسين بن محمد الخلال قال: حدثنا أحمد بن جعفر القطيعي قال: حدثنا إدريس بن عبد الكريم قال: حدثنا خلف بن هشام عن بشر بن نُمير عن القاسم مولى خالد بن يزيد قال: أخبرني أبو أمامة الباهلي أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قرأ ثلث القرآن أُعطي ثلث النبوة، ومن قرأ ثلثه أُعطي ثلث النبوة، ومن قرأ القرآن فكأنما أُعطي النبوة كلها، ويُقال له يوم القيامة: اقرأ وارق لكلِّ آيةٍ درجةٌ حتى ينجز ما معه من القرآن ويقال له: اقبض فيقبض بيده، ثم يُقال له: اقبض. فيقبض بيده، ثم يُقال له: تَدري ما في يدك؟ فإذا في يده اليمنى الخُلد، وفي الأخرى النعيم».

أخبرنا ابن الحُصين قال: أخبرنا ابن المُذهب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا جرير عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «إنَّ الرجل الذي ليسَ في جوفه من القرآن شيءٌ كالبيتِ الحَرَبِ». وفي حديث سعد بن عُبادة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من

(١) جمع هاجرة، وهي اشتداد الحر منتصف النهار.

(٢) هذَّ القرآن: أسرع في قراءته.

امريّ يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقي الله يوم القيامة أجذم<sup>(١)</sup>.

وقال أبو العالية: كُنَّا نَعُدُّ من أعظم الذنوب أن يتعلّم الرجل القرآن ثم ينام عنه حتى ينساه. وقال طلق بن حبيب: من تعلّم القرآن ثم نسيه حُطَّ بكلّ آيةٍ درجة، وجاء يوم القيامة مخصوماً.

أخبرنا الكروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر الغورجي قالا: أخبرنا الجراحي قال: حدثنا المحبوبي قال: حدثنا الترمذي قال: حدثنا محمد بن بشّار قال: حدثنا أبو بكر الحنفي قال: حدثنا الضحّاك بن عثمان عن أيّوب بن موسى قال: سمعت محمد بن كعب القرظي يقول: سمعتُ عبد الله بن مسعود يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ﴿الْم﴾ حرف، ولكن: ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

وقال ابن مسعود: ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليّله إذا الناسُ نائمون، وبنهاره إذا الناسُ مُفطرون، وبُحزنه إذا الناسُ يفرحون، وبُبكائه إذا الناسُ يضحكون، وبصمته إذا الناسُ يخلطون، وبُخشوعه إذا الناسُ يختالون<sup>(٢)</sup>.

وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكياً محزوناً حكيماً حليماً سَكِيّناً، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافياً ولا غافلاً ولا صَخَاباً ولا صَيّاحاً ولا حَدِيداً<sup>(٣)</sup>.

وقال الحسن: والله ما دون القرآن من غنى، ولا بعده من فاقة.

وقال الفضيل: حامل القرآن حاملُ راية الإسلام، ولا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يُلغو مع من يُلغو تعظيماً لحقّ القرآن، ولا ينبغي أن تكون له إلى أحدٍ حاجة إلى الخلفاء فمن دونهم، وينبغي أن تكون حوائج الناس إليه.

(١) الأجدم: المصاب بالجُذام، وهي علة تتآكل منها الأعضاء وتتساقط.

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن: ٥٢، وأحمد في الزهد ٢٠٢ - ٢٠٣، والآجري في آداب حملة القرآن (٣٩) والبيهقي في شعب الإيمان (١٨٠٧).

(٣) أي صاحب حِدَّةٍ في الخلق فيغضب سريعاً.

وقال أحمد بن حنبل: رأيتُ ربَّ العزَّة في المنام، فقلت: يا ربِّ، ما أقرب ما تقربَّ به إليك المتقربون؟ فقال: كلامي يا أحمد، فقلت: يا ربِّ بفهمٍ أو بغير فهمٍ؟ فقال: بفهمٍ وبغير فهمٍ<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه المصنف في مناقب الإمام أحمد: ٥٨٣، ومن الممكن للمؤمن أن يرى ربه في المنام كما حدث للنبي ﷺ حيث قال: «إني قمت من الليل فصليت ما قدر لي فنعستُ في صلاتي حتى استيقظت، فإذا أنا بربي في أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدري فيم يختصم الملاء الأعلى فقلت: لا أدري...» وهو حديث طويل مشهور في المنام أخرجه أحمد (٢٢١٠٩)، والترمذي (٣٢٣٣).

## الباب الثاني

### في ظاهر آداب التلاوة

وهي عشرة:

الأول في حال القارئ: وهو أن يكون على وضوء، مستعملاً للأدب، مُطرقاً غير مُتربع ولا متكئ ولا جالس على هيئة التكبر، وأفضل الأحوال أن يقرأه في الصلاة قائماً، وأن يكون في المسجد.

الثاني: في مقدار القراءة: وقد اختلفت عادات السلف في ذلك، فمنهم من كان يختم كل يوم وليلة ختمة، ومنهم من كان يختم ختمتين، ومنهم ثلاث ختمات، وهؤلاء الذين غلبت عليهم مبادرة العمر وانتهائه، ومنهم من كان يختم كل أسبوع اشتغالاً بنشر العلم وتعليمه، أو بنوع من التعبّد غير القراءة، أو بفنٍّ من اكتساب الدنيا، ومنهم من كان يختم كل شهر اشتغالاً بالتدبّر، وأولى الأمور ما لا يمنع الإنسان من أشغاله المهمة، ولا يؤذيه في بدنه، ولا يفوته معه الترتيل والفهم، وهذا يختلف باختلاف الناس في السرعة والتوقف، وقلة الأشغال وكثرتها، وإطاقة البدن وضعفه، ومن وجد خلسة في وقت فاغتنم كثرة الثواب في كثرة التلاوة فقد أحسن، فقد كان عثمان بن عفان رضي الله عنه يقرأ القرآن في ركعة يوتر بها، وكان الشافعي يختم في رمضان ستين ختمة.

فأما الدوام فليكن على مقدار الإمكان الذي أشرنا إليه، وأعدله أن يختم في كل ثلاثة أيام، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لم يَفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث».

وقد استحَبَّ بعضُ العلماء أن يختم الإنسان في الأسبوع ختمتين؛ ختمةً بالليل، وختمةً بالنهار، وأن يجعل ختمة النهار في بكرة الاثنين في ركعتي الفجر أو

بعدهما، وختمه الليل يوم الجمعة في ركعتي المغرب أو بعدهما، ليستقبل بالختمه أوّل النهار وأوّل الليل، أخبرنا إسماعيلُ بن أحمد قال: أخبرنا ابن النُّقور قال: أخبرنا ابنُ حَبَابَةَ قال: حدثنا البَغوي قال: حدثنا هُدْبَةَ قال: حدثنا حَمَادُ بن سلمة عن أبي مَكِين عن طلحة بن مُصرّف قال: من ختم القرآن في أيّ ساعةٍ من النهار كانت، صلّت عليه الملائكةُ حتى يُسمي، وأيّ ساعةٍ من الليل كانت صلّت عليه الملائكةُ<sup>(١)</sup> حتى يُصبح. وقد روينا هذا عن طلحة بن مُصرّف عن الحكم بن صفوان أنه قال: وقد روينا في آداب الجمعة عن إبراهيم النخعي مثل هذا.

وقال عبد الرحمن بن الأسود: من قرأ القرآن فختمه نهائراً غُفر له ذلك اليوم، ومن ختمه ليلاً غُفر له تلك الليلة.

وقال مجاهد: تنزل الرحمة عند ختم القرآن.

وقال ابن مسعود: من ختم القرآن فله دعوةٌ مستجابة.

وكان أنس بن مالك إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا.

وقال محمّد بن جُحادة: من ختم القرآن صلّى عليه كل ملك.

الثالث: في وجه القسمة: فمن أراد ختمه في يومين قرأ النصف كلّ يوم، أو في ثلاثة قرأ الثلث، أو في أربعة قرأ الربع، كذلك إلى السبع لتساوي الأيام في مقدار التلاوة، ولا ينقص في يوم ويزيد في يوم.

الرابع: في الكتابة للمصحف: يستحبّ كتابة المصحف وتبيينه، ولا يُكره النقط والشكل لكنه يكون بغير لون المداد؛ لأنّ ذلك يمنع التالي من اللحن، فأما من كره هذا وقال: جردوا القرآن. فإنهم خافوا من فتح هذا الباب إحداث زيادات، والآن فقد استقرّ الأمر فلا وجه للكراهة.

(١) ليست في الأصل.

الخامس: الترتيل: وله مقصودان:

أحدهما: أنه أقرب إلى الاحترام والتعظيم.

والثاني: أن المقصود من القراءة التفكر، والترتيل معينٌ عليه، ولذلك نعتت أم سلمة قراءة رسول الله ﷺ، فإذا هي تنعتُ قراءةً مفسرةً حرفاً حرفاً. وقال ابن عباس: لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلتهما وأتدبرهما أحب إليّ من أن أقرأ القرآن كله هَذَا.

السادس: القراءة بتحزين وبكاء: وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أذن<sup>(١)</sup> الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن». وفي لفظ أخرجه البخاري: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن».

وقال الشافعي: يتحزّنُ به: يترنّم به، يقرؤه حذراً<sup>(٢)</sup> وتحزناً، وليس من أنه يستغني به.

وقال ابن الأعرابي<sup>(٣)</sup>: كانت العربُ تتغنى بالركباني إذا ركبت الإبل، وإذا جلست في الأفنية، وعلى أكثر أحوالها، فلما نزل القرآن أحبَّ رسول الله ﷺ أن يكون القرآن هجيراًهم<sup>(٤)</sup> مكان التغني بالركباني<sup>(٥)</sup>.

واعلم أن القراءة بالتّحزين تُحرّك داعية البكاء، فمن أحضر مع ذلك قلبه لفهم الوعد والوعيد، وتفكّر في تقصيره في الأوامر والزواجر حزن وبكى، فإن لم يجد ذلك، فليبك على عدمه.

السابع: أن يتعوّذ قبل القراءة: فيقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

- (١) قوله: «ما أذن» أي: ما استمع.
- (٢) حذَر القراءة: أسرعَ فيها. وقول الشافعي أخرجه البيهقي في المناقب ١/٢٨٠.
- (٣) هو أحمد بن زياد أبو سعيد المحدث نزيل مكة وشيخ الحرم، توفي سنة ٣٤٠ هـ. سير أعلام النبلاء ١٥/٤٠٧.
- (٤) هجّيراهم: دأبهم وعاداتهم.
- (٥) أورده الخطابي في معالم السنن ١/٢٩١، والقرطبي في التفسير ١/١٣.

الثامن: أن يراعي حق الآيات: فإذا مرَّ بآية سجدةٍ سجد، وكذلك إذا قصد السَّماع من غيره سجد إذا كان على وضوء، ولكن بشرط أن يسجد التالي، وإذا مرَّ بآية دعاءٍ وسؤالٍ سأل، أو بآية عقابٍ تعوَّذ.

التاسع: إسرار القراءة في غير الصلاة، فأما حكمها في الصلاة فَمَعروف، فقد جاء في الحديث: «فضل قراءة السرِّ على قراءة العلانية كفضل صدقة السرِّ على صدقة العلانية». وفي لفظ: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمُسِرُّ به كالمُسِرُّ بالصدقة». وقد جاء في الحديث: «إنَّ عمل السرِّ يَفْضَلُ على عمل العلانية سَبْعِينَ ضعفاً». إلاَّ أنه ينبغي أن يُسمع نفسه، فإنَّ ذلك لا ينافي الإسرار، ولا بأس بالجهر في بعض الأوقات لمقصودٍ صحيحٍ إمَّا لِيُجوِّدَ الحفظ، فإنَّ الإعلان أقوى له، أو ليصرف عن نفسه الكَسَل أو النوم، أو لتنتبه بذلك النفس، أو ليقظ الوَسنان، كما قال عُمر<sup>(١)</sup>، إن صَحَّت له هذه النية، ومن كان عنده مُصحف فينبغي أن يقرأ فيه في كلِّ يوم ولو آياتٍ يسيرة لثلا يكون مهجوراً.

#### العاشر: تحسين القراءة:

ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أَدِنَ اللهُ لشيءٍ ما أَدِنَ لِنبيِّ حَسَنِ الصوت بالقرآن يَجْهَرُ به».

قال ابنُ أبي مُليكة: إذا لم يكن حَسَنَ الصوت حَسَنَه ما استطاع. وقد استمع رسولُ الله ﷺ قراءة أبي موسى وقال: «لقد أُوتِيَ هذا من مزاميرِ آلِ داود».

ورأى الهيثم الفارسي<sup>(٢)</sup> رسولَ الله ﷺ في منامه، فقال له: أنت الهيثم الذي تُزَيِّنُ القرآن بصوتك؟ فقال: نعم. فقال: جزاك اللهُ خيراً<sup>(٣)</sup>.

(١) أي: عندما سأله النبي ﷺ: «لم تجهرُ بقراءتك؟» فقال: أفرغُ الشيطان، وأوقظُ الوَسنان. يعني النَّائم. والحديث أخرجه أحمد (٨٦٥) من حديث علي، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٦١٢)، والطبري في التفسير ١٨٦/١٥ عن محمد بن سيرين.

(٢) في الأصل: «القاري».

(٣) أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٢١٤/١٢، والقرطبي في التفسير ٣٢٠/١٤.

وهذا التّزيين إنّما هو تعاطي التجويد والتّحزين، فأما القراءة بالألحان فقد كرهها السّلف ولو رأوا ما قد أحدثوا فيها اليوم لقربوها إلى التحريم<sup>(١)</sup>.

(١) ذكر العلامة ابن حجر في فتح الباري ٧٢/٩ الاختلاف في القراءة بالألحان، ثم قال: «والذي يتحصل من الأدلة أن حُسن الصوت بالقرآن مطلوب، فإن لم يكن حسناً فليُحسّنه ما استطاع، ومن جملة تحسينه أن يُراعي فيه قوانين النغم، فإن حسن الصوت يزداد حسناً بذلك، وإن خرج عنها أثر ذلك في حُسنه، وغير الحُسن ربما أنجبر بمراعاتها ما لم يخرج عن شرط الأداء المعتبر عند أهل القراءات، فإن خرج عنها لم يفّ تحسين الصوت بقبح الأداء، ولعل هذا مُستند من كره القراءة بالأنغام؛ لأن الغالب على مَنْ راعى الأنغام أن لا يُراعي الأداء، فإن وُجد من يُراعيهما معاً، فلا شك في أنه أرجح من غيره، لأنه يأتي بالمطلوب من تحسين الصوت ويجتنب الممنوع من حُرمة الأداء».

## الباب الثالث

### في أعمال الباطن في التلاوة

وهي عشرة:

فَهُمْ أصل الكلام، ثم التَّعْظِيم، ثم حضور القلب، ثم التدبر، ثم التَّفْهَم، ثم التَّخْلِي من مَوَانع الفَهِم، ثم التَّخْصُّص، ثم التأثر، ثم التَّرقِي، ثم التَّبْرِي.

الأول: فَهُم عظمة الكلام وعلوه، فلينظر كيف لطف الله سبحانه بخلقه في إيصال معاني كلامه إلى أفهامهم.

الثاني: التعظيم للمتكلم، وأن يعلم التالي أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر وكما أن ظاهر الجلد والورق محروس عن بشرة اللامس إلا إذا كان مُتَطَهراً، فباطن معناه أيضاً محجوبٌ عن باطن القلب إلا إذا كان مُتَطَهراً عن كل رجس، مستنيراً بنور التَّعْظِيم والتوقير، وكما لا يصلح لِمُسُه لكل يد لا يصلح لنيل معانيه كل قلب، ولهذا التعظيم كان عكرمة بن أبي جهل إذا نشر المصحف قال: كلام ربي، كلام ربي. فتعظيم الكلام بتعظيم المتكلم، ولن يُحْضِر التالي عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وأفعاله، فإذا نظر إلى المخلوقات فرآها في قبضة قدرته بانت له العظمة.

الثالث: حضور القلب، وترك حديث النفس، فقد قيل لبعضهم: إذا قرأت القرآن تُحدِّث نفسك بشيء؟ فقال: أو شيء أحب إلي من القرآن أحدث به نفسي؟! وهذا إنما ينشأ من التعظيم والأنس، وفي القرآن ما يستأنس به القلب، فكيف يُطلب الأنس بالفكر في غيره.

الرابع: التدبر، وهو وراء حضور القلب، والمقصود من القراءة التدبر، قال علي رضي الله عنه: لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا قراءة لا تدبر فيها. وإذا لم

يمكن التدبّر إلا بترديد الآية فليردّها، وقد روى أبو ذرّ عن النبي ﷺ أنه قام ليلةً بآيةٍ يُردّها: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ﴾ الآية [المائدة: ١١٨]، وقام تميم الداري بآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا<sup>(١)</sup> أَلْسِنَاتٍ﴾ [الجاثية: ٢١]، وكذلك قام بها الربيع بن خُثيم ليلةً.

وقال أبو سليمان الداراني: إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليالٍ وخمس ليالٍ، ولولا أنني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها.

وقد بقي بعض السلف سنين كثيرة في ختمه فما أتمّها.

الخامس: التفهّم، وهو أن يستوضح من كلّ آية ما يليق بها، مثل أن تأتي صفات الله عز وجل في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، أو ذكر أفعاله في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٩] فليفهم التالي عظّمته وليلتمّح قدرته، ومن لا يراه في كلّ ما يراه فكأنّه ما عرفه، وإذا تلا: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨] تفكّر في نطفةٍ متشابهة الأجزاء كيف تنقسم إلى لحمٍ وعزقٍ وعظمٍ وعصب، وإلى تشكل أعضائها بأشكالٍ مختلفة من رأسٍ ويدٍ ورجلٍ، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة، كالسمع والبصر والعقل، وإلى الصفات المذمومة كالعصب والشهوة والجهل، فتأمل هذه العجائب تترقى بها إلى معرفة الصفة التي صدرت عنها فترى الصانع في الصنعة.

وإذا تلا أحوال المكذّبين فليستشعر الخوف من السطوة إن غفل عن امثال الأمر، ومتى لم يفهم ما يتلو فكأنّه ما تلا.

السادس: التخلي من موانع الفهم، وموانع الفهم حُجُبٌ أربعة:

أولها: أن يُخيل الشيطان إلى التالي أنّه ما حقّق تلاوة الحرف ولا أخرجه من مخرجه، فيكرّره التالي، فينصرف الهمُّ إلى ذلك عن فهم المعنى.

وثانيها: أن يكون التالي مُقلِّداً في مذهبه، فيتوهم عند قراءة الآية ما يعتقد

(١) في (ظ): «يعملون» وهو خطأ.

بتقليده مثل أن يتلو: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وهو يعتقد أن الاستواء القعود<sup>(١)</sup>، فلو خطر له ما يوجب التّقدّيس عن ما يليق بالخلق ردّه الشيطان، وقال: ليس هذا معتقدك. فوقوفه على ذلك مانع له من الفهم.

وثالثها: أن يكون مُصرّاً على ذنب، أو متّصفاً بكبرٍ، أو مُبتلى في الجملة بهوىّ مطاع، فإنّ ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، فهو كالحَبثِ<sup>(٢)</sup> على المرأة يمنع أن يتجلى فيه الحقّ، فالقلب مثل المرأة، والشهوات مثل الصّدأ، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرأة، والرياضة للقلب بإمّاطة<sup>(٣)</sup> الشهوات مثل صَفْلِ الجلاء<sup>(٤)</sup> للمرأة.

ورابعها: أن يكون قد سمع في الآية تفسيراً فجَمَدَ عليه، ولم يعلم أن فهم الآية لا يُنافي تفسير لفظها.

السابع: التخصّص، وهو أن يعلم أنّه المقصود بكلّ خطابٍ في القرآن، وبكلّ وعدٍ ووعيدٍ، وأنّ القصص لم يُردّ بها السّمَر بل العِبر، فليتنبّه لذلك، فحينئذ يتلو تلاوة عبدٍ قد كاتبه سيده بمقصودٍ ليتأمل الكتاب ويعلم بمقتضاه.

الثامن: التأثر، وهو أن يتأثر قلبه بمؤثّراتٍ مختلفة على حسب اختلاف<sup>(٥)</sup> الآيات من حزن وخوف ورجاء وغير ذلك، ومتى تمّت معرفته كانت الخشية أغلب على قلبه، لأنّ التضييق غالبٌ على آيات القرآن ولا تكاد ترى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقروناً بشرطٍ كقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، ومن فهم ذلك

(١) قال العلامة ابن أبي العز الدمشقي في شرح العقيدة الطحاوية ٣٧٢ - ٣٧٣: قال الإمام مالك رحمه الله لما سُئل عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ كيف استوى فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول.

(٢) في النسخ: «كالجرب»، والمثبت من الإحياء، فهو الأنسب للمعنى.

(٣) في (ظ): «في مواطن».

(٤) الجلاء: هو الذي يجلو المرآة ويصقلها ويزيل صدأها.

(٥) سقطت من (ظ).

فجدير به الحُشية والحزن، وقال الحسن: والله ما أصبح اليومَ عبدٌ يتلو هذا القرآن يؤمن به إلا كثر حُزنه، وقلَّ فرحه، وكثُر بكاؤه، وقلَّ ضحكُه. وقال وهيبُ بن الورد: نظرنا في هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئاً أَرَدَ للقلوب ولا أشدَّ استجلاباً للحزن من قراءة القرآن وتفهُمه وتدبُّره.

فتأثر العبد بالتلاوة أن يتضاءل عند تلاوة ما يُخوف، وأن يفرح عند ذكر ما يُفرح، ومن هذا قول النبي ﷺ لابن مسعود: «اقرأ عليّ» فقرأ عليه من أول سورة النساء، فلما بلغ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، بكى وقال: «حسبك». وهذا لأن مشاهدة تلك الحال استغرقت قلبه.

وقد كان من الخائفين من يُغشى عليه عند آيات الوعيد، ومنهم من يموت، ومن تلا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ [المتحنة: ٤] ولم يكن متوكلاً ولا مُنبياً كان حاكياً، ولم يكن حظه من التلاوة إلا حركة لسانه، وكان داخلاً في معنى قوله: ﴿وَمَنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ [البقرة: ٧٨] وفي قوله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَاتٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، ومثال العصي إذا قرأ القرآن وكرَّره مثال من كرَّر كتاب المَلِكِ في كلِّ يوم مرَّاتٍ، وقد كتب إليه يأمره بعمارة مملكته، وهو مشغول بتخريبها ومقتصر على دراسة كتابه، فلو ترك الدراسة مع المخالفة كان أبعد من الاستهزاء واستحقاق المقت.

التاسع: الترقِّي، وهو أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله تعالى لا من نفسه، ودرجات القراءة<sup>(١)</sup> ثلاث:

أدناها: أن يُقدَّر العبدُ أنه بين يدي الله تعالى يقرأ عليه والله تعالى مُستمعٌ منه، فيكون حاله حينئذٍ التملُّق والتضرُّع والابتهاال.

الثانية: أن يُقدَّر كأنَّ ربَّه يُخاطبه ويُناجيه، فمقامه حينئذٍ الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم.

الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم، فيصير مستغرقاً بمشاهدته.

(١) تحرفت في (ظ) إلى: «القرآن».

العاشر: التَّبَرِّي، وهو أن يتبرأ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بعين الرضا والتزكية، فإذا تلا آيات الوعد والمدح للصالحين لم يشهد نفسه عند ذلك بل يشهد الموقنين ويتشوق إلى أن يلحقه الله تعالى بهم، وإذا تلا آيات المَمْتِ وذمّ العُصاة شَهِدَ نَفْسَهُ هُنَاكَ وَقَدَّرَ أَنَّهُ الْمُخَاطَبُ، ومن رأى نفسه بصورة التقصير كان ذلك سبب قُربِهِ، ومن غلب عليه الرَّجَاءُ انكشفت له ما يرجو. قال بعضُ السلف: صَلَّيْتُ رَكْعَةً الْوَتْرَ فَرُفِعَتْ لِي رَوْضَةٌ خَضْرَاءُ، فما زلت أنظر إليها حتى أصبحت. وكذلك إذا غلبَ الخوفُ. قال أبو سليمان: وَصَفْتُ لِأُخْتِي قَنْطَرَةً مِنْ قَنَاطِرِ جَهَنَّمَ، فمكثتُ في صَبِيحَةٍ يَوْمًا وَلَيْلَةً. قيل له: ما الذي أوجبَ صياحها؟ قال: مَثَّلْتُ نَفْسَهَا عَلَيْهَا.

## الباب الرابع

### في فهم القرآن وتفسيره بالرأي

أما تفسير الألفاظ فمُسَلَّم إلى أهل اللُّغة، وإنَّما يُذمُّ الكلام فيه بالرأي إذا لم يستند الرأي إلى أصلٍ صحيح، فأما ما يُفهم من الآيات فلا يناقض تفسير الألفاظ، وإنَّما يُدرك كلَّ شخصٍ منه بقدر قُوَّة فهمه وصفاء قلبه.

آخر كتاب آداب التلاوة.





## كتاب الأذكار والدعوات

الحمد لله مُبلِّغ المؤمنين له غايةً مطلوبهم، ومُجيب دعاء المضطرين بكشف كروبهم، وذاكرِ الذاكرين بإصلاح قلوبهم، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، أحمده على إنعام أعطاني ضاقت بشكره أعطاني، وما أحقني بشكر ما أولاني وأولاني، وكيف لا والفضل الرباني رباني على أنه قد أطمع في كرمه القاصي والداني، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وأصلي على رسوله محمدٍ صاحب السبع المثاني، وعلى جميع أصحابه وأتباعه إلى يوم إعادة المباني، وأسلم<sup>(١)</sup> تسليماً كثيراً.

أما بعد، فإنه ليس بعد تلاوة القرآن عبادة تُؤدَّى باللسان أفضل من ذكر الله تعالى ورفع الحوائج بالأدعية الخالصة إليه، ولا بدّ من شرح فضيلة الذكر على الجملة ثم على التفصيل في أعيان الأذكار، وشرح فضيلة الدعاء وشروطه وآدابه، ونقل المأثور من الدعوات الجامعة لمقاصد الدين والدنيا، والدعوات الخاصة لسؤال المغفرة، وغير ذلك، ويتحرّر المقصود من ذلك بذكر أربعة أبواب:

الباب الأول: في فضيلة الذكر وفائدته جملةً وتفصيلاً.

الباب الثاني: في فضيلة الدعاء، والاستغفار، والصلاة على رسول الله ﷺ.

الباب الثالث: في أدعية مأثورة عن النبي ﷺ وأصحابه ومن بعدهم.

الباب الرابع: في الأدعية المأثورة عند حدوث الحوادث.

(١) في (ظ): «وسلم».

## الباب الأول

### في فضيلة الذكر على الجملة والتفصيل من الآيات والأخبار والآثار<sup>(١)</sup>

قد دلّ على فضيلة الذكر في الجملة من الآيات قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. قال ثابت البناني: إنني لأعلم متى يذكرني ربي. ففزعوا وقالوا: كيف تعلم ذلك؟! قال: إذا ذكرته ذكرني، وقال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، أي أن ذكر ربكم لكم<sup>(٢)</sup> أكبر من ذكركم إياه. وقد أمر بالذكر فقال: ﴿أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وقال: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، ومدح الذاكرين فقال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال: ﴿وَالَّذِكْرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذِّكْرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وأما الأخبار؛ ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هم خير منهم، وإن اقترب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً، وإن تقرّب إليّ ذراعاً اقتربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «سبعة يُظلمهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه - فذكر منهم - رجلاً ذكر الله خالياً ففاضت عيناه». وفي أفراد البخاري من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل الذي يذكر ربّه والذي لا يذكر ربّه، مثل الحيّ والميت». وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة

(١) ليست في الأصل.

(٢) في الأصل: «أن ذكره لكم».

قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة، فمرَّ على جبل يُقال له: جُمدان<sup>(١)</sup> فقال: «سيروا هذا جُمدان، سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ» قالوا: وما المُفْرَدُونَ يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات». وفي حديث عبد الله بن بُسر<sup>(٢)</sup> أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ، فمُرني بأمرٍ أتشبَّث به. فقال: «لا يزال لسانك رطباً بذكرِ الله عزَّ وجلَّ». وفي حديث أنسٍ عن النبي ﷺ قال: «يقولُ الله عزَّ وجلَّ: أخرجوا من النار من ذكرني يوماً أو خافني في مقام». وفي حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله عزَّ وجلَّ يقول: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفّته». قال أبو الدرداء: وقال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير من إعطاء الذهب والورق، وأن تلقوا عدوكم فتضربون أعناقهم ويضربون أعناقكم؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى».

### فضيلة مجالس الذكر

أخبرنا عبد الأوّل قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابنُ أعين قال: حدثنا الفِرْبَرِيُّ قال: حدثنا البُخاري قال: حدثنا قُتَيْبَةُ قال: حدثنا جَرِيرٌ عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله ملائكةً يطوفون في الطرق، يلتمسون أهلَ الذِّكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تَنادوا: هَلُمُّوا إلَى حاجتكم. قال: فيَحْفَوْنَهُمْ بأجنتهم إلى السماء الدنيا. قال: فَيَسْأَلُهُمْ رَبَّهُمْ، وهو أعلمُ منهم: ما يقولُ عبادي؟ قالوا: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَ وَيُحْمَدُونَكَ وَيُمجِّدُونَكَ قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك. قال: فيقول: فكيف لو رأوني؟ قال: فيقولون: لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادةً، وأشدَّ لك عبادةً، وأشدَّ لك تمجيداً، وأكثر لك تسييحاً. قال: فيقول: ما يسألون؟ قال: يسألونك الجنَّة. قال: يقول: هل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو رأوها؟

(١) جُمدان: جبل في طريق مكة يبعد عنها شمالها نحو مئة كيلو متراً للمتنجه إلى المدينة.

(٢) تحرفت في (ظ) إلى: «بشران».

قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حرصاً، وأشدَّ لها طلباً، وأعظم فيها رغبةً. قال: فمِمَّ يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله ما رأوها. قال: فيقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشدَّ منه فراراً، وأشدَّ لها مخافةً. قال: فيقول: فأشهدكم أنني قد غفرتُ لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلانٌ ليس منهم إنما جاء لحاجةٍ. قال: هم الجلساء لا يَشقى جلسهم». أخرجاه في الصحيحين.

أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: حدثنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدَّثني أبي قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا شعبة قال: سمعتُ أبا إسحاق يحدث عن الأعرابي<sup>(١)</sup> مسلم أنه قال: أشهدُ على أبي هريرة وأبي سعيدٍ أنهما شهدا على النبي ﷺ أنه قال: «لا يقعد قومٌ يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وتنزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده».

قال أحمد<sup>(٢)</sup>: وحدثنا علي بن بحر قال: حدَّثني مرحومٌ بن عبد العزيز قال: حدَّثني أبو نعام السَّعدي عن أبي عُثمان النهدي عن أبي سعيد الخدري قال: خرج معاويةٌ على حلقةٍ في المسجد، فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله عزَّ وجلَّ. قال: الله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: الله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: أما إنني لم أستحلفكم تهمَةً لكم، وإن رسولَ الله ﷺ خرج على حلقةٍ من أصحابه فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكرُ الله عزَّ وجلَّ، ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومنَّ علينا بك. قال: الله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: الله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: أما إنني لم أستحلفكم تهمَةً لكم، فإنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عزَّ وجلَّ يباهي بكم الملائكة». انفرد بإخراج هذا والذي قبله مسلم.

قال أحمد: وحدثنا محمد بن بكر قال: حدثنا ميمون المرِّي قال: حدثنا

(١) تصحفت في الأصل إلى: «الأعرابي».

(٢) ليست في الأصل.

مَيْمُونُ بْنُ سِيَاهٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ قَوْمٍ اجْتَمَعُوا يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، لَا يَرِيدُونَ بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَهُ، إِلَّا نَادَاهُمْ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قَوْمُوا مَغْفُورًا لَكُمْ، قَدْ بُدِّلَتْ سَيِّئَاتِكُمْ حَسَنَاتٍ». قَالَ أَحْمَدُ: وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ يَعْنِي ابْنَ ثَابِتٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعَوْا» قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «حِلْقُ الذِّكْرِ».

وقال الحسن: قال داود عليه السلام: إلهي، إذا مررتُ على ملاءٍ يذكرونك فجاوزتهم، فاكسر الرجل التي تليهم.

### ذم المجلس الخالي عن الذكر

أخبرنا ابن الحُصَيْنِ قَالَ: أَنَا ابْنُ الْمُذْهَبِ قَالَ: أَنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا رُوحٌ قَالَ: حَدَّثَنَا حَمَّادٌ عَنْ سُهَيْلٍ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا فَتَفَرَّقُوا عَلَى غَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِلَّا تَفَرَّقُوا عَنْ مِثْلِ حَيْفَةِ حِمَارٍ، وَكَانَ ذَلِكَ الْمَجْلِسَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

أخبرنا مُحَمَّدُ بْنُ نَاصِرٍ قَالَ: أَخْبَرْنَا جَدِّي أَبُو حَكِيمٍ الْخُبْرِيُّ قَالَ: أَخْبَرْنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الْقَادِسِيُّ قَالَ: أَخْبَرْنَا أَبُو بَكْرٍ الْمَفِيدُ قَالَ: أَخْبَرْنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّقَطِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ قَالَ: أَخْبَرْنَا شُعْبَةَ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَجْلِسُ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا يُصَلُّونَ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ، وَإِنْ دَخَلُوا الْجَنَّةَ لَمَّا يَرُونَ مِنَ الثَّوَابِ».

### فضيلة التهليل

أخبرنا هِبَةُ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ: أَخْبَرْنَا أَبُو عَلِيٍّ التَّمِيمِيُّ قَالَ: أَخْبَرْنَا أَبُو بَكْرٍ ابْنَ جَعْفَرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ ابْنَ

عيسى قال: أخبرني مالك عن سُمَيِّ عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمَلِكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ<sup>(١)</sup> مِثَّةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدَلٌ عَشْرَ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِثَّةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيتَ عَنْهُ مِثَّةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزاً مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمَسِّي، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ. وَأَخْرَجَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - فَذَكَرَ الْكَلِمَاتِ - فِي يَوْمٍ عَشْرَ مَرَارٍ، كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَ رِقَابٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ». وَفِي حَدِيثٍ مُعَاذٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصاً دَخَلَ الْجَنَّةَ».

وقال نَوْفٌ: أَجِدُ فِي التَّوْرَةِ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ وَمَا فِيهِنَّ لَوْ كُنَّ طَبَقاً مِنْ حَدِيدٍ وَقَالَ عَبْدٌ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. لَحَرَقَتْهِنَّ حَتَّى يَصَلَ إِلَى اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ.

وقد سبق في ذكر الوضوء أنه: «من توضأ ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فتحت له أبواب الجنة الثمانية».

### فُضَيْلَةُ النَّسِيحِ وَالتَّحْمِيدِ وَبَقِيَّةُ الْأَذْكَارِ

أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثني أبي قال: حدثنا محمد بن فضيل عن عُمارة عن أبي زُرْعَةَ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ، وَفِيهِمَا مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ فِي يَوْمِهِ مِثَّةَ مَرَّةٍ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ».

(١) سقط من (ظ).

وفي أفراد مسلم من حديث أبي ذرّ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ألا أخبرك بأحبّ الكلام إلى الله عزّ وجلّ؟ سبحان الله وبحمده». وفي لفظ آخر من ألفاظ الصحيح قال: سئل رسول الله ﷺ: أيّ الكلام أفضل؟ فقال: «ما اضطنى الله»<sup>(١)</sup> لملائكته أو لعباده: سبحان الله وبحمده.

أخبرنا ابن الحُصَيْن قال: أخبرنا ابن المُذْهِب قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدّثني أبي قال: حدثنا رُوح قال: حدثنا شُعبَة عن محمّد بن عبد الرحمن قال: سمعتُ كُريّباً يحدث عن ابن عبّاس عن جُويرية بنت الحارث قالت: أتى عليّ رسولُ الله ﷺ غدوةً وأنا أُسبح، ثمّ انطلق لحاجته، ثمّ رجع قريباً من نصف النهار، فقال: «أما زلتِ قاعدة؟» قلتُ: نعم فقال: «ألا أعلمك كلماتٍ لو عدلنَ بهنَّ عدلنهنَّ، ولو وزننَ بهنَّ وزنهنَّ - يعني جميع ما سبّحت - سبحان الله عدّدَ خلقه ثلاث مرّاتٍ، سبحان الله زنة عرشه ثلاث مرّاتٍ»<sup>(٢)</sup>، سبحان الله رضا نفسه ثلاث مرّاتٍ، سبحان الله مدادَ كلماته ثلاث مرّاتٍ.

قال أحمد: وحدّثنا عبد الله بن نُمير قال: حدثنا موسى - يعني الجهني - عن مُصعب بن سعد قال: حدّثني أبي قال: كنّا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: أيعجز أحدكم أن يكسب كلَّ يوم ألف حسنة؟ فسأله سائلٌ من جلسائه: يا نبيّ الله، كيف يكسب أحدنا ألف حسنة؟ قال: «يسبّح مئة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة، أو يحطّ عنه ألف خطيئة». انفرد بإخراجه وإخراج الذي قبله مُسلم، وكذا في صحيحه: «أو يحطّ»، وقد رواه شُعبَة وأبو عوانة ويحيى بن سعيد القطان كلّهم عن موسى فقالوا: «ويحطّ» بغير ألف.

أخبرنا عبد الأوّل قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أعين قال: حدثنا الفِرْبُرِي قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا عبد الله بن مسleme عن مالك عن نعيم بن عبد الله المُجَمِر عن عليّ بن يحيى الزُرقي عن أبيه عن رفاعة بن رافع الزُرقي قال:

(١) ليست في (ظ).

(٢) ليست في الأصل.

كُنَّا نُصَلِّي يَوْمًا وِراءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكْعَةِ وَقَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ»، قَالَ رَجُلٌ وِراءَهُ: رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مَبْرُوكًا فِيهِ. فَلَمَّا انصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ المَتَكَلِّمُ آفَافًا؟» قَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ رَأَيْتُ بَضْعَةً وَثَلَاثِينَ مَلَكًا يَتَدَرُونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوْلًا» انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ البُخَارِيُّ.

وفي حديث أنس بن مالك قال: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا فِي الحَلْقَةِ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ فَسَلَّمَ، فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مَبْرُوكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبَّنَا أَنْ يُحَمِدَ وَيَنْبَغِي لَهُ. فَقَالَ لَهُ <sup>(١)</sup> النَّبِيُّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ ابْتَدَرَهَا عَشْرَةُ أَمْلاِكٍ كُلَّهُ حَرِيصٌ عَلَيَّ أَنْ يَكْتُبَهَا، فَمَا دَرَوْا كَيْفَ يَكْتُبُونَهَا حَتَّى رَفَعُوها إِلَى ذِي العِزَّةِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ: اكْتُبُوهَا كَمَا قَالَ عِبْدِي».

وفي أفراد مسلم من حديث ابن عمر قال: بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ قَالَ رَجُلٌ فِي القَوْمِ: اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللَّهِ بَكْرَةً وَأَصِيلًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ المَقَاتِلُ كَذَا وَكَذَا؟» قَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «عَجِبْتُ لَهَا فُتِحَتْ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ».

وفي أفراد من حديث أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ المِيزَانَ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُنَّ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ». وفي أفراد من حديث سُمْرَةَ بن جندب عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَحَبُّ الكَلَامِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ» وفي أفراد من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لأن أَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ». وفي أفراد من حديث أبي ذرٍّ عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ».

وفي حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «ما عَلَى الأَرْضِ رَجُلٌ

يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إلا كُفِّرَتْ عنه ذُنُوبه ولو كانت أكثر من زَبَدِ البحر».

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى أن النبي ﷺ قال له<sup>(١)</sup>: «ألا أعلمك كلمةً من كُنُوزِ الجنة: لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله».

### تَسْبِيحَاتُ سُلَيْمَانَ التَّيْمِيِّ (٢)

أخبرنا إسماعيل بن أحمد السمرقندي قال: أخبرنا محمد بن هبة الله الطبري قال: أخبرنا ابن بشار قال: أخبرنا ابن صفوان قال: حدثنا أبو بكر عبد الله بن محمد القرشي قال: حدثنا محمد بن الحسين قال: حدثني الفضيل بن عبد الوهاب قال: حدثني أبو عمر الخطابي عن المعتمر بن سليمان قال: كان أبي يحدث بخمسة أحاديث ثم يقول: أمهلوا، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، عدد ما خلق، وعدد ما هو خالق، وزنة ما خلق وزنة ما هو خالق<sup>(٣)</sup> ملء ما خلق وملء ما هو خالق<sup>(٣)</sup>، وملء سمواته، وملء أرضه، ومثل ذلك، وأضعاف ذلك، وعدد خلقه، وزنة عرشه، ومنتهى رحمته، ومداد كلماته، ومبلغ رضاه، وحتى يرضى، وإذا رضي، وعدد ما ذكره به خلقه في جميع ما مضى، وعدد ما هم ذاكروه فيما بقي في كل سنة وشهر وجمعة ويوم وليلة وساعة من الساعات، ونسيم ونفسي، من أبد إلى أبد، أبد الدنيا وأبد الآخرة، وأكثر<sup>(٤)</sup> من ذلك، لا ينقطع أوله ولا ينقذ آخره.

قال محمد بن الحسين: وحدثني بعض البصريين أن يونس بن عبيد رأى رجلاً - كان قد أصيب ببلاد الروم - فيما يرى النائم، فقال: ما أفضل ما رأيت ثم من الأعمال؟ قال: رأيت تسبيحات أبي المعتمر من الله بمكان.

(١) ليست في الأصل.

(٢) هو سليمان بن طرخان أبو المعتمر التيمي البصري المتعبد المتزهّد، توفي بالبصرة سنة

١٤٣ هـ. حلية الأولياء ٢٧/٣ وسير أعلام النبلاء ١٩٥/٦.

(٣-٣) سقط من الأصل.

(٤) في النسخ: «وأمر» والمثبت من الإحياء.

وقال المُعتمر بن سليمان: رأيتُ عبد الملك بن خالد بعد موته، فقلت: ما صنعتَ؟ قال: خيراً. قلت: ترجو للخاطئ شيئاً؟ قال: يلتمس تسيّحات أبي المعتمر، نعم الشيء.

فإن قال قائل: كيف فضّل الذكر مع خِفّته على اللسان على كثيرٍ من الأعمال الشاقّة؟ فالجواب: أنّ الذكرَ الفاضلَ ما حضرَ فيه القلبُ، وحضورُ القلبِ مع الله سبحانه مقدّمٌ على العباداتِ العمليّة؛ لأنّه يرقى إلى الأُنس والحبِّ، ومن داومَ على الذكرِ صرّفتْ مُداومتهُ الوسوسَ القاطعة، وانغرسَ في قلبه حُبُّ المذكور.

## الباب الثاني

### في فضيلة الدعاء وآدابه وفي فضل بعض الأدعية المأثورة

فضيلة الدعاء: قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَن عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وقد روى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «سَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ».

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الدُّعَاءِ، وَأَشْرَفُ الْعِبَادَةِ الدُّعَاءُ، وَمَنْ لَا يَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَغْضَبُ عَلَيْهِ».

آداب الدعاء: وهي أربعة عشر:

الأول: أن يتوَخَّى لدُعائه الأوقات الشريفة، كيوم عرفة من السنة، ورمضان من الشهور، والجمعة من الأسبوع، والسَّحَر من الليل، وقد رُوي في يوم الأربعاء بين الصلاتين فضيلة؛ فأخبرنا ابن الحُصَيْن قال: أخبرنا ابن المذهب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدَّثني أبي قال: حدثنا أبو عامر قال: حدثنا كثير بن زيد<sup>(١)</sup> قال: حدَّثني عبد الله بن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: حدَّثني جابر أن النبي ﷺ دعا في مسجد الفتح يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، فاستُجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين، فَعُرِفَ البِشْرُ فِي وَجْهِهِ،

(١) تحرف في الأصل إلى: «يزيد».

قال جابر: فلم ينزل بي (أمر مهم<sup>(١)</sup>) غائظ<sup>(٢)</sup> إلا توخّيت تلك الساعة، فأدعو فيها فأعرفُ الإجابة.

الثاني: أن يترصد الأحوال الشريفة مثل ما بين الأذان والإقامة، وقد روى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة». ومن الأوقات الشريفة عقيب الصلوات، وعند نزول الغيث، وعند القتال في سبيل الله عزّ وجلّ، وعند ختم القرآن، وفي السجود، وعند الإفطار، وعند حضور القلب ووجله؛ قال شهر بن حوشب: قالت أم الدرداء: إنما الوجل في قلب ابن آدم كاحتراق السعفة، أما تجد لها فُشعيرة؟ قلت: بلى. قالت: فادعُ إذا وجدت ذلك، فإن الدعاء يُستجاب عند ذلك.

وعلى الحقيقة فإن شرف الأوقات يرجع إلى شرف الحالات أيضاً، فإن وقت السحر وقت صفاء القلب وفراغه، وحالة السجود حالة الذلّ.

الثالث: أن يدعو مُستقبل القبلة، ويرفع يديه. ففي حديث جابر أن النبي ﷺ أتى الموقف، واستقبل القبلة، ولم يزل يدعو.

وفي حديث سلمان عن النبي ﷺ أنه قال: «إن ربكم حيّ كريمٌ يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً».

ثم ينبغي أن يمسحَ بهما وجهه في آخر الدعاء، وقد جاء في حديث عمر عن النبي ﷺ أنه كان إذا مدّ يديه في الدعاء، لم يردهما حتى يمسحَ بهما وجهه.

الرابع: خفض الصوت: ففي الصحيحين من حديث أبي موسى قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي عَزَاةٍ، فَجَعَلْنَا لَا نَصْعَدُ شَرْفًا وَلَا نَهْبِطُ وادياً إِلَّا رَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا بِالتَّكْبِيرِ<sup>(٣)</sup>، قَالَ: فَدَنَا مِنَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ أَرْبَعُوا عَلَيَّ أَنْفُسَكُمْ، فَإِنَّكُمْ مَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنْقِي رَاحِلَتِهِ».

(١-١) سقط من (ظ).

(٢) في المسند: «غليظ».

(٣) ليست في (ظ).

الخامس: أن يبدأ بذكر الله عزَّ وجل قبل الدعاء، قالت أم سليم: يا رسول الله، علّمني كلماتٍ أدعو بهنَّ، قال: «تَسْبِحِينَ اللهَ عَشْرًا وَتَحْمَدِينَ عَشْرًا، وَتُكَبِّرِينَ عَشْرًا، ثُمَّ تَسْأَلِي حَاجَتَكَ، فَإِنَّهُ يَقُولُ: قَدْ فَعَلْتَ قَدْ فَعَلْتَ».

السادس: أن يُصَلِّيَ على رسول الله ﷺ قبل دُعائه، فقد روى الترمذي من حديث ابن مسعود قال: كُنْتُ أَصَلِّي، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَدَأْتُ بِالثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ الصَّلَاةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ دَعَوْتُ لِنَفْسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَلْ تُعْطَهُ، سَلْ تُعْطَهُ».

وروى الترمذي بإسناده عن عُمر بن الخطاب قال: الدُّعَاءُ مَوْقُوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، لَا يَصْعَدُ مِنْهُ شَيْءٌ حَتَّى تُصَلِّيَ عَلَى نَبِيِّكَ ﷺ.

<sup>(١)</sup> وقال أبو سليمان الداراني: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ حَاجَتَهُ، فَلْيَبْدَأْ بِالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَسْأَلْ حَاجَتَهُ<sup>(١)</sup>، ثُمَّ يَخْتِمُ بِالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُ الصَّلَاتَيْنِ، وَهُوَ أَكْرَمُ مَنْ أَنْ يَدَعَ مَا بَيْنَهُمَا.

السابع: أن لا يتكلف السَّجْعَ في الدعاء، فإنَّ التَّكْلُفَ لَا يَنَاسِبُ حَالَ الْمُتَضَرِّعِ، فِيهِ أَفْرَادُ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ لَهُ: انظُرِ السَّجْعَ مِنَ الدُّعَاءِ فَاجْتَنِبْهُ، فَإِنِّي عَهَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ لَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ،<sup>(٢)</sup> فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ جَاءَتْ أَدْعِيَةٌ مَسْجُوعَةٌ كَقَوْلِهِ: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ عَيْنٍ لَا تَدْمَعُ». فالجواب: أَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ غَيْرَ مُتَّكِلِفٍ، وَالْمَذْمُومُ التَّكْلُفُ<sup>(٢)</sup>.

الثامن: أن لا يتجاوز الداعي الدعوات المأثورة، إلا أن يكون عالماً بالصَّواب فيما يسأله، لئلا يسأل ما لا تقتضيه مصلحته، فما كلُّ أحدٍ يُحَسِّنُ أَنْ يَدْعُو.

التاسع: التضرُّع والخشوع والرَّهْبَةُ، فقد قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَا رَعْبًا وَرَهْبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: ٤٣].

(١-١) سقط من (ظ).

(٢-٢) سقط من (ظ).

العاشر: أن يجزَمَ الدعاء، ففي الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا دَعَى أَحَدُكُمْ فَلْيُعْزِمِ الدَّعَاءَ، وَلَا يَقُلْ: إِنْ شِئْتَ فَأَعْطِنِي، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا مُسْتَكْرَهَ لَهُ».

الحادي عشر: أن يوقنَ بالإجابة، ففي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «أَدْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ دَعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ».

الثاني عشر: أن يُلحَّ في الدَّعاء، فقد روت عائشة عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُلْحِفِينَ<sup>(١)</sup> فِي الدَّعَاءِ».

الثالث عشر: أن ينتظرَ الإجابة، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي».

الرابع عشر: وهو الأدبُ الباطن، وهو الأصلُ في الإجابة، والتوبة، وردُّ المظالم، ففي أفراد مُسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه ذكر «الرجلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، ثُمَّ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، مَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَعُذِي بِالْحَرَامِ، فَأَتَى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ».

وقال مالك بن دينار: أصابَ بني إسرائيلَ بلاءٌ، فخرجوا مخرجاً، فأوحى الله إلى نبيهم، أن أخبرهم: تخرجون إلى الصَّعيدِ بأبدانٍ نَجِسَةٍ، وترفعون إليَّ أكفأً قد سَفَكْتُمْ بِهَا الدَّمَاءَ، وملاتم بها بيوتكم من الحرام، الآن حين اشتدَّ غضبي عليكم فلن تزدادوا إلَّا بعداً.

### فضيلةُ الصلاةِ على رسولِ الله ﷺ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

(١) المُلْحِفِينَ: المُلْحِن، يقال: ألحفت في المسألة، إذا ألح بها.

وأخبرنا هبةُ الله بن محمّد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدّثني أبي قال: حدّثنا سليمان بن داود قال: أخبرنا إسماعيل قال: أخبرني العلاء عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً يُصَلِّيَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ عَشْرًا». انفرد بإخراجه مسلم.

وفي حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنّه قال: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وَحَطَّ عَنْهُ عَشْرَ خَطِيئَاتٍ».

أخبرنا الكروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر الغورجي قالا: أخبرنا الجراحى قال: حدّثنا المَحْبُوبِي قال: حدّثنا الترمذي قال: حدّثنا محمّد بن بشار قال: حدّثنا محمد بن خالد بن عثمة قال: حدّثني موسى بن يعقوب الرّمعي قال: حدّثني عبد الله بن كيسان أنّ عبد الله بن شداد أخبره عن عبد الله بن مسعود أنّ رسول الله ﷺ قال: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة». وفي حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنّه قال: «إنّ لله عزّ وجلّ ملائكة سيّاحين يبلّغوني من أمّتي السلام».

### فضيلة الاستغفار

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. قال ابن مسعود رضي الله عنه: في كتاب الله عزّ وجلّ آيتان ما أذنبَ عبدٌ فقرأهما، واستغفر الله إلا غفر له، هذه الآية قوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ الآية [النساء: ١١٠]، وقد قال عزّ وجلّ: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أن رجلاً أذنب ذنباً، فقال: إني أذنبت ذنباً فاغفره لي. فقال تعالى: عبدي عمل ذنباً، فعلم أنّ له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي. ثمّ عمل ذنباً آخر، فقال: ربّ إني عملت ذنباً، فاغفره. فقال عزّ وجلّ: علم عبدي أنّ له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به، قد

غفرتُ لعبدي. ثم عمل ذنباً آخر، فقال: ربّ إنني عملتُ ذنباً فاغفره. فقال عزّ وجلّ: علمَ عبدي أنّ له ربّاً يغفر الذنبَ ويأخذُ به، قد غفرتُ لعبدي. ثم عمل ذنباً آخر فقال: ربّ إنني عملتُ ذنباً، فاغفره لي. فقال عزّ وجلّ: علمَ عبدي أنّ له ربّاً يغفرُ الذنبَ ويأخذُ به، أشهدكم أنني قد غفرتُ لعبدي، فليعمل ما شاء».

أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا محمد بن أبي عدي قال: حدثنا حسين - يعني المعلم - عن عبد<sup>(١)</sup> الله بن بريدة عن بشير بن كعب عن شدّاد بن أوس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «سَيِّدُ الاستغفار: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبوءُ لَكَ بِذُنُوبِي فَاعْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. مَنْ قَالَهَا بَعْدَ مَا يُصْبِحُ مُوقِناً بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا بَعْدَ مَا يَمْسِي مُوقِناً بِهَا، فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». قال الإمام أحمد: وحدثنا يونس قال: حدثنا حمّاد - يعني ابن زيد - قال: حدثنا ثابت قال: حدثنا أبو بردة عن الأعرّ المزني قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ<sup>(٢)</sup> عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ».

قال أحمد: وحدثنا عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر عن جعفر الجزري عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو لم تُدْنَبوا لذهبَ اللهُ عزّ وجلّ بكم، ولجاءَ بقوم يُذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم» انفرد بهذا الحديث وبالحديث الذي قبله مسلم، وانفرد بالأوّل البخاري.

وفي حديث عليّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنّه قال: «يعجبُ الربُّ من عبده إذا قال: رَبِّ اغْفِرْ لِي، ويقول: علمَ عبدي أنّه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي».

(١) تحرف في (ظ) إلى: «عبيد».

(٢) ورد هنا في هامش (ظ) ما نصه: «غِينَ عَلَى قَلْبِهِ غَيْناً: تَغَشَّتْهُ الشَّهْوَةُ، أَوْ غُطِّي عَلَيْهِ وَأُلْبِسَ، أَوْ غُشِّي عَلَيْهِ».

وفي حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «قال إبليس لربه عز وجل: بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم. فقال له ربه عز وجل: فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني».

وقال لقمان لابنه: يا بني، عود لسانك: اللهم اغفر لي، فإن الله ساعات لا يرُدُّ فيهنَّ سائلاً.

## الباب الثالث

### فيه أدعية مأثورة عن رسول الله ﷺ

أخبرنا أبو القاسم الكاتب قال: أخبرنا أبو علي التيمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا ابن نمير عن هشام عن أبيه عن عائشة أنّ رسول الله ﷺ كان يدعو بهؤلاء الدعوات: «اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار، وعذاب النار، وفتنة القبر، وعذاب القبر، ومن شرّ فتنة الغنى، ومن فتنة الفقر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، اللهم اغسل خطاياي بماء الثلج والبرّد، ونقّ قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدّنس، وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهَرَمِ والمآثمِ والمَعْرَمِ». أخرجاه في الصحيحين.

وأخرجنا من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أنّه كان يدعو بهذا الدعاء: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطيئتي وعمدي، وكلّ ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدّمت، وما أخرت، وما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخّر، وأنت على كلّ شيء قدير». وأخرجنا من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنّه قال: «تعوّدوا بالله من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء».

وأخرجنا من حديث أنس قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار».

وفي أفراد مسلم من حديث زيد بن أرقم عن النبي ﷺ أنّه كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهَرَمِ وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكّاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ

بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها».

وفي أفراده من حديث علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قل اللهم إني أسألك الهدى والسداد، واذكر بالهدى هدايتك الطريق، وبالسداد سداد السهم».

وفي أفراده من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادةً لي في كل خير، واجعل الموت راحةً لي من كل شر».

وفي أفراده من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه: «اللهم إني أعودُ بك من شرِّ ما عملت وما لم أعمل».

وأنها سمعته يقول: «اللهم إني أعودُ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعودُ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

أخبرنا الكروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر الغورجي قالا: أخبرنا الجراحي قال: حدثنا المَجُوبِي قال: حدثنا الترمذي قال: حدثنا محمود بن غيلان قال: حدثنا أبو داود الحَفَرِي عن سُفيان الثوري عن عمرو بن مُرَّة عن عبد الله بن الحارث عن طَلِيق بن قَيْس عن ابن عَبَّاس قال: كان النبي ﷺ يدعو يقول: «رَبِّ أعني ولا تُعن عليَّ، وانصُرني ولا تُنصر عليَّ، وامكُر لي ولا تمكُر عليَّ، واهدني ويسر الهدى لي، وانصُرني على من بغى عليَّ، رب اجعلني لك شَكَاراً، لك ذَكَاراً، لك رهَاباً، لك مطوَاعاً، لك مُحِبّاً، إليك أوهاً مُنيباً، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، وسدد لساني، واهد قلبي، واسئل سَخِيمَةَ قلبي» قال الترمذي: هذا حديثٌ حسن صحيح.

أخبرنا ابن الحُصَيْن قال: أخبرنا ابن المُذَهَب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا رَوْح قال: حدثنا الأوزاعي عن حسان بن عطية عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا كنز

الناسُ الذهبُ والفضةُ، فاكثروا هؤلاء الكلمات: اللهمَّ إني أسألك الثباتَ في الأمر، والعزيمةَ على الرُّشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حُسنَ عبادتك، وأسألك قلباً سليماً ولساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذُ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب».

قال أحمد: وحدثنا عفان قال: حدثنا حماد قال: أخبرنا جُبَيْر بن حَبِيب عن أم كلثوم بنت أبي بكر عن عائشةَ أنَّ رسول الله ﷺ علَّمها هذا الدعاء: «اللهمَّ إني أسألك من الخير كُلِّه عاجِله وآجِله ما علمتُ منه وما لم أعلم، وأعوذُ بك من الشرِّ كله عاجِله وآجِله ما علمتُ منه وما لم أعلم، اللهمَّ إني أسألك من خير ما سألكَ عبدك ونبيك، وأعوذُ بك من شر ما عاذَ منه عبدك ونبيك، اللهمَّ إني أسألك الجنةَ وما قرَّب إليها من قولٍ أو عملٍ، وأعوذُ بك من النار وما قرَّب إليها من قولٍ أو عملٍ، وأسألك أن تجعلَ كلَّ قضاءٍ تقضيه لي خيراً».

قال أحمد: وحدثنا يحيى بن سَعِيد عن مالك بن (١) مَعُول قال: حدثنا عبد الله بن بُريدة عن أبيه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يقول: اللهمَّ إني أسألك بأنِّي أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصَّمَد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. فقال: «قد سألَ باسمِ الله الأعظم، الذي إذا سُئِلَ به أعطى، وإذا دُعِيَ به أجاب».

أخبرنا محمد بن ناصر قال: أخبرنا نصر بن أحمد قال: حدثنا ابن رزقويه قال: حدثنا عبد الله بن جعفر بن درستويه قال: حدثنا قاسم بن المغيرة قال: حدثنا عبد الصمد بن النعمان قال: حدثنا ياسين الزيات عن العلاء بن المسيب عن أبي داود عن البراء عن النبي ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبدٍ خيراً علَّمه هؤلاء الكلمات، ثم لم ينسهن: اللهمَّ إني ضعيفٌ فقوِّ في رضاك ضعفي، وخُذ إلي الخير بناصيتي، واجعل الإسلامَ مُنتهى رِضاي، اللهمَّ إني ضعيفٌ فقوِّني، وإني ذليلٌ فأعزِّني، وإني فقيرٌ فأغني».

(١) تحرفت في الأصل إلى: «عن».

أخبرنا ابن الحُصين قال: أخبرنا ابن المُذَهَب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال حدثنا وكيع قال: حدثني عكرمة ابن عمّار عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك قال: جاءت أمّ سليم إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، علّمني كلماتٍ أدعو بهنّ. قال: «تُسبِّحِينَ اللهَ عَشْرًا، وتُحَمِّدِينَ عَشْرًا، وتُكَبِّرِينَ عَشْرًا، ثمّ تسألِي حاجتَكَ، فإنّه يقول: قد فعلتُ قد فعلتُ».

## الباب الرابع

### في الأدعية المأثورة عند الحوادث

قد سبق ذكرُ الدعاء عند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وما يقال عقب الوضوء.

فإذا خرجت إلى المسجد، فقل: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبممشايَ هذا إليك أي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سُمعةً، خرجتُ اتقاء سَخَطِكَ وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تُجيرني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

فإذا دخلت المسجد، فقد روى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك».

فإذا فرغت من الصلاة، ففي الصحيحين من حديث المغيرة عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دُبر كل صلاة: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا مُعطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد».

وفي أفراد مسلم من حديث ابن الزبير عن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا سلّم في دُبر كل صلاة<sup>(١)</sup>: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا نعبد إلا إياه، أهل النعمة والفضل والثناء الحسن، لا إله إلا الله، مُخلصين له الدين ولو كره الكافرون».

وفي أفراد من حديث ثوبان قال: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن ينصرف من

(١) في الأصل: «دبر الصلاة».

صلاته استغفر ثلاث مرات، ثم قال: «أنت السَّلام، ومنك السَّلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام».

وفي أفرادهِ من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سبح الله عزَّ وجلَّ ذُبِرَ كلَّ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثين، وحمدَ ثلاثاً وثلاثين، وكبَّرَ ثلاثاً وثلاثين، وقال تمام المئة: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلِّ شيءٍ قدير. غُفِرَ له خطاياهُ، وإن كانت مثل زبد البحر».

وفي أفرادهِ من حديث كعب بن عُجرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مُعَقَّبَاتٌ<sup>(١)</sup> لا يخبِئ قائلهنَّ أو فاعلهنَّ ذُبِرَ كلُّ صلاةٍ مكتوبة؛ ثلاثاً وثلاثين تسيحة، وثلاثاً وثلاثين تحميدة، وأربعاً وثلاثين تكبيرة».

فإذا قمتَ من مجلسٍ، فقل ما روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من جلس في مجلسٍ فكثُرَ فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. إلا غُفِرَ له ما كان في مجلسه ذلك». رواه الترمذي وصحَّحه.

فإذا دخلتَ السوقَ، ففي حديث بُريدة عن النبي ﷺ أنه كان إذا دخل السوق قال: «اللهم إني أسالك خير هذا السوق وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرِّها وشرِّ ما فيها، اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها يميناً فاجرةً، أو صفقة خاسرة».

وفي حديث عمر بن الخطَّاب عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ دخل السوقَ، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حيٌّ لا يموت، بيده الخير، وهو على كلِّ شيءٍ قدير، كَتَبَ اللهُ<sup>(٢)</sup> له ألف ألف حسنة، ومَحَا عنه ألف ألف سيئة، ورفَع له ألف درجة».

فإذا لبستَ ثوباً جديداً، فقد أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المُذهب قال: أخبرنا أبو بكر بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدَّثني أبي

(١) مُعَقَّبَات: أي تسيحات تُفعل أعقاب الصلوات، أو لأنها تُفعل مرةً عقِبَ أخرى.

(٢) ليست في (ظ).

قال: حدثنا خلف بن الوليد قال: حدثنا ابن المبارك عن سعيد الجُريري عن أبي نصرَةَ عن أبي سعيد قال: كان رسول الله ﷺ إذا استجدَّ ثوباً - سمَّاه باسمه قميص أو عمامة - يلبسه ثم يقول: «اللهم لك الحمد أنت كَسَوْتَنِيه، أسألك من خيره وخير ما صنع له، وأعوذُ بك من شرِّه وشرِّ ما صنعَ له».

قال أحمد: وحدثنا يزيد بن هارون قال: حدثنا أصبغ عن أبي العلاء الشامي قال: لبس أبو أمانة ثوباً جديداً، فلما بلغ تَرْقُوتَه قال: الحمدُ لله الذي كَساني ما أوارِي به عَوْرَتِي، وأتَجَمَّلُ به في حياتِي، ثم قال: سمعتُ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «فمن استجدَّ ثوباً فلبسه، فقال حين يبلغ تَرْقُوتَه: الحمدُ لله الذي كَساني ما أوارِي به عَوْرَتِي وأتَجَمَّلُ به في حياتِي، ثم عمد إلى الثوب الذي أَخْلَقَ - أو قال: أَلْقَى - فتصدَّقَ به، كان في ذمَّةِ الله، وفي جوارِ الله، وفي كَنَفِ الله حياً وميتاً، حياً وميتاً، حياً وميتاً».

وإذا رأيتَ الهلالَ، فكبِّرْ ثلاثاً، وقل: اللهمَّ أهْلُهُ عَلَيْنَا بِالْأَمْنِ وَالْإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ، رَبِّي وَرَبِّكَ اللهُ.

وإذا هبَّتْ الرِّيحُ، ففي الصحيحين من حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفتْ الرِّيحُ قال: «اللهمَّ إِنِّي أسألكَ خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلتَ به، وأعوذُ بك من شرِّها، وشرِّ ما فيها، وشرِّ ما أرسلتَ به».

وإذا سمعتَ صوتَ الرَّعْدِ، فقد أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدَّثني أبي قال: حدثنا عَقَّان قال: حدثنا عبد الواحد بن زياد قال: حدثنا الحجاج قال: حدَّثني أبو مَطَر عن سالم عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمعَ الرَّعْدَ والصواعقَ قال: «اللهمَّ لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك».

فإذا غضبتَ، فقل: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم، وفي الصحيحين من حديث سليمان بن صُرْد قال: كنتُ جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يَسْتَبَّان، وأحدهما قد احمرَّ وَجْههُ وانتفخت أوداجُهُ، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب

عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ذهب ما يجد».

فإذا سمعت أذان المغرب، فقل: اللهم إني أسألك عند استقبال ليلك، وإدبار نهارك، وحضور صلواتك، وأصوات دعائك أن تغفر لي.

فإذا أصابك كرب أو هم، ففي الصحيحين من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم<sup>(١)</sup>، لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم، لا إله إلا الله ربُّ السماوات وربُّ الأرض وربُّ العرش الكريم». وفي حديث علي رضي الله عنه قال: علّمني رسول الله ﷺ إذا نزل بي كرب أن أقول: «لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله، وتبارك الله ربُّ العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين».

أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا أبو علي التميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يزيد قال: أخبرنا فضيل بن مرزوق قال: حدثنا أبو سلمة الجهني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك أو علّمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي. إلا أذهب الله عزي وجل همّه وحزنه وأبدله مكانه فرحاً» قال: فقيل: يا رسول الله ألا تتعلمها؟ فقال: «بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها». وقال ابن مسعود: ما كُرب نبيّ إلا استغاثَ بالتسبيح.

وإذا وجدت وجعاً في جسدك أو في جسد غيرك، فاسترقِ برقية رسول الله ﷺ، ففي الصحيحين من حديث عائشة أنّ رسول الله ﷺ كان يُعوذُ بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول: «اللهم ربّ الناس أذهب البأس، اشفِ وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يُغادر سقماً».

(١) في (ظ): «الحكيم».

وفي لفظٍ متفق عليه قال: كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه، أو كانت قرحة أو جرح قال النبي ﷺ بإصبعه هكذا - يعني وضع سبَّابته بالأرض - ثم رفعها، فقال: «بسم الله، تُربةُ أرضنا، بريقةِ بعضنا، يُشفي بها سقيمنا، بإذن ربنا».

وفي أفراد مسلم من حديث عثمان بن أبي العاص أنه شكاً<sup>(١)</sup> إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: «ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي يَأَلَمُ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ، ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَاتٍ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ».

وفي أفراد من حديث أبي سعيد الخُدري أنّ جبريل أتى النبي ﷺ، فقال: يا مُحَمَّدُ أَشْتَكَيْتَ؟ فقال: «نعم». قال: «بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسدٍ اللهُ يُشفيك، بسم الله أرقيك».

وإذا أردت النوم، فتوضأ، واستقبل القبلة، واضطجع على يمينك، وضع يدك تحت خدك، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفسه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما حدث بعده، فإذا وضع جنبه فليقل: باسمك اللهم وَضَعْتُ جَنْبِي، وبك أرفعه، اللهم إن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

وفي الصحيحين من حديث عائشة أن النبي ﷺ كان إذا أتى على فراشه في كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما، وقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

وفي الصحيحين من حديث البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال له: «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيتك

(١) في (ظ): «اشتكى».

الذي أرسلت، فإن ميت من ليلتك، فأنت على الفطرة، واجعلهن آخر ما تتكلم به». قال البراء: فردتها على رسول الله ﷺ فلما بلغت: «أمنت بكتابك الذي أنزلت» قلت: ورسولك، قال: «لا، ونبئك الذي أرسلت».

وفي الصحيحين من حديث علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له ولفاطمة: «إذا أخذتما مضاجعكما، أو أويتما إلى فراشكما، فسبحا الله<sup>(١)</sup> ثلاثاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين، وكبيرا أربعاً وثلاثين، فهو خير لكما من خادم».

وفي أفراد البخاري من حديث حذيفة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه وضع يده تحت خده وقال: «اللهم باسمك أموت، وباسمك أحي».

وفي أفراد من حديث أبي هريرة أن شيطاناً قال له: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فأخبر رسول الله ﷺ فقال: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب».

وفي أفراد مسلم من حديث أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي».

فإذا استقيظت لقيام الليل، فادعُ بدعاء رسول الله ﷺ حينئذ؛ أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أعين قال: حدثنا الفربري قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا علي بن عبد الله قال: حدثنا سفيان قال: حدثنا سليمان عن طاوس سمع ابن عباس قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: «اللهم لك الحمد، أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، بديع السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت ملك السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق<sup>(٢)</sup>، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبون حق،

(١) ليست في (ظ).

(٢) في (ظ): «حق».

ومحمدٌ حق، والساعةُ حق، اللهم لك أسلمتُ، وبك آمنتُ وعليك توكلتُ، وإليك أنبْتُ، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ، فاغفر لي ما قدّمتُ وأخّرتُ، وما أسررتُ وأعلنتُ، أنتَ المقدم، وأنتَ المؤخر، لا إله إلا أنتَ، ولا إله غيرك». أخرجاه في الصحيحين .

فإذا استيقظت من نومك عند الصباح، ففي أفراد البخاري من حديث حذيفة أن النبي ﷺ كان إذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النُّشور» .

وفي أفراد مسلم من حديث ابن مسعود قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمسى قال: «أمسينا وأمسى الملكُ الله والحمد لله، لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، لهُ الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير، ربِّ أسألك خيراً ما في هذه الليلة، وخيراً ما بعدها، وأعوذُ بك من شرِّ ما في هذه الليلة، وشرِّ ما بعدها، ربِّ أعوذُ بك من الكسل، وسوء الكبر، ربِّ أعوذُ بك من عذابٍ في النار، وعذابٍ في القبر». وإذا أصبح قال ذلك أيضاً: «أصبحنا وأصبح الملك لله» .

وفي حديث عثمان بن عفان عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قال (١) في أوّل يومه، أو في أوّل ليلته: بسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم. لم يضره شيء في ذلك اليوم، أو في تلك الليلة» .

وفي حديث أبي أيوب الأنصاري عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قال (١) حين يُصبح: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير. عشر مرّات، كتب الله له بكلِّ واحدةٍ قالها عشر حسنات، وكنّ له كعشر رقاب، وكنّ له مَسْلحة (٢) من أوّل النهار إلى آخره، ولم يعمل يومئذ عملاً يقهرهن» .

وفي حديث أبي ذر عن النبي ﷺ: «مَنْ قال في دُبر صلاة الفجر، وهو ثاني رجله قبل أن يتكلّم: لا إله إلا الله، فذكر الكلمات عشر مرّات، كتبت له عشر

(١-١) ساقط من (ظ).

(٢) المَسْلحة: القوم المسلحون في ثغرٍ أو مَخْفَرٍ للمحافظة والمدافعة.

حسناً، ومُجِيٍّ عنه عشر سيئات، ورُفِعَ له عَشْرُ درجات، وكان يومه ذلك كله في حِرْزٍ من كلِّ مكروه، وحرَسٍ من الشَّيْطَانِ، ولم ينبغِ لذنبٍ أن يُدرِكَه في ذلك اليوم إلاَّ الشُّركَ بالله» رواه الترمذي وصحَّحه، وقد ذكرنا لهذه الكلمات ثواباً آخر في فضائل التهليل، وذكرنا في فضائل الاستغفار حديث شداد بن أوس، وثواب من قاله في الصباح والمساء.

أخبرنا ابن الحُصَيْن قال: أخبرنا ابن المُذْهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا ابن المُغْبِرَةِ قال: حدثنا أبو بكر قال: حدثني ضَمْرَةَ بن حبيب عن أبي الدرداء عن زيد بن ثابت أنَّ رسول الله ﷺ عَلَّمَهُ دُعَاءً، وأمره أن يتعاهد به أهله كلَّ يوم قال: «قُلْ حينُ تُصْبِحُ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ، لَبَّيْكَ وَسَعْدِيكَ، والخير في يَدَيْكَ، ومنك وبك وإليك، اللهم ما قلتُ من قولٍ أو نذرتُ من نذرٍ، أو حلفتُ من حلفٍ، فَمَشِيئَتِكَ بين يديه، ما شئتُ كان، وما لم تشأْ لم يكن، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بك، إنك على كلِّ شيءٍ قدير، اللهم وما صلَّيتُ من صلاةٍ فعلى من صلَّيتُ، وما لعنتُ من لعنةٍ فعلى من لعنتُ، إنَّكَ أنتَ وليِّي في الدنيا والآخرة، توقَّني مسلماً والحقني بالصالحين، أسألك اللهم الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الممات، ولذَّةَ نظرٍ إلى وجهك، وشوقٍ إلى لقائك من غير ضراءٍ مُضِرَّةٍ، ولا فتنَةٍ مُضِلَّةٍ، أعودُ بك من أن أظلمَ أو أُظلمَ، أو أعتدي أو يُعتدي عليَّ، أو أكتسبَ خطيئةً مُحِبِطَةً أو ذنباً لا يغفر، اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، ذا الجلال والإكرام، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا، وأشهدك وكفى بك شهيداً أني أشهد أن لا إله إلاَّ أنت، وحدك لا شريك لك، لك الملك، ولك الحمد، وأنت على كلِّ شيءٍ قدير، وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك، وأشهد أن وعدك حق، ولقاءك حق، والجنة حق، والساعة آتية لا ريب فيها، وأنت تبعث من في القبور، وأشهد أنك إن تكلمني إلى نفسي تكلمني إلى ضيعةٍ وعورةٍ، وذنبٍ وخطيئةٍ، وإني لا أثق إلاَّ برحمتك، فاغفر لي ذنبي كله، إنه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت، وتبَّ عليَّ إنك أنت التوابُّ الرحيم».

وفي حديث عبد الرحمن بن أبزى أنّ النبي ﷺ كان يقول إذا أصبح وإذا أمسى: «أصبحنا على فطرة الإسلام» أو «أمسينا على فطرة الإسلام، وعلى كلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد ﷺ، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين».

وفي حديث أبي موسى قال: كان النبي ﷺ إذا صَلَّى الصبح يرفع صوته حتى يُسمع أصحابه يقول: «اللهم أصلح لي ديني الذي جعلته لي عِصمةً - ثلاث مرّات - اللهم أصلح لي دُنياي التي جعلتَ فيها معاشي - ثلاث مرّات - اللهم إنّي أعودُ برضاك من سَخَطك، اللهم إنّي أعودُ بعَفْوِكَ من نِقَمَتِكَ، اللهم إنّي أعودُ بك منك - لا مانع لما أعطيتَ، ولا مُعطيَ لما مَنَعْتَ، ولا يَنفَعُ ذا الجَدِّ جَدَّهُ» مرّةً واحدةً.

وفي حديث مَعْقِل بن يَسَار عن النبي ﷺ أنّه قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللَّهِ، السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. ثُمَّ قَرَأَ الثَّلَاثَ آيَاتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْحَشْرِ، وَكَلَّمَ اللَّهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حِينَ يُنْمَسِي، وَإِنْ مَاتَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ كَانَ شَهِيداً، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُنْمَسِي كَانَ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ».

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا ابن النُّقُور قال: أخبرنا ابنُ حَبَابَةَ قال: حدثنا البَغُوي قال: حدثنا هُدْبَةَ بن خالد قال: حدثنا الأغلِب بن تميم قال: حدثنا الحجاج بن فَرَاصَةَ عن طَلِقٍ قال: جاء رجلٌ إلى أبي الدرداء فقال: يا أبا الدرداء، احترقَ بيْتُكَ. فقال: ما احترقَ. ثمَّ جاء رجلٌ آخر فقال: يا أبا الدرداء، احترقَ بيْتُكَ، قال: ما احترقَ. ثمَّ جاء رجلٌ آخر<sup>(١)</sup> فقال: يا أبا الدرداء<sup>(١)</sup> لما انتهت النار إلى بيتك طفئتُ. قال: قد علمتُ أنّ الله عزَّ وجلَّ لم يكن ليفعل. قالوا: يا أبا الدرداء، ما ندري أيّ كلامك أعجب، قولك: ما احترقَ أو قولك: قد علمتُ أنّ الله عزَّ وجلَّ لم يكن ليفعل؟! قال: ذلك لكلماتٍ سمعتهنَّ من رسول الله ﷺ مَنْ قَالَهَا أَوَّلَ النَّهَارِ لَمْ تُصِبْهُ مَصِيبَةٌ حَتَّى يُنْمَسِيَ، وَمَنْ قَالَهَا آخِرَ النَّهَارِ لَمْ تُصِبْهُ مَصِيبَةٌ حَتَّى يُصْبِحَ: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَرْشِ

الكريم، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً، اللهم إنني أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم».

فهذه أدعية لا يستغني المرید عن حفظها، وقد تنكبتنا<sup>(١)</sup> من جنسها ما لا يثبت، وأما ما يتعلق من الأدعية بأشياء سوى ما ذكرنا، كالوضوء والصلاة والسفر، فقد ذكرناه في مواضعه، فإن قال قائل: إذا كان القضاء لا يُردّ فما فائدة الدعاء؟ فالجواب: أن من القضاء ردّ البلاء بالدعاء، كما أن المَجْنّ سبب لردّ السهم، وليس من شرط الإقرار بالقضاء ترك حمل السلاح، كيف وقد قال تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]، فقد قدر المقدّر لكل مقدور سبباً، ثم إن الدعاء يستدعي حضور القلب، ويردّه إلى الله سبحانه بعد إعراضه عنه، ثم يستخرج من الباطن صدق اللجأ والذل، وذلك كله مقصود.

آخر كتاب الأذكار والدعوات.



(١) في (ظ): «تركنا».



## كتاب ترتيب الأوراد

### وتفصيل إحياء الليل

الحمد لله الذي حثَّ على خِدْمَتِهِ وَدَعَا، وأكرم من بادر إلى طَاعَتِهِ وَسَعَى، واختارَ للخُلُوةِ به من فهمَ عَنَهُ وَوَعَى، فخلع عليهم من حُلَلِ السَّهْرِ خِلْعًا، وسقاهم من كأسِ مَحَبَّتِهِ جُرْعًا، تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربَّهم خوفًا وطمعًا.

أحمدُه حَمْدَ من قَوِي تَقْوَى وَرَعَى وَرَعَا، وأصْلَى على رسوله مُحَمَّدٍ الذي علا على الأنبياء والملائكة معًا، وعلى من تَبِعَهُ عالمًا أو مُتَعَلِّمًا، أو مُحِبًّا أو مُسْتَمِعًا، وأسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فإنَّ الناس في هذه الدنيا سَفَرٌ، وأوَّل منازلهم المَهْدُ، وآخرها اللَّحْدُ، والوطن الجَنَّةُ أو النار، والعمر مسافَةٌ السَّفَرُ، فسينوهُ مراحلهُ، وشُهوره فَراسِخُهُ، وأيامه أُمياله، وأنفاسه خُطواته، وطاعته بِضاعته، وأوقاته رُؤوس أمواله، وشهواته قُطاع طريقه، وربُّهُ الفُوز بقاء الله في دار السَّلَام مع المُلْكِ الكَبِيرِ والنَّعِيمِ المَقِيمِ، وخُسرانه البُعد من الله مع العذاب الأليم في دَرَكَاتِ الجَحِيمِ والغافل عن نَفْسٍ من أنفاسه حتى يذهب في غير طاعةٍ تُقَرِّبه إلى الله مُتَعَرِّضٍ لِعَبِيئَةٍ<sup>(١)</sup> وَحَسْرَةٍ ما لها منتهى، ولهذا الخَطَرِ العَظِيمِ والخَطْبِ الجَسِيمِ، شَمَّرَ الموقِفون عن سوقِ الجَدِّ، وودَّعوا بالكلية مَلَاذَ النَّفْسِ، واغتَنموا لحظاتِ العَمرِ، ورَتَّبوا بحسبِ تَكَرُّرِ الأوقاتِ وظائفَ الأوراد طلبًا للتقرب إلى الله سُبْحانَهُ، وسعيًا إلى دارِ القَرارِ، فصار من

(١) العَبِيئَةُ: الخديعة، يقال: لحقته في تجارتها عبيئة.

مُهَمَّات علم طريق الآخرة تفصيل القول في كيفية قِسْمَة<sup>(١)</sup> الأوراد، وتوزيع العبادات على مَقَادِير الأوقات .

ويَتَّضِح هذا المهمُّ بذكر بايين، والله الموفِّق .

الباب الأوَّل: في فضيلة الأوراد، وترتيبها في الليل والنهار .

الباب الثاني: في كيفية إحياء الليل، وفَضِيلته وما يتعلَّق به .

(١) ليست في (ظ).

## الباب الأول

### في فضيلة الأوراد وترتيبها، وبيان أن المواظبة عليها هو الطريق إلى الله عز وجل

اعلم أنه إذا حصلت المعرفة لله سبحانه، والتَّصديقُ بوعده، والعلم بقصرِ العمر، وجب ترك التَّقصير في هذا العمر القصير، والنفس متى وقفت على فنٍّ واحدٍ ملَّتْ، فمن التَّلطف بها نقلها من فنٍّ إلى فنٍّ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٥٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإنسان: ٢٥ - ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِي اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٣٠﴾﴾ [طه: ١٣٠]، وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق: ٣٩ - ٤٠]، فهذه الآيات في نظائرها تدلُّك على أن الطريق إلى الله سبحانه مُراقبة الأوقات وعمارتها بالأوراد على الدوام، وقد قال النبي ﷺ: «أَحَبُّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ الَّذِينَ يُرَاعُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْأَظْلَةَ لِذِكْرِ اللَّهِ»، وقال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ حِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢] أي يَخْلُفُ أحدهما الآخر ليتدارك في أحدهما ما فات من الآخر.

### بيان عدد الأوراد وترتيبها

اعلم أن أوراد النهار سبعة، وأوراد الليل خمسة، فلنذكر فضيلة كلٍّ ورِدِّ، ووظيفته وما يتعلق به.

### أوراد النَّهار

الورد الأول: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وهو وقتٌ شريف، قد أقسم الله سبحانه به فقال: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا نَفَسَ ﴿١٨﴾﴾ [التكوير: ١٨]، وتمدَّح بإيجاده فقال: ﴿فَالْيَوْمِ الضُّبْحِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: ٩٦]، وأمر بالتسبيح فيه فقال: ﴿فَسُبِّحَنَّ اللَّهُ حِينَ تُسُوبُونَ﴾

وَجَيْنَ تَصْبِحُونَ» [الروم: ١٧]، وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ [طه: ١٣٠]، وقال: ﴿وَاذْكُرْ أَسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الإنسان: ٢٥].

وأما وظيفته؛ فينبغي للمريد إذا انتبه أن يذكر الله عزّ وجلّ، فيقول: الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور، إلى آخر ما قد سبق ذكره في دعاء الصُّبح من كتاب الأدعية، ثمّ يلبس ثوبه ناوياً بذلك ستر عَوْرته لامتثال أمر الله سبحانه، والاستعانة على عبادته من غير قصد رياءٍ ولا رُعونة، ثمّ يذهب إلى الخلاء إن احتاج، وقد ذكرنا آدابه في كتاب الطّهارة، ثمّ يتوضأ، وقد سبق ذكر الوُضوء، ثمّ يصلي سُنّة الصُّبح في منزله، ثمّ يخرج من البيت مُتوجّهاً إلى المسجد، وقد سبق ذكر<sup>(١)</sup> ما يدعو به في سعيه وليمش بالسكينة، ويُقدم رجله اليمنى في الدخول، وقد سبق ذكر ما يدعو به، ثمّ يطلب الصفّ الأول إن أمكنه ويجلس<sup>(٢)</sup> منتظراً للجماعة ذاكراً، وقد سبق من الأذكار والدعاء في أول النهار ما يكفي، فليأت بما أمكنه من ذلك، ثمّ يصلي الفريضة، وقد سبق ذكر آداب الصلاة، فإذا فرغ لم يبرح من مكانه حتى تطلع الشمس، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنّه قال: «إنّ أحدكم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثمّ دخل المسجد كان في صلاة ما كانت الصلاة تحبسه، والملائكة يصلّون على أحدهم ما دام في مجلسه الذي صلّى فيه، يقولون: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، اللهم تبّ عليه، ما لم يؤذ فيه ما لم يحدث فيه».

وفي أفراد مسلم من حديث جابر بن سمرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلّى العداة جلس في مُصلاه حتى تطلع الشمس حسناً.

وروى الترمذي من حديث أنس عن النبي ﷺ أنّه قال: «من صلّى الفجر في جماعة، ثمّ قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس، ثمّ صلّى ركعتين كانت له كأجر حجّة وعُمرة تامّة تامّة تامّة».

(١) ليست في الأصل.

(٢) سقطت من الأصل.

ولتكن وظائف وقته أربعاً: الدعاء، والذكر، والقراءة، والفكر، فليأت بما أمكنه<sup>(١)</sup> من الدعاء والذكر مما قد سبق ذكره، وليقرأ ما أمكنه<sup>(٢)</sup>.

وليتفكر في فئتين: أحدهما: تدبير دفع الصّوارف،<sup>(٣)</sup> وقطع القواطع<sup>(٤)</sup> الشاغلة له عن الخير، ليؤدّي وظائف يومه.

الثاني: نعم الله عليه ليتوخّى شكره.

الورد الثاني: ما بين طلوع الشمس إلى الضحى، وذلك بمضيّ ثلاث ساعات من النهار إذا فرض النهار اثنتي عشرة ساعة،<sup>(٥)</sup> وهو الربع<sup>(٦)</sup>، وهذا وقت شريف أقسم الله تعالى به فقال: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ [الضحى: ١ - ٢]، وقال: ﴿سَيِّحَنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص: ١٨]، وفي هذا الربع وظيفتان: إحداهما: صلاة الضحى، وقد سبق ذكرها، فإن صلّى منها ركعتين عند انبساط الشمس وارتفاعها، وترك البواقي إلى أن يشتدّ ارتفاع الشمس كان حسناً.

الوظيفة الثانية: ما يتعلّق بالناس من عيادة مريض، وتشيع جنازة، وحضور مجلس علم وقضاء حاجة مسلم، فإن لم يفعل شيئاً من ذلك تشاغل بالقراءة والذكر.

الورد الثالث: من وقت الضحى الأعلى إلى الزوال، والوظيفة في هذا الوقت الأقسام الأربعة وزيادة أمرين: أحدهما: الاشتغال بالكسب وتدبير المعاش، وحضور السوق، فإن كان تاجراً فليتجر بصدق وأمانة، وإن كان صاحب صناعة فينصح وشفقة، ولا ينسى ذكر الله تعالى في جميع أشغاله، وليقنع بالقليل توفيراً للزمان على العبادة.

والثاني: القيلولة، وهي مما يعين على قيام الليل كما يعين السحور على صيام النهار، فإن نام فليجتهد في الانتباه قبيل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة بالوضوء،

(١-١) سقط من الأصل.

(٢-٢) سقط من (ظ).

(٣-٣) سقط من (ظ).

وحضور المسجد قبل دخول الوقت، وإن لم يكسب ولم ينم اشتغل بالصلاة والذكر.

**الورد الرابع:** ما بين الزوال إلى الفراغ من صلاة الظهر، وهو أقصر أوراد النهار، وأفضلها، فإذا كان قد توضأ قبل الزوال وحضر المسجد، فإذا زالت الشمس وأذن المؤذن وأجاب المؤذن بمثل قوله، فليقم إلى التَّعبُد ما بين الأذنين، وليصل أربع ركعات، وقد ذكرناها في صلاة التطوع، وليطوّل فيها، فإن أبواب السماء تُفتح حينئذٍ، ثم يصلي الظهر، ثم يصلي سُنتها ركعتين، ثم يتطوّع بأربع.

**الورد الخامس:** ما بعد ذلك إلى العصر، وقد استحَبوا له العُكوف في المسجد شُغلاً بالذِّكر أو الصلاة أو فنون الخير، والذي أراه أن يصلي في بيته إذا لم يقدر على خلوة في المسجد، ففي الصحيحين من حديث زيد بن ثابت عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل صلاة الرجل في بيته إلا المكتوبة».

فإن كان قد نام قبل الزوال، فلا ينبغي أن ينام بعده.

واعلم أنّ اللّيل والنهار أربع وعشرون ساعةً، فالاعتدال في النوم أن يكون ثمان ساعات، وهو الثلث، فمن نام أقلّ من هذا لم يؤمن اضطرابُ بدنه، وغلبة اليُس عليه، ومن نام أكثر زاد كَسَلُهُ، فمن نام هذا المقدار في اللّيل، فلا وجه لنومه في النهار، بلى من نقص منه استوفى ما نقص بالنهار، وليعلم النائم ثمان ساعاتٍ أنّه قد مضى ثلث عمره غير أنّه لا بقاء للبدن إلا بالنوم، فإنّه كالقوت، وله فائدتان:

إحدهما: انعكاس الحرارة إلى الباطن، فينهضم الطّعام.

والثانية: استراحة الأعضاء التي قد كَلَّت بالأعمال.

**الورد السادس:** إذا دخل وقت العصر إلى أن تصفرّ الشمس، وليس في هذا الورد صلاةٌ سوى أربع ركعات بين الأذنين، ثم قرّض العصر، ثم يشاغل بالأقسام الأربعة التي سبق ذكرها في الورد الأول، والأفضل فيه تلاوة القرآن بالتدبّر والتّفهم، فيجمع ذلك الذِّكر والدُّعاء والفِكر.

الورد السابع: إذا اصفرَّت الشمس إلى أن تغرب، فهو وقت شريف، قال الحسن<sup>(١)</sup>: كانوا أشدَّ تعظيماً للعشي<sup>(٢)</sup> من أول النهار، فيستحبُّ في هذا الوقت التسبيح والاستغفار خاصةً، وقد ذكرنا ما يُدعى به ويُقال عند المساء، وبالغروب تنتهي أوراد النهار، فينبغي أن يُلاحظ العبد أحواله ويُحاسب نفسه، فقد انقضت من طريقه مرحلة، وليعلم أن العمر أيامٌ تنقضي جملتها بانقضاء أحاديها، قال الحسن: يا ابن آدم، إنما أنت أيامٌ إذا مضى يومك مضى بعضك.

وليتفكّر في أنّ نهار العمر له آخرٌ تغرب فيه شمس الحياة، ولينظر هل ساوى يومه أمسه؟ فيكون مغبوناً، أو كان شراً منه، فيكون ملعوناً، فإن رأى أنه قد توفّر على الخير طول نهاره، فليشكر الله سبحانه على التوفيق، وإن تكن الأخرى، فليتب، وليعزم على تلافي ما سبق من التفريط بالليل، فإن الحسنات يُذهبن السيئات، وليشكر الله تعالى على صحّة جسمه، وبقاء بقية من عمره يمكن فيها استدراك التقصير، وقد كان جماعة من السلف يستحبون أن لا ينقضي يومٌ إلا عن صدقة، ويجتهدون بما يمكن من كل خير كعيادة المريض وتشجيع الجنائز وغير ذلك.

## أوراد الليل

الورد الأول: إذا غربت الشمس إلى وقت العشاء، وإذا غربت صلي المغرب، واشتغل بإحياء ما بين العشاءين، فقد قال أنس بن مالك في قوله تعالى: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]. نزلت في ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، كانوا يصلون ما بين المغرب والعشاء، وأما فضل إحياء ما بين العشاءين، فقد ذكرناه في صلاة<sup>(٣)</sup> التطوع.

(١) يعني الحسن البصري.

(٢) في (ظ): «العشاء».

(٣) في (ظ): «كتاب».

فإن أقامَ في المسجد مُعتكفاً مُنتظراً للعشاء، فهو أفضل، وإن صَلَّى في بيته يقصد الحَلوةَ فحسُنٌ.

الورد الثاني: من وقت غَيْبوبة الشَّفَقِ الأحمر إلى وَقْتِ نَوْمِ الناس، فليُصَلِّ ما بينَ الأذنين ما أمكَنه، وليكن في قراءته: ﴿الْمَ تَنزِيلُ﴾ السَّجْدَةِ، و﴿تَبْرَكَ﴾ المُلْكِ، فقد كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأهما، وفي حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال<sup>(١)</sup>: «من قرأ سورة الواقعة في كلِّ ليلةٍ لم تُصبه فاقة».

الورد الثالث: الوتر، وليوترَ قبلَ النومِ إن لم تكن عادته القيام، قال أبو هريرة: أوصاني رسولُ الله ﷺ أن لا أنامَ إلا على وتر. وإن كانَ معتاداً للصلاة بالليل، فتأخير الوتر أفضل، قالت عائشة: أوترَ رسولُ الله ﷺ أوَّلَ الليل، وأوسطه، وانتهى وترُهُ إلى السَّحر.

ثم ليقل بعد الوتر: سُبْحَانَ المَلِكِ القُدُّوسِ، ثلاث مرات.

الورد الرابع: النوم، وإنما عَدَدناه في الأوراد؛ لأنَّه إذا رُوِعت آدابه وحسُنَ المقصودُ به احتسِبَ عبادةٌ، وقد قال مُعَاذٌ: إني لأحتسِبُ في نومتِي ما أحتسِبُ في قَومَتِي.

وآداب النوم عشرة: الأول: الطَّهارة، فقد أخبرنا علي بن عبيد الله قال: أخبرنا عبد الصَّمَد بن المأمون، قال: أخبرنا عبيد الله بن محمد بن حبابة قال: أخبرنا يحيى بن محمد بن صاعد قال: أخبرنا العباس بن الوليد بن مَزِيد<sup>(٢)</sup> قال: أخبرني أبي قال: سمعتُ الأوزاعي يقول: حدَّثني الزُّهري عن عُرْوَةَ عن عائشة قالت: كانَ رسولُ الله ﷺ إذا أرادَ أن ينامَ تَوَضَّأَ وُضوءَهُ للصلاة. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: إن الأرواحَ يُعْرَجُ بها في منامها إلى السماء فتُؤَمَّرُ بالسَّجود عند العرش، فما كان منها طاهراً سَجَدَ عند العرش، وما كان ليس بطاهرٍ سَجَدَ بعيداً من العرش.

(١) ليس في الأصل.

(٢) تصحف في (ظ) إلى: «مَرْتَد».

الثاني: أن يتوب قبل نومه؛ لأنه ينبغي لمن طهر ظاهره أن يجتهد في طهارة باطنه قبل النوم، لوجوه، أهمها أمران: أحدهما: أنه ربما مات في نومه فليأخذ أهبة الرحيل.

والثاني: أن النوم مظنة الرؤيا، ولقاء أرواح الأنبياء والصالحين، وإلقاء ما يلقي من حجب الغيب، وذلك لا يصلح إلا لوعاء نظيف.

الثالث: أن يزيل كل غش في قلبه لمسلم، ولا ينوي ظلمه، ولا يعزم على خطيئة إن استيقظ.

الرابع: أن لا يبيت من له شيء يوصي فيه إلا ووصيته مكتوبة عنده، في الصحيحين من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «ما حق امرئ مسلم يبيت ليلتين، وله شيء يوصي فيه إلا وصيته مكتوبة عنده».

الخامس: أن لا يُبالغ في تمهيد الفراش مُتَنَعِماً بذلك، فإن ذلك يزيد في النوم، فإن النبي ﷺ نهي له فراشه فقال: «مَنَعْتَنِي وَطَأْتَهُ صَلَاتِي اللَّيْلَةَ».

السادس: أن لا ينام ما لم يغلبه النوم، فقد كان السلف لا ينامون إلا عن غلبة.

السابع: أن ينام مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، والاستقبال على ضربين: الأول.

استقبال المُحْتَضِرِ، وهو للمستلقي على قفاه، فيكون وجهه وأخمصاه إلى القبلة، والثاني: استقبال اللحد، وهو لمن ينام على جنب، بأن يكون وجهه إليها إذا نام على الشق الأيمن.

الثامن: الدعاء عند النوم، وقد سبقت الأذكار التي تُقال عند النوم في كتاب الدعوات.

التاسع: أن يتذكر عند النوم أنه نوع وفاة، وأن التيقظ نوع بعث، فلينظر على ماذا ينام من العزائم والنبات خوفاً من أن يفجأه الموت على ما لا يصلح.

العاشر: ذكر الله تعالى عند التيقظ، وشكره على السلامة والعافية، وليجتهد أن

يكون آخر ما يجري على قلبه ولسانه عند النَّوم ذكرُ الله تعالى، وأول ما يجري عليهما عند التَّيقُّظِ ذكرُ الله تعالى، فهاتان علامتان على الإيمان، وعلى قدر وجود الصِّفاء في الذكر تكون المعرفة للمذكور والمحبة له.

الورد الرابع: يدخلُ بمُضِيِّ النِّصْفِ الأوَّلِ مِنَ اللَّيْلِ إلى أن يبقى من الليل سُدسه، وذلك وقتٌ شريفٌ، وقد رَوَى أبو ذر قال: سألتُ النبي ﷺ: أيُّ صلاةٍ الليل أفضل؟ فقال: «نصفُ اللَّيْلِ، وقَليلُ فاعِلُهُ». ورُوِيَ أن داود عليه السلام قال: يا ربِّ، أيُّ ساعةٍ أقوم لك؟ فأوحى اللهُ تعالى إليه: يا داود، لا تَقُمَ أوَّلَ اللَّيْلِ ولا آخره، ولكن قُم في شَطْرِ اللَّيْلِ حين تَخْلُوا بي وأخلوا بك، فارفع إليَّ حوائجك.

فإذا قامَ حينئذٍ للتَّهجد، ففي الصحيحين من حديث ابن عباس قال: بيْتُ عند خالتي ميمونة، فاستيقظَ رسولُ اللهِ ﷺ فجعلَ يمسحُ النَّومَ عن وجهه ثم قرأَ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران.

وليدُ بدُعاءِ رسولِ اللهِ ﷺ عند قيامه بالليل، وقد سبق في كتاب الدعوات، ثم يُصلي ركعتين خفيفتين، ففي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قامَ أحدكم يُصلي بالليل، فليبدأ بركعتين خفيفتين». وفي أفراد من حديث عائشة قالت: كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا قامَ من الليل يُصلي افتتحَ صلاته بركعتين خفيفتين، ثم يُصلي مثنى مثنى. وفي أفراد البخاري من حديث ابن عمر قال: قال رجلٌ يا رسولَ اللهِ، كيف تأمرنا أن نُصلي من اللَّيْلِ. قال: «يُصلي أحدكم مثنى مثنى، فإذا خشي الصُّبحَ صلي واحدةً، فأوترت له ما قد صلي من اللَّيْلِ». وأكثر ما رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه كان يُصلي من اللَّيْلِ ثلاث عشرة ركعةً مع الوتر، وأقلهنَّ سَبْع.

الورد الخامس: السُّدُسُ الأخير من اللَّيْلِ وهو وقتُ السحر، قال اللهُ تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]، وفي الصحيحين من حديث عائشة قالت: كان رسولُ اللهِ ﷺ ينامُ أوَّلَ اللَّيْلِ ويقومُ آخره، وفي أفراد مسلم من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ خَشِيَ مِنْكُمْ أَنْ لَا يَقُومَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، فليوترْ مِنْ أوَّلِهِ،

ثم ليرتد، ومن طمِع منكم في أن يقوم من آخر الليل، فإنَّ قراءة آخر الليل محضورة». وذلك أفضل. وفي حديث عمرو بن عَبَسَةَ عن النبي ﷺ أنه قال: «أقرب ما يكون الربُّ من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكُر الله في تلك الساعة فكُن». رواه الترمذي وصحَّحه، ورواه أبو داود عن عمرو بن عَبَسَةَ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أي الليل أسمعُ؟ قال: «جوف الليل الآخر، فصلُّ ما شئتَ فإنَّ الصلاةَ مشهودةٌ مكتوبةٌ حتى تُصلي الصُّبح». وجاء رجلٌ إلى طاوس وقت السَّحر فقال: أهو نائم؟ فقال: ما كنتُ أرى أن أحداً ينام في السَّحر.

فإذا فرغ المُريد من صلاة السَّحر، فليستغفر. قال نافع: كان ابنُ عمر يُحيي الليل صلاةً، ثم يقول: يا نافع، أسحَرنا؟ فأقول: لا، فيعاود الصلاة، ثم يقول: يا نافع، أسحَرنا؟ فأقول: نعم، فيقعد ويستغفر ويدعو حتى يُصبح.

### بيان اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال

اعلم أن السَّالك لطريق الآخرة لا يخلو من ستة أحوال: إما أن يكون عابداً، أو عالماً أو متعلماً، أو والياً، أو مُحترفاً، أو مُستغرقاً بمحبة الله<sup>(١)</sup> عز وجل مشغولاً عن غيره.

الأول: العابد، وهو المنقطع عن الأشغال كُلِّها إلى التَّعبُد، فهذا يستعمل ما ذكرناه من الأوراد، وقد تختلف وظائفه فقد كانت أحوال المتعبدين من السلف تختلف، فمنهم من كان يغلب عليه حُب التلاوة، فكان يختم كل يوم<sup>(٢)</sup> ومنهم من يختم<sup>(٢)</sup> مرتين وثلاثاً، وكان فيهم من يُكثر من الصلاة فيصلي مئة ركعة، وخمسمئة، وألف ركعة، ومنهم من غلب عليه حُب الطَّواف بالبيت فكان يطوف كلَّ يوم سبعين أسبوعاً<sup>(٣)</sup>، وهو يقرأ القرآن مع ذلك مرةً أو مرتين.

(١) في (ظ): «الحق».

(٢-٢) سقط من الأصل.

(٣) الأسبوع: سبع مرَّات.

فإن قيل: فما الأولى أن يُصَرَفَ إليه أكثر الأوقات من هذه الأوراد؟

فاعلم أن قراءة القرآن في الصلاة قائماً مع التدبُّر تَجْمَعُ الجميع، ولكن ربما عَسُرَتِ المواظبة على ذلك، فالأفضل يختلف باختلاف حال<sup>(١)</sup> الشخص.

ومقصود الأوراد تركية القلب وتطهيره وتخليته للذكر والأنس، فليُنظر المريد إلى ما يراه من التعبد أشدَّ تأثيراً فيه، فليواظب عليه، فإذا أحسَّ بمللٍ انتقل عنه، وقال أبو سليمان الداراني: إذا وجدت قلبك في القيام، فلا تركع، أو في الركوع، فلا ترفع، أو في السجود، فلا ترفع.

**الثاني: العالم،** وهو الذي يَنْتَفِعُ الناس بعلمه في فتوى أو تدريس أو تصنيف أو تذكير، فترتيبه للأوراد يُخالف ترتيب العابد، فإنه يحتاج إلى المطالعة للكتب، وإلى التصنيف والإفادة، فإن استغرق الأوقات في ذلك فهو أفضل ما يشتغل به بعد المكتوبات، وقد دلَّ على صحة ما قلنا ما سبق في بيان فضيلة العلم والتعليم، وكيف لا يكون كذلك وقد قال عليه الصلاة والسلام لعلي<sup>(٢)</sup>: «والله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيراً لك مما طلعت عليه الشمس». وهل يهتدي الناس إلا بالعلم؟ فَرُبَّ مسألةٍ تعلَّمها الإنسان صلحت بها عبادة عمره، ولو لم يتعلمها كان عمله ضائعاً، وإنما يُعنى بالعلم المُقَدَّمُ على العبادة العلم الذي يُرَعَّبُ في الآخرة ويُعين على سلوك طريقها.

فالأولى بالعالم أن يقسم أوقاته أيضاً؛ لأن استغراق الأوقات في العلم لا تصبر عليه النفس، فينبغي أن يَحُصَّ ما بعد الصبح إلى طلوع الشمس بالأذكار والأوراد على ما ذكرنا، ثم بعد طلوع الشمس إلى الضحى في الإفادة والتعليم، فإن لم يكن عنده من يتعلم صرف ذلك الزمان إلى التفكير في العلوم فإن صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهوم الدنيا يُعين على التَّقَطُّنِ للمشكلات، ثم من ضحوة النهار إلى العصر للتصنيف والمطالعة لا يترك ذلك إلا في وقتٍ أكلٍ وطهارة، أو

(١) في الأصل: «بحال اختلاف».

(٢) ليست في الأصل.

في مكتوبة وقيلولة، ومن العصر إلى الاصفرار يشتغل بسماع ما يُقرأ، عليه من تفسير أو حديث أو علم نافع، ومن الاصفرار إلى الغروب يشتغل<sup>(١)</sup> بالاستغفار والتسبيح، فيكون وزده الأول قبل طلوع الشمس في عمل اللسان، ووزده الثاني في عمل القلب بالفكر إلى ضحوقة، ووزده الثالث إلى العصر في عمل العين واليد بالمطالعة والنسخ، ووزده الرابع بعد العصر في عمل السمع ليروّح فيه العين واليد، فإن المطالعة والنسخ بعد العصر ربما أضرت بالعين، وعند الاصفرار يعود ذكر اللسان<sup>(٢)</sup> فلا يخلو جزء من النهار من عمل بالجوارح مع حضور القلب في الجميع.

وأما الليل فأحسن قسمة فيه قسمة الشافعي، فإنه كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء: الثلث الأول لكتابة العلم، الثلث الثاني للصلاة، الثلث الثالث للنوم، وأما الصيف فربما لا يحتمل ذلك إلا إذا كان أكثر النوم بالنهار.

الثالث: المتعلم، فإن التّشاغل بالتعلم أفضل من التّشاغل بالأذكار والنوافل، وقد سبق فضل ذلك في كتاب العلم، وحكم المتعلم حكم العالم في ترتيب الأوراد لكنه يشتغل بالاستفادة حين يشتغل العالم بالإفادة، وبالتهليل والنسخ حين يشتغل العالم بالتصنيف، فإن كان من العوام فحضوره<sup>(٣)</sup> مجالس الذكر والعلم والوعظ أفضل من اشتغاله بالأوراد المتطوّع بها، قال عليه الصلاة والسلام: «إذا مرّتم برياض الجنة فارتعوا» قيل: وما رياض الجنة؟ قال: «حلق الذكر».

قال عمار الراهب<sup>(٤)</sup>: رأيت مسكينة الطفاوية<sup>(٥)</sup> في منامي وكانت من المؤاظبات على حلق الذكر، فقلت: مرحباً يا مسكينة مرحباً. قالت: هيهات يا

(١) ليست في الأصل.

(٢) تحرفت في (ظ) إلى: «الليل».

(٣) في الأصل: (فحضور).

(٤) هكذا في النسخ وصفة الصفوة للمصنف، وفي الإحياء: «الزاهد».

(٥) هي مسكينة الطفاوية، منسوبة إلى بني طفاوة بطن من العرب كانت من العبادات الزاهدات

ذكرها المصنف في صفة الصفوة ٤/٤٢.

عمار، ذهبت المسكنة وجاء الغني الأكبر. قلت: هيه<sup>(١)</sup>. قالت: ما تسأل عن من أبيع الجنة بحذافيرها يظل منها حيث يشاء؟ قلت: وبم ذلك؟ قالت: بمجالس الذكر، والصبر على الحق. قال عمار: وكانت تحضر معنا مجلس عيسى بن زاذان بالأبلة<sup>(٢)</sup>، تتحدّر من البصرة حتى تأتيه قاصدة.

وينبغي أن يعلم أن حضور مجلس الوعظ أنفع شيء للعامي إذا كان الواعظ صدوقاً متحريراً طريقة السلف فيما يورده فإن تكرار الوعظ على العامي يثقب باطن قلبه، فيستخرج حُبّ الزلل ويودعه جواهر التقوى، وذلك أنفع للعامي من ركعات كثيرة وتسيحات طويلة.

الرابع: المُحترَف، وهو المحتاج إلى الكسب له ولعياله، فليس له أن يستغرق الزمان في التعب بل يجتهد في الكسب مع دوام الذكر، فإذا حصل له ما يكفيه عاود الأوراد، فإن اكتسب أكثر من كفايته فادّخره لحاجة أو عرض<sup>(٣)</sup> له أو لعائلته فهذه نية حسنة، فإن رسول الله ﷺ قال: «لأن تدع ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكفّفون الناس». وإن هو تصدّق بما يفضّل عن حاجته كان ذلك أفضل من الأوراد؛ لأن نفع الصدقة يتعدّى، والكسب على هذه النيات عبادة في نفسه وقربة إلى الله عز وجل.

الخامس: الوالي، مثل الإمام والقاضي والمتولّي للنظر في أمر من أمور المسلمين، فقيامه بحاجات المسلمين وأغراضهم على وفق الشرع وقصد الإخلاص أفضل من الأوراد المذكورة، لأنه عبادة، ثم يفضل على العبادات بتعدّي نفعه، كما قلنا في العلم، فينبغي له أن يقتصر في النهار على المكتوبات، ثم يستفرغ باقي الزمان في ذلك ويقتنع بأوراد الليل.

السادس: المستغرق بمحبة الله تعالى، فهذا ورده بعد المكتوبات حضور القلب

(١) هيه: كلمة استزادة.

(٢) الأبلة: مدينة على شاطئ دجلة قرب البصرة.

(٣) في الأصل: «عرض».

مع الله سبحانه، وهو يحركه إلى ما يريد من ورد، ولن يصل إلى هذا واصل إلا بعد المواظبة على الأوراد، فلا ينبغي للمريد أن يعتز بما يسمعه من حال هذا فيدعيه لنفسه، ويفتر عن وظائف عبادته، بل ينبغي أن يدوم على الأوراد لتتغير صفات الباطن، فإنه إن لم يُردف الفعل بمثله امحى أثر الأول، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ». وسئلت عائشة عن عمل رسول الله ﷺ فقالت: كان عمله ديمةً.

## الباب الثاني

في الأسباب المُيسِّرة لقيام الليل،  
وفي الليالي اللواتي يُستحبُّ إحيائها  
وفي فضيلة إحياء الليل، وما بين العشاءين  
وكيفية قسمة الليل

ذَكَرُ فَضِيلَةَ قِيَامِ اللَّيْلِ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]، وَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، وَقَالَ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر: ٩].

فَأَمَّا الْأَحَادِيثُ: فَأَخْبَرَنَا عَبْدُ الْأَوَّلِ قَالَ: أَخْبَرَنَا الدَّوْدِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ أُعَيْنٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا الْفِرْبَرِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا الْبُخَارِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَوْسُفَ قَالَ: أَخْبَرَنَا مَالِكٌ عَنْ ابْنِ أَبِي الزُّنَادِ عَنِ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَعْقُدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عَقَدٍ، يَضْرِبُ عَلَى كُلِّ عَقْدَةٍ: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ. فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى انْحَلَّتْ عَقْدَةٌ، فَإِنِ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عَقْدَةٌ، فَإِنِ صَلَّى انْحَلَّتْ عَقْدَةٌ فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسَلَانَ».

قَالَ الْبُخَارِيُّ: وَحَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو الْأَحْوَصِ قَالَ: أَخْبَرَنَا مَنْصُورٌ عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ <sup>(١)</sup> قَالَ: ذَكَرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ فَقِيلَ: مَا زَالَ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحَ مَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ. فَقَالَ: «بَالَ الشَّيْطَانِ فِي أُذُنَيْهِ» أَخْرَجَاهُمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ. أَخْبَرَنَا ابْنُ الْحُصَيْنِ قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ الْمُذَهَّبِ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا رَوْحٌ وَعَقَّانُ

(١) يعني: ابن مسعود.

قالا: حدثنا حماد بن سلمة قال: أخبرنا عطاء بن السائب عن مرة عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «عَجِبَ رَبُّنا مِنْ رَجُلَيْنِ؛ رَجُلٌ نَارَ عَنْ فِرَاشِهِ<sup>(١)</sup> وَوِطَائِهِ وَلِحَافِهِ مِنْ بَيْنِ جِيبِهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ، فيقول رَبُّنا: أَيَا مَلَأْتُكَ، انظروا إلى عَبْدِي، نَارَ مِنْ فِرَاشِهِ وَوِطَائِهِ مِنْ بَيْنِ جِيبِهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ رَغْبَةً فيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي، وَرَجُلٌ غَزَا في سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَانْهَزَمُوا، فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ في الْفِرَارِ وَمَالِهِ في الرَّجُوعِ، فَرَجَعَ حَتَّى أُهْرِيقَ دَمُهُ، فيقول اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمَلَأْتُكَ: انظروا إلى عَبْدِي رَجَعَ رَغْبَةً فيمَا عِنْدِي وَرَهْبَةً مِمَّا عِنْدِي حَتَّى أُهْرِيقَ دَمُهُ».

قال أحمد: وحدثنا علي بن عبد الله قال: حدثنا هشيم قال: حدثنا هشيم قال حدثنا مُجَالِدٌ، أَخْبَرَنَا عَنْ أَبِي الْوَدَّاعِ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يَضْحَكُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ: رَجُلٌ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ، وَالْقَوْمُ إِذَا صَفَّوْا لِلصَّلَاةِ، وَالْقَوْمُ إِذَا صَفَّوْا لِلْقِتَالِ». أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ قَالَ: أَخْبَرَنَا الْمُبَارَكُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو طَالِبِ الْعُشَارِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ بْنُ أَخِي مِيمِي قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ بْنُ صَفْوَانَ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ الْقُرَشِيُّ قَالَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ سَهْلٍ التَّمِيمِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ قَالَ: حَدَّثَنِي مَعَاوِيَةُ بْنُ صَالِحٍ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ يَزِيدَ عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ ذَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَغْفِرَةٌ لِلْسَيِّئَاتِ وَمَنْهَاجٌ عَنِ الْإِثْمِ».

وكان الحسن البصري يقول: إني لم أجد من العبادة شيئاً أشد من الصلاة في جوف هذا الليل. وقيل له: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً، فقال: لأنهم خلّوا بالرحمن، فألبسهم من نوره.

### بيان الأسباب التي بها يتيسر قيام الليل

اعلم أن قيام الليل صعب على الناس إلا من وفق للقيام بشروطه الميسرة له، ومنها ظاهر، ومنها باطن؛ فأما الظاهرة، فأربعة:

(١) ليست في (ظ).

الأول: أن لا يُكثر من الأكل، فيكثر الشرب، فيغلبه النوم، وكان بعضهم يقول: يا معاشر<sup>(١)</sup> المريرين، لا تأكلوا كثيراً، فتشربوا كثيراً، فتناموا كثيراً، فتخسروا كثيراً.

الثاني: أن لا يُتعب نفسه بالنهار في الأعمال التي تُنصب الجوارح وتُضعف الأعصاب، فإن ذلك مَجَلَبَةٌ للنوم.

الثالث: أن لا يترك القيلولة بالنهار، فإنها تعين على قيام الليل، وكان الحسن إذا دخل السوق فيسمع لَعَطْهُمْ قال: أظن ليلَ هؤلاء ليلُ سوء، أما يَقِيلُونَ؟!

الرابع: أن لا يحتقب الأوزار بالنهار، قال رجل للحسن: إني أبيتُ وقد أعددتُ طهوري فما أقوم حتى أصبح. فقال: ذُنوبك قَيَّدَتْكَ.

وقال الثوري: حُرِمَت قيام الليل خمسة أشهر بذنبٍ أذْنَبْتُهُ. قيل: وما هو؟ قال: رأيتُ رجلاً يبكي، فقلت في نفسي: هذا مُرائي.

ودخلوا على كُرْزِ بن وَبْرَةَ وهو يبكي فقيل: ما لك؟ قال: بابي مُغْلَقٌ، وسِتْرِي مُسْبَلٌ، ولم أقرأ حِزْبِي<sup>(٢)</sup> البارحة، وما ذاك إلا بذنبٍ أحدثته.

واعلم أن الذنوب كلها تُورث قساوة القلب، وتمنع من قيام الليل، وأخصها بالتأثير تناول الحرام، وبالعكس اللقمة الحلال، فإنها تؤثر في تصفية القلب وتحريكه إلى الخير ما لا يُؤثره غيرها.

فأما الميسرات الباطنة، فأربعة:

الأول: سلامة القلب للمسلمين، وخلوه من البدع، وإعراضه عن فضول الدنيا فإن مشغول القلب بهوم الدنيا لا يتيسر له القيام، فإن قام، لم يتفكر إلا في مهماته.

الثاني: خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل، فإنه إذا تفكر في أهوال

(١) في الأصل: «معشر».

(٢) في (ظ): «جزئي».

الآخرة ودركات جهنم طار نومه، وعَظَمَ حَذْرَهُ، كان شَدَادَ بن أوس إذا أَوَى إلى فراشه كأنه حَبَّةٌ على مِقْلَى، ثم يقول: اللهمَّ إِنَّ ذَكَرَ جَهَنَّمَ لَا يَدْعُنِي أَنَامُ. فيقوم إلى مُصَلَّاهُ. وكان طاووس يَفْرَشُ فراشه، ثم يَضْطَجِعُ فَيَتَقَلَّى كما تُقَلَّى الحبة على المِقْلَى، ثم يَثْبُ، فَيُدْرِجُهُ<sup>(١)</sup> وَيَسْتَقْبِلُ القبلة حتى الصباح، ويقول: طَيْرَ ذِكْرُ جَهَنَّمَ نَوْمَ العابدين.

وقالت بنتُ الربيع بن خُثَيْمٍ له: يا أبتِ، مالي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام؟ فقال: يا بني، إن أباك يَخَافُ اللَّيَاتِ.

الثالث: أن يعرف فضلَ قيام الليل بما ذكرناه في فضائله حتى يَقْوَى شوقه إلى الثواب.

الرابع: وهو أشرفُ البواعث، الحبُّ لله وقُوَّةُ الإيمان بأنه إذا قام ناجى ربّه، وأنه حاضرُه ومُشَاهِدُهُ، فإذا أَحَبَّ اللهُ أَحَبَّ اللهُ الخلوَّةَ به، وتَلَذَّذَ بمناجاته، فتحمله لذَّةُ المناجاة للحبيب على طول القيام، ولا ينبغي أن تُسْتَبَعَدَ هذه اللذَّةُ فإنه يشهد لها العقل والنقل، أما العقل؛ فليعتبر حال المحب لشخصٍ بسبب جماله، أو لملكٍ بسبب إنعامه كيف يتلذذُ بالخلوة به وبمناجاته حتى لا يأتيه النوم طول ليلته.

فإن قيل: فالجميل يتلذذُ بالنظر إليه والله سبحانه لا يرى في حال المناجاة.

فالجواب: أنه لو كان الجميل المحبوب وراء سترٍ، أو كان في بيتٍ مظلمٍ لكان المُحِبُّ يتلذذُ بمحاورته المجردة دون النظر ودون الطمع في أمرٍ آخر سواه، وكان يَتَنَعَّمُ بإظهار حُبِّه عليه، وذكره بلسانه بمسمعٍ منه، وإن كان ذلك أيضاً معلوماً عنده.

فإن قيل: فإنه ينتظر جوابه<sup>(٢)</sup> فيتلذذُ بسماع جوابه<sup>(٢)</sup>، وليس يسمع كلام الله.

فالجواب: أنه إن كان يعلم أنه لا يُجيبه فقد بقيت أيضاً لذَّةٌ في عرض أحواله عليه، ورفع سرِّه إليه، كيف والمؤمن يستمع من الله كل ما يرد على خاطره في أثناء

(١) أي: يطويه ويثني بعضه على بعض.

(٢-٢) سقط من (ظ).

مناجاته، فيتلذذ به، وكذا الذي يخلو بالملك ويعرض عليه حاجاته في جُح الليل يتلذذ به في رجاء إنعامه، والرجاء في حق الله أصدق، وما عند الله أبقي مما عند غيره، فكيف لا يَلْتذُّ بعرض الحاجات إليه في الخَلوات؟!

وأما النقل، فتشهد له أحوال قُوام اللَّيْلِ في تَلذُّذهم بقيام الليل، واستقصارهم له، كما يَسْتَقْصِر المَحِبُّ ليلَةَ وصالِ الحبيب حتى قيل لبعضهم: كيف أنتَ والليل؟ فقال: يُريني وَجْهَهُ ثم ينصرف وما تأملته بَعْدُ. وقال آخَر: أنا واللَّيْلُ فَرَساً رِهَانٍ، مَرَّةً يَسْبِقُنِي إلى الفجر، ومرة يَقْطَعُنِي عن الفِكر، وقال علي بن بَكَّار: منذ أربعين سنةً ما أَحْزَنُنِي شيءٌ إلا طُلُوعُ الفجر. وقال الفُضَيْل: إذا غربت الشمس فَرَحْتُ بالظلام لخلوتي برَبِّي، وإذا طَلَعَتْ حَزِنْتُ لدخولِ الناسِ عَلَيَّ. وقال أبو سُلَيْمَانَ: أهل اللَّيْلِ في ليلهم أَلَدُّ من أهل اللُّهُو في لهوهم، ولولا اللَّيْلُ ما أَحْبَبْتُ البَقَاءَ في الدنيا، وأوحى اللهُ عز وجلَّ إلى بعض مَنْ أوحى إليه: إن لي عباداً من عبادي <sup>(١)</sup> يُحِبُّونِي وأحِبُّهم، وَيَسْتَأْجِرُونِ إِلَيَّ وَأَسْتَأْجِرُ إِلَيْهِمْ، وَيَذْكُرُونِي وَأَذْكُرُهُمْ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيَّ وَأَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، فَإِنْ حَدَّثَتْ طَرِيقَهُمْ أَحْبَبْتِكِ، وَإِنْ عَدَلَتْ عَنْهُمْ مَقَّتْكِ. قال: يا رب، وما علامتهم؟ قال: يُرَاعُونَ الظُّلَالَ بالنهار كما يراعي الراعي غَنَمَهُ، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطَّيْرُ إلى أوكارها، فإذا جَنَّهُمْ <sup>(٢)</sup> اللَّيْلُ، واختلط الظلامُ، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه نَصَبُوا لي أقدامهم، وافتَرَشُوا لي وُجُوهُهُمْ، وناجوني بكلامي، وتملَّقوني بإنعامي، فبينَ صارخٍ وبكاءٍ، وبين متأوِّهٍ وشاكٍ، بعيني ما يتحمَّلون من أجلي، وبسَمْعِي ما يشكون من حُبي، إنَّ أولَ ما أعطيتهم أقدف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم، والثانية: لو كانت السماوات السبع والأرضون وما فيهما في موازينهم لاسْتَقْلَلَتْهُمَا لهنَّ، والثالثة: أقبل عليهم بوجهي، فترى من أقبلت بوجهي عليه أيعلم أحدٌ ما أريد أن أعطيه؟

وشكى بعضُ المريدين إلى شَيْخه طول سَهْرِ اللَّيْلِ، وسأله ما يجتلب به النَّوْمُ، فقال له: يا بُنَيَّ، إنَّ الله نَفَحَاتٍ في اللَّيْلِ والنهار تُصِيبُ القلوبَ المتيقِّظةَ وتُخَطِّئُ

(١) في (ظ): «عبيدي».

(٢) جَنَّهُم اللَّيْلُ: أي سترهم وأظلم عليهم.

القلوب النائمة، فتعرض لتلك النَّفحات. فقال: يا أستاذ تركتني لا أنام بالليل ولا بالنهار.

واعلم أن هذه النَّفحات بالليل أرجى لما في قيام الليل من صفاء القلب واندفاع الشَّواغل، وفي أفراد مسلم من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في الليل لساعة لا يوافقها عبدٌ مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا آتاه إياه، وذلك كل ليلة».

### بيان طرق القسمة لأجزاء الليل

للقيام من حيث المقدار سبع مراتب:

المرتبة الأولى: إحياء كل الليل، وقد كان هذا طريق جماعة من السلف، وكانَ فيهم من يصلي الصُّبح بوضوء العشاء، وقد رُوينا عن ابن عُمر أنه كان يُحيي الليل صلاةً، وعن عبدة بن هلال أنه قال: لا يشهد عليّ الليل بنوم. وقالت خادمٌ عامر بن عبد قيس: ما فرشتُ له فراشاً بالليل فاضطجع عليه إلا بالنهار. وقالت أم عمر ابن المنكدر: يا بُني، إنني لأشتهي أن أراك نائماً. فقال: يا أُمّاه، والله إن الليل ليردُّ عليّ فيهلوني، فينقضي عني وما قضيتُ منه أربي، ورؤينا عن عطاء الخراساني أنه كان يُحيي الليل صلاةً<sup>(١)</sup>، وعن سليمان التيمي أنه صلى الفجر بوضوء العشاء أربعين سنةً، وأن منصور بن زاذان صلى الفجر بوضوء العشاء عشرين سنةً، ومكث هُشيمٌ يصلي الفجر بوضوء العشاء عشرين سنةً، وممن اشتهر بقيام الليل كله سعيد بن المسيّب، وصفوان بن سليم المدنيّان، وفُضَيْل بن عياض، وهُثَيْب بن الوَرد المكيّان، وطاوس وهُثَيْب بن مُنَبِّه اليمانيّان، والربيع بن حُثَيْم والحكم الكوفيان، وأبو سليمان الداراني وعلي بن بكّار الشاميّان، وأبو عبد الله الخواص وأبو عاصم العبّادانيّان<sup>(٢)</sup>، وحبيب أبو محمد وأبو جابر السُّلَمانيّان الفارسيّان، ومالك بن دينار وسليمان التيميّان ويزيد الرّقاشي وحبيب بن أبي ثابت ويحيى البكّاء البصريّون في جماعةٍ يطول ذكرهم.

(١) سقطت من (ظ).

(٢) نسبة إلى عبّادان، جزيرة في بحر فارس.

المرتبة الثانية: أن يقوم نصف الليل، وقد كان جماعة من السلف يفعلون ذلك منهم: ابن عباس، قال ابن أبي مليكة: صحبته من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى المدينة، فكان يقوم شطر الليل يُكثِرُ والله في ذلكم التَّسيح.

وأحسن طريق في هذا أن ينام الثلث الأول من الليل، والسدس الأخير منه حتى يقع قيامه في جوف الليل ووسطه، فهو الأفضل.

المرتبة الثالثة: أن يقوم ثلث الليل، فينبغي أن ينام النصف الأول والسدس الأخير، وهو قيام داود عليه السلام، وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ». وفي الصحيحين من حديث ابن عباس أنه قال: بِثُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ، فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى انْتَصَفَ اللَّيْلِ، أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ، أَوْ بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ، فَاسْتَيْقَظَ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ صَلَّى اثْنَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ أَوْتَرَ، ثُمَّ اضْطَجَعَ.

وفي الجملة نوم آخر الليل حسن؛ لأنه يذهب بآثار النُّعاس من الوجه بالغدَاة، ويُقلِّلُ صُفْرَتَهُ، وفيه إجماع<sup>(١)</sup> للبدن لتلقِّي أوراِدِ النَّهَارِ، وفي الصحيحين من حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا قام تَوَضَّأَ وَصَلَّى مَا قَضَى اللَّهُ لَهُ، فَإِنْ كَانَتْ بِهِ حَاجَةٌ إِلَى أَهْلِهِ أَتَى أَهْلَهُ، وَإِلَّا مَالَ إِلَى فِرَاشِهِ، فَإِنْ كَانَ أَتَى أَهْلَهُ نَامَ كَهَيْئَتِهِ لَمْ يَمَسَّ مَاءً، حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ أَوَّلِ الْأَذَانِ وَثَبَ، فَإِنْ كَانَ جُنْبًا أَفَاضَ عَلَيْهِ الْمَاءَ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ.

المرتبة الرابعة: أن يقوم سدس الليل أو خُمسه، وأفضل ذلك ما كان في النصف الأخير، وبعضهم يقول: أفضله السدس الأخير.

المرتبة الخامسة: أن لا يُراعي التَّقْدِيرَ، فَإِنَّ مِرَاعَاةَ ذَلِكَ تَصْعَبُ، ثُمَّ فِي مَا يَفْعَلُهُ طَرِيقَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَقُومَ أَوَّلَ اللَّيْلِ إِلَى أَنْ يَغْلِبَهُ النَّوْمُ فَيَنَامُ، فَإِذَا انْتَبَهَ قَامَ، فَإِذَا غَلِبَهُ النَّوْمُ نَامَ، وَهَذَا مِنْ أَشَدِّ الْمُكَابَدَةِ لِلَّيْلِ، وَهُوَ طَرِيقُ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ، وَفِي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ: مَا كُنَّا نَشَاءُ أَنْ نَرَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُصَلِّيًا مِنْ

(١) إجماع: راحة.

الليل إلا رأيناه، وما كنا نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه. وقد قال أسلم: كان عمر بن الخطاب يصلي من الليل ما شاء الله، حتى إذا كان من آخر الليل أيقظ أهله يقول: الصلاة الصلاة. وقال الضحاك: أدركت أقواماً يستحيون من الله في سواد هذا الليل من طول الضجعة.

والطريق الثاني: أن ينام أول الليل، فإذا أخذ حظه من النوم وانتبه قام الباقي، قال سفيان الثوري: إنما هي أول نومة فإذا انتبهت لم أقلها.

المرتبة<sup>(١)</sup> السادسة: وهي الأقل أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين، فقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال: «صَلُّوا مِنَ اللَّيْلِ، صَلُّوا أَرْبَعًا، صَلُّوا وَلَوْ رَكَعَتَيْنِ، مَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ تُعْرَفُ لَهُمْ صَلَاةٌ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا نَادَى مَنَادٍ: يَا أَهْلَ الْبَيْتِ قَوْمُوا لَصَلَاتِكُمْ». وروى أبو داود من حديث أبي سعيد وأبي هريرة قالاً: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّيَا جَمِيعًا رَكَعَتَيْنِ كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ».

وكان طلحة بن مصرف يأمر أهله بقيام الليل<sup>(٢)</sup> ويقول: صَلُّوا وَلَوْ رَكَعَتَيْنِ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ تَحُطُّ الْأَوْزَارَ.

فهذه طرق قسمة الليل<sup>(٢)</sup> فليتحير المرید لنفسه ما يسهل عليه، فإن صعّب عليه القيام في وسط الليل، فلا ينبغي أن يخل بإحياء ما بين العشاءين وورد السحر ليكون قائماً في الطرفين، وهذه مرتبة سابعة.

## فصل

فأما من صعبت عليه الطهارة بالليل، وثقلت عليه الصلاة، فليجلس مستقبل القبلة، وليذكر الله تعالى، وليدع مهما قدر، فإن لم يجلس فليذكر الله وهو مضطجع، وفي أفراد البخاري من حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال:

(١) في (ظ): «الرتبة».

(٢-٢) سقط من (ظ).

«مَنْ تَعَارَى<sup>(١)</sup> مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمَلِكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ - يَعْنِي - وَصَلَّى، قُبِلَتْ صَلَاتُهُ».

## فصل

وَمَنْ كَانَ عَلَيْهِ وَرْدٌ، فغلبه النوم وفاته، فليأت به بعد صلاة الضُّحى، ففي أفراد مُسلم من حديث عُمر بن الخطاب عن النبي ﷺ أنه قال: «من نام عن حزبه أو عن شيءٍ منه، فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كُتِبَ له كأنما قرأه من اللَّيْلِ».

وليحذر مَنْ له عادةٌ بقيام الليل أن يتركها، ففي الصَّحيحين من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يا عبدَ الله، لا تكونَنَّ مثلَ فلانٍ كان يقوم الليل، فترك قيام الليل».

## بيان اللَّيالي والأيام الفاضلة

أما اللَّيالي المخصوصات بمزيدٍ من الفضل اللواتي يُستحب إحيائها في السَّنة فخمسة عشرة ليلة، ولا يصلح للمريد أن يغفلَ عنهنَّ؛ لأنه إذا غفل التاجر عن موسم الرِّيح فمتى يربح؟

فَسِتُّ<sup>(٢)</sup> من هذه اللَّيالي في رمضان؛ الليلة السابعة عشرة، فهي ليلة في صبيحتها كانت موقعةٌ بدر، وخمسٌ<sup>(٣)</sup> هُنَّ أوتار العشر، إذ فيهنَّ تُطلَبُ ليلةُ القدر، وأما التَّسع<sup>(٤)</sup> الأخر؛ فأول ليلةٍ من المحرم، وليلةُ عاشوراء، وأول ليلةٍ من رجب،

- (١) تعارَى: أي أرق وتقلَّب في فراشه ولم ينام.
- (٢) في النسخ: «فسيح»، والمثبت من الإحياء، وهو الصواب.
- (٣) في النسخ: «وست»، والمثبت من الإحياء.
- (٤) في النسخ: «الثمان»، مع أن المصنف قد عدَّ تسع ليالٍ.

وليلة النصف منه، وليلة سَبْعٍ وعشرين منه، فإنها ليلة المعراج، وليلة النصف من شعبان، وليلة عرفة، وليلتا العيدين، وقد رُويت صلواتٌ لبعض هذه الليالي وليس فيها ما يثبت فتنكَبُناها.

وأما الأيام الفاضلة فتسعة عشر؛ يوم عرفة، ويوم عاشوراء، وقد ذكرنا فضلها، ويوم سبعةٍ وعشرين من رَجَب، فقد قال أبو هريرة: مَنْ صام يومَ سبعةٍ وعشرين من رَجَب كَتَبَ اللهُ له صيامَ ستينَ شهراً، وهو اليوم الذي نزل فيه جبريل على النبي ﷺ أول يوم هَبَط فيه، ويوم سبعةٍ عشر من رمضان، كانت فيه وقعة بدر، ويوم النصف من شعبان، ويوم الجمعة، ويوما العيدين، والأيام المعلومات، وهي عشر ذي الحجة، والأيام المعدودات، وهي أيام التشريق.

ومن فواضِل الأيام في الأسبوع؛ الاثنین والخميس، وقد سبق ذكر فضلها، وفضل الأشهر الحرم، وأيام البيض، وغير ذلك في كتاب الصيام.

آخر كتاب الأوراد وهو آخر رُبْع العبادات<sup>(١)</sup>.



(١) ورد في (ظ) ما نصه: «آخر الجزء الرابع من أجزاء الشيخ المصنف».





# رُبْعُ العادات



## كِتَاب آدَاب الْأَكْلِ

الحمدُ لله الذي أنشأ الأرض وخلق السماوات، وأنزل القَطْرَ وأخرج النبات، وقَسَمَ الرزقَ وقَدَّرَ الأقوات، بين حلوٍ وحامضٍ ومُرٍّ ومُمسكٍ ومُسهلٍ مختلفة الحالات، فالأدوية تدفع الداء والأغذية تحفظ قوى الحيوانات، ثم منَّ وما منَّ فقال: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: ٤]، أحمدُه حمداً يتوالى على مرور الأوقات، وأصلي على رسوله محمدٍ ذي المعجزات الباهرات، وعلى أصحابه وأتباعه إلى يوم الفصل والميقات، صلاةً تتضاعفُ بتعاقب الساعات وأسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فإنه لا بلوغ إلى خير الآخرة إلا بالعلم والعمل في الدنيا، ولا يمكن المواظبة عليهما إلا بسلامة البدن، ولا تصفو سلامته إلا بتناول الحاجة من الأقوات، وما هو ذريعة إلى الدين، فإنه من الدين، فينبغي أن تظهر أنوار الدين عليه، وأنوار الدين آدابه وسُننه، قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُؤَجَّرُ حَتَّى فِي اللَّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى فَمِ امْرَأَتِهِ». وإنما يكون ذلك إذا رفعها بالدين، وها نحن نُرشد إلى وظائف الدين في الأكل من فَرَضٍ وسُنَّةٍ وأدبٍ ومُروءةٍ وهَيَأةٍ في أربعة أبواب، وفصل في آخرها.

الباب الأول: فيما لا بد للأكل من مراعاته وإن انفرد بالأكل.

الباب الثاني: فيما يزيد من الآداب<sup>(١)</sup> بسبب الاجتماع على الأكل.

الباب الثالث: فيما يخص تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين.

الباب الرابع: فيما يخص الدعوة والضيافة وأسبابها.

(١) في الأصل: «الأدب».

## الباب الأول

### فيما لا بد للمنفرد بالأكل منه

وهو ثلاثة أقسام: قسم قبل الأكل، وقسم مع الأكل، وقسم بعد الفراغ منه.

القسم الأول: في الآداب التي تُقدّم على الأكل، وهي سبعة:

الأول: أن يكون الطعام بعد كونه حلالاً في نفسه طيباً في جهة مكسبه، موافقاً للسنة والورع ولم يكتسب بسببٍ مكروه في الشرع، ولا بحكم هوى ومداهنة في دينٍ على ما سيأتي في معنى الطيب المطلق في كتاب الحلال والحرام، وقد أمر الله تعالى بأكل الطيب وهو الحلال، وقَدَّمَ النَّهْيَ عن الأكل بالبازل على القتل تفخيماً لأمر الحرام، فقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

الثاني: في غسل اليد قبل الأكل؛ لأنها لا تخلوا عن دَرَنِ، وقد روي في حديث: «الوضوء قبل الطعام يَنْفِي الْفَقْرَ، وَبَعْدَهُ يَنْفِي اللَّمَمَ»<sup>(١)</sup> وفَسَّرُوهُ بغسل اليد؛ إلا أنه لا يثبت.

الثالث: أن يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض، فهو أقرب إلى فعل رسول الله ﷺ مِنْ رَفَعَهُ عَلَى الْمَائِدَةِ، وهو أدنى إلى التواضع، وإن كان الأكل على المائدة ليس بمنهي عنه، قال أنس: ما أكل رسول الله ﷺ على خِوَانٍ<sup>(٢)</sup> ولا في سَكْرُجَةٍ<sup>(٣)</sup>. قيل: فعلى ماذا كنتم تأكلون؟ قال: على السفرة.

(١) اللَّمَمُ: الجنون.

(٢) الخِوَانُ: المائدة ما لم يكن عليها طعام.

(٣) السَكْرُجَةُ: إناء صغير يُجعل فيه ما يُشْتَهَى وَيَهْضُمُ من الموائد حول الأطعمة.

الرابع: أن يُحسن الجلسة على السفرة، فينصب رجله اليمنى، ويجلس على اليسرى.

الخامس: أن ينوي بأكله أن يتقوى به على طاعة الله، ليكون مُطيعاً بالأكل، ولا يقصد التَّعَمُّ فقط، علامة صِحَّة هذه النية أخذ البليغة دون الشَّبَع، قال ﷺ: «ما ملأ ابن آدم (١) وعاءً شراً من بطن، حسب ابن آدم أكلاّت يُقَمَّنْ صُلْبَهُ، فإن كان لا محالة، فثلثُ لطعامه، وثلثُ لشرايه، وثلث لنفسه». ومن ضرورة هذه النية أن لا يمد يده إلى الطعام إلا وهو جائع وأن يرفع يديه قبل الشبع، ومن فعل ذلك لم يكد (٢) يحتاج إلى طيب؛ وسيأتي فائدة قلة الأكل، وكيفية التدرج في التقلل منه في كتاب كَسْرِ شِرَّةِ الطعام من رُبْعِ المهلكات إن شاء الله تعالى.

السادس: أن يرضى بالموجود من الرزق، ولا يحتقر اليسير، ولا ينتظر الزيادة والأدم.

السابع: أن يجتهد في تكثير الأيدي على الطَّعام ولو من أهله وولده، فقد جاء في الحديث: «أحبُّ الطعام إلى الله ما كُثِرَتْ عليه الأيدي».

### القسم الثاني في آداب حالة الأكل:

وهو أن يبدأ باسم الله في أوله، ويحمد الله في آخره، وقد روينا من حديث جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا دخل الرجلُ بيته، فذكر الله عند دُخوله، وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيتَ لكم ولا عشاء. وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيتَ. وإن لم يذكر الله عند طعامه قال الشيطان: أدركتم المبيتَ والعشاء».

ومن الأدب أن يأكل باليمين ويصغر اللقمة، ويُجود مَضْغها، ولا يمد يده إلى أخرى حتى يبتلع الأولى، وأن لا يذمَّ مأكولاً، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ، أنه ما عاب طعاماً قط، كان إذا اشتهى شيئاً أكله، وإن كرهه تركه.

(١) في الأصل: «أدمي».

(٢) في (ظ): «يكن».

ومن الأدب أن يأكل مما يليه، إلا أن يكون الطعام متنوعاً، كالفاكهة، وأن لا يأكل من ذروة القَصعة، ولا من وسطها فقد روى ابن عباس عن النبي ﷺ، أنه أتى بقَصعةٍ من ثريد فقال: «كُلُوا مِنْ حَوْلِهَا، وَلَا تَأْكُلُوا مِنْ وَسْطِهَا، فَإِنَّ الْبِرْكَهَ تَنْزِلُ فِي وَسْطِهَا».

ولياًكل بثلاث أصابع، ففي أفراد مسلم من حديث كعب بن مالك أن رسول ﷺ كان يأكل بثلاث أصابع.

فإذا وقعت لُقمة أخذها، ففي أفراد مسلم من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا سَقَطَتْ لُقْمَةٌ أَحَدِكُمْ فَلْيَأْخُذْهَا، فَلْيَمِطْ مَا بِهَا وَلْيَأْكُلْهَا، وَلَا يَدْعُهَا لِلشَّيْطَانِ».

ومن الأدب أن لا يَنْفخ في الطعام الحار بل يصبر حتى يَتَهَيَأَ أكله، ولا يجمع بين التَّمَرِ والنَّوَى في طَبَقٍ، ولا يجمعه في كفه، بل يضعه من فيه على ظَهْر كفه ثم يلقيه، وكذا كل ما له عَجْمٌ وَثُقْلٌ<sup>(١)</sup>، ولا يشرب الماء في أثناء الطعام، فإنه أجود في باب الطَّبِّ.

وأما الشرب: فأدبه أن يتناول الإناء بيمينه، ويُسمي وينظر في الإناء قبل أن يشرب، ويمص مَصّاً لا عَبّاً، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «مَصُّوا الْمَاءَ مَصّاً وَلَا تَعَبُوا عَبّاً، فَإِنَّ الْكُبَادَ<sup>(٢)</sup> مِنَ الْعَبِّ».

ولا يشرب قائماً، ففي أفراد مسلم من حديث أبي سعيد أن النبي ﷺ نهى عن الشُّرْبِ قائماً، وقد جاء عنه أنه شرب، فيحتمل أن يكون لِعُدْرٍ أو لَبِيَانِ الْجَوَازِ، ويتنفس في شُرْبِهِ ثلاثاً، ففي الصَّحِيحِينَ من حديث أنس أن النبي ﷺ كَانَ يَتَنَفَّسُ فِي الْإِنَاءِ ثَلَاثًا، والمعنى: يتنفس في شُرْبِهِ مِنَ الْإِنَاءِ، بِأَنْ يُبَاعِدَ الْإِنَاءَ عَنْهُ وَيَتَنَفَّسُ، لَا أَنْ يَكُونَ النَّفْسُ فِي الْإِنَاءِ، وَأَنْ يَحْمَدَ اللَّهَ عِنْدَ الْفِرَاقِ، وَأَنْ يُنَاقِلَ الْأَيْمَنَ فَالْأَيْمَنَ.

(١) العجم: النوى، والثقل: ما يتبقى من المادة بعد عصرها.

(٢) الكباد: وجع الكبد.

## القسم الثالث: ما يستحب بعد الطعام:

وهو أن يُمسك قبل الشُّبع، ويلعق أصابعه، ففي الصحيحين من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أكل أحدكم طعاماً، فلا يمسح يده حتى يلعقها أو يلعقها».

وأن يسَلَّتْ<sup>(١)</sup> القصعة، ففي أفراد مسلم من حديث جابر قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نسَلَّتْ القصعة، وقال: «إنكم لا تدرُونَ في أيِّ طعامكم البركة».

وليحمد الله عزوجل، ففي أفراد البخاري من حديث أبي أمامة قال: كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من طعامه، أو رُفعت مائدته قال: «الحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه، غير مكفيٍّ ولا مودَّع ولا مُستغنى عنه ربنا عز وجل». وفي أفراد مسلم من حديث أنس عن النبي أنه قال: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها، فإن أظفر عند قوم فليقل: أظفر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلَّت عليكم الملائكة».

وليغسل يده من العَمْر<sup>(٢)</sup> فقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا بات أحدكم وفي يده عَمْرٌ، فأصابه شيءٌ، فلا يلومنَّ إلا نفسه».

(١) سَلَّتْ القصعة: تتبَّع ما فيها من الطعام ومَسَحَها.

(٢) العَمْر: ما يَغمر من رائحة الدسم كل الروائح.

## الباب الثاني

### فيما يزيد من الآداب بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل

وهي سبعة:

الأول: أن لا يبتدئ بالأكل إذا كان معه من يستحق التقديم بـكبر سنٍّ أو زيادة فضل، إلا أن يكون هو المتبوع.

الثاني: أن لا يسكتوا على الطَّعام، فإن ذلك من سيرة العَجَم، بل يتكلمون بالمعروف، ويتحدثون بحكايات الصالحين في الأُطعمة وغيرها.

الثالث: أن يقصد كلُّ منهم الإيثار لرفيقه، ولا يزيد في التناول عليه، ويبسطه إذا انقبض.

الرابع: أن لا يُحوجَ رفيقه إلى أن يقول له: كل، بل يَنبَسَط، ولا يتصنَّع بالانقباض.

الخامس: أن لا يَتَنَخَّم في الطَّست إذا كان معه غيره، فإن كان وَحده، فلا بأس، ولا يرفع الطَّست حتى يمتلئ، كتبَ عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار: لا تُرفع طَّستٌ من بين يدي القوم إلا مملوءة، ولا تشبَّهوا بالعَجَم، وأن يبتدأ بالمتبوع في تقديمها إليه، وإن تدار يَمَنَّةً، وأن يكون الخادم قائماً، وأن يَمَجَّ الماء من فيه برفقٍ حتى لا يَتَضَح على أحد.

السادس: أن لا يَنظُر إلى أصحابه في حالة الأكل، لئلا يَسْتَحْيُوا، ولا يُمسك قبلهم إذا كانوا يَحْتَشِمُونَ الأكل بَعْدَه، بل يتناول قليلاً قليلاً إلى أن يَفْرغُوا، فإن امتنع لسببٍ بَيَّنَّ عُذْرَه، لئلا يَسْتَحْيُوا.

السابع: أن لا يفعل ما يستقذره غيره، فلا ينفض يده في القصعة، ولا يقدم إليها رأسه عند وضع اللقمة في فيه، وإذا أخرج شيئاً من فيه ليرمي به صرف وجهه عن الطعام، وأخذ بيساره، ولا يغمس اللقمة الدسمة في الخل، ولا الخل في الدسم، فقد يكرهه غيره، ولا يغمس بقية اللقمة التي أكل منها في المرقّة.

## الباب الثالث

### في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين

(١) فضيلة تقديم الطعام إلى الإخوان<sup>(١)</sup>: روى عبد الله بن سلام عن النبي ﷺ أنه قال: «أيها الناس، أفشوا السلام، وصلوا الأرحام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: لأن أجمع إخواني على صاع من الطعام أحب إلي من أن أعتق رقبة.

وكان سعيد بن العاص يدعو جيرانه وجلساءه كل جمعة، فيصنع لهم الطعام ويكسوهم الثياب، فإذا أرادوا أن يتفرقوا أمر لهم بالجوائز، وبعث إلى عيالهم<sup>(٢)</sup> بالنفقة الكثيرة.

وكان خيشمة يصنع الخبيص<sup>(٣)</sup> والطعام الطيب، فيدعو إبراهيم والأعمش، ويقول: كلوا فما صنعت إلا لكم.

وكان الحسن إذا دخل عليه إخوانه أتاهم بما يكون عنده، وربما قال لبعضهم: أخرج السلّة من تحت السرير. فيخرجها، فإذا فيها رطب، فيقول: إنما ادّخرته لكم.

وقال أبو خلدّة: دخلنا على ابن سيرين أنا وابن عون فرحّب بنا، وقال: ما أدري كيف أتحنّكم؟ كل رجل منكم في بيته خبزٌ ولحمٌ، ولكن سأطعمكم شيئاً لا أراه في بيوتكم. فجاء بشهدة فجعل يقطع بالسكين ويلقمننا. وكان أبو جعفر

(١-١) سقط من (ظ).

(٢) في الأصل: «عيالاتهم».

(٣) الخبيص: الحلواء المخبوضة من التمر والسمن.

محمد بن علي يدعو نفعاً من إخوانه كل جمعة فيطعمهم الطعام الطيب ويكسوهم ويجمّهم<sup>(١)</sup>، ويروحون إلى المسجد من منزله.

وأما الآداب: فبعضها في الدخول، وبعضها في تقديم الطعام، فأما الدخول فإنه لا ينبغي لأحدٍ إن علم أنّ قوماً يأكلون أن يدخل عليهم، فإن صادفهم من غير قصدٍ فسألوه الأكلَ نظر، فإن علم أنهم إنما يسألوه حياءً منه، فلا يأكل، وإن علم أنهم يحبون أكله معهم، جاز له أن يأكل، ومن دخل دار صديقه فلم يجده وكان واثقاً بصداقته عالماً أنه إذا أكل من طعامه سرّاً بذلك، جاز له أن يأكل، فقد كان أصحاب الحسن يدخلون منزله فيأكلون ما يجدون بغير إذن فكان الحسن إذا جاء فرآهم كذلك سرّاً، وقال: هكذا كنا.

وأما آداب تقديم الطعام، فتقديم ما حَضَرَ من غير تكلف، ولا يقول له: هل أقدم لك كذا؟ بل يقدمه من غير استئذان، ومن التكلف أن يُقدم جميع ما عنده، فيُجحف بعياله، فإن لم يرضَ ما عنده للضيف، وقد أن يشتري خيراً منه وكان مُحباً لذلك مؤثراً له، فليس هذا من التكلف، فقد كان إبراهيم بن أدهم يأخذ عليه بالدين ويكرم إخوانه، وربما باع ثيابه وأنفقها عليهم.

وإن قدر أن يُشهييه ويلتمس منه أن يقترح عليه إذا كانت نفسه طيبةً بذلك كان أحسن.

ومن آداب الزائر: أن لا يقترح شيئاً بعينه فربما شقَّ على المَزُورِ، فإن خيّر بين طعامين اختار أيسرهما، إلا أن يعلم أن مُضيفه يُسرُّ باقتراحه، ولا يقصر عن تحصيل ذلك، فقد نزل الشافعي على الزعفراني، وكان الزعفراني يكتب كل يوم رُقعةً بما يُطبِّخُ من الألوان ويسلمها إلى الجارية، فأخذ الشافعي الرُقعةَ وألحقَ فيها لوناً آخر، فلما علم الزعفراني اشتدَّ فرحُه.

(١) يُجمّهم: أي يُبخرهم بالبخور في المَجْمرة.

## الباب الرابع

### في آداب الضيافة

ومَطَّانُ الآداب فيها ستة: الدعوة، ثم الإجابة، ثم الحضور، ثم تقديم الطعام، ثم الأكل، ثم الانصراف.

ولنُقَدِّمَ على شَرَحِهَا فَضِيلَةَ الضَّيْفَةِ: روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ». وفي حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «حَجَّ مَبْرُورٌ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ» قالوا: ما بِرُّ الْحَجِّ؟ قال: «إِطْعَامُ الطَّعَامِ وَإِفْشَاءُ السَّلَامِ».

والأحاديث في فَضْلِ إِطْعَامِ الطَّعَامِ كَثِيرَةٌ، وقد كان إبراهيم الخليل عليه السلام إذا أراد أن يأكل خرج ميلاً أو ميلين يلتمس من يتغذى معه، وكان يكنى أبا الضيفان حتى أن مشهده إلى الآن لا يخلو من ضيف.

وأما الدَّعْوَةُ: فينبغي للداعي أن يقصد بدعوته الأتقياء دون الفساق، وقد روى أنس عن النبي ﷺ أنه كان إذا أفطر عند أهل بيت<sup>(١)</sup> قال لهم: «أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة».

وقال بعضُ السَّلَفِ: لا تَأْكُلْ إِلَّا طَعَامَ تَقِيٍّ، ولا يأكل طعامك إلا تقيٍّ.

واعلم أنَّ إِطْعَامَ التَّقِيِّ إِعَانَةٌ لَهُ عَلَى التَّقْوَى، وإِطْعَامَ الْفَاسِقِ تَقْوِيَةٌ لَهُ عَلَى الْفِسْقِ.

ويُنَبِّغِي أَنْ يَقْصِدَ الْفُقَرَاءَ دُونَ الْأَغْنِيَاءِ، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «شَرُّ الطَّعَامِ طَعَامُ الْوَالِمَةِ يُدْعَى إِلَيْهَا الْأَغْنِيَاءُ وَيُتْرَكُ الْفُقَرَاءُ».

(١) في الأصل: «بيته».

وينبغي أن لا يُهمل أقاربه في ضيافته، فإن إهمالهم يوجب الإيحاء وقطيعة الرَّحْم، وكذلك يراعي التَّرتيب في أصدقائه ومعارفه، فإن في تخصيص بعضهم إيحاءً للباقيين.

وينبغي أن لا يقصد بدعوته المباهاة والتَّفاخر بل استعمال السنة في إطعام الطعام، واستمالة قلوب الإخوان، وإدخال السرور في قلوب المؤمنين.

وينبغي أن لا يدعو من يعلم أنه يَشقُّ عليه الإجابة، وإذا حضر تأذَى من الحاضرين بسبب من الأسباب.

وينبغي أن لا يدعو إلا من يُحب إجابته.

أما الإجابة فينظر في الوليمة، فإن كانت وليمة عرسٍ فالإجابة إليها إذا كان الداعي مُسلماً واجبة، فإن دعاه في اليوم الثاني استُحِبَّ له الإجابة، فإن دعاه في اليوم الثالث لم يُستحب له الإجابة، وإن كانت وليمةً لغير العرس، فهي جائزة، والإجابة إليها غير واجبة، وفي الصحيحين من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «إذا دُعِيَ أحدكم إلى الوليمة، فليأتها». وفي أفراد البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لو دُعِيَ إلى كُرَاع<sup>(١)</sup> أو ذِرَاعٍ لَأَجِبْتُ».

وللإجابة خمسة آداب:

الأول: أن لا يميز الغني بالإجابة عن الفقير، فذلك هو التكبر المنهي عنه، فقد كان رسول الله ﷺ يجيب دعوة المملوك، ومَرَّ الحسنُ بنُ عليٍّ بقوم من المساكين قد نثروا كِسراً على الأرض وهم يأكلون فقالوا: هَلُمَّ الغداء يا ابن رسول الله. فقال: نعم، إن الله لا يُحب المستكبرين. فنزل وقَعَدَ يأكل معهم، ثم سلم عليهم، وقال: قد أجبتكم فأجيبوني. فحضرُوا فأطعمهم وأكل معهم. فأما قولُ مَنْ قال: ما وَضَعْتُ يدي في قَصْعَةٍ أحدٍ إلا وَذَلْتُ له<sup>(٢)</sup> عنقي. وقول بشر:

(١) الكُرَاع من البقر والغنم هو مستَدْقُ الساق والجمع أكرع، وقيل: أكارع الدابة قوائمها.

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «عنه».

من أراد أن يعزَّ، فلا يأكل طعامَ أحدٍ. فإنَّ ذلك يُحمل على كون الدَّاعي يَمُنُّ بفعله، ويقصدُ المباهاة بطعامه، وقد كان معروف الكرخي يُجيب كلَّ أحدٍ، ويقول: إنما أنا ضيف أنزل حيث يُنزلني.

الثاني: أن لا يمتنع عن الإجابة لبُعد المسافة، كما لا يمتنع لفقير الدَّاعي، وكان معروف يقول: إمشِ أحدَ عشر ميلاً في مَعونة أخيك، إمشِ إثني عشر ميلاً زُرُّ أخاً في الله عزَّ وجل.

الثالث: أن لا يمتنع لكونه صائماً، بل يحضر، فإن كان صومه تطوعاً وعلم أن إفطاره يسرُّ أخاه المسلم<sup>(١)</sup>، فليفطر، فإن إدخال السرور على المسلم أفضل من صوم التَّطوع، وفي أفراد مسلم من حديث جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا دُعي أحدكم إلى طعامٍ فليُجب، فإن شاء طَعِمَ، وإن شاء ترك.»

وفي أفراد من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا دُعي أحدكم فليجب، فإن كان صائماً فليصلِّ، وإن كان مُفطراً فليطعم.»

الرابع: أن يمتنع من الإجابة إن كان الطعام حراماً، أو المكان، أو البساط المفروش، أو كان في المكان مُنكرٌ من فرشٍ أو إناءٍ أو صور، أو ميزمار، وكذلك إذا كان الدَّاعي ظالماً، أو فاسقاً، أو مُبتدعاً أو مُفاحراً بدعوته.

الخامس: أن لا يقصد بالإجابة نفس الأكل، بل ينوي الاقتداء بالسنة وإكرام أخيه المؤمن بزيارته، وأكل طعامه، وينوي صيانة نفسه عن مُسيء به الظن، فربما قيل عنه إذا امتنع: هذا مُتكبر والأعمال بالنيات.

وأما الحضور: فينبغي أن لا يُفاجئ بالحضور قبل الاستعداد، ولا يتصدَّر بل يتواضع في مجلسه، وإن عيَّن له صاحب الدار مكاناً لم يتعدَّه، ولا يجلس في مكانٍ يقابل حُجرة النساء، ولا يكثر النظر إلى المكان الذي يخرج منه الطَّعام، فإنه دليلٌ على الشرِّه،

(١) ليست في (ظ).

وأما إحضار الطعام فله خمسة آداب:

الأول: تعجيله، فذلك من إكرام الضيف، ولا يؤخر عن الجماعة لانتظار شخص أو شخصين، إلا أن يكون المتأخر فقيراً، فيراعى قلبه.

الثاني: ترتيب الأطعمة بتقديم الفاكهة أولاً فذلك أصلح في باب الطب؛ لأنها سريعة الاستحالة، فينبغي أن تقع في أسفل المعدة، وقد قال تعالى: ﴿وَفَكَهَةً مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ (٢٠) وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠ - ٢١]، ثم أفضل ما يقدم بعد الفاكهة اللحم خصوصاً المشوي، فقد قال عز وجل: ﴿جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كانت تُعجبه الذراع، وروى أبو رافع قال: صُنِعَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ شاةٌ مَضْلِيَّةٌ<sup>(١)</sup> فَأُتِيَ بِهَا فَقَالَ: «يَا أَبَا رَافِعِ نَاولني الذراع» فناولته، فقال: «يا أبا رافع ناولني الذراع» فناولته، ثم قال: «يا أبا رافع ناولني الذراع» فقلت: يا رسول الله، وهل للشاة إلا ذراعين؟! قال: «لو سَكَتَ لَنَاولتَنِي مِنها ما دَعَوْتُ بِهِ».

ثم أفضل الطعام بعد اللحم الثريد، وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «أَفْضَلُ عَائِشَةَ عَلَى النَّسَاءِ، كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»، ثم الحلواء، فقد كان رسول الله ﷺ<sup>(٢)</sup> تُعجبه الحلواء، وفي الصحيحين من حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يُعجبه العسل والحلواء.

وتتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد، وفي أفراد البخاري من حديث جابر أن رسول الله ﷺ أتى قوماً من الأنصار، فاستسقى، وجدولٌ قريب منه، فقال: «إِنْ كانَ عِنْدَكُم مَاءٌ قد باتَ في شَرٍّ وإِلا كَرَعْنَا».

وتكملهُ الأَمْرُ صَبُّ المَاءِ الفاترِ على اليَدِ عندَ العَسلِ.

الثالث: تقديم جميع الألوان الحاضرة ليأكل مما يُؤثر، ولا يَنتظر ما يظن، فربما لم يكن، وقد حُكي أن جماعة كانوا في ضيافة رجلٍ، فقدم إليهم ألواناً من

(١) مَضْلِيَّة: أي مشوية.

(٢-٢) سقط من الأصل.

الرؤوس طبيخاً ومشوياً، فجعلوا يُقَصِّرون وَيَنْتظرونَ مَجِيءَ الحُمْلانِ، فجاء بالطَّسِيتِ<sup>(١)</sup> فجعل بعضهم ينظر إلى بعض<sup>(٢)</sup>، فقال بعضهم، وكان مزاحاً: إن الله عز وجل يقدر أن يخلق رؤوساً بلا أبدان. وباتوا ليلتدِّ جِيعاً.

الرابع: أن لا يُبادر إلى رفع الألوان، بل يُمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا أيديهم عنها، فلعل بعضهم يُؤثر من الذي يرفعه ما لا يُؤثر من الذي يأتي به، ومن هذا الفن أن لا يرفع صاحبُ المائدة يده قبل القوم لئلا يَسْتَحِوا.

الخامس: أن يُقدم من الطعام قَدَرَ الكفاية فإن القليل من الكفاية نقص في المروءة، وينبغي أن يعزل لأهل البيت نصيبهم قبل تقديم الطعام، لئلا تكون أعينهم طامحةً إلى رجوع شيءٍ من ذلك، وربما لم يرجع فتَضيقُ صدورهم، وتَنطلق في الضيفان ألسنتهم، وأما ما يبقى من الطعام فليس للضيفان أخذه إلا أن يأذن فيه صاحب الطعام.

وأما الانصراف، فله ثلاثة آداب:

الأول: أن يخرج مع الضيف إلى باب الدار، فإنه سُنَّة، وذلك من إكرام الضيف، ومن تمام الإكرام طلاقة الوجه، وطيب الحديث عند الدخول والخروج، وعلى المائدة.

الثاني: أن ينصرف الضيف طيب النفس، وإن جرى في حقه تقصير، فذلك من حُسن الخلق والتواضع، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إن الرجل ليدرك بحُسنِ خُلُقِهِ درجةَ الصائم القائم».

الثالث: أن لا يخرج إلا برضى صاحب المنزل وإذنه، ويُراعي قلبه في قدر الإقامة، وإذا نزل ضيفاً فلا يزيد على ثلاثة أيام، لئلا يتبرم به صاحب المنزل، ويُستحب أن يكون عند الإنسان فراشٌ للضيف النازل قال ﷺ: «فراشٌ للرجل، وفراشٌ للمرأة، وفراشٌ للضيف، والرابع للشيطان».

## فصل

يجمعُ آداباً ومناهيَ شرعيةَ وطِيبيةَ<sup>(١)</sup>

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: مَنْ أَرَادَ البقاءَ - ولا بقاءَ - فليأكل على نقاء، وليشرب على ظمأ، وليقلِّ من شُربِ الماء، ويتمدد بعد الغداء، ويتمشى بعد العشاء، ولا يبيتَنَّ ليلةً حتى يعرض نفسه على الخلاء، ودخول الحمام على البِطْنة من شَرِّ الداء، ودخلة الحمام في الصيف خير من عَشْرَةِ في الشتاء، ومن ابتدأ غداءه بملح أذهب الله<sup>(٢)</sup> عنه سبعينَ نوعاً من البلاء، ومَنْ أَكَلَ كلَّ يومِ عشرينَ زبيبةً حمراءَ لم يَرِ في جسده ما يكره، واللَّحْمُ يُنبِتُ اللَّحْمَ، ولحمُ البَقَرِ داء، وألبانها شفاء، وشحمها دواء، والسَّمكُ يُذيبُ الجسد، والسُّواكُ وقراءة القرآن يُذهبان البَلْغَمَ.

وقال الحارث بن كَلْدَةَ: أربعةُ أشياء تَهْدِمُ البَدَنَ؛ الغُشيانُ على البِطْنة، ودخول الحمام على الامتلاء، وأكل القديد، ومجامعة العجوز، ولا تزوجوا من النساء إلا شابةً، ولا تأكلوا الفاكهة إلا في أوانٍ نُضِجَها، ولا يتعالجن أحدكم ما احتمل بدنه الداء، وإذا تغدّى أحدكم فلينم على إثر غدائه ولو ساعةً، وإذا تعشّى فليحطُّ أربعينَ خطوةً.

قال الحكماء: أربعةُ أشياء تُمرضُ البَدَنَ: الأكل الكثير، والجماع الكثير، والنوم الكثير، والدم الكثير. وأربعةٌ تُقويُّ البدن: أكل اللحم، وشمُّ الطيب، وكثرة الغُسل من غير جماع، ولبس الكتان. وأربعةٌ توهنُه: كثرة الجماع، وكثرة الهَمِّ، وكثرة شُربِ الماء على الريق، وكثرة أكل الحُموضة، ومَنْ قَلَّ أَكَلُهُ قَلَّتْ عِلَّتُهُ. وقد ذكرنا مِن هذا الفنِّ وغيره الكثير في كتابنا المسمى بـ «لَقَطُ المَنافع» في علم الطب، فاقصرنا ها هنا على هذه الكلمات؛ لأنه لكلِّ مقام مقال.

(١) تصحفت في الأصل إلى: «طيبة».

(٢) ليست في الأصل.



## كتاب آداب النكاح

الحمد لله الذي بنى الأجسام بالحكم الجسام، فأقامت دهرًا، وجمع فيها بين الطبائع المختلفة قهراً، فلما قضى بنقضها سلط الشهوة عليها قسراً، ليخرج منها عوضاً<sup>(١)</sup> فيكون لكسرها جبراً، فسبحانه من قادرٍ على ما يشاء طياً ونشراً، وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً.

أحمدُهُ وللحامد البشري، وأصلي على رسوله محمدٍ سيد الدنيا والأخرى، وعلى جميع أصحابه وأتباعه ما نسَخَ يُسرُّ عُسرًا، وأسلمَ تسليماً كثيراً.

أما بعد؛ فإن النكاح مُحصنُ الدين، وموهنُ كيد الشياطين، وسببٌ لتكثير النسل الذي يُباهي به سيد المرسلين ساير النبيين، ونحن نشرح المهم من أحكامه وآدابه في ثلاثة أبواب.

الباب الأول: في الترغيب فيه.

الباب الثاني: في الآداب المرعية في العقد والعاقدين.

الباب الثالث: في آداب العيش بعد العقد إلى الفراق.

(١) في (ظ): «عوضها».

## الباب الأول

### في الترغيب في النكاح

لا يَخْتَلِفُ العُلَمَاءُ فِي أَنَّ النِّكَاحَ مُسْتَحَبٌّ وَمَنْدُوبٌ إِلَيْهِ كَثِيرَ الْفَضَائِلِ، وَقَدْ ذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى إِيْجَابِهِ، وَاخْتَلَفَ مِنْ رَأَى سُنَّةَ هَلْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْ نَوَافِلِ الْعِبَادَاتِ أَمْ لَا؟ فَقَدَّمَهُ أَكْثَرُهُمْ عَلَى نَوَافِلِ الْعِبَادَاتِ، لِمَا يَتَضَمَّنُ مِنْ مَصَالِحِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا، وَقَدْ وَرَدَ فِي فَضْلِهِ آيَاتٌ وَأَخْبَارٌ؛ أَمَا الْآيَاتُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بِهِ، فَقَالَ: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَانَ مِنْكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، وَمَنْنَ بِهِ فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]، فَذَكَرَ ذَلِكَ فِي مَعْرُضِ الْإِمْتِنَانِ.

وَأَمَّا الْأَخْبَارُ؛ فَأَخْبَرَنَا هَبَّةُ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا يَعْلَى بْنُ عُبَيْدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ بْنُ عُمَارَةَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ شَبَابًا لَيْسَ لَنَا شَيْءٌ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مِنْ اسْتِطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصْرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وَجَاءَ». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ، وَأَصْلُ الْبَاءَةِ: الْمَوْضِعُ الَّذِي يَأْوِي إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ، وَمِنْهُ اسْتُنْقَى: مَبَاءَةُ الْعَنْمِ، وَهُوَ الْمِرَاحُ الَّذِي تَأْوِي إِلَيْهِ، وَالْبَاءَةُ هَاهُنَا كِنَايَةٌ عَنِ النِّكَاحِ، وَالْوِجَاءُ: رَضُّ الْأُنْثِيِّنَ، وَالْخِصَاءُ: نَزْعُهُمَا. أَخْبَرَنَا ابْنُ الْحَصِينِ قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ الْمَذْهَبِ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ قَالَ: حَدَّثَنِي <sup>(١)</sup> أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا حُسَيْنٌ وَعِفَانٌ قَالَا: حَدَّثَنَا خَلْفُ بْنُ خَلِيفَةَ قَالَ: حَدَّثَنِي <sup>(٢)</sup> حَفْصُ بْنُ عَمْرٍو عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُ بِالْبَاءَةِ، وَيَنْهَى عَنِ التَّبْتُلِ نَهْيًا شَدِيدًا، وَيَقُولُ: «تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَالِدُودَ، فَإِنِّي مَكَاثِرٌ بِكُمْ <sup>(٢)</sup> الْأَنْبِيَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

(١-١) سقط من (ظ).

(٢) سقطت من الأصل.

وفي أفراد البخاري من حديث سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: هَلْ تَزَوَّجْتَ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: تَزَوَّجْ، فَإِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَكْثَرُهَا نِسَاءً. وَفِي حَدِيثِ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَيُّمَا شَابٍ تَزَوَّجَ فِي حَدَاثَةِ سِنِّهِ عَجَّ شَيْطَانُهُ: يَا وَيْلَهُ، عَصَمَ مِنِّي دِينَهُ». وَقَالَ طَاوُوسٌ: الْمَرْأَةُ شَطْرُ دِينِ الرَّجُلِ، وَلَا يَتِمُّ نُسْكُ الشَّابِّ حَتَّى يَتَزَوَّجَ.

وقال الإمام أحمد رحمه الله: ليس العزوبة من أمر الإسلام في شيء، ولو كان بشر بن الحارث تزوج كان قد تم أمره كله<sup>(١)</sup>، لو ترك الناس النكاح لم يُعزَّز ولم يُحجَّ، وقد تزوج النبي ﷺ أربع عشرة، وكان يُصبح وما عندهم شيء ويُمسي وما عندهم شيء، ومات عن تسع، وكان يختار النكاح ويحثُّ عليه، فمن رغب عن فعل النبي ﷺ فهو على غير الحق، لُبْكَاءُ الصَّبِيِّ بَيْنَ يَدَيْ أَبِيهِ مُتَسَخِّطاً يَطْلُبُ مِنْهُ حُبْزاً أَفْضَلَ مِنْ كَذَا وَكَذَا، أَيْنَ يَلْحَقُ التَّعْبَدَ الْعَزْبُ.

فأما ما يُروى: خيركم بعد المئتين الخفيف الحاذ، الذي لا أهل له ولا ولد، فشيء لا يثبت ولا يصح، ولا يلتفت إلى قول جماعة من المتزهدين قلَّ علمهم فذموا النكاح، وقالوا: من تزوج فقد مال إلى الدنيا. فإن المرؤذي قال: لما مدح الإمام أحمد النكاح وأثنى عليه قلتُ له: فإن إبراهيم بن أدهم قال... فما قدرت أن أتم الحديث حتى صاح بي وقال - ونحن في بُنْيَاتِ الطَّرِيقِ<sup>(٢)</sup> -: انظر عافاك الله ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه.

## ذِكْرُ فَوَائِدِ النِّكَاحِ

وهي خمس:

الفائدة الأولى: الولد، وهذه الفائدة هي<sup>(٣)</sup> الأصل فيما وُضع له النكاح؛ لأن المقصود بقاء النسل، وخلق الشهوة باعثة مُستحثة كالتلطف بالطير في بثِّ الحبِّ،

(١) تاريخ بغداد ٧/ ٧٣.

(٢) بُنْيَاتِ الطَّرِيقِ: الطرق الصغار التي تتشعب من الجادة.

(٣) في الأصل: «التي هي».

ولم تكن القدرة قاصرة عن اختراع الأشخاص ابتداءً، لكن الحكمة اقتضت ترتيب المسببات على الأسباب مع الغناء عنها إتماماً لعجائب الصنعة، وفي التوصل إلى الولد قربةً من أربعة أوجه:

الأول: موافقة محبة الله تعالى بالسعي في ذلك ليبقى جنس الإنسان.

الثاني: طلب محبة رسول الله ﷺ في تكثير من به مباحاته.

والثالث: طلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعد موت الوالد.

والرابع: طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله.

والوجه الأول أقواها عند ذوي البصائر النافذة في عجائب صنعة الله تعالى ومجاري حكمته، وبيان ذلك؛ أن السيد إذا سلم إلى عبده البذر وآلات الحرث وهياً له أرضاً مهيأة للحرثة، وكان العبد قادراً على الحرثة، ووكّل به من يتقاضاه ويحثّه، فتكاسل وعطل آلة الحرث، وترك البذر ضائعاً حتى فسد، ودفع الموكل به بنوع من الحيل كان مستحقاً للمقت والعقاب من سيده، فالله عز وجل خلق الزوجين الذكر والأنثى، وأنشأ النطفة والرحم، وسلط متقاضى الشهوة عليهما، فهذه الأفعال والآلات تنطق بلسان فصيح عن مُراد خالقها، وتنادي أرباب الأبواب بتعريف ما أُعدت له، هذا لو لم يصرح الخالق على لسان رسوله بالمراد حين قال: «تناكحوا تناسلوا» فكل ممتنع عن النكاح معرض عن الحرثة، مُضَيِّعٌ للبذر، مُعطلٌ ما خُلِقَ من الآلة المعدّة وجانٍ على مقصود الفطرة والحكمة المفهومة من شواهد الخلقة المكتوبة على هذه الأعضاء بخط إلهي ليس برقم حروف وأصوات<sup>(١)</sup> يقرؤه كل من له بصيرة ربانية نافذة في إدراك دقائق الحكمة الأزلية، ولذلك عظم الشرع الأمر في قتل الأولاد وفي الوأد؛ لأنه منع لتمام الوجود، فالناكح ساع في إتمام ما أحبّ الله تمامه، والمعرض مُعطلٌ ومُضَيِّعٌ لما كرهه الله ضياعه، كيف وقد قطع النسل المتصل من آدم إليه؟! ولأجل محبة الله سبحانه لبقاء النفوس أمر بالإطعام وحثّ عليه، وعبر عنه بعبارة القرض، فقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

(١) في الأصل: «ولا أصوات».

وأما الوجه الثاني، وهو السعي فيما يحبه رسول الله ﷺ من تكثير النسل، فقد صرَّح به: «تزوَّجوا الودود الولود، فإني مكاثرٌ بكم».

وأما الوجه الثالث: وهو أن يبقى له ولدٌ صالح يدعو له، فقد أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا سليمان بن داود قال: حدثنا إسماعيل قال: أخبرني العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا مات الإنسانُ انقطعَ عمله»<sup>(١)</sup> إلا من ثلاث: إلا من صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنتفعُ به، أو ولدٍ صالح يدعو له». انفرد بإخراجه مسلم. ولا التفات إلى قول من يقول: فربما لم يكن الولد صالحاً. لأن الغالب صلاحُ ولد المؤمن، ثم دعاؤه يُفيد وإن كان فاسقاً، ثم للوالد نيته في أنه قصدَ إيجادَ الصالح.

الوجه الرابع: أن يموت الولد قبله، فيكون شفيعاً له؛ أخبرنا أبو القاسم الكاتب قال: أخبرنا أبو علي التميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يحيى عن مالك قال: حدثني الزُّهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مسلم يموتُ له ثلاثةٌ من الولد لم يبلغوا الحنثَ فتمسه النار إلا تحلَّه القَسَمُ». أخرجاه في الصحيحين، وأخرجنا من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال للنساء: «ما منكن امرأةٌ يموت لها ثلاثةٌ من الولد إلا كانوا لها حجاباً من النار» فقالت امرأة: أو اثنين، فإنه مات لي اثنان؟ فقال رسول الله ﷺ: «واثنين». وفي أفراد مسلم من حديث أبي حسان قال: تُوفِّي ابنان لي، فقلتُ لأبي هريرة: سمعت من رسول الله ﷺ ومسلم حديثاً تُحدِّثناه تُطَيِّبُ أنفسنا عن موتانا؟ قال: «صغارهم دعائمُ الجنة، يلقى أحدهم أباه - أو قال: أبويه - فيأخذ بناحية ثوبه - أو قال: يده - كما أخذ بصنفة<sup>(٢)</sup> ثوبك هذا،

(١) في الأصل: «عنه عمله».

(٢) صنَّفهُ الثوب: طرفه.

فلا يفارقه حتى يُدخله الله وأباه الجنة». الدُّعموص: دُوبية صَغيرة تكون في الماء إذا طال مُكثه<sup>(١)</sup>.

وروى مُعاوية بنُ قُرّة عن أبيه: أن رجلاً كان يأتي النبي ﷺ ومعه ابنٌ له فقال له النبي ﷺ: «أتُحبه؟» فقال: يا رسول الله، أُحِبُّكَ الله كما أُحِبُّه ففقدته النبي ﷺ فقال: «ما فعل ابنُ فلان؟» قالوا: يا رسول الله مات، فقال النبي ﷺ لأبيه: «أما تُحِبُّ أن لا تأتي باباً من أبواب الجنة إلا وَجدته ينتظرك؟» فقال له رجلٌ: يا رسول الله، له خاصةٌ أو لِكُلِّنا؟ قال: «بل لِكُلِّكم».

أخبرنا المحمّدان؛ ابن عبد الملك وابن ناصر قالوا: أخبرنا أحمد بن الحسن بن خَيْرون قال: أخبرنا أبو علي بن شاذان، قال: أخبرنا عيسى بن محمد الطوماري قال: أخبرنا محمد بن خلف، حدثنا وكيع قال: كان لإبراهيم الحربي ابنٌ له إحدى عشر سنةً قد حفظ القرآن، ولقَّنه من الفقه شيئاً كثيراً فمات، فَجِئْتُ أُعزِّيه، فقال لي: كنتُ أشتهي موتَ ابني هذا. فقلت: يا أبا إسحاق، أنت عالم الدنيا تقول مثل هذا في صبي قد أنجَبَ<sup>(٢)</sup> وحفظ القرآن ولقَّنته الحديثَ والفقه؟! فقال: نعم، رأيتُ في النوم كأن القيامة قد قامت، وكأن صبياناً بأيديهم قِلالٌ فيها ماء يستقبلون الناس يسقونهم، وكان يوماً حاراً شديداً حرُّه فقلتُ لأحدهم: اسقني من هذا الماء. فنظر إليّ وقال لي: لستُ<sup>(٣)</sup> أبي. قلتُ: فأيّ شيء أنتم؟ فقال: نحن الصبيان الذين مِنَّا في دار الدنيا وحَلَفْنَا آباءنا نَسْتقبلهم ونَسقيهم الماء. فلهذا تمنيتُ موته. فقد ظهر بهذه الأوجه الأربعة أن فضل النكاح لأجل كونه سبباً للولد.

الفائدة الثانية: التَّحَضُّن من الشيطان بدفع عَوَائِل الشَّهوة، فإنها إذا اندفعت غَضَّ البصرَ وحَفِظَ الفَرْجَ، وهذا المعنى دون الأول؛ لأن الشَّهوة موَكَّلٌ مُتقاضٍ، وليس من يُجيب<sup>(٤)</sup> مولاه رغبة في تحصيل رضاه كمن يُجيبه<sup>(٥)</sup> لطلب الخلاص من

(١) هكذا شرحه المصنف هنا، ودعاميص الجنة: صغارها.

(٢) أنجَب: بَنَى وبان فضله على من كان مثله.

(٣) في (ظ): «أنت».

(٤) في الأصل: «يحب».

(٥) في الأصل: «يُحبه».

الموكل به، إلا أن في وجود هذه الشهوة فائدتين: إحداهما: التنبيه على لذات الجنة؛ لأن التنبيه على الشيء بجنسه، فقد نبهت هذه اللذة المنقطعة على اللذات الباقية، فحركت على<sup>(١)</sup> العمل بما يوجب الوصول إلى تلك.

والثانية: دفع الماء المحتقن، فإنه إذا اجتمع آذى، وشغل القلب بحركته عن الاهتمام بالمصالح، وغاية ما يجتهد المتقي إذا ترك النكاح أن يغض بصره ويحفظ فرجه، فأما أن يحرس قلبه من الفكر والوساوس في ذلك، فإنه لا يمكنه، وربما عارضه من تصوير الوقاع في أثناء الصلاة ما لو صرح به بين يدي مخلوق لاستحيا، والقلب في حق الخالق كاللسان في حق الخلق، ورأس مال المرید في سلوك طريق الآخرة قلبه، ودوام الصوم لا يقطع مادة الوسوسة في الأغلب، قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَحُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]: لا يصبر عن النساء، وقال قتادة: ﴿وَلَا تُحْمَلُنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: العُلْمَةُ<sup>(٢)</sup>. وهذه الشهوة هي أقوى آلة الشيطان على الآدمي، وإلى نحو هذا أشار عليه الصلاة والسلام بما روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال للنساء: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحدائكن» وإنما كان ذلك لهيجان الشهوة.

وكان الجنيد يقول: أحتاج إلى الجماع كما أحتاج إلى القوت. فالنكاح سبب لدفع الوسواس عن النفس، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام فيما انفرد بإخراجه مسلم من حديث جابر: «إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته، فليأت أهله، فإن ذلك يرد مما في نفسه». ووجه ذلك أن الوسواس إنما تقع في أمور النساء لإخراج الفضلة المحتقنة، ووظء الزوجة يُزيل ذلك أو يخففه، وقد كان الصحابة يستكثرون من النكاح لما بينا من طلب الأولاد تارة، وتحصين النفس ودفع الوسواس عن القلب أخرى.

وينبغي للمرید أن يكون همّه حراسة قلبه، فكيف وقعت فهو المقصود.

(١) في (ظ): «إلى».

(٢) العُلْمَةُ: الشبق وشدة الشهوة.

الفائدة الثالثة: ترويح النَّفس وإيناسها بمخالطة الزوجة والنظر إليها، والملاعبة لها، وفي إراحة القلب تقوية له على العبادة، فإن النفس تملُّ من التَّعبُدِ وتَنْفِرُ من الحق؛ لأنه على خلاف طبعها، فإذا رُوِّحَتْ بما يلائمها في وَقْتِ قَوِيَّتِ وَنَشْطَتْ، وفي حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ». وهذه الفائدة لا يُنكرها مَنْ جَرَّبَ إِتْعَابَ نَفْسِهِ فِي الأَذْكَارِ والأَفْكَارِ وصنوف الأعمال، وإذا حَصَلَتْ فِيهَا هَذِهِ النِّتْيَةُ - أعني ترويح النفس لتقوى على التَّعبُدِ - صار النِّكَاحُ فَضِيلَةً بِهَا.

الفائدة الرابعة: تفرُّغ القلب عن تَدْبِيرِ المَنْزَلِ والتكفُّلِ بِشُغْلِ الطَّبِخِ والكُنْسِ والفَرَشِ، وَتَنْظِيفِ الأَوَانِي، وَتَهْيِئَةِ أسبابِ العَيْشِ، فَإِنَّ الإنسانَ يَتَعَدَّرُ عَلَيْهِ أَكْثَرَ ذَلِكَ مَعَ الوَحْدَةِ، وَلَوْ كَفَلَ بِهِ لَضَاعَ أَكْثَرَ أَوْقَاتِهِ، وَلَمْ يَتَفَرَّغْ لِلْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، فَالمرأةُ الصَّالِحَةُ عَوْنٌ عَلَى الدِّينِ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ، إِذِ اخْتَلَالَ هَذِهِ الأَسْبَابُ شَوَاغِلٌ لِلْقَلْبِ، وَفِي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «تُنَكِّحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ؛ لِمَالِهَا، وَلِحَسْبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاطْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ». وَفِي أَفْرَادِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ». وَفِي حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ ثَلَاثَةٌ، وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ ثَلَاثَةٌ: مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، وَالمَسْكَنُ الصَّالِحُ، وَالمَرْكَبُ الصَّالِحُ، وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ: المَرْأَةُ السُّوءُ، وَالمَسْكَنُ السُّوءُ، وَالمَرْكَبُ السُّوءُ». وَقَالَ ﷺ: «لِيَتَّخِذَ أَحَدُكُمْ لِسَانًا ذَاكِرًا، وَقَلْبًا شَاكِرًا، وَزَوْجَةً مُؤْمِنَةً تُعِينُهُ عَلَى آخِرَتِهِ».

وقال عمر بن الخطاب: ما أُعْطِيَ عَبْدٌ بَعْدَ الإِيمَانِ بِاللَّهِ خَيْرًا مِنْ امْرَأَةٍ صَالِحَةٍ.

وقال محمد بن كعب القُرظي في قوله ﴿رَبَّنَا ءَانِسَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البقرة:

٢٠١]: المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ. وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ: الزَّوْجَةُ الصَّالِحَةُ لَيْسَتْ مِنَ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا تُفَرِّغُكَ لِلآخِرَةِ. وَإِنَّمَا يَكُونُ تَفْرِيعُهَا بِتَدْبِيرِ المَنْزَلِ وَبِقَضَاءِ الشَّهْوَةِ جَمِيعًا.

الفائدة الخامسة: مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية، والقيام بحقوق الأهل، والصبر على أخلاقهنّ، واحتمال الأذى منهن، والسعي في إصلاحهنّ، وإرشادهنّ إلى طريق الدين، والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن، والقيام بتربية الأولاد، وكل هذه أعمالٌ عظيمةُ الفضل، فإنها رعايةٌ وولايةٌ، والأهلُ والأولاد رعية، وفضل الرعاية عظيم، وإنما يحتَرزُ منها من يحتَرزُ خيفةً من القُصور عن القيام بحقها، وليس من اشتغل بإصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل بإصلاح نفسه فقط، ولا من صَبَرَ على الأذى كمن رَفَهُ نفسه وأراحها، فمقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد في سبيل الله عز وجل، وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «نَفَقَةُ الرجل على أهله يَحْتَسِبُهَا صدقة». وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «دينارٌ أَنْفَقْتُهُ في سبيل الله عز وجل، ودينارٌ أَنْفَقْتُهُ في رَقَبَةٍ، ودينارٌ تَصَدَّقْتَ به، ودينارٌ أَنْفَقْتُهُ على أهلك أَفْضَلُها الدِّينَارُ الذي أَنْفَقْتُهُ على أهلك». وفي أفراد من حديث ثوبان عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الدنانير دينارٌ ينفقه الرجل على عياله». وفي أفراد من حديث سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال له حين عادَه: «إن نفقتك على عيالك صدقة، وإن ما تأكل امرأتك من مالك صدقة». وقال ابنُ المبارك يوماً لإخوانه في الغزو: تَعْلَمُونَ عملاً أفضل مما نحنُ فيه؟ قالوا: ما نَعْلَمُ ذلك. قال: أنا أعلم رجلٌ مُتَعَفِّفٌ ذو عيال قام من الليل فنظر إلى صبيانه نياماً مُتَكَشِّفِينَ فَسْتَرَهُمْ وَعَظَاهُمْ بِثَوْبِهِ فَعَمَلُهُ أَفْضَلُ مما نحنُ فيه.

ثم في الصَّبَرِ على أخلاق الزوجة والعيال رياضةٌ للنفس، وكسْرٌ للغَضَبِ، ولا ينتفع بهذه الفائدة إلا أحد رجلين؛ إما رجلٌ قَصَدَ المجاهدةَ والرياضةَ وتهذيب الأخلاق لكونه في بداية الطريق، فلا يبعد أن يرى هذا طريقاً في المجاهدة فيرتاض به، وإما رجلٌ عابداً عَمَلُهُ بالجوارح فحسب ليس له سَيْرٌ بالباطن، ولا حركةٌ بالفكر والقلب، فعمله لأهله وأولاده والقيام بتدبيرهم أفضل له من عبادات البدن التي لا يتعدى خيرها، فأما الرجل المهذب الأخلاق الذي له سَيْرٌ بالباطن، فلا ينبغي أن يتزوَّج لهذا الغرض.

## ذِكْرُ آفَاتِ النِّكَاحِ

**الأولى:** وهي أقواها: العجز عن طلب الحلال، فإنَّ ذلك يصعب، فربما مدَّ المتزوجُ يده إلى ما ليس له، وفي الحديث: «يُنَادَى يوم القيامة: أينَ الذي أكلتَ عيالَهم أماناتهم». وقلَّ أن يتخلص من هذه الآفة<sup>(١)</sup> إلا مَنْ له مالٌ مِنْ وجهِ حلالٍ يَفي به وبعياله أو قناعة منه ومنهم.

**الآفة الثانية:** القصور عن القيام بحقوق النساء، والصبر على أخلاقهن وأذهن، وفي هذا خطر؛ لأن الرجل راع، وهو مسؤولٌ عن رعيته، ولهذا اعتذر بشرٌ وقال: يمنعني من النكاح قوله تعالى: ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فلا يسلم من هذه الآفة إلا حكيماً عاقل حَسَنَ الأخلاق بَصِيرٌ بعباداتِ النساء، صبورٌ عليهن، حريصٌ على الوفاء بحقوقهن، متغافلٌ عن زللهن.

**الآفة الثالثة:** أن يكون الأهلُ والولدُ شاغلاً له عن الله سبحانه، فيقضي ليله ونهاره في التمتع بهن، فلا يتفرغ القلب للفكر في الآخرة، والعمل لها.

فهذه مجامع الآفات والفوائد، فالحكم على شخصٍ واحدٍ بأنَّ الأفضل له النكاح أو العزوبة مطلقاً قصوراً عن الإحاطة بمجامع هذه الأمور، بل ينبغي للمريد أن يعرض<sup>(٢)</sup> نفسه على<sup>(٣)</sup> هذه الأحوال، فإن انتفت عنه الآفات واجتمعت له الفوائد بأن كان له مالٌ<sup>(٣)</sup> حلال، وحسن خلق، وجدَّ في الدين لا يشغله النكاح عنه، وهو مع ذلك شابٌ يحتاج إلى تسكين الشهوة، ومتفرِّدٌ يحتاج إلى تدبير المنزل، فلا شك أن النكاح له أفضل مع ما فيه من السعي في تحصيل الولد، وإن انتفت الفوائد واجتمعت الآفات، وكان ممن لا يحتاج إلى النكاح، فتركه له أصلح، وإن تقابلَ الأمران فينبغي أن يُغلبَ ما يزيد به دينه على ما ينقصه، وهذا كله إنما هو<sup>(٤)</sup> في حق من لم يحتاج إلى النكاح، وأما إذا احتاج، فإنه يلزمه.

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الأمة».

(٢-٢) سقط من الأصل.

(٣) في الأصل: «وجه».

(٤) ليست في الأصل.

## الباب الثاني

### فيما يُراعى حالة العقد من أحوال المرأة وشروط العقد

أما العقد فشروط صحته خمسة: الولي، وإذن المولّى عليها، إلا أن الأب يُزوج أولاده الصغار وبناته الأبنكار البلّغ بغير إذنهم، والشهود، والإيجاب والقَبول. وآدابه: تقديم الخُطبة إلى الولي، لا في حالِ عدّة المرأة إن كانت مُعتدّة، ولا في حالِ سَبَقٍ<sup>(١)</sup> مَنْ قد سَكَنوا إلى خُطبته، والنظرُ إلى المرأة قَبْلَ النكاح، وإخبارُ الوليِّ إياها بأمرِ الرّوج، فإن كانت بِكرًا فَسُكوتها إزنها، ثم الخُطبة قبل النكاح، وأن يكون الصّداق معلوماً وخَفيفاً، وإحضار جماعة من أهل الصّلاح مع الشاهدين.

ومن آدابه أن ينوي بالنكاح إقامة السّنة، وغضّ البصر، وطلب الولد إلى غير ذلك من الفوائد التي ذكرناها، ولا يكون قَصْدُه مجرد التّمتع، وأن يعقد في يوم جمعة بعد العَصْر، ويُستحب أن يُقال إذا وقع العقد: بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خَيْرٍ وعافية.

وأما المنكوحه فيعتبر فيها نوعان: أحدهما: الجِلّ، وهو أن تكون خَلِيَةً من موانع النكاح، مثل أن تكون في نكاح الغير، أو في عِدَّتِه، أو مُرتدّة أو مُحرمة بالرّضاع إلى غير ذلك.

والثاني: لطيب المعشر وحُصول المقاصد، وهي ثمانية: الدّين، والخُلُق، والحُسْنُ، وخِفّة المَهْر، والبكارة، والولادة، والنّسب، وأن لا يكون قرابة قريبة.

(١) في الأصل: «سبق واحد».

فأما الأول: وهو الدين، فهو الأصل، فإنها إذا كانت ضَعِيفَةً الدِّينِ في صيانة نفسها أزرَتْ بزوجها، وكدَّرت عَيْشَهُ، فإن سلكَ سبيلَ الغيرة لم يَزَلْ في بلاء، وإن سكتَ كان متهاوناً بعرضه ومنسوباً إلى قلة الحمية، وإن كانت فاسدة الدين من وجهٍ آخر مثل استهلاك ماله كان سبباً لفقره، وتشتيت همّه، وإنما قال النبي ﷺ: «عليك بذات الدين» لأنها تُعِينُ على الدين، فإذا لم يكن لها دينٌ أفسدت دين الرجل أو كدَّرت عليه العيش.

الثاني: حُسن الخُلُق، هو أصلٌ مهم، فإنها إذا كانت بذيئة اللسان سيئة الخُلُق كافرةً للنعم كان ضررها أكثر من نفعها، ولا سبيل إلى تعْرِفِ<sup>(١)</sup> أخلاقها إلا من خبيرٍ بها غير حاسدٍ لها فيُقَصِّر، ولا شديد المحبة فيميل.

الثالث: الحُسن، وذلك مطلوبٌ، إذ به يحصلُ التَّحْصُنُ، والدَّميمة لا تكفي غالباً، ولهذا أمرنا بالنظر إلى المنكوحه، وقد كان أقوامٌ لا ينظرون في الحُسن ولا يقصدون التمتع، كما اختار الإمام أحمد رحمه الله امرأةً عوراء على أختها، إلا أن هذا ينذر، والطَّباع على ضِدِّه.

الرابع: خِقة المَهْر، قال عمر بن الخطاب: لا تُغالوا في مهور النساء. وقد زَوَّجَ سَعِيدُ بن المسيَّب ابنته على درهمين، وكما تُكره المغالاة في المهر من جهة المرأة يُكره السؤال عن ما لها من جهة الرجل، قال الثوري: إذا تزوج وقال: أي شيءٍ للمرأة؟ فاعلم أنه لص.

الخامس: البكارة، وفي الصحيحين من حديث جابر أن رسول الله ﷺ سأله: «هل تزوجت؟» فقال: نعم. قال: «ثيباً أو بكرًا؟» قال: ثيباً. قال: «فهلَّا تزوجت بكرًا تُلَاعِبُها وتُلَاعِبُكَ».

وفي البكارة فائدتان؛ إحداهما: أن البكر تُحبُّ الزَّوجَ وتألَّفُه فيوجبُ ذلك الوُدَّ، قال عليه الصلاة والسلام: «عليكم بالودود». والطَّباع مَجْبُولَةٌ على الأُنس

(١) في (ظ): «تعريف».

بأول مألوفٍ وَاكْدُ الحُبِّ غالباً ما يقع<sup>(١)</sup> مع الحبيب الأول. والثانية: أنه أكمل لمودته لها؛ لأن الطَّبعَ يَنفِرُ عن التي مَسَّها غير الزوج، ويثقل عليه تذكُّرُه.

السادس: أن تكون وُلوداً، وذلك يُعتبر بحالتها إن كان لها زَوْجٌ قبل ذلك، أو بأقاربها، أو نسبها الموجب لذلك.

السابع: النسب وهو أن تكونَ من بيتِ دينٍ وصلاحٍ؛ لأنها إذا لم يُربَّها أهلُ الدين لم تُحسِن تربيَّةَ أولادها على ذلك الوصف، قال عليه الصلاة والسلام: «إياكم وخُضراءِ الدِّمَنِ» ف قيل: ما خُضراءِ الدِّمَنِ؟ فقال: «المرأةُ الحَسَناءُ في المَنبِتِ السوءِ». وقال: «تَحَيَّرُوا لِنُطْفِكُمْ، فَإِنَّ العِرْقَ نَزاعٌ».

الثامن: أن لا تكون من القَرابة القَريبة، فإن ذلك يُقلل الشَّهوة؛ لأن الشهوة إنما تَنبعث بالأمر العَريب الجديد، والقَرابةُ مألوفةٌ، وقِلَّةُ الشَّهوة توجب أن يكون الولد ضاويًا<sup>(٢)</sup>، وكما أنه ينبغي للرجل أن ينظر المرأة، ينبغي للولي أن ينظر للمرأة في دين الرجل<sup>(٣)</sup> وأخلاقه وأحواله؛ لأنها تصيرُ بالنكاح مَرقوقةً، ومتى زَوَّجها من فاسقٍ أو مُبتدعٍ فقد جنى عليها وعلى دين نفسه، إذ تعرَّضَ لِسَخَطِ رَبِّه، قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ زَوَّجَ كَرِيمَتَه من فاسقٍ<sup>(٤)</sup> فقد قَطَعَ رَحْمَها». وقال رجلٌ للحسن: قد خَطَبَ ابنتي جماعةً، فمَمَّنَ أزواجها؟ قال: مَمَّنَ يَتَّقِي اللهَ، فإنه إن أَحَبَّها أكرمها، وإن أَبغضها لم يظلمها.

(١) ليست في الأصل.

(٢) ضاويًا: هزيلاً.

(٣) في (ظ): «حق الزوج».

(٤) بعدها في (ظ): «أو مبتدع».

## الباب الثالث

### في آداب المعاشرة وما يجري في دوام النكاح والنظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة

أما الزَّوج؛ فعليه مراعاة الاعتدال والأدب في اثني عشر أمراً: في الوليمة، والمُعاشرة، والدُّعابة<sup>(١)</sup>، والسياسة، والغيرة، والنَّفقة، والتعليم، والقَسَم، والتَّأديب بالنشوز، والوِقاع، والولادة<sup>(٢)</sup>، والطلاق.

الأدب الأول: الوليمة: وهي سنةٌ مُستحبةٌ، وفي الصحيحين من حديث أنس أن عبد الرحمن بن عوف تزوج امرأةً، فقال له رسولُ الله ﷺ: «أولم ولو بشاة».

الثاني: حُسْنُ الخُلُقِ مَعَهُنَّ، واحتمالُ الأذى منهنَّ لِقُصورِ عُقولهنَّ، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «استوصوا بالنساء، فإن المرأة خُلِقَتْ من ضَلَعٍ، وإنَّ أعوجَ ما في الضَّلَعِ أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كَسَرْتَهُ، وإن تركته لم يزل أعوجَ، فاستوصوا بالنساء». أخبرنا عبد الوهاب قال: أخبرنا عاصم قال: أخبرنا ابن بَشْران قال: أخبرنا ابن صفوان قال: حدثنا عبد الله بن محمد قال: حدثنا الحسنُ بن الصَّبَّاح قال: حدثنا مَكِّي بنُ إبراهيم قال: حدثنا موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «أيها الناس، إن النساءَ عَوَانٍ<sup>(٣)</sup> عندكم، لا يملكن لأنفسهن نفعاً ولا ضرراً، أخذتموهن بأمانة الله عز وجل، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، لكم عليهنَّ حق، ولهنَّ عليكم حق، فمن حَقَّكُم عليهنَّ أن لا يوطئنَ فُرْشَكُم ولا يعصينكم في معروف، فإذا فعلنَّ

(١) تحرفت في (ظ) إلى: «الرعاية».

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) عوان: جمع عانية، أي أسيرة.

ذلك فلهنَّ رزقهنَّ وكِسوتهنَّ بالمعروف، فلا تُضربوهنَّ، فإنَّ ضُربتموهنَّ فاضربوهنَّ ضرباً غير مُبرح».

واعلم أنه ليس حُسن الخُلق مع المرأة كَفَّ الأذى عنها بل احتمالُ الأذى منها، والحِلم عند<sup>(١)</sup> طيشها وغضبها اقتداءً برسول الله ﷺ، فقد كان أزواجُ رسولِ الله ﷺ يراجِعُنَّهُ، وفي الصحيحين من حديث عُمر بن الخطاب قال: تَغَضَّبْتُ يوماً على امرأتي، فإذا هي تُراجِعني، فأنكرت أن تُراجِعني، فقالت: ما تُنكر أن أراجِعَكَ؟ فوالله إن أزواجَ رسولِ الله ﷺ ليُراجِعنه، وتَهجره إحداهنَّ اليوم إلى الليل. فدخلتُ على حفصةَ فقُلْتُ: أتراجِعنَّ رسولَ الله؟ قالت: نعم. قلتُ: وتَهجره إحدائكنَّ اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم. قلتُ: قد خابَ مَنْ فعل ذلك منكنَّ وخَسِر.

أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المُذهب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن العِيزار بن حُرَيْث عن النُّعمان بن بَشِير قال: جاء أبو بكر يَسْتأذن على النبي ﷺ، فسمعَ عائشةَ وهي رافعة صوتها على رسولِ الله ﷺ، فأذن له فدخلَ، فقال: يا بنتَ أمِّ رومان - وتناولها - أترفعين صوتكِ على رسولِ الله؟! قال: فقال النبي ﷺ بينه وبينها. قال: فلما خَرَج أبو بكر جعل النبي ﷺ يقول لها يَتَرَضَّاهَا: «ألا تَرين أني قد حُلْتُ بين الرجل وبينكِ؟». قال: ثم جاء أبو بكر فاستأذَن، فوجدها يُصاحكُها فأذن له فدخلَ، فقال أبو بكر: يا رسولَ الله أشركاني في سِلْمِكُما كما أشركتُماني في حربِكُما.

الثالث: أن يُداعبها ويُمازِحها، وقد كان رسول الله ﷺ يُداعب نساءه، وقال لجابر: «هَلَّا تزوجتَ بكراً تُلاعِبها وتُلاعِبك». وقد سابق عائشةَ فسبقتُه، فعاد فسابقها فسبقتها، فضحك وجعل يقول: «هذه بتلك». وفي الصحيحين من حديث عائشةَ قالت: رأيتُ رسولَ الله ﷺ يَسْتُرني بردائه وأنا أنظر إلى الحَبْشَةَ يلعبون في المسجد حتى أكون أنا أسأم فأقعُد، فاقدروا قَدَرَ الجارية الحديثة السِّنَّ الحريصة

(١) في الأصل: «عن».

على اللّهُو. قالت: وكنتُ أَلْعُبُ بِالْبَنَاتِ، فكان صواحيبي يأتين، فكنَّ إذا رأينَ رسولَ الله ﷺ يَنْقَمِعَنَ منه، فكان رسولُ الله ﷺ يُسْرِبُهُنَّ إِلَيَّ يَلْعَبَنَ معي. وفي حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي».

وقال عُمر بن الخطاب: يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ فِي أَهْلِهِ مِثْلَ الصَّبِيِّ، فَإِذَا التَّمَسَ مَا عِنْدَهُ وَجَدَ رَجُلًا.

الرابع: أن لا يَنْبَسِطَ فِي الدُّعَابَةِ وَحُسْنِ الْخَلْقِ إِلَى أَنْ تَسْقُطَ هَيْبَتُهُ بِالْكَلِيَّةِ عِنْدَ الْمَرَأَةِ، بَلْ يُرَاعِي الْإِعْتِدَالَ فِي ذَلِكَ، وَلِيَنْقَبِضُ إِذَا رَأَى مَا يُنْكِرُهُ، وَإِذَا رَأَى مَا يَخَالَفُ الشَّرْعَ تَنْمَّرٌ<sup>(١)</sup> وَامْتَعَضَ.

وفي الجملة؛ يَنْبَغِي أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقَ الْاِقْتِصَادِ فِي الْمَخَالَفَةِ وَالْمُوَافَقَةِ، وَيَتَّبِعَ الْحَقَّ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ، وَلَا يَدَّ مِنْ لُطْفٍ مَمزُوجٍ بِسِيَاسَةٍ، وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ عُمر بن الخطاب أَنَّهُ عَتَبَ عَلَيَّ بَعْضَ عُمَالِهِ، فَكَلَّمْتُ امْرَأَةً عُمرَ، فَقَالَتْ لِي: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَ وَجَدْتَ عَلَيَّ؟ فَقَالَ: يَا عِدْوَةَ اللَّهِ! وَفِيمَ أَنْتِ وَهَذَا؟! إِنَّمَا أَنْتِ لُعْبَةٌ يَلْعَبُ بِكَ ثُمَّ تُتْرَكِينَ.

الخامس: الْإِعْتِدَالَ فِي الْغَيْرَةِ، وَهُوَ أَنْ لَا يَتَغَافَلَ عَنِ مَبَادِي الْأُمُورِ الَّتِي تُخْشَى غَوَائِلُهَا، وَلَا يُبَالِغُ فِي إِسَاءَةِ الظَّنِّ وَتَجَسُّسِ الْبَوَاطِنِ، وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلًا، وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ طُرُوقِ النِّسَاءِ، فَعَجَلَ رَجُلَانِ فَوَجَدَا عِنْدَ أَهْلِهِمَا مَا يَكْرَهُانِ.

وقال عليُّ رضي الله عنه: لَا تُكْثِرِ الْغَيْرَةَ عَلَيَّ أَهْلُكَ، فَتُرْمَى بِالسُّوءِ مِنْ أَجْلِكَ.

وأما الْغَيْرَةُ فِي مَوْضِعِهَا فَمَحْمُودَةٌ، وَفِي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغَارُ». وَفِيهِمَا مِنْ حَدِيثِ الْمَغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةٍ سَعَدَتْ؟ وَاللَّهِ لَأَنَا أَعْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهِ أَغْيَرُ مِنْي، وَمَنْ أَجَلَ غَيْرَةَ اللَّهِ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ». وَفِيهِمَا مِنْ حَدِيثِ

(١) تَنْمَّرٌ: غَضِبَ وَتَغَيَّرَ وَجْهَهُ.

ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «لا أحدَ أُغَيَّرَ من الله عز وجل». وقد جاء في الحديث: «منَ الغَيْرَةِ ما يُحِبُّه اللهُ، وهي الغيرة في الرِّبِّية، ومنها ما يُبْغِضُهُ اللهُ، وهي الغيرة في غير الرِّبِّية».

واعلم أن المانع لوجود الغيرة أن لا يدخُلَ على المرأة الرجال، ولا تخرج هي من البيت، وقد رُوينا أن عليَّ بن أبي طالب قال لفاطمة: ما خَيْرَ [حالِ] النساء؟ قالت: لا يرينَ الرجالَ ولا يرونهنَّ. قال علي: فذكرتُ ذلك للنبي ﷺ، فقال: «إنما فاطمة بَضْعَةٌ مِنِّي».

ورأى مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ امرأته تَطَّلِعُ من كُوَّةٍ<sup>(١)</sup>، فَضَرَبَهَا. وقد كان النبي ﷺ يقول: «إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها» فلما رأَتْ عائشة ما جرى بعده قالت: لو عَلِمَ رسولُ الله ما أحدثَ النساءُ بعده لمنعهنَّ الخروجَ.

وينبغي للمرأة أن لا تخرج من بيتها مهما أمكن، فإذا خرجت فينبغي أن تَغْضُ بصرها عن الرجال، فإن نظرها إليهم جائز ما لم يُثِرْ لها شهوةً، كنظر الرجل إلى الأُمردِ، فإن أثار شهوةً حَرَمَ.

السادس: الاعتدال في التَّفَقَّةِ، والقصد دون الإسراف والتقتير قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، ولا ينبغي للرجل أن يستأثر عن أهله بالطعام الطَّيِّبِ، فإن ذلك مما يُوْغِرُ الصَّدْرَ، فإن أباي، فليستر ذلك عنهم، وأهم ما يجب عليه مُراعاته في الإنفاق على المرأة أن يُطْعِمَهَا من الحلال.

السابع: أن يتعلَّم المتزوج من علم الحَيْضِ وأحكامه وما يَدْرِي به كيف مُعَاشِرَةِ الحائضِ، ويُلقِّنْهَا الاعتقادَ الصحيحَ، ويُزِيلَ عن قلبها بدعةً إن كانت، ويُعلمها أحكامَ الصلاةِ، والحَيْضِ، والاستحاضَةِ، فيُعرفها أنه إذا انقطع دَمُهَا قبل المغرب بمقدار ركعة فعليها قِضَاءُ الظُّهْرِ والعَصْرِ، وإذا انقطع قبل الصُّبْحِ بمقدار ركعة فعليها

(١) الكُوَّةُ: الثُّقْبَةُ في الحائط.

قضاء المغرب والعشاء<sup>(١)</sup>، وهذا لا يكاد النساء يُراعينه، فإن قام الرجل بتعليمها، فليس لها الخروج لسؤال العلماء، وإن ناب عنها في سؤالهم كفأها، وإن لم يكن ذلك جازاً لها الخروج.

الثامن: مَنْ كان له نسوة فينبغي أن يعدلَ بينهن، والعدل في المبيت والعطاء، لا في الحبِّ والوطءِ، فإن ذلك لا يملك، فإن سافر وأراد استصحاب إحداهنَّ أقرعَ بينهنَّ، كما كان رسولُ الله ﷺ يفعل، وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من كانت له امرأتان يميل لإحدهما على الأخرى جاء يوم القيامة يُجرُّ أحدَ شِقِيه ساقطاً أو مائلاً».

وإذا وهبت إحداهنَّ ليلتها لصاحبها ورَضِيَ الزوجُ بذلك ثبتَ الحقُّ لها، وقد كان رسولُ الله ﷺ أراد طلاقَ سودةَ فوهبت ليلتها لعائشةَ وسألته أن يُقرَّها على الزَّوجِية لتُحشَرَ في زُمرَةِ نِسائه ففعل، وكان رسولُ الله ﷺ إذا تاقَتْ نفسُه إلى إحدى نِسائه فجامعها في غير يومها طافَ على سائر نِسائه في ذلك اليوم.

التاسع: التُّشوز، وإذا كان التُّشوز من المرأة فله أن يُؤدِّبها ويحملها على الطاعة قهراً، ولكنه ينبغي أن يتدرج في تأديبها بتقديم الوَعظ والتَّخويف، فإن لم يَنجِع<sup>(٢)</sup> ولأها ظَهَرَه في المَضْجَع أو انفرد عنها بالفراش وهجرها وهو في البيت من ليلَةٍ إلى ثلاثِ لَيالٍ<sup>(٣)</sup>، فإن لم يَنفَع ضَرْبُهَا ضرباً غيرَ مُبرح، وهو أن يُؤلمها ولا يُدْمِي لها جسماً، ولا يَضْرِب وجهها، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا تَضْرِب الوَجْهَ، ولا تُقَبِّح، ولا تَهْجُر إلا في البيت».

العاشر: في آداب الجماع؛ يُستحب البداية بالتَّسمية، والانحرافُ عن القِبلة، وأن يَتَغَطَّى هو وأهلُه بثوبٍ، ولا يكونا مُتَجَرِّدين، وأن يبتدئَ بالملاعبة والضَّمَّ

(١) وهذا قول مالك والشافعي وأحمد، وقال الثوري وأبو حنيفة: لا يجب عليها إلا الصلاة

التي طهرت في وقتها وحدها. انظر «المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف» ٣ / ١٨٠.

(٢) نَجَعَ الشيءُ نجوعاً: نَفَعَ وظهر أثره.

(٣) ليست في (ظ).

والتقبيل، وفي الصحيحين من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقنا، فإن قُدِّرَ بينهما في ذلك ولدٌ لم يضره الشيطان أبداً».

ومن العلماء من استحَبَّ الجماع يوم الجمعة لقوله: «مَنْ غَسَلَ وَاغْتَسَلَ». ثم إذا قَضَى وطره فليتمهَّل على أهله ليقضي وطرها، فإن إنزالها ربّما تأخر، فتتأذى بتهيُّج شهوة لم تُقْضَ.

والاعتدال أن يأتيها في كلِّ أربع ليالٍ مرةً، ولينظر في قدر حاجته وحاجتها إلى التحصين فليفعل بمقتضى ذلك، فإن تحصينها لازمٌ له، ولا يجوز أن يأتيها في الحيض ولا بعد انقطاعه قبل الغسل، ولا في المأْتى، وله أن يستمتع بجميع بدن الحائض دون الفرج.

ومن الآداب أن تأتزر الحائض بإزارٍ من حَقْوِيهَا<sup>(١)</sup> إلى ما فوق الرُّكبة، ومن أراد أن يُجامع مرةً ثانيةً فليغسل فرجه، وفي أفراد مسلم من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا غَشِيَ أحدكم أهله ثم أراد أن يعود، فليتوضأ ووضوءه للصلاة».

ومن الأدب أن لا يحلق شعره، ولا يُقلم أظفاره، ولا يخرج دماً وهو جنب. وأما العزْلُ فمباحٌ، وفي الصحيحين من حديث جابر قال: كُنَّا نَعزِلُ على عهد رسول الله ﷺ والقرآن ينزل، وقد كُرِهَ العزْلُ؛ لأنه على خلاف ما وُضِعَ النكاحُ له، وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد أنهم سألوا رسولَ الله ﷺ، فقالوا إنا نُصيبُ سبايا فنحبُّ الأثمان، فكيف ترى في العزْل؟ فقال: «وإنكم لتفعلون ذلك؟ لا عليكم أن لا تفعلوا، فإنها ليست نَسْمَةً كتَبَ اللهُ أن تخرَجَ إلا وهي خارجة». وهذه الكراهة كراهةُ فوتِ فضيلةٍ، كما يُقال: يُكره للقاعد في المسجد أن لا يشتغل بالقرآن، وليست بكراهةٍ تحريمٍ ولا تنزيهٍ؛ لأن الذي يعزل كأنه لم يَطَأْ؛ لأن الولد لا يُخلَقُ من ماء الرجل وحده، بخلاف ما لو وُطِيَ واختلط الماءان، فإن ذلك

(١) الحَقْوُ: الحَصْر.

مُستعدُّ لقبول الحياة، فإفساده جِنَاية، فإن صار مُضغَةً وعلقةً كانت الجِنَاية أْفحش، فإن نُفِخَ فيه الروحُ زادت الجِنَايةُ تَفاحُشاً، فوجود الماءين كوجود الإيجاب والقبول في العقود، فمَن أوجب ثم رجع قبل القَبول لم يُقل: إنه قد جنى على العقد بالفسخ، وإنما يَجني إذا انضمَّ القَبولُ إلى الإيجاب، وللذي يعزل ثلاثة مقاصد؛ إحداهما: حفظ ماله في الجوّاري لئلا يكون الولدُ سبباً للخروج عن كمال المِلك. والثاني: استبقاء جمال المرأة وسِمْنُها لدوام التَّمتع. والثالث: الاحتراز من الحاجة إلى فضل كسب، وكل ذلك مُباح.

الحادي عشر: في آداب الولادة وهي ستة:

الأول: أن لا يكثر فرحه بالذَكَرِ وحُزنه بالأنثى، فإنه لا يدري في أيّهما الخيرة، وفي الصحيحين من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن ابتلي من البناتِ بشيءٍ، فأحسنَ إليهنَّ كُنَّ سِتراً له من النار». وفي حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن كَرَّ له ثلاث بناتٍ يُؤويهنَّ ويرحمهنَّ ويكفلهنَّ، وجبت له الجنة البتة» قيل: يا رسول الله، فإن كانتا اثنتين؟ قال: وإن كانتا اثنتين. قال: فرأى بعض القوم أن لو قالوا له: واحدة. لقال: واحدة.

الأدب الثاني: أن يُؤدّن في أذن المولود فقد روى أبو رافع أن النبي ﷺ أذّن في أذن الحسن بن عليٍّ<sup>(١)</sup> لما ولدته فاطمة.

الأدب الثالث: أن يُسميه باسم حسنٍ، وفي أفراد مسلم من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أحبَّ أسماءكم إلى الله عز وجل؛ عبد الله وعبد الرحمن». ومن كان له اسمٌ مكروه استحبَّ له تَبديلُه، فقد غيّر النبي ﷺ أسماء جماعية، وفي أفراد مسلم من حديث ابن عمر أنّ النبي ﷺ غيّر اسمَ عاصية، فقال: «أنتِ جميلة». وقد كُره من الأسماء أفلح، ونافع، ويسار، ورباح، وبركة؛ لأنه يُقال: أهو ثم؟ فيقال: لا.

الأدب الرابع: العقيقة عن الذكر بشاتين وعن الأنثى بشاة، وفي أفراد البخاري

(١) بعدها في (ظ): «للصلاة».

من حديث سلمان بن عامر أن النبي ﷺ قال: «مع الغلام عَقِيقَتُهُ، فأهريقوا عنه الدَّم، وأميطوا عنه الأذى». قال ابن سيرين: إن لم تكن إمطة الأذى حلق الرأس، فلا أدري ما هو. وروى سَمُرَةَ عن النبي ﷺ أنه قال: «الغلام مُرْتَهَنٌ بِعَقِيقَتِهِ، تُذَبِّح عنه يوم السابع، ويُسَمَّى ويُحَلَّقُ رأسُه». قال الترمذي: هذا حديث صحيح والعمل عليه عند أهل العلم يَسْتَحْبُونَ أن تُذَبِّح عن الغلام العَقِيقَةُ يوم السابع، فإن لم يتهياً فَيَوْمَ الرَّابِعِ عَشَرَ، فإن لم يتهياً، فَيَوْمَ أَحَدِ وَعَشْرِينَ، ولا يُجْزَى في العَقِيقَةُ إلا ما يُجْزَى في الأَضْحِيَّةِ.

**الأدب الخامس:** أن يُحَنِّكَه بتمرة أو حلاوة، فإن رسول الله ﷺ حَنَّكَ عبد الله بن الزبير بتمرة.

**الأدب السادس:** الختان، وفي حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ خَتَنَ الحَسَنَ والحُسَيْنَ يوم السابع وَعَقَّ عنهما.

**الثاني عشر:** في الطلاق، وهو أَبْعَضُ المَبَاحَاتِ إلى الله عزَّ وجل، فيُكْرَهُ للرجل أن يَفْجَأَ بِهِ المَرْأَةَ من غير ذَنْبٍ، ولا يجوز للمرأة أن تُلْجِئَهُ إلى طلاقها، فإذا أراد الطلاق، فليراع أربعة أشياء:

**الأول:** أن يُطَلِّقَهَا في طَهْرٍ لَمْ يُجَامِعْهَا فِيهِ، لئلا تطولُ عليها العدة.

**والثاني:** أن يقتصِرَ على طَلْقَةٍ وَاحِدَةٍ لِيَسْتَفِيدَ بِهَا الرَّجْعَةَ إن ندم.

**والثالث:** أن يَتَلَطَّفَ الأَمْرَ في الطلاق بإعطائها ما تَمَتَّعَ بِهِ لِيَجْبِرَ الفاجِعَ، فقد روي عن الحسن بن علي أنه طَلَّقَ امْرَأَةً وَبِعَثَ إِلَيْهَا عَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ، فقالت: مَتَاعٌ قَلِيلٌ من حَبِيبٍ مُفَارِقٍ.

**الرابع:** أن لا يُفْشِيَ سِرَّهَا، وفي أفراد مسلم من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ مَنْ سَرَّ النَّاسَ عِنْدَ اللَّهِ مَنزَلَةٌ يَوْمَ القِيَامَةِ الرَّجُلُ يُفْضِي إلى امْرَأَتِهِ وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثم يَنْشُرُ سِرَّهَا». وروي عن بعض الصالحين أنه أراد طلاق امرأته، فقيل له: ما الذي يرييك منها؟ فقال: العاقل لا يَهْتِكُ سِتْرَ امْرَأَتِهِ. فلما طَلَّقَهَا قيل: لم طَلَّقْتَهَا؟ فقال: ما لي ولا امرأةَ غَيْرِي؟ فيها كله في بيان ما على الرّوج.

## القسم الثاني من هذا الباب:

النَّظَرُ فِي حَقُوقِ الزَّوْجِ عَلَيْهَا، وَالْقَوْلُ الشَّافِي فِيهِ أَنَّ النِّكَاحَ نَوْعُ رِقٍّ، فَعَلَيْهَا طَاعَةُ الرِّقِيقِ فِي كُلِّ مَا يَطْلُبُهُ مِنْهَا إِذَا لَمْ يَكُنْ مَعْصِيَةً، أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَحْمَدَ وَعَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَيَحْيَى بْنُ عَلِيِّ الْمُدِيرِ، قَالُوا: أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ الصَّرِيفِينِي، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو حَفْصٍ الْكَتَّانِي قَالَ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيِّ الْعَدَوِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا طَالُوتُ قَالَ: حَدَّثَنَا فَضَّالٌ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا أُمَامَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَوْ جَازَ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِزَّ وَجِلًّا، لِأَمْرَتِ الْمَرْأَةِ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا لِعِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا». أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ قَالَ: أَخْبَرَنَا عَاصِمُ بْنُ الْحَسَنِ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ بْنِ بِشْرَانَ قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ صَفْوَانَ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ الْقُرْشِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو حَيْثِمَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الطُّفَاوِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَأَلْتُ امْرَأَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: مَا حَقُّ الرَّجُلِ عَلَى الْمَرْأَةِ؟ قَالَ: «لَا تَمْنَعُهُ نَفْسُهَا وَإِنْ كَانَتْ عَلَى رَأْسِ قَتَبٍ<sup>(١)</sup>» قَالَتْ: وَمَا حَقُّ الرَّجُلِ عَلَى امْرَأَتِهِ؟ قَالَ: «لَا تَصُومُ يَوْمًا تَطَوُّعًا إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِنْ فَعَلْتَ أَثِمْتَ، وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْهَا». قَالَتْ: وَمَا حَقُّ الرَّجُلِ عَلَى امْرَأَتِهِ؟ قَالَ: «لَا تَعْطِي شَيْئًا مِنْ بَيْتِهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِنْ فَعَلْتَ كَانَ لَهُ أَجْرُهُ وَعَلَيْهَا الْوِزْرُ». قَالَتْ: وَمَا حَقُّ الرَّجُلِ عَلَى امْرَأَتِهِ؟ قَالَ: «لَا تَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِنْ فَعَلْتَ لَعَنَتْهَا مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعُضْبِ حَتَّى تَوُوبَ وَتَرْجِعَ» قَالَتْ: لَا جَرَمَ وَاللَّهِ لَا يَمْلِكُ عَلَيَّ أَمْرِي رَجُلٌ أَبَدًا.

وَفِي حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ صَلَّحَ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ لِأَمْرَتِ الْمَرْأَةِ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ مِنْ قَدَمِهِ إِلَى مَفْرَقِ رَأْسِهِ قَرْحَةٌ تَبْجَسُ<sup>(٢)</sup> بِالْقَيْحِ وَالصَّدِيدِ ثُمَّ اسْتَقْبَلْتَهُ فَلَحَسْتَهُ مَا أَدَّتْ حَقَّهُ». وَقَالَتْ عَائِشَةُ: يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، لَوْ تَعَلَّمَنَّ بِحَقِّ أَزْوَاجِكُنَّ عَلَيَكُنَّ لَجَعَلْتِ الْمَرْأَةَ مِنْكُنَّ تَمْسَحُ الْعُبَّارَ عَنِ قَدَمِي زَوْجِهَا بِحُرٍّ وَجْهَهَا. وَقَالَتْ بِنْتُ

(١) القَتَبُ: الرَّحْلُ الصَّغِيرُ عَلَى قَدْرِ سَنَامِ الْجَمَلِ.

(٢) القَرْحَةُ: الْبُثْرَةُ، وَتَبْجَسُ: تَنْفَجِرُ وَتَسِيلُ.

سعيد بن المسيب: ما كنا نكلم أزواجنا إلا كما تكلموا أمراءكم. وفي الصحيحين من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «رأيت أكثر أهل النار النساء» قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: «بكفرهن» قيل: أيكفرن بالله؟ قال: «يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأيت منك شيئاً، قالت: ما رأيت منك خيراً قط».

واعلم أن حقوق الزوج على المرأة كثيرة، وأهمها أمران؛ إحداهما: الستر والصيانة، والثاني القناعة، وعلى هذا كان النساء في السلف، كان الرجل إذا خرج من منزله يقول له أهله: إياك وكسب الحرام فإننا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار.

ومن الواجبات عليها أن لا تُفَرِّطَ في ماله بل تحفظه، فإن أطعمت عن رضاه كان لها مثل أجره، وإن أطعمت بغير رضاه كان له الأجر، وعليها الوزر.

وينبغي لوالديها تأديبها قبل نقلها إلى الزوج لتعرف آداب العشرة، كما روي عن أسماء بن خارجة أنه قال لابنته عند تزويجها: إنك تخرجين من العُشِّ الذي فيه دَرَجَتِ إلى منزلٍ لم تعرفيه، وقرينٍ لم تألفيه، فكوني له أمةً يكن لك عبداً، واحفظي أنفَه وسمعَه وعينَه، فلا يشم منك إلا طيباً، ولا يسمع إلا حسناً، ولا ينظر إلا جميلاً.

وينبغي للمرأة أن تكون قاعدةً في بيتها، لازمةً لمعزلها، قليلةً الكلام لجيرانها، لا يكثر اطلاعها، كثيرة الانقباض في حالة غيبة زوجها، تحفظه غائباً وحاضراً، وتطلب مسرته في جميع الأحوال، ولا تخونه في نفسها ولا في ماله، مُحترزة أن يسمع غريب صوتها أو يعرف شخصها، همها<sup>(١)</sup> صلاح شأنها وتدبير بيتها قائمةً بخدمة الدار في كل ما أمكنها، فقد قال علي رضي الله عنه: قلت لأمي فاطمة بنت أسد: اكفي فاطمة بنت رسول الله ﷺ خدمة الخارج تكفيك خدمة الداخل؛ الطَّحَنَ

(١) في الأصل: «همتها».

والعَجَنَ . وكانت أسماء بنتُ أبي بكر رضي الله عنهما تَعْلِفُ فرسَ الزُّبَيْرِ وتُدُقُّ النَّوَى لناضِحِهِ<sup>(١)</sup> ، وتَنْقُلُ النَّوَى على رأسها من ثُلْثِي فَرَسِخٍ .

ولتكن المرأةُ مُقَدِّمَةً لحق زوجها على حَقِّ نفسها وحقِّ جميع أقاربها ، لا تتفاخر عليه بجمالها ولا تزُدِّريه إن كان قبيحاً ، ولتكن مُستعدةً بالنظافة لاستمتاعه بها ، غير ممتنعةٍ منه متى أرادها ، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال «إِذَا دَعَى الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ ، فَبَاتَ وَهُوَ سَاخِطٌ عَلَيْهَا لَعْنَتُهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ» . وفي لفظ مُتَّفَقٌ عليه : «والذين نَفَسِي بيده ما مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهَا فَتَأْبَى عَلَيْهِ إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطاً عَلَيْهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا» . وفي حديثِ معاذِ بنِ جبلٍ عن النبي ﷺ أنه قال : «لَا تُؤْذِي امْرَأَةً زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلَى قَالَتْ زَوْجَتَهُ مِنَ الْحُورِ الْعَيْنِ : لَا تُؤْذِيهِ قَاتِلُكَ اللَّهُ ، فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيلٌ يُوْشِكُ أَنْ يُفَارِقَكَ إِلَيْنَا» .

### آخر كتاب النكاح



(١) الناضح: الدابة يُسْتَقَى عليها .

## كتاب آداب الكسب والمعاش

الحمد لله الذي جَلَّ عن مثلٍ وشبهه وتَحَاشَى، وَعَلَا عن ضِدِّ وَنَدِّ كَلَا وَحَاشَى، جعلَ<sup>(١)</sup> الأرضَ لِحَلْفِهِ مِهَاداً وقراراً وفراشاً، وَنَوَّرَ النهارَ ثمَّ أَعْطَشَ اللَّيْلَ إِغْطَاشاً، فسكنوا في الظَّلامِ وانعشوا في الضَّيَاءِ<sup>(٢)</sup> انتعاشاً ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاساً ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً﴾ [النبا: ١٠-١١].

أحمدُه حَمَدَ نفوسٍ رَوَّاهَا وقد كانت عِطَاشاً، وأصَلِّيَ على رسوله الذي صَغُرَ كلُّ فضلٍ عند فضله وتلاشَى، وعلى أصحابه وأتباعه الذين انكَمَشُوا في إيضاح الدين انكماشاً، وأسَلَّمَ تسليماً كثيراً.

أما بعد، فإن الله عز وجل بلطيفِ حكمته جعلَ الدنيا دارَ تَسَبُّبٍ واكتساب، تارةً للمعاش وتارةً للمعاد، ونحن نُوردُ آدابَ التَّجَارَاتِ والصناعات، وَضُرُوبَ الأَكْسَابِ وأسبابها، ونشرحها في خمسة أبوابٍ إن شاء الله تعالى.

الباب الأول: في فضل الكسب والحث عليه.

والباب الثاني: في علم صحيح البيع والشراء والمعاملات.

والباب الثالث: في بيان العدل في المعاملة.

الباب الرابع: في بيان الإحسان فيها.

والباب الخامس: في شفقة التاجر على دينه.

(١) في (ظ): «خلق».

(٢) في الأصل: «النهار».

## الباب الأول

### في فضل الكسب والحث عليه

أما من القرآن؛ فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١١]، فذكره في معرض الامتنان، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]، فجعلها نعمة وطلب الشكر عليها، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَخْرَجُوا بِضِرَافِهِمُ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال: ﴿فَأَنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وأما الأحاديث؛ فأخبرنا عبد الوهاب الحافظ قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا محمد بن علي بن الفتح قال: أخبرنا أبو طاهر محمد بن عبد الرحمن المخلص قال: أخبرنا عبيد الله بن عبد الرحمن السُّكْرِي قال: حدثنا أبو بكر الفُرْشِي قال: حدثنا محمد بن بَكَّار قال: حدثنا زافر بن سليمان عن ليث عن مُجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «طلب الحلال جهادٌ، وإن الله يُحِبُّ العبدَ المُحْتَرِفَ». أخبرنا عبد الأول بن عيسى قال: أخبرنا الداودي، قال: أخبرنا ابنُ أَعِين قال: أخبرنا الفِرْبَرِي، قال: حدثنا البخاري، قال: حدثنا إبراهيم بن موسى قال: أخبرنا عيسى بن يونس عن ثور عن خالد بن معدان عن المقدم عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أكل أحدٌ طعاماً قطَّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده». انفرد بإخراجه البخاري. وفي أفرادِهِ من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن داود النبي عليه السلام كان لا يأكل إلا من عمل يده». وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كان زكريا نجاراً». وقال ابن عباس: كان آدم حراثاً، ونوح نجاراً، وإدريس خياطاً، وإبراهيم ولوط زراعيين، وصالح تاجراً، وداود زراداً، وموسى وشعيب ومحمد

صلى الله عليهم رُعاة. وفي حديث رافع بن خديج قيل: يا رسول الله، أي الكسب أطيب؟ قال: «عملُ الرجل بيده، وكلِّ بيعٍ مبرور».

وأما الآثار؛ فقد قال لقمان الحكيم لابنه: يا بُنَيَّ، استغنِ بالكسبِ الحلال، فإنه ما افتقر أحدٌ قط إلا أصابه ثلاثٌ خصال: رِقَّةٌ في دينه، وضعفٌ في عقله، وذهابٌ مُروءتِه، وأعظمُ من هذه الثلاثِ استخفافُ الناسِ به.

وقال عمر بن الخطاب: لأنَّ أموتَ بين شُعْبتي رَحلي أطلب كفافَ وَجهي أحبَّ إليَّ من أن أموتَ غازیاً في سبيلِ الله.

وقال أيوب: قال لي أبو قلابة: الزمِ السوقَ، فإنَّ الغنى من العافية.

وقيل لإبراهيم بن أدهم وهو في البحر: أما ترى هذه الشدة؟ فقال: إنما الشدة الحاجة إلى الناس.

وقيل لأحمد بن حنبل: ما تقول في رجلٍ جلس في بيته أو مسجده، وقال: لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي. فقال أحمد: هذا رجلٌ جهلُ العلم، أما سمع قول النبي ﷺ: «إنَّ الله جعلَ رزقي تحت ظلِّ رُمحي» وقوله حين ذكر الطير فقال: «تغدو خِماصاً وتروحُ بطاناً». وكان أصحابُ رسولِ الله ﷺ يتَّجرون في البرِّ والبحر، ويعملون في نخلهم والقدوة بهم.

وقال أبو سليمان الداراني: ليس العبادة عندنا أن تصفَّ قدميك وغيرك يُقوتُ<sup>(١)</sup> لك، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبَّد.

واعلم أن المالَ ممدوحٌ لا مذموم، وقد أمر الإنسان بإصلاحه، ونهَى عن التفریط فيه فقال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النساء: ٥] ولوجوده وقع الاستقراض، فقيل ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] وبإخراجه في الخير فُضِّلَ المُنفِقُ وُضِعَ له الأجر، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «نِعْمًا بالمالِ الصَّالِحِ للمرءِ الصَّالِحِ». وقد كانت الصحابة تكسب المال

(١) في الأصل: «يفت» وسقطت من (ظ) والمثبت من الإحياء.

وتُخلفه، فخلف طلحة ثلاث مئة بُهارٍ، وكلُّ بُهارٍ ثلاثة قناطرٍ، والبُهار الجِملُ .  
 وكان مالُ الزبير خمسين ألف ومئتي ألف، وخلف ابن مسعود تسعين ألفاً،  
 وكان سعيد بن المسيّب يقول: لا خيرَ فيمن لا يطلب المالَ يقضي به دينه، ويصون  
 به عِرْضه، فإن ماتَ تركه ميراثاً لمن بعده. وخلف ابنُ المسيّب نحو أربع مئة دينار،  
 وخلف سُفيان الثوري مئتين، وكان يقول: المالُ في هذا الزمان سلاح.

فإن قيل: فقد قال أبو الدرداء: زاولتُ التجارة والعبادة فلم يجتمعا، فاخترتُ  
 العبادة.

فالجواب، أنا لا نقول: إن التجارة تُراد لذاتها بل للاستغناء عن الناس، وإغناء  
 العائلة، وإفاضة الفضل على الإخوان وأهل الدين، فقد كان ابنُ المبارك يقول:  
 لولا خمسة ما تجرّت. ولا شك أن الاشتغال بها يمنع من كثيرٍ من التَّعبد إلا أنه إذا  
 صحت النية فيها وصَفَى الكسبُ وحَسَّن القصد كان ذلك أفضل من كثيرٍ من التَّعبد،  
 فأما إن كان المقصود نفس المال وجمعه والتفاخر به، أو أخذه من غير وجهه،  
 فذلك كله مذموم، ومتى كان للعالم والقاضي رِزقٌ يكفُهُما من الأموال المُرصدة  
 للمصالح كان إقبالهما على ما يَنفع المسلمين أفضل من التَّشاغل بالكسب، ولهذا  
 أشار الصحابةُ على أبي بكرٍ حين وُلِّي الخِلافة بترك التجارة، وفرضوا له كفايته في  
 بيت المال، فإن لم يجدا ما يُصلحهما من بيت المال ووجداه من الزكاة والصدقة  
 أخذوا إشاراً لنفع المسلمين على التَّشاغل بالكسب، فإن لم يقدر على ذلك  
 إلا بالسؤال فالكسبُ خير، وليكن العقدُ الذي به الاكتساب جامعاً لأمر أربعة:  
 الصحة والعدل والإحسان والسَّفقة على الدين، ونحن نعقد في كل واحدٍ باباً  
 ونبتدئ بذكر أسباب الصِّحة في الباب الثاني إن شاء الله تعالى.

## الباب الثاني

في علم الكسب بطريق البيع والرّبا والسّلم والإجارة  
والقراض والشركة  
وبيان شروط الشرع في صحة التصرفات  
التي هي مدار الكسب في الشرع

اعلم أن تحصيل علم هذا الباب واجب على كل مُكتسب؛ لأن طلب العلم الذي يحتاج إليه فريضة على كل مُسلم، والمكتسب محتاج إلى علم الكسب، فإذا حصل علم هذا الباب وقف على مُفسدات المعاملة فأتقأها، وما شدَّ عنه من الفروع المشكّلة وقف على سبب إشكالها، فيتوقف فيها إلى أن يسأل، فإنه إذا لم يعلم أسباب الفساد بعلم جُملي لم يدر متى يجب عليه التوقف والسؤال، ولو قال: لا أقدم العلم ولكنّي أصبر حتى تقع لي الواقعة، فعندها أتعلم وأستفتي. قيل له: وبم تعلم وقوع الواقعة إذا لم تعلم جُملاً مفسدات العقود، فإنك تستمر في التصرفات تظنّها صحيحة مباحة، فلا بدّ من هذا القدر من علم التجارة لتمييز المباح من المحظور، ولهذا كان عمر يقول: لا يتجرّ في سوقنا إلا من تفقّه، وإلا أكل الرّبا شاء أم أبى. وعلم العقود كثير ولكن لا تنفك المكاسب عن هذه العقود الستة التي ذكرناها، وهي البيع، والرّبا، والسّلم، والإجارة، والقراض، والشركة فلنشرح شروطها.

العقد الأول: البيع: وله ثلاثة أركان: العاقد، والمعقود عليه، واللفظ.

أما العاقد: فينبغي للتاجر أن لا يُعامل المجنون لأنه غير مكلف فبيعه لا يصح ولا يعامل العبد إلا أن يعلم أنه مأذون له، ويكفيه انتشار ذلك في البلد فيعول على الاستفاضة، وكذلك الصّبي لا يُعامل إلا أن يكون قد أذن له الأب أو الوصي،

فيصير بمنزلة العبد المأذون له، وهذا مذهبنا، وبه قال أبو حنيفة، إلا أن عنده أنه يصير مأذوناً له في جميع الأشياء كالعبد. وقال الشافعي: لا تصح عقود الصبي. وأما مُعاملة الأعمى فعندنا يصح بيعه وشراؤه، وعند الشافعي لا يصح، فالورع أن لا يعامل إلا أن يوكل وكيلاً بصيراً، وأما الكافر فيجوز مُعاملته لكن لا يُباع منه المصحف ولا العبد المسلم ولا السلاح إن كان من أهل الحرب، فإن فعل فهي معاملات مردودة وهو عاصٍ بذلك، وأما اللُصوص والظلمة ومن أكثر ماله حراماً، فلا ينبغي أن يعامل إلا في شيء تُعرف عينه أنها حلالٌ.

الركن الثاني: في المعقود عليه: وهو المال المقصود نقله من أحدِ العاقدين إلى الآخر ثمناً كان أو مثنياً، فيعتبر فيه ستة شروط:

الأول: أن لا يكون نجساً في عينه، فلا يصح بيع كلبٍ ولا خنزير، فأما البغل والحمار فيجوز بيعهما سواء قلنا: إنهما طاهران أو نجسان.

الثاني: أن يكون منتقياً فيه، فلا يجوز بيع الحشرات، وسباع البهائم التي لا تصلح للاصطياد، واختلفت الرواية في بيع الفيل والفهد والسنور والبازي والصقر والشاهين، ولا يجوز بيع العود والمزمار والصُور المصنوعة من الطين إذا كانت صور حيوان.

الثالث: أن يكون المتصرف فيه مملوكاً للعاقِد أو مأذوناً له في التصرف فيه<sup>(١)</sup> من جهة المالك.

الرابع: أن يكون المعقود عليه مقدوراً على تسليمه حساً وشرعاً، أما الحسن فالطير في الهواء والعبد الآبق<sup>(٢)</sup> والجمل الشارد، فهذه الأشياء لا يُقدَّر على تسليمها حساً، وأما الشرع فالمرهون، وبيع الأم دون الولد الصغير، أو الولد دون الأم، فهذه ممنوعة التسليم شرعاً.

(١) ليست في الأصل.

(٢) الآبق: الهارب من سيده.

الخامس: أن يكون المبيع معلوم العين إما بالرؤية، فيقول: بعْتُكَ هذا الثوب بهذا الدينار. أو بالصفة، مثل أن يقول: بعْتُكَ عبدي التُّركي ومنْ صفته كذا وكذا.

السادس: أن يكون المبيع مقبوضاً إن كان قد استفاد ملكه بمعاوضة، فقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع ما لم يُقبَض.

الركن الثالث: لفظ العقد: وهو الإيجاب والقبول، فإن تقدّم القبول على الإيجاب لم يصح البيع في إحدى الروايتين، وفي الأخرى يصح، سواء كان بلفظ الماضي بأن يقول: ابتعتُ منك هذا الثوب بدرهم. فيقول البائع: بعْتُكَ. أو بلفظ الطلب بأن يقول: بعني ثوبك بدرهم. فيقول: بعْتُكَ. فإن تبايعا بالمُعاطاة نحو أن يقول: أعطني بهذا الدينار خُبزاً. فيعطيه ما يرضى أو يقول: خُذْ هذا الثوب بدينار. فيأخذه، فظاهر كلام الإمام أحمد رحمه الله صحة البيع، وقال القاضي أبو يعلى: يصح ذلك في الأشياء اليسيرة دون الكثيرة، وهذا أصلح الأقوال، أعني أن تكون المعاطاة بيعاً في الأشياء المحترقة دون الأشياء النفيسة لجريان العادات بذلك، إلا أن ذا الورع ينبغي أن لا يترك الإيجاب والقبول ليخرج عن شبهة الخلاف.

العقد الثاني: عقد الربا: وقد شدّد الله عزّ وجلّ الأمر في الربا، فيجب الاحتراز على المتعاملين بالتقدين من الفضل والنسيئة، فأما ربا الفضل، فيحرم بعلّة كونه مكيلاً جنسٍ أو موزوناً جنسٍ، فمتى باع مكيلاً بجنسه حرّم فيه التفاضل، سواء كان مأكولاً كالحنطة والتّمر، أو غير مأكولٍ كالنُّورة<sup>(١)</sup> والأشنان<sup>(٢)</sup> وكذلك إن باع موزوناً بجنسه كالفضّة بالفضة والحديد بالحديد، هذا في إحدى الروايات عن الإمام أحمد، والرواية الثانية: يحرم التفاضل بعلّة كونه مطعوماً جنسٍ وفي غير الطعام بعلّة الثمينة، فيختص ذلك بالذهب والفضة. والثالثة: يحرم التفاضل في غير الذهب والفضة بعلّة كونه مطعوماً مكيلاً أو مطعوماً موزوناً في جنس، ولا يحرم

(١) النُّورة: أخلط من أملاح الكالسيوم والباريون تستعمل لإزالة الشعر. المعجم الوسيط: (نور).

(٢) الأشنان: شجر ينبت في الأرض الرملية يُستعمل هو أو رماده في غسل الثياب والأيدي.

التفاضل في مطعموم لا يُكال ولا يوزن كالرُمان والبَطِيخ، ولا في مكيلٍ أو موزونٍ لا يُؤكل، كالحديد والأشنان، ومتى اختلف الجنسَان جازَ التفاضل على جميع الروايات.

وأما ربا النَّسِيئَةِ؛ فكل شَيْأَيْنِ علة ربا الفضل فيهما واحدة، لا يجوز بيع أحدهما بالآخر نساءً، ولا يجوز بيع جنسٍ فيه الرُّبا بعضه ببعض، ومع أحدهما من غير جنسهما كمدَّ عَجْوَةٍ ودرهم بمدِّي عَجْوَةٍ، فعلى هذا لا يجوز أن يشتري قِلَادَةً فيها خَرَزٌ<sup>(١)</sup> وذَهَبٌ بذهب، ولا ثوباً مَنْسُوجاً بذهبٍ يحصل منه ذَهَبٌ مقصود عند عرضه على النَّار بذهبٍ، ولا أن يشتري الخبزَ بِحِنطَةٍ، ولا السَّيرجَ<sup>(٢)</sup> بِسَمْسِمٍ ولا الزُّبْدَ باللبن.

العقد الثالث: السَّلَمُ: وهو نوع من البيع ينعقد بكل لفظ ينعقد به البيع، وينعقد بلفظ السَّلَمِ والسَّلَفِ، ويصح في كل مالٍ يُضبط بالصفة كالثمار والحُبوب والثياب والدَّقِيقَ والخُبزَ والقطنَ والإبريسمَ<sup>(٣)</sup> والكتانَ والكَاغِدَ<sup>(٤)</sup> والحَيوانَ والرَّقِيقَ واللُّحومَ والرؤوسَ والجلودَ والأطرافَ والحديدَ والرِّصاصَ والنُّحاسَ والصُّفْرَ والأحجارَ والأخشابَ والأدويةَ والطَّيبَ والمائعاتَ من الخَلِّ والدُّهْنِ واللبنِ وغير ذلك، ولا يصح إلا بخمسة شرائط:

أحدها: أن يذكر كل وصفٍ يختلف الثمن لأجله عند أهل الخبرة، فإذا أسلمَ في طعام ذكر الجنسَ فقال: حنطة. والنوع، فقال: بَعْدَادِيَّةٌ واسِطِيَّةٌ. واللون: حمراء صَفراء، والقَدْرَ: كيار الحب أو صِغار الحب، وحديثٌ أو عَتِيقٌ، وجيدٌ أو رَدِيءٌ، وخاليةٌ من الغِش.

والشرط الثاني: أن يذكر المقدار، فيشترط في المكيل كيلاً معلوماً، وفي

(١) تحرفت في الأصل إلى: «حرير».

(٢) السَّيرج: زيت السمسم.

(٣) الإبريسم: أحسن الحرير.

(٤) الكاغد: القُرطاس الذي يُكتب فيه.

الموزون وزناً معلوماً، وكذلك في المذروع<sup>(١)</sup> والمعدود، فإن أسلم فيما يُكال بالوزن لم يصح، وكذلك يُخرج إذا أسلم فيما يوزن كيلاً وفيما يُذرعُ وزناً، فأما المعدود المختلف، كالبيض والجوز والرمان والسفرجل والبطيخ والقثاء والباذنجان وما أشبه ذلك، فيصح السّلم فيه في إحدى الروايتين، وهل يسلم فيه عدداً أو وزناً على روايتين.

**والشرط الثالث:** أن يشترط أجلاً معلوماً له وقع في الثمن، كالشهر والشهرين فصاعداً، فإن أسلم حالاً أو شرط ساعةً أو يوماً لم يصح، إلا أن يسلم في خبزٍ أو لحمٍ يأخذ منه كل يومٍ أرتلاً معلومةً، فإنه يصح.

**والشرط الرابع:** أن يشترط محلاً يكون المسلم فيه عامّ الوجود، فإن أسلم في العنب وجعل محله شهر شباط لم يصح.

**والشرط الخامس:** أن يقبض رأس المال المسلم في مجلس العقد، ويكون معلوم الصّفة والمقدار، كالمسلم سواء، فإن تفرّقا قبل القبض بطل السّلم، فإن أقبضه بعضه في المجلس ثم تفرّقا بطل العقد في الجميع في إحدى الروايتين، والأخرى يبطل فيما لم يقبض، ولا يصح السّلم فيما لا يُضبط بالصّفة، كالجواهر من الدرّ والياقوت واللؤلؤ.

**العقد الرابع: الإجارة:** وهي عقدٌ على المنافع لازمٌ من الطرفين، لا يصح إلا من جائز التصرف في المال، وهي على ضربين: متعلقة بالذمة، كالاستئجار لتحصيل بناءٍ أو خياطة أو حمل شيءٍ من مكانٍ إلى مكان، ومتعلقة بالعين كاستئجار الدار للسكنى، والدابة للركوب، والإنسان للخدمة، فإن تلفت العين انفسخت الإجارة فيما بقي من المدة، فإن كانت داراً فانهدمت، أو أرضاً للزرع فانقطع ماؤها انفسخت الإجارة فيما بقي في أحد الوجهين، وفي الآخر يثبت للمستأجر خيار الفسخ.

ولا تصح الإجارة إلا على مدة معلومة القدر إما بالزمان كسكنى شهر، وخدمة

(١) المذروع: أي الذي يُقاس بالذراع.

سَنَةٍ، أو بالعمل كالإجارة على بناء دارٍ أو خياطة قميصٍ أو الركوب إلى موضعٍ مُعين .

**العقد الخامس: القراض:** وهو المُضارِبَةُ، وهو أن يدفع الإنسان ماله إلى آخر يتَّجِرُ به، والربح بينهما يَسْتَحِقُّه ربُّ المال بماله والمُضارب بعمله، ومَبْنَاهَا على الأمانة والوكالة لأنه بدفع المال إلى المُضارب ائْتَمَنَهُ، وبإذنه أن يشتري ويبيع وَكَلَهُ، فإذا ظهر الربح صار شريكه فيه؛ لأنه يَسْتَحِقُّ منه جزءاً.

ولا تصح المُضارِبَةُ إلا بالدنانير والدراهم في إحدى الروايتين، وفي الأخرى: تصح بالعروض على أن تُقَوِّمَ حال العقد.

ولا تصح إلا على جزءٍ معلومٍ من الربح لكل واحدٍ منهما، فإن شَرَطَا ما لا يعود بجهالة الربح، فذلك على ضَرَبَيْنِ صحيح وفساد، فالصحيح أن يُضاربه على أن لا يتَّجِرَ إلا في البرِّ أو البُرِّ<sup>(١)</sup> أو على أن لا يبيع ويشترى إلا ببغداد، والفساد أن يشترط على المضارب ضمان المال أو سَهْمًا من الوَضِيعَةِ.

**العقد السادس: الشركة:** وهي على ضَرَبَيْنِ؛ شركة أملاك، وشركة عقود، فشركة الأملاك تحصل بفعلهما في ملكٍ مُعَيَّنٍ مثل أن يشتريا أو يوهب لهما فَيَقْبَلَا، وبغير فعلهما مثل أن يرثا، فكل واحدٍ منهما في نصيب شريكه كالأجنبي، لا يجوز له التصرف فيه إلا بإذنه، فإن تصرف ببيع أو هبة أو رهنٍ نَفَذَ في حِصَّتِهِ.

وأما شركة العقود، فلا تصحُّ إلا من جائزي التَّصَرُّفِ، وهي على خمسة أضرُبٍ: شركة عنان، وشركة وجوه، وشركة أبدان، وشركة مُفَاوِضَةٍ، وشركة مُضارِبَةٍ.

فأما شركة العِنان، فتعتمد على المال والوكالة، فتتَعَقَدُ على مالِيهِمَا وعمل كل واحدٍ منهما في المالين بحكم الملك في حِصَّتِهِ، وبحكم الوكالة في حِصَّةِ شريكه، ولا تصحُّ إلا في جنس الأثمان في إحدى الروايتين، وسواء اتَّفَقَ المَالَانِ في

(١) البُرِّ: نوع من الثياب.

الجِئْس والصفة<sup>(١)</sup> أو اختلفا فأخرج أحدهما دَراهم والآخَرُ دنانير، أو أحدهما قُرَاضَةً<sup>(٢)</sup> والآخَرُ صِحاخاً، وفي الرواية الأخرى: تصح في العَرُوض أيضاً، ويجعل رأس المال قيمتها وقت العقد، وتصح وإن لم يخلط المالين، وما يشتره كل واحد منهما بماله بعد عقد الشركة فهو له ولشريكه، وكذلك إن تَلَفَ أحد المالين فهو من ضمانِهما، والرَّبح فيها على ما شَرطاه. والوَضِيعَة على قَدْر المال، فإن شَرطَا التَّساوي في الوَضِيعَة مع التفاضل في المال، فالشرط باطلٌ، والعقد صحيح.

ويجوز لكل واحدٍ من شريكي العِئان أن يَبِيعَ ويشتري، وَيَقْبِضَ وَيُقْبِضَ، وَيُطالِبُ بالدين ويخاصم فيه، وَيُحِيلَ ويحتال، ويردُّ بالعيب، ويفعل كل ما هو من مصالح تجارتها بمطلق الشركة، ولا يجوز لأحدهما أن يَكاتبَ ولا يعتق على مالٍ ولا يُزوج الرِّقِيقَ ولا يَهَبَهُ ولا يُقرضَ ولا يُحابي ولا يُضارب بمال الشركة إلا أن يأذنَ شريكه. وهل يجوز أن يُودِعَ أو يُسافر بالمال أو يَبِيعَ نَسَاءً أو يُبِضِعَ أو يوَكِّلَ فيما يتولى مثله بنفسه أو يَرَهَنَ أو يَرْتَهَنَ، أو يُقايِلَ، على وجهين.

فإن قيل: ما معنى هذه التسمية أعني شركة العِئان؟ فالجواب: أنه قد ذكر فيها أهل اللغة قولين؛ أحدهما: أنه مِنْ عَنٍّ لفلانٍ كذا أي عَرَضَ له كأنَّ ذلك الشيء عَنٌّ<sup>(٢)</sup> لهما، أي: عَرَضَ، فاشتركا فيه. والثاني: أنه من عِئان الدابة إذا استويا في الشيء فكان لكل واحدٍ منهما أن يَعِنَّ، أي: يمنع صاحبه من التصرف، وذلك إذا أراد فسَخَ الشركة.

وأما شركة الوُجوه: وهي أن يَشتركا في ربح ما يَشتريان في ذِمَّتِهما بِجَاهِهما وثِقَة التَّجار بهما من غير أن يكون لهما رأسُ مالٍ، فهي شركة صحيحة مَبْنِية على أن يكون كل واحد منهما وكيلاً لصاحبه فيما يشتره ويبيعه، كفيلاً عنه بالثمن، ولا فرق بين أن يُعَيِّنَا المشتري أو يقول كل واحد منهما: ما اشترت من شيءٍ فهو بَيْننا. فكيف شرطاً وقوع المشتري بينهما جازاً، فإذا باعا ووفَّيا ما عليهما قَسَما الرَّبِّح على ما شَرطاه من مُساواةٍ أو تفضيلٍ. والوَضِيعَة على قَدْرِ ملكيها في

(١-١) سقط من (ظ).

(٢) في الأصل: «عرض».

المُشْتَرَى فِي أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ، وَفِي الْآخِرِ: أَنَّ الرَّبْحَ وَالْوَضِيعَةَ عَلَى قَدْرِ مِلْكِيهِمَا فِي الْمَشْتَرَى وَهُمَا فِي جَمِيعِ التَّصَرُّفَاتِ بِمَنْزِلَةِ شَرِيكِي الْعِنَانِ.

وَأَمَّا شَرِكَةُ الْأَبْدَانِ: وَهِيَ أَنْ يَشْتَرِكَا فِيمَا يَكْسِبَانِ بِأَبْدَانِهِمَا، فَهِيَ شَرِكَةٌ صَحِيحَةٌ مَبْنِيَةٌ عَلَى أَنْ كُلُّ مَا يَتَقَبَّلُهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنَ الْأَعْمَالِ يَصِيرُ فِي ضَمَانِهِ وَضَمَانِ شَرِيكِهِ، يَطَالِبُ بِهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، وَيَلْزِمُهُ عَمَلُهُ، وَهِيَ جَائِزَةٌ مَعَ اتِّفَاقِ الصَّنَائِعِ، فَأَمَّا مَعَ اخْتِلَافِهَا، فَيَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ أَصْحَبَهُمَا أَنَّهُ لَا تَصَحُّ.

وَتَصَحُّ الشَّرِكَةُ فِي الْإِحْتِشَاشِ وَالْإِحْتِطَابِ وَالْإِصْطِيَادِ، وَالشُّمَارِ الْمَأْخُودَةِ مِنَ الْجِبَالِ، وَفِي التَّلْصُصِ عَلَى دَارِ الْحَرْبِ وَسَائِرِ الْمَبَاحَاتِ.

وَأَمَّا شَرِكَةُ الْمَفَاوِضَةِ: فَهِيَ عَلَى ضَرَبَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَفُوضَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى صَاحِبِهِ الشُّرَاءِ وَالْبَيْعِ وَالتَّوَكُّيلِ وَالْإِبْتِياعِ فِي الذَّمَّةِ، وَالْمَسَافِرَةِ بِالْمَالِ وَالْمُضَارَبَةِ بِهِ، وَضَمَانُ مَا يَرَى مِنَ الْأَعْمَالِ، فَهَذِهِ شَرِكَةٌ صَحِيحَةٌ. وَالرَّبْحُ فِيهَا عَلَى مَا شَرَطَاهُ، وَالْوَضِيعَةُ عَلَى قَدْرِ الْمَالِ.

وَالضَّرْبُ الثَّانِي: أَنْ يَدْخُلَا فِي الشَّرِكَةِ الْمَذْكُورَةِ مَا يَلْزِمُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنْ غَضَبٍ، أَوْ بَيْعٍ فَاسِدٍ، أَوْ ضَمَانِ مَالٍ، أَوْ أَرْشِ جَنَائِيَّةٍ، وَأَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا مَا يَجِدَانِ مِنْ لُقْطَةٍ أَوْ رِكَازٍ، وَمَا يَحْصُلُ لهُمَا بِالْمِيرَاثِ، فَهَذِهِ شَرِكَةٌ بَاطِلَةٌ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا رِبْحٌ مَالِهِ وَأَجْرَةٌ عَمَلِهِ، وَمَا يَجِدُهُ أَوْ يَرِثُهُ، وَيَخْتَصُّ بِضَمَانِ مَا غَضَبَهُ أَوْ جَنَاهُ أَوْ ضَمِنَهُ عَنِ الْغَيْرِ.

وَأَمَّا شَرِكَةُ الْمُضَارَبَةِ: فَهِيَ أَنْ يَدْفَعَ الْإِنْسَانُ مَالَهُ إِلَى آخَرَ يَتَّجِرُ بِهِ وَالرَّبْحُ بَيْنَهُمَا يَسْتَحِقُّهُ رَبُّ الْمَالِ بِمَالِهِ وَالْمُضَارِبُ بِعَمَلِهِ، وَمَبْنَاهَا عَلَى الْأَمَانَةِ وَالْوَكَالَةِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا فِي الْقِرَاضِ، فَإِنَّ الْقِرَاضَ هُوَ الْمُضَارَبَةُ، وَكَلِمَا جَازَ لِأَحَدِ الشَّرِيكَيْنِ فَعَلَهُ بِمَطْلَقٍ عَقَدَ الشَّرِكَةَ جَازًا لِلْمُضَارِبِ فَعَلَهُ بِمَطْلَقٍ الْمُضَارَبَةُ، وَمَا لَيْسَ لِلشَّرِيكِ فَعَلَهُ إِلَّا بِإِذْنِ شَرِيكِهِ فَلَيْسَ لِلْمُضَارِبِ فَعَلَهُ إِلَّا بِإِذْنِ رَبِّ الْمَالِ، وَلَيْسَ لِلْمُضَارِبِ أَنْ يُضَارِبَ لِرَجُلٍ آخَرَ إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ ضَرَرٌ عَلَى الْأَوَّلِ، فَإِنْ فَعَلَ وَرَبِحَ رَدَهُ فِي شَرِكَةِ الْأَوَّلِ، فَإِنْ مَاتَ الْمُضَارِبُ وَلَمْ تُعْرَفِ الْمُضَارَبَةُ بِعَيْنِهَا، فَإِنَّهَا تَصِيرُ دَيْنًا عَلَيْهِ.

## الباب الثالث

### في بيان العدل واجتناب الظلم في المعاملة

اعلم أن المعاملة قد تجري على وجهٍ يحكُمُ المفتي<sup>(١)</sup> بصحتها وانعقادها، لكنها تشتمل على ظُلمٍ يتعرض به المعامل لِسَخَطِ الله عز وجل، إذ ليس كل نهْيٍ يقتضي فساد العقد، وهذا الظلم نَعني به ما يَسْتَضِرُّ به الغَيْرُ، وهو منقسم إلى ما يعمُّ ضرره، وإلى ما يخصُّ المُعامل.

القسم الأول: فيما يعمُّ ضرره، وهو أنواع:

**الأول: الاحتكار:** وهو منهيٌّ عنه لما فيه من غلاء السُّعر، وتضييق الأَقوات على الناس، وصِفَتُهُ أن يَسْتَكْثِرَ من ابْتِياعِ الغلّات في الغلاء، ويتربّص بها زيادة الأسعار، ولا يبيع شيئاً منها، فأما إذا دخلت له غلّةٌ من ضَيْعَتِهِ فحبسها يتربّص بها الأسعار، فليس محتكراً، وكذلك إذا اشترى في حال الاتساع والرُخص على صفةٍ لا يُضَيِّقُ على الناس، فإنه لا يكون مُحتكراً، وإن لم يكن غلاءً لكنه ابتاعه على وجهٍ يُضَيِّقُ على الناس بابتياعه، وهو أن تدخل قافلةً فيبادر رجل له مال فيشتري ذلك يُضَيِّقُ على الناس، فإنه يدخل تحت النهي، ويكون محتكراً، وإذا ثبت أنه ممنوع من الاحتكار، فهل هو نهْيٌ تحريم أم تنزيه؟ يحتمل وجهين، وإنما يكون هذا الحكم إذا كان ذلك في بلدٍ بالناس فيه ضيق وقحط، كالحرمين والثُّغور، فأما إذا كان من البلاد الواسعة الكثيرة الخَيْرِ والجلب، كبغداد والبصرة، فلا، ثم إنما يكون الاحتكار في الأَقواتِ خاصةً دون غيرها من التمر والعسل ونحو ذلك، وفي الجملة تُكره التجارة في القُوت؛ لأنه قوام الأدمي، وكان بعض السلف يقول في أموال الدّقاين<sup>(٢)</sup>: أموال جُمِعَت من عُموم المسلمين.

(١) تحرفت في (ظ) إلى: «المستفتي».

(٢) الدقاق: من يدق الأباذير للناس يطحنها لهم.

النوع الثاني: ترويح الزائف من الدراهم في أثناء النقد، وهو الذي لا ذهب فيه أصلاً أو لا فضة فيه أصلاً، فإنه يستضرُّ به المعامل إن لم يعرف، وإن عرف فسَيروُّجُه على غيره، ولا يزال يتردد في الأيدي ويعمُّ الضرر به، وللمُبَّهَج<sup>(١)</sup> الأول نصيب من آثام الكل، فينبغي للتاجر تعلُّم النقد لكي لا يُسلم إلى مسلم زائفاً وهو لا يدري، ولو علما جميعاً به فإن البائع يأخذه ليرُوِّجَه على غيره خصوصاً إذا علم أنه يستحل ترويجه، وفي ذلك إعانة له على الشر.

القسم الثاني: ما يخص ضرره المُعامل:

وينبغي أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فمن ذلك أن لا يُثني على السلعة بما ليس فيها، وأن لا يكتم من عُيوبها وخفايا صفاتها شيئاً، وقد رُوينا عن يونس بن عُبيد أنه كان خَزَازاً<sup>(٢)</sup>، وأن غلامه أخرج لطالب حزمة فقال الغلام: صلى الله عليك يا رسول الله<sup>(٣)</sup>، فقال يونس: رُدَّها، ولم يَبِع. وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا». وقال جرير: بايعتُ رسولَ الله ﷺ على النَّصْحِ لكل مسلم. وأخرج مُجَمِّعُ شَاءَ بِيَعُهَا فقال: أَظُنُّ فِي لِبْنِهَا مُلُوحَةٌ.

وقال الحسن بن صالح في جارية باعها: إنها تَنَحَّمَتْ عندنا مرَّةً دماً.

ومن اعتقد أن كتمان هذه الأشياء يزيد في رزقه فقد جهل، وفي الصحيحين من حديث حكيم بن حزام عن النبي ﷺ أنه قال: «الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيْنَا رِزْقًا بَرَكَةً بِيَعُهَا، وَإِنْ كَذَبَا وَكُنَّا مُحِقَّتْ بَرَكَةٌ بِيَعُهَا».

فأما اليمين الفاجرة في تنفيق السلعة، ففي أفراد مسلم من حديث أبي قتادة عن النبي ﷺ أنه قال: «إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَلْفِ فِي الْبَيْعِ، فَإِنَّهُ يَنْفَقُ ثُمَّ يَمْحَقُ». وفي أفراد من حديث أبي ذرٍّ عن النبي ﷺ أنه قال: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ

(١) المُبَّهَج: المُزَلَّف.

(٢) الخَزَاز: بائع الخَز، وهو نوع من الثياب.

(٣) في الإحياء أن الغلام قال: اللهم ارزقنا الجنة، فردَّ يونس البيع لأنه خشي أن يكون غلامه قد مدح السلعة.

القيامه، ولا يزيكهم، ولهم عذاب أليم. « فذكر منهم: «المُنْفِق سِلْعَتَهُ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ».

واعلم أنه لا يَصِحُّ النَّصْحُ<sup>(١)</sup> إلا لمؤمن يعلم أن الخيانة لا تزيد في المال والصدقة لا تنقصه، وأن ربح الآخرة خير من ربح الدنيا، وأن الأرباح لا تقاوم العقاب في العاقبة، فلا ينبغي أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، فالخير كله في سلامة الدين.

واعلم أن الغش حرام في البيوع وفي الصناعات أيضاً، وقد سئل الإمام أحمد عن رَفُوءِ<sup>(٢)</sup> الثوب حتى لا يبين فقال: لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه، وإنما يحل للرفء أن يعمل له لمن لا يريد له للبيع أو لمن يظهر ذلك إذا باعه.

وينبغي للتاجر أن يحقق الوزن، ولا يتخلص من هذا حتى يرجح إذا أعطى، وينقص إذا أخذ، ومتى خلط العلاف بالطعام تُراباً ثم كاله، فهو مُطْفَفٌ، أو القصاب عظماً لم تجر العادة بمثله.

وقد نهي عن النجش وهو الزيادة في ثمن السلعة ليُغَرَّ وهو لا يريد لها، ونهي عن التصرية<sup>(٣)</sup>.

(١) في النسخ: «التصحيح»، والمثبت من الإحياء.

(٢) رفا ثوبه: رقعته.

(٣) التصرية: ربط أخلاف البقرة ليجتمع الحليب فيها فيظن الشاري أنها تحلب أكثر من غيرها.

## الباب الرابع

### في الإحسان في المعاملة

قد أمر الله سبحانه بالعدل والإحسان، فالعدل سبب للنجاة فقط، وهو يجري من التجارة مجرى رأس المال، والإحسان سبب للفوز ونيل السعادة، وهو يجري من التجارة مجرى الربح، ولا يعد من العقلاء من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله، فكذا في معاملات الآخرة، فلا ينبغي للمتدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم، ويدع أبواب الإحسان فقد قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]، والإحسان تفضل غير واجب؛ لأن الواجب يدخل في باب العدل، وتنال رتبة الإحسان بواحدٍ من ستة أشياء:

**الأول:** في المغابنة، فينبغي أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن في العادة بمثله، فأما أصل المغابنة فمأذون فيه؛ لأن البيع للربح، ولا يمكن ذلك إلا بغبنٍ ما، ولكن يُراعى فيه التّقريب، فإن بذل المشتري زيادةً على الربح المعتاد إما لشدة رغبته أو لقوة حاجته في الحال، فينبغي أن يمتنع البائع من قبول ذلك، فذلك من الإحسان، فأما إذا كان أحدهما لا يخبرُ سعرَ المبيع فَعَبْنَهُ<sup>(١)</sup> بما لا يتغابن الناس بمثله في العادة، فله الخيار عندنا، ومن أصحابنا من حدّه بالثلث، أخبرنا المُحمّدان ابن ناصر وابن عبد الباقي، قالوا: أخبرنا حمد بن أحمد قال: أخبرنا أبو نُعيم أحمد بن عبد الله قال: أخبرنا أبو محمد بن حبان قال: حدثنا محمد بن أحمد بن مَعْدَان قال: حدثنا ابنُ وَاَرَةَ قال: حدثنا الأصمعي قال: حدثنا مؤمّل بن إسماعيل قال: جاء رجلٌ من أهل الشام إلى سوقِ الحَرَازين، فقال: مِطْرَفُ<sup>(٢)</sup> بأربع مئة. فقال يونس بن عبيد: عندنا بِمِثَّتَيْنِ. فنادى مُنادٍ بالصلاة، فانطلقَ يونسُ

(١) تحرفت في الأصل إلى: «فعنه».

(٢) المطرف: رداء أو ثوب من خزّ مربع ذو أعلام.

إلى بني قُشَيْرٍ لِيُصَلِّيَ بِهِمْ، فجاء وقد باع ابنُ أخيه المِطْرَفَ من الشَّامي بأربع مئة فقال يونس: ما هذه الدراهم؟ فقال: ذاك المِطْرَفُ بعناه من هذا الرجل. فقال يونس: يا عبدَ الله، هذا المِطْرَفُ الذي عرضت عليك بمئتي درهم، فإن شئت فخذه وخذ مئتين، وإن شئت فدعه. فقال: من أنت؟ قال: رجلٌ من المسلمين. فقال: بل أسألك بالله من أنت وما اسمك؟ قال: يونس بن عبيد. قال: فوالله إنا لنكونُ في بحرِ العدو فإذا اشتد الأمر عَلينا، قلنا: اللهم ربَّ يونس فرِّجْ عنا، أو شبيه هذا. فقال يونس: سُبْحانَ الله، سُبْحانَ الله.

وقد قال علي رضي الله عنه: يا معشرَ التُّجارِ، لا تَرُدُّوا قَلِيلَ الرِّيحِ فَتُحْرَمُوا كَثِيرَهُ.

الثاني: احتمال الغبن إذا اشترى شيئاً من فقيرٍ، فأما إذا اشتراه من غني فلا، فإنه قد قيل: المغبون لا محمودٌ ولا مأجور.

الثالث: في استيفاء الثمن والديون، والإحسانُ في ذلك تارةً بالمسامحة، وتارةً بحِطِّ البعض، وتارةً بالإنظار، وتارةً بالتساهل في جودة التَّقد، وفي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ فَيَقُولُ لِفَتَاهُ: إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِراً فَتَجَاوِزْ عَنْهُ لَعَلَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَتَجَاوِزَ عَنْكَ. فَلَقِيَ اللَّهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ». وفيهما من حديث حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنْ رَجُلًا مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَا مَلَكٌ لِيَقْبِضَ نَفْسَهُ، فَقَالَ لَهُ: هَلْ عَمَلْتَ مِنْ خَيْرٍ؟ فَقَالَ: مَا أَعْلَمُ شَيْئاً<sup>(١)</sup> قِيلَ لَهُ: انظُرْ. فَقَالَ: مَا أَعْلَمُ شَيْئاً غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ أَبَايَعِ النَّاسَ وَأُجَاوِزُهُمْ<sup>(٢)</sup> فَأَنْظَرُ الْمُعْسِرَ وَأَتَجَاوِزُ عَنِ الْمَوْسِرِ. فَأَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ». وفي أفراد البخاري من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمَحًا إِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى». وفي أفراد مسلم من حديث أبي قتادة عن النبي ﷺ، أنه قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ اللَّهُ مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلْيَنْقَسِ عَنِ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ». وفي حديث أبي اليسر كعب بن عُجْرَةَ<sup>(٣)</sup> عن النبي ﷺ أنه

(١) ليست في الأصل.

(٢) جازف: باع الشيء لا يُعلم كَيْلَهُ أو وزنه.

(٣) تحرفت في الأصل إلى: «عمرو».

قال: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً، أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظْلَهُ اللهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ». وفي حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، فَرَأَيْتُ عَلَى بَابِهَا الصَّدَقَةَ بِعَشْرِ، وَالْقَرْضَ بِثَمَانِيَةِ عَشْرٍ، فَسَأَلْتُ جَبْرِيلَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: لِأَنَّ الصَّدَقَةَ تَقَعُ فِي يَدِ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ، وَالْقَرْضَ لَا يَقَعُ إِلَّا فِي يَدِ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِ».

الرابع: في توفية الدين، ومن الإحسان فيه حُسن القضاء، وذلك بأن يمشي إلى صاحب الحق، ولا يُكَلِّفه التفاضي، وإن قدر أداءه قبل محله، ثم يُجَوِّدُ ما يَقْضِيه به، ثم يشكره، فإن كَلَّمَهُ عند حُلُولِ الأجل بكلام حَسَنٍ احتمله، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رجلاً تَقاضَى رسولُ الله ﷺ بغيراً فقالوا: ما نَجِدُ إِلَّا أَفْضَلَ مِنْ سِنِّهِ فَقَالَ: «أَعْطُوهُ» فقال: أوفيتني أوفى اللهُ لك. فقال: «خيار الناس أحسنهم قِضَاءً». وفي بعض ألفاظ هذا الحديث الصَّحاح: كان لرجلٍ على رسولِ الله ﷺ حق، فأغْلَظَ له، فهِمَّ به أصحابُ رسولِ الله ﷺ فقال رسولُ الله ﷺ: «دَعُوهُ، فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالاً». وقد أخبرنا ابنُ الحصين قال: أخبرنا ابنُ المُذهب قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا إبراهيم بن إسماعيل بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ استسلفَ منه حين غزا حُنَيْنًا ثلاثين أو أربعين ألفاً، فلما انصرفَ قضاها إِيَّاهُ، ثم قال: «بَارَكَ اللهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ إِنَّمَا جِزَاءُ السَّلْفِ الْوَفَاءُ وَالْحَمْدُ». وفي أفراد البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يَرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّاهَا اللهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَهَا يَرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللهُ» وكانت عائشة تَدَّانُ، فقليل لها: ما لك وللدين؟ فقالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما من عبدٍ كانت له نيةٌ في أداءِ دينِهِ إِلَّا كَانَ لَهُ مِنَ اللهِ عِزٌّ وَجَلَّ عَوْنٌ» فَأَنَا أَلْتَمِسُ ذَلِكَ الْعَوْنَ.

الخامس: أن يُقِيلَ من يَسْتَقِيلُهُ، فإنه لا يَسْتَقِيلُ إِلَّا مُتَضَرِّراً بِالْبَيْعِ، فلا ينبغي أن يرضى لنفسه أن يكون سبباً<sup>(١)</sup> استِضْرَارِ أَخِيهِ، فقد روى أبو داود في سننه من

(١) سقطت من الأصل.

حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَقَالَ مُسْلِمًا أَقَالَ اللَّهُ عَثْرَتَهُ».

السادس: أن يُنْسَى<sup>(١)</sup> الفقراء ويعزم أن لا يُطالبهم إن لم تَظْهَرْ لهم مَيْسِرَةٌ.

وفي الجملة التَّجَارَةُ مَحَكُّ الرَّجَالِ وبها يَبِينُ دِينُ الرَّجُلِ وَوَرَعُهُ، شهدَ شاهدٌ عند عمر بن الخطاب فقال: ائْتِنِي بِمَنْ يَعْرِفُكَ. فأتاه برجلٍ فأتىني عليه خيراً، فقال له عمر: أنتَ جاره الأدنى الذي يَعْرِفُ مَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ؟ قال: لا. قال: كُنْتَ رَفِيقَهُ فِي السَّفَرِ الَّذِي يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ؟ قال: لا. قال: فَعَامَلْتَهُ بِالْدِينَارِ وَالذَّرْهَمِ الَّذِي يَسْتَبِينُ بِهِمَا وَرَعُ الرَّجُلِ؟ قال: لا. قال: أَظُنُّكَ رَأَيْتَهُ قَائِمًا فِي الْمَسْجِدِ يُهَمُّهُمْ بِالْقُرْآنِ يَخْفِضُ رَأْسَهُ طَوْرًا وَيَرْفَعُهُ. قال: نعم. قال: اذْهَبْ فَلَسْتَ تَعْرِفُهُ. وقال للرجل: اذْهَبْ فَأْتِنِي بِمَنْ يَعْرِفُكَ.

(١) أي: يُمهَلهم ويؤخرهم.

## الباب الخامس

### في شَفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته

لا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده، بل يُراعي دينه، قال مُعاذ بن جبل: إنه لا بد لك من نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوَج، فابدأ بنصيبك من الآخرة، فإنه سيأتي على نصيبك من الدنيا فينتظمه انتظاماً.

وإنما تتم شفقة التاجر على دينه بمُراعاة سبعة أشياء:

**الأول:** حُسن النية في التجارة، فليُنو بها الاستعفاف عن السّؤال، وكف الطمع عن الناس، والقيام بكفاية العيال ليكون بذلك من جُملة المجاهدين، وليُنو النُصح للمسلمين، وأن يحبّ لهم ما يحب لنفسه، وليُنو اتّباع طريق العدل والإحسان في معاملته على ما سبق ذكره، وليُنو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل ما يراه في السوق، فيكون بهذه النيات عاملاً في طريق الآخرة، فإن استفاد مالاً فزيادة، وإن خسر المال ربح الأجر في الآخرة.

**الثاني:** أن يقصد القيام في صناعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات، فإن الصناعة والتجارة لو تركت بطل المعاش، فانتظام أمر الكل بتعاون الكل بأن يتكفل كل فريق بعمل إلا أن من الصناعة ما هو مهم، ومنها ما هو يستغنى عنه لكونه متعلقاً بالزينة أو طلب التّنعّم، فليشتغل بصناعةٍ مهمةٍ ليكون في قيامه بها كافياً عن المسلمين مُهماً، وليجتنب صناعة الصياغة والنّقش وتشييد البُنيان بالجِصّ وجميع ما يزخرّف به، فإنه مكروه.

ومن المعاصي عمل الملاهي، وخياطة الخياط القباء الديباج للرجل، ويكره أن يكون جِزاراً؛ لأنه يوجب قساوة القلب، أو حجاماً، أو كُنّاساً لما فيه من مباشرة النجاسة، وفي معناه الدبّاغ، وقد استحَب السلف التجارة خصوصاً في البزّ

والخِياطة والقِصارة وعمل الخِفافِ وحَذْوِ النُّعال وعمل الحديد والمغازل والصيد والوراقة، قال عبد الوهاب الوراق: قال لي الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: ما صناعتك؟ قلت: الوراقة. قال: كسب طيب، لا تكتب إلا مُواصِفَةً واستثنِ الحواشي وظهور الأجزاء.

ولا يجوزُ أخذُ الأجرة على تعليم القرآن والعبادات وفروض الكفايات، كعَسَل الموتى.

الثالث: أن لا تمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة، وسوق الآخرة المساجد، فينبغي أن يجعل أول النهار إلى وقت دخول السوق لآخرته، فيواظب على الأوراد وقد كان صالحوا السلف من التجار يجعلون أول النهار وآخره للآخرة، ووسطه للتجارة، وإذا سمع الأذان للظهر والعصر، فينبغي له أن يترك المعاش اشتغالاً بأداء الفرض.

الرابع: أن يُلَازِم ذكرَ الله تعالى في السوق، ويشتغل بالتسبيح والتهليل، وقد ذكرنا في كتاب الذكر ما يُقال في السوق من الأذكار، قال أبو جعفر الفرغاني: كنا عند الجنيد فجرى ذكرُ ناسٍ يجلسون في المسجد<sup>(١)</sup> ويعيبون من يدخل السوق، فقال: كم ممن هو في السوق حُكِمه أن يدخل المسجد ويأخذ بأذن بعض من فيه فيخرجه ويجلس مكانه، إني لأعرف رجلاً يدخل السوق وردّه كل يوم ثلاث مئة ركعة وثلاثون ألف تسبيحة، قال: فسبق إلى وهمي أنه يعني نفسه.

الخامس: أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة، وذلك بأن يكون أول داخلٍ وآخر خارجٍ، وبأن يركب البحر في التجارة، قال عبد الله بن عمرو بن العاص: لا تكن أول داخلٍ إلى السوق ولا آخر خارجٍ منها، فإن بها باض الشيطان وفرّخ. وتمام هذا الاحتراز أن يُراقب حصول كفايته ثم ينصرف، فقد كان حماد بن سلمة إذا حصل له قدر ما يكفيه قام، وقد كان فيهم من يعمل في الأسبوع يومين أو يوماً على مقدار الحاجة.

(١) في الأصل: «المجلس».

السادس: أن لا يقتصر على اجتناب الحرام بل يتوقى مواقع الشُّبهة ومواقع الرِّيب، ولا يقف مع الفتاوي بل يستفتي قلبه فيجتنب ما يحزُّ في القلب، فإن الإثم حَزَّازٌ<sup>(١)</sup> القلوب.

وينبغي أن ينظر إلى من يُعامله، فلا يعامل منسوباً إلى ظلم أو خيانة، فإنه إذا عامل الظلمة أعانهم بالمعاملة على ظلمهم، وفي الصحيحين من حديث حذيفة أنه قال: لقد أتى عليّ زمانٌ وما أبالي أيُّكم بايَعْتُ، لئن كان مسلماً ليردَّه عليّ دينه، ولئن كان يهودياً أو نصرانياً ليردَّه عليّ ساعيه<sup>(٢)</sup>، فأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً.

السابع: أن يُراقب جميع ما يجري في معاملته مع كل واحدٍ من مُعامليه، فإنه محاسب على ذلك.

فهذا ما على المكتسب في مُعاملته من العدل والإحسان والإشفاق على الدين، فإن اقتصر على العدل كان من الصالحين، وإن أضاف إليه الإحسان كان من المقربين، وإن راعى الوُظائف المذكورة في الباب الخامس كان من الصّديقين.

### آخر كتاب آداب الكسب



(١) الحَزَّاز: ألم يحزُّ في القلب من وجع أو غيظ أو خوف.

(٢) ساعيه: وليه الذي يقوم بأمر الناس ويستخرج حقوق الناس بعضهم من بعض.

## كتاب الحلال والحرام

الحمدُ لله الذي خلقَ الإنسانَ من الطِّينِ اللَّازِبِ والصَّلصالِ، وأحسنَ تصويره على أتمِّ تقويمٍ وأكملِ اعتدالٍ، ثمَّ غَداهُ بما يحفظُ بَدَنه وقُوته عن الانحلالِ، ففي بُدوِّ نُشوئِهِ باللَّبَنِ يَتَغَرَّبُ في فيه وقد كان يُؤذيه لو سَأَلَ، ثمَّ عطفَ الوالدينَ عليه يَكسِبَانِ ويُنفِقَانِ المالَ، فلما فهمَ وطلبَ كَلَفَهُ تركُ الحرامِ وأخذَ الحلالِ.

أَحْمَدُهُ على كلِّ حالٍ، وأصلي على رسوله محمد قامعِ الرِّبِّغِ وفاضحِ الضَّلَالِ، وعلى أصحابه وآله خير آلٍ وأسلمَ تسليمًا يدومُ بدوامِ العُدوِّ والآصالِ.

اعلَمُ أن طلبَ الحلالِ فرضٌ على كلِّ مسلمٍ، وقد ادَّعى كثيرٌ من الجُهَّالِ عدمَ الحلالِ، وقالوا: لم يبقَ منه إلا الماءُ الفُراتِ والحشيشُ النابتُ في المواتِ، وما عداهُ فقد أفسدتهُ المعاملاتُ الفاسدةُ، فلما وقعَ لهم هذا وعلموا أنه لا بدَ من الأَقواتِ توسَّعوا في الشبهة<sup>(١)</sup> والحرامِ ومثارَ هذا من قلوبهم الجهلُ بالعلمِ، فإن في الصحيحينَ من حديثِ النُّعْمانِ بنِ بَشِيرٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «الحلالُ بيِّنٌ والحرامُ بيِّنٌ، وبينهما مُشْتَبِهَاتٌ». وفي أفرادِ البخاريِّ من حديثِ أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ليأتينَّ زمانٌ على الناسِ لا يُبالي المرءُ بما أخذَ المالَ من حلالٍ أم من حرامٍ».

ولما كانت هذه الدعوى من هؤلاء الجُهَّالِ بدعة قد عمَّ ضررها واستطار في الدينِ شرُّها، وجب كشفُ الغِطاءِ عن فسادها بالإرشادِ إلى مدركِ الفرقِ بينِ الحلالِ والشُّبهةِ، ونحن نوضح ذلك في ستة أبواب:

(١) في (ظ): «الشُّبهَةُ».

الباب الأول: في فَضيلة طلب الحلال وَدَمَّ الحرام، ودرجات الحلال والحرام.

الباب الثاني: في مراتب الشُّبُهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام.

الباب الثالث: في البحث والسؤال والهجوم والإهمال، ومظانَّهما في الحلال

والحرام.

الباب الرابع: في كيفية خُروج التائب عن المظالم المالية.

الباب الخامس: في إذرارات السُّلَّاطين وصلاتهم وما يَحِلُّ منها.

الباب السادس: في الدخول على السُّلَّاطين ومُخالطتهم.

## الباب الأول

### في فضيلة طلب الحلال وذم الحرام و درجات الحلال والحرام

فضيلة الحلال وذم الحرام: قال الله عز وجل: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، الطيبات: الحلال، فأمر به قبل العمل، وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتَمَى ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠]، وقال: ﴿وَذُرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ] [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩] ثم قال: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وقد أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو النضر قال: حدثنا الفضيل بن مرزوق عن عدي بن ثابت عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله عز وجل أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يا ربّ يا ربّ، ومطعمه حرامّ ومشربه حرامّ وملبسه حرامّ وغذّي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟» انفراد بإخراجه مسلم. وبالإسناد حدثنا الإمام أحمد بن حنبل قال: حدثنا محمد بن عبيد قال: حدثنا أبان بن إسحاق عن الصّباح بن محمد بن مرّة الهمداني عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يكتسب عبداً مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله عز وجل لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن، إن الحبيث لا يمحو الخبيث». وقد صحّ عن

رسول الله ﷺ أنه لعن أكل الربا وموكله، وروي أن سعداً سأل رسول الله ﷺ أن تستجاب دعوته، فقال له: «أَطْبُ طُعْمَتِكَ، تُسْتَجَب دَعْوَتُكَ».

وقد كان السلف ينظرون في الحلال ويُدققون، فأكل أبو بكر الصديق رضي الله عنه شيئاً من شُبْهةٍ ثم قاء، وقال إبراهيم بن أدهم: ما أدرك من أدرك إلا من كان يعقل ما يدخل جوفه. وقال بعض السلف: المعدة حوضُ البدن<sup>(١)</sup>، فإذا ترك فيها الحلال تحركت الأعضاء بالطاعة، وإذا ترك فيها الحرام تحركت الأعضاء بالمعصية.

**أصناف الحلال ومداخله:** اعلم أن المال إنما يحرم لمعنى في عينه، أو لخلل في جهة اكتسابه، فأما الحرام لعينه، فكالخمر، وتفصيل هذا أن الأعيان المأكولة على وجه الأرض لا تعدوا ثلاثة أقسام: إما أن تكون من المعادن، كالملح والطين، أو من النبات أو من الحيوان، فأما المعادن فهي أجزاء من الأرض، فلا يحرم أكل ما يخرج منها إلا من حيث يضر بالآكل، وبعضها يجري مجرى السم، وأما النبات فلا يحرم منه إلا ما يُزيل العقل كالمُسْكِر، أو الحياة كالسُموم، أو الصحة كالأدوية في غير وقتها، وكان مجموع هذا يرجع إلى الضرر إلا في حق المُسْكِر، فإن الذي لا يُسْكِرُ منها حرامٌ أيضاً مع قِلته لعينه وصفته، وهي الشدّة، فأما السم فإنه إذا خرج عن كونه مُضراً لقلته أو لعجنه بغيره لم يحرم، وأما الحيوانات فتتقسم إلى ما يُؤكل وإلى ما لا يؤكل، وتفصيل ذلك في كتاب الأطعمة، وإنما يحل ما يحل منها إذا دُبِحَ ذبْحاً شرعياً يراعى فيه شروط الذابح والآلة والمذبوح، وذلك مذكور في كتاب الصيد والذبائح، وما لم يُذبح ذبْحاً شرعياً أو مات، فهو حرام، إلا أنه قد أُحِلَّت لنا ميتتان: السمك والجراد.

**القسم الثاني:** ما يحرم لخلل في جهة إثبات اليد عليه، فنقول: أخذ المال إما أن يكون باختيار الممتلك أو بغير اختياره، فالذي بغير اختياره، كالإرث، والذي باختياره إما أن يكون من مالك كنبيل المعادين، أو من غير مالك، فإما أن يُؤخَذَ قهراً أو تراضياً، فالمأخوذ قهراً إما أن يكون لسقوط عصمة المالك، كالغنائم أو لاستحقاق الأخذ كزكوات الممتنعين والنفقات الواجبة عليهم، والمأخوذ تراضياً

(١) تحرفت في الأصل إلى: «السلف».

إما أن يؤخذ بعوضٍ، كالمبيع والصدّاق والأجرة، أو بغير عوض، كالوصية والهبة، فيحصل من هذا السياق ستّة أقسام:

الأول: ما لا يُؤخذ من مالك، كالمعادن وإحياء الموات والاصطياد والاحتطاب والاحتشاش، فهذا حلال بشرط أن لا يكون المأخوذ مختصاً بذى حرمةٍ من الآدميين، فإذا انفك عن الاختصاص ملكه آخذه.

الثاني: المأخوذ قهراً ممن لا حرمة له، وهو الفَيءُ والغنيمة وسائر أموال الكفار المحاربين، وذلك حلالٌ للمسلمين إذا أخرجوا منه الخمس، وقسموه بين المستحقين بالعدل، ولم يأخذوا من كافرٍ له حرمة وأمان وعهد.

الثالث: ما يؤخذ قهراً باستحقاقٍ عند امتناع من وجب<sup>(١)</sup> عليه، وذلك حلالٌ إذا تم سبب الاستحقاق، وتم وصف المستحق، واقتصر على القدر المستحق، واستوفاه من يملك الاستيفاء من سلطانٍ أو قاضٍ أو مُستحق.

الرابع: ما يُؤخذ تراضياً بمعاوضة، وذلك حلالٌ إذا روعي شرط العوضين، وشرط العاقدين، وشرط اللَّفظين، أعني: الإيجاب والقبول، وكان مما يجوز فيه التّعاطي.

الخامس: ما يُؤخذ بالرّضا من غير عوض، كالهبة، وذلك حلالٌ إذا روعي شرط المعقود عليه، وشرط العقد، وشرط العاقدين، ولم يُؤدّ إلى ضررٍ بوارثٍ وغيره.

السادس: ما يحصل بغير اختيار، كالميراث وهو حلال إذا كان الموروث قد اكتسب من وجه حلال، ثم كان ذلك بعد قضاء الدين، وتنفيذ الوصايا، وتعديل القسمة بين الورثة، وإخراج الحج والكفارة، فهذه مجامع مداخِل الحلال أو مآناً إليها<sup>(٢)</sup>.

(١) سقطت من النسخ، واستدركت من الإحياء.

(٢) ورد هنا في هامش (ظ) ما نصه: «آخر الجزء الخامس من أجزاء الشيخ المصنف».

## درجات الحلال والحرام

اعلم أن الحلال كله طيب، ولكن بعضه أطيب من بعض، والحرام كله خبيث، ولكن بعضه أخبث من بعض، كما أن الطيب يحكم على كل حلو بالحرارة، ولكنه يقول: هذا حارٌّ في الدرجة الأولى، وهذا حار في الثانية وهذا في الثالثة، وهذا في الرابعة. فلنجعل هذا مثلاً لما نذكره من هذا الفن فنقول: الورع عن الحرام على أربع درجات:

**الأولى:** ورع العدول، وهو الذي يحصل الفسق باقتحامه، وتسقط العدالة به، ويثبت اسم العصيان بسببه، ويُتعرَّضُ لنار جهنم من أجله، وهو الورع عن كلِّ ما تحرَّمه فتاوى الفقهاء.

**الثانية:** ورع الصالحين، وهو الامتناع عن ما يتطرق إليه احتمال التحريم ولكن المفتي يرخص في التناول<sup>(١)</sup> بناءً على الظاهر، وهو من الشبهة في الجملة الثالثة ما لا تحرمه الفتوى ولا شبهة في حله، ولكن يُخاف منه أن يؤدي إلى مُحرم، وهو ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس.

**الرابعة:** ما لا بأس به أصلاً، ولا يُخاف أن يؤدي إلى بأس، ولكنه يُتناول لغير الله على<sup>(٢)</sup> غير نية التقوى به على طاعة الله، أو يتطرق إلى بعض أسبابه المُسهِّلة له كراهة أو معصية، فالامتناع منه ورع الصديقين.

فهذه درجات الحلال جملةً إلى أن نُفصلها بالأمثلة والشواهد.

وأما الحرام الذي ذكرناه في الدرجة الأولى، وهو الذي يشترط التورع عنه في العدالة واطِّراح سِمَةِ الفسق، فهو أيضاً على درجاتٍ في الخُبث؛ فالمأخوذُ بعقدٍ فاسدٍ حرامٌ، ولكن ليس في درجة المغصوب على سبيل القهر، بل المغصوب أغلظ، إذ فيه ترك طريق الشرع في الاكتساب، وإيذاء الغير، وليس في العقود

(١) في (ظ): «التأول».

(٢) سقطت من الأصل.

الفاسدة إلا ترك طريق التَّعبَد فقط، ثم ترك طريق التَّعبَد في هذا أهون من تركه بالرُّبَا، وهذا التفاوت يُدرك بتشديد الشَّرْع ووعيده وتأكيده في بعض المناهي على ما سيأتي في كتاب التَّوْبَة عند ذكر الفَرْق بين الصَّغيرة والكبيرة، بل المأخوذ ظُلماً من فقيرٍ أو صالحٍ أو يتيمٍ أخبث وأغلظ من المأخوذ من قويٍ أو غنيٍ أو فاسقٍ؛ لأن درجات الإيذاء تختلف باختلاف درجات المؤدَّى، فهذه دقائق في تفاصيل الخبائث لا ينبغي أن يذهلَ عنها، ولولا اختلاف درجات العُصاة لما اختلفت دَرَكات النار، وإذا عرفت مَثارات التَّغْلِيط فلا حاجة إلى حصره في ثلاثِ درجاتٍ أو أربع، فإن ذلك جارٍ مجرى التحكُّم والتَّشْهِي، وهو طلب حصرٍ فيما لا حاصلٍ له، ويدلُّك على اختلاف درجات الحرام في الحُبِّ ما سيأتي في تعارض المحذورات وترجيح بعضها على بعض، مثل ما نقول فيما إذا اضطرَّ إلى أكلِ ميتةٍ، أو أكلِ طعامِ الغَير، أو أكلِ صيدِ الحَرم، فإننا نُقدم بعض هذه على بعض.

#### أمثلة الدرجات الأربع في الورع وشواهدا:

أما الدرجة الأولى: وهي درجة العدول، فكل ما تقتضي الفتوى تحريمه، ولا يحتاج إلى أمثلة وشواهد.

وأما الدرجة الثانية: فأمثلتها كل شُبْهة لا يجب اجتنابها، لكن يستحب، كما يأتي في كتاب الشبهات، ومن هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «دَعُ ما يربُّك إلى ما لا يربُّك».

وأما الدرجة الثالثة: وهو ورع المتقين، كما روينا عن عمر بن الخطاب أنه قدَّم عليه مسكٌ فقال: ودِدْتُ لو أنّ امرأةَ جيدةِ الوزنِ تزن لي حتى أقسمه بين المسلمين. فقالت امرأته عاتكة: أنا جيدةِ الوزنِ فهلَمَّ أَرِنُ لَكَ. قال: لا إني أخشى أن تأخذه هكذا فتجعليه هكذا - وأدخل أصابعه في صُدْغَيْه - وتمسحين عُنقك فأصيب فضلاً عن المسلمين. وكان عمر يدفع في أوقاتٍ إلى امرأته طيباً من طيب المسلمين، تبعه، فجعلت تبع عَطَّارةً فتكسرُ بأسنانها وترن لها، فعلق بإصبعها منه شيء، فمسحت به خمارها، فجاء عمر فقال: ما هذه الريح؟ فأخبرته، فانترع

خِمَارها فصبَّ عليه الماء فَعَسَله وإنما فَعَلَ هذا زَجْراً لها لثلاً تعود إلى مثل ذلك، وإلا فَعَسَله لا يفيد المسلمين، وَوُزِنَ بين يدي عمر بن عبد العزيز مِسْكٌ للمسلمين، فأخذ بأنفه وقال: هل يُنْتَفَعُ إلا بِريحه. وماتَ رجلٌ من السلف فأطفأت امرأته السراج وقالت: صار لنا في هذا الزَّيْتِ شريك.

وأما الدرجة الرابعة: فمثاله ما رُوي عن يحيى النيسابوري أنه شَرَبَ دواءً، فقالت امرأته: لو مشيت في الدار قليلاً حتى يَعْمَلَ الدواء. فقال: هذه مِشْيَةٌ لا أعرفها، وأنا أحاسب نفسي منذ ثلاثين سنة. فهذا رجلٌ لم تَحْضُرْه نِيَّةٌ في هذه المشية تتعلق بالدين فلم يُقدم عليها. وعن سَرِيٍّ السَّقَطِيّ أنه قال: انتهيتُ إلى عُشْبٍ في مُسْتَفْعٍ، فقلت: إن كنتُ أَكَلْتُ حَلالاً فاليوم. فهتف بي هاتِفٌ: يا سَرِيٍّ، النَّفَقَةُ التي أوصلتك إلى ههنا من أين؟ وعن ذي النون المصري أنه كان محبوباً، فبعثت له امرأةٌ صالحةً شيئاً، فلم يأكل، وقال: جاءني على طبقٍ حرام. يعني يَدَ السَّجَانِ.

ومن هذا التورُّع عن كسبٍ حلالٍ اكتسبه خِيَاطٌ يَخِيْطُ في المسجد، وأطفاً بعضُهم سِراجاً أسرجها غلامه من قومٍ يكره مالهم، وكره آخرون أن يَسْتَضِيئوا بِمِشْعَلِ ظالمٍ.

فهذه دقائق الورع عند سالكي طريق الآخرة، والتحقيق فيه أن الورع له أول؛ وهو الامتناع مما تحرمه الفتوى، وهو وَرَعُ العُدُولِ، وله غايةٌ هي وَرَعُ الصِّدِّيقين، وهي الامتناع من كل ما ليس لله مما أُخِذَ بشهوة أو تَوَصَّلَ إليه بمكروه، وبينهما درجَات في الاحتياط، فكلما كان الإنسان أشدَّ تشديداً كان أسرع جوازاً على الصُّرَاطِ وأخف ظهراً، وتتنافوت المنازل في الآخرة<sup>(١)</sup> بحيث تتفاوت هذه الدرجات في الورع، كما تتفاوت دركات النار في حق الظلِّمة بحسب<sup>(٢)</sup> تفاوت درجات الحرام في الخُبثِ، فإن شئتَ فَرِدْ في الاحتياط، وإن شئتَ فترخَّص، فلنفسك تَحْتَاط، وعليها تترخَّص.

## الباب الثاني

### في مراتب الشُّبهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام

قال ﷺ: «الحلال بيِّن والحرام بيِّن، وبينهما أمورٌ مُشْتَبِهَات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشُّبهات فقد استبرأ لِعرضه ودينه، ومن وقع في الشُّبهات واقَعَ الحرام، كالراعي حول الحمى يوشك أن يرتع فيه». فهذا الحديث نصٌّ في إثبات الأقسام الثلاثة، والمشكل منها المتوسط الذي لا يعرفه كثير من الناس، وهو الشبهة، ونحن نكشف الغطاء عنها فنقول: الحلال المطلق الذي لا يتعلّق بذاته صفة توجب تحريماً لعينه، ولا يتعلّق بأسبابه ما يتطرق إليه تحريماً أو كراهةً، مثاله الماء الذي يأخذه الإنسان من المطر قبل أن يقع على ملكٍ أحدٍ، ويكون هو واقفاً عند أخذه وجمعه من الهواء في ملك نفسه، أو في أرضٍ مُباحةٍ.

والحرامُ المحضُ ما فيه صفةٌ محرمةٌ، كالشُّدَّة في الحَمَر، والنَّجاسة في البول، أو حصلَ بسبب منهي عنه قطعاً كالمحصّل بالظلم والرِّبا، فهذان طرفان ظاهران، ويلتحق ما تحقق أمره ولكن احتمل تغييره ولم يكن لذلك الاحتمال سبب يدل عليه، فإن صيد البرِّ والبحر حلال، إلا أنه من صادَ طيبةً أو سمكةً، فإنه يحتمل أن يكون قد ملكها صياد ثم أفلتت منه، وهذا الاحتمال لا يتطرق إلى ماء المطر المختطف من الهواء، فمساكنة ذلك الاحتمال في الصَّيد ورعُ المُوسوسين؛ لأنه وهُم مجردٌ لا دلالة عليه، فلو أنه دلَّ عليه دليلٌ مثل أن يجد في الطَّيبة جرحاً يحتمل أن يكون كياً لا يقدر عليه إلا بعد الضُّبط، ويحتمل أن يكون جراحة فهذا موضع الورع، وأما إذا انتفت الدلالة من كل وجه، فالاحتمال المعدوم دلالته كلاحتمال المعدوم في نفسه، ومن هذا الجنس من يستعير داراً فيغيب عنه المعير فيخرج منها، ويقول: لعله قد مات وصار الحقُّ للوارث. فهذا وسواس إذ لم يدلَّ على موته سببٌ قاطع

أو مُشكِّكٌ، إذ الشُّبهة المحذورة ما تنشأ من الشك، والشك عبارة عن اعتقادين متقابلين نشأ عن سببين، فما لا سبب له لا يثبت عقده في النفس حتى يساوي العقد المقابل له فيصير شكاً، ومن كان في يده طعامٌ لموروثه الذي لا وارث له سواه فغاب عنه، فقال: يحتمل أنه قد مات وقد انتقل الملك إليّ. فأكله، كان على إقدامه على هذا حراماً محضاً؛ لأنه احتمالٌ لا مُستند له، فلا ينبغي أن يعد هذا النمط من أقسام الشُّبهات، وإنما الشُّبهة ما تعارض فيه اعتقادان صدرا عن سببين مُقتضيين للاعتقادين.

ومثارات الشُّبهة كثيرة، والمهم منها اثنان:

**المثارة الأولى:** الشك في السبب المحلل والمحرم، وذلك لا يخلو إما أن يكون مُتعادلاً، أو يغلب أحد الاحتمالين، فإن تعادل الاحتمال كان الحكم لما عرف قبله فيستصحب ولا يترك بالشك، وإن غلب أحد الاحتمالين عليه فصدر عن دلالة معتبرة كان الحكم للغالب، ولا يتبين هذا إلا بمثالٍ وشواهد، فلنقسمه إلى أقسامٍ أربعة:

**القسم الأول:** أن لا يكون الحل معلوماً من قبل ثم يقع الشك في المحلل، فهذه شُّبهة يجب اجتنابها، ويحرم الإقدام عليها، مثاله أن يرمى صيداً فيجرحه ويقع في الماء، فيصادفه ميتاً، ولا يدري هل مات بالغرق أو بالجرح؟ فهذا حرامٌ؛ لأن الأصل التحريم، إلا إذا مات بطريقٍ معين، وقد وقع الشك في الطريق المعين، فلا يترك اليقين بالشك، كما نقول في الأحداث، والأنجاس، وعدد الركعات وغير ذلك.

**القسم الثاني:** أن يعرف الحل ويشك في المحرم، فالأصل الحل، وله الحكم كما لو طار طائر فقال رجل: إن كان هذا غراباً فامرأته طالق، وقال آخر: إن لم يكن غراباً فامرأته طالق، ثم التبس أمر الطائر، فإننا لا نقضي بالتحريم في واحدةٍ منهما، إنما الورع اجتنابهما وتطليقهما.

**القسم الثالث:** أن يكون الأصل التحريم، ولكن طراً ما أوجب التحليل بظنٍ غالب، فهو مشكوك فيه، والغالب حله، مثاله أن يرمى إلى صيدٍ فيغيب عنه، ثم

يدركه ميتاً وليس عليه أثر سوى سهمه، فهذا يحتمل أن يكون ماتَ بسهمه أو بسببٍ آخر، فإن ظهر عليه أثر صدمةٍ أو جراحةٍ أخرى التحق بالقسم الأول، وإن لم يظهر، فالظاهر الحل؛ لأن الاحتمال إذا لم يستند إلى دلالة التحق بالوسوسة، فإنه لو جرحَ رجلَ رجلاً فغاب، فوجد ميتاً وجب القصاص على جرحه، وإن كان يحتمل أنه ثار به خلطٌ فمات لا من الجراحة، ولكن لا يلتفت إلى هذا الاحتمال.

**القسم الرابع:** أن يكون الحِلُّ معلوماً، ولكن يغلب على الظن<sup>(١)</sup> طريان محرم بسببٍ مُعتبر في غلبة الظن<sup>(٢)</sup> شرعاً، فيرفع الاستصحاب ويقضى بالتحريم؛ لأن الاستصحاب يضعف مع غلبة الظن، مثاله: أن يؤدي اجتهاده إلى نجاسة أحد الإنائين بالاعتماد على علامةٍ معينة توجب غلبة الظن، فيوجب تحريم شربه، كما أوجب منع الوضوء به.

**المثار الثاني:** للشبهة شكٌ منشؤه الاختلاط، وذلك بأن يختلط الحلال والحرام ويشته الأمر فلا يتميز، والخلط لا يخلو إما أن يقع بعددٍ لا يحصر من الجانبين، أو من أحدهما أو بعدد محصور، فإن اختلط بمحصورٍ، فلا يخلو إما أن يكون اختلاط امتزاجٍ بخبيثٍ لا يتميز بالإشارة، كاختلاط المائعات، أو يكون اختلاط استيهامٍ مع تمييز الأعيان، كاختلاط الأعبُد والدُّور والأفراس، والذي يختلط بالاستيهام، فلا يخلو إما أن يكون مما يقصد عينه، كالعروض، ولا يقصد كالتقود، فيخرج من هذا القسم سبعة أقسام:

**الأول:** أن تُستبهم العينُ بعددٍ محصورٍ، كما لو اختلطت الميئة بذكيةٍ أو بعشر ذكيات، أو اختلطت الرضيعة بعشر نسوةٍ، أو يتزوج أحد الأختين وتلبس، فهذه شبهة يجب اجتنابها بالإجماع؛ لأنه لا مجال للاجتهاد والعلامات في هذا، فإذا اختلط بعددٍ محصور صارت الجملة كالشيء الواحد، وتقابل فيه يقين التحليل والتحريم، ولا فرق في هذا بين أن يثبت حل فينظر اختلاطه بمحرم، كما لو وقع الطلاق على إحدى زوجتيه في مسألة الطائر التي قد تقدمت، أو يختلط قبل

الاستحلال، كما لو اختلطت رَضِيعَةٌ بأجنبية، فأراد استحلال واحدة، وهذا قد يُشكل في طَرَيَانِ التَّحْرِيمِ، كطلاق إحدى الزوجتين لما سبق من الاستصحاب، وقد نبهنا على الجواب، وهو أن يقين التحريم قابل يقين الحل فَضَعُفَ الاستصحاب، وجانب الحَظَرِ أغلب في نظر الشرع، فلذلك يرجح، وهذا إذا اختلط حلالٌ محصورٌ بحرامٍ محصورٍ، فإن اختلط حلال محصورٌ بحرامٍ غير محصورٍ، فلا يَخْفَى<sup>(١)</sup> أن الاجتناب أولى.

**القسم الثاني:** حرام محصورٌ بحرامٍ غير محصور، كما لو اختلطت رَضِيعَتُهُ أو عشر رضائع بنسوةٍ بلدٍ كبير، فلا يلزم بهذا اجتنابُ نكاح أهل البلد، بل له أن ينكح مَنْ شاء منهن، وهذا لا يجوز أن يعلَّلَ بكثرة الحلال؛ لأنه يلزم عليه أن يجوزَ النكاح إذا اختلطت واحدة حرام بتسع حلال، ولا قائل به، بل العلةُ الغَلْبَةُ والحاجة جميعاً، إذ كل من ضاعَ له رضيع أو قريب أو محرم بمصاهرةٍ أو سببٍ من الأسباب لا يمكن أن يسدَّ عليه باب النكاح، وكذلك من علم أن مال الدنيا خالطه حرامٌ قطعاً، فإنه لا يلزمه ترك الشراء والأكل؛ لأن في ذلك حَرَجاً، وما في الدين من حَرَجٍ، وقد علم رسول الله ﷺ وأصحابه أن في الناس من يُربي في الدراهم، وما تركوا الدراهم بالكليَّة، وإن مَجَنًّا<sup>(٢)</sup> سُرِقَ في زمانه وما تركوا شراء مَجَنٍّ، فاجتنابُ هذا من وَرَعِ الوسوسة<sup>(٣)</sup>.

**القسم الثالث:** أن يختلط حرامٌ لا يُحصَرُ بحلالٍ لا يُحصَرُ، كحكم الأموال في زماننا هذا، فلا يحرم بهذا الاختلاط تناول شيء بعينه، إلا أن يقترن بتلك العين علامة تدل على أنه من الحرام، فإن لم يكن في العين علامة، فتركه ورع، ومن العلامات أن يأخذه من يَدِ سُلْطَانٍ ظالم، ويدل على ما قلنا الأثر والقياس؛ أما الأثر فقد علم في زمان رسول الله ﷺ والخلفاء بعده أن أثمانَ الخمر ودراهم الربا وغلُولِ الغنيمة اختلطت بالأموال، وقد أدركت الصحابة نَهَبَ المدينة وتصرف

(١) سقطت من الأصل.

(٢) المَجَنُّ: التُّرس.

(٣) في (ظ): «الموسوسين».

الظلمة، ولم يمتنعوا من الشراء من السوق، وأما القياس؛ فإنه لو فُتح هذا الباب لانسَدَّ باب جميع<sup>(١)</sup> التصرفات؛ لأن الفسق يغلب على الناس، وإنما الترك لما يمكن ورع.

فإن قيل: كان الحرام في الزَّمن الأول قليلاً فما تقول الآن والحرام أكثر؟.

فالجواب: إن أردتَ بقولك: الحرام أكثر. كثرة الظلمة والربِّا والمعاملات الفاسدة، فليس ذلك بالأكثر؛ لأن الظلمة إذا أُضيفوا إلى الناس كانوا قليلاً، والمعاملات الفاسدة إذا أُضيفت إلى الصحيحة كانت قليلاً، وهذا كما يُقال: قد شاع شربُ الخمر. ومعلوم أن من لا يشربها أكثر.

فإن قيل: فأين الدينار الذي لم يتقلَّب في الحرام إلى أن وصل إلى يد المتقي؟ وأين الشاة التي سلمت أصولها من غصب؟

قلنا: لا نَظَر إلى هذا؛ لأن الأصل في الأموال قبولها للتصرفات وجواز التراضي عليها، ومن أين يقدر على تعيين دينارٍ يُقطع بتقلبه في الحرام أو شاةٍ، ثم إن الغالب أن من غصب شاةً أكلها ولم يستولدها، ومن غصب بذراً تناوله ولم يزرعه، ثم يُقدَّر أن الغالب الحرام؟! فالأصل في الأموال الحِلُّ وإذا تعارض أصلٌ وغالب ولا أماراة على الغالب حُكِمَ بالأصل، كما قلنا في طين الشوارع وجَرِّ النَّصرانية، ثم يقدر أن لهذا المال مالكا، ولكن لا سبيل إلى معرفة مالكه، فصار مرصداً لمصالح المسلمين، وجاز التصرف فيه كسائر الأموال الضائعة<sup>(٢)</sup> وجواز التراضي عليها<sup>(٢)</sup>، ونحن نقول: تجوز الصلاة في الشوارع إذا لم تُر نجاسةً، وإن طين الشوارع طاهر، والوضوء من أواني المشركين جائزٌ، فقد توضع عمر من جرِّ نصرانية مع أن مشربهم الخمر ومطعمهم الخنزير ولا يحترزون من نجاسة، وكانت الصحابة تلبس الفراء المدبوغة والثياب المصبوغة، ومن تأمل أحوال الدُّبَاغين والصِّبَاغين علمَ غلبة النَّجاسة عليهم، وكانوا يمشون حُفَاةً ويصَلُّون على

(١) سقطت من (ظ).

(٢-٢) سقط من (ظ).

الأرض<sup>(١)</sup>، فدلَّ على أنهم لم يحترزوا إلا من نجاسة مشاهدة أو أن يكون عليها علامة، فأما الظَّن الذي يُستتار من ردِّ الوهم إلى مجاري الأحوال، فلم يعتبروه. فإن قيل: فقد كانوا يتوسَّعون في أمور الطَّهارة ويحترزون في شُبُهات الحرام، فقد بان الفرق.

قلنا: إن أردتَ أنهم كانوا يُصلِّون مع النَّجاسة فباطل، وإن أردتَ أنهم احترزوا من كل نجاسةٍ وجب اجتنابها فصحيح، فأما تورُّعهم عن الشُّبُهة فكانَ بطريق الكَفِّ للنفس عمَّا ليس به بأس مخافة ما به بأس، والنفسُ تميل إلى الأموال كيف كانت بخلاف الأنجاس، وقد كانوا يمتنعون مما يشغل قلوبهم من الحلال، ثم لو أن الحرام ملاً الدنيا كلها وعلم يقيناً أنه ما بقي فيها حلالاً أصلاً، لَكُنَّا نأمر باستئناف تمهيد شروط الشَّرْع، واستئناف قواعده، فإن الرسول ﷺ لما بُعث كانت العرب تكتسب من الغارة، وأهلُ الكتاب يتعاملون بغير شرعهم، فلم يتعرض لما سلف، بل خصَّصَ أربابَ الأيدي بالأموال، ومَهَّدَ الشرعَ، ومعلومٌ أن ما ثبتَ تحريمه في شرع لا ينقلب حلالاً، فهذا حكم الفتوى أنه لو عمَّ الحرام وهو استئناف قواعد الشرع من غير أن يأمر بالتَّقَلُّلِ، والذي يليق بالورع الاقتصار على قدر الحاجة مع الاكتساب بطرق الشَّرْع من أصحاب الأيدي، ولا نُريدُ بالاقْتِصَارِ الاقْتِنَاعَ بِالْحَشِيشِ وَالصَّيْدِ، فإن ذلك يؤدي إلى تلف الأبدان، بل نُريدُ الاقْتِصَارَ عَلَى مَصَالِحِهَا.

وقد يقع اشتباهٌ في الأدلَّة، ويقع الاشتباه بتعارضِ شهادة فاسقين، وقد يوصي بمال للفقهاء فالكامل في الفقه يدخل فيه، والمبتدئ لا يدخل وبينهما درجات يقع الاشتباه فيها، وكذلك إذا أوصى للصوفية، والورع في الجملة اجتنابٌ ما يُشكَل، والإثم حَزَّازُ القُلُوبِ، إلا أن الاعتبار بقلب العالم الموقن<sup>(٢)</sup>، لا بقلب الجاهل الموسوس.

(١) سقطت من (ظ).

(٢) في الأصل: «الموقن».

## الباب الثالث

### في البحث والسؤال والهجوم والإهمال ومظانئهما

اعلم أنه لو قُدِّمَ لك طعام، أو أُهدِيَت لك هَدِيَّةٌ، أو أردت أن تُشترى شيئاً من شخص، فليس لك أن تقول: هذا مما لا أتُحقق جِلَّه فأريد أن أفتش عنه. وليس لك أن تترك البحث مطلقاً، بل السؤال واجبٌ مرةً، وحرامٌ مرةً، ومندوبٌ مرةً، ومكروهٌ مرةً، فلا بد من تفصيله.

والقولُ الشافي فيه أن مَظَنَّةَ السؤال الرِّيبية، ومثارها إما من أمرٍ يتعلق بالمال أو بصاحبِ المال.

**المَثَارُ الأول:** أحوال المالك: وله بالإضافة إلى معرفتك ثلاثة أحوال: أن يكون مَجْهُولاً، أو مشكوكاً فيه، أو معلوماً بنوعٍ ظنٍّ يستند إلى دلالة الحال. الحالة الأولى، وهي كونه مجهولاً، فالمجهول هو الذي ليس عنده قَرِينَةٌ تدل على ظلمه، كَرِيٍّ الأجناد، ولا على صلاحه كثياب أهل العلم والزهد والتجار، ولا يقال عن هذا: إنه مشكوكٌ؛ لأن الشكَّ عبارة عن اعتقادين مُتقابلين لهما سَببان متقابلان، فيدل هذا على الشيء وكونه مُسليماً دلالتان كافيتان في الهجوم على مُعاملته، فليس لك أن تقول: الفساد والظلم غالب على الناس؛ لأن هذه وَسْوسَةٌ وسوء ظن بهذا المسلم، وهو يستحق بإسلامه أن لا تُسيىء الظن به فإن أسأت الظن به لأنك رأيت فساداً من غيره، فقد جنيت عليه، فإن سألته تأذَى بسؤالك، فإن سألت عنه هتكت سِتْره، فالإثم في إيذاء مُسلم أكثر من الإثم بأكل شُبْهية، وقد كانت الصحابة تَغزوا وتنزل القُرَى ولا يَتَحَرَّزون من الأسواق مع كون الحرام فاشياً في زمانهم وما نقل عنهم سؤال إلا عن ريبية، ومن زاد عليهم في الورع فهو مبتدع، إذ لا يبلغ أحدٌ مُدَّ أحدهم ولا نَصيفه، ولو أنفق ما في الأرض جميعاً، وقد أكل رسولُ الله ﷺ من لحم تُصَدَّقَ به على بَريرة، وقال: «هو لها صدقة ولنا هدية» وكان المتصدق عليها مجهولاً عنده.

**الحالة الثانية:** أن يكون مشكوكاً فيه بسبب دلالةٍ أوزتت ربيّةً، مثل أن يكون على خِلقة الأتراك وأهل البوادي المعروفين بالظلم وقَطع الطريق، وأن يكون طويل الشارب، وأن يكون شعره قَزَعاً، كعادة أهل الفَسَاد، أو يكون عليه قَبَاءٌ وقَلنسوة ونحو ذلك من زيّ أهل الظلم، أو أن يُشاهد منه الإقدام على ما لا يحل، فهذا يجوز مُعاملته؛ لأن اليدَ تدل على المِلك، وهذه الدلالات ضعاف إلا أن التَّرك من الورع.

**الحالة الثالثة:** أن تكون الحال معلومة بنوعِ خبرة وممارسة بحيث يوجب ذلك ظناً في حلّ المال وتحريمه، مثل أن يعرف صلاح الرجل وديانته وعدالته في الظاهر، ثم يجوز أن يكون الباطن بخلافه، فههنا لا يجب السؤال ولا يجوز كما قلنا في المجهول بل هذا أولى، فأما إذا علم بالخبرة أنه مُعَنَّ أو مُرَبِّ وجب السؤال.

**المثار الثاني:** ما يستند الشك فيه إلى سبب في المال لا في حال المالك، وذلك بأن يختلط الحرام بالحلال، كما إذا طرح في سوق أحمال من طعام مغصوب، فاشتراها أهل السوق، فإنه لا يجب على من يشتري في تلك البلدة والسوق أن يسأل عما يشتريه إلا أن يظهر أن أكثر ما في أيديهم حرام، فعند ذلك يجب السؤال، فإن لم يكن الأكثر كان التفتيش ورعاً غير واجب؛ لأن حكم السوق الكبير حكم بلد، ويدل على هذا أن الصحابة رضي الله عنهم لم يمتنعوا من الشراء في الأسواق وقد علموا أن فيها دراهم الربا والغلول، وكانوا يأخذون الغنائم من الكفار الذين قد قاتلوا<sup>(١)</sup> المسلمين وأخذوا أموالهم، وكتب عُمر إلى أذربيجان: إنكم في بلاد تُذبح فيها الميتة، فانظروا ذكيتة من ميتة. فأذن في السؤال عن هذا، ولم يأمر بالسؤال عن الدراهم التي هي أثمانها؛ لأن أكثر دراهمهم لم تكن أثمان الجلود، وإن كانت الجلود تباع أيضاً.

ونفرض لإيضاح هذا الباب مسألةً، فنقول: رجلٌ له مالٌ حلالٌ خالطه حرام، مثل أن يكون تاجراً يُعامل معاملاتٍ صحيحة ويُرَبِّي، فهذا إن كان الأكثر من ماله

(١) في (ظ): «قتلوا».

حراماً لم يَجْزُ قبول ضيافته ولا هديته إلا بعد التفتيش، فإن ظهر أن المأخوذ من وجه حلال جاز، وإلا ترك، وإن كان الحرام أقلّ فالمأخوذُ شُبْهة والورع تركه، وإذا كان التفتيش والسؤال من الورع، فلا ينبغي أن يسأل صاحب المال؛ لأنه يغضبه بهذا إلا أن يكون أكثر ماله حراماً، فلا يبالي بغضبٍ مثل هذا.

فإن قيل: فأى فائدة في سؤاله فربما كذب؟ قلنا: إنما يسأله إذا لم يكن متهماً، فأما إذا علمت أن في ماله حراماً وعلمت أن له غرضاً في حضورك وقبولك هديته فلا ثقةً بقوله، وإنما ينبغي أن يسأل غيره.

واعلم أن السؤال إنما يقع لأجل الريبة، فلا ينقطع إلا من حيث تنقطع الريبة المقتضية له، فإن كان صاحب اليد لا يدري كيف طريق الكسب الحلال، فإنه إذا قال المعروف بالظلم: هذا اللبن من شاتي. لم يكتف بهذا، فلو قال: وهذه الشاة ولدتها شاتي. لم يكتف بهذا؛ لأن المغصوب يتوالد في أيدي العرب، فإن قال: اشتريتها. انقطع السؤال.

## الباب الرابع

### في كيفية خروج التائب عن المظالم المالية

اعلم أن من تاب وفي يده مالٌ حرامٌ<sup>(١)</sup> مُختلَطٌ، فعليه وظيفتان؛ إحداهما: تمييز الحرام وإخراجه، والثانية: النَّظر في مصرف المُخرَج.

أما الأولى، فاعلم أن من تاب وفي ماله ما هو حرام معلوم العين من غَصَبٍ أو وديعةٍ فأمره سهلٌ وعليه تمييز الحرام، وإن كان ملتبساً مختلطاً، فلا يخلو إما أن يكون في مالٍ هو من ذوات الأمثال، كالحبوب والتقود والأدهان، وإما أن يكون في أعيانٍ متميزة، كالعبيد والثياب والدُّور، فإن كان في المتماثلات أو كان شائعاً في المال كله، مثل أن يكون قد غَصَبَ دهنًا وخلطه بدهنٍ نفسه، أو حبًّا أو دراهم، فإن كان ذلك معلومَ القدر مَيَّزَ ذلك القدر، فإن أشكل فله طريقتان، أحدهما الأخذ بغالب الظن، والثاني الأخذ باليقين، وهو الورع، مثاله أن يعلم أن نصف ماله حلال وأن ثلثه حرام، فيبقى السدس، فيشك فيه، فإن غلب على ظنه التَّحريم أخرجَه، وإن غلب الجِلَّ أمسكه، هذا هو العمل بغالب الظن، والورع إخراجه.

وربما قلت: يتعين إخراجه؛ لأنه قد تيقن وجود الحرام وشكَّ في هذا، والحظر مقدم.

فإن قيل: فإذا كان المال لا يَتميز فما يؤمنه أن يكون الذي أخرجَه هو الحلال؟

فالجواب: إن المال يقبل المعاوضة، فلو غصب درهماً من شخصٍ ولم يعرف عينه فرد إليه درهماً، كان كأنه عَوَّضه عنه، ومن ورث مالاً فيه حرامٍ أخرج مقدار الحرام بالتَّحريم.

(١) ليست في (ظ).

النظر الثاني في المصرف، فإذا أخرج الحرام، فله ثلاثة أحوال: إما أن يكون له مالك مُعين، فيجب الصرف إليه أو إلى وارثه، وإن كان لذلك زيادة ومنفعة جمع ذلك له وصرفه إليه، فإن يئس من معرفة عين ذلك المالك ولم يدْرِ أَمَاتٍ عن وارثٍ أم لا فليصدق به، وإن كان من أموال الفَيء والأموال المرصدة لمصالح المسلمين صُرفَ ذلك إلى القناطر والمساجد ومصانع طريق مكة وما يُنتفع به كل مَنْ يَمَرُّ به من المسلمين.

فإن قيل: كيف تأمرونه بالتصدق بما لا يملك؟

قلنا: لأن هذا المال لا يخلو أن يضيع أو يُصرف إلى حيز، وتضييعه لا يجوز فتعين صرفه إلى خير.

فإن قيل: فكيف تقبل الصدقة من غلول؟

قلنا: ما نطلب بهذه الصدقة الأجر لأنفسنا إنما نريد الخلاص من المَظلمة، وقد حل لهذا الفقير فرضينا له الحلال.

مسألة: إذا كان في يده حلالٌ وشُبْهة، فليخص نفسه بالحلال، وليقدم قوته وكسوته على أجرة الحجاج والزيت وسجّار التُّنور، وأصل هذا قوله في كسبِ الحجاج: «اعلفه ناضحك». فإن كان في يد أبويه حرامٌ فليمتنع من مؤاكلتهما، فإن كان شُبْهة دارهما، فإن لم يقبلا تناول اليسير، وقد ناولت بشر الحافي أمه تمرّة فأكلها، ثم صعد العُرفة فتقيأها.

## الباب الخامس

### في إذارات السلاطين وصلاتهم<sup>(١)</sup>

اعلم أن من أخذ مالا من سلطانٍ فلا بد أن ينظر في ثلاثة أشياء: في مدخل ذلك إلى يد السلطان من أين هو، وفي صفته التي يستحق بها الأخذ، وفي المقدار الذي يأخذه هل يستحقه إذا أضيف إلى حاله وحال شركائه في الاستحقاق؟

**النظر الأول:** في جهات الدخل للسلطان وكل ما يحل للسلطان سوى ما يحببه من الأرض وما يشترك فيه الرعية قسما: مأخوذ من الكفار، وهو الغنيمة المأخوذة بالقهر، والفيء الذي يحصل من مالهم في يده من غير قتال، والجزية وأموال المصالحة، وهي التي تؤخذ بالشرط والمعاقدة. والقسم الثاني: المأخوذ من المسلمين ولا يحل منه إلا قسما: مال الميت الذي لم يخلف وارثا، والأموال الضائعة التي لا يتعين لها مالك، والأوقاف التي لا متولي لها، فما يحال به الإنسان من ذلك، كالخمس الذي قد روعي في أخذه الحق، والجزية التي تؤخذ بقانون الشرع فذلك مباح، إلا أن الأوقاف ينبغي أن ينظر في شرط الواقف، ولا يعتبر فيما يحببه السلطان شرط؛ لأنه ملكه يعطي منه من يشاء ما يشاء، وإنما ينظر هل أحياء بتسخير وظلم؟ وقد قبل جماعة من السلف عطايا السلطان لعلمهم أن يده تشتمل على حلال، فإن تناول في وقت ما ليس له لم يوجب ذلك الامتناع إلا على جهة الورع، وقد تورع جماعة عن ذلك، وكان فيهم من يأخذه فيتصدق به، وأما في هذا الزمان فالاحترار أولى؛ لأنه قد علم طريق الأخذ، ثم لا ينال إلا بالذل والسؤال والسكوت عن الإنكار، وقد كان بعض السلف لا يأخذ، ويعلل بأن باقي المستحقين لم يأخذوا، وهذا ليس بشيء؛ لأنه يأخذ حقه ويبقى أولئك في مقام مظلوم وليس المال مشتركا.

(١) ليست في الأصل.

النظر الثاني: في قَدْر المأخوذ، وصفة الأَخْذِ، ولنفرض المال من أموالِ المصالح، فإنَّ ما عداه قد تَعَيَّن مُسْتَحَقُّهُ إن كان من وقفٍ أو صدقةٍ أو خُمسٍ أو غنيمَةٍ أو فَيْءٍ، ولا يجوز صرف أموال المصالح إلا إلى من فيه مصلحة عامة، فلو أنه اشتغل بالكسب لتعطل ما هو فيه، فله في بيت المال الكفاية، كالعلماء والأجناد الذين يحرسون المملكة، والكُتَّاب، والحُساب، والوكلاء وكل من يُحتاج إليه في ترتيب ديوان الخَراج فإنما نَعني العُمال على الأموال الحلال، وللسلطان أن يزيد مَنْ شاء على قَدْر كفايته، وأن يخصَّ بعضهم بفضلٍ جائزٍ.

## الباب السادس

فَمَا يَحِلُّ مِنْ مُخَالَطَةِ السُّلْطَانِ الظَّلْمَةِ وَيَحْرَمُ  
وَحُكْمُ غَشْيَانِهِمْ وَإِكْرَامِهِمْ

اعلم أن لك مع الأمراء والعُمال الظَّلمة ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: وهي شَرُّهَا؛ أن تَدْخُلَ عليهم، والثانية: وهي دونها أن يَدْخُلُوا عليك، والثالثة: وهي الأَسْلَمُ أن تَعْتَزَلَ عنهم، فلا تَراهم ولا يَرونك.

أما الحالة الأولى: وهي الدخول عليهم، فهو مَذْمُومٌ، فقد أَخْبَرَنَا هِبَةُ اللَّهِ بن محمد قال: أَخْبَرَنَا الحسن بن علي التَّمِيمِي قال: أَخْبَرَنَا أحمد بن جعفر قال: حَدَّثَنَا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حَدَّثَنِي أَبِي قال: حَدَّثَنَا محمد يَعْنِي ابن الصَّبَّاح قال: حَدَّثَنَا إسماعيل بن زكريا، عن الحسن بن حكم النخعي، عن عدي بن ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «من أتى أبوابَ السُّلْطَانِ افْتَتَنَ، وما ازدادَ عبدٌ من السُّلْطَانِ قُرْباً إلا ازدادَ من اللَّهِ بُعْداً». قال أحمد: وَحَدَّثَنَا عبد الرزاق قال: أَخْبَرَنَا مَعْمَرُ عن ابن خُثَيْم عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال لِكَعْبِ بن عُجْرَةَ: «أَعَاذَكَ اللَّهُ من إمارة السُّفْهَاءِ» قال: وما إمارة السُّفْهَاءِ؟ قال: «أُمْرَاءُ يَكُونُونَ بَعْدِي لا يَقْتَدُونَ بِهَدْيِي، وَلا يَسْتَتُونَ بِسُنَّتِي، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَأُولَئِكَ لَيْسُوا مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُمْ وَلا يَرِدُونَ عَلَيَّ حَوْضِي، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَلَمْ يُعْنِهِمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَأُولَئِكَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ، وَسَيَرِدُونَ عَلَيَّ حَوْضِي».

وقال حذيفة: إياكم ومواقف الفتن. قيل: وما مواقف الفتن؟ قال: أبوابُ الأُمْرَاءِ، يَدْخُلُ أَحَدُكُمْ عَلَى الأَمِيرِ فَيُصَدِّقُهُ بِالْكَذِبِ، وَيَقُولُ مَا لَيْسَ فِيهِ.

وقال ميمون بن مهران: لا تَدْخُلَنَّ عَلَى سُلْطَانٍ وَإِنْ قُلْتَ: أَمْرُهُ بِطَاعَةِ اللَّهِ.

وقيل لعلّمة: لو دخلت على الأمراء فعرفوا لك شرفك. فقال: أخاف أن يتقصوا مني أكثر مما أنتقص منهم.

وقال محمد بن واسع: لَقَضُمُ الْقَصَبِ وَسَفُّ الثَّرَابِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنُو مِنَ السُّلْطَانِ.

وكتب أبو حازم إلى الزُّهري، وكان يُخالط السُّلَاطِين: اعلم أن أدنى<sup>(١)</sup> ما ارتكبت وأعظم ما اُخْتَقِبْتَ أن أنست الظالم وسهلت له طريق البغي بدنوَّك حين أدنيت، وإجابتك حين دُعيت، فما أخلقك أن تُسأل غداً عن ما أردت بإغضابك عن ظلم الظلّمة، وإنك أخذت ما ليس لمن أعطاك، جعلوك قطباً تدور عليه<sup>(٢)</sup> رَحَى باطلهم، وجسراً يعبرون بك إلى بلائهم، وسلماً إلى ضلالتهم، يُدخلون بك الشك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهال إليهم، فلم يبلغ أخص وُزرائهم ولا أقوى أعوانهم إلا دون ما بلغت من إصلاح فسادهم، فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خرّبوا عليك، وما أقل ما أعطوك في قدر ما أخذوا منك، فانظر لنفسك، فإنه لا ينظر لها غيرك، وحاسبها حساب رجلٍ مسؤول، أين شكرك لمن استحملك كتابه، واستودعك علمه، ما يؤمّنك أن تكون من الذين قال الله عزّ وجل: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وقال بشر الحافي: ما أقبح أن يُقال: أين فلان العالم؟ فيقال: بباب الأمير.

وقال بعضُ الأمراء لبعض الزُّهاد: لم لا تأتينا؟ فقال: أخاف إن أدنيتني فتنتني، وإن أقصيتني حرمتني، وليس في يدك ما أريده، ولا في يدي ما أخافك عليه، وإنما أتاك من أتاك ليستغني بك عن من سواك، وقد استغنيت عنك بمن أغناك عني.

فهذه الآثارُ تبين كراهة مخالطة السُّلَاطِين، ونحن نُفصل ذلك تفصيلاً فقهياً نُميّز فيه المحظور من المكروه والمباح، فنقول: الداخلُ على السُّلْطَانِ مُعْرَضٌ لِأَنَّ

(١) في (ظ): «أذل».

(٢) في الأصل: «عليك».

يَعْصِي اللهُ عز وجل إما بفعله، وإما بسكوته، وإما بقوله، وإما باعتقاده، ولا ينفكُ عن أحد هذه الأمور، أما الفِعل؛ فالدخول عليهم في غالبِ الأحوال يكون إلى دورِ مَغْصوبَةٍ، والدخول فيها بغيرِ إذنِ المالكِ حرامٌ، فإن فُرض الظالم في مَوْضِعٍ غيرِ مَغْصوبِ كالمَوَاتِ<sup>(١)</sup> مثلاً، فإن كان تحتَ خيمةٍ أو مظلةٍ من ماله فهو حَرَامٌ، والدخول عليه غيرِ جائز؛ لأنه انتفاعٌ بالحرام، واستغلال به، فإن فرض ذلك حلالاً لم يَعْصِ بالدخول من حيث أنه دخول، ولا بقوله: السلام عليكم<sup>(٢)</sup>. ولكن إن سجد أو ركع أو مثلَ قائماً في سلامه وخدمته كان مُكْرِماً للظالم بسبب ولايته التي هي آلهُ ظلمه، والتواضع للظالم مَعْصِيَةٌ، بل مَنْ تواضع لغنيٍّ ليس بظالم لأجل غناه لا لمعنى آخر يقتضي التواضع ذهب ثلثا دينه، فكيف إذا تواضع للظالم؟ فلا يُباح إلا مجرد السلام، فأما تَقْبِيلُ اليدِ فهو مَعْصِيَةٌ إلا عند خوفٍ، أو لإمامٍ عادلٍ، أو عالمٍ يستحق ذلك بأمر ديني، وقد قَبَّلَ أبو عبيدةُ بنُ الجراحِ يدَ عمر بن الخطاب. فإن تركَ الداخلُ جميع ذلك واقتصر على السلام، فلا يخلو من الجلوس على بساطهم وأغلب أموالهم الحرام، هذا من حيث الفعل.

فأما السكوت، فهو أنه سيرى في مجالسهم من الفُرُشِ الحريرِ وَأواني الفِضَّةِ والحريرِ الملبوس عليهم وعلى غلمانهم ما هو حرامٌ، وكل من رأى سَيِّئَةً وسَكَتَ عليها فهو شريك فيها، بل يسمع من كلامهم ما هو فُحْشٌ وكَذِبٌ وشتمٌ وإيذاء، والسكوت عن جميع ذلك حرام؛ لأنه يجب عليه الأمرُ بالمعروف والنَّهْيُ عن المنكر.

فإن قلت: إنه يخاف على نفسه فهو مَعذُورٌ في السكوت.

قلنا: صدقت، إلا أنه مُسْتَعْنٍ عن أن يُعْرِضَ نفسه لارتكاب ما لا يُباح إلا بعذر؛ لأنه لو لم يدخل ولم يُشاهد لم يجب عليه الأمر والنَّهْيُ، وكل من علم بفسادٍ في مكانٍ وعلم أنه إذا حضر لم يقدر على إزالته لم يَجُزُّ له أن يحضر.

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الميراث».

(٢) في الأصل: «عليك».

وأما القول؛ فهو أن يدعوا للظالم أو يُثني عليه أو يصدقه فيما يقول من باطلٍ بصريح قوله أو بتحريك رأسه أو باستبشارٍ في وجهه، أو يُظهر له الحبَّ والموالاة والاشتياق إلى لقائه والحرصَ على طول بقائه، فإنه في الغالب لا يقتصر على السلام بل يتكلم، ولا يعدو كلامه هذه الأقسام، وأما دَعَاؤه فلا يجوز له إلا أن يقول: أصلحك الله، أو وفَّقك، فقد جاء في الأثر: «من دَعَا للظالم بطول البقاء فقد أحبَّ أن يُعصى الله عزَّ وجلَّ، فإن جاوزَ الدعاءَ إلى الثناءِ كان به كاذباً ومُنافقاً ومكرباً للظالم»، وفي الأثر: «إن الله ليغضب إذا مُدِحَ الفاسق». فإن جاوز ذلك إلى التَّصديق له فيما يقول والتَّركية فيما يعمل كان عاصياً بذلك مُعيناً له على المعصية، فإن جاوز ذلك إلى إظهار المحبَّة والتَّشوق إلى لقائه وطول بقائه، فإن كان كاذباً عصى<sup>(١)</sup> معصية الكذب والنَّفاق، وإن كان صادقاً عصى بحبه بقاء ظالم ينبغي له أن يمقته في الله، فإن أحبَّه لظلمه فهو عاصٍ بمحبته، وإن أحبَّه لسببٍ آخر، فهو عاصٍ من حيث إنه لم يبغضه، وكان الواجب عليه أن يبغضه.

فإن سلِمَ من ذلك كله وهيئات، لم يسلم من فسادٍ يتطرق إلى قلبه، فإنه ينظر إلى توسعهم في النعم فيزدري نعمَ الله عليه، ثم يقتدي به غيره في الدُّخول، ويكون مكثراً لسوادِ الظلِّمة مُجملاً لهم، إن كان ممَّن يُتَّجمل به، وقد دُعي سعيدي بن المسيب إلى البيعة للوليد وسليمان ابني عبد الملك فقال: لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار. فقالوا: ادخل من هذا الباب واخرج من الآخر. قال: لا والله لا يقتدي بي أحدٌ من الناس. فجلد مئةً وألبسَ المُسوح، فعلى ما بيئنا لا يجوز الدخول على الأمراء الظلِّمة إلا بعُذرين؛ أحدهما: إلزام<sup>(٢)</sup> من جهتهم يخاف من الخلاف فيه الأذى، والثاني: أن يدخل لرفع ظلم عن مُسلم، فيجوز بشرط أن لا يكذب ولا يُثني ولا يدع نصيحةً يتوقع لها قبولاً، فهذا حكم الدخول<sup>(٣)</sup>.

(١) في الأصل: «عصى الله».

(٢) في (ظ): «إلى أمر».

(٣) ورد هنا في هامش (ظ) ما نصه: «للشيخ جلال الدين السيوطي كتاب سماه: ما رواه الأساطين في تحريم دخول العلماء على الأمراء والسلطين». وذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ٢ / ١٥٧٤ باسم: «ما رواه الأساطين في الدخول على السلطين».

الحالة الثانية: أن يدخل عليه السلطان زائراً، فجواب السلام لا بد منه، وأما القيام والإكرام فلا يحرم مقابلة له على إكرامه، فإنه بإكرام العلم والدين مستحقٌ للحمد، كما أنه بالظلم مستحقٌ للذم، فإن دخل عليه وحده، وقدر أن لا يقوم له إعزازاً للدين واحتقاراً للظلم وغضباً لله سبحانه من سوء فعله كان ذلك الأولى، وإن دخل عليه في جمع فمراعاة حشمة أرباب الولايات فيما بين الرعايا مهم، فلا بأس بالقيام على هذه النية، وإن علم أن ذلك لا يورثُ فساداً في الرعية ولا يناله أذى من غضبه، فترك القيام أولى.

ثم يجب عليه أن ينصحه ويُعرفه تحريم ما يفعله مما لا يدري أنه مُحرم، فأما إعلامه بتحريم الظلم وشرب الخمر فلا فائدة فيه، بل عليه أن يخوفه من ركوب المعاصي مهما ظن أن التخويف يؤثر فيه، وعليه أن يرشده إلى المصالح، ومتى عرف طريقاً للشرع يحصل به غرض الظالم عرفه إياه، فإذا يجب عليه تعريفه ما يجهل، وتخويفه مما يتجرأ عليه، وإرشاده إلى ما هو غافل عنه مما يغنيه عن الظلم، وقد كان جماعة من السلف يدخلون على الأمراء ويعظونهم، وسنذكر جملة من ذلك في كتاب الأمر بالمعروف.

فأما العلماء الذين يريدون الدنيا فإنهم يدخلون على السلاطين للتقرب إليهم، فيدلونهم على الرخص ويستنبطون لهم بدقائق الحيل طرق السعة فيما يوافق أغراضهم، وإن وعظوهم في خلال ذلك كان قصدهم اكتساب الجاه عندهم، فإن قالوا: إنما قصدنا زجرهم. فعلامة صدقهم في ذلك أنه لو تولى وعظهم شخص آخر فرحوا إذ كفوهم هذا المهم، فأما إذا أحبوا وعظهم دون غيرهم، فقد بان سوء القصد، وربما قالوا: إنما ندخل لنشفع في مسلم. ومعيار صدقهم ما تقدم من وقوع شفاعة غيرهم.

الحالة الثالثة: أن يعتزل عنهم، فلا يراهم ولا يروونه، والسلامة في ذلك، ثم ينبغي له أن يعتقد بغضهم على ظلمهم، ولا يحب بقاءهم، ولا يثني عليهم، ولا يستخبر عن أحوالهم، ولا يتقرب إلى المصلين بهم، ولا يتأسف على ما يفوته بسبب مفارقتهم، كما قال حاتم الأصم: إنما بيني وبين الملوك يومٌ واحد؛ أما

أمس فلا يجدون لذته، وأنا وإياهم من غدٍ على وجَل، وإنما هو اليوم، فما عسى أن يكون في اليوم؟

وإذ قد تكلمنا في الدخول عليهم فلنرسم في الأحوال العارضة في مخالطتهم ومباشرة أموالهم.

مسائل: مسألة: إذا بعث إليك السلطان مالاً لتُفرِّقه على الفقراء، فإن كان له مالكٌ مُعيَّن لم يحلَّ أخذه، وإن لم يكن، بل كان حُكْمُهُ أن يُتصدَّقَ به كما سبق بيانه، فلك أن تأخذه وتتولَّى تفرقته، ومن العلماء من امتنع من أخذه، ولولا ثلاث غوائل لا تُؤمن لرأينا أن الأولى أخذه:

الغائلة الأولى: أن يظن السلطان بسبب أخذك أن ماله طيبٌ، ولولا ذلك لم تأخذه، فإن كان كذلك، فلا تأخذه، فإنه لا يفي الخير في مباشرتك التفرقة بما يحصل لهم من الجُرأة على كَسْبِ الحرام.

الغائلة الثانية: أن ينظر إليك غيرك من العلماء والجُهَّال، فيقتدون بك في الأخذ، ويستدلون به على جوازه ثم لا يفرقون، وهذا يكون تسبباً لإضلال خلقٍ كثيرٍ، قال وهبُ بن مُنَبِّه: أُكْرِهَ رجلٌ على أكل لحم الخنزير فلم يأكل، فجعل له لحم غنمٍ وقيل: كُلُّ. فلم يفعل، وقال: قد علم الناس أنني إنما أُكْرِهْتُ على لحم الخنزير، فمن أين يعلمون أن الذي أكلته لحم غنمٍ؟ ودخل وهبٌ وطاوس على محمد بن يوسف أخي الحجاج في غداة باردة، فقال لغلامه: هلمَّ ذلك الطَّيْلَسَانِ وألقه على طاوس. فألقاه عليه، فما زال يُجْرِكُ كَتِفِيهِ حتى وقع عنه، فغضب محمد بن يوسف، فقال وهب: إن كنت لَغْنِيًّا عن أن تُغْضِبَهُ، لو أخذت الطيلسان فتصدقت به. فقال: لولا أن يقول مَنْ بَعْدِي: أَخَذَهُ طاوس، ثم لا يصنع به ما أصنع لفعلت.

الغائلة الثالثة: أن يتحرك قلبك إلى حُبِّه لتخصيصه إياك وإيثاره لك بما أعطاك، فتحب حينئذٍ بقاءه وتكره عزله، وتُحِبُّ اتِّسَاعَ ولايته، وكل ذلك حُبٌّ للظلم، فإن كان كذلك، فهذا السُّمُّ القاتل ولا خَيْرَ فيما يُحِبُّ إليك أهل الظلم، أخبرنا

محمد بن أبي القاسم قال: أخبرنا حمد بن أحمد قال: أخبرنا أبو نعيم الحافظ قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثنا هارون بن معروف قال: حدثنا ضَمْرَةُ عن ابن شَوْذَب قال: قَسَمَ أميرُ البصرة على أهل البصرة، فبعث إلى مالك بن دينار فقيل، فأتاه محمد بن واسع فقال: يا مالك، قبلت جوائزَ السلطان؟ فقال: يا أبا بكر، سَلَّ جُلَسَائِي. فقالوا: اشترى بها رقاباً فأعتَقَهُمْ. فقال له محمد: أنشدك الله أ قلبك له الساعةً على ما كان قبل أن يُجيزَكَ؟ قال: اللهم لا. قال: ترى أي شيء دخل عليك؟ فقال مالك لجلسائه: إنما مالك حمار، إنما يعبدُ اللهَ مثلَ محمد بن واسع.

مسألة: إذا جاز أخذُ أموالهم وتفرقتها، فهل يجوز أن تُسرقَ أموالهم، أو تُخْفَى وَدِعْتُهُمْ وتُنكَرَ وتُفَرَّقَ على الناس؟

فالجواب: لا يجوز؛ لأنه ربما يكون لها مالك معين، ويكون السلطان على عزم أن يردّها عليه، بخلاف ما يبعثه ليتصدَّق به، فإنه قد دلَّ بإنفاذِهِ أنه لا يعرف مالكة، ثم كيف يسرق ويحتمل أن يكون ما سرقه ملكاً للسلطان حصل له بشراءٍ في ذمته؟ فإن اليد دلالة على الملك.

مسألة: وإذا كان أكثر أموالهم الحرام حرمت معاملتهم، وكل ما فيه إعاتتهم على الظلم لا يجوز، ولا يجوز التجارة في الأسواق التي بنوها بالمال الحرام، وقد لعن رسولُ الله ﷺ في الحَمْرِ عَشْرَةَ حَتَّى الْعَاصِرِ<sup>(١)</sup> والمعتصر، ولعن آكل الرِّبَا ومُوكَلَهُ وكاتبه وشاهديه.

مسألة: ما يَبْنِيهِ الظَّلْمَةُ من القناطرِ والمساجدِ والسَّقَايَاتِ ينبغي أن يُنظَرَ فيه، فإن كانت تلك الأعيان التي بُنِيَتْ بها معروفةً المالك لم يَجْزُ العبور عليها إلا لضرورة يحل بها مثل ذلك من مال الغير، وإن لم يُعرَفَ مالكةا، فحكمها أن تُرْصَدَ للخيرات، فيجوز العبور عليها، والورع الامتناع.

(١) تحرفت في الأصل إلى: «العاصي».

## كتاب آداب الصحبة

### والأخوة والمعاشرة

#### مع الخلق

الحمد لله الذي جمع بين قلوب المتقين وقد كانت وُحداناً، وألف بين نفوس المخلصين فصاروا خِلاًناً، ونزع الغِلَّ من صدور المؤمنين فباتوا أُخْداناً، ومنَّ عليهم بذلك وأنزل به قرآناً ﴿وَأذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، نَحْمَدُهُ إِذْ أَوْطَأْنَا مِنْ أَوْطَانِ الْأَلْفَةِ أَوْطَانًا، وَتَعَاهَدْنَا بِلُطْفِهِ<sup>(١)</sup> أحياناً فأحياناً، ونُصَلِّي عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ أَشْرَفِ الْخَلَائِقِ إِنْسَانًا، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانُوا أَنْصَارًا لِلدِّينِ وَأَعْوَانًا، وَسَلِّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أما بعد، فإن المحبة في الله تعالى والأخوة في دينه من أفضل القربات، وألطف ما يستفاد من الطاعات في مجاري العادات، ولها شروط، وفيها حقوق بمراعاتها تصفو الأخوة عن شوائب الأكدار ونزغات الشيطان، فبالقيام بحقوقها يتقرب إلى الله سبحانه، ونحن نبيّن مقاصد هذا الكتاب في ثلاثة أبوابٍ إن شاء الله تعالى:

الباب الأول: في فضيلة الألفة والأخوة في الله، وشروطها، ودرجاتها، وفوائدها.

الباب الثاني: في حقوق الصُّحبة، وآدابها، ولوازمها.

الباب الثالث: في حق المسلم، والرَّحْم، والجِوار، والملك، وكيفية المعاشرة مع من يُدلي بهذه الأسباب.

(١) بعدها في الأصل: «بالقوم» ولا داعي لها.

## الباب الأول

### في فضيلة الألفة والأخوة وشروطها ودرجاتها وفوائدها

#### فضيلة الألفة والأخوة

اعلم أن الألفة ثمرةٌ حُسنِ الخلق، والتفرُّق ثمرةٌ سوءِ الخلق، فَحُسْنُ الخُلُقِ، يوجب التَّحَابَّ والتَّوَالِفَ والتَّوَافِقَ، وسوء الخلق يُثمر التَّبَاغُضَ والتَّحَاسِدَ والتَّدَابُرَ، ومهما كان المثمر مَحْمُوداً كانت الثمرة محمودة، ولا يخفى فَضْلُ حُسْنِ الخلق، فقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أعين قال: حدثنا الفِرْبَرِيُّ قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا عُمر بن حَفْص قال: حدثنا أبي قال: حدثنا الأعمش قال: حدثنا شقيق عن مَسْرُوق عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «خياركم أحاسنكم أخلاقاً». أخرجاه في الصحيحين، وفي حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُقٍ حَسَنٍ» رواه الترمذي وحكم بصحته، وروى أبو داود من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً». وفي حديث أبي ثعلبة الخُشَنِيِّ عن النبي ﷺ أنه قال: «أحبكم إليَّ وأقربكم مني في الآخرة محاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني في الآخرة مساوئكم أخلاقاً الثَّرثارون المُتَفِيهِقُونَ المُتَشَدِّقُونَ»<sup>(١)</sup>. وفي حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «إن المؤمن ليدرك بحسن خُلُقِهِ درجات قائم الليل وصائم النهار» وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه سئل عن أكثر ما يدخل

(١) الثَّرثارون: الذين يُكثرون الكلام تكلفاً وخروجاً عن الحق، والمتفیهقون: هم الذين يتوسعون في الكلام ويفتحون به أفواههم، والمتشدقون: الذين يلوون شدقهم في الكلام تفاصلاً.

الناس الجنة فقال: «تقوى الله وحسن الخلق». وفي حديث آخر أن النبي ﷺ كان يدعو، فيقول: «اللهم اهديني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، إنه لا يصرف سيئها إلا أنت». وقالت أم حبيبة: رأيت المرأة يكون لها زوجان في الدنيا فتموت<sup>(١)</sup> ويموتان، فيدخلون الجنة، فلايتهما تكون؟ قال: «لأحسنهما خلقاً يا أم حبيبة، ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة».

وإذا ثبت أن ثمرة الخلق الحسن الألفة، فقد ورد الثناء على الألفة، لا سيما إذا كانت الرابطة الدين والتقوى، قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ الْكَنُوفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] وذم الفرقة فقال: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وأما المحبة في الله تعالى، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «سبعة يظلهم الله عز وجل في ظله» فذكر منهم «رجلين تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه» وفيهما من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن توقد له ناراً فيقذف فيها». وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي». وروى أبو مسلم الخولاني عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: «المتحابون في الله على منابر من نور في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله» قال: فلقيت عبادة بن الصامت فذكرت له حديث معاذ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن ربه عز وجل يقول: «حقت محبتي للمتحابين في، وحقت محبتي للمتباذلين في، وحقت محبتي للمتزاورين في، والمتحابون في الله على منابر من نور في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله». وفي حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ أنه قال: «أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله». وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن من عباد الله

(١) في الأصل: «في موت».

لعباداً يَعْطِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشَّهَدَاءُ» قيل: مَنْ هُمْ لعلنا نحبههم؟ قال: «هم قومٌ تَحَابَّوا بروحِ الله عز وجل على غيرِ أموالٍ ولا أنسابٍ، وُجوههم نورٌ، وهم على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس». وفي حديث عمرو بن عَبَسَةَ عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الله عز وجل يقول: حُكِّتْ محبتي للذين يَتَحَابُّونَ من أَجْلِي وَحُكِّتْ محبتي للذين يَتَصَافُونَ من أَجْلِي».

وقال أبو أمامة: مَنْ أَحَبَّ اللهُ، وَأَبْغَضَ اللهُ، وَأَعْطَى اللهُ، وَمَنَعَ اللهُ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ.

وقال أبو زُرْعَةَ بن عمرو بن جَرِيرٍ: ما تَحَابَّ رَجُلَانِ في الله عز وجل إلا كَانَ أَفْضَلَهُمَا أَشَدَّهُمَا حَبًّا لِصَاحِبِهِ.

وأما زيارة الإخوان: فأخبرنا ابن الحُصَيْنِ قال: أخبرنا ابن المُذْهِبِ قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يزيد قال: أخبرنا حَمَادُ بن سلمة عن ثابت البُنَانِيِّ عن أبي رافع عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «خَرَجَ رَجُلٌ يَزُورُ أَخًا لَه في الله عز وجل في قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ. بِمَدْرَجَتِهِ مَلَكًا فَلَمَّا مَرَّ بِهِ قال: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قال: أُرِيدُ فَلانًا. قال: لِقْرَابَةٍ؟ قال: لا. قال: فَلنعمَةٍ لَه عِنْدَكَ تَرُبُّهَا؟<sup>(١)</sup> قال: لا. قال: فَلَمَّ تَأْتِيهِ؟ قال: إِنِّي أَحْبَبُهُ في الله عز وجل قال: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ أَنَّهُ يُحِبُّكَ لِحُبِّكَ إِيَّاهُ فِيهِ». انفرد بإخراجه مسلم. وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ».

وكان عمر بن الخطاب يذكر الأخ من إخوانه بالليل، فيقول: يا طولها من ليلة. فإذا صَلَّى الغدَاةَ غدا إليه فإذا لَقِيَهُ التَّزَمَهُ واعتنقه.

وقال عِمْرَانُ بن حِطَّانٍ: لقد أَحْبَبْتُ في الله أَلْفَ أَخٍ كُلُّهُمْ أَعْرَفَ اسْمَهُ واسمَ أَبِيهِ واسمَ قَبِيلَتِهِ، وَأَعْرَفَ مَكَانَ دارِهِ. وهذا يدل على أنه كان يزورهم.

وكان معروف الكرخي يقول: امشِ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلاً زُرُّ أَخًا في الله عزَّ وجلَّ.

(١) تَرُبُّهَا: تحفظها.

## بيان معنى الأخوة في الله تعالى وتمييزها عن الأخوة في الدنيا

اعلم أن الصُّحبة قد تقع بالاتِّفاق، كصُّحبة المسافرين والجيران، وتقع بالقصد، فتوجب المجالسة والمخالطة والمجاورة، ولا يكون هذا إلا لمحبيب، فإنَّ غير المحبوب يُجتنب، والمحبوب إما أن يُحبَّ لذاته، أو ليتوصل به إلى مقصود، وذلك المقصود، إما أن يكون مقصوراً على الدُّنيا وحظوظها، أو متعلقاً بالآخرة أو بالله تعالى، فهذه أربعة أقسام:

**القسم الأول:** وهو حبُّ الإنسان لذاته، فإنه ممكن، وهو أن يكون في ذاته محبوباً عندك تلتذُّ برؤيته ومعرفته ومشاهدة أخلاقه لاستحسانك لها، وكلُّ جميلٍ لذيذٌ في حقِّ من أدرك جماله، وكلُّ لذيذٍ محبوبٌ، واللذة تُتبع الاستحسان، والاستحسان يتبع المناسبة والملاءمة والموافقة بين الطباع، ثم ذلك المستحسن إما أن يكون في الصُّورة الظاهرة، وهي حُسن الخَلقة، أو في الصُّورة الباطنة، وهي كمال العقل وحُسن الخُلُق، ويتبع حُسن الأخلاق حُسن الأفعال، وكلُّ ذلك مستحسن عند الطَّبع السليم، وكلُّ مستحسن مُستلذُّ به ومحبوبٌ بل في ائتلاف القلوب أمر أغمض من هذا وهو المناسبة الباطنة الموجبة للألفة، فإنَّ شبه الشيء ينجذب إليه بالطبع، وفي الصحيحين من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «الأرواح جنودٌ مُجنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». والائتلاف نتيجة التَّناسب الذي عبَّر عنه بالتعارف، والتَّناكُر نتيجة التَّباین، قال الشاعر:

وقائلٍ كيفَ تَفارقتُما      فقلتُ قولاً فيه إنصاف  
لم يك من شكلي ففارقته      والناس أشكالٌ وألاف

فقد ظهر من هذا أن الإنسان قد يُحبُّ لذاته بمجرد المجانسة والمناسبة في الطباع الباطنة والأخلاق الخفية، ويدخل في هذا القسم الحبُّ للجمال إذا لم يكن المقصود قضاء الشهوة فإنَّ الصُّورة الجميلة مُستلذَّةٌ في عينها، وإن قُدِّرَ فقدُ أصل

الشهوة حتى يستلذَّ النظرُ إلى الفواكه والأنوار والأزهار والتُّفاح المُشْرَب بحمرة وإلى الماء والخُضرة من غير غرضٍ سوى عينها، وهذا هو الحبُّ بالطَّبع.

القسم الثاني: أن يحبه لينال من ذاته غير ذاته، فيكون وسيلة إلى محبوب غيره، والوسيلة إلى المحبوب محبوب، وما يحب لغيره كان ذلك الغير هو المحبوب بالحقيقة، ولكن الطريق إلى المحبوب محبوب، ولذلك أحبَّ الناسُ الذهبَ والفضةَ ولا غرضَ فيهما إلا أنهما وسيلة إلى المحبوبات، فمن الناس من يُحِبُّ كما يُحِبُّ الذهبُ والفضة من حيث إنهما وسيلةٌ إلى المقصود، إذ بهما يُتوصل إلى نَيْلِ جاهٍ أو مالٍ أو علمٍ، كما يحب الرجل سُلطاناً لانتفاعه بماله أو جاهه، ويحب خواصه لتحسينهم حاله عنده، فالتوسل إليه إن كان مقصورَ الفائدة على الدنيا لم يكن من جُملة الحب في الله، وإن لم يكن مقصورَ الفائدة على الدنيا ولكنه لا يقصد به إلا الدنيا، كحب التلميذ لأستاذه، فهو أيضاً خارجٌ عن الحب لله، فإنه إنما يحبه ليحصل منه العلم لنفسه، فمحبوبه العلم، فإذا كان لا يقصد العلمَ للتقرب إلى الله بل لينال به الجاهَ والمالَ والقَبول عند الخلق، فمحبوبه الجاه والقبول، والعلم وسيلة إليه، والأستاذ وسيلة إلى العلم، فليس في شيءٍ من ذلك حبٌّ لله، إذ يتصور كل ذلك ممن لا يؤمن بالله أصلاً.

ثم ينقسم هذا إلى مذموم ومباح، فإن كان يقصد به التوصل إلى مقاصد مذمومة من قهر الأقران وظلم الرعايا بولاية القضاء كان الحبُّ مذموماً، وإن كان يقصد به التوصل إلى مباح، فهو مباح، وإنما تكتسب الوسيلة الحكم والصفة من المقصد المتوسَّل إليه، فإنها تابعة له غير قائمة بنفسها.

القسم الثالث: أن يُحبه لا لذاته بل لغيره، وذلك الغير ليس راجعاً إلى حُظوظه في الدنيا بل يرجع إلى حُظوظه في الآخرة، فهذا أيضاً ظاهر لا غموض فيه، وذلك كمن يحب أستاذه وشيخه؛ لأنه يتوسَّل به إلى تحصيل العلم، وتحسين العمل، ومقصوده من العلم والعمل الفَوز في الآخرة، فهذا من جُملة المحيِّين في الله، وكذلك من يُحب تلميذه؛ لأنه يتلقَّف منه العلم، وينال بواسطته رُتبة التعليم، ويرقى به إلى درجة التعظيم في ملكوت السماء، إذ قال عيسى ابن مريم عليه السَّلام: مَنْ

علم وعمِل وعَلِمَ فذاك يُدعى عظيماً في ملكوت السماء. ولا يتم التعليم إلا بمُتعلِّم، فهو إذن آلة في تحصيل هذا الكمال، وإن أحبه، لأنه آلة له إذ جعل صدره مزرعةً لحرثه الذي هو سبب ترقّيه إلى رتبة التعظيم<sup>(١)</sup> في ملكوت السماء، فهو مُحِب في الله، بل الذي يتصدق بأموال الله، ويجمع الضّيفان ويُهَيِّئ لهم الأَطعمة اللذيذة تَقْرُباً إلى الله عز وجل، فأحب طباخاً لحسن صنّعته في الطّبخ، فهو في جملة المحبين في الله عز وجل، وكذا لو أحب من يتولى له إيصال الصّدقة إلى المستحقّين، فقد أحبه في الله، بل نزيّد على هذا ونقول: إذا أحبّ من يخدمه بنفسه في غَسْلِ ثيابه، وكُنْسِ بَيْتِه، وطبخ طعامه وتفرّغه بذلك للعلم والعمل ومقصوده من استخدامه في هذه الأعمال الفراغ للعبادة، فهو محب في الله، بل نزيد عليه ونقول: إذا أحبّ من يُنفق ماله عليه ويواسيه بكسوته وطعامه ومَسكنه وجميع أغراضه التي يقصدها في دينه، ومقصوده من جملة ذلك الفراغ للعلم والعمل للتقرب إلى الله تعالى، فهو مُحِبّ في الله، فقد كان جماعة من السّلف تكفل بكفائتهم جماعةً من أهل الثروة، وكان المُواسي والمُواسى جميعاً من المتحابين في الله، بل نزيد على ذلك ونقول: من نكح امرأةً سالحةً ليتحصنَ بها عن وساوس الشيطان، ويصون بها دينه، وليولد له ولدٌ صالح يدعو له، فأحب زوجته لأنها آتته في هذه المقاصد الدنيوية، فهو محبّ في الله سبحانه، فلذلك قال في الإنفاق على العيال: «حتى اللُّقمة يرفعها الرجل إلى فم امرأته».

واعلم أن كل حب لولا الإيمان بالله واليوم الآخر لم يوجد، فهو حب في الله، وكذلك كل زيادة في الحب لولا الإيمان بالله<sup>(٢)</sup> واليوم الآخر<sup>(٢)</sup> لم تكن تلك الزيادة، فتلك الزيادة من الحب في الله، فذلك وإن دقّ فهو عَزِيز.

القسم الرابع: أن يُحب الله وفي الله، لا لينال منه علماً أو عملاً، أو يتوسل به إلى أمرٍ وراء ذاته، وهذا أعلى الدرجات، وهو أدقّها وأغمضها.

(١) في (ظ): «العظمة».

(٢-٢) سقط من (ظ).

ومن آثار الحب أن يتعدى من المحبوب إلى كل من يتعلق بالمحبوب، فإن من أحبَّ إنساناً حُباً شديداً أحبُّ مُحَبَّ ذلك الإنسان، وأحبُّ مَحْبُوبَهُ وَمَنْ يَخْدِمُهُ وَيُثْنِي<sup>(١)</sup> عليه أو يثني المحبوب عليه<sup>(٢)</sup> ومنه قول القائل<sup>(٣)</sup>:

أمرُّ على الدِّيارِ ديارٍ ليلي      أقبِلُ ذَا الجِدَارِ وَذَا الجِدَارَا  
وَمَا حُبُّ الدِّيارِ شَغَفَنَ قَلْبِي      وَلَكِنْ حُبٌّ مَنْ سَكَنَ الدِّيارَا  
وهذا إنما يقع من إفراطِ المحبة وقُوَّتِها، فمن أحبَّ الله تعالى واستولى حبه على قلبه أحبَّ كل موجودٍ من آثارِ قُدْرَتِهِ، فإنَّ من أحبَّ إنساناً أحبَّ حَظَّهُ وصنعتَهُ. وحُبُّ الله تعالى تارة يكون لصدقِ الرجاء في وَعْدِهِ، وتارة لما سبق من زيادته، وتارة لذاته، وسيأتي تحقيق ذلك في كتاب المحبة إن شاء الله تعالى.

وكيف ما اتفقت محبةُ الله، فإذا قويت تعدَّت إلى كلِّ متعلق به ضرباً من التعلق حتى يتعلَّق بما هو مؤلم مَكْرُوه، إلا أنَّ فرطَ الحُبِّ يُضعفُ الإحساس بالألم، كالفرح بقرصةٍ من المحبوب فيها نوع مُعَاتِبَةٍ، وقد انتهت محبةُ الله بقوم قالوا: لا نُفَرِّقُ بَيْنَ البلاء والنَّعمة إذ الكل من الله. وسيأتي تحقيق ذلك في كتاب المحبة إن شاء الله.

والمقصود أن حب الله تعالى إذا قوي أثمر حُبَّ كل من يقوم بحق عبادة الله في علمٍ أو عملٍ، وأثمر حُبَّ كل من فيه صفة هي مَرْضِيَّة عند الله من خُلُقٍ حَسَن، أو تأدب بأدب الشرع، وما من مؤمنٍ مُحِبٍ لِلآخِرَةِ ومُحِبِّ لِه اللهِ سُبْحَانَهُ إذا أخبر عن حال رجلين أحدهما عالم عابد والآخر جاهل فاسق إلا وجد في نفسه ميلاً إلى العالم العابد، ثم يضعف ذلك الميل ويقوى بحسب ضعف إيمانه وقوته، وبحسب ضعف حُبِّه لله وقُوَّتِهِ، ولو كان الحُبُّ مَقْصُوراً على حظ يُنال من المحبوب في الحال أو المآل لما تصور حُبُّ الموتى من العلماء والعُبَاد بل من الأنبياء، ومعلوم أن حب الجميع مَكْنُونٌ<sup>(٣)</sup> في قلب كل مسلمٍ متدينٍ وَيَبِينُ ذلك بَعْضُهُ عند طَعْنِ

(١-١) سقط من (ظ).

(٢) هو مجنون ليلي قيس بن المُلَوَّح.

(٣) في (ظ): «مكتوب».

أعدائهم فيهم ويفرحه عند الثناء عليهم، وكل ذلك حب لله؛ لأنهم خواصّ عباد الله، ومن أحب ملكاً أحبّ خواصه وخدمته، وقد يغلب الحب فلا يبقى للنفس حظ إلا فيما هو حظّ المحبوب، وقد يكون الحب بحيث يترك بعض الحظوظ دون بعض، كمن تسمح نفسه بأن يُشاطر محبوبه ماله، فمقادير الأموال موازين المحبة إذ لا تُعرف درجة المحبوب إلا بمحبوبٍ يُترك في مقابلته، فمن استغرقه الحب لم يبق له محبوبٌ سوى ربه، فحصل من هذا أن كلّ من أحب عالماً أو عبداً، أو أحب عبداً راغباً في علم أو عبادة أو في خير، فإنما أحبه لله وفي الله، وله في ذلك من الثواب بقدر قوة حُبّه، فهذا شرح الحب في الله ودرجاته، وبهذا يتضح البُغض في الله أيضاً، ولكن نزيده بياناً.

بيانُ البُغضِ في الله عزَّ وجلَّ: اعلم أن من يحب في الله لا بد أن يُبغض في الله، فإنك إذا أحببت إنساناً لأنه مطيع لله ومحبوب عنده، فإن عصاه فلا بد أن تُبغضه؛ لأنه عاصٍ لله عز وجل وممقوت عنده، ومن أحبّ لسببٍ أبغض لوجود ضده، ولكل واحد من الحب والبُغض دفين في القلب يترشح بظهور أفعال المُحِبِّين والمبغضين في المقاربة والمباعدة والمخالفة والموافقة، فإذا ظهر في الفعل سُمِّي موالاة ومُعاداة، ولذلك قال: هل واليت فيّ ولياً أو عاديت فيّ عدواً؟

ومن اجتمعت فيه خصالٌ محمودَةٌ ومكروهَةٌ فإنك تحبه من وجهٍ وتُبغضه من وجه، كمن له زوجةٌ حسناء فاجرة، فينبغي أن تُحبَّ المسلم لإسلامه وتُبغضه لمعصيته، فتكون معه على حالٍ متوسطة بين الانقباض والاسترسال، والتؤود والتوحش، ولا تُبالغ في إكرامه مُبالغتك في إكرام من يُوافقك على جميع أغراضك، ثم يميل ذلك التوسط إلى جانب الإهانة عند غلبة الخيانة، وإلى طرف الإكرام والمجاملة عند غلبة الموافقة، فأما ما يجري منه مجرى الهفوة التي تعلم أنه نادمٌ عليها، فالأولى حينئذٍ الإغماض والستر، فإذا أصر على معصيته فلا بد من إظهار أثر البُغض بالإعراض عنه والتباعد، وتغليظ القول له على حسب غلظ المعصية وخفتها، وأما في الفعل فتقطع معونته ونصره، وتسعى في إفساد أغراضه عليه، كفعل الأعداء المبغضين، ولكن فيما يفسد عليه طريق المعصية لا فيما لا يؤثر.

بيان مراتب الذين يبغضون في الله وكيف معاملتهم: اعلم أن المخالف لأمر الله تعالى لا يخلو إما أن يكون مُخالفًا في عَقْدِهِ، أو في عمله، والمخالف في العقد إما كافر أو مبتدع، والمبتدع إما داعٍ إلى بدعته أو ساكتٌ إما لعجزه أو باختياره، فأقسام الفساد في الاعتقاد ثلاثة.

الأول: الكفر، والكافر إن كان مُحارِبًا، فهو مستحق للقتل والإرراق، وليس بعد هذين الأمرين إهانة، وأما الذمّي، فإنه لا يجوز إيذاؤه إلا بالإعراض عنه والتحقير له بالاضطرار إلى أضيْق الطُّرُق، وبترك المفاتحة بالسَّلام، فإذا قال: السلامُ عليك. قلت: وعليك. والأولى الكف عن مُخالطته ومعاملته ومؤاكلته، ومن المكروه الاسترسال إليه والانبساط معه كما يفعل بالأصدقاء، قال الله تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] وقال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [المتحنة: ١].

الثاني: المُبتدع الذي يدعو إلى بدعته، فإن كانت البدعة بحيثُ يكفرُ بها، فأمره أشدُّ من الذمّي؛ لأنه لا يُقَرُّ بجزيّة ولا يُسامح بعقد ذمّة، وإن كان ممن لا يكفرُ بها، فأمره بينه وبين الله تعالى أخف من أمر الكافر لا محالة، ولكن الأمر في الإنكار عليه أشدُّ منه على الكافر؛ لأن شرَّ الكافر غير مُتعدِّ، فإن المسلمين اعتقدوا كفره فلا يلتفتون إلى قوله، إذ لا يدعي لنفسه الإسلام واعتقاد الحق، فأما المُبتدع الذي يدعو إلى البدعة، وزعم أن ما يدعو إليه حق، فهو سبب لغواية الخلق، فشرُّه مُتعدِّ، فالاستحباب في إظهار بُغضه ومعاداته والانقطاع عنه وتحقيره والتشنيع عليه ببدعته وتنفير الناس عنه أشد، وإن سلّم في خلوة، فلا بأس برّد جوابه، وإن علم أن الإعراض عنه والسُّكوت عن جوابه يُقبح في نفسه بدعته ويؤثر في زجره، فتركُ الجواب أولى، وإن كان في ملاء، فتركُ الجواب أولى تنفيراً للناس عنه وتقبيحاً لبدعته في أعينهم. قال سُفيان الثوري: من صافح مُبتدعاً فقد نقض الإسلام عروّة عروّة. وقال الفضيل: من أحبَّ صاحب بدعةٍ أحبط الله عمله، وأخرج نور الإسلام من قلبه.

الثالث: المبتدع العامي الذي لا يقدر أن يدعو ولا يُخافُ الاقتداء به، فأمره أهون والأولى أن يتلطف به في النصح، فإن قلوب العوام سريعة التقلب، فإن لم ينفع النصح وكان في الإعراض عنه تقيح<sup>(١)</sup> لبدعته في عينه تأكّد الاستحباب في الإعراض، وإن علم أن ذلك لا يُؤثر فيه لجمود طبعه، ورسوخ اعتقاده في قلبه، فالإعراض أولى؛ لأن البدعة إذا لم يُبالغ في تقيحها شاعت بين الخلق وعمّ فسادها، وأما العاصي بفعله وبعمله لا باعتقاده، فلا يخلو إما أن يكون بحيث يتأذى به غيره، كالظلم والعصب وشهادة الزور والغيبة والمشى بالتميمة وأمثال ذلك، أو يكون مما لا يقتصر عليه ويؤذي غيره، وذلك ينقسم إلى من يدعو غيره إلى الفساد، كصاحب الماخور<sup>(٢)</sup> الذي يجمع بين الرجال والنساء ويهيئ أسباب الشرب والفساد لأهل الفساد، أو لا يدعو غيره إلى فعله، كالذي يسرق ويزني، وهذا الذي لا يدعو غيره إما أن يكون عصيانه بكبيرة أو بصغيرة، وإما أن يكون مُصرّاً أو غير مُصرّ، فهذه التقسيمات يتحصل منها ثلاثة أقسام، ولكل قسم منها رتبة، وبعضها أشدّ من بعض، فلا نسلك بالكل مسلكاً واحداً.

القسم الأول: وهو أشدها؛ ما يتضرر به الناس، كالظلم والعصب وشهادة الزور والغيبة والتميمة، فهؤلاء الأولى الإعراض عنهم، وترك مخالطتهم والانتقاص عن معاملتهم؛ لأن المعصية شديدة فيما يرجع إلى إيذاء الخلق، ثم هؤلاء ينقسمون إلى من يظلم في الدماء، وإلى من يظلم في الأموال، وإلى من يظلم في الأعراض، وبعضها أشد من بعض، والاستحباب في إهانتهم والإعراض عنهم مؤكّد جداً، ومتى توقع من الإهانة لهم الزجر لهم ولغيرهم تأكّد.

الثاني: صاحب الماخور الذي يهيئ أسباب الفساد ويسهل طرقه على الخلق، فهذا يؤذي الناس في دينهم، وذلك يقتضي الإهانة والإعراض والمقاطعة.

الثالث: الذي يفسق في نفسه بشرب خمر، أو ترك واجب، أو مقارفة محظور

(١) في الأصل: «يقبح».

(٢) الماخور: بيت الريبة ومجمع أهل الفسق والفساد.

يخصه، فالأمر فيه أخف، ولكنه في وقتِ مُباشرته إن صودفَ وجبَ منعه بما يمتنع به، فإن كان النَّصحُ يرده نصحَ وتلطفَ به، وإن كان التَّغليظُ أنفعَ فعل.

بيان الصِّفات المشروطة فيمن تُختارُ<sup>(١)</sup> صحبته: قد رُوينا عن النبي ﷺ أنه قال: «المرءُ على دين خليله، فلينظر أحدكم من يُخالِلُ».

واعلم أنه لا يصلح للصحبة كل أحدٍ، ولا بد أن يتميز المصحوب بصفاتٍ وخصالٍ يرغب بسببها في صحبته، وتشتترط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحبة، إذ معنى الشرط ما لا بد منه للوصول، ويطلب من الصحبة فوائد دينية ودنيوية.

أما الدنياوية؛ فكالانتفاع بالمال أو الجاه أو مجرد الاستئناس بالمشاهدة والمحاورة وليس ذلك من غرضنا.

وأما الدِّينية فيجتمع فيها أغراضٌ مختلفة، فمنها الاستفادة بالعلم والعمل، ومنها الاستفادة من الجاه تحصناً به عن إيذاءٍ يُكدر القلب ويصدُّ عن العبادة، ومنها الاستفادة بالمال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات في طلب القوت، ومنها الاستعانة في المهمات، فيكون عدة في المصائب، وقوة في الأحوال، ومنها التبرُّك لمجرد الدعاء، ومنها انتظارُ الشفاعة في الآخرة، كما قال بعض السلف: استكثروا من الإخوان، فإن لكل مؤمنٍ شفاعة. فهذه فوائد تستدعي كل فائدة شرطاً لا تحصل إلا بها.

وفي الجملة؛ فينبغي أن يكون فيمن يؤثر صحبته خمس خصال: أن يكون عاقلاً، حسنَ الخُلُق، غير فاسقٍ، ولا مبتدعٍ، ولا حريصٍ على الدنيا.

أما العقل، فهو رأس المال، وهو الأصل ولا خير في صحبة الأحمق، قال عليٌّ رضي الله عنه:

فلا تصحبُ أبا جهلٍ وإيّاك وإيّاها

(١) في الأصل: «يختار».

فكم من جاهلٍ أزدى      حكيماً حين أخاه  
يُقاسُ المرءُ بالمرءِ      إذا ما هو ما شاء  
وللشيء على الشيء      مقاييسٌ وأشباهُ  
وللقب على القلبِ      دليلٌ حين يلقاهُ  
واعلم أن الأحمق يريد أن ينفَعَكَ فيضرك، ونعني بالعاقل الذي يفهم الأمور على ما هي عليه إما بنفسه وإما إذا فهمَ.

وأما حُسن الخلق فلا بد منه، إذ رُبَّ عاقلٍ يُدرك الأشياء على ما هي عليه، ولكن إذا غلبه غضبٌ أو شهوة أطاعَ هواه وخالف ما هو المعلوم عنده لعجزه عن قهر الهوى، فلا خير في صُحبته.

وأما الفاسق المصّر على الفِسق، فإنه لا يَخاف الله، ومن لا يخاف الله لا تُؤمَنُ غائلته، ولا يوثق بصدّاقته، وقد قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْ مَن تَوَكَّلَ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ سَبِيلَ مَن أَنَابَ إِلَيْنَا﴾ [لقمان: ١٥].

وأما المُبتدع، فيُخاف من صحبته سراية البدعة، وقد قال عمر بن الخطاب: عليك بإخوان الصّدق تَعَش في أكنافهم، فإنهم زينةٌ في الرخاء، وُعْدَةٌ في البلاء، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يَجِيئَكَ<sup>(١)</sup> ما يغلبك منه، واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من يخشى الله، ولا تصحب الفاجر تعلم من فُجوره، ولا تُطْلعه على سرِّك، واستشر في أمرك الذين يَخشون الله تعالى، وقال حكيم لابنه: اصحب من إذا صحبته زانك، وإن خدّمته صانك، وإن قعدت بك مؤنةً مانك<sup>(٢)</sup>. وقال آخر: لا تصحب إلا مَن يَكتُم سرِّك، ويستتر عيبك، ويؤثرك بالرغائب، ويكون معك في النوائب، وينشر حسنك، ويطوي سيئك، فإن لم تجده فلا تصحب إلا نفسك. وروي عن علي رضي الله عنه:

(١) في الأصل: «يجبك».

(٢) مأنه مؤناً: احتمال مؤونته وقام بكفايته.

إِنَّ أَخَاكَ الصَّدَقَ مَنْ كَانَ مَعَكَ وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكَ  
 وَمَنْ إِذَا رَيْبُ الزَّمَانِ صَدَعَكَ شَتَّتَ شَمْلَ نَفْسِهِ لِيَجْمَعَكَ  
 وقال حكيمٌ: الناس أربعة؛ فواحد حُلُوٌّ كله، فلا تَشَبَعْ منه، وآخر مُرٌّ كله،  
 فلا تَأْكُلْ منه، وآخر فيه حُمُوضَةٌ فَخُذْ منه قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْكَ، وآخر فيه مُلُوحَةٌ فَخُذْ  
 منه وَقْتُ الْحَاجَةِ فَقَطْ.

وقال جعفر الصادق: لا تَصْحَبْ خَمْسَةَ: الكذاب، فإنك منه على غُرُور، وهو  
 مثل السراب؛ يُقْرَبُ مِنْكَ الْبَعِيدَ وَيَبْعَدُ مِنْكَ الْقَرِيبَ، والأحمق، فإنك لستَ منه  
 على شيء، يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرُّكَ، والبخيل، فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه،  
 والجبان، فإنه يُسَلِّمُكَ وَنَفْسَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ<sup>(١)</sup>، والفاسق، فإنه يبيعك بأكلته أو أقل  
 منها. قيل: وما أقل منها؟ قال: الطَّمَعُ فِيهَا ثُمَّ لَا يِنَالُهَا.

وأما الديانة وعدم الفسق، فإن الفاسق يهون المعصية، وأما الحريص على  
 الدنيا، فإن الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري، فمجالسة الحريص تُحْرِكُ  
 الحِرْصَ، كما أن مجالسة الزاهد تُحْرِكُ الزُهْدَ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ مِنْ فِيهِ هَذِهِ الشَّرَائِطَ  
 فَالْوَحْدَةُ خَيْرٌ لَهُ، قال أبو ذر: الوحدة خَيْرٌ مِنْ جَلِيسِ السُّوءِ، والجليس الصالح  
 خَيْرٌ مِنَ الْوَحْدَةِ.

(١) في الأصل: «الشدة».

## الباب الثاني

### في حقوق الأخوة والصُّحبة

اعلم أن عقد الأخوة رابطة بين الشخصين، كعقد النكاح بين الزوجين، فكما أن النكاح يقتضي حقوقاً يلزم الوفاء بها، فكذا عقد الأخوة، فلاخيك عليك ثمان حقوق.

الحق الأول: في المال، وذلك على ثلاث مراتب:

أدناها: أن تُنزله منزلة عبدك أو خادمك، فتقوم بحاجته من فضول مالك من غير أن تُحوجه إلى السؤال، فإن أحوجته إلى السؤال فذلك غاية التقصير في حق الأخوة.

المرتبة الثانية: أن تُنزله منزلة نفسك، وترضى بمشاركته إياك في مالك حتى تسمح بمشاطرته مالك، وفي الصحيحين من حديث أنس أن النبي ﷺ آخى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال سعد لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها. فقال: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلّوه على السوق فما انقلب إلا ومعه فضلٌ من أقطٍ وسمن.

المرتبة الثالثة: وهي العليا أن تُؤثره على نفسك، وتقدم حاجته على حاجتك، وهذا مُنتهى درجات المتحابين، وقد روينا أن أخوين في الله تعالى جازا في برية، فإذا سبغ، فقال أحدهما للآخر: قف حتى أمضي أنا فيشتغل بي عنك، فقال: والله ما تطيب نفسي. فمراً جميعاً، فلم يعرض الأسد لهما.

واعلم أنه إذا لم تكن مع أخيك في بعض هذه الرتب الثلاثة، فاعلم أن عقد الأخوة لم يتعقد بعد في الباطن، وإنما الجاري بينكما مخالطة رسمية لا وقع لها.

قال الحسنُ البصري: كُنَّا نَعْدُ البَخِيلَ الذي يُقْرَضُ أخاه، وليس من المروءة أن يربح الرجل على صديقه.

وكان مُؤرِّقُ العِجْلِي يَأْتِي بالبُصْرَةَ فيها الأربع مئة والخمس مئة فيودِعُها الأَخ من إخوانه ثم يلقاه بعد فيقول: انتفع بها فهي لك. وروينا أن مَسْرُوقاً أَدَانَ دِيناً ثَقِيلاً، وكان على خيْثمة دَيْنٌ، فذهب مَسْرُوقٌ فقضى دين خيْثمة وهو لا يعلم، وذهب خيْثمة فقضى دين مَسْرُوق وهو لا يعلم.

ودخلوا على الحسن وهو نائم فجعل بعضهم يأكل من فاكهة في بيته فانتبه، فقال: رحمك الله، هذا والله فعل الإخوان.

وقال أبو جعفر الباقر لأصحابه: أَيْدِخِلُ أَحَدَكُمْ يَدَهُ فِي كُمِّ أَخِيهِ فَيَأْخُذْ مَا يُرِيدُ؟ قالوا: لا. قال: فَلَسْتُمْ بِإِخْوَانٍ كَمَا تَزْعُمُونَ. وَوَرِثَ خَيْثَمَةُ مِئَةَ (١) أَلْفٍ فَأَنْفَقَهَا عَلَى إِخْوَانِهِ، وَكَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَقُولُ: إِنِّي لِأَسْتَحِي مِنَ اللَّهِ أَنْ أَسْأَلَ اللَّهَ الْجَنَّةَ لِأَخٍ مِنْ إِخْوَانِي وَأَبْخُلُ عَلَيْهِ بِدِينَارٍ أَوْ دَرْهَمٍ. وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ فَأَخْبَرَهُ بِدَيْنٍ عَلَيْهِ، فَدَخَلَ إِلَى بَيْتِهِ فَوَزَّنَ لَهُ أَرْبَعَ مِئَةِ دِينَارٍ (٢) ثُمَّ خَرَجَ فَأَعْطَاهُ ثُمَّ دَخَلَ بَاكِيًا، فَقَالَتْ لَهُ زَوْجَتُهُ: هَلَّا تَعَلَّلْتَ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ إِعْطَاؤُهُ يَشُقُّ عَلَيْكَ. فَقَالَ: إِنَّمَا أَبْكِي لِأَنِّي لَمْ أَتَفَقَّدْ حَالَهُ، فَاحْتِاجُ أَنْ يَقُولَ لِي ذَلِكَ. وَقَالَ (٣) أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ: لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا لِقَمَةٍ ثُمَّ جَاءَنِي أَخٌ لِي لِأَحْبَبْتُ أَنْ أَضَعَهَا فِي فِيهِ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ: بَشَسَ الصَّدِيقُ صَدِيقٌ تَحْتَاجُ أَنْ تَقُولَ لَهُ: اذْكُرْنِي فِي دُعَائِكَ، أَوْ أَنْ تَعِيشَ مَعَهُ بِالمُدَارَاةِ، أَوْ تَحْتَاجُ أَنْ تَعْتَذِرَ إِلَيْهِ. أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ نَاصِرٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا حَمْدُ بْنُ أَحْمَدَ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو نَعِيمٍ الأَصْفَهَانِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدَ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ سُفْيَانَ قَالَ: حَدَّثَنَا رِيَّاحُ بْنُ الجِرَاحِ العَبْدِيُّ قَالَ: جَاءَ فَتَحُ المَوْصِلِيُّ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ: عَيْسَى التَّمَارِ، فَلَمْ يَجِدْهُ فِي المَنْزِلِ، فَقَالَ لِلخَادِمِ: أَخْرِجْنِي إِلَى كَيْسِ أَخِي. فَأَخْرَجْتُهُ، فَأَخَذَ مِنْهُ دَرَاهِمِينَ،

(١) في (ظ): «مئتا».

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) تحرفت في الأصل إلى: «وكان».

وجاء عيسى إلى منزله، فأخبرته الجارية بمجيء فتح وأخذه الدرهمين فقال: إن كنتِ صادقةً فأنتِ حُرّة. فنظر فإذا هي صادقة، فعتقت.

**الحق الثاني:** في الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات، والقيام بها، وهذه أيضاً لها درجات، كما أن للمواساة بالمال درجات، فأدناها: القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة لكن مع البشاشة والاستبشار، وأوسطها القيام بالحوائج لا عن سؤال، وأعلىها تقديم حوائجه على حوائج النفس، وقد كان في السلف من يتفقد عيال أخيه بعد موته أربعين سنة يقوم بحوائجهم. واعلم أن هذا التفقد ثمرة الشفقة، والشفقة ثمرة الأخوة، فإذا لم تثمر الأخوة شفقةً، فليست أخوة، ومن تمام الشفقة تنعص العيش في المملووذ عند فقد الأخ، والاستيحاش له عند الانفراد بذلك.

**الحق الثالث:** على اللسان بالسكوت تارةً، وبالنطق أخرى، أما السكوت؛ فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه في حضرته وغيبته، وعن الرد عليه ومماراته ومنافسته، وعن السؤال عن ما يكره ظهوره من أحواله، ولا يسأله إذا لقيه: إلى أين؟ فربما لم يرد إعلامه بذلك، وأن يكتم أسراره ولو بعد القطيعة، ولا يقدر في أحبابه وأهله، ولا يُبلّغه قَدَحٍ غيره فيه، فإن الذي سببكَ مَنْ بَلَغَكَ، وقد كان النبي ﷺ لا يُواجه أحداً بشيءٍ يكرهه، بل ينبغي أن لا يُخفي ما يسمع<sup>(١)</sup> من الثناء عليه، فإن السرور بذلك يحصل من المُبلِّغ ثم من القائل، وإخفاء ذلك من الحسد.

وفي الجملة ينبغي أن يسكت عن كل كلام يكرهه إلا إذا وجب عليه التُّطق في أمرٍ بمعروفٍ ونهيٍ عن مُنكرٍ، ولم يجد رخصةً في السكوت، فإن مواجهته بذلك إحسان إليه في المعنى، وإن كان أساء في الظاهر، فأما ذكرُ مساوئه وُعيوبه فهو من الغيبة، وذلك حرامٌ، وينبغي أن يردَّ عن ذلك شيثان، أحدهما: مُطالعة أحوال النفس، فإنك ستري فيك مذموماً، وقدَّر أنه عاجزٌ عن قهرِ نفسه في تلك الخصلة الواحدة، كما أنك عاجز فيما أنت مُبتلى<sup>(٢)</sup> به، و: أيُّ الرجال المهذبُ.

(١) في الأصل: «ما لا يسمع».

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «صلى».

والثاني: أن تعلم أنك لو طلبت مُنزهاً عن كل عيبٍ لم تجد، وما أحدٌ إلا له محاسن ومساوي، فإذا غلبت المحاسن فهو الغاية، قال ابن المبارك: المؤمن من يطلب المعاذير، والمنافق يطلب العثرات. وقال الفُضيل: الفتوة: الصّبح عن زلات الإخوان.

وكما أنه يجب عليك السكوت بلسانك عن مساوئه يجب عليك السكوت بقلبك، وذلك بترك إساءة الظن به، وذلك بأن تحمل أفعاله على الحسن مهما أمكن، وأما ما انكشف بيقين ومشاهدة فاحمله «على سهو<sup>(١)</sup> ونسيانٍ ما أمكن».

واعلم أن سوء الظنّ به ينقسم إلى ما يُسمى تفرُّساً، وهو الذي يستند إلى علامة، فإن ذلك يُحرك الظن تحريكاً ضرورياً لا يمكن دفعه، وإلى ما منشؤه سوء اعتقادك فيه، فإذا صدر منه فعلٌ له وجهان حملك سوء الاعتقاد على أن تنزله على الوجه الرديء من غير علامة تُخصّصه به، وذلك جناية عليه بالباطن، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إياكم والظن، فإن الظنّ أكذب الحديث».

واعلم أن سوء الظن يدعو إلى التّجسس، وقد قال عزّ وجل: ﴿وَلَا يَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢] وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً».

واعلم أن ستر العيوب والتغافل عنها شيمة أهل الدين، وكيفيك في هذا أنك تدعو فتقول: يا مَنْ أظهرَ الجميل وسترَ القبيح. فالمرضي عند الله تعالى من تخلّق بأخلاقه.

واعلم أنه لا يكمل إيمان المرء حتى يُحبّ لأخيه ما يُحب لنفسه، وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به، ولا شك أنك تنتظر من أخيك أن يستر عورتك، وأن يسكت عن مساوئك، فلو ظهر لك منه ضد ذلك اشتد غيظك، فكيف تنتظر منه ما لا تعزم عليه له ومتى التمسّت من الإنصاف ما لا تسمح به دخلت في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [الذين إذا آكألوا على الناس يستوفون ﴿٢﴾] وإذا كألوهم أو وزنوهم يخسرون ﴿٣﴾. [المطففين: ١-٣]. ومنشأ التّقصير في ستر العورة أو

السَّعي في كشفها الحقد والحسد، فإنَّ الحقود الحسود يمتلئ باطنه بالخُبث، ولكنه يحبسها في باطنه ويخفيه ما لم يجد له مجالاً، فإذا وجد فرصةً رشح الباطنُ بخبثه الدفين، ومتى انطوى الباطن على حقدٍ وحسدٍ كان الافتراق أولى من الاجتماع.

ومن ذلك أن يسكتَ عن إفشاء سرِّه الذي استودعه، وفي أفراد البخاري من حديث أبي بكر الصديق أنه قال: لم أكن لأفشي سرَّ رسولِ الله ﷺ. وفي الصحيحين من حديث أنس قال: قلتُ لأمي: بعثني رسولُ الله ﷺ في حاجةٍ قالت: وما هي؟ قلت: سرٌّ. قالت: احفظ على رسولِ الله سرِّه. وفي حديث جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا حدَّث الرجلُ ثم التفتَ فهي أمانة». وقال العباس لابنه عبد الله: إني أرى هذا الرجل يُقدِّمك - يعني: عمر - فلا تُفشيَنَّ له سرّاً. وقال عمرو بن العاص: ما وضعتُ سرِّي عند أحدٍ فلمتته على إفشائه، وكيف ألومه وقد ضقتُ به ذرعاً. وقال الحسنُ البصري: من الخيانة أن تُحدِّثَ بسرِّ أخيك. وقال ذو النون: لا خيرَ في ضحبةٍ من لا يحب أن يراك إلا معصوماً، ومن أفشى السرَّ عند الغضب فهو اللئيم؛ لأن إخفاءه عند الرضا تقتضيه الطباع السليمة كلها. وقيل لأبي يزيد: مَنْ نَصَحْتُ؟<sup>(١)</sup> قال: مَنْ يَعْلَمُ مِنْكَ ما يَعْلَمُهُ اللهُ ثم يَسْتُرُ عليك كما يَسْتُرُ اللهُ عزَّ وجل. وقال بعضُ الحكماء: مَنْ ارتادَ لسرِّه فقد ضيَّعه، وما كنتُ كاتبه من عدوكَ فاكتمه من صديقك. وقيل لأعرابي: كيف كتمانك للسرِّ؟ فقال: ألتحفُ عليه التحافَ الجناح على الخوافي. وقال ابن المعتز:

مُسْتَوْدَعِي سِرّاً تَبَوَّأْتُ كَتْمَهُ فَأودعته صَدْرِي فَصار له قَبِراً  
فعارضه آخر<sup>(٢)</sup> فقال:

وما السُّرُّ في صَدْرِي كَثَاوِ بِقَبْرِهِ لأنِّي أرى المَقْبُورَ يَنْتَظِرُ النُّشْرَا  
ولكنني أنساه حتى كأنني  
ولو جازَ كَتْمُ السُّرِّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ بما كانَ مِنْهُ لَمْ أَحِظْ سَاعَةً خُبْرَا  
عن السُّرِّ والأحْشَاءِ لَمْ تَعْلَمِ السُّرّاً

(١) في الأصل: «يصحب».

(٢) هو محمد بن داود الأصبهاني كما في الإتحاف ٧ / ١٠٢.

ومن ذلك: السكوت عن المُمارة والمدافعة في كل ما يتكلم به الأخ، روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يَسْتَكْمَلُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَدَعَ الْبِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحَقَّقًا». واعلم أن أشدَّ الأسباب لإثارة الحقد بين الإخوان المُمارة، ولا يبعث عليها إلا إظهار التَّمييز بزيادة الفضل والعقل واحتقار المردود عليه، ومن ماري أخاه فقد نَسبه إلى الجهل والحُمق، أو إلى الغفلة والسَّهو عن فَهْم الشيء على ما هو عليه، وكل ذلك استحقاقٌ، وهو يُوغِرُ الصِّدْرَ، ويوجب المُعاداة، وهي ضد الأُخوة.

**الحق الرابع:** على اللسان بالنطق، فإن الأُخوة كما تقتضي السكوت عن المكروه تقتضي النطق بالمحبوب، بل هو أخص الأُخوة؛ لأن من قنع بالسكوت صَحِبَ أَهْلَ الْقُبُورِ، وإنما يُراد الإخوان لِيُسْتَفَادَ مِنْهُمْ لا لِيَتَخَلَّصَ مِنْ أَذَاهُمْ؛ لأن السكوت معناه كَفَ الْأَذَى، فعليه أن يتودَّدَ إليه بلسانه، ويتفقده في أحواله، ويسأله عما عرضَ له، ويظهر شغل قلبه بسببه، ويُبدي السرور بما يُسرُّ به، وفي حديث المقدم بن معدي كَرِبَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُعَلِّمِهِ». رواه الترمذي وصححه. وأخبرنا ابن الحُصَيْنِ قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ الْمُذْهِبِ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا زَيْدٌ<sup>(١)</sup> - يَعْنِي ابْنَ الْحُبَابِ - قَالَ: حَدَّثَنِي حُسَيْنُ بْنُ وَاقِدٍ قَالَ: حَدَّثَنِي ثَابِتُ الْبِنَانِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ مَرَّ رَجُلٌ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لِأَحِبُّ هَذَا الرَّجُلَ. قَالَ: «هَلْ أَعْلَمْتَهُ ذَلِكَ؟» فَقَالَ: لَا. فَقَالَ: «قُمْ فَأَعْلِمِهِ» فَقَامَ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا هَذَا وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّكَ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: أَحَبُّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ. وَإِنَّمَا أَمْرُهُ بِإِعْلَامِهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ بِحُبِّ هَذَا أَحِبَّهُ، وَالتَّحَابُّ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ مَطْلُوبٌ شَرْعًا، وَفِي أَفْرَادٍ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوْ لَا أَدُلَّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفَشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ». وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يَدْعُوهُ

(١) تحرف في (ظ) إلى: «يزيد».

بأحِبَّ أسمائه إليه،<sup>(١)</sup> وقال عمر بن الخطاب: ثلاثٌ يُصَفِّينَ لَكَ وَدَّ أَخِيكَ: تُسَلِّمَ عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحِبَّ أسمائه<sup>(٢)</sup>.

ومن ذلك أن تُثَنِّيَ عليه بما يعرف من محاسن أحواله عند من يُؤثر هو الثناء عنده، فإن ذلك من أعظم الأسباب في جلب المحبة، وكذلك الثناء على أولاده وأهله وأفعاله حتى على خُلُقهِ وَعَقْلِهِ<sup>(٣)</sup> وَهَيَأَتِهِ وَخَطَّهُ وَتَصْنِيفِهِ وجميع ما يفرح به من غير إفراطٍ ولا كذبٍ، وأكد من ذلك أن تُبلِّغه ثناءً من أثنى عليه مع إظهار الفرح به، فإن إخفاء ذلك محضُ الحسدِ، ومن ذلك أن تشكره على صنيعته في حقك، بل على نيته وإن لم يتمم، فإن من لم يحمد أخاه على حسن نيته لم يحمد على حسن الصنعة.

وأعظم من ذلك تأثيراً في جلب المحبة الذبُّ عنه في غيبته إذا فُصدَ بسوءٍ، فحق الأخوة التَّشْمِيرُ في الحماية والنصرة وتبكيك المُغتَابِ، فالسكوت عن ذلك تقصيرٌ في حق الأخوة، وموجبٌ لتنفير القلب، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «المسلمُ أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه». ومعلومٌ أن إهماله للذبِّ عن عرضه إسلامٌ له، وأخسس بأخ يراك والكلاب تمزق لحمك فلا تحركه الشفقة للذبِّ عنك، ومعلومٌ أن تمزيق العِرضِ أشدُّ من تمزيق اللحم، ولك في ذلك معياران: أحدهما: أن تُقدِّرَ أن الذي قيل فيه قد قيلَ فيك، وهو حاضر، فتقول: ما تُحِبُّ أن يقولَه. والثاني: أن تُقدِّرَ أنه حاضرٌ من وراء جدار يتسمَّعُ عليك، فما تحركَ في قلبك من نُصرتِه في حضوره ينبغي أن يتحرك في غيبته، ومن لم يكن مخلصاً في إخائه فهو منافق ومن لم يُحقِّق في هذا الأمر فالعزلة أولى به من المخالطة.

ومن ذلك التعليم والنصيحة فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال، فإذا كنت غنياً بالعلم فواسيه وأرشدته، فإن أرشدته فلم يعمل بمقتضى ذلك فعليك نُصحه بأن تبين له قبح فعله وتُحسن له الحَسَنَ، إلا أن ذلك ينبغي أن يكون

(١-١) سقط من الأصل.

(٢) سقطت من (ظ).

في سر، وفي الصحيحين من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ الله عز وجل يُدني المؤمنَ فيضع عليه كَنَفه وَيَسْتُرُه من الناس وَيُقَرِّره بذُنوبه ويقول له: أتعرف ذنبَ كذا؟ أتعرف ذنبَ كذا؟ حتى إذا قَرَّره بذُنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم». وقيل لمُسَعَر: أتحب أن يخبرك أحدٌ بعيوبك؟ فقال: إن كانَ ناصحاً فنعم، وإن كان يُريد أن يُؤنِّبني فلا. فالفرق بين التَّوْبِخ والتَّصِيحَة الإعلانُ والإسرار، كما أن الفرق بين المُدَاراة والمُدَاهَنَة بالعرض الباعث على الإغضاء، فإن أغضيتَ لسلامة دينك ولما ترى فيه من إصلاح<sup>(١)</sup> أخيك بالإغضاء فأنت مُدارٍ، وإن أغضيتَ لحظَّ نفسك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك، فأنت مُدَاهِنٌ.

فإن قلت: ذكرُ العيوب يوحشُ القلوب<sup>(٢)</sup> فيؤثر في الأخوة.

قلنا: إنما أمرناك أن تُنبِّهه على ما قد خفي عنه، إما من خطأ ظاهرٍ قد خفي عنه قُبْح إيثاره له، أو من زللٍ باطنٍ لا يدري به، فتكون كمن حذَّر شخصاً من عقربٍ تحت ذيله، وذلك ينبعث من الشفقة ويزيد في الأخوة عند العقلاء، وقد روي عن عمر أنه كان يقول: رحمَ الله امرءاً أهدى إلينا عُيوبنا. وكتب حذيفة المرعشي إلى يوسف بن أسباط: بلغني أنك بعثَ دينك بِحَبَّتَيْنِ وقفتَ على صاحب لبِن<sup>(٣)</sup> فقلت: بكم هذا؟ فقال: بسُدسٍ. فقلت له: لا بل بثمانٍ. فقال: هو لك، وكان يعرفك. اكشِفَ عن رأسِكَ قِنَاعَ الغافلين، وانتبه من رَقْدَةِ الموتى.

الحق الخامس: العفو عن الزلات، فإن كانت زلته في دينه فتلطَّف في نُصحِه مهما أمكن، ولا تترك زجره ووعظه، فإن أبي فالمُصارمة، ولا تكون إلا إذا لم يبق حيلة؛ لأن المقصود رَدُّعه بالتَّلطُّف والاحتِيال، فإذا لم ينجح كانت المصارمة الرادعة، فقد روي أن بعض القدماء مال عن الاستقامة، فقبل لأخيه: ألا تهجره؟

(١) في الأصل: «إسلام».

(٢) في الأصل: «القلب».

(٣) تحرفت في (ظ): إلى: «لي».

فقال: أحوج ما كان إليّ الآن، آخذ بيده وأتلّظفه في المعاتبه. وحُكي أن أخوين عابدين في بني إسرائيل رأى أحدهما امرأةً فأحبّها فواقعها وأقام عندها واستحى أن يرجع إلى أخيه، فافتقده أخوه وسأل عنه، فدُلَّ عليه فدخل إليه وهو عندها فاعتنقه وجعل يُقبله، فأنكره الآخرُ، وقال: لا أعرفك. لقوة استحيائه منه، فقال: فمُ يا أخي فقد علمتُ شأنك وما كنتَ قطّ أحبّ إليّ ولا أعزّ عندي من ساعتك هذه. فلما رأى أن ذلك لم يُسقطه من عينه قامَ فانصرف معه.

وإن كانت الزلّة في حق الأخ مما يوجب إيحاشه فالأولى العفو والاحتمال وإقامة الأعدار، فإذا رأيت قلبك لا يقبل العذر فقل له: أنت المَعيب لا هُو. قال الشاعر:

خُذْ مِنْ خَلِيلِكَ مَا صَفَا      دُونَ الَّذِي فِيهِ الْكَدْرُ  
فَالْعَمْرُ أَقْصَرُ مِنْ مُعَا      تَبَةِ الْخَلِيلِ عَلَى الْغَيْرِ  
وقال آخر:

ولستَ بمستبقٍ أحاً لا تَلَّمْهُ      عَلَى شَعَثِ أَيِّ الرِّجَالِ الْمَهْدُبِ  
وإذا رأيت ذلك التّجني يتسلّق إلى المودّة فيشعّثها فتلّظف في عتابه سراً.

الحق السادس: الدّعاء للأخ في حياته وبعد مماته بكل ما تدعو به لنفسك، ولا تُفرق بينك وبينه في ذلك، وفي أفراد مسلم من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مُستجابة، عند رأسه ملكٌ موكلٌ كلما دعا لأخيه بخيرٍ قال الملك الموكّل به: آمين، ولك بمثل». وقد كان أبو الدرداء يدعو لخلق كثيرٍ من إخوانه يُسمّيهم بأسمائهم، وكان الإمام أحمد بن حنبل يدعو في السّحر لستة نفرٍ.

وأما الدّعاء بعد الموت، فقد قال عمرو بن حُرَيْث<sup>(١)</sup>: إذا دعا العبدُ لأخيه الميت أتى بها ملكٌ قبره، فقال: يا صاحبَ القبرِ العَريبِ هذه هديةٌ من أخٍ عليك شَفِيق.

(١) تحرفت في النسخ إلى: «جرير».

الحق السابع: الوفاء والإخلاص، ومعنى الوفاء الثبات على الحب، وإدامته إلى الموت، وبعد موت الأخ مع أولاده وأصدقائه؛ لأن الحب إنما يراد للآخرة ولا وجه لانقطاعه، وقد أكرم النبي ﷺ عجزاً، وقال: «إنها كانت تَغْشَانَا فِي أَيَّامِ حَدِيدَةٍ وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ». ومن الوفاء أن لا يتغَيَّرَ عَلَى أَخِيهِ فِي التَّوَاضُعِ وَإِنْ ارْتَفَعَ شَأْنُهُ، واتسعت ولايته، وعَظُمَ جَاهُهُ، وقد روى الربيع عن الشافعي أنه أَخَى رَجُلًا بِبَغْدَادِ فَوَلِيَ السَّيِّبِينَ<sup>(١)</sup>، فتغير له عما كان عليه، فكتب إليه الشافعي:

أَذْهَبَ فَوَدُّكَ مِنْ فَوَادِي طَالِقُ      أَبْدًا وَلَيْسَ طَلَاقُ ذَاتِ الْبَيْنِ  
فَإِنْ أَرَعَوَيْتَ فَإِنَّهَا تَطْلِيْقَةُ      وَيَدُومُ وَدُّكَ لِي عَلَى ثُنْتَيْنِ  
وَإِنْ أَمْتَنَعْتَ شَفَعْتُهَا بِمِثَالِهَا      فَتَكُونُ تَطْلِيْقَيْنِ فِي حَيْضَيْنِ  
فَإِذَا الثَّلَاثُ أَتَتْكَ مَنِ بَتَّةً      لَمْ تُغْنِ عَنْكَ وَلايَةُ السَّيْبَيْنِ

واعلم أنه ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الدين، فقد كان الشافعي أَخَى مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْحَكْمِ وَكَانَ يُقْرِبُهُ وَيُقْبَلُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا احْتَضَرَ قِيلَ لَهُ: إِلَى مَنْ نَجْلِسُ بَعْدَكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟ فَاسْتَشْرَفَ لَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْحَكْمِ وَهُوَ عِنْدَ رَأْسِهِ لِيَوْمِيٍّ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَبُو يَعْقُوبَ الْبُؤَيْطِيُّ. فَانكَسَرَ لَهَا مُحَمَّدٌ، مَعَ أَنْ مُحَمَّدًا كَانَ قَدْ حَمَلَ عَنْهُ مَذْهَبَهُ، لَكِنِ الْبُؤَيْطِيُّ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الزُّهْدِ وَالْوَرَعِ فَنَصَحَ الشَّافِعِيَّ الْمُسْلِمِينَ وَتَرَكَ الْمُدَاهَنَةَ فَاِنْقَلَبَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكْمِ عَنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَصَارَ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ.

ومن الوفاء الجزع من مفارقة الأخ، كما قال الشاعر:

وَجَدْتُ مُصِيبَاتِ الزَّمَانِ جَمِيعَهَا      سِوَى فُرْقَةِ الْأَحْبَابِ هَيْئَةَ الْخَطْبِ  
وَقَالَ مَعْرُوفُ الْكَرْخِيِّ: لَوْ أَحْبَبْتُ أَحَدًا لَمْ أَحِبْ مَفَارِقَتَهُ لَيْلًا وَلَا نَهَارًا،  
وَلَزُرْتَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَلاَثَرْتُهُ عَلَى نَفْسِي فِي كُلِّ حَالٍ.

(١) السَّيْبِينِ: هما السيب الأعلى والسيب الأسفل، اسم كورةٍ بالعراق.

ومن الوفاء أن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه، ولا يُصادق عدوَّ صديقه، قال الشافعي: إذا أطاع صديقك عدوك، فقد اشتركا في عداوتك.

الحق الثامن: التخفيف، وترك التكلف والتكليف، وذلك بأن لا يكلف أخاه ما يشقّ عليه، بل يُروِّح سرّه عن مُهمّاته وحاجّاته، ولا يستمد من جاهه ولا ماله، ولا يكلفه التّفقد لأحواله والقيام بحقوقه<sup>(١)</sup>، ولا التواضع له، بل يكون قصده بمحبته الله تعالى وحده، والتّبرك بدعائه، والاستئناس بلاقائه، والاستعانة به على دينه، و التّقرب إلى الله بالقيام بحقوقه، وتمام التّخفيف طي بساط الاحتشام حتى لا يستحي منه فيما لا يستحي فيه من نفسه، قال جعفر بن محمد: أثقل إخواني عليّ من يتكلف لي وأتحمّل منه، وأخفهم عليّ من أكون معه كما أكون وحدي. وقال يوسف بن الحسين: قلت لذي النون: من أضحَب؟ قال: من إذا أذنبت تاب. وقال بعض الحكماء: من سقطت كُلفته دامت أُلْفته.

ومن تمام هذا الأمر أن ترى الفضل لإخوانك عليك، فتكون لهم على نفسك لا لنفسك عليهم، فتُنزل نفسك معهم منزلة الخادم، وتُنظر إلى محاسنهم لا إلى عُيوبهم فإن أبصرتهم بعينك نظرت إليهم نظر مودّة، وإذا سمعت كلامهم سمعته متلذّداً به مُستبشراً من غير أن تقطعه عليهم ولا تعارضهم فيه، ولا تقبض يدك عن معاونتهم، وأن تمشي وراءهم مشي الأتباع، ومتى تمّ الاتحاد خفت هذه الحقوق وانظوى بساط التكلف.

خاتمة لهذا الباب نذكر فيها جملة من آداب المعاشرة للخلق:

من حُسن المعاشرة أن تتوقّر في غير كبر، وتتواضع في غير ذلّة، وأن تلقى الصديق والعدوَّ بوجه الرضا من غير ذلّ لهم ولا خوف منهم، وتحمّل في مجالسك من تشبيك أصابعك، والعبث بلحيتك وخاتمك، وتخليل أسنانك، وإدخال إصبعك في أنفك، وكثرة بُصاقيك، وطرده الذباب عن وجهك، والتثاؤب<sup>(٢)</sup>، وأصغ إلى من

(١) في الأصل: «لحقوقه».

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «الثياب».

حَدَّثَكَ، ولا تسأله الإعادة، ولا تَحَدَّثْ عن إعجابك بولدك وجاريتك وتصنيفك، ولا تَتَصَنَّعَ تَصَنَّعَ المرأة في التزيين، ولا تَبَدَّلْ تَبَدُّلَ العبد، ولا يَعْلَمَ أَهْلُكَ فَضْلاً عن غيرهم مقدار مالك، فإنهم إن رأوه قليلاً هُنَّتْ عندهم، وإن كان كثيراً لم تبلغ رضاهم أبداً، وخَوْفُهُمْ من غير عُنْفٍ، وَلِئِنْ لَهُمْ من غير ضَعْفٍ، ولا تُهَازِلْ أُمَّتَكَ وعبدَكَ فيسقط وَقَارِكَ، ولا تُكْثِرِ الالْتِفَاتِ إلى ما وراءك، ولا تُجَالِسِ السُّلْطَانَ، فإن فعلت فاحذر الكذب والغيبة، وُضُنْ سِرَّهُ، واحذِرِ الدُّعَابَةَ عنده، وَتَحَقَّقْ من الجُشَاءِ بحضرته والتَّخُلُّلِ، فإن قَرَيْبَكَ فَكُنْ منه على حَذَرٍ، وإن استرسل إليك فلا تَأْمَنِ انْقِلابَهُ عليك، وارفق به رَفَقَةً بالصَّبي، وكَلِّمْهُ بما يَشْتَهِيهِ، ولا تَدْخُلْ بَيْنَهُ وبين أهله وحَشَمِهِ، فإنها زَلَّةٌ لا تُقَالُ، وربما احتَمَلَ المَلِكُ كُلَّ شَيْءٍ إِلا إِفْشَاءَ السَّرِّ والقَدْحِ في المَلِكِ والتَّعَرُّضَ لِلْحَرَمِ، وإياك وصدیقَ العافية، ولا تجعل مالكَ أَكْرَمَ من عَرَضِكَ، وإذا دَخَلْتَ مَجْلِساً فاجلسْ فيما هو أَقْرَبُ إلى التَّوَاضُعِ، ولا تجلس على الطريق فإن جَلَسْتَ فَعُضَّ البَصْرَ، وانصُرِ المَظْلُومَ، وأرشد الضَّالَّ، ولا تَبْصُقْ في جِهَةِ القِبْلَةِ، ولا عن يَمِينِكَ لكن عن يسارك تحت قَدَمِكَ اليسرى، واحذر مُجَالِسَةِ العوامِ، فإن فعلت فبالتَّغافلِ عن ما يَجْرِي من سوء أخلاقهم، وترك الخوض في حديثهم، واحذر المُزَاحِ فإنَّ اللَّيْبَ يَحْقِدُ عَلَيْكَ في المِزَاحِ، والسَّفِيهِ يَجْتَرِي عَلَيْكَ.

## الباب الثالث

### في حقوق المسلم والرَّحِم والجوار والملك وكيفية المعاشرة مع من يُدلي بهذه الأسباب

اعلم أنه لا بد للإنسان من مُخالطة جنسه، فيتعين لذلك أدب المُخالطة، وأدب الخَلِيط على قدرِ حَقِّه، وحَقِّه على قدرِ الرابطة التي بها وَقَعَت المُخالطة، والرابطة إما القَرابة، وهي أخصها، أو أخوة الإسلام، وهي أعمها، أو الجوار، أو صُحبة السَّفَر، أو الدرس، أو الصداقة والأخوة، ولكل واحدةٍ من هذه الروابط دَرجات، فالقَرابة لها حق، ولكن حق الرَّحِم المحرم آكد، وللمحرم حقٌّ ولكن حق الوالدين آكد، وكذلك حق الجار يَخْتلف بحسب قُربه من الدار وبُعده.

ويَتَأكَّد حق المسلم بتأكَّد المعرفة، والتعلم آكد من حقِّ صُحبة السَّفَر، وكذلك الصداقة تتفاوت فإنها إذا قويت صارت أخوة، فإن ازدادت صارت محبةً، فإن ازدادت صارت خلةً. والمحبة ما يتمكَّن من حَبَّة القلب، والخلة ما يتخلَّل جميع أجزاء القلب، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «لو كنتُ متخذاً خليلاً لاتَّخذتُ أبا بكرٍ خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله» يشير إلى أنه لم يكن يَسْتوعب قلبه سوى حُب الله عز وجل، وقد اتخذ علياً أخاً فقال له: «أما تَرْضَى أن تكونَ مِنِّي بمنزلة هارونَ من موسى إلا أنه لا نبيَّ بعدي» فعدل بعلي عن النبوة، كما عدل بأبي بكرٍ عن الخلة، فقد شارك أبو بكرٍ علياً في الأخوة وزاد عليه بمُقاربة الخلة وأهليته لها لو كان للشركة في الخلة مجال، وليس قبل المعرفة رابطةً، ولا بعد الخلة درجة، وما سواهما من الدَرجات بينهما.

وقد ذكرنا حَقَّ الصُّحبة والأخوة، ويدخل فيه ما وراءهما من المحبة والخلة، وإنما تَتفاوت الرُتَب في تلك الحقوق كما سبق بحسبِ تفاوتِ رُتَبِ الأخوة والمحبة حتى يَنْتهي أقصاها إلى أن يوجب الإيثار بالنَّفْس والمال، كما أثار أبو بكرٍ

رسول الله ﷺ بالسَّلامَةِ حينَ سَدَّ ثَقَبَ الغارِ بِرِجلِهِ، وآثرَهُ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ حينَ وَقَاهُ بيدهِ، وكانَ عَمْرُو بْنُ قَمِيئَةَ قد عَلَا رَسولَ اللهِ ﷺ فَضْرِبَهُ بِالسِّيفِ عَلى شِقِّهِ الأيْمَنِ يَومَ أَحَدَ فَاتَّقَاهُ طَلْحَةُ بيدهِ فَشَلَّتْ يَدَهُ.

ونحنُ الآنَ نذكُرُ حَقَّ أُخُوَّةِ الإِسْلامِ، وحَقَّ الرَّحِمِ، وحَقَّ الوالِدِينَ، وحَقَّ الجِوارِ، وحَقَّ المِلكِ يَعْنِي: مَلِكُ اليَمِينِ فَإِنَّ مَلِكَ النِّكاحِ قد تَقَدَّمَ في كِتابِهِ.

**حقوق المسلم:** يُسَلِّمُ عليه إِذا لَقِيه، وَيُجيبُهُ إِذا دَعاه، وَيُسَمِّتُهُ إِذا عَطَسَ، وَيَعُوذُهُ إِذا مَرَضَ وَيَشْهَدُ جِنازَتَهُ إِذا ماتَ، وَيَبْرِئُ قَسَمَهُ إِذا أَقْسَمَ عليه، وَيَنْصَحُ لَهُ إِذا اسْتَنْصَحَهُ، وَيَحْفَظُهُ بظَهْرِ العَيْبِ إِذا غابَ، وَيُحِبُّ لَهُ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، وَيَكْرَهُ لَهُ ما يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ، وَجَمِيعُ هَذا مَنقُولٌ في الأَثارِ، وَقَدْ أَخْبَرنا هَبَةُ اللهُ بنَ مُحَمَّدِ قالَ: أَخْبَرنا الحِسانَ بنَ عَلِيِّ التَّمِيمِيِّ قالَ: أَخْبَرنا أبو بَكْرِ بنَ مالِكِ قالَ: حَدَّثنا عبدُ اللهِ بنَ أَحْمَدَ قالَ: حَدَّثني أَبِي قالَ: حَدَّثنا مُحَمَّدُ بنُ مُصْعَبٍ قالَ: حَدَّثنا الأوزاعيُّ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنِ سَعِيدِ بنِ المَسَيَّبِ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ قالَ: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: «حَقُّ المُسْلِمِ عَلى المُسْلِمِ خَمْسٌ: يُسَلِّمُ عليه إِذا لَقِيه، وَيُسَمِّتُهُ إِذا عَطَسَ، وَيَعُوذُهُ إِذا مَرَضَ، وَيَشْهَدُ<sup>(١)</sup> جِنازَتَهُ إِذا ماتَ، وَيُجيبُهُ إِذا دَعاه» أَخْرَجاهُ في الصَّحيحينَ، وَرواهُ مُسْلِمٌ في أَفرادِهِ فِقالَ فِيهِ: «حَقُّ المُسْلِمِ عَلى المُسْلِمِ سِتٌّ فَزادَ: وَإِذا اسْتَنْصَحَكَ فَانصَحْ لَهُ».

وَمِنَ الحَقوقِ العامَّةِ أَنْ يُحِبَّ لِلْمُسْلِمِينَ كافَّةً ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، وَيَكْرَهُ لَهُمَ ما يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ؛ لِأَنَّ المُسْلِمِينَ كالجَسَدِ الواحدِ، وَفي الصَّحيحينَ مِنْ حَدِيثِ النُّعْمانِ بنِ بَشِيرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: «مِثْلُ المُؤْمِنِينَ في تَوادُّهِمْ وَتَراحُمِهِمْ وَتَعاظِفِهِمْ مِثْلُ الجَسَدِ إِذا اشْتَكَى مِنْهُ عُضوٌ تَداعى لَهُ سائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمى». وَفي الصَّحيحينَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: «والَّذي نَفَسِي بيدهِ، لا يُؤْمِنُ عبدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ». وَفيهِما مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: «المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كالبُئِيانِ يُشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصابعِهِ».

(١) في (ظ): «يُشيع».

ومنها: أن لا يُؤذي أحداً من المسلمين بفعلٍ ولا قول، وفي الصحيحين من حديث أبي موسى قال: قالوا: يا رسول الله أي المسلمين أفضل؟ قال: «مَنْ سَلِمَ المسلمونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ». وفيهما من حديث عبد الله بن عمرو<sup>(١)</sup> عن النبي ﷺ أنه قال: «المسلمُ مَنْ سَلِمَ المسلمونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»<sup>(١)</sup>. وفي أفراد مُسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لقد رأيتُ رجلاً يتقلبُ في الجنةِ في شجرةٍ قطعها عن الطريقِ كانت تُؤذي الناسَ». وفي أفرادهِ من حديث أبي بَرزَةَ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، علِّمني شيئاً أنتفع به. قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين» وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يحلّ لمسلمٍ أن يروّع مسلماً».

ومنها أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه، وفي أفراد البخاري من حديث أنس قال: إن كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنتلق به في حاجتها حيث شاءت.

ومنها أن لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض، ولا يُبلغ بعضهم ما يسمع من بعض، وفي الصحيحين من حديث حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة قنات» وفي لفظ: «نمام». وفي الصحيحين من حديث ابن عباس عنه أنه مرَّ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان، وما يُعذبان في كبير؛ أما أحدهما فكان لا يستبرئ من بوله، وأما الآخر فكان يمشي بين الناس بالنميمة».

ومنها أن لا يزيد في الهجرة لمن يعرفه على ثلاثة أيام، وفي الصحيحين من حديث أبي أيوب وأنس كلاهما عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثٍ، يلتقيان فيصدُّ هذا ويصدُّ هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسَّلام». وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنَّ أبوابَ الجنةِ تُفتحُ يومَ الاثنينِ والخميسِ، فيغفر لكل عبدٍ لا يُشركُ بالله شيئاً، إلا رجل بينه وبين أخيه شحناء فيقال: أنظروهما حتى يضطلحا. مرَّتين». وفي حديث أبي خراش السلمي

عن النبي ﷺ أنه قال: <sup>(١)</sup> «من هجر أخاه سنةً فهو كَسَفْكَ دَمِهِ». وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: <sup>(٢)</sup> «لا يحلُّ لرجلٍ أن يهجر مؤمناً فوق ثلاثة أيام، فإذا مرَّت به ثلاثة أيام فليلقه فليُسلم عليه، فإن ردَّ عليه السلام فقد اشتركا الأجر، وإن لم يردَّ عليه، فقد برئ المُسلم من الهجرة».

واعلم أن هذه الهجرة إنما هي فيما يتعلق بأمر الدنيا مما يوجب عتياً وموجدةً كتقصيرٍ في حقوق العشرة ونحوها، فينبغي أن يقنع في التأديب بهجر ثلاثٍ، ثم يعفو، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً». فأما ما كان في حق الدين فإن هجر أهل الأهواء والبدع والمعاصي يبغي أن يدوم ما لم تظهر منهم التوبة والرجوع إلى الحق، فإن النبي ﷺ قد نهى الناس عن تكليم كعب بن مالك وصاحبه إلى أن نزلت التوبة.

ومنها أن يُحسن إلى كلِّ من قدر أن يُحسن إليه من المسلمين ما استطاع، ففي أفراد البخاري من حديث جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «كلُّ معروفٍ صدقة، ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجهٍ طلق، وأن تُفرغ من دلوك في إنائه» أخبرنا ابنُ الحُصين قال: أخبرنا أبو علي التميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مؤمنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ يَسَرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ». انفرد بإخراجه مسلم. قال أحمد: وحدثنا يزيد قال: أخبرنا سلام بن مسكين عن عقيل بن طلحة قال: حدثنا أبو جري الهُجيمي، قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ فقلت: يا رسولَ الله، إنا قومٌ من أهل البادية فعلمنا شيئاً يَنفَعنا اللهُ به. قال: «لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً، ولو أن تُفرغَ مِنْ دلوك في إناءِ المُستسقي، ولو أن تكلمَ أخاكَ وَوَجَّهَكَ إليه مُنسط، وإن امرؤُ سَبَكَ بما يعلم فيك، فلا تَسبه بما تعلم فيه، فإن أجره لك ووباله على مَنْ قاله».

ومنها: أن لا يدخَلَ على أحدٍ من المسلمين إلا بإذنه، ويستأذن ثلاثاً، فإن لم يؤذن له انصرف، وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ استأذن ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع».

ومنها: أن يُخالق الناس بخُلُقٍ حَسَنٍ، وذلك أن يعامل كلاً على حَسَبِ طريقتِهِ، فإنه متى لَقِيَ الجاهل بالعلم والآلهي بالفِقه، والغَنِيِّ بالبيان أذى وتَأذى.

ومنها: أن يُوقِّرَ المشايخ، وَيَرَحِمَ الصِّبيان، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس منّا من لم يُوقِّرَ كبيرنا، وَيَرَحِمَ الصِّبيان» وقال عليه الصلاة والسلام: «من إجلال الله إكرامُ ذي الشَّيْبَةِ المُسلم». ومن تَمَامِ توقير المشايخ أن لا يتكلم بين أيديهم إلا أن يَأْذَنُوا، وقد روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أكرم شابٌ شيخاً لسنِّه إلا فَيَضَّ الله له من يُكرمه عند سنِّه». وفي هذا الحديث إشارة بطولِ العُمَرِ فليتنبه لها، فلا يُوقِّقُ لتوقير الشيوخ إلا مَنْ قَضَى اللهُ له بطول العُمَرِ. وكان التَّلَطُّفُ بالصِّبيان من عادةِ رسول الله ﷺ، وكان يقول لأخي أنس: «يا أبا عُمير ما فَعَلَ النُّعير». وفي أفراد مسلم من حديث عبد الله بن جَعْفَرٍ قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا قَدِمَ من سَفَرٍ تُلَقِّي بالصِّبيان من أهل بيته، وإنه قَدِمَ مرةً من سفره فَسَبَقَ بي إليه، فحملني بين يديه، ثم جيء بأحدِ ابني فاطمة إما حَسَنٌ وإما حُسَيْنٌ، فأردفَهُ حَلْفَهُ، فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة.

ومنها: أن يكونَ مع الخلق كافَّةً طَلَقَ الوجهِ رقيقاً، وقد ذكرنا في حديث أبي جُرَيٍّ: «ولو أن تُكَلِّمَ أخاك ووجهك إليه مُبَسِّطاً». وذكرنا في حديث عدي بن حاتم عن النبي ﷺ أنه قال: «اتَّقُوا النار ولو بشقِّ تمرَةٍ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة».

وقال عليٌّ رضي الله عنه: حُرِّمَتِ النار على كل هَيِّنٍ لَيِّنٍ سهل قريب.

وقال عروة: مكتوبٌ في الحكمة: لتكن كلمتك طيبةً، وليكن وجهك بسيطاً تكن أحبَّ إلى الناس ممن يُعطيهم العطاء.

وقال عبد الملك بن عُمير: إذا أحبَّ اللهُ عبداً أحسنَ خلقه وخُلُقَه. ووصفَ ابنُ المبارك حُسْنَ الخُلُقِ فقال: بَسَطَ الوَجْهَ، وبَدَّلَ المعروف، وكَفَّ الأذى.

ومنها: أن لا يَعدَّ بوعدٍ إلا وَفَى به، فقد أخبرنا أبو بكر المَزْرَفِي وأبو الحَسَن المَوْحِد وأبو عبد الله البارِع وأبو سَعْد الرُّوزَنِي وأبو منصور القَزَّاز وأبو النُّجْم الشَّيْخِي قالوا: أخبرنا أبو جَعْفَر بن المسلمة قال: أخبرنا أبو الفَضل الزهري قال: حدثنا أبو جعفر الفِرْيَابِي، قال: حدثنا قُتَيْبَة قال: حدثنا إِسْمَاعِيل بن جعفر عن أَبِي سُهَيْل بن مالك عن أبيه عن أَبِي هُرَيْرَة أن رسول الله ﷺ قال: «آيَةُ المنافقِ ثلاث؛ إذا حَدَّثَ كَذَب، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذا أُوْتِمِنَ خَانَ». أخرجاه في الصحيحين.

ومنها: أن يُنصفَ الناسَ من نفسه، ولا يَأْتِي إليهم إلا ما يُحب أن يُوْتَى إليه، قال الحسن البَصْرِي: اصحب الناس بما تُحب أن يُصاحبوك به تكن مسلماً. وقال الحسن: أوحى الله تعالى إلى آدم أربع كلمات، وقال: فيهنَّ جِماعُ الأمرِ لك ولولدك، وواحدة لي، وواحدة لك، وواحدة بيني وبينك، وواحدة بينك وبين الخلق، فأما التي لي؛ تَعْبُدني ولا تُشرك بي شيئاً، وأما التي لك؛ فعملك أَجْزِيك به أفقر ما تكون إليه، وأما التي بيني وبينك؛ فعليك الدُّعاء وعليَّ الإجابة، وأما التي بينك وبين الناس؛ فتصحبهم بالذي تُحب أن يصحبوك به.

وسأل موسى ربه عزَّ وجل: أي عبادك أعدل؟ قال: مَنْ أنصف من نفسه.

ومنها: زيادة التَّوْقِير لَدَوِي الهَيْثَات فقد قال عليه الصلاة والسلام: «إذا أَتَاكُمْ كَرِيْمٌ قومٍ فأكرِموه» وقال: «أفيلوا دَوِي الهَيْثَات عَثْرَاتهم».

ومنها: أن يُصلِحَ ذاتَ البين بين المسلمين، وفي الصحيحين من حديث أم كلثوم بنت عُقْبَة عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس الكَذاب الذي يُصلِح بين الناس، فينمي خيراً، أو يقول خيراً» قالت: ولم أسمعهُ يُرْخِص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاثٍ؛ في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها.

ومنها: أن يَسْتَر عَوْرَات المسلمين، وقد ذكرنا آنفاً عن النبي ﷺ أنه قال: «من سَتَر مسلماً سَتَرهُ اللهُ في الدنيا والآخرة».

واعلم أنه من تأمل سترَ الله عز وجل على العُصاة اقتدى بلطفه، فإنه جعل الشهادة في الزنا أن يشهد أربعة من العُدول أنهم شاهدوا ذلك كالميل في المكحلة، وهذا لا يتفق. ومن هذا أثرُ كرمه في الدنيا يُرجى منه ذلك في الآخرة.

وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال: «بايعوني على أن لا تُشركوا بالله شيئاً، ولا تَسرقوا، ولا تَزنوا، ولا تَقْتلوا أولادكم، ولا تَأْتُوا بُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، ولا تَعصوا في معروفٍ، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً<sup>(١)</sup> فعوقب في الدنيا، فهو كفاراً له، ومن أصاب من ذلك شيئاً<sup>(٢)</sup> فستره الله، فهو إلى الله إن شاء عفى عنه، وإن شاء عاقبه» فبايعناه على ذلك. وقد روى علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أذنبَ في الدنيا ذنباً فستره اللهُ عليه وعفا عنه، فالله أكرم من أن يعود في شيءٍ قد عفا عنه». وقد أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثنا أبي قال: حدثنا أسود بن عامر قال: حدثنا أبو بكر - يعني ابن عيَّاش - عن الأعمش عن سعيد بن عبد الله بن جريج عن أبي بَرزَةَ الأَسْلَمِيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشرَ من آمنَ بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع اللهُ عورته، ومن يتبع اللهُ عورته يُفْضَحْه في بيته».

ومنها: أن يتَّقِي مواضع التُّهْم صيانةً لقلوب الناس عن سوء الظن به، ولألسنتهم عن غيبته، فإنهم إذا عصوا الله بذكره وكان هو السبب في ذلك كان شريكاً، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «مِنَ الكِبَائِرِ شَتْمَ الرَّجُلِ وَالِدِيهِ» قالوا: يا رسولَ الله، وهل يشتم الرجلُ والديه؟ قال: «نعم، يَسُبُّ أبا الرجلِ فَيَسُبُّ أباه، ويسبُّ أُمَّه فَيَسُبُّ أُمَّه». وفيهما من حديث صفية بنت حُيِّ قال: كان رسولُ الله ﷺ مُعْتَكِفًا، فأتيته أزوره ليلاً،

فحدّثته ثم قمّت فانقلبت، فقام معي، فمرّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا رسول الله ﷺ أسرعاً، فقال النبي ﷺ: «على رسلِكُما فإنها صَفِيّة بنت حُيَي» فقالا: سبحان الله يا رسول الله! قال: «إن الشيطانَ يَجري من الإنسان مَجري الدَّم، واني خَشِيتُ أن يَقذفَ في قلوبكما شراً - أو قال: شيئاً». وفي هذا الحديث من الفِقه أنه يُستحب للإنسان أن يتحرّز من كل أمرٍ من المكروه تجري به الظنون ويخطر بالقلوب طلباً لسلامته من الناس وسلامتهم من سوء الظنِّ به، وقد قال عمر رضي الله عنه: مَنْ أَقامَ نفسه مقامَ تُهمَةٍ فلا يَلومَنَّ مَنْ أساءَ به الظنّ.

ومنها: أن يشفع لكلِّ من له حاجةٌ من المسلمين إلى مَنْ له عنده منزلة، ويسعى في قضاء حوائجهم، وفي الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه كان<sup>(١)</sup> إذا أتاه طالبٌ حاجةً أقبلَ على جلسائه فقال: «اشْفَعُوا تُوجِرُوا، وليقض الله على لسان نبيِّه ما أحبّ». وقال ﷺ لبريرةَ في حقِّ زَوْجها: «لو راجعتيه» فقالت: أتأمرني؟ قال: «لا، إنما أنا شفيعٌ».

ومنها: أن يبدأ بالسلام على<sup>(٢)</sup> كل مُسلم قبل أن يكلمه، فقد ذكرنا آنفاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفشوا السلامَ بينكم». وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أيّ الإسلام خير؟ قال: «تُطعمُ الطعامَ، وتقرأُ السلامَ على مَنْ عرفتَ ومَنْ لم تُعرفِ». وفيهما من حديث ثابت<sup>(٣)</sup> قال: مرَّ أنسٌ على صبيانٍ فسلمَ عليهم، وقال: كانَ النبي ﷺ يفعلُهُ. وفيهما من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لِيسلمِ الصغِيرُ على الكبيرِ، والمارُّ على القاعدِ، والقليلُ على الكثيرِ».

ومن السنّة المصافحةُ، ففي أفراد البخاري من حديث قتادة قال: قلتُ لأنس: أكانت المصافحةُ في أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. وفي حديثٍ آخرَ عن

(١) تحرفت في الأصل إلى: «قال».

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) هو ثابت البُناني.

أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقْدُمُ عَلَيْكُمْ غَدًا قَوْمٌ هُمْ أَرْقُ قُلُوبًا لِلْإِسْلَامِ مِنْكُمْ» فقدم الأشعريون، فيهم أبو موسى، فلما دَنَوْا مِنَ الْمَدِينَةِ جَعَلُوا يَرْتَجِزُونَ وَيَقُولُونَ:

غَدًا نَلْقَى الْأَجِبَّةَ مُحَمَّدًا وَحِزْبَهُ

فلما أن قدموا تصافحوا، فكانوا أول من أحدث المصافحة.

أخبرنا أبو القاسم بن عبد الواحد، قال: أخبرنا أبو علي ابن المذهب، قال: أخبرنا أبو بكر ابن مالك، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا محمد بن بكر، قال: حدثنا ميمون المرثي، قال: حدثنا ميمون بن سياه، عن أنس بن مالك، عن نبي الله ﷺ قال: «مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ التَّقِيَا، فَأَخَذَ أَحَدُهُمَا بِيَدِ صَاحِبِهِ إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَحْضُرَ دَعَاءَهُمَا وَلَا يَفْرَقَ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا حَتَّى يَغْفِرَ لَهُمَا».

أخبرنا محمد بن عمر الأرموي، قال: أخبرنا أبو الحسين المهدي قال: أخبرنا محمد بن الحسين الخفاف، قال: أخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد الله المؤدب، قال: حدثنا أبو بكر محمد بن عبد الله الأشناني، قال: حدثنا يحيى بن معين، قال: حدثنا عبد الله بن إدريس، قال: أخبرنا شعبة، عن عمرو بن مرة، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن البراء رضي الله عنه قال: صافحني النبي ﷺ فغمر على كفي، فقال لي: «يَا بَرَاءُ، أَتَدْرِي لِمَ غَمَزْتُ عَلَى كَفِّكَ؟» قلت: لا يا رسول الله. قال: «إِذَا صَافَحَ الْمُؤْمِنُ الْمُؤْمِنَ نَزَلَتْ عَلَيْهِمَا مِئَةٌ رَحْمَةٍ، تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ لِأَبْسَئِهِمَا وَأَحْسَنُهُمَا خُلُقًا».

ولا بأس بتقبيل يَدِ الْمُعْظَمِ فِي الدِّينِ تَبْرُكًا بِهِ، فَقَدْ رَوَى ابْنُ عُمَرَ قَالَ: قَبَّلْنَا يَدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَقَدْ قَبَّلَ عُمَرُ رَأْسَ أَبِي بَكْرٍ، وَلَقِيَ أَبُو عُبَيْدَةَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَقَبَّلَ يَدَهُ.

ولا بأس بالمُعَانَقَةِ، فَقَدْ قَالَتْ عَائِشَةُ: لَمَّا قَدِمَ جَعْفَرُ، تَلَقَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاعْتَنَقَهُ. وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَدِمُوا مِنْ سَفَرٍ تَعَانَقُوا.

وأما الأُنْحِنَاءُ فَمِنْهُيَّ عَنْهُ، رَوَى أَنَسٌ قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُنْحِنِي بَعْضُنَا لِبَعْضٍ؟ فَقَالَ: «لَا».

وأما الأخذُ بالركاب لتوقير العلماء، فقد فعل ذلك ابنُ عباسٍ يزيد بن ثابتٍ .

وأما القيامُ على سبيل الإكرام لأهل الدين فحسنٌ .

ومنها: أن يصونَ عرضَ أخيه المسلم ونفسَه وماله عن ظلم الغير، ويناضل دونه وينصره .

وفي أفراد البخاري من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «انصُر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قيل: يا رسول الله هذا ينصره مظلوماً، فكيف ينصره ظالماً؟ قال: «يمنعه من الظلم». وفي حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من امرئ مسلم يردُّ عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله عزَّ وجل أن يردَّ عنه نار جهنم يوم القيامة». وفي حديث جابر عن النبي ﷺ: «ما من امرئ مسلم يخذل مسلماً في موطنٍ ينتقص فيه من عرضه ويُنْتَهك فيه من حُرْمته إلا خذله الله في موطنٍ يحب فيه نصرته، وما من امرئ مسلم ينصر مسلماً في موطنٍ ينتقص فيه من عرضه ويُنْتَهك فيه من حُرْمته إلا نصره الله في موطنٍ يحب فيه نصرته». وفي حديث أبي أمامة بن سهل عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: «من أذلَّ عنده مؤمنٌ وهو يقدر على أن ينصره، فلم ينصره أذله الله عز وجل على رؤوس الخلائق» .

ومنها: تسميتُ العاطس، وفي حديث علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل من حوله: يرحمك الله، وليقل هو: يهديكم الله ويصلح بالكم». أنبأنا ابنُ الحُصَيْن قال: أخبرنا ابنُ المُذْهَب قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبدُ الله بن أحمد، قال: حدثني أبي قال: حدثنا هاشم بن القاسم قال: حدثنا شُعْبَة عن مُحمد بن أبي لَيْلى عن أخيه عن أبيه عن أبي أيوب عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا عطس أحدكم، فليقل: الحمد لله على كل حال، وليقل الذي يُسمُّه: يرحمكم اللهُ. وليقل الذي يردُّ عليه: يهديكم اللهُ ويصلح بالكم». وفي أفراد البخاري من حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله يُحبُّ العُطاسَ ويكره الثَّأبَ، فإذا عطسَ أحدكم وحمدَ الله كان حقاً على كل مسلم سَمِعَهُ أن يقول له: يرحمك اللهُ». وفي الصحيحين من حديث أنس قال: عطسَ رجُلان عند

النبي ﷺ فَشَمَّتْ أَحَدَهُمَا، وَلَمْ يُشَمَّتِ الْآخَرَ، فَقَالَ الَّذِي لَمْ يُشَمِّتْهُ: عَطَسَ فَلَانَ فَشَمَّتَهُ وَعَطَسْتُ فَلَمْ تُشَمِّتْنِي. فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا حَمِدَ اللَّهِ وَإِنَّكَ لَمْ تَحْمَدِ اللَّهَ».

ومنها: أنه إذا بُلِيَ بذي شَرٍّ فِينبَغِي (١) أَنْ يُجَامِلَهُ وَيَتَّقِيهِ، وَفِي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ قَالَتْ: اسْتَأْذَنَ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: «بَسَّسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ، وَبَسَّسَ ابْنَ الْعَشِيرَةِ» ثُمَّ أذَنَ لَهُ، فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي وَجْهِهِ وَأَنْبَسَطَ، فَلَمَّا خَرَجَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْتَ لَهُ مَا قُلْتَ ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ الْقَوْلَ؟ قَالَ: «يَا عَائِشَةَ، مَتَى عَهْدْتَنِي فَحَاشَا؟ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةٌ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءً فُحِشَهُ». وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: إِنَّا لَنُكْشِرُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ وَنُضْحِكُ إِلَيْهِمْ وَإِنْ قَلْبُونَا لَتَلْعَنُهُمْ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ: لَيْسَ بِحَكِيمٍ مَنْ لَمْ يُعَاشِرْ بِالْمَعْرُوفِ مَنْ لَا يَجِدُ مِنْ مُعَاشِرَتِهِ بُدْأً حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُ فَرَجًا.

ومنها: أَنْ يَجْتَنِبَ مُخَالَطَةَ الْأَغْنِيَاءِ، وَيَخْتَلِطَ بِالْمَسَاكِينِ، وَيُحْسِنَ إِلَى الْآيَتَامِ، فَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَسْكِينًا، وَأَمِتْنِي مَسْكِينًا، وَاحْشُرْنِي فِي زُمَرَةِ الْمَسَاكِينِ». وَأَمَّا الْيَتِيمُ، فَفِي أَفْرَادِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ» وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى. وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «خَيْرُ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ، وَشَرُّ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ».

ومنها: النَّصِيحَةُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ، وَفِي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ. وَفِي أَفْرَادِ مُسْلِمٍ (٢) مِنْ حَدِيثِ تَمِيمِ الدَّارِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ». قَالُوا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِنَبِيِّهِ، وَلِأُمَّةِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَامَّتِهِمْ».

ومنها: عِيَادَةُ مَرَضَاهُمْ، وَفِي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِعِيَادَةِ الْمَرِيضِ. وَفِي أَفْرَادِ مُسْلِمٍ (٢) مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ

(١) سقطت من الأصل.

(٢-٢) سقط من (ظ).

أنه قال: «عائِدُ المَرِيضِ فِي مَحْرَفَةِ<sup>(١)</sup> الْجَنَّةِ». وَفِي لَفْظٍ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَزَلْ فِي حُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا حُرْفَةُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «جَنَاهَا». وَفِي حَدِيثٍ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا بُكْرَةً شَيِّعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ كُلُّهُمْ يَسْتَغْفِرُ لَهُ حَتَّى يُمْسِيَ، وَكَانَ لَهُ حَرِيفٌ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنْ عَادَهُ مَسَاءً شَيِّعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ كُلُّهُمْ يَسْتَغْفِرُ لَهُ حَتَّى يُصْبِحَ، وَكَانَ لَهُ حَرِيفٌ فِي الْجَنَّةِ».

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا عَادَ الْمُسْلِمُ أَخَاهُ أَوْ زَارَهُ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: طِبْتَ وَطَابَ مَمْسَاكَ، وَتَبَوَّأْتَ فِي الْجَنَّةِ مَنزِلًا».

وَمِنْ آدَابِ<sup>(٢)</sup> الْعَائِدِ أَنْ يَضَعَ يَدَهُ عَلَى الْمَرِيضِ وَيَسْأَلُهُ كَيْفَ هُوَ، وَيُخَفِّفُ الْجُلُوسَ، وَيُظْهِرُ الرَّقَّةَ، وَيَدْعُو بِالْعَافِيَةِ، وَيَغْضُ البَصَرَ عَنِ عَوْرَاتِ الْمَكَانِ، وَفِي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَتَى مَرِيضًا أَوْ أَتَى بِهِ قَالَ: «أَذْهَبِ الْبَاسَ، رَبِّ النَّاسِ، أَشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءَ لَا يُغَادِرُ سَقَمًا» قَالَتْ: وَكَانَ يَقُولُ بِإِصْبَعِهِ هَكَذَا - تَعْنِي أَنَّهُ يَضَعُ السَّبَابَةَ عَلَى الْأَرْضِ - ثُمَّ يَرْفَعُهَا وَيَقُولُ: «بِسْمِ اللَّهِ، تُرْبَةُ أَرْضِنَا، بَرِيقَةُ بَعْضِنَا، يُشْفَى بِهِ سَقِيمُنَا بِإِذْنِ رَبِّنَا».

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَعُودُ مَرِيضًا لَمْ يَحْضُرْ أَجَلُهُ فَيَقُولُ سَبْعَ مَرَاتٍ: أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ، رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيكَ إِلَّا عُوْفِي».

وَيُسْتَحَبُّ لِلْمَرِيضِ أَنْ يَفْعَلَ مَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي أَفْرَادِهِ مِنْ حَدِيثِ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ أَنَّهُ شَكَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مِنْذُ أُسْلِمَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي يَأَلُمُ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ، ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَاتٍ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ».

(١) المخرفة: موضع حَرفِ الثمار وقطعها وجنيها، ومخارف الجنة: مجاني ثمارها.

(٢) في (ظ): «أدب».

وجُملةُ أدبِ المريض: حُسْنُ الصَّبْرِ، وَقِلَّةُ الشُّكْوَى والتَّضَجْر، والْفَرَغُ إلى الدعاء، والتوكّل على الله سبحانه.

ومنها: أن يُشَيِّعَ جنائزَهُمْ، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ شَهِدَ جَنَازَةً حَتَّى يُصَلِّيَ عَلَيْهَا فَلَهُ قِيْرَاطٌ، وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيْرَاطَانٌ» قيل: ما القيراطان يا رسول الله؟ قال: «مثل الجبلين العظيمين».

واعلم أن المقصودَ من التشييعِ قضاءَ حقِ المسلمين والاعتبارُ، قال الأعمش: كُنَّا نَشْهَدُ الجَنَائِزَ فَلَا نَدْرِي مَنْ نُعَزِّي لِحُزْنِ القَوْمِ كُلِّهِمْ. وفي الصحيحين من حديث أنسٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «يَتَبَعُ المَيِّتَ ثَلَاثَةً، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ؛ يَتَبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ».

ومنها: أن يزورَ قبورهم، والمقصود من ذلك الدعاء والاعتبار وترقيق القلب،<sup>(١)</sup> وفي أفراد مسلم من حديث بُرَيْدَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «نَهَيْتُكُمْ عَنِ زِيَارَةِ القُبُورِ فَرُزِرُوها» قال: وكان يُعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، أنتم لنا فرط، ونحن لكم تبع، فنسأل الله لنا ولكم العافية. وسيأتي في ذكر الموت ما يتعلق بالقبور<sup>(٢)</sup>.

وأدبُ تشييعِ الجنائزِ لزومُ الخُشُوعِ، وتركُ الحديثِ، وملاحظةُ الميِّتِ، والتفكيرُ في الموت والاستعدادُ له، والمشْيُ أمامَ الجنَازةِ.

فهذه جملةُ تنبه على آدابِ المعاشرةِ مع عُمومِ الخلقِ، والجملةُ الجامعةُ أن لا تَسْتَصْغِرَ مِنْهُمْ أَحَدًا فَلَعَلَّهُ خَيْرٌ مِنْكَ، ولا تُعَظِّمَ صَاحِبَ الدُّنْيَا مِنْهُمْ لِدُنْيَاهِ، فالدنيا كلها صغيرة، ولا تَبْذُلَنَّ دِينَكَ لِتَنَالَ بِهِ الدُّنْيَا، ولا تُعَادِيَنَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَرَى مَعْصِيَةً فُتُعَادِي أفعالهم، وانظر إليهم بعين<sup>(٢)</sup> الرَّحْمَةِ لِتَعَرِّضَهُمْ لِمَقْتِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، ولا تسكن إلى مدحهم لك، ولا تشك إليهم أحوالك فيكلك الله إليهم، ولا تطمع

(١-١) سقط من (ظ).

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «بغير».

أن يكونوا لك في الغيب كما هم في العلانية، ولا تطمع بما في أيديهم فتستعجل الذلَّ، ولا تغلُّ<sup>(١)</sup> عليهم تكبراً لاستغنائك عنهم فربما عوقبت بالاحتياج إليهم، وإذا سألت أحداً منهم حاجةً ففضاها فهو أخٌ مُستفاد، وإن لم يقضها، فلا تُعاتبه فيصير عدواً تطولُ عليك مُقاساته، ولا تشغَل بوعظٍ من لا ترى فيه مخايل القبول فيعاديك، ولا تُكافئهم على سوءٍ فيزيد الضرر ويضيع العمر، وكن فيهم سميعاً لحقهم نطوقاً به، أصمَّ عن باطلهم صموتاً عنه، واحذر الأكثرين منهم فصحبتهم خسران، ويندر من يصلح، ظاهرهم ثيابٌ، وباطنهم ذئابٌ، يقطعون بالظنون، ويتغامزون وراءك بالعيون، ويتربصون لصديقهم من حسدهم ريب المنون، يُحصون عليك العثرات في صحبتهم ليجبهوك بها في غضبهم فلا تعقد خنصرَكَ<sup>(٢)</sup> إلا على من جرَّبته في فقرٍ وغنى، وعزَلٍ وولايَةٍ، وسفرٍ وحضرٍ، ومعاملةٍ وشدةٍ، فإذا رضىته في هذه الأحوال فاتخذهُ أباً إن كان كبيراً، وابناً إن كان صغيراً، وأخاً إن كان مثلاً.

وأما حقوق الجار: فاعلم أن الجوار يقتضي حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام، فيستحق الجارُ المسلم ما يستحقه كل مسلم وزيادة، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يؤذ جاره». وفيهما من حديث ابن عمر وعائشة كلاهما عن النبي ﷺ أنه قال: «ما زال جبريل يُوصني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه». وفي أفراد البخاري من حديث عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، إن لي جارين، فإلى أيهما أهدي؟ قال: «إلى أقربهما منك باباً» وفي أفراد من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «لا والله لا يؤمن، لا والله لا يؤمن، لا والله لا يؤمن» قالوا: ومن ذاك يا رسول الله؟ قال: «جارٌ لا يأمنُ جاره بوائقه» قيل: ما بوائقه؟ قال: «شره». وفي أفراد مسلم من حديث أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال<sup>(٣)</sup> له: «يا أبا ذر، إذا طبخت قِدراً فأكثر

(١) تحرفت في النسخ إلى: «تصل»، والمثبت من الإحياء.

(٢) أي لا تعدَّ صديقاً إلا من اتصف بالآتي، وكانوا إذا بدأوا العدَّ أشاروا بالخنصر أولاً.

(٣) سقطت من الأصل.

الرَمَقَةَ، وتعاهد جيرانك، أو اقسام بين جيرانك» وفي حديث أبي هريرة قال: قالوا للنبي ﷺ: إن فلانة تصوم الدهر، وتقوم الليل وتؤذي جيرانها بلسانها. قال: «لا خير فيها، هي في النار». وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع».

وقال الحسن البصري: يا ابن آدم، أحسن جوار من جاورك تكن مؤمناً. وسئل عن الجار فقال: أربعون داراً أمامه، وأربعون خلفه، وأربعون عن يمينه وأربعون عن يساره.

وجاء في الحديث: «الجيران ثلاثة: جارٌ له حقٌ واحدٌ، وجارٌ له حقان، وجارٌ له ثلاثة حقوق؛ فالجار الذي له ثلاثة حقوق: الجار المسلم ذو الرحم، فله حق الجوار، وحق الإسلام، وحق الرحم. وأما الذي له حقان: فالجار المسلم، فله حق الجوار وحق الإسلام، وأما الذي له حق واحد: فالجار المشرك».

واعلم أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط، بل احتمال الأذى، ثم الرفق وإسداء الخير.

وجملة حق الجار أن يبدأ بالسَّلام، ولا يُطيلَ معه الكلام، ولا يُكثر عن حاله السؤال، ويعوده في المرضى ويعزيه في المصيبة، ويهنئه في الفرح، ويظهر له المشاركة في السرور معه، ويصفح عن زلاته ولا يتطلع إلى داره، ولا يضايقه في وضع الخشب على جداره، ولا في صب الماء في ميزابه ولا في مطرح التراب من فئائه، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره، ويستر ما ينكشف له من عوراتها، ولا يتسمع عليه كلامه، ويغض طرفه عن حرمة<sup>(١)</sup>، ويُنْعِشُه من صرَعته إذا نابته نائبة، ويلاحظ حوائج أهله إذا غاب.

حقوق الأقارب والرحم: روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله عز وجل خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم

(١) في (ظ): «حرمة».

قَامَتِ الرَّحْمُ فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ مِنَ الْقَطِيعَةِ. قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضِينَ أَنْ أَصِلَ مِنْ وَصْلِكَ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ؟ قَالَتْ: بَلَى. قَالَ: فَذَاكَ لَكَ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾» [محمد: ٢٢-٢٣]. وفيهما من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «الرَّحْمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ». وفيهما من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَوْسَعَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ». وفي أفراد البخاري من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا». وفي أفراد مُسْلِمٍ من حديث أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لي قرابةً أصلهم ويقطعونني، وأحسبني إليهم ويسؤونني، وأحلمُ عنهم ويجهلون عليّ. قال: «إِنَّ كُنْتَ كَمَا تَقُولُ فَكَأَنَّمَا تُسْفِهُمُ الْمَلَّ، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ». والمعنى: أنك منصورٌ عليهم قد انقطع احتجاجهم عليك بحق القرابة، كما ينقطع كلامٌ من سَفِّ المَلَّةِ، وهي الرَّمَادُ الْحَارُّ، ومنه قول العرب: بِفَيْكَ الْأَثْلُبُ. أي: الْحَجَرُ الَّذِي يُسَكَّتُ النَّاطِقُ.

وفي الصحيحين من حديث جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ» قَالَ سُفْيَانٌ: يَعْنِي قَاطِعَ رَحِمٍ. وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنْ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ تُعْرَضُ عَلَى اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ كُلَّ خَمِيسٍ فَلَا يَقْبَلُ عَمَلُ قَاطِعِ رَحِمٍ» وروى عبد الله ابن أبي أوفى عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الرَّحْمَةَ لَا تَنْزِلُ عَلَى قَوْمٍ فِيهِمْ قَاطِعِ رَحِمٍ».

أخبرنا الكروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر الغورجي قالا: أخبرنا الجراحي قال: حدثنا المحبوبي قال: حدثني أبو عيسى الترمذي قال: حدثني علي بن حجر قال: أخبرنا إسماعيل بن إبراهيم عن عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي بكر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجَّلَ اللَّهُ لِمُصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدْخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ» قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

وقد ذكرنا في كتاب الصّدقة أن النبي ﷺ قال: «أفضل الصّدقة على ذي الرّحم الكاشح<sup>(١)</sup>». وقال لأبي طلحة وقد تصدّق بحائطه: «أرى أن تجعله في قرابتك». ورؤي عن عمر بن الخطاب أنه كتّب إلى عمّاله: «مرو الأقارب أن يتزاوروا لا يتجاوروا. وإنما قال ذلك؛ لأن التجاور يوجب التّزاحم على الحقوق، وربما يورث ذلك الوحشة والقطيعة.

**حقوق الوالدين:** أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداوودي قال: أخبرنا ابن أعين قال: حدثنا الفيربزي قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا آدم قال: حدثنا شعبة قال: حدثنا حبيب بن أبي ثابت عن أبي العباس المكي عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجلٌ يستأذن النبيّ ﷺ في الجهاد فقال له رسولُ الله ﷺ: «أحيي والداك؟» قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهد». أخرجاه في الصحيحين، وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يجزي ولدٌ والدَه إلا أن يجده مملوكاً فيشتره فيعتقه». وفي أفراد من حديث ابن عمر أنه كان إذا خرج إلى مكة كان له حِمَارٌ يتروّح عليه إذا ملّ ركوب الراحلة، وعمامة يشدُّ بها رأسه، فبينما هو يوماً على ذلك الحمار إذ مرّ به أعرابي، فقال: ألسْتَ فلان بن فلان؟ قال: بلى، فأعطاه الحمار وقال: اركب هذا. والعمامة وقال: اشدُّدْ بها رأسك. فقال له أصحابه: غفر الله لك أعطيت هذا الأعرابي حماراً كنت تُروّح عليه، وعمامة كنت تشدُّ بها رأسك؟ فقال: إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ من أبرِّ البرِّ صلَّةَ الرجلِ أهلَ وُدِّ أبيه بعد أن يُولِّي»، وإنَّ أباهُ كان صديقاً لعمر.

**تقديم الأم في البر:** أخبرنا ابن الحُصين قال: أخبرنا ابنُ المُذهب قال: حدثنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا هاشم قال: حدثنا محمد بن طلحة عن عبد الله بن شُبْرمة عن أبي زُرعة عن أبي هريرة قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، أيُّ الناس أحقُّ مني بحُسنِ الصُّحبة؟ قال: «أملك»

(١) الكاشح: هو الذي يُضمر العداوة ويطوي عليها كَشَحَه، والكَشْحُ: ما بين الخاصرة والضلوع.

قال: ثم مَنْ؟ قال: «ثم أُمك» قال: ثم مَنْ؟ قال: «ثم أُمك» قال: ثم مَنْ؟ قال: «ثم أبوك» أخرجاه في الصحيحين.

قال الإمام أحمد: وحدثنا حَلْفُ بن الوليد قال: حدثنا ابنُ عِيَّاش عن بَحِير بن سَعْد عن خالد بن معدان عن المِقْدَام بن مَعْدِي كَرِب عن النبي ﷺ قال: «إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بأبائكم، إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب».

قال الإمام أحمد: وحدثنا عبد الرزاق قال: أخبرنا مَعْمَر عن الزُّهري عن عَمْرَةَ عن عائشة قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «نِمْتُ فَرَأَيْتُنِي فِي الْجَنَّةِ، فَسَمِعْتُ صَوْتَ قَارِيٍّ يَقْرَأُ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا حَارِثَةُ بِنِ النَّعْمَانِ». قال رسولُ الله: «كَذَلِكَ الْبِرِّ، كَذَلِكَ الْبِرِّ» وَكَانَ أَبْرَ النَّاسِ بِأُمَّه.

وقالت عائشة: رَجُلَانِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَا أَبْرَ مِنْ كَانِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ بِأُمَّهَمَا: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَحَارِثَةُ بْنُ النَّعْمَانِ، فَأَمَّا عُثْمَانُ فَإِنَّهُ قَالَ: مَا قَدَرْتُ أَنْ أَتَأَمَّلَ أُمِّي مِنْذُ أُسَلِمْتُ، وَأَمَّا حَارِثَةُ فَإِنَّهُ كَانَ يَقْلِي رَأْسَ أُمَّه وَيُطْعِمُهَا بِيَدِهِ، وَلَمْ يَسْتَفْهِمُهَا كَلَامًا قَطُّ تَأْمُرُ بِهِ حَتَّى يَسْأَلَ مَنْ عِنْدَهُ بَعْدَ أَنْ تَخْرُجَ: مَاذَا قَالَتْ أُمِّي؟

وكان أبو هريرة إذا أراد أن يخرج من بيته وقف على باب أمه فقال: السلام عليك يا أماه ورحمة الله وبركاته. فتقول: وعليك السلام يا بُنَيَّ ورحمة الله وبركاته. فيقول: رحمك الله كما رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا. فتقول: رحمك الله كما بَرَرْتَنِي كَبِيرًا. وإذا أراد أن يدخل صنع مثله.

أخبرنا عمر بن ظَفَر قال: أخبرنا أبو غالب ابن الباقلاوي قال: أخبرنا القاضي أبو العلاء الواسطي قال: أخبرنا أبو نصر الباركي قال: أخبرنا أبو الخير الكرمانى، قال: حدثنا أبو عبد الله البخاري قال: <sup>(١)</sup> حدثنا سعيد بن أبي مريم قال: أخبرنا محمد بن جعفر بن أبي كثير قال <sup>(٢)</sup>: أخبرني زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن

ابن عباس أنه أتاه رجلٌ فقال: إني خطبتُ امرأةً فأبت أن تنكحني، وخطبها غيري فأحبت أن تنكحه، فغرتُ عليها فقتلتُها، فهل لي من توبة؟ قال: أمك حية؟ قال: لا. قال: تُب إلى الله وتقرَّب إليه ما استطعت. فسألتُ ابنَ عباسٍ لم سألتُه عن حياة أمه؟ فقال: إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله عز وجل من برِّ الوالدين.

وقال محمد بن المنكدر: بثُّ أغمزُ<sup>(١)</sup> رجلَ أمي وباتَ عمرُ<sup>(٢)</sup> يصلي وما يسرُّني أن ليلتي بليته. وكان مُحمد بن المنكدر يضعُ خده بالأرض ثم يقول لأمه: ضعي قدمك عليه.

وكان ظبيان بن علي من أبرَّ الناس بأمه فباتت أمه ليلةً وفي صدرها عليه شيءٌ فقام على رجله قائماً وكره أن يوقظها، وكره أن يقعد حتى إذا ضعف جاء غلامان من غلمانه فما زال مُعتمداً عليهما حتى استيقظت من قبَل نفسها.

وقال سُفيان بن عُيينة: قدِمَ رجلٌ من سفرٍ فصادف أمه قائمةً تُصلي فكره أن يقعد وهي قائمة، فعلمت ما أراد فطولت ليوجرَ.

وكان محمد بن سيرين إذا دخل على أمه لم يكلمها بلسانه كُلِّه تَحشعاً. وروينا عن ابن عَوْنٍ أن أمه نادته يوماً فأجابها، فعلا صوته على صوتها، فأعتق رَقبتين.

وقال بشرُّ الحافي: الولدُ بقرب أمه بحيثُ تسمعُ نفسَهُ أفضلُ من الذي يضرب بسيفه في سبيل الله عز وجل، والنظر إليها أفضل من كل شيء.

وفي الصحيحين من حديث أبي بكرَةَ وعبد الله بن عمرو وأنس عن النبي ﷺ أنه عدَّ في الكبائر عقوقَ الوالدين، أخبرنا هبةُ الله بن مُحمد الحريري قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن علي الحياط قال أخبرنا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن يوسف العلاف، قال: حدثنا عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم الخراساني قال: حدثنا

(١) أي: يذلها ويكبسها لتستريح.

(٢) يعني أخاه عمر بن المنكدر، والخبر في سير أعلام النبلاء ٥ / ٣٥٩.

أحمد بن عبيد بن ناصح قال: حدثنا شَبَابَةُ بن سَوَّار قال: حدثنا المغيرة بن مُسلم عن عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَمَسَى مَرَضِيًّا لوالديه وَأَصْبَحَ أَصْبَحَ وله بابانِ مَفْتُوحانِ مِنَ الجَنَّةِ، وَمَنْ أَصْبَحَ وَأَمَسَى مُسْخَطًا لوالديه أَصْبَحَ وَأَمَسَى وله بابانِ مَفْتُوحانِ إِلَى النارِ، وَإِنْ واحداً فواحداً» فقال رجل: يا رسول الله، وإن ظلمناه؟ فقال: «وإن ظلمناه، وإن ظلمناه»

(١) وقال ابن عمر: بُكَّاءُ الوالِدَيْنِ مِنَ العُقُوقِ.

قال ابن مُحَيْرِيز: من مَشَى بين يدي أبيه فقد عَقَّه، إلا أن يَمْشِيَ فَيَمِيطُ الأَدَى عن طريقه، ومن دَعَا أباه باسمه أو بكنيته فقد عَقَّه، إلا أن يقول: يا أبة.

ويَنْبَغِي للولد أن يَتَّقِيَ المُسَابَّةَ لئلا يكون سَبباً في سَبِّ والديه، فإنه قد رُوِيَ في الصَّحِيحِينَ من حديثِ عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ والديه» قيل: وكيف يَلْعَنُ الرَّجُلُ والديه؟ قال: «يَسُبُّ أبا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أباه، وَيَسُبُّ أُمَّه فَيَسُبُّ أُمَّه».

حقوق الولد: لما كانت الطَّبَاعُ تَمِيلُ عن الوالدين إهمالاً احتيج إلى زيادة وصية بهما ولما كانت تميل إلى الولد لم يُحْتَجِ إلى تأكيد الوصية به، إلا أنه قد يغلب هَوَى الوالد للولد فيتركُ تَعْلِيمَهُ وتَأْدِيبَهُ، وقد قال تعالى: ﴿فَوَأْنُفُسِكُمْ وَآهْلِيكُمُ نَارًا﴾ [التحریم: ٦]، قال المفسرون: معناه عَلِّمُوهُمْ وَأَدِّبُوهُمْ.

ويَنْبَغِي للوالِدِ أنْ يُحَسِّنَ اسمَ ولده وأدبه، ويعقُّ<sup>(٢)</sup> عنه إذا وُلِدَ، فإذا بلغ سَبْعَ سنين أمره بالصلاة، وجنَّه فُرْئَاءَهُ، فإذا بَلَغَ زَوْجَهُ.

حقوق المَمْلُوكِ: قد سبق بيانُ حقوقِ ملكِ النكاح، وأما ملك اليمين، فقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال عند موته: «الصلاة، وما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ». وفي الصحيحين من حديث المَعْرُورِ بن سُوَيْدِ قال: لقيتُ أبا ذَرٍّ بالرَبْدَةِ وعليه حُلَّةٌ،

(١-١) سقط من (ظ).

(٢) أي يذبح عنه عقيقة، وهي عن الغلام شاتين وعن الأنثى شاة.

وعلى غلامه حُلَّةً، فسألته عن ذلك، فقال: قال لي النبي ﷺ: «إخوانكم حَوْلَكُمْ جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم». وفيهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من قذف مملوكه وهو بريء مما قال جلد يوم القيامة، إلا أن يكون كما قال».

وفي أفراد البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه، فإن لم يجلسه معه فليناولهُ لُقْمَةً أو لُقْمَتَيْنِ، أو أكلة أو أكلتين، فإنه وليّ علاجه».

وأخرج مُسلمٌ في أفرادهِ من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق».

وفي أفرادهِ من حديث أبي مسعودٍ قال: بيّنا أنا أضربُ مملوكاً لي إذا رجل يُنادي من خلفي: اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود، فالتفتُ فإذا رسول الله ﷺ فقال: «والله الله أقدرُ عليك منك على هذا» قال: فحلفتُ أن لا أضربَ مملوكاً أبداً. وفي لفظٍ: فقلتُ: يا رسول الله، هو حُرٌّ لوجه الله. فقال: «أما لو لم تفعل لَلْفَحْتِكَ النَّارَ».

وفي أفرادهِ من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ ضَرَبَ غلاماً له حدّاً لم يأتِه، أو لطمه، فإن كفارته أن يُعتقه».

ودخلَ رجلٌ على سلمان وهو يعجن، فقال: أتعبنا<sup>(١)</sup> الخادم في شغل فكرهنا أن نجمع عليه عمَلين.

وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلّمتَ الحِلْمَ؟ فقال: من قيس بن عاصم. قيل: فما بلغ من حِلْمِهِ؟ قال: بينما هو جالسٌ في بيته أتته جاريةٌ له بسفودٍ<sup>(٢)</sup> عليه شِواءٌ،

(١) في الأصل: «بعثنا».

(٢) السفود: عود من حديد يُنظَم فيه اللَّحْمُ لِيُشَوَّى.

فَسَقَطَ السَّفُودُ مِنْ يَدِهَا عَلَى ابْنِ لَه فَمَاتَ، فَدهَشَتِ الجَارِيَةُ، فَقَالَ: أَنْتِ حُرَّةٌ لَا بِأَسَرَ عَلَيْكَ.

وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَوْنٍ إِذَا عَصَاهُ غُلَامَهُ قَالَ: مَا أَشْبَهَكَ بِمَوْلَاكَ، مَوْلَاكَ يَعْصِي مَوْلَاهُ وَأَنْتِ تَعْصِي مَوْلَاكَ. وَأَغْضَبَهُ يَوْمًا فَقَالَ: إِنَّمَا تُرِيدُ أَنْ أَضْرِبَكَ، اذْهَبْ فَأَنْتِ حُرٌّ.

فَجُمَلَةُ حَقِّ المَمْلُوكِ أَنْ يُطْعَمَهُ، وَيَكْسُوهُ، وَلَا يُكَلِّفُهُ مَا لَا يُطِيقُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الأَزْدِرَاءِ، وَأَنْ يَعْفُوَ عَنْ زَلَّتِهِ، وَلِيَتَذَكَّرَ عِنْدَ زَلَّلِهِ زَلَّلَ نَفْسِهِ، فَيَعْفُوَ عَنْهُ رَجَاءً عَفْوِ اللَّهِ عَنْهُ.

### آخر كتاب آداب الصُّحبة



## كتاب العزلة

الحمد لله الذي آنس العارف له بخلوته، وشغله بلذة مناجاته عن خليقته، فاعتزل عن زُخرف الهوى وزهرته، ففتح له في الوحدة بستان فكرته، فهو يَميسُ بحضرته في خُضرته<sup>(١)</sup> فيرى الفرق بين الفردوس والمزبلة ببصر بصيرته.

أحمده على سُبوغ نعمته وأفضلها بلوغ معرفته، وأصلي على رسوله محمدٍ أخصَّ خاصته، وعلى أصحابه وأتباعه على ملته، وأسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فإنَّ الناس اختلفوا في العزلة والمخالطة أيتهما أفضل مع أن كل واحدةٍ منهما لا تنفك عن فوائد وعوائل، فأكثر الزُّهاد اختاروا العزلة، وكشفُ الغطاء عن الحقِّ في ذلك مُهمٌّ ويحصلُ ذلك برسم باين:

الباب الأول: في نقل المذاهب والحجج فيها.

الباب الثاني: في كشف الغطاء عن الحق بحصر الفوائد والعوائل.

(١) في الأصل: «لخضرته».

## الباب الأول

### في نقل المذاهب والحجج فيها

أما المذاهب: فقد ذهبَ إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة سفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، وداود الطائي، والفُضَيْل، وسليمان الخواص، ويوسف بن أسباط، وحذيفة المرعشي، وبشر الحافي في آخرين.

واستحبَّ قومُ المخالطة واستكثَرَ المعارف والإخوان تعاوناً على البرِّ، وإلى هذا مالَ سعيدُ بن المسيَّب، وشريح، والشَّعبي، وابنُ أبي ليلى، وهشامُ بن عُروة وابن شبرمة، وشريك بن عبد الله، وابن عُيَيْنة، وابن المبارك في آخرين.

والمأثور عن العلماء من الكلمات ينقسم إلى كلماتٍ مطلقة تدل على الميل إلى أحد الرأيين، وإلى كلمات مقرونة بما يُشير إلى علة الميل، فلنذكر من مُطلقات الكلمات لتبيين المذاهب فيها، ونؤخِّر ما هو مقرون بذكر العلة فنورده عند التعرض لذكر الغوائل والفوائد.

أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: حدثنا ابن أعين السرخسي قال: حدثنا الفِرْبَرِيُّ قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا أبو اليمان قال: حدثنا شعيب عن الزُّهري عن عطاء بن يزيد عن أبي سعيد قال: قيل: يا رسول الله، أيُّ الناس خَيْر؟ قال: «رجلٌ يُجاهد بنفسه وماله، ورجلٌ في شعبٍ من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره». أخرجاه في الصحيحين.

وفي حديث عُقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله، ما النَّجاة؟ قال: «املك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك».

وقال عمر بن الخطاب: خذوا بحظكم من العزلة.

وقال سعدُ بن أبي وقاص: والله لوددتُ أن بيني وبين الناس باباً من حديد لا يكلمني أحد ولا أكلمه حتى ألحق بالله سبحانه.

وقال ابن مسعود لأصحابه: كونوا يَنابِيعَ العِلمِ، مصابيح الليل، أحلاس<sup>(١)</sup> البيوت، جدد القلوب، خُلُقَان<sup>(٢)</sup> الثَّياب، تُعرفون في أهل السماء، وتُخفون على أهل الأرض.

وكان أبو الجُهيم الحارث بن الصَّمَّة لا يُجالس الأنصار، فإذا ذُكرت له الوحدة قال: الناسُ شرٌّ من الوحدة.

وقال حُذيفةُ: والله لوددت أن لي إنساناً يكون في مالي، ثم أغلق عليَّ باباً فلا يدخلُ عليَّ أحدٌ حتى أَلحقَ بالله عز وجل.

وقال أبو الدرداء: نِعَمَ صومعةُ المرء المسلم بيته، يكفُّ لسانه وفرجه وبصره، وإياكم ومجالس الأسواق<sup>(٣)</sup>، فإنها تُلهي وتُلغي.

وقال سعيد بن المسيَّب: عليك بالغرلة فإنها عبادة.

وقال مكحول إن كان الفضل في الجماعة، فإن السلامة في الغزلة.

وقال داود الطائي: فِرٌّ من الناس كما تَفَرُّ من الأسد.

وقال سُفيان الثوري: ما شيءٌ خَيْرٌ للإنسان من جُحرٍ يدخلُ فيه.

وقال أبو مُهلhel: أخذ بيدي سُفيان الثوري، فأخرجني إلى الجَبان<sup>(٤)</sup>، فاعتزلنا ناحيةً فَبِكا، ثم قال: يا أبا مُهلhel، إن استطعت أن لا تُخالِطَ في زمانك هذا أحداً فأفعل، وليكن هَمُّكَ<sup>(٥)</sup> مَرَمَةٌ<sup>(٦)</sup> جَهازك.

وقال عبد الله بن مرزوق: استَشَرْتُ سُفيان الثوري: أين أنزل؟ فقال: بِمَرِّ الظَّهْران، حيث لا يَعرفك إنسان.

(١) أحلاس: جمع جلس، وهو الكساء الذي يلي ظهر البعير، والمقصود: مُلازمو البيوت.

(٢) يقال: خلق الثوب، أي: بلي.

(٣) في (ظ): «الأشرف»، وكتبت بالهامش إلى جانبها: «الأسواق».

(٤) الجبان والجبانة: المقبرة.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) مَرَمَةٌ: من الترميم، أي: الإصلاح، يعني إصلاح جهازه للأخرة.

وقال له رجل: أوصني.. فقال: هذا زمانُ السُّكوت، ولزوم البيوت.

وجاء رجلٌ إلى الفضيل فجلس إليه، فقال له: ما أجلسك إليّ؟ فقال: رأيتك وحدك. فقال: أما إنك لو لم تجلس إليّ لكان خيراً لي ولك، فاختر إما أن أقوم عنك، وإما أن تقوم عني. فقال: بل أنا أقوم، فأوصني. فقال: اخف مكانك، واحفظ لسانك.

وجاء رجلٌ إلى شعيب بن حرب، فقال: ما جاء بك؟ قال: جئتُ أؤنسك. قال: جئتُ تؤنسي وأنا أعالج الوحدة منذ أربعين سنة؟!

وقال مالك بن أنس: كان الناس الذين مَضوا يُحِبُّون العزلة والانفراد من الناس.

فهذه أقاويل المائلين إلى العزلة.

### ذكر حُجج المائلين إلى المخالطة ووجه ضعفها:

احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ [آل عمران: ١٠٥] وبقوله تعالى: ﴿قَالَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣] فامتَن عليهم بالسبب المؤلف، وهذا ضعيف؛ لأن المراد تفرق الآراء والمذاهب في أصول الشريعة، والمراد بالألفة نزع الغلِّ من الصدور، واحتجوا بقوله عليه الصلاة والسلام: «المؤمنُ ألفٌ مألوفٌ، ولا خير في من لا يَألفُ ولا يُؤلفُ». وهذا ضعيف؛ لأن الإشارة به إلى سوء الخلق الذي يمنع المؤالفة.

واحتجوا بقوله عليه الصلاة والسلام: «من فارق الجماعة فمات جاهلية». وهذا ضعيف؛ لأن المراد الاجتماع على إمام تُعقد له البيعة.

واحتجوا بقوله: «لا هجرة فوق ثلاث». قالوا: والعزلة هجرة بالكلية. وهذا ضعيف؛ لأن المراد به قطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة.

واحتجوا بما روى معاذُ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الشيطان ذئبُ الإنسان، كذئب الغنم، يأخذُ الشاةَ القاصيةَ والناحيةَ، فإياكم والشعاب، وعليكم

بالجماعة والعامّة والمسجد، وهذا إنما يُراد به المفارقة للجماعة على الإطلاق، والانتقطاع عن المساجد، فأما مَنْ قامَ بالواجبات والسُنن ثم اعتزل، فلا وَجَهَ لِدَمِّهِ».

### ذكر حُجَجِ المائِلين إلى تفضيل العزلة:

احتجّوا بقوله تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزَلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٤٨-٤٩]، فأشار إلى أن ذلك بركة العزلة، وهذا ليس بشيء؛ لأنّ مُخالطة الكفار ليس فيها فائدة سوى دعوتهم إلى الدين، وذلك المقدار واجبٌ على الرُّسُل، وإنما الكلام في مُخالطة المسلمين وما فيها من البركة، فإن رسول الله ﷺ أراد أن يشرب من سِقَاية مَكَّة، قيل له: ألا نأتيكَ بشرابٍ أنظف من هذا؟ فقال: «لا، اسقُوني من هذا الماء الذي يشرب منه الناس وإنما أَلْتَمَسُ بركة أيدي المسلمين» فَشَرِبَ مِنْهُ.

واحتجّوا بقصة أهل الكهف في قوله: ﴿وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ١٦] ولا حجة في هذا؛ لأنه اعتزال للكفار.

واحتجوا بما تقدم من حديث أبي سعيد وعُقبه بن عامر، وهما محمولان على من تكون سلامته في العزلة، فإن رسول الله ﷺ لم يأمر جميع أصحابه وقد قال عليه الصلاة والسلام: «المؤمنُ الذي يُخالط الناس ويصبر على أذاهم، خيرٌ من الذي لا يُخالطهم ولا يصبر على أذاهم».

فإذا قد ظَهَرَ أَنَّ الأدلة لا شفاءَ فيها من الجانبين، فلا بدّ فيها من كشفِ الغطاء بالتصريح بفوائد العزلة وغوائلها، ومُقَايَسَة بعضها ببعض ليتبين الحق فيها إن شاء الله.

## الباب الثاني

### في ذكر فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق في تفضيلها

اعلم أنّ اختلافَ الناس في هذا يُضاهي<sup>(١)</sup> اختلافهم في فضيلة النكاح والعزوبة، وقد ذكرنا أن ذلك يَختلف بالأحوال والأشخاص بحسب ما بيّناه من آفات النكاح وفوائده، فكذلك القول فيما نحن فيه.

فلنذكر أولاً فَوَائِدِ العَزَلَةِ: وهي تنقسم إلى فوائده دينية ودنياوية.

والدينية تنقسم إلى ما يُمكن من تحصيل الطاعات في الخلوّة بالمواظبة على العبادة والفكر، وتربية العلم وإلى ما يُخلص من ارتكاب المناهي التي يتعرض الإنسان لها بالمخالطة، كالزنا، والغيبة، والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومُسَارَقَةِ الطَّبع من الأخلاق الرديئة من جُلساء السوء.

وأما الدنياوية؛ فتنقسم إلى تَمَكُّنٍ من التَّحصيل بالخلوة، كتمكّن المحترَفِ في خلوته، وإلى تَخَلُّصٍ من محذوراتٍ يتعرض لها بالمخالطة، كالنظر إلى زهرة الدنيا، وإقبال الخلق عليها، وطمعه في الناس، وطمع الناس فيه، والتأذي بسوء خُلُق الجليس أو سوء ظنّه، أو نَميمته، أو حَسَدِه، فهذه مجامع فَوَائِدِ العَزَلَةِ، فلنحصرها في سِتِّ فَوَائِدٍ:

**الفائدة الأولى:** الفراغ للعبادة، والفكر، والاستيناس بمُناجاة الله سبحانه عن مُحادثة الخلق، والاشتغال باستكشاف أسرار الله عز وجل في أمر الدنيا والآخرة، وملكوت السموات والأرض، فإن ذلك يَسْتدعي فراغاً، ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إلى ذلك، خصوصاً في البداية، وقد كان النبي ﷺ ينفرد في جبل

(١) تحرفت في (ظ) إلى: «أيضاً هو».

جراً، فلما قَوِيَ نور النبوة لم يحجبه الخلق عن الله تعالى، فكان بيدنه مع الخلق، وبقلبه مع الله سبحانه، وقد أخبرنا باستغراق همّه بالله حين قال: «لو كنتُ مُتَّخِذاً خليلاً لَاتَّخِذْتُ أبا بكرٍ خليلاً، ولكنّ صاحبكم خليلُ الله». ولن يتسع للجمع بين مخالطة الخلق ظاهراً والإقبال على الله سراً إلا قُوَّة النبوة، فلا ينبغي أن يعتز كل ضعيفٍ بنفسه فيطمع في ذلك، ولا يبعد أن تنتهي درجة بعض الأولياء إلى نحو ذلك.

فقد قال الجنيد: أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة، والناس يظنون أنني أكلمهم. وهذا إنما يتيسر للمستغرق بحبّ الله تعالى استغراقاً لا يبقى لغيره فيه متسع، ومثل هذا لا يُنكر، فإن العشق للمخلوقين قد يُفطر فيستغرق العاشق، فلا يدري ما الناس فيه وهو مخالطهم، فأمر الآخرة أعظم، إلا أن هذا يُندر، فالغزلة أولى بالمريد.

وقد قيل لبعض الحكماء: إلى أيّ شيء أفضى بهم الزهد والخلوة؟ فقال: إلى الأنس بالله.

وقيل لغزوان: لو جالست إخوانك؟ فقال: إني أصبت راحة قلبي في مُجالسة من عنده حاجتي.

وقيل للحسن: إنّ هاهنا رجلاً لم نره قطّ إلا جالساً وحده خلف سارية. فقال: إذا رأيتموه فأخبروني، فأخبروه، فأتاه فقال: يا عبد الله، ما يمنعك من مُجالسة الناس؟ فقال: ما أشغلني عن الناس. قال: فما يمنعك أن تأتي هذا الرجل الذي يُقال له: الحسن، فتجلس إليه؟ فقال: ما أشغلني عن الحسن وعن الناس. قال: فما الذي شغلك رحمك الله؟ قال: أتني أمسي وأصبح بين ذنبٍ ونعمة، فرأيتُ أن أشغل نفسي بالاستغفار للذنب، والشكر لله على النعمة. فقال له الحسن: أنت يا عبد الله عندي أفقه من الحسن، الزم ما أنت عليه.

وقال أويس: ما كنتُ أرى أن أحداً يعرف ربّه فيأنس بغيره.

وقال بعض الحكماء: إنما يستوحش الإنسان من الخلوة لخلوّ ذاته عن الفضيلة، فيطرد عن نفسه الاستيحاش بمُلاقاة الناس، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب

الوحدة ليستعين بها على الفكرة، ويستخرج العلم والحكمة، واعلم أن من تيسر له بدوام الذكر الأنس بالله، أو بدوام الفكر تحقيق معرفة الله، فالتجرّد لذلك أفضل من كل ما يتعلّق بالمخالطة، فإن غاية المعاملة أن ترقى إلى المعرفة والمحبة، ولا معرفة إلا بدوام الفكر، ولا محبة إلا بالأنس الحاصل<sup>(١)</sup> بدوام الذكر، وفراغ القلب شرط لكل واحدٍ منهما، ولا فراغ مع المخالطة.

**الفائدة الثانية:** التخلص بالُعزلة من المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالباً بالمخالطة ويسلم منها في العزلة، وهي أربعة: الغيبة، والرياء، والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومُسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة التي يوجبها الحرص على الدنيا.

أما الغيبة، فإذا عرفت<sup>(٢)</sup> في كتاب آفات اللسان من رُبِع المُهَلِكات وجوهها عرفت أن التحرّز منها مع المخالطة عظيم لا ينجو منها إلا الصديقون، فإن عادة الناس التّمضمض بالأعراض والتفكّه بها، فإن خالطتهم ووافقت أئمت وتعرّضت لسخط الله، وإن سكتت كنت شريكاً، والمستمع أحد المغتابين، وإن أنكرت أبغضوك وتركوا ذلك المغتاب واغتابوك، فزادوا غيبةً إلى الغيبة، وربما خرجوا إلى الشتم.

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من أصول الدين، وهو واجب على ما سيأتي بيانه في آخر هذا الرُبِع إن شاء الله تعالى.

ومن خالط الناس لم يخلُ من مُشاهدة المنكرات، فإن سكت عصى الله عز وجل، وإن أنكرت تعرّض لأنواع من الضرر، وفي العزلة سلامة من هذا.

وأما الرياء، فهو الداء العُضال الذي يعسر الاحتراز منه، وأقل ما في مُخالطة الناس إظهار التّشوق إليهم، ولا يخلو ذلك من كذبٍ إما في الأصل وإما في الزيادة، وقد كان السلف يحترزون في جواب قول القائل: كيف أصبحت؟ وكيف

(١) تحرفت في (ظ) إلى: «الخالص».

(٢) في (ظ): «نظرت».

أمسيت؟ وكان أويس<sup>(١)</sup> إذا قيل له: كيف أصبحت؟ قال: كيف يُصبح رجلٌ إذا أمسى لا يدري هل يُصبح، وإذا أصبح لا يدري هل يمسي؟

وكان الربيع بن خثيم إذا قيل له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحنا ضعفاءً مُذنبين، نأكلُ أرزاقنا، وننتظرُ آجالنا.

وقيل لحامد اللّفاف: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحتُ أشتهي عافيةً يومٍ إلى الليل. فقيل له: ألسَت في عافية؟ فقال: عافيةً يومٍ أن لا أعصي فيه.

وقيل لبعض الحكماء: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحتُ لا أرضى حياتي لموتي، ولا نفسي لربي.

وقيل لرجلٍ وهو في الموت: ما حالك؟ فقال: ما حالٌ من يُريدُ سفرًا بعيداً بلا زاد، ويدخل قبراً موحشاً بلا مؤنس، وينطلق إلى ملكٍ عادلٍ بلا حُجة.

واعلم أنه إذا كان سؤال السائل لأخيه: كيف أصبحت؟ لا يعثه شفقة عليه ومحبةٌ لصلاح حاله كان تكلفاً ورياءً، وربما سألَه وفي القلبِ ضغنٌ وحقدٌ يؤثرُ أن يعلمَ فسَادَ حاله، وفي العزلةِ الخَلاصُ من هذا؛ لأنه من لقي الخلقَ ولم يُخالقهم بأخلاقهم مَقْتُوهُ واستثقلوه واغتابوه، فيذهب دينهم فيه، ويذهب دينه ودُنياه في الانتقام منهم.

وأما مُسارعةُ الطّبع لما يُشاهده من أخلاق الناس وأعمالهم، فهو داءٌ دفين قلما يتنبه له العُقلاء، فضلاً عن الغافلين، فقلَّ أن يجالسَ الإنسانُ فاسقاً مدةً مع كونه مُنكراً عليه في باطنه إلا ولو قاسَ نفسه إلى ما قَبَلَ مُجالسته وجدَ فرقاً في الثفورِ عن الفسَادِ واستثقاله؛ لأن الفسَادَ يصيرُ بكثرةِ المُشاهدةِ هيئاً على الطّبع، ويسقطُ وقَّعه واستِعظامه، وإتّما الوازعُ عنه شِدَّةُ وقعه في القلب، فإذا صار مُستصغراً بطول المُشاهدةِ أو شكَّ أن تنحلَّ القوةُ الوازعَةُ ويُدعِنَ الطّبعُ للميلِ إليه، أو لما دونه، ومهما طالَت مُشاهدة الإنسان للكبائر من غيره احتقر الصغائر من نفسه، ولذلك

(١) يعني أويس بن عامر القرني.

تُؤثِّرُ مجالسةُ الأغنياءِ ازدراءَ الفقيرِ نعمةَ الله عليه، وتُؤثِّرُ مجالسةُ الفقراءِ استعظامَ النِّعمِ، فكذلكَ النظرُ إلى المطيعينِ والعُصاةِ يؤثرُ<sup>(١)</sup> في الطَّبعِ .

ومَنْ لاحظَ أحوالَ السَّلفِ في الزُّهدِ والتَّعبُدِ احتقرَ نفسَه، واستصغرَ عبادتَه، فيكونُ ذلكَ داعيةً إلى الاجتهادِ، ومَنْ نظرَ إلى الأحوالِ الغالبةِ على أهلِ الزمانِ وإغراضِهِم عن الله، وإقبالِهِم على الدُّنيا، واعتيادِهِم المعاصيِ استعظَمَ أمرَ نفسِه بأدنى رغبةٍ في الخَيْرِ يُصادفُها في قلبه، ويكفي في تغييرِ الطَّبعِ مُجرَّدَ سماعِ الخَيْرِ والشَّرِّ فضلاً عن مُشاهدتِه، وبهذه الدَّقِيقَةِ يُعرفُ سرُّ قولِ القائلِ: عندَ ذكرِ الصَّالحينِ تنزلُ الرحمةُ. وليسَ المرادُ ذكرَ أعيانِهِم، بل عندما يجلبه ذكرُهُم من انبعاثِ الرِّغبةِ من القلبِ وحركةِ الحرصِ على الاقتداءِ بِهِم، والاستنكافِ عن ما هو مُلابسٌ له من القُصورِ والتَّقْصيرِ، ومُبتدأُ الرحمةِ فِعْلُ الخَيْرِ، ومُبتدأُ فِعْلِ الخَيْرِ الرِّغبةُ، ومُبتدأُ الرِّغبةِ ذِكْرُ أحوالِ الصَّالحينِ، فهذا معنى نُزولِ الرِّحمةِ.

ويُفهِمُ من فحوى هذا الكلامِ أن عندَ ذكرِ الفاسقينِ تَنزَلُ اللعنةُ؛ لأن كثرةَ ذكرِهِم تُهَوِّنُ على الطَّبعِ أمرَ المعاصيِ، واللعنةُ هي البُعدُ، ومُبتدأُ البُعدِ من الله تعالى المعاصيِ والإعراضِ عن الله بالإقبالِ على الحُظوظِ العاجِلَةِ والشَّهواتِ الحاضرةِ لا على المشروعِ، ومُبتدأُ المعاصيِ سقوطُ ثقلِها وتَفاحشِها عن القلبِ، ومُبتدأُ سقوطِ ذلكَ وقوعُ الأُنسِ بِها بكثرةِ السَّماعِ، وإذا كانَ هذا ذِكْرُ حالِ الصَّالحينِ والفاسقينِ، فما ظنكَ بمشاهدتِهِم ومجالستِهِم؟ وقد ذَكَرَ ذلكَ رسولُ الله ﷺ: أخبرنا عبدُ الأولِ قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابنُ أعين قال: أخبرنا الفريري قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا محمد بنُ العلاء قال: حدثنا أبو أسامة عن بُريد، عن أبي بُرْدَةَ، عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السَّوِّءِ كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْدِيكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً طَيِّبَةً، وَنَافِخِ الكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحاً خَبِيثَةً». أخرجاه في الصحيحين .

(١) سقطت من (ظ).

ولهذا المعنى الذي ذكرته أقول: من عرف من عالم زَلَّةٍ حَرُمَ عليه حكايتها  
لعلتين: إحداهما: أن ذكرها غيبة. والثانية: وهي أعظمها، أن حكايتها تُهَوِّنُ على  
المستمعين أمرَ تلك الزَلَّةِ، وَيَسْقُطُ من قلوبهم استعظامُهم الإقدامَ عليها، فيكون  
ذلك سبباً لتهوين تلك المعصية؛ لأنهم يقولون: إذا جرى هذا للعلماء، فكيف  
نحن؟! وكم من شخصٍ يحرص على جمع الدنيا، وَيَتَهالك على حُبِّ الرياسة،  
ويستشهد بقول الله إخباراً عن سليمان: ﴿وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِّنْ عَدُوِّي﴾ [ص: ٣٥]  
ويُقدِّرُ أنه أراد الهوى والرياسة، وربما احتجَّ بِقِتالِ عليٍّ ومُعاوية<sup>(١)</sup>، وظنَّ أن  
ذلك كان لطلبِ الرياسة لا لطلبِ الحَقِّ، وهذا الاعتقاد الخَطَأُ يَهَوِّنُ عليه أمرَ  
الرياسة ولو ازمها من المعاصي، والطبع اللئيم يميلُ إلى اتِّباعِ الهَفَوَاتِ والإعراضِ  
عن الحَسَنَاتِ بل إلى تَقديرِ الهَفوةِ فيما لا هَفوةَ فيه بالتنزيلِ على مُقتضى الشهوة  
ليتعلل به، وهذه من دقائق مَكائِدِ الشَّيْطَانِ، فأهل اليَقظةِ يَنْتَهون لمحاسن الأشياء،  
كما قال الله تعالى: ﴿فَيَسْتَعِينُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨]، وأهل العَفلةِ يَتناولون شَرًّا ما  
يَسْمَعون، ويَحملون المسموع على شَرِّ ما يَفْهَمون، كما روي عن النبي ﷺ أنه  
قال: «مثل الذي يَسْتَمع الحكمة ثم لا يَعْمَلُ إلا بشرًّا ما يَسْمَعُ، كمثل رجلٍ أتى  
راعيًّا فقال له: يا راعي أَجْزِرنِي<sup>(٢)</sup> شاةً من عَنَمِكَ. فقال: اذهب فَخُذْ خَيْرَ شاةٍ  
فيها، فذهبَ فأخذَ بأذنِ كلبِ العَنَمِ». فكلُّ من يَنْقلِ هَفَوَاتِ الأئمةِ، فهذا مثله.

ومما يدلُّ على سُقوطِ وَقَعِ الشَّيْءِ عن القلبِ بسببِ تَكَرُّره ومشاهدته أن أكثرَ  
الناسِ إذا رَأَوْا مُسْلِمًا قد أَفْطَرَ في رمضانِ اسْتَفْظَعُوا ذلكَ حتى يكاد يُفْضي إلى  
اعتقادهم فيه الكُفْرَ، وقد يُشاهدون من يُؤَخِّرُ الصَّلواتِ عن أوقاتها فلا ينفرون عنه  
نُفورهم عن تأخير الصَّومِ، مع أن تركَ صلاةٍ واحدةٍ يُخرجُ إلى الكُفْرِ، ولا سببَ  
لذلك إلا أن الصلاةَ تَكَرَّرَ، والتساهلُ فيها يكثرُ، فيسقطُ وقعها بالمشاهدة عن  
القلبِ، وكذلك لو لبسَ الفَقِيه ثوباً من حريرٍ أو خاتماً من ذهبٍ، أو شَرِبَ من إناءٍ

(١) يعني بذلك ما جرى من وقعة صِفِّين سنة ٣٧ للهجرة، ينظر: تاريخ الطبري ٥ / ٥ وما بعدها، والبداية والنهاية ١٠ / ٥٠٢ وما بعدها.

(٢) يقال: أَجْزرت للقوم، أي: أعطيتهم شاةً يذبونها. ولا يقال إلا في الغنم خاصة.

من فضةٍ لا سَبْعَدْتُهُ النَّفُوسُ واشتدَّ إنكاره، وقد يُشاهدُ ذلكَ الفَقِيهَ يَغْتَابُ النَّاسَ، فلا يُسْتَعْظَمُ ذلكَ، والغَيْبَةُ أشدَّ من لُبْسِ الحريرِ، ولكن كثرة سماعها ومشاهدة المغتابين أسقط عن القلوب وَقَعَهَا، وهَوْنٌ على النَّفُوسِ أمرها، فَتَفْطَنُ لهذه الدَّقَائِقِ واحذِرْ مُجالسةَ النَّاسِ، فإنك لا تَكادُ تَرى منهم إلا ما يَزِيدُ في حِرْصِكَ على الدنيا، وغفلتك عن الآخرة، ويُهَوِّنُ عليك المعصية، ويُضْعِفُ رغبتك في الطاعة، فإن وجدتَ جليساً يذكُرُ اللهَ شَخْصُهُ وسيرته فلا تفارقهُ، فإنه غَنِيمةُ المؤمنِ.

**الفائدة الثالثة: الخلاصُ من الفِتْنِ والخصومات، وصيانةُ الدينِ عن الخوضِ فيها والتعرض لأخطارها، وقَلْما تَخْلُو البلاد من العَصِيبة والخصومات، والمعتزل عنهم سليم<sup>(١)</sup>.** وقد روى عبدُ الله بن عمرو أن النبي ﷺ ذكرَ الفتنَ ووصفها وقال: «إذا رأيتَ النَّاسَ قد مَرَجَتْ عهودهم، وخَفَّتْ أماناتهم، وكانوا هكذا، وشبك بين أصابعه» فقلت: ما تأمرني؟ فقال: «الزَّمْ بيتك، واملِكْ عليك لسانك، وخُذْ ما تعرف، ودَعْ ما تُنكر، وعليك بأمرِ الخاصَّة، ودع عنك أمرَ العامَّة». وفي أفراد البخاري من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «يوشكُ أن يكونَ خيرُ مالِ المسلم غَنَمٌ يتبع بها شَعَفَ<sup>(٢)</sup> الجبالِ ومواقعِ القطرِ، يَفِرُّ بدينه من الفِتْنِ» وفي أفراد مسلم من حديث أبي بكرٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «ستكونُ فتنةُ القاعدِ خَيْرٌ من الماشي فيها، والماشي فيها خَيْرٌ من السَّاعي إليها، ألا فإذا نزلتْ أو وقعت، فمن كان له إبلٌ فليلحقْ بإبله، ومن كان له غَنَمٌ فليلحقْ بَعَنَمه، ومن كانت له أرضٌ فليلحقْ بأرضه». فقال رجل: يا رسولَ الله، أرايتَ مَنْ لم تكن له إبلٌ ولا غَنَمٌ ولا أرضٌ؟ قال: «يَعتمدُ إلى سيفه فيدقُّ على حَدِّه بحجرٍ، ثم لينجُ إن استطاع النِّجاء، اللهم هل بَلَّغت» فقال رجل: يا رسولَ الله، أرايتَ إن أكرهتُ حتى ينطلق بي إلى أحدِ الصَّفِينِ أو إحدى الفِئتينِ فضرِبني رجلٌ بسيفه أو يجيء سَهْمٌ فيقتلني؟ فقال: «يبوء بإثمه وإثمك فيكون من أصحاب النار». فإذا نزل الحذر من الخصومات ومثار الفِتْنِ إحدى فوائد العزلة.

(١) في (ظ): «مسلم».

(٢) شَعَفَ الجبال: رؤوس الجبال.

الفائدة الرابعة: التخلص من شر الناس فإنهم يُؤذونك مرةً بالغيبة، ومرةً بالنميمة، ومرةً بسوء الظن؛ مرةً بالتهمة، ومرةً بالأطماع الكاذبة، وقد يرون منك أعمالاً وأقوالاً لا يفهمون المقصود منها، فإذا لاحت لهم فرصة قالوا فيك. ومن خالط الناس لم ينفك عن حاسدٍ وعدوٍ يُسيء الظنَّ به، وينصب المكيدة عليه.

أنواع الشرِّ التي يلقاها الإنسان إنما هي من معارفه، وفي العزلة خلاصٌ من جميع ذلك، كما قال ابن الرومي:

عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٍ      فَلَا تَسْتَكْثِرَنَّ مِنَ الصُّحَابِ  
فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ      يَكُونُ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ  
وقد قال عمر رضي الله عنه: في العزلة<sup>(١)</sup> راحةٌ من خلطاء السوء.

وقال أبو الدرداء: كان الناس ورَقاً لا شوكَ فيه، فصاروا شوكاً لا ورقَ فيه.

وقال بعضهم: كان الناس دواءً يتداوى به، فصاروا داءً لا دواء لهم.

وقال سفيان بن عيينة: أوصاني الثوري فقال: أقلَّ من معرفة الناس.

وقال إبراهيم بن أدهم: لا تتعرف إلى من لا يعرفك، وأنكر من تعرفه.

وقال رجلٌ لأخيه: أصحبك إلى الحج؟ فقال: دعنا نعيش في ستر الله، فإنا نخاف أن يرى بعضنا ببعضٍ ما نتماقُّ عليه. وهذه فائدةٌ أخرى في العزلة، وهو بقاء السُّتر على الدِّين والمروءة وسائر العورات.

قال الشاعر:

مَنْ حَمِدَ النَّاسَ وَلَمْ يَبْلُغْهُمْ      ثُمَّ بَلَّاهُمْ دَمَّ مَنْ يَحْمَدُ  
وَصَارَ بِالْوَحْدَةِ مُسْتَأْنَساً      بِوَحْشَةِ الْأَقْرَبِ وَالْأَبْعَدِ

(١) في الأصل: «الوحدة».

وقال آخر:

اخْفِضِ الصَّوْتِ إِنْ نَطَقْتَ بِلَيْلٍ وَالتَّفَتِ بِالنَّهَارِ قَبْلَ الْكَلَامِ  
الفائدة الخامسة: أَنْ يَنْقَطِعَ طَمَعُ النَّاسِ عَنْكَ، وَطَمَعُكَ عَنْهُمْ، أَمَا انْقِطَاعُ  
طَمَعِهِمْ؛ فَإِنَّ رِضَاهُمْ غَايَةٌ لَا تُدْرِكُ، فَالْمَنْقَطِعُ عَنْهُمْ قَاطِعٌ لَطَمَعِهِمْ فِي حُضُورِ  
وَلَائِمِهِمْ وَإِمْلَاكَاتِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَقَدْ قِيلَ: مَنْ عَمَّ النَّاسَ بِالْحِرْمَانِ رَضُوا عَنْهُ  
كُلُّهُمْ.

وَأَمَا انْقِطَاعُ طَمَعِكَ عَنْهُمْ، فَإِنْ مِنْ نَظَرٍ إِلَى زَهْرَةِ الدُّنْيَا تَحَرَّكَ حَرَصُهُ فَانْبَعَثَ  
بِقُوَّةِ الْحَرَصِ طَمَعُهُ، وَلَا يَرَى إِلَّا الْخَيْبَةَ فِي أَكْثَرِ الْمَطَامِعِ، فَيَتَأَدَّى، وَإِذَا اعْتَزَلَ لَمْ  
يَرَ فَلَمْ يَطْمَعْ وَلَمْ يَشْتَوِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا  
مِنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨]، وَقَالَ ﷺ: «انظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ دُونَكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ  
هُوَ فَوْقَكُمْ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ».

وقال عون بن عبد الله: كنتُ أجالسُ الأغنياءَ، فلا أزالُ مغموماً كلما رأيتُ  
ثوباً أحسنَ من ثوبي، ودابةً أفره من دابتي، فجالستُ الفقراءَ فاسترحتُ.

واعلم أنَّ من رأى زينةَ الدنيا تحركَ طبعه لتحصيلِ مثلها، فإنَّ فعلَ خسرٍ، وإن  
جاهدَ نفسه تجرَّعَ مرارةَ الصَّبرِ، كيفَ وقد قيلَ لسيِّدِ الكلِّ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا  
مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨].

الفائدة السادسة: الخلاصُ من مُشاهدةِ الثُّقلاءِ والحمقى ومقاساةِ أخلاقهم،  
قال جالينوس: النَّظَرُ إِلَى الثُّقَلَاءِ حُمَى الرُّوحِ.

قال الشافعي: ما جالستُ ثقيلاً إلا وجدتُ الجانبَ الذي يليه مِنْ بَدَنِي كَأَنَّهُ  
أثقلُ عليَّ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ.

واعلم أنَّ الإنسانَ إِذَا تَأَدَّى بِالثُّقَلَاءِ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يَغْتَابَهُمْ، فَإِنْ آذَوْهُ بِالْقَدْحِ فِيهِ  
كَأفَاهُمْ فَانجَرَّ الْأَمْرُ إِلَى فسادِ الدينِ، وَالْعُزْلَةُ سَلَامَةٌ مِنْ ذَلِكَ.

## آفاتُ العزلة

[وفوائد المخالطة]<sup>(١)</sup>

اعلم أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يُستفاد من الاستعانة بالغير، ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة فكل ما يُستفاد من المخالطة يفوت بالعزلة، وفواته من آفات العزلة.

ومن فوائد المخالطة: التعلّم، والتّعلم، والتّفنّع والانتفاع، والتأديب، والتأدّب والاستئناس، والإيناس، ونيل الثّواب، وإنالته في القيام بالحقوق، واعتياد التّواضع، واستفادة التجارب من مُشاهدة الأحوال والاعتبار بها، فهذه سبع فوائد، فلنفصلها:

الفائدة الأولى: التعليم والتعلم؛ وقد ذكرنا فضلها في كتاب العلم، وهما أعظم العبادات في الدنيا، ولا يُتصور ذلك إلا بالمخالطة، إلا أن العلوم كثيرة وعن بعضها مندوحة، فالمحتاج إلى التعلّم لما هو فرضٌ عليه عاصٍ بالعزلة، فإن تعلّم الفرض ورأى أنه لا يتأتى منه الحَوْض في العلوم، ورأى الاشتغال بالعبادة، فليعتزل، وإن كان يقدر على التّبريز في علوم الشّرع فالعزلة في حقه قبل التعلّم غاية الخسران، ولهذا قال الربيع بن خثيم: تَفَقَّهَ ثُمَّ اعْتَزَلَ.

ومن اعتزَلَ قبل التعلّم فغايبته أن يستغرق الأوقات بأورادٍ يعملها بيديه لا ينفكُ فيها من الغرور الذي يُخيّب سعيه ويُبطل عمّله من حيث لا يشعُر، ولا ينفك في اعتقاده في الله سبحانه وصفاته عن توهُماتٍ يأنس بها وخَواطر فاسدة تعترّيه، فيكون في أكثر أحواله ضحكة للشيطان وهو يرى نفسه من العباد.

فالعلم أصل الدين ولا خير في عزلة العوام والجّهال، فمثال النفس مثال مريض يفتقر إلى طبيب مُتلف يُعالجه، فالمرضى الجاهل إذا خلا بنفسه عن طبيب قبل أن يتعلّم الطّب تضاعفَ لا محالة ضرره.

(١) زيادة ليست في النسخ.

ولا تليقُ العُزلةُ إلا بالعلم، وسئل بعضُ العلماء: ما تقولُ في عُزلةِ الجاهل؟ فقال: خَبالٌ ووبالٌ. فقيل له: والعالم؟ فقال: ما لك ولها؟ معها حِذاؤها وسِقاؤها ترُدُّ الماء وتَرعى الشَّجر حتى يلقاها رَبُّها<sup>(١)</sup>.

وأما التعليم: ففيه ثوابٌ عظيم إذا صَحَّت نيَّةُ المعلم، ومتى كان القصدُ<sup>(٢)</sup> إقامةُ الجاه والاستكثار من الأتباع فهو هلاك الدين، وقد سبق بيان هذا في كتاب العلم. والغالب في هذا الزمان سوء<sup>(٣)</sup> القصد من المتعلمين، فلا تكاد ترى إلا طالباً لكلام مُزخرفٍ، يُستمالُ به العوام في مَعرض الوَعظ أو لجدالٍ مُعقدٍ يُتوصَّل به إلى إفحام الأقران، ويُستعمل في معرض المُباهاة.

وأقربُ علم مرغوب فيه المذهبُ، ولا يكاد يُطلب غالباً إلا للتوصل إلى التَّقدم على الأمثال، وتولِّي الولايات، وهؤلاء كلُّهم يَقتضي الدينُ والحزمُ الاعتزالَ عنهم.

فإن صودف طالبُ الله، ومتقربُ بالعلم إليه لم يَجز الاعتزال عنه، ولم يحلَّ كتمان العلم منه، ولا ينبغي أن يغترَّ بقول من قال: تعلَّمنا العلم لغير الله، فأبى أن يكونَ إلا لله. فإنه أشار بهذا إلى علم<sup>(٣)</sup> القرآن والحديث ومعرفة سير الأنبياء والصحابة، وذلك يتضمن التخويف والتحذير، وهو سببٌ لإثارة الخوف من الله سبحانه، فإن لم يؤثر في الحال أثر في المآل.

فأما الكلام وعلم الخِلاف فإنه لا يَرُدُّ الراغب في الدنيا إلى الله، بل لا يزال صاحبه متمادياً في حرصه إلى آخر عمره، فلا ينبغي للإنسان أن يُخادع نفسه، فإن المقصَّر العالم بتقصيره أسعدُ حالاً من الجاهل المغرور أو المتجاهل المغبون،

(١) سبَّه هنا عُزلة العالم الذي قد حصَّل من أدوات العلم ما يُغنيه، بترك ضالَّة الإبل حيث أمر النبي ﷺ بتركها وعدم التعرض لها، فمعها حِذاؤها وسِقاؤها وترد المرعى فلا يُخشى عليها شيء، حتى يجدها صاحبها، بخلاف ضالَّة الغنم.

(٢-٢) سقط من الأصل.

(٣) في (ظ): «علوم».

وَبَعِيدٌ<sup>(١)</sup> أن يحرص عالم على التعليم إلا وغرضه القبول والجاه، وحظُّه تَلذُّذُ النفس بما يُورده، والإدلالُ على الجهال والتكبرُ عليهم، فأفةُ العلم الخيلاء، ولهذا يصير كالخادم لأصحابه، يسعى في أغراضهم ليتبعوه، وربما قامَ لهم بالرزق، أو طلبَ لهم من السلطان، ويُخيل إليه أنه بذلك ينشر الشريعة، ولو تفكَّرَ لعَلِمَ أن أكثر فساد الزمان وجود أمثال هؤلاء المتعلمين، الذين يتناولون ما يجدون من حلالٍ أو حرام.

### الفائدة الثانية: النَّفْعُ والانتفاع

أما الانتفاع بالناس، فبالكسب والمعاملة، وذلك لا يتأتى إلا بالمخالطة، والمحتاج إليه مضطر إلى ترك العزلة، فيقع في جهادٍ من المخالطة إن طلب موافقة الشرع فيه، كما ذكرنا في كتاب الكسب، وإن كان معه ما يُقنعه فالعزلة أفضل له، إلا أن يقصد التصدُّق بكسبه، فذلك أفضل من العزلة، إلا أن تكون العزلة مفيدة له معرفة الله تعالى والأُنس به لا عن أوهامٍ وحيالاتٍ فاسدة.

وأما النَّفْعُ؛ فهو أن ينفع الناس إمَّا بماله أو ببَدَنِهِ، فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة، ففي التَّهْوِضِ بِقَضَاءِ حَوَائِجِ الْمُسْلِمِينَ ثَوَابٌ، وذلك لا يتأتى<sup>(٢)</sup> إلا بالمخالطة، ومن قدر عليه مع القيام بحدود الشرع فهو أفضل له من العزلة إن كان لا يشتغل في عزلته إلا بنوافل الصَّلوات والأعمال البدنية، وإن كان ممن انفتح له طريق العمل بالقلب بدوام ذكرٍ أو فكرٍ، فذلك الذي لا يُعَدُّلُ به غيرُه البتَّة.

الفائدة الثالثة: التَّأْدِيبُ والتَّأْدِبُ، ونَعْنِي بِهِ الْإِرْتِيَاضَ بِمُقَاسَاةِ النَّاسِ، والمجاهدة في تحمل أذاهم، كسراً للنفس، وقهراً للشَّهَوَاتِ، وهي من الفوائد التي تُستفاد بالمخالطة، وهي أفضل من العزلة في حق من لم تهذب بعد أخلاقه.

وينبغي أن يفهم أن الرياضة لا تُرَادُ لِنَفْسِهَا، كما لا يُرَادُ من رياضة الدابة عينُ رياضتها، بل المرادُ منها أن تُتَّخَذَ مَرْكَبًا تُقَطَّعُ بِهِ الْمَرَاحِلَ. والبدن مطية تُسَلِّكُ بِهَا

(١) في الأصل: «يتعذر».

(٢) في الأصل: «ينال».

طريق الآخرة، وفيها شهواتٌ إن لم تكسر جَمَحَتْ براكبها في الطريق، فمن اشتغل طولَ عمره بالرياضة كان كمن اشتغل طولَ عمر الدابة برياضتها ولم يركبها، فلا يستفيد منها إلا الخلاص من عَضِّها ورَفْسها ورَمَحِها، وهي لَعْمري فائدة، لكن ليست مُعظم المقصود، كما قيل لراهبٍ: يا راهب. فقال: لستُ براهبٍ، وإنما أنا كلبٌ عَقُورٌ، حَبَسْتُ نفسي حتى لا أُعَقِرَ الناس. وهذا حسنٌ بالإضافة إلى من يَعقر، ولكن لا يَنْبغي أن يقتصر عليه، فينبغي أن يبتدئ بالمخالطة ثم يختم بالعزلة.

وأما التأديب: فإنما نعني به أن يُروِّضَ غيره، وهو حال شيخ المتزهدين، فإنه لا يقدر على تهذيبهم إلا بمخالطتهم، فحالُه حالُ المعلم، وحكمُه حكمُه، ويتطرق إليه من دقائق الآفات والرياء ما يتطرق إلى نشرِ العلم.

**الفائدة الرابعة:** الاستئناس والإيناس، وقد يكون مُستحباً كالاستئناس بأهل التَّقوى، وقد يقصد به ترويضُ القلوب من كرب الوحدة، فينبغي أن يكون الاستئناس في بعض الأوقات<sup>(١)</sup> لمن لا يفسد بقيتها، وليحرص أن يكون حديثه عند الاستئناس في أمور الدين، وفي الجملة يَنْبغي أن ينتقي المجلس، ويتفقد حال القلب في المؤانسة.

**الفائدة الخامسة:** في نيل الثواب وإنالته؛ أما النيل فبحضور الجنائز، وعبادة المرضى، وحضور العيدين والإملاكات والدَّعوات، ففيها ثوابٌ من جهة إدخال السرور على المؤمن.

أما إنالته؛ فهو أن يفتح بابَه للناس ليعزُّوه، أو يُهنئوه، أو يعودوه، فإنهم ينالون بذلك ثواباً، وكذلك إن كان من العلماء فأذن لهم في زيارته، ولكن يَنْبغي أن يزن ثواب هذه المخالطات بأفاتها، فَيُرَجِّح العزلة أو المخالطة وقد كان أكثر السلف يؤثرون العزلة عليها.

**الفائدة السادسة:** التواضع: ولا يقدر عليه في الوحدة، وقد يكون الكِبَرُ سبباً

(١) في (ظ): «الساعات».

في اختيار<sup>(١)</sup> العزلة، فكم من معتزلٍ في بيته باعته التَّكْبُرُ، ومانعه من المحافل التَّقْصِيرُ في إكرامه وتقديمه، وربما تَرَفَّعَ عن مُخالطتهم لارتفاع محله عند نفسه، أو لُبِّيقي طراوة ذكره بين الناس، وقد يعتزل خيفةً ظهور مقابحه لو خالط، فلا يُعتقد فيه الزُّهد والاشتغال بالعبادة، فيتخذ من البيتِ سترًا لمقابحه إبقاءً على اعتقادِ الناس فيه الزُّهد والتَّعَبُّد.

وعلامَةٌ من هذه صِفته أنه يُحب أن يُزار ولا يُحب أن يزور، ويفرح بتقرب السلاطين والعوام إليه، واجتماعهم على بابه وتقبيلهم يده، ولو كان الاشتغال بنفسه هو الذي يُبغض إليه المُخالطة لأبغض زيارة الناس له، كما قال حاتم الأصم لأمير زاره، فقال له: ألك حاجة؟ قال: أن لا أراك ولا تراني.

والعزلة بهذا السبب جهلٌ من وجهين:

أحدهما: أن التواضع والمخالطة لا يَغُضُّ من مَنْصِبٍ مَنْ هو كبيرٌ بعلمه أو دينه، فقد كان النبي ﷺ يمشي في السوق، ويُجيب دعوة المملوك، ويسعى في حاجة الأمة، ويشترى الشيء فيحمله بنفسه، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يحلب لبعض الفقراء غنمهم، ويحمل الثياب إلى السوق ليتجر بها، وكان عمر رضي الله عنه يعس<sup>(٢)</sup> المدينة بنفسه، ويمشي في حوائجه. وكان عثمان رضي الله عنه يقبل في المسجد، ويجالس الناس كأحدهم. وكان علي رضي الله عنه يستقي بأجرةٍ ويحمل الحاجة إلى أهله، ويقول:

لا يُنْقِصُ الكَامِلَ مِنْ كَمَالِهِ مَا جَرَّ مِنْ نَفْعٍ إِلَى عِيَالِهِ

وكان أبو هريرة يحمل حزمة<sup>(٣)</sup> الحطب على ظهره وهو أمير المدينة من قبيل مروان، ويقول: طرُّقوا لأمركم، وكان الحسن بن علي يجلس مع المساكين، وهذا الأمر كان عامًّا في القوم شاملًا لهم.

(١) ليست في الأصل.

(٢) يعس: يطوف بالليل يكشف عن أهل الرية.

(٣) في (ظ): «جرزة».

وتحت هذا دقيقة، وهي: أن الناقد يُتمُّ نقضه بكبره، والكامل لا يحتاج إلى تئمة؛ لأن فخره بنفسه، فتراه إذا دخل مجلساً جلس في أدناه؛ لأنه لا يرى العلو بالمكان، بل بالمكانة ولهذا قال العلماء: من تكبر في ولايته، فالولاية أكبر منه، ومن تواضع فيها، فهو أكبر منها.

الوجه الثاني: أن الذي يُشغل نفسه بطلب رضا الناس عنه، وتحسين اعتقادهم فيه مغرور<sup>(١)</sup>؛ لأنه لو عرف حق المعرفة علم أنهم لن يُغنوا عنه من الله شيئاً، وأن الضرر والنفع بيد الله، قالت عائشة: مَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ عَادَ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ دَامًا. وقالت امرأة عابدة: إذا كان هو يقسم الثناء فلن نتصنع؟

فإذن من حبس نفسه في البيت ليحسن اعتقاد الناس فيه وأقوالهم، فهو في عذاب في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.

فهذه غوائل خفية في اختيار العزلة ينبغي أن تتقى، فإنها مهلكات في صور منجيات.

الفائدة السابعة: التجارب، فإنها تُستفاد من مخالطة الخلق، ومجاري أحوالهم، والعقل العريزي ليس كافياً في تفهم<sup>(٢)</sup> مصالح الدين والدنيا، وإنما تفيدها التجربة والممارسة، ولا خير في عزلة من لم تحنكه التجارب، فإذا اعتزل الصبي بقي عمراً<sup>(٣)</sup> جاهلاً، بل ينبغي أن يشتغل بالتعلم ويحصل له في مدة التعلم ما يحتاج إليه من التجارب فيكفيه ذلك، ويحصل ببقية التجارب بسماع الأحوال، فلا يحتاج إلى المخالطة، ومن أهم التجارب أن يجرب نفسه وأخلاقه وصفات باطنه، وذلك لا يقدر عليه في الخلوة، فإنه إذا خلا الحقد والحسود وذو الشر لم يترشح منه حُبته، وهذه الصفات مهلكات يجب إباطتها وقهرها، ولا يكفي تسكينها بالتباعد عمّا يحركها، والمخالطة تحركها فيعلم مقدارها.

(١) في (ظ): «ليس له معرفة».

(٢) في الأصل: «تفهم».

(٣) العمر: الذي لم يجرب الأمور.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي، قال: أخبرنا حمَّد بن أحمد قال: أخبرنا أبو نُعيم الحافظ، قال: أخبرنا جعفر بن محمد الخُلدي قال: حدثني الحنيد قال: سمعتُ السريِّ يقول: خَفِيتُ عَلَيَّ عِلَّةٌ ثَلَاثِينَ سَنَةً؛ وذلك أَنَا كُنَّا جَمَاعَةً نُبَكِّرُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَلَنَا أَمَاكِنٌ قَدْ عُرِفَتْ بِنَا لَا نَكَادُ نَخْلُوها عَنْهَا، فَمَاتَ رَجُلٌ مِنْ جِيرَانِنَا يَوْمَ جُمُعَةٍ، فَشِيعَتْ جَنَازَتُهُ، فَأَصْبَحْتُ عَنْ وَقْتِي ثُمَّ جِئْتُ فَلَمَّا أَنْ قَرِبْتُ مِنَ الْمَسْجِدِ قَالَتْ لِي نَفْسِي: الْآنَ يَرُونَكَ وَقَدْ أَصْبَحْتَ وَتَخَلَّفْتَ عَنْ وَقْتِكَ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتُ لِنَفْسِي: أَرَأَيْتَ مِنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَأَنَا لَا أُدْرِي! فَتَرَكْتُ ذَلِكَ الْمَكَانَ الَّذِي كُنْتُ آتِيَهُ، وَجَعَلْتُ أَصْلِي فِي أَمَاكِنٍ مُخْتَلِفَةٍ لئَلَّا يُعْرَفَ مَكَانِي. وَقَدْ حَكَى بَعْضُهُمْ عَنْ سَرِيٍّ أَنَّهُ قَالَ: فَأَعَدْتُ صَلَاةَ ثَلَاثِينَ سَنَةً.

فإذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها تحققت أن الحكم عليها مطلقاً بالتفصيل نفيًا أو إثباتًا خطأ، بل ينبغي أن يُنظر إلى الشخص وحاله، وإلى الباعث على مخالطته، وإلى الفأيت بسبب مخالطته من الفوائد، ويُقاسُ الفأيتُ بالحاصل، فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل، وقد قال الشافعي: الانقباضُ عن الناس مكسبةٌ للعداوة، والانبساطُ إليهم مجلبةٌ لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط.

كذلك يجب الاعتدال في المخالطة والعزلة، ويختلف ذلك بالأحوال. وبملاحظة الفوائد والآفات<sup>(١)</sup> يبين الأفضل، فهذا هو الحق الصراح، وكل ما دكر سوى هذا فهو قاصر، وإنما هو إخبار كل واحدٍ عن حالة خاصةٍ هو فيها، فلا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له في الحال.

فإن قيل: فما آداب العزلة؟

قلنا: ينبغي للمعتزل أن ينوي بعزله كَفَّ شَرِّ نَفْسِهِ عَنِ النَّاسِ أَوَّلًا، ثُمَّ طَلَبَ السَّلَامَةَ مِنْ شَرِّ الْأَشْرَارِ ثَانِيًا، ثُمَّ الْخِلَاصَ مِنْ آفَةِ الْقُصُورِ عَنِ الْقِيَامِ بِحَقُوقِ الْمُسْلِمِينَ ثَالِثًا، ثُمَّ تَجْرِيدَ الْهَمَّةِ لِعِبَادَةِ اللَّهِ رَابِعًا، فَهَذِهِ آدَابُ نَيْتِهِ.

ثم ليكن في خلوته مواظباً على العلم والعمل والذكر والفكر ليجتني ثمرة

(١) تحرف في (ظ) إلى: «وربما خطر الفوائد والأوقات».

العزلة، وليمنع الناس عن أن يكثرُوا غُشيانه وزيارته، ليصفو وقته، وليكفَّ عن السؤال عن أخبارهم وعن الإضغاءِ إلى أراجيف البلد، وما الناس مشغولون به، فإن جميع ذلك يَنعُرس في القلب حتى ينبعث في أثناء الصلاة، فوقع الأخبار في السَّمع كوقوع البذر في الأرض، لا بد أن ينبت وتتفرَّع العروق والأغصان.

وأحد مهمات المعتزلِ قَطْع الوَساوس الصَّارفة عن ذكرِ الله تعالى، والأخبارِ ينابيعِ الوَساوسِ وأصولها، وليقنع باليسير من المعيشة وإلا اضطرَّه التوسُّع إلى مخالطة الناس، وليكن صبوراً على ما يلقاه من أذى الناس، ولا يُصغي إلى الثناء عليه بالعزلة ولا القَدْح فيه بتركِ الخُلطة، فإن ذلك يُؤثر في القلب، فيقف عن السيرِ.

والسيرُ في طريق الآخرة إما بالوردِ والذكر مع حضور القلب، أو بالفكر في عظمة الله ومُلْكه، أو بالتأمل لدقائق الأعمال ومفاسدِ القلب<sup>(١)</sup>، وطلب الخلاص منها، وكل ذلك يفتقر إلى الفراغ، فلا يحتمل ما يكدر القلب ويشغله، وليكن له جليسٌ صالحٌ يستريح إليه ساعةً عن كدِّ المُواظبةِ ففي ذلك عونٌ على بقية الساعات.

ولا يتمُّ له الصبرُ في العزلة إلا بقَطْع الطَّمع عن الدنيا، ولا ينقطع طمعه إلا بقَصْر الأمل، فيُقَدَّرُ أنه إذا أصبح لا يُمسي، وإذا أمسى لا يُصبح، فيسهل عليه صبرُ يوم، وليكن كثيرَ الذُّكرِ للموتِ ووَحدةِ القَبْرِ متى ضاق قلبه من الوحدة، وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكرِ الله ومَعرفته ما يَأْنَسُ به لم يُطق وَحشةَ الوحدة بعد الموت، وأنَّ من أنَسَ بذكرِ الله ومَعرفته لم يزل الموتُ أُنْسَهُ؛ لأن الموتَ لا يهدم محلَّ الأُنسِ والمعرفة، كما قال تعالى في حقِّ الشُّهداء: ﴿بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وكلُّ مُتجردٍ لله في جهادِ نفسه، فهو شهيدٌ، كما قال [بعض الصحابة]<sup>(٢)</sup> رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر.

### آخر كتاب العزلة

(١) في (ظ): «القلوب».

(٢) زيادة يستقيم بها السياق.

## كتاب آداب السفر

الحمدُ لله الذي هَيَّأ قُلُوبَ أَوْلِيَائِهِ لِقُبُولِ الْعِبَرِ، فَتَلَقَّفَتْهَا فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ، وَتَأَثَّرَتْ بِمَا شَاهَدَتْ مِنْهَا أَحْسَنَ الْأَثَرِ، وَفَهِمْتَ الْمَرَادَ بِهَا وَخَبِرْتَ الْخَبَرَ، وَصَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الْبَشَرِ، وَعَلَى أَصْحَابِهِ الْمِيَامِينَ الْغُرَرَ، الْمُقْتَفِينَ آثَارَهُ فِي الْأَخْلَاقِ وَالسِّيَرِ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أما بعد؛ فَإِنَّ السَّفَرَ وَسِيلَةٌ إِلَى الْخَلَاصِ مِنْ مَهْرُوبٍ عَنْهُ، أَوْ الْوَصُولِ إِلَى مَرْغُوبٍ فِيهِ، وَالسَّفَرُ سَفَرَانِ: سَفَرٌ بظَاهِرِ الْبَدَنِ عَنِ الْوَطَنِ إِلَى الْبَرِّ، وَسَفَرٌ بِسِرِّ الْقَلْبِ عَنِ السَّافِلِينَ إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ.

وَأَشْرَفُ السَّفَرَيْنِ السَّفَرُ الْبَاطِنُ، فَإِنَّ الْوَاقِفَ عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا عَقِيبُ الْوِلَادَةِ الْجَامِدَ عَلَى مَا تَلَقَّنَهُ بِالتَّقْلِيدِ مِنَ الْأَبَاءِ لِأَزْمِ دَرَجَةِ الْقُصُورِ، وَقَانِعُ بَرْتَبَةِ النَّقْصِ، وَمُسْتَبَدِّلٌ بِمَتَّعٍ عَرْضُهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ظِلْمَةَ السَّجْنِ وَضِيقَ الْحَبْسِ.

قال أبو الطَّيِّبِ:

وَلَمْ أَرَ فِي عِيُوبِ النَّاسِ شَيْئًا كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

إِلَّا أَنَّ هَذَا السَّفَرَ لَمَّا كَانَ مُقْتَحِمُهُ فِي خَطْبٍ خَطِيرٍ لِعَمُوضِ السَّبِيلِ وَفَقْدِ الْخَفِيرِ، أَنْدَرَسَتْ مَسَالِكُهُ، وَانْقَطَعَ فِيهِ الرَّفَاقُ، فَمَنْ يُسَّرْ لَهُ هَذَا السَّفَرُ لَمْ يَزَلْ مُتَنَزِّهًا فِي الْجَنَّةِ وَهُوَ سَاكِنٌ بِبَدَنِهِ فِي الْوَطَنِ، وَغَنَائِمُ هَذَا السَّفَرِ دَائِمَةٌ غَيْرُ مَمْنُوعَةٍ، وَثَمَرَاتُهُ مُتَزَايِدَةٌ غَيْرُ مَقْطُوعَةٍ، إِلَّا أَنْ يُغَيَّرَ الْمَسَافِرُ فِي سَيْرِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بَأَنْفُسِهِمْ.

فَأَمَّا سَفَرُ الْبَدَنِ؛ فَقَدْ يَكُونُ فِي طَلْبِ الْعِلْمِ وَالِدِينِ وَالْكَفَايَةِ.

وله آدابٌ وشُرُوطٌ مَنْ قام بها كان من عُمَّال الآخِرَةِ، وَمَنْ أَهْمَلَهَا كان من عُمَّال الدنيا، ونَحْنُ نذكر آدابَهُ وشُرُوطَهُ في بابَيْنِ إِنْ شاءَ اللهُ تَعَالَى.

١) الباب الأول: في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع.

الباب الثاني: فيما لا بد للمسافر من تعلُّمه مِنْ رُحْصِ السَّفَرِ وأدلة القبلة والأوقات<sup>(١)</sup>.

(١-١) ليس في الأصل.

## الباب الأول

### في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع

وفيه فصلان:

#### الفصل الأول

##### في فوائد السفر وفضله ونيته

اعلم أن للسفر فوائد وآفات، فالفوائد الباعثة على السفر لا تخلو من هربٍ أو طلب، فإنَّ المسافر إما أن يكون له مُزعجٌ عن مقامه، ولولاه لما كان له مقصد يُسافر إليه، وإما أن يكون له مقصد ومطلب.

والمهروبُ عنه: إما أمرٌ له نكايَةٌ في الأمور الدُّنياويَّة، كالطَّاعون والوباء إذا ظهر ببلدٍ، أو خوفٌ سببه فتنة وخصومةٌ، أو غلاءٌ سعيرٌ، وهو إما عامٌّ كما ذكرنا، أو خاصٌّ كمن يقصد تأذيه في بلدٍ فيهرب منها.

وإما أمرٌ له نكايَةٌ في الدين، كمن ابتلي في بلده بجاهٍ ومالٍ واتَّسع أسبابُ تصدُّه عن التَّجرد لله تعالى، فيؤثر العُربة والخمول<sup>(١)</sup>، ويجتنب السَّعة والجاه، وكمن يُدعى إلى بدعةٍ قهراً، أو إلى ولايةٍ عمليٍّ لا تحلُّ مباشرته، فيطلب الفرار منه.

وأما المطلوبُ، فهو إما دُنياوي، كالمال والجاه، أو ديني، والديني، إما علمٌ أو عمَلٌ، والعلمُ إما من العلوم الدُّينيَّة، وإما علمٌ بأخلاق المُسافر وخصائصه على سبيل التَّجربة، وإما علمٌ بآياتِ الأرض وعجائبها، كسفر ذي القرنين.

والعمل: إما عبادةٌ، كالحج والعمرة والجهاد، وإما زيارة، كقصد المدينة وبيت

(١) تحرفت في الأصل إلى: «المحمول».

المقدس والثُّغور، فإنَّ الرِّباطَ بها قُرْبَةٌ، وقد يُقصدُ بها الأولياء والعُلَماء، وقد خَرَجَ من هذه القسمة أقسامٌ:

القسم الأول: السَّفَرُ في طلبِ العِلْمِ، وهو إما واجبٌ وإما نَفْلٌ، وذلك بحسَبِ كَوْنِ العِلْمِ واجباً أو نَفْلاً، وذلك العِلْمُ إما عِلْمٌ بأمور دينية، أو بأخلاقه في نَفْسِهِ، أو بآياتِ الله في أرضه، وقد قال الرسول ﷺ: «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ فِي طَلْبِ العِلْمِ، فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله حَتَّى يَرْجِعَ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الجَنَّةِ».

وكان سعيدُ بن المسيَّب يُسافرُ الأيامَ في طلبِ الحديثِ الواحدِ.

وقال الشَّعْبِيُّ: لو سافرَ رجلٌ من أَقصى الشامِ إلى أَقصى اليَمَنِ في كلمةٍ تَدُلُّهُ على هُدًى ما كان سَفَرُهُ ضائعاً. وقد رحلَ جابرُ بن عبد الله من المدينة إلى مصر، فسارَ شهراً في حديثٍ بلغه.

وقلَّ مذكورٌ بالعلمِ محصلٌ من زَمَانِ الصَّحَابَةِ إلى زَمَانِنَا إلا وَقَدْ حَصَلَ العِلْمُ بالسَّفَرِ وسافرَ لأجله.

وأما عِلْمُهُ بِنَفْسِهِ وَأَخْلَاقِهِ، فَذَلِكَ أَيْضاً فَهْمٌ، فَإِنْ طَرِيقَ الآخِرَةِ لَا يُمكنُ سُلُوكُهَا إِلَّا بِتَحْسِينِ الخُلُقِ وَتَهْدِيهِ، وَمَنْ لَا يَطَّلِعُ عَلَى أسرارِ<sup>(١)</sup> باطنه وَخَبَائِثِ صِفَاتِهِ لَا يَقْدِرُ عَلَى تَطْهِيرِ القَلْبِ مِنْهَا، وَإِنَّمَا سُمِّيَ السَّفَرُ سَفَرًا؛ لِأَنَّهُ يُسْفِرُ عَنِ الأَخْلَاقِ.

وبالجُمْلَةِ؛ فَالنَّفْسُ فِي الوَطَنِ لَا تُظْهِرُ خَبَائِثَ أَخْلَاقِهَا لِاسْتِنْسَاسِهَا بِمَا يُوَافِقُ طَبْعَهَا مِنَ المألوفاتِ المَعهودةِ، وَامْتَحَنَتْ بِمَشَاقِّ العُرْبَةِ انكشفت عَوَائِلُهَا، وَوَقَعَ الوَقُوفُ عَلَى عُيُوبِهَا، فَيَمكِنُ الاِشْتِغَالُ بِعلاجِهَا.

وقد ذَكَرْنَا فِي كِتَابِ العُزْلَةِ فَوَائِدَ المُخَالَطَةِ مَعَ زِيَادَةِ اشْغَالِ واحْتِمَالِ مَشَاقِّ.

وأما آيَاتُ الله فِي أرضِهِ، فَفِي مُشَاهَدَتِهَا فَوَائِدٌ لِلْمُسْتَبْصِرِ، فَفِيهَا قِطْعٌ مُتجاورات، وَفِيهَا الجِبَالُ وَالبَرَارِي وَالبَحَارُ، وَأَنْوَاعُ الحَيوانِ وَالنَّبَاتِ، وَمَا مِنْ

(١) فِي الأَصْلِ: «بأسرار».

شَيْءٍ إِلَّا وَهُوَ شَاهِدٌ لِّلَّهِ تَعَالَى بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَمُسَبِّحٌ لَّهُ بِلِسَانٍ ذَلِيقٍ<sup>(١)</sup> لَا يُدْرِكُهُ إِلَّا مَنْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ، وَأَمَّا الْجَاحِدُونَ وَالْغَافِلُونَ وَالْمُعْتَرُونَ بِلَامِعِ السَّرَابِ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَبْصُرُونَ وَلَا يَسْمَعُونَ؛ لِأَنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ مَعزُولُونَ وَعَنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ مَحْجُوبُونَ ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧] وَمَا يَرِيدُ بِذَلِكَ السَّمْعَ الظَّاهِرَ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ السَّمْعَ الْبَاطِنَ، فَبِهِ يُدْرِكُ نُطْقَ لِسَانِ الْحَالِ، كَقَوْلِ الْقَائِلِ حِكَايَةَ لِكَلَامِ الْوَتْدِ وَالْحَائِطِ: قَالَ الْجِدَارُ لِلْوَتْدِ: لِمَ تَشَقُّنِي؟ فَقَالَ: سَلْ مَنْ يَدُقُّنِي فَلَمْ يَتْرِكْنِي، وَرَائِي الْحَجَرُ الَّذِي وَرَائِي.

وَمَا مِنْ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا وَلَهَا أَنْوَاعٌ شَهَادَاتٍ لِّلَّهِ سُبْحَانَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ هِيَ تَوْحِيدُهَا، وَأَنْوَاعٌ شَهَادَاتٍ لِصَانِعِهَا بِالتَّقْدِيسِ هِيَ تَسْبِيحُهَا، وَلَكِنْ لَا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحُهَا؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُسَافِرُوا مِنْ مَضِيْقِ سَمْعِ الظَّاهِرِ إِلَى فُضَاءِ سَمْعِ الْبَاطِنِ، وَمَنْ رَكَكَاةَ لِسَانِ الْمَقَالِ إِلَى فَصَاحَةِ لِسَانِ الْحَالِ، وَمَنْ يُسَافِرُ لِيَسْتَقِرَّ فِي هَذِهِ الشَّهَادَاتِ مِنَ الْأَسْطَرِ الْمَكْتُوبَةِ بِالْخُطُوطِ الْإِلَهِيَّةِ عَلَى صَفْحَاتِ الْجَامِدَاتِ، لَمْ يُطَلِّ سَفْرَهُ بِالْبَدَنِ، بَلْ يَسْتَقِرُّ فِي مَوْضِعٍ وَيُفْرَغُ قَلْبَهُ لِلتَّمَتُّعِ بِسَمَاعِ نَعْمَاتِ التَّسْبِيحَاتِ مِنْ أَحَادِ الذَّرَاتِ، فَمَالَهُ وَلِلتَّرَدُّدِ فِي الْفَلَوَاتِ وَلَهُ غُنِيَّةٌ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّجُومِ مَسْخَرَاتٍ، وَهِيَ إِلَى أَبْصَارِ ذَوِي الْبَصَائِرِ مَسَافِرَاتٍ فِي الشَّهْرِ وَالسَّنَةِ مَرَاتٍ، بَلْ هِيَ دَائِبَةٌ فِي الْحَرَكَةِ عَلَى تَوَالِي الْأَوْقَاتِ، فَمِنْ الْغَرَائِبِ أَنْ يَدَابَّ فِي الطَّوَافِ بِأَحَادِ الْمَسَاجِدِ مَنْ أَمَرَتِ الْكَعْبَةُ أَنْ تَطُوفَ بِهِ، وَمِنْ الْغَرَائِبِ أَنْ يَطُوفَ فِي أَكْنَافِ الْأَرْضِ مَنْ تَطُوفَ بِهِ أَقْطَارُ السَّمَاءِ، ثُمَّ مَا دَامَ الْمَسَافِرُ مُفْتَقِرًا إِلَى أَنْ يُبْصِرَ عَالَمَ الْمَلِكِ وَالشَّهَادَةَ بِالْبَصَرِ الظَّاهِرِ فَهُوَ بَعْدُ فِي الْمَنْزِلِ الْأَوَّلِ مِنْ مَنَازِلِ السَّائِرِينَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْمَسَافِرِينَ إِلَى حَضْرَتِهِ، وَكَأَنَّهُ مَعْتَكِفٌ عَلَى بَابِ الْوَطَنِ لَمْ يُفِضْ بِهِ السَّيْرَ إِلَى مُتَسِّعِ الْفُضَاءِ، وَلَا سَبَبَ لَطُولِ الْمَقَامِ فِي هَذَا الْمَنْزِلِ إِلَّا الْجُبْنَ أَوْ الْقُصُورَ، فَرَبَّ سَالِكٍ أَخَذَ التَّوْفِيقَ بِيَدِهِ فَأَرْشَدَهُ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَالْأَكْثَرُونَ مِنْ رُكَّابِ هَذِهِ الطَّرِيقِ هَالِكُونَ فِي التِّيهِ، فَإِنَّ الَّذِي يَمْلِكُ، وَلَا يَتَصَدَّى لَطَلْبِ الْمَلِكِ الْعَاجِزُ الْجَبَانُ لِعَظْمِ الْخَطَرِ وَطُولِ التَّعَبِ:

(١) ذَلِيقٌ: فَصِيحٌ.

وإذا كانت النفوس كباراً      تَعَبَّتْ في مرادها الأجسامُ  
وما أودع الله العِزَّ والملك في الدين والدنيا إلا في مَن الخَطَر، فهذا حُكْم  
السفر الظاهر إذا أُريد به السَّفر الباطن لمطالعة آيات الأرض، فلنرجع إلى الغرض  
الذي كُنَّا نقصده، ولنبين:

القِسْم الثاني: وهو أن يُسافر لأجل العِبادة، إما لجهادٍ أو حَج، وقد ذكرنا  
فضلَ ذلك وآدابه وأعماله الظَّاهرة والباطنة في كتاب أسرار الحَج، ويدخل في  
جُمْلته زيارة قُبور الأنبياء والأولياء<sup>(١)</sup> والصالحين، وزيارة الأحياء أولى من زيارة  
الأموات للتخلُّق بأخلاقهم، والنظر إليهم سوى ما ينتظر من الفوائد العلمية  
المُستفادة من أنفاسهم وأفعالهم، وأما البِقاع فلا معنى لزيارتها سوى المَساجد  
الثلاثة، والثغور للرباط بها، وقد ذكرنا فضائل الحَرَمين في كتاب الحج، وبيت  
المقدس له فضل أيضاً.

القِسْم الثالث: أن يكونَ السفر للهَرَب من سَببٍ مُشَوِّشٍ للدين، وذلك أيضاً  
حَسَنٌ، فالفرار مما لا يُطاق من سُنن المرسلين، ومما يجب الهربُ منه الولاية  
والجَاهُ وكثرةُ العلائق، والأسباب إذا كانت تكدرُ فراغَ القلب، والدينُ لا يتم  
إلا بقلبٍ فارغٍ عن غيرِ الله عز وجل، فإن لم يتم فراغه، فيَقدرُ فراغه يُتصوَّر أن  
يشتغل بالدين، ولا يُتصوَّر فراغ القلب في الدنيا عن مُهمات الدنيا والحاجات  
الضرورية، ولكن يُتصوَّر تخفيفُها وتقليلُها، وقد نَجى المُخفُّون وهلك المُثقلون،  
والمُخفُّ هو الذي ليست الدنيا أكبرَ همِّه، وذلك لا يَتيسَّر في الوطن لمن اتَّسع  
جَاهُه وكثرت علائقُه فلا يتم مقصوده إلا بالعُرْبَة والخمول وقطع العلائق التي له  
عنها بُدٌّ حتى يَروضَ نفسه مُدَّةً، ثم ربما يمده الله تعالى بمعونته، فينعم عليه بما  
يُقوي به نفسه ويطمئن به قلبه، فيستوي عنده الحَضْر والسَّفر ويتقاربُ عنده وجود  
الأسباب والعلائق وعدمها، فلا يَصدهُ شيءٌ منها عما هو بصدده من ذكرِ الله  
تعالى، وذلك مما يَعزُّ وجوده جداً، بل الغالب على القلوب الضَّعْف والقُصور عن

(١) ليست في (ظ).

الاتساع للخلق والخالق، وإنما يسعدُ بهذه القوة الأنبياء والأولياء، والوصول إليها بالكسب شديد، وإن كان للاجتهاد والكسب فيه مدخل أيضاً.

ومثال تفاوت القوة الباطنة فيه تفاوت القوة الظاهرة في الأعضاء، فرب رجل قوي ذي مرّة سوي شديد الأعصاب مُحكّم البنية يستقل بحمل ما وزنه ألف رطل مثلاً، فلو أراد الضّعيف المريض أن ينال رُتبته بممارسة الحَمَل والتدرّج فيه قليلاً قليلاً لم يقدر عليه، ولكن الممارسة والجهد يزيد في قوته زيادةً ما، وإن كان ذلك لا يُبلّغه درجته فلا ينبغي أن يترك الجهد عند اليأس عن الرتبة العليا، فإن ذلك غاية الجهل وقد كان من عادة السلفِ مُفارقة الوطن خيفةً من الفتن، قال سُفيان الثوري: هذا زمانٌ ينتقل فيه الرجلُ من بلدٍ إلى بلدٍ كلما عُرفَ في موضعٍ تحوّل إلى غيره.

القسم الرابع: السفر هرباً مما يقدر في البدن، كالتاعون، أو في المال، كغلاء السّعر وما يجري مجراه، فأما الهرب من الطاعون فمُسْتَنَى لورود النهي عنه، ففي الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن عوف عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سَمِعْتُمْ به يعني الطاعون بأرضٍ فلا تقدّموا عليه، فإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها، فلا تخرجوا فراراً منه».

وفيها من حديث أسامة بن زيد عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سَمِعْتُمْ بالطاعون بأرضٍ فلا تدخّلوها، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا منها». وفي أفراد البخاري من حديث عائشة أنها سألت نبيّ الله ﷺ عن الطاعون فأخبرها «إنه كان عذاباً يبعثه الله عز وجل على من يشاء فجعله الله عز وجل رحمةً للمؤمنين، فليس من عبد يقع الطاعون فيمكن في بلده صابراً مُحْتَسِباً يعلم أنه لم يُصبه إلا ما كتَبَ اللهُ عز وجلّ له، إلا كان له مثل أجر الشّهِيد». وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «الطّاعون شهادةٌ لكل مسلم».

وأما الخروج لغلاء السّعر فحَسَنٌ، قال أبو نُعَيْم: رأيتُ سُفيان الثوري وقد علق قُلْتَهُ بيده ووضع جرابه على ظهره فقلْتُ: إلى أين يا أبا عبد الله؟ فقال: قد بلّغني عن قريةٍ فيها رُحْصٌ أريد أن أقيم بها. فقيل: وتُفعل هذا يا أبا عبد الله؟ فقال:

نعم، إذا بلغك أن قرية فيها رُخصٌ فأقم بها فإنه أسلمٌ لدينك، وأقلُّ لهمك. وهذا هربٌ من غلاءِ السَّعر.

فهذه أقسام الأسفار، وقد خرج منها أن السَّفر ينقسم إلى مذمومٍ ومحمودٍ ومباحٍ، والمذمومُ ينقسم إلى حرامٍ، كإباقِ العبد وسفرِ العاق، وإلى مكروهٍ، كالخروجِ من بلد الطاعون، والمحمودُ ينقسم إلى واجبٍ كالحجِّ وطلبِ العلمِ الذي هو فريضة على كلِّ مسلمٍ، وإلى مندوبٍ كزيارة العلماء.

وينبغي أن تكونَ النية في السفر طلبَ الآخرة إلا أنَّ ذلك ظاهر في الواجب والمندوب، ومُحال في المكروه والمحذور، وأما المباح فمتى كان قصده بطلب المال التَّعَفُّف عن السؤال ورعاية سترِ المروءة على الأهل والعيال، والتَّصدق بما فَضَّل من مبلغ الحاجة صار هذا المباح بهذه النية من أعمال الآخرة، ولو خرج إلى الحجِّ وباعثه الرِّياء والسُّمعة خَرَج عن كونه من أعمال الآخرة، والأعمال بالنيات.

وأما النظر في أن السَّفر أفضل أو الإقامة؟ فهو يُضاهي النظر في أن الأفضل هو العزلة، أو المخالطة، وقد ذكرنا منهاجه في كتاب العزلة، فليفهم هذا منه، فإن السفر نوعٌ مخالطةٍ مع زيادة تعبٍ ومشقة تُفرِّقُ الهَمَّ وتُشَتِّتُ القلبَ في حق الأكثرين فتارةً يخاف المسافر على نفسه وماله، وتارةً ينزعج لمفارقة ما أَلْفَه واعتاده في إقامته، وإن لم يكن معه مالٌ لم يَخَل من الطَّمع والاستِشْرافِ إلى الخَلْق، والأفضل ما هو الأعْوَن على الدين، ونهاية ثمرة الدين في الدنيا تحصيلُ معرفة الله تعالى والأُنسُ بذكره، وكلاهما يحصل بدوام الفكر، والسَّفر معينٌ على التعلُّم في الابتداء، والإقامة هي المعينة على العمل بالمتعلِّم في الانتهاء.

وأما السَّيَاحَةُ في الأَرْض لا لمقصودٍ ولا إلى مكانٍ معروفٍ فأمرٌ منهِّي عنه، فقد رُوينا من حديث طاووس أن النبي ﷺ قال: «لا رَهْبانيةَ ولا تَبْتَلٌ ولا سِياحةَ في الإسلام». وقال الإمام أحمد بن حنبل: ما السَّيَاحَةُ من الإسلام في شيءٍ، ولا من فَعَلَ التَّبْيِينِ ولا الصالِحِينَ. وقد أخبرنا ابن الحُصَيْن قال: أخبرنا ابن المُذْهِب قال: أخبرنا أبو بكر بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال:

حدثنا أيوب بن النجار عن طيب بن محمد بن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة قال: لعن رسول الله ﷺ راكب الفلاة وحده.

وقد ذكرنا أن السفر يُشتت القلب، فلا ينبغي للمريد أن يسافر إلا في طلب علم أو مشاهدة شيخ يقتدي به في سيرته، وكلما قوي عند المريد الفكر أو حُب العمل والجد كان السكون به أولى، فهذا القول في أقسام السفر ونية المسافر.

## الفصل الثاني

### في آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه

وهي خمسة عشر أدباً:

الأول: أن يبدأ بردّ المظالم، وقضاء الديون، وإعداد التفقة لمن يلزمه نفقته، وردّ الودائع، وقد ذكرنا هذا مع تمامه في كتاب الحج.

الثاني: أن يختار رفيقاً.

الثالث: أن يودع الأهل والأصدقاء، وكل هذا مشروح في كتاب الحج.

الرابع: أن يصلي صلاة الاستخارة، وقد سبقت في كتاب الصلاة.

الخامس: البُكور.

السادس: أن يكون سفره يوم الخميس.

السابع: الخروج من منزله.

الثامن: إذا حصل على باب الدار.

التاسع: في الركوب.

العاشر: أن يكون أكثر سيره بالليل.

الحادي عشر: أن لا يمشي منفرداً.

الثاني عشر: ما يقول إذا علا نشزاً أو هبط وادياً.

الثالث عشر: في التّزول وما يقول في المنزل.

الرابع عشر: أن يَستصحب معه ما يصلحه كالسواك والمشط والمكحلة والمرآة<sup>(١)</sup>.

الخامس عشر: في آداب الرجوع من السفر، وكل هذه الأشياء مَشروحة في كتاب الحج فلم نرَ إعادتها، فلتُطالع من هُناك.

وأما الآدابُ الباطنة، فجملتها: أن لا يُسافر إلا إذا كان دينه يَزيد بالسّفر، ومتى وجد قلبه مُتغيراً إلى نُقصانٍ فليقف، وليعلم أن سَفَره مَعْلول، وليتَو في دخول كل بلدة أن يرى شُيوخها، وأن يستفيد من عُلومهم وآدابهم ليعمل بذلك، لا ليقول: لقيت. فإذا قصد الشيخ أقام على بابهِ حتى يخرج، ويستأذنه في السؤال قبل أن يَسأل، فإن زارَ أحاً له لم يَقم عنده أكثر من ثلاثة أيام، فإنه حَدُّ الضّيفَةِ، وليكن سَفَر المرید من وَطَنِ هِوَاه ليعزَّز<sup>(٢)</sup> في غربته.

(١) ليست في (ظ).

(٢) في الأصل «ليفز».

## الباب الثاني

فيما لا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر  
وأدلة القبلة والأوقات

ينبغي للمسافر أن يتزوّد للدينا والآخرة، فأما زاد الدنيا فالمطعم والمشرب وما يحتاج إليه، وما ينبغي أن يقول: أخرج متوكلاً، فلا أحمل معي زاداً. فإن حمل الزاد لا يناقض التوكل، وقد قال تعالى: ﴿وَتَكَرَّوْا﴾ [البقرة: ١٩٧] وقد تزوّد موسى في لقاء الحضر، وتزود رسول الله ﷺ في خروجه إلى المدينة، وإنما نبغ قوم لم يفهموا فظنوا أن التوكل قطع الأسباب وهو جهل منهم بالعلم وأوضاع الحكمة، ولو كان التوكل ترك الأسباب لبطل على زعمهم تحمّل الرشا والدلو لينزع الماء من البئر، فإذا لم يقدح حمل ذلك في التوكل مع كونه آلة في التوصل إلى الماء، فكذلك حمل عين الماء والمطعم.

وأما زاد الآخرة فهو العلم الذي يحتاج إليه في طهارته وصلاته وعبادته، فإن السفر تارة يخفف عنه أشياء، فيحتاج إلى معرفة القدر الذي يخففه السفر، كالقصر والجمع والفطر، وتارة يشدد عليه أموراً كانت خفيفة عليه في الحضر، كالعلم بالقبلة وأوقات الصلاة، فإنه قد كان يكتفي في الحضر بأذان المؤذنين ومحارِبِ المساجد، فإذا ما يفتقر إلى تعلمه ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: العلم برخص السفر، والسفر يفيد في الطهارة رخصتين تتعلق بمسح الخف والتيمم، وفي صلاة الفرض رخصتين تتعلق بالقصر والجمع، وفي النفل رخصتين الصلاة على الراحلة والصلاة ماشياً، وفي الصوم رخصة واحدة، وهي الفطر، هذه سبع رخص.

الرخصة الأولى: المسح على الخفين، وفي أفراد مسلم من حديث علي رضي الله عنه أنه سئل عن المسح على الخفين، فقال: جعل رسول الله ﷺ ثلاثة

أيام ولياليهن للمسافر، ويوماً وليلةً للمقيم. وفي حديث صفوان بن عَسَّال قال: كُنَّا نَكُونُ مع رسول الله ﷺ يعني في السَّفَرِ فَيَأْمُرُنَا أَنْ لَا نَنْزِعَ خِفَافَنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا مِنْ جَنَابَةٍ، وَلَكِنْ مِنْ غَائِطٍ وَبَوْلٍ وَنَوْمٍ.

ويجوزُ المَسْحُ على الخُفَّينِ والجُرْمُوقِينَ<sup>(١)</sup> والجوربين ومن شرط جواز المَسْحِ أن يلبس الجميع بعد كمال الطَّهارة، وعن الإمام أحمد: لا يُشترط ذلك. ولا يجوز المَسْحُ إلا على ما يَسْتُرُ مَحَلَّ الفَرَضِ مِنَ الرَّجْلَيْنِ وَيَثْبُتُ بِنَفْسِهِ سِوَاهُ كَانَ جُلُوداً أَوْ لُبُوداً أَوْ حَشْباً أَوْ زُجَاجاً، فَإِنْ كَانَ فِيهِ خَرَقٌ يَبْدُو مِنْهُ بَعْضُ الْقَدَمِ، أَوْ كَانَ الْمَقْطُوعُ وَاسِعاً بِحَيْثُ يَرَى مِنْهُ الْكَعْبَانِ، وَكَانَ الْجُورِبُ خَفِيفاً يَصِفُ الْقَدَمَ أَوْ وَاسِعاً يَسْقُطُ مِنَ الرَّجْلِ لَمْ يَجْزِ المَسْحُ، فَإِنْ لَبَسَ مَعَ الْجُورِبَيْنِ نَعْلَيْنِ فَثَبَّتَا بِهِمَا جَازَ المَسْحُ عَلَيْهِمَا، فَمَتَى خَلَعَ النَعْلَيْنِ بَطَلَ وَضُوءُهُ.

والسُّنَّةُ أَنْ يَمَسَحَ أَعْلَى الخِفِّ دُونَ أَسْفَلِهِ وَعَقِبِهِ، فَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى مَوْضِعِ الْأَصَابِعِ ثُمَّ يَجْرُهَا إِلَى سَاقِهِ، وَابْتِدَاءً مَدَّةَ المَسْحِ مِنْ حِينَ الحَدَثِ بَعْدَ اللُّبْسِ فِي أَصْحَ الرَّوَايَتَيْنِ، وَفِي الْأُخْرَى: مِنْ حِينَ المَسْحِ بَعْدَ الحَدَثِ. وَإِذَا ظَهَرَ مِنْ قَدَمِهِ وَانْقَضَتْ مُدَّةُ المَسْحِ اسْتَأْنَفَ الوَضُوءَ فِي إِحْدَى الرَّوَايَتَيْنِ، وَفِي الْأُخْرَى يُجْزئُهُ غَسْلُ قَدَمَيْهِ.

وَمَنْ مَسَحَ وَهُوَ مُقِيمٌ ثُمَّ سَافَرَ، أَوْ مَسَحَ وَهُوَ مُسَافِرٌ ثُمَّ أَقَامَ أَتَمَّ مَسْحَ مُقِيمٍ، وَعَنْ الإِمَامِ أَحْمَدَ فَيَمْنِ مَسَحَ وَهُوَ مُقِيمٌ ثُمَّ سَافَرَ أَنَّهُ يَتَمُّ مَسْحَ مُسَافِرٍ، فَإِنْ شَكَّ هَلْ ابْتَدَأَ المَسْحَ فِي الحَضَرِ أَوْ فِي السَّفَرِ؟ احْتَاطَ فَبَنَى عَلَى مَسْحِ حَاضِرٍ، وَمَنْ ابْتَدَأَ المَسْحَ فِي السَّفَرِ أَتَمَّ مَسْحَ مُسَافِرٍ، وَإِنْ كَانَ قَدْ وَجَدَ مِنْهُ الحَدَثَ فِي الحَضَرِ.

وَيُسْتَحَبُّ لِمَنْ أَرَادَ لِبْسَ خُفَيْهِ أَنْ يَنْفِضَهُمَا حَذَرًا مِنْ آفَةٍ تَكُونُ فِيهِمَا كَشَوْكَةٍ أَوْ عَقْرَبٍ.

الرخصة الثانية: التَّيِّمُ، وَهُوَ بَدَلٌ عَنِ المَاءِ عِنْدَ العُذْرِ، وَقَدْ يُفَقَدُ المَاءُ وَقَدْ يَكُونُ مَوْجُوداً لَكِنَّهُ يَحُولُ بَيْنَهُمَا سَبْعٌ أَوْ عَدْوٌ، أَوْ يَحْتَاجُ إِلَى شُرْبِهِ، فَإِنْ احْتَاجَ إِلَيْهِ

(١) الجرْموق: ما يلبس فوق الخف لشدة البرد.

لطبخ مرققة أو لحم، أو بَلَّ فْتَيْتٍ<sup>(١)</sup> لم يَجْزُ له التَّيْمُ؛ لأنه يُمكنه أن يَجْتَرِيَّ بالفتيت اليابس ويترك تناول المرققة، فإن وَهَبَ له الماء وَجَبَ عليه القَبول، وإن وَهَبَ له ثَمَنه لم يَجِبَ عليه أن يَقْبَلَ لما فيه من المِنَّة، وإن بَعِ بَشْمِ المثل لزمه الشراء.

وإذا عَدِمَ الماء وَجِبَ عليه الطَّلَبُ بتفتيش الرَّحْلِ، وطلب البقايا في الأواني، والتَّردُّد حول المنزل.

وإذا نَسِيَ الماء في مَوْضِعٍ لولا النسيان لاستعمله وَصَلَّى بالتَّيْمِ أَعَادَ، فإن رَجَا وجودَ الماء أَخَّرَ التَّيْمَ إلى آخِرِ الوَقْتِ.

وقد ذكرنا كيفية التَّيْمِ في كتاب الطَّهارة.

وإذا وَجَدَ ما يكفيه لبعض بَدَنِهِ لزمه استعمله وتيَّم للباقي إن كان جُنْبًا، وإن كان مُحَدَّثًا فهل يَلْزِمُه استعماله؟ فيه وَجْهان، وإذا تَيَّم صَلَّى صلاةَ الوَقْتِ وَقَضَى فَوَائِتَ وَجَمَعَ بين الصَّلَاتَيْنِ، ويتنفل إلى أن يخرج الوَقْتِ، فإذا خرج استأنف التَّيْمَ للصَّلَاةِ الأُخْرَى في إحدى الروايتين، وفي الأُخْرَى يُصَلِّي به حتى يُحَدِّثَ، وإذا<sup>(٢)</sup> خَافَ زيادةَ المرضِ أو تَبَاطُؤَ البُرِّ باستعمالِ الماء جازَ له التَّيْمُ، وإذا<sup>(٣)</sup> خَافَ من شِدَّةِ البَرْدِ تَيَّمَّ وَصَلَّى ولا إعادةَ عليه إن كان مُسَافِرًا، وإن كان حَاضِرًا؟ فعلى روايتين.

وَمَنْ لَمْ يَجِدْ ماءً ولا تَرابًا صَلَّى، وهل يَلْزِمُه الإعادة؟ على روايتين.

**الرُّخْصَةُ الثَّلَاثَةُ:** في الصَّلَاةِ المفروضة القَصْرَ، ومتى سافر سَفْرًا يَبْلُغُ مرحلتين كل مَرَحَلَةٍ ثمانية فَرَسَخٍ، وكل فَرَسَخٍ ثلاثة أميال، وكل ميلٍ أربعة آلاف خطوة، وكان ذلك في غَيْرِ معصيةٍ مثل أن يخرج عاقًا لوالديه، أو هارِبًا من مالِكِهِ، أو من غَرِيمِهِ مع يَسَارِهِ، أو إلى قَطْعِ طريقٍ، أو سَعْيٍ في فَسَادٍ، فله أن يَقْصُرَ الرُّبَاعِيَّةَ فَيُصَلِّيها ركعتين إذا فارقَ بُيوتَ قَرِيْبَتِهِ، أو خيامِ قومه، فأما إذا خرجَ لا إلى مَقْصودٍ كالسَّائِحِ، فلا يجوزُ له التَّرْخُصُ<sup>(٣)</sup>.

(١) الفتيت: الخبز اليابس الذي يُقْتُ وَيُكْسَرُ ويبلل بالمرق ليؤكل.

(٢-٢) سقط من (ظ).

(٣) تحرفت في الأصل إلى: «الرخص».

والقَصْرُ أفضلُ من الإِتِمَامِ، وإذا نوى الإِقامة أكثر من أربعة أيام أتمَّ، وعن الإمام أحمد: إن نوى اثنين وعشرين صلاةً أتمَّ، وإن نوى دونها قَصَرَ، وإن أقام لقضاء حاجةٍ ولم ينو الإِقامة قَصَرَ أبداً، وكذلك إذا حبسه سلطان أو عدوٌ وهو في السَّفَرِ.

وإذا أحرَمَ في الحَضَرِ ثم سافر، أو أحرَمَ في السَّفَرِ ثم أقام أو ائتمَّ بمُقيمٍ أو بمن يشكُّ وهو مُقيمٍ أو مُسافرٍ، أو لم ينو القَصْرَ لزمه أن يُتَمَّ.

وإذا نسي صلاةً سافرٍ فذكرها في الحَضَرِ، أو صلاةً حَضَرٍ فذكرها في السَّفَرِ، أو سافر بعد دُخول الوقت لم يجزُ له القَصْرُ.

الرخصة الرابعة: الجَمْعُ بين الظهر والعصر في وقتيهما، وبين المغرب والعشاء في وقتيهما، وذلك جائزٌ في السفر الطَّويل دون القَصِيرِ، وهو مُخَيَّرٌ بين تأخير الأولى إلى وقت الثانية، وبين تقديم الثانية إلى وقت الأولى، والمستحبُّ التأخير، فإن جمعَ في وقتِ الأولى افتقرَ إلى ثلاثة شروط: أن يُقدِّمَ الأولى، وأن ينوي الجمعَ عند الإِحرامِ بالأولى في أحد الوجهين، وفي الآخر: يجوز أن ينوي بعد الفراغ من الأولى، وأن لا يُفرق بينهما إلا بقدرِ الإِقامة أو الوضوء، فإن صَلَّى بينهما سنَّةَ الصلاة بطلَ الجَمْعُ في إحدى الروايتين، وفي الأخرى: لا يبطل.

وإذا أرادَ الجمعَ في وقت الثانية كفاه نيَّةُ الجمعِ في وقت الأولى إلا أن يبقى منه قدر ما يُصليها، والترتيب، وهل يُشترط أن لا يفرق على وجهين أصحُّهما أنه لا يُشترط، وقال أبو بكر - من أصحابنا -: لا يفتقر الجَمْعُ والقَصْرُ إلى أن ينويهما، ولا ينبغي أن تُهمل النوافل في السَّفَرِ؛ لأن ثوابها أكثر من ربح السَّفَرِ.

وعُدُّ المطر مُجَوِّزٌ للجمع كعذر السفر، وترك الجمعة أيضاً من رُخصِ السَّفَرِ، ولو نوى الإِقامة بعد أن صَلَّى العَصْرَ فأدرك وقت العصر في الحَضَرِ، فعليه أداء العَصْرِ وما مضى إنَّما كان مُجزئاً بشرط أن يبقى العُدْرُ إلى خروج وقت العصر.

(<sup>١</sup> الرخصة الخامسة: التنفُّل على الراحلة<sup>١</sup>)، ولا يجب عليه في التنفُّل في السفر

استقبال القبلة، بل يُصَلِّي حيث توجَّه فإن أمكنه افتتاح الصلاة إلى القبلة لزمه ذلك، وأتمَّ الصلاة على حسب حاله، وسواء كان راكباً أو ماشياً.

الرخصة السادسة: التَّنَقُّلُ للماشي، وهو جائز في السفر، ويومئ بالركوع والسجود، ولا يعقدُ للتشهد؛ لأن ذلك يُبطل فائدة الرُّخْصَةِ، وحكمه حكم الراكب، لكن ينبغي أن يُحرم بالصلاة مُسْتَقْبِلاً للقبلة؛ لأن انحرافه في لحظة لا عُسَرَ فيه بخلاف الراكب، وكل هاربٍ من عدوٍ أو سَيْلٍ أو سَبْعٍ، فله أن يُصَلِّي الفريضة راكباً وماشياً على ما يمكن.

الرخصة السابعة: الفِطْر، وله أن يُفطر إلا إذا أصبح مقيماً ثم سافر، فإنه لا يجوز له إفطار ذلك اليوم، وعن الإمام أحمد رواية أخرى: يجوز له الإفطار، فإن قدم المسافر في أثناء النهار وهو مُفَطَّر لزمه القضاء رواية واحدة، وهل يجبُ عليه أن يُمسك بقية يومه؟ فيه روايتان.

والفِطْرُ والقَصْرُ في حقِّ المسافر أفضل من الصَّوم والإِتِمَام، فإن قيل: هل يجبُ على المسافر تعلُّم علم هذه الرُّخْص قبل السفر؟ فالجواب: أنه إذا لم يعزم على التَّرْخِص لم يلزمه إلا علم التَّيْمِمْ وَحده، فإن فقد الماء ليس إليه إلا أن يسافر على شاطئ نهرٍ يُوثَق ببقاء مائه، أو يكون معه عالم يقدر على استيفائه عند الحاجة فله أن يؤخَّر إلى وقت الحاجة.

فإن قيل: كيف قُلتُم: يجبُ عليه عِلْمُ التَّيْمِمْ، والصلاة التي يتيمَّم لها ما وجبتُ بعدُ؟

قلنا: كما يجبُ تعلُّم المناسك قبل الإِحرام.

القِسْم الثاني: ما يتجدَّد من الوظيفية بسبب السفر، وهو علم القبلة والأوقات وذلك أيضاً واجب في الحَضْر ولكنه في الحَضْر يُلغى في ذلك بمحرابٍ متَّفِقٍ عليه وبموذِنٍ يُراعي الوقت، فأما المسافر فلا بدَّ له <sup>(١)</sup> من العلم <sup>(١)</sup> بأدلة القبلة والمواقيت.

وُستَدلُّ على القبلة بالنُّجوم والشمس والرياح والمياه والجبال والمجرَّة، فأما النجوم، فأثبتها الحدي، وهو نجمٌ خفي يُعرف مكانه بالفرقدين؛ لأنهما دونه، وحوله بناتٌ نعش<sup>(١)</sup>، فإذا جعله المصلي حذاء ظهر أذنه اليمنى على علوها كان متوجهاً إلى باب البيت<sup>(٢)</sup>.

وأما الشمس، فإنها تطلع أبداً من يسرة المصلي محاذيةً لحرف كتفه اليسرى، وتغرب حذاء حرف كتفه اليمنى.

وأما الرياح، فالجنوب تهبُّ مُستقبلة لبطن كتف المصلي الأيسر مارّةً مما يلي وجهه إلى يمينه، والشمال مقابلتها تهبُّ من يمينه مارّةً إلى مهبّ الجنوب، والدبورُ مُستقبلة شطر وجه المصلي الأيمن، والصبا مُقابلتها تهبُّ من ظهر المصلي.

وأما المياه، فإنها تجري من يمين المصلي إلى يسرته على انحرافٍ قليل كدجلة والفرات ولا اعتبار بالأنهار المحدثّة ولا بنهر بخراسان وآخر بالشام يسمى كل واحد منهما المقلوب<sup>(٣)</sup>؛ لأنه يجري ماؤه من يسرة المصلي إلى يمينه.

والجبال: فأوجُّها جميعاً مُستقبلة البيت<sup>(٤)</sup>.

وأما المجرَّة، وتُسمى سرج السماء تكون أول الليل مُمتدة على كتف المصلي اليسرى إلى القبلة ثم يلتوي رأسها حتى يصير في آخر الليل على كتفه اليمنى.

وإذا اشتبَّهت عليه القبلة صلى بالاجتهاد، فإذا حضرت صلاةً أخرى اجتهد أيضاً، فإن خالف اجتهاده الأول لم يُعد الصلاة الأولى؛ لأن الاجتهاد لا يُنقض بالاجتهاد.

(١) بنات نعش: سبعة كواكب تُشاهد جهة القطب الشمالي شُبَّهت بحملة النعش.

(٢) يتحدث المصنف رحمه الله في هذا الموقع وما بعده عن المصلي الموجود في بلاد الشام وما والاها، أما لمن في بلاد اليمن ومصر والمغرب والمشرق فإن ذلك يختلف كلُّ بحسب موقعه.

(٣) النهر الذي يقصده هو نهر العاصي الذي يجري قرب مدينة حماة السورية، ويصب في البحر قرب أنطاكية، وسمي بالعاصي لأن الأنهار القريبة تتوجه من الشمال إلى الجنوب، وهو بعكسها. معجم البلدان ٦٧ / ٤.

(٤) فيما ذكره المصنف هنا نظر، فالواقع والمشاهدة يخالفان ذلك.

وأما معرفة أوقات الصلوات الخمس فلا بد منها، ووقت الظهر يدخل بالزوال، وكل شخص يقع له في ابتداء النهار ظلٌ مستطيل في جانب المغرب، ثم لا يزال ينقص إلى وقت الزوال، ثم يأخذ في الزيادة في جهة المشرق، ولا يزال يزيد إلى الغروب، فليقم المسافر في موضع أو لينصب عوداً مستقيماً وليعلم على رأس الظل، ولينظر، فإن رآه في النقصان فما دخل بعد وقت الصلاة، فإذا أخذ في الزيادة فقد زالت الشمس وهو أول وقت الظهر، وآخره إذا صار ظل كل شيء مثليه، وعن الإمام أحمد: أن آخره ما لم تصفر الشمس، ثم يخرج وقت الاختيار ويبقى وقت الجواز إلى الغروب، وأول وقت المغرب إذا غابت الشمس، وآخره إذا غاب الشفق الأحمر، فحينئذ تجب العشاء وآخر وقتها ثلث الليل، وعن الإمام أحمد: نصفه، والأفضل تأخيرها إلى آخر وقتها، ثم يذهب وقت الاختيار ويبقى وقت الجواز إلى طلوع الفجر الثاني، فإذا طلع فهو وقت صلاة الفجر.

ومن أدرك من الصلاة ركعة قبل أن يخرج الوقت فقد أدركها، ولا يجوز له أن يصلي حتى يتيقن دخول الوقت أو يغلب على ظنه.

آخر كتاب السفر





## كتاب السَّماع والوَجْد

الحمدُ لله الذي خَصَّ أوليائه بحقيقة معرفته، وأوقَد في قلوبهم نيرانَ مَحَبَّتِهِ<sup>(١)</sup>، وشَوَّقَهُمْ إلى لقاءه ورؤيته، على أنهم يرونه في كل وقتٍ في صَنَعَتِهِ، فيسمعون خطابه من كل مخلوقٍ بعبارة عَبَّرَتْه، أحمده والحمدُ من مَنَّتِهِ، وأصلي على رسوله محمدٍ وصحابته وتابعيههم بإحسانٍ على سُنَّتِهِ، وسلِّم تسليماً كثيراً.

واعلم أنَّ السماعَ الذي نَعْنِي به الغِناءُ مِن أكبر ما تَطَرَّقَ به إبليس إلى فساد القلوب، وَعَرَّ بِه خَلْقاً لا يُحصى من العلماء والزُّهاد فضلاً عن العوام حتى ادَّعوا حُضور القلوب<sup>(٢)</sup> مع الله عند سماع الأغانِي المُطربة، وظنُّوا أنَّ ما أوجِبَ السَّماع من طربِ القلوب وانزعاجها وَجُدُّ يتعلَق بالآخرة حتى رُبما خَفِيَ على النَّفس حال النفس، وإذا أردت أن تعرفَ الحقَّ، فانظُر في السُّرْبِ الأول هل فعل رسولُ الله ﷺ شيئاً من ذلك وأصحابه؟ ثم انظر إلى أقوال التابعين وتابعيهم وفقهاء الأمة كمالكٍ وأبي حنيفةٍ والشافعي وأحمد وكل القوم ذمُّوا الغِناء حتى قال مالك: إذا اشترى جاريةً فَوَجدها مغنية كان له رُدُّها، وسُئِلَ عن الغِناء فقال: إنما يَفْعَلُهُ عندنا الفُسَّاق، وسُئِلَ الإمام أحمد عن رجلٍ ماتَ وخَلَّفَ ولداً وجاريةً مُغنيَّةً، واحتاج الصبيُّ إلى بيعها فقال: تُباع على أنها سادجة لا مُغنيَّة، فقيل له: إنها تُساوي ثلاثين ألفاً، وإذا بيعت سادجةً ربما سويت عشرين ديناراً. فقال: لا تُباع إلا على أنها سادجة. وقد أطبقَ الفقهاء على الرَّجْر عن الغِناء، ومن المتأخِّرين أبو الطَّيِّب الطَّبري من كبار أصحابِ الشافعي صنَّفَ فيه كتاباً سمعناه عنه، وبالغ في النَّهي

(١) في الأصل: «معرفته».

(٢) في الأصل: «القلب».

عنه، وإنما تعلق بإباحته قوم مفتونون وقالوا: قد أجازهُ قومٌ من السلف، وقد سمع أحمد بن حنبل قولَ حنبلٍ قَوَّالٍ فقال: لا بأس بهذا. وينبغي للعاقل أن ينظر فيما أفتى بجوازه<sup>(١)</sup> (من أفتى<sup>(٢)</sup>) فليس سوى الأشعار الزُّهدية وما يُشبهها من غير ضربٍ بقضيبٍ أو آلةٍ تُطرب، ولا ضَمَّ تصنيفي إلى ذلك ولا رقص، وعلى هذا يُحمل حديث عائشة قالت: دخل عليّ أبو بكرٍ وعندي جاريتان من جَواري الأنصار تُغنيان بما تقاولت به الأنصار يومَ بُعث<sup>(٣)</sup> فقال أبو بكر: أبعزُّمورِ الشيطان في بيتِ رسولِ الله! فقال رسولُ الله ﷺ: «دَعهما يا أبا بكر، إن لكلِّ قومٍ عيداً وهذا عيدنا». ومعلوم أن ما تقاولت به الأنصار لا يُطرب ولو لحن، وسُئل الإمامُ أحمد عن القصائد الرقاق التي يقولونها، فقال: مثل أي شيء؟ فقيل له:

إذا ما قالَ لي ربي ما استخيتَ تعصيني

فقال: أعد عليّ. فهذا كان غناء القوم وما يُشبهه، والفقهاء كالطبيب ينبغي أن يزن الزمان والشخص ثم يصف، ولهذا قالت عائشة: لو علم رسولُ الله ﷺ ما أحدث النساء بعده لمنعهن المسجد.

وغير خافٍ أنه لم يكن للأوائل ما أحدثه الأواخر من الدفِّ بالصنج والشبابة والشعر الرقيق الذي يقولون فيه إذا غنوا:

ذهبي اللونٍ تحسبُ من وجنتيه النارُ تقتدحُ

خوفوني من فضيحتهِ ليتهُ وافى وأفتضحُ

ثم لا يدري لِنخوته أننا في اليوم نضطلحُ

وهذه الأشياء تُثيرُ دفاينَ النفوس من الهوى الكامن فيزعجُ، فيحسبُ الجاهل أن هذا الانزعاج يتعلق بالآخرة وهيئات! وليتهم قالوا: هذا مباحٌ من اللهو نستريح إليه. وإنما يظنونهُ قربةً، ويسمُون الطرب المخرج عن حدِّ العقلِ وجداً، وربما

(١-١) سقط من الأصل.

(٢) بُعث: موضع قرب المدينة وفيه كانت آخر موقعة بين الأوس والخزرج.

أوجبَ الطَّرْبُ ما لا يحلُّ من تَمزيقِ الثِّيَابِ وتخبُّطِ الواجِدِ، وكل هذا بمعزلٍ من طريق السَّلَفِ، وغير خافٍ على العاقل أنه ضلالٌ عن الجادة، فلا ينبغي أن يُغالط نفسه، وإنما الوجدُ الصحيحُ وُجْدان القلبِ عند سَماعِ القرآنِ والمواعظِ، فحينئذٍ يثور من الباطنِ خَوْفٌ من الوعيدِ وشَوْقٌ إلى الوعدِ، ونَدَمٌ على التَّفريطِ، وعَزْمٌ على الجِدِّ، وجميعُ هذه الحركاتِ الباطنة تُوجب سكونَ الظاهرِ وخموده لا الجَمْرُ<sup>(١)</sup> والتَّصفيقِ، ولم يَضِقْ علينا القرآنُ والمواعظُ وأشعارُ الزُّهدِ حتى احتجنا في إحضارِ القلوبِ إلى بابِ الله تعالى أن نذكر سَلْمَى وسُعدَى، ولا ننكر أنه قد يتفق في بعض تلك الأشعار ما يصلح أن يؤخذ إشارةً إلا أن الأغلبَ فيها إمالة القلوبِ إلى الهوى الدُّنياوي، فمثل من أراد أن يأخذ منها ما يصلح للآخرة كمثل مَنْ قال: أنا أنظرُ إلى الأمرِ المُستَحسنِ لأتعبَّجَ من صنعةِ القادرِ. فإنه قد أخطأ الطريقَ؛ لأن ما تستلبه الشهوة والطَّبَع عند التَّنظرِ يُكدرُ طريقَ الفكرِ ويشغل عنه، فلذلك نَمْنَعُه ونَقول: انظرِ إلى ما لا مُكدرَ فيه ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ [ق: ٦] ومن قال: إنه لا يؤثرُ عندي ما يؤثرُ عند غيري من انجذابِ الطبعِ إلى الهوى. كان مُدَّعياً ما يُخالف الجِبلةَ، فلا يلتفت إلى دَعواه، وقد كان صالحو السَّلَفِ إذا سَمعوا القرآنَ بكوا، وفيهم من كان يُغشى عليه ويموت، وقد كان فيهم من يسمع بيتاً من الشُّعرِ فيأخذ منه إشارةً تُزعجه وتبكيه، فأما الغناء المطربِ فإفساده أكثر من إصلاحه، وقد بالغتُ في الكَشْفِ عن هذا كلِّه في كتابي المسمَّى: «تَلْبِيسُ إبليس» فلم أرَ التَّطويلِ هاهنا بذكر ذلك،<sup>(٢)</sup> وفيما ذكرته كفاية<sup>(٣)</sup>.

### آخر كتاب السَّماع والوَجِد



(١) الجَمْرُ: الوَثْب.

(٢-٢) ليس في (ظ).



## كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الحمد لله أولى من يُعبدُ ويُذكر، وأحقُّ من يُمدحُ ويُشكر، المعروف عند أرباب<sup>(١)</sup> العقول فلا يُنكر، زجر عن المعاصي وخوفٌ وذکر، وأقام أولياءه يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

أحمدُه حمدَ من فهم وتَفكَّر، وأصلي على رسوله محمدٍ أشرف من راح وبكَّر، وعلى أصحابه وأتباعه إلى أن يتذكَّر في الآخرة من لم يتذكَّر، وسلَّم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القُطبُ الأعظمُ في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله تعالى له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وأهمل عمله وعلمه تعطلت النبوة واضمحلت الديانة، وفشت الضلالة، واستشرى الفساد، وخرت البلاد، والآن فقد استولت على القلوب مدهانة الخلق، وانمحقت منها مراقبة الخالق، واسترسل الناس في أتباع الشهوات استرسال البهائم وقل من لا يأخذه في الله لومة لائم، فمن سعى في تلافي هذه الفترة وسد هذه الثلمة إما متكفلاً بعلمها أو مُشمراً في عملها كان مُستأثراً من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إمامتها، ومُستبدّاً بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها، وها نحن نشرح ذلك في أربعة أبواب:

(١) ليست في (ظ).

الباب الأول: في وجوب الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر وفضيلته.

الباب الثاني: في أركانه وشروطه.

الباب الثالث: في مجاربه وبيان المنكرات المألوفة في العادات.

الباب الرابع: في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهن عن المنكر.

## الباب الأول

في وجوب الأمر بالمعروف وفضيلته والنهي عن المنكر  
والمذمة في إهماله

أما الآيات، فقولته تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] ففيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين، وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين إذ لم يقل: كونوا كلكم أمرين بالمعروف. بل قال: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ فإذا مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين له، وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون عم الحرج كافة القادرين عليه لا محالة، وقال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُمْ آتِلٌ وَهُمْ يَسْتَجِدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤]، فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [التوبة: ٧١]، فنعت المؤمنين بأنهم يأمرُونَ بالمعروف والنهي عن المنكر والذي هجر الأمر بالمعروف خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩] وقال: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ﴾ الآية [هود: ١١٦] وقال: ﴿كُونُوا قَوْمِينَ بِالْأَقْصَى شُهَدَاءَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥] والآيات في هذا كثيرة.

وأما الأخبار: ذكر الأخذ على يد الظالم والفاجر: أخبرنا هبة الله بن محمد بن

الحصين قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثني أبي قال: حدثنا يحيى بن سعيد عن زكريا قال: حدثنا عامر قال: سمعتُ النُّعمانَ بنَ بشيرٍ يخطُبُ - وأوماً بإصبعيه إلى أذنيه - سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مثلُ القائمِ على حُدودِ الله، والواقعِ فيها، والمُدَّهنِ فيها مثل قوم ركبوا سفينةً فأصابَ بعضهم أسفلها وأوعرها وشَرَّها وأصابَ بعضهم أعلاها، فكانَ الَّذي في أسفلها إذا استَقوا الماءَ مَرُّوا على من فوقهم فأذوهم، فقالوا: لو حَرَقْنَا في نصيبنا حَرَقاً فاستَسْقينا منه ولم نُؤذِ مَنْ فوقنا. فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نَجوا جميعاً». انفردَ بإخراجه البخاري.

ذكر مراتب الإنكار: أنبأنا ابنُ الحُصينِ قال: أخبرنا ابنُ المُذَهِبِ قال: أخبرنا ابنُ مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثني أبو معاوية قال: حدثنا الأعمش عن إسماعيل بن رجاء عن أبيه عن أبي سعيد الخدري قال: أخرج مروان المنبر في يوم عيد ولم يك يخرج به، وبدأ بالخطبة قبل الصلاة، ولم يك يبدأ بها، فقام رجل فقال: يا مروان، خالفت السنة، أخرجت المنبر في يوم عيد ولم تك تخرج به في يوم عيد، وبدأت بالخطبة قبل الصلاة ولم تك تبدأ بها. قال: فقال أبو سعيد الخدري: من هذا؟ فقالوا: فلان بن فلان. قال: فقال أبو سعيد: أمّا هذا فقد قُضِيَ ما عليه، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يُغَيِّرَهُ فليُفْعَلْ». وقال مرّةً: «فليغيره، فإن لم يستطع بيده فبلسانه، فإن لم يستطع بلسانه فبقلمه، وذاك أضعف الإيمان». انفرد بإخراجه مسلم:

وسُئِلَ حُذَيْفَةُ عَنْ مَيِّتِ الْأَحْيَاءِ فَقَالَ: الَّذِي لَا يُنْكَرُ الْمُنْكَرَ بِيَدِهِ وَلَا بِلِسَانِهِ وَلَا بِقَلْبِهِ.

ذكر الإنكار على من يخاف: أخبرنا ابنُ الحُصينِ قال: أخبرنا ابنُ المُذَهِبِ قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا ابنُ نُميرٍ قال: حدثنا الأعمش عن عمرو بن مُرّة عن أبي البَختري عن

أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمراً لله عز وجل فيه مَقَالٌ ثم لا يقوله، فيقول الله عز وجل: ما منعك أن تقول فيه؟ فيقول: رب خشيت الناس. فيقول: فأنا أحق أن تخشى». قال الإمام أحمد: وحدثنا ابن أبي عدي عن سليمان عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمتنع أحدكم هيبته الناس أن يقول في حق إذا رآه أو سمعه»، قال: وقال أبو سعيد: ووددت أني لم أسمعه. وهذا الحديث يُنبه على أنه لا يجوز لأحد أن يتعرض لرؤية منكر لا يطيق إزالته كالدخول إلى دار ظالم أو النظر إلى منكرات يوم العيد ونحو ذلك، وروى أبو داود في سننه من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه سُئل: ما أفضل الجهاد؟ فقال: «كلمة عدل عند سلطان جائر». أخبرنا يحيى بن علي قال: أخبرنا أبو بكر الحياطي قال: حدثنا أبو علي بن حكمان الفقيه قال: حدثنا أبو بكر النقاش قال: حدثنا أبو نعيم الاسترابادي، قال: حدثنا الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي يقول: أشد الأعمال ثلاثة: الجود من قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يرجى ويخاف.

**الجد في الأمر بالمعروف وترك المحاباة:** أخبرنا ابن الحُصين قال: أخبرنا ابن المُذهب قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال حدثني أبي قال: حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي قال: حدثنا الحسن بن عمرو عن أبي الزبير عن عبد الله بن عمرو: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له: أنت ظالم، فقد تُودع منهم». وفي حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إن من كان قبلكم كان إذا عمل العامل فيهم بالخطيئة نهاه التاهي تعذيراً، وإذا كان الغد جالساً وواكله وشاربه، كآته لم يره على الخطيئة بالأمس، فلما رأى الله ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ثم لعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، والذي نفس محمد بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي السفية لتأطرنه<sup>(١)</sup> على الحق أظراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم

(١) لتأطرنه: أي تعيدوه إلى الحق.

على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم». أخبرنا محمد بن أبي منصور قال: أخبرنا جعفر بن أحمد السراج قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا سيّار قال: حدثنا جعفر قال: حدثنا مالك بن دينار قال: كان حبراً من أخبار بني إسرائيل يعشَى منزله الرجال والنساء، فيعظهم ويذكرهم بأيام الله، قال: فرأى بعض بنيه يوماً غمز النساء، فقال: مهلاً يا بُنيّ، مهلاً يا بُنيّ. مرّتين، قال: فسقط من سريره فانقطع نخاعه، وأسقطت امرأته، وقُتل بنوه في الجّيش، وأوحى الله عزّ وجلّ إلى نبيّهم أن أخبر فلاناً الحبر أنّي لا أخرج من صلبك صديقاً أبداً، ما كان غضبك لي إلا أن قلت: مهلاً يا بُنيّ مهلاً!

إنّ من ترك الإنكار وهو يقدر: أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا جعفر بن أحمد قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الله بن نمير قال: حدثنا إسماعيل يعني ابن أبي خالد - عن قيس قال: قام أبو بكر فحمد الله عزّ وجلّ وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وأنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الناس إذا رأوا المنكر فلم يُغيروه أوشك أن يعمّهم الله عزّ وجلّ بعقابه». أخبرنا علي بن عبيد الله ويحيى بن الحسن وعبد الرحمن بن محمد قالوا: أخبرنا عبد الصّمد بن المأمون قال: حدثنا علي بن عمر السّكري قال: حدثنا جعفر بن أحمد ابن الصّباح قال: حدثنا سلّمة بن صباح الجّعفي عن أبي إسحاق الهمداني عن عبد الله بن جرير عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من قوم فيهم رجل يعمل بالمعاصي هم أعزّ منه لا يُغيروا إلا أصابهم الله عزّ وجلّ بعقاب». وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهونّ عن المنكر أو ليسلّطنّ الله عزّ وجلّ شراركم على خياركم، فيدعوا خياركم فلا يُستجاب لهم». وفي حديث عائشة قالت: دخل رسول الله ﷺ وقد حفزه النّفس، فعرفت في وجهه أن قد حفزه شيء، فما تكلم حتى توفّضاً وخرج، فلصقت بالحجرة، فصعد المنبر، فحمد الله عزّ وجلّ وأثنى

عليه، ثم قال: «أيها الناس، إن الله عزَّ وجلَّ يقول لكم: مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهُوا عَنِ الْمُنْكَرِ قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي فَلَا أُجِيبْكُمْ، وَتَسْأَلُونِي فَلَا أُعْطِيكُمْ، وَتَسْتَنْصِرُونِي فَلَا أَنْصِرْكُمْ». وفي حديث ابن مسعودٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «كيف بكم إذا كثرت أمراؤكم، وطغت نساؤكم» قالوا: وإن ذلك لكائنٌ يا رسول الله؟ قال: «نعم، وأشدَّ من ذلك» قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: «لا تأمرونَ بمعروفٍ، ولا تنهونَ عن مُنكرٍ» قالوا: وإن ذلك لكائنٌ يا رسول الله؟ قال: «نعم، وأكثر منه» قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: «لا تعرفون المعروف، ولا تُنكرون المنكر» قالوا: وإن ذلك لكائنٌ؟ قال: «نعم، وأكثر من ذلك، يكون المعروف فيكم مُنكراً، والمنكر فيكم معروفاً».

وقال مالك بن دينار: قرأتُ في التَّوراة: مَنْ كَانَ لَهُ جَارٌ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي فَلَمْ يَنْهَهُ، فَهُوَ شَرِيكُهُ.

وقال مسعر: أَمَرَ مَلِكٌ أَنْ يَخْسِفَ بِقَرْيَةٍ فَقَالَ: يَا رَبِّ، فِيهَا فَلَانٌ الْعَابِدُ. فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ بِهِ فَابِدًا، فَإِنَّهُ لَمْ يَتَمَعَّرْ<sup>(١)</sup> وَجْهَهُ فِي سَاعَةٍ قَطُّ.

(١) تَمَعَّرَ وَجْهَهُ: تَغَيَّرَ وَعَلَّتَهُ صُفْرَةٌ.

## الباب الثاني

### في أركان الأمر بالمعروف وشروطه

اعلم أنَّ الأركانَ في الحِسْبَةِ التي هي عبارةٌ شاملةٌ للأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر أربعةٌ: المحتسِبُ، والمحتسَبُ عليه، والمحتسَب فيه، ونفس الاحتساب، فهذه أربعة أركان ولكل واحد منها شروط.

**الركن الأول: المُحتسِب:** وله شروط؛ وهو أن يكون مكلِّفًا مُسلمًا قادرًا، فيخرجُ منه المجنون والصَّبي والكافر، ويدخل فيه آحادُ الرعايا، وإن لم يكونوا مآذونين، ويدخل فيه الفاسقُ والرَّقِيقُ والمرأةُ، فلنذكر وجهَ اشتراطِ ما اشترطناه ووجهَ أطراح ما أطرحناه:

**أما الشرط الأول:** وهو التكليف: فلا يخفى وجه اشتراطه، فإن غير المكلِّف لا يلومه أمرٌ، وما ذكرناه أردنا به أنه شرطُ الوجوب، فأما إمكان العقل وجوازه فلا يستدعي إلا العقل حتى إن الصَّبي المميَّز المراهق وإن لم يكن مكلِّفًا، فله إنكار المنكر، وله أن يُريق الخمر، ويكسر الملاهي، وإذا فعل ذلك نال به ثوابًا، ولم يكن لأحدٍ منعه من حيث إنّه ليس بمكلِّف، فإنَّ هذه قُرْبَةٌ، وهو من أهلها، كالصلاة والإمامة فيها، وسائر القُرْبَات، وليس حكمه حكم الولايات حتى يشترط فيه التكليف، ولذلك أثبتناه للعبدِ وآحادِ الرعيَّةِ، وإن كان في ذلك نوعٌ ولايةٍ، إلا أنَّها تُستفاد بمجرد الإيمان، كقتل المشرك، فإنَّ للصَّبي أن يفعل ذلك، فالمنع من الفسق كالمنع من الكفر.

**وأما الشرط الثاني:** وهو الإيمان: فلا يخفى وجه اشتراطه؛ لأن هذه نُصرةٌ للدين فكيف يكون من أهلها مَنْ هو جاحدٌ لأصل الدين وعدوٌّ له؟ فإن منع هذا الكافر المسلم بالقهر فليس له أن يقهر مسلمًا، ولا هذه مرتبته.

**وأما الشرط الثالث:** فهو العدالة: فقد اعتبرها قومٌ، وقالوا: ليس للفاسق أن

يحتسب. وربما استدلوا بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، وبما أوحى الله إلى عيسى عليه السلام: عِظْ نَفْسَكَ، فَإِنْ اتَّعَظْتَ، فَعِظْ النَّاسَ، وَإِلَّا فَاسْتَحْيِ مَنِي.

ومن حيث القياس فإن هداية الغير فرغ للاهتداء، وكذلك تقويم الغير فرع للاستقامة، والإصلاح زكاة نصاب الصّلاح، فمن ليس بصالح في نفسه كيف يصلح غيره؟ ومتى يستقيم الظلُّ والعود أعوج؟ وهذا كله لا حجة فيه؛ لأنّه إنكار لتك المعروف لا لأجل الأمر به، والحق أن للفاسق أن يحتسب، وبُرهان ذلك أن نقول: هل يشترط في الاحتساب أن يكون متعاطيه معصوماً عن المعاصي كلها؟ فإن شرط ذلك، فهو خرق للإجماع وحسم لباب الاحتساب، إذ لا عصمة للصّحابة فمن دونهم، وقد اختلف في عصمة الأنبياء عليهم السّلام، وإن زعموا أن ذلك لا يشترط عن الصّغائر حتى يجوز للابس الحرير أن يمنع من الزّنا وشرب الخمر فنقول: وهل لشارب الخمر أن يعزّو الكفّار؟ فإن قالوا: لا. خرقوا الإجماع، إذ جنود المسلمين مشتملة على البرّ والفاجر، ولم يُمنعوا من الغزو قطّ، فإن قالوا: نعم. قلنا: فهل لشارب الخمر أن يمنع من القتل؟ فإن قالوا: لا. قلنا: فما الفرق بينه وبين لابس الحرير إذ جاز له المنع من الخمر؟ والقتل كبيرة بالنسبة إلى الشّرب، كالشّرب بالنسبة إلى لابس الحرير، ولا فرق. فإن قالوا: نعم. وفصلوا الأمر فيه بأنّ كل مُقدم على شيء لا يمنع عن مثله ولا عمّا هو دونه، وإنما يمنع عمّا هو فوقه، فهذا تحكّم، فإنه كما لا يبعد أن يمنع الشّارب من الزّنا والقتل، فمن أين يبعد أن يمنع الزّاني من الشّرب؟ بل من أين يبعد أن يشرب ويمنع غلّمانه وخدّمه من الشّرب؟ ويقول: قد وجب عليّ الانتهاء والنّهي، فمن أين يلزمني بالعصيان في أحدهما أن أعصي الله بالثاني؟ وإذا كان النهي واجباً عليّ فمن أين وجب سقوطه بإقدامي؟ إذ يستحيل أن يقال: يجب النهي عن شرب الخمر عليه ما لم يشرب، فإذا شرب سقط عنه النهي.

فإن قيل: فيلزم على هذا أن يقول القائل: قد وجب عليّ الوضوء والصّلاة فأنا أتوضأ وإن لم أصل. قلنا: الوضوء لازم للصّلاة أيضاً، فمن توضأ ولم يصل كان

مُؤدياً أحدَ الفَرَضَيْنِ، وكان عقابه أقلَّ ممن يترك الوضوء والصلاة جميعاً، فليكن من ترك النَّهْيَ والانتهاة أكبر عقاباً ممن نهى ولم ينته، كيف والوضوء شرط لا يُرادُّ لنفسه بل للصلاة، فلا حكم له دون الصلاة، فأما الحسبة فليست شرطاً في الانتهاة والائتمار، فلا مُشابهةً بينهما.

فإن قيل: فيلزم على هذا أنه لو زنا بامرأةٍ وهي مُكرهةٌ مستورة الوجه فكشفت وجهها باختيارها، فقال لها: استري وجهك لأنك مُكرهة في الزنا لا في كشف الوجه. فإن هذا احتسابٌ شنيعٌ.

قلنا: إنما كان شنيعاً؛ لأنه اشتغالٌ بهمهم عما هو أهمُّ منه، كمن غصِبَ منه فرسٌ بلجامها فأخذ يطلب اللجام ويترك ذكْرَ الفرس.

واعلم أن أمر الفاسقِ بالمعروف<sup>(١)</sup> ونهْيَهُ عن المنكر<sup>(٢)</sup> لا يُفيد، لعلم الناسِ بفسقه، بل إن قدر على المنع أفاداً، كإراقتِهِ الخُمور وكسره للملاهي.

الشرط الرابع: كونه مأذوناً من جهة الإمام والوالي: فقد شرط قومٌ هذا ولم يُجيزوا لأحدِ الرعيّة الحسبة، وهذا الاشتراط فاسد، فإن الآيات والأخبار التي أوردناها تدلُّ على أن كلَّ من رأى منكراً فسكت عنه عصى فالتخصيص بشرط التفويض من الإمام تحكُّم لا أصل له، والعجب أن الروافض زادوا على هذا فقالوا: لا يجوزُ الأمرُ بالمعروف ما لم يخرج الإمام المعصوم وهؤلاء أحسن رتبة من أن يكلموا، بل جوابهم أن يُقال لهم إذا جاؤوا إلى القضاة طالبين حقوقهم في دماءهم وأموالهم: إن نصرتكم أمرٌ بالمعروف، واستخراج حقوقكم ممن يُدمن ظلمكم نهْيٌ عن المنكر، وطلبكم لحقوقكم من جملة المعروف، وما هذا زمان النهي عن الظلم وطلب الحقوق؛ لأنَّ الإمام لم يخرج بعدُ.

فإن قيل: في الأمر بالمعروف إثباتُ سلطنةٍ وولايةٍ على المحكوم عليه، ولذلك لم يثبت للكافر على المسلم مع كونه حقاً، فينبغي أن لا يثبت لأحدِ الرعيّة إلا بتفويض من السلطان.

قُلْنَا: أمَّا الكافر، فَمَمْنوع لما في ذلك من السُّلْطَنَة وَعِزِّ الاحتكام ولا يستحق الكافر الدَّلِيلُ أن ينال عِزَّ التحكُّمِ على المُسلم، وأمَّا آحادُ المسلمين، فَيَسْتَحِقُّونَ هذا العِزَّ بالدين والمعرفة، وما في ذلك من عِزِّ السُّلْطَنَة والاحتكام لا يُحَوِّجُ إلى تَفْوِيضِ كِعِزِّ التعليم<sup>(١)</sup>، والتعريف، إذ لا خلاف في أن تعريفَ التحريم والإيجاب لمن هو جاهلٌ ومُقَدِّمٌ على المنكر لجهله لا يَحْتَاجُ إلى إِذْنِ الوالي، وفيه عِزُّ الإرشاد، وعلى المَعْرِفِ ذُلُّ التَّجْهِيلِ وذلك يكفي فيه مُجْرَدُ الدِّينِ، فكذلك النَّهْيُ.

وشرح هذا أن الحِسْبَةَ لها خَمْسُ مراتب:

الأولى: التَّعْرِيفُ.

والثانية: الوَعظُ بالكلام اللَّطِيفِ.

والثالثة: السَّبُّ والتَّعْنِيفُ، ولسنا نعني السَّبَّ الفاحشَ، بل أن يقول له:

يا جاهل، يا أحمق، ألا تخافُ من الله، ونحو هذا.

والرابعة: المنع بالقَهْرِ ككسْرِ الملاهي، وإِراقَةِ الخمر.

والخامسة: التَّخْوِيفُ والتَّهْدِيدُ بالضرب، أو مباشرة الضَّرْبِ له حتَّى يمتنع عَمَّا

هو عليه، فهذه المرتبة تَحْتَاجُ إلى الإمام دون ما قبلها؛ لأنَّه رُبَّمَا جَرَّ إلى فِتْنَةٍ.

واستمرارُ عاداتِ السَّلَفِ على الحِسْبَةِ على الولاية قاطعٌ بإجماعهم على

الاستغناء عن التَّفْوِيضِ، وكلُّ من أمر بمعروفٍ فإنَّ كان الوالي راضياً بذلك، فهو

المقصود، وإن كان سَاخِطاً فَسَخِطَهُ مُنْكَرٌ يجب فيه الإنكار عليه، فكيف يُحْتَاجُ إلى

إذنه في الإنكار عليه؟ وقد روينا أنَّ رجلاً قام إلى مروانَ فأنكر عليه، فقال أبو سعيد

الخدري: أمَّا هذا فقد قَضَى ما عليه.

وقد كان خلقٌ كثير<sup>(٢)</sup> يعظون السُّلَاطِينِ وَيُنَبِّسُطُونَ<sup>(٣)</sup> عليهم ويتحمَّلهم

السُّلَاطِينِ لعلمهم بحُسنِ قِصْدِهِمْ، وسيأتي ذكرُ طَرَفٍ من أخبارهم.

(١) في (ظ): «التعظيم».

(٢) ليست في (ظ).

(٣) في الأصل: «يتسلطون».

فإن قيل: فهل تثبت الحسبة للولد على الوالد؟ والعبد على السيد؟ والزوجة على الزوج؟ والرعية على الوالي؟

قلنا: أصل الولاية ثابت للكل، وقد رتبنا للحسبة خمس مراتب، فللولد الحسبة بالرتبتين الأوليين، وهما: التعريف ثم الوعظ والنصح باللطف، وله من المرتبة الخامسة أن يكسر العود، ويريق الخمر، ويرد العصب، ويبطل الصور المنقوشة على حيطانه، وهذا الترتيب ينبغي أن يجري في العبد والزوجة، فإن السيد والزوج قريبان من مرتبة الوالد، وأمّا الرعية مع السلطان، فالأمر فيه أشد من الوالد، فليس له معه إلا التعريف والنصح.

الشرط الخامس: كونه قادراً: ولا يخفى أن العاجز ليس عليه حسبة إلا بقلبه، ولا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسي، بل يلتحق به خوف مكروه يناله وذلك في معنى العجز، وكذلك إذا علم أن إنكاره لا ينفع، فيخرج في حق الأمر بالمعروف أربعة أحوال:

أحدها: أن يعلم أن المنكر يزول بقوله وفعله، ولا يُقدر له على مكروهه، فيجب عليه الإنكار.

الحالة الثانية: أن يعلم أن كلامه لا ينفع، وأنه إن تكلم ضرب، فيرتفع الوجوب عنه.

والثالثة: أن يعلم أن إنكاره لا يُفيد، لكنه لا يخاف مكروهاً، فلا<sup>(١)</sup> يجب عليه الأمر لعدم الفائدة، لكن يستحب لإظهار شعار الإسلام والتذكير بالدين.

والرابعة: أن يعلم أنه يُصاب بمكروه، ولكن يبطل المنكر بفعله، مثل أن يكسر العود ويريق الخمر، ويعلم أنه يُضرب عقيب ذلك، فيرتفع الوجوب عنه، ويبقى مُستحباً، للحديث الذي أوردناه في فضل كلمة الحق عند الإمام الجائر.

فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

(١) في الأصل: «ولا».

قلنا: قال ابن عباس: المرادُ بها تركُ النَّفقة في سبيل الله، وقال البراء بن عازب: هو أن يُذنب الذَّنْبَ ثم يقول: لا يُتابُ عليّ. ولا خلاف أن المسلم الواحد له أن يهجم على صف الكفار ويُقاتل، وإن علم أنه يُقتل؛ لأن ذلك يكسر قلوب الكفار، ويبين لهم قوة دليل الإسلام، وإذا جاز ذلك في القتال جاز في الحسبة، بلى لو علم أنه لا نكايَةَ لهجومه على الكفار، كالأعمى يطرح نفسه على الصَّفِّ حَرَمَ ذلك ودخل تحت عُموم الآية، وكذلك لو رأى فاسقاً وحده وعنده سيفٌ ويده قَدَح، وعلم أنه إن أنكر عليه لَشَرَبَ القَدَحَ وضرب عنقه، لم يَجْزُ له الإقدام على ذلك؛ لأن هذا لا يُؤثر في الدين أثراً يَفديه بنفسه، وإنما يُستحب له الإنكار إذا قَدِر على إبطال المنكر، أو ظهر لفعله فائدة، فإن علم أنه يُضربُ معه غيره من أصحابه وأقاربه ورُفقائه لم يَجْزُ له الحسبة؛ لأنه عجزَ عن دفع المنكر إلا بأن يُفضي ذلك إلى مُنكرٍ آخر، وليس ذلك من القُدرة في شيء.

ولسنا نعني بالعلم في هذه المواضع إلا غلبة الظنِّ، فمتى غلب على ظنه أنه يُصيبه مكروه لم يجب عليه الإنكار، وإن غلب على ظنه أنه لا يُصيبه مكروه وجب، فإن شكَّ، فإن مجرد التَّجويز لا يسقط الوجوب، ولا اعتبار بحالة الجبان، فإنه يخاف وقوع ما لا يقع، ولا بالشُّجاع المُتهور الذي يُبعد وقوع المكروه، بل الاعتبار بالمعتدل الطبع السليم المزاج.

ونعني بالمكروه: الضرب أو القتل، فلو علم أنه لا يُضرب بل يُسوّد وجهه ويُشهر في البلد رخص له في السكوت؛ لأن هذا مؤلّم للقلب أكثر من الضرب، وكذلك إذا علم أنه يُنهب ماله، إلا أنه يبقى الاستحباب له في هذين الموضعين.

فأمّا السبُّ والشتمُّ، فليس بعذرٍ في السكوت؛ لأن الأمر بالمعروف لا بد أن يلقي ذلك.

فإن قيل: فلو قصدَ إنسانٌ قطعَ طرفٍ آخرَ أفيقاتلُ على هذا؟

فإن قلت: نعم، وكيف يتعرّض بإتلاف نفسٍ لخوف إتلافٍ طرف؟ قلنا نمنعه عن ذلك ونُقاتله؛ لأنه ليس غرضنا حفظ الطرف فقط، بل حَسَم سبيل المنكرات،

وَقَتْلَهُ فِي الْإِنْكَارِ عَلَيْهِ لَيْسَ بِمَعْصِيَةٍ، وَقَطْعُهُ الظَّرْفَ مَعْصِيَةٌ، فَصَارَ كدَفْعِ الصَّائِلِ عَلَى مَالِ مُسْلِمٍ بِمَا يَأْتِي عَلَى قَتْلِهِ، فَإِنَّهُ جَائِزٌ لَا لِأَجْلِ اِفْتِدَاءِ دَرَاهِمِ بَرُوحٍ، بَلْ لِأَنَّ أَخْذَ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ مَعْصِيَةٌ، وَقَتْلَهُ فِي الدَّفْعِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ لَيْسَ بِمَعْصِيَةٍ.

الرَّكْنُ الثَّانِي لِلْحِسْبَةِ: مَا فِيهِ الْحِسْبَةُ: وَهُوَ كُلُّ مَنْكَرٍ مُوجِدٍ فِي الْحَالِ ظَاهِرٍ لِلْمَحْتَسِبِ بِغَيْرِ تَجَسُّسٍ، مَعْلُومٍ كَوْنُهُ مَنْكَرًا بِغَيْرِ اجْتِهَادٍ، فَهَذِهِ أَرْبَعَةٌ شُرُوطٌ فَلِنَبِّحُ<sup>(١)</sup> عَنْهَا:

الأول: كونه منكرًا، ونعني بذلك كونه مَحْذُورَ الْوُقُوعِ فِي الشَّرْعِ، وَعَدَلْنَا مِنْ لَفْظِ الْمَعْصِيَةِ إِلَى هَذَا؛ لِأَنَّ الْمَنْكَرَ أَعْمٌ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، إِذْ مَنْ رَأَى صَبِيًّا أَوْ مَجْنُونًا يَشْرَبُ الخَمْرَ، فَعَلِيهِ أَنْ<sup>(٢)</sup> يُرِيْقَ خَمْرَهُ وَيَمْنَعَهُ، وَكَذَلِكَ إِذَا رَأَى مَجْنُونًا يَزْنِي بِمَجْنُونَةٍ أَوْ بِهَيْمَةٍ، فَعَلِيهِ أَنْ<sup>(٢)</sup> يَمْنَعَهُ مِنْهُ، وَذَلِكَ لَا يَسْمَى مَعْصِيَةً فِي حَقِّ الْمَجْنُونِ، فَلَفْظُ الْمَنْكَرِ أَدْلُّ عَلَيْهِ وَأَعْمٌ مِنْ لَفْظِ الْمَعْصِيَةِ، وَقَدْ أَدْرَجْنَا فِي عُمُومِ هَذَا الصَّغِيرَةَ وَالْكَبِيرَةَ.

الشرط الثاني: أَنْ يَكُونَ مُوجِدًا فِي الْحَالِ، وَهُوَ احْتِرَازٌ عَنِ الْحِسْبَةِ عَلَى مَنْ فَرَّغَ مِنْ شُرْبِ الخَمْرِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ إِلَى الْآحَادِ، وَاحْتِرَازٌ عَمَّا سَيُوجَدُ فِي ثَانِي الْحَالِ، كَمَنْ يَعْلَمُ بِقَرِينَةٍ حَالِهِ أَنَّهُ عَازِمٌ عَلَى الشُّرْبِ اللَّيْلَةَ، فَلَا حِسْبَةَ عَلَيْهِ إِلَّا بِالْوَعْظِ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ عَزْمَهُ عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَجْزُ وَعْظُهُ فِيهِ؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ إِسَاءَةً ظَنَّ بِالْمُسْلِمِ.

الشرط الثالث: أَنْ يَكُونَ الْمَنْكَرَ ظَاهِرًا لِلْمَحْتَسِبِ بِغَيْرِ تَجَسُّسٍ، فَكُلُّ مَنْ سَتَرَ مَعْصِيَةً فِي دَارِهِ وَأَغْلَقَ بَابَهُ لَمْ يَجْزُ أَنْ يُتَجَسَّسَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَظْهَرَ مِنْ ذَلِكَ مَا يَعْرِفُهُ مَنْ هُوَ خَارِجُ الدَّارِ، كَأَصْوَاتِ الْمَزَامِيرِ وَالْعِيدَانِ، فَلَمَنْ سَمِعَ ذَلِكَ أَنْ يَدْخُلَ وَيَكْسِرَ الْمَلَاهِي، وَكَذَلِكَ إِذَا ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُ السَّكَارَى بِالْكَلِمَاتِ الْمَأْلُوفَةِ بَيْنَهُمْ، فَسَمِعَهَا أَهْلُ الشَّارِعِ، فَإِنْ فَاحَتْ رَائِحَةُ الخَمْرِ فَلَا يَظْهَرُ جَوَازُ الْإِنْكَارِ، وَكَذَلِكَ إِذَا

(١) تحرفت في (ظ) إلى: «فليجتنب».

(٢-٢) سقط من (ظ).

كان العودُ مُغَطَّى، فإنَّ شكله يُعرف كما تُعرف الخمر بالرائحة، فأما إذا كانت الآنية تحت ذيلٍ فاسقٍ لم يَجْزُ أن يُتعرَّضَ بها لجواز أن يكون خَلاً، وليس لأحدٍ أن يقول له: أرني لأنظر. فإنه تجسُّس.

الشرط الرابع: أن يكون كونه منكراً معلوماً بغير اجتهاد، فكلُّ ما هو في محل الاجتهاد فلا حسبة فيه، فليس للحنفي أن يُنكر على الشافعي أكله متروك التسمية، ولا للشافعي أن يُنكر على الحنفي شربه النيذ الذي ليس بمُسْكِر.

الركن الثالث: المحتسبُ عليه: وشروطه أن يكون بصفة يصير الفعل الممنوع منه في حقه مُنكراً، ويكفي في ذلك كونه إنساناً، ولا يشترط كونه مكلفاً، فقد بيَّنا أنَّ الصبيَّ لو شرب الخمر مُنَع منه، واحتسب عليه، وإن كان قبل البلوغ، ولا يُشترط كونه مُميّزاً، فقد بيَّنا أن المجنون لو كان يزني بمجنونة أو يأتي بهيمةً وجبَ منعه.

فإن قيل: فاكْتَفَ بكونه حيواناً ولا تشترط كونه إنساناً، فإن البهيمَةَ لو أفسدت زرعاً لمنعناها كما يُمنع المجنون من الزنا.

قلنا: لا وَجَهَ لتسمية منع البهيمَةَ حِسبة؛ لأن الحِسبةَ منَع عن مُنكرٍ لحقَّ اللهُ تعالى، وصيانةً للممنوع من مُقارفة المنكر، ولسنا نمنع البهيمَةَ صيانةً لها، بل لحفظ مال المسلم.

الركن الرابع: نفس الاحتساب: وله درجَاتُ وآدابُ.

فأولها التَّعرف، ثم التَّعريف، ثم النَّهي ثم الوَعظُ والنَّصْحُ، ثم السَّبُّ والتَّعنيفُ، ثم التَّغييرُ باليد، ثم التَّهديدُ بالضَّرب، ثم إيقاع الضَّرب وتَحقيقه، ثم شَهْرُ السَّلاح، ثم الاستِظْهَارُ فيه بالأعوان والجُنود.

أما الدَّرَجَةُ الأولى: فهو التَّعرفُ، ونَعني به طلب المعرفة بجريان المنكر، وذلك مَنْهِيٌّ عنه، وهو التَّجسُّسُ الذي ذكرناه، فلا ينبغي أن يَسْتَرِقَ السَّمْعَ على دارٍ غَيْرِهِ لِيَسْمَعَ صوت الأوتار، ولا أن يتعرَّضَ للشَّمِّ لِيُدْرِكَ رائحةَ الخمر، ولا أن

يَمَسَّ ما قد سَتَرَ بثوبٍ ليعرف شكل المِزمار، ولا أن يستخبر جيرانه ليُخبروه بما يجري، بلى لو أَخْبَرَهُ عَدْلان ابتداءً من غير استِخْبار أن فلاناً يَشْرَب الخمر في داره، أو أن في داره خَمراً أعده للشرب، فله إذ ذاك أن يَدْخُل ولا يَلْزِمه الاستِئذان.

الدرجة الثانية: التَّعْرِيف، فإنَّ الجاهلَ يُقَدِّم على الشيء لا يظنُّه منكرًا، فإذا عَرَفَ أَقْلَع عنه، كالسَّوَادِي<sup>(١)</sup> يُصَلِّي ولا يُقِيم الرُّكُوعَ والسُّجُودَ، فيجب تعريفه باللُّطْفِ أن هذه ليست صلاةً، ولولا أنه يُريد الصلاة لترك أصل الصلاة، ومن ضمن التعريف نسبةً إلى الجهل، والتجهيل إيذاءً، والطَّبَاعُ أحرص على سَتْرِ عورة الجهل أكثر منها على سَتْرِ العورة الحقيقية؛ لأنَّ الجَهْلَ قُبْحٌ في صورة النفس، وسَوَادٌ في وَجْهِ القلبِ وقُبْحُ السَّوْءَةِ يرجع إلى صورة البدن، والنَّفْسُ أَشْرَفُ من البدن، وقُبْحُها أَشَدُّ من قُبْحِ البدن، فيعظم تألُّم الإنسان بظهور جهله، ويعظُّم ابتهاجُه في نفسه بعلمه، ثم لَدَّتْه عند ظهور جَمالِ علمه لغيره.

وإذا كان التعريفُ كَشْفًا للعورة مؤذياً للقلب، فلا بدَّ أن يعالج دفع أذاه بلُطْفِ الرَّفْقِ. فيقال له: يا هذا، إنَّ الإنسان لا يولد عالماً، ولقد كُنَّا جاهلين بأُمُور الصلاة حتَّى عَلَّمنا العلماء، ولعلَّ قَرَيْتِكَ خالية عن أهل العلم، أو عالمها مُقَصَّر في شرح الصلاة وإيضاحها فهكذا يُتَلَطَّفُ به ليحصل التَّعْرِيفُ من غير إيذاء، ومن اجْتَنَبَ مَحْذُورَ السَّكُوتِ عن المنكر واستبدل عنه مَحْذُورَ الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه، فَقَدَ غَسَلَ الدَّمَ بالبول.

فأما إذا وقفت على خطأٍ من غير أمرِ الدِّينِ، فلا يَنْبَغِي أن تُرَدَّهُ عليه، فإنَّه يَسْتَفِيدُ منك علماً ويصير لك عدوًّا، إلا إذا علمت أنه يَغْتَنِمُ العِلْمَ، وذلك عزيزٌ جداً.

الدرجة الثالثة: النَّهْيُ بالوعظِ والنُّصْحِ والتَّخْوِيفِ بالله، وذلك فيمن يُقَدِّم على الأمر وهو عالمٌ بكون منكرًا، أو فيمن أصرَّ عليه بعد أن عرف أنه منكر، كالذي

(١) السَّوَادِي: المنسوب إلى السَّوَادِ، وهو القرى والمزارع المحيطة بالمدينة.

يُواظِبُ عَلَى الشُّرْبِ، أَوْ الظُّلْمِ، أَوْ الغَيْبَةِ، فَيَنْغِي أَنْ يَوْعِظَ وَيَخَوْفَ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَتُورِدُ عَلَيْهِ الْأَخْبَارُ الْوَارِدَةُ بِالْوَعِيدِ فِي ذَلِكَ وَيُحَكِّي لَهُ سِيرَةَ السَّلَفِ وَعَادَةَ الْمُتَّقِينَ، وَكُلَّ ذَلِكَ بِشَفَقَةٍ وَلُطْفٍ مِنْ غَيْرِ عُنْفٍ وَغَضَبٍ<sup>(١)</sup>، بَلْ يَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظْرَ الرَّاحِمِ لَهُ، وَيُرَى إِقْدَامَ ذَلِكَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ مُصِيبَةً فِي نَفْسِهِ هُوَ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ كُنُفُسٍ وَاحِدَةً وَهَاهُنَا آفَةٌ عَظِيمَةٌ، يَنْبَغِي أَنْ يَتَوَقَّأَهَا فَإِنَّهَا مَهْلِكَةٌ، وَهِيَ أَنَّ الْعَالَمَ يَرَى عِنْدَ التَّعْرِيفِ عِزَّ نَفْسِهِ بِالْعِلْمِ، وَذُلَّ غَيْرِهِ بِالْجَهْلِ، فَرَبَّمَا يَقْصِدُ بِالتَّعْرِيفِ الْإِذْلَالَ وَإِظْهَارَ التَّمْيِيزِ بِشَرَفِ الْعِلْمِ، وَإِذْلَالَ صَاحِبِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى حِسَّةِ الْجَهْلِ، فَإِنْ كَانَ الْبَاعِثُ هَذَا فَهَذَا الْمُنْكَرُ أَقْبَحُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْمُنْكَرِ الَّذِي يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ، وَمِثَالُ هَذَا الْمَحْتَسِبِ مِثَالُ مَنْ يُخَلِّصُ غَيْرَهُ مِنَ النَّارِ بِإِحْرَاقِ نَفْسِهِ، وَهُوَ غَايَةُ الْجَهْلِ.

وهذه مَرَلَةٌ<sup>(٢)</sup> عَظِيمَةٌ وَغَائِلَةٌ هَائِلَةٌ، وَغُرُورٌ لِلشَّيْطَانِ يَتَدَلَّى بِجِبْلِهِ كُلِّ إِنْسَانٍ إِلَّا مَنْ عَرَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى غُيُوبَ نَفْسِهِ، وَفَتَحَ بَصِيرَتَهُ بِنُورِ هِدَايَتِهِ، فَإِنْ فِي الْإِحْتِكَامِ عَلَى الْغَيْرِ لَذَّةٌ لِلنَّفْسِ عَظِيمَةٌ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: مِنْ جِهَةِ دَالَّةِ الْعِلْمِ، وَالْآخَرُ مِنْ جِهَةِ دَالَّةِ الْإِحْتِكَامِ وَالسُّلْطَنَةِ، وَذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى الرِّيَاءِ وَطَلْبِ الْجَاهِ، وَهُوَ الشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ الْمَتَدَاعِيَةُ إِلَى الشَّرْكِ الْخَفِيِّ، وَلَهُ مَحَكٌّ وَمِعْيَارٌ يَنْبَغِي أَنْ يُمْتَحَنَ بِهِ<sup>(٣)</sup> الْمُحْتَسِبُ نَفْسُهُ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ امْتِنَاعَ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ عَنِ الْمُنْكَرِ بِنَفْسِهِ أَوْ بِإِحْتِسَابِ غَيْرِهِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ امْتِنَاعِهِ بِإِحْتِسَابِهِ، فَإِنْ كَانَتْ الْحِسْبَةُ شَاقَّةً عَلَيْهِ ثَقِيلَةً عَلَى نَفْسِهِ، وَهُوَ يُوَدُّ أَنْ يُكْفَى بِغَيْرِهِ فَلْيَحْتَسِبْ، فَإِنَّ بَاعِثَهُ هُوَ الدِّينُ، وَإِنْ كَانَ اتَّعَاطُ ذَلِكَ الْعَاصِي بَوْعِظِهِ وَانزِجَارُهُ بِزَجْرِهِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ اتَّعَاطِهِ بِوَعِظِ غَيْرِهِ، فَمَا هُوَ إِلَّا مُتَّبِعٌ<sup>(٤)</sup> هَوَى نَفْسِهِ وَيَتَوَسَّلُ إِلَى إِظْهَارِهِ جَاهِ نَفْسِهِ بِوَاسِطَةِ حِسْبَتِهِ، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ تَعَالَى، وَلْيَحْتَسِبْ أَوَّلًا عَلَى نَفْسِهِ، وَعِنْدَ هَذَا يُقَالُ لَهُ: عِظْ نَفْسَكَ، فَإِنْ اتَّعَطْتَ، فَعِظْ النَّاسَ وَإِلَّا فَاسْتَحْيِ مَنِّي.

(١) ليست في الأصل.

(٢) تحرفت في (ظ) إلى: «منزلة».

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) في الأصل: «متبع».

وقيلَ لداود الطائي: أرايتَ رجلاً دخلَ على هؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر؟ قال: أخافُ عليه السُّوط. قيل: هو يقوى عليه. قال: أخافُ عليه السَّيف. قيل: إنه يقوى. قال: أخافُ عليه الداء الدفين العُجب.

إلا أن في هذا دقيقةً خفيّةً، وهي أنه يجب أن يزول المنكر بإنكاره ليكون له أجر الإنكار، لا نظراً إلى دالة العلم ولا إلى الاحتكام وهذا يندر.

الدرجة الرابعة: السُّبُّ والتَّعْنِيفُ بالقول الغليظ الحَشِين، وإنما يُعدّل إلى هذا عند العجز عن المنع باللُّطف وظهور مبادئ الإصرار والاستهزاء بالوعظ والنُّصح، وذلك مثل قول إبراهيم عليه السلام: ﴿أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧]، ولسنا نَعْنِي بالسُّبِّ الفُحْش والكذب بل أن يُخاطبه بما فيه مما لا يعدُّ فحشاً، كقوله: يا فاسق، يا أحمق، يا جاهل، ألا تخاف الله، وكقوله: يا سوادِي، يا غبي وما يجري هذا المجرى، فإن كل فاسقٍ أحمق وجاهل، ولولا حُمقُه لما عَصَى الله تعالى، ولهذه الرُّتبة أدبان:

أحدهما: أن لا يُقدِّم عليه إلا عند الصُّرورة والعجز عن اللُّطف.

والثاني: أن لا ينطق إلا بالصدق، ولا يسترسل فيه، فينطلق لسانه بما لا يُحتاج إليه، بل يقتصر على قدر الحاجة، فإن علم أن خطابه بهذه الكلمات لا يَزُجره، فليقتصر على إظهار الغضب والاحتقار له، والازدراء بمحلّه لأجل المعصية، وإن علم أنه إن تكلم ضرب ولو اكفهر وأظهر الكراهة بوجهه لم يُضرب لزمه ولم يكفه الإنكار بالقلب بل يلزمه أن يُقَطَّبَ وجهه ويُظهر الإنكار.

الدرجة الخامسة: التَّغْيِيرُ باليد، وذلك ككسر الملاهي وإراقة الخمر وإخراجه من الدار المغصوبة، وفي هذه الدرجة أدبان:

أحدهما: أن لا يُباشِرَ بيده التَّغْيِيرَ ما لم يعجز عن تكليف المحتسب عليه ذلك، فإذا أمكنه أن يُكلِّفه المشي في الخروج عن الأرض المغصوبة والمسجد، فلا ينبغي أن يدفعه أو يجره، وإذا قدر على أن يُكلِّفه إراقة الخمر وكسر الملاهي، فلا ينبغي أن يُباشِرَ ذلك بنفسه.

الثاني: أن يقتصر في طريق التغيير على القدر المحتاج إليه، وهو أن لا يجره برجله إذا قدر على جره بيده، فإن زيادة الأذى فيه مُستغنى عنه ولا يحرق الملاهي بل يُبطل صلاحيتها للفَساد بالكسر، وحثُّ الكسر أن تصير إلى حالٍ يحتاج في استئناف إصلاحها إلى تعبٍ يساوي تعب الاستئناف من الخشب ابتداءً، ويتوقى في إراقة الخُمور كسر الأواني إن وجد إليه سبيلاً، فإن لم يقدر إلا بأن يرمي ظروفها بحجرٍ فله ذلك، وتَسقط قيمة الظروف لأنها كانت حائلاً<sup>(١)</sup> بينه وبين الخمر، ولو ستر الخمر بيديه لكننا نقصد يديه بالضرب لتوصل إلى إراقة الخمر فإنه لا تزيد حرمة ملكه في الظروف على حرمة نفسه، ولو كانت الخمر في قوارير ضيقة الرؤوس، فإذا اشتغل بإراقتها طال الزمان وأدركه الفساق فمنعوه، فله كسرها، فهذا عذر، وإن لم يحذر من الفساق لكن كان يضيع زمانه وتتعطل أشغاله في صبها فله كسرها، فإن تيسرت الإراقة كالكسر لم يجز له أن يكسر.

فإن قيل: فهلاً جاز الكسر زجراً والجُرُّ بالرجل في الإخراج من الدار المغصوبة زجراً؟

قلنا: إنما يكون الزجر عن المستقبل، والعقوبة على الماضي، والدفع عن الحاضر الراهن، وليس إلى آحاد الرعية إلا الدفع، وهو إعدام المنكر، فما زاد على قدر إعدام المنكر فهو إما عقوبة على جريمة سابقة، أو زجر عن لاحق، وذلك إلى الولاية لا إلى الرعية، فللوالي أن يفعل ذلك إذا رأى المصلحة فيه.

فإن قيل: فهلاً جاز للسلطان تخريب ديار الفساق زجراً؟

قلنا: لو ورد الشرع بذلك لم يكن خارجاً عن سنن المصالح، ولكننا لا نبتدع المصالح بل نتبع فيها، وكسر الظروف قد كان في بداية الشرع عند شدة الحاجة إلى الزجر، وتركه بعد ذلك لعدم شدة الحاجة لا يكون نسخاً، بل الحكم يزول بزوال العلة، ويعود بعودها، وإنما جوزنا ذلك للإمام بحكم الاتباع ومنعنا منه آحاد الرعية لخفاء وجه الاجتهاد فيه، فنقول: لو أريقَت الخُمور أولاً لم يجز كسر الأواني

(١) في (ظ): «حائلاً».

بعدها، وإتّما جاز كسرهما تبعاً للخمر، فإذا خَلَّت عنها، فهو إتلاف مالٍ إلا أن تكون ضارية<sup>(١)</sup> بالخمر لا تصلح إلا لها، فكأن الفعل المنقول عن العصر الأوّل كان مقروناً بمعنيين: أحدهما: شدّة الحاجة إلى الزّجر، والآخر: تبعية الظروف للخمر التي هي مشغولة بها، وهما معنيان مؤثران لا سبيل إلى حذفهما، ومعنى ثالث وهو صدور هذا عن رأي صاحب الأمر لعلمه بشدّة الحاجة إلى الزّجر، وهما معنيان مؤثران لا سبيل إلى حذفهما، ومعنى ثالث وهو صدور هذا عن رأي صاحب الأمر لعلمه بشدّة الحاجة إلى الزّجر، وهو معنى مؤثر، فلا سبيل إلى الغاية، فهذه تصرفاتٌ دقيقةٌ فقيهةٌ يحتاج المحتسبُ إلى معرفتها.

الدرجة السادسة: التّهديد والتّخويف، كقوله: دَعْ عَنْكَ هذا وإلا فعلتُ بك كذا وكذا. وهذا ينبغي أن يُقدّم على تحقيق الضّرب إذا أمكن تقديمه.

والأدبُ في هذه الرّتبة أن لا يُهدّده بوعيدٍ لا يجوز له تحقيقه، كقوله: لأنّهبنّ دارك أو لأسببّنّ زوجتك؛ لأنّه إن قال ذلك عن عزم، فهو حرام، وإن قال عن غير عزم، فهو كذاب، وله أن يزيد في الوعيد على ما هو عزمه الباطن إذا علم أنّ ذلك ممّا يردّعه.

الدرجة السابعة: مباشرة الضّرب باليد والرّجل وغير ذلك، ممّا ليس<sup>(٢)</sup> فيه إشهارُ سلاح، وذلك جائز للأحاد بشرط الضّرورة، والاقتصار على قدر الحاجة في الدّفْع، فإذا اندفع المنكر فینبغي أن يكفّ.

الدرجة الثامنة: أن لا يقدر عليه بنفسه، ويحتاج إلى أعوانٍ يُشهرون السّلاح، وربّما يستمد الفاسق أيضاً بأعوانه ويؤدي إلى القتال، فهذا ممّا اختلف فيه، فقال قوم: لا يحتاج إلى إذن الإمام، فإنّ أحاد الغزاة يجوز لهم قتال الكفّار، فكذلك أحاد الناس لهم قمع أهل الفساد. وقال آخرون: يُحتاج إلى إذن الإمام؛ لأنّه يؤدّي إلى الفتن وهيجان الفساد، وهو الصّحيح.

(١) ضارية: أي ملازمة للخمر لا تُستخدم إلا لها.

(٢) سقطت من الأصل.

## بَيَانُ آدَابِ<sup>(١)</sup> الْمُحْتَسِبِ

قد ذكرنا تفاصيل الآداب في آحاد الدرجات، ونذكر الآن جُمَلَهَا ومصادرَها فنقول: جميع آداب المحتسب مصدرها ثلاث صفات في المحتسب: العلم، والورع، وحسن الخلق.

أما العلم: فليعلم مواقع الحسبة، وحدودها، ومجاريها، ومواقعها ليقصر على حدّ الشرع فيه.

والورع: ليزعه عن مخالفة معلومه، فما كل من علم عمل بعلمه، بل ربّما يعلم أنه مُسرفٌ في الحسبة وزائد على الحدّ المأذون شرعاً، ولكن يحمله عليه عرض من الأغراض، وليكون كلامه ووعظه مقبولاً، فإنّ الفاسق يهزأ به إذا احتسب، ويورث ذلك جُراًة.

وأما حسن الخلق: فليتمكن من اللطف والرّفق، وهو أصل الباب وأساسه، فإنّ الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمعه ما لم يكن في الطبع قبول له بحسن الخلق، وعلى التحقيق فلا يتم الورع إلا مع حسن الخلق والقدرة على ضبط الشهوة والغضب، وبه يصبر المحتسب على ما أصابه في دين الله تعالى، وإلا فإذا أُصيب بشتم أو ضرب نسي الحسبة وغفل عن دين الله تعالى، واشتغل بنفسه، بل ربّما يُقدم عليه ابتداءً لطلب الجاه والاسم.

فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من القربات، وبها تندفع المنكرات، وإن فُقدت لم يندفع المنكر.

وربما كانت الحسبة أيضاً منكرة لمجاوزة حدّ الشرع فيها، ولهذا قال بعض السلف: لا يأمر بالمعروف إلا رفيق فيما يأمر به، رفيق فيما ينهى عنه، حليم فيما يأمر به، حليم فيما ينهى عنه، فقيه فيما يأمر به، فقيه فيما ينهى عنه.

(١) في (ظ): «أدب».

وقال الحسن البصري: إذا كنت ممن يأمر بالمعروف، فكن من أخذ الناس به، وإلا هلكت.

أبانا عبد الأول بن عيسى قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أعين قال: حدثنا الفربري قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا علي بن عبد الله قال: حدثنا سفيان قال: حدثنا الأعمش عن أبي وائل عن أسامة عن النبي ﷺ قال: «يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أفتابه<sup>(١)</sup> في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أفلان؟ ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتية، وأنهاكم عن المنكر وآتية». أخرجاه في الصحيحين. وقد أنشدوا في هذا المعنى:

لا تلم المرء على فعله وأنت منسوب إلى مثله  
من عاب شيئاً وأتى مثله فإنما يُزري على عقله

ومن الآداب: تقليل العلائق، وقطع الطمع من الخلائق لتزول المداهنة، فقد حكي عن بعض المشايخ أنه كان له سنور، وكان يأخذ من قصاب في جواره كل يوم شيئاً من الغدد لسنوره، فرأى على القصاب منكرًا، فدخل الدار فأخرج السنور ثم جاء وأنكر على القصاب فقال له: لا أعطيتك بعد هذا شيئاً لسنورك. فقال: ما أنكرت عليك إلا بعد إخراج السنور وقطع الطمع منك. وهذا صحيح فإن من لم يقطع الطمع من الناس من شيئين لم يقدر على الإنكار، أحدهما: من لطف ينالونه به، والثاني: من رضاهم عنه وثنائهم عليه.

وأما الرفق فمتمين، فإن موسى عليه السلام لما بُعث إلى فرعون قيل له: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِيَنَّا﴾ [طه: ٤٤] أخبرنا محمد بن أبي منصور قال: أخبرنا أبو المطهر الأصبهاني قال: أخبرنا أبو نعيم أحمد بن عبد الله قال: حدثنا سليمان بن أحمد قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم قال: حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة أن أبا الدرداء مرَّ على رجلٍ قد أصابَ ذنبًا، فكانوا يسبونه، فقال: رأيتم

(١) أفتابه: أمعاؤه.

لو وَجَدْتُمُوهُ فِي قَلْبٍ (١) أَلَمْ تَكُونُوا مُسْتَخْرِجِيهِ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: فَلَا تَسْبُوا  
أَخَاكُم، وَاحْمَدُوا اللَّهَ الَّذِي عَافَاكُمْ. قَالُوا: فَلَا تُبَغِضْهُ قَالَ: إِنَّمَا أَبْغَضُ عَمَلَهُ، فَإِذَا  
تَرَكَهُ فَهُوَ أَخِي.

أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي مَنْصُورٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا جَعْفَرُ بْنُ أَحْمَدَ السَّرَاجِ قَالَ: أَخْبَرَنَا  
الْحَسَنُ بْنُ عَلِيِّ التَّمِيمِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ جَعْفَرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ  
أَحْمَدَ قَالَ: حَدَّثَنِي هَارُونَ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: حَدَّثَنَا سَيَّارٌ قَالَ: حَدَّثَنَا جَعْفَرُ قَالَ:  
حَدَّثَنَا ثَابِتُ الْبُنَانِيِّ قَالَ: كَانَ صِلَةٌ بِنُ أَشِيمٍ يَخْرُجُ إِلَى الْجَبَّانِ (٢) فَيَتَعَبَّدُ فِيهَا، فَكَانَ  
يَمُرُّ عَلَيْهِ شَبَابٌ يَلْهَوْنَ وَيَلْعَبُونَ، فَيَقُولُ لَهُمْ: أَخْبِرُونِي عَنْ قَوْمٍ أَرَادُوا سَفْرًا فَحَادُوا  
النَّهَارَ عَنِ الطَّرِيقِ وَبَاتُوا بِاللَّيْلِ، مَتَى يَقْطَعُونَ سَفْرَهُمْ؟ قَالَ: فَكَانَ كَذَلِكَ يَمُرُّ بِهِمْ  
فَيَعْظَمُهُمْ قَالَ: فَمَرَّ بِهِمْ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ لَهُمْ هَذِهِ الْمَقَالَةُ فَقَالَ شَابٌ مِنْهُمْ: يَا قَوْمَ إِنَّهُ  
وَاللَّهِ مَا يَعْنِي بِهَذَا غَيْرَنَا نَحْنُ بِالنَّهَارِ نَلْهُوُ وَبِاللَّيْلِ نَنَامُ. ثُمَّ اتَّبَعَ صِلَةَ فَلَمْ يَزَلْ يَخْتَلِفُ  
مَعَهُ إِلَى الْجَبَّانِ وَيَتَعَبَّدُ مَعَهُ حَتَّى مَاتَ.

وَمَرَّ بِصِلَةَ بْنِ أَشِيمٍ فَتَى يَجْرُ ثَوْبَهُ فَهَمَّ أَصْحَابُ صِلَةَ أَنْ يَأْخُذُوهُ بِالسُّتْمِمْ أَخْذًا  
شَدِيدًا، فَقَالَ صِلَةَ: دَعُونِي أَكْفِكُمْ أَمْرَهُ. ثُمَّ قَالَ لَهُ: يَا ابْنَ أَخِي إِنَّ لِي إِلَيْكَ  
حَاجَةً. قَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَ: أَحَبُّ أَنْ تَرْفَعَ إِزَارَكَ. قَالَ: نَعَمْ وَنُعْمَى عَيْنٍ. فَرَفَعَ  
إِزَارَهُ، فَقَالَ صِلَةَ لِأَصْحَابِهِ: هَذَا كَانَ أَمْثَلُ مِمَّا أَرَدْتُمْ لَوْ شَتَمْتُمُوهُ وَأَدَيْتُمُوهُ  
لَشَتَمْتُمْكُمْ.

وَقَالَ سُلَيْمَانُ التَّمِيمِيُّ: مَا أَغْضَبَتَ أَحَدًا فَقَبِلَ مِنْكَ.

وَدُعِيَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ إِلَى عُرْسٍ فَجِيءَ بِجَامٍ مِنْ فِضَّةٍ فِيهِ خَبِيصٌ أَوْ طَعَامٌ،  
فَتَنَاوَلَهُ فَقَلَبَهُ عَلَى رَغِيفٍ فَأَصَابَ مِنْهُ، فَقَالَ رَجُلٌ: هَذَا نَهْيٌ فِي سُكُونٍ.

وَرَأَى مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ رَجُلًا مَعَ امْرَأَةٍ فِي خِرَابٍ وَهُوَ يَكْلُمُهَا، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ  
يَرَاكُمَا، سَتَرْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمَا.

(١) القلب: البئر.

(٢) الجبان والجبانة: المقبرة.

وقال فتح بن سُخْرَف: تعلَّق رجلٌ بامرأةٍ وببيده سِكِّين لا يَدنو منه أحدٌ إلاَّ عقره، وكان شديد البدن، فَبينا الناسُ كذلك والمرأةُ تصيحُ مرَّ بِشْرُ بن الحارث فدنا منه وحكَّ كتفَه بكتِف الرَّجُل فوقع الرَّجُل إلى الأرض ومَرَّت المرأةُ ومضى بشر، فدنوا من الرَّجُل وهو يرشح عرقاً فسألوه: ما حالك؟ فقال: ما أدري، ولكن حاكني شيخٌ وقال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ ناظرٌ إليك وإلى ما تعمل. فَصَعَفْتُ لِقوله قَدَمِي وهبته هيبَةً شديدةً لا أدري مَنْ ذلك الرجل. فقالوا له: ذاك بِشْرُ بن الحارث. فقال: واسوأته، كيف ينظر إليَّ بعد اليوم؟ وحَمَّ الرجل من يومه ومات في اليوم السابع.

وقد سبق في باب الحبِّ في الله والبُغض في الله من هذا الجنس أيضاً، وهذا تمام النَّظَر في دَرجات الاحتساب.

## الباب الثالث

### في المنكرات المألوفة في العادات

نُشير منها إلى جمل يستدل بها على أمثالها إذ لا مَطْمَع في حَصْرها واستقصائها، فمن ذلك:

مُنكَرَات المساجد: اعلم أَنَّ المنكرات تنقسم إلى مكروهةٍ وإلى محظورة، فإذا قلنا: هذا منكر مكروه، فاعلم أن المنع منه مُستحبٌ والسُّكوت عنه مكروه، وليس بحرام، إلا إذا لم يعلم الفاعل أنه مكروه، فينبغي أن يُعرَّف؛ لأنَّ الكراهة حُكْم في الشرع ينبغي تَبْلِيغُه إلى من لا يَعْرِفه، وإذا قلنا: مُنكَرٌ مَحْظُورٌ، أو قلنا: منكر، مطلقاً، فإننا نُريدُ به المحظور، ويكون السُّكوت عنه مع القُدرة محظوراً.

فمِمَّا يُشَاهِد كثيرًا في المساجد إساءة الصلاة بترك الطَّمَانِينَة في ركوعها وسجودها، وهو منكر مُبْطَلٌ للصلاة، فيجب النَّهْي عنه، إلا للحنفي الذي يعتقد أن ذلك لا يَمْنَع صِحَّة الصَّلَاة، ومن رأى مُنكَرًا فسكتَ عن إنكاره شارك<sup>(١)</sup> الفاعل في الإثم، وكذلك كلُّ ما يَقْدَح في الصلاة من نجاسةٍ على ثوب المصلِّي لا يراها، وانحرافٍ عن القبلة بسبب ظلام أو عَمَى، فكلُّ ذلك تَجِب الحِسْبَة فيه.

ومنها: اللَّحْنُ في القِرَاءَة، فإنَّه يجب النَّهْي عنه، وتلقين الصَّحِيح، واشتغال المعتكف بإنكار هذه الأشياء وتعريفها أفضل من ذكره وتطوُّعُه؛ لأنَّ هذا فرض، وفائدة الأمر به تتعدَّى، فهي أفضل من نافلة تقتصر عليه.

ومنها: تراسل المؤذنين<sup>(٢)</sup> في الأذان وتطويلهم مدَّ كلماته، أو انفراد كل واحد

(١) في الأصل: «يشارك».

(٢) تراسل المؤذنين: هو أن يجتمعوا على الأذان فيبدأ أحدهم ويمد صوته ثم يسكت ويأخذ غيره في مدِّ الصوت ثم يرجع الأول وهكذا إلى آخر الأذان.

منهم بأذان قبل إتمام الآخر، وذلك يوجب تخليط جواب الأذان على الحاضرين، فهذه منكرات مكروهة ينبغي أن تُعرف ويمنع منها.

ومنها: ما يخلط به المؤذن الأذان من التسيّحات والأذكار قبل الأذان وبعده حتى لا يتمييز الأذان من غيره.

ومن ذلك: أن يكون على الخطيب ثوب حرير، أو بيده سيف مُذهّب.

ومن ذلك: ما يجري من القصاص في المساجد من الكذب والأشياء المنهي عنها، كالخوض الموجب للفتن، أو ذكر ما يوجب الرجاء وحده ويُجرئ على المعاصي كان منكراً، أو كان الرجال مُختلطين بالنساء، فينبغي إنكار ذلك عليهم، وقد ذكرت من هذا طرفاً في كتاب القصاص.

ومنها: الحلق<sup>(١)</sup> يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة والتعويذات، وقيام السُّؤال وإنشادهم الأشعار، ونحو هذا، فهذه منها ما هو حرام لكونه تلبيساً وكذباً كالكذابين من طُرقيّة الأطباء وأهل الشَّعبدة وبيع التعويذات في الأغلب، فإن أصحابها يُلبسون على الصبيان والسَّوادية، فهذا ممنوع منه في المسجد وخارج المسجد.

ومنها: ما هو مُباح خارج المسجد، كالخياطة وبيع الأدوية والكتب والأطعمة، فهذا في المسجد أيضاً لا يحرم إذا كان في أوقاتٍ نادرة إلا بعارض، وهو أن يضيق المكان على المصلين ويكثر عليهم صلاتهم، فأما اتخاذ المسجد دكاناً على الدوام فيحرم.

ومنها: دخول الصبيان والمجانين والسَّكارى إلى المسجد، فأما الصبي؛ فيجوز دخوله إلا أن يتخذ المكان ملعباً على الدوام، فيمنع، وأما المجنون؛ فلا بأس بدخوله إلا أن يُخشى تلوّثه المكان أو نُطقه بالفحش أو تعاطيه المنكر ككشف العورة، فأما المجنون الساكن الساكت، فلا يجب إخراجه من المسجد. والسَّكران

(١) الحلق: جمع حلقة، أي اتخاذ الحلق يوم الجمعة.

في معنى المجنون، فإن خيف، منه القَيءُ أو الإيذاء باللسان، وجب إخراجه، وإن كان ريحه تفوح أخرج فإنَّ النبي ﷺ نَهَى مَنْ أَكَلَ البصل والثوم أن يحضر المسجد، وهما مباحان فكيف بريح الخمر؟

**منكرات الأسواق:** من المنكرات المعتادة في الأسواق الكذب في المراجعة وإخفاء العيب، فمن قال: اشتريتُ هذه السلعة بعشرة وأربح فيها درهماً، وكان كاذباً، فهو فاسق، وعلى من عرف ذلك أن يخبر المشتري بكذبه فإن سكت مراعاةً لقلب البائع كان شريكاً له في الخيانة، وكذا إذا علم به عيباً لزمه أن يُنبه المشتري عليه، لئلا يضيع مال المسلم، وكذلك بيع الثوب المقصور الذي يوهم أنه جديد، وكذلك تلبس انخراق الثوب بالرّفوف، وكل تلبس، وكذلك التفاوت في الميزان والدُّراع يجب على كلٍّ من عرفه تغييره بنفسه أو رفعه إلى الوالي حتى يغيره.

ومنها: الشُّروط الفاسدة، واستعمال الرِّبا، وبيع الملاهي، وبيع الصُّور المُجَسِّمة.

**منكرات الشُّوارع:** من المنكر المعتاد في الشُّوارع وضع الأساطين وبناء الدُّكَّاك متصلة بالأبنية المملوكة، وإخراج الأجنحة، وغرس الأشجار، إذا كان ذلك يؤدي إلى تضيق الطريق واستضرار المارة به، فإن لم يؤدِّ لم يمنع منه، وأما وضع الحطب والطعام في الطريق بمقدار ما يُنقل إلى البيوت فجائز، فإن ذلك يشترك في الحاجة إليه الكافة، وكذلك ربط الدُّواب على الطريق بحيث يضيق الطريق ويؤدي المارين منكر يجب المنع منه إلا بمقدار حاجة النُّزول والركوب، وهذا لأن الشُّوارع مشتركة المنفعة، وليس لأحدٍ أن يختصَّ بها إلا بقدر الحاجة.

ومنها سَوْقُ الدُّواب وعليها الشوك بحيث تُمزق ثياب الناس، فذلك مُنكر إذا أمكن شدُّه وضمُّه بحيث لا تُمزق الثياب أو أمكن العدول بها إلى موضع واسع، فإن لم يمكن لم يمنع منه؛ لأنَّ حاجة أهل البلد تمسُّ إلى ذلك، ولكن لا تترك مُلقاة على الشُّوارع إلا بقدر مدة نقلها، وكذلك تحميل الدُّواب من الأحمال ما لا تطيقه منكر يجب منع المالك منه، وكذلك ذبح القَصَّاب على باب دُكانه وتلوين

الطريق بالدّم مُنكر يجب المنع منه؛ لأنّه إضرارٌ بالنّاس من جهة تضييق الطريق وتَرْشيش النَّجاسة واستِغْذار الطَّبّاع ذلك، وكذلك طرح الكُناسة على جَوادِّ الطرق وتَبديد قُشور البِطِيخ أو رشّ الماء بحيث يُخشى منه الرُّلُق، والماء الَّذي يجتمع من ميزاب معين فعلى صاحبه رفعه، فإن كان من المطر فعلى الولاية تكليف النَّاس رفع ذلك، وليس للأحاد في ذلك إلاّ الوعظ فقط.

مُنكرات الحمامات: من ذلك صور الحيوانات على باب الحمام أو داخله <sup>(١)</sup> «فذلك منكر»، فيجب إزالته على كلّ من دخل الحمام أو رأى الصّور إن قدر عليها، فإن كان الموضوع مرتفعاً لا تصل يده إليه لم يجز له الدّخول إلاّ لضرورة، فليعدل إلى حمام آخر، ويكفيه أن يُشوّه وجوهها بحيث يبطل به تصويرها.

ومنها: كشف العورات والنظر إليها، ومن جملتها كشف المدلّك عن الفخذ وما تحته الشّرة لتنجية الوسخ أو مسّ العورة، ولا يجوز للمسلمة أن تكشف بدنها في الحمام للذّميات.

ومنها: غمس اليد والأواني النّجسة في المياه القليلة، فإنه مُنجسٌ للماء إلاّ أنه إذا فعل ذلك مالكي لم يُنكر عليه بل يتلطف به ويقول له: يمكنك أن لا تؤذيني بتفويت الظّاهرة عليّ.

ومن ذلك أن يكون في مداخل بيوت الحمام ومجاري مياهها حجارة مكسرة <sup>(٢)</sup> ملسّ مزلقة يزلق فيها الغافلون، فهذا مما ينكر على الحمامي إهماله، وكذلك ترك السّدْر المُزلق على أرض الحمام.

منكرات الضيافة: فمن ذلك؛ فرش الحرير للرجال والبُخور في مِجْمرة من فضّة أو ذهب، وكذلك الشّرب فيهما، واستعمال ماء الورد منهما أو مما رأسه منهما، وكذلك تعليق السّتور وفيها الصّور، وسماع القينات <sup>(٣)</sup> والأوتار وإطلاق النّساء على

(١-١) سقط من الأصل.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) القينات: جمع قينة، وهي المغنّية.

السُّبَابِ الَّذِينَ يُخَافُ فِتْنَتَهُمْ، فَكُلُّ ذَلِكَ مُنْكَرٌ يَجِبُ تَغْيِيرُهُ، وَمَنْ عَجَزَ عَنْ تَغْيِيرِهِ لَزِمَهُ الْخُرُوجُ.

وَأَمَّا الصُّورُ عَلَى النَّمَارِقِ وَالْبُسُطِ فَلَيْسَ بِمُنْكَرٍ، وَلَا يَجُوزُ عَلَى الْأَطْبَاقِ وَالْقِصَاعِ، وَلَا يَجُوزُ الْقُعُودُ مَعَ فَاسِقٍ يَلْبَسُ الْحَرِيرَ وَخَاتَمَ الذَّهَبِ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ.

وَأَمَّا تَزْيِينُ النِّسَاءِ بِالذَّهَبِ وَالْحَرِيرِ، فَجَائِزٌ، وَلَا رُخْصَةٌ فِي تَثْقِيبِ أُذُنِ الصَّبِيَّةِ لِأَجْلِ تَعْلِيقِ الذَّهَبِ فِيهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ جَرَحٌ مُؤَلِّمٌ وَمِثْلُهُ مُوجِبٌ لِلْقِصَاصِ، فَلَا يَجُوزُ إِلَّا لِحَاجَةٍ مَهْمَةٌ كَالْفَصْدِ وَالْحِجَامَةِ وَالخِتَانِ، وَالتَّزْيِينُ بِالْحَلَقِ غَيْرُ مَهْمٌ بَلْ تَعْلِيقُهُ عَلَى الْأُذُنِ تَفْرِيطٌ وَفِي الْمَخَانِقِ<sup>(١)</sup> وَالْإِسْوَرَةِ كِفَايَةٌ عَنْهُ، فَهُوَ حَرَامٌ وَالْمَنْعُ مِنْهُ وَاجِبٌ، وَالِاسْتِتْجَارُ عَلَيْهِ غَيْرُ صَحِيحٍ، وَالْأَجْرَةُ الْمَأْخُودَةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ.

ومنها: أن يكون في الضيافة مُبتدع يتكلم في بدعته، فيجوز الحضور لمن يقدر على الردّ عليه على عزم الردّ، فإن كان لا يقدر عليه لم يجز، وإن كان المبتدع لا يتكلم بدعته جاز الحضور مع إظهار الكراهة له والإعراض عنه، وإن كان هناك مُضحك بالفُحش والكذب لم يجز له الحضور، وعند الحضور يجب الإنكار، فإن كان ذلك لِمَرْحٍ لا كذب فيه ولا فُحش أُبيح ما يقلُّ من ذلك، فأما اتّخاذه صناعةً وعادةً فممنوع.

ومنها: الإسراف في الطعام والبناء، فإنه مُنكر، وفي المال مُنكرات منها الإضاعة ومنها الإسراف، والإضاعة؛ تفويت مالٍ بلا فائدة يُعتدُّ بها، كإحراق الثوب وتمزيقه، وهدم البناء من غير غرض، وإلقاء المال في البحر، وفي معناه صرف المال إلى التَّائِحَةِ والمطرب وفي أنواع الفساد؛ لأنها فوائد محرّمة شرعاً، فصارت كالمعدومة، وأمثال هذه المنكرات كثيرة ولا يمكن حصرها.

المنكرات العامة: مَنْ تَيَقَّنَ أَنَّ فِي السُّوقِ مُنْكَرًا يَجْرِي عَلَى الدَّوَامِ أَوْ فِي وَقْتٍ بَعِينِهِ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى تَغْيِيرِهِ لَمْ يَجُزْ لَهُ أَنْ يَسْقُطَ عَنْهُ ذَلِكَ بِالْقُعُودِ فِي بَيْتِهِ، بَلْ يَلْزِمُهُ الْخُرُوجُ، فَإِنَّ قَدْرَ عَلَى تَغْيِيرِ الْبَعْضِ لَزِمَهُ.

(١) المخانق: القلائد التي تُعلّق في العنق.

وحدق على كلّ مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات، ثم يُعلم ذلك أهله وأقاربه، ثم يتعدى إلى جيرانه، ثم إلى أهل محلّته، ثم إلى أهل بلده، ثم إلى أهل<sup>(١)</sup> السّواد كذلك إلى أقصى العالم، فإن قام بذلك الأدنى سقط عن الأبعد، وإلاّ خرج به كل قادر عليه.

---

(١) سقطت من (ظ).

## الباب الرابع

### في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر

قد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف، وأن أولها التعريف، وثانيها الوَعظ، وثالثها تَخشين القَوْل، ورابعها المَنع بالقَهْر، والجائز من جُملة ذلك مع السَّلاطين الرُّبُتبان الأوليان، وهما: التعريف والوعظ، وأمَّا تَخشين القَوْل كقولك: يا ظالم، يا مَنْ لا يَخاف الله ونحو هذا، فإن كان ذلك يُحرِّك فتنَةً يتعدى شرُّها إلى العَير لم يَجز، وإن كان لا يَخاف إلَّا على نفس القائل فهو جائز عند جمهور العلماء، وقد كان من عادة السَّلف التَّعرض للأخطار من غير مبالاة بهلاكِ المهجة، والذي أراه المنع من ذلك؛ لأنَّ المقصود إزالة المنكر، وحمل السلطان بالأنبساط عليه على قَتْلِ المُنكَرِ أكبر من المنكَرِ الذي قصد إزالته، وذلك أنَّ قُوَّة السَّلاطين التَّعظيم، فإذا سَمِعوا من آحاد الرعيَّة: يا ظالم يا فاسق، رأوا غاية الدُّل، فلم يصبروا عليها.

قال الإمام أحمد بن حنبل: لا تَتعرَّض بالسلطان فسيِّفه مسلول.

وأما ما جرى للسَّلف فإن أمراءهم كانوا يهابون العلماء والزُّهاد، فإذا انبسطوا عليهم احتملوهم في الأغلب، وقد جمعتُ مَواعظ السَّلف للخلفاء والأمراء في كتاب (المصباح المضيء)<sup>(١)</sup> وأنا أنتخب منه هاهنا حِكَايات: أخبرنا عبد الوهاب الحافظ قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبَّار قال: أخبرنا أحمد بن علي قال: أخبرنا عمر بن ثابت قال: أخبرنا علي بن أحمد بن أبي قيس قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثني يعقوب بن عُبيد قال: حدثنا أبو مُسهر، قال: حدثنا سَعِيد بن

(١) يعني كتابه (المصباح المضيء في خلافة المستضيء)، طبع بتحقيق ناجية عبد الله إبراهيم في بغداد سنة ١٩٩٧م. ينظر «قراءة جديدة في مؤلفات ابن الجوزي» ص ١١٣.

عبد العزيز قال: قال سعيد بن عامر بن حذيم لعمر<sup>(١)</sup>: إني موصيك بكلمات من جوامع الإسلام ومعالمه؛ أحش الله في الناس، ولا تحش الناس في الله، ولا يخالف قولك فعلك، فإن خير القول ما صدقه الفعل، وأحب لقریب المسلمين وبعيدهم ما تحب لنفسك وأهل بيتك، وحض العمرات إلى الحق حيث علمته، ولا تحف في الله لومة لائم. قال: ومن يستطيع ذلك يا سعيد؟ قال: من ركب في عنقه مثل الذي ركب في عنقك.

وقال قتادة: خرج عمر بن الخطاب من المسجد ومعه الجارود العبدي فإذا امرأة برزة<sup>(٢)</sup> على ظهر الطريق، فسلم عليها عمر فردت عليه، أو سلمت عليه فردت عليها السلام، فقالت: هيه يا عمر عهدتك وأنت تسمى عميراً في سوق عكاظ تصارع الصبيان، فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الموت خشي الفوت. فبكى عمر، فقال الجارود: هيه، فقد اجترأت على أمير المؤمنين وأبكيته فقال عمر: دعها، أما تعرف هذه؟ هذه حولة بنت حكيم التي سمع الله قولها من فوق سمائه، فعمر والله أخرى أن يسمع كلامها.

أنبأنا عبد الوهاب الحافظ قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا أحمد بن علي التوزي قال: أخبرنا عمر بن ثابت قال: أخبرنا علي بن أبي قيس قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثنا العباس بن هشام بن محمد عن أبيه عن شيخ من الأزدي أن أبا بكر دخل على معاوية فقال: اتق الله يا معاوية، واعلم أنك في كل يوم يخرج عنك وفي كل ليلة تأتي عليك لا تزداد من الدنيا إلا بعداً ومن الآخرة إلا قرباً، وعلى إثرك طالب لا تفوته وقد نصب لك علم لا تجوزه، فما أسرع ما تبلغ العلم، وما أوشك أو يلحقك الطالب وأنا وما نحن فيه وأنت زائل، وفي الذي نحن صائرون إليه باق، إن خيراً فخييراً، وإن شراً فشرراً.

(١) سقطت من الأصل.

(٢) البرزة: التي تظهر للرجال وتجالسهم.

أخبرنا سلمان بن مسعود قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا محمد بن علي البضاوي قال: حدثنا ابن حَيَّوِيَّة قال: حدثنا ابن صفوان قال: حدثنا عبد الله بن محمد القُرشي قال: حدثني محمد بن الحسين قال: حدثني شهاب بن عباد عن سويد الكلبي أن زَرَّ بْنَ حُبَيْشٍ كَتَبَ إِلَى عبد الملك بن مروان كتاباً<sup>(١)</sup> يَعِظُهُ فِيهِ، فَكَانَ فِي آخِرِ كِتَابِهِ: وَلَا يُطِيعَنَّكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي طَوْلِ الْحَيَاةِ مَا يَظْهَرُ مِنْ صِحَّةِ بَدَنِكَ فَأَنْتَ أَعْلَمُ بِنَفْسِكَ، وَادْكُرْ مَا تَكَلَّمُ بِهِ الْأَوَّلُونَ:

إِذَا الرَّجَالُ وَلَدَتْ أَوْلَادَهَا      وَبَلَيْتُ مِنْ كِبَرِ أَجْسَادِهَا  
وَجَعَلَتْ أَسْقَامُهَا تَعْتَادُهَا      تَلِكُ زُرُوعٌ قَدْ دَنَا حَصَادُهَا  
فَلَمَّا قَرَأَ عَبْدُ الْمَلِكِ الْكِتَابَ بِكَى حَتَّى بَلَ طَرَفِ ثَوْبِهِ، ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ، وَلَوْ  
كَتَبَ إِلَيْنَا بِغَيْرِ هَذَا كَانَ أَرْفَقَ.

أخبرنا عبد الخالق بن أحمد قال: أخبرنا علي بن محمد بن إسحاق قال: أخبرنا عبد الرحمن بن أحمد الرازي قال: أخبرنا جعفر بن عبد الله بن يعقوب قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن هارون الرُّوياني قال: حدثنا أبو سلمة يحيى بن المغيرة قال: حدثنا عبد الجبار بن عبد العزيز بن أبي حازم قال: حدثني أبي عن أبيه أبي حازم قال: دخل سليمان بن عبد الملك المدينة فأقام بها ثلثاً، فقال: ما هاهنا رجلٌ ممَّن أدرك أصحابَ رسول الله ﷺ يحدثنا؟ ف قيل له: بلى ههنا رجلٌ يقال له: أبو حازم، فبعث إليه فجاءه، فقال له سليمان: يا أبا حازم، ما هذا الجفاء؟ فقال له أبو حازم: وأيُّ جفاءٍ رأيتَ مِنِّي؟ فقال له سليمان: أتاني وُجوه أهل المدينة كلهم، ولم تأتني. قال: ما جرى بيني وبينك معرفةً أتيتك عليها. قال: صدقَ الشيخُ، يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم أخربتم آخرتكم وعمَّرتُم دُنْيَاكُمْ وَأَنْتُمْ تَكْرَهُونَ أَنْ تَتَّقِلُوا مِنَ الْعُمُرَانِ إِلَى الْحَرَابِ. قال: صدقتَ، يا أبا حازم فكيف القدوم على الله؟ قال: أما المُحْسِنُ فكالغائبِ يَقدُمُ على أهله، وأما المُسِيءُ

(١) سقطت من (ظ).

فكألابي<sup>(١)</sup> يقدم على مؤلاه. قال: فبكى سليمان وقال: ليت شعري مالنا عند الله يا أبا حازم؟ فقال أبو حازم: اعرض نفسك على كتاب الله فإنك تعلم مالك عند الله. قال: يا أبا حازم: وأنى أصيب تلك المعرفة من كتاب الله عز وجل؟ قال: عند قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤] قال: يا أبا حازم فأين رحمة الله؟ قال: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] قال: يا أبا حازم مَنْ أعقل الناس؟ قال: مَنْ تَعَلَّمَ الْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهَا النَّاسَ. قال: فمن أحمق الناس؟ قال: مَنْ حَظَّ فِي هَوَى رَجُلٍ وَهُوَ ظَالِمٌ فَبَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ. قال: يا أبا حازم، فما أسمع الدعاء؟ قال: دُعَاءُ الْمُخْبِتِينَ. قال: فما أزكى الصدقة؟ قال: جَهْدُ الْمُقِلِّ. قال: يا أبا حازم، ما تقول فيما نحن فيه؟ فقال: اعفني عن هذا. قال سليمان: نَصِيحَةٌ تُلْقِيهَا. قال أبو حازم: إِنَّ نَاسًا أَخَذُوا هَذَا الْأَمْرَ عَنُودَةً مِنْ غَيْرِ مُشَاوَرَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا إِجْمَاعٍ مِنْ رَأْيِهِمْ، فَسَفَكُوا فِيهِ الدَّمَاءَ عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا، ثُمَّ ارْتَحَلُوا عَنْهَا، فَلَيْسَتْ شِعْرِي مَا قَالُوا وَمَا قِيلَ لَهُمْ فَقَالَ بَعْضُ جَلَسَائِهِ: بِئْسَ مَا قَلْتِ يَا شَيْخَ. قال أبو حازم: كَذَبْتَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخَذَ عَلَى الْعُلَمَاءِ: ﴿لَتَبَيَّنَّنَّهُ لِّلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران ١٨٧] قال سليمان: اصحَبْنَا يَا أبا حازم تُصِيبُ مِنَّا وَنُصِيبُ مِنْكَ. قال: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ. قال: ولم؟ قال: أَخَافُ أَنْ أُرَكِّنَ إِلَيْكُمْ شَيْئًا قَلِيلًا فَيُذِيقَنِي ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ قَالَ: فَأَشِيرُ عَلَيَّ. قال: اتَّقِ اللَّهَ أَنْ يَرَاكَ حَيْثُ نَهَاكَ وَأَنْ يَفْقِدَكَ حَيْثُ أَمَرَكَ. قال: يا أبا حازم ادعُ لنا بخيرٍ فقال: اللَّهُمَّ<sup>(٢)</sup> إِنْ كَانَ سُلَيْمَانُ وَلِيُّكَ فَيَسِّرْهُ لِلْخَيْرِ، وَإِنْ كَانَ عَدُوُّكَ فَخُذْهُ إِلَى الْخَيْرِ بِنَاصِيَتِهِ. فقال: يَا غُلَامِ هَاتِ مِئَةَ دِينَارٍ، ثُمَّ قَالَ: خُذْهَا يَا أبا حازم. قال: لا حاجة لي فيها، لي ولغيري في هذا المال أسوة، فإن آسيتَ بيننا، وإلا فلا حاجة لي فيها، إني أخاف أن يكون لما سمعت من كلامي. فكأنَّ سليمان أعجب بأبي حازم فقال الزُّهري إنَّه لجاري منذ ثلاثين سنة ما كلَّمته قط. فقال أبو حازم: إِنَّكَ نَسَيْتَ اللَّهَ فَنَسَيْتَنِي. قال الزُّهري: أَتَشْتَمُنِي؟ قال سليمان: بَلْ أَنْتَ

(١) الأبق: العبد الهارب من سيده.

(٢) سقطت من الأصل.

شَتَمَتَ نَفْسَكَ، أما علمتَ أن للجار على جاره حقاً؟ قال أبو حازم: إن بني إسرائيل لما كانوا على الصَّواب كانت الأمراء تَحْتَاج إلى العلماء، وكانت العلماء تَفِرُّ بدينها من الأمراء، فلما رأى ذلك قوم من أذلة النَّاس تعلَّموا ذلك العلم وأتوا به إلى الأمراء، فاستغنت به عن العلماء، واجتمع القوم على المعصية فسقطوا وانتكسوا، ولو كان علماؤنا يصونون علمهم لم تزل الأمراء تهابهم. قال الزَّهْرِيُّ: كأنك إياي تُريد وبني تُعرِّض؟ قال: هو ما تسمع.

أخبرنا المبارك بن علي قال: أخبرتنا فاطمة بنت عبد الله الخبزي قالت: أخبرنا علي بن الحسن بن الفضل قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن محمد بن خالد قال: أخبرنا علي بن عبد الله بن المغيرة قال: حدثنا أحمد بن سعيد الدمشقي قال: حدثني الزُّبير بن بكار قال: حدثني علي بن محمد المدائني قال: قال عمر بن عبد العزيز لسليمان بن عبد الملك: إن بالباب يا أمير المؤمنين رجلاً له حزمٌ ولسان. قال: أدخله، فدخل فقال: إنِّي مُكَلِّمُكَ يا أمير المؤمنين بكلامٍ فاحتملُه إن كرهته، فإن وراءه ما تُحبُّ إن قبلته. فقال: قل يا أعرابي. فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قد اكتنفك رجالٌ ابتاعوا دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، خافوك في الله ولم يخافوه فيك، حَرَّبوا الآخرة وعمروا الدنيا، فهم حربٌ للآخرة، سلِّم للدينا، فلا تأتمنهم على ما اتئمتك الله عليه، فإنه لن يألوا الأمانة تضييعاً، والأمة خسفاً، وأنت مسؤولٌ عما اجترحوا، وليسوا بمسؤولين عما اجترحت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس غبناً بائع آخرته بدنيا غيره. فقال سليمان: أما أنت فقد سللت لسانك وهو أقطع من سيفك. فقال: أجل يا أمير المؤمنين لك لا عليك. قال: فهل من حاجة في ذات نفسك؟ فقال: أما خاصّة دون عامّة فلا، ثم قام فخرج، فقال سليمان: لله دَرُه ما أشرف أصله، وأجمع قلبه، وأذرب لسانه، وأصدق نيته، وأورع نفسه، هكذا فليكن الشرف والعقل.

أنبأنا أبو البركات الأنماطي قال: أخبرنا أبو الحسين الحمّامي قال: أخبرنا أحمد بن علي التّوزي قال: أخبرنا عمر بن ثابت قال: حدثنا أبو الحسن علي بن أحمد قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثنا محمد بن الحسين قال: حدثنا

يعقوب بن محمد بن عيسى الزُّهري عن عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه قال: قال لي عمر بن عبد العزيز: عَظَنِي. قلت: اضطجع، ثم اجعل الموت عند رأسك، ثم انظر ما تُحِبُّ أن يكونَ فيكَ تلك السَّاعة فخذ فيه الآن، وما تكره أن يكونَ فيكَ تلك السَّاعة فدعه الآن.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا أبو محمد بن أبي عثمان قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن الصَّلْت قال: أخبرنا أحمد بن جعفر بن المُنَادِي قال: حدثني جدِّي قال: حدثنا عبد الله بن بكر السَّهْمِي قال: حدثنا شَيْخٌ من بني سُلَيْم، قال: قال محمد بن كَعْب لِعُمَرَ بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، إنَّما الدنيا سوقٌ من الأسواق، فمنها خرج النَّاس بما ضَرَّهم، ومنها خرجوا بما نَفَعهم، وكم من قوم غَرَّهم منها مثل الذي أصبَحنا فيه حتى أتاهم الموت فاستوعبهم، فخرجوا منها ملومين لم يأخذوا منها لما أحبوا من الآخرة عُدَّةً، ولا لما كَرِهوا جُنَّةً، واقتسم ما جمعوا مَنْ لم يَحْمدهم، وصاروا إلى مَنْ لا يعذرهم، فنحن مَحقوقون يا أمير المؤمنين أن نَنظر إلى تلك الأعمال التي نَغبطهم بها فنَخلفهم فيها، وإلى الأعمال التي نَتخوِّف عليهم فيها فنكفَّ عنها، فاتق الله فيها يا أمير المؤمنين وافتح الأبواب<sup>(١)</sup>، وسهِّل الحِجَاب، وانصُر المَظْلوم، ورُدِّ الظالم، ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه استكمل الإيمان بالله عزَّ وجل: مَنْ إذا رَضِي لم يُدخله رِضاه في الباطل، وإذا غضب لم يُخرجه غضبه من الحق، وإذا قَدَّر لم يتناول ما ليس له.

أخبرنا عبد الله بن علي المقرئ قال: أخبرنا أبو منصور العُكْبَرِي قال: أخبرنا عبد الله بن أبي مُسلم الفَرَضِي قال: أخبرنا علي بن عبد الله بن المغيرة الجوهري قال: أخبرنا أحمد بن سعيد الدَّمَشْقِي قال: حدثني الزُّبَيْر بن بَكَّار قال: <sup>(٢)</sup> حدثني الحارث بن محمد العوفي، قال: حدثني نُوْفَل بن عمار، قال <sup>(٣)</sup>: قال عمر بن عبد العزيز: إنَّ أوَّل من أيقظني لهذا الشَّأن مُراحم؛ حَبِسْتُ رجلاً فجاوزتُ في حَبْسِهِ القَدْرَ الَّذِي يجب عليه، فكَلَّمَنِي في إطلاقه فقلت: ما أنا بمخرجه حتَّى أبلغ

(١) في (ظ): «الباب».

(٢-٢) سقط من (ظ).

في الحِيطة عليه بما هو أكثر مما مرّ عليه . فقال مُزاحم : يا عُمَر بن عبد العزيز ، إنّي أحذرك ليلةً تَمَخَّضُ بالقيامة ، في صَبِيحَتِهَا<sup>(١)</sup> تقومُ السّاعة ، يا عمر ولقد كِدْتُ أنسى اسمك مما أسمع : قال الأمير ، وقال الأمير . فوالله ما هو إلّا أن قال ذاك فكأنّما كَشَفَ عن وجهي غطاءً ، فذكّروا أنفسكم رحمكم الله ، فإنّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين .

أنبأنا أبو منصور بن خيرون قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي الحَظِيب قال : أخبرني أبو الحسن علي بن أيوب قال : أخبرنا أبو عُبَيد الله محمد بن عمران المَرزُباني قال : حدثنا محمد بن أحمد الكاتب قال : حدثنا عبد الله بن أبي سَعَد الورداق قال : حدثنا عمر بن شَبَّه قال : حدثني سعيد بن منصور الرِّقِّي قال : حدثني عثمان بن عطاء الخراساني قال : انطلقتُ مع أبي وهو يُريد هشامَ بن عبد الملك ، فلَمَّا قَرُبْنَا إذا شيخٌ أسود على حمار عليه قميص دَنَسٍ وجُبَّةٌ دَنَسَةٌ وَقَلَنسوة لاطئة دَنَسَةٌ وركاباه من حَشَبٍ ، فضحكْتُ وقلت لأبي : مَنْ هذا الأعرابي؟ قال : اسكُت ، هذا سيّدُ فقهاء أهل الحجاز ، هذا عطاء بن أبي رباح ، فلَمَّا قرب نزل أبي عن بَغلته ونزل هو عن حماره فاعتنقا وتساءلا ، ثم عادا فركبا وانطلقا حتّى وقفا بباب هشام ، فلَمَّا رجع أبي سألته ، فقلت : حَدِّثني ما كان منكما؟ قال : لَمَّا قيل لهشام : عطاء بن أبي رباح ، أذن له ، فوالله ما دخلت إلّا بسببه ، فلَمَّا رآه هشام قال : مرحباً مرحباً ها هنا ها هنا ، فرفعه حتّى مَسَّتْ رُكْبَتُهُ رُكْبَتَهُ ، وعنده أشرف الناس يتحدّثون ، فسكتوا ، فقال هشام : ما حاجتك يا أبا محمّد؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أهلُ الحرّمين أهلُ الله وجيران رسول الله ﷺ تقسّم فيهم أعطياتهم وأرزاقهم . قال : نعم ، يا غلام اكتب لأهل المدينة وأهل مكّة بعطاءين وأرزاقهم لسنة ، ثم قال : هل من حاجة غيرها يا أبا محمّد؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أهل الحجاز وأهل نجد أصل العرب وقادة الإسلام ، تُردُّ فيهم فضولُ صدقاتهم . قال : نعم ، اكتب يا غلام بأن تُردَّ فيهم صدقاتهم ، هل من حاجة غيرها يا أبا محمّد؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أهل الثُّغور يرمون من وراء بيضتكم ويُقاتلون عدوكم ، قد أجرّيتم لهم أرزاقاً فذرّها عليهم ، فإنهم إن هلكوا غزيتم . قال : نعم اكتب تُحمل أرزاقهم إليهم

(١) تحرفت في الأصل إلى : «فصيححتها» .

يا غلام، هل من حاجة غيرها يا أبا محمّد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل ذمتكم لا يُجَبِّي صغارهم، ولا يُتَعَتع كبارهم ولا يُكَلَّفون إلا ما يُطيقون، فإنّ ما تجبونه معونة لكم على عدوكم. قال: نعم، اكتب يا غلام بأن لا يُحمّلوا إلا ما يُطيقون، هل من حاجة غيرها؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، اتَّقِ الله في نفسك، فإنك حُلقت وحدك، وتموتُ وحدك، وتُحسّر وحدك، وتُحاسب وحدك، لا والله ما معك ممن ترى أحد. قال: فأكبَّ هِشامٌ وقام عطاء، فلمّا كنّا عند الباب إذا رجل قد تبعه بكيسٍ ما أدري ما فيه أدراهم أم دنانير، وقال: إنّ أمير المؤمنين أمر لك بهذا. قال: لا أسألكم عليه أجراً إنّ أجريّ إلا على ربّ العالمين. ثم خرج ولا والله ما شربَ عندهم حَسوَةً من ماء فما فوقه.

أنبأنا علي بن عبّيد الله قال: أخبرنا محمد بن أبي نصر الحميدي قال: أخبرنا أبو محمد علي بن أحمد الفقيه قال: حدثنا الكِناني قال: أخبرني أحمد بن خليل قال: حدثنا خالد بن سعد قال: أخبرني عمر بن حفص بن غالب قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم قال: أخبرنا الشافعي عن محمد بن علي قال: إني لحاضرٌ مجلس أمير المؤمنين المنصور، وفيه ابنُ أبي ذؤيب<sup>(١)</sup>، وكان والي المدينة الحسن بن زيد، فأتى الغفاريون فشكّوا إلى أبي جعفر شيئاً من أمر الحسن بن زيد، فقال الحسن: سلّ عنهم ابن أبي ذؤيب، قال: فسأله فقال: ما تقول فيهم يا ابن أبي ذؤيب؟ فقال: يا أمير المؤمنين أشهد إنهم أهلٌ تحطّم في أعراضِ الناس<sup>(٢)</sup>، كثيروا الأذى لهم. فقال أبو جعفر: قد سمعتم. فقال الغفاريون: يا أمير المؤمنين فسله عن الحسن بن زيد. فقال: يا ابن أبي ذؤيب، ما تقول في الحسن بن زيد؟ فقال: أشهدُ إنّه يحكم بغير الحقّ. فقال: قد سمعت يا حسن ما قال ابن أبي ذؤيب؟ فقال: يا أمير المؤمنين سلّه عن نفسك. فقال:

(١) في النسخ «ابن أبي ذئب» والصواب «ذؤيب» وهو محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذؤيب - واسمه هشام - بن شعبة القرشي المدني، توفي بالكوفة سنة

(٢) أي: يقعون فيها كثيراً.

ما تقول في؟ قال: أُوَيْعَفِينِي أمير المؤمنين؟ فقال: والله لتخبرني. فقال: أشهد إِنَّكَ أَخَذْتَ هذا المال من غير حَقِّهِ، وجعلته في غير أهله. فوضع يده في قفا ابن أبي ذؤيب وجعل يقول له: أما والله لولا أنا لأخذت أبناء فارس والرُّوم والدَّيلم والتُّرك بهذا المكان منك. فقال ابن أبي ذؤيب: قد ولي أبو بكر وعُمر فأخذوا بالحقِّ وقَسَمَا بالسَّوِيَّةِ وأخذوا بأقفاء فارس والرُّوم. فخلَّاه أبو جعفر وقال: والله لولا أنني أعلم أنك صادقٌ لقتلتك. فقال ابن أبي ذؤيب: والله يا أمير المؤمنين إنِّي لأنصحُ لك من ابنك المَهدي.

أخبرنا محمد بن أبي منصور قال: أخبرنا أحمد بن الحسن بن خَيْرُون قال: أخبرنا الحسن بن أحمد بن شاذان قال: أخبرنا عبد الله بن إسحاق الخُرَاساني، قال: حدثنا أحمد بن عُبَيْد بن ناصح، قال: حدثنا محمد بن مصعب القرقيساني قال: حدثني الأوزاعيُّ قال: بعثَ إليَّ المنصور أمير المؤمنين وأنا بالسَّاحل، فأتيته، فلَمَّا وصلتُ إليه وسلَّمْتُ عليه بالخلافة ردَّ عليَّ واستجلسني، ثم قال: ما الذي بَطَّأ بك عَنَّا يا أوزاعيُّ؟ قلت: وما الذي تُريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أُريد الأخذ عنكم والاقْتباسَ منكم. قلت: فانظُر يا أمير المؤمنين أن تسمع شيئاً ثم لا تعمل به. فصاح بي الرِّبيع<sup>(١)</sup> وأهوى بيده إلى السَّيف، فانتَهزهُ المنصور وقال: هذا مَجْلِسٌ مَثُوبَةٌ لا مجلس عُقُوبَةٌ. فطابَتْ نَفْسِي وانبسطتُ في الكلام، فقلت: يا أمير المؤمنين حدِّثني مكحولٌ عن عَطِيَّة بن بِشْر قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أَيُّمَا وَالٍ بَاتَ غَاشًّا لِرِعِيَّتِهِ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ». يا أمير المؤمنين، قد كنت في شُغْلٍ شاغِلٍ من خاصَّةِ نَفْسِكَ عن عامَّةِ النَّاسِ الَّذِينَ أَصْبَحَتْ تَمْلِكُهُمْ أَحْمَرُهُمْ وَأَسْوَدُهُمْ، ومُسلِمُهُمْ وكَافِرُهُمْ، وكلُّ له عليك نَصِيبٌ من العَدْلِ، فكيف بك إذا انبعتَ منهم فِئامٌ<sup>(٢)</sup> وراءَ فِئامٍ، وليس منهم أحدٌ إلَّا وهو يَشْكُو بَلِيَّةً أَدْخَلَتْهَا عَلَيْهِ، أو ظُلامَةٌ سُقَّتْهَا إِلَيْهِ، يا أمير المؤمنين، حدِّثني مكحول عن زياد بن جَارِيَةَ<sup>(٣)</sup> عن

(١) يعني حاجب المنصور.

(٢) الفِئام: الجماعة الكثيرة من الناس.

(٣) تصحف في الأصل إلى: «حارثة».

حبيب بن مسلمة أن رسول الله ﷺ دَعَى إِلَى الْقِصَاصِ مِنْ نَفْسِهِ فِي حَدْثٍ حَدَّثَهُ أَعْرَابِيًّا لَمْ يَتَعَمَّدَهُ، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْ جَبَارًا مُتَكَبِّرًا. فدعى النبي ﷺ الأعرابيَّ فقال: «اقْتَصَّ مِنِّي» فقال الأعرابي: قد أحللتك بأبي أنت وأمي، وما كنت لأفعل ذلك أبداً ولو أتيت على نفسي. فدعا له بخير، يا أمير المؤمنين، رُضْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ، وَخُذْ لَهَا الْأَمَانَ مِنْ رَبِّكَ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ الْمُلْكَ لَوْ بَقِيَ لِمَنْ قَبْلَكَ لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ، وَكَذَا لَا يَبْقَى لَكَ كَمَا لَمْ يَبْقَ لِغَيْرِكَ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، جَاءَ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ جَدِّكَ: ﴿مَالِ هَذَا الْكُتْبِ لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَيْنَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، قال: الصَّغِيرَةُ التَّبَسُّمُ وَالْكَبِيرَةُ الضَّحْكُ، فَكَيْفَ بِمَا عَمَلْتَهُ الْأَيْدِي وَحَصَدْتَهُ الْأَلْسُنُ؟! يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، بَلَّغْنِي أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ: لَوْ مَاتَتْ سَخَلَةٌ عَلَى شَاطِئِ الْفُرَاتِ ضَيْعَةً لَخَشِيتُ أَنْ أُسْأَلَ عَنْهَا. فَكَيْفَ بِمَنْ حُرِّمَ عَدْلُكَ وَهُوَ عَلَى بَسَاطِكَ؟! يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، جَاءَ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ جَدِّكَ ﴿بِنِدَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦]، قال: يَا دَاوُدَ إِذَا قَعَدَ الْخَصْمَانِ بَيْنَ يَدَيْكَ وَكَانَ لَكَ فِي أَحَدِهِمَا هَوَىٰ فَلَا تَتَمَنَّيَنَّ فِي نَفْسِكَ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ لَهُ فَيَفْلُجَ<sup>(١)</sup> عَلَى صَاحِبِهِ فَأَمْحُوكَ مِنْ نُبُوتِي ثُمَّ لَا تَكُونَ خَلِيفَتِي، يَا دَاوُدَ، إِنَّمَا جَعَلْتُ رُسُلِي إِلَى عِبَادِي رِعَاةَ كِرْعَاةِ الْإِبِلِ لِعَلِمِهِم بِالرِّعَايَةِ وَرِفْقِهِم بِالسِّيَاسَةِ لِيَجْبُرُوا الْكَسِيرَ، وَيَدُلُّوا الْهَزِيلَ عَلَى الْكَلَاءِ وَالْمَاءِ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّكَ قَدْ بُلِيتَ بِأَمْرٍ لَوْ عُرِضَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ لِأَبِينَ أَنْ يَحْمِلَنَّهُ وَأَشْفَقْنَ مِنْهُ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، حَدَّثَنِي يَزِيدُ<sup>(٢)</sup> بْنُ جَابِرٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَمْرَةَ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَرَأَاهُ بَعْدَ أَيَّامٍ مَقِيمًا، فَقَالَ لَهُ: مَا مَنَعَكَ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَى عَمَلِكَ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ لَكَ مِثْلَ أَجْرِ الْمَجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: وَكَيْفَ ذَاكَ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ بَلَّغْنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ وَالٍ يَلِي شَيْئًا مِنْ أُمُورِ النَّاسِ

(١) فلج: ظهر وظفر وفاز على خصمه.

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «زيد». وهو يزيد بن جابر الأزدي الشامي توفي سنة

إِلَّا أَتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعْلُولاً يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ يَوْقِفُ عَلَى جِسْرِ فِي النَّارِ يَنْتَفِضُ بِهِ ذَلِكَ الْجِسْرَ انْتِفَاضَةً تُزِيلُ كُلَّ عَضْوٍ مِنْهُ عَنْ مَوْضِعِهِ، ثُمَّ يَعَادُ فِيحَاسِبُ، فَإِنْ كَانَ مُحْسِنًا نَجَا بِإِحْسَانِهِ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا انْخَرَقَ بِهِ ذَلِكَ الْجِسْرَ فَهَوَى بِهِ فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا». فَقَالَ لَهُ: مِمَّنْ سَمِعْتَ هَذَا؟ فَقَالَ: مِنْ أَبِي ذَرٍّ وَسَلْمَانَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمَا عُمَرَ فَسَأَلَهُمَا، فَقَالَا: نَعَمْ، سَمِعْنَاهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ عُمَرُ: وَأَعْمَرَاهُ، مَنْ يَتَوَلَّاهَا بِمَا فِيهَا؟ فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: مَنْ سَلَتَ اللَّهُ أَنْفَهُ وَأَلْصَقَ خَدَّهُ بِالْأَرْضِ. فَأَخَذَ الْمُنْدِيلَ - يَعْنِي الْمَنْصُورَ - فَوَضَعَهُ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ بَكَى وَانْتَحَبَ حَتَّى أَبْكَانِي، ثُمَّ قَلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَدْ سَأَلَ جَدُّكَ الْعَبَّاسُ النَّبِيَّ ﷺ إِمَارَةَ عَلَى مَكَّةَ أَوْ الطَّائِفِ أَوْ الْيَمَنِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا عَمُّ، نَفْسٌ تُنَجِّيهَا خَيْرٌ مِنْ إِمَارَةٍ لَا تُحْصِيهَا» نَصِيحَةٌ مِنْهُ لِعَمِّهِ، وَشَفِيقَةٌ مِنْهُ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِذْ أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فَقَالَ: «يَا عَبَّاسُ، وَيَا صَفِيَّةُ، وَيَا فَاطِمَةَ إِنِّي لَسْتُ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ». وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: لَا يُقِيمُ أَمْرَ النَّاسِ إِلَّا حَصِيفُ الْعَقْلِ لَا تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، وَقَالَ: السُّلْطَانُ أَرْبَعَةٌ أُمَرَاءُ فَأَمِيرٌ ظَلَفَ<sup>(١)</sup> نَفْسَهُ وَعُمَّالَهُ، فَذَلِكَ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَدُّ اللَّهِ عَلَيْهِ بِالسُّلْطَةِ بِالرَّحْمَةِ، وَأَمِيرٌ ضَعِيفٌ ظَلَفَ نَفْسَهُ وَأَرْتَعَ عَمَّالَهُ لَضَعْفِهِ، فَهُوَ عَلَى شَفَا هَلَالٍ إِلَّا أَنْ يُرْحَمَ، وَأَمِيرٌ ظَلَفَ عَمَّالَهُ وَأَرْتَعَ نَفْسَهُ، فَذَلِكَ الْحُطْمَةُ الَّتِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «شَرُّ الرَّعَاءِ الْحُطْمَةُ، فَهُوَ الْهَالِكُ وَحْدَهُ». وَأَمِيرٌ أَرْتَعَ نَفْسَهُ وَعُمَّالَهُ، فَهَلَكُوا جَمِيعًا، وَقَدْ بَلَغَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ جِبْرَائِيلَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «أَتَيْتُكَ حِينَ أَمَرَ اللَّهُ بِمَنْافِيخِ النَّارِ فَوُضِعَتْ عَلَى النَّارِ تُسَعَّرُ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ لَهُ: يَا جِبْرِيْلُ، صَفِّ لِي النَّارَ. فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ بِهَا فَأَوْقَدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى اصْفَرَّتْ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ، فَهِيَ سُودَاءٌ مُظْلَمَةٌ لَا يُضِيءُ لَهَا وَلَا يُطْفَأُ جَمْرُهَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ أَنَّ ثَوْبًا مِنْ ثِيَابِ<sup>(٢)</sup> أَهْلِ النَّارِ أُظْهِرَ لِأَهْلِ الْأَرْضِ لَمَاتُوا

(١) ظَلَفَ: أَي مَنَعَ.

(٢) فِي الْأَصْلِ: «أَثْوَاب».

جميعاً، ولو أنّ ذنوباً من شرابها صُبَّ في ماء الأرض جميعاً لقتل مَنْ ذاقه، ولو أنّ ذراعاً من السِّلْسِلَةِ التي ذكر الله عزَّ وجلَّ وُضِعَ على جبالِ الأرض جميعاً لذابت وما استقلت، ولو أنّ رجلاً دخل النار ثم أُخرج منها لمات أهل الأرض من نَتْنِ ريحِهِ وتَشْوُهُ خَلْقِهِ» فبكى النبي ﷺ وبكى جبريلُ لبكائه وقال: «أتبكي يا محمَّدُ وقد عَفَرَ اللهُ لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخَّر؟ قال: أفلا أكونُ عبداً شكوراً؟ ولمْ بكيت يا جبريل وأنت الرُّوحُ الأمين؟ فقال: أخافُ أنْ أبتلى بمثل ما ابتلي به هاروتُ وماروتُ».

يا أمير المؤمنين، إنّ أشدَّ الشدَّةِ القيامُ لله لحقِّه، وإن أكرم الكرم عند الله التَّقوى، وإنه مَنْ طلب العزَّ بطاعةِ الله رفعه اللهُ وأعزَّه، ومَنْ طلبه بمعصيةِ الله أدلَّه اللهُ ووَضَعه، فهي نصيحتي، والسَّلَامُ عليك. ثم نهضتُ، فقال: إلى أين؟ فقلت: إلى الولدِ والوطنِ بإذن أمير المؤمنين إن شاء الله. فقال: قد أذنتُ لك وشكرتُ لك نصيحتك وقبَلْتُها بقبولها، والله الموفق للخير، والمعين عليه، وبه أستعين، وعليه أتوكَّل، وهو حَسبي ونعم الوكيل، فلا تُخَلِّني من مُطالعتك إياي بمثلها، فإنك المقبولُ القولِ غيرُ المُتَّهمِ في النصيحة. قلتُ: أفعَلُ إن شاء الله. قال محمَّدُ بن مُصعب: وأمر له بمالٍ يستعينُ به على خروجه فلم يقبله، وقال: أنا في غنى عنه، وما كنت لأبيعَ نصيحتي بعرضِ الدُّنيا كلِّها، وعرفَ المنصور مذهبَه فلم يجدْ عليه في ذلك.

أنبأنا محمَّد بن أبي طاهر قال: أنبأنا أبو الطَّيِّب الطَّبْرِي قال: أخبرنا المُعافَى بن زكريا قال: حدثنا أحمد بن الحسن بن منصور قال: حدثنا أبو قِلابَةَ قال: حدثني نصر بن يزيد قال: حدثني أبو عمرو الشَّغافِي قال: صلَّينا مع المَهْدِي المَغْرَب، ومعنى العَوْفِي وكانَ على مَظالم المَهْدِي، فلما انصرف المَهْدِي من المَغْرَب جاء العَوْفِي حتى قَعَد في قِبَلتِه، فقام يتنَفَّلُ فجذب ثوبَه، فقال: ما شأنك؟ قال: شيءٌ أُولَى بك من النَّافِلَةِ. قال: وما ذاك؟ قال: سَلَامٌ مَوْلَاك - قال: وهو قائمٌ على رأسه - أو طأ قوماً الحَيْلَ وَعَصَبُهُم على ضيعتهم، وقد صحَّ ذلك عندي، تأمُرُ بردها وتبعثُ مَنْ يُخْرِجُهُم. فقال المَهْدِي: نُصَبِحُ إن شاء الله. فقال العَوْفِي:

لا، إلا الساعة. فقال المهدي: فلان القائد، اذهب الساعة إلى موضع كذا وكذا فأخرج من فيه، وسلم الضيعة إلى فلان. قال: فما أصبحوا حتى ردت الضيعة على صاحبها.

أخبرنا أبو منصور القزاز قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي الحافظ قال: أخبرنا القاضي أبو العلاء الواسطي قال: حدثنا محمد بن جعفر التميمي، قال: أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد قال: أخبرنا وكيع قال: أخبرني إبراهيم بن أبي عثمان عن يحيى بن عبد الصمد قال: حوصم موسى أمير المؤمنين إلى أبي يوسف في بستانه، فكان الحكم في الظاهر لأمير المؤمنين، وكان الأمر على خلاف ذلك، فقال أمير المؤمنين لأبي يوسف: ما صنعت في الأمر الذي يتنازع إليك فيه؟ قال: خصم أمير المؤمنين يسألني أن أحلف أمير المؤمنين أن شهوده شهدوا على حق. فقال له موسى: وترى ذلك؟ قال: كان ابن أبي ليلى يراه. قال: فاردد البستان عليه. وإنما احتال عليه أبو يوسف.

أخبرنا محمد بن ناصر قال: أخبرنا إبراهيم بن سعد الحبال قال: أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن الجراح قال: حدثنا محمد بن جعفر بن دُرَّان قال: حدثنا هارون بن عبد العزيز العباسي قال: حدثنا محمد بن خلف بن حيَّان قال: حدثنا محمد بن إسحاق بن عبد الرحمن البغوي قال: سمعتُ سعيد بن سليمان يقول: كنت بمكة في زقاق الشطوي وإلى جنبي عبد الله بن عبد العزيز العمري، وقد حجَّ هارون الرشيد فقال له إنسان: يا أبا عبد الله، هو ذا أمير المؤمنين يسعى قد أخلي له السعي. فقال العمري للرجل: لا جزاك الله عني خيراً، كلفتني أمراً كنتُ عنه غنياً. ثم تعلق نعليه وقام فتبعته، فأقبل الرشيد من المروة يريد الصفا، فصاح به: يا هارون. فلما نظر إليه قال: لبيك يا عم. قال: ارق الصفا، فلما رقيه قال: ارم بظرفك إلى البيت. قال: قد فعلت. قال: كم هم؟ قال: ومن يحصيه؟ قال فكم في الناس مثلهم؟ قال: خلق لا يحصيه إلا الله. قال: اعلم أيها الرجل أن كل واحدٍ منهم يُسأل عن خاصّة نفسه، وأنت وحدك تُسأل عنهم كلهم، فانظر كيف تكون. قال: فبكى هارون وجلس، وجعلوا يعطونه منديلاً للدموع. قال

العُمري: وأخرى أقولها. قال: قُلْ يا عَم. قال: والله إنَّ الرَّجُلَ لِيُسْرِعُ في ماله فيستحقَّ الحَجْرَ عَلَيْهِ، فكيف بمن أسْرَع في مال المسلمين؟ ثم مَضَى وهارون يبيكي.

قال محمد بن خَلْف: وسمعتُ محمد بن عبد الرَّحمن يقول: بلغني أنَّ هارون الرَّشيد قال: إنِّي لأحِبُّ أن أحجَّ كل سَنَةٍ ما يمنعني إلا رجُلٌ من ولد عُمر ثمَّ يُسمعني ما أكره.

وفي رواية أخرى أنه لَمَّا لَقِيه قال: يا هارون، فعلتَ وفعلتَ فجلس هارون بَجَنِّهِ<sup>(١)</sup> وجعلَ يَستمع إليه ويقول: مقبولٌ منك يا عَم، على الرَّأس والعين. فقال له: يا أمير المؤمنين، مِنْ حالِ الناسِ كَيْتٌ وكَيْتٌ. فقال: عَن غيرِ علمي وأمري. فما زال واقفاً حتى سكتَ العُمري، فلَمَّا رآه قد سكت مَضَى.

أخبرنا محمد بن أبي منصور قال: أخبرنا محمد بن عبد الملك الأَسدي قال: أخبرنا الحُسَيْن بن جعفر السَّلماسي قال: حدثنا المُعافى بن زكريَّا، قال: حدثنا محمد بن مَحَلَّد قال: حدثنا حَمَّاد بن المُؤمِّل قال: حدثنا زَيْد بن العباس قال: لَمَّا حَجَّ الرَّشيدُ قِيلَ له: يا أمير المؤمنين، قد حَجَّ شَيْبانُ. قال: اطلبوه لي. فطلبوه فأتوه به، فقال له: يا شَيْبان، عِظني قال: يا أمير المؤمنين، أنا رجُلٌ أَلْكَن لا أفصح بالعربية، فجنني بمن يفهم كلامي حتى أكلّمه. فأتي برجلٍ يفهم كلامه، فقال له بالنَّبْطِيَّة: قُلْ له: يا أمير المؤمنين، إنَّ الذي يُخوفُكَ قَبْلَ أن تَبْلَغَ المأمَن أنصح لك من الذي يُؤمِّنُكَ قَبْلَ أن تبلغَ الخوفَ. فقال له: أيّ شيءٍ تفسير هذا؟ قال: قل له: الذي يقول لك: اتَّقِ الله، فإنك رجُلٌ مَسْؤُول عن هذه الأُمَّة، استرعاكَ اللهُ عَلَيْها، وَقَلَّدَكَ أمورها، وأنت مَسْؤُولٌ عنها، فاعدِل في الرَّعِيَّة، واقسيم بالسَّوِيَّة، وانفِر في السَّرِيَّة<sup>(٢)</sup>، واتَّقِ الله في نَفْسِكَ، هذا الذي يُخوفُكَ، فإذا بلغت المأمَن أمِنْتَ، هو أنصح لك ممَّن يقول لك: أنتم أهلُ بيتٍ مَغفور لَكُمْ، وأنتم قَرابةٌ نَبِيكُمْ، وفي

(١) في (ظ): «يجيه».

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «السوية».

شفاعته، فلا يزال يُؤمّنك حتى إذا بلغت الخوف<sup>(١)</sup> عطبت. قال: فبكى هارون حتى رحمه من حوله، ثم قال: زدني. قال: حسبك.

أخبرنا محمد بن أبي منصور قال أخبرنا عبد القادر بن محمد قال: أخبرنا إبراهيم بن عمر البرمكي قال: أخبرنا علي بن عبد العزيز بن مردك قال: حدثنا عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: حدثنا أبو حميد الحمصي قال: حدثنا يحيى بن سعيد قال: حدثنا يزيد بن عطاء عن علقمة بن مرثد قال: لما قدم عمر بن هبيرة العراق أرسل إلى الحسن وإلى الشعبي فأمر لهما بيت فكانا فيه شهراً أو نحوه ثم إن الخصي غدا عليهما ذات يوم فقال: إن الأمير داخل عليكما، فجاء عمر يتوكأ على عصي له، فسلم ثم جلس مُعظماً لهما، فقال: إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إليّ كتباً أعرف أنّ في إنفاذها الهلكة، فإن أطعته عصيت الله، وإن عصيته أطعت الله، فهل تريان في متابعتي إياه فرجاً؟ فقال الحسن: يا أبا عمرو، أجب الأمير. فتكلم الشعبي فانحط في جبل ابن هبيرة. فقال: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ قال: أيها الأمير، قد قال الشعبي ما قد سمعت. فقال: ما تقول أنت؟ قال: أقول: يا عمر بن هبيرة أوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ لا يعصي الله ما أمره، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، يا عمر بن هبيرة، إن تتقي الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك، ولن يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله، يا عمر بن هبيرة لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك فتغلق به باب المغفرة دونك، يا عمر بن هبيرة، لقد أدركت ناساً من صدر هذه الأمة كانوا عن الدنيا وهي مقبلة عليهم أشد إدياراً من إقبالكم عليها وهي مذبذبة، يا عمر بن هبيرة، إني أخوفك مقاماً خوفاً الله فقال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِي﴾ [إبراهيم: ١٤] يا عمر بن هبيرة، إن تك مع الله في طاعته كفأك يزيد بن عبد الملك، وإن تك مع يزيد على معاصي الله وكلك الله إليه. فبكى عمر بن هبيرة وقام لعبرته، فلما كان من الغد أرسل إليهما بإذنهما وجوائزهما، وأكثر فيها للحسن، وكان في جائزة الشعبي بعض الإفتار، فخرج

(١) سقطت من الأصل.

الشَّعْبِي إِلَى الْمَسْجِدِ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، مِنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُؤَثِّرَ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ فَلْيَفْعَلْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي فِي يَدِهِ مَا عَلِمَ الْحَسَنُ مِنْهُ شَيْئاً فَجَهَلْتُهُ، وَلَكِنِّي أَرَدْتُ وَجْهَ ابْنِ هُبَيْرَةَ، فَأَقْصَانِي اللَّهُ مِنْهُ.

أَبَانَا عَبْدَ الْوَهَّابِ قَالَ: أَخْبَرَنَا الْمُبَارَكُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ التَّوَّزِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنَا عُمَرُ بْنُ ثَابِتٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي قَيْسٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ الْقُرَشِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى قَالَ: سَمِعْتُ الْخَطَّابَ أَبَا عُمَرَ يَقُولُ: دَخَلَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ عَلَى بِلَالِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ فِي يَوْمِ حَارٍ وَبِلَالٌ فِي خَيْشِهِ وَعِنْدَهُ الثَّلْجُ<sup>(١)</sup>، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، كَيْفَ تَرَى بَيْتَنَا هَذَا؟ قَالَ: إِنَّ بَيْتَكَ لَطَيِّبٌ وَالْجَنَّةُ أَطْيَبُ مِنْهُ، وَذِكْرُ النَّارِ يُلْهِبِي عَنْهُ. قَالَ: مَا تَقُولُ فِي الْقَدْرِ؟ قَالَ: جِيرَانُكَ أَهْلُ الْقُبُورِ فَفَكَّرَ فِيهِمْ، فَإِنَّ فِيهِمْ شُغْلاً عَنِ الْقَدْرِ. قَالَ: ادْعُ لِي. قَالَ: وَمَا تَصْنَعُ بِدُعَائِي وَعَلَى بَابِكَ كَذَا وَكَذَا كُلُّ يَقُولُونَ: إِنَّكَ ظَلَمْتَهُمْ يَرْتَفِعُ دَعَاؤُهُمْ قَبْلَ دُعَائِي؟ لَا تَظْلَمُ فَلَا تَحْتَاجُ إِلَى دُعَائِي.

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَرَازِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ الْمَحْسَنِ قَالَ: أَخْبَرَنَا طَلْحَةُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ جَعْفَرٍ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ حَبِيبِ الدَّارِعِ: كُنَّا وَنَحْنُ أَحْدَاثٌ مَعَ أَبِي حَازِمِ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْقَاضِي، فَكُنَّا نَقْعُدُهُ قَاضِياً وَنَقْدَمُ إِلَيْهِ فِي الْخُصُومَاتِ فَمَا مَضَتْ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي حَتَّى صَارَ قَاضِياً. قَالَ طَلْحَةُ: وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْخَضِيبِيُّ وَبَلَغَ مِنْ شِدَّتِهِ فِي الْحُكْمِ أَنَّ الْمَعْتَضِدَ وَجَّهَ إِلَيْهِ بِطَرِيفِ الْمَخْلُودِيِّ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ لِي عَلَى الضُّبَعِيِّ بَيْعٌ كَانَ لِلْمَعْتَضِدِ وَلِغَيْرِهِ مَالاً، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ غُرَمَاءَهُ ثَبَتُوا عِنْدَكَ وَقَدْ قَسَّطَتْ<sup>(٢)</sup> لَهُمْ مِنْ مَالِهِ فَاجْعَلْنَا كَأَحَدِهِمْ. فَقَالَ لَهُ أَبُو حَازِمٍ: قُلْ لَهُ: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ذَاكِرٌ لَمَا قَالَ لِي وَقَتَّ أَنْ قَلَّدَنِي أَنَّهُ قَدْ أَخْرَجَ الْأَمْرَ مِنْ عُنُقِهِ وَجَعَلَهُ فِي عُنُقِي، فَلَا يَجُوزُ لِي أَنْ أَحْكَمَ فِي مَالِ رَجُلٍ لِمَدَّعٍ إِلَّا بَبَيْتَةٍ. فَرَجَعَ إِلَيْهِ طَرِيفٌ فَأَخْبِرَهُ فَقَالَ: قُلْ لَهُ: فَلَانٌ وَفَلَانٌ يَشْهَدَانِ - يَعْنِي رَجُلَيْنِ جَلِيلَيْنِ كَانَا فِي ذَلِكَ

(١) تصحفت في الأصل إلى: «البلح».

(٢) في (ظ): «بسطت».

الوقت - فقال: يشهدان عندي وأسأل عنهما فإن زُكياً قَبِلْتُ شَهَادَتَهُمَا، وإلا أَمْضَيْتُ ما قَدْ ثَبَّتَ عِنْدِي. فامْتَنَعَ أولئك من الشَّهَادَةِ فزعاً، ولم يَدْفَعِ إلى المَعْتَضِدِّ شيئاً.

فهذا<sup>(١)</sup> مختصرٌ من أخبار من وَعَظَ الأُمراءَ، فمن أراد الزِّيَادَةَ، فليَنظُرْ في كتاب «المِصْبَاحِ المِضِيِّ» وهذه كَانَتْ سيرة العلماء وعاداتهم في الأمر والنَّهْيِ، وَقَلَّةُ مُبَالَاتِهِمْ بِسَطَوَاتِ السَّلَاطِينِ إِيثاراً لإِقَامَةِ حَقِّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى بَقَائِهِمْ، واختياراً لإِعْزَازِ الشَّرْعِ عَلَى حِفْظِ مُهَجِهِمْ، واستِسلاماً للشَّهَادَةِ إِنْ حَصَلَتْ لَهُمْ، إِلَّا أَنْ السَّلَاطِينِ كَانُوا يَعْرِفُونَ حَقَّ العِلْمِ وَفَضْلَهُ فيصبرون على مَضَضِ مَوَاعِظِ هَؤُلَاءِ، والذي أُرَاهُ الآنَ الهَرَبُ مِنَ السَّلَاطِينِ، فهو الأُولَى، فَإِنْ قُدِّرَ لِقَاءٌ اقْتِنَعَ بِلَطِيفِ الموعظةِ فحسب، ولذلك سَبَّيَانُ:

أحدهما: يتعلّق بالواعظِ وهو سوء قَصْدِهِ وسيلة إلى الدُّنْيَا والرِّيَاءِ، فلا يَخْلُصُ لَهُ وَعَظُهُ.

الثاني: يتعلّق بالموعوظِ، فَإِنْ حُبَّ الدُّنْيَا قد شغَلَ الأَكْثَرِينَ عن ذِكْرِ الآخِرَةِ، وتَعْظِيمِهِمْ لَهَا أَنسَاهُمْ تَعْظِيمَ العُلَمَاءِ، وليس للمؤمن أن يُذَلَّ نَفْسَهُ.

آخر كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر



(١) قبلها في (ظ): «قال المصنف».



## كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

الحمد لله الذي خلق كل شيء فأحكم تركيبه وصور كل مصوّر فأحسن ترتيبه، وأدب نبيه محمداً ﷺ فأحسن تأديبه، وطهر خلاله واتخذ خليله وحيبه، ووفّر من كل خلق جميل نصيبه، وضوّع في المشرقين والمغربين طيبه، وأرغم كلّ حسود أراد تكذيبه، وجعل البراق ليلة المعراج نجية<sup>(١)</sup> وزاد في حالة قاب قوسين تقريبه، ووفّق للاقتداء به من أراد تهذيبه، فصلّى الله عليه وعلى أصحابه وآله ما طلب نجم طالع مغيبه، وسلّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد؛ فإنّ آداب الظواهر عنوان أدب البواطن، وحركات الجوارح ثمرات الحواطر، والأعمال نتائج الأخلاق، والآداب رشح المعارف، وسرائر القلوب هي مغارس الأفعال ومنابعها، وأنوار<sup>(٢)</sup> السرائر هي التي تشرق على الظواهر فتزئنها وتحلّيها، وتبدّل بالمحاسن مساوئها، ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه، ومن لم يكن صدره مشكاة الأنوار الإلهية لم يفض على ظاهره جمال الآداب النبوية، وقد كان يصلح أن نختم هذا الرّبع بكتاب جامع لآداب العيش، إلّا أنّ ربع العادات وربع العادات قد أتيا على جملة من الآداب، فلا يصلح إعادتها؛ لأنّ الطّباع مجبولة على مُعاداة المُعاداة، فاقْتصرنا في هذا الكتاب على ذكر آداب رسول الله ﷺ وأخلاقه ليجتمع مع جمع الآداب تأكيد الإيمان بمشاهدة أخلاقه الكريمة التي تشهد أحاديها بأنه أكرم الخلق وأعلاهم رتبة وأجلهم قدرًا، فكيف مجموعها؟

(١) النّجيب: واحد النجائب، وهي خيار الإبل.

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «أنواع».

ولنذكر فيه أولاً: بيان تأديب الله تعالى إياه بالقرآن، ثم بيان جوامع من محاسن أخلاقه وآدابه وكلامه وحلمه وسخائه وشجاعته وتواضعه وصورته ومُعجزاته وآياته ﷺ.

## بيان

## تأديب الله عز وجل حبيبه محمداً ﷺ بالقرآن

كان (رسول الله<sup>(١)</sup> ﷺ) كثير الابتهاال، دائم السؤال لله عز وجل أن يُزيّنه بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق، فكان يقول في دعائه: «اللهم حسن خلقي وخلقي، اللهم جنبني منكرات الأخلاق». فاستجاب الله عز وجل دعاءه فأدبه بالقرآن، فقالت عائشة وقد سُئلت عن خلق رسول الله فقالت: كان خلقه القرآن. وإنما أدبه بمثل قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّاتِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ [الشورى: ٤٣] إلى غير ذلك من الآداب<sup>(٢)</sup> التي يتضمَّنُها القرآن، ولما كُسرَت رباعيته فقال: «فكيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم؟» أنزل الله تعالى عليه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] تأديباً له وحثاً له على الصَّفح، ثم لما أكمل الله تعال خلقه أثنى عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، فسبحان من أعطى ثم أثنى.

ثم بيّن رسول الله للخلق أن الله عز وجل يُحب مكارم الأخلاق ويُبغض سَفْسَافَها، ومن مكارم الأخلاق حُسُنُ المعاشرة، وكرمُ الصَّنِيعَة، ولينُ الجانب، وبَدَلُ المعروف، وإطعام الطَّعام، وإفشاء السَّلَام، وعيادة المريض، وتشجيع الجنائز، وحُسُنُ الجِوار، وتوقير ذي الشَّيْبَة المسلم، وإجابة الطَّعام<sup>(٣)</sup>، والعفو، والإصلاح بين النَّاس، والجود، والكرم، والسَّمَاحة، والابتداء بالسَّلَام، وكَظْمُ

(١-١) ليس في (ظ).

(٢) في الأصل: «الآيات».

(٣) يعني إجابة الداعي لدعوة الطَّعام.

الغَيْظ، والعَفْو، وتركُ الكَذِبِ، والغَيْبَةِ، والبخل، والشُّحِّ، والجَفَاءِ، والمَكْرِ  
والخَدِيعَةِ، والنَّمِيمَةِ، والقَطِيعَةِ، وسوءِ الخُلُقِ، والتَّكَبُّرِ<sup>(١)</sup>، والفَخْرِ، والاختِيَالِ،  
والفُحْشِ<sup>(٢)</sup> والحَقْدِ، والحَسَدِ، والطَّيْرَةِ، والبَغْيِ، والظُّلْمِ.

(١) في الأصل: «الكبر».

(٢) ليست في (ظ).

## بيان

## جُملة من محاسن أخلاقه ﷺ

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْلَمَ<sup>(١)</sup> النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ، وَأَسْحَى النَّاسِ، وَأَعَفَّ النَّاسِ، لَمْ تَمَسَّ يَدَهُ امْرَأَةٌ لَا يَمْلِكُهَا، لَا يَرُدُّ سَائِلًا، وَكَانَ يَخْصِفُ النَّعْلَ<sup>(٢)</sup>، وَيَرْفَعُ الثَّوْبَ وَهُوَ فِي مَهْنَةٍ<sup>(٣)</sup> أَهْلِهِ، وَكَانَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِذْرَاهَا، وَكَانَ يُجِيبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوكِ، وَيَعُودُ الْمَرْضَى، وَيَمْشِي وَحَدَهُ، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ، وَيَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ، وَيُكَافِي عَلَيْهَا، وَيَأْكُلُهَا وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، وَكَانَ لَا يَجِدُ مِنَ الدَّقْلِ<sup>(٤)</sup> مَا يَمَلَأُ بَطْنَهُ، وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبْزِ بُرٍّ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ تَبَاعًا، وَيَعْصَبُ عَلَى بَطْنِهِ الْحَجَرَ مِنَ الْجُوعِ، وَكَانَ يَأْكُلُ مَا حَضَرَ، وَلَا يَذْمُ طَعَامًا قَطُّ، وَلَا يَأْكُلُ مُتَكِنًا، وَيَأْكُلُ مِمَّا يَلِيهِ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ اللَّحْمُ، وَمَنْ الشَاةُ الْكَتِفُ، وَمَنْ الْبُقُولُ الدُّبَاءُ<sup>(٥)</sup>، وَمَنْ الصُّبَاغُ<sup>(٦)</sup> الْحَلُّ، وَمَنْ التَّمْرُ الْعَجْوَةُ، وَيَلْبَسُ مَا وَجَدَ، فَمَرَّةً بُرْدَ حَبْرَةَ، وَمَرَّةً جُبَّةً صُوفٍ، وَيَرْكَبُ تَارَةً بَعِيرًا، وَتَارَةً بَغْلَةً، وَتَارَةً حَمَارًا، وَيَمْشِي مَرَّةً رَاجِلًا حَافِيًا، يُحِبُّ الطَّيِّبَ وَيَكْرَهُ الرَّائِحَةَ الرَّدِيئَةَ، وَيَكْرَهُ أَهْلَ الْفَضْلِ، وَيَتَأَلَّفُ أَهْلَ الشَّرْفِ، وَلَا يَجْفُو عَلَى أَحَدٍ، يَقْبَلُ مَعْذِرَةَ الْمُعْتَذِرِ إِلَيْهِ، يَمْزُحُ وَلَا يَقُولُ إِلَّا حَقًّا، يَضْحَكُ مِنْ غَيْرِ قَهْقَهَةٍ، وَيَدْخُلُ إِلَى بَسَاتِينِ أَصْحَابِهِ، وَلَا يَمْضِي عَلَيْهِ وَقْتُ فِي غَيْرِ عَمَلٍ لِلَّهِ تَعَالَى أَوْ فِيمَا لَا بُدَّ مِنْهُ مِنْ صَلَاحِ نَفْسِهِ، وَمَا لَعَنَ امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا قَطُّ، وَقَالَ: «مَنْ سَبَّيْتَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَاجْعَلْ ذَلِكَ لَهُ زَكَاةً وَأَجْرًا». وَمَا ضَرَبَ بِيَدِهِ أَحَدًا

(١) فِي (ظ): «أَحْكَم».

(٢) يَخْصِفُ النَّعْلَ: أَي يَصْلِحُهَا بِتَرْقِيعِ وَخَرْزِ.

(٣) أَي فِي خِدْمَتِهِمْ.

(٤) الدَّقْلُ: التَّمْرُ الرَّدِيءُ.

(٥) الدُّبَاءُ: الْقِرْعُ وَهُوَ الْيَقُطِينُ.

(٦) الصُّبَاغُ: الْإِدَامُ الْمَائِعُ.

قَطُّ إِلَّا أَنْ يَضْرِبَ بِهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ قَطُّ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ مَحَارِمُ اللَّهِ، وَمَا خَيْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ<sup>(١)</sup> إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَأْتِماً أَوْ قَطِيعَةً رَحِمَ، فَيَكُونُ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ.

وقال أنس: خَدَمْتُهُ تِسْعَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي لشيءٍ فعلته: لم فعلته؟ ولا: ألا فعلت كذا.

وَمِنْ صِفَتِهِ فِي التَّوْرَةِ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ عَبْدِي الْمَخْتَارِ، لَا قَطُّ وَلَا غَلِيظٌ، وَلَا صَحَّابٌ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ.

وَكَانَ مِنْ خُلُقِهِ أَنْ يَبْدَأَ بِالسَّلَامِ مَنْ لَقِيَهُ وَمَنْ قَاوَمَهُ<sup>(٢)</sup> لِحَاجَةِ صَابِرِهِ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمَنْصَرَفُ، وَمَا أَخَذَ أَحَدٌ يَدَهُ فَأَرْسَلَ يَدَهُ حَتَّى يُرْسِلَهَا الْآخِذُ، وَكَانَ لَا يَدْعُوهُ أَحَدٌ إِلَّا قَالَ لَهُ: لَيْتِكَ. وَكَانَ يَجْلِسُ حَيْثُ انْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ مُخْتَلِطاً بِأَصْحَابِهِ كَأَنَّهُ أَحَدُهُمْ، فَيَأْتِي الْعَرِيبُ فَلَا يَدْرِي أَيُّهُمْ هُوَ حَتَّى يَسْأَلَ عَنْهُ، وَكَانَ يُعْطِي كُلَّ جَلِيسٍ نَصِيْبَهُ مِنْ وَجْهِهِ وَأُتِيَ بِرَجُلٍ فَأَرَعَدَ مِنْ هَيْبَتِهِ فَقَالَ: «هُوَ عَلِيٌّ، فَلَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ، كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ».

وَكَانَ طَوِيلَ السُّكُوتِ، فَإِذَا تَكَلَّمَ لَمْ يَسْرُدِ الْكَلَامَ، بَلْ يَتَثَبَّتُ فِيهِ وَيَكْرُرُهُ لِيُنْفِخَ، وَكَانَ يَعْفُو مَعَ الْقُدْرَةِ، وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: اعْدِلْ فَمَا عَدَلْتَ. فَقَالَ: «فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟». وَقَالَ: «رَحِمَ اللَّهُ أَخِي مُوسَى قَدْ أَوْذِيَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبِرَ».

وَكَانَ رَقِيقَ الْبَشَرَةِ يُعْرِفُ فِي وَجْهِهِ غَضَبُهُ وَرِضَاهُ، وَكَانَ إِذَا اشْتَدَّ وَجْدُهُ أَكْثَرَ مِنْ مَسِّ لِحْيَتِهِ، وَكَانَ لَا يُوَاجِهُ أَحَدًا بِمَا يَكْرَهُ، رَأَى عَلَى رَجُلٍ صُفْرَةً فَقَالَ: «لَوْ قُلْتُمْ لِهَذَا أَنْ يَدْعَ هَذِهِ» يَعْنِي: الصُّفْرَةَ.

وَكَانَ أَصْدَقَ النَّاسِ لَهْجَةً، وَأَوْفَاهُمْ ذِمَّةً، وَأَلْيَنَهُمْ عَرِيكَةً، وَأَكْرَمَهُمْ عَشِيرَةً، مَنْ رَأَاهُ بِدِيَهَةٍ هَابَهُ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ.

(١) ليست في الأصل.

(٢) قَاوَمَهُ: أَي قَامَ مَعَهُ وَوَقَفَ.

وكان أصحابه إذا تكلموا في أمور الدنيا تكلم<sup>(١)</sup> معهم، وكانوا يتذكرون أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم، وأناه رجل، فسأله، فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: أسلموا فإن محمداً يُعطي عطاءً من لا يخشى الفاقة.

وقال: «لو كان عندي عدد<sup>(٢)</sup> هذه العِضاه<sup>(٣)</sup> نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً، ولا كذاباً، ولا جباناً».

وكان أشجع الناس، قال بعض أصحابه: كنا إذا احمرَّ البأس اتَّقينا برسول الله. ولم يكن بالطويل البائن، ولا بالقصير المتردد<sup>(٤)</sup>، وكان رُبْعَةً من القوم، وكان أزهر اللون، ولم يكن بالآدم<sup>(٥)</sup>، وكان رجل الشعر ليس بالسبُط ولا الجعد القَطَط<sup>(٦)</sup> واسع الجبهة أزج الحواجب<sup>(٧)</sup>، أدعج العينين<sup>(٨)</sup> أهدب الأشفار، أقى العرينين<sup>(٩)</sup>، سهل الخدين، كت اللحية، كان عنقه جيد دمية، عريض الصدر، سواء البطن والصدر، رحب الرأحتين، طويل الزندين، كفه ألين من الحرير.

وكان إذا مشى كأنه يتقلع وينحدر من صَبَب، يخطو مُتَكَفِّئاً، ويمشي الهويناً.

وأما أسماؤه: فأحمد، ومحمد، والمحي، والحاشر، والعاقب، والمُقَفِّي، ونبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملاحم، والشاهد، والمبشر، والنذير، والضحوك، والقتال، والمتوكل، والفتاح، والأمين، والخاتم، والمصطفى، والرسول، والنبي، والأُمِّي، والقثم.

(١) في (ظ): «تحدث»

(٢) تحرفت في (ظ) إلى: «عقد».

(٣) العِضاه: جمع عضاهه، وهي الشجرة لها شوك.

(٤) أي الذي يتردد بعض خلقه على بعض من القصر المفرط.

(٥) الآدم: الشديد السُمرة.

(٦) الجعد القَطَط: الشديد الجعودة.

(٧) أزج الحواجب: أي حاجباه مقوسان مع كثرة شعرهما.

(٨) أدعج العينين: شديد سواد حدقتهما.

(٩) أقى العرينين: العرينين أول الأنف، والقنى في الأنف طوله ورقه أرنبته مع حدب في وسطه.

فالماحي الذي يُمحي به الكُفر، والحاشر الذي يُعشرُ النَّاسُ على قَدَمَيْهِ، أي: يُقدمهم وهم خَلَفَهُ، والعاقب: آخر الأنبياء، والمقفي بمعنى العاقب لأنه تبع الأنبياء، والملاحم الحُروب، والضَّحوك صِفَتُهُ في التَّوراة، وإنَّما قيل له: الضَّحوك؛ لأنه كان<sup>(١)</sup> طَيِّبَ النَّفْسِ فَكَهَا.

والقُثم من مَعَيْنين: أحدهما: من القُثم الذي هو الإِيعَاء، يُقال: قُثم له من الخَيْرِ يَقِثُّمُ: إذا أعطاه، وكان أجود بالخير من الرِّيحِ الهابَّةِ. والثاني: من القُثم الذي هو الجَمع، يُقالُ للرَّجُلِ الجَموعِ للخير: قُثوم وقُثم.

وأما مُعجزاته ﷺ، فإنَّ من شاهدَ أحواله وتسمع أخبارَه المشتملة على أخلاقه وأفعاله وآدابه وبدائع تَدبِيراته لمصالح الخَلق، ومحاسن إشاراته في تفصيل ظاهر الشَّرع الذي يعجز العُقلاء والفُقهاء عن إدراك أوائل دَقَائِقِهَا في طول أعمارهم لم يَبْقَ له رَيْبٌ في أنَّ ذلك لم يكن مكتسباً بحيلةٍ تقوم بها القُوَّة البَشَريَّة وأنَّه لا يُتصوَّرُ ذلك إلا باستِمداٍ من تَأْيِيدِ سَمَاوِي وقُوَّة إلهية، فإنَّ ذلك لا يَصح لمُلبِّسٍ ولا لكُذَّابٍ، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعةً بصدقه، ولهذا قال مَنْ رآه من المُتَقِظِينَ، منهم عبدُ الله بن سلام: رأيتُهُ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كُذَّابٍ. فَعَرَفَ بِمَا آتَاهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ صَدَقَهُ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ أُمِّيٌّ لَمْ يُمارِسِ العِلْمَ، وَلَمْ يُطالِعِ الكُتُبَ، وَلَمْ يُسافرِ فِي طَلَبِ العِلْمِ، وَلَمْ يَزَلْ بَيْنَ أَظْهَرِ الجَهَالِ مِنَ العَرَبِ يَتِيماً ضَعيفاً مُسْتَضْعِفاً، فَلَوْلَا الوَحْيُ لَمْ يَسْتَقِلَّ بِذَلِكَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ مُعْجَزاتِهِ إِلَّا هَذَا لَكَفَى، وَقَدْ ظَهَرَ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ المُعْجَزاتِ ما أَعْظَمَهُ القُرْآنُ العَزيزُ الذي عجز الخلائق عن الإتيان بمثله، فَمُعْجِزٌ كُلُّ نَبِيٍّ انْقَضَى بذهابه، وهذا المُعْجِزُ باقٍ أبداً، وقد وقع التَّعْجِيزُ بلفظِهِ تارةً، وبما يحتوي عليه من الإخبار بالغائبات، وأنها ستكون على وصف فكانت كما أخبر كقولهِ تَعَالَى: ﴿فَتَمَنَّوْا المَوْتَ﴾ [البقرة: ٩٤]. ثم قال: ﴿وَلَنْ يَمَمْتَوْهُ﴾ [البقرة: ٩٥]، وقولهِ: ﴿فَسَيُنْفِثُهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

ثم أُضيفَ إلى هذا المُعْجِزِ مثل انشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، وإطعامه الخلق الكثير من الطعام اليسير، ورميه بحصيات يسيرة فوصلت إلى أعين الخلق الكثير، وحينئذ الجذع إليه كما تحن العشاير.

ثم إخباره بالغائبات، فكانت مثل قوله، كقوله لعثمان: «سَيُصِيبُكَ بَلَاءٌ»، ولعمّار: «تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَةُ»، وللحسن: «يُصَلِّحُ اللَّهُ بِهِ»<sup>(١)</sup> بين فئتين عظيمتين، وأخبر فاطمة أنها أولُ أهله لحاقاً به، فكان كذلك، وأخبر نساءه أن أطولهن يداً أسرعهن لحاقاً به، فكانت زينب بنت جحش أطولهن يداً بالصدقة وأولهن لحاقاً به، وندرت<sup>(٢)</sup> عين قتادة بن النعمان فردّها بيده، فكانت أحسن عينيه، وتفل في عين علي رضي الله عنه وهو أزمّد فصحّ من وقته، إلى غير ذلك من المعجزات التي شاعت بين العدو والصديق، ولم يوجد سبيل إلى نكرها<sup>(٣)</sup> لشياعها، فمن استراب بها كان كالمُستريب بسخاء حاتم وشجاعة علي، ومعلوم أن أحاد أخبارهم غير متواترة، ولكن مجموع الوقائع أورت علماً ضرورياً، فأعظم بغاوة من ينظر في أحواله، ثم في أقواله، ثم في أخلاقه، ثم في معجزاته، ثم في استمرار شرعه إلى الآن، ثم في انتشاره في أقطار العالم، ثم إذعان الملوك له في عصره وبعده، ثم يتمارى في صدقه.

فنسأل الله عزّ وجل أن يوفّقنا للإيقان به، والافتداء بأخلاقه، إنّه كريمٌ مُجيب.

### آخر كتاب أخلاق النبوة

(٤) وهو آخر رُبْع العادات

(١) في (ظ): «بك».

(٢) ندرت: سقطت وخرجت من مكانها.

(٣) في (ظ): «نكيرها».

(٤-٤) ليست في الأصل.

# مِنْهَا كَالْقَاصِدِ

وَمِفْتَاحِ الصَّادِقِينَ

أَبِي الْفَرَجِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَلِيٍّ

ابْنِ الْخَزَّزِيِّ

مُتَّحِقٍ  
كَامِلٍ مُحَمَّدٍ رَاخِرًا ط

الْمَجْدُ السَّانِي

الْمُهْلِكَات

دار التوفيق

للطباعة والنشر والتوزيع



# رُبْعُ الْمُهْلِكَاتِ

وهو الربع الثالث من هذا الكتاب



## كتاب شرح عجائب القلب

وهو الأول من ربع المهلكات

الحمد لله فائق النوى والحب، خالق الفاكهة والأب، رازق كل ما درج ودب، الذي حامى عن أوليائه ودب، ولطف بجميع مصنوعاته ورب، فمن نظر في المربوب عرف الرب، يُقلّب القلوب ويفعل ما أحب، ويشتت الأمر وقد اجتمع واستتب، ويمرض النفوس فإذا شاء طب<sup>(١)</sup>، ويرقد من أراد فإذا أراد هب، جرى قدره فأسلم وحشي وقد قتل وسب، وتبت يدا أبي لهب وتب، فسبحان من يعطي ويقضي إذا شاء بالسلب، إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب.

أحمده ما جرت ريح في مهب، وأصلي على رسوله محمد ما سار راكب وخب، وعلى أصحابه وأتباعه ما هدر حمام وعب، صلاة تدوم فكلما شاب ذكرها شب، وسلم تسليمًا كثيرًا.

اعلموا وفقكم الله أن أشرف ما في الإنسان قلبه، فهو العالم بالله، العامل له، الساعي إليه، المتقرب المكاشف بما عنده، وإنما الجوارح أتباع وخدم للقلب، يستخدمها استخدام الملوك للعبيد والراعي للرعية، والذي ينتشر على الجوارح من العبادات أنوار القلب، والذي يسري إليها من الفواحش آثاره، فتارة يُظلم بالزلل، وتارة يستنير بالتقوى، ومن عرف قلبه عرف ربه، فأكثر الخلق جاهلون بقلوبهم ونفوسهم، والله يحول بين المرء وقلبه، وحيلولته أن يمنعه من معرفته ومُشاهدته

(١) طب: داوى وعالج.

ومُراقبته، فمعرفة القلب وصفاته أصل الدين، وأساس طريق<sup>(١)</sup> السالكين.

وقد سبق في الشَّطر الأول من هذا الكتاب الكلام فيما يجري على الجوارح من العبادات والعادات، ووعدنا أن نشرح في الشَّطر الثاني ما يجري على القلوب من الصفات المهلكات والمنجيات، ونحن نُقدِّم على ذلك كتابين:

كتاباً في صفات القلب وأخلاقه.

وكتاباً في كيفية رياضة القلب وتهذيب أخلاقه. ثم نفصل المهلكات والمنجيات، إن شاء الله تعالى.

(١) في الأصل: «أهل».

## بَيَانُ

معنى النَّفسِ، والرُّوحِ، والقلبِ والعقلِ،  
وما المُراد بهذه الأسماء<sup>(١)</sup>

أما لفظ القلب، فإنه يُطلق لمعنيين:

أحدهما: اللَّحْمُ الصُّنَوْبَرِي الشَّكْل المودعُ في الجانب الأيسر من الصُّدورِ، وفي باطنه تجويفٌ، وفي التَّجويفِ دَمٌ أسود، وهو مَنبَعُ الرُّوحِ، وهذا القلب موجودٌ للبهائم، بل للميّت أيضاً، وليس الكلامُ في صُورته من غرضنا.

والمعنى الثاني: هو لَطِيفَةٌ رَبَّانِيَّةٌ روحانيَّةٌ لها بهذا القلب الجسماني تعلقٌ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، وهو المُدرِكُ العالمُ العارفُ من الإنسان، وهو المخاطب المطالب المعاتب، والإشارة في كتابنا هذا بالقلب إلى هذه اللطيفة، وعلمُ المُعاملة يفتقرُ إلى معرفة صفاتها وأحوالها لا إلى ذكر حقيقتها.

اللفظ الثاني: الرُّوح: وهو أيضاً يُطلق فيما يتعلق بجنسِ غرضنا لمعنيين:

أحدهما: جسم لطيفٌ مَنبَعُهُ تجويفُ القلب الجسماني فينتشرُ بواسطة العروقِ الصُّواربِ إلى جميع أجزاء البدن، وجريانه في البدن وفيضُ أنوار الحياة والحسِّ والسمع والبصر والشَّم منه على أعضائه يُضاهي فيضَ النُّور من السَّراج الذي يُدار<sup>(٢)</sup> في زوايا البيت، فإنه لا ينتهي إلى جزءٍ من البيت إلا ويستتيرُ به، فالحياة مثالها النُّورُ الحاصل في الحيطان، والرُّوحُ مثاله السَّراج، وسريان الرُّوح وحركته في الباطن مثاله حركة السَّراج في جوانب البيت بتحريك مُحركه.

والأطباء إذا أطلقوا الرُّوح أرادوا هذا المعنى، وهو بخارٌ لطيفٌ أنصجت حَرارَةُ

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الأشياء».

(٢) في الأصل: «يُنار».

القلب، وليس من غرضنا شرحه؛ لأنه إنمّا يتعلّق بغرض الأطباء الذين يُعالجون الأبدان لا بغرض الأطباء الذين يُعالجون القلوب.

والمعنى الثاني: هو اللطيفة العالمة المُدرِكة من الإنسان، وهو الذي شرحناه في أحد معنَي القلب، وهو الذي أرادَه اللهُ تعالى بقوله: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، وهو أمر عجيب ربّانيّ تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك كُنْهِ حقيقته.

اللفظ الثالث: النَّفس: وهذا<sup>(١)</sup> أيضاً مشترك بين معاني ويتعلق بغرضنا منه معنيان.

أحدهما: أنه يُراد به المعنى الجامع لقوة العَصَب والشّهوة في الإنسان، وإلى هذا يُشارُ في ذكر مُجاهدة النَّفس، ومنه قولُ النبي ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في الله عز وجل»، وقوله: «ليس الشَّدِيدُ بالصَّرْعَةِ، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب».

المعنى الثاني: هي اللطيفة التي ذكرناها التي هي الإنسان بالحقيقة، وهي نفس الإنسان، ولكنها توصف بأوصافٍ مختلفة بحسب اختلاف أحوالها، فإذا سكنت تحت الأمن وزايلها<sup>(٢)</sup> الاضطراب بسبب مُعارضة الشّهوات سُمّيت: مُطمئنّة، وإن لم يتم سُكونها لكنها صارت مُدافعةً للنفس الشّهوانية ومُعترضة عليها سُمّيت: لَوامة. وإن انقادت لمُقتضى الشّهوات ودواعي الشيطان سُمّيت: أمارة بالسوء.

ويجوز أن يُقال: النَّفس بالمعنى الأول مذمومة، لما بيّنّا، وبالثاني محمودة؛ لأنها حقيقة الإنسان.

اللفظ الرابع: العقل: وقد تكلمنا عليه في كتاب العلم، وقد يُشارُ به إلى اللطيفة التي هي الإنسان.

ولمّا جاء في كلام المتقدمين خاطر القلب، وخاطر النَّفس، وخاطر الرّوح، وخاطر العقل افتقرنا إلى بيان ذلك.

(١) في الأصل: «هو».

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «زوائلها».

## بَيَانُ

### جُنُودِ الْقَلْبِ

الْقَلْبُ كَالْمَلِكِ، وَهُوَ جُنْدَانُ: جُنْدٌ يُرَى بِالْأَبْصَارِ، وَجُنْدٌ يُرَى بِالْبَصَائِرِ.  
فَأَمَّا جُنُودُهُ<sup>(١)</sup> الْمُشَاهِدَةُ؛ فَالْأَعْضَاءُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ، فَإِنَّهَا خُلِقَتْ خَادِمَةً لَهُ  
لَا تَسْتَطِيعُ لَهُ خِلَافًا، فَإِذَا أَمَرَ الْعَيْنَ بِالانْفِتَاحِ انْفَتَحَتْ، وَإِذَا أَمَرَ الرَّجْلَ بِالْحَرَكَةِ  
تَحَرَّكَتْ، فَكَذَلِكَ جَمِيعُ الْأَعْضَاءِ تَسْخِيرًا لَهُ وَتَذَلِيلًا، لَا أَنَّهَا تَوْصَفُ بِامْتِثَالِ أَمْرِ.

وَإِنَّمَا افْتَقَرَ الْقَلْبُ إِلَى هَذِهِ الْجُنُودِ؛ لِأَنَّهُ مَفْتَقَرٌ إِلَى الْمَرْكَبِ وَالزَّادِ لِسَفَرِهِ الَّذِي  
لَأَجَلِهِ خُلِقَ، وَهُوَ السَّفَرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَقَطَعَ الْمَنَازِلَ إِلَى لِقَائِهِ، وَمَرْكَبُهُ الْبَدَنُ،  
وَزَادُهُ الْعِلْمُ، وَالْمَنْزِلُ الْأَدْنَى الدُّنْيَا، وَالْمَنْزِلُ الْأَقْصَى الْآخِرَةُ، فَافْتَقَرَ إِلَى تَعَهُّدِ  
الْمَرْكَبِ الَّذِي هُوَ الْبَدَنُ وَحِفْظِهِ، وَذَلِكَ بِجَلْبِ مَا يُوَافِقُهُ مِنَ الْغِذَاءِ وَغَيْرِهِ، وَبِأَنْ  
يُدْفَعُ عَنْهُ مَا يُنَافِيهِ وَيُهْلِكُهُ، فَافْتَقَرَ لِأَجْلِ جَلْبِ الْغِذَاءِ إِلَى جُنْدَيْنِ؛ بَاطِنِ، وَهُوَ  
الشَّهْوَةُ، وَظَاهِرِ، وَهُوَ الْيَدُ وَالْأَعْضَاءُ الْجَالِبَةُ لِلْغِذَاءِ، فَخُلِقَ فِي الْقَلْبِ مِنَ الشَّهَوَاتِ  
مَا احتَاجَ إِلَيْهِ، وَخُلِقَتْ الْأَعْضَاءُ الَّتِي هِيَ آلَاتُ الشَّهْوَةِ.

وَافْتَقَرَ لِأَجْلِ دَفْعِ الْمُهْلِكَاتِ إِلَى جُنْدَيْنِ، بَاطِنِ وَهُوَ الْعَضْبُ الَّذِي بِهِ تُدْفَعُ  
المُهْلِكَاتُ وَيُنْتَقَمُ مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَظَاهِرِ وَهِيَ الْأَعْضَاءُ الَّتِي بِهَا يُعْمَلُ بِمُقْتَضَى  
الْعَضْبِ كَالْيَدِ وَالرَّجْلِ، وَكَمَلْ ذَلِكَ بِأُمُورٍ خَارِجَةٍ عَنِ الْبَدَنِ، كَالْأَسْلِحَةِ  
وغيرها.

ثُمَّ الْمُحْتَاجُ إِلَى الْغِذَاءِ إِذَا لَمْ يَعْرِفِ الْغِذَاءَ لَمْ تَنْفَعُهُ شَهْوَةُ الْغِذَاءِ وَآلَتُهُ، فَافْتَقَرَ  
لِلْمَعْرِفَةِ إِلَى جُنْدَيْنِ؛ بَاطِنِ، وَهُوَ إِدْرَاكُ الْبَصَرِ وَالذَّوْقِ وَالشَّمِّ وَالسَّمْعِ وَاللَّمْسِ،  
وَظَاهِرِ، وَهُوَ الْعَيْنُ وَالْأُذُنُ وَالْأَنْفُ وَغَيْرُهَا.

(١) فِي الْأَصْلِ: «جُنْدُهُ».

وتفصيل وجه الحاجة إليها ووجه الحكمة فيها يطول شرحه<sup>(١)</sup>، وقد أشرنا إلى طرف يسير منه في كتاب الشكر.

فجُملة جنود القلب يحصرها ثلاثة أصناف:

صنف باعث ومُستحثّ إما إلى جلب الموافق النافع، كالشهوة، وإما إلى دفع الضار المنافي، كالغضب، وقد يُعبّر عن هذا الباعث بالإرادة.

والثاني هو المحرك للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد، ويعبّر عن هذا الثاني بالقدرة، وهي جنودٌ ماثوثة في جميع الأعضاء لاسيما العضلات منها والأوتار.

والثالث وهو المدرك المتعرف للأشياء كالجواسيس، وهي قوة البصر والسمع والشمّ والذوق وغيرها، وهي ماثوثة في أعضاء معينة، ويعبّر عن هذا بالعلم والإدراك.

ومع كل واحدٍ من هذه الجنود الباطنة جنودٌ ظاهرة، وهي الأعضاء المركبة من الشحم واللحم والعصب والدمّ والعظم التي أعدت آليات لهذه الجنود، وإن قوّة البطش إنما تبطش بالأصابع، وقوة البصر إنما تُدرك<sup>(٢)</sup> الشيء بالعين، وكذا سائر القوى.

ولسنا نتكلّم في الجنود الظاهرة التي هي الأعضاء، فإنّها معلومة، وإنما نتكلّم في جنودٍ لم ترّوها. وهذا المدرك من هذه الجملة ينقسم إلى ما أسكن المنازل الظاهرة وهي الحواس الخمس، أعني السمع والبصر والشمّ والذوق واللمس، وإلى ما أسكن منازل باطنة وهي تجاويف الدماغ وهي أيضاً خمسة، فإن الإنسان بعد رؤية الشيء يُغمض عينيه، فيدرك صورته في نفسه وهو الخيال، ثم تبقى تلك الصورة معه بسبب شيء يحفظه، وهو الجند الحافظ، ثم يتفكّر فيما حفظه، فيركب بعض ذلك إلى بعض، ثم يتذكّر ما نسيه ويعود إليه، ثم يجمع جملة معاني المحسّات في خياله بالحس المشترك بين المحسّات ففي الباطن حسّ مشترك وتخيّل

(١) في (ظ): «ذكره».

(٢) سقطت من الأصل.

وتفكّر وتذكّر وحفظٌ لولا خلقَ الله تعالى قُوَّةَ الحِفظِ والفِكرِ والذِّكرِ والتَّخَيُّلِ لكانَ يَخْلُو الدِّماغَ عنه كما تَخْلُو عنه اليَدُ والرِّجْلُ، فتلك القُوَى جنودٌ باطنَةٌ وأماكنها أيضاً باطنَةٌ.

فهذه أقسامُ جنودِ القلبِ، ويتنفعُ بذلكُ أقوياءُ العلماءِ، فأما شرحُ ذلكِ بحيثُ يُدرِكُه فَهَمُّ الضُّعفاءِ، فإنَّه يطولُ، إلا أنا نجتهدُ في تفهيمِ الضُّعفاءِ بضربِ الأمثلةِ.

## بيان

### أمثلة القلب مع جنوده الباطنة

اعلم أن جُنْدِي الْعَضْبِ وَالشَّهْوَةِ قد يَنْقَادَانِ للقلب، انقياداً تاماً، فَيُعِينُهُ (١) ذلك على طريقه الذي يَسْلُكُهُ، وقد يَسْتَعَصِيانُ عليه استعصاءً بَغِيٍّ وَتَمَرُّدٍ حتى يَمْلِكَاهُ وَيَسْتَعْبِدَاهُ، وفي ذلك هلاكُهُ وانقطاعُهُ عن سَفَرِهِ الذي به وُصُولُهُ إلى سَعَادَةِ الْأَبَدِ.

وللقلبِ جندٌ آخر، وهو العلم والحِكْمَةُ والتفكير، كما سيأتي شرحه، فينبغي له أن يَسْتَعِينَ بهذا الجند الذي هو حِزْبُ اللَّهِ على هذين الجُنْدَيْنِ اللذين قد يَلْتَحِقَانِ بحزبِ الشَّيْطَانِ، فَإِنْ تَرَكَ الاستعانةَ وَسَلَّطَ على نَفْسِهِ جندَ الْعَضْبِ وَالشَّهْوَةِ هَلَكَ يَقِيناً، وَخَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً، وذلك حالُ أَكْثَرِ الْخَلْقِ، فَإِنْ عَقُولُهُمْ صَارَتْ مُسَخَّرَةً لَشَهْوَاتِهِمْ في استنباطِ الْحِيلِ لِقَضَاءِ الشَّهْوَةِ، وكان يَنْبَغِي أن تكون الشَّهْوَةُ مُسَخَّرَةً لِعُقُولِهِمْ فيما يَفْتَقِرُ الْعَقْلُ إليه.

ونحن نُقَرِّبُ هذا إلى الْقَلْبِ بثلاثة أمثلة:

**المثال الأول:** أن نقول: مَثَلُ نَفْسِ الْإِنْسَانِ فِي بَدَنِهِ - ونعني بالنفسِ اللطيفة المذكورة - كَمَثَلِ الْوَالِي فِي مَدِينَتِهِ وَمَمْلَكَتِهِ، فَإِنَّ الْبَدَنَ مَمْلَكَةُ النَفْسِ وَعَالَمُهَا وَمُسْتَقَرُّهَا وَمَدِينَتُهَا، وجوارحُه بمنزلةِ الصُّنَّاعِ وَالْفَعَلَةِ، والقوةُ الْعَقْلِيَّةُ الْمَفْكُورَةُ لَهُ كَالْمُشِيرِ النَّاصِحِ وَالْوَزِيرِ الْعَاقِلِ، وَالشَّهْوَةُ لَهُ كَعَبْدٍ سَوِيٍّ يَجْلِبُ الطَّعَامَ وَالْمِيْرَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَالغَضْبُ وَالْحَمِيَّةُ لَهُ كَصَاحِبِ الشَّرْطَةِ، وَالْعَبْدُ الْجَالِبُ لِلْمِيْرَةِ كَذَابٌ مُمَارٍ مُخَادِعٌ خَبِيثٌ يَتِمَثَّلُ بِصُورَةِ النَّاصِحِ، وَتَحْتَ نُصْحِهِ الشَّرُّ الْهَائِلُ، وَالسُّمُّ الْقَاتِلُ، وَدَيْدَنُهُ مُعَادَاةُ الْوَزِيرِ النَّاصِحِ فِي كُلِّ تَدْبِيرٍ يَدْبِرُهُ، فلا يخلو عن معارضته في آرائه ساعة، والوالي في مَمْلَكَتِهِ متى استشار في تَدْبِيرَاتِهِ وَزِيرَهُ مَعْرِضاً عَنِ قَوْلِ هَذَا الْعَبْدِ

(١) تحرفت في (ظ) إلى: «يعود».

الحَيِّثِ، بل مستدلاً بإشاراته على أن الصَّواب في ضد ما يُشير به، وأدبَ صاحب شُرطته، وأمره أن يَأتمر لوزيره، وأن يتسلَّط من جهة الوَزيز على هذا العبد الحَيِّث وأتباعه وأنصاره حتى يكون العبدُ مَسوساً لا سائساً، ومأموراً<sup>(١)</sup> مدبِّراً لا أميراً<sup>(٢)</sup> مدبِّراً؛ استقامَ أمر بلده، وانتظم العدلُ بسببه، فكذلك النفس، متى استعانت بالعقل، وأدبتِ الحَمِيَّةَ والغضبَ، وسلَّطتُه على الشَّهوة؛ اعتدلت قواها، وحسنت أخلاقها، ومن عدل عن هذه الطريقة أضلَّهُ اللهُ على عِلْمٍ.

وسياتي كيفية مُجاهدة هذه الجنود، وتَسليط بعضها على بعض في كتاب رياضة النَّفس، إن شاء اللهُ تعالى.

**المثال الثاني:** إن البدن كالمدينة، والعقل - أعني: المدرك من الإنسان - كملكٍ مُدبِّرٍ لها، وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده وأعوانه، وأعضاؤه كرعيتته، والنَّفس الأمَّارة بالسوء التي هي الشَّهوة والغضب كعدوِّ يُنازعه في مملكته، ويسعى في إهلاك رعيتته، فصار بدنه كثَغْرِ، ونَفْسُه فيه كمرابطٍ، فإن جاهد عدوّه فقهره حَمِدَ إثرَ ذلك، وإن ضيَّع ثَغْرَهُ ذَمَّ عاقبة فعله، فقل له: يا راعي السَّوء، أكلت اللحم، وشربت اللبن، ولم تردَّ الضَّالة ولم تجبِر الكَسِير.

وإلى هذه المجاهدة أشارَ صلى اللهُ عليه وسلم بقوله: «رَجَعْتُمْ مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ».

**المثال الثالث:** مَثَلُ الْعَقْلِ كَمَثَلِ فَارِسٍ مُتَصَيِّدٍ، وَشَهْوَتُهُ كَفَرَسِهِ، وَغَضَبُهُ كَكَلْبِهِ، فَمَتَى كَانَ الْفَارِسُ حَادِقًا، وَفَرَسُهُ مُرَوِّضًا، وَكَلْبُهُ مُؤَدَّبًا وَمُعَلِّمًا، كَانَ جَدِيرًا بِالنُّجْحِ، وَمَتَى كَانَ هُوَ فِي نَفْسِهِ أُخْرَقَ، وَكَانَ الْفَرَسُ جَمُوحًا، وَالْكَلْبُ عَقُورًا؛ فَلَا فَرَسُهُ يَنْبَعُثُ تَحْتَهُ مُنْقَادًا، وَلَا كَلْبُهُ يَسْتَرْسِلُ بِإِشَارَتِهِ مُطِيعًا، فَهُوَ خَلِيقٌ بِأَنْ يَعْطَبَ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يِنَالَ مَا طَلَبَ، وَإِنَّمَا خَرَقُ<sup>(٣)</sup> الْفَارِسِ مِثَالٌ لَجَهْلِ الْإِنْسَانِ

(١) سقطت من (ظ).

(٢) سقطت من (ظ).

(٣) في (ظ): «خروق».

وَقَلَّةِ حِكْمَتِهِ، وَكَلالِ بَصِيرَتِهِ، وَجِمَاحِ الْفَرَسِ مِثالُ لَعَلْبَةِ الشَّهْوَةِ، خِصْوصاً شَهْوَةُ  
الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ، وَعَقْرُ الْكَلْبِ مِثالُ لَعَلْبَةِ الْغَضَبِ وَاسْتِيلائِهِ.

## بيان

### خاصية قلب الإنسان

اعلم أن جميع الحيوان قد شارك الأدمي في وجود الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة، حتى إن الشاة ترى الذئب بعينها، وتعلم عداوته لها بقلبها فتهرب منه، فذلك إدراك بالباطن.

فأما ما يختص به قلب الإنسان الذي لأجله عظم شرفه وصلح للقرب من الله تعالى، فهو راجع إلى علم وإرادة.

أما العلم، فهو العلم بالأمور الدنيوية والأخروية والحقائق العقلية، فإن هذه أمور وراء المحسّات لا يُشارك الأدمي فيها الحيوانات، بل العلوم الكلية الضرورية من خواصّ العقل، فإن الإنسان يحكم أنّ الفرس الواحد لا يتصور أن يكون في مكانين في حالة واحدة، وهذا حكم منه على كل فرس، ومعلوم أنه لم يدرك بالحسّ إلا بعض الأفراس، فحكمه على جميع الأفراس زائد على ما أدركه بالحسّ، وإذا فهمت هذا في العلم الضروري، فهو في جميع النظريات أظهر.

وأما الإرادة، فإنه إذا أدرك بالعقل عاقبة الأمر وطريق الصلاح فيه انبعث من ذاته شوق إلى وجه المصلحة وإلى تعاطي أسبابها وإرادتها، وذلك غير إرادة الشهوة، فإن العاقل يريد الفضد والحجامة ويترك لذيذ الطعام في المرض، والشهوة تنفر من ذلك، ولو خلق الله تعالى العقل المعرف لعواقب الأمور ولم يخلق هذا الباعث المحرك للأعضاء على مقتضى حكم العقل لكان حكم العقل ضائعاً، فقد بان اختصاص قلب الإنسان بعلوم وإرادات تنفك عنها سائر الحيوانات، بل ينفك عنها الصبي في أول الفطرة، وإنما تحدث فيه عند البلوغ وإنما الموجود في الصبي الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة، ثم للصبي في حصول هذه العلوم فيه درجتان:

إحدهما: أن يشتمل قلبه على جملة العلوم الضرورية الأولية، كالعلم باستحالة المستحيلات وجواز الجائزات الظاهرة، فتكون العلوم النظرية فيه غير حاصلة، إلا أنها صارت ممكنة قريبة الإمكان والحصول، فيكون كمن عرف الحروف المفردة دون المرجبة، فإنه قد قارب الكتابة.

والدرجة الثانية: أن تحصل له العلوم المكتسبة بالتجارب والفكر، وتكون كالمخزونة عنده، فإذا شاء رجع إليها وحاله حال الحاذق بالكتابة يقال له: كاتب، وإن لم يباشر الكتابة لقدرته عليها.

وهذا الذي ذكرناه هو غاية درجة الإنسانية إلا أن في هذه الدرجة مراتب يتفاوت الخلق فيها تارة بكثرة المعلومات وقلتها، وتارة بشرف المعلومات وحسنها، وتارة بطريق تحصيلها إذ بعضها يحصل لبعض القلوب بإلهام إلهي على سبيل المكاشفة، وبعضها بتعلم واكتساب، وفي هذا المقام تتباين منازل العلماء والحكماء والأولياء والأنبياء، ولا حصر لتلك المنازل، وإنما يعرف كل سالك المنزل الذي بلغه، فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل لا ما بين يديه، كما لا يعرف الجنين حال الطفل، ولا الطفل حال المميز، ولا المميز حال العاقل، ولا العاقل حال الأولياء والأنبياء، وأقصى الرتب فيها رتبة النبي الذي تنكشف له الحقائق من غير اكتساب بل بكشف إلهي في أسرع وقت.

فقد بان من هذه الجملة أن خاصية الإنسان العلم والحكمة، وأشرف أنواع العلم العلم بالله وصفاته، فالبدن مركب النفس، والنفس محل العلم، والعلم خاصية الإنسان التي لها خلق، فكما أن الفرس يُشارك الحمار في قوة الحمل ويختص بالكرّ والفرّ وحسن الهيئة، فيكون الفرس مخلوقاً لأجل تلك الخاصية، فإن فقدت منه نزل إلى حضيض رتبة الحمار، فكذلك الإنسان يُشارك الحمار والفرس في أمور، ويفارقه في أمور وهي خاصيته، وتلك الخاصية من صفات الملائكة المقربين، والإنسان على رتبة بين البهائم والملائكة، فإن الإنسان من حيث يتغذى وينسل نباتاً، ومن حيث يحس ويتحرك حيواناً، ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على الحائط، وإنما خاصيته معرفة حقائق الأشياء، فمن

استعمل جميع أعضائه وقواه على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة، فحقيق بأن يلتحق بهم، وجدير بأن يُسمى ملكاً وربانياً، ومن صرف همته إلى اتباع اللذات البدنية، فقد انحط إلى حضيض البهائم، فيصير إما غمراً كثوراً، وإما شراً كخنزير، وإما ضرعاً ككلب، وإما حقوداً كجمل، وإما متكبراً كنمر، وإما ذا روغانٍ كثعلب، أو يجمع ذلك كله<sup>(١)</sup> كشیطانٍ مرید، فمن قُدرت له السعادة كان قلبه مُستقر مُلكه، فهو يُجري القوة الخيالية المودعة في مُقدم الدماغ مجرى خازنه، واللسان مجرى ترجمانه، والأعضاء المتحركة مجرى كتابه، والحواس الخمس مجرى جواسيسه فإنها أصحاب أخبار تلتقطها من العالم، فالعين تلتقط أخبار الألوان، والسمع أخبار الأصوات، وكذلك البقية، فإذا التقت الأخبار أدتها إلى القوة الخيالية التي هي كصاحب البريد، ويُسلمها صاحب البريد إلى الخازن، وهي الحافظه، ويعرضها الخازن على الملك، فيقتبس منها ما يحتاج إليه في تدبير مملكته وإتمام سفره الذي هو بصدده، وقمع عدوه الذي هو مُبتلى به، فإذا فعل ذلك كان موفقاً شاكراً لنعمة الله، وإذا عطل هذه الجملة أو استعملها في مراعاة أعدائه وهم الشهوة والغضب وسائر الحُظوظ العاجلة، أو في عمارة طريقه وهي الدنيا دون منزله، وهو الآخرة، كان مخدولاً كافراً لنعمة الله تعالى.

(١) ليست في الأصل.

## بيان

### مجامع أوصاف القلب ومثاله

اعلم أن الإنسان قد صحبَ في تركيبه وخلقته أربع صفات: السَّبَعِيَّة، والْبَهِيمِيَّة، والشَّيْطَانِيَّة والرَّبَّانِيَّة، فهو من حيث سُلْط عليه الغضب يتعاطى أفعال السَّبَاع من العَدَاوَةِ والتَّهْجَم على النَّاس بالضَّرْب والسَّتْم، ومن حيثُ سُلْطت عليه الشَّهْوَةُ يتعاطى أفعالَ البهائم من الشَّرِّه والحِرْصِ والشَّبَقِ، ومن حيثُ مشاركته للبهائم في العَضْب والشَّهْوَةُ وطبعه يدعوهُ إلى تحصيل الأغراض بالمَكْر والخِدَاع فيه شَيْطَانِيَّة، ومن حيثُ أنه في نفسه أمرٌ ربَّاني كما قال تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، فهو يحب الاستعلاء والاستبداد بالأُمور والانسلال عن رِبْقَةِ العِبُودِيَّة، ويشتهي الاطِّلاع<sup>(١)</sup> على العلوم كلها، وكل هذه الصِّفَات مجموعَةٌ في القلب، فكأنَّ المجموعَ في إهابِ الإنسانِ خِنْزِيرٌ وَكَلْبٌ وشَيْطَانٌ وَحَكِيمٌ؛ فالخِنْزِيرُ الشَّهْوَةُ تدعو إلى الفَحْشَاءِ، وَالكَلْبُ العَضْبُ يدعو إلى الظلم والإيذاء، والشَّيْطَانُ هَوَى يَهِيْجُ شَهْوَةَ الخِنْزِيرِ وَغَيْظَ السَّبْعِ، وَيُغْرِي أَحَدَهُمَا بِالْآخَرِ، وَيُحَسِّنُ لَهُمَا مَا هُمَا مَجْبُولَانِ عَلَيْهِ، وَالْحَكِيمُ الَّذِي هُوَ مِثَالُ العَقْلِ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَدْفَعَ كَيْدَ الشَّيْطَانِ، وَيَكْسِرُ شَرَّةَ الخِنْزِيرِ، فَإِنْ قَهَرَ الكَلْبَ وَجَعَلَهُمْ تَحْتَ سِيَاسَتِهِ ظَهَرَ العَدْلُ فِي المَمْلَكَةِ وَاسْتَقَامَ الأَمْرُ، وَإِنْ عَجَزَ عَنِ قَهْرِهِمْ قَهَرُوهُ، فَاسْتخدموه، فَلَا يَزَالُ فِي اسْتِنْبَاطِ الحِيلِ وَتَدْقِيقِ الفِكرِ لِيُشَبِّعَ الخِنْزِيرَ وَيُرْضِيَ الكَلْبَ، وَهَذَا حَالٌ<sup>(٢)</sup> أَكْثَرُ النَّاسِ مَهْمَا كَانَ أَكْثَرَ هَمِّهِمُ البَطْنُ وَالْفَرْجُ وَمُنَافَسَةُ الأَعْدَاءِ، فَهؤلاءُ فِي طَاعَةِ أَهْوَائِهِمْ كَعِبَادِ الأَصْنَامِ، فَكَيْفَ يُنْكَرُونَ عَلَيْهِمْ؟ وَأَيُّ ظُلْمٍ أَكْبَرَ مِنْ أَنْ يَجْعَلَ العَقْلَ وَهُوَ المَالِكُ مَمْلُوكًا؟! فَأَصْبَحَ وَهُوَ السَّيِّدُ عَبْدًا.

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الأضلاع».

(٢) في الأصل: «وهذه حالة».

وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ انْتَشَرَ إِلَى قَلْبِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَحْوَالِ صِفَاتٌ تَتْرَاكُمُ عَلَيْهِ، فَتَصِيرُ رَيْنًا وَطَابَعًا، وَذَلِكَ أَنَّ طَاعَةَ الشَّهْوَةِ تَوَرَّثَ الْحُبَّ وَالْوَقَاحَةَ وَاللَّعِبَ وَالْحِرْصَ وَالْمَلَقَ وَالْحَسَدَ وَغَيْرَ ذَلِكَ.

وَأَمَّا طَاعَةُ الْغَضَبِ يَنْتَشِرُ مِنْهَا إِلَى الْقَلْبِ صِفَةُ التَّهَوُّرِ وَالْبَذَخِ وَالتَّكْبِرِ وَالْعُجْبِ وَاحْتِقَارِ الْخَلْقِ وَشَهْوَةِ الظُّلْمِ وَغَيْرَ ذَلِكَ.

وَأَمَّا طَاعَةُ الشَّيْطَانِ وَطَاعَةَ الشَّهْوَةِ وَالْغَضَبِ فَيَحْصِلُ مِنْهَا صِفَةُ الْمَكْرِ وَالْخِدَاعِ وَالدَّهَاءِ وَالتَّلْبِيسِ وَالْخُبِّ وَالْغِشِّ وَغَيْرَ ذَلِكَ.

وَلَوْ عَكَسَ الْأَمْرَ وَقَهَرَ الْجَمِيعَ تَحْتَ سِيَاسَةِ الصِّفَةِ الرَّبَّانِيَةِ لاسْتَقَرَّ فِي الْقَلْبِ مِنَ الصِّفَاتِ الرَّبَّانِيَةِ الْعِلْمُ وَالْحِكْمَةُ، وَلانْتَشَرَ إِلَيْهِ مِنْ ضَبْطِ الشَّهْوَةِ وَرَدِّهَا إِلَى الْإِعْتِدَالِ صِفَاتٌ شَرِيفَةٌ كَالْعِفَّةِ وَالْقَنَاعَةِ وَالزُّهْدِ وَالْوَرَعَ وَالتَّقْوَى وَالحَيَاءَ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ.

وَيَحْصُلُ لَهُ مِنْ ضَبْطِ قُوَّةِ الْغَضَبِ وَرَدِّهَا إِلَى حُدِّ الْإِعْتِدَالِ صِفَةُ الشَّجَاعَةِ وَالْكَرَمِ وَالصَّبْرِ وَالْحِلْمِ وَالْإِحْتِمَالَ وَالْعَفْوَ وَالْوَقَارَ وَغَيْرَ ذَلِكَ.

وَالْقَلْبُ فِي حُكْمِ مِرَاةٍ وَقَدْ اِكْتَنَفَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ الْمُؤَثِّرَةُ فِيهِ، وَهَذِهِ الْآثَارُ عَلَى التَّوَالِي وَاصِلَةٌ إِلَى الْقَلْبِ؛ أَمَّا الْآثَارُ الْمَحْمُودَةُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فَإِنَّهَا تَزِيدُ مِرَاةَ الْقَلْبِ جَلَاءً وَإِشْرَاقًا وَنُورًا وَضِيَاءً حَتَّى يَنْكَشِفَ لَهُ حَقِيقَةُ الْأَمْرِ الْمَطْلُوبِ فِي الدِّينِ، فَيَصِيرُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ قَلْبِهِ وَاعِظًا، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ خَيْرٍ جَعَلَ لَهُ وَاعِظًا مِنْ قَلْبِهِ».

وَأَمَّا الْآثَارُ الْمَذْمُومَةُ فَإِنَّهَا مِثْلُ دُخَانٍ مُظْلِمٍ يَتَصَاعَدُ إِلَى مِرَاةِ الْقَلْبِ وَلَا يَزَالُ يَتْرَاكُمُ إِلَى أَنْ يَسُودَ الْقَلْبُ وَيُظْلَمَ، فَيَصِيرُ مَحْجُوبًا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْكَلْبِيَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَطَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠] فَإِذَا طُبِعَ عَلَى الْقَلْبِ عَظَمَ أَمْرُ الدُّنْيَا وَاسْتَهَانَ بِأَمْرِ الْآخِرَةِ، فَإِذَا طَرَقَ سَمْعُهُ ذَكَرَ الْآخِرَةَ دَخَلَ مِنْ أُذُنٍ وَخَرَجَ مِنْ أُذُنٍ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَى الْقَلْبِ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أُذِنَ كَانَتْ نُكْتَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ، فَإِذَا تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صَقَلَ قَلْبَهُ، وَإِنْ زَادَ

زَادَتْ حَتَّى تَعْلُو قَلْبَهُ». فَذَلِكَ الرَّانَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

وَأَمَّا مَنْ أَتْبَعَ الْمَعْصِيَةَ حَسَنَةً فَإِنَّهُ كَمَنْ يَتَنَفَّسُ فِي الْمَرَاةِ ثُمَّ يَمْسَحُ النَّفْسَ، فَيَزُولُ مَا سَتَرَ وَجْهَ الْمَرَاةِ.

## بيان

## مثال القلب بالإضافة إلى العلوم خاصةً

اعلم أن محلّ العلوم هو القلب، أعني اللّطيفة المدبّرة لجميع الجوارح المطاعة المخدومة من جميع الأعضاء وهي بالإضافة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلونات<sup>(١)</sup>، فكما أن للمتلون<sup>(٢)</sup> صورة، ومثال تلك الصّورة يُنطبع في المرآة فيحصل، فكذلك لكل معلوم حقيقةً، وتلك الحقيقة صورته، فتنتبع في مرآة القلب وتتضح فيها، وكما أن المرآة غير وصورة الأشخاص غير، وحصول مثالها في المرآة غير، فهي ثلاثة أمور، فكذلك هاهنا ثلاثة أمور: القلب، وحقائق الأشياء، وحصول نفس الحقائق في القلب وحضورها فيه.

فالعالم عبارة عن القلب الذي يحلّ فيه مثال حقائق الأشياء، والمعلوم عبارة عن حقائق الأشياء، والعلم عبارة عن حصول المثال في المرآة، كما أن القَبْض مثلاً يستدعي قابضاً، كاليد، ومقبوضاً كالسيف، ووصولاً بين السيف واليد بحصول السيف في اليد ويُسمى قابضاً، فكذلك وُصول مثال المعلوم إلى القلب يُسمى علماً، وقد كانت الحقيقة موجودة والقلب موجوداً ولم يكن العلم حاصلًا؛ لأنّ العلم عبارة عن وُصول الحقيقة إلى القلب، كما كان السيف موجوداً واليد موجودةً ولم يكن اسم الأخذ والقَبْض حاصلًا لعدم وقوع السيف في اليد، إلا أن القَبْض عبارة عن حصول السيف بعينه في اليد، والمعلوم بعينه لا يحصل في القلب، فمن علم النّار لم يحصل عين النّار في قلبه، ولكنّ الحاصل حدّها وحقيقتها المطابق لصورتها، فتمثيّلها بالمرآة أولى؛ لأنّ عين الإنسان لا تحصل في المرآة، وإنّما يحصل مثال مطابق له، فكذلك حصول مثالٍ مطابقٍ لحقيقة المعلوم في القلب يُسمى علماً.

(١) تحرفت في الأصل إلى: «المتكونات».

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «المتلون».

واعلم أنه قد يمتنع انكشافُ الصُّورة في المرآة لخمسة أشياء :

أحدها : نقصان صورتها كجواهر الحديد قبل أن يُدَوَّرَ ويُشكَّلَ ويُصقَّلَ .

والثاني : لُخبثه وصدئه وكُدُورته ، وإن كان تامَّ الشَّكل .

والثالث : لكونه معدولاً به عن جهة الصُّورة إلى غيرها ، كما إذا كانت الصُّورة

وراء المرآة .

والرابع : لحجابٍ مرسلٍ بين المرآة والصُّورة .

والخامس : للجهل بالجهة التي فيها الصُّورة المطلوبة حتى يتعذَّر بسببه أن

يُحاذي بها شَطْرَ الصُّورة وجهتها .

فكذلك القلبُ مرآةٌ مستعدَّةٌ لأنَّ يَنجَلِي فيها الحقَّ في الأمور كلها ، وإنَّما خَلَّتْ

القلوبُ عن العلوم التي خَلَّتْ عنها لهذه الأسباب الخمسة :

أولها : نُقصانٌ<sup>(١)</sup> في ذاته كقلبِ الصَّبي فإنه لا تَنجَلِي له المعلوماتُ لِنقصانه .

والثاني : لكدورة المعاصي والحُبثِ الذي تراكم على وَجِه القلب من كثرة

الشَّهوات ، فإنَّ ذلك يمنعُ صفاء القلب وجلاءه فيمتنعُ ظهورُ الحقِّ فيه بقَدْر ظلمته

وتراكمه .

والثالث : أن يكون معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة ، فإنَّ قلب المُطيع

الصَّالح وإن كان صافياً ، فإنه ليس يتَّضح فيه جَلِيَّة الحقِّ لأنه ليس يطلب الحق

وليس يُحاذي بمرآته شَطْرَ المطلوب ، بل ربَّما يكون مُستوعبَ الهَمِّ بتهيئة أسباب

المعاش ، أو بتفصيل الطاعات البدنيَّة ، ولا يصرف فكره إلى الحقائق الخفيَّة

الإلهية ، فلا ينكشف إلا ما هو متفكِّر فيه .

والرابع : الحِجاب ، فإنَّ المُطيع الفاهر لشهواته المتجرّد للفكر في حقيقة من

الحقائق قد لا ينكشف له ذلك ، لكونه محجوباً عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصِّبا على

(١) في الأصل : «نقصان الصورة» وهي زيادة .

سَبِيلِ التَّقْلِيدِ، وَبِهَذَا حُجِبَ أَكْثَرُ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالمَتَعَصِّبِينَ لِلْمَذَاهِبِ، بَلْ أَكْثَرُ الصَّالِحِينَ؛ لِأَنَّهُمْ مَحْجُوبُونَ بِاعْتِقَادَاتٍ تَقْلِيدِيَّةٍ رَسَخَتْ فِي قُلُوبِهِمْ، فَصَارَتْ حِجَابًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ إِدْرَاكِ الحَقَائِقِ.

والخامس: الجهل بالجهة التي منها يَقَعُ العُثُورُ عَلَى المَطْلُوبِ، فَإِنَّ طَالِبَ العِلْمِ لَيْسَ يُمْكِنُهُ أَنْ يُحْصَلَ العِلْمُ بِالمَجْهُولِ إِلَّا بِالتَّدْكَرِ لِلْعُلُومِ الَّتِي تُنَاسِبُ مَطْلُوبَهُ حَتَّى إِذَا تَذَكَّرَهَا وَرَتَّبَهَا فِي نَفْسِهِ تَرْتِيبًا مَخْصُوصًا يَعْرِفُهُ العُلَمَاءُ بِطَرَايِقِ<sup>(١)</sup> الِاعْتِبَارِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ قَدْ عَثَرَ عَلَى جِهَةِ المَطْلُوبِ فَتَنْجَلِي حَقِيقَةَ المَطْلُوبِ لِقَلْبِهِ، فَإِنَّ العِلْمَ المَطْلُوبَةَ الَّتِي لَيْسَتْ فِطْرِيَّةً لَا تُقْتَنَصُ إِلَّا بِشَبْكَةِ العُلُومِ الحَاصِلَةِ، بَلْ كُلُّ عِلْمٍ فَلَا يُحْصَلُ إِلَّا بِعِلْمِينَ سَابِقِينَ يَأْتَلِفَانِ وَيَزْدَوِجَانِ عَلَى وَجْهِ مَخْصُوصٍ، فَيَحْصَلُ مِنْ اازْدَوَاجِهِمَا عِلْمٌ ثَالِثٌ عَلَى مِثَالِ مَا يَحْصَلُ النِّتَاجُ مِنْ اازْدَوَاجِ الفَحْلِ وَالْأُنْثَى، فَالْجَهْلُ بِتِلْكَ الأُصُولِ وَبِكَيْفِيَّةِ الِازْدَوَاجِ هُوَ المَانِعُ مِنَ العِلْمِ.

ومثاله: أَنْ يُرِيدَ الإِنْسَانُ أَنْ يَرَى ظَهْرَهُ فِي المِرَاةِ، فَإِنَّهُ إِنْ رَفَعَ المِرَاةَ بِإِزَاءِ وَجْهِهِ لَمْ يَكُنْ قَدْ حَادَى بِهَا شَطْرَ الظَّهْرِ فَلَا يَظْهَرُ فِيهَا الظَّهْرُ، وَإِنْ رَفَعَهَا وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَبِإِزَائِهِ كَانَ قَدْ عَدَلَ بِالمِرَاةِ عَنِ العَيْنِ فَلَا يَرَى المِرَاةَ وَلَا صُورَةَ الظَّهْرِ فِيهَا، فَيَحْتَاجُ إِلَى مِرَاةٍ أُخْرَى يَنْصِبُهَا وَرَاءَ الظَّهْرِ وَهَذِهِ فِي مُقَابَلَتِهَا بِحَيْثُ يُبْصَرُهَا حَتَّى تَنْطَبِعَ صُورَةُ الظَّهْرِ فِي المِرَاةِ المَحَازِيَةِ لِلظَّهْرِ، ثُمَّ تَنْطَبِعُ صُورَةُ هَذِهِ المِرَاةِ فِي المِرَاةِ الأُخْرَى الَّتِي فِي مُقَابَلَةِ العَيْنِ، ثُمَّ تُدْرِكُ العَيْنُ صُورَةَ الظَّهْرِ، وَكَذَلِكَ فِي ااقتِنَاصِ العُلُومِ طَرِيقٌ عَجِيبَةٌ فِيهَا اازْوِرَارَاتٌ وَتَحْرِيفَاتٌ أَعْجَبُ مِمَّا ذَكَرْنَا فِي المِرَاةِ وَقَلِيلٌ مِنْ يَهْتَدِي إِلَى الحِيلَةِ فِي تِلْكَ الِازْوِرَارَاتِ.

فهذه هي الأسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور، وإلا فكل قلب هو صالح بالفطرة لمعرفة الحقائق؛ لأنه أمر رباني شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف؛ وبهذه الخاصية حمل أمانة الله عز وجل التي عجزت عن حملها السماوات والأرض والجبال، وتلك الأمانة هي المعرفة والتوحيد، فقلب

(١) في (ظ): «بطريق».

كل آدمي مُستعدُّ لحملِ الأمانة ومُطيقٌ لها في الأصل، ولكن تُثَبِّطُه عن النهوضِ بأعبائها والوصولِ إلى تحقيقها الأسبابُ التي ذكرناها، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَإِنَّمَا أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ...».

وهذا التَّجَلِّي والإيمان<sup>(١)</sup> له ثلاثُ مراتب:

المرتبة الأولى: إيمانُ العوامِ في بداياتهم وهو إيمانُ المقلِّدِ المَحْضِ.

والثاني: إيمانُ العلماءِ بالدَّلِيلِ.

والثالث: إيمانُ المُوقِنِ، واليَقِينِ أبلغُ العلومِ المكتسبة.

وُنَبِّئُ لكَ هذه المراتبَ بمثال؛ وهو أَنَّ تَصْدِيقَكَ بكونِ زيدٍ مثلاً في الدَّارِ له

ثلاثُ دَرَجَاتٍ:

الأولى: أن يُخْبِرَكَ به مَنْ جَرَّبَتْ عَلَيْهِ الصُّدُقَ ولم تَعْرِفْ منه الكَذِبَ، فَإِنَّ قَلْبَكَ يَسْكُنُ إِلَيْهِ وَيَطْمَئِنُّ، وهذا هو الإيمانُ بِمَجْرَدِ التَّقْلِيدِ، وهو مثلُ إيمانِ العوامِ.

الرَّتْبَةُ الثَّانِيَّةُ: أَنْ تَسْمَعَ كَلَامَ زَيْدٍ وَصَوْتَهُ فِي الدَّارِ، وَلَكِنْ مِنْ وَرَاءِ جِدَارٍ، فَتَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى كَوْنِهِ فِي الدَّارِ، فَيَكُونُ هَذَا التَّصْدِيقُ أَقْوَى مِنَ التَّصْدِيقِ بِالخَبَرِ عَنْهُ، هَذَا إِيمَانٌ مَمْزُوجٌ بِدَلِيلٍ، وَيَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الخَطَأُ مِنْ جِهَةٍ أَنَّ الأَصْوَاتَ تَشْتَبِهُ.

الرَّتْبَةُ الثَّالِثَةُ: أَنْ تَدْخُلَ الدَّارَ فَتَرَاهُ بَعَيْنِكَ، فَهَذِهِ هِيَ المَعْرِفَةُ الحَقِيقِيَّةُ، وَهِيَ مَعْرِفَةُ الصُّدِّيقِينَ والمُقَرَّبِينَ، ثُمَّ يَتَفَاوَتُ أَهْلُ هَذَا المَقَامِ فِي مَقَادِيرِ العُلُومِ، وَدَرَجَاتِ الكَشْفِ مِثْلَ أَنْ تَرَى زَيْدًا قَرِيباً مِنْكَ فِي وَقْتِ إِشْرَاقِ الشَّمْسِ، وَيَرَاهُ آخِرُ مِنْ بَعْدٍ فِي وَقْتِ العِشَاءِ، فَهَذَا مُتَيَقِّنٌ<sup>(٢)</sup> إِلَّا أَنَّهُ لَا يَبِينُ لَهُ خَفَايَا صُورَتِهِ.

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في الأصل: «موقن».

## بيان

### حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم العقلية والدينية والديناوية والأخراوية

اعلم أنّ القلبَ بغريزته مستعدٌّ لقبول حقائق المعلومات كما سبق، ولكنّ العلوم التي تحل فيه تنقسم إلى عقلية وشرعية .

فالعقلية تنقسم إلى ضرورية ومُكتسبة، والمكتسبة تنقسم إلى ديناوية وأخراوية .

أمّا العقلية، فنعني بها ما تقضي به غريزة العقل ولا يؤخذُ بالسَّماع والتَّقليد .

وهي تنقسم إلى ضرورية لا يُدرى من أين تحصل ولا كيف حصلت، كعلم الإنسان أنّ الشخص الواحد لا يكون في مكانين، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً موجوداً معدوماً معاً، فإنّ هذه علوم يجد الإنسان نفسه منذ الصِّبا مفطوراً عليها، ولا يدري متى حصل له هذا العلم، ولا من أين حصل، غير أنّه يعلم أنّ الله تعالى هو الذي خلقه .

وإلى مُكتسبة، وهي الاستفادة بالتَّعلم والاستدلال، والقلب جارٍ مجرى العين، وغريزة العقل فيه جارية مجرى قوة البَصَر في العين .

وأمّا العلوم الدِّينية، فهي المأخوذة من الأنبياء عليهم السَّلام، وذلك يحصل بالتَّعلم لكتاب الله وسُنَّة رسوله وفهم معانيهما، وبه كمال صفة القلب وسلامته من الأمراض؛ لأنّ العلوم العقلية غير كافية في سلامته وإن كان مُحتاجاً إليها، كما أنّ العقل غير كافٍ في استدامة أسباب صحة البدن، بل يحتاج إلى معرفة خواصّ الأدوية<sup>(١)</sup> والعقاقير بطريق التَّعلم من الأطباء، إذ مُجرّد العقل لا يَهدي إليه، ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه إلا بالعقل، ولا غنى بالعقل عن السَّمع، ولا بالسَّمع عن العقل، فالدّاعي إلى محض التقليد، مع عزل العقل بالكُلِّية جاهلٌ، والمكتفي

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الأسماء» .

بمجرد العقل عن القرآن والسنة مغرور، فاجمع بين الأصلين، فإن العلوم العقلية كالأغذية، والعلوم الشرعية كأدوية، والمريض يتضرر بالغذاء إذا فاتته الدواء، وكذلك أمراض القلب لا يمكن علاجها إلا بأدوية مستفاد من الشريعة، وهي لطائف العبادات والأعمال التي ركبها الأنبياء لإصلاح القلوب، فمن لا يداوي قلبه المريض بمعالجات العبادات الشرعية اكتفاء بالعلوم العقلية، فإنه يستضر بها كما يستضر المريض بالغذاء .

ومن ظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية، وأن الجمع بينهما غير ممكن، فهو ظن صادر عن عمى في عين البصيرة، وهذا ربما خفي عليه الجمع بين بعض علوم الشرع فظن بعضها مناقضاً لبعض، فانسل من الدين انسلالاً<sup>(١)</sup> الشعرة من العجين، وذلك لأن عجزه خيل إليه تناقضاً في الدين، فمثله كمثل أعمى دخل داراً فتعثر فيها بأواني الدار، فقال: ما بال هذه الأواني تركت على الطريق؟ وهلاً ردت إلى مواضعها. ف قيل له: الأواني في مواضعها، وإنما أنت لا تهتدي إلى الطريق لعماك، فالعجب منك كيف لم تحل تعثرك<sup>(٢)</sup> على عماك، وأحلتته على تقصير غيرك .

واعلم أن العلوم العقلية تنقسم إلى: دنيوية، كعلم الطب والحساب والهندسة. وأخراوية، كالعلم بالله وصفاته وأفعاله، والعلم بأحوال القلب وأفات الأعمال. وقل أن يشتغل أحد بأحد القسمين. إلا ويقصر في الآخر. ومتى رأيت مشغولاً بعلوم الدنيا يجحد بعض علوم الدين فاعلم أن ذلك لبُعده عنه، ومن أين يظفر سالك الشرق بما في طريق الغرب؟

قال الله عز وجل: ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَاعْرَضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن دِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٦٩﴾﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعَالَمِ ﴿﴾ [النجم: ٢٩ - ٣٠].

(١) في الأصل: «كانسلال».

(٢) في الأصل: «بعثرتك».

## بيان

### الفرق بين الإلهام والتّعليم

اعلم أنّ العلوم التي ليست ضرورية وإنّما تحضّل في القلب في بعض الأحوال يختلف الحال<sup>(١)</sup> في حصولها، فتارة تهجم على القلب من حيث لا يدري، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتّعلم.

فأمّا الذي يهجم على القلب، فمنه ما لا يدري العبد كيف حصل، وذلك الإلهام، وهو للأولياء.

ومنه ما يعرف سببه، وذلك الوحي، وهو للأنبياء.

ومنه ما يحصل بطريق الاكتساب، وهو يختصّ بالعلماء.

وحقيقة القول في هذا: أن القلب مستعدّ لتجلي الحقائق فيه، وإنّما حيل بينه وبينها بالأسباب الخمسة التي سبق ذكرها<sup>(٢)</sup>، فهي كالجباب المسدل، والحجاب تارة يزال بيد، وتارة بهبوب ريح تحركه.

(١) في الأصل: «الأحوال».

(٢) تقدمت في الصفحة ٥٨٠ - ٥٨١.

## بيان

## تَسَلُّطُ الشَّيْطَانِ عَلَى الْقَلْبِ بِالْوَسْوَاسِ

الْقَلْبُ بِأَصْلِ فِطْرَتِهِ قَابِلٌ لِلهُدَى<sup>(١)</sup>، وبما<sup>(٢)</sup> وُضِعَ فِيهِ مِنَ الشَّهْوَةِ وَالْهَوَى مَائِلٌ إِلَى ذَلِكَ، وَالتَّطَارُدُ فِيهِ بَيْنَ جُنْدِي الْمَلَائِكَةِ وَالشَّيَاطِينِ دَائِمٌ إِلَى أَنْ يَنْفَتَحَ<sup>(٣)</sup> الْقَلْبُ لِأَحَدِهِمَا فَيَتِمَّكَنَ وَيَسْتَوْطِنَ، وَيَكُونُ اجْتِيَازُ<sup>(٤)</sup> الثَّانِي اخْتِلَاسًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مِنَ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]، وَهُوَ الَّذِي إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ حَنَسَ، وَإِذَا وَقَعَتِ الْعَفْلَةُ انْبَسَطَ.

وَأَكْثَرُ الْقُلُوبِ قَدْ فَتَحَهَا جُنْدُ الشَّيْطَانِ وَمَلَكَهَا، فَامْتَلَأَتْ بِالْوَسْوَاسِ الدَّاعِيَةِ إِلَى إِثَارِ الْعَاجِلَةِ وَأَطْرَاحِ الْآخِرَةِ، وَمَبْدَأُ اسْتِيلَاتِهَا<sup>(٥)</sup> اتِّبَاعُ الْهَوَى، وَلَا يَطْرُدُ جُنْدَ الشَّيْطَانِ مِنَ الْقَلْبِ إِلَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ لَا قَرَارَ لِجُنْدِهِ مَعَ الذِّكْرِ.

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الهُوى».

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «ربما».

(٣) في (ظ): «ينفسح».

(٤) في (ظ): «اختيار».

(٥) في (ظ): «استلابها».

## بيان

## تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب

اعلم أن مثل القلب كمثّل حصن، والشيطان عدوٌ يريد أن يدخل الحصن ويملكه ويستولي عليه، ولا يمكن حفظ الحصن إلا بحراسة أبوابه وتلّمه<sup>(١)</sup>، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يعرف أبوابه.

ولا يتوصّل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله، ومداخل الشيطان وأبوابه صفات<sup>(٢)</sup> العبد وهي كثيرة، إلا أنّا نُشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان.

فمن أبوابه العظيمة: الحسد والحِرص، ومتى كان العبد حريصاً على شيءٍ أعماه حِرْصه وأصمّه، وغطّى نور البصيرة التي تعرف مداخل الشيطان، وكذلك إذا كان حَسوداً، فيجد حينئذ الشيطان الفرصة، فيحسّن عند الحريص كلّ ما يوصله إلى شهوته، وإن كان منكراً وفاحشاً، وقد روي أنّ إبليس ركب السفينة مع نوح، وقال له: إنّما أهلك الناس بالحسد والحِرص، فبالحسد لعنت، وبالحرص أصبت حاجتي من آدم.

ومن أبوابه العظيمة: الغضب والشهوة، فإن الغضب غوّل العقل، وإذا ضعّف جند العقل هجم جند الشيطان فلعب بالإنسان، وقد روي أنّ إبليس يقول: إذا كان العبد حديداً قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة. وقال: كيف يغلبني ابن آدم وإذا رضي جئت<sup>(٣)</sup> حتى أكون في قلبه، وإذا غضب طرّ حتى أكون في رأسه.

(١) التلّم: جمع تلّم، وهي الشق.

(٢) في (ظ): (وصفات).

(٣) تحرفت في الأصل إلى: (حيث).

ومن أبوابه: حُبُّ التَّزْيِينِ فِي الْمَنْزِلِ وَالشِّيَابِ وَالْأَثَاثِ، فَلَا يَزَالُ يَدْعُو إِلَى عِمَارَةِ الدَّارِ وَتَرْيِينِ سُقُوفِهَا وَحَيْطَانِهَا وَالتَّزْيِينِ بِالثِّيَابِ وَالْأَثَاثِ، فَيَسْتَسْخِرُ الْإِنْسَانَ طَوْلَ عُمُرِهِ فِي ذَلِكَ.

ومن أبوابه: الشَّعْ، فَإِنَّهُ يُقْوِي الشَّهْوَةَ وَيُثْقِلُ عَنِ الطَّاعَةِ.

ومن أبوابه: الطَّمَعُ فِي النَّاسِ، فَإِنَّ مَنْ طَمِعَ فِي شَخْصٍ بَالِغٍ فِي الثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ، وَدَاهَنَهُ<sup>(١)</sup>، وَلَمْ يَأْمُرْهُ بِمَعْرُوفٍ، وَلَمْ يَنْهَهُ عَنِ مُنْكَرٍ.

ومن أبوابه: الْعَجَلَةُ وَتَرْكُ التَّثَبُّتِ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: الْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَالتَّأْتِي مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

وإِنَّمَا دُمَّتِ الْعَجَلَةُ؛ لِأَنَّ الْعَمَلَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَى بَصِيرَةٍ، وَلَا تَحْصُلُ الْبَصِيرَةُ إِلَّا بِالتَّثَبُّتِ، وَقَدْ أَوْصَى إِبْلِيسُ أَعْوَانَهُ فَقَالَ: اتَّبِعُوا بَنِي آدَمَ مِنْ قِبَلِ الْعَجَلَةِ وَالْخِيفَةِ<sup>(٢)</sup>.

ومن أبوابه: حُبُّ الْمَالِ، وَمَتَى تَمَكَّنَ مِنْ قَلْبِ أَفْسَدِهِ وَحَمَلَهُ عَلَى الطَّلَبِ لَهُ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ، وَأَخْرَجَهُ إِلَى الْبُخْلِ وَخَوْفِهِ الْفَقْرِ، فَمَنَعَ الْحَقُوقَ اللَّازِمَةَ.

ومن أبوابه: حَمَلُ الْعَوَامِ عَلَى التَّعْصِبَاتِ فِي الْمَذَاهِبِ دُونَ الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا، فَتَرَى مَنْ يَتَّعَصِبُ لِأَبِي بَكْرٍ أَوْ لِعَلِيِّ يَلْبَسُ الْحَرِيرَ وَيَشْرِبُ الْخَمْرَ، وَيَظُنُّ أَنَّ نَفْسَ التَّعْصِبِ يَنْفَعُهُ.

ومن أبوابه: حَمَلُ الْعَوَامِ عَلَى التَّفَكُّرِ فِي ذَاتِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ، وَفِي أُمُورٍ لَا يَبْلُغُهَا حَدُّ عَقُولِهِمْ حَتَّى يُشَكِّكَهُمْ فِي أَصْلِ الدِّينِ، وَيُخَيِّلَ لَهُمْ فِي اللَّهِ تَعَالَى خِيَالاً يَتَقَدَّسُ عَنْهُ، فَيَصِيرُ الْإِنْسَانُ بِذَلِكَ كَافِرًا أَوْ مُبْتَدِعًا، وَهُوَ مَسْرُورٌ بِمَا وَقَرَ فِي صَدْرِهِ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ مَعْرِفَةٌ.

ومن أبوابه: سُوءُ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِينَ، وَمَنْ حَكَمَ عَلَى مُسْلِمٍ بِسُوءِ ظَنِّهِ فِيهِ احْتَقَرَهُ وَأَطْلَقَ لِسَانَهُ بِغَيْبَتِهِ، وَرَأَى نَفْسَهُ خَيْرًا مِنْهُ، وَإِنَّمَا يَتَرَشَّحُ سُوءَ الظَّنِّ لِحُبِّ الظَّانِّ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ يَطْلُبُ الْمَعَادِيرَ لِلْمُؤْمِنِ، وَالْمُنَافِقَ يَبْحَثُ عَنْ عُيُوبِهِ.

(١) دَاهَنَهُ: دَارَاهُ وَلَايَتُهُ.

(٢) الْخِيفَةُ: الطَّيْشُ.

وَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ الْإِحْتِرَازُ عَنْ مَوَاقِفِ الثُّهْمِ لِثَلَا يُسَاءَ بِهِ الظَّنُّ، فَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِرَجُلَيْنِ رَأَيَاهُ يَمْشِي مَعَ امْرَأَةٍ بِاللَّيْلِ: «إِنَّهَا صَفِيَّةٌ».

فهذا طرفٌ من ذكر مداخل الشيطان، وعلاج هذه الآفات سدّ المداخل وتطهير القلب من الصفات المذمومة، وسيأتي لكل صفة منها كتابٌ إن شاء الله تعالى.

وإذا قُلِعَت من القلب أصول هذه الصفات بقي للشيطان بالقلب خطرات واجتيازات<sup>(١)</sup> من غير استقرار، فيمنعه من ذلك الذكر لله تعالى، إلا أنه لا يكون الذكر ذكراً إلا بعد تطهير القلب من الصفات المذمومة، وعمارته بالتقوى، وإلا كان الذكر كحديث النفس، لا يدفع سلطان الشيطان.

ومثال الشيطان مثال كلبٍ جائع يقرب منك، فإن لم يكن بين يديك لحمٌ أو خُبزٌ، فإنه يَنْزَجِرُ بأن تقول له: احسأ. فمجرد الصوت يدفعه، وإن كان بين يديك شيءٌ من ذلك وهو جائعٌ لم يندفع بمجرد الكلام، وكذلك القلب الخالي عن قوت<sup>(٢)</sup> الشيطان يَنْزَجِرُ بمجرد الذكر.

وأما القلوب التي يغلب عليها الهوى، فإنها تدفع حقيقة الذكر إلى حواشي القلب، فلا يتمكن من سويدائه<sup>(٣)</sup>، فيستقر الشيطان في السويداء.

وإذا أردت مصداق هذا، فتأمل حالك في صلاتك، وانظر إلى الشيطان كيف يجذب<sup>(٤)</sup> قلبك في مثل هذه المواضع إلى ذكر الشوق وحساب المعاملين وتدبير أمور الدنيا، وذلك لأن القلب مشحونٌ بالأخلاق، فدخل شربة الدواء إليها يُثيرها<sup>(٥)</sup>، وإنما ينبغي استعمال الحمية قبل الشربة، لينتفع بالدواء ويستخرج بقايا مُحْتَبَسَةٍ.

(١) تصحفت في النسخ إلى «اختيارات»، والمثبت من (الإحياء).

(٢) تحرفت في (ظ) إلى: (قرب).

(٣) في النسخ (سويدائها)، والمثبت من (الإحياء)، وسويداء القلب: داخله.

(٤) تصحفت في (ظ) إلى: (يحدث).

(٥) تحرفت في الأصل إلى: (شرها).

## بَيَان

### مَائُواخِذْ بِهِ الْعَبْدُ مِنْ وَسَاوِسِ الْقُلُوبِ وَخَوَاطِرِهَا وَمَائِغْفِي عَنْهُ

اعلم أنه قد عُفِيَ عن حَدِيثِ النَّفْسِ، ويدخل في ذلك ما هَمَّتْ به، وَمَنْ تَرَكَه لعائِقِ رَجُونَا لَهُ الْمُسَامَحَةِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَزْمًا، فَإِنَّ الْعَزْمَ عَلَى الْحَطِيئَةِ حَطِيئَةٌ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِذَا تَقَى الْمُسْلِمَانِ بَسِيْفَيْهِمَا، فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» قِيلَ: مَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ».

وكيف لا تقع المؤاخذه بالعزم والأعمال بالنية؟! وهل الكبر والرياء والمعجب إلا أمور باطنية؟! ولو أن إنساناً رأى على فراشه أجنبية وظنّها زوجته لم يَأْثِمْ بِوَطْئِهَا، ولو رأى زوجته فظنّها أجنبيةً أْثِمَ، وكلّ هذا مُتَعَلِّقٌ بِقَصْدِ الْقَلْبِ.

فإن قيل: هل يتصوّر انقلاع الوسواس من القلب؟

فالجواب: أنه يجوز أن ينقطع الوسواس عن قوم وقتاً دون وقت، أو في حالٍ دون حال، فأما على الدوام في كل الأحوال فلا، فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَبِسَ خَمِيصَةً<sup>(١)</sup>، فقال: «شَعَلْتَنِي أَعْلَامُهَا». ولبس خاتماً ثم رمأه، وقال: «نَظَرْتُ إِلَيْكُمْ وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ».

وإنما تزيد الوسواس بأسبابها، وَمَنْ أُنْسَبَ مَخَالِبُهُ فِي الدُّنْيَا وَظَمَعَ أَنْ يَتَخَلَّصَ<sup>(٢)</sup> مِنَ الشَّيْطَانِ، كَانَ كَمَنْ انْعَمَسَ فِي الْعَسَلِ وَظَنَّ أَنَّ الذُّبَابَ لَا يَقَعُ<sup>(٣)</sup> عَلَيْهِ.

(١) الخميصة: ثوب أسود أو أحمر له أعلام.

(٢) في الأصل: (يخلص).

(٣) في الأصل: (يقع).

## بَيَان

## سُرْعَةُ تَقَلُّبِ الْقُلُوبِ

اعلم أنَّ القلبَ تكتنفه الصِّفَاتُ التي ذكرناها، وتنصَّبُ إليه الآثارُ من الأبواب التي وصفناها، فكأنَّه هدفٌ يُصاب على الدَّوام من كلِّ جانب، فإذا أصابه شيء فتأثَّر به أصابه من جانبٍ آخر ما يُضادُّه فتغيَّر وصفُه، فإنَّ الشيطان ينزل به فيدعوه إلى الهوى، فينزُلُ الملكُ فيصرفه عنه، وتارةً يجذبه شيطانٌ إلى شيءٍ وشيطانٌ آخرُ إلى غيره.

ولا طَّلَعَ رسولُ الله ﷺ على عَظِيمٍ<sup>(١)</sup> صُنِعَ اللهُ في القُلُوبِ كانَ يحلفُ فيقول: «لا ومُقَلَّبِ القُلُوبِ». أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداوودي قال: أخبرنا ابن أعين قال: أخبرنا الفِرَيرِي قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا محمد بن يوسف عن سُفيان عن موسى بن عُقبة عن سالم عن ابن عُمر قال: كانت يَمِينُ رسولِ الله ﷺ إذا حلفَ: «لا ومُقَلَّبِ القُلُوبِ». انفرد بإخراجه البخاري. وأخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثنا أبي قال: حدثنا أبو عبد الرحمن قال: حدثنا حيوةُ قال: أخبرني أبو هانئ أنه سمع أبا عبد الرحمن الحُبلي أنه سمع عبد الله بن عمرو أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ أَصْبُعِينَ مِنْ أَصْبَاعِ الرَّحْمَنِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَقَلْبِ وَاحِدٍ يُصَرِّفُ كَيْفَ يَشَاءُ» ثم قال رسول الله: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفِ الْقُلُوبِ اصْرِفْ قُلُوبَنَا إِلَى طَاعَتِكَ». انفردَ بإخراجه مسلم.

وفي حديث أنس عن النبي ﷺ أنه كان يُكثِرُ أن يقول: «اللَّهُمَّ يَا مُقَلَّبِ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». قال: فقلنا له: يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به، فهل

(١) في الأصل: (عظم).

تخافُ عَلَيْنَا؟ قال: نعم، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبَعِينَ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُقَلِّبُهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى».

أخبرنا عبد الرَّحْمَنِ بن محمد، قال: أخبرنا محمد بن علي الدَّجَاجِي قال: أخبرنا علي بن معروف قال: حدثنا محمد بن الهَيْثَم قال: حدثنا أحمد بن عبد الجِبَّار قال: حدثنا أبو بكر بن عِيَّاش عن الأعمش عن أبي سُفيان عن أنس قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ الْقَلْبِ كَمَثَلِ رِيثَةٍ بَارِضٍ فَلَإِ تَقَلُّبُهَا الرِّيَّاحُ».

واعلم أَنَّ الْقُلُوبَ فِي الثَّبَاتِ<sup>(١)</sup> عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالتَّرَدُّدِ بَيْنَهُمَا ثَلَاثَةٌ:

الأول: قَلْبٌ عُمِّرَ بِالتَّقْوَى، وَزُكِّيَ بِالرِّيَاضَةِ، وَطُهِّرَ عَنِ خَبَائِثِ الْأَخْلَاقِ، فَتَقَدَّرَ فِيهِ خَوَاطِرُ الْخَيْرِ مِنْ خَزَائِنِ الْغَيْبِ، فَيُمَدُّهُ الْمَلِكُ بِالهُدَى.

والقلب الثاني: قَلْبٌ مَخْذُولٌ مَشْحُونٌ بِالهُوَى، مُدَنَّسٌ بِالْخَبَائِثِ، مُلَوَّثٌ بِالأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ، قَدْ أَلْفَ عَقْلَهُ خِدْمَةَ الْهُوَى، فَانْبَسَطَتْ فِيهِ الظُّلُمَاتُ فَتَقْوَى فِيهِ سُلْطَانُ الشَّيْطَانِ لِاتِّسَاعِ مَكَانِهِ بِسَبَبِ انْتِشَارِ الْهُوَى، فَيُقْبَلُ عَلَيْهِ بِالتَّزْيِينِ وَالعُرُورِ، فَيُضْعَفُ سُلْطَانُ الإِيمَانِ بِالْوَعْدِ وَالعَيْدِ، وَيَمْتَلِئُ الْقَلْبُ بِدُخَانِ الْهُوَى، فَيَنْعَدِمُ النُّورُ، وَيَصِيرُ كَالْعَيْنِ الْمُمْتَلِئَةِ بِالدُّخَانِ لَا يُمْكِنُهَا النُّظْرُ، فَلَا يُؤَثِّرُ عِنْدَهُ زَجْرٌ وَلَا وَعْظٌ.

القلب الثالث: قَلْبٌ يَبْتَدِئُ فِيهِ خَاطِرُ الْهُوَى، فَيَدْعُو إِلَى الشَّرِّ، فَيُلْحِقُهُ خَاطِرُ الإِيمَانِ فَيَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ، فَتَنْبَعِثُ النَّفْسُ بِشَهْوَتِهَا إِلَى نُصْرَةِ خَاطِرِ الشَّرِّ<sup>(٢)</sup>، فَتَقْوَى الشَّهْوَةُ، فَيَنْبَعِثُ الْعَقْلُ، فَيُدْفَعُ فِي وَجْهِ الْهُوَى وَيُقْبِحُ فِعْلَهُ وَيُشْبِهُهُ بِالبَهِيمَةِ وَالسَّبُعِ فِي تَهْجُمِهِ عَلَى الشَّرِّ وَقَلَّةِ اكْتِرَائِهِ بِالعَوَاقِبِ، فَتَمِيلُ النَّفْسُ إِلَى نُصْحِ الْعَقْلِ، فَيَحْمِلُ الشَّيْطَانُ حَمَلَةً عَلَى الْعَقْلِ وَيُقَوِّي دَاعِيَ الْهُوَى، وَيَقُولُ: أَمَا تَرَى فُلَانًا وَفُلَانًا كَيْفَ يُطْلِقُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي هَوَاهَا؟ حَتَّى يَعْذُّ لَهُ جَمَاعَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ، فَتَمِيلُ النَّفْسُ إِلَى الشَّيْطَانِ، فَيَحْمِلُ الْمَلِكُ حَمَلَةً عَلَى الشَّيْطَانِ وَيَقُولُ<sup>(٣)</sup>: هَلْ هَلَكَ إِلا مَنْ نَسِيَ

(١) تصحفت في الأصل إلى (النيات).

(٢) سقط من (ظ).

(٣) سقطت من الأصل.

العاقبة؟ أفتستثقل الصبر عن شهوة ولا تستثقل ألم النار؟ أو تغتر بغفلة الناس عن أنفسهم؟ رأيت لو وقفوا كلهم في الصيف في الشمس ولك بيت بارد أكنت توافقهم أم تطلب المصلحة؟ أفتخالفهم في مر الشمس ولا تخالهم فيما يؤول إلى النار؟! فتميل النفس إلى قول الملك، ويقع التردد بين الجندين إلى أن يغلب على القلب ما هو أولى به من الصفات الملكية أو الشيطانية، فمن خلق للخير يسر له، أو للشر يسر له، ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ، يَشْرَحْ صَدْرَهُ، لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ، يُغْلِقْ صَدْرَهُ، ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فهذا القدر من شرح أحوال القلب يكفي في معرفة أغوار علم المعاملة وأسرارها، فليتنفع به من لا يقنع بالظواهر ولا يجترئ بالقشور عن اللباب.

آخر كتاب عجائب القلب<sup>(١)</sup>

(١) ورد هنا في هامش النسخة (ظ) ما نصه: (آخر الجزء الثامن من أصل الشيخ المصنف).



## كتاب رياضة النفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلب

الحمد لله الذي صرّف الأمور بتدبيره، وأجرى الأحوال على تقديره، وفوّض تحسين الأخلاق إلى العبد وتشميره، واستحثّه على تهذيبها بترغيبه وتحذيره، وسهّل على خواصّ عباده إصلاحها بتيسيره.

أحمدّه على قليل الإنعام وكثيره، وأصّلّي على محمدٍ صفيّه ونبيّه وبشيره ونذيره، وعلى آله وأصحابه ما رقص غصن بوزق<sup>(١)</sup> على غديره، وسلّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد، فالخلق الحسّن صفة الأنبياء والصّدّيقين، والأخلاق السيئة سُمومٌ قاتلةٌ تنخرط بصاحبها في سلك الشيطان، وأمراضٌ تُفوّت حياة الأبد، فينبغي تعرّف العلل ثم التّشمير<sup>(٢)</sup> في معالجتها.

ونحن نشير في هذا الكتاب إلى جُمليّ من أمراض القلوب وكيفية القول في معالجتها في الجملة من غير تفصيلٍ لعلاج خصوص الأمراض، فإن ذلك يأتي في بقية الكتب من هذا الرّبع، وعرضنا الآن النّظر الكلّيّ في تهذيب الأخلاق وتمهيد منهاجها، ونحن نذكر ذلك ونجعل علاج البدن مثالاً له ليقرب من الأفهام دركّه،

(١) الورق: جمع ورقاء، وهي الحمامة.

(٢) تحرفت في الأصل إلى: (التعرف).

ويتضح ذلك ببيان فضيلة حُسن الخُلُق، ثم بيان حقيقة حُسن الخُلُق، ثم بيان قبول الأخلاق للتغيُّر بالرياضة، ثم بيان السبب الذي به <sup>(١)</sup> يُنال حُسن الخُلُق، ثم بيان تفضيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق ورياضة النفوس، ثم بيان العلامات التي بها يُعرف مَرَض القلوب، ثم <sup>(٢)</sup> بيان الطريق الذي به يتعرف الإنسان عُيوب نفسه، ثم بيان شواهد العقل على أن طريق المعالجة للقلوب بترك الشهوات، ثم بيان علامات حُسن الخُلُق، ثم بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول النُشوء، ثم بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة، فهي أحد عشر فصلاً تجمع مقاصد الكتاب إن شاء الله تعالى.

## بيان

### فضيلة حُسن الخُلق وذمّ سوء الخُلق

قد ذكرنا في أول كتاب آداب الصُحبة فضائل حُسن الخُلق، فليُنظر من ثمّ لثلاث يُعاد.

واعلم أنّ النَّاسَ قد تكلّموا في حُسن الخُلق مُتعرّضين لثمرته لا لحقيقته، ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته، بل ذكر كلّ منهم من ثمراته ما حَضَرَ في ذهنه، فقال الحَسَن<sup>(١)</sup>: حُسن الخُلق: بسطُ الوجه، وبذلُ النَّدى، وكفُّ الأذى.

وقال قومٌ: احتمالُ الأذى، وبذلُ المال. وأقوالهم في هذا كثيرة، وكلُّها يعرِضُ لبعض ثمرات حُسن الخُلق لا لنفسه.

وكشف الحقيقة في هذا أن يُقال: كثيرٌ ما يُستعمل ذكر الخُلق مع الخُلق، فيقال: فلانٌ حَسَنُ الخُلقِ والخُلق. أي: حَسَنُ الظاهرِ والباطنِ.

فالمرادُ بالخُلقِ: الصُّورةُ الظاهرةُ، ويُرادُ بالخُلقِ: الصورةُ الباطنةُ، وذلك لأنَّ الإنسانَ مرَكَّبٌ من جَسَدٍ ونَفْسٍ، فالجسدُ مُدْرِكٌ بالبَصَرِ، والنَّفْسُ مُدْرِكَةٌ بالبصيرة، ولكل واحدٍ منهما هيئةٌ وصورةٌ إمّا قبيحة، وإمّا جميلة، والنَّفْسُ المُدْرِكَةُ بالبصيرة أعظمُ قَدْرًا من الجسدِ المُدْرِكِ بالبصر، ولذلك عَظَّمَ اللهُ سبحانه أمره بأنَّ إضافته إلى نفسه، فقال: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧١-٧٢]، فنبّه على أن الجسدَ منسوبٌ إلى الطِّينِ، والرُّوحَ منسوبٌ إلى الله تعالى.

والمرادُ بالنَّفْسِ والرُّوحِ هاهنا شيءٌ واحدٌ، فالخُلقُ عبارةٌ عن هيئةٍ للنَّفْسِ راسخةٌ تصدر عنها الأفعال بسهولة ويُسر من غير حاجةٍ إلى فكرٍ ورويةٍ، فإن كانت

(١) يعني الحسن البصري رحمه الله.

الهِئَةُ بِحَيْثُ تَصْدُرُ عَنْهَا الْأَفْعَالُ الْجَمِيلَةَ الْمَحْمُودَةَ عَقْلاً وَشَرَعاً سُمِّيَتْ الْهِئَةُ خُلُقاً حَسَناً.

وإن كان الصادر منها أفعالاً قبيحةً سُمِّيَتْ الْهِئَةُ الَّتِي هِيَ الْمَصْدَرُ خُلُقاً سَيِّئاً.

وإنما قلنا: إنها هَيْئَةٌ رَاسِخَةٌ، لِأَنَّ مَنْ يَصْدُرُ مِنْهُ بَدَلُ الْمَالِ عَلَى النُّدُورِ لِحَالَةٍ عَارِضَةٍ لَا يُقَالُ: خُلُقُهُ السَّخَاءُ، مَا لَمْ يَثْبُتْ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ ثُبُوتَ رَسُوخٍ.

وإنما شَرَحْنَا أَنْ تَصْدُرَ مِنْهُ الْأَفْعَالُ بِسَهُولَةٍ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ؛ لِأَنَّ مَنْ تَكَلَّفَ بَدَلُ الْمَالِ أَوْ السُّكُوتَ عِنْدَ الْعُضْبِ بِجَهْدٍ وَرَوِيَّةٍ لَا يُقَالُ: خُلُقُهُ السَّخَاءُ وَالْحِلْمُ.

فها هنا أربعة أمور:

أحدها: فعل الجَمِيلِ وَالْقَبِيحِ.

والثاني: القُدرة عَلَيْهِمَا.

والثالث: المَعْرِفة بِهِمَا.

والرَّابِعُ: هَيْئَةٌ لِلنَّفْسِ بِهَا تَمِيلُ إِلَى أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ وَتُسِّرُّ عَلَيْهَا أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ إِمَّا الْحَسَنَ وَإِمَّا الْقَبِيحَ.

وَلَيْسَ الْخُلُقُ عِبَارَةً عَنِ الْفِعْلِ، فَرَبَّ شَخْصٍ خُلُقُهُ السَّخَاءُ وَلَا يَبْدُلُ، إِمَّا لِفَقْدِ الْمَالِ أَوْ لِمَانَعِ، وَرَبَّمَا يَكُونُ خُلُقُهُ الْبُخْلُ وَهُوَ يَبْدُلُ الْمَالَ لِبَاعِثٍ أَوْ لِرِيَاءٍ.

وَلَيْسَ هُوَ عِبَارَةً عَنِ الْقُوَّةِ؛ لِأَنَّ نِسْبَةَ الْقُوَّةِ إِلَى الْإِمْسَاكِ وَالْإِعْطَاءِ بَلْ إِلَى الضَّدِّينِ وَاحِدَةً، وَكُلُّ إِنْسَانٍ قَدْ خُلِقَ بِالْفِطْرَةِ قَادِراً عَلَى الْإِعْطَاءِ وَالْإِمْسَاكِ، وَذَلِكَ لَا يُوجِبُ خُلُقَ الْبُخْلِ وَلَا خُلُقَ السَّخَاءِ.

وَلَا هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الْمَعْرِفَةِ، فَإِنَّ الْمَعْرِفَةَ تَتَعَلَّقُ بِالْجَمِيلِ وَالْقَبِيحِ جَمْعاً عَلَى وَجْهِ وَاحِدٍ، بَلْ هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الْمَعْنَى الرَّابِعِ، وَهِيَ الْهِئَةُ الَّتِي <sup>(١)</sup> بِهَا تَسْتَعِدُّ النَّفْسُ لِأَنْ يَصْدُرَ مِنْهَا الْإِمْسَاكُ أَوْ الْبَدَلُ.

(١) سقطت من الأصل.

فالحق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة، كما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتم بحسن العينين دون الأنف والقم والخد، بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر، فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق، فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسب حصل حسن الخلق، وهي: قوة العلم، وقوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث.

أما قوة العلم فحسنتها وصلاحتها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين القبيح والجميل في الأفعال، وإذا صلحت هذه القوة أثمرت الحكمة، والحكمة رأس الأخلاق الحسنة.

وأما قوة الغضب، فحسنتها في أن يقتصر انقباضها وأنبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة، وكذلك الشهوة حسنها وصلاحتها في أن تكون تحت إشارة الحكمة - أعني إشارة الدين والعقل.

وأما قوة العدل فهي في ضبط قوة الغضب والشهوة تحت إشارة العقل والشرع، فالعقل منزلته منزلة الناصح المشير وقوة العدل هي القدرة، ومنزلتها منزلة المنفذ الممضي إشارة العقل، والغضب هو الذي تُنفذ فيه الإشارة.

ومثال الغضب مثال كلب الصيد، فإنه يحتاج إلى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة لا بحسب هيجان النفس.

ومثال الشهوة مثال الفرس الذي يُركب في طلب الصيد، فإنه تارة يكون مروّضاً مؤدباً، وتارة لا يكون.

فمن استوت فيه هذه الصفات واعتدلت فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة، كالذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض.

وحسن القوة العنصرية واعتدالها يُعبر عنه بالشجاعة، وحسن قوة الشهوة واعتدالها يُعبر عنه بالعفة، فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة سمي ذلك

تهوراً، وإن مالت إلى الضعف والنقصان سُمِّي ذلك جُبناً وخوراً، وإن مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة سُمِّي شرها، وإن مالت إلى النقصان سُمِّي جموداً.

والمحمود هو الوسط، وهو الفضيلة، والطرفان رذيلتان مذمومتان.

والعدل إذا<sup>(١)</sup> فات فليس له طرفان زيادة ونقصان، بل له ضد واحد، وهو الجور.

وأما الحكمة فيسمى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة جباً<sup>(٢)</sup>، ويُسمى تفريطها بلهاً، والوسط هو الذي يُخصَّ باسم الحكمة.

فإذن أمهات الأخلاق وأصولها أربعة: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل.

ونعني بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال<sup>(٣)</sup> الاختيارية.

ونعني بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس العصب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة وتضبطهما في الاسترسال والانتباض على حسب مقتضاها.

ونعني بالشجاعة كون قوة العصب مُنقادة للعقل في إقدامها وإحجامها.

ونعني بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب<sup>(٤)</sup> العقل والشرع. فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها، إذ من اعتدال قوة العقل يصدر حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة<sup>(٥)</sup> الرأي، وإصابة الظن والتفطن لدقائق<sup>(٦)</sup> الأعمال وخفايا آفات النفوس.

ومن إفراطها يصدر المنكر والخداع والدهاء.

(١) في الأصل: (فإذا).

(٢) الجب: الخداع والغش.

(٣) في الأصل: (الأحوال).

(٤) في النسخ: (بتعديل) والمثبت من الإحياء.

(٥) في الأصل: (نقاية)، وثقابة الرأي: نفوذه في إصابة الصواب.

(٦) في الأصل: (بدقائق).

ومن تفریطها يصدر البلهُ والحُمقُ والجُنونُ، والفرقُ بينَ الحُمقِ والجُنونِ أنَّ الأحمقَ مقصودُهُ صحيحٌ ولكن سُلوكه للطريقِ فاسدٌ فلا تكون له رؤيةٌ صحيحةٌ في طريق الوصولِ إلى الغرضِ، وأمَّا المجنونُ فإنَّه يَخْتار ما لا يَنْبغي أن يَخْتار، فيكون أصلُ إيثاره واختياره فاسدًا.

وأما خُلُق<sup>(١)</sup> الشجاعة فيصدر منه الكرمُ والنَّجدةُ والشَّهامةُ<sup>(٢)</sup> والاحتمال والجِلْمُ والثَّباتُ وكَظْمُ العَيْظِ والوَقارُ والتُّؤدَّةُ وأمثالها، وهي أخلاقٌ مَحْمودةٌ. وأمَّا إفراطُها، وهو التهورُ، فيصدر منه الصَّلْفُ والبَذْخُ والاستِشْاطَةُ والتَّكْبُرُ والعُجْبُ.

وأما تفریطها فيصدر منه المَهانةُ والذِلَّةُ والجَزَعُ والخَساسةُ وصغر النفسِ والانتِقباضُ عن تناول الحقِّ الواجبِ.

وأما خُلُقُ العِفَّةِ فيصدر منه السَّخاءُ والحَياءُ والصَّبْرُ والمُسامحةُ والقناعةُ والوَرَعُ والظَّلالةُ<sup>(٣)</sup> والظرفُ وقِلَّةُ الطَّمعِ.

وأما ميلها إلى الإفراطِ والتَّفريطِ فيصدر منه الحِرصُ والشَّرُّهُ والوَقاحةُ والحُبْثُ والتَّبذيرُ والتَّقْتيرُ والرِّياءُ والمَلَقُ والحَسَدُ والشَّماتةُ وغير ذلك.

فأمَّهات محاسن الأخلاق هذه الأربع، وهي: الحكمةُ والشَّجاعةُ والعِفَّةُ والعدْلُ، والباقي فروعها، فمن جمع كمالَ هذه الأخلاق استحقَّ أن يكون بين الخلقِ مَلِكًا مُطاعًا يرجعون إليه ويقتدون به، ومن انفكَّ عن هذه الأخلاق واتَّصف بأضدادها، فينبغي أن يُبعدَ كما يُبعدُ الشيطانُ، فالإيمان بالله ورسوله ثمرةُ العَقْلِ ومنتهى الحكمة، والمُجاهدةُ بالمال هو السَّخاء الذي يرجع إلى ضَبطِ قوة الشهوة، والمُجاهدة بالنفس هي الشَّجاعة التي ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط

(١) تحرفت في (ظ) إلى: (حكم).

(٢) تحرفت في (ظ) إلى: (الشهادة).

(٣) سقطت من (ظ).

العقل وحد الاعتدال، وقد وصف الله تعالى الصحابة فقال: ﴿أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، فأشار إلى أن للشدة موضعاً وللرحمة موضعاً، وليس الكمال في الشدة بكلِّ حالٍ، ولا في الرحمة بكلِّ حالٍ.

فهذا بيان معنى الخلق وحسنه وقبحه، وبيان أركانه وثمراته وفروعه.

## بيان

### قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة

قد زعم بعض من غلبت عليه البطالة فاستثقل الرياضة أن الأخلاق لا يُتصور  
تغيرها، واستدلّ على ذلك بشيئين:

أحدهما: أن الخلق هو صورة الباطن، كما أن الخلق هو صورة الظاهر، فكما  
لا يُمكن تغيير الخلق الظاهرة بأن يجعل القبيح حسناً، فكذلك لا يمكن تغيير  
الخلق الباطنة.

والثاني: أن الغضب والشهوة من مُقتضى المزاج والطبع، ولا يمكن تغيير  
الطبع.

والجواب: أنه لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لم يكن للمواعظ والوصايا  
معنى، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «حَسِّنُوا أَخْلَاقَكُمْ». وكيف يُنكر تغيير  
الأخلاق ونحن نرى الصَّيْدَ المتوحش يُنقل إلى الأُنس، والكلب يُعلم ترك الأكل،  
والفرس يُعلم حَسَنَ المشي وجودة الانقياد.

وكشفت الغطاء عن ذلك أنا نقول: ما خُلِقَ كاملاً لا يحتمل التغيير لا يتغير،  
وما وُجد ناقصاً وجُعِلت فيه قوة الكمال إن وجد شرطه أمكن تكميله، فإن النواة  
ليست نخلة، ولكنها خُلقت خُلقةً يمكن أن تصير نخلة بشرط أن يُضاف إليها  
التربة، وإذا كانت النواة تقبل الانتقال لأنها هُيئت لذلك، فالأخلاق أقبل.

ولسنا نريد بريضة الغضب والشهوة قمع<sup>(١)</sup> أثرهما بالكلية، لأنه لا يمكن،  
وإنما نريد أن نقودهما بالرياضة إلى مقام الاعتدال، وذلك ممكن، ولذلك أمرت به

(١) في (ظ): (منع).

الشريعة، إلا أن بعض المروّض سريع القبول للصّلاح، وبعضه مُستصعب، ولاختلاف الأشياء في ذلك سببان:

أحدهما: قوة الغريزة في أصل الجبلة وامتداد مدة الوجود، وأصعب الأحوال أمراً وأعصاه على التغيير الشهوة، فإن الشهوة أقدم وجوداً في الإنسان، لأنها مخلوقة في فطرة الصّبي، والغضب يُخلق له بعد ذلك بمدة.

والثاني: أن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه وباعتقاد كونه حسناً، وبإدامة الرياضة وتعريف الصّواب يتشعّع غيم العادة.

وأما خيال من وقع له أن مافي الجبلة لا يتغيّر فقد بينّا أنه ليس المقصود قمع هذه الصفات بالكلية، كيف والشهوة إنّما خلقت لفائدة ضرورية في الجبلة؟ ولو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، أو شهوة الوقاع لانقطع النسل، أو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه، ومتى بقي أصل الشهوة بقي حُب المال الذي يوصله إلى الشهوة.

وإنما المطلوب من الرياضة ردّ الشهوة إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط، فذلك المطلوب من الغضب حُسن الحميّة وأن يخلو عن التهور والجبن جميعاً، وقد قال عز وجل ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وإنما تصدر الشدة عن الغضب، ولو بطل الغضب لامتنع جهاد الكفار، وكيف يُقصد قلع الغضب والرّسول ﷺ يقول: «إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر». وقد قال تعالى: ﴿وَالْكٰظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وما قال: الفاقدين العيظ.

ومما يدل على أن المراد من الرياضة الاعتدال أن السخاء خُلِقَ مطلوباً شرعاً، وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير، وقد أثنى الله عز وجل عليه فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والتقلل، قال الله عز وجل: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، إلا أن الشيخ المرشد للمريد إذا رأى له ميلاً إلى الغضب والشهوة حُسن أن يُبالغ في ذمهما على الإطلاق ليردّه إلى التوسط.

## بيان

### السبب الذي به يُنال حُسْنُ الخُلُقِ في الجملة

قد بيّنا أنّ حُسْنَ الخُلُقِ يكون بالاعتدال، وهذا الاعتدالُ تارةً يَحْصُلُ بكمالٍ في الفِطْرَةِ مَنْحَهُ الخالِقُ، فكم من صَبِيٍّ يُخْلَقُ صادقاً سخياً حكيماً، وتارةً يَحْصُلُ بالاكْتِسَابِ وذلك بالرياضة، وهي حَمْلُ النَّفْسِ على الأعمالِ الجالِبَةِ<sup>(١)</sup> للخُلُقِ المَطْلُوبِ، فمن أَرَادَ أن يُحْصَلَ خُلُقُ الجودِ فليتكَلَّفِ فِعْلَ الجوادِ مِنَ البَذْلِ ليصيرَ ذلكَ طَبْعاً له، وكذلك مَنْ أَرَادَ التَّوَاضُعَ تكلَّفِ أفعالَ المتواضعين، وكذلك جميعُ الأخلاقِ المحمودَةِ.

وإنْ كانَ بينَ المحبِّ لما يفعله والمتكلِّفِ لما يكرهه تباعدٌ إلا أنَّ للعادةِ أثراً، فمن أَرَادَ أن يكونَ كاتباً تعاطى فِعْلَ الكُتَّابِ، أو فقيهاً تعاطى فِعْلَ المُفْهَمِ من التكرارِ حتى تَنعَطَفَ على قلبه صفةُ الفِقه، إلا أنَّه لا ينبغي أن يطلبَ تأثيرَ ذلك في يومين وثلاثة، وإنما يُؤثِّرُ في الدَّوامِ، كما لا يُطلبُ في التَّمَوُّعِ علُوُ القامةِ في يومين وثلاثة.

وكما لا ينبغي أن يُستَهانَ بقليلِ الطاعاتِ، فإنَّ دوامها يُؤثِّرُ، كذلك لا يُستَهانَ بيسيرِ الذُّنُوبِ، وكما أنَّ تعاطي أسبابِ الفضائلِ يُؤثِّرُ في النَّفْسِ ويغيِّرُ طَبْعَها، فمُساكِنَةُ الكَسَلِ تصيرُ عادةً فيُحرمُ كلَّ خيرٍ، وقد تُكتسبُ الأخلاقُ الحَسَنَةُ بمصاحبةِ أهلِ الخيرِ، فإنَّ الطَّبْعَ لَصُّ يَسْرُقُ الحَيْرَ والشَّرَّ.

(١) تصحفت في الأصول إلى: (الخالية).

## بيان

## تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفت أنّ الاعتدال في الأخلاق هو صحة في النفس والميل عن الاعتدال سقمٌ ومرَضٌ، فاعلم أنّ مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل وكسب الفضائل مثال البدن، وعلاجه بمحو العِلل عنه واكتساب الصحة له وجلبها إليه، فكما أنّ الغالب على أصل<sup>(١)</sup> المزاج الاعتدال والعلة عارضة، فكذلك كلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرة، وإنّما أبواه يهودانه ويُنصرانه، وذلك بالتعويد والتّعليم.

وكما أنّ البدن في الابتداء لا يُخلَق كاملاً وإنّما يكمل بالنشوء والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تُخلَق ناقصةً قابلةً للكمال، وإنّما تكملُ بالتركية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم.

وكما أنّ البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة، وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه، فكذا النفس إن كانت زكية طاهرة مُهذبة الأخلاق فينبغي أن يسعى لحفظها وحفظ صحتها وجلب مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صفاء لها، وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن يسعى لجلب ذلك إليها.

وكما أنّ العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض لا تُعالج إلا<sup>(٢)</sup> بضدّها إن كانت من حرارة فبالبرودة، وإن كانت من برودة فبالحرارة، فكذا الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدّها، فيعالج مرض الجهل بالتّعلم، ومرض البخل بالتسخي<sup>(٣)</sup>، ومرض الكبر بالتواضع ومرض الشره<sup>(٤)</sup> بالكف عن المُشتهى تكلفاً.

(١) ليست في (ظ).

(٢) سقطت من (ظ).

(٣) أي حَضُّ النفس على السخاء.

(٤) في الأصل: (الشهوة).

وكما أنه لا بدّ من احتمال مرارة الدّواء وشدة الصّبر عن المُشْتَهيات لعلاج الأبدان المريضة فكذلك لا بدّ من احتمال مرارة المجاهدة والصّبر لمداواة مرض القلب بل هو أولى، فإنّ مرض البدن يُخلّص منه الموت، ومرض القلب عذابٌ يدوم بعد الموت أبداً، وكما أن كلّ مُبرّدٍ لا يكفي لعلّة سببها الحرارة إلا إذا كان على حدّ مخصوص، ويختلف ذلك بالشّدّة والضعف والكثرة والقِلّة، ولا بدّ له من عيارٍ يُعرف به مقدار النّافع منه، فإن لم يُحفظ عيارُهُ زاد الفساد، فكذلك ما تُعالج به الأخلاق، فإنّ الطّبيب لا يعالج ما لم يعرف أنّ العلة من حرارة أو بُرودة، فإن كانت من حرارة نظر إلى درجتها، هل هي ضعيفة أو قويّة، فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن وأحوال الزّمان وسنّ المريض وصناعته وأحواله، ثمّ عالَج بحسب ذلك، فكذلك المُعلّم الذي يطبُّ نفوس المُريدين ينبغي له أن لا يهجم عليهم بالريّاضة في<sup>(١)</sup> فنّ مخصوص حتى يعرف أخلاقهم وأمراضهم، إذ ليس علاج كلّ مرض واحداً؛ فإذا رأى جاهلاً بالشرع علّمه، وإذا رأى مُتكبّراً حمّله على ما يوجب التّواضع، أو شديد الغضب ألزمه الحلم، وإن رآه لا يسخو بترك خُلُقِه درّجَه إلى التّغيير.

وليس غرضنا ذكر دواء كلّ مرض؛ لأن ذلك سيأتي في بقية الكتب إن شاء الله تعالى، وإنّما الغرض الآن التّنبية على أن الطّريق الكلّي مُخالفة النفس فيما قد ألفت من المذمومات.

وأشدُّ حاجة الرّائض لنفسه إلى قوّة العزم، فمتى كان مُتردداً بعد فلاحه<sup>(٢)</sup>، ومتى أحسّ من نفسه ضعف العزم تصبّر، فإن نقضت نفسه عزمها عاقبها لثلاث ثعاود، كما قال رجلٌ لنفسه: تتكلّمين فيما لا يعينك، لأعاقبنك بصوم سنّة.

(١) في الأصل: (إلى).

(٢) تحرفت في (ظ) إلى: (فلا وجه).

## بيان

## علامات مَرَضِ القَلْبِ وعلامات عودِهِ إلى الصَّحَّةِ

اعلم أنه كما أن كل عُضْوٍ من أعضاء البَدَنِ خُلِقَ لفعلٍ خاصٍ به، وإنما مرضه أن يتعدَّرَ عليه الفعل الذي خُلِقَ له حتى لا تصدر منه أصلاً، أو تصدر مع نوعٍ من الاضطراب، فَمَرَضُ اليَدِ أن يتعدَّرَ عليها البَطْشُ، ومرض العَيْنِ أن يتعدَّرَ عليها الإبصار، ومرض القَلْبِ أن يتعدَّرَ عليه<sup>(١)</sup> فعله الخاص به الذي خُلِقَ لأجله وهو العلمُ والحكمةُ والمعرفةُ وحبُّ الله تعالى وعبادته وإيثارُ ذلك على كلِّ شهوة.

ولو أن الإنسانَ عرفَ كلَّ شيءٍ، ولم يعرف الله تعالى كان كأنه لم يعرف شيئاً، وعلامة المعرفة المحبَّةُ فَمَن عرف الله أحبَّهُ، وعلامةُ المحبَّةِ أن لا يؤثر عليه شيئاً من المحبوبات، فمَن أثر عليه شيئاً من المحبوبات فقلبه مَرِيضٌ، كما أن المعدة التي تُؤثِّرُ أَكْلَ الطَّيْنِ على الخُبْزِ، أو قد سقطت عنها شهوةُ الخبزِ مريضةٌ.

ومرضُ القَلْبِ خَفِيٌّ قد لا يَعْرِفُه صاحبه فلذلك يغفل عنه، فإن عرفه صَعِبَ عليه الصَّبْرُ على مرارة دوائه؛ لأنَّ دَوَاءَهُ مُخَالَفَةُ الهوى، وذلك نَزْعُ الرُّوحِ، وإن وَجَدَ من نفسه الصَّبْرَ لم يجد طبيباً حاذقاً يُعالِجه، فإن الأطباء هم العلماء، وقد استولى المَرَضُ عليهم، والطبيب المريض قَلَّ ما يُلْتَفَتُ إلى علاجه، فلهذا صار الدَّاءُ عُضالاً والمرضُ مُزمناً، واندرَسَ هذا العلمُ وأُنكِرَ بالكليةِ طِبُّ القُلُوبِ ومَرَضُهَا، وأقبل النَّاسُ على أعمال ظاهرها عبادات وباطنُها عادات ومُراءاةٌ، فهذه علامة أصل المرض.

فأمَّا علامةُ عودِهِ إلى الصَّحَّةِ بعد المعالجة، فهو أن ينظر في العلة التي يُعالجها، فإن كان يُعالج داءَ البُخْلِ، فعلاجه بِبَدْلِ المال وإنفاقه، ولكنه قد يَبْدُلُ

(١) في الأصل: (عليها).

المال إلى حدٍّ يصير به مُبذراً، فيكون التَّبذير أيضاً داءً، ويكون كمن يُعالج البرودة بالحرارة حتى تغلب الحرارة، وهو أيضاً داءً، بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة، وكذلك المطلوب الاعتدال بين التَّقْتير والتَّبذير حتى يكون على الوسط، فإن أردت أن تعرف الوسط، فانظر إلى الفعل الذي يُوجبه الخلق المحذور، فإن كان أسهلَ عليك وألذَّ من الذي يُضاده، فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له، مثل أن يكون إمساكُ المال وجمعهُ أَلذَّ عندك وأيسرَ عليك من بذله لمُستحقِّيه، فاعلم أنَّ الغالب عليك خُلقُ البخل، فزِدْ في المواظبةِ على البذل، فإن صار البذل للمستحقِّ أَلذَّ عندك وأخفَّ عليك من الإمساكِ بالحقِّ فقد غلب عليك التَّبذير، فارجع إلى المواظبةِ على الإمساكِ.

ولا تزال تُراقبُ نفسك وتستدلَّ على خُلقك بتيسير الأفعال وتَعَسُّرها حتى تنقطع علاقةُ قلبك عن المال، فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه، بل يصيرُ عندك كالماء، فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه، بل يصيرُ عندك كالماء، فلا تطلبُ فيه إلا إمساكُه لحاجةٍ مُحتاجٍ<sup>(١)</sup> (أو بذله لحاجةٍ محتاجٍ<sup>(٢)</sup>)، ولا يرجع عندك البذلُ على الإمساكِ، فكلُّ قلبٍ صار كذلك فقد جاء الله سليماً عن هذا المقامِ خاصَّةً، ويجب أن يكون سليماً عن سائر الأخلاق حتى لا يكون له علاقةٌ بشيءٍ ممَّا يتعلَّق بالدنيا حتى ترحل النفس عن الدنيا مُنقطعةً العلائق عنها، غير مُلتفتةٍ إليها ولا مُتشفِّفةٍ إلى أسبابها، فحينئذ تَرجع إلى ربِّها رُجوعَ النفسِ المطمئنة.

ولمَّا كان الوسطُ الحقيقيُّ بين الطَّرفين في غاية العُموض بل هو أدقُّ من الشَّعر وأحدُّ من السَّيف، فلا جرَمَ من استوى على<sup>(٣)</sup> هذا الصراط المستقيم في الدنيا جازَ على مثل هذا الصراط في الآخرة، وقلَّما ينفكُّ العبدُ عن ميلٍ عن الصراط المستقيم - أعني الوسط - حتى لا يميل إلى أحدِ الجانبين، فيكون قلبه متعلقاً بالجانب الذي مال إليه، فلذلك لا ينفكُّ عن عذابٍ ما واجتيازٍ على النَّارِ وإن كان مثل البرق.

(١-١) سقطت من الأصل.

(٢) في الأصل: (إلى).

ولأجل عُسرِ الاستقامة قيل للعبد: قُل في كل يوم مَرَاتٍ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، ورأى بعضهم رسولَ الله ﷺ «في المنام»<sup>(١)</sup>، فقال: يا رسول الله، قلت: شَيِّئَنِي هود<sup>(٢)</sup>. فلمَ قُلْتَ ذلك؟ قال: لقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]<sup>(٣)</sup>.

فالاستقامةُ على سِواءِ السَّبيلِ في غايةِ العُمُوضِ، ولكن يَنبغي أن يَجْتَهِدَ الإنسانُ في القُرْبِ من الاستقامةِ إن لم يَقْدِرْ على حَقِيقَةِ الاستقامةِ، فمن أَرَادَ النِّجَاةَ فليَعْلَمْ أَنَّهُ لا نِجَاةَ إِلَّا بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، ولا تَصُدِّرُ الأَعْمَالُ الصَّالِحَةَ إِلَّا عَنِ الأَخْلَاقِ الحَسَنَةِ، فليَتَفَقَّدْ كلَّ عِبْدٍ صِفَاتِهِ وَأَخْلَاقِهِ، وَلِيَسْتَغْلِ بِعِلاجِ واحِدٍ مِنْها بَعْدَ واحِدٍ.

(١-١) سقط من الأصل.

(٢) بعدها في الأصل: (وأخواتها).

(٣) الرائي هو محمد بن عمر بن شَبَّوْه السَّبَّوْهِي المَرُوزِي راوِي صحیح البخاري عن أبي عبد الله الفَرَبْرِيِّ، كان من كبار مشايخ الصوفية، توفي نحو سنة (٣٨٠) هـ. والخبر في الرسالة القشيرية: ٩٤، وشعب الإيمان لليهقي (٢٤٣٩)، وتفسير القرطبي ٢٢٥/١١، وسير أعلام النبلاء ٤٢٣/١٦ - ٤٢٤، والدر المثور للسيوطي ٩/٨، وجامع العلوم والحكم ٥٠٩/١.

## بيان

### الطريق الذي به يتبين الإنسان عُيوب نفسه

اعلم أنّ الله تعالى إذا أراد بعيداً خيراً بصّره بعيوب نفسه، فمن كملت بصيرته لم تخف عليه عيوبه، وإذا عرف العُيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم، يرى أحدهم القذى<sup>(١)</sup> في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه، فمن أراد أن يقف على عيب نفسه، فله أربع طرق:

الطريق الأول: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس، مطلع على خفايا الآفات ويحكمه على نفسه، ويتبع إشارته في مجاهدته، فيعرفه الشيخ عيب نفسه، ويعرفه طريق علاجه، وهذا أمر قد عَزَّ في هذا الزمان وجوده، فمن وقع<sup>(٢)</sup> به فقد وقع<sup>(٢)</sup> بالطبيب الحاذق، فلا ينبغي أن يفارقه.

الطريق الثاني: أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً ويُنصّبهُ رقيباً على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله، فينبههُ على المكروه من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: رحم الله امرءاً أهدى إلينا عُيوبنا.

وسأل سلمان لما قدم عليه عن عيوبه، فقال: سمعتُ أنّك جمعت بين أذمين<sup>(٣)</sup> على مائدة، وأنّ لك حُلَّتَيْنِ؛ حلة بالنَّهار وحلة بالليل. فقال: هل بلغك غير هذا؟ قال: لا. قال: أما هذان فقد كُفيتهما.

وكان يسأل حذيفة: هل أنا من المنافقين؟ وهذا لأنّ كلَّ من علت مرتبته في اليقظة زاد اتهامه لنفسه، إلا أن هذا قد عَسُرَ أيضاً؛ لأنّه قد قلَّ في الأصدقاء من

(١) القذى: جمع قذاة، وهي ما يقع في العين من تبنٍ وترابٍ ووسخ.

(٢-٢) سقط من (ظ).

(٣) الأدم والإدام: الطعام.

يَتْرُكُ الْمُدَاهَنَةَ فَيُخْبِرُ بِالْعَيْبِ أَوْ يَتْرِكُ الْحَسَدَ فَلَا يَزِيدُ عَلَى الْقَدْرِ الْوَاجِبِ، فَإِنَّ الْمُدَاهِنَ يُخْفِي بَعْضَ عُيُوبِكَ، وَالْحَسُودَ يَرَى مَا لَيْسَ بِعَيْبٍ عَيْبًا، فَقَدْ كَانَ السَّلْفُ يُحِبُّونَ مَنْ يُنَبِّهُهُمْ عَلَى عُيُوبِهِمْ، وَنَحْنُ الْآنَ أَبْغَضُ النَّاسَ إِلَيْنَا مِنْ يُعَرِّفُنَا عُيُوبَنَا، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى ضَعْفِ إِيمَانِنَا؛ لِأَنَّ الْأَخْلَاقَ السَّيِّئَةَ كَالْعَقَارِبِ، وَلَوْ أَنَّ مُنْبَهًا نَبَّهَنَا عَلَى أَنَّ تَحْتَ ثَوْبِ أَحَدِنَا عَقْرَبًا لَتَقَلَّدْنَا لَهُ مِثَّهُ وَاشْتَغَلْنَا بِقَتْلِ الْعَقْرَبِ، وَإِنَّمَا نَكَايَةُ لَدَغِهَا عَلَى الْبَدَنِ وَلَا يَدُومُ أَلْمَهَا أَكْثَرَ مِنْ يَوْمٍ، وَنَكَايَةُ الْأَخْلَاقِ الرَّدِيئَةِ عَلَى الْقَلْبِ، وَالْمَهَا فِي الْآخِرَةِ دَائِمٌ، فَكُونْنَا لَا نَفْرَحُ بِقَوْلِ مَنْ يُنَبِّهُنَا عَلَيْهَا دَلِيلٌ عَلَى ضَعْفِ الْإِيمَانِ.

الطريق الثالث: أَنْ يَسْتَفِيدَ مَعْرِفَةَ عُيُوبِ نَفْسِهِ مِنْ أَلْسِنَةِ أَعْدَائِهِ، فَإِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْذِرُ الْمَسَاوِيَّ، وَانْتِفَاعَ الْإِنْسَانَ بَعْدَ مُمَاشِحَةٍ يَذْكَرُ عُيُوبَهُ أَكْثَرَ مِنْ انْتِفَاعِهِ بِصَدِيقٍ مُدَاهِنٍ يُخْفِي عَنْهُ عُيُوبَهُ.

الطريق الرابع: أَنْ يُخَالِطَ النَّاسَ، فَكُلُّ مَا يَرَاهُ مَذْمُومًا فِيمَا بَيْنَ الْخَلْقِ فَلْيَجْتَنِبْهُ.

قِيلَ لِعِيسَى عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِينَا السَّلَامُ: مَنْ أَدَّبَكَ؟ فَقَالَ: مَا أَدَّبَنِي أَحَدٌ، رَأَيْتُ جَهْلَ الْجَاهِلِ فَجَانَبْتُهُ.

## بيان

### الشواهد على أنّ الطريق في معالجة أمراض القلوب ترك الشهوات

اعلم أنّ شهوات النفوس<sup>(١)</sup> لم توضع إلا لفائدةٍ قد سبق بيانها، إذ لولا شهوة المطعم ما تنوّل الغذاء، ولولا شهوة التكاثر لانقطع النسل، وإنّما المذموم فضول الشهوات وطغيانها وإنّ قوماً لم يفهموا هذا القدر، فأخذوا يتركون كل ما تشتهي النفس، وهذا ظلم لها بإسقاط حَقّها، إذ لها على آدمي حقّ لقول الشارع: «إنّ نفسك عليك حقاً» حتى إن قائلًا منهم يقول: منذ كذا وكذا سنة أشتي كذا فلا أتناوله. وهذا انحرافٌ عن الجادة، فقد كان رسولُ الله ﷺ يتناول المُشتهى من الحَلْوَاءِ والعسل، وكان أحبّ الشاةِ إليه الدُّرَاعُ فيطلبها، ويختار الماء البائت، ويُقبّل المرأة، ويمصّ اللسان وهذا أقوى تنبيه للشهوة، فلا تلتفتنّ إلى زاهدٍ قلّ علمه، فحرم نفسه حظها من المُشتهى على الإطلاق، فإنّه إلى الظلم أقرب منه إلى العدل.

وإنّما يُترك المُشتهى إذا صعبت الطريق إليه، مثل أن لا يحصل إلا بوجهٍ مكروه، أو خيف من تناوله انحلال عزم فتطمع النفس في استدامته، أو حذر من ذلك زيادة شبع فيثقل عن عبادة ربّه<sup>(٢)</sup>، فينبغي حينئذ جهاد النفس في إنالتها مُرادها، فذاك كالطّب للمريض يُمدح ولا يذم.

ولا بأس بالرفق بالنفس لتقوى على السلوك، ومن قويت عزيمته فأطاق جهادها بالكلية إلا أنّه لا يمنعها مصالحها، فما أحسن تلك الحال لأنّها تكون معه

(١) في (ظ): (النفس).

(٢) ليست في (ظ).

كالبازي<sup>(١)</sup> تُخَاطُ عَيْنُهُ<sup>(٢)</sup> ليحصل له الفِطَام عن الطيران وَيَنسى ما كان قد أَلْفَهُ من ذلك، ثُمَّ يُطَعَمُ على الكَفِّ لِيَأْنَسَ بِالْمُطْعِمِ، فكذلك مَنْ قَوَّيتْ عَزِيمَتَهُ يَحْبِسُ نَفْسَهُ في الخلوَّةِ لِيَمْنَعَ السَّمْعَ والبَصَرَ ما أَلْفَا، ثُمَّ يَعُوذُ نَفْسَهُ الذُّكْرَ لِيَأْنَسَ بِالْمَذْكُورِ، فليصبر ذو العزم على مَضْضِ هذا الأمرِ، فَإِنَّهُ سِيحَلُوهُ كما يحلو الفِطَام للطفل بعد كراهته له، فلو رُدَّ إلى التَّدي كرهه، وَمَنْ عَرَفَ قِصْرَ العُمُرِ بالإضافة إلى مُدَّةِ حياة الآخرة حَمَلَ مَشَقَّةَ سفر أيامٍ لَتَتَّعَمِ الأبد، فعند الصَّبَاحِ يَحْمَدُ القَوْمَ السُّرَى<sup>(٣)</sup>.

(١) البازي: جنسٌ من الصقور الصغيرة أو المتوسطة الحجم، تميل أجنحتها إلى القصر، وتميل أرجلها وأذناها إلى الطول، ومن أنواعه الباشق والبيدق.

(٢) في (ظ): (عينه).

(٣) يُضْرَبُ هذا المثل للرجل يتحمل المشقة رجاء الراحة، ويُقال: إن أول من قاله خالد بن الوليد رضي الله عنه عندما توجه من اليمامة إلى العراق عبر الصحراء، وحمل معه الماء في بطون مئة من الإبل كما أشار عليه رافع الطائي فلما اجتازها ووصل إلى الماء قال:

لله دَرُّ رافع أنى اهتدى  
فَوَزَّ مَنْ قَرَّارٍ إلى سوى  
خمساً إذا سار به الجيشُ بكى  
ما سارها من قبله إنسٌ يُرى  
عند الصباح يحمد القوم السرى  
وتنجلي عنهم غيابات الكرى  
يُنظر مجمع الأمثال للميداني ٦٢٣/١.

## بيان

## علامات حُسن الخُلق

ربما جاهد المرید نفسه حتى ترك فواحش المعاصي ثم ظنَّ أنه قد هدَّب خُلُقَه واستغنى عن المجاهدة، وليس كذلك، فإن حسن الخُلق مجموعُ صفات المؤمنين، وقد وصفهم الله تعالى فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤]، وقال: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢]، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ [١-١٠]، وقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ إلى آخر السورة [الفرقان: ٦٣-٧٧]، فمن أشكل عليه حاله، فليعرض نفسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حُسن الخُلق، وفقدُ جميعها علامةُ سوء الخُلق، ووجود بعضها دون البعض يدلُّ على البعض دون البعض، فليشتغل بحفظ ما وجدته وتحصيل ما فقده.

وقد وصف رسولُ الله ﷺ المؤمن<sup>(١)</sup> بصفاتٍ كثيرة وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق، ففي الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده، لا يؤمنُ عبدٌ حتى يُحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه». وفيهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِي جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ صَيْفَهُ» و«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُقَلِّ خَيْرًا أَوْ لِيصْمِتْ».

وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا».

(١) في (ظ): (المؤمنين).

وَمِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ احْتِمَالُ الْأَذَى، فَفِي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِي غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَدَهُ<sup>(١)</sup> بِرِدَائِهِ جَبْدَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ اللَّهِ قَدْ أَثَرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْدَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ. فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ ضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ.

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذَا آذَاهُ قَوْمُهُ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

وقيل للأحنف بن قيس: مِمَّنْ تَعَلَّمْتَ حُسْنَ الْخُلُقِ؟

فَقَالَ: مِنْ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ، بَيْنَا هُوَ جَالِسٌ فِي دَارِهِ إِذْ جَاءَتْ خَادِمٌ لَهُ بِسَفُودٍ<sup>(٢)</sup> عَلَيْهِ شِبْوَاءٌ، فَسَقَطَ مِنْ يَدَيْهَا، فَوَقَعَ عَلَى ابْنِ لَهْ فَمَاتَ، فَدَهَشَتِ الْجَارِيَةُ، فَقَالَ: لَا رَوْعَ عَلَيْكَ أَنْتِ حُرَّةٌ لَوْجَهَ اللَّهِ.

وَكَانَ أُوَيْسُ<sup>(٣)</sup> إِذَا رَمَاهُ الصَّبِيَانُ بِالْحِجَارَةِ يَقُولُ: يَا إِخْوَتَاهُ إِنْ كَانَ وَلَا بَدَّ فَاْرْمُونِي بِالصُّغَارِ لَثَلَا تُدْمُوا سَاقِيَّ فْتَمْنَعُونِي مِنَ الصَّلَاةِ.

وَقَالَتْ امْرَأَةٌ لِمَالِكِ بْنِ دِينَارٍ: يَا مُرَائِي. فَقَالَ: وَجَدْتِ اسْمِي الَّذِي أَضَلَّهُ أَهْلُ الْبَصْرَةِ.

وَخَرَجَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمٍ إِلَى بَعْضِ الْبَرَارِيِّ فَاسْتَقْبَلَهُ جُنْدِيٌّ فَقَالَ: أَيْنَ الْعِمْرَانُ؟ فَأَشَارَ إِلَى الْمَقْبَرَةِ، فَضْرَبَ رَأْسَهُ<sup>(٤)</sup> فَشَجَّهَ، فَلَمَّا أَخْبَرَ أَنَّهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمٍ جَعَلَ يُقَبِّلُ يَدَهُ وَرِجْلَهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ لَمَّا ضْرَبَ رَأْسِي سَأَلْتُ اللَّهَ لَهُ الْجَنَّةَ، لِأَنِّي عَلِمْتُ أَنِّي أُوجِرُ بِضْرِبِهِ إِيَّايَ، فَلَمْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ نَصِيْبِي مِنْهُ الْخَيْرَ وَنَصِيْبُهُ مِنِّي الشَّرَّ.

(١) الجَبْدُ والجَبْدُ واحدٌ.

(٢) السَّفُودُ: عودٌ مِنْ حَدِيدٍ يُنْظَمُ اللَّحْمُ فِيهِ لِيُشَوَّى.

(٣) يعني أُوَيْسَ بْنَ عَامِرِ الْقُرْنِيِّ.

(٤) فِي الْأَصْلِ: (رَأْسُهُ وَوَجْهَهُ).

وَدَعَى رَجُلٌ أَبَا عَثْمَانَ الْحِيرِيَّ<sup>(١)</sup> إِلَى دَعْوَةٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَنْزِلَهُ قَالَ لَهُ: لَيْسَ لِهَذَا وَجْهٌ. فَرَجَعَ أَبُو عَثْمَانَ فَعَادَ، فَدَعَاهُ فَجَاءَ، فَقَالَ: ارْجِعْ. ثُمَّ رَجَعَ فَدَعَاهُ فَجَاءَ، فَلَمَّا رَأَاهُ لَا يَتَغَيَّرُ قَالَ: إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أُخْتَبِرَكَ. فَقَالَ أَبُو عَثْمَانَ: الَّذِي رَأَيْتَ مِنِّي خُلِقَ كَلْبٌ إِذَا دُعِيَ أَجَابَ، وَإِذَا زُجِرَ انْتَزَجَ.

وَاجْتَازَ بِسَكَّةٍ فَطَرَحَ عَلَيْهِ رَمَادًا مِنْ سَطْحٍ، فَجَعَلَ أَصْحَابُهُ يَتَكَلَّمُونَ، فَقَالَ: مَنْ اسْتَحَقَّ النَّارَ فَصُولِحَ عَلَى الرَّمَادِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَغْضَبَ.

فَهَذِهِ نُفُوسٌ ذُلَّتْ بِالرِّيَاضَةِ، فَاعْتَدَلَتْ أَخْلَاقُهَا، وَنُقِّيتْ عَنِ الْغِشِّ<sup>(٢)</sup> بِوَاطِنِهَا فَأَثْمَرَتِ الرِّضَا بِالْقَضَاءِ، وَهَذَا مُنْتَهَى حُسْنِ الْخُلُقِ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ مِنْ نَفْسِهِ بَعْضَ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ الَّتِي وَجَدَهَا هَؤُلَاءِ، فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُدَاوِمَ الرِّيَاضَةَ لِيَصِلَ، فَإِنَّهُ بَعْدُ مَا وَصَلَ.

(١) هو سعد بن إسماعيل الحيري النيسابوري، صحب شاه الكرمانى ويحيى بن معاذ الرازي، توفي سنة (٢٩٨) هـ.

(٢) تحرفت في الأصل إلى: (الغبين).

## بيان

### الطريق في رياضة الصبيان في أول النشوء ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

اعلم أنّ الصبي أمانة عند والديه، وقلبه جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل نقشٍ، ومائلٌ إلى كل ما يُمالُ به إليه، فإن عوّد الخير وعُلمه نشأ عليه وشاركه في ثوابه أبواه ومؤدّبُه، وإن عوّد الشرّ وأهمل إهمال البهائم شقيّ وهلك وكان الوزر في عنق الوالي عليه، وقد قال الله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، قال علي بن أبي طالب في تفسيرها: علّموهم وأدّبوهم.

ولا شكّ في أنّ الأب يحذّر عليه من أن تُصيبه نار الدنيا، فينبغي أن يكون أحرز عليه من نار الأخرى.

وصيانته بأن يؤدّب به ويهدّبه ويُعلّمه محاسن الأخلاق ويحفظه من قرناء السوء، ولا يُعوّده التّنعم، ولا يُحبّب إليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر، بل ينبغي أن يراقبه من أول عمره، فلا يستعمل في رضاعه وحضانتها إلا امرأةً سالحةً مُتديّنةً تأكل الحلال، فإنّ اللبن الحاصل له من الحرام لا بركة فيه، فإذا نشأ عليه الصبيّ انعجنت طبيئته من الخبيث، فمال طبعه إلى ما يُناسب ذلك من الخبائث.

فإذا بدت فيه مخايل<sup>(١)</sup> التمييز وأولها الحياء، وذلك من إشراق نور العقل عليه، فتلك بشارة النجاة، لأنّها تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب، وهي مُبشرةٌ بكمال العقل عند البلوغ، وهذا يُستعان على تأديبه بحيائه.

وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام، فينبغي أن يُعلّم آداب الأكل من التسمية، والأكل باليمين، وتصغير اللقم إلى غير ذلك، ويُعوّد الخبز وحده في

(١) المخايل: الدلائل والمظان.

بعض الأوقات لثلاث يالفت الإدام فيراه كالحتم، ويُقبَّح عنده كثرة الأكل، فإنه يُشبهه الكثير الأكل بالبهائم<sup>(١)</sup>، ويُحبب إليه الثياب البيض<sup>(٢)</sup> دون الملوثة والإبريسم<sup>(٣)</sup>، ويُقرَّر عنده أن ذلك من شأن النساء والمُخنَّثين، ويُمنع من مخالطة الصبيان الذين عودوا التَّعَمُّ، وعن من يُسمعه ما يُرغبه في ذلك، فإن الصبي إذا أهمل في ابتداء نُشوئه خرج رديء الأخلاق.

ثم يُشغَل في المكتب بتعلُّم القرآن وأحاديث الأخيار لينغرس في قلبه حبُّ الصالحين، ويُحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله.

ومتى ظهر من الصبي خلقٌ جميل أو فعل حميد، فينبغي أن يُكرم عليه ويُجازى عليه بما يفرح به، ويُمدح بين أظهر الناس، فإذا خالف ذلك في بعض الأحوال تُغوفل عنه ولم يُكاشف، فإن إظهار ذلك ربما يفيد جسارة حتى لا يُبالي بالمُكاشفة بعد ذلك، فإن عاود عوتب سراً، وخُوف من اطلاع الناس عليه، ولا يكثر عليه العتاب؛ لأن ذلك يهون عنده سماع الملامة.

وليكن الأب حافظاً هيبه الكلام معه ولا يُوبِّخه إلا أحياناً.

وينبغي للأم أن تُخوفه بالأب، وتزجره عن القباح.

وينبغي أن يُمنع النوم نهاراً، فإنه يورث الكسل، ولا يُمنع النوم ليلاً، ولكن يُمنع الفرش الوطيئة<sup>(٤)</sup> لتصلب أعضائه ولا يسخف<sup>(٥)</sup> بدنه فلا يصبر عن التَّعَمُّ، بل يُعوِّد الحُشونة في المفرش والملبس والمطعم، ويُعوِّد في بعض النهار المشي والحركة والرياضة لثلاث يغلب عليه الكسل، ويُمنع أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والداه أو بمطاعمه وملابسه، ويُعوِّد التواضع والإكرام لمن عاشره، ويُمنع أن

(١) في الأصل: (بأن يُشبه بالبهائم).

(٢) في الأصل: (البياض).

(٣) الإبريسم: أحسن الحرير.

(٤) الوطيئة: اللينة.

(٥) يسخف: يرق ويلين.

يأخذ شيئاً من صبي مثله، ويُعلم أن الأخذ لؤمٌ ودناءةٌ، وأن الرفعة في الإعطاء والجود، ويُقبَّح عنده حبُّ الذهب والفضة.

ويُعوِّد أن لا يبصق في مجلسه، ولا يتشاءب، ولا يمتخِط بحضرة غيره، ولا يستدبر أحداً، ولا يضع رجلاً على رجلٍ.

ويُمنع من كثرة الكلام ويُعوِّد أن لا يتكلم إلا جواباً، وأن يُحسن الاستماع إذا تكلم غيره ممن هو أكبر منه، وأن يقوم لمن فوقه، ويجلس بين يديه، ويُمنع من لهو الكلام وفحشه ومن مخالطة من يفعل ذلك.

وأصلُ تأديب الصبيان حفظهم من قرناء السوء.

ويُحسُن أن يُفسح له بعد خروجه من المكتب في لعبٍ جميل يستريح به من تعب التأديب، كما قيل: رَوْحُوا الْقُلُوبَ تَعِيَ الذُّكْرَ<sup>(١)</sup>.

وينبغي أن يُعلم طاعة والديه ومُعلمه وتَعْظيمهم، وإذا بلغ سبع سنين أُمر بالصلاة ولم يُسامح في ترك الطهارة ليتعوِّد، ويُخوَّف من الكذب والخيانة، وإذا قارب البلوغ أُلقيت إليه أسرار الأمور.

وأُعلم أن الأطعمة أدويةٌ، ومقصودها تقوية البدن على طاعة الله، وأن الدنيا لا بقاء لها، وأن الموت يُقطع نعيمها، وهو منتظرٌ في كل ساعة، وأن العاقل من تزوَّد لآخرته.

فإن كان نشوءه صالحاً ثبت<sup>(٢)</sup> هذا في قلبه كما يثبت النقش في الحجر، وإن لم يكن، نَبأ<sup>(٣)</sup> هذا عن قلبه.

وقد قال سهل بن عبد الله: كنت ابن ثلاث سنين وأنا أقوم بالليل أنظرُ إلى صلاة خالي محمد بن سوار، فقال لي خالي يوماً: ألا تذكر الله الذي خلَقك؟ قلت:

(١) هو في مصنف ابن أبي شيبة (٣٦١٢٤)، وحلية الأولياء ٣/١٠٤، من قول قسامة بن زهير

المازني البصري التابعي المتوفى نحو سنة ٨٠ هجرية، ينظر تهذيب الكمال ٢٣/٦٠٢.

(٢) في الأصل: (يُثبت).

(٣) أي جاوزه ولم يثبت فيه.

كيف أذكره؟ قال: قل بقلبك عند تقلُّبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تُحرِّك لسانك: اللهُ مَعِي، اللهُ نَاطِرٌ إِلَيَّ، اللهُ شَاهِدِي<sup>(١)</sup> فقلتُ ذلك ليالي ثم أعلمته، فقال: قُلْهَا فِي كُلِّ لَيْلَةٍ سَبْعَ مَرَّاتٍ. فقلتُ ذلك ثم أعلمته، فقال: قُلْهَا فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِحْدَى عَشْرَةَ مَرَّةً. فقلتُ ذلك، فوقع في قلبي حلاوته، فلما كان بعد سنةٍ قال لي خالي: احفظ ما علِّمتك ودِّمْ عليه إلى أن تدخل القبر. فلم أزل على ذلك سنين<sup>(٢)</sup>، فوجدتُ له حلاوةً في سرِّي<sup>(٣)</sup>، ثم قال لي خالي: يا سهَّل، من كان اللهُ معه وهو ناظرٌ إليه وشاهده يعصيه؟ إياك والمعصية. ومضيتُ إلى المكتب وحفظتُ القرآن وأنا ابنُ ستِّ سنين أو سبع، ثم كنتُ أصوم الدهرَ وقوتي من خبز الشعير، ثم وقعت لي مسألةٌ وأنا ابنُ ثلاث عشرة سنةً، فجئتُ البصرةَ وسألتُ علماءها فلم يشفني أحد، فجئتُ إلى عبَّادان<sup>(٤)</sup> إلى رجلٍ يُعرفُ بأبي حبيب العبَّاداني<sup>(٥)</sup>، فسألته عنها فأجابني، فأقمتُ عنده مدةً أنتفعُ بكلامه، ثم كنت أقوم الليل كله.

(١) في (ظ): (مشاهدي).

(٢) في (ظ): (عشر سنين).

(٣) في الأصل: (قلبي).

(٤) عبَّادان: جزيرة قرب البصرة.

(٥) واسمه حمزة بن عبد الله.

## بيان

شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة  
وتدريج المرید في سلوك سبيل الرياضة

اعلم أن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين أصبح بالضرورة مُريداً حَرَتْ<sup>(١)</sup> الآخرة مُشتاقاً إليها سالكاً سبيلها، مُستهيئاً بالدنيا ولذاتها، فإنَّ من كان معه حَرَزَةٌ فرأى<sup>(٢)</sup> جوهرة نَفِيسَةً لم يَبِقْ له رغبة في الحَرَزَةِ، فإذا قيل له: بِعها بالجوهرة أسرع.

فمن رزقه الله تعالى الانتباه لذلك، فليعلم أن لذلك شرطاً لا بُدَّ من تقديمه في بداية الإرادة، ومُعْتَصِماً لا بُدَّ من التمسك به، وحصناً لا بُدَّ من التَّحْصُن<sup>(٣)</sup> به ليأمن الأعداء القاطعين عليه الطريق، ووظائف<sup>(٤)</sup> لا بُدَّ له من مُلازمتها في وَقْتِ<sup>(٥)</sup> سلوك الطريق.

وأما الشَّرْطُ الذي لا بُدَّ من تقدمه؛ فَرَفْعُ الحِجَابِ الذي يَحْجُبُهُ عن الحقِّ، وهو الذَّنوب.

وأما المُعْتَصِمُ؛ فَشَيْخٌ يَدُلُّهُ على الطريق لئلا تَتَحَطَّفَهُ الشَّيَاطِينُ في السَّبِيلِ.

وأما الحِصْنُ، فَالْحَلْوَةُ، وبها يَحْصُلُ الصَّمْتُ عن الفُضُولِ، وَعَضُّ البَصْرِ عَمَّا يَشْغَلُ القلبَ، وَيَصْفُو الفِكرُ للنظر<sup>(٦)</sup> في الأخلاق فيدفعُ منها ما يؤدي وَيُقَوِّمُ ما مالَ.

(١) تصحفت في (ظ) إلى: (حزب).

(٢) في الأصل: (فأري).

(٣) في الأصل: (التحصين).

(٤) في الأصل: (وظائف).

(٥-٥) سقط من الأصل.

(٦) في الأصل: (عن النظر).

وأما الوظائف، فمخالفة الهوى وكثرة الذكر والاقتصاد في الأوراد، ومُنْتَهَى الرِّياضَة أن يَجِدَ قلبه مع الله أبداً، ولا يُمكن ذلك، إلا بأن يَخْلُو من غَيْرِهِ، ولا يَخْلُو إلا بطول المجاهدة، فهذا مِنْهاج رِياضَة المُريد وتَرْتيبه في التدرِج.

فأما تفصيلُ الرِّياضَة في كل صفةٍ، فسيأتي بيانه، فإنَّ أغلب الصِّفات على الإنسان شهوة بطنه وفَرْجِه ولسانه، ثم الغَضَب الذي هو كالجُنْدٍ لحماية الشَّهوات، ثم مهمما أحبَّ الإنسان شهوة البطن والفَرْج وأنسَ بها أحبَّ الدُّنيا ولا يتمكَّن منها إلا بالمال والجاه، وإذا طلبَ المالَ والجاهَ حدث فيه الكِبْرُ والعُجب والرِّياسَة، فإذا ظهر ذلك ولم تَسْمَح نَفْسُه بترك الدِّين رأساً تمسَّك من الدين بما فيه الرِّياسَة وغلب عليه الغُورور.

وها نحنُ نَسْتَكْمِلُ رُبْعَ المهلكات بالكتُب التي وَعَدنا بها في أول كتابنا هذا، ونَخْتَمُها بكتاب الغُورور وتَعْرِيفِ طُرُقِ المُعالِجَة<sup>(١)</sup>، فإنَّ ما ذَكَرناهُ في الكتاب الأول من هذا الرُّبْعِ<sup>(٢)</sup> شرحٌ لصفات القلب الذي هو مَعْدِنُ صورة المُنْجيات والمُهْلِكَات، وما ذَكَرناهُ في الكتاب الثاني<sup>(٣)</sup>، إشارةٌ كُليَّةٌ إلى طريق تَهْذِيبِ الأخلاق ومُعالِجَة أمراض القُلُوب.

وأما تفصيلها، ففي هذه الكتب الآتية يأتي إن شاء الله تعالى.

آخر كتاب رياضة النفس



(١) في الأصل: (المجاهدة).

(٢) يعني كتاب شرح عجائب القلب.

(٣) يعني كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق.



## كتاب كسر الشهوتين

### شهوة البطن

### وشهوة الفرج

وهو الكتاب الثالث من ربع المهلكات

الحمدُ لله الحكيم فيما يَقْضِيهِ<sup>(١)</sup>، العادل فيما يُمْضِيهِ، الكريم فيما يُسْديهِ، العليم بما يُسِرُّهُ العبدُ ويُبْديهِ، فهو الذي يُمرِّضُهُ وَيَشْفِيهِ، وهو الذي يُمَيِّتُهُ وَيُحْيِيهِ، وهو الذي يُطْعِمُهُ وَيَسْقِيهِ، سَلَطَ عَلَيْهِ شَهْوَةَ الْبَطْنِ لِيُحْصَلَ غِذَاءَهُ مِمَّا يَشْتَهِيهِ، وَشَهْوَةَ الْفَرْجِ لِيُظْهِرَ خَلْفَهُ كَمَا كَانَ خَلْفًا لِأَبِيهِ، وَأَمْرَهُ بَرْدًا اشْتِطَا طَهُمَا يَمْتَحِنُهُ وَيَبْتَلِيهِ، لِيَنْظُرَ كَيْفَ يُطِيعُهُ وَيَنْزَجِرَ عَنِ مَعَاصِيهِ.

أَحْمَدُهُ عَلَى نِعْمَةِ الْوَافِرَةِ وَأَيَادِيهِ، وَأَقْرُّ لَهُ بِالتَّوْحِيدِ عَنِ تَرَوُّ لَا عَنْ بَدِيهِ، وَأُصْلِي عَلَى نَبِيِّهِ النَّبِيِّ<sup>(٢)</sup> وَرَسُولِهِ الْوَجِيهِ، صَلَاةً تُزَلِّفُهُ لَدَيْهِ وَتُحْظِيهِ وَتَرْفَعُ مَنْزِلَتَهُ وَتُعْلِيهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَتَابِعِيهِ، وَتَدْوُمُ إِلَى يَوْمِ يَفْرُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْمُهْلَكَاتِ شَهْوَةَ الْبَطْنِ<sup>(٣)</sup>، فَبِهَا أُخْرِجُ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْبَطْنُ يَنْبُوعُ الْآفَاتِ؛ لِأَنَّ مِنْ شَهْوَتِهِ تَحَدُّثُ شَهْوَةِ الْفَرْجِ، ثُمَّ يَتَّبِعُ شَهْوَةَ الْمَطْعَمِ

(١) في الأصل: (يقضيه).

(٢) تصحفت في الأصل إلى: (البينة).

(٣) بعدها في (ظ): (والفرج).

والمُنكح شدّة الرّغبة في المال والجاه، ثم يتبع ذلك أنواع الرُّعونات من المُنافسة والحسد والتّفأخر والكبر ويتداعى الأمر في ذلك إلى الحقد والعداوة، ثم يُفضي بصاحبه إلى اقتحام الفحشاء والمنكر، وكل ذلك مُتولّد من بَطَر الشّبع.

وإذ قد بانَ عِظَمُ آفةِ شهوة البطن وَجِبَ شرحُ غوائلها وآفاتِها، وإيضاحُ طريق<sup>(١)</sup> المُجاهدة لها، ونحنُ نوضّحُ ذلك بعونِ الله تعالى في فُصولٍ يجمعها بيانُ فضيلة الجوع، ثم فوائد الجوع، ثم طريق الرّياضة في التّقُّل، ثم بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته باختلاف أحوال النَّاسِ، ثم بيان الرّياء في ترك الشّهوة، ثم القول في شهوة الفرج،<sup>(٢)</sup> ثم بيان ما يصلح للمريد من التّكاح وتركه، ثم بيان فضيلة من يُخالفُ شهوة الفرج<sup>(٢)</sup> والعَيْنِ.

(١) في الأصل: (طرق).

(٢-٢) سقط من (ط).

## بيان

### فضيلة الجوع وذم الشبع

أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أعين قال: حدثنا الفربري قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا إسماعيل قال: حدثنا مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْكُلُ الْمُسْلِمُ فِي مَعَى وَاحِدٍ، وَالكَافِرُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءَ».

قال البخاري: وحدثنا محمد بن يسار، قال: حدثنا عبد الصمد قال: حدثنا شعبة عن واقد بن محمد عن نافع قال: كان ابن عمر لا يأكل حتى يُؤتى بمسكين يأكل معه فأدخلت رجلاً يأكل معه فأكل كثيراً، فقال: يا نافع، لا تدخل هذا علي، فإنني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «المؤمنُ يأكل في مَعَى واحدٍ، والكافرُ يأكلُ في سَبْعَةِ أَمْعَاءَ». أخرجاه والذي قبله في الصحيحين.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «طعامُ الاثنينِ كافيُ الثلاثة، وطعامُ الثلاثةِ كافيُ الأربعة».

وفي أفراد مُسلم من حديث جابر عن النبي ﷺ مثله، وزاد: «وطعامُ الأربعةِ يكفيُ الثمانية».

أخبرنا ابنُ الحُصَيْن قال: أخبرنا ابنُ المُذْهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو المغيرة قال: حدثنا سليمان بن سليم الكِنَانِي قال: حدثنا يحيى بن جابر الطَّائِي قال: سمعتُ المِقْدَام بن مَعْدِي كَرِب يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما ملأ آدمي وعاءَ شراً من بطنٍ، حسبُ ابنِ آدمٍ أَكْلَاتٍ يُقَمِّنُ صُلْبَهُ، فإن كان لا محالةً فثلثٌ لطعامِهِ وثلثٌ لشِرابِهِ وثلثٌ لِنَفْسِهِ».

قال الإمام أحمد: وحدثنا محمد بن جعفر، قال: حدثنا شُعْبَةُ قال: سمعتُ أبا إسرائيل يقول: سمعتُ جَعْدَةَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ ورأى رجلاً سَمِيناً، فجعل النبي ﷺ يَوْمِي إلى بَطْنِهِ بيده ويقول: «لو كانَ هذا في غير هذا لكانَ خيراً لك».

وقال رجلٌ لابنِ عُمر: أجعلُ لك جُوارش<sup>(١)</sup>؟ قال: وأي شيء الجُوارش؟ قال: شيءٌ، إذا كَطَّكَ<sup>(٢)</sup> الطَّعامُ وأصبتَ منه سَهْلَ عليك. فقال ابن عمر: ما شَبِعْتُ من الطَّعام منذُ أربعة أشهرٍ، وما ذاك أن لا أكونَ له واجداً، ولكنِّي عهدتُ قوماً يشبعون مرّةً ويجوعون أخرى.

وقيل لسُمرة: إنَّ ابنك لم يَنَمْ اللَّيْلَةَ. قال: أَبَشَمًا<sup>(٣)</sup>؟ قيل: بَشَمًا. قال: لو ماتَ لم أَصَلَّ عليه.

وقال عُقبَةُ الرَّاسِي: دخلتُ على الحَسَنِ<sup>(٤)</sup> فوافقته يتغذى، فقال: هَلَمْ. فقلتُ: أكلتُ حتى لا أستطيعُ أن أكلَ. فقال: سُبْحَانَ الله وَيَأْكُلُ المُسلم حتى لا يَسْتَطيعُ أن يأكل؟

## فصل

واعلم أنه قد رُويت في هذا المعنى أحاديثٌ لا تثبت فتنكّبناها.

وقد بالغ جماعةٌ من الزُّهاد والصُّوفية في التَّقَلُّلِ والصَّبْرِ على الجوع وأمروا به، وحثُّوا عليه، وكلُّ ذلك من سوء الفهم للمقصود، وقد بيَّنا عيبَ ما سلكوا في كتابنا المُسمَّى بتلبيس إبليس، وهذا الكتاب قد ضمنا تنزيهه عن ذكر ما لا يصلح لئلا يذهب الزَّمانُ بيَّان رَدِّ الفاسد، وأودعنا بيان العَلَطِ المذكور من ذلك في الكتاب

(١) الجُوارش: معجون فارسي مغرب، معناه بالعربية: الهاضوم، لأنه يستعمل لإصلاح المعدة والأطعمة وتحليل الرياح قصد السبيل فيما في اللغة العربية من الدخيل ٤٠٢/١.

(٢) كَطَّكَ الطَّعامُ: ملاً بطنك حتى لا تكاد تُطيق النَّفس.

(٣) البَشَمُ: الإكثارُ من الطَّعام حتى التُّخمة.

(٤) يعني الحسن البصري.

الذي صُفِّ هذا الكتاب عليه في كتابٍ آخر<sup>(١)</sup>، ونحنُ نصدعُ بِمُرِّ الحَقِّ من غير مُحاباةٍ، فنقول:

اعلم أن الله عز وجل جعل قوامَ هذا البدن بالأغذية، وأقام الشهوة تحثُّ على تناولها، إلا أن للأغذية انبساطاً في المعى بعد التناول، فينبغي للإنسان أن يرفع يده عن الطعام وهو يشتهي به بعض الشهوة؛ لأنه ينسبط في المعدة فيذهب أثر ذلك المتقاضى.

فأما الشَّبَع فإنه يؤذي؛ لأنه تناول بما تقتضيه الشهوة، فإذا انبسط الطعام تأذى المتناول، فلذلك دُم، وهو يُوجب رَهْلَ البدن<sup>(٢)</sup> وتكاسله وكثرة النوم وبلادة الدهن وذلك<sup>(٣)</sup> بتكثير البخار في الدماغ حتى يعطي مكان الفكر وموضع الذكر، ويجلب أمراضاً أخر<sup>(٤)</sup>.

ومقام العدل رفع اليد مع بقاء شيء من الشهوة، ونهاية المقام الحسَن قول النبي ﷺ: «ثلث طعام، وثلث شراب، وثلث نفس». : فالأكل على مقام العدل يُصح البدن وينفي المرض، وذلك أن لا يتناول الطعام حتى يشتهي، ثم يرفع يده وهو يشتهي، فمن قَصَرَ عن هذه الحالة بقي في نفسه المنازعة إلى الطعام، فشغل ذلك قلبه، كما لو كان عنده وقتُ أَكَلِهِ كَلَبٌ فلم يُلْقِ إليه، فإنه لا يهنيه الأكل.

ثم الدوام على التقلُّل يُضعف القوى، فإن عَرَضَ جهادٌ لم يجد قوةً، وإن كانت له رُوْجَةٌ لم يُمكن قضاء حقها، وإن افتقر إلى كَسْبٍ لم يقدر على القيام به.

وقد قلل أقوامٌ مطاعمهم حتى قَصَرُوا عن الفرائض، وظنوا بجهلهم أن ما فعلوه فضيلة، وليس كذلك، فإنها حالة ما سلكها رسول الله ﷺ ولا أصحابه، وإنما كانوا

(١) يريد المصنف كتابه (إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء) ينظر ما تقدم في الصفحة ٨.

(٢) أي: استرخاؤه وسمينه.

(٣) ليست في (ظ).

(٤) ليست في (ظ).

يجوعون إذا لم يجدوا، وربّما وجدوا وآثروا، وكانوا لا يَشْبَعُونَ إذا أكلوا ويَذْمُونَ البِطْنَةَ، ويمدحون الجوعَ إشارةً منهم إلى الحالة المتوسطة التي ذكرناها<sup>(١)</sup>.

فأمّا التَّقَلُّلُ المَحْكِي عن الجاهلين بأحوال السَّلَفِ وأوضاع الحُكْمِ مثل أن أحدهم كان يَزِنُ قُوَّتَهُ بِكَرْبَةٍ<sup>(٢)</sup>، فَتَنْشَفُ كل يوم، وآخر قَلَّلَ حتى وقف على رَغِيفٍ في كل يوم، فهذا إلى النَّهْيِ والكراهة أقرب منه إلى الفضيلة.

وقد كَرِهَ العُلَمَاءُ التَّقَلُّلُ منهم: الإمام أحمد، فقال: لا يُعْجِبُنِي.

وحُكِيَ عن ابن مَهْدِيٍّ أنَّ قَوْمًا تَقَلَّلُوا فَقَطَعَهُمْ عن الفَرَضِ، وهذا لما ذكرنا من أنَّ التَّقَلُّلَ يُضْعِفُ القُوَّةَ، ثم هو موجبٌ لتنشيف الرُّطوبات، ويُسِّدُ الدِّماغَ فيُخْرِجُ الإنسانَ إلى الخيالات الفاسدة، وربّما خَرَجَ إلى الجنون.

فهذه أحوالٌ مَسْرُوقَةٌ من التَّرهيبِ لِقُرْبِ عهدِ هذه الشَّرِيعَةِ بتلك.

والاعتبارُ ينبغي أن يكون بحالة نَبِيِّنا ﷺ وأصحابِهِ، فما منهم مَنْ سَلَكَ هذه الطَّرِيقَ، إلاَّ أَنَّهُ قد نُفِلَ عن ابن الزُّبَيْرِ أَنَّهُ كان يَبْقَى أَيامًا لا يَأْكُلُ، وهذا يحتمل أن يكون عادةً له، ويحتمل أن يكون لا يَأْكُلُ الحُبْزَ وَيَقْنَعُ بغيره، فإنَّ العَرَبَ ربّما اقْتَنَعَتْ بالثَّمَرَاتِ أو بِشُرْبَةِ لَبَنِ عن الحُبْزِ، ويحتمل أن يكون ذلك في حالة قتاله ومُحَاصِرَتِهِ<sup>(٣)</sup>، فهي قَضِيَّةٌ في عَيْنِ مُحْتَمَلَةٍ.

(١) في (ظ): (التي أشرنا إليها).

(٢) الكَرْبَةُ: هي أصل السَّعْفَةِ الغليظة التي تَبَسُّ فتصير مثل الكتف. اللسان (كرب)، والمخصص لابن سيده ١٠٦/١١، والمقصود أَنَّهُ يزن طعامه بالكَرْبَةِ الرطبة فيكون كثيراً، ثم في كل يوم تنشف الكربة ويخف وزنها وبالتالي يخف وزن طعامه الذي يأكله، وقد ذكر ذلك المصنف في صيد الخاطر: ٥٧.

(٣) وذلك في سنة (٧٣) هجرية عندما حاصره الحجاج بن يوسف الثقفي في مكة لكي ينزل تحت طاعة عبد الملك بن مروان، ودام الحصار نحو خمسة أشهر ونصف إلى أن أصابته ضربة منجنيق فمات منها رحمه الله تعالى. ينظر البداية والنهاية ١٢/١٧٧ وما بعدها.

## بَيَانُ

## طريق الرياضة في كسر شهوة البطن

مَنْ تَعَوَّدَ اسْتِدَامَةَ الشَّبَعِ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقَلِّلَ مِنْ مَطْعَمِهِ يَسِيرًا يَسِيرًا مَعَ الزَّمَانِ إِلَى أَنْ يَقِفَ عَلَى<sup>(١)</sup> حَدٍّ لَا يُنْقِصُ فِيهِ قُوَّتَهُ وَلَا يُضْعِفُ بَدَنَهُ .

فَأَمَّا التَّقَلُّلُ الَّذِي يُضْعِفُ الْقُوَى فَقَدْ بَيَّنَّا وَجَهَ دَمِّهِ، فَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى كَلَامِ مَنْ مَدَّحَهُ .

(١) في الأصل: (في).

## بيان

### اختلاف حكم الجوع وفضيلته باختلاف أحوال الناس

اعلم أنّ المطلوبَ الأقصى في جميع الأحوال والأخلاق الوَسَطُ، إذ خَيْرُ الأمور أوساطُها، وما جاء في المَنقولات مِمَّا قد أوردنا بَعْضه من فضائل الجوع إنّما المراد به التَّوَسُّطُ، إلّا أنّ من أسرار الشَّرْع أنّه إذا رأى الطَّيْعَ مائلاً بالكُلِّيَّةِ إلى فَنٍّ يطلب فيه الغَرَضَ الأقصى جاء بالمبالغة في المَنع، فَظَنَّ الجاهلُ أنّ المراد مُضادَّةً ما يَتَضَيِّعُ الطَّيْبُ بغاية الإمكان، فأما العالم فيعلم أنّ المَقصود الوَسَطُ، وإنّما نَظَرَ إلى غايةٍ فَقابِلها بغايةٍ لِيَتَقَابَلَ الباعِثُ والمَانِعُ، فيتقاومان، فيحصل الاعتدال.

وهذا القَدْرُ حَفِيٌّ عن جُهَّال المُتَرَهِّدِينَ، فبالغوا في التَّقَلُّلِ قَصداً للتَقَرُّبِ، وإنّما قَرَّبوا من الظلم؛ لأنّ الذي طلبوه من بقاء البدن بلا غذاءٍ أو بيسيرٍ لا يمكن؛ لأنّه موضوعٌ على خلاف هذا، فالأولى في الأكل تناول ما لا يُثقل عن العبادة ولا يمنع من الطَّاعَةِ، ويكون سبباً لبقاء القوَّة، فلا يُحسُّ المُتناول بجوعٍ ولا شبعٍ، فحينئذٍ يَصِحُّ البَدَنُ، وَيَجْتَمِعُ<sup>(١)</sup> الهَمُّ، ويصفو الفِكْرُ.

(١) في (ظ): (يُجمع).

## بيان

### آفة الرِّياء المتطرِّق إلى من يترك أكل الشَّهوات أو يُقلِّل الأكل

اعلم أنَّ تارك الشَّهوات تدخلُ عليه آفتانِ عظيمتانِ هُما أعظمُ من أكل الشهوات:

إحداهُما: أن لا يقدر على ترك بعض الشَّهوات ويريد أن لا يعرف بأنَّه يَشتهيها، فيأكلها في الخلوة، وهذا شِرْكٌ خَفِيٌّ، بل ينبغي<sup>(١)</sup> له إذا ابتليَ بذلك أن يُظهره فيكون إظهاره بدلاً عن المجاهدة بالترك، وقد كان أهلُ المعرفة على ضِدِّ هذا، كان أحدهم يشتري الشَّهوة ويعلِّقها في بيته وهو زاهدٌ فيها ليسْتُرَ زُهدَه، وهذا هو الزُّهدُ في الزُّهدِ بإظهارِ ضِدِّه، وهو عملُ الصِّدِّيقين؛ لأنَّه تجرِيعٌ للنَّفْسِ كأسَ الصَّبْرِ مرَّتَيْنِ، والثانيةُ أمرٌ.

والآفة الثانية: أن يشتهي أن يُشْتَهَرَ بتركِ الشَّهوة، فهذا قد خالف شهوةً ضعيفةً، وهي شهوةُ الأكل، وأطاع شهوةً هي شرٌّ منها، وهي شهوةُ الجاه، وهي الشَّهوة الحَفِيَّةُ، وكسر هذه الشَّهوة أولى من كسر الأولى؛ لأنَّ مَنْ تَرَكَ شهوةَ الطَّعامِ ووقع في شهوةِ الرِّياءِ كَمَنْ هربَ من عقربٍ إلى حَيَّةٍ، فليتناول منها، فهو أصلحُ له.

قال أبو سُلَيْمان<sup>(٢)</sup>: إذا قُدِّمَتْ إليك شهوةٌ وقد كُنْتَ تاركاً لها فأصِبْ منها يسيراً، ولا تُعْطِ نَفْسَكَ مُناها فتكون قد أسقطت عن نَفْسِكَ الشَّهْرَةَ بالأكل ونَعَّضْتَ<sup>(٣)</sup> عليها إذ لم تُبالغ.

(١) سقطت من الأصل.

(٢) هو أبو سليمان الداراني.

(٣) تصحفت في الأصل إلى: «وتعصب».

## القول في شهوة الفرج

اعلم أن شهوة الوقاع سلطت على الآدمي لفائدتين:

إحداهما: أن يدرك لذة يقيس عليها لذات الآخرة، وما لم يدرك جنسه بالذوق لا يعظم الشوق إليه.

والثانية: بقاء النسل، إلا أنه إذا لم تُردّ هذه الشهوة إلى حالة الاعتدال جَلَبَت آفاتٍ ومحنًا، ولولا هذه الشهوة ما كان «النساء حَبائِلُ»<sup>(١)</sup> الشَّيْطَانِ، وقد قال إبليس: سَهَمِي الَّذِي إِذَا رَمَيْتُ بِهِ لَمْ أُخْطِئِ: النِّسَاءُ.

وقد أخبرنا موهوب بن أحمد قال: أخبرنا أبو القاسم بن البُسرِي قال: حدثنا المخلص قال: حدثنا البَعُوي قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شَيْبَةَ قال: حدثنا أبو خالد الأحمر قال: حدثنا سليمان التَّمِيمِي عن أبي عُثْمَانَ عن أُسَامَةَ بن زَيْدٍ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «ما تركتُ في الناسِ بَعْدِي فِتْنَةً أَضْرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»<sup>(٢)</sup>.

وقال سعيد بن المُسَيَّب: ما يَنْسِ الشَّيْطَانُ من ابنِ آدَمَ قَطَّ إِلَّا أَنَاهُ مِنْ قِبَلِ النِّسَاءِ. ثم قال وهو ابنُ تسعٍ وثمانين سنةً، وقد ذهبت إحدى عَيْنَيْهِ وهو يَعْشُو<sup>(٣)</sup> بِالْأُخْرَى: وما شَيْءٌ عِنْدِي أَخْوَفُ مِنَ النِّسَاءِ<sup>(٤)</sup>.

وقال يوسفُ بنُ أسباط: لو ائتمنني رجلٌ على بيتٍ مالٍ لظننتُ أَنِّي أُؤَدِّي إِلَيْهِ الأمانةَ، ولو ائتمنني على زنجيةٍ أَنْ أُخْلُوَ مَعَهَا سَاعَةً وَاحِدَةً ما ائتمنتُ نَفْسِي عَلَيْهَا.

وقال الثَّورِي: ائْتَمَّتْ عَلَيَّ بَيْتٍ مَمْلُوءٍ مَالاً، وَلا تَأْتَمَّتْ عَلَيَّ جَارِيَةٌ سَوْدَاءُ لا تَحُلُّ لِي.

(١) الحبايل: جمع حباله، وهو ما يُصادُ به من أي شيء كان.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢١٨٢٩)، والنسائي في الكبرى (٩٢٧٠) والبخاري في مسنده (٢٥٩٦).

(٣) أي يُبصر بها بصراً ضعيفاً.

(٤) سير أعلام النبلاء ٢٣٧/٤.

واعلم أنه للخوف من مواجهة هذه الزَّلَّة حُرِّمَت الخَلْوَةُ بالأجنبيَّة؛ أخبرنا سعيد ابن أحمد<sup>(١)</sup> بن الحسن<sup>(٢)</sup> قال: أخبرنا علي بن أحمد بن البُسري قال: أخبرنا المخلَّص قال: حدثنا البَغوي قال: حدثنا الحسن بن عرفة قال: حدثنا جرير بن عبد الحميد عن عبد الملك بن عُمير عن جابر بن سَمرة قال: خطب عُمر بالجابية<sup>(٣)</sup> فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قام في مثل مقامي هذا فقال: «ألا لا يَخْلونَ رجلٌ بامرأةٍ، فإنَّ ثالثهما الشَّيطان».

وقد رُوينا أن إبليس لقي موسى عليه السلام فقال له: يا موسى، لا تخلُ بامرأةٍ لا تحلُّ لك، فإنَّه ما خلا رجلٌ بامرأةٍ لا تحلُّ له إلا كُنْتُ صاحبه دون أصحابي حتى أفتنه بها<sup>(٣)</sup>.

## فصل

واعلم أن هذه الشَّهوة لها إفراطٌ يقهر العقل حتى يصرف همَّة الرَّجل إلى التَّمع بالنِّساء، فيشغله عن ذكر الآخرة، وربَّما جرَّ إلى الفواحش وقد ينتهي بأربابها إلى أمرين شنيعين:

أحدهما: أن يتناولوا ما يُقوِّي شهواتهم للاستكثار من الوقاع، ومثَّلهم كمثل مَنْ بُلِيَ بسِّباعٍ ضاريةٍ فنامت عنه في بعض الأوقات، فاحتال لإثارتها وتَهيجها، ثم احتال لمُعالجتها، وهؤلاء يُحركون أنفسهم لإخراج الحرارة العَرِيزِيَّة، وقَلَّ أن يطولَ بقاءُهم.

والأمر الثاني: أنه قد تنتهي هذه الشَّهوة ببعض أربابها إلى العِشق، وهو مجاوزةٌ في البهيميةٍ لحدِّ البهائم؛ لأنَّ المتعشِّق لم يقنع بإراقة شهوة الوقاع، وهي أقبح الشَّهوات وأجدرها أن يُستحى منها حتى اعتقد أنَّ الشَّهوة لا تنقضي إلا من

(١-١) ليس في (ظ).

(٢) الجابية: قرية في الجنوب الغربي من مدينة دمشق.

(٣) أورده المصنف في كتاب (ذم الهوى): ١٦٣.

محلّ واحد، والبهيمة تقضي الشهوة أين اتفق وتكتفي به، وهذا لا يكتفي [إلا] (١) بمحلّ واحدٍ معينٍ حتى يزداد بمطلوبه ذلّاً إلى ذلٍّ وعبوديةً إلى عبوديةٍ، وحتى يَسْتَسْخِرَ العَقْلَ لخدمة الشهوة، وإنما خُلِقَ العَقْلُ ليكونَ مُطاعاً لا خادماً للشهوة مُحتالاً لها، وما العشق إلا مَرَضٌ قلبٍ فارغٍ لا همّة له، وإنما يجب الاحتراز من أوائله بترك معاودة النَّظَرِ والفِكرِ، وإلا فمتى استحكمت عَسْرَ قَلْبِهِ، وقد وضعت لهذا كتاباً كبيراً سمّيته بدمّ الهوى (٢)، وذكرت فيه علاج هذا المرض إذا وقع.

واعلم أن مثل من يكسرُ العِشْقَ في أول انبعاثه مثل من يصرف عنان الدابة عند توجُّهها إلى بابٍ لتدخُّله، وما أهون منعها بصرف عنانها، ومثال من يُعالجه بعد استحكامه مثل من يترك الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب ثم يأخذ بذيلها يجرُّها إلى وراء، وما أعظم التفاوت بين الأمرين.

فليكن الاحتياط في بدايات الأمور، فإنّ أواخرها يفتقر إلى علاج شديد، وقد لا ينجع، وقد يقع عند خلق من الناس عشقُ المال والجاه واللعب بالنرد والشطرنج والطيور، فتستولي هذه الأشياء على القلوب فلا يصبرون عنها، ويُنعَّصُ عليهم الدّين والدنيا، ومتى أفرطت شهوة الوقاع كسرتْ بالنكاح تارةً وبالجموع أخرى، وفي الصحيحين أنّ النبي ﷺ قال: «يا معشر الشباب، عليكم بالباءة، فمن لم يستطع فليصم، فإنّ الصوم له وجاء».

(١) ليست في النسخ، وأثبتت من الإحياء.

(٢) وقد طبع بدار الجليل في بيروت سنة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م بتحقيق عصام فارس الحرستاني ومحمد إبراهيم الزغلي.

## بيان

### ما على المرید في ترك التزويج وفعله

اعلم أن للسلوك حلاوة تشغل المبتدئ، قال ابن مسروق: كنت مع الجنيد فمرّ في بعض دُروب بغداد، وإذا مُعَنَّ يقول:

منازل كنت تهواها وتألّفها أيام كنت على الأيام منصوراً  
فبكى وقال: ذكرت بدايتي وحده سعيي.

واعلم أنه إذا كُشف الحجاب عن قلب المرید في بدايته لُهي عن شهوات الدنيا وصارت الخلوة حبيباً له، والصوم أليفاً، وجهاد النفس مُستلذاً، فمتى وجد هذا فليقبل على ما فُتح له منه، وليستغل به حتى يتمكن ممّا قد حصل له.

وكذلك طالب العلم ينبغي له أن يجمع همه في الطلب ويؤخر النكاح إلى أن يتمكن ممّا يريد، فإن الإمام أحمد لم يتزوج حتى بلغ الأربعين سنة، وإنما يفعل هذا ما لم يخف على نفسه من فتنة، وعلامة الفتنة ضعفه عن غضّ بصره<sup>(١)</sup>، أو وسواسٍ يطراً على قلبه، وتصويرٍ لتبيل هذه الشهوة.

وإذا كان الجوع والصوم لا يمنع إطلاق البصر ولا يدفع هذه الوسوسة، فليبادر بالنكاح، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «زنا العينين النظر»، وأول هذه الآفة النظر.

وليكن المتعبّد حذراً من مجالسة المردان والنظر إليهم، فإنّ المتعبّد قد أغلق باب النظر إلى النساء في الغالب ولاذّ به الصبيان للتعلم والطلب، فخطره في ذلك أعظم من خطر النساء.

(١) في الأصل: (البصر).

وقد قال بعض التابعين: ما أنا بأخوف على الشَّابِّ التَّائبِ من سَبِّ ضارٍ<sup>(١)</sup> من غلامٍ أمرَدٍ يجلسُ إليه، وقد ذكرنا في هذا باباً طويلاً في كتاب دَمِّ الهوى.

ومعلوم قوة الفِتنَةِ بهذا الفَنِّ فكم قد زَلَّ فيها من مُتَعَبِّدٍ.

ومن أراد النُّكاحَ لتسكينِ هذه الفُورة فليُنظِرْ إلى امرأةٍ تُعَفِّهُ، وليُنظر في مطلوب نفسه، فإنَّ الناسَ يتفاوتون، فمنهم من يَقنع بأيِّ امرأةٍ كانت، فإنَّ الإمامَ أحمدَ خطبَ امرأةً فسمعت بالخِطبة أُختها وهي عَوراءُ فكأنها انكسرت، فخطبَ العَوراءَ، وهذا أمرٌ لا يصبر عليه كلُّ أحدٍ، ومن النَّاسِ من لا يُعَفِّهُ إلا المُستَحْسَنَ، فيَتَعَيَّنُ عليه أن يطلب المُستَحْسَنَ، ولكن ينبغي أن يُراعي جانبَ الدِّينِ في المرأةِ أولاً، فإنَّ المُستَحْسَنَةَ إذا لم يكن لها دينٌ هَلَكَتْ وأهلكت، ولم يحصل المقصود منها.

والبِكْرُ أولى ما اختير؛ لأنها تَنشأ على أخلاقِ الزَّوجِ وتألّفه، فليجتهد في تحصيل بَكْرٍ مُستَحْسَنَةٍ قد رُبِّيت في بيتِ أهلِ دينٍ فُقراءَ، فهذه الغاية، وقد تقدم ما يتعلّق بالنُّكاحِ في كتابه.

أخبرنا محمد بن ناصر قال: أخبرنا حمّد بن أحمد قال: أخبرنا أبو نعيم أحمد ابن عبد الله قال: حدثنا عُمر بن أحمد بن عثمان قال: حدثنا عبدُ الله بن سُلَيْمان بن الأشعث قال: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب قال: حدثني عمِّي عبد الله بن وهب، [عن عَطَّافِ بْنِ خَالِدٍ]<sup>(٢)</sup> عن ابنِ حَرْمَلَةَ عن ابنِ أَبِي وَدَاعَةَ قال: كنتُ أَجالسُ سَعِيدَ بنِ المَسِيَّبِ فَفَقَدَنِي أَياماً، فلَمَّا جِئْتُهُ قال: أين كنت؟ قلت: توفيت أهلي فاشتغلتُ بها. فقال: ألا أخبرتنا فشهدناها، قال: ثم أردتُ أن أقومَ، فقال: هل استحدثتُ امرأةً؟ فقلتُ: يرحمك الله! ومَنْ يُزَوِّجني وما أملك إلا دِرْهَمينِ أو ثلاثة؟ فقال: أنا. فقلت: أو تفعل؟ قال: نعم، ثم حمد الله وصلى على النبي ﷺ وزوَّجني على دِرْهَمينِ - أو قال: ثلاثة - فقمْتُ وما أدري ما أصنع من الفرح، فصرتُ إلى منزلي وجعلتُ أتفكّر ممّن آخذُ وممّن أستدينُ، فصلَّيتُ المغربَ

(١) السبع الضاري: المولع بأكل اللحم.

(٢) ما بين معقوفين سقط من النسخ، واستدرك من المصادر.

وانصرفت إلى منزلي وكنت وحدي صائماً، فقدمتُ عشائي لأفطرَ وكان خُبزاً وزيتاً، فإذا بالباب يُقرع، فقلتُ: من هذا؟ فقال: سعيد. قال: ففكرتُ في كلِّ إنسانٍ اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيَّب فإنه لم يرَ أربعين سنةً إلا بينَ بيته والمسجد، فقمْتُ فخرجتُ فإذا سعيد بن المسيَّب، فظننتُ أنه قد بدا له فقلت: يا أبا محمد، ألا أرسلتَ إليَّ فأتيتك<sup>(١)</sup>؟ قال: لا، أنتَ أحقُّ أن يُؤتى. قلت: فما تأمرُ؟ فقال: إنك كنتَ رجلاً عزباً فتزوَّجتَ، فكرهتُ أن أُبيِّتكَ اللَّيلةَ وحدي، وهذه امرأتك. فإذا هي قائمةٌ من خَلْفِهِ في طولهِ، ثم أخذ بيدها فدفعها في الباب وردَّ البابَ، فسقطت المرأةُ من الحياء، فاستوثقتُ من الباب ثم تقدمتُها إلى القَصْعة التي فيها الرِّيت والخُبز، فوضعتُها في ظلِّ السُّراج لكي لا تراه، ثم صعدتُ إلى السُّطح فرميتُ الجيران فجاؤوني فقالوا: ما شأنك؟ قلت: ويحكُم رُوَّجني سعيد بن المسيَّب بنته اليوم وقد جاء بها على غفلةٍ. فقالوا: سعيد بن المسيَّب زوَّجك؟! قلتُ: نعم، وهو ذا هي في الدَّار. فنزلوا إليها وبلغ أُمِّي فجاءت وقالت: وجهي من وجهك حرامٌ إن مَسِسْتَهَا قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام. قال: فأقمتُ ثلاثاً ثم دخلتُ بها، فإذا هي من أجمل النَّاس، وإذا هي أحفظُ النَّاس لكتابِ الله عز وجل وأعلمُهم بسنةِ رسولِ الله ﷺ وأعرفهم بحقِّ زوج. قال: فمكثتُ شهراً لا يأتيني سعيد ولا آتية، فلما كان قُرب الشهر أتيْتُ سعيداً وهو في حلقتِهِ، فسَلَّمْتُ عليه فردَّ عليَّ السَّلَامَ ولم يُكلمني حتى تقوَّض<sup>(٢)</sup> أهلُ المجلس، فلما لم يبقَ غيري قال: ما حالُ ذلك الإنسان؟ قلت: خيراً يا أبا محمد، على ما يُحبُّ الصِّديق ويكره العَدُو. قال: إن رابكُ شيءٌ فالعصا. وانصرفتُ إلى منزلي فوجَّه إليَّ بعشرين ألف درهم<sup>(٣)</sup>.

قال عبدُ الله بن سُلَيْمان<sup>(٤)</sup>: وكانت بنتُ سعيد بن المسيَّب قد خطبها عبدُ الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاء العَهْد فأبى سعيد أن يزوجه، فلم يزَل عبدُ

(١) في الأصل: (فأتيتك).

(٢) تقوَّض: تفرَّق.

(٣) القصة في حلية الأولياء ١٦٧/٢ - ١٦٩، والمنتظم للمصنف ٣٢٤/٦ - ٣٢٥، ووفيات الأعيان ٣٧٦/٢ - ٣٧٧، وسير أعلام النبلاء ٢٣٣/٤ - ٢٣٤.

(٤) هو عبد الله بن سليمان بن الأشعث راوي القصة.

الملك يَحْتال على سَعِيد حتى ضَرَبه مِئَة سَوِطٍ في يومٍ بارِدٍ، وَصَبَّ عليه جَرَّةً ماءً،  
وَأَلْبَسَهُ جُبَّةً صُوفٍ.

قال عبد الله: وابنُ أبي وداعة هذا هو كثير بن المطلب بن أبي وداعة<sup>(١)</sup>.

(١) هو كثير بن المطلب بن أبي وداعة، أبو سعيد السهمي القرشي المكي، تنظر ترجمته في التاريخ الكبير للبخاري ٢٠٨/٧، والثقات لابن حبان ٣٣١/٥، وتهذيب الكمال ٢٤/

## بيان

فضيلة من يُخالف<sup>(١)</sup> شهوة الفرج والعين

شهوة الفرج أغلب الشهوات وأعصاها على العقل إذا هاجت، فمن امتنع عن موافقتها في الحرام للحياء من الخلق أو لخوفهم أو لحفظ منصبه، فلا ثواب له في امتناعه؛ لأنه أثر خطأ من حُطِّب النفس على حظ آخر، إلا أن من العِصمة أن لا يقدر، وقد أفادته هذه العوائق دفع الإثم، وإنما الفضل والأجر في ترك الحرام مع القدرة خوفاً من الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]، قال مجاهد: هو الذي إذا همَّ بمعصية ذكر مقامَ ربِّه عليه فيها فانتهى<sup>(٢)</sup>.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «سبعة يُظلمهم الله عز وجل في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه..» فعَدَّ منهم رجلاً دعت امرأة ذات منصبٍ وجمالٍ إلى نفسها فقال: إني أخاف الله عز وجل.

وفي الصحيحين من حديث ابن عُمر عن النبي ﷺ: «أن ثلاثة نفرٍ دخلوا غاراً فانحطت على فم غارهم صخرةٌ من الجبل فأطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها لله سالحة فادعوه بها لعله يُفرج عنكم. فقال أحدهم: اللهم إنه كانت لي ابنة عمٍّ أحبها كأشد ما يحبُّ الرجالُ النساء، فطلبتُ إليها نفسها فأبَت حتى آتيتها بمئة دينار، فسعيْتُ حتى جمعتُ مئة دينارٍ فلما قعدتُ بينَ رجلِها قالت: يا عبدَ الله، اتقِ الله ولا تفضَّ<sup>(٣)</sup> الخاتم إلا بحقه. فقُمتُ عنها، اللهم إن كنت تعلمُ أنني فعلتُ ذلك ابتغاءً وجهك فأفرجْ لنا منها، ففرج لهم منها فرجة» وذكر قصة الآخرين.

(١) في الأصل: (يخاف).

(٢) تفسير الطبري ٢٢/٢٣٦، وأورده المصنف في كتاب ذم الهوى: ٢٥٦.

(٣) في (ظ): (تفتح).

وقد رُوينا عن سليمان بن يسار<sup>(١)</sup> أنَّ امرأةً دخلت إليه فسألته نَفْسَه، فامتنع عليها، فقالت له: أذن، فخرج هارباً من منزله، وتركها فيه، فرأى في منامه يوسف النبي<sup>(٢)</sup> على نبينا<sup>(٢)</sup> و<sup>(٢)</sup> عليه السَّلام، فقال: أنت يوسف؟ قال: نعم أنا يوسف الذي هَمَمْتُ، وأنت سليمان الذي لم تهَم<sup>(٣)</sup>.

ورُوينا عن أحمد بن سعيد العابد عن أبيه قال: كان عندنا بالكوفة شابٌ متعبّد ملازم للمسجد الجامع لا يكاد يخرج منه، وكان حَسَنَ الوجه، فنظرتُ إليه امرأةٌ ذاتُ جمالٍ وعقلٍ فَشَغِفْتُ به، وطال ذلك عليها<sup>(٤)</sup> فوقفت له يوماً على طريقه، فقالت له: يا فتى اسمع مِنِّي كلمات. فمضى ولم يُكَلِّمها، ثم وقفت له بعد ذلك على طريقه، فقالت: اسمع مِنِّي كلمات. فأطرق وقال: هذا موقف تُهمة وأنا والله<sup>(٥)</sup> أكره أن أكون للتُّهمة موضعاً. فقالت له: والله ما وقفتُ موقفي هذا جهالةً مِنِّي بأمرِك، وأنتم معاشر العُباد في مثال القوارير إلّا أن جملة ما أكلمك به أن جوارحي كلُّها مشغولة بك، فالله الله في أمري وأمرِك. فمضى الشاب إلى منزله وأراد أن يُصَلِّي فلم يعقل كيف يصلي فأخذ قِرطاساً وكتب كتاباً وخرج، فإذا المرأة واقفة، فألقى إليها الكتاب ورجع، وكان في الكتاب: اعلمي أيتها المرأة أن الله تعالى إذا عَصِيَ حَلَمَ، وإذا عاود العبدُ المَعْصية سَتَرَ، فإذا لبس العبدُ للمَعْصية ملابسها غَضِبَ اللهُ تعالى لنفسه غَضِبَةً تَضِيقُ منها السَّمَاوات والأرض، فمن ذا<sup>(٦)</sup>

(١) هو سليمان بن يسار أبو أيوب المدني مولى أم المؤمنين ميمونة، تنظر ترجمته في طبقات ابن سعد ١٧٤/٥، وسير أعلام النبلاء ٤٤٤/٤.

(٢-٢) ليس في الأصل.

(٣) حلية الأولياء ١٩٠/٢ - ١٩١، وشعب الإيمان (٧١١١) و(٧٢٨٠)، وذكرها المصنف في صفة الصفوة ٨٢/٢، وفي كتاب ذم الهوى: ٢٧١، وأوردها الذهبي في السير ٤٤٦/٤، وقال: إسناده منقطع.

ومثل هذه الرؤى والأحلام لا تعني تفضيل أحدٍ من العباد والزهاد على أي نبي من الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، ويوسف عليه السلام لم يقع منه همُّ البتة بل هو منفي لوجود البرهان، قال تعالى: ﴿وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ينظر البحر المحيط لأبي حيان ٢٩٥/٥.

(٤) في (ظ): «عليه».

(٥) ليست في (ظ).

(٦) في الأصل: (الذي).

يُطِيقُ غَضَبَهُ؟ فَإِنْ كَانَ مَا ذَكَرْتِ بَاطِلاً فَإِنِّي أَذْكَرُكَ يَوْمًا تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهَلِّ، وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ، وَتَجْشُو الْأُمَمُ لَصَوْلَةِ الْجَبَّارِ الْعَظِيمِ، وَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ ضَعُفْتُ عَنْ إِصْلَاحِ نَفْسِي فَكَيْفَ بِإِصْلَاحِ غَيْرِي؟ وَإِنْ كَانَ مَا ذَكَرْتِ حَقًّا فَإِنِّي أَدُلُّكَ عَلَى طَبِيبٍ يُدَاوِي<sup>(١)</sup> الْكُلُومَ الْمُرْمِضَةَ وَالْأَوْجَاعَ الْمُرْمِضَةَ<sup>(٢)</sup>، ذَاكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، فَاقْصِدِيهِ عَلَى صَدَقِ الْمَسْأَلَةِ، فَإِنِّي مُتَشَاغِلٌ عَنْكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾<sup>(٣)</sup> يَعْلَمُ حَاطَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ<sup>(٤)</sup> [غافر: ١٨ - ١٩]، فَأَيْنَ الْمَهْرَبُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ؟ ثُمَّ جَاءَتْ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَيَّامٍ، فَوَقَفْتُ لَهُ عَلَى طَرِيقِهِ فَلَمَّا رَأَاهَا مِنْ بَعِيدٍ أَرَادَ أَنْ يَرْجِعَ<sup>(٥)</sup> إِلَى مَنْزَلِهِ، فَقَالَتْ: يَا فَتَى لَا تَرْجِعْ، فَلَا كَانَ الْمُلتَقَى بَعْدَهَا أَبَدًا إِلَّا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى. وَبَكَتُ بُكَاءً كَثِيرًا، وَقَالَتْ: اأْمُنْ عَلَيَّ بِمَوْعِظَةٍ أَحْمَلُهَا وَأَوْصِنِي بِوَصِيَّةٍ أَعْمَلُ بِهَا. فَقَالَ: أَوْصِيكَ بِحِفْظِ نَفْسِكَ مِنْ نَفْسِكَ وَأَذْكَرُكَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، فَأَطْرَقَتْ وَبَكَتُ بَكَاءً شَدِيدًا أَشَدَّ مِنْ بُكَائِهَا الْأَوَّلِ، ثُمَّ أَفَاقَتْ فَلَزِمَتْ بَيْتَهَا وَأَخَذَتْ فِي الْعِبَادَةِ، فَلَمْ تَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى مَاتَتْ كَمَدًّا، وَكَانَ الْفَتَى يَذْكُرُهَا بَعْدَ مَوْتِهَا وَيَبْكِي وَيَقُولُ: إِنِّي ذَبَحْتُ طَمَعَهَا مِنِّي فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا، وَجَعَلْتُ قَطْعَهَا ذَخِيرَةً لِي عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(٤)</sup>.

وقد<sup>(٥)</sup> ذكرتُ من هذا الفنِّ الكثيرَ في كتاب ذم الهوى فليطالع من هناك.

### آخر كتاب كسر الشهوتين



- (١) تحرفت في النسخ إلى: (هذا وولي)، وفي ذم الهوى: (هو أولى) والمثبت من الإحياء.
- (٢) المُرْمِضَةُ: المُحْرِقَةُ.
- (٣) في (ظ): (الرجوع).
- (٤) أوردها المصنف في كتاب ذم الهوى: ٥١١ - ٥١٣.
- (٥) قبلها في (ظ): (قال المصنف).



## كتاب آفات اللسان

وهو الكتاب الرابع من رُبْع المهلكات

الحمد لله الذي خلق الإنسان وجَمَلَهُ، ووهبَ له الإيمانَ وكمَلَهُ، وأنزلَ إليه القرآنَ وراسَلَهُ، وعَلَّمَهُ البَيَانَ ففَضَّلَهُ، وأطلقَ له بما يُريدُ<sup>(١)</sup> مِقْوَلَهُ، فنطقَ بشكرِ ما أعطاهُ وخوَلَهُ، وكشفَ سترَ الضَّميرِ الذي أسبَلَهُ وأبرزَ كلَّ علمٍ حواهُ وحصَّلَهُ، وكما رَبَّ<sup>(٢)</sup> اللِّسانَ أمرَهُ فربَّما قَتَلَهُ.

أحمدُهُ ما كَبَّرَهُ عبْدٌ أو هَلَّلَهُ، وأشهدُ أَنَّهُ الواحدُ لا شريكَ له، وأصَلِّيَ على رَسولِهِ مُحَمَّدٍ الذي أرسلَهُ، ونَبَّيَهُ الذي فَخَّمَهُ وَبَجَّلَهُ، وعلى مَنْ صحبَهُ وتبعَهُ وقَبِلَهُ، وسَلَّمَ تسليماً كثيراً.

أما بعد؛ فَإِنَّ اللِّسانَ من نعمِ الله العظيمةِ، ولطائفِ صُنْعِهِ<sup>(٣)</sup> العَرَبِيَّةِ، فَإِنَّه صَغِيرٌ جَرْمُهُ عَظِيمٌ طاعَتُهُ وَجُرْمُهُ، إِذْ لا يَتَبَيَّنُ الكُفْرُ وَالإيمانُ - وهما غايةِ الطاعةِ وَالِعِصيانِ - إِلا بِشهادةِ اللِّسانِ، فاللِّسانُ مُتَعَرِّضٌ بِالْمَوْجودِ وَالْمَعْدومِ وَالخالقِ وَالْمخلوقِ وَالْمظنونِ وَالْموهومِ بِالإثباتِ وَالنَّفْيِ وهذه خاصيةٌ لا توجدُ في سائرِ الأَعْضاءِ، فَإِنَّ العَيْنَ لا تصلُ إِلى غيرِ الألوانِ وَالصُّورِ، وَالأُذُنَ لا تصلُ إِلى غيرِ الأصواتِ، وَاليدَ لا تصلُ إِلى غيرِ الإِجسامِ، وَاللِّسانَ ليسَ لِمجالِهِ مُنتَهَى، وَأَعْصى

(١) في (ظ): (ما يزيد).

(٢) رَبَّ: أصلح.

(٣) في الأصل: (صنعتة).

الأشياء على الإنسان اللسان، فَمَنْ أَرخَىٰ عنانه ساقَه إلى البوار، «وهل يكبُّ النَّاسَ على مناخرهم في النار إلا حصائدُ ألسنتهم».

وقد تساهل أكثر النَّاس في الاحتراز عن آفاته وغفلوا عن غوائله، ونحنُ بتوفيق الله تعالى نُفَصِّل مَجَامِعَ آفَاتِ اللِّسَانِ، ونذكر واحدةً واحدةً منها بحدودها وأسبابها وغوائلها، وتعريف طريق الاحتراز منها، وإيراد ما وردَ في دَمِّهَا؛ فنذكر أولاً فَضْلَ الصَّوْتِ، ونُردُّفه بذكر آفةِ الكلام فيما لا يَعْنِي، ثم آفةِ فضول الكلام، ثم آفةِ الخَوْضِ فِي الباطل، ثم آفةِ المِرَاءِ والمُجَادَلَةِ، ثم آفةِ الخُصُومَةِ، ثم آفةِ التَّقَعُّرِ فِي الكَلَامِ وتكَلُّفِ التَّصْنُوعِ فِي الفَصَاحَةِ، ثم آفةِ الفُحْشِ والسَّبِّ والبَدَاءِ، ثم آفةِ اللُّغْنِ، ثم آفةِ الغِنَاءِ والشَّعْرِ، ثم آفةِ المُزَاحِ، ثم آفةِ السَّخْرِيةِ والاستِهْزَاءِ، ثم آفةِ إِفْشَاءِ السَّرِّ، ثم آفةِ الوَعْدِ الكاذبِ، ثم آفةِ الكَذِبِ فِي القَوْلِ واليَمِينِ، ثم آفةِ الغِيْبَةِ، ثم آفةِ النَّمِيمَةِ، ثم آفةِ ذِي اللِّسَانِينَ، ثم آفةِ المَدْحِ، ثم آفةِ العَفْلَةِ عن دَقَائِقِ الحِطِّاءِ فِي فَحْوَى الكَلَامِ لا سِيَّما فِيما يَتعلَّقُ باللهِ وصفاته وَيرتبِطُ بأمرِ الدِّينِ، ثم آفةِ سُؤَالِ العَوَامِ عن صفاتِ اللهِ سُبْحانَهُ، وعن كلامِهِ، وَجُمْلَةَ هذِهِ الآفَاتِ عَشْرُونَ آفةً.

## بيان

## عِظَمُ خَطَرِ اللِّسَانِ وَفَضِيلَةِ الصَّمْتِ

اعلم أن خطر اللسان عظيم لكثرة آفات الكلام، ولهذه الآفات في القلب حلاوة، ولها من الطبع بواعث، ولا نجاة من هذا الخطر إلا بالصمت، فلذلك مدح الشرع الصمت، ففي الصمت نجاة من الآفات مع أنه يجمع الهم ويفرغ الفكر.

أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عفان قال: حدثنا عمر بن علي قال: سمعت أبا حازم عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال: «مَنْ تَوَكَّلَ لِي مَا بَيْنَ لِحْيَيْهِ<sup>(١)</sup> وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، تَوَكَّلْتُ لَهُ بِالْجَنَّةِ»<sup>(٢)</sup>.

قال الإمام أحمد: وأخبرنا ابن نمير ويعلى قال: حدثنا حجاج - يعني ابن دينار - عن شعيب بن خالد عن حسين بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ قَلَّةَ الْكَلَامِ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ»<sup>(٣)</sup>.

قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب قال: أخبرني علي بن مسعدة قال: حدثنا قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانَهُ، وَلَا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بِوَأْتِقِهِ»<sup>(٤)</sup>.

- (١) اللّحْيُ: عِظْمُ الحنك، والمعنى: من ضمن لي حفظ فمه وفرجه ..
- (٢) أخرجه أحمد (٢٢٨٢٣)، والبخاري (٦٤٧٤) و (٦٨٠٧) والترمذي (٢٤٠٨)، والبيهقي في الشعب (٥٤٠٧)، وأبو يعلى في مسنده (٧٥٥٥)، وابن حبان (٥٧٠١).
- (٣) أخرجه أحمد (١٧٣٢) وإسناده ضعيف لانقطاعه فشعيب بن خالد لم يدرك الحسين بن علي.
- (٤) أخرجه أحمد (١٣٠٤٨)، وإسناده ضعيف لضعف علي بن مسعدة الباهلي، وأخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (٩)، وفي مكارم الأخلاق (٣٤٢) والقضاعى في مسند الشهاب (٨٨٧) من طريق زيد بن الحباب به.

قال الإمام أحمد: حدثنا قُتَيْبَةُ قال: حدثنا بكر بن مُضَرَّ عن يزيد بن الهَاد عن مُحَمَّد بن إبراهيم عن عيسى بن طلحة عن أبي هريرة أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يَزُلُّ<sup>(١)</sup> بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»<sup>(٢)</sup>.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة اللَيْثِي عن أبيه عن جَدِّهِ عَلْقَمَةَ عن بلال بن الحارث قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا لَهُ رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ فَيَكْتُبُ اللَّهُ بِهَا عَلَيْهِ سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>(٣)</sup>. فَكَانَ عَلْقَمَةُ يَقُولُ: كَمْ مِنْ كَلَامٍ قَدْ مَنَعْنِيهِ حَدِيثُ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ.

قال<sup>(٤)</sup> الإمام أحمد<sup>(٤)</sup>: حدثنا عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن معاذ بن جبل قال: كنت مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ. قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ» ثم قال: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ» ثم قرأ: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦ - ١٧]، ثم قال: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟» فقلت: بلى يا رسول الله. قال: «رَأْسُ الْأَمْرِ

(١) تصحفت في الأصل إلى: (نزل).

(٢) أخرجه أحمد (٨٩٢٣)، والبخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨) (٤٩) و(٥٠).

(٣) أخرجه أحمد (١٥٨٢٥)، والحميدي (٩١١)، وهناد في الزهد (١١٤١)، والترمذي

(٢٣١٩)، وابن ماجه (٣٩٦٩) وابن حبان (٢٨٠) و(٢٨١) و(٢٨٧)، والطبراني في الكبير

(١١٢٩) - (١١٣٢)، والحاكم ٤٥/١ والبيهقي في السنن ١٦٥/٨، وفي الشعب

(٤٩٥٧)، والبغوي في شرح السنة (٤١٢٤).

(٤٤) ليس في (ظ).

الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد» ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» فقلت: بلى يا نبي الله. فأخذ بلسانه، فقال: «كُفَّ عليك هذا» فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «تَكَلَّمْتُكَ أُمَّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!»<sup>(١)</sup>.

قال الإمام أحمد: حدثنا<sup>(٢)</sup> علي بن<sup>(٣)</sup> إسحاق قال: أخبرنا عبد الله<sup>(٤)</sup>، قال: أخبرنا معمر عن الزُّهري عن عبد الرحمن بن ماعز عن سفيان بن<sup>(٥)</sup> عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، حدثني بأمرٍ أعتصم به. قال: «قُلْ: رَبِّيَ اللهُ، ثُمَّ اسْتَقِمْ». قال: قلت: يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف عليّ؟ قال: فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: «هذا»<sup>(٥)</sup>.

وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَكْثَرَ خَطَايَا ابْنِ آدَمَ فِي لِسَانِهِ».

وروى ابن عمر عن النبي ﷺ، أنه قال: «مَنْ كَفَّ لِسَانَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ».

وقال قيس<sup>(٦)</sup>: رأيتُ أبا بكرٍ الصِّديقَ أَخَذَ بِطَرْفِ لِسَانِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: هَذَا أَوْرَدَنِي الْمَوَارِدَ.

وقد سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا أَكْثَرَ مَا يُدْخِلُ النَّارَ؟ قَالَ: «الْأَجْوْفَانُ؛ الْفَمُ وَالْفَرْجُ».

وقال ابن مسعود: وَاللَّهِ مَا شَيْءٌ أَحْوَجُ إِلَى طَوْلِ سِجْنٍ مِنْ لِسَانٍ.

(١) أخرجه أحمد (٢٢٠١٦)، وعبد الرزاق (٢٠٣٠٣)، والطبراني في الكبير (٢٠/٢٦٦) والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، والنسائي في الكبرى (١١٣٩٤).  
(٢-٢) سقط من (ظ).

(٣) يعني عبد الله بن المبارك.

(٤) تحرفت في الأصل إلى: (عن).

(٥) أخرجه أحمد (١٥٤١٩)، والترمذي (٢٤١٠) وابن أبي الدنيا في الصمت (٧)، وابن حبان (٥٦٩٩)، والبيهقي في الشعب (٤٩٢٠).

(٦) هو قيس بن أبي حازم البجلي، أبو عبد الله الكوفي، تقريب التهذيب: ٣٩٢.

وقال شدّاد بن أوس لُغلامه: ائْتِنَا بِالسُّفْرَةِ نَعْبَثُ بِهَا. فَأُنْكِرْتِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا تَكَلَّمْتُ مِنْذُ أَسَلَمْتُ بِكَلِمَةٍ إِلَّا وَأَنَا أَعْطِمُهَا وَأَزْمُهَا<sup>(١)</sup> إِلَّا كَلِمَتِي هَذِهِ.

وقال أبو الدرداء: أَنْصِفْ أَدْنِيكَ مِنْ فَيْكِ، فَإِنَّمَا جُعِلْتَ لَكَ أُذُنَانِ وَفَمٌّ وَاحِدٌ لَتَسْمَعُ أَكْثَرَ<sup>(٢)</sup> مِمَّا تَتَكَلَّمُ بِهِ.

وقال فضيل الرقاشي: لَا تَقْطَعْ النَّهَارَ بِكَيْتٍ وَكَيْتٍ، فَإِنَّهُ مَحْفُوظٌ عَلَيْكَ مَا قُلْتَ.

وكان الربييع بن حَيْثَمَ شَدِيدَ الْإِحْتِرَازِ فِي الْكَلَامِ، فَقَالَتْ لَهُ بِنِيَّةً لَهُ: يَا أَبَةَ، أَذْهَبُ أَلْعَبُ؟ قَالَ: أَذْهَبِي فَقُولِي خَيْرًا. فَقِيلَ لَهُ: وَمَا عَلَيْكَ أَنْ تَقُولَ لَهَا. فَقَالَ: وَمَا عَلَيَّ أَنْ لَا يُكْتَبَ هَذَا فِي صَحِيفَتِي.

وَصَحِبَهُ رَجُلٌ عَشْرِينَ سَنَةً قَالَ: فَمَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً تُعَابُ.

وقال مجاهد: كَانُوا يَكْتَفُونَ مِنَ الْكَلَامِ بِالْيَسِيرِ.

وقال يونس بن عُبيد: مَا مِنْ النَّاسِ أَحَدٌ يَكُونُ لِسَانَهُ مِنْهُ عَلَى بَالٍ إِلَّا رَأَيْتَ ذَلِكَ صَاحِحًا فِي سَائِرِ عَمَلِهِ.

وقال بشر بن منصور: كُنَّا عِنْدَ أَبِي بَلْعَنَةَ<sup>(٣)</sup> وَتَكَلَّمْنَا فَقَالَ: كُفُّوا، فَلَوْ أَرَدْتُ أَنْ أُخْبِرْكُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ تَكَلَّمْتُ بِهِ الْيَوْمَ لَفَعَلْتُ.

وقال خارجة بن مُصعب: صَحِبْتُ ابْنَ عَوْنٍ أَرْبَعًا وَعَشْرِينَ سَنَةً، فَمَا أَعْلَمُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ كَتَبَتْ عَلَيْهِ خَطِيئَةً.

وكان وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ يَعِدُّ كَلَامَهُ كُلَّ يَوْمٍ وَيَحْفَظُهُ.

وقال الفضيل بن عياض: كَانَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا يَعِدُّ كَلَامَهُ مِنَ الْجُمُعَةِ إِلَى الْجُمُعَةِ.

(١) أي يضع لها الخطام والزمام يشدها به.

(٢) تحرفت في (ظ) إلى: (الخير).

(٣) تصحفت في الأصل إلى: (فلطننا).

وقال عمر بن عبدالعزيز: مَنْ لَمْ يَعِدْ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ.

وقال مخلد بن الحسين: مَا تَكَلَّمْتُ بِكَلِمَةٍ أُرِيدُ أَنْ أَعْتَذِرَ مِنْهَا خَمْسِينَ سَنَةً.

وقال شميظ بن عجلان: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دُمْتَ سَاكِتًا فَأَنْتَ سَالِمٌ، فَإِذَا تَكَلَّمْتَ فَخُذْ حَذْرَكَ.

وقال حاتم الأصم: لَوْ أَنَّ صَاحِبَ حَبْرٍ جَلَسَ إِلَيْكَ يَكْتُبُ كَلَامَكَ لِاحْتِرَازَتِ  
مَنْهُ، وَكَلَامُكَ يُعْرَضُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَا تَحْتَرِزْ!

وقال معروف الكرخي: كَلَامُ الْعَبْدِ فِيمَا <sup>(١)</sup> لَا يَعْنِيهِ خِذْلَانٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

وقال بعض الحكماء: اللِّسَانُ حَيَّةٌ مَسْكُنُهَا الْفَمُ.

(١) تحرفت في الأصل إلى: (مما).

## ذِكْرُ آفَاتِ الْكَلَامِ

### الآفة الأولى: الكلام فيما لا يعني

اعلم أنه من علم قَدْرَ زَمَنِهِ وأنه رأسُ ماله لم يُنْفَقْهُ إِلَّا فِي فَائِدَةٍ، وهذا العلم يوجب حَبْسَ اللِّسَانِ عَمَّا لَا يَعْنِي؛ لِأَنَّهُ مَنْ تَرَكَ ذَكَرَ اللَّهِ تَعَالَى وَاشْتَغَلَ بِمَبَاحٍ لَا يَعْنِيهِ كَانَ كَمَنْ قَدَرَ عَلَى اخْتِذِ (١) جَوْهَرَةٍ فَأَخَذَ عَوِضَهَا مَدْرَةً (٢)، وهذا خُسْرَانٌ لِلْعُمَرِ الشَّرِيفِ الْقَدْرِ.

أخبرنا ابن الحُصَيْنِ قَالَ: أَخْبَرْنَا ابْنَ الْمُذْهِبِ قَالَ: أَخْبَرْنَا الْقَطِيعِي قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ دَاوُدَ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ (٣) عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَسَنَ إِسْلَامَ الْمَرْءِ، تَرَكَهُ مَا لَا يَعْنِيهِ» (٤).

وقال أنس: اسْتَشْهَدَ مِنَّا غُلَامٌ يَوْمَ أَحَدٍ، فَوُجِدَ عَلَى بَطْنِهِ صَخْرَةٌ مَرْبُوطَةٌ مِنَ الْجُوعِ، فَمَسَحَتْ أُمُّهُ التُّرَابَ عَنْ وَجْهِهِ، وَقَالَتْ: هَنِيئًا لَكَ يَا بَنِيَّ بِالْجَنَّةِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَمَا يُدْرِيكَ؟ لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، وَيَمْنَعُ مَا لَا يَضُرُّهُ».

قال عُمرُ بنُ الْخَطَّابِ: لَا تَتَعَرَّضْ (٥) لِمَا لَا يَعْنِيكَ.

وقيل للقمان الحكيم: ما بلغ من حكمتك؟ فقال: لا أسأل عما كُفيتُ، ولا أتكلف ما لا يعينني.

- (١) ليست في (ظ).
- (٢) المدرة: قطعة من الطين.
- (٣) هو عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب. تقريب التهذيب: ٢٥٦.
- (٤) أخرجه أحمد (١٧٣٧)، والطبراني في الكبير (٢٨٨٦)، وفي الصغير (١٠٨٠).
- (٥) في الأصل: (لا تعرضن فيما)، وفي (ظ): (لا تعترض ما)، والمثبت من الإحياء.

وقال معاوية لرجل: <sup>(١)</sup> «ما بلغ من حلمك؟» قال: لا يعنيني ما لا يعنيني.

وقال موروّ العجلي: أمرُّ أنا في طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه، ولست بتارك طلبه أبداً. قالوا: وما هو؟ قال: الصَّمْتُ عمّا لا يعنيني.

واعلم أنك إذا سألتَ غيرك عمّا لا يعينك ضيّعت وقتك، وألجأت المسؤول إلى أن يضيّع زمانه بالجواب، وربما لقيت شخصاً فقلت: من أين؟ فكّره أن يُخبرك، فإن صدق لحقه ضررٌ، وإن كذب لحقه إثمٌ.

وقد روي أن لقمان دخل على داود عليه السلام وهو يسردُ الدرْع<sup>(٢)</sup>، فجعل يتعجّب ممّا رأى، وأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته حكمته، فأمسك نفسه ولم يسأله، فلما فرغ قام داود فلبس الدرْع، ثم قال: نِعَم الدرْع للحرب.

فقال لقمان: الصَّمْتُ حُكْمٌ وقليلٌ فاعله<sup>(٣)</sup>. أي حصل العلم بالمُراد من غير سؤال.

### الآفة الثانية: فضول الكلام

وهذا يتناول الخوض في ما لا يعني، والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة، ومتى حصل المقصود بكلمتين فذكر الثالثة فضول، إلا أن يُراد بها التوكيد، فيكون مقصوداً صحيحاً.

قال ابن مسعود: أنذرتكم فضول القول، بحسب أحدكم ما أبلغ<sup>(٤)</sup> حاجته.

وقال عطاء بن أبي رباح: كان من قبلكم يكرهون فضول الكلام، أما يستحيي أحدكم أن لو نُشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه.

(١-١) في (ظ): (ما بقي حلمك).

(٢) سرَدَ الدرْع: نسجها، فشكَّ طرفي كل حلقتين وسمرهما.

(٣) شعب الإيمان (٥٠٢٦).

(٤) في الأصل: (ما بلغ).

وقال إبراهيم النَّخعي: يهلك الناس في خَلَّتَيْن: فضول الكلام، وفضول المال. وعلاجُ هذه الآفة من جنسِ علاجِ التي قبلها، وذلك بالنَّظرِ إلى قَدْرِ شرفِ العُمر، فليحذر من التَّفريطِ فيه.

### الآفة الثالثة: الخوض في الباطل

وهو الكلام في المعاصي، كذكر مجالس الخمر، ومقاماتِ الفساق، وأنواعِ الباطل لا تُحصَى لكثرتها، وقد ذكرنا في حديث بلال بن الحارث عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ الرَّجَلَ لِيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللَّهُ بِهَا عَلَيْهِ سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>(١)</sup>.

وفي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الْعَبْدَ لِيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يَزُلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبَدًا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»<sup>(٢)</sup>.

وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ خَطَايَا يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ خَوْضًا فِي الْبَاطِلِ».

ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة اللسان، فقال: لو كانت هذه خرساء لكان خيراً لها.

### الآفة الرابعة: المراء والمجادلة

فقد روي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تُمارِ أخاك».

وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحَقِّقٌ بُنِي لَهُ<sup>(٣)</sup> بَيْتٌ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ».

(١) تقدم في الصفحة ٦٤٨.

(٢) تقدم في الصفحة ٦٤٨.

(٣) في (ظ): (بنى الله له).

وقال مُسلم بن يسار: إياكم والمِراء فإتّها ساعةُ جهل العالم، وبها يبتغي الشيطانُ زَلّته.

واعلم أنّ المِراء هو كثرة الملاحاة للشخص لبيان غلظه وإفحامه، والباعثُ عليه الترفُّع وبيان نقص الملاحى، وهما شهوتان للنفس باطنتان.  
أما قصدُ الترفُّع فمقتضى الكِبَر.

وأما بيان نقص الغير فطبع السبعية، وهاتان الحلتان تُخرج إلى فنون من المعاصي.  
وإنما ينبغي للإنسان أن يُنكر المنكر من القول ويبيّن الصواب، فإن قبل منه وإلا ترك المماراة، هذا إذا كان الأمر متعلقاً بالدين، فأما إذا كان في أمور الدنيا فلا وجه للمجادلة فيه.

وعلاجُ هذه الآفة بكسر الكِبَر الباعث على إظهار الفضل وتنقص الغير؛ لأنّ علاج كلّ علةٍ بإماطة سببها، وسبب المِراء ما ذكرناه، وقد سبق ذكر المِراء في كتاب آداب الصُحبة.

### الآفة الخامسة: الخصومة

وهو أمرٌ وراء المِراء؛ لأنّ المِراء طعنٌ في كلام الغير لإظهار خللٍ فيه، والخصومة لجاجٌ في الكلام يُقصد بها استيفاء مطلوب.

وفي الصحيحين من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أبغض الرجال إلى الله عزّ وجلّ الألدّ الخصم».

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من جادل في خصومةٍ بغير علمٍ لم يزل في سخطِ الله حتى ينزع».

وقال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه عرضاً للخصومات أكثر التقلُّل.

واعلم أنّ دَمَّ الخصومات إنّما يتعلّق بمن خاصم بغير علم، أو خاصم بالباطل، ومن الناس من يقصد بالخصومة قهر الخصم حتى يقول: مُرادي غلبته، ولو أخذتُ منه المال الذي أخاصمه فيه رميته في بئرٍ ولا أبالي.

وَبَعْدُ؛ فالأولى لمن له حَقٌّ أَنْ يَصْدِفَ<sup>(١)</sup> عن الخصومة مهما أمكن؛ لأنَّ  
الخصومة تُوغِرُ الصِّدْرَ وتهيجُ العُضْبَ وتورثُ الحِقْدَ، وتُخرِجُ إلى تناول العِرْضِ،  
ووقوفِ المُخاصِمِ على حَدِّ الاعتدالِ مُتَعَدِّراً.

### الآفة السادسة: التَّقَرُّرُ في الكلام

وذلك يكون بالتَّشْدُقِ وتكْلِيفِ التَّسْجِيعِ وغريبِ الكلام.

أخبرنا ابنُ الحُصَيْنِ قال: أخبرنا ابنُ المُذْهَبِ قال: حدثنا أحمد بن جعفر  
قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا محمد بن أبي عدي،  
عن داود عن مكحول، عن أبي ثعلبة الحُشْنِيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ  
أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدُكُمْ مِنِّي فِي الآخِرَةِ مَسَاوِثُكُمْ أَخْلَاقًا، الثَّرَثَارُونَ الْمُتَفَيِّهُونَ  
الْمُتَشَدِّقُونَ»<sup>(٢)</sup>.

أخبرنا عليُّ بن محمد بن حَسَّونَ قال: أخبرنا أبو محمد بن أبي عثمان قال:  
أخبرنا أبو القاسم بن المُنْذِرِ قال: أخبرنا ابنُ صَفْوَانَ قال: حدثنا أبو بكر القُرْشِيُّ  
قال: حدثنا ابنُ أبي شَيْبَةَ قال: حدثنا حفصُ بن غِيَاثَ عن إسماعيل بن أبي خالد  
عن مُصْعَبِ قال: جاء عُمر بن سَعْدٍ إلى أبيه يسأله حاجةً فتكلَّم بين يدي حاجته  
بكلام، فقال له سَعْدٌ<sup>(٣)</sup>: «مَا كُنْتَ مِنْ حَاجَتِكَ بِأَبْعَدَ مِنْهَا الْيَوْمَ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ  
اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَتَخَلَّلُونَ فِيهِ الْكَلَامَ بِالسُّتْهِمْ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقْرُ  
الْكَلَاءُ بِالسُّتْهَا».

(١) صَدَفَ عن الشيء: مال عنه وأعرض.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٧٣٢) و(١٧٧٤٣) وابن أبي شيبة ٥١٥/٨، وابن حبان (٤٨٢)، و  
الطبراني في الكبير ٢٢/ (٥٨٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٩٨٩)، وقوله: الثرثارون:  
هم الذين يكثرون الكلام تكلفاً وخروجاً عن الحق، والمتفهيون: هم الذين يتوسعون في  
الكلام ويفتحون به أفواههم، من الفهق، وهو الإملاء والاتساع بلا احتياط.

(٣) يعني سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

قال القرشي<sup>(١)</sup>: وحدثنا إسماعيل بن إبراهيم قال: حدثنا علي بن ثابت عن عبد الحميد بن جعفر الأنصاري عبد الله بن الحسن عن أمه فاطمة بنت الحسين عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «شِرَارُ أُمَّتِي الَّذِينَ غَدُوا بِالنَّعِيمِ، الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ، وَيَلْبَسُونَ أَلْوَانَ الثِّيَابِ، وَيَتَشَدَّقُونَ فِي الْكَلَامِ»<sup>(٢)</sup>.

وقال عمر بن الخطاب: إِنَّ شَقَاشِقَ<sup>(٣)</sup> الْكَلَامِ مِنْ شَقَاشِقِ الشَّيْطَانِ.

واعلم أنه إنما كان التَّقَعُّرُ مكروهاً لِمَكَانِ التَّكَلُّفِ وَالتَّصْنَعِ، ثُمَّ لَا يَلِيقُ بِالْمُحَاوَرَاتِ التَّقَعُّرُ<sup>(٤)</sup> وَتَكْلِيفِ الْغَرِيبِ<sup>(٥)</sup>؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ الْفَهْمَ، فَرَبَّمَا لَمْ يَفْهَمْ، وَكَذَلِكَ تَكَلَّفَ السَّجْعَ فِي الْمَحَاوَرَاتِ، كَمَا قَالَ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ: أُنْدِي<sup>(٥)</sup> مَنْ لَا أَكَلْ وَلَا شَرِبَ وَلَا اسْتَهَلَ<sup>(٦)</sup>، وَمِثْلُ ذَلِكَ يُظَلُّ<sup>(٧)</sup>.

وَلَا يَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْكِرَاهَةِ تَحْسِينُ أَلْفَاظِ الْخُطْبِ وَالتَّذْكِيرِ مِنْ غَيْرِ إِفْرَاطٍ وَلَا اغْتِرَابٍ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ ذَلِكَ تَحْرِيكَ الْقُلُوبِ وَتَشْوِيقُهَا وَقَبْضُهَا وَبَسْطُهَا، وَلِرِشَاقَةِ اللَّفْظِ تَأْثِيرٌ، فَهُوَ لَا تَقُّ بِهِ.

(١) هو عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان، أبو بكر القرشي الشهير بابن أبي الدنيا، صاحب التصانيف الكثيرة، توفي سنة (٢٨١) هـ. سير أعلام النبلاء ١٣/٣٩٧، وطبقات الحنابلة ١٩٢/١.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الغيبة والنميمة (١٠)، وابن عدي في الكامل (١٩٥٦/٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٦٦٩)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٠٩٦).

(٣) الشقاشق: جمع شقشقة، وهي الكلام بتفاسح وتقعر.

(٤-٤) ليس في (ظ).

(٥) أي: ندفع الدية.

(٦) استهَلَ الصَّبِيُّ: رفع صوته بالبكاء وصاح عند الولادة.

(٧) يقال: ظَلَّ دَمَهُ، أَي هَدَرَ وَبَطَلَ وَلَمْ يُثَارَ بِهِ وَلَمْ تُؤَخَذْ دَيْتُهُ، وَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَالَ ذَلِكَ: (أَسْجَعًا كَسَجْعِ الْأَعْرَابِ؟). الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَ(١٨١٣/١) وَ(١٨١٤٨) وَ(١٨١٤٩) وَ(١٨١٧٧)، وَمُسْلِمٌ (١٦٨٢)، وَعَبْدُ الرَّزَاقِ (١٨٣٥١)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ٩/٢٥٥، وَأَبُو دَاوُدَ (٤٥٦٩)، وَالنَّسَائِيُّ فِي الْكَبْرَى (٧٠٢٦-٧٠٢٨) مِنْ حَدِيثِ الْمَغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ.

## الآفة السابعة: الفُحْشُ والسَّبُّ والبذاء

وهو مذمومٌ منهِّيٌّ عنه، ومصدره الخُبث واللُّؤم، رُوي عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والفُحْشُ، فإنَّ الله لا يُحِبُّ الفُحْشَ ولا التَّفَحُّشَ»<sup>(١)</sup>، «الجَنَّةُ حرامٌ على كلِّ فاحشٍ يدْخُلُها»<sup>(٢)</sup>.

وقال عليه الصلاة والسلام: «أربعةٌ يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى، يَسْعَوْنَ بَيْنَ الحَمِيمِ والجَحِيمِ، يدعون بالويل والثُّبور...» فذكر منهم «رجلاً يسيلُ فُوهُ قِيحاً ودماً، فيقال له: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ فيقول: إنَّ الأبعد كان ينظر إلى كلِّ كلمةٍ قَدِعةٍ<sup>(٣)</sup> حَبِيْثَةٍ، فيستلذُّها كما يستلذُّ الرَّفَثَ». وقال ابن مسعود: ألام خُلِقَ المؤمن الفُحْشُ.

واعلم أنَّ الفُحْشَ والبذاء هو التَّعبير عن الأمور المُستقبحة بالعبارات الصَّريحة، وأكثر ذلك في ألفاظ الجِماع وما يتعلَّق به، فإنَّ أهل الخَيْر يتحاشون عن تلك العبارات ويكُونون عنها، كما قال ابن عباس: إنَّ الله حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَكْنِي بالحَسَن عن القَبِيح، كَنَى باللَّمْسِ عن الجِماع.

ومن هذا الجنس أن لا يُقال للأبرص ومن به البواسير: كيف بَرَصُكَ؟ بل: كيف العارض الذي تشكوه؟

وكان عُمر بن عبد العزيز يتحفَّظ في منطِقته ولا يتكلَّم بشيءٍ فخرج له خراج في إيَّطه، فقالوا: أي شيءٍ عسى أن يقول الآن؟ فسأله: أين خرج هذا منك؟ فقال: في باطن يدي.

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٥١٩)، وهو بطوله عند أحمد (٦٤٨٧)، وابن حبان (٥١٧٦)، والطيالسي (٢٢٧٢)، والبيهقي في الشعب (٧٤٥٨) و(١٠٨٣٤) وفي السنن: ٢٤٣/١٠.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢٨٨/١، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار ١١٧/٣، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٤٧٨، ٧، وأورده المناوي في فيض القدير ٣٦٣/٣ ونسبه لابن أبي الدنيا في فضل الصمت، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٣) قذعة: قبيحة سيئة.

وأما السَّبُّ؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَالْمُسْتَبَانُ مَا قَالَا فَعَلَى الْبَادِي مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ».

### الآفة الثامنة: اللُّغْنُ

أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابنُ أَعِينِ السَّرْحَسِيِّ قال: أخبرنا الفِرْبَرِيُّ قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا موسى بن إسماعيل قال: حدثنا وهيب قال: حدثنا أيوب عن أبي قلابة عن ثابت بن الضحاك عن النبي ﷺ أنه قال: «لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ». أخرجاه في الصحيحين.

وفي أفراد مسلم من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّعَانِينَ لَا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ وَلَا شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وفي أفراد من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لَا يَنْبَغِي لِصَدِيقٍ أَنْ يَكُونَ لَعَانًا».

وقال حذيفة: مَا تَلَاعَنَ قَوْمٌ قَطَّ إِلَّا حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ.

أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثني أبي قال: حدثنا إسماعيل قال: حدثنا أيوب عن أبي قلابة عن أبي المهلب عن عمران بن حصين قال: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وامرأة من الأنصار على ناقه، فضجرت فلعتتها، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا، فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ». قال عمران: فكأني أنظر إليها الآن تمشي في الناس ما يعرض لها أحد؛ يعني الناقه<sup>(١)</sup>. انفراد بإخراجه مسلم، وإنما نهاهم عن ركوب الناقه عقوبة لصاحبها اللاعن لها.

وقالت عائشة: سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ أبا بكرٍ لَعَنَ<sup>(٢)</sup> بَعْضَ رَقِيقِهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:

(١) تحرفت في الأصل إلى: (الناس)، والحديث أخرجه مسلم (٢٥٩٥) (٨٠) وأحمد (١٩٨٧٠).

(٢) في الأصل: (يلعن).

«يا أبا بكر، الصديقون لعانون!» قال: فأعتق أبو بكر يومئذٍ بعضَ رقيقه، وجاء إلى النبي ﷺ فقال: والله لا أعود.

واعلم أنَّ الأولى بالإنسان حفظُ لسانه، فربما لعنَ من لا يجوزُ لعنه.

وقد قال ابن عون: إنما هما كلمتان تخرُجان من صحيفتي يوم القيامة: لا إله إلا الله، ولعنَ اللهُ فلاناً، ولأنَّ يَخرج من صحيفتي: لا إله إلا الله، أحبَّ إليَّ من أن يخرج: لعنَ اللهُ فلاناً.

### الآفة التاسعة: الغناء والشعر

فأما الكلام في الغناء، فقد سبق.

وأما الشعر، فإنه كلامٌ منظومٌ، حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبح الكلام، قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ من الشعر لحكمة». إلا أنَّ التَّجَرَّدَ له عن بقية العلوم مذموم.

قال عليه الصلاة والسلام: «لأنَّ يمتلي جوفٌ أحدكم قِيحاً يريه<sup>(١)</sup>، خيرٌ له من أن يمتلي شعراً».

### الآفة العاشرة: المزاح

فإنه دليلٌ على انبساطٍ وطيبِ قلب، فلا يُنهى عما كان يسيراً وكان صدقاً، فقد كان عليه الصلاة والسلام يمزح، وكان من مزاحه ﷺ أنه قال لرجلٍ: «يا ذا الأذنين».

وقال لآخر: «إني حاملك على ولد النَّاقَةِ» فقال: وكيف يُطيقني ولدُ النَّاقَةِ؟ فقال: «وهل تلد الإبلَ إلا النَّوقُ»، وقال لعجوزٍ: «إنه لا تدخلُ الجنةَ عَجوزٌ» ثم قرأ: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثَاءً﴾ [الواقعة: ٣٥]، وقال لآخرى: «زواجك الذي في عينه بياض».

(١) يريه، من الوَري، أي: حتى يغلبه ويشغله عن ذكر الله ويفسده.

وقد اتفق في مُزاجه عليه الصلاة والسلام ثلاثة أشياء:

أحدها: كونه حقاً، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً».

والثاني: أن جمهور مُزاجه كان مع النساء والصبيان ومن يحتاج إلى ملاينة من ضعفاء الرجال.

الثالث: أنه كان نادراً، فلا ينبغي أن يحتج به من يريد الدوام عليه، فإنَّ حُكم النَّادر ليس كحُكم الدائم، ولو أن إنساناً دارَ مع الحَبَشَةِ ليلاً ونهاراً ينظر إلى لعبهم، واحتجَّ بأن رسولَ الله ﷺ وقفَ لعائشة وأذنَ لها أن تنظرَ إلى لعب<sup>(١)</sup> الحَبَشَةِ لكانَ غالطاً؛ لِنُدورِ ذلك،<sup>(٢)</sup> فالإفراطُ في المَزاح والمُداومةُ عليه منهيٌّ عنه<sup>(٣)</sup>؛ لأنَّه يُخرِجُ إلى هوانِ المُمَازِح وإضحاكِ الناسِ به ويُسِقِطُ الوَقارَ، ويوجبُ الضَّعائِنَ والأحقادَ، قال عليه الصلاة والسلام: «لا تُمارِ أخاك ولا تُمازِحه». وقال عُمر: مَنْ مَزَحَ اسْتُخِفَّ بِهِ.

وقال سعيد بن العاص لابنه: يا بني، لا تُمازِح الشَّريفَ فيحقدَ عليك، ولا الدَّنيءَ فيجتريَ عليك.

وقال عُمر بن عبد العزيز: إياك<sup>(٣)</sup> والمزاحة، فإنها تُورثُ الضَّغينةَ.

### الآفة الحادية عشرة: الشخيرة والاستهزاء

ومعنى الشخيرة: الاحتقار والاستهانة والتنبية على العيوب والتفانص على وجهٍ يضحكُ منه، وقد يكون ذلك بالمُحاكاة في الفِعلِ والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وكله ممنوع منه في الشرع، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا لِلْمِزْوَا أَنفُسِكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِاللِّقَابِ﴾ [الحجرات: ١١].

(١) ليست في الأصل.

(٢-٢) في العبارة في (ظ) تقديم وتأخير.

(٣) تحرفت في الأصل إلى: (إياي).

وروت أم هانئ عن النبي ﷺ أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرُ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، قال: «كانوا يحذفون أهل الطريق، ويسخرون منهم».

وقالت عائشة رضي الله عنها: حكيت<sup>(١)</sup> إنساناً، فقال رسول الله ﷺ: «ما أحبُّ أنِّي حكيتُ إنساناً وأنَّ لي كذا وكذا».

وروى معاذ عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ قَدْ تَابَ مِنْهُ، لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَعْمَلَهُ».

وروى الحسن عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالنَّاسِ يُفْتَحُ لِأَحَدِهِمْ بَابٌ مِنَ الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ: هَلُمَّ هَلُمَّ، فَيَجِيءُ بِكَرْبِهِ وَعَمِّهِ، فَإِذَا أَتَى أُغْلِقَ دُونَهُ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ آخَرَ، فَيُقَالُ: هَلُمَّ هَلُمَّ، فَيَجِيءُ بِكَرْبِهِ وَعَمِّهِ، فَإِذَا أَتَى أُغْلِقَ دُونَهُ، فَمَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى إِذَا رَجَلَ لِيُفْتَحَ لَهُ الْبَابُ فَيُقَالُ: هَلُمَّ هَلُمَّ، فَمَا يَأْتِيهِ».

### الآفة الثانية عشرة: إفشاء السر

وهو منهى عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء.

وفي الصحيحين من حديث أنس أن رسول الله ﷺ بعثه في حاجة، فقالت له أم سليم: ما حبسك؟ فقال: بعثني رسول الله ﷺ في حاجة. فقالت: وما هي؟ قال: سر. قالت: احفظ على رسول الله سره. قال: مما حدثت به أحداً بعد.

وفي أفراد البخاري من حديث أبي بكر الصديق أنه قال: لم أكن لأفشي سر رسول الله.

وروى جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ [بِحَدِيثٍ] (٢) ثُمَّ التَفَّتْ، فَهِيَ أَمَانَةٌ (٣)».

(١) يقال: حكاه وحكاها أي: ماثله وقلده وشابهه في قول أو فعل.

(٢) ليست في النسخ، وأثبتت من مصادر التخريج.

(٣) أخرجه أحمد (١٥٠٦٢)، وأبو يعلى (٢٢١٢).

وقال عمرو بن العاص: ما وضعتُ سِرِّي عند أحدٍ فلمتُه على إفشائه، وكيف ألومُه وقد ضيقتُ به ذرعاً<sup>(١)</sup>.

وقال الحسن<sup>(٢)</sup>: من الخيانة أن تُحدِّثَ بسرَّ أخيك.

قال بعض الحكماء: من ارتاد لسره فقد ضيَّعه، وما كنتَ كاتمه من عدوك،<sup>(٣)</sup> فلا تُظهِرْ عليه<sup>(٣)</sup> صديقك.

وقيل لأعرابي: كيف كتمانك للسرِّ؟ فقال: ألتحفُ عليه التحافَ الجناح على الخوافي<sup>(٤)</sup>.

وقال آخر: إنَّ سِرِّكَ من دمك، فلا تضعه إلا عند مَنْ تثقُ به.

وقد سبق في كتاب آداب الصُّحبة الكلام في كتمان السرِّ.

### الآفة الثالثة عشرة: الوعد الكاذب

فإنَّ اللسانَ سباقٌ إلى الوعد، والنفسُ ربما لم تسمع بالوفاء فيصير الوعدُ خُلْفاً، وذلك من علامات النِّفاق، وقد قال الله عزَّ وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]. وقد أثنى الله عزَّ وجل على نبيِّه إسماعيل، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤].

قال يزيد الرقاشي: وعدَ إسماعيلُ نبيُّ الله رجلاً ميعاداً، فجلس له إسماعيل اثنين وعشرين يوماً مكانه لا يبرح لميعاده، ولهي الآخرُ عن ذلك حتى جاء بعد ذلك.

وفي مُرسَلات الحسن عن النبي ﷺ أنه قال: «العِدَّةُ<sup>(٥)</sup> عَطِيَّةٌ».

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٨٦).

(٢) يعني الحسن البصري.

(٣-٣) في الأصل: (فاكتمه من).

(٤) الخوافي: جمع خافية، وهي إحدى ريشات أربع إذا ضمَّ الطائر جناحه خفيت.

(٥) العِدَّة: الوعد، والمقصود أنها بمنزلة العطية فلا ينبغي الخُلْفُ فيها كما لا ينبغي الرجوع في العطية.

أخبرنا علي بن محمد بن حَسَّون قال: أخبرنا أبو محمد بن أبي عثمان قال: أخبرنا القاضي أبو القاسم بن المنذر قال: أخبرنا ابن صفوان قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثنا أحمد بن إبراهيم قال: حدثنا محمد بن سنان العوفي قال: حدثنا إبراهيم بن طَهْمَان عن بُدَيْل بن مَيْسرة عن عبد الكريم بن عبد الله بن شَقِيق عن أبيه عن عبد الله بن أبي الحَمَسَاء<sup>(١)</sup> قال: بايَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ ببيع قبل أن يُبْعَث فبقيت له بَقِيَّةٌ فَوَعَدْتُهُ أن آتِيه بها في مكانه ذلك، فنسيتُ يومي والغَد، وأتيتُه في اليوم الثالث وهو في مكانه فقال: «يا فتى، لقد شَقَقْتُ عَلَيَّ، أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرُك».

قال أحمد بن إبراهيم: وَحَدَّثَنِي محمد بن كثير عن الأوزاعي عن هارون بن رِئَاب<sup>(٢)</sup> قال: لما حضرْتُ عبدَ الله بنَ عمرو الوفاة قال: إنه كان خطبَ إليَّ ابنتي رجلٌ من قُرَيْش، وقد كان منِّي إليه شَبِيهٌ بالوعد، فوالله لا ألقى الله بثلثِ النَّفاق، أشهدوا أنني قد زوجتها إِيَّاه.

وإنما أشار إلى الحديث الصحيح: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فهو مُنَافِقٌ؛ إذا وَعَدَ أَخْلَفَ. .»، غير أن العلماءَ حَمَلُوا هذه على مَنْ وَعَدَ وهو على عَزْمِ الإخلافِ وتركِ الوفاءِ من غير عُدْر، فأما مَنْ عَزَمَ على الوفاءِ وَعَرَضَ له عُدْرٌ مَنَعَهُ من الوفاءِ، فليس بمُنافِقٍ، إلا أنه يَنْبَغِي له أن يَحْتَرِزَ من صورة النَّفاق كما يَحْتَرِزُ من حَقِيقَتِهِ.

وقال عبدُ رَبِّهِ القَصَاب: وَاَعَدْتُ ابنَ سيرين فَنَسِيْتُ، ثم ذَكَرْتُ فَأَتَيْتُهُ قَرِيباً من نِصْفِ النَّهَارِ، وَإِذَا به يَنْتَظِرُنِي، فقال: لو لم تَجِئْ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ ما قُمتُ من مَقَامِي هذا إلا إلى صَلَاةٍ أو حَاجَةٍ لا بَدَّ مِنْهَا.

وقال شُعْبَةُ: ما وَاَعَدْتُ أَيُوبَ مَوْعِداً قط إلا قال لي حين يُفَارِقُنِي: ليس بَيْنِي وبينكَ مَوْعِد. فإذا جِئْتُ وَجَدْتُهُ قد سَبَقَنِي.

(١) تحرف في (ظ) إلى: (الحسماء) وهو عبد الله بن أبي الحسماء العامري. الإصابة ت (٥٢٢٧).

(٢) تصحفت في النسخ إلى: (رباب)، ينظر تقريب التهذيب: ٤٩٩.

وكان أصحابُ عبد الله بن مسعود يقولون: إذا وَعَدَ فقال: إن شاء الله. فما أخلف.

وكان يقول عَوْفُ بن النُّعْمان في الجاهلية: لأنَّ أموتَ قائماً عطشاناً أحبَّ إليَّ من أن أكونَ مُخْلفاً للوعد.

### الآفةُ الرَّابِعةُ عشرة: الكذبُ في القولِ واليمينِ

أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا الأعمش عن شقيقٍ عن عبد الله<sup>(١)</sup> قال: قال رسولُ الله ﷺ: «عليكم بالصدق، فإنَّ الصَّدقَ يَهْدِي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يَهْدِي إلى الجنَّةِ، وما يزالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ حتَّى يُكْتَبَ عندَ الله صِدِّيقاً، وإياكُمْ والكذب، فإنَّ الكذبَ يَهْدِي إلى الفُجور، وإنَّ الفُجورَ يَهْدِي إلى النَّارِ، وما يزالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ ويَتَحَرَّى الكذبَ حتَّى يُكْتَبَ عندَ الله كَذَاباً»<sup>(٢)</sup> أخرجاه في الصَّحيحين.

وأخرجنا من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «آيةُ المُنَافِقِ ثَلاث؛ إذا حَدَّثَ كَذَباً، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذا ائْتَمَنَ خَانَ»<sup>(٣)</sup>.

وأخرجنا من حديث سَمُرَةَ عن النبي ﷺ قال: «هل رأى أحدٌ منكم اللَّيْلَةَ رؤيا؟» فقلت: لا. قال: «لكن أنا رأيتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أُنْيَانِي، فأخذنا بيدي، فأخرجاني إلى فضاءٍ، فمَرَّ بي على رَجُلٍ، ورجلٌ قائمٌ بيده كَلْبٌ»<sup>(٤)</sup> من حَدِيدٍ فيُدْخَلُهُ في شِدْقِهِ،

(١) يعني ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٣٨) و(٣٧٢٧) و(٣٨٩٦) و(٤٠٢٢) و(٤٠٩٥) و(٤١٠٨) و(٤١٦٠) و(٤١٨٧)، والبخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧) (١٠٣) - (١٠٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣) و(٢٦٨٢) و(٢٧٤٩) و(٦٠٩٥)، ومسلم (٥٩).

(٤) الكَلْبُ والكُلَّابُ: حديدة معوجة الرأس يُنْشَلُ بها الشيء أو يُعْلَقُ.

فِيَشْقُهُ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ، <sup>(١)</sup> ثُمَّ يُخْرِجُهُ <sup>(٢)</sup> فَيُدْخِلُهُ فِي شِدْقِهِ الْآخَرَ، وَيَلْتَمِمْ <sup>(٣)</sup> هَذَا الشَّدَقَ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟...، فَقَالَا: هُوَ كَذَّابٌ يَكْذِبُ <sup>(٤)</sup> الْكِذْبَةَ فَتَحْمَلُ عَنْهُ فِي الْآفَاقِ، فَهُوَ يُصْنَعُ بِهِ مَا رَأَيْتَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَصْنَعُ اللَّهُ بِهِ مَا شَاءَ <sup>(٥)</sup>.

وَأَخْرَجَا مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟ قَوْلُ الزُّورِ» [أَوْ قَالَ] <sup>(٦)</sup>: «شَهَادَةُ الزُّورِ» <sup>(٧)</sup>.

وَأَخْرَجَا مِنْ حَدِيثِ أَسْمَاءِ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْمَتَشَبِّعُ <sup>(٨)</sup> بِمَا لَمْ يُعْطَ كِلَابِسِ ثَوْبِي زُورٌ» <sup>(٩)</sup>.

وَرَوَى سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كُلُّ خَلَّةٍ يُطَبَّعُ أَوْ يُطَوَّى عَلَيْهَا الْمُؤْمِنُ، إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ».

وَقَالَتْ عَائِشَةُ: مَا كَانَ خُلُقُ أَشَدَّ عِنْدَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْكَذِبِ، وَلَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَطَّلِعُ مِنَ الرَّجُلِ مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَى الْكِذْبَةِ <sup>(١٠)</sup> فَمَا تَنَحَّلُ مِنْ صَدْرِهِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّهُ قَدْ أَحَدَتْ لِي مِنْهَا تَوْبَةً <sup>(١١)</sup>.

(١-١) سقط من (ظ).

(٢) في (ظ): (فيلقم).

(٣) تحرفت في الأصل إلى: (يحمل).

(٤) أخرجه بطوله أحمد (٢٠١٦٥)، والبخاري (١٣٨٦) و(٧٠٤٧)، وأخرجه مسلم (٢٢٧٥) مختصراً.

(٥) ليست في النسخ، وأثبتت من مصادر التخريج.

(٦) أخرجه أحمد (١٢٣٣٦)، والبخاري (٥٩٧٧)، ومسلم (٨٨).

(٧) المتشبع: الذي يظهر الشبع وليس بشبعان، ومعناه هنا: أنه يظهر أنه حصل له فضيلة وليست حاصلة.

(٨) أخرجه أحمد (٢٦٩٢١)، والبخاري (٥٢١٩)، ومسلم (٢١٣٠)، وقوله: (كلابس ثوبي

زور) أي: كمن أحاط به الزور من كل جانب، فبيته وعمله كلاهما زور.

(٩) في النسخ: (الكذب)، والمثبت من مصادر التخريج.

(١٠) أخرجه أحمد (٢٥١٨٣)، والبيهقي في الشعب (٤٨١٧)، وعبد الرزاق في المصنف

(٢٠١٩٥)، وابن حبان (٥٧٣٦)، والبغوي في شرح السنة (٣٥٧٦).

وقال عليه الصلاة والسلام: «اكفلوا لي بسيت أكفل لكم بالجنة؛ إذا حدث أحدكم فلا يكذب».

وقال أبو بكر الصديق: إياكم والكذب، فإنه مجانب للإيمان.

وقال عمر: من يكذب يفجر، ومن يفجر يهلك.

وقال علي بن أبي طالب: أعظم الخطايا عند الله، اللسان الكذوب.

وقال ابن مسعود: لا يصلح الكذب في جد ولا هزل، ولا أن يعد أحدكم صبيته شيئاً ثم لا يُنجزه له.

وقال مسروق: ليس شيء عند الله أعظم من الكذب.

وقال الليث بن سعد: كانت ترمص<sup>(١)</sup> عينا سعيد بن المسيب حتى يبلغ الرمص خارج عينيه إلى المآقي، فيقال: لو مسح هذا، فيقول: فأين قول الطبيب: لا تمس عينيك، فأقول: لا أفعل.

وقال عمر بن عبد العزيز<sup>(٢)</sup> ما كذبت كذبة منذ شددت علي إزاري. وكلمه الوليد في شيء فقال له: كذبت. فقال له عمر<sup>(٣)</sup>: ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه.

وقال ابن السماك: ما أراني أوجر على تركي الكذب، إنما أدعه أنفة.

وقال ابن المبارك: أول عقوبة الكاذب من كذبه أن يُردَّ عليه صدقه.

فأما الكذب في اليمين بالله تعالى، ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراف بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس».

وأخرجنا من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقطع بها مال امرئ مسلم، لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان».

(١) رمصت العين ترمص رمصاً: اجتمع في موقها وسخ أبيض.

(٢-٢) سقط من (ظ).

وفي أفرادِ مسلم من حديث أبي أَمَامَةَ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ<sup>(١)</sup> امرئٍ مُسلمٍ بيمينه، فقد أوجبَ اللهُ له النَّارَ، وحرَّمَ عليه الجَنَّةَ» فقال له رجلٌ: وإنْ كانَ شيئاً يسيراً؟ قال: «وإنْ كانَ قَضيباً مِنْ أَرَاكِ»<sup>(٢)</sup>.

(١) في الأصل: (مال) وما في (ظ) موافق لرواية مسلم.

(٢) أخرجه مسلم (١٣٧).

## بيان

## ما رُخِّصَ فيه من الكذب

اعلم أنَّ الكلامَ وسيلةٌ إلى المقاصدِ، فكلُّ مقصودٍ محمودٍ يُمكنُ التَّوصُّلُ إليه بالصِّدْقِ والكذبِ جميعاً، فالكذبُ فيه حرامٌ، وإنَّ أمكنَ التَّوصُّلُ إليه بالكذبِ دون الصِّدْقِ، فالكذبُ فيه مُباحٌ إنَّ كانَ تحصيلُ ذلكَ المَقْصودِ مُباحاً، وواجبٌ إنَّ كانَ المَقْصودُ واجباً، كما أنَّ عِصْمَةَ دَمِ المُسْلِمِ واجبٌ، فمهما كانَ في الصِّدْقِ سَفْكَ دَمِ مُسْلِمٍ قَدْ اخْتَفَى من ظالمٍ، فالكذبُ فيه واجبٌ، ومهما كانَ لا يَتِمُّ مقصودُ حَرْبٍ، أو إصلاحِ ذاتِ البينِ، أو استمالةِ قَلْبِ المَجْنِيِّ عليه إلا بكذبٍ، فالكذبُ مُباحٌ.

إلا أنَّه ينبغي أن يُحْتَرَزَ عنه ما أمكنَ، لأنَّه إذا فُتِحَ بابُ الكذبِ فربَّما تَدَاعَى إلى ما يمكنُ أن يُسْتَعْنَى عنه وإلى ما لا يقتصرُ إلى حدِّ الضَّرورِ، <sup>(١)</sup> فبانَ من هذا أنَّ الكذبَ حرامٌ في الأصلِ إلا لضرورةٍ<sup>(٢)</sup>.

وقد بُيِّنَتْ <sup>(٢)</sup> الضَّرورةُ فيما أخبرنا به ابنُ الحُصَيْنِ قال: أخبرنا ابنُ المُذْهَبِ قال: أخبرنا أحمدُ بنُ جَعْفَرِ بنِ جَعْفَرِ قال: حدَّثنا عبدُ الله بنُ أحمدَ قال: حدَّثني أبي قال: حدَّثنا يعقوبُ قال: <sup>(٣)</sup> حدَّثنا أبي عن صالح <sup>(٣)</sup> بنِ كَيْسَانَ، قال: حدَّثنا محمدُ بنُ مُسْلِمٍ أنَّ حُمَيْدَ بنَ عبدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ أخبره أنَّ أمَّهُ أُمُّ كَلْثُومِ بنتِ عُقْبَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «ليس الكذابُ بالذي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي <sup>(٤)</sup> خَيْراً أو يقولُ خَيْراً». وقالت: لم أسمعهُ يُرْخِّصُ في شيءٍ ممَّا يقولُ النَّاسُ إلا في

(١-١) سقط من (ظ).

(٢) تصحفت في الأصل إلى: (ثبت).

(٣-٣) في الأصل: (عن أبي صالح) وهو غلط.

(٤) فينمي: أي ينقل من أحد الطرفين إلى الطرف الآخر خيراً، مما يرجى به الإصلاح بينهما، وإن لم يطابق الواقع.

ثلاث: في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها». أخرجاه في الصحيحين<sup>(١)</sup>.

أخبرنا علي بن محمد بن حسن قال: أخبرنا أبو محمد بن أبي عثمان قال: أخبرنا أبو القاسم بن المنذر قال: أخبرنا ابن صفوان قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثنا داود بن عمرو الضبي قال: حدثنا داود بن عبد الرحمن العطار عن عبد الله بن عثمان بن حثيم عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد أن رسول الله ﷺ قال: «أيها الناس، ما يحملكم على أن تتنايعوا<sup>(٢)</sup> بالكذب كما يتنايع الفرائس في النار؟ كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا ثلاث خصال: رجل كذب امرأته ليرضيها، ورجل كذب بين امرأتين ليصلح بينهما، ورجل كذب في خديعة الحرب». هذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء، ويضاف إليها ما في معناها إذا ارتبط به عرض مقصود صحيح له أو لغيره.

أما الذي له؛ فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله، فله أن ينكر، أو يأخذه السلطان ويسأله عن فاحشة بينه وبين الله ارتكبتها، فله أن ينكر ويقول: ما زنت ولا شربت. قال رسول الله ﷺ: «من أتى شيئاً من هذه القاذورات، فليستتر بستر الله». وذلك، لأن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى، فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذي يؤخذ ظلماً وعرضه بلسانه، وإن كان كاذباً.

وأما عرض غيره؛ فمثل أن يسأل عن سر أخيه، فله أن ينكره، وأن يصلح بين اثنين وبين الصرتين من نسائه بأن يظهر لكل واحد منهما أنها أحب إليه<sup>(٣)</sup> من الأخرى<sup>(٣)</sup>، وإن كانت امرأته لا تطيعه إلا بأن يعدها مالا يقدر عليه، فله أن يعدها في الحال تطيباً لقلبها، وكذلك إذا احتاج أن يعتذر إلى إنسان، ولم يصح قبول الاعتذار إلا بإنكار ذنب وزيادة تودد، فلا بأس به.

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٢) ومسلم (٢٦٠٥) وأحمد (٢٧٢٧٢).

(٢) يقال: تنايع فلان في الشر وعليه، أي: تهافت وأسرع.

(٣-٣) سقط من (ظ).

وإنما أبيض الكذب في هذه الأشياء، وإن كان محذوراً؛ لأنَّ الصِّدْقَ فيها يتولَّدُ منه محذورٌ أيضاً، فِينبغِي أن يُقَابَلَ المحذُورين ويَزنهُما بمِيزانِ عدلٍ، فإذا رَأَى أنَّ المحذُورَ الحَاصِلَ بِالصِّدْقِ أَشَدَّ وَقَعاً فِي الشَّرْعِ مِنَ الكَذِبِ، فَله الكَذِبُ، وَإِن كَانَ ذَلِكَ المَقْصُودَ أَهْوَنَ مِنْ مَقْصُودِ الصِّدْقِ، وَجَبَ الصِّدْقُ، فَإِن تَقَابَلَ الأَمْرُ<sup>(١)</sup> وَتَرَدَّدَ، فَالصِّدْقُ أَوْلَى؛ لِأَنَّ الكَذِبَ مُبَاحٌ لِحَاجَةِ وَحَاجَةِ مَهْمَةٍ، فَإِذَا شَكَّ فِي كَوْنِ الحَاجَةِ مَهْمَةً، فَالأَصْلُ التَّحْرِيمُ.

ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ينبغي أن يحترز الإنسان من الكذب ما أمكنه.

ومهما كانت الحاجة له فيُستحبُّ أن يترك أغراضه ويهجر الكذب، وأما إذا تعلَّق بعرضٍ غيره، فلا يجوز المسامحة بحق الغير والإضرار به.

وأكثرُ كذبِ الناسِ إنما هو لِحُظُوظِ أَنفُسِهِمْ، ثم أَكثَرُهُ لزياداتِ المالِ والجَاهِ، ولأُمُورٍ لَيْسَ فَوَائِهُهَا مَحذُوراً، حَتَّى إِنَّ المَرأَةَ لِتَحْكِي عَن زَوْجِهَا مَا تَتَفَاخَرُ بِهِ وَتَكْذِبُ لِأَجْلِ مُرَاعِمَةِ الضَّرَاتِ، وَذَلِكَ حَرَامٌ.

أخبرنا ابنُ الحُصَيْنِ قال: أَخْبَرْنَا ابْنَ المُذْهِبِ قال: أَخْبَرْنَا أَبُو بَكْرِ بنِ مالِكٍ قال: حَدَّثَنَا عبدُ اللَّهِ بنُ أَحْمَدَ قال: حَدَّثَنِي أَبِي قال: حَدَّثَنَا أَبُو معاويةَ قال: حَدَّثَنَا هِشَامُ بنِ عروةَ عَن فَاطِمَةَ بنتِ المُنْذِرِ عَن أسماءَ بنتِ أَبِي بَكْرٍ قالت: جَاءتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ عَلِيَّ ضَرَّةً، فَهَلْ عَلِيٌّ جُنَاحٌ أَنْ أَتَشَبَّعَ مِنْ زَوْجِي بِمَا لَمْ يُعْطِنِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُتَشَبَّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ، كَلَابِسِ ثَوْبِي زُورًا». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ<sup>(٢)</sup>.

واعلم أَنَّهُ يَدْخُلُ فِي هَذَا فَتَوَى العَالِمِ بِمَا لَا يَتَحَقَّقُهُ وَرَوَايَتُهُ لِلْحَدِيثِ الَّذِي لَا يَتَثَبَّتُ<sup>(٣)</sup> فِيهِ، إِذْ عَرَضَهُ أَنْ يُظْهَرَ فَضْلَ نَفْسِهِ، فَهُوَ لِذَلِكَ يَسْتَنْكَفُ أَنْ يَقُولَ: لَا أَدْرِي. وَذَلِكَ حَرَامٌ.

(١) فِي (ظ): (الأمران).

(٢) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (٥٢١٩)، وَمُسْلِمٌ (٢١٣٠)، وَأَحْمَدُ (١٦٩٢١).

(٣) فِي الأَصْلِ: (يُثَبَّت).

## ذِكْرُ الْكَلَامِ فِي الْمَعَارِضِ

أخبرنا <sup>(١)</sup> المُبارك بن علي، قال: أخبرنا شجاع بن فارس قال: أخبرنا محمد ابن علي بن الفتح قال: أخبرنا عمر بن ثابت قال: أخبرنا علي بن أحمد بن أبي قيس قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثنا <sup>(٢)</sup> إسماعيل بن إبراهيم <sup>(٢)</sup> بن بسام قال: حدثنا داود بن الزُّبْرَقان عن سَعِيد بن أَبِي عَرُوبَةَ، عن قَتَادَةَ، عن زُرَّارَةَ بن أَوْفَى، عن عِمْرَانَ بن حُصَيْنٍ قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ فِي الْمَعَارِضِ <sup>(٣)</sup> لَمَنْدُوحَةَ <sup>(٤)</sup> عن الكذب <sup>(٥)</sup>.

ورواه أبو عوانة عن قَتَادَةَ عن مُطَّرَفٍ عن عِمْرَانَ، فَوَقَّهَهُ، وهو الْأَشْبَهُ <sup>(٦)</sup>.

وقال عُمر بن الحَطَّاب: أَمَا فِي الْمَعَارِضِ مَا يَغْنِي الْمُسْلِمَ عَنِ الْكُذْبِ <sup>(٧)</sup>.

وقال: مَا يَسْرَتُنِي أَنْ لِي بِمَا أَعْلَمُ مِنْ مَعَارِضِ الْقَوْلِ مِثْلَ أَهْلِي وَمَالِي <sup>(٨)</sup>.

واعلم أن المَعَارِضَ إِنَّمَا تَصْلِحُ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، فَأَمَّا مَعَ غَيْرِ الْحَاجَةِ فَمَكْرُوهَةٌ؛ لِأَنَّهَا تُشْبَهُ الْكُذْبَ.

(١-١) في (ظ): (ابن المبارك). وهو غلط.

(٢-٢) في الأصل: (إبراهيم بن إسماعيل) وهو غلط.

(٣) المَعَارِضُ: جمع معارض، من التعريض بالقول، وهو خلاف التصريح، والتورية بالشيء عن الشيء.

(٤) مندوحة: فُسْحَةٌ وَسَعَةٌ.

(٥) أخرجه عن عمران بن حصين مرفوعاً ابن عدي في الكامل ١/ ٣٥ و ٣/ ٩٦، والبيهقي في السنن ١٠/ ١٩٩، وفي الشُّعْبِ (٤٧٩٥)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٠١١).

(٦) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٥٧)، وابن أبي شيبة (٢٦٠٩٦) والطبراني في الكبير ١٨/ ١٠٦، وهَنَّادُ فِي الزَّهْدِ (١٣٧٨) والبيهقي في السنن ١٠/ ١٩٩، وفي الشُّعْبِ (٤٧٩٤) موقوفاً، وقال عقيبه: هذا هو الصحيح موقوفاً.

(٧) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٨٤)، وابن أبي شيبة (٢٦٠٩٥)، والبيهقي في الشعب (٤٧٩٣).

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٠٩٤).

قال إبراهيم النَّخعي: لهم كلامٌ يتكلَّمون به إذا خَشوا من شيءٍ يَدْرأون به عن أنفسهم الكذب<sup>(١)</sup>.

وقال ابن سيرين: الكلامُ أوسعُ من أن يكذبَ ظريفٌ<sup>(٢)</sup>.

فَمِنَ المعارِضِ قول الخليل عليه السلام: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصفات: ٨٩]، قال ابن سيرين: لم يكن سَقِيمًا، ولكنّه من المعارِضِ.

وكذلك قال ابن عباس في قول موسى عليه السلام: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ [الكهف: ٧٣]، قال: لم يكن نسي ولكنّه من معارِضِ الكلام<sup>(٣)</sup>.

وقال العباس: يا رسول الله؛ أترجو لأبي طالب؟ فقال: «كلُّ خيرٍ أرجوه من ربِّي»<sup>(٤)</sup>.

ورؤينا عن عبد الله بن رَواحة أنّه أصابَ جاريةً له، فعلمت امرأته، فأخذت شفرةً ثم أتته، فوافقتة حين قام عنها، فقالت: أفعلتها؟ فقال: ما فعلتُ شيئاً. قالت: لتقرأن قرآناً أو لأبعجّنك بها. فقال:

وفينا رسولُ الله يتلو كتابه إذا انشقَّ مشهورٌ<sup>(٥)</sup> من الصُّبحِ طالعٌ  
يبببُ يُجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلتُ بالكافرين المضاجعُ  
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا  
فقالت: آمنتُ بالله وكذبتُ بصري<sup>(٦)</sup>

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٠٩٨).

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣٢/٤، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩٩٨). والظريف: المتصف بالظرف، وهو الكياسة والبراعة والجدق.

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦١٠/٩، ونسبه لابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٣٦/٦٦.

(٥) في (ظ): (مستور).

(٦) سنن الدارقطني (٤٣٢)، وتاريخ دمشق لابن عساكر ١١٥/٢٨ - ١١٦، وتفسير القرطبي

٣٤٥/٦ - ٣٤٦، وأوردها الذهبي في السير ٢٣٦/١ بأبيات مغايرة.

وكان النَّخعي إذا طُلِبَ في بيته قال للجارية: قولي: اطلبوه في المسجد<sup>(١)</sup>.

وقد بينا أنَّ الأولى تركُ المعارض لمكان المُشابهة للكذب، ومن هذا المعنى يحذر الحليل عليه السلام ويذكر كلماته وقت سؤال النَّاس له الشَّفاعة<sup>(٢)</sup>، وقد كان كثير من السلف يحذرون المعارض والتَّجوزات تعويداً للسان أن يُلازم الصَّواب، فروينا أنَّ أختَ الرِّبيع بن خَيْثَم جاءت تعودُ ولده، فقالت: كيف أنت يا بُني؟ فقال الرِّبيع: أرَضَعْتِه؟ قالت: لا. قال: فما عليك لو قُلْت: يا ابن أخي فَصَدَقْتَ؟!

### الآفة الخامسة عشرة: الغيبة

وقد ورد القرآن العزيزُ بالنَّهي عنها<sup>(٣)</sup>، وشبَّه صاحبها بآكل لحم المَيِّتة، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُّحُبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ».

وفي حديث آخر: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرَضُهُ».

والغيبية هي تناول العرض، فجمع بينه وبين الدماء والأموال، أخبرنا أبو غالب محمد بن الحسن الماوردي قال: أخبرنا شَيْبَان<sup>(٤)</sup> بن عبد الله الأسدي قال: أخبرنا أبو عبد الله بن مَنْدَه، قال: أخبرنا محمد بن يحيى الطائي قال: حدثنا علي بن حَرْب قال: حدثنا سُفْيَان بن عُيَيْنَةَ قال: حدثنا زِيَاد بن عِلَاقَةَ عن أُسَامَةَ بن شَرِيك قال: سمعتُ الأعرابَ يسألون رسول الله ﷺ: هل علينا جُنَاحٌ في كَذَا وكَذَا؟

(١) وهي تعني مسجده في بيته لكي لا تكون كاذبة.

(٢) وهو حديث أبي هريرة المطوّل في الشفاعة، أخرجه البخاري (٣٣٤٠) و(٣٣٦١) و(٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) (٣٢٧).

(٣) في (ظ): (عنه).

(٤) تصحفت في الأصل إلى (سنان).

فقال: «عبادَ الله، وَضَع اللهُ الحَرَاجَ إِلَّا امرءاً اقْتَرَضَ»<sup>(١)</sup> من عَرَضَ أخيه، فذاك الذي حَرَجَ»<sup>(٢)</sup>.

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «أَرَبَا الرِّبَا اسْتِطَالَةَ الرَّجُلِ فِي عَرَضِ أَخِيهِ»<sup>(٣)</sup>.

أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أسود بن عامر قال: حدثنا أبو بكر بن عيَّاش عن الأعمش عن سعيد بن عبد الله عن أبي بَرَزَةَ الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يُفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ»<sup>(٤)</sup>.

وروى جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «إِيَّاكُمْ وَالْغَيْبَةَ، فَإِنَّ الْغَيْبَةَ أَشَدُّ مِنَ الزَّانَا، إِنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَزْنِي فَيَتُوبُ فَيَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ صَاحِبُ الْغَيْبَةِ لَا يُغْفَرُ لَهُ حَتَّى يُغْفَرَ لَهُ صَاحِبُهُ».

وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي عَلَى قَوْمٍ يَحْمَشُونَ وُجُوهُهُمْ بِأَظْفِيرِهِمْ، فَقُلْتُ: يَا جَبْرِيْلُ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ النَّاسَ، وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»<sup>(٥)</sup>.

وقال عمر بن الخطاب: إياكم وذكر الناس، فإنه داء.

وقال الأحنف: ما ذكرتُ أحداً بسوءٍ بعد أن يقوم من عندي.

(١) أي اقتطع ونال منه بالغيبة.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٤٥٤)، وينظر بقية تخريجه ثمة.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٦/٢٥٩، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٧٦٩).

(٤) أخرجه أحمد (١٩٧٧٦) وأبو داود (٤٨٨٠)، وأبو يعلى (٧٤٢٤) وابن أبي الدنيا في

الصمت (١٦٨) والبيهقي في السنن ١٠/٢٤٧ وفي الشعب (٦٧٠٤).

(٥) أخرجه أحمد (١٣٣٤٠).

وقال بكر بن عبد الله: إذا رأيتم الرجل موكلاً بعيوب الناس ناسياً لعيبه، فاعلموا أنه قد مُكِرَ به.

وكان ميمون بن سياه لا يَغْتَابُ أحداً ولا يَدْعُ أحداً<sup>(١)</sup> يَغْتَابُ عنده، يَنْهَاهُ، فإن أنتهى وإلا قام عنه.

وكتب فَتْحُ بن شخرف على باب بيته: رحمَ اللهُ ميتاً دخل على هذا الميت فلم يذكر الموتى عنده إلا بخير.

أخبرنا عبد الخالق بن عبد الصَّمَد قال: أخبرنا أبو الحسين بن النِّقُور قال: أخبرنا أبو طاهر المُخَلِّص قال: حدثنا البَغُوي قال: حدثنا أبو رُوح البلدي قال: حدثنا مَخْلَد بن الحُسَيْن عن أبان بن خالد<sup>(٢)</sup> الرَّبَعي قال: دخلتُ المسجدَ فإذا قومٌ يَغْتَابون رجلاً، فقلتُ: لا تفعلوا، فكفوا ثم ذكروه، فنلتُ معهم منه، فلما نمتُ جاءني آتٍ ومعه قطعة لحم خنزير، فقال لي: كُلها. فأبيتُ عليه، فقال: كُلها. فأبيتُ عليه، فقال لي: كُلها. فخفتُ منه، فوضعتُها في فيّ، فجعلتُ ألوكها ولا أقدر أن ألفظها مخافتة، وكنتُ هَوِيّاً<sup>(٣)</sup> من الليل وهي في فيّ، ثم أصبحتُ شهراً أعده وأنا لا أكل طعاماً ولا أشربُ شراباً إلا وجدتُ طعمه في فيّ<sup>(٤)</sup>.

وكان الحسن يقول: ابن آدم إنك لن تُصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيبٍ هو فيك، وحتى تبدأ بذلك العيب فتُصلحه من نفسك، فإذا فعلت ذلك كان شُغلك في خاصّة نفسك، وأحبُّ العباد إلى الله من كان كذلك.

وروي<sup>(٥)</sup> أن عيسى عليه السّلام مرَّ مع الحواريين على جيفة كلبٍ، فقال الحواريون: ما أنتن ریح هذا. فقال عيسى: ما أشدّ بياض أسنانه. يعظّمهم وينهاهم عن الغيبة.

(١) سقطت من (ظ).

(٢) هكذا في النسخ، وفي شعب الإيمان: (عن هشام بن حسان عن خالد الربعي).

(٣) الهوي: الساعة من الليل.

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٦٧١٣).

(٥) في (ظ): (وقد روينا).

وقال عليّ بن الحسين: إياك والغيبة، فإنّها إدام كلاب النَّاسِ.  
وسمِعَ قُتَيْبَةُ بن مسلم رجلاً يَغْتَابُ رجلاً، فقال: أما والله لقد تَلَمَّظْتُ<sup>(١)</sup> بِمُضْغَةٍ  
طالما لَفَّظَهَا الكِرَامَ.

(١) يقال: تَلَمَّظَ ولمظ الشيء أي: ذاقه وأكله.

## بَيَان

### مَعْنَى الْغِيْبَةِ

اعلم أنَّ حَدَّ الْغِيْبَةِ أَنْ تَذْكُرَ أَخَاكَ الْغَائِبَ بِمَا يَكْرَهُهُ إِذَا بَلَغَهُ، سِوَاءَ ذَكَرْتَ نُقْصَانًا فِي بَدَنِهِ، أَوْ فِي نَسَبِهِ، أَوْ فِي خُلُقِهِ، أَوْ فِي فِعْلِهِ وَدِينِهِ، أَوْ فِي دُنْيَاهُ، أَوْ فِي ثَوْبِهِ.

أَمَّا فِي الْبَدَنِ؛ فَكَذْرَكَ الْعَمَشَ وَالْحَوْلَ وَالْقِرْعَ وَالطَّلُوعَ وَالْقِصْرَ، وَكُلَّ مَا يَكْرَهُ ذَكَرَهُ مِنْ وَصْفٍ (١).

وَأَمَّا النَّسَبُ؛ فَأَنْ تَقُولَ: أَبُوهُ نَبْطِي أَوْ هِنْدِي أَوْ فَاسِقِي أَوْ حَسِيْسِي أَوْ إِسْكَافِي (٢) أَوْ زَبَّالِي أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الْخُلُقُ؛ فَأَنْ تَقُولَ: هُوَ سَيِّءُ الْخُلُقِ بِخَيْلٍ، مُتَكَبِّرٍ، مُرَاءٍ، جَبَانٍ، عَاجِزٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَأَمَّا فِي أَعْمَالِهِ الْمَتَعَلِّقَةِ بِالذِّينِ، فَقُولُكَ: كَاذِبٌ، شَارِبٌ، خَائِنٌ (٣)، ظَالِمٌ، مَتَهَاوِنٌ بِالصَّلَاةِ، لَا يُحْسِنُ أَنْ يُصَلِّيَ، لَا يَحْتَرِزُ عَنِ النَّجَاسَاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَأَمَّا أَعْمَالُهُ الْمَتَعَلِّقَةُ بِالدُّنْيَا؛ فَكَقُولُكَ: إِنَّهُ سَيِّءُ الْأَدَبِ، كَثِيرُ الْكَلَامِ، كَثِيرُ الْأَكْلِ، لَا يَرَى لِأَحَدٍ حَقًّا.

وَأَمَّا فِي ثَوْبِهِ؛ فَمِثْلُ أَنْ تَقُولَ: هُوَ طَوِيلُ الذَّلِيلِ، وَاسِعُ الْكُمِّ، وَسَخِ الثِّيَابِ.

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْغِيْبَةَ ذِكْرُ مَا فِي الْإِنْسَانِ مَا أَخْبَرْنَا بِهِ ابْنَ الْحُصَيْنِ قَالَ: أَخْبَرْنَا ابْنَ الْمَذْهَبِ قَالَ: أَخْبَرْنَا أَبُو بَكْرٍ بِنِ مَالِكٍ قَالَ: أَخْبَرْنَا عَبْدُ اللَّهِ بِنِ أَحْمَدَ قَالَ:

(١) فِي (ظ): (وَصَفَهُ).

(٢) الْإِسْكَافُ: صَانِعُ الْأَحْذِيَةِ وَمُصْلِحُهَا.

(٣) فِي (ظ): (جَائِرٌ).

حدثني أبي قال: حدثنا عَفَّان قال: حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم قال: حدثنا العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قيل له: ما الغيبة يا رسول الله؟ قال: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بما يكره». قال: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول أي رسول الله؟ قال: «إن كان في أخيك ما تقول فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتَه»<sup>(١)</sup>.

أخبرنا ظَفَر<sup>(٢)</sup> بن علي قال: أخبرنا طلحة بن الحسين الصالحاني قال: أخبرنا محمد بن عبد الله بن أحمد بن ريذة قال: أخبرنا سليمان بن أحمد الطبراني، قال: حدثنا إدريس بن عبد الكريم قال: حدثنا عاصم بن علي قال: حدثنا أبي عن المثنى ابن الصباح عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن معاذ بن جبل قال: كنت عند النبي ﷺ، فذكروا عنده رجلاً، فقالوا: ما أعجزه. فقال النبي ﷺ: «اغتبتم أخاكم». قالوا: يا رسول الله، قلنا ما فيه! قال: «إن قلت ما ليس فيه فقد بهتتموه».

(١) أخرجه أحمد (٧١٤٦) و(٨٩٨٥).

(٢) تحرفت في (ظ) إلى: (مظفر).

## بيان

### أَنَّ الْغَيْبَةَ لَا تَقْتَصِرُ عَلَى اللِّسَانِ

اعلم أنَّ الذِّكْرَ بِاللِّسَانِ إِنَّمَا حَرُمَ لِأَنَّ فِيهِ تَفْهِيمَ الْغَيْرِ نَقْصَانِ أَحْيَاكَ، فَالْتَّعْرِضُ بِذَلِكَ كَالْتَّصْرِيحِ مِنَ الْإِشَارَةِ وَالْإِيمَاءِ وَالْعَمَزِ وَكُلِّ مَا يَفْهَمُ مِنْهُ مَقْصُودَ الذَّمِّ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي الْغَيْبَةِ، فَهُوَ حَرَامٌ.

وَقَدْ حَكَتْ عَائِشَةُ امْرَأَةٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَتْ قِصْرَهَا، فَقَالَ: «قَدْ اغْتَبَيْتِهَا».

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَا يَسْرُنِي أَنِّي حَكَيْتُ إِنْسَانًا»<sup>(١)</sup> وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا».

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْغَيْبَةُ بِالْكِتَابِ، فَإِنَّ الْقَلَمَ أَحَدُ اللِّسَانَيْنِ، مِثْلُ أَنْ يَذْكَرَ الْمُصَنِّفُ شَخْصًا مُعَيَّنًا وَيُهْجَنَ<sup>(٢)</sup> كَلَامَهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَكَرُ ذَلِكَ غَيْرَ مَذْمُومٍ، فَإِنْ قَالَ: قَالَ قَوْمٌ كَذَا، وَلَمْ يُدْرَ مَنْ الْقَائِلِ فَلَيْسَ بِغَيْبَةٍ، فَإِنْ فَهِمَ الْمُشَارُ إِلَيْهِمْ فَهُوَ غَيْبَةٌ.

وَأَخْبَتْ أَنْوَاعَ الْغَيْبَةِ غَيْبَةَ الْمُتَزَهِّدِينَ الْمُرَائِينَ، فَإِنَّهُمْ يَجْمَعُونَ بَيْنَ ذَمِّ الْمَذْكَورِ وَمَدْحِ أَنْفُسِهِمْ، وَلَا يَدْرُونَ بِجَهْلِهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ جَمَعُوا بَيْنَ فَاحِشَتَيْنِ: الْغَيْبَةَ وَالرِّيَاءَ، مِثْلُ أَنْ يُذْكَرَ عِنْدَهُمْ إِنْسَانٌ فَيَقُولُونَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلِنَّا بِالذَّخُولِ عَلَى السُّلْطَانِ وَالتَّبَدُّلِ فِي طَلْبِ الْحُطَامِ. أَوْ يَقُولُونَ: نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ قِلَّةِ الْحَيَاءِ، نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَعِصِمَنَا مِنْهُ.

وَإِنَّمَا مَقْصُودُهُمْ تَفْهِيمَ عَيْبِ الْغَيْرِ، وَقَدْ يُقَدِّمُونَ مَدْحَ الْمَذْكَورِ قَبْلَ غَيْبَتِهِ، فَيَقُولُونَ: مَا أَحْسَنَ مَا كَانَتْ أَحْوَالُ فُلَانٍ، مَا كَانَ يُقْصِرُ فِي الْعِبَادَاتِ، لَكِنْ قَدْ

(١) فِي الْأَصْلِ: (أَحَدًا).

(٢) هَجَنَ كَلَامَهُ: صَارَ مَعِيًّا مَرْدُولًا.

اعتراه فُتورٌ وابتُلِيَ بما لا نَسَلُمُ نحنُ منه من قِلَّةِ الصَّبْرِ. فيذُكِّرونَ أنفُسَهم ومَقصودُهُم ذمُّ غيرِهِم ومدحُ أنفُسِهِم<sup>(١)</sup> بالتَّشْبُهَةِ بالصَّالِحِينَ في ذمِّ النُّفوسِ، فيجمعونَ بينَ الغِيبَةِ والرِّياءِ وتزكيةِ النَّفْسِ، ويظنُّونَ أنَّهم من المُتَعَفِّفِينَ عن الغِيبَةِ.

وربَّما ذُكِّرَ عَيْبُ إنسانٍ فلم يَتَنَبَّهُ له بعضُ الحاضِرِينَ، فيقول المُتَزَهِّدُ: سُبْحانَ الله، ما أعجَبَ هذا! لِيَتَنَبَّهُ على الحالِ مَنْ لم يَدِرْ، وربَّما قال: لقد ساءَني ما قد جرى على صديقنا فلان من الاستخفافِ به<sup>(٢)</sup>، فنسألُ الله تعالى أن يُروِّحَ سِرَّهُ. ويكونُ كاذباً في دعوى الاغْتِمامِ، وفي إظهارِ الدُّعاءِ، إذ لو قَصَدَ الدُّعاءَ لأخفاه في خَلوةٍ، ولو كان صادقاً في الاغْتِمامِ لاغْتَمَّ بإظهارِ حالِ الرَّجلِ، وربَّما قال: ذلك المسكينُ قد بُلِيَ بِآفَةٍ عَظِيمَةٍ تابَ اللهُ علينا وعليه. فهو يُظهِرُ الدُّعاءَ له ويُخْفِي قَصده.

ومن ذلك الإصغاءُ إلى الغِيبَةِ على سَبِيلِ التَّعَجُّبِ، فإنَّه إنَّما يُظهِرُ التَّعَجُّبَ ليزيدَ نَشاطَ المُعْتابِ في الغِيبَةِ، فيندفعُ فيها، فكأنَّه يَسْتخرجُ الغِيبَةَ منه بهذا الطريقِ، فيقول: عجيب! ما علمتُ أنَّه كذلك، ما عرفته إلى الآن إلا بالخيرِ، كنتُ أحسبُ فيه غيرَ هذا! عافانا اللهُ من بلائِهِ.

واعلم أنَّ المُسْتَمعَ شَرِيكَ القائلِ، ولا يتخلَّصُ المُسْتَمعُ من إثمِ سماعِ الغِيبَةِ إلا أن يُنكرَ بلسانه فإن خافَ فبقلبه، وإن قدر على القيامِ أو قطعَ الكلامِ بكلامِ آخرٍ لزمه ذلك، وإن قال بلسانه: اسكُتْ وقلبه يَشْتَهِي الغِيبَةَ، فذلك نِفاقٌ ولا يَكفي أن يُسكُتَ القائلُ بأن يُشيرَ إليه بيده أو بحاجبه؛ لأنَّ ذلك استحقاقٌ للمذكورِ، بل ينبغي أن يُعظمه فيذُبُّ عنه صريحاً، وقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أذَلَّ عنده مؤمناً وهو يقدر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله على رؤوس الخلائق».

وقال: «من ذبَّ عن عرض أخيه بالمَغِيبَةِ، كان حقاً على الله أن يُعْتِقَهُ من النَّارِ».

(١) في (ظ): (نفوسهم).

(٢) ليست في (ظ).

وقال: «ما من امرئٍ<sup>(١)</sup> يَحْذُلُ امرأً مسلماً في موطنٍ تُنتَهكُ فيه حرمة، ويُنتقص فيه من عرضه إلا حَذَلَهُ اللهُ عز وجل في موطنٍ يحب فيه نُصرتَه، وما من امرئٍ مُسلمٍ يَنْصُرُ امرأً مسلماً في موطنٍ يُنتقص فيه من عرضه وتُنتَهكُ فيه حرمة إلا نَصَرَهُ اللهُ عز وجل في موطنٍ يُحِبُّ فيه نُصرتَه»<sup>(٢)</sup>.

وقال: «مَنْ حَمَى مُؤمناً من مُنافِقٍ يَعِيبُهُ بعث اللهُ عزَّ وجلَّ مَلَكاً يَحْمِي لحمه يوم القيامة من نارِ جَهَنَّمَ، ومن بَغَى<sup>(٣)</sup> مسلماً بشيءٍ يُريد به شَيْنَهُ حَبَسَهُ اللهُ على جِسْرِ جَهَنَّمَ حتى يخرج مِمَّا قال»<sup>(٤)</sup>.

وقال مولى لعمر بن عُتبة: رأني عمرو وأنا مع رجلٍ وهو يَقَعُ في آخر، فقال لي: ويلك! نَزَّهَ سَمْعَكَ عن استماعِ الحَنَا كما تُنَزَّهُ لسانك عن القَوْلِ به، فإن المُسْتَمَعَ شَرِيكُ القائل، وإِنَّمَا نَظَرَ إلى شَرِّ ما في وعائِهِ فأفرغَهُ في وعائك، ولو رددتَ كلمةً سَفِيهَ في فيه، لسعد بها رادُّها كما شَقِيَ بها قائلُها.

وقد وَرَدَت أحاديثٌ في حَقِّ المسلم على المسلم ووجوب نُصرتَه، قد تَقَدَّمت في كتاب آداب<sup>(٥)</sup> الصُّحْبَةِ.

(١) بعدها في (ظ): (مسلم).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٣٦٨)، وأبو داود (٤٨٨٤)، والطبراني في الكبير (٤٧٣٥)، وأبو نعيم في الحلية ١٨٩/٨، والبيهقي في السنن ١٦٧/٨ - ١٦٨، وابن أبي الدنيا في الصمت وآداب اللسان (٢٤١) من حديث جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل.

(٣) بَغَى: طلب.

(٤) أخرجه أحمد (١٥٦٤٩)، وأبو داود (٤٨٨٣)، وابن المبارك في الزهد (٦٨٦)، والطبراني في الكبير ٢٠/٤٣٣، وأبو نعيم في الحلية ١٨٨/٨، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٦٣١)، والبغوي في شرح السنة (٣٥٢٧) من حديث معاذ بن أنس الجهني.

(٥) سقطت من (ظ).

## بَيَان

### الأسباب الباعثة على الغيبة

البواعث على الغيبة كثيرة، ولكن يجمعها أحد عشر سبباً، ثمانية تَطَرَّدُ في حق العامة، وثلاثة تَخْتَصُّ بأهل<sup>(١)</sup> الدين والخاصة.

أما الثمانية:

فالأول: تَشْفِي العَيْظُ وذلك أنه يجري من الإنسان سببٌ يوجب غيظَ هذا الآخر، فكلما هاجَ غَضْبُهُ تَشْفَى بغيبة ذاك، وقد يَحْتَقِنُ غَيْظُهُ في باطنه فيصير حقدًا ثابتًا فيكون سبباً لذكر المَسَاوئِ دائماً، فالغضبُ والحقد من البواعث العظيمة على الغيبة.

الثاني: مُوَافَقَةُ الأَقْرَانِ ومجاملة الرُفقاء ومُساعدتهم على الكلام، فإنهم إذا كانوا يَتَفَكَّهُونَ بذكر الأعراض رأى هذا أنه إن أنكر أو قطع كلامهم اسْتَقْلَوْهُ ونفروا عنه، فيُساعدُهُم ويرى ذلك من حُسْنِ المعاشرة.

الثالث: أن يَسْتَشعر من إنسانٍ أنه سَيَقْصِدُهُ وَيَسْطُرُ لسانه فيه، أو يُقْبِحَ حاله عند مُحْتَسِمٍ، فيبادره قبل ذلك بالطعن فيه، لئلا يَبْقَى لشهادته أثر، وقد يبتدئ بالصدق في شرح حال من يَغْتَابُهُ ليكذب عليه بعد ذلك فيروج كذبه بالصدق الأول، ويقول: ما من عادتي الكذب، فقد أخبرتكم بحاله وكان كما قلت.

والرابع: أن يُنْسَبَ إلى شيءٍ فيُرِيدُ أن يَتَبَرَّأَ منه، فيذكر الذي فعله أو الذي شاركه فيه ليمهّد بذلك عُذْرَ نفسه، ولو أنصف لاقتصر على تنزيه نفسه فقط.

والخامس: إرادة التَّصْنُعِ والمُبَاهَاةِ، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول: فلان جاهل، وفهمه ركيك، وكلامه ضعيف. وغرضه أن يُثَبِّتَ في ضمن ذلك فَضْلَ نفسه، ويُرِيهم أنه أعلم منه، أو يَحْذَرُ أن يُعْظَمَ مثل تعظيمه، فيقدح فيه لذلك.

(١) تحرفت في (ظ) إلى: (بأمر).

والسادس: الحَسَد، وهو آتة ربما يَحْسُدُ من يُثني الناسُ عليه ويُحبونه ويكرمونه، ويثقل عليه سَماع ثنائهم عليه وإكرامهم له فيريد زوال تلك النعمة عنه، فلا يجدُ سبيلاً إلى ذلك إلا بالقَدْح فيه، وهذا هو الحَسَد، ويُفارقُ الغَضَبَ والحقْدَ؛ لأنَّ ذلك يَسْتَدْعِي جنائياً من المغضوب عليه، والحسدُ قد يكون مع الصديقِ المُحسِنِ والقريبِ المُوافقِ.

والسابع: اللَّعْبُ والهَزْلُ والمُطايِبَةُ وتَزجِيَةُ الوقتِ بالصَّحْكِ، فيذكر غيره بما يُضحكُ الناسَ به على سبيل المحاكاة، وقد رأينا مَنْ كان كسبه من هذا، فكان يعيبُ القراءَ، والوعاظَ، والباعةَ، والأعاجمَ وغيرهم.

والثامن: السُّخْرِيَّةُ والاستِهْزاءُ استحقاراً له ومنشؤُ ذلك التَّكْبُرُ<sup>(١)</sup> واستصغار المستهزء به.

أما الأسبابُ الثلاثةُ التي في الخاصَّة، فهي أغمضُها وأدقُّها؛ لأنها شرورٌ أخرجها الشيطان في معرض الخير.

الأول: التَّعَجُّبُ، فيقول: ما أعجب ما رأيتُ من فلانٍ! فإنه قد يكون صادقاً<sup>(٢)</sup>، ويكون تعجبه من المنكر، ولكن كان حقُّه أن يتعجب ولا يذكر اسم الرجل، فسَهَّلَ عليه الشيطانُ ذكر اسمه في تعجبه، فصار بذلك مُغتَاباً، وكذلك قولُ الرجل: تعجبتُ من فلانٍ كيف يُحب جاريتَه وهي قبيحة، وكيف يجلسُ بينَ يدي فلانٍ وهو جاهلٌ.

والثاني: الرَّحْمَةُ، وهو أن يَغْتَمَّ بسبب ما ابتلي به إنسانٌ فيقول: مسكينٌ فلانٌ قد غمَّني أمرُه وما ابتلي به. فيكون صادقاً في اغتمامه، ويُلْهِمُه الغمُّ عن الحذر عن ذكر اسمه فيذكره، فيصير مغتَاباً، فيبطل ثواب اغتمامه بغيته.

الثالث: الغَضَبُ لله، فإنه قد يَغْضِبُ على مُنْكَرٍ قارفه إنسانٌ، فيُظْهِرُ غَضَبه ويذكر اسم الرجل فيعلم بالرجل مَنْ لم يعلم.

(١) في (ظ): (الكبير).

(٢) في الأصل: (صدقا).

## بيان

## العلاج الذي به يُمنع اللسان من الغيبة

اعلم أن مساوي الأخلاق كلها إنما تُعالج بمَعجونِ العلم والعمل، وإنما علاج كل علةٍ بمضادةٍ سببها فلنُفحص عن سببها.

وعلاجُ كَفِّ اللسان عن الغيبة على وجهين: أحدهما على الجملة، والآخر على التفصيل.

أما على الجملة: فهو أن يعلم تعرُّضه بالغيبة لسخطِ الله عز وجل ومقته، وأنها تُنقلُ حسناته إلى من اغتابه، فإن لم تكن له حسناتٌ نُقلَ إليه من سيئاتِ خصمه، فمن آمنَ بذلك لم ينطلق<sup>(١)</sup> لسانه بالغيبة، وينفعه إذا عرَّضت له الغيبة أن يتفكَّر في عُيوب نفسه فيشتغل بإصلاحها، أو أن<sup>(٢)</sup> يستحي من أن يعيبَ عليه<sup>(٣)</sup> وهو معيب، كما قال الشاعر:

فإن عبتَ قوماً بالذي فيك مثله فكيف يعيبُ العور<sup>(٤)</sup> من هو أعورُ  
وإن عبتَ قوماً بالذي ليسَ فيهمُ فذلك عندَ الله والناسِ أكبرُ

فإن لم يجد في نفسه عيباً تشاعَلَ بالشكر، ولم يلوث نفسه بأقبح العيوب وهو الغيبة، على<sup>(٥)</sup> أن ظنَّه<sup>(٥)</sup> أنه سليم من العيوب أعظمها.

وينفعه أن يعلم أن تألم غيره لغيبته كتألمه بغيبة غيره له فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يُغتَابَ، فينبغي أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه، فهذه مُعالجاتٌ جُمليَّة.

(١) في (ظ): (ينطق).

(٢) ليست في الأصل.

(٣) ليست في (ظ).

(٤) في (ظ): (الناس).

(٥-٥) سقط من الأصل.

وأما التّفصيل: فهو أن يَنظُر في السّبب الباعث له على الغيبة، فإنّ علاج العلة يَقطع سببها، وقد قدّمنا ذكر الأسباب.

فأما الغضب، فيُعالجه بما سيأتي في كتاب آفات<sup>(١)</sup> الغضب.

وجملته: أن يقول: إن أمضيتُ غَضبي على هذا الشّخص فرّبما أمضى الله عليّ غَضبه بسبب غيبتني إياه، إذ نهاني عنه، وقد جاء في بعض كُتب الله تعالى: (يا ابن آدم، اذكرني حين تغضب، اذكرك حين أغضب، فلا أمحُك فيمن أمحَق).

وأما الموافقة للجلاس<sup>(٢)</sup> فمُعالجتها بأن يعلم أن الله تعالى يَغضب على من طلب رضا المخلوقين بسَخَطه<sup>(٣)</sup>، فكيف يرضى أن يوقر جلساءه ويستتهين بأمر ناهيه؟! بل ينبغي أن تغضب على رُفقاءك لله إذ عَصَوْه، وعلى نحو هذا مُعالجة البواقِي.

والعَجَبُ لمن يقصد إقامة جاهه بدم غيره، ويُنسى أنه قد ابتدأ بإسقاط جاهه عند ربّه، ولمن يذمُّ شخصاً بين نفرٍ ويُنسى أنه يشتهر بالعقوبة غداً بين الخلائق.

(١) في الأصل: (آفة).

(٢) في (ظ): (للخلائق).

(٣) في الأصل: (بغضبه).

## بيان

### تحريم الغيبة بالقلب

اعلم أنّ غيبة القلب سوء ظنّه بالمسلمين والظنّ ما تركنُ إليه النفس ويميلُ إليه القلب، وقد قال الله عزّ وجل: ﴿أَجْنَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِتْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وليس لك أن تظنّ بالمسلم شرّاً إلا إذا انكشف أمرٌ لا يحتمل التأويل، وكل دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها، وعلامة مُساكنة القلب لهذا الظنّ أن يتغيّر القلب معه عمّا كان عليه فينفر عنه ويستثقله، فأما إذا أخبرك بذلك عدلٌ، فمال ظنك إلى تصديقه كنت معذوراً؛ لأنك لو كذبتَه لكنتَ جانباً على هذا العدل إذ ظننتَ به الكذب وذلك أيضاً من سوء الظنّ، فلا ينبغي أن تُحسن الظنّ بواحدٍ وتُسيئه بالآخر، بل ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوةٌ وحسدٌ فتطرّق إليه<sup>(١)</sup> بسبب ذلك.

ومتى خطر لك خاطر سوء على مسلم فينبغي أن تزيد في مُراعاته وتدعو له بالخير، فإنّ ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك، فلا يُلقي إليك خاطر السوء خيفةً من اشتغالك بالدعاء والمُراعاة.

فإذا تحقّقت هفوة مسلم فأنصحه في السرّ ولا تغيّبه، فإذا وعظته فلا تعظّه وأنت مسرورٌ باطلاعك على نقصه ليُنظر إليك بعين التعظيم، ويُنظر إليه بعين الاستِصغار وترتفع عليه بدالة<sup>(٢)</sup> الوعظ، وليكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزينٌ، كما تحزنُ على نفسك إذا دخلَ عليك نقصان.

وينبغي أن يكون تركه لذلك من غير نصيحتك أحبّ إليك من تركه بالنصيحة،

(١) في (ظ): (إليهما).

(٢) في الأصل: (بدلالة).

فإذا فعلت ذلك كُنْتَ قد جمعتَ بين أجرِ الوعظِ وأجرِ العَمِّ لِمُصِيبَتِهِ<sup>(١)</sup> وأجرِ الإعانةِ له على دينه .

ومن ثمراتِ سوءِ الظَّنِّ التَّجَسُّسُ، فَإِنَّ القلبَ لا يَقنعُ بالظَّنِّ وَيطلبُ التَّحْقِيقَ، فيشتغلُ بالتَّجَسُّسِ، وذلكَ مَنهِيٌّ عنه؛ لِأَنَّهُ يوصلُ إلى هَتَكِ سِتْرِ المُسْلِمِ، ولو لم ينكشفِ كانَ قَلْبِكَ<sup>(٢)</sup> أَسْلَمَ للمسلم .

وقد ذكرنا التَّجَسُّسَ في كتابِ الأمرِ بالمعروفِ .

(١) في الأصل: (بمصيبته).

(٢) تحرفت في الأصل إلى: (عليك).

## بيان

### الأعذار المرخصة في الغيبة

اعلم أنّ المرخص في ذكر مساوئ الغير عرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل إليه إلا به، فيدفع ذلك إثم الغيبة، وذلك ستة أشياء:

الأول: التظلم، فإن من ذكر قاضياً بالظلم والخيانة وأخذ الرشوة كان مغتتاباً عاصياً، فأما المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلم إلى السلطان وينسبه إلى الظلم، إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا بذلك، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إنّ لصاحب الحقّ مقالاً». وقال: «مظلّ الغنيّ ظلم»،

وقال: «ليّ الواجدٍ يحلّ عرضه وعقوبته».

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر وردّ العاصي إلى منهاج الصلاح، ومتى لم يكن هذا المقصود، كان حراماً.

الثالث: الاستفتاء، مثل أن يقول للمفتي: قد ظلمني أبي أو أخي، فكيف طريقي في الخلاص؟

والأسلم التعريض، وهو أن يقول: ما تقول في رجل ظلمه أبوه أو أخوه؟ وإن كان التعيين<sup>(١)</sup> مباحاً لهذا العذر، كما قالت هند: إن أبا سفيان رجلٌ شحيحٌ، فلم يزرّها رسولُ الله ﷺ، لأن قصدها الاستفتاء.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر، مثل أن ترى متفقهاً يتردد<sup>(٢)</sup> إلى مبتدع أو فاسق وتخاف أن يتعدى إليه ذلك الشر<sup>(٣)</sup> فلك أن تكشف له الحال، وكذلك لو

(١) في (ظ): (التغيير).

(٢) في الأصل: (متردداً).

(٣) ليست في (ظ).

عرفت من عبدك السرقة أو الفسوق، فلك أن تذكر ذلك للمشتري؛ لأن مراعاة جانبه أولى من مراعاة جانب العبد، وكذلك المزكي إذا سئل عن الشاهد فله الطعن، وكذلك المستشار في التزويج وإيداع الأمانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقعة، إذا علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح، وإن علم أنه يترك التزويج بمجرد قوله: لا يصلح لك، فهو الواجب.

الخامس: أن يكون الإنسان معروفاً بقلبٍ يعربُ به عن عيبه، كالأعرج والأعمش، فلا إثم على من يذكره بما قد عرف به، ولو وجد عن ذلك معدلاً كان أولى.

السادس: أن يكون مجاهراً بالفسوق، كالمخنث والمجاهر بشرب الخمر ومصادر الناس، وكان ممن يتظاهر بذلك ولا يستنكف من أن يذكر له. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له».

قال الحسن: ليس لمبتدع غيبة، وليس بينك وبين الفاسق حرمة.

وقيل له: الفاجر المعلن بفجوره، ذكري له بما فيه غيبة؟ قال: لا، ولا كرامة.

## بيان

## كفارة الغيبة

اعلم أنّ المُغتَابَ قد جَنَى جِنَايَتَيْنِ :

إحداهُمَا : على حقّ الله تعالى، إذ فعل ما نهاه عنه، فكفارة ذلك التّوبة والنّدم.

الثانية: على عرض المخلوق، فإن كان الغيبة قد بلغت الرّجل، جاء إليه فاستحلّه ودلّ له وأظهر النّدم على فعله، فقد أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الدّاودي قال: أخبرنا ابنُ أَعِين قال: حدّثنا الفِرْبَرِي قال: حدّثنا البُخاري قال: حدّثنا إسماعيل قال: حدّثنا مالك قال: حدّثني سعيد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ فِي مَالٍ أَوْ عَرَضٍ فَلْيَأْتِهِ فَلْيَسْتَحِلِّهَا مِنْهُ قَبْلَ أَنْ تُؤْخَذَ وَلَيْسَ عِنْدَهُ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَتْ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَأَعْطِيهَا هَذَا، وَإِلَّا أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ هَذَا فَأَلْقَيْتَ عَلَيْهِ».

وإن كانت الغيبة لم تَبْلُغْه جعل مكان استِحلاله الاستغفار له، لئلا يُخبره بمالم يعلم به فيوغر صدره. فقد روى أنسُ بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «كفارة مَنْ اغْتَبَتَ<sup>(١)</sup> أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُ».

وقال مُجاهد: كفارة أكلك لحم أخيك أن تُثني عليه وتدعو له بخير. وكذلك إن كان قد مات.

فأمّا قول أبي ضَمُصَم: وَقَدْ تَصَدَّقْتُ بِعَرَضِي.. فمعناه: أني لا أطلب به في يوم<sup>(٢)</sup> القيامة من تناول له، لا أن التناول يحلُّ.

## الآفة السادسة عشرة: النّميمة

قال الله عز وجل: ﴿هَمَّازٍ مَشَامٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١].

(١) في (ظ): (اغْتَبَت).

(٢) ليست في (ظ).

أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي، قال: أخبرنا ابن أعين قال: حدثنا الفِرْبَرِيُّ قال: حدثنا البُخَارِيُّ قال: حدثنا أبو نُعَيْمٍ قال: حدثنا سُفْيَانُ عن مَنْصُورٍ عن إبراهيم عن هَمَّامِ بن الحارث قال: كُنَّا عند حُدَيْفَةَ فُقَيْلٍ: له إن فلاناً يرفع إلى عثمان الأحاديث، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قَتَاتٌ». أخرجاه في الصحيحين، وفي بعض ألفاظه: «لا يدخل الجنة نَمَامٌ».

وأخرجنا من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه مرَّ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان، وما يُعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من بوله، وأما الآخر فكان يمشي بين الناس بالنميمة».

وروت أسماء بنت يزيد عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أخبركم بشراكم؟» قالوا: بلى. قال: «المشائون بالنميمة، المُعْرُون بين الأَجَبَةِ، الباغون للبراء العنت».

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «تجدون من شرار عباد الله عز وجل يوم القيامة ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بحديث هؤلاء، وهؤلاء بحديث هؤلاء».

## فصل

واعلم أنَّ النَّمِيْمَةَ تُطْلَقُ فِي الْأَغْلَبِ عَلَى نَقْلِ قَوْلِ إِنْسَانٍ فِي إِنْسَانٍ مِثْلَ أَنْ يَقُولَ لَهُ: قَالَ فَيْكَ فُلَانٌ كَذَا وَكَذَا. وَلَيْسَتْ النَّمِيْمَةُ مَخْصُوصَةً بِهَذَا، بَلْ حَدُّهَا كَشَفُ مَا يَكْرَهُ كَشْفُهُ، سِوَاءَ كَانَ مِنَ الْأَقْوَالِ أَوْ مِنَ الْأَعْمَالِ حَتَّى لَوْ رَأَاهُ يَدْفِنُ مَا لَأَنْفُسِهِ فَذَكَرَهُ فَهُوَ نَمِيْمَةٌ.

والباعثُ على النَّمِيْمَةِ إما إِرَادَةُ السُّوْءِ بِالمَحْكِيِّ عَنْهُ، أَوْ إِظْهَارُ الحُبِّ لِلْمَحْكِيِّ لَهُ، أَوْ التَّفَرُّجُ بِالحَدِيثِ وَالمَخُوضِ فِي الفُضُولِ.

## فصل

وكلُّ مَنْ نُقِلَتْ إِلَيْهِ النَّمِيْمَةُ مِثْلَ أَنْ يَقَالَ لَهُ: قَالَ فَيْكَ فُلَانٌ كَذَا، أَوْ فَعَلَ فِي حَقِّكَ كَذَا، أَوْ هُوَ يُدَبِّرُ فِي إِفْسَادِ أَمْرِكَ، وَنَحْوِ هَذَا، فَعَلَيْهِ سِتَّةُ أَشْيَاءَ:

الأول: أَنْ لَا يُصَدِّقَ النَّاقلَ؛ لِأَنَّ النَّمَامَ فَاسِقٌ مُردودُ الشَّهَادَةِ قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنْ أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ﴾ [الحجرات: ٦].

الثاني: أن ينهأه عن ذلك وينصحه ويقبِّح له فعله، قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [لقمان: ١٧].

الثالث: أن يُبغِضه في الله، فإنه بغيض عند الله ويجبُ بغيض من يُبغِضه الله عزَّ وجل.

الرابع: أن لا يظنَّ بأخيه الغائب السوء؛ لقوله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢] وقد ثبت فسق هذا الناقل فلا تقويل على خبره.

والخامس: أن لا يحمله ما حكى له على التجسس والتبُّحث ليتحقَّق الأمر لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢].

السادس: أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النَّمام عنه، فلا تحكي نَميمته وتقول: فلانٌ قد حكى كذا وكذا، فتكون بهذا نَماماً ومُغتتاباً، فتكون قد أتيت بما عنه قد نهيت.

وقال سليمان بن عبد الملك لرجل: بلغني أنك وقعت في، وقلت كذا وكذا. فقال الرجل: ما فعلت ولا قلت. فقال سليمان: إن الذي أخبرني صادق. فقال الزُّهري: النَّمام لا يكون صادقاً، فقال سليمان: صدقت، اذهب بسلام.

وقال الحسن: مَنْ نَمَّ إِلَيْكَ<sup>(١)</sup> نَمَّ عَلَيْكَ. وهذا إشارة إلى أنَّ النَّمام ينبغي أن يُبغِض ولا يُوثق بصداقته، وكيف لا يُبغِض وهو لا ينفك عن الكذب والغيبة والغدر والخيانة والغلِّ والحسد والنِّفاق والإفساد بين الناس والخديعة، وهو ممن يسعى في قطع ما قد أمر به أن يوصل.

وروي عن علي رضي الله عنه أنَّ رجلاً أتاه يسعى إليه برجل، فقال: يا هذا، نحن نسأل عما قلت، فإن كنت صادقاً مَقْتَنَّاكَ، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أن نُقِيلَكَ أَقْلَنَّاكَ. قال: أَقْلَنِي يا أمير المؤمنين.

وقال كعب: اتَّقوا النَّميمة، فإنَّ صاحبها لا يستريح من عذاب القبر.

(١) في الأصل: (لك).

وقال رجل لرجل: إن فلاناً يذكرك بسوءٍ. فقال: ما رعيت حقَّ مُجالسة الرجل حيث نقلت حديثه إلينا، ولا أديت حقنا حين أبلغتنا، أعلمه أن الموت يعمنا، والقبر يضمننا، والله يحكم بيننا، وهو خير الحاكمين.

وذكرت السُّعابة عند بعض الحكماء، فقال: ما ظنك بقومٍ يُحمدُ الصّدق من كل طبقةٍ إلا منهم.

وقال يحيى بن أبي كثير: يُفسد النّمام في ساعةٍ ما لا يفسد السّاحر في شهر.

أخبرنا علي بن محمد بن حسنّون قال: أخبرنا أبو محمد بن أبي عثمان قال: أخبرنا القاضي أبو القاسم بن المنذر قال: أخبرنا الحسين بن صفوان قال: حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا قال: حدثنا إبراهيم أبو إسحاق قال: حدثنا زيد بن عوف قال: حدثنا حماد بن سلمة عن حميد أن رجلاً ساومَ بعبدٍ فقال مولاه: إنني أبرأ إليك من النّميمة فقال: نعم، أنت بريءٌ منها. قال: فاشتراه فجعل يقول لمولاه: إن امرأتك تبغي، وتفعل وتفعل، وإنها تُريد أن تقتلك. ويقول للمرأة: إن زوجك يُريد أن يتزوّد عليك ويتسرّى<sup>(١)</sup> فإن أردت أن أعطفه عليك فلا يتزوج عليك ولا يتسرّى فخذي موسى واحلقي شعره من خلفه إذا نام. وقال للزوج: إنها تُريد أن تقتلك إذا نمت. قال: فذهب فتناوم لها، فجاءت بموسى لتحلق شعره من خلفه، فأخذ بيدها فقتلها، فجاء أهلها فاستعدوا عليه فقتلوه.

### الآفة السابعة عشرة: كلام ذي اللسانين

الذي يتردد بين المتعادين وينقل كلام واحد في الآخر إليه، ويكلّم كل واحد بكلام يوافقه، أو يعده بأن ينصره، أو يثني على الواحد في وجهه، ويذمه عند الآخر.

وفي الصّحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن شرّ الناس ذو الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجهٍ وهؤلاء بوجهٍ».

(١) يتسرّى: أي يشتري سرّية، وهي الجارية يصيبها.

وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان له لسانان في الدنيا جعل له لسانان من نار يوم القيامة».

وفي أفراد البخاري أنه قيل لابن عمر: إننا ندخل على أمرائنا فنقول القول، فإذا خرجنا قلنا غيره؟! فقال: كُنَّا نَعُدُّ هذا على عهد رسول الله ﷺ من النفاق.

واعلم أن هذا فيمن لم يُضطرَّ إلى ذلك، فأما إذا اضطرَّ إلى مُدارة الأُمراء جازاً، ومتى قدر أن لا يُظهر موافقتهم لم يَجْزُ له، فلو صدَّق قولهم الباطل وحرَّكَ رأسه في معرض تقرير كلامهم الباطل، أو أثنى عليهم، فهو منافق، إلا أن يكون ذلك لضرورة أو إكراه يُباح الكذب بمثله.

قال أبو الدرداء: إننا لَنُكْشِرُ<sup>(١)</sup> في وجوه أقوام وإنَّ قلوبنا تلعنهم.

### الآفة الثامنة عشرة: المدح

وتدخُله سِتُّ آفات؛ أربع في المدح، واثنان في الممدوح.

فأمَّا آفات المدح:

فالأولى: أنه قد يقول ما لا يتحقَّقه، ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه، مثل أن يقول: إنه ورع، إنه زاهد.

أخبرنا ابنُ الحُصَيْن قال: أخبرنا ابنُ المُذَهَب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدَّثني أبي قال: حدثنا عَفَّان، قال: حدثنا وَهَّيب وَيَزِيد يعني ابن زُرَيْع قالوا: حدثنا خالد الحذاء عن عبد الرحمن بن أبي بكرة قال: مدح رجلٌ رجلاً عند النبي ﷺ فقال رسولُ الله ﷺ: «ويلك؟ قطعت عُنُقَ صاحبك<sup>(٢)</sup> - مراراً - إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة، فليقل: أحسب فلاناً، والله حسيبه، ولا أركبني على الله أحداً، أحسبه كذا وكذا، وإن كان يعلم ذلك». أخرجه في الصَّحِيحِين<sup>(٣)</sup>.

(١) لنكشر: أي يُظهر لهم الأُنس والفرح والضحك والملاطفة.

(٢) في (ظ): (أخيك).

(٣) أخرجه البخاري (٦١٦٢)، ومسلم (٣٠٠٠) (٦٥)، وأحمد (٢٠٤٦٢).

وقد رُوينا عن عُمَرَ أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يُثْنِي عَلَى رَجُلٍ فَقَالَ: أَسَافَرْتَ مَعَهُ؟ قَالَ: لا.؟ قَالَ: أَخَالَطُهُ قَالَ: لا. قَالَ: وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا تَعَرَّفَهُ.

والثانية: أَنَّهُ قَدْ يُفَرِّطُ فَيَنْتَهِي إِلَى الْكُذْبِ.

قال خالد بن معدان: من مدح أحداً بما ليس فيه على رؤوس الأشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر لسأته.

والثالثة: أَنَّهُ قَدْ يَدْخُلُهُ الرَّيَاءُ، فَإِنَّهُ بِالْمَدْحِ مَظْهَرٌ لِلْحَبِّ، وَقَدْ لَا يَكُونُ مُضْمَرًا لَهُ وَلَا مُعْتَقَدًا لِجَمِيعِ مَا يَقُولُهُ، فَيَصِيرُ بِهِ مُرَائِيًّا مُنَافِقًا.

والرابعة: أَنَّهُ قَدْ يَمْدَحُ مَنْ يَنْبَغِي أَنْ يُدَمَّ.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغْضِبُ إِذَا مُدِحَ الْفَاسِقُ».

وقال الحسن: مَنْ دَعَا لظالمٍ بِالْبَقَاءِ، فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُعْصَى اللَّهُ.

وأما الممدوح: فيضره من وجهين:

أحدهما: أَنَّهُ يُحَدِّثُ فِيهِ كِبْرًا وَإِعْجَابًا، وَهُمَا مُهْلِكَانِ، وَقَدْ رُوينا عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ عُمَرُ قَاعِدًا وَمَعَهُ الدَّرَّةُ، وَالنَّاسُ حَوْلَهُ إِذْ أَقْبَلَ الْجَارُودُ، فَقَالَ رَجُلٌ: هَذَا سَيِّدُ رَبِيعَةَ. فَسَمِعَهَا عُمَرُ وَمَنْ حَوْلَهُ، وَسَمِعَهَا الْجَارُودُ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ خَفَقَهُ بِالدَّرَّةِ، فَقَالَ: مَالِي وَلَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ: مَالِي وَلَكَ؟ أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُهَا. قَالَ: سَمِعْتُهَا، فَمَهْ<sup>(١)</sup>؟ قَالَ: خَشِيتُ أَنْ يُخَالَطَ قَلْبُكَ مِنْهَا شَيْءٌ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُطَاطِي مِنْكَ.

الثانية: أَنَّهُ إِذَا أُثْنِيَ عَلَيْهِ بِالْخَيْرِ رَضِيَ عَنِ نَفْسِهِ وَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ الْمَقْصُودَ فَفَتَرَ عَنِ الْعَمَلِ، وَإِنَّمَا يُشْمَرُ لِلْعَمَلِ مَنْ يَرَى نَفْسَهُ مَقْصُرًا، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ»<sup>(٢)</sup>.

(١) يعني: فأى شيء؟ وهي ما الاستفهامية حذفت ألفها عند الوقف، وجاءت في الأصل: (من فيه) وهو تحريف.

(٢) يعني في الحديث المتقدم قبل قليل.

وقال عمر: المدح ذبح. وهذا لأن المذبح يفتّر عن الحركة.

وأثنى رجل على عمر فقال: أتَهلكني وتُهلك نفسك!

واعلم أنه إذا سلم المدح من هذه الآفات لم يكن به بأس، فقد مدح رسول الله ﷺ، وقد أثنى رسول الله ﷺ على أبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة، إلا أنه لما كان ذلك حقاً ولم يُعَيَّر الممدوح حسناً.

### بيان ما على الممدوح

عليه أن يكون شديد الاختراز من آفة الكبر والعجب والفتور، ولا ينجو من هذه الآفات (إلا أن يعرف<sup>١</sup>) نفسه، ويتفكر في أن المادح لو عرف منه ما يعرف من نفسه ما مدحه، ثم يكون خائفاً من دقائق الرياء وآفات الأعمال، ثم يتأمل خطر الخاتمة، ثم يكره المدح.

قال مطرف: ما سمعتُ مدحتي إلا تصاغرت إلي نفسي.

وقال ابن عيينة: ليس يضر المدح من عرف نفسه.

وأثنى على رجل من الصالحين، فقال: اللهم إن هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني.

### الآفة التاسعة عشرة: في الغفلة عن دقائق الخطأ في

#### فحوى الكلام

لا سيما فيما يتعلّق بالله وصفاته، ويرتبط بأمر الدين، فلا يقدر على تقويم اللفظ فيه إلا العلماء الفصحاء، فمن قصر في علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل، لكن الله يعفو عنه لجهله.

مثال هذا: ما روى حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يقل أحدكم: ما شاء الله وشئت، ولكن ليقل: ما شاء الله ثم شئت». وذلك لأن في العطف المطلق تشريك أو تسوية، وذلك على خلاف الاحترام.

(١-١) تحرفت في الأصل إلى: (أن لا يعرف).

وقد روى ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ، فكلّمه، فقال: ما شاء الله وشئت. فقال رسول الله ﷺ: «أجعلتني لله عدلاً! بل ما شاء الله وحده»<sup>(١)</sup>.

وخطب رجلٌ عند رسول الله ﷺ فقال: مَنْ يُطع الله ورسوله فقد رُشد، ومَنْ يَعصهما فقد غوى. فقال ﷺ: «قل: ومَنْ يعص الله ورسوله». فكره قوله: ومن يعصهما؛ لأنه تسوية وجمع.

وقال ﷺ: «لا يُقل أحدكم: عبدي وأمتي، كُلّكم عبيد الله، وكلّ نسائكُم إماء الله، ولكن ليقل: غلامي وجاريتي».

وكره إبراهيم النخعي أن يقول الرجل: أعودُ بالله وبك. ورخص أن يقول: أعودُ بالله ثم بك. وكره أن يقول: لولا الله وفلان. ورخص أن يقول: لولا الله ثم فلان.

وقال أبو عمران الجوني: أدركتُ أربعةً من أفضل من أدركت كانوا يكرهون أن يقولون: اللهم أعتقنا من النار، ويقولون: إنّما يُعتق منها مَنْ دخلها، وكانوا يقولون: نعودُ بالله من النار.

وقال النخعي: إذا قال الرجل للرجل: يا حمار، يا خنزير، قيل له يوم القيامة: رأيتني خلقتُه حماراً؟ رأيتني خلقتُه خنزيراً؟ فهذا وأمثاله مما يدخل في الكلام ولا يمكن حصره، ومن تأمل ما أوردناه في آفات اللسان علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم، وعند ذلك يعرف سرّ قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ صَمَتَ نَجَا»؛ لأن هذه الآفات مهالك، وهي على طريق المتكلم، فإن سكت سلّم، وإن تكلم خاطر، إلا أن يرافقه علمٌ وورعٌ ومراقبةٌ، فمن لم يتيقن أنه بكلامه يعنم، فليسكت يسلم، فإنّ السلامة إحدى الغنيمتين.

### الآفة العشرون: سؤال العوام عن صفات الله سبحانه وكلامه

واعلم أنّ الشيطان يُخيل إلى العامي<sup>(٢)</sup>: إنك بخوضك في العلم تكون من العلماء وأهل الفضل، فلا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم بما هو كُفْرٌ، فلا

(١) ليست في الأصل.

(٢) في الأصل: (العوام).

يَدْرِي، والأولى بالعامي الإيمان بما ورد به القرآن، والتسليم لما جاء به الرسول ﷺ، من غير بحث، والإقبال على العبادات، فاشتغاله بالبحث عن أسرار العلم كبحث ساسة الدواب عن أسرار الملك.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، إذا نهيتكم عن شيء، فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر، فأتوا منه ما استطعتم».

وقال عليه الصلاة والسلام: «يوشك الناس أن يتساءلوا حتى يقولوا: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟».

فسؤال العوام<sup>(١)</sup> عن غوامض العلم من أعظم الآفات، ويحثهم<sup>(٢)</sup> عن معاني الصفات مما يفسدهم لا مما يصلحهم، إذ الواجب عليهم التسليم.

### آخر كتاب آفات اللسان



(١) تحرفت في الأصل إلى: (العامي).

(٢) في (ظ): (وسؤالهم).



## كتاب ذم الغضب

### والحقد والحسد

وهو الكتاب الخامس من رُبْع المهلكات

الحمدُ لله الذي لا ذَّ بَعَفُوهُ الخائِفون، وَحَذِرَ من عِقَابِهِ العارِفون، وانزَعَجَ لوَعِيدِهِ الآمِنون، ابْتَلَى عِبَادَهُ بتركِ ما يَشْتَهُون لِيَنْظُرَ كَيْفَ يَعمَلون، فأمرهم بِكَظْمِ الغَيْظِ حينَ يَغْضَبون، وبِمَحْوِ الحِقدِ حينَ يَحْقدون، وبِرَفْضِ الحَسَدِ لِمَن يَحْسدون، وَحَثَّهم على العُلا فكلُّ ما دونَ العُلا دونَ، وَمَدَحَ العافينَ حينَ يُبغى عليهم وَيُظلمون فقال: ﴿وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

أحمدُه على ما كان وَيكون، وأقرُّ له بالتَّوْحِيدِ إقراراً تُقرُّ بِهِ العُيون، وأصَلِّي على رسوله محمدٍ أشرفِ أُمِينٍ وخيرِ مأمون، وعلى آله وأصحابه وتابعيهم على القانون، وسلِّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فَإِنَّ العَضْبَ شُعْلَةٌ نارٍ اقْتَبَسَتْ من نارِ الله الموقَدَةِ، إلا أَنها لا تَطَّلِعُ إلا على الأفتدة، وإِنَّها لِمُسْتَكِنَةٌ في طَيِّ الفُؤادِ اسْتِكْنانَ الجَمْرِ في الرَّمادِ، ويستخرجها الكِبَرُ الدَّفِينِ في قلبِ كلِّ جَبَّارٍ عنيدٍ، كما يستخرجُ الحَجَرُ النّارَ مِنَ الحديدِ، وقد انكشَفَ للنَّاظِرِينَ بنورِ اليَقِينِ أَنَّ الإنسانَ ينزِعُ منه عرقٌ إلى الشَّيْطانِ اللَّعِينِ، فَمَن اسْتَفْرَزَتْهُ نارُ الغَضَبِ فقد قَوِيَتْ فِيهِ قَرابةُ الشَّيْطانِ حيثُ قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، فَإِنَّ شَأْنَ الطَّيْنِ السُّكونِ والوَقارِ، وشَأْنَ النّارِ

التَّلَطِّي والاشتعال والحركة والاضطراب، ومن نتائج العَظْب الحِقْدُ والحَسَدُ، وبهما هَلِكَ مَنْ هَلِكَ، وفسدَ مَنْ فسدَ، ومُفِيضُهُمَا مُضَغَةٌ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الجَسَدِ.

وإذا كان الحِقْدُ والحَسَدُ والعَظْبُ مِمَّا يَسوقُ العبدَ إلى مَوَاطنِ العَطَبِ، فما أحوجُه إلى معرفة مَعَاطِبِهِ ومساويهِ، لعلَّه يحذَرُ ذاكَ وَيَتَّقِيهِ، وَيُمِيطُهُ عَنِ القَلْبِ إِنْ كَانَ وَيُنْفِيهِ، وَيُعَالِجُهُ إِنْ رَسَخَ فِي قَلْبِهِ وَيُدَاوِيهِ؛ لِأَنَّ مَنْ لَا يَعْرِفُ الشَّرَّ يَقَعُ فِيهِ، وَمَنْ عَرَفَهُ فَالمعرفة لا تَكْفِيهِ ما لم يَعْرِفِ الطَّرِيقَ الَّذِي بِهِ يَدْفَعُ الشَّرَّ وَيُقْصِيهِ<sup>(١)</sup>.

ونحنُ نذكُرُ ذَمَّ العَظْبِ وآفاتِ الحِقْدِ والحَسَدِ فِي هَذَا الكِتَابِ وَيَجْمَعُهَا: بَيَانُ ذَمِّ العَظْبِ، ثُمَّ بَيَانُ حَقِيقَةِ العَظْبِ، ثُمَّ بَيَانُ هَلْ يُمَكِّنُ إِزَالَةَ أَصْلِ العَظْبِ بِالرِّيَاضَةِ أَمْ لَا، ثُمَّ بَيَانُ الأَسْبَابِ المُهَيِّجَةِ لِلعُظْبِ، ثُمَّ بَيَانُ عِلاجِ العَظْبِ بَعْدَ هَيِجَانِهِ، ثُمَّ بَيَانُ فَضِيلَةِ كَظْمِ العَيْظِ، ثُمَّ بَيَانُ فَضِيلَةِ الحِلْمِ، ثُمَّ بَيَانُ القَدْرِ الَّذِي يَجُوزُ بِهِ الانْتِصَارُ وَالتَّشْفِي مِنَ الكَلَامِ، ثُمَّ القَوْلُ فِي مَعْنَى الحِقْدِ وَنَتائِجِهِ، وَفَضِيلَةَ العَفْوِ وَالرَّفْقِ، ثُمَّ القَوْلُ فِي ذَمِّ الحَسَدِ، وَفِي حَقِيقَتِهِ وَأَسْبَابِهِ وَمُعَالَجَتِهِ، وَالوَاجِبُ فِي إِزَالَتِهِ، ثُمَّ بَيَانُ السَّبَبِ فِي كَثْرَةِ الحَسَدِ بَيْنَ الأَمْثالِ وَالأَقْرانِ وَالإِخوةِ وَالأَقْرابِ وَتَأْكُيدِهِ، وَقَلَّتِهِ فِي غَيْرِهِمْ وَضَعْفِهِ، ثُمَّ بَيَانُ الدَّوَاءِ الَّذِي بِهِ يُنْفَى<sup>(٢)</sup> مَرَضُ الحَسَدِ عَنِ القَلْبِ، ثُمَّ بَيَانُ القَدْرِ الوَاجِبِ فِي نَفْيِ الحَسَدِ عَنِ القَلْبِ.

(١) تصحفت في الأصل إلى: (يقترضه).

(٢) في الأصل: (يُشفي).

## بيان

## ذم الغضب

أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أعين، قال: حدثنا الفربري قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا يحيى بن يوسف قال: حدثنا أبو بكر بن عيَّاش عن أبي حُصَيْن عن أبي صالح عن أبي هُرَيْرَةَ قال: أتى النبي ﷺ رجلٌ، فقال: أَوْصِنِي. قال: «لا تَغْضَبْ» فردَّد ذلك مراراً، قال: «لا تَغْضَبْ».

قال البخاري: وحدثنا عبد الله بن يوسف قال: أخبرنا مالك عن ابن شهاب عن ابن المُسَيَّب عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ليس الشَّدِيدُ بالصَّرَعَةِ<sup>(١)</sup>، إنما الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ». أخرجاه وانفرد البخاري بالأول.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا محمد بن هبة الله الطبري وعبدُ الله بن يحيى الموصلي قالوا: أخبرنا أبو الحسين بن بشران، قال: حدثنا ابنُ صفوان قال: حدثنا أبو بكر القرشي، قال: حدثنا أبو خَيْثَمَةَ قال: حدثنا الحسن بن موسى عن ابن لهيعة عن دَرَّاج عن عبد الرَّحْمَنِ بن جُبَيْر بن عبد الله بن عمرو أنه سأل رسولَ الله ﷺ: ماذا يُبْعِدُنِي من غَضَبِ الله تعالى؟ قال: «لا تَغْضَبْ».

قال القرشي: وحدثنا أبو يوسف الفلوسي قال: أخبرنا محمد بن عَرَعْرَةَ، قال: حدثنا سُكَيْن - وهو ابن أبي سراج - قال: حدثني عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ».

وقد رواه أنسُ فقال: فيه: «مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ كَفَّ اللهُ عَنْهُ عَذَابَهُ».

وقال سليمان بن داود لابنه: يا بُنَيَّ، إِيَّاكَ وكثرة الغضب، فإن كثرة الغضب تَسْتَخِفُّ فؤَادَ الرَّجُلِ الْحَلِيمِ.

(١) الصَّرَعَةُ: الذي يغلب الناس في الصراع.

وقال ابن مسعود: انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه، وإلى أمانته عند طمعه.

وقال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩]. قال: السيد الذي لا يغلبه غضبه.

وقال الحسن: ابن آدم، كلما غضبت ووثبت<sup>(١)</sup> يوشك أن تثب<sup>(١)</sup> وثبة تقع في النار.

وقد روينا أن ذا القرنين لقي ملكاً من الملائكة فقال: علّمني علماً أزداد به إيماناً و يقيناً. قال: لا تغضب، فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب، فرّد الغضب بالكظم، وسكّنه بالتؤدة، وإياك والعجلة، فإنك إذا عجلت أخطأت حظك، وكُنْ سهلاً وليناً للقريب والبعيد، ولا تكن جباراً عنيداً.

وقد روينا أن إبليس تبدّى<sup>(٢)</sup> لموسى عليه السلام، فقال له: يا موسى، إياك والحدّة فإنّي ألعب بالرجل الحديد كما يلعب الصبيان بالكرة، وإياك والنساء، فإنّي لم أنصب فخاً قط أثبت في نفسي من فحّ أنصبه بامرأة، وإياك والشحّ، فإنّي أفسد على الشحيح الدنيا والآخرة.

وقال خيشمة: كانوا يقولون: إن الشيطان يقول: وكيف يغلبني ابن آدم وإذا رضي جئت حتى أكون في قلبه وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه؟!.

وقال جعفر بن محمد: الغضب مفتاح كل شرّ.

وقال بعض الأنصار: رأس الحمق الحدّة، وقائده الغضب.

وقال وهب بن منبه: الكفر أربعة أركان؛ فركن منه الغضب، وركن منه الشهوة، وركن منه الخوف، وركن منه الطمّع.

وقيل لابن المبارك: اجتمع لنا حسن الخلق في كلمة. فقال: ترك الغضب.

(١-١) في الأصل: (يوشك بعد أن وثبت).

(٢) تبدّى: ظهر.

وقيل لبعض الحكماء: ما أملك فلاناً لنفسه! قال: إذا لا تُذله الشهوة، ولا يصرعه الغضب، ولا يغلبه الهوى.

وكان يُقال: إياك وعزة الغضب، فإنها تؤول بك إلى ذل الاعتذار.

وكان يُقال: اتقوا الغضب، فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر<sup>(١)</sup> العسل، والغضب عدو العقل.

### بيان حقيقة الغضب

اعلم أن الله تعالى لما خلق الحيوان معرضاً للفساد والتوى<sup>(٢)</sup> بأسباب في داخل بدنه، وأسباب خارجة عنه، أنعم عليه بما يحميه من الفساد ويدفع عنه الهلاك إلى أجل معلوم.

أما السبب الداخِل؛ فهو أنه ركبهُ من الرطوبة والحرارة وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوةً ومُضادةً فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة وتُجفّفها حتى يتغشى أجزاءها بخاراً يتصاعد منها، فلو لم يتصل بالرطوبة مددٌ من الغذاء يجبر ما انحلّ لفسد الحيوان، فخلق الله الغذاء الموافق لبدن الحيوان، وخلق في الحيوان شهوةً تبعثه على تناول الغذاء كالموكل به في جبر ما انكسر وسد ما انثلم ليكون ذلك حافظاً له من الهلاك لهذا السبب.

وأما الأسباب الخارجة التي يتعرض لها الإنسان فكالسيف والسنان وسائر المهلكات التي يُقصدُ بها، فافتقر إلى قوةٍ وحميةٍ تثور من باطنه فتدفع المهلكات عنه، فخلق الله سبحانه الغضب من النار، وغرزَه في الإنسان وعجنه بطيبته<sup>(٣)</sup> فمتى قُصد في غرضٍ من أغراضه<sup>(٤)</sup> اشتعلت نارُ الغضب وثارَت ثوراناً يغلي به دم القلب ويتشتر في العروق ويرتفع إلى أعالي البدن كما ترتفع النار، وكما يرتفع الماء الذي

(١) الصبر: عصاره شجرٍ مُرٍّ، واحدته: صبرة.

(٢) التوى: الهلاك.

(٣-٣) وردت العبارة في الإحياء: (فمهما صُدَّ عن غرضٍ من أغراضه).

يغلي في القدر ولذلك يحمُر الوجه والعين والبشرة، وكل ذلك يحكي لون ما وراءه من حُمرة الدّم كما تحكي الرُّجاجة لونَ ما فيها.

وإنّما ينبسط الدّم إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه، فإن صدر الغضب ممّن فوقه وكان معه يأسٌ من الانتقام تولّد منه انقباض الدّم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب، فصار حُزناً، ولذلك يصفرّ اللّون، وإن كان على نظير يشكّ فيه تردّد الدّم بين انقباضٍ وانبساطٍ فيحمرُّ ويصفرُّ ويضطرب.

وفي الجملة ففوة الغضب محلّها القلب، ومعناها غليان دم القلب لطلب الانتقام، وإنّما تتوجّه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها وإلى التّشفيّ والانتقام بعد وقوعها، والانتقام قوت هذه القوّة وشهوئها، وفيه لذتها، فلا تسكن إلا به، ثمّ النَّاسُ في هذه القوة على درجَاتٍ ثلاثٍ في أول الفِطْرة من التّفريط والإفراط والاعتدال.

أمّا التّفريط؛ فَيَفْقِدُ هذه القوّة أو ضَعْفُها، وذلك مَدْمومٌ، وهو صفةٌ من لا حَمِيَّةَ له، قال الشّافعي: من استغضب فلم يعضب فهو حمار. فَمَنْ فَقَدَ قُوَّةَ الحَمِيَّةِ والغضب أصلاً فهو ناقص جداً؛ لأنّه دليل على صغر النَّفْسِ، ومن ثمراته عَدَمُ الغيرة على الحَرَمِ، وقال النبي ﷺ: «إِنْ سَعَدَا لَغِيورٌ، وَأَنَا أَعْيَرُ مِنْ سَعْدِ، وَاللَّهُ أَعْيَرُ مِنِّي».

وإنّما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب<sup>(١)</sup>، وَمَنْ ضَعُفَ غَضْبُهُ سَكَتَ عِنْدَ رُؤْيَةِ المنكرات، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢]؛ وقال لنبیّه: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، وإنّما الغلظة من آثار قوة الحميّة وهو الغضب، ووصف الله تعالى الصّحابة به فقال: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وَمَنْ فَقَدَ الغضبَ عجزَ عن رياضة نفسه، إذ الرياضة إنّما تتمّ بتسليط الغضب على الشهوة، فيغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الحسيّة، ففقد الغضب مَدْمومٌ.

(١) تصحفت في الأصل إلى: (الإنسان).

وأما الإفراط؛ فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تَخْرَجَ عن سياسة العقل والدين وطاعته، فلا يبقى للإنسان مع الغضب نَظْرٌ ولا فِكرٌ ولا اختيار، بل يَصِيرُ في صورة المضطَّرِّ.

وسبب هذه الغلَبَة<sup>(١)</sup> أمورٌ غَرِيزِيَّةٌ وأمورٌ اعتياديَّةٌ، فَرُبَّ إنسانٍ هو بالفِطْرة مستعدٌّ لسُرْعَةِ الغضب حتى كأنَّ صورته في الفِطْرة صورة غضبان، ويُعِين على ذلك حرارة مزاج القلب؛ لأن الغضب من النار.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا محمد بن هبة الله الطبري قال: أخبرنا ابنُ بشران قال: حدثنا ابنُ صفوان قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثنا خالد بن خدّاش قال: حدثنا حمّاد بن زيد عن علي بن زيد عن أبي نُضْرة عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «ألا إنَّ الغضبَ جمرَةٌ في قلب ابن آدم، ألا ترونَ إلى حُمْرة عَيْنِيهِ وانتِفاخ أوداجِهِ،<sup>(٢)</sup> فَمَنْ وجدَ من ذلك شيئاً<sup>(٢)</sup>، فليُصِقْ خَدَّهُ بالأرض».

وأما الأسباب الاعتيادية؛ فإن يُخالط قوماً يَتَبَجَّحون بِتَشْفِي الغيظ وطاعة الغضب ويُسمّونَ ذلك شِجَاعَةً ورُجُولِيَّةً، فيقول الواحدُ منهم: أنا الذي لا أحتمل من أحد شيئاً، ومعنى هذا القول: لا عقل لي ولا حِلْم. فيذكرُ ذلك في معرض الفَخْر بِجَهْلِهِ، فيرسُخُ في نفس الجاهل الذي يسمعه حُسْنُ الغضب وحبُّ التَّشْبُه بالقوم، فيقوى بذلك الغضب.

ومتى قويت نارُ الغضب والتَّهَيْت أَعَمَّتْ صاحبها وأصمَّتْهُ عن كل مَوْعِظَةٍ، وربّما زاده الوَعْظُ غَضَباً؛ لأن معدِنَ الفِكرِ الدِّماغُ، وقد تصاعد عند شدّة الغضب من عَليانِ دَمِ القَلْبِ دُخَانٌ إلى الدِّماغِ مُظْلِمٌ فاستولى على معادن الفكر، وربّما تعدّى إلى معادن الحِسِّ فَتَظْلَمَ عَيْنُهُ حتى لا يرى بعينه، وتَسْوَدُّ الدُّنْيَا في وَجْهِهِ ويكون دماغُهُ على مثال كَهْفٍ أُضْرِمَتْ فِيهِ نارٌ فَاسْوَدَّ جَوْهُ، وَحَمِي مُسْتَقْرَهُ، وامتلأ بالدُّخَانِ جُؤَانِيَّهُ، وكان فيه سراجٌ ضَعِيفٌ فأنطَفَأ، فلا تثبتُ فيه قدم ولا تَسْمَعُ فيه

(١) سقطت من الأصل.

(٢-٢) تكررت في الأصل.

كلمة، ولا تُرى فيه صورة، ولا يُقدَّر على إطفاء النَّار المتصمِّمة فيه لا مِنْ داخلٍ ولا مِنْ خارج بل ينبغي أَنْ يُصَبَّرَ إِلَى أَنْ يَحْتَرِقَ جَمِيعُ مَا يَقْبَلُ الْإِحْتِرَاقَ، فَكَذَلِكَ يَفْعَلُ الْغَضَبُ بِالْقَلْبِ وَالذَّمَاغِ.

وَرَبَّمَا تَقَوَّى نَارُ الْعُضْبِ فَتُفْنِي الرُّطُوبَةَ الَّتِي بِهَا حَيَاةُ الْقَلْبِ، فَيَمُوتُ صَاحِبُهُ غَيْظًا، كَمَا تَقَوَّى النَّارُ فِي الْكَهْفِ فَيَتَشَقَّقُ وَتَنْهَدُ أَعَالِيهِ عَلَى أَسَافِلِهِ، وَكَذَلِكَ لِإِبْطَالِ النَّارِ مَا فِي جَوَانِبِهِ مِنَ الْقُوَّةِ الْمُؤَسِّكَةِ الْجَامِعَةِ لِأَجْزَائِهِ، فَهَكَذَا حَالُ الْقَلْبِ مَعَ الْعُضْبِ.

وَعَلَى الْحَقِيقَةِ فَإِنَّ السَّفِينَةَ فِي مُلْتَطَمِ الْأَمْوَاجِ عِنْدَ اضْطِرَابِ الرِّيَّاحِ فِي لُجَّةِ الْبَحْرِ أَحْسَنُ حَالًا وَأَرْجَى سَلَامَةً مِنَ النَّفْسِ الْمُضْطَرِبَةِ غَيْظًا، إِذْ فِي السَّفِينَةِ مَنْ يَحْتَالُ لِتَسْكِينِهَا وَتَدْبِيرِهَا وَيَنْظُرُ لَهَا وَيُسَوِّيهَا، وَهِيَ هُنَا صَاحِبُ السَّفِينَةِ الْقَلْبُ، وَقَدْ سَقَطَتْ حِيلَتُهُ، إِذْ أَعْمَاهُ الْعُضْبُ وَأَصَمَّهُ.

وَمِنْ آثَارِ هَذَا الْعُضْبِ فِي الظَّاهِرِ تَغْيِيرُ اللَّوْنِ، وَشِدَّةُ الرَّعْدَةِ فِي الْأَطْرَافِ، وَخُرُوجُ الْأَفْعَالِ عَنِ التَّرْتِيبِ وَالِانْتِظَامِ وَاضْطِرَابِ الْحَرَكَةِ وَالْكَلامِ حَتَّى تَحْمَرَّ الْأَحْدَاقُ، وَيَظْهَرُ الزَّبْدُ عَلَى الْأَشْدَاقِ، وَتَتَقَلَّبُ الْمَنَاخِرُ وَتَسْتَحِيلُ الْخِلْقَةُ، وَلَوْ رَأَى الْغَضْبَانُ فِي حَالِ غَضَبِهِ قُبْحَ صُورَتِهِ وَاسْتِحَالَةَ خِلْقَتِهِ لِأَنَّ لِنَفْسِهِ مِنْ تِلْكَ الْحَالِ وَمَعْلُومٌ أَنَّ قُبْحَ الْبَاطِنِ أَعْظَمُ مِنْ قُبْحِ الظَّاهِرِ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا قُبْحُ الْبَاطِنِ أَوْلَى ثُمَّ انْتَشَرَ الْقُبْحُ إِلَى الظَّاهِرِ، فَكَانَ الظَّاهِرُ كَالْعُنْوَانِ لِمَا فِي الْبَاطِنِ، فَهَذَا أَثَرُهُ فِي الْجَسَدِ.

فَأَمَّا أَثَرُهُ فِي اللِّسَانِ؛ فَانْتِطَالِقُهُ بِالسَّتَمِ وَالْفُحْشِ وَقَبَائِحِ الْكَلَامِ الَّتِي يَسْتَحْيِي مِنْهُ ذَوُو الْعُقُولِ، ثُمَّ يَسْتَحْيِي مِنْهُ قَائِلُهُ عِنْدَ سَكُونِ الْغَضَبِ، وَكَذَلِكَ مَعَ اضْطِرَابِ اللَّفْظِ وَتَحْبُطِ النَّظْمِ.

وَأَمَّا أَثَرُهُ عَلَى الْأَعْضَاءِ فَبِالْتَهْجُمِ بِالضَّرْبِ وَالْجَرْحِ وَالْقَتْلِ، فَإِنْ هَرَبَ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِ أَوْ عَجَزَ الْغَضْبَانُ عَنِ التَّشْقِيِّ مِنْهُ، يَرْجِعُ الْغَضَبُ عَلَى الْغَضْبَانِ فَيُمَزَّقُ ثَوْبَ نَفْسِهِ وَيَلْطَمُ نَفْسَهُ وَيَضْرِبُ بِيَدَيْهِ عَلَى الْأَرْضِ، وَقَدْ يَعْدُو وَرَاءَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِ عَدُوَّ الْوَالِيَةِ الْمَدْهُوشِ، وَرَبَّمَا سَقَطَ صَرِيحًا لَا يُطِيقُ الْعَدُوَّ وَلَا

النُّهُوضَ لشدَّةِ الغُضبِ، ويعتريه مثل العُشيِّ، وربَّما ضربَ الجمادات والحيوانات، وقد يكونُ على المائدة فيغضبُ فيكسرُ المائدةَ ويتعاطى أفعال المجانين، وقد يغضب على البهيمَةِ فيشتمها ويقول: إلى متى يا كيت وكيت كأنه يُخاطب عاقلاً، وربَّما رَفَسَتْهُ البهيمَةُ فرَفَسَهَا مقابلاً لها.

وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه، فالحقد والحسد وإضرار السوء والشَّماتةُ بالمساءات، والحزن بالسرور، والعزم على إفشاء السَّرِّ وهتك السِّتر، والاستهزاء وغير ذلك من المقابح، فهذه ثمرة الغضب المُفْرِط.

وقد بيَّنَّا عيبَ عدمِ العُضْبِ، فالمحمودُ عَضْبٌ يَنْتَظِرُ<sup>(١)</sup> إشارةَ العقل والدين، فينبعث حيث تجبُ الحميَّة، وينطفئ حيث يحسن الجِلْمُ، وحفظه على حدِّ<sup>(٢)</sup> الاعتدال هو الاستقامة، وخيرُ الأمور أوساطها، فمن كان غضبه إلى الفتور فأحسن من نفسه باحتمالِ الدُّلِّ والضَّيمِ في غير محلِّه وضعف الغيرة، فينبغي أن يعالج نفسه<sup>(٣)</sup> حتى يقوى غضبه، ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جرَّه إلى التهور واقتحام الفواحش، فينبغي أن يعالج نفسه<sup>(٣)</sup> ليغضَّ من سورة الغضب ويقف على الوسط بين الطرفين، فهو الصُّراط المستقيم، فإن عجز عنه، فليطلبُ القُرب منه، فقد قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩].

### بيان هل يمكن إزالة أصل الغضب بالرياضة أم لا ؟

قد ظنَّ قومٌ أنَّه يتصوَّر بالرياضة مَحو الغُضبِ بالكليَّة، وظنَّ آخرون أنَّه لا يقبل العلاج، وكلا الظنَّينِ فاسدٌ، والتَّحقيقُ أن يُقال: مادامَ الإنسانُ يُحِبُّ شيئاً<sup>(٤)</sup> ويكره شيئاً<sup>(٤)</sup> فلا يخلو من العيظ والغضب، ومادامَ يوافقهُ شيءٌ ويخالفه شيءٌ آخر، فلا بدَّ

(١) في (ظ): (ينتظم).

(٢) في (ظ): (هذا).

(٣-٣) سقط من الأصل.

(٤-٤) سقط من الأصل.

أن يُحِبَّ ما يوافقُه ويكره ما يُخالِفُه، والغَضْبُ يَتَّبِعُ ذلك ، فَإِنَّهُ مَهْمَا أُخِذَ مِنْهُ محبوبُهُ غَضِبَ لا محالة ، وإِذَا قُصِدَ بِمَكْرُوهِ غَضِبَ لا محالة ، إِلاَّ أَنْ ما يُحِبُّهُ الإنسانُ يَتَّقَسَمُ إلى ثلاثة أقسام:

**الأول :** ما هو ضرورة في حقِّ النَّاسِ كافَّةً ، و هو القُوَّةُ والمَسْكَنُ والمَلْبَسُ وصحة البدن ، فَمَنْ قُصِدَ بَدْنُهُ بِالضَّرْبِ والجَرْحِ ، فلا بدَّ أَنْ يَغْضِبَ ، وكذلك إِذَا أُخِذَ مِنْهُ ثوبه الذي يَسْتُرُ عورتَه ، وكذلك إِذَا أُخْرِجَ مِنْ داره التي يسكنها ، أو أُريقَ ماءهُ الذي هو لعطشِهِ ، فهذه ضرورة لا يخلو الإنسان من كراهة زوالها من غيظٍ على مَنْ يَتَعَرَّضُ لها .

**القسم الثاني :** ما ليس ضرورياً لأحدٍ من الخلق ، كالجاه والمال الكثير والغلمان والدُّواب ، فإن هذه الأمور صارت محبوبه بالعادة والجهل بمقاصد الأمور حتى صار الذهب والفضة محبوبين في أنفسهما فيكتران ، ويغضب الإنسان على من يسرقهما ، وإن كان مُستغنياً عنهما في القُوَّةِ ، فهذا الجنس مما يُتصوَّرُ أَنْ ينفكَّ الإنسان عن أصل الغيظ فيه ، فإذا كانت له دارٌ زائدة على مسكنه فهدمها ظالمٌ فيجوزُ أَنْ لا يَغْضِبَ ، إِذْ يَجوزُ أَنْ يكون بصيراً بأمور الدنيا فيزهد في الزيادة على الحاجة ، فلا يغضب بأخذها ، <sup>(١)</sup> فإنه لا يحب وجودها ، ولو أحب وجودها لغضب على الضرورة بأخذها<sup>(٢)</sup> .

وأكثر غضب الإنسان على ما هو غير ضروري ، كالجاه والصيت والتصدُّر في المجالس والمباهاة بالعلم ، فَمَنْ غلب هذا الحُبُّ عليه فإنه يَغْضِبُ لا محالة إِذَا زاحمه مُراجِمٌ على الصَّدْرِ في المحافل ، ومن لا يُحِبُّ ذلك ولا يُبالي لو جلس في صفِّ النعال فإنه لا يغضب إِذَا جلس غيره فوقه ، وهذه العادات الرديئة هي التي أكثرت محابَّ الإنسان ومكارهه ، فأكثرت غضبه .

وكَلِّمًا كانت الإرادات والشهوات أكثر كان صاحبها أحطَّ رتبةً وأنقص ؛ لأن الحاجةَ صفةٌ نقصٍ ، فمهما كثرت كثُر النَّقصُ ، والجاهل أبداً جهده في أن يزيد في

حاجاته وشهواته، وهو لا يدري أنه مستكثر من أسباب الغم والحزن، حتى ينتهي بعض الجهال بالعادات الرديئة ومخالطة قرناء السوء إلى أن يغضب لو قيل له: إنك لا تحسن اللعب بالطيور واللعب بالشطرنج، ولا تقدر على شرب الخمر الكثير وتناول الطعام الكثير، وما يجري مجراه من الرذائل.

والغضب على هذا الجنس ليس بضروري؛ لأن حبه ليس بضروري.

القسم الثالث: ما يكون ضرورياً في حق بعض الناس دون بعض كالكتاب - مثلاً - للعالم، فإنه مضطر إليه فيحبه، فيغضب على من يحرقه ويغرقه، وكذلك أدوات الصناعات في حق المكتسب الذي لا يمكنه التوصل إلى الثوت إلا بها، فإن ما هو وسيلة إلى الضروري والمحبوب يصير ضرورياً ومحبوباً، وهذا يختلف بالأشخاص. وإنما الحب الضروري ما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: «من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها».

فمن كان بصيراً بحقائق الأمور، وسلم له هذه الثلاث تصور أن لا يغضب في غيرها.

هذه ثلاثة أقسام، فلنذكر غاية الرياضة في كل واحد منها:

أما القسم الأول: فليست الرياضة فيه لينعدم غيظ القلب، ولكن لكي يقدر على أن لا يطيع الغضب ولا يستعمله في الظاهر إلا على حد يستحبه الشرع ويستحسنه العقل، وذلك ممكن بالمجاهدة وتكليف الجلم والاحتمال مدة حتى يصير الجلم والاحتمال خلقاً راسخاً.

فأما قمع أصل الغيظ من القلب، فذلك مقتضى الطبع، وهو غير ممكن، إلا أنه يمكن كسر فورته ووهنه حتى لا يشتد هيجان الغيظ في الباطن وينتهي وهنه إلى أن لا يظهر أثره في الوجه، ولكن ذلك شديد جداً، وهذا حكم القسم الثالث أيضاً؛ لأن ما صار ضرورياً في حق شخص، فلا يمنعه من الغيظ<sup>(١)</sup> استغناء غيره عنه، فالرياضة فيه تمنع العمل به وتضعف هيجانه في الباطن حتى لا يشتد التألم بالصبر عليه.

(١) بعدها في الأصل: (فيه).

وأما القسم الثاني: فيمكن التوصل بالرياضة إلى الانفكاك عن الغضب عليه إذ يمكن إخراج حُبِّه من القلب، وذلك بأن يعلم الإنسان أن وطنه القبر ومُستقره الآخرة، وإنما الدنيا مَعْبَرٌ، وإنما يُؤخذ منها قَدْرُ الضَّرورة، وما وراء ذلك وبال على صاحبه، فيزهد في الدنيا، وينمحي حُبُّها من قلبه، ولو كان للإنسان كَلْبٌ لا يُحِبُّه لم يَغضب إذا ضُرِبَ، فالغضبُ تَبَعٌ<sup>(١)</sup> للحبِّ، والرياضة في هذا قد تنتهي إلى قَمع أصلِ الغضب، وهو نادر جداً، وقد تنتهي إلى المَنع من استعمال الغضب والعمل بموجبه، وهو أهون.

فإن قيل: فالضَّروري من القسم الأول هو التألم بقوات المُحتاج إليه دون الغضب، فإن مَنْ ماتت له شاةٌ وهي قُوته لم يَغضب على أحدٍ، وإن حصلت له كراهةٌ لذلك، وليس من ضرورة كلِّ كراهة غَضَبٌ، فإنَّ الإنسان يتألم بالقصد والحِجامة، ولا يَغضبُ على الفَصَاد والحَجَام، فمن غلب عليه التَّوحيد حتى يرى الأشياء كلها من الله تعالى لم يَغضب على أحدٍ من خلقه، إذ يراهم مُسَخَّرين في قبضة قُدْرته، كالقلم في يد الكاتب، ومَنْ وَقَعَ ملكٌ بضربِ عُنقه لم يَغضب على القلم، فلا يَغضبُ على مَنْ ذَبَحَ شاتهُ التي هي قُوته، كما لا يَغضب إذا ماتت؛ لأنَّه يرى الذَّبْح والموت من الله تعالى، فيندفع الغضبُ بغلبة التوحيد، ويندفع أيضاً لحُسْنِ ظَنِّه بالله، وهو أن يرى أنَّ الكُلَّ منه، وأنَّه لا يُقدَّر له إلا ما فيه الخيرة، وربما تكونُ الخيرة في جوعه، ومَرَضه وجرحه وقتله، فلا يَغضب كما لا يَغضب على الفَصَاد؛ لأنَّه يرى أن الخيرة في الفصد.

فالجواب: أن هذا على هذا الوجه غير مُحال، ولكن غلبة التَّوحيد إلى هذا الحدِّ إنَّما تكون كالبرقِ الخاطف يغلب في أوقاتٍ مختطفة ولا يدوم، ثم يرجع القلبُ إلى الالتفات إلى الوسائط رجوعاً طَبَعياً لا يندفع عنه، ولو تُصوِّر ذلك على الدَّوام لبشرٍ لتُصوِّر لرسولِ الله ﷺ، فإنَّه كان يَغضب حتى تحمَّرَ وجنتاه، حتى قال في رواية جابر: «إنَّما أنا بشر، وإنِّي أشرطُ على ربِّي عزَّ وجلَّ أيَّ عبدٍ من المُسلمين شتمته أو سبَّته أن يكون ذلك له زكاةً وأجرًا» انفراداً بإخراجه مسلم.

(١) تحرفت في الأصل إلى: (مع).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «اللهم وأيما عبدٍ مؤمنٍ سببته، فاجعل ذلك له إليك قربةً يومَ القيامة».

وفي أفراد مسلم من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً، قالت: فَعَرْتُ عليه فجاء فرأى ما أصنع، فقال: «مالكِ يا عائشة؟ أَعْرَتِ؟» فقلتُ: ومالي لا يَعارُ مثلي على مثلك؟ فقال: «أَفَدَّ جَاءَكَ شَيْطَانُكَ؟» قلت: يا رسولَ الله، أو معي شيطان؟ قال: «نعم»، قلت: ومع كل إنسان؟ قال: «نعم». قلت: ومعك يا رسولَ الله؟ قال: «نعم، ولكنَّ ربِّي عز وجل أعانني عليه حتى أسلم»<sup>(١)</sup>.

وفي أفراد من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحدٍ إلا وقد وَكَّلَ اللهُ به قَربنَه من الجنِّ». قالوا: وإياك يا رسولَ الله؟ قال: «وإيَّاي، ولكنَّ الله عز وجل أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»<sup>(٢)</sup>. وأراد ﷺ أنه لا يحملني على الشرِّ، فقد بانَ بما ذكرنا أن رسولَ الله ﷺ كان يلتفت إلى الوسائط في الجملة.

وقد يُفقدُ أصلُ العَیْظِ فيما هو ضروري إذا كان القلب مشغولاً بضروري أهم منه، فلا يكون في القلب مُتَسَعٌ للغضب لاشتغاله بغيره، فإنَّ استغراق القلب ببعض المَهْمَمَاتِ يَمنع الإحساس بما عداه، وهذا كما روي أن سلمان الفارسي سُتِمَ، فقال: إن خَفَّتْ موازيني فأنا شرٌّ ممَّا تقول، وإن ثَقُلَتْ موازيني لم يضرني ما تقول. فهذا قد كان قلبه مصروفاً إلى الآخرة<sup>(٣)</sup> فلم يتأثر قلبه بالسُّتْمِ.

وشُتِمَ الرَّبِيعُ بن خُثَيْمٍ فقال للشَّاتِمِ: يا هذا، قد سمعَ اللهُ كلامَكَ، وإنَّ دونَ الجنةِ عقبةٌ إن قَطَعْتُها لم يضرني ما تقول، وإن لم أقطعها فأنا شرٌّ ممَّا تقول.

وسبَّ رجلٌ الشَّعْبِيَّ فقال: إن كنتَ صادقاً فغفرَ اللهُ لي، وإن كنتَ كاذباً فغفرَ اللهُ لك.

وقالت امرأةٌ لمالك بن دينار: يا مُرائي. فقال: ما عَرَفَني غيرُكَ.

(١) صحيح مسلم (٢٨١٥).

(٢) صحيح مسلم (٢٨١٤).

(٣) في الأصل: (مشغولاً بالآخرة).

فهذا كَانَ مشغولاً<sup>(١)</sup> بنفي آفة الرياء عن نفسه منكرأ عليه ما يُلقيه الشيطان من ذلك فلم يغضب لما نُسبَ إليه . وسبَّ رجلٌ رجلاً فقال له : ما سترَ اللهُ عنكَ أكثر . فهذا كان مشغولاً<sup>(١)</sup> بالنظر في تقصيره عن تقوى الله عز وجل حقَّ تقاته ، فلم يغضبه أن يُنسب إليه نقص .

فهذه الأخبارُ عن هؤلاء تحتمل أن يكونوا لم يغضبوا لاشتغال قلوبهم بمهمّات دينهم واحتقار نفوسهم التي يكون الغضب لها ، ويحتمل أن يكون ذلك أثر في قلوبهم لكن شغلهم عن النَّظر فيه ما هو أهمُّ منه ، ويحتمل أن يكونوا علموا شرف العفو والحلم ، فاستعملوا ذلك لتحصيل ثوابه ، وأعظمُ طريق للخلاص من نارِ الغضب مَحْوُ حُبِّ الدُّنيا من القلب ، وذلك بمعرفة آفاتِها وعوائلها على ما سيأتي في كتاب دَمِّ الدُّنيا .

ومن أخرج حُبَّ المزايا من قلبه تَخَلَّصَ من أكثر أسباب الغضب ، وما لا يُمكن مَحْوُهُ يمكن كَسْرُهُ وَوَهْنُهُ ، فيضعف الغضب بالوهن ، ويهون حينئذٍ الدَّفْعُ .

### بيان الأسباب المهيّجة للغضب

قد عرفت أن علاج كلِّ علةٍ بحسْمِ مادّتها وإزالة أسبابها ، فلا بدَّ من معرفة أسباب الغضب .

والأسبابُ المهيّجة للغضب : الزَّهْوُ والعجبُ والمَرْحُ والهَزْءُ والتَّعْيِيرُ والمُماراة والمُضادَّةُ والعَدْرُ وشدة الحرص على فُصول المال والجاه ، وهي بأجمعها أخلاقٌ رديئة مذمومة شرعاً ، ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب ، فلا بد من إزالتها بأضدادها ، فينبغي أن تُميتَ الزَّهْوُ بالتواضع والعُجبُ بالمعرفة بنفسك كما سيأتي بيانه في كتاب الكِبَرِ والعُجب ، وتُزيلَ الفَخْرَ بأنَّكَ من جنس عبدك إذ النَّاسُ يَجْمَعُهُم في الاتِّسَابِ أبٌ ، وإتْمَا الفَخْرُ بالفَضائل .

والفخرُ والعُجبُ أكبر الرذائل، وهي رأسها وأصلها، فإذا لم تَحُلْ عنها فلا فضل لك على غيرك، فلم تفتخر وأنت من جنس عبدك من حيث البنية والنسب والأعضاء الظاهرة والباطنة؟.

وأما المَرَحُ؛ فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التي تستوعب العمر وتفضل عنه إذا عرفت ذلك.

وأما الهزلُ؛ فتزيله بالجِدِّ في طلب الفضائل والأخلاقِ الحسنة والعلوم الدينية التي تُبلِّغك إلى سعادة الآخرة.

وأما الهُزُّ؛ فتزيله بالتكْرُم عن إيذاء الناس وبِصيانة النفس عن أن يُستهزأ بك.

وأما التعييرُ؛ فتزيله<sup>(١)</sup> بالتحْرِزِ<sup>(٢)</sup> عن القول القبيح وصيانة النفس عن مَرِّ الجواب.

وأما شِدَّة الحرص على فضول العيش؛ فتزال بالقناعة بقدر الضرورة طلباً<sup>(٣)</sup> لعزِّ الاستغناء وترفعاً عن ذُلِّ الحاجة.

وكل خلقٍ من هذه الأخلاق وصفةٍ من هذه الصفات يفتقر في علاجه إلى رياضةٍ وتحملٍ مشقَّةٍ، وحاصلُ رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفّر عن قُبْحها، ثم المواظبة عن مباشرة أضرارها مدةً مديدةً حتى تصير بالعادة مألوفةً هيئَةً على النفس، وإذا انمحت عن النفس فقد زكت وظهرت عن هذه الرذائل وتخلّصت أيضاً عن الغضب الذي يتولّد منها.

ومن أشدّ البواعث على الغضب عند أكثر الجهّال تسميتهم الغضب شجاعةً ورجوليَّةً وعزّةً نفس وكِبَر هِمَّةً، وتلقّيه بالألقاب المحمودة غباوةً وجهلاً حتى تميل النفس إليه وتستحسنه، وقد يتأكّد ذلك بحكاية شِدَّة الغضب عن الأكابر في معرض المدح بالشجاعة، والنفس مائلةٌ إلى التّشبه بالأكابر، فيهبج الغضب في القلب بسببه، وتسميةُ هذا عزّةً نفسٍ وشجاعةً جهلٌ، بل هو مرضٌ قلبٍ ونقصانٌ عقلٍ،

(١) ليست في (ظ).

(٢) في (ظ): (فبالحذر).

(٣) في (ظ): (طالباً).

وهذا لضعف النفس وتقصانها وآية أنه لضعف النفس أن المريض أسرع غضباً من الصحيح، والمرأة أسرع غضباً من الرجل، وكذلك الصبي والشيخ الضعيف أسرع غضباً من الشاب ومن الكهل، وذو الخلق السيء والرذائل القبيحة أسرع غضباً من صاحب الفضائل فالمرذول يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة، ولبخله إذا فاتته الحبة حتى يغضب على أهله وولده وأصحابه، بل القوي من يملك نفسه عند الغضب، كما روينا عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».

وينبغي أن يعالج هذا الجاهل بأن تتلى عليه حكايات أهل الحلم<sup>(١)</sup> والعفو وما استحسن منهم من كظم الغيظ، فإن ذلك منقول عن الأنبياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك الفضلاء، وخذ ذلك منقول عن الأتراك والأكراد والجهلة والأغبياء الذين لا عقل لهم ولا فضل.

(١) تحرفت في الأصل إلى: (العلم).

## بيان

### علاج الغضب بعد هيجانه

الذي قدّمنا ذكره هو حَسَمٌ لموادّ الغضب، وقَطْعٌ لأسبابه حتّى لا يهيج، فإذا جرى سبُّ هيجه فعنده يجب التّثبت حتى لا يضطر صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم.

وإنّما يعالجُ الغضب عند هيجانه بمعجونِ العلم والعمل.

أما العلم؛ فهو ستة أمور:

الأول: أن يتفكّر في الأخبار التي سنورها في فضلِ كظمِ العيظ والعفو والحلم والاحتمال، فيرغب في ثوابه، فتمنعه شدّة الحرص على ثواب الكظم عن التّشفي والانتقام، فينطفئ<sup>(١)</sup> عيظه.

وفي أفراد البخاري من حديث ابن عباس قال: استأذن الحرُّ بنُ قيس لعينته بن حصن على عمر بن الخطّاب فأذن له، فقال: يا ابن الخطّاب والله ما تُعطينا الجزل، ولا تحكّم بيننا بالعدل. فعُصِبَ عمرُ حتى همَّ أن يوقّع به، فقال الحرُّ: يا أمير المؤمنين، إنّ الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وإنّ هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمرُ حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل.

والثاني: أن يُخوّف نفسه عقاب<sup>(٢)</sup> الله، وهو أن يقول: قدرة الله عليّ أعظم من قدرتي على هذا الإنسان، فلو أمضيتُ غضبي عليه لم آمن أن يمضي الله عز وجلّ

(١) في الأصل: (فيتنفي).

(٢) في (ظ): (عذاب).

غضبه عليّ يوم القيامة أحوج ما أكون إلى العفو، وقد قال الله تعالى في بعض الكتب: يا ابن آدم، اذكرني حين تغضب، أذكرك حين أغضب فلا أمحك فيمن أمحق.

الثالث: أن يُحذّر نفسه عاقبة العداوة والانتقام، وتشمّر العدو لمقابلته والسعي في هدم أغراضه،<sup>(١)</sup> والشّماتة بمصائبه، وهو لا يخلو عن المصائب، فيخوف نفسه عواقب الغضب في الدنيا<sup>(٢)</sup> إن كان لا يخاف من الآخرة، وهذا هو تسليط شهوة على غضب، ولا ثواب عليه؛ لأنه تقديم لبعض الحُطُوظ على بعض إلا أن يكون محذوره أن يتغيّر عليه أمر<sup>(٣)</sup> يعينه على الآخرة، فيثاب على ذلك.

الرابع: أن يتفكّر في قُبْح صورته عند الغضب، بأن يتذكّر صورة غيره في حالة الغضب، ويتفكّر في قُبْح الغضب في نفسه ومُشابهة صاحبه للكلب الضاري والسبع العادي، ومُشابهة الحليم الهادي التارك للغضب للأنبياء والعلماء والحُكماء، ويخيّر نفسه بين أن يشبه الكلاب والسباع أو أراذل الناس، وبين أن يشبه الأنبياء والعلماء في عادتهم لتميل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء إن كان قد بقي معه مُسكّة من عقل.

الخامس: أن يتفكّر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ، ولا بد أن يكون له سبب مثل قول الشيطان له: إن هذا يُحمّل منك على العجز وصغر النفس والذلة والمهانة، فتصير حقيراً في أعين الناس. فليقل لنفسه: ما أعجبك تأنفين من الاحتمال الآن ولا تأنفين من خزي يوم القيامة والافتضح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك؟ وتحذرين من أن تصغري في أعين الناس ولا تحذرين من أن تصغري عند الله وعند الملائكة والنبيين؟ فمهما كظم الغيظ فينبغي أن يكظمه الله عزّ وجل، وذلك يُعظمه عند الله، فما له وللناس؟ ودلّ من ظلّمه يوم القيامة أشدّ من ذلّه لو انتقم منه الآن، أفلا يُحبّ أن يكون هو القائم إذا نُودي يوم القيامة: ليقم

(١-١) سقط من (ظ).

(٢) سقطت من (ظ).

من وقع أجره على الله . فلا يقوم إلا من عفا، فهذا وأمثاله ينبغي أن يُقرره على قلبه .

السادس: أن يعلم أن غضبه إنما كان من شيء جرى على وفقٍ مُرادٍ الله لا على وفقٍ مُرادِهِ، فكيف يُقدم مراده على مُرادِ الله؟

وأما العمل: فمنه السكوت، ومنه التَّعوُّذ، ومنه تغيير الحال، فإن كان قائماً جلس، وإن كان جالساً اضطجع، وقد أمر بالوضوء أيضاً، أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا شعبة قال: سمعتُ ليثاً قال: سمعتُ طاووساً يُحدث عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ما يجده، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد». فقالوا له: إن النبي ﷺ قد قال: «تعوذ بالله من الشيطان الرجيم». فقال: وهل بي من جنون؟!

وقد روى أبو ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب، وإلا فليضطجع».

واعلم أن القائم مُتهيئٌ للحركة والبطش، والقاعد دونه في هذا المعنى، والمضطجع ممنوع منهما، فيشبه أن يكون أمره بالعود والاضطجاع لئلا يبتدر منه في حال قيامه وعوده بادره يندم عليها فيما بعد، ويمكن أن يكون أمره بالعود والاضطجاع لتسكن الحرارة، فإن سبب الغضب اشتداد الحرارة، ولذلك أمر بالوضوء.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا محمد ابن هبة الله الطبري قال: أخبرنا ابن بشران، قال: حدثنا ابن صفوان. قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرعة قال: حدثنا إبراهيم بن خالد الصنعاني قال: حدثنا أبو وائل القاص قال: كُنَّا عند عروة بن محمد فكلَّمهُ رجلٌ بكلام، فغضب غضباً شديداً، فقام فتوضأ ثم جاء، فقال: حدثني أبي عن

جَدِّي عَطِيَّةً، وكانت له صُحبة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الغُضَبَ من الشَّيْطَانِ، وإن الشَّيْطَانِ خُلِقَ من النَّارِ، وإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالماءِ، فإذا غُضِبَ أَحَدُكُمْ فليَتَوَضَّأُ».

وغَضِبَ عُمَرُ بن الخَطَّابِ يوماً فَدَعَى بِماءٍ فَاسْتَنْشَقَ وقال: إِنَّ الغُضَبَ من الشَّيْطَانِ، وهذا يذهبُ بِالغُضَبِ.

ويمكن أن يكون إنما أَمَرَ بالجلوس والاضطجاع ليقرب إلى الأرض التي منها خُلِقَ فيذكر أصله فَيَذَلُّ<sup>(١)</sup>، ويمكن أن يكون ليتواضع بذلّه؛ لأنَّ الغُضَبَ يَنْشَأُ عن الكِبَرِ، وقد روينا آفِئاً من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أَنَّهُ ذَكَرَ الغُضَبَ فقال: «مَنْ وَجَدَ من ذلك شيئاً فليُصِصِّقْ خَدَّهُ بالأرض».

وهذا يُبَيِّنُ أَنَّ المرادَ إِذْلالَ أَعْرَِّ الأَشْيَاءِ لَتَسْتَشْعِرَ النَّفْسُ بِذلك الدَّلَّ وتُرَايِلَ العِزَّةَ وَالرَّهْوَ الَّذينَ هُما سَبَبُ الغُضَبِ.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا محمد بن هبة الله قال: أخبرنا ابن بشران قال: أخبرنا ابن صفوان قال: حدثنا عبد الله بن محمد القرشي قال: حدثني محمد بن عمر بن علي بن الزبير قال: حدثنا سعيد بن عامر قال: حدثنا المعتمر بن سليمان قال: كان رجلاً ممن كان قبلكم يغضب فيشتد غضبه، فكتب ثلاث صحائف، فأعطى كل صحيفة رجلاً، وقال لصاحب الصحيفة الأولى: إذا رأيتني قد غضبت فاشتد غضبي، فقم إلي بهذه الصحيفة. قال: وأعطى الصحيفة الأخرى رجلاً وقال: إذا رأيتني قد سكن بعض غضبي فقم إلي بهذه الصحيفة. قال: وأعطى الصحيفة الثالثة رجلاً وقال: إذا رأيتني قد ذهب بعض غضبي فقم إلي بهذه الصحيفة. قال: فغضب يوماً فاشتد غضبه، فقام إليه صاحب الصحيفة الأولى فإذا في صحيفته: أقصر، ما أنت وهذا الغضب؟ إنك لست بإله، إنما أنت بشر أو شك أن يأكل بعضك بعضاً. قال: فسكن بعض غضبه، فقام إليه صاحب الصحيفة الثانية، فإذا في صحيفته: ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء. فسكن

(١) في الأصل: (فيتبدل).

بعض غَضبه، فقام إليه صاحبُ الصَّحيفة الثالثة، وإذا في صحيفته: خُذْ النَّاسَ بِحَقِّ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يُصْلِحُهُمْ إِلَّا ذَاكَ.

قال سعيد بن عامر: يقول: لَا تُعْطَلِ الْحُدُودَ.

قال القُرشي: وحدثني القاسم بن هاشم قال: حدثنا أحمد بن يونس البزار قال: غضب المَهديُّ على رجلٍ، فدعا بالسَّيَّاط، فلمَّا رأى شَبِيبَ شَدَّةٍ غضبه وإطراقِ النَّاسِ فلم يتكلَّموا بشيءٍ، قال شَبِيب: يا أمير المؤمنين، لا تَغْضَبَنَّ اللَّهُ بِأَشَدِّ مِمَّا غَضِبَ لِنَفْسِهِ. فقال: خَلُّو سَبِيلَهُ.

### فضيلة كَظْمِ الْغَيْظِ

قال الله عزَّ وجل: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، فذكر ذلك في معرض المدح.

أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الله ابن يزيد قال: حدثنا سعيد - يعني: ابن أبي أيوب - قال: حدثني أبو مَرْحُومٍ عن سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ<sup>(١)</sup> عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَا اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَيِّ الْحُورِ الْعِينِ شَاءَ»<sup>(٢)</sup>.

قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم عن يونس بن عُبيد قال: أخبرنا الحسن بن عمر قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ جُرْعَةً أَفْضَلَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ جُرْعَةٍ غَيِظٍ يَكْظُمُهَا ابْتِغَاءً وَجَهَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»<sup>(٣)</sup>.

(١) في الأصل: (يقدر) وهي رواية.

(٢) أخرجه أحمد (١٥٦٣٧)، والترمذي (٢٠٢١) و(٢٤٩٣)، وأبو داود (٤٧٧٧)، وابن ماجه (٤١٨٦) وأبو يعلى (٤٩٧).

(٣) أخرجه أحمد (٦١١٤)، والطبراني في مكارم الأخلاق (٥١)، والبيهقي في الشعب (٨٣٠٧).

وفي رواية أخرى عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمِضِيَهُ أَمْضَاهُ، مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رِضًا».

وفي رواية أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى إِنْفَازِهِ، مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ أَمْنًا وَإِيمَانًا».

ومرَّ النبي ﷺ على قوم يتحدون مهراًساً<sup>(١)</sup> فقال: «أَتَحْسِبُونَ أَنَّ الشَّدَّةَ فِي حَمْلِ الْحِجَارَةِ؟! إِنَّمَا الشَّدَّةُ أَنْ يَمْتَلِئَ أَحَدُكُمْ غَيْظًا ثُمَّ يَغْلِبُهُ».

وروينا عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ لَجَهَنَّمَ بَابًا لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا مَنْ يَشْفِي غَيْظَهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ».

وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه قال: من اتقى الله لم يشف غيظه، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون.

وقال مالك بن زياد الأشجعي: مَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى إِمْضَائِهِ حَشَى اللَّهُ قَلْبَهُ إِيمَانًا كَمَا تُحَشَى الرُّمَانَةُ حَبًّا.

وقال ابن السَّمَاك: أذَنَبَ غَلامٌ لأمْرأةٍ من قُرَيْشٍ، فأخذت السُّوطَ ومَضَتْ نحوه، حتى إذا قارَبته رَمَتْ بالسُّوطِ، وقالت: ما تركتِ التَّقْوَى أحداً يشفي غَيْظَهُ.

### فَضِيلَةُ الْحِلْمِ

اعلم أنَّ الحِلْمَ أفضل من كَظْمِ الغَيْظِ؛ لأنَّ كَظْمَ الغَيْظِ عبارة عن التَّحَلُّمِ، أي تكْلُفِ الحِلْمِ، فلا يحتاج إلى كَظْمِ الغَيْظِ إلا مَنْ هاجَ غَيْظُهُ، ويحتاج فيه إلى مُجاهدةٍ شديدةٍ، ولكن إذا تعوَّد ذلك مدَّةً صار ذلك اعتياداً، فلا يهيج الغَيْظُ، وإن هاجَ فلا يكونُ في كَظْمِهِ تَعَبٌ، وهو الحِلْمُ الطَّبَعِيُّ، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل: ولكن ابتداءهُ التَّحَلُّمِ وكَظْمُ الغَيْظِ تكْلُفاً.

(١) المِهْرَاس: حجر مستطيل منقور يتوضأ منه، وهو حجر ضخم لا يُقَلُّه الرجال ولا يحركونه لثقله، يسع ماءً كثيراً. تاج العروس (هرس).

وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَاطْلُبُوا مَعَ الْعِلْمِ السَّكِينَةَ وَالْحِلْمَ، لِيَنُورَ لِمَن تَعَلَّمُونَ وَلِمَن تَعَلَّمُونَ مِنْهُ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ جَبَابِرَةِ الْعُلَمَاءِ فَيَغْلِبَ جَهْلُكُمْ عَلِمَكُمْ».

وقال عليه الصلاة والسلام لأشجَّ عبد القيس: «إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاة».

وقال عليه الصلاة والسلام: «أَيُعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ كَأَبِي ضَمْضَمٍ؟ رَجُلٌ كَانَ قَبْلَكُمْ، كَانَ يَقُولُ إِذَا أَصْبَحَ: اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ تَصَدَّقْتُ بِعَرْضِي عَلَى مَنْ ظَلَمَنِي».

وقال عليه الصلاة والسلام: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: أَيْنَ أَهْلُ الْفَضْلِ؟ فَيَقُومُ نَاسٌ وَهُمْ يَسِيرٌ، فَيَنْطَلِقُونَ سَرِيعاً إِلَى الْجَنَّةِ، فَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ، فَيَقُولُونَ: إِنَّا نَرَاكُمْ سِرَاعاً إِلَى الْجَنَّةِ، فَمَنْ أَنْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُ الْفَضْلِ. فَيَقُولُونَ: مَا كَانَ فَضْلُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: كُنَّا إِذَا ظَلَمْنَا صَبَرْنَا، وَإِذَا أُسِيءَ إِلَيْنَا عَفَرْنَا، وَإِذَا جُهِلَ عَلَيْنَا حَلَمْنَا. فَيُقَالُ لَهُمْ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَنَعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ».

وقال أبو الدرداء: إِنْ نَاقَدَتِ النَّاسَ نَاقِدُوكَ، وَإِنْ تَرَكَتَهُمْ لَمْ يَتَرَكَوكَ، وَإِنْ هَرَبَتْ مِنْهُمْ أَدْرَكَوكَ. قال: فما تأمرني؟ قال: هَبْ عِرْضَكَ لِيَوْمِ فُكْرِكَ.

وقال عمرو بن الأهتم: أَشْجَعُ النَّاسِ مَنْ رَدَّ جَهْلَهُ بِحِلْمِهِ.

وقال الخليل بن أحمد: كَانَ يُقَالُ: مَنْ أَسَاءَ فَأُحْسِنَ إِلَيْهِ جُعِلَ لَهُ حَاجِزٌ مِنْ قَلْبِهِ يَرُدُّهُ عَنْ مِثْلِ إِسَاءَتِهِ.

وقال سنان بن لقيط: إِذَا لَمْ تَتَّكَأْ عَدُوَّكَ إِلَّا بِمَا يُؤْذِي دِينَكَ، فَبِنَفْسِكَ بَدَأْتَ.

### ذكر طرف من أخبار الحكماء

سَبَّ رَجُلٌ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: لَوْ اسْتَحْمَلْتَنَا حَمَلْنَاكَ، وَإِنْ اسْتَرْفَدْتَنَا أَرْفَدْنَاكَ، وَإِنْ اسْتَعْنَتْ بِنَا أَعْنَاكَ. وَبِعَثَ إِلَيْهِ مِرْوَانُ يَسُبُّهُ فَقَالَ لِلرَّسُولِ: قُلْ لَهُ: مَوْعِدُكَ اللَّهُ عِزٌّ وَجَلٌّ.

شتم رجلُ ابنِ عباس، فلمَّا قَضَى مَقَالَته قال: يا عِكرمة، انظُر هل للرجل حاجة فنقضها. فنكس الرجل رأسه واستحيا.

وأسمع رجلٌ معاوية كلاماً شديداً، فقيل له: لو عاقبته. فقال: إني لأستحي من الله أن يضيّق حلّمي عن ذنبِ أحدٍ من رعيتي.

وقسم معاوية قُطُفًا، فبعث منها بقِطِيفَةً إلى شيخٍ من أهل دمشق، فلم تُعجبه، فجعل عليه يميناً أن يضرب بها رأس معاوية، فأتى معاوية فأخبره، فقال له معاوية: أوفِ بندرك، وليرفق الشيخُ بالشيخ.

وشهدَ عنده أعرابيُّ شهادةً، فقال له معاوية: كذبت. فقال: الكاذبُ المُتَزَلُّ في ثيابك. فقال معاوية: هذا جوابٌ من عَجَلٍ.

وجاءَ غلامٌ لأبي ذرٍّ وقد كَسَرَ رِجْلَ شاةٍ له، فقال له: مَنْ كَسَرَ رِجْلَ هذه؟ قال: أنا فَعَلْتُهُ عمدًا لأغِيظَكَ فتضربني فتأثم. فقال: لأغِيظَنَّ مَنْ حَرَّضَكَ عَلَى غِيظِي. فأعتقه.

وشتم رجلٌ عديَّ بن حاتم وهو ساكت، فلمَّا فرغَ من مقالته قال: إن كان بقي عندك شيءٌ فقلْ قبل أن يأتي شباب الحي، فإنهم إن سمعوك تقول هذا لشيخهم لم يرضوه.

وكانَ بين عاصم بن عمر بن الخطاب وبين رجلٍ من قُرَيْشٍ خُصومة في أرض، فقال القُرشي لعاصم: فإن كنت صادقاً فادخلها. فقال عاصم: وقد بلغ بك الغضبُ هذا! هي لك. فقال القُرشي: سَبَقْتَنِي، هي لك. فتركها لا يأخذها واحدٌ منهما حتى هَلَكَا، ولم يعرض لها أولادهما.

وزَحَمَتْ راحلةُ سالم بن عبد الله رجلاً، فقال له الرجل: ما أراك إلا رجل سوء. فقال: ما أحسبك أبعدت.

ودخل عمر بن عبد العزيز المسجد ليلة في الظلمة، فمرَّ برجلٍ نائمٍ<sup>(١)</sup> فعثر به،

(١) تحرفت في الأصل إلى: (قائم).

فرفع رأسه وقال: أمجنون أنت؟! فقال عمر: لا، فهمم به الحرس، فقال عمر: مه، إنما سألني أمجنون أنت؟ فقلت: لا.

وقام إليه رجل وهو على المنبر فقال: أشهد إنك من الفاسقين. فقال: وما يدريك؟ أنت شاهد زور، ولا تُجيزُ شهادتك. وكلمه رجل فأغلظ له، فقال: أردت أن يستفزني الشيطان بعز السلطان فأنال منك اليوم ما تناله مني غداً.

ولقي رجل علي بن الحسين فسبه، فثارت إليه العبيد<sup>(١)</sup>، فقال: مهلاً، ثم أقبل عليه فقال: ما ستر عنك من أمرنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟ فاستحيا الرجل فألقى إليه خميصه كانت عليه وأمر له بألف درهم، فكان الرجل بعد ذلك يقول: أشهد إنك من أولاد الرسل.

واستطال عليه يوماً رجل فتغافل عنه، فقال له الرجل: إياك أعني. فقال له: وعنك أغضي.

وأغلظ له رجل فقال له: يا أخي، إن كنت صادقاً فيما قلت، فغفر الله لي، وإن كنت كاذباً، فغفر الله لك.

وكان عنده ضيف فاستعجل خادمه بشواءٍ كان في التنور، فأقبل به، فسقط السقود من يده على بني لعلي فأصاب رأسه فقتله، فقال علي للغلام: أنت حر، إنك لم تتعمده.

ومر الربيع بن خثيم في السوق فسقط عليه حجر فشجّه، فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول: اللهم اغفر له فإنه لم يتعمدني.

وقال رجل لوهب بن منبّه: إن فلاناً شتمك. فقال: ما وجد الشيطان بريداً غيرك؟!

وقال رجل للفضل بن مروان<sup>(٢)</sup>: إن فلاناً يقع فيك. فقال: لأغيظن من أمره، غفر الله له. قيل له: من أمره؟ قال: الشيطان.

(١) تحرفت في الأصل إلى: (البعيد).

(٢) تحرف في الأصل إلى: (الفضيل بن بزوان).

وكان الرجل يأتي الحارث بن سويد فيسبه فإذا فرغ قال الحارث: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿﴾ (٨) [الزلزلة: ٧-٨].

وكان أبو السَّوَّارِ العَدَوِيُّ يَعْرِضُ لَهُ الرَّجُلُ فَيَشْتُمُهُ، فيقول: إن كنتُ كما قلتُ إني إذن لرجلٌ سوء.

وشتم رجلٌ محمدَ بنِ واسعٍ وهو لا يردُّ عليه شيئاً، فلما سكتَ قال: يا مَغرورٍ يوشكُ أن تَندمَ.

ونازعَ رجلٌ ابنَ عونٍ فقال: لولا أن يُكْتَبَ عَلَيَّ لقلتُ.

وشتم رجلٌ الوليدَ بنَ أبي حُبيرةٍ، فقال له: هي صحيفتك فأملِ فيها ما شئتَ.

وشتم رجلٌ ابنَ ذَرٍّ فقال له: يا هذا، لا تُغْرِقَ في شَتْمِنَا، ودَعْ لِلصُّلْحِ مَوْضِعاً، فَإِنَّا لَا نُكَافِيُ مِنْ عَصَى اللَّهِ فِينَا بِأَكْثَرِ مِنْ أَنْ نَطِيعَ اللَّهَ فِيهِ.

ومرَّ المُهَلَّبُ بنُ أَبِي صُفْرَةَ بِقَوْمٍ فَعَظَّمُوهُ، فقال رجلٌ: ألهذا الأعرورُ تُسَوِّدُونَ! والله لو أخرج إلى السُّوقِ ما جاء إلا بِالْفَيْ دِرْهَمٍ. فلما رجع إلى منزله أرسلَ إلى الرَّجُلِ بِالْفَيْ دِرْهَمٍ، فقال: أما إِنَّكَ لو زِدْتَنَا فِي الْقِيَمَةِ لَزِدْنَاكَ فِي الْعَطِيَةِ.

وكان بينَ رَجُلَيْنِ مُنَازَعَةٌ، فَتَسَرَّعَ إِحْدَهُمَا إِلَى صَاحِبِهِ، فقال السَّاكِتُ: أما لولا أن الله عز وجل يسمعُ كلامي لتكلمتُ.

وقال رجلٌ لرجلٍ: إنني لأرحمُك مما يقول النَّاسُ فيك. قال: أَفَتَسْمَعُنِي أقولُ فيهم؟ قال: لا. قال: فَإِيَّاهُمْ فارحَم.

وشتم رجلٌ رجلاً، فقال له: آجَرَكَ اللهُ على الصَّوابِ، وغفَرَ لك الخَطَأَ.

وقال رجلٌ لرجلٍ: والله لأشتمنَّكَ شَتْمًا يَدْخُلُ مَعَكَ قَبْرَكَ. فقال: معكَ والله يَدْخُلُ لا مَعِي.

## بيان

### القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام

اعلم أن كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابله بمثله، فلا يجوز مقابلة الغيبة بالغيبة، ولا مقابلة التجسس بالتجسس ولا مقابلة السب بالسب، وكذا سائر المعاصي، وإنما القصاص والعرامة على ما ورد الشرع به، قال النبي ﷺ: «فإن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه».

وشتَمَ رجلٌ أبا بكرٍ والنبي ﷺ ساكتٌ، فلما ابتدأ أبو بكرٍ ينتصر قام رسول الله ﷺ، فقال: إنك كنت ساكتاً لما شتمني، فلما تكلمت فمت؟ فقال: «لأنَّ المَلَكَ كان يُجيبُ عنك، فلما تكلمت ذهبَ المَلَكُ وجاءَ الشَّيْطَانُ، فلم أكن لأجلسَ في مجلسٍ فيه الشيطان».

وقال قومٌ: تجوزُ المُقابِلَةُ بما لا كذبَ فيه؛ مثل أن يقول لمن أساء الأدب عليه: يا جاهل، ونحو ذلك، واستدلوا بما أخبرنا به ابن الحُصَيْنِ قال: أخبرنا ابن المُذَهَبِ قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا شُعْبَةُ قال: سمعتُ العلاءَ يُحدِّثُ عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المُسْتَبَانُ ما قالَا فَعَلَى البَادِي، ما لم يَعْتَدِ المَظْلُومُ». انفراد بإخراجه مسلم.

وفي الصَّحِيحِينَ من حديث عائشة قالت: دَخَلْتُ زَيْنَبُ فقالت: يا رسولَ اللهِ، إنَّ أزواجَكَ أرسَلَنِي إِلَيْكَ يَسْأَلُنكَ العَدْلَ في ابْنَةِ أَبِي قُحَافَةَ<sup>(١)</sup>. قالت ثم وَقَعْتُ بي زَيْنَبُ، فطَفِقْتُ أَنْظُرَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ متى يَأْذَنُ لي فيها، فلم أزل حتى عرفتُ أنه لا

(١) أي يسألونه التسوية في المحبة، أو في إرسال الناس الهدايا، فإنهم كانوا يتحررون يومها بالهدايا، فأردن أن يتركوا التحري ويرسلوا إليه الهدايا حيث كان.

يكره أن أنتصر فوقعت بزَيْنَب، فلم أنشِبها<sup>(١)</sup> أن أفحمتُها<sup>(٢)</sup>، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «إنها ابنة أبي بكر»<sup>(٣)</sup>. فهذا وأمثاله رُخصة على سبيل القصاص، والأفضل تركه؛ لأنه يجرُّ إلى ما وراءه، ولا يمكن الاقتصار على مقدار الحق فيه؛ لأن أكثر الناس لا يضبط نفسه في فورة الغضب.

ولهذا لا ينبغي للسُّلطان أن يُعاقب في حال غضبه؛ لئلا يتعدى الحق انتصاراً لنفسه لا لله تعالى، قال عمرُ بنُ عبد العزيز لرجلٍ أغضبه: لولا أنك أغضبتني لعاقبتك.

### القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق

اعلم أن الغيظ إذا كُظِم لعجزٍ عن التَّشْفِي في الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه، فصار حقدًا.

وعلامَةُ الحقدِ دوامُ بُغْضِ ذلك الشخص واستِثقاله<sup>(٤)</sup> والثُّفورُ منه.

والحقدُ ثَمرةُ الغضب، والحقدُ يُمِرُّ ثمانية أشياء:

الأول: الحسد، وذلك أنه يحمل الإنسان على أن يتمنى زوال النعمة على المحقود عليه، والغمُّ بنعمةٍ إن أصابها، والشُّرورُ بمُصيبةٍ إن نزلت به، وسيأتي في ذمِّ الحسد.

والثاني: أن يزيد على إضمار الحسد في الباطن، فيشمت ظاهراً بما يُصيبه من البلاء.

والثالث: أن يهجره ويُصارِمه.

والرابع: أن يُعرض عنه استِصْغاراً له.

(١) لم أنشِبها: أي لم أمهلها.

(٢) أفحمتها: أسكتتها.

(٣) أخرجه البخاري (٢٥٨١)، ومسلم (٢٤٤٢).

(٤) تحرفت في الأصل: اشتغاله.

والخامس: أن يتكلم فيه بما لا يحلُّ من كذبٍ وغيبةٍ، وإفشاءٍ سِرٍّ، وهتكٍ سِتْرٍ.

والسادس: أن يحكيه استهزاءً به، وسُخريةً منه.

والسابع: أن يؤذيه بالضرب والإيلام.

والثامن: أن يمنع حَقَّه من صلةٍ رحمٍ، أو قضاءٍ دينٍ، أو ردِّ مَظْلَمَةٍ، وكل ذلك حرام، فيجب على من وجد في قلبه حِقْدًا على مُسلم أن لا يخرج بالحقد إلى معصيةٍ، والأولى له أن يزيد في برِّ ذلك الشَّخص والإحسان إليه مجاهدةً للنفس وإرغاماً للشيطان، ويجتهد في إزالة أثر الحقد من باطنه.

فللحقوق ثلاثة أحوال عند القدرة:

أحدها: أن يستوفي حَقَّه الذي يستحقُّه من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ، وهو العدل، وهو درجة الصَّالحين.

الثاني: أن يُحسنَ إليه بالعفو والصِّلة، وذلك هو الفضل، وهو اختيار الصَّديقين.

والثالث: أن يظلمه بما لا يستحقُّه، وذلك هو الجور، وهو اختيار الأردلين.

### ذكر فضيلة العفو

اعلم أن معنى العفو أن يستحقَّ حقًّا فيُسقِطه ويبرأ عنه من قصاصٍ أو غرامةٍ، وهو غير الحِلْمِ وكَظْمِ العَيْظِ، فلذلك أفردناه.

قال الله عز وجل: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا محمد بن هبة الله الطبري قال: أخبرنا ابنُ بشران قال: أخبرنا ابنُ صفوان قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثنا يحيى

ابن أيوب قال: حدثنا إسماعيل بن جعفر قال: أخبرني العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً».

وروى عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ قال: «ثلاث - والذي نفسي بيده - إن كنت لحالفاً عليهنّ: ما نقصت صدقةً من مال، فتصدقوا، ولا عفا رجلٌ عن مظلمةٍ يبتغي بها وجه الله عزّ وجل إلا زاده الله بها عزّاً يوم القيامة، ولا فتح رجلٌ باب مسألةٍ إلا فتح الله عزّ وجل عليه باب فقرٍ».

وروى عقبه بن عامر قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «يا عقبه، ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ تصلُّ من قطعك، وتُعطي من حرمك وتَعفو عَمَّن ظلمك».

سأل موسى عليه السلام ربّه عزّ وجل: أيّ عبادك أعزّ؟ قال: الذي إذا قدر عفا.

وقال عليّ رضي الله عنه: إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرياً للقدرة عليه.

وقال معاوية: عليكم بالحلم والاحتمال حتى تتمكنكم الفرصة، فإذا أمكنتكم فعليكم بالصفح والإفضال.

وقال الحسن البصري: أفضل أخلاق المؤمنين العفو.

وقال: يُنادي مُنادٍ يوم القيامة: ليقيم من وقع أجره على الله عزّ وجلّ. فلا يقوم إلا رجلٌ قد عفا عن مظلمة.

وأتي عبد الملك بأسارى ابن الأشعث، فقال لرجاء بن حيوة: ما ترى؟ فقال: إن الله عزّ وجلّ قد أعطاك ما تُحبُّ من الظفر، فأعطه ما يُحبُّ من العفو. فعفا عنهم.

وقال أيوب السخّتياني: لا يَنْبُلُ الرَّجُلُ حَتَّى تَكُونَ فِيهِ خَصَلَتَانِ: الْعِفَّةُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَالتَّجَاوُزُ عَن مَّا يَكُونُ مِنْهُمْ.

وسُرقت دنائير من رجلٍ فبكى، فقيل له: على المال تبكي؟ قال: لا، ولكن مثلتني أنا وإياه بين يدي الله، فأشرف عقلي على إدحاض حُجَّتِه، فبكيْتُ رحمةً له.

وكتبَ ابنُ المُقَمِّعِ إلى صديقٍ له يسأله العَفْوَ عن بعض إخوانه: فُلانٌ هارِبٌ من زَلَّتْه إلى عَفْوِكَ لا تُدِّمَنكَ بك، واعلم أَنَّهُ لَنْ يَزِدَادَ الذَّنْبَ عِظْماً إِلا اِزْدَادَ العَفْوَ فَضْلاً<sup>(١)</sup>.

### فضيلة الرِّفْقِ

الرِّفْقُ نَتِيجَةُ حُسْنِ الخُلُقِ، وَلا يَحْسُنُ الخُلُقُ إِلا بِضَبْطِ قُوَّةِ العَظْبِ وَقُوَّةِ الشَّهْوَةِ وَحَفْظِهِمَا عَلَى العِتْدالِ.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا محمد بن هبة الله الطبري قال: أخبرنا أبو الحسين بن بشران قال: أخبرنا ابن صفوان قال: أخبرنا أبو بكر القرشي قال: حدثني علي بن الجعد قال: أخبرني عبد الرحمن بن أبي بكر عن القاسم بن محمد قال: سمعتُ عائشة رضي الله عنها تقول: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، إنه من أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ، حُرِمَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

قال القرشي: وحدثنا سعيد بن محمد الجرمي، قال: حدثنا أبو عبيدة الحداد قال: حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله رفيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَا لا يُعْطِي عَلَى العُنفِ».

وفي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ».

وفي أفراد مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلا زَانَهُ، وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلا شَانَهُ».

(١) في (ظ): (عظماً).

وفي أفرادِهِ من حديث جَرِير بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «مَنْ يُحْرَم الرُّقُّ، يُحْرَم الحَيْر».

## القول

في ذمّ الحسد وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية  
الواجب في إزالته

## بيان

### ذمّ الحسد

اعلم أنّ الحسد من نتائج الحقد، والحقد من نتائج الغضب، فهو فرع فرع<sup>(١)</sup> الغضب.

ثم للحسد من الفروع المذمومة ما لا يكاد يُحصى، أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا هشام عن يحيى بن أبي كثير عن يعيش بن الوليد عن الزبير بن العوام قال: قال رسول الله ﷺ: «دبّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، حالقة الدين لا حالقة الشعر، والذي نفس محمد بيده، لا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أفلا أنبئكم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم».

وفي الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تباعضوا، ولا تقاطعوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا».

وروي عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».

(١) سقطت من الأصل.

وفي حديثٍ آخر عن أنس أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «يطلعُ عليكم من هذا الفَجِّ رجلٌ من أهل الجنة»، فطلع رجلٌ، فسئل عن عمله فقال: إني لا أجد لأحدٍ من المسلمين في نفسي<sup>(١)</sup> غشاً ولا حسداً على خيرٍ أعطاه الله إياه.

وروى أبو هريرة عن النَّبِيَّ ﷺ أنه قال: «ثلاثٌ لا ينجو منهنَّ أحد: الظَّنُّ، والطَّيْرَةُ، والحَسَدُ، وسأحدثكم بالمخرج من ذلك؛ إذا ظنَّنت فلا تُحَقِّق، وإذا تطيَّرت فامض، وإذا حسدت فلا تبغ».

وروى واثله بن الأسقع عن النَّبِيَّ ﷺ قال: «لا تُظهِرِ الشَّماتَةَ بأخيك، فيرحمه الله ويبتليك».

وقال عمرو بن ميمون: رأى موسى عليه السلام رجلاً عند العرش فغبطه بمكانه فسأل عنه فقالوا: نُخبرُك بعمله؛ لا يحسد النَّاسَ على ما آتاهم الله من فضله، ولا يمشي بالنَّميمة، ولا يعقُّ والديه.

وقال عبد الملك بن عُمر: استعملَ عمرُ أبا عُبيدة على الشام وعزَّلَ خالد بن الوليد، فقال خالد: بُعثَ عليكم أمينٌ هذه الأمة، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أمينٌ هذه الأمة أبو عُبيدة بن الجراح»، وقال أبو عُبيدة: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «خالدُ سيفٌ من سُيوفِ الله عز وجل ونعمَ فتى العشيِّرة».

وروينا أن الله تعالى يقول: الحاسدُ عدوٌّ لِنعمتي، مُتسَخِّطٌ لقضائي، غير راضٍ بِقسمتي التي قَسَمْتُ بينَ عبادي.

وقال معاوية: كلُّ النَّاسِ أقدِرُ على رضاه إلا حاسدَ نعمةٍ، فإنَّه لا يُرضيه إلا زوالها.

وقال الأصمعي: سمعتُ أعرابياً يقول: ما رأيتُ ظالماً أشبهَ بمظلومٍ من الحاسدِ، حُزناً لازماً، ونَفْسٌ دائمةً، وعقل هائمٌ، وحسرة لا تنقضي.

حدثنا المبارك بن علي الصَّيرفي قال: أخبرنا هبةُ الله بن أحمد بن ثابت قال: أخبرنا محمد بن علي بن الفتح قال: أخبرنا ابنُ أخي ميمي قال: أخبرنا أحمد بن

(١) في الأصل: (قلبي).

محمد بن جعفر قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثنا الحسن<sup>(١)</sup> بن علي قال: حدثنا عفان قال: حدثنا حماد بن سلمة قال: حدثنا حميد عن بكر بن عبد الله أن رجلاً كان يَغشى بعض الملوك، فيقوم بحذاء الملك فيقول: أحسن إلى المحسن بإحسانه، والمسيء تكفيه مساوئه. فحسده رجلٌ على ذلك المقام والكلام، فسعى به إلى الملك، فقال: إن هذا الذي يقوم بحذائك ويقول ما يقول زعم أن الملك أبخر. فقال له الملك: وكيف يصح ذلك عندي؟ فقال: تدعو به إليك، فإنه إذا دنا منك وضع يده على أنفه<sup>(٢)</sup> لئلا يشم ريح البحر. فقال له: انصرف حتى أنظر، فخرج من عند الملك<sup>(٣)</sup>، فدعا الرجل إلى منزله فأطعمه طعاماً فيه ثوم، فخرج الرجل من عنده ف جاء إلى الملك، فقام بحذائه، فقال: أحسن إلى المحسن بإحسانه والمسيء ستكفيه مساوئه. فقال: أدن مني. فدنا منه، فوضع يده على فمه مخافة أن يشم الملك منه ريح الثوم، فقال الملك في نفسه: ما أرى فلاناً إلا قد صدقني. وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بجائزة أو صلة أو معروف، فكتب له كتاباً بخطه إلى عاملٍ من عماله: إذا أتاك صاحب كتابي هذا فاذبحه وأسلخه واحش جلدَه تيناً، وابعث به إليّ. فأخذ الكتاب وخرج، فلقيه الرجل الذي سعى به، فقال: ما هذا الكتاب؟ قال: كتب لي الملك بخطه إلى عاملٍ من عماله. قال: هب لي اجزني به. قال: هو لك، فأخذ الكتاب ومضى إلى العامل، فقرأه العامل فقال: أتدري ما في كتابك؟ يأمرني أن أذبحك وأسلخك وأحشو جلدك تيناً وأبعث بك إليه. فقال: إن هذا الكتاب ليس هو لي، الله الله، راجع الملك! قال: ليس لكتاب الملك مراجعة، فذبحه وسلخه وحشا جلدَه تيناً وبعث به إلى الملك، وجاء الرجل كما يجيء فقال: أحسن إلى المحسن بإحسانه، والمسيء ستكفيه مساوئه. فقال له الملك: ما فعل الذي كتبت لك بخطي؟ قال: لقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته له. قال: إنه ذكر لي أنك تزعم أنني أبخر؟ قال: ما فعلت. قال: فلم وضعت يدك على أنفك حين دنوت مني؟ قال: إنما وضعتها على فمي لأنه أطعمني طعاماً فيه ثوم

(١) في الأصل: (أبو الحسن).

(٢-٢) سقط من (ط).

فكرهت أن يشم الملك ريح الثوم. قال: صدقت، فقم ذلك المقام وقل ما كنت تقول.

وقال ابن سيرين: ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا؛ لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا وهو يصير إلى الجنة؟ وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا وهو يصير إلى النار؟

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ [الحشر: ٩]، قال: حسداً.

وقال إبليس لنوح عليه السلام: احذر الحسد، فإنه صيرني إلى هذه الحال، والحرص فإنه أخرج آدم من الجنة.

وقد روينا أن رجلاً انقطع إلى بعض الكرماء فألحقه<sup>(١)</sup> بحشمه وكفاه مؤنته، فبطر النعمة وسعى بالكريم إلى الأمير، فأرسل إليه الأمير فذكر له ما قال عنه فأنكر، فقال: فلان يخبر عنك بذلك. فسكت متعجباً، فقال الأمير: مالك؟ فقال: أخاف أن أكون قصرت في الإحسان إليه فحملته على مساوئ أخلاقه. فقال الأمير: سبحان الله ما أعجب ما بينكما في الطبع! أنت تحنو عليه، وهو يسعى في سفك دمك! أشهد إنك لكريم، وإنه لكثير. ثم أذن له في الانصراف، فلما ولى قال الأمير: أدام الله عيش مثلك في الناس.

(١) في (ظ): (فأتحفه).

## بيان

### حَقِيقَةُ الْحَسَدِ وَحُكْمُهُ وَمَرَاتِبُهُ

اعلم أنه لا حَسَدَ إلا على نِعْمَةٍ، فإذا أَنْعَمَ اللهُ على أَخِيكَ نِعْمَةً فلكَ فِيهَا حالتان:

إحداهُما: أن تَكْرَهُ تِلْكَ النِّعْمَةَ وتُحِبُّ زَوَالَهَا، وهذه الحالة تُسَمَّى حَسَدًا؛ لأنَّ الحسدَ كراهةُ النِّعْمَةِ وحبُّ زَوَالِهَا عن المُنْعَمِ عَلَيْهِ.

والحالة الثانية: أن لا تُحِبُّ زَوَالَهَا ولا تَكْرَهُ وجودها ودوامها لكنك تَشْتَهِي لِنَفْسِكَ مِثْلَهَا، وهذا يُسَمَّى غِبْطَةً.

قال العُلَمَاءُ: والحسدُ حرامٌ؛ لأنَّه تَسْحُطُّ لِقِضَاءِ اللهِ فِي تَفْضِيلِ بَعْضِ عِبَادِهِ على بَعْضٍ.

قلتُ<sup>(١)</sup>: واعلم أنني ما رأيتُ أَحَدًا حَقَّقَ الكلامَ فِي هذا كما ينبغي، ولا بدَّ من كَشْفِهِ، فأقول:

فاعلم أنَّ النَّفْسَ قد جُبِلَتْ على حُبِّ الرُّفْعَةِ، فهي لا تُحِبُّ أن يعلوها جنسها فيما يمكن حصوله لها من النِّعَمِ، فإذا علا عليها جنسها في ذلك شَقَّ عليها وكرهته، وأحَبَّتْ زوالَ ما علاها به الجنس ليقع التَّساوي، وهذا أمرٌ مَرَكُوزٌ في الطَّبَاعِ لا يَسْلَمُ منه أَحَدٌ، ولا يقدر على صرفه عن نفسه، وقد رويْنَا أَنفَاءً عن النبي ﷺ أنه قال: «ثَلَاثٌ لا يَنْجُو مِنْهُنَّ أَحَدٌ» فذكر مِنْهُنَّ الحسدَ.

وإنَّما يُعالج ذلك تارةً بالرِّضَا بالقِضَاءِ، وتارةً بالرُّزْهِدِ فِي الدُّنْيَا وحساب الآخرة، فَيَتَسَلَّى بِذلك ولا يعمل بمقتضى ما فِي النَّفْسِ أصلاً ولا ينطق، كما

(١) قبلها فِي (ظ): (قال الشيخ المصنف).

أخبرنا المبارك بن علي قال: أخبرنا هبة الله بن أحمد بن ثابت قال: أخبرنا أبو طالب العُشاري قال: أخبرنا أبو الحسين بن أخي ميمي قال: حدثنا أحمد بن محمد بن جعفر قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثنا محمد بن سلام الجُمحي قال: حدثنا حماد بن سلمة عن حميد قال: سمعت رجلاً يسأل الحسن: هل يحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك بني يعقوب لا أبالك؟ نعم، ولكن غمه في صدرك ولا يضرُّك.

قلت<sup>(١)</sup>: وهذا القول يوضح ما ذكرته، فإنه من لم يعمل بمقتضى ما في جبلته من الحسد كما فعل إخوة يوسف ولم ينطق بدم المحسود لم يضره ما وضع في الجبلّة، وتكون كراهته لما في جبلته من ذلك تكفر ذلك.

وهذا إنما يقرب الأمر فيه إذا كانت النعم تتعلق بالأغراض الدنيوية المحضّة.

وأما من يحسد نبيّاً على نبوته فيحِبُّ أن لا يكون، أو عالماً على ما رزق من العلم، فيؤثر أن لا يرزق ذلك، أو أن يزول عنه، فهذا لا عذر فيه، ولا تُجبل عليه إلا النفوس الكافرة أو الشريرة.

فأما إذا تشاعل بالعلم فأحب أن يسبق أقرانه، ويطلع على ما لم يدركوه، فإنه لا يَأثم؛ لأنه لا يؤثر زوال ذلك عنهم، بل أحبّ الارتفاع عليهم لتزيد خطوته عند ربّه، كما لو استبق عبداً إلى حاجة مولاها فأحبّ أحدهما أن يسبق صاحبه<sup>(٢)</sup>، وقد قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، وفي الصّحيحين من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ورجل آتاه الله مالا، فهو ينفقه في الحقّ آناء الليل والنهار».

(١) قبلها في (ظ): (قال المصنف).

(٢) سقطت من (ظ).

## بيان

### أسباب الحسد والمنافسة

أما المنافسة:

فسببها حُبُّ ما فيه المنافسة، فإن كان ذلك أمراً دينياً فسببه حُبُّ الله تعالى وطاعته، وإن كان دنيوياً، فسببه حُبُّ مباحات الدنيا والتَّعَنُّمُ بها. وإنما ننظر الآن في الحسد المذموم، ومداخله كثيرة جداً، ولكن يحصر جملتها سبعة أسباب: العداوة، والتَّعَزُّزُ، والتَّكَبُّرُ، والتَّعَجُّبُ، والخوف من قوت المقاصد المحبوبة، وحُبُّ الرِّياسة، وحُبُّ<sup>(١)</sup> النَّفْسِ وبُخْلِها، فإنه إنما يكره النِّعمة عليه إما لأنه عدوه، فلا يريد له الخَيْر، وهذا لا يختصُّ بالأمثال، بل قد يحسُدُ الحَسِيسُ الملكَ ويحِبُّ زوال نعمته؛ لأنه مبغضٌ له بسبب إساءته إليه أو إلى مَنْ يحبه، وإما أن يكون من حيث يعلم أنه يستكبرُ بالنِّعمة عليه وهو لا يطيق احتمال كِبَرِهِ لعزَّة نفسه، وهو المرادُ بالتَّعَزُّزِ، وإما أن يكون في طبعه أن يتكَبَّرَ على المحسود ويمتنع ذلك عليه بنعمته، وهو المراد بالتَّكَبُّرِ، وإما أن تكون النِّعمة عظيمةً والمنصب كبيراً فيتعجب من فوز مثله بمثل تلك النِّعمة وهو التَّعَجُّبُ، وإما أن يخاف من قوات مقاصده بسبب نعمته بأن يتوصَّلَ بها إلى مُزاحمته في أغراضه، وإما أن يكون لِحُبِّ الرِّياسة التي تنبني على الاختصاص بنعمة لا يُساوى فيها، وإما أن لا يكون لسببٍ من هذه الأسباب بل لِحُبِّ النَّفْسِ<sup>(٢)</sup> وشُحِّها بالخير على عباد الله تعالى.

ولابد من شرح هذه الأسباب:

السبب الأول: العداوة والبغضاء: وهو أشد أسباب الحسد، فإن من آذاه إنسانٌ بسببٍ من الأسباب وخالفه في غرضه بوجهٍ من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه،

(١) في الأصل: (حب).

(٢) في (ظ): (النفوس).

ورسخ في نفسه الحقد، والحقد يَقْتَضِي التَّشْقِي والانتقام، فإن عجز المُبْغِض عن أن يَتَشَقَّى بنفسه أحبُّ أن يَتَشَقَّى منه الزمان، وربّما يُحِيلُ ذلك على كرامته عند الله، فمهما أصاب عدوه بليّة فرح وظنّه مُكافأة من جهة الله على بُغضه وأنّه لأجله، ومهما أصابته نعمة ساء ذلك؛ لأنّه ضدّ مُرادِه، وربّما يظهر له أنّه لا منزلة له عند الله حين لم يَتَّقِمْ له من عدوّه الذي آذاه، بل أنعم عليه.

وبالجملة؛ فالحسدُ يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما وإنما غاية التقي أن لا يبغى، وأن يكره ذلك من نفسه. فأما أن يُبغض إنساناً ثم يَسْتَوِي عنده مَسْرَتَه ومساءته فهذا غير ممكن، وقد وصف الله سُبحانه الكفار بالحسد للعداوة، فقال عز وجل: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدَ بَدَتِ أَلْبَعَضَةُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ سَأَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٨ - ١٢٠].

واعلم أن الحسد بسبب<sup>(١)</sup> البغض ربّما أفضى إلى التنازع والقتال واستغراق العمر في التحيل لإزالة نعمة المحسود.

السبب الثاني: التّعزُّز: وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره، فإذا أصاب بعض نظرائه ولاية أو مالا خاف أن يتكبر عليه، وهو لا يطيق تكبره، ولا تسمح نفسه باحتمال تفاخره عليه، فليس من غرضه أن يتكبر، بل من غرضه أن يدفع كبره، فإنّه قد رضي بمساواته مثلاً، ولكن لا يرضى بترفعه<sup>(٢)</sup> عليه.

السبب الثالث: أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ويستصغره ويستخدمه، ويتوقع منه الانقياد له والمتابعة في أغراضه، فإذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره ويرتفع عن مُتابعته، أو ربّما يتشوّف إلى مساواته أو إلى أن يترفع عليه، فيعود مُتكبراً بعد أن كان مُتكبراً عليه.

ومن التّعزُّز والتكبر كان حسدُ أكثر الكفار لرسول الله ﷺ، فأنفوا<sup>(٣)</sup> أن يتقدّم

(١) ليست في (ظ).

(٢) في (ظ): (يرتفع).

(٣) تصحفت في الأصل إلى: (فاتقوا).

عليهم يتيم فقير فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، والمعنى: لو كان هذا، لم يثقل علينا أتباع من هو عظيم. وكذلك قالوا في المؤمنين: ﴿أَهْتَوَلَاءَ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣]، احتقاراً لهم وأنفة منهم.

السبب الرابع: التعجب: كما أخبر الله تعالى عن الأمم الماضية إذ قالوا: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [يس: ١٥]، وقالوا: ﴿وَلَيْنَ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمُ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرْتُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٤]، فتعجبوا من أن يفوزَ برتبة الرسالة بشرٌ مثلهم، فحسدوهم وأحبوا زوال تلك الرتبة عنهم جزعاً أن يفضل عليهم من هو مثلهم في الخلقة لا عن قصد تكبرٍ وطلب رئاسةٍ وتقدم عداوة، وقالوا متعجبين: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] فقال تعالى: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِثْلِكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣].

السبب الخامس: الخوف من قوت المقاصد: وذلك يختص بمتراحمين على مقصودٍ واحدٍ، فإن كل واحدٍ يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عوناً له في الانفراد بمقصوده، ومن هذا الجنس تحاسد الضرّات في التراحم على مقاصد الزوجية، وتحاسد الإخوة في التراحم على نيل المرتبة من قلب الأبوين للتوصل إلى مقاصد الكرامة والمال، وكذلك تحاسد التلميذين لأستاذٍ واحدٍ في نيل المنزلة من قلب الأستاذ، وتحاسد ندماء المملك وخواصه في نيل المنزلة من قلبه للتوصل به إلى الجاه والمال، وكذلك تحاسد الواعظين في البلدة الواحدة إذا كان غرضها المال ونيل القبول.

السبب السادس: حُب الرياسة، وطلب نفس الجاه من غير توسلٍ به إلى مقصود، وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فنٍّ من الفنون إذا غلب عليه حُبُّ الشناء واستفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر وفريد العصر في فنه، وأنه لا نظير له فإذا سمع بنظير له في أقصى العالم ساءه ذلك، وأحبّ موته أو زوال النعمة التي بها يُشاركه في المنزلة من علم أو شجاعة أو عبادة أو صناعة أو ثروة أو غير ذلك مما يتفرّد هو به ويفرح لسبب تفرّده، وليس السبب في هذا عداوة

ولا تَعَزُّزاً ولا تَكْبِراً على المَحْسود، ولا خوفاً من قَوَات مَقْصود سوى تمحض الرِّياسة بدعوى الانفراد، وهذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة في قلوب النَّاس للتوصُّل إلى مقاصد سوى الرِّياسة.

وقد كان علماء اليهود يُنكرون معرفة رسول الله ﷺ ولا يؤمنون خِيفَةً أن تَبْطُل رئاستهم واستباعهم.

**السَّبب السابع: خُبْثُ النَّفْس:** وشُحُّها على عباد الله عز وجل، فإنَّك تجد من لا يَشْتَغِل برئاسَةٍ ولا تَكْبِيرٍ ولا طَلَبِ مالٍ، فإذا وُصِفَ عنده حُسْنُ حالِ عبيدٍ من عبادِ الله تعالى فيما أنعم به عليه شَقَّ ذلك عليه، وإذا وُصِفَ له اضطرابُ أمور النَّاس وإدبارهم وقَوَات مقاصدهم وتَنَعُّص عيشتهم، فرح به، فهو أبداً يَحْبُّ الإدبار لغيره، ويبخل بنعمة الله على عباده، كأنهم يأخذون ذلك من مُلكه وخَزَائِنه، وقد قال العلماء: البَخِيلُ مَنْ يَبْخُلُ بِمالِ نَفْسِهِ، والشَّحِيحُ الَّذِي يَبْخُلُ بِمالِ غَيْرِهِ، فهذا يَبْخُلُ بنعمة الله على عباده الذين ليسَ بينه وبينهم عداوة ولا رابطة، وهذا ليس له سببٌ إلا خُبْثٌ في النَّفْسِ ورذالَةٌ في الطَّبَعِ من جهة الجِبِلَّةِ، ومُعَالَجَتُهُ شديدة؛ لأنَّ الحسد الثابت بسائر الأسباب<sup>(١)</sup> أسبابه عارضةٌ، يُتَصَوَّرُ زوالها فيُطْمَعُ في إزالتها، وهذا خُبْثٌ في الجِبِلَّةِ<sup>(٢)</sup> لا عن سببٍ عارضٍ فَتَعَسَّرَ إزالته.

فهذه أسباب الحسد، وقد يجتمع بعضها أو أكثرها أو جميعها في شخصٍ واحدٍ، فيعظم فيه الحَسَدُ لذلك، فلا يقدر على إخفاء ما عنده فيُظْهِرُ العداوةَ بالمُكاشَفَةِ، وأكثر المحاسدات يجتمع فيها جُمْلَةٌ من هذه الأسباب وقلَّما يتجرَّد سببٌ منها.

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في النسخ: (الجملة) والمثبت من الإحياء.

## بيانُ

السَّبب في كثرة الحَسَد بين الأمثال والأقربان والإخوة  
وبني العمِّ وذوي القُرْبى وتأكُّده وقلَّته في غيرهم  
وضعفه

اعلم أن الحسد إنَّما يكثرُ بين قَوْمٍ تكثرُ بينهم الأسباب التي ذكرناها وإنَّما يَقوى بين قَوْمٍ تجتمعُ فيهم جُملة من هذه الأسباب وتَظَاهر، إذ الشخص الواحدُ يجوز أن يَحْسُدَ لأنَّه يمتنع من قبول التَّكبر، ولأنَّه يتكَبَّر، ولأنَّه عدُوٌّ، ولغير ذلك من الأسباب.

وهذه الأسباب إنَّما تكثرُ بين أقوامٍ تجمَعهم رَوابط يجتمعون بسببها في مجالس المُخاطبات، ويتواردون على الأغراض، فإذا خالف واحدٌ صاحبه في غرضٍ من أغراضه نَفَرَ طبعه وأبغضه، وثبَّت الحقدُ في قلبه، فعند ذلك يريد أن يَسْتحقِّره ويتكَبَّر عليه ويكافئه على مُخالفته لِعرضه، ويكره تمكُّنه من النِّعمة التي تُوصله إلى أغراضه.

وتترادف جُملة الأسباب، إذ لا رابطةَ بين شخصين في بلدين، فلا يكون بينهما مُحاسدةً، إنَّما إذا تجاوزا في مَسكنٍ أو سوقٍ أو مسجدٍ أو مدرسةٍ تواردا على مقاصد تتناقض فيها أغراضهم، فيثورُ من التَّنَاقض التَّنَافُر والتَّبَاغُض، ومنه ثورٌ بقيَّةُ أسبابِ الحَسَد، فلذلك تَرى العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يَحْسُدُ العابد دون العالم، والتَّاجر يَحْسُدُ التَّاجر، بل الإسكاف<sup>(١)</sup> يَحْسُدُ الإسكاف ولا يحسد البَرَّاز<sup>(٢)</sup> إلا لسببٍ آخر سوى الاجتماع في الحِرْفَة، ويحسد الرِّجل أخاه وابنَ عمِّه

(١) الإسكاف: صانع الأحذية ومُصلحها.

(٢) البَرَّاز: بائع البُرِّ، وهو نوع من الثياب.

أكثر مما يحسد الأجانب، والمرأة تحسد ضررتها وسرية زوجها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته؛ لأن مقصد البزاز غير مقصد الإسكاف، فلا يتزاحمون على المقاصد، إذ مقصد البزاز الثروة ولا يحصلها إلا بكثرة الزبون، وإنما يئازعه في ذلك بزاز آخر، إذ حريف<sup>(١)</sup> البزاز لا يطلب الإسكاف، بل البزاز، ثم مزاحمة البزاز المجاور له أكثر من مزاحمة البعيد عنه إلى طرف السوق، فلا جرم يكون حسده للجار أكثر، وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد العالم؛ لأن مقصده أن يذكر بالشجاعة ويشتهر بها ويفرد بهذه الخصلة، ولا يزاحمه العالم على هذا الغرض، وكذلك يحسد العالم العالم ولا يحسد الشجاع، ثم حسد الواعظ للواعظ أكثر من حسده للفقير والطيب؛ لأن التزاحم بينهما على مقصودٍ أخص.

فأصل هذه المحاسدات العداوة، وأصل العداوة التزاحم على غرض واحد، والغرض الواحد لا يجمع متباعين، بل يجمع متناسبين، فلذلك يكثر الحسد بينهم.

إلا أن من اشتد حرصه على الجاه وأحب الصيت في جميع أطراف العالم بما هو فيه، فإنه يحسد كل من هو في العالم وإن بعد ممن يساهمه في الخصلة التي يتفاخر بها.

ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا، فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين، وأما الآخرة فلا ضيق فيها، وإنما مثال الآخرة نعمة العلم، فمن أحب معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وملائكته وأنبيائه وملكوته أرضه وسمائه، لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضاً؛ لأن المعرفة لا تضيق على العارفين بل المعلوم الواحد يعرفه ألف ألف عالم، ويفرح بمعرفته ويلتذ به، ولا تنقص لذته واحد بسبب غيره، بل يحصل بكثرة<sup>(٢)</sup> العارفين زيادة الأُنس وثمره الإفادة والاستفادة، فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة؛ لأن مقصودهم معرفة الله، وهو بحر واسع لا ضيق فيه،

(١) الحريف، كشريف: المعامل لصاحب الحرفة، والجمع حرفاء.

(٢) تحرفت في (ظ) إلى: (فكرة).

وغيرهم المنزلة عند الله ولا ضيقَ فيها أيضاً فيما عند الله؛ لأنَّ أجلَّ ما عند الله من النعيم لذة بقاءه وليس فيها مُمانعة ولا مُزاحمة، ولا يُضيقُ بعض الناظرين على بعض، بل يزيد الأُنس بكثرتهم، إلا أنه إذا قَصَد العلماء بالعلم المالَ والجاهَ تحاسدوا، لأنَّ المال هو أعيانُ وأجسام إذا وقعت في يدٍ واحدٍ خلت عنها يدُ الآخر، ومعنى الجاه مُلكُ القلوب، ومتى امتلأ قلبُ شخصٍ بتعظيمِ عالمٍ انصرف عن تعظيمِ الآخر أو نقص منه لا محالة، فيكون ذلك سبباً للمحاسدة، وإذا امتلأ قلبُ شخصٍ بالفِرْح بمعرفة الله تعالى لم يمنع ذلك أن يمتلئ قلبُ غيره به وأن يفرح به، فالفرق بين العلم والمال أنَّ المال لا يحلُّ في يدٍ ما لم يرتحل عن يدٍ أخرى، والعلمُ في قلبِ العالم مستقرٌّ ويحلُّ في قلبِ غيره بتعليمه من غير أن يرتحل عن قلبه، فالمالُ أجسامٌ وأعيانٌ ولها نهاية، فلو ملك الإنسانُ جميع ما في الأرض لم يبقَ بعده مالٌ ليملكه غيره، والعلم لا نهاية له، ولا يُتصوَّر استيعابه، فمن عوَد نفسه الفكر في جلال الله وعظمته وملكوته صار ذلك ألدَّ عنده من كل نعيم، ولم يكن ممنوعاً عنه ولا مزاحماً فيه، فلا يكون في قلبه حسدٌ لواحدٍ من الخلق؛ لأنَّ غيره لو عرف مثل معرفته لما نقص من لذته بل زادت لذته بمؤانسته، فتكون لذة هذا في مطالعته عجائب المملوكات على الدوام أعظم من لذة من ينظر إلى أشجار الجنة وبساتينها بالعين الظاهرة، فإنَّ نعيم العارفِ وجنته معرفته التي هي صفة ذاته يأمُن زوالها ويَجني أبدأ ثمارها، فهو بروحِهِ وقلبه مُغتدِّ بفاكهة علمه، وهي فاكهة قُطوفها دانية، غير مقطوعة ولا ممنوعة، فإنَّ وُجد كثير من العارفين لم يكونوا مُحاسدين، بل إخواناً على سُررٍ مُتقابلين، فهذه حالهم وهم في الدنيا، فما يُظنُّ بهم عند انكشاف الغطاءِ ومشاهدة المحبوب في العقبى؟

فقد عرفت أنه لا حسدَ إلا في التوارد على مقصودٍ يضيق عن الوفاء بالكلِّ، ولهذا لا ترى النَّاس يتحاسدون على النَّظر إلى زينة السماء لأنَّها لسعة الأقطار وافيةٌ بجميع الأبصار، فعليك إن كنت بصيراً وعلى نفسك مُشفقاً أن تطلب نعيماً لا زحمة فيه ولذَّة لا مُكدر لها، ولا يوجد ذلك في الدنيا إلا في معرفة الله سبحانه ومعرفة صفاته وأفعاله وعجائب ملكوته ولا يُنال ذلك في الآخرة إلا بهذه المعرفة أيضاً،

فإن كنت لا تشتاقُ إلى معرفة الله سبحانه، ولم تجد لذتها وضَعفت فيها رغبتك،  
 فلست برجلٍ، إنما هذا شأنُ الرجال؛ لأنَّ الشَّوقَ بعد الذَّوق، ومن لم يذُق لم  
 يعرف، ومن لم يعرف لم يشتق، ومن لم يشتق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يدرك،  
 ومن لم يدرك بقي مع المحرومين.

## بَيَانُ

### الدَّوَاءُ الَّذِي بِهِ يُنْفَى مَرَضُ الْحَسَدِ عَنِ الْقَلْبِ

اعلم أنَّ الحسدَ من الأمراضِ العظيمة للقلوب، ولا تُداوى أمراضُ القلوب إلا بالعلم والعمل، والعلمُ النافعُ لمرضِ الحسدِ هو أن تُعرَفَ تحقيقاً أنَّ الحسدَ ضَرَرٌ عليك في الدين والدنيا، وأَنَّهُ لا ضَرَرُ به على المحسود في الدنيا والدين، بل ينتفع به في الدنيا والدين، فإذا عرفتَ هذا عن بصيرةٍ ولم تكن عدوًّا نفسك وصديقَ عدوكَ فارتقتَ الحسدَ لا محالة.

أما كونه ضَرراً عليك في الدين؛ فإنَّك بالحسدِ سَخَطْتَ قضاءَ الله تعالى، وكرهتَ نعمته التي قَسَمَها لعباده وعدله الذي أقامه في مُلكه بحَفِيَّ حِكْمَتِهِ، فاستنكرتَ ذلك واستبشعته، وهذه جنايةٌ على عين التَّوْحِيدِ وَقَدِيٍّ فِي بَصْرِ الْإِيمَانِ، وناهيكَ بها جنايةٌ على الدين، وقد انضَافَ إليه<sup>(١)</sup> أَنَّكَ عَشَشْتَ رَجلاً من المؤمنين<sup>(٢)</sup> وتركتَ نصيحته، وفارقتَ أنبياءَ الله عزَّ وجل وأولياءه في حُبِّهِم الخَيْرَ لعباده، وشاركتَ إبليسَ وسائرَ الكُفَّارِ فِي مَحَبَّتِهِم للمؤمنين البَلايا وزوالِ النِّعمِ، وهذه خبائثُ فِي القلبِ تَأْكُلُ حَسَنَاتِ القلبِ كما تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ وتمحوها كما يُمحو اللَّيْلُ النَّهَارَ.

وأما كونه ضَرراً فِي الدُّنْيَا عَلَيْكَ؛ فهو أَنَّكَ تَتَأَلَّمُ<sup>(٣)</sup> بجسدك وتتعدَّبُ به، ولا تزالُ فِي كَمَدٍ وَعَظْمٍ، إذ أعداؤُكَ لا يُخْلِيهِمُ اللهُ عَن نِّعَمٍ يُفِيضُهَا عَلَيْهِمُ، فلا تزالُ تَتَعَدَّبُ بِكُلِّ نِعْمَةٍ تَرَاهَا، وتَتَأَلَّمُ بِكُلِّ بَلِيَّةٍ تَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَتَبْقَى مَعْمُوماً مَحْرُوماً<sup>(٤)</sup>

(١) فِي الْأَصْلِ: (إِلَيْكَ).

(٢) فِي الْأَصْلِ: (الْمُسْلِمِينَ).

(٣) تَحَرَّفَتْ فِي (ظ) إِلَى: (سَالِم).

(٤) فِي النِّسْخِ: (مَحْرُوماً)، وَالْمَثْبُتُ مِنَ الْإِحْيَاءِ.

مُتَشَعِّبَ الْقَلْبِ ضَيِّقَ الصَّدْرِ كَمَا لَا تَشْتَهِي لِأَعْدَائِكَ، وَكَمَا يَشْتَهِي أَعْدَاؤُكَ لَكَ، فَقَدْ كُنْتَ تَرِيدُ الْمَحَنَةَ لِعَدُوِّكَ فَتَنْجَزَتْ فِي الْحَالِ مَحْنَتُكَ وَعَمُّكَ نَقْدًا، وَلَا تَزُولُ النَّعْمَةُ عَنِ الْمَحْسُودِ بِحَسَدِكَ.

ولو لم تكن تُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ لَكَانَ مُقْتَضَى الْفِطْنَةِ إِنْ كُنْتَ عَاقِلًا أَنْ تَحْذَرَ مِنَ الْحَسَدِ لَمَا فِيهِ مِنْ أَلَمِ الْقَلْبِ وَمَسَاءَتِهِ مَعَ عَدَمِ النَّفْعِ، فَكَيْفَ وَأَنْتَ عَالِمٌ بِمَا فِي الْحَسَدِ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ فِي الْآخِرَةِ؟ فَالْعَجْبُ مِنْ عَاقِلٍ يَتَعَرَّضُ لِسُخْطِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ نَفْعٍ يَنَالُهُ بَلْ مَعَ ضَرَرٍ يَحْتَمِلُهُ وَالْمِيقَاسِيهِ، فَيُهْلِكُ دِينَهُ وَدُنْيَاهُ مِنْ غَيْرِ جَدْوَى وَلَا فَائِدَةٍ.

وَأَمَّا قَوْلُنَا: لَا ضَرَرَ عَلَى الْمَحْسُودِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ. فَوَاضِحٌ؛ لِأَنَّ النَّعْمَةَ لَا تَزُولُ عَنْهُ بِحَسَدِكَ، بَلْ مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ مِنْ إِقْبَالٍ وَنِعْمَةٍ فَلَا بَدَّ أَنْ يَدُومَ إِلَى أَجَلٍ قَدَّرَهُ اللَّهُ، فَلَا حِيلَةَ فِي دَفْعِهِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى تَغْيِيرِهِ، إِذْ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، وَإِذَا لَمْ تَزَلِ النَّعْمَةُ بِالْحَسَدِ لَمْ يَكُنْ عَلَى الْمَحْسُودِ ضَرَرٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا إِثْمٌ فِي الْآخِرَى.

وَأَمَّا قَوْلُنَا: إِنَّ الْمَحْسُودَ يَنْتَفِعُ بِهِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا. فَوَاضِحٌ؛ أَمَا مَنْفَعَتُهُ فِي الدِّينِ، فَهُوَ أَنَّهُ مَظْلُومٌ مِنْ جِهَتِكَ لَا سِيَّمًا إِذَا أَخْرَجَكَ<sup>(١)</sup> الْحَسَدُ إِلَى الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ بِالْغَيْبَةِ وَالْقَدْحِ فِيهِ وَذَكَرَ مَسَاوِيَهُ وَهَتَكَ سِتْرَهُ، فَإِنَّكَ تُهْدِي إِلَيْهِ بِذَلِكَ حَسَنَاتِكَ، فَتَلْقَاهُ فِي الْقِيَامَةِ وَأَنْتَ مُفْلِسٌ، فَلِكَأَنَّكَ أَرَدْتَ زَوَالَ النَّعْمَةِ عَنْهُ فَلَمْ تَزَلْ وَزَالَتْ نِعْمٌ كَانَتْ عَلَيْكَ إِذْ نَقَلْتَ إِلَيْهِ حَسَنَاتِكَ فَأَضَفْتَ إِلَى نِعْمَتِهِ نِعْمَةً وَأَضَفْتَ إِلَى شِقَاوَتِكَ شِقَاوَةً<sup>(٢)</sup>.

وَأَمَّا مَنْفَعَتُهُ فِي الدُّنْيَا، فَهُوَ أَنَّ أَهْمَ أَغْرَاضِ الْخَلْقِ غَمُّ الْأَعْدَاءِ وَشِقَاوَتِهِمْ، وَلَا عَذَابَ أَعْظَمَ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ مِنَ الْحَسَدِ، وَغَايَةُ أَمَانِي أَعْدَائِكَ أَنْ يَكُونُوا فِي نِعْمَةٍ وَأَنْ تَكُونَ فِي حَسْرَةٍ بِسَبَبِهِمْ، وَقَدْ فَعَلْتَ بِنَفْسِكَ مَا هُوَ مُرَادُهُمْ، وَلِذَلِكَ لَا يَشْتَهِي عَدُوُّكَ مَوْتَكَ بَلْ يَشْتَهِي طَوْلَ حَيَاتِكَ فِي عَذَابِ الْحَسَدِ لِتَنْظُرَ إِلَى نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ فَيَتَقَطَّعَ قَلْبُكَ حَسَدًا، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

(١) فِي النِّسْخِ: (أَخْرَجْتَ)، وَ الْمَثْبُتُ مِنَ الْإِحْيَاءِ.

(٢) سَقَطَتْ مِنَ الْأَصْلِ.

لا مات أعداؤك بل خلدوا حتى يروا منك الذي يكمد  
لا زلت محسوداً على نعمةٍ فإنما الكامل من يحسد  
ففرح عدوك بغمك وحسدك أعظم من فرحه بنعمته، ولو علم خلاصك من ألم  
الحسد وعذابه لكان ذلك أعظم بليّة عليه، فما أنت فيما تُلزمه من عمّ الحسد إلا  
كما يشتهيهِ عدوك، فإذا تأملت ما ذكرنا علمت أنك عدو نفسك وصديق عدوك إذا  
تعاطيت ما تضررت به في الدنيا والآخرة وانتفع به عدوك في الدنيا والآخرة،  
وصرت مذموماً عند الخلق والخالق، شقيّاً في الحال والمآل، ونعمة المحسود  
دائمة شئت أو أبيت.

ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك حتى توصلت إلى إدخال أعظم سرور  
على إبليس الذي هو أعدى أعدائك؛ لأنه لما رآك قد حرمت النعم التي خصّ  
عدوك بها خاف أن تحبّ ذلك له فتشاركه في الثواب بسبب المحبة؛ لأنّ من أحبّ  
الخير للمسلمين كان شريكاً في الخير، ومن فاتته اللحاق بدرجة الأكابر في الدين،  
فلا ينبغي أن يفوته ثواب الحبّ لهم، فلما خاف إبليس أن تحبّ ما أنعم الله له على  
عبده في دينه ودنياه فتفوز بثواب الحبّ بغضه إليك حتى لا تلحقه بحبك كما لم  
تلحقه بعملك.

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود وأبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال:  
«المرء مع من أحبّ».

أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الدّاودي قال: أخبرنا ابن أعين قال: حدثنا  
الفريّري قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا سليمان بن حرب قال: حدثنا حماد بن  
زيد<sup>(١)</sup> عن ثابت عن أنس أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟  
قال: «وماذا أعددت لها؟» قال: لا شيء، إلا أتني أحبّ الله ورسوله. فقال: «أنت  
مع من أحببت». قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: «أنت مع من

(١) تحرف في النسخ إلى: (زيد) والمثبت من صحيح البخاري (٣٦٨٨).

أَحَبِّتَ». قال أنس: فأنا أحبُّ النَّبِيَّ ﷺ وأبا بكرٍ وعُمَرَ، وأرجو أن أكونَ معهم بحُبِّي إياهم وإن لم أعملَ بمثل أعمالهم. أخرجاه في الصَّحِيحِينَ.

فانظر إلى إبليس كيف حسدك ففوّت عليك ثوابَ الحُبِّ، ثم لم يَفْنَعْ بذلك حتى بَعَّضَه إليك حتى أئِثمتَ، وكيف لا تأثمُ؟! وربّما حسدتَ عالماً وأحبيتَ أن يُخْطِئَ في دين الله وَيَنكشِفَ خَطْؤُهُ وَيَفْتَضِحَ، وتُحِبُّ أن يَخْرُسَ لسانُه حتّى لا يتكلم، ويمرضَ حتى لا يُعَلِّمَ ولا يتعلَّم، فليتَّك إذ فاتك اللَّحاقُ به ثم اغتَمَمْتَ بسببِهِ سلَمَتَ من الإثمِ، فقد نَفَدَ عَلَيْكَ حَسَدُ إبليس وما نَفَدَ حَسَدُكَ على عدوك بل على نفسك بل لو كوشِفَتْ بحالك في يَقْظَةٍ أو منامٍ لرأيتَ نفسك في صورة من يرمي حجراً إلى عدوّه ليُصِيبَ به مَقْتَلَه، فلا يصيبه، بل يرجع على حَدَقْتِه اليُمْنَى فيقلعها، فيزيد غضبه، فيعود يرميه بأشدّ من الأولى فيرجع الحَجَرُ على عينه الأخرى فيعميها، فيزداد غَيْظُهُ، فيعود فيرميه ثالثاً فيعود الحجر على رأسه فيشجُّه، وعدوّه سالمٌ يضحك به.

واعلم أنّ حالك في الحسد أقبحُ حالاً من هذا المثل؛ لأنّ الحَجَرَ العائد لم يُفوّتِ إلا العَيْنَ، ولو بقيت لفاتت بالموت، والحسد يعود بالإثم، والإثم لا يفوت بالموت، ولعلّه يُسوقُ إلى غضبِ الله تعالى وإلى النَّارِ، فذهابُ العَيْنِ في الدُّنيا خَيْرٌ من بقاء عَيْنٍ يدخلُ بها إلى النَّارِ.

فانظر كيف انتقم اللهُ من الحاسد إذ أراد زوال النِّعمة عن المَحْسودِ، فلم يُزِلْها عنه وأزال نِعمة الحاسد إذ السَّلامَةُ من الغمِّ والكَمَدِ نِعمة، والسَّلامَةُ من الإثمِ نِعمة، وقد زالتا عنه تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

وربّما يُبتَلَى بعَيْنٍ ما يشتهيهِ لعدوّه، وقلّ ما يَسْمُتُ شامتٌ بمساءةٍ إلا ويبتلى بمثلها، فقد روينا عن النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «لا تُظْهِرِ الشَّماتَةَ لِأَخِيكَ، فَيُعَافِيهِ اللهُ وَيَبْتَلِيكَ». فهذا إثم الحسد نفسه، فكيف ما يَجْرُ إليه الحسد من الأخلاقِ وجُحودِ الحَقِّ وإطلاقِ اللُّسانِ واليدِ بالفَواحِشِ في التَّشْفِيّ من الأعداء، وهو الدَّاءُ الذي هلكت فيه الأُمم السَّالفة.

فهذه هي الأدوية العلمية، فإذا تفكّر الإنسان فيها بذهنٍ صافٍ وقلبٍ حاضرٍ خمدت نارُ الحسد من قلبه؛ لأنه يعلم أنه مُسَخِّطُ رَبِّهِ ومُهْلِكُ نَفْسِهِ ومُفْرِحُ عَدُوِّهِ وَمُنْعَصُ عَيْشِهِ.

أما العمل النَّافع فيه، فهو أن يتكلّف بقبضٍ ما يأمره به الحسد، فإذا بعثه على القَدَح في المحسود كلّف نفسه المدح له والثناء عليه، وإن حمّله التكبر عليه ألزم نفسه التّواضع له والاعتذار إليه، وإن بعثه على كَفِّ الإنعام عنه ألزم نفسه الزيادة في الإنعام، وقد كان جماعةٌ من السلف إذا بلغهم أن شخصاً اغتابهم أهدوا إليه وأعطوه، وأخبرنا أبو منصور القزّاز قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت قال: حدثني التّوخّي قال: كنتُ في جامع المنصور والخطيبُ على المنبر، وعلى يساري عليُّ بن طلحة البصري، فمددتُ عيني فرأيتُ عبد الصّمد<sup>(١)</sup> بالقرب مني، فقام ومشى نحوي، فقامتُ إليه فقال لي: اجلس أيّها القاضي فليس إليك قصدتُ، ولا لك أردتُ بمجيئي، أنا هذا أردتُ وإليه قصدتُ - يعني ابن طلحة - وذلك أن نفسي تأباه، فأردتُ أن أُذلّها بقصده وأخالف إرادتها. فقام ابنُ طلحة إليه وقبّل رأسه.

واعلم أنّه إذا جرت المواصلّة والثناء والتّواضع والمهاداة للحسود انقطعت في الغالب مادّة الحسد؛ لأنّ الشُّرور بالتعمّة يستميل قلب المنعم عليه ويستعطفه ويحمّله على مُقابلة ذلك بالإحسان، ثم يصير تكلّف المحسود في العطاء والمواصلّة طبعاً يوجب طيب قلبه للحاسد فتتكسر سورة العداوة<sup>(٢)</sup> من الجانبين ويُقلُّ غرْبها<sup>(٣)</sup> ويقربُّ القلوب من التّألف ويبعد عن التّناقض، وقد قال عليه الصّلاة والسّلام: «تهادوا تحابّوا».

ولا ينبغي أن تسمع قول إبليس: إنّ مُصانعتك للحسود مدلّة ومهانة. فإنّ ذلك من خدع العدو؛ لأن المقصود سلامة القلوب والأديان وبذلك تحصل.

(١) هو عبد الصمد بن عمر بن محمد أبو القاسم الواعظ، والخبر في تاريخ بغداد ٤٤/١١.

(٢) في النسخ: (العدو)، والمثبت من الإحياء.

(٣) يُقلُّ غربها، أي: يُكسر حدّها.

فهذه أدوية الحسد، وهي نافعة جداً، إلا أنها مرةً بمرّة، ومما يُسهّل شربها أن تعلم أنه ما يكون كل ما تُريد، فأرد ما يكون، وهذا هو الدواء الكلّي .  
وأما الدواء المُفصل؛ فهو تتبّع أسباب الحسد من الكبر وعزّة النفس وغير ذلك مما سبق .

وسياتي تفصيل مداواة هذه الأسباب في مواضعها، فإنها موادُّ هذا المرض، ولا ينقمع المرض إلا بقمع المادة، وإذا لم تُقمع المادة لم يحصل إلا تسكين المرض وتطفيته، ثم لا يزال يعود مرةً بعد أخرى ويطول التعب في تسكينه مع بقاء موادّه، فإنه ما دام مُحبباً للجاه فلا بد أن يحسد من استأثر بالجاه والمنزلة في قلوب الناس دونه، ويغمّه ذلك لا محالة، وإنما غايته أن يهون العم على نفسه ولا يظهر شيئاً من آثاره بلسانه ولا يده، وأمّا الخلو عنه رأساً، فلا يمكنه .

## بيان

### القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب

اعلم أنّ المؤذي ممقوتٌ بالطَّبع، ومن آذاك لم يمكنك أن لا تُبغضه غالباً، فإذا تيسَّرت<sup>(١)</sup> له نعمةٌ فلا يمكنك أن لا تكرهها له، ولا يزال الشَّيطان يجرُّك إلى الحسد له، فإن قوي ذلك فيك حتى بعثك على إظهارِ الحسدِ بقولٍ أو فعلٍ بحيث يُعرفُ ذلك من ظاهرك بأفعالك الاختيارية، فأنت حَسودٌ عاصٍ بحسدك، وإن كَفَفْتَ ظاهرك بالكلِّية إلا أنك بباطنك تحبُّ زوال النُّعمة، فقد سبق الكلام في هذا، وبيَّنَّا أنّ من المَرَكوزِ في الطَّباعِ كراهية ارتفاعِ الجنسِ على الجنس، وأنَّ ذلك إذا كان في الأمور الدُّنيوية قريب الحال فيما يختلج في الباطن من الكراهة، فأما في أمور الدين وأحوال الآخرة، فلا مُسامحة في ذلك.

ويَنبغي للعاقل أن يَمَقَّتَ نفسَه إذا وَجَدَ منها الحسدَ على شيءٍ من الدُّنيا، ويُوَدُّ لو قَدَرَ على إزالة ذلك من باطنه ليقابل ما قد وُضِعَ في الطبع بتلك المجاهدة. فأما تَغْيِيرِ الطَّبَعِ فلا يُمكن إلا أن يكون الإنسانُ مستغرقاً بمحبةِ الله سبحانه، فلا يَلْتَفِتُ إلى المَحسودِ ولا إلى ما يحسد عليه من الدنيا، وهذا قد يقع لشخصٍ ثم لا يثبت، فيعود الطَّبَعُ.

آخر كتاب ذم الغضب والحقد والحسد.





## كتاب ذم الدنيا

وهو الكتاب السادس من رُبْع المهلكات

الحمد لله الذي كشف عُيوب الدنيا لأهل النَّظَر والافتقاد، وفَضَح زائفَ درهمها عند أرباب الانتقاد، فما يَفِي فرحها بترحها ولا بَغُضُّها بالوداد، إنْ بَدَرَتْ حُلُوءاً قَطَعَتْهُ قَبْلَ الحَصَادِ، أو وَعَدت رُوحاً أَخْلَفَتْ الميعاد، تَتَزَيَّنُ لطلابها فإذا صاروا من أحبابها رَمَتهم بصيابها بينَ الأَشْهاد، لا يَسْلَمُ طُلوعها من كُسُوفها، والمنكر داخلٌ في مَعروفها والأمنُ يَعِزُّ في مَخوفها والنَّقْصُ في المُسْتزاد، من استراحَ بها أَلِمَ وَمَن ارتاحَ إليها نَدِمَ وَمَن طَلَبَ مَأْمولَه منها عَدِمَ ولا والله ما سَلِمَ منها إلا الرُّهَاد، هي لمُكْرِمها مُهينَةٌ؛ لأنَّها مَهينَةٌ، والعَدْرُ جِبِلَّةٌ فيها في أصلِ الطَّينَةِ، ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠].

أحمدُه على التَّوفيقِ للسَّداد، وأسأله<sup>(١)</sup> مواهبَ الهدى والرَّشاد، وأقِرُّ بأنَّه واحدٌ لا كالأحاد، وأصلي على رسوله محمدٍ المَبْعوثِ إلى جَميعِ العباد، وعلى آله وأصحابه صلاةٌ تُحْظِيهم بغايات المُراد، وتبقى وتدوم إلى حين قيام الأَشْهاد وسَلَم تسليمًا كثيرًا.

أما بَعْد؛ فإنَّ القرآنَ العزيرَ قد أطلقَ عيبَ الدنيا وجاء ذلك في النَّقْلِ الصَّحيح، وما زال العُقلاءُ يُطلقون ذمَّها ويُحذِّرونَ مكرها وغوائلها.

(١) قبلها في الأصل: (وأشكره).

ولا بدّ أولاً من معرفة حقيقة الدُّنيا وما هي، وما الحكمةُ في خَلْقها مع وجود آفاتها وعيوبها، وما مداخل غرورها وشروورها، ونحن نذكر من ذلك ما يحصل به المقصود إن شاء الله تعالى.

## بَيَان

### ذَمُّ الدُّنْيَا

الآيات الواردة في عيب الدنيا والتزهيد فيها وضرب الأمثال لها كثيرة، كقوله تعالى: ﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِلِ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٤-١٥]، وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْعُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٢٤]، وقوله: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقوله: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥]، وقوله: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعَالَمِ﴾ [النجم: ٢٩ - ٣٠].

وأما الأحاديث والآثار؛ فقد أخبرنا هبة الله بن محمد الشيباني قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس عن المُستورد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم إضبعه هذه في اليمِّ، فليُنظر بَمَ تَرَجع». وأشار بالسَّبابة<sup>(١)</sup>.

وأخبرنا أبو الفتح الكروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر العورجي قالا: أخبرنا الجراحي قال: حدثنا المحبوبي قال: حدثنا الترمذي قال: حدثنا قُتَيْبَةُ قال: حدثنا عبد العزيز بن محمد عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ».

قال قُتَيْبَةُ: وحدثنا عبد الحميد بن سليمان عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدلُ عند الله جناحَ بعوضةٍ ما سقى

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٨٠٠٨)، ومسلم (٢٨٥٨).

كافراً منها شربة ماء». هذا حديث حكم بصحته الترمذي، وأما اللذان قبله فانفرد بإخراجهما مسلم<sup>(١)</sup>.

أخبرنا ابنُ الحُصَيْن قال: أخبرنا ابن المذهب قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عَفَّان قال: حدثنا حَمَّاد ابن زيد<sup>(٢)</sup> قال: حدثنا مُجالد بن سَعِيد عن قَيْس بن أَبِي حازم عن المُسْتَوْرِد قال: كنتُ في رَكْبٍ مع رسول الله ﷺ إذ مرَّ بِسَخْلَةٍ مَيْتَةٍ مَبْذُورَةٍ، فقال رسول الله ﷺ: «أَتَرُونَ هَذِهِ هَانَتْ عَلَى أَهْلِهَا؟» فقالوا: يا رسول الله، مِنْ هَوَانِهَا أَلْقَوْهَا. قال: «فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا»<sup>(٣)</sup>.

قال الإمامُ أحمد: وحدثنا أبو سعيد قال: حدثنا سُلَيْمان عن عمرو بن أبي عمرو عن عاصم عن عُمَر بن قَتَادَةَ عن محمود بن لَبِيد أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ، كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ تَخَافُونَ عَلَيْهِ»<sup>(٤)</sup>.

قال الإمامُ أحمد: وحدثنا أبو مُعاوية قال: حدثنا الأعمش عن شِمْر بن عَطِيَّة عن مُغِيرَةَ بن سَعْد بن الأخرم عن أبيه عن عبد الله<sup>(٥)</sup> قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَا تَتَّخِذُوا الضَّيْعَةَ فترغبوا في الدنيا»<sup>(٦)</sup>.

وروى محمد بن المنكدر عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا كَانَ لِلَّهِ مِنْهَا».

- (١) في الأصل: (فأخرجهما مسلم).
- (٢) تحرف في الأصل إلى: (يزيد).
- (٣) أخرجه أحمد (١٨٠١٣) و(١٨٠٢٠).
- (٤) أخرجه أحمد (٢٣٦٢٢) و(٢٣٦٢٧) و(٢٣٦٣٢).
- (٥) هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
- (٦) أخرجه أحمد (٣٥٧٩) و(٤٠٤٨) و(٤٢٣٤)، والضَّيْعَةُ: حرفة الرجل وصناعته ومعاشه وكسبه، والنهي عن اتخاذ الضَّيْعَةَ إنما يُراد به التوسُّع في ذلك والانصراف إليه بالكلية، وإهمال الواجبات الأخرى المطلوبة منه، أما عمله في حرفته أو صناعته أو زراعته ليكفي نفسه وعياله ويفيد الناس ويستفيد، فهو مما حضَّ عليه رسول الله ﷺ.

وروى أبو موسى عن النبي ﷺ قال: «من أحبَّ آخرته أضرَّ بدنياه، فأثروا ما يبقى على ما يبقى».

ووصف عليُّ بنُ أبي طالب الدنيا فقال: دارٌ من صحَّ فيها سقم، ومن آمن فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها فتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها النار.

وقال ابنُ مسعود: الدنيا دارٌ من لا دار له، ومالٌ من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له.

(١) أخبرنا أحمد بن محمد المذاري قال: أخبرنا الحسين بن أحمد بن البنا قال: أخبرنا ابن بشران قال: حدثنا ابن صفوان قال: حدثنا أبو بكر القرشي<sup>(١)</sup> قال: حدثنا أبو جعفر محمد بن يزيد الأدمي قال: حدثنا معن بن عيسى قال: حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن أبي الأسود عن الحسن أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز: أمّا بعد، فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة، وإنما أنزل آدم إليها عقوبةً، فاحذرْها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها والغنى فيها فقرها، لها في كل حين قتل، تُذلُّ من أعزَّها، وتُفقِرُ من جمعها، هي كالسَّمِّ يأكله من لا يعرفه وهو حتفه، فكُنْ فيها كالمدأوي جراحته يحتمي قليلاً مخافة طول البلاء، فاحذر هذه الدار العرارة الختالة الحداعة، التي قد تزينت بخدعها، وفتنت بغرورها، وختلت بآمالها، وتشوّفت لخطاياها فأصبحت كالعروس المجلوة، فالغيوب إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلهم قاتلة، فلا الباقي بالماضي معتبر، ولا الآخر بالأول مُزدجر، ولا العارف بالله عز وجل حين أخبره عنها مُدكر، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسي المعاد، فشغل فيها لبّه حتى رَلت عنها قدمه، فعظمت ندامته وكثرت حسرته، واجتمعت عليه سكرات الموت وألمه، وحسرات الفوت بغصته، فذهب بكمّده ولم يدرك منها ما طلب، ولم يروح نفسه

(١-١) سقط من (ظ)، وورد في حاشيتها ما نصه: (هذا السطر كان قد انطمس بالتصاق جزء المصنف فليُحقَّق من مناقب الحسن).

من التَّعب، فخرج بغير زاد، وقدم على غير مهاد، فاحذرْها يا أمير المؤمنين، وكُنْ أسرَّ ما تكون فيها أخطر ما تكون لها، فإنَّ صاحب الدُّنيا كلِّما اطمأنَّ منها إلى سُرور أشخصَّته إلى مكرهه، السَّارةُ فيها غداً ضارَّة، وقد وُصِلَ الرِّخاءُ منها بالبلاء، وجُعِلَ البقاء فيها إلى فناء، فسُرورُها مَشوبٌ بالحُزن، لا يرجع منها ما ولى فأدبر، ولا يُدرى ما هو آتٍ فينتظر، أمانها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدير، وعيَّشها نكد، فلو كان الخالق لم يُخبر عنها خبراً ولم يضرب لها مثلاً لكانت الدُّنيا قد أيقظت النَّائم ونبَّهت الغافل، فكيف وقد جاء منذ الله عز وجلَّ عنها زاجرٌ، وفيها واعظ، فما لها عند الله تعالى قدرٌ ولا وزن، وما نظر إليها من خلقها، ولقد عرَّضت على نبيِّنا ﷺ بمفاتيحها وخزائنها لا يُنقصه ذلك عند الله جناح بعوضة، فأبى أن يقبلها وكرهه أن يُحبَّ ما أبغض خالقه أو يرفع ما وضع مَلِيكه، فزواها عن الصَّالحين اختياراً، وبسطها لأعدائه اغتراراً، فيظنُّ المغرور بها المُقتدر عليها أنه أكرم بها ونسي ما صنع الله بمحمدٍ حين شدَّ الحَجَرَ على بطنه.

وقال الحسن: والله ما أحدٌ من النَّاسِ بسِطَ له دُنْيا فلم يَحْفَ أن يكون قد مُكِرَ به فيها إلا كان قد نقص عقله وعجز رأيه، وما أمسك الله عن عبدٍ فلم يظنَّ أنه قد خير له فيها إلا كان قد نقص عقله وعجز رأيه.

ابن آدم، لا تُعلِّق قلبك بالدُّنيا فتعلِّقه بِشَرِّ مُعلِّق، قَطِّع جِبالها، وعَلِّقْ أبوابها، حَسْبُك أيُّها المرء ما بلَّغك المَحَلُّ، هيهات هيهات، ذهبت الدنيا بحالِ بابها وبقيت الأعمال قلائد في الأعناق.

وكان يقول: خبات، كُلِّ عِيدانِكِ قد مَصَّصنا فوجدنا مُراً.

وكان يقول: إن قوماً أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخُشب، فأهينوها، فأهناً ما تكون إذا أهنتموها.

وقال مالك بن دينار: اتَّقوا السَّحارة، فإنها تَسحَر قلوبَ العلماء. يعني الدُّنيا.

وقال: بقدر ما تحزَنُ للدُّنيا، فكذلك تُخرِجُ هَمَّ الآخرة من قلبك، وبقدر ما تحزَنُ للآخرة، فكذلك تُخرِجُ هَمَّ الدُّنيا من قلبك.

وقد روينا أن عيسى عليه السلام قال: لا تتخذوا الدنيا رباً فتتخذكم الدنيا عبداً، اعبروها ولا تعمروها، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا، ورب شهوة أورثت أهلها حُزناً طويلاً. ما سكنت الدنيا في قلب عبد إلا التاط قلبه منها بثلاث: شغل لا ينفك عناؤه وفقر لا يدرك غناؤه، وأمل لا يدرك مُنتهاه. الدنيا طالبة ومطلوبة، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجيء الموت فيأخذ بعُنُقِهِ، يا معشر الحواريين، ارضوا بدنيء الدنيا مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدنيا بدنيء الدين مع سلامة الدنيا.

أخبرنا أحمد بن محمد المذاري قال: أخبرنا أبو علي ابن البنا قال: أخبرنا أبو الحسين بن بشران قال: حدثنا ابن صفوان قال: حدثنا عبد الله بن محمد القرشي قال: حدثنا هارون بن عبد الله قال: حدثنا سيّار قال: حدثنا جعفر قال: حدثنا مالك بن دينار قال: قال أبو هريرة: الدنيا مُرفِقةٌ ما بين السماء والأرض كالشئ البالي تُنادي ربّها منذ خلقها إلى يوم يُفنيها: يارب، لم تُبغضني؟ يارب لم تُبغضني؟ فيقول لها: اسكتي يا لا شيء، اسكتي يا لا شيء.

قال القرشي: وحدثنا محمد بن علي قال: حدثنا أبو إسحاق قال: سمعتُ الفضيل يقول: تجيء الدنيا يوم القيامة تتبختر في زينتها ونُصرتها، فتقول: يارب، اجعلني لأحسن عبادك داراً. فيقول لها: لا أرضاكِ له، أنتِ لا شيء، فكوني هباءً منثوراً، فتكون هباءً منثوراً.

## بيان

## صفة الدنيا بالأمثلة

اعلم أنَّ الدنيا سريعةُ الفناء، قريبة الانقضاء، تعدُّ بالبقاء ثم تُخلف في الوفاء، تنظر إليها فتراها ساكنة مُستقرّة، وهي سائرة سيراً عنيفاً، ومرحلة ارتحالاً سريعاً، ولكنَّ الناظر إليها لا يُحسُّ بحركتها، إنّما يُحسُّ عند انقضائها، ومثالها الظلُّ، فإنّه مُتحركٌ في الحقيقة ساكنٌ في الظاهر، لا تُدرِكُ حركته بالبصر الظاهر بل بالبصيرة الباطنة، ولما ذُكرت الدنيا عند الحسن البصري أنشد:

أحلامٌ نومٍ أو كَظِلٌّ زائلٍ    إنّ اللّيب بمثلها لا يُخدعُ  
وكان الحسن [بن علي رضي الله عنه]<sup>(١)</sup> يتمثل:

يا أهلَ لذاتِ دُنيا لا بقاء لها    إنّ اغتِراراً بظلِّ زائلٍ حُمقُ  
ونزل أعرابي بقوم فقدّموا له طعاماً، فأكل ثم قام إلى ظلِّ خيمةٍ فنام، فاقتلعوا الخيمة فأصابته الشمس فانتهه فقام وهو يقول:

ألا إنّما الدنيا كظلِّ نبيئهِ    ولا بدّ يوماً أن ظلك زائلُ  
وقال آخر:

وإنَّ امرأً دُنياه أكبر همِّهِ    لمُستمسكٍ منها بحبلٍ غرورِ  
مثالٌ آخر<sup>(٢)</sup>: الدنيا من حيث التّغريب بخيالاتها ثم الإفلاس منها بعد إفلاتها تُشبه خيالات المنام وأضغاث الأحلام.

قال يونس بن عبّيد: ما شبّهت الدنيا إلا كرجلٍ نامٍ، فرأى في منامه ما يكره وما

(١) في النسخ: (وكان يتمثل) والمثبت من الإحياء والإتحاف.

(٢) تحرفت في الأصل إلى: (وقال).

يُحِبُّ، فبينما هو كذلك انتبه. ومثل هذا قولهم: النَّاسُ نِيَامٌ، فإذا ماتوا انتبهوا. والمعنى: أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ بِالْمَوْتِ وَلَيْسَ فِي أَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِّمَّا رَكَنُوا إِلَيْهِ وَفَرَحُوا بِهِ.

وقيل لبعض الحكماء: أَيُّ شَيْءٍ أَشْبَهَ بِالذُّنْيَا؟ فقال: أَحْلَامُ النَّائِمِ.

مثال آخر للدنيا في عداوتها لأهلها وإهلاكها بنيتها: اعلم أن طبع الدنيا التلطف في الاستدراج أولاً، والتوصل إلى الإهلاكِ آخرًا، فهي كامرأة تتزيّن للخطاب حتى إذا نكحتهم ذبحتهم.

أخبرنا أحمد بن محمد المذاري قال: أخبرنا الحسن بن أحمد بن البنا قال: أخبرنا ابن بشران قال: أخبرنا ابن صفوان قال: أخبرنا أبو بكر القرشي قال: حدثني أبو علي الطائي قال: حدثنا عبد الرحمن المحاربي عن ليث أن عيسى ابن مريم رأى الدنيا في صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة، فقال لها: كم تزوجت؟ فقالت: لا أحصيهم. قال: فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتل. فقال عيسى عليه السلام: بؤساً لأزواجك الباقيات كيف<sup>(١)</sup> لا يعتبرون بأزواجك الماضين كيف<sup>(١)</sup> تهلكيهم واحداً واحداً. ولا يكونون منك على حذر.

مثال آخر في مخالفة باطنها لظاهرها:

اعلم أن الدنيا مزينة الظواهر قبيحة السرائر، تشبه عجوزاً مزينة تخدع الناس بظاهرها، فإذا كشفوا قناعها ووقفوا على باطنها بانّت لهم قبايحها، فندموا على اتّباعهم لها، وخجلوا من الاغترار بها.

أخبرنا أحمد بن محمد المذاري قال: أخبرنا الحسن بن أحمد بن البنا، قال: أخبرنا ابن بشران قال: أخبرنا ابن صفوان قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثنا محمد بن علي بن شقيق قال: حدثنا إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: قال ابن عباس: يُؤْتَى بِالذُّنْيَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُورَةِ عَجُوزٍ شَمْطَاءٍ زَرَقَاءَ، أُنْيَابُهَا بَادِيَةٌ، مُشَوَّةٌ خَلَقَهَا، فَتُشْرَفُ عَلَى الْخَلَائِقِ فَيَقَالُ: تَعْرِفُونَ هَذِهِ؟

فيقولون: نعوذُ بالله من معرفة هذه. فيقال: هذه الدنيا التي تناحرتُم عليها، بها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتُم. ثم تُقَدَف في جهنم فتنادي: يا رب أين أتباعي وأشياعي. فيقول الله عز وجل: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها.

قال القرشي: وحدثنا إسحاق بن إسماعيل قال: حدثنا رُوْح بن عُبادة قال: حدثنا عوف عن أوفى بن دَلْهَم عن أبي العلاء قال: رأيتُ في النَّوم عَجُوزاً كَبيرةً مُتَغَضِّبَةً الجِلد، عليها من كلِّ زينة الدنيا، والنَّاسُ عُكُوفٌ عليها مُتَعَجِّبُونَ يَنْظُرُونَ إليها، فجئتُ فنظرتُ، فعجبتُ من نظرهم إليها وإقبالهم عليها، فقلتُ لها: وَيْلِكَ مَنْ أَنْتِ؟ قالت: أما تعرفني؟ قلت: لا، ما أدري ما أنتِ. قالت: فَإِنِّي أَنَا الدُّنْيَا. قال: قلتُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّكَ. قالت: فَإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ تُعَادَ مِنْ شَرِّي فَأَبْغُضِ الدَّرْهَمَ.

قال القرشي: وحدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري قال: حدثنا سُفْيَانُ بن عُيَيْنَةَ قال: قال لي أبو بكر بن عَيَّاش: رأيتُ الدُّنْيَا في النَّومِ عَجُوزاً شَمِطَاءً<sup>(١)</sup> مَشُوهَةً حَذْبَاءً.

وحدثني غير إبراهيم بن سعيد أنَّ أبا بكر بن عيَّاش قال: رأيتُ في النَّومِ عَجُوزاً شَمِطَاءً مَشُوهَةً تُصَفِّقُ بِيديها، وخلفها خَلْقٌ يَتَّبِعُونَهَا وَيُصَفِّقُونَ وَيَرْقِصُونَ، فلَمَّا كانت بِحَذَائِي أَقْبَلتْ عَلَيَّ فقالت: لو ظَفِرْتُ بِكَ صَنَعْتُ بِكَ ما صَنَعْتُ بِهِؤْلَاءَ. قال: ثم بكى أبو بكر وقال: رأيتُ هذا قبل أن أقدم إلى بغداد.

قال القرشي: وحدثنا محمد بن علي قال: حدثنا إبراهيم بن الأشعث قال: سمعتُ الفُضَيْلَ قال: بلغني أنَّ رجلاً عرج بِرُوحه فإذا بامرأةٍ على قارعة الطَّرِيقِ عليها من كلِّ زينة الحلي والثياب، وإذا لا يمرُّ بها أحدٌ إلا جَرَحَتْه، وإذا هي أدبَرَت كانت أحسن شيءٍ رآه النَّاسُ، وإذا أَقْبَلت أقبح شيءٍ، عَجُوزاً شَمِطَاءً زَرَقَاءَ عَمْشَاءَ، فقلت: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ. قالت: لا والله، لا يُعِيدُكَ اللهُ حَتَّى تُبْغِضَ الدَّرْهَمَ. قال: قلت: من أنتِ؟ قالت: أما تعرفني؟ قلتُ: لا. قالت: أَنَا الدُّنْيَا.

(١) ليست في الأصل.

مثال آخر للدنيا وغُبور الناس بها :

اعلم أنّ أحوالك ثلاث: حالة لم تكن فيها شيئاً، وهي ما قبل أن توجد، وحالة أخرى، وهي من ساعة موتك إلى ما لا نهاية له من البقاء السَّرمَد، فلنفسِكَ وجودٌ بعد خُروجها من البدن، إمّا في الجنة وإمّا في النار، ثم تُعادُ إلى بدنك فتُجازى بعملك وتُسكن إحدى الدَّارين وهو الخلود الدَّائم، وبين هاتين الحاليتين - أعني ما قبل وجودك وما بعد موتك - حالة متوسطة، وهي أيامُ حياتك في الدنيا، فانظر إلى مقدار زمانها وانسبهُ إلى الحاليتين تعلم أنه أقل من طُرْفَةِ عَيْنٍ في مقدار عمر الدنيا.

ومن رأى الدنيا<sup>(١)</sup> بهذه العين لم يركن إليها ولم يُبالِ كيف تَقصَّتْ أيامه بها في ضُرٍّ وضيقيٍّ أو سَعَةٍ ورَفاهية، ولهذا لم يَضَع رسولُ الله ﷺ لَبَنَةً على لَبَنَةٍ ولا قَصَبَةً على قَصَبَةٍ، وقال: «مالي وللدُّنيا، إنما مثلي ومثل الدُّنيا كراكبٍ قالَ تحتَ شجرةٍ ثم راحَ وتركها»، وقال ﷺ: «ما الدُّنيا في الآخرة إلا كمثلٍ ما يجعلُ أحدكم إصبعه هذه في اليمِّ، فلينظرَ بمَ تَرجع».

وإلى هذا أشار عيسى عليه السلام حين قال: الدُّنيا قنطرةٌ، فاعبروها ولا تَعمروها. وهذا مثَلٌ واضح، فإنَّ الحياةَ الدُّنيا مَعبرٌ إلى الآخرة، والمَهْدُ هو الرُّكْنُ الأول على أول القنطرة، واللَّحْدُ الرُّكْنُ الثاني على آخرها، ومن الناس من قد قطع نصفَ القنطرة، ومنهم من قطع ثلثيها، ومنهم من لم يبقَ له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها، وكيف ما كان فلا بدَّ من العبور، فَمَن وقفَ بيني على القنطرة ويزيئها بأصنافِ الرِّينة وهو يُستَحْتُّ للعبور، فهو في غاية الجَهْل والحُمق.

مثال آخر للدُّنيا في لينٍ مأخِذها وخُشونَةِ مَصْدَرها :

اعلم أنّ أوائل الدُّنيا تبدو هَيِّنة لَيِّنة، فإذا خاضَ فيها الخائضُ واستطابها أهلكته، فمثلها كمثل الحَيَّة لَيِّنٌ مَسْهُا وهي تَقْتُلُ بِسُمِّها، فينبغي أن يكونَ الإنسانُ أَسْرًا ما يكون فيها أَحذرَ ما يكون لها، فإن صاحبها كلما اطمأنَّ منها إلى سرور أشخصه عنه مكروه.

(١) قبلها في الأصل: (مقدار).

مثال آخر للدنيا في تعذر الخلاص من تبعاتها بعد الخوض فيها:

مَنْ أَوْغَلَ فِي طَلْبِ الدُّنْيَا وَظَنَّ السَّلَامَةَ مِنْ شَرِّهَا، كَانَ كَمَنْ مَسَّى فِي الْمَاءِ وَظَنَّ أَنَّ قَدَمَيْهِ لَا تَبْتَلُ.

مثال آخر: مَثَلُ مَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا وَقَلَّتْهُ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَا سَبَقَ كَمَثَلِ ثَوْبٍ شُقَّ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَبَقِيَ مَتَعَلِّقًا بِخَيْطٍ فِي آخِرِهِ، فَيُوشِكُ ذَلِكَ الْخَيْطُ أَنْ يَنْقَطِعَ.

مثال آخر لتأدية علائق الدنيا بعضها إلى بعض حتى تهلك صاحبها:

قال عيسى ابن مريم: مثل طالب الدنيا كمثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله.

مثال آخر لمخالفة آخر الدنيا أولها إذ بدايتها تلذ وعاقبتها مرّة:

اعلم أن شهوات الدنيا في القلب لذيدة كشهوات الأطعمة في المعدة، وسيجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والتنن والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا انتهت في المعدة غايتها، وكما أن الأطعمة كلما كانت ألذ طعماً وأكثر دسماً وأظهر حلاوة كان رجيئها أقدر، فكذلك كل شهوة كانت في النفس ألذ وأقوى فتنة<sup>(١)</sup>، فالتأذي بها عند الموت أشد، كما أن تفجع الإنسان بمحبوبه إذا فقد يقوى بقدر محبة المحبوب.

قال ﷺ للضحاك بن سفيان<sup>(٢)</sup>: «ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح<sup>(٣)</sup>، ثم تشرب عليه اللبن والماء؟» قال: بلى. قال: «فإلى ما يصير؟» قال: إلى ما قد علمت. قال: «فإن الله عز وجل ضرب مثل الدنيا ما يصير إليه طعام ابن آدم»<sup>(٤)</sup>.

وكان بعض السلف يقول لأصحابه: انطلقوا حتى أريكم الدنيا. فيذهب بهم إلى مزبلة، فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم.

(١) تحرفت في الأصل إلى: (فيه).

(٢) كان من عمال النبي ﷺ على الصدقات، وقيل: كان سيافاً لرسول الله ﷺ.

(٣) قزح: أي أصلح بالقزح، وهي الأبخار التي توضع في القدر.

(٤) أخرجه أحمد (١٥٧٤٧) والطبراني في الكبير (٨١٣٨).

مثال آخر للدنيا وأهلها في اشتغالهم بنعيمها عن الآخرة، وما يعقبهم ذلك من

الحسرات:

اعلم أنّ مثل أهل الدنيا في غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينةً فانتهت بهم إلى جزيرة، فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة، وحذّره الإبطاء، وخوّفهم مرور السفينة واستعجالها، فنفروا في نواحي الجزيرة، ففضى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة، فصادف المكان خالياً، فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوفقها لمُرادِه، وتوقّف بعضهم في الجزيرة ينظر إلى أزهارها وأنوارها العجيبة ونغمات طيرها، وحسن أحجارها ومعادنها، ثم تنبّه لخطر فوّت السفينة، فرجع فلم يُصادف إلا مكاناً ضيقاً فجلس فيه، وأكبّ بعضهم على تلك الأحجار المُستحسنة، والأزهار الفائقة، فحمل منها جملةً، فلما جاء لم يجد في السفينة<sup>(١)</sup> إلا مكاناً ضيقاً، وزاده ما حمّله ضيقاً، فصار محموله ثقلاً عليه ووبالاً، ولم يقدر على نبذه، ولم يجد له في السفينة موضعاً<sup>(٢)</sup>، فحمّله على عنقه، فنّدم على أخذه، ولم ينفعه الندم، ثم ذبلت الأزهار وتغيّرت أراييجها وأذاهُ تنُّها، وتولّج بعضهم في تلك الغياض ونسي السفينة وأبعد في تنزّهه حتى إنّ الملاح نادى بالناس عند دفع السفينة فلم يبلغه صوته لاشتغاله بملاهيهِ، فهو تارة يتناول من الثمر، وتارة يشمُّ تلك الأنوار، وتارة يعجب من حسن الأشجار، وهو على ذلك خائفٌ من سُبُع يخرج عليه، حذيرٌ من نكبة تلحقه غير مُنفكٍ عن شوكٍ يتشبّث بثيابه ويدخل في قدمه، وغصنٍ يجرحُ بدنه، وعوسجٍ يحرق ثيابه ويهتكُ عورته، أو صوتٍ هائلٍ يفزع منه، فمن هؤلاء من لحق السفينة ولم يبقَ فيها موضع، فمات على الساحل، ومنهم من شغله لهوهُ فافترسته السباع، ومنهم من نهشته الحيات، ومنهم من تاه فهم على وجهه حتى هلك.

فهذا مثل أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ونسيانهم مَوردِهم وعاقبة أمرهم، وما أقبح بالعاقل أن تُغرّه أحجارٌ ونباتٌ يصير هشيماً، فهو شاغلٌ له في الدنيا بالخوف عليه والحزن لفقده، ثم يصيرُ عليه عند رحيله وبالاً ولا يصحبه حينئذٍ.

مثال آخر لا غرر الخلق بالدنيا وضعف إيمانهم بالآخرة:

أخبرنا أحمد بن محمد المذاري قال: أخبرنا الحسن بن أحمد بن البنا قال: أخبرنا ابن بشران قال: أخبرنا ابن صفوان قال: أخبرنا أبو بكر بن عبيد قال: أخبرنا إسحاق بن إسماعيل قال: أخبرنا رَوْحُ بن عُبادة قال: أخبرنا هشام بن حَسَّان عن الحسن<sup>(١)</sup> قال: بلغني أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال لأصحابه: إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلِكُمْ وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَلَكُوا مَفَاذَ غِبْرَاءٍ حَتَّى إِذَا لَمْ يَدْرُوا مَا سَلَكُوا مِنْهَا أَكْثَرَ أَوْ مَا بَقِيَ أَنْفَدُوا الزَّادَ<sup>(٢)</sup> وَحَسَرُوا الظَّهْرَ<sup>(٣)</sup> وَبَقُوا بَيْنَ ظَهْرَانِي الْمَفَازَةِ لَا زَادَ وَلَا حَمُولَةَ، فَأَيَقِنُوا بِالْهَلَكَةِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ فِي حُلَّةٍ يَقْطُرُ رَأْسُهُ فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا قَرِيبٌ عَهْدٍ بِالرَّيْفِ، وَمَا جَاءَكُمْ هَذَا إِلَّا مِنْ قَرِيبٍ؟ قَالَ: فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِمْ قَالَ: يَا هَؤُلَاءِ. قَالُوا: يَا هَذَا. قَالَ: عَلَامَ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: عَلَى مَا تَرَى. قَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ هَدَيْتُكُمْ إِلَى مَاءٍ رَوَاءِ رِيَاضٍ خُضِرٍ مَا تَعْمَلُونَ؟ قَالُوا: لَا نَعْصِيكَ شَيْئًا. قَالَ: عُهُودِكُمْ وَمَوَاطِئِكُمْ بِاللَّهِ. قَالَ: فَأَعْطَوْهُ عُهُودَهُمْ وَمَوَاطِئَهُمْ بِاللَّهِ لَا يَعْصُونَهُ شَيْئًا، قَالَ: فَأَوْرَدَهُمْ مَاءً رَوَاءَ رِيَاضٍ خُضْرًا، قَالَ: فَمَكَثَ فِيهِمْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا هَؤُلَاءِ. قَالُوا: يَا هَذَا. قَالَ: الرَّحِيلُ. قَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى مَاءٍ لَيْسَ كَمَا تُكْمُونَ وَإِلَى رِيَاضٍ لَيْسَتْ كَرِيَاضِكُمْ. قَالَ: فَقَالَ جُلُّ الْقَوْمِ، وَهُمْ أَكْثَرُهُمْ: وَاللَّهِ مَا وَجَدْنَا هَذَا حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّا لَنْ نَجِدَهُ، وَمَا نَصْنَعُ بَعِيشٍ خَيْرٍ مِنْ هَذَا؟ قَالَ: وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، وَهُمْ أَقْلُهُمْ: أَلَمْ تُعْطُوا هَذَا الرَّجُلَ عَهُودَكُمْ وَمَوَاطِئَكُمْ بِاللَّهِ لَا تَعْصُونَهُ شَيْئًا؟ وَقَدْ صَدَقْتُمْ فِي أَوَّلِ حَدِيثِهِ، فَوَاللَّهِ لِيَصْدَقَنَّكُمْ فِي آخِرِهِ.

قال: فراح فيمن اتبعه وتحلف بقيتهم، فنذر<sup>(٤)</sup> بهم عدو فأصبحوا من بين أسير وقتيل.

أخبرنا عبد الأول، قال: أخبرنا الداودي، قال: أخبرنا ابن أعين، قال: حدثنا الفربري، قال: حدثنا البخاري، قال: حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا

(١) أي الحسن البصري.

(٢) أنفدوا الزاد: فني زادهم.

(٣) حسروا الظهر: أي أعروه، وهو كناية عن هلاك ما يركبونه.

(٤) نذر بهم: أغار عليهم.

أبو أسامة، عن بُريد<sup>(١)</sup>، عن أبي بُردة، عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: يَا قَوْمُ، إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعَيْنِي، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالْتَّجَاءُ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَذَلَّجُوا، وَانْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ، فَجَاجُوا، وَكَذَّبَتْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ، فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَا حَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلٌ مِنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلٌ مِنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ». أخرجاه في الصحيحين.

مثال آخر لتنعّم الناس بالدنيا ثم شدة<sup>(٢)</sup> تفجعهم على فراقها:

اعلم أن مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا مثل رجل هياً داراً وزينتها، ودعى الناس إلى داره واحداً بعد واحد، وكان يُقدّم إلى الداخل طبقاً من ذهب عليه مجمر عود، فيتطيّب به ذلك الداخل، ثم ينهض عنه إلى مكانه شاكراً لصاحب الدار، فدخل رجل، فقدمه إليه ليتطيّب به، فظنّ أنه قد وهبه له، فتعلّق قلبه بذلك، فلما أخذ منه تفجّع وتقلقل وتسخط، ولو عرف رسم صاحب الدار لم ينزعج.

وكذلك من عَرَفَ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا، عَلم أَنهَا دَارُ ضِيَاةٍ، سُبِّلَتْ عَلَى الْمُجْتَازِينَ لَا عَلَى الْمُقِيمِينَ، لِيَتَزَوَّدُوا مِنْهَا، وَيَنْتَفِعُوا بِمَا فِيهَا، كَمَا يَنْتَفِعُ الْمَسَافِرُونَ بِالْعَوَارِي<sup>(٣)</sup>، وَلَا يَصْرَفُونَ إِلَيْهَا كُلَّ قُلُوبِهِمْ، فَتَعَظُمُ مَصَائِبُهُمْ عِنْدَ فِرَاقِهَا، وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي نَبَّهَتْ عَلَيْهِ أُمُّ سُلَيْمٍ حِينَ مَاتَ ابْنُهَا؛ أَخْبَرْنَا هِبَةُ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ، قَالَ: أَخْبَرْنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ، قَالَ: أَخْبَرْنَا أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: حَدَّثَنَا بَهْزٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُغِيرَةِ، عَنِ ثَابِتٍ، عَنِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَاتَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ مِنْ أُمَّ سُلَيْمٍ، فَقَالَتْ لِأَهْلِهَا: لَا تُحَدِّثُوا أَبَا طَلْحَةَ بِابْنِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَنَا أَحَدُهُ، قَالَ: فَجَاءَ فَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ عَشَاءً فَأَكَلَ وَشَرِبَ، قَالَ: ثُمَّ تَصَنَّعَتْ لَهُ أَحْسَنَ مَا كَانَتْ تَصْنَعُ قَبْلَ

(١) تصحف في الأصل إلى: (يزيد).

(٢) ليست في (ظ).

(٣) العواري: جمع عارية، وهي ما تُعطيه غيرك على أن يعيده إليك.

ذلك، فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت: يا أبا طلحة، أرايت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت، فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا، قالت: احتسب ابنك.

## بيان

## حقيقة الدنيا وماهيّتها والمذموم منها والمحمود

قد سمع خَلْقٌ كثير ذَمَّ الدُّنْيَا مطلقاً، فاعتقدوا أن الإشارة إلى هذه الموجودات التي خُلقت للمنافع فأعرضوا عن ما يُصلحهم من المطاعم والمشارب، وقد وَضَعَ اللهُ سبحانه في الطَّبَاعِ تَوْقَانَ النَّفْسِ إلى ما يُصلحها، فكلّما تَأَقَّتْ مَنَعُوهَا ظَنًّا منهم أن هذا هو المراد وجهلاً بحقوق النفس، وعلى هذا أكثر المتزهدّين، وإنما نقلوا ذلك لقلّة العلم بالمراد وسوء الفهم للمقصود، ونحن نصدع بالحق من غير مُحَابَاة فنقول:

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة، للإنسان فيها حَظٌّ، وهي الأرض وما عليها، فإنّ الأرض مسكن للأدميّ، وما عليها ملبسٌ له ومطعم ومَشْرَبٌ وَمَنَكْحٌ، وقد جُعِلت المعادن فيها كالخزائن فيها ما يحتاج إليه، وخلق النبات لِقُوَّتِهِ وكسوته ومصالحه، والحيوانات ليأكل من لحمها وَيَسْتَسْخِرُ بَعْضُهَا، كل ذلك عَلَقُ لِرَاحِلَةِ بَدَنِهِ السائر إلى الله عز وجل، فإنه لا يبقى إلا بهذه المصالح، كما لا تبقى النَّاقَةُ في طريق الحج إلا بما يُصلحها، فمن تناول منها ما يُصلحها على الوجه المأمور به مُدِيحٌ ولم يُذَمِّ، ومن أخذ منها فوق الحاجة بكفِّ الشَّرِّهِ وقع الذمُّ لِفِعْلِهِ وَأُضِيفَ إلى الدنيا تجوزاً.

وليس للشَّره في تناول الدنيا وجهٌ؛ لأنه يخرج عن النفع إلى الأذى ويشغل عن طلب الآخرة، فيفوت المقصود، ويصير بمثابة من أقبل يعلف الناقة وبرّد لها الماء وَيُعَيِّرُ عليها ألوان الثياب، وَيَنسى أَنَّ الرَفَقَةَ قد سارت، فإنه يبقى في البادية فريسةً للَسْبَاعِ هو وناقته.

ولا وجه للتقصير في تناول الحاجة من الدنيا؛ لأن الناقة لا تقوى على السَّير إلا بتناول ما يُصلحها.

ولما كانت الحاجة إلى المطعم والملبس والمسكن ضرورة افتقر الناس إلى الفلاحة والحياكة والبناء، ثم احتاجت كل صناعة من هذه إلى الآلات كالحدادة والتجارة، ثم احتاج الناس إلى الاجتماع إذ لا يكفل كل شخص منهم بجلب جميع مصالحه، وحصل التنازل وتولدت الخصائم، فافتقروا إلى سائس، ثم قد تخلو بعض البلدان عما يحتاج إليه فألقي في قلوب التجار الحرص فجلبوه، ومن الناس من يعجز عن صناعة لمكان التكاسل، فيحتال في أخذ ما ليس له أو في فتح باب الكُدِيَّة<sup>(١)</sup>.

ثم لا تزال أشغال الدنيا تتسلسل إلى أن تشغل القلب عن الآخرة شغلاً كلياً، فتكاد النفوس تظن لكثرة اهتمامها بمصالحها من المطعم والملبس والمسكن تظن أن المقصود دفع الزمان بذلك فحسب، وقد أنساها انهماكها على اكتسابها أن هذا إنما هو زاد للمسير إلى مقصود آخر، فترى خلقاً كثيراً همهم جمع المال فحسب؛ لأنهم رأوه سبباً لبلوغ الأغراض فأحبوه لذاته ونسوا ما وُضِعَ له، وخلقاً همهم ما يأكلون، فهم يعملون طول النهار ليأكلوا، ويأكلون ليعملوا، وخلقاً همهم في اجتلاب ما يوجب لهم المدح والثناء والتفاخر، وانهماك هؤلاء كلهم على ما انهمكوا عليه يُخرجهم إلى الكبر والحسد والشرة وغير ذلك من الأخلاق الذميمة.

فهذا بيان أن ضرورة العيش جرَّ إلى غيره، فُنسي بذلك ما وُضِعَ الأصل له، فالذمُّ إذاً لا لصورة الدنيا، وقد روينا أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه خطب فقال: الدنيا دار صدقٍ لمن صدقها، ودار عاقبة لمن فهم عنها، ومطلب نُجْحٍ لمن سالمها، فيها مساجدُ الله، ومهبطُ وحيه، ومصلى ملائكته، ومَـتَجِرٌ أوليائه، فيها اكتسبوا الرحمة، وربحوا فيها العافية، فمن ذا يذمُّها وقد أدنَّتْ بيئِـنِـها، ونَعَتْ نَفْسِـها وأهلها، فمَثَلتْ ببلائِها البلاء، وشَوَّقتْ بسرورها إلى السرور تخويفاً وتحذيراً وترغيباً، فذمَّها قومٌ غداة الندامة، وحمدها آخرون ذكَّرتهم فذكروا ووعظتهم فانتهوا، فأَيُّها الذامُّ للدنيا المُعْتَرُّ بتغريـرِها متى استدمَّتْ إليك؟ بل متى غرَّتْكَ؟

(١) الكُدِيَّة: حرفة السائل المُلِح الذي تكفَّف الناس، وهي الشحاذة.

أبمنازلِ آبائك في الثرى؟ أم بمضاجع أمهاتك في البلى؟ كم رأيت موروثاً، كم عللت بكفئك غليلاً؟ كم مرّضت بيدك مريضاً تبتغي له الشفاء وتستوصف له الأطباء؟ لم تنفعه بشفاعتك، ولم تُسعفه بطلبك، مثّلت لك الدنيا عداة مضرعه مصرعك ومضجعه مضجعتك. ثم التفت إلى المقابر فقال: يا أهل الغربة وأهل التربة، أما الدورُ فقد سُكِنَتْ، وأما الأموالُ فقد اقتُسمت، وأما الأزواجُ فقد نُكحت، فهذا خبيرٌ ما عندنا فهاتوا خبر ما عندكم. ثم التفت إلى أصحابه فقال: أما لو أذن لهم لأخبروكم أن خير الزادِ التقوى<sup>(١)</sup>.

ولما تنبّه أقوامٌ للإعراض عن الدنيا والرّهد فيها حسدهم إبليسُ قسمهم طوائف؛ فمنهم طائفةٌ أراهم أن الصّواب تعجيلُ الانتقال عن الدنيا إلى الآخرة، فإن الواصل إليها سعيد كيفما وصل، فقتلوا أنفسهم ليتخلّصوا من الدنيا، وعلى هذا جماعة من أهل الهند يتهجّمون على النار ويقتلون أنفسهم ظناً منهم أنهم يتخلّصون بذلك من محن الدنيا.

ومنهم طائفةٌ أوهمهم أنه لا بد من رياضةٍ تُमित الصفات البشريّة وتقلّعها بالكليّة، فشددوا في المجاهدة على أنفسهم حتى هلك أكثرهم لشدّة الرياضة، ومنهم من فسّد عقله، ومنهم من مرض.

ومن هؤلاء من بالغ في الرياضة فرأى أن الطّبع لا ينقلع، فتوهم أن ما كلفه الشرع محالٌ فوق في الإلحاد، ووقع لبعضهم أن هذه المجاهدات لا فائدة فيها؛ لأن الله تعالى مستغنٍ عنها فلا تنفعه طاعة ولا تضره معصية، فسلكوا مسلك الإباحة وطووا بساط الشرع، وظنّوا أن ذلك من صفاء توحيدهم حيث اعتقدوا أن الله مُستغنٍ عن عبادة عباده.

وظنّ آخرون أن المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل، فاستغنى عن التّعب، وزعموا أنه قد ارتفع

(١) ذكره ابن أبي الدنيا في (ذم الدنيا) (١٤٧) وابن رجب في جامع العلوم والحكم ١٩٤/٢ -

محلُّهم في معرفة الله أن يُمتَهَنُوا بالتكليف، وإنما التكليف على العوام. وثُمَّ طُرُقٌ غير هذه من هذا الجنس قد ذكرتها في كتابي المسمَّى بتبليس إبليس، وإنما الطريق السَّليم المَحَجَّة الوسطى وهو أن تأخُذَ من الدنيا قدرَ ما تَحْتَاجُ إليه من الزاد للسلوك وإن كان مُشْتَهَى، فإن إعطاء النَّفس ما تَشْتَهيه مما يُصلحها عونٌ لها وقضاءٌ لحَقِّها، فقد كان سُفيان الثَّوري يأكل في أوقاتٍ من طَيِّب الطعام، وكان إذا سافرَ كان في سُفْرته حَمَلٌ مَشْوي وفالودج<sup>(١)</sup>، وكان إبراهيمُ بنُ أدهم يأكلُ من الطَّيبات في بعض الأوقات، ويقول: إذا وَجدنا أكلنا أَكلَ الرجال، وإذا فُقدنا صَبَرنا صبرَ الرجال.

ولننظر في سير الرسول ﷺ وأصحابه، فإنهم ما كان لهم إفراط في تناول الدنيا ولا تفریط في حقوق النفوس، بل كانوا أُمَّةً وسطاً، بل ينبغي أن يتلمَّح حَظُّ النَّفس في المُشْتَهَى، فإن كان في حَظِّها حِفْظُها وما يُقيمها ويُصلحها ويبسطها للخير، فلا ينبغي أن تُمنع منه وإن كان حَظُّها مُجرَّد شهوةٍ ليست متعلقة بمصالحها المذكورة، فذاك حَظُّ مذموم، والزهد فيه يكون.

وينبغي تعويد النَّفس الزَّهد في بعض الحَظِّ الأول خُصُوصاً في بداية رياضتها لئلا تتعوَّد الانبساط في الشهوات كما قال عُمَرُ وقد أُتِيَ بِشربةٍ عَسَلٍ: اعزلوا عني حسابها.

وفي الجُملة ينبغي لك أن تقوم بالقِسطِ في حِفْظِ النَّفس فلا تمنعها من حُظوظها ما تقوى به على التَّقوى، ولا تُطلقها فيما يُخافُ ضَرُّه من شهواتها، فإن الوادي بين الجبَلين.

آخر كتاب دَمِّ الدُّنيا



(١) الفالودج: حلواء تُعمل من الدقيق والماء والعسل أو من النَّشاء والماء السكر.

## كتاب

# ذمُّ البُخْلِ وَذَمُّ حُبِّ المَالِ

الحمدُ لله الذي ابتلى عباده ببلوى المال لينظر من استقامَ منهم مِمَّنْ مال، فبعضُهم بالإكثار منه وبعضهم بالإقلال، وبعضهم بأخذه من الحرام وبعضهم من الحلال، ودرج في كسبهم له الحرص والقناعة والجود والبخل فاختلفت الحال.

أحمدُه على بلوغ الآمال، وأشهدُ أنَّ كل معبودٍ سواه مُحال، وأصلي على رسوله محمدٍ أشرف آدميِّ قال وقال<sup>(١)</sup>، وعلى أصحابه وآله خير آل، صلاةٌ تدوم بدوام الغدو والآصال، وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

قد بيَّنا في كتاب ذمِّ الدنيا أن الآدميَّ مفتقرٌ إلى مَطْعَمٍ وملبسٍ ومَسْكِنٍ، وقد جعلت الأموال لئيل تلك الأغراض، فلا غنى بالآدميِّ عن الأموال، والسَّلامَةُ من شرِّها بعيدة؛ لأنها إذا فُقِدَت وَقَعَ الفقرُ الذي كاد يكون كُفْرًا، وإن وُجِدَت خِيفَ منها الطُّغيان.

واعلم أنَّ المالَ بعضُ جزاء الدنيا، والكلام فيما يتعلق بالدنيا يَعُمُّ المالَ إلا أنا أفردنا ذكْرَ عوائل المال وآفاته في هذا الكتاب، إذ للإنسان من فقده صفة الفقر، ومن وجوده صفة الغنى، وهما حالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان، ثم للفاقد حالتان: القناعة والحرص، وإحداهما مذمومةٌ والأخرى محمودة، وللحريص حالتان: طمع فيما في أيدي الناس أو تَشَمُّرٌ للحرف والصناعات، والطمعُ شرٌّ

(١) ورد في هامش (ظ) ما نصه: (قوله: قال وقال، الأول من القيلولة والثاني من القول).

الحالتين. وللواجِدِ حالتان: إمساكٌ بحكم البُخل والشُّحِّ، وإنفاق. وللمُنْفِقِ حالتان: تَبذِيرٌ وإِقْتَارٌ، والمحمودُ الاقتصاد. وهذه أمورٌ مُشْتَبِهَةٌ وكشفتُ الغِطاءَ عن غامِضها مُهَمِّمٌ.

ونحن نشرحُ ذلك في أربعة عشر فصلاً إن شاء الله تعالى، وهي:

بيانُ ذمِّ المال، ثم مدحه، ثم تفصيل فوائده وآفاته، ثم ذمُّ الحِرصِ والطمع، ثم علاجهما، ثم فضيلة السَّخاءِ، ثم أخبار الأَسْخِياءِ، ثم ذمُّ البُخلِ، ثم أخبار البُخلاءِ، ثم الإيثار وفضله، ثم حدُّ السَّخاءِ والبُخلِ، ('ثم علاج البُخل')، ثم مجموع الوظائفِ في المال، ثم ذمُّ الغِنَى ومدح الفقر.

## بيان

## ذم المال

اعلم أن المال لا يُذمُّ لذاته كما قلنا في الدنيا، بل يقع الذمُّ لمعنى من الآدمي يتعلق بالمال، فيُتجوَّزُ بإطلاق ذمِّ المال، وذلك المعنى إمَّا شدَّة الحرص على طلبه، أو تناوله من غير حِلِّه، أو حبسه عن حقه، أو إخراجه في غير وجهه، أو المفاخرة والمباهاة به، قال الله عز وجل: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، وقال: ﴿لَا تُلْهِكُوا أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴿٦﴾ أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦ - ٧]. وأخبرنا الكروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر الغورجي قالوا: أخبرنا الجراحي قال: أخبرنا المحبوبي قال: أخبرنا الترمذي قال: أخبرنا سُويد بن نصر قال: أخبرنا عبد الله بن المبارك عن زكريَّا بن أبي زائدة عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زُرارة عن ابن كعب ابن مالك الأنصاري عن أبيه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مادُّبَّانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدِ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرْفِ لِدِينِهِ». قال الترمذي: هذا حديثٌ صحيح.

وفي الصَّحيحين من حديث أبي ذرٍّ قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ وهو في ظلِّ الكعبة فقال: «هُمُ الْأَخْسَرُونَ وَرَبُّ الكعبة، همُ الْأَخْسَرُونَ» قلت: مَنْ هُمْ؟ قال: «الْأَكْثَرُونَ [أموالاً]»<sup>(١)</sup> إلا مَنْ قال في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا»<sup>(٢)</sup>.

وقد كان السلفُ يخافون فِتنةَ المال فكان عمر بن الخطاب إذا رأى الفُتوح يبيكي ويقول: ما حبسَ الله هذا عن نبيِّه وعن أبي بكرٍ لشرِّ أراداه لهما وأعطاهم عمر إرادة الخير له.

(١) ليست في النسخ وأثبتت من الصحيحين فهو في البخاري (٦٦٣٨)، ومسلم (٩٩٠).

(٢) أي: أعطى عن يمينه وشماله وأمامه.

وكان يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا تُفْتَحِ الدُّنْيَا عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أَلْقَى اللَّهُ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَنَا أَسْفِقُ مِنْ ذَلِكَ».

ولما بعثَ عمر رضي الله عنه إلى زَيْنَبَ بَعِطَائِهَا قَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا يُدْرِكُنِي عَطَاءُ عَمْرٍ بَعْدَهَا.

وقال يحيى بن مُعَاذٍ: الدَّرْهَمُ عَقْرَبٌ، فَإِنْ لَمْ تُحَسِّنْ رُقِيَّتَهُ فَلَا تَأْخُذْهُ، فَإِنَّهُ إِنْ لَدَغَكَ قَتَلَكَ سُمُّهُ. قِيلَ: مَا رُقِيَّتُهُ؟ قَالَ: أَخْذُهُ مِنْ حِلِّهِ وَوَضْعُهُ فِي حَقِّهِ. وَقَالَ: مُصَيَّبَتَانِ لَمْ يَسْمَعْ الْخَلَائِقُ بِمِثْلِهِمَا لِلْعَبْدِ فِي مَالِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ. قِيلَ: وَمَا هُمَا؟ قَالَ: يُؤْخَذُ مِنْهُ كُلُّهُ، وَيُسْأَلُ عَنْهُ كُلُّهُ.

## بَيَان

## مَدَحِ الْمَالِ وَالْجَمْعِ بَيْنَهُ وَبَيْنِ الذَّمِّ

قد بيَّنا أن المالَ لا يذمُّ لذاته بل ينبغي أن يُمدَّح؛ لأنه سببٌ للتوصل إلى مصالح الدِّين والدنيا، وقد سمَّاه الله عزَّ وجلَّ خيراً فقال: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، وأمر بحفظه<sup>١</sup> وأعلم أن قِوامَ الآدميِّ به<sup>١</sup> فقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥] وقال النبي ﷺ: «نِعْمًا بِالْمَالِ الصَّالِحِ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ».

وقال سعيد بن المسيَّب: لا خيرَ فيمن لا يُريد جمع المال من حلِّه يكفُّ به وجهه عن الناس، ويَصِلُ منه رَحْمه، ويُعطي منه حقَّه. وخلف ابن المسيَّب مالاً.

وقال أبو إسحاق السَّبيعي: كانوا يَرَوْنَ السَّعَةَ عوناً على الدين.

وقال ابن المُنكدر: نِعَمَ العَوْنُ على التَّقوى العِنَى.

وقال سفيان الثوري: المالُ في زماننا هذا سلاحُ المؤمن، وخلف سفيان مالاً.

وقال يوسف بن أسباط: ما كان المالُ منذ كانت الدنيا أنفع منه في هذا الزمان.

واعلم أن المالَ لما كان سبباً لحفظِ البدن، وحراسةِ البدن سبباً لحفظِ النفس، وبقاءِ النفس سبباً للمعرفة والعلم والعمل، عُرفَ بهذه الطريق شرف المال، وإِثْمًا يَقعُ الذَّمُّ لما جُعِلَ منه وسيلةً إلى المقاصد الفاسدة، والذَّمُّ للجاعِلِ لا للمجعول، كما قال ﷺ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَتَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ».

ولمَّا كانت الطَّباع تميلُ إلى فُضُولِ المال، ويتجدد من ذلك شرٌّ في الأغلب، قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا». هذا وهو مأمون عليه فتنة المال، فكيف بغيره؟

## بيان

### تفصيل آفات المال وفوائده

اعلم أن المال مثل حَيَّةٍ فِيهَا سُمٌّ وَتَرِياقٌ، ففوائده تَرياقه، وغوائله سُموهُ، فمن عرفَ غوائله وفوائده أمكنه أن يحترز من شره ويستدِرَّ من خيره.

أما الفوائد: فهي تنقسم إلى دنيوية ودينية.

أما الدنيوية: فالخلق يعرفونها، ولذلك تهالكوا في طلبها.

وأما الدينية: فتتحصر في ثلاثة أنواع:

النوع الأول: أن يُفقه على نفسه، إمَّا في عبادة أو في الاستعانة على العبادة.

أما في العبادة فكالاستعانة به على الحجِّ والجهاد، وهما من أمهات القربات، والفقر قد حُرِّمهما للفقير، وأما فيما يقويه على العبادة كالمطعم والملبس والمسكن والمنكح وضرورات المعيشة، فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر كان القلب منصرفاً إلى تدبيرها، فلا يتفرغ للدين، وما لا يُوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة، فأخذ الكفاية من الدنيا للاستعانة على الدين من الفوائد الدينية، ولا يدخل في هذا التَّعَمُّمُ والزَّيَادَةُ على الحاجة فإن ذلك من حُظوظِ الدنيا فقط.

النوع الثاني: ما يصرفه إلى الناس، وهو أربعة أقسام: الصدقة والمروءة ووقاية العرض وأجرة الاستخدام.

أما الصدقة: فقد سبق ذكر فضائلها.

أما المروءة: فتعني بها صرفَ المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافةٍ وهديةٍ وإعانةٍ وما يجري مجراه، وهذا من الفوائد الدينية إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء وصفة السخاء، والأخبار في الضيافة والهدايا كثيرة.

وأما وقاية العرض: فنعني به بذل المال لدفع هجو الشُّعراء وثلب الشُّفهاء وقطع ألسنتهم ودفع شرِّهم، وهو مع تنجيز فائدته في العاجلة هو من الحُظوظ الدينية أيضاً، قال النبي ﷺ: «ما وقى به المرء عرضه فهو صدقة». وهذا لأنه يمنع المغتاب عن معصية الغيبة ويحترز مما يثير كلامه من العداوة التي تحمّل في الانتقام على مُجاوزة حدود الشريعة.

وأما الاستخدام: فإن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابه كثيرة، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته وتعذّر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر الذي هو أعلى<sup>(١)</sup> مقامات السالكين، ومن لا مال له فإنه يفتقر إلى أن يتولّى خدمة نفسه بنفسه، وكل ما يتصوّر أن يقوم به غيرك ويحصل بذلك غرضك فإن تشاغلك به غبن؛ لأن احتياجك إلى التّشاغل بما لا يقوم به غيرك من العلم والعمل والفكر والذكر أشدّ.

النوع الثالث: ما لا يصرفه إلى إنسانٍ معيّن، ولكن يحصل به خيرٌ عام، كبناء المساجد والقناطر والوقوف المؤبّدة.

فهذه جملة فوائد المال في الدين سوى ما يتعلق بالحُظوظ العاجلة من الحلاص من ذلّ السُّؤال وحقارة الفقر وكثرة الإخوان والأصدقاء والعزّ بين الخلق والكرامة في القلوب والوقار.

أما الآفات: فدينيّة ودنيويّة:

أما الدينيّة فثلاث:

الأولى: أنه يجرّ إلى المعاصي غالباً؛ لأن الشّهوات متقاضية، والعجز حائلٌ، ومن العصمة أن لا يقدر، ومتى ييسّر الإنسان من المعصية لم تتحرك داعيته إليها، فإذا استشعر القدرة عليها انبعثت داعيته، والمال نوعٌ من القدرة يحرك داعية المعاصي، فإن اقتحم ما يشتهي هلك، وإن صبر لقي شدّةً من معاناة الصبر مع القدرة، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء.

(١) تحرفت في الأصل إلى: (أصل أعلى).

الثانية: أنه يُحرِّك إلى التَّعَمُّ في المباحات، ومتى تَمَكَّن العَنِيُّ أن يأكل خبز الشعير مع غِناه كما كان سُلَيْمان بن داود يفعل، فإذا تَنَعَّمَ بالمباحات صارت عادةً. وإلْفاً فلا يصبر عنها، وربما لم يقدر على استدامتها إلا بكسبٍ فيه شُبْهَةٌ فَيَقْتَحِمُ<sup>(١)</sup> الشُّبْهَاتِ ويتسلسل الأمر ويرقى إلى آفاتٍ من مُدَاهِنَةٍ ونفاقٍ وغير ذلك ليتيسَّر له تنعُّمه، فإن من كَثُرَ ماله خَالَطَ الناسَ، ومن خَالَطَهُمْ لم يَسْلَمْ من نفاقٍ وعداوةٍ وحسدٍ وحقْدٍ وغِيبةٍ، وكل ذلك يلزم من الحاجة إلى إصلاح المال.

الثالثة: وهي التي لا ينفك عنها أحد، وهو أنه يُلهيه إصلاحُ ماله عن ذكر الله تعالى، قال عيسى ابن مريم: في المال ثلاثٌ: أن يأخذه من غير حِلِّه. فقيل: فإن أخذه من حِلِّه؟ قال: وَضَعَهُ فِي غير حَقِّه. قيل: فإن وَضَعَهُ فِي غير حَقِّه. قيل: فإن وَضَعَهُ فِي حَقِّه؟ قال: يَشْغَلُهُ إِصْلَاحُهُ عَنِ اللَّهِ<sup>(٢)</sup> عَزَّ وَجَلَّ، وهذا هو الداء العُضَالُ فإنَّ أَصْلَ العِبَادَاتِ وَمُحَّتْهَا ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَالتَّفَكُّرُ فِي جَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَذَلِكَ يَسْتَدْعِي قَلْباً فَارِغاً، وَصَاحِبُ الضَّيْعَةِ يَمْسِي وَيُصْبِحُ مُتَفَكِّراً فِي خُصُومَةِ الفَّلَاحِ وَمُحَاسَبَتِهِ وَخِيَانَتِهِ<sup>(٣)</sup>، وَشُرَكَائِهِ وَمُنَازَعَتِهِمْ فِي الحُدُودِ وَالمَاءِ، وَأَعْوَانِ السُّلْطَانِ فِي الخَرَاجِ، وَالأَجْرَاءِ عَلى التَّقْصِيرِ فِي العِمَارَةِ، وَصَاحِبُ التِّجَارَةِ يَكُونُ مُتَفَكِّراً فِي خِيَانَةِ شَرِيكِهِ وَتَقْصِيرِهِ فِي العَمَلِ وَتَضْيِيعِهِ لَلمَالِ،<sup>(٤)</sup> وَكذا سائر أصناف المال. وَأَبْعَدُهَا عَنِ كَثْرَةِ الشُّغْلِ<sup>(٥)</sup> المَالُ المَكْنُوزُ تَحْتَ الأَرْضِ، وَالفِكرُ مُتَرَدِّدٌ فِي كَيْفِيَةِ حِفْظِهِ وَفِي الخَوْفِ مِمَّنْ يَعْثُرُ عَلَيْهِ، وَأَوْدِيَةُ أَفْكَارِ أَهْلِ الدُّنْيَا لا نِهَايَةَ لَهَا، وَمَنْ لَهُ قُوَّةٌ يَوْمَهُ فِي سَلامَةٍ مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ.

فهذه جُمَلُ الآفَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ سِوَى ما يُقَاسِيهِ أربابُ الأَمْوالِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الخَوْفِ وَالحُزَنِ وَالعَمِّ وَالهَمِّ وَالتَّعَبِ فِي دَفْعِ الحُسَّادِ وَتَجَشُّمِ المَصاعِبِ فِي حِفْظِ الأَمْوالِ وَكَسْبِهَا، فَإِذَا تَرَيَاقُ المَالِ أَخَذَ القُوَّةَ مِنْهُ وَصَرَفَ الباقِي إلى الخِيراتِ، وَما عدا ذَلِكَ سُمُومٌ وَآفَاتٌ.

(١) فِي (ظ): (فَتَفْتَحُ).

(٢) فِي (ظ): (عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ).

(٣) تَصَحَّفَتْ فِي (ظ) إِلَى: (جَنائَتِهِ).

(٤-٥) سَقَطَ مِنْ (ظ).

## بيان

### ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس مما في أيدي الناس

اعلم أن الفقر محمودٌ كما سيأتي بيانه في كتاب الفقر، ولكن ينبغي للفقير أن يكون قانعاً منقطع الطمع عن الخلق، غير ملتفتٍ إلى ما في أيدي الناس، ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس، ويقتصر على أقله قدرأ وأخسه نوعاً، ويردّ أمله إلى يومه، فإن لم يُطق فإلى شهره، ومتى طال أمله أو تشوّف إلى الكثير، فاتهُ عزُّ القناعة وتدنّس بأوساخ الطمع وجرّة الحرص والطمع إلى مساوي الأخلاق.

وقد جبل الآدمي على الحرص والطمع وقلة القناعة، وقد روينا أنه كان فيما يتلى ثم رُفع: (لو كان لابن آدم واديان من ذهبٍ لابتغى إليهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب). وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «يهرمُ ابنُ آدم وتَشِبُّ منه اثنتان: الحرص والأمل»، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «قَلْبُ الشَّيْخِ شَابٌّ عَلَى حُبِّ اثْنَتَيْنِ: طَوْلِ الحَيَاةِ وَحُبِّ المَالِ».

وقال ابنُ مسعود رضي الله عنه: لا يُدركُ حريصٌ مالم يُقدّر له.

وقال الشعبيُّ: وَجَدْتُ البَلَايَا فِي الدُّنْيَا إِنَّمَا يَسوقُهَا إِلَى أَهْلِهَا الحِرْصُ وَالشَّرْه.

ولمّا كانت جِبِلَّةُ الآدَمِيِّ عَلَى هَذَا أَثْنَى الشَّرْعِ عَلَى القَنَاعَةِ وَالتَّعَفُّفِ، أَخْبَرْنَا هِبَةَ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ: أَخْبَرْنَا الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ قَالَ: أَخْبَرْنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: أَخْبَرْنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ قَالَ: حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ قَالَ: حَدَّثَنِي شُرْحَبِيلُ بْنُ شَرِيكٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الحُبَلِيِّ

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسولَ الله ﷺ قال: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كِفَافاً وَقَنَّعَهُ اللهُ عِزًّا وَجَلَّ بِمَا آتَاهُ». انفراد بإخراجه مسلم.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ».

وفيها من حديث حكيم بن حزام عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ يَسْتَعْفَ يُعْفَهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَعْنِ يُغْنِهِ اللهُ».

وفي حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «لَيْسَ الْمَسْكِينُ بِالطَّرَافِ وَلَا بِالذِّي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَا اللَّقْمَةُ وَلَا اللَّقْمَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمَسْكِينِ الْمَتَعَفِّفَ الَّذِي لَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئاً، وَلَا يُفْظَنُ لَهُ فَيُتَّصَدَّقَ عَلَيْهِ».

وقد روينا أن موسى عليه السلام قال: يا رب، أي عبادك أغني؟ قال: أقنعهم.

وقد روينا أن سليمان بن داود عليه السلام قال: قَدْ جَرَّبْنَا الْعَيْشَ كُلَّهُ لَيْنَهُ وَشَدِيدَهُ، فَوَجَدْنَاهُ يَكْفِي مِنْهُ أَدْنَاهُ.

وقال عزير: رَبِّ، مَا عِلْمَةُ مَنْ صَافَيْتَهُ مِنْ خَلْقِكَ؟ فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: أُفْنَعُهُ بِالْيَسِيرِ، وَأَدْخُرْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ الْكَثِيرَ.

وفي حديث جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْقَنَاعَةَ مَالٌ لَا يَنْقُدُ».

وفي حديث ابن عباس عنه ﷺ قال: «إِنَّمَا يَكْفِي أَحَدَكُمْ مَا قَنَعَتْ بِهِ نَفْسُهُ».

وفي حديث أبي هريرة عنه ﷺ أنه قال له: «أَرْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ أَعْنَى النَّاسِ».

وكان أبو ذرٍّ جالساً مع الناس<sup>(١)</sup>، فأتته امرأته فقالت: تجلس بين هؤلاء والله ما في البيت هقّة ولا سقّة! فقال: يا هذه إن بين أيدينا عقبة كؤود لا ينجو منها إلا كلُّ مُخِفِّ. فرجعت وهي راضية.

(١) في (ظ): (النبي).

وقال وَهْبُ بن مُنْبَهٍ في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].  
قال: الفَنَاعةُ.

وكان مُحَمَّد بن واسع يبلُّ الخبز بالماء ويأكله ويقول: مَنْ قَنَعَ بهذا لم يحتجْ إلى أحد.

وكان الحسنُ يقول: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَمَلََّ معافاتِكَ. قالوا: كيف ذلك يا أبا سَعِيدٍ؟ فقال: الرجل يكون في بلده في خَفْضٍ ودَعَةٍ فتدعوه نفسه إلى أَنْ يَطْلُبَ الرِّزْقَ في غيره.

وقال أبو حازم: ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه فَقَدْ كَمَلَ عقله: مَنْ عرفَ نفسه، وَحَفِظَ لسانه، وَقَنَعَ بما رزقه الله عزَّ وجل.

وقال بعضُ الحكماء: أَنْتَ أخو العِزِّ ما التحفَتَ بالفَنَاعةِ.

وأنشدوا في هذا المعنى:

حتَّى متى أنا في حِلٍّ وترحالٍ      وطول سَعي وإدبارٍ وإقبالٍ  
ونازح الدَّارِ لا أنفكُ مُغْترباً      عن الأحبَّةِ لا يدرون ما حالي  
بمَشْرِقِ الأرضِ طوراً ثم مغربها      لا يخطر الموتُ من حِرْصي على بالي  
ولو قَنَعْتُ أَناني الرزقِ في دَعَةٍ      إن القُنوعَ الغِنى لا كَثرة المَالِ  
وأنشدوا أيضاً:

يا جامعاً مانعاً والدَّهرُ يرمُّقه      مُقدِّراً أيِّ بابٍ عنه يُغلقه  
مفكراً كيف تأتيه مَنِيئُهُ      أغادياً أم بها يسري فتَطْرُقُهُ  
جمعتَ مالاً فقل لي هل جمعتَ له      يا جامعَ المَالِ أياماً تُفَرِّقه  
المالَ عندك مخزونٌ لوارثه      ما المَالُ مَالُكَ إلا يوم تُنْفقه  
أرفه<sup>(١)</sup> ببالٍ فتى يغدو على ثِقَةٍ      إن الَّذي قَسَمَ الأرزاقَ يَرزُقُهُ

(١) أرفه: من الرفاهية، وهي سعة العيش.

فالعرضُ منه مصون لا يُدْنَسُهُ والوجهُ منه جديد ليس يُخْلِقُهُ  
 إِنَّ الْقَنَاعَةَ مَنْ يَحْلُلُ بِسَاحَتِهَا لَمْ يَلْقَ فِي ظِلِّهَا هَمًّا يُورِّقُهُ  
 وقد نهى رسولُ الله ﷺ عن شِدَّةِ الْحِرْصِ فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، أَجْمِلُوا فِي  
 الظَّلْبِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لِعَبْدٍ إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ»<sup>(١)</sup>.

وقال شَيْبُ بْنُ شَيْبَةَ: حِرْصُ الْمَرْءِ يَهْتِكُ قَدْرَهُ، وَالْقُنُوعُ يَصُونُ أَهْلَهُ.

وقال بِشْرُ الْحَافِي: مَنْ بَاعَ الْحِرْصَ<sup>(٢)</sup> بِالْقَنَاعَةِ ظَفِرَ بِالْغِنَى.

ونهى عليه الصلاة والسلام عن الظَّمْعِ فقال: «أَجْمِعِ الْيَأْسَ مِمَّا فِي أَيْدِي  
 النَّاسِ»<sup>(٣)</sup>.

وقال عمر بن الخطَّاب: تَعَلَّمُوا أَنْ الظَّمْعَ فَقْرٌ، وَأَنَّ الْيَأْسَ غِنَى،<sup>(٤)</sup> وَأَنَّهُ مِنْ  
 يَأْسٍ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ اسْتَغْنَى عَنْهُمْ<sup>(٥)</sup>.

وقال أبو بكر الورَّاق: لَوْ قِيلَ لِلطَّمْعِ: مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: الشُّكُّ فِي الْمَقْدُورِ. وَلَوْ  
 قِيلَ: مَا حِرْفَتُكَ؟ قَالَ: اكْتِسَابُ الدَّلْلِ. وَلَوْ قِيلَ: مَا غَايَتُكَ؟ قَالَ: الْحِرْمَانُ.

وقال: بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: أَكْثَرُ مِصَارِعِ الْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ الظَّمْعِ، وَالْمَطَامِعِ هِيَ  
 وَثَاقُ<sup>(٥)</sup> الدَّلْلِ. وَقَالَ آخَرُ: الظَّمْعُ يُدِلُّ الْأَمِيرَ، وَالْيَأْسُ يُعِزُّ الْفَقِيرَ<sup>(٦)</sup>.

(١) فِي (ظ): (مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ).

(٢) فِي (ظ): (الْعِز).

(٣) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢٣٤٩٨) مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،  
 فَقَالَ: عِظْنِي وَأَوْجِزْ. فَقَالَ: (إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُودَعٍ، وَلَا تَكَلِّمْ بِكَلَامٍ  
 تَعْتَدِرُ مِنْهُ غَدًا، وَأَجْمِعِ الْإِيَّاسَ مِمَّا فِي يَدِ النَّاسِ).

(٤-٤) وَرَدَتْ فِي النُّسخِ مُضْرِبَةٌ: (وَأَنَّ الْمُرَادَ إِيَّاسَ مِنْ شَيْءٍ اسْتَغْنَى عَنْهُ) وَالْمُثَبِّتُ مِنَ الْإِحْيَاءِ.

(٥) تَحَرَّفَتْ فِي (ظ) إِلَى: (وِثَاقُ).

(٦) فِي (ظ): (يَغْنَى).

## بَيَان

### علاج الحرص والطمع والدواء الذي تكتسب به صفة القناعة

اعلم أن هذا الدواء مُركَّب من ثلاثة أركان: الصبر، والعلم، والعمل، ومجموع ذلك خمسة أمور:

**الأول:** وهو العمل: الاقتصاد في المعيشة والرفق في الإنفاق، فمن أراد عزَّ القناعة فينبغي أن يسدَّ عن نفسه أبواب الخرج ما أمكنه، ويرد نفسه إلى ما لا بدَّ له منه، فمن كثر خرجه واتسع إنفاقه لم تُمكنه القناعة بل إن كان وحده فينبغي أن يمنع بثوبٍ واحدٍ خشنٍ ويقنع بأي طعام كان، ويقلل من الإدام ما أمكنه، ويوطن نفسه عليه، وإن كان له عيالٌ فيردُّ كل واحد إلى هذا القدر، فإن هذا القدر يتيسرُ بأدنى جهد، ويمكن معه الإجمال في الطلب.

والاقتصادُ في المعيشة هو الأصلُ في القناعة، ونعني به الرفقُ في الإنفاق وترك الخرقِ فيه، قال ﷺ: «إنَّ الله يحب الرفق في الأمر كله» وقال: «ما عال من اقتصد». وقال: «ثلاثٌ مُنجيات: خشيةُ الله في السرِّ والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضا والغضب» وفي الحديث: «التدبير نصف العيش».

ورأى رجلٌ أبا الدرداء يلتقطُ حَبًّا من الأرض ويقول: إنَّ من فقهك رفقك في معيشتك.

**والثاني:** أنه إذا تيسر له في الحال ما يكفيه، فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل، ويُعينه على ذلك قصر الأمل واليقين بأن رزقه المقدر له لا بد أن يأتيه وإن لم يحرص، وأن شدة الحرص ليس هو السبب لوصول الرزق، وليعلم أن الشيطان يعده الفقر ويأمره بالفحشاء، فيخوفه أن يمرض أو يعجز أو

يحتاج ويحثه على شدة الحرص واحتمال الذل<sup>(١)</sup>، ثم يضحك به إذ يستعجل الذل والحرص لأجل متوهم في ثاني الأمر، وقد قال الشاعر:

وَمَنْ يُنْفِقَ الْأَيَّامَ<sup>(٢)</sup> فِي جَمْعِ مَالِهِ مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالذِي فَعَلَ الْفَقْرَ

وقد روى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الروح الأمين نفث في روعي أنه ليس من نفسٍ تموت حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله عز وجل، فإنه لا يدرك ما عند الله عز وجل إلا بطاعته».

وروى أبو سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «لو فرَّ أحدكم من رزقه لأدركه كما يدركه الموت».

وقال عمر بن الخطاب: ما من امرئٍ إلا وله أثر هو واطئه، ورزق هو آكله، وأجل هو بالغه، وحتف هو قاتله، حتى لو أن رجلاً هرب من رزقه لاتبعه حتى يدركه كما أن الموت مدرِك مَنْ هرب منه.

وقال أبو حازم: وجدت الدنيا شيئين: فشيء هو لي، فلن أعجله قبل أجله ولو طلبته بقوة السماوات والأرض، وشيء هو لغيري، فذلك لم أنله فيما مضى ولا أرجوه فيما بقي، يُمنع الذي لي من غيري كما يُمنع الذي لغيري مني، ففي أي هذين أفني عمري؟ ووجدت ما أعطيت من الدنيا شيئين: فشيء يأتي أجله قبل أجلي فأغلب عليه، وشيء يأتي أجلي قبل أجله، فأموت وأخلفه لمن بعدي، ففي أي هذين أعصي ربي؟

واعلم أنه لا ينفك الإنسان عن الحرص إلا بحسن ثقته بتدبير الله تعالى في تقدير أرزاق العباد، وأن ذلك يصل لا محالة، مع الإجمال في الطلب، بل ينبغي أن يعلم أن رزق العبد من حيث لا يحتسب أكثر، فإذا انسَدَّ عليه بابٌ كان ينتظر

(١) في الأصل: (أذى الذل).

(٢) في الأصل: (الأيام الساعات) هكذا. والبيت له رواية أخرى: (ومن ينفق الساعات).

الرزق منه فلا ينبغي أن يضطرب قلبه، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب».

فهذا دواءٌ من جهة المعرفة لا بدَّ منه لدفع تخويف الشيطان وإنذاره بالفقر.

الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عزِّ الاستغناء، وما في الطَّمع والحرص من الذلِّ، فإذا تحقَّق عنده ذلك انبعثت رغبته إلى القناعة، لأنه لا يخلو في الحرص من تعبٍ وفي الطَّمع من ذلٍّ، وليس في القناعة إلا ألم الصبر عن الشهوات والفضول، وهذا ألم لا يطلع عليه أحد، وفيه ثواب الآخرة<sup>(١)</sup>، وذلك المتقدم يُضاف إليه نظر الناس، وفيه الوبال والمأثم، ثم إنه يفوته عزُّ النفس والقدرة على متابعة الحق، فإن من كثر طمعه وحرصه كثرت حاجته إلى الناس فلا يمكنه أن يدعوهم إلى الحق، فيحتاج إلى أن يداهن، ومن لم يؤثر عزُّ النفس على شهوة البطن فهو ركيك العقل ناقص الإيمان، قال ﷺ: «عزُّ المؤمن استغناؤه عن الناس». ففي القناعة الحرية والعز، ولذلك قيل: استغن عمّن شئت فأنت نظيره، واحتج إلى من شئت فأنت أسيرُه، وأحسن إلى من شئت فأنت أميرُه.

الرابع: أن يكثر تفكره في تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى منهم ومن لا دين له ولا عقل، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء والصالحين، ويسمع أحاديثهم ويطلع أحوالهم، ويخبر عقله بين أن يكون على مشابهة أراذل الخلق، أو على الاقتداء بمن هو أعزُّ أصناف الخلق عند الله حتى يهون بذلك الصبر على القليل والقناعة باليسير، فإنه إن تنعم بالمطعم فالبهيمة أكثر منه أكلاً، وإن تنعم بالوطء فالعصفور أكثر سفاذاً منه، وإن قنع بالقليل لم يساهمه<sup>(٢)</sup> في رتبته إلا الأنبياء والأولياء.

الخامس: أن يفهم ما في جمع المال من الخطر، كما ذكرناه في آفات المال وما فيه من خوف السرقة والنهب والضياع، وما في خلو اليد من الأمن والفراغ

(١) في النسخ: (الأجر)، والمثبت من الإحياء.

(٢) في الأصل: (يشابهه)، ويساهمه، أي: يُشاركه.

وثواب الفقر، ويُتمم ذلك بأن ينظر أبداً إلى من هو دونه في الدنيا لا إلى من فوقه، فإن الشيطان أبداً يصرف نظر الآدمي إلى من فوقه في الدنيا ودونه في الدين، وقد أخبرنا ابنُ الحُصَيْن قال: أخبرنا ابنُ المذهب قال: أخبرنا أحمد بن جَعْفَر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الرزاق قال: حدثنا مَعْمَر عن هَمَّام بن مُنْبَه قال: حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نظر أحدكم إلى مَنْ فَضَّلَ اللهُ عليه في المال والخَلْق فلينظر إلى من هو أسفل منه مَمَّن فَضَّلَ اللهُ عليه». أخرجاه في الصحيحين، وفي لَفِظٍ: «انظُرُوا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم».

واعلم أنه مَنْ حقق العمل بهذه الأشياء قَدَرَ على اكتساب خُلُقِ القَنَاعَةِ، وعماد الأمر الصبر وقصر الأمل، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل لَتَمُتَّعِ دائماً، فيكون كالمريض الذي يصبر على مرارة الدواء لما يرجوه من الشفاء.

## بَيَانُ

## فضيلة السَّخَاءِ

ينبغي لمن فقد المال أن يستعمل القناعة والصبر، ولمن وجدته أن يستعمل السَّخَاءَ والإيثار واصطناع المعروف، فإن السَّخَاءَ من أخلاق الأنبياء، وهو أصل من أصول النجاة، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ<sup>(١)</sup> الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا. وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلْفًا».

وقد روى جابرٌ عن النبي ﷺ أنه قال: «قال جبريل: قال الله عز وجل: إِنَّ هَذَا دِينٌ - وفي لفظ: الإسلام دين - ارتَضَيْتُهُ لِنَفْسِي، وَلَنْ يُصْلِحَهُ إِلَّا السَّخَاءُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ، فَأَكْرَمُوهُ بِهِمَا مَا صَحَبْتُمُوهُ».

وروى جابر أيضاً عن النبي ﷺ أنه قيل له: أيّ الإيمان خير؟ قال: «الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ».

وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ، أنه قال: «تَجَافَوْا عَنِ ذَنْبِ السَّخِيِّ، فَإِنَّ اللَّهَ آخِذٌ بِيَدِهِ كَلِمًا عَثْرًا».

وروت عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «الجنة دار الأسخياء».

وما جُبِلَ وَلِيُّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا عَلَى السَّخَاءِ، وَالسَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ بَعِيدٌ عَنِ النَّارِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ، وَالْجَاهِلُ السَّخِيُّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْعَابِدِ الْبَخِيلِ، وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «السَّخَاءُ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ، فَمَنْ كَانَ سَخِيًّا أَخَذَ بَغْصِنٍ مِنْهَا فَلَمْ يَتْرَكْهُ

(١) في (ظ): (أصبح).

ذلك العُصن حتى يُدخله الجنة، والشَّح شَجْرَةٌ في النار، فمن كان شَحِيحاً أَخَذَ بِعُصْنِ مِنْهَا، فلم يتركه ذلك العُصن حتى يُدخله النار».

وروى أنسٌ عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ بُدْلَاءَ أُمَّتِي لَمْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِصَلَاةٍ وَلَا بِصِيَامٍ، وَلَكِنْ دَخَلُوهَا بِسَخَاءِ الْأَنْفُسِ وَسَلَامَةِ الصُّدُورِ وَالتُّصْحِ لِلْمُسْلِمِينَ».

وروى أبو سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنْ أَحَبَّ عِبَادُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى اللَّهِ مَنْ حُبَّ إِلَيْهِ الْمَعْرُوفَ وَحُبَّ إِلَيْهِ فَعَالَهُ، وَفِعْلُ الْمَعْرُوفِ يَتِي مَصَارِعَ الشُّوءِ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ لِلْمَعْرُوفِ وَجُوهًا مِنْ خَلْقِهِ، حَبَّبَ إِلَيْهِمُ الْمَعْرُوفَ، وَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ فَعَالَهُ، وَوَجَّهَ طُلَّابَ الْمَعْرُوفِ إِلَيْهِمْ، وَيَسَّرَ عَلَيْهِمْ إِعْطَاءَهُ، كَمَا يَسَّرُ<sup>(١)</sup> الْغَيْثَ إِلَى الْبَلَدَةِ الْجَدْبَةِ، فَيُحْيِيهَا وَيُحْيِي بِهَا أَهْلَهَا».

وروى ابنُ عباسٍ، عن النبي ﷺ أنه قال: «عَلَيْكُمْ بِاصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ، فَإِنَّهُ يَمْنَعُ مَصَارِعَ الشُّوءِ».

وروى عنه حُذَيْفَةُ أَنَّهُ قَالَ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ».

وروى عنه ابنُ عمر رضي الله عنهما أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَوْمًا يَخْتَصُّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ، وَيُقَرِّبُهُمْ فِيهِمْ مَا بَدَّلُوهَا، فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ فَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ».

وقال ابنُ السَّمَّانِ: عَجِبْتُ مِمَّنْ يَشْتَرِي الْمَمَالِيكَ بِمَالِهِ كَيْفَ لَا يَشْتَرِي الْأَحْرَارَ بِمَعْرُوفِهِ<sup>(٢)(٣)</sup>.

### حكايات عن الأشقياء

قد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه كان أجودَ بالخير من الريحِ المُرسلة<sup>(٤)</sup>، وأنه ما

(١) في (ظ): (يتيسر).

(٢) في (ظ): (به).

(٣) هنا نهاية نسخة الظاهرية المرموز لها بالحرف (ظ).

(٤) البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨).

سُئِلَ شَيْئاً قَطَ فَقَالَ: لَا<sup>(١)</sup>. وَأَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَأَتَى الرَّجُلُ قَوْمَهُ فَقَالَ: أَسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً مِنْ لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ<sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ مُوسَى بْنُ طَلْحَةَ: كَانَ لِعُثْمَانَ عَلَى طَلْحَةَ<sup>(٣)</sup> خَمْسُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَخَرَجَ يَوْمًا عُثْمَانُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَقَالَ لَهُ طَلْحَةُ: قَدْ تَهَيَّأَ مَالُكَ فَاقْبِضْهُ. فَقَالَ [عُثْمَانُ]: هُوَ لَكَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ مَعُونَةٌ عَلَى مُرُوءَتِكَ.

وَقَالَ طَلْحَةُ يَوْمًا: عِنْدِي مَالٌ قَدْ غَمَّنِي. فَكَسَمَهُ، وَكَانَ أَرْبَعَةَ مِائَةِ أَلْفٍ<sup>(٤)</sup>.

وَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى طَلْحَةَ فَسَأَلَهُ، وَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِرَحِمٍ، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ لَرَحِمٌ مَا سَأَلَنِي بِهَا أَحَدٌ قَبْلَكَ. فَأَعْطَاهُ ثَلَاثَ مِائَةِ أَلْفٍ<sup>(٥)</sup>.

وَقَالَ عُرْوَةُ<sup>(٦)</sup>: رَأَيْتُ عَائِشَةَ تَقْسِمُ سَبْعِينَ أَلْفًا، وَهِيَ تَرْقَعُ دِرْعَهَا<sup>(٧)</sup>. وَرَوَتْ أُمُّ ذَرَّةَ<sup>(٨)</sup>، أَنَّهُ بُعِثَ إِلَى عَائِشَةَ بِمَالٍ فِي غِرَارَتَيْنِ<sup>(٩)</sup>، ثَمَانِينَ وَمِئَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، فَدَعَتْ بِطَبْقِي، فَجَعَلَتْ تَقْسِمُهُ بَيْنَ النَّاسِ، فَلَمَّا أَمَسَتْ قَالَتْ لَجَارِيَتِهَا: يَا جَارِيَةَ، هَلُمَّيْ فَطُورِي. فَجَاءَتْهَا بِخُبْزٍ وَزَيْتٍ، فَقَالَتْ لَهَا أُمُّ ذَرَّةَ: مَا اسْتَطَعْتَ فِيمَا قَسَمْتَ الْيَوْمَ أَنْ تَشْتَرِي لَنَا بِدِرْهَمٍ لَحْمًا نُنْفِطِرُ عَلَيْهِ؟ فَقَالَتْ: لَوْ ذَكَرْتَنِي لَفَعَلْتَ.

(١) البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣١٢).

(٣) يعني طلحة بن عبيد الله القرشي أبو محمد التيمي، أحد العشرة المبشرين بالجنة. سير أعلام النبلاء ٢٣/١.

(٤) أخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ ٤٥٨/١، والطبراني في الكبير (٩٥) وأبو نعيم في الحلية ٨٨/١.

(٥) حلية الأولياء ٨٨/١، وسير أعلام النبلاء ٣١/١١.

(٦) هو عروة بن الزبير بن العوام الأسدي أبو عبد الله، من كبار التابعين، توفي سنة ٩٤هـ. السير ٤٢١/٤.

(٧) درع المرأة: قميصها.

(٨) هي أم ذرة المدينة، مولاة عائشة رضي الله عنها.

(٩) الغرارة: وعاء يستعمل للتبن وغيره، والجمع غرائر.

واشترى عبدُ الله بنُ عامرٍ من خالدِ بنِ عَقبَةَ دارَه التي في السوقِ بتسعينَ ألفِ درهمٍ، فلما كان الليلُ، سَمِعَ بُكاءَ أهلِ خالدٍ، فقال لأهله: ما لهؤلاءِ؟ قالوا: يكونُ على دارهم<sup>(١)</sup>. قال: يا غلام، إيتهم فأعلمهم أن المالَ والدارَ لهم جميعاً.

ورأى عُبَيْدُ اللهِ بنُ أَبِي بكرةٍ على أَبِي الأسودِ الدُّؤلي جُبَّةً رَثَّةً، فقال: أما تَمَلُّ هذه الجُبَّةَ؟ فقال: رَبِّ مَمْلُولٍ لا يُسْتَطَاعُ فِرَاقُهُ. فبعثَ إليه مئةَ ثوبٍ.

وبعثَ رجلٌ<sup>(٢)</sup> إلى عُبَيْدِ اللهِ: إنه قد وُصِفَ لي لبُنُ البقرِ، فابعثَ إليَّ بقرَةً أَشْرَبُ مِنْ لَبْنِهَا. فبعثَ إليه سبعَ مئةِ بقرَةٍ ورعاتِها، وقال: القريةُ التي كانت ترعى فيها لك.

ودخل عليُّ بنُ الحُسينِ على محمد بنِ أسامةِ بنِ زَيْدٍ في مرضه، فجعل يبكي، فقال: ما شأنك؟ قال: عليّ دينٌ. قال: كم هو؟ قال: خمسةَ عشرَ ألفَ دينارٍ. أو: بضعةَ عشرَ ألفَ دينارٍ. قال: فهي عليّ<sup>(٣)</sup>.

وقال عبدُ الله بنُ سلمة: سألَ رجلٌ في مَسْجِدِنا، وللمسجدِ بابان، فقام رجلٌ مِنّا فقال: من خرجَ من هذا البابِ فعليه خمسُ مئةِ درهمٍ، ومن خرجَ من هذا البابِ فعليه ثلاثُ مئةِ درهمٍ. فازدَحَمَ الناسُ على بابِ الخمسِ مئةِ درهمٍ.

أنبأنا يحيى بنُ الحسنِ<sup>(٤)</sup> بنُ البناءِ، قال: أخبرنا أبو الحسينِ<sup>(٥)</sup> محمد بنُ أحمد [ابن] الأبنوسي، قال: أخبرنا الدارقطني، قال: أخبرنا أبو بكر ابنُ الأنباري قال: حدثنا أبي قال: حدثنا أبو عكرمةَ الصَّبِّي، قال: حدثنا سليمان بنُ أبي شَيْخٍ، قال: حدثنا الواقدِي، قال: أَضَقْتُ<sup>(٦)</sup> مرةً، وأنا مع يحيى بنِ خالدِ البَرْمَكِي،

(١) تحرفت في الأصل إلى: (دراهم).

(٢) هو المهلبُ بنُ أبي صُفرة كما في سير أعلام النبلاء ١٣٨/٤.

(٣) حلية الأولياء ١٤١/٣.

(٤) تحرف في الأصل إلى: (الحسين).

(٥) تحرف في الأصل إلى: (الحسن).

(٦) في الأصل: (ضقت). وأضاق الرجل: ذهب ماله وأصابته ضائقة.

وحضرَ عيدٌ، وجاءتني جاريةٌ، فقالت: قد حضرَ العيدُ، وليسَ عندنا من آتته شيءٌ. فمضيتُ إلى صديقٍ لي من التُّجارِ، فعرفُّته حاجتي إلى القرضِ، فأخرجَ كيساً مختوماً، فيه ألفٌ ومِئتا درهم، فأخذته، وانصرفتُ إلى منزلي، فما استقررتُ فيه حتى جاءني صديقٌ لي هاشميٌّ، فشكا إليَّ تأخُّرَ غلَّتِهِ، وحاجَّتَهُ إلى القرضِ، فدخلتُ إلى زوجتي وأخبرتها، فقالت: على أيِّ شيءٍ عزمتَ؟ قلتُ على أن أقاسمه الكيسَ. فقالت: ما صنعتَ شيئاً، أتيتَ رجلاً سوقاً<sup>(١)</sup>، فأعطاك ألفاً ومِئتي درهم، وجاءك رجلٌ، وله من رسولِ الله ﷺ رحمٌ مائةٌ، تُعطيه نصفَ ما أعطاك السوقُ؟ ما هذا شيئاً، أعطه الكيسَ كُلَّهُ. فأخرجتُ الكيسَ، فدفعتُهُ إليه، ومضى صديقي التاجر إلى الهاشمي، وكان له صديقاً، فسأله القرضَ، فأخرجَ الهاشميُّ إليه الكيسَ، فلمَّا رأى خاتمَهُ عرفَهُ، وانصرفَ إليَّ فخبَّرني بالأمر، وجاءني رسولُ يحيى ابنِ خالد، فركبتُ إليه، فأخبرتهُ بخبرِ الكيسِ، فقال: يا غلام، هاتِ تلكَ الدنانيرَ، فجاءه بعشرةِ آلافِ دينارٍ، فقال: خذُ ألفي دينارٍ لك، وألفين لصديقك التاجر، وألفين للهاشمي، وأربعةِ آلافٍ لزوجتك، فإنها أكرمُكم<sup>(٢)</sup>.

أخبرنا أبو منصور القزاز، قال: حدثنا أبو بكر بنُ ثابت، قال: أخبرنا الحسنُ ابنُ محمدِ النَّصِيبِي، قال: أخبرنا إسماعيلُ بنُ سَعِيدِ المُعَدَّل، قال: أخبرنا ابنُ دُرَيْد، قال: أخبرنا أبو مُعَاذِ المُوَدَّب، قال: أخبرنا أبو عُثْمَانَ المازني، قال: حَدَّثَنِي صَاحِبُ شُرْطَةِ مَعْن<sup>(٣)</sup>، قال: بينما أنا على رأسِ مَعْن، إذا هو براكِبٍ يُوضِعُ<sup>(٤)</sup>، فقال لحاجبه: لا تحجبه. فجاء حتَّى مثل بين يديه، فقال:

أصلحك اللهُ قَلَّ ما بيدي      فما أطيقتُ العِيالَ إذ كَثُرُوا  
ألحَّ دَهْرٌ رَمَى بِكُلِّكِلِهِ      فأرسلوني إليك وانتظروا

(١) السوقة: الرعية وعامة الناس.

(٢) تاريخ بغداد ١٩/٣ - ٢٠.

(٣) هو مَعْن بن زائدة بن مطر، من الأسخياء المشهورين، كان والياً على اليمن ثم سجستان ثم البصرة، قتله الخوارج سنة ١٥٢هـ. السير ٩٧/٧.

(٤) أوضع الراكب الدابة: حملها على السير السريع،

فقال معن - وأخذته أريحية<sup>(١)</sup>: لا جرم - والله - لأعجلنَّ أوبتك. ثم قال: يا غلام، ناقتي الفلانية، وألف دينار. فدفعتها إليه وهو لا يعرفه.

وبلغنا عن معن، أن شاعراً أقام ببابه مدةً، فلم يتهياً له لقاءه، فقال لبعض خدمه: إذا دخل الأمير البستان فعرّفني. فلما دخل أعلمه، فكتب الشاعر بيتاً على خشبة، وألقاها في الماء الذي يدخل بستان معن، فلما بصّر معن، بالخشبة أخذها، فإذا عليها مكتوب:

أيا جود معنٍ ناجٍ معناً بحاجتي فمالي إلى معنٍ سواك شفيحُ  
فقال: من صاحب هذه؟ فدعي الرجل فقال له: كيف قلت؟ فقال، فأمر له بعشر بدر<sup>(٢)</sup>، فأخذها، ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه، فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط، وقرأ ما فيها، ودعا بالرجل، فدفَع إليه مئة ألف درهم، فلما أخذها الرجل خاف أن يعود فيستعيدها منه، فخرج، فلما كان في اليوم الثالث، قرأ ما فيها، ودعا بالرجل، فطلب، فلم يوجد، فقال معن: حق علي أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار.

ومرض قيس بن سعد بن عبادة، فاستبظاً إخوانه، فقليل له: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: أخزى الله ما لا يمنع الإخوان من الزيارة. ثم أمر مُنادياً فنادى: من كان عليه لقيسٍ حقٌّ فهو منه في حلٍّ. قال: فكسرت درجته بالعشي لكثرة من عادته.

وقام رجل إلى سعيد بن العاص فسأله: فأمر له بمئة ألف درهم فبكي، فقال سعيد: ما يبكيك؟ قال: أبكي على الأرض أن تأكل مثلك. فأمر له بمئة ألف أخرى.

(١) أخذته أريحية: أي خفة وهشة، وارتاح للندی والكرم.

(٢) بدر: جمع بكرة، وهي كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار.

## بيان

### ذم البخل

قال الله عزَّ وجل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ سَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْفَيْكَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠] وقال: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ [النساء: ٣٧].

وروى أبو سعيد، عن النبي ﷺ أنه قال: «خَصَلَتَانِ لَا تَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ؛ الْبُخْلُ، وَسَوْءُ الْخُلُقِ»<sup>(١)</sup> و[قال ﷺ]<sup>(٢)</sup>: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَسْأَلُنِي الْمَسْأَلَةَ، فَأُعْطِيهَا إِيَّاهُ، فَيَخْرُجُ مُتَأَبِّطُهَا، وَمَا هِيَ لَهُ إِلَّا نَارٌ». فقال عمر: يا رسول الله فلم تعطهم؟ قال: «إِنَّهُمْ يَأْبُونَ إِلَّا أَنْ يَسْأَلُونِي، وَيَأْبَى اللَّهُ لِي الْبُخْلَ»<sup>(٣)</sup>. وقال ﷺ: «لَا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبٍ عَبْدٍ أَبَدًا»<sup>(٤)</sup>.

وفي أفراد مسلم من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «اتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»<sup>(٥)</sup>.

(١) حديث حسن، أخرجه الطيالسي (٢٢٠٨) وعبد بن حميد في المنتخب (٩٩٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٨٢)، والترمذي (١٩٦٢)، وأبو يعلى (١٣٢٨) والخرائطي في مساوي الأخلاق (٩) و(٣٦٩)، وأبو نعيم في الحلية ٢/٢٥٨ و٣٨٨، والقضاعى في مسند الشهاب (٣١٩)، والبيهقى في الشعب (٨٠١٨) و(١٠٨٣٠)، والخطيب في البخلاء (٤٠)، والطبري في تهذيب الآثار (١٦٥) مسند عمر.

(٢) ما بين معقوفين ليس في الأصل، ولا بد منه، فهما حديثان لا حديث واحد.

(٣) أخرجه أحمد (١٢٧) و(٢٣٤)، ومسلم (١٠٥٦) (١٢٧) من حديث عمر رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (١١٠٠٤) و(١١١٢٣) و(١١١٢٤)، والبخاري (٩٢٤) في الكشف، وأبو يعلى (١٣٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (٧٤٨٠) و(٨٤٧٩)، والطيالسي (٢٤٦١)، وسعيد بن منصور (٢٤٠١) و(٢٤٠٢)، وابن أبي شيبة ٥/٣٣٤، و٩/٩٧، وهناد في الزهد (٤٧٦)، والبخاري في

الأدب المفرد (٢٨١) وفي التاريخ الكبير ٤/٣٠٧، من حديث أبي هريرة.

(٥) أخرجه مسلم (٢٥٧٨).

وفي أفراد مسلم من حديث زيد بن أرقم، عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ»<sup>(١)</sup>.

أنبأنا أحمد بن أحمد<sup>(٢)</sup> المتوكلي، قال: أخبرنا أحمد بن علي بن ثابت، قال: أخبرنا ابن بشران، قال: حدثنا ابن صفوان، قال: حدثنا أبو بكر القرشي، قال: حدثنا سلمة بن شبيب، قال: حدثنا مروان بن محمد، عن ابن لهيعة، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول الله ﷺ: «نَجَّى أَوَّلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْيَقِينُ وَالزُّهْدُ، وَيُهْلِكُ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْبُخْلُ وَالْأَمَلُ»<sup>(٣)</sup>.

وروى جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال لبني سلمة: «يا بني سلمة، من سيّدكم؟» قالوا: جدُّ بن قيس، على أننا نبخله. قال: «وأيُّ داءٍ أدوأ من البُخل؟! بل سيّدكم الأبيض عمرو بن الجموح»<sup>(٤)</sup>.

وفي رواية أخرى: «بل سيّدكم بشر بن البراء بن معرور»<sup>(٥)</sup> وهي أصح من ذكر عمرو بن الجموح، وغلظ بعض الرواة فقال: البراء بن معرور<sup>(٦)</sup>. والبراء مات قبل هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة.

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢).

(٢) في الأصل: (محمد)، والتصويب من السير ٤٩٨/١٩.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في اليقين (٣)، والطبراني في الأوسط (٧٦٤٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٨٤٤) و(١٠٨٤٥).

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٩٠٨)، وأبو الشيخ في الأمثال (٩١)، (٩٢)، (٩٣) والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٦)، والبخاري (٢٧٠٥) كشف الأستار، وأبو نعيم في الحلية ٣١٧/٧، والقضاعي في مسند الشهاب (٢٨٦) و(٢٨٧) والبيهقي في الشعب (١٠٨٥٧) و(١٠٨٥٩) و(١٠٨٦٠).

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ٢/ (١٢٠٣)، وابن عدي في الكامل ٤/ ٤٥٩، والحاكم ٣/ ٢١٩ و٤/ ١٦٣، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان ٢/ ٢٥١، والبيهقي في الشعب (١٠٨٥٦).

(٦) أخرجه أبو الشيخ في الأمثال (٩٤) عن أبي هريرة. وأخرجه البيهقي في الشعب (١٠٨٥٨) عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك مرسلًا.

قال أبو محمد الرّامهرمزي<sup>(١)</sup>: «إِنَّمَا يُشَبَّهُ الْبَخْلُ بِالذَّاءِ لِأَنَّهُ يُفْسِدُ الْخُلُقَ، وَيَدْفَعُ عَنِ السُّؤْدُدِ، وَيُكْسِبُ سُوءَ الثَّنَاءِ وَالْمَذْمَةَ، كَمَا أَنَّ الذَّاءَ يُضْعِفُ الْجِسْمَ، وَيُبْطِلُ الشَّهْوَةَ، وَيَغَيِّرُ اللَّوْنَ، ثُمَّ إِنَّ الْبَخِيلَ إِذَا أَنْفَقَ أَلِمَ كَمَا يَأْلَمُ صَاحِبُ الذَّاءِ. وَقَدْ قَالَ الْحُكَمَاءُ: الْكَرِيمُ حَرٌّ لِأَنَّهُ يَمْلِكُ مَالَهُ، وَالْبَخِيلُ لَا يَسْتَحِقُّ اسْمَ الْحَرِّيَّةِ، لِأَنَّ مَالَهُ يَمْلِكُهُ.

وقد روينا عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَخِيلٌ»<sup>(٢)</sup>.

وقال ﷺ: «ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهُوَ مَتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ»<sup>(٣)</sup>.

قال الخطّابي: الشُّحُّ أبلغ في المنع من البُخْلِ، وإنَّما الشُّحُّ بمنزلة الجِنسِ، والبُخْلُ بمنزلة النوعِ، فالبُخْلُ في أفراد الأمورِ، والشُّحُّ عامٌّ، وهو كالوصفِ اللازم للإنسانِ من قِبَلِ الطَّبَعِ وَالجِبِلَّةِ.

وقال بعضهم: البُخْلُ أَنْ يَضَنَّ بِمَالِهِ، وَالشُّحُّ أَنْ يَبْخَلَ بِمَالِهِ وَمَعْرُوفِهِ.

وروى أبو الدرداء، عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ قَطُّ إِلَّا بَعَثَ اللَّهُ بِجَنبَتَيْهَا»<sup>(٤)</sup> مَلَكَينِ يُنَادِيَانِ، يُسَمِعَانِ الْخَلَائِقَ كُلَّهَا غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ: اللَّهُمَّ عَجِّلْ لِمَنْفِقِ خَلْفًا، وَأَعْطِ مُمَسَكًا تَلْفًا»<sup>(٥)</sup>.

(١) هو أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الفارسي، الحافظ المحدث، صنف كتاب (المحدث الفاصل بين الراوي والواعي) و(النوادر) و(أدب الناطق) وغيرها. توفي نحو سنة ٣٦٠هـ. بمدينة رامهرمز من بلاد فارس. السير ٧٣/١٦.

(٢) أخرجه أحمد (١٣) و(٣٢)، والترمذي (١٩٦٣) والمروزي في مسند أبي بكر (٩٨)، وأبو يعلى (٩٥)، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٣٥٥) و(٣٥٦) و(٧١٩) و(٧٢٠) والبيهقي في الشعب (١٠٨٦٢) والخطيب في البخلاء (٥٠) و(٥١) من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الخرائطي في مساوئ الأخلاق (٣٦٢)، والطبراني في الأوسط (٥٤٤٨) وأبو نعيم في الحلية ٣٤٣/٢، والقضاعي في مسند الشهاب (٣٢٥) - (٣٢٧) والبيهقي في الشعب (٧٤٥) وابن عبد البر في جامع بيان العلم ١/١٤٣، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) في الأصل: (بجنتيها) والمثبت من مصادر التخريج.

(٥) أخرجه أحمد (٢١٧٢١)، والطيالسي (٩٧٩)، وابن حبان (٦٨٦)، و(٣٣٢٩)، والحاكم ٤٤٥/٢، وأبو نعيم في الحلية ٢/٢٣٣ والقضاعي في مسند الشهاب (٨١٠)، والبيهقي في الشعب (٣٤١٢) و(١٠٣٧٣)، والبغوي في شرح السنة (٤٠٤٥).

وروت عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «السَّخِيُّ الجَهُولُ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ الْعَابِدِ الْبَخِيلِ»<sup>(١)</sup>.

وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ غَرَسَ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ وَزَخَّرَهَا وَقَالَ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا يُجَاوِرُنِي فِيكَ بَخِيلٌ»<sup>(٢)</sup>.

وقال سلمان الفارسي: إِذَا مَاتَ السَّخِيُّ قَالَتِ الْأَرْضُ وَالْحَفْظَةُ<sup>(٣)</sup>: رَبِّ تَجَاوَزْ عَنْ عَبْدِكَ بِسَخَائِهِ فِي الدُّنْيَا. وَإِذَا مَاتَ الْبَخِيلُ قَالَتْ: اللَّهُمَّ احْبُبْ هَذَا الْعَبْدَ عَنِ الْجَنَّةِ، كَمَا حَبَبَ عَبْدَكَ عَمَّا جَعَلْتَ فِي يَدَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا<sup>(٤)</sup>.

وقالت أُمُّ الْبَنِينِ أُحْتُ عَمْرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ: أَفَّ لِلْبَخْلِ، لَوْ كَانَ قَمِيصًا مَا لَبَسْتُهُ، أَوْ طَرِيقًا مَا سَلَكَتُهُ<sup>(٥)</sup>.

وقال أبو حنيفة: لَا أَرَى أَنْ أُعَدَّلَ بِخِيَلًا؛ لِأَنَّ الْبُخْلَ يَحْمِلُهُ عَلَى الْإِسْتِقْصَاءِ، فَيَأْخُذُ فَوْقَ حَقِّهِ خَيْفَةً أَنْ يُعْبَنَ.

وقال ابن المَعْتَزِ: أَبْخَلُ النَّاسِ بِمَالِهِ أَجْوَدُهُمْ بِعَرَضِهِ.

وقال بعض الحكماء: مَنْ كَانَ بِخِيَلًا وَرَثَ مَالَهُ عَدُوَّهُ.

ووصف أعرابي رجلاً فقال: لَقَدْ صَغُرَ فِي عَيْنِي لِعِظَمِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ، وَذَمَّ أَعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ: يَصُومُونَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيُقَطِّرُونَ عَلَى الْفَوَاحِشِ.

### حكايات عن البخلاء

روى أبو صالح عن ابن عباس قال: كَانَ الْحُبَّاحِبُ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ، وَكَانَ بِخِيَلًا، فَكَانَ لَا يُوقِدُ نَارًا بَلِيلٍ؛ كِرَاهِيَةً أَنْ يَرَاهَا رَأً فَيَنْتَفِعَ بِضَوئِهَا، فَإِذَا احتَاجَ إِلَى إِيقَادِهَا أَوْقَدَهَا، فَإِذَا بَصُرَ بِمَسْتَضِيءٍ بِهَا أَطْفَأَهَا.

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ١١٩/٤، والخطيب في البخلاء (٣٨).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ١٢/١٢٧٢٣، والأوسط (٥٥١٤).

(٣) الحَفْظَةُ: الملائكة الموكلون بالعباد يُحصون أعمالهم.

(٤) أخرجه الخطيب في البخلاء (٥٨) بإسناد ساقط.

(٥) أخرجه الخطيب في البخلاء (٩٢).

أَبَانَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْهَاشِمِيُّ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ ثَابِتٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيُّ فِي كِتَابِهِ إِلَيَّ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو جَعْفَرٍ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْخَزَّازُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بَحْرِ بْنِ طَيْفُورٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَمْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ، قَالَ: حَدَّثَنَا نَاجِيَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَصْرِيُّ، قَالَ: كَانَ عِنْدَنَا بِالْبَصْرَةِ رَجُلٌ مُوسِرٌ، وَكَانَ بَخِيلًا، فَدَعَاهُ بَعْضُ جِيرَانِهِ، فَوَضَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ طَبَاهِجَةً<sup>(١)</sup> بَيْضَ، فَأَكَلَ فَأَكْثَرَ، وَجَعَلَ يَشْرَبُ الْمَاءَ، فَانْتَفَخَ بَطْنُهُ، وَنَزَلَ بِهِ الْكَرْبُ وَالْمَوْتُ، فَجَعَلَ يَتَلَوَّى، فَلَمَّا أَجْهَدَهُ الْأَمْرُ، وَخَافَ الْمَوْتَ عَلَى نَفْسِهِ، بَعَثَ إِلَى جَارِهِ لَهُ مُتَطَبِّبٌ<sup>(٢)</sup>، فَدَخَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَا حَالُكَ؟ قَالَ: أَكَلْتُ طَبَاهِجَةً بَيْضَ، وَشَرَبْتُ مَاءً كَثِيرًا، وَقَدْ نَزَلَ بِي الْمَوْتُ. قَالَ: فَلَا بَأْسَ عَلَيْكَ، قُمْ فَتَقَيًّا مَا أَكَلْتَ، وَقَدْ شُفِيتَ. فَقَالَ: هَاهَا! أَتَقَيًّا طَبَاهِجَةً بَيْضَ؟! أَمَوْتُ، وَلَا أَتَقَيًّا طَبَاهِجَةً بَيْضَ أَبَدًا<sup>(٣)</sup>.

أَبَانَا أَحْمَدُ بْنُ أَحْمَدَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ الْخَطِيبُ، قَالَ: قَرَأْتُ عَلَى الْجَوْهَرِيِّ، عَنْ أَبِي عُبَيْدِ اللَّهِ<sup>(٤)</sup> الْمَرْزُبَانِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي يَوْسُفُ بْنُ يَحْيَى بْنِ عَلِيِّ ابْنِ الْمُنَجِّمِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ مَهْرُويَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ النَّوْفَلِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: كَانَ مَرُوانُ بْنُ أَبِي حَفْصَةَ لَا يَأْكُلُ اللَّحْمَ حَتَّى يَقْرَمَ<sup>(٥)</sup> إِلَيْهِ، فَإِذَا قَرِمَ أَرْسَلَ غُلامَهُ، فَاشْتَرَى لَهُ رَأْسًا، فَأَكَلَهُ، فَقِيلَ لَهُ: نَرَاكَ لَا تَأْكُلُ إِلَّا الرُّؤُوسَ فِي الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ، فَلَمْ تَخْتَارْ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، الرَّأْسُ أَعْرَفُ سَعْرَهُ، فَامِنْ خِيَانَةِ الْغُلامِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَغْنِنَنِي فِيهِ، وَلَيْسَ بِلَحْمٍ فَيَطْبُخُهُ، فَيَقْدَرُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ، إِنْ مَسَّ عَيْنًا أَوْ أُذُنًا أَوْ خَدًّا وَقَفْتُ عَلَى ذَلِكَ، وَأَكَلْتُ مِنْهُ أَلْوَانًا، أَكَلْتُ

(١) الطَّباهجة: اللحم المشرَّح.

(٢) أي يتعاطى علم الطب.

(٣) البخلاء للخطيب البغدادي (٩٣).

(٤) في الأصل: (عبد الله) والتصويب من السير ٤٤٧/١٦.

(٥) يقرم: أي تشد شهوته لأكل اللحم.

منه عينيه لونا، وأذنيه لونا، وغلصمته<sup>(١)</sup> لونا، ودماغه لونا، وأكفى مؤنة طبخه، فقد اجتمعت لي فيه مرافق<sup>(٢)</sup>.

قال المرزباني: وأخبرني أحمد بن عيسى الكرجي، قال: حدثنا أبو العيناء محمد بن القاسم، قال: كان مروان بن أبي حفصة من أبخل الناس، خرج يريد المهدي، فقالت له امرأة من أهله: مالي عليك إن رجعت بالجائزة؟ قال: إن أعطيت مئة ألف درهم أعطيتك درهماً. فأعطي ستين ألف درهم، فأعطاها أربعة دوانيق<sup>(٣)</sup>.

أنبأنا أحمد قال: حدثنا أبو بكر، قال: أخبرنا الحسن بن علي العطار، قال: أخبرنا أبو الحسن محمد بن جعفر التميمي، قال: حدثنا أبو القاسم السكوني، قال: حدثني الحسين بن محمد، قال: حدثني يوسف بن تميم، قال: حدثنا بعض شباب أهل البصرة، أن رجلاً موبراً كثيراً المال كان ينظر في دقائق الأشياء، فاشترى حوائج له، ودعى حملاً، فقال: بكم تحمل هذه الحوائج؟ قال: بحبة<sup>(٤)</sup>. قال: أحسن<sup>(٥)</sup>. قال: أقل من حبة؟ لا أدري ما أقول. قال: نشري بالحبة جزراً، فنجلس جميعاً فنأكله<sup>(٦)</sup>.

أنبأنا محمد بن أبي طاهر، قال: حدثنا القاضي أبو القاسم التنوخي، قال: أخبرني أبي، أن أبا عبد الله محمد بن أحمد العسكري حدثه، قال: كنت أكتب لأبي أحمد ابن فادويه الأهوازي - وكان من أبخل من رأيت - على شيء من المأكولات، وكان يحسني عنده للأكل، فأجلس معه على الطعام، ولا أكل كثير شيء، فاحتبسن يوماً وعنده جماعة، فأكلوا، وجريت على عادتي في التفتير، وكان

(١) الغلصمة: اللحم بين الرأس والعنق.

(٢) البخلاء للخطيب (١١٧).

(٣) الدوانيق: جمع دائق، وهو سدس الدرهم. و القصة في البخلاء للخطيب (١١٩).

(٤) الحبة: سدس ثمن الدرهم، أي جزء من ثمانية وأربعين جزءاً من الدرهم.

(٥) أي: يريد عرضاً أحسن من هذا.

(٦) البخلاء للخطيب (١٣٣).

قد قدّم في بعض الطعام أرزاً، وجدياً مسويّاً، ولونين من أطرافه، وسقطيّة، فلمّا فرغنا من ذلك أقبل غلامه، وعلى يده طيفوريّة فيها الجدّي، فأقبل هو علينا، فقال: أمّا أنا فقد شبعْتُ، ولم يبقَ فيّ فضلٌ، فما تقولونَ أنتم؟ فقلتُ أنا: أمّا أنا فقد شبعْتُ. فقالت الجماعة كقولي. فقال: فيجعلُ الجدّي لِعَدٍ، ونأكلُهُ مُبرِّداً. فقلتُ: هذا هو الصواب. فقال: ما أظنُّكم إلّا وفيكم فضلةٌ للأكلِ، وإنّما قلتم أنكم قد شبعتمُ مُساعِدةً لي. فقلتُ: لا والله يا سيّدي، ما فيّ فضلٌ. فقال للذي يليني: ما تقول؟ فقال: ما فيّ فضلٌ. فقال: لو كنتَ شبعاناً لحلفتَ كما حلفَ أبو عبد الله. فحلفَ الرجلُ أنّه شبعانٌ،<sup>(١)</sup> فقال للآخر الذي بجانبه، فحلفَ، فلم يزل يَسْتَقْرِي واحداً واحداً، ويحلفُ أنّه شبعانٌ<sup>(٢)</sup>، ومن لم يحلفَ قال له: لو كنتَ شبعاناً لحلفتَ. فيحلفُ الرجلُ، فلمّا استوثقَ من جماعتنا بالأيمانِ، وثلجَ صدره<sup>(٣)</sup> أنّه لا حيلةَ لأحدٍ مِنّا في الأكلِ، قال: أمّا أنا فقد تَبَبَعْتُ نَفْسِي أَكَلَ شَحْمَ كُلاهُ حارّاً. فقلنا له: كُلْ، هَتَأَكَ اللهُ. فقال: يا غلام، ضَع الطيفوريّة فتركتَ بينَ يَدَيْهِ، فأكلَ أكثرَ الجدّي وحده، وأمرَ برفعِ باقيه وحفظه<sup>(٣)</sup>.

(١-١) ليس في الأصل، واستدرك من كتاب البخلاء للخطيب البغدادي.

(٢) في الأصل: (ثلج في صدره)، والمثبت من البخلاء، وثلج صدره: أي اطمأن.

(٣) البخلاء للخطيب (٢٢٧).

## بيان

### الإيثار وفضله

اعلم أن السخاء والبخل درجات، فأرفع درجات السخاء هو الإيثار، وهو أن تجود بالمال مع الحاجة إليه، وإنما السخاء بذل ما لا يحتاج إليه لمحتاج أو غير محتاج، والبذل مع الحاجة أشد، وكما أن السخاء قد ينتهي إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع الاحتياج، فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة، فكم من بخيل يمسك المال، ويمرض فلا يتداوي، ويستهي الشهوة فلا يمنعه منها إلا البخل بالثمن، فكم بين من يبخل على نفسه مع الحاجة وبين من يؤثر على نفسه، فالأخلاق عطايا يضعها الله تعالى حيث يشاء، وليس بعد الإيثار درجة في السخاء، وقد أثنى الله عز وجل على أصحاب رسول الله ﷺ بالإيثار فقال: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

أخبرنا عبد الأول بن عيسى، قال: حدثنا الداودي، قال: أخبرنا ابن أعمير، قال: حدثنا الفربري قال: حدثنا البخاري، قال: حدثنا مسدد، قال: حدثنا عبد الله بن داود، عن فضيل بن غزوان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فبعث إلى نساءه، فقلن: ما عندنا<sup>(١)</sup> إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ: «من يضم - أو يضيف - هذا؟». فقال رجل من الأنصار: أنا. فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ. فقالت: ما عندنا إلا قوت الصبيان<sup>(٢)</sup>. فقال: هيئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء. فهيات طعامها، وأصبحت<sup>(٣)</sup> سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها

(١) هكذا في الأصل، وفي البخاري: (ما معنا).

(٢) في البخاري: (صبيان).

(٣) في الأصل: (أصلحت) والمثبت من البخاري، وأصبحت: أوقدت وأشعلت.

تُصْلِحُ سِرَاجَهَا، فَأَطْفَأَتْهُ، فَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ. فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «صَحَّكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ - أَوْ: عَجِبَ - مِنْ فَعَالِكُمَا». فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. أخرجاه في الصحيحين<sup>(١)</sup>.

أخبرنا عبدُ الأوَّلِ ومحمَّدُ بنُ ناصرٍ، قالا: أخبرنا أبو الحسين بنُ عبدِ الجبَّارِ، قال: أخبرنا أبو محمَّد الجوهريُّ، قال: أخبرنا أبو عمر بنُ حيَّوية، قال: حدثنا أبو بكر ابنُ الأنباريُّ، قال: حدثني أحمدُ بنُ عبيد، عن ابنِ الأعرابيِّ، قال: استشهد باليرموك عكرمةُ بنُ أبي جهل، وسهيلُ بنُ عمرو، والحارثُ بنُ هشام رضي الله عنهم، وجماعةٌ من بني المغيرة، فأثوا بماءٍ وهم صرعى، فتدافعوه حتى ماتوا، ولم يذوقوه، أتت عكرمةُ بالماء، فنظر إلى سهيلِ بنِ عمرو ينظرُ إليه، فقال: ابدؤوا بهذا. فنظر سهيلُ إلى الحارثِ بنِ هشام ينظرُ إليه، فقال: ابدؤوا بهذا، فماتوا كلُّهم قَبْلَ أَنْ يَشْرَبُوا، فمرَّ بهم خالدُ بنُ الوليد، فقال: بنفسي أنتم.

وأهدى إلى رجلٍ من الصحابةِ رأسُ شاةٍ، فقال: إِنَّ أَخِي أَحْوَجُ إِلَيْهِ مِنِّي. فبعثَ به إليه، فبعثَ به ذلك إلى آخر، حتى تداوَّله سبعةُ أبياتٍ، فرجعَ إلى الأوَّلِ.

وخرجَ عبدُ الله بنُ جعفرٍ إلى ضيعةٍ له، فنزلَ على نخلٍ لقوم، وفيها غلامٌ أسود يعمل فيها، إذ أتت الغلامُ بقوته، ودخلَ الحائطَ كلبٌ، فدنا من الغلام، فرمى إليه الغلامُ قرصاً فأكله، ثم رمى إليه الثاني والثالث فأكله، وعبدُ الله ينظرُ، فقال: يا غلامُ، كم قوتك كلَّ يوم؟ قال: ما رأيت. قال<sup>(٢)</sup>: فلم آثرتَ به هذا الكلب؟ قال: ما هي بأرضِ كلابٍ، إنه جاء من مسافةٍ بعيدةٍ جائعاً، فكرهتُ رده. فقال: وما أنتَ صانع؟ قال: أطوي<sup>(٣)</sup> يومي هذا. فقال عبدُ الله بنُ جعفرٍ: ألامُ على السخاء؟! وهذا أسخى مِنِّي. فاشترى الغلامَ والحائطَ وما فيه من الآلات، وأعتقَ الغلامَ، ووهبه له.

(١) أخرجه البخاري (٣٧٩٨)، ومسلم (٢٠٥٤).

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) أطوي: أي أظل خالي البطن جائعاً بلا طعام.

واجتمع جماعة من الفقراء في موضع لهم، وبين أيديهم أرغفة معدودة لا تكفيهم، فكسروا الرغفان، وأطفؤوا السراج، وجلسوا للأكل، فلما رفع الطعام إذا هو بحاله، ولم يأكل أحد منهم شيئاً إيثاراً لأصحابه.

## بيان

### حدّ السخاءِ والبخلِ وحققتهما

قد ذهب قومٌ إلى أنّ حدّ البخلِ منع الواجبِ، وأنّ من أدّى ما يجبُ عليه فليس ببخيل. وهذا غيرُ كافٍ، فإنّ من يُسلمُ إلى عياله القدرَ الَّذي يفرضُه الحاكمُ، ثمّ يُضايقُهُم في زيادةِ اللقمةِ والتمرّةِ، فإنّه معدودٌ من البخلاءِ.

وقال قومٌ: البخيلُ الَّذي يَسْتَصِعِبُ العطاءَ. وهذا أيضاً قاصرٌ، فإنّه إن أُريدَ أنّه يَسْتَصِعِبُ كُلَّ عَطِيَّةٍ، فكم من بخيلٍ لا يَسْتَصِعِبُ العطيةَ القليلةَ كالحبّةِ، ويَسْتَصِعِبُ ما فوقها. ومتى أُريدَ بهذا أنّه يَسْتَصِعِبُ بعضَ العطايا، فما من جوادٍ إلا وقد يَسْتَصِعِبُ بذلَ المالِ العظيمِ، وهذا لا يوجبُ الحُكْمَ بالبخلِ.

وكذلك تكلموا في الجودِ، فقال قومٌ: هو عطاءٌ بلا منٍّ. وقيل: عطاءٌ من غيرِ مسألةٍ. وقيل: هو الفرحُ بالعطاءِ، والسّرورُ بالسائلِ. وقيل: من أعطى بعضَ مالِهِ فهو سخّيٌّ، ومن أعطى الأكثرَ فهو جوادٌ، ومن آثرَ بالبلغةِ<sup>(١)</sup> فهو مؤثرٌ، ومن لم يبدلَ شيئاً فهو بخيلٌ.

وهذا المذكورُ كلّهُ لا يُحيطُ بحقيقةِ البخلِ والجودِ، لكنّا نقول: المالُ إنّما خُلِقَ لِحِكْمَةٍ وَمَقْصُودٍ، وهو صلاحُه لحاجاتِ الخلقِ، ويُمكنُ إمساكُه عن الصّرفِ إلى ما خُلِقَ الصّرفُ إليه، ويُمكنُ بذلُه بالصّرفِ إلى ما لا يحسنُ الصّرفُ إليه، ويُمكنُ التّصرفُ فيه بالعدلِ، وهو أن يُحفظَ حيثُ يجبُ الحفظُ، ويبدلَ حيثُ يجبُ البذلُ.

والجودُ وسطٌ بين الإسرافِ والإقتارِ، وبين البسَطِ والقبضِ، والبراءةُ من البخلِ تحضُلُ بفعلِ الواجبِ في الشّرعِ، واللازم بطريقِ المروءةِ؛ فهو تركُ المضايقةِ والاستقصاءِ في المحقّراتِ، فإنّ ذلك يُستقبَحُ، واستقباحُه يَحْتَلِفُ باختلافِ

(١) البلغة: ما يُتبلَّغُ به من العيشِ، أي ما يكفي للعيشِ دون زيادة.

الأحوال والأشخاص، فقد يُسْتَقْبَحُ مِنَ الْغَنِيِّ مِنَ الْمَضَائِقَةِ مَا لَا يُسْتَقْبَحُ مِنَ الْفَقِيرِ، وَيُسْتَقْبَحُ مِنَ الرَّجُلِ مِنَ الْمَضَائِقَةِ لِأَهْلِهِ وَأَقَارِبِهِ وَجِيرَانِهِ مَا لَا يُسْتَقْبَحُ مَعَ الْأَجَانِبِ.

فالبخيلُ هو الذي يَمْنَعُ ما لا يَنْبَغِي أَنْ يُمْنَعَ، إمَّا بِحَكْمِ الشَّرْعِ أَوْ بِحَكْمِ المَرْوَةِ، وذلك لا يُمَكِّنُ التَّنْصِيفُ عَلَى مِقْدَارِهِ، فَمَنْ قَامَ بِوَأَجِبِ الشَّرْعِ وَلازِمِ المَرْوَةِ فَقَدْ تَبَرَّأَ مِنَ الْبُخْلِ، لَكِنَّهُ لَا يَتَّصِفُ بِصِفَةِ الجُودِ وَالسَّخَاءِ مَا لَمْ يَبْذُلْ زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، فَإِذَا بَدَّلَ مَا لَمْ يُوجِبْهُ الشَّرْعُ، وَلَا تَتَوَجَّهَ المِلاَمَةُ فِي العَادَةِ عَلَى مَنْعِهِ فَهُوَ جَوَادٌ، إِلَّا أَنْ لِلجُودِ دَرَجَاتٍ، وَبَعْضُ النَّاسِ أَجُودٌ مِنْ بَعْضٍ، وَاصْطِنَاعُ المَعْرُوفِ وَرَاءَ مَا تُوجِبُهُ العَادَةُ، وَالمَرْوَةُ جُودٌ، وَلَكِنْ بِشَرِطٍ أَنْ تَكُونَ عَلَى طَيْبِ نَفْسٍ، وَلَا تَكُونَ عَلَى طَمَعٍ فِي مُكَافَأَةٍ أَوْ شُكْرِ، فَإِنَّ الطَّامِعَ فِي الشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ بَيَّاعٌ لَا جَوَادٌ؛ لِأَنَّهُ يَشْتَرِي المَدْحَ بِمَالِهِ. وَإِنَّمَا الجُودُ بَدَلٌ بِلا عَوَضٍ، وَلَا يُتَّصَرَّفُ ذَلِكَ إِلَّا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ. وَأَمَّا الأَدْمِيُّ فَاسْمُ الجُودِ عَلَيْهِ مَجَازٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يَبْذُلُ الشَّيْءَ إِلَّا لِعَرَضٍ، وَلَكِنْ إِذَا لَمْ يَكُنْ غَرَضُهُ إِلَّا ثَوَابَ الآخِرَةِ، وَاكتِسَابَ فَضِيلَةِ الجُودِ، أَوْ تَطْهِيرَ النَفْسِ عَنِ مَرَدُّوْلِ البُخْلِ، سُمِّيَ جَوَادًا، وَمَتَى كَانَ البَاعِثُ عَلَى الجُودِ الخَوْفَ مِنْ لَوْمِ النَّاسِ، أَوْ هِجَائِهِمْ، أَوْ تَوَقُّعَ نَفْعٍ مِنَ المُنْعَمِ عَلَيْهِ، لَمْ يَكُنْ جَوَادًا؛ لِأَنَّهُ مُتَعَوِّضٌ (١).

(١) أي: يطلب عوضاً مقابل ما يقدمه.

## بيان

### علاج البخل

اعلم أنَّ سببَ البُخْلِ حبُّ المالِ، ولحبِّ المالِ سببان: أحدهما: حبُّ الشهواتِ التي لا وُصولَ إليها إلا بالمالِ، مع طولِ الأملِ، فإنَّ الإنسانَ لو علمَ أنَّه يموتُ بعدَ يومٍ لم يبخلُ بماله؛ لأنَّ قدرَ ما يحتاجُ إليه في يومٍ قريبٍ، وإنَّ كانَ قصيرَ الأملِ ولكنَّ له أولادٌ فإنَّ الولدَ يقومُ مقامَ طولِ الأملِ؛ لأنَّهُ يُقدَّرُ بقاءهم كبقاءِ نفسِهِ، فيُمسِكُ لأجلهم، ولذلك قال ﷺ: «الولدُ مبخلٌ مَجْبَنَةٌ مَجْهَلَةٌ»<sup>(١)</sup>، فإذا انُصِفَ إلى ذلكِ خوفُ الفقرِ، وقِلَّةُ الثَّقَةِ بِمَجِيءِ الرِّزْقِ، قَوِيَ البُخْلُ لا مَحَالَةَ.

السببُ الثاني: أن يُحبَّ عَيْنَ المالِ، فَمِنَ الناسِ مَنْ مَعَهُ ما يَكْفِيهِ لِبَقِيَّةِ عمره، إذا اقتصرَ على ما جرتْ عادتهُ بِنَفَقَتِهِ، وتفضُّلُ آلافٍ، وهو شيخٌ ولا ولدَ له، ثمَّ لا تَسْمَحُ نَفْسُهُ بإخراجِ الرِّكَاةِ، ولا بالتداوي عندِ المرضِ، بل هو عاشقٌ لِعَيْنِ المالِ، يَلْتَدُّ بِوُجُودِهِ في يده، وبقُدْرَتِهِ عليه، فيكْنِزُهُ تَحْتَ الأرضِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ يَضِيعُ إذا مات، أو يأخذهُ أَعْدَاؤُهُ، ثمَّ لا تَسْمَحُ نَفْسُهُ مَعَ هذا بأنْ يَأْكُلَ أو يَتَصَدَّقَ منه، وهذا مرضٌ مُزْمِنٌ عَسِيرٌ، لا يُرْجى عِلاجُهُ. ومثالُ صاحبه مثالُ رجلٍ عَشِقَ شَخْصاً، فَأَحَبَّ رَسولَهُ، ثمَّ نَسِيَ مَحَبُّوبَهُ، وَاشْتَعَلَ بِالرَّسولِ، فإنَّ الدنانيرَ رسولٌ مُبْلَغٌ إلى الحاجاتِ، فصارتُ مَحَبُوبَةً لذلكِ، لأنَّ الموصلَ إلى اللَّذِيذِ اللَّذِيذِ، ثمَّ قد يَنسى الحاجاتِ ويحبُّ الدنانيرَ لذاتِها، وهو غايةُ الضَّلالِ.

(١) أخرجه أحمد (١٧٥٦٢)، وابن أبي شيبة (٩٧/١٢)، وابن ماجه (٣٦٦٦)، والطبراني في الكبير (٢٥٨٧)/٣ و(٧٠٣)/٢٢، والحاكم في المستدرک (١٦٤/٣)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢٥) و(٢٦)، والبيهقي في السنن (٢٠٢/١٠)، وفي الأسماء والصفات (٢٠٧/٢)، عن يعلى بن مرة العامري.

واعلم أنَّ علاجَ كُلِّ عِلَّةٍ بِمُضَادَّةِ سَبَبِهَا، فَيُعَالَجُ حُبُّ الشَّهَوَاتِ بِالقِنَاعَةِ والصَّبْرِ، وطولُ الأملِ بكثرةِ ذِكْرِ الموتِ، والتَّفَكُّرُ فِي ذهابِ القُرْنَاءِ، وَضِياعِ المَالِ بَعْدَ جَامِعِهِ، وَيُعَالَجُ التَّفَاتُ القَلْبِ إِلَى الوَلَدِ بِأَنَّ الَّذِي خَلَقَهُ خَلَقَ مَعَهُ رِزْقَهُ، وَكَمْ مِنْ وُلْدٍ لَمْ يَرِثْ مِنْ أَبِيهِ مَالاً هُوَ أَحْسَنُ مِمَّنْ وَرِثَ حَالاً، فَلْيَحْذَرُ أَنْ يَتْرُكَ لِوَلَدِهِ الخَيْرَ، وَيَقْدِمَ هُوَ عَلَى اللَّهِ بِشَرًّا، فَإِنَّ وَلَدَهُ إِنْ كَانَ صَالِحاً فَاللهُ يَتَوَلَّاهُ، وَإِنْ كَانَ فَاسِقاً فَإِنَّهُ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى المَعَاصِي، وَلْيُرَدِّدْ عَلَى سَمْعِهِ مَا ذَكَرْنَا فِي ذَمِّ البُخْلِ، وَمَدْحِ السَّخَاءِ، وَلْيَتَأَمَّلْ أَحْوَالَ البُخْلَاءِ، وَنَفْرَةَ الطَّبَعِ عَنْهُمْ، وَاسْتِقْبَاحَ حَالِهِمْ، حَتَّى أَنْ البُخِيلَ يَسْتَقْبِحُ البُخْلَ مِنْ غَيْرِهِ، وَلْيَتَفَكَّرْ فِي مَقَاصِدِ المَالِ، وَلْيَنْظُرْ لِمَاذَا خُلِقَ.

وَلَا تَزُولُ صِفَةُ البُخْلِ إِلَّا بِالبَدْلِ تَكْلِفاً، كَمَا لَا يَزُولُ العِشْقُ إِلَّا بِمَفارِقَةٍ المَعشوقِ، فَإِذَا صَبَرَ سَلا.

فإِذَنْ عِلاجُ البُخْلِ بِعِلْمٍ وَعَمَلٍ، فَالعِلْمُ يَرْجِعُ إِلَى مَعْرِفَةِ آفَةِ البُخْلِ، وَفائدةِ الجودِ، وَالعَمَلُ يَرْجِعُ إِلَى البَدْلِ عَلَى سَبِيلِ التَّكْلِيفِ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَقْوَى البُخْلُ بِحَيْثُ يُعْمَى وَيُصَمُّ، فَيَمْنَعُ تَحَقُّقَ المَعْرِفَةِ بِآفَتِهِ، فَلَا تَتَحَرَّكُ الرِّغْبَةُ، وَلَا يَتَيَسَّرُ العَمَلُ، فَتَبْقَى العِلَّةُ مُزْمِنَةً، كَالمرضى الَّذِي يَمْنَعُ مَعْرِفَةَ الدَّوَاءِ وَإِمكانَ اسْتِعْمَالِهِ لَهُ، فَإِنَّهُ لَا حِيلَةَ فِيهِ إِلَّا الصَّبْرُ إِلَى الموتِ.

واعلم أَنَّهُ إِذَا كَثُرَتِ المَحَبوباتُ فِي الدُّنْيَا كَثُرَتِ المَصائبُ بِفقدِها، فَمَنْ عَرَفَ آفَةَ المَالِ لَمْ يَأْنَسْ بِهِ، وَلَمْ يَأْخُذْ مِنْهُ إِلَّا قَدَرَ حاجَتِهِ، وَمَنْ أَمْسَكَ مَالاً لِحاجَتِهِ فَلَيْسَ بِبُخِيلٍ.

## بَيَانُ

## مجموع الوظائف التي على العبد في ماله

قد ذكرنا فيما تقدم أن مثل المال كمثل حية فيها ترياقٌ وسُمٌّ، فالراقي يستخرج دُرِّيَاقِهَا<sup>(١)</sup>، والجاهل إذا تناولها قتله سُمُّهَا. ولا يسلم من سُمِّ المالِ إلا بالمحافظة على خمس وظائف:

**الأولى:** أن يعرف مقصودَ المالِ، ولماذا خُلِقَ ولم احتيج إليه؟ فلا يحفظ إلا مقدارَ الحاجة، ولا يُعطيه من هَمَّتِهِ فوق ما يَسْتَحِقُّهُ.

**الثانية:** أن يُراعي جهةَ دَخْلِ المالِ فيجتنب الحرامَ المحضَ، وما الغالبُ عليه الحرامُ، كأموالِ الظلمة، ويجتنب الجهاتِ المكروهة القاذحة في المروءة، كالهدايا التي فيها شوائبُ الرِّشوة، والسؤالِ الذي فيه الدُّلُّ وهتكُ المروءة.

**الثالثة:** في المقدارِ الذي يكتسبه، فلا يستكثرُ منه ولا يستقلُّ، بل بمقدارِ الحاجة، والحاجةُ مسكنٌ ومطعمٌ وملبسٌ، ولكلِّ واحدٍ ثلاثُ درجاتٍ: أدنى، وأوسطٌ، وأعلى.

ومتى مالٌ إلى القناعةِ قاربَ النجاة، ومتى جاوزَ ذلك وقعَ في هاويةٍ لا نهايةَ لعمقِها، وقد ذكرنا تفصيلاً هذه الدرجاتِ في كتابِ الرُّهدِ.

**الرابعة:** أن يُراعي جهةَ الخرجِ، ويقتصدَ في الإنفاقِ، غيرَ مُبذِّرٍ ولا مُقتَرٍ، فيضع ما اكتسبه من حِلِّهِ في حَقِّهِ، فإنَّ الإثمَ في الأخذِ مِنْ غَيْرِ حَقِّهِ، والوضعُ في غيرِ حَقِّهِ سِوَاءٌ.

**الخامسة:** أن يُضِلِّحَ نِيَّتَهُ في الأخذِ والتَّركِ والإنفاقِ والإمساكِ، فيأخذ ما يأخذُ

(١) الدُّرِّيَاقُ: هو الترياق، وهو دواءٌ نافعٌ من لدغِ الهوامِ السَّبْعِيَّةِ.

لِيَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى الْعِبَادَةِ، وَيَتْرَكَ مَا يَتْرُكُ زُهْدًا فِيهِ وَاحْتِقَارًا لَهُ، وَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ وَجُودُ الْمَالِ.

فاجتهد أن تكون حركاتك وسكناتك لله تعالى مقصورة على عبادة، أو ما يُعِينُ عَلَى الْعِبَادَةِ، فَإِنَّ أَبْعَدَ الْحَرَكَاتِ عَنِ الْعِبَادَةِ الْأَكْلُ وَقِضَاءُ الْحَاجَةِ، وَهُمَا مُعِينَانِ عَلَى الْحَاجَةِ، فَإِذَا قَصِدْتَ بِهِمَا الْإِسْتِعَانَةَ عَلَى الْعِبَادَةِ صَارَتَا عِبَادَةً فِي حَقِّكَ، فَمَنْ حَسَنَ قَصْدُهُ فِي جَمْعِ الْمَالِ لَمْ يَضُرَّهُ، وَهَذِهِ كَانَتْ حَالَةَ الصَّحَابَةِ فِي كَثْرَةِ أَمْوَالِهِمْ، فَإِذَا أَرَادَ الْجَاهِلُ أَنْ يَتَشَبَّهُ بِهِمْ فِي جَمْعِ الْمَالِ، كَانَ كَالصَّبِيِّ إِذَا تَشَبَّهُ بِالرَّاقِي فِي تَنَاوُلِ الْحَيَّةِ.

## بيان

### خطر الغنى وسلامة الفقر

اعلم أن أقواماً فضّلوا الغنى، وأقواماً فضّلوا الفقر، ونحن نصدع بالتحقيق من غير تطويل بذكر ما قالوا، إذ هو قليل الجدوى، فإن قوماً احتجّوا لتفضيل الفقر بأحاديث لا يثبت أكثرها، والثبات منها له وجوه، وذكروا غوائل الغنى وآفاته، فحوّفوا منه، ولا ينكر أن فيه مخاطرة.

والصواب أن يقال: طريق الفقر في الغالب طريق السلامة، ومثل صاحبه كمثله مريض قد حُسِّبَ بمرضه عن أغراضه، فهو يثاب على مرضه، ويُجزى على حُسن صبره. وأما الغنى فيقيّد سلامة الغني في كسبه وجمعه وقصده ومنعه، فخطره عظيم، فإذا سلّم كسبه، وحسن قصده في جمعه، وإخراجه في وجهه، فذلك أفضل من الفقر؛ لأن نفع ذلك يتعدى، فيكون الفقير كالمتعبد المنقطع إلى زاوية، والغني المنفق في الخير كالمفتي والمجاهد.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعم المقيم. فقال: «ما ذاك؟» قالوا: «يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق<sup>(١)</sup>، ويعتقون ولا نعتق. فقال رسول الله ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «تسبحون وتكبرون وتحمدون، دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين». قال أبو صالح<sup>(٢)</sup>: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ، فقالوا:

(١-١) ليس في الأصل.

(٢) هو أبو صالح السمان، ذكوان بن عبد الله الزيات المدني، روى عن جمع من الصحابة، وهو من أوثق الناس وأثبتهم في أبي هريرة، توفي سنة ١٠١هـ. السيرة ٣٦/٥.

سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»<sup>(١)</sup>.

وقد كَسَبَتِ الصَّحَابَةُ وَجَمَعَتْ وَخَلَّفَتِ الْأَمْوَالُ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ وَجْهِ الْمَدْحِ لِلْمَالِ وَالذَّمِّ لَهُ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَتَعَلَّقُ بِفِعْلِ الْعَبْدِ لَا بِعَيْنِ الْمَالِ، لِأَنَّ الْمَالَ آلَةٌ. وَلِسَبَبِ إِخْرَاجِ الْمَالِ قَالَ ﷺ: «مَا نَفَعَنِي مَالٌ كَمَا لِي أَبِي بَكْرٍ»<sup>(٢)</sup>.

أخبرنا محمد بن أبي منصور، قال: حدثنا جعفر بن أحمد، قال: حدثنا الحسن بن علي التميمي، قال: حدثنا أبو بكر بن جعفر، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا أبو المغيرة، قال: حدثنا صفوان، عن يزيد بن مسيرة، قال: كان رجلٌ ممن مضى جمع مالا وولداً فأوعى، ثم أقبل على نفسه وهو في أهله قد جمع، فقال: انعمي لسنين. فأتاه ملك الموت، ففرع الباب، فخرجوا إليه وهو ممتثلٌ بمسكين، فقال لهم: ادعوا لي صاحب الدار. فقالوا: يخرج سيدنا إلى مثلك؟! ثم مكث قليلاً، ثم عاد ففرع باب الدار، وصنع مثل ذلك، وقال: أخبروه أنني ملك الموت. فلما سمع سيدهم قعد فرعاً، وقال: أليؤا له بالكلام. قالوا: ما تريد غير سيدنا برك الله فيك؟ قال: لا. فدخل عليه، فقال له: قم فأوص ما كنت موصياً، فإني قابض نفسك قبل أن أخرج. قال: فصاح أهله وبكوا، ثم قال: افتحوا الصناديق والتواييت، وافتحوا أوعية المال. ففتحوها جميعاً، فأقبل على المال يلعنه ويسبهه، ويقول: لعنت من مال، أنت الذي أنسيتني ربي تبارك وتعالى، وأغفلتني عن العمل لآخرتي، حتى بلغني أجلي. فتكلم المأل، فقال: لا تسبني، ألم تكن وضيعاً في أعين الناس فرفعتك؟ ألم تر عليك من أثري، وكنت تحضر سدد<sup>(٣)</sup> الملوك والسادة، فتتكح، ويخطب عباد الله الصالحون فلا يتكحون؟

(١) أخرجه البخاري (٨٤٣)، ومسلم (٥٩٥).

(٢) أخرجه أحمد (٧٤٤٦) و(٨٧٩٠)، وابن أبي شيبة ٦/١٢-٧، والترمذي (٣٦٦١)، والنسائي في الكبرى (٨٠٥٦)، وابن ماجه (٩٤)، وابن أبي عاصم في السنة (١٢٢٩)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/١٥٨، وفي شرح مشكل الآثار (١٥٩٩)، وابن حبان (٦٨٥٨) من حديث أبي هريرة.

(٣) السدد: جمع سدة، وهي باب الدار، والفناء والساحة تكون بين يدي باب الدار.

أَلَمْ تَكُنْ تُنْفِقُنِي فِي سَبِيلِ الْجِبْتِ<sup>(١)</sup> فَلَا أَتَعَاصِي؟ وَلَوْ أَنْفَقْتَنِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ أَتَعَاصِرْ عَلَيْكَ، فَأَنْتَ أَلْوَمٌ مِنِّي، إِنَّمَا خُلِقْتُ أَنَا وَأَنْتُمْ يَا بَنِي آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، فَمُنْطَلِقٌ بَيْرٌ، وَمُنْطَلِقٌ بِإِثْمٍ. فَهَكَذَا يَقُولُ الْمَالُ فَاحْذَرُوا.

(١) الجبّ: الصنم والكاهن والسحر والساحر، وكل ما عُبدَ من دون الله تعالى.



## كِتَابُ

## ذَمُّ الْجَاهِ وَالرِّيَاءِ (١)

الحمد لله المطلع على سرائر القلوب، المتجاوز عن كباير الذنوب، العالم بكوامن<sup>(٢)</sup> الغيوب، البصير ببواطن العيوب، لا يعزب عنه ما يعرض في السرّ وينوب، ولا خالص الفؤود من الطلب المشوب، كلُّ عمل لا يراد به وجهه يضمحلّ ويدوب، وكلُّ طاعة يتزین فيها لخلقها إثمٌ وحوب<sup>(٣)</sup>.

أحمدُه حمدَ مُعْتَرِفٍ بأنّه مرْبُوبٌ، وأصْلِيّ على رسوله مُحَمَّدٍ أَشْرَفِ مَوْلُودٍ وَخَيْرِ مَنْسُوبٍ، وعلى أصحابه وأتباعه ما اختلفت الشمال والجنوب، وأسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد، فقد روي عن النبي ﷺ أنّه قال: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الرِّيَاءَ وَالشَّهْوَةَ الْخَفِيَّةَ»<sup>(٤)</sup>.

(١) من هنا تبدأ نسخة مكتبة برنستون والمصورة من مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض، والمرموز لها بالحرف (ف).

(٢) هكذا في (ف)، وفي الأصل: (بخفيا).

(٣) الحوب: الإثم والبلاء والهلاك.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٢٢/٧، وفي تاريخ أصفهان ٦٦/٢، والبيهقي في الشعب (٦٨٢٤) و(٦٨٢٥) وفي الزهد (٣١٦)، وبحشل في تاريخ واسط: ٢٢٠، وابن عدي في الكامل ٣٥٦/٥ - ٣٥٧ من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم.

وأخرجه أحمد (١٧٢٠)، وابن ماجه (٤٢٠٥) والطبراني في الكبير (٧١٤٤) و(٧١٤٥)، وفي مسند الشاميين (٢٢٣٦)، والحاكم ٣٣٠/٤، وأبو نعيم في الحلية ١/٢٦٨، والبيهقي في الشعب (٦٨٣٠) من حديث شداد بن أوس.

والرياء من الشهوة الخفية، وهذه الشهوة الخفية يعجز عن الوقوف على غوائلها كبار العلماء، فضلاً عن عامة العباد والأتقياء، وهي من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها.

وإنما يُبتلى بها العلماء والعباد المُشَمَّرُونَ عن ساقِ الجِدِّ لسُلوِكِ سبيلِ الآخرة، فإنهم لما قهرُوا نُفوسَهُم وجاهدوها، وفطموها عن الشهوات، وصانوها عن الشُّبُهَات، وحملوها بالقهرِ على أصنافِ العبادات، لم تَطْمَعِ في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح، واستراحت إلى التظاهر بالعلم والعمل، ووجدت مخلصاً من شدة المجاهدة في لذة القبول عند الخلق، ونظرهم إليهم بعين الوفاة والتعظيم، فتوصلوا إلى اطلاع الخلق، ولم يقنعوا باطلاع الخالق، وفرحوا بحمد الناس، ولم يقنعوا بحمد الله وحده، وعلموا أن الناس إذا عرفوا منهم ترك الشهوات، وتحمل العبادات، بالغوا في مدحهم واحترامهم، وتبركوا بمشاهدتهم ولقائهم ودعائهم، وسامحهم في المعاملات، وتواضعوا لهم، فأصابَت النفس في ذلك لذة هي أعظم اللذات، وشهوة هي أغلب الشهوات، فاحتقرت فيه ترك المعاصي والهفوات، واستلانت خشونة المواظبة على الطاعات. فأحدهم يرى أنه مخلص لله، وقد أبطن بهذه الشهوة التزین للعباد، والتصنع للخلق، والفرح بما نال من المنزلة، فحبطت بذلك أجور طاعته، وأثبتت في ديوان المنافقين، وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون، ومهواة لا يرقى منها إلا المقربون، ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حُبُّ الرياسة.

وإذا كان الرياء هو الداء اللدین، الذي هو أعظم شبكة للشياطين، وجب شرح القول في سببه وحقيقته، ودرجاته وأقسامه، وطرق<sup>(١)</sup> معالجته، والحد من منه.

ويتضح الغرض منه في ترتيب هذا الكتاب على شطرين:

الشرط الأول: في حُبِّ الجاه والشهرة، وفيه: بيان دَم الشهرة، وبيان فضيلة

(١) في الأصل: (طريق).

الْحُمُولِ، وبيانُ ذَمِّ الجاهِ، وبيانُ معنى الجاهِ وحقيقتهِ، وبيانُ السببِ في كونهِ محبوباً أشدَّ مِنْ حُبِّ المالِ، وبيانُ أَنَّ الجاهَ كمالٌ وهميٌّ، وليسَ بكمالٍ حقيقيٍّ، وبيانُ ما يُحَمَّدُ مِنْ حُبِّ الجاهِ وما يُذَمُّ، وبيانُ السببِ في حُبِّ المدحِ والثَّناءِ، وكراهةِ الذَّمِّ، وبيانُ العِلاجِ في حُبِّ الجاهِ، وبيانُ عِلاجِ حُبِّ المدحِ، وبيانُ عِلاجِ كراهةِ الذَّمِّ، وبيانُ اختلافِ أحوالِ النَّاسِ في الذَّمِّ والمدحِ، فهي اثنا عشرَ فَضْلاً، منها تَنَشَأُ معاني الرِّياءِ، فلا بُدَّ من تقديمها.

## بيان

### ذم الشهرة وانتشار الصيت<sup>(١)</sup>

اعلم أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار، وذلك خطر عظيم، تبعد سلامة صاحبه، والسلامة في الخمول، إلا أن تكون الشهرة من الله تعالى للشخص بمعنى ما قصده الشخص، كما شهر الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله حين نصر القرآن<sup>(٢)</sup>، وقد كان ابن سيرين إذا دخل السوق كبر الناس، وقد قال أبو حبيب البدوي لسفيان الثوري: أنت سفيان الذي يُقال؟ قال: نعم، نسأل الله بركة ما يُقال.

أخبرنا الكروخي، قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر العورجي، قالوا: أنبأنا الجراحي، قال: حدثنا المحبوبي، قال: حدثنا الترمذي، قال: حدثنا يوسف ابن سلمان، قال: حدثنا حاتم بن إسماعيل، عن محمد بن عجلان، عن القعقاع، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ شِرَّةً<sup>(٣)</sup>، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَإِنْ كَانَ صَاحِبُهَا سَدَّدَ وَقَارَبَ فَارْجُوهُ، وَإِنْ أُشِيرَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ فَلَا تَعُدُّوه»<sup>(٤)</sup>.

(١) في الأصل: (إيثار).

(٢) وذلك في المحنة التي جرت عليه حينما زين جماعة من المعتزلة للمأمون القول بخلق القرآن، فامتحن بذلك جماعة من العلماء، فأجاب بعضهم إيثاراً للسلامة، وثبت البعض، ومنهم الإمام أحمد رحمه الله تعالى حيث توالى عليه المحنة زمن المأمون ثم المعتصم ثم الواثق وضرب وحبس وعذب وبقي ثابتاً على الحق صابراً محتسباً حتى أنهى المتوكل هذه المحنة. انظر مناقب الإمام أحمد للمصنف ٤٣٠ وما بعدها، ومحنة الإمام أحمد للمقدسي.

(٣) الشرة: الحرص والرغبة والنشاط.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٥٣)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٢٤٢)، وابن حبان (٣٤٩).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، غريب من هذا الوجه.

وقد روى أنس بن مالك، عن النبي ﷺ أنه قال: «أمرئ من الشرِّ - إلا من عصمه الله - أن يُشيرَ الناسُ إليه بالأصابع في دينه ودنياه»<sup>(١)</sup>.

وقد ذكر الحسنُ البصريُّ رحمه الله لهذا الحديث تأويلاً حسناً، فإنه لما رَوَاهُ قالوا له: فإنَّ الناسَ إذا رأوك أشاروا إِلَيْكَ بالأصابع. فقال: إنه لم يَعْنِ هذا، إنما عَنَى به المبتدع في دينه والفاسق في دنياه.

واعلم أن أهل الخير لم يقصدوا الشُّهْرَةَ، ولم يتعرضوا بها ولا بأسبابها، فإذا وقعت من قِبَلِ الله تعالى فَرُّوا منها، وقطعوا أسبابها.

وقد روينا عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه خرج من منزله فَتَبِعَهُ ناسٌ، فالتفت إليهم، فقال: على ما تَتَّبِعُونِي؟! فَوَالله لو علمتُم ما أُغْلِقُ عليه بابي ما اتَّبَعَنِي منكم رجلاً. وفي لفظ آخر أنه قال: ارجعوا، فإنه ذلَّةٌ للتابع، وفتنةٌ للمتبوع.

وخرج الحسنُ البصريُّ يوماً فاتَّبَعَهُ قومٌ، فقال: هل لكم من حاجة؟ وما عسى أن يُبْقِي هذا من قلبِ المؤمن؟! وقال: إنَّ خفق النعالِ خَلَفَ أعقابِ الرجالِ قلماً تَلَبَّثُ عليه قلوبُ الحمقى.

وقيل لعلمة<sup>(٢)</sup>: ألا تدخل المسجدَ فَتَجْتَمِعُ إِلَيْكَ ونَسأل. فقال: إنِّي أكرهُ أن يُوطأَ عَقْبِي ويقال: هذا علقمة، هذا علقمة<sup>(٣)</sup>.

وخرج أيوب<sup>(٤)</sup> في سَفَرٍ فشِيعَهُ ناسٌ كثيرٌ، فقال: لولا أنِّي أعلمُ أنَّ الله تعالى يَعْلَمُ من قلبي أنَّي لهذا كارهٍ لخشيتُ المَقْتَمَ من الله تعالى. وقال مَعْمَرٌ: عاتبْتُ أيوبَ على طولِ قميصِهِ، فقال: إنَّ الشُّهْرَةَ فيما مضى كانت في طوله، وهي اليوم في تَشْمِيرِهِ. وقال أيوبٌ: والله ما صدقَ الله عبدٌ إلا سرَّهُ أن لا يَعْلَمَ مكانَهُ.

(١) أخرجه البيهقي في الشُّعَب (٦٩٧٧).

(٢) هو علقمة بن قيس النخعي، أبو شبل الكوفي، ولد في حياة النبي ﷺ ولم يره، وروى عن الخلفاء الأربعة وجمع من الصحابة توفي بعد سنة ٦٠ هـ. السير ٥٣/٤.

(٣) الحلية ١٠٠/٢، والسير ٥٩/٤.

(٤) يعني أيوب السختياني.

وكان أبو العالية إذا جلس إليه أكثر من أربعة قام<sup>(١)</sup>. وكان خالد بن معدان إذا عظمت حلقته قام، فانصرف كراهية الشهرة.

وصحب رجل ابن مُحَيْرِيز في سفر، فلما أراد فراقه قال: أوصني. قال: إن استطعت أن تعرف ولا تُعرف، وتمشي ولا يمشى إليك، وتَسأل ولا تُسأل فافعل<sup>(٢)</sup>.

وقال الثوري: ما رأيت الزهد في شيء أقل منه في الرياسة، ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال، فإذا نُوزِعَ الرياسة حامى عليها وعادى.

وقال رجل لبشر بن الحارث<sup>(٣)</sup>: أوصني. قال: أحمل ذكرك، وطيب مطعمك. وقال: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس<sup>(٤)</sup>.

(١) الحلية ٢/٢١٨.

(٢) الحلية ٥/١٤١.

(٣) في (ف): (بشر الحافي) وكلاهما صحيح فهو بشر بن الحارث الزاهد المعروف ببشر الحافي، توفي سنة ٢٢٧هـ. وللمصنف رحمه الله كتاب في مناقبه. السير ١٠/٤٦٩.

(٤) حلية الأولياء ٨/٣٤٣.

## بَيَانُ

## فَضِيلَةُ الْخُمُولِ

أخبرنا هبةُ الله بنُ محمَّدٍ، قال: أخبرنا الحسنُ بنُ علي، قال: أخبرنا أحمدُ بنُ جعفرٍ، قال: حدثنا عبدُ الله بنُ أحمد، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا عبدُ الكبير ابنُ عبدِ المجيد، قال: حدثنا بُكَيْرُ بنُ مِسْمَارٍ، عن عامرِ بنِ سعدٍ، أنَّ أخاه عمرَ<sup>(١)</sup> انطلق إلى سعدٍ<sup>(٢)</sup> وهو في غنمٍ له خارجاً من المدينة، فلما رآه سعدٌ قال: أعودُ بالله من شرِّ هذا الراكب. فلما أتاه قال: يا أبة، أَرْضِيَتِ أن تكونَ أعرابياً في غَنَمِكَ، والنَّاسُ يَتَنَازَعُونَ في المُلْكِ بالمدينة؟ فضربَ سعدٌ صدرَ عُمَرَ، وقال: اسكُتْ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيِّ الْحَفِيَّ». انفرد بإخراجه مسلم<sup>(٣)</sup>.

وفي أفرادهِ من حديثِ أبي هريرةَ عن النبي ﷺ أنه قال: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ»<sup>(٤)</sup> مدفوعٌ بالأبوابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ»<sup>(٥)</sup>.

وفي أفرادِ البخاريِّ مِنْ حديثِ أبي هريرةَ عَنِ النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «طَوْبِي لِعَبْدٍ أَخَذَ بَعْنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُعْبَرَةٌ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ»<sup>(٦)</sup> كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»<sup>(٧)</sup>.

(١) ليس في (ف).

(٢) يعني سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٣) صحيح مسلم (٢٩٦٥)، وهو في المسند (١٤٤١).

(٤) كلمة أغبر ليست عند مسلم.

(٥) أخرجه مسلم (٢٦٢٢) و(٢٨٥٤).

(٦) ساقاة الجيش: مؤخره.

(٧) صحيح البخاري (٢٨٨٧).

أخبرنا ابن الحُصَيْن، قال: أخبرنا ابنُ المُذْهَب، قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك، قال: حدثنا عبدُ الله بنُ أحمد، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا وكيع، قال: حدثنا عليُّ بنُ صالح، عن أبي (١) المهلب، عن عبيد (٢) الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمانة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ أَعْبَطَ أَوْلِيَائِي عِنْدِي مُؤْمِنٌ خَفِيفُ الْحَاذِ (٣)، ذُو حَظٍّ مِنْ صَلَاةٍ، أَحْسَنَ عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَكَانَ فِي النَّاسِ غَامِضًا، لَا يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ، فَعَجَّلَتْ مَيِّتُهُ، وَقَلَّ تَرَاثُهُ، وَقَلَّتْ بَوَاكِيهِ» (٤).

وروينا أنَّ عمرَ دخلَ المسجدَ، فإذا بمعاذِ بنِ جبلٍ يبكي عند قبرِ (٥) رسولِ الله ﷺ، فقال له: ما يبكيك؟ فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ الرِّيَاءِ شَرُّهُ، وَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْأَتْقِيَاءَ الْأَخْفِيَاءَ، الَّذِينَ إِنْ غَابُوا لَمْ يُتَّقَدُوا، وَإِنْ حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا» (٦). وقال عليُّ رضي الله عنه: طوبى لكلِّ عبدٍ نُومَةٍ (٧)، عَرَفَ النَّاسَ، وَلَمْ يَعْرِفْهُ النَّاسُ، وَأُولَئِكَ مَصَابِيحُ الْهُدَى، يَكْشِفُ اللَّهُ عَنْهُمْ كُلَّ فِتْنَةٍ مُظْلِمَةٍ (٨).

وكان ابنُ مسعودٍ يُوصي أصحابه فيقول: كُونُوا يَنَابِيعَ الْعِلْمِ، مَصَابِيحَ الْهُدَى أَحْلَاسَ (٩) الْبُيُوتِ، سُرْجَ اللَّيْلِ، جُدَدَ الْقُلُوبِ، خُلُقَانَ الثِّيَابِ، تُعْرَفُونَ فِي السَّمَاءِ، وَتَخْفُونَ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ (١٠).

(١) تحرفت في (ف) إلى: (ابن).

(٢) تحرف في (ف) إلى: (عبد).

(٣) خفيف الحاذ: أي قليل المال والعيال.

(٤) أخرجه أحمد (٢٢١٦٧)، والترمذي (٢٣٤٧)، والطبراني في الكبير ٨/ (٧٨٢٩) والحاكم ٤/ ١٢٣، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٥، والبيهقي في الشعب (٦٨١٤).

(٥) في (ف): (منبر).

(٦) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٧٩٨)، والطبراني في الكبير (٣٢١/٢٠) والحاكم ٤/ ٣٢٨، وتمام في الفوائد (١٦٧٣)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٥، والقضاعي في مسند

الشهاب (١٠٧١)، والبيهقي في الشعب (٦٨١٢) وابن ماجه (٣٩٨٩) عن عبد الله بن عمر.

(٧) النومة، كهَمْزة: حامل الذُكْر، الغامض في الناس.

(٨) التواضع لابن أبي الدنيا (١٠).

(٩) يقال: هو جلس بيته؛ إذا لم يبرح مكانه، والجلس ما يُبسط في البيت تحت حُرِّ الثياب.

(١٠) التواضع والخمول (١١).

وقال الحسنُ البَصْرِي: إن كَانَ الرَّجُلُ لِيَكُونَ فقيهاً جالساً مع القوم، فيرى بعض النَّاسِ أنَّهُ عِيّاً<sup>(١)</sup>، وما به من عِيٍّ، إلَّا كراهةً أَنْ يَشْتَهَرَ. وقال الثوري: وجدتُ قلبي يصلحُ بمكة والمدينة، مع قومٍ غُرباء، أصحابِ بُتوتٍ<sup>(٢)</sup> وعَباءٍ<sup>(٣)</sup>.  
واعلم أنه إِنَّمَا فَضِّلَ الحُمُولُ، لأنَّهُ سَلِيمٌ مِنْ انتشارِ الصَّيْتِ الموجِبِ للجاهِ والمنزلةِ في القلوبِ، وإذا وقعتِ المنزلةُ للإنسانِ في القلوبِ أَحَبَّها وسعى في ترتيبها، وسلامتهُ من ذلك بعيدة.

فإن قال قائل: فلا شهرةً أكثرُ مِنْ شُهرةِ الأنبياءِ وأئمةِ العلماءِ. فقد سَلَفَ جوابُ هذا، وهو أنَّ المذمومَ طلبُ الإنسانِ للشهرةِ، وأمَّا وُجودُها مِنْ جهةِ الله سبحانه وتعالى مِنْ غَيْرِ طلبِ الإنسانِ، فليسَ بمذمومٍ، غيرَ أنَّ في وُجودِها فتنةً على الضُّعفاءِ، فَمَثَلُ الضُّعيفِ كالغريقِ القليلِ الصنعةِ في السَّباحةِ، فإنَّ الأولى له أن لا يَتَعَلَّقَ به أحدٌ من<sup>(٤)</sup> العَرَقِي<sup>(٤)</sup>، لئلا يَغْرُقَ وَيُغْرِقَهُمْ، فأما السَّابِحُ النَّحْرِي<sup>(٥)</sup>، فإنَّ تَعَلَّقَ العَرَقِي به تَسَبَّبَ لِحَلاصِهِمْ.

(١) العِيّ: العَجْزُ عن إحصاءِ الأمرِ أو الكلامِ.

(٢) في النسخ: (بيوت)، والمثبت من حلية الأولياء، والبتوت: جمع بَت، وهو الطيلسان، كساءٌ من وبرٍ وصوفٍ يوضع على الرأس والأكتاف.

(٣) حلية الأولياء ٦/٧.

(٤-٤) ليست في الأصل.

(٥) النَّحْرِي: الحاذق الماهر الممتقن الفطن.

## بيان

## ذم الجاه

اعلم أن الجاه محبوبٌ للنفس، إلا أنه إذا غلب حُبُّه عليها فسَعَتْ في تحصيله لم تَسلم من إثم.

وقد روى كعبُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ذئبانِ جائعانِ أرسِلا في غنمٍ بأفسدَ لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»<sup>(١)</sup>.<sup>(٢)</sup> رواه أحمد والترمذي وقال: حسنٌ صحيح<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٨٤) و(١٥٧٩٤)، وابن أبي شيبة ٣/٢٤١، والترمذي (٢٣٧٦)، والنسائي في الكبرى (١١٧٩٦)، وابن حبان (٣٢٢٨).  
(٢) ليس في الأصل.

## بيان

### معنى الجاه وحقيقته

اعلم أنّ الجاهَ والمالَ هما رُكنا الدنيا، ومعنى المالِ مِلْكُ الأَعْيَانِ المَتَّفَعِ بها، ومعنى الجاهِ مِلْكُ القُلُوبِ المَطْلُوبِ تعظيمُها وطاعتُها، وكما أنّ الغنيَّ هو الذي يَمْلِكُ الدَّارَهِمَ والدنانيرَ، لِيَتَوَصَّلَ بهما إلى الأَغراضِ والشَّهواتِ، فكذلك ذُو الجاهِ، هو الذي يَمْلِكُ قُلُوبَ النَّاسِ، وَيَقْدِرُ على التَّصَرُّفِ فيها، لِيَسْتَعْمِلَ بِوِاسِطَتِهَا أَرْبابَها في أَغراضِهِ وَمَآرِبِهِ.

وكما أَنَّهُ يُكْتَسَبُ الأَمْوالُ بالصَّناعاتِ، فكذلك تُكْتَسَبُ قُلُوبُ الخَلْقِ بأنواعِ المعاملاتِ، ولا تَسَخَّرُ القُلُوبُ إلا بِالاعتقادِ، فَكُلُّ مَنْ اعتقدَ في شَخْصٍ وَصْفًا مِنْ أَوْصافِ الكَمالِ انقادَ له، بِحَسَبِ قُوَّةِ اعتقادِهِ فيه، ولا يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ ذلكِ الوصفُ كَمالًا في نَفْسِهِ، بل قد يَكُونُ كَمالًا في ظَنِّ المُعْتَقِدِ.

وكما أَنَّ مُحِبَّ المَالِ يَطْلُبُ أَنْ يَمْلِكَ العبيدَ، فَطالبُ الجاهِ يَطْلُبُ أَنْ يَسْتَرْقِيَ الأَحْرارَ وَيَسْتَعْبِدَهُمْ بِتَمَلُّكِهِ لِقُلُوبِهِمْ، وهذا التَّمَلُّكُ أقوى مِنْ تَمَلُّكِ المَرْقُوقِ<sup>(١)</sup>؛ لأنَّ ذلكَ مَمْلُوكٌ قَهْرًا، وهؤلاءُ مملوكونَ طَوْعًا، مَعَ فرحهم بالعبوديَّةِ، فالذي يَطْلُبُهُ هذا فوقَ ما يَطْلُبُهُ مالِكُ الرِّقِّ بدرجات.

فإِذْنُ معنى الجاهِ: قيامُ المنزلةِ في قلوبِ النَّاسِ، وهو اعتقادُ القلوبِ نَعْتًا مِنْ نُعُوتِ الكَمالِ في هذا الشَخْصِ، إمَّا بعِلْمٍ، أو عِبَادَةٍ، أو نَسَبٍ، أو حُسْنِ خُلُقٍ، أو قُوَّةِ في بَدَنِ، أو حُسْنِ صُورَةٍ، أو غَيْرِ ذلكِ مما يَعْتَقِدُهُ النَّاسُ كَمالًا، فَيَقْدِرُ ما يَعْتَقِدُونَ له مِنْ ذلكِ تَدْعِينَ قُلُوبِهِمْ لطاعَتِهِ، وَمِنْ ثمراتِ ذلكِ مَدْحُهُمْ وإِطْرَائُهُمْ وَخِدْمَتُهُمْ وتَوْقِيرُهُمْ.

(١) المرقوق: هو الرقيق، وهو العبد والمملوك.

## بيان

سبب كون الجاه محبوباً بالطبع  
حتى لا يخلو عنه قلب إلا بعد شدة المجاهدة

اعلم أنّ السبب الذي يقتضي كون الذهب والفضة وسائر أنواع المال محبوباً، هو بعينه يقتضي كون الجاه محبوباً، بل يقتضي أن يكون أحب من المال، كما يقتضي أن يكون الذهب أحب من الفضة. وذلك أنك تعلم أنّ الدرهم والدنانير لا غرض في أعيانها، لأنها والحصى سواء، لكنها تُحب لأنها وسيلة إلى المحاب، فذلك الجاه.

وقد بينّا أنّ معنى الجاه ملك القلوب، وكما أنّ ملك الذهب والفضة يُفيد قدرة يتوصل الإنسان بها إلى جميع أغراضه، فذلك ملك قلوب الأحرار، والقدرة على استسخارها، يُفيد قدرة على التوصل إلى جميع الأغراض، فالاشتراك في السبب اقتضى الاشتراك في المحبة، وترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحب من المال.

ولملك القلوب ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه:

الأول: أنّ التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه، فالعالم أو الزاهد الذي قد تقرر له جاه في القلوب، إذا قصد اكتساب المال تيسر له، فإن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب، ومبدولة لمن اعتقد فيه الكمال. وأمّا الرجل الخسيس، الذي لا يتصف بصفة كمال، إذا وجد كنزاً، ولم يكن له جاه يحفظ ماله، وأراد أن يتوصل بالمال إلى الجاه، لم يتيسر له.

فإذن الجاه آلة ووسيلة إلى المال، فمن ملك الجاه فقد ملك المال، ومن ملك المال لم يملك الجاه، فلذلك صار الجاه أحب.

والثاني: أَنَّ الْمَالَ مُعَرَّضٌ لِلتَّوَى<sup>(١)</sup>، بَأَن يُسْرِقَ وَيُغْصَبَ، وَيَطْمَعُ فِيهِ الظَّلْمَةُ، وَيَحْتَاجُ إِلَى الْحَفَظَةِ، وَالْقَلُوبُ إِذَا مُلِكَتْ لَمْ تَتَعَرَّضْ لِهَذِهِ الْآفَاتِ، فَهِيَ خَزَائِنُ عَتِيدَةٌ، لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا السَّرَّاقُ.

الثالث: أَنَّ مِلْكَ الْقَلُوبِ يَسْرِي وَيَنمو وَيَتَزَايِدُ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ فِي تَحْصِيلِ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْقَلُوبَ إِذَا أَدْعَنْتْ لِشَخْصٍ، وَاعْتَقَدَتْ كِمَالَهُ، أَفْصَحَتِ الْأَلْسُنُ بِوَصْفِ مَا تَعْتَقِدُهُ لِلغَيْرِ، فَيَقْعُ بِذَلِكَ اقْتِنَاصُ خَلْقٍ آخَرِينَ، بِخِلَافِ الْمَالِ، فَإِنَّ اسْتِنْمَاءَهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ تَعَبٍ، وَالجَاهُ أَبَدًا يَنْمِي بِنَفْسِهِ.

فإن قال قائل: معلومٌ أنَّ مَنْ أَحَبَّ مِنَ الْمَالِ أَوْ مِنَ الْجَاهِ مَا يَنَالُ بِهِ أَغْرَاضَهُ فَمَعْدُورٌ، فَمَا وَجْهُ مَحَبَّةِ الْإِنْسَانِ اسْتِكْثَارَ الْأَمْوَالِ، حَتَّى لَوْ كَانَ لَهُ وَاذِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ لَا يَبْتَغِي إِلَيْهِمَا ثَالِثًا. وَمَا وَجْهُ مَحَبَّتِهِ لِانْتِشَارِ صِيَّتِهِ إِلَى أَقْصَايِ الْبِلَادِ الَّتِي يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَطُوهَا، وَلَا يَجِيءُ أَصْحَابُهَا إِلَيْهِ فَيَنْفَعُوهُ بِحَالٍ؟

فالجواب: أَنَّ هَذِهِ الْمَحَبَّةَ لَهَا سَبَبَانِ؛ أَحَدُهُمَا جَلِيٌّ، وَالْآخَرُ خَفِيٌّ، وَالْخَفِيُّ أَقْوَى السَّبَبِينَ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ مِنْ طَبِيعَةِ مُسْتَكِنَّةٍ فِي الطَّبْعِ، لَا يَقِفُ عَلَيْهَا إِلَّا الْغَوَاصُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ.

فَأَمَّا السَّبَبُ الْأَوَّلُ: فَهُوَ دَفْعُ أَلَمِ الْخَوْفِ، فَإِنَّ الشَّفِيقَ<sup>(٢)</sup> بِسُوءِ الظَّنِّ مُوَلِّعٌ، وَالْإِنْسَانُ وَإِنْ كَانَ مَكْتَفِيًّا<sup>(٣)</sup> فِي الْحَالِ، إِلَّا أَنَّهُ طَوِيلُ الْأَمَلِ، فَيَخْطُرُ بِبَالِهِ، أَنَّ الْمَالَ الَّذِي فِيهِ كِفَايَتُهُ رَبِّمَا تَلَفَ، فَاحْتَاجَ إِلَى غَيْرِهِ، فَيَهِيجُ الْخَوْفُ عِنْدَ ذَلِكَ الْخَاطِرَ، فَلَا يَدْفَعُهُ إِلَّا الْأَمْنُ الْحَاصِلُ بِوُجُودِ مَالٍ آخَرَ يَفْزَعُ إِلَيْهِ إِنْ اجْتَبَحَ<sup>(٤)</sup> هَذَا، وَمَتَى قُدِّرَ هُجُومُ الْحَاجَاتِ، وَتَطَرَّقَ الْآفَاتُ إِلَى الْأَمْوَالِ وَقَعَ الْخَوْفُ، وَلَا مَوْقِفَ لِهَذَا الْخَوْفِ عِنْدَ مِقْدَارٍ مَخْصُوصٍ مِنَ الْمَالِ، وَمِثْلُ هَذِهِ الْعِلَّةِ تَطَّرَدُ فِي حُبِّهِ لِلجَاهِ فِي

(١) التَّوَى: الهلاك.

(٢) الشَّفِيقُ: الخائف.

(٣) فِي الْأَصْلِ: (مَكْتَفِيًّا).

(٤) اجْتَبَحَ: اسْتَوْصَلَ وَأَهْلَكَ.

قُلُوبِ الْأَبَاعِدِ، لِأَنَّهُ يُقَدَّرُ وُجُودَ سَبَبٍ يُزْعِجُهُ عَنِ وَطْنِهِ، أَوْ يُزْعِجُ أَوْلِيكَ إِلَيْهِ، فَيَحْتَاجُ إِلَى الْأَسْتِعَانَةِ بِهِمْ، وَمَتَى كَانَ ذَلِكَ مُمَكِّنًا كَانَ لِلنَّفْسِ فَرَحٌ وَالتِّدَادُ بِقِيَامِ الْجَاهِ فِي قُلُوبِ أَوْلِيكَ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَمْنِ عَنِ هَذَا الْخَوْفِ.

وأما السبب الثاني: فاعلم أن للنفس ميلاً إلى صفات بهيمية، كالأكل والجماع، وإلى صفات سبعية، كالقتل والضرب والإيذاء، وإلى صفات شيطانية، كالمكر والخداع، وإلى صفات ربوبية، كالعز والعلو والكبر، والإنسان لما فيه من الأمر الرباني يحب الربوبية بالطبع. ومعنى الربوبية: التوحد بالكمال، والتفرد بالوجود<sup>(١)</sup> على سبيل الاستقلال، إذ المشاركة في الوجود نقص لا محالة، بدليل أن كمال الشمس في وجودها وحدها، فلو كان معها شمس أخرى كان ذلك نقصاً في حقها، إذ لا تكون منفردة بكمال معنى الشمسية. والمنفرد بالوجود هو الله تعالى، إذ ليس معه موجود سواه، فإن ما سواه أثر من آثار قدرته، لا قوام له بذاته، بل هو قائم به، فلم يكن موجوداً معه؛ لأن المعية توجب المساواة في الرتبة، والمساواة في الرتبة نقصان في الكمال، إذ الكامل من لا نظير له في رتبته، فأشراق نور الشمس<sup>(٢)</sup> في الآفاق<sup>(٢)</sup> ليس نقصاناً في الشمس، بل هو من جملة كمالها، وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها في الرتبة، مع الاستغناء عنها، فذلك وجود كل ما في العالم يرجع إلى إشراق أنوار القدرة، فيكون تابعاً، ولا يكون معاً.

فإذن معنى الربوبية: التفرد بالوجود، وهو الكمال، وكل إنسان يحب بطبعه أن يكون منفرداً بالكمال، فإذا عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال، فهي محبة له، ومثلثة به لذاته، لا لمعنى آخر وراء الكمال.

وإن أكمل الكمال أن يكون وجود غيرك منك، فإن لم يكن منك فأن تكون مستولياً عليه، فصار الاستيلاء على الكل محبوباً بالطبع؛ لأنه نوع كمال، ولهذا

(١) سقطت من (ف).

(٢-٢) ليس في (ف).

يُحِبُّ الْإِنْسَانُ الْاِسْتِيْلَاءَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَفْلَاقِ، وَعَجَائِبِ الْبَحَارِ، وَكُلِّ صِنَاعَةٍ بِالْعِلْمِ، وَالْإِحَاطَةِ بِأَسْرَارِهَا؛ لِأَنَّ الْعَالِمَ بِالشَّيْءِ كَالْمَسْتَوِلِيِّ عَلَيْهِ، وَقَدْ يُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى أَغْرَاضِهِ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْاِسْتِيْلَاءِ عَلَى الْمَعْلُومَاتِ.

فَأَمَّا مَا يَتَصَوَّرُ لَهُ الْاِسْتِيْلَاءُ عَلَى ذَاتِهِ كَالْأَمْوَالِ وَالْعَبِيدِ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ الْاِسْتِيْلَاءَ عَلَى صُورِهَا، وَلِذَلِكَ أَحَبَّ الْاِسْتِيْلَاءَ عَلَى الْقُلُوبِ بِإِقَامَتِهِ الْجَاهَ عِنْدَهَا، فَمَهْمَا بَقِيَ مَعْلُومٌ أَوْ مَقْدُورٌ فَشَوْقُ الْإِنْسَانِ لَا يَسْكُنُ لِمَا يَطْلُبُهُ مِنَ الْكَمَالِ.

## بيان

### الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لا حقيقة له

اعلم أنَّ الكمالَ الحقيقيَّ العلمُ والحريةُ، أمَّا العلمُ فمعرفةُ الله سبحانه وتعالى، وأمَّا الحريةُ فالخلاصُ من أسْرِ الشهواتِ تشبُّهاً<sup>(١)</sup> بالملائكةِ، الذين لا تستفرُّهم شهوةٌ، ولا يستهويهم غضبٌ.

وللعبدِ طريقٌ إلى اكتسابِ كمالِ العلمِ وكمالِ الحريةِ، وذلك لا ينعدمُ بالموتِ، بل يبقى عنده كمالاً ووسيلةً إلى القربِ إلى الله تعالى، فأما قدرته على أعيانِ الأموالِ واستسْخارِ القلوبِ بالجاءِ، فهي منقطعةٌ بالموتِ.

فانظر إلى الجاهلين الذين طلبوا كمالَ القدرةِ بالمالِ والجاءِ، فذلك الكمالُ لا يسلمُ، وإن سَلِمَ فلا بقاءَ له، وأعرَضُوا عن كمالِ العلمِ والحريةِ الباقيين، وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة<sup>(٢)</sup> الدنيا بالآخرة.

فقد بانَ بما ذكرنا أنَّ كمالَ القدرةِ بالمالِ والجاءِ كمالٌ ظنيٌّ، لا أصلَ له، وأنَّ من قصرَ الوقتَ على طلبِ ذلك فهو جاهلٌ، إلا أن يُحصَلَ قَدْرُ البُلْغَةِ منهما إلى الكمالِ الحقيقيِّ.

(١) في (ف): (شبهاً).

(٢) سقطت من الأصل.

## بيان

### ما يُحَمَّدُ مِنْ حُبِّ الْجَاهِ وَيُذَمُّ

معلوم أنه لا بُدَّ مِنْ مَالٍ لضرورةِ المَطْعَمِ والملبَسِ، فكذلك لا بُدَّ مِنْ جَاهٍ لضرورةِ المعيشةِ مَعَ الخَلْقِ؛ لِأَنَّ الإنسانَ لَا يَخْلُو مِنَ الحَاجَةِ إِلَى سُلْطَانٍ يَحْرُسُهُ، وَرَفِيقٍ يُعِينُهُ، وَخَادِمٍ يَخْدُمُهُ، فَحُبُّهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَحَلٌّ فِي قَلْبِ سُلْطَانِهِ، لِيَحْتَهُ ذَلِكَ عَلَى دَفْعِ الشَّرِّ عَنْهُ، وَفِي قَلْبِ رَفِيقِهِ لِيُحْسِنَ مُرَافَقَتَهُ، وَفِي قَلْبِ خَادِمِهِ لِيُحْسِنَ خِدْمَتَهُ لَيْسَ بِمَذْمُومٍ؛ لِأَنَّ الجَاهَ وَسِيلَةٌ إِلَى الأَغْرَاضِ كَالْمَالِ، إِلَّا أَنَّ التَّحْقِيقَ فِي هَذَا يُفْضِي إِلَى أَنَّ<sup>(١)</sup> لَا يَكُونُ المَالُ وَالجَاهُ مَحْبُوبَيْنِ لِأَعْيَانِهِمَا، بَلْ كَمَا يُحِبُّ الإنسانُ أَنْ يَكُونَ فِي دَارِهِ بَيْتٌ مَاءٍ لضرورةِ قِضَاءِ الحَاجَةِ، وَقَدْ يُحِبُّهُمَا لِأَعْيَانِهِمَا، كَمَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ فِي الفُضْلِ المَتَقَدِّمِ، كَمَا يُحِبُّ شَخْصٌ زَوْجَتَهُ لَا لِنَفْسِ قِضَاءِ الشَّهْوَةِ مِنْهَا.

ومتى طلب قيام جاهه في القلوب لأجل صفةٍ هو مُتَّصِفٌ بِهَا كَانَ ذَلِكَ مُبَاحاً، كَقَوْلِ يوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ﴾ [يوسف: ٥٥]. أَوْ قَصْدَ إِخْفَاءِ عَيْبٍ مِنْ عَيْبِهِ، لِئَلَّا تَزُولَ مَنْزِلَتُهُ فَهُوَ مُبَاحٌ أَيْضاً.

فَأَمَّا إِذَا طَلَبَ المَنْزِلَةَ بِاعْتِقَادِهِمْ فِيهِ صِفَةٌ لَيْسَتْ فِيهِ، كَالعِلْمِ وَالعَمَلِ وَالتَّسَبُّبِ، فَذَلِكَ مَحْظُورٌ، وَكَذَلِكَ لِحُسْنِ الصَّلَاةِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، لِيَعْتَقِدُوا فِيهِ الخُشُوعَ، فَإِنَّهُ مُرَاءٍ بِذَلِكَ، وَكَمَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَمَلُّكُ المَالِ بِتَلْبِيسِ، فَلَا يَجُوزُ تَمَلُّكُ القُلُوبِ بِتَزْوِيرِ.

(١) فِي (ف): (يقتضى أن).

## بيان

السبب في حُبِّ المدح والثناء، وارتياح النفس به،  
وميل الطباع إليه وبُغضها للذمِّ ونفورها منه

اعلم أن لِحَبِّ المدح والتبذادِ القلبِ به أربعة أسباب:

السبب<sup>(١)</sup> الأوَّل: وهو الأقوى - شعور النفس بالكمال، فإنَّنا قد بينَّا أنَّ الكمال محبوبٌ، وكلُّ محبوبٍ فإدراكُه لذيد، فإذا شعرتِ النَّفسُ بكمالها ارتاحت وتلذذت.

والمدح يُشعرُ نفسَ الممدوح بكمالها، فإنَّ الوصف الذي به مُدح لا يخلو: إمَّا أن يكونَ جليًّا ظاهرًا،<sup>(٢)</sup> أو يكونَ مشكوكًا فيه، فإن كان جليًّا ظاهرًا<sup>(٢)</sup> كانت اللذة فيه أقلَّ، ولكنَّه لا يخلو عن لذة، كثنائه عليه بأنَّه طويلُ القامة، أبيضُ اللون، فإنَّ هذا نوعُ كمالٍ، ولكنَّ النَّفسَ تَغفلُ عنه، فيخلو عن لذته، فإذا أشعرت به لم يخلُ حدوثُ الشعورِ من حدوثِ لذة.

فإن كان ذلك الوصفُ ممَّا يتطرَّقُ إليه الشكُّ فاللذة فيه أعظم، كالثناء عليه بكمال العلم، وكمال الورع، أو بالحسن المطلق، فإنَّ الإنسانَ ربُّما يكونُ شاكًّا في كمالِ حسنه، وكمالِ علمه، وكمالِ ورعه، ويكونُ مُشتاقًا إلى زوالِ هذا الشكِّ، بأن يصيرَ مُستيقنًا، فإذا ذكَّرَ ذلكَ غيره أورهته ذلك طمأنينةً وثقةً باستشعارِ ذلك الجمال، فتعظَّمُ لذته.

وإنما تعظَّمُ اللذة إذا صدرَ الثناء من بصيرٍ بهذه الصفات، خبيرٍ بها، لا يُحرِّف في القول، وذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه بالذكاء وعزارة الفضل، وإن صدرَ ممَّن يُحرِّف في الكلام، أو لا يكونُ بصيرًا بذلك الوصف، ضعفت اللذة، وبهذه

(١) ليست في (ف).

(٢-٢) سقط من الأصل.

العلة يبغض الذم ويكرهه؛ لأنه يشعر الإنسان بنقصان نفسه، والنقصان ضد الكمال<sup>(١)</sup> المحبوب، فهو ممقوت، والشعور به مؤلم، ويعظم الألم إذا صدر الذم من بصير موثوق به كما ذكرنا في المدح.

السبب الثاني: أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح، وأنه معتقد فيه، ومملك القلوب محبوب، والشعور بحصوله لذيد، وبهذه العلة تعظم اللذة إذا صدر الشاء ممن تتسع قدرته، ويتسع باقتناص قلبه، كالمملك والأكابر، وتضعف إذا كان المثني لا يؤبه له، ولا يقدر على شيء؛ لأن القدرة على قلب هذا قدرة على أمر حقيق، فلا يدل المدح إلا على قدرة قاصرة، وبهذه العلة أيضاً يكره الذم، ويتألم به القلب، وإذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم؛ لأن الفأنت منه أعظم.

السبب الثالث: أن ثناء المثني ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه، لا سيما إذا كان ذلك ممن يلتفت إلى قوله، ويعتد بثنائه، وهذا يختص بثناء يقع بين الملأ، وكلما كان الجمع أكثر<sup>(٢)</sup> والمثني أجدر بأن يلتفت إلى قوله كان المدح ألد، والذم على النفس أشد.

السبب الرابع: أن المدح يدل على حشمة الممدوح، واضطراره المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء عليه، إما عن طوع، وإما عن قهر، فإن الحشمة أيضاً لذيدة، لما فيها من القهر والقدرة، وهذه اللذة تحصل وإن كان المادح لا يعتقد في الباطن ما قدح به، ولكن كونه مضطراً إلى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه، فلا جرم<sup>(٣)</sup> تكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته، فتكون لذة ثناء القوي الممتنع عن التواضع بالثناء أشد.

فهذه الأسباب الأربعة قد تجتمع في مدح مادح واحد، فيعظم بها الالتداد، وقد تفرق، فتتفص<sup>(٤)</sup> اللذة بها.

(١) ليست في النسخ، واستدركت من الإحياء.

(٢) ليست في الأصل.

(٣) لا جرم: لا بد، أو حقاً، أو لا محالة، ثم كثر استعمالها حتى تحولت إلى معنى القسم.

(٤) سقطت من النسخ، واستدركت من الإحياء.

وأما العلة الأولى: وهي استشعار الكمال، فتندفع بأن يعلم الممدوح أن المادح غير صادق في مدحه، كما إذا مدح بأنه عالم بكذا، أو سخي، وهو يعلم من نفسه ضد ذلك، فتزول اللذة التي سببها استشعار الكمال، وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه، وبقية اللذات.

فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله بطلت اللذة الثانية، وهي استيلاؤه على قلبه، وبقية لذة الاستيلاء بالحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالثناء، فإن لم يكن ذلك عن خوف، بل كان بطريق اللعب بطلت اللذات كلها، لفوات الأسباب الثلاثة.

فها ما يكشف الغطاء عن علة التذاذ النفس بالمدح، وتألمها بالذم، وإنما ذكرناه لتعرف طريق العلاج لحب الجاه، وحب المحمدة، وخوف المذمة، فإن ما لا يعرف سببه لا يمكن معالجته، إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض.

## بيان

### علاج حُبِّ الجاه

اعلم أَنَّ مَنْ غَلَبَ عَلَى قَلْبِهِ حُبُّ الْجَاهِ، صَارَ مَقْصُورَ الْهَمِّ عَلَى مُرَاعَاةِ الْخَلْقِ، مَشْغُوفًا بِالتَّوَدُّدِ إِلَيْهِمْ، وَالْمُرَاعَاةِ لَهُمْ، وَلَا يَزَالُ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ مُلْتَفِتًا إِلَى مَا يُعْظَمُ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَهُمْ، وَذَلِكَ بَذْرُ النَّفَاقِ، وَأَصْلُ الْفَسَادِ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ طَلَبَ الْمَنْزِلَةَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ، اضْطُرَّ إِلَى أَنْ يُنَافِقَهُمْ، بِإِظْهَارِ مَا هُوَ خَالٍ عَنْهُ، وَيَجْرُ ذَلِكَ إِلَى الْمُرَاعَاةِ بِالْعِبَادَاتِ، وَاقْتِحَامِ الْمَحْظُورَاتِ، لِلتَّوَصُّلِ إِلَى اقْتِنَاصِ الْقُلُوبِ، وَلِذَلِكَ شَبَّهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حُبَّ الْمَالِ وَالشَّرْفِ، وَإِفْسَادَهُمَا لِلدِّينِ بِذُبْيَيْنِ ضَارِيَيْنِ<sup>(١)</sup>، فَحُبُّ الْجَاهِ إِذَا مِنَ الْمُهْلِكَاتِ، فَيَجِبُ عِلاجُهُ، وَعِلاجُهُ مُرَكَّبٌ مِنْ عِلْمٍ وَعَمَلٍ.

أَمَّا الْعِلْمُ: فَهُوَ أَنْ يَعْلَمَ السَّبَبَ الَّذِي لِأَجْلِهِ أَحَبَّ الْجَاهَ، وَهُوَ كِمَالُ الْقُدْرَةِ عَلَى إِخْلَاصِ النَّاسِ وَعَلَى قُلُوبِهِمْ، وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ ذَلِكَ إِنْ صَفَى وَسَلِمَ فَأَخْرَجَهُ الْمَوْتَ، وَسَيَهْلِكُ عَنْ قَرِيبٍ ذُو الْجَاهِ وَمَنْ دَلَّ لَهُ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُتْرَكَ بِهَذَا الدِّينِ الَّذِي هُوَ الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ.

وَمَنْ فَهَمَ الْكِمَالَ الْحَقِيقِيَّ وَالْكِمَالَ الْوَهْمِيَّ، كَمَا سَبَقَ، صَغُرَ الْجَاهُ فِي عَيْنِهِ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَصْغُرُ فِي عَيْنِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى الْآخِرَةِ كَأَنَّهُ يُشَاهِدُهَا، كَمَا كَتَبَ الْحَسَنُ إِلَى عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: أَمَّا بَعْدُ، فَكَأَنَّكَ بِأَخْرٍ مِنْ كُتِبَ عَلَيْهِ الْمَوْتُ قَدْ مَاتَ، فَانظُرْ كَيْفَ مَدَّ نَظْرَهُ نَحْوَ الْمُسْتَقْبَلِ فَكُتِبَ إِلَيْهِ عَمْرٌ فِي جَوَابِهِ: أَمَّا بَعْدُ فَكَأَنَّكَ بِالْدُنْيَا لَمْ تَكُنْ، وَبِالْآخِرَةِ لَمْ تَزَلْ. فَهؤُلاءِ كَانَ التِّفَاتُهُمْ إِلَى الْعَاقِبَةِ لِلْمُتَّقِينَ، فَاحْتَفَرُوا الْمَالَ وَالْجَاهَ، وَأَبْصَارُ أَكْثَرِ النَّاسِ ضَعِيفَةٌ، مَقْصُورَةٌ عَلَى الْعَاجِلَةِ، لَا يَمْتَدُّ نُورُهَا إِلَى مُشَاهَدَةِ الْعَوَاقِبِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

وَمَنْ هَذَا حَدُّهُ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُعَالَجَ قَلْبَهُ مِنْ حُبِّ الْجَاهِ، بِالْعِلْمِ بِالْآفَاتِ الْعَاجِلَةِ، وَهُوَ أَنْ يَتَفَكَّرَ فِي الْأَخْطَارِ، الَّتِي يُسْتَهْدَفُ لَهَا أَرْبَابُ الْجَاهِ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ كُلَّ ذِي جَاهٍ مُحْسُودٌ، وَمَقْصُودٌ بِالْإِيذَاءِ، وَخَائِفٌ عَلَى الدَّوَامِ عَلَى جَاهِهِ، وَمُحْتَرِزٌ مِنْ أَنْ تَتَغَيَّرَ مَنْزِلَتُهُ فِي الْقُلُوبِ، وَالْقُلُوبُ أَشَدُّ تَغْيِيرًا مِنَ الْقَدْرِ فِي غَلْيَانِهَا، وَهِيَ مُرَدَّةٌ بَيْنَ الْإِقْبَالِ وَالْإِعْرَاضِ، فَكُلُّ مَا يُبْنَى عَلَى قُلُوبِ الْخَلْقِ، يُضَاهِي مَا يُبْنَى عَلَى أَمْوَاجِ الْبَحْرِ، فَإِنَّهُ لَا ثَبَاتَ لَهُ، وَالْأَشْتِعَالُ بِمِرَاعَةِ الْقُلُوبِ، وَحِفْظُ الْجَاهِ، وَدَفْعُ كَيْدِ الْحُسَّادِ، وَمَنْعُ أَذَى الْأَعْدَاءِ، كُلُّ ذَلِكَ غُمُومٌ عَاجِلَةٌ، وَمُكَدَّرَةٌ لَدَّةَ الْجَاهِ، فَلَا يَفِي مَرْجُوُّ الدُّنْيَا<sup>(١)</sup> بِمُخَوِّفِهَا، فَضَلًّا عَمَّا يَفُوتُ فِي الْآخِرَةِ، فَبِهَذَا يَنْبَغِي أَنْ تُعَالَجَ الْبَصِيرَةُ الضَّعِيفَةُ. وَأَمَّا مَنْ نَفَذَتْ بَصِيرَتُهُ، وَقَوِيَ إِيمَانُهُ، فَإِنَّهُ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى الدُّنْيَا، فَهَذَا هُوَ الْعِلَاجُ مِنْ حَيْثُ الْعِلْمُ.

وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ الْعَمَلُ: فَاسْقَاطُ الْجَاهِ مِنْ قُلُوبِ الْخَلْقِ بِأَفْعَالٍ تَوْجِبُ ذَلِكَ، كَمَا رَوَيْنَا أَنَّ بَعْضَ الْمُلُوكِ قَصَدَ زِيَارَةَ رَجُلٍ زَاهِدٍ، فَلَمَّا قَرَّبَ مِنْهُ اسْتَدْعَى الزَّاهِدُ طَعَامًا وَقَبْلًا وَلَبَنًا، وَأَخَذَ يَأْكُلُ بِشَرِّهِ، وَيُعْظِمُ اللَّقْمَةَ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ الْمَلِكُ سَقَطَ مِنْ عَيْنِهِ. وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيَّ لَمَّا أُرِيدَ لِلْقَضَاءِ لَيْسَ قَمِيصًا أَحْمَرَ وَقَعَدَ فِي السُّوقِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ انْقِطَاعَ الزَّاهِدِ عَنِ النَّاسِ يُوجِبُ لَهُ جَاهًا عِنْدَهُمْ، فَإِذَا خَافَ مِنْ ذَلِكَ الْفِتْنَةِ فَلْيُخَالِطْهُمْ عَلَى وَجْهِ السَّلَامَةِ، وَلِيَمِشَ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلِيَسْتَرِ حَاجَتَهُ وَيَحْمِلَهَا، وَلِيَقْطَعُ طَمَعَهُ مِنْ دُنْيَاهُمْ، وَقَدْ تَمَّ مُرَادُهُ، وَقَدْ كَانَ بِشَرِّ الْحَافِي يَجْلِسُ إِلَى عِطَارٍ، وَمَا كَانُوا يُرَاعُونَ نَوَامِيسَ الْمُتَزَهِّدِينَ الْيَوْمَ.

(١) فِي (ف): (الْآخِرَةِ).

## بيان

## وجه العلاج لحُبِّ المدح وكرهه الذم

اعلم أن أكثر الناس إنما هلكوا بخوف مذمة الناس<sup>(١)</sup>، وحب مدحهم، فصارت حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس، رجاء للمدح، وخوفاً من الذم، وذلك من المهلكات، فوجب معالجته، وطريق ذلك ملاحظة الأسباب التي لأجلها يحب المدح ويكره الذم:

أما السبب الأول: فهو استشعار الكمال بسبب قول المادح، فطريقك فيه أن ترجع إلى عقلك، وتنظر: هل أنت متصف بما وصفك به؟ فإن كنت متصفاً بتلك الصفة، فانظر: هل هي صفة لا يصلح أن يفرح بها كالجاه والمال؟ فإنه كالفرح بنبات الأرض، الذي يصير عن قليل هشياً، وهذا يكون من قلة العقل، بل العاقل يقول:

أشد الغم عندي في سرورٍ      تيقن عنه صاحبُه انتقالا<sup>(٢)</sup>  
فلا ينبغي للعاقل أن يفرح بعرض الدنيا، فإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بها.

وإن كانت الصفة مما يفرح بها كالعلم والورع، فينبغي أن يحذر من الخاتمة، فإن في الخوف منها شغلاً عن الفرح، والدنيا دار غموم، لا دار سرور، ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة، فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى، لا بمدح المادح، فإن اللذة في استشعار الكمال، والكمال موجود من فضل الله لا من المدح، والمدح تابع له، فلم تفرح بالمدح والمدح لا يزيدك فضلاً؟

(١) في الأصل: (الخلق).

(٢) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٣/٣٤١.

وإن كنتَ خالياً عن الصِّفَةِ التي مُدِحَتْ بها ففرحُكَ بالمدحِ غايةُ الجُنونِ،  
ومثلُكَ مثالٌ من قيل له: ما أطيَّبَ ريحَ عَذْرَتِكَ<sup>(١)</sup> ففرحَ بذلك<sup>(٢)</sup>.

فإذا إن صدقَ المادِحُ، فليكن فرحُكَ بِصِفَتِكَ التي هي من فضلِ اللهِ عليك، وإن  
كذَّبَ فينبغي أن يَعْمَكَ ذَلِكَ.

وأما السببُ الثاني: وهو دَلالةُ المدحِ على تَسخِيرِ قلبِ المادِحِ، وكونه سبباً  
لِتَسخِيرِ قلبِ آخر، فهذا يَرِجِعُ إلى حُبِّ الجاهِ والمنزلةِ في القلوبِ، وقد سبقَ ذِكْرُ  
معالجته، وذلك بِقَطْعِ الطَّمَعِ وطلبِ المنزلةِ عندَ الله، وبأنَّ تَعَلَّمَ أَنَّ طَلَبَكَ المنزلةَ  
في قُلُوبِ الناسِ يُسَقِطُ منزلَتَكَ عندَ الله، فكيف تَفْرَحُ؟

وأما السببُ الثالث: وهو الحِشْمَةُ التي اضْطَرَّتْ المادِحِ إلى المدحِ، فهو يَرِجِعُ  
إلى قُدْرَةِ عارِضَةٍ لا ثباتَ لها، ولا تَسْتَحِقُّ الفَرَحَ، بل يَنبَغِي أن يَعْمَكَ مَدْحُ المادِحِ  
وتَكَرُّهُ؛ لأنَّ آفةَ المدحِ على الممدوحِ عَظِيمَةٌ، كما ذكرنا في كتابِ آفاتِ اللسانِ،  
وكانَ السَّلَفُ يَنْفَرُونَ مِنَ المدحِ، وَيَغْضَبُونَ على المادِحِ.

(١) العَذْرَةُ: الغائِطُ.

(٢) ليست في (ف).

## بيان

### علاج كراهية الذم

قد سبق أنَّ العِلَّةَ في كراهية الذمِّ، هي ضدُّ العِلَّةِ في حُبِّ المدح، فعِلاجُهُ يُفهم من ذلك، والقولُ الوجيزُ فيه، أنَّ مَنْ دَمَّمَكَ لا يَخْلُو مِنْ «ثلاثةِ أحوال»<sup>(١)</sup>:

١ - أن يكونَ قد صدقَ فيما قال، وقصدَ النَّصْحَ والسَّفَقَةَ، فينبغي أن تتقلدَ مِنَّتَهُ، ولا تغضب، فإنَّ مَنْ أهدى<sup>(٢)</sup> إليك عُيُوبَكَ فقد حَذَرَكَ المِهالِكِ، ثُمَّ اسْتَغْلُ بِإِزَالَةِ ما دَمَّمَكَ بِهِ.

٢ - وإن كانَ قَصْدُهُ العيبَ فقد جنى هو على دينه، وانتفعت أنت بقوله؛ لأنَّه قد عَرَّفَكَ ما لم تَعْرِفْ، وأذكَرَكَ مِنْ خَطاياك<sup>(٣)</sup> ما نَسِيتَ.

٣ - وإن افترى عليك ما أنت منه بريءٌ، فينبغي أن تتفكرَ في ثلاثةِ أشياء:

أحدها: أنَّكَ إنْ خَلَوْتَ مِنْ ذَلِكَ العيبِ، فَمَا تَخْلُو مِنْ أمثاله، وما سترَ اللهُ مِنْ عُيُوبِكَ أَكْثَرَ، فاشكُرِ اللهُ إذْ لم يُطْلِعْهُ على عُيُوبِكَ، ودَفَعَهُ عَنْكَ بِذِكْرِ ما أنت بريءٌ منه.

والثاني: أنَّ ذَلِكَ كَفَّاراتٌ لذنوبِكَ.

والثالث: أنَّه جنى على دينه، وتعرَّضَ لِغَضَبِ اللهِ، فينبغي أن تَسألَ اللهُ العَفْوَ عنه، لِئلا تكونَ عَوْنًا لِلشَّيْطَانِ عليه.

وقد رَوَيْنَا أنَّ رجلاً شَجَّ رَأْسَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدَهَمَ، فدعى له بالمغفرة، وقال: صِرْتُ ما جَوراً بسببه، فلا أَجْعَلْهُ مُعاقِباً بسببي.

(١-١) ليست في النسخ، واستدركت من الإحياء.

(٢) تحرفت في (ف) إلى: (اهتدى).

(٣) في الأصل: (خطأك).

## بيانُ اختلافِ أحوالِ الناسِ في الذمِّ والمدحِ

عمومُ الناسِ على حُبِّ المدحِ وكرهيةِ الذمِّ، إلَّا أنَّ أربابَ الرِّياضةِ نظروا في العواقبِ، فقدَّموا مصالحَ دينهم على أغراضِ نفوسهم، فصاروا يكرهون المدحَ، لِمَا يخافون من عاقبته، ويؤثرون الذمَّ لتبُّههم به على عُيوبهم، وهذه كراهةُ إيمانٍ، وإيثارُ إيمانٍ، والطبعُ عن ذلك بِمَعزِلٍ، ورُبِّما صعدتِ الرِّياضةُ بصاحبه<sup>(١)</sup> إلى أن يُوافق الطبعَ على ما ليس من عادته، كما قال بعضهم: دافعتُ الشهواتَ، حتى صارتْ شهوتي المُدافعةَ.

(١) أي: بصاحب الطبع.

## الشرط الثاني من الكتاب

### في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات وهو الرياء

وفيه: بيانُ ذمِّ الرِّياءِ، وبيانُ حقيقةِ الرِّياءِ، وما يُرأى به، وبيانُ درجاتِ الرِّياءِ، وبيانُ الرِّياءِ الخفيِّ، وبيانُ ما يُحبِطُ العملَ مِنَ الرِّياءِ وما لا يُحبِطُ، وبيانُ دواءِ الرِّياءِ وعلاجه، وبيانُ الرُّخصةِ في إظهارِ الطاعاتِ،<sup>(١)</sup> وبيانُ الرُّخصةِ في كِتْمَانِ الذُّنُوبِ، وبيانُ تَرْكِ الطَّاعاتِ<sup>(٢)</sup> خَوْفاً مِنَ الرِّياءِ والآفاتِ، وبيانُ ما يَصِحُّ مِنْ نشاطِ العبدِ للعبادةِ بِسَبَبِ رُؤْيَةِ الخلقِ، وبيانُ ما يَجِبُ على المُريدِ أَنْ يُلْزِمَهُ قَلْبَهُ قَبْلَ الطَّاعَةِ وبعدها، وهي عَشْرَةُ فُصُولٍ.

## بيان

### دَمَّ الرِّبَاءُ

اعلم أن الرِّبَاءَ حرامٌ، والمُرَائِي عندَ الله ممقوتٌ، وقد شهد بذلك الآيات والأخبارُ.

فمن الآياتِ: قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ [الماعون: ٣-٦]. وقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

ومن الأخبار: ما أخبرنا به ابنُ الحُصَيْنِ، قال: أخبرنا ابنُ المُذْهَبِ، قال: أخبرنا أحمدُ بنُ جعفرٍ، قال: حدثنا عبدُ الله بنُ أحمدَ، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا حجاجُ، عن ابنِ جريجٍ، قال: حدثني يونسُ بنُ يوسفَ، عن سليمانَ بنِ يسارٍ، قال: تفرَّجَ الناسُ عن أبي هريرةَ، فقال له نائلٌ<sup>(١)</sup> الشاميُّ: أيُّها الشيخُ، حدثنا حديثاً سمعته من رسولِ الله ﷺ<sup>(٢)</sup> فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول<sup>(٢)</sup>: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى فِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ، فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى قُتِلْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ، فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: مَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ فِيكَ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. فَقَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ: هُوَ عَالِمٌ، فَقَدْ قِيلَ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ

(١) تصحف في النسخ إلى (نائل)، وهو نائل بن زيد بن قيس الشامي. تهذيب الكمال ٢٩/

عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: مَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ فَقَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَيَّ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ»<sup>(١)</sup>. انفرد بإخراجه مُسْلِمٌ.

وفي أفراده من حديث أبي هريرة أيضاً، عن النبي ﷺ، يرويه عن ربه عز وجل، أنه قال: «أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً فأشرك فيه غيري، فأنا بريء منه، وهو للذي أشرك»<sup>(٢)</sup>.

أخبرنا هبة الله بن محمد، قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي، قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا يونس، قال: حدثنا ليث، عن يزيد - يعني ابن الهادي<sup>(٣)</sup> - عن عمرو، عن محمود بن لبيد، أن رسول الله ﷺ قال: إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء، يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»<sup>(٤)</sup>.

وقال أبو العالية: قال لي أصحاب رسول الله ﷺ: لا تعمل لغير الله، فيكلك الله إلى من عملت له.

وقال الربيع بن خثيم: كل ما لم يرد به وجه الله عز وجل يضمحل فيذهب.

وقال سفيان بن عيينة: من تزين للناس بشيء يعلم الله منه غيره شانه الله.

(١) أخرجه أحمد (٨٢٧٧)، ومسلم (١٩٠٥)، والنسائي في الكبرى (٤٣٣٠) و(١١٤٩٥).

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٩٩) بهذا اللفظ، ومسلم (٢٩٨٥)، وابن خزيمة (٩٣٨)، وابن حبان

(٣٩٥)، والطيالسي (٢٥٥٩)، وابن ماجه (٤٢٠٢)، والبيهقي في الشعب (٦٨١٦).

(٣) تحرف في (ف) إلى: (العاد).

(٤) أخرجه أحمد (٢٣٦٣٠) و(٢٣٦٣١) و(٢٣٦٣٦)، والبخاري في شرح السنة (٤١٣٥) وابن

أبي شيبة ٢/٤٨١، وابن خزيمة (٩٣٧).

وقال بشر الحافي: لأن أطلب الدنيا بمزمارٍ أحب إليّ من أن أطلبها بالدين.

أخبرنا أبو منصور القزاز، قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي، قال: حدثني علي بن أبي علي المعدل، قال: حدثنا أبو بكر ابن أبي موسى القاضي، وأبو إسحاق الطبري، وغيرهما، قالوا: سمعنا أبا جعفر عبد الله بن إسماعيل بن برية يقول: رأيت أبا بكر الأدمي القارئ في النوم بعد موته يمد يده، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: وقفني بين يديه، وقاسيتُ شدايد وأموراً صعبةً. فقلت له: فتلك الليالي والمواقف والقرآن؟ فقال: ما كان شيءٌ أضرَّ عليّ منها؛ لأنها كانت للدنيا. فقلت له: فإلى أي شيء انتهى أمرك<sup>(١)</sup>؟ قال: قال لي تعالى: آليت على نفسي أن لا أعدب أبناء الثمانين.

(١) سقطت من (ف).

## بيان

### حقيقة الرياء وما يُرائى به

اعلم أَنَّ الرِّيَاءَ مُشْتَقٌّ مِنَ الرُّؤْيَةِ، وَالسُّمْعَةَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ السَّمَاعِ، فَالْمُرَائِي يُرِي النَّاسَ مَا يَطْلُبُ بِهِ الْحُظُوعَةَ عِنْدَهُمْ.

وَيَجْمَعُ ذَلِكَ خَمْسَةَ أَقْسَامٍ، هِيَ مَجَامِعُ مَا يَتَزَيَّنُّ بِهِ الْعَبْدُ لِلنَّاسِ: الْبَدَنُ، وَالرِّيُّ، وَالْقَوْلُ، وَالْعَمَلُ، وَالْأَتْبَاعُ وَالْأَشْيَاءُ الْخَارِجَةُ.

وَأَهْلُ الدُّنْيَا يُرَاؤُونَ بِهَذِهِ الْخَمْسِ، إِلَّا أَنَّ طَلَبَ الْجَاهِ وَقَصْدَ الرِّيَاءِ بِأَعْمَالٍ لَيْسَتْ مِنْ جُمْلَةِ الطَّاعَاتِ أَهْوَنُ مِنَ الرِّيَاءِ بِالطَّاعَاتِ.

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: الرِّيَاءُ فِي الدِّينِ مِنْ جِهَةِ الْبَدَنِ، بِإِظْهَارِ النُّحُولِ وَالصَّفَارِ<sup>(١)</sup>، لِيُرِيَهُمْ بِذَلِكَ شِدَّةَ الاجْتِهَادِ، وَعَلَبَةَ خَوْفِ الْآخِرَةِ، وَلِيَدُلَّ بِالنُّحُولِ عَلَى قَلَّةِ الْأَكْلِ، وَبِالصَّفَارِ عَلَى سَهْرِ اللَّيْلِ، وَكَثْرَةِ الاجْتِهَادِ، وَكَذَلِكَ يُرَائِي بِشَعَثِ الشَّعْرِ، لِيَدُلَّ بِهِ عَلَى اسْتِعْرَاقِ الْهَمِّ بِالدِّينِ، وَعَدَمِ التَّفَرُّغِ لِتَسْرِيحِ الشَّعْرِ، فَهَذِهِ الْأَسْبَابُ إِذَا ظَهَرَتْ اسْتَدَلَّ النَّاسُ بِهَا عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ، فَارْتَاخَتِ النَّفْسُ لِمَعْرِفَتِهِمْ، فَالنَّفْسُ تَدْعُو إِلَى إِظْهَارِهَا لِتَنَالَ تِلْكَ الرَّاحَةَ.

وَيَقْرُبُ مِنْ هَذَا خَفْضُ الصَّوْتِ، وَإِغَارَةُ الْعَيْنَيْنِ، وَدُبُولُ الشَّفَتَيْنِ، لِيُسْتَدَلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ مُوَاطِبٌ عَلَى الصَّوْمِ، وَأَنَّ تَوْقِيرَ الشَّرْعِ هُوَ الَّذِي خَفَضَ مِنْ صَوْتِهِ، وَشِدَّةَ الْجُوعِ هِيَ الَّتِي وَهَنْتْ قُوَاهُ، وَلِهَذَا قَالَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِذَا صَامَ أَحَدُكُمْ فَلْيُدْهِنْ رَأْسَهُ وَيُرْجِلْ شَعْرَهُ<sup>(٢)</sup> وَذَلِكَ لِمَا يُخَافُ عَلَى الصَّائِمِ مِنَ آفَاتِ الرِّيَاءِ، فَهَذِهِ مُرَاءَاةُ أَهْلِ الدِّينِ بِالْبَدَنِ.

(١) تحرفت في (ف) إلى: (الصفات).

(٢) الزهد لأحمد ص: ٧٤.

وأما أهل الدنيا فيُراوون بإظهار السمن، وصفاء اللون، واعتدال القامة، وحسن الوجه، ونظافة البدن.

القسم الثاني: الرياء بالزِّيِّ والهيئة؛ أما الهيئة فتشعبت شعر الرأس، وحلق الشارب، والإطراق<sup>(١)</sup> في حالة المشي، وإبقاء أثر السجود على الوجه، وغلظ الثياب، ولبس الصوف، وتشميرها كثيراً، وتقصير الأكمام، وترك الثوب مُحَرَّقاً، غير نظيف، كل ذلك ليُظهر من نفسه أنه مُتَّبِعٌ لِلسُّنَّةِ، ومُتَّقِدٌ<sup>(٢)</sup> بالصلحين.

ومن ذلك لبس المُرَقَّعة، والثياب الزُّرْقِ تشبهاً بالصوفيَّة، مع الإفلاس من صفاتهم في الباطن.

ومنه التَّقَنُّعُ فوق العِمَامَةِ لا تَقَاءَ غُبَارِ الطَّرِيقِ، ولِتَنْصَرِفَ إِلَيْهِ الْأَعْيُنُ بِتَمَيِّزِهِ بِتِلْكَ الْعَلَامَةِ، وكذلك لبس الطَّيْلَسَانِ لمن ليس من العلماء، ليوهم أنه منهم.

والمرأؤون بالزِّيِّ على طبقات، فمنهم من يطلب المنزلة عند أهل الصَّلاح بإظهار التَّزْهُدِ<sup>(٣)</sup>، فيلبس الثياب المُحَرَّقة الغليظة، الوسيحة القصيرة، ليرائي بغلظها وقصرها، ووسخها وتخرُّقها، ولو كُلف أن يلبس ثوباً وسطاً نظيفاً، مما كان السلف يلبسونه، لكان عنده بمنزلة الذبح، لخوفه أن يقول الناس: قد بدا له من الزُّهد، وقد رجع عن تلك الطريقة.

وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصَّلاح، وعند أهل الدنيا من الملوك والتجار، فلو أنهم لبسوا الثياب الفاخرة، لم يقبلهم القراء، ولو لبسوا الثياب المُحَرَّقة الدنيئة، لازدرتهم أعين الملوك والأغنياء، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا، فيطلبون الأصواف الدقيقة، والأكسية الرقيقة، والفوط الرفيعة، فيلبسونها، ولعلَّ قيمة ثوب أحدهم قيمة ثوب الغني، ولونه وهيئته لون ثياب الصلحاء، فيلمسون القبول عند الفريقين.

(١) تصحفت في الأصل إلى: (الأطراف).

(٢) تحرفت في الأصل إلى: (معتقد).

(٣) في الأصل: (الزهد).

وهؤلاء لو كُلفوا لبَسَ ثوبٍ حَشيٍّ أو وَسِخٍ لكانَ عِندَهُم كالدَّبْحِ، خَوْفاً مِنَ السَّقُوطِ مِنْ أَعْيُنِ المَلُوكِ والأَغْنِياءِ<sup>(١)</sup>، ولو كُلفوا لبَسَ الدَّبِيقِي<sup>(٢)</sup>، والكَتَّانِ الرَّقِيقِ الأَبْيَضِ، أو القَصَبِ<sup>(٣)</sup> المَعْلَمِ - وإنْ كانتَ قِيمَتُهُ دُونَ قِيمَةِ ثِيابِهِم - لَعَظَمَ عَلَيْهِم ذَلِكَ، خَوْفاً مِنْ أَنْ يَقُولَ أَهْلُ الصَّلَاحِ: قَدْ رَغِبُوا فِي زِيِّ أَهْلِ الدُّنْيَا.

وَكُلُّ مَنْ رَأَى مَنزِلَتَهُ تَثَبَّتْ لَهُ بِزِيٍّ مَخْصُوصٍ، ثَقُلَ عَلَيْهِ الاِنتِقَالُ إِلَى ما دُونَهُ، أو فَوْقَهُ خَوْفاً مِنَ المَذْمَةِ.

وَأَمَّا أَهْلُ الدُّنْيَا فَمُرَّاءُ أَتَهُمُ بِالثِّيَابِ النَّفِيسَةِ، وَالمَرَاكِبِ الرَّفِيعَةِ، وَأَنْواعِ التَّجْمِلِ فِي المَلْبَسِ وَالمَسْكَنِ وَأَثاثِ البَيْتِ، وَهَمُ يَلْبَسُونَ فِي بِيوتِهِمُ الثِّيَابَ الحَشيَّةَ، وَيَسْتَدُّ عَلَيْهِمُ لو بَرَزُوا بِتِلْكَ الهَيْئَةِ.

القِسْمُ الثَّالِثُ: الرِّياءُ بالقَوْلِ، وَرِياءُ أَهْلِ الدِّينِ بِالوَعْظِ وَالتَّذْكِيرِ، وَحِفْظُ الأَخْبَارِ وَالأَثَارِ لِأَجْلِ المُحَاوَرَةِ، إِظْهَاراً لِعِزَّازَةِ العِلْمِ، وَدَلالَةً عَلَى شِدَّةِ العِنايةِ بِأَحْوالِ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ، وَتَحْريكِ الشَّفَتَيْنِ بِالدُّكْرِ فِي مَحْضَرِ النَّاسِ، وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المَنْكَرِ بِمَشْهَدِ الحَلْقِ، وَإِظْهَارِ العَضْبِ لِلْمُنْكَرَاتِ، وَالأَسْفِ عَلَى مُقارِفَةِ النَّاسِ المَعاصِي، وَخَفْضِ الصَّوْتِ فِي الكَلَامِ، وَتَرْفِيقِهِ بِقِراءَةِ القُرْآنِ، لِيَدُلُّوا بِذَلِكَ عَلَى الحُزْنِ وَالخَوْفِ، وَادِّعَاءِ حِفْظِ الحَدِيثِ وَلِقَاءِ الشُّيُوخِ، وَقَصْدِ إِفْحامِ المُنَاطِرِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ. وَأَمَّا أَهْلُ الدُّنْيَا، فَمُرَّاءُ أَتَهُمُ بِحِفْظِ الأَشْعارِ وَالأَمْثالِ، وَالتَّفَاصُحِ فِي الكَلَامِ، وَحِفْظِ العَرِيبِ لِلإِغْرابِ، وَإِظْهَارِ التَّوَدُّدِ إِلَى النَّاسِ لِاسْتِمالَةِ القُلُوبِ.

القِسْمُ الرَّابِعُ: الرِّياءُ بِالعَمَلِ، كَمُرَّاءَةِ المُصَلِّي بِطُولِ القِيامِ وَمَدِّهِ، وَتَطْوِيلِ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَإِطْراقِ الرُّأْسِ، وَتَرْكِ الأَلْتِفَاتِ، وَإِظْهَارِ الحُشُوعِ، وَتَسْوِيَةِ

(١) سقطت من (ف).

(٢) الدَّبِيقِي من الثياب: نسبة إلى دبيق، بلدة كانت من قرى دمياط بمصر تُعمل فيها الثياب الرقيقة.

(٣) القصب: ثياب ناعمة رقيقة من الكتان، وأحدها: قَصْبِي.

الْقَدَمِينَ وَالْيَدَيْنِ، وَكَذَلِكَ بِالصَّوْمِ وَالْعَزْوِ، وَالْحَجِّ وَالصَّدَقَةِ، وَإِطْعَامِ الطَّعَامِ، وَالْإِخْبَاتِ فِي الْمَشْيِ، كَارْخَاءِ الْجُفُونِ، وَتَنْكيسِ الرَّأْسِ، حَتَّى إِنَّ الْمُرَائِيَّ قَدْ يُسْرِعُ فِي حَاجَتِهِ، فَإِذَا رَأَهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ، رَجَعَ إِلَى الْوَقَّارِ، خَوْفًا مِنْ أَنْ يَنْسِبَهُ إِلَى الْعَجَلَةِ وَقِلَّةِ الْأَدَبِ، فَإِذَا غَابَ الرَّجُلُ عَادَ إِلَى عَجَلَتِهِ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَكَلَّفُ هَذِهِ الْمِشْيَةَ فِي الْخَلْوَةِ، لِيَلَّا يُعَيَّرَهَا فِي حَالِ الْجَلْوَةِ<sup>(١)</sup>، وَهَذَا قَدْ صَارَ مُرَائِيًّا فِي الْخَلْوَةِ أَيْضًا؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا حَسَّنَهَا فِي الْخَلْوَةِ، لِيَكُونَ كَذَلِكَ فِي الْجَلْوَةِ.

وَأَمَّا أَهْلُ الدُّنْيَا، فَمُرَاءَاتُهُمْ بِالْتَّبَخُّرِ وَالْإِخْتِيَالِ، وَتَحْرِيكِ الْيَدَيْنِ<sup>(٢)</sup>، وَتَقْرِيْبِ الْخُطَا، وَالْأَخْذِ بِأَطْرَافِ الذَّلِيلِ، وَإِدَارَةِ الْعِظْمَيْنِ<sup>(٣)</sup>، لِيَدُلُّوا بِذَلِكَ عَلَى الْحَشْمَةِ.

الْقِسْمُ الْخَامِسُ: الْمُرَاءَةُ بِالْأَصْحَابِ وَالرَّائِرِينَ وَالْمُخَالِطِينَ، كَالَّذِي يَتَكَلَّفُ أَنْ يَسْتَزِيرَ عَالِمًا، لِيُقَالَ: إِنَّ فُلَانًا قَدْ زَارَ فُلَانًا. أَوْ عَابِدًا، لِيُقَالَ: إِنَّ أَهْلَ الدِّينِ يَتَبَرَّكُونَ بِهِ<sup>(٤)</sup> وَيَتَرَدَّدُونَ إِلَيْهِ. أَوْ مَلِكًا مِنَ الْمُلُوكِ، أَوْ عَامِلًا مِنْ عُمَّالِ السَّلَاطِينِ، لِيُقَالَ: إِنَّهُمْ يَتَبَرَّكُونَ بِهِ<sup>(٥)</sup>، لِعِظَمِ رُتْبَتِهِ فِي الدِّينِ. وَكَالَّذِي يُكْثِرُ ذِكْرَ الشُّيُوخِ، لِيُقَالَ<sup>(٥)</sup>: إِنَّهُ لَقِيَ شَيْوْحًا كَثِيرَةً، وَاسْتَفَادَ مِنْهُمْ. فَيُبَاهِي بِشَيْوْحِهِ، وَرُبَّمَا قَالَ عِنْدَ مُجَادَلَتِهِ لِغَيْرِهِ: وَمَنْ لَقِيَتْ أَنْتَ؟ أَنَا قَدْ لَقِيْتُ فُلَانًا، وَدُرْتُ الْبِلَادَ، وَخَدَمْتُ الشُّيُوخَ.

فَهَذِهِ مَجَامِعُ مَا يُرَائِي بِهِ الْمُرَاؤُونَ، وَهُمْ يَطْلُبُونَ بِذَلِكَ الْجَاهَ وَالْمَنْزِلَةَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْنَعُ بِحُسْنِ الْأَعْتِقَادَاتِ فِيهِ، فَكَمِ مِنْ رَاهِبٍ<sup>(٦)</sup> انزوى إِلَى دَيْرِهِ سِنِينَ كَثِيرَةً، وَكَمِ مِنْ عَابِدٍ اعْتَرَلَ إِلَى قُلَّةٍ<sup>(٧)</sup> جَبَلٍ مُدَّةً مُدِيدَةً، وَإِنَّمَا حَيَاتُهُ مِنْ حَيْثُ

(١) سقطت من الأصل، والجلوة: التكشف والظهور.

(٢) تحرفت في الأصل إلى: (البدن).

(٣) العطفان: المنكبان أو الإبطان.

(٤-٤) سقط من الأصل.

(٥-٥) سقط من (ف).

(٦) في (ف): (زاهد)؟

(٧) القلَّة: أعلى الشيء، وخصَّها بعضهم بالرأس والسَّنام والجبل.

عَلَّمَهُ بِقِيَامِ جَاهِهِ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ قَطَعَ طَمَعَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، لَكِنَّهُ يُحِبُّ مُجَرَّدَ الْجَاهِ، فَإِنَّهُ لَدِيدٌ عَلَى مَا سَبَقَ بَيَانُهُ، بَلْ يَلْتَمِسُ مَعَ ذَلِكَ إِطْلَاقَ الْأَلْسُنِ بِالثَّنَاءِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يُرِيدُ انْتِشَارَ الصِّبَةِ فِي الْبِلَادِ لِتَكْثُرَ الرَّحْلَةُ إِلَيْهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يُرِيدُ الْاِسْتِهَارَ عِنْدَ الْمُلُوكِ لِتَقْبَلَ شَفَاعَتُهُ، وَتُنَجَّزَ الْحَوَائِجُ عَلَى يَدَيْهِ، فَيَقُومُ لَهُ بِذَلِكَ جَاهٌ عِنْدَ الْعَامَّةِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْصِدُ التَّوَصُّلَ بِذَلِكَ إِلَى جَمْعِ حُطَامٍ.

فَإِنْ قِيلَ: هَلِ الرِّيَاءُ حَرَامٌ، أَمْ مَبَاحٌ، أَمْ مَكْرُوهٌ؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّ فِيهِ تَفْصِيلاً، فَإِنَّ الرِّيَاءَ هُوَ طَلَبُ الْجَاهِ، وَهُوَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِالْعِبَادَاتِ، أَوْ بِغَيْرِهَا، فَإِنْ كَانَ بِغَيْرِ الْعِبَادَاتِ فَهُوَ كَطَلَبِ الْمَالِ، فَلَا يَحْرُمُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ طَلَبٌ<sup>(١)</sup> مَنَزَلَةٌ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ كَمَا يُمَكِّنُ كَسْبُ الْمَالِ بِتَلْبِيسَاتٍ وَأَسْبَابٍ مَحْظُورَةٍ، فَكَذَلِكَ الْجَاهُ، وَكَمَا أَنَّ كَسْبَ قَلِيلٍ مِنَ الْمَالِ - وَهُوَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ - مَحْمُودٌ، فَكَسْبُ قَلِيلٍ مِنَ الْجَاهِ - وَهُوَ مَا يَسْلَمُ بِهِ مِنَ الْآفَاتِ - حَسَنٌ، وَهُوَ الَّذِي طَلَبَهُ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي حَفِيزٌ عَلَيْهِ﴾ [يوسف: ٥٥]

وَكَمَا أَنَّ الْمَالَ<sup>(٢)</sup> فِيهِ سُمْ نَاقِعٌ وَتَرِياقٌ فَكَذَلِكَ الْجَاهُ، بَلْ أَشَدُّ، فَإِنَّ فِتْنَةَ الْجَاهِ أَعْظَمُ مِنْ فِتْنَةِ الْمَالِ، وَكَمَا أَنَّا لَا نَقُولُ: تَمَلَّكُ الْمَالِ الْكَثِيرِ حَرَامٌ، فَلَا نَقُولُ أَيْضاً: تَمَلَّكُ الْقُلُوبِ الْكَثِيرَةَ حَرَامٌ، إِلَّا إِذَا حَمَلَهُ كَثْرَةُ الْمَالِ وَكَثْرَةُ الْجَاهِ عَلَى مُبَاشَرَةٍ مَا لَا يَجُوزُ، غَيْرَ أَنَّ انْصِرَافَ الْهَمِّ إِلَى سَعَةِ الْجَاهِ، كَانْصِرَافِ الْهَمِّ إِلَى كَثْرَةِ الْمَالِ، لَا يَقْدِرُ مُحِبُّ الْجَاهِ وَالْمَالِ عَلَى تَرْكِ مَعَاصِي الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَغَيْرِهَا.

فَأَمَّا سَعَةُ الْجَاهِ مِنْ غَيْرِ حِرْصٍ مِنْكَ عَلَى طَلَبِهِ، وَمِنْ غَيْرِ اِغْتِمَامِ بَزْوَالِهِ إِنْ زَالَ، فَلَا ضَرَرَ فِيهِ، إِذْ لَا جَاهَ أَوْسَعُ مِنْ جَاهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَعُلَمَاءِ الدِّينِ بَعْدَهُ، وَلَكِنْ انْصِرَافَ الْهَمِّ إِلَى طَلَبِ الْجَاهِ نَقْصَانٌ فِي الدِّينِ، وَلَا يُوصَفُ بِالتَّحْرِيمِ.

فَعَلَى هَذَا نَقُولُ: تَحْسِينُ الثَّوْبِ الَّذِي يَلْبَسُهُ الْإِنْسَانُ عِنْدَ الْخُرُوجِ إِلَى النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ لِيَرَاهُ النَّاسُ، وَكَذَلِكَ كُلُّ تَجَمُّلٍ لَهُمْ، وَلَا يُقَالُ: إِنَّهُ مِنْهُيٌّ عَنْهُ، وَقَدْ تَخْتَلَفَ

(١) سقطت من (ف).

(٢) سقطت من (ف).

المقاصدُ بذلك، فأكثرُ النَّاسِ يُحِبُّونَ أَنْ لَا يَرَوْا بَعِينَ نَفْصٍ فِي حَالٍ، فَهَمْ يَتَزَيَّنُونَ لِتَمَّةِ أَحْوَالِهِمْ، وَهَذَا لَا يَدُمُّ، وَفِي أَفْرَادِ مُسْلِمٍ، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ». فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً<sup>(١)</sup>. قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ: بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ»<sup>(٢)</sup>.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُؤَثِّرُ إِطْهَارَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَقَدْ أَمَرَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرَنَا هَبَةُ اللَّهِ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْأَحْوَصِ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا قَشِيفُ<sup>(٣)</sup> الْهَيْئَةِ، فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مَالٌ؟» قَالَ: قَلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟» قَالَ: قَلْتُ: مِنْ كُلِّ الْمَالِ، مِنَ الْإِبِلِ وَالرَّقِيقِ وَالْحَيْلِ وَالْعَنَمِ. فَقَالَ: «إِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَلْيُرِّ عَلَيْكَ»<sup>(٤)</sup>.

وَمِنْهُمْ مَنْ يُحِبُّ أَنْ لَا يُزْدَرَى، وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤَثِّرُ أَنْ يَتَزَيَّنَ لِزَوْجَتِهِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنِّي لِأُحِبُّ أَنْ أَتَزَيَّنَ لَهَا كَمَا أُحِبُّ أَنْ تَتَزَيَّنَ لِي. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الَّتِي لَا تَدُمُّ.

وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ إِذَا تَزَاوَرُوا تَجَمَّلُوا فِي اللَّبَاسِ، وَكَانُوا يَلْبَسُونَ أَجْوَدَ الثِّيَابِ لِلْجُمُعَةِ وَالْعِيدِينَ، وَمِنْهُ حَدِيثُ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: لَوْ اشْتَرَيْتَ هَذِهِ الْحَلَّةَ فَلَبِسْتَهَا لِلْوَفْدِ. وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ<sup>(٥)</sup>.

(١) فِي (ف): (حَسَنًا).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٩١)، وَبَطَّرَ الْحَقُّ: إِنْكَارُهُ، وَغَمَطُ النَّاسِ: احْتِقَارُهُمْ.

(٣) قَشِيفُ الْهَيْئَةِ: رَثُّ الْهَيْئَةِ لَمْ يَتَعَهَّدْ نَفْسَهُ بِالغَسْلِ وَالنِّظَافَةِ.

(٤) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٥٨٨٨)، وَالطَّيَالِسِيُّ (١٣٠٣)، وَعَبْدُ الرَّزَاقِ (٢٠٥١٣)، وَأَبُو دَاوُدَ

(٤٠٦٣)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٠٠٦)، وَالنَّسَائِيُّ فِي الْكِبْرِيِّ (٩٤٨٤) - (٩٤٨٦)، وَالطَّحَاوِيُّ فِي

شَرْحِ الْمَشْكَلِ (٣٠٤١) - (٣٠٤٣)، وَابْنُ حَبَانَ (٥٤١٦) وَ(٥٤١٧) وَالتُّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ

١٩/٦٠٧ - (٦٢٤)، وَالْحَاكِمُ ١/٢٤ - ٢٥ وَ ٤/١٨١.

(٥) قَوْلُ الْمُصَنِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَمْ يَنْكُرْ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ). غَيْرُ سَدِيدٍ، بَلْ قَدْ أَنْكَرَ رَسُولُ

اللَّهِ ﷺ عَلَى عَمْرِ اخْتِيَارِهِ لِتِلْكَ الْحَلَّةِ لِكَوْنِهَا مِنَ الْحَرِيرِ وَقَالَ فِيهَا: (إِنَّمَا يَلْبَسُ هَذِهِ مَنْ لَا

خِلَاقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ). وَالحَدِيثُ فِي الْبَخَارِيِّ (٨٨٦) وَ(٩٤٨)، وَمُسْلِمٌ (٢٠٦٨).

وكان مالك بن أنس<sup>(١)</sup> يَلْبَسُ أَجْوَدَ ثِيَابِهِ وَيَتَطَيَّبُ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَرُويَ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَأَمَّا الْعِبَادَاتُ كَالصَّدَقَةِ وَالصَّلَاةِ وَالْعَزْوِ وَالْحَجِّ، فَللمُرَائِي فِيهَا حَالَتَانِ:

إحدهما: أن لا يكون له قَصْدٌ إِلَّا الرِّيَاءَ الْمُحَضَّ دُونَ الْأَجْرِ، وَهَذَا يُبْطِلُ عِبَادَتَهُ؛ لِأَنَّ الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ، وَهَذَا لَا يَقْصِدُ الْعِبَادَةَ، ثُمَّ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى إِحْبَابِ عِبَادَتِهِ حَتَّى نَقُولَ: عَادَ كَمَا كَانَ قَبْلَ الْعِبَادَةِ، بَلْ نَقُولُ: يَعْصِي بِذَلِكَ وَيَأْتِمُّ لِمَعْنَيْنِ:

أحدهما: يَتَعَلَّقُ بِالْعِبَادِ، وَهُوَ التَّلْبِيسُ وَالْمَكْرُ؛ لِأَنَّهُ خَيَّلَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ مُطِيعٌ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا قَصَدَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ سِوَاهُ فَهُوَ مُسْتَهْزِئٌ، وَمِثَالُهُ مِثَالُ مَنْ وَقَفَ طَوْلَ النَّهَارِ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ، وَمُرَادُهُ مَلَا حَظَّةَ جَارِيَّتِهِ، فَإِنَّ هَذَا يَسْتَهْزِئُ بِالْمَلِكِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقْصِدِ التَّقَرُّبَ إِلَيْهِ بِخِدْمَتِهِ، وَأَيُّ مِحْنَةٍ تَزِيدُ عَلَى أَنْ يَقْصِدَ الْعَبْدُ بَطَاعَةَ اللَّهِ تَعَالَى مُرَاعَاةَ عَبْدٍ ضَعِيفٍ لَا يَمْلِكُ لَهُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا؟ وَهَلْ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهُ ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ الْعَبْدَ أَقْدَرُ عَلَى تَحْصِيلِ أَغْرَاضِهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؟ وَأَنَّهُ أَوْلَى بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِذْ آتَرَهُ عَلَى مَلِكِ الْمَلُوكِ، فَجَعَلَهُ مَقْصُودَ عِبَادَتِهِ، وَرَفَعَهُ عَلَى الْمَوْلَى؟ وَهَذَا سَمَاءُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: الشُّرْكَ الْأَضْعَرُّ.

إِلَّا أَنَّ بَعْضَ دَرَجَاتِ الرِّيَاءِ أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَلَا يَخْلُو شَيْءٌ مِنْهُ عَنِ إِثْمٍ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الرِّيَاءِ إِلَّا أَنَّهُ يَرْكَعُ وَيَسْجُدُ لِغَيْرِ اللَّهِ لَكَانَ فِيهِ كِفَايَةٌ، فَإِنَّا مَنْ لَمْ يَقْصِدِ التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ قَصَدَ غَيْرَ اللَّهِ، إِلَّا أَنَّ المُرَائِي يَقْصِدُ تَعْظِيمَ نَفْسِهِ فِي قَلْبٍ مِنْ عَظْمٍ عِنْدَهُ، بِإِظْهَارِ صُورَةِ التَّعْظِيمِ لِلَّهِ، فَلِذَلِكَ يَكُونُ شِرْكُهُ خَفِيًّا لَا جَلِيًّا، وَهَذَا لَا يَقَعُ إِلَّا عِنْدَ مَنْ يُوهِمُهُ الشَّيْطَانُ أَنَّ الْعِبَادَةَ يَمْلِكُونَ مِنْ ضَرِّهِ وَنَفْعِهِ، وَرِزْقِهِ وَأَجَلِهِ، وَمَصَالِحِ حَالِهِ<sup>(٢)</sup> وَمَالِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَمْلِكُهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَذَلِكَ عَدَلَ بَوَاجِهِ عَنِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، وَأَقْبَلَ بِقَلْبِهِ عَلَيْهِمْ، يَسْتَمِيلُ ذَلِكَ قُلُوبَهُمْ،

(١) في (ف): (أنس بن مالك). وما في الأصل هو الصواب. انظر السير ٨/٦٤.

(٢) تحرفت في (ف) إلى: (أجله).

ولو وَكَلَهُ اللهُ إِلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا لَكَانَ ذَلِكَ أَقَلَّ مُكَافَأَةٍ لَهُ عَلَى صَنِيعِهِ؛ لِأَنََّّهُمْ عَاجِزُونَ  
عَنْ أَنْفُسِهِمْ، فَكَيْفَ لغيرهم<sup>(١)</sup>؟! هَذَا فِي الدُّنْيَا، فَكَيْفَ فِي يَوْمٍ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ  
وَلَدِهِ، وَالْأَنْبِيَاءُ يَقُولُ فِيهِ: «نَفْسِي نَفْسِي»<sup>(٢)</sup>؟!!

فَكَيْفَ يَسْتَبْدِلُ<sup>(٣)</sup> الْجَاهِلُ مَا يَرْتَقِبُهُ بِطَمَعِهِ الْكَاذِبِ فِي الدُّنْيَا مِنَ النَّاسِ، عَنْ  
ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَيَلِ الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؟!!

فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُشَكَّ فِي أَنَّ الْمَرَاتِيَّ بِطَاعَةِ اللَّهِ فِي سَخَطِ اللَّهِ.

[الْحَالَةُ الثَّانِيَّةُ: أَنْ يَقْصِدَ بِعَمَلِهِ الرِّيَاءَ وَيَقْصِدَ مَعَهُ الْأَجْرَ وَالثَّوَابَ، وَفِي ذَلِكَ  
تَفْصِيلٌ سِيَّاتِي بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى] <sup>(٤)</sup>.

(١) فِي الْأَصْلِ: (بغيرهم).

(٢) قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٣٤٠) وَ(٤٧١٢)، وَمُسْلِمٌ (١٩٤) مِنْ حَدِيثِ  
أَبِي هُرَيْرَةَ.

(٣) تَحَرَّفَتْ فِي الْأَصْلِ إِلَى: (يَسْتَدِل).

(٤) مَا بَيْنَ مَعْقُوفَيْنِ زِيَادَةٌ لَا بَدَّ مِنْهَا، فَقَدْ تَابَعَ الْمَصْنُفُ رَحِمَهُ اللَّهُ الْغَزَالِيَّ فِي عَدَمِ ذِكْرِ الْحَالَةِ  
الثَّانِيَةِ الَّتِي رُبَّمَا لَمْ تُذَكَّرْ سَهْوًا، وَهِيَ سِتَّاتِي مَفْصَلَةٌ فِي الْبَابِ التَّالِي.

## بيان

### درجات الرياء

اعلم أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض، واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات فيه، وأركانه ثلاثة:

١ - نفس قصد الرياء.

٢ - والمراعى به.

٣ - والمراعى لأجله.

١ - الركن الأول: نفس قصد الرياء:

وذلك لا يخلو إما أن يكون مجرداً دون إرادة الله والثواب، وإما أن يكون مع إرادة الله والثواب، ثم لا يخلو أن تكون إرادة الثواب، وإما أن يكون مع إرادة الله والثواب، ثم لا يخلو أن تكون إرادة الثواب أقوى وأغلب، أو أضعف، أو مساوية لإرادة العبادة<sup>(١)</sup>، فتكون الدرجات أربعاً:

الدرجة الأولى: - وهي أغلظها - أن لا يكون مراده الثواب أصلاً، كالذي يصلي بين أظهر الناس، ولو انفرد كان لا يصلي، بل ربما يصلي بغير طهارة مع الناس، فهذا قد جرد قصده للرياء، فهو الممقوت عند الله، وكذلك من يخرج الصدقة خوفاً من مذمة الناس، وهو لا يقصد الثواب، ولو خلا بنفسه لما أداها، فهذه الدرجة العليا من الرياء.

الثانية: أن يكون له قصد الثواب أيضاً، لكن قصداً ضعيفاً، بحيث لو كان في الخلوة كان لا يفعل، ولا يحمله ذلك القصد<sup>(٢)</sup> على العمل، فهذا قريب مما قبله،

(١) في النسخ: (العباد)، والمثبت من الإحياء.

(٢) سقطت من (ف).

وما فيه من شائبة قَصْدِ الثَّوَابِ لَا يَسْتَقِيلُ بِحَمَلِهِ عَلَى الْعَمَلِ، فَلَا يَنْفِي عَنْهُ الْإِثْمَ وَالْمَقْتَ.

الثالثة: أَنْ يَكُونَ لَهُ قَصْدُ الثَّوَابِ وَقَصْدُ الرِّيَاءِ مُتَسَاوِيَيْنِ، بَحِيثٌ لَوْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا<sup>(١)</sup> خَالِيًا عَنِ الْآخَرِ لَمْ يَبْعَثْهُ عَلَى الْعَمَلِ، فَلَمَّا اجْتَمَعَا انْبَعَثَتِ الرَّغْبَةُ، أَوْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ لَوْ انْفَرَدَ لاسْتَقَلَّ بِحَمَلِهِ عَلَى الْعَمَلِ، فَهَذَا قَدْ أَفْسَدَ مِثْلَ مَا أَصْلَحَ وَمَا يَسْلَمُ مِنَ الْإِثْمِ.

الرابعة: أَنْ يَكُونَ اطَّلَاعُ النَّاسِ مُقَوِّيًا لِنَشَاطِهِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِكَانَ لَا يَتْرُكُ الْعِبَادَةَ، وَلَوْ كَانَ قَصْدُ الرِّيَاءِ وَحْدَهُ لَمَا أَقْدَمَ، فَهَذَا يُثَابُ عَلَى قَصْدِهِ الصَّحِيحِ، وَيُعَاقَبُ عَلَى قَصْدِهِ الْفَاسِدِ.

## ٢ - الركن الثاني المُرَاءَى بِهِ وَهُوَ الطَّاعَاتُ :

وَذَلِكَ يَنْقَسِمُ إِلَى الرِّيَاءِ بِأُصُولِ الْعِبَادَاتِ، وَإِلَى الرِّيَاءِ بِأَوْصَافِهَا :

القِسْمُ الْأَوَّلُ - وَهُوَ الْأَغْلَظُ - : الرِّيَاءُ بِالْأُصُولِ، وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ : الدَّرَجَةُ الْأُولَى : الرِّيَاءُ بِأُصُلِ الْإِيمَانِ، وَهَذَا أَعْظَمُ أَبْوَابِ الرِّيَاءِ، وَصَاحِبُهُ كَافِرٌ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ، وَهُوَ الَّذِي يُظْهِرُ كَلِمَتِي الشَّهَادَةِ، وَبَاطِنُهُ مَشْحُونٌ بِالتَّكْذِيبِ، وَهُوَ يُرَائِي بِظَاهِرِ الْإِسْلَامِ، وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُنَافِقِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي صِفَتِهِمْ : ﴿رِئَازُونَ النَّاسِ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وهذه الصِّفَةُ تَقَلُّ فِي زَمَانِنَا، وَلَكِنْ يَكْثُرُ نِفَاقُ مَنْ يَنْسَلُ مِنَ الدِّينِ بَاطِنًا، فَيَجْحَدُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَالنَّارَ وَالنَّارَ الْآخِرَةَ مَيْلًا إِلَى قَوْلِ الْمُلْحَدَةِ، أَوْ يَعْتَقِدُ طَيِّ بِسَاطِ<sup>(٢)</sup> الشَّرْعِ وَالْأَحْكَامِ، مَيْلًا إِلَى أَهْلِ الْإِبَاحَةِ، أَوْ يَعْتَقِدُ كُفْرًا أَوْ بَدْعَةً وَهُوَ يُظْهِرُ خِلَافَهُ.

فهؤلاءِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الْمُرَائِينَ الْمُخَلَّدِينَ فِي النَّارِ، وَلَيْسَ وِرَاءَ هَذَا الرِّيَاءِ رِيَاءً، وَحَالٌ هُوَ لِأَشَدُّ مِنْ حَالِ الْكُفَّارِ الْمُجَاهِرِينَ؛ لِأَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ كُفْرِ الْبَاطِنِ وَنِفَاقِ الظَّاهِرِ.

(١) سقطت من الأصل.

(٢) تحرفت في (ف) إلى: (بمناط).

الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: الرِّيَاءُ بِأُصُولِ الْعِبَادَاتِ مَعَ التَّصَدِيقِ بِأَصْلِ الدِّينِ، وَهَذَا أَيْضاً عَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُ دُونَ الْأَوَّلِ بِكَثِيرٍ، وَمِثَالُهُ: أَنْ يَكُونَ مَالُ الرَّجُلِ فِي يَدِ غَيْرِهِ، فَيَأْمُرُهُ بِإِخْرَاجِ الزَّكَاةِ خَوْفاً مِنْ دَمِهِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ فِي يَدِهِ لَمَا أَخْرَجَهَا، أَوْ يَدْخُلُ وَقْتُ الصَّلَاةِ وَهُوَ فِي جَمْعٍ، وَعَادَتُهُ تَرْكُ الصَّلَاةِ فِي الْخَلْوَةِ، وَكَذَلِكَ يَصُومُ رَمَضَانَ، وَهُوَ يَشْتَهِي خَلْوَةً مِنَ الْخَلْقِ لِيُفْطِرَ، وَكَذَلِكَ يَحْضُرُ الْجُمُعَةَ، وَلَوْ لَا مَذْمَمَةُ النَّاسِ لَمْ يَحْضُرْ، أَوْ يَصِلُ رَحِمَهُ، وَيَبْرُؤُ وَالِدِيهِ، لَا عَنْ رَغْبَةٍ لَكِنْ خَوْفاً مِنَ النَّاسِ<sup>(١)</sup>، أَوْ يَعْزُو أَوْ يَحُجُّ لِدَلِكِ، فَهَذَا مُرَاءٍ، مَعَهُ أَصْلُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، يَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَا مَعْبُودَ سِوَاهُ، وَلَوْ كَلَّفَ أَنْ يَعْبُدَ<sup>(٢)</sup> غَيْرَ اللَّهِ أَوْ يَسْجُدَ لِغَيْرِهِ لَمْ يَفْعَلْ، وَلَكِنَّهُ يَتْرُكُ الْعِبَادَاتِ لِلْكَسَلِ، وَيَنْشِطُ عِنْدَ إِطْلَاعِ النَّاسِ فَتَكُونُ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَ الْخَلْقِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ الْخَالِقِ، وَخَوْفُهُ مِنْ مَذْمَمَةِ النَّاسِ أَعْظَمَ مِنْ خَوْفِهِ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ، وَرَغْبَتُهُ فِي مَحْمَدَتِهِمْ أَشَدَّ مِنْ رَغْبَتِهِ فِي ثَوَابِ اللَّهِ، وَهَذَا غَايَةُ الْجَهْلِ، وَمَا أَجْدَرَ صَاحِبَهُ بِالْمَقْتِ.

الدرجة الثالثة: أن لا يُرَائِي بِالْأَعْمَالِ وَلَا بِالْفَرَائِضِ، وَلَكِنْ يُرَائِي بِالسَّنَنِ وَالتَّوَافِلِ الَّتِي لَوْ تَرَكَهَا لَمْ يَعْصِ، وَلَكِنَّهُ يَكْسَلُ عَنْهَا فِي الْخَلْوَةِ، لِفُتُورِ رَغْبَتِهِ فِي ثَوَابِهَا، وَإِلْيَاثَارِهِ لِدَّةِ الْكَسَلِ عَلَى مَا يُرْجَى مِنَ الْأَجْرِ، ثُمَّ يَبْعَثُهُ الرِّيَاءُ عَلَى الْفِعْلِ، وَذَلِكَ كَحُضُورِ الْجَمَاعَةِ فِي الصَّلَاةِ، وَعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ، وَغَسْلِ الْمَيِّتِ، وَالتَّهَجُّدِ بِاللَّيْلِ، وَصِيَامِ عَرَفَةَ وَعَاشُورَاءَ، وَالْإِثْنِينَ وَالْخَمِيسِ، فَقَدْ يَفْعَلُ الْمُرَائِي جُمْلَةً مِنْ ذَلِكَ خَوْفاً مِنَ الْمَذْمَمَةِ، أَوْ طَلِباً لِلْمَحْمَدَةِ، وَيَعْلَمُ اللَّهُ مِنْهُ أَنَّهُ لَوْ خَلَا بِنَفْسِهِ لَمَا زَادَ عَلَى أَدَاءِ الْفَرَائِضِ، فَهَذَا أَيْضاً عَظِيمٌ، وَلَكِنَّهُ دُونَ مَا قَبْلَهُ، فَإِنَّ الَّذِي قَبْلَهُ أَثَرُ حَمْدِ الْخَلْقِ عَلَى حَمْدِ الْخَالِقِ، وَهَذَا أَيْضاً قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ، وَاتَّقَى دَمَ الْخَلْقِ دُونَ دَمِ الْخَالِقِ، فَكَانَ دَمُ الْخَلْقِ عِنْدَهُ أَعْظَمَ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ، وَأَمَّا هَذَا فَلَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَخَفْ عِقَاباً عَلَى تَرْكِ النَّافِلَةِ لَوْ تَرَكَهَا، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ عِقَابُهُ نِصْفَ عِقَابِ الْأَوَّلِ، فَهَذَا هُوَ الرِّيَاءُ بِأُصُولِ الْعِبَادَاتِ.

(١) سقطت من (ف).

(٢) في الأصل: (يقصد).

القسم الثاني: الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها، وهو أيضاً على ثلاث

درجات:

الدرجة الأولى: أن يُرائي بفعل ما في تركه نُقصان العبادَة، كالذي غَرَضُهُ أَنْ يُخَفِّفَ الرُّكُوعَ والسُّجُودَ، ولا يُطِيلُ القِرَاءَةَ، فإذا رآه الناسُ أَحْسَنَ الرُّكُوعَ والسُّجُودَ<sup>(١)</sup>، وترك الألتفات، وتَمَمَ القُعودَ بين السُّجُودَين، وهذا يتضمَّنُ زيادةَ تَعْظِيمِ الخَلْقِ على تَعْظِيمِ الخَالِقِ، كما لو كانَ بَيْنَ يَدَيِ إنسانٍ مُتَكَبِّراً، فدخلَ غلامُهُ، فاستوى، فإنَّ ذَلِكَ تَقْدِيمٌ للغلامِ على السَّيِّدِ، وكذلك الذي يَعْتادُ إِخْرَاجَ الرِّكَاةِ مِنَ الذَّهَبِ الرَّدِيِّ والحَبِّ الرَّدِيِّ، فإذا اطلَّع<sup>(٢)</sup> عليه أَحَدٌ أَخْرَجَهُ مِنَ الجِدِّ خَوْفاً مِنْ مَذْمَتِهِ، وكذلك الصائِمُ، يَصُونَ صَوْمَهُ عَنِ الغَيْبَةِ والرَّفَثِ خَوْفاً مِنَ المَذْمَةِ، فهذا أيضاً مِنَ الرِّياءِ المَحْظُورِ؛ لأنَّ فِيهِ تَقْدِيماً للمَخْلُوقِ على الخَالِقِ، ولكِنَّهُ دُونَ الرِّياءِ بِأُصُولِ التَّطَوُّعَاتِ.

فإن قال المُرائي: إِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ صِيانَةً لِأَلْسِنَتِهِمْ عَنِ الغَيْبَةِ، فَإِنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا تَخْفِيفَ الرُّكُوعِ والسُّجُودِ، وكَثْرَةَ الألتفاتِ أَطْلَقُوا أَلْسِنَتَهُمْ بِذَمِّي وَغَيْبَتِي.

فَيُقَالُ لَهُ: هَذِهِ مَكِيدَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّ ضَرَرَكَ بِنُقْصَانِ صَلَاتِكَ أَعْظَمُ مِنْ ضَرَرَكَ بِغَيْبَةِ غَيْرِكَ، فَلَوْ كَانَ بِاعْتِكَ الدِّينَ لَكَانَتْ شَفَقَتُكَ عَلَى نَفْسِكَ أَكْثَرَ، فَإِنَّ مَنْ يُرَاعِي جَانِبَ غُلامِ المَلِكِ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مُراقِبَتُهُ لِلْمَلِكِ أَكْثَرَ، إِلَّا أَنَّ لِلْمُرائي فِي هَذَا حَالَتَيْنِ:

إحداهما: أَنْ يَطْلُبَ بِذَلِكَ المَنْزِلَةَ والمَحْمَدَةَ عِنْدَ النَّاسِ، وَذَلِكَ حَرَامٌ.

والثانية: أَنْ يَقُولَ: لَيْسَ يَحْضُرُنِي الإِخْلَاصُ فِي تَحْسِينِ الرُّكُوعِ والسُّجُودِ، وَلَوْ حَقَّقْتُ كَانَتْ صَلَاتِي عِنْدَ اللَّهِ ناقِصَةً، وَأَذَانِي النَّاسِ بِذَمِّهِمْ وَغَيْبَتِهِمْ، فَأَسْتَفِيدُ بِتَحْسِينِ الهَيْئَةِ دَفْعَ مَذْمَتِهِمْ<sup>(٣)</sup>، وَلَا أَرْجُو عَلَيْهِ ثَوَاباً، فَهُوَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ أَتْرُكَ تَحْسِينَ الصَّلَاةِ، فَيَقُوتَ الثَّوَابُ وَتَحْضَلَ المَذْمَةُ.

(١) سقطت من (ف).

(٢) في الأصل: (طلع).

(٣) في (ف): (ذمهم).

فيقال له: الواجب عليك أن تحسن العبادَةَ وتخلصَ، ولا يجوزُ لك أن تدفعَ<sup>(١)</sup> الذمَّ بالمرءِاة.

الدرجةُ الثانيةُ: أن يرأى بفعلٍ ما لا نقصانَ في تركه، ولكنَّ فعله<sup>(٢)</sup> في حُكمِ التَّكْمِلَةِ والتَّيَمُّةِ لِلْعِبَادَةِ، كالتَّطْوِيلِ فِي الرُّكُوعِ والسُّجُودِ<sup>(٣)</sup>، ومدَّ القيامِ، وتحسينِ الهَيْئَةِ فِي رَفْعِ اليَدَيْنِ، والمُبَادَرَةِ إِلَى التَّكْبِيرَةِ الْأُولَى، وَتَحْسِينِ الاِغْتِدَالِ، وَالزِّيَادَةَ فِي الْقِرَاءَةِ عَلَى السُّورِ الْمُعْتَادَةِ، وَكَذَلِكَ طُولُ الصَّمْتِ فِي الصَّوْمِ، وَاخْتِيَارُ الْأَجُودِ فِي الزَّكَاةِ، وَإِعْتَاقُ الرَّقَبَةِ الْعَالِيَةِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِمَّا لَوْ خَلَا بِنَفْسِهِ لَكَانَ لَا يَفْعَلُهُ. قَالَ بِشْرُ الْحَافِي: سَمِعْتُ خَالِدًا الطَّحَانَ يَقُولُ: اتَّقُوا سَرَائِرَ الشَّرِكِ. قُلْتُ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: أَنْ تُصَلِّيَ فَتَلَحَّظَكَ الْعُيُونُ، فَتُطِيلَ السُّجُودَ.

الدرجةُ الثالثةُ: أن يرأى بزياداتٍ خارجةٍ عَن نَفْسِ التَّوَافِلِ أَيْضًا، كحُضُورِهِ الْجَمَاعَةَ قَبْلَ الْقَوْمِ، وَقَصْدِهِ الصَّفِّ الْأَوَّلَ، وَتَوَجُّهِهِ إِلَى يَمِينِ الْإِمَامِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ وَكُلُّ ذَلِكَ يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْهُ أَنَّهُ لَوْ خَلَا بِنَفْسِهِ لَكَانَ لَا يُبَالِي أَيْنَ وَقَفَ، وَلَا مَتَى أَحْرَمَ، فَهَذِهِ دَرَجَاتُ الرِّيَاءِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَا يُرَاءَى بِهِ، وَبَعْضُهُ أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ، وَالْكَلُّ مَذْمُومٌ.

### ٣- الركن الثالث: المرءى لأجله:

فإنَّ لِلْمُرَائِي مَقْصُودًا لَا مَحَالَةَ، وَإِنَّمَا يُرَائِي لِإِدْرَاكِ مَالٍ أَوْ جَاهٍ، أَوْ غَرَضٍ مِنَ الْأَغْرَاضِ، وَلَهُ أَيْضًا ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: وَهِيَ أَشَدُّهَا وَأَعْظَمُهَا؛ أَنْ يَكُونَ مَقْصُودُهُ التَّمَكُّنُ مِنْ مَعْصِيَةٍ، كَالَّذِي يُرَائِي بَعَادَاتِهِ، وَيُظَهِّرُ التَّقْوَى وَالْوَرَعَ، وَيَمْتَنِعُ مِنَ الشُّبُهَاتِ، وَغَرَضُهُ أَنْ يُعْرِفَ بِالْأَمَانَةِ، فَيُوَلِّي الْقِضَاءَ وَالْأَوْقَافَ وَأَمْوَالَ الْيَتَامَى فَيَأْخُذُهَا، أَوْ يُعْطَى الصَّدَقَاتِ لِيُفَرِّقَهَا، فَيَسْتَأْتِرُ بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْهَا، أَوْ يُودِعَ الْوَدَائِعَ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

(١) فِي (ف): (ترفع).

(٢) فِي الْأَصْلِ: (حكمه).

(٣) سَقَطَتْ مِنَ الْأَصْلِ.

وقد يُظهِرُ بَعْضُهُمْ زِيَّ التَّصَوُّفِ، وَهَيْئَةَ الخُشُوعِ وَالْمَوَاعِظِ، وَقَصْدُهُ بُلُوغُ غَرَضٍ لَا يَحِلُّ، وَرُبَّمَا حَضَرَ مَجَالِسَ الوَعِظِ وَمَقْصُودُهُ مَلاحِظَةُ النِّسْوَانِ، أَوْ يَخْرُجُ إِلَى الحَجِّ وَمُرَادُهُ الظَّفَرُ بِمَعْصِيَةِ فِي الطَّرِيقِ، فَهؤُلاءِ أْبْعَضُ المُرَائِينَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا طَاعَةَ<sup>(١)</sup> رَبِّهِمْ سُلْمًا إِلَى مَعْصِيَتِهِ، وَيَقْرُبُ مِنْ هؤُلاءِ مَنْ أَتَاهُمْ بِجَرِيمَةٍ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَيْهَا، وَيُرِيدُ أَنْ يَنْفِيَ التُّهْمَةَ عَنْ نَفْسِهِ، فَيُظهِرُ التَّقْوَى لِنَفْيِ التُّهْمَةِ، وَكَالَّذِي جَحَدَ وَدَيْعَةً وَاتَّهَمَهُ النَّاسُ بِهَا، فَأَخَذَ يَتَصَدَّقُ بِالمَالِ لِيُقَالَ: هَذَا يَتَصَدَّقُ بِمَالِ نَفْسِهِ، فَكَيْفَ يَسْتَحِلُّ مَالَ غَيْرِهِ؟

**الدرجة الثانية:** أَنْ يَكُونَ غَرَضُهُ نَيْلَ حَظٍّ مُبَاحٍ مِنْ مَالٍ أَوْ نِكَاحِ امْرَأَةٍ، فَيَتَشَاغَلُ بِالدُّكْرِ وَإِظْهَارِ الزُّهْدِ لِيُرْغَبَ فِيهِ، وَكَالَّذِي يَرْغَبُ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِنْتِ عَالِمٍ عَابِدٍ، فَيُظهِرُ العِلْمَ وَالعِبَادَةَ لِيُرْغَبَ فِي تَرْوِيحِهِ ابْنَتَهُ، فَهَذَا رِيَاءٌ مَحْظُورٌ؛ لِأَنَّهُ طَلَبَ بِطَاعَةِ اللَّهِ مَتَاعَ الدُّنْيَا، وَلَكِنَّهُ دُونَ الأَوَّلِ؛ لِأَنَّ المَطْلُوبَ بِهَذَا مُبَاحٌ فِي نَفْسِهِ.

**الدرجة الثالثة:** أَنْ لَا يَقْصِدَ نَيْلَ حَظٍّ وَإِذْرَاكَ مَالٍ أَوْ نِكَاحٍ، وَلَكِنْ يُظهِرُ عِبَادَتَهُ خَيْفَةً مِنْ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ النَّقْصِ، أَوْ يُعْتَقَدَ أَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ العَامَّةِ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُعَدَّ مِنَ الخَاصَّةِ وَالرُّهَّادِ، كَالَّذِي يَمْشِي فَيَطَّلِعُ عَلَيْهِ النَّاسُ، فَيُحْسِنُ المَشْيَ، وَيَتْرُكُ العَجَلَةَ، كَي لَا يُقَالَ: إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ اللُّهُوِّ لَا مِنْ أَهْلِ الوَقَارِ. وَكَذَلِكَ يَسْبِقُ إِلَى الصَّحِكِ، أَوْ يَبْدُو<sup>(٢)</sup> مِنْهُ المُزَاحُ، فَيَخَافُ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الاِخْتِقَارِ، فَيَتَّبِعُ ذَلِكَ بِالاسْتِعْفَارِ، وَتَنْفَسِ الصُّعْدَاءِ، وَإِظْهَارِ الحُزْنِ وَيَقُولُ: مَا أَعْظَمَ غَفْلَةَ الأَدَمِيِّ عَنِ نَفْسِهِ. وَاللَّهُ يَعْلَمُ مِنْهُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ فِي خَلْوَةٍ لَمْ يَثْقُلْ عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا يَخَافُ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الاِخْتِقَارِ، لَا بِعَيْنِ التَّوْقِيرِ.

وَكَالَّذِي يَرَى جَمَاعَةً يُصَلُّونَ التَّرَاوِيحَ، أَوْ يَتَهَجَّدُونَ، أَوْ يَصُومُونَ الاثْنَيْنِ وَالخَمِيسِ، أَوْ يَتَصَدَّقُونَ، فَيُوافِقُهُمْ خَيْفَةً أَنْ يُنْسَبَ إِلَى الكَسَلِ، وَلَوْ خَلا بِنَفْسِهِ لَكَانَ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ.

(١) فِي الأَصْلِ: (إِطَاعَةٌ).

(٢) فِي الأَصْلِ: (يَنْدِر).

وكالذي يعطش في يوم عرفة أو عاشوراء، وفي الأشهر الحرم، فلا يشرب خوفاً من أن يعلم الناس أنه غير صائم، فإذا ظنوا به الصوم امتنع عن الأكل لأجله، أو يدعى إلى طعام فيمتنع ليظن أنه صائم، وقد لا يصرح بأنه صائم، ولكن يقول: لي عذر. وهو جمع بين خبيثين، فإنه يري أنه صائم، ثم يري أنه مخلص ليس بمراء، وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائياً، فيريد أن يقال: إنه سائر لعبادته. ثم إن اضطر إلى شرب لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذراً تصريحاً أو تعريضاً، بأن يتعلل بمرض يقتضي فرط العطش ويمنع من الصوم، أو يقول: أظرت تطيباً لقلب فلان، ثم قد لا يذكر ذلك متصلاً بشربه، كي لا يظن به أنه يعتذر براء، ولكنه يصبر، ثم يذكر عذره في معرض حكاية، مثل أن يقول: إن فلاناً محب للإخوان، شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه، وقد ألح عليّ اليوم، ولم أجد بداً من تطيب قلبه. ومثل أن يقول: إن أمي ضعيفة القلب، مشفقة عليّ، تظن أنني لو صمت يوماً مرضت، فلا تدعني أصوم.

فهذا وما يجري مجراه علامات الرياء، فلا يسبق إلى اللسان إلا لرُسوخ عرق الرياء في الباطن، وأما المخلص فإنه لا يبالي كيف نظر الخلق إليه، بل يفتنع بعلم الله سبحانه.

فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرائين، وجميعهم تحت مقية الله وغضبه، وهو من أشد المهلكات، وقد يزيل في دقائقه فحول العلماء، فضلاً عن العباد الجهلة بأفات النفوس، وغوائل القلوب<sup>(١)</sup>.

(١) في الأصل: (وشر غوائل).

## بيان

### الرِّيَاءِ الْخَفِيِّ الَّذِي هُوَ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ

اعلم أنَّ الرِّياءَ جَلِيٍّ وَخَفِيٍِّّ .

فالجَلِيُّ : هُوَ الَّذِي يَبْعَثُ عَلَى الْعَمَلِ وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ ، وَلَوْ قَصَدَ الثَّوَابَ ، وَهُوَ أَجْلَاهُ .

وَأَخْفَى مِنْهُ قَلِيلًا هُوَ مَا لَا يَحْمِلُ عَلَى الْعَمَلِ مُجَرَّدُهُ ، إِلَّا أَنَّهُ يُخَفِّفُ الْعَمَلَ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ ، كَالَّذِي يَعْتَادُ التَّهَجُّدَ كُلَّ لَيْلَةٍ ، وَيَثْقُلُ عَلَيْهِ ، فَإِذَا نَزَلَ عِنْدَهُ صَيَّفٌ نَشِطَ لَهُ ، وَخَفَّ عَلَيْهِ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَوْلَا رَجَاءُ الثَّوَابِ لَكَانَ لَا يُصَلِّي لِمُجَرَّدِ رِيَاءِ الصَّيْفَانِ .

وَأَخْفَى مِنْ ذَلِكَ مَا لَا يُؤَثِّرُ فِي الْعَمَلِ ، وَلَا فِي التَّسْهِيلِ وَالتَّخْفِيفِ أَيْضًا ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ مُسْتَبْطَنٌ فِي الْقَلْبِ ، وَمَتَى لَمْ يُؤَثِّرْ فِي الدُّعَاءِ إِلَى الْعَمَلِ لَمْ يُمَكِّنْ أَنْ يُعْرَفَ إِلَّا بِالْعَلَامَاتِ .

وَأَجْلَى عِلَامَاتِهِ أَنْ يُسَرَّ بِاطِّلَاعِ النَّاسِ عَلَى طَاعَتِهِ ، فَرُبَّ عَبْدٍ يُخْلِصُ فِي عَمَلِهِ ، وَلَا يَعْتَقِدُ الرِّياءَ ، بَلْ يَكْرَهُهُ وَيُرُدُّهُ ، وَيَتَمَّمُ الْعَمَلَ كَذَلِكَ ، وَلَكِنْ إِذَا اطَّلَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ سَرَّهُ ذَلِكَ ، وَارْتاحَ لَهُ ، وَرَوَّحَ ذَلِكَ عَنْ قَلْبِهِ شِدَّةَ الْعِبَادَةِ ، وَهَذَا السُّرُورُ يَدُلُّ عَلَى رِيَاءٍ خَفِيٍِّّ ، مِنْهُ تَرَشَّحَ السُّرُورُ ، وَلَوْلَا النِّفَاتُ الْقَلْبِ إِلَى النَّاسِ لَمَا ظَهَرَ سُرُورُهُ عِنْدَ اطِّلَاعِ النَّاسِ ، فَلَقَدْ كَانَ الرِّياءُ مُسْتَكْتَنًا فِي الْقَلْبِ اسْتِكْتَانِ النَّارِ فِي الْحَجَرِ ، فَأَظْهَرَ مِنْهُ اطِّلَاعُ الْحَلْقِ أَثَرَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ ، ثُمَّ إِذَا اسْتَشَعَرَ لَذَّةَ السُّرُورِ بِالاطِّلَاعِ ، وَلَمْ يُقَابِلْ ذَلِكَ بِكَرَاهِيَةٍ ، فَيَصِيرُ ذَلِكَ قُوْتًا وَغِذَاءً لِلْعِرْقِ الْخَفِيِِّّ مِنَ الرِّياءِ ، حَتَّى يَتَحَرَّكَ حَرَكَةً خَفِيَّةً ، فَيَتَفَاضَى تَفَاضِيًا خَفِيًّا ، أَنْ يَتَكَلَّفَ شَيْئًا يُطَّلَعُ عَلَيْهِ بِالتَّعْرِيزِ ، وَإِلْقَاءِ الْكَلَامِ عَرَضًا ، وَإِنْ كَانَ لَا يَدْعُو إِلَى التَّضْرِيحِ .

وَقَدْ يَخْفَى فَلَا يَدْعُو إِلَى الْإِظْهَارِ بِالنُّطْقِ تَعْرِيزًا لَا تَضْرِيحًا ، وَلَكِنْ بِالشَّمَائِلِ ،

كإظهار النحول والصفار، وخفض الصوت، وييس<sup>(١)</sup> الشفتين، وجفاف<sup>(٢)</sup> الريق، وآثار الدموع، وغلبة النعاس الدال على طول التهجد.

وأخفى من ذلك أن يحتفي بحيث لا يريد الاطلاع عليه، لكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبذوه بالسلام، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير، وأن يثنوا عليه، وينشطوا في قضاء حوائجه، ويسامحوه في المعاملة، ويوسعوا له المكان، فإن قصر في ذلك مقصّر ثقل ذلك على قلبه، كأن نفسه تتقاضى الاحترام على الطاعة التي أحفاها، مع أنه لم يطلع عليه، ولو لم تكن قد سبقت منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقصير الناس في حقه، ومتى لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق، لم يكن قد قنع بعلم الله، ولم يكن خالياً عن شوب<sup>(٣)</sup> خفي من الرياء، أخفى من دبيب النمل، وكل ذلك يوشك أن يحيط الأجر، ولا يسلم منه إلا الصديقون.

وقد روينا عن وهب بن منبه أن رجلاً من العباد قال لأصحابه: إنا قد فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان، وإنا نحاف أن يكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم، إن أحدنا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه، وإن سأل حاجة أحب أن تقضى له<sup>(٤)</sup> لمكان دينه، وإن اشترى شيئاً أحب أن يرخص له لمكان دينه. فبلغ ذلك ملكهم، فركب في موكبه، فإذا السهل والجبل قد امتلأ من الناس، فقال العابد: ما هذا؟ قيل: هذا الملك. فقال لصاحبه: اتيني بطعام. فأتاه ببقل وزيت وقلوب الشجر، فجعل يحشو شدقه، ويأكل أكلاً عنيفاً،<sup>(٥)</sup> فقال الملك: أين صاحبكم؟ قالوا: هذا. فقال له: كيف أنت؟ قال: كالناس. فقال الملك: ما عند هذا خير. فانصرف عنه، فقال: الحمد لله الذي<sup>(٥)</sup> صرفه عني وهو لي لائم<sup>(٦)</sup>.

(١) في (ف): (تيس).

(٢) في (ف): (جفوف).

(٣) الشوب: الخلط.

(٤) سقطت من (ف).

(٥-٥) سقط من الأصل.

(٦) حلية الأولياء ٤٨/٤ - ٤٩.

ولم يَزَلِ الْمُخْلِصُونَ خَائِفِينَ مِنَ الرِّبَاءِ الْخَفِيِّ، يَجْتَهِدُونَ لِذَلِكَ فِي مُخَادَعَةِ النَّاسِ عَنِ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ، وَيَحْرِصُونَ عَلَى إِخْفَائِهَا أَعْظَمَ مَا يَحْرِصُ النَّاسُ عَلَى إِخْفَاءِ فَوَاحِشِهِمْ، كُلُّ ذَلِكَ رَجَاءً أَنْ يَخْلُصَ عَمَلُهُمْ، فَيُجَازِيَهُمُ اللَّهُ فِي الْقِيَامَةِ بِإِخْلَاصِهِمْ، فَكَانُوا كَزُورِ بَيْتِ اللَّهِ إِذَا تَوَجَّهُوا إِلَى مَكَّةَ، فَإِنَّهُمْ يَسْتَصْحِبُونَ مَعَهُمُ الذَّهَبَ الْخَالِصَ، لِعِلْمِهِمْ أَنَّ أَرْبَابَ الْبُوَادِي لَا يَرُوجُ عِنْدَهُمُ الزَّائِفُ وَالْبَهْرَجُ<sup>(١)</sup>، وَالْحَاجَةُ تَشْتَدُّ فِي الْبَادِيَةِ<sup>(٢)</sup>، وَلَا وَطْنَ يُفْرَعُ إِلَيْهِ، فَلَا يُنْجِي إِلَّا الْخَالِصُ مِنَ النَّقْدِ، فَكَذَا يُشَاهِدُ أَرْبَابُ الْقُلُوبِ الْقِيَامَةَ وَالزَّادَ الَّذِي يَتَزَوَّدُونَهُ مِنَ التَّقْوَى.

فَإِذَا شَوَّابُ الرِّبَاءِ الْخَفِيِّ كَثِيرَةٌ لَا تَنْحَصِرُ، وَمَتَى أَدْرَكَ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ تَفْرِقَةً، بَيَّنَّ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى عِبَادَتِهِ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ أَوْ طِفْلٌ، فَفِيهِ شُعْبَةٌ مِنَ الرِّبَاءِ، فَإِنَّهُ لَمَّا قَطَعَ طَمَعَهُ عَنِ الْبَهَائِمِ، لَمْ يُبَالِ حَضَرَتْ أَمْ غَابَتْ، فَلَوْ كَانَ مُخْلِصًا قَانِعًا بِعِلْمِ اللَّهِ، لَأَسْتَحَقَّرَ عُقْلَاءَ الْعِبَادِ كَمَا احْتَقَرَّ صَبِيَانَهُمْ وَمَجَانِينَهُمْ، وَعَلِمَ أَنَّ الْعُقْلَاءَ لَا يَقْدِرُونَ لَهُ عَلَى رَزْقٍ وَلَا أَجَلٍ، وَلَا زِيَادَةَ ثَوَابٍ، وَتُقْضَى عِقَابٍ، كَمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْبَهَائِمُ وَالصَّبِيَانُ وَالْمَجَانِينُ، فَإِذَا لَمْ يَجِدْ ذَلِكَ فَفِيهِ شَوْبٌ خَفِيٌّ، وَلَكِنْ لَيْسَ كُلُّ شَوْبٍ مُحِيطًا لِلْأَجْرِ وَمُفْسِدًا لِلْعَمَلِ، بَلْ فِيهِ تَفْصِيلٌ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا تَرَى أَحَدًا يَنْفَكُ عَنِ السُّرُورِ إِذَا عُرِفَتْ طَاعَتُهُ، فَهَلْ جَمِيعُ ذَلِكَ مَذْمُومٌ؟

فَالْجَوَابُ: إِنَّ السُّرُورَ يَنْقَسِمُ إِلَى مَحْمُودٍ وَمَذْمُومٍ؛ فَأَمَّا الْمَحْمُودُ فَأَرْبَعَةٌ أَقْسَامٍ:

الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ قَصْدُهُ إِخْفَاءَ الطَّاعَةِ وَالْإِخْلَاصَ لِلَّهِ، وَلَكِنْ لَمَّا اطَّلَعَ<sup>(٣)</sup> عَلَيْهِ الْخَلْقُ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ أَطَّلَعَهُمْ، وَأَظْهَرَ الْجَمِيلَ مِنْ أَحْوَالِهِ، فَيَسْتَدِلُّ بِذَلِكَ عَلَى حُسْنِ صَنِيعِ اللَّهِ، وَنَظَرِهِ لَهُ، وَلُطْفِهِ بِهِ، وَأَنَّهُ يَسْتُرُ الطَّاعَةَ وَالْمَعْصِيَةَ، فَيُظْهِرُ اللَّهُ عَلَيْهِ الطَّاعَةَ، وَيَسْتُرُ عَلَيْهِ الْمَعْصِيَةَ، وَلَا لُطْفَ أَعْظَمَ مِنْ سِتْرِ الْقَبِيحِ، وَإِظْهَارِ الْجَمِيلِ،

(١) البهرج: الردئ والباطل.

(٢) تحرفت في (ف) إلى: (الباطنة).

(٣) بعدها في الأصل لفظ الجلالة.

فَيَكُونُ فَرَحُهُ بِجَمِيلِ نَظَرِ اللَّهِ لَهُ، لَا بِحَمْدِ النَّاسِ وَقِيَامِ الْمُنْزَلَةِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]

الثاني: أَنْ يَسْتَدِلَّ بِإِظْهَارِ اللَّهِ الْجَمِيلِ وَسْتِرِهِ الْقَبِيحِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، أَنَّهُ كَذَلِكَ يَفْعَلُ بِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَقَدْ رَوَى عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا، فَسَتَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَعَفَى عَنْهُ، فَاللَّهُ أَكْرَمُ مَنْ أَنْ يَعُودَ فِي شَيْءٍ قَدْ عَفَى عَنْهُ»<sup>(١)</sup>.

فعلى الأول؛ يكون الفرح بالقبول في الحال، من غير ملاحظة المستقبل، وعلى الثاني؛ يكون الالتفات إلى المستقبل.

والثالث: أَنْ يَظُنَّ رَغْبَةَ الْمُطَّلَعِينَ عَلَى الْاِقْتِدَاءِ بِهِ فِي الطَّاعَةِ، فَيَتَضَاعَفُ بِذَلِكَ أَجْرُهُ، فَيَكُونُ لَهُ أَجْرُ الْعَلَانِيَةِ بِمَا ظَهَرَ آخِرًا، وَأَجْرُ السِّرِّ بِمَا قَصَدَهُ أَوَّلًا، وَمِنْ اِقْتِدَائِهِ بِهِ فِي طَاعَةِ فَلَهُ أَجْرُ أَعْمَالِ الْمُقْتَدِينَ بِهِ<sup>(٢)</sup>، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَتَوَقُّعُ ذَلِكَ جَدِيرٌ بِأَنْ يَكُونَ سَبَبَ السُّرُورِ، فَإِنَّ ظُهُورَ مَخَابِلِ الرَّبْحِ لَذِيذَةٌ، وَمُوجِبَةٌ لِلسُّرُورِ لَا مَحَالَةَ، وَفِي أَفْرَادِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»<sup>(٣)</sup>.

والرابع: أَنْ يَحْمَدَهُ الْمُطَّلَعُونَ عَلَى طَاعَتِهِ، فَيَفْرَحَ بِطَاعَتِهِمْ اللَّهُ فِي مَدْحِهِمْ، وَبِحُبِّهِمْ لِلْمُطِيعِ، وَبِمِثْلِ قُلُوبِهِمْ إِلَى الطَّاعَةِ، إِذْ فِي النَّاسِ مَنْ يَحْسُدُ الْمُطِيعَ وَيَذُمُّهُ، وَيَهْزَأُ بِهِ، وَيَنْسِبُهُ إِلَى الرِّيَاءِ، فَيَفْرَحُ هَذَا بِحُسْنِ إِيمَانِ عِبَادِ اللَّهِ.

(١) أخرجه أحمد (٧٧٥)، والترمذي (٢٦٢٦)، وابن ماجه (٢٦٠٤)، والبخاري (٤٨٢)، والطحاوي في شرح المشكل (٢١٨١)، والطبراني في الصغير (٤٦)، والحاكم ٤٤٥/٢، و٣٨٨/٤، والبيهقي في السنن ٣٢٨/٨.

(٢) ليست في (ف).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٤٢)، والطيالسي (٤٥٥)، وابن أبي شيبة ٥٣/١١، وأحمد (٢١٣٨٠) و(٢١٤٠٠) و(٢١٤٧٧)، وابن ماجه (٤٢٢٥) وابن حبان (٣٦٧).

والخامس: أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس، حتى يمدحونه ويعظمونه، ويقومون بقضاء حوائجه، ويكرمونه، فهذا المكروه المذموم.

فإن قيل: فما وجه حديث أبي هريرة قال: قال رجل: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل فيسره، فإذا اطلع عليه أعجبه ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «له أجران، أجر السر وأجر العلانية»<sup>(١)</sup>.

فالجواب من وجوه:

أحدها: تضعيف هذا الحديث، فإن أكثر من يرويه يفقه على أبي صالح، ولا يذكر فيه أبا هريرة. وقد رواه الترمذي عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً، وقال: هو حديث غريب<sup>(٢)</sup>.

والثاني<sup>(٣)</sup>: ذكر الترمذي أن بعض أهل العلم فسره فقال: معناه أن يعجبه ثناء الناس عليه بالخير، لقوله ﷺ: «أنتم شهداء الله في الأرض»<sup>(٤)</sup>. فأما إذا أعجبه ليعلم الناس منه الخير ويكرم عليه، فهذا رياء.

الثالث: قال بعض أهل العلم: يعجبه إذا اطلع عليه، رجاء أن يعمل بعمله، فيكون له مثل أجر من عمل.

(١) أخرجه الطيالسي (٢٤٣٠)، والبخاري في التاريخ الكبير ٢/٢٢٨، و الترمذي (٢٣٨٤) وابن ماجه (٤٢٢٦)، وابن حبان (٣٧٥)، والطبراني في الأوسط (٤٦٩٩)، والبغوي في شرح السنة (٤١٤١) عن أبي صالح ذكوان عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٢/٢٢٨ من عدة طرق عن أبي صالح مرسلأ. هكذا في النسخ وتحفة الأشراف ٩/٣٤٢، وشرح السنة (٤١٤١)، وفي مطبوع سنن الترمذي: (حديث حسن غريب).

(٣) ليست في النسخ، واستدركت من سنن الترمذي لبيان بقية الوجوه في الجواب.

(٤) أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩).

## بَيَانُ

## مَا يُحِبُّ الْعَمَلُ مِنَ الرِّيَاءِ الْخَفِيِّ وَالْجَلِيِّ وَمَا لَا يُحِبُّ

إِذَا عَقَدَ الْعَبْدُ الْعِبَادَةَ عَلَى الْإِخْلَاصِ، ثُمَّ وَرَدَ عَلَيْهِ وَارِدُ الرِّيَاءِ، فَلَا يَخْلُو أَنْ يَكُونَ وَرَدَ عَلَيْهِ بَعْدَ فَرَاغِهِ، أَوْ قَبْلَ الْفَرَاغِ.

فَإِنْ وَرَدَ عَلَيْهِ بَعْدَ الْفَرَاغِ سُورًا بِالظُّهُورِ مِنْ غَيْرِ إِظْهَارٍ، فَهَذَا لَا يُحِبُّ الْعَمَلُ، إِذِ الْعَمَلُ قَدْ تَمَّ عَلَى نَعْتِ الْإِخْلَاصِ، فَلَا يَنْعَطِفُ مَا طَرَأَ بَعْدَهُ عَلَيْهِ، لَا سِيَّمَا إِذَا لَمْ يَتَكَلَّفْ هُوَ إِظْهَارَهُ وَالتَّحَدُّثَ بِهِ، وَإِنَّمَا اتَّفَقَ إِظْهَارُهُ بِإِظْهَارِ اللَّهِ لَهُ.

فَأَمَّا إِنْ تَحَدَّثَ بِهِ بَعْدَ تَمَامِهِ، وَأَظْهَرَهُ فَهَذَا مَخُوفٌ، وَالْغَالِبُ عَلَى مَنْ أُخْبِرَ بِالْعَمَلِ بَعْدَ تَمَامِهِ لِيُمدَّحَ، أَنَّهُ قَدْ كَانَ فِي قَلْبِهِ وَقْتُ مُبَاشَرَةِ الْعَمَلِ نَوْعَ رِيَاءٍ، فَإِنْ سَلِمَ مِنْ ذَلِكَ أُثِيبَ عَلَى إِخْلَاصِهِ، وَعُوقِبَ عَلَى رِيَائِهِ بِالتَّحَدِيثِ، فَإِنْ نَجَا مِنْ ذَلِكَ نَقَصَ أَجْرُهُ.

كَمَا رَوَيْنَا عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: بَلَّغَنِي: «أَنَّ الْعَبْدَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ سِرًّا، فَلَا يَزَالُ الشَّيْطَانُ بِهِ حَتَّى يُعْلِنَهُ، فَيُكْتَبَ فِي الْعَلَانِيَةِ، ثُمَّ لَا يَزَالُ الشَّيْطَانُ بِهِ حَتَّى يُحِبَّ أَنْ يُحَمِّدَ عَلَيْهِ، فَيُنْسَخَ مِنَ الْعَلَانِيَةِ، فَيُنْبِتَ<sup>(١)</sup> فِي الرِّيَاءِ»<sup>(٢)</sup>.

فَانظُرْ إِلَى هَذَا الْكَيْدِ الْخَفِيِّ، فَإِنَّ بَيْنَ عَمَلِ السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ سَبْعِينَ دَرَجَةً.

وَأَمَّا إِذَا وَرَدَ وَارِدُ الرِّيَاءِ قَبْلَ الْفَرَاغِ مِنَ الصَّلَاةِ الَّتِي عَقَدَهَا عَلَى الْإِخْلَاصِ،

(١) فِي الْأَصْلِ: (فِي كِتَابِ).

(٢) لَا يَصِحُّ مَرْفُوعًا، فَالزَّهْرِيُّ لَمْ يَذْكَرْ عَمَّنْ أَخَذَهُ، وَأَخْرَجَهُ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ فِي تَارِيخِهِ ٦/٦٣، وَالْمُصَنِّفُ فِي الْمَوْضُوعَاتِ ٣/١٥٤ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَإِسْنَادُهُ تَالَفٌ، فِيهِ خَلْفُ بْنُ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ جَدًّا، وَعَيْسَى بْنُ مُوسَى غُنْجَارٌ يَرُوي عَنِ الْكُذَّابِينَ وَيُدَلِّسُ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي زِيَادٍ السَّكُونِيُّ، دَجَالٌ كُذَّابٌ، وَأَبَانُ بْنُ أَبِي عِيَّاشٍ مَتْرُوكٌ.

فإن كان مجرد سرورٍ لم يؤثّر في العمل، وإن كان رياءً باعثاً على العمل، وخُتِمَتْ به العبادة، حَبِطَ الأجرُ، مثل أن يكون في صلاةٍ فيحضر من ينظر إليه، فيطيل ليرى.

فأما ما يُقارنُ العبادةَ حالَ العَقْدِ، بأنَّ يبتدئ الصلاةَ على قَصْدِ الرِّياءِ، فإنَّ أتمّها على ذلك لم يُعتدَّ بها، وإنَّ نَدِمَ فيها على فعله فالذي أراه: لَهُ ابْتِدَاؤُهَا.

## بيان

### دواء الرياء، وطريق معالجة القلب فيه

قد عرفت بما تقدم أن الرياء مُحِيطٌ للأعمالِ، وسببُ لِمَقْتِ اللهُ عزَّ وجلَّ، وأنه من المهلكاتِ، وما هذا حاله فجديراً بالتَّشْمِيرِ عَنْ سَاقِ الْجِدِّ فِي إِزَالَتِهِ، وهذه المُجَاهِدَةُ يَضْطَرُّ إِلَيْهَا الْخَلْقُ كُلُّهُمْ؛ لِأَنَّ الصَّبِيَّ يُخْلَقُ ضَعِيفَ الْعَقْلِ وَالتَّمْيِيزِ، فَيَرَى تَصْنَعُ النَّاسِ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ، فَيَغْلِبُ عَلَيْهِ حُبُّ التَّصْنَعِ ضَرُورَةً، وَإِنَّمَا يَعْلَمُ أَنَّ التَّصْنَعُ مُهْلِكٌ بَعْدَ كَمَالِ عَقْلِهِ، وَقَدْ انْعَرَسَ الرِّيَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَيَفْتَقِرُ حِينَئِذٍ فِي قَمْعِهِ إِلَى مُجَاهِدَةٍ شَدِيدَةٍ، وَمُكَابَدَةٍ قَوِيَّةٍ، وَلَا يَنْفَكُ عَنِ الْاِحْتِيَاجِ إِلَى هَذِهِ الْمُجَاهِدَةِ، وَلَكِنَّهَا تَشُقُّ أَوَّلًا، وَتَخِفُّ آخِرًا، وَفِي عِلَاجِهِ مَقَامَانِ:

أحدهما: قَلْعُ عُرُوقِهِ وَأُصُولِهِ الَّتِي مِنْهَا انْتِشَاعُهُ.

والثاني: رَفْعُ مَا يَخْطُرُ مِنْهُ فِي الْحَالِ.

المَقَامُ الْأَوَّلُ: فِي قَلْعِ عُرُوقِهِ، وَاسْتِثْصَالِ أُصُولِهِ: وَأَصْلُهُ حُبُّ الْجَاهِ وَالْمَنْزِلَةِ، وَإِذَا فُضِّلَ رَجَعَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَصُولٍ، وَهِيَ:

١ - حُبُّ لَذَّةِ الْحَمْدِ.

٢ - الْفِرَارُ مِنْ أَلَمِ الذَّمِّ.

٣ - الطَّمَعُ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ.

وَيَشْهَدُ لِلرِّيَاءِ بِهَذِهِ الْأَسْبَابِ، وَأَنَّهَا الْبَاعِثَةُ لِلْمُرَائِي، مَا أَخْبَرْنَا بِهِ هِبَةَ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ، قَالَ: أَخْبَرْنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ التَّمِيمِيُّ، قَالَ: أَخْبَرْنَا أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ شَقِيقٍ، عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، فَأَيُّ ذَلِكَ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةً لِلَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» أخرجاه في الصحيحين (١).

ومعنى قوله: يُقَاتِلُ شَجَاعَةً. أي: لِيُذَكَّرَ وَيُحْمَدَ بِالْأَلْسِنَةِ. ومعنى قوله: حَمِيَّةٌ. أَنَّهُ يَأْنِفُ أَنْ يُقَهَّرَ، أَوْ يُذَمَّ بِأَنَّهُ مَقْهُورٌ. ومعنى: يُقَاتِلُ رِيَاءً. أي: لِيُرَى مَكَانَهُ، وَهَذَا هُوَ طَلَبُ لَذَّةِ الْجَاهِ وَالْقَدْرِ فِي الْقُلُوبِ.

وقد لا يَسْتَهَيِ الْإِنْسَانَ الْحَمْدَ، وَلَا يَطْمَعُ فِيهِ، وَلَكِنَّهُ يَحْذَرُ مِنَ الذَّمِّ، كَالْبَخِيلِ بَيْنَ الْأَسْخِيَاءِ، فَإِنَّهُمْ (٢) إِذَا تَصَدَّقُوا (٣) تَصَدَّقَ كَيْ لَا يُبْخَلَ، وَكَذَلِكَ الْجَبَانُ بَيْنَ الشُّجْعَانِ، فَإِنَّهُ يَثْبُتُ وَلَا يَفِرُّ لِيَلَّا يُذَمَّ، فَكِلَاهُمَا لَا يَطْمَعُ فِي الْحَمْدِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَسِسَ مِنْهُ، لَكِنَّهُ يَتَّقِي الذَّمَّ، وَقَدْ يُفْتِي الْإِنْسَانُ بِغَيْرِ عِلْمٍ حَذَرًا مِنَ الذَّمِّ بِالْجَهْلِ.

فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك المرائي إلى الرياء، وعلاجه ما ذكرناه في الشطر الأول من الكتاب على الجملة، ولكننا نذكر الآن ما يخص الرياء.

وليس يخفى أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه، لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ، إما في الحال وإما في المال، فإن علم أنه لذيد في الحال ولكنه ضار في المال، سهل عليه قطع الرغبة عنه، كمن يعلم أن العسل لذيد، ولكن إذا بان له أن فيه سماً أعرض عنه، وكذلك طريق هذه الرغبة، أن يعلم ما فيها من المصرة، ومتى عرف الإنسان مصرة الرياء، وما يفوته من صلاح قلبه، ومن المنزلة في الآخرة، وما يتعرض له من العقاب والمقت والخزي، حين ينادى عليه على رؤوس العباد: يا فاجر يا مرائي (٤) [كان ذلك رادعاً له عنه] (٥) هذا مع ما يتعرض له من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق، فإن رضى الناس غاية لا تدرك، فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق، ومن طلب رضاهم في سخط الله سخط الله عليه وأسخطهم

(١) أخرجه أحمد (١٩٥٤٣)، والبخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤).

(٢) في (ف): (فإنه) .

(٣) سقطت من (ف).

(٤) أخرجه الديلمي في الفردوس (٦٦١٩) عن جيلة الجصبي رسلاً.

(٥) زيادة من الإحياء يتم بها المعنى.

عليه، ثُمَّ أَيُّ غَرَضٍ لَهُ فِي مَدْحِهِمْ وَإِثَارِ ذَمِّ اللَّهِ لِأَجْلِ حَمْدِهِمْ، وَلَا يَزِيدُهُ حَمْدُهُمْ<sup>(١)</sup> رِزْقًا وَلَا أَجَلًا، وَلَا يَنْفَعُهُ يَوْمَ فَقْرِهِ وَفَاقَتِهِ؟!!

وَأَمَّا الطَّمَعُ فِيمَا فِي أَيْدِيهِمْ فَيَزِيلُهُ بِأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَخِّرُ لِلْقُلُوبِ بِالْمَنْعِ وَالْإِعْطَاءِ، وَأَنَّهُ لَا رَازِقَ إِلَّا اللَّهُ، وَمَنْ طَمِعَ فِي الْخَلْقِ لَمْ يَخْلُ مِنْ الذُّلِّ وَالْحَيْبَةِ، وَإِنْ وَصَلَ إِلَى الْمُرَادِ لَمْ يَخْلُ عَنِ الْمِنَّةِ وَالْمَهَانَةِ، فَكَيْفَ يَتْرُكُ مَا عِنْدَ اللَّهِ بِرَجَاءٍ<sup>(٢)</sup> كَاذِبٍ، وَوَهْمٍ فَاسِدٍ قَدْ يُصِيبُ وَقَدْ يُخْطِئُ؟! وَإِذَا أَصَابَ لَمْ تَفِ لَذَّتُهُ بِأَلَمِ مِنتِهِ وَمَذَلَّتِهِ.

وَأَمَّا ذَمُّهُمْ فَلَمْ يَحْذَرُ مِنْهُ؟! وَلَا يَزِيدُهُ ذَمُّهُمْ شَيْئًا لَمْ يَكْتُبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ؟! وَلَا يُعْجَلُ أَجَلُهُ، وَلَا يُؤَخَّرُ رِزْقُهُ؟! فَالْعِبَادُ كُلُّهُمْ عَجْرَةٌ، لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا.

فَإِذَا قَرَّرَ فِي<sup>(٣)</sup> نَفْسِهِ آفَةً<sup>(٣)</sup> هَذِهِ الْأَسْبَابِ وَضَرَرَهَا، فَتَرَتْ رَغْبَتُهُ، وَأَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ قَلْبُهُ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ لَا يَرْعَبُ فِيمَا يَكْثُرُ ضَرَرُهُ وَيَقِلُّ نَفْعُهُ، وَيَكْفِيهِ أَنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَا فِي بَاطِنِهِ مِنْ قُصْدِ الرِّيَاءِ لَمَقَّتُوهُ، وَسَيَكْشِفُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ سِرِّهِ، حَتَّى يُبْغِضَهُ إِلَى النَّاسِ، وَيُعْرِفَهُمْ أَنَّهُ مُرَاءٍ مَقِيَّتٍ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَوْ أَخْلَصَ لِلَّهِ لَكَشَفَ اللَّهُ لَهُمْ إِخْلَاصَهُ، وَحَبَبَهُ إِلَيْهِمْ، وَسَخَّرَهُمْ لَهُ، وَأَطْلَقَ أَلْسِنَتَهُمْ بِحَمْدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، مَعَ أَنَّهُ لَا كَمَالَ<sup>(٤)</sup> فِي مَدْحِهِمْ، وَلَا نُقْصَانَ فِي ذَمِّهِمْ، كَمَا قَالَ شَاعِرُ بَنِي تَمِيمٍ<sup>(٥)</sup>: إِنَّ مَدْحِي زَيْنٌ، وَإِنَّ ذَمِّي شَيْنٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ذَاكَ اللَّهُ»<sup>(٦)</sup>.

(١) فِي (ف): (مدحهم).

(٢) تحرفت في الأصل إلى: (جائر).

(٣-٣) سقط من الأصل.

(٤) في الأصل: (جمال).

(٥) هو الأقرع بن حابس التميمي المجاشعي، صحابي من الأشراف في الجاهلية والإسلام، كان من المؤلفلة قلوبهم ثم حسن إسلامه وشهد فتح مكة وحينئذ والطائف، واستشهد بجوزجان نحو سنة (٣١) هـ. الإصابة ١/١٠١، الأعلام ٥/٢.

(٦) أخرجه أحمد (١٥٩٩١)، وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (١١٧٨)، والطبراني في الكبير (٨٧٨)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (١٠٣٣) وابن الأثير في أسد الغابة ١/١٣٠،

وَأَيُّ خَيْرٍ لِلْإِنْسَانِ فِي مَدْحِ النَّاسِ إِذَا كَانَ عِنْدَ اللَّهِ مَذْمُومًا؟! وَأَيُّ شَرٍّ لَهُ فِي ذَمِّهِمْ إِذَا كَانَ عِنْدَ اللَّهِ مَحْمُودًا!؟

فَمَنْ أَحْضَرَ فِي قَلْبِهِ الْآخِرَةَ وَنَعِيمَهَا الْمُؤَبَّدَ، احْتَقَرَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْخَلْقِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ، مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْكَدْرِ وَالتَّنْغِيصِ، وَاجْتَمَعَ هَمُّهُ، وَانصَرَفَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ قَلْبُهُ، وَتَخَلَّصَ مِنْ مَذَلَّةِ الرِّيَاءِ وَمُقَاسَاةِ قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَانْعَطَفَ مِنْ إِخْلَاصِهِ أَنْوَارَ عَلَى قَلْبِهِ، يَنْشَرِحُ بِهَا صَدْرَهُ، وَيَنْفَتِحُ لَهُ مِنْ لَطَائِفِ الْمُكَاشَفَاتِ مَا يَزِيدُ بِهِ أُنْسُهُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَوَحْشَتُهُ مِنَ الْخَلْقِ، وَاحْتِقَارُهُ لِلدُّنْيَا، وَاسْتِعْظَامُهُ لِلْآخِرَةِ، وَسَقَطَ مَحَلُّ الْخَلْقِ مِنْ قَلْبِهِ، وَانْحَلَّتْ عَنْهُ دَاعِيَةُ الرِّيَاءِ، وَتَدَلَّلَ لَهُ مِنْهُجُ الْإِخْلَاصِ. فَهَذَا وَمَا قَدَّمْنَاهُ فِي الشَّطْرِ الْأَوَّلِ هِيَ الْأَدْوِيَّةُ الْعِلْمِيَّةُ الْقَالِعَةُ مَعَارِسَ الرِّيَاءِ.

وَأَمَّا الدَّوَاءُ الْعَمَلِيُّ فَهُوَ: أَنْ يُعَوِّدَ نَفْسَهُ إِخْفَاءَ الْعِبَادَاتِ، وَإِغْلَاقَ الْأَبْوَابِ دُونَهَا، كَمَا تُغْلَقُ الْأَبْوَابُ دُونَ الْفَوَاحِشِ، حَتَّى يَقْنَعَ قَلْبُهُ بِعِلْمِ اللَّهِ وَاطِّلَاعِهِ عَلَى عِبَادَتِهِ، وَلَا تُتَارَعَهُ النَّفْسُ إِلَى طَلَبِ عِلْمٍ غَيْرِ اللَّهِ بِهِ.

وَلَا دَوَاءَ لِلرِّيَاءِ مِثْلَ إِخْفَاءِ الْأَعْمَالِ، وَذَلِكَ يَشْتَقُّ فِي بَدَايَةِ الْمُجَاهَدَةِ، وَإِذَا صَبَرَ عَلَيْهِ مُدَّةً بِالتَّكْلِيفِ سَقَطَ عَنْهُ ثِقَلُهُ، وَهَانَ عَلَيْهِ ذَلِكَ بِتَوَاضُلِ الْأَطَافِ مِنَ اللَّهِ، وَمَا يَمُدُّ بِهِ عِبَادَهُ مِنْ حُسْنِ التَّوْفِيقِ وَالتَّأْيِيدِ، فَعَلَى الْعَبْدِ الْمُجَاهِدَةِ، وَمَنْ اللَّهُ التَّوْفِيقُ.

**المَقَامُ الثَّانِي:** فِي دَفْعِ الْعَارِضِ مِنْهُ فِي أَثْنَاءِ الْعِبَادَةِ، وَذَلِكَ لَا بُدَّ مِنْ تَعَلُّمِهِ أَيْضًا، فَإِنَّ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ، وَقَلَعَ مَعَارِسَ الرِّيَاءِ مِنْ قَلْبِهِ بِالقِنَاعَةِ وَقَطَعَ<sup>(١)</sup> الطَّمَعِ، وَإِسْقَاطِ نَفْسِهِ مِنْ أَعْيُنِ الْمَخْلُوقِينَ، وَاحْتِقَارِ مَدْحِهِمْ وَذَمِّهِمْ، فَالشَّيْطَانُ لَا يَتْرُكُهُ فِي أَثْنَاءِ الْعِبَادَةِ، بَلْ يُعَارِضُهُ بِخَطَرَاتِ الرِّيَاءِ، وَلَا تَنْقَطِعُ عَنْهُ نَزَغَاتُهُ، وَهَوَى النَّفْسِ وَمِيلُهَا لَا يَنْمَحِي بِالكُلِّيَّةِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَسَمَّرَ لِذَفْعِ مَا يَعْرِضُ مِنْ خَاطِرِ الرِّيَاءِ.

وَخَوَاطِرُ الرِّيَاءِ ثَلَاثَةٌ، قَدْ تَخَطَّرَ دَفْعَةً وَاحِدَةً كَالْخَاطِرِ الْوَاحِدِ، وَقَدْ تَتْرَادَفُ عَلَى التَّدْرِيجِ:

= عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنِ الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ، وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ لِانْقِطَاعِهِ، فَأَبُو سَلَمَةَ لَمْ يَسْمَعْ مِنَ الْأَقْرَعِ.

(١) سَقَطَتْ مِنْ (ف).

فالأوّل: العِلْمُ باطِّلاعِ الخَلْقِ ورجاءِ اَطِّلاعِهِمْ، ثُمَّ يَتَلَوُه هَيَجَانُ الرَّغْبَةِ مِنْ النَّفْسِ فِي حَمْدِهِمْ وَحُصُولِ الْمَنْزِلَةِ عِنْدَهُمْ، [وهو الثاني] (١)، ثُمَّ يَتَلَوُه قَبُولُ النَّفْسِ لَهُ وَالرُّكُونُ إِلَيْهِ، وَعَقْدُ الضَّمِيرِ عَلَى تَحْقِيقِهِ، [وهو الثالث] (٢).

فالأوّل: مَعْرِفَةٌ. والثاني: حَالَةٌ تُسَمَّى الشَّهْوَةَ وَالرَّغْبَةَ. والثالث: فِعْلٌ يُسَمَّى الْعَزْمَ وَتَصْمِيمَ الْعَقْدِ.

وَإِنَّمَا كَمَالُ الْقُوَّةِ فِي دَفْعِ الْخَاطِرِ الْأَوَّلِ، وَرَدِّهِ قَبْلَ أَنْ يَتَلَوَهُ الثَّانِي. فَإِذَا خَطَرَ لَهُ مَعْرِفَةُ اَطِّلاعِ الخَلْقِ أَوْ رَجَاءِ اَطِّلاعِهِمْ، دَفَعَ ذَلِكَ بِأَنْ قَالَ: مَالِكٌ وَلِلْخَلْقِ عِلْمُوا أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا؟! وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِحَالِكَ، فَأَيُّ فَايِدَةٍ فِي عِلْمِ غَيْرِهِ؟!

فإن هاجتِ الرَّغْبَةُ إِلَى لَذَّةِ الْحَمْدِ بِذِكْرِ مَا رَسَخَ فِي قَلْبِهِ مِنْ ذَلِكَ ذَكَرَهَا آفَاتِ الرِّيَاءِ، وَتَعَرَّضَهُ لِلْمَقْتِ، وَخَيَّبَتْهُ فِي أَحْوَجِ أَوْقَاتِهِ إِلَى أَعْمَالِهِ، فَكَمَا أَنَّ مَعْرِفَةَ اَطِّلاعِ النَّاسِ تُثِيرُ شَهْوَةً وَرَغْبَةً فِي الرِّيَاءِ، فَمَعْرِفَةُ آفَةِ (٣) الرِّيَاءِ تُثِيرُ كِرَاهَةً لَهُ تُقَابِلُ تِلْكَ الشَّهْوَةَ، وَالشَّهْوَةُ تَدْعُو إِلَى الْقَبُولِ، وَالْكِرَاهَةُ تَدْعُو إِلَى الْإِبَاءِ، وَالنَّفْسُ تُطَاوَعُ أَقْوَاهُمَا وَأَغْلَبَهُمَا، فَإِذَا لَا بُدَّ فِي رَدِّ الرِّيَاءِ مِنْ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ: الْمَعْرِفَةُ وَالْكِرَاهَةُ وَالْإِبَاءُ.

وقد يَشْرَعُ الْعَبْدُ فِي الْعِبَادَةِ عَلَى عَزْمِ الْإِخْلَاصِ، ثُمَّ يَرِدُ خَاطِرُ الرِّيَاءِ فَيَقْبَلُهُ، وَلَا تَحْضُرُهُ الْمَعْرِفَةُ، وَلَا الْكِرَاهَةُ الَّتِي كَانَ الضَّمِيرُ مُنْطَوِيًّا عَلَيْهَا، وَسَبَبُ ذَلِكَ امْتِلَاءُ الْقَلْبِ بِخَوْفِ الذَّمِّ وَحُبِّ الْحَمْدِ، وَاسْتِيْلَاءُ الْحِرْصِ عَلَيْهِ، بِحَيْثُ لَا يَبْقَى فِي الْقَلْبِ مُتَسَعٌّ لِعَيْبِهِ (٤)، فَتَعَزُّبُ عَنِ الْقَلْبِ الْمَعْرِفَةُ السَّابِقَةُ بِآفَاتِ الرِّيَاءِ وَشُؤْمِ عَاقِبَتِهِ، إِذْ لَمْ يَبْقَ مَوْضِعٌ فِي الْقَلْبِ خَالٍ عَنِ شَهْوَةِ الْحَمْدِ خَوْفِ الذَّمِّ، وَهُوَ كَالَّذِي يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِالْحِلْمِ وَذَمِّ الْعَضْبِ، وَيَعِزُّمُ عَلَى التَّحَلُّمِ عِنْدَ جَرِيَانِ سَبَبِ الْعَضْبِ، ثُمَّ يُجْرِي

(١) زيادة من الإحياء يقتضيها السياق.

(٢) زيادة من الإحياء يقتضيها السياق.

(٣) في الأصل: (آفات).

(٤) في الأصل: (لغير الله) والمثبت من (ف) موافق للإحياء والإنحاف.

مِنَ الْأَسْبَابِ مَا يَشْتَدُّ بِهِ غَضَبُهُ، فَيَنْسَى سَابِقَ عَزْمِهِ، وَيَمْتَلِئُ قَلْبُهُ غَيْظًا يَمْنَعُ مِنْ تَذَكُّرِ آتَةِ الْغَضَبِ، وَيُشْعَلُ عَنْهُ، فَكَذَلِكَ حَلَاوَةُ الشَّهْوَةِ تَمْلَأُ الْقَلْبَ، وَتَدْفَعُ نُورَ الْمَعْرِفَةِ، مِثْلُ مَرَارَةِ الْغَضَبِ، وَمِثْلُ هَذَا مَا جَرَى لِلصَّحَابَةِ حِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ «تَحْتَ الشَّجَرَةِ»<sup>(١)</sup> أَنْ لَا يَفْرُؤُوا<sup>(٢)</sup>، ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ الْقُلُوبِ امْتَلَأَتْ يَوْمَ حُنَيْنٍ بِالْخَوْفِ، فَفَرَّوْا نَاسِينَ لِلْعَهْدِ السَّابِقِ<sup>(٣)</sup>.

وأكثر الشهوات التي تهجم فجأة هكذا تكون، فتُنسى معرفة المصرة الداخلة في عقد الإيمان، فإذا نسيت المعرفة لم تظهر الكراهة، فإن الكراهة ثمرة المعرفة.

وقد يتذكر، فيعلم أن الذي خطر له هو خاطر الرياء الذي يعرضه لسخط الله، ولكنّه يستمر عليه لشدّة شهوته، فيغلب هواه عقله، ولا يقدر على ترك لذة الحال، فيسوّف بالتوبة، أو يتشاعل عن التّفكّر في ذلك لشدّة الشهوة، فكم من عالم يحضره كلام لا يدعو إلى قوله إلا رياء الخلق، وهو يعلم ذلك، ويستمر عليه، ولا تنفعه معرفته إذا حلت المعرفة عن الكراهة.

وقد تحضر المعرفة الكراهة، ثمّ يجيب داعي الرياء، وذلك حين تكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوة الشهوة، وهذا أيضاً لا ينتفع بكراهته، إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل.

فإذا لا فائدة إلا في اجتماع الثلاث: المعرفة والكراهة والإباء، فالإباء ثمرة الكراهة، والكراهة ثمرة المعرفة، وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور المعرفة، وضعف المعرفة بحسب الغفلة وحُبّ الدنيا ونسيان الآخرة، وقلة التّفكّر فيما عند الله، وقلة التأمل في آفات الحياة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة، وبعض ذلك يُنتج بعضاً ويثمره، وأصل ذلك كله حُبّ الدنيا وغلبة الشهوات، فهو رأس كل خطيئة،

(١-١) سقط من الأصل.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٦٠)، ومسلم (١٨٦٠) من حديث سلمة بن الأكوع، وفيه أن البيعة كانت على الموت، وأخرجه مسلم (١٨٥٦) من حديث جابر و(١٨٥٨) من حديث معقل ابن يسار، ولفظه: (بايعناه على أن لا نفر، ولم نبايعه على الموت).

(٣) حديث غزوة حنين أخرجه مسلم (١٧٧٥) من حديث العباس رضي الله عنه.

وَمَنْبَعُ كُلِّ ذَنْبٍ؛ لِأَنَّ حَلَاوَةَ حُبِّ الْجَاهِ وَالْمَنْزِلَةِ وَنَعِيمِ الدُّنْيَا هِيَ الَّتِي تَسْتَلِبُ  
الْقَلْبَ، وَتَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّفَكُّرِ فِي الْعَاقِبَةِ، وَالِاسْتِضَاءَةِ بِأَنْوَارِ الْعِلْمِ.  
فَإِنْ قِيلَ: فَمَا تَقُولُ فِيمَنْ لَا يَرَى إِلَّا أَنَّ طَبْعَهُ يُحِبُّ الرِّيَاءَ؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ لَمْ  
يُكَلِّفِ الْإِنْسَانَ مَحْوًا مَا فِي طَبْعِهِ، إِنَّمَا كَلَّفَ مُخَالَفَةَ مَا فِي طَبَاعِهِ.

## بيان

### الرُّخْصَةُ فِي قَصْدِ إِظْهَارِ الطَّاعَاتِ

اعلم أن في إسرار الأعمال فائدة الإخلاص، والنَّجاة مِنَ الرِّياءِ، وفي الإظهار فائدة الاقتداء، وترغيب النَّاسِ فِي الخَيْرِ، ولكنَّ فِيهِ آفةُ الرِّياءِ.

والإظهار قِسْمَانِ: أحدهما: في نفس العَمَلِ، والآخَرُ: بالتَّحَدُّثِ بِالْعَمَلِ.

فالقِسْمُ الأوَّلُ: كإظهار الصَّدَقَةِ فِي المَلَأِ لِتَرْغِيبِ النَّاسِ فِيهَا، كما رُوِيَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَثَّ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَجَاءَ أَنْصَارِيٌّ بِصُرَّةٍ، فَتَتَابَعَ النَّاسُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً فِي الإِسْلَامِ حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ»<sup>(١)</sup>.

واعلم أنَّ الأَعْمَالَ مِنْهَا مَا لَا يُمَكِّنُ إِسْرَارُهُ، فَاَلْمُبَادَرَةُ إِلَيْهِ لَيْسَ مِنَ الإِعْلَانِ، بَلْ هُوَ تَحْرِيطٌ مُجَرَّدٌ، كَالْحِجِّ وَالْجِهَادِ، فَالأَفْضَلُ البِدَارُ إِلَيْهِ لِلتَّحْرِيطِ<sup>(٢)</sup> لَا لِلرِّياءِ، وَمِنْهَا مَا يُمَكِّنُ إِسْرَارُهُ، كَالصَّدَقَةِ وَالصَّلَاةِ، فَإِنْ كَانَ إِظْهَارُ الصَّدَقَةِ يُؤْذِي المُتَصَدِّقَ عَلَيْهِ، لَكِنَّهُ يُرْعَبُ النَّاسَ فِي الصَّدَقَةِ، فَالسَّرُّ أَفْضَلُ؛ لِأَنَّ الإِيذَاءَ حَرَامٌ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِيْذَاءٌ فَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الأَفْضَلِ، فَقَالَ قَوْمٌ: السَّرُّ أَفْضَلُ مِنَ العَلَانِيَةِ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا قُدُوءٌ وَقَالَ قَوْمٌ: السَّرُّ أَفْضَلُ مِنَ عِلَانِيَةِ لَا قُدُوءَ فِيهَا، وَالعَلَانِيَةُ لِلْقُدُوءِ أَفْضَلُ مِنَ السَّرِّ. وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ لِمَكَانِ فَضْلِ الاقْتِدَاءِ، وَإِنَّمَا

(١) أخرجه أحمد (١٩١٧٤)، ومسلم (١٠١٧) (٦٩) [٢٠٦٠/٤]، والطيالسي (٦٧٠)، وابن أبي شيبه ١٠٩/٣ - ١١٠، والنسائي في المجتبى ٧٥٨/٥ وفي الكبرى (٢٣٣٥) وابن حبان (٣٣٠٨) والطبراني في الكبير (٢٣٧٢) والبيهقي في السنن ١٧٥/٤ وفي الشعب (٣٣١٩) والبخاري في شرح السنة (١٦٦١)، عن جرير بن عبد الله البجلي.

(٢) في الأصل: (للتحريض إليه).

يُخَافُ مِنَ الظُّهُورِ الرِّيَاءِ، وَمَتَى حَصَلَتْ شَائِبَةُ الرِّيَاءِ لَمْ يَنْفَعُهُ اقْتِدَاءُ غَيْرِهِ، إِلَّا أَنْ عَلَى الَّذِي يُظْهِرُ الْعَمَلَ وَظِيْفَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: أَنْ يُظْهِرَهُ حَيْثُ يَعْلَمُ أَنَّهُ يُقْتَدَى بِهِ، أَوْ يَظُنُّ ذَلِكَ ظَنًّا، وَإِنَّمَا يَصِحُّ الْإِظْهَارُ بِنِيَّةِ الْقُدْوَةِ مِمَّنْ هُوَ فِي مَحَلِّ الْقُدْوَةِ، عَلَى مَنْ هُوَ فِي مَحَلِّ الْاِقْتِدَاءِ بِهِ.

وَالثَّانِيَةُ: أَنْ يُرَاقِبَ قَلْبَهُ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا يَكُونُ فِيهِ حُبُّ الرِّيَاءِ الْخَفِيِّ، فَيَدْعُوهُ إِلَى الْإِظْهَارِ بِحُجَّةِ الْاِقْتِدَاءِ، وَإِنَّمَا شَهْوَتُهُ التَّجَمُّلُ بِالْعَمَلِ، وَيَكُونُهُ مُقْتَدَى بِهِ، وَهَذَا حَالٌ كُلُّ مَنْ يُظْهِرُ أَعْمَالَهُ، إِلَّا الْأَقْوِيَاءَ الْمُخْلِصُونَ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ، فَلَا يَنْبَغِي لِلضَّعِيفِ أَنْ يَخْدَعَ نَفْسَهُ بِذَلِكَ، فَيَهْلِكَ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، فَإِنَّ مِثَالَ الضَّعِيفِ مِثَالُ الْغَرِيقِ الَّذِي يُحْسِنُ سِبَاحَةً ضَعِيفَةً، فَنَظَرَ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الْغَرَقَى فَرَجَمَهُمْ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَتَشَبَّهُوا بِهِ، فَهَلَكُوا وَهَلَكَ، وَيَا لَيْتَ الرِّيَاءَ كَانَ كَالْغَرَقَى، فَإِنَّ أَلَمَ الْغَرَقَى سَاعَةً، وَعَذَابَ الرِّيَاءِ دَائِمٌ مُدَّةٌ مَدِيدَةٌ، وَهَذَا هُنَا مَزَلَةٌ أَقْدَامِ الْعُبَادِ وَالْعُلَمَاءِ، فَإِنَّهُمْ يَتَشَبَّهُونَ بِالْأَقْوِيَاءِ فِي الْإِظْهَارِ، وَلَا تَقْوَى قُلُوبُهُمْ عَلَى الْإِخْلَاصِ، فَتَحْبَطُ أَجُورُهُمْ بِالرِّيَاءِ.

وَالتَّفَقُّنُ لَذَلِكَ غَامِضٌ، وَمَحَكٌ ذَلِكَ أَنْ يَعْرِضَ عَلَى نَفْسِهِ، أَنَّهُ لَوْ قِيلَ لَهُ: أَحْفِ الْعَمَلَ حَتَّى يَقْتَدِيَ النَّاسُ بِعَالِمٍ آخَرَ مِنْ أَقْرَانِكَ، وَيَكُونَ لَكَ فِي السِّرِّ مِثْلُ أَجْرِ الْإِعْلَانِ. فَإِنْ مَالَ قَلْبُهُ إِلَى أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُقْتَدَى بِهِ، وَهُوَ الْمُظْهِرُ لِلْعَمَلِ، فَبَاعَتْهُ الرِّيَاءُ دُونَ طَلَبِ الْأَجْرِ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَمِيلُ إِلَى الْإِظْهَارِ لِقَصْدِ مُلَاحَظَةِ أَعْيُنِ النَّاسِ، فَلْيَحْذَرِ الْعَبْدُ خُدْعَ النَّفْسِ، وَفِي الْإِظْهَارِ أخطَارٌ، وَالسَّلَامَةُ فِي الْإِخْفَاءِ.

القِسْمُ الثَّانِي: أَنْ يَتَحَدَّثَ بِمَا فَعَلَهُ بَعْدَ الْفِرَاقِ، وَحُكْمُهُ حُكْمُ إِظْهَارِ نَفْسِ الْعَمَلِ، وَالخَطَرُ فِي هَذَا أَشَدُّ لِأَنَّ مَوْوَنَةَ النَّطْقِ خَفِيفَةٌ عَلَى اللِّسَانِ، وَقَدْ تَجْرِي فِي الْحِكَايَةِ زِيَادَةٌ وَمُبَالَغَةٌ، وَلِلنَّفْسِ لَذَّةٌ فِي إِظْهَارِ الدَّعَاوَى عَظِيمَةٌ، إِلَّا أَنَّهُ لَوْ تَطَرَّقَ إِلَيْهِ الرِّيَاءُ، لَمْ يُؤَثِّرْ فِي إِفْسَادِ الْعِبَادَةِ الْمَاضِيَةِ بَعْدَ الْفِرَاقِ مِنْهَا، فَهُوَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ أَهْوَنُ، وَالْحُكْمُ فِيهِ: أَنَّ مَنْ قَوِيَ وَتَمَّ إِخْلَاصُهُ، وَصَغُرَ النَّاسُ فِي عَيْنِهِ، وَاسْتَوَى عِنْدَهُ مَدْحُهُمْ وَذَمُّهُمْ، وَذَكَرَ ذَلِكَ عِنْدَ مَنْ يَرْجُو الْاِقْتِدَاءَ بِهِ فَجَائِزٌ، بَلْ مَدْنُوبٌ إِلَيْهِ إِنْ صَفَتِ النِّيَّةُ وَسَلِمَتْ؛ لِأَنَّهُ تَرغِيبٌ فِي الْخَيْرِ، وَالتَّرغِيبُ فِي الْخَيْرِ خَيْرٌ.

وقد نُقِلَ مِثْلُ هَذَا عَنْ جَمَاعَةٍ. فَقَالَ عَمْرٌ: مَا أَبَالِي أَصْبَحْتُ عَلَى يُسْرِ أَوْ عَلَى عُسْرٍ؛ لِأَنِّي لَا أَدْرِي أَيُّهُمَا خَيْرٌ لِي. وَقَالَ عَثْمَانُ بْنُ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا تَغَيَّيْتُ وَلَا تَمَنَيْتُ، وَلَا مَسَسْتُ ذَكَرِي بِيَمِينِي مِنْذُ بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مَا أَصْبَحْتُ عَلَى حَالٍ فَتَمَنَيْتُ أَنْ أَكُونَ عَلَى حَالٍ <sup>(٢)</sup> غَيْرِهَا. وَقَالَ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ: مَا تَكَلَّمْتُ بِكَلِمَةٍ مِنْذُ أَسْلَمْتُ إِلَّا وَأَنَا أَرْزُمُهَا وَأَخْطُمُهَا <sup>(٣)</sup> غَيْرَ كَلِمَتِي هَذِهِ. وَكَانَ قَدْ قَالَ لِعُلامِهِ: اثْنِنَا بِالسُّفْرَةِ نَعْبَثُ بِهَا <sup>(٤)</sup>. وَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ الْمُغِيرَةُ <sup>(٥)</sup> لِأَهْلِهِ حِينَ اخْتَضَرَ: لَا تَبْكُوا عَلَيَّ، فَإِنِّي مَا تَنَطَّفْتُ <sup>(٦)</sup> بِخَطِيئَةٍ مِنْذُ أَسْلَمْتُ.

وهذا كثيرٌ في كلام السلف، وكُلُّهُ إِظْهَارٌ لِأَحْوَالِ شَرِيفَةٍ، وَفِيهَا غَايَةُ الْمُرَاءَةِ إِذَا صَدَرَتْ مِنْ يُرَائِي بِهَا، وَغَايَةُ التَّرْغِيبِ إِذَا صَدَرَتْ مِنْ يَتَقَدَّى بِهِ، فَيَجُوزُ مِثْلُ هَذَا لِلأَقْوِيَاءِ بِالشَّرْوَطِ الَّتِي ذَكَرْنَاها.

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو يَعْلَى فِي مَسْنَدِهِ (٣٩٥٨) مَطْوِلاً عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فِي سِيَاقِ قِصَّةٍ، وَهُوَ حَدِيثٌ مَوْضُوعٌ، فِي إِسْنَادِهِ صَقْرُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، كَذَابٌ، وَقَالَ ابْنُ حَجْرٍ فِي الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ (٣٨٤٢): هَذَا حَدِيثٌ مَوْضُوعٌ فِيهِ كَلَامٌ.

(٢) سَقَطَتْ مِنْ (ف).

(٣) أَرْزُمُهَا وَأَخْطُمُهَا: أَيِ أَضْعَفَ لَهَا زَمَاماً وَخَطَاماً كَي لَا تَخْرُجَ، وَإِنْ خَرَجَتْ تَكُونُ مَضْبُوطَةً مَحْكَمَةً كَالدَّابَّةِ عَلَيْهَا الزَّمَامُ وَالْخَطَامُ.

(٤) حَلِيَّةُ الْأَوْلِيَاءِ ١/٢٦٥.

(٥) فِي الْأَصْلِ وَ(ف): (أَبُو سُفْيَانَ بْنِ الْمُغِيرَةَ)، وَهُوَ خَطَأٌ، فَهُوَ أَبُو سُفْيَانَ الْمُغِيرَةُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ الْهَاشِمِيِّ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، تُوُفِيَ سَنَةَ (٢٠) هـ. السِّيرُ ١/٢٠٢.

(٦) تَحَرَّفَتْ فِي (ف) إِلَى: (مَا نَطَقْتُ). وَقَوْلُهُ: (مَا تَنَطَّفْتُ) أَيِ: مَا تَلَطَّخْتُ وَلَا تَنَجَّسْتُ وَلَا أَتَهَّمْتُ بِخَطِيئَةٍ.

## بيان

### الرُّخْصَةِ فِي كِتْمَانِ الذُّنُوبِ وَكِرَاهَةِ إِطْلَاعِ النَّاسِ عَلَى الْمُذْنِبِ، وَكِرَاهَةِ ذَمِّهِمْ لَهُ

رُبَّمَا ظَنَّ ظَانٌّ أَنَّ كِتْمَانَ الْخَطَايَا رِيَاءً، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، إِنَّمَا الْمَحْظُورُ أَنْ يَسْتُرَ  
الْإِنْسَانَ الْخَطَايَا لِيُرَى أَنَّهُ وَرِعٌ، وَأَنَّهُ خَائِفٌ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ لَيْسَ كَذَلِكَ.

فَأَمَّا الصَّادِقُ الَّذِي لَا يُرَائِي فَلَهُ سِتْرُ الْمَعَاصِي، وَيَصِحُّ قَضْدُهُ فِي ذَلِكَ،  
وَاعْتِمَامُهُ بِإِطْلَاعِ النَّاسِ عَلَيْهِ مِنْ أَوْجِهِ:

الأوّل: أَنْ يَفْرَحَ بِسِتْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَإِذَا افْتُضِحَ اعْتَمَّ بِهَيْتِكَ اللَّهُ سِتْرَهُ،  
وَخَافَ أَنْ يَهْتِكَ سِتْرَهُ فِي الْقِيَامَةِ، فَهَذَا غَمٌّ يَنْشَأُ مِنْ قُوَّةِ الْإِيمَانِ.

الثاني: أَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَكْرَهُ ظُهُورَ الْمَعَاصِي، وَيُحِبُّ سِتْرَهَا، كَمَا  
قَالَ ﷺ: «مَنْ ارْتَكَبَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْقَادُورَاتِ فَلَيْسَتْ بِسِتْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(١)</sup>.

فهذا وَإِنْ عَصَى بِالذَّنْبِ فَلَمْ يَخْلُ قَلْبُهُ عَنْ مَحَبَّةِ مَا أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَهَذَا يَنْشَأُ مِنْ قُوَّةِ  
الْإِيمَانِ بِكَرَاهَةِ اللَّهِ ظُهُورَ الْمَعَاصِي، وَأَثَرُ الصِّدْقِ فِيهِ أَنْ يَكْرَهُ ظُهُورَ الذَّنْبِ مِنْ غَيْرِهِ  
أَيْضًا، وَيَعْتَمُّ بِهِ.

الثالث: أَنْ يَكْرَهُ دَمَّ النَّاسِ لَهُ بِهِ، مِنْ حَيْثُ أَنَّ ذَلِكَ يَعْمُهُ، وَيَسْعَلُ قَلْبُهُ وَعَقْلُهُ  
عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ الطَّبْعَ يَتَأَثَّرُ بِالذَّمِّ، وَبِهَذِهِ الْعِلَّةِ أَيْضًا يَنْبَغِي أَنْ يَكْرَهُ الْحَمْدَ  
الَّذِي يَسْعَلُهُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَسْتَعْرِقُ قَلْبُهُ، وَيَصْرِفُهُ عَنِ الذِّكْرِ، وَهَذَا أَيْضًا مِنْ قُوَّةِ  
الْإِيمَانِ، إِذْ صِدْقُ الرَّغْبَةِ فِي فِرَاقِ الْقَلْبِ لِأَجْلِ الطَّاعَةِ مِنَ الْإِيمَانِ.

(١) أخرج الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٩١)، والحاكم ٢٤٤/٤ و٣٨٣، والبيهقي في السنن ٣٣٠/٨ عن ابن عمر رضي الله عنهما.

فإن قيل: فهل يجوز للإنسان أن يحبَّ حمدَ النَّاسِ له بالصَّلاحِ وحبَّهم إياه بسببِهِ؟ وقد قال رجلٌ للنبيِّ ﷺ: دُلَّني على عملٍ يُحبُّني اللهُ عليه، ويُحبُّني النَّاسُ. فقال ﷺ: «ازهد في الدنيا يُحبَّك اللهُ، وأنبذ إليهم هذا الحطامَ يُحبُّوك»<sup>(١)</sup>؟

فالجواب: إنَّ مَنْ أَحَبَّ ذَلِكَ لِيُعْرَفَ بِهِ حُبُّ اللهِ لَهُ فهذا مَحْمُودٌ<sup>(٢)</sup>؛ لأنَّه إِذَا أَحَبَّهُ حَبِيَّهُ إِلَى عِبَادِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ ذَلِكَ عَلَى طَاعَةٍ بِعَيْنِهَا فَقَدْ طَلَبَ الْعِوَضَ عَنْهَا<sup>(٣)</sup>.

- (١) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢)، والعقيلي في الضعفاء ١١/٢، والطبراني في الكبير ٦/٥٩٧٢، وابن عدي في الكامل ٤٥٨/٣، والحاكم ٣١٣/٤، وأبو نعيم في الحلية ٧/١٣٦، وفي أخبار أصفهان ٢٤٤/٢ - ٢٤٥، والقُضاعي في مسند الشهاب (٦٤٣)، والبيهقي في الشُّعَب (١٠٥٢٢)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٣٥٢) من طريق خالد ابن عمرو، عن الثوري، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد الساعدي مرفوعاً.
- (٢) ورد هنا في هامش (ف) حاشية نصها: (فالأولى محمودة، والثانية مذمومة، إذ لم يقنع بشواب الله، بقي حالة ثالثة مباحة، أن تحب أن يحبوك بصفات محمودة سوى الطاعات، وذلك كحبِّ المال، لأن ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كملك المال، فلا فرق).
- (٣) جاء في (ف) بعد هذا زيادة، ولعلها من الناسخ، ونصها: (رواه ابن ماجه وغيره عن سهل ابن سعد الساعدي قال: أتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، دُلَّني على عملٍ إذا أنا عملته أحبني اللهُ وأحبني النَّاسُ. فقال ﷺ: (ازهد في الدنيا يحبك اللهُ، وازهد فيما في أيدي النَّاسِ يحبُّوك). لفظ ابن ماجه. قال الترمذي حديث حسن.
- هكذا ورد في متن (ف): (الترمذي) وشطب الناسخ عليها، فالحديث ليس عند الترمذي، وورد في الهامش كلمة لعلها: (النووي) فقد أورده النووي في رياض الصالحين (٤٧٢) وحسنه.

## بيان

### ترك الطاعات خوفاً من الرياء والآفات

اعلم أن من الناس من يترك العمل خوفاً من أن يكون مُرائياً به، وذلك غلط، وموافقاً للشيطان، إلا أنا نُفصل فنقول:

الطاعات تنقسم إلى:

١ - ما لا لذة في عينه، كالصلاة، والصوم، والحج، والغزو، فإنها مجاهدات، وإنما تصير لذيذة من حيث إنها توصل إلى حمد الناس، وحمد الناس لذيذ.

٢ - وإلى ما هو لذيذ، كالخلافه، والقضاء، والولايات، « وإمامة الصلاة »، والتذكير، والتدريس، وإنفاق المال على الخلق، وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق، ولما فيه من اللذة.

فأما القسم الأول: وهو الطاعات اللازمة للبدن، التي لا تتعلق بالغير، ولا لذة في عينها، كالصلاة، والصوم، فحطرات الرياء فيها ثلاث:

أحدهن: ما يدخل قبل العمل، فيبعث على الابتداء لرؤية الناس، وليس معه باعث الدين، فهذا ينبغي أن يترك؛ لأنه معصية لا طاعة فيه؛ لأنه تشبث<sup>(٢)</sup> بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة.

الثانية: أن يبعث لأجل الله، ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة أولها، فلا ينبغي أن يترك العمل؛ لأنه وجد باعثاً دينياً، فليشرع في العمل، وليجاهد نفسه في دفع الرياء، وتحصيل الإخلاص بالمعالجة التي ذكرناها، من إلزام النفس كراهة الرياء، والإباء عن القبول.

(١-١) سقط من (ف).

(٢) تحرفت في الأصل إلى: (بسبب).

الثالثة: أن يترك العمل خوفاً من أن يقال: هو مُرَاءٍ، وذلك من مكائد الشيطان. قال إبراهيم النخعي: إذا أتاك الشيطان وأنت في صلاة، فقال: إنك تُرائي. فزدها طويلاً.

فإن قيل: فقد روي عن جماعة من السلف أنهم تركوا العبادة خوفاً من الرياء، فُقِلَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ (١) أَنَّ إِنْسَانًا دَخَلَ عَلَيْهِ، فَأَطْبَقَ الْمُصْحَفَ، وَتَرَكَ الْقِرَاءَةَ، وَقَالَ: لَا يَرَى هَذَا أَنِّي أَقْرَأُ كُلَّ سَاعَةٍ (٢). وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَأْتِيهِ الْبُكَاءُ فَيَصْرِفُهُ إِلَى الضَّحِكِ مَخَافَةَ الشُّهْرَةِ.

فالجواب: أنا قد روينا عنهم كثيراً من إظهارهم الطاعات، فيحمل هذا المضاد لذلك على أنهم أحسوا من نفوسهم بنوع تزين ففقطعوا.

وأما القسم الثاني: وهو ما يتعلّق بالخلق، وتَعْظُمُ فِيهِ الْآفَاتُ وَالْأَخْطَارُ، فَأَعْظَمُهَا الْخِلَافَةُ، فَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَادَاتِ، وَفِي الصَّحِيحِينَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ...» فَذَكَرَ مِنْهُمْ الْإِمَامَ الْعَادِلَ (٣).

إِلَّا أَنَّ السَّلْفَ مَا زَالُوا يَهْرُبُونَ (٤) مِنَ الْإِمَارَةِ لِمَا فِيهَا مِنَ الْخَطَرِ، وَذَلِكَ أَنَّهَا تُوجِبُ الْجَاءَ، وَتُحْصَلُ لَذَّةُ الْاسْتِيْلَاءِ، وَنَفَادُ الْأَمْرِ، وَهُوَ أَعْظَمُ مَلَأْدُ الدُّنْيَا، وَالْأَعْلَبُ عَلَى صَاحِبِهَا مُوَافَقَةُ هَوَاهُ، وَلِذَلِكَ قَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمْرَةَ: يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ (٥).

فالأقوياء لا تضرهم الولايات (٦)، والضُّعَفَاءُ تُؤْذِيهِمْ، وَلِذَلِكَ تَوَلَّاهَا أَبُو بَكْرٍ

(١) سقطت من (ف).

(٢) حلية الأولياء ٤/٢٢٠.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة.

(٤) في (ف): (يرهبون).

(٥) أخرجه البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢).

(٦) في (ف): (الولاية).

الصَّدِيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَقَالَ لِرَجُلٍ<sup>(١)</sup>: لَا تَأْمُرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ<sup>(٢)</sup>. وَالْقَضَاءُ إِمَارَةٌ، فَهُوَ كَالْخِلَافَةِ، وَمَنْ لَمْ يَتِمَّكُنْ مِنَ الْقَضَاءِ بِالْحَقِّ ثُمَّ كَرِهَ الْعَزْلَ فَقَدْ كَانَ خَادِمًا لِهَوَاهُ.

وَأَمَّا الْفَتْوَى وَالتَّدْرِيسُ وَالْوَعْظُ وَرِوَايَةُ الْحَدِيثِ فَافْتَهُ عَظِيمَةٌ كَافَّةُ الْوَلَايَاتِ، وَقَدْ كَانَ الْخَائِفُونَ مِنَ السَّلَفِ يَتَدَاغَعُونَ الْفَتْوَى، وَالْوَاعِظُ يَجِدُ لِقَبُولِ كَلَامِهِ وَصِيَّاحِ النَّاسِ<sup>(٣)</sup> فِي مَجْلِسِهِ<sup>(٣)</sup> لَذَّةً شَدِيدَةً، فَلَا يُؤْمِنُ لِذَلِكَ أَنْ يَمِيلَ إِلَى زُخْرَفٍ مِنَ الْكَلَامِ بَاطِلٍ، لِيَنَالَ بِهِ مَقْصُودَهُ مِنْ تَحْرِيكِ الْقُلُوبِ، لِيُعْظَمَ بِهِ مَنَزِلَتُهُ عِنْدَهُمْ، وَعَلَامَةٌ هَذَا أَنَّهُ يَفْرَحُ إِذَا سَمِعَ شَيْئًا يَصْلُحُ لِلْمَنْبَرِ، وَلَوْ كَانَ مُحِقًّا لَفَرِحَ بِهِ لِأَجْلِ صَلَاحِهِ لِطَرِيقِ السَّعَادَةِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَهَذَا الْقَوْلُ يُوجِبُ تَعْطِيلَ الْقَضَاءِ وَالْفَتْوَى وَالتَّذْكِيرَ.

قُلْنَا: لَيْسَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ حُبَّ الرِّئَاسَةِ لَا يَتْرُكُ ذَلِكَ يَنْدَرِسُ، عَلَى أَنَا لَا نُذَمُّ الْعُلُومَ، إِنَّمَا نُذَمُّ سُوءَ الْقَصْدِ بِهَا، وَعَلَامَةُ الصَّحِيحِ الْقَصْدِ أَنَّهُ لَوْ ظَهَرَ أَعْلَمَ مِنْهُ لَمْ يَخْسُدْهُ، لَكِنْ لَا بَأْسَ بِالْغِبْطَةِ، فَإِذَا رَأَيْتَ الْعُلَمَاءَ يَتَحَاسَدُونَ وَيَتَعَايَرُونَ، فَمُرَادُهُمُ الدُّنْيَا لَا الْآخِرَةَ.

(١) هو رافع بن عمرو الطائي أبو الحسن السنبسي، صحابي من العارفين بمفاوز الصحراء، توفي آخر خلافة عمر. الإصابة ٢/٤٤٠.

(٢) الأثر أخرجه ابن حجر في الإصابة ٢/٤٤٠، وصح مرفوعاً من حديث أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال له: (يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرنَّ على اثنين، ولا تولين مالاً يتيم). أخرجه أحمد (٢١٥٦٣)، ومسلم (١٨٢٦)، وأبو داود (٢٨٦٨)، والنسائي في المجتبى ٦/٢٥٥، وفي الكبرى (٦٤٦١) وابن حبان (٥٥٦٤).

(٣-٣) سقط من (ف).

## بَيَانُ

### مَا يَصِحُّ مِنْ نَشَاطِ الْعِبَادَةِ لِلْعِبَادَةِ بِسَبَبِ رُؤْيَةِ الْخَلْقِ وَمَا لَا يَصِحُّ

قَدْ بَيَّنْتُ الرَّجُلَ مَعَ الْمُتَهَجِّجِينَ، فَيُصَلُّونَ أَكْثَرَ اللَّيْلِ، وَعَادَتُهُ قِيَامُ سَاعَةٍ قَرِيبَةٍ، فَيُؤَافِقُهُمْ، أَوْ يَصُومُونَ فَيَصُومُ، وَلَوْ لَاهِمَ مَا أَنْبَعَتْ هَذَا النَّشَاطُ، فَرُبَّمَا ظَنَّ ظَانٌّ أَنَّ هَذَا رِيَاءٌ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، بَلْ فِيهِ تَفْصِيلٌ؛ وَهُوَ أَنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ يَرْغَبُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَكِنْ تَعَوُّفُهُ الْعَوَائِقِ، وَتَسْتَهْوِيهِ الْعَقْلَةُ، فَرُبَّمَا كَانَتْ مُشَاهِدَةُ الْغَيْرِ سَبَبًا فِي زَوَالِ الْعَقْلَةِ وَانْدِفَاعِ الْعَوَائِقِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ فِي مَنْزِلِهِ تَمَكَّنَ مِنَ النَّوْمِ عَلَى فِرَاشٍ وَثِيرٍ<sup>(١)</sup>، وَتَمَتَّعَ بِزَوْجَتِهِ، فَإِذَا بَاتَ فِي مَكَانٍ غَرِيبٍ أَنْدَفَعَتْ هَذِهِ الشَّوَاغِلُ، وَحَصَلَتْ لَهُ أَسْبَابٌ تَبَعَتْ عَلَى الْخَيْرِ، مِنْهَا مُشَاهِدَةُ الْعَابِدِينَ، وَهِيَ مُوجِبَةٌ لِتَحَرُّكِ دَاعِيَةِ الدِّينِ، وَرُبَّمَا صَعُبَ عَلَيْهِ النَّوْمُ لِتَغْيِيرِ مَكَانِهِ، فَاعْتَمَمَ زَوَالَ النَّوْمِ، وَقَدْ يَعْسُرُ عَلَيْهِ الصَّوْمُ فِي مَنْزِلِهِ لِكَثْرَةِ الْمَطَاعِمِ الشَّهِيَّةِ فِي مَنْزِلِهِ، فَإِذَا لَمْ يَجِدْهَا فِي غَيْرِهِ لَمْ يَشُقَّ عَلَيْهِ الصَّوْمُ، وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ يَنْتَدِبُ الشَّيْطَانُ لِلْصَّدِّ عَنِ الطَّاعَةِ، وَيَقُولُ: إِنَّ عَمِلْتَ كُنْتَ مُرَائِيًّا، لِأَنَّهَا لَيْسَتْ بِعَادَتِكَ. فَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَيْهِ.

وَكَذَا إِذَا قَالَ لَهُ: تَعَبَّدَ لِكَيْلَا يَرْمُوكَ بِالْكَسَلِ.

وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ إِلَى قَصْدِهِ الْبَاطِنِ، وَلَا يَلْتَفِتَ إِلَى وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ، وَيَبْلُغُوا<sup>(٢)</sup> أَمْرَهُ، بِأَنْ يِمَاتِلَ الْقَوْمَ فِي مَكَانٍ يَرَاهُمْ فِيهِ وَهُمْ لَا يَرَوْنَهُ، فَإِنْ رَأَى نَفْسَهُ تَسْخُو بِالْتَعَبُّدِ فَذَلِكَ لِلَّهِ، وَإِنْ لَمْ تَسْخُ كَانَ سَخَاؤُهَا عِنْدَهُمْ رِيَاءً، وَكَذَلِكَ قَدْ يُوجِبُ

(١) ورد في هامش (ف) ما نصه: (مختصر العين، حاشية: الوثير الوطيء، وقد وُثِرَ وَثَارَةٌ).

(٢) يبلو: يختبر ويمتحن.

بُكَاءِ النَّاسِ عِنْدَ التَّذَكُّرَةِ بُكَاءَ مَنْ لَوْلَا بُكَاءُهُمْ مَا بَكَى، وَاحْتِبَارُ هَذَا بِالْعَلَامَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، وَهِيَ أَنَّهُ يُمَثِّلُ نَفْسَهُ فِي مَكَانٍ لَا يَرُونَهُ، فَإِنْ كَانَ الْبُكَاءُ يَهِيْجُ حِينَئِذٍ لِأَجْلِ بُكَائِهِمْ فَهُوَ لِلَّهِ، وَإِنْ لَمْ يَهِيْجْ إِلَّا عِنْدَهُمْ فَهُوَ رِيَاءٌ، وَقَسَّ عَلَى هَذَا مَا لَمْ نَذْكُرْهُ مِنْ الْأَيْنِ وَالْقَلْقِ.

وَقَدْ يَقَعُ فِي الْأَيْنِ الَّذِي يُوجِبُهُ الْخَوْفُ نَوْعٌ مِنَ الرِّيَاءِ، وَهُوَ تَطْوِيلُ مَدِّهِ، وَفِي الدَّمْعَةِ حِفْظُهَا عَلَى الْحَدِّ حَتَّى تُرَى، وَقَدْ يُضَعَّقُ صَعْقَةً صَحِيحَةً، ثُمَّ تَزُولُ سَرِيعاً، فَيَسْتَدِيمُ إِظْهَارَ الضَّعْفِ وَالْأَيْنِ، وَيَتَكَبَّرُ<sup>(١)</sup> عَلَى غَيْرِهِ، يُرَى أَنَّهُ يَضْعُفُ عَنِ الْقِيَامِ، وَيَتَمَائِلُ فِي الْمَشْيِ، وَيَقْرَبُ الْخَطَا، فَهَذِهِ كُلُّهَا مَكَائِدٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا خَطَرَتْ فَعِلَاجُهَا أَنْ يَتَذَكَّرَ أَنَّ النَّاسَ لَوْ عَرَفُوا نِفَاقَهُ فِي الْبَاطِنِ وَاطَّلَعُوا عَلَى ضَمِيرِهِ لَمَقْتُوهُ، وَأَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَى ضَمِيرِهِ، وَهُوَ لَهُ أَشَدُّ مَقْتاً.

وَقَدْ كَانَ مِنْ دُعَاءِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ تَحْسُنَ فِي لَامِعَةِ الْعُيُونِ عَلَانِيَتِي، وَتَقْبَحَ لَكَ فِيمَا أَخْلُو بِهِ سَرِيرَتِي<sup>(٢)</sup>.

وَهَذِهِ جُمْلَةُ آفَاتِ الرِّيَاءِ، فَكُنْ بَحَاثاً عَنْهَا، وَتَقَدَّرْ نَيْتَكَ، فَإِنَّ الرِّيَاءَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، حَتَّى إِنَّهُ رُبَّمَا خَفِيَ رِيَاءُ النَّفْسِ عَلَى النَّفْسِ.

(١) فِي النِّسْخِ: (يَبْكِي) وَهُوَ تَصْحِيفٌ، وَالْمَثْبُتُ مِنَ الْإِحْيَاءِ.

(٢) حَلِيَّةُ الْأَوْلِيَاءِ ١٣٤/٣.

## بيان

ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه

أولى ما ألزم المرید قلبه القناعة بعلم الله في جميع طاعاته، وإنما يقنع بذلك من خاف الله ورجاه، فأما من خاف غيره وارتجاه فإنه يشتبهى اطلاعه على محاسن أحواله، فليحذر من يجد ذلك من مقت الله، وليراقب نفسه عند الطاعات الشاقة، فإن النفس حينئذ تكاد تغلي حرصاً على الإفشاء، وتقول: مثل هذا العلم العظيم والتعب الكثير لو عرفه الناس لسجدوا لك، فكيف تخفيه، فيجهل محلك؟!!

فليجها، وليقل: وكيف أبيع هذا العمل بحمد الخلق، وهم عاجزون عن نفعي وضري؟!!

ولا ينبغي أن يؤيس نفسه من الإخلاص، بأن يقول: إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء، وأنا من المخلطين. فترك لذلك المجاهدة في تحصيل الإخلاص، لأنَّ المخلِّط إلى ذلك أحوج من المتقي؛ لأنَّ المتقي إن فسدت نوافله بقيت فرائضه كاملة، والمخلِّط لا تخلو فرائضه عن نقصان وحاجة إلى جبران بالنوافل، وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ أوَّل ما يُحاسِب به العبد يوم القيامة من عمله صلواته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيئاً قال الربُّ تبارك وتعالى: انظروا، هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل به ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه أحمد (٧٩٠٢) و(٩٤٩٤)، والبخاري في التاريخ الكبير ٣٣/٢ - ٣٥، وأبو داود (٨٦٤) و(٨٦٥)، والترمذي (٤١٣)، والنسائي في المجتبى ٢٣٢/١، وفي الكبرى (٣٢٢)، وابن ماجه (١٤٢٥) و(١٤٢٦)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٥٥٣)، والدارقطني في العلل ٢٤٨/٨.

وَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ الْخَوْفُ مِنَ الرِّيَاءِ الْخَفِيِّ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِ وَلَا يَعْلَمَ، وَأَنْ يَكْتُمَ عَمَلَهُ بَعْدَ الْفِرَاقِ مِنْهُ، وَيَنْبَغِي لِلْمُتَقَرِّبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِتَعْلِيمِ الْعِلْمِ أَنْ لَا يَأْخُذَ عَلَى ذَلِكَ أَجْرًا، لِيَصَحَّ قَضَاهُ - كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ <sup>(١)</sup> مِنْ أَخْلَاقِ الْعُلَمَاءِ - فِي ذَلِكَ.

وَيَنْبَغِي لِلزَّاهِدِ الْمُعْتَزِلِ عَنِ النَّاسِ أَنْ لَا يَخْطُرَ بِقَلْبِهِ مَعْرِفَةَ النَّاسِ زُهْدَهُ وَاسْتِعْظَامُهُمْ مَحَلَّهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَغْرِسُ الرِّيَاءَ فِي صَدْرِهِ، فَتَتَيَسَّرُ عَلَيْهِ الْعِبَادَاتُ فِي حَلْوَتِهِ، وَإِنَّمَا يُسَهِّلُهَا مَعْرِفَتُهُ بِأَنَّ النَّاسَ يَعْلَمُونَ اعْتِزَالَه.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهَمَ: تَعَلَّمْتُ الْمَعْرِفَةَ مِنْ رَاهِبٍ يُقَالُ لَهُ: سَمْعَانُ، دَخَلْتُ عَلَيْهِ صَوْمَعَتَهُ، فَقُلْتُ لَهُ: مُنْذُ كَمْ أَنْتَ فِي صَوْمَعَتِكَ هَذِهِ؟ قَالَ: مُنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً، قُلْتُ: مَا طَعَامُكَ؟ قَالَ: يَا حَنِيفِي، وَمَا دَعَاكَ إِلَى هَذَا؟ قُلْتُ: أَحْبَبْتُ أَنْ أَعْلَمَ. قَالَ: فِي كُلِّ لَيْلَةٍ حِمَّصَةٌ. قُلْتُ: فَمَا الَّذِي يَهَيِّجُ مِنْ قَلْبِكَ حَتَّى تَكْفِيكَ هَذِهِ الْحِمَّصَةُ؟ قَالَ: تَرَى الدَّيْرَ بِجِدَائِكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: إِنَّهُمْ يَأْتُونِي فِي كُلِّ سَنَةٍ يَوْمًا وَاحِدًا، فَيُزَيِّنُونَ صَوْمَعَتِي، وَيَطُوفُونَ حَوْلَهَا، وَيُعْظَمُونِي بِذَلِكَ، فَكَلَّمَا تَشَاقَلْتُ نَفْسِي عَنِ الْعِبَادَةِ ذَكَرْتُهَا عِزًّا تِلْكَ السَّاعَةِ، فَأَنَا أَحْتَمِلُ جُهْدَ سَنَةٍ لِعِزِّ سَاعَةٍ، فَاحْتَمِلْ يَا حَنِيفِي جُهْدَ سَاعَةٍ لِعِزِّ الأَبَدِ. فَوَقَّرَ فِي قَلْبِي الْمَعْرِفَةَ فَقَالَ: أَرَيْدُكَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: أَنْزَلَ عَنِ الصَّوْمَعَةِ. فَتَنَزَّلْتُ، فَأَدَلَى إِلَيَّ رَكْوَةً <sup>(٢)</sup> فِيهَا عِشْرُونَ حِمَّصَةً، فَقَالَ لِي: أَدْخُلِ الدَّيْرَ، فَقَدْ رَأَوْا مَا أَذَلَّتْ إِلَيْكَ. فَلَمَّا دَخَلْتُ الدَّيْرَ اجْتَمَعَتِ النَّصَارَى، فَقَالُوا: يَا حَنِيفِي، مَا الَّذِي أَدَلَى إِلَيْكَ الشَّيْخُ؟ قُلْتُ: مِنْ قُوَّتِهِ. قَالُوا: وَمَا تَصْنَعُ بِهِ؟ نَحْنُ أَحَقُّ بِهِ. قَالُوا: سَاوِمٌ. قُلْتُ: عِشْرِينَ دِينَارًا. فَأَعْطُونِي عِشْرِينَ دِينَارًا، فَارْجَعْتُ إِلَى الشَّيْخِ، فَقَالَ: <sup>(٣)</sup> يَا حَنِيفِي، مَا الَّذِي صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: بَعْتُهُ مِنْهُمْ. قَالَ: بِكُمْ؟ قُلْتُ: بِعِشْرِينَ دِينَارًا <sup>(٣)</sup>. قَالَ: أَخْطَأْتُ، لَوْ سَاوَمْتُهُمْ عِشْرِينَ أَلْفًا لَأَعْطَوْكَ، هَذَا عِزٌّ مَنْ لَا يَعْبُدُهُ، فَاَنْظُرْ كَيْفَ يَكُونُ عِزٌّ مَنْ يَعْبُدُهُ؟ يَا حَنِيفِي، أَقْبِلْ عَلَى رَبِّكَ، <sup>(٤)</sup> وَدَعِ الذَّهَابَ وَالْحَيَّةَ.

(١) تحرفت في (ف) إلى (العمل).

(٢) الرِّكْوَةُ: إناء صغير من الجلد يُشْرَبُ فِيهِ الْمَاءُ.

(٣-٣) زيادة من الإحياء والحلية.

(٤-٤) زيادة من الإحياء والحلية. والقصة أوردها أبو نعيم في الحلية ٢٩/٨.

فقد بان بهذا أنّ استشعار النفوس عزَّ العظمة في القلوب يكون باعثاً في الخلوة، وقد لا يشعر الإنسان من نفسه بهذه الآفة، وعلامة سلامته منها أن يكون الخلق عنده والبهايم بمثابة<sup>(١)</sup>، ويكون عمله عمل من ليس على الأرض غيره، فإذا خطرت خطرات ضعيفة من الالتفات إلى الخلق سهل ردها، ومن المعلوم أن زيادة الإقبال على الغني لا على الفقير محض حبُّ للدنيا، إلا أن يكون في الغني معنى يزيد به على الفقير، فإن وجد ذلك المعنى في الفقير فالفقير أحقُّ بالإكرام، ولما كان مقصود سفيان الثوري صحيحاً كان الأغنياء أذلَّ الناس في مجلسه<sup>(٢)</sup>.

آخر كتاب دَمَّ الجاه والرياء.



(١) أي: بمثابة واحدة.

(٢) في (ف): (الدنيا).

## كِتَابُ ذَمِّ الْكِبَرِ وَالْعُجْبِ

الحمد لله المتعالي في عزّته عن شبيهه، المتقدّس في عظّمته عن تشبيهه، الكبرياء رداؤه ومنازعه سفيهه، ذمّ المتعظم - وقد خلق ذليلاً - بما ليس فيه ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِيغِيهِ﴾<sup>(١)</sup> [إغافر: ٥٦] أحمدّه على إنعام لا أحصيه، وأشهد أنه لا مثل يوازيه، ولا نذّ يناويه، وأصليّ على رسوله محمدٍ وآله وتابعيه، وسلّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد؛ فقد روى مسلمٌ في أفرادهِ من حديث الأعرّ عن أبي هريرة وأبي سعيد أنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزّ وجلّ: العزّ إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني شيئاً منهما عدّته»<sup>(٢)</sup>.

قال أبو سليمان الخطّابي: ومعنى هذا الكلام أن الكبرياء والعظمة صفتان لله اختصّ بهما لا يشركه فيهما أحد، ولا ينبغي لمخلوق أن يتعاطاهما؛ لأن صفة المخلوق التواضع والتذلل، وضرب الرّاء والإزار مثلاً، يقول - والله أعلم - : كما لا يشرك الإنسان في رداؤه وإزاره أحد، فكذلك لا يشركني في الكبرياء والعظمة مخلوق.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث مهلكات: شحّ مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه».

(١) في الأصل: (قلوبهم)، وهو خطأ، والمثبت نص الآية.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٠).

فالكِبَرُ والعُجْبُ داءان مُهلكان والمتكبر والمُعْجَبُ سَقِيمان بمرضهما، ممقتوتان  
عند خالقهما.

ونحن نقسم هذا الكتاب شطرين؛ شطر في الكِبَر، وشرط في العُجْب،  
نستقصي فيهما بيانهما والله الموفق.

## الشَّطْرُ الْأَوَّلُ مِنَ الْكِتَابِ

وفيه بيانُ ذمِّ الكِبْرِ، وبيانُ ذمِّ الاختيال، وبيانُ فضيلةِ التَّواضع، وبيانُ حقيقةِ الكِبْرِ وأفته، وبيان من يتكبر عليه، ودرجاتُ الكِبْرِ، وبيان ما به التكبُّر، وبيانُ البواعثِ على التكبر، وبيانُ أخلاقِ المتواضعين، وما يظهر فيه الكِبْرِ، وبيانُ امتحانِ النَّفسِ في خلقِ الكِبْرِ، وبيانُ المحمود من خُلُقِ التَّواضعِ والمذموم منه.

## بيان

### ذم الكبر

قد ذم الله تعالى الكبر في مواضع من كتابه، وذم كل جبار متكبر، فقال عز وجل: ﴿سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [إبراهيم: ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، وقال: ﴿لَقَدْ أَسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

أبنا ابن الحُصَيْن قال: أخبرنا ابنُ المذهب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو الجَوَاب، قال: حدثنا عَمَّار بن رُزَيْق عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه كان يتعوذُ من الشَّيْطَانِ من هَمْزِهِ وَنَفْثِهِ وَنَفْخِهِ. قال: وهَمْزُهُ: المَوْتَةُ، وَنَفْثُهُ: الشَّعْر، وَنَفْخُهُ: الكِبْرِيَاءُ<sup>(١)</sup>.

أخبرنا محمد بن عُمَر الأرموي وأحمد بن ظُفَر المغازلي قالا: أخبرنا عبد الصمد بن المأمون قال: أخبرنا علي بن عمر الدارقطني قال: حدثنا أبو محمد بن صاعد قال: حدثنا أحمد بن مَنِيع قال: حدثنا مروان بن شُجاع قال: حدثنا إبراهيم ابن أبي عَبْلَةَ عن أبي سلمة قال: التقي عبدُ الله بن عمرو وابنُ عُمَر على المَرَوَةِ، فنزلا فتحدَّتا، ثم مضى عبدُ الله بن عمرو وقعد ابنُ عُمَر يبكي، ف قيل له: ما يُبكيك؟ فقال: هذا - يعني عبد الله بن عمرو - زعم أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول:

(١) أخرجه أحمد (٣٨٢٨)، وأبو يعلى (٥٣٨٠) والبيهقي في السنن ٢/٣٦.

«مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبَرٍ كَبَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ».

قال الدارقطني: وأبنا محمد بن القاسم بن زكريا قال: أخبرنا أبو كريب قال: حدثنا أبو معاوية عن عمر بن راشد عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ مِنَ الْجَبَّارِينَ حَتَّى يُصِيبَهُ مَا أَصَابَهُمْ».

وفي أفراد مسلم من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ، قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قَالَتِ النَّارُ: أُوتِرَتْ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ».

وفي الصحيحين من حديث حارثة بن وهب عن النبي ﷺ أنه قال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؛ كُلِّ جَوْازٍ جَعْفَرِيٍّ<sup>(١)</sup> مُسْتَكْبِرٍ<sup>(٢)</sup>».

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يَخْرُجُ عُنُقُ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا، وَأُذُنَانِ يَسْمَعُ بِهِمَا، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ، فَيَقُولُ: إِنِّي وَكَلْتُ بِثَلَاثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنْ ادَّعَى مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَبِالْمُصَوِّرِينَ<sup>(٣)</sup>».

أخبرنا الكروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر الغورجي قالا: حدثنا الجراحي قال: حدثنا المحبوبي قال: حدثنا الترمذي قال: حدثنا محمد بن يحيى الأزدي قال: حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، قال: حدثنا هاشم بن سعيد

(١) ورد هنا بحاشية (ف) ما نصه: (الجواز: الجمع المنوع، وقيل: الكثير اللحم المختال في مشيته، وقيل: الذي لا يستقيم على أمرٍ يصانع هنا وهنا، وقيل: الفاجر، والجعفريُّ فسَّر في الحديث بأنه الغليظ الفظ، وقيل: هو الذي يتمدح ويتنفع بما ليس عنده وفيه بظُر.

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٦٩)، ومسلم (٢٨٤٦).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (١٨٧٢٨)، وأخرجه البخاري (٤٩١٨) و(٦٠٧١) و(٦٦٥٧)، ومسلم (٢٨٥٣)، وأحمد (١٨٧٣٠) بلفظ: (كلُّ عُنُقٍ جَوْازٍ مُسْتَكْبِرٍ).

الكوفي قال: حدثني زيد الخثعمي عن أسماء بنت عميس قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «بئس العبدُ عبدٌ تخيلَ واختالَ ونسي الكبير المُتعال، وبئس العبدُ عبدٌ تجبرَ واعتدى ونسي الجبار الأعلى، بئس العبدُ عبدٌ سها ولها ونسي المقابر والبلى، بئس العبدُ عبدٌ عتا وطغى ونسي المبتدأ والمنتهى، بئس العبدُ عبدٌ يختل الدنيا بالدين، وبئس العبدُ عبدٌ يختل الدين بالشبهات، بئس العبدُ عبدٌ طمع يقوده، بئس العبدُ عبدٌ هوى يضلُّه، بئس العبدُ عبدٌ رغب بذله».

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يُحشَرُ الجَبَّارُونَ المُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي صورِ الدَّرِّ تَطُوهُمُ النَّاسُ لهُوَائِهِمْ عَلَى اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ».

وقال محمد بن واسع: دخلتُ على بلال بن أبي بُردة فقلتُ له: إِنَّ أَبَاكَ حَدَّثَنِي عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ فِي جَهَنَّمَ وادياً يُقَالُ لَهُ: هَبَّهَبٌ، حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُسَكِنَهُ كُلَّ جَبَّارٍ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَسْكُنُهُ».

أبنا محمد بن ناصر قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا أبو علي التميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا إبراهيم بن إسحاق قال: حدثنا ابن المبارك عن مَعْمَرٍ عَنِ يَحْيَى بْنِ الْمُخْتَارِ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: تَرَاهُمْ يَهْدِرُونَ عِنْدَهُ هَدِيرَ الْفِحَالَةِ: أَنْتَ وَاللَّهُ، أَنْتَ وَاللَّهُ. وَتَرَاهُ مُقْنِعاً سَاكِتاً، يَحْسَبُ حُمَيْقٌ<sup>(١)</sup> أَنَّهُ كَمَا يُقَالُ لَهُ. قَالَ: وَتَرَى أَحَدَهُمْ يَتَحَرَّكُ فِي مَشِيئِهِ يَسْحَبُ عِظَامَهُ عِظْماً عِظْماً لَا يَمْشِي طَبِيعَتَهُ.

وقال سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: مَنْ كَانَتْ مَعْصِيَتُهُ فِي شَهْوَةِ فَارُجٍ لَهُ التَّوْبَةُ، فَإِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَصَى مُسْتَهْيِئاً فَعُفِرَ لَهُ، فَإِذَا كَانَتْ مَعْصِيَتُهُ فِي كِبَرٍ فَاخْشَى عَلَى صَاحِبِهِ اللَّعْنَةَ، فَإِنَّ إِبْلِيسَ عَصَى مُتَكَبِّراً فَلُعِنَ.

(١) فِي (ف): (حمق). وَحُمَيْقٌ: تَصْغِيرُ أَحْمَقٍ.

## بَيَانٌ

## ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجز الثياب

قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ بِتَطَوُّعٍ ﴿٣٣﴾﴾ [القيامة: ٣٣]، قال مجاهد: يَبْتَخِرُ. قال الفراء: المطا: هو الظهر، فهو يلوي ظهره بتخيراً<sup>(١)</sup>.

أخبرنا عبد الأول بن عيسى قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أعين السرخسي قال: أخبرنا الفريزي قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا أحمد بن يونس قال: حدثنا زهير قال: حدثنا موسى بن عقبة عن سالم عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ حِيَلًا لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» قال أبو بكر: يا رسول الله، إن أحد شِقِّي إزارِي لِيَسْتَرِحِي، إلا أني أتعاهد ذلك منه. فقال رسول الله ﷺ: «لست ممن يصنعه حِيَلًا». قال البخاري: وحدثنا عبد الله بن يوسف قال: أخبرنا مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَىٰ مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطْرًا».

قال البخاري: حدثنا آدم قال: حدثنا شعبة قال: حدثنا محمد بن زياد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «بينما رجل يمشي في حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرْجِلٌ جُمَّتُهُ<sup>(٢)</sup>، حَسَفَ اللَّهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ<sup>(٣)</sup> إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ». هذه الأحاديث الثلاثة مخرجة في الصحيحين.

(١) في (ف): (كبراً).

(٢) الجُمَّة: ما ترامى من شعر الرأس على المنكبين.

(٣) ورد هنا في هامش (ف) حاشية نصها: (بجيمين للكافة، ورواه بعضهم بخاءين معجمتين والأول أصح وأعرف، والتجَلَّجَلُ: التَّنَوُّجُ في الأرض مع حركة واضطراب قال الخليل: قال الأصمعي: هو الذهاب بالشيء والمجيء به، وأصله التردد، ومنه: تجلجل في كلامه وتجلجل، إذا تردد. وأما يتخلخل فبعيد هاهنا إلا أن يكون من قولهم: خلخلت العظم، أي: أخذت ما عليه من لحم، أو من التخلل والتداخل خلال الأرض، وأظهر التضعيف. قال القاضي: ورويناه في غير البخاري ومسلم: يتحلحل، بخاءين مهملتين).

أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا أبو علي التميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو النضر. قال: حدثنا جرير عن عبد الرحمن بن ميسرة عن جبير بن نفير عن بسر بن جحاش القرشي أن النبي ﷺ بزق يوماً في كفه، فوضع عليها إصبعه ثم قال: «قال الله<sup>(١)</sup>: يا ابن آدم أنى تُعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق. وأنى أوأن الصدقة؟!»<sup>(٢)</sup>.

أخبرنا هبة الله بن أحمد الجري قال: أخبرنا أبو طالب العشاري قال: حدثنا ابن سمعون قال: حدثنا علي بن أحمد بن الهيثم قال: حدثنا عيسى بن موسى قال: حدثنا يحيى بن أبي بكير قال: حدثنا الربيع بن بدر عن هارون بن رئاب عن مجاهد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ريح الجنة توجد من مسيرة عام، لا يجد ريحها مختالاً، ولا مئان بعمله، ولا مدمن خمر».

وروى عروة عن عائشة قالت: لبيست مرة درعاً لي جديداً، فجعلت أنظر إليه وأعجب به، فقال أبو بكر: ما تنظرين؟! إن الله ليس بناظر إليك؟ قلت: وممّ ذاك؟ قال: أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقلته ربه حتى يفارق تلك الزينة؟ قالت: فنزعته فتصدقت به. فقال أبو بكر: عسى ذاك أن يكفر عنك.

وقال يزيد بن ميسرة: كانت أحبار بني إسرائيل - الصغير منهم والكبير - لا يمشون إلا بالعصي مخافة أن يختال الماشي في مشيته.

وقال أبو بكر الهذلي: بينما نحن مع الحسن إذ مرّ عليه ابن الأهتم، يريد المقصورة، وعليه جباب خرق قد نُصِّدَ بعضها على بعض على ساقه وهو يمشي يتبختر، فنظر إليه الحسن فقال: أف أف، شامخ بأنفه، ثاني عطفه، مُصعّر خده

(١-١) سقط من الأصل.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٨٤٢) - (١٧٨٤٥)، والتراقي: العظام المكتنفة لثقرة النحر عن يمين وشمال، وواحدتها: ترقوة. ويكنى ببلوغ النفس التراقي عن الإشفاء على الموت واقترابه.

يَنْظُرُ فِي عِظْفِيهِ، أَيِ حُمَيْقٍ أَنْتَ تَنْظُرُ فِي عِظْفِيكَ فِي نَعْمٍ غَيْرِ مَشْكُورَةٍ وَلَا مَذْكُورَةٍ، غَيْرِ مَاخُودٍ بِأَمْرِ اللَّهِ فِيهَا، وَلَا مُؤَدِي حَقِّ اللَّهِ مِنْهَا، وَاللَّهُ أَنْ يَمْشِيَ أَحَدُهُمْ طَبِيعَتَهُ أَوْ يَتَخَلَّجَ إِلَّا تَخَلَّجَ الْمَجْنُونُ، فِي كُلِّ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ اللَّهُ نِعْمَةٌ، وَلِلشَّيْطَانِ بِهِ لُعْبَةٌ. فَسَمِعَ ابْنُ الْأَهْتَمِ فَرَجَعَ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: لَا تَعْتَذِرْ إِلَيَّ، وَتُبْ إِلَى رَبِّكَ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

وَمَرَّ بِالْحَسَنِ شَابًّا عَلَيْهِ بَرَّةٌ حَسَنَةٌ، فَدَعَاهُ فَقَالَ: ابْنُ آدَمَ مُعْجَبٌ بِشَبَابِهِ، مُعْجَبٌ بِجَمَالِهِ، كَأَنَّ الْقَبْرَ قَدْ وَارَى بَدَنَكَ، وَكَأَنَّكَ قَدْ لَاقَيْتَ عَمَلَكَ، وَيْحَكَ! دَاوِ قَلْبَكَ، فَإِنَّ حَاجَةَ اللَّهِ إِلَى الْعِبَادِ صِلَاحُ قُلُوبِهِمْ.

وَرَوَى أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ حَجَّ قَبْلَ أَنْ يُسْتَخْلَفَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ طَاوُوسٌ وَهُوَ يَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ، فَغَمَزَ جَنْبَهُ بِإصْبَعِهِ، ثُمَّ قَالَ: لَيْسَتْ هَذِهِ مِشْيَةٌ مَنْ فِي بَطْنِهِ حُرٌّ. فَقَالَ عُمَرُ كَالْمَعْتَذِرِ: يَا عَمَّ، لَقَدْ ضُرِبَ كُلُّ عَضْوٍ مِنِّي عَلَى هَذِهِ الْمِشْيَةِ حَتَّى تَعَلَّمْتُهَا.

أَنْبَأَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَحْمَدَ الْمُتَوَكِّلِيَّ قَالَ: أَخْبَرْنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ ثَابِتٍ قَالَ: أَخْبَرْنَا عَلِيَّ بْنَ الْمُظَفَّرِ الْأَصْبَهَانِيَّ<sup>(١)</sup> قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الشَّطْوِيَّ قَالَ: حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ سَلِيمَانَ الضُّبَعِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: مَرَّ وَالِي الْبَصْرَةَ بِمَالِكِ بْنِ دِينَارٍ يَرْفُلُ، فَصَاحَ بِهِ مَالِكُ: أَقِلَّ مِنْ مِشْيَتِكَ هَذِهِ. فَهَمَّ خَدَمُهُ بِهِ فَقَالَ: دَعُوهُ، مَا أَرَاكَ تَعْرِفْنِي. فَقَالَ لَهُ مَالِكُ: وَمَنْ أَعْرَفُ بِكَ مِنِّي؟! أَمَا أَوْ لُكَ فَنُطْفَةٌ مَذْرُورَةٌ، وَأَمَا آخِرُكَ فَجَفِيْفَةٌ قَدِيرَةٌ، ثُمَّ أَنْتَ بَيْنَ ذَلِكَ تَحْمِلُ الْعَذْرَةَ. فَنَكَسَ الْوَالِي رَأْسَهُ وَمَشَى.

(١) لَيْسَتْ فِي (ف).

## بيان

## فضيلة التواضع

أخبرنا إسماعيل بن أحمد السمرقندي قال: أخبرنا محمد بن هبة الله الطبري قال: أخبرنا علي بن محمد بن بشران قال: أخبرنا الحسن بن صفوان قال: حدثنا عبد الله قال: حدثنا يحيى بن أيوب قال: حدثنا إسماعيل بن جعفر قال: أخبرني العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما تواضع أحدٌ لله عزَّ وجلَّ إلا رَفَعَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ». انفرد بإخراجه مسلم.

وروى أبو أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَمَعَهُ مَلَكَانِ، وَعَلَيْهِ حَكْمَةٌ<sup>(١)</sup> يُمَسِّكَانَهَا، فَإِنْ هُوَ رَفَعَ رَأْسَهُ جَبَذَاها ثُمَّ قَالَا: اللَّهُمَّ ضَعْفُهُ، وَإِنْ وَضَعَ نَفْسَهُ قَالَا: اللَّهُمَّ ارْفَعْهُ».

وروى ركبُ المصري عن النبي ﷺ أنه قال: «طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ فِي غَيْرِ مَنَقَصَةٍ».

وقال عليه الصلاة والسلام: «خَيْرَنِي رَبِّي بَيْنَ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا، أَوْ مَلَكًا نَبِيًّا، وَكَانَ صَفِيًّا مِنَ الْمَلَائِكَةِ جَبْرِيلَ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَقَالَ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ. فَقُلْتُ: عَبْدًا رَسُولًا».

وقال عمر بن الخطاب: إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَ اللهُ حِكْمَتَهُ وَقَالَ: انْتَعِشْ<sup>(٢)</sup> رَفَعَكَ اللهُ. وَإِذَا تَكَبَّرَ وَعَدَا طُورَهُ وَهَضَبَهُ<sup>(٣)</sup> اللهُ إِلَى الْأَرْضِ وَقَالَ: اخْسَأْ خَسَأَكَ اللهُ. فَهُوَ فِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ، وَفِي أَعْيُنِ النَّاسِ حَقِيرٌ حَتَّى إِنَّهُ لِأَحْقَرُ عِنْدَهُمْ مِنَ الْخَنْزِيرِ.

(١) الحَكْمَةُ محرَّكةٌ: نحو لجام الدابة، سميت بذلك لأنها تحكمها وتُدَلِّلها لراكبها.

(٢) انْتَعِشْ: أي ارتفع.

(٣) وَهَضَبَهُ: رماه رمياً عنيفاً.

وقال جرير: انتهيتُ مرةً إلى شجرةٍ تحتها رجلٌ نائمٌ قد استظلَّ بنِطعٍ<sup>(١)</sup> له وقد جاوَزَتِ الشَّمْسُ النُّطْعَ فَسَوَّيْتُهُ عليه، ثم إنه استيقظ، فإذا هو سلمان الفارسي، فذكرتُ له ما صنَعْتُ، فقال: يا جرير، تواضع لله في الدنيا، فإنه من تواضع لله في الدنيا رَفَعَهُ اللهُ يومَ القيامةِ.

وقالت عائشة: إنكم لتغفلون عن أفضل العباداة؛ التَّواضُعِ.

وفيما أوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إلى موسى عليه السَّلام: إني إنما أقبَلُ صلاةَ مَنْ تَوَاضَعَ لعظمتي، ولم يتعظَّمْ على خلقي، وألزم قلبه خوفاً، وقَطَعَ النَّهارَ بِذِكْرِي، وكَفَّ نَفْسَهُ عن الشَّهواتِ من أَجْلِي، وأطعمَ الجائِعَ، وكَسَا العاري، وآوى الغريب، فذاك الذي يُشرق نورَ وجهه يومَ القيامةِ، مثل الشمس، يدعوني فألبي له، ويسألني فأعطيه، أجعلُ له في الجَهالةِ حِلْماً، وفي الظُّلماتِ نُوراً، أَكَلَوهُ<sup>(٢)</sup> بعزَّتِي، وأَسْتَحْفِظُهُ بكلاءتي، فمثل ذلك العبد في الناس كمثل جنات الفردوس في الجنان؛ لا تَنقَطِعُ ثمارُها، ولا تَغَيَّرُ عن حالِها.

وقال الحسن: التَّواضُعُ أن تَخْرُجَ من منزلِكَ فلا تلقى مُسلماً إلا رأيتَ له فَضْلاً عليك.

وروينا عن محمد بن واسع أنه شكى إليه ابنه فأقبل عليه فقال: يا بُني تَسْتَطِيلُ على النَّاسِ وأُمَّكَ اشْتَرَيْتُهَا بأربعمئةِ درهم، وأما أبوك فلا أكثر اللهُ في المسلمين مثله.

وقال بكر بن عبد الله: إذا رأيتَ من هو أكبر منك فقل: سَبَقَنِي بالإيمان والعمل الصالح، فهو خَيْرٌ مِنِّي، وإذا رأيتَ مَنْ هو أصغرُ منك فقل: سَبَقْتُهُ إلى الذُّنوبِ، فهو خَيْرٌ مِنِّي، وإذا رأيتَ إخوانك يُعظِّمونك ويصِفونك، فقل: هذا فَضْلٌ أخذوا به، وإذا رأيتَ منهم تقصيراً فقل: هذا ذَنْبٌ أَحَدْتُهُ.

(١) النُّطْعُ: بساط من الجلد.

(٢) أَكَلَوهُ: أَحْفَظُهُ.

وقال الفضيل: التواضع أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من أجهل الناس قبلته.

وقال الفضيل لسفيان بن عيينة: إن كنت ترى أن في هذا المسجد أحداً هو دونك فقد ابتليت ببلية عظيمة.

وقال أبو سليمان: لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه.

ويقال: التواضع في الخلق كلهم حسن، وفي الأغنياء أحسن، والكبير في الخلق كلهم قبيح، وفي الفقراء أفبح.

## بَيَان

### حقيقة الكبر وآفته

اعلم أن الكبر خُلِقَ باطن، وتصدر عنه أعمالٌ هي ثمرته، فيَظهر على الجوارح، وذلك الخلق هو رؤية النَّفس فوق المُتكبرِ عليه، فإن الكبر يَستدعي متكبِّراً عليه ومتكبِّراً به، وبه يَنفصل الكبر عن العُجب كما سيأتي بيانه، فإنَّ العُجب لا يَستدعي غير المعجب بل لو لم يُخلَق الإنسان إلا وَحده تصوَّر أن يكون مُعجباً ولا يتصور أن يكون مُتكبِّراً إلا أن يكون مع غيره، وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبِّراً، ولا يكفي أن يَستعظم نفسه ولكن يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه، فلا يتكبر عليه، ولا يكفي أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبَّر، ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر بل يرى لنفسه مرتبةً ولغيره مرتبةً، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره، فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يَحصل فيه خُلُق الكبر، لا أن هذه الرؤية تنفي<sup>(١)</sup> الكبر بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل في قلبه اعتدادٌ وهزّة وفَرَحٌ وركونٌ إلى ما اعتقده، فتلك العِزّة والهزّة والركون إلى العقيدة هي خلق الكبر، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يتعوّذ من نفخ الشيطان، وقال: نفخه الكبرياء، وقد قدمنا هذا الحديث، واستأذن رجلٌ عمرَ في القَصص فقال: أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثُّريا.

فالإنسان إذا رأى نفسه بعين الاستعظام كبر وانتفخ وحقَّر مَنْ دونه وازدراه وأئف من مساواته فازداد كبره، وترقَّع عن مجالسته ومؤاكلته، ورأى أن حَقُّه أن يقوم ذلك الشخصُ ماثلاً بين يديه، فإن اشتدَّ كبره استنكف عن استخدامه، وصِفَةُ هذا المُتكبر أنه ينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالاً لهم واستخفافاً.

(١) تحرفت في (ف) إلى: (هي).

وأفة الكِبَرِ عظيمة، وغائلته هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخلق، وقلّما ينفك عنه العُباد والزهاد والعلماء فضلاً عن العوام، وكيف لا تَعْظُمُ آفته وقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال: لا يدخل الجنة مَنْ في قلبه مثقال ذرةٍ من كِبَرٍ. وإنما صار حجاباً دون الجنة؛ لأنه يحولُ بين العبدِ وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكِبَرُ يغلقها كلها؛ لأنه لا يقدر أن يُحبَّ للمؤمنين ما يُحبُّ لنفسه، ولا على التواضع ولا على ترك الحقد والحسد والغضب وكُظْمِ العَيْظِ وقبول النُّصح وفيه شيءٌ من الكِبَرِ، ولا يسلم من الإزراء بالناس ومن اغتياهم، فما من خُلُقٍ ذَمِيمٍ إلا والمتكبر مضطر إليه ليحفظ به عِزَّهُ، والأخلاقُ الذميمة متلازمةٌ، وبعضُها داعٍ إلى بعض، وشرُّ أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له.

## بَيَانُ

### المتكبر عليه وأقسامه ودرجاته وثمرات الكبر فيه

اعلم أن الآدمي قد خُلِقَ ظلوماً جهولاً، فتارةً يتكبر على الخلق، وتارةً على الخالق، فأما التكبر على الخالق فهو أفحشُ أنواع الكبر، ولا مثارَ له إلا الجهل المحض والطغيان مثل قول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وصعود نمرود لِيُقَاتِلَ رَبَّ السَّمَاءِ، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿وَمَنْ يَسْتَكْبِفْ عَن عِبَادَتِيهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ [النساء: ١٧٢]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ [الفرقان: ٦٠].

وأما المتكبر على الخلق فينقسم قسمين: أحدهما: التكبر على الرُّسُل من حيث تَعَزُّزُ النَّفْسِ وترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس، وذلك قد يقع عند ابتداء الدُّعَايَةِ، فيصرف عن الفكر في أمر الرسول، فيبقى صاحبه في ظلمة الجهل ممتنعاً عن الانقياد، وهو يظن أنه في ذلك مُحَقِّقٌ، وقد تحصل لصاحبه المعرفة بصدق الرسول ولكن لا تطاوعه نفسه على الانقياد للحق، كما حكى الله عز وجل عنهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، وحكى عن قولهم: ﴿أَنزِيلُنَا لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧]، ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَلَائِكَةَ يُصَلُّونَ عَلَيْكَ وَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ [الفرقان: ٢١]، وقال فرعون: ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣]، فقال عز وجل: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الفصص: ٣٩]، فهذا متكبر على الله وعلى رسوله. قال وهب بن منبه: قال له موسى: آمِنُ وَلَكَ مُلْكُكَ. قال: حتى أشاور هامانَ. فشاوره فقال: بينما أنت رَبُّ تُعْبَدُ صِرْتَ عَبْدًا تُعْبَدُ. فاستنكف عن عبودية الله وعن اتباع موسى.

وقال تعالى فيما حكى عن المشركين: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيسِيِّينَ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، فطلبوا مَنْ هو أعلى رتبةً في الدنيا من رسول الله ﷺ،

وقالوا: ﴿أَهْتَوَلَاءَ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣]، وهذا قريب من التكبر على الله، وإن كان دونه؛ لأنه تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله.

والقسم الثاني: التكبر على العباد باحتقارهم عند استعظامه لنفسه، وهذا عظيم من وجهين:

أحدهما: أن الكبر والعظمة لا يليق إلا بالملك القادر لا بالعبد المملوك العاجز، فالمتكبر منازع لله عز وجل في صفة لا تليق إلا بجلاله، ومثاله أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك فيضعها على رأسه ويجلس على سريره، فما أعظم استخفافه بالملك، ولهذا قال تعالى فيما قدّمناه: العزُّ إزارى والكبرياء رداي فمن نازعني شيئاً منهما عدبته». وإذا كان الكبر على عبادة لا يليق إلا به، فالمتكبر عليهم قد جنى عليه؛ لأن من استرذل خواص السلطان وترفع عليهم واستأثر بما حق الملك أن يستأثر به منهم، فهو منازع للملك.

الوجه الثاني: أن الكبر يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره؛ لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله تعالى استنكف من قبوله وتشمر لجحده، ولذلك ترى أكثر المناظرين يأنفون من قبول الحق إذا أتضح على لسان واحد منهم، ويتشمرّون لجحده، ويحتالون لدفعه، وذلك من أخلاق الكفار حين قالوا: ﴿لَا سَمْعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، فكل من ناظر للغلبة والإفحام لا لاغتنام الظفر بالحق، فقد شاركهم في هذا الخلق، وبعضهم تحمله الأنفة من قبول الوعظ، كما قال عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

فالتكبر على العباد يدعو إلى التكبر على أمر الله تعالى، كما حمل إبليس كبره على آدم أن امتنع من امتثال أمر الله في السجود، ولذلك شرح رسول الله ﷺ الكبر بهاتين الآفتين، فقال: «الكبر من بظُرِ الْحَقِّ وَعَمَطُ النَّاسِ». ورواه عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أن رجلاً قال: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة؟ فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَعَمَطُ النَّاسِ».

وروى أبو هريرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إني رجلٌ حُبِّبَ إليَّ الجمال، وأُعطيْتُ منه ما ترى حتى ما أحب أن يفوقني أحدٌ - إِمَّا قال: بِشِرَاكِ نَعْلِي، وإِمَّا قال: بِشِسْعِي<sup>(١)</sup>، أَفَمِنَ الكِبَرِ ذاك؟ قال: لا، ولكن الكبر من بطَرَ الحَقِّ وغمَطَ النَّاسَ. ومَعْنَى غَمَطَ: أزرَى بالنَّاسِ واستخفَّ بهم، ويُقالُ: غَمَطَ بكسر الميم أيضاً، ويُرْوَى غَمَضَ وغمِضَ، بفتح الميم وكسرها وهو بمعنى غَمَطَ.

(١) الشُّسْعُ: سَيْرٌ يمسك التَّلْعَلَّ بأصابع القدم.

## بَيَانُ

### ما به التَّكْبِيرُ

اعلم أنه لا يتكبر إلا من استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفةً من صفات الكمال، ومجامع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي، والديني: هو العلم والعمل، والدنيوي: هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار، فهذه سبعة أسباب:

**الأول: العلم؛** وما أسرع الكبر إلى العلماء، فإن العالم لا يلبث أن يتعزز بعز العلم فيستعظم نفسه ويحتقر الناس، وينظر إليهم نظرة إلى البهائم، ويتوقع أن يبدؤوه بالسلام، فإن بدأ أحداً منهم، أو ردّ عليه بيشير، أو قام له، أو أجاب دعوته رأى له صنيعاً عنده ويدأ عليه يلزم شكرها؛ لأنه يرى أن له عليهم أن يزوروه ولا يزورهم، ويعودوه ولا يعودهم، ويستسخروهم في حوائجهم كأنهم عبيد له أو أجراء، هذا فيما يتعلق بالدنيا.

وأما في أمر الآخرة فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله أعلى وأفضل منهم، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم، وهذا بأن يُسمّى جاهلاً أولى من أن يُسمّى عالماً، بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف الإنسان به نفسه وربّه، وخطر الخاتمة، وحجة الله على العلماء، وعظم خطر العلم، كما سيأتي في طريق معالجة الكبر بالعلم، وهذه العلوم تزيد العالم خوفاً وتواضعاً وتخشعاً، وتقتضي أن يرى أن كل الناس خير منه لعظم حجة الله عليه بالعلم، وتقصيره في القيام بشكر نعمة العلم، ولهذا قال أبو الدرداء: مَنْ ازداد علماً ازداد وجعاً.

فإن قيل: فما بال بعض العلماء يزداد بالعلم كبراً وأمناً؟

فالجواب: أن لذلك سببين:

أحدهما: أن يكون اشتغاله بما يُسمّى علماً وليس بعلم حقيقي، كعلم المُجادلة والنحو واللغة والشعر والحساب والطب، فهذه الأشياء إذا امتلأ منها الإنسان امتلاً بها كبراً، وهي بأن تُسمّى صناعات أولى من أن تُسمّى علوماً، بل العلم هو ما يعرف به العبدُ ربّه ونفسه وخطر أمره في لقاء الله، وهذا يورث الحشية والتواضع دون الكبر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

السبب الثاني: أن يخوض العبدُ في العلم وهو خبيث الدخلة سيئ الأخلاق، لم يشتغل أولاً بتهديب نفسه ورياضتها، ولا بتزكية قلبه بالمجاهدات، فيبقى <sup>(١)</sup> خبيث الجوهر، فأَيُّ علم حلّ في قلبه صادف منزلاً <sup>(١)</sup> خبيثاً، فلم تطب ثماره ولم يظهر في الخير أثره، وقد ضرب وهب بن منبه لهذا مثلاً، فقال: العلم كالغيث، ينزل من السماء حلوّاً صافياً، فتشربهُ الأشجار بعروقها، فتحولهُ على قدر طعومها، فيزداد المرّ مرارةً والحلو حلاوةً، فكذلك العلم، يحفظه الرجال فتحولهُ <sup>(٢)</sup> على قدر هممها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبراً والمتواضع تواضعاً، وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل، فإذا حفظ وجد ما يتكبر به، فازداد كبراً، وإذا كان الرجل خائفاً مع جهله، فإذا ازداد علماً علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفاً وإشفاقاً ودلاً وتواضعاً، فالعلم من أعظم ما يتكبر به، ولذلك قال عمر بن الخطاب: لا تكونوا جبابرة العلماء، فلا يفي علمكم بجهلكم.

وروي عن حذيفة أنه صلى بقوم، فلما سلّم قال: لتلتمسنّ إماماً غيري أو لتُصلنّ وُحداناً، إني رأيتُ [في نفسي] <sup>(٣)</sup> أنه ليس في القوم أفضل مِنّي. فإذا كان مثل حذيفة لم يسلم، فكيف بالضّعفاء؟

وما أعزّ وجود عالم يستحق أن يقال له: عالم، ثم لا يحركه عزّ العلم وخيلاؤه، فإن وجد ذلك فهو صديق زمانه، وذلك الذي يكون النظرُ إليه عبادةً

(١-١) سقط من (ف).

(٢) في (ف): (فتحفظه).

(٣) زيادة من الإحياء توضح المعنى.

فضلاً عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله، هيهات بعيدٌ وجود ذلك في زماننا، بل يبعد في زماننا وجود عالم يختلج في قلبه التأسف والحزن على فوات هذه الخصلة.

الثاني: العمل والعبادة؛ وليس يخلو أربابها من الكبر، ويظهر أثر ذلك منهم في الدنيا والدين.

أما الدنيا: فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم، ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم، والتوسيع لهم في المجالس، وذكرهم بالتقوى، وتقديمهم على سائر الناس على نحو ما ذكرنا في حق العلماء، وكأنهم يرون عبادتهم منه على الخلق.

وأما في الدين فهو أنهم يرون الناس هالكين، ويرون أنفسهم ناجية. وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قال الرجل: هلك الناس، فهو أهلكهم»<sup>(١)</sup>.

وإنما يقول هذا من يزدرى عباد الله ويحتقرهم، فهم على ما بهم ربما كانوا خيراً من هذا القائل؛ لأنهم يتقربون إلى الله بالدنو منه، وهو يتممت إليه بالتباعد عنهم، فما أجدره أن ينزل إلى مقامهم بسوء اعتقاده، ويصعدون إلى مكانه بحسن ظنونهم، كما وري أن بعض فساق بني إسرائيل رأى عبداً فقرب منه، فأنف منه العابد فتباعد، فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان: قل لهما فليستأنفا العمل، فقد غفر لهذا وأحبط عمل هذا. وهذا لأن المراد من العباد القلوب، فإذا ذل قلب العاصي، فقد أطاع الله بقلبه، وإذا تكبر قلب الطائع، فقد عصى الله بقلبه، ولذلك قال الحسن: إن أقواماً جعلوا الكبر في قلوبهم، والتواضع في ثيابهم، كصاحب الكساء في كسائه أعجب من صاحب المطرف<sup>(٢)</sup> بمطرفه، ما لهم تفاقدا؟ وهذا لأن

(١) أخرجه أحمد (٢٦٢٣)، وأهلكهم: رويت بضم الكاف وهي الرواية المشهورة، أي: أشدهم هلاكاً أو أحقهم بإهلاك، ورويت بفتح الكاف، أي: هو جعلهم هالكين، فهو أهلكهم لكونه أقط عباد الله عن رحمته.

(٢) المطرف: ثوب مربع له أعلام.

صاحب الحَزْزِ يَذُلُّ، وصاحب الصُّوفِ يَذُلُّ، وهذه الآفةُ قَلَمًا يَنْفِكُ عنها أكثر العُباد، حتى إنه لو آذاه مُؤذٍ استبعد أن يَغْفِرَ الله له، واعتقد أن الله قد مَقَتَ ذلك الشخص، ولو آذى ذلك غيره لم يكبر عنده وهذا لِعَظَمِ قدره عند نفسه، وهذا جَهْلٌ وجمعٌ بين العُجبِ والكبر، وربما تحدَّى بعضهم إذا أُوذِيَ فقال: سَتَرُونَ ما يَجْرِي على هذا المؤذي لي. فَإِنَّ نُكْبَ ذلك الشخصُ زعم هذا أنه من كراماته، مع أنه يرى أن خَلَقًا من الكفار يُؤذون الله ورسوله وَيَسْلَمُونَ في الدنيا من المكاره، فهذه حالة المُعْتَرِّين، فأما الأَكْيَاسُ، فعلى مثل حالة عَطَاءِ السلمي، كان إذا وقعت صاعقةٌ ظَنَّ أَنَّ ما يَصِيبُ الناسَ بسببه، وكما قال بكر المُرْزَنِي بِعَرَفَةَ: ما أشرَفه من مقامٍ لولا أنني فيهم. فكم بَيْنَ هؤلاء وبين من يَمْتَنُّ<sup>(١)</sup> بِعَمَلِهِ، ومن اعتقد جَزْمًا أنه فوقَ أحدٍ من المسلمين فقد أَحْبَطَ عمل نفسه بجَهله.

واعلم أن العلماء والعُباد في آفة الكبر على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: أن يكون الكِبْرُ مُسْتَقْرَأً في قلب الإنسان منهم، فهو يرى نفسه خيراً من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع، ويفعل فعل من يرى غيره خيراً من نفسه، فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة، إلا أنه قد قَطَعَ أغصانها.

الدرجة الثانية: أن يظهر ذلك على أفعاله بالتَّرفُّع في المجالس، والتقدم على الأقران، والإنكار على من يُقَصِّرُ في حَقِّه، فترى العالم يُصَعِّرُ خَدَّهُ للناس، كأنه معرضٌ عنهم، والعابد يعبس وجهه كأنه مُسْتَقْدِرٌ لهم، وهذان قد جَهَلَا ما أَدَبَ الله به نبيّه حين قال: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] مناً منهما بعَمَلهما.

الدرجة الثالثة: أن يظهر الكبر بلسانه كالدعاوي والمُفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكاية الأحوال والتَّشْمِيرُ لِعَلْبَةِ الغَيْرِ في العِلْمِ والعَمَلِ، ويقول العابد في معرض المُفاخرة لغيره: مَنْ هُو؟ وما عَمَلُهُ؟ وما زُهْدُهُ؟ أنا لم أَفْطِرْ منذ كذا وكذا، ولا أنامُ الليل، وأختم القرآن كل يوم، وقصدني فلانُ فهلك أو أخذ ماله أو مرض.

(١) في (ف): (تميز).

وهذا إذا حصلَ مع قوم يُصلُّون بالليلِ ربُّما كلَّف نفسه أكثر من تعبِهم ليُظهِر لهم قُوَّتَه وَعَجْزَهُم. ويقول العالم في مُفاخرته: أنا مُتفَنِّنٌ في العلوم، ومُطلِّعٌ على الحقائق، رأيتُ فلاناً وفلاناً، فَمَنْ فلان؟ وَمَنْ لقي؟ ثم يجتهدُ في المناظرة أن يغلب ولا يُغلب، ويسهر الليل في تحصيل علوم يتجمل بها في المحافل، كعلم الجدَل والعلوم الغريبة ليُغرب<sup>(١)</sup> بها على الأقران، ويتحفظ الأحاديث بالفاظها وأسانيدها ليردَّ على من أخطأ فيها، فيبينُ فضلُه ونقصان أقرانه، ويفرح إذا أخطأ واحدٌ منهم ليردَّ عليه، ويسوؤه إذا أصابَ وأحسنَ أن يرى أنه أعظم منه.

فهذه أخلاقُ الكبر التي ثمرتها التَّعَزُّزُ بالعلم والعمل، فليت شعري مَنْ عرف هذه الأخلاق من نفسه، وسمع قول رسول الله ﷺ: ((لا يدخل الجنة مَنْ في قلبه مثقال حَبَّةٍ من خردلٍ من كبر)) كيف يستعظم نفسه ويتكبر على غيره؟ وهو على مُقتضى قول رسول الله ﷺ من أهل النار؟ فهذا هو الكبر بالعلم والعمل.

الثالث: التكبر بالنسب والحسب؛ فالذي له نسبٌ شريف يستحقِّر مَنْ ليس له ذلك النسب، وإن كان أرفع منه علماً وعملاً، وقد يرى بعضهم أن الناس له موالٍ وعبيد، ويأنف من مخالطتهم.

وثمره هذا الكبر على اللسان التَّفَاخِرُ به، فيقول لغيره: يا نَبْطِي، يا أَرْمَنِي، يا عامي، مَنْ أنتَ وَمَنْ أبوك؟ وأنا فلان بن فلان، وكيف يُكلمني مثلك؟ وهذا عرقٌ في النفس لا يتفكُّ عنه نسيب<sup>(٢)</sup> وإن كان صالحاً أو عاقلاً، إلا أنه قد لا يترشَّح منه ذلك عند اعتدال أحواله، فإن غلبه غضبٌ، أطفأ نور بصيرته وترشَّح منه. قال ابن عباس: بقول الرجل للرجل: أنا أكرمُ منك. وليس أحدٌ أكرم من أحد إلا بتقوى الله تعالى.

الرابع: التَّفَاخِرُ بالجمال؛ وأكثر ما يجري هذا بين النساء، ويدعوهن إلى التَّنْقِصِ والثَّلْبِ<sup>(٣)</sup> والغيبة وذكر العيوب، كما روينا عن عائشة رضي الله عنها أنها

(١) يُغرب: أي يأتي بالغريب الذي يعسر فهمه.

(٢) تصحفت في (ف) إلى: (بسبب).

(٣) ثَلَبَ فلانٌ فلاناً: عابه وتَنَقَّصَه.

حكّت امرأةٌ عند رسول الله ﷺ ذكرت قصرها، فقال النبي ﷺ: «قد اغتبتها». وهذا إنما ينشأ من الكبر، لأنها لو كانت قصيرةً لما ذكرتها بالقصر، فكانها أعجبت بطول نفسها، فاستقصرت المرأة في جنبها<sup>(١)</sup>.

الخامس: الكبرُ بالمال؛ وذلك يجري بين الملوك في الخزائن، وبين التجار في البضائع، وبين الدهاقين<sup>(٢)</sup> في الأرضين، وبين المتجملين في لباسهم وحيولهم ومراكبهم، فيستحققر الغني الفقير ويتكبر عليه، ويقول له: أنت مُكدي<sup>(٣)</sup> ومِسكين، وأنا لو أردتُ لاشتريت مثلك واستخدمتُ مَنْ هو فوقك، ومن أنت؟ وما معك؟ وأثاُت بيتي يساوي أكثر من جميع مالك، وأنا أنفق في اليوم ما لا تأكله في سنة. وكلُّ ذلك لاستِعظامه الغنى واحتقاره الفقر، وكل ذلك جهلٌ منه بأفة الغنى وفضيلة الفقر، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]، حتى أجابه وقال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ. . . الآية [الكهف: ٣٩ - ٤٠]، وإنما كان ذلك منه تكبراً بالمال والولد، ومن ذلك تكبرُ قارون إذ قال تعالى في وصفه: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾. . . إلى قوله: ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ [القصص: ٧٩].

السادس: التكبر بالقوة، وشدة البطش على أهل الضعف.

السابع: التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والغلمان والعشيرة والأقارب والبنين؛ ويجري ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود، وبين العلماء بالمُستفيدين. وفي الجملة؛ فكل ما هو نعمةٌ وأمكن أن يُعتقد كمالاً وإن لم يكن في نفسه كمالاً أمكن أن يتكبر به، حتى إن المُخنث يتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته في صنعة التخنيث؛ لأنه يرى ذلك كمالاً فيفتخر به، وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب والفجور لظنه أن ذلك كمال.

(١) تصحفت في الأصل إلى: (حُسنها).

(٢) الدهاقين: جمع دهقان، وهو رئيس القرية.

(٣) المُكدي: هو السائل الفقير، فالكُدية حرفة السائل المُلح.

فهذه مجامع ما يتكبر به العبادُ بعضُهم على بعض، فيتكبر من يُدلي بشيءٍ من ذلك على من لا يُدلي بما هو دونه في اعتقاده، وربما كان مثله وفوقه عند الله، كالعالم الذي يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه، لظنه أنه الأعلم، ولحسن اعتقاده في نفسه.

## بَيَانُ

### البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له

قد ذكرنا أن الكبر خُلِقَ باطن، وأن ما يظهر من الأفعال والأخلاق ثمرته، وينبغي أن يُسمى تكبراً، ويخص باسم الكبر المعنى الباطن، وهذا الباطن له موجب واحد، وهو العجب، فإن من أعجب بنفسه وبعمله وعلمه أو شيء من أسبابه استعظم نفسه وتكبر.

فأما التكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة: سبب في المتكبر، وسبب في المتكبر عليه، وسبب يتعلق بغيرهما.

أما السبب الذي في المتكبر، فهو العجب.

والذي يتعلق بالمتكبر عليه؛ هو الحقد والحسد.

والذي يتعلق بغيرهما هو الرياء.

فتصيرُ الأسبابُ بهذا الاعتبار أربعة: العجب، والحقد، والحسد، والرياء.

أما العجب: فقد ذكرنا أنه يُورث الكبر الباطن، <sup>(١)</sup> «والكبر الباطن» يُثمر التكبر الظاهر في الأعمال والأقوال والأحوال.

وأما الحقد؛ فإنه قد يحمل على التكبر من عجب، كالذي يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه، ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه، فأورثه الغضب حقداً ورسخ في قلبه بغضه، ولا تطاوعه نفسه أن يتواضع له، وإن كان عنده مستحقاً للتواضع، فكم من رذل <sup>(٢)</sup> لا تطاوعه النفس على التواضع لواحدٍ من الأكابر لحقده

(١-١) سقط من (ف).

(٢) سقطت من (ف)، والرذل: الرديء.

عليه وبُغضه له، ويحمله ذلك على ردّ الحق إذا جاءه من جهته وعلى الأنفة من قبول نُصحه، وعلى أن يجتهد في التّقدم عليه، وإن علم أنه لا يستحق ذلك، وعلى أن لا يستحلّه وإن ظلمه، ولا يعتذر إليه وإن جنى عليه، ولا يسأله عمّا هو جاهل به.

وأما الحسد<sup>(١)</sup>، فإنه أيضاً يوجب البُغض للمحسود وإن لم يكن من جهته إيذاء وسبب يقتضي الغضب والحقد، ويدعو الحسد أيضاً إلى جحد الحق حتى يمنع من قبول النّصح وتعلّم العِلْم، فكم من جاهل يشاق إلى العِلْم وقد بقى في رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسداً وبغياً عليه، فهو يُعرضُ عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع له لفضل علمه، ولكن الحسد يبعثه على أن يُعامله بأخلاق التّكبر، وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه.

وأما الرياء؛ فهو أيضاً يدعو إلى أخلاق المتكبرين حتى إن الرجل ليناظر من يعلم أنه أفضل منه وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسبة ولا حقد، ولكن يمتنع من قبول الحق منه ولا يتواضع له في الاستفادة خيفة أن يقول الناس: إنه أفضل منه، فيكون باعته على التكبر عليه الرياء المجرد، ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه، وأما الذي يتكبر بالعُجب أو الحسد أو الحقد فإنه يتكبر أيضاً عند الخلوة به ما لم يكن معهما ثالث، وكذلك قد ينتمي إلى نسبٍ شريفٍ كاذباً، وهو يعلم أنه كاذبٌ، ثم يتكبر به على مَنْ ليس يُنسبُ إلى ذلك النسب، ويترفع عليه في المجالس، ويتقدم عليه في الطّريق، ولا يرضى بمساواته في الكرامة والتّوقير، وهو عالم باطناً بأنه لا يستحق ذلك، ولا كبر في باطنه لمعرفته بأنه كاذب في دعوى النسب، ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين.

(١) تحرفت في (ف) إلى: (الحقد).

## بيان

### أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر

اعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل، كصعير<sup>(١)</sup> في وجهه ونظره شزراً<sup>(٢)</sup>، وإطراق رأسه، وجلوسه متربعا ومتكئا، وفي أقواله حتى في صوته ونغمته، وصيغة إيراده الكلام، ويظهر في مشيه وتبخثره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته وسائر تقلباته في أحواله وأقواله، فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله، ومنهم من يتكبر في بعض ذلك ويتواضع في بعضه.

ومن خصال المتكبر<sup>(٣)</sup> أن يحب قيام الناس له أو بين يديه، والقيام للإنسان على ضربين: قيام على رأسه وهو قاعد، فهذا منهي عنه قال عليه الصلاة والسلام: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً، فليتبوأ مقعده من النار». وهذه عادة الأعاجم والمتكبرين.

وقيام عند مجيء الإنسان، وقد كان السلف لا يكادون يفعلون ذلك. قال أنس: لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له؛ لما يعلمون من كراهته لذلك؟

وقد قال العلماء: يستحب القيام للوالدين، والإمام العادل، وفضلاء الناس. واعلم أنه قد صار هذا كالشعار بين الأفاضل، فإذا تركه الإنسان في حق من يصلح أن يفعل في حقه لم يؤمن أن ينسبه إلى إهانتة والتقصير في حقه، فيوجب ذلك نوع

(١) الصَّعْر: الميل والأزورار.

(٢) نظر شزراً: أي نظر بمؤخر عينه كالمعرض المتغضب.

(٣) في (ف): (المتكبرين).

حقدٍ، فاستحباب هذا للقائم لا يمنع الذي يُقام له أن يكره ذلك ويرى أنه ليس بأهل لذلك.

ومنها: أن لا يمشي إلا ومعه من يمشي خلفه، وقد كان السلف يكرهون هذا، وقد روينا عن ابن مسعود أن ناساً تبعوه، فقال: ألكم حاجة؟ قالوا: لا، ولكن أردنا أن نمشي معك. قال: فارجعوا، فإنه ذلّة للتابع، وفتنة للمتبوع. ومشى قومٌ خلف الحسن فمنعهم، وكان ابن سيرين لا يترك أحداً يمشي معه.

ومنها: أن لا يزور أحداً تكبراً على الناس، وقد روينا أن سفيان الثوري قدم الرملة، فبعث إليه إبراهيم بن أدهم أن تعال فحدثنا، فجاءهم سفيان، فقيل له: يا أبا إسحاق، تبعث إليه بمثل هذا؟ فقال: أردت أن أنظر كيف تواضعه.

ومنها: أن يستنكف من جلوس<sup>(١)</sup> لمن ليس في مرتبته<sup>(٢)</sup> إلى جانبه، أو مشيه معه، وقد أنبأنا ابن الحُصين قال: أخبرنا ابن المُذهب قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا هُشيم قال: حدثنا حميد عن أنس قال: إن كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ، فتنتلق به في حاجتها. وقال ابن وهب: جلستُ إلى عبد العزيز بن أبي رواد تمسُّ فخذي فخذه، فنحييتُ نفسي عنه، فأخذ ثيابي فجرّني إليه، وقال لي: لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة وإني لا أعرف منكم رجلاً شراً مني؟!

ومنها: أن لا يتعاطى بيده شُغلاً في بيته، وقد أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا أبو علي التميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا وكيع ومحمد بن جعفر قالا: حدثنا شُعبة عن الحكم عن إبراهيم عن الأسود قال: قلت لعائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع إذا دخل بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة<sup>(٣)</sup> أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج فصلّى. انفراد بإخراجه البخاري<sup>(٣)</sup>.

(١-١) في (ف) بدلاً عنها: (غيره).

(٢) مهنة أهله: خدمة أهله.

(٣) أخرجه البخاري (٦٧٦)، وأحمد (٢٤٢٢٦) و(٢٤٩٤٨).

وقد روينا عن عمر بن عبد العزيز أنه بات عنده ضَيْفٌ فكادَ السَّرَاجُ يُظْفَأُ، فقال الضيفُ: أقومُ فأصلحه؟ فقال له: ليس من كَرَمِ الرجل أن يَستَخدمَ ضَيْفَهُ. قال: فأوْقِظُ العُلامَ؟ فقال: لا. فقامَ هو وأصلح المصباح، ثم قال: قُمتُ وأنا عُمَرُ، ورجعتُ وأنا عُمَرُ.

ومنها: أن لا يحمل متاعه من سوقه إلى بيته، وقد اشترى رسولُ الله ﷺ شيئاً وحمله، وكان أبو بكر يحمل الثياب إلى السوق يتَّجر فيها، واشترى عُمَرُ لِحماً فعَلَّقَهُ بيده وحمله إلى بيته، واشترى عليُّ بن أبي طالب تمرأً بدرهم فحمله في مَلْحَفَتِهِ، فقال له قائل: أحملَ عَنكَ؟ قال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل. وكان أبو عُبَيْدَةَ بنُ الجراح يحمل سَطَلاً له إلى الحَمَّامِ، ودخل حُدَيْفَةُ المدائن وهو أميرٌ عليها وهو راكب على بَعْلِ بِإِكَافٍ وبيده رَغِيْفٌ وَعَرَقٌ<sup>(١)</sup> وهو يَأْكُلُهُ. وأقبل أبو هريرة يوماً من السوق وقد حمل حُزْمَةَ حَطَبٍ وهو يَوْمئِذٍ خَلِيفَةُ مروان، فقال لرجل: أوسع الطريق للأمير.

ومنها: التَّرْفُعُ في اللِّبَاسِ وقد قال عليه الصلاة والسلام: البَدَاذَةُ من الإيمان. أشارَ بذلك إلى الثيابِ الدُّونِ، وكان عُمَرُ بن الخطاب يلبس إزاراً فيه اثنتا عشرة رُقْعَةً، وكان عُمَرُ بن عبد العزيز يرقَعُ قَمِيصَهُ من بين يديه ومن خلفه. فإن قيل: فقد رويتم عن النبي ﷺ أنه سئل عن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً أمن الكبر هو؟ قال: لا.

فالجواب: أن الناس يختلفون في ذلك؛ فمنهم من يقصد الثوب الجميل لنفسه لا ليتكبر به، وعلى هذا يُحملُ الحديث، ومنهم من يُريدُ بذلك الكبر، والغالب أن من قصد الرفيع لرؤية الناس أراد التكبر.

ومنها: أن لا يحتمل الأذى، فربما قابل بأوفى منه، وقد ذكرنا في كتاب الغضب فضل الحِلْمِ والصَّفْحِ، وفي الجملة من أراد أن ينفي الكبر ويستعمل التَّواضِعَ فعليه بسيرة رسولِ الله ﷺ، وقد سبقت إشارتنا إليها في كتاب آداب المَعِيشَةِ.

(١) العَرَقُ: العَظْمُ أُخِذَ عَنْهُ مُعْظَمُ اللَّحْمِ وَبَقِيَ عَلَيْهِ لَحُومٌ رَقِيقَةٌ.

## بَيَان

### الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع

اعلم أن الكبر من المهلكات، ولا يخلو منه أحد، فمداواته فرض عين.  
وفي معالجته مقامان: أحدهما: استئصال أصله من سنخه<sup>(١)</sup> وقلع شجرته من مغرسها في القلب.

والثاني: دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان على غيره.  
المقام الأول في استئصال أصله: وعلاجه علمي وعملي، ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما.

أما العلمي: فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه، ويكفيه ذلك في إزالة الكبر، فإذا عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أدل من كل ذليل، وأنه لا يليق به إلا التواضع والذل، وإذا عرف ربه علم أن العظمة والكبرياء لا تليق إلا بالله سبحانه، وأما معرفته ربه وعظمته فيكفيه أن ينظر في آثار قدرته وعجائب صنعه، فتلوح له العظمة وتظهر له المعرفة، وأما معرفة نفسه فيكفيه أن ينظر في أصل وجوده بعد العدم من تراب ثم من نطفة خرجت من مجرى البول، ثم من علقية، ثم من مضعية، فقد صار شيئاً مذكوراً وهو من أحسن<sup>(٢)</sup> الموجودات لكونه جماداً لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك، فقد ابتدئ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبجهله قبل علمه، وببكميه قبل نطقه، وبعجزه قبل قدرته، وبفقره قبل غناه، وقد أشار الله عز وجل إلى هذا بقوله: ﴿مَنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقَهُ، ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾﴾ [عبس: ١٨ - ١٩]، ثم امتن عليه بقوله: ﴿ثُمَّ أَلْسَيْلَ يَسْرُهُ ﴿٢٠﴾﴾ [عبس: ٢٠] قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا

(١) سنخ كل شيء أصله، والجمع أسناخ.

(٢) تصحفت في (ف) إلى: (أحسن).

بصيراً ﴿[الإنسان: ٢]﴾. فأحياه بعد الموت، وأحسن تصويره وأخرجه إلى الدنيا فأشبعه وأرواه وكساه وهذاه وقواه، وإنما أوجده بعد العدم وخلقه من التُّنْطفة ليعرفه خَساسة ذاته فتبين له آثارُ نِعَمِهِ عليه، ومن هذه بدايته فأبى وجهه لكبره وفخره وبطره؟ على أنه لو أدام له الوجودَ على اختياره لكانَ لَطْغِيانَه طريق، فأما وقد سلَّطَ عليه الأَخْلاط المتضادَّة والأَمرَاضَ الهائلة، ثم بينما بُنيانُه قد تَمَّ وهى وتهدَّم، فلا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، بينا هو يذكر الشيء نسيه ويستلذُّ<sup>(١)</sup> الشيء فيُرديه، ويروم<sup>(٢)</sup> الشيء فلا يناله، ثم لا يأمن أن يُسلَبَ حياته بغتةً، هذا وَسَطُ أحواله، وذاك أول أمره، وأما آخر مورده فالموتُ الذي يُعيدُه جَماداً كما كان، ثم يُلْقَى في التراب فيصيرُ جيفةً مُنتنة، ثم تَبَلَى أَعْضاءُه وتنخر عظامه ويأكل الدود أجزاءه، وأحسنُ حاله أن يعودَ تُراباً يُعمل منه الكيزان، ويُعمر منه البنيان، ثم ما أحسن حاله لو تُرِكَ، لا بل يُحْيِيهِ بعد طول البلى ليقاسي شدائد البلاء، فيَجْمَعُ أجزاءهُ المتفرقة، ويُحضِرُهُ عَرِصَةً<sup>(٢)</sup> القيامة، فيرى أرضاً مُبدَّلةً، وجبالاً مُسَيَّرةً، وسماً مُشَقَّقةً، ونجوماً مُنْكَدِرةً، وشمساً مُكْوَّرةً، وأحوالاً مظلمة، وجحيماً تَزْفُرُ، وصحائف تُنْشَرُ، ويقال له: اقرأ كتابك. فيقول: وما كتابي؟ فيقال: كانَ قد وُكِّلَ بك في حياتك التي كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها مَلْكان يُحصيان ما تنطقُ به أو تعمل من قليل أو كثيرٍ وقيامٍ وقعودٍ وأكلٍ وشرب، وقد نسيَت ذلك وأحصاهُ اللهُ، فَهَلَمَّ إلى الحساب عليه، واستعد جواباً له، وإلا فأنت تُساقُ إلى النار. فما لمن هذه حاله والتكبر؟ فإن صار إلى النار، فالبهائم أصلحُ حالاً منه، لأنها تعود إلى التراب آمنةً للعذاب، فإن دخل إلى النار فمن يصفُ قُبْحَ منظرة، وتَنَنَ ريحه وشِدَّةَ عذابه، ومن هذه حاله وهو على شَكٍّ من العفو عن خَطئِهِ كيف يتكبر؟ ومن الذي يَسَلِّمُ من ذنبٍ يستحق به العُقوبة؟ وما مثله إلا كمثل رَجُلٍ جَنَى على مَلِكٍ جنايةً استحقَّ أن يُضْرَبَ لأجلها ألف سَوْط، فَحُبِسَ في السِّجْنِ ليُخْرَجَ فيُعاقب، فهو مُنتظرٌ أن يُدعى به لذلك، أفتراه يتكَبَّرُ على أهل السِّجْنِ؟ وهل الدنيا إلا سجن؟ وهل المعاصي إلا موجبةٌ للعقاب؟

(١-١) سقط من (ف).

(٢) العَرِصَة: ساحة الدار، أو البقعة الواسعة بين الدور لا بناء فيها.

فهذا هو العلاج العلمي الفاعل لأصل الكبر .

وأما العلاج العملي؛ فهو التواضع بالفعل لله تعالى وعباده، وذلك بالمواظبة على استعمال أخلاق المتواضعين، وقد روينا عن رسول الله ﷺ أنه كان يأكل على الأرض، ويُجيب دعوة المملوك، ويرقع ثوبه ويخصف نعله إلى غير ذلك من أخلاقه الظاهرة، ولا يتم التواضع إلا بالعمل، ولهذا أمر العرب بالصلاة؛ لأنهم كانوا يأنفون من الانحناء، فظهرت مدلتهم بالسُّجود.

المقام الثاني: فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة:

وقد ذكرنا في كتاب دَمَّ الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل، وما عداه مما يفنى بالموت فكمالٌ وهَمِي، فَمِنْ هذا يَعْسُرُ على العالم أن لا يتكبر، ولكننا نذكر طريق<sup>(١)</sup> العلاج من العلم والعمل في جميع الأسباب السبعة:

فنبداً بالنَّسب، فنقول: من اعتراه الكِبَرُ من جهة النَّسب، فليُداوي قلبه بمعرفة أمرين:

أحدهما: أن هذا تَعَزُّزٌ بكمال غيره، ولذلك قيل:

لئن فَخَرْتَ بِآبَاءِ ذَوِي شَرَفٍ لَقَدْ صَدَقْتَ وَلَكِنْ بِئْسَ مَا وَكَلَدُوا

وكيف يَجْبُرُ الحَسِيسُ في صفات ذاته خِستَه بكمال غيره؟!

والثاني: أن يعرف نَسبه الحقيقي، فيعرف أباه وجَدَّه، فإن أباه القَرِيبُ نُطفةٌ قَدِرةٌ، وجَدَّه البَعِيدُ تُرابٌ ذَلِيلٌ، فَأَحْسُ الأشياء ما إليه انتسابه.

السبب الثاني: الكبر بالجمال: ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نَظْرَ العقلاء، ولا ينظر إلى ظاهره نظر البهائم، ومتى نظر إلى باطنه رأى من القَبَائِح ما يُكَدِّرُ تَعَزُّزَه بجماله فإن الرَّجِيعَ في أمعائه والبَوْلَ في مَثانَتِه، والبُصَاقَ في فيه، والمُخَاطَ في أنفه، والوسخَ في أذنيه، والدَمَّ في عُرُوقِه، والرَّيحَ المُنْتَنَةَ في مَغابِنِه، يتردَّد إلى الخلاء، ويغسل آثار الأنجاس، ويعلم ما يخرج منه، ثم قد علم أنه قد خُلِقَ من

الأقدار الشنيعة من نطفةٍ ودمٍ حيضٍ وأجريٍ في مجاري الأقدار، ولولا تعاهده نفسه بتنظيف ظاهره لكان أقدر من البهائم بكثير، ثم سيصير جيفةً أقدر من كل قدر، فكيف يفتخر بجماله الذي هو كخضراء الدمن<sup>(١)</sup>، ثم هو بعرض التغير، ثم كيف يحسن أن يفتخر على من نقضه ليس إليه؟ ومن تأمل هذه الأمور أخرجت من قلبه داء الكبر بالجمال.

السبب الثالث: التكبر بالقوة: ويدفع ذلك أن يعلم أنه لو آلمه عرق عاد أعجز من كل عاجز، وأن حمى يوم تحلل من قوته ما لا يعود في مدة، وأن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته، وبقة لو دخلت في أذنه لقلقلته، ثم هو يمشي إلى الضعف ويدنو من العجز، كما قال شابٌ لشيخٍ رآه يمشي كالمقيد فقال: يا شيخ، من قيّدك؟ قال: الذي خلّفته يفتل قيّدك.

ثم أي فخرٍ في صفةٍ تسبق إليها البهائم، فإن الفيل والجمال أقوى من الآدمي.

السبب الرابع: الغنى وكثرة المال: وفي معناه كثرة الأتباع والأنصار، والتكبر بتولية السلطان، وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان، وهو أقبح أنواع الكبر، فإن المتكبر بماله يتكبر بفروسه وداره، ولو مات فروسه وانهدمت داره عاد ذليلاً، والمتكبر بتمكين السلطان له في الولاية بنى أمره على قلبٍ هو أشدّ تقلباً من الريشة في أرض صفصف<sup>(٢)</sup> في يوم ريح عاصف، فإن تغير عليه عاد أذلّ الخلق، والمتكبر بالغنى لو تأمل خلقاً من اليهود وجدهم أغنى منه فأفّ لشرف يسبقك به اليهود، ويستلبه السارق في لحظة، فيعود صاحبه ذليلاً.

فهذه أسباب ليست في ذات الإنسان، وقد علم أن ما في ذاته ليس إليه دوام وجوده، وكل ما ليس إليك فليس لك، وكل الأشياء لو اهبها، إن أبقاها بقيت، وإن استرجعها زالت، وإنما أنت عبدٌ مملوك لا تقدر على شيء، ومن عرف هذا زال كبره، فإن الإنسان لو افتخر بماله ومنازله وغلمانه وحيله وحرّيته فشهد شاهدان

(١) خضراء الدمن: الشجرة الخضراء في المنبت السوء، تكون سريعة الفساد ولا تثمر.

(٢) أرض صفصف: فلاة لا نبات فيها.

عَدْلان عند الحاكم أنه رَقِيقٌ لِفُلانٍ وَأَنَّ أبويه كانا مملوكين له ، فحكم بذلك الحاكم وجاء مالكة فأخذه وما في يديه ، وهو يَخْشى مع ذلك أن يُنكل به في العُقوبة لتفريطه في ماله وتَقْصيره عن طلب مالكة ، فحبسه في منزلٍ قد أحاطت به الحَيَّاتُ والهَوامُ ، فبقي لا يملك نفسه ولا ماله ولا يعرف طريقاً للخلاص ، فهل يَحْسُنُ بهذا أن يَفْتخر أو يذَلُّ ويخضع؟ وهذه صفة الأدمي إذا تفكر في نفسه وماله وأنه لا يملك من ذلك شيئاً ، ثم هو بين آفاتٍ وشَهواتٍ وأمراضٍ هي كالحيات والعقارب ، ومَن هذه حاله لا يتكبر بقدرته وقُوَّته ، إذ لا قُدرة له ولا قوة .

فهذا طريقُ علاج التكبر بالأسباب ، وهو أهون من علاج التكبر بالعلم والعمل ، فإنهما كمالان في النَّفس جديران بأن يفرح بهما ، ولكن في التكبر بهما أيضاً نوعٌ من الجهل خَفِيٌّ على ما سنذكره .

السبب الخامس : التكبر بالعلم : وهو أعظم الآفات ، وأغلب الأدواء ، وأبعدها عن قبول العلاج إلا بعد جهد جهيد ، وهذا لأن قدر العلم عظيم عند الله وعند الناس فهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما ، بل لا قدر لهما أصلاً إلا إذا كان معهما علم وعَمَلٌ ، فالعالم عاجزٌ عن أن لا يَسْتَغْظَمَ نَفْسَهُ بالإضافة إلى الجاهل مع معرفته بفضل العلم ، ولن يقدر العالم على دَفْعِ الكبر إلا بمعرفة أمرين :

أحدهما : أن يعلم أَنَّ حُجَّةَ الله على أهل العلم آكد ، وأنه يُغْفَرُ للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يُغْفَرَ للعالم ذَنْبٌ واحدٌ ؛ لأن مَن عَصَى عن معرفةٍ وعلم فجنائته<sup>(١)</sup> أَفْحَشُ ؛ إذ لم يَقْضِ حَقَّ نعمة الله عليه في العلم ، وقد مَثَّلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ من يعلم ولا يعمل بالكلب والحِمار فقال في بِلْعَامِ<sup>(٢)</sup> : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ فَثُلَّهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتُرَّكُهُ

(١) تصحفت في (ف) إلى : (فخيائته).

(٢) هو بلعام بن باعوراء ، يقال إنه كان يعلم الاسم الأعظم ، وأن قومه سألوه أن يدعو على موسى عليه السلام ، فلما أجابهم جعل لسانه لا يطيعه بل ينطق بالدعاء على نفسه وقومه ينظر تفسير ابن كثير ٣/٥٠٧ - ٥١٢ .

يَلْهَثُ ﴿ [الأعراف: ١٧٦]، وقال في اليهود: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، وفي الصحيحين من حديث أسامة بن زيد عن النبي ﷺ أنه قال: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: أَيُّ فُلَانٍ، مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ أَمْرُكُم بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَأَكُم عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتَيْتُهُ».

ويكفي العالم هذا الحَظَرَ، فأَيُّ عالمٍ لم يأمر بما لم يأتِهِ؟

فمتى حَظَرَ للعالم عِظَمَ قدره بالإضافة إلى الجاهل، فليتفكر في الحَظَرَ العظيم الذي هو بصدده، فإن حَظَرَهُ أعظم من حَظَرَ غيره، كما أن قدره أعظم من قدر غيره، فهذا بذاك، وهو كالمَلِكِ المخاطر بروحه في مُلكه لكثرة أعدائه، فإنه إذا أَخَذَ وَقَهَرَ وَدَّ لو كَانَ فقيراً، فكم من عالم يودُّ في الآخرة سلامة الجُهَّال، ولا ينتهي العالم إلى أن يكون أكبر من الصحابة، وقد كان أحدهم يقول: ليتني كنت طائراً. ويقول الآخر: ليتني كنت تِبْنَةً<sup>(١)</sup>. ويقول الآخر: ليتني إذا مِتُّ لا أبعث. وكذلك لخوفِ حَظَرَ العاقبة، فمتى أَحْظَرَ العالمُ بخاطره ذَكَرَ حَظَرَهُ زال كِبَرُهُ ورأى نفسه كأنه شَرُّ الخلق، ومثاله مثالُ عبدِ أمره سيده بأوامر فُشِرَ فيها وترك بعضها وأدخل التَّقْصَانِ في بعضها، وشكَّ في بعضها هل أذاه على ما يرتضيه سيده أم لا؟ فأخبره مخبرٌ أن مَولاه مرسلٌ إليه رسولاً يُخرجه من كل ما هو فيه عُرياناً ذليلاً، ويُلقيه على بابهِ في الشَّمْسِ والحَرِّ زماناً طويلاً حتى إذا ضاقَ عليه الأمرُ وبلغ به الجهدُ أمرُ برفعِ حسابهِ وَقَتَّشَ عن جميع أعمالهِ قليلها وكثيرها، ثم أمر به إلى سجنٍ ضيقٍ وعذابٍ دائمٍ، وقد علم أن سيده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك وعفا عن بعضهم، وهو لا يدري هل يُعْفَى عنه أم لا؟ فإذا تفكَّر في ذلك انكسرت نفسه، وبطل كبره، وظهر خوفه وتواضع لكل الخلق لعل واحداً منهم يكون من شفعاؤه إن نزل به عذاب، فكذلك العالم إذا تفكَّر فيما صَيَّعَهُ من أوامر ربه بجناياته الظاهرة

(١) سيرد بعد قليل أن عمر رضي الله عنه هو الذي كان يقول ذلك.

بجوارحه وذنوبه الباطنة من الرِّياء والعُجب والنَّفَق وغير ذلك، وعلم ما هو بصَدِّده من الحَظَر العظيم فارَقَه الكِبر.

الثاني: أن العالم يَعلم أن الكبر لا يليق إلا بالله سبحانه وأنه إذا تكبر صار مَمْقُوتاً عند الله بَغِيضاً<sup>(١)</sup>، وقد أحب الله منه أن يتواضع، وقال له: إن لك عندي قدراً ما لم ترَ لنفسك قدراً، فإن رأيتَ لنفسك قدراً فلا قَدَرَ لك. فلا بد أن يُكلف نفسه ما يُحب مولاه وهذا يزيل التكبر عن قلبه، ولو تيقَّن أنه لا ذَنْبَ له؛ أن من نازع الله رداء الكبرياء قَصَمه.

فإن قيل: كيف يصح للعالم أن يتواضع للفاسق والمبتدع ويرى نفسه دونهما، فإذاً يكون جاهلاً بقدر العلم؟

فالجواب: أنه إنما يمكن ذلك بالتفكر في حَظَر الخاتمة، فإنه لو رأى كافراً تصوّر إسلام ذلك وكُفْره هو، وكذلك إذا رأى مُبتدعاً تصوّر هدايته وضلال نفسه، فالعواقب مطوية عن العباد، وإذا رأى جاهلاً قال: هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم، فهو أعذر مني. وإن نظر إلى أكبر منه قال: هذا أطاع الله قلبي. وإن نظر إلى صغير قال: إني عصيتُ الله قبله.

فإن قال قائل: قد أمرتُ ببُغْضِ المبتدع والفاسق فكيف أتواضع لهما؟

فالجواب: أن هذا قد يشتهه على أكثر الناس لامتزاج الغضب لله سبحانه في إنكار البدعة والفسق بكبر النفس والإذلال بالعلم والورع، فكم من عابِدٍ جاهلٍ وعالمٍ مغرورٍ إذا رأى فاسقاً قد جلس إلى جنبه أزعجه من مكانه وتَنَزَّه عنه لكبر باطنٍ في نفسه<sup>(٢)</sup>، وهو يظن أنه قد غَضِبَ الله، وذلك أن التكبر على المُطِيع شَرٌّ، فالحذر منه ممكن، فأما التكبر على الفاسق والمبتدع، فإنه يُشبه الغضب لله وهو خير، فإن الغضب ان يتكبر على من غَضِبَ عليه، والمتكبر يغضب فهما ممتزجان وملتبسان لا يُميزُ بينهما إلا الموقنون.

(١) تصحفت في (ف) إلى: (تغيظاً).

(٢) في (ف): (قلبه).

والذي يُخْلِصُكَ من هذا أن تُحْضِرَ في قلبك عند مشاهدة المُبتدِعِ أو الفاسق،  
أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة أشياء:  
أحدها: التَّفَاتُكُ إلى ما سَبَقَ من ذنوبك وخطاياك، لِيَصْغُرَ عند ذلك قدرك في  
عينك.

والثاني: أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم واعتقاد الحق والعمل  
الصالح من حيث أن ذلك نعمة من الله عليك وله المننة فيه لا لك، فترى ذلك منه  
حتى لا تعجب بنفسك، وإذا لم تعجب لم تتكبر.

والثالث: ملاحظة إبهام عاقبتك وعاقبته، فربما حُتِمَ له بالخير ولكَ بالشر،  
وذلك يَشْغَلُكَ عن التكبر عليه.

فإن قلت: فكيف أغضب مع هذه الأحوال؟

فأقول: تغضب لمولاك إذا أمرك أن تغضب لا لنفسك، وأنت في غضبك لا  
ترى نفسك ناجياً وصاحبك هالِكاً، بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من  
خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة، وأُعرِفُكَ ذلك بمثالٍ لتعلم  
أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق  
قدره. فأقول: إذا كان للملك غُلامٌ وولدٌ هو قُرَّةُ عينه، وقد وَكَّلَ الغُلامَ بالولد  
وأمره أن يضره إذا أساء، ويغضب عليه، فإن الغلام يغضب على الولد كلما أساء،  
ويكون غضبه لمولاه، ولأنه أمره بذلك، ويطلب بالغضب التَّقَرُّبَ إلى سيده من غير  
أن يتكبر على الولد؛ لأن الولد أعز منه لا محالة، فليس من ضرورة الغضب  
التكبر، فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدِعِ والفاسق وتظن أنه ربما كان قدرهما  
عند الله في الآخرة أعظم، لجواز أن يكونَ سبقَتَ لهما الحسنَى ولكَ الشر،  
فتغضب بحكم الأمر محبةً لمولاك، إذ جرى ما يكرهه، مع التواضع لمن يجوز أن  
يكونَ عنده أقرب منك في الآخرة، فهكذا يكون بعض العلماء الأكياس فينضم إليه  
الخوف والتواضع، فأما المغرور فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لغيره مع  
جهل العاقبة، وذلك غاية الغرور، فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد  
البدعة مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الأمر.

السبب السابع: التكبر بالوَرع والعبادة: وذلك من أعظم الفتن على العباد، وعلاجه أن يُلزم العابد قلبه التواضع لجميع العباد، فإذا رأى عالماً تواضع له لما قد عَرَفَ من فضيلة العلم، فقد قال رسول الله ﷺ: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ».

فإن قال العابد: إنما ذلك لعالمٍ عاملٍ بعلمه، فما تقول في عالمٍ فاجرٍ؟  
يقال له: إن الحسنات يُذهبن السيئات، وكما أن العلم حجة على العالم، فهو وسيلة له، وكفارة لذنوبه، وإذا كان الأمر في ذلك غائباً عنا لزمنا التواضع لصورة العلم.

فإن قيل: فهذا الخبر الذي ذكرتموه يقتضي أن يرى العالم نفسه فوق العابد.

فالجواب: أن خوف العالم من العواقب يمنعه من ذلك، إذ من الجائز أن يموتَ على حالةٍ تكون حالة الجاهل الفاسق خيراً منها، فربما كان ذلك للذنوب يحسبه هيناً وهو عند الله عظيم قد أوجب له المقت، كما قال الحسن: أخاف أن يكون اَطَّلَعَ عَلَيَّ فِي بَعْضِ ذُنُوبِي، فقال: اذهب لا غَفَرْتُ لَكَ.

على أنه ينبغي للعالم والعابد أن يكون كل واحد منهما خائفاً على نفسه راجياً لغيره، فيندفع التكبر، فهذه حال العابد مع العالم.

فأما مع غير العالم، فهم ينقسمون في حقّه إلى مستورين وإلى مكشوفين، فينبغي أن لا يتكبر على المستور، فلعله أقل منه ذنباً، وأكثر منه عبادة، وأشد منه حياءً لله تعالى، وأما المكشوف حاله فما يمكنك أن تقول: إن ذنوبه أكثر من ذنوبي؛ لأن عدد الذنب من الجهتين غير ممكن، بلى يمكن أن يعلم أن ذنوبه أشد كالقتل والشرب والزنا، ومع ذلك فلا ينبغي أن يتكبر عليه، إذ ذنوب القلب من الكبر والرياء ومساكنة الوسوس في صفات الحق كلها شديد، وربما أوجب بعضها المقت، وربما حصلت من ذلك الفاسق طاعات كالخوف لله والحب له والإخلاص في الأعمال تُكفّر عنه قبائحه، فإذا انكشف الغطاء في القيامة رأيتَه فوقك بدرجاتٍ وربما سلّمَ وهلكتَ.

والإمكان البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريباً عندك إن كنت مُشفقاً على نفسك، فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك، بل فيما هو مخوف في حَقِّك، فإنه لا تَزِرُ وِزْرَةَ وَزَرَ أُخْرَى، وعذاب غيرك لا يُخفف شيئاً من عذابك، فإذا تفكرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغلٌ عن التكبر وعن أن ترى نفسك فوق غيرك.

واعلم أنه من جُوِّزَ أن يكون عند الله شقياً، فلا سبيل له إلى التكبر، ومَن غلبه الخوف رأى كل أحدٍ خيراً منه، أخبرنا محمد بن أبي منصور وعلي بن أبي عمر قالا: أخبرنا طراد ورزق الله قالا: أخبرنا أبو الحسين بن بشران قال: أخبرنا ابن صفوان. قال: حدثنا عبد الله بن محمد القرشي قال: حدثني إبراهيم بن سعيد قال: حدثني صبيح الفرغاني قال: حدثنا مَخْلَدُ بن الحسين عن الجَلْدِ بن أيوب قال: كان عابداً في بني إسرائيل في صومعته منذ ستين سنة، وأنه أُتِيَ في منامه فقيل له: إن فلاناً الإسكاف خَيْرٌ منك. فلما انتبه قال: رؤيا، ثم سكت، فلما كان من القابلة رأى مثل ذلك في منامه، فلم يزل يرى في منامه مراراً حتى تبين له أنه أمرٌ فنزل من صومعته فأتى الإسكاف، فلما رآه الإسكاف قام من عمله وتلقاه وجعل يتمسح به، وقال له: ما أنزلك من صومعتك؟ قال: أنت أنزلتني، أخبرني ما عملك؟ فكأنه كره أن يخبره ثم قال: أجل، أعملُ النهار وأكسب، فما رزق الله من شيءٍ أتصدقُ بنصفه، وأكل مع عيالي النصف، وأصوم النَّهار. فانطلق من عنده، فلما كان أيضاً قيل للراهب<sup>(١)</sup>: سَلُهُ مِمَّ صُفْرَةٌ وَجْهَهُ؟ فأتاه فقال: مِمَّ صُفْرَةٌ وَجْهَكَ؟ فقال: إني رَجُلٌ لا يكاد يُرفع لي أحدٌ إلا ظننتُ أنه في الجنة وأنا في النار. قال: فإنما فَضِّلَ على الراهب بإزرائه على نفسه.

والذي يدل على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقَلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أي يُؤتون الطاعات وهم على وَجَلٍ من قبولها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [٥٧]، وقد وصف الله الملائكة مع سلامتهم من الذنوب ومواظبتهم على العبادة بالإشفاق، فقال تعالى: ﴿يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [٢٠] [الأنبياء: ٢٠] ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

(١) أي: قيل له في الرؤيا.

واعلم أنه إذا زال الخوف مما سبق به القضاء حصل الأمن من فكر الله فوق الكبر، وهو سبب الهلاك، فإذا ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق أكثر مما يُصلحه بظاهر الأعمال.

فهذه معارف بها يُزال داء الكبر، إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تُضمّر التواضع وتدعي البراءة من التكبر، وهي كاذبة، فإذا جاء الابتلاء عادت إلى طبعها، فلا ينبغي أن يُكتفى في مداواة بمجرد المعرفة، بل ينبغي أن تُكمل بالعمل وتجرب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر من النفس، وبيانه أن يمتحن النفس بامتحانات خمسة هي أدلة على استخراج ما في الباطن:

**الأول:** أنه إذا تكلم في مسألة مع بعض أقرانه، فظهر شيء من الحق على لسان القرين، فثقل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف له والشكر على تنبيهه وتعريفه، فذلك يدل على أن فيه كبراً دفيناً، فليثق الله وليشتغل بعلاجه، إما من حيث العلم فبأن يُذكر نفسه حسنة نفسه وخطر عاقبته، وأن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى، وإما بالمال فبأن يُكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق، فيطلق اللسان بالحمد والثناء، ويُقر على نفسه بالعجز، ويشكره على الاستفادة، ويقول: ما أحسن ما تفضّنت له، وقد كنت غافلاً عنه فجزاك الله خيراً كما نبهتني له، فالحكمة ضالة المؤمن، فإذا وجدها فينبغي أن يشكر من دلّه عليها، فإذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك طبعاً، ومتى ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم، ففيه كبر، فإن كان ذلك لا يثقل عليه في الخلوة ويثقل عليه في الملاء، فليس فيه كبر، وإنما فيه رياء، فليعالج الرياء بما ذكرناه من دوائه، وإن ثقل عليه في الخلوة والملاء جميعاً، ففيه الكبر والرياء جميعاً، ولا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتخلص من الثاني، فليعالج كلا الداءين فإنهما جميعاً مهلكان.

**الامتحان الثاني:** أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل، فيقدمهم على نفسه، ويمشي خلفهم، ويجلس دونهم، فإن ثقل عليه ذلك، فهو متكبر، فليواظب عليه تكلفاً حتى يسقط عنه ثقله، فبذلك يزيله الكبر. وهاهنا للشيطان مكيدة؛ وهو أن يجلس في صف النعال، أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأراذل، فيظن أن

ذلك تواضع وهو عين الكبر، فإن ذلك يخف على نفوس المتكبرين إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضيل، فيكون قد تكبر، وتكبر بإظهار التواضع أيضاً، بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس إلى جانبهم، ولا ينحط عنهم إلى صف النعال، فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن.

**الامتحان الثالث:** أن يجيب دعوة الفقير، ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب، فإن ثَقُلَ ذلك عليه فهو كِبَرٌ؛ لأن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق، وثوابها جَزِيلٌ، فنفور النفس عنها ليس إلا لخبث في الباطن، فليشتغل بإزالتها بالمواظبة عليه، مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل ذاء الكبر.

**الامتحان الرابع:** أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت، فإن أبت نفسه ذلك فهو كِبَرٌ ورياء، فإن كان لا يَثْقُلُ إلا عند مشاهدة الناس، فهو رياء، وكل ذلك من أمراض القلب وعالله المهلكة له إن لم يتدارك، وقد أهمل الناس طِبَّ القلوب واشتغلوا بطب الأجساد، مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت والقلوب دائمة السلامة، وقد ذكرنا في أخلاق المتواضعين أنهم كانوا يحملون حاجات نفوسهم.

**الامتحان الخامس:** أن يلبس ثياب بَدَلَةٍ، فإن نُفِرَ النفس عن ذلك في المَلَأ رياء، وفي الخلوة كبر، وقد كان النبي ﷺ يلبس الصوف، ويحلب الشاة، ويلعق أصابعه، ويُجيب دعوة المملوك، وقيل لأبي موسى الأشعري: إنهم يتخلفون عن الجمعات بسبب ثيابهم<sup>(١)</sup>. فلبس عباءة فصلى فيها بالناس.

وكان لعمر بن عبد العزيز مِسْحٌ<sup>(٢)</sup> يلبسه بالليل.

وقد بينا أن ما يختص بالملأ فهو الرياء، وما يكون في الخلوة فهو الكبر، فليعرف ذلك، فإن من لا يعرف الشرَّ لا يتَّقِيه، ومن لا يدرك المرض لا يُداويه.

(١) أي سبب ابتذالها واهترائها فهم يستحيون الحضور فيها إلى الجمعات.

(٢) المسح: كساء من صوف أسود.

## بَيَانُ

## غَايَةُ الرِّيَاضَةِ فِي خُلُقِ التَّوَاضُعِ

اعلم أن هذا الخُلُقَ كسائر الأخلاق، له طَرَفَانِ وَوَسْطٌ، فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يُسمى: تَكْبُرًا، وطرفه الذي يميل إلى التَّقْصَانِ يسمي: تَخَاسُسًا وَمَذَلَّةً، والوَسْطُ يسمي تَوَاضُعًا.

والمحمود أن يتواضع في غير مَذَلَّةٍ، ومن غير تَخَاسُسٍ، فخير الأمور أوساؤها، فمن تقدم على أمثاله فهو مُتَكَبِّرٌ، ومن تأخَّر عنهم فهو مُتَوَاضِعٌ؛ لأنه قد وَضِعَ شيئاً من قدره، فإذا دخل على العالم إسكافٌ فَتَنَحَى له عن مجلسه وأجلسه فيه، ثم قدم له نعله ومَشَى خَلْفَهُ إلى باب الدار، فهذا تَخَاسُسٌ وَتَذَلُّلٌ، وذلك غير محمود، بل المحمود العدل، وهو أن يُعْطِيَ كل ذي حَقٍّ حَقَّهُ، فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأمثاله ولمن يقرب منه درجته، فبهذا يكون متواضعاً، فإن فعل ذلك وليس يَخْفُتُ عليه، فهو متكَلِّفٌ للتَّوَاضُعِ لا متواضع؛ لأن الخُلُقَ ما صدر بسهولة من غير رَوِيَّةٍ، وأما تواضعه للسوقي فبالقيام والبشر في الكلام، والرفق في السؤال، وإجابة دعوته، والسَّعْيِ في حاجته وأمثال ذلك، وأن لا يرى نفسه خيراً منه، بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره، فلا يحقره ولا يَسْتَصْغِرُهُ، ولأنه لا يعرف الخاتمتين، فمن نزل عن مراعاة قَدْرِهِ جَدًّا، فقد خرج إلى طَرَفِ التَّقْصَانِ، فليرفع نفسه، فليس للمؤمن أن يذللَّ نفسه على أن الميل إلى التَّقْصَانِ أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر، كما أن الميل إلى طرف التَّبْذِيرِ في المال أحمد من الميل إلى البُخْلِ، فالتبذير والبُخْلُ مذمومان، وأحدهما أفحشٌ، وكذلك التكبر والتذلل والمحمود العدل.

## الشرط الثاني من الكتاب في العُجْبِ

وفيه بيان ذم العُجْبِ، وآفته، وبيان حقيقة العُجْبِ والإدلال وحدهما، وبيان صلاح العُجْبِ على الجملة، وبيان أقسام ما به العُجْبِ، وتفصيل علاجه.

### بيان

#### ذمُّ العُجْبِ وآفاته

العُجْبُ مذموم في القرآن والسنة، وقال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثُرَتْكُمُ﴾ [التوبة: ٢٥] فذكر ذلك في معرض الإنكار عليهم، وقال تعالى: ﴿لَا بُطْلُوءًا صَدَقْتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]، والمَنُّ نتيجة استعظام الصَّدِّقَةِ واستعظامها هو العجب بها، وفي الصَّحِيحِينَ من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «بينا رجلٌ يتبختر في بُرْدَيْنِ وقد أعجبتَه نَفْسُهُ فحُصِفَ به الأرض، فهو يَتَجَلَجَلُ<sup>(١)</sup> فيها حتى يوم القيامة».

وقال ﷺ: «ثلاثٌ مهلكات: شُحُّ مَطَاعٍ، وهَوَى مُتَّبَعٍ، وإعجابُ المرء بنفسه».

أبناؤنا ابن الحُصَيْنِ قال: أخبرنا ابن المذهب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي قال: حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صُهَيْبِ

(١) تصحفت في (ف) إلى: (يتخلخل).

قال: كان رسول الله ﷺ إذا صَلَّى هَمَسَ شيئاً لا أفهمه ولا يُخبرنا به، فقال: «أفطنتم لي؟» قلنا: نعم. قال: «إني ذكرتُ نبياً من الأنبياء أُعطيَ جنوداً من قومه، فقال: مَنْ يُكافئ هؤلاء - أو: مَنْ يقوم لهؤلاء؟ - أو غيرها من الكلام، فأوحى إليه: أن اختر لقومك إحدى ثلاثٍ: إما أن نُسَلِّطَ عليهم عدواً من غيرهم، أو الجوع، أو الموت؟ فاستشار قومه في ذلك، فقالوا: أنتَ نبيُّ الله نكلُ ذلك إليك خِرُّ لنا. فقام إلى صلاته فصلى ما شاء الله ثم قال: أيُّ ربِّ، أمَّا عدوٌّ من غيرهم فلا، أو الجوع فلا، ولكن الموت. فسُلِّطَ عليهم الموتُ، فماتَ منهم سبعون ألفاً، فهَمَسِي الذي ترون أني أقول: اللهم بك أقاتلُ، وبك أصادلُ، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلا بالله<sup>(١)</sup>.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «لو لم تُذنبوا لخشيتُ عليكم ما هو أكبر من ذلك العُجب العُجب». فجعل العُجب أكبر من الذنوب.

وروي عن ابن مسعود أنه قال: الهلاكُ في اثنتين القنوط والعُجب. وإنما جمَعَ بينهما لأن السعادة لا تُنال إلا بالطلب والتَّشْمِير، والقانِط لا يطلب، والمُعجَبُ يظن أنه قد ظَفَرَ بمُراده، فلا يسعى.

وقال مُطَرِّف: لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً، أحب إليَّ من أن أبيت قائماً وأصبح مُعجَباً.

وقيل لداود الطائي: رأيت رجلاً دخلَ على هؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر؟ قال: أخافُ عليه السُّوط. قيل: إنه يَقوى. قال: أخافُ عليه السَّيْف. قيل: إنه يَقوى. قال: أخافُ عليه الدَّاء الدَّفين العُجب.

وقال أبو سليمان الداراني: سمعتُ أبا جعفر يبكي في خُطبته، فحضرتني نبيَّةٌ في أن أقوم إليه فأكلّمه بما أعرف من فعله إذا نزل، ثم تفكّرتُ في أني أقوم إلى خليفةٍ أعظّه والناس جلوس، فيرمقوني بأبصارهم، فيتداخُلني التَّزئين، فيأمر بي فأقتل على غير تصحيح، فسكّث.

(١) أخرجه أحمد (٢٣٩٢٧)، وابن حبان في صحيحه (١٩٧٥).

## بَيَانُ

### آفَةُ الْعُجْبِ

العُجْبُ يَدْعُو إِلَى الكِبَرِ؛ لِأَنَّهُ أَحَدُ أَسْبَابِهِ كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ، فَيَتَوَلَّدُ مِنَ الْعُجْبِ الكِبَرُ، وَمِنَ الكِبَرِ الْآفَاتُ الكَثِيرَةُ، هَذَا مَعَ الْخَلْقِ، فَأَمَّا مَعَ الْخَالِقِ، فَإِنَّ الْعُجْبَ بِالطَّاعَاتِ نَتِيجَةُ اسْتِعْظَامِهَا وَالتَّبَجُّحِ بِهَا، فَكَأَنَّهُ يَمُنُّ عَلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ بِفِعْلِهَا، وَيَنْسَى نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ بِتَوْفِيقِهِ لَهَا، ثُمَّ يُثْمِرُ إِعْجَابَهُ بِهَا الْعَمَى عَنِ آفَاتِهَا، وَرَبَّ آفَةٍ دَخَلَتْ فِيهَا فَأَفْسَدَتْهَا.

وَإِنَّمَا يَتَفَقَدُ آفَاتُ الْأَعْمَالِ<sup>(١)</sup> مَنْ خَافَ رَدَّهَا دُونَ مَنْ رَضِيَهَا فَأَعْجَبَ بِهَا، ثُمَّ يَظُنُّ أَنَّهَا قَدْ جَعَلَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَكَانًا، وَأَنَّهُ قَدْ اسْتَوْجِبَ بِهَا أَجْرًا، وَيُثْمِرُ ذَلِكَ الظَّنَّ حَمْدَهُ لِنَفْسِهِ وَالثَّنَاءَ عَلَيْهَا، وَنِسْيَانَهُ لِلذَّنُوبِ الكَثِيرَةِ احْتِقَارًا لَهَا، فَلَا يَتَشَاغَلُ بِتَلَاوُفِهَا ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ مَا قَدْ عَظُمَ عِنْدَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ يَغْمُرُهَا.

### فَصْلُ

فَإِنَّ أُعْجِبَ بِرَأْيِهِ وَعِلْمِهِ وَعَقْلِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْعُجْبَ يَمْنَعُهُ مِنَ الْإِزْدِيَادِ مِمَّا بِهِ عُجْبٌ، فَيَقْتَنِعُ بِمَا عِنْدَهُ، وَيَسْتَنكِفُ مِنَ التَّعَلُّمِ وَالِاسْتِشَارَةِ، وَرَبَّمَا عُجِبَ بِرَأْيِ فَاسِدٍ، وَيَمْنَعُهُ الْعُجْبُ مِنْ سَمَاعِ قَوْلِ نَصِيحٍ<sup>(٢)</sup>، وَلِهَذَا قَالَ الْحُكَمَاءُ: عُجْبُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَادِ عَقْلِهِ وَمَا أَضَرَّ الْعُجْبَ بِالْمَحَاسِنِ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الْخَوَّاصُ: الْعُجْبُ يَمْنَعُ مِنْ مَعْرِفَةِ قَدْرِ النَّفْسِ.

### فَصْلُ

وَرَبَّمَا عَجَبَ الْإِنْسَانُ بِرَأْيِهِ فِي بَابِ الْإِعْتِقَادِ، وَكَانَ مَا عَجِبَ بِهِ مِنْ وَاقِعَاتِهِ ضَلَالًا فَهَلْكَ، وَلَوْ أَنَّهُ اسْتَعَانَ بِالْعُلَمَاءِ عَلَى وَاقِعَةٍ لَانْكَشَفَ لَهُ الْخَطَأَ وَالصَّوَابَ.

(١) تحرفت في (ف) إلى: (آيات).

(٢) تحرفت في (ف) إلى: (تقبيح).

## بيان

### حقيقة العجب والإذلال وحدهما

العُجْبُ إنما يكون بوصف كمالٍ من علمٍ أو عملٍ أو مالٍ أو غير ذلك، فيسكن المُعْجَبُ إلى ذلك الوصف سكون ناسٍ للمنعَمِ به، فإن انضافَ إلى ذلك أن يرى ذلك حقاً له عند الله، لصفاءِ جوهره أو في مُقابلة طاعته، كان إذلالاً، فكأنه يرى لنفسه على الله دالّة، كما لو أعطى هو فقيراً شيئاً فمنَّ عليه به كان معجباً، فإن استخدم الفقير أو استبعد تخلفه عن خدمته كان مُدلاً عليه، فالعُجْبُ يحصل باستِعظام ما عجب به، والإذلال يوجب توقُّع الجزاء، مثل من يتوقع إجابة دعائه، ويُنكر رده، ولا يتعجب من ردِّ دعاء الفساق، فهذا المُدِلُّ.

## بَيَانُ

## علاج العُجب على الجُملة

اعلم أنّ علاج كلِّ علة هو مُقابلة سببها بضدّه، وعلى العُجب الجَهل المَحض، فعلاجه المعرفة المضادّة لذلك الجَهل فقط، فلنَفرِض العُجب بفعلٍ داخلٍ تحت اختيار العبد، كالعبادة، والصّدقة، والعزوّ، وسياسة الخلق، فإنّ العُجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوة والنسب وما لا يدخل تحت اختياره، فنقول: لا يخلو أن يعجب المتعبد بالعمل من جهة أنه محلّه ومجرّاه أو من جهة أنه بقوته وقدرته، فإن كان يعجب به من جهة أنه محلّه ومجرّاه، فهذا جهل؛ لأنّ المحل مجرى لا مدخل له في الإيجاد والتحصيل، فكيف يعجب بما ليس إليه؟ وإن كان يعجب به من جهة أنه منه وباختياره، فينبغي أن يتأمّل الأسباب التي بها تمّ عمله من أعضائه وقدرته، فيعلم أن وجودها من كرم الله سبحانه إذ منع غيره ما رزقه من كمال الأعضاء واستعمال القدرة في الطاعة، فإن خطر له: إنّ الله سبحانه رأي أهلاً لما أنعم به عليّ. فالتأهّل للنعمة نعمة من منّه، وإذا كان الكل منه فينبغي أن يعجبك جوّدُه لا نفسك، فهو المنعم بإيجادك، وإيجاد صفاتك، وإيجاد أعمالك، وأسباب أعمالك، فلا معنى لعجب عاملٍ بعمله، ولا عالمٍ بعلمه، ولا جميلٍ بجماله، ولا غنيّ بغناه، إذ كل ذلك من فضل الله سبحانه، وإنما الآدمي محل لفِيض النعم عليه، وكونه محلاً نعمة أيضاً.

فإن قال قائل: لا يمكنني أن أجهل أعمايي، وأني أنا عملتها، ولولا أنها أعمايي ما انتظرت عليها ثواباً، وإذا كانت أعمايي فكيف لا أعجب بها؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: هو صريح الحق، والآخر فيه مُسامحة.

أما صريح الحق، فهو: أنك وقدرتك وإرادتك وحركتك كله من خلق<sup>(١)</sup> الله

تعالى، واختراعه، فما عملت إذ عملت، ولا رميت إذ رميت؛ لأنه خلقك، وخلق أعضاءك، وخلق فيها القوة والقدرة والصحة، وخلق لك العقل والعلم والإرادة، ولو أردت أن تنفي عن نفسك شيئاً من هذا لم تقدر، ثم خلق الحركات في أعضائك مُستبداً باختراعها من غير مُشاركة من جهتك معه في الاختراع، إلا أنه خلق ذلك على ترتيبٍ، فلم يخلق الحركة حتى خلق في العضو قُوَّةً، وفي القلب إرادةً، ولم يخلق الإرادة حتى خلق العلم بالمراد، ولم يخلق العلم حتى خلق القلب الذي هو محل العلم، فتدرجه في الخلق شيئاً بعد شيء هو الذي خيَّل إليك أنك أوجدت عملك، وقد غلطت، وإيضاح ذلك وكيفية الثواب على عملٍ هو من خلق الله سيأتي تقريره في كتاب الشكر، فإنه أليقُ به فارجع إليه.

ونحن الآن نُزيل إشكالك بالجواب الثاني الذي فيه المسامحة، فنقول: احسب أن العمل حصل بقُدرك، فمن أين قدرتك؟ ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وقدرتك، وكل ذلك من الله تعالى لا منك، فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه، وهذا المفتاح بيد الله، وما لم يُعطك المفتاح لا يمكنك العمل، كما لو قعدت عند خزانة مُغلقة لم تقدر على ما فيها إلا أن تُعطي مفتاحها، فإذا نُويِلت المفتاح فمددت يدك فأخذته، فينبغي أن يكون إعجابك بإعطاء الخازن المفتاح لا بمد يدك؛ لأن مؤنة مدِّ اليد يسيرة، وإنما الشأن في تسليم المفتاح فكذلك إذا خلقت لك القدرة، وسلَّطت الإرادة الجازمة، وحركت الدواعي، وضربت الصَّورف، فحينئذ يسهل العمل عليك، فمن العجائب أن تعجب بنفسك وتنسى تسهيل الأمور التي بتسهيلها سهل عملك، أما سلَّط دواعي الفساد على الفساق وحرك دواعي الخير عندك؟ لا بوسيلة سبقت منك ولا بجريمة سبقت منهم، بل لإيثاره إياك واصطفائه لك؟

وسیأتي في كتاب التَّوحيد والتوكل من بيان تسلسل الأسباب والمُسببات ما يستبين به أنه لا فاعل إلا الله ولا خالق سواه.

والعجبُ ممن رزقه الله عقلاً وأفقره، كيف يعترض ويقول: ما هذا الفقر مع وجود العلم والعقل؟ أفصارت النعمة حجة لطلب نعمة أخرى؟ وكيف لم تبين

للعاقل وجوه الحكمة في الفقر فيثمر ذلك عنده الصبر، ولو خفيت عليه الحكمة لكفاه التسليم للمالك، ثم إن المؤمن يشغله خوفه من سلب ما أنعم به عليه من النعم عن إعجابه بها، خصوصاً إذا تفكر فعلم أنها وهبت بغير وسيلة، وحرمها أقوام من غير جناية، وأن المعطي يفعل ما يشاء، فهذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب،<sup>(١)</sup> وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضلٍ منه»<sup>(١)</sup>.

## بَيَان

### أقسام ما به العُجب وتفصيل علاجه

اعلم أن العُجبَ يكون بالأَسباب التي بها يقع الكِبَر، وقد سبق ذكر هذا، وقد يكون العُجبُ بما لا يُتَكَبَّر به كعُجبِ الإنسان بالرأي الخَطَأ. وجملة ما يقع به العُجب ثمانية أقسام:

**الأول:** أن يُعجب ببدنه وحُسن صورته وجمال نفسه، وينسى أن ذلك نِعْمَةٌ من الله تعالى، وأنه بعرضة الزوال<sup>(١)</sup>.

**وعلاجه:** ما ذكرنا في الكِبَر بالجمال، وهو التفكر في أقدارِ الباطن وبداية الأمر ونهايته من البلى.

**والثاني:** العُجب بالقوة والبطش، كما عجب قوم عاد فقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فأهلكوا بالريح، وعجب عُوج<sup>(٢)</sup> بقُوته فاقتلَع قطعةً من جبل ليلقيها على قوم موسى فَتَقَبَّهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فصارت في عُنقه، وقد يَتَكَلَّ الإنسان على قُوته، كما قد روينا أن بني إسرائيل تذاكروا: هل يمكن الإنسان أن يمضي عليه يوم ولا يعصي الله فيه؟ فحدث داود نفسه بذلك سكوناً إلى قُوته في المُجاهدة فابْتَلَى يومئذ بالذنب، وقال سُلَيْمان: لأطوفَنَّ الليلة على مئة امرأةٍ تَلِدُ كل امرأةٍ منهن غُلاماً يُجاهد في سبيل الله، فحرم ذلك.

وقد يورث العُجبُ بالقوة التَهْجُم في الحروب على التَهْلُكَة، وعلاج ذلك أن يعلم أن ذلك أمرٌ زائل، وأن حَمَى يوم تُزِيلُ قوة البدن، ويسير من الفتن يدفع قوة العزائم.

(١) أي أنه مظنة أن يعرض له الزوال.

(٢) هو عُوج بن عُنق، قيل: إنه ولد في منزل آدم عليه السلام وعاش إلى زمن موسى عليه السلام، وقيل: هو رجل من الفراعنة كان يوصف من الطول بأمرٍ شنيع لا يكاد يُصدق، ودُكِر أنه كان إذا قام كان السحابُ له مِزْرَأاً، ولعل ذلك من الإسرائيليات.

الثالث: العُجْبُ بالعقل والكياسة، والتَّفْطُن لدقائق الأمور، وهذا يثمر الاستبداد بالرأي وترك المشاورة، واستجهاال المخالفين لرأيه.

وعلاجه: أن يتعرف مقدار عقله من أعدائه لا من أصدقائه، ومن الحكماء لا من نفسه، فربما عَظَمَ من نفسه ما ليس بمعظم، ثم يشكر الله تعالى على ما رَزَقَهُ، <sup>(١)</sup> وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلاً<sup>(٢)</sup>، ثم ليعلم أنه بأذنى مَرَضٍ يُصِيبُ الدماغ يفسد ذلك، ثم يكون خائفاً من تحوّل الحال، وأن يُعاقَبَ لعدم شكره على تلك النعم بزوالها.

الرابع: العجب بالنسب، كما يتخيل الشّريف أنه ينجو بسبب شرفِ آبائه، ويظن بعضهم أن جميع الخلق عبيدٌ لهم.

وعلاجه: أن يعلم أنه متى خالف آباءه في أفعالهم وظنّ أنه يلحق بهم، فقد جهل، وإن اقتدى بأبائه، فإنه لم يكن العجب من أخلاقهم، بل الخوف والإرزاء على النفس، وإنما شرفوا بالطاعة والخصال المحمودّة لا بنفس النسب، فإنه قد شاركهم فيه من ليس بمؤمن، وقد بيّن الله سبحانه أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال عليه الصلاة والسلام: «يا فاطمة، لا أعني عنك من الله شيئاً». فمن علم أن آبائه كانوا على قدّم التقوى والتواضع ولم يقف في مقامهم، فقط طعن في نسب نفسه بلسان حاله.

فإن قال قائل: إنما يرجو الشرف أن يشفع فيه ذو قرابته.

فالجواب: أن كل المسلمين يرجون الشفاعة، وقد يُشفع في الشخص بعد إحراقه بالنار، وقد يقوى الذنب فلا تُنجي منه الشفاعة، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا أُلْفِينُ أحداًكم يَجِيءُ يوم القيامة على رقبته بغير له رُغاء، فيقول: يا رسول الله اغثنني. فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتُك».

ومثلُ المُنْهَمِكِ في الذنوب اعتماداً على رجاء الشفاعة كمثل المريض المُنْهَمِكِ في الشّهوات اعتماداً على أن يَطْبَهُ طيبه الحاذق المُشفق، وذلك جهل، فإن اجتهاد

الطَّيِّب يَنْفَعُ بَعْضَ الْأَمْرَاضِ لَا الْكُلَّ، وَيُوضِّحُ هَذَا أَنْ سَادَاتِ الصَّحَابَةِ كَانُوا خَائِفِينَ مِنَ الْآخِرَةِ، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَقُولُ: لَيْتَنِي كُنْتُ كَبِشًا ذَبَحَنِي أَهْلِي. وَقَالَ عُمَرُ: لَيْتَنِي كُنْتُ تَبْنَةً فِي حَائِطٍ وَلَا أَحَاسِبُ. وَقَالَتْ عَائِشَةُ: لَيْتَنِي كُنْتُ نَسِيًّا مَسِيًّا. فَكَيْفَ يَتَّكِلُ عَلَى الشَّفَاعَةِ مَنْ لَيْسَ لَهُ مِثْلُ مَرَاتِبِ هَؤُلَاءِ؟

الخامس: العُجْبُ بِسَبِّ ظَلَمَةِ الْأَمْرَاءِ.

وعلاجه: أَنْ يَتَفَكَّرَ فِي مَخَازِيهِمْ وَيَتَذَكَّرَ ذُلَّهُمْ فِي الْقِيَامَةِ وَاحْتِقَارَهُمْ وَتَعَلُّقِ الْخِصْمَاءِ بِهِمْ، فَيَنْبَغِي لِمَنْ عُصِمَ مِنْ أَوْلَادِهِمْ<sup>(١)</sup> مِنْ مِثْلِ أَعْمَالِهِمْ أَنْ يَشْكُرَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى سَلَامَةِ دِينِهِ وَيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ.

السادس: العُجْبُ بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ مِنَ الْأَوْلَادِ وَالْخُدَمِ وَالْعَشِيرَةِ وَالْأَقْرَابِ وَالْأَتْبَاعِ، كَمَا قَالَ الْكُفَّارُ: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ [سبأ: ٣٥].

وعلاجه: مَا ذَكَرْنَا فِي الْكِبَرِ، وَهُوَ أَنْ يَتَفَكَّرَ فِي ضَعْفِهِ وَضَعْفِهِمْ، وَأَنْ كُلَّهُمْ عَبِيدٌ عَجْزَةٌ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَأَنْهُمْ سَيَفْتَرِقُونَ عَنْهُ إِذَا مَاتَ، وَيَنْفَرِدَ عَنْهُمْ فِي قَبْرِهِ، وَيَهْرَبُونَ مِنْهُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَأَيَّ عَنَاءٍ عِنْدَ مَنْ يُفَارِقُكَ فِي أَشَدِّ أَحْوَالِكَ؟

السابع: العُجْبُ بِالْمَالِ، كَمَا قَالَ صَاحِبُ الْبُسْتَانِ: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا﴾ [الكهف: ٣٤].

وعلاجه: أَنْ يَتَفَكَّرَ فِي آفَاتِ الْمَالِ، وَكَثْرَةِ حُقُوقِهِ، وَعِظَمِ غَوَائِلِهِ، وَالسُّؤَالِ عَنْ كَسْبِهِ وَإِنْفَاقِهِ، وَسَبْقِ الْفُقَرَاءِ لَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَفِي مَا ذَكَرْنَاهُ فِي كِتَابِ الرُّهْدِ، وَكِتَابِ دَمِّ الدُّنْيَا، وَكِتَابِ دَمِّ الْمَالِ مَا يَخُوفُ مِنَ الْغِنَى.

الثامن: العُجْبُ بِالرَّأْيِ الْخَطَأِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨] وَقَالَ: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وَجَمِيعِ أَهْلِ الْبِدْعِ إِنَّمَا أَصْرُوا عَلَيْهَا إِعْجَابَهُمْ بِآرَائِهِمْ.

(١) تحرفت في (ف) إلى: (هؤلاء).

وعلاج هذا أشد من علاج غيره؛ لأن ذا الرأي الخطأ جاهلٌ بخطئه، ومُعالجة الداء الذي لا يُعرف لا تُمكن، والجهل داءٌ لا يُعرف فتعسر مداواته، ومتى كان هذا الشخص معجباً برأيه لم يُصغِ إلى نصيحٍ، وكيف يترك ما يعتقدُه نجاتاً له.

وإنما علاج مثل هذا في الجملة: أن يكون مُتَّهماً لرأيه أبداً، لا يغرُّ به إلا أن يشهد له قاطع من كتابٍ أو سنةٍ أو دليل عقلي جامع لشروط الأدلة، ولن يعرف ذلك إلا بمجالسة أهل العلم وممارسة الكتاب والسنة، والأولى لمن لا يتفرغ لاستغراق العُمر في العلم أن لا يخوض في المذاهب، ولكن يقف على اعتقاد الجُمَل، وأنَّ الله سبحانه واحدٌ لا شريك له، ليس كمثلِه شيء وهو السميع البصير، وأن رسوله صادق فيما جاء به، ويؤمن بما جاء به القرآن من غير بحثٍ ولا تَنقير<sup>(١)</sup>، ويصرف زمنه في التقوى وأداء الطاعات، فمتى خاض في المذاهب ورام ما لا يصل إلى معرفته مثله هلك.

آخر كتاب ذم الكبر والعُجب



(١) التَّنْقِير: التفتيش والبحث الشديد.



## كتاب ذم الغرور

وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات

الحمدُ لله مُدبِّرِ الأحوال والأُمور، ومُدَهِّرِ الأحيان والدُّهور، ومُصَرِّفِ الأوقات والعُصور، ومُعِيدِ الصُّورِ عند نَفْحِ الصُّورِ بِمَشِيئَتِهِ السَّلامَةُ والثُّبور، وِبَارادته الحُزنَ والحُبور، وِبِحكَمَتِهِ الكَسْرُ والجُبور، وإِلى قِضائِهِ السُّرورِ والشُّرور، بَثَّ الشُّبَهَ بَيْنَ الحُجَجِ ثُمَّ شَعَّشَعَ النُّورَ، وأقامَ العِقلَ نَصِيحاً يَصِيحُ قَبْلَ العُثورِ: فلا تَغْرُنْكُمْ الحِياهُ الدُّنيا، ولا يَغْرُنْكُمْ باللهِ الغُرورُ.

أَحْمَدُهُ حَمْداً يَدومُ بِدوامِ الأَيامِ والشُّهور، وأشْهَدُ لَهُ بِالتَّوْحِيدِ شَهادَةً تُخْرِجُ قائلِها مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ وَقَدْ زَيْنَ الشَّيْطانُ الخِدْعَ والغُرورَ، فأَوْضَحَ الحَقَّ وَهتَكَ الزُّورَ، وَنَسَخَ بِنهارِ شَرِيعَتِهِ ظلامَ كُلِّ دَيِّجورٍ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ بَايَعَهُ وَتَابَعَهُ إِلى يَوْمِ الحِشْرِ والحُضورِ.

أما بعد: فَإِنَّ مَفْتاحَ السَّعادَةِ التَّيَقُّظَ وَالفِطْنةَ، وَمَنْعَ السَّفْاواةِ الغُرورِ وَالغَفْلةَ، فلا نِعمةَ أَعْظَمَ مِنَ الإِيمانِ وَالمَعْرِفةِ، وَلا وَصولَ إِلى ذلكِ إِلا بِنورِ البَصِيرَةِ، وَلا نِعمةَ أَعْظَمَ مِنَ الكُفْرِ وَالمَعْصِيَةِ، وَلا دَاعيَ إِلى ذلكِ إِلا عَمَى القَلبِ بِظُلْمَةِ الجِهاالَةِ، فَقلوبُ أربابِ اليَقْظَةِ كَمِشْكَاةٍ فِيها مِصباحٌ، وَقلوبُ المِغْتَرِبِينَ كظُلُماتٍ فِي بَحْرِ لُجِّي.

وَإِذا عُرِفَ أَنَّ الغُرورَ هُوَ أُمُّ الشَّقْواءِ وَمَنْعُ الهِلكَةِ، فلا بدَّ مِنْ شَرْحِ مِداخِلِهِ وَمِجارِيهِ، وَتَفْصِيلِ ما يَكْثُرُ وَقوعُ الغُرورِ فِيهِ، لِيحْذِرَهُ المِريدُ.

وفِرْقُ المغتربين كثيرةٌ، وأحوالهم مختلفةٌ، فمنهم من يرى المنكر معروفاً، كمن يُزخرف المساجد من المالِ الحرامِ، ومنهم من لا يُميز بين ما يسعى فيه لنفسه وبين ما يسعى فيه لله سبحانه، كالواعظ الذي غرضه القبول والجاه، ومنهم من يترك الفَرْضَ ويشغل بالنافلة، كمن يتعبّد ويترك الكسبَ للعيال، ومنهم من يشتغل بالقشر عن اللُّبِّ، كمن هو مقصورٌ في الصَّلَاةِ على تصحيح مخارج الحروف دون فهم ما يتلوه.

## بَيَانُ ذَمِّ الْغُرُورِ

يَكْفِي فِي ذَمِّ الْغُرُورِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَفْرَنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣] وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَزَّزْتُكُمُ الْأَمَانَةَ﴾ [الحديد: ١٤]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((الْكَيْسُ مِنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانَةَ)).

وَكُلُّ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِ الْعِلْمِ وَذَمِّ الْجَهْلِ فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى ذَمِّ الْغُرُورِ؛ لِأَنَّ الْغُرُورَ عِبَارَةٌ عَنْ بَعْضِ أَنْوَاعِ الْجَهْلِ، إِذِ الْجَهْلُ هُوَ أَنْ يَعْتَقِدَ الشَّيْءَ وَيَرَاهُ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ بِهِ، وَالْغُرُورُ جَهْلٌ، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ جَهْلٍ بِغُرُورٍ، بَلْ يَسْتَدْعِي الْغُرُورَ مَغْرُوراً فِيهِ مَخْصُوصاً وَمَغْرُوراً بِهِ، وَمَتَى اعْتَقَدَ الْإِنْسَانُ شَيْئاً يُوَافِقُ الْهَوَى وَكَانَ السَّبَبُ الْمَوْجِبُ لِلْجَهْلِ شُبْهَةً وَمَخِيلَةً فَاسِدَةً تَطُنُّ دَلِيلًا سُمِّيَ الْجَهْلُ الْحَاصِلُ بِذَلِكَ غُرُوراً، فَالْغُرُورُ سَكُونُ النَّفْسِ إِلَى مَا يُوَافِقُ الْهَوَى، وَيَمِيلُ إِلَيْهِ الطَّبَعُ عَنْ شُبْهَةٍ وَخُدْعَةٍ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَدَرَجَاتُ الْغُرُورِ تَتَفَاوَتُ.

## ذِكْرُ غُرُورِ الْكُفَّارِ

مِنْهُمْ مَنْ غَرَّتْهُ الدُّنْيَا، فَقَالَ: النَّقْدُ خَيْرٌ مِنَ النَّسِيئَةِ، وَالدُّنْيَا نَقْدٌ وَالْآخِرَةُ نَسِيئَةٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: لَدَاتِ الدُّنْيَا مُتَيْقِنَةٌ، وَلَدَاتِ الْآخِرَةِ مَشْكُوكٌ فِيهَا، وَالْيَقِينُ خَيْرٌ مِنَ الشَّكِّ؟

وَعِلَاجُ هَذَا الْغُرُورِ بِالنَّظَرِ فِي دَلِيلِ التَّوْحِيدِ وَصَدَقِ الرَّسُولُ، فَحِينَئِذٍ يَثْبِتُ خَبْرَهُ بِأَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ.

فَأَمَّا قَوْلُهُمْ: النَّقْدُ خَيْرٌ مِنَ النَّسِيئَةِ. فَهُوَ مَحَلُّ التَّلْبِيسِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ النَّقْدُ مِثْلَ النَّسِيئَةِ، فَالنَّقْدُ خَيْرٌ، وَإِنْ كَانَ أَقْلَ مِنْهُ<sup>(١)</sup>، فَالنَّسِيئَةُ خَيْرٌ، وَلِذَلِكَ يَبْدُلُ هَذَا

(١) فِي (ف): (مِنْهَا).

الكافر في تجارته درهماً ليأخذ عشرة نسيئة، ولا يقول حينئذ: النقد خير من النسيئة، ويترك لذيذ الأطعمة خوفاً من ألم المرض في المستقبل، ومعلوم أن عمر الإنسان بالإضافة إلى مدة الآخرة ليس بجزء من ألف ألف جزء، إلى أن ينقطع النفس من الآخرة، بل ترك شيئاً حقيراً ليأخذ ما لا نهاية لعدده ولا منقطع لأمدِهِ، وإنما أراد من قال: النقدُ خيرٌ من النسيئة إذا كانت النسيئة مثل النقد.

وأما قولهم: اليقينُ خيرٌ من الشكِّ، «يجعلها يقيناً»، فإننا قد رأينا من يترك متيقناً لمشكوكٍ يرجو بتركه أفضل مما ترك، أو يخاف من تناول ما تناول، فإن التاجر في بيعه على يقين، وفي ربحه على شك، والمتفقُّه في اجتهاده على يقين، وفي إدراكه رتبة العلم على شك، والمريضُ يشرب الدواء المرَّ وهو من الشفاء في شك، ثم إنَّ الجرمَ دأب العقلاء بالاتفاق، وكل ذلك تركٌ لليقين بالشكِّ، فمن شكَّ في الآخرة فإنَّ الجرم عنده أن يصبر عما نُهيَّ عنه مدة عمره، وهي قليلة بالإضافة إلى أيام الآخرة، فلو لم تكن الآخرة وعداً صادقاً لم يفتَهُ إلا التَّنعُّم في مدة حياته المحترقة، وإن كانت صدقاً، فعذاب النار لا يُطاق، ومن هذا قول أبي العلاء:

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تُنشرُ الأمواتُ قلتُ إليكما  
إن صحَّ قولكما فليست بخاسرٍ أو صحَّ قولي فالحسارُ عليكما

هذا جوابٌ مقصوده إفحامُ المعترض بقوله: اليقين خيرٌ من الشكِّ، وإلا فالآخرة متيقنة، وإنما يحصل اليقين بها بالنظر في صدق الرسول المخبر عنها بالمعجزات الخارقة.

وأما ملايسو المعاصي مع سلامة عقائدهم، فإنهم قد شاركوا الكفار في هذا الغرور؛ لأنهم آثروا الدنيا على الآخرة، إلا أن أمرهم أسهل من جهة أن أصل الإيمان يمنعهم من عقاب الأبد.

وقد يغتر الكافر بأن يقول: إن كانَ ثمَّ معادُ فأنا أحقُّ به من غيري. كقول ذلك القائل: ﴿وَلَيْنَ رُودَتْ إِلَيَّ رَبِّي لَأَجِدَنَّ حَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، وقول الآخر:

﴿لَأَوْتِيَنَّكَ مَا لَمْ يَلِدْكَ﴾ [مريم: ٧٧]، وسبب هذا الاغترار أنهم رأوا نِعَمَ الدنيا متوفرة عليهم والعذاب بعيداً عنهم، فقاوسوا أمر الآخرة على ذلك، وزعموا أن الإحسان يقتضي المحبة، ولولا أنه يحبنا ما أعطانا، ومن أحسنَ في الماضي أحسن في المستقبل، ولو علموا أن ما أعطوه عليهم لا لهم لم يقولوا هذا، قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمراء: ١٧٨]، وما مُنِعَهُ المؤمن من الدنيا فِحْمِيَّةٌ، وقد كشفَ هذا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَّهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَّهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴿ [الفجر: ١٥-١٦]. أي ليس هذا بكرامة ولا هذا بهوان.

وعلاجُ هذا الغرور معرفة دلائل الكرامة ودلائل الهوان.

ومن هذا الجنس اغترارُ العصاة بقولهم: إن الله كريمٌ، وإنا نتكل على عفوه ونتوسلُ إليه بالتوحيد. وربما اغتروا بصلاح آبائهم كالشرفاء، وقياسهم: أن من أحب إنساناً أحبَّ أولاده، وأن الله عز وجل يحب آباءنا، وقدنسوا أن نوحاً عليه السلام أراد أن يستصحبَ ابنه في السفينة فقبل له: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]، وأن استغفارَ إبراهيم لأبيه لم ينفعه، ولا شفاعة محمدٍ في أمه، وإنما يحبُّ الله عزَّ وجلَّ المطيع، فلو أن ولدًا عصى وكان الأبُّ مطيعاً لم يُغضِ الوالد بمعصية الولد، فكذلك طاعة الوالد لا توجب محبةَ الولد، ومن ظنَّ أنه ينجو بتقوى أبيه كان كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه، والتَّقوى فرضُ عين.

وقولهم: إن الله كريمٌ. كلامٌ صحيح، ولكن الشياطين تخدعهم به، وقد كشف ذلك قولُ الرسول ﷺ: «والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله».

وأما تعلُّقهم بالرجاء؛ فإن الرجاء له أسباب، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، فبيِّن أنَّ الرجاء بمثل هؤلاء يليق، أفترى من استؤجر لإصلاح أواني فكسرَها، يحسن أن يرجو أخذ الأجرة؟ وقد قال العلماء: من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب منه، والعَجَبُ ممن لم ينكح كيف يرجو الولد، فمن تاب ورجا العفو،

فرجاؤه صحيح، ومن رَجَا العُفْران مع الإصرار فهو مَغْرور، وليعلم أن الله سبحانه مع سَعَةِ رحمته شديد العقاب، وقد قضى بتخليد الكُفَّار في النار مع أنه لا يَضُرُّه كفرهم، وقد سلط الأمراض والمِحَن على خلقٍ من عباده في الدنيا، وهو قادر على إزالتها، ثم قد حَوَّفنا عقابه، فكيف لا نخاف؟ فالخوف والرجاء سائقان يبعثان على العمل، وما لا يبعث على العمل فهو غُرور.

ويوضح هذا: أن رجاء أكثر الخلق يحملهم على البطالة وإيثار المعاصي، فعلمت أنه غرور، والعجب من القرن الأول عملوا وخافوا، ثم أهل هذا الزمان أمِنوا مع التَّقْصير واطمأنوا تراهم عرفوا من كَرَم الله عز وجل ما لم يعرفه الأنبياء وصالحو السلف؟ وإذا كان هذا الأمر يُدرك بالمُنَى فلم تَعِب أولئك وكثُر بكائهم؟ وهل ذم أهل الكتاب بقوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩] إلا لمثل هذه الحال؟

### فصل

ويَقْرُبُ من هذا الغرور غُرور أقوام لهم طاعات ومعاصي إلا أن معاصيهم أكثر، فهم يظنون أن حسناتهم تَرَجح، فترى الواحد منهم يتصدق بدراهم<sup>(١)</sup> ويكون ما تناوله من العُصْب أضعاف ذلك، ولعل الذي تصدَّق به من المغصوب، ويتكَلَّم على تلك الصدقة، وما هذا إلا كمن وضع دِرْهَمًا في كِفَّةٍ وألفاً في أخرى، ثم رَجَا أن يرجح الدرهم بالألف.

ومنهم من يَظُنُّ أن طاعاته أكثر من معاصيه، وسبب هذا الظن أنه يحفظ عدد حسناته ولا يُحاسب<sup>(٢)</sup> على سيئاته<sup>(٣)</sup> ولا يتفقد ذنوبه كالذي يستغفر الله أو يُسَبِّحه<sup>(٣)</sup> مئة مرة في يوم، ثم يغتاب المسلمين ويتكلم بما لا يُرضي طول النهار، فهو ينظر في فضائل الاستغفار والتسبيح، ولا ينظر في عقوبة الغيبة والكلام المنهي عنه.

(١) في (ف): (بدرهم).

(٢.٢) سقط من الأصل.

(٣) ليست في الأصل.

## فصل

ويَقَعُ الاغْتِرَارُ فِي الْأَغْلَبِ فِي حَقِّ أَرْبَعِ طَوَائِفِ: الْعُلَمَاءِ، وَالْعُبَادِ،  
وَالْمَتَّصِفَةِ، وَالْأَغْنِيَاءِ.

فَأَمَّا أَهْلَ الْعِلْمِ، فَالْمَغْتَرُونَ مِنْهُمْ فِرْقٌ: فَفِرْقَةٌ مِنْهُمْ أَحْكَمُوا الْعُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ  
وَالْعَقْلِيَّةَ، وَتَعَمَّقُوا فِيهَا وَاشْتَغَلُوا بِهَا، وَأَهْمَلُوا تَفَقُّدَ الْجَوَارِحِ وَحِفْظَهَا عَنِ الْمَعَاصِي  
وَالزَّامِهَا الطَّاعَاتِ، وَاغْتَرُوا بِعِلْمِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ، وَأَنَّهُ لَا يَعْذِبُ  
مِثْلَهُمْ، وَقَدْ بَلَّغُوا مَا بَلَّغُوا مِنَ الْعِلْمِ، بَلْ يَقْبَلُ فِي الْخَلْقِ شَفَاعَتَهُمْ، وَلَوْ نَظَرَ هَؤُلَاءِ  
بِعَيْنِ الْبَصِيرَةِ عَلِمُوا أَنَّ عِلْمَ الْمُعَامَلَةِ لَا يُرَادُ إِلَّا لِلْعَمَلِ، وَلَوْلَا الْعَمَلُ لَمْ يَكُنْ لَهُ  
قَدْرٌ، وَمِثَالُ هَذَا كَمَرِيضٍ بِهِ عِلَّةٌ لَا يُزِيلُهَا إِلَّا دَوَاءٌ مُرَكَّبٌ مِنْ أَخْلَاطٍ كَثِيرَةٍ لَا  
يَعْرِفُهَا إِلَّا حُدَاقُ الْأَطْبَاءِ، فَسَعَى فِي طَلَبِ طَبِيبٍ حَادِقٍ فَعَلِمَهُ الدَّوَاءَ وَبَيَّنَّ لَهُ مَعَادِنَ  
الْأَخْلَاطِ وَمَقَادِيرَهَا وَكَيْفَ تُجْمَعُ، فَكَتَبَ نُسْخَةً وَعَادَ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَجَعَلَ يُكْرِرُ قِرَاءَةَ  
النُّسْخَةِ وَيُعَلِّمُهَا الْمَرَضَى، وَلَا يَشْتَغَلُ بِشَرْبِهَا، فَهَلْ يَنْفَعُهُ ذَلِكَ مِنْ مَرَضِهِ؟ هَيْهَاتَ؟  
لَا وَجْهَ لِنَفْعِهِ إِلَّا أَنْ يَسْتَعْمَلَ الدَّوَاءَ الْمَوْصُوفَ وَيَصْبِرَ عَلَى مَرَارَتِهِ، ثُمَّ هُوَ عَلَى  
خَطَرٍ مِنَ الشِّفَاءِ، فَهَكَذَا الْفَقِيهَ إِذَا أَحْكَمَ عِلْمَ الطَّاعَاتِ وَلَمْ يَعْمَلْهَا، وَعَلِمَ  
الْمَعَاصِي وَلَمْ يَجْتَنِبْهَا، وَعَلِمَ الْأَخْلَاقَ الْمَذْمُومَةَ وَلَمْ يُطَهِّرْ نَفْسَهُ مِنْهَا، فَإِنَّ اللَّهَ  
تَعَالَى قَالَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا﴾ [الشمس: ٩]، وَلَمْ يَقُلْ: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَعَلَّمَ  
كَيْفَ يُزَكِّيهَا<sup>(١)</sup>، فَإِنَّ تَلَا عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ فِضَائِلَ الْعِلْمِ فَلْيَذْكَرْ لَهُ مَا وَرَدَ فِي الْعَالَمِ  
الْفَاجِرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَنَّهُ، كَمِثْلِ الْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، ﴿كَمِثْلِ الْحِمَارِ  
يَحْمِلُ أَثْقَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، وَقَدْ سَبَقَ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ مِنْ هَذَا كَثِيرٌ.

فَأَمَّا مَنْ يَدَّعِي عِلْمَ مَعْرِفَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ثُمَّ يُضَيِّعُ أَوْامِرَهُ وَحُدُودَهُ فَعُرُورُهُ<sup>(٢)</sup> أَشَدُّ،  
وَمِثَالُهُ مِثَالُ مَنْ أَرَادَ خِدْمَةَ مَلِكٍ فَعَرَفَ الْمَلِكَ وَعَرَفَ أَخْلَاقَهُ وَأَوْصَافَهُ، وَلَمْ يَتَعَرَفْ  
مَا يُحِبُّهُ وَيَكْرَهُهُ، وَمَا يَغْضَبُ لِأَجَلِهِ وَيَرْضَى بِهِ، أَوْ عَرَفَ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ لَا بَسَّ مَا

(١) فِي (ف): (تَرْكِيئَتِهَا).

(٢) سَقَطَتْ مِنْ (ف).

يَغْضَبُ بِهِ وَتَعْطَلُ عَنْ مَا يُحِبُّهُ، ثُمَّ أَرَادَ التَّقَرُّبَ إِلَى الْمَلِكِ وَهُوَ مُتَلَوِّثٌ بِكُلِّ مَا يَكْرَهُهُ، عَاطِلٌ عَنْ كُلِّ مَا يُحِبُّهُ، فَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِمَعْرِفَتِهِ، فَهَذَا مَغْرُورٌ جَدًّا، إِذْ لَوْ تَرَكَ جَمِيعَ مَا عَرَفَهُ وَاشْتَغَلَ بِمَعْرِفَةِ مَا يُحِبُّهُ وَيَكْرَهُهُ كَانَ ذَلِكَ أَقْرَبَ لَهُ إِلَى نَيْلِ مُرَادِهِ، بَلْ تَقْصِيرُهُ فِي التَّقْوَى وَاتِّبَاعِهِ لِلْهَوَى دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَنْكَشِفْ لَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَّا الْأَسْمَاءَ دُونَ الْمَعَانِي، إِذْ لَوْ عَرَفَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ لَخَافَ مِنْهُ وَاتَّقَاهُ، فَمَنْ عَرَفَ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ يُهْلِكُ الْخَلْقَ وَلَا يُبَالِي، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَلَا تَأْخُذُهُ رِقَّةٌ، فَإِنَّهُ يَشْتَدُّ خَوْفُهُ مِنْهُ. وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَدْ قِيلَ لَهُ فِي مَسْأَلَةٍ: خَالَفَتِ الْفُقَهَاءُ. فَقَالَ: وَهَلْ رَأَيْتُ فَقِيهًا قَطُّ؟ إِنَّمَا الْفَقِيهَ الَّذِي يَخْشَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ.

وَفِرْقَةٌ أُخْرَى أَحْكَمُوا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ، فَوَاضَبُوا عَلَى الطَّاعَاتِ <sup>(١)</sup> الظَّاهِرَةَ وَتَرَكَوا الْمَعَاصِي، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَتَفَقَدُوا قُلُوبَهُمْ لِيَمْحُوا الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةَ <sup>(٢)</sup> مِنْهَا، كَالْكِبْرِ، وَالْحَسَدِ، وَالرِّيَاءِ، وَطَلَبِ الْعُلُوِّ، وَإِرَادَةِ السُّوءِ لِلنَّظَرَاءِ، وَطَلَبِ الشُّهْرَةِ <sup>(٣)</sup>، وَرَبْمَا لَمْ يَعْلَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ هَذَا مَذْمُومٌ، فَلَمْ يَحْتَرِزْ مِنْهُ، وَلَمْ يَتَأَمَّلْ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «أَدْنَى الرِّيَاءِ شِرْكٌ»، وَقَوْلُهُ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ»، وَقَوْلُهُ: «الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْبَارِ الَّتِي يَحْوِيهَا رُبْعُ الْمَهْلِكَاتِ فِي الْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ، فَهَؤُلَاءِ زَيْنُوا ظَوَاهِرَهُمْ وَأَهْمَلُوا بَوَاطِنَهُمْ وَنَسُوا قَوْلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»، فَتَعَاهَدُوا الْأَعْمَالَ وَلَمْ يَتَعَاهَدُوا الْقُلُوبَ، وَالْقَلْبُ هُوَ الْأَصْلُ إِذْ لَا يَنْجُو إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، وَمِثَالُ هَؤُلَاءِ كِبِيرُ الْحُشِّ <sup>(٤)</sup> ظَاهِرُهَا جِصٌّ وَبَاطِنُهَا نَتْنٌ، وَكَالْقُبُورِ ظَاهِرُهَا مُزَيْنٌ وَبَاطِنُهَا جِيفَةٌ، وَكَبِيَّتِ بَاطِنُهُ مُظْلَمٌ وَعَلَى سَطْحِهِ سِرَاجٌ، وَأَقْرَبُ الْأَمْثَلَةِ مِنْ هَذَا رَجُلٌ زَرَعَ زَرْعًا فَتَبَّتْ وَنَبَتَ

(١) تحرفت في (ف) إلى: (الصفات).

(٢) سقطت من (ف).

(٣) تحرفت في (ف) إلى (الشهوة).

(٤) الحُش: الكنيف.

معه حَشِيشٌ يُفْسِدُهُ، فَأَمْرٌ بِتَنْقِيَةِ الزَّرْعِ مِنَ الحَشِيشِ بِقَلْعِهِ، فَأَخَذَ يَجْزُرُ رُؤُوسَهُ وَأَطْرَافَهُ وَيَتْرِكُ أَصُولَهُ، <sup>(١)</sup> «فلم تزل أصوله» تقوى وتنتبت، فمغارس المعاصي هي الأخلاق الذميمة في القلب، فمن لم يُطهر القلب منها لم تتم له الطاعات الظاهرة إلا مع آفات كثيرة، فمثله كمثل من به جربٌ فأمر بالطلاء وشرب الدواء، فالطلاء لإزالة الظاهر والدواء لقلع المادة من الباطن، ففنع بالطلاء وترك شرب الدواء، ثم تناول مما يزيد في المادة فلم يزل ما به.

وفرقة أخرى علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مدمومة، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم مُنْفَكُونَ عنها وأنهم أرفع عند الله من أن يتليهم بذلك، وإنما يتلي به العوام دون من بلغ مبلغهم من العلم، فإذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرئاسة وطلب العلو قال أحدهم: ما هذا كبر، وإنما هو طلب عزِّ الدين وإظهار شرف العلم وإرغام أنف المبتدعين، فإني لو لبست الدون من الثياب، وجلست في الدون من المجلس شمت بي أعداء الدين وفرحوا بذلك، وكان ذلي ذلاً للإسلام. وينسى المغرور أن إبليس هو الذي قد سؤل له هذا، بدليل أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا يتواضعون ويؤثرون الفقر والمسكنة، وقد روينا عن عمر بن الخطاب أنه لما قدم الشام عرضت له مخاضة<sup>(٢)</sup>، فنزل عن بعيره، فقال أبو عبيدة: لقد صنعت اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض. فصك في صدره<sup>(٣)</sup> وقال: أوّه لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة؟ إنكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس فأعزكم الله برسوله، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله. وفي رواية عنه أنه لما قدم الشام استقبله الناس وهو على بعيره، فقيل له: لو ركبت برذونا<sup>(٤)</sup> يلقاك عظماء الناس ووجوههم. فقال عمر: ألا أراكم هاهنا إنما الأمر من ههنا - وأشار بيده إلى السماء - خلّوا سبيل جملي.

(١) سقط من (ف).

(٢) المخاضة: الموضع القليل الماء الذي يعبر فيه الناس النهر مشاةً وركباناً.

(٣) أي: ضرب في صدره ودفعه بقوة.

(٤) البرذون: يطلق على غير العربي من الخيل والبغال، عظيم الخلقة قوي الأرجل غليظ الأعضاء.

ثم العَجَب من مَغْرورٍ يَطْلُب عِزَّ الدين بالثياب الرَّفِيعَة والخِيُول الفارهة، وربما طلبه بلبس الحرير، وربما أطلق لسانه في أَقْرانِه حَسَدًا، وزعم أنه إنما تكلَّم غضبًا للحق، وينكشف هذا بأنه لو طُعنَ في غيره من أهل العلم أو زوحم غيره في رئاسة فهل كان يغضب لذلك غضبه لنفسه إن كان غضبه للإسلام؟ هيهات؟ بل ربما فرَحَ بذلك، فتبين أن غضبه كان لنفسه، وأنه حاسد لأقرانه.

وإذا خَطَرَ له خاطر الرِّياء قال: إنما غَرَضِي من إظهار العلم والعمل اقتداء الخَلْق بي ليهتدوا إلى الدين. ولو كان هذا قَصْدُه<sup>(١)</sup> لفرح باقتداء الناس بغيره، كما يفرح باقتدائهم به، ولو كان غرضه صلاح الخَلْق لفرح بصلاحهم على يد من كان، كمن له عبيد مَرَضِي يُريد معالجتهم، فإنه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيبٍ آخر، وربما قال: لو هُذوا على يدي كان الأجر لي، فأنا أفرح بثواب الله تعالى لا بقول الخَلْق. والله يَطَّلِعُ من ضَميره أنه لو أخبره نبيٌّ بأن ثوابه في إخفاء العلم أكثر من ثوابه في الإظهار، ثم حُبِسَ مع ذلك في سجن وسُلْسِلَ لاحتال في هدم السِّجْن وحلَّ السَّلَاسِلِ حتى يرجع إلى موضعه الذي به تظهر رياسته من تدريسٍ أو وعظٍ أو غيره.

وكذلك يدخل على السلطان ويتودَّد إليه ويُثني عليه ويتواضع له، وإذا خطر له أن التواضع للظلمة حرامٌ قال: إنما غَرَضِي أن أشفعَ في مسلم وأدفعَ الضَّرَرَ عنه. والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قَبولٌ عند ذلك السلطان، فصار يُشَفِّعُه في كلِّ مسلم حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين نُقِلَ ذلك عليه، ولو قدر أن يُقَبِّحَ حاله عند السُّلطان بالطَّعن فيه والكذب عليه لفعل.

وقد ينتهي غُرور بعضهم إلى أن يأخذ من أموالهم وإذا خطر له أنه حرام قال: هذا مالٌ لا مالِكَ له، وهو لمصالح المسلمين وأنت إمام من أئمتهم، فيجوز لك أن تأخذه قدر حاجتك. فَيَعْتَرُ بهذا التَّلْبِيسِ في ثلاثة أشياء:

أحدها: أنه مالٌ لا مالِكَ له، فإنه قد يعرف من أخذ منه، فإن كان مات فَوَرَّثَتْه أحياء، وغاية الأمر وقوع الاختلاط في الأموال، ومعلوم أن من غَصَبَ مئةَ دينار

(١) في (ف): (قصده بالمدح).

من عشرة أنفس وخلطها، فإنه مال حرام ولا يُقال: لا مالك له. ويجب أن يقسمه بين العشرة، ويردّ إلى كل واحد عشرة، وإن كان مالٌ كل واحد منهم قد اختلط بمال الآخر.

والثاني: في قوله: إنه في مصالح المسلمين وبك قوام الدين.<sup>(١)</sup> وربما كان لاستحلاله مثل هذا من الدجالين في الدين<sup>(٢)</sup>؛ لأن إمام الدين هو العامل بعلمه، وقد ضرب عيسى ابن مريم لعالم السوء مثلاً فقال: هو كصخرة وقفت في فم الوادي، فلا هي تشرب الماء ولا تتركه يخلص إلى الزرع<sup>(٣)</sup>.

وأصنافُ غرور العلماء في هذا العصر خارجة عن الحصر، وفيما ذكرنا تنبيه على ذلك.

وفرقةٌ أخرى أحكموا العلمَ وظهروا الجوارح، وزينوها بالطاعات، واجتنبوا ظاهر المعاصي، وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والكبر والجدد، فقلعوا منابتها من القلوب، ولكن بقيت في زوايا القلب من خفايا مكاييد الشيطان وخبايا خداع النفس دقائق غامضة، فلم يفظنوا لها وأهملوها، ومثالهم كمثل من أراد تنقية الزرع من الحشيش فنقاه وفتش على كل ما رآه فقلعه، إلا أنه لم يفتش عن مالم يُخرج رأسه بعد من تحت الأرض ظناً منه أن الكل قد برز، فنبتت تلك الحفريات، فأفسدت الزرع من حيث لا يدري، فكذلك من لم يتفقد الدقائق، فتراه يسهر ليله وينصب نهاره في جمع العلوم وتزيينها وتحسين ألفاظها، يرى أن باعته على ذلك الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته، وربما كان الباعث طلب الذكر وانتشار الصيت وانطلاق الألسن في الثناء عليه والتلذذ بحسن الإصغاء إلى إيراده والتمتع بتحريك الرؤوس عن سماع كلامه، والفرح بكثرة الأصحاب والمستفيدين، والسرور بالتفرد بهذه الخاصية من بين أقرانه، والتمكّن بذلك من إطلاق اللسان له في الطعن على المقبلين على الدنيا، لا لأجل التفجع لمصيبة

(١-١) سقط من (ف).

(٢) لم يذكر المصنف الأمر الثالث، ولعله في قوله: أنت إمام من أئمتهم...

الدين، ولكن عن إدلالٍ بالتميّز واعتدادٍ بالتخصُّص، ولعل حياة هذا المغرور بانتظام أمره وأمارته وتوفير توقيره، فلو تغيرت عليه القلوب تكدر قلبه وضاعت أوراده، وربما احتاج إلى استعمال الكذب في تغطية عيوبه، وربما قدم بعض جلسائه وخدمته؛ لأنه أتبع لمراده وأشدّ إصغاءً إليه، ولا يتفكّد من نفسه تصحيح النية، وعساه لو وعد بالثواب في إثارة الخمول في إخفاء العلم لم يرغب فيه لفقده لذة القبول وعزّ الرئاسة، وربما صنّف ظاناً أنه يجمع العلم ليتنفع به، ونيته استطرأة اسمه بحسن التصنيف، فلو ادعى مدّع تصنيفه، ومحى عنه اسمه، ونسبه إلى نفسه ثقل عليه ذلك مع علمه بأن ثواب الاستفادة من التصنيف إنما يرجع إلى المصنّف والله العالم بأنه المصنّف لا من ادّعاه، ولعله في تصنيفه لا يخلو من الشناء على نفسه إما صريحاً بالدعاوى الطويلة العريضة، وإما ضمناً بالطعن في غيره ليُستبان من طعنه في غيره أنه أفضل ممن طعن فيه وأعظم منه علماً، ولعله يحكي من الكلام المزيّف ما يريد تزييفه فينسبه إلى قائله، وما يستحسنه لا ينسبه ليظن أنه من كلامه فينقله بعينه، كالسارق، أو يغيره كالذي يسرق قميصاً فيتخذه قباءً حتى لا يُعرف أنه مسروق، ولعله يفرح بزيادة أتباعه على أتباع من غيره أحقّ منه بذلك، وإن انقطع من أصحابه أحدٌ إلى غيره ثقل عليه ومال بوجهه عنه، مع علمه أن الفائدة تحصل من الموضوعين، وربما كان المكان الذي انتقل إليه أصلح للدين، وربما اغتیب نظيره بين يديه فوافق إظهاراً للغضب للدين لا للنفس، فإن أثنى عليه كره الشناء.

فهذا وأمثاله من خفايا العيوب لا يَفطنُ له إلا الأكياس ولا يتنزّه عنه إلا الأقوياء، ولا مَطْمَع فيه لأمثالنا من الضعفاء، إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ويحرص على صلاحها، ومن سرّته حسنته وساءته سيئته فهو مرّجُو الحال، وأمره أقرب من المغرور المُركّي نفسه الظان أنه من خيار الخلق.

فهذا غرور الذين حصّلوا العلوم المهمة، ولكنهم قصّروا في العمل بالعلم.

ولنذكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بما لا يهمهم وتركوا المهم، وهم بذلك مفترون؛ إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم، وإما لاقتصارهم عليه:

فمنهم فرقة اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخُصومات، وتفصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لصالح المعاش وخصّصوا اسمَ الفقه بها وسمّوه: الفقه وعلم المذهب، وربما ضيّعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة، فلم يتفقدوا الجوارح ولم يحرسوا اللسان عن الغيبة، ولا البطن عن الحرام، ولا القدم عن المشي إلى ما لا يجوز، ولا القلوب عن الكبر والرياء والحسد وجميع المهلكات، فهؤلاء مغرورون من وجهين:

أحدهما: من حيث العمل.

والآخر: من حيث العلم.

أما العمل: فقد ذكرنا وجه الغرور فيه، وأن مثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه، لا بل مثالهم مثال من به علة البرسام<sup>(١)</sup> وهو مشرف على الهلاك، فاشتغل بتعلم دواء الاستحاضة وجعل يُكرر ذلك ليلاً ونهاراً، مع علمه بأنه رجل لا يحيض ولا يُستحاض، ولكنه يقول: ربما تقع علة الاستحاضة لامرأة وتَسألني عن ذلك. وذلك غاية الغرور، فكذلك المتفقه الذي قد تسلط عليه حب الدنيا واتباع الشهوات والحسد والكبر والرياء وجميع المهلكات الباطنة، وربما يختطفه الموت قبل التوبة والتلافي فيهلك، فترك ذلك كله واشتغل بعلم السلم والإدارة والظهار واللعان والدييات والحيض، وربما لم يحتج إلى شيء من ذلك لنفسه قط، وإذا احتاج غيره كان في المفتين كثرة فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه والمال والرياسة، وقد دهاه الشيطان وما يشعر، إذ يظن المغرور بنفسه أنه مشغولٌ بفرض دينه وليس يدري أن الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية، هذا لو كانت نيته صحيحة كما قال، وكان قد قصد بالفقه وجه الله تعالى، فإنه وإن قصد وجه الله فهو باشتغاله به معرضٌ عن فرض عينه في جوارحه وقلبه، فهذا غروره من حيث العمل.

(١) البرسام: هو التهاب في الغشاء المحيط بالرئة، ويسمى أيضاً: ذات الجنب.

وأما غروره من حيث العِلْم؛ فحيث اقتصر على علم<sup>(١)</sup> الفتاوى، فظنَّ أنه كل علم الدين، وربما ظعن على<sup>(٢)</sup> المحدثين وقال: إنهم نَقَلَةٌ وَحَمَلَةٌ أسفار لا يفقهون، وترك أيضاً علم تهذيب الأخلاق، وترك الفقه عن الله بإدراك جلاله وعظمته، وهو العلم الذي يورث الخوف والهيبة والخُشوع، ويحمل على التقوى، فتراه آمناً من الله مغترّاً به متكلاً على أنه لا بد أن يرحمه، لأنه قوام دينه، لأنه لو لم يشتغل بالفتاوى لتعطل علم الحلال والحرام، فقد ترك العلوم التي هي أهم وهو غافل مغرور، وسبب غروره ما سمع في النقل من تعظيم الفقه، ولم يدْرِ أن الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى، فقد قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، والذي يحصل به الإنذار غير هذا العلم، فإن مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات، وحفظ الأبدان بالأموال، ودفع القتل والجراحات، والمال في طريق الله آله، والبدن مركب، وإنما العلم المهم معرفة سلوك الطريق وقطع عقاب القلب التي هي الصفات المذمومة، فهي الحجاب بين العبد وبين الله، وإذا مات متلوثاً بتلك الصفات كان محجوباً عن الله، فمثاله في الاقتصار على علم الفقه مثال من اقتصر من سلوك طريق الحج على علم حَرَزِ الرَّاويَةِ<sup>(٢)</sup> والخف، ولا شك في أنه لا بد من ذلك، ولكن ليس من الحج في شيء.

ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافات<sup>(٣)</sup>، ولم يهमे إلا تعلُّم طريق المُجادلة والإلزام وإفحام الخصوم ودفع الحق لأجل الغلبة والمباهاة، فهو طول النهار والليل في التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب والتفقد لعيوب الأقران، وهؤلاء هم سباع الإنس، طبعهم الإيذاء، وهمهم السّفه، ولا يقصدون من العلم إلا ما يلزمهم في مباهاة الأقران ويحتقرون ما لا يحتاجون إليه في

(١-١) سقط من (ف).

(٢) الراوية: آله من الجلد يُسْتَقَى بها الماء، وحرزها: خياطتها.

(٣) في (ف): (الحذاقيات).

المباهاة، كعلم القلب، وعلم سلوك الطريق إلى الله سبحانه بمحو الصفات المذمومة وتبديلها بالمحمودة، ويسمُون ذلك: التزويق وكلام الوعاظ، وإنما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العريضة التي تجري بين المتصارعين في الجدل، وهؤلاء قد جمعوا ما جمعه الذين قبلهم في علم الفتاوى، لكن زادوا إذ اشتغلوا بما ليس من فُروض الكفايات أيضاً بل جميع دقائق الجدل في الفقه بدعة لم يعرفها السلف، وأما أدلة الأحكام فيشتمل عليها علم المذهب، وهو كتاب الله وسنة رسوله وفهم معانيهما، وأما حيلُ الجدل من الكسرِ والقلبِ وفساد الوضوح والتركيب والتعديّة فإنما أُبدعت لإظهار الغلبة والإفهام، وإقامة سوق الجدل به، فغرور هؤلاء أشد من غرور من قبلهم.

وفرقةٌ أخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء والردّ على المخالفين وتتبع مناقضاتهم، واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة، واشتغلوا بتعلم الطرق في مناظرة أولئك وإفحامهم، وافترقوا في ذلك فرقا كثيرة، واعتقدوا أنه لا يكون لعبدٍ عملٌ إلا بإيمانٍ، ولا يصح الإيمان إلا بأن يتعلم جدلهم وما سموه أدلة عقائدهم، فظنوا أنه لا أحد أعرف بالله وبصفاته منهم، ثم هم فرقتان: ضالةٌ ومُحقةٌ؛ فالضالة هي التي تدعو إلى غير السنة، والمُحقة هي التي تدعو إلى السنة، والغرور شاملٌ لجميعهم.

أما الضالة: فلغفلتها عن ضالتها وظنها بنفسها النجاة، وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضاً، وإنما أُتييت من حيث أنها لم تتهم رأيها ولم تُحكّم أولاً شروط الأدلة ومنهاجها، فرأى أحدهم الشبهة دليلاً والدليل شبهةً.

وأما الفرقة المُحقة فاغترارها من حيث أنها ظنت أن الجدل أهم الأمور وأفضل القربات في دين الله، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه مالم يبحث، وأن من صدق الله ورسوله من غير تحرير دليلٍ فليس بمؤمن أو بكامل الإيمان، فلهذا الظن الفاسد قطعت أعمارها في تعلم الجدل والبحث عن المقالات وهديانات المُبتدعة ومناقضاتهم، وأهملوا أنفسهم وقلوبهم حتى خفيت عنهم خطاياهم، وأحدهم يظن أن اشتغاله بالجدل أقرب له إلى الله تعالى، وهو لمكان التذاذه بالغلبة والرياسة وعزّ

الانتماء إلى الذَّبِّ عن دين الله قَدْ عَمِيَتْ بصيرته، فلم يلتفت إلى القرن الأول وأن النبي ﷺ شهد لهم بأنهم خَيْرُ الخَلْقِ، وأنهم قد أدركوا كثيراً من البدع والهوى فما جعلوا أعمارهم ودينهم غرضاً للخصومات والمجادلات، ولا اشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم، بل لم يتكلموا فيه إلا لضرورة رَدُّوا بها الضَّالَّ، فإن رأوه مُصراً على بدعة هَجَرُوهُ من غير مُماراة ولا جدل، وقد روى أبو أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ضَلَّ قومٌ قط بعد هدى إلا أوتوا الجَدَلَ».

وفرقَةٌ أخرى اشتغلوا بالوعظ، وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النَّفسِ وِصِفَاتِ القلبِ من الخوف والرجاء والصَّبْر والشكر والتوكل والزُّهد والتَّقوى والإخلاص واليقين<sup>(١)</sup>، وهم مغرورون يَظُنُّون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات وهم منفكُون عنها عند الله إلا عن قدرٍ يسيرٍ لا ينفكُ عنه عوامُّ المسلمين أنهم من أهلها، فيظنون أنهم ما تَبَحَّرُوا في علم المحبة إلا وهم محبوبون لله، وما قدرُوا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم مخلصون، وما وقفُوا على خفايا عيوب النَّفسِ إلا وهم منزَّهون عنها، ولولا أنهم سالكون ما شرحوا السلوك، فأحدهم يرى أنه خائف وهو آمن، وأنه راجٍ وهو مُعْتَرٍ، وأنه مُخلص وهو مُرَائِي، بل يصف الإخلاص بلا إخلاص في وصفه، ويصف الرياء وهو يُرَائِي بذكره ليعتقد فيه أنه لولا أنه مخلص لما اهتدى إلى دقائق الرياء، ويصف الزُّهد لشدة حرصه على الدنيا، فهو يدعو إلى الله وهو هارِبٌ منه، ويخوف به وهو له آمِن، ويُدَّكِّر به وهو له ناسٍ، ويذم الصِّفَاتِ المذمومة وهو بها موصوف، ويزعم أن غرضه إصلاح الخلق ولو ظهر من أقرانه من يُقبل الناس عليه وَيَصْلُحُوا على يديه لماتَ غمًّا وحَسَدًا، ولو أثنى أحدٌ من المترددين إليه على بعض أقرانه لكان أبغض الناس إليه، فهؤلاء أعظم الناس غِرَّةً، وأبعدهم عن التَّنَبُّه؛ لأن المرغَّبَ في الأخلاق المحمودة والمنقَرَّ عن المذمومة هو العلم بفوائدها وغوائلها، وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه، وشغله حبُّ دعاء الناس إلى العلم عن العمل به فيماذا<sup>(٢)</sup> يُعالج؟ وإنما يمكن أن يُدَلَّ على طريق

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في (ف): (فلماذا).

الامتحان والتجربة، وهو أن يُقال له: أنت تدّعي الخوف، فعن ماذا منعك؟ وتدعي الزُّهد فماذا تركت؟ وتدعي الأُنس فمتى طابت لك الخُلو؟ ومتى استوحشت من مشاهدة الخلق؟. كيف وأنت تستوحش وحدك وتفرح إذا أحدق المريدون بك؟ فالأُكياس يُطالبون أنفسهم بالتحقيق ولا يقنعون منها بالتزويق، والمُعترّون يُحسنون الظن بها، وإنما يقع الغرور لهؤلاء، لأنهم يُصادفون في قلوبهم شيئاً ضعيفاً من أول هذه المعاني؛ وهي حب الله، والخوف منه، والرضا بفعله، ثم قدروا مع ذلك على وصف المنازل العالية، فظنوا أنهم ما رزقوا ذلك إلا لاتّصافهم به، وذهب عنهم أن وصف الشيء غير الاتّصاف به، فمثلهم كمثل مريض فصيح يحسن أن يصف المرض والصحة دون غيره من المرضي، فهو مشاركتهم في المرض، وإن انفرد عنهم بالوصف، فهذا غرور الوُعّاظ الذين لا عيب في كلامهم، بل منهاجٌ وعظّم منهاجٌ وعظ الحسن وأمثاله.

وفرقةٌ أخرى منهم عدّلوا عن المنهاج الواجب في الوعظ، وهم عامّة وعُعاظ هذا الزمان إلا النادر، فاشتغلوا بالطامات والشُّطح وتلفيق كلام خارج عن قانون الشّرع والعقل طلباً للإغراب، ومنهم طائفةٌ يسشهدون بأشعارِ الأوصال والفراق، وغرضهم أن يكثر في مجالسهم الصّياح والتّواجد ولو على أغراضٍ فاسدة، فهؤلاء شياطين الإنس ضلّوا وأضلّوا، فإن الأولين إن لم يصلحوا أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم وصحّحوا كلامهم، وهؤلاء يصدون عن سبيل الله ويحثّون الناس على الاغترار بالله بما يزعمون أنه رجاء، فيزيد كلامهم العصاة جرأةً على المعاصي ورغبةً في الدنيا، لاسيّما إذا كان الواعظ مُتزيّناً بزينة الدنيا، فإن حاله تشهد بحرصه عليها، ولا يخفى وجه كونه مغروراً.

وفرقةٌ أخرى منهم قنعوا بحفظ كلام الزُّهاد ومواعظهم من غير معرفة لمعانيها، وهم يظنون أنهم بحفظ ما يوردونه قد نالوا العرَضَ من غير أن يحفظوا نفوسهم من الذنوب، فهؤلاء أظهرُ غروراً ممن قبلهم.

وفرقةٌ أخرى استغرَقوا أوقاتهم في سماع الحديث وجمع رواياته وأسانيده العربيّة والعالية، فهم أحدهم أن يدور في البلاد ويرى الشيوخ ليقول: أنا أروي عن فلان، وقد لقيت فلاناً، ولي من الإسناد ما ليس لغيري. وغرورهم من وجوه:

منها: أنهم يقتصرون على لفظ ما نقلوا ولا يفهمون معناه.

ومنها: أنهم لا يعملون بما فهموا منه.

ومنها: أنهم اشتغلوا بذلك عن فروضهم المتعينة من تطهير الأخلاق.

ومنها: تحريفهم في تناول الحديث، فربما نام أحدهم في المجلس ثم كتب سماعه، أو قرأ على شيخ لا يدري ما يقرأ عليه، أو رأى كتاباً فيه اسمه ولم يذكر أنه قد سمع من ذلك الشيخ، وقد جازف كثير من المحدثين في هذه الأشياء.

وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر، وزعموا أنهم من علماء الأمة، وأن اشتغالهم بهذا سبب العُفران لهم إذ قوام الدين بالكتاب والسنة، وعلم اللغة والنحو يوضحهما، فأفنى هؤلاء أعمارهم في دقائق تلك العلوم، ومثالهم مثال من أفنى جميع العمر في تعلم الخط وتصحيح الحروف وتحسينها، ويزعم أن العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة، ولو عقل لعلم أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخط بحيث يمكنه أن يقرأ، والباقي زيادة على الكفاية، وكذلك الأديب لو عقل لعرف أن لغة العرب كلغة الترك والمُضَيِّعُ عُمره في معرفة لغة العرب كالمضيع عُمره في معرفة لغة الترك، وإنما فارقتهما لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها، فيكفي من اللغة علم الغريبيين؛ غريب القرآن والحديث، ومن النحو ما يُقوِّمُ اللسان، فأما التعمق فيه إلى درجات لا تتناهى، فذلك يشغل عن ما هو أجود منه وألزم، ومثال المتعمق في ذلك كمثال من ضيَّع عُمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن مقتصرأ على ذلك، وذلك غرور، لأن المقصود من الحروف المعاني، وإنما الحروف طُروف وأدوات، ومن احتاج إلى شرب السَّكَنْجَبِين<sup>(١)</sup> لإزالة الصفراء فضيع وقته في تحسين القَدَح الذي يشرب فيه، فهو مغرور.

والسعيد من أخذ من كل شيء من هذا حاجته المهمة، وتجاوز إلى العمل ثم عبر إلى لبابه، فطالب قلبه بحقيقة العمل، وحمل نفسه على ذلك، واجتهد في تصحيح الأعمال وتصفيتها من الشوائب، فهذا هو المقصود المَخْدوم من جميع

(١) السَّكَنْجَبِين: دواء مركب من الخل والعسل.

علوم الشرع وسائر العلوم خَدْمٌ له ووسائل إليه ومنازل توصل إلى ما هو المقصود، غير أن هذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغترَّ بها أربهابها .

وفرقَةٌ أخرى عَظُمَ غرورهم في فَنِّ الفِقه فظنوا أن حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمه في مجلس القضاء، فوضعوا الحيل في دفع الحقوق، وذلك غرور، فإن الإنسان إذا ألجأ زوجته إلى أن تُبرئه من حَقِّها لم يبرأ فيما بينه وبين الله، وكذلك لو طلب رجلٌ من رجل في ملأ من الناس فخاف مَدْمَةَ الخلق فأعطى لم يكن العطاء طيباً، وكذلك من يُعطي اتِّقَاءً لشرِّه فهو حرام عليه، ومن هذا هِبَةُ الرجل مال الزكاة في آخر الحول من زوجته وانتهابه مالها لإسقاط الزكاة، فإنه لا يسلم بذلك في القيامة، ومن ذلك إباحة الله مال المصالح للعلماء، والمغرورون منهم يرون أن كل ما لا تَتَمُّ رعونتهم إلا به حاجة، وذلك محض الغرور، بل كلُّ ما تناوله العبد للاستعانة به على العبادة فهو حاجة، وما عدا ذلك فَفُضُولٌ وشهوة، فهذه أمثلة تُعرِّفُ أجناس الغرور .

الصنف الثاني: أرباب التَّعبَد والعمل، والمغرورون منهم فرق:

ففرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفَضائل والنِّوافل، وربما تعمقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى السَّرَفِ كالمَتوسوس في الوضوء ولا يَرْضَى بالماء المحكوم بطهارته شرعاً، بل يُقدِّر له الاحتمالات البعيدة في التَّنجيس، ولا يُقدِّر ذلك في مَطعمه، فلو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى المَطعم كان أشبه بسِيرِ السَّلَف، فإن عُمُر قد تَوَضَّأ من جَرَّةٍ نَصْرانيةٍ مع ظهور احتمال النجاسة، وكان مع هذا يدع أبواباً من الحلال خوفاً من الوقوع في الحرام .

ثم فيهم من يخرج إلى الإسراف في صب الماء وقد يطول به الأمر حتى تَضِيح الصلاة منه ويخرج وقتها، فإن لم يَخْرُج وقتها فقد عُرِّبَ بما أفاته من فضيلة أول الوقت، ثم هو مغرورٌ لإسرافه في الماء، ثم غروره بتَضْييع العمر الذي هو أعزُّ الأشياء فيما له مَدْوُوحَةٌ عنه، فالشيطان لا يصد العباد إلا بما يُخيل إليهم أنه عبادة .

وفرقَةٌ غلبت عليها الوسوسة في نية الصَّلَاة حتى ربما فاتتهم ركعةٌ مع الإمام، وقد يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط، ثم يغفلون في باقي الصلاة ظناً منهم أن تصحيح الابتداء كافٍ، وهذا غرور .

وفرقه أخرى تغلب عليها الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها، فلا يزال أحدهم يحتاط في التشديدات والفرق بين الضاد والطاء فوق الحاجة، وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلواته لا يهمله غيره، ولا يتفكر فيما سواه، ذاهلٌ عن معنى القرآن والاتعاظ به، وصرف الفهم إلى أسراره، وهذا من أقبح أنواع الغرور، فإنه لم يكلف الخلق في تلاوتهم القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا ما جرّت به عاداتهم في الكلام، ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى سلطانٍ فأخذ يؤدي الرسالة بالتأنق في مخارج الحروف وتكرارها، وهو غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حُرمة المجلس، فما أحرأه بالطرد والتأديب.

وفرقه أخرى اغتروا بقراءة القرآن فهم يهدّونه هداً<sup>(١)</sup>، وربما ختموا في اليوم مرتين ولسان أحدهم يجري به وقلبه يتردّد في أودية الأمانى، إذ ليس بمتفكّرٍ في معانيه لينزجر بزواجه ويبتعض بمواعظه ويقف عند أوامره ونواهيته، ويعتبر بمواضع<sup>(٢)</sup> الاعتبار فيه إلى غير ذلك بما ذكرناه في كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة، فهو مغرور يظن أن المقصود من إنزال القرآن التلاوة فقط، ومثال هذا مثال عبد كتب إليه مالكة كتاباً يأمره فيه وينهاه، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به، لكنه اقتصر على حفظه وتكريره ظاناً أن ذلك هو المراد منه مع استمراره على خلاف ما أمره به مولاه، فهذا مستحق للعقوبة، ومتى ظن أن ذلك هو المراد منه فهو مغرور، وإنما تُرادُّ تلاوته ليُحفظ ولا ينسى، ثم المراد من اللفظ معناه، ثم المراد من المعنى العمل به والانتفاع بمعانيه، وقد يكون له صوتٌ طيب فهو يقرأ ويكثُرُ بقراءته ويعتَرُّ باستِئذائه، ويظن أن ذلك لذّةٌ مُنْجاة، وإنما هو لذّةٌ بصوته، ولو ردد تلك الألحان بشعرٍ وكلامٍ لا لتدّ به ذلك الالتذاذ، فهو مغرور إذ لم يتفقد قلبه فيعرف هل التذادُّ بالنظم أو بالصوت أو بالمعاني؟

(١) يهدّونه هداً: يسرعون بقراءته.

(٢) في الأصل: (بمواعظ).

وفرقة أخرى منهم اغتروا بالصوم فأكثروا منه وهم لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة والفضول، ولا خواطرهم من الرياء، ولا بطنونهم من الحرام عند الإفطار، فيهملون الفرض ويحفظون الثقل، وذلك غاية الغرور<sup>(١)</sup>.

وفرقة أخرى اغتروا بالحج، فيخرجون من غير خروجٍ عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجّ الفرض، ويضيعون في الطريق الصلاة والفرائض، ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن، ويتعرضون لمكس<sup>(٢)</sup> الظلمة حتى يؤخذ منهم، ولا يحترزون من الرفث والخصام، وربما جمع بعضهم الحرام وأنفقه على الرفقاء في الطريق يطلب به السُّمعة والرياء، فيعصي الله عزَّ وجل في كسبه وفي إنفاقه، ثم يحضر البيت بقلب ملوثٍ برذائل الأخلاق وذميم الصفات، لم يطهر قبل الحضور، وهو مع ذلك يظن أنه على خير، وهو مغرور.

وفرقة أخرى أخذوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونسوا أنفسهم فإذا أمروا عتفوا وطلبوا التعرُّز والرياسة، وقد يجمع أحدهم الناس للإقدام على الإنكار، فمن تأخر ذمه، ومنهم من يؤذّن<sup>(٣)</sup> ويظن أن ذلك لله، ولو أذّن<sup>(٤)</sup> غيره عند غيبته قامت عليه القيامة، وقال: قد زاحمني في مرتبتي. ومنهم من يؤمُّ في مسجدٍ، فلو تقدم أعلم منه وأورع ثقل عليه.

وفرقة أخرى جاؤوا بمكة والمدينة واغترروا بذلك، ولم يراقبوا قلوبهم، وهي متعلقةٌ ببلادهم ملتفتة إلى قول الناس: فلانٌ مجاورٌ بمكة، ومنهم من يقول: جاورتُ بمكة كذا وكذا سنة. ثم إنه يجاور ويطمع في أوساخ الناس، ثم يجمعه ويشخ به فيجتمع له الطلب والشُّح وجملة من المهلكات أو جبتها المجاورة، فهو مغرور.

(١) في النسخ: (غاية أخرى)، والمثبت من الإحياء.

(٢) هو ما يفرضه الصادقون عن الطريق على كل حاج للسماح له بالمرور.

(٣) تصحفت في الأصل: (يؤدب).

(٤) تصحفت في الأصل إلى (أدب).

وما من عملٍ إلا وفيه آفاتٌ فمن لم يعرفها ساكنها فَعَرَّ، ومن أراد تَعَرُّفَهَا فليُنظر في كتابنا هذا، فليُنظر إلى مداخل الغرور في الصلاة من كتاب الصلاة وفي الحج والزكاة والتلاوة وجميع القُرَبات من الكتب المرتبة في هذا الكتاب، وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ما سبق في الكتب.

وفرقه أخرى زهدت في المال وقنعت بالدُّون من اللباس والطعام، ومن المسكن بالمسجد، وظنَّت أنها أدركت رُتبة الزُّهاد وهم مع هذا شديداً والرغبة في الرياسة والجاه، فقد تركوا أهونَ الأمرين وباؤا بأعظم المهلكين، فإن شرَّ طلب الرياسة أعظم من شرِّ المال، فهؤلاء مغرورون إذ ظنَّوا أنهم من الزُّهاد، ولم يفهموا الدنيا، ولم يدروا أن منتهى لذتها الرياسة، وأن الراغب فيها لا بد أن يكون حَسوداً ومنافقاً ومتكبراً ومُرائياً ومُتصفاً بخبائث الأخلاق، وقد يترك الرياسة ويؤثر العزلة وهو مغرور أيضاً من جهة أنه يتناول بذلك على الأغنياء ويحتقرهم، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم، ويعجب بعمله، ويتصف بجملة من خبائث القلوب، ولا يدري.

وربما يُعطى المال فلا يأخذه خيفةً أن يُقال: بطل زُهدُه. رغبةً في حَمْدِ الناس، وهو ألدُّ أبواب الدنيا، وربما لا يخلو عن تقديم الأغنياء على القراء ومن الميل إلى المريدين له والنفور عن المائلين إلى غيره من الزُّهاد، وكل ذلك غرور وخذعةٌ من الشيطان.

وفي العبادة من يُشدّد على نفسه في أعمال الجوارح فربما صلى في اليوم والليلة ألف ركعة، وختم القرآن، وهو مع ذلك لا يخطر له مُراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرِّياء والكبر والعُجب وسائر المهلكات ولا يدري أن ذلك مُهلكٌ، وإن علم، فلا يظن بنفسه ذلك، وإن ظنَّ بنفسه ذلك، وإن ظنَّ بنفسه ذلك توهم أنه مغفورٌ له لأجل عمله الظاهر، وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب، وإن توهم ذلك ظنَّ أن العبادات الظاهرة ترجح بها الحسنات وههيات! فذرةٌ من ذي تقوى، وخلقٌ واحدٌ من أخلاق الأكياس أفضل من أمثال الجبال عملاً بالجوارح، ثم لا يخلو من الرياء وحب الثناء، فإذا قيل له: أنت من أوتاد الأرض، فَرِح وزاد غروره وظنَّ أن تزكية

الناس له دليلٌ على كونه مَرَضِيًّا عند الله تعالى، ولا يدري أن ذلك لجهلِ الناسي بخبائثِ باطنه.

وفرقَةٌ أخرى حَرَصَتْ على النَّوافِل ولم يَعْظِمِ اعتدادها بالفرائض، فترى أحدهم يفرح بصلاة الضُّحى وصلاة الليل وأمثال هذه النوافل، ولا يجد للفريضة لذةً، ولا يشتد حرصه على المُبادرة بها في أول الوقت وَيَنْسَى قولَه عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن رَبِّه عز وجل: «ما تَقَرَّبَ الْمُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ».

واعلم أنه قد يَتَعَيَّن على الإنسان فَرَضان، أحدهما يَفُوت والآخر لا يَفُوت، أو فَضْلان أحدهما يَضِيق وَقْتُهُ والآخر يَتَسَّع وَقْتُهُ، فإن لم يحفظ التَّرتيب في ذلك كان مغروراً، ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى؛ فإن المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة، وإنما الغامض تَقْدِيم بعض الطَّاعات على بعض، كتقديم الفرائض كُلِّها على النَّوافِل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكِفايات، وتقديم فَرَض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت، وهذا كما يجب أن يقدم حاجة الوالدة على حاجة الوالد، لأن رسولَ الله ﷺ سئلَ: مَنْ أْبْر؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثم من؟ قال: «أُمُّكَ». قال: ثم من؟ قال: «أُمُّكَ». قال: ثم من؟ قال: «أَبَاكَ، ثم الأقرب فالأقرب». فَيَنْبَغِي أن يبدأ في الصَّلَاة بالأقرب، فإن استويا فبالأحوج، فإن استويا فالأَتْقَى والأَوْرع، وكذلك مَنْ لا يَفِي مَالُهُ بِنَفَقَةِ الوالدين والحج، فربما يحج وهو مَغْرور، بل يَنْبَغِي أن يُقَدِّم حَقَّهُمَا على الحج، وهذا من تقديم فرضٍ أهم على فرضٍ هو دونه، وكذلك إذا كان بين اثنين وَعَدَّ ودخل وقتُ الجمعة فالجمعة تفوت، والاشتغال بالوفاء بالوعد معصية وإن كان طاعة في نفسه، وكذلك تُصِيب ثوبه النَّجاسة فَيُغْلِظُ القَوْلَ على أبويه وأهله بسببه، فالنجاسة محذورةٌ وإيذاؤهما مَحْذُورٌ، والحذر من الأذى لهما أهم من الحذر من النَّجاسة، والأمثلة في تقابل المحذورات والطَّاعات لا تَنْحَصِر، ومن ترك التَّرتيب في جميع ذلك فهو مَغْرور، وهذا غرور في غاية العُمُوض؛ لأن المَغْرور فيه في طاعةٍ إلا أَنَّهُ لا يَقْطُنُ لَصِيورَةَ الطَّاعة معصيةً حيث ترك بها طاعةً واجبة هي أهم منها، ومن جملة ذلك: اشتغال الإنسان بالمذهب والخلاف وقد بقي عليه شغل من الطاعات

والمعاصي المتعلقة بالبدن والقلب، إلا أن حُبَّ الرياسة والجاه وقَهْر الأقران عَطَى عليه، فظن أنه مشغول بهمهم دينه.

### الصف الثالث: المُتصوِّفة، والمغتربون منهم فرق:

ففرقةٌ هم مُتصوِّفةٌ أهل هذا الزمان إلا من عَصَمه الله تعالى اغتروا بالزِّيِّ والنُّطقِ والهيئة، فشابهوا الصادقين من الصوفية في زيِّهم وهيئتهم وألفاظهم وآدابهم وظهارتهم وخشوعهم وتنقُّس الضُّعاء وخفضِ الصوت إلى غير ذلك من الشَّمائل والهيئات، فلما تشبَّهوا بهم في ذلك ظنَّوا أنهم صوفية، ولم يُتعبوا أنفسهم قَطَّ في المجاهدة والريضة وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الجليَّة والخفيَّة، وكل ذلك من أوائل منازل التَّصوف، ثم هم يتكالبون على الحرام والشُّبهات وأموال السلاطين، ويتنافسون في الرغيف والحبَّة ويُمزِّق بعضهم أعراضَ بعض إذا اختلفوا في غرضٍ، وهؤلاء عُروهم ظاهر، ومثالهم مثال عَجوزٍ سمعتُ أن الشُّجعانَ والأبطالَ من المُقاتلين ثبَّتْ أسماؤهم في الديوان ويُقطع كلُّ واحدٍ منهم قُطراً من أقطار المَمْلَكة، فتأقَّتْ نَفْسُها إلى ذلك فلبستِ دِرْعاً ووضعت على رأسها مِغْفراً<sup>(١)</sup> وتعلمت من رَجزِ الأبطال أبياتاً وتعوَّدت إيرادَ تلك الأبياتِ بنغماتهم حتى تيسَّرت عليها، وتعلمت كيفية تَبخُّرهم في الميِّدان، وكيف تحريكهم الأيدي، وتلقَّفت جميعَ شَمائلهم في الزِّيِّ والمنطق والحركات والسكنات، ثم توجَّهت إلى المُعسكر لتثبت اسمها في ديوان الشُّجعان، فلما حضرت ديوان العَرَضِ أُمِرَ بأن تُجرَّدَ عن المِغْفَرِ والدَّرعِ، ويُنظر ما تحته وتُمتحن بالمبارزة لبعض الشُّجعان ليعرف قدر شجاعته، فلما جُرِّدَت فإذا هي عَجوزٌ ضعيفةٌ زَمِنَةٌ<sup>(٢)</sup> لا تُطيق حملَ الدَّرعِ و المِغْفَرِ، فقيل لها: أجيئتِ تستهزئين بالمِلكِ وأهلِ حضرته بهذا التَّلبيسِ؟ خذوها فألقوها بين يدي الفيل. فألقيت إلى الفيل. فهكذا يكون حال المُدَّعين للتَّصوِّفِ في القيامة إذا كُشِفَ عنهم الغطاء وعرضوا على الحاكم الأكبر الذي ينظر إلى القلب لا إلى الزِّيِّ والمِرْقعات.

(١) المِغْفَرُ: زَرْدٌ يُنْسَجُ من الدروع على قدر الرأس يُلبس تحت القَلنسوة.

(٢) زَمِنَةٌ: أي مريضة مرضاً دائماً وهو مرض الهرم وتقدم العمر.

وفرقه أخرى زادت على هؤلاء في الغرور إذ شقَّ عليها الاقتداء بهم في بذاذة<sup>(١)</sup> الثياب والرِّضا بالدُّون، وأرادت أن تتظاهر بالتَّصوف ولم تجدُ بُدًّا من التَّزْيِي بزِيَّهم، فتركوا الخَزَّ والإبريسم، وطلبوا المرقَّعات النَّفيسة والفُوط الرفيعة والسَّجادات المصبوغة، ولبسوا من الثياب ما هو أرفع قيمةً من الخَزِّ والإبريسم، وظن أحدهم مع ذلك أنه مُتصوِّف بمجرد لون الثوب وكونه مُرقَّعاً، ونسي أنهم إنما لوَّنا الثياب لتحمل الوسخ فيطول زمان العسل، وإنما لبسوا المرقَّعات؛ لأن ثيابهم تحرقت فرقعوها، فأما تقطيع الفُوط الرِّفيعه قطعة قطعة وخياطة المرقَّعات منها فمن أين يُشبه ما اعتادوه؟ فهؤلاء أظهر حماقةً من جميع المغترين، فإنهم يتنعمون بنفيس الثياب ولذيذ الأطعمة، ويطلبون رَعْد العيش ويأكلون أموال السُّلاطين، ولا يجتنبون المعاصي الظاهرة فضلاً عن الباطنة، وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير، وشرُّ هؤلاء يتعدَّى إلى الخلق؛ لأن المقتدي بهم هالك، ومن لا يقتدي بهم تفسد عقيدته في المتصوِّفة كافةً، فيقع في الصادقين منهم، وذلك بِشُؤم المتشبهين بهم.

وفرقه أخرى ادَّعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والأحوال، والوصول إلى القرب، ولا يعرفون من تلك الأمور إلا الأسمي، فأحدهم يُردها ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين، فهو ينظر إلى الفقهاء والمُحدِّثين وأصناف العلماء بعين الإزراء فضلاً عن العوام، حتى إن الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكته ويلازمهم أياماً معدودةً، ويتلقَّف منهم تلك الكلمات المزيَّفة، فيردها كأنه يتكلَّم عن الوحي، ويحتقر في ذلك جميع العلماء والعباد ويقول في العلماء: إنهم محجوبون عن الله بالعلم، وفي العبَّاد: إنهم أُجَّراء مُتعبون. ويدَّعي لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من المقربين وهو عند الله من المُجَّار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحَمقى الجاهلين، لم يُحكِّم علماً قط، ولم يُهدب خُلُقاً، ولم يراقب قلباً سوى اتِّباع الهوى<sup>(٢)</sup> وحفظ الهدَّيان.

(١) بذاذة الثياب: رثائها وسوء حالها.

(٢) سقطت من (ف).

وفرقةٌ منهم وقعت في الإباحة وَطَوَّأوا بِسَاطِ الشَّرْعِ ورفضوا الأحكام وسَوَّأوا بين الحلال والحرام، فبعضهم يقول: إن الله مُسْتَعْنٍ عن عملي فلم أتعِبْ نفسي؟ وبعضهم يقول: قد كُفِّتْ الناسَ تَطْهِيرَ القلوبِ عن الشهوات وحب الدنيا، وذلك لا يمكن، وإنما يغتر بذلك التكليف من لم يُجْرَبْ، ونحن فقد جربنا وعلمنا أن ذلك محال. ولا يعلم الأحقق أن الناس لم يكلفوا قلع الشهوة والغضب من أصلهما، بل تأديبهما حتى ينقاد كل واحدٍ منهما لحكم العقل والشَّرع، وبعضهم يقول: الأعمالُ بالجوارح لا قدر لها وإنما النَّظَرُ إلى القلوب، وقلوبنا والهبةُ بِحُبِّ الله وواصله إلى معرفة الله، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا وقلوبنا عاكفةً في الحضرة الربانية، فنحن مع الشَّهوات بالظاهر لا بالقلوب. ويزعمون أنهم قد ترفعوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية، وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها، ويرفعون درجة أنفسهم عن درجة الأنبياء؛ لأن الأنبياء كانوا يبيكون على خطيئةٍ واحدة سنين.

وأصنافٌ غرور أهل الإباحة من المتشبهين بالصوفية لا تُحصى، وكل ذلك بناءً على أغاليط ووساوس خدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم ومن غير اقتداءً بشيخ مُتَقِنٍ في الدين والعلم صالحٍ للاقتداء به، وإحصاءُ أصنافهم يطول.

وفرقةٌ أخرى جاوزت حدَّ هؤلاء وأحسنَت الأعمال، وطلبت الحلال، واشتغلت بتفقد القلب، وصار أحدهم يدعي المقامات من الزُّهد والتَّوكل والرِّضا والحُب من غير وقوفٍ على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها، فمنهم من يدعي الوَجْدَ والحُبَّ لله تعالى، ويزعم أنه واليه بالله، ولعله قد يُخَيَّلُ له في الله خيالات هي كُفْرٌ أو بدعةٌ، فيدعي حُبَّ الله قبل معرفته، ثم إنه لا يخلو عن مقارفةٍ ما يكره الله وعن إيثار هوى نفسه على أمر الله، وعن ترك بعض الأمور حياءً من الخلق، ولو خلا لما تركه حياءً من الله، ولا يدري أن كل ذلك يُناقض الحُبَّ.

وبعضهم ربَّما يميلُ إلى القناعة والتَّوكل، فيخوض البوادي من غير زادٍ ليُصحح دَعْوَى معنى التَّوكل، وليس يدري أن ذلك بدعة لم تُنقل عن الصحابة والسلف

الصالح، وقد كانوا أعرف بالتوكل منه، فما فهموا أن التوكل المُخاطرة بالروح وترك الزاد، بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله لا على الزاد، وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سببٍ من الأسباب واثق به.

وقد ذكرنا مداخل الآفات في ربيع المُنجيات<sup>(١)</sup>، فلا نُعيده.

وفرقة أخرى ضيّقت على أنفسها في أمر القوت حتى طلبت منه الحلال الخالص وأهملوا تفقد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة الواحدة، ومنهم من أهمل الحلال في مطعمه وملبسه ومكسبه، وأخذ يتعمق في غير ذلك، وليس يدري المسكين أن الله لم يرض من عبده بطلب الحلال فقط، ولا يرضى بجميع الأعمال دون طلب الحلال، بل لا يُرضيه إلا تفقد جميع الطاعات والمعاصي، فمن ظن أن بعض هذه الأمور يكفيه ويُنجيه فهو مغرور.

وفرقةٌ منهم ادّعوا حُسن الخلق والتواضع والسّماحة، فتصدوا لخدمة الصوفية، فجمعوا قوماً وتكلفوا بخدمتهم، واتخذوا ذلك شبكةً للرياسة وجمع المال، وإنما غرضهم التكبر وهم يُظهرون الخدمة والتواضع، وغرضهم الارتفاق وهم يُظهرون أن غرضهم الإرفاق، وغرضهم الاستتباع وهم يُظهرون أن غرضهم الخدمة والتبعية، ثم إنهم يجمعون من الحرام أو الشبهات ويُنفقون عليهم لتكثر أتباعهم وينتشر بالخدمة اسمهم، وبعضهم يأخذ أموال السلاطين وينفق عليهم، وبعضهم يأخذها لينفق في طريق الحج على الصوفية ويزعم أن غرضه البر والإرفاق، وباعث جميعهم الرياء والسّمعة، وآية ذلك إهمالهم لجميع أوامر الله تعالى ظاهراً وباطناً، ورضاهم بأخذ الحرام والإنفاق منه، ومثال من يُنفق الحرام في طريق الحج لإرادة الخير كمن يعمر مساجد الله ويُطيئها بالعدرة<sup>(٢)</sup> ويزعم أن قصده العمارة.

وفرقةٌ أخرى اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الأخلاق وتطهير النفوس من عيوبها، وصاروا يتعمقون فيها، فاتخذوا البحث عن عيوب النفس واستنباط دقائق الكلام

(١) تحرفت في الأصل إلى: (المهلكات).

(٢) العذرة: الغائط.

في آفاتِها، فيقولون: في النفس عيبٌ، والعَفْلَةُ من كونها عيباً عيبٌ، والالتفات إلى كونه عيباً عيبٌ. ويُشْعَفُونَ فيه بكلماتٍ مسلسلةٍ تُضَيِّعُ الأوقات في تَلْفِيحِها، ومَنْ جعلَ طولَ عُمره في التفتيش عن العيوب وتحرير علم علاجها كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج ولم يَسْلِك طريقَ الحج، فذلك لا يعنيه.

وفرقَةٌ أُخرى جاوزوا هذه الرتبة، وابتدأوا سلوكَ الطريق وافتتح لهم باب المعرفة، فلما استنشقوا مبادئ ريح المعرفة تعجبوا منها وفرحوا بها وأعجبتهم غرابتهُها، فتقيدت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكر فيها وفي كيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده عن غيرهم، وكل ذلك غرور، لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية، فلو وقفَ مع كل أعجوبةٍ وتقيّد بها قصرت خُطاه وحُرِمَ الوصول إلى المقصد، وكان مثاله مثال من قصد ملكاً فرأى على بابهِ روضةً فيها أزهار لم يكن رأى قبل ذلك مثلها، فوقف ينظر إليها حتى فاتَه الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك.

وفرقَةٌ أُخرى جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا إلى ما يفيضُ عليهم من الأنوار في الطريق وإلى ما يتسير لهم من العطايا الجزيلة، ولم يعرجوا على الفرح بها والالتفات إليها جادّين في السير حتى قاربوا فوصلوا إلى حدِّ القربة إلى الله، فظنوا أنهم وصلوا إلى الله فوقفوا وغلطوا، وربّ ناظرٍ إلى نورٍ هو حجابٌ يظنه المقصود، ولهذا لما نظر النَّصارى إلى إشراق نور الله قد تلاً على المسيح غلطوا فيه، كمن رأى كوكباً في مرآةٍ أو في ماء فظن أن الكوكب في المرآة أو في الماء، فمدَّ يده إليه ليأخذه وهو مغرور.

الصنف الرابع: أرباب الأموال: والمغتربون منهم فرق:

ففرقةٌ منهم يحرصون على بناء المساجد والمدارس<sup>(١)</sup> والرباطات والقناطر وما يظهر للناس، ويكتبون أسماءهم بالأجر عليها ليتخلّد ذكرهم ويبقى بعد الموت أثرهم، وهم يظنون أنهم قد استحقّوا المغفرة بذلك وقد اغتروا فيه من وجهين:

(١) في (ف): «المدائن».

أحدهما: أنهم يبنونها من أموالٍ كَسَبوها من الظُّلم والرُّشا والجِهاث المحظورة، فهم قد تعرضوا لَسَخَطِ الله في كَسْبِها، وتعرضوا لسخطه في إنفاقها، وكان الواجب عليهم الامتناع عن كَسْبِها، فإذا عصوا الله تعالى بكسبها كان الواجب عليهم التَّوبَةُ ورَدَّها إلى مُلَّاكِها إما بأعيانها إن كانت باقيةً، وإلا فَرَدُّ بدلها، فإن عجزوا عن المُلاك، رَدَّوها إلى الوَرَثَةِ، فإن لم يبق للمظلوم وارثٌ فالواجب صرفها إلى أهم المصالح، وربما كان الأهم التفرقة على المساكين وهم لا يفعلون ذلك خيفةً من أن يظهر ذلك للناس، فيبنون الأبنية بالآجرِ وغرضهم الرياء واجتلاب الثَّناء، وحرصهم على بقائها لبقاء أسمائهم بها لا لبقاء الخير.

والوجه الثاني: أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصدَ الخير في الإنفاق على الأبنية، ولو كُلفَ واحد منهم أن يُنْفِقَ ديناراً ولا يكتب اسمه على الموضع الذي أنفق عليه لشقَّ عليه، ولم تسمح به نفسه، فالله مُطَّلِعٌ عليه كتبَ اسمه أو لم يكتب، فلولا أنه يُريد به وجهَ الناس لا وجهَ الله ما فعل ذلك.

وفرقَةٌ أُخرى ربما اكتسبت المالَ من الحلال وأنفقت على المساجد، وهي أيضاً مغرورة من وجهين:

أحدهما: الرياء وطلب الثناء، فإنه ربما يكون في بلده أو في جواره فقراء فصرفُ المال إليهم أهم من الصرف إلى المساجد وزينتها، وإنما يخفُّ عليه الصرف إلى المساجد ليظهر ذلك على الناس.

والثاني: أنه يصرف ذلك إلى زُخْرَفَةِ المسجد وتزيينه بالنقوش التي هي منهيٌّ عنها وشاغلة أبصار المصلِّين وقلوبهم، والمقصود من الصلاة الخُشُوع وحضور القلب، وذلك يفسد قلوب المصلِّين ويحبط ثوابهم، وبإل ذلك كله يرجع إليه، وهو مع ذلك يَعتَرُّ به ويرى أنه من الخيرات، ويعتدُّ بذلك وسيلةً إلى الله تعالى، وهو بذلك قد تعرض لسَخَطِ الله تعالى وهو يظن أنه مُطِيعٌ لله وممثلٌ لأمره، وقد كدَّرَ قلوبَ الناس بما زخرف من المسجد وربما شوَّقهم به إلى زخارف الدنيا فيشتهون مثل ذلك في بيوتهم ويشغلون بطلبه، وبإل ذلك كله عليه، إذ المسجد

إنما جُعِلَ للتواضع وحُضورِ القلب، قال مالك بن دينار: أتى رجلٌ مسجداً فوقف على الباب، فقال: مثلي يدخل بيتَ الله؟ فكتَبَ في مكانه صِدِّيقاً، فبهذا ينبغي أن تُعظَّم المساجد، وهو أن يرى تلويثَ المسجد بنفسه جنايةً على المسجد، لا أن يرى تلويثَ المسجد بالحرام أو بزخرفة الدنيا منَّةً على الله تعالى، فغرور هذا من حيث إنه رأى المنكر معروفاً واتَّكَل عليه.

وفرقه أخرى يُنفقون الأموال في الصَّدقات وعلى الفقراء ويطلبون به المحافل الجامعة ومن الفقراء من عادته الشُّكرُ والإفشاء للمعروف، ويكرهون التصدق في السُّرِّ، ويرون إخفاء الفقير لما أخذ منهم جنايةً عليهم وكُفراً، وربما يحرصون على إنفاق المال في الحجِّ فيحجُّون مرةً بعد أخرى، وربما تركوا جيرانهم جياً، وقد قال رجل لبشر الحافي: قد عزمْتُ على الحج. فقال: كم أعددت للنفقة؟ قال: ألفي درهم. قال: فأَيُّ شيءٍ تبغي بحجِّك؟ قال: رضا الله عزَّ وجل. قال: إن أصبتَ رضا الله في إنفاقها وأنت في منزلِك أتفعل؟ قال: نعم. قال: اقضِ دينَ مدين، ورُمَّ شَعْبَ فقير، وأخي عائلة معيل، وفرِّح يتيماً، وإن قوي قلبك أن تُعطيها واحداً فافعل، فإن إدخالك السرور على المسلم وإغاثة اللُّهفان أفضل من مئة حجة. قال: سَفَرِي أقوى في قلبي. فقال: إذا جُمِعَ المالُ من الشُّبُهات اقتضت النفسُ أن تقضيَ به وطراً، والله لا يقبلُ إلا عملَ المتقين<sup>(١)</sup>.

وفرقه أخرى من أرباب الأموال يحفظون الأموال ويُمسكونها بخلاً، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يُحتاج فيها إلى نفقة، كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن، وهم مغرورون؛ لأن البخلَ المهلك قد استولى على قلوبهم، فهم محتاجون إلى قَمِعه بإخراج المال، فقد اشتغلوا بطلب فضائلهم مُستغنون عنها، ومثالهم مثال من دخل في ثوبه حيةً فاشتغل بِطَنخِ السَّكَنَجِيِّينَ لِيُسَكِّنَ به الصَّفراء.

وفرقه أخرى غلبهم البخلُ، فلا تَسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط، ثم إنهم يُخرجون من المال الرديء ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد في حاجاتهم،

(١) تحرفت في (ف) إلى: (النفس).

أو من يحتاجون إليه في المستقبل لخدمة، أو من لهم فيه على الجملة غرض، أو يُسلمون ذلك إلى بعض الأكابر ليفرّقه لينالوا بذلك عنده منزلةً، فيقوم لحاجاتهم، وكل ذلك مفسدٌ للنية وصاحبه مغرورٌ؛ لأنه يطلب بعبادة الله عز وجل عوضاً من غيره، وغرورُ أرباب الأموال كثير وإنما نبهنا بما ذكرنا على جنسه.

وفرقه أخرى من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر وجعلوه عادة<sup>(١)</sup> واعتقدوا أن ذلك يكفيهم، ويظنون أن لهم بنفس السماع أجراً دون العمل والأتعاض، وهؤلاء مغرورون؛ لأن مجلس الذكر إنما فضل لكونه مرغّباً في الخير، وكل ما يراد لغيره إذا لم يُوصل إلى ذلك الغير فلا وقع له، وربما اغتروا بما يسمعون من الواعظ<sup>(٢)</sup> من فضيلة حضور المجلس وفضل البكاء، وإنما فضل العمل به، وفضل البكاء لآته سببٌ للندم الذي هو توبة، فإذا لم يحصل المقصود بذلك لم ينفع وجوده، وربما سمع أحدهم التخويف فلا يزيد على قوله: يا سلام سلّم، أو: أعودُ بالله، ويظنُّ أنه قد أتى بالمقصود، وهذا غرورٌ، وإنما مثاله مثال مريض<sup>(٣)</sup> يحضر عند الأطباء فيسمع ما يجري، والجائع الذي<sup>(٤)</sup> يحضر عند من يصف له الأطعمة اللذيذة ثم ينصرف وذلك لا يغني عنه، فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها، فكلُّ وعظٍ لم يُغير منك صفةً تتغير بها أفعالك فهو حجة عليك، فإذا رأيت وسيلة لك كنت مغروراً.

فإن قيل: فما ذكرته من مداخل الغرور أمرٌ لا يكاد أحدٌ يتخلص منه، فهذا يوجب اليأس.

فالجواب: أن من فترت همته عن شيءٍ أظهر اليأس منه، واستعظم الأمر واستوعر الطريق، ومن صحَّ منه الهوى أرشد إلى الحيل واستنبط بدقيق<sup>(٤)</sup> النظر خفايا الطرق في الوصول إلى الغرض، حتى إن الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير

(١) في (ف): (عبادة).

(٢) في (ف): (الوعظ).

(٣-٣) سقط من الأصل.

(٤) في الأصل: (بطريق).

المحلَّق في جَوِّ السماء مع بُعده منه استَنْزَلَه، أو يُخْرِجَ الحوتَ من قَرَارِ البَحْرِ، أو يستخرَجَ الذهبَ من تحتِ الجبال، أو يَقْتَنِصَ<sup>(١)</sup> الوُحوشَ من البراري، أو يستسخرُ الفِيلةَ، أو يأخذ التُّرْيَاقَ من أجواف الأفاعي فَعَلَ، وقد استخرجوا وهُم على الأرض معرفةً مقادير الكواكب، كلُّ ذلك لأن أمور الدنيا أهمتهم، فلو أهمهم أمر الآخرة لنالوه؛ لأن مداره على معنى واحد، وهو تقويم القلب، وقد فعل ذلك السلف الصالح ومن تبعهم بإحسانٍ، ولا يعجز إلا من لم تصدُق نيَّته.

فإن قيل: فبِمَ<sup>(٢)</sup> ينجو من الغرور؟

فالجواب: بثلاثة أشياء: بالعقل والعلم والمعرفة.

أما العقل؛ فنعني به الفطرة الغريزيَّة والنور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء، فالفِطْنَةُ والكَيْسُ فطرة، والحمقُ والبَلَادَةُ فِطْرَةٌ، والبليد لا يقدر على التَحْفِظِ من الغرور، وصفاء العقل وذكاء الفَهِمِ لا بد منه في أصل الفِطْرَةِ، وإذا لم يكن في الفطرة لم يمكن اكتسابُه، وإنما إذا حصل أمكنت تقويته بالممارسة، فأساس السعادات كلها العقل، وقد سبق بيانُ فضلِه في كتاب العلم.

وأما المعرفة، فنعني بها أن يعرف نفسه وربَّه ودُنْيَاهُ وآخِرَتَهُ، فأما معرفة<sup>(٣)</sup> نفسه، فبالعبودية، ومعرفة ربِّه فبالإلهية، وفي كتاب المحبة وكتاب شرح عجائب القلب وكتاب التَّفَكُّر وكتاب الشُّكْرِ إشارات إلى وَصْفِ النفس، وإلى وصف جلال الله سبحانه، وأما معرفة الدنيا والآخرة فيستعين عليها بما ذكرناه في كتاب دَمِّ الدنيا وكتاب ذكر الموت، فإذا حصلت له هذه المعارف ثارَ من قلبه بمعرفة الله حبُّ الله، وبمعرفة الآخرة شدَّة الرغبة فيها، وبمعرفة الدنيا الرَغْبَةُ عنها، فيصير أهمُّ أموره إليه ما يوصله إلى الله وَيَنْفَعُهُ في الآخرة، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صَحَّتْ نيَّته في الأمور كلها، فإن أكل مثلاً أو اشتغلَ بقضاء حاجة كان قصده من ذلك

(١) في (ف): (يستقبض).

(٢) في (ف): (فمتى).

(٣) ليست في (ف).

الاستعانة على سلوك طريق الآخرة، واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض والنزوع إلى الدنيا لصحة نيته، ومتى كانت الدنيا أحب إليه من الآخرة وهوى نفسه أثر عنده من رضا الله لم يمكنه الخلاص من الغرور، فإذا غلب حبُّ الله على قلبه لمعرفته به وبنفسه احتاج إلى المعنى الثالث وهو العلم؛ ونعني به العلم بكيفية سلوك الطريق إلى الله وآفاتها والعلم بما يقربُه منه وما يُبعده عنه، وجميع ذلك في كتابنا هذا فيعرف من رُبُع العبادات شروطها فُيراعِيها، وآفاتها فَيَتَّقِيها، ومن رُبُع العادات أسرار المعاش وما هو مُضطرٌّ إليه فيأخذُه بأدب الشرع، وما هو مُستغْنٍ عنه فَيُعْرِضُ عنه، ومن رُبُع المهلكات علم جميع العقبات المانعة في طريق الله تعالى، فإن المانع عن الله الصفات المذمومة في الخلق، فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه، ويعرف من رُبُع المنجيات الصفات المحمودة التي لا بدَّ أن تُوضَعَ خلفاً من المذمومة بعد محوِّها، فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور، وأصل ذلك كله أن يغلب حبُّ الله على القلب ويسقط حب الدنيا منه حتى تقوى به الإرادة وتصحَّ به النيَّة ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها.

فإن قيل: فإذا فعل جميع ذلك فما الذي تخافُ عليه؟

فالجواب: أخافُ عليه أن يخدعه الشيطان بأن يدعوهُ إلى نُصح الخلق ونشر العلم ودعاء الناس إلى ما عرفه، فإنَّ المُريد المخلص إذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه وراقب<sup>(١)</sup> القلب حتى صَفَّاهُ من جميع الأكدار، واستوى على الصراط المستقيم وصغرت الدنيا في عينه فتركها، وانقطع طمعه من الخلق فلم يلتفت إليهم، لم يبقَ له إلا همٌّ واحدٌ وهو الحق سبحانه والتلذُّذُ بذكره ومناجاته والشوق إلى لقاءه، وقد عجز الشيطان عن إغوائه من جهة الدنيا وشهواتها فأتاه من جهة الدين ودعاهُ إلى الشَّفقة على الخلق والنُّصح لهم، إذ قد رآهم حيارى سُكارى مَرضى من غير طبيب، وهو يعلم دواءهم، فمثله كمثله رجلٍ كان به داءٌ عظيم لا

(١) في الأصل: (وراقب الله القلب). وهو خطأ ظاهر.

يُطاق أَلَمه، فيسهر له لَيْلَه وَيَقْلُق نَهَارَه، فوجد دواءً سهلاً بغير ثمنٍ ولا مَرَارَةٍ فاستعمله فبرأ ثم نظر إلى خلقٍ كثيرٍ بهم ذلك المرضي فَرَحَمَهُمْ، ولم يجد مندوحة من مداواتهم، فكَذَلِكَ هذا المخلص لما اهتدى ورأى الخلقَ مَرَضِي انبعثت من نفسه رَحْمَةً لِلخَلْقِ وَحَرَصَهُ الشَّيْطَانُ عَلَى ذلك رجاءً أن يجد مجالاً للفتنة، فیدعوه إلى طلب الرياسة دعاءً أخفى من دَبِيب النَّمْلِ لا يَشعر به المُريد، ثم يدعوه ذلك إلى التَّصَنُّع والتَّزِين للخلق في حركاته وألفاظه، فيقبل الناس عليه، فيعظمونه وَيُجْلُونَهُ وَيُوقِّرُونَهُ، وصاروا له كالعبيد، فتتحرك حينئذِ النَّفْسُ بما التذت به من ذلك، فيجد الشيطانُ فُرْصَةً فيستعمله في كلِّ ما يحفظ عليه تلك اللَّذَّةَ.

وأمانة حركة النفس وإيثار الطبع والركون إلى الهوى أنه لو رُدَّ عليه حَطْوُهُ في محفلٍ غضب، فلو أنكر على نفسه الغضب لخيَّلَ إليه الشيطان أن هذا الغضب لله؛ لأن متى لم يحسن اعتقادُ المُريدين فيك انقطعوا عن الطريق، فوقع في الغرور، وربما أخرجته ذلك إلى الوقوع فيمن رُدَّ عليه فيقع في الغيبة المحظورة بعد تركه للحلال المتسع، وفي الكبر بعد تركه للخطرات الرديّة وأخذ في التصنع، فلو ضحك لجزعت نفسه من اطلاع الناس عليه في تلك الحال لثلا يسقط قبوله، وربما أتبع ذلك باستغفارٍ وتَنفُّس الصُّعْدَاءِ<sup>(١)</sup> وربما زاد في الطاعات لأجلهم، يُخَيَّلُ إليه الشيطانُ: إنك إنما تفعل ذلك لثلا يفتروا عن الخير، وإنما هو جزع من النفس خوفاً من قوتِ الرياسة، وآية ذلك أنه لو اطلَّع الناس على مثل ذلك من أقرانه لم يجزع بل ربما أحب ذلك، ولو ظهر من أقرانه من مالت القلوب إلى قبوله وزاد أثر كلامه على كلامه شقَّ ذلك عليه، ولولا أن النَّفْسُ قد استلذت الرياسة لكان يَغْتَنم ذلك، لأن مثله كمثل رجل يرى جماعة من إخوانه قد وقعوا في بئرٍ وتغطَّى رأسُ البئر بحجرٍ كبيرٍ يمنعهم من الصعود، فرقَّ لهم فجاء ليرفع الحجر فشقَّ عليه فجاء من أعانه على ذلك، فإنه يعظم بذلك فرحه إذ غرضه خلاص إخوانه من البئر، فكذلك الناصح إذا كان غرضه خلاصُ إخوانه المسلمين، فإذا ظهر من يُعِينه على

(١) سقطت من النسخ وأثبتت من الأحياء.

ذلك أو يكفيه ذلك لم يثقل عليه إن كان غرضه هدايتهم، ومتى تمكّن الشيطان منه في هذا الباب دعاه إلى جميع كبائر القلوب وفواحش الجوارح فأهلكه.

فإن قيل: فمتى يصح له أن يشتغل بنصح الخلق؟

فالجواب: إذا لم يكن له قصد سوى هدايتهم، وكان يؤدّ لو وجد من يعينه، أو لو اهدتوا بأنفسهم وانقطع بالكلية طمعه عن ثنائهم وأموالهم، واستوى عنده حمدهم ودمئهم، ولم يتزَيّن لهم كما لا يتزَيّن راعي البهيم لها<sup>(١)</sup> إذ هو مقصوده رعايتها ودفع الذئب عنها دون نظر الماشية إليه، فمتى لم يكن كذلك لم يؤمن عليه أن يصلح ويُفسد، فيكون كالشّمة تُضيء لغيرها وتُحرق نفسها.

فإن قيل: فلو ترك الوعّاظ الوعظ إلا عند نيل هذه المنزلة خلت الدنيا من الوعظ وخربت القلوب؟.

فالجواب: ولولا حُبّ الدنيا خربت وبطلت المعاش، ومع هذا فهو خطر وله آفات، فما تزال ألسنة الوعّاظ مُنطلقة حبا للرياسة، فانظر لنفسك، فإن الله تعالى قد يصلح خلقاً بشخصٍ ليس بصالح، وإنه ليؤيّد الدين بالرجل الفاجر.

فإن قيل: فإن فهم المريد هذه المكيدة فاشتغل بنفسه عن الخلق أو نصحهم وراعى شرط الإخلاص، فهل بقي عليه خوف؟

فالجواب: إنه قد بقي عليه أعظم الخوف، وهو أن يُوسوس له الشيطان فيقول: قد أعجزتني بذكائك، ولولا محلك عند الله ما قوّاك على قهري وفطنتك لجميع مداخل غروري. فإن صدّقه في ذلك عجب بنفسه في فراره من الغرور، فيكون إعجابه بنفسه غاية الغرور، وهو المهلك الأكبر، وقد روينا أن إبليس يقول: من ظنّ أنه يخلص بعلمه مني فبجهله وقع في حبالي.

فإن قيل: فإن سلم من العُجب بنفسه إذ علم أن ذلك من الله لا منه، وأنه لم يقدر على دفع الشيطان إلا بتوفيق الله تعالى، فهل بقي عليه خوف؟

(١) البهيم: الصغار من الضأن.

فالجواب: إننا نخافُ عليه الأَمَنَ من مكرِ الله، فإنه ربما ظنَّ أنه قد أَهَلَ لشيءٍ فسكن إلى تلك العَطِيَّة، ولم يخف من التغيير بل سبيله أن يكون مشاهداً لجملة ذلك من فضلِ الله، ثم يكون خائفاً أن يكون قد شَدَّتْ عنه صفة من صفات كماله من حُبِّ الدنيا أو رياء الناس أو التفات إلى عِزِّ، ثم يخاف أن يُسلب حاله في كل طرفة عين، ثم يراقب حَظَرَ الخاتمة فإنه لا أَمَنَ من ذلك إلا بعد مُجاوزة الصراط، ولذلك قيل: والمخلصون على حَظَر. وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله للشيطان حين قال له عند الموت: فُتِنِي<sup>(١)</sup>: لا بَعْدُ.

فقد بان بما ذكرنا أن المغرور هالكٌ، وأن المخلص الهارب من الغرور على حَظَر، فلذلك لا ينبغي أن يُفارق الخوفُ قلوبَ الأولياء أبدأً، وقد أوسعنا الكلام في الغرور وأبوابه في كتابنا المسَمَّى بتبليس إبليس، فلنقتصر هنا على هذا المقدار، ونحن نسأل الله عزَّ وجلَّ السلامة من الغرور وحُسن الخاتمة، إنه قريب مجيب.

تم كتاب الغرور وبه تمَّ ربع المهلكات.



(١) فُتِنِي: أي نجوت مني ولم أستطع إغواءك.

مِنْهَا كَالْقَاصِدِ

وَمِفْتَاحِ الصَّادِقِينَ

أَبِي الْفَرَجِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَلِيٍّ

ابْنِ الْجَوَازِي

تَحْقِيقُ

كَامِلِ مُحَمَّدِ الْخَطَّاطِ

الْمَجْلَدُ الثَّلَاثُ

الْمُنْجِيَّاتُ

دار التوفيق

للطباعة والنشر والتوزيع



# ربع المنجيات

## كتاب التوبة

### وهو الأول من رُبْعِ الْمُنْجِيَاتِ

الحمدُ لله الذي وضع الآدمي وضع العجَاب، فَطَبَعَهُ إِلَى الْخِطَا وَعَقَلَهُ إِلَى الصَّوَابِ وَالْخِصَامِ بَيْنَهُمَا دَائِمٌ عِنْدَ أَوْلِي الْأَلْبَابِ، فَأَمَّا الْغَافِلُونَ فَمَعَ عَذْبِ الْمُشْتَهَى نَاسِينَ مُرَّ الْعَذَابِ<sup>(١)</sup>، فَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَنْقَلِبْ عَن زَلَلِهِ إِلَى حِينِ الْإِنْقِلَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَنَبَّهَ لِخِطْئِهِ فَارْعَوَى وَتَابَ، فَهُوَ يَرْجُو وَيَخَافُ مِنَ الْمُنْتَقِمِ الْوَهَّابِ، غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ.

أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَفُوتُ<sup>(٢)</sup> الْإِحْصَاءَ وَالْحِسَابَ، وَأَشْهَدُ بِوَحْدَانِيَّتِهِ شَهَادَةً تَصْدُرُ عَن صَدْرِ غَيْرِ مُرْتَابٍ، وَأَصْلِي عَلَى رَسُولِهِ أَشْرَفَ نَبِيِّ نَزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، وَعَلَى أَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ وَكُلِّ الْأَصْحَابِ، صَلَاةً يُنَالُ بِهَا الزُّلْفَى وَحَسَنَ الْمَاءِ.

أما بعد: فَإِنَّ التَّوْبَةَ مِنَ الذَّنُوبِ مَبْدَأُ طَرِيقِ السَّالِكِينَ، وَأَوَّلُ إِقْدَامِ الْمُرِيدِينَ، وَمِفْتَاحُ اسْتِقَامَةِ الْمَائِلِينَ، وَرَأْسُ مَالِ الْفَائِزِينَ، وَأَوَّلُ مَنْ زَلَّ مِنَ النَّاسِ وَاجْتَرَمَ أَبُو الْعَالَمِ وَمَبْتَدَأُ الْأُمَمِ، فَإِذَا زَلَّتْ مِنْ بَعْضِ وَلَدِهِ الْقَدَمُ فَمَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ، غَيْرَ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُمَاتِلَهُ فِي قَرَعِ سِنِّ النَّدَمِ.

وليعلم أن السلامة من الخطأ حال الملائكة المقربين، والتجرد للخطأ وصف المردة والشياطين، والآدمي يخرق ويرقع ويحط ويرفع، وبذلك يصح نسبه إلى آدم، وإذا ثبت أن الشر معجوز في طين الآدمي عجنأ محكماً فليعلم أنه لا يخلصه

(١) في (ف): «يائسين من العذاب».

(٢) في (ف): «يفوق».

إلا نار النَّدم في الدنيا أو جهنم في الأخرى، فالعاقل من اختار أهونَ الشرين، وبادر إلى أخفِّ الأمرين، قبل أن يُطوى بساطُ الاختيار ولا يبقى إلا عمل النار.

ونحن نشرح حقيقة التَّوبة، وشرطها، وسببها، وعلامتها، وثمرتها، والآفات المانعة منها، والأدوية الميسرة لها، ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان:

**الركن الأول:** في نفس التوبة وبيان حدِّها وحقيقتها، وأنها واجبة على الفور، وأنها إذا صحَّت كانت مقبولة.

**الركن الثاني:** فيما عنه التوبة، وهو الذنوب، وبيان انقسامها إلى صغائرها وكبائرها، وما يتعلق بالعباد، وما يتعلق بحق الله تعالى، وبيان كيفية توزع الدرجات على الحسنات والسيئات، وبيان الأسباب التي بها تعظم الصغائر.

**الركن الثالث:** في بيان شروط التوبة في دوامها، وكيفية تدارك ما مضى من المظالم، وكيفية تكفير الذنوب، وبيان أقسام التائبين<sup>(١)</sup> في دوام التوبة.

**الركن الرابع:** في السبب الباعث على التوبة، وكيفية العلاج في حلِّ عُقدة<sup>(٢)</sup> إصرار المذنبين، ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله تعالى.

\* \* \*

(١) في (ف): «الناس».

(٢) سقطت من الأصل.

## الركن الأول

### في نفس التوبة

#### بيان حقيقة التوبة

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى يتتظم ويلتئم من ثلاثة أشياء مرتبة: علم، وحال، وفعل. فالعلم أول، والحال ثانٍ، والفعل ثالث. والأول موجبٌ للثاني، والثاني موجبٌ للثالث إيجاباً اقتضاه أطراد سنة الله في الملك والملكوت.

أما العلم؛ فهو معرفة ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب، فإذا عرف ذلك معرفةً محققةً بيقينٍ غالبٍ على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم القلب بسبب فوات المحبوب، فإن القلب إذا شعر بفوات محبوبه تألم، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المُفوّت فيسمى تألمه بسبب فعله المُفوّت لمحبوبه ندماً، فإذا غلب هذا الألم<sup>(١)</sup> على القلب واستولى انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تُسمى إرادةً وقصداً إلى فعلٍ له تعلق بالحال والماضي وبالاستقبال؛ أما تعلقه بالحال؛ فبالترك للذنوب الذي كان مُلابساً، وأما بالاستقبال؛ فبالعزم على ترك الذنوب المُفوّت للمحبوب إلى آخر العمر، وأما بالماضي؛ فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر.

فالعلم هو الأول، وهو مطلع هذه الخيرات، وأعني بهذا العلم الإيمان واليقين، فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سُموماً مهلكة، واليقين عن تأكّد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب، فيثمر نوراً هذا الإيمان إذا أشرق على القلب نار الندم، فيتألم به القلب حتى يُبصر بإشراق نور الإيمان أنه قد صار محجوباً عن محبوبه، كمن يُشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة، فسَطَعَ النور

(١) في الأصل: «الندم».

فرأى محبوبه قد أشرفَ على الهلاك، فتشتعل نيران الحب في قلبه، فتنبعث بتلك النيران إرادته للانتهاض للتدارك، فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معانٍ مُرتبةً في الحصول يُطلق اسمُ التوبة على مجموعها، وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده، ويجعل العلم كالسابق والمقدمة، والترك كالثمرة والتابع المتأخر، وبهذا الاعتبار قال النبي ﷺ: «الندم توبة» إذ لا يخلو الندم من علم أو جبه أو ثمره، وعن عزم يتبعه ويتلوه، فيكون الندم محفوظاً بطرفيه - أعني: ثمرته وثمره. وبهذا الاعتبار قيل في حد التوبة: إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ. وهذا تعرضٌ لمجرد الألم، وكذلك قيل: هو نارٌ في القلب تلتهب، وصدعٌ في الكبد<sup>(١)</sup> لا ينشعب<sup>(٢)</sup>، وباعتبار معنى الترك قيل في حد التوبة: إنه خلع لباس الجفاء، ونشر بساط الوفاء.

وقال سهل بن عبد الله: التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال. وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة.

والأقوال في حدود التوبة كثيرة، فإذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قيل في حدودها قاصرٌ عن الإحاطة بجميع معانيها، وطلب العلم بحقائق الأمور أهمٌ من طلب الألفاظ المجردة.

### بيان وجوب التوبة

اعلم أن وجوب التوبة ظاهرٌ بالآيات<sup>(٣)</sup> والأخبار، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى قدر على أن يسعى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مُستغنياً عن قائد يقوده في كل خطوة؛ لأن السالك إما أعمى لا يستغني عن القائد وإما بصير يُهدى إلى أول الطريق ثم يهتدي بنفسه،

(١) في (ف): «في القلب والكبد».

(٢) لا ينشعب: أي لا ينجير ولا يلتئم.

(٣) تحرفت في الأصل إلى: «بالآثار».

فكذلك الناس في طريق الدين ينقسمون إلى هذا الانقسام؛ فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوة فيفتقر إلى أن يستمع في كل قدم نصاً من كتاب الله عز وجل أو سنة رسوله، وربما أعوزه ذلك فتحير، فسير هذا وإن طال عمره مختصر وخطاه قصيرة، ومن سعيد شرح الله صدره للإسلام، فهو على نور من ربه يتنبه بأدنى إشارة لسلوك طرق صعبة وقطع عقبات متعبة، فيشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان، وهو لشدة نور باطنه يجتزيء بأدنى بيان، يكاد زيته يضيء ولو لم تمسه نار، فإذا مسته نار فهو نور على نور، فهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة.

فمن هذه حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة نظر أولاً بنور البصيرة إلى التوبة ما هي، ثم إلى الوجوب ما معناه، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة، فلا يشك في ثبوته لها، وذلك بأن يعلم أن معنى الواجب ما هو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك الأبد، وأنه لولا تعلق السعادة والشقاء بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجباً معنى، وإذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد، وعلم أنه لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله، وأن كل محجوب عنه شقي لا محالة، قد منع كل ما يشتهي، واحترق بنار الفراق في نار جهنم، وعلم أنه لا مبعث عن لقاء الله تعالى إلا أتباع الشهوات والإكباب على حب الهوى، ولا مقرب من لقاء الله سبحانه إلا الإقبال عليه بالكلية والمحبة له، وأن الذنوب تبعد عنه وتحجب، ولا شك أن الانصراف عما يبعد واجب للوصول إلى القرب، وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم، فإنه متى لم يعلم أن الذنوب أسباب للبعد عن المحبوب لم يتندم ولم يتوجع بسبب سلوكه طريق البعد، وإذا لم يتوجع لم يرجع، والمعاني الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحبوب، فهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة، فأما من لم يقدر على هذا المقام ففي التقليد والاتباع له مجال رحب يتوصل به إلى النجاة من الهلاك، فليلاحظ في ذلك الآثار والأحاديث

## ذِكْرُ الْأَمْرِ بِالتَّوْبَةِ

قال الله عزَّ وجل: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [التحریم: ٨]، والنصوح الخالصة من شوبٍ وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

أخبرنا هبةُ الله بن محمد الشَّيباني قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يحيى بن سعيد قال: حدثنا شعبة قال: حدثنا عمرو بن مُرَّة قال: سمعتُ أبا بُردة قال: سمعتُ الأغرَّ يحدث ابنَ عمر أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس<sup>(١)</sup>، توبوا إلى ربكم فإني أتوبُ إليه في اليوم مئة مرة».

## ذِكْرُ فَرَحِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِتَوْبَةِ التَّائِبِينَ

أنبأنا أبو القاسم الكاتب قال: أخبرنا أبو علي بن المُذْهَب قال: أخبرنا أبو بكر بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا الأعمش عن إبراهيم التَّيمي عن الحارث بن سُويد قال: حدثنا عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لَلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَفْرُحٌ بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ مِنْ رَجُلٍ خَرَجَ بِأَرْضٍ دَوِيَّةٍ<sup>(٢)</sup> مَهْلِكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشِرَابُهُ وَزَادَهُ وَمَا يُصْلِحُهُ، فَأُضْلِحَهَا، فَخَرَجَ فِي طَلِبِهَا، حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ وَلَمْ يَجِدْهَا قَالَ: أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِي الَّذِي أَضْلَلْتُهَا فِيهِ فَأَمُوتُ فِيهِ. قَالَ: فَآتَى مَكَانَهُ فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ، قَالَ: فَاسْتَيْقَظَ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشِرَابُهُ وَزَادَهُ وَمَا يُصْلِحُهُ» أخرجاه في

(١) في (ف): «يا أيها الذين آمنوا».

(٢) ورد هنا في هامش (ف) ما نصه: «هي القفر الخلاء، منسوبة إلى اللؤ، وهو القفر، وقال أبو عبيدة: أرض دويَّة بتخفيف الواو: ذات أدواء».

الصحيحين<sup>(١)</sup>، وقد أخرجنا معناه من حديث أنس وأبي هريرة<sup>(٢)</sup> عن النبي ﷺ .

وأخرج مسلم في أفراده من حديث النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، وفي أفرادهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعَذْرُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(٣)</sup>.

وفي حديث علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ الْمُقْتَنَ<sup>(٤)</sup> التَّوَّابَ»<sup>(٥)</sup>. والأحاديث في هذا كثيرة.

ثم إن الإجماع منعقد على وجوب التوبة؛ لأن الذنوب مُهْلِكَاتُ مُبْعَدَاتٍ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، فيلزم ترك المعاصي في الحال، والعزم على تركها في الاستقبال، وتدارك ما وقع من التَّقْصِيرِ فِي سَابِقِ الْأَحْوَالِ، وكل ذلك واجب.

والتَّوْبَةُ عَلَى مَا سَبَقَ رُوحَ التَّوْبَةِ وَبِهِ يَتِمُّ التَّلَافِي، وَهُوَ نَوْعٌ أَلَمٍ يَحْصُلُ عِنْدَ الْمَعْرِفَةِ بِمَا أَوْجَبَ سَخَطَ اللَّهِ وَضِيْعَ الْعَمْرِ فِيمَا تُؤْذِي عَوَاقِبَهُ.

فإن قيل: تَأَلَّمَ الْقَلْبُ لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْإِخْتِيَارِ فَكَيْفَ يُوَصَّفُ بِالْوَجُوبِ؟

فالجواب: إن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب، وللإنسان سبيل إلى تحصيل سببه، وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لا بمعنى أن العلم يُحْدِثُهُ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ، بَلِ الْكُلُّ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِخْتِيَارِ الْعَبْدِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ أَيْضاً، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْيَدَ الصَّحِيحَةَ وَخَلَقَ الطَّعَامَ اللَّذِيذَ، وَخَلَقَ الشَّهْوَةَ لِلطَّعَامِ، وَخَلَقَ الْعِلْمَ فِي الْقَلْبِ بِأَنَّ هَذَا الطَّعَامَ مَسْكَنٌ لِلشَّهْوَةِ، وَخَلَقَ الْخَوَاطِرَ الْمُتَعَارِضَةَ فِي أَنْ هَذَا الطَّعَامُ هَلْ فِيهِ مَضَرَّةٌ مَعَ أَنَّهُ يَسْكُنُ الشَّهْوَةَ، وَهَلْ دُونَ تَنَاوُلِهِ مَانِعٌ يَتَعَذَّرُ مَعَهُ تَنَاوُلُهُ أَمْ لَا؟ ثُمَّ خَلَقَ الْعِلْمَ بِأَنَّهُ لَا مَانِعَ، فَعِنْدَ اجْتِمَاعِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ تَنْجَزُ الْإِرَادَةُ الْبَاعِثَةُ عَلَى التَّنَاوُلِ، وَانْجِزَامُهَا بَعْدَ تَرَدُّدِ الْخَوَاطِرِ الْمُتَعَارِضَةِ وَبَعْدَ قُوَّةِ

(١) أخرجه أحمد (٣٦٢٧) و(٣٦٢٨)، والبخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤) (٣).

(٢) حديث أنس أخرجه البخاري (٦٣٠٩)، وحديث أبي هريرة أخرجه مسلم (٢٦٧٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٦٠) (٣٥).

(٤) الْمُقْتَنُ: هُوَ الَّذِي يُقْتَنُ وَيُمْتَحَنُ بِالذَّنُوبِ.

(٥) أخرجه أحمد (٦٠٥) و(٨١٠) وأبو نعيم في الحلية ٣/١٧٨، وأبو يعلى (٤٨٣).

الشهوة للطعام، فيسمى انجازها اختياراً، وانجازها خلق لله تعالى، فتتحرك اليد الصحيحة إلى الطعام.

وبعض هذه المخلوقات يترتب على بعض ترتيباً جرت به سنة الله في خلقه، فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدرة، وما لم يخلق فيها حياة، وما لم يخلق إرادة، ولا يخلق الإرادة الجازمة ما لم يخلق شهوة وميلاً في النفس، ولا ينبعث هذا الميل انبعثاً تاماً ما لم يخلق علماً بأنه موافق للنفس إما في الحال أو في المآل، ولا يخلق العلم أيضاً إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم، فالعلم<sup>(١)</sup> والميل الطبيعي أبدأ يستتبع الإرادة الجازمة، والإرادة والقدرة أبدأ تستردف الحركة، وهذا الترتيب في كل فعل، والكل من اختراع الله تعالى، ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض، كما لا يخلق الإرادة إلا بعد العلم، ولا العلم إلا بعد الحياة ولا الحياة إلا بعد الجسم، ويكون خلق الجسم شرطاً لحدوث الحياة، لا أن الحياة تتولد من الجسم، ويكون خلق الحياة شرطاً لخلق العلم، لا أن العلم يتولد من الحياة، ولكن لا يستعد المحل لقبول العلم إلا إذا كان حياً، ويكون خلق العلم شرطاً لجزم الإرادة، إلا أن العلم يولد الإرادة، ولكن لا يقبل التغيير، فمتى وجد شرط الوصف استعد المحل به لقبول الوصف، فحصل ذلك الوصف من القدرة الإلهية عند حصول الاستعداد، ولما كان للاستعداد سبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله ترتيب، والعبد مجرى<sup>(٢)</sup> هذه الحوادث المرتبة، وهي مرتبة في قضاء الله عز وجل ترتيباً كلياً لا يتغير كلمح بالبصر، وظهورها بالتفصيل مقدرٌ بقدر لا يتعدها وأما العباد فإنهم مُسَخَّرُونَ تحت مجاري القضاء والقدر، ومن جملة القدر حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تُسمى القدرة، وبعده خلق ميل قوي جازم في النفس يُسمى القصد، فيقال للفاعل: قد تحركت وكتبت ورميت، ويُقال من سُردقات المَلَكوت: وما رميت إذ رميت. وعند هذا يتحير الخلق، فمن قائل يقول: إنه جبرٌ محض. ومن قائل: إنه اختراعٌ

(١) تحرفت في (ف) إلى: «فالعمل».

(٢) أي هو محل لجريانها عليه.

صرف. ومن متوسطٍ يميل إلى أنه كسب، وكل هؤلاء صادقٌ من وجهه، وإن لم يُدرك أحدٌ منهم كُنته هذا الأمر، وهذا يظهر بمثال، وذلك أن جماعة من العميان سمِعوا بأنه قد دخلَ إلى البلدة حيوانٌ عجيب يُسمى: الفيل، فقالوا: لا بد أن نَتَعَرَّفَ هذا الحيوان باللمس الذي هو غاية قُدرتنا، فلما لَمَسُوهُ وقعت يد بعضهم على رِجله، ووقعت يد أحدهم على نابه، ووقعت يدُ بعضهم على أُذنه، فلما انصرفوا سأَلهم بقية العميان، فاختلفت أجوبتهم، فقال الذي لمس الرَّجُل: إن الفيلَ مثل الأسطوانة خشنة الظاهر إلا أنه أَلْيَنُ منها. وقال الذي لمس النَّاب: ليس كذلك بل هو صَلْبٌ لا لينَ فيه وأملس لا خشونة فيه، وهو مثل عمودٍ لا مثل أسطوانة وقال الذي لمس الأذن: لَعَمري إنه لَيِّنٌ لكن فيه خُشونة. وكلُّ منهم صدقٌ من وجهه إذ أخبر عما أصابه من معرفة الفيل، ولكنهم بجملتهم قَصَّروا عن الإحاطة بكنهه صورة الفيل، فاستَبَصِرَ بهذا المثل فإنه مثال أكثر ما اختلف الناس فيه، فالأفعال كَسَبٌ للعبد، وكسبه من خلق الله عز وجل.

### بَيَانُ وَجُوبِ التَّوْبَةِ عَلَى الفُورِ

لما كانت المعاصي مُهلِكَاتٍ وَجَبَ على الفور الهربُ منها؛ لأن كل علم يُراد لعملٍ لا يقع التَّفْصِي عن عُهدته ما لم يصِرَ باعثاً، فالعلم بضرر الذنوب إنما أُريد ليكون باعثاً على تركها، فمن لم يتركها وقع الخلل في إيمانه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وهو مؤمن» وليست الإشارة إلى الإيمان بالله وَوَحْدَانِيته، ولكنها الإشارة إلى نفي الإيمان بكون الزنا مُبعداً عن الله تعالى، كما لو قال الطبيب: هذا سُمٌّ فلا تُقرِّبه. فإنه إذا تناوله لم يكن غير مؤمن بوجود الطَّبيب وكونه طبيباً، بل هو غير مصدق بقوله: إنه سُمٌّ مُهلِك، فإن العالم بالسم لا يتناوله، فالعاصي ناقص الإيمان لذلك، على أن الإيمان إذا لم يثبت في اليقين<sup>(١)</sup> أصله ولم تَنْتَشِرَ في الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور مَلَك الموت، وخيف على صاحبه سوء الخاتمة، وقول العاصي للمطيع: أنا مؤمن كما أنك

(١) في (ف): «النفس».

مؤمن، كقول شجرة الدُّبَاء لِشَجَرَةِ الصَّنوبر: أنا شجرةٌ وأنتِ شجرة. فتقولُ شجرة الصنوبر: ستعرفين اغتراركِ بشُمول الاسم إذا عصفت رياح الحَريف، فعند ذلك تتقلع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجر، كما قال القائل:

سوفَ ترى إذا انجلى الغُبارُ      أفرسٌ تحتك أم حمارُ

فهذا أمرٌ يظهر عند الخاتمة، وما يؤمن على العاصي انقلاب قلبه عن أصل الإيمان لاجتماع الدواهي في طول عمره، كما أن المأكولات المُضِرَّة تجتمع ثم تنهض مفسدة للمزاج موجبة للتلف، وإنما تقطعت نياطُ قلوب العارفين خوفاً من دواهي الموت ومقدماته الهائلة التي لا يثبت عليها إلا الأقلون، وهناك يضطرب أصل الإيمان في صدمات تلك الأهوال.

وإذا ثبت أن المعاصي كالسُمِّ، فمتناول السُمِّ إذا ندم على ما تناول وجب عليه أن يتقياً ويُخرج السُمِّ كيف أمكن، ويبطل فعله كيف قدر على سبيل الفور تلافيه لبدنه الذي لا يفوته بتلفه إلا حياة الدنيا، فمتناول سُموم المعاصي أولى بأن يتدارك أمره لثلاث تفوته الآخرة وفي فواتها نار الجحيم الدائمة، فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملاً لا يعمل فيه رأي الأطباء، ولا ينفع بعده الاحتماء، ولا ينجع نصيح الناصحين.

### بيان أن وجوب التَّوبَةِ عامٌّ لا ينفك عنه أحد

قد دلَّ على عموم ذلك قوله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون﴾ [النور: ٣١] ثم إن نور البصيرة يُرشد إلى ذلك أيضاً إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد من الله المقرب إلى الشيطان، والآدمي مُركب على أحوالٍ تقتضي وقوع الخطأ، وقيامُ الحرب بين العقل والهوى دائمٌ، وقد ثبت أن الشهوات تسبق إلى الآدمي قبل كمال عقله، فيأنس بها وتستولي عليه، وإنما يأتي العقل بالتدريج، فإذا كمل احتاج إلى قمع جنود الشيطان ومفارقة العادات وردَّ الطبع على سبيل القهر إلى العبادة، وهذا معنى التَّوبَةِ وليس هذا مختصاً بآدم وحده بل بالكل.

فلا تَحَسَبَنَّ هندا لها العَدْرُ وَحَدَهَا سَجِيَّةٌ نَفْسٍ كُلُّ غَانِيَةٍ هِنْدُ

وهذا كالحكم الإلهي المكتوب على جنس الإنس لا بد من وقوعه، فعلى هذا نقول: من بلغ كافراً جاهلاً فعليه التوبة من جهله وكفره، فإن بلغ مسلماً تبعاً لأبويه غافلاً عن حقيقة إسلامه، فعليه التوبة من غفلته وتفهّم معنى الإسلام، وأنه لا يغني عنه إسلام أبويه شيئاً ما لم يُسلم بنفسه، فإن فهم ذلك، فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارفٍ بالرجوع إلى حدود الله عز وجل في المنع والإطلاق والانكفاف والاسترسال، وهو من أشق أبواب التوبة، وفيه هلك الأكثرين، فدلّ على أنّ التوبة فرضٌ عينٍ في حق كل شخص لا يُتصوّر أن يستغني عنها أحد من البشر.

وأما بيان وجوبها على الدوام وفي كل حال، فهو أن كل بشرٍ لا يخلو عن معصية؛ فإن خلا عن معصية الجوارح لم يخل عن الهَمِّ بالذنب بالقلب، وإن خلا عن الهَمِّ لم يخل عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى، فإن خلا عنه لم يخل عن غفلةٍ وقصورٍ في العلم بالله سبحانه وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص، وله أسباب، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوعٌ عن طريقٍ إلى ضده، والمراد بالتوبة الرجوع، ولا يُتصوّر خلو آدمي من هذا النقص، وإنما يتفاوتون في المقادير، فأما الأصل فلا بد منه، ولهذا قال النبي ﷺ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ<sup>(١)</sup> عَلَى قَلْبِي، فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً<sup>(٢)</sup>». ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره؟ ثم من ضاع من عمره الذي لا قيمة له شيء فيما يؤديه في آخرته، فكيف لا يندم على الفعل المؤذي وعلى الجوهر الضائع؟ فإن كل ساعة من العمر بل كل نفسٍ جوهرة لا قيمة لها؛ لأنها صالحة للإنقاذ من شقاوة الأبد،

(١) لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي: أي ما يتغشى القلب، وقيل: المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي

كان شأنه الدوام عليه، فإذا فتر عنه أو غفل عن ذلك ذنباً واستغفر منه.

(٢) هكذا في النسخ والإحياء بلفظ: «سبعين مرة»، وأخرجه مسلم (٢٧٠٢) وأحمد (١٧٨٤٨)

وابن المبارك في الزهد (١١٤٠)، وأبو داود (١٥١٥) بلفظ «مئة مرة».

والإيصال إلى سعادة الأبد، فصرفها في العفلة حُسران، وفي المعصية هلاك.

### بيان أنّ التوبة إذا اجتمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشكّ في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة، وذلك أن القلب خُلِقَ سليماً، فكل مولود يولد على الفطرة، وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من عبّرة الذنوب وظلمتها، فإذا تاب كُشِفَ ما كُشِفَ ونسخ نور الحسنات ظلام السيئات نسخ النهار الليل.

وقد بان لأهل البصائر أنّ القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات، فيستعار للمعاصي لفظ الظلمة، وللطاعات لفظ الثور، وبين الظلمة والنور تضاد لا يتصور معه اجتماعهما، فمن تصور أنّ التوبة تصح ولا تقبل، كمن توهم أن الشمس تطلع ولا يزول الظلام، وإنما الشأن في تصحيح التوبة، ولا نقول كما قالت المعتزلة: إن قبول التوبة واجب على الله تعالى. بل نقول: إنه خَلَقَ الحسنَةَ ماحية للسيئة، كما خلق الماء مزيلاً للعطش.

فإن قيل: فالتائب شاك في القبول بخلاف العطشان، فإنه لا يشك في الرّي إذا شرب.

قلنا: إنما يقع الشك في وجود شرائط الصحة واجتماعها.

فهذا البيان يكفي أهل البصائر في قبول التوبة، لكننا نعضده بالآيات والأخبار والآثار:

قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥] وقال: ﴿غَافِرٍ الَّذِي وَقَبِلَ التَّوْبَةَ﴾ [غافر: ٣] وقد ذكرنا عن النبي ﷺ أنه قال: «لله أفرح بتوبة عبده..» والفرح وراء القبول، فهو دليل على القبول وزيادة.

وأنبأنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أعين قال: حدثنا الفريربي قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا محمد بن بسّار<sup>(١)</sup> قال: حدثنا محمد بن

(١) تصحفت في (ف) إلى: «يسار».

أبي عدي عن شُعبَةَ عن قَتَادَةَ عن أبي الصَّدِيقِ النَّاجِي عن أبي سَعِيدِ الخَدْرِيِّ عن النبي ﷺ قال: «كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فَاتَى رَاهِبًا فَسَأَلَهُ هَلْ لَهُ تَوْبَةٌ. قَالَ: لَا. فَقَتَلَهُ، وَجَعَلَ يَسْأَلُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: إِنَّ قَرْيَةَ كَذَا وَكَذَا، فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ، فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقْرَبِي، وَأَوْحَى إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي. وَقَالَ: قَيَسُوا مَا بَيْنَهُمَا. فَوَجَدُوهُ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشْبِيرٍ، فَغُفِرَ لَهُ». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ<sup>(١)</sup>.

أَبْنَانُ ابْنِ الْحُصَيْنِ قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ الْمُذْهَبِ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُطَرِّفٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْبَيْلَمَانِيِّ قَالَ: اجْتَمَعَ أَرْبَعَةٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَحَدُهُمْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ يَوْمًا». فَقَالَ الثَّانِي: أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَأَنَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِنِصْفِ يَوْمٍ». فَقَالَ الثَّلَاثُ: أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَأَنَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِضُحْوَةِ» فَقَالَ الرَّابِعُ: أَنْتَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَأَنَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْرِغِرْ بِنَفْسِهِ»<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى صَفْوَانُ بْنُ عَسَّالٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ بَابًا مَسِيرَةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً أَوْ سَبْعِينَ سَنَةً، فَتَحَهُ اللَّهُ لِلتَّوْبَةِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَلَا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ». وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الَّذِمُّ تَوْبَةٌ».

وَسَيَاتِي فِي الرُّكْنِ الرَّابِعِ حَدِيثُ أَبِي بَكْرٍ: «مَنْ أَذْنَبَ ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ اسْتَغْفَرَ غُفِرَ لَهُ». وَقَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ: مَنْ قَرَأَ آيَتَيْنِ بَعْدَ ذَنْبِهِ غُفِرَ لَهُ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٤٧٠)، وَمُسْلِمٌ (٢٧٦٦).

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٥٤٩٩).

وقال ابن عمر: من ذكر خطيئة أَلَمَّ بها، فوجل منها قلبه مُجِيت عنه .

وقال عبد الله بن سلام: لا أحدثكم إلا عن نبي مُرسل أو كتاب مُنزل؛ إن العبد إذا عملَ ذنباً ثم نَدِمَ عليه طرفة عين سقطَ عنه أسرع من طرفة عين .

وقال سعيد بن المسيَّب: أنزلَ قوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأُوَّابِكِ غَفُورًا﴾ [الإسراء:

٢٥] في الرجل يُذنب ثم يَتُوب، ثم يُذنب ثم يَتُوب .

وكان في بني إسرائيل رجلٌ عصى بعد التَّعبُد مدة، ثم خَطر له الرجوعُ إلى التَّوبة، فقال: أتراه يقبلني؟ فسمع هاتفاً يقول: أَحَبَبْنَا فَأَحَبَّبْنَاكَ، وَتَرَكْنَا فَتَرَكْنَاكَ، وَعَصَيْتَنَا فَأَمَهَلْنَاكَ، فَإِنْ رَجَعْتَ قَبَلْنَاكَ

\* \* \*

## الركن الثاني

### فيما عنه التوبة وهي الذنوب صغارها وكبارها

اعلم أن التوبة ترك للذنوب، فلا بد من معرفته ليترك، والذنب كل ما خالف أمر الله تعالى في ترك أو فعل، وتفصيل ذلك يستدعي شرح التكاليفات من أولها إلى آخرها، وليس ذلك من غرضنا، ولكننا نُشير إلى مجامعها وروابطها وأقسامها.

### بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد

اعلم أن للإنسان أخلاقاً وأوصافاً كثيرة على ما عُرف شرحه في كتاب عجائب القلب ولكن تنحصر<sup>(١)</sup> ماثرات الذنوب في أربع صفات: صفات ربوبية، وصفات شيطانية، وصفات بهيمية، وصفات سبعية، وذلك لأن طينة الإنسان عُججت من أخلاطٍ مختلفة، فاقترض كل واحد من الأخلاط في المعجون منه أثراً من الآثار، كما يقتضي السكر والحلّ والزعفران في السكّنَجبين آثاراً مختلفة.

وأما ما يقتضيه التزوع إلى صفات الربوبية فمثل الكبر والفخر<sup>(٢)</sup> وحب المدح والثناء، والعز والغنى، وحب دوام البقاء، وطلب الاستعلاء حتى كأنه يريد أن يقول: أنا ربكم الأعلى، وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق، ولم يعدوها ذنوباً وهي المهلكات العظيمة التي هي كالأثمات لأكثر المعاصي كما استقصيناه في ربع المهلكات.

الثانية: الصفة الشيطانية التي منها يتشعب الحسد والبغي والحيل والخداع والأمر بالفساد والمنكر، وفيه يدخل الغش والتفاق، والدعاء إلى البدع والضلالات.

(١) تحرفت في (ف) إلى: «تخطر».

(٢) في (ف): «العُجب».

الثالثة: الصفة البهيمية، ومنها يتشعب الشرُّ والحِرصُ على قضاء شهوة البطن والفرج ومنه يتشعب الزنا واللواط والسَّرقة، وأكل مال الأيتام، وأخذ الحطام لأجل الشهوات.

الرابعة: الصفة السُّبعية، ومنها يتشعب العَصَبُ والحِقْدُ، والتَّهْجُمُ على النَّاسِ بالشتِّمِ والضَّرْبِ والقَتْلِ وأخذِ الأموال.

وهذه الصفات لها تدرِج في الفِطْرَةِ؛ فالصفة البهيمية هي التي تغلب أولاً، ثم تتلوها الصفة السُّبعية ثانياً، فإذا اجتمعتا استعملتا العقلَ في الخِدَاعِ والمَكْرِ والحيل، وهي الصفة الشَّيطانية، ثم تغلب الصفات الرُّبوية، وهي الفَخْرُ والعِزُّ والعُلُوُّ والكِبَرُ وقصد الاستيلاء على جميع الخلق.

فهذه أمَّهات الذُّنُوبِ وَمَنبِعُهَا، ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع إلى الجوارح، فبعضها في القلب خاصة، كالْكُفْرِ، والبِدْعَةِ، والنِّفَاقِ، وإضمار السوء للناس، وبعضها على العين والسمِّع، وبعضها على اللِّسَانِ، وبعضها على البطنِ والفرج، وبعضها على اليدين والرَّجْلين، وبعضها على جميع البدن، ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح.

قسمة ثانية: اعلم أن الذُّنُوبَ تنقسم إلى ما بين العبد وبين الله، وإلى ما يتعلَّق بحقوق العباد، فما يتعلَّق بالعبد خاصة، كتركه الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به، وما يتعلَّق بحقوق العباد، كتركه الزكاة<sup>(١)</sup>، وقتله النفس، وغصبه الأموال، وشتمه الأعراض وكل متناول من حق الغير من نفسٍ أو طَرْفٍ أو مالٍ أو عرضٍ أو دينٍ أو جاهٍ، وتناول الدين بالإغواء والدعاء إلى البِدْعَةِ، والترغيب في المعاصي، وتَهْيِيجِ أسباب الجُرْأَةِ على الله عزَّ وجل، كما يفعل بعض القُصَّاصِ بتغليب جانب الرِّجاءِ على جانب الخَوْفِ.

وما يتعلَّق بالعباد فالأمرُ فيه أغلظُ، وما بين العبد وبين الله عز وجل إذا لم يكن شركاً، فالعفو أرجى وأقرب.

(١) في (ف): «الصلاة».

وقد جاء في الخبر الدواوين ثلاثة؛ أخبرنا ابن الحُصَيْن قال: أخبرنا ابن المُذَهَب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يزيد قال: أخبرنا صدقةُ بن موسى قال: حدثنا أبو عمران الجوني عن يزيد بن بابنوس عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وديوان لا يتركُ الله منه شيئاً، وديوان لا يغفره الله، فأما الديوان الذي لا يغفره الله؛ فالشُّركُ، قال الله عز وجل: ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً؛ فظلمُ العبدِ نفسه فيما بينه وبين ربِّه من صومٍ يومٍ تركه، أو صلاةٍ تركها، فإن الله عز وجل يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء، وأما الديوان الذي لا يتركُ منه شيئاً؛ فظلمُ العبادِ بعضهم بعضاً، القصاصُ لا محالة»<sup>(١)</sup>.

قسمةُ ثالثة: اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد كثر اختلافُ الناس فيها، فقال قائلون: لا صغيرة بل كل مخالفة لله فهي كبيرة. وهذا لا يصح لقوله تعالى: ﴿إِنْ جَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكْفِرْ عَنْكُمْ سَجِيَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]، وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «الصَّلواتُ الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مُكفِّرات لما بينهما إذا اجتنبت الكبائر».

وقد اختلفت الأحاديث في عدد الكبائر، واختلف العلماء على أحد عشر قولاً، وقد ذكرتُ الأحاديث بأسانيدها في كتاب المُغني في تفسير القرآن، وذكرها يطول، إلا أن الأحاديث الصَّحاح ذكرها في خمسة:

الأول: حديثُ أبي هريرة وهو في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السَّبَّ الموبقات» قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشُّركُ بالله، والسُّحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربِّا، وأكل مال اليتيم، والتَّوَلَّى يومَ الزَّحف، وقذفُ المحصنات المؤمنات الغافلات».

(١) أخرجه أحمد (٢٦٠٣١).

الثاني: حديث ابن مسعود في الصحيحين أن رسول الله ﷺ سُئِلَ: أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لَهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلْقُكَ». قال: ثم أَيُّ؟ قال: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشِيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ، قال: ثم أَيُّ؟ قال: أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ».

والثالث: حديث عبد الله بن عمرو<sup>(١)</sup>، وهو في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «الكِبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ».

والرابع: حديث أنس وهو في الصحيحين أن النبي ﷺ ذَكَرَ الْكِبَائِرَ أَوْ سُئِلَ عَنْهَا فَقَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ» وقال: «أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ: قَوْلُ الزُّورِ - أَوْ قَالَ - شَهَادَةُ الزُّورِ».

والخامس: حديث أبي بَكْرَةَ، وهو في الصحيحين عن النبي ﷺ أَنَّهُ ذَكَرَتْ الْكِبَائِرَ عِنْدَهُ، فَقَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ» وكان متكئاً فجلس فقال: «وشهادة الزور - أَوْ قَوْلُ الزُّورِ» فما زال يُكْررها حتى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ.

وقد رُوِيَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: هِيَ أَرْبَعٌ وَعَنْ ابْنِ عَمْرٍو أَنَّهُنَّ سَبْعٌ، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُنَّ تِسْعٌ، وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ إِذَا بَلَغَهُ قَوْلُ ابْنِ عَمْرٍو أَنَّهُنَّ سَبْعٌ قَالَ: هِيَ إِلَى سَبْعِينَ أَقْرَبَ مِنْهَا إِلَى سَبْعٍ.

وقال أبو صالح عن ابن عباس: ما أوجبَ الحدَّ في الدنيا.

وعن ابن مسعود: أن الكبائر من فاتحة سورة النساء إلى قوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١].

وقال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد: هي كل ذنب أوعده الله عليه النار.

وقال أبو طالب المكي<sup>(٢)</sup>: الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار: أربعة في القلب: الشرك، والإضرار على المعصية، والقنوط من الرحمة، والأمن من مكر الله. وأربعة في اللسان: شهادة الزور، وقذف المحصن، واليمين الغموس، والسحر. وثلاثة في البطن: شرب الخمر، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا.

(١) تحرف في الأصل إلى: «عبد الرحمن بن عوف».

(٢) هو محمد بن علي بن عطية، أبو طالب الحارثي المكي، له كتاب (قوت القلوب).

واثنتان في الفرج: الزنا واللواط. واثنتان في اليمين: القتل والسرقعة، وواحدة في الرجلين وهي الفرار من الزحف. وواحدة في جميع الجسد وهي عقوق الوالدين. وهذا الذي ذكره لا يحصل به الشفاء؛ لأنه يمكن أن يزداد عليه ويُنقص منه فإن ضرب اليتيم وتعذيبه أكبر من أكل ماله، ولم يذكره.

وكشف الغطاء عن هذا أن نقول: الكبير والصغير من المضافات، فما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه، فإن مضاجعة الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظر، صغيرة بالإضافة إلى الزنا، وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه، صغيرة بالإضافة إلى قتله.

والتحقيق أن يقال: الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استيعظامه إياها، وإلى ما يعلم أنه معدود في الصغائر، وإلى ما يشك فيه فلا يدري حكمه، والطمع في معرفة حد حاصر أو عدد جامع طلب لما لا يمكن، والأحاديث في الكبائر لا تدل على أنه حصرها فيها، ولعل الشرع قصد الإنهاك ليكون الناس على وجل من الذنوب، إلا أنه لنا سبيل كلّي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق، وأما أعيانها فتعرف بالظن والتقريب، وتعرف أيضاً أكبر الكبائر، وأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته.

وبيان ذلك: أننا نعلم بشواهد الشرع وبصائر الفهم أن مقصود الشرائع كلها سياقة الخلق إلى جوار الله تعالى ولقائه، وأنه لا وصول إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى، ومعرفة صفاته ورؤسله وكُتبه، ولا يكون العبد عبداً ما لم يعرف ربه بالربوبية، ونفسه بالعبودية، ولا بد أن يعرف نفسه وربه، فهذا هو المقصود ببعثة الأنبياء، ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا، وهي المعني بقوله عليه الصلاة والسلام: «الدنيا مزرعة الآخرة» فصار حفظ الدنيا أيضاً مقصوداً تابعاً للدين؛ لأنه وسيلة إليه.

والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئان: النفوس والأموال، فكل ما يسد باب معرفة الله، فهو أكبر الكبائر، ويليه ما يسد باب حياة النفوس، ويلى ذلك ما يسد

باب المعاش التي بها حياة النفوس، فهذه ثلاث مراتب؛ فحفظ المعرفة على القلوب والحياة على الأبدان والأموال على الأشخاص ضروري في مقصود الشرائع كلها، وهذه ثلاثة أمور لا يتصور أن تختلف فيها الملل، فلا يجوز أن يبعث الله نبياً يريد ببعثته إصلاح الخلق في دينهم ودنياهم، ثم يأمرهم بما يمنعهم من معرفته ومعرفة رُسله، أو يأمرهم بإهلاك النفوس والأموال، فحصل من هذا أن الكبائر ثلاث مراتب:

**الأولى:** ما يمنع معرفة الله ومعرفة رُسله، وهو الكفر، فلا كبيرة فوق الكفر، إذ الحجاب بين العبد وبين الله عز وجل هو الجهل، والوسيلة المقرّبة له إليه هو العلم والمعرفة، وقُرْبُه بقدر معرفته، وبُعْدُه بقدر جهله، ويتلو الجهل الذي يُسمّى كُفْراً الأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ والقُنُوطُ مِنْ رَحْمَتِهِ، فإن هذا أيضاً عين الجهل، فمن عرف الله عز وجل لم يتصور أن يكون آمناً، ولا أن يكون آيساً.

ويتلو هذه الرتبة البدع كلها المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله، وبعضها أشد من بعض، وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها، وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه وبأفعاله وشرائعه وأوامره ونواهيها، ومراتب ذلك لا تنحصر، وهي تنقسم إلى ما يُعلم أنها داخله تحت ذكر الكبائر المذكورة في القرآن، وإلى ما لا يُعلم أنها لا تدخل، وإلى ما يُشكُّ فيه، وطلب رفع الشك في القسم المتوسط طمع في غير مَطْمَع.

**الرتبة الثانية:** النفوس، إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة، وتحصل المعرفة بالله تعالى، فقتل النفس لا محالة من الكبائر، وإن كان دون الكفر؛ لأن ذلك يصدّم عين المقصود، وهذا يصدّم وسيلة المقصود، إذ حياة الدنيا لا تُراد إلا للآخرة، والتوصل إليها بمعرفة الله عز وجل، ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف وكل ما يُفضي إلى الهلاك حتى الضرب، وبعضها أكثر من بعض، ويقع في هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط؛ لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات انقطع النسل، ودفع الوجود قريباً من قطع الوجود وأما الزنا فإنه لا يفوت أصل الوجود ولكن يُشوش الأنساب ويُبطل التوارث والتناصر وجُملة من الأمور التي لا ينتظم

العيش إلا بها، بل كيف يتم التّظام مع إباحة الزّنا ولا تتنظم أمور البهائم ما لم يتميز الفحل منها بإنانته عن سائر الفحول؟! ولذلك لا يُتصور أن يكون الزّنا مُباحاً في شرع.

وينبغي أن يكون الزّنا في الرّتبة دون القتل؛ لأنه ليس يُفوت دوافع الوجود، ولا يمنع أصله، ولكنه يفوت تميّز الأنساب، ويوجب الخصومة، وينبغي أن يكون أشدّ من اللواط؛ لأن الشهوة داعيةٌ إليه من الجانبين، فيكثر وقوعه، ويعظم أثر الضرر بكثرتة.

الرتبة الثالثة: الأموال، فإنها معاش الناس، فلا يجوز تسليط الناس على تناولها كيف شاؤوا حتى بالاستيلاء والسّرقة، بل ينبغي أن تُحفظ لتبقى ببقائها النفوس، إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها، وإن أكلت أمكن تغميمها، فليس يعظم الأمر فيها، بلى إذا جرى تناولها بطريق يعسر التّدارك له، فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر، وذلك بأربع طرق:

إحداها: السّرقة، فإنه إذا لم يطلع عليه غالباً فكيف يتدارك.

والثاني: أكل مال اليتيم، والولي مؤتمن فيه، وليس له خصم سوى اليتيم، وهو صغير لا يعرف ذلك، فتعظيم الأمر فيه واجب، بخلاف الغصب؛ لأنه ظاهر يُعرف، وبخلاف الخيانة في الوديعة، فإن المودع خصمٌ يتصف لنفسه.

الثالث: تفويتها بشهادة الزور.

والرابع: جحد الوديعة وغيرها باليمين الغموس.

فإن هذه طرق لا يمكن فيها التّدارك، ولا يجوز أن تختلف الشّرائع في تحريمها أصلاً، وبعضها أشدّ من بعض، وكلها دون الرّتبة الثانية<sup>(١)</sup> المتعلّقة بالنفوس، وهذه الأربعة جديرة بأن تكون مُراداً بالكبائر، وإن لم يوجب الشرع الحدّ في بعضها، ولكن قد كثر الوعيد عليها، وعظم في مصالح الدنيا تأثيرها، وأما أكل الرّبا فليس فيه إلا أكل مال الغير بالتراضي مع الإخلال بشرط وضعه الشرع، ولا يبعد أن

(١) تحرفت في (ف) إلى: «الثالثة».

تختلف الشرائع في مثله، وإذا لم يُجعل العَصْبُ الذي هو أكلُ مال الغير بغير رضاه وبغير رضا الشرع من الكبائر، فأكل الرِّبَا أكلُ برِّضا المالك دون رضا الشرع، وإن عَظُم الشرعُ الرِّبَا بالزَّجر عنه، إلا أن أكثر مِيل الظن إلى أنه غير داخل في الكبائر، بل ينبغي أن تختصَّ الكبيرة بما لا يجوز اختلافُ الشرائع فيه ليكون ضرورياً في الدين.

فيبقى مما ذكره أبو طالب المكي القَذْفُ والشُّرْبُ والسُّحرُ والفرارُ من الزَّحف وعقوقُ الوالدين.

فأما القذف، فالقياسُ بمجرده لا يدل على أنه من الكبائر، وقد عدوا كل ما يجب به الحد كبيرة فإذا يلتحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع، فأما من ظنَّ أن له أن يشهد وحده أو ظن أنه يُساعده على الشهادة غيره، فلا ينبغي أن يُجعل في حقه من الكبائر.

وأما الشرب لما يُزيل العقل، فإنه جديرٌ أن يكون من الكبائر؛ لأن العقل محفوظٌ كما أن النفس محفوظة، بل لا خير في النفس دون العقل، وإيجابُ الحدِّ به دليلٌ على تعظيم أمره.

أما السُّحر، فإن كان فيه كُفر خرج بصاحبه إلى الكفر، وإلا فعظمته بحسب الضرر الذي يتولد منه هلاك نفسٍ أو مرضٍ أو غيره.

وأما الفرار من الزَّحف وعقوق الوالدين؛ فالأحاديث المتقدمة تدل على أنهما من الكبائر.

فإن قيل: فإذا لم تعرف الكبائر يقيناً، فكيف وردَ الشرعُ بذكرها؟

فالجواب: أن الكبيرة لا يتعلق حكمها بالدنيا، فجاز تطرُق الإبهام إليها ليكون الناس على وِجَل.

فإن قيل: فالشَّهادة لا تُقبل إلا ممن يجتنب الكبائر<sup>(١)</sup> والورع عن الصغائر ليس شرطاً في قبول الشهادة وهذا من أحكام الدنيا<sup>(١)</sup>.

<sup>(١)</sup> فالجواب: أنا لا نُخصص ردَّ الشهادة بالكبائر<sup>(١)</sup>، ولا خلاف في أن من يلبس الحرير، ويتختم بالذهب، ويشرب في أوانيه لا تُقبل شهادته، وكل ذلك ليس من الكبائر إجماعاً، بل كل الذنوب تُقدح في العدالة إلا ما يخلو منه الإنسان غالباً بمقتضى مجاري العادات، كالغيبية والتجسس، وترك الأمر بالمعروف، وضرب الولد والغلام بحكم العُصْب زائداً على حدِّ المصلحة، ولو اشترطنا السلامة من مثل هذه الأشياء في الشهادة عَزَّ وجود شاهدٍ، ثم لو واطبَ على أحد هذه الصغائر أثر رد الشهادة كمن واطبَ على الغيبة.

## بيان كيفية توزع الدَّرجات والدَّركات في الآخرة إلى الحسنات والسيئات في الدنيا

الناس يتفاوتون في الآخرة كما تفاوتوا في الدنيا، وينقسمون إلى أربعة أقسام: هالكين، ومُعذِّبين، وناجين، وفائزين.

ومثاله: أن يستولي ملكٌ من الملوك على إقليم، فيقتل بعضهم فهم الهالكون، ويُعذَّبُ بعضهم مدةً ولا يقتلهم، فهم المعذَّبون، ويُخلِّي بعضهم، فهم النَّاجون، ويخلعُ على بعضهم، فهم الفائزون، وإذا كان الملك عادلاً لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق، فلا يقتل إلا جاحداً لاستحقاقه الملك معانداً له في أصل الولاية، ولا يُعذَّبُ إلا من قصَّر في خدمته مع الاعتراف بملكه، ولا يُخلِّي إلا معترفاً له برتبة الملك، إلا أنه لم يقصِّر فيُعذَّب، ولا خَدَمَ فيخلعُ عليه، ولا يخلعُ إلا على من أبلى عُذْرَه في الخدمة والنُّصرة، ثم ينبغي أن تكون خِلعُ الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجات<sup>(٢)</sup> خدمتهم، وإهلاك الهالكين إما تحقيقاً بِحَزِّ الرَّقْبَةِ، أو تنكيلاً بالمثلة بحسب دَرجات<sup>(٢)</sup> مُعاندتهم، وتَعذيب المعذِّبين في الخِفة والشُّدة وطول المدة وقصَّرها وإيجاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم.

(١-١) سقط من (ف).

(٢-٢) سقط من (ف).

فالناسُ في الآخرة هكذا يتفاوتون، فَمِنْ هَالِكٍ، ومن مُعَذَّبٍ مَدَّةً، ومن نَاجٍ يحل في دار السَّلَام، ومن فَايِزٍ.

والفائزون يَنقَسِمون إلى مَنْ يحلُّ في جَنَّاتِ عَدْنٍ أو جناتِ المَأْوَى أو جناتِ الفِرْدوس، والمُعَذَّبون يَنقَسِمون إلى مَنْ يُعَذَّب قليلاً، وإلى مَنْ يُعَذَّب ألفَ سَنَةٍ إلى سبعةِ آلافِ سَنَةٍ، كما جاء في الحديث<sup>(١)</sup>.

وكذلك الهَالِكُونَ الْآيسُونَ من رحمةِ الله تعالى تَتَفَاوَتُ درجاتهم، وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطَّاعات والمعاصي، فلنذكر كيفية تَوَزُّعها عليها:

أما الرتبة الأولى: وهي الهَلَاكُ، ونَعْنِي بالهالكين: الْآيسِينَ من رحمةِ الله تعالى، إِذْ الَّذِي قَتَلَهُ الْمَلِكُ فِي الْمِثَالِ الَّذِي ضَرَبْنَاهُ آيَسٌ من رضا الملك وإكرامه، وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين المُكذِّبين بالله ورُسُلِهِ، فهم محجوبون عن ربهم، محترقون بنار الفراق في نار جهنم وألَمُ الْفُؤَادِ بنار الفراق أضعاف أَلَمِ الْجَسَدِ بنار جهنم، وفي مثل ذلك قيل:

ففي فُؤَادِ الْمُحِبِّ نَارٌ هَوَىَّ أَحْرُّ نَارِ الْجَحِيمِ أَبْرَدُهَا

ولا ينبغي أن ينكر هذا في عالم الآخرة، فقد وُجِدَ نظيره في عالم الدنيا، وقد رُئِيَ من غلبَ عليه الْوَجْدُ فعدا على النار وعلى أصول الْقَصَبِ الْجَارِحَةِ للقدم وهو لا يحس بذلك، وترى الْعُضْبَانَ يَسْتَوْلِي عليه الْعُضْبُ فِي الْقِتَالِ، فتصيبه جراحة وهو لا يشعر بها في الحال؛ لأن الْعُضْبَ نَارٌ فِي الْقَلْبِ، واحتراق الْفُؤَادِ أَشَدُّ من احتراق الْأَجْسَادِ، والأشدُّ يُبْطِلُ الإحساس بالأضعف، فالمفرق بين الْقَلْبِ ومحبوبه أَشَدُّ من الذي يفرق تأليف الْأَجْسَامِ، غير أن هذا لا يدركه إلا أرباب الْفُهْمِ وَالْبَصَائِرِ، فإن الصَّبِيَّ لو خَيْرٌ بين أن يُمنَعَ من الكرة وَالصَّوْلَجَانَ<sup>(٢)</sup> وبين أن يُمنَعَ مَرْتَبَةِ السُّلْطَانِ، لاختار مَرْتَبَةَ الصَّوْلَجَانَ؛ لأنه لا يعرف رُتْبَةَ السُّلْطَانِ، وكذلك من تَغْلِبَهُ شَهْوَةُ الْبَطْنِ لو خَيْرٌ بين الْحَلْوَاءِ وبينَ فَعْلٍ جَمِيلٍ يَقْهَرُ بِهِ الْأَعْدَاءَ ويفرح به

(١) رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة، وفيه: «وأطولكم مكثاً فيها مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة، وذلك سبعة آلاف سنة».

(٢) الصَّوْلَجَانُ: عصا معقوف طرفها يضرب بها الفارس الكرة.

الأصدقاء، لاختار الحلو، وهذا كله لفقد المعنى الذي بوجوده يصير الجاه محبوباً، ووجود المعنى الذي بوجوده يصير الطعام لذيذاً، وذلك في حق من استرقت فيه صفات البهائم والسباع، ولم تظهر فيه الصفات الملكية التي لا يلذها إلا القرب من رب العالمين، وكما لا يكون الذوق إلا في اللسان فهذه الصفة لا تكون إلا في القلب، فمن لا قلب له ليس له هذا الحس، ونعني بالقلب: السر الذي هذا القلب اللحمي عرشه.

**الرتبة الثانية:** رتبة المعذبين، وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان، ولكن قصر في الوفاء بمقتضاه، فإن رأس الإيمان هو التوحيد، ومن أتبع هواه فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة، ولما لم يخل أحد من أتباع الهوى، وذلك قاذح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الاستقامة، فذلك يقتضي نقصاناً في درجة القرب، ومع كل نقصان ناران: نار الفراق لذلك الكمال الفاتت بالنقصان، ونار جهنم، فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذباً من الوجهين، ولكن شدة العذاب وخفته وتفاوته يكون بسبب أمرين:

أحدهما: قوة الإيمان وضعفه.

والثاني: كثرة أتباع الهوى وقتله. ولا يخلو بشر في غالب الأمر من واحد من الأمرين، قال الله تعالى: ﴿وإن منكم إلا وإردها كان على ربك حتماً مقضياً﴾ (٧١) ثم نجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً [مريم: ٧١-٧٢].

وقد روينا في الأحاديث أن من الناس من يمر على الصراط كالبرق الخاطف، ومنهم من يبقى في النار سبعة آلاف سنة وبين اللحظة وسبعة آلاف سنة تفاوت كبير.

فأما الاختلاف بالشدة فلا نهاية لأعلاه، وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب، ثم يعفو، وقد يضرب بالسياط، وقد يعذب بأنواع أخر من العذاب، ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث في غير المدة والشدة، وهو اختلاف الأنواع: إذ ليس من

يُعذب بمصادرة المال فقط كمن يُعذبُ بأخذِ المالِ وقَتْلِ الولدِ وقَطْعِ اللسانِ واليَدِ وغير ذلك، فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة قد دلَّت عليها الدلالات<sup>(١)</sup>، وهي بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه، وكثرة الطاعات وقتلتها، وكثرة السيئات وقتلتها، وأما شِدَّةُ العذاب فبشِدَّةِ قُبْحِ السيئات وكثرتها<sup>(٢)</sup>، وأما كثرتُه فبكثرتها، وأما اختلاف أنواعها فباختلاف أنواع السيئات، قال الله عز وجل: ﴿الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر: ١٧] وقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۗ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨.٧] على أن جانب العفو أرجح لقوله عز وجل فيما أخبر به عنه نبيه ﷺ: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي».

فهذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بالنقل ونور المعرفة، فأما التفصيل فيستند إلى ظواهر الأخبار والظن المستمد من الاستبصار، فنقول: كل من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر، وأحسن جميع الفرائض، ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لا يصر عليها، فيشبه أن يُعفى عنه، وقد نص القرآن على أن اجتناب الكبائر مكفر للصغائر، فأما التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقربين فذلك يتبع إيمانه ويقينه، فإن قلَّ أو ضعف دنت منزلته، وإن كثر وقوي علَّت.

ثم إن المقربين على أصنافٍ يتفاوتون بحسبِ تفاوت معرفتهم بالله تعالى، ودرجات العارفين في المعرفة لا تنحصر إذ بحر المعرفة لا ساحل له، وإنما يغوص فيه العواصون بقدر قواهم، فأعلى درجات أصحاب اليمين أدنى درجات المقربين، هذا حال من اجتنب الكبائر وأدى الفرائض، وأما من ارتكب كبيرة، أو أهمل بعض أركان الإسلام، فإنه إن تاب توبةً نصوحاً قبل قُرب الأجل التَّحَقَّ بمن لم يرتكب؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والثوب المغسول كالذي لم يتسخ أصلاً، وإن مات قبل التوبة فأمره مُشكَلٌ إذ ربما يكون موته على الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه فيُخْتَمَ له بسوء الخاتمة، لاسيما إذا كان إيمانه تقليدياً، فإنه قابلٌ للانحلال بأدنى

(١) في (ف): «المقولات».

(٢) في الأصل: «كبرها».

شكَّ وخيالٍ، والعارفُ الموقنُ أبعد من أن يُخاف عليه سوء الخاتمة، ثم إن عذاب الميت عن غير توبة يكون بحسب فُبح الكبائر ومدة الإصرار، ثم ينزل البُلهُ<sup>(١)</sup> المقلدون الجئةً، وينزل العارفون المستبصرون أعلى عليين.

وما ذكرناه من مراتب العباد في المعاد حُكمٌ بظاهر الأسباب يُضاهي حُكمَ الطبيب على مريضٍ بأنه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج، وعلى مريضٍ آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين، فإن ذلك ظنٌ يُصيب غالباً، وقد تثوب<sup>(٢)</sup> إلى المُشرف على الهلاكِ نفسه من حيث لا يشعر الطبيب، ويُساق إلى ذي العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه، وذلك لأسرارِ الله تعالى الخفية في أرواح الأحياء، وغموضِ الأسباب التي رتبها المسبب، وليس في قوة البشر الوقوف على كُنْهها، فكذلك الفوز والهلاك في الآخرة لهما أسبابٌ خفيةٌ ليس في قوة البشر الاطلاع عليها، فلذلك يجوز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته، والغضبُ على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة، فإن الاعتماد على التقوى، والتَّقوى في القلب، وأحوال القلب قد تخفى على صاحبه، فكيف على غيره.

الرتبة الثالثة: رتبة النَّاجين، وأعني بالنَّجاة السلامة فقط دون السعادة<sup>(٣)</sup> والفوز، وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم، ولم يقصروا فيعدبوا، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين وأولاد الكفار والذين لم تبلغهم الدعوة، فعاشوا<sup>(٤)</sup> على عدم المعرفة، فلم تكن لهم معرفةٌ ولا جُحودٌ ولا طاعةٌ ولا معصيةٌ، ولا وسيلةٌ تُقربهم، ولا جناية تُبعدهم، ويصلح أن يكونوا على الأعراف<sup>(٥)</sup>.

الرتبة الرابعة: الفائزون، وهم العارفون دون المقلدون، وهم المقرَّبون السابقون، وهؤلاء الذين لا تعلم نفسٌ ما أخفي لهم من قُرّة أعين، وليس حرصهم

(١) تحرفت في (ف) إلى: «الثلاثة».

(٢) تثوب: ترجع.

(٣) تحرفت في (ف) إلى: «العبادة».

(٤) في (ف): «فاعتمدوا».

(٥) الأعراف: سور بين الجنة والنار.

على الجئة بل على لقاء الله سبحانه والنظر إليه، ومثالهم مثال العاشق المستهتر<sup>(١)</sup> بمعشوقه، فإنه في تلك الحالة غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه في بدنه، ولا هم له سوى محبوبه، فهؤلاء الواصلون إلى قرة أعين وما لم يخطر على قلب بشر. فهذا القدر كافٍ في بيان توزع الدرجات على الحسنات.

## بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب:

منها: الإصرار والمواظبة، وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار».

واعلم أن العفو عن كبيرة قد انقضت ولم يتبعها مثلها أرجى من العفو عن صغيرة يواظب العبد عليها، ومثال ذلك: قطرات من الماء تقع على حَجَرٍ متواليات، فإنها تؤثر فيه، ولو جمعت تلك القطرات في مرة وضبت عليه لم تؤثر، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «أحبُّ العمل إلى الله أدومُه وإن قلَّ».

فإذا كان النافع من العمل هو الدائم وإن قلَّ، فالكثير المتصرِّم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب.

إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولو اُحِق من الصغائر، فقلما يزني الزاني بغتة من غير مُراودة ومقدمات، وقلما يقتل بغتة من غير مخاصمة سابقة ومُعَاداة، فكل كبيرة يكتنفها صغائر، ولو تُصوِّرت كبيرةً وخذها بغتة ولم يتفق إليها عودٌ، فربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة تتردد.

ومنها: أن يستصغر الذنب، فإن الذنب كلما استعظمه العبد صغر عند الله، وكلما استصغره كبر عند الله؛ لأن استِعظامه يصدر عن نُفور القلب منه وكرهته له، وذلك النُفور يمنع من شدة تأثيره به، واستصغاره يصدر عن الإلف له، وذلك يوجب

(١) المستهتر: أي المولع به المدهوش في حبه.

شِدَّة الأثر في القلب، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات، والمحذور تسويده بالسّيئات، ولذلك لا يُؤاخذ الإنسان بما يجري عليه في حال الغفلة، فإن القلب لا يتأثر بما يجري في الغفلة.

أبناؤنا ابن الحُصَيْن قال: أخبرنا ابن المُذْهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا الأعمش عن إبراهيم التيمي عن الحارث بن سويد قال: قال عبد الله بن مسعود: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذبابٍ وقع على أنفه فقال به هكذا فطار. أخرجاه في الصحيحين<sup>(١)</sup>.

وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله، فإذا نظر إلى عظمة من عصى رأى الصغير كبيراً، وفي أفراد البخاري من حديث أنس قال: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدّها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات.

وقال بلال بن سعد: لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر من عصيت.

فلما كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتمّ كانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله كبائر، وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل، ويتجاوز عن العامي في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف؛ لأن الذنب والمخالفة تكثر بمعرفة قدر المخالف.

ومنها: السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها، واعتداد التمكن من ذلك نعمة، والغفلة عن كونه سبب الشقاوة، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح لشدة فرحه بمقارفته إياه، كما يقول: أما رأيتني كيف مرّقت عرض فلان وذكرته مساوئه حتى خجلته، وكيف استخففت به؟ ويقول المعامل في التجارة: أما رأيتني

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤) (٣) و(٤)، وأحمد (٣٦٢٧) و(٣٦٢٨) و(٣٦٢٩).

كيف رَوَّجَتْ عليه الزَّائِفَ، وكيف خدعته وَعَبَّئْتُهُ؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر، فإن الذنوب مُهلكات، فإذا وقع الإنسان فيها فينبغي أن يحزن لغلبة عدوه إياه، ولبعده عن الله تعالى، ومتى فرح المريض بانكسار إنائه الذي فيه دواؤه ليتخلص من شره لم يُرَجِّح شفاؤه.

ومنها: أن يتهاون بستر الله تعالى عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه، ولا يدري أنه إنما يُمهَل مَقْتاً ليزداد بالإمهال إثمًا، فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به، فيكون ذلك لَأَمْنِهِ من مَكْرِ الله وجَهْلِهِ بمكامن الغرور بالله تعالى، كما قال: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا بَصُلُوهُمْ فَتَأَسَّ الْأَمِصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

ومنها: أنه يأتي الذنب، ثم يذكره بعد إتيانه، أو يأتيه بمحض من غيره، فإن ذلك جناية على ستر الله تعالى الذي أسدله عليه، وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعته ذنبه أو أشهده فعله، فهما جنايتان<sup>(١)</sup> انضمتا إلى جنايته فتغلطت بذلك، فإن أضيف إلى ذلك ترغيب الغير فيه وحمله عليه صارت جناية رابعة، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «كلُّ أمتي مُعَافَى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يُصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه».

والمجاهرون هم الذين يُجاهرون بالمعاصي ويتحدثون بما فعلوه منها سرًا، فالناس في عافية، من جهة أنهم مستورون، وهؤلاء مُفتضحون، وإذا ثبت أن من نعمة الله تعالى على العبد ستر المعاصي، فإظهار المعصية كُفْرانٌ لهذه النعمة، أخبرنا محمد بن أبي منصور قال: أخبرنا حمد بن أحمد قال: أخبرنا أبو نُعيم الحافظ قال: أخبرنا أحمد بن السندي قال: أخبرنا الحسن بن عَلْوِيَّة قال: حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار قال: حدثنا إسحاق بن بِشْر عن جُوْبِر عن الضَّحَاك عن ابن عباس أنه قال: يا صاحب الذنب لا تأمننَّ سوء عاقبته، ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته، قِلَّةُ حَيَاتِكَ مِمَّنْ عَلَى الْيَمِينِ وَعَلَى الشَّمَالِ وَأَنْتَ عَلَى الذَّنْبِ

(١) تصحفت في (ف) إلى: «خياتان».

أعظم من الذنب الذي عملته، وضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب إذا ظفرت به، وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظير الله إليك أعظم من الذنب إذا عملته.

ومنها: أن يكون المذنب عالماً يقتدى به، فإذا علم منه الذنب كبر ذنبه، كلبسه الحرير ودخوله على الظلمة مع ترك الإنكار عليهم، وإطلاقه اللسان في الأعراض، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه، كعلم الجدل، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت ويبقى شره مستطيراً في العالم. فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه، وقد قال الله عز وجل: ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ [يس: ١٢] وفي أفراد مسلم من حديث جرير بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «من سن سنة في الإسلام حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينتقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينتقص من أوزارهم شيء».

وقال ابن عباس: ويل للعالم إذا زل ورجع عنها كيف يحتملها الناس فيذهبون في الآفاق.

وقال بعضهم: مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها. وفي الإسرائيليات: أن عالماً كان يضل الناس بالبدعة، ثم أدركته توبة، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: قل له: إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرته لك، ولكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النار؟

فهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر، فعليهم وظيقتان: إحداهما: ترك الذنب. والثانية: إخفاؤه إذا أتوه، وكما تتضاعف أوزارهم إذا أتبعوا على الذنوب، فكذلك تتضاعف حسناتهم إذا أتبعوا على الخير.

وينبغي للعالم أن يتوسط الأمر في ملبسه ونفقته، وليكن إلى التقليل والتقصيف أميل، فإن الناس ينظرون إلى فعل الطبيب في الجمية ما لا ينظرون إلى أوصافه،

وقد كان عليّ رضي الله عنه يلبسُ الدُونََ من الثياب ويقول: هو أجدرُّ أن يقتدي به المسلم<sup>(١)</sup>. وقال الشعبي: كُنَّا نَضْحَكُ وَنَمَزَحُ، فإذا صرنا أئمةً يُقتدى بنا فما أظنه يَسْعُنَا التَّبَسُّمُ.

ومتى مال العالم إلى التَّجْمُلِ في ثيابه ومركبه ونَفَقَته خاطر بالناس؛ لأنهم ربما طلبوا ذلك فلم يقدروا عليه إلا من الشُّبُهَاتِ والدخولِ على الظلمة، ومتى تَرَخَّصَ العالمُ في الدخولِ على السُّلَاطِينِ وجمع الحُطَامِ، فاقتدى به غيره كان الإثم عليه، وربما سلم في دخوله ولم يفهموا كيفية سلامته، فينبغي له الاحتراز مما يُقتدى فيه بصورة فعله، فقد روينا أن ملكاً كان يُكرهُ الناسَ على أكل لحم الخنزير، فجيء برجلٍ عالم، فقال له حاجِبُ الملك: قد دَبِحْتُ لَكَ جَدِيّاً فَكُلْ مِنْهُ. فلما دخل قُرَّبَ إليه فَلَمْ يَأْكُلْ، فأمر بقتله، فقال له الحاجب: ألم أقل لك: إنه جدي؟ فقال: ومن أين يعلم بحالي من يقتدي بي؟

فقد بانَ بما ذكرنا أن حركات العلماء في باب الخَيْرِ وَالشَّرِّ تَتَضَاعَفُ آثارها، وهذا القدرُ كافٍ في تفاصيل الذُّنُوبِ التي يُتابُ منها.

\* \* \*

## الركن الثالث

### في تمام التوبة وشروطها في دوامها إلى آخر العمر

فقد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزمًا وقصدًا، وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصي حائلًا بينه وبين محبوبه، ولكل واحدٍ من العلم والندم والعزم دوام وتمام، ولتمامها علامة، ولدوامها شرط، ولا بد من بيان ذلك.

أما العلم، فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتي.

وأما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بقوات المحبوب، وعلامته طول الحسرة والحزن، وانسكاب الدمع وطول البكاء، فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض من يعزُّ عليه طال بُكاؤه واشتدَّت مُصيبته، وأي عزيزٍ أعزُّ عليه من نفسه؟ وأي عقوبةٍ أشدُّ من النار وأي سببٍ أدل على نُزول العقوبة من المعاصي؟ وأي مُخبرٍ أصدق من الله ورسوله؟ ولو حدثته طبيبٌ أن مرضَ ولده لا يبرأ لاشتدَّ في الحال حُزنه، وليس ولده بأعزَّ من نفسه، ولا الطبيب بأعلم من الله ورسوله، ولا الموت بأشدَّ من النار، ولا المرض أدلَّ على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها للنار، فألم الندم كلما كان أشدَّ كان تكفير الذنوب أرجى، فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع، وقد قال عمر بن الخطاب: جالسوا التوابين فإنهم أرق شيء أفئدةً.

ومن علامته أن تتمكَّن مرارة تلك الذنوب من قلبه بدلاً عن حلاوتها، فيستبدل بالميل كراهة، وبالرغبة نُفرةً.

فإن قيل: فالذنوب مُشتهاة بالطبع، فكيف يجدُ مرارتها؟

فالجواب: أن من تناول عسلاً فيه سُمٌّ ولم يدِرِ بالسُّمِّ فمرض، فإنه إذا قُدِّم إليه

مثل ذلك العسل وفيه سُمُّ وهو في غاية الجوع والشَّهوة للحلاوة نَفَرَت نفسه عن ذلك العسل، وربما نَفَرَت عن كل عَسَلٍ ليس فيه سم لموضع شُبْهة بذلك العسل، فكذلك وجدان التائب مرارة الذَّنْبِ لعلمه بأن كلَّ الذنوب ذَوْقُ العسل وعملها عمل السُّمِّ، ولما عَزَّتْ هذه الصفة عَزَّتْ التَّوْبَةُ والتائبون، فلا تكاد تَرَى إلا مُعْرَضاً عن الله، مُتْهَوِناً بالذنوب، مصراً عليها، فهذا شرط تمام النَّدَمِ، وينبغي أن يدوم إلى الموت، وينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل، كما يجد مُتَنَاوِلُ السُّمِّ في العسل النَّفْثَةَ من الماء البارد إذا علم أن فيه مثل ذلك السُّمِّ، إذ لم يكن استِضْرَارُهُ بالعسل بل بما كان فيه، ولم يكن ضرر التائب من سرقة وزناه من حيث إنه سرقة وزنا، بل من مخالفة أمرِ الله تعالى، وذلك جارٍ في كل ذنب.

وأما القَصْدُ الذي ينبعث منه، وهو إرادة التَّدَارِكِ فله تَعَلُّقٌ بالحال؛ وهو موجب ترك كلِّ محظورٍ هو ملابسٌ له، وأداء كلِّ فرضٍ هو متوجِّهٌ عليه في الحال، وله تعلقٌ بالماضي؛ وهو تداركُ ما فَرَطَ، وبالمستقبل؛ وهو دوام الطاعة ودوام تركِ المعصية إلى الموت.

وشرطُ صحتها فيما يتعلق بالماضي أن يَرَدَّ فِكْرُهُ إلى أول يوم بلغ فيه السَّنَّ أو الاحتلام وتفتيش ما مضى من عمره سنةً سنةً، وشهراً شهراً، ويوماً يوماً، ونفساً نفساً، وينظر إلى الطاعات ما الذي قَصَرَ منها، وإلى المعاصي ما الذي قَارَفَهُ منها، فإن كان قد ترك صلاة أو صلاها في ثوب نجسٍ أو بنيةٍ غير صحيحةٍ لجهله النية، قضاها عن آخرها، فإن شكَّ في عددٍ ما فاته حسبَ من مُدَّةِ بلوغه وتركِ القدر الذي يَسْتَيْقِنُ أنَّه أداه وقضى الباقي، وله أن يأخذ في ذلك بغالبِ الظَّنِّ والتَّحْرِي.

وأما الصَّوْمُ؛ فإن كان قد أَفْطَرَ عمداً أو لم يَنْوِ في الليل، نَظَرَ في مجموع ذلك وقضاه بالتَّحْرِي والاجتهاد، فإن فَرَطَ في قضاء أيامِ أَفْطَرِهَا من رمضان حتى جاء رمضان آخر قضاها وأطعم عن كل يوم مسكيناً.

وأما الزَّكَاةُ؛ فيحسب جميع ماله ويعد السنين من أول ملكه لا من زمان بلوغه؛ لأن الزكاة تجب في مال الصَّيِّ، فيؤدي ما يعلم بغالبِ الظَّنِّ أنه في ذِمَّتِهِ.

وأما الحج؛ فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يخرج ثم أفلس، فليتب من تقريظه، وليعلم أنه باقٍ في ذمته، فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها.

وأما المعاصي؛ فينبغي أن يُفتش من أول بلوغه عن سمعه ولسانه وبصره وبطنه وسائر جوارحه، ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته، وينظر في معاصيه كلها، فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى لا يتعلق بمظلمة، كنظرٍ إلى مُحرم، ومسِّ مُصحفٍ بلا وضوءٍ، وشربِ خمرٍ، وسماعِ مَلاهٍ، واعتقادِ بدعة، فالتوبة منه الندم والتأسف، ثم ينظر إلى مقادير ذنوبه من حيث المدة والكثرة، فيطلب لكل معصية منها حسنةً تُناسبها، فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَحْسَنَ بُدْهِبِنَ السِّيئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقد قال بعضُ السلف: أتبع السيئة الحسنة تمحها، فإنه ليس شيء أسرع لحاقاً بشيء من حسنةٍ حديثه لذنبٍ قديم.

فينبغي أن يُكفَّرَ سَمَاعُ المَلاهي بِسَمَاعِ القرآنِ ومجالسِ الذكرِ، ويُكفَّرَ مَسُّ المصحفِ مُحدِّثاً بإكرامه وكثرة القراءة منه، وبأن يكتب مُصحفاً ويَقْفه، ويُكفَّرَ شُرْبُ الخمرِ بالتَّصدقِ بالشَّرابِ الحلالِ، وعلى هذا يسلك طريق المضادة؛ لأن المرض إنما يُعالج بضده، وكل ظلمة ارتفعت على القلب بمعصية لا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تُضادها، وهذا التدرج من التلطُّف في طريق المحو، فهو أحسن من المواظبة على نوع واحدٍ من العبادات، وإن كان ذلك مؤثراً في المحو، فهذا حكم ما بينه وبين الله عز وجل.

وأما مظالم العباد؛ ففيها أيضاً معصية وجناية على حقِّ الله تعالى؛ لأنه نهى عن ظلم العباد، فما يتعلق بحقه يُتدارك بالندم والتَّحسُّرِ والعزم على ترك مثل ذلك في المستقبل، والإتيان بالحسنات المضادة لتلك، فيقابل إيذائه للناس بالإحسان إليهم، ويُكفَّرُ غصبَ أموالهم بالتَّصدقِ بماله الحلالِ، ويُكفَّرُ تناولُ أعراضهم بالشَّاءِ على أهل الدين، ويُكفَّرُ قتلَ النفوس بالعتق؛ لأنه إحياء، إذ العبدُ مفقودٌ لنفسه موجودٌ لسيده، فالإعتاقُ إيجادٌ لا يقدر الآدمي على أكثر منه، فيقابل الإعدام بالإيجاد، وبهذا يعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع حيث كَفَّرَ القتلُ بإعتاقِ رَقبةٍ، ثم إذا فعل ذلك كله لم يكفه حتى يخرج من

مَظَالِمِ الْعِبَادِ، وَمَظَالِمِهِمْ إِمَّا فِي النُّفُوسِ، أَوْ الْأَمْوَالِ، أَوْ الْأَعْرَاضِ، أَوْ إِيْذَاءِ الْقُلُوبِ.

أَمَا فِي النُّفُوسِ؟ فَإِنَّهُ إِنْ قَتَلَ خَطَأً أَوْ صَلَ الدِّيَةَ إِلَى مُسْتَحَقِّهَا، إِمَّا مِنْهُ أَوْ مِنْ عَاقِلَتِهِ<sup>(١)</sup>، وَإِنْ قَتَلَ عَمْدًا أَوْ جَبَّ عَلَيْهِ الْقِصَاصُ، فَإِنْ لَمْ يُعْرِفْ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَرِفَ عِنْدَ وَلِيِّ الدَّمِّ وَيُحْكَمَ فِي رُوحِهِ، فَإِنْ شَاءَ قَتَلَهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَلَا يَكْفِيهِ غَيْرُ هَذَا، وَلَا يَجُوزُ لَهُ إِخْفَاءُ أَمْرِهِ بِخِلَافِ مَا لَوْ زَنَا أَوْ سَرَقَ أَوْ شَرِبَ أَوْ قَطَعَ الطَّرِيقَ أَوْ بَاشَرَ مَا يَجِبُ فِيهِ حَدُّ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ لَا يَلْزِمُهُ فِي التَّوْبَةِ أَنْ يَفْضَحَ نَفْسَهُ، وَيَهْتِكَ سِرَّهُ، وَيَلْتَمِسَ مِنَ الْوَالِيِ اسْتِيفَاءَ حَقِّ اللَّهِ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَتِرَ بِسِتْرِ اللَّهِ، فَإِنْ رُفِعَ أَمْرُهُ إِلَى الْوَالِيِ حَتَّى يُقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدَّ وَقَعَ ذَلِكَ مَوْقِعَهُ، وَكَانَتْ تَوْبَتُهُ صَحِيحَةً مَقْبُولَةً عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بِدَلِيلِ تَسْلِيمِ مَاعِزِ نَفْسِهِ وَالْغَامِدِيَّةِ؛ أَخْبَرَنَا هَبَةُ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ قَالَ: حَدَّثَنَا بِشِيرُ بْنُ الْمَهَاجِرِ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ. فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «ارْجِعْ». ثُمَّ أَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى قَوْمِهِ فَسَأَلَهُمْ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُمْ: «مَا تَعْلَمُونَ مِنْ مَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ؟ هَلْ تَرَوْنَ بِهِ بَأْسًا أَوْ تُنْكِرُونَ مِنْ عَقْلِهِ شَيْئًا؟» قَالُوا: مَا نَرَى بِهِ بَأْسًا وَلَا تُنْكِرُ مِنْ عَقْلِهِ شَيْئًا. ثُمَّ عَادَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاعْتَرَفَ عِنْدَهُ بِالزَّنَا، فَأَرْسَلَ إِلَى قَوْمِهِ فَسَأَلَهُمْ عَنْهُ فَقَالُوا: مَا نَرَى بِهِ بَأْسًا، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الرَّابِعَةَ فَاعْتَرَفَ عِنْدَهُ بِالزَّنَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ فَحَفَرَ لَهُ حَفْرَةً فَجُعِلَ فِيهَا إِلَى صَدْرِهِ ثُمَّ أَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَرْجُمُوهُ<sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ بُرَيْدَةُ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَجَاءَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ غَامِدٍ فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي. فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: «ارْجِعِي». فَلَمَّا كَانَ مِنْ

(١) العاقلة: عَصْبَةُ الرَّجُلِ مِنْ جِهَةِ الْأَبِ الَّذِينَ يَشْتَرِكُونَ فِي دَفْعِ دَيْتِهِ.

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢٢٩٤٢)، وَمُسْلِمٌ (١٦٩٥) (٢٣)، وَأَبُو دَاوُدَ (٤٤٣٤)، وَالِدَارِمِيُّ

(٢٣٢٠)، وَالنَّسَائِيُّ فِي الْكَبْرِيِّ (٧٢٠٢) وَأَبُو عَوَانَةَ (٦٢٩٤)، وَالطَّحَاوِيُّ فِي شَرْحِ مَعَانِي

العَدُّ أُمَّتَهُ أَيْضاً فَاعْتَرَفَتْ عِنْدَهُ بِالزَّانَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي. فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: «ارْجِعِي» فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِّ أُمَّتَهُ أَيْضاً، فَاعْتَرَفَتْ عِنْدَهُ بِالزَّانَا، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ طَهِّرْنِي، فَلَعَلَّكَ أَنْ تُرَدِّدَنِي كَمَا رَدَّدْتَ مَاعِزَ بْنِ مَالِكٍ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَحَبْلِي. فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: «ارْجِعِي حَتَّى تَلِدِي». فَلَمَّا وُلِدَتْ جَاءَتْ بِالصَّبِيِّ تَحْمَلُهُ، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، هَذَا قَدْ وُلِدْتُ. قَالَ: «فَاذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَقْطُمِيهِ». فَلَمَّا قَطَمْتَهُ جَاءَتْ بِالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كِسْرَةَ خُبْزٍ قَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، هَذَا قَدْ قَطَمْتُهُ. فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالصَّبِيِّ فُدْفِعَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَمَرَ بِهَا فَحَفَرَ لَهَا حُفْرَةً فَجَعَلَتْ فِيهَا إِلَى صَدْرِهَا، ثُمَّ أَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَرْجُمُوهَا، فَأَقْبَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ فَرَمَى رَأْسَهَا، فَنَضَحَ الدَّمَ عَلَى وَجْهِ خَالِدٍ فَسَبَّهَا، فَسَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ سَبَّهُ إِيَّاهَا، فَقَالَ: «مَهْلًا يَا خَالِدُ، لَا تَسُبَّهَا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ». فَأَمَرَ بِهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا وَدُفِنَتْ<sup>(١)</sup>.

وكذلك حَدُّ الْقَذْفِ لَا بَدَّ مِنْ تَحْكِيمِ الْمُسْتَحَقِّ فِيهِ، وَإِنْ كَانَ مَا تَنَاوَلَهُ بَعْضُ أَوْ خِيَانَةٍ أَوْ تَلْبِيسٍ فِي مَعَامَلَةٍ يُوجِبُ غُبْنًا أَوْ تَرْوِيجَ زَائِفٍ أَوْ نَقْصَ أَجْرَةِ أَجِيرٍ، فَكُلُّ ذَلِكَ يَجِبُ إِخْرَاجُهُ، وَإِنْ كَانَ الْوَلِيُّ قَصَّرَ فِي بَعْضِهِ حَالَةَ كَوْنِ الْمَالِكِ صَبِيًّا أَخْرَجَهُ إِذَا بَلَغَ، إِذِ الْحَقُوقُ الْمَالِيَّةُ يَسْتَوِي فِيهَا الصَّبِيُّ وَالْبَالِغُ. وَلِيُنَاقِشَ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يُنَاقِشَ، كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوهَا قَبْلَ أَنْ تَوَزَنُوا.

وَلِيَكْتُبَ أَسْمَاءَ أَصْحَابِ الْمَظَالِمِ وَلِيَطْلُبَهُمْ، وَلِيُوَدِّ حَقُوقَهُمْ، وَلِيَسْتَحْلَهَا، وَهَذِهِ الْحَالَةُ تَشْتَقُ عَلَى الظُّلْمَةِ وَالتُّجَارِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى طَلْبِ الْمَعَامِلِينَ كُلِّهِمْ وَلَا عَلَى وَرَثَتِهِمْ، وَلَكِنْ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ، وَإِذَا عَجَزَ لَمْ يَبِيقْ لَهُ طَرِيقٌ إِلَّا الْاسْتِكْثَارُ مِنَ الْحَسَنَاتِ لِتَوْخِذِ مِنْهُ فِي الْاِقْتِصَاصِ يَوْمَ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٣٣٩٤٩)، وَمُسْلِمٌ (١٦٩٥) (٢٣)، وَأَبُو دَاوُدَ (٤٤٣٤)، وَأَبُو عَوَانَةَ (٦٢٩٦) وَابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي التَّمْهِيدِ ١٣٢/٢٤. وَالْمَكْسُ: الضَّرْبَةُ الَّتِي يَأْخُذُهَا الْمَاكِسُ وَهُوَ الْعِشَارُ، وَأَصْلُهُ الْجَبَايَةُ، وَغَلَبَ اسْتِعْمَالُهُ فِيمَا يَأْخُذُهُ أَعْوَانُ الظُّلْمَةِ عِنْدَ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ.

القيامة فتوضع في موازين أرباب المظالم، فإنها إن لم تف حسناته أخذ من سيئات المظلومين فوضعت فوق سيئاته، هذا حكم المظالم الثابتة في ذمته .

فأما الأموال الحاضرة فليرد إلى الملاك ما يعرف مالكة، فإن لم يعرفه ولا ورثته تصدق به، فإن اختلط الحلال بالحرام عرف قدر الحرام بالاجتهاد وتصدق بذلك المقدار، كما سبق بيانه في كتاب الحلال والحرام .

وأما الجناية على القلوب بالإيذاء فمُشافهة الناس بما يسوؤهم، فليطلب كل واحدٍ منهم وليستحلّه، وليعرف قدر الجناية فإن الاستحلال المُبهم لا يكفي، وربما لو عرف ذلك لم تطب نفسه بالإحلال إلا أن تكون تلك الجناية إذا ذكرت كثر الأذى، كنسبته إلى عيبٍ من خفايا عيوبه، أو كزناه بجاريتته، فليجتهد في التلطف به والإحسان إليه، ثم ليستحلّه، ولا بد أن يتقي في مثل هذا مظلمة تُجبر بالحسنات يوم القيامة، فأما من مات من هؤلاء العُرماء فقد فات أمره، فلا يُتدارك الحال إلا بتكثير الحسنات<sup>(١)</sup> لتؤخذ منه عوضاً في يوم القيامة، فلا خلاص إلا برُجحان الحسنات<sup>(٢)</sup>، ويدل عليه حديث أبي سعيد أن رجلاً قتل مئة نفس وأنه لما كان أقرب إلى موطن الخير بيسيرٍ غُفِر له، وقد تقدم الحديث أنفاً<sup>(٣)</sup>، وبهذا يعرف أنه لا خلاص إلا برُجحان ميزان الحسنات ولو بمثقالٍ، فلا بد للتائب من تكثير الحسنات، هذا حكم القصد المتعلق بالماضي .

وأما العزم المرتبط في الاستقبال؛ فهو أن يعقد مع الله تعالى عقداً مؤكداً، ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها، كالذي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلاً، فيعزم عزمًا جزمًا أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه. فإن هذا العزم يتأكد في الحال، وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال، ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه في الحال، ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أول أمره إلا بالغرلة والصمت، وقلة الأكل والنوم، وإحراز قوتٍ حلال، فإن كان له مالٌ موروثٌ حلالاً، أو كانت له حرفةٌ يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر

(١-١) سقط من (ف).

(٢) في باب بيان أن التوبة إذا اجتمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة.

عليه، فإن رأس المعاصي أكل الحرام، وكيف يكون تائباً مع الإصرار عليه ولا يكتفي بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات من المأكولات والملبوسات؟ قال بعضهم: مَنْ صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع مرات<sup>(١)</sup> لم يُبتَل بها، وقال آخر: مَنْ تاب من ذنب واستقام سبع سنين<sup>(٢)</sup> لم يعد إليه أبداً.

ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالماً أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة، وإذا لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة، فأما إذا تاب من بعض الذنوب فقد قال قوم: تصح هذه التوبة. وقال آخرون: لا تصح. ونحن نقول: لا يخلو أن يتوب من الكبائر دون الصغائر، أو من الصغائر دون الكبائر، أو من كبيرة دون كبيرة، فإن تاب من الكبائر فممكن؛ لأنها أعظم عند الله، وإن تاب من بعض الكبائر فممكن؛ لاعتقاده أن بعضها أشد من بعض، كالذي يتوب من القتل والظلم ويهمل ما بينه وبين الله تعالى؛ لأن العفو إلى ذلك أقرب، وقد يتوب من بعض الكبائر دون بعض لترجح ما تاب منه على غيره، كشرب خمر مثلاً، فإنه أصل كل شر، فإن تاب عن صغيرة وهو مصر على كبيرة، فممكن أيضاً؛ لأنه ربما أراد غلبة الشيطان في بعض الذنوب لعله يكفر ما غلبه الشيطان فيه، ولهذا يصوم الفاسق ويصلي ليمحو بعض الذنوب أو لتخف عقوبته، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له». ولم يقل: من الذنوب، وفرق بين ما ذكرنا من قوله: أنا تائب أن أشرب من هذا الدن<sup>(٣)</sup> دون هذا؛ لأن الدنان متماثلة في حق الشهوة وفي التعرض لسخط الله، بل يجوز أن يتوب من الخمر دون النبيذ لتفاوتهما في اقتضاء السخط، ويتوب من الكثير دون القليل؛ لأن لكثرة المعصية تأثيراً في كثرة العقوبة.

فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب من شيء ولا يتوب من مثله، بل لا بد أن يكون ما تاب منه مخالفاً لما بقي عليه، إما في شدة المعصية، أو في غلبة الشهوة.

(١) في (ف): «سنين».

(٢) في الأصل: «مرات».

(٣) الدن: وعاء صخم للخمر ونحوها.

فإن قيل: إذا فرضنا اثنين أحدهما قد سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب، والآخر في نفسه نزوعٌ إليه، وهو يجاهدها، فأيهما أفضل؟  
فالجواب: إن الناس اختلفوا في ذلك، والصواب أن نقول: أما الذي انقطع نزوع نفسه فله حالتان:

أحدهما: أن يكون انقطاع نزوعه بفتورٍ في نفس الشهوة فقط، فالمجاهد أفضل من هذا، إذ تركه بالمجاهدة قدراً على قوة يقينه<sup>(١)</sup> واستيلاء دينه<sup>(٢)</sup> على شهوته.

الحالة الثانية: أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة، إذ قد بلغ مبلغاً قمع فيه هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب الشرع، فلا تهيج إلا بإشارة الدين، وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها، فهذا أعلى رتبة من المجاهد المُقاسي لهيجان الشهوة وقمعها.

فإن قال قائل: الذي يُجاهد نفسه له فضل جهادٍ.

فالجواب: إن الجهاد ليس مقصوداً لعينه بل المقصود قطع ضراوة العدو حتى لا يستجِرَّ إلى شهواته ولا يصدَّ عن سلوك طريق الدين، فإذا قهره الإنسان فقد ظفر، وما دام في المجاهدة فهو بعد في طلب الظفر، ومثاله مثال من قهر العدو واسترقَّ بالإضافة إلى من هو مشغولٌ بالجهاد في صفِّ القتال، ولا يدري كيف يسلم، وقد ظنَّ قوم أن الجهاد هو المقصود الأقصى، وذلك غلط؛ إنما المراد منه الخلاص من عوائق الطريق، وظن آخرون أن قمع الشهوات وإماطتها بالكلية مقصود، فجرَّب بعضهم فعجز، فقال: هذا مُحالٌ، فكذب بالشرع وسلك سبيل الإباحة وكل ذلك جهل، وقد بينا هذا في كتاب رياضة النفس.

فإن قيل: فما تقول في تائبين: أحدهما نسي الذنب ولم يتفكر فيه، والآخر جعله نصب عينيه، فلا يزال يتفكَّر فيه ويحترق نداماً عليه، فأيهما أفضل؟

فالجواب: إن هذا مما اختلف القدماء فيه، فقال قوم: حقيقة التوبة أن تنصب

(١) في (ف): «نفسه».

(٢) تصحفت في (ف) إلى «ذنبه».

ذنبك بين عينيك . وقال قومٌ: حَقِيقَةُ التَّوْبَةِ أَنْ تَنْسِيَ ذَنْبَكَ . وكل واحد من المذهبيين عندنا حق، ولكن بالإضافة إلى حالين، فتصوُّر الذنب وذكره والتفجُّع عليه كمال في حق المبتدئ؛ لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلم تقوَ إرادته وابتعائه لسلك الطريق، ولأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله، وذلك بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان؛ لأنه إذا ظهرت له مبادئ الوصول وانكشفت له أنوار المعرفة استغرقه ذلك ولم يبق فيه متسعٌ للالتفات إلى ما سبق من أحواله .

فنقول: شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في نعيم الآخرة لتزيد رغبته، فإن كان شاباً فلا ينبغي أن يطيل فكره في كل ما له نظير في الدنيا، كالحور والقصور، فإن ذلك الفكر ربما حرَّك رغبته فطلب العاجلة، بل ينبغي أن يتفكَّر في النظر إلى الله تعالى فقط، فذلك لا نظير له في الدنيا، وكذلك تذكُّر الذنب قد يكون محرِّكاً للشهوة، فيستصرِّبه المبتدئ، فيكون الشيطان أفضل له عند ذلك .

## بيان أقسام العباد في دوام التوبة

طبقات التائبين<sup>(١)</sup> أربع:

**الطبقة الأولى:** أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، ويتدارك ما فرط من أمره، ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك عنها البشر في العادات، فهذه هي الاستقامة في التوبة، وصاحبها هو السابق بالخيرات، واسم هذه التوبة: التوبة النصوح، واسم هذه النفس: المطمئنة، وهؤلاء يختلفون من حيث النزوع إلى الشهوات؛ فمنهم من سكنت شهوته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها، ومنهم من تنازعه نفسه، وهو مليء بمجاهدتها .

**الطبقة الثانية:** تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وكبائر الفواحش، إلا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد، ولكنه يُبتلى بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزمًا على الإقدام عليها، فكلما أتى شيئاً منها لام

(١) في (ف): «الناس» .

نفسه وندم، وعزم على الاحتراز من أسبابها، فهذه هي النفس اللّوامة؛ لأنها تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة، فهذه رتبة عالية أيضاً، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى فهي أغلب أحوال التائبين؛ لأن الشرَّ معجونٌ بطينة الأدمي قَلماً ينفك عنه، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شرّه حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الخيرات، فأما أن تخلو كفة السيئات بالكلية فذلك بعيد، وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَعْفَرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، فكل إمام بصغيرة لا عن توطين النفس عليه فهو من اللّم المعفو عنه، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥] فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لندمهم ولومهم أنفسهم عليه وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله يحبُّ المؤمنَ المُفتنَّ»<sup>(١)</sup> والتّواب» وقوله عليه الصلاة والسلام: «مثلُ المؤمنِ كمثلِ السُّنبلةِ تَمِيلُ أحياناً وتقومُ أحياناً».

فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا يُنقص التوبة، ولا يلحق صاحبها بدرجة المُصرِّين<sup>(٢)</sup>، والذي يُؤسُّ هذا من درجة التائبين، كالفقيه الذي يؤس المتفقه من نيل درجة الفقهاء بفتور يعتره عن التكرار في وقت، وهذا يدل على نقصان في الفقيه؛ لأن الفقيه لا يؤس الناس من السعادة بما يعرض لهم من الفتور، قال الله عز وجل: ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [القصص: ٥٤]، فما وصفهم بعدم السيئة، وفي التوراة: ابن آدم خطاء، وخير الخطائين المُستغفرون.

**الطبقة الثالثة:** أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه شهوته في بعض الذنوب، فيقدم عليها لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وترك جملة من الذنوب مع القدرة عليها والشهوة لها، وإنما قهرته شهوة واحدة أو شهوتان وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفها شرّها، فإذا انتهت ندم لكنه

(١) في الأصل: «المفتن».

(٢) تحرفت في (ف) إلى: «المقربين».



والحسناتُ المكفّرة للسيئاتِ إمّا بالقلب أو باللسان وإمّا بالجوارح، فلتكن  
الحسنةُ في محلّ السيئة وفي ما يتعلّق بأسبابها.

فأمّا بالقلب؛ فليُكفّرْها بالتضرّع إلى الله تعالى في سؤالِ العفو، ويتذلّلْ تذلّلَ  
العبد الأبقِ المذنب.

وأما باللسان؛ فالاعترافُ بالظلم والاستغفار، مثل أن يقول: ربّ إنّي ظلمتُ  
نفسي فاغفر لي.

وأما بالجوارح؛ فبالطاعات والصّدقات وأنواع العبادات.

ومما يُرجى به محوُ الذنب<sup>(١)</sup> بعد الندم عليه: أن يُصَلّي ركعتين، ويستغفر،  
أنبأنا هبةُ الله بن محمّد، قال: أخبرنا أبو علي التميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر  
قال: حدّثنا عبد الله بن أحمد قال: حدّثني أبي قال: حدّثنا وكيع قال: حدّثنا سفيان  
عن عثمان ابن المغيرة الثقفي عن علي بن ربيعة الوالبي عن أسماء بن الحكم  
الفرزاري عن علي رضي الله عنه قال: حدّثني أبو بكر أنّه سمع النبي ﷺ يقول: «ما  
من رجل يُذنب ذنباً فيتوضأ فيحسِنُ الوضوء، ثمّ يُصَلّي ركعتين فيستغفرُ الله عزَّ وجلَّ  
إلا غُفِرَ له»<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن مسعود: إنّي لأعلم آيتين في كتاب الله عزَّ وجلَّ لا يقرؤهما عبدٌ عند  
ذنبٍ يُصيبه ثمّ يستغفر الله منه إلا غفر له؛ قوله: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه  
ثمّ يستغفر الله﴾.. الآية [النساء: ١١٠]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا  
أَنْفُسَهُمْ﴾.. الآية [آل عمران: ١٣٥].

\* \* \*

(١) في (ف): «الذنوب».

(٢) أخرجه أحمد (٢)، والحميدي (٤) وابن ماجه (١٣٩٥)، وأبو يعلى (١٢).

## الركن الرابع

### في دواء<sup>(١)</sup> التوبة وطريق العلاج<sup>(٢)</sup> لحلّ عقدة الإصرار

الناس قِسمان: شابٌّ لا صَبوةَ له، نَشَأَ على الخير واجتنابِ الشَّرِّ، وهو المذكور فيما أخبرنا به عبد الوهاب الحافظ قال: أنبأنا أبو الحسين بن الثَّقُور قال: أخبرنا عيسى بن علي الوزير قال: أخبرنا أبو القاسم البَغُوي قال: حدثنا كامل بن طَلْحَة قال: حدثنا ابنُ لهيعةَ عن أبي عُشَّانَةَ<sup>(٣)</sup> عن عُقبَةَ بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجِبَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ شَابٍّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ»<sup>(٤)</sup> وهذا عَزِيزٌ نَادِرٌ.

والقسم الثاني: من لا يخلو من مُقارَفَةِ الذنوب، ثم هُوَ لَا يَنْقَسِمُونَ إِلَى مُصْرِينَ وَإِلَى تَائِبِينَ، وغرضنا هاهنا أن نُبَيِّنَ العِلاجَ فِي حَلِّ عُقْدَةِ الإصرار، ونذكر الدواء لذلك.

واعلم أَنَّهُ لَا يَقِفُ عَلَى الدَّوَاءِ مَنْ لَا يَقِفُ عَلَى الدَّاءِ، إذ لَا مَعْنَى لِلدَّوَاءِ إِلَّا مُناقضته أسباب الداء، فكلُّ داءٍ حصل من سَبَبٍ، فدواؤه حَلُّ ذلك السبب ورفعهُ وإبطاله، ولا يَبْطُلُ الشَّيْءُ إِلَّا بِضِدِّهِ، ولا سبب للإصرار إِلَّا الغفلة والشهوة، ولا يضاذ الغفلة إِلَّا العلمُ، ولا يضاذ الشهوة إِلَّا الصبرُ على قَطْعِ الأسبابِ المحرِّكة للشهوة، والغفلةُ رَأْسُ الخَطَايَا، قال تعالى: ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١٧٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿ [النحل: ١٠٨، ١٠٩].

فلا دواء إذن للتوبة إِلَّا معجونٌ يُعَجِّجُ من حلاوة العلم ومَرارة الصِّبر، كما

(١) تحرفت في (ف) إلى: «دوام».

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) تصحفت في الأصل إلى: «غسان»، وأبو عُشَّانَةَ هو حَيِّ بن يُؤمِّن المصري.

(٤) أخرجه أحمد (١٧٣٧١) والطبراني في الكبير (٨٥٣/١٧)، وابن أبي عاصم في السنة

(٥٧١)، وأبو يعلى (١٧٤٩). والصَّبوة: الميل إلى هوى النَّفسِ بمقتضى السَّن.

يُجمع في السَّكَنَجِيِّينَ بين حَلَاوَةِ السُّكَّرِ وَحُمُوضَةِ الخَلِّ، فبمجموعهما تَنْقَمع الأسبابُ المهيِّجَةُ للصَّفراءِ .

وإذا كان لهذا الدواء أصلان: العلم والصبر، فلا بدَّ من بيانهما، فنقول: يحتاج المريض إلى تصديق بأمور:

**الأول:** أن يُصدَّق في الجملة أن للمرض والصحة أسباباً يتوصل إليها بالاختيار على ما رَبَّه مُسَبِّبُ الأسبابِ، وهذا هو الإيمان بأصل الطَّبِّ، فإنَّ من لا يُصدِّق به لا يَشْتَغِلُ بالعلاجِ، وَوِزَانُ هذا مما نحن فيه؛ الإيمان بأصل الشَّرْعِ، وهو أنَّ للسَّعادةِ في الآخرةِ سَبَباً هو الطَّاعةُ، وللشَّقَاوَةِ سَبَباً وهو المعصيةُ .

**والثاني:** أنه لا بدَّ أن يعتقد المريض في طبيبٍ معيَّنٍ أنه عالمٌ بالطبِّ حاذقٌ فيه صادقٌ فيما يُخبر به، فإنَّ إيمانه بأصل الطَّبِّ لا يَنْفَعُهُ بِمَجْرَدِهِ دون هذا الإيمانِ، وَوِزَانُهُ مِمَّا نحن فيه؛ العلمُ بتصديق الرسولِ ﷺ، والإيمانُ بأنَّ كلَّ ما يقوله حقٌّ .

**والثالث:** أنه لا بدَّ أن يُصْغِي إلى الطَّيِّبِ فيما يُحذِّرُهُ من تناول الأشياءِ المضرَّةِ حتى يغلب عليه الخوفُ في ترك الاحتماء، فتكون شدة الخوفِ باعِثَةً له على الاحتماءِ، وَزَانُهُ من الدينِ؛ الإِصْغَاءُ إلى الآياتِ والأخبارِ المشتملة على التَّرْغِيبِ في التقوى، والتحذيرِ من ارتكاب الذنوبِ واتباع الهوى، والتصديق بذلك من غير شكٍّ حتى ينبعث به الخوفُ المَقْوِيُّ على الصبرِ .

**والرابع:** أن يُصْغِي إلى الطَّيِّبِ فيما يَخْصُّ مرضه وفيما يلزمه الاحتماءُ عنه، فليس على كلِّ مريضٍ الاحتماءُ من كلِّ شيءٍ، بل لكلِّ عِلَّةٍ علمٌ خاصٌ وعلاجٌ خاصٌ، وَزَانُهُ من الدينِ؛ أنَّ لكلِّ مؤمنٍ ذنباً مخصوصاً أو ذنباً، وحاجته مُرَهَقَةٌ إلى العلمِ بأنها ذنوبٌ، ثم إلى العلمِ بآفاتها وَقَدْرِ ضررها في الدينِ، ثم إلى العلمِ بكيفية التوصل إلى الصبرِ عنها، ثم إلى العلمِ بكيفية تكفير ما سبق منها، فهذه علوم يَخْصُّ بها أطباءُ الدِّينِ، وهم العلماءُ، <sup>١</sup> فالعاصي إنَّ علمَ عصيانه فعليه طلبُ العلاجِ من الطَّيِّبِ وهو العالمُ<sup>١</sup>، وإن كان لا يدري أنَّ ما يرتكبه ذنبٌ، فعلى العالمِ



لشخصين مُتضادَي العِلَّة، أما الذي غلبَ عليه الخوفُ حتى هجر الدنيا بالكلية وكَلَّف نفسه ما لا تُطيق، وضيَّقَ العَيْشَ على نفسه، فذلك الذي تُكسِّرُ سَوْرَةَ إِسْرَافِهِ فِي الخَوْفِ بِذِكْرِ أسبابِ الرَّجَاءِ ليعود إلى الاعتدال، وكذلك المصْرُّ على الذنوبِ المُشْتَهِي لِلتوبةِ الممتنعُ عنها لِحكمِ القُنُوطِ واليأسِ استعظماً لِذُنُوبِهِ التي سَبَقَتْ، يعالِجُ أيضاً بِأسبابِ الرَّجَاءِ حتى يطمع في قبولِ التوبةِ فيتوب، وأما معالجةُ المغرورِ المُسترسِلِ فِي المعاصي بِذِكْرِ أسبابِ الرجاءِ فُتُضَاهِي مُعَالِجَةَ المَحْرُورِ بِالْعَسَلِ، وَذَلِكَ مِنْ دَابِّ الأَغْنِيَاءِ، فَإِذَا فَسَادُ الأَطْبَاءِ مُعْضَلَةٌ لَا تَقْبَلُ الدَّوَاءَ أصلاً.

فإن قيل: فما الطَّرِيقُ الَّذِي يَنْبَغِي لِلوَاعِظِ لِسلوكِهِ مَعَ الخَلْقِ ؟ .

فالجواب: إِنَّ ذَلِكَ يَطُولُ، لَكِنَّا نُشِيرُ إِلَى الأَعْمَالِ النَافِعَةِ فِي حَلِّ عُقْدَةِ الإِصْرَارِ وَحَمَلِ النَّاسِ عَلَى تَرْكِ الذنُوبِ، وَذَلِكَ أَرْبَعَةٌ أَنْوَاعٍ:

النوع الأول: أن يذكر ما في القرآن من الآياتِ المُخَوِّفَةِ لِلْمُذْنِبِينَ، وَمَا وَرَدَ فِي الأَخْبَارِ وَالأَثَارِ مِنْ ذَلِكَ، وَيَمِزُجُ ذِمَّ العَاصِي بِمَدْحِ التَّائِبِينَ .

النوع الثاني: حكاياتُ الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَالسَّلَفِ الصَّالِحِ، وَمَا جَرَى عَلَيْهِمْ مِنَ المَصَائِبِ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ، كحَالَةِ آدَمَ وَمَا لَقِيَ فِي عِصْيَانِهِ مِنَ الإِخْرَاجِ مِنَ الجَنَّةِ، وَمَا جَرَى لِداوُدَ وَسُلَيْمَانَ مِنَ البِكَاءِ وَالحُزَنِ، وَمَعاقِبَةُ يُوسُفَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَنسَنُهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ يَضَعُ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]، وَلَمْ يَرِدِ القُرْآنُ وَالأَخْبَارُ بِهَذِهِ الأَشْيَاءِ وَرُودِ الأَسْمَارِ<sup>(١)</sup>، بَلِ المَرَادُ مِنْهُ التَّنْبِيهُ وَالأَعْتِبَارُ، وَإِنَّمَا كَانَتْ سَعَادَةُ الأنبياءِ مُعَاجِلَتِهِمْ<sup>(٢)</sup> بِالْعُقُوبَةِ، وَالأَشْقِيَاءُ يُمَهَلُونَ لِيزدادوا إِثْمًا، وَلأنَّ عَذَابَ الآخِرَةِ أَشَدُّ، فَهَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُكثَرَ مِنْ تَكَرُّرِ جَنَسِهِ عَلَى أَسْمَاعِ المُصْرِّينَ، فَإِنَّهُ نَافِعٌ فِي تَحْرِيكِ دَوَاعِي التَّوْبَةِ .

النوع الثالث: أن يُقرَّرَ عِنْدَهُمْ أَنَّ تَعْجِيلَ العُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا مُتَوَقَّعٌ عَلَى الذَّنْبِ، وَأَنَّ كُلَّ مَا يُصِيبُ العَبْدَ مِنَ المَصَائِبِ، فَهُوَ بِسَبَبِ جُنَايَاتِهِ، فَرَبٌّ عَبْدٌ يَتَسَاهَلُ فِي

(١) الأسمار: الحكايات التي يتسامر الناس بها في المجالس .

(٢) تحرفت في النسخ إلى: «معاجلتهم»، والمثبت من الإحياء .

أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله، فينبغي أن يخوف بذلك، فإن الذنوب قد يتعجل في الدنيا شؤمها في الغالب، كما قال ﷺ: «إنَّ العبد ليُحرَمُ الرِّزْقَ بالذَّنْبِ يُصِيبُهُ».

(١) وقال ابن مسعود: إني لأحسب أن العبد ينسى العلم بذنب يصيبه (١).

وقال بعض السلف: ليست اللعنة سواداً في الوجه إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله أو في شر منه.

وحكي عن بعض العارفين أنه كان يمشي في الوحل مُحترزاً جامعاً ثيابه، فزلقت رجله فخاض، وجعل يبكي ويقول: هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع في ذنب وذنبين، فعندها يخوض في الذنوب خوفاً، وفي هذا إشارة إلى أن تعجيل عقوبة الذنب الوقوع في ذنب آخر، وقد قال الفضيل بن عياض: إني لأعصي الله عز وجل فأعرف ذلك في خلقي حماري وجاريتي (٢).

وقال أبو سليمان الداراني: الاحتلام عقوبة، ولا يفوت أحداً صلاة جماعة إلا بذنب يُذنبه.

ونظر رجل إلى صبي نصراني فعوقب بأن نسي القرآن بعد أربعين سنة.

واعلم أنه لا يُذنب العبد ذنباً إلا ويسود وجه قلبه، وتؤثر الذنوب في ظاهره، وتتكدر أحواله كلها، أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا صفوان بن عيسى قال: أخبرنا ابن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نُكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صُقل قلبه، وإن زاد زادت، حتى يعلو قلبه ذاك الرآن الذي ذكر الله عز وجل في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾» (٣)

[المطففين: ١٤]. قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

(١-١) سقط من (ف).

(٢) في (ف): «خادمي».

(٣) أخرجه أحمد (٧٩٥٢)، والترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤).

أنبأنا أحمد بن أحمد الهاشمي قال: أخبرنا أبو بكر الخطيب قال: أخبرنا أبو سعيد بن شاذان قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصفهاني قال: حدثنا أبو بكر بن عبيد قال: حدثني حسن بن محبوب قال: حدثنا الفيض بن إسحاق الرقي قال: قال حذيفة المرعشي: أخبرنا عمار بن سيف عن الأعمش قال: كُتِبَ عند مُجاهد، فقال: القلبُ هكذا. وبَسَطَ كَفَّهُ. فإذا أذنبَ الرجلُ ذنباً قالَ هكذا. فعقد واحداً. ثم أذنبَ. وعقد اثنين، ثم ثلاثاً، ثم أربعاً، ثم رد الإبهامَ على الأصابع في الذنب الخامس. يطبع على قلبه. قال مجاهد: فأَيْكُم يَرى أَنه لم يُطبع على قلبه؟ وقال حذيفة بن اليمان: إذا أذنب العبدُ نُكِبَتْ في قلبه نُكْتَةٌ سوداء حتى يصير قلبه كالشاة الرُبْداء<sup>(١)</sup>.

وقال الحسن: للحسنة نورٌ في القلب، وقوةٌ في البدن، وللسيئة ظلمةٌ في القلب، وَوَهْنٌ في البدن.

**النوع الرابع:** ذكر ما ورد من العقوبات في آحاد الذنوب، كالخمر والزنا والقتل والكبر والحسد والغيبة، وفي الجملة ينبغي أن يكون طبيباً يعلم الداء ويدري كيف يصنع الدواء، فإن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: أوصني قال: «لَا تَغْضَبْ»، وقال له آخر: أوصني، فقال: «عليك باليأس مما في أيدي الناس»، فكأنه تخايل في الأول مخايل الغضب، وفي الآخر مخايل الطمع.

وينبغي للتصحيح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرُّس الصفات الخفية، وتوسُّم الأحوال اللائقة ليدأويها بما يلائمها، فإن كان الواعظ يتكلم في جمع، أو سأله من لا يدري باطن حاله، فسبيله أن يعظه بما يشترك فيه الخلق كافة أو الأكثر، فإن في علوم الشرع أغذية وأدوية، فالأغذية للكافة، والأدوية لأرباب العليل، ومثاله: قول الحسن لرجل قال له: أوصني. فقال: <sup>(٢)</sup> «أعزَّ أمر الله يُعزُّك الله.

وقول أبي حازم لرجل قال له: أوصني فقال<sup>(٢)</sup>: اضطجع واجعل الموت عند

(١) الشاة الربداء: أي السوداء المنقطة بجمرة.

(٢-٢) سقط من (ف).

رأسك، فما سرّك أن تكون فيه حينئذٍ فاعمل به، وما كرهته فدعه .

فهذه المواعظ مثل الأغذية يشترك في الانتفاع بها الكافّة، ولأجل فقد مثل هؤلاء الوُعَاظ استَشْرَى الفساد، وبُلِيَ الناسُ بوعَاظٍ مقصودهم زخرفة الألفاظ فقط، فلذلك عُدِمَ النَّفْعُ .

**الأصل الثاني: الصّبر**، ووجه الحاجة إليه أن المريض إنَّما يطول مرضه لتناوله ما يضرُّه، وإنَّما يتناول ذلك إما لعفَلته عن مَضَرَّته، وإما لشدة غلبة شهوته، فالذي قد ذكرناه هو علاج العفلة، فيبقى علاج الشهوة، وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النَّفْس، وحاصله: أن المريض إذا اشتدَّت ضرارته بمأكولٍ مُضِرٍّ وطريقه أن يستشعر عِظَمَ ضرره ثم يغيب ذلك عن عينه، فلا يراه، ثم يتسلَّى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره، ثم يصبر بقوة الخوف على الألم الذي يناله في تركه، فلا بد على كل حالٍ من مرارة الصّبر، فكذلك تُعالج الشهوة في المعاصي، كالشباب مثلاً إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه وحفظ قلبه، أو حفظ جوارحه في السّعي وراء شهوته، فينبغي أن يستشعر ضرر دينه بأن يستقرئ المخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فإذا اشتدَّ خوفه تباعد عن الأسباب المهيّجة لشهوته، ومهيج الشهوة من خارج هو حضور المُشْتَهَى والنظر إليه، <sup>١</sup> وعلاجه الهرب والعزلة، ومن داخلٍ تناول لذائذ الأَطعمة<sup>٢</sup>، وعلاجه الجوع والصوم الدائم، وكل ذلك لا يتم إلا بصبرٍ، ولا يصبر إلا عن خوف، ولا يخاف إلا عن علم، ولا يعلم إلا عن بصيرة، فأول الأمر حضور مجالس الذّكر، ثم الاستماع بقلبٍ مجردٍ عن الشّواغل، ثم التفكّر فيما قيل، فينبعث الخوف إذن فيسهل الصبر، وتيسّر الدّواعي لطلب العلاج، وتوفيق الله سبحانه من وراء ذلك .

فإن قيل: ما بال الإنسان يقع في الذنب مع علمه بقبح عواقبه ؟

فالجواب: لوجوه:

أحدها: أن العقاب الموعود ليس بحاضرٍ، والنفس قد جُبلت متأثرة بالحاضرٍ،

فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر.

والثاني: أن الشَّهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة، وهي في الحال آخذة بقياد النفوس، وصار ذلك عادةً، والعادة طبيعة خامسة، والنزوع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النَّفس، ولذلك قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١] وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «حُفَّتْ النار بالشَّهوات وحُفَّتْ الجنة بالمكارة». وفي لفظ البخاري: «حُجِبَتْ» مكان: «حُفَّتْ».

أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا محمد بن بشر قال: حدثنا محمد بن عمرو قال: حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله عز وجل الجنة والنار أرسل جبريل - يعني إلى الجنة - فقال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله عز وجل لأهلها فيها، فرجع إليه، فقال: وعزتك لا يسمع بها أحدٌ إلا دخلها. فأمر بها فحُجِبَتْ بالمكارة، وقال: ارجع فانظر إليها (١) وإلى ما أعددت لأهلها فيها. فرجع فإذا هي قد حُجِبَتْ بالمكارة، فرجع إليه»<sup>(١)</sup> فقال: وعزتك لقد خشيتُ أن لا يدخلها أحد. قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها فجاءها، فنظر إليها وإلى ما أعد لأهلها فيها، فإذا هي يركب بعضها بعضاً، فرجع إليه فقال: وعزتك، لا يسمع بها أحدٌ فيدخلها. فأمر بها فحُفَّتْ بالشَّهوات، وقال له: ارجع فانظر إليها. فرجع فنظر فيها، فإذا هي قد حُفَّتْ بالشَّهوات، فرجع إليه، فقال: وعزتك لقد خشيتُ أن لا ينجو منها أحدٌ إلا دخلها»<sup>(٢)</sup>. قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

وإذا كانت الشهوة مُرَهَقَةً في الحال، والعقاب متأخرًا، فذاتك سببان ظاهران في

(١) سقط من (ف).

(٢) أخرجه أحمد (٨٣٩٨) و(٨٦٤٨) و(٨٨٦١)، والترمذي (٢٥٦٠)، والنسائي ٤٣/٧، وأبو

يعلى (٥٩٤٠).

الاسترسال وإن حصل أصل الإيمان، فإن الإنسان إذا عطشَ في مرضه فشرَبَ الثلجَ لم يكن مُكذِباً بأصل الطَّبِّ في أن هذا يَصْرَهُ، ولكنه مغلوبُ الشَّهوة، وألم الصَّبْر عن ذلك ناجِزٌ، فهوَّناً عليه ذلك الألم ما ينتظر.

والثالث: أنه ما من مؤمن يُذنب إلا وهو عازمٌ على التوبة، وقد وُعد بأن ذلك يَجْبُرُ ما فعل، إلا أن طول الأمل غالبٌ على الطَّباع، فلا يزالُ يُسوِّفُ التَّوبَةَ، فلما رجا التوبة أقدم على الذنب.

والرابع: أنه ما من مؤمنٍ إلا وهو معتقدٌ أن الذنب لا يُوجب العقوبة إيجاباً لا يمكن العفو عنها، فهو يُذنب وينتظر العفو اتكالاً على فضل الله عزَّ وجل.

فهذه أسبابٌ أربعةٌ موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الإيمان، فأما من أقدم شاكاً في صدق الرُّسل، فهذا كافرٌ.

فإن قيل: فما علاجُ هذه الأسبابِ؟

فالجواب: أن علاجها: الفكر بأن يُقرَّر على نفسه في السَّبب الأول، وهو تأخر العقل، أن كل ما هو آتٍ قريبٌ، وأنه لا يأمن هجومَ الموت، وأنه لو حوَّفه طبيبٌ نصراني في مرضه تناوُل ما يشتهيهِ تركه، فما يقول في قول الأنبياء المؤيِّدين بالوحي في عواقب الذنوب؟ وكيف يكونُ عذابُ النار أخفَّ عنده من عذاب المرض؟ وبهذا الفكر يُعالج اللدَّة الغالبة، ويكلف نفسه الصبر، ويقول: إذا كنتُ لا أقدر على تركِ لذاتِ أيام العمر وهي قلائل فكيف أقدرُ على ذلك أبَد الآباد؟ وإذا لم أطقُ ألم الصَّبْر، فكيف أطيقُ ألم النار؟ وإذا لم أصبر على زخارف الدنيا مع كدِّها كيف أصبر عن نعيم الآخرة؟

فأما تسويفُ التَّوبَةِ فيُعالجه بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التَّسويف؛ لأن المُسوِّفَ بيني الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء، فلعله لا يبقى، وإن بقي فربما لم يَقْدِر على الترك غداً كما لا يقدر عليه اليوم، وهل عجز في الحال إلا لعلبةِ الشَّهوة، والشَّهوة غير مفارقة له غداً، بل تتأكَّدُ بالاعتیاد، وعن هذا هلك المُسوِّفون؛ لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين، ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن

ترك الشهوات فيها أبداً شاقاً، وما مثال المسوّف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة، فرأها قويّة لا تنقلع إلا بمشقة شديدة، فقال: أوخرها سنة. ثم يعود إليها وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه، فالعجب من عجزه مع قوته عن مقاومة ضعيف كيف انتظر العلبة له إذا ضعف هو وقوي الضعيف.

وأما المعنى الرابع؛ وهو انتظار عفو الله تعالى، فعلاجه الأخذ بالحزم وترك المجوزات البعيدة، ومثله في حاله كمثّل من أنفق أمواله كلّها وترك نفسه وعياله فقراء منتظراً من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في حربة، أو مثل من رأى الظلمة ينتهبون البلد، وذخائر أمواله في صحن داره، وقد قدر على دفعها وإخفائها، فلم يفعل، وقال: أنتظر من فضل الله أن يسلم غفلة على الظالم المنتهب فلا يتفرغ إلى داري، وإذا بلغ داري مات على باب الدار. فهذا ممكن إلا أن صاحبه ملقب بالأحمق ومثله إمكان العفو عن الذنب.

فأما الشك والكفر، فعلاجه النظر في صدق الرسل، ويمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله فيقال له: هل صدق الأنبياء ممكن أو مستحيل؟ فإن قال: مستحيل. فهو معتوه، وإن قال: أنا شاك في ذلك. قيل له: فلو تركت طعاماً في بيتك فأخبرك شخص مجهول أنه قد ولعت فيه حية وقذفت فيه سمها، هل تأكله أو تتركه؟ فإنه سيقول: أتركه؛ لأنه إن كذب المخبر لم يفتني غير هذا الطعام والصبر عنه قريب، وإن صدق فانتني الحياة، والموت بالإضافة إلى الصبر عن الطعام شديد. فيقال له: كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات، وصدق العلماء والحكماء كافة بل جميع أصناف العقلاء عن صدق رجل واحد مجهول لعله له غرض فيما قال، وليس في العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر، وأثبت ثواباً، وإن اختلفوا في كفيته، فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى على الآباد، وإن كذبوا فما يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرّة، فلا يبقى له توقّف إن كان عاقلاً مع هذا الفكر، إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد، بل لو قدرنا الدنيا مملوءة بالذرة، وقدرنا طائراً يلتقط في كل ألف سنة حبة واحدة

منها لَفَنَيْتِ الذَّرَّةَ ولم تَنقُطِ الآباد فكيف يفتر رأي العاقل في الصبر عن الشَّهوات منه سنة مثلاً لأجل سعادة تبقى أبد الآباد ؟ ومن هذا النحو الذي ذكرناه قول الشاعر :

قَالَ الْمُنَجِّمُ وَالطَّبِيبُ كِلَاهُمَا      لَا تُبَعَثُ الْأَمْوَاتُ قَلْتُ إِلَيْكُمَا  
إِنْ صَحَّ قَوْلُكُمَا فَلَسْتُ بِخَاسِرٍ      أَوْ صَحَّ قَوْلِي فَالْخَسَارُ عَلَيُكُمَا  
فإن قيل : فالإيمان لا ينبغي أن يقع بتردد .

قلنا : إنما ذكرنا هذا تدرجاً لإقامة الحجة على هذا المُفْرَط، فهو من جنس قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : ٥٢] وقوله : ﴿ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ [غافر : ٢٨] ، وإلا فالأدلة على الإيمان جلية .

فإن قيل : هذه أمورٌ واضحة فما بال القلوب هَجرتِ الفِكرَ فيها واستثقلتْ ؟ وما علاج القلوب لترجع إلى الفِكر فيها لاسيما من آمن بأصل بالشرع ؟  
فالجواب : إنَّ المانع من الفكر أمران :

أحدهما : أن الفكر النَّافع هو الفِكر في عقاب الآخرة وأهوالها وحسراتِ العاصين على حِرمان النِّعيم المُقيم ، وهذا فِكرٌ لَدَاعٌ مُؤَلِّمٌ للقلب ، فيَنفِر القلبُ عنه ، ويلتذُّ بالفِكر في أمورِ الدنيا على سبيل التَّفريج والاستراحة .

والثاني : أن الفِكر شُغْلٌ في الحال مانعٌ من لذائذ الدنيا وقضاء الشَّهوات ، وما مِن إنسانٍ إلا وَله في كل حالةٍ من أحواله ونَفْسٍ من أنفاسِه شهوةٌ قد تسلَّطت عليه واسترَقَّ فصار عقلُه مُسَخَّرًا لشهوته ، فهو مشغول بتدبير حيلته ، وصارت لذته في طلب الحيلة فيه أو في مُباشرة قضاء الشَّهوة ، والفِكر يمنعه من ذلك .

وعلاج هذين المانعين أن يقول الإنسان لقلبه : ما أشدَّ غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما بعده تألماً بذكره مع احتقار ألمِ مُواقعتِه ، فكيف تصبر على مُقاساته إذا وَقَع وأنت عاجزٌ عن الصِّبر على تقدير الموت وما بعده ومتألم به ؟

وأما الثاني: وهو كون الفكر مُفَوَّتاً للذات الدنيا هو أن يتحقق أن قَواتِ لذاتِ الآخرة أشد وأعظم؛ لأنها لا آخر لها ولا كَدْر فيها، ولذات الدنيا مَشوبَةٌ بالكدر سريعة الذهاب، ثم في التوبة عن المعاصي والإقبال على الطاعة تَلدُّذُ بمناجاة الله تعالى، واستراحة بمعرفته وطاعته وطول الأُنسِ به، ولو لم يكن للمُطيع جزاء على عمله إلا ما يَجده من حلاوة الطاعة ورُوح الأُنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافياً، فكيف بما يُضاف إليه من نعيم الآخرة؟ إلا أن هذه اللذة لا تكون في ابتداء التَّوبَةِ، وتكون بصبرٍ مدَّةٍ<sup>(١)</sup> مديدة، وقد صار الخَيْرُ دَيْدَنًا، والنفسُ قابلةٌ تتعوَّد بما عوَّدتها، فهذه الأفكار هي المهيجَة للخوف المهيج لقوَّة الصَّبْر عن اللذات، ومُهيج هذه الأفكار وَعَظُّ الوَعَاظِ، وتنبيهات تَقَعُ للقلبِ بِأسبابٍ تَتَّفِقُ لا تدخل تحت الحصر، فيصير الفكر موافقاً للطبع، فيميل القلب إليه، ويُسمَّى السَّببُ الذي أوقع الموافقة بين الطَّبع وبين الفكر الذي هو سَببُ الخَيْرِ: توفيقاً، إذ التَّوفيق هو التَّأليفُ بين الإرادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة، وهذا القَدْرُ في التَّوبَةِ كافٍ.

وإذا كان الصَّبْرُ رُكنًا من أركانِ دَوامِ التَّوبَةِ، فلا بدَّ من بيانه، فنذكره في كتابٍ مُفردٍ يلي هذا إن شاء الله تعالى.

آخر كتاب التوبة

\* \* \*

(١) ليست في الأصل.

## كتاب الصبر والشكر

### وهو الكتاب الثاني من رُبْعِ الْمُنْجِيَاتِ

الحمدُ لله المتفرِّدُ بالعِزِّ والعِلاءِ، المتوحِّدُ بالمَجْدِ والكِبْرِيَاءِ، أهلِ المَدْحِ والْحَمْدِ<sup>(١)</sup> والثَّناءِ ربَّ العِزَّةِ والعَرْشِ والْبِنَاءِ، بَثَّ لَلابْتِلاءِ فُنُونَ الضَّرَاءِ والسَّرَّاءِ، وحثَّ عِبَادَهُ على الصَّبْرِ على البِلاءِ والشُّكْرِ على الرِّخاءِ، لِيَجْزِيَهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا في دارِ البَقَاءِ، فأخَذَ مَرَضُ الفُتُورِ يَدَبُ في الأَعْضاءِ، فانتَبَهَ أَقْوَامٌ لِمداوَاةِ هَذَا الدَّاءِ، فَاسْتَعَدُّوا وَعَدُّوا الهَوَى مِنْ الأَعْداءِ وآثَرُوا الباقِي نُفُوراً عَن فَناءِ الفَناءِ، وَيَكْفِي في مَدْحِهِم قولُ رَبِّ الأَرْضِ والسَّماءِ: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

أَحْمَدُهُ على جَزِيلِ النِّعماءِ، حَمْداً يَدومُ بِدوامِ هُبوبِ الرِّيحِ وَجَرِيِ المَءِ، وَأُصَلِّي على رَسولِهِ مُحَمَّدِ سَيِّدِ الأنبياءِ، وَعَلى أَصْحابِهِ الكِرامِ البَرِّرةِ الأَتقياءِ، وَالقائِمِينَ بِشِرعِهِ إلى يَوْمِ القِيامَةِ في فِضاءِ القَضاءِ، وَسَلِّمَ تَسليماً كَثِيراً يَفُوتُ العَدَّ والإِحْصاءَ.

أما بعد: فَإِنَّ الإِيمانَ نِصفانَ: نِصفٌ صَبْرٌ وَنِصفٌ شُكْرٌ، فَالجَهِلُ بِحَقِيقَةِ الصَّبْرِ والشُّكْرِ جَهِلٌ بِكِلا سَطْرِي الإِيمانِ فَكِيفَ يُتَّصَرُّ سِلوُكُ سَبيلِ الإِيمانِ دونَ مَعْرِفَةِ ما بِهِ الإِيمانُ، فما أَحوجُ كِلا السَّطْرينِ إلى الإيضاحِ والبيانِ، وَنَحْنُ نُوضِحُ السَّطْرينِ في كِتابٍ واحِدٍ لارتِباطِ أَحدهما بِالآخرِ إن شاء اللهُ تَعالَى.

(١) في (ف): «المجد».

## الشَّطْرُ الْأَوَّلُ

### فِي الصَّبْرِ

وفيه بيانُ فضيلة الصبر، وبيانُ حَدِّه وحقِّقته، وبيانُ كونه نصف الإيمان، وبيانُ اختلاف أساميه باختلاف مُتعلقاته، وبيانُ أقسامه بحسب القوة والضعف، وبيانُ مَظَانِّ الحاجة إلى الصَّبْرِ، وبيانُ دَوَاءِ الصَّبْرِ وما يستعان به عليه.

فهي سبعةُ فصول تشتمل على جميع مقاصده.

### بيانُ فَضيلةِ الصَّبْرِ

قد ذكرَ اللهُ عزَّ وجلَّ الصبرَ في نحوٍ من تسعينَ موضعاً من القرآن، فأضاف أكثر الخيراتِ والدَّرجاتِ إلى الصَّبْرِ، وجعلها ثمرةً له، فقال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ يَا مَرْغُوبًا لِمَا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال: ﴿ولنجزيَن الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [النحل: ٩٦]، وقال: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] فما من قُربةٍ إلا وأجرُها بتقدير وحسابٍ إلا الصبر، ولأجل كون الصَّوم من الصبر قال تعالى: ﴿الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أُجْزِي بِهِ﴾<sup>(١)</sup>، فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات، ووعد الصابرين بأنه معهم فقال: ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ [الأنفال: ٤٦] وعلَّق النَّصْرَ على الصبر فقال: ﴿بَلَاءٌ إِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وجمع للصابرين بين أمورٍ لم

(١) أخرجه مسلم (١١٥١) (١٦٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

يجمعها لغيرهم، فقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧]، والآيات في هذا كثيرة.

وأما الأحاديث والآثار: ففي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أفضل عيش أدركننا بالصبر، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريماً.

وقال علي رضي الله عنه: ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قُطِعَ الرأس مات الجسد. ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له. وقال الحسن: الصبر كنز من كنوز الجنة، لا يعطيه الله عز وجل إلا لعبده كريم عليه.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه، فعاذه مكان ما انتزع منه الصبر إلا كان ما عوضه خيراً مما انتزع منه.

وقال ميمون بن مهران: ما نال أحد شيئاً من جسيم الخير، نبي فمّن دونه إلا بالصبر.

وقال سليمان بن القاسم: كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] قال: كالماء المنهمر.

وكان بعض العارفين في جيبه رُقعة يُخرجها في كل ساعة يطالعها، وفيها: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

### بيان حقيقة الصبر ومعناه

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين، ومنزل من منازل السالكين، وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أشياء: معارف وأحوال وأعمال.

فالمعارف هي الأصول، وهي تورث الأحوال، والأحوال تُثمر الأعمال، فالمعارف كالأشجار، والأحوال كالأغصان، والأعمال كالثمار، وهذا المُطرِد في

جميع منازل السالكين إلى الله، واسم الإيمان تارة يُخَصُّ بالمعارف، وتارة يُطلق على الكل كما ذكرنا في اختلاف اسم الإيمان والإسلام في كتاب (قواعد العقائد)<sup>(١)</sup>.

وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة، فالصبر على التحقيق عبارة عنها، وبعمل هو كالثمره يصدر عنها، ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والإنس والبهائم، فإن الصبر خاصية الإنس، ولا يتصور ذلك في الملائكة والبهائم، أما في البهائم فلثقتانها، وأما في الملائكة فلكمالها، وبيانه: أن البهائم سلطت عليها الشهوات فصارت مسخرة لها ولا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة، وليس فيها قوة تُصادم الشهوة وتردّها عن مقتضاها حتى يُسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبراً.

وأما الملائكة فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها، ولم تُسلط عليهم شهوة صارفة عنها حتى تحتاج إلى مُصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال.

وأما الإنسان فإنه خلق في ابتداء الصبا ناقصاً مثل البهيمة لم يُخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه، ثم تظهر فيه شهوة اللب والزينه، ثم شهوة النكاح، وليس له قوة الصبر البتة، إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما، وليس في الصبي إلا جند الهوى كما في البهائم، فإذا تحرك العقل وقوي ظهرت مبادئ إشراق نور الهداية عند سن التمييز، وتنمو على التدريج إلى سن البلوغ، كما يبدو نور الصباح إلى أن يطلع قرص الشمس، ولكنها هداية قاصرة لا تُرشد إلى مضار الآخرة بل إلى مضار الدنيا، ولذلك يُضرب على ترك الصلوات ولا يُعاقب على ذلك في الآخرة، فإذا قوي العقل تلمح العواقب فيما يتعلّق بالدنيا، فإذا عُضد بمعرفة الشرع تلمح ما يتعلّق بالآخرة وكثر سلاحه، إلا أن الطبع يقتضي ما يُحب، وبعث العقل والدين يمنع،

(١) هذا من كلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى، فكتاب قواعد العقائد من مصنفاته.

والحربُ بينهما قائمة، وهي سجالٌ، ومعركةٌ هذا القتالُ قلبُ العبدِ، والصبرُ عبارةٌ عن ثباتِ باعِثِ الدِّينِ في مقابلةِ باعِثِ الشَّهوةِ، فإن ثبتَ حتى قهره التحقَّ بالصَّابرينَ، وإن ضَعُفَ حتى غلبت الشَّهوةُ ولم يَصْبِرْ في دفعها التحقَّ بأتباعِ الشياطينَ، فإنَّ تركَ الأفعالِ المُشْتَهَاةِ عملٌ يُثْمِرُهُ حالٌ يُسمى الصَّبْرَ، وهو ثباتُ باعِثِ الدِّينِ الذي في مقابلةِ باعِثِ الشَّهوةِ، وثباتُ باعِثِ الدِّينِ حالٌ تُثمرها المعرفةُ بَعْدَاوَةِ الشَّهَوَاتِ ومُضَادَّتِهَا لِأَسْبَابِ السَّعَادَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَمَنْ قَوِيَ يَقِينُهُ قَوِيَ ثَبَاتُ باعِثِ دِينِهِ، وَإِذَا قَوِيَ ثَبَاتُهُ تَمَّتِ الأفعالُ عَلَى خِلافِ مَا تَقْضَاهُ الشَّهْوَةُ، فَلَا يَتِمُّ تَرْكُ الشَّهْوَةِ إِلَّا بِقُوَّةِ باعِثِ الدِّينِ المُضَادِّ لِباعِثِ الشَّهْوَةِ، وَقُوَّةُ المعرفةِ وَالإيمانِ تُبْخِجُ مَعَبَّةَ الشَّهَوَاتِ وَسُوءَ عَاقِبَتِهَا، وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ الصَّبْرَ عِبَارَةٌ عَنِ ثَبَاتِ باعِثِ الدِّينِ فِي مَقَاوِمَةِ باعِثِ الهَوَى، فَهَذِهِ المَقَاوِمَةُ مِنْ خَاصِيَّةِ الآدَمِيِّينَ.

### بَيَانُ كَوْنِ الصَّبْرِ نِصْفَ الإِيمَانِ

الصَّبْرُ نِصْفُ الإِيمَانِ بِاعتبارينَ، وَعَلَى مَقْتَضَى إِطْلَاقِيْنِ:

أحدهما: أَنْ يُطْلَقَ عَلَى التَّصَدِيقَاتِ وَالْأَعْمَالِ جَمِيعاً، وَلِأَنَّ لِلإِيمَانِ رَكْنَانِ؛ أَحَدُهُمَا اليَقِينُ، وَالآخَرُ الصَّبْرُ، وَالْمَرَادُ بِالْيَقِينِ: المَعَارِفُ القَطْعِيَّةُ الحَاصِلَةُ بِهَدَايَةِ اللَّهِ عِبْدَهُ إِلَى أَصُولِ الدِّينِ، وَالْمَرَادُ بِالصَّبْرِ: العَمَلُ بِمَقْتَضَى اليَقِينِ، إِذِ اليَقِينُ يُعَرِّفُهُ أَنَّ المَعْصِيَةَ ضَارَةٌ وَالطَّاعَةَ نَافِعَةٌ، وَلَا يُمْكِنُ تَرْكُ المَعْصِيَةِ وَالْمَوَاطَبَةَ عَلَى الطَّاعَةِ إِلَّا بِالصَّبْرِ، وَهُوَ اسْتِعْمَالُ باعِثِ الدِّينِ فِي قَهْرِ باعِثِ الهَوَى وَالْكَسَلِ، فَيَكُونُ الصَّبْرُ نِصْفَ الإِيمَانِ بِهَذَا الِاعتْبَارِ.

والاعتبار الثاني: أَنْ يُطْلَقَ عَلَى الأَحْوَالِ المَثْمُرَةِ لِلأَعْمَالِ لَا عَلَى المَعَارِفِ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَنْقَسِمُ جَمِيعٌ مَا يُلَاقِيهِ العَبْدُ إِلَى مَا يَنْفَعُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَوْ يَضُرُّهُ فِيهِمَا، وَلَهُ بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا يَضُرُّهُ حَالُ الصَّبْرِ، وَبِالإِضَافَةِ إِلَى مَا يَنْفَعُهُ حَالُ الشُّكْرِ، فَيَكُونُ الشُّكْرُ أَحَدَ شَطْرِي الإِيمَانِ بِهَذَا الِاعتْبَارِ، كَمَا كَانَ اليَقِينُ أَحَدَ الشَّطْرَيْنِ بِالِاعتْبَارِ الأوَّلِ، وَبِهَذَا الِاعتْبَارِ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: الإِيمَانُ نِصْفَانِ: نِصْفُ صَبْرٍ، وَنِصْفُ شُكْرٍ.

ولما كان الصبر صبراً عن بواعث الهوى بثبات باعث الدين، وكان باعث الهوى قسمين: باعث من جهة الشهوة، وباعث من جهة الغضب فالشهوة لطلب اللذيق، والغضب للهروب من المؤلم، فكان الصوم صبراً عن مقتضى الشهوة فقط وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب، فلهذا قيل: الصوم نصف الصبر؛ لأن كمال الصبر بالصبر عن داعي الشهوة وداعي الغضب جميعاً فيكون الصوم<sup>(١)</sup> بهذا الاعتبار رُبع الإيمان، فهكذا ينبغي أن تُفهم تقديرات الشرع لحدود الأعمال والأحوال ونسبتها إلى الإيمان.

## بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر

اعلم أن الصبر ضربان:

ضربٌ بدني، لتحمل المشاق بالبدن والثبات عليه، وهو إما بالفعل، كتعاطي الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها، وإما بالاحتمال، كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة، وذلك قد يكون محموداً إذا وافق الشرع، ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر، وهو الصبر النفساني عن مُشتهيات<sup>(٢)</sup> الطبع ومقتضيات الهوى، ثم هذا الضرب إن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج سُمي عفة وإن كان على احتمال مكروهٍ اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذي عليه الصبر؛ فإن كان في مُصيبةٍ اقتصر على اسم الصبر، وتُضاده حالة تُسمى الجزع والهلع، وهو إطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها، وإن كان في احتمال الغنى سُمي ضبط النفس، وتُضاده حالة تُسمى البطر، وإن كان في حربٍ و قتالٍ سُمي شجاعةً، ويُضاده الجبن، فإن كان في كظم العيظ والغضب سُمي جِلماً، ويُضاده التدمر<sup>(٣)</sup>، وإن كان في نائبةٍ

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الصبر».

(٢) تحرفت في (ف) إلى: «تشيّهات».

(٣) تحرفت في (ف) إلى: «الندم».

من نوائب الزمان مُضجرة سُمِّي سَعَة صَدْرٍ، وَيُضَادُهُ الصَّجْر والتَّبْرُم وَضِيق الصَّدْر، وَإِنْ كَانَ فِي إِخْفَاءِ كَلَامٍ سُمِّي كِثْمَان السَّرِّ، وَسُمِّي صَاحِبُهُ كَتْمَوًّا، وَإِنْ كَانَ فِي فُضُولِ الْعَيْشِ سُمِّي زُهْدًا، وَيُضَادُهُ الْحِرْصُ، فَإِنْ كَانَ صَبْرًا عَلَى قَدْرِ يَسِيرٍ مِنَ الْحِظُوظِ سُمِّي قَنَاعَةً، وَيُضَادُهُ الشَّرَهُ، فَأَكْثَرُ أَخْلَاقِ الْإِيمَانِ دَاخِلَةٌ فِي الصَّبْرِ، فَهَذِهِ أَقْسَامُ الصَّبْرِ بِاخْتِلَافِ مَتَعَلِقَاتِهِ.

## بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال:

إحداها: أن يقهر دواعي الهوى، فلا تبقى له قوة المنازعة، ويتوصل إليه بدوام الصبر، ولهذا يُقال: مَنْ صَبَرَ قَدَرَ. والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأفلون ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

الحالة الثانية: أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلية مُنازعة باعث الدين، فيُسلم نفسه إلى جُند الشيطان<sup>(١)</sup>، ولا يُجاهد ليأسه من المُجاهدة، وهؤلاء هم الغافلون، وهم الأكثرون، وهم الذين استرققتهم شهواتهم وغلبت عليهم شفتوتهم، الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأماني، وهي غاية الحمق، قال النبي ﷺ: «والعاجزُ من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»<sup>(٢)</sup>. وصاحبُ هذه الحالة إذا وعظَ قال: أنا مُشتاق إلى التوبة ولكنها قد تعذرت عليّ، فليست أطمعُ فيها. وربما لم يشتق إلى التوبة ولكن يقول: الله غفورٌ رحيم، لا حاجة به إلى توبتي، وهذا المسكين قد صار عقله رقيقاً لشهوته فلا يستعمل عقله إلا في استنباط دقائق<sup>(٣)</sup> الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهواته، وقد صار عقله في يد شهواته كمسلم أسير في أيدي الكفار، فهم

(١) تحرفت في (ف) إلى: «السلطان».

(٢) أخرجه أحمد (١٧١٢٣) والطيالسي (١١١٢)، والترمذي (٢٤٥٩)، والطبراني في الكبير

(٧١٤٣) والبيهقي في السنن ٣/٣٦٩ من حديث شداد بن أوس.

(٣) سقطت من (ف).

يَسْتَسْخِرُونَهُ فِي رِعَايَةِ الْخَنَازِيرِ وَحِفْظِ الْخَمْرِ وَحَمَلِهَا، وَمَحَلَّهُ عِنْدَ اللَّهِ مَحَلٌّ مِّنْ يَّقْهَرُ مُسْلِمًا وَيُسَلِّمُهُ إِلَى الْكُفْرِ وَيَجْعَلُهُ أَسِيرًا عِنْدَهُمْ؛ لِأَنَّ سَبَبَ تَفَاحُشِ جَنَائِهِ أَنَّهُ سَخَّرَ مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَسْخِرَ، وَسَلَّطَ عَلَى مَنْ حَقُّهُ أَنْ يَتَسَلَّطَ عَلَيْهِ، وَلَمَّا سَخَّرَ الْمَعْنَى الشَّرِيفَ الَّذِي هُوَ حِزْبُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمَعْنَى الْخَسِيسِ الَّذِي هُوَ مِنْ حِزْبِ الشَّيَاطِينِ، كَانَ كَمَنْ أَرَقَّ مُسْلِمًا لِكَافِرٍ، بَلْ هُوَ كَمَنْ قَصَدَ الْمَلِكَ الْمُنْعَمَ عَلَيْهِ فَأَخَذَ أَعَزَّ أَوْلَادِهِ فَسَلَّمَهُ إِلَى بَعْضِ أَعْدَائِهِ، فَانظُرْ كَيْفَ يَسْتَوْجِبُ نِقْمَتَهُ؛ لِأَنَّ الْهَوَى أَبْغَضُ إِلَهٍ عَبْدٍ فِي الْأَرْضِ إِلَى اللَّهِ، وَالْعَقْلُ أَعَزُّ مَوْجُودٍ خُلِقَ.

**الحالة الثالثة:** أن تكون الحرب سجالاتاً بين الجندين، فتارة له اليد وتارة عليه، وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، هذا باعتبار القوة والضعف، ويتطرق إليه أيضاً ثلاثة أحوالٍ باعتبار عدد ما يصبر عنه، فإنه إما أن يغلب جميع الشهوات فهو الكامل، أو لا يغلب شيئاً منها، فأولئك يُشَبَّهون بالأنعام بل هم أضلّ، إذ البهيمة لم تُخلق لها معرفة ولا قدرة تُجاهد بهما الشهوات، وهذا قد خُلِقَ له ذلك فعطله، أو يغلب بعضها دون بعض، فهو في مقام ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] ومن الناس من يصبر بجهد جهيد وتعب شديد، وهذا التَّصَبُّرُ، ومنهم من يصبر بأدنى حملٍ على النفس، فهذا هو الصبر.

فمثال الأول: مثال مصارع صارع رجلاً شديداً فهو لا يقهره إلا بعد تعبٍ شديد، ومثال الثاني: أن يصارع ضعيفاً فهو يصصره بغير تعبٍ، وهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى، فإنه على التحقيق صراعٌ بين جنود الملائكة وجنود الشياطين، ومتى أذعنت الشهوات وانقمعت وتيسر الصبر بطول المواظبة أورت ذلك مقام الرضا.

واعلم أن الصبر ينقسم باعتبار حكمه إلى فرضٍ ونفلٍ ومكروهٍ ومُحْرَمٍ، فالصبر عن المحظورات فرض، وعن المكروه نفل، وعلى الأذى المحظور محظور، كمن يقطع يد نفسه ويصبر على ذلك، أو يقصد حرمة بشهوةٍ مُحْرَمَةٍ فتُهَيِّجُ غِيْرَتَهُ فَيَصْبِرُ عَنِ الْغِيْرَةِ وَيَسْكُتُ عَلَى مَا يَجْرِي عَلَى أَهْلِهِ، فَهَذَا الصَّبْرُ مُحْرَمٌ، وَالصَّبْرُ الْمَكْرُوهُ هُوَ الصَّبْرُ عَلَى أَدَى يَنَالُهُ بِجَهَةِ مَكْرُوهَةٍ فِي الشَّرْعِ، فَلِيَكُنِ الشَّرْعُ مُحَكِّمًا لِلصَّبْرِ.

## بيان مَظَانِّ الحَاجَةِ إِلَى الصَّبْرِ وَأَنَّ العَبْدَ لَا يَسْتغْنِي عَنْهُ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ

اعلم أن جميع ما يلقي العبد في الدنيا لا يخلو من نوعين: أحدهما يوافق هواه، والآخر يكرهه، وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما.

أما النوع الموافق للهوى: فهو الصحة والسلامة، والمال والجاه، وكثرة العشييرة والأتباع، وجميع ملاذ الدنيا، والعبد محتاج إلى الصبر في هذه الأمور، فلا يركن إليها ولا يبطر بها ولا ينهمك في التلذذ واللعب، ويراعي حق الله تعالى في ماله بالإنفاق وفي بدنه بالمعونة للخلق، ومتى لم يضبط نفسه عن الانهماك في ملاذها والركون إليها أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان حتى قال بعض العارفين: البلاء يصبر عليه المؤمن ولا يصبر على العافية إلا صديق.

وقال عبد الرحمن بن عوف: ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر.

ولذلك حذر الله عز وجل عباده من فتنة المال والأزواج والأولاد، فقال تعالى:

﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالِكُمْ وَلَا أَوْلَادِكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، وقال: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، وقال النبي ﷺ: «الْوَالِدُ مَبْخَلَةٌ مَجْبُتَةٌ».

أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا زيد بن حباب قال: حدثني حسين بن واقد قال: حدثني عبد الله بن بريدة قال: سمعتُ أبي يقول: كان رسول الله ﷺ يخطبنا، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله ﴿إِنَّمَا أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، نظرتُ إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعْتُ حديثي ورَفَعْتُهُمَا»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه أحمد (٢٢٩٩٥) والترمذي (٣٧٧٤) وأبو داود (١١٠٩)، وابن أبي شيبة (٣٦٨/٨)،

وابن ماجه (٣٦٠٠)، وابن حبان (٦٠٣٨)، والحاكم (١٨٩/٤).

فالرجلُ كلُّ الرجلِ مَنْ يَصبر على العافية على ما سَبَق بيَّأنه، وهذا الصبر متصلٌ بالشُّكر فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر وإنما كان الصبر على السَّراء أشد؛ لأنه مقرونٌ بالقدرة، والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصَّبر منه عند حضور الأَطعمة اللذيذة. وأما النوع الثاني المخالف للهوى: فذلك لا يخلو من أن يرتبط باختيار العبد، كالطاعات والمعاصي، أو لا يرتبط باختياره، كالمصائب، أو لا يرتبط بأوله باختياره ولكن له اختيار في إزالته، كالتشفي من المؤذي بالانتقام منه، فهي ثلاثة أقسام:

**القسم الأول:** ما يرتبط باختياره، وهو جميع أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية، فأما الطاعة فإن العبد يحتاج إلى الصبر عليها؛ لأن النفس بطبعها تنفرُ عن العبودية وتشتهي الربوبية، ثم من العبادات ما يُكره بسبب الكسل، كالصلاة، ومنها ما يُكره بسبب البخل، كالزكاة، ومنها ما يُكره بسببهما جميعاً، كالحج والجهاد.

ويحتاج المريدُ إلى الصبر على طاعته في ثلاثة أحوال:

**الحالة الأولى:** قبل الطاعة، وذلك تصحيح النية والإخلاص، والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات، وعقد العزم على الوفاء، وذلك من الصبر الشَّدِيد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء ومكائد الشيطان، وقد نبَّه النبي ﷺ على ذلك إذ قال: «إنَّما الأعمالُ بالنيَّات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى»، وقال الله تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ [البينة: ٥]، ولهذا المعنى قَدَّمَ اللهُ الصَّبر على العمل، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١].

وقال عليُّ رضي الله عنه: الصَّبرُ على أربع شُعب: على الشُّوق والإشفاق، والزَّهادة والترقُّب، فمن اشتاق إلى الجَنَّة سلا عن الشَّهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرِّمات، ومن زهد في الدنيا تهاوَنَ بالمُصيبات، ومن ارتقَب الموت سارع إلى الخيرات.

**الحالة الثانية:** حالة العمل، كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله، ولا يتكاسل

عن تحقيق آدابه وسُننه، فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ.

**الحالة الثالثة:** بعد الفراغ من العمل، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء، والصبر عن النظر إليه بعين العجب، وعن كل ما يبطل عمله، فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى أبطلها، والطاعات<sup>(١)</sup> تنقسم إلى فرضٍ ونفلٍ والإنسان يحتاج إلى الصبر عليهما جميعاً، قال سفيان: كان يُقال: يحتاج المؤمن إلى الصبر كما يحتاج إلى الطعام والشراب.

**الضرب الثاني: المعاصي؛** فما أحوج العبد إلى الصبر عنها، والمعاصي مقتضى باعث الهوى.

وأشد أنواع الصبر عن المعاصي الصبر عن المألوفات منها بالعادة؛ لأن العادة طبيعة خامسة، فإذا أضيفت إلى الشهوة تظاهر الجندان من جنود الشيطان على جند الله عز وجل فلا يقوى باعث الدين على قمعهما.

ثم إن كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس، كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً، وضروب الكلمات<sup>(٢)</sup> التي يُقصد بها الإزراء والاحتقار، وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم، فإن ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس، فللنفس فيه شهوتان؛ نفي الغير وإثبات النفس، وذلك أثر الربوبية التي في الطبع، وهي ضد ما أمر به من العبودية والاجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ويصير ذلك معتاداً في المحاورات التي يعسر الصبر عنها حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكررها وعموم الأنس بها، فترى الإنسان يلبس حريراً مثلاً فيستهول فعله، ويغتاب الناس طول النهار فلا يستنكر ذلك، ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر لم تُنجه إلا العزلة، فإن الصبر على الوحدة أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة.

(١) في (ف): «الصدقات».

(٢) تحرفت في (ف) إلى: «الكلمات».

وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها، وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاج الوسوس، فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة، فلا يمكن الصبر عنه أصلاً إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه، كمن أصبحت همومه همماً واحداً، وقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا جمع الله الخلائق نادى مُنادٍ: أين أهل الصبر؟ قال: فيقوم ناسٌ وهم يسيرٌ، فينطلقون سراعاً إلى الجنة فتلقاهم الملائكة فيقولون: إنا نراكم سراعاً إلى الجنة، فمن أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر. فيقولون: وما كان صبركم؟ فيقولون: كنا نصبر على طاعة الله عز وجل، وكنا نصبر عن معاصي الله عز وجل. فيقال لهم: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين».

وروى علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «الصبر ثلاثة: فصبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر على المصيبة حتى يردّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاث مئة درجة بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ست مئة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم<sup>(١)</sup> الأرض إلى منتهى العرش، ومن صبر على المعصية كتب الله له تسع مئة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش مرتين»<sup>(٢)</sup>.

وقال ميمون بن مهران: الصبر صبران: الصبر على المصيبة حسن، وأفضل من ذلك الصبر على المعاصي.

وقال الفضيل في قوله تعالى: «سَلِّمْ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ» [الرعد: ٢٤]، قال: صبروا على ما أمروا به وعن ما نهوا عنه.

القسم الثاني: ما لا يرتبط بهجومه باختياره وله اختيار في دفعه، كما لو أودي بفعل أو قول وجني عليه في نفسه أو ماله، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجباً، وتارة يكون فضيلةً، وقد قال الله تعالى: «وإن تصبروا وتنفقوا فإنَّ

(١) التُّخوم: جمع تُخْم، وهو الحدُّ الفاصلُ بين أرضين.

(٢) أوردته المناوي في فيض القدير ٤/ ٢٣٥.

ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» [آل عمران: ١٨٦]، وقال: «وَلَيْنَ صَبْرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ» [النحل: ١٢٦]، وقال: «وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنْكَ يَصْبِقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» [الحجر: ٩٧-٩٨]، وقسم رسول الله ﷺ مالا فقال بعض الناس: هذه قسمة ما أريد بها وجهُ الله. فأخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال: «رَحِمَ اللَّهُ أَخِي مُوسَى، قَدِ أَوْذِيَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبِرَ». فالصبرُ على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر؛ لأنه يتعاون فيه باعُثُ الدين وِباعُثُ الشَّهوةِ والغضبُ جميعاً.

**القسم الثالث:** ما لا يدخل تحت الاختيار أوله وآخره، كالمصائب، مثل موت الأعرزة، وهلاك الأموال، وعمى العين، وزوال الصحة بالمرض، وسائر أنواع البلاء، فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر؛ لأن مستنده اليقين. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُصِيبْ مِنْهُ». وقال: «أَسْأَلُكَ مِنَ الْيَقِينِ مَا تَهْوُونَ بِهِ عَلَيَّ مِصَابِئِ الدُّنْيَا».

أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو اليمان قال: أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني عروة أن عائشة قالت: قال النبي ﷺ: «ما من مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا عَنْهُ حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُهَا». أخرجه في الصحيحين<sup>(١)</sup>.

وفيها من حديث أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ<sup>(٢)</sup>، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أَدَى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»<sup>(٣)</sup>.

وفي أفراد مسلم من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ شُوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ»<sup>(٤)</sup>.

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢) (٤٩)، وأحمد (٢٤٥٧٣).

(٢) الوَصَبُ: الِوجعُ والمرض.

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣)، وأحمد (٨٠٢٧) و(٨٤٢٤) و(١١١٤١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٧٢) (٤٧).

وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة في جسده، وفي ماله، وفي ولده حتى يلقي الله وما عليه حَظِيئة»<sup>(١)</sup>.

وفي حديث سعد بن أبي وقاص قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يُبتلى الرجل على حَسَبِ دينه، فإن كان في دينه صلابة زيدَ في بلائه، وإن كان في دينه رِقَّة خُفِّفَ عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وليس عليه حَظِيئة»<sup>(٢)</sup>.

وروينا عن النبي ﷺ أنه قال: «قال الله تعالى: إذا وَجَّهْتُ إلى عبد من عبيدي مُصيبةً في بدنه أو ماله أو ولده، ثم استقبل ذلك بصبرٍ جميل، استخِيْتُ منه يوم القيامة أن أنصبَ له ميزاناً أو أنشرَ له ديواناً»<sup>(٣)</sup>،

وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا أحبَّ الله قوماً ابتلاهم».

وقال: «إذا أرادَ الله بعبدٍ خيراً صبَّ عليه البلاء صبّاً».

## ذكر المصائب في البدن وثوابها

أنبأنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسنُ بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدَّثني أبي قال: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا الأعمش عن إبراهيم التيمي عن الحارث بن سويد عن عبد الله<sup>(٤)</sup> قال: دخلتُ على النبي ﷺ وهو يوعكُ<sup>(٥)</sup>، فَمَسِسْتُهُ فقلت: يا رسول الله، إنك لتوعكُ وعكاً شديداً؟ قال: «أجل إنني أوعكُ كما يوعكُ رجُلان منكم». قلتُ: إن لك أجريين؟ قال:

(١) أخرجه أحمد (٧٨٥٩) و(٩٨١١)، وابن حبان (٢٩١٣)، والترمذي (٢٣٩٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٤٨١) و(١٤٩٤)، وعبد بن حميد (١٤٦)، والدارمي (٢٧٨٣)، والطيالسي (٢١٥)، وابن حبان (٢٩٠٠) و(٢٩٢١).

(٣) أخرجه القُضاعي في مسند الشَّهاب ٢/٣٣٠، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ٢/٢٩٠.

(٤) يعني ابن مسعود رضي الله عنه.

(٥) الوَعْكُ: الحُمَى، وقيل: ألم الحمى، وقيل: هو إرعاذُ الحمى المريض وتحريكها إياه.

«نعم، والذي نفسي بيده، ما على الأرض مُسلمٌ يُصيبه أذىٌ من مرضٍ فما سواه، إلا حَطَّ اللهُ عنه به خطاياها، كما تحطُّ الشجرةُ اليابسة ورَقها» أخرجاه في الصحيحين<sup>(١)</sup>.  
وفيها من حديث عائشة قالت: ما رأيتُ الوجع على أحدٍ أشدَّ منه على رسول الله ﷺ.

وروينا عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ الرجلَ ليكون له الدرَّجة عند الله تعالى لا يبلغها بعملٍ حتى يُبتلى ببلاءٍ في جسمه، فيبلغها بذلك». وروت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا اشتكى المؤمن أخلصه ذلك من الذنوب، كما يُخلص الكيرُ الحَبَثُ من الحديد».

### ذِكْرُ الْحُمَى

روى مسلم في أفراده من حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ دخل على امرأة، فقال: «ما لك تُزْفِزِفين<sup>(٢)</sup>؟» قالت: الحمى لا بارك الله فيها. قال: «لا تسبِّي الحمى، فإنها تُذهِبُ خطايا بني آدم كما يذهب الكيرُ حَبَثَ الحديد<sup>(٣)</sup>». وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ وُعِكَ لَيْلَةً فَصَبِرَ وَرَضِيَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ». وقال الحسن: إنه ليكفر عن العبد خطاياها كلّها بحمى ليلة.

### ذِكْرُ الصُّدَاعِ

روى أبو سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مؤمنٍ مريضٍ يُصيبه صداع في رأسه أو شوكة تؤذيه أو ما سوى ذلك من الأذى، إلا رفعه الله عزَّ وجلَّ بها درجة يوم القيامة، وكفَّر عنه بها خطيئة».

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٧) و(٥٦٤٨) و(٥٦٦٠) و(٥٦٦١) و(٥٦٦٧)، ومسلم (٢٥٧١)

(٤٥) وأحمد (٣٦١٨) و(٣٦١٩) و(٤٢٠٥) و(٤٣٤٦).

(٢) تُزْفِزِفين: أي ترتعددين.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٥).

## ذِكْرُ الطَّاعُونَ

روى البخاري ومسلم في الصَّحِيحِينَ من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «الطَّاعُونَ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ».

وفي أفراد البخاري من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ الطَّاعُونَ، فِيمَكْثَ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ، إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ».

## ذِكْرُ ذَهَابِ الْبَصَرِ

روى البخاري في أفرادهِ من حديث أنس عن النبي ﷺ، أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ ثُمَّ صَبَرَ عَوَّضْتُهُ عَنْهُمَا الْجَنَّةَ». يريد عَيْنَيْهِ، وفي لفظٍ لم يخرجهُ البخاري: فقال أنس: يا رسولَ الله، وإن كانت واحدة؟ قال: «ولو كانت واحدة».

## ذِكْرُ مَوْتِ الْوَلَدِ

روى مسلم في أفرادهِ من حديث أبي حَسَنَ قَالَ: تُوْفِّي ابْنَانِ لِي، فَقُلْتُ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا تُحَدِّثُنَاهُ تَطْيِبُ أَنْفُسَنَا عَنْ مَوْتَانَا؟ قَالَ: نَعَمْ: «صَغَارَهُمْ دَعَامِيصُ الْجَنَّةِ، يَلْقَى أَحَدَهُمْ أَبَاهُ. أَوْ قَالَ: أَبُوهُ. فَيَأْخُذُ بِنَاصِيَةِ ثَوْبِهِ أَوْ يَدِهِ كَمَا آخُذُ بِصَنْفَةِ<sup>(١)</sup> ثَوْبِكَ هَذَا، فَلَا يَفَارِقُهُ حَتَّى يُدْخِلَهُ اللَّهُ وَأَبَاهُ الْجَنَّةَ»، الدُّعْمُوصُ: دُوْبِيَّةٌ صَغِيرَةٌ تَكُونُ فِي الْمَاءِ.

وفي الصَّحِيحِينَ من حديث أبي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِلنِّسَاءِ: «مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ يَمُوتُ لَهَا ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ، إِلَّا كَانُوا لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ». فقالت امرأة: أو اثنين؟ فإنه مات لي اثنان. فقال رسول الله ﷺ: «واثنين».

وفي الصَّحِيحِينَ من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ لَهُ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْتَ، فَتَمَسَّهُ النَّارُ إِلَّا تَحِلَّتْ الْقَسَمُ».

(١) صَنْفَةُ الثَّوْبِ: حَاشِيَتُهُ أَوْ جَانِبُهُ الَّذِي لَا هُدْبَ لَهُ.

أخبرنا علي بن عبد الله قال: أخبرنا ابن النُّقُور قال: أخبرنا أبو حفص الكِنَانِي قال: حدثنا العباس بن الوليد التَّرْسِي قال: حدثنا زكريا بن يحيى قال: حدثنا عبد العزيز بن ضُهَيْب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من الناس مسلم يموتُ له ثلاثةٌ لم يبلغوا الحنثَ، إلا أدخله الله الجنةَ بفضلِ رحمتهِ إياهم». انفراد بإخراجه البخاري.

### فصل

ومن آداب الصبر: استعماله في أول صدمة، أنبأنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أعين قال: حدثنا الفربري قال: حدثنا البُخاري قال: حدثنا آدم قال: حدثنا شُعبة قال: حدثنا ثابت عن أنس قال: مرَّ النبي ﷺ بامرأةٍ تبكي عند قبرٍ، فقال: «أتق الله واضبري» فقالت: إليك عني، فإنك لم تُصَب بمُصِيبتي. فلم تعرفه، ف قيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك. فقال: «إنما الصبرُ عند الصدمةِ الأولى». هذا حديث متفق على صحته.

ومن الأدب في المصائب الاسترجاع: فقد روى مسلم في أفرادهِ من حديث أم سلمة قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من مُسلمٍ تُصيبه مصيبةٌ فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجزني في مُصِيبتي واخلف لي خيراً منها. إلا أخلفَ الله خيراً منها». قالت: فلما ماتَ أبو سلمةٍ قلتُ: أيّ المسلمين خيراً من أبي سلمة؟ ثم إنني قُلْتُها، فأخلفَ الله لي رسولَ الله ﷺ.

وروى أبو موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «قال الله عز وجل: يا مَلِكُ الموت، قبضتَ ولدَ عبيدي؟ قبضتَ قُرَّةَ عينه وثمرةَ فؤاده؟ فيقول: نعم. قال: فما قال؟ قال: حَمَدَكَ واسترجع. قال: ابنوا له بيتاً في الجنة، وسموه بيتَ الحمد».

وروى الحسين بن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مُسلمٍ ولا مُسلمةٍ يُصاب بمصيبةٍ فيذكرها، وإن قدم عهداً فيُحَدِّثُ لذلك استرجاعاً إلا جَدَّدَ اللهُ له عند ذلك، فأعطاه أجرها يوم أُصيب بها».

ومن الآداب في المصيبة: سكوتُ الجوارح، وسكوتُ اللسان، فأما البُكاء فجائزٌ لأنه لا يُملك، وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس منّا من شقَّ الجيوب، ولطمَ الخُدودَ، ودعا بدَعوى الجاهلية».

وفي الصحيحين من حديث عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «الميتُ يُعذب في قَبْرِهِ باليَاحَةِ عَلَيْهِ».

وفي أفراد مسلم من حديث أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «النائحة إذا لم تُتَبَّ قَبْلَ موتِها تُقام يوم القيامة وعليها سِرْبَالٌ<sup>(١)</sup> من قَطْرانٍ ودرع من جَرَبٍ». وقال بعض الحكماء: الجَزَعُ لا يَرِدُ الفاتت، ولكن يَسُرُّ الشامِت.

### فصل

ومن حُسْنِ الصَّبْرِ: أن لا يَظْهَرُ أثرُ المصيبة<sup>(٢)</sup>، على المصاب،<sup>(٣)</sup> وقد كانوا يتجلَّدون عند المصائب لئلا يتبين أثر المصيبة<sup>(٣)</sup>،<sup>(٤)</sup> وسُئِلَ ربيعة ابن أبي عبد الرحمن: ما مُنتهى الصَّبْرِ؟ فقال: أن يكون يوم تُصِيبُه المصيبة مثله قبل أن تُصِيبه<sup>(٤)</sup>.

أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المُذْهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا بَهْز قال: حدثنا سُلَيْمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس قال: ماتَ ابنُ لأبي طلحةَ من أم سُلَيْم، فقالت لأهلها: لا تُحَدِّثُوا أبا طلحةَ بابنه حتى أكون أنا أُحَدِّثُه. فقَرَّبْتُ إليه عَشاء، فأكل وشرب، ثم تَصَنَّعت له أحسنَ ما كانت تَصَنِّعُ قَبْلَ ذلك، فوقع بها، فلما رأت أنه قد شَبِعَ وأصابَ منها، قالت: يا أبا طلحةَ، أَرَأَيْتَ لو أن قَوْمًا أَعَارُوا عَارِيَّتَهُمْ أَهْلَ بَيْتِ فَطَلَبُوا عَارِيَّتَهُمْ أَلْهُمُ أن يَمْنَعُوهم؟ قال: لا. قالت: فاحتَسِبَ ابْنُكَ. فانطلقَ حتى

(١) السِّرْبَال: القميص.

(٢) في (ف): «المصائب».

(٣-٣) سقط من (ف).

(٤-٤) سقط من الأصل.

أتى رسول الله ﷺ، فأخبره بما كان، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لكما في ليلتكما» قال: فَحَمَلْتُ. انفراداً بإخراجه مسلم وقد أخرجه البخاري مختصراً<sup>(١)</sup>.

وقال ثابت البناني: مات عبد الله بن المطرف، فخرج مطرف على قومه في ثياب حسنة وقد أدهن، فغضبوا وقالوا: يموت عبد الله ثم تخرج في ثياب مثل هذه مدهناً؟! قال: أفأستكين لها وقد وعدني ربي تبارك وتعالى ثلاث خصال كل خصلة منها أحب إلي من الدنيا كلها؛ قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿البقرة: ١٥٦-١٥٧﴾ وقال مطرف: ما شيء أعطى به في الآخرة قدر كوز من ماء إلا وددت أنه أخذ مني في الدنيا.

قال ثابت البناني: وكان صلياً بن\*أشيم في معزى له ومعه ابن له فقال: أي بني، تقدم فقاتل حتى احتسبك. فحمل فقاتل حتى قتل، ثم تقدم فقتل، فاجتمعت النساء عند امرأته مُعَاذَةَ الْعَدَوِيَّةِ، فقالت: مرحباً، إن كنتن جئنن لثهننني فمرحباً بكن، وإن كنتن جئنن لغير ذلك فارجعن.

وقد روى شداد بن أوس عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله عز وجل: إني إذا ابتليتُ عبداً من عبادي فحمدني على ما ابتليته، فإنه يقوم من مضجعه ذلك كيوم ولدته أمه من الخطايا».

## فصل

وإذا كانت المصيبة مما يمكن كتمانها، فيكتمانها من مُعاملة الله عز وجل الخفية، روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا مرض العبد بعث الله تعالى إليه ملكين، فيقول: انظرا ما يقول لعواذه. فإن هو إذا دخلوا عليه حمد الله عز وجل رفعا ذلك إلى الله تعالى، وهو أعلم، فيقول: لعبدي إن أنا توفيتُه أن أدخله الجنة، وإن أنا شفيتُه أن أبدله لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، وأن أكفر عنه من سيئاته».

(١) أخرجه مسلم (١٠٧) الصفحة ١٩٠٩، وأحمد (١٣٠٢٦) مطولاً، وأخرجه البخاري (١٣٠١) مختصراً.

وقال عليّ رضي الله عنه: من إجلالِ الله ومعرفة حَقِّه أن لا تشكو وجَعَكَ ولا تذكُر مُصِيبَتَكَ.

وقال الأحنفُ: لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة ما ذكرتها لأحدٍ.

وقال رجل للإمام أحمد: كيف تجدك يا أبا عبد الله؟ فقال: بخيرٍ في عافيةٍ. فقال: حُمِمت البارحة. قال: إذا قلت لك أنا في عافيةٍ فَحَسْبِكَ، لا تُخرِجني إلى ما أكره.

وقال إبراهيم الحربي: ما شكوتُ الحُمى قط إلى أمي ولا إلى أختي ولا إلى امرأتي، الرجل الذي يُدخلُ غَمَّهُ على نفسه ولا يُعْمُ عياله، كان بي شقيقة خُمساً وأربعين سنةً فما أخبرتُ بها أحداً، ولي عشرين سنة أبصر بعينٍ واحدةٍ ما أخبرتُ بذلك أحداً.

قال الحكماء: من كنوز البرِّ كِتْمَانُ المصائب.

وقال شقيق البلخي: مَنْ شكَا مُصِيبَةً نزلت به إلى غيرِ الله، لم يجد في قلبه لطاعةِ الله حلاوةً أبداً.

## فصل

وقد كانوا يفرحون بالمصائب نظراً إلى ثوابها.

قال أبو الأحوص الجُشَمي: دخلنا على ابن مسعود وعنده بنون له ثلاثة، كأنهم الدنانير حُسنًا، فجعلنا نعجب من حُسنهم، فقال لنا: كأنكم تَغْبِطُونِي بِهِمْ؟ قلنا: إي والله، لمثل هؤلاء يُغْبِطُ المرءُ المسلم. فرفع رأسه إلى سَقْفِ بيتٍ له صغير وقد عَشَّشَ له فيه خُطَافٌ<sup>(١)</sup> وباض، فقال: والذي نفسي بيده، لأن أكون نَفَضْتُ يدي من ترابِ قبورهم أحب إلي من أن يسقطَ عُشُّ هذا الخُطَافِ وَيَنكسر بِيضُهُ.

وقال أبو الدرداء: ثلاثٌ يكرههن الناس وأحبهن: الفقر، والمرض، والموت.

(١) الخُطَاف: هو السنونو، وهو ضربٌ من الطيور القواطع عريض المنقار، دقيق الجناح طويله، مُنتفش الذيل.

وقال أبو جَحيفة: إنا لمتوجّهون إلى مهران ومعنا رجلٌ من الأسد، فجعل يبكي فقلتُ له: أجزعُ هذا؟ قال: لا، ولكن تركتُ ابني في الرَّحْلِ ولوددت أنه كان معي فدَخَلنا الجنة جميعاً.

وروى أبو حَيان التَّميمي عن أبيه قال: دَخَلْتُ على سُوَيد بن مَثْعَبَةَ<sup>(١)</sup>، وكان قد أَضَنَى، فإذا هو مُكَبَّبٌ على وَجْهِهِ مُسَجَّى بثوبٍ، فلولا أن امرأته قالت: أهلي فداؤك، ما نُطعمك؟ ما نَسقيك؟ ما ظننتُ تحتِ الثَّوبِ شيئاً. فلما رأني قال: يا ابنَ أخي، دَبِرَتِ الحَرِاقِفُ<sup>(٢)</sup> والصُّلْبُ، فما من ضَجْعَةٍ غيرِ ما ترى، والله ما أُحِبُّ أني نُقِضْتُ منه قِلامَةٌ ظُفر<sup>(٣)</sup>.

أخبرنا محمد بن أبي منصور قال: أخبرنا جَعْفَر بن أحمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثنا منصور بن بشير، قال: حدثنا عثمان بن عبد الحميد بن لاحق عن أبيه عن ابن يسار . يعني مُسلماً. قال: قدمتُ البَحْرين أو اليمامة في تجارةٍ، فإذا بالناس مُقبلين ومُدبرين نحو منزلٍ، فقصدته، فإذا أنا بامرأةٍ جالسةٍ في مُصلًى لها، عليها ثيابٌ غليظة، وإذا هي كئيبه محزونة قليلة الكلام، وإذا كُلُّ مَنْ رأيتُ وَلَدَها وَحَوْلَها وَعَبِيدَها، والناس يأتون إليهم بالبياعات والتُّجارات، فَقَضِيَتْ حاجتي ثم أَتَيْتُها فَوَدَّعْتُها، فقالت: حاجتنا إليك أن تأتينا إن عُدتْ وتُنزِلَ بنا حاجتَكَ. قال: فانصرفتُ ولبثتُ حيناً، ثم إنني تَوَجَّهْتُ إلى بلدتها في حاجةٍ، فلما قدمتُ لم أَرِ دُونَ مَنزِلِها شيئاً مما كنتُ رأيتُ، فأتيتُ منزلها فلم أَرِ أحداً، فأتيتُ البابَ فاستفحتُ، فإذا أنا بِضَحِكِ امرأَةٍ وكلامها، ففُتِحَ لي فدَخَلْتُ، وإذا أنا بها جالسة في بيتٍ، وإذا عليها ثياب حَسَنَةٌ رَقيقَةٌ، وإذا الضحك الذي سَمِعته ضَحِكها وكلامها، وإذا امرأةً

(١) هكذا في النسخ وطبقات ابن سعد والزهد لابن المبارك، وفي صفة الصفوة للمصنف والزهد لابن أبي عاصم: «شعبة».

(٢) الحراقف: جمع حَرَقَفَة، وهي مجتمع رأس الورك ورأس الفخذين، ودبرت أي: تَقَرَّحت.

(٣) طبقات ابن سعد ٦/١٦٠، والزهد لابن أبي عاصم ٣٥٩/١، والزهد لابن المبارك ١/١٥٧، وصفة الصفوة ٣/٤٢.

معها في بيتها فقط، فاستنكرتُ وقلت: لقد رأيتُكِ على حالين فهما عجب! حالُكِ في قَدَمَتِي الأولى وحالُكِ في هذه. قالت: لا تعجب فإنَّ الذي رأيتُ من حالتي الأولى أني كنتُ فيما رأيتُ من الخَيْرِ والسَّعةِ، وكنتُ لا أصاب بمُصيبةٍ في ولدٍ ولا حَوْلٍ ولا مالٍ، ولا أوجُّهُ من تجارةٍ إلا سَلِمْتُ، ولا يُبتاع لي شيءٌ إلا ربحٌ، فتخوّفتُ أن لا يكون لي عند الله عزَّ وجلَّ خَيْرٌ، فكنتُ مُكْتَبَةً في ذلك، وقلتُ: لو كان لي عند الله خَيْرٌ ابتلاني، فتوالت عليَّ المصائبُ في ولدي الذي رأيتُ وحولي ومالي فما بقي لي منه شيءٌ، فرجوتُ أن يكون الله تعالى قد أراد بي خيراً فابتلاني وذكرني، ففرحتُ لذلك وطابت نفسي. قال: فانصرفتُ فلقيتُ عبدَ الله بنَ عمرَ، فأخبرتهُ خَبَرها فقال: هذه والله ما فاتها<sup>(١)</sup> أيوبُ النبي عليه السلام إلا بقليلٍ، لكنني تَخَرَّقَ مِطْرَفِي<sup>(٢)</sup> هذا. أو كلمة نحوها. فأمرتُ به أن يُصلَحَ، فلم يُعمَلْ كما كنتُ أريد، فأحزنتني ذلك.

وقد روينا أنه لما ماتَ عبدُ الملك بن عمر بن عبد العزيز دَفَنَهُ عمرُ وسَوَّى عليه، ثم استوى قائماً وأحاطَ به الناسُ، فقال: رَحِمَكَ اللهُ يا بُنَيَّ، فقد كنتَ بَرّاً بأبيك، والله ما زلتُ منذ وَهَبَكَ اللهُ لي مسروراً بك، ولا والله ما كنتُ قَطُّ أَشَدَّ بِكَ سروراً، ولا أرجى لِحَظِّي من الله تعالى فيك منذ وَصَّعْتَكَ في هذا المنزل الذي صَيَّرَكَ اللهُ إليه.

ولما ماتَ ولدُ الفُضَيْلِ وقَفَ على قَبْرِهِ فترحَّم عليه، وقال: يا بُنَيَّ، لأستكملنَّ فيك الأجر، لا أخرجتُ عليك من عيني دَمْعَةً.

وقال إبراهيم النُّخعي: أُقْعِدَتُ أم الأسود من رجليها، فَجَزَعَت ابنةُ لها، فقالت: اللهم إن كان خَيْراً فَرِّدْ.

وقال أبانُ بن تغلب: رأيتُ أعرابيةً تُمرِّضُ ابناً لها، وهو لما به، فلما فاض<sup>(٣)</sup> أغمضتُهُ، ثم تنحَّتُ عن مقعدها عند رأسه ورجعت إلى مجلسها تجاهه، وقالت:

(١) ما فاتها، أي: ما سبقها.

(٢) المِطْرَفُ: رداءٌ أو ثوبٌ من خَزٍّ مرَّع ذو أعلام.

(٣) تحرفت في (ف) إلى: «فاق». وفاضت نفسه: مات.

يا فلان، ما حَقُّ من ألبس العافية، وأسبغت عليه النعمة، وأطيلت له النظرة أن لا يعجز عن التوثق لنفسه قبل حل عقده، والحلول بعقوته<sup>(١)</sup>، والحال بينه وبين نفسه. قال: فأجابها أعرابي: إنا لم نزل نسمع أن الجزع إنما هو للنساء، فلا يجزعن رجل بمصيبة بعدك، ولقد كرم صبرك وما أشبهت النساء. فأقبلت عليه بوجهها وقالت: ما ميّز رجل بين الصبر والجزع إلا أصاب بينهما منهجين بعدي التفات في حالتهما؛ أما الصبر؛ فحسّن العلانية، محمود العاقبة، وأما الجزع؛ فغير معوض مع مآثمه، ولو كانا رجلين في صورة لكان الصبر أولهما بالعلبة وحسن الصورة مع كرم الطبيعة في عاجلة من الدين وأجلة من الثواب، وكفى ما وعد الله فيه لمن ألهمه إليه.

### فصل

وقد كانوا يتلذذون بالبلاء نظراً إلى ثوابه أو إلى رضا الله به، فكان بعض السلف يقول: إن الله عز وجل عبداً لو علموا مجاري أقداره لتلقفوها تلقفاً.

وقال آخر: ليس بصادق في حبه من لم يتلذذ بصبره.

أخبرنا محمد بن ناصر قال: أخبرنا أحمد بن حمد قال: حدثنا أبو نعيم الحافظ قال: حدثنا عمر بن شاهين قال: حدثنا العباس بن المغيرة الجوهري قال: حدثنا عمي قال: حدثنا أبو بكر بن عفان قال: سمعتُ بشر بن الحارث يقول: بلغني أن بنتاً لفتح الموصلي عريت، فقيل له: ألا نطلب من يكسوها؟ فقال: لا، دعتها حتى يرى الله عز وجل عريها وصبري عليها. قال: فكان إذا كان ليالي الشتاء جمع عياله وقال بكسائه عليهم، ثم قال: أفقرتني وأفقرت عيالي، وجوعتني وجوعت عيالي، وأعريتني وأعريت عيالي، بأي وسيلة توصلتها إليك؟ وإنما تفعل هذا بأوليائك وأحبائك فهل أنا منهم حتى أفرح؟

وقد روينا عن امرأة فتح الموصلي أنها عثرت فانقطع ظفر إبهامها، فضحكت وقالت: أنساني حلاوة ثوابه مرارة وجعه.

(١) العقوة: الساحة والموضع المتسع أمام الدار أو المحلة أو حولهما.

فإن قيل: إن كان المراد من الصبر عدم كراهية المصائب<sup>(١)</sup>، فلا قدرة للآدمي على هذا، وإن كان الفرح بوجودها كما قد ذكرته عن هؤلاء السادة، فذاك أبعد وأبعد، فكيف يتهاى الصبر!؟

فالجواب: أن الصبر لا يكون إلا عن محبوب أو على مكروه، ولا ينهى عما لا يدخل تحت الكسب، وهو انزعاج الباطن، إنما يُنهى عن المكتسب، كشقّ الجيوب ولطم الخدود وقول اللسان، فأما من حكينا عنه أنه فرح بالمصائب فذاك فرح شرعي لا طبّعي، إذ الطبع لا بد له من كراهية المصائب، ومثال هذا مثال رجل مريض وُصفت له شربة فسعى في طلب حوائجها وأنفق عليها مالاً، فلما تمت فرح بتمامها وتناولها لما يرجو بها من العافية، فأما طبعه فما زالت كراهية التناول أصلاً، ولو أن ملكاً قال لرجل فقير كَلِّمًا ضَرَبْتُكَ بهذا العود اللطيف ضربة أعطيتك مئة ألف دينار، لأحبب كثرة الضرب، لا لأنه لا يؤلم، ولكن لما يرجو من عاقبته وإن أبكاه، فكذلك السلف تلمّحوا الثواب فهان عليهم البلاء.

### فصل

وقد بان بما تقدم ذكره أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال، فإن المعتزل عن الناس لا بد له من الصبر على العزلة وعن وساوس الشيطان، فإن اختلاج الخواطر لا يملك ولا يفتر، ومن الذي يسلم من غفلة توجب ميل الفكر إلى وجوه الاحتيال لقضاء الشهوات؟

### بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعده الشفاء، فالصبر وإن كان شاقاً أو ممتنعاً فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل، فمنهما تُركب الأدوية للأمراض القلوب كلها ولكن يحتاج كل مريض إلى علم آخر وعمل آخر.

وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العِلل المانعة منها مختلفة، وإذا اختلفت

(١) في (ف): «الحزن بالمصائب».

العلل اختلف العلاج، إذ معنى العلاج مُضادَّة العلة وقَمعها، ونَضرب لذلك مثلاً فنقول: إذا افتقر الإنسان إلى الصَّبْر عن شهوة الوقاع وقد غلبت عليه بحيث لا يملك معها فرجه أو يملكه، ولا يملك عينه أو يملكها، ولكن لا يملك قلبه<sup>(١)</sup> إذ لا يزال يُحدِّثه بمقتضيات الشهوة ويصرفه عن المواظبة على الذكر والفكر، فنقول له: قد قدّمنا أن الصبر عبارة عن مُصارعة باعث الدين مع باعث الهوى، وكل متصارعين أردنا<sup>(٢)</sup> أن يغلب أحدهما الآخر، فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا<sup>(٣)</sup> أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر، فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة، فأما باعث الشهوة فسييلُ تضعيفه ثلاثة أشياء:

أحدها: أن ننظر إلى مادة قوة هذه الشهوة فنجدها الأغذية الطيبة المحركة للشهوة من حيث نوعها وكثرتها، وقطعها بالصوم الدائم، والاقتصار عند الإفطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه.

والثاني: قطع أسبابه المهيجة له في الحال، فإنه إنما يهيج بالنظر، والنظر يحرك القلب، والقلب يحرك الشهوة، ودواء هذا العزلة والاحتراز من مظان وقوع البصر<sup>(٣)</sup> على الصور المُستَهة، وقد قال النبي ﷺ: «النظرُ إلى محاسن المرأة سهمٌ مسمومٌ من سهام الشيطان».

فهذا السهمُ يُسدده إبليس، ولا تُرْس يمنع منه إلا تغميضُ الجفن أو الهرَب من صوبِ رميه، فإنه إنما يرمي هذا السهمَ عن قوسِ الصور، فإذا انفتلت عن صوبِ الصور لم يُصبك سهمه.

والثالث: تسليئة النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهيه، وذلك بالنكاح، فإنَّ كلَّ ما يشتهيه الطبع ففي المباحات غنية عن المحظور منه، وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثرين، فإن قطع الغذاء يُضعف عن جميع الأعمال، ثم قد لا تُقمع الشهوة في حق الأكثرين، فالعلاج الأول، وهو قطع الطعام، يُضاهي قطع العلف عن البهيمة

(١) سقطت من (ف).

(٢-٢) سقطت من (ف).

(٣) تحرفت في (ف) إلى: «الصبر».

الجَمُوح وعن الكَلْبِ الضَّارِي لِتَضَعْفِ قُوَّتِهِ، والثَّانِي: يُضَاهِي تَغْيِيبَ اللَّحْمِ عَنِ الكَلْبِ وَالشَّعِيرِ عَنِ البَهِيمَةِ حَتَّى لَا تَتَحَرَّكَ بِوَاطِنِهِمَا بِسَبَبِ مَشَاهِدَتِهِمَا، وَالثَّلَاثُ: يُضَاهِي تَسْلِيَتَهَا بِشَيْءٍ قَلِيلٍ مِمَّا يَمِيلُ طَبْعُهَا إِلَيْهِ حَتَّى يَبْقَى مَعَهَا مِنَ القُوَّةِ مَا تَصْبِرُ عَلَى التَّادِيبِ.

وَأَمَّا تَقْوِيَةُ بَاعِثِ الدِّينِ فَإِنَّهُ يَكُونُ بِطَرِيقَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: إِطْمَاعُهُ فِي فَوَائِدِ المُجَاهِدَةِ وَثَمَرَاتِهَا فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَذَلِكَ بِإِجَالَةِ الفِكْرِ بِالأَحَادِيثِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ فِي فَضْلِ الصَّبْرِ وَفِي حَسَنِ عَوَاقِبِهِ فِي الدُّنْيَا وَالأُخْرَى حَتَّى أَنْ المُعَافَى يَتِمَّنَى فِي الأُخْرَى أَنْ لَوْ كَانَ مَرِيضاً لَمَا يَرَى مِنْ ثَوَابِ أَهْلِ البَلَاءِ، وَمَنْ تَخَايَلَ فَنَاءَ المُجْزِي بِهِ وَبَقَاءَ الجِزَاءِ ثُمَّ تَفَكَّرَ فِي قُوَّةِ الفَضَائِلِ سَهَّلَ عَلَيْهِ التَّفْرِيقَ.

أَخْبَرَنَا يَحْيَى بْنُ عَلِيِّ المُدِيرِ<sup>(١)</sup> قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو الحُسَيْنِ بْنُ المُهْتَدِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنَا عُمَرُ بْنُ شَاهِينَ قَالَ: حَدَّثَنَا البَغَوِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا الفُضَّلُ بْنُ غَانِمٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَعْرَاءَ عَنِ الأَعْمَشِ عَنِ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنِ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُودُّ أَهْلُ العَافِيَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنْ لِحُومِهِمْ قُرِضَتْ بِالمَقَارِيضِ مِمَّا يَرُونَ مِنْ ثَوَابِ اللَّهِ لِأَهْلِ البَلَاءِ».

وَالثَّانِي: أَنْ يُعَوِّدَ هَذَا البَاعِثُ مُصَارَعَةَ بَاعِثِ الهَوَى تَدْرِيجاً قَلِيلاً قَلِيلاً حَتَّى يُدْرِكَ لَذَّةَ الظَّفَرِ بِهَا، فَتَقْوَى مُنْتَهَى<sup>(٢)</sup> فِي مُصَارَعَتِهَا، فَإِنَّ الِاعْتِيَادَ لِمُطَارَعَةِ الأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ يُؤَكِّدُ القُوَّةَ الَّتِي تَصْدُرُ عَنْهَا تِلْكَ الأَعْمَالِ، وَلِذَلِكَ تَزِيدُ قُوَّةَ الفَلَاحِينَ وَالحَمَالِينَ وَالمُطَارِسِينَ لِلأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ بِخِلَافِ العَطَّارِينَ وَالحَيَّاطِينَ؛ لِأَنَّ قَوَاهِمَ لَمْ تَتَأَكَّدْ بِالمُطَارَعَةِ، فَالعَلاجُ الأَوَّلُ يُضَاهِي إِطْمَاعَ المُصَارَعِ<sup>(٣)</sup> فِي الخِلْعَةِ عِنْدَ العَلْبَةِ وَوَعْدُهُ بِأنواعِ الكَرَامَةِ، وَالثَّانِي يُضَاهِي تَعْوِيدَ الصَّبِيِّ الَّذِي تُرَادُ مِنْهُ المِصَارَعَةُ وَالمُقَابَلَةُ مُبَاشَرَةً أَسْبَابَ ذَلِكَ عِنْدَ الصَّبِيِّ حَتَّى يَأْنَسَ بِهِ وَتَقْوَى مُنْتَهَى، فَمَنْ تَرَكَ

(١) تحرفت في (ف) إلى: «المديني».

(٢) مُنْتَهَى: قُوَّتُهُ.

(٣) سقطت من (ف).

بالكُليَّة المُجاهدة ضَعُفَ فيه باعُثُ الدين ولا يَقْوَى على الشَّهوة وإن ضَعُفَتْ، ومَنْ عوَدَ نفسَه مُخالفة الهوى غلبها متى أراد.

فهذا مِنهاج العِلاج في جميع أنواع الصَّبر، وأشدَّها كَفُّ الباطن عن حَدِيثِ النَّفس، وإنما يَشْتدُّ على من تَفَرَّغَ واعتَرَلَ، فإن الوسواس لا تَزَالُ تُجاذِبُه، ولا علاجٌ لهذا إلا قَطْعُ العِلائِقِ وجَعْلُ الهُمومِ هَمًّا واحداً، وصرفُ الفِكرِ إلى مَلَكوَتِ السماوات والأرضِ وعجائبِ صُنْعِ الله عَزَّ وجلَّ وجميعِ أبوابِ معرفة الله، حتى إذا استولى ذلك على قلبه دَفَعَ اشتغاله بذلك مُجاذِبَةً<sup>(١)</sup> الشَّيطانِ ووسواسه، وإن لم يكن له سيرٌ بالباطن فلا يُنجيه إلا الأوراد المُتواصلة من القِراءة والأذكار والصَّلوات، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحُضور، فإن الفِكرَ بالباطن هو الذي يَسْتغرق القلب دون الأوراد الظاهرة.

وأما النوع الثاني وهو أشدَّ ضرورة من الأول، وهو اشتغاله بالمَطْعَمِ والمَلْبَسِ وأسبابِ المَعاشِ، فإن تَهَيَّئة ذلك أيضاً تُحوج إلى شُغْلٍ، إن تَوَلَّاه بنفسه وإن تَوَلَّاه غَيره فلا يخلو عن شُغْلِ قلبٍ من يَتَوَلَّاه، ولكن بعد قَطْعِ العِلائِقِ كُلِّها تسلم له أكثر أوقاته، والانتهاء إلى هذا هو أقصى المقامات التي يُمكن أن تُنال بالاكْتسابِ والجهد، فأما مَقاديرُ ما يَنكشِفُ ومَبالغُ ما يَرُدُّ من لُطفِ الله تعالى في الأحوال والأعمال، فذلك يَجري مَجري الصَّيدِ، وهو بحسب الرِّزْقِ، فقد يَقِلُّ الجهد وَيَجِلُّ الصَّيدِ، وقد يَطولُ الجهد ويقِلُّ الصَّيدِ، والمُعَوَّلُ وراءَ هذا الاجتهاد على جَذْبَةٍ من جَذباتِ الرَّحمنِ عَزَّ وجلَّ، فإنها تُوازي أعمالَ الثَّقَلينِ، وليس ذلك باختيارِ العبدِ، بل اختيارُه في أن يتعرَّضَ لتلك الجَذْبَةِ، بأن يقطع عن قلبه جَوادِبَ الدُّنيا، فإن المجذوب إلى أسفل السافلين لا يُجذَّبُ إلى أعلى عِلِّيِّينَ، وكل منهومٍ بالدنيا فهو مُنْجذَبٌ إليها، فَقَطْعُ العِلائِقِ الجاذِبَةِ هو المُراد بقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ لِرَبِّكُمْ في أيامِ دَهْرِكُمْ نَفْحَاتٍ، أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَهَا». والذي علينا تَفْرِيقُ المحلِّ والانتظار لنزول الرَّحمة، كالذي يُصلح الأرض ويُثقيها من الحشيش، وَيُبْثُّ<sup>(٢)</sup> البذرَ

(١) تصحفت في الأصل إلى: «محادثة».

(٢) تصحفت في (ف) إلى: «نبت».

فيها، وكل ذلك لا ينفعه إلا بمطرٍ، ولا يدري متى يُقدِّر الله أسبابَ المطر، إلا أنه يثقُ بفضل الله أنه لا تخلو سنة عن مطر، وكذلك قلَّما تخلو سنة وشهر ويومٌ عن جذبةٍ من الجذبات ونفحةٍ من النَّفحات، فينبغي أن يكون العبدُ قد طَهَّرَ القلبَ من حَشِيشِ الشَّهوات، وبذرَ فيه بذرَ الإرادة والإخلاص، وعَرَّضَهُ لمُهَبَّاتٍ<sup>(١)</sup> ريح الرَّحمة وكما يقوى انتظار الأمطار في أوقاتِ الرَّبيع وعند ظهور الغيث، يقوى انتظار تلك النَّفحات في الأوقاتِ الشَّرِيفَةِ وعند اجتماعِ الهَمَمِ وتساعد القلوب، كيوم عَرَفة والجمعة وأيام رَمَضان، فإنَّ الهَمَمِ والأنفاسَ أسبابٌ بحكم تقدير الله تعالى لاستِدْرارِ رَحْمَتِهِ حتى تُسْتَدْرَ بِهَا الأمطارُ في أوقاتِ الاستسقاء، وهي لاستِدْرارِ أمطارِ المكاشفة ولطائفِ المعارف من خَزَائِنِ المَلَكُوتِ أشدَّ مناسبةً منها لاستِدْرارِ قَطراتِ الماء واستجرارِ الغُيومِ من أقطارِ الجبال والبحار، بل الأحوال والمُكاشفات حاضرةٌ معك في قلبك، وإنما أنت مشغولٌ عنها بعلائقك وشهواتك فصار ذلك حجاباً بينك وبينها، فلا تحتاجُ إلا إلى أن تَفْتَحَ الشَّقَّ وتَرَفَعَ الحجاب فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب، ومعلومٌ أن إظهار ماء الأرضِ بِحَفْرِ القِنِيِّ أسهلُّ وأقربُ من استِنزالِ الماء إليها من مكانٍ بعيدٍ منخفضٍ عنها، ولكونه حاضراً في القلب وَمَنْسِياً بالشغل عنه سَمَى اللهُ تعالى جميعَ معارف الإيمان تذكراً فقال: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، فهذا علاجُ الصَّبْرِ عن الوَساوس، وهو آخرُ دَرَجَاتِ الصَّبْرِ، وإنما الصَّبْرُ عن العلائقِ كُلِّها مقدَّمٌ على الصَّبْرِ عن الخواطر.

قال الجُنَيْد: المَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الآخِرَةِ سَهْلٌ عَلَى الْمُؤْمِنِ، وَهَجْرَانِ الخَلْقِ فِي حُبِّ الحَقِّ شَدِيدِ، وَالمَسِيرُ مِنَ النَّفْسِ إِلَى اللهِ صَعْبٌ شَدِيدِ، وَالصَّبْرُ مَعَ اللهِ أَشَدُّ. فَذَكَرَ شِدَّةَ الصَّبْرِ عَنِ شَوَاغِلِ القلبِ، ثُمَّ شِدَّةَ هَجْرَانِ الخَلْقِ.

وأشدُّ العلائقِ عَلَى النفسِ عُلُقَةُ الخَلْقِ<sup>(٢)</sup> وَحُبُّ العِجَاهِ، فَإِنَّ لَذَّةَ الرِّيَاسَةِ وَالعَلْبَةَ وَالاسْتِعْلَاءَ وَالاسْتِيتَابَ أَغْلَبُ اللِّذَاتِ فِي الدُّنْيَا عَلَى نُفُوسِ العُقْلَاءِ، وَكَيْفَ لَا تَكُونُ أَعْلَى اللِّذَاتِ وَمَطْلُوبَهَا صِفَةً مِنْ صِفَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ وَالرُّبُوبِيَّةُ مَطْلُوبَةٌ وَمُحِبُّوبَةٌ

(١) تحرفت في الأصل إلى: «لمهمات».

(٢) في (ف): «النفس».

بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة للأمور الربوبية، وليس القلب مذموماً على ذلك، وكيف يُذم وهو يطلب بقاء لا فناء فيه، وعِزّاً لا ذُلَّ معه، وأمناً لا خوف فيه، وغنى لا فقر فيه، وكمالاً لا نقصان فيه؟ وهذه أوصاف الربوبية، وإنما يذم على غلطٍ وقع له، وهو أن يطلب ذلك في غير محله، وإنما جاءت الرسلُ لدعاء الخلق إلى الملكِ الدائم في الدنيا لعلمه أنها لا تدوم ولا تصفو، وأن ملك الآخرة يَفوتُ بطلب الدنيا، إذ الدنيا والآخرة صرَّتَان، ولما كان الزُّهدُ في الدنيا مُلكاً حاضراً حَسَدَ الشيطانِ المؤمنِ عليه فصده عنه، ومعنى الزُّهد أن يملك العبدُ شهوته وغضبه، فيتقادان لباعث الدين، وإشارة الإيمان، وهذا الملك حقاً؛ لأن صاحبه يصير حُرّاً، وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبداً لبطنه وفرجه وسائر أغراضه، فيكون مُسخرّاً مثل البهيمة مملوكاً<sup>(١)</sup> يقوده زمام الشهوة إلى حيث يشاء، فما أجهل من ظن أن ينال الملك بأن يصير مملوكاً وينال الربوبية بأن يصير عبداً.

وقد روينا أن بعض الملوك قال لبعض الزُّهاد: لم لا تزورني وأنت عبدي؟ قال: بل أنت عبدُ عبدي. قال: وكيف؟ قال: لأنك عبدُ الهوى، والهوى عبدي، فهذا هو الملك في الدنيا وهو الذي يسوق إلى الملك في الآخرة، فالمنخدعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعاً، والموفقون لسلك الصراط المستقيم فازوا بملك الدارين.

فإذا قد عرفت الآن معنى الملك، وهو معنى العبودية، ومدخل الغلط في ذلك وتلبس الشيطان فيه سهل عليك التزوع عن الملك والجاه، والصبر عند فواته، إذ يصير تركه ملكاً في الحال وترجوه به ملكاً في الآخرة، ومن كُوشِفَ بهذه الأمور بعد أن أُلِفَ الجاه وأنس به، لم يكفه في العلاج مُجرد العلم والكشف، بل لا بد أن يُضيف إليه العمل، وعمله في ثلاثة أمور:

أحدها: أن يهرب عن موضع الجاه كي لا يُشاهد أسبابه، فيعسر عليه الصبر مع الأسباب، كما يهرب من غلبته الشهوة عن مشاهدة الصور المحركة.

(١) سقطت من الأصل.

الثاني: أن يُكَلِّفَ نفسه في أعماله أفعالاً تُخالف ما اعتاده، فَيُبَدِّل التَّكَلُّفَ بالتَّبَدُّل<sup>(١)</sup>، وَزِيَّ الحِشْمَةَ بزيِّ التَّوَاضِعِ، وكذلك كلَّ هَيْئَةٍ وَحَالٍ وَفِعْلٍ فِي مَسْكَنٍ وَمَلْبَسٍ وَمَطْعَمٍ إِذْ لَا مَعْنَى لِلْمَعَالِجَةِ إِلَّا الْمُضَادَّةَ.

الثالث: أن يُرَاعِيَ فِي ذَلِكَ التَّلَطُّفَ وَالتَّدرِيجَ، فَلَا يَنْتَقِلُ دَفْعَةً وَاحِدَةً إِلَى الطَّرْفِ الْأَقْصَى مِنَ التَّبَدُّلِ، فَإِنِ الطَّبَعُ نَفُورٌ، وَلَا يُمْكِنُ نَقْلُهُ مِنْ أَخْلَاقِهِ إِلَّا بِالتَّدرِيجِ، فَيَتْرِكُ البَعْضَ وَيُسَلِّي بِالبَعْضِ، فَإِذَا قَنِعَتْ نَفْسُهُ بِذَلِكَ البَعْضِ ابْتَدَأَ بِتَرْكِ البَعْضِ مِنْ ذَلِكَ البَعْضِ، ثُمَّ يَتَدَرَّجُ إِلَى أَنْ يَقْمَعَ تِلْكَ الصِّفَاتِ الَّتِي رَسَخَتْ فِيهِ، وَإِلَى هَذَا التَّدرِيجِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغَلْ فِيهِ بِرَفْقٍ، وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ، فَإِنَّ الْمُئْتَبِتَّ لَا أَرْضَاً قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى».

أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أعين قال: حدثني الفِرْبَرِيُّ قال: حدثنا البُخَارِيُّ قال: حدثنا عبد السلام بن مُطَهَّرٍ قال: حدثنا عُمر بن علي عن ابن محمد الغفاري عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُرِيِّ عن أبي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدُّوا وَقَارِبُوا، وَأُبَشِّرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْعَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ».

فهذا الذي ذكرناه في علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه أضفه إلى ما قد ذكرناه من قوانين طُرُقِ المِجَاهِدَةِ فِي كِتَابِ الرِّيَاضَةِ مِنْ رُبْعِ المَهْلَكَاتِ، وَأَتَّخِذْهُ دَسْتُورَكَ لِتَعْرِفَ بِهِ صِلَاحَ الصَّبْرِ فِي جَمِيعِ الْأَقْسَامِ الَّتِي فَضَّلْنَاهَا مِنْ قَبْلِ، فَإِنَّ تَفْصِيلَ الْأَحَادِ يَطُولُ، وَمَنْ رَاعَى التَّدرِيجَ يَرْقَى بِهِ الصَّبْرُ إِلَى حَالَةٍ لَا يَشُقُّ عَلَيْهِ الصَّبْرُ دُونَهُ كَمَا كَانَ يَشُقُّ عَلَيْهِ الصَّبْرُ مَعَهُ، فَتَنعَكِسُ أُمُورُهُ فَيَصِيرُ مَا كَانَ مَحْبُوبًا عِنْدَهُ مَمْقُوتًا، وَمَا كَانَ مَكْرُوهًا عِنْدَهُ هَنِئًا لَا يَصْبِرُ عَنَّهُ، وَهَذَا لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِالتَّجْرِبَةِ وَالدُّوقِ، وَلِهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ نَظِيرٌ فِي الْعَادَاتِ؛ فَإِنَّ الصَّبِيَّ يُحْمَلُ عَلَى التَّعْلِيمِ فِي الْإِبْتِدَاءِ قَهْرًا فَيَشُقُّ عَلَيْهِ الصَّبْرُ عَنِ اللَّعِبِ وَالصَّبْرُ عَلَى الْعِلْمِ، حَتَّى إِذَا انْفَتَحَتْ

(١) التَّبَدُّلُ: تَرْكُ التَّصَوُّنِ وَالْإِحْتِرَازِ.

بصيرته وأنس بالعلم انقلب الأمرُ فصَارَ يَشْقُ عَلَيْهِ الصَّبْرُ عن العلم والصبر على اللعب، وقد روينا عن بعض السلفِ أنه قال: دافَعْتُ الشَّهواتِ حتى صارتِ شَهوتي المُدافَعَة .

هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره .

\* \* \*

## الشطر الثاني من

### الكتاب

## في الشُّكر

وله ثلاثة أركان:

الركن الأول: في فضيلة الشُّكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه.

الركن الثاني: في حقيقة النُّعمة وأقسامها الخاصّة والعامّة.

الركن الثالث: في بيان الأفضل من الصُّبر والشُّكر

## الركن الأول: في نفس الشكر

## بيان فضيلة الشُّكر

اعلم أن الله عزَّ وجلَّ قرنَ الشكر بالذكر فقال تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ [البقرة: ١٥٢] وقال: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ [النساء: ١٤٣]، وقال: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥] وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣]، وقطع بالمزيد مع الشُّكر فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، مع كونه وقف أشياء كثيرة على المَشِيئة منها الإغناء، قال تعالى: ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء﴾ [التوبة: ٢٨]، والإجابة: ﴿فيكشف ما تدعون إليه إن شاء﴾ [الأنعام: ٤١]، والرِّزق: ﴿ويرزق من يشاء﴾ [آل عمران: ٣٧] والمغفرة: ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: ٤٨]، والتَّوبَةُ: ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ [التوبة: ١٥]، وقد سمَّى الله عزَّ وجلَّ نفسه الشُّكور، ولما عرف إنليس قدرَ الشُّكر قال في الطَّعن على بني آدم: ﴿وَلَا تَحِدُّ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

وأما الأخبار؛ فقد روت عائشةُ أن رسولَ الله ﷺ كان إذا صَلَّى قام حتى تَتَفَطَّرَ رجلاه فقالت: أتصنعُ هذا وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكونُ عبداً شكوراً».

روى ابنُ عباس عن النبي ﷺ قال: «أربعٌ من أعطيهنَّ فقد أعطي خَيْرَ الدُّنْيَا والآخرة: قَلْبٌ شَاكِرٌ، ولسانٌ ذَاكِرٌ، وَبَدَنٌ عَلَى الْبَلَاءِ صَابِرٌ، وزوجة لا تَبْغِيهِ حَوْنًا في نفسها ولا ماله».

وقال مُعَاذُ بنِ جَبَل: قال لي النبي ﷺ: «إني أُحِبُّكَ، فَقُلْ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه أحمد (٢٢١١٩)، وأبو داود (١٥٢٢)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٩)، وابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢٠) و(٢٠٢١).

أنبأنا محمد بن ناصر قال: أخبرنا علي بن الحسين بن أيوب قال: أخبرنا أبو علي بن شاذان قال: حدثنا أبو بكر النجاد قال: حدثنا عبد الله بن محمد القرشي قال: حدثني الحسن بن الصباح قال: حدثني محمد بن سليمان قال: أخبرنا هشام بن زياد عن أبي الزناد عن القاسم بن محمد عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «ما أنعم الله عز وجل على عبدٍ نعمةً، فعلم أنها من عند الله عز وجل إلا كتب الله عز وجل له شكرها، وما علم الله عز وجل من عبدٍ ندامةً على ذنبٍ إلا غفر له قبل أن يستغفره، وإن الرجلَ ليشترى الثوبَ بالدينار فيلبسه، فيحمد الله عز وجل، فما يبلغ رُكبته حتى يُغفر له»<sup>(١)</sup>.

### بيانُ الشُّكرِ وحقيقته

اعلم أن الشُّكرَ من جُملة مَقامات السَّالِكين، وهو أيضاً ينتظم من علمٍ وحالٍ وعَمَلٍ.

فالعلم، هو الأصل، فيورث الحال، والحال يورث العمل.

أما العلم؛ فهو معرفة النُّعمة من المنعم، والحال؛ هو الفرح الحاصل بإنعامه، والعمل؛ هو القيام بما هو مقصود المُنعم ومحبوبه، ويتعلق ذلك بالعمل بالقلب وبالجوارح وباللسان، ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشُّكر، فإنَّ كل ما قيل في حدِّ الشُّكر قاصرٌ عن الإحاطة بكمال معانيه.

فالأصل الأول العلم؛ وهو علم بثلاثة أمور: بعينِ النُّعمة ووجه كونها نعمة في حقِّه، وبذاتِ المنعم ووجود صفاته التي بها يتم الإنعام، وبصدور الإنعام منه عليه، فإنه لا بد من نعمةٍ ومُنعمٍ ومُنعمٍ عليه تصل إليه النُّعمة من المنعم بقصدٍ وإرادةٍ، فهذه الأمور لا بد من معرفتها، هذا في حق غير الله، فأما حق الله، فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو المنعم، والوسائط مُسخرٌون من جهته.

وهذه المعرفة وراء التَّقديس والتَّوحيد إذ قد دخل التَّقديس والتَّوحيد فيها، بل

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشُّكر: ٢٠.

الرتبة الأولى في معارف الإيمان التقديس، ثم إذا عرف ذاتاً مقدّمة عرف أنه لا مُقدّسَ إلا واحدٌ وما عداه غير مُقدّس، وهو التّوحيد، ثم يعلم أن كلّ ما في العالم فهو موجودٌ من ذلك الواحد فقط، فالكلّ نعمةٌ منه، فتتّبع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة، إذ ينطوي فيها مع التّقديس والتّوحيد كمالُ القُدرة والانفرادُ بالفعل.

وتمامُ هذه المعرفة نفْيُ الشُّركِ في الأفعال، ولا ترى النُّعمةَ إلا من المنعمِ وحده، ولا ترى الوكيلَ والخازنَ؛ لأنَّهما مُضطرَّان إلى امتثالِ أمرِ المَلِكِ، كما أنه لا ترى الكاغدَ<sup>(١)</sup> الذي وقَّع عليه المَلِكُ ولا القَلَمَ، فكلُّ مَنْ وَصَلَتْ إِلَيْكَ نعمةٌ على يده فهو مُضطرٌّ إلى إعطائك؛ لأن الله تعالى سلَّط عليه الإرادة، وهيج عليه الدَّواعي، وألقى في قلبه غَرْضاً، وأوقع له أنْ غرضه لا يتم إلا بإعطائك، فهو إذن يُعطيك لغرضه لا لغرضك، فلو لم يكن غرضه في العطاء لما أعطاك، ولو لم يعلم أن منفعته في منفعتك ما نفعك، فهو إذن يطلبُ نفعَ نفسه بنفعك، فليس مُنعماً عليك، إنما اتخذك وسيلةً إلى نعمةٍ أخرى يرجوها، وإنما الذي أنعم عليك هو الذي سَخَّره لك، وألقى في قلبه من الاعتقاد والإرادة ما صار به مضطراً إلى الإيصال إليك.

فإن عرفتَ الأمور كذلك فقد عرفتَ الله، وعرفتَ فعله، وكنت موحداً، وقدرت على شكره، بل كنت بمجرد هذه المعرفة شاكراً، ولهذا قال موسى عليه السلام: إلهي، خلقت آدمَ بيدك، وفعلت ما فعلت، فكيف شكرُك؟ فقال عزٌّ من قائلٍ: علِمَ أن ذلك منِّي، فكانت معرفته شكراً. فإذا لا تشكرُ إلا بأن تعرف أن الكلَّ منه، فإن خالجت ريبٌ في هذا لم تكن عارفاً بالنعمة ولا بالمنعم، ولا تفرح بالمنعم وحده بل بغيره، فبنقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح، وبنقصان فرحك ينقص عملك، فهذا بيان هذا الأصل.

الأصل الثاني: الحال المُستثمرة من أصل المعرفة، وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخُضوع والتواضع هو أيضاً في نفسه شكر على تجرّده، كما أن المعرفة شكر،

(١) الكاغد: القِرطاس، وهو الصحيفة يُكتب فيها.

ولكن إنما يكون شكراً إذا كان جامعاً لشروطه، وشَرْطُهُ أن يكون فَرَحٌ بِالْمُنْعِمِ لا بِالنَّعْمَةِ ولا بِالْإِنْعَامِ، ولعل هذا مما يتعَدَّرُ عَلَيْكَ فهمه، فنَضْرِبُ لكَ مثلاً، فنقول: إذا أراد الملك الخروج إلى سفرٍ فأنعم بفرسٍ على إنسان، تُصَوِّرُ أن يَفْرَحَ المنعَمُ عليه بالفرس من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يَفْرَحَ بالفرس من حيث أنه فرسٌ، وأنه مالٌ يُنتفع به، ومركوبٌ يُوافق غرضه، وأنه جوادٌ نَفِيسٌ، وهذا فَرَحٌ من لا حَظَّ له في المَلِكِ، بل غرضه الفرس فقط، ولو وجده في الصَّحراء فأخذه، لكان فرحه مثل ذلك.

الوجه الثاني: أن يَفْرَحَ به لا من حيث أنه فرسٌ، بل من حيث يَسْتَدِلُّ به على عناية المَلِكِ به واهتمامه لجانبه، حتى لو أعطاه ذلك غير الملك أو وجده في صحراء لكان لا يَفْرَحَ به أصلاً لاستغنائه عن الفرس، أو لاحتقاره له بالإضافة إلى مطلوبه من نَيْلِ المحلِّ في قلبِ المَلِكِ.

الوجه الثالث: أن يَفْرَحَ به ليركبه فيخرج في خِدْمَةِ المَلِكِ ويَحْتَمِلُ مشقَّةَ السَّفَرِ لينالَ بِخِدْمَتِهِ رُتْبَةَ القُرْبِ منه، ويرتقي إلى دَرَجَةِ الوِزَارَةِ من حيث أنه ليس يقنع بأن يكون محله في قلبِ المَلِكِ أن يعطيه فرساً ويعتني به هذا القدر من العناية، بل هو طالبٌ لأن لا يُعِمْ المَلِكُ بشيءٍ من ماله على أحدٍ إلا بواسِطَتِهِ، ثم إنه ليس يُريدُ من الوِزَارَةِ الوِزَارَةَ أيضاً، بل مُشَاهَدَةَ المَلِكِ والقُرْبَ منه، حتى لو خُيِّرَ بين القُرْبِ دون الوِزَارَةِ وبين الوِزَارَةِ دون القُرْبِ لاختارَ القُرْبَ، فهذه ثلاثُ دَرَجَاتٍ.

فالأولى: لا يدخل فيها معنى الشكر أصلاً؛ لأن نَظَرَ صاحبها مقصورٌ على الفرس، ففرحه بالفرس لا بالمُعْطِي، وهذا حال كلِّ من فَرِحَ بنعمةٍ من حيث إنها لذيفةٌ وموافقَةٌ لغرضه، فهو بعيدٌ عن معنى الشكر.

والثانية: داخل فيها معنى الشكر من حيث إنه فَرِحَ بالمنعمِ عليه، ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تَسْتَحْتِهُ على الإنعام في المُسْتَقْبَلِ، وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفاً من عقابه ورجاءً لثوابه.

وإنما الشكر التامُّ في الفرح.

الثالث: وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه والنزول في جواره، والنظر في وجهه على الدوام، فهذا هو الرتبة العليا، وأما رتبه أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للأخرة ومُعينة عليها، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله وتصدّه عن سبيله؛ لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذيدة كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لأنه جوادٌ ومهمليج<sup>(١)</sup> بل من حيث إنه يحمل في صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه، ولذلك قال الشبلي<sup>(٢)</sup>: الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة. وقال الخواص<sup>(٣)</sup>: شكر العامة على المطعم والملبس، وشكر الخاصة على واردات القلوب، وهذه رتبة لا يدركها من قد انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ومدركات الحواس عن لذة القلب، فإن القلب لا يلتذ في حال الصحة إلا بذكر الله ومعرفته ولقائه، وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات، كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين، وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة ويستحلي الأشياء المرة كما قيل:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمِ مُرِّ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرّاً بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالَا

فإذن هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى، فإن لم تكن إبل فمعزى، فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية، أما الأولى فخارجة عن كل حساب، فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس وبين من يريد الفرس للملك، فكذلك كم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه، وبين من يريد نعمة الله ليصل بها إليه.

الأصل الثالث: العمل بموجب الفرح، أما بالقلب؛ فقصد الخير وإضمامه للخلق كافة وأما باللسان؛ فإظهار الشكر لله بالتحميدات الدالة عليه، وأما الجوارح؛

(١) المهمليج من الدواب: الحسن السير في سرعة وبختره.

(٢) هو أبو بكر الشبلي، وقد اختلف في اسمه فقيل: دلف بن جعفر، وقيل: دلف بن جحدر، وقيل: جعفر بن يونس، كان من أئمة مشايخ الصوفية، أصله من قرية يقال لها: شبليّة من بلاد خراسان، وولد بسامراء، وتوفي ببغداد سنة ٣٣٤هـ. سير أعلام النبلاء ١٥/٣٦٧، البداية والنهاية ١٥/١٧٥.

(٣) هو إبراهيم بن أحمد بن محمد أبو إسحاق الصوفي الواعظ، كان من أقران الجنيد، توفي سنة (٣٠)هـ. سير أعلام النبلاء ١٥/٤٨٧، البداية والنهاية ١٤/٧٨٢.

فاستعمال نِعَمِ الله في طاعته والتَّوَقُّي من الاستعانة بها على مَعْصِيته، حتى إن من شُكِرَ العَيْنَيْنِ أَنْ تَسْتُرَ كلَّ عَيْبٍ تراه لمسلم، ومن شُكِرَ الأذُنَيْنِ أَنْ تَسْتُرَ كلَّ عَيْبٍ تَسْمَعُهُ، فهذا يدخل في جُمْلَةِ شُكْرِ نِعْمَةِ هذه الأَعْضَاءِ، والشُكْرُ باللسان إظهارُ الرِّضَا عن الله، وهو مأمور به.

وقد روينا أن النبي ﷺ دخل على العَبَّاسِ، فقال: «كَيْفَ أَصْبَحْتُمْ؟» قال: بخير نحمدُ الله، فكيف أصبحت يا رسول الله؟ فقال: «أصبحتُ بخيرٍ أحمَدُ الله».

وأن النبي ﷺ مرَّ برجلٍ فسَلَّمَ عليه وقال: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟» قال: أحمَدُ الله إليك ثم عادَ عليه مرةً أخرى فقال: «كَيْفَ أَنْتَ؟» قال: أحمَدُ الله إليك. ثم أتاه مرةً أخرى، فسأله فقال الرجلُ: ما أبقاكُ اللهُ فهو بخيرٍ. فمضى رسول الله ﷺ ولم يقف ولم يُسأله، وقال: «كنتُ أسأله لِيحمد الله عزَّ وجل».

وأن رَجُلَيْنِ مِنَ الأَنْصارِ التَّقِيَا، فقال أحدهما لصاحبه: كيف أصبحتم؟ فقال: نحمدُ الله عزَّ وجل. فقال النبي ﷺ: «قولوا هكذا».

وقال النبي ﷺ: «التَّحَدَّثْ بِالنِّعَمِ شُكْرًا، وَتَرَكُهَا كُفْرًا».

وروينا أن رجلاً سلَّم على عمر بن الخطاب فردَّ عليه، ثم قال له عمر: كيف أنت؟ قال: أحمَدُ الله. فقال عمر: ذاك الذي أردتُ.

وقد كان السُّلْفُ يتساءلون ومُرَادُهُم استخراج الشُّكْرِ لله، فيكون الشَّاكِرُ مُطِيعاً، والمُسْتَنْطِقُ له مُطِيعاً.

وقال أبو عبد الرحمن الحُبُلِيُّ: إن الرجلَ إذا سلَّم على الرجل وسأله: كيف أصبحت؟ فقال له الآخر: أحمَدُ الله إليك قال: يقول المَلِكُ الذي عن يَسَارِهِ للذي عن يَمِينِهِ: كيف تكتبه؟ قال: أكتبه من الحَمَادِينِ. وكان أبو عبد الرحمن إذا سُئِلَ: كيف أصبحت؟ يقول: أحمَدُ الله إليك وإلى جميع خَلْقِهِ.

واعلم أن كلَّ عبدٍ سُئِلَ عن حالٍ فهو بين أن يَشْكُرَ أو يَشْكُو، فالشُّكْرُ طاعة، والشُّكْوَى مَعْصِيَةٌ قبيحة من أهل الدين، وكيف لا تُقْبَحُ شُكْوَى مَمْلُوكٍ من ملكِ المَلُوكِ؟! والأحرى بالعبد إن لم يُحسِنِ الصَّبْرَ على البلاء وأفضى به الضَّعْفُ إلى

الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى، فهو المُبلي، وهو القادر على إزالة البلاء، والشكوى ذلٌّ، وذلُّ العبد لمولاه عزٌّ وإظهار الذلُّ للعبيد مع كونهم أذلاءً قُبْح، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

والشكر باللسان من جملة الشكر، أخبرنا محمد بن ناصر قال: أخبرنا علي بن أيوب قال: أخبرنا أبو علي بن شاذان قال: حدثنا أبو بكر النجاد قال: حدثنا عبد الله بن محمد القرشي قال: حدثنا الحسن بن الصباح قال: حدثنا عمر بن يونس قال: حدثنا عيسى بن عون عن حفص بن الفرافصة عن عبد الملك بن زُرارة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله عزَّ وجل على عبدٍ نعمةً في أهلٍ أو مالٍ أو ولدٍ، فيقول: ما شاء الله، لا قوَّةَ إلا بالله، فيرى فيه آفةً دون الموت»<sup>(١)</sup>.

قال القرشي: وحدثني عمر بن أبي الحارث قال: حدثنا سلم بن قادم قال: حدثنا هشام ابن عيسى الحمصي قال: حدثنا الحارث بن مسلم عن الزُّهري عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ، إذا نظَرَ وَجْهَهُ فِي الْمِرَاةِ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَوَّى خَلْقِي فَعَدَلَهُ وَكَرَّمَ صُورَةَ وَجْهِي وَحَسَّنَهَا، وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ»<sup>(٢)</sup>.

وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ لَبَسَ ثَوْبًا فَقَالَ حِينَ يَبْلُغُ تَرْقُوتَهُ»<sup>(٣)</sup>: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي، وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي حَيَاتِي، ثُمَّ عَمِدَ إِلَى ثَوْبِهِ الْخَلْقُ»<sup>(٤)</sup> فكساه مسكيناً، لم يزل في جوار الله وفي ذمَّة الله وفي كنف الله عزَّ وجل حياً وميتاً، حياً وميتاً، حياً وميتاً، ما بقي من الثوب شلواً»<sup>(٥)</sup>.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر: ١٠.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر: ٣٨.

(٣) الترقوة: العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق، وهما ترقوتان.

(٤) الخلق: البالي.

(٥) في النسخ: «سلك» والمثبت من كتاب الشكر لابن أبي الدنيا: ٢٦، والشلو: القطعة.

وكان رسول الله ﷺ إذا شرب الماء قال: «الحمد لله الذي جعله عذْباً فُرَاتاً برحمته، ولم يجعله مِلْحاً أجاجاً بذنوبنا»<sup>(١)</sup>.

وقال موسى عليه السلام: يا رب، ما الشكر الذي ينبغي لك؟ قال: أن لا يزال لسانك رطباً من ذكري<sup>(٢)</sup>.

وكان نوح عليه السلام إذا أكل قال: الحمد لله، وإذا شرب قال: الحمد لله، وإذا لبس قال: الحمد لله، فسمّاه الله عز وجل عبداً شكوراً<sup>(٣)</sup>.

وقد روينا أن وفداً قدّموا على عمر بن عبد العزيز فقام شاب ليتكلم، فقال عمر: الكُبر الكُبر<sup>(٤)</sup>. فقال: يا أمير المؤمنين، لو كان الأمر بالسِّنِّ لكان في المسلمين من هو أسنّ منك. فقال: تكلم. فقال: لسنا وفد الرّغبة، ولا وفد الرهبة، أما الرّغبة فقد أوصلها إلينا فضلك، وأما الرّهبة فقد آمننا منها عدلك، وإنما نحن وفد الشكر، جئناك نشكرك باللسان وننصرف. فهذه هي أصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته.

فأما قول من قال: إن الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع. فهو نظراً إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب، وقول من قال: إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه، نظراً إلى مجرد عمل اللسان، وقول القائل: إن الشكر هو اعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة جامعاً لأكثر معاني الشكر لا يشد منه إلا عمل اللسان. وقول حمدون القصار: شكر النعمة أن ترى نفسك فيه طفيلياً. إشارة إلى معنى المعرفة من معاني الشكر فقط. وقول الجنيد: الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة. إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص، وهؤلاء أقوالهم تُعرب عن أحوالهم، ولذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق، ثم قد يختلف جواب واحد في حالتين؛ لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر: ٢٥.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر: ١٨.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر: ٦١.

(٤) الكُبر الكُبر: أي قدّموا للتكلم الأكبر فالأكبر.

عليهم اشتغالاً بما يهتمهم عما لا يهتمهم، أو يتكلمون بما يرونه لائقاً بحال السائل اقتصاراً على ذكر القدر الذي يحتاج إليه، وإعراضاً عما لا يحتاج إليه.

### بيان طريق كشف الغطا عن الشكر في حق الله عز وجل

لعله يخطر ببالك أن الشكر إنما يُعقل في حق منعم هو صاحب حظ في الشكر، فإننا نشكر الملوك إما بالثناء ليزيد محلهم في القلوب ويظهر كرمهم عند الناس، فيزيد به صيتهم وجاههم، أو بالخدمة التي هي إعانة لهم على بعض أغراضهم، أو بالمثل بين أيديهم في صورة الخدم، وذلك تكثيراً لسوادهم وسبباً لزيادة جاههم، فلا نكون شاكرين لهم إلا بشيء من ذلك، وهذا محال في حق الله تعالى من وجهين:

أحدهما: أن الله عز وجل مُنزّه عن الحُطُوظ والأغراض، مُقدّس عن الحاجة إلى الخدمة والإعانة، وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء والإطراء، وعن تكثير سواد الخدم بالمثل بين يديه راعياً أو ساجداً، فشكرنا إياه بما لا حظ له فيه يُضاهي شكرنا المملك المنعم علينا بأن ننام في بيوتنا أو نَسجد أو نركع، إذ لا حظ للملك فيه، ولا حظ لله تعالى في أفعالنا كلها.

والوجه الثاني: أن جميع ما نتعاطاه باختيارنا، فهو نعمة أخرى من نعم الله تعالى، إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وداعتنا من خلق الله تعالى ونعمته، فكيف نشكر نعمته بنعمته، ولو أعطانا المملك مركوباً فأخذنا مركوباً آخر له فركبناه، أو أعطانا مركوباً آخر لم يكن الثاني شكراً للأول متناً، بل كان الثاني يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأول، ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى، فيؤدي إلى أن يكون الشكر مُحالاً في حق الله تعالى من هذين الوجهين، ولسنا نشك في الأمرين جميعاً، والشرع قد ورد به، فكيف السبيل إلى الجمع؟

فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام، فقال: يا رب كيف أشكرُك وشكري لك نعمة أخرى منك تُوجبُ عليَّ الشكر لك؟ فأوحى الله تعالى إليه: إذا عرفتَ هذا فقد شكرتني.

فإن قيل: كيف تكون معرفة استحالة الشكر شكراً فإن هذا العلم<sup>(١)</sup> أيضاً نعمة، فكيف صارت شكراً، وكأن الحاصل يرجع إلى أن من لم يشكر فقد شكر، وأن قبول الخلة الثانية من الملك شكر للخلة الأولى؟

فالجواب: أن من نظر بعين التوحيد المحض عرف أن الله هو الشاكر<sup>(٢)</sup> والمشكور، وأنه هو المحب وهو المحبوب، وبيان ذلك أن غيره لا قوام له إلا به والموجود بغيره كالمعدوم؛ لأنه لو قدر عدم ما قام به لم يوجد، فعلى هذا كل الأشياء منه، فهو الذي أعطى وأثنى على عطائه.

ويتضح هذا بأن نقول: إذا أحب المصنّف تصنيفه والصانع صنعته، فقد أحب نفسه، وكل ما في الوجود تصنيف الله تعالى وصنعته، فإذا أحبّه فما أحب إلا عن نفسه، وإلى هذه الحالة يُشير من يقول بفناء النفس، فيقال: فلان قد فني، أي: عن نفسه وعن غير ربّه، فلم ير إلا الله، ثم إن المنتفع بالشكر هو العبد لا الرب لاستحالة وصول النفع إليه، وكما أن الملك إذا أعطى عبداً فرساً ليركبها في صحبتته مع غنى الملك عنه، تُصوّر أن يكون شاكراً وكافراً، ويكون شكره أن يستعمل ما أنفذه إليه مولاه فيم أحبه لأجله لا لأجل نفسه، وكفره أن يعطل ذلك ويستعمله فيما يزيد في بعده منه، فينعم الله سبحانه آلات يترقى العبد بها من أسفل سافلين، خلّقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب، والله غني عنه قرب أو بعد، والعبد إذا استعملها في الطاعة كان شاكراً، لموافقة محبة مولاه، وبين أن يستعملها في معصيته في معصيته، فيكون قد كفره، لاقتحامه ما يكرهه مولاه، وإن عطّلها، فهو كُفراً أيضاً للنعمة بالتضييع، فالمعصية والطاعة تشملهما المشيئة ولكن لا تشملهما المحبة والكراهة له، بل ربُّ مراد محبوب، وربُّ مراد مكروه، ووراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذي منع من إفشائه، وقد انحل بهذا الإشكال الأول؛ وهو أنه إذا لم يكن للمشكور حظ فكيف يكون الشكر؟ وبهذا أيضاً ينحل الإشكال الثاني، فإننا لم نعن بالشكر إلا انصراف نعمة الله في جهة محبة الله، فإذا انصرفت

(١) تحرفت في (ف) إلى: «العالم».

(٢) باعتبار أنه هو الملهم لعباده والموفق لهم أن يشكروه.

النَّعْمَة في جهة المحبة بِفِعْلِ الله تعالى فقد حصل المُراد، وفعلك عطاءً من الله عزَّ وجلَّ، ومن حيث أنت محله، فقد أثنى عليك وثناؤه نِعْمَةً أخرى منه إليك، فهو الذي أعطى، وهو الذي أثنى، وصار أحدُ فِعْلِيهِ سَبَباً لانصراف فعله الثاني إلى جهة محبَّته، فله الشكر على كل حال، وأنت موصوف بأنك شاكِرٌ بمعنى أنك محل المعنى الذي الشكر عبارة عنه، لا بمعنى أنك مُوجِدٌ<sup>(١)</sup> له، كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم لا بمعنى أنك خالقُ العلم وموجده، ولكن بمعنى أنك محلُّ له، وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك، فوصفُك بأنك شاكِرٌ إثبات شَيْئِيَّةٍ لك وأنت شيءٌ إذ جعلك خالقُ الأشياء شيئاً، وإنما أنت لا شيء إذا كنت أنتَ ظاناً لنفسك شَيْئِيَّةً من ذاتك، فأما باعتبار النظر الذي جعل الأشياء شيئاً فأنت شيء إذا جعلك شيئاً فإن قطع النظر عن جعله شيئاً كنت لا شيء تحقيقاً، وإلى هذا أشار النبي ﷺ بقوله: «اعملوا فكلُّ ميسرٍ لما خُلِقَ له». فبيِّن أن الخلق مجاري قدر الله تعالى ومحل أفعاله، فإن كانوا هم أيضاً من أفعاله ولكن بعض أفعاله محلٌّ للبعض، وقوله: «اعملوا». وإن كان جارياً على لسان الرسول ﷺ فهو فعلٌ من أفعاله، وهو سببٌ لعلم الخلق بأن العمل نافع، وعلمهم فعلٌ من أفعال الله عزَّ وجلَّ، والعلم سببٌ لانبعاث داعية جازمة إلى الحركة والطاعة، وانبعاث الداعية أيضاً من أفعال الله تعالى، وهو سببٌ لحركة الأعضاء، وهي أيضاً من أفعال الله، ولكن بعض أفعاله سببٌ للبعض، أي: الأول شرطٌ للثاني، كما كان خلق الجسم سبباً لخلق العَرَض إذ لا يخلق العَرَض قبله، وخلق الحياة شرطاً<sup>(٢)</sup>، لخلق العلم، وخلق العلم شرطاً لخلق الإرادة، والكلُّ من أفعال الله عزَّ وجلَّ، وبعضها سببٌ للبعض، أي هو شرطٌ، ومعنى كونه شرطاً أنه لا يستعدُّ لقبول فعل الحياة إلا جوهراً، ولا يستعدُّ لقبول العلم إلا ذو حياة، ولا لقبول الإرادة إلا ذو علم ليكون بعض أفعاله سبباً للبعض.

فإن قيل: فإذا كان الكلُّ من الله تعالى، فما إلى تارك العمل حتى يُدَمَّ؟

(١) تحرفت في الأصل إلى: «موجود».

(٢) في الأصل: «سبب».

فالجواب: أن التخويف من ترك العمل سبب لحصول الاعتقاد فينا، والاعتقاد سبب لهيجان الخوف، وهيجان الخوف سبب لترك الرّّل، وذلك سبب للوصول إلى جوار الله، والله تعالى مُسَبَّبُ الأسباب وهو مرتبها، فمن سبقت له السّعادة يُسّرَت له هذه الأسباب حتى تقوده إلى الجنة، وهو معنى «كُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»، ومن لم تسبق له الحسنى بعد عن سماع الزّواجر، فلا يعلم، وإذا لم يعلم لم يعمل، وإذا لم يعمل لم يخف، وإذا لم يخف لم يترك الرّكون إلى الدنيا، فيبقى في حِزْبِ الشّيطان.

فإذا عرفت هذا تعجّبت من قوم يُقادون إلى الجنة بالسّلاسل، وكلُّ أحد يُقاد إلى الجنة بسلاسل الأسباب، وهو تسليط العلم والخوف عليه، وما من مخذولٍ إلا وهو مَقودٌ إلى الله بالسّلاسل، وهو تسليط الغفلة والأمن والغرور عليه، فالكل يُساقون قهراً إلى الجنة وإلى النار، ولا قاهر إلا الله تعالى، فإذا انكشف الغطاء عن أعين الجاهلين فشهدوا الأمر كذلك سمعوا عند ذلك نداء المُنادي ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [المؤمن: ١٦] وما زال الملك له، غير أن الغافلين لا يفهمون ذلك إلا ذلك اليوم، فهو نبأ عما يتجدّد للغافلين من كشف الأحوال حيث لا ينفعهم الكشف.

### بيان تمييز ما يُحبه الله عزّ وجلّ عما يكرهه

اعلم أن فعل الشكر وترك الغفران لا يتمّ إلا بمعرفة ما يُحبه الله عزّ وجلّ، إذ معنى الشكر استعمال نعمة في محابه، ومعنى الكفر نقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها في مكارهه، ولتمييز ما يُحبه الله فيه عما يكرهه مدركان:

أحدهما: السّمع، ومُسْتَنده الآيات والأخبار.

والثاني: بصيرة القلب، وهو النظر بعين الاعتبار، وهذا الأخير عسير، وهو لأجل ذلك عزيز، فلذلك أرسل الله تعالى الرسل وسهّل بهم الطريق على الخلق، ومعرفة ذلك تُبني على معرفة جميع أحكام<sup>(١)</sup> الشرع في أفعال العباد، فمن لا يطّلع

(١) تحرفت في الأصل إلى: «أنواع».

على حكم الشرع في جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلاً.

وأما الثاني؛ وهو النظر بعين الاعتبار، فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه، إذ ما خلق الله تعالى شيئاً في العالم إلا وفيه حكمة، وتحت الحكمة مقصود، وذلك المقصود هو المحبوب.

وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وحفية؛ أما الجلية؛ فكالعلم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل الليل والنهار فيكون النهار معاشاً والليل سباتاً، فتتيسر الحركة عند الإبصار والسكون عند الاستتار، فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم التي فيها، وكذلك معرفة الحكمة في العيم ونزول الأمطار وأنشقاق الأرض بأنواع الثبات مطعماً للخلق ومرعى للأنعام، وقد بأت هذه الحكمة في قوله تعالى: ﴿أَنَا صَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝١٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝١٦ فَأَلْبَنَّا فِيهَا حَبًّا ۝١٧ وَعَبْنَا وَقَضْنَا ۝١٨ وَزَيَّنَّاهَا ۝١٩﴾ [عبس: ٢٥-٢٩].

وأما الحكمة في خلق الكواكب فحفية لا يطلع عليها كل الخلق، والذي تحتمله أفهامهم أنها زينة للسماء لتلذذ العين بالنظر إليها، وقد كشف عن ذلك قوله: ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا زِينَةَ الْكُرُوبِ﴾ [الصفات: ٦]، وجميع أجزاء العالم كله لا تخلو منه ذرة عن حكم، وكذلك أعضاء الحيوان منها ما تبين حكمته كالعلم بأن العين للإبصار، واليد للبطش، والرجل للمشي، فأما الأعضاء الباطنة كالمرارة والكلى والكبد، وآحاد العروق والأعصاب وما فيها من التجاوب والاشتباك والدقة والغلظ، فلا يعرف الحكمة فيها كل الناس، والذين يعرفونها إنما يعرفون منها قدراً يسيراً بالإضافة إلى علم الله تعالى.

فإذن كل من استعمل شيئاً في جهة غير الجهة التي خلق لها، لاعلى الوجه الذي أريد به، فقد كفر نعمة الله فيه، فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة اليد؛ لأنها خلقت ليدفع بها عن نفسه ما يؤذي، ويتناول ما ينفعه، لا ليؤذي بها الغير، ومن نظر إلى وجه محرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس، إذ الإبصار يتم بهما، وإنما خلقا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه، وينفي بهما ما يضره فيهما، فقد استعملهما في غير ما أريد به، وهذا لأن المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا

وأَسبابها أن يستعين الخلق بها على الوصول إلى الله، ولا وصول إليه إلا بمحبته والأُنس به في الدنيا والتَّجافي عن عُرور الدنيا، ولا أُنس إلا بدوام الذِّكر، ولا مَحَبَّة إلا بالمعرفة الحاصِلة بدوام الفِكر، ولا يمكن الدَّوام على الفِكر والذِّكر إلا بدوام البَدَن، ولا يَبْقَى البَدَن إلا بالماء والأرض والهواء والغذاء، ولا يتم ذلك إلا بِخَلْق السَّماء والأرض، وخلق جميع الأعضاء الباطنة والظَّاهرة، فكل ذلك لأجل البَدَن، والبَدَن مَطِيَّة النَّفس، والراجع إلى الله هي النَّفس المُطْمِئِنَّة بطول العِبادة والمَعْرِفة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فكلُّ من اسْتَعْمَلَ شيئاً في غَيْر طاعةِ الله فقد كَفَرَ نِعْمَةَ الله في جميع الأسباب التي لا بدَّ منها لإِقْدامه على تلك المَعْصية.

ولنذكر مثلاً واحداً لِلحِكْمِ الحَفِيَّةِ التي لَيْسَتْ في غَايَةِ الحَفَاءِ حتى يُعْتَبَر بها وَيُعَلِّم طريق الشُّكْرِ والكُفْرانِ على النُّعم، فنقول:

مِنْ نِعْمِ الله عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ الدِراهِمَ والدَّنَانِيرَ وبهَما قِوامَ الدُّنْيا، وهِما حَجَرانِ لا مَنفَعَةَ في أَعْيانِهِما، ولكن يَضطَرُّ الخَلقُ إِلَيْهِما من حَيْثُ إن كلَّ إنسانٍ يَحْتَاجُ إلى أَعْيانٍ كَثِيرَةٍ في مَطْعَمِهِ ومَلْبَسِهِ ومَشْرِبِهِ وسائِرِ حاجاتِهِ، وقد يَعجزُ عَمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ويمَلِكُ ما يَسْتغني عَنه، كَمَن يَمَلِكُ مثلاً الرِّعْفَرانَ وهو يَحْتَاجُ إلى جَمَلٍ يَرَكِبُهُ ومن يَمَلِكُ الجَمَلَ رِبما يَسْتغني عَنه ويَحْتَاجُ إلى الرِّعْفَرانِ، فلا بدَّ من مُعاوَضَةٍ، ولا بدَّ في مِقْدارِ العِوضِ من تَقْدِيرٍ، إذ لا يُبَدَلُ صَاحِبُ الجَمَلِ جَمَلَهُ بِكُلِّ مِقْدارٍ مِنَ الرِّعْفَرانِ، ولا مَناسِبَةٌ بَينَ الرِّعْفَرانِ والجَمَلِ حَتَّى يُقالَ: يَعطى مِثلُهُ في الوِزَنِ والصُّورَةِ، وكذا من يَشْتري داراً بِثيابٍ، أو عبداً بِخُفٍّ، أو دَقِيقاً بِحَمارٍ، فَهذه أَشياءٌ لا تَناسِبُ فِيها، فلا يُدْرى كَم يُساوِي الجَمَلُ بِالرِّعْفَرانِ فَتَعَدُّرُ المَعامِلاتِ جِداً، فَافْتَقَرَتْ هِذه الأَعْيانُ المُتَنافِرةُ المُتَباعِدةُ<sup>(١)</sup> إلى مُتوسِّطٍ بَينَها يَحْكُمُ فِيها بِحِكمِ عَدْلِ، فيَعْرِفُ من كُلِّ واحِدٍ رُتَبَتَهُ ومَنْزِلَتَهُ حَتَّى إذا تَقَرَّرتِ المَنازِلُ وَتَرْتَبَتِ الرُّتَبُ عَلمَ بَعْدَ ذلك المُساوِي من غَيرِ المُساوِي، فَخَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الدِراهِمَ والدَّنَانِيرَ حاكِمِينَ ومُتوسِّطِينَ بَينَ سائِرِ الأَموالِ حَتَّى تُقَدَّرَ الأَموالُ بِهِما، فيقالُ: هِذا الجَمَلُ يُساوِي

(١) تحرفت في (ف) إلى: «المشاهدة».

مئة، وهذا القدر من الزعفران يُساوي مئة، فهما من حيث أنهما مساويان لشيء واحد إذن متساويان، وإنما أمكن التعديل بالتقديين<sup>(١)</sup> إذ لا غرض في أعيانهما، ولو كان في أعيانهما غرض لربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحاً، ولم يقتض ذلك في حق من لا غرض له، لا ينتظم الأمر، فإذا خلقهما الله عز وجل لتداولهما الأيدي ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل، ولحكمة أخرى وهي التوسل بهما إلى سائر الأموال؛ لأنهما عزيزان في أنفسهما ولا غرض في أعيانهما، ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة، فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء لا كمن ملك ثوباً، فإنه لا يملك إلا الثوب، فلو احتاج إلى طعام فربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب فاحتيج إلى شيء هو في صورته، كأنه ليس بشيء، وهو في معناه كأنه كل الأشياء، والشيء إنما تستوي نسبته إلى المختلفات إذا لم يكن له صورة خاصة يُفِيدُها بخصوصها كالمرأة لا لون لها وتحكي كل لون، فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كل عرض، وكالحرف لا معنى له في نفسه وتظهر به المعاني في غيره، فكل من عمل فيهما عملاً لا يليق بالحكم بل هو مخالف للغرض المقصود بالحكم، فقد كفر نعمة الله فيهما، فإذا من كثرهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما، وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يمتنع عليه الحكم بسببه؛ لأنه إذا كثر فقد ضيع، ولا يحصل الغرض المقصود به، وما خلقت الدراهم لزيد خاصة إذ لا غرض للأحاد في أعيانهما، فإنهما حبران وإنما خلقا لتداولهما الأيدي فيكونان حاكمين بين الناس وعلامة معرفة للمقادير مقومة للمراتب، فأخبر الله الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحات الموجودات بخط إلهي لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة، فأخبرهم بكلام سمعوه من رسوله عبّر عن ذلك المعنى، فيقول: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَبَرَّهُمْ بِعَذَابٍ آسِئٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

فكل من اتخذ الدراهم والدنانير آنية فقد كفر النعمة، وكان أسوأ حالاً ممن كثر؛

(١) تحرفت في النسخ إلى: «التقدير»، والمثبت من الإحياء.

لأن مثال هذا مثال من استسخر حاكمَ البلد في الحياكة والكسِّ والأعمال التي يقوم بها أخساء الناس، والحبسُ أهونُ منه، وذلك أن الخَرْفَ والحديدَ والرصاصَ والنحاسَ تنوبُ مَنَابَ الذهبِ والفضَّةِ في حفظِ المائعات من أن تتبدَّد، ولا يكفي الخَرْفُ والحديدُ في المقصود الذي أريد به النقود، فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالرحمة الإلهية، وقيل له: مَنْ شَرَبَ في آنيةِ الذهبِ والفضَّةِ فكأنما يُجرِّجُ في بطنه نارَ جهنَّم، وكلُّ من عاملَ بالرِّبَا في الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم؛ لأنهما خُلِقا لغيرهما لا لأنفسهما إذ لا غرضَ في عينهما، فإذا اتجرَّ في عينهما فقد اتخذهما مقصوداً على خلافِ وضعِ الحكمة إذ طلبُ النِّقْدِ لغير ما وُضع له ظلمٌ، ومَنْ معه ثوبٌ ولا نقدٌ معه فقد لا يقدر على أن يشتري طعاماً ودابةً، وربما لا يُباع الطعامُ والدابةُ بالثوبِ فهو معذور في بيته بنقْدٍ ليحصل النِّقْدَ فيتوصل به إلى مقصوده، فإنهما وسيلتان إلى الغير لا غرضَ في أعيانهما، ووقعهما من الأموال كوقع الخَرْفَ، فإنه جاء لمعنى في غيره.

فإن قيل: فلمَ جاز بيعُ أحدِ النِّقْدَيْنِ بالآخر؟

فاعلم أن أحدَ النِّقْدَيْنِ مخالف للآخر في مقصود التَّوَصُّل إذ قد تيسر التَّوَصُّل بأحدهما من حيث كثرته، كالدراهم تتفرَّقُ في الحاجات قليلاً قليلاً، ففي المنع منه ما يُكدر المقصود الخاصَّ به، وهو تيسر التَّوَصُّل به إلى غيره، فأما الأطعمة فإنها خلقت ليتغذى بها ويتداوى، فلو فُتِحَ بابُ المعاملة فيها أوجب تقييدها في الأيدي وتأخير الأكل الذي خلقت له عنها، فمن باع طعاماً بطعام فكلاهما مُستغني عما أخرج، فأما ما لو باعه بغير الطعام فإنه قد يحتاج إلى غير الطعام، وإنما عذرُ بائع البرِّ بالتمرِّ بأن أحدهما لا يسدُّ مسدَّ الآخر في الغرض.

فهذا مثالٌ واحدٌ لحكمةٍ خفيةٍ من حكمِ النِّقْدَيْنِ، فينبغي أن يُعتبر شكرُ النِّعمة وكُفْرانها بهذا المثال، وكلُّ ما خُلِقَ لحكمةٍ فلا ينبغي أن يُصرف عنها، ولا يعرف هذا إلا من عرفَ الحكمة، ولا تُصادفُ جواهرُ الحكمة في قلوبِ هي مزابِلُ الشَّهواتِ وملاعبُ الشَّيَاطِينِ.

وإذا عرفتَ هذا المِثَالَ فقسْ عليه حركتك وسكونك ونطقك وسكونك وكلَّ فعلٍ

صادر منك، فإنه إما شكرٌ وإما كفر، إذ لا يُتصوّر أن ينفكّ عنهما، وبعض ذلك تصفه بالكراهة وبعضه بالحظر، وأقول مثلاً: لو استنجيت باليمين فقد كفرت نعمة اليدين؛ لأن الله تعالى لما خلق لك اليدين وجعل إحداهما أقوى من الأخرى استحقّ الأقوى بمزيد رُجحانه في الغالب التّشريف والتّفضيل، إذ تفضيل الناقص عدولٌ عن العدل، والله لا يأمر إلا بالعدل، ثم قد أحوجك من أعطاك اليدين إلى أعمال بعضها شريفة، كأخذ المصحف، وبعضها خسيئة، كإزالة النجاسة، فإذا أخذت المصحف باليسار وأزلت النجاسة باليمين فقد خصصت الشّريف بما هو خسيس فظلمته، وكذلك إذا بصفت مثلاً في وجه القبلة أو استقبلتها في قضاء الحاجة، فقد كفرت نعمة الله في خلق الجهات؛ لأنه خلقها لتكون متسعاً لحركاتك، وقسمها إلى ما شرفه وإلى ما لم يشرفه بأن وضع بيتاً أضافه إلى نفسه استمالةً لقلبك<sup>(١)</sup> إليه ليتقيّد به قلبك فيتقيّد بسببه بدنك في تلك الجهة على معنى الوقار في العبادة، فلما انقسمت أفعالك إلى شريف، كالطاعة، وإلى خسيس، كرمي البصاق، فإذا رميته إلى جهة القبلة فقد ظلمتها وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة التي بوضعها كمال عبادتك، وكذلك إذا لبست حُفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت؛ لأن الحُفّ وقايةٌ للرجل فلها فيه حظ، والبداية بالحظوظ ينبغي أن تكون بالأشرف، فذلك العدل والوفاء بالحكمة، ونقيضه الظلم والكفران لنعمة الرجل والحُفّ، وكذلك من كسر عُصناً من شجرة من غير حاجةٍ مهمّةٍ وغرضٍ صحيح، فقد كفر نعمة الله في خلق الأشجار وخلق اليد، أما اليد فإنها لم تُخلق للعبث، وأما الأشجار فللمنفعة، فكسر العُصن قبل منتهى نُشوئه لا على وجه يُنتفع به مخالفةً لمقصود الحكمة وعدولٌ عن العدل، فإن كان غرضٌ صحيح فله ذلك، إذ الشجر والحيوان جعل فداءً لأغراض الناس، فإن كان كسر ذلك من ملكٍ غيره فهو ظالمٌ، وإن كان محتاجاً.

فإن قيل: قد رجّع حاصل الكلام إلى أن الله تعالى حكمةً في كل شيء، وأنه جعل بعض أفعال العباد سبباً لتمام تلك الحكمة وبلوغها غاية المراد منها، وجعل

(١) تحرفت في (ف) إلى: «لقلبك».

بعض أفعالهم مانعاً من تمام الحكمة، فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انسأت الحكمة إلى غايتها فهو شكر، وكل ما خالف وضع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران، وهذا كله مفهوم، إنما الإشكال باق، وهو أن فعل العبد المنقسم إلى ما يتم الحكمة وإلى ما يدفعها هو أيضاً من فعل الله، فأين العبد في البين حتى يكون شاكراً مرةً وكافراً أخرى؟

فقد رمزنا إلى جواب هذا في تلويحات تقدمت ونحن نعبّر عنها الآن بعبارة يفهمها من عرف منطق الطير، فنقول: الله تعالى صفة تسمى القدرة يصدر عنها الخلق والاختراع، ثم ينقسم الخلق إلى أقسام وصفات صدرت عن المشيئة، ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المنتهى الذي هو غاية حكمها، وإلى ما يقف دون الغاية، وقيل للبالغ إلى المنتهى: محبوب، وللواقف دون البلوغ: مكروه، ثم انقسم عباده الذين هم أيضاً من خلقه واختراعه إلى من سبقت له في المشيئة أن يستعمله لاستئناف حكمته دون غايتها؛<sup>(١)</sup> ويكون ذلك بتسليط الدواعي عليهم، وإلى من سبقت له في الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمته إلى غايتها<sup>(٢)</sup> في الأمور، فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة، واستعير لنسبة المستعملين في إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا، واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب، وظهر على من غضب عليه في الأزل فعل وقضت الحكمة به دون غايتها، فاستعير له الكفران، وظهر على من ارتضاه في الأزل فعل انسأت بسببه الحكمة إلى غايتها، فاستعير له عبارة الشكر، وأردف بخلعة الثناء والإطراء زيادة في الرضا والقبول، فكان الحاصل أنه أعطى الجمال ثم أثنى، وأعطى النكال ثم قبح وأزدى، وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسخ من أوساخه ثم يلبسه من محاسن ثيابه، فإذا أتم زينته قال: يا جميل، ما أجملك وأجمل ثيابك وأنظف وجهك. فيكون هو المجلل وهو المثني على الجمال، وكأنه لم يُثن من حيث المعنى إلا على نفسه، وإنما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة، فهكذا كانت الأمور في الأزل، وهكذا تسلسل الأسباب

والمسببات بتقدير المُسبَّب، ولم يكن ذلك عن اتفاق، بل عن إرادة وحكمة وحُكم  
 حَق استعير له لَفْظُ الْقَضَاءِ، فَفَاصَتْ بِحَارِ الْمَقَادِيرِ بِحُكْمِ ذَلِكَ الْقَضَاءِ الْجَزْمَ فَاسْتُعِيرَ  
 لَتَرْتُبِ أَحَادِ الْمَقْدُورَاتِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضِ لَفْظِ الْقَدَرِ، فَكَانَ لَفْظُ الْقَضَاءِ بِإِزَاءِ الْأَمْرِ  
 الْوَاحِدِ الْكُلِّيِّ، وَلَفْظُ الْقَدَرِ بِإِزَاءِ التَّفْضِيلِ الْمُتَمَادِي إِلَى غَيْرِ نَهَائِيَّةٍ، فَلَمَّا لَمْ يُطَقْ أَكْثَرَ  
 النَّاسِ مِلَاحَظَةً كَنَهُ هَذَا الْأَمْرُ وَقَالُوا: كَيْفَ انْتَضَمَ الْعَدْلُ مَعَ هَذَا التَّفَاوُتِ؟ أَلْجَمُوا  
 عَنِ الْخَوْضِ فِي غَمْرَتِهِ، وَقِيلَ: اسْكُتُوا، فَمَا لِهَذَا خُلِقْتُمْ. وَامْتَلَأَتْ مِشْكَاتُهُمْ بَعْضُهُمْ  
 نُورًا مُقْتَسَبًا مِنْ نُورِ اللَّهِ، فَأَدْرَكُوا الْأُمُورَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، وَقِيلَ لَهُمْ: إِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ  
 فَأَمْسِكُوا فَإِنَّ حَوْلَكُمْ ضُعْفَاءَ الْأَبْصَارِ، فَسَيَرُوا بِسِيرِ أَوْعَافِكُمْ، وَلَا تَكْشِفُوا حِجَابَ  
 الشَّمْسِ لِأَبْصَارِ الْخَفَافِيشِ فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ هَلَاكِهِمْ.

فهذه رموزٌ إلى معنى الكراهة والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفران لا يليق  
 بعلم المعاملة أكثر منها، ومن رأى لعب الخيال من وراء الستر وكان صبيهاً ظنّها  
 تتحرك بنفسها، فأما العاقل فيعلم أنها محرّكة والخلق صبيان والعلماء رجال.

فلنرجع إلى مقاصد الشكر فنقول: إِذَا رَجَعْتَ حَقِيقَةَ الشُّكْرِ إِلَى كَوْنِ الْعَبْدِ  
 مُسْتَعْمَلًا فِي إِتْمَامِ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَأَشْكُرُ الْعِبَادَ أَحَبَّهُمْ إِلَى اللَّهِ وَأَقْرَبَهُمْ إِلَيْهِ،  
 وَأَقْرَبَهُمْ إِلَى اللَّهِ الْمَلَائِكَةُ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ، وَيَلِيهِمُ الْأَنْبِيَاءُ، فَقَدْ  
 أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَنْبِيَاءَ بِالْمَلَائِكَةِ، وَأَصْلَحَ الْخَلْقَ بِالْأَنْبِيَاءِ، وَأَعْلَى الْكُلِّ رَتْبُهُ النَّبِيُّ ﷺ،  
 وَيَلِيهِمُ الْعُلَمَاءُ، فَقَدْ أَصْلَحَ اللَّهُ بِهِمْ جَمِيعَ الْخَلْقِ، وَيَلِيهِمُ الصَّالِحُونَ الَّذِينَ أَصْلَحُوا  
 نُفُوسَهُمْ فَقَطْ، فَلَمْ تَتَمَّ حِكْمَةُ اللَّهِ بِهِمْ <sup>(١)</sup> «بَلْ فِيهِمْ» وَمَنْ عَدَا هَؤُلَاءِ فَهَمَّجٌ رِعَاعٌ.

\* \* \*

## الرّكن الثاني من أركان الشُّكر

(١) ما عليه الشُّكر

ولنذكر فيه حقيقة النُّعمة وأقسام درجاتها وأصنافها، فإن إحصاء نِعَمِ الله عزَّ وجل على عباده خارجٌ عن مقدور البَشَر، كما قال تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [إبراهيم: ٣٤] فنُقدم أموراً كُليّة تجري مجرى القَوَانين في معرفة النِّعم ثم نشتغل بذكر الآحاد.

### بَيَانُ حَقِيقَةِ النُّعْمَةِ وَأَقْسَامِهَا

اعلم أن كل مطلوب يُسمى نِعْمَةً، ولكن النُّعمة بالحقيقة هي السَّعادة الأخرويّة، وتسمية ما عداها نعمة تَجَوُّزٌ، كتسمية السَّعادة الدُّنيوية التي لا تُعين على الآخرة نِعْمَةً، فإن ذلك غلطٌ مَحْضٌ، وتسمية ما يُوصل إلى السَّعادة الآخرة نعمةً صحيحٌ. واللَّذَاتُ المُسمَّاةُ نِعْمَةً لِشرحها تقسيمات:

القِسْمَةُ الأُولَى: اعلم أن الأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم إلى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعاً، كالعلم وحسن الخلق، وإلى ما هو ضارٌّ فيهما، كالجهل وسوء الخلق، وإلى ما ينفع في الحال ويضرُّ في المآل، كالتلذُّذ باتِّباع الشَّهوات، وإلى ما يضرُّ في الحال ويؤلم، ولكنه ينفع في المآل، كقمع الشَّهوات ومخالفة النَّفس، والنافع في الحال والمآل وهو النعمة حقيقة، كالعلم وحسن الخلق، والضرُّ فيهما هو البلاء تحقيقاً، وهو ضدُّهما، والنافع في الحال المُضِرُّ في المآل بلاءٌ مَحْضٌ عند ذوي الأبصار، ويظنُّه الجاهل نعمةً، ومثاله الجائع إذا وجدَ عَسلاً فيه سُمٌّ فإنه يعدُّه نعمةً إن كان جاهلاً، وإذا علمه علم أن ذلك بلاءٌ سبق إليه، والضرُّ في الحال النافع في المآل نعمةً عند ذوي الألباب، بلاءٌ عند الجهال، ومثاله الدَّواء البَشِيعُ في الحال مَذاقُه، إلا أنه شافٍ من الأمراض والأسقام جالبٌ للصحة والسَّلامة، فالصبي الجاهل إذا كُلفَ شُرْبَهُ ظنَّه بلاءً، والعاقل يعدُّه نعمةً ويتقبَّل المِئْتَةَ

مَنْ يُهْدِيهِ إِلَيْهِ وَيَهْيِئُ لَهُ أَسْبَابَهُ، وَلِذَلِكَ تَمْنَعُ الْأُمُّ وَلَدَهَا مِنَ الْحِجَامَةِ، وَالْأَبُ يَدْعُوهُ إِلَيْهَا، فَإِنَّ الْأَبَّ بِكَمَالِ عَقْلِهِ يَلْحَظُ الْعَاقِبَةَ، وَالْأُمُّ لِقُصُورِهَا وَقَرِظِ حُبِّهَا تَلْحَظُ الْحَالَ، وَالصَّبِيُّ لَجَهْلِهِ يَتَقَلَّدُ مِثَّةً مِنْ أُمِّهِ دُونَ أَبِيهِ، وَيَأْنَسُ إِلَيْهَا وَإِلَى شَفَقَتِهَا، وَيُقَدِّرُ الْأَبُّ عَدُوًّا لَهُ، وَلَوْ عَقَلَ لَعَلِمَ أَنَّ الْأُمَّ عَدُوٌّ بَاطِنٌ فِي صُورَةِ صَدِيقٍ؛ لِأَنَّ مَنَعَهَا إِيَّاهُ مِنَ الْحِجَامَةِ يَسُوِّفُهُ إِلَى أَمْرٍ وَأَلَامٍ أَشَدَّ مِنَ الْحِجَامَةِ وَلَكِنَّ الصَّدِيقَ الْجَاهِلَ شَرٌّ مِنَ الْعَدُوِّ الْعَاقِلِ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ فَإِنَّهُ صَدِيقٌ نَفْسِهِ وَلَكِنَّهُ صَدِيقٌ جَاهِلٌ، فَلِذَلِكَ تَعْمَلُ بِهِ مَا لَا يَعْمَلُ بِهِ الْعَدُوُّ.

قسمة ثانية: اعلم أن الأسباب الدنيوية مُختلطةٌ قد امتزجَ خَيْرُهَا بِشَرِّهَا فَكَلَّمَا يَصْفُو خَيْرَهَا، كَالْمَالِ وَالْأَهْلِ، وَالْوَلَدِ وَالْأَقْرَابِ وَالْجَاهِ وَسَائِرِ الْأَسْبَابِ، وَلَكِنْ تَنْقَسِمُ إِلَى مَا نَفَعَهُ أَكْثَرَ مِنْ ضَرِّهِ، كَقَدْرِ الْكِفَايَةِ مِنَ الْمَالِ وَالْجَاهِ وَسَائِرِ الْأَسْبَابِ، وَإِلَى مَا ضَرَّهُ أَكْثَرَ مِنْ نَفْعِهِ فِي حَقِّ أَكْثَرِ الْأَشْخَاصِ، كَالْمَالِ الْكَثِيرِ وَالْجَاهِ الْوَاسِعِ، وَإِلَى مَا يَكْفِيءُ ضَرْرَهُ نَفْعَهُ، وَهَذِهِ أُمُورٌ تَخْتَلِفُ بِالْأَشْخَاصِ، فَرُبَّ إِنْسَانٍ صَالِحٍ يَنْتَفِعُ بِالْمَالِ الصَّالِحِ، وَإِنْ كَثُرَ فَيُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيَصْرِفُهُ إِلَى الْخَيْرَاتِ، فَهُوَ مَعَ هَذَا التَّوْفِيقِ نِعْمَةٌ فِي حَقِّهِ، وَرُبَّ إِنْسَانٍ يَسْتَضِرُّ بِالْقَلِيلِ إِذْ لَا يَزَالُ مُسْتَصْغِرًا لَهُ شَاكِيًا مِنْ رَبِّهِ طَالِبًا لِلزِّيَادَةِ عَلَيْهِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مَعَ هَذَا الْخِذْلَانِ بَلَاءً فِي حَقِّهِ.

القسمة الثالثة: اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثر لذاته، وإلى مؤثر لغيره، وإلى مؤثر لذاته ولغيره.

فالأول: ما يُؤثِّرُ لِدَاتِهِ لَا لْغَيْرِهِ، كَلِذَّةِ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى وَسَعَادَةِ لِقَائِهِ، وَبِالْجُمْلَةِ سَعَادَةِ الْآخِرَةِ الَّتِي لَا انْقِضَاءَ لَهَا، فَإِنَّهَا لَا تُطَلَّبُ لِيُتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى غَايَةٍ أُخْرَى مَقْصُودَةٌ وَرَاءَهَا، بَلْ تُطَلَّبُ لِدَاتِهَا.

الثاني: مَا يُقْصَدُ لْغَيْرِهِ وَلَا غَرَضٌ أَصْلًا فِي ذَاتِهِ، كَالدَّرَاهِمِ وَالذَّنَانِيرِ، فَإِنَّ الْحَاجَاتِ لَوْ كَانَتْ لَا تَنْقُضِي بِهَا لَكَانَتْ هِيَ وَالْحَصَى بِمِثَابَةِ وَاحِدَةٍ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَتْ وَسِيلَةً إِلَى اللِّذَاتِ سَرِيعَةِ الْإِيصَالِ إِلَيْهَا صَارَتْ إِلَى الْجُهَالِ مَحْبُوبَةً فِي أَنْفُسِهَا حَتَّى يَجْمَعُونَهَا وَيَكْتَزُونَهَا وَيَتَصَارِفُونَ بِالرَّبِّا، وَيَظُنُّونَ أَنَّهَا مَقْصُودَةٌ، وَمِثَالُ هَؤُلَاءِ مِثَالُ مَنْ يُحِبُّ شَخْصًا فَيُحِبُّ بِسَبَبِهِ رَسُولَهُ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ يَنْسَى فِي مَحَبَّةِ

الرسول محبةً الأصلِ فيعرضُ عنه طول عمره، ولا يزال مشغولاً بتعهد الرسول ومراعاته وتفقدته، وهو غاية الجهل.

الثالث: ما يقصد لذاته ولغيره، كالصحة والسلامة، فإنها تُقصد ليقدر بسببها على الفكر والذكر الموصولين إلى الله تعالى، وليتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا، فتقصد أيضاً لذاتها فإن الإنسان وإن استغنى عن المشي الذي تُراد سلامة الرجل لأجله، فهو يريد أيضاً سلامة الرجل من حيث إنها سلامة.

فإذن المؤثر لذاته فقط الخير والنعمة تحقيقاً، وما يؤثر لذاته ولغيره أيضاً فهو نعمة ولكن دون الأول، فأما ما لا يؤثر إلا لغيره، كالتقدين فلا يُوصفان في أنفسهما من حيث هما جوهراً بأنهما نعمة بل من حيث هما وسيلتان، فيكونان نعمة في حق من يقصد أمراً ليس يمكنه أن يتوصل إليه إلا بهما، فلو كان مقصده العلم والعبادة، ومعه الكفاية التي هي ضرورة حياته استوى عنده الذهب والمدر، وكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة، بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة، فيكونان بلاءً في حقه لا نعمة.

قسمة رابعة: اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع وجميل ولذيذ؛ فاللذيذ هو الذي تُدرك راحته في الحال، والنافع هو الذي يفيد في المال، والجميل هو الذي يستحسن في جميع الأحوال.

والشُرور أيضاً تنقسم إلى ضار وقبيح ومؤلم، وكل واحدٍ من القسمين ضربان: مُطلق ومُقيّد.

فالمُطلق: هو الذي اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة؛ أما في الخير، فكالعلم والحكمة، فإنها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة، وأما في الشر، فكالجهل، فإنه ضار وقبيح ومؤلم، وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل بأن يرى غيره عالماً ويرى نفسه جاهلاً، فيدرك ألم التقص، فتبعث منه شهوة العلم للذته، ثم قد يمنع الحسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم، فيتجاذبه متضادان، فيعظم ألمه، فإنه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك التقصان، وإن اشتغل

بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك الكبر ودلّ التعلم، ومثل هذا الشخص لا يزال في عذاب دائم لا محالة.

والضرب الثاني<sup>(١)</sup> مُقَيَّد: وهو الذي جمع بعض هذه الأوصاف<sup>(٢)</sup> دون بعض، فربّ نافع مؤلم كقطع الإصبع المتأكّلة والسَّلْعَة<sup>(٣)</sup> الخارجة من البدن، وربّ نافع قبيح، كالحمق، فإنه بالإضافة إلى بعض الأهوال نافع، وقد قيل: استراح من لا عقل له. فإنه لا يهتم بالعاقبة فيستريح في الحال إلى أن يحين وقت هلاكه، وربّ نافع من وجه ضارّ من وجه، كالقاء المال في البحر عند خوف العرق، فإنه ضارّ للمال نافع للنفس في نجاتها.

القِسْمَة الخامسة: اعلم أن النعمة يُعبر بها عن كلّ لذيذ، واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع: عقلية، وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات،<sup>(٤)</sup> وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات<sup>(٥)</sup>.

أما العقلية: فكلّذة العلم والحكمة، إذ ليس يستلذها السمع والبصر والشّم ولا البطن ولا الفرج، وإنما يستلذها القلب لاختصاصه بصفة يُعبر عنها بالعقل، وهذه أقلّ اللذات وجوداً وهي أشرفها، أما قلّتها فلأنّ العلم لا يستلذّه إلا عالم، والحكمة لا يستلذّها إلا حكيم، وما أقلّ أهل العلم والحكمة، وما أكثر المتسمّين باسمهم والمتسمّين برسمهم. وأما شرفها؛ فإنها لازمة لا تزول أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة، ودائمة لا تملّ، فالطعام يُشبع منه فيملّ، وشهوة الوقاع يُفرغ منها فتُسْتَقَل، والعلم والحكمة لا يتصور أن تملّ وتُسْتَقَل، ومن قدر على الشريف الباقي أبد الآباد إذا رضي بالحسيس الفاني في أقرب الآماد فهو مُصاب في عقله محروم بشقاوته وإدباره، وأقلّ أمر فيه أنّ العلم والعقل لا يحتاج إلى أعوان وحفظة بخلاف المال، إذ العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم يزيد بالإنفاق والمال ينقص

(١) سقطت من الأصل.

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «الأصناف».

(٣) السَّلْعَة: ورّم غليظ غير ملتصق باللحم يتحرك عند تحريكه.

(٤-٥) سقط من النسخ، واستدرك من الإحياء.

بالإنفاق، والمال يُسرق، والولاية يُعزلُ عنها، والعلم لا تَمْتدُّ إليه أيدي السُّراق بالأخذ، ولا أيدي السُّلاطين بالعزل، فيكون صاحبه في رَوْحِ الأَمْنِ أبداً، وصاحبُ المالِ والجاهِ في كَرَبِ الخَوْفِ أبداً، ثم العلمُ نافعٌ ولذيدٌ وجميلٌ في كلِّ حالٍ أبداً، والمالُ تارةً يَجذبُ إلى الهلاك، وتارةً يجذبُ إلى النجاة.

وأما قُصورُ أكثر الخلقِ عن إدراكِ لذةِ العلمِ، فإما لَعْدَمِ الذَّوقِ، فمن لم يذُقْ لم يَعْرِفْ ولم يَشْتَقْ، إذ الشُّوقُ تَبَعٌ للذَّوقِ، وإما لفسادِ أَمْرِ جَنَّتِهِمْ وَمَرَضِ قُلُوبِهِمْ بسببِ اتِّباعِ الشَّهواتِ، كالمريضِ الذي لا يدرك حلاوة العسلِ ويَراه مُرّاً، وإما لقُصورِ فطرتِهِمْ، إذ لم تُخَلِّقْ لَهُمْ بعدُ الصِّفَةَ التي تَسْتَلذُّ العِلْمَ، كالطُّفْلِ الرضيعِ الذي لا يدرك لذةَ العسلِ ولا يَسْتَلذُّ إلا اللَّبَنَ، فهو عنده أُلذُّ الأشياءِ.

فالقاصرون عن دَرِكِ لذةِ العلمِ والحكمةِ ثلاثةٌ: إمَّا مَنْ لم يَحْيِ بَاطِنَهُ، كالطفل، وإمَّا مَنْ ماتَ بعدَ الحياةِ بِاتِّباعِ الشَّهواتِ، وإمَّا مَنْ مَرَضَ بسببِ اتِّباعِ الشَّهواتِ.

الثانيةُ: لذةُ يُشاركُ الإنسانُ فيها بعضَ الحيواناتِ، كلذَّةِ الرِّئاسةِ والغلبةِ والاستيلاءِ، وذلك موجودٌ في الأسدِ والنَّمِرِ.

والثالثةُ: ما يُشاركُ بها جميعَ الحيواناتِ، كلذَّةِ البَطْنِ والفرَجِ، وهذه أكثرها وُجوداً وأحْسَها، ولذلك اشتركَ فيها كلُّ ما دَبَّ ودَرَجَ، ومَنْ جاوزَ هذه الرُّتبةَ تشبَّثَ به لذةُ الغلبةِ، وهي أشدُّها التِّصاقاً بالمتعاقِلين، فإن جاوزَ ذلك ارتقى إلى الثالثةِ، فصار أغلب اللذاتِ عليه لذةُ العِلْمِ والحِكْمَةِ، لاسيما لذةُ معرفةِ الله تعالى ومعرفةِ صِفاته وأفعاله، وهذه رتبةُ الصُّدِّيقينِ، ولا يُنالُ تمامها إلا بخروجِ استيلاءِ حُبِّ الرِّئاسةِ من القلبِ، وآخر ما يخرجُ من رُؤوسِ الصُّدِّيقينِ حُبُّ الرِّئاسةِ، وأما شَرُّهُ البَطْنِ والفرَجِ فكسْرُهُ مما يقوى عليه الصَّالحون، وشهوةُ الرِّئاسةِ لا يقوى على فَهْرِها إلا الصُّدِّيقون، فأما قَمْعُها بالكُلِّيةِ حتى لا يقعَ فيها الإحساسُ على الدوامِ وفي اختلافِ الأحوالِ فيُشبهُ أن يكونَ خارجاً عن مَقْدورِ البَشَرِ.

نعم تغلبُ لذةُ معرفةِ الله تعالى في أحوالٍ لا يقع معها الإحساسُ بلذَّةِ الرِّئاسةِ والغلبةِ، ولكن ذلك لا يدوم طولَ العمرِ، بل تغتريه الفتراتُ فتعود إليه الصِّفاتُ

البشرية فتكون موجودة لكن تكون مَقهورَة لا تقوى على حمل النفس على العُدول عن العدل، وعند هذا تنقسم القلوب أربعة أقسام:

قلب لا يحب إلا الله، ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة والفكر فيه. وقلب لا يدري ما لذّة المعرفة وما معنى الأُنس بالله، وإنما لذّته بالجاه والرئاسة والمال وسائر الشهوات البدنية. وقلب أغلب أحواله الأُنس بالله والتلذذ بمعرفته والفكر فيه (١) ولكن قد يعتريه في بعض الأحوال الرجوع إلى الأوصاف البشرية، وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية<sup>(١)</sup>، ولكن قد يعتريه في بعض الأحوال تلذذ بالعلم والمعرفة.

أما الأول، وإن كان ممكناً في الوجود فهو في غاية البعد.

وأما الثاني، فالدنيا طافحة به. وأما الثالث والرابع، فموجود ولكن على غاية الندور، ولا يتصور أن يكون إلا نادراً شاذاً، وهو مع الندور يتفاوت في القلّة والكثرة، وإنما تكون كثرته في الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء، فلا يزال يزداد العهد طويلاً وتزداد مثل هذه القلوب قلة إلى أن تقرب الساعة، وإنما وجب أن يكون هذا نادراً؛ لأنه مبادئ ملك الآخرة، والملك عزيز، والملوك لا يكثرون، فكما لا يكون الفائق في الملك والجمال إلا نادراً وأكثر الناس من دونهم، فكذا في ملك الآخرة، فإن الدنيا مرآة الآخرة، فإنها عالم الشهادة وعبارة عن عالم الغيب، وعالم الشهادة هو التابع لعالم الغيب، كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة، والصورة في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة الوجود، فإنها أول في حق رؤيتك، فإنك ترى صورتك في المرآة أولاً، فتعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانياً على سبيل المحاكاة، فانقلب التابع في الوجود متبوعاً في حق المعرفة وانقلب المتأخر متقدماً وهذا نوع من الانعكاس، والانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم، فكذلك عالم الملك والشهادة مُحاكٍ لعالم الغيب والملكوت، فمن الناس من يُيسر له نظر الاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملكوت

(١) سقط من النسخ، واستدرك من الإحياء.

فِيُسَمَّى عُبُورَهُ: عِبْرَةٌ، وَقَدْ أَمَرَ الْخَلْقُ بِهِ فَقِيلَ لَهُمْ ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، وَمِنْهُمْ مَنْ عَمِيَتْ بَصِيرَتُهُ فَلَمْ يَعْبُرْ، فَاحْتُسِسَ فِي عَالَمِ الْمَلِكِ وَالشَّهَادَةِ وَسُتْفَتْحَ لَهُ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، فَقَدْ بَانَ بِمَا ذَكَرْنَا أَنَّ الْقَلْبَ الصَّالِحَ لِمَلِكِ الْآخِرَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا عَزِيزًا، كَالشَّخْصِ الصَّالِحِ لِمَلِكِ الدُّنْيَا.

القِسْمَةُ السَّادِسَةُ حَاوِيَةٌ لِمَجْمَاعِ النَّعْمِ: اعْلَمْ أَنَّ النَّعْمَ تَنْقَسِمُ إِلَى مَا هِيَ غَايَةٌ مَطْلُوبَةٌ لِدَاتِهَا، وَإِلَى مَا هِيَ مَطْلُوبَةٌ لِأَجْلِ الْغَايَةِ، أَمَا الْغَايَةُ؛ فَهِيَ سَعَادَةُ الْآخِرَةِ، وَيَرْجِعُ حَاصِلُهَا إِلَى أَرْبَعَةِ أُمُورٍ: بَقَاءٌ لَا فَنَاءَ لَهُ، وَسُرُورٌ لَا غَمَّ فِيهِ، وَعِلْمٌ لَا جَهْلَ مَعَهُ، وَغِنَى لَا فَقْرَ بَعْدَهُ. وَهِيَ النَّعْمَةُ الْحَقِيقِيَّةُ وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ: «لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ». وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ فِي وَقْتِ حَفْرِ الْخَنْدَقِ وَهُمْ فِي شِدَّةٍ، فَسَلَّى نَفْسَهُ بِذَلِكَ، وَقَالَ رَجُلٌ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ تَمَامَ النَّعْمَةِ، فَقَالَ ﷺ: «وَهَلْ تَدْرِي مَا تَمَامُ النَّعْمَةِ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «دُخُولُ الْجَنَّةِ».

وَأَمَّا الْوَسَائِلُ فَتَنْقَسِمُ إِلَى الْأَقْرَبِ الْأَخْصِّ، كَفَضَائِلِ النَّفْسِ، وَإِلَى مَا يَلِيهِ فِي الْقُرْبِ، كَفَضَائِلِ الْبَدَنِ وَهُوَ الثَّانِي، وَإِلَى مَا يَلِيهِ فِي الْقُرْبِ وَيَجَاوِزُ إِلَى غَيْرِ الْبَدَنِ، كَالْأَسْبَابِ الْمُطَيِّفَةِ بِالْبَدَنِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ وَالْعَشِيرَةِ، وَإِلَى مَا يَجْمَعُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَسْبَابِ الْخَارِجَةِ عَنِ النَّفْسِ وَبَيْنَ الْحَاصِلَةِ عَلَى النَّفْسِ، كَالْتَوْفِيقِ وَالْهِدَايَةِ، فَهِيَ إِذْنُ أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ:

النَّوْعُ الْأَوَّلُ، وَهُوَ الْأَخْصُّ: الْفَضَائِلُ النَّفْسِيَّةُ، وَيَرْجِعُ حَاصِلُهَا مَعَ انْتِشَابِ<sup>(١)</sup> أَطْرَافِهَا إِلَى الْإِيمَانِ وَحَسَنِ الْخَلْقِ، وَيَنْقَسِمُ الْإِيمَانُ إِلَى عِلْمِ الْمُكَاشَفَةِ، وَهُوَ الْعِلْمُ بِاللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ، وَإِلَى عُلُومِ الْمُعَامَلَةِ، وَحُسْنِ الْخُلُقِ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: تَرَكَ مُقْتَضَى الشَّهْوَةِ وَالغَضَبِ، وَاسْمُهُ: الْعِقَّةُ. وَتُرَاعَاةُ الْعَدْلِ فِي الْكُفِّ عَنِ مُقْتَضَى الشَّهْوَاتِ وَالْإِقْدَامِ حَتَّى لَا يَمْتَنِعَ أَصْلًا وَلَا يُقَدِّمُ كَيْفَ شَاءَ، بَلْ يَكُونُ إِقْدَامُهُ وَإِحْجَامُهُ بِالْمِيزَانِ الْعَدْلِ، فَمَنْ جَبَّ<sup>(٢)</sup> نَفْسَهُ لِتَرْكِ شَهْوَةِ النِّكَاحِ، أَوْ تَرَكَ النِّكَاحَ مَعَ الْقُدْرَةِ وَالْأَمْنِ مِنَ الْآفَاتِ، أَوْ تَرَكَ الْأَكْلَ حَتَّى ضَعُفَ عَنِ الْعِبَادَةِ وَالذِّكْرِ

(١) فِي (ف): «اسْتِعَاب».

(٢) جَبَّ نَفْسَهُ: قَطَعَ خَصِيَّتَهُ.

والفكر فقد أخسر الميزان، ومن انهمك في شهوة البطن والفرج، فقد طغى في الميزان، فإذا الفضائل الخاصة بالنفس المقربة إلى الله تعالى علم مكاشفة وعلم مُعاملة وعفة وعدالة، فلا يتم هذا في غالب الأمر إلا بالنوع الثاني، وهي الفضائل البدنية وهي أربعة: الصحة والقوة والجمال وطول العمر، ولا تنهياً هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث، وهو النعم المُطيفةً بالبدن، وهي أربعة: المال والأهل والجاه وكرم العشيرة، ولا يُنتفع بشيءٍ من هذه الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالنوع الرابع، وهي الأسباب التي تجمع بينها وبين ما يُناسب الفضائل النفسية الداخلة، وهي أربعة: هداية الله، وإرشاده، وتسيده، وتأييده.

فمجموع هذه النعم ست عشرة، قسمناها إلى أربعة، وقسمنا كل واحدٍ إلى أربعة، وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض إما حاجة ضرورية أو نافعة، أما الحاجة الضرورية، كحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان وحسن الخلق، إذ لا سبيل للوصول إلى سعادة الآخرة البتة إلا بهما، وليس لأحدٍ في الآخرة إلا ما تزود في الدنيا، وكذلك حاجة الفضائل النفسية ككسب العلوم وتهذيب الأخلاق إلى صحة البدن ضروري، وأما الحاجة النافعة على الجملة، كحاجة هذه النعم النفسية والبدنية إلى النعم الخارجة مثل المال والعز والأهل، فإن ذلك لو عدم ربما تطرق الخلل إلى بعض النعم الداخلة.

فإن قيل: ما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة من المال والجاه والأهل والعشيرة؟

فاعلم أن هذه الأسباب جارية مجرى الجناح المبلغ والآلة المسهلة للمقصود، أما المال، فإن الفقير<sup>(١)</sup> في طلب العلم والكمال إذا لم تكن معه كفايته كساع إلى الهيجا<sup>(٢)</sup> بغير سلاح، وكباز<sup>(٣)</sup> يروم الصيد بلا جناح، ولذلك قال النبي ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح». وكيف لا ومن عدم المال يصير مستغرق الأوقات

(١) تحرفت في النسخ إلى: «الفقيه»، والمثبت من الإحياء.

(٢) الهيجا: ميدان الحرب.

(٣) الباز: ضرب من الصقور يستخدم في الصيد.

في طلبِ القُوتِ وفي تَهَيِّئَةِ اللِّبَاسِ والمَسْكَنِ وضروراتِ المَعِيشَةِ، ثم يتعرض لأنواعٍ من البلاءِ والأذى تُشغله عن الفِكرِ والذِّكرِ لا تُندفعُ إلا بِسِلاحِ المالِ، ثم يُحرَمُ مع ذلكَ فَضيلَةَ الحِجِّ والزَّكَاةِ والصَّدَقَاتِ وإِفاضةِ الخِيراتِ، وقد قيلَ لبعضِ الحُكَمَاءِ: ما النَّعِيمُ؟ فقال: العِنْيُ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الفَقِيرَ لا عَيْشَ لَهُ. قيلَ: زِدْنَا. قال: العَافِيَةُ، فَإِنِّي رَأَيْتُ المَرِيضَ لا عَيْشَ لَهُ. قيلَ: زِدْنَا. قال: الأَمَنُ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الخَائِفَ لا عَيْشَ لَهُ. قيلَ: زِدْنَا. قال الشَّبَابُ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الهَرَمَ لا عَيْشَ لَهُ. وهذا الَّذِي ذَكَرَهُ إِشارةً إِلَى نعيمِ الدُّنْيَا، ولكنَّهُ من حَيْثُ إِنَّهُ مُعَيَّنٌ عَلَى الآخِرَةِ فَهُوَ نِعْمَةٌ.

وأما الأهلُ والولدُ الصَّالِحُ فَلا يَخْفَى وَجْهُ الحَاجَةِ إِلَيْهِمَا، أما الزَّوْجَةُ؛ فقد قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «الدُّنْيَا كُلُّهَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا المَرَأَةُ الصَّالِحَةُ». وقال في الولدِ: «إِذَا مَاتَ العَبْدُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلَاثٍ: وَلِدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ...». وقد ذَكَرْنَا فَوَائِدَ الأهلِ والولدِ في كِتَابِ النِّكَاحِ، وأما الأَقْرَابُ فَإِنَّهُمْ إِذَا كَثُرُوا كانوا لِلإِنْسَانِ مِثْلَ الأَعْيُنِ والأَيْدِي لَهُ بِهِمْ مِنَ الأُمُورِ الدُّنْيَاوِيَةِ المِهْمَةُ فِي دِينِهِ ما لَوْ انْفَرَدَ بِهِ لِطَالَ شُغْلُهُ، وَكُلَّ ما يُفْرَغُ قَلْبُكَ عَنِ ضَرُورَاتِ الدُّنْيَا فَهُوَ مُعَيَّنٌ عَلَى الدِّينِ، فَهُوَ إِذَنْ نِعْمَةٌ.

وأما العِزُّ والجِاهُ فَبِهِ يَدْفَعُ الإِنْسَانُ عَنِ نَفْسِهِ الذُّلَّ وَالضَّيْمَ، وَلا يَسْتَغْنِي عَنْهُ مُسْلِمٌ؛ لِأَنَّهُ لا يَنْفَكُ مِنْ عَدُوٍّ يُؤْذِيهِ وَظالِمٍ يُشَوِّشُ عَلَيْهِ عِلْمَهُ وَعَمَلَهُ وَفَرَاغَهُ وَيَشْغَلُ قَلْبَهُ، وَقَلْبُهُ رَأْسُ مالِهِ، وَإِنَّمَا تُنْدَفَعُ هَذِهِ الشَّوَاغِلُ بِالْعِزِّ والجِاهِ، قال اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ لا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وَلا مَعْنَى لِلجِاهِ إِلا مِلْكُ القُلُوبِ، كما لا مَعْنَى لِلعِنْيِ إِلا مِلْكُ الدَّرَاهِمِ، وَمَنْ مَلَكَ القُلُوبَ تَسَخَّرَ لَهُ أَرْبابُها لِذِئْبِ عَناءِ، وَكَمَا يَحْتَاجُ الإِنْسَانُ إِلَى سَقْفٍ يَدْفَعُ عَنْهُ المَطْرَ وَجِبَّةً تَدْفَعُ عَنْهُ البَرْدَ، فَكَذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يَدْفَعُ بِهِ الشَّرَّ عَنِ نَفْسِهِ، فَكَرَّمَ العَشِيرَةَ وَشَرَّفَ الأهلَ مِنَ النِّعَمِ، وَلِذَلِكَ قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «الأئمةُ مِنْ قُرَيْشٍ». وقال: «إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءَ الدَّمَنِ» فقيلَ: وما خَضِرَاءُ الدَّمَنِ؟ فقال: «المَرَأَةُ الحَسَنَةُ فِي المَنْبِتِ السُّوءِ».

ولسنا نَعْنِي بِمَدْحِ العَشِيرَةِ الانْتِسابَ إِلَى الظَّلْمَةِ وَأَرْبابِ الدُّنْيَا، بل إِلَى شَجَرَةِ

رسول الله ﷺ، وإلى أئمة العلماء، وإلى الصالحين والأبرار، والمُزَيَّنِينَ بالعلم والعمل.

فإن قيل: فما غناء الفضائل البدنية؟

فالجواب: إنه لا خفاء بشدة الحاجة إلى الصحة والقوة وإلى طول العمر، إذ لا يتم علمٌ وعملٌ إلا بها، فقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ». وأخبرنا الكروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر العوزجي قالا: أخبرنا الجراحى قال: أخبرنا المحبوبي قال: حدثنا الترمذي قال: حدثنا عمرو بن علي قال: حدثنا خالد بن الحارث قال: حدثنا شعبة عن علي بن زيد عن عبد الرحمن بن أبي بكره عن أبيه أن رجلاً قال: يا رسول الله، أيُّ الناس خير؟ قال: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ» قال: أيُّ الناس شرٌّ؟ قال: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ»<sup>(١)</sup>. قال الترمذي: هذا حديثٌ صحيح.

فأما الجمال فقليل الغناء، ولكنه من الخيرات أيضاً، وأثره ظاهرٌ من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن القبيح مذمومٌ والطباع عنه نافرة.

والثاني: أن حاجات الجميل إلى الإجابة أقرب وجاهه في الصدور أكثر، فله بذلك نوعٌ قدرة، وكلُّ مُعِينٍ عَلَى قَضَاءِ حَاجَاتِ الدُّنْيَا مُعِينٌ عَلَى الآخِرَةِ بِوِاسِطَتِهَا.

والثالث: أن الجمال في الغالب يدلُّ على فضيلة النفس؛ لأن نور النفس إذا تمَّ إشراقه تأدى إلى البدن، فالمنظر والمخبر كثيراً ما يتلازمان، ولذلك عوَّل أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيئات البدن، فقالوا: الوجه والعينُ مرآةُ الباطن، ولهذا يظهر فيهما أثرُ السرور والغضبِ والغمِّ، وقال بعضُ الحكماء: ما على وجه الأرض قبيحٌ إلا ووجهه أحسن ما فيه. واستعرض المأمون جيشاً فعرض عليه رجلٌ قبيحٌ، فاستنطقه فإذا هو ألكن<sup>(٢)</sup>، فأسقط اسمه من الديوان،

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٣٠).

(٢) لَكِنٌ فَلَانٌ لَكِنًا وَلُكْنَةٌ: عَيٌّ وَثِقَلٌ لِسَانِهِ.

وقال: إذا أشرقت الرُّوحُ على الظَّاهرِ فَصَبَّاحَةً، أو على الباطِنِ فَفَصَّاحَةً، وهذا ليس له ظاهرٌ ولا باطنٌ.

وقد روينا في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «اطلبوا الخيرَ عند حِسَانِ الوجوه».

وقال عُمرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: إذا بعثتم رسولاً فاطلبوه حَسَنَ الوجهِ، حَسَنَ الاسمِ.

ولسنا نَعْنِي بالحُسْنِ ما يُحَرِّكُ الشَّهْوَةَ، فإن ذلك أنوثة، وإنما نَعْنِي به ارتفاع القامةِ على الاستقامة مع الاعتدال في اللَّحْمِ وتَنَاسُبِ الأَعْضَاءِ بحيث لا تَنبُو الطَّبَاعُ عن النَّظَرِ إليه.

فإن قيل: فقد جَعَلَتِ المَالُ والجَاهُ والنَّسَبُ والأهْلُ والوَلَدُ في حَيَزِ النعمِ، وأكثَرُها فتنَةٌ!

فالجواب: إنها كلها نِعْمٌ معينة على أمر الآخرة إلا أن فيها فِتْنَةً، فمثالُ المَالِ مثالُ الحَيَّةِ التي فيها تَرِياقٌ نافعٌ وَسُمٌّ نافعٌ، فإن أَصَابَهَا المُعْزَمُ<sup>(١)</sup> الذي يَعْرِفُ وَجَهَ الاحترازِ من سُمِّهَا وطريقَ استخراجِ تَرِياقِهَا النَّافعِ كانت نِعْمَةً، وإن أَصَابَهَا السَّوَادِي<sup>(٢)</sup> الغُرَّ<sup>(٣)</sup>، فهي عليه بلاءٌ وهلاكٌ، وهي مثلُ البَحْرِ الذي تحته أصنافُ الجواهرِ واللآلِيءِ، فمن ظَفِرَ بالبَحْرِ وكان عالماً بالسَّباحةِ والعَوْصِ وطريقِ الاحترازِ من مُهلِكَاتِ البَحْرِ فقد ظَفِرَ بنِعْمَةٍ، وإن خَاضَهُ جاهِلٌ به هلكَ، ولذلك مدح اللهُ تعالى المَالِ وَسَمَّاهُ خيراً، ومدحه الرسولُ ﷺ فقال: «نِعَمَ المَالُ الصالحُ للمرءِ الصالحِ». وكذلك مدحَ الجَاهُ والعِزَّ إذ مَنْ اللهُ على رسوله بأن أَظْهَرَهُ على الدِّينِ كُلِّهِ وَحَبَّبَهُ إلى قُلُوبِ الناسِ، وهذا هو الجاه، وقد سبق الكلامُ في المَالِ والجَاهِ، وإنما يُحَدِّثُ العوامُ منهما مَخَافَةَ الهلاكِ بِسُمِّهِمَا قَبْلَ الوصولِ إلى نفعِهما، ولو كانا مذمومين على الإطلاقِ لما انضافَ إلى الثُّبُوةِ المُلكُ والغِنَى.

(١) المُعْزَمُ: الراقي الذي يقرأ العزائم.

(٢) السَّوَادِي: المنسوب إلى السواد، وهو ما حول المدينة من القرى.

(٣) الغُرَّ: الجاهل.

وَحَقُّ كُلِّ مَسَافِرٍ أَنْ لَا يَحْمِلَ مِنَ الزَّادِ إِلَّا بِقَدْرِ حَاجَتِهِ فِي سَفَرِهِ إِذَا عَزَمَ عَلَى أَنْ يَخْتَصَّ بِمَا يَحْمِلُهُ، فَأَمَّا إِذَا سَمَحَتْ نَفْسُهُ بِإِطْعَامِ الطَّعَامِ وَتَوْسِيعِ الزَّادِ عَلَى الرُّفَقَاءِ، فَلَا بَأْسَ بِالِاسْتِكْثَارِ، وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَيْكُنْ بَلَغٌ أَحَدِكُمْ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّكَابِ». مَعْنَاهُ: لِأَنْفُسِكُمْ خَاصَّةً.

إِذْنُ النَّعْمِ الدُّنْيَاوِيَةِ مَشُوبَةٌ قَدْ امْتَزَجَ دَاوُهَا بِدَوَائِهَا، وَمَرَجُوهَا بِمَخُوفِهَا، وَنَفْعُهَا بِضَرِّهَا، فَمَنْ وَثِقَ بِبَصِيرَتِهِ وَكَمَالَ مَعْرِفَتِهِ فَلَهُ أَنْ يَقْرَبَ مِنْهَا مُتَّقِيًا دَاءَهَا مُسْتَخْرِجًا دَوَاءَهَا، وَمَنْ لَا، فَالْفَرَارُ الْفَرَارُ عَنِ مَظَانِّ الْأَخْطَارِ وَلَا يَعْدِلُ بِالسَّلَامَةِ شَيْئًا.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى النَّعْمِ التَّوْفِيقِيَةِ الرَّاجِعَةِ إِلَى الْهِدَايَةِ وَالْإِرْشَادِ وَالتَّأْيِيدِ وَالتَّسْدِيدِ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ التَّوْفِيقَ لَا يَسْتَعْنِي عَنْهُ أَحَدٌ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنِ التَّأْلِيفِ وَالتَّلْفِيقِ، وَقَدْ خُصَّ اسْمُ التَّوْفِيقِ بِمَا يُوَافِقُ السَّعَادَةَ مِنْ جُمْلَةِ قَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدَرِهِ، كَمَا أَنَّ الْإِلْحَادَ عِبَارَةٌ عَنِ الْمَيْلِ، وَقَدْ خُصَّصَ بِمَنْ يَمِيلُ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ، وَلَا خَفَاءَ بِالْحَاجَةِ إِلَى التَّوْفِيقِ، وَلِذَلِكَ قِيلَ:

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللَّهِ لِلْفَتَى فَأَكْثَرُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

وَأَمَّا الْهِدَايَةُ، فَلَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ إِلَى طَلْبِ السَّعَادَةِ إِلَّا بِهَا؛ لِأَنَّ دَاعِيَةَ الْإِنْسَانِ قَدْ تَكُونُ مَائِلَةً إِلَى مَا فِيهِ صَلَاحٌ آخِرَتِهِ، وَلَكِنْ إِذَا لَمْ يَعْلَمْ مَا فِيهِ صَلَاحٌ آخِرَتِهِ حَتَّى يَظُنَّ الْفَسَادَ صَلَاحًا فَمِنْ أَيْنَ تَنْفَعُهُ مَجْرَدُ الْإِرَادَةِ؟ فَلَا فَائِدَةَ فِي الْإِرَادَةِ وَالْقُدْرَةَ وَالْأَسْبَابِ إِلَّا بَعْدَ الْهِدَايَةِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١].

وَلِلْهِدَايَةِ ثَلَاثُ مَنَازِلَ:

الأولى: مَعْرِفَةُ طَرِيقِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ الْمَشَارِ إِلَىهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾

[البلد: ١٠]، وَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ كَافَّةً، فَبَعْضُهُ بِالْعَقْلِ وَبَعْضُهُ عَلَى لِسَانِ الرُّسُلِ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧]، فَأَسْبَابُ الْهُدَى هِيَ الْكُتُبُ وَالرُّسُلُ وَبَصَائِرُ الْعُقُولِ، وَهِيَ مَبْدُولَةٌ لَا يَمْنَعُ مِنْهَا

إلا الكِبْرُ والحَسَدُ وحبُّ الدنيا والأسبابُ التي تُغمي القلوب، ومن جُمَلتها الإلْفُ والعادةُ وحبُّ استصحابها، وإليه أُشير بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وقوله: ﴿أَشْرًا مِنَّا وَاحِدًا تَتَّبِعُهُ﴾ [القمر: ٢٤] فهذه المُعمَّيات هي التي مَنعت الاهتداء.

والهداية الثانية: وراء هذه الهداية العامة، وهي التي يُمدُّ الله تعالى بها العبدَ حالاً بعد حالٍ، وهي ثمرة المُجاهدة حيث قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

الهداية الثالثة: وراء الثانية، وهي الثور الذي يُشرق في عالم الثبوة والولاية بعد كمال المُجاهدة، فيَهْتدي بها إلى ما لا يُهْتدى إليه بالعقل الذي يحصل به التكليف وإمكان تَعَلُّمِ العُلوم، وهو الهُدَى المُطلق وما عداه حجابٌ له ومقدمات، وهو الذي شَرَفَه اللهُ تعالى بِتَخْصِيصِ الإِضَافَةِ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ الكُلُّ مِنْ جِهَتِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ فَمَا لِي بِهِ سُلْطَانٌ أَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ مَن يَشَاءُ لِمَا يَشَاءُ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ خَيْرًا وَهُوَ خَبِيرٌ﴾ [الأنعام: ٧١]، وهو المسمى: حياةٌ في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لِمَن نُّوَرُّهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وأما الإرشادُ فَتَعْنِي بِهِ الإِنْعَامُ الإِلَهِيُّ الَّذِي يُعِينُ الإِنْسَانَ عِنْدَ تَوَجُّهِهِ إِلَى مَقَاصِدِهِ، فَيَقْوِيهِ عَلَى مَا فِيهِ صِلَاحُهُ وَيُقْتَرِهَ عَمَّا فِيهِ فَسَادُهُ، وَذَلِكَ مِنَ الْبَاطِنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١]، فالرشدُ عبارةٌ عن هِدَايَةٍ بَاعِثَةٍ إِلَى جِهَةِ السَّعَادَةِ مُحَرِّكَةٍ إِلَيْهَا، فَالصَّبِيُّ إِذَا بَلَغَ خَيْرًا بِحِفْظِ الْمَالِ وَطُرُقِ التِّجَارَةِ وَالِاسْتِنْمَاءِ<sup>(١)</sup>، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ يُبَدَّرُ وَلَا يُرِيدُ الِاسْتِنْمَاءَ لَا يُسَمَّى رَشِيدًا، لَا لِعَدَمِ هِدَايَتِهِ عَنِ تَحْرِيكِ دَاعِيَتِهِ، فَكَمِ مَنْ شَخْصٍ يُقَدِّمُ عَلَى مَا يَعْلَمُ أَنَّهُ يَضُرُّهُ، فَقَدْ أُعْطِيَ الْهِدَايَةَ وَمُيِّزَ بِهَا عَنِ الْجَاهِلِ الَّذِي لَا يَدْرِي أَنَّهُ يَضُرُّهُ، وَلَكِنْ مَا أُعْطِيَ الرُّشْدَ، فَالرُّشْدُ بِهَذَا الْاِعْتِبَارِ أَكْمَلُ مِنْ مَجْرَدِ الْهِدَايَةِ إِلَى وُجُوهِ الْأَعْمَالِ، وَهِيَ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ.

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الاستنماء».

وأما التَّسديدُ، فهو توجيهُ حركاتِهِ إلى صَوْبِ المَطْلُوبِ وتيسيرها عليه لِيَسْتَدَّ في صَوْبِ الصَّوَابِ في أَسْرَعِ وَقْتٍ، فإنَّ الهدايةَ بِمَجْرَدِهَا لا تكفي، بل لا بد من هدايةٍ محرّكةٍ للدَّاعيةِ، وهي الرُّشْدُ، والرُّشْدُ لا يَكْفِي بل لا بد من تيسير الحركاتِ بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يَتِمَّ المُرادُ ممَّا انبَعَثَت الداعية إليه، فالهداية مَحْضُ التعريفِ، والرُّشْدُ هو تَنْبِيهُ الدَّاعية لَتَسْتَيْقِظَ وتتحركَ، والتَّسديدُ إعانةٌ ونُصْرَةٌ بتحريك الأعضاء في صَوْبِ السَّدَادِ.

وأما التَّأييدُ؛ فكأنه جامعٌ لكلِّ، وهو عبارة عن تَقْوِيَةِ البَصِيرَةِ من داخلٍ وتقوية البَطْشِ ومُساعدة الأسبابِ من خارجٍ، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إِذْ أَيْدَتْكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠]، ويقرب منه العِصْمَةُ، وهي عبارة عن جُودِ إلهي يَسْبُحُ في الباطنِ يَقْوَى به الإنسانُ على تَحْرِي الخَيْرِ وتَجُنَّبُ الشَّرَّ حتى يصير كمانعٍ من باطنه غير مُحَسَّسٍ، وإياه عُنِيَ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤].

فهذه هي مَجَامِعُ النُّعْمِ ولن تَسْتَثْبِتَ إلا بما يُخَوِّلُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ من الفَهْمِ الصَّافِي الثَّاقِبِ، والسَّمْعِ الواعي، والقَلْبِ البَصِيرِ المتواضع المُراعِي، والمعلمِ النَّاصِحِ، والمالِ الرَّائِدِ على ما يقصر عن المهمات بقلبه القاصر عن ما يشغل عن الدين بكثرتِه، والعِزِّ الذي يصونه عن سَفَهِ السُّفَهَاءِ وظَلَمِ الأعداءِ.

ويستدعي كلَّ واحدٍ من هذه الأسبابِ السِّتَّةِ عشر سبباً، وتستدعي تلك الأسبابِ أسباباً إلى أن يَنْتَهِيَ آخرها إلى مُسَبِّبِ الأسبابِ، وإذا كانت تلك الأسبابِ لا يَحْتَمِلُ الكتابُ استقصاءها، فلنذكر منها كالأنموذج يُعَلِّمُ به معنى قوله تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [النحل: ١٨].

### بَيَانُ وَجْهِ الأَنْمُوذِجِ فِي كَثْرَةِ نِعْمِ اللهِ تَعَالَى وَتَسْلُسُلِهَا وَخُرُوجِهَا عَنِ حُدِّ الحَصْرِ والإِحْصَاءِ

اعلم أنا جَمَعْنَا النُّعْمَ في سِتَّةِ عَشْرَ ضَرْباً، وجعلنا صِحَّةَ البَدَنِ نِعْمَةً من النُّعْمِ الواقعة في الرُّتْبَةِ المتأخِّرةِ، فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نَسْتَقْصِي الأسبابَ التي

تمت هذه النعمة بها لم نقدر عليها، ولكن الأكل أحد أسباب الصحة، فلنذكر نبذة من جملة الأسباب التي بها تتم نعمة الأكل، فلا يخفى أن الأكل فعل، وكل فعل من هذا النوع فهو حركة، وكل حركة فلا بد لها من جسم متحرك هو آلتها، ولا بد لها من قدرة على الحركة، ولا بد من إرادة للحركة، ولا بد من علم بالمراد وإدراك له، ولا بد للأكل من مأكول، ولا بد للمأكول من أصل منه يحصل، ولا بد له من صانع يصلحه، فلنذكر أسباب الإدراك، ثم أسباب الإرادات، ثم أسباب القدرة، ثم أسباب المأكول على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء.

### الطرف الأول في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك

اعلم أن الله تعالى خلق النباتات، وهو أكرم وجوداً من الحجر والمدر والحديد والنحاس وسائر الجواهر التي لا تنمو ولا تتغذى، فإن النبات خلق فيه قوة بها يجذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وغروقه التي في الأرض، ثم يجذب ذلك من العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة تغلظ أصولها، ثم تتشعب ولا تزال تستدق وتتشعب إلى عروق شعيرية تنبسط في آخر الورقة حتى تغيب عن البصر، إلا أن النبات مع هذا الكمال ناقص، فإنه لو أعوزه غذاء يساق إليه ويماس أصله جف ويس، ولم يمكنه طلب الغذاء من موضع آخر، فإن الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب والانتقال إليه، والنبات عاجز عن ذلك، فمن نعمة الله تعالى عليك أن خلق لك آلة الإحساس وآلة الحركة في طلب الغذاء، فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى في خلق الحواس الخمس التي هي آلة الإدراك:

**فأولها:** حاسة اللمس، وإنما خلقت لك حتى إذا مستك نارٌ مُحْرِقَةٌ أو سيفٌ جارحٌ تحسُّ به فتهرب منه، وهو أول حس يُخلق للحيوان، ولا يتصور حيوان إلا ويكون له هذا الحس؛ لأنه إذا لم يحس أصلاً فليس بحيوان، وأنقص درجات الحس أن يحس بما يلاصقه ويماسه، فإن الإحساس بما يبعد منه إحساس أتم لا محالة، فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك فخلق لك الشم، إلا أنك تدرك به الرائحة ولا تدري من أي ناحية جاءت، فتحتاج إلى أن تطوف كثيراً من الجوانب

فربما تَعَثُرُ على الذي شَمَمْتَ رائحته، وربما لم تَعَثُرْ، فتكون في غاية الثَّقْصَانِ، لو لم يَخْلُقْ لك إلا هذا، فخلَقَ لك البَصَرَ لتُدرك به ما بَعُدَ عنك، وتُدرك جِهَتَهُ فَتَقْصِدُ تلك الجهة بعينها، إلا أنه لو لم يَخْلُقْ لك إلا هذا لَكُنْتَ ناقصاً، إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجُدْرَانِ والحُجُبِ، فثُبُصِرَ غذاءٌ ليس بينك وبينه حجابٌ، وثُبُصِرَ عدوٌّ لا حجاب بينك وبينه، وقد لا يَنكشِفُ الحجاب إلا بعد قُرْبِ العدو فَتَعْجِزُ عن الهرب، فخلَقَ لك السَّمْعَ حتى تُدرك به الأصوات من وراء الحُجُرَاتِ عند جَرِيانِ الحركات، ولأنك لا تُدرك بالبَصَرِ الأشياءَ حاضراً، وأما الغائب فلا يُمكنك معرفته إلا بكلامٍ يُدرك بحسِّ السَّمْعِ، فاشتدت إليه حاجتك، فخلَقَ لك ذلك وميَّزَتْ بفهم الكلام عن سائر الحيوانات وكل ذلك ما كان يُغنيك لو لم يكن لك حسُّ الدُّوقِ، إذ قد يصل الغذاءُ إليك فلا تُدركُ أنه موافق لك أو مُخالف، فتأكله فتَهلك، كالشجرة يُصَبُّ في أصلها كلُّ مائع ولا ذوقَ لها فَتَجذبُه، وربما يكون سببَ جفافها، ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يُخلَقْ في مقدمة دماغك إدراك آخر يُسمَّى حساً مُشترِكاً تتأدى إليه هذه الحواسِّ الخمس وتجتمع فيه، ولولاه لَطال الأمرُ عليك، فإنك إذا أكلت شيئاً أصفر مثلاً فوجدته مُراً مخالفاً لك فتركته، فإذا رأيته مرةً أخرى تعرف أنه مُضر ما لم تذقه ثانياً لولا الحس المشترك إذ العين تُبصر الصُّفرة ولا تُدرك المرارة فكيف تمتنع عنه؟ والذوق يُدرك المرارة ولا يدرك الصُّفرة، فلا بد من حاكم تجتمع عنده الصُّفرة والمرارة جميعاً حتى إذا أدرك الصُّفرة حَكَمَ بأنه مُرٌّ فيمتنع عن تناوله ثانياً، وهذا كله تُشارك فيه الحيوانات؛ إذ للشاة هذه الحواس كلها، فلو لم يكن لك إلا هذا لَكُنْتَ ناقصاً، فإن البهيمة يُحتال عليها فتؤخذ ولا تدري كيف تدفع الحيلة عن نفسها، وكيف تتخلص إذا قِيدَتْ، وقد تُلقِي نفسها في بئر ولا تدري أن ذلك يُهلكها، وكذلك قد تأكل البهيمة ما تستلذه في الحال ويضرها في ثاني الحال فتمرض وتموت، إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر، فأما إدراك العواقب فلا، فميَّزَكَ اللهُ تعالى وأكرمك بصفةٍ أخرى وهي أشرف من الكل وهو العقل، فبه تُدرك مَضِرَّةَ الأَطعمة وَمَنفَعَتها وما يضرُّ في المآل، وبه تُدرك طَبِخَ الأَطعمة وتألِفها وإعداد أسبابها، فَتَنفَعُ بعقلك في الأكل الذي هو سببُ صحتك وهو أَحْسُّ فوائد العقل

وأقل الحكم فيه، بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله، وعند ذلك تنقلب فائدة الحواس في حَقِّك، فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار الموكَّلين بنواحي المملكة، وقد وُكِّلت واحدة منها بأخبار الألوان، والأخرى بأخبار الأصوات، والأخرى بأخبار الروائح، والأخرى بأخبار الطعوم، والأخرى بأخبار الحرِّ والبرِّد والخُشونة والمَلاسة واللِّين والصلابة، وهؤلاء البرِّد والجواسيس يَتَنصِّون الأخبار من أقطار المملكة ويُسلمونها إلى الحسِّ المشترك، والحسِّ المشترك قائم في مقدمة الدماغ مثل صاحب القصص على باب الملك، يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهي مختومة، إذ ليس له إلا أخذها وحفظها، فأما معرفة حقائق ما فيها فلا، ولكن إذا صادف القلب الذي هو المَلِك سلَّمها إليه مختومة، فينظر فيها الملك ويطلع على أسرار المملكة، ويحكم فيها بأحكام عجيبة وبحسب ما يلوح له من الأحكام والمصالح يُحرك الجنودَ، وهي الأعضاء، مرَّة في الطلب ومرَّة في الهرب، ومرَّة في إتمام التدبيرات التي تَعْنُ له.

فهذه سياقة نعمة الله عليك في الإدراكات، ولا تظنَّنَّ أنا استوفيناها، فإن الحواس الظاهرة هي بعض الإدراكات، والبصر واحد من جملة الحواس، والعين آلة له، وقد رُكبت العين من عشر طبقات مختلفة، بعضها رطوبات، وبعضها أغشية، وبعض الأغشية كأنها نسيج العنكبوت، وبعضها كالمشيمة، وبعض تلك الرطوبات كأنه بياض البيض وبعضها كأنه الجَمَد، ولكل واحدة من الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وتدوير وتركيب، لو اختلفت طبقة واحدة من جملة العشر أو صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختلَّ البصر وعجز عنه الأطباء كلهم.

فهذا في حسِّ واحدٍ، فَقَسْ عليه حاسة السَّمع وسائر الحواس، بل لا يمكن أن تَسْتَوْفِي حِكْمَ الله تعالى وأنواع نِعْمِهِ في جسم البصر وطبقاته في مجلدات كثيرة مع صِغَرِ حجمه، فكيف ظنك بجميع البدن؟ فهذه مَرَامِزُ إلى نِعَمِ الله تعالى في خَلْقِ الإدراكات.

## الطرف الثاني

## في أصناف النعم في خلق الإرادات

اعلم أنه لو خُلِقَ لك البصر حتى تُدرك به الغذاء من بُعدٍ ولم يُخَلَقْ لك مِيلٌ في الطبع والشوق إليه وشهوة له تستحثك على الحركة، لكان البصر معطلاً، فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناوله، فيبقى البصر معطلاً في حقه، فاضطرت إلى أن يكون لك ميلٌ إلى ما يوافقك يُسمى شهوةً، ونفرةً عما يخالفك تُسمى كراهةً، لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة، فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام وسأطها عليك ووكلها بك، كالمقاضي الذي يضطرك إلى التناول حتى تتناول وتغذي، فتبقى بالغذاء وهذا مما يُشاركك فيه الحيوان دون الثبات، ثم هذه الشهوة لو لم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت وأهلكت نفسك فخلق الله تعالى الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها، لا كالزرع، فإنه لا يزال يجذب الماء إذا أنصب في أسافله حتى يفسد، فيحتاج إلى آدمي يُقدر غذاءه بقدر الحاجة، فيسقيه مرةً ويقطع عنه الماء أخرى، وكما خلق لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الوقاع حتى تُجامع فيبقى به نسلك.

ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى في خلق الرِّجَم، وخلق دم الحيض، وتأليف الجنين من النطفة والحيض، وكيفية خلق الأنثيين والعروق السالكة إليها من الفقار الذي هو مُستقر النطفة، وكيفية أنصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق، وكيفية انقسام مقعر الرِّجَم إلى قوالب تقع النطفة في بعضها فتتشكل بشكل الذكور، وتقع في بعضها فتتشكل بشكل الإناث، وكيفية إدارتها في أطوار خلقها مُضغَةً، ثم علقَةً، ثم عظماً ولحمياً ودماً، وكيفية قسمة أجزائها إلى رأسٍ ورجلٍ وبطنٍ وظهيرٍ ويدٍ وسائر الأعضاء، لقضيت من أنواع نعم الله عليك في مبدأ خلقك كل العجب، فضلاً مما تراه الآن، ولكننا لسنا نريد أن نتعرض إلا لنعم الله تعالى في الأكل وحده كي لا يطول الكلام.

فإذن شهوة الطعام أحد ضروب الإرادات وذلك لا يكفيك، فإنه تأتيك

المُهَلِكات من الجوانب، فلو لم يُخلق فيك العَضْبُ الذي به تَدْفَعُ كُلَّ ما يُضادُكَ ولا يوافقُكَ لبقية عُرضةً للآفات، ولأخَذَ منك كُلَّ ما حَصَلتَه من الغذاء، فإنَّ كلَّ أحدٍ يشتهي ما في يَدَيْكَ، فَتَحْتَاجُ إلى داعيةٍ في دفعه ومُقاتلته وهي داعية الغضب، ثم هذا لا يكفيك إذ الشهوة والعَضْبُ لا يدعوان إلا إلى ما يَضُرُّ وينفَعُ في الحال، أما في المآل فلا تكفي فيه هذه الإرادة، فخلقَ اللهُ تعالى لك إرادةً أخرى مُسَخَّرَةً تحت إشارة العَقْلِ المُعَرِّفِ للعواقب، كما خلقَ الشهوة والغضب مُسَخَّرَةً تحت إدراك الحسِّ المدركِ للحالة الحاضرة، فَتَمَّ بها انتفاعُك بالعقل، إذ كان مجرد المعرفة بأن هذه الشَّهْوَةَ مثلاً تَضُرُّكَ لا يُغْنِيكَ في الاحتراز عنها ما لم يَكُنْ لك مَيْلٌ إلى العمل بموجبِ المَعْرِفَةِ، وهذه الإرادة أُفْرِدتْ بها عن البَهائم إكراماً لبني آدم، كما أُفْرِدتْ بمعرفة العواقب، وقد سَمَّينا هذه الإرادة باعثاً دينياً وفَصَّلناهُ في كتاب الصبر تفصيلاً أوْفَى من هذا.

### الطرف الثالث في نِعَمِ اللهِ تعالى في خَلْقِ القُدْرَةِ والآتِ الحَرَكَةِ

اعلم أنَّ الحسَّ لا يُفيد إلا الإدراك، والإرادة لا معنى لها إلا المَيْلُ إلى الطَّلَبِ أو الهَرَبِ، وهذا لا كِفاية فيه ما لم تكن فيكَ آلة الطَّلَبِ والهَرَبِ، فكم من زَمِينٍ<sup>(١)</sup> مُشتاقٍ إلى بَعِيدٍ عنه مُدْرِكٍ له لكنه لا يُمكنه أن يمشي إليه لفقد رجله، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده أو لِخَدْرِ فيها، فلا بد من آتٍ للحركة، وقُدْرَةٍ في تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشَّهْوَةِ طلباً، وبمقتضى الكراهة هَرَباً، فلذلك خَلَقَ لك الأعضاء التي تَنْظُرُ إلى ظاهرها ولا تَعْرِفُ أسرارها، فمنها ما هو للطلب، كالرَّجْلِ للإنسان، والجنَّاح للطير، والقوائم للدَّواب، ومنها ما هو للدَّفْعِ، كالأسلحة للإنسان، والقُرُون للحيوان، وفي هذا يختلفُ الحيوانات اختلافاً كثيراً، فمنها ما يكثر أَعْداؤه وَيَبْعُدُ غِذاؤه فَيَحْتَاجُ إلى سُرْعَةِ الحركة، فخلقَ له الجَنَاحَ ليَطِيرَ بِسُرْعَةٍ، ومنها ما خُلِقَ له أَرْبَعُ قوائم، ومنها ماله رِجْلان، ومنها ما يَدْبُ، وِذَكَرُ ذلك

(١) الزَمِينُ: المريض الذي يطول به مرضه زمناً طويلاً.

يَطول، فلنذكر الأعضاء التي يَتَمُّ بها الأكل فقط ليقاس عليها غيرها.

فنقول: رُؤيتكَ الطَّعام من بُعدٍ وحركتك إليه لا تكفي ما لم تأخذه، فافتقرت إلى آلةٍ فأنعَم اللهُ عليكِ بخلقِ اليدينِ فتمتدَّانِ إلى الأشياءِ، وهما مُشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات فتمتد وتثنى إليك، ولا تكون كخشبية منصوبة، ثم جعلَ رأسَ اليَدِ عريضاً لخلقِ الكَفِّ، ثم قسم رأسَ الكَفِّ بخمسة أقسام هي: الأصابع، وجعلها في صَفَّين بحيث يكون الإبهام في جانبٍ ويدور على الأربع البواقي، ولو كانت مجتمعةً أو متراكمةً لم يحصل بها تمامُ عَرْضِكَ، فوضَّعها وضِعاً إن بسطتها كانت لك مِجرَفةً، وإن ضَمَمَتها وثَنَيْتها كانت لك مِعرَفةً، وإن جَمَعَتها كانت لك آلةً للضرب، وإذا نَشَرَتها ثم قَبَضَتها كانت لك آلةً في القَبْضِ، ثم خلق لها أظفاراً وأسندَ إليها رؤوسَ الأصابع حتى لا تتفتت وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تحويها الأصابع فتأخذها برؤوس أظفاركَ.

ثم هَبْ أنَّكَ أخذتَ الطعامَ باليدِ، فمن أين يكفيكَ هذا ما لم يصل إلى المعدة وهي في الباطن؟ فلا بد أن يكون من الظاهر دِهليزٌ إليها حتى يدخل الطعام منه، فجعلَ الفم منفذاً إلى المعدة مع ما فيه من الحِكم الكثيرة سوى كونه منفذاً للطعام إلى المعدة، ثم إن وضعتَ الطَّعام في الفم وهو قطعة واحدة لم يَتيسَّر ابتلاعه، فتحتاج إلى طاحونةٍ تَطحنُ بها الطعامَ فخلق لك اللَّحْيَيْنِ من عَظْمين وركبَ فيهما الأسنانَ وطبقَ الأضراسَ من العُليا على السفلى لتطحن بها الطعامَ طحناً، ثم الطعام تارةً يحتاج إلى الكسْرِ، وتارةً إلى القَطْعِ، ثم يحتاج إلى الطَّحنِ بعد ذلك، فقسم الأسنان إلى عَرِيضَةٍ طواحن كالأضراس وإلى حادَّةٍ قواطع كالرَّبَاعيَّات<sup>(١)</sup> وإلى ما يصلح للكسْرِ كالأنياب ثم جعل مَفْصِلَ اللَّحْيَيْنِ مُتخلخلاً بحيث يتقدَّم الفكُّ الأسفل ويتأخَّر حتى يدور على الفكِّ الأعلى دَوْران الرَّحَى ولولاه لم يتيسَّر إلا ضَرْبُ أحدهما على الآخر، مثل تصفيق اليدين مثلاً، وبذلك لا يتم الطَّحنُ، فجعل اللَّحْيَ الأسفل مُتحركاً حركةً دوريةً واللَّحْيَ الأعلى ثابتاً لا يتحرك، فانظر إلى

(١) الرَّبَاعيَّات: جمع رباعية، وهي السن بين الثنية والثَّاب، وهي أربع.

عجيب صنَع اللهُ تعالى فإن كل رَحَى صَنَعَهَا الخَلْقُ يَثْبِتُ مِنْهَا الحِجْرَ الأَسْفَلَ وَيَدُورُ الأَعْلَى، إِنْ هَذِهِ الرَّحَى الَّتِي صَنَعَهَا اللهُ تَعَالَى، فَإِنَّهُ يَدُورُ مِنْهَا الأَسْفَلَ عَلَى الأَعْلَى، إِذْ لَوْ دَارَ الأَعْلَى حُورِطَرَ بالأَعْضَاءِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي يَحْتَوِي عَلَيْهَا.

ثُمَّ هَبْ أَنْكَ وَصَعْتَ الطَّعَامَ فِي فَضَاءِ الفَمِّ، فَكَيْفَ يَتَحَرَّكُ الطَّعَامُ إِلَى مَا تَحْتَ الأَسْنَانَ؟ أَوْ كَيْفَ تَسْتَجِرُّهُ الأَسْنَانُ إِلَى نَفْسِهَا؟ أَوْ كَيْفَ يَنْصَرِفُ بِالْيَدِ إِلَى دَاخِلِ الفَمِّ؟ فَانظُرْ كَيْفَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْكَ بِخَلْقِ اللِّسَانِ، فَإِنَّهُ يَطُوفُ فِي جَوَانِبِ الفَمِّ وَيَرُدُّ الطَّعَامَ مِنَ الوَسْطِ إِلَى الأَسْنَانَ بِحَسَبِ الحَاجَةِ، كَالْمَجْرَفَةِ الَّتِي تَرُدُّ الطَّعَامَ إِلَى الرَّحَى، هَذَا مَعَ مَا فِيهِ مِنْ فَائِدَةِ الذَّوْقِ وَعَجَائِبِ قُوَّةِ النُّطْقِ الَّتِي لِسِنَا نُطَبِّبُ<sup>(١)</sup> بِذِكْرِهَا.

ثُمَّ هَبْ أَنْكَ قَطَعْتَ الطَّعَامَ وَطَحَنْتَهُ وَهُوَ يَابِسٌ فَلَا تَقْدِرُ عَلَى الإِبْتِلَاعِ إِلا بِأَنْ يَنْزَلِقَ عَلَى الحَلْقِ بِنَوْعِ رُطُوبَةٍ، فَانظُرْ كَيْفَ خَلَقَ اللهُ تَعَالَى تَحْتَ اللِّسَانِ عَيْنًا يَفِيضُ اللُّعَابَ مِنْهَا وَيَنْصَبُ بِقَدْرِ الحَاجَةِ حَتَّى يَنْعِجَنَّ بِهِ الطَّعَامَ، فَانظُرْ كَيْفَ سَخَّرَهَا لِهَذَا الأَمْرِ، فَإِنَّكَ تَرَى الطَّعَامَ مِنْ بُعْدِ فَيْثُورِ الحَنْكَانِ لِلخِدْمَةِ وَيَنْصَبُ اللُّعَابُ حَتَّى تَتَحَلَّبَ أَشْدَاقُكَ وَطَعَامُكَ بَعْدَ بَعِيدِ مَنْكَ.

ثُمَّ هَذَا الطَّعَامُ المَطْحُونُ المُنْعَجَنُ مَنْ يُوَصِّلُهُ إِلَى المَعْدَةِ وَهُوَ فِي الفَمِّ؟ وَلَا تَقْدِرُ عَلَى أَنْ تَدْفِعَهُ بِالْيَدِ، وَلَا فِي المَعْدَةِ يَدٌ تَمْتَدُّ فَتَجْذِبُهُ، فَانظُرْ كَيْفَ هَيَّأَ اللهُ تَعَالَى المَرِيءَ وَالحَنْجِرَةَ، وَجَعَلَ عَلَى رَأْسِهَا طَبَقَاتٍ تَنْفَتِحُ لِأَخْذِ الطَّعَامِ ثُمَّ تَنْطَبِقُ وَتَنْضَغِطُ حَتَّى يَنْقَلِبَ الطَّعَامُ بِضَغْطِهِ فِيهِوِي إِلَى المَعْدَةِ فِي دِهْلِيزِ المَرِيءِ، فَإِذَا وَرَدَ الطَّعَامُ عَلَى المَعْدَةِ، فَهُوَ خَبِزٌ وَفَاكِهَةٌ مَقْطَعَةٌ، فَلَا يَصِلِحُ أَنْ يَصِيرَ لِحْمًا وَعَظْمًا وَدَمًا عَلَى هَذِهِ الهَيْئَةِ، بَلْ لَا بَدَأَ أَنْ يُطْبَخَ طَبْخًا تَامًا، فَخَلَقَ اللهُ تَعَالَى المَعْدَةَ عَلَى هَيْئَةِ قَدْرِ فَيَقَعُ فِيهَا الطَّعَامُ، فَتَحْتَوِي عَلَيْهِ وَتُعَلِّقُ عَلَيْهِ الأَبْوَابَ، فَلَا يَزَالُ لَابِثًا فِيهَا حَتَّى يَتِمَّ الهَضْمُ وَالتُّضْجُ بِالحَرَارَةِ الَّتِي تُحِيطُ بِالمَعْدَةِ مِنَ الأَعْضَاءِ البَاطِنَةِ إِذْ مِنْ جَانِبِهَا الأَيْمَنِ الكَبِدُ، وَمِنَ الأَيْسَرِ الطَّحَالُ، وَمِنَ قُدَّامِ الثَّرْبِ<sup>(٢)</sup>، وَمِنَ خَلْفِ لَحْمِ الصُّلْبِ،

(١) فِي (ف): «نَطِيل».

(٢) الثَّرْبُ: شَحْمٌ رَقِيقٌ يُغْشَى الكَرَشَ وَالأَمْعَاءَ.

فتتعدى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتى ينطبخ الطعام ويصير مائعاً مُتَشَابِهاً يصلح للنفوذ في تجاويف العروق، وعند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزائه ورقته وهو بعد لا يصلح للتغذية، فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجاري من العروق، وجعل لها فوهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها فينتهي إلى الكبد، والكبد معجونة من طينة الدم حتى كأنها دم، وفيها عروق كثيرة شعرية منتشرة في أجزاء الكبد، فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها وينتشر في أجزائها حتى تستولي عليه قوة الكبد فتصبغه بلون الدم، فيستقر فيها ريثما يصلح له نضج آخر ويحصل له هيئة الدم الصافي الصالح لغذاء الأعضاء.

إلا أن حرارة الكبد هي التي تنضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فضلتان، كما يتولد من جميع ما يطبخ: إحداهما شبيهة بالذردى<sup>(١)</sup> والعكر وهو الخلط السوداوي، والأخرى شبيهة بالرغوة، وهي الصفراء، ولو لم تفصل هاتان الفضلتان فسد مزاج الأعضاء، فخلق الله تعالى المرارة والطحال، وجعل لكل واحد منهما عنقاً ممدوداً إلى الكبد داخلاً في تجويفه فتجذب المرارة الفضلة الصفراء، ويجذب الطحال العكر السوداوي، فيبقى الدم صافياً ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة لما فيه من المائية ولولاها لما انتشر في تلك العروق الشعرية، ولا خرج منها متصاعداً إلى الأعضاء، فخلق الله تعالى الكلتيين وأخرج من كل واحدة عنقاً طويلاً إلى الكبد، ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخلاً في تجويف الكبد بل هو متصل بالعروق الطالعة من حذبة الكبد حتى يجذب مائيتها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد، إذ لو اجتذبت قبل وذلك لعلط ولم يخرج من العروق، فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافياً من الفضلات الثلاث نقياً من كل ما يفسد الغذاء، ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروفاً ثم قسمها بعد الطلوع أقساماً وشعب كل قسم بشعب وانتشر ذلك في البدن كله من القرن إلى القدم ظاهراً وباطناً، فيجري الدم الصافي فيها ويصل إلى جميع الأعضاء حتى تصير العروق المنقسمة شعرية كعروق الأوراق والأشجار بحيث لا تدرك بالأبصار، فيصل منها الغذاء بالرشح إلى جميع

(١) الذردى: ما يتبقى في أسفل الرئت.

الأعضاء، ولو حَلَّتْ بِالْمَرارةِ آفةٌ لفسدَ الدَّمُ وحصلت منه الأمراضُ الصَّفراوية كالْبِرْقان<sup>(١)</sup> والبثور والحُمرة، وإن حَلَّتْ بِالطَّحالِ آفةٌ فلم يَجذب الخِلطُ السُّوداوي حدثت الأمراضُ السُّوداوية كالْبَهَقِ<sup>(٢)</sup> والجُدَامِ<sup>(٣)</sup> والماليخوليا<sup>(٤)</sup> وغير ذلك، وإن لم تَندفع المائيَّة نحو الكُلِّي حدثَ منه الاستِسقاء وغيره.

ثم انظر إلى حِكْمَةِ الفاطِرِ الحَكِيمِ كَيْفَ رَبَّبَ منافع هذه الفَضَلات الثلاث الحَسِيسَةِ؛ أما المَرارة، فإنها تَجذبُ بأحدِ عُنقِيها وتَقذف بعنقِ آخِرِ إلى الأمعاء ليحصل له في ثَقْلِ الطَّعامِ رُطوبةٌ مُزَلَّقةٌ، ويحدث في الأمعاء لَدَعٌ يُحركها للدفع فتضغط حتى يَندفع الثَّقْلُ وَيَنزلق، وتكون صفرته لذلك، وأما الطَّحالُ فإنه يُحيل تلك الفَضلة إِحالةً يحصل بها فيه حموضةٌ وقبضٌ، ثم يُرسل منها في كل يوم شيئاً إلى فم المَعْدَةِ، فيحركُ الشَّهوةَ في حموضته ويُنَبِّهها ويثيرها ويخرج الباقي مع الثَّقْلِ. وأما الكُلِّيَّةُ؛ فإنها تَعْتذِي بما في تلك المائيَّة من دَمٍ وتُرسلُ الباقي إلى المَثانة.

ولنقتصر على هذا القَدْر من بيان نعم الله تعالى في الأسباب التي أعدت للأكل، ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ، واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء الرَّئِيسَةِ إلى صاحبه، وكيفية انبعاث العروق الضوَّارِب من القلب إلى جميع البدن التي بواسطتها تصل الروح، وكيفية انشعاب الأعصاب<sup>(٥)</sup> من الدماغ إلى جميع البدن وبواسطتها يصل الحِس، وكيفية انشعاب العروق السَّواكن من الكبد إلى جميع البدن وبواسطتها يصل الغذاء، ثم كيفية تركيب الأعضاء وعدد عظامها وعَضَلاتها وعُروِقها وأوتارها ورباطاتها وغَضاريفها ورُطوباتها لطال الكلام، وكل ذلك يُحتاج

(١) البرقان: حالة مرضية تمنع الصفراء من بلوغ المعى بسهولة فتختلط بالدم فتصفر لذلك أنسجة الحيوان.

(٢) البهق والبهاق: داء يذهب بلون الجلد فتظهر فيه بقع بيض.

(٣) الجُدَام: علة تتأكل منها الأعضاء وتتساقط.

(٤) الماليخوليا: مرض يؤدي إلى تشوش الفكر، وسوء الخلق، وفساد الظنون، وكثرة التخيلات، والخوف والتخليط في الكلام والتصرفات. تذكروا أُولي الألباب ١٤٩/٣،

القانون لابن سينا ٦٥/٢، مفاتيح العلوم: ١٣١.

(٥) تحرفت في الأصل إلى: «الأعضاء».

إليه للأكل ولأمورٍ أخرى سواه، بل في الآدمي من الفضلات والعروق والأعصاب ما لا يُحصى مختلفة بالصَّعْر والكِبَر والدَّقَّة والغِلْظ وكثرة الانقِسام وقلَّته، ولا شيء منها إلا وفيه حِكْمَةٌ بَلِ حِكْمِمْ، وكل ذلك نِعْمٌ من الله تعالى عليك، ثم لو سَكَنَ من جُمليتها عِرْقٌ متحركٌ أو تَحْرَكَ عِرْقٌ ساكِنٌ لهلكت يا مسكين، فانظر إلى نِعْمَةِ الله تعالى أولاً لتَقوى على الشكر، فإنك لا تَعرف من نِعْمَةِ الله عزَّ وجلَّ إلا الأكل، وهي أَحْسَنُها، ثم لا تَعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل، والبهيمة أيضاً تَعلم أنها تجوع فتأكل، وتتعب فتنام، وتشتهي فتجامع، وتستريح فترمَح<sup>(١)</sup>، فإذا لم تَعرف أنت من نفسك إلا ما يعرفه الحمار فكيف تقوم بشكر نعمة الله تعالى؟

وهذا الذي رَمزنا إليه على الإيجاز قَطْرَةٌ من بحرٍ واحدٍ من بحارِ نِعَمِ الله عزَّ وجلَّ، فقس على الإجمال ما أهملناه من جملة ما عرفناه حذراً من التَّطويل، وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلُّهم بالإضافة إلى ما لم يعرفوه من نِعَمِ الله تعالى أقل من قَطْرَةٍ من بحرٍ واحدٍ، إلا أن من علم شيئاً من هذا أدرك شَمَّةً من معاني قول الله تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [النحل: ١١١].

ثم انظر كيف بسطَ اللهُ تعالى قوام هذه الأعضاء وقوام منافعها وإدراكاتها وقواها بِبُخارٍ لطيفٍ يتصاعدُ من الأخلاط الأربعة ومُستقرُّه القلب، ويسري في جميع البدن بواسطة العروق الضوَّارِبِ فلا يَنْتهِي إلى أجزاء البدن إلا ويحدثُ عند وصوله في تلك الأجزاء ما تَحْتَاجُ إليه من قُوَّةِ حِسِّ وإدراكٍ وقوة حركية وغير ذلك، كالسراج الذي يُدارُ في أطرافِ البيت، فلا يصلُ إلى جزءٍ إلا ويحصل بسبب وصوله ضوؤه على أجزاء البيت من خلق الله واختراعه، ولكنه جعلَ السراج سبباً له لحكمته، وهذا البُخارُ اللطيفُ هو الذي يُسمِّيه الأطباء: الرُّوح، ومحلُّه القلب، ومثاله جِزْمُ نارِ السراج والقلبُ له كالمِسْرَجَةِ، والدَّمُ الأسود الذي في باطن القلب له كالفَتِيلَةِ، والغذاء له كالزَّيْتِ، والحياة الظاهرة في جميع البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت، وكما أن السراج إذا انقطع زَيْتُه انطفأ، فسراجُ الرُّوح أيضاً يَنْطفئ إذا انقطع غداؤه، كما أن الفَتِيلَةَ قد تَحْتَرِقُ وتَصيرُ رماداً بحيث لا تقبل الزيت قبولاً تتشَبَّثُ

(١) رمحت الدابة: رَفست برجليها.

النارُ به، وكما أن السراج نارُه تَنْطَفِئُ تارةً بسببٍ من داخلٍ كما ذكرنا، وتارةً بسببٍ من خارجٍ كريحٍ عاصفةٍ، فكذلك الروح تَنْطَفِئُ بسببٍ من داخلٍ، وتارةً بسببٍ من خارجٍ، وهو القتل، وكما أن انطفاء السراج لا يكون إلا بأسبابٍ مقدرةٍ في علم الله مرتبةً ويكون كل ذلك بقدر، فكذلك انطفاء الروح، وكما أن انطفاء السراج هو مُنتهى وقت وجوده، فيكون ذلك أجله الذي أُجِّلَ له في أم الكتاب، فكذلك انطفاء الروح، وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيئ كُله، فالروح إذا انطفأ أظلم البدن كُله، وفارقتهُ أنواره التي كان يستفيدُها من الروح، وهي أنوار الإحساس والقدرة والإرادات، وجميعها يجمعها لفظ الحياة، فهذا أيضاً رمزٌ وجيزٌ إلى عالم آخر من عوالم نِعَمِ الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته، فتعساً لمن كفر به، وسحقاً.

فإن قيل: فقد وصفت الروح ومثلته، ورسول الله ﷺ لما سُئِلَ عن الروح لم يزد على أن قال: «الروح من أمر ربي».

فالجواب: أن الروح اسمٌ مشتركٌ يُطلق لمعانٍ كثيرة، ونحن إنما وصفنا من جملتها جسماً لطيفاً يُسميه الأطباء روحاً، وقد عرفوا صفة وجوده، وكيفية سريانه في الأعضاء، وكيفية حصول الإحساس والثقوى في الأعضاء به، حتى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدةٍ في مجرى هذا الروح، فلا يعالجون موضع الخدر بل منابت الأعصاب<sup>(١)</sup> ومواقع السدة منها ويعالجونها بما يفتح السدة، فإن هذا الجسم بلطفه ينفذ في شبك العصب وبواسطته يتأذى من القلب إلى جميع الأعضاء، وما ترتقي إليه معرفة الأطباء فأمره سهل، فأما الروح التي هي الأصل فسِرٌّ من أسرار الله عز وجل لم نَصِفْهُ ولا رُخِصَ في وصفه، إلا أن يقال: هو أمر رباني، كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، والأمور الربانية لا تتحمل العقول ووصفها، بل تتحير فيها عقول أكثر الخلق، وأما الأوهام والخيالات فقاصرةٌ عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات، وتترزّل في ذكر مبادئ وصفها معاقِدُ العقول المقيّدة بالجواهر والعرض، المحبوسة في مضيقيهما، فلا يدرك بالعقل شيءٌ من وصفه، بل بنورٍ آخر أعلى وأشرف من العقل

(١) تحرفت في النسخ إلى: «الأغصان»، والمثبت من الإحياء.

يُشرقُ ذلك التور في عالم الولاية والثبوة، فَنَسَبَتْهُ إِلَى الْعَقْلِ نَسْبَةَ الْعَقْلِ إِلَى الْوَهْمِ وَالْخِيَالِ وَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْخَلْقَ أَطْوَاراً، فَكَمَا يُدْرِكُ الصَّبِيُّ الْمُحَسَّنَاتِ وَلَا يَدْرِكُ الْمَعْقُولَاتِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ طَوْرٌ لَمْ يَبْلُغْهُ بَعْدَ، فَكَذَلِكَ يُدْرِكُ الْبَالِغُ الْمَعْقُولَاتِ وَلَا يَدْرِكُ مَا وَرَاءَهَا، لِأَنَّ ذَلِكَ طَوْرٌ لَمْ يَبْلُغْهُ بَعْدَ، وَإِنَّهُ لَمَشْرَبٌ عَذْبٌ غَيْرُ أَنَّ ذَلِكَ الْمَشْرَبَ أَعَزُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ شَرِيعَةً<sup>(١)</sup> لِكُلِّ وَارِدٍ، بَلْ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ إِلَّا وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ، وَإِنَّمَا الْمَعْنَى الْمَسْمُومَةُ رُوحاً عِنْدَ الطَّبِيبِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ الرَّبَّانِيِّ كَالْكُرَّةِ الَّتِي يُحْرِكُهَا صَوْلَجَانُ الْمَلِكِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْمَلِكِ، فَمَنْ عَرَفَ الرُّوحَ الطَّبِيبِيَّ فَظَنَّ أَنَّهُ أَدْرَكَ الْأَمْرَ الرَّبَّانِيَّ، كَانَ كَمَنْ رَأَى الْكُرَّةَ فَظَنَّ أَنَّهُ رَأَى الْمَلِكَ، فَلَا يُشَكُّ فِي أَنَّ خَطَأَهُ فَاحِشٌ، وَهَذَا الْخَطَأُ أَفْحَشُ مِنْهُ.

ولما كانت العقول التي بها يحصل التكليف وتُدرك مَصَالِحَ الدُّنْيَا قَاصِرَةً عَنِ مُمَاطِئِ كُنْهِ هَذَا الْأَمْرِ لَمْ يَأْذَنَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ أَنْ يُحَدِّثَ عَنْهُ، بَلْ أَمَرَهُ أَنْ يَكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عَقُولِهِمْ، وَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ مِنْ حَقِيقَةِ هَذَا الْأَمْرِ شَيْئاً، لَكِنْ ذَكَرَ نِسْبَتَهُ وَفَعْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَاتَهُ، أَمَا نِسْبَتُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ أَمَرَ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] وَأَمَا فَعْلُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨].

وَلتَرْجِعِ الْآنَ إِلَى الْغَرَضِ، فَإِنَّ الْمَقْصُودَ ذَكَرَ نَعْمَ اللَّهِ تَعَالَى فِي آيَاتِ الْأَكْلِ.

**الطرف الرابع في نعم الله تعالى**  
**في الأصول التي منها تحصل الأطعمة وتصير صالحة لأن يصلحها**  
**الآدمي بعد ذلك بصنعبته**

اعلم أن الأطعمة كثيرة، والله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى، وأسباب متوالية لا تتناهي، وذكر ذلك في كل طعام يطول، فإن الأطعمة إما أدوية، وإما فواكه، وإما أغذية، فلنأخذ الأغذية، فإنها الأصل، ولنأخذ من جملتها حبة من البر، ولنذع سائر الأغذية.

(١) الشريعة: مورد الماء الذي يستقى منه بلا رشاء.

فنعول: إذا وجدت حبة أو حبات فلو أكلتها فنييت وبقيت جائعاً، فما أحوجك إلى أن تنمو الحبة في نفسها وتزيد وتتضاعف حتى تفي بتمام حاجتك، فخلق الله في حبة الحنطة من القوى ما تغذي به، كما خلق فيك، فإن النبات إنما يفارقك في الجس والحركة ولا يخالفك في الاغذاء، فإنه يغذي بالماء، ويجتذب إلى باطنه بواسطة العروق كما تغذي أنت وتجتذب.

ولسنا نطيب في ذكر آليات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه، ولكن نشير إلى غذائه، فنقول: كما أن الخشب والتراب لا يغذيك بل تحتاج إلى طعام مخصوص، فكذلك الحبة لا تغذي بكل شيء، بل تحتاج إلى شيء مخصوص، بدليل أنك لو تركتها في البيت لم تزد؛ لأنه ليس يحيط بها إلا الهواء، ومجرد الهواء لا يصلح لغذائها، ولو تركتها في الماء لم تزد، ولو تركتها في أرض لا ماء فيها لم تزد، بل لا بد من أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طيناً، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٧٤) ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ (٧٥) ﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: ٢٦-٢٤]. ثم لا يكفي الماء والتراب، إذ لو تركت في أرض نديّة صلبة متراكمة لم تنبت لفقدها، فتحتاج إلى تركها في أرض رخوة متخلخلة ليتغلغل الهواء إليها، ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه فتحتاج إلى ريح تحرك الهواء وتضربه بقهر وعنف على الأرض حتى ينفذ فيها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَافِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وإنما إلحاقها في إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض، ثم كل ذلك لا يغني لو كان في برد مفرط، فيحتاج إلى حرارة الربيع والصيف.

فقد بان احتياج غذائه<sup>(١)</sup> إلى هذه الأربعة، فانظر إلى ما يحتاج كل واحد، إذ يحتاج الماء أن ينساق إلى أرض الزراعة، فانظر كيف خلق البحار وفجر العيون وأجرى منها الأنهار، ثم الأرض قد تكون مرتفعة والمياه لا ترتفع إليها، فانظر كيف خلق الغيوم، وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها بإذنه إلى أقطار العالم وهي سحب ثقالة حوامل للماء، ثم انظر كيف يرسله على الأرض مداراً في وقت الحاجة إليه، وانظر كيف خلق الجبال حافظاً للمياه تتفجر منها العيون تدريجاً، فلو خرجت دفعة

(١) يعني غذاء النبات.

لَعَرَقَتِ الْبِلَادَ وَهَلَكَ الزَّرْعُ وَالْمَوَاشِي، وَنِعِمَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْجِبَالِ وَالسَّحَابِ وَالْبِحَارِ  
وَالْأَمْطَارِ لَا يُمْكِنُ إِحْصَاؤُهَا.

وأما الحرارة، فإنها لا تحصل بين الماء والأرض، وكلاهما بارد، فانظر كيف  
سَخَّرَ الشَّمْسُ، وكيف خَلَقَهَا مع بُعْدِهَا عن الأرض مُسَخَّنَةً للأرضِ في وقتٍ دونَ  
وَقْتٍ ليحصل البَرْدُ عند الحاجة إلى البَرْدِ، والحر عند الحاجة إلى الحر، فهذه  
إحدى حِكَمِ الشَّمْسِ والحِكَمِ فيها أكثر من أن تُحصَى.

ثم النَّبَاتُ إذا ارتفع عن الأرض كان في الفَوَاكِه انِعْقَادٌ وصلابةٌ فافتقرت إلى  
رطوبةٍ تُنضِجُهَا، فانظر كيف خلقَ القَمَرَ وجعلَ من خاصِيَّتِهِ التَّرطِيبَ، كما جعل من  
خاصِيَّةِ الشَّمْسِ التَّسْخِينَ، فهو يُنضِجُ الفَوَاكِه وَيَصْبِغُهَا بتقديرِ الفاطرِ الحكيمِ،  
ولذلك إذا كانت الأشجار في ظِلٍّ يَمْنَعُ طُلُوعَ الشَّمْسِ والقَمَرِ وجميعِ الكواكبِ عليها  
كأنت فاسدة ناقصة، حتى إن الشجرةَ الصغيرةَ تفسد إذا أَظْلَمَتْهَا شجرةٌ كبيرةٌ، وتَعْرِفُ  
تَرطِيبَ القَمَرِ بأنه إذا انكشَفَ رأسُكَ في اللَّيْلِ، فإنه يغلب على رأسِكَ الرُّطوبةُ التي  
يُعَبَّرُ عنها بالزُّرْكامِ، فكما يُرطَّبُ رأسُكَ يُرطَّبُ الفاكهةُ أيضاً.

ولا نطول فيما لا مطمع في استقصائه بل نقول: كلُّ كوكبٍ في السماء قد سُخِّرَ  
لنوعٍ فائدةٍ كما سُخِّرَتِ الشَّمْسُ للتَّسْخِينَ، والقَمَرُ للتَّرطِيبِ، فلا يخلو واحد منها  
عن حِكَمٍ كثيرةٍ لا تفي قُوَّةُ البَشَرِ بإحصائها، وكما أنه ليس في أعضاءِ بَدَنِكَ عُضْوٌ  
إلا لفائدةٍ، فليس في أعضاءِ بَدَنِ الْعَالَمِ عُضْوٌ إلا لفائدةٍ، والعالم كله كشخصٍ واحدٍ  
وآحادِ أجسامه كالأعضاء له، وهي متعاونةٌ تَعَاوَنَ أعضاءِ بَدَنِكَ في جملةِ بَدَنِكَ،  
وشرح ذلك يطول.

ولا ينبغي أن تظنَّ أن الإيمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخَّرات بأمر الله  
تعالى في أمورٍ جُعِلَتْ أسباباً لها بحكمِ الحِكْمَةِ مخالِفٌ للشرع لما ورد من التَّهْيِ  
عن علمِ النُّجُومِ وتَصْدِيقِ المُنْجِمِينَ، إنما المَنهِيُّ عنه في النجوم أمران:

أحدهما: أن تُصدِّقَ بأنها فاعلة لآثارها ومُستقلة بها، وأنها ليست مسخَّرة تحت  
تدبير مُدبِّرِ خَلْقِهَا وقَهْرِهَا، وهذا لُغْزٌ.

والثاني: تصديق المنجمين في تفصيل ما يُخبرون به من الآثار التي لا يشترك الخلق كافة في ذكها؛ لأنهم يقولون ذلك عن جهل، واعتقاد كون الكواكب أسباباً لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الأرض والنبات والحيوان ليس قادحاً في الدين، بل هو الحق، ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قادح في الدين، ولذلك إذا كان معك ثوبٌ قد غسلته وتريد تجفيفه فقال لك قائل: أخرج الثوب وابسطه، فإن الشمس قد طلعت والهواء قد حمي. فإنك لا تكذبه ولا تُنكر عليه لحواله حمو الهواء على طلوع الشمس، ولو سألته عن تغيير وجهه فقال: قرعتني الشمس في طريقي فأثرت في وجهي. لم تكذبه.

وقس على هذا جميع الآثار، إلا أن الآثار بعضها معلوم وبعضها مجهول، فالمجهول لا يجوز ادعاء العلم فيه، والمعلوم بعضه معلوم للناس كافة كحصول الزكام والحرارة بطلوع الشمس، وبعضه لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر، فأما من فهم من ملكوت السماوات لوان السماء وضوء الكواكب فذلك مما تعرفه البهائم أيضاً، فله سبحانه في ملكوت السماوات والأنفس<sup>(١)</sup> والحيوانات والنبات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله، فإن من أحب عالماً لم يزل مشغولاً بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حباً له، فكذلك الأمر في عجائب صنع الله تعالى، فإن العالم كله من تصنيفه بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذي صنّفه بواسطة قلوب عباده، فإن تعجبت من تصنيف فلا تتعجب من المصنف، بل من الذي سخر المصنف لتأليفه بما أنعم عليه من هدايته وتسيده وتعريفه، كما إذا رأيت لعب المشعبد<sup>(٢)</sup> ترقص وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تتعجب من اللعب فإنها حرق محرقة لا متحركة، ولكن تعجب من جذق المشعبد المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الأبصار.

فإذن المقصود أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب، ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التي هي مركوزة فيها، ولا تتم الأفلاك إلا

(١) تحرفت في (ف) إلى: «الإنس».

(٢) المشعبد والمشعوذ واحد.

بحركاتها، ولا تتم حركاتها إلا بملائكة سماوية يُحركونها، فلنقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النَّبَاتِ .

### الطرف الخامس في نِعَمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك

اعلم أنَّ الأطعمةَ كلها لا توجد في كلِّ مكان، بل لها شروطٌ مخصوصة لأجلها توجد في بعض الأماكن دونَ بعض، والناس ينتشرون على وجه الأرض، وقد تبعد عنهم الأطعمة وتحوّل بينهم وبينها البراري، فانظر كيف سخر الله عزَّ وجلَّ التُّجَّارَ وسلطَ عليهم الحرصَ على جمع المال وشره الأرباح، مع أنه لا يُغنيهم في غالب الأمر شيء بل يجمعون، فإما أن تغرق بها السفن، أو ينهبها قطاع الطريق، أو يموتون في بعض البلاد فتأخذها السلاطين، وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم وهم أشدَّ أعدائهم لو عرفوا.

فانظر كيف سلطَ الله الجهلَ والغفلةَ عليهم حتى يُقاسون الشدائد في طلبِ الربح ويركبون الأخطار ويُغرَّرونَ بالأرواح في ركوب البحار فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك، فانظر كيف علّمهم الله عز وجل صناعة السفن وكيفية الركوب فيها، وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للركوب والحمل في البراري، وانظر إلى الإبل كيف خلقت، وإلى الفرس كيف أمّدت بسرعة الحركة، وإلى الجمار كيف جعل صبوراً على التعب، وإلى الجمال كيف تقطع البراري وتطوي المراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والعطش، وانظر كيف سيّرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات في البرِّ والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج، وتأمل ما تحتاج إليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها، وما تحتاج إليه السفن فقد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حدِّ الحاجة وفوق الحاجة، وإحصاء ذلك غير ممكن، ويتمادى هذا إلى أمور خارجة عن الحصر ترى تركها طلباً للإيجاز

## الطرف السادس في إصلاح<sup>(١)</sup> الأطعمة

اعلم أن الذي يَنْبَت من الأَرْض من النَّبَات وما يُخْلَق من الحيوانات لا يمكن أن يُفْضَم ويؤكل وهو كذلك، بل لا بد لكل واحدٍ من إصلاح وطَبْخ وتركيب وتنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض إلى أمورٍ أخرى لا تُحصى، وأقتضاء ذلك في كلِّ طعامٍ طويلاً، فَلْنَعْنِ رَغيفاً واحداً ولننظر إلى ما يحتاج إليه الرِّغيف الواحد حتى يَسْتَدِير ويصلح للأكل من بعد إلقاء البذر في الأرض، وأول ما يُحتاج إليه الحراث لِيَزْرَع ويُصلح الأرض، ثم الثور الذي يُثِيرُ به الأرض، والفدان<sup>(٢)</sup> وجميع أسبابه، ثم بعد ذلك التَّعْهَد بِسَقْيِ الماء؛ ثم تَنْقِيَةُ الأرض من الحشيش، ثم الحَصَاد، ثم الفَرْكُ والتَّنْقِيَةُ، ثم الطَّحْنُ، ثم العَجْنُ ثم الخَبْزُ، فتأمل عدد هذه الأفعال التي ذكرناها وما لم نذكره، وعدد الأشخاص القائمين بها، وعدد الآلات التي يُحتاج إليها من الحديد والحشَب والحجر وغيره، وانظر إلى أعمال الصُّنَاع في إصلاح آلات الحِرَاة والطَّحْن والخَبْز من نَجَارٍ وحَدَادٍ وغيره، وانظر إلى حاجة الحَدَاد إلى الحديد والرصاص والنحاس، وانظر كيف خلق الله الجبال والأحجارَ والمعادن، وكيف جعل الأرضَ قِطْعاً مُتجاورات مختلفة، فإن فَتَّشْتَ علمتَ أنَّ رَغيفاً واحداً لا يَسْتَدِيرُ بحيث يصلح لأَكْلِكَ يا مسكين ما لم يعمل فيه أكثر من ألف صانع، فابتدئ من المَلِكِ الذي يُزْجِي سَحَاباً لينزل الماء إلى آخر الأعمال من جهة الملائكة حتى تَنْتَهِي النَّوْبَةُ إلى عَمَلِ الإنسان، ولو نظرتَ في المِقْرَاضِ وهما جَلْمَان<sup>(٣)</sup> مُتطابقان ينطبق أحدهما على الآخر فيتناولان الشَّيْءَ معاً ويقطعانه بسرعة، ولولا أن الله تعالى كشفَ طريقَ اتِّخَاذِ هذا لمن قَبَلْنَا لَكُنَّا نَحْتَاجُ إلى اسْتِنْبَاطِ الطَّرِيقِ فيه بفكرنا، ثم إلى تحصيل الآلات التي يُعمل بها المقراض لَذَهَبَتِ الأعمارُ في ذلك.

فاعلم الآن أنه لو خَلا بِلْدُكَ من الطَّحَانِ أو الحَدَادِ أو الحَجَامِ الذي هو أَحْسَنُ

(١) تحرفت في (ف) إلى: «اصطلاح».

(٢) الفَدَان: الخشب الذي يوضع على عنق الثورين للحراثة.

(٣) تحرفت في (ف) إلى: «حكمان». والجلمان والجلم: آلة يُجَزُّ بها الحشيش.

العَمَّال، وعن الحائك أو عن واحدٍ من جملة الصُّنَّاعِ لا ضُطِرَّتْ أُمُورُكُمْ، فَسُبْحَانَ مَنْ سَخَّرَ بَعْضَ الْعِبَادِ لِبَعْضٍ حَتَّى بَانَتْ بِذَلِكَ حِكْمَتُهُ.

### الطرف السابع في إصلاح المصلحين

اعلم أن هؤلاء الصنَّاعِ المُصْلِحِينَ للأطعمة وغيرها لو تَفَرَّقَتْ آرَاؤُهُمْ وَتَنَافَرَتْ طِبَاعُهُمْ تَنَافَرَ طِبَاعُ الْوَحْشِ لِتَبَدُّدِهَا وَتَبَاعَدِهَا وَلَمْ يَنْتَفِعْ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، بَلْ كَانُوا كَالْوَحْشِ لَا يَحْوِيهِمْ مَكَانٌ وَاحِدٌ وَلَا يَجْمَعُهُمْ غَرَضٌ وَاحِدٌ، فَانظُرْ كَيْفَ أَلَّفَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَسَلَّطَ الْأُنْسَ وَالْمَحَبَّةَ عَلَيْهِمْ، فَاجْتَمَعُوا وَبَنَوْا الْمَدَائِنَ وَرَتَبُوا الْمَسَاكِنَ وَالْأَسْوَاقَ، ثُمَّ هَذِهِ الْمَحَبَّةُ تَزُولُ بِأَغْرَاضٍ يَزِدْ حَمُونَ عَلَيْهَا وَيَتَنَافَسُونَ فِيهَا، وَفِي جِبَلَةِ الْآدَمِيِّ الْعَيْظُ وَالْحَسَدُ وَالْمَنَافَسَةُ، وَذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى التَّنَافُرِ وَالْمَخَاصِمَةِ، فَسَلَّطَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ السَّلَاطِينَ وَأَمَدَّهُمْ بِالْقُوَّةِ وَالْعُدَّةِ وَالْقِيَّ رُعْبَهُمْ فِي قُلُوبِ الرِّعَايَا حَتَّى أَدْعَنُوا لَهُمْ طَوْعًا وَكَرْهًا.

ثُمَّ كَيْفَ هَدَى اللَّهُ السَّلَاطِينَ إِلَى طَرِيقِ إِصْلَاحِ الْبِلَادِ حَتَّى رَتَّبُوا أَجْزَاءَ الْبَلَدِ كَأَنَّهَا أَجْزَاءُ شَخْصٍ وَاحِدٍ يَتَعَاوَنُ عَلَى غَرَضٍ وَاحِدٍ، يَنْتَفِعُ الْبَعْضُ مِنْهَا بِالْبَعْضِ، فَارْتَبُوا الرُّؤْسَاءَ وَالْقُضَاةَ وَالشُّحْنَ<sup>(١)</sup> وَاضْطَرُّوا الْخَلْقَ إِلَى قَانُونِ الْعَدْلِ وَالزَّمُومِ التَّسَاعُدِ وَالتَّعَاوُنِ حَتَّى صَارَ الْحَدَادُ يَنْتَفِعُ بِالْقَصَابِ وَالْحَبَّازُ وَسَائِرُ أَهْلِ الْبَلَدِ، وَكُلُّهُمْ يَنْتَفِعُونَ بِالْحَدَادِ، وَصَارَ الْحَجَّامُ يَنْتَفِعُ بِالْحَرَّاثِ، وَالْحَرَّاثُ بِالْحَجَّامِ، وَيَنْتَفِعُ كُلُّ وَاحِدٍ بِكُلِّ وَاحِدٍ، كَمَا يَتَعَاوَنُ أَعْضَاءُ الْبَدَنِ وَيَنْتَفِعُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ.

وَانظُرْ كَيْفَ بُعِثَ الْأَنْبِيَاءَ حَتَّى أَصْلَحُوا السَّلَاطِينَ الْمُصْلِحِينَ لِلرِّعَايَا وَعَرَّفَوْهُمْ قَوَانِينَ الشَّرْعِ فِي حِفْظِ الْعَدْلِ بَيْنَ الْخَلْقِ وَقَوَانِينَ السِّيَاسَةِ فِي ضَبْطِهِمْ، وَكَشَفُوا مِنْ أَحْكَامِ الْإِمَامَةِ وَالسَّلْطَنَةِ وَأَحْكَامِ الْفِقْهِ مَا اهْتَدَوْا بِهِ إِلَى إِصْلَاحِ الدُّنْيَا فَضْلًا عَمَّا أُرْشِدُوهُمْ إِلَيْهِ مِنْ إِصْلَاحِ الدِّينِ، وَانظُرْ كَيْفَ أَصْلَحَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْأَنْبِيَاءَ بِالْمَلَائِكَةِ، وَكَيْفَ أَصْلَحَ الْمَلَائِكَةَ بِبَعْضِهِمْ بَعْضٌ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى الْمَلِكِ الْمُقَرَّبِ الَّذِي لَيْسَ

(١) الشحن: جمع شحنة وهو الحاكم على البلد، أو الجماعة يقيمها السلطان في بلد ما لضبطه.

بينه وبين الله تعالى واسطة، فالخَبَاز يُصلح العجِين بِالإِنضاج، والطَّحَانُ يُصلح الحَبَّ بِالطَّحْن، والحَرَاثُ يُصلحه بِالْحَصَاد، والحَدَادُ يُصلح آلَات الحِرَاثَة والنَّجَار يُصلح آلَات الحَدَاد، وهكذا جميع أرباب الصُّنَاعَات المُصلِحِينَ لآلَات الأَطْعَمَة، فالسُلْطَان يُصلح الصُّنَاع، والأنبياء يُصلحون العلماء، والعلماء يُصلحون السُّلَاطِين، والملائكة يُصلحون الأنبياء إلى أن تنتهي إلى حَضْرَة الرُّبُوبِيَّة التي هي ينبوع كُلِّ نِظَام ومَطْلَعُ كُلِّ حُسْنٍ وَجَمَالٍ وَمَنْشَأُ كُلِّ تَرْتِيبٍ وتَأْلِيفٍ، كل ذلك نِعْمٌ من رَبِّ الأَرْبَابِ ومُسَبَّبُ الأَسْبَابِ، ولولا فضله ما اهتدينا إلى مَعْرِفَة هذه الثُّبُدَة اليَسِيرَة من نِعْمِ الله تعالى، ولولا عَزْلُه إِيَّانَا عن أَنْ نَطْمَحَ بعَيْنِ الطَّمَعِ إلى الإِحَاطَة بِكُنْه نِعْمِهِ لَتَشَوَّفْنَا إلى طَلْبِ الإِحَاطَة والاستِقْصَاء، ولكِنَّه عَزَّلَنَا بحِكمِ القَهْرِ والقُدْرَة، فقال: ﴿وَإِنْ تَعَدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، فَإِنْ تَكَلَّمْنَا فبِإِذْنِهِ أَنْبَسْتُنَا، وَإِنْ سَكْتْنَا فبِقَهْرِهِ انْقَبَضْنَا، إِذْ لَا مُعْطِيَّ لِمَا مَنَعَ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيَ.

### الطرف الثامن في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة

قد بَانَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِ الملائكة بِإِصْلَاحِهِمُ الأنبياء وتَبْلِغِ الوَحْيِ إِلَيْهِمْ، وَلَا تَظُنَّنَّ أَنَّهُمْ مَقْتَصِرُونَ فِي أَفْعَالِهِمْ عَلَى ذَلِكَ القدر، بل لَهُمْ أَعْمَالٌ كَثِيرَةٌ تَخْتَصُّ بِكَ، فَهَمْ يُصَوِّرُونَ نُطْفَتَكَ، وَيُهَيِّئُونَ أَسْبَابَ رِزْقِكَ، وَيُرَاعُونَ مَا يَصِلُ مِنَ الدَّمِ الَّذِي يَطْبَخُهُ الكَبِدُ إلى كُلِّ عُضْوٍ بِمَقْدَارِ حَاجَتِهِ، فَنَسَبَهُ قَوْمٌ إلى القُوَّةِ المَوْضُوعَةِ فِي الأَدْمِيِّ، وَقَوْمٌ يُسَمُّونَ تِلْكَ القُوَّةَ مَلَكًا.

وكيف تُحْصَى نِعْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ نَفْسٍ يَنْبَسِطُ وَيَنْقَبِضُ نِعْمَتَانِ، إِذْ بَانِبَسَاطِهِ يَخْرُجُ الدُّخَانُ المَحْتَرِقُ مِنَ القَلْبِ، وَلَوْ لَمْ يَخْرُجْ لَهَلَكَ، وَبِانْقِبَاضِهِ يَجْمَعُ رُوحَ الهَوَاءِ إلى القَلْبِ، وَلَوْ سُدَّ مُتَنَفِّسُهُ لَاحْتَرَقَ قَلْبُهُ بِانْقِطَاعِ رُوحِ الهَوَاءِ وَبِرُودَتِهِ وَهَلَكَ، بل اليَوْمُ وَاللَّيْلَةُ أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ سَاعَةً، وَفِي كُلِّ سَاعَةٍ قَرِيبٌ مِنْ أَلْفِ نَفْسٍ، وَكُلُّ نَفْسٍ قَرِيبٌ مِنْ عَشْرِ لَحَظَاتٍ، وَفِي كُلِّ لَحْظَةٍ أَلْفٌ مِنَ النُّعْمِ فِي كُلِّ جِزْءٍ مِنْ أَجْزَائِكَ، وَإِذَا كَانَ جَمِيعُ مَا ذَكَرْنَا يَرْجِعُ إلى المَطْعَمِ والمَشْرَبِ فَاعتَبِرْ بِمَا سِوَاهُ مِنَ النُّعْمِ.

## بيان السبب الصّارف للخلق عن الشُّكر

اعلم أنه لم يُقَصَّر بالخلقِ عن شُكرِ النُّعمة إلا الجَهل والغفلة، فإنهم مُنعُوا بالجهل والغفلة عن معرفة النُّعم، ولا يُتصوَّر شُكر النُّعمة إلا بعدَ معرفتها، ثم إن عرفوا نعمةً ظنّوا أن الشكر عليها أن يقولَ بلسانه: الحمد لله، الشكر لله. ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النُّعمة في إتمام الحكمة التي أُريد بها، وهي طاعة الله تعالى، فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتین إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان.

أما الغفلة عن النُّعم، فلها أسباب، وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لا يعدون ما أنعم الله على الخلق في جميع أحوالهم نعمة، ولذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النُّعم؛ لأنها عامة للخلق مبدولة لهم في جميع أحوالهم، فلا يرى كل واحد لنفسه اختصاصاً به فلا يعدُّه نعمة، فلا تراهم يشكرون الله تعالى على روح الهواء ولو أخذ بمخنقهم<sup>(١)</sup> لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا، ولو حُسبوا في حَمَامٍ أو في بئرٍ ماتوا غمًا، فإن ابتلي أحدهم بشيء من ذلك ثم نجى قدر ذلك نعمة فشكر الله عليها، وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تُسلب عنهم النُّعمة ثم تُردّ إليهم في بعض الأحوال، والنُّعمة في جميع الأحوال أولى بأن تُشكر من النُّعمة في بعضها، فلا ترى البصير يشكر صحّة بصره إلا أن يعمى، فإذا أُعيد بصره أحسَّ بالنُّعمة وشكرها وعدّها نعمةً، ولما كانت نعمة الله واسعة عمَّ الخلق بها وبذلها لهم في جميع الأحوال، فلم يعدّها الجاهل نعمةً، وهو مثل عبد السوء يُضرب دائماً، فإذا ترك ضربه ساعة تقلد بها منةً، فإن ترك ضربه أصلاً غلبه البطر وترك الشكر، فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذي يتطرق إليه الاختصاص من حيث الكثرة والقلة، وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم، كما روي أن بعضهم شكى فقره إلى بعض أرباب البصائر وأظهر شدة اغتمامه بذلك فقال له: أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال: لا. فقال: أيسرك أنك أعمى ولك عشرة

(١) المِخْنَق: موضع المِخْنَق. وهي القلادة. من العنق.

آلاف؟ قال: لا. قال: أيسرُك أنك أقطع اليدين والرَّجلين ولك عشرون ألفاً؟ قال: لا. قال: أيسرُك أنك مَجنونٌ ولك عشرة آلاف؟ قال: لا. قال: أما تَسْتَحِي؟ تشكو مولاك وله عندك عُروضٌ بخمسين ألفاً؟

وحكي عن بعضِ القُرَاء أنه اشتدَّ به الفقر حتى ضاقَ به دَرْعاً، فرأى في المنام كأنَّ قائلاً يقول له: أتودُّ أنا أنَسِينَاك سورة الأَنْعَام وأنَّ لك ألفَ دينار؟ قال: لا. قال: فسورة هود؟ قال: لا. قال: فسورة يوسف؟ قال: لا. قال: فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو؟ فأصبح وقد سُرِّي عنه.

ودخل ابنُ السَّمَاك على الرَّشيد فوعظه فبكى، ثم دَعَا بماءٍ فأُتِيَ بقدح فيه ماء، فقال: يا أمير المؤمنين، لو مُنِعَت هذه الشَّرْبَةُ إلا بالدُّنيا وما فيها كنتَ تُفديها بها؟ قال: نعم. قال: اشرب رِياً بارك الله فيك، فلما شرب قال: يا أمير المؤمنين، أرايتَ لو مُنِعَت إخراج هذه الشَّرْبَةِ منك إلا بالدُّنيا وما فيها أكنتَ تُفديها بالدُّنيا وما فيها؟ قال: نعم. قال: يا أمير المؤمنين، فما تصنع بشيءٍ شَرْبُهُ ماءٍ خَيْرٌ منه؟! فبهذا تبيَّن أن نعمةَ الله تعالى على العبد في شربة ماءٍ عند العَطش أعظم من مُلك الأرض كلها، ثم تسهيلُ خُروج الحَدَث من أعظم النِّعم.

وكان الحسنُ يقول: يا لها من نعمة، تأكل لذةً تخرج سرحاً، كان ملكٌ من ملوك هذه القرية يرى الغلام من غلمانهِ يأتي الحُبَّ<sup>(١)</sup> فيكتازُ<sup>(٢)</sup>، ثم يُجرِّجُ قائماً، فيقول: يا ليتني مثلك ما يشرب حتى يقطع عنقه العَطش، فإذا شرب كان له في تلك الشَّرْبَةِ مَوْتَات، فيا لها نعمة، تأكل لذةً وتخرج سرحاً.

وإذ كانت الطُّباع مائلةً إلى الاعتداد بالنِّعمة الخاصة نعمةً دون النعمة العامة، وقد ذكرنا النِّعم العامة، فلنذكر إشارةً وجيزةً إلى النِّعم الخاصَّة، فنقول: ما من عبدٍ إلا ولو أمعن النَّظْر في أحواله رأى من الله تعالى نعمةً أو نعماً كثيرةً تخصُّه<sup>(٣)</sup> ولا يُشاركه فيها الناسُ كافةً بل يُشاركه عدد يسير من الناس، وربما لا يشاركه فيها أحد، وذلك

(١) الحُبُّ: الحرة العظيمة.

(٢) يكتاز: يشرب كوزاً من الماء.

(٣) تحرفت في (ف) إلى: «لا تحصى».

يَعْتَرَفُ بِهِ كُلُّ عَبْدٍ فِي ثَلَاثَةِ أُمُورٍ فِي الْعَقْلِ وَالْخُلُقِ وَالْعِلْمِ .

أما العَقْلُ فما من عبدٍ لله تعالى إلا وهو راضٍ عن الله سبحانه في عَقْلِهِ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ أَعْقَلَ النَّاسِ ، وَقَلَّمَا يَسْأَلُ اللَّهَ الْعَقْلَ ، وَإِنَّ مِنْ شَرَفِ الْعَقْلِ أَنْ يَفْرَحَ بِهِ الْخَالِي عَنْهُ كَمَا يَفْرَحُ بِهِ الْمُتَّصِفُ بِهِ ، فَإِذَا كَانَ عَقْدَهُ أَنَّهُ أَعْقَلَ النَّاسِ فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَشْكُرَ ؛ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَالشُّكْرُ وَاجِبٌ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَلَكِنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ كَذَلِكَ فَيَنْبَغِي أَنْ يَشْكُرَ ؛ لِأَنَّ عَقْدَاصَ حَصُولِ ذَلِكَ لَهُ نِعْمَةٌ .

وأما الخُلُقُ ، فما من عبدٍ إلا ويرى في غيره عيوباً يكرهها وأخلاقاً يذمُّها ، وَإِنَّمَا يَذْمُهُ مِنْ حَيْثُ يَرَى نَفْسَهُ بَرِيئاً عَنْهَا ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَشَاغَلَ بِشُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا حَسَّنَ خُلُقَهُ وَابْتَلَى غَيْرَهُ بِالْخُلُقِ السَّيِّئِ .

وأما العِلْمُ ، فما من أحدٍ إلا ويعرف من بواطن أمور نفسه وخفايا أفكاره ما هو مُنفردُ بِهِ وَلَوْ كُشِفَ الْغِطَاءُ حَتَّى اطَّلَعَ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ لافْتَضَحَ ، فَكَيْفَ لَوْ اطَّلَعَ النَّاسُ كَافَّةً ؟ فَإِذَنْ لِكُلِّ عَبْدٍ عِلْمٌ بِأَمْرٍ خَاصٍّ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ مِنَ عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَلَمْ لَا يَشْكُرُ سِتْرَ اللَّهِ الْجَمِيلِ الَّذِي أَرْسَلَهُ عَلَيَّ وَجْهَ مَسَاوِيهِ فَأَظْهَرَ الْجَمِيلَ وَسَتَرَ الْقَبِيحَ وَأَخْفَى ذَلِكَ عَنْ أَعْيُنِ الْخَلْقِ وَخَصَّصَ عِلْمَهُ بِهِ حَتَّى لَا يَطَّلَعَ عَلَيْهِ أَحَدٌ .

فهذه ثلاثٌ مِنَ النِّعَمِ خَاصَّةٌ يَعْتَرَفُ بِهَا كُلُّ عَبْدٍ إِما مُطْلَقاً وَإما فِي بَعْضِ الْأُمُورِ ، فَلَنَنْزِلَ عَنْ هَذَا إِلَى طَبَقَةٍ أَعَمَّ مِنْهَا قَلِيلاً ، فنقول : ما من عبدٍ إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته أو شَخْصِهِ أو أَخْلَاقِهِ أو صِفَاتِهِ أو أَهْلِهِ أو وُلْدِهِ أو مَسْكَنِهِ أو بَلَدِهِ أو رَفِيقِهِ أو أَقَارِبِهِ أو عِزِّهِ أو جَاهِهِ أو فِي سَائِرِ مَحَابِّهِ أُمُوراً لَوْ سُلِبَ ذَلِكَ مِنْهُ أو أُعْطِيَ ما خُصِّصَ بِهِ غَيْرُهُ لَكَانَ لَا يَرْضَى بِهِ ، وَذَلِكَ مِثْلُ أَنْ جَعَلَهُ مُؤْمِناً لَا كَافِراً ، وَحَيّاً لَا جَمَاداً ، وَإِنْسَاناً لَا بَهِيمَةً ، وَذَكَراً لَا أُنْثَى ، وَصَحِيحاً لَا مَرِيضاً ، وَسَلِيماً لَا مَعِيباً ، فَإِنَّ كُلَّ هَذِهِ خِصَائِصَ وَإِنْ كَانَ فِيهَا عُمُومٌ أَيْضاً ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَحْوالَ لَوْ بُدِّلَ بِأَضْدَادِهَا لَمْ يَرْضَ بِهِ ، بَلْ لَهُ أُمُورٌ لَا يُبَدِّلُهَا بِأَحْوالِ الْأَدْمِيِّينَ أَيْضاً ، وَذَلِكَ إِما أَنْ يَكُونَ بِحَيْثُ لَا يُبَدِّلُهُ بِما خُصَّ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ ، أو لَا يُبَدِّلُهُ بِما خُصَّ بِهِ الْأَكْثَرُ ، فَإِنَّ كَانَ لَا يُبَدِّلُ حَالَ نَفْسِهِ بِحَالِ غَيْرِهِ ، فَإِذَنْ حَالُهُ أَحْسَنُ مِنْ حَالِ غَيْرِهِ ، فَإِنَّ كَانَ لَا يَعْرِفُ شَخْصاً يَرْضَى لِنَفْسِهِ حَالَهُ بَدَلاً مِنْ حَالِ نَفْسِهِ إِما عَلَيَّ الْجُمْلَةَ وَإما فِي أَمْرٍ خَاصٍّ ،

فإذن لله تعالى عليه نِعَمٌ ليست له على أحدٍ من عباده سِوَاهُ، وإن كان يُبَدَّلُ حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر إلى عدد المَغْبُوطِينَ عنده، فإنه لا مَحَالَةَ يَرَاهُمْ أَقْلَ بالإضافة إلى غَيْرِهِمْ فيكون مَنْ دونه في الحال أكثر بكثير ممن هو فوقه، فما باله يَنْظُرُ إلى من هو فوقه لِيَزْدَرِي نِعَمَ الله تعالى على نفسه، ولا ينظر إلى من دونه لِيَسْتَعْظِمَ نِعَمَ الله تعالى عليه؟ فقد أخبرنا هِبَةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّمِيمِي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الرزاق قال: حدثنا مَعْمَرُ عن هَمَّامِ بن مُنْبَهٍ قال: حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضَّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالخَلْقِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُ مِمَّنْ فَضَّلَ عَلَيْهِ». أخرجاه في الصَّحِيحِينَ<sup>(١)</sup>، وقد رواه الترمذي بلفظ آخر: «وانظروا إلى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ فَوْقَكُمْ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ»<sup>(٢)</sup>.

فإذن كُلُّ مَنْ اعْتَبَرَ حالَ نَفْسِهِ وَفَتَّسَ مَا خُصَّ بِهِ وَجَدَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ نِعْمًا كَثِيرَةً، لاسيما مَنْ خُصَّ بِالْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ وَالسُّنَّةِ، ثُمَّ الْفَرَاغِ وَالصَّحَّةِ وَالْأَمْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَقَدْ رَوَيْنَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَهُوَ عَنِّي»، وَفِي لَفْظٍ: «الْقُرْآنُ غِنَى لَا فُقْرَ بَعْدَهُ وَلَا غِنَى دُونَهُ»<sup>(٣)</sup>. وَرَوَيْنَا أَنَّ امْرَأَةً أَتَتْهُ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ زَوْجِي مِسْكِينٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيُزَوِّجَهَا: «أَتَقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْئًا؟» فَقَالَتْ: أَقْرَأُ سُورَةَ كَذَا وَكَذَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَخِ بَخِ، زَوْجُكَ عَنِّي فَالزَّمِيهِ»، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ أَصْبَحَ أَمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافَى فِي بَدَنِهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمَهُ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَدَافِيرِهَا»<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا مَا الْقُوَّةُ يَأْتِيكَ كَذَا الصَّحَّةُ وَالْأَمْنُ  
وَأَصْبَحْتَ أَخَا حُزْنٍ فَلَا فَارَقَكَ الْحُزْنُ

(١) أخرجه أحمد (٨١٤٧)، والبخاري (٦٤٩٠)، ومسلم (٢٩٦٣).

(٢) أخرجه أحمد (٧٤٤٩)، والترمذي (٢٥١٣).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٥٥/١ وسعيد بن منصور في السنن ٣٢/١.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٤٦)، وابن ماجه (٤١٤١)، والطبراني في الأوسط ٢٣٠/٢.

وقال آخر:

مَنْ أَصْبَحَتْ نَفْسُهُ سَلِيمَةً      فَإِنَّهَا أَعْظَمُ الْغَنِيمَةِ  
إِنَّ الْمُعَافَى وَمَا أَرَاهُ      يَدْرِي لَفِي نِعْمَةٍ عَظِيمَةٍ

ومتى تأملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاثة مع أنها وبأل عليهم، ولا يشكرون الله في هذه الثلاثة، ولا في الإيمان الذي به وصولهم إلى التعميم المقيم، بل البصير ينبغي أن لا يفرح إلا بالمعرفة والإيمان واليقين، ونحن نعلم أن من العلماء من لو سلم إليه جميع ملك ملوك الأرض وقيل له: خذها عوضاً عن علمك أو عن عشرٍ عشره. لم يأخذه، وذلك لرجائه أن نعمة العلم تُفضي به إلى قرب الله تعالى في الآخرة، بل لو قيل له: لك في الآخرة ما ترجوه بكماله وخذ هذه اللذات في الدنيا بدلاً عن التذاذك بالعلم في الدنيا وفرحك به. لم يفعل، لعلمه أن لذة العلم دائمة لا تنقطع، وثابتة لا تسرق ولا تُغصب، وصافية لا كدر فيها، ولذات الدنيا كلها ناقصة مكدرّة لا يفي مرجؤها بمخوفها، ولا ألمها بلذتها، ولا فرحها بغمها، وإنما تخلب العقول الناقصة حتى إذا انخدعت وتقيدت بها استعصت عليها، كالمرأة الجميلة تترين للشباب الشبق<sup>(١)</sup>، فإذا تقيدت بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه، فلا يزال معها في عناء دائم، وكل ذلك لاغتراره بلذة النظر إليها في لحظة، ولو غصّ بصره في أول الأمر وأستهان بتلك اللذة سلّم جميع عمره، فهكذا وقوع أهل الدنيا في حباتها.

ولا ينبغي أن يقال: إن المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها.

فإن المقبل عليها أيضاً متألم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها، وتألم المعرض يُفضي إلى لذة في الآخرة، وتألم المقبل يُفضي إلى آلام في الآخرة، فليقرأ المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى: ﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾ [النساء: ١٠٤].

(١) الشبق: الكثير الشهوة.

فإذن إنما انسَدَّ طريقُ الشُّكرِ على الخلقِ لجهلهم بضروب النِّعمِ الظَّاهِرَةِ والبَّاطِنَةِ والخاصَّةِ والعامَّةِ .

فإن قيل : فما علاجُ هذه القُلُوبِ الغافلةِ حتى تَشعُرَ بنعمِ الله تعالى فعساها تشكر ؟

فالجواب : أما القلوبُ المُبْصِرةُ فعلاجها التَّأمُلُ فيما رَمَзна إليه من أصنافِ نِعَمِ الله عزَّ وجلَّ العامَّةِ ، وأما القلوبُ البَلِيدَةُ التي لا تَعُدُّ النِّعمَةَ نِعْمَةً إلا إذا نَبَهَ البلاءُ عليها ، فسبيلُ صاحبها أن يَنْظُرَ أبداً إلى من هو دونه ، ويفعل ما كان يفعلُه بعضُ القُدَماءِ ، فإنه كان يَحْضُرُ دارَ المَرَضَى ليشاهد أنواعَ بلاءِ الله عزَّ وجلَّ عليهم ، ثم يتأملُ صحتهُ وسلامتهُ ، فيشعرُ قلبُه بنعمةِ الصِّحةِ عند شعوره ببلاءِ الأمراضِ ، ويُشاهدُ الجُنَّاةَ الذين يُقَتَلون وتُقَطَّعُ أطرافهم ويُعذَّبون ، فيشكرُ الله تعالى على عِصمته من الجِنائياتِ<sup>(١)</sup> ومن تلك العقوباتِ ، ويشكرُ الله تعالى على نِعْمَةِ الأَمْنِ ، ويحضرُ المَقابِرَ فيعلمُ أنَّ أحبَّ الأشياءِ إلى المَوتى أن يردَّوا إلى الدنيا ولو يوماً واحداً ليتدارك مَنْ عَصَى ويزيد في طاعته مَنْ أطاع ، فإن يومَ القيامةِ يومُ التَّعابُنِ ، أما عُبنُ العاصي فظاهراً ، وأما عُبنُ الطَّائِعِ فمِنْ جِهَةِ تَقْصِيرِهِ ، فإذا شاهدَ المَقابِرَ وعلمَ أنَّ أحبَّ الأشياءِ إليهم الاستِدراكُ صَرَفَ بَقِيَةَ العُمُرِ<sup>(٢)</sup> إلى ما يَتِمُّونَ العَودَ لأجله ليعرفَ بذلك نِعْمَةَ الله تعالى في بَقِيَةَ العُمُرِ<sup>(٣)</sup> وفي الإمهالِ ، فيشكرُ بأن يَصْرِفَ العُمُرَ إلى ما خُلِقَ العُمُرُ لأجله ، وهو التزوُّدُ للآخرةِ .

فهذا علاجُ القلوبِ الغافلةِ ، على أنه قد كان بعضُ المُتَيْقِّظِينَ حَفَرَ لِنَفْسِهِ قَبْراً ، وكان يَغْلُ نَفْسَهُ وَيَضْطَجِعُ فِي لِحْدِهِ ويقول : رَبِّ ارْجِعْ . ثم يَقُومُ ويقول : قد أعطيتَ ما سَأَلْتَ فاعْمَلْ قَبْلَ أن تَسْأَلَ الرَّجوعَ فلا تَرُدَّ .

ومما ينبغي أن تُعالجَ به القلوبُ البَعِيدَةُ عن الشُّكرِ أن تُعرفَ أن النِّعمَةَ إذا لم تُشكرْ زالت ، وكان الفُضَيْلُ يقول : عليكم بمداومةِ الشُّكرِ على النِّعمِ ، فقلَّ نِعْمَةٌ زالت عن قومٍ فَعَادَتِ إليهم . وفي الحَدِيثِ : « ما عَظَّمَت نِعْمَةَ الله تعالى على عبدٍ إلا كَثُرَتْ حَوائِجُ النَّاسِ إليه ، فمن تَهاوَنَ بهم عَرَضَ تلكَ النِّعمَةُ للزَّوالِ » . وقد قال اللهُ سبحانه وتعالى : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ [الرعد : ١١] .

(١) تصحفت في (ف) إلى : « الخيانات » .

(٢-٢) سقط من (ف) .

## الركن الثالث

من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط من أحدهما بالآخر

## بيان اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد

لعلك تقول: إن ما ذكرته من النعم إشارة إلى أن الله تعالى له في كل موجود نعمة، وهذا يُشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً، فما معنى الصبر إذن؟ وإن كان البلاء موجوداً، فما معنى الشكر على البلاء؟ وكيف يُشكر على ما يُصبر عليه والصبر يستدعي ألماً والشكر يستدعي فرحاً؟ وهما متضادان، وما معنى ما ذكرتموه من أن الله تعالى في كل ما أوجده نعمة على عباده؟

فاعلم أن البلاء موجود كما أن النعمة موجودة، والقول بإثبات النعمة يوجب القول بإثبات البلاء؛ لأنهما متضادان، ففقد البلاء نعمة، وفقد النعمة بلاء، ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مُطلقة من كل وجه؛ أما في الآخرة فكسعادة العبد بالنزول في جوار الله عز وجل، وأما في الدنيا، فبالإيمان وحسن الخلق وما يعين عليهما، وإلى نعمة مُقيّدة من وجهٍ دون وجه، كالمال الذي يُصلح الدين من وجه ويُفسده من وجهٍ.

وكذلك البلاء ينقسم إلى مُطلق ومُقيّد، أما المُطلق في الآخرة فالبعد من الله تعالى إما مدة وإما أبداً، وأما في الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق، وهي التي تُفضي إلى البلاء المُطلق، وأما المُقيّد فالكفر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التي لا تكون بلاءً في الدين بل في الدنيا، فالشكر المُطلق للنعمة المُطلقة، فأما البلاء المُطلق في الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه؛ لأن الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه، وكذا المعصية، بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصي، إلا أن الكافر لا يعلم أنه كافر، فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بها بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليه، والعاصي يعرف أنه عاصٍ فعليه ترك المعصية، بل كلُّ بلاء يُقدر الإنسان على دفعه لا يؤمر بالصبر عليه، فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتى عظم

ألمه لم يُؤمر بالصبر، بل يُؤمر بإزالة الألم، وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته.

فإذن رجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس ببلاءٍ مُطلقٍ، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه، فلهذا يُتصور أن تجتمع عليه وظيفة الشكر والصبر، فإن الغنى مثلاً يجوز أن يصير سبب هلاك الإنسان حتى يُقصد بسبب ماله فيقتل ويقتل أولاده، والصحة أيضاً كذلك، فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تصير نعمة، ولكن بالإضافة إلى حالة من تكون الخيرة له في الفقر والمَرَض، ولو صحَّ بدنه وكثر ماله لبَطَرَ ولَبَغَى، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ \* أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى﴾ [العلق: ٦-٧] وكذلك الزوجة والولد والقريب، وكل ما ذكرناه في الأقسام الستة عشر من النعم سوى الإيمان وحسن الخلق، فإنها تتصور أن تكون بلاء في حق بعض الناس فتكون أضدادها إذن نعمة في حقهم، إذ قد سبق أن المعرفة كمالٌ ونعمة، فإنها صفة من صفات الله عز وجل، ولكن قد تكون على العبد في بعض الأمور بلاء، ويكون فقدها نعمة، مثاله: جهل الإنسان بأجله، فإنها نعمة عليه إذ لو عرفه تنعص عليه العيش، وطال بذلك غمُّه، وكذلك جهله بما يضره الناس له من معارفه وأقاربه نعمة عليه، إذ لو اطلع عليه لطال ألمه وحقدُه وحسده واشتغاله بالانتقام، وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه، إذ لو عرفه أبغضه وآذاه، وكان ذلك وبالأعلى عليه في الدنيا والآخرة، بل جهله بالخصال المحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه، فإنه ربما يكون ولياً لله تعالى وهو يُضطرُّ إلى إيذائه وإهانته، ولو عرفه فأذاه<sup>(١)</sup> كان إثمه أعظم؛ إذ ليس من آذى نبياً أو ولياً وهو يعرفه كمن آذاه وهو لا يعرفه، ومنها إبهامُ الله عز وجل أمر القيامة، وليلة القدر، وساعة الجمعة، وبعض الكبائر، وكل ذلك نعمة؛ لأن هذا الجهل يُوفِّر الدواعي على الطلب والاجتهاد.

فهذه وجوه نعمة الله تعالى في الجهل فكيف في العلم؟ وقد قلنا: إنه عز وجل له في كل موجودٍ نعمة حتى إن الآلام قد تكون نقمة في حق المتألم وتكون نعمة في حق غيره، كآلم الكفار في النار، فإنه نعمة في حق أهل الجنة، إذ لو لم يُعذب

(١) تحرفت في الأصل إلى: «قدره».

قوم ما عرف المتنعمون قَدَر نعيمهم<sup>(١)</sup>، وإنما يتضاعف فرح أهل الجنة إذا ذكروا ألم أهل النار، ألا ترى أن أهل الدنيا لا يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم إليها من جهة أنها عامة مبدولة، ولا بالنظر إلى زينة السماء وهي أحسن من كل بُستان؛ لأنها عامة، فلذلك لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها.

فإذن، قد صحح بما ذكرناه أن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا وفيه حكمة ونعمة، إما على جميع عباده أو على بعضهم، فإذن في خلق الله تعالى البلاء أيضاً نعمة، إما على المُبتلى، وإما على غير المُبتلى، فإذن كل حالة لا تُوصف بأنها بلاء مُطلق ولا نعمة مُطلقة يجتمع فيها على العبد وظيفتان الصبر والشكر جميعاً.

فإن قيل: فهما متضادان فكيف يجتمعان إذ لا صبر إلا على غم ولا شكر إلا على فرح؟

فاعلم أن الشيء الواحد قد يُغتم به من وجه ويُفرح به من وجه آخر، فيكون الصبر من حيث الاغتمام، والشكر من حيث الفرح، وفي كل فقرٍ ومرضٍ وخوفٍ وبلاءٍ في الدنيا خمسة أشياء ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها:

أحدها: أن كل مصيبة ومرضٍ يُتصور أن يكون أكثر منها، إذ مقدورات الله تعالى لا تنتهى، فلو ضاعفها الله عز وجل وزادها ماذا كان يمنعه؟ فليشكر إذ لم تكن أعظم.

والثاني: أنه كان يُمكن أن تكون في الدين، قال عمر بن الخطاب: ما ابتليتُ ببلاءٍ إلا كان لله تعالى عليّ فيه أربع نعم: إذ لم يكن في ديني، وإذ لم يكن أعظم، وإذ لم أحرَم الرضا به وإذ أرجو الثواب عليه.

وقال رجلٌ لسهل بن عبد الله: دخل اللصُّ بيتي، فأخذ متاعي. فقال: اشكر الله لو دخل الشيطان قلبك فأفسد توحيدك ماذا كنت تصنع؟

فإذن ما من إنسان قد أُصيب ببلاءٍ إلا ولو تأمل سوء أدبه ظاهراً وباطناً لعلم أنه يستحق أكثر مما أصابه، ومن استحق عليك أن يضربك مئة سوط فاقصر على

(١) في (ف): «نعمتهم».

عشرة، فهو مستحق للشكر، ومن استحق أن يقطع يدك فترك إحداهما، فهو مُستحق للشكر، ومن هذا ما روينا عن مالك بن دينار أنه قيل له: ألا تستسقي؟ فقال: أنتم تستبطنون المطر وأنا أستبطن الحجارة. وجزأ بعض الصالحين في طريق فألقي من سطح رماذ فوق علي، فغضب أصحابه، فقال: من استحق النار فصولح على الرماد، فلا ينبغي أن يغضب.

فإن قال قائل: كيف أفرح وأنا أرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتي حتى الكفار لا يصابون بما أصبت به؟

فاعلم أن الكافر قد حُبِيَء له ما هو أكثر، وإنما أمهل ليستكثر من الإثم ويطول عليه العقاب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وأما المعاصي، فمن أين تعلم أن في العالم من هو أعصى منك؟ ورب خاطر بسوء أدب في حق الله تعالى وفي صفاته أعظم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصي بالجوارح، ولذلك قال عز وجل في مثل هذا: ﴿وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾ [النور: ١٥]، ثم لعل ذاك قد أحرقت عقوبته إلى الآخرة وعجلت عقوبتك في الدنيا، فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك؟

وهذا الوجه الثالث في الشكر، وهو أنه ما من عقوبة إلا وقد كان يُتصور أن تؤخر إلى الآخرة، ومصائب الدنيا يُتسلى عنها فتخف، ومصيبة الآخرة دائمة، وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها، ومن عجلت عقوبته في الدنيا لم يعاقب ثانياً، أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا حجاج قال: حدثنا يونس بن أبي إسحاق أخبرني عن أبي إسحاق عن أبي جحيفة عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «من أذنب في الدنيا ذنباً فعوقب به، فالله أعدل من أن يُثني عقوبته على عبده، ومن أذنب في الدنيا ذنباً فستره الله عليه وعفا عنه، فالله أكرم من أن يعود في شيء قد عفا عنه»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه أحمد (٧٧٥)، وابن ماجه (٢٦٠٤)، والترمذي (٢٦٢٦)، والبخاري (٤٨٢).

قال الإمام أحمد رحمه الله: وحدثنا وكيع قال: حدثنا ابن أبي خالد عن أبي بكر بن زهير الثقفي قال: لما نزلت ﴿ليس بأمانكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به﴾ [النساء: ١٢٣] قال أبو بكر: يا رسول الله، إنا لنُجَازَى بكل سوءٍ نعمله؟ فقال رسول الله ﷺ: «يَرَحْمُكَ اللهُ يا أبا بكر أَلَسْتَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ تُصَيِّكُ اللَّأْوَاءَ؟ فهذا ما تُجْزَوْنَ به»<sup>(١)</sup>.

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة قال: «لما نزلت ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً، فقال رسول الله ﷺ: «فَارْبُوا وَسَدِّدُوا فِى كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ حَتَّى التَّكْبَةُ يُنْكَبُهَا أَوْ الشُّوْكَةُ يُشَاكُّهَا»<sup>(٢)</sup>.

الرابع: أنَّ هذه المُصِيبَةُ كانت مَكْتُوبَةٌ عَلَيْهِ فِي أُمِّ الْكِتَابِ، وَلَمْ يَكُنْ بَدُّ مِنْ وَصُولِهَا إِلَيْهِ، وَقَدْ وَصَلَتْ وَاسْتَرَحَ مِنْ بَعْضِهَا أَوْ مِنْ جَمِيعِهَا، فَهَذِهِ نِعْمَةٌ.

والخامس: أن ثوابها أكثر منها، فإن مصائب الدنيا تُرَقُّ إلى الآخرة من وجهين: أحدهما: الوجه الذي به يكون الدواء الكريه نعمة في حق المريض، وكما يكون المنع من أسباب اللعب نعمة في حق الصبي، فإنه لو خُلِّيَ واللَّعْبُ لَكَانَ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ، فَكَانَ يَخْسِرُ جَمِيعَ عُمُرِهِ، فَكَذَلِكَ الْمَالُ وَالْأَهْلُ وَالْأَقَارِبُ وَالْأَعْضَاءُ حَتَّى الْعَيْنِ الَّتِي هِيَ أَعَزُّ الْأَشْيَاءِ قَدْ تَكُونُ سَبَباً لِهَلَاكِهِ، فَالْمُلْجِدَةُ غَدَاً يَتَمَنُونَ أَنْ لَوْ كَانُوا مَجَانِينَ أَوْ صَبِياناً، وَلَمْ يَتَصَرَّفُوا بِعُقُولِهِمْ فِي دِينِ اللَّهِ، فَمَا مِنْ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ يَوْجِدُ مِنَ الْعَبْدِ إِلَّا وَيُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي ذَلِكَ خَيْرَةٌ دِينِيَّةً، فَعَلَيْهِ أَنْ يُحْسِنَ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَقْدِرُ فِي ذَلِكَ الْخَيْرَةَ، وَيَشْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى عَلَيْهِ، فَإِنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ وَاسِعَةٌ، وَهُوَ بِمُصَالِحِ الْعِبَادِ أَعْلَمُ مِنْهُمْ، وَغَدَاً يَشْكُرُهُ الْعِبَادُ عَلَى الْبَلَاءِ إِذَا رَأَوْا ثَوَابَهُ، كَمَا يَشْكُرُ الصَّبِيَّ بَعْدَ الْبُلُوغِ أَسْتَاذَهُ وَأَبَاهُ عَلَى ضَرْبِهِ وَتَأْدِيبِهِ إِذَا رَأَى ثَمْرَةَ مَا اسْتَفَادَهُ مِنَ التَّأْدِيبِ، وَالْبَلَاءُ تَأْدِيبٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلُطْفُهُ بِعِبَادِهِ أَتَمُّ وَأَوْفَى مِنْ عُنَايَةِ الْآبَاءِ بِالْأَوْلَادِ وَقَدْ رَوَى أَنَسُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عَجِبْتُ لِلْمُؤْمِنِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَقْضِي لَهُ قِضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْراً لَهُ». وروينا

(١) أخرجه أحمد (٧١)، واللأواء: الشدة وضيق المعيشة.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٤).

أن رجلاً أتى رسولَ الله ﷺ فقال: أوصني. فقال: «لا تتهم الله في شيءٍ قضاه لك».

والوجه الثاني أن رأس الخطايا المهلكة حبُّ الدنيا ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب عنها، ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاءٍ ومُصيبةٍ يورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأنسه بها، وإذا كثرت المصائب انزعج القلب عن الدنيا ولم يسكن إليها، فصارت سجناً له، فكانت نجاته منها غاية المراد، كخلاص المسجون من السجن.

وأما التَّألم فهو ضروري، وذلك يُضاهي فرحك بمن يحجمك أو يسقيك دواءً نافعاً بلا أجر، فإنك تتألم وتفرح فتصبر على الألم وتشكر على سبب الفرح، فكل بلاء في الأمور الدنيوية مثاله: الدواء الذي يؤلم في الحال وينفع في المآل، بل من دخل دارَ ملكٍ مع النظارة وعلم أنه يخرج منها لا محالة فرأى وجهاً حسناً لا يقدر عليه ولا يخرج معه من الدار كان ذلك بلاء عليه؛ لأنه يورثه الأُنس بمنزلة لا يمكنه المُقام فيه، ثم عليه خطر من أن الملك ربما أطلع عليه فعذبته، فإذا أصابه ما يكره فنفره عن المقام كان ذلك نعمة عليه، والدنيا منزل وقد دخلها الناس وهم خارجون منها، فكل شيء يوجب أنسهم بالمنزل فهو بلاء، وكل ما يُزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها، فهو نعمة، فمن عرف هذا تصوّر منه أن يشكر على البلاء، ومن لم يعرف هذه النعمة في البلاء لم يتصور منه الشكر؛ لأن الشكر يتبع معرفة النعمة، ومن لا يؤمن أن ثواب المُصيبة أكبر منها لم يتصور منه الشكر على المُصيبة، وقد روي أن أعرابياً عزى ابن عباس، فقال:

اصبرْ نكُنْ بك صابرين فإِنما صبرُ الرعية بعد صبر الراس  
خيرٌ من العباس أجرك بعده والله خيرٌ منك للعباس

فقال ابن عباس: ما عزاني أحدٌ أحسن من تعزيتي.

وقد سبق ذكر أنواع البلاء وثواب الصبر عليها

## بيان فضل النعمة على البلاء

لعلك تقول: إن الأخبار الواردة في فضل الصبر تدل على أن البلاء في الدنيا خير من النعم، فهل لنا أن نسأل الله عز وجل البلاء؟

فالجواب: إنه لا وجه لذلك، أخبرنا ابن الحُصَيْن قال: أخبرنا ابن المُذَهِب قال: أخبرنا أبو بكر ابن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا ابن أبي عدي عن حميد عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد صارَ مثلَ الفَرْخِ، فقالَ له رسولُ الله ﷺ: «هل كنتَ تدعو بشيءٍ أو تسأله إياه؟» فقال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنتَ مُعاقبي به في الآخرة فَعَجِّلْهُ لي في الدنيا. فقال رسول الله ﷺ: «سبحانَ الله! لا تُطيقه ولا تَسْتَطيعه، فهلاً قلتَ: اللهم آتِنَا في الدنيا حَسَنَةً وفي الآخرة حَسَنَةً، وقِنَا عذابَ النَّارِ»<sup>(١)</sup>.

قال الإمام أحمد: حدثنا حُسين بن علي عن زائدة عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث، عن العباس قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ، فقلتُ: يا رسولَ الله، عَلَّمَنِي شيئاً أَدْعُو به فقال: «سَلِ اللهَ العَفْوَ والعَافِيَةَ». قال: ثم أتيتُه مرةً أخرى، فقلتُ: يا رسولَ الله، عَلَّمَنِي شيئاً أَدْعُو به. فقال: «يا عباس، يا عَمَّ رسولِ الله، سَلِ اللهَ العَافِيَةَ في الدنيا والآخرة»<sup>(٢)</sup>.

أبنا محمد بن عبد الباقي البزار قال: أخبرنا أبو إسحاق البرمكي قال: أخبرنا أبو محمد بن ماسي قال: أخبرنا أبو مسلم البصري قال: حدثنا القَعْنَبِيُّ قال: أخبرنا سَلْمَةُ بن وَرْدان عن أنس بن مالك أن رجلاً قال: يا نَبِيَّ الله، أيُّ الدُّعاءِ أفضل؟ قال: «سَلِ اللهَ العَفْوَ والعَافِيَةَ في الدنيا والآخرة». ثم أتاه العَدَدُ فقال: يا رسولَ الله، أيُّ الدُّعاءِ أفضل؟ قال: «سَلِ اللهَ العَفْوَ والعَافِيَةَ في الدنيا والآخرة». ثم أتاه اليومَ

(١) أخرجه أحمد (١٢٠٤٩)، ومسلم (٢٦٨٨)، والترمذي (٣٤٨٧)، وابن حبان (٩٣٦) و(٩٤١).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٨٣)، والترمذي (٣٥١٤)، وأبو يعلى (٦٦٩٦).

الثالث فقال: «سَلِ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِذَا أُعْطِيَتِ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَقَدْ أَفْلَحْتَ»<sup>(١)</sup>.

وفي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ أَكْثَرَ دَعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ».

وفيهما مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ، وَدَرْكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ، وَشِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ»<sup>(٢)</sup>.

وقال مُطَرِّفٌ: لِأَنَّ أَعَافَى فَأَشْكُرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُبْتَلَى فَأَصْبِرَ.

فإن قيل: فقد تَمَنَّى أقوامُ البلاءِ، وقال سُمنون<sup>(٣)</sup>: فكيف ما شئتَ فاخترني.

فالجوابُ: أنَّ حَالَ مَنْ تَمَنَّى الْبَلَاءَ يُحْمَلُ عَلَى الشُّكْرِ لِشِدَّةِ الْمَحَبَّةِ، فَلَوْ قَدْ زَايَلَهُ شُكْرُهُ عِلْمٌ أَنَّ مَا قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ كَانَ حَالَهُ لَا حَقِيقَةَ لَهَا، وَقَدْ كَانَ سُمنونُ ابْتَلَى بِعُسْرِ الْبَوْلِ، فَكَانَ يَدُورُ عَلَى الْمَكَاتِبِ وَيَقُولُ لِلصَّبِيَّانِ: ادْعُوا لِعَمَّكُمْ الْكَذَّابِ. فَأَمَّا قَوْلُ أَبِي الدَّرْدَاءِ: ثَلَاثٌ يَكْرَهُنَّ النَّاسُ وَأَحْبُهُنَّ: الْفَقْرُ، وَالْمَرَضُ، وَالْمَوْتُ. فَهَذِهِ مَحَبَّةٌ شَرِيعَةٌ لَا طَبِيعِيَّةٌ، كَمَا يَحِبُّ الْإِنْسَانُ شُرْبَ الدَّوَاءِ الْمُرِّ لِمَا يَرْجُو مِنْ عَاقِبَتِهِ، وَمَنْ تَرَقَّى فِي هَذِهِ الْحَالِ اسْتَشْعَرَ رِضًا مَحْبُوبِهِ فِي الْبَلَاءِ فَغَطَّتْ لَدَّهُ اسْتِشْعَارَ الرِّضَا عَلَى أَلَمِ الْبَلَاءِ، عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْحَالَةَ بَعِيدَةُ الثَّبُوتِ عَلَى مَا بَيْنَنَا.

### بيان الأفضل من الصبر والشكر

اختلفَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ قَوْمٌ: الصَّبْرُ أَفْضَلُ، وَقَالَ آخَرُونَ: الشُّكْرُ أَفْضَلُ. وَقَالَ قَوْمٌ: هُمَا سَيِّئَانِ.

ونحنُ نقولُ: فِي بَيَانِ ذَلِكَ مَقَامَانِ:

المقام الأولُ: البَيَانُ عَلَى سَبِيلِ التَّسَاهُلِ، وَهُوَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى ظَاهِرِ الْأَمْرِ

(١) أخرجه الترمذي (٣٥١٢)، وابن ماجه (٣٨٤٨)، وأحمد (١٢٢٩١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٨٧)، ومسلم (٢٧٠٧).

(٣) هو سُمنون بن حمزة أبو الحسن البغدادي، من أصحاب السري السَّقَطِيِّ.

ولا يطلب بالتفتيش بحقيقته، وهو البيان الذي ينبغي أن يُخاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن ذك الحقائق الغامضة، وهذا الفن من الكلام هو الذي ينبغي أن يعتمد الوعظ، إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام إصلاحهم، والظن<sup>(١)</sup> المشفقة لا ينبغي أن تصلح الطفل بالدجاج السمين والحلاوات، بل باللبن اللطيف إلى أن يحتمل الأطعمة، فنقول: هذا المقام في البيان يأبى البحث والتفصيل، ومقتضاه النظر إلى ظاهر المفهوم من موارد الشرع، وذلك يقتضي تفضيل الصبر، فإن الشكر وإن وردت أخبار في فضله، فإنه إذا أضيف إليه ما ورد في فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر، وقد سبقت الأحاديث في تفضيل الصبر والصابرين، فأما ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر» فهو دليل على الفضيلة في الصبر؛ لأنه ذكر ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر، فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته، ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر، وهو كقوله عليه الصلاة والسلام: «جهاد المرأة حسن التبعل، والجمعة حج المساكين» و«شارب الخمر كعابد وثن» وأبدأ المشبه به ينبغي أن يكون أعلى رتبة، وكذلك قوله: «الصبر نصف الإيمان». فإن كل ما ينقسم نصفين يُسمى أحدهما نصفاً، وإن كان بينهما تفاوت، كما يُقال: الإيمان علم وعمل، فالعمل نصف الإيمان، ولا يدل على أن العمل يساوي العلم، وكل ما ورد في فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر؛ لأن الصبر حال الفقير، والشكر حال الغني فهذا المقام هو الذي يقنع العوام ويكفيهم في الوعظ اللائق بهم والتعريف لما فيه صلاح دينهم.

**المقام الثاني:** هو البيان الذي نقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الأمور بطريق الكشف والإيضاح، فنقول فيه: كل أمرين مُبهمين لا تمكن الموازنة بينهما مع الإبهام ما لم يُكشَف عن حقيقة كل واحد منهما، وكل مكشوف يشتمل على أقسام لا يمكن الموازنة بين الجملة والجملة بل يجب أن تُفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرُجحان والنقصان مع الإجمال، فنقول: قد ذكرنا أن هذه المقامات

(١) الظن: المرأة المرضعة لغير ولدها.

تنتظم من ثلاثة أمور: علوم وأحوال وأعمال، والشُّكر والصَّبْر وسائر المقامات هي كذلك، وهذه الثلاثة إذا وُزِنَ البعضُ منها بالبعض لآخِ للناظر إلى الظواهر أن العلوم تُرادُّ للأحوال، والأحوال تُرادُّ للأعمال، والأعمال هي الأفضل، وأما أرباب البصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك، فإن الأعمال تُرادُّ للأحوال، والأحوال تُرادُّ للعلوم، والأفضل العلم، ثم الأحوال، ثم الأعمال؛ لأن كل مرادٍ لغيره فذلك الغير لا محالة أفضل منه.

وأما آحاد هذه الثلاثة فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أُضيف بعضها إلى بعض، وكذا آحاد المعارف، وأفضل المعارف علوم المكاشفة، وهي أرفع من علوم المعاملة، بل علوم المعاملة دون المعاملة، فإنها تُرادُّ للمُعاملة ففائدتها إصلاح العمل، وإنما فضل العالم بالمعاملة على العباد إذا كان علمه مما يعمُّ نفعه، فيكون بالإضافة إلى علم خاص أفضل، وإلا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر.

فنعول: فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب، وفائدة إصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله في ذاته وصفاته وأفعاله، فأرفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه، وهي الغاية التي تُطلب لذاتها، فإن السعادة تُنال بها، بل هي عين السعادة، ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بأنها عين السعادة، وإنما يشعر بها في الآخرة، فهي المعرفة الحرة التي لا قيد عليها ولا تنقيد بغيرها، وكل ما عداها من المعارف عبيدٌ وخدمٌ بالإضافة إليها، فإنها إنما تُرادُّ لأجلها، ولما كانت مُراداً لأجلها كان تفاوتها بحسب نفعها في الإفضاء إلى معرفة الله تعالى، فإن بعض المعارف يُفضي إلى بعض إما بواسطة وإما بوسائط كثيرة، فكل ما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أقل فهي أفضل.

وأما الأحوال فتعني بها أحوال القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغلها حتى إذا طُهِرَ وصفاً اتضح له حقيقة الحق، فإذا فضائل الأحوال بقدر تأثيرها في إصلاح القلب وتطهيره وإعداده لأن تحصل له علوم المكاشفة وكما أن تصقيلاً<sup>(١)</sup> المرأة يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال للمرأة بعضها أقرب إلى

(١) تحرفت في (ف) إلى: «تفصيل».

الصَّقالَة من بعض، وكذلك أحوال القلب، فالحالة القريبة أو المقربة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لا محالة بسبب القُرب من المقصود، وهكذا ترتبُ الأعمال، فإن تأثيرها في تأكد صفات القلب وجلب الأحوال إليه، وكل عمل فإما أن يجلب إليه حالة مانعة من المكاشفة موجبة ظلمة القلب جاذبة إلى زخارف الدنيا، وإما أن تجلب إليه حالة مهينة للمكان موجبة صفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه، واسم الأول معصية، واسم الثاني الطاعة، والمعاصي من حيث التأثير في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة، وكذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته، فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها، وكذلك تختلف باختلاف الأحوال، وذلك أنا بالقول المطلق ربما نقول: الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة، وأن الحج أفضل من الصدقة، وأن قيام الليل أفضل من غيره، ولكن التحقيق فيه أن العني الذي معه مالٌ وقد غلبه البخل وحبُّ المال إخراج درهم أفضل له من قيام ليالي وصيام أيام؛ لأنَّ الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها، ومنعه الشبع عن صفاء الفكر في علوم المكاشفة، فأراد تصفية القلب بالجوع، فأما هذا المُدبر إن لم تكن حاله هذه الحالة فليس يستضرُّ بشهوة بطنه، ولا هو مشتغل بنوع فكر يمنع الشبع منه، فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره، وهو كالمريض الذي يشكو وجع البطن إذا استعمل دواء الصداع فإنه لا ينتفع به، بل حقه أن ينظر في المهلك الذي استولى عليه، والشحُّ المُطاع من جملة المهلكات، ولا يُزيل صيام مئة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرة، وإنما يزيله إخراج المال، وقد ذكرنا تفصيل هذا في ربع المهلكات فليُنظر فيه.

فإذن باعتبار هذه الأحوال يختلف الأمر، وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب المطلق فيه خطأ، إذ لو قال لنا قائل: الحُبُّ أفضل أم الماء؟ لم يكن فيه جواب حق إلا أن الخبز للجائع أفضل، والماء للعطشان أفضل، فإن اجتمعا، فينظر إلى الأغلب، فإن كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل، وإن تساويا فهما متساويان، وكذا لو قيل: السُّكَّنَجِينُ أفضل أم شرابُ النَّيْلُوفَر<sup>(١)</sup>؟ لم يصحَّ الجواب عنه مُطلقاً

(١) النيلوفر واللينوفر: هو نبات يخرج في البرك والأنهار عند زيادة الماء، والشرابُ المتخذُ منه مرطب نافع للسعال وذات الجنب والصداع.

أصلاً، بلى لو قيل لنا: السَّكَنَجِينِ أَفْضَلُ أَمْ عَدَمُ الصَّفْرَاءِ؟ قلنا: عَدَمُ الصَّفْرَاءِ؛ لأنَّ السَّكَنَجِينِ مرادٌ لغيره، وما يراد لغيره فذلك الغير أفضل منه لا محالة، فإذن في بَدَلِ المَالِ عَمَلٌ وهو الإنفاق ويحصل به حالٌ وهو زَوَالُ البُخْلِ وخُرُوجُ حُبِّ الدُّنْيَا مِنَ القَلْبِ، وَيَتَهَيَأُ القَلْبُ بسبب خُرُوجِ حُبِّ الدُّنْيَا مِنَ القَلْبِ لمعرفة الله عزَّ وجلَّ، وَحُبُّهُ أَفْضَلُ، والأفضل المعرفة، دونها الحال، ودونها العمل.

فإن قيل: فقد حَثَّ الشَّرْعُ عَلَى الأَعْمَالِ<sup>(١)</sup> وبالغ في ذكر فضلها فكيف لا يكون الفعل، وهو الإنفاق، أفضل؟<sup>(٢)</sup>

فاعلم أَنَّ الطَّيِّبَ إِذَا أَتَى عَلَى الدَّوَاءِ لَمْ يَدَلَّ عَلَى أَنَّ الدَّوَاءَ مُرَادٌ لِعَيْنِهِ، وَلَا أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنَ الشِّفَاءِ الحَاصِلِ بِهِ، وَلَكِنِ الأَعْمَالُ عِلَاجٌ لِمَرَضِ القُلُوبِ، وَمَرَضُ القُلُوبِ مِمَّا لَا يُشْعَرُ بِهِ غَالِباً، فَيَقَعُ الحُبُّ عَلَى العَمَلِ لِمَقْصُودِهِ هُوَ شِفَاءُ القَلْبِ، كَمَا قَالَ لَوْلَدُهُ وَفِيهِ تَوَانٍ عَنِ دِرَاسَةِ القُرْآنِ: عَلَّمَ غِلْمَانِي القُرْآنَ وَأَنَا أُعْطِيكَ كَذَا وَكَذَا. وَكَانَ مَقْصُودُ الوَالِدِ تَكَرُّرَ الوَلَدِ لِيُثَبِّتَ مَعَهُ القُرْآنَ لَا العَبِيدَ، فَإِنَّ قَالَ الوَلَدُ: مَا بِأَلِي اسْتُخْدِمْتُ لِأَجْلِ العَبِيدِ وَأَنَا لِأَجْلِ مَنْهُمْ؟ فَتَرَكَ تَعْلِيمَهُمْ حُرْمٌ هُوَ الحِفْظُ لِلقُرْآنِ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي، وَقَدْ انْخَدَعَ بِمِثْلِ هَذَا الخِيَالِ<sup>(٣)</sup> طَائِفَةٌ سَلَكُوا طَرِيقَ الإِبَاحَةِ، وَقَالُوا: إِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ عِبَادَتِنَا وَعَنِ الاسْتِقْرَاضِ مِنَّا لِأَجْلِ المَسَاكِينِ، فَلَا حِظًّا لَنَا فِي إعْطَاءِ المَسَاكِينِ وَلَا للهَ فِي تَعْبُدِنَا. فَهَلَكُوا كَمَا هَلَكَ الصَّبِيُّ.

فاعلم إِذَا أَنَّ الفَقِيرَ الآخِذَ لِصَدَقَتِكَ يَسْتَخْرِجُ مِنْكَ دَاءَ البُخْلِ، كَالْحَجَّامِ يَسْتَخْرِجُ الدَّمَ المُهْلَكَ، فَالْحَجَّامُ خَادِمٌ لَكَ لَا أَنْتَ خَادِمٌ لِلْحَجَّامِ.

والمقصد أن الأعمال مؤثرات في القلب، والقلب بحسب تأثيرها يستعد لقبول الهداية ونور المعرفة، فهذا هو القول الكلبي والقانون الأصلي الذي ينبغي أن يرجع إليه في معرفة فضائل الأعمال والأحوال والمعارف.

فلنرجع الآن إلى خصوص ما نحن فيه من الشكر والصبر، فنقول: في كل واحد

(١-١) سقط من النسخ، واستدرك من الإحياء.

(٢) في (ف): «الحال».

منهما معرفةٌ وحالٌ وعَمَلٌ، فلا يجوز أن تُقَابِلَ المعرفة في أحدهما بالحال أو العمل في الآخر، بل يقابل كل واحد منهما بنظيره حتى يظهر التناسب وبعد التَّنَاسُبِ يَظْهَرُ الفَضْلُ، ومهما قوبلت معرفة الشَّاكِرِ بمعرفة الصَّابِرِ ربما رجعا إلى معرفةٍ واحدةٍ إذ مَعْرِفَةُ الشَّاكِرِ أَنْ يَرَى نِعْمَةَ الْعَيْنِينَ مِثْلًا مِنْ اللَّهِ، ومَعْرِفَةُ الصَّابِرِ أَنْ يَرَى الْعَمَى مِنْ اللَّهِ، وهما مَعْرِفَتَانِ مُتَلَازِمَتَانِ وَمُتَسَاوِيَتَانِ، هذا إن اعتُبرتَا في البلاء والمصائب.

وقد بيَّنَّا أَنَّ الصَّبْرَ قَدْ يَكُونُ عَلَى الطَّاعَةِ وَعَنِ الْمَعْصِيَةِ وَفِيهِمَا يَتَّحِدُ الصَّبْرُ وَالشُّكْرُ؛ لِأَنَّ الصَّبْرَ عَلَى الطَّاعَةِ هُوَ عَيْنُ شُكْرِ الطَّاعَةِ؛ لِأَنَّ الشُّكْرَ يَرْجِعُ إِلَى صَرْفِ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى مَا هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْهَا بِالْحِكْمَةِ، وَالصَّبْرَ يَرْجِعُ إِلَى ثَبَاتِ بَاعِثِ الدِّينِ فِي مُقَابَلَةِ بَاعِثِ الْهَوَى، فَالصَّبْرُ وَالشُّكْرُ فِيهِ اسْمَانِ لِمَسْمَى وَاحِدٍ بِاعْتِبَارَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ، فإِثْبَاتِ بَاعِثِ الدِّينِ فِي مُقَاوِمَةِ بَاعِثِ الْهَوَى يُسَمَّى صَبْرًا بِالإِضَافَةِ إِلَى بَاعِثِ الْهَوَى، وَيُسَمَّى شُكْرًا بِالإِضَافَةِ إِلَى بَاعِثِ الدِّينِ، إِذْ بَاعِثُ الدِّينِ إِنَّمَا خُلِقَ لِهَذِهِ الْحِكْمَةِ، وَهُوَ أَنْ يُصْرَعَ بِهِ بَاعِثُ الشَّهْوَةِ، فَقَدْ صَرَفَهُ إِلَى مَقْصُودِ الْحِكْمَةِ فَهِيَ عِبَارَتَانِ عَنْ مَعْبَرٍ وَاحِدٍ، فَكَيْفَ يُفْضَلُ الشَّيْءُ عَلَى نَفْسِهِ؟

فإِذْنِ مَجَارِي الصَّبْرِ ثَلَاثَةٌ: الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ وَالْبَلَايَا، وَقَدْ ظَهَرَ حُكْمُهَا فِي الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ.

أما البلاء، فهو عبارة عن فقدِ نعمةٍ، والنعمة إما أن تكون تقع ضرورية كالعينين مثلاً، وإما أن تقع في محل الحاجة، كالزيادة على قدر الكفاية من المال، أما العينان فصبر الأعمى عنهما بأن لا يظهر الشكوى ويضمّر الرضا بقضاء الله تعالى ولا يترخّص بسبب العمى في بعض المعاصي، وشكْرُ البصير عليهما من حيث العمل بأمرين: أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية، والآخر: أن يستعملهما في الطاعة، وكل واحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر، فإن الأعمى قد كُفِيَ الصبر عن الصور الجميلة؛ لأنه لا يراها، والبصير إذا وَقَعَ بصره على جميلٍ فصبرَ كان شاكراً لنعمة العينين، فإن أتبع النظر فقد كَفَرَ نعمة العينين، فقد دخل الصبر في شكره، وكذلك إذا استعان بالعينين على الطاعة، فلا بدَّ فيه أيضاً من صبرٍ على الطاعة، ثم قد يشكرها بالنظر إلى عجائب صنع الله عزَّ وجلَّ ليتوصَّلَ به إلى معرفة الله تعالى

فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر، ولولا هذا لكانت رُتبة شُعَيْبٍ فوق رتبة موسى عليهما السلام؛ صبر على فقد البصر، وموسى لم يصبر، ولكن الكمال في أن يُسلب الإنسان أطرافه كلها ويترك كَلْحَمٍ على وَضْمٍ<sup>(١)</sup> وذلك مُحال؛ لأن كل واحد من هذه الأعضاء آلة في الدين فيفوتُ بقواتها ذلك الركن من الدين، وشكرها استعمالها فيما هي آلة فيه من الدين، وذلك لا يكون إلا بصبرٍ.

وأما ما يقع في محل الحاجة، كالزيادة على الكفاية من المال، فإنه إذا لم يؤت إلا قدرَ الضرورة وهو محتاجٌ إلى ما وراءه، ففي الصبر عنه مُجاهدة، وهو جهاد الفقراء، ووجود الزيادة نعمة وشكرها أن تُصرف إلى الخيرات، أو أن لا تُستعمل في المعصية، فإن أُصِفَ الصبر إلى الشكر الذي هو صرفٌ للطاعة فالشكر أفضل؛ لأنه تضمن الصبر أيضاً، وفيه فرحٌ بنعمة الله عز وجل، وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء، وترك صرفه إلى التمتع المباح، وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرِّفه إلى التمتع المباح فالصبر هنا أفضل من الشكر، والفقير الصابر أفضل من الغني المُسبِكِ ماله الصارِفِ له إلى المُباحات، لا من الغني الصارِفِ ماله إلى الخيرات؛ لأن الفقير قد جاهد نفسه وكسر نَهْمَتها وأحسن الصبر على بلاء الله، وهذه الحالة تستدعي قوة، والغني أتبع نَهْمته وأطاع شهوته، ولكنه اقتصر في التمتع على المُباح، وفي المباح مندوحة عن الحرام، لكن لا بد من قوة في الصبر عن الحرام أيضاً، لأن القوة التي يصدر عنها صبر الفقير أعلى وأتم من القوة التي عنها يصدر الاقتصار في التمتع على المُباح، والشرف لتلك القوة التي يدل العمل عليها، فإن الأعمال لا تُراد إلا لأحوال القلب، وتلك القوة حالة القلب تختلف بحسب قوة الإيمان فما دلَّ على زيادة قوة في الإيمان، فهو أفضل لا محالة.

وجميع ما ورد من تفضيل أجر الصبر على أجر<sup>(٢)</sup> الشكر إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص؛ لأن السابق إلى أفهام الناس من النعمة الأموال والغنى بها،

(١) الوضْم: كل ما يوضع عليه اللحم من خشبٍ أو حصيرٍ أو نحو ذلك يوقى به من الأرض.

(٢) في (ف): «أجزاء».

والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان: الحمد لله، ولا يستعين بالنعمة على المعصية، فإذا الصبر الذي يفهمه العامة أفضل من هذا الشكر الذي يفهمونه؛ لأن من صبر على ألم أحسن حالاً ممن باشر التنعيم.

ومتى لاحظت المعاني التي ذكرناها علمت أن لكل واحد من القولين وجهاً في بعض الأحوال، فرب فقير صابر أفضل من غني شاكراً، كما سبق، ورب غني شاكراً أفضل من فقير صابر، وذلك هو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير الذي لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة ويصرف الباقي إلى الخيرات أو يمسكه على اعتقاد أنه خازن للمحتاجين، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها، فإذا صرفه لم يصرفه لطلب جاهٍ وصيتٍ، ولا لتقليدٍ مئة، بل أداء لحق الله سبحانه في تفقد عباده، فهذا أفضل من الصبر.

فإن قيل: فهذا لا يتقل على النفس، والفقر يتقل على الفقير؛ لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذاك يستشعر ألم الصبر، فإن كان متألماً بفراق المال أنجبر ذلك بلدته في القدرة على الإنفاق.

فالجواب: أن الذي ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكمل حالاً ممن ينفقه وهو بخيل به يقهر نفسه على ذلك، وقد ذكرنا تفصيل هذا في كتاب التوبة، وبيننا أن إيلاء النفس ليس مطلوباً لعينه بل لتأديبها، وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد، والكلب المتأدب أكمل من المحتاج إلى التأديب وإن صبر على الضرب.

فإن أردت أكثر الناس فقل: الصبر أفضل، فإنه صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام، وإن أردت التحقيق ففصل، فإن للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهة، ووراءها الرضى وهو مقام وراء الصبر، ووراءه الشكر على البلاء، وهو وراء الرضا، إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح، والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به، وكذلك للشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها ويدخل في جملتها أمور دونها؛ فإن حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر، والاعتراف بأن النعم ابتداءً من الله من غير استحقاق شكر، والعلم بأن الشكر نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر، وحسن التواضع في النعم والتذلل فيها شكر، وشكر

الوسائط شكرٌ لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يَشكر الله من لا يَشكر النَّاس»<sup>(١)</sup>. وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكرٌ، وتلقّي النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكرٌ، فما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا ينحصر، وهي درجات مختلفة، فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر إلا على سبيل إرادة الخُصوص باللفظ العام؟

قال بعضُ السلف: رأيتُ في سَفري شيخاً كبيراً قد طعنَ في السنِّ، فسألته عن حاله، فقال: إني كنتُ في ابتداءِ عُمري أهوى ابنةَ عمِّ لي، وكانت تهواني، فتزوجتها فقلتُ لها ليلةً زفافها: تعالي حتى نُحيي هذه الليلةَ شكرًا لله على جَمعنا. فصَلينا تلكَ اللَّيلةَ ولم يتفرَّغ أحدنا لصاحبه، فلما كانت الليلةُ الثانيةً قلنا مثل ذلك، فصَلينا طولَ اللَّيل، فمِنذُ سَبعين أو ثمانين سنة نحن على تلكَ الحالة كلِّ ليلةٍ أليس كذلك يا فُلانة؟ فقالت العجوز: هو كما قال الشَّيخ. فانظر إلى هذين لو صَبرا على بلاءِ الفُرقةِ أن لو لم يَجمع اللهُ بينهما وانسب صبرَ الفُرقةِ إلى شُكر الوِصالِ على هذا الوجه، فلا يخفى عليك أن هذا الشكر أفضل، فإذن لا وقوفَ على حقائق المُفضَّلَات إلا بتفصيلٍ كما سبق، والله أعلم.

آخر كتاب الصبر والشكر<sup>(٢)</sup>

\* \* \*

(١) أخرجه الترمذي (١٩٥٤).

(٢) هنا نهاية النسخة (ف) وقد ورد في آخرها ما نصه: «وهو آخر الجزء الثالث من كتاب منهاج القاصدين من أصل المصنف وخطّه، ويليه كتاب الرجاء والخوف، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين».

## كتاب الرجاء والخوف

الحمد لله الصانع الحكيم، المانع الكريم، المعاقب الحليم، خلق الآدمي من المُمْتَاثِلَاتِ فإذا هو مُسْتَقِيمٌ، وخَوْفُهُ حَتَّى حَذَرَ الْبَرِيِّ وَالسَّقِيمِ، ثُمَّ أَكَّنَهُ فِي أَرْجَاءِ الرَّجَاءِ فَكَأَنَّهُ فِي حَرِيمٍ، وَقَلَّبَ قَلْبَهُ بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ وَالْمُرَادُ التَّقْوِيمُ ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨].

أحمدته على التَّفْهِيمِ وَالتَّعْلِيمِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى إِنْعَامِهِ الْجَمِّ الْعَمِيمِ، وَأُقِرُّ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَةِ إِقْرَارًا عَنْ دَلِيلِ قَوْمٍ، وَأُصَلِّي عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ أَشْرَفِ ظَاغِنٍ وَخَيْرِ مُقِيمٍ، وَعَلَى أَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الْحَشْرِ الْعَظِيمِ، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [٨٨] إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿ [الشعراء: ٨٩، ٨٨].

أما بعد: فَإِنَّ الرَّجَاءَ وَالْخَوْفَ جَنَاحَانِ بَهُمَا يَطِيرُ الْمُقْرَبُونَ إِلَى كُلِّ مَقَامٍ مَحْمُودٍ، وَمَطَيَّتَانِ بَهُمَا يُقَطَّعُ مِنْ طُرُقِ الْآخِرَةِ كُلِّ عَقَبَةٍ كَوْوُدٍ<sup>(١)</sup>، فَالرَّجَاءُ يَقُودُ إِلَى قُرْبِ الرَّحْمَنِ، وَالْخَوْفُ يَصُدُّ مِنْ عَذَابِ النَّيْرَانِ، فَلَا بَدَّ إِذْنٍ مِنْ بَيَانِ حَقِيقَتِهِمَا وَفَضِيلَتِهِمَا، وَسَبِيلِ التَّوَصُّلِ إِلَى الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا مَعَ تَضَادِهِمَا، وَنَحْنُ نَجْمَعُ ذِكْرَهُمَا فِي كِتَابٍ وَاحِدٍ مُشْتَمِلٍ عَلَى شَطْرَيْنِ: الشَّطْرُ الْأَوَّلُ: فِي الرَّجَاءِ، وَالشَّطْرُ الثَّانِي: فِي الْخَوْفِ.

أما الشطر الأول: فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرجاء، والطريق الذي به يجتلب الرجاء.

(١) كؤود: أي صعبة المرتقى.

## بيان حقيقة الرجاء

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين، وإنما يُسمى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام، فإذا كان عارضاً سريع الزوال سُمي حالاً، كما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب، وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجل<sup>(١)</sup>، وإلى ما هو بينهما كصفرة المرض، وكذلك صفات القلب تنقسم إلى هذه الأقسام، فالذي هو غير ثابت يُسمى حالاً؛ لأنه يحول عن القلب، وهذا جارٍ في كل وصف من أوصاف القلب.

وغرضنا الآن حقيقة الرجاء، والرجاء يتم من علم وحال وعمل، فالعلم سبب يُثمر الحال، والحال يقتضي العمل، وكان الرجاء اسم للحال من جملة الثلاثة وبيانه: أن كل ما يُلاقيك من مكروهٍ ومحبوبٍ ينقسم إلى موجودٍ في الحال، وإلى موجودٍ فيما مضى، وإلى منتظرٍ في الاستقبال، فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سُمي ذكراً، وإن كان ما خطر بقلبك موجوداً في الحال سُمي وجداً أو ذوقاً وإدراكاً، وإنما يسمى وجداً؛ لأنها حالة تجدها من نفسك، فإن كان قد خطر ببالك وجود شيءٍ في الاستقبال وغلب ذلك على قلبك سُمي انتظاراً وتوقعاً، فإن كان المنتظر مكروهاً حصل منه ألمٌ في القلب يُسمى خوفاً وإشفاقاً، وإن كان محبوباً حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذةٌ في القلب وارتياحٌ يسمى ذلك الارتياح رجاءً، فالرجاء هو ارتياح القلب<sup>(٢)</sup> لانتظاره ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد أن يكون له سبب، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه، فاسم الرجاء عليه صادق، وإن كان ذلك انتظاراً مع انخرام أسبابه واضطرابها، فاسم الغرور والحُمق عليه أصدق من اسم الرجاء، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمني أصدق على انتظاره؛ لأنه انتظار من غير سبب.

(١) الوجل: الخوف.

(٢) ليست في الأصل، واستدركت من الإحياء.

وعلى كل حال فلا يُطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يُتردّد فيه، وأما ما يُقطع به فلا، إذ لا يقال: أرجو طلوع الشمس. وقت الطلوع، وأخاف غروبها. وقت الغروب؛ لأن ذلك مقطوع به، بل يقال: أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه.

وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالنبت فيه، والطاعات جارية مجرى تقلاب الأرض وتطهيرها ومجرى حفر الأنهار وسياسة الماء إليها، والقلب المُستهتر<sup>(١)</sup> بالدنيا المُستغرق بها كالأرض السَّبخة التي لا ينمو فيها البذر، ويوم القيامة يوم الحصاد، ولا يحصد أحدٌ إلا ما زرع، ولا ينمو زرعٌ إلا لمن بذر الإيمان وقَلَّمَا ينفع إيمانٌ مع خُبث القلب وسوء أخلاقه كما لا ينمو بذر في الأرض السَّبخة، فينبغي أن يُقاس رجاء العبد المَغفرةَ برجاء صاحب الزرع، فكلُّ من طلب أرضاً طيبة وألقى فيها بذراً جيداً غير عَفِينٍ ولا مُسَوِّسٍ، ثم ساق الماء إليه في أوقات حاجته، ثم نَقَى الأرض من الشوك والحشيش وكل ما يمنع من نبات البذر أو يُفسده، ثم جلس منتظراً من فضل الله دفع الصَّواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته، سُمِّيَ انتظاره رجاءً، وإن بَثَّ البذر في أرضٍ صلبة سَبخة مرتفعة لا يصل إليها الماء، ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً ثم انتظر الحصاد سُمِّيَ انتظاره حُمقاً وغروراً لا رجاءً، وإن بَثَّ البذر في أرضٍ طيبة ولكن لا ماء لها، وأخذ ينتظر مياه الأمطار سُمِّيَ انتظاره تَمَيُّناً لا رجاءً.

فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظارٍ محبوبٍ تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبقَ إلا ما ليس يدخل تحت اختياره، وهو فضلُ الله تعالى بصرفِ القواطع والمُفسدات، فالعبدُ إذا بَثَّ بذرَ الإيمان، وسَقاه ماء الطاعات، وطَهَّرَ القلبَ من شوكِ الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضلِ الله تعالى تَثْبِيته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة المُفضية إلى المَغفرة كان انتظاره رجاءً حقيقياً محموداً في نفسه، باعثاً له على المُواظبة والقيام بمقتضى الإيمان في إتمام أسباب المَغفرة إلى الموت، وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات، أو ترك القلب مشحوناً

(١) المُستهتر بها: المولع المفتون بها.

برذائل الأخلاق، وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة، كان ذلك حُمتً وغروراً، قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سِعْفُ رَبِّنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ [مريم: ٥٩]، وذم القائل: ﴿وَلَمَّا رُذِّدْتُ إِلَى رَبِّي لِأَجْدَنَ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلِبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا علي بن إسحاق، قال: أخبرنا عبد الله (يعني ابن المبارك) (١) قال: أخبرنا أبو بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ» (٢).

فإذن العبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي حقيق بأن ينتظر من فضل الله عز وجل تمام النعمة، وليس ذلك إلا دخول الجنة، وأما العاصي فإنه إذا تاب وتدارك جميع ما فرط من تقصيره، فحقيق أن يرجو قبول التوبة.

فأما قبل التوبة، فإنه إذا كان كارهاً للمعصية تسوءه السيئة وتسره الحسنة، وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهي التوبة، جرى ذلك مجرى السبب الذي قد يفضي إلى التوبة، وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب، ولذلك قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨] والمعنى: أولئك يستحقون أن يرجوا، ولم يرد به تخصيص وجود الرجاء؛ لأن غيرهم أيضاً قد يرجو ذلك فأما من ينهمك فيما يكرهه الله عز وجل، ولا يذم نفسه عليه، ولا يعزم على التوبة والرجوع، فرجاؤه للمغفرة حمتً، كرجاء من بث البذر في أرض سبخة وعزم أن لا يتعاهده بسقي ولا تربية.

(١) ليست في الأصل، واستدركت من مسند أحمد.

(٢) أخرجه أحمد (١٧١٢٣)، والترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وابن المبارك في

قال معروف الكرخي: رجائك لرحمة من لا تطيعه خذلاً وحُمقاً.

وقال يحيى بن مُعاذ: من أعظم الاغترار التَّمادي في الذُّنوب على رجاء العفو من غير نَدَم، وتوَفُّع القُرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النَّار، وطلب دار المُطيعين بالمعاصي، والتَّمني على الله عزَّ وجلَّ مع الإفراط.

فإذا عرفت حقيقة الرَّجاء ومِطْنَتَه، فقد علمت أنها حالة أثمرها العِلْم بجريان أكثر الأسباب، وهذه الحالة تُثمر الاجتهادَ في القيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان، فإن من حَسُن بذره وطابت أرضه وعَزَزَ ماؤه صدقَ رجاءه، فلا يزال يَحْمِلُهُ صدقُ الرجاء على تَفَقُّد الأرض وتَعهدِها وتَنْقِيَتِها من كلِّ ما يُؤذي الزَّرْعَ إلى وَقْتِ الحَصَادِ، وهذا لأن الرَّجاء يُضادُه اليأسُ، واليأسُ يَمْنَعُ من التَّعاهدِ، فمن عرف أن الأرضَ سَبِيخَةٌ، وأن الماءَ مُعَوِزٌ، وأن البذرَ لا يَنْبِتُ تَرَكَ تَفَقُّدَ الأرضِ، ولم يتعب في تعاهدها.

والرجاء محمود لأنه باعثٌ، واليأسُ مذمومٌ لأنه صارفٌ عن العملِ، والخوفُ ليس بضدٌّ للرجاء بل هو رفيقٌ له كما سيأتي، بل هو باعثٌ بطريق الرِّغْبَةِ.

فإذن حال الرجاء يورثُ طولَ المجاهدةِ بالأعمالِ والمواظبةِ على الطاعاتِ كيفما تقلبت الأحوالُ، ومن آثاره التَّلذُّذُ بدوام الإقبالِ على الله تعالى، والتَّنعَمُ بمناجاته، والتَّلطفُ في التَّمَلُّقِ له، فإن هذه الأحوال لا بدَّ أن تَظْهَرُ على كلِّ من يرجو مَلِكاً من الملوكِ أو شخصاً من الأشخاصِ، فكيف لا يَظْهَرُ ذلك في حقِّ الله تعالى، فإن كان ذلك لا يَظْهَرُ فليُستَدَلَّ به على حرمانِ مقامِ الرَّجاءِ والنزولِ في حَضِيضِ العُرُورِ والتَّمْنِي.

فهذا بيانُ حالِ الرَّجاءِ وما أثمره من العِلْمِ وما استثمر منه من العَمَلِ، ويدل على إثماره لهذه الأعمال أن رجلاً سألَ رسولَ الله ﷺ عن علامةِ الله فيمن يُريدُ ومَن لا يُريدُ فقال له: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ» قال: أَصْبَحْتُ أَحِبُّ الحَيْرَ وأهْلَه، وإذا قَدَرْتُ على شيءٍ منه سارَعْتُ إليه، وأيقنْتُ بثوابه، وإذا فاتني منه شيءٌ حَزَنْتُ عليه وحَنَنْتُ إليه. فقال: «هذه علامةُ الله فيمن يُريدُ، ولو أرادك للأُخْرَى هَيَّأَكَ لها ثم لا يُبالي في أيِّ أوديتها هَلَكْتَ».

فهذا بيانُ علامة الخَيْرِ والشَّرِّ، فمن رَجَا أن يكون مُراداً بالخير من غير هذه العلامات فهو مَغرورٌ .

### بيان فضيلة الرَّجاءِ والتَّربُّغِ فيه

اعلم أن العملَ على الرَّجاءِ أعلى منه على الخَوْفِ؛ لأنَّ أقربَ العبادِ إلى الله أحبُّهم له، والحبُّ يَغلبُ الرَّجاءَ، ولهذا حَرَّمَ أصلُ اليأسِ، وفي الصَّحيحين من حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ قال: «قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: أنا عندَ ظنِّ عبدي بي»<sup>(١)</sup>. ورواه واثلة بن الأسقع فزاد فيه: «فليظنَّ ظانُّ ما شاء»<sup>(٢)</sup>.

وفي أفرادِ مسلم من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يُحسِنُ بالله الظنَّ»<sup>(٣)</sup>.

ودخل رسولُ الله ﷺ على رجل وهو في التَّزَع، فقال: «كيف تَجِدُكَ؟» فقال: «أجدني أخافُ ذنوبي وأرجو رحمةَ ربي. فقال رسولُ الله ﷺ: «ما اجتمعَا في قلبِ عبدٍ في هذا المَوطِنِ إلا أعطاه اللهُ ما رَجَا وآمنه مما يَخافُ»<sup>(٤)</sup>.

وأوحى اللهُ تعالى إلى داود: «أحِبَّني وأحَبَّ من يُحِبُّني وحَبِّبني إلى خَلقي». قال: يا رَبِّ، كيف أُحِبُّكَ إلى خَلِقِكَ؟ قال: اذكُرني بالحَسَنِ الجميلِ، واذكر الآثي وإِحساني<sup>(٥)</sup>.

أنبأنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا عبد الواحد بن محمد بن عبد الله الأسلي قال: أخبرنا علي بن أحمد بن عُمر الحَمَامي قال: أخبرنا أبو جعفر بن بُريه قال:

(١) أخرجه البخاري (٦٩٧٠)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٠١٦)، وابن حبان (٦٤١)، والطبراني في الكبير ٢٢/٢٠٩، وفي الأوسط (٤٠٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).

(٤) أخرجه الترمذي (٩٨٣)، وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (٣١) من حديث أنس.

(٥) قال عنه العراقي في المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار: لم أجد له أصلاً، وكأنه من الإسرائيليات.

أخبرنا أبو بكر القُرشي قال: أخبرنا إبراهيم بن راشد قال: أخبرنا أبو ربيعة قال: حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن النبي ﷺ قال: «يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ رَجُلَانِ فَيُعْرَضَانِ عَلَى رَبِّهِمَا، فَيَأْمُرُ بِهِمَا إِلَى النَّارِ، فَيَلْتَفِتُ أَحَدُهُمَا فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، قَدْ كُنْتُ أَرْجُو إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنْهَا أَنْ لَا تُعِيدَنِي فِيهَا. قَالَ: فَيُنَجِّيه اللَّهُ مِنْهَا»<sup>(١)</sup>.

أخبرنا مُحَمَّدَانِ ابْنِ نَاصِرٍ وَابْنِ عَبْدِ الْبَاقِي قَالَا: أَخْبَرَنَا حَمْدُ بْنُ أَحْمَدَ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو نُعَيْمٍ الْحَافِظُ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ قَالَ: أَخْبَرَنَا يَوْسُفُ الصَّفَارِ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ عِيَاشٍ عَنْ أَبِي يَحْيَى الْقَتَاتِ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: يُؤْمَرُ بِالْعَبْدِ إِلَى النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَا كَانَ هَذَا ظَنِّي! فَيَقُولُ: مَا كَانَ ظَنُّكَ؟ فَيَقُولُ: أَنْ تَغْفِرَ لِي. فَيَقُولُ: خَلُّوا سَبِيلَهُ.

### بيان دواء الرجاء والسبب الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب

اعلم أن هذا الدواء يحتاج إليه رجلاان: إما رجلٌ غلبَ عليه اليأسُ فترك العِبادةَ، وإما رجلٌ غلبَ عليه الخَوْفُ وأسرفَ في المُواظبةِ على العِبادةِ حتى أضربَ بنفسه وأهله، وهذان رجلاان مائِلان عن الاعتدالِ إلى طَرَفِي الإفراطِ والتَّفريطِ، فيحتاجان إلى علاجٍ يردُّهما إلى الاعتدالِ.

فأما العاصي المَغرور المُتمني على الله مع الإعراض عن العِبادةِ وافتِحام المعاصي فأدويةُ الرِّجاءِ تَنقِضُ فِي حَقِّهِ سُمُومًا مُهْلِكَةً، وَتَنْزِلُ مِنْزَلَةَ الْعَسَلِ الَّذِي هُوَ شِفَاءٌ لِمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْبَرْدُ، وَهُوَ مُهْلِكٌ لِمَنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الْحَرَارَةُ، بَلِ الْمَغْرُورُ لَا يُسْتَعْمَلُ فِي حَقِّهِ إِلَّا أَدْوِيَةُ الْخَوْفِ وَالْأَسْبَابُ الْمَهِيجَةُ لَهُ، فَلِهَذَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ وَاعِظُ النَّاسِ مُتَلَطِّفًا نَازِرًا إِلَى مَوْقِعِ الْعَلَلِ، مَعَالِجًا كُلَّ عِلَّةٍ بِمَا يُضَادُّهَا لَا بِمَا يَزِيدُ فِيهَا، فَإِنَّ الْمَطْلُوبَ هُوَ الْعَدْلُ وَالْقَصْدُ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَخْلَاقِ كُلِّهَا، فَخَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا، فَإِذَا جَاوَزَ الْوَسْطَ إِلَى أَحَدِ الطَّرْفَيْنِ عَوَلَجَ بِمَا يَرُدُّهُ إِلَى الْوَسْطِ لَا بِمَا يَزِيدُ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (٧٠).

في ميله عن الوسط، وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يُستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء، بل المبالغة في التخويف؛ لأن ذكر أسباب الرجاء يُزديهم بالكُلية، وإنما يذكر الواعظ للعصاة أسباب الرجاء إذا كان مقصوده استمالة القلوب إليه لإصلاح المرضى، وقد قال علي رضي الله عنه: إنما العالم الذي لا يُقنطُ الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم مكر الله.

ونحن نذكر أسباب الرجاء ليُستعمل في حق الآيس، أو فيمن غلب عليه الخوف، والعالم الحاذق يعرف كيف يضع الدواء.

وحال الرجاء يغلبُ بفئتين: أحدهما: الاعتبار، والآخر: استقرار الآيات والأخبار والآثار.

فأما الاعتبار؛ فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه في أصناف النعم من كتاب الشكر حتى إذا علم لطائف الله تعالى لعباده في الدنيا وعجائب حكمه التي راعاها في فطرة الإنسان حتى أعد له في الدنيا كل ما هو ضروري في دوام وجوده، كآلات الغذاء وما هو محتاج إليه، كالأصابع والأظفار، وما هو زينة له، كاستقواس الحاجبين وحُمره الشفتين وغير ذلك مما كان لا يُنتلمُ بفقده غرض مقصود، وإنما كان يفوت به مزية جمال، فاللطف الإلهي لم يقصر عن عباده في أمثال هذه الدقائق، ولم يرض أن يفوتهم الزيادة في الزينة، فكيف يرضى سياقتهم إلى الهلاك المؤبد، ومن لطف في الدنيا يلطف في الآخرة؛ لأن مُدبر الدارين واحد، فهذا مما يقوي أسباب الرجاء.

ومن الاعتبار أيضاً؛ النظر في حكمة الشريعة وسنتها في مصالح الدنيا حتى كان بعض العلماء يرى آية الدين<sup>(١)</sup> من أقوى أسباب الرجاء، فقيل له: وما فيها من الرجاء؟ قال: الدنيا كلها قليل، ورزق الإنسان منها قليل، والدين قليل من رزقه، فانظر كيف أنزل الله عز وجل فيه أطول آية ليهدي عبده إلى طريق الاحتياط في حفظ دينه، فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه؟

(١) يعني الآية التي ذكر فيها الدين وهي الآية ٢٨٢ من سورة البقرة.

الفن الثاني: استقراء الآيات والأخبار الواردة في الرجاء: وذلك كثير، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ [الزمر: ٥٣] وقال تعالى: ﴿وَأَلْمَلِكَةَ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]، وأخبر الله تعالى أن النار أعدّها لأعدائه، وإنما خوّف بها أوليائه فقال: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده﴾ [الزمر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وقال تعالى: ﴿فأنذرتكم ناراً تلتظى \* لا يصلها إلا الأشقى \* الذي كذب وتولى﴾ [الليل: ١٦-١٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَعْفَرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

ومن الأخبار: أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن حمدان قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو سلمة قال: أخبرنا ليث عن يزيد بن الهاد عن عمرو عن أبي سعيد الخدري قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ إبليسَ قال لربِّه عز وجل: بعزَّتِكَ وجلالِكَ لا أبرحُ أغوي بني آدمَ ما دامت الأرواحُ فيهم. فقال له الله: فبعزَّتِي وجلالِي لا أبرحُ أغفِرُ لهم ما استغفروني»<sup>(١)</sup>.

قال الإمام أحمد: وحدثنا عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر عن جعفر الجزري عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو لم تُذنبوا لذهب الله عز وجل بكم، ولجاء بقوم يُذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم»<sup>(٢)</sup>. انفراد بإخراجه مسلم.

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «سَدُّوا وقاربوا، وأبشروا، فإنه لن يُدخل الجنةَ أحداً عمَلَهُ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله عز وجل منه برحمة». وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «يقولُ اللهُ عزَّ

(١) أخرجه أحمد (١١٢٤٤)، والطبراني في الأوسط (٨٧٨٣).

(٢) أخرجه أحمد (٨٠٨٢)، ومسلم (٢٧٤٩) (١١)، وعبد الرزاق في المصنف (٢٠٢٧١)، والطبراني في الدعاء (١٨٠١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧١٠٢).

وجل يوم القيامة: يا آدم، قُمْ فابْعَثْ بَعَثَ النار. فيقول: لَبَّيْكَ وَسَعْدِيكَ، والخير في يَدَيْكَ، يا رب، وما بَعَثَ النار؟ قال: من كل ألفِ تسع مئةٍ وتسعة وتسعين. فحينئذٍ يَشِيبُ المَوْلُودُ، وتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا، وتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وما هُمْ بِسُكَارَى، ولكنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ». فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وَجُوهُهُمْ، وقالوا: يا رسول الله، وأَيْنَا ذَلِكَ الواحد؟ فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تسع مئةٍ وتسعة وتسعون، ومنكم واحد». فقال الناس: اللهُ أكبر. فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «واللَّهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَاللَّهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَاللَّهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرَ النَّاسُ. فقال: «ما أَنْتُمْ يَوْمئِذٍ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي الثَّوْرِ الْأَبْيَضِ»<sup>(١)</sup>.

فانظر كيف جاء بالتخويف، فلما أزعج جاء باللطف، ومتى اطمأنت القلوب إلى الهوى فينبغي أن تُزْعَجَ، وإذا اشتدَّ قَلْبُهَا فينبغي أن تُسَكَّنَ ليعتدل الأمر. وقال ابن مسعود: ليغفرنَّ اللهُ يومَ القيامة مغفرةً لم تخطر على قلبِ بشر.

ويُروى أن مجوسياً استضاف إبراهيم الخليل عليه السلام فلم يُضْفِه، وقال: إن أسلمت ضفتك. فأوحى اللهُ تعالى إليه: يا إبراهيم، منذ سبعين سنةً أُطْعِمَهُ عَلَى كُفْرِهِ. فَسَعَى إِبْرَاهِيمُ خَلْفَهُ فَرَدَّهُ وَأَخْبَرَهُ بِالْحَالِ، فَعَجِبَ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ تَعَالَى، فَاسْلَمَ.

فهذه هي الأسباب التي يُجْتَلَبُ بها روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين، فأما الحمقى المغرورون فلا ينبغي أن يُسْمَعُوا شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، بَلْ يُسْمَعُونَ مَا سَنُورِدُهُ مِنْ أَسْبَابِ الْخَوْفِ، فَإِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ لَا يَصْلِحُ إِلَّا عَلَى الْخَوْفِ، كَعَبْدِ السَّوِّءِ وَالضَّيْبِيِّ الْعَرِمِ الَّذِي لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا بِالْعَصَا.

\* \* \*

(١) أخرجه البخاري (٣١٧٠)، ومسلم (٢٢٢٢).

## الشَّطْرُ الثَّانِي مِنَ الْكِتَابِ فِي الْخَوْفِ

وفيه بيانُ حَقِيقَةِ الْخَوْفِ، وبيانُ درجَاتِ الْخَوْفِ، وبيانُ أَقْسَامِ الْمَخَافِ، وبيانُ فضيلةِ الْخَوْفِ، وبيانُ الْأَفْضَلِ مِنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وبيانُ دَوَاءِ الْخَوْفِ، وبيانُ معنىِ سُوءِ الْخَاتَمَةِ، وبيانُ أحوالِ الْخَائِفِينَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

### بَيَانُ حَقِيقَةِ الْخَوْفِ

اعلم أن الْخَوْفَ عبارة عن تَأَلُّمِ الْقَلْبِ واحتراقِهِ بسببِ تَوَقُّعِ مَكْرُوهِ فِي الْاِسْتِقْبَالِ، وَقَدْ ظَهَرَ هَذَا فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ الرَّجَاءِ.

واعلم أن حَالِ الْخَوْفِ يَنْتَظِمُ مِنْ عِلْمٍ وَحَالٍ وَعَمَلٍ:

أما الْعِلْمُ، فَهُوَ الْعِلْمُ بِالسَّبَبِ الْمُفْضِي إِلَى الْمَكْرُوهِ، وَذَلِكَ كَمَنْ جَنَى عَلَى مَلِكٍ ثُمَّ وَقَعَ فِي يَدِهِ، فَيَخَافُ الْقَتْلَ مِثْلًا وَيَرْجُو الْعَفْوَ، وَلَكِنْ يَكُونُ تَأَلُّمُ قَلْبِهِ بِالْخَوْفِ بِحَسَبِ قُوَّةِ عِلْمِهِ بِالْأَسْبَابِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى قَتْلِهِ، وَتَفَاحُشِ جَنَايَتِهِ وَتَأْثِيرِهَا عِنْدَ الْمَلِكِ، وَكَوْنِ الْمَلِكِ فِي نَفْسِهِ مُنْتَقِمًا، وَكَوْنِهِ مُحْفُوفًا بِمَنْ يَحْتُثُّهُ عَلَى الْاِنْتِقَامِ، خَالِيًا عَنْ مَنْ يَشْفَعُ إِلَيْهِ فِي حَقِّهِ، وَكَانَ هَذَا الْخَائِفَ عَاطِلًا عَنْ كُلِّ وَسِيلَةٍ وَحَسَنَةٍ، فَالْعِلْمُ بِتَظَاهِرِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ سَبَبٌ لِقُوَّةِ الْخَوْفِ وَشِدَّةِ تَأَلُّمِ الْقَلْبِ، وَبِحَسَبِ ضَعْفِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ يَضَعُفُ الْخَوْفُ، وَقَدْ يَكُونُ الْخَوْفُ لَا عَنْ سَبَبِ جَنَايَةٍ قَارَفَهَا الْخَائِفُ، بَلْ عَنْ صِفَةِ الْمَخَوْفِ، كَالَّذِي وَقَعَ فِي مَخَالِبِ سَبْعٍ، فَإِنَّهُ يَخَافُ السَّبْعَ لِصِفَةِ ذَاتِ السَّبْعِ وَهِيَ سَطْوَتُهُ وَحِرْصُهُ عَلَى الْاِفْتِرَاسِ.

فَالْعِلْمُ بِأَسْبَابِ الْمَكْرُوهِ هُوَ السَّبَبُ الْبَاعِثُ عَلَى احْتِرَاقِ الْقَلْبِ وَتَأَلُّمِهِ، وَذَلِكَ الْاِحْتِرَاقُ هُوَ الْخَوْفُ، فَكَذَا الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تَارَةٌ يَكُونُ لِمَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَعْرِفَةِ صِفَاتِهِ، وَأَنَّهُ لَوْ أَهْلَكَ الْعَالَمِينَ لَمْ يُبَالِ، وَلَمْ يَمْنَعَهُ مَانِعٌ، وَتَارَةٌ يَكُونُ لِكثْرَةِ جَنَايَةِ الْعَبْدِ وَمَعَاصِيهِ، وَبِحَسَبِ مَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِ بَعِيْبِ نَفْسِهِ وَبِجَلَالِ اللَّهِ وَاسْتِغْنَائِهِ،

وأنه لا يُسأل عما يفعل تكون قوّة خَوْفه، فأخوف الناس أعرَفُهم بنفسه وبربّه، ولذلك قال ﷺ: «أنا أعرَفُكم بالله وأشدّكم له خَوْفاً». ولذلك قال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وإذا كَمَلت المعرفة أورت الخوف، ففاض أثره من القلب على جميع الجوارح، وعلى الصفات؛ أما في البدن فبالتحول والاصفرار والبكاء والغشي، وقد تنسّق منه المرارة فيفضي إلى الموت، وقد يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل، أو يقوى فيورث القنوط واليأس، وأما في الجوارح فيكفّرها عن المعاصي ويلزمها الطاعات تلافياً لما فرط واستعداداً للمستقبل، ولذلك قيل: ليس الخائف من بكى وعصر عينيه، إنما الخائف من ترك ما يقدر عليه. وقال آخر: مَنْ خاف أذلج.

وأما في الصفات فإنه يجمع الشهوات ويكدر اللذات، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيهِ إذا علم أن فيه سُمّاً، فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدّب الجوارح ويذلّ القلب ويستكين، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، بل يصير مُستوعب الهَمّ بخوفه والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضمّة<sup>(١)</sup> بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذه النفس في الخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله كحال من وقع في مخالِب سُبُع ضارٍ لا يدري أيغفل عنه فيفلت، أو يهجم عليه فيهلك، ولا شغل له إلا ما وقع فيه.

فقوّة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف، وقوّة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى وصفاته، وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال.

وأقلّ درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال أن يمنع من المحظورات، فإن منع ما يتطرق إليه إمكان التّحريم سُمّي ورعاً، فإذا انضم إليه التّجرّد في الخدمة والاشتغال بها عن فُصول العيش، فهو الصّدق.

(١) ضَمَّ يَضُنُّ: بَخَلَ.

## بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف

اعلم أن الخوف محمودٌ، وربما يُظنُّ أن كلَّ ما هو محمود فكلِّما كان أقوى وأكثر كان أحمد، وهو غلط، بل الخوف سوطُ الله تعالى يسوقُ به عباده إلى المُواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى، والأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط، ولكن ذلك لا يدل على أن المُبالغة في الضرب مَحمودة، فكَذلك الخوف له قصورٌ، وله إفراطٌ، وله اعتدالٌ، والمحمود هو الاعتدال، فأما القاصِرُ منه، فهو الذي يجري مجرى الرِّقَّة من النِّساء، يخطر بالبال عند سماع آيةٍ أو سبب هائل يُثيرُ البُكاء، فإذا غابَ ذلك السَّبب عن الحِسِّ رجَعَ القلبُ إلى العَفلة، فهذا خوفٌ قاصِرٌ قليلُ الجدوى ضعيفُ النَّفع، وهو كَالقَضيب الضَّعيف الذي تُضرب به دابةٌ قوية ولا يُؤلمها ألماً مُبرحاً، فلا يسوقها إلى المقصد ولا يصلح لرياضتها، وهكذا خَوف الناس كلهم إلا العارفون والعلماء ولست أعني بالعلماء المُترسِّمين برسوم العلم، فإنهم أبعد الناس عن الخوف، وإنما أعني العلماء بالله وبآياته، وذلك مما قد عَزَّ وجوده.

وأما المُفِط، فهو الذي يقوى ويُجاوز حدَّ الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط، وهو مَذمومٌ أيضاً؛ لأنه يمنع من العمل، والمرادُ من الخوف ما يُراد من السَّوط، وهو الحَمَل على العَمَل، وقد يخرج إلى المَرَض والوَلَد وزوال العقل، وقد يخرج إلى المَوت، وهو كالضَّرب الذي يَقْتل الصَّبي والسَّوط الذي يُمرض الدَّابة أو يهلكها أو يكسر عضواً من أعضائها، وإنما ذكر رسول الله ﷺ أسباب الرِّجاء ليعالج بها صدمة الخوف المُفِط.

فكل ما يُراد لأمرٍ فالمحمود منه ما يُفضي إلى المُراد المقصود منه، وما يقصر عنه أو يُجاوزه فإنه مَذموم.

وفائدة الخوف الحَدْر والورع والتَّقوى والمُجاهدة والفِكر والذِّكر والتَّعبُد وسائر الأسباب التي تُوصل إلى الله تعالى، وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل، فإذا قدح في شيء من ذلك كان مَذموماً.

فإن قيل: فما تقول فيمن مات من الخوف؟

فالجواب: أنه ينال بموته على تلك الحال مرتبة لا ينالها لو مات حينئذ من غير خوف، إلا أنه لو عاش فترقى إلى درجات المعارف والمُعاملة كان أفضل فإن أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله، فكل ما أبطل العمر أو العقل أو الصحة فهو خسران ونقصان.

وأعلى الخوف ما شغل القلب بالله وحده مع بقاء الصحة والعقل، فإن أثر فيهما فهو مرض يجب علاجه، وقد كان سهل بن عبد الله يقول للمريدين المتجوعين: احفظوا عقولكم، فإنه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل.

### بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه

اعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه، والمكروه إنما يكون مكروهاً في ذاته، كالنار، أو لإفضائه إلى ما يُكره، كإفضاء المعاصي إلى العقاب، ولا بد لكل خائف أن يتمثل في نفسه مكروهاً ويقوى انتظاره عنده حتى يحترق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه.

ومقامات الخائفين تختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات، فمنهم من يغلب على قلبه ما يُكره لغيره لا لذاته، كخوف الموت قبل التوبة، أو خوف نقص التوبة، أو ضعف القوة عن الوفاء بحق الله تعالى، أو خوف تبدل رقة القلب بالقساوة، أو خوف الميل عن الاستقامة، أو خوف الاستدراج بالنعم، أو خوف ما لا يدري<sup>(١)</sup> حدوثه في بقية العمر، أو خوف اطلاع الله تعالى على سريرته في حال غفلته عنه، أو خوف خاتمة السوء، وخوف الخاتمة أغلب المخاوف على قلوب المتقين، وأعلى من هذا المقام خوف السابقة؛ لأن الخاتمة فرع السابقة، والالتفات إلى القضاء السابق أوفى من الالتفات إلى ما يظهر عنه، أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن حمدان قال: حدثنا

(١) أيسر في الأصل واستدركت من الإحياء.

عبد الله بن أحمد قال: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا هَاشِمُ بْنُ الْقَاسِمِ قَالَ: حَدَّثَنَا لَيْثٌ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو قَبِيلٍ الْمَعَاوِرِيُّ عَنْ شُفَيِّ الْأَصْبَحِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَفِي يَدِهِ كِتَابَانِ فَقَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا هَذَانِ الْكِتَابَانِ؟» قُلْنَا: لَا. فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَدِهِ الْيُمْنَى: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، بِأَسْمَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، لَا يَزِيدُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقِصُ مِنْهُمْ أَبَدًا» ثُمَّ قَالَ لِلَّذِي فِي يَسَارِهِ: «هَذَا كِتَابُ أَهْلِ النَّارِ، بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، لَا يَزِيدُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقِصُ مِنْهُمْ أَبَدًا»<sup>(١)</sup>.

واعلم أن الخائفين الذين ذكرنا أحوالهم ينقسمون إلى من يخاف من معصيته، وإلى من يخاف الله تعالى لجلاله وصفته، فالأول خوفُ الصالحين، والثاني خوفُ العلماء والصّديقين، وهو ثمرة المعرفة بالله، فإن من عرف الله سبحانه رآه قد رفع محمداً ﷺ من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده، ووضع أبا جهلٍ من غير جناية سبقت منه قبل وجوده، وهذا أجدر بأن يخاف لصفة جلاله، فإن من أطاع إنما أطاع بأن سلط عليه إرادة الطاعة وآتاه القدرة، ومن عصى، فإنما عصى لأنه سلط عليه إرادة المعصية وآتاه القدرة، فهل لإكرام ذلك بتسليط إرادة الطاعة عليه موجبٌ؟ وهل لإهانة الآخر<sup>(٢)</sup> بتسليط دواعي المعصية عليه موجبٌ؟ وكيف يُحال ذلك على العبد<sup>(٣)</sup> وإذا كانت الحوالة ترجع إلى القضاء القديم من غير وسيلة ولا جناية، فالخوف ممن يقضي ما يشاء هو الحزم، ووراء هذا المعنى سرّ القدر الذي لا يجوز إفشاؤه، ولا يمكن تفهيم الخوف منه إلا بمثالٍ لولا إذن الشرع فيه لم نجترىء على ذكره، وهو جاء في الحديث أن الله تعالى أوحى إلى داود: يا داود خفني كما تخافُ السُّبُعَ<sup>(٤)</sup>. فهذا المثال يفهمك حاصل المعنى وإن لم يقف بك على سببه،

(١) أخرجه أحمد (٦٥٦٣)، والترمذي (٢١٤١)، وابن أبي عاصم في السنة (٣٤٨)، والنسائي في الكبرى (١١٤٧٣) بأطول مما هنا.

(٢-٢) سقط من الأصل واستدرك من الإحياء.

(٣) قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار: لم أجد له أصلاً، ولعل المصنف قصد بإيراد أنه من الإسرائيليات. ينظر إتحاف السادة المتقين ١١/٤٠٤.

والحاصل أن السُّبُع يُخاف لِبَطْشِهِ لَا لِجَنَابَةِ تَقَدُّمَتْ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ مَا يَفْعَلُ وَلَا يُبَالِي، فَإِن قَتَلْتَ لَمْ يَرِقْ قَلْبُهُ وَلَمْ يَتَأَلَّمْ، وَإِن تَرَكَ لَمْ يَتَرَكَ شَفَقَةً عَلَيْكَ، بَلْ أَنْتَ عِنْدَهُ أَحْسَنُ مِنْ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَيْكَ حَيًّا كُنْتَ أَوْ مَيِّتًا، بَلْ إِهْلَاكُ أَلْفٍ مِثْلِكَ وَإِهْلَاكُ نَمَلَةٍ عِنْدَهُ سَوَاءٌ، إِذْ لَا يَقْدَحُ ذَلِكَ فِي عَالَمِ سَبْعِيَّتِهِ وَمَا هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ مِنْ قَدْرَتِهِ وَسَطْوَتِهِ، وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى، وَقَدْ قَالَ: «هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبَالِي»<sup>(١)</sup>.

**الطبقة الثانية من الخائفين:** أن يتمثل في أنفسهم ما هو المكروه، مثل سكرات الموت وشِدَّتِهِ، أو سؤال مُنْكَرٍ وَتَكْيِيرٍ، أو عَذَابِ الْقَبْرِ، أو هَيْئَةِ الْمَوْقِفِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْخَوْفِ مِنَ الْمُنَاقَشَةِ، وَمِنَ الْعُبُورِ عَلَى الصَّرَاطِ، أَوْ مِنَ النَّارِ وَأَهْوَالِهَا، أَوْ حِرْمَانِ الْجَنَّةِ، أَوْ الْحِجَابِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكُلِّ هَذِهِ الْأَسْبَابِ مَكْرُوهَةٍ فِي أَنْفُسِهَا مَخُوفَةٌ.

فَاعْلَاهَا رُتْبَةٌ خَوْفِ الْحِجَابِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ خَوْفُ الْعَارِفِينَ، وَمَا قَبْلَ ذَلِكَ خَوْفُ الزَاهِدِينَ وَالْعَابِدِينَ.

وَمَنْ لَمْ تَكْمَلْ مَعْرِفَتَهُ وَلَمْ يَشْعُرْ بِلَذَّةِ الْوَصَالِ وَلَمْ يَأَلَمْ بِالْبُعْدِ وَالْفِرَاقِ، فَهُوَ لَا يَعْرِفُ إِلَّا اللَّذَاتِ الْحِسِّيَّةَ.

## بَيَانُ فَضِيلَةِ الْخَوْفِ وَالتَّرغِيبِ فِيهِ

اعلم أن فضل الخوف يُعرف تارةً بالتأمل والاعتبار، وتارةً بالآيات والأخبار، فأما الاعتبار؛ فسيُله أن فضيلة الشيء بقدر إعانته على طلب السعادة، وهي لقاء الله تعالى والقرب منه، فكلُّ ما أعانَ على ذلك فله فضيلة، وفضيلته بقدر إعانته.

وقد عُلم أنه لا وُصول إلى قُربِ اللَّهِ تَعَالَى ولِقَائِهِ إِلَّا بِتَحْصِيلِ مَحَبَّتِهِ وَالْأُنْسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَلَا تَحْصِيلُ الْمَحَبَّةِ إِلَّا بِالْمَعْرِفَةِ، وَلَا تَحْصِيلُ الْمَعْرِفَةِ إِلَّا بِدَوَامِ الْفِكْرِ،

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٦٠)، وابن حبان (٣٣٨)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٠٤٥)، والحاكم ٣١/١ من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي.

ولا يحصل الأُنْسُ إلا بالمحبة ودوام الذكر، ولا تسهل المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقلاع حُبِّ الدنيا من القلب، ولا ينقلع ذلك إلا بترك شهوات الدنيا، ولا يمكن ترك المُشْتَهيات إلا بالخوف، فالخوف هو النارُ المحرقةُ للشهوات، فإذا فضيلته بقدر ما يُحرق من الشهوة، ويقدر ما يكفُّ عن المعاصي ويحثُّ على الطاعات، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلةٍ وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة، وهي الأعمال الفاضلة التي يُتقربُ بها إلى الله سبحانه؟! .

وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار، فكقوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، وقوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨]، وقوله: ﴿وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] وقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦] وقوله: ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ [الأعلى: ١٠].

وكلُّ ما دلَّ على فضيلة العلم دلَّ على فضيلة الخوف؛ لأن الخوف ثمرة العلم، فمن نظر إلى مُثَمِّر الخوف وجدَّ العلم، أو إلى ثمرته رأى الورع والتقوى، ولا يخفى فضل تلك الأشياء، أنبأنا عبد الوهاب قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا محمد بن علي الخياط قال: أخبرنا أبو عبد الله بن دُوسْت قال: أخبرنا الحسين بن صفوان قال: أخبرنا أبو بكر القرشي قال: حدثنا يحيى بن عبد الحميد قال: حدثنا عبد العزيز بن محمد عن يزيد بن الهاد عن محمد بن إبراهيم التيمي عن أم كلثوم بنت العباس عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أفشعَ جسدُ العبدِ من مخافةِ الله تحاتَّتْ عنه ذنوبه كما يتحاتُّ عن الشجرة اليابسة ورَقُها»<sup>(١)</sup>.

وقد روى أبو كاهل عن النبي ﷺ أنه قال: «لَنْ يَغْضَبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مَخَافَةٌ، وَلَا تَأْكُلُ النَّارُ مِنْهُ هُدْبَةً»<sup>(٢)</sup>.

وقال النبي ﷺ: «قال الله عزَّ وجلَّ: وعزَّتي لا أجمعُ على عبدي خَوْفَيْنِ،

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٣٢٢)، والمنذري في الترغيب والترهيب ١١٧/٤.

(٢) أورده المصنف في الموضوعات ١٦٣/٣.

ولا أجمع له أمين، إن أمني في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإذا خافني في الدنيا أمنتني يوم القيامة»<sup>(١)</sup>.

وقالت عائشة رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ [المؤمنون: ١٠١] هو الرجل يسرق ويُرزني؟ قال: «لا، بل هو الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه»<sup>(٢)</sup>.

وقيل للحسن: ما نضع بمجالسة أقوام يخوفونا حتى تكاد قلوبنا تطير؟ فقال: إنك والله إن تصحب قوماً يخوفونك حتى يدركك أمنٌ خيرٌ لك من أن تصحب قوماً يؤمنونك حتى يدركك الخوف.

وقال الداراني: كل قلب ليس فيه مخافة، فهو قلب خرب.

وقد قال عز وجل: ﴿فَلَا يَأْمُنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]،

وفي هذا ثناء على الخوف؛ لأنه ضد الأمن، وكل ما ورد في فضيلة البكاء من خشية الله عز وجل دليل على فضل الخشية؛ لأن البكاء ثمرة الخشية، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «سبعة يُظلمهم الله في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله - منهم - رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»<sup>(٣)</sup>.

أخبرنا الكروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر العوزجي قالا: أخبرنا الجراحي قال: حدثنا المحبوبي قال: حدثنا الترمذي قال: حدثنا هناد قال: حدثنا ابن المبارك عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي عن محمد بن عبد الرحمن عن عيسى بن طلحة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم»<sup>(٤)</sup>. قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ١/٣٩٥، والمنذري في الترغيب والترهيب ٤/٣١.

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٢٦٣) و(٢٥٧٠٥)، والترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، والطبري في التفسير ١٧/٧٠، والحاكم ٢/٣٩٣، والسيوطي في الدر المنثور ١٠/٥٩٩.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٠) و(١٤٢٣) و(٦٤٧٩)، ومسلم (١٠٣١) (٩١).

(٤) أخرجه الترمذي (١٦٣٣) و(٢٣١١)، وأحمد (١٠٥٦٠)، وابن المبارك في الجهاد (٣٠) وهناد في الزهد (٤٦٥).

وروى ابنُ عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ؛ عَيْنٌ بَكَتْ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»<sup>(١)</sup>.

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «كُلُّ عَيْنٍ بَاكِية يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا عَيْنٌ غَضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ سَهَرَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ يَخْرُجُ مِنْهَا مِثْلُ رَأْسِ الذُّبَابِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ».

وروى أبو أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قَطْرَتَيْنِ؛ قَطْرَةٌ دَمَعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَقَطْرَةٌ دَمٍ يُهْرَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، ابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكُوا، فَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ يَبْكُونَ حَتَّى تَصِيرَ الدُّمُوعُ فِي وُجُوهِهِمْ جَدَاوِلَ، فَتَنْفَدُ الدُّمُوعُ، فَتَفْرَحُ الْجَفُونَ، حَتَّى لَوْ أَنَّ السَّفْنَ أُجْرِيَتْ فِيهَا لَجَرَّتْ».

وقال عبدُ الله بن عمرو بن العاص<sup>(٢)</sup>: «لَأَنَّ أَدْمَعَ دَمْعَةً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِأَلْفِ دِينَارٍ».

وقال كعب: «لَأَنَّ أَبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ حَتَّى تَسِيلَ دُمُوعِي عَلَى وَجْهِتِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِجَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ».

وقال الحسن: «لَوْ بَكَى عَبْدٌ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ لَرُجِمَ مِنْ حَوْلِهِ، وَلَوْ كَانُوا عِشْرِينَ أَلْفًا».

وقال خالد بن معدان: «إِنَّ الدَّمْعَةَ لَتُطْفِئُ الْبُحُورَ مِنَ النَّيِّرَانِ، فَإِنْ سَأَلْتُ عَلَى خَدِّ بَاكِيةَا لَمْ يَرِ ذَلِكَ الْوَجْهَ النَّارَ».

وقال مالك بن دينار: «الْبُكَاءُ عَلَى الْخَطِيئَةِ يَحِطُّ الذُّنُوبَ كَمَا تَحِطُّ الرِّيحُ الْوَرِقَ الْيَابِسَ».

وقال محمد بن علي بن الحسين: «مَا اغْرَوْرَقَتْ عَيْنٌ بِمَائِهَا إِلَّا حُرِّمَ وَجْهٌ صَاحِبِهَا عَلَى النَّارِ، فَإِنْ سَأَلْتُ عَلَى الْحَدَّيْنِ لَمْ يَرْهَقْ وَجْهَهُ قَتْرٌ وَلَا ذَلَّةٌ، وَمَا مِنْ

(١) أخرجه الترمذي (١٦٣٩)، والحاكم ٩٢/٢.

(٢) في الإحياء: عبد الله بن عمر.

شيءٍ إلا له جزاء إلا الدِّمعة، فإنَّ الله يُكفِّرُ بها بُحورَ الخطايا.

وكان عونُ بن عبد الله إذا بكى يمسح وجهه بدموعه، فإذا سُئِلَ عن ذلك، قال: بلغني أنَّه لا تُصيبُ دُموع الإنسانِ مكاناً من جسده إلا حرَّم اللهُ عزَّ وجلَّ ذلك المكان على النَّارِ.

## بيان الأفضل من غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما

اعلم أن قولَ القائل: أيما أفضل الخوف أو الرجاء؟ كقوله: أيما أفضل الخبز أو الماء؟

وجوابه: أن يُقال: الخبزُ أفضلُ للجائع، والماءُ أفضلُ للعطشان، فإن اجتمعَا نُظِرَ إلى الأغلب، فإن استويا فهما متساويان، وهذا لأنَّ كل ما يُراد لمقصودٍ فضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه، والخوف والرجاء دواءان تُداوى بهما القلوب، فَفضلهما بحسب الداء الموجود، وإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله، فالخوف أفضل، وإن كان اليأسُ والقنوط، فالرجاء أفضل وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية، فالخوف أفضل، ويجوز أن يُقال: مُطلقاً الخوفُ أفضل، كما يُقال: الخبز أفضل من السَّكَنْجَبِين؛ لأنَّ الخبز يُعالجُ به مرضُ الجوع، والسَّكَنْجَبِين يُعالجُ به مرضُ الصَّفراء، ومرضُ الجوع أغلبُ وأكثر، فالحاجةُ إلى الخبز أكثر. فالخوف أفضل بهذا الاعتبار؛ لأنَّ المعاصي والاعتزاز على الخلق أغلب، وإن نُظِرَ إلى موضع الخوف والرجاء، فالرجاء أفضل؛ لأنه يستقي من بحر الرَّحمة والخوف يستقي من بحر العُصَب، ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضي اللُّطف والرَّحمة كانت المحبة عليه أغلب، وليس وراء المحبة مقام، وأما الخوف فمُسْتَنده الالتفات إلى الصِّفات التي تقتضي العنف، فلا تُمازجُه المحبة مُمازجتها للرجاء.

وعلى الجملة فما يُراد لغيره ينبغي أن يُستعمل فيه لفظُ الأصلح لا لفظُ الأفضل، فيقال: الخوف أفضل لأكثر الخلق من الرجاء لأجل غلبة المعاصي، وأما المُتقي فالأفضلُ عنده اعتدالُ الخوف والرجاء، ولذلك قيل: لو وُزِنَ رجاءُ المؤمن وخوفه لاعتدلا.

قال بعضُ السَّلَفِ<sup>(١)</sup>: لو نُودِيَ: ليدخل الجنة كلُّ الناس إلا رجل واحد. لخشيته أن أكون ذلك الرجل، ولو نُودِيَ: ليدخل النار كلُّ الناس إلا رجل واحد. لرجوت أن أكون ذلك الرجل. وهذا ينبغي أن يكون مختصاً بالمؤمن المتقي، فأما العاصي فإنه إذا ظنَّ أنَّه الرجلُ المُستثنى من دخول النار كان ذلك دليلاً على اغتراره.

فإن قيل: كيف اعتدلاً في قلب المؤمن والمؤمن على قَدَمِ التَّقوى، فينبغي أن يكون رَجَاؤُهُ أقوى؟

فالجواب: أن المؤمن غير متيقن من صحة عمله، فمثله كمثل من بذر بذراً لم يُجرب جنسه في أرض غريبة، والبذر الإيمان، وشروط صحته دقيقة، والأرض القلب، وخفايا خبثه وصفائه من الشرك الخفي والتَّفاق وخبايا الأخلاق فيه غامضة، والصواعقُ أهوالُ سَكَراتِ المَوْتِ، وهناك تَضطرب العَقائد وكل هذا يُوجب غلبة الخوف، فإن كان الإنسان ثابت الجنان بأمر المعرفة استوى خوفه ورجاؤه، وأما أن يغلب فلا، وكيف لا يخاف المؤمن وهذا عمر بن الخطاب يسأل حذيفة: هل أنا من المنافقين؟ وإنما خاف عمر أن يلبس حاله عليه ويستر عيبه عنه.

فالخوف المحمود هو الذي يحثُّ على العمل ويُزعج القلب عن الركون إلى الدنيا، فإذا نزل الموت فالأصلح الرجاء؛ لأن الخوف كالتسوط الباعث على العمل، وليس عند الموت عمل، فلا يستفيد الخائف حينئذ إلا تقطيع نياط قلبه، وأما الرجاء حينئذ فإنه يقوي قلبه، ويحبب إليه ربه، ولا ينبغي لأحد أن يفارق الدنيا إلا محباً لله تعالى، ليكون محباً للقائه، وقد قال سليمان التيمي لابنه عند موته: حدّثني بالرخص لعلّي ألقى الله تعالى وأنا حسن الظنّ به.

### بيان الدّواء الذي به يُستجلبُ حالُ الخوف

اعلم أن ما ذكرناه في دواء الصّبر وشرحناه في كتاب الصّبر والشكر هو كاف في هذا الغرض؛ لأن الصّبر لا يمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء، فأول مقامات الدّين اليقين الذي هو عبارة عن قوة الإيمان بالله وباليوم الآخر والجنة والنار، وهذا

(١) ذكر في الإحياء أنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

اليقينُ بالضرورة يُهَيِّجُ الخَوْفَ من النار والرجاء للجنة، والخوف والرجاء يُقَوِّيان على الصبر، فإنَّ الجنةَ قد حُفَّتْ بالمَكَارِهِ، ولا يُصْبِرُ على تَحْمَلِهَا إلا بقوة الرجاء، والنار قد حُفَّتْ بالشَّهَوَاتِ، ولا يُصْبِرُ على قَمْعِهَا إلا بقوة الخَوْفِ، ولذلك قال علي رضي الله عنه: من اشتاقَ إلى الجنةِ سَلا عن الشَّهَوَاتِ، ومَن أشفقَ من النار رَجِعَ عن المُحْرَمَاتِ.

ثم يؤدي مقامُ الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المُجاهدة والتَّجَرُّدِ لِذِكْرِ اللَّهِ والفِكرِ فيه على الدَّوامِ، ويؤدي دوامُ الذِّكْرِ إلى الأُنْسِ، ودوامُ الفِكرِ إلى كمالِ المَعْرِفَةِ، ويؤدي كمالِ المَعْرِفَةِ والأُنْسِ إلى المحبة، ويتبعها مقام الرِّضَا والتَّوَكُّلِ وسائر المقامات، فهذا هو الترتيبُ في سلوكِ منازل الدين، فليس بعدَ أصل اليقين مقامَ سوى الخوف والرجاء، ولا بعدهما مقامَ سوى الصَّبْرِ والمجاهدة والتَّجَرُّدِ لله ظاهراً وباطناً، ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق إلا الهداية والمَعْرِفَةِ، ولا مقام بعد المَعْرِفَةِ إلا المحبة والأُنْسِ، ومن ضرورة المحبة الرضا.

واعلم أن الخَوْفَ يحصل بطريقتين مختلفتين، أحدهما أعلى من الآخر، ومثاله: أن الصبي إذا كان في بيتٍ فدخل عليه سَبُعٌ أو حَيَّةٌ فربما لم يَحْفَ، وربما مدَّ يده إلى الحَيَّةِ ليأخذها ويلعب بها، ولكن إذا كانَ معه أبوه فهرب من الحَيَّةِ وخافها هرب الصَّبِيِّ وخافَ موافقةً لأبيه، فخوف الأبِ عن معرفة، وخوف الوالد عن تقليد؛ لأنه قد علم أن أباه لا يخاف إلا مما يُخاف منه.

فإذا عرفتَ هذا فاعلم أن الخوفَ من الله تعالى على مقامين:

أحدهما: الخوف من عذابه، وهذا خوف عامة الخَلْقِ، وهو حاصل الإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية، وضعف هذا الخوف بسبب ضعف الإيمان أو قوة الغفلة، وإزالة الغفلة تحصيل بالتذكير والفكر في عذاب الآخرة، ويزيدُ بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم، فإن فاتت المشاهدة فالسَّماع لأخبارهم لا يخلو من تأثير.

والثاني: الخوف منه في ذاته، وهذا خوف العلماء العارفين من صفاته ما يقتضي

الهيبة والخوف والحذر، فقد أطلعوا على سرِّ قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، فهم يخافون البعد والحجاب عنه ويرجون القرب منه، قال ذو الثون: خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لجي، فهذا خوف العلماء.

ولعامة الناس حظ من هذه الخشية، ولكنه بمجرد التقليد يُضاهي خوف الصبي من الحية تقليداً لأبيه، وذلك لا يستند إلى بصيرة، فلذلك يضعف ويزول على قُرب، حتى إن الصبي ربما يرى المعزَّم يُقدِّم على أخذ الحية فينظر إليها فيغتر به، فيتجرأ على أخذها تقليداً له، بينما احترز من أخذها تقليداً لأبيه.

والعقائد التقليدية ضعيفة في الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكدة لها على الدوام، وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات واجتناب المعاصي مدة طويلة على الاستمرار.

فإذن من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله خافه بالضرورة، فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه، بل يخاف بالضرورة شاء أم أبى، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: خفني كما تخاف السبع الضاري. ولا حيلة في جلب الخوف من السبع الضاري إلا معرفة السبع ومعرفة الوقوع في مخالفه، فلا يحتاج إلى حيلة سواه، فمن عرف الله عرف أنه يفعل ما يشاء ولا يبالي، ويحكم ما يريد، ولا يخاف قرب الملائكة من غير وسيلة سابقة وأبعد إبليس من غير جريمة سالفه، بل صفته ما ترجمه قوله تعالى: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي»<sup>(٢)</sup>.

وإن خطر ببالك أنه لا يُعاقب إلا على معصية، ولا يُثيب إلا على طاعة، فتأمل كيف يمدُّ المُطيع بأسباب الطاعة حتى يطيع، فإنه متى خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعاً، وإن كان أبعد لأنه عصاه، فلم حركه إلى

(١) تقدم قبل قليل.

(٢) تقدم من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي قبل قليل.

المعصية ؟ هل ذلك بمعصية سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية ؟ أو يقف على أول لا علة له من جهة العبد بل قضى عليه في القدم ؟ وعن هذا المعنى عبّر ﷺ في حديث التقاء آدم وموسى فقال آدم : « فلم تلومني ؟ على أمرٍ قدره الله عليّ قبل أن يخلقني ؟ فحجّ آدم موسى »<sup>(١)</sup>.

فمن عرف السبب في هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية، فهو من خصوص العارفين المطلعين على سرّ القدرة، ومن سمع هذا فأمن به وصدّق بمجرد السماع، فهو من عموم المؤمنين، ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف فإن كل أحدٍ واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف في محالب السبع إلا أن السبع قد يخلي فريسته وقد يهلكها بالاتفاق، فأما إذا أضيف ذلك إلى علم الله تعالى لم يجز أن يُسمى اتفاقاً، لكنه خلق للجنة أهلاً يسوقهم القدر المتفرع من القضاء القديم الجزم إليها بأسبابها التي سُخروا لها شاؤوا أم أبوا، وكذلك أهل النار، فمن رأى نفسه في تيار بحر القدر تتلاطم به أمواجه غلبه الخوف ضرورة، فهذه مخاوف العارفين بسرّ القدر، فأما من قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار، فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الآثار والأخبار، فيطالع أحوال الخائفين وأقوالهم، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين، فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى؛ لأنهم الأنبياء والعلماء والأولياء، وأما الآمنون فهم الفراعنة الجهلة الأغبياء، وقد أخبرنا عبد الأول أخبرنا الداودي قال: أخبرنا السرخسي قال: أخبرنا الفربري قال: حدّثنا البخاري قال: حدّثنا أبو اليمان قال: حدّثنا شعيب عن الزهري قال: حدّثني حارّجة بن زيد الأنصاري أنّ أم العلاء - امرأة من نسائهم - قد بايعت النبي ﷺ أخبرته أنه اقتسم المهاجرون قرعة، قالت: فطار لنا عثمان بن مظعون، فاشتكى فمرّضناه حتى إذا توفى وجعلناه في ثيابه دخل علينا رسول الله ﷺ فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال لي النبي ﷺ: «وما يدريك أنّ الله أكرمك؟» فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله. قال رسول الله ﷺ: «أما عثمان فقد جاءه والله اليقين، والله إنّي

(١) أخرجه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢) (١٣)، وأحمد (٧٣٨٧).

لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعلُ بي» قالت: فوالله لا أُرَكِّي أحداً بعده أبداً، وأحزني ذلك، قالت: فمئْتُ فأرَيْتُ لعثمان عَيْناً تجري، فجنْتُ إلى رسولِ الله ﷺ فأخبرته فقال: «ذاك عمله». انفرد بإخراجه البخاري<sup>(١)</sup>.

أخبرنا ابن الحُصَيْن قال: أخبرنا ابن المُذْهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا وكيع قال: حدثني طلحة بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله عن عَمَّتِهِ عائِشة بنتِ طلحة عن عائِشة أمِّ المؤمنين قالت: دُعِيَ النَّبِيُّ ﷺ إلى جنازةِ غُلامٍ من الأنصار فقلتُ: يا رسولَ الله، طوبى لهذا عُصفورٍ من عَصافير الجِنَّةِ لم يُدرِك الشَّرَّ ولم يَعْمَلْهُ. قال: «أَوْ غيرَ ذلك، يا عائِشة، إنَّ الله عزَّ وجلَّ خلقَ للجِنَّةِ أهلاً، خلقها لهم وهم في أَصْلابِ آبائهم، وخلقَ للنارِ أهلاً خلقها لهم وهم في أَصْلابِ آبائهم»<sup>(٢)</sup> انفرد بإخراجه مسلم، وفي لفظ حديث مسلم: «خلقهم لها» في المَوْضِعَيْن<sup>(٣)</sup>.

وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم ورسولُ الله ﷺ يقول: «شَيَّبَتْنِي هُوْدٌ وَأَخَوَاتُهَا»، الحاقَّة، والواقعة، وعمَّ يتساءلون، وهل أتاك حديث الغاشية، قال العلماء: لعلَّ ذلك لما فيهنَّ من التَّخْوِيفِ والوَعِيدِ، كقوله تعالى: ﴿أَلَا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُوْدٍ﴾ [هود: ٦٠] ﴿أَلَا بَعْدًا لِنَمُوْدٍ﴾ [هود: ٦٨]، وفي الحاقَّة: ﴿فَأَمَّا نَمُوْدٌ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقَّة: ٦٥] وفي الواقعة: ﴿لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة: ٢]، ومعناه: جَفَّ القلم بما هو كائنٌ، وتمت السابقة خافضة لأقوام كانوا مرفوعين في الدنيا، ورافعة لآخرين كانوا مخفوضين في الدنيا، وكذلك باقي السُّور، وإن كان القرآن كله يشتمل على مخاوف، وإن من أعجب ما ظاهره الرجاء وهو شديد التَّخْوِيفِ قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، فإنه علَّق المغفرة على أربعة شروط يبعد تصحيحها، ومن

(١) أخرجه البخاري (١٢٤٣) و(٢٦٨٧) و(٣٩٢٩) و(٧٠٠٣) و(٧٠١٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤١٣٢) و(٢٥٧٤٢)، ومسلم (٢٦٦٢)، وأبو داود (٤٧١٣)، وابن حبان (٦١٧٣)، وعبد الرزاق في المصنف (٢٠٠٩٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٦٢) (٣١)، وابن ماجه (٨٢).

المُخَوِّفَاتِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص: ٦٧]، وقوله: ﴿لَيْسَتِ الْأَصْدِيقِينَ عَنِ صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨]، وقوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظُلُمَةٌ﴾ [هود: ١٠٢]، وقوله: ﴿وَإِنْ مَنَعَكَ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل﴾ .. الآية [الفرقان: ٢٣]، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨٧]، وقوله: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾ [العصر: ٢١]، ثم ذكر بعدها أربعة شروطٍ بها يقع الخلاصُ من الخُسرانِ، ومن عَرَفَ قُصُورَ معرفته عن الإحاطة بكنهه الأمور عَظُمَ خَوْفُهُ لَا مَحَالَةَ .

والطامةُ الكبرى ارتباط أمركَ بمشيئة من لا يُبالي بهلاكك، فكم قد أهلكَ قبلكَ مثلك، عَذَّبهم في الدنيا بأنواع الآلام والأمراض، وأمراض قلوبهم بالكفر والنفاق، ثم خَلَدهم في العذاب على الدوام، ثم قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، ومعلومٌ أنه لو كان الأمرُ مُستأنفاً لامتدَّت الأطماع في التَّخيل، فأما ما حُقَّ في القدم فإنه لا يمكن تدارُكُه، فليس إلا التَّسليم، وإنما يُتَلَمَّحُ خَفِيُّ السَّابِقَةِ مِنْ جَلِيِّ الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح، فمن يُسِّرَتْ له أسبابُ الشَّرِّ وَجِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أسبابِ الخَيْرِ فكأنه رأى السَّابِقَةَ بِالشَّرِّ، وكذلك من كانت حاله بالضدِّ، فكأنه رأى السَّابِقَةَ بِالخَيْرِ، ولكن لو كان الدَّوامُ موثوقاً<sup>(١)</sup> به، وإنما خَوْفُ التَّغْيِيرِ يَزِيدُ نَارَ الخوفِ استِعَاراً، وكيف يُؤَمِّنُ التَّغْيِيرُ وقلوبُ المؤمنين بين أصبعين [من أصابع الرحمن]<sup>(٢)</sup> والقلب أشدَّ تقلباً من القدر إذا استجمعت غَلِياناً، وقد قال مُقَلَّبُ القلوب: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج: ٢٨]، فأجهلُ الناس من أَمِنَهُ وهو يناديه بالتحذير من الأمن، وكان الشُّبْلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يُشَدُّ:

أظَلَّتْ عَلَيْنَا مِنْكَ يَوْمًا سَحَابَةٌ أَضَاءَتْ لَنَا بَرَقًا وَأَبْطَأَ رَشَاشُهَا

(١) في الأصل: «موقوفة»، والمثبت من الإحياء.

(٢) زيادة من الإحياء يتم بها المعنى.

فلا غَيْمُهَا يَجْلُو فَيَأْسُ طامِعٌ ولا غَيْثُهَا يَأْتِي فَتَرَوِي عِطَاشُهَا  
ولولا أن الله تعالى لطف بعارفيه فروح قلوبهم بروح الرجاء لا احترقت من نار  
الخوف، فأَسباب الرجاء رحمة من الله لهم، وأسباب العفلة رحمة للعوام من جهة  
أنه لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب، وقد كان أبو الدرداء يحلف  
بالله ما أحدٌ آمنَ على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه.

وقد أخبرنا محمد بن عبد الباقي قال: أخبرنا حمد بن أحمد قال: أخبرنا أبو  
نعيم الحافظ قال: أخبرنا أبو محمد بن حيان قال: حدثنا محمد بن أحمد بن يزيد  
قال: حدثنا عبد الرحمن بن عمر رُستته، قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي قال:  
مات سُفيان الثوري عندي فلما اشتد به<sup>(١)</sup> جعل يبكي فقال به رجل: يا أبا عبد الله  
أراك كثير الذنوب. فرفع شيئاً من الأرض فقال: والله لذنوبي أهونُ عندي من ذا،  
إني أخاف أن أسلب الإيمان قبل أن أموت.

وكان سهلٌ يقول: المریدُ يخاف أن يُبتلى بالمعاصي والعارف يخاف أن يُبتلى  
بالكفر.

ويروى أن نبياً من الأنبياء شكى إلى الله تعالى الجوع والعري، فأوحى الله عزَّ  
وجلَّ إليه: عبدي، أما رضيت أن عصمت قلبك أن تكفر بي حتى تسألني الدنيا؟  
فأخذ التراب فوضعه على رأسه، وقال: بلى، قد رضيت يا رب، فاعصمني من  
الكفر.

فإذا كانَ هذا خوفُ العارفين من سوء الخاتمة مع رُسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم،  
فكيف لا يخاف ذلك الضعفاء؟

ولسوء الخاتمة أسبابٌ تتقدم على الموت، مثل: البدعة، والنفاق، والكبر،  
وجملة من الصفات المذمومة على ما سيأتي بيانه، ولذلك اشتد خوف السلف من  
النفاق، فقال بعضهم: لو أعلمُ أنني بريءٌ من النفاق كان أحب إلي مما طلعت عليه

(١) أي اشتد به النزاع.

الشمس . ولم يريدوا بذلك نفاق العقائد، إنما أرادوا نفاق الأعمال المراد بما أخبرنا به أبو بكر المزوني وأبو عبد الله البار وأبو الحسن الموحّد وأبو سعد الزوزني وأبو منصور القرّاز وبدر الشّخي، قالوا: أخبرنا أبو جعفر بن المسلمة قال: أخبرنا عبّيد الله بن عبد الرحمن الزّهري قال: أخبرنا جعفر الفريّابي قال: حدثنا قُتَيْبَة قال: حدثنا إسماعيل بن جعفر عن أبي سهيل نافع بن مالك عن أبيه عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُوتِيَ خَانَ» أخرجاه في الصّحيحين<sup>(١)</sup>. وفي حديث مسلم: «وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم»<sup>(٢)</sup>.

وأخبرنا محمد بن ناصر قال: أخبرنا جعفر بن أحمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التّميمي قال: أخبرنا أبو بكر القطيعي قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يحيى بن آدم قال: حدثنا محمد بن خالد الضّبّي عن محمد بن سعيد الأنصاري عن أبي الدرداء قال: استعبدوا بالله من خُشوع النّفاق. قيل: وما خُشوع النّفاق؟ قال: أن يكون الجسدُ خاشعاً والقلب ليس بخاشع<sup>(٣)</sup>.

أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يحيى بن إسحاق قال: حدثنا مهدي قال: حدثني غيلان بن جرير عن أنس بن مالك قال: إنكم لتعملون أعمالاً لهي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا نعدّها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات. انفرد بإخراجه البخاري<sup>(٤)</sup>.

وإذا كان الأمر على ما ذكرنا فالخوف لازم لكل مؤمن

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

(٢) أخرجه مسلم (٥٩) (١١٠).

(٣) أخرجه أحمد في الزهد: ١٧٦.

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٩٢)، وأحمد (١٢٦٠٤) وأبو يعلى (٤٢٠٧) و(٤٣١٤).

## بيان معنى سوء الخاتمة

سوء الخاتمة على رُبتين، إحداهما أعظم من الأخرى .

فأما الرتبة العظيمة الهائلة فهي أن يَغلبَ على القلب عند سَكَرات الموت وظهور أهواله: إِمَّا الشُّكُّ، وإِما الجُحود فُتُقَبَضُ الروح في حَالَةٍ غَلَبَةِ الجُحودِ أو الشُّكِّ، فيكون ما غلب على القلب من ذلك حجاباً بينه وبين الله تعالى أبداً، وذلك يفتضي البُعدَ الدائم والعذابَ الخالد .

والثانية: دونها، وهو أن يتسَخَّطَ الأقدار ويتكَلَّمُ بالاعتراضِ، أو يجورَ في وصيَّته أو يموتَ مُصرّاً على ذنبٍ من الذنوب، فقد سمعتُ بعضُ من كان في النَّزَعِ يقول: رَبِّي يَظْلِمُنِي. وفي حديث أبي اليسر عن النَّبِيِّ ﷺ أنه كان يدعو: «اللهم إني أعودُ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت»<sup>(١)</sup>. قال أبو سُلَيْمان الخطابي: وذلك أن يَسْتُولِي الشَّيْطَانُ على الإنسان حينئذ فيُضِلُّه، ويحول بينه وبين التَّوْبَةِ ويمنعه الخروجَ من مَظْلَمَةٍ، أو يُؤَيِّسه من رحمة الله، ويُكْرَهُ إليه الموت فلا يَرْضَى بقضاء الله، وقد روي أن الشَّيْطَان لا يكون في حالٍ أشدَّ على ابن آدم من حال الموت، يقول لأعوانه: دونكم هذا، فإنه إن فاتكم اليومَ لم تلحقوه.

وإذا ثبت تعلق الصفات المحمودة أو المذمومة بالقلب عند الموت، فإنها لا تتغير، إذ لا تصرَّف في القلوب إلا بأعمال الجوارح، وقد بطلت الجوارح بالموت، فبطلت الأعمال، ولا مطمع في الرجوع إلى الدنيا للتدارك، فالترابُ يأكلُ جميعَ الجوارح ثم تُعاد الأجزاء للأبدان، وتُعاد إليها الروح التي هي محلّ الإيمان على ما خرجت عليه، وقد كانت من وقت الموت إلى البعث إِمَّا في حَواصِلِ طَيْرٍ خُضِرٍ، وإِما على حالٍ تُضادُّ هذه، وقد أخبرنا هِبَةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو أحمد قال: حدثنا سُفيان عن الأعمش عن أبي سُفيان

(١) أخرجه أبو داود (١٥٥٢)، والنسائي ٢٨٢/٨.

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ». انفراداً بإخراجه مسلم<sup>(١)</sup>.

فإن قيل: فما السبب الذي يُفضي إلى سوء الخاتمة؟

فالجواب: أنه لا يمكن إحصاء ذلك على التفصيل، ولكن يمكن الإشارة إلى مجاميعه.

أما الختم على الشك والجحود، فسببه البدعة، ومعناها: أن يعتقد في ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله خلاف الحق، إما تقليداً، أو برأيه الفاسد، فإذا انكشف الغطاء عند الموت بان له بطلان ما اعتقده، فيظن أن جميع ما اعتقده هكذا لا أصل له، فلا يُفرق بين اعتقاد صحيح واعتقاد فاسد، فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سبباً لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكه فيها، فإن اتفق زهوق روحه في هذه الحالة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء، وخرجت روحه على الشرك، ودخل في جملة المرادين بقوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤]، وقوله: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِن لَّدُنَّا مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

ومن اعتقد في الله سبحانه وفي صفاته اعتقاداً مجملاً على طريقة السلف من غير بحث ولا تنقيح<sup>(٢)</sup>، كما فعل المتكلمون، فهو بمعزل من هذا الخطر.

وأما الختم على المعاصي، فسببه ضعف الإيمان في الأصل، وذلك يورث الانهماك على المعاصي، وهي مُطفئة لنور الإيمان على ضعفه، وإذا ضعف الإيمان ضعف حب الله، فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب ضعفاً، لاستشعاره فراق الدنيا ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بإنكار ما قَدَّرَ عليه من الموت، وكرهة ذلك من حيث أنه من الله، فيخشى أن يثور في باطنه بغض الله بدل الحب، كما أن الذي يُحب ولده حباً ضعيفاً إذا أخذ ولده أمواله التي هي أحب إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضاً، فإن اتفق زهوق نفسه في تلك اللحظة

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٨)، وأحمد (١٤٥٤٣) و(١٤٩٤١).

(٢) التنقيح: التفتيش والبحث الشديد.

التي خطرت فيها هذه الخطرة، فقد حُتم له بالسوء.

والسبب الذي يُقضي إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حُبِّ الدنيا، والركون إليها، والفرح بأسبابها، مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حُبِّ الله، فمن وجد في قلبه حُبَّ الله أغلب من حب الدنيا، فهو أبعد من هذا الخطر، فكل من مات على محبة الله تعالى قُدِمَ به قُدوم العبد المحسن المُشتاق إلى مولاه، فلا يَخْفَى ما يَلْقَاهُ من الفرح والسُرور بمجرد القُدوم، فضلاً عما يستحقه من الإكرام، ومن فارقه الروح في حالٍ قد خطر فيه بباله الإنكار على الله تعالى في فعله، أو كان مصراً على مخالفتِهِ قَدِمَ على الله تعالى قُدوم الآبِقِ إذا قُدِمَ به قَهراً، فلا يَخْفَى ما يستحقه من النكال.

ومن أراد طريقَ السلامة تَزَحَّجَ عن أسباب الهلاك، على أن العلم بتقليلِ القلوب وتغيير الأحوال يُقلِّلُ قلوب الخائفين، ومعلومٌ أن من وَقَّتْ سَفِينَتَهُ فِي لُجَّةِ البحر، وعصفت عليها الرياح، واختلفت الأمواج، كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك، وقلب المؤمن أشدَّ اضطراباً من السفينة، وأمواجُ الخواطر والفتنِ أعظمُ التّطاماً من أمواج البحر، أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يزيد قال: أخبرنا أبو عَسان محمد بن مُطَرِّف عن أبي حازم عن سهل بن سَعْد قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لِيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّهُ لَيَمُنُّ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّهُ لَيَمُنُّ بِأَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ». أخرجاه في الصحيحين<sup>(١)</sup>.

أخبرنا ابنُ ناصر قال: أخبرنا جَعْفَرُ بن أحمد قال: أخبرنا أبو علي التَّمِيمِي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني سُرَيْج قال: حدثنا عَنَبَسَةُ بن عبد الواحد عن مالك بن مَعْوَل أن عبد العزيز بن رُفَيْع قال: إذا عُرِجَ بِرُوحِ الْمُؤْمِنِ إِلَى السَّمَاءِ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: سُبْحَانَ الَّذِي نَجَّى هَذَا الْعَبْدَ مِنَ الشَّيْطَانِ، يَا وَيْحَهُ كَيْفَ نَجَا!؟

(١) أخرجَه البخاري (٦٤٩٣) و(٦٦٠٧) ومسلم (١١٢) وفي الصفحة ٢٠٤٢، وأحمد (٢٢٨١٣) و(٢٢٨٣٥).

## فصل

وإذا قد بانَ لك معنى سوء الخاتمة فاحذر أسبابها. وأعد ما يصلح لها، وإياك والتسوية بالاستعداد، فإن العمر قصير، وكل نفس من أنفاسك خاتمتك، إذ يمكن أن تُختطف فيه رُوحك، ولا تنم إلا على الطهارتين؛ الباطنة والظاهرة، فإن الإنسان لا ينام إلا على ما كان فيه في اليقظة، فاعمرْ يقظتك يصلح نومك، وكذلك لا يموت الإنسان إلا على ما عاش عليه، ولا يُحشر إلا على ما مات عليه.

واعلم أنه لا يتيسر لك الاستعداد بما يصلح إلا أن تقنع بما يُقيمك وترفض طلب الفضول، وسنوردُ عليك من أخبار الخائفين ما نرجو أن يُزيل بعض القساوة من قلبك، فإنك محقق أن الأنبياء والأولياء كانوا أعدل منك وأعلم، فتفكر في اشتداد خوفهم وكثرة بُكائهم لعلك تتبه لنفسك.

## ذكرُ خوف الملائكة

قال الله عزَّ وجلَّ في صفتهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، وقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال: «الله ملائكة ترعد فرائصهم من مخافته، ما منهم ملك تقطر دمعته من عينه إلا وقعت ملكاً قائماً يُسبح، والله ملائكة سجود منذ خلق الله السماوات والأرض لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، وصفوف لم ينصرفوا عن مصافهم ولا ينصرفون إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة تجلَّى لهم ربهم فينظروا إليه تعالى فقالوا: سبحانك، ما عبدناك كما ينبغي لك»<sup>(١)</sup>.

وبلغنا أن من حملة العرش من يسيل من عينيه الأنهار، فإذا رفع رأسه قال: سبحانك، ما تُخشى حقَّ خشيتك. فيقول: لكن الذين يحلفون باسمي كاذبين لا يعلمون ذلك.

أخبرنا عبد الوهاب قال: أخبرنا ابن عبد الجبار قال: أخبرنا أبو الحسن المَلطي

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٩١٤) وأبو الشيخ في العظمة (٥١٥)، والسيوطي في

قال: أخبرنا ابن دوست قال: حدثنا ابن سنان قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثني محمد بن عبد المجيد التميمي قال: حدثنا عبد الله بن عمرو عن عبد الكريم الجزري عن عطاء بن أبي رباح عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلة أسري بي رأيت جبريل كالحلجس<sup>(١)</sup> البالي ملقئ من خشية الله»<sup>(٢)</sup>.

قال القرشي: وحدثني إبراهيم بن سعيد قال: حدثنا عمار بن عثمان قال: حدثنا جعفر بن سليمان قال: سمعت أبا عمران الجوني قال: بلغنا أن جبرائيل جاء إلى النبي ﷺ وهو يبكي، فقال: «ما يبكيك؟ قال: ما جفت لي عين منذ خلق الله جهنم مخافة أن أعصيه فيلقيني فيها».

قال القرشي: وحدثني محمد بن يحيى بن أبي حاتم قال: حدثنا الحسين بن محمد قال: حدثنا دويد العابد عن ضرار عن يزيد الرفاشي قال: إن الله ملائكة حول العرش تجري أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة، يمشون<sup>(٣)</sup> كأنما تنفضهم الريح من خشية الله عز وجل فيقول لهم الرب تعالى: يا ملائكتي، ما الذي يخيفكم وأنتم عندي؟ فيقولون: يا رب لو أن أهل الأرض أطلعوا من عزتك وعظمتك على ما أطلعنا عليه ما أساغوا طعاماً ولا شرباً، ولا انبسطوا في فرشهم، ولخرجوا إلى الصحارى يخورون كما تخور البقر.

وقد روينا أن النبي ﷺ قال لجبريل عليه السلام: «ما لي أرى ميكائيل لا يضحك؟» فقال: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار، وما جفت لي عين منذ خلقت النار، وما جفت لي عين منذ خلقت جهنم مخافة أن أعصي الله فيجعلني فيها، ولعلي أكون في علم الله على غير الحال التي أنا عليها، ولعلي أبتلى بما ابتلي به إبليس أو هاروت وماروت.

وقال محمد بن المنكدر: لما خلقت النار طارت أفئدة الملائكة من أماكنها، فلما خلق آدم عادت.

(١) الحلجس: كل ما ولي ظهر الدابة تحت الرجل، وما يُسقط في البيت من حصير.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٦٧٩)، وابن أبي عاصم في السنة (٦٢١).

(٣) يمشون: يتحركون ويضطربون.

وروي أنه لما ظهر من إبليس ما ظهر طفق جبريل وميكائيل يبكيان، فأوحى الله تعالى إليهما: ما هذا البكاء؟ قالا: يا رب ما نأمن مكرك. فقال تعالى: هكذا فكونا.

## ذكر خوف الأنبياء المتندمين

### ذكر خوف آدم وبكائه

أخبرنا عبد الوهاب الحافظ قال: أخبرنا أبو الحسين بن عبد الجبار قال: أخبرنا علي بن أحمد بن علي المَلْطِي قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن يوسف قال: أخبرنا ابن صفوان قال: حدثنا أبو بكر القُرْشِي قال: حَدَّثَنِي محمد بن الحسين قال: حدثنا يحيى ابن أبي بكير عن الهَيَّاج بن بسْطام عن أَشْرَس عن وَهْب قال: بَكَى آدَمُ على الجنة ثلاثَ مئةِ عامٍ، وما رفع رأسه إلى السماء بعد ما أصابَ الخَطِيئَةَ.

قال عليُّ ابن أبي طلحة: لما نزل آدمُ إلى الأرض فأحدثَ وجد ريحه، فمكث يبكي سبعين سنةً.

وقال فَتْح المَوْصِلي: قال آدمُ لابنه: بُنَيَّ، كُنَّا نَسْلًا من نَسْلِ السَّمَاءِ فَسَاءَنا عَدَوْنَا إبليسَ بِالخَطِيئَةِ، فليس لنا راحة إلا الهم والعناء حتى يُرَدَّ إلى الدار التي أخرجنا منها.

قال ابن سابط: لو عُدِلَ بُكاءُ أهلِ الأرضِ ببُكاءِ آدمَ حين أهبَطَ من الجنة، كان بكاء آدم أكثر.

### ذكر خوف نوح وبكائه

قال وَهْب بن الوَرد: لما عاتبَ اللهُ تعالى نوحاً في ابنه، فقال: ﴿إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] بكى ثلاث مئةِ عامٍ حتى صارَ تحتَ عينيه أمثال الجداول من البكاء.

### ذكر خوف إبراهيم الخليل

قال أبو الدرداء: كان يُسمع أزيزُ صررِ إبراهيمَ خليلِ الرحمنِ إذا قامَ في الصلاة من بُعدٍ خوفاً من ربه عزَّ وجلَّ.

## ذكر خوف داود وبكائه

أخبرنا محمد بن ناصر قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن حمدان قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثنا إسماعيل أبو معمر الهذلي قال: حدثنا عبد الله بن إدريس عن ليث عن مجاهد قال: لما أصاب داود الخطيئة خرَّ لله ساجداً أربعين يوماً حتى نبت من دموع عينيه من البقل ما غطى رأسه، ثم نادى: رَبِّ، قَرِحَ الْجَبِينُ، وَجَمَدَتِ الْعَيْنُ، وداود لم يرجع إليه في خطيئته شيء. فَنُودِيَ: أَجَائِعُ فَتُطَعَمَ؟ أم مَرِيضٌ فَتُشْفَى؟ أم مَظْلُومٌ فَيُنْتَصَرَ لَكَ؟ فنحِبَ نحباً هاج كل شيء نبت، فعند ذلك غفر له.

قال: وكان يُوتَى بالإناء فيشرب، فيذكر خطيئته فينتحب النَّحْبَةَ فتكاد مفاصله يزول بعضها من بعض، فما يشرب إلا بعض الإناء حتى يملأه من دموعه. وكان يُقال: دَمْعَةُ دَاوُدَ تَعْدِلُ دَمْعَةَ الْخَلَائِقِ، ودَمْعَةُ آدَمَ تَعْدِلُ دَمْعَةَ دَاوُدَ ودَمْعَةُ الْخَلَائِقِ<sup>(١)</sup>.

قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثني أبي قال: أخبرنا سيَّار قال: حدثنا جعفر قال: سمعتُ ثابتاً يقول: اتَّخَذَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَبْعَ حَشَايَا<sup>(٢)</sup> مِنْ شَعْرِ وَحَشَاهُنَّ مِنَ الرَّمَادِ، ثُمَّ بَكَى حَتَّى أَنْفَذَهَا دَمَوْعاً، وَلَمْ يَشْرَبْ دَاوُدَ شَرَاباً إِلَّا مَمْرُوجاً بدموع عينيه.

أخبرنا عبد الوهاب قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن علي الخياط قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن يوسف قال: أخبرنا الحسن بن صفوان قال: أخبرنا أبو بكر القرشي قال: حدثني محمد بن الحسين قال: حدثنا عمرو بن جرير البجلي قال: حدثنا عامر بن يساف عن يحيى بن أبي كثير قال: بلغنا أنه كان إذا كان يوم نوح داود عليه السلام مكث قبل ذلك سبعة لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، ولا يقرب النساء، فإذا كان قبل ذلك بيوم

(١) أخرجه الطبري في التفسير ٢٣/١٥٠، وابن أبي شيبة ٦/٣٤٢، وهنَّاد في الزهد ١/٢٦٢.

(٢) الحشايا: جمع حشية، وهي الفراش المحشو.

أخرج له منبر إلى البرية، وأمر سليمان منادياً يستقري البلاد وما حولها من الغياض والآكام والجبال والبراري والديارات والصوامع والبيع، فينادي فيها: ألا من أحب أن يستمع نوح داود فليأت. قال: فتأتي الوحوش والسباع والهوام والطيور والرهبان والعداري من خدورها، ويجتمع الناس لذلك اليوم، ويأتي داود حتى يرقى المنبر، ويحيط به بنو إسرائيل، وسليمان قائم على رأسه، فيأخذ ﷺ في الثناء على ربه فيصجون، ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار، فيموت طائفة من الناس، وطائفة من السباع، وطائفة من الرهبان والعداري، ثم يأخذ في ذكر الموت وأحوال القيامة، ويأخذ في النياحة فيموت طائفة من هؤلاء وطائفة من هؤلاء، ومن كل صنف طائفة، فلما رأى سليمان ما قد كثر من الموت في كل فرقة منهم نادى: يا أبتاه، قد مزقت المستمعين كل ممزق، وماتت طائفة من بني إسرائيل ومن الوحوش والهوام والسباع والرهبان. قال: فيقطع النياحة ويأخذ في الدعاء، فبينما هو كذلك ناداه بعض عباد بني إسرائيل: يا داود، عجلت بطلب الجزاء على ربك قال: فخر داود عند ذلك مغشياً عليه، فأتي سليمان بسرير فحمله عليه، ثم أمر منادياً ينادي: من كان له مع داود حميم أو قرية فليأت بسرير فليحمه، فإن الذين كانوا مع داود قد قتلهم ذكر الجنة والنار. قال: فإن كانت المرأة لتأتي بالسرير فتقف على أبيها أو على أخيها أو قريبها وهو ميت، فإذا أفاق داود من غشيته نادى: يا سليمان، ما فعلت عباد بني إسرائيل؟ ما فعل فلان وفلان؟ فيعد نقرأ من عباد بني إسرائيل فيقول سليمان: يا أبتاه، ماتوا عن آخرهم. فيقوم داود فيضع يده على رأسه ثم يدخل بيت عبادته ويعلق عليه بابه، ثم ينادي: أعضبان أنت على آل داود، إله داود، لو بصرت به أن يموت خوفاً منك، أو فرقا من نارك، أو شوقاً إلى جنتك ولقائك، إله داود، إله داود. فلا يزال كذلك سبعاً، فيأتي سليمان ومعه قرص من شعير، فيقول: يا أبتاه، تقو على ما تريد. فيأكل من ذلك القرص ثم يخرج إلى بني إسرائيل.

وقال يزيد الرقاشي: كان داود إذا أراد أن يعظ الناس خرج بهم إلى الصحراء، فخرج بهم ذات يوم في ثلاثين ألفاً من الناس وعظهم فمات منهم عشرون ألفاً، فرجع في عشرة آلاف من الناس مرضى والهيين، وكان له جاريتان اتخذهما، فكان

إذا جاءه الخوف سقط واضطرب فعدتا على صدره ورجليه مخافة أن تفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت .

وقال سعيد بن أبي هلال: كان داود عليه السلام يعودُه الناس لا يظنون إلا أنه مريض، وما به إلا شدة الفرق من الله عز وجل .

### ذِكْرُ خَوْفِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

كان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت يَقَطُرُ جِلْدُهُ دَمًا .

وروى عطاء بن السائب عن ميسرة قال: إذا قال الله تعالى لعيسى: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ [المائدة: ١١٦] أَرَعِدَ كُلُّ مَفْصِلٍ مِنْهُ حَتَّى يَقَعَ مَخَافَةً أَنْ يَكُونَ قَدْ قَالَه، وما قال: إني لم أقل . ولكنه قال: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ [المائدة: ١١٦] .

### ذِكْرُ خَوْفِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَا وَبِكَائِهِ

أخبرنا عبد الوهاب قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا علي بن أحمد المَلْطِي قال: أخبرنا أبو عبيد الله بن دُوسْت قال: أخبرنا ابن صَفْوَان قال: حدثنا عبد الله ابن محمد قال: حدثني محمد بن الحسين قال: حدثني حاتم بن عبد الله عن ابن لهيعة عن أبي قَبِيل عن عبد الله بن عمرو قال: كان يحيى بن زكريا يبكي حتى بدت أضراسه فقالت له أمه: لو أذنت لي يا بُني حتى أَتَّخِذَ لَكَ قِطْعَتَيْنِ مِنْ لُبُودٍ<sup>(١)</sup> فأواري بهما أضراسك عن الناظرين . فقال: أنتِ وذاك يا أمّاه . فاتَّخَذتْ له قِطْعَتَيْنِ مِنْ لُبُودٍ فَأَلْصَقْتَهُمَا بِخَدَيْهِ، فكان يبكي فَتَنْتَقِعُ بِالدَّمِوعِ، فَتَجِيءُ أُمُّهُ فَتَعَصْرُهُمَا، فَتَسِيلُ دَمُوعُهُ عَلَى ذِرَاعَيْهَا .

وقال وهيب: قال له أبوه زكريا: إنما سألتُ الله ولداً تَقَرَّ به عيني . قال: يا أبتِ، إِنَّ جَبْرِيْلَ أَخْبَرَنِي أَنَّ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ مَفَازَةٌ لَا يَقْطُهَا إِلَّا كُلُّ بَكَاءٍ .

(١) اللبود: جمع لبد، وهو ما تلبّد من الصوف أو الشعر .

## ذِكْرُ نُبْدَةٍ مِمَّا نُقِلَ عَنْ عُبَادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْخَوْفِ

قد ذكرنا أخبارَ جماعةٍ ماتوا من نوحِ داود عليه السَّلَام، وقد روينا أنه ما زال لُقمان يَعِظُ ابْنَهُ حتى انشَقَّتْ مَرَاتِهِ فمات .

قال فَرَقْدُ السَّبْخِي: بلغني أنه دخلَ بيتَ المقدسِ خمسَ مئةِ عذراءٍ لبأسهم الصُّوفِ والمُسُوحِ، فذكرنَ ثوابَ اللهِ وعقابهَ فَمِتْنَ جميعاً في مقامٍ واحدٍ .

وقال يزيد الرِّقَاشِي: بلغني أنه كان في بني إسرائيل في زمنِ داود عليه السلام أربع مئةِ جاريةِ عذراءٍ مُتَبَتِّلَةٍ<sup>(١)</sup>، فجننَ إلى داود عليه السلام يومَ نوحِه فما بَرِحْنَ حتى مِتْنَ عن آخِرهنَّ .

## ذِكْرُ خَوْفِ نَبِيِّنَا ﷺ

أخبرنا هبةُ اللهِ بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا هارون بن معروف قال: حدثنا ابن وهب قال: أخبرنا عمرو أن أبا النَّضْرِ حَدَّثَهُ عن سُلَيْمان بن يَسَار عن عائشة أنها قالت: ما رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ قَطُ مُسْتَجْمِعاً ضاحكاً حتى أرى منه لَهَوَاتِهِ<sup>(٢)</sup>، إنما كان يَتَبَسَّمُ، وكان إذا رأى غَيْمًا أو رِيحًا عُرِفَ ذلك في وَجْهِهِ، فقلت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغَيْمَ فَرِحُوا رجاءً أن يكونَ فيه المَطَرُ وأراك إذا رأيتَه عرفتُ في وجهك الكراهية! فقال: «يا عائشة، ما يُؤمِّنِي أن يكونَ فيه عذابٌ، قد عَذَّبَ قومٌ بالريِّحِ، وقد رأى قومٌ العذابَ فقالوا: هذا عارضٌ مُمَطِّرُنَا» أخرجاه في الصحيحين<sup>(٣)</sup> .

أخبرنا هبةُ اللهِ بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا ابنُ مالك قال: حدثنا

(١) تَبَتَّلَ إلى الله: انقطعَ إلى عبادته .

(٢) اللَّهَوَاتُ: جمع لَهَاءٍ، وهي اللحامات في سقف أقصى الفم، وقيل: هي اللحمية الحمراء المعلقة في أصل الحَنَكِ .

(٣) أخرجاه البخاري (٤٨٢٨) و(٤٨٢٩) و(٦٠٩٢)، ومسلم (٨٩٩) (١٦)، وأحمد (٢٤٣٦٩) .

عبد الله قال: حدّثني أبي قال: حدّثنا عبد الرزاق قال: حدّثنا معمر عن الزُّهري عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «والله إن أخشاكم لله وأحفظكم لحدوده لأننا»<sup>(١)</sup>.

أخبرنا عمر بن أبي الحسين البسطامي قال: أخبرنا أحمد بن أبي منصور الخليلي قال: أخبرنا أبو القاسم الخزاعي قال: أخبرنا الهيثم بن كليب الشاشي قال: حدّثنا أبو عيسى الترمذي قال: حدّثنا سويد بن نصر قال: أخبرنا عبد الله بن المبارك عن حماد بن سلمة عن ثابت عن مطرف عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء<sup>(٢)</sup>.

وكان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم ارزقني عينين هطّالتين تَبْكِيان بَدْرُوفِ الدَّمُوعِ، وَتَشْفِيَانِي مِنْ حَشِيَّتِكَ، مِنْ قَبْلِ أَنْ تَكُونَ الدَّمُوعُ دَمًا وَالْأَضْرَاسُ جَمْرًا».

### ذِكْرُ خَوْفِ الصَّحَابَةِ وَبُكَائِهِمْ

قد روينا عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان يُمسك لسانه، ويقول: هذا أوردني الموارد.

وقال يوماً لطائر: ما أنعمك يا طائر، لا حساب ولا عذاب عليك، يا ليتني مثلك.

وقال: ليتني شجرة تُعَضد ثم تؤكل.

وكذلك قال طلحة وأبو الدرداء وأبو ذر.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسمع آية فيمرض، فيعاد أياماً، وأخذ يوماً بتينة من الأرض، وقال: يا ليتني كنت هذه التينة، يا ليتني لم أك شيئاً مذكوراً، يا ليت أُمِّي لم تلدني. وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء.

(١) أخرجه أحمد (٢٥٨٩٣) وعبد الرزاق (١٠٣٧٥)، والبخاري (١٤٥٨) في الزوائد، وابن حبان (٨٣١٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٩٠٤)، والأريزي: الصوت، والمرجل: القدر من الطين المطبوخ ومن النحاس.

وقال عثمان رضي الله عنه: وَدِدْتُ أَنِّي إِذَا مِتُّ لَمْ أُبْعَثْ .

وقال علي رضي الله عنه يوم الجمل: وَدِدْتُ أَنِّي مِتُّ قَبْلَ هَذَا بَعَشْرِينَ سَنَةً .

وقال أبو عبيدة بن الجراح: وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ كَبْشًا، فَذَبَحَنِي أَهْلِي فَأَكَلُوا لَحْمِي وَحَسُوا مَرْقِي .

وقال ابن مسعود: لَوْ وُقِفْتُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَخُيِّرْتُ بَيْنَهُمَا أَوْ أَكُونُ تَرَابًا، لَأَخْتَرْتُ أَنْ أَكُونَ تَرَابًا .

قال زيد بن وهب: وَرَأَيْتُهُ بَكَى حَتَّى أَخَذَ بَكَفِّهِ مِنْ دُمُوعِهِ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا .

وقال عمران بن حصين: يَا لَيْتَنِي رَمَادًا تَذْرُوهُ الرِّيحَ .

وقال سالم مولى أبي حذيفة: وَدِدْتُ أَنِّي بِمَنْزِلَةِ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: لَيْتَنِي كُنْتُ لَبَنَةً مِنْ هَذَا اللَّبَنِ، لَا عَلَيَّ وَلَا لِي .

وقال حذيفة: وَدِدْتُ أَنْ لِي إِنْسَانًا يَكُونُ فِي مَالِي، ثُمَّ أَغْلِقَ عَلَيَّ بَابِي، فَلَا يَدْخُلُ عَلَيَّ أَحَدٌ حَتَّى أَلْحَقَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَكَانَ مَجْرَى الدَّمُوعِ فِي وَجْهِ ابْنِ عَبَّاسٍ كَالشَّرَاكِ الْبَالِي .

وَقَالَتْ عَائِشَةُ: يَا لَيْتَنِي إِذَا مِتُّ كُنْتُ نَسِيًا مُنْسِيًا .

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ الْحَافِظُ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْخَطِيبُ الْأَنْبَارِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دُوسْتٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا الْحَسَنُ بْنُ صَفْوَانَ قَالَ:

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقُرَشِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ قَالَ: أَخْبَرَنَا عَمْرُو بْنُ شَمِيرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ السُّدِّيُّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا أَرَاكَةَ قَالَ: صَلَّىتُ مَعَ عَلِيٍّ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَلَّمَ انْفَتَلَ عَنْ يَمِينِهِ، ثُمَّ مَكَثَ كَأَنَّ عَلَيْهِ كَابَةً، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَمَا أَرَى الْيَوْمَ شَيْئًا يُشْبِهُهُمْ، لَقَدْ كَانُوا

يُصْبِحُونَ شُعْنًا غُبْرًا، بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ أَمْثَالُ رُكَبِ الْمِعْزَى<sup>(١)</sup>، قَدْ بَاتُوا لِلَّهِ سُجَّدًا وَقِيَامًا،

(١) يعني من أثر السجود.

يتلون كتاب الله، يُراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله ما دؤوا كما يَمِيدُ البحر في يوم الرّيح، وهَمَلتْ أعينهم حتى تَبَلَّ ثيابهم، والله لكَأَنَّ القومَ باتوا غَافلين. ثم نهَضَ، فما رُئِيَ بعدَ ذلك مُفْتَرَأً يَضْحَكُ حتى ضَرَبَهُ ابنُ مُلْجَمٍ<sup>(١)</sup>.

### ذِكْرُ خَوْفِ التَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ

قال هَرْمُ بن حَيَّان: وَدَدْتُ وَاللَّهِ أَنِّي شَجَرَةٌ أَكَلْتَنِي نَاقَةٌ فَكَذَفْتَنِي بَعْرًا وَلَمْ أَكْبِدِ الحِسابَ يَوْمَ القِيَامَةِ، إِنِّي أَخَافُ الدَّاهِيَةَ الكُبْرَى.

وكان علي بن الحسين إذا تَوَضَّأَ اصْفَرَ وَتَغَيَّرَ، فيُقالُ له: ما لَكَ؟ فيقول: أتَدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟!

وقال عُبَيْد الصيرفي: أَتَيْتُ الحِسنَ سَنَةً ما أَخطأني يَوْمَ أن آتِيه، فما مرَّ عليَّ يَوْمَ أَخطأني أَن أرى دُموعه تَتَحَادَرُ علي لِحيتِهِ.

وقال مالك بن دينار: دخلتُ مع الحسن السوقَ فمرَّ بالعطَّارين، فوجدتُ تلكَ الرَّائِحةَ، فبكى ثم بكى ثم بكى حتى خِفْتُ أن يُغشى عليه، ثم قال لي: يا مالك، والله ما هو إلا حُلُولُ القَرارِ مِنَ الدَّارينِ جميعاً الجَنَّةِ أو النارِ، ليس ثمَّ منزل ثالث، مَنْ أَخطأتهُ وَاللهُ الرَّحمةُ صارَ إلى عذابِ اللهِ، ثم جعل يبكي فلم يلبث إلا يَسيراً حتى مات.

وقال رجلٌ للحسن: كيفَ حالكَ؟ فقال: ما ظَنُّكَ بناسٍ ركبوا سفينةً حتى تَوَسَّطوا البحرَ، فانكسرت سفينتهم، فتعلق كل إنسانٍ منهم بِخَشَبَةٍ، على أي حال هم؟ قال: على حالٍ شديدة. قال الحسن: حالي أشدَّ منهم.

وكان الحسنُ كأنه أسيرٌ قَدْ قُدِّمَ لِضَرْبِ عُنُقِهِ، وعوتب في حُزْنِهِ، فقال: ما يُؤمِّنني أن يكونَ أَطَّلَعَ علي بعضِ دُنوبي فقال: اذهب لا عَفَرْتُ لَكَ.

وقال لبعض أصحابه: إن استطعت أن لا تَكُونَ عُمرُك إلا باكيًا فافعل، لعله يراك على حالةٍ فيرحمك بها، فإذا أنت قد نجوت من النار.

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ١١/١١.

وكان طاوس يفرش فراشه ثم يضطجع عليه، ثم يثب فيدرجه ويقول: طَيْرٌ ذَكَرُ  
جهنم نومَ العابدين.

وكان محمد بن واسع يبكي عامّة الليل لا يكاد يفتر.

وقال مالك بن دينار: وَدَدْتُ أَنْ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا مَالِكَ.  
فَأَقُولُ: لِبَيْكَ. فَيَأْذَنُ لِي أَنْ أَسْجُدَ بَيْنَ يَدَيْهِ سَجْدَةً، فَأَعْرِفُ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنِّي،  
فَيَقُولُ: يَا مَالِكَ، كُنَ الْيَوْمَ تُرَابًا.

وكان سعيد بن جبّير يبكي بالليل حتى عمش وفَسَدَت عِينَاهُ.

وقد روينا عن زُرارة بن أَوْفَى أَنَّهُ صَلَّى بِأَصْحَابِهِ الْعَدَاةَ، فَلَمَّا قَرَأَ: ﴿إِذَا نُفِرَ فِي  
النَّافِلِ﴾ [المدثر: ٨]، خَرَّ مَيْتًا.

وكان عُمر بن عبد العزيز إذا ذَكَرَ الْمَوْتَ انْتَفَضَ انْتَفَاضَ الطَّيْرِ، وَبَكَى حَتَّى  
تَجْرِي دَمُوعُهُ عَلَى لِحْيَتِهِ، وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ حَوْشَبٍ: مَا رَأَيْتُ أَحْوَفَ مِنَ الْحَسَنِ  
وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، كَأَنَّ النَّارَ لَمْ تُخْلَقْ إِلَّا لَهُمَا.

أخبرنا عبد الوهاب الحافظ قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا أبو  
بكر محمد بن علي الخياط قال: حدثنا أحمد بن محمد بن يوسف قال: أخبرنا  
الحسن بن صفوان قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: قال محمد بن الحسين:  
حدثني محمد بن أيوب الشامي قال: حدثني يزيد بن محمد بن مسلمة بن عبد الملك  
قال: حدثني مولى لنا قال: بكث فاطمة بنت عبد الملك حتى عَشَا بَصُرُهَا، فَدَخَلَ  
عَلَيْهَا أَحْوَاهَا مَسْلَمَةٌ وَهَشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَقَالَا: مَا هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي قَدْ دُمْتَ  
عَلَيْهِ؟ أَجْزَعُكَ عَلَى بَعْلِكَ فَأَحَقُّ مَنْ جُرِعَ عَلَى مِثْلِهِ، أَمْ عَلَى شَيْءٍ فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا؟  
فَهَا نَحْنُ بَيْنَ يَدَيْكَ وَأَمْوَالِنَا وَأَهْلُونَا. فَقَالَتْ: لَا مِنْ كُلِّ جَزَعْتُ، وَلَا عَلَى وَاحِدٍ  
مِنْهُمَا أَسِفْتُ، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ رَأَيْتُ مِنْهُ لَيْلَةً مَنْظَرًا، فَعَلِمْتُ أَنَّ الَّذِي أَخْرَجَهُ إِلَيَّ الَّذِي  
رَأَيْتُ مِنْهُ هَوْلٌ عَظِيمٌ قَدْ اسْتَكَنَّ فِي قَلْبِهِ مَعْرِفَتَهُ. قَالَا: وَمَا رَأَيْتُ مِنْهُ؟ قَالَتْ: رَأَيْتُهُ  
ذَاتَ لَيْلَةٍ قَائِمًا يُصَلِّي، فَأَتَى عَلَيَّ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ  
وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٥.٤]، فَصَاحَ: وَسُوءُ صَبَاحَاهُ.

ثم وثب فسقط، فجعل يخور حتى ظننت أن نفسه ستخرج، ثم هدأ، فظننت أنه قد قضى، ثم أفاق إفاقةً، فنادى: يا سوء صباحاه. ثم وثب، فجعل يجول في الدار ويقول: ويلى من يوم يكون الناس فيه كالفراس المبتوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش. قالت: فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر، ثم سقط كأنه ميت حتى أتاه الإذن للصلاة، فوالله ما ذكرت ليلته تلك إلا غلبتني عياني، فلم أملك ردّ عبرتي.

وقرأ عمر يوماً: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ [يونس: ٦١] الآية، فبكى بكاء شديداً، وبكت زوجته، وبكى أهل الدار، فجاء ابنه عبد الملك فدخل وهم على تلك الحال، فقال: يا أبت ما يبكيك؟ فقال: يا بني، ودّ أبوك أنه لم يعرف الدنيا ولم تعرفه، والله يا بني لقد خشيت أن أهلك، والله يا بني لقد خشيت أن أكون من أهل النار.

وبكى عمر بن عبد العزيز ليلةً، فبكت فاطمة، فبكى أهل الدار لا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء، فلما تجلّت عنهم العبرة قالت فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين، ممّ بكيت؟ فقال: ذكرت منصرف القوم من بيني يدي الله فريق في الجنة وفريق في السعير. ثم صرخ وغشي عليه.

وكان عمر يوماً ساكتاً وأصحابه يتحدثون فقالوا: ما لك لا تتكلم يا أمير المؤمنين؟ فقال: كنت مفكراً في أهل الجنة كيف يتراوون فيها، وفي أهل النار كيف يصطرخون فيها. ثم بكى.

قال مولى له: وبكى ليلةً فأكثر، فلما أصبح قال لي: لا تأذن اليوم لأحدٍ عليّ حتى أصبح ويرتفع النهار، فإني أخاف أن لا أعقل عن الناس ولا يفهمون عني. فقلت: رأيتك بكيت الليلة بكاءً ما رأيتك بكيت مثله؟ فبكى ثم بكى، ثم قال: إني ذكرت الوقوف بين يدي الله. ثم أغمي عليه فلم يفق حتى علا النهار، قال: فما رأيت بعد ذلك مُبتسماً حتى مات.

ولما أراد المنصور بيت المقدس نزل براهب كان ينزل به عمر بن عبد العزيز، فقال له: أخبرني بأعجب ما رأيت من عمر. فقال: بات ليلةً على سطح عُرفتي

هذه، وهو من رُخام، فإذا أنا بماءٍ يَقَطُرُ من الميزابِ، فصعدتُ فإذا هو ساجد، وإذا دموع عينيه تتحدَّر من الميزاب.

وقد روينا أن عمر بن عبد العزيز وفتحاً الموصلي بكيا حتى بكيا الدَّم.

أخبرنا عبد الوهاب الحافظ قال: أخبرنا أبو الحسين بن عبد الجبار قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن علي الخياط، قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن يوسف قال: أخبرنا الحسن بن صفوان قال: أخبرنا أبو بكر القرشي قال: حدثنا محمد بن إسحاق الثَّقفي قال: حدثني أحمد بن موسى الأنصاري عن منصور بن عمَّار قال: حَجَجْتُ حجةً، فنزلتُ سَكَّةً من سِكَكِ الكُوفَةِ، فخرجت في ليلةٍ مظلمةٍ فإذا بصارخ يصرخ في جوف الليل وهو يقول: إلهي، وعزَّتكَ وِجَالِكُ ما أردتُ بمعصيتي خلافاً، ولكني عَصَيْتُكَ إذ عصيتك وما أنا بنكالكِ جاهل، ولكن خطيئة عَرَضتْ أعانني عليها شقائي، وغرَّني سترك المُرْحَى عليّ، وقد عصيتك بجهدتي، وخالفتك بجَهلي، فالآنَ مِن عذابك مَنْ يَسْتَنْقِذني، وبِحَبْلِ مَنْ أُنْصِلُ إذا قَطَّتْ حبلُكَ مني، واشباباه، واشباباه. قال: فلما فرغ من قوله تلوْتُ آيةً من كتاب الله: ﴿وَقُوْذُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ عَلَيْهِا مَلَكَةٌ غَلاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحریم: ٦]... الآية فسمعتُ حركةً شديدةً، ثم لم أسمع بعدها حساً فمضيتُ، فلما كان من الغد رجعتُ في مدرجتي فإذا بجنابةٍ قد وُضِعَتْ، وإذا عجوز كبيرة قال: فسألْتُها عن أمرٍ<sup>(١)</sup> المَيِّت، فقالت: هذا رجلٌ لا جزاءه الله إلا جزاءهُ مرَّ بابني البارحة، وهو قائم يُصلي، فتلى آيةً من كتاب الله، فلما سمعها انفطرت مرارته فوقع ميتاً.

وقال ابن السَّمَّاك: قلتُ لرجلٍ من أهل البصرة: دُلني على عُبَادِكُمْ. فأدخلني على رجلٍ له أمٌّ عجوز فقالت: لا تذكرُوا لابني شيئاً من ذكر جنَّةٍ ولا نارٍ فتقتلوه، فليس لي غيره. فدخلنا عليه فرفع رأسه فنظر إلينا، ثم قال: أما إنَّ للناس موقفاً لا بد أن يقفوه. قلتُ: بينَ يدي مَنْ رَحِمَكَ اللهُ؟ فشهِقَ شهقةً فمات.

وقال ضِرغامُ بن وائلٍ لعلامة: اشدُّد كِتافي وعَفَّرْ خَدَيَّ بالثُّراب. ففعل، فقال:

(١) تحرفت في الأصل إلى: «أم».

مليكي، دنا الرّحيل إليك ولا براءة لي من ذنب، ولا عُذرَ فأعْتذر، ولا قوّة لي فأنْتصر، أنت أنت لي فتغمدني. ومات، فسمعوا قائلاً يقول: استكان العبد لمولاه فقبله.

وقال إبراهيم بن عيسى اليشكري: دخلت على رجلٍ بالبحرين قد اعتزل الناس وتفرغ لنفسه، فذاكرته شيئاً من أمر الآخرة وذكر الموت، فجعل والله يشهق حتى خرّجت نفسه.

وقال حصين بن القاسم: كنا عند عبد الواحد بن زيد وهو يعظ، فناداه رجل من ناحية المسجد: كُفّ يا أبا عبيدة، فقد كشفت قناع قلبي. فلم يلتفت عبد الواحد إلى ذلك ومراً في الموعظة، فلم يزل الرجل يقول: كُفّ يا أبا عبيدة، فقد كشفت قناع قلبي. وعبد الواحد لا يقطع موعظته، حتى حشرج الرجل ومات.

وقال مسمع: شهدت عبد الواحد بن زيد وهو يعظ، فمات يومئذ في ذلك المجلس أربعة أنفس.

وكان يزيد بن مرثد يبكي دائماً، ويقول: إن الله قد تواعدني إن أنا عصيته أن يسجنني في النار، والله لو تواعدني أن يسجنني في الحمام لكنت حرياً أن لا تجف لي عبرة.

وكان يزيد الرقاشي يقول: ليتني لم أخلق، وإذا خلقت لم أوقف، وإذا وقفت لم أحاسب، وإذا حوسبت لم أنافس.

وقيل لعطاء السلمي: ما تشتهي؟ فبكى وقال: أشتهي والله أن أكون رماداً لا يجتمع منه ذرة في الدنيا ولا في الآخرة، وأشتهي أن أبكي حتى لا أقدر أن أبكي. وكان يبكي الليل والنهار.

وقال داود الطائي: لوددت أن أنجو من النار وأصير رماداً.

وقال علي بن زيد: استراحت الطير في السماء، والحيتان في البحار، والوحش في القفار، وأنا مرتهنٌ بعلمي.

وكان الفضيل بن عياض قد ألف البكاء، فكان ربما بكى في يومه حتى يسمعه

أهل الدار، وقال: لو خُيِّرْتُ بينَ أن أموت فأرى القيامة وأهوالها والبعث والحساب ثم أدخل الجنة، وبين أن أكون كلباً فأعيش مع الكلاب عمري، ثم أموت فأصير تُراباً، لاخترتُ أن أكونَ كلباً ثم أصير تُراباً، ولا أرى الجنةَ ولا النار.

ووقف الفضيل يوم عرفة والناس يدعون، وهو يبكي بكاءً التُّكلى المحترقة، حتى إذا كادت الشمسُ تغربَ قَبِضَ على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال: واسوأُتاه منك وإن عفوت.

وقيل للفضيل: ما كان سبب موت ابنك علي؟ قال: باتت يتلو القرآن في محرابه، فأصبح ميتاً.

وكان بعضُ العباد يحمل على نفسه في العبادة، فقالت له أمه: أما تريد أن تنام؟ فقال: ليتك كنت بي عقيماً، إن لُبَيْك في القبر حسباً طويلاً.

وقال عطاء: خَرَجْنَا مع عُتْبَةَ الغلام وَمِنَّا كَهولٌ وَشُبَّانٌ يُصَلِّونَ الفَجَرَ بطهور العشاء، قد تورمت أقدامهم من طول القيام وغارت أعينهم في رؤوسهم، ولصقت جلودهم على عظامهم، وبقيت العروق كأنها الأوتار يُصْبِحون كأن جلودهم قشور البطيخ، وكانهم قد خرجوا من القُبور، فبينما هم يمشون إذ مرَّ بمكانٍ فخرَّ مغشياً عليه، فجلس أصحابه حوله يبكون في يومٍ شديد البرد وجبينه يرشح عرقاً، فجاؤوا بماءٍ فمسحوا وجهه فأفاق فسألوه عن أمره فقال: إني ذكرتُ أنني كنت عصيتُ الله تعالى في ذلك المكان.

وقف قومٌ على عابدٍ وهو يبكي فقالوا: ما يُبكيك؟ فقال: روعةٌ يجدها الخائفون في قلوبهم. قالوا: وما هي؟ قال: روعة النداء بالعرض على الله عز وجل.

ووقف عابدٌ على كيرٍ حدّاد، فجعل ينظر إليه ويبكي، ثم شهق فمات.

وقال سري السَّقْطِي: إني لأنظر كلَّ يومٍ إلى أنفي مخافةً أن يكون قد اسودَّ

وجهي.

فهذه مخاوف الملائكة والأنبياء والعلماء والأولياء، ونحن أجدر بالخوف منهم،

ولكن ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكمال المعرفة، وإنما أمانة لغلبة جهلنا وقوة قساوتنا.

ومن العجائب أننا إذا أردنا المال تجرنا وسافرنا، وإذا أردنا العلم تفقهننا وتعبننا، ثم إذا طمحت أعيننا نحو الملك الدائم قنعنا بأن نقول بالسنتنا: اللهم اغفر لنا وارحمنا، والذي نرجوه يُنادينا: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩]، ﴿وَلَا يَعْرِزُّكُمْ بِاللَّهِ الْعَزُورُ﴾ [فاطر: ٥]، ثم لا تنتبه ولا نخرج عن غرورنا، فنسأل الله عز وجل إصلاحنا.

ولنقتصر من ذكر الخائفين على هذا القدر، فقد قال بعض السلف: قلت لراهب: أوصني. فقال: إن استطعت أن تكون بمنزلة رجلٍ قد احتوشته السباع والهوام، فهو خائف حذر يخاف أن يغفل فتفترسه، أو يسهو فتنهشه، فهو مذعور، فافعل. فقلت: زدني. فقال: الظمان يجزئه من الماء أيسره، واعلم أن القلب الصافي يحركه أدنى مخافة، والقلب الجامد ينبو عنه كل المواعظ.

وما ذكره هذا الراهب من تقدير شخصٍ احتوشته السباع والهوام، فإنه حقيقة في حق المؤمن، فإن من نظر إلى باطنه بنور بصيرته رآه مشحوناً بالسباع والهوام، كالغضب والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغير ذلك، وكلهن ينهشنه ويفترسنه إن سها عنهن، إلا أنه محجوبٌ عن مشاهدتها، فإذا انكشف الغطاء ووضع في القبر عاينها متمثلةً حيات وعقارب يلدغنه، وإنما هي صفاته الحاضرة الآن، فمن أراد أن يقهرها قبل الموت ويقتلها، وإلا فليوطن نفسه على لدغها لصميم قلبه فضلاً عن ظاهر بشرته، والسلام.

آخر كتاب الرجاء والخوف

\* \* \*



## كتاب الفقر والزهد

الحمدُ لله الذي وَفَّقَ العارفينَ لِحُسْنِ الخِلالِ، وألهمهم لحقيقِ التَّقوى وحَسَنِ الخِصالِ، وَفَتَحَ بَصائرَهم فأبصَرُوا عَيْبَ الدُّنيا وتأمَلُوا الحَالِ، فإذا هي عَجوزٌ تَخْتَلُّ وإن باتت تَخْتالُ، وإذا ماؤها سَرابٌ وغرورها خيالٌ<sup>(١)</sup>، وإنما يَغْتَرُّ بها الصَّبِيانُ لا الرِّجالَ، فزهَدوا فيها وأفقرُوا مِنَ المالِ، واستقامت قلوبهم وصلحت لهم الحَالُ، وأمکنهم طلب الأخرى بقطع تلك الأشغالِ، إذ الجَمْعُ بين الضُّدين من غير شكٍّ مُحالٌ.

أحمدُه حمداً يزيد على عدد الرِّمالِ، وأقرُّ له بالتَّوْحِيدِ سَليماً من ضلالِ، وأُصلي على رسوله محمد وعلى آلِه خير آلٍ، صلاةٌ تدومُ بدوامِ العُدُوِّ والآصالِ، أما بعد:

فإنه إذا كان حُبُّ الدُّنيا رأسَ كُلِّ خَطِيئَةٍ، فبُغْضُها أساسُ كُلِّ طاعةٍ، وقد سبقَ في كتاب دَمِّ الدُّنيا في رُبْعِ المهلكاتِ، ونحن نذكر الآن فَضْلَ البُغْضِ لها والزُّهدَ فيها، فإنه رأسُ المُنجياتِ، ومقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبدِ ويُسمَى ذلك فُقْراً، وإما بانزواء العبدِ عنها، ويُسمَى ذلك زُهداً، ولكل واحدٍ منهما دَرَجَةٌ في نَيْلِ السَّعاداتِ وَحَظٌّ في الإِعانةِ على الفَوزِ والنَّجاةِ، ونحن الآن نذكر حَقِيقَةَ الفَقْرِ والزُّهدِ ودرجاتهما وأقسامهما وشروطهما وأحكامهما، ونذكر الفَقْرَ في شَطْرٍ مِنَ الكِتابِ، والزُّهدَ في شَطْرٍ آخَرَ مِنْهُ، ونبدأ بِذِكرِ الفَقْرِ.

(١) غير واضحة في الأصل.

## الشَّطْرُ الْأَوَّلُ

### من الكتاب في الفقر

وفيه بيان حقيقة الفقر، وبيان فضيلة الفقر مطلقاً، وبيان فضيلة خصوص الفقراء، وبيان فضل الفقر على الغنى، وبيان أدب الفقير في فقره، وبيان أدبه في قبول العطاء، وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة، وبيان مقدار الغنى المحرّم للسؤال، وبيان أحوال السائلين.

#### بيان حقيقة الفقر

#### واختلاف أحوال الفقر وأساميه

الْفَقِيرُ إِلَى الشَّيْءِ هُوَ الْمُحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَكُلُّ مَوْجُودٍ سِوَى اللَّهِ فَهُوَ فَاقِرٌ؛ لِأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى دَوَامِ الْوُجُودِ فِي ثَانِي الْحَالِ، وَدَوَامِ وُجُودِهِ مُسْتَفَادٌ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَجُودِهِ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ غَنِيٌّ إِذْ لَيْسَ وُجُودُهُ مُسْتَفَاداً مِنْ غَيْرِهِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨]، هَذَا مَعْنَى الْفَقْرِ مُطْلَقاً، وَلَكِنَّا لَسْنَا نَقْصِدُ بَيَانَ الْفَقْرِ الْمَطْلُوقِ، بَلِ الْفَقْرُ مِنَ الْمَالِ عَلَى الْخُصُوصِ، وَإِلَّا فَفَقْرُ الْعَبْدِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَصْنَافِ حَاجَاتِهِ لَا يَنْحَصِرُ، وَمِنْ جَمَلَةِ حَاجَاتِهِ مَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِالْمَالِ، ثُمَّ يَتَصَوَّرُ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَمْسَةُ أَحْوَالٍ عِنْدَ فَقْدِهِ، وَنَحْنُ نَمِيزُهَا، وَنَخْصِصُ كُلَّ حَالٍ بِاسْمٍ لِيَتَوَصَّلَ بِالتَّمْيِيزِ إِلَى ذِكْرِ أَحْكَامِهَا:

الحالة الأولى: وهي العليا؛ أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه، مبيغضاً له ومحترزاً من شره وشغله، وهو الزهد، واسم صاحبه الزاهد.

الثانية: أن يكون لا يرغب فيه رغبةً يفرح لحصوله، ولا يكرهه كراهة يتأذى

بها، ويزهد فيه لو أتاه، وصاحبُ هذه الحالة يُسمى: راضياً.

الثالثة: أن يكون وجود المال أحبَّ إليه من عَدَمه لرغبة له فيه، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه، بل إن أتاه عَفْواً صَفْواً أخذه وفرح به، وإن افتقر إلى تعبٍ في طلبه لم يشتغل به، وصاحب هذه الحالة تُسميه: قانعاً، إذ أقنع نفسه بالوجود حتى ترك الطلب مع ما فيه من الرغبة الضعيفة.

الرابعة: أن يكون تركه للطلب لعجزه، وإلا فهو راغبٌ فيه رغبةً لو وجد سبيلاً إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه، أو هو مشغول بالطلب، وصاحب هذه الحالة تُسميه: الحريص.

الخامسة: أن يكون ما فقده من المال مضطراً إليه، كالجائع الفاقد للخبز، والعارى الفاقد للثوب، ويسمى صاحب هذه الحالة: مضطراً، كيفما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية، وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة.

وراء هذه الأصول الخمسة حالة هي أعلى من الزهد، وهي أن يستوي عنده وجود المال وفقده، فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذ، وإن فقده فكذلك، كما روينا عن عائشة رضي الله عنها أنه جاءها مالٌ في غِرَارَتَيْنِ<sup>(١)</sup> ففرقتُهُ في يومها، فقالت جارتها: أما استطعتِ مما قَسَمْتَ أن تَشْتري لنا لحماً بدرهمٍ نُفطر عليه؟ فقالت: لو ذكّرْتيني لفعلت.

فمَن هذه حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها في يده لم تُضره، إذ هو يرى الأموال في خزانة الله لا في نفسه، وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحال: المُستغني؛ لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعاً.

ومتى كان الزاهد في الدنيا لا يرغب في وجودها ولا في عدمها، فهو في غاية الكمال، فإن كان راغباً في عدمها فهو كمال بالإضافة إلى درجة الراضي والقانع والحريص، ونقصان بالإضافة إلى درجة المستغني، والكمال استواء وجود المال وعدمه، كما يستوي عندك كثرة الماء وقلته؛ لأنك تقول: أشربُ منه بقدر الحاجة،

(١) الغرارة: وعاء توضع فيه الدراهم.

وأسقي منه عباد الله . فهكذا ينبغي أن يكون المال .

قال أحمد بن أبي الحواري : قلت لأبي سليمان الداراني : قال مالك بن دينار للمغيرة : اذهب إلى البيت فخذ الرُّكوة<sup>(١)</sup> التي أهديتها لي ، فإن الشيطان يُوسوس إليّ أن اللصّ قد أخذها . فقال أبو سليمان : هذا من الضّعف ، هو قد زهد في الدنيا ، ما عليه من أخذها .

واعلم أن الهرب من المال والزهد فيه في حق الضعفاء كمال ، وأما الأنبياء والأقوياء فسواء عندهم وجوده وعدمه ، وقد يظهر القوي الثّفار من المال ليقتدي به الضّعفاء في التّرك ، كما يفرّ المُعزّم من الحيّة لئِنْفَرَ أولاده لا لضعفه عن أخذها .

### بيان فضيلة الفقر مطلقاً

أما الآيات ؛ فقد قال الله عزّ وجلّ في معرض المدح : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة : ٢٧٣] ، وقال : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ [الحشر : ٨] .

وأما الأخبار ؛ فكثيرة ، منها : ما أخبرنا به هبة الله بن محمد قال : أخبرنا الحسن بن علي التّيمي قال : أخبرنا أحمد بن جعفر قال : حدثنا عبد الله بن أحمد قال : حدثني أبي قال : حدثنا يحيى بن سعيد قال : حدثنا التّيمي عن أبي عثمان عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ قال : «فُتُّ على باب الجنّة ، فإذا عامة من يدخلها الفقراء ، إلا أن أصحاب الجَدِّ محبوسون ، إلا أهل النار فقد أمر بهم إلى النار ، ووقفْتُ على باب النار فإذا عامة من دخلها النّساء» . أخرجاه في الصحيحين<sup>(٢)</sup> .

(١) الرُّكوة : إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء .

(٢) أخرجه البخاري (٥١٩٦) و(٦٥٤٧) ، ومسلم (٢٧٣٦) ، وأحمد (٢١٧٨٢) و(٢١٨٢٥) ، وقوله : «أصحاب الجَدِّ» أي : أصحاب الغنى . وقوله : «محبوسون» قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٤٢٠/١١ : أي ممنوعون من دخول الجنّة مع الفقراء من أجل المحاسبة على المال ، وكان ذلك عند القنطرة التي يتقاصون فيها بعد الجواز على الصّراط .

وفيهما من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «اطلعتُ في الجنة فرأيتُ أكثر أهلها الفقراء»<sup>(١)</sup>.

وفيهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»<sup>(٢)</sup>.

وفيهما من حديث عائشة قالت: ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البرِّ ثلاث ليالٍ تباعاً حتى قبض<sup>(٣)</sup>.

وفي أفراد مسلم من حديث عمر بن الخطاب قال: لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ يظل اليوم يلتوي ما يجد دقلاً<sup>(٤)</sup> يملأ به بطنه<sup>(٥)</sup>.

وفي أفراد من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً»<sup>(٦)</sup>.

وفي أفراد من حديث ثوبان، قال: جاء خبرٌ من أبحار اليهود إلى رسول الله ﷺ فقال: أين يكونُ الناس يوم تُبدل الأرضُ غيرَ الأرضِ؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمةِ دونَ الجسر» قال: فمن أول الناس إجازةً؟ قال: «فقراء المهاجرين» قال: صدقت<sup>(٧)</sup>.

وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بخمسين مئة عام»<sup>(٨)</sup> قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

(١) أخرجه البخاري تعليقاً (٦٤٤٩)، ومسلم (٢٧٣٧)، وأحمد (٢٠٨٦) و(٣٣٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٩٥)، ومسلم (١٥٥)، وأحمد (٩٧٦٠) و(١٠٢٣٧).

(٣) أخرجه البخاري (٥١٠٠) و(٦٠٨٩)، ومسلم (٢٩٧٠).

(٤) الدقل: أزدأ التمر.

(٥) أخرجه مسلم (٢٩٧٨).

(٦) أخرجه مسلم (٢٩٧٩).

(٧) أخرجه مسلم (٣١٥).

(٨) أخرجه الترمذي (٢٣٥٤)، وابن ماجه (٤١٢٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: «الفقر أزين بالمؤمن من العذار»<sup>(١)</sup> الحسن على خذُ الفرس».

وقال لعائشة: «إياك ومجالسة الأغنياء»<sup>(٢)</sup>.

وقال عليه الصلاة والسلام: «ما من ذي غنى إلا سيود يوم القيامة لو كان إنما أوتي من الدنيا قوتاً».

وقال: «يؤتى بالعبد يوم القيامة، فيعتذر الله عز وجل إليه كما يعتذر الرجل للرجل في الدنيا، فيقول: وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك عليّ، ولكن لما أعددت لك من الكرامة، أخرج يا عبدي إلى هذه الصُفوف، فمن أطعمك أو كسأك يريد بذلك وجهي فخذ بيده فهو لك».

وقيل لموسى عليه السلام: إذا رأيت الفقر مُقبلاً فقل: مرحباً بشعار الصالحين. وأما الآثار: فقال أبو الدرداء: ذو الدرهمين أشد حساباً من ذي الدرهم. وكان الفقراء يتقدمون في مجلس الثوري على الأغنياء.

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف فلم يقبلها، وقال: تُريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بهذا؟ لا أفعل.

## بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين

أخبرنا محمد بن ناصر قال: أنبأنا الحسين بن أحمد بن طلحة قال: أخبرنا أبو سهل محمود بن عمر العُكْبَرِي قال: أخبرنا علي بن أبي رَوْح قال: أخبرنا أبو بكر الفُرْشِي قال: حدثني الحسن بن الصَّبَّاح قال: حدثني عُبيد الله بن يزيد عن حَيوة، قال: أخبرنا أبو هانئ أن أبا علي الحيني حدثه أنه سمع فضالة بن عُبيد يقول: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «طوبى لمن هُدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً، وقنع بما آتاه الله عز وجل».

(١) العذار: ما سال من اللجام على خد الفرس.

(٢) أخرجه الترمذي (١٧٨١).

وروى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «يا ابن آدم، عندك ما يكفيك وأنت تطلب ما يُطغيك، يا ابن آدم، لا بقليلٍ تَقْنَعُ، ولا من كثيرٍ تَشْبَعُ، يا ابن آدم إذا أصبحتَ آمناً في سربك، مُعافى في بدنك، عندك قوتُ يومك فعلى الدنيا العفاء».

وروى أنس عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من قلبٍ لا يخشع، ومن نفسٍ لا تشبع».

واعلم أن القناعة يُضادها الطمع، وقد قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: الطمع فقْرٌ واليأس غنى.

وقد ذكرنا مما يتعلق بالقناعة وذم الحرص والطمع في كتاب ذم المال ما يُغني عن الإعادة ها هنا، فينبغي للعاقل أن يؤثر القناعة، ولا يقدر على ذلك إلا بعد قوة الصبر، وقد أشد بعض الحازمين:

إِنْ شَعَثَ الدَّهْرُ مِنْ حَالٍ وَغَيْرِهَا      صَبَرْتُ لِلدَّهْرِ حَتَّى يَعْجَبَ الدَّهْرُ  
أَوْ ضَاقَ صَدْرِي فَإِنَّ الصَّدْرَ مُنْشَرِحٌ      وَرُبَّ عُسْرٍ أَتَى مِنْ بَعْدِهِ يُسْرُ  
عِرْضِي مَصُونٌ وَنَفْسِي غَيْرُ تَائِقَةٍ      إِلَى اللَّئَامِ وَوَجْهِي مَاؤُهُ عَمْرُ  
لِيَرْكَبَ الدَّهْرَ مَنِّي كُلَّ مُعْضَلَةٍ      فَالْحُرُّ حُرٌّ وَإِنْ أَوْدَى بِهِ الضَّرُّ

### بيان فضل الفقر على الغنى

اختلف الناس في هذا، فذهب الجنيّد والخوَّاصُّ والأكثرُونَ إلى تفضيل الفقر، وذهب قومٌ إلى تفضيل الغنى، وقد بيّنا في كتاب الصبر وجه التفاوت بين الصبر والشكر، ومهدنا سبيل طلب الفضيلة في الأعمال والأحوال، وأن ذلك لا يمكن إلا بتفصيل.

وأما الفقر والغنى إذا ذكرا مُطلقاً فظاهر النّقل يدلُّ على تفضيل الفقر، ولكن لا بد فيه من تفصيل، فنقول: إنما يتصور الشك في مقامين:

أحدهما: فقير صابر ليس بحريص على الطلب، بل هو يقنع أو راضٍ بالإضافة

إلى غني مُنْفِقِ ماله في الخَيْرَاتِ، وليس حريصاً على إمساك المال.

**والثاني:** فقير حريصٌ مع غني حريصٍ، إذ لا يخفى أن الفقير القنوع أفضل من الغني الحريص المُمسِك، والغني المُنْفِق ماله في الخَيْر أفضل من الفقير الحريص، فإن كان الغني مُتَمَتِّعاً بالمال في المُباحات، فالفقير القنوع أفضل.

وكشف الغطاء في هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر، وهو أن ما لا يُراد لعينه بل يُراد لغيره فينبغي أن يُضاف إلى مقصوده إذ به يظهر فضله، والدنيا ليست مَحذورة لعينها بل لكونها عاتقة عن الوصول إلى الله تعالى، ولا الفقر مطلوب لعينه ولكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم التشاغل عنه، وكم من غني ليس يشغله الغنى عن الله تعالى، كسليمان عليه السلام، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصود من حُبِّ الله تعالى والأنس به؛ لأن ذلك لا يكون إلا بعد المعرفة، وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن، والفقر قد يكون من الشواغل، وإنما التشاغل على التحقيق حب الدنيا إذ لا يجتمع معه حبُّ الله تعالى في القلب، فالمحب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله، وقد يكون شغله في الفراق أكبر، ويكون في الوصال أكثر، والدنيا معشوقة الغافلين، فالمحروم منها مشغولٌ بطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها.

فإذن إن فرضتَ فارغين عن حُبِّ المال بحيث يصير المال في حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد، إذ كل واحدٍ غير متمتع إلا بقدر الحاجة، ووجود قدر الحاجة أفضل من فقده إذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة، وإن أخذت الأمر باعتبار الأكثر فالفقير عن الخطر أبعد؛ لأن فتنة السراء أشد من فتنة الضراء، ومن العصمة أن لا يقدر، ولذلك قالت الصحابة: بلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر. وهذا طبعُ آدميين كلهم إلا النادر، ولما كان خطابُ الشرع مع الكل، وكانت الضراء أصلح لكل دون ذلك التادر جاء الشرعُ بدم الغني وفضل الفقر.

وقد تمثَّلت الدنيا لرسولِ الله ﷺ فقال: «إليك عني».

وكان عليّ رضي الله عنه يقول: يا صَفراء يا بِيضاء، غُرِّي غَيْرِي. وذلك إنما هو لاستشعاره في نفسه ظهور مبادئ الاعتزاز لولا أن رأى بُرهان ربه، وذلك هو الغنى المطلق لقوله عليه الصلاة والسلام: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، إنما الغنى غنى النفس».

فَفَقَدُ الدُّنْيَا أَصْلَحُ لِلْعَوَامِ؛ لأن أسبابها إذا انقطعت انقطع الأُنْسُ بها وتجافى القلب عنها، فإذا كان المتجافى عنها مؤمناً انصرف إلى الله سبحانه لا محالة، إذ لا يفرغ القلب قَط، فإذا نُصِّلَ الغني والفقير بتعلُّقِ قلوبهما بالمال فقط، فإن تساويا فيه تساوت دَرَجَتاهما، إلا أنَّ هَاهُنَا مَزَلَّةٌ قَدِمَ وموضع عُرُور، وهو أن الغنى ربما يظن أنه مُنْقَطِعُ القلبِ عن المال، ويكون حُبُّه دَفِيناً في باطنه وهو لا يَشعر به، وإنما يشعر إذا فقده، فليجرب نفسه بتفريقه، وإذا سُرِقَ منه، فإن وجد بقلبه إليه التفتاتاً فليعلم أنه كان مَعْرُوراً، فكم من رجلٍ باعَ جاريةً له لظنه أن قلبه مُعْرَضٌ عنها، فلما لزم البيع أصابه القلق؛ لأن العشق كان مُسْتَكِنًا في الفؤاد استكناً النار تحت الرماد، والسلامة من هذا نادرة، لهذا نقول: إن الفقر أصلح للعوام؛ لأن علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف، وبقدر علاقته يتضاعف ثواب عبادته، فإن حركات اللسان ليست مُراداً لأغنيائها بل ليتأكد بها الأُنْسُ بالمذكور، فلا يكون تأثيرها في إثارة الأُنْسِ في قلبٍ فارغٍ عن غير المذكور كتأثيره في قلبٍ مشغول.

وكان بشر الحافي يقول: مَثَلُ الغني المتعبد مَثَلُ روضةٍ على مَزْبلة، ومَثَلُ الفقير المتعبد مَثَلُ عقد الجَوهَرِ في جيد الحَسَناء.

وقال له رجلٌ: ادعُ لي، فقد أضَرَّ بي العيال. فقال: إذا قال لك عيالك: ليس عندنا دَقِيق ولا حُبْز فادعُ الله في ذلك الوقت، فإن دُعَاكَ أفضل من دعائي.

ثم إن الفقير قد يريح شدة الحساب، وقد روينا أنفاً عن النبي ﷺ أنه قال: «قمتُ على باب الجنة، فإذا عامة من يدخلها الفقراء، إلا أن أصحاب الجَدِّ محبوبون إلا أهل النار، فقد أمر بهم إلى النار».

أخبرنا أبو القاسم الكاتب قال: أخبرنا أبو علي بن المذهب قال: أخبرنا أبو

بكر بن مالك قال: حدثنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا حُسين قال: حدثنا دُويد عن سَلَم بن بَشِير بن عكرمة عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «التقى مؤمنان على باب الجنة؛ مؤمن غني ومؤمن فقير، كانا في الدنيا، فأدخل الفقير الجنة وحبسَ الغني ما شاء الله أن يحبسَ، ثم أدخل الجنة، فلقى الفقير، فقال: أي أخي، ماذا حبسك؟ والله لقد احتبستَ حتى خفتُ عليك، فقال: أي أخي، إني حبستُ بعدك محبساً فظيعاً كريهاً، ما وصلتُ إليك حتى سألَ مني من العرق ما لو ورده ألفُ بغير كلها آكلة حمضٍ، لصدرت عنه رواء»<sup>(١)</sup>.

وروينا عن النبي ﷺ أنه قال: «يجيء فقراء المهاجرين يومَ القيامة على أكوارهم التي هاجروا عليها، فيقال لهم: انطلقوا فادخلوا الجنة، فيذهبون ليدخلوا الجنة فيقول لهم الملائكة: انظروا حتى تُحاسبوا. فيقولون: وهل أعطيتُمونا شيئاً فتحاسبونا عليه؟ فيدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسِ مئة عام».

فقد بان بما ذكرنا نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغني الشاكر.

### المقام الثاني في نسبة حال الفقير الحريص إلى الغني الحريص

ولنفرض ذلك في شخص واحد هو طالبٌ للمال وساع فيه وفاقدٌ له ثم وجده، فله حالة الفقر وحالة الوجود، فأى حالتيه أفضل؟ ننظر فإن كان مطلوبه ما لا بد منه في المعيشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه، فحال الوجود أفضل؛ لأن الفقر يشغله بالطلب، وطالب القوت لا يقدر على الذكر والفكر إلا قدرةً مدخولةً بشغل، والمكفي هو القادر، ولذلك قال ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً».

وإن كان المطلوب فوق الحاجة أو كان المطلوب قدر الحاجة، ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك الدين، فحالة الفقر أصلح وأفضل؛ لأنهما استويا في الحرص وحب المال، واستويا في أن كل واحدٍ ليس يقصد به الاستعانة على

(١) أخرجه أحمد (٢٧٧٠)، وأخرج نحوه ابن المبارك في الزهد (٥٥٦). والحمض: ما ملح وأمر من النبات.

طريق الدين، واستويا في أن كل واحد ليس يتعرض لمعصية بسبب الفقر والغنى، ولكنهما افترقا في أن الواجد يأنس بما وجده فيتأكد حبه في قلبه، ويطمئن إلى الدنيا، والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتكون الدنيا عنده مثل السجن الذي يبغي الخلاص منه، ومتى استوت الأمور كلها وخرج من الدنيا رجلا أحدهما أشد ركوناً إلى الدنيا، فحاله لا محالة أشد، إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر أنسه بالدنيا، وقد قال ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي: أَحِبِّ مَنْ أَحَبَّتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ». وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد، فينبغي أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى، ولا تحب ما يفارقك وهو الدنيا، فإنك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه وفراقك لما تحبه، وكل من فارق محبوباً كأن أذاه في فراقه بقدر حبه وقدر أنسه به، وأنس الواجد بالدنيا أكثر من أنس الفاقد لها، وإن كان حريصاً عليها.

فإذن قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف والأفضل والأصلح لكافة الخلق إلا في موضعين:

أحدهما: غنى مثل ما روينا عن عائشة رضي الله عنها وتفرقتها لما جاءها، فهذا يستوي عنده الوجود والعدم فيكون الوجود مزيداً له؛ لأنه يستفيد به أدعية الفقراء وجمع همهم.

والثاني: الفقر عن مقدار الضرورة، فإن ذلك يكاد يكون كفرًا، ولا خير فيه بوجه من الوجوه إلا إذا كان وجوده يُبقي حياة من يستعين بحياته على الكفر والمعاصي، فهذا لو مات جوعاً كان أصلح له.

فهذا تفصيل القول في الغنى والفقر، ويبقى النظر في فقير حريص متكالب على طلب المال ليس له هم سواه، وفي غني دونه في الحرص على حفظ المال ولا يفجعه فقد المال إذا فقده كتفجع الفقير بفقره، فهذا في محل النظر، والأظهر أن بعدهما عن الله تعالى بقدر قوة تفجعهما بفقد المال، وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقده.

## بيان آداب الفقر في فقره

للفقير آداب في باطنه وظاهره، فينبغي أن يراعيها:

فأما أدب باطنه: فإن لا يكون فيه كراهة لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر، فهذا أقل درجاته، وهو واجب، وتقيضه حرامٌ ومُحِبِّطٌ ثوابِ الفقر، وأرفع من هذا أن لا يكون كارهاً للفقر بل يكون راضياً، وأرفع منه أن يكون طالباً له فرحاً به لعلمه بغوائل الغنى، ويكون متوكلاً في باطنه على الله عزَّ وجلَّ واكتسابه في قدر ضرورته أن يأتيه لا محالة، فيكون كارهاً للزيادة على الكفاف، ومتى حسنَ خُلُقَ الفقير في فقره وسكتَ عن الشكوى إلى الخلق وشكرَ الله تعالى كان الفقر في حقه مَثُوبَةً، ومتى عكست الحال كان الفقر له عقوبة.

وأما أدب ظاهره: فإن يُظهِرَ التَّعَفُّفَ والتَّجَمُّلَ، ولا يُظهِرَ الشُّكْوَى والفقر (بل يستره)<sup>(١)</sup> ويستترُ أنه يستره، وقد قال عزَّ وجل: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وأما في أعماله فأدبه أن لا يتواضع لغني لأجل غناه، قال الفتح بن شخرف: رأيتُ أمير المؤمنين عليَّ بن أبي طالب في النوم، فقلت له: يا أمير المؤمنين، أوصني. قال: ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء، وأحسن من ذلك تيهُ الفقراء على الأغنياء. فقلت: زدني، فأوماً إليَّ بكفه فإذا فيه مكتوبٌ:

قَدْ كُنْتُ مَيْتاً فَصِرْتُ حَيًّا وَعَنْ قَلِيلٍ تَصِيرُ مَيْتاً  
أَغْيَاءِ بَدَارِ الْفَنَاءِ بَيْتٌ فإِنْ بَدَارِ الْبَقَاءِ بَيْتاً

فهذه رتبة، وأقل منها أن لا يُخالطَ الفقيرَ الأغنياءَ ولا يرغب في مجالستهم؛ لأن ذلك من مبادئ الطمع، قال الثوري: إذا خالطَ الفقيرَ الأغنياءَ فاعلم أنه مرائي، فإذا خالطَ السلطانَ فاعلم أنه لص.

وأما أدبه في أفعاله فإن لا يفتُر بسبب الفقر عن عبادته، ولا يمنع بذل قليل

(١) ليست في الأصل، وأثبتت من الإحياء لتمام المعنى.

ما يَفْضَلُ عنه، فإن ذلك جهد المُقِلِّ، روى أبو ذر قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أيُّ الصدقةِ أفضل؟ فقال: «جهدٌ من مُقِلٍّ وسِرٌّ إلى فقيرٍ»<sup>(١)</sup>.

### بيانُ آدابِ الفقيرِ في قبولِ العطاءِ

#### إذا جاءه بغيرِ سؤالٍ

ينبغي أن يُلاحظَ الفقيرُ فيما جاءه ثلاثةُ أمورٍ: نفسَ المالِ، وعَرَضَ المُعْطِي، وعَرَضَهُ في الأخذِ.

أما نفسُ المالِ، فينبغي أن يكونَ حلالاً خالياً عن الشُّبُهاتِ كلها فإن كان فيه شُبُهَةٌ، فليتحررَ عن أخذِهِ، وقد ذكرنا في كتابِ الحلالِ والحرامِ درجاتَ الشُّبُهَةِ، وما يجبُ اجتنابه وما يستحبُ.

وأما عَرَضُ المُعْطِي فلا يخلو إما أن يكونَ عَرَضَهُ تَطْيِيبَ قَلْبِهِ وطلبَ محبته، وهو الهديةُ، أو الثوابُ، وهو الزكاةُ والصدقةُ، أو الرِّياءُ والسُّمعةُ، إما على التَّجَرُّدِ أو ممزوجاً ببقيةِ الأغراضِ.

فأما الأولُ: فهو الهديةُ، فلا بأسَ بقبولها، فإن قبولها سُنَّةٌ، ولكن ينبغي أن لا يكونَ فيها مِثَّةٌ، ولا تكونَ رِشوةً على حاجةٍ امتنعَ منها.

قيل لعمر بن عبد العزيز: لِمَ لا تَقْبَلُ الهديةَ وقد قَبِلَها رسولُ الله ﷺ؟ فقال: كانت لرسولِ الله ﷺ هديةً، وهي لنا رِشوةٌ. وقد كان النبي ﷺ يقول: «لقد هممتُ أن لا أَتَّهَبَ إلا من قُرْشِي أو ثَقْفِي أو دَوْسِي».

وقال بعضُ السلفِ: لا أطلبُ شيئاً إلا من سَرِي السَّقَطِي؛ لأنه قد صَحَّ عندي زُهده في الدنيا، فهو يَفْرَحُ بخروجِ الشَّيءِ من يَدِهِ وَيَتَبَرَّمُ ببقائه عنده، فأكونَ عوناً له على ما يحب.

وجاء خُرَاساني إلى الجُنَيْدِ بمالٍ، فقال له الجُنَيْدُ: متى أَعِيشُ حتى آكلَ هذا؟ فقال: ما أريدُ أن تُنْفِقَهُ في الخَلِّ والبَقْلِ بل في الطَّيباتِ. فقبل ذلك منه، فقال

(١) أخرجه ابن خزيمة ٩٩/٤، والحاكم ٥٧٤/١.

الخُرَاساني: ما أَحَدٌ ببغداد أَمَّنَ عَلَيَّ مِنْكَ. فقال الجُنَيْدُ: ولا يَنْبَغِي أن يُقْبَلَ إلا من مثلك.

وقد كان العلماء لا يأخذون أرفاقاً<sup>(١)</sup> مَنْ يُعَلِّمُونَهُ على ما ذكرنا في كتاب العلم. وأما الثاني: وهو أن يكون المقصود الثواب، فعليه أن ينظر في صفات نفسه هل هو مُسْتَحَقٌّ؟ فإن اشْتَبَهَ عليه، فهو في محل شُبُهَةٍ، وقد سبق تفصيل هذا في كتاب أسرار الزكاة، وإن كان صدقةً وكان يعطيه لدينه فليُنْظَرِ إلى باطنه، فإن كان مقارفاً لمعصية في السرِّ يعلم أن المعطي لو علم ذلك لَنَفَرَ طَبْعُهُ ولما تقَرَّبَ إلى الله بالتَّصَدُّقِ عليه، فهذا حرام أخذُه لو أعطاه لظنَّه أنه عالمٌ أو علوي ولم يكن.

الثالث: أن يكون غرضه الشُّهْرَةُ والرِّيَاءُ والسُّمْعَةُ فينبغي أن يردَّ عليه قصده الفاسد ولا يقبله؛ لأنه يكون مُعِيناً له على غرضه الفاسد، وعوتب بعضهم على رَدِّه ما كان يأتيه فقال: إنما أشفق عليهم لأنهم يتحدثون بذلك فتحبط أجورهم.

وأما غرضه في الأخذ، فينبغي أن ينظر أهو محتاجٌ إليه فيما لا بدَّ منه أو هو مُسْتَعْنٍ عنه، فإن لم يكن محتاجاً لم يأخذ، وإن كان محتاجاً وقد سلَّم من الشُّبُهَةِ والآفات التي ذكرناها في المُعْطِي فالأفضل له الأخذ. أنبأنا ابن الحُصَيْنِ قال: أنبأنا ابن المُذْهَبِ قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو اليمان قال: أخبرنا شُعَيْبُ عن الزُّهْرِيِّ قال: أخبرني السائبُ بنُ يزيد أن حُوَيْطِبَ بن عبد العُزَّى أخبره أن عبد الله بن السَّعْدِيِّ أخبره عن عُمر أن النبي ﷺ قال: «ما جاءك من هذا المال وأنت غير مُشْرِفٍ ولا سائلٍ فَخُذْهُ، وما لا فلا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ»<sup>(٢)</sup> أخرجاه في الصحيحين.

وفي حديث خالد بن عدي الجُهَنِيِّ عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ جَاءَهُ مِنْ أَخِيهِ مَعْرُوفٌ مِنْ غَيْرِ إِشْرَافٍ وَلَا مَسْأَلَةٍ، فَلْيَقْبَلْهُ وَلَا يَرُدَّهُ، فَإِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ سَأَقَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ»<sup>(٣)</sup>.

(١) الأرفاق: الهدايا والأشياء النافعة التي يُرْتَفَقُ بها ويُسْتَفَع.

(٢) أخرجه البخاري (٧١٦٣)، ومسلم (١٠٤٥) (١١١)، وأحمد (١٠٠).

(٣) أخرجه أحمد (١٧٩٣٦) و(٢٤٠٠٩) (١١).

## بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطرّ فيه

اعلم أنه قد وردت مناه في السؤال وتشديدات، وورد فيه ترخيص، فروى أبو داود في سننه من حديث الحسين بن علي عن النبي ﷺ أنه قال: «للسائل حقّ، وإن جاء على فرس»<sup>(١)</sup>. ومن حديث أمّ بجيد أنها قالت: يا رسول الله، إن المسكين ليقوم على بابي فما أجد له شيئاً أعطيه إياه فقال: «إن لم تجدي له شيئاً إلا ظلماً مُحَرَّقاً، فادفعه إليه»<sup>(٢)</sup>.

ولو كان السؤال حراماً مطلقاً لما جاز إعانة المعتدي على عدوانه، والإعطاء إعانة، وكشف الغطاء في هذا أن نقول: السؤال حرام في الأصل، وإنما يُباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة، فإن كان عنها بُدّ فهي حرام، وإنما قلنا: إن الأصل فيه التّحريم؛ لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة:

الأول: إظهار الشكوى من الله تعالى، إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله عنه، وهو عين الشكوى، وكما أن العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تشنيعاً على سيده، فكذا سؤال العباد تشنيع على الله تعالى، وهذا ينبغي أن يحرم ولا يحلّ إلا بضرورة، كما تحل الميتة.

والثاني: أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى، وليس للمؤمن أن يذلّ نفسه لغير الله، بل عليه أن يذلّها لمولاه، فإن فيه عزّه، فأما جميع الخلق فإنهم عباد مثله. فلا ينبغي أن يذلّ لهم إلا بضرورة، وفي السؤال ذلّ للسائل بالإضافة إلى المسؤول.

والثالث: أنه ينفك عن إيذاء المسؤول غالباً؛ لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبدل عن طيب قلب منه، فإن بذلّ حياءً من السائل أو رياءً، فهو حرام على الآخذ، وإن منع ربما استحيا وتأذى في نفسه بالمنع إذ يرى نفسه في صورة البخلاء، ففي البدل

(١) أخرجه أحمد (١٧٣٠)، وابن خزيمة (٤٦٨)، وأبو يعلى (٦٧٨٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧١٥٠)، وأبو داود (١٦٦٧)، والترمذي (٦٦٥)، وابن حبان (٣٣٧٣).

نقصان ماله، وفي المنع نقصان جاهه، وكلاهما مؤذٍ والسائل هو السبب في الإيذاء، والإيذاء حرام إلا بضرورة.

وإذا فهمت هذه المحذورات الثلاث فهمت ما ورد من الأحاديث في ذم المسألة مثل ما أخبرنا به هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا إسماعيل قال: حدثنا معمر عن عبد الله بن مسلم أخي الزهري عن حمزة بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله عز وجل وليس في وجهه مزعة لحم» أخرجاه في الصحيحين<sup>(١)</sup>.

وفيهما من حديثه أيضاً عن النبي ﷺ أنه ذكر التّعطف عن المسألة فقال: «اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا المنفقة، والسفلى السائلة»<sup>(٢)</sup>.

وفيهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لأن يَحْتَطَبَ أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه»<sup>(٣)</sup>.

وفيهما من حديث حكيم بن حزام قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى». قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أزرأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا. فكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يدعو حكيماً ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئاً، ثم إن عمر دعاه ليعطيه فأبى أن يقبله، فقال: يا معشر المسلمين، إنني أعرض عليه حقه الذي قسم الله له من هذا القيء فيأبى أن يأخذه.

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠)، وأحمد (٤٦٣٨)، وقوله: «مزعة لحم»، أي: القطعة اليسيرة من اللحم، والمراد أنه يجيء ذليلاً لا جاه له ولا قدر، أو أنه يعذب حتى يسقط لحم وجهه، وذلك لأنه صرف ماء وجهه بسؤال الناس.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦١) و(١٤٠٣)، ومسلم (١٠٣٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٧٠) و(٢٠٧٤) و(٢٣٧٤)، ومسلم (١٠٤٢) و(١٠٧).

فلم يَزْرَأَ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى تُوْفِّيَ<sup>(١)</sup>.

وفي أفراد مسلم من حديث قبيصة بن المخارق قال: حُمِلْتُ حَمَالَةً<sup>(٢)</sup> فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلْتُهُ فِيهَا فَقَالَ: «أَقِمِ حَتَّى تَأْتِنَا الصَّدَقَةَ، فَإِمَّا أَنْ نَحْمِلَهَا، وَإِمَّا أَنْ نُعِينِكَ فِيهَا» وَقَالَ: «إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ: لِرَجُلٍ تَحْمَلُ حَمَالَةً قَوْمٌ فَسَأَلَ فِيهَا حَتَّى يُؤَدِّيَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ<sup>(٣)</sup> اجْتَاخَتْ مَالَهُ، فَيَسْأَلُ فِيهَا حَتَّى يُصِيبَ قَوْمًا مِنْ عَيْشٍ أَوْ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ، ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَيَسْأَلُ حَتَّى يُصِيبَ قَوْمًا مِنْ عَيْشٍ أَوْ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ ثُمَّ يُمْسِكُ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْمَسَائِلِ يَا قَبِيصَةَ سُحَّتْ يَأْكُلُهُ صَاحِبُهُ سُحْتًا»<sup>(٤)</sup>.

وفي حديث سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْمَسْأَلَةَ كَذُّ يَكْذُ بِهَا الرَّجُلُ وَجَهَّهُ إِلَّا أَنْ يَسْأَلَ الرَّجُلُ سُلْطَانًا، أَوْ فِي أَمْرٍ لَا بَدَّ مِنْهُ»<sup>(٥)</sup>. قَالَ الْخَطَّابِيُّ: الْمَعْنَى: أَنْ يَسْأَلَ السُّلْطَانَ حَقَّهُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ اسْتِبَاحَةَ مَا تَحْوِيهِ يَدُ السُّلْطَانِ مِنَ الْعُصُوبِ.

وفي حديث حُبْشِيِّ بْنِ جُنَادَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ سَأَلَ مِنْ غَيْرِ فَقِيرٍ، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الْجَمْرَ»<sup>(٦)</sup>.

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُعْنِيهِ جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُدُوشًا أَوْ كُدُوحًا فِي وَجْهِهِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ،

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٢) و(٢٧٥٠) و(٣١٤٣) و(٦٤٤١)، ومسلم (١٠٣٥) (٩٦)، وأحمد (١٥٥٧٤) وقوله: «لا أرزأ» أي: لا آخذ من أحدٍ شيئاً، وأصل الرزء النقصان، أي أنه لم ينقص أحداً شيئاً بالأخذ منه.

(٢) أي تكفلت مالا لإصلاح ذات البين، قال الخطابي: الحماله: هي أن يقع بين القوم تشاحن في الدماء والأموال، ويخاف من ذلك فتن عظيمة، فيتوسط الرجل بينهم لإصلاح ذات البين، ويضمن لهم ما يرضيهم دفعا للفتنة.

(٣) الجائحة: الآفة تُصيب مال الإنسان.

(٤) أخرجه مسلم (١٠٤٤)، وأحمد (١٥٩١٦) و(٢٠٦٠١)، وأبو داود (١٦٤٠).

(٥) أخرجه الترمذي (٦٨١)، وأبو داود (١٦٣٩)، وابن حبان (٨٤٢).

(٦) أخرجه أحمد (١٧٥٠٨).

وما غناه؟ قال: «خمسونَ درهماً أو حسابها من الذهب»<sup>(١)</sup>.

وروى ثوبان عن النبي ﷺ: «مَنْ يَتَقَبَّلْ لِي بِوَاحِدَةٍ وَأَتَقَبَّلْ لَهُ بِالْجَنَّةِ؟» قال: قلتُ: أنا. قال: «لَا تَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئاً». فكان ثوبان يَقْعُ سَوَطَهُ وَهُوَ رَاكِبٌ فَلَا يَقُولُ لِأَحَدٍ: نَاوِلْنِي حَتَّى يَنْزِلَ فَيَتَنَاوَلَهُ<sup>(٢)</sup>.

وقال ابنُ أبي مُليكة: ربما سَقَطَ الخِطَامُ من يَدِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، فيضربُ بذرَاعِ نَاقَتِهِ فَيُنِيخُهَا، فيأخذُه. قالوا له: هلا أمرتنا نناولُكَه؟ فقال: إنَّ حبيبي ﷺ أمرني أن لا أسألَ النَّاسَ شَيْئاً.

وقال الحسن: لا تَزَالُ كريماً على النَّاسِ ولا يزال النَّاسُ يُكرمونك ما لم تعاطَ ما في أيديهم، فإذا فعلتَ ذلك استخفوا بك، وكرهوا حديثك وأبغضوك.

وسمع عمرُ بن الخطاب سائلاً بعد المغرب، فقال لبعض أصحابه: عَشَّ الرَّجُلُ. فعشاه، ثم سمعه ثانياً يسأل، فقال: أَلَمْ أَقُلْ: عَشُّوا الرَّجُلَ؟! فقالوا: قد عَشَّيناه. فنظر عمرُ فإذا تحت يده مِخْلَاةٌ مَمْلُوءَةٌ خُبْزاً، فقال: لست سائلاً ولكنك تاجر. (ثم أخذ المِخْلَاةَ ونثرها بين يدي إبل الصدقة وضربه بالذرة. ومثل<sup>(٣)</sup> هذا يَقْفُ في فهمه مَنْ قَلَّ فِقْهَهُ فيقول: أَمَا ضَرْبُهُ لِلتَّأْدِيبِ فَحَسَنٌ، فأما المِصَادِرَةُ بأخذ المال فكيف استجازها؟

والجواب: أن عمر رضي الله عنه رآه مُسْتَعْنِياً عن السُّؤال، وعلم أن مَنْ أعطاه إنما أعطاه على اعتقاد أنه مُحْتَاج، وقد كان كاذباً، فلم يدخل ما أخذ في ملكه بأخذه مع التَّلْبِيسِ، ولَمَّا عَسَرَ تَمييز ما أخذه وهو مُسْتَحَقُّ له وما أخذه بعد ذلك، وَعَسَرَ رُدُّهُ إلى الصَّحَابَةِ إذ لا يُعْرَفُ أصحابُه بأعيانهم، بقي مالا لا مالك له، فوجب صَرْفُهُ إلى المصالح، وَعَلَفُ إِبِلِ الصَّدَقَةِ من المصالح، ويُنزَلُ أَخْذُ السَّائِلِ مع إظهار الحاجة كاذباً منزلةً أَخْذِ العَلْوِيِّ بقوله: أنا عَلْوِي. وهو كاذب، فإنه لا يملك

(١) أخرجه أحمد (٣٦٧٥)، وأبو داود (١٦٢٦)، والترمذي (٦٥١)، والكدوح والخدوش: آثار الخدش والقشر.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٣٨٥)، والطيالسي (٩٩٤).

(٣) سقط من الأصل، واستدرك من الإحياء.

ما يأخذه، وكأخذ الذي يُعطى لصلاحه وهو في الباطن مُقارِفٌ لمعصيةٍ لو عَرَفَهَا المُعطي ما أعطاه.

وإذ قد عرفت أن السؤال يُباح لضرورة، فاعلم أن الشيء إنما يكون مضطراً أو محتاجاً إليه حاجة مهمة، أو حاجة خفيفة، أو مُستغنى عنه، فهذه أربعة أحوال:

أما المضطّر إليه، فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً أو مرضاً، وسؤال العاري وبدنه مكشوف ليس له ما يُواريه، وهو مباح متى ما وجد بقية الشروط في المسؤول بكونه مباحاً، والمسؤول منه بكونه راضياً في الباطن، وفي السائل بكونه عاجزاً عن الكسب، فأما من له خطٌّ فهو قادرٌ على الكسب بالوراقة<sup>(١)</sup>.

وأما المستغني، فهو الذي يطلب شيئاً وعنده مثله، فهذا لا يجوز.

وأما المحتاج حاجة مهمة، كمن له جبةٌ ولا قميص تحتها في الشتاء، فهو يتأذى بالبرد تأدياً لا ينتهي إلى حدِّ الضرورة، وكذلك من يسأل أجره الكراء<sup>(٢)</sup> وهو قادرٌ على المشي بمشقة، فهذا سؤال مباح إلا أن تركه أولى.

وأما الحاجة الخفيفة، فمثل سؤاله الأدم وهو واجدٌ للخبز، وسؤال الرجل المحمّل وهو قادرٌ على الرحلة، فهذا مباح مع الكراهة.

وينبغي في مثل هذه المسألة إن يظهر الشكر لله تعالى، ولا يسأل سؤال محتاج بل يقول: أنا مستغن بما أملكه، وإنما رعونته النفس تُطالبني بالأدم. فيخرج بهذا من حدِّ الشكوى، ويسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي لا ينقص بذلك في عينه أو السخّي الذي قد أعدّ ماله للمكارم، فيخرج بذلك من الذل، ولا يُعيّن شخصاً بالسؤال؛ بل يُلقي الكلام بين جماعة فيخرج بذلك من الإيذاء، إلا أن يكون في الجماعة مرموق بالمال فربما بذل خوفاً من الملامة، فإن أخذ ممن يعلم أن باعث الحياء منه أو من الحاضرين حثه على إعطائه لم يجز له الأخذ؛ حكم هذا حكم أخذه المال بالمصادرة، إذ المصادرة تكون بضرب الجلد، وهذا ضربٌ لباطن القلب

(١) الوراقة: مهنة الوراقين وهي النسخ.

(٢) أي أجره كراء دابة يركبها.

بسَوِّطِ الحياءِ وخوفِ اللُّومِ، ولا يجوز أن يُقال: هذا قد رَضِيَ في الظاهر. لأن هذا فيما بين العبدِ وبين الله تعالى، والله تعالى هو الحاكم فيه، بخلاف الحكام الذين يحكمون بالظاهر؛ لأنهم لا يَطلعون على البواطن وفي مثل هذا قال ﷺ: «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ»<sup>(١)</sup>. وما أخذه على هذا الوصف لا يملكه، ويجب عليه رَدُّه إلى صاحبه، فإن علم أن المُعْطِي يَسْتَحِي أن يَسْتَرِدَّهُ أثنابه بقدر قيمته في معرض الهدية، فإن لم يقبل هديته ومات ردَّ ذلك إلى وَرَثَتِهِ.

### بيان مقدار الغنى المنحصر للسؤال

قد رَوينا أنفاً عن النبي ﷺ ذمَّ من يسأل مع الغنى، وإنما المُشْكِلُ حَدُّ الغِنَى، وقد أشرنا في كتاب الزكاة إلى وَصْفِ الفَقِيرِ وحاجاته، إلا أننا نقول ها هنا: لا يجوز للفقر أن يسأل إلا مقدار ما يحتاج إليه من بيت يَكُنُّهُ، وثوب يَسْتُرُهُ، وطعام يُقِيمُهُ، ويُراعي في هذه الأشياء الثلاثة ما يدفع الزمان من غير تَشَوُّفٍ في شيء من ذلك، فإن كان يعلم أنه يَجِدُ من يسأله كل يوم لم يَجُزْ له أن يسأل أكثر من قوتِ يومه وليلته، فإن خاف أن لا يجد من يُعْطِيهِ، أو خاف أن يعجز عن السؤال أُبِيحَ له السؤال، وإن كان أحد هذين الخوفين ضَعِيفاً وقعت الكراهة.

ولا يجوز له في الجملة أن يسأل فوق ما يكفيهِ لِسَنَّتِهِ، وعلى هذا ينزل الحديث الذي رَويناه وفيه التَّقْدِيرُ بملكِ خَمْسِينَ درهماً؛ لأنها تكفي المُنفرد المُقْتَصِدَ لِسَنَةٍ، فأما ذو العائلة، فلا.

### بيان أحوال السائلين

كان بشر الحافي يقول: الفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل، وإن أُعْطِيَ لا يأخذ، فذاك من الرُّوحانيِّين، وفقير لا يسأل، وإن أُعْطِيَ أخذ، فذاك من أهل حَظِيرَةِ القُدْسِ، وفقير إذا احتاج سأل، فكفارة مسأله صدقة في السؤال.

(١) وهو قوله ﷺ لوابصة بن معبد، أخرجه أحمد (١٨٠٠١) و(١٨٠٠٥).

قلتُ: وفَصَلُ الخِطابُ أَنه متى قَدَرَ الفقيرُ على دَفْعِ الزَّمانِ من غيرِ سُؤالٍ لم يَجْزُ له أن يَسْأَلَ، فَإِن كان يَندفعُ على مَضَضٍ نَظَرْتُ، فَإِن كان مثلهُ يُحْتَمَلُ ولا يُخافُ منه التَّلَفُ، فالسؤالُ مُباحٌ، وَتَرَكَهُ فَضيلةٌ، وَإِن كان مثلهُ لا يُحْتَمَلُ، وَجَبَ عليه أن يَسْأَلَ، قالَ سُفيانُ الثَّوري: مَنْ جاعَ فلم يَسْأَلَ حتى ماتَ دَخَلَ النَّارَ.



## الشَّطْرُ الثَّانِي

### من الكتاب في الزُّهد

وفيه بيان حقيقة الزهد وبيان فضيلة الزهد وبيان درجات الزهد وأقسامه وبيان تفصيل الزهد في المطعم والمسكن والأثاث وأسباب المعيشة وبيان علامة الزهد

#### بيان حقيقة الزهد

اعلم أنَّ الزهدَ في الدنيا مقامٌ شريف من مقامات السالكين، وينتظم هذا المقام من علمٍ وحالٍ وعملٍ، كسائر المقامات، فلنذكر الحال مع طرفيه من العلم والعمل: أما الحال، فنعني بها ما يُسمى زهداً، وهو عبارة عن انصراف الرِّغبة عن الشَّيء إلى ما هو خَيْرٌ منه، فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يُسمَّى زهداً، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى رغبةً وحُباً.

فإذن يَستدعي حالُ الزهد مرغوباً عنه ومرغوباً فيه بوجهٍ من الوجوه، فمن رغب عمّا ليس مطلوباً في نفسه لم يُسمَّ ذلك زهداً، كما لا يُسمَّى تاركُ الثَّرابِ زاهداً. وشرطُ المرغوبِ فيه أن يكون عنده خيراً من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة.

وقد جرت العادة بتخصيص اسم الزاهد بمن يزهد في الدنيا، فمن زهد في كل شيء ما سوى الله تعالى فهو الزاد الكامل، ومن زهد في الدنيا مع رغبته في الجنة ونعيمها، فهو أيضاً زاهد، ولكنه دون الأول، فأما من ترك بعض حُظوظ الدنيا دون بعض، كالذي يترك التَّوسُّع في الأكل، ولكنه لا يترك التَّزين باللباس، فإنه لا يَستحق اسمَ الزاهد مطلقاً، ودرجته في الزُّهاد درجة من يتوب من بعض المعاصي وهي توبة صحيحة، وهذا زهد صحيح.

وكما يُشترط في المرغوب فيه أن يكون خيراً عنده، فيُشترط في المرغوب عنه أن يكون مقدوراً عليه، ولذلك قال مالك بن دينار: إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز، قدر على الدنيا فتركها.

وأما العلم الذي هو المثمر<sup>(١)</sup> لهذه الحال، فهو العلم بكون المتروك حقيقياً بالإضافة إلى المأخوذ، كعلم التاجر بأن العوض خير من المبيع، وما لم يتحقق هذا العلم لا يتصور أن تزول الرغبة عن المبيع، فمن عرف أن الدنيا كالثلج تذوب والآخرة كالدرّ تبقى قويت رغبته في بيع هذه بهذه، وقد يعلم هذا من لا يقدر على ترك الدنيا إما لضعف علمه ويقينه، أو لاستيلاء الشهوة في الحال عليه، وكونه مقهوراً في يد الشيطان، أو للاغترار بالتسويق.

وقد دلّ على حساسة الدنيا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] وعلى نفاسة الآخرة قوله: ﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [القصص: ٨٠].

واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذل المال على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل استحالة القلوب وطلب المدح لا على سبيل الطمع فذلك كله من محاسن العبادات.

ومن الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة.

### بيان فضيلة الزهد

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُقْلَقُهَا إِلَّا الَّذِينَ ظَنُّوا﴾ [القصص: ٧٩-٨٠] فنسب الزهد إلى العلماء، ووصف أهله بالعلم، وهو غاية الثناء، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]. قيل: معناه: أيهم أزهد فيها. وقال تعالى: ﴿لَا تَمْدِنْ عَيْنِكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

(١) في الأصل: «المبين»، والمثبت من الإحياء.

وأما الأخبار: فقد ذكرنا ما ورد في ذم الدنيا في كتاب ذمها من رُب المهلكات، ونحن الآن نقتصر على فضيلة بُغض الدنيا والزهد فيها، قال النبي ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الدُّنْيَا فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الْآخِرَةُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ هَمَّهُ، وَحَفِظَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ». وقال: «أزهد في الدنيا يحبك الله». فجعل الزهد سبباً للمحبة وهي أعلى الدرجات، وسئل عليه الصلاة والسلام عن علامة شرح الصدر فقال: «التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ». وقال لعائشة: «إِنْ أَرَدْتَ اللَّحَاقَ بِي فَلْيَكْفِيكَ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّكْبِ، وَلَا تَسْتَخْلِقِي ثَوْباً حَتَّى تَرْقِعِيهِ، وَإِيَّاكَ وَمَجَالِسَةَ الْأَغْنِيَاءِ». وقال لحارثة: «مَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟» فقال: «عَزَفْتُ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، فَاسْتَوَى عِنْدِي حَجَرُهَا وَمَدْرُهَا.

وقال عيسى ابن مريم: لَا تَطْلُبُوا الدُّنْيَا تَهْلِكُوا أَنْفُسَكُمْ، اطْلُبُوا الدُّنْيَا بَتَرَكَ مَا فِيهَا، عُرَاةٌ دَخَلْتُمُوهَا، وَعُرَاةٌ تَخْرُجُونَ مِنْهَا، كَفَى الْيَوْمَ هَمَّهُ، وَغَدَاً رَاحِلَ بَشْغَلِهِ.

وقيل لعيسى عليه السلام: لو اتخذت بيتاً. قال: يكفيني خلقان من كان قبلنا. وقيل له: لو اتخذت حماراً تركبه لحاجتك. قال: أنا أكرم على الله من أن يجعل لي شيئاً يشغلني.

وقد علمت حال رسول الله ﷺ في زُهدِهِ فِي الدُّنْيَا وَصَبْرِهِ عَلَى الْجُوعِ وَاخْتِيَارِهِ الْفَقْرَ، وَكَذَلِكَ أَحْوَالِ أَصْحَابِهِ فِي زُهْدِهِمْ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: أَنْتُمْ أَطْوَلُ اجْتِهَاداً وَأَكْثَرُ صَلَاةً، وَكَانُوا خَيْرًا مِنْكُمْ. قِيلَ: بِمَ؟ قَالَ: كَانُوا أَزْهَدَ فِي الدُّنْيَا وَأَرْغَبَ فِي الْآخِرَةِ مِنْكُمْ.

وقال أبو ذر: إني لأقربكم مجلساً من رسول الله ﷺ يوم القيامة؛ وذلك أني سمعته يقول: «إِنَّ أَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ خَرَجَ بِهَيْئَةٍ مَا تَرَكَتْهُ فِيهَا» وإنه والله ما منكم أحد إلا وقد تشبث منها بشيء.

وجاء إليه حبيب بن مسلمة بثلاث مئة دينار، فردّها وقال: ما أحد أغنى بالله

منا، ما لنا إلا ظل يتوالى، وثُلَّةٌ من غَنَمِ تَرَوْحَ عَلَيْنَا، وَمَوْلَاةٌ لَنَا تَصَدَّقَتْ عَلَيْنَا بِخِدْمَتِهَا، ثم إنني لَأَتَخَوَّفُ الْفَضْلَ.

وقال الحسن: أدركتُ أقواماً ما كانوا يفرحون بشيءٍ من الدنيا أقبَل، ولا يأسفون على شيءٍ منها أدبَر، ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب، كان أحدهم يعيش خمسين سنةً وستين سنةً لم يُطوِّ له ثوب، ولم يأمر أهله بصنعة طعام.

وقال الحسن: يُحشِّرُ الناسَ كلَّهم عُراةً، ما خلا أهل الزهد.

وقال: إنَّ أقواماً أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخُشب، فأهينوها، فأهناً ما تكون إذا أهنتُموها.

وقال أبو واقد الليثي: تابَعنا الأعمالَ فلم نجد شيئاً أبلغ في طلب الآخرة من الزهد في الدنيا.

وقال عبد الله بن عتبة: أتريدون أن أكتب لكم الخير كله في ظفري قالوا: نعم قال: الزهد في الدنيا.

وقال رجل لسُفيان: أشتهي أن أرى عالماً زاهداً. قال: تلك ضالَّةٌ لا توجد.

وقال الفضيل: جُعِلَ الشَّرُّ كُلُّهُ في بيت، وجُعِلَ مفتاحه حُبُّ الدنيا، وجُعِلَ الخير كله في بيت، وجُعِلَ مفتاحه الزُّهد.

وقال يوسف بن أسباط: أشتهي ثلاث خصال: أن أموتَ وليسَ في ملكي درهم، ولا عليَّ دين ولا على عظمي لحم. فأعطي ذلك كله.

وكان بعضُ السلف يقول: الزهد في الدنيا يُريحُ القلبَ والبدنَ، والرغبة فيها تكثر الهَمُّ والحُزن.

### بيان درجات الزهد

وأقسامه بالإضافة إلى نفسه وإلى المرغوب عنه وإلى المرغوب فيه

اعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث.

الدرجة الأولى: وهي السفلى، أن يزهد في الدنيا وهو لها مُشتته، وقلبه إليها

مائل، ولكنه يُجاهد نفسه ويكفها، ولهذا يُسمَّى: المُتَزَهِّد، وهو مبدأ الزُّهد، فإن المتزهد يُذِيبُ أولاً نفسه ثم كَيْسَه، والزاهد يُذِيبُ أولاً كَيْسَه ثم يُذِيبُ نفسه في الطاعة لا في الصبر على ما أخرجه.

الدرجة الثانية: أن يترك الدنيا طوعاً لاحتقاره لها بالإضافة إلى ما طمع فيه، كالذي يترك درهماً لأخذ درهمين، فإنه لا يشق عليه ذلك، إلا أن هذا يرى زُهده ويلتفت إليه، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه، فيكاد تُعجبه نفسه وزُهده، ويرى أنه قد ترك شيئاً له قَدْرٌ لما هو أعظم قدراً منه، وهو أيضاً نُقصان.

الدرجة الثالثة: وهي العليا، أن يزهد طوعاً، وأن يزهد في زُهده، فلا يرى زُهده إذ لا يرى أنه ترك شيئاً؛ لأنه قد عرف أن الدنيا ليست بشيء، فيكون كمن ترك خَزَفَةً وأخذ جَوْهَرَةً، فلا يرى ذلك مُعَاوَضَةً، ولا يرى نفسه تاركاً شيئاً، والدنيا بالإضافة إلى نعيم الآخرة أحسن من خَزَفَةٍ بالإضافة إلى جَوْهَرَةٍ، فهذا هو الكمال في الزُهد، وسببه كمال المعرفة، ومثل هذا يأمن الالتفات إلى الدنيا كما يأمن بائع الخَزَفَةِ بالجوهرة طلب الإقالة في البيع.

قال أبو يزيد لبعض أصحابه: في أي شيء تتكلم؟ قال: في الزُهد في الدنيا. فقال: ظننتك تتكلم في شيء، الدنيا ليست بشيء.

## فصل

واعلم أن مثل من ترك الدنيا مثل من منعه عن باب الملك كلب على بابه، فألقى إليه لُقْمَةً من خبز، فشغله بذلك ودخل، فقرب من الملك، أفترأه يرى لنفسه يداً عند الملك بلُقْمَةٍ حين ألقاها إلى كلبه في مقابلة ما قد ناله؟ فالشيطان كلب على باب الله عز وجل يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع، والدنيا كلُقْمَةٍ إن أكلتها فلذتُّها في حال المَضغ ثم تنقضي بالابتلاع، ثم يبقى ثقلها على المعدة ثم تنتهي إلى التئن ثم تفتقر إلى خروج ثقلها، فمن تركها لينال عز الملك فكيف يلتفت إليها؟ ثم نسبتُها، أعني ما يسلم لكل شخص منها ولو عمراً بألف سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة أقل من لُقْمَةٍ بالإضافة إلى ملك الدنيا، بل

أقل؛ لأن الفاني لا نسبة له إلى الباقي كيف ومدة العمر قصيرة، ولذات الدنيا مكدرة، فإذا لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى ما زهد فيه، ولا يلتفت إلى ما زهد فيه إلا لأنه يراه شيئاً معتداً به، ولا يراه شيئاً معتداً به إلا لقصور معرفته فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة.

فهذا تفاوت درجات الزهد، ولكل درجة من هذه درجات إذ تصبر المتزهد يتفاوت باختلاف قدر المشقة في الصبر، وكذلك درجة المعجب بزهده في قدر التفاته إلى زهده.

### فصل

وأما انقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه، فعلى ثلاثة درجات:

أحدها: الزهد للنجاة من العذاب والحساب والأهوال التي بين الأدمي، وهذا زهد الخائفين، ولقد رضوا بالعدم لو أعدموا ليتخلصوا من الآلام.

والدرجة الثانية: الزهد للرجبة في الثواب والتعظيم الموعود به، وهذا زهد الراجين فإن هؤلاء تركوا نعيماً لنعيم.

الدرجة الثالثة: وهي العليا، وهو أن يزهد في الدنيا لا للتخلص من الآلام ولا للرجبة في نيل اللذات، بل لطلب لقاء الله تعالى، وهذا زهد المحبين العارفين، فإن لذة النظر إلى الله تعالى بالإضافة إلى لذات الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء عليها كلها بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عُصفورٍ واللعب به.

### فصل

فأما انقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب عنه، فيتنوع، وحاصله: أن الزهد عبارة عن الرجبة عن حظوظ النفس كلها، وقد تكلم الناس فيه فكلُّ أشار إلى بعض أقسامه، فبعضهم يقول: الزهد في الدنيا من الزهد في الناس. وهذا إشارة إلى الزهد في الجاه خاصة.

وقال بعضهم: الزهد التواضع. وهذا إشارة إلى نفي الجاه والعجب، وقال بعضهم: الزُّهُدُ القَنَاعَةُ. وهذا إشارة إلى المال.

وقال الثَّوْرِي: هو قَصْر الأمل، وهذا جامع لجميع الشهوات، فإن من يميل إلى الشَّهَوَات يُحَدِّث نفسه بالبقاء فيطولُ أمله، ومن قصر أمله فكأنما رغب عن الشَّهَوَات كلها.

واعلم أن الزهد تَرَكَ ما ليس بضرورة في قِوَام النَّفْس، فمن أخذ ما يُبْلِغُه كان كمن أعطى الناقَةَ عَلفَها، ولا يجوزُ الزهد في مثل ذلك إلا أن يكون بعض ما يبلغ ينوب عن بعضٍ في الأرفع والألذ.

### بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات<sup>(١)</sup> الحياة

المهمات الضرورية سبعة أشياء: المطعم، والملبس، والمسكن، وأثاثه، والمنكح، والمال، والجاه.

فأما الأول هو المطعم: فاعلم أن هِمَّةَ الزاهد منه ما يدفع به الجوع مما يوافق بدنه من غير قصد الالتذاز، قال ﷺ: «إنَّ عبادَ الله ليسوا بالمتنعِّمين».

وأخبرنا ابنُ الحُصَيْن قال: أنبأنا ابنُ المذْهَب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا حُسين بن محمد قال: حدثنا محمد بن مُطَرَف عن أبي حازم عن عروة أنه سَمِعَ عائشة تقول: كان يَمُرُّ بنا هلالٌ وهلالٌ ما يُوقَدُ في بيتٍ من بيوتِ رسولِ الله ﷺ نارٌ. قلتُ: يا خالَةَ، فعلى أي شيء كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين: التمرِ والماءِ<sup>(٢)</sup>.

قال حُسين: وحدثنا دُويد عن أبي سهل عن سُلَيْمان بن رومان مولى عروة عن عروة رضي الله عنها أنها قالت: والذي بعثَ محمداً ﷺ بالحق ما رأى منخلًا

(١) تحرفت في الأصل إلى: «ضروباً»، والمثبت من الإحياء.

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٤٢٠) و(٢٤٥٦١)، وابن المبارك في الزهد (٩٦٩)، والطيالسي (١٤٧٢)، وابن سعد ٤٠٦/١. وأخرجه البخاري (٢٥٦٧) و(٦٤٥٩)، ومسلم (٢٩٧٢)

(٢٨) عن أبي حازم عن يزيد بن رومان عن عروة بأطول مما هنا.

ولا أكل خبزاً منخولاً منذ بعثه الله عز وجل إلى أن قبض. قلت: كيف كنتم تأكلون الشعير؟ قالت: كنا نقول: أف.

أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا السرخسي قال: أخبرنا الفيربري قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا قتيبة قال: حدثنا يعقوب عن أبي حازم قال: سألت سهل بن سعد فقلت له: هل أكل رسول الله ﷺ النقي؟ فقال سهل: ما رأى رسول الله ﷺ من حين ابتعثه الله حتى قبضه الله. فقلت: هل كانت لكم في عهد رسول الله ﷺ مناخيل؟ قال: ما رأى رسول الله ﷺ من حين ابتعثه الله تعالى حتى قبضه الله. قلت: كيف كنتم تأكلون الشعير غير منخول؟ قال: كنا نطحنه وننفضه فيطير ما طار وما بقي ثريناه فأكلناه<sup>(١)</sup>.

وقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال: «شراؤ أمتي الذين ولدوا في النعيم وغدوا به، إنما همتهم ألوان الطعام، والثياب، ويتشددون في الكلام».

وقد كان جمهور الزهاد يحرصون مطاعمهم إما للعادة، وإما لأن أبدانهم تحتمل، وكان فيهم من لا يطيق ذلك، وكان الثوري حسن المطعم، وربما سافر وفي سفرته الحمل المشوي والفالودج. وفي الجملة فالزاهد يقصد ما يصلح بدنه، ولا يريد التعم، إلا أن الأبدان تختلف، فمنها ما لا يحتمل التخشن.

## فصل

وقد يدخر الزاهد الحلال يتقوته<sup>(٢)</sup>، فلا يخرج ذلك من الزهد، فقد كان السبتي يعمل من السبت إلى السبت ويتقوته إلى السبت.

وورث داود الطائي عشرين ديناراً فأنفقها في عشرين سنة.

وأما الثاني: وهو الملبس، فإن الزاهد يقتصر فيه على ما يدفع الحر والبرد،

(١) أخرجه البخاري (٥٤١٠) و(٥٤١٣)، وأحمد (٢٢٨/٤)، والترمذي (٢٣٦٤). والنقي:

الديق الأبيض وهو لباب الديق، وثريناه: أي بللناه بالماء.

(٢) أي يتخذة قوتاً.

وَيَسْتُرُ العورة، ولا بأس أن يكون فيه نوع تَجْمُلُ لئلا يُخرجه التَّشْفُفُ إلى الشُّهرة، وقد كان أكثر لباس السَّلَفِ حَسَنًا، فصار لبس الحَسَنِ اليوم شُهرة، أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا إسماعيل قال: حدثنا أيوب عن حميد بن هلال عن أبي بُردة قال: أَخْرَجَتْ إلينا عائشةُ كساءً مُلَبَّدًا وإزاراً غَلِيظًا، فقالت: قُبِضَ رسولُ اللهِ ﷺ في هذَيْن. أخرجاه في الصَّحِيحَيْنِ<sup>(١)</sup>.

أخبرنا علي بن عبيد الله وإسماعيل بن أحمد قالا: أخبرنا ابن الثَّور قال: أخبرنا عيسى بن علي قال: أخبرنا البَغَوِيُّ قال: حدثنا نُعَيْم بن الهَيْصم قال: حدثنا جعفر بن سُلَيْمان عن مالك بن دينار عن الحسن قال: حَطَبَ عمرُ النَّاسَ وهو خليفة وعليه إزارٌ فيه اثنتا عشرة رُقعة.

وقد قال عليُّ رضي الله عنه لعمر: إن أردت أن تلحقَ صاحبك فاقصر الأمل، وكُلْ دُونَ الشَّعْبِ، وارْقِعِ القَمِيصَ، ونَكِّسِ الإزارَ، واخْصِفِ النَّعْلَ تَلْحَقْ بهما. وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يلبس ثوباً قد اشتراه بثلاثة دراهم، واشترى مرةً ثوبين غَلِيظين خَيْرَ قَنْبَرٍ<sup>(٢)</sup> أحدهما، وعبت في لباسه، فقال: هو أدنى إلى التَّواضع وأجدر أن يَحْتَدِي بي المُسلم.

وقيل لسلمان الفارسي: ما لك لا تلبس الجَيْدَ من الثياب؟ فقال: ما للعبد وللثوبِ الحَسَنِ، فإذا أعتقَ فله والله ثيابٌ لا تَبْلَى أبداً.

وقال رجاء بن حَيوة: كانَ عمر بن عبد العزيز من أعطي النَّاسِ، وألبس النَّاسِ، وأخيلهم<sup>(٣)</sup> في مِشِيته، فلما استخلف قوموا ثيابَه باثني عشر درهماً؛ كُمِّيهِ وَعِمَامَتَهُ، وقَمِيصَهُ، وَقَبَاءَهُ<sup>(٤)</sup>، وقُرْطَقَهُ، وحُقِّيهِ، ورداءَهُ.

(١) أخرجه البخاري (٥٨١٨)، ومسلم (٢٠٨٠) (٣٥)، وأحمد (٢٤٠٣٧).

(٢) قَنْبَرٌ: هو مولى لعلي رضي الله عنه.

(٣) من الخِيلاء: وهي التكبر والعُجب.

(٤) القَبَاءُ: ثوب يُلبس فوق الثياب أو القميص.

وقال الحسن لفرقد السَّبْخِي: تَحَسَّبُ أَنْ لَكَ فَضْلاً عَلَى النَّاسِ بِكَسَائِكَ؟ بَلْغَنِي أَنْ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ أَصْحَابُ الْأَكْسِيَّةِ.

وقال علي بن ثابت: رَأَيْتُ سُفْيَانَ الثُّورِي فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، فَقَوِّمْتُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَيْهِ حَتَّى نَعَلِيهِ دَرَهْمًا وَأَرْبَعَةَ دَوَانِيقَ.

وقال مروان بن معاوية: رَأَيْتُ عَلِيَّ سُفْيَانَ إِزَارًا مَا يُسَاوِي دَرَهْمًا وَدَانِيقَيْنِ.

وقال يحيى بن معين: رَأَيْتُ أَبَا مَعَاوِيَةَ الْأَسْوَدَ وَهُوَ يَلْتَقِطُ الْخِرْقَ مِنَ الْمَزَابِلِ وَيَغْسِلُهَا وَيُلْفِقُهَا وَيَلْبَسُهَا، فَقُلْتُ: إِنَّكَ تُكْسِي خَيْرًا مِنْ هَذَا. فَقَالَ: مَا ضَرَّهُمْ مَا أَصَابَهُمْ فِي الدُّنْيَا، جَبَرَ اللَّهُ لَهُم بِالْجَنَّةِ كُلَّ مُصِيبَةٍ.

أما الثالث: وهو المسكن، فللزاهد فيه ثلاث درجات:

أعلاها: أَنْ لَا يَطْلُبُ مَوْضِعًا خَاصًّا لِنَفْسِهِ، بَلْ يَقْنَعُ بِزَوَايَا الْمَسَاجِدِ، كَأَصْحَابِ الصُّفَّةِ.

وأوسطها: أَنْ يَطْلُبَ مَوْضِعًا خَاصًّا لِنَفْسِهِ، مِثْلَ كُوخِ مَبْنِيٍّ مِنْ سَعْفٍ وَمَا يُشْبِهُهُ. وَأَدْنَاهَا: أَنْ يَطْلُبَ حُجْرَةً مَبْنِيَّةً إِمَّا بِشِرَاءٍ أَوْ إِجَارَةٍ، وَمَتَى طَلَبَ التَّشْيِيدَ وَالسَّعَةَ وَعَلَوَ السَّقْفَ، فَقَدْ جَاوَزَ حَدَّ الزُّهْدِ فِي الْمَسْكَنِ.

وفي الجملة؛ كُلُّ مَا يُرَادُ لِلضَّرُورَةِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَجَاوِزَ حَدَّ الضَّرُورَةِ، وَقَدْ تُوَفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَضَعْ لَبْنَةً عَلَى لَبْنَةٍ.

وقال الحسن: كُنْتُ إِذَا دَخَلْتُ بَيْوتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نِلْتُ السَّقْفَ.

وَاتَّخَذَ نُوْحٌ بَيْتًا مِنْ قَصَبٍ، فَقِيلَ لَهُ: لَوْ بَنَيْتَ؟ فَقَالَ: هَذَا كَثِيرٌ لِمَنْ يَمُوتُ.

وروى خَبَّابُ بْنُ الْأَرْتِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ يُوجِرُ فِي نَفَقَتِهِ كُلَّهَا إِلَّا التُّرَابَ».

وقال إبراهيم النَّخَعِيُّ: إِذَا كَانَ الْبُنْيَانُ كَفَافًا، فَلَا جَرَ وَلَا وَزْرَ.

وأما الرابع: وهو أثنان البيت، فينبغي للزاهد أَنْ يَقْتَصِرَ فِيهِ عَلَى الْحَسَنِ، وَيَسْتَعْمَلَ الْآلَةَ الْوَاحِدَةَ فِي مَقَاصِدِ، فَيَأْكُلُ فِي الْقَصْعَةِ وَيَشْرَبُ فِيهَا، وَمَنْ خَرَجَ إِلَى

كثرة العدد في الآلة أو في نفاسة الجنس خرج عن الزهد.

ولينظر إلى سيرة الرسول ﷺ، ففي الصحيحين من حديث عائشة قالت: كان ضجاع رسول الله ﷺ الذي ينام عليه بالليل من آدم<sup>(١)</sup> محشواً ليفاً.

وفيهما من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «دخلت على رسول الله ﷺ، فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يرُدُّ البصرَ غير أهبة<sup>(٢)</sup> ثلاثة، فقلت: أدع الله يا رسول الله أن يُوسعَ علي أمتك، فقد وسعَ على فارس والروم، وهم لا يعبدون الله. فاستوى جالساً ثم قال: «أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قومٌ عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا».

ورواه مسلم فقال فيه: قال عمر: دخلت على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت في خزانة رسول الله ﷺ فإذا بقبضة من شعير نحو الصاع، ومثلها قرظاً<sup>(٣)</sup> في ناحية الغرفة، وإذا أفيق<sup>(٤)</sup> معلق، فابتدرت عيناى، فقال: «ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ قلت: يا نبي الله، ما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذلك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله وصفوته؟ فقال: «يا ابن الخطاب، ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟» قلت: بلى.

وقد روينا أن رسول الله ﷺ رأى سترأ على باب منزل عائشة فهتكه، وقال: «كلما رأيته ذكرت الدنيا، أرسلني به إلى فلان».

وقال علي رضي الله عنه: لقد تزوجت فاطمة وما لي ولها فراش غير جلد كبش كنا ننام عليه بالليل، ونعلق عليه الناضح بالنهار، وما لي خادمٌ غيرها، ولقد كانت تعجن وإن قصبتها لتضرب حرف الجفنة من الجهد الذي بها.

(١) الأدم: الجلد المدبوغ.

(٢) الإهاب: جلد الحيوان.

(٣) القرظ: ورق شجر يُصبغ به.

(٤) الأفيق: الجلد.

ودخل رجلٌ على أبي ذرٍ فجعلَ يُقَلِّبُ بَصْرَهُ فِي بَيْتِهِ، فَقَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ مَا أَرَى فِي بَيْتِكَ مَتَاعًا وَلَا أَثَاثًا. فَقَالَ: إِنَّ لَنَا بَيْتًا نُوَجِّهُ إِلَيْهِ صَالِحَ مَتَاعِنَا. فَقَالَ: إِنَّهُ لَا بَدَلَ لَكَ مِنْ مَتَاعٍ مَا دَمْتَ هَا هُنَا. فَقَالَ: إِنَّ صَاحِبَ الْمَنْزِلِ لَا يَدْعُنَا فِيهِ.

ولما قدم عُمر بن سَعْدٍ عَلَى عُمَرَ قَالَ لَهُ: مَا أَرَى مَعَكَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا. فَقَالَ: مَعِيَ عَصَائِي أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا، وَأَقْتُلُ بِهَا عَدُوًّا إِنْ عَرَضَ لِي، وَمَعِيَ جِرَابِي أَحْمَلُ فِيهِ طَعَامِي، وَقَضَعْتِي أَكُلُ فِيهَا وَأَغْسِلُ رَأْسِي وَثَوْبِي، وَمِطْهَرْتِي أَحْمَلُ فِيهَا شِرَابِي وَوَضُوءِي، فَهَلِ الدُّنْيَا إِلَّا تَبَعٌ لِمَتَاعِي؟

وقال الحسن: أدركتُ أقواماً ما لأحدهم إلا ثوبه، وما وضعَ بينه وبين الأرضِ ثوباً قط.

وأما الخامس: وهو المنكح، فقد كان جماعة يقولون: لا معنى للزهد في أصلِ النكاح ولا في كثرتِه، وإليه ذهب سهلٌ بن عبد الله، وقال: حُبِّبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ النِّسَاءَ، وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ أَزْهَدِ الصَّحَابَةِ، وَكَانَ لَهُ أَرْبَعُ نِسْوَةٍ وَبَضْعُ عَشْرَةِ سُرِيَّةٍ.

وكان أبو سليمان الداراني يقول: كل ما شغلك عن الله من أهلٍ ومالٍ وولَدٍ فهو مَشْؤُومٌ عَلَيْكَ.

وكشف الغطاء في هذا أن نقول: مَنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ شَهْوَتُهُ وَخَافَ عَلَى نَفْسِهِ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ النِّكَاحُ، فَأَمَّا مَنْ لَا يَخَافُ فَهَلِ النِّكَاحُ فِي حَقِّهِ أَفْضَلُ أَمْ التَّعْبُدُ؟

قال أكثر العلماء: النِّكَاحُ أَفْضَلُ. وقال الشافعي: الاشتغال بنفل العبادات أفضل.

وعلى التحقيق، فالناس مختلفون؛ فمنهم مَنْ يَقْصِدُ النِّكَاحَ لَطَلْبِ النَّسْلِ، وَإِيجَادِ الْمُوَحِّدِينَ، وَيُمْكِنُهُ الْكَسْبُ الْحَلَالُ لِلْعَائِلَةِ، وَلَا يَقْدَحُ ذَلِكَ فِي دِينِهِ وَلَا فِي شَتَاتِ قَلْبِهِ، بَلْ يَجْمَعُ النِّكَاحَ هَمَّهُ وَيَكْفِ بَصْرَهُ وَيُرْدُ فِكْرَهُ، فَهَذِهِ غَايَةٌ فِي الْفَضِيلَةِ وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ حَالُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُمَا، وَلَا التفتات إلى قولٍ من يرى الزُّهْدَ بترك الالتذاذ بالنكاح؛ لأن ذلك يقع ضمناً

وتبعاً، والمقصود غيره، ولا معنى للزهد فيه، وقد كان في السلف من يختار المرأة الدون على المرأة الجميلة، وذلك محمولٌ منهم على أن تلك تكون إلى الدين أميل، والنفقة عليها أقل، والاهتمام بأمرها يسير، بخلاف المستحسنة، فإنها تُشَتُّ قلبه وتشغله، وتريدُ زيادةً في النِّفْقَةِ وربما لم يُمكن، وقد قال مالك بن دينار: يعمد أحدهم فيتزوّج ديباجة<sup>(١)</sup> الحي فتقول: أريدُ مرطاً<sup>(٢)</sup>، فتمرط<sup>(٣)</sup> دينه. ويترك أن يتزوجها يتيمّةً فيكسوها فيؤجر.

وخطب الإمام أحمد رحمه الله امرأة، وكانت لها أختٌ عوراء، فأجابت، فقال للمرأة التي أرسلها: سمعتُ أختها؟ فقالت: نعم. فقال: عودي فأخطبي لي تلك. ومن الناس من يشغله النكاح عن أداء الفرائض، ويحمله على تناول ما ليس له لأجل الكسب، فالورعُ في حق هذا إما التقليل من النكاح وإما تركه إن قدر.

وأما السادس: وهو المال، فهو ضروري في المعيشة، فالزاهد يقتصر منه على ما يدفعُ به الوقت، وكان حماد بن سلمة إذا فتحَ حانوته فكسبَ حبتين قام، وقد كان في الصالحين من يتشاغل بالتجارة ويقصد بها العفاف، فلا يبالي قلّ أو كثر اشتغاله بها.

قال عمر بن الخطاب: لأنّ أموتَ بين شُعْبَتَي رحلي أطلبُ كفافَ وجهي أحبّ إليّ من أن أموتَ غازياً في سبيل الله عزّ وجلّ.

وكان سعيد بن المسيّب يتجرُّ في الزيت وخلفَ أربع مئة دينار، وقال: إنما تركتها لأصونَ بها عرضي وديني.

وكان سُفيان يتجرُّ بمالٍ ويُقلِّبُ الدراهم ويقول: لولاك لحمدوني.

وأما السابع: وهو الجاه؛ فمعناه ملك القلوب ليتوصل بها إلى الاستعانة على ما يريد من الأغراض، ودفع ما يؤذيه، فلا بدّ له من جاءه حتى في قلب خادمه،

(١) ديباجة الحي: جميلة الحي وحسناؤه.

(٢) المرط: كساء من صوفٍ أو خز.

(٣) مرط: تنف.

واشتغال الزاهد بالزهد يُمهّد له محلاً في القلوب، فينبغي أن يحذر من شرّ ذلك.

وفي الجملة؛ فإن الحوائج الضرورية ليست من الدنيا، وكم من حريص على الدنيا قيّدته بسلاسلها وأغلالها، فلو رام التخلّص لم يقدر، فهو كما قال الله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِأَلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: ٧]، وقال: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨]. وقد وصف بعض الشعراء الحريص فقال:

كِدُودٌ كِدُودِ الْقَرِّ يَنْسُجُ دَائِمًا وَيَهْلِكُ غَمًّا وَسَطًّا مَا هُوَ نَاسِجُهُ<sup>(١)</sup>  
وقد كان كثير من السلف يُعرّض لهم بالمال الحلال، فيقولون: لا نأخذه، نخاف أن يُفسد علينا ديننا.

### بيان علامات الزُّهد

قَدْ يُظَنُّ أَنْ تَارَكَ الْمَالَ زَاهِدًا، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، فَإِنْ تَرَكَ الْمَالَ وَإِظْهَرَ التَّخَشُّنَ سَهْلًا عَلَى مَنْ أَحَبَّ الْمَدْحَ بِالزُّهْدِ، وَكَمْ مِنْ رَاهِبٍ قَدْ لَازَمَ الدَّيْرَ وَقَلَّلَ الْمُطْعَمَ، وَقَوَّاهُ عَلَى ذَلِكَ حُبِّ الْمَحْمَدَةِ، كَمَا قَدْ سَبَقَ ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ الرِّيَاءِ.

فلا بُدَّ من الزهد في فضول المال والجاه جميعاً حتى يكمل الزهد في حظوظ النفس، فإذا معرفة الزهد مُشكلاً.

وقد قال ابن المبارك: أفضل الزهد إخفاء الزهد.

وينبغي أن يُعوَّلَ في هذا على علاماتٍ ثلاث:

الأولى: أن لا يفرح بوجوده، ولا يحزن على مفقوده، كما قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] وهذه علامة الزهد في المال.

(١) وقيله:

ألم تر أنّ المرء طول حياته مُعنى بامرٍ لا يزال يُعالجه

والثانية: أن يستوي عنده ذامه ومادحه، وهذه علامة الزهد في الجاه.

والثالثة: أن يكون أنسه بالله، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة، فأما محبة الدنيا ومحبة الله فهما في القلب، كالماء والهواء في القَدح، إذا دخل الماء خرج الهواء فلا يجتمعان، وكلُّ مَنْ أنسَ بالله اشتغلَ به دون غيره، فأما الأُنسُ بالله والأُنسُ بالدنيا فلا يجتمعان.

قيل لبعضهم: إلى ماذا أفضى بهم الزهد؟ قال: إلى الأُنسِ بالله.

فإذن علامة الزهد استواء الغنى والفقر، والعزّ والذلّ، والمدح والذمّ، وذلك لغلبة الأُنسِ بالله.

ويتفرّع من هذه العلامات علامات أخرى، مثل أن لا يُبالي مَنْ أخذَ الدنيا، قال سِرِّي السَّقَطي: لا يَطيب عيشُ الزاهد إذا اشتغلَ عن نفسه، ولا يَطيب عيشُ العارف إذا اشتغلَ بنفسه.

وقال النُّصرآبادي<sup>(١)</sup>: الزاهدُ غريبٌ في الدنيا، والعارفُ غريبٌ في الآخرة.

وقال يحيى بن معاذ: الزاهد يُسْعِطُك<sup>(٢)</sup> الحَلَّ والحَرْدَل، والعارف يُشْمَكُ المِسكَ والعنبر.

وقال أيضاً: الدنيا كالعروس، ومن يطلبها ماشِطُها، والزاهد يُسَخِّمُ<sup>(٣)</sup> وَجْهَهَا ويتف شعرها ويحرق ثوبها، والعارف مشغولٌ بالله تعالى عنها.

فهذا ما أردنا ذكره من حقيقة الزاهد وأ؛ كامه، وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل، فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى.

آخر كتاب الفقر والغنى

(١) النُّصرآبادي: هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد، شيخ خراسان في وقته، كان محدثاً، توفي بمكة المكرمة سنة ٣٦٧هـ.

(٢) السَّعوط: ما يُدخل في الأنف.

(٣) يُسَخِّمُ: يُسَوِّد.

## كتاب التوحيد والتوكل

الحمدُ لله المُنزّه عن الأهل والقَبيل، المقدّس عن المِثْلِ والعَدِيل، اختار العارفين والعارفون قَلِيل، ودلّهم عليه فتعلقوا بالدليل، وسكنت نفوسهم عن مطلوباتها ثقةً بالكفيل، فلهم على المسبّب لا على السببِ التّعويل، فكم جرّهم سببٌ فما مالوا ولكن قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

أحمده على ما يُعطي ويُنيل، وأوقنُ بوحْدانيّته عن أدلّة تشفي الغليل، وأصلي على رسوله محمدٍ المقدم على الكليم والخليل، وعلى أصحابه وأتباعه على سواء السبيل، وسلّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فإنّ التوكلَ منزلٌ من منازلِ الدين، ومقامٌ من مقاماتِ الموقنين، بل هو من معالي دَرجاتِ المقرّبين، وهو في نفسه غامضٌ من حيث العلم، ثم هو شاقٌّ من حيث العمل، ووجهُ غموضه من حيث الفهم أن الاعتمادَ على الأسبابِ شِرْكٌ في التّوحيد، والتباعد عنها بالكليةِ قدحٌ في الشّرع،<sup>(١)</sup> والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسباباً<sup>(٢)</sup> تغييرٌ في وجه العقل.

وتحقيقُ معنى التوكلِ على وجهٍ يتوافق فيه مقتضى التوحيد والعقل والشّرع في غاية الغموض، ولا يقوى على كشفه إلا أقوياء العلماء الذين شاهدوا الحقائق ثم أخبروا عنها.

ونحنُ الآن نبتدىء بذكر فضيلة التوكل، ثم نُردف ذلك بالتّوحيد في السّطر الأول من الكتاب، ونذكر حال التوكل وعمله في السّطر الثاني إن شاء الله تعالى.

(١-١) في الأصل: «ومحو الأسباب أن ترى أسباباً»، والمثبت من الإحياء.

## بيان فضيلة التوكل

أما الآيات: فقد قال الله عز وجل: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، وقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وأعظم بمقام صاحبه موسوم بمحبة الله تعالى فمن الله حسبه ومُحِبُّهُ ومُراعِيه فقد فاز الفوز العظيم، فإن المحبوب لا يُعَدَّبُ ولا يُبْعَدُ ولا يُحَجَّبُ، وقد قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] فطالب الكفاية من غيره هو التارك للتوكل، وقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩] أي: عزيز لا يذل من استجار به، ولا يضيع من لاذ بجنايه، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ نَدَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤] فبين أن كل ما سوى الله عبدٌ مُسَخَّرٌ حاجته مثل حاجتك فكيف تتكل عليه؟ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَاتَّبِعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرَّزْقَ وَأَعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَقْفَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧] وقال تعالى: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣]. وكل ما ذُكِرَ في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع ملاحظة الاعتبار، والتوكل على الواحد القهار.

وأما الأخبار: فأخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا سريج قال: حدثنا هشيم قال: أخبرنا حُصَيْن بن عبد الرحمن عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَّمُ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ إِلَيَّ سِوَادٌ عَظِيمٌ فَقُلْتُ: هَذِهِ أُمَّتِي. فَقِيلَ: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْأَفُقِ، فَإِذَا سِوَادٌ عَظِيمٌ، ثُمَّ قِيلَ: انظُرْ إِلَى هَذَا الْجَانِبِ الْآخَرَ، فَإِذَا سِوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيلَ: هَذِهِ

أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ثم نهض النبي ﷺ فدخل، فحاض القوم في ذلك، فقالوا: من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب؟ فقال بعضهم: لعلمهم الذين صحبوا النبي ﷺ. وقال بعضهم: فلعلمهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يُشركوا بالله شيئاً قط، وذكروا أشياء فخرج إليهم النبي ﷺ فقال: «ما هذا الذي كنتم تخوضون فيه؟» فأخبروه، فقال: «هم الذين لا يكتون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون».. أخرجاه في الصحيحين<sup>(١)</sup>.

أبنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا عبد الله بن يحيى الموصلي ونصر بن أحمد بن البطرقالا: أخبرنا أبو الحسين بن بشران قال: حدثنا الحسين بن صفوان قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثنا مهدي بن حفص قال: حدثنا عبد الله بن المبارك عن حيوة بن شريح عن بكر بن عمرو المعافري عن عبد الله بن هبيرة عن أبي تميم الجيشاني عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً»<sup>(٢)</sup>.

قال القرشي: وحدثنا محمد بن الربيع قال: حدثنا عبد الرحيم بن زيد العمي عن أبيه عن محمد بن كعب القرظي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله»<sup>(٣)</sup>.

قال القرشي: حدثني علي بن إبراهيم اليشكري قال: حدثنا يعقوب بن محمد الزهري قال: حدثنا حاتم بن إسماعيل عن عبد الله بن أبي حسين. كذا قال. عن عطاء بن يسار عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا خرج من بيته قال: «بسم الله، ولا قوة إلا بالله، التكلان على الله»<sup>(٤)</sup>.

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠) (٣٧٤)، وأحمد (٢٤٤٨).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التوكل (٢)، والترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التوكل (١٠).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التوكل (٢٤).

وروى أنس بن مالك قال: كان رسولُ الله ﷺ يقول في دعائه: «اللهم اجعلني ممن توكل عليك فكفيت، واستهداك فهديت، واستنصرَكَ فنصرت»<sup>(١)</sup>.

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أسألك التوفيقَ لمحابَّكَ من الأعمال، وصدقَ التوكلَ عليك، وحُسنَ الظَّنِّ بك»<sup>(٢)</sup>.

ولما ألقِيَ إبراهيم الخليل في النار قال: حَسبي الله ونعم الوكيل. فاستقبله جبريل فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، قال جبريل: فسَلْ ربك. فقال: حَسبي من سُؤالي عِلْمُه بحالي. فقال الله عز وجل: ﴿يَنَارُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وقال الحسن: العزُّ والغنى يحولان في طلب التوكل، فإذا ظفِرَ أيقن.

وجاء رجلٌ إلى وهب بن مُنبه فقال: علّمني شيئاً ينفعني الله به. قال: أكثر من ذكر الموت، وأقصر أملك، وخصلة ثالثة إن أنت أصبتها بلغت الغاية القصوى وظفرت بالعبادة. قال: ما هي؟ قال: التوكل.

وقال سعيد بن جبير: التوكل جِماع الإيمان.

وقال لقمان لابنه: يا بُنَيَّ، الدنيا بحرٌ عميقٌ قد غرِقَ فيه ناسٌ كثير، فإن استطعت أن تكون سفينتك فيها الإيمان بالله، وحشوها العمل بطاعة الله، وشراعها التوكل على الله لعلك تنجو.

قال أبو سليمان الداراني: إذا بلغَ غايةً من الزُّهد أخرجهُ ذلك إلى التوكل.

## بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل

اعلم أن التوكل من أبواب الإيمان، وجميع أبواب الإيمان لا تنتظم إلا بعلم وحالٍ وعمل، والتوكل كذلك ينتظم من علمٍ هو الأصل، وعملٍ هو الثمرة، وحالٍ هو المراد باسم التوكل.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوكل (٥).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوكل (٤).

فلنبداً ببيان العلم الذي هو الأصل، وهو المسمى إيماناً في أصل اللسان، إذ الإيمان هو التصديق، وكل تصديق بالقلب فهو علم، وإذا قَوِيَ سُمِّيَ يقيناً.

ولكن أبواب اليقين كثيرة، ونحن إنما نحتاج منها إلى ما يُبَيِّنُ عليه التوكل، وهو التوحيد الذي يُترجمه قولك: لا إله إلا الله وحده لا شريك له. والإيمان بالقُدرة التي يترجم عنها قولك: له الملك. والإيمانُ بالجود والحكمة الذي يدل عليه قولك: وله الحمد.

والموحدون على أربع طبقات:

الأولى: أن يقولَ القائلُ: لا إله إلا الله. وقلبه مُنكِرٌ لله أو غافلٌ عنه، فهذا توحيد المُنافقين.

والثانية: أن يُصدق قلبه بمعنى هذا اللفظ من غير معرفةٍ دليلٍ كاعتقاد العامة.

والثالثة: أن يُشاهد الأشياء المختلفة فيراها كلها صادرة عن الواحد، وهذا مقام المقرِّبين.

والرابعة: أن لا يرى في الوجود إلا واحداً، وهو مشاهدة الصّديقين، وهذا الذي يُشيرون به إلى الفناء في التوحيد؛ لأن صاحبه لا يرى إلا الواحد، فلا يرى نفسه أيضاً.

وهذه الأحوال في ضرب المثل كالجوزة فإنها في قِشْرَتَيْن، ولها لبٌّ، وللبُّ دهنٌ، فالحالة الأولى كالقِشْرَةِ الأعلى لا تنفع إنما تصون ما تحتها مُدَّةً مديدة، فكَذَلِكَ هذه اللفظة تحفظ صاحبها إلى وقتِ الموت، والحالة الثانية لها نفعٌ ولكن لا كنعف اللبِّ، واللّبُّ له نفعٌ، ولكن خالطهُ الدهنُ.

فإن قيل: كيف يُتصوّر أن لا يرى الإنسان إلا الواحد القهار؟

فالجواب: إنه إذا انكشف للبصائر أنه لا فاعل سِواه، لم ينظر الإنسان إلى غيره؛ بل يكون منه الخوف، وله الرجاء، وبه الثقة، وعليه التوكل؛ لأنه الفاعل وحده والكل مسخرون، وإنما يصدق عن هذا التوحيد الشيطانُ في مقامين.

أحدهما: الالتفاتُ إلى الجمادات.

والثاني: الالتفاتُ إلى اختيار الحيوانات، فأما الالتفاتُ إلى الجمادات؛ فكاعتمادكُ على المَطَرِ في خروج الزَّرْعِ وعلى العَيْمِ في نُزولِ المطر، وعلى الرِّيحِ في سِيرِ السَّفِينَةِ، وهذا كُلُّهُ شِرْكٌ في التوحيدِ وجَهْلٌ لحقائق الأمور، وَمَنْ انكشفت له الحقائق علمَ أَنَّ الرِّيحَ لا تَتَحَرَّكُ بنفسها ما لم تُحْرَكْ، وهكذا إلى أن يَنْتَهِيَ إلى المحركِ الأولِ الذي لا مُحَرِّكَ له، ولا هو متحرك في نفسه، فالتفاتُ العبدِ في النَّجاةِ إلى الرِّيحِ يَضاهي التفتاتَ من أُخِذَ لِتُحَزَّ عُنُقُهُ فَوَقَّعَ المَلِكُ بِالْعَفْوِ عنه، فأخذ يَشْتَغِلُ بِذِكْرِ الحَبْرِ وَالكَاعِدِ وَالقَلَمِ الذي به كُتِبَ التوقيع، ويقول: لولا القلم ما تَخَلَّصْتُ. فيرئى تَخَلِيَّتَهُ من القلمِ لا من مُحَرِّكِ القلمِ، وهذا غاية الجهل، وَمَنْ علمَ أَنَّ القلمَ لا حُكْمَ له في نَفْسِهِ شَكَرَ الكاتِبَ، وكلُّ المخلوقاتِ في قَهْرِ تَسْخِيرِ الخالقِ كالقلمِ في يَدِ الكاتِبِ، وهذا التمثيلُ تَقْرِيْبٌ إلى فهمك، أعني قولنا: إن المَلِكَ هو كاتِبُ التَّوْقِيعِ، وإلا فالحقُّ أَنَّ الحقَّ هو الكاتِبُ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّكَ اللَّهُ رَمِيًّا﴾ [الأنفال: ١٧]، وإذا انكشَفَ لك أن جميع ما في السماوات والأرضِ مُسَخَّرٌ على هذا الوجه، انصرف عنكَ الشَّيْطَانُ خَائِباً وَيئَسُّ من مَرْجِ تَوْحِيدِكَ بهذا السُّلُوكِ، فيَأْتِيكَ في المَهْلَكَةِ.

والثاني: وهو الالتفاتُ إلى اختيار الحيوانات في الأفعال الاختيارية، فنقول: كيف تَرى الكل من الله وهذا الإنسان يُعْطِيكَ رِزْقَكَ باختياره فإن شاء أعطاك، وإن شاء قطع عنك، وهذا الشَّخْصُ هو الذي يَحْزُنُ عُنُقَكَ بسيفه، وهو قادر عليك، فإن شاء حَزَّ؟.

فالجواب: إن هذا الفاعل مسخَّر أيضاً، وإنما قَصُرَتِ الأفهامُ فَوَقَّفْتُ مع الأسباب، وما من ذرَّةٍ من الموجودات إلا وهي تُنَاجِي بِأسرارِ المَلِكِ، مثاله أن قائلًا قال للكاعِدِ وقد رآه مُسَوِّدًا بالحبر: ما بالُ وَجْهِكَ كان أبيضَ مشرقاً فاسودَّ؟ فقال الكاعِدُ: أنا ما فعلتُ هذا بنفسِي ولكن سألَ الحَبْرُ فإنه كان مُسْتَقْرَأً في وَطَنِ فسافر عن وَطْنِهِ ونزلَ بِسَاحَةِ وَجْهِهِ. فسألَ الحَبْرَ، فقال: إني كنتُ في المَحْبَرَةِ وادعاً فاعتدى عليَّ القلمُ فَاحْتَطَفَنِي وَبَدَّدَنِي على هذه الساحة البيضاء. فسألَ القلمَ عن

فعلته، فقال: سل اليد والأصابع، فإني كنت قصباً نابتاً على شواطئ الأنهار، فجاءتني اليد بسكينٍ فاقتلعتني من أصلي وأزالت قشري ومزقت عني ثيابي وفصلت بين أنابيبي، ثم برتني وشقت رأسي ثم غمستني في سواد الجبر، وهي تستخدمني، وتُمشيني على قمة رأسي فسأل من قهرني. فسأل اليد على تعديها على القلم واستخدامها له، فقالت: ما أنا إلا لحمٌ وعظمٌ ودمٌ، وهل رأيت لحمًا يظلم أو جسمًا يتحرك بنفسه، إنما أنا مركبٌ مسخرٌ ركبني فارسٌ يُقال له القدرة والقوة، وهي التي تُرددني وتجول بي في الأرض، أما ترى المَدْرَ والحَجْرَ لا يتعدى مكانه إذا لم يركبه مثل هذا الفارس القوي، فسأل القدرة عن شأني. فسأل القدرة عن شأنها في استخدام اليد، فقالت: إني كنت ساكنة فجاءتني الإرادةُ فحركتني. فسأل الإرادة: ما الذي جرأك على هذه القدرة الساكنة حتى صرفتها إلى التحرك؟ فقالت الإرادة: إني ما انتهضتُ بنفسي ولكني أنهضتُ، وما انبعثتُ ولكني بعثت بحكم قاهرٍ وأمرٍ جازمٍ وكنت ساكنة قبل مجيئه، ولكن ورد عليّ من حضرة القلب رسولُ العلم على لسان العقلِ بالإشخاص للقدرة فأشخصتها باضطرابٍ، وأنا مُسخرةٌ تحت قهر العلم والعقل، ولا أدري بأي جرم سُخرتُ لها. فأقبل على العقل والعلم والقلب مُعاتباً لهم على استنهاض الإرادة وتسخيرها لإشخاص القدرة. فقال العقل: أما أنا فسراجٌ ما اشتعلتُ بنفسي، ولكني أشعلتُ. وقال القلب: أما أنا فلوحٌ ما انبسطتُ بنفسي ولكني بسطتُ. وقال العلم: إما أنا فنقشٌ في بياض لوح القلب وما انخططتُ بنفسي، وكم قد كان هذا اللوح قبلي خالياً عني، فسأل القلم عني فإن الخطَّ لا يكون إلا بالقلم.

فتحير السائل وقال: قد طال تعبي في هذه الطريق، وكثرت منازلتي، ولا يزال يُحيلني من طمعت في معرفة هذا الأمر منه على غيره، ولكني قد كنت أطيّب نفساً بكثرة الترداد لما كنت أسمع كلاماً مقبولاً في الفؤاد وعُدراً ظاهراً في دفع السؤال، فأما قولك: إني خطٌّ ونقشٌ، وإنما خطّني قلمٌ. فلست أفهمه؛ لأنني لا أعلم قلماً إلا من قصب، ولا لوحاً إلا من عظم أو خشب، ولا خطاً إلا بالجبر، ولا سراجاً إلا من نار، وإني لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم

ولا أشاهد من ذلك شيئاً، فكأنني أسمع جَعَجَعَةً ولا أرى طِحْنًا<sup>(١)</sup>.

فقال له العِلم: إن صدقتَ فيما قلتَ فبضاعتك مُزجاة<sup>(٢)</sup>، وزادك قليل، ومركبك ضَعيف، واعلم أن المهالكَ في الطريق التي توجَّهت إليها كثيرة، فالصوابُ لك أن تنصرف وتَدع ما أنتَ فيه، فما هذا بعُشْك فادْرُج عنه، وإن كنتَ راغباً في استتمام الطريق إلى المقصد، فألقِ سَمْعك وأنتَ شهيد.

واعلم أنَّ العوالم في طريقك هذه ثلاثة:

عالم المُلْك والشهادة أوَّلها، ولقد كان الكاعْدُ والحِبر والقَلْمُ واليَدُ في هذا العالم، وقد جاوزت تلك المنازل.

والثاني: عالم المَلَكوت، وهو ورائي، فإذا جاوزتني انتهيت إلى منزله، وفيها المَهَامِه<sup>(٣)</sup> الفَيْح<sup>(٤)</sup> والجبال الشَّواهِق والبحار المفرقة، ولا أدري كيف تَسلم فيها.

والثالث: عالم الجَبروت، وهو بين عالم المُلْك وعالم المَلَكوت، ولقد قطعت منه ثلاثة منازل إذ في أوله منزل القُدرة والإرادة والعلم، وهو واسطة بين عالم المُلْك والمَلَكوت؛ لأن عالم الملك أسهل منه طريقاً، وعالم المَلَكوت أوعر منه منهُجاً، وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم المَلَكوت يُشبه السفينة التي هي في الحركة بين الأرض والماء، فلا هي في حدِّ اضطراب الماء، ولا هي في حدِّ سكون الأرض وثباتها، وكل من يمشي على الأرض يمشي في عالم الملك والشَّهادة فإن جاوزت قُوَّته إلى حدِّ يَقْوَى على ركوب السفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت، فانصَرَفَ فقد جاوزت الأرضَ وخلَّفت السفينة ولم يبقَ بين يديك إلا الماء الصافي.

وأول عالم المَلَكوت مُشاهدةُ القَلْم الذي يُكتب به العلم، وحصول اليقين الذي

(١) الجَعَجَعَةُ: صوت الرحي، والطَّحْنُ بالكسر: اسمٌ بمعنى المطحون.

(٢) مُزجاة: قليلة.

(٣) المَهَامِه: جمع مَهْمَه، وهي المفازة البعيدة.

(٤) الفَيْح: جمع أفَيْح، وهو الواسع.

يمشي به على الماء، أما سمعت قول رسول الله ﷺ لما قيل: إن عيسى كان يمشي على الماء فقال: «لو ازدادَ يقيناً لمشى على الهواء».

فقال السالك السائر: قد تحيرتُ في أمري، واستشعر قلبي خوفاً مما وصفته من خطر الطريق، ولست أدري أطيع قطع هذه المهامه التي وصفتها أم لا؟ فهل لذلك علامة؟

فقال: نعم، افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدقه نحوي، فإن ظهر لك القلم الذي به أكتتب في لوح القلب، فيشبه أن تكون أهلاً لتلك الطريق. فقال: لقد فتحت بصري وحدقته فما أرى قصباً ولا خشباً، ولا أعلم قلماً إلا كذلك. فقال العلم: لقد أبعدت الثجعة<sup>(١)</sup>، أما علمت أن ذات الإله لا تشبه الذوات، فكذلك يده لا تشبه الأيدي وقلمه ولوحه.

فلما استشعر السالك فُصور نفسه ويرى نفسه بعين التَّقص قال له العلم: اغتنم الآن هذه الفرصة وافتح بصرك لعلك تجد على النار هدى، ففتح بصره فانكشف له القلم الإلهي، فإذا به ليس من خشب ولا قصب، يكتب على الدوام في قلوب البشر كلهم أصناف العلوم فقضى منه العجب، وقال: نعم الرفيق العلم جزاه الله خيراً، فعند ذلك ودَّع العلم وشكره، وقال: قد طال مقامي عندك ومُرَادتي لك، وأنا عازم على السفر إلى حضرة القلم فأسأله عن شأنه، فسار إليه وقال: أيها القلم، ما بالك تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبعث به الإرادات إلى أشخاص القدرة وصرفها في المَقدورات؟ فقال: لقد نسيت ما رأيت في عالم الملك والشهادة وسمعت من جواب القلم إذ سأله فأحالك إلى اليد. فقال: لم أنس ذلك. قال: فجوابي مثل جوابه. قال: وكيف وأنت لا تشبهه؟ فقال القلم: أما سمعت أن الله خلق آدم على صورته؟ قال: بلى، قال: فسأل عن شأني اليد التي لا كالأيدي. فقالت: جوابي ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة، وهو الحوالة على القدرة؛ لأنها هي التي تحرك، فسار إلى القدرة فسألها فقالت: إنما أنا صفته، فهو

(١) يقال: نجع القوم وانتجعوا: إذا ذهبوا لطلب الكلاً في موضعه، ثم كثر استعماله في كل طلب.

القادر، فنودي من وراء سُرادقات الحَضرة ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] فخرَّ صَعِقاً يضطربُ في غشيته مدَّةً، فلما أفاقَ قال: سبحانك، تُبْتُ إليك، وتوَكَّلْتُ عليك، فلا أخافُ غيرك، ولا أرجو سواك، ومالي إلا أن أتَضَرَّعَ إليك، فأقول: اشرح صَدْرِي لأَعْرِفَكَ، واخْلُلْ عَقْدَةَ من لساني لأُثْنِي عليك. فنودي من وراء الحجاب: إياكَ أن تطمَعَ في الثناء وتزيد على سيد الأنبياء، فارجع إليه، فما آتاك فَخْذُه، وما نهاكَ عنه فانتَهه، وما قاله فقله، فإنه ما زاد في هذه الحَضرة على أن قال: «سبحانك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

فقال: إلهي إن لم يكن للسان جرأة على الثناء عليك فهل القلب مطمَعٌ في معرفتك؟ فنودي: إياكَ أن تتخطى رقابَ الصديقين، فارجع إلى الصديق الأكبر فأقْدِ به، فإنه قد قال: سبحان من لا سبيل إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته. فيكيفيك نصيباً من حضرتنا أن تعرف أنك عاجزٌ عن ملاحظة جمالنا وجلالنا.

فعند ذلك رجع السالك مُعتذراً عن أسئلته وقال لليمين والقلم والعلم والإرادة والقدرة: اقبلوا عُذْرِي، فإني قد كنتُ غريباً حديث عهدٍ بالدخول إلى هذه البلاد، ولكل داخل دهشة، فما كان إنكاري عليكم قصورٌ وجهلٌ، والآن فقد صَحَّ عندي عُذْرُكم وانكشَفَ لي أن المتفرد بالملك والملكوت والعِزَّة والجَبْرُوت هو الواحد القَهَّار، فما أنتم إلا مُسَخَّرُونَ تحت قَهْرِهِ وقُدْرَتِهِ، في قبضته وهو الأول والآخِر والظاهر والباطن.

فلما ذكر ذلك في عالم الشهادة استبَعِدَ ذلك منه وقيل له: كيف يكون هو الأول والآخِر وهما صفتان مُتناقِضتان؟

فقال: هو الأول بالإضافة إلى الوجود إذا صدر منه الكل على ترتبه واحداً بعد واحدٍ، وهو الآخِر بالإضافة إلى سير المسافرين إليه، فإنهم لا يزالون مُتَرَقِّين من منزلٍ إلى منزلٍ إلى أن يقع الانتهاءُ إلى تلك الحَضرة، فيكون ذلك آخر السَفَر، فهو آخِرٌ في المشاهدة أولٌ في الوجود، وهو باطن بالإضافة إلى العاكفين في عالم الشهادة، الطالبين إدراكه بالحواس، ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه في السراج الذي أشعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم المَلَكُوت، فهذه طريق من انكشَفَ له أن الفاعل واحد.

فإن قيل: فما تقول فيمن لا يفهم هذا المشروح؟

فالجواب: إن الجاحد لا علاج له إلا أن يُقال له: إنكارك لعالم المملوكوت وإنكار من أنكروا عالم الجبروت، فإن أقواماً حصروا العلوم في الحواس الخمس، وأنكروا الإرادة والقدرة والعلم؛ لأنها لا تُدرك بالحواس الخمس، ولازموها حضيض عالم الشهادة، وقد أنكرت السوفسطائية<sup>(١)</sup> الحواس الخمس، وقالوا: لا نثق بما نراه، فلعلنا نراه في المنام، وهؤلاء كلهم مَرَضَى فاسدوا الأمزجة، فأما الصحيح المزاج فإنه يفهم، ونضرب له الأمثال بالمُحسِّس، ونقرأ عليه: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ليعتقد ذلك فينفعه اعتقاده وإن لم يسلك الطريق، فأما إذا سلكه فإنه يكون على ثقة، ومثلُ المعتقد من غير سلوك مع المُعتقد السالك، كمثّل سَحرة فرعون مع أصحاب السامري، فإن سَحرة فرعون مُطلعين على مُنتهى تأثير السحر لطول مُشاهدتهم وتجربتهم، قرأوا من موسى ما جاوز حُدود السحر فانكشفت لهم حقيقة الأمر، فلم يكثرثوا بقول فرعون: ﴿فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [طه: ٧١] بل قالوا: ﴿لن نُؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض﴾ [طه: ٧٢]، فإن البيان والكشف يمنع التغير، وأما أصحاب السامري فإنه لما كان إيمانهم عن النَّظر إلى ظاهر الثعبان<sup>(٢)</sup> فلما نظروا إلى عجل السامري تغيروا وسمعوا قوله: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ [طه: ٨٨] ونسوا أنه لا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، فكلُّ من آمن بالنظر إلى ثعبان يكفر إذا نظر إلى عجل؛ لأنهما كلاهما من عالم الشهادة، والاختلاف والتضاد في عالم الشهادة كثير، وأما عالم المملوكوت فلا تجد فيه اختلافاً أصلاً.

فإن قيل: قد بان بما ذكرتم أن الوسائط والأسباب مُسخرات، وكل ذلك ظاهر إلا في حركات الإنسان، فإنه يتحرك إذا شاء، ويسكن إذا شاء، فكيف يكون مُسخرأ؟

(١) السوفسطائية: هم طائفة من حكماء اليونان ينكرون حقائق الأشياء، ويزعمون أنه ليس هناك ماهيات مختلفة وحقائق متميزة، فضلاً عن اتصافها بالوجود، بل كلها أوهام لا أصل لها، وسوفسطا: كلمة يونانية معناها: طالب الحكمة.

(٢) يعني الثعبان الذي انقلبت إليه عصا موسى عليه السلام.

فالجواب: إنه لو كان يَشَاءُ إذا شاء، ولا يَشَاءُ إن لم يُرِدْ، لكانَ هذا مزلةً القَدَمَ، ولكنه يَشَاءُ، شاء أم لم يَشَأْ، فليست المشيئةُ إليه إذ لو كانت المشيئةُ إليه لافتقرت إلى مَشِيئةٍ أخرى وتتسلسل إلى غير نهاية، وإذا لم تكن المشيئةُ إليه فمهما وجدت المشيئة التي تَصرف القدرة إلى مقدورها انصرفت القدرة لا مَحَالَةً، ولم يكن لها سبيل إلى المُخَالَفة، فالحركةُ لازمةٌ ضرورةً بالقدرة، والقدرة محرّكة ضرورةً عند انجزام المشيئة والمشية تحدث ضرورةً في القلب، فهذه ضروريات ترتب بعضها على بعض، وليس للبعد أن يدفع وجود المشيئة، ولا انصراف القدرة إلى المقدور بعدها، ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة فهو مضطر في الجميع.

فإن قيل: فهذا جبرٌ محضٌ، والجبر يناقض الاختيار، وأنت لا تُنكر الاختيار، فكيف تكون مُختاراً مُجبراً؟

فالجواب: إنه لو انكشف لك العطاء لعرفت أنه في عين الاختيار مجبورٌ لما بينا من أنه يحرك متى يَشَاءُ فيفعل.

فإن قيل: هذا فعلنا أو فعلُ الله سبحانه؟

فالجواب: إنه فعلنا من جهةٍ وفعل الله تعالى من جهةٍ، كما يُقال: قَتَلَ الأميرُ فلاناً. وإن لم يُباشِر القتل، فمعنى كون الله تعالى فاعلاً أنه المخترع الموجد، ومعنى كون العبد فاعلاً أنه المحلّ الذي خُلقت فيه القدرة بعد أن خلق الله تعالى فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم، فارتبطت الإرادة بالقدرة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط، وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلول بالعلّة، وقد نسب الله تعالى الأفعال تارةً إلى الملائكة، وتارةً إلى العباد وتارةً إليه، لما ذكرنا من المعنى، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَتُوفَنكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وقال: ﴿فَنفَخْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٩١] وقال: ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، وقال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧]، وقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذي عرف الحق لأهله، وكل من أضافه إلى غيره فهو المتجوّز المُستعير في كلامه.

فإن قيل: فإذا كان الكلُّ منه فما معنى الثَّواب والعقاب والعُصْب والرضا؟ وكيف غضب على فعل نفسه؟

فقد أجبنا عن هذا في كتاب الشُّكر فلا نعيده.

فهذا القدر الذي رأينا الرَّمزَ إليه من التَّوحيد الذي يورثُ حالَ التَّوَكُّلِ، ولا يتم هذا إلا بالإيمان بالرحمة والحكمة، فإن التوحيد يورث النَّظْرَ إلى مُسَبِّبِ الأسباب والإيمان بالرحمة وسعتها هو الذي يُورثُ الثِّقَةَ بمسبِّبِ الأسباب، ولا يتم حال التَّوَكُّلِ كما سيأتي إلا بالثِّقَةَ بالتوكل وطمأنينة القلب إلى حسن نَظَرِ الكفيل، وهذا الإيمان باب مُهم من أبواب الإيمان، وحاصله أن يُصدَّقَ تصديقاً يقيناً لا ريب فيه أن الله عز وجل لو خلق الخلائق كلهم على عَقْلٍ أَعْقَلِهِمْ وعِلْمٍ أَعْلَمِهِمْ، وخلق لهم من العِلْمِ ما تحتمله نفوسهم، وأفاض عليهم من الحكمة ما لا مُنتهى لوَصَفه، ثم زاد مثل عدد جميعهم علماً وحكمةً وعقلاً، ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار المَلَكوت، وعزَّفهم دقائق اللُّطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضَّر، ثم أمرهم أن يُدبروا المُلْكَ والمَلَكوتَ بما أعطوا من العلوم والحكم، لما اقتضى تدبير جميعهم مع التَّعاون والتَّظَاهُرِ عليه أن يُزادَ فيما دَبَّرَ اللهُ عزَّ وجل الخلق به في الدنيا والآخرة جَنَاحَ بَعوضَةٍ، ولا أن ينقص منه جناح بعوضة، ولا أن يرفع ذرة، ولا أن يخفض ذرَّةً، ولا أن يدفع مَرَضاً عن مَرِيضٍ أو ضراً على من بُلي به، ولا أن يُنزلَ كمالاً عَمَّنْ أُنعم عليه به، بل كل ما قدره اللهُ عز وجل عدلٌ مَحْضٌ وحقٌّ صرفٌ على الترتيب الواجب كما ينبغي، ولو كان يصلح غير هذا الترتيب فلم يفعله كان بُخلاً يُناقِضُ الجودَ وظلماً يُناقِضُ العدلَ، تعالى عن ذلك، بل كل فقر وضر في الدنيا فهو نُقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة، وكل نقص في الآخرة بالإضافة إلى شَخْصٍ فهو نعيمٌ بالإضافة إلى غيره، ولولا النار ما عَرَفَ أهلُ الجنة قدرَ النِّعمَةِ، كما أن فِدَاءَ أرواحِ الإنسِ بأرواحِ البهائم وتسليها على ذَبْحِها ليس بظلم، بل تقديم الكامل على الناقص عينُ العدل، وكذلك تَفْخِيمِ نعيمِ أهلِ الجَنانِ بتعظيمِ عُقوبةِ أهلِ النَّيرانِ، وفِدَاءِ أهلِ الإيمانِ بأهلِ الكُفْرانِ عَيْنُ العدل، وما لم يُخَلَقِ الناقص لا يُعرف الكامل، ولولا خَلْقُ البهائم لم يظهر

شَرَفُ الْإِنْسِ، فَإِنَّ الْكَمَالَ وَالنَّقْصَ يَظْهَرُ بِالإِضَافَةِ فَمُقْتَضَى الْجُودِ وَالْحِكْمَةِ خَلْقُ الْكَامِلِ وَالنَّاقِصِ، وَكَمَا أَنَّ قَطْعَ الْيَدِ إِذَا تَأَكَّلَتْ إِبْقَاءَ عَلَى الرُّوحِ عَدْلٌ، لِأَنَّهُ فِدَاءٌ كَامِلٌ بِنَاقِصٍ، فَكَذَلِكَ الْأَمْرُ فِي التَّفَاوُتِ الَّذِي بَيْنَ الْخَلْقِ فِي الْقِسْمَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَكُلُّ ذَلِكَ عَدْلٌ لَا جَوْرَ فِيهِ، وَحَقٌّ لَا لَعِبَ فِيهِ، وَهَذَا بَحْرٌ آخِرٌ عَظِيمٌ وَاسِعٌ الْأَطْرَافُ مُضْطَرِبٌ الْأَمْوَاجُ قَرِيبٌ فِي السَّعَةِ مِنْ بَحْرِ التَّوْحِيدِ، قَدْ غَرِقَ فِيهِ خَلْقٌ مِنَ الْقَاصِرِينَ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ غَامِضٌ لَا يَعْقِلُهُ إِلَّا الْعَالِمُونَ، وَوَرَاءَ هَذَا الْبَحْرِ مِنَ الْقَدَرِ الَّذِي تَحْيَرُ فِيهِ الْأَكْثَرُونَ وَمَنْعٌ مِنْ إِفْشَاءِ سِرِّهِ الْمَكَاشِفُونَ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ مَقْضِيٌّ بِهِ، وَقَدْ صَارَ مَا قَضَى وَاجِبُ الْحَصُولِ بَعْدَ سَبْقِ الْمَشِيئَةِ، فَلَا رَادَّ لِحُكْمِهِ، وَلَا مُعَقَّبَ لِقَضَائِهِ.

\* \* \*

## الشَّطْرُ الثَّانِي مِنَ الْكِتَابِ فِي أَحْوَالِ التَّوَكُّلِ وَأَعْمَالِهِ

وفيه بيان حال التَّوَكُّلِ، وبيان ما قالوه في حَدِّ التَّوَكُّلِ، وبيان التَّوَكُّلِ فِي الْكَسْبِ لِلْمَنْفَرِدِ وَالْمُعِيلِ، وبيان التَّوَكُّلِ بِتَرْكِ الْأَذْخَارِ، وبيان التَّوَكُّلِ فِي دَفْعِ الْمَضَارِّ، وبيان التَّوَكُّلِ فِي إِزَالَةِ الضَّرْرِ بِالتَّدَاوِيِّ وَغَيْرِهِ.

### بيان حال التَّوَكُّلِ

قد ذكرنا أن مقام التَّوَكُّلِ يَنْتَظَمُ مِنْ عِلْمٍ وَحَالٍ وَعَمَلٍ، وَذَكَرْنَا الْعِلْمَ.  
فَأَمَّا الْحَالُ: فَالتَّوَكُّلُ بِالتَّحْقِيقِ عِبَارَةٌ عَنْهُ: وَإِنَّمَا الْعِلْمُ أَصْلُهُ، وَالْعَمَلُ ثَمَرَتُهُ، وَقَدْ أَكْثَرَ الْخَائِضُونَ فِي بَيَانِ حَدِّ التَّوَكُّلِ، وَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ عَنْ مَقَامِ نَفْسِهِ وَأَخْبَرَ عَنْ حَالِهِ، وَلَا فَائِدَةَ فِي الْإِكْثَارِ بِذِكْرِ ذَلِكَ، فَلَنَكْشِفُ الْغِطَاءَ عَنْهُ، فَنَقُولُ:  
التَّوَكُّلُ مِنَ الْوَكَالَةِ، يُقَالُ: وَكَلَّ فُلَانٌ أَمْرَهُ إِلَى فُلَانٍ أَيْ فَوَّضَهُ إِلَيْهِ، وَاعْتَمَدَ فِيهِ عَلَيْهِ، وَيُسَمَّى الْمَوْكُولُ إِلَيْهِ وَكَيْلًا، وَيُسَمَّى الْمَفْوُضُ إِلَيْهِ مُتَّكِلًا وَمُتَّوَكِّلًا عَلَيْهِ مَهْمَا اطْمَأَنَّتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ وَوَثِقَ بِهِ وَلَمْ يَتَّهَمْ فِيهِ بِتَقْصِيرٍ، وَلَمْ يَعْتَقِدْ فِيهِ عَجْزًا وَقُصُورًا.  
فالتَّوَكُّلُ عِبَارَةٌ عَنْ اعْتِمَادِ الْقَلْبِ عَلَى الْوَكِيلِ وَحْدَهُ، وَلنَضْرِبَ لِلْوَكِيلِ فِي الْخِصُومَةِ مَثَلًا، فَنَقُولُ: مَنْ ادَّعَى عَلَيْهِ دَعْوَى بَاطِلَةٍ بِتَلْبِيسِ، فَوَكَّلَ لِلْخِصُومَةِ مِنْ يَكْشِفُ ذَلِكَ التَّلْبِيسَ لَمْ يَكُنْ مُتَّوَكِّلًا عَلَيْهِ وَلَا وَاثِقَ الْقَلْبِ مُطْمَئِنِّ النَّفْسِ إِلَيْهِ إِلَّا إِذَا اعْتَقَدَ فِيهِ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ: مُنْتَهَى الْهَدَايَةِ، وَمُنْتَهَى الْقُوَّةِ، وَمُنْتَهَى الْفَصَاحَةِ، وَمُنْتَهَى الشَّفَقَةِ.

فَأَمَّا الْهَدَايَةُ، فَلْيَعْرِفْ بِهَا مَوَاقِعَ التَّلْبِيسِ حَتَّى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ غَوَامِضِ الْحَيْلِ شَيْءٌ أَصْلًا.

وَأَمَّا الْقُدْرَةُ وَالْقُوَّةُ فَلْيَجْتَرِءْ عَلَى التَّصْرِيحِ بِالْحَقِّ وَلَا يَدَاهِنْ وَلَا يَخَافْ

ولا يجبن ولا يستحيي، فإنه ربما يَطَّلِع على تلبيسِ خصمه فيمنعه الخَوْف أو الجُبْن أو الحياء أو غير ذلك من الصوارف المُضَعِفة للقلب عن التَّصريح به .

وأما الفَصَاحَةُ فهي أيضاً من القدرة، إلا أنها قدرة في اللِّسان على الإفصاح عن كُلِّ ما اسْتَجْرَأ القلبُ عليه وأشار إليه، فليس كل عالم بمواقع التَّلْبِيس قادراً على حلِّ عقدة التلبيس بلسانه .

أما منتهى الشَّفِقة، فليكون باعثاً على بَذل كل ما يقدر عليه من المجهود في حَقِّه، فإن قدرته لا تُغني دون العناية به إذا كان لا يُهمه أمره ولا يبالي به ظُفِر بخصمه أو لم يظفر، هلك حَقُّه أو لم يهلك .

فإن كان شاكاً في هذه الأربعة أو في واحدٍ منها أو جوَّز أن يكون خصمه أكمل في هذه الأربعة منه، لم تطمئن نفسه إلى وكيله، بل يبقى مُنزِعج القلبِ مُستغرق الهَمِّ بالحيلة والتَّدبير، ليدفع ما يحذره من قُصور وكيله وسَطوة خصمه، ويكون تَفَاوت أحواله في شِدَّة الثِّقة والطمأنينة بحسب تَفَاوت قوة اعتقاده لهذه الخصال فيه، فإن الاعتقادات والظُّنون تتفاوت في القوة والضعف تفاوتاً لا ينحصر فلا جرم تتفاوت أحوال المتوكل في قُوَّة الطمأنينة والثقة تفاوتاً لا يُنحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضَعْف فيه، كما لو كان الوكيل والد المتوكل، فإنه يحصل له يقينٌ بمُنتهى الشَّفِقة والعناية، فتصير خصلة من الأربع قَطعية، وكذلك سائر الخِصال يُتصور أن يحصل القَطع بها، وذلك بطول الممارسة والتجربة واتصال الأخبار بأنه أفصح الناس لساناً وأقواهم جناناً وأقدرهم على نُصرة الحق .

فإذا عرفت التوكل في هذا المثال، فقيس عليه التوكل على الله عزَّ وجل، فإذا ثبت في نفسك أنه لا فاعل إلا الله، وسبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة والرحمة وأنه ليس وراء قُدْرته قُدرة، ولا وراء علمه علم ولا وراء رحمته رحمة اتَّكَل قلبك عليه وحده لا محالة، ولم تلتفت إلى غيره بوجه، ولا إلى نفسك وحولك وقوتك، فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسببه أحد أمرين: إما ضَعْف اليقين بأحد هذه الخِصال الأربع، وإما ضَعْف القلب ومرضه باستيلاء الجُبْن عليه وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه، فإن القلب قد ينزعج تبعاً للوهم وطاعة

له من غير نقصان في اليقين، وإن من كان يتناول عَسَلًا فشبّه بين يديه بالعذرة ربما نَفَرَ طبعه عنه وتعدّر عليه تناوله، ولو كُلف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو بيت نَفَرَ طبعه من ذلك، وإن كان مُتَيَقِّنًا كونه ميتاً جماداً في الحال، وأن سنة الله مُطَرِّدة بأنه لا يُحييه الآن وإن كان قادراً عليه، ومع هذا اليقين ينفّر طبعه عن مُضاجعة الميت والمبيت معه في بيت، ولا ينفّر عن سائر الجمادات، وذلك جِبْنٌ في القلب، وهو نوع ضَعْفٍ قَلٌّ ما يخلو الإنسان عن شيء منه وإن قل، وقد يقوى فيصير مرضاً حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع غلق الباب وإحكامه.

فإذن لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً، إذ بهما يحصل سُكون القلب وطمأنينته، فالسكون في القلب شيء، واليقين شيء آخر، فكم من يقين لا طمأنينة معه، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالِ بَلِّغْ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فالتمس أن يُشاهد إحياء الميت بعينه ليثبت في خياله، فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به، ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمره، وكم من مُطمئن لا يقين له، فإن اليهودي مُطمئن إلى تهوُّده، فلا يقين له، وإنما يتبع الظن، فإذن الجبن والجراءة غرائز، ولا يقع اليقين معها، فهي أحد الأسباب التي تُضادّ حال التوكل، كما أن ضَعْفَ اليقين بالخِصال الأربع أحد الأسباب، فإذا اجتمعت هذه الأسباب حَصَلَت الثِّقَّة بالله، وفي التوراة مكتوب: مَلْعُونٌ مَنْ ثِقَّتْهُ إِنْسَانٌ مِثْلَهُ.

وإذا انكشف معنى التوكل وعلمت الحالة التي تسمى توكلًا، فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات:

**الدرجة الأولى:** ما ذكرناه؛ وهو أن يكون حاله في حق الله والثقة بكفالتة وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل.

**الثانية:** وهي أقوى؛ أن يكون حاله مع الله كحالة الطفل مع أمه، فإنه لا يعرف غيرها، ولا يفزع إلى أحد سواها، ولا يعتمد إلا إياها، فإذا رآها تعلق بها فإن نابه أمر كان أول خاطرٍ يخطر على قلبه أمه، وأول سابقٍ إلى لسانه: يا أمّاه. وقد وثق بكفالتها وكفائتها وشفقتها ثقةً ليست خالية عن نوع إدراكٍ بالتمييز الذي له، لكنه لو طول بتفصيل هذه الحال لم يقدر على تلقين لفظه مفصلاً في ذهنه ولكن كل ذلك

وراء الإدراك، فمن كان باله إلى الله، ونظره إليه، واعتماده عليه كلف به كما يكلف الصبي بأمه، فيكون متوكلاً حقاً، فإن الطفل متوكل على أمه، والفرق بين هذا وبين الأول أن هذا متوكل قد فني في توكله عن توكله، إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته بل إلى المتوكل عليه فقط، فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه وحده وأما الأول فيتوكل بالتكلف والكسب، وليس فانياً عن توكله، بل له التفات إلى توكله وشعور به، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده.

والثالثة: وهي أعلاها: أن يكون بين يدي الله مثل الميت بين يدي الغاسل، لا يفارقه إلا في أنه لا يرى نفسه ميتاً، وهذا يفارق حال الصبي مع أمه، فإن الصبي يفرغ إلى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها، بل مثال هذا مثال صبي علم أنه وإن لم يصح بأمه فالأم تطلبه، وإن لم يتعلق بذيلها فهي تحمله، وإن لم يطلب منها الإرضاع فهي ترضعه.

وهذا المقام يُمر ترك الدعاء ثقة بأنه يُعطي أفضل مما يسأل، والمقام الثاني: لا يقتضي ترك الدعاء، وإنما يقتضي ترك سؤال غيره، وهذه الأشياء توجد في الخلق إلا أن الدوام يبعد، فدوام المقام الثالث كصفرة الوجل، فإن انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوة والأسباب طبع وانقباضه عارض، كما أن انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع وانقباضه عارض، والوجل عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة إلى<sup>(١)</sup> الباطن حتى تنمحي عن ظاهر البشرة<sup>(١)</sup> الحمره التي كانت تتراءى من وراء الرقيق من ستر البشرة، فإن البشرة ستر رقيق تترأى من وراء حمره الدم، وانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم، فكذلك انقباض القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الأسباب الظاهرة لا يدوم.

وأما المقام الثاني، فإنه يُشبه صفرة المحموم، وقد يدوم يوماً ويومين، والأول يُشبه صفرة مريض قد استحکم مرضه، فلا يبعد أن يدوم، ولا يبعد أن يزول.

(١-١) سقط من الأصل، واستدرك من الإحياء.

## بيان ما قالوه في التوكل

قال أبو موسى الدبيلي: قلت لأبي يزيد: ما التوكل؟ فقال: ما تقول أنت؟ فقلت: إن أصحابنا يقولون: لو أن السباع والأفاعي عن يمينك ويسارك ما تحرك لذلك سرُّك. فقال أبو زيد: هذا قريب، ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة يتنعمون، وأهل النار في النار يُعذبون، ثم وقع لك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل.

فما ذكره أبو موسى خبير عن أجل أحوال التوكل، وهو المقام الثالث. وما ذكره أبو يزيد أعز أنواع العلم الذي هو من أصول التوكل، وهو العلم بالحكمة، وأن ما فعله الله فعله بالحكمة، ولا تمييز بين أهل الجنة وأهل النار بالإضافة إلى الحكمة والعدل، وهذا أغمض أنواع العلم ووراءه سرُّ القدر، وللشيخ كلام في هذا، هذا أعلاها، فلنقتصر عليه.

## بيان أعمال المتوكلين

اعلم أن العلم يورث الحال، والحال يُثمر الأعمال، وقد يُظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة أو كالحم على وضم، وهذا ظنُّ الجهال، فإن ذلك حرام في الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكلين، فكيف يُنال مقام من مقامات الدين بمحذور الدين؟ بل تكشف عن الحق فيه فنقول: إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعمله إلى مقاصده، وسعي العبد باختياره إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده، كالكسب، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار، أو لدفع ضار لم ينزل به، كدفع الصائل<sup>(١)</sup> والسارق والسباع، أو لإزالة ضار قد نزل به، كالتداوي من المرض، فمقصود حركات العبد لا يعدو هذه الفنون الأربعة، وهو جلب النافع، أو حفظه أو دفع الضار، أو قطعه.

فلنذكر شرط التوكل ودرجاته في كل واحد منهما مقروناً بشواهد الشرع.

(١) يقال: صال على قرنه صولاً وصيالاً، فهو صائل، أي: سطا واستطال.

## الفنّ الأوّل في جلب النّافع

فنقول فيه: الأسباب التي يُجتلَب بها النافع على ثلاث درجات: مقطوع به، ومظنون ظناً يوثق به، وموهومٌ وهماً لا تثق به النفس ثقةً تامّةً ولا تطمئن إليه.

الدرجة الأولى: المقطوع به؛ مثل الأسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيتته ارتباطاً مُطرداً لا يختلف، كما إذا كان الطعام موضوعاً بين يديك وأنت جائعٌ محتاجٌ، ولكنك لست تمدُّ اليد إليه وتقول: أنا متوكّل، وشرطُ التوكّل تركُ السعي، ومدُّ اليد إلى الطعام سعيٌ وحركةٌ، وكذلك مَضغُه وابتلاغُه، فهذا جنونٌ محضٌ وليس من التوكّل في شيءٍ، فإنك إذا انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شعباً دون أكل الخبز أو يخلق في الخبز حركةً إليك، أو يُسخر ملكاً ليمضغه ويوصله إلى معدتك، فقد جهلتُ سنّة الله تعالى، وكذلك لو لم تزرع وطمعت أن يخلق الله تعالى نباتاً من غير بذرٍ، أو تلد الزوجة من غير وقاع، فكل ذلك جنونٌ، وليس التوكّل في هذا المقام بالعمل، بل بالحال والعلم، أما العلمُ؛ فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطّعام واليد والأسباب وقوة الحركة، وأنه الذي يطعمك ويسقيك، وأما الحال فهو أن يكون سكون قلبك واعتماده على فضل الله تعالى لا على اليد والطعام، وكيف تعتمد على صحة يدك وربما جفّت<sup>(١)</sup> في الحال وفُلجَت؟ وكيف تُعوّل على قدرتك وربما يطرأ عليك في الحال ما يُزيل عقلك ويُبطل قوة حركتك؟ وكيف تُعوّل على حضور الطّعام وربما سلّط الله عليك من يَغلبك عليه؟ فمدُّ اليد إليه لا يُنافي التوكّل.

الدرجة الثانية: الأسباب التي ليست مُتعيّنة لكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها، وكأنّ احتمال حصولها دونها بعيد، كالذي يُفارق الأمصار والمسافرين ويخرج في البوادي التي لا يطرَقها الناس إلا نادراً ولا يستصحب زاداً، فهذا كالمجرب على الله تعالى، وفعله منهّي عنه وحمله الزاد مأمور به، ولا يلتفت إلى قول من يقول: إنما فعلوا هذا بعد أن راضوا أنفسهم فصبرت عن الطعام أسبوعاً

(١) جفت يده: يئست.

وتقوّتوا بالحشيش؛ لأنه ربما عدم الطعام بعد أسبوع وربما ضلّ الطريق، وربما قد مرض. ثم قد نهى رسول الله ﷺ عن أن يسافر الرجل وحده، ولما سافر رسول الله ﷺ إلى مكة استأجر دليلاً وتزوّد، فهذا فعل من لا يعرف العلم، ولا يدري ما التوكل، وكأنه يريد إبطال الحكمة، وإنما التوكل من أفعال القلب.

الدرجة الثالثة: مُلابسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى المُسببات من غير ثقة ظاهرة، كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه، فمتى كان قصده صحيحاً وخالصاً إلى الله تعالى وفعله لا يخرج عن المشروع لم يخرج عن التوكل، لكنه ربما دخل في أهل الحرص إذا طلب فضول العيش.

وليس ترك الأكل من التوكل في شيء إنما هو فعل البطالين الذين آثروا الراحة وتعلّلوا بالتوكل، قال عمر بن الخطاب: إنما المتوكل الذي يلقي حبه في الأرض ويتوكل على الله.

فإن قيل: هل من دواء يُنتفع به في صرف القلب عن الركون إلى الأسباب الخفية؟

قلنا: نعم أن يعرف أن سوء الظن تلقين من الشيطان وحسن الظن تلقين من الله تعالى، قال عز وجل: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

### بيان توكل المعيل

قد يقدر على الصبر لنفسه فيجوز له أن يصبر عن الأسباب بقدر ما يطيق، ولا يجوز له أن يحمل عائلته على ما يؤذيهم، على أننا قد بينا أن التوكل لا يُنافي التَّسبُّب.

### الفن الثاني في التعرض للأسباب بالادّخار

من وجد قوتاً حلالاً يعزّ وجود مثله أو يشغله كسب مثله عن جمع همّه، فادّخاره إياه لا يُخرجه عن التوكل، خصوصاً إذا كان له عائلة.

وفي الصَّحِيحِينَ من حديث عُمر بن الخَطَّابِ أن النبي ﷺ كان يَبِيع نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَيَحْبِس لأهله قُوتَ سَنَّتِهِمْ<sup>(١)</sup>.

وروينا عن سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ أنه اشْتَرَى وَسْقاً<sup>(٢)</sup> من طعام، فقال زَيْدُ بنُ صُوعَانَ: تَفْعَلُ هَذَا وَأَنْتَ صَاحِبُ رَسولِ اللَّهِ ﷺ؟ فقال: إِنَّ النَفْسَ إِذَا أَحْرَزَتْ قُوتَهَا اطْمَأَنَّتْ وَتَفَرَّغَتْ لِلْعِبَادَةِ، وَيَسَسَ مِنْهَا الوَسْوَاسَ.

وقد خَلَفَ الزُّبَيْرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَأَكْبَرُ الصَّحَابَةِ أَمْوَالاً كَثِيرَةً، وَكَذَلِكَ سَادَاتُ التَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ، كَابْنِ المَسِيبِ وَالثَّوْرِيِّ وَغَيْرَهُمَا، وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ داوُدِ الطَّائِيِّ أَنَّهُ ادَّخَرَ مِيراثاً فَأَنْفَقَهُ فِي عَشْرِينَ سَنَةً.

وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنْ المَتَوَكَّلُ لَا يَدَّخِر. فَإِنَّ التَّوَكَّلَ حَالِ القَلْبِ فَحَسْبُ، وَلَوْ أَمْسَكَ الإِنْسَانُ ضَيْعَةً يَكْفِيهِ دَخْلُهَا كَانَ أَجْمَعَ لِهَمِّهِ، وَلَمْ يَخْرُجْ مِنَ التَّوَكَّلِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ نَهَى رَسولُ اللَّهِ ﷺ بِلَاأَنَّ يَدَّخِرَ.

فَالجَوَابُ: إِنْ الفُقَرَاءُ كَانُوا عِنْدَهُ كَالضَّيْفِ، فَمَا كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَدَّخِرَ فَيَجُوعُونَ، وَلِهَذَا قَالَ فِي رَجُلٍ مَاتَ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ وَخَلَّفَ دِينَارَيْنِ: «كَيْتَانِ»<sup>(٣)</sup>؛ لِأَنَّهُ زَاخِمَ الفُقَرَاءِ فِي الصُّفَّةِ فَضَيَّقَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَدْ اسْتَغْنَى جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ بَعْدَ أَنْ خَرَجُوا مِنَ الصُّفَّةِ وَمَاتُوا وَخَلَّفُوا وَلَا لَوْمَ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ فَتْحِ المَوْصِلِيِّ أَنَّهُ زَارَ بِشَرَ بنَ الحَارِثِ فَأَكَلَ عِنْدَهُ طَعَاماً ثُمَّ حَمَلَ مَعَهُ، فَقَالَ بِشَرٌّ لَصَاحِبِهِ: تَدْرِي لِمَ حَمَلَ البَاقِي؟ قَالَ: لَا. قَالَ: عِنْدَهُمْ إِذَا صَحَّ التَّوَكَّلُ لَمْ يَضُرَّ الحَمْلَ.

### الفن الثالث في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر

ليس من شرط التَّوَكَّلِ تَرْكُ الأسبابِ الدَّافِعَةِ للضرر أصلاً، وَلَا يَجُوزُ النَّوْمُ فِي

(١) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (٥٠٤١) وَ(٥٠٤٣)، وَمُسْلِمٌ (١٧٥٧).

(٢) الوَسْقُ: مَكْيَالٌ مَعْرُوفٌ يَسَعُ سِتُونَ صَاعاً.

(٣) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٣٨٤٣) وَ(٣٩٤٣)، وَلَعَلَّ سَبَبَ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يُظْهِرُ الفَقْرَ وَالزُّهْدَ وَالتَّوَكَّلَ وَهُوَ يَمْلِكُ دِينَارَيْنِ وَيُخْفِيهِمَا.

المَسْبِعة<sup>(١)</sup> أو مجرى السبيل أو تحت الجدار المائل، وكل ذلك منهي عنه، ولا ينقص التوكل بلبس الدرع وإجافة<sup>(٢)</sup> الباب وشد البعير بالعقال فقد قال عز وجل: ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، وقال: ﴿حُدُوا جِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١] وقال: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال لموسى: ﴿فَأَسْرِ بِعَاوِيَ لَيْلًا﴾ [الدخان: ٢٣].

وقد اختفى رسول الله ﷺ في الغار، أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا عبد الله بن يحيى الموصلي ونصر بن أحمد قالوا: أخبرنا أبو الحسين بن بشران قال: حدثنا الحسين بن صفوان قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثني أبو حفص<sup>(٣)</sup> الصيرفي قال: حدثنا يحيى بن سعيد قال: حدثنا المغيرة بن أبي قرة الدوسي قال: سمعت أنس بن مالك يقول: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل»<sup>(٤)</sup>.

فإن قيل: قد ركب أقوام السباع.

قلنا: ليس هذا مما ينبغي أن يُعتبر به، فإن ذلك من الكرامات، ولا يدخل في التوكل والتعليم، ولكن إن سُخِرَ لك كلبك الذي معك المسمى بالعصب فلم يستأسد إلا بإشارتك، فربما ارتفعت درجتك في تسخير الأسد لك، فما لم يُسَخَّر لك هذا فلا تسأل عن ذلك.

فإن قيل: فإذا أخذ المتوكل سلاحه وغلّق بابه فبأي معنى يكون متوكلًا؟

فالجواب: يكون متوكلًا بالعلم والحال، أما العلم: فهو أن يعلم أن العدو إن اندفع فبدفع الله تعالى لا بأخذ السلاح، واللص إذا سلم منه فبمنع الله تعالى لا بعلق الباب، فيتكل على المسبب لا على السبب، وأما الحال: فيكون راضياً بما يقضي الله به في نفسه وبيته، وإنما أخذ العدة جرياً على سنة الله تعالى التي ندب إليها لا أنها

(١) المسبعة: الأرض الكثيرة السباع.

(٢) أجافت الباب: رده وأغلقه.

(٣) تحرف في الأصل إلى: «جعفر» والمثبت من كتاب التوكل.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التوكل (١٢).

تحفظ بنفسها، ومتى عرض له إذا سُرِقَ متاعه أنه لو احتَرز لم يُسرق، أو أخذ يشكو ما جرى فقد أبانَ بَعده عن التوكل.

فإذا علم أن الخيرة فيما يقضي به الله لم يحزن لما جرى، وليعلم أن القَدَرَ له كالطبيب، فإن قَدِمَ إليه الطَّعام فَرِح وقال: لولا أنه علم أن الغداء يَنفَعني ما قَدَّمه، وإن مَنَعه فَرِح وقال: لولا يَعلم أنه يُؤذيني لما مَنَعني.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا عبد الله بن يحيى الموصلي ونَصْر بن البَطْر، قالوا: أخبرنا أبو الحُسَيْن بن بِشْران، قال: أخبرنا ابنُ صَفوان قال: حدثنا أبو بكر الفُرْشي قال: حدثنا الحَسَن بن محبوب قال: حدثنا الفَيْضُ بنُ إسحاق قال: قلتُ للفضيل: تحدُّ لي التوكل؟ فقال: آه، كيف تتوكل عليه وأنت يختار لك فتسخط قضاءه؟ أرايت لو دخلت بيتك فوجدت امرأتك قد عميت، وابنتك قد أقمِدت، وأنت قد أصابك الفالج، كيف كان رضاك بقضائه؟ قلت: كنت أخاف أن لا أصبر. فقال: لا، حتى يكونَ عندك واحداً ترضى بكلِّ ما صنعَ في العافية والبلاء<sup>(١)</sup>.

واعلم أن كل من لا يعتقد في لطفِ الله تعالى ما يعتقده المريض في الطبيب الحاذق المشفق، لم يصح توكله، فإن سُرِقَ متاعه رضي بالقضاء وأحلَّ الآخذَ شفقةً على المسلمين، فقد شكى بعضُ الناس إلى بعض العلماء أنه قُطِعَ عليه الطريقُ وأخذَ ماله، فقال: إن لم يكن غمُّك كيف صار في المسلمين من يفعل هذا أكثر من غمِّك بمالكٍ فما نصحت المسلمين.

أخبرنا محمد بن ناصر قال: أخبرنا جعفر بن أحمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثنا أبي قال: حدثنا أبو جعفر قال: حدثنا صالح بن عبد الكريم قال: جاء بعضُ إخوان الفضيل من أهل خراسان فجلسَ إلى الفضيل في المسجد الحرام يُحدثه، ثم قام يطوف فسُرِقَت منه دنانير، قال: ستين أو سبعين، فخرج الخراساني يبكي، فقال له

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التوكل (١٦).

الفضيل: مالك؟ قال: سرقت الدنانير. قال: عليها تبكي؟ قال: لا، مثلتني وإياه بين يدي الله عز وجل، فأشرف عقلي على إذحاض حُجَّتِهِ، فَبَكَيْتُ رَحْمَةً لَهُ.

### الفن الرابع: السَّعي في إزالة الضَّرر كمدَاواة المَرِيض ونحو ذلك

اعلم أن الأسباب المُزيلَة للضَّرر تنقسم إلى:

مقطوع به كالماء المُزيل لِضَررِ العَطش، والخُبزِ المُزيل لِضَررِ الجوع.

وإلى مظنون، كالفصد والحجامة وشرب المُسهل وسائر أبواب الطب، كمعالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة.

وإلى موهوم، كالكي والرقية.

فأما المقطوع به، فليس من التوكل تركه، بل تركه حرام عند خوف الموت.

وأما الموهوم، كالكي، فيخرج عن التوكل؛ لأن النبي ﷺ وصف المتوكلين بأنهم لا يكتون<sup>(١)</sup>، وكان عمران بن حصين قد سُقي بطنه، وكانت الملائكة تُسلم عليه، فلما اكتوى انقطع التسليم، وقد حمل بعض العلماء الكي المذكور في قوله: «لا يكتون» على ما كانوا يفعلونه في الجاهلية، فإنهم كانوا يكتون في وقت العافية ويسترقون لثلا يمرضوا، وهذا منهى عنه بدليل أن رسول الله ﷺ قد كوى أسعد بن زرارة، وكان يرقى ويُعلم الرقية بعد نزول المرض.

وأما الدرجة المتوسطة، وهي المظنونة، كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء، فإنها لا تُناقض التوكل، فإن رسول الله ﷺ قد تداوى وأمر بالتداوي، فقال: «تداووا عباد الله»<sup>(٢)</sup>.

وقد تداوى خلق كثير من السلف، وامتنع أقوام عن التداوي في هذه المظنونات توكلًا، فقيل لأبي بكر رضي الله عنه: ألا ندعوا لك الطبيب؟ فقال: قد رأني الطبيب. قيل: فما قال؟ قال: قال إني فعَّال لما أريد.

(١) أخرجه البخاري (٦١٧٥)، ومسلم (٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٥٤)، ومسلم (٢٢٠٤).

وقيل لأبي الدرداء في مرضه: ما تشتهي؟ قال: دُنوبي. قيل: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي. قيل: أفلا ندعوا لك طبيياً؟ قال: الطيب أمرضني.

قلت: والذي ننصره أن التداوي أفضل، ونحمل حال أبي بكرٍ على أنه تداوى ثم أمسك لبعده انتفاعه بالدواء، أو أن يكون قد علم قُرب أجله بأمارات، أو كوشيف بأجله كما قال لعائشة: إنما هما أخواك وأختاك<sup>(١)</sup>.

أو أن يكون المريض مشغولاً بذكر عاقبته عن حالته، كما قال أبو الدرداء: أشتكى دُنوبي أو أن تكون العلة مُزمنةً والدواء الموصوف موهوم النَّفع، ولهذا امتنع الربيع بن خيثم لما فُلِح من التداوي؛ لأنه رأى أن الدواء لا يَنفع.

أو أن يقصد ببقاء المرض بقاء الأجر أو تكفير الذنب، كما قال أهل قُباء، فإنهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يشكون الحمى، فقال: «أتريدون أن أدعو لكم فتذهب، أو تبقى طهوراً؟» قالوا: بل تبقى طهوراً.

ثم قد يستشعر العبد من نفسه مبادئ البطر فيترك التداوي ليدل نفسه بالمرض، وقد كان السلف يستوحشون من فقد الأمراض والبلاء، وفي أفراد البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من يرد الله به خيراً يصيب منه»<sup>(٢)</sup>.

وقد خطب رسول الله ﷺ امرأة، فقيل له: لم تُصدع<sup>(٣)</sup> قط. فقال: «لا حاجة لي فيها»<sup>(٤)</sup>.

وأخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا محمد بن بشر قال: حدثنا محمد بن عمرو قال: حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة قال: دخل أعرابي

(١) قال لها أبو بكر رضي الله عنه ذلك في أمر الميراث: إنما هما أختاك. ولم يكن لها إلا أخت واحدة، ولكنه كانت امرأته حاملاً فولدت أنثى، فعلم أنه كان قد كوشيف بأنها حامل بأنثى، فقال لها هذا القول.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤٥).

(٣) أي: لم تُصب بصداع قط.

(٤) أخرجه أحمد (١٢٥٨٠)، وأبو يعلى (٤٢٣٤).

على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أَخَذْتَكْ أُمُّ مِلْدَمٍ (١) قَطٌّ؟» قال: وما أُمُّ مِلْدَمٍ؟ قال: حَرٌّ يَكُونُ بَيْنَ الْجِلْدِ وَاللَّحْمِ» قال: ما وجدتُ هذا قط. قال: «فهل أخذك الصُّدَاعُ قَطٌّ؟» قال: وما الصُّدَاعُ؟ قال: «عروقٌ تَضْرِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي رَأْسِهِ» قال: ما وجدتُ هذا قط. فلما ولى قال: من أحبَّ أن يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا» (٢).

وقد ذكرتُ الأحاديثَ المتعلقةَ بالطَّبِّ، وبيَّنتُ أن الأفضَلَ التَّدَاوِي فِي كِتَابِي الْمَسْمَى «بَلَقَطِ الْمَنَافِعِ».

وليعلم أن الأدوية أسبابٌ مُسَخَّرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، فَكَمَا أَنَّ الْخَبْزَ دَوَاءٌ الْجُوعِ، وَالْمَاءَ دَوَاءَ الْعَطَشِ، وَالسَّكَنْجَبِينَ دَوَاءَ الصَّفْرَاءِ، وَالسَّقْمُونِيَا دَوَاءَ الْإِسْهَالِ، وَلَا يَفْرُقُ الْفَرْقَ إِلَّا بِأَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ جَلِيٌّ وَهَذَا خَفِيٌّ يَدْرِكُهُ بَعْضُ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ.

فإن قيل: فكيف يكون المتداوي متوكلاً؟

فالجواب: يكون متوكلاً بالعلم والحال كما سبق في ذكر فنون الأعمال الدافعة للضرر والجالبة للنفع، فأما شكوى المريض فمخرجة له من التوكل، وقد كانوا يكرهون أنين المريض؛ لأنه يُتَرَجَّمُ عَنِ الشُّكْوَى، وَكَانَ الْفُضَيْلُ يَقُولُ: أَشْتَهِي مَرَضاً بِلَا عَوَادٍ. وَقَالَ رَجُلٌ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ فَقَالَ: بِخَيْرٍ. قَالَ: حُمِمْتَ الْبَارِحَةَ؟ فَقَالَ: إِذَا قَلْتُ لَكَ: أَنَا بِخَيْرٍ، فَلَا تَخْرُجْنِي إِلَى مَا أَكْرَهُ.

فأما وصف المريض ما يجده للطبيب فإنه لا يضره، قد كان بعض السلف يفعل ذلك ويقول: إنما أصف قدرة الله فيّ ويتصور أن يصف ذلك لتلميذ يقصده بتقويته على الصبر، أو يرى ذلك البلاء نعمة فيصفها، كما يصف النعم شكرها، ولا يكون ذلك شكوى، وقد روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنِّي أَوْعَكَ كَمَا يُوَعَكَ رَجُلَانِ مِنْكُمْ» (٣).

آخر كتاب التوحيد والتوكل

(١) أم مِلْدَمٍ: كنية الحمى.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٤٩٥)، وأحمد (٨٣٩٥)، والنسائي في الكبرى (٧٤٩١)، وابن حبان (٢٩١٦).

(٣) أخرجه البخاري (٥٣٢٤)، ومسلم (٢٥٧١).



## كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

الحمدُ لله الذي سلّم أوليائه من ورطات النفوس المفتونة، وفتح لهم باب معرفته فوقّقوا لما يُحبونه، وكشف لهم حجاب محبته فلم يطلبوا دونه، وجعلوا أرواحهم ثمن حبه فهم يحبونه ويودّونه، وتعلّقوا بقول مولاهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

أحمدُه على نعمه الظاهرة والمكنونة، وأقرّ له بالتوحيد عن أدلة وثيقة مأمونة، وأصلّي على رسوله محمد الذي كانت أخلاقه بالكرم معجونة، وعلى أصحابه وأتباعه إلى أن تقوم الأجساد المدفونة.

أما بعد: فإن المحبة لله عزّ وجل هي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها، كالشوق والأنس والرضا وأخواتها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها، كالصبر والزهد وغيرها.

وجميع المقامات وإن عزّ وجودها لم تخلُ القلوب عن الإيمان بإمكانها، وأما محبة الله تعالى فقد عزّ الإيمان بها حتى أنكر بعض العلماء إمكانها، وقال: لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى، فأما حقيقة المحبة فمُحال إلا مع الجنس والمثل. ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه.

فلا بدّ من كشف الغطاء عن هذا الأمر، ونحن نذكر في هذا الكتاب بيان شواهد الشرع في المحبة، ثم بيان حقيقتها وأسبابها، ثم بيان أن لا مستحق للمحبة إلا الله تعالى، ثم بيان أن أعظم اللذات لذة النظر إلى الله تعالى، ثم بيان سبب زيادة لذة

النَّظَرُ فِي الآخِرَةِ عَلَى الْمَعْرِفَةِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ بَيَانُ الْأَسْبَابِ الْمُقَوِّيةِ لِحُبِّ اللَّهِ تَعَالَى،  
 ثُمَّ بَيَانُ السَّبَبِ فِي تَفَاوُتِ النَّاسِ فِي الْحُبِّ، ثُمَّ بَيَانُ السَّبَبِ فِي قُصُورِ الْأَفْهَامِ عَنِ  
 مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ بَيَانُ مَعْنَى الشُّوقِ، ثُمَّ بَيَانُ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ، ثُمَّ الْقَوْلُ فِي  
 عِلَامَاتِ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ بَيَانُ مَعْنَى الْأُنْسِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ بَيَانُ مَعْنَى  
 الْإِنْسِاطِ فِي الْأُنْسِ، ثُمَّ الْقَوْلُ فِي مَعْنَى الرِّضَا وَبَيَانُ فَضِيلَتِهِ، ثُمَّ بَيَانُ حَقِيقَتِهِ، ثُمَّ  
 بَيَانُ أَنَّ الدُّعَاءَ وَكَرَاهَةَ الْمَعَاصِي لَا يُنَاقِضُهُ، وَكَذَا الْفِرَارُ مِنَ الْمَعَاصِي، ثُمَّ ذَكَرَ  
 حِكَايَاتٍ وَكَلِمَاتٍ لِلْمُحِبِّينَ مُتَفَرِّقَةً.

\* \* \*

## بيان شواهد الشرع في حُبِّ العبدِ لله عزَّ وجلَّ

اعلم أن الأمة مُجمعة على أن الحُبَّ لله تعالى ولرسوله فرض، وكيف يفرض ما لا وجود له؟ وكيف يُفسَّر الحُبُّ بالطاعة، والطاعة تُبَعُّ للحب وثمرته، فلا بد أن يتقدم الحب، ثم بعد ذلك تتبع الطاعة للمحبوب. ويدلُّ على إثبات الحُبِّ لله تعالى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿والذين آمنوا أشدَّ حبا لله﴾ [البقرة: ١٦٥] وهذا دليلٌ على إثبات الحب، وإثبات التَّفَاوُت فيه، وقوله تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم...﴾ إلى قوله: ﴿أحب إليكم من الله ورسوله﴾ [التوبة: ٢٤].

وفي الصَّحِيحِينَ من حديث ابن مسعود وأبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «المرء مع مَنْ أَحَبَّ».

وفيهما من حديث أنسٍ أن رجلاً سأل رسولَ الله ﷺ عن الساعة فقال: «وما أعددت لها؟» قال: «(١) يا رسولَ الله، ما أعددت لها من كثرة صلاةٍ ولا صيامٍ (٢) إلا أني أحبُّ الله ورسوله فقال: «أنت مع مَنْ أَحَبَّ» (٣).

وفيهما من حديث أنسٍ أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثٌ من كنَّ فيه وجدَّ بهنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرء لا يُحبه إلا الله، وأن يكره أن يعودَ في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن تُوقَدَ له نارٌ فيُقذَفَ فيها».

أخبرنا محمد بن أبي القاسم قال: أخبرنا حمد بن أحمد قال: أخبرنا أبو نُعَيْم الحافظ قال: حدثنا أبو عمرو بن حمدان قال: حدثنا الحسن بن سُفيان قال: حدثنا إبراهيم الحوراني قال: حدثنا عبد العزيز بن عُمَيْر قال: حدثنا زيد بن أبي الزُّرَّاء

(١-١) سقط من الأصل واستدرك من الصحيحين.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٨٤) و(٥٨١٥)، ومسلم (٣٦٣٩).

قال: حدثنا جعفر بن بُرقان عن ميمون بن مهران عن يزيد بن الأصم عن عمر بن الخطاب قال: نظر النبي ﷺ إلى مُصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهابٌ كبشٍ قد تَنَطَّقَ<sup>(١)</sup> به، فقال النبي ﷺ: «انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نَوَّرَ اللهُ قلبه، لقد رأيتُه بين أبوين يَغْذُوَانِهِ بِأطيبِ الطَّعامِ والشَّرَابِ، فدعاهُ حُبُّ اللهِ ورسولِهِ إلى ما ترون».

وقد رُوي أن ملكَ الموت جاء إلى الخليل عليه السلام لقبضِ روحه، فقال له: هل رأيتَ خليلاً يُمِيتُ خَليلَه؟ فأوحى اللهُ تعالى إليه: هل رأيتَ حبيباً يكره لقاء حبيبه؟ فقال: يا ملكَ الموت اقبض.

ومرَّ عيسى ابنُ مريمَ على ثلاثة نَفَرٍ قد نَحَلت أبدانُهم، وتغيرت ألوانهم، فقال لهم: ما الذي بلغَ بكم ما أرى؟ فقالوا: الخوفُ من النار. فقال: حقُّ على الله تعالى أن يُؤمِّنَ الخائف. ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين، فإذا هم أشدُّ نُحولاً وتَغَيُّراً، فقال لهم: ما الذي بلغَ بكم ما أرى؟ قالوا: الشُّوقُ إلى الجنَّة. فقال: حقُّ على الله أن يُعطيكم ما تَرجون. ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين، فإذا هم أشدُّ نُحولاً وتَغَيُّراً، فقال: ما الذي بلغَ بكم ما أرى؟ قالوا: حُبُّ اللهِ تعالى. فقال: أنتم المُقَرَّبون، أنتم المُقَرَّبون.

قال الحسن البصري: مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ أَحَبَّهُ.

وقال يحيى بن مَعِين: عَفْوُهُ يَسْتَعْرِقُ الذَّنوبَ، فكيف رضوانه؟ ورضوانه يَسْتَعْرِقُ الآمالَ، فكيف حُبُّه؟ وحُبُّه يُدهش العقولَ، فكيف ودُّه؟.

## بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى

اعلم أن المطلوب من هذا الفصل لا ينكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبة في نفسها، ثم معرفة شروطها وأسبابها، ثم النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حق الله تعالى.

(١) تَنَطَّقَ به: جعله كهيئة النطاق، أي: الحزام.

فأول ما ينبغي أن يتحقق أنه لا يُتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك، إذ لا يحب الإنسان ما لا يعرفه، ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماد بل هو من خاصية الحي المدرك.

ثم المدركات في أنفسها تنقسم إلى ما يوافق طبع المدرك ويلائمه ويلذه وإلى ما ينافيه وينافره ويؤلمه، وإلى ما لا يؤثر فيه بإيلاام ولا إلذاذ، فكل ما في إدراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك، وما في إدراكه ألم فهو مَبغوض عند المدرك، وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة، فلا يوصف بكونه محبوباً ولا مكروهاً.

فإذن كل لذيد محبوب عند الملتذ به، ومعنى كونه محبوباً أن في الطبع ميلاً إليه، ومعنى كونه مَبغوضاً أن في الطبع نفرة عنه، فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء الملتذ، فإن تأكد ذلك الميل وقوي سُمي عشقاً، والبُغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المُتعب، فإذا قوي سُمي مَقْتاً، فهذا أصل في حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته.

الأصل الثاني: أن الحب لما كان تابعاً للإدراك والمعرفة انقسم لا محالة بحسب أقسام المدركات والحواس، فلكل حاسة إدراك لتوع من المدركات، ولكل واحدة منها لذة لبعض المدركات، وللطبع بسبب تلك اللذة ميل إليها، فكانت محبوبات عند الطبع السليم، فلذة العين في الإبصار وإدراك المبصرات الجميلة والصُور الحسنة، ولذة الأذن في التغمات الطيبة الموزونة، ولذة الشم في الروائح الطيبة، ولذة الذوق في الطعوم، ولذة اللمس في اللين والتعومة، ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذة كانت محبوبة، أي كان للطبع السليم ميل إليها حتى قال رسول الله ﷺ: «حُبب إليّ من دُنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وجُعِلت قُرّة عيني في الصلاة»<sup>(١)</sup> فسُمي الطيب محبوباً، ومعلوم أنه لا حظ للعين والسمع فيه، بل للشم فقط، وسُمي النساء محبوبات، ولا حظ فيهن للشم والذوق، وسُمي الصلاة قُرّة عين وجعلها أبلغ المحبوبات، ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس، بل

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٩٣) و(١٢٢٩٤) من حديث أنس.

حِسُّ سَادِسٌ مَطَيَّنَةٌ الْقَلْبِ، لَا يُدْرِكُهُ إِلَّا مَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ .

ولذاتُ الحواسِّ الخمسِ تُشاركُ فيها البهائمُ الإنسانَ، فإن كان الحبُّ مقصوراً على مُدركاتِ الحواسِّ حتى يقال: إن الله تعالى لا يُدرك بالحواسِّ، ولا يُتمثلُ في الخيالِ، فلا يُحبُّ، فإذا قد بطلت خاصيةُ الإنسانِ، وما تميز به من الحِسِّ السادسِ الذي يُعبر عنه إما بالعقل أو بالتور أو بالقلب أو بما شئت من العبارات، فلا مُشاحةٌ فيها، وهيئات، فالبصيرةُ الباطنةُ أقوى من البصرِ الظاهرِ، والقلبُ أشدُّ إدراكاً من العينِ، وجمالُ المعاني المدركة بالعقل أعظمُ من جمالِ الصورِ الظاهرةِ للأبصار فتكونُ لا محالةً لذةً القلوب بما تُدركه من الأمورِ الشريفةِ الإلهيةِ التي تجلُّ عن أن تُدركها الحواسُّ أتم وأبلغ، فيكون ميلُ الطبعِ السليمِ والعقلِ الصحيحِ إليه أقوى، ولا معنى للحبِّ إلا الميلُ إلى ما في إدراكه لذة، كما سيأتي تفصيله، فلا يُنكرُ إذن حُبَّ الله تعالى إلا مَنْ قَعَدَ به القصور في درجة البهائمِ، فلم يُجاوز إدراكِ الحواسِّ أصلاً.

الأصل الثالث: أنَّ الإنسانَ لا يَخْفَى أنه يحب نفسه، ولا يَخْفَى أنه قد يُحب غيره لأجل نفسه، وهل يُتصوَّر أن يحبَّ غيره لذاته لا لأجل نفسه؟ هذا مما قد يُشكل على الضعفاء حتى يظنوا أنه لا يُتصوَّر أن يحب الإنسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حَظٌّ إلى المُحبِّ سوى إدراكِ ذاته، والحقُّ إن ذلك مُتصوَّرٌ وموجود.

فلنبيِّن أقسامَ المحبة وأسبابها:

وبيانه: أن المحبوبَ الأوَّلَ عند كلِّ حَيٍّ نفسه وذاته، ومعنى حُبِّه لنفسه أن في طبعه ميلاً إلى دوام وجوده ونفرةً عن عَدَمه وهلاكه؛ لأن المحبوبَ بالطبع هو الملائم للمحبِّ، وأي شيء أتم ملائمةً من نفسه ودوام وجوده؟ وأي شيء أعظمُ مساءةً ومنافرةً له من عَدَمه وهلاكه، فلذلك يُحبُّ الإنسانُ دوامَ الوجودِ، ويكره الموتَ والقتلَ لا لمجرد ما يخافه بعد الموت، ولا لمجرد الحذر من سكرات الموت، بل لو اختُطفَ من غير ألم وأميتَ من غير ثوابٍ ولا عقابٍ كان كارهاً لذلك، ولو أنه أحبَّ الموتَ والعَدَمَ لم يُحبه إلا لمقاساةِ ألم في الحياة، فيُحب زوال البلاء، فالهلاك والعَدَمُ ممقوتٌ، ودوام الوجود محبوبٌ، وكما أن دوام

الوجود محبوبٌ فكمال الوجود أيضاً محبوبٌ؛ لأن التَّقصُّ عدمٌ بالإضافة إلى القَدْر المفقود، وهو هلاكٌ بالنسبة إليه، والهلاك والعدم ممقوت في الصِّفات، وكمال الوجود، كما أنه ممقوتٌ في أصل الذات، ووجود صفات الكمال محبوبٌ، كما أن دوام أصل الوجود محبوبٌ، وهذه غريزة في الطباع بحكم سَنَةِ الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣].

فإذن المحبوبُ الأول للإنسان ذاته، ثم سلامةُ أعضائه، ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقائه، فالأعضاء محبوبةٌ وسلامتها مطلوبةٌ؛ لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوفٌ عليها، والمال محبوبٌ؛ لأنه آلةٌ في دوام الوجود وكماله، وكذلك سائر الأسباب، فالإنسان يحبُّ هذه الأشياء لا لأعيانها بل لارتباط حقه في دوام الوجود وكماله بها، حتى إنه ليحبُّ ولده، وإن كان لا يناله منه حَظٌّ بل يتحمَّل المشاقَّ لأجله؛ لأنه يخلِّفه في الوجود بعد عدمه، فيكون في بقاء نسله نوعٌ بقاءٍ له، فلفرط حُبِّه لبقاء نفسه يحبُّ بقاءً من هو قائمٌ مقامه، وكأنه جزءٌ منه، لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبداً، لكن لو خيَّر بين قتله وقتل ولده آثر بقاء نفسه؛ لأن بقاء ولده يُشبه بقاءه من وجهٍ وليس هو بقاءه المحقق، وكذلك حُبُّه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حُبِّه لكمال نفسه، فإنه يرى نفسه كثيراً بهم، قوياً بسببهم، متجماً بمكانهم، فإن العشيرة والمال والأسباب الخارجة كالجنح المكمل للإنسان، وكمال الوجود ودوامه محبوبٌ بالطبع لا محالة، فإذن المحبوبُ الأول عند كل حيٍّ ذاته، وكمال ذاته ودوام ذلك، والمكروه عنده ضدُّ ذلك، فهذا هو أول الأسباب.

والسببُ الثاني: الإحسان، فإن الإنسان عبدُ الإحسان، وقد جُبلت القلوبُ على حُبِّ من أحسنَ إليها وبُغضِ من أساءَ إليها، وقال رسولُ الله ﷺ: «اللهم لا تجعل لفاجرٍ عندي يداً فيحبه قلبي». أشار بذلك إلى أن حبَّ القلب للمحسن اضطرار لا يُستطاع دَفْعُهُ، وهو جِبِلَّةٌ وفِطْرَةٌ لا سبيل إلى تغييرها، وبهذا السبب يحب الإنسانُ الأجنبي الذي لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة، وهذا إذا حُقِّق رجوع إلى السبب الأول، فإن المحسن من أمدَّ بالمال والمعونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ التي بها يتهيأ الوجود، إلا أن الفرق أن

أعضاء الإنسان محبوبة لأن بها كمال وجوده، وهي عين الكمال المطلوب، فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب، ولكن قد يكون سبباً له، كالطبيب الذي يكون سبباً في دوام صحة الأعضاء، ففرق بين حُبِّ الصِّحة وبين حُبِّ الطَّبيب الذي هو سبب الصحة إذ الصحة مطلوبة لذاتها، والطبيب محبوب لا لذاتها؛ بل لأنه سبب للصحة، وكذلك العلم محبوب والأستاذ محبوب، ولكن العلم محبوب لذاته والأستاذ محبوب لكونه سبب العلم المحبوب، وكذلك الطَّعام والشراب محبوب، والدنانير محبوبة لكن الطعام محبوب لذاته والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطَّعام، فإذن يرجع الفرق إلى تفاوت الرتبة، وإلا فكل واحدٍ يرجع إلى محبة الإنسان نفسه، فكان من أحبِّ المحسن لإحسانه فما أحبَّ ذاته تحقيقاً بل أحبَّ إحسانه، وهو فعل من أفعاله لو زال زال الحبُّ، ولو نقص نقص الحبُّ، ولو زاد زاد.

السبب الثالث: أن يحب الشيء لذاته لا لحظُّ يُنال منه وراء ذاته، بل تكون ذاته عين حَظِّه، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ<sup>(١)</sup> الذي يوثق بدوامه، وذلك كحب الجمال والحسن، فإن كل جمالٍ محبوبٌ عند مُدركِ الجمال، وذلك لعين الجمال؛ لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها، ولا يظن أن حب الصور الجميلة لأجلها، وإدراك نفس الجمال أيضاً لذيد فيجوز أن يكون محبوباً لذاته، وكيف يُنكر ذلك والخضرة والماء الجاري محبوبٌ لا ليشرب الماء وتوكل الخضرة أو ينال منها حظُّ نفس الرؤية، وقد كان رسولُ الله ﷺ تُعجبه الخضرة والماء الجاري، والطَّباع السليمة قاضيةً باستلذاذ النَّظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الألوان الحسننة النَّقش، حتى إن الإنسان لي طرح عنه الغموم بالنَّظر إليها لا لطلب حَظِّ وراء النظر.

فهذه الأسباب ملذة وكل لذيد محبوب، وكل حُسن وجمال فلا يخلو إدراكه عن لذة، ولا يُنكر أحدٌ كونَ الجمال محبوباً بالطَّبع، فإذا ثبت أن الله تعالى جميلٌ كان محبوباً لا محالة عند من انكشف له جماله وجلاله، كما قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يَحِبُّ الْجَمَالَ».

(١) أي: البالغ رتبة الكمال.

الأصل الرابع: في بيان معنى الحُسن والجمال:

اعلم أن المحبوس<sup>(١)</sup> في مَضيق الخيالات والمُحسَّات ربما يظن أنه لا معنى للحُسن والجمال إلا تناسب الخِلقة والشَّكل وحُسن اللون وكون البياض مشوباً بالحمرة وامتداد القامة إلى غير ذلك مما يوصف به من جمال شخص الإنسان، فإن الحسَّ الأغلب على الخلق حسُّ الإبصار، وأكثر التفاتهم إلى صُور الأشخاص، فيظن أن ما ليس مُبصراً ولا متخيلاً ولا متشكلاً ولا متلوناً متعذراً، لا يُتصور حُسنه، وإذا لم يُتصور حُسنه لم يكن في إدراكه لذة، فلم يكن محبوباً، وهذا خطأ ظاهر، فإن الحُسن ليس مقصوراً على مُدركات البصر، ولا على تناسب الخِلقة وامتزاج البياض بالحمرة، فإننا نقول: هذا حَظُّ حَسَن، وهذا صوتٌ حَسَن، وهذا فرشٌ حَسَن، بل نقول هذا ثوبٌ حَسَن، وهذا إناءٌ حَسَنٌ، فأَيُّ معنى لحُسنِ الصَّوت والخَطِّ وسائر الأشياء إذا لم يكن الحُسن إلا في الصَّورة؟

ومعلوم أن العينَ تَسْتَلِدُّ النَّظْرَ إلى الخَطِّ الحَسَن، والأذن تَسْتَلِدُّ اسْتِمَاعَ النَّعْمَاتِ الحَسَنَةِ الطَّيِّبَةِ، وما من شيء من المُدْرَكَاتِ إلا وهي منقسمة إلى حَسَنٍ وقَبِيحٍ، فما معنى الحُسن الذي تَشْتَرِكُ فيه هذه الأشياء؟ فلا بدَّ من البَحْثِ عنه فنقول: كلُّ شيءٍ فجِماله وحُسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن، فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال، وإن كان الحاضر بعضُها، فإنه من الحسن والجمال بقدر ما حَضَرَ، فالفَرَسُ الحَسَنُ هو الذي جمع كلَّ ما يليق بالفَرَسِ من هَيْئَةٍ وشَكْلٍ ولَوْنٍ وحُسْنِ عَدْوٍ، وتَيْسُرِ كَرٍْ وفَرٍّ عليه، والخَطُّ الحسن كل ما جمع ما يليق بالخَطِّ من تناسب الحروف وتوازنها واستقامة ترتبيها وحُسْنِ انتظامها، ولكل شيء كمالٌ يليق به، وقد يليق بغيره ضده، فَحُسْنُ كل شيء في كماله الذي يليق به، ولا يحسن الإنسان بما يحسن به الفَرَس، ولا يحسن الخَطُّ بما يحسن به الصَّوت، ولا تحسن الأواني بما تحسن به الثياب، وكذلك سائر الأشياء.

فإن قيل: هذه الأشياء وإن لم تُدرك جميعها بحسِّ البصر مثل الأصوات

(١) تحرفت في الأصل إلى: «المحبوس»، والمثبت من الإحياء.

والطُّعوم، فإنها لا تَنفُكُ عن إدراك الحواس لها، فهي محسات، وليس يُنكَر الحسن والجمال للمُحَسَّات، ولا يُنكَر حصول اللذَّة بإدراك حُسْنها، وإنما يُنكَر ذلك في غير المدرك بالحواس.

فالجواب: إن الحُسْنَ والجمالَ موجود في غير المُحَسَّات، إذ يُقال: هذا خُلُقٌ حَسَنٌ، وهذا عِلْمٌ حَسَنٌ، وهذه سيرةٌ حَسَنَةٌ، وهذه أخلاقٌ جَمِيلَةٌ، وإنما يُراد بالأخلاق الجميلة العلم والعقلُ والعِفَّةُ والشَّجَاعَةُ والتَّقْوَى والكَرَمُ وسائر خِلال الخير، وشيء من هذه الصفات لا يُدركُ بالحواسِ الخَمْسِ، بل يُدرك بنور البصيرة الباطنة، وكل هذه الخصال الجميلة محبوبَةٌ، والموصوف بها محبوبٌ بالطبع عند من عرف صفاته، وآيةٌ أنَّ الأمر كذلك أنَّ الطَّبَاعَ مجبولةٌ على حبِّ الأنبياء صلوات الله عليهم، وعلى حبِّ الصَّحابة مع أنهم لم يُشاهدوا، وعلى حبِّ أرباب المذاهب مثل أحمد والشافعي حتى إن الرجل قد تَجاوز به حبه لصاحب مذهبه حدَّ العشق، فيحمله ذلك لأن ينفق جميع أمواله في نصر مذهبه والدَّبَّ عنه، ويخاطر بروحه في قتال من يَطعن في إمامه واتبوعه، فكم من دَمٍ أُريقَ في نُصرة أرباب المذاهب، فليت شعري من يُحب أحمد بن حنبل فلم يُحبه ولم يُشاهد قطُّ صورته؟ ولو شاهدَه ربما لم يستحسن صورته، فاستحسانه الذي حمّله على إفراط الحُبِّ إنما هو لصورته الباطنة، لا لصورته الظاهرة، فإن صورته الظاهرة ربما كانت كلها اليوم تراباً، وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتَّقْوَى وغزارة العِلْم، وهذه أمورٌ جميلةٌ لا يُدركُ جمالها إلا بنور البصيرة، فأما الحواس فقاصرةٌ عنها، وكذلك من يحب أبا بكرٍ فإنه لا يُحب لحمه وعظمه إذ لو بلي ذلك كله لم تزل عنه الصَّدِيقية، وهي الصفات المحمودة التي هي مَصادر السَّيرِ الجَميلة، ولها تكون المحبة، وجميع تلك الأوصاف تَتَشعَّبُ عن العِلْم والقُدرة، والعلم إدراكُ حقائق الأمور، والقُدرة معنى يقهرُ العَدُوَّ والهوى، وهذان الوصفان غير مُدركين بالحسِّ، ومحلّهما من جُملة البدن جزءٌ لا يتجزأ، فهو المحبوب على الحقيقة، وليس للجزء الذي لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوباً لأجله، وهل يغلب على القلوب حبُّ الصحابة ويُبغض إبليس وأبي جهل إلا بالإطناب في وصف المحاسن والمقايح؟

وكذلك لما وصفَ الناسُ حاتمًا<sup>(١)</sup> بالسَّخَاءِ، وخالدًا بالشَّجَاعَةِ أَحَبَّتْهُمُ الْقُلُوبُ حُبًّا ضروريًّا، وليس ذلك عن نظيرٍ إلى صورة محسوسة<sup>(٢)</sup> ولا عن حَظٍّ يَنَالُهُ الْمَجِبُّ منهم، ولو حُكِيَ عن بعض المُلُوكِ في بَعْضِ الْأَقْطَارِ الْعَدْلَ وَالْإِحْسَانَ لَغَلَبَ حُبُّهُ عَلَى الْقُلُوبِ مَعَ الْيَأْسِ مِنْ انْتِشَارِ إِحْسَانِهِ إِلَى الْمُحِبِّينَ لُبُعْدِ الْمَزَارِ وَتَنَائِي الدِّيَارِ حَتَّى لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نُحِبَّ شَخْصًا مِيتًا أَوْ غَائِبًا إِلَى صَبِيٍّ لَمْ يَكُنْ لَنَا سَبِيلٌ إِلَّا بِالْإِطْنَابِ فِي وَصْفِهِ.

فإِذَا، لَيْسَ حُبُّ الْإِنْسَانِ مَقْصُورًا عَلَى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ، بَلِ الْمُحْسَنُ فِي نَفْسِهِ مَحْبُوبٌ إِذِ الْإِحْسَانُ جَمَالٌ وَحُسْنٌ، وَكَمَا تُدْرِكُ الصُّورُ الظَّاهِرَةَ بِالْبَصْرِ تُدْرِكُ الصُّورَ الْبَاطِنَةَ بِالْبَصِيرَةِ، فَمَنْ عَدِمَ الْبَصِيرَةَ الْبَاطِنَةَ لَمْ يَدْرِكْهَا، وَلَمْ يَحِبَّهَا وَلَمْ يَلْتَدِّ بِهَا، وَمَنْ كَانَتْ الْبَصِيرَةُ الْبَاطِنَةُ أَغْلَبَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ كَانَ حُبُّهُ لِلْمَعَانِي الْبَاطِنَةِ أَكْثَرَ مِنْ حُبِّهِ لِلْمَعَانِي الظَّاهِرَةِ، فَشَتَّانَ بَيْنَ مَنْ يُحِبُّ نَقْشًا مَصُورًا عَلَى الْحَائِطِ لَجَمَالِ صُورِهِ الظَّاهِرَةِ وَبَيْنَ مَنْ يُحِبُّ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَجَمَالِ صُورَتِهِ الْبَاطِنَةَ.

السبب الخامس: المناسبة الخفية بين الحبيب والمحبوب، إذ رُبَّ شَخْصِينَ تَتَأَكَّدُ الْمَحَبَّةُ بَيْنَهُمَا لَا بِسَبَبِ جَمَالٍ أَوْ حَظٍّ، وَلَكِنْ مَجْرَدِ تَنَاسُبِ الْأَرْوَاحِ، كَمَا قَالَ ﷺ: «... فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ»<sup>(٣)</sup>.

وقد حَقَّقْنَا ذَلِكَ فِي كِتَابِ آدَابِ الصُّحْبَةِ عِنْدَ ذِكْرِ الْحُبِّ فِي اللَّهِ تَعَالَى، فَلْيَطَّلَبْ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ مِنْ عَجَائِبِ أَسْبَابِ الْحُبِّ.

فإِذَنْ رَجَعْتَ أَقْسَامُ الْحُبِّ إِلَى خَمْسَةِ أَقْسَامٍ: وَهِيَ: حُبُّ الْإِنْسَانِ وَجُودَ نَفْسِهِ وَكَمَالِهِ وَبِقَاءِهِ، وَحُبُّهُ مِنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى دَوَامِ وَجُودِهِ وَيُعِينُ عَلَى بَقَائِهِ وَدَفَعَ الْمُهْلَكَاتِ عَنْهُ، وَحُبُّهُ مِنْ كَانَ مُحْسِنًا فِي نَفْسِهِ إِلَى النَّاسِ وَلَمْ يَكُنْ مُحْسِنًا

(١) يعني حاتمًا الطائي الجواد المعروف.

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «محبة»، والمثبت من الإحياء.

(٣) وتماهه: «الأرواح جنودٌ مجتدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»، أخرجه مسلم (٢٦٣٨) (١٥٩)، وأحمد (٧٩٣٥) و(١٠٨٢٤) و(١٠٩٥٦)، وابن حبان (٦١٦٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٠١) من حديث أبي هريرة.

إليه، وحبُّه لكل ما هو جميلٌ في ذاته سواء كان من الصُّور الظاهرة أو الباطنة، وحبُّه لمن بينه وبينه مناسبةٌ خفيةٌ في الباطن، فلو اجتمعت هذه الأسباب في شخصٍ واحدٍ تضاعفَ له الحبُّ لا محالةً، كما لو كان للإنسان ولدٌ جميلٌ الصورة حسنُ الخلقِ كاملُ العِلْمِ حسنُ التَّدبيرِ مُحسِنٌ إلى الخلقِ، ومُحسِنٌ إلى الوالد كان محبوباً لا محالةً غايةً الحبِّ، وتكونُ قوَّةُ الحبِّ بعد اجتماع هذه الخصال بحسبِ قوَّةِ هذه الخلال في نَفْسِها، فإن كانت هذه الصفات في أقصى الكمال كان الحبُّ لا محالةً في أعلى الدرجات.

فلنُبين الآن أن هذه الأسباب كلها لا يُتصوَّر كمالُها واجتماعُها إلا في حقِّ الله تعالى، فلا يستحقُّ المحبَّةَ بالحقيقة إلا اللهُ سبحانه وتعالى.

### بيان أنَّ المستحقَّ للمحبَّة هو اللهُ تعالى وحده

اعلم أنَّ من أحبَّ غيرَ الله تعالى لا من حيث نسبته إلى الله، فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى، فأما إن أحبَّ الرسول ﷺ فذلك عن حُبِّ الله، وكذلك إذا أحبَّ العلماء والأتقياء لأنَّ محبوبَ المحبوبِ محبوبٌ، ورسولَ المحبوبِ محبوبٌ، وكل ذلك يرجع إلى حُبِّ الأصل، فلا محبوبَ بالحقيقة عند ذوي البصائر إلا اللهُ تعالى، ولا مستحقَّ للمحبَّة سواه.

وإيضاحه: بأن نرجع إلى الأسباب الخمسة التي ذكرناها، ونُبين أنها مجتمعة في حقِّ الله تعالى بجُمليتها، ولا يوجد في غيره إلا أحادها، وأنها حقيقة له، ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذي بصيرةٍ ضدَّ ما تخيَّله ضُعفاء العقول من استحالة حُبِّ الله تعالى تحقيقاً، وبأن أن التَّحقيق يقتضي أن لا يُحبَّ أحدٌ غير الله تعالى.

فأما السبب الأول: وهو حُبُّ الإنسانِ نفسه وبقاءه وكمالُه ودوامُ وجوده، وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله، فهذه جبلة كلِّ حيٍّ، ولا يتصور أن ينفك عنها، وهذا يقتضي غاية المحبَّة لله تعالى فإن من عرف نفسه وعرف ربَّه عرف قطعاً أنه لا وجودَ له من ذاته، وإنما وجودُ ذاته ودوامُ وجوده وكمالُ وجوده من الله تعالى وبالله وإلى الله، فهو المخترع الموجدُ له، وهو المُبقي له، وهو المُكمل

لوجوده بخلق صفات الكمال، وخلق الأسباب الموصلة إليه، وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب، وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته، بل هو محو محض وعدم صرف لولا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد، وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله تعالى بالإبقاء، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل لخلقه.

وبالجملة؛ فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا القيوم الحي الذي هو قائم بذاته، وكل ما سواه قائم به، فإن أحب العارف ذاته، ووجود ذاته مستفاد من غيره، فبالضرورة يحب المفيد لوجوده والمديم له إن عرفه خالقاً موجداً ومخترعاً مبقياً وقيوماً بنفسه مقوماً لغيره، فإن كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وبربه.

والمحبة ثمرة المعرفة تنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها، ولذلك قال الحسن البصري: من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها.

وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه، ومعلوم أن المبتلى بحر الشمس لما كان يحب الظل أحب بالضرورة ما يقوم به الظل كالشجر، وكل ما في الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى، فهو كالظل بالإضافة إلى الشجر، والنور بالإضافة إلى الشمس، فإن الكل من آثار قدرته، ووجود الكل تابع لوجوده، كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر.

وإذا كان حب الإنسان نفسه ضرورياً، فحبه لمن به قوامه أولاً ودوامه ثانياً في أصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضاً ضروري إن عرف ذلك، ومن خلا عن هذا الحب فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته، ودهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته، واقتصر نظره على شهواته ومحسوساته وهو عالم الشهادة الذي تشاركه البهائم في التنعم به والأتساع فيه دون عالم الملكوت الذي لا يطأ أرضه إلا من يضرب إلى شبيه من الملائكة، فينظر فيه بقدر قربته في الصفات من الملائكة ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم.

وأما السبب الثاني: وهو حبه من أحسن إليه قواسمه بماله ولاطفه بكماله،

وَأَمَدَهُ<sup>(١)</sup> بمعونته وانتدبَ لئُصْرَتِهِ وَقَمَعَ أَعْدَاءَهُ وَانْتَهَضَ وَسِيلَةً إِلَى جَمِيعِ أَغْرَاضِهِ، فَإِنَّهُ مَحْبُوبٌ لَا مَحَالَةَ عِنْدَهُ، وَهَذَا بَعِيْنُهُ يَقْتَضِي أَنْ لَا يَحِبُّ إِلَّا اللَّهَ، فَإِنَّهُ لَوْ عَرَفَهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ لَعَلِمَ أَنَّ الْمَحْسَنَ إِلَيْهِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى فَقَطْ، فَأَمَّا أَنْوَاعُ إِحْسَانِهِ إِلَى كُلِّ عَبْدٍ لَا يُحِيطُ بِهَا حَصْرًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ١٢٤].

وقد أشرنا إلى طَرَفٍ مِنْ هَذَا فِي كِتَابِ الشُّكْرِ، وَلَكِنَّا نَقْتَصِرُ الْآنَ عَلَى بَيَانِ أَنَّ الْإِحْسَانَ مِنَ النَّاسِ غَيْرِ مُتَصَوِّرٍ إِلَّا بِالْمَجَازِ، وَإِنَّمَا الْمَحْسَنُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَلِنَقْرِضَ ذَلِكَ فَيَمُنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ بِجَمِيعِ خَزَائِنِهِ وَمَكَّنَكَ مِنْهَا لِتَصْرِفَ كَيْفَ شِئْتَ، فَإِنَّكَ تَظُنُّ أَنَّ هَذَا الْإِحْسَانَ مِنْهُ، وَهُوَ غَلْطٌ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا تَمَّ أَحْسَانُهُ بِهِ وَبِمَالِهِ وَبِقُدْرَتِهِ عَلَى الْمَالِ وَبِدَاعِيَتِهِ الْبَاعِئَةَ لَهُ عَلَى صَرْفِ الْمَالِ إِلَيْكَ، فَمَنْ الَّذِي أَنْعَمَ بِخَلْقِهِ وَخَلَقَ مَالَهُ وَخَلَقَ قُدْرَتَهُ وَخَلَقَ إِرَادَتَهُ وَدَاعِيَتَهُ؟ وَمَنْ الَّذِي حَبَّبَكَ إِلَيْهِ وَصَرَفَ وَجْهَهُ إِلَيْكَ وَأَلْقَى فِي نَفْسِهِ أَنْ صَلَاحَ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ فِي الْإِحْسَانِ إِلَيْكَ؟ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا أَعْطَاكَ، فَكَأَنَّهُ صَارَ مَقْهُورًا فِي التَّسْلِيمِ لَا يَسْتَطِيعُ مَخَالَفَتَهُ، فَالْمَحْسَنُ هُوَ الَّذِي اضْطَرَّه وَسَخَّرَهُ لَكَ، وَسَلَّطَ الدَّوَاعِيَ الْبَاعِئَةَ لَهُ الْمُرْهَقَةَ إِلَى الْفِعْلِ، وَأَمَّا يَدُهُ فَوَاسِطَةٌ يَصِلُ بِهَا إِحْسَانُ اللَّهِ إِلَيْكَ، وَصَاحِبُ الْيَدِ فِي ذَلِكَ مُضْطَرٌّ اضْطِرَارًا مَجْرَى الْمَاءِ فِي جَرِيَانِ الْمَاءِ فِيهِ، فَإِنْ اعْتَقَدْتَهُ مُحْسِنًا أَوْ شَكَرْتَهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ فِي نَفْسِهِ مُحْسِنٌ لَا مِنْ حَيْثُ هُوَ وَاسِطَةٌ كُنْتَ جَاهِلًا بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ، فَإِنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ الْإِحْسَانَ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا إِلَى نَفْسِهِ، أَمَّا الْإِحْسَانُ إِلَى غَيْرِهِ فَمَحَالٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَبْذُلُ مَالَهُ إِلَّا لِعَرَضٍ لَهُ فِي الْبَدَلِ، إِمَّا أَجَلٌ وَهُوَ الثَّوَابُ، وَإِمَّا عَاجِلٌ وَهُوَ الْمِنَّةُ وَالِاسْتِسْخَارُ أَوْ الثَّنَاءُ أَوْ الصَّيْتُ وَالِاسْتِهْجَارُ بِالسَّخَاءِ وَالكَرَمِ، أَوْ جَذَبَ قُلُوبَ الْخَلْقِ إِلَى طَاعَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَكَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُلْقِي مَالَهُ فِي الْبَحْرِ إِذْ لَا غَرَضَ لَهُ، فَلَا يُلْقِيهِ فِي يَدِ إِنْسَانٍ إِلَّا لِعَرَضٍ لَهُ فِيهِ، وَذَلِكَ الْعَرَضُ هُوَ مَطْلُوبُهُ وَمَقْصُودُهُ، وَأَمَّا أَنْتَ فَلَسْتَ مَقْصُورَدًا، بَلْ يَدُكَ آلَةٌ قَدْ اسْتَسْخَرَهَا لِقَبْضِ مِنْهُ لِيَحْصَلَ عَرَضُهُ مِنَ الذِّكْرِ وَالثَّنَاءِ وَالثَّوَابِ، فَهُوَ إِذَنْ مُحْسِنٌ إِلَى نَفْسِهِ وَمَعْتَاضٌ عَمَّا بَدَّلَهُ مِنْ مَالِهِ عَوْضًا هُوَ أَرْجَحُ عِنْدَهُ مِنْ مَالِهِ، وَلَوْلَا رُجْحَانُ

(١) تحرفت في الأصل إلى: «أمه»، والمثبت من الإحياء.

ذلك الحَظَّ عنده لما بذلَّ من ماله لأجلك أصلاً، فإذا هو غير مُستحقَّ للشُّكر والحب من وجهين:

أحدهما: أنه مُضطرٌّ بتسليط الله الدَّواعي عليه فلا قُدرة له على المُخالفة فهو جارٍ مجرى خازنِ الأمير، فإنه لا يرى محسناً بتسليم خِلة الأمير إلى من خَلع عليه؛ لأنه من جهة الأمير مضطرٌّ إلى الطاعة والامتثال لما يرسمه، ولو خَلاه الأمير ونفسه لما سلَّم ذلك، وكذلك كلُّ محسنٍ لو خَلاه الله تعالى ونفسه لم يبذل حَبَّةً من ماله حتى سلَّط الله الدَّواعي عليه وألقى في نفسه أن حَظَّه في بذل ذلك فيبذله.

والثاني: أنه مُعتاضٌ عمَّا بذله حَظًّا هو أوفى عنده وأحبُّ مما بذله، فكما لا يُعدُّ البائعُ مُحسناً، لأنه بذل بعوضٍ هو أحبُّ عنده مما بذله، فكذلك الواهبُ اعتاضَ الثَّوابَ والحمدَ والثناءَ أو غرضاً آخر، وليس من شرطِ العوضِ أن يكون عَيْناً مُتمولَةً، بل الحُظوظُ كلها أعواضٌ تُستحقَّقُ الأموالُ والأعيانُ بالإضافة إليها، فالإحسانُ في الجود، والجود هو بذلُّ المال من غيرِ عوضٍ وحَظٌّ يرجع إلى الباذل، وذلك مُحالٌ من غيرِ الله تعالى، فهو الذي أنعمَ على العالمين وأحسنَ إليهم ولأجلهم لا لحَظٍّ وغرضٍ يرجع إليه، فإنه يتعالى عن الأغراض، فلفظُ الجود والإحسان في حقِّ غيره كذبٌ أو مجازٌ، ومعناه في حقِّ غيره مُحالٌ وممتنعٌ، فهو المنفردُ بالجود والإحسان والطَّولِ والامتتَانِ.

فإن كان في الطَّبع حُبُّ المحسنِ فينبغي أن لا يُحبَّ العارفُ إلا الله تعالى إذ الإحسانُ من غيره مُحالٌ، فهو المستحقُّ لهذه المحبة، وأما غيره فيستحقُّ المحبةَ على الإحسان بشرطِ الجهلِ بمعنى الإحسان وحقيقته.

وأما السبب الثالث: وهو حبك المحسن في نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه، وهذا موجودٌ في الطَّباع، فإنه إذا بلغك خبرُ ملكٍ عالمٍ عابِدٍ عادلٍ، رَفِيقٍ بالناس، مُتلطفٍ بهم، وهو في قُطرٍ بعيدٍ، وبلغك خبرُ ملكٍ آخر ظالمٍ فاسقٍ شريرٍ في قُطرٍ بعيدٍ، فإنك تجدُّ في قلبك تفرقةً بينهما، فتجدُّ ميلاً إلى الأوَّلِ ونُفرةً عن الثاني، مع أنك آيسٌ من خيرِ الأوَّلِ وآمنٌ من شرِّ الثاني، لانقطاع طَمَعِكَ عن التَّوَعُّلِ إلى

بلادهما، فهذا حبُّ المحسن من حيث أنه مُحسِنٌ فقط، لا من حيث أنه محسن إليك، وهذا أيضاً يقتضي حبَّ الله تعالى بل يقتضي أن لا يحبَّ غيرَه أصلاً إلا من حيث أن يتعلَّق منه بسببٍ، فإن الله تعالى هو المحسنُ إلى الكلِّ كافةً؛ أولاً بإيجادهم، وثانياً بتكميلهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم،<sup>(١)</sup> وثالثاً بترفيهم وتنعيمهم<sup>(٢)</sup> بخلق الأسباب التي هي في مظانِّ حاجاتهم، وإن لم تكن في مظان الضَّرورة، ورابعاً بتحميلهم بالمزايا والزوائد التي هي مَطْنَةٌ زينتهم وهي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم. ومثال الضروري من الأعضاء الرأس والقلْب والكبد، ومثال المحتاج إليه العين واليَد والرَّجل، ومثال الزينة استِثْواصُ الحاجِبين وحُمْرَةُ الشَّفْتين وتَلَوُّنُ العينين إلى غير ذلك ممَّا لَوْ فات لم تَنَحْرِم به حاجة ولا ضرورة، ومثال الضروري من النعم الخارجة عن بدن الإنسان الماء والغذاء، ومثال الحاجة الدواء واللحم والفواكه، ومثال المزايا والزوائد خضرة الأشجار، وحسن أشكال الأنوار والأزهار، ولذائذ الفواكه والأطعمة التي لا تَنَجْزِمُ بعدمها حاجة ولا ضرورة.

وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان، بل لكل نبات، بل لكل صنفٍ من أصناف الخلق، فإذاً هو المحسن، وكيف يكون غيره مُحسناً وذلك المُحسِنُ حَسَنَةٌ من حَسَنَاتِ قُدْرَتِهِ، فإنه خالق الحَسَنِ وخالق المُحسِنِ وخالق الإحسان وخالق أسباب الإحسان، فالحبُّ بهذه العلة لغيره جهلٌ مَحْضٌ، ومن عرف هذا لم يحب بهذه العلة إلا الله تعالى.

وأما السبب الرابع: وهو حبُّ كلِّ جَمِيلٍ لذاتِ الجمال لا لِحَظِّ يُنال منه وراء إدراك الجمال، فقد بيَّنا أن ذلك مجبولٌ في الطَّبَاعِ، وأن الجمال ينقسم إلى جمالٍ في الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس، وإلى جمالٍ الصورة الباطنة المدركة بعين القلب، ونور البصيرة، فالأول يُدركه الصبيان والبَهائم، والثاني يختصُّ بدركه أربابُ القلوب، ولا يشاركونهم فيه من لا يعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فكل جمالٍ فهو

(١-١) تحرفت في الأصل إلى: «بالتأثير فيهم وبنعيمهم»، والمثبت من الإحياء.

محبوب عند مدرك الجمال غيرة على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبقت له الحسنى.

وأما السبب الخامس: فهو المناسبة والمُشاكلة؛ لأن شبه الشيء ينجذب إليه، ولهذا يميل الصبي إلى الصبي والكبير إلى الكبير، والطير إلى نوعه، والعالم إلى العالم، وإذا كانت المناسبة سبب التحاب فليس بين الخلائق والمخلوق مناسبة إلا في تخلق العبد بأخلاق الحق من العلم والبر والإحسان وإفاضة الخير والرحمة والتصيحة والإرشاد إلى الحق، وإلى نحو هذا يرمز قوله عليه الصلاة والسلام: «خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»<sup>(١)</sup>.

ثم كل من يحب مخلوقاً لسبب من هذه الأسباب المذكورة يُتصور أن يحب غيره لمشاركته إياه في موجب الحب، وليس الموصوف بالكمال الذي لا يتصور لغيره ولا يُشاركه فيه سواه إلا الله سبحانه، فبان بأنه مستحق لكمال المحبة استحقاقاً لا يساهم<sup>(٢)</sup> فيه أصلاً.

(١) أخرجه مسلم (٢٦١٢) (١١٢)، وأحمد (٧٣٢٣) و(٨١٧١)، والحميدي (١١٢١)، وأبو يعلى (٦٢٧٤)، وابن حبان (٥٦٠٥)، والبيهقي في السنن (٣٢٧/٨)، وفي الأسماء والصفات (ص ٢٩٠). وقال ابن حبان في صحيحه (٣٣/١٤): «ومعنى الخبر عندنا: إبانة فضل آدم على سائر الخلق، والهاء راجعة إلى آدم، والفائدة من رجوع الهاء إلى آدم دون إضافتها إلى البارئ جلّ وعلا، أنه جعل سبب الخلق الذي هو المتحرك النامي بذاته اجتماع الذكر والأنثى، ثم زوال الماء عن قرار الذكر إلى رحم الأنثى، ثم تغير ذلك إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم إلى الصورة... ثم الخروج من قراره، ثم الرضاع، ثم الفطام، ثم المراتب الأخرى إلى حلول المنيّة به، هذا وصف المتحرك النامي من خلقه، وخلق الله جلّ وعلا آدم على صورته التي خلقه عليها وطوله ستون ذراعاً من غير أن تكون تقدمت اجتماع الذكر والأنثى، أو زوال الماء، أو قراره، أو تغيير الماء علقةً أو مضغة، أو تجسيمه بعده، فأبان الله بهذا فضله على سائر من ذكرنا من خلقه بأنه لم يكن نُطفة فعلقه، ولا علقه فمضغه، ولا مضغة فرضيعاً، ولا رضيعاً فقطيماً، ولا قطيماً فشاباً، كما كانت هذه حالة غيره».

(٢) لا يساهم: لا يُشارك.

## بَيَانُ أَنَّ أَجَلَ اللَّذَاتِ وَأَعْلَاهَا مَعْرِفَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَالنَّظْرُ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَأَنَّهُ لَا يُتَّصَرَّحُ بِأَنَّ يُوَثِّرُ عَلَى ذَلِكَ لَذَّةٌ أُخْرَى إِلَّا مَنْ حُرِّمَ هَذِهِ اللَّذَّةُ

اعلم أن اللذات تابعة للإدراكات، والإنسان جامعٌ لجملةٍ من القوى والغرائز، ولكل قوةٍ وغريزةٍ لذة، ولذتها في نيلها لمقتضى طبعها الذي خُلقت له، فإن هذه الغرائز ما رُكِّزَت في الإنسان عَبَثًا، بل رُكِّبَت كل قُوَّةٍ وَغَرِيْزَةٍ لِأَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ، وَهُوَ مَقْتَضَاهَا بِالطَّبْعِ، فَغَرِيْزَةُ الْعَضْبِ خُلِقَتْ لِلتَّشْفِيِّ وَالْإِنْتِقَامِ، فَلَا جَرَمَ لَذَّتْهَا فِي الْعَلْبَةِ وَالْإِنْتِقَامِ الَّذِي هُوَ مُقْتَضَى طَبْعِهَا، وَغَرِيْزَةُ شَهْوَةِ الطَّعَامِ خُلِقَتْ لِتَحْصِيلِ الْغِذَاءِ الَّذِي بِهِ الْقَوَامُ، فَلَا جَرَمَ لَذَّتْهَا فِي نَيْلِ الْغِذَاءِ الَّذِي هُوَ مُقْتَضَى طَبْعِهَا، وَكَذَلِكَ لَذَةُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ فِي الْإِبْصَارِ وَالْإِسْتِمَاعِ، فَلَا تَخْلُو غَرِيْزَةٌ مِنْ هَذِهِ الْغَرَائِزِ عَنْ أَلْمٍ وَلَذَّةٍ بِالإِضَافَةِ إِلَى مُدْرَكَاتِهَا، فَكَذَلِكَ فِي الْقَلْبِ غَرِيْزَةٌ تُسَمَّى النَّوْرَ الْإِلَهِيَّ، وَقَدْ تُسَمَّى الْعَقْلَ، وَتُسَمَّى الْبَصِيْرَةَ الْبَاطِنَةَ وَتُسَمَّى نُوْرَ الْإِيْمَانِ وَالْيَقِيْنِ، وَلَا مَعْنَى لِلإِشْتِغَالِ بِالْأَسْمَاءِ؛ فَإِنَّ الْإِصْطِلَاحَاتِ مَخْتَلِفَةً وَالضَّعِيْفُ يَظُنُّ أَنَّ الْإِخْتِلَافَ وَقَعَ فِي الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ الضَّعِيْفَ يَطْلُبُ الْمَعْنَى مِنَ الْأَلْفَاظِ، وَهُوَ عَكْسُ الْوَاجِبِ، فَالْقَلْبُ مَفَارِقٌ لِسَائِرِ أَجْزَاءِ الْبَدَنِ بِصِفَةِ بِهَا يُدْرِكُ الْمَعْنَى الَّتِي لَيْسَتْ مُتَخَيَّلَةً وَلَا مُحَسَّسَةً، كإِدْرَاكِهِ خَلْقَ الْعَالَمِ أَوْ إِفْتِقَارَهُ إِلَى خَالِقٍ قَدِيرٍ مُدَبِّرٍ حَكِيمٍ مُوصِفٍ بِصِفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ، وَلِئْسَمُ تِلْكَ الْغَرِيْزَةُ عَقْلًا، فَقَدْ اِشْتَهَرَ اسْمُ الْعَقْلِ بِهَذَا، وَهَذِهِ الْغَرِيْزَةُ خُلِقَتْ لِئَعْلَمَ بِهَا حَقَائِقَ الْأُمُورِ كُلِّهَا، فَمَقْتَضَى طَبْعِهَا الْمَعْرِفَةَ وَالْعِلْمَ وَهِيَ لَذَّتْهَا، كَمَا أَنَّ مَقْتَضَى سَائِرِ الْغَرَائِزِ هُوَ لَذَّتْهَا، وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّ فِي الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ لَذَّةٌ حَتَّى إِنْ الَّذِي يُنْسَبُ إِلَى الْعِلْمِ وَلَوْ بِشَيْءٍ خَسِيسٍ يَفْرَحُ بِهِ، وَالَّذِي يُنْسَبُ إِلَى الْجَهْلِ وَلَوْ فِي شَيْءٍ حَقِيرٍ يَغْتَمُّ بِهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ لِفَرْطِ لَذَّةِ الْعِلْمِ وَمَا يَسْتَشْعِرُهُ مِنْ كَمَالِ ذَاتِهِ بِهِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ مِنْ أَحْصَى صِفَاتِ الرَّبُوبِيَّةِ وَهُوَ مُنْتَهَى الْكَمَالِ، وَلِذَلِكَ يَرْتَاحُ الطَّبْعُ إِذَا أُثْنِيَ عَلَيْهِ بِالذِّكَاةِ وَغَزَارَةِ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّهُ يَسْتَشْعِرُ عِنْدَ سَمَاعِ الثَّنَاءِ كَمَالَ ذَاتِهِ وَكَمَالَ عِلْمِهِ، فَيُعْجَبُ بِذَلِكَ وَيَلْتَنِّدُ بِهِ، ثُمَّ لَيْسَ لَذَّةُ الْعِلْمِ بِالْحِرَاثَةِ وَالْخِيَاطَةِ كَلَذَةِ الْعِلْمِ بِسِيَاسَةِ الْمُلْكِ وَتَدْبِيرِ أَمْرِ الْخَلْقِ، وَلَا لَذَةُ الْعِلْمِ بِالنَّحْوِ وَالشُّعْرِ كَلَذَةِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ وَمَلَائِكَتِهِ

وملكوت السماوات والأرض، بل لذة العلم بقدر شرف العلم، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم، حتى إن الذي يعرف بواطن أحوال الناس ويخبّر ذلك يجد له لذة، وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه، فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تدبيره في رئاسته كان ذلك ألدّ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك، فإن أطلع على أسرار الوزير وتدبيره، فهو أشهى عنده وألدّ من علمه بأسرار الرئيس، فإن كان خبيراً بباطن أحوال الملك والسلطان الذي هو المستولي على الوزير، كان ذلك أطيب عنده وألدّ من علمه بباطن أمور الوزير، وكان تمدّحه بذلك وحرصه على البحث عنه أشدّ، وحبّه له أكثر؛ لأن لذّته فيه أعظم.

فبهذا استبان أن ألدّ المعارف أشرفها، وشرفها بحسب شرف المعلوم، فإن كان في المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم، فالعلم به ألدّ العلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها، وليت شعري هل في الوجود شيء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها ومزيناها ومبدئها ومُعِيدها ومدبرها ومرتبها، وهل يُتصور أن تكون حاضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحاضرة الربانية التي لا يُحيط بمبادئ جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين، فإن كنت لا تشك في ذلك، فلا ينبغي أن تشك في أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتيب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات، هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها، وأحرى ما تستشعر النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها، وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستيثار.

وبهذا يتبين أن العلم لذيد، وأن ألدّ العلوم العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله وتدبيره في مملكته، فينبغي أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من جميع اللذات، أعني لذة الشهوة والغضب، ولذة جميع الحواس الخمس، فإن اللذات مختلفة بالتّوابع أولاً كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع، ولذة المعرفة للذة الرئاسة، وهي مختلفة بالصّغف والقوة، كمخالفة لذة الشبق المغمّلم<sup>(١)</sup> من الجماع للذة الفاتر الشهوة، ومخالفة لذة

(١) المغمّلم: الهائج الشهوة.

النَّظَرُ إِلَى الْوَجْهِ الْفَائِقِ الْجَمَالِ لِلذَّةِ النَّظَرِ إِلَى مَا دُونَهُ فِي الْجَمَالِ .

وإنما تُعَرَّفُ أَقْوَى اللَّذَاتِ بِأَنْ تَكُونَ مُؤَثَّرَةً عَلَى غَيْرِهَا، فَإِنَّ الْمُخَيَّرَ بَيْنَ النَّظَرِ إِلَى صُورَةٍ جَمِيلَةٍ وَالتَّمَتُّعِ بِمَشَاهِدَتِهَا، وَبَيْنَ اسْتِنشَاقِ رَوَائِحِ طَيِّبَةٍ إِذَا اخْتَارَ النَّظَرَ إِلَى الصُّورِ الْجَمِيلَةِ عُلِمَ أَنَّهَا عِنْدَهُ أَلَدُّ مِنَ الرَوَائِحِ، وَكَذَلِكَ إِذَا حَضَرَ الطَّعَامَ وَقَتَ الْأَكْلِ وَاسْتَمَرَ اللَّاعِبُ بِالشَّطْرَنْجِ عَلَى اللَّعْبِ وَتَرَكَ الْأَكْلَ، فَيَعْلَمُ بِذَلِكَ أَنَّ لَذَّةَ الْعَلْبَةِ فِي الشَّطْرَنْجِ أَقْوَى عِنْدَهُ مِنْ لَذَّةِ الْأَكْلِ، فَهَذَا مَعْيَارٌ صَادِقٌ فِي الْكَشْفِ عَنِ تَرْجِيحِ اللَّذَاتِ .

فَنَعُودُ وَنَقُولُ: اللَّذَاتُ تَنْقَسِمُ إِلَى ظَاهِرَةٍ، كَلذَاتِ الْحَوَاسِّ الْخَمْسِ، وَإِلَى بَاطِنَةٍ، كَلذَّةِ الرِّئَاسَةِ وَالْعَلْبَةِ وَالْكَرَمِ وَالْعِلْمِ وَغَيْرِهِ إِذْ لَيْسَتْ هَذِهِ اللَّذَّةُ لِلْعَيْنِ وَلَا لِلْأَنْفِ وَلَا لِلْأُذُنِ وَلَا لِلْمَسِّ وَلَا لِلذُّوقِ، وَالْمَعَانِي الْبَاطِنَةُ أَغْلَبَ عَلَى دَوِي الْكَمَالِ مِنَ اللَّذَاتِ الظَّاهِرَةِ، فَلَوْ خُيِّرَ الرَّجُلُ بَيْنَ لَذَّةِ الدَّجَاجِ السَّمِينِ وَاللُّوزِيْنِجِ، وَبَيْنَ لَذَّةِ الرِّئَاسَةِ وَقَهْرِ الْأَعْدَاءِ وَنَيْلِ دَرَجَةِ الْاِسْتِيْلَاءِ، فَإِنَّ كَانَ الْمُخَيَّرَ خَسِيسَ الْهِمَّةِ مَيَّتَ الْقَلْبِ شَدِيدَ الْبَهِيمِيَّةِ اخْتَارَ اللَّحْمَ وَالْحَلَوَاءَ، وَإِنْ كَانَ عَلِيًّا الْهِمَّةِ كَامِلَ الْعَقْلِ اخْتَارَ الرِّئَاسَةَ، وَهَانَ عَلَيْهِ الْجَوْعُ وَالصَّبْرُ عَنْ ضَرُورَةِ الْقُوَّةِ أَيَّاماً كَثِيرَةً، فَاخْتِيَارُهُ لِلرِّئَاسَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا أَلَدُّ عِنْدَهُ مِنَ الْمَطْعُومَاتِ الطَّيِّبَةِ .

وَكَأَنَّ لَذَّةَ الرِّئَاسَةِ أَغْلَبَ اللَّذَاتِ عَلَى مَنْ جَاوَزَ نُقْصَانَ النَّاقِصِ الْهِمَّةِ، فَلذَّةُ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَمُطَالَعَةِ جَمَالِ حَضْرَةِ الرَّبُّوبِيَّةِ وَالنَّظَرِ إِلَى أَسْرَارِ الْأُمُورِ الْإِلَهِيَّةِ أَلَدُّ مِنَ الرِّئَاسَةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى اللَّذَاتِ الْغَالِبَةِ عَلَى الْخَلْقِ، وَهَذَا لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ ذَاقَ اللَّذَّتَيْنِ جَمِيعاً، فَإِنَّهُ لَا مَحَالَةَ يُؤَثِّرُ التَّبْتُلُ وَالتَّفَرُّدُ وَالفِكْرُ وَالدُّكْرُ، وَيَنْغَمَسُ فِي بَحَارِ الْمَعْرِفَةِ، وَيَتْرَكَ الرِّئَاسَةَ، وَيَحْتَقِرُ الْخَلْقَ الَّذِينَ يَرَأْسُهُمْ لِعِلْمِهِ بِفَنَاءِ رِئَاسَتِهِ وَفَنَاءِ مَنْ عَلَيْهِ رِئَاسَتُهُ، وَكَوْنِ ذَلِكَ مَشُوباً بِالْكَدْرِ، وَمَقْطُوعاً بِالمَوْتِ، وَتَعْظُمُ عِنْدَهُ مَعْرِفَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَمُطَالَعَةُ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَنِظَامِ مَمْلَكَتِهِ، فَإِنَّهَا خَالِيَةٌ عَنِ الْمُزَاحِمَاتِ وَالْمُكَدَّرَاتِ، مَتَسَعَةٌ لِمَتَوَارِدِينَ عَلَيْهَا لَا تَضِيقُ عَنْهُمْ، فَلَا يَزَالُ الْعَارِفُ بِمُطَالَعَتِهَا فِي جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ يَرْتَعُ فِي رِيَاضِهَا، وَيَقْطِفُ مِنْ ثَمَرِهَا، وَيَكْرَعُ مِنْ حِيَاضِهَا، وَهُوَ آمِنٌ مِنْ انْقِطَاعِهَا، إِذْ هِيَ أَبَدِيَّةٌ سَرْمَدِيَّةٌ لَا يَقْطَعُهَا الْمَوْتُ؛ لِأَنَّ

الموت لا يهدم محلّ معرفة الله تعالى إذ محلها الروح الذي هو أمر ربّاني، وإنما الموت يُغير أحوالها فأما أن يُعديها، فلا، فجميع أقطار ملكوت السماوات والأرض ميدان العارف يتبوّأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بجسمه، وهو في جنة واسعة، ولكلّ عارفٍ مثلها من غير أن يُضيق بعضهم على بعض أصلاً، إلاّ أنهم يتفاوتون في سعة مُتنزهاتهم بقدر تفاوتهم في اتّساع نظرهم وسعة معارفهم، وهم درجاتٌ عند الله، ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم، فقد ظهر أن لذّة الرئاسة، وهي باطنة، أقوى في ذوي الكمال من لذات الحواسّ كلّها، وأن هذه اللذّة لا تكون لبهيمة ولا لصبي ولا لمعتوه، ولا يمكن إثبات هذا عند من لا قلب له؛ لأن القلب معدن هذه القوة، كما أنه لا يمكن إثبات رُجحان لذة الوقاع على لذّة اللّعب بالصوّلجان عند الصّبيان، ولا رُجحانه على لذّة شمّ البنفسج عند العتّين<sup>(١)</sup>؛ لأنه فقد الصّفة التي بها تُدرّك هذه اللذّة، ولكن من سلّم من آفة العتّة وسلّمت حاسّة شمّه أدرك التفاوت بين اللذتين، وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال: من ذاق عرّف.

ولعمري إن طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية، فقد استنشقوا رائحة هذه اللذّة عند انكشاف المُشكلات وانحلال الشُّبهات التي قوي حرصهم على طلبها، فإنها أيضاً معارف وعلوم، وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية، فأما من طال فكره في معرفة الله تعالى وانكشف له من أسرار ملك الله ولو الشّيء اليسير، فإنه يُصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به، ويتعجب من نفسه في ثباته، وهذا مما لا يُدرك إلا بالدّوق والحكاية فيه قليلة الجدوى.

فهذا القدر يُنبّهك على أن معرفة الله تعالى ألذ الأشياء، وأنه لا لذة فوقها، ولهذا قال أبو سليمان الداراني: إن لله تعالى عبداً ليس يشغلهم عن الله عزّ وجلّ خوف النار ولا رجاء الجنّة، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله؟ وقال بعض أصحاب معروف: قلتُ له: أي شيء أهاجك إلى العبادة؟ فسكت.

(١) العتّين: من أصابته علة فأصبح عاجزاً عن الجماع.

فقلتُ: ذِكْرُ المَوْتِ؟ فقال: وأيُّ شيءٍ الموت؟ فقلتُ: ذِكْرُ القَبْرِ؟ قال: وأيُّ شيءٍ القبر؟ فقلتُ: خوف النار ورجاء الجنة؟ فقال: وأيُّ شيءٍ هذا؟ إن مَلِكاً هذا كلُّه بيده إن أَحَبَّبْتُهُ أَنَسَاكَ جميع ذلك، وإن كانت بينك وبينه معرفةٌ كفاك جميع هذا.

أخبرنا يحيى بن علي المُدير، قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن علي الخياط قال: أخبرنا الحسن بن الحسين بن حَمَّان قال: حَدَّثَنَا أبو بكر محمد بن الحسن النَّقَّاش قال: حَدَّثَنَا محمد بن إسحاق السَّرَّاج قال: سمعتُ أحمدَ بن الفتح يقول: رأيتُ بِشَرَ بن الحارث في مَنامي، فقلتُ له: ما فَعَلَ مَعروف الكَرخي؟ فحرك رأسه ثم قال لي: هِيَهَات حَالَتْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ الحُجُب، إن معروفاً لم يَعْبُدِ الله شَوْقاً إِلَى جَنَّتِهِ، وَلَا خَوْفاً مِنْ نارِهِ، وَإِنما عَبَدَهُ شَوْقاً إِلَيْهِ، فَرَفَعَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى الرَّفِيقِ (١) الأَعلى، وَرَفَعَ الحُجُبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ.

وقالت رابعةُ العَدَوِيَّة (٢): ما عَبَدْتُهُ خَوْفاً مِنْ نارِهِ وَلَا حُبّاً لَجَنَّتِهِ، فأكون كأجير السُّوءِ، بل عَبَدْتُهُ حُباً لَهُ وَشَوْقاً إِلَيْهِ.

وكانت امرأةً من العابدات تقول:

أَحِبُّكَ حُبِّينِ حُبِّ الهَوَى      وَحُبّاً لَأَنَّكَ أَهْلٌ لِذَاكَ  
فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حُبُّ الهَوَى      فَشُغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ  
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ      فَكَشْفُكَ لِلْحُجُبِ حَتَّى أَرَاكَ  
فَمَا الحَمْدُ فِي ذَا وَفِي ذَاكَ لِي      وَلَكِنْ لَكَ الحَمْدُ فِي ذَا وَذَاكَ (٣)

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الرفيع».

(٢) هي رابعة بنت إسماعيل البصرية العدوية، مولاة آل عتيك، من العابدات الزاهدات توفيت سنة ١٣٥هـ وقيل: ١٨٠هـ. ودفنت ببيت المقدس. سير أعلام النبلاء (٨/٢١٥)، وصفة الصفة للمصنف (٤/٢٧).

(٣) تُنسب هذه الأبيات لرابعة العدوية في الكثير من المصادر. الدر المنثور في طبقات ربات الخدور: ٣٣١.

وإنما أرادت بحبِّ الهوى حبَّ الله لإحسانه وإنعامه بحُظوظ العاجلة، وأرادت بالحب الذي هو أهلُّ له الحبُّ لجماله وجلاله.

ومتى حصلت مَحَبَّةُ الله لشخصٍ صار القلبُ مستغرقاً بها فلو أُلقي في النار لم يُحسَّ بها، ولو عرضَ عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية، وليت شعري من لا يفهم إلا حبَّ المُحسَّات كيف يُؤمن بلذة النَّظَرِ إلى الله تعالى وما له صورةٌ ولا شكل، وأي معنى لوعدِ الله تعالى به عباده وذكره أنه أعظم النعم، بل من عرف الله عرف أن اللذات المُفَرَّقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوي تحت هذه اللذة، كما قال بعضهم:

كانت لقلبي أهواءٌ مُفَرَّقةٌ      فاستجمعتُ مُذْ رَأَتْكَ العَيْنُ أهوائي  
فَصَارَ يحسُدُنِي مَنْ كُنْتُ أَحْسُدُهُ      وصِرْتُ مَوْلَى الْوَرَى مُذْ صِرْتُ مولائي  
تركتُ للناسِ دُنْيَاهُمْ ودينَهُمْ      شُغلاً بِذِكْرِكَ يَا ديني ودُنْيائي  
وكذلك قال بعضهم:

وهَجْرُهُ أَعْظَمُ مِنْ نَارِهِ      وَوَصْلُهُ أَعْظَمُ مِنْ جَنَّتِهِ

وما أرادوا بهذا إلا لذة القلب في معرفة الله تعالى، وتفضيلها على لذة الأكل والشرب والنكاح، فإن الجنة معدنٌ تمتع الحواس، فأما القلبُ فلذته في لقاء الله فقط.

ومثال أطوار الخلق في لذاتهم ما نذكره، وهو أن الصبي في أول حركته وتمييزه تظهر فيه غريزةٌ يستلذُّ بها اللَّعِبُ واللَّهْوُ حتى يكون ذلك عنده ألدَّ من سائر الأشياء، ثم تظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب، فيحتقر معها اللَّعِبُ، ثم تظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء، فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها، ثم تظهر لذة الرئاسة والعلو والتكاثر، وهي آخر لذات الدنيا وأغلبها وأقواها، كما قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠]، ثم بعد هذا تظهر غريزةٌ أخرى يُدرك بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله ليحتقر معها جميع ما قبلها، وكل متأخرٍ فهو أقوى، وهذا هو

الأخير، إذ يظهر حبُّ اللعبِ في سنِّ التَّمييز، وحبُّ النَّساءِ والرَّيئةِ في سنِّ البُلُوغِ، وحبُّ الرِّئاسةِ بعدَ العِشرين، وحبُّ العلومِ بقُرْبِ الأربعمِئين، وهي الغايةُ العُلَيَا، وكما أن الصَّبِيَّ يَضْحَكُ على من يَتْرُكُ اللَعْبَ وَيَشْتَغِلُ بِمَلَاعِبَةِ النَّسَاءِ وَطَلِبِ الرِّئاسةِ، فكذلك الرُّؤساءُ يَضْحَكُونَ على من يَتْرُكُ الرِّئاسةَ وَيَشْتَغِلُ بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى، والعارفون يقولون: ﴿إِنْ تَسَخَّرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَّرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَّرُونَ \* فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٣٩، ٣٨].

### بيان السبب في زيادة لذة النَّظَرِ في الآخرة على المعرفة في الدنيا

اعلم أن المدركات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال، كالصُّور والأجسام المُتَشَكِّلَةِ من أشخاص الحيوان والنبات، وإلى ما لا يدخل في الخيال، كذاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وكل ما ليس بجسم كالعلم والإرادة وغيرها، من رأى إنساناً ثم غَضَّ بصره وجد صورته حاضرةً في خياله كأنه ينظر إليها، ولكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقةً بينهما، ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين؛ لأن الصورة المرئية تكون موافقةً للمتخيلة، وإنما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف، فإن صورة المرئي صارت بالرؤية أتم انكشافاً ووضوحاً، وهو كشخص يُرى في وقت الإسفار قبل انتشار ضوء النهار، ثم رُئي عند تمام الضوء، فإنه لا فرق بين الحالتين إلا في مزيد الانكشاف.

فإذن الخيال أول الإدراك، والرؤية استكمال الإدراك، وهو غاية الكشف، وإذا فهمت هذا في المتخيلات فاعلم أن المعلومات لا تتشكل في الخيال أيضاً، بل لمعرفة وإدراكها درجتان: إحداهما: أولى، والثانية: استكمال لها، وبين الثانية والأولى من التفاوت في مزيد الكشف والإيضاح ما بين المتخيل والمرئي، فيسمى الثاني أيضاً بالإضافة إلى الأول مشاهدةً ولقاءً ورؤيةً، وهذه التسمية حق؛ لأن الرؤية سُميت رؤيةً لأنها غاية الكشف. وكما أن سنة الله تعالى جاريةٌ بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية، ويكون حجاباً بين البصر والمرئي، ولا بد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية، وما لم ترتفع كان الإدراك الحاصل مجرد التخييل، فكذلك

مقتضى سنة الله تعالى أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وما غلب عليها من الصفات البشرية، فإنها لا تنتهي إلى المشاهدة في المعلومات الخارجة عن الخيال، بل هذه الحياة حجابٌ عنها بالضرورة، كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار، والقول في سبب كونه حجاباً يطول، فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس وفيها نوعٌ تلوّثٌ بالدنيا، فإذا دخلوا إلى الجنة وقد صَفَوْا عن الأكدار تجلّى الحق لهم تجلياً يكون انكشاف تجليّه بالإضافة إلى ما عملوه كانكشاف تجليّ المرئيات<sup>(١)</sup> بالإضافة إلى ما تخيله.

وهذه المشاهدة والتجلي هي التي تُسمى رؤية، وكل من لا يعرف الله في الدنيا لا يراه في الآخرة، وما يستأنف لأحدٍ في الآخرة ما لم يصحبه في الدنيا ولا يحصد أحدٌ إلا ما زرع، ولا يموت المرء إلا على ما عاش عليه، ولا يُحشر إلا على ما مات عليه، فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بعينه فقط، إلا أنه ينقلب مشاهدةً بكشف الغطاء، فتتضاعف اللذة به، كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية<sup>(٢)</sup> صورته، فإن ذلك هو منتهى لذته.

ونضرب مثلاً لما ذكرنا، فنقول: لذة النظر إلى وجه المعشوق في الدنيا تتفاوت بأسباب:

أحدها: كمال حُسن المعشوق ونقصانه، فإن اللذة في النظر إلى الأجل أكمل.

والثاني: كمال قوة الحب والشهوة والعشق، فليس التذاذ من اشتدَّ عشقه كالتيذاذ من ضعفت شهوته وحبه.

والثالث: كمال الإدراك، فليس التذاذة برؤية المعشوق في ظلمة أو من وراء سترٍ أو من بُعدٍ، كالتيذاذه بإدراكه على قربٍ من غير سترٍ، وعند كمال الضوء، ولا إدراك لذة المضاجعة من ثوبٍ حائلٍ كإدراكها مع التجرد.

(١) في الإحياء: «المرأة».

(٢) في الأصل: «الرؤية» والمثبت من الإحياء.

والرابع: اندفاع العوائق المُشوشة والآلام الشاغلة للقلب، فليس التذاذ الصحيح الفارغ المتجرد للنظر إلى المعشوق، كالتذاذ الخائف المدعور، أو المريض المتألم، أو المشغول قلبه بمهم من المهمات، فقدّر عاشقاً ضعيف العشق ينظر إلى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بُعد بحيث يمنع انكشاف كُنه صورته في حالة اجتماع عليه فيها عقارب وزنابير تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبه، فهو في هذه الحالة لا يخلو عن لذة ما من مشاهدة معشوقه فلو طرأت فجأة حالة أنهتك بها الستر وأشرق بها الضوء واندفعت المؤذيات فتفرغ وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الغايات، فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للأولى إليها نسبة يُعتدُّ بها، فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة، فالستر الرقيق مثال للبدن، والاشتغال به والعقارب والزنابير مثال للشهوات المسلطة على الإنسان من الجوع والعطش والغضب والغم والحزن، وضعف الشهوة والحُب مثال لقصور النفس في الدنيا ونقصانها عن الشوق إلى الملاء الأعلى والتفاتها إلى أسفل سافلين، وهو مثل قصور الصبي عن ملاحظة لذة الرئاسة والتفاتِه إلى اللعب بالعصفور.

فالعارف وإن قويت في الدنيا معرفته، فلا يخلو عن هذه المُشوشات، ولا يُتصور أن يخلو عنها البتة، بلى قد تضعف هذه العوائق في بعض الأحوال ولا يدوم ذلك، فيلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقل وتعظم لذته بحيث يكاد القلب ينفطر لعظمته، ولكن يكون كالبرق الخاطف؛ لأن الشواغل والأفكار والخواطر تعرض فتكدر، وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة الدنيا، فلا تزال هذه اللذة مُنغصة إلى الموت، وإنما العيش عيش الآخرة ﴿وَإِنَّ أَدَارَ الْآخِرَةِ لَهِيَ الْخَيْرُ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

إلا أن عيش الآخرة بقدر المعرفة في الدنيا، فهي بذر يُزرع في دار الدنيا في صعيد القلب، ويحصد في الآخرة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «إن من السعادة أن يطول عمر العبد وأن يرزقه الله عز وجل الإنابة» وسئل عليه الصلاة والسلام: أي الناس خير؟ فقال: «من طال عمره وحسن عمله»، وهذا لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر، والمواظبة على المجاهدة، والانقطاع عن علائق الدنيا والتجرد للطلب، ويستدعي ذلك زماناً لا محالة.

فقد عرفت بما ذكرنا معنى المحبة، ومعنى لذة المعرفة، ومعنى الرؤية، ومعنى لذة الرؤية، ومعنى كونها ألد من سائر اللذائد عند أهل الكمال.

## بيان الأسباب المُقوية لحبِّ الله تعالى

اعلم أن أسعد الخلق حالاً في الآخرة أقواهم حُباً لله تعالى، فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ودرك سعادة لقائه، وما أعظم نعيم المُحبِّ إذا قَدِمَ على محبوبه بعد طولِ شوقه، وتمكَّنَ من دوام مشاهدته أبد الأباد من غير مُنْغَصٍ ولا مُكَدَّرٍ ولا خوفٍ انقطاع، إلا أن هذا التَّعِيمَ على قدر قوَّةِ الحُبِّ، فكلما ازداد الحُبُّ ازدادت اللذَّةُ، وأصلُ الحُبِّ لا ينفكُ عنه مؤمن؛ لأنه لا ينفكُ عن أصل المعرفة.

وأما قوَّة الحُبِّ واستيلاؤه حتى ينتهي إلى الاستهتار، فذلك ينفكُ عنه الأكثرون، وإنما يحصل ذلك لسببين:

أحدهما: قَطْعُ علائق الدنيا وإخراج حُبِّ غير الله من القلب، فإن القلب مثل الإناء الذي لا يَتَّسِعُ للخَلِّ مثلاً ما لم يَخْرُجَ منه الماءُ، ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٤]، وكمالُ الحُبِّ في أن يحبَّ الله عزَّ وجل بكلِّ قلبه وما دام يلتفتُ إلى غيره فزاويةٌ من قلبه مشغولةٌ بغيره، فَيَقْدِرُ ما يَشْتَغَلُ بغير الله يَنْقُصُ منه حُبُّ الله، ويقدر ما يَبْقَى من الماء في الإناء يَنْقُصُ من الخَلِّ المَصْبُوبِ فيه، فأحدُ أسبابِ ضَعْفِ حُبِّ الله في القلوب قُوَّةُ حُبِّ الدنيا، ويقدر ما يَأْنَسُ بالدُّنيا يَنْقُصُ أُنْسُهُ بالله، كما أنه لا يقرب الإنسان من المَشْرِقِ إلا ويبعد بالضَّرورة من المَغْرِبِ، ولا يَطِيبُ قلبُ امرأته بأمرٍ إلا ويَضيقُ به صدرُ ضَرَّتِها، فالدنيا والآخرة ضَرَّتَانِ، وسبيلُ قلع الدنيا من القلب سُلُوكُ طريقِ الزهد وملازمة الصبر والانقياد إليهما بزمِ الخوفِ والرَّجاءِ، وما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر والزهد والخوف وغير ذلك هي مقدمات ليكتسب بها أحدُ رُكْنَيْ المحبة، وهو تخلية القلب عن غير الله تعالى، وأوله الإيمان بالله واليوم الآخر، ثم يَتَشَعَّبُ منه الرجاء والخوف، ويتشعبُ منهما التَّوبَةُ والصَّبْرُ ثم يَنْجَرُ ذلك إلى الزُّهْدِ، فيحصل من جميع ذلك طهارة القلب

من غير الله حتى يتَّسعَ لِنُزولِ مَعْرِفته ومَحَبَّته، فكل ذلك من مقدمات تطهير القلب، وهو أحد ركني المحبة.

والسبب الثاني: لقوة المحبة: قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلاؤها على القلب، وذلك بعد تطهير القلب من جميع الشواغل الدنيوية، وعلائقها تجري مجرى وَضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش، وهو الشطر الثاني، ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة.

وإذا حصلت المعرفة تَبِعَته المحبة، كما أن المعتدل المزاج إذا أبصر الجَمِيل وأدركه بالعين الظاهرة أحبه، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا بالفِكرِ الصافي، والذِّكرِ الدائم، والتَّشْمِيرِ في الطُّلب، والاستدلال عليه بأفعاله، وأقل أفعاله الأرض وما عليها بالإضافة إلى الملائكة ومَلَكَوتِ السماوات.

والشَّمْسُ على ما يُرى من صغَرِ حَجْمِها مثل الأرض مئةً ونيِّفًا وستينَ مرَّةً، فانظر إلى صِغَرِ الأرضِ بالإضافة إليها، ثم انظر إلى صِغَرِ الشَّمْسِ بالإضافة إلى فَلَكِها التي هي مَرَكُوزَةٌ فيه فإنه لا نسبة لها إليه، وهي في السماء الرابعة وهي صغيرة بالإضافة إلى ما فوقها من السماوات، ثم السماوات السَّبْعُ في الكُرْسِيِّ كحَلَقَةٍ في فَلَاةٍ، والكُرْسِيِّ في العرش كذلك، ثم انظر إلى الآدمي المخلوق من التراب الذي هو جزءٌ من الأرض وإلى سائر الحيوانات، وإلى صِغَرِهِ بالإضافة إلى الأرض، وأصغر ما تعرفه من الحيوان البَعُوضُ، فانظر في البعوض بعقِلِ حاضرٍ وفكرِ صافٍ كيف خلقه الله عزَّ وجلَّ على شكلِ الفيل الذي هو أعظم الحيوانات وزادَه الجناحين، وانظر كيف شقَّ سَمْعَهُ وبَصَرَهُ ودَبَّرَ في باطنه من أعضاء الغذاء وآلاتِه ما دَبَّرَهُ في سائر الحيوانات من القوى الجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة، وانظر كيف خلق له عينين يُبصرُ بهما مواضعِ غِذائِهِ، وكيف خلق له الخُرطومَ المحدِّدَ يَضَعُهُ على مَسَامِ البَدَنِ فيمصُّ به الدَّم، وانظر كيف خلق له آلةَ الطَّيْرانِ إذا طُلِبَ الأَجْفانُ إلى حَدَقَةٍ كل حيوانٍ صغيرٍ لَمَّا لم تَحْتَمِلْ حَدَقَتَهُ الأَجْفانُ لصغره، وكانت الأَجْفانُ مُضَقَّلَةً لمرآةِ الحَدَقَةِ عن القَدَى والغبارِ خلقَ للبعوضِ وللذبابِ يدين، فتَنظُرُ

إلى الدُّباب فتراه على الدوام يَمسح حَدَقته بيديه، إلا أن بَصَرَ البعوض ضَعيف فإذا رأت النار ظَنَّت أنها في بيتٍ مُظلم فتذهب إلى الضَّوء فتَحترق، وليس حالها بعجيب فإنها لا تعلم، إنما العَجَب إلقاء الآدمي نفسه في نار جهنم بالمعاصي، وأما الإنسان والحيوان الكبير، فإنه خلق لحَدَقته الأَجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر، وأطرافهما حادَّة فتَجتمع الغبار الذي يلحق الحَدَقَة وتَرميه إلى أطراف الأهداب، وخلق الأهداب السُّود لتَجتمع ضِوء العين وتُعين على الإبصار وتُحسِّن صورة العين، واشتياكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار.

ولو نظرت إلى النَّحل في تناولها الأزهار والأنوار<sup>(١)</sup> واحترازها عن الأقدار، وطاعتها لأكبرها شخصاً حتى إنه لَيقتل منها كل ما ورد عليه وقد أكل مُستقدراً، ثم انظر إلى اختيارها من جُملة الأشكال الشَّكل المُسدس، ولا تبني بيتاً مُستديراً ولا مُربعاً ولا مُخمساً بل مُسدساً لخاصية في شكل المُسدس يَقصر فهم المهندس عن إدراكها، وهو أن أوسع الأشكال وأحواها المُستديرة وما يقرب منها، فإن المربع يخرج منه زوايا ضائعة، وشكل بيت النَّحل مُستدير مُستطيل، فترك المربع حتى لا تُضيق الزوايا فتبقى فارغة، ثم لو بناها مُستديرة لبقيت خارج البيوت فُرَج ضائعة، فإن الأشكال المُستديرة إذا جُمعت لم تُجمع مُتراصة، ولا شكل في الأشكال دوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المُستدير ثم يتراصُّ الجُملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فُرجة إلا المُسدس، وهذه خاصية هذا الشكل، فانظر كيف ألهم الله سبحانه النَّحل على صغر جُزومه فعل ذلك لتهيئة عيشه.

فاعتبر بهذه اللُّمعة اليسيرة من مُحقرات الحيوانات، فإن القدر الذي بلغه فهمنا القاصر منه تنقضي الأعمار دون إيضاحه، وهو يسير بالإضافة إلى ما أحاط به العلماء والأنبياء، ثم علوم الخلق كلهم ليست بالإضافة إلى علم الحق سبحانه بشيء، وبالنظر في هذا وأمثاله تزداد المعرفة، وبزيادة المعرفة تزداد المحبة.

(١) الأنوار: جمع نور، وهو الزهر.

## بيان السبب في تفاوت الناس في الحبِّ

اعلم أن المؤمنين مُشتركون في أصلِ الحبِّ لكنهم يتفاوتون لتفاوتهم في المعرفة، وأكثر الناس ليس لهم من معرفة<sup>(١)</sup> الله تعالى إلا الصفات والأسماء التي قرّعت أسماعهم.

ونضربُ لتفاوت الحبِّ مثلاً فنقول: أصحابُ أحمد بن حنبلٍ مثلاً أو أصحابُ الشافعي يشتركون في حبه، الفقهاء والعوامُّ لأنهم قد عرفوا فضله ودينه وحسن سيرته، ولكن العاميَّ يعرف علمه مُجملاً، والفقيه يعرفه مُفصلاً، فتكون معرفةُ الفقيه به أتمّ، وإعجابه به وحبه له أشدّ، فإنّ من رأى تصنيف مُصنّفٍ فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لا محالة، ومال إليه قلبه، فإن رأى تصنيفاً آخر أحسن منه وأعجب تضاعف حبه لذلك الشّخص؛ لأن معرفته بعلمه تضاعفت، والعامي يسمع أن فلاناً مُصنّف، وأنه حسن التّصنيف، ولكن لا يدري ما في التّصنيف، فتكون محبته لذلك الشّخص مُجملة، والعالم إذا نظر في تصانيفه تضاعف حبه، لأن حسن التّصنيف والصّناعة يدلُّ على كمالِ صفاتِ الفاعل، والعالم بجملته صنّع الله وتصنيفه، والعامي يعلم ذلك ويعتقده والعالم البصير يطالع تفصيل صنّع الله تعالى حتى يرى في البعوض مثلاً من عجائب صنّعه ما ينبهرُ به عقله ويتحير فيه لبّه، ويزداد له حباً، وكلّما ازداد على أعاجيبِ الله اطلاعاً استدلّ بذلك على عظمة الصانع وجلاله، وازداد به معرفةً وله حباً.

ويحرُّ هذه المعرفة. أعني عجائب صنع الله تعالى. لا ساحل له، فلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحبِّ لا حصر له، ومما يتفاوت بسببه الحبِّ اختلاف الأسباب الخمسة التي ذكرناها للحب، فإن من يحب الله تعالى مثلاً لكونه مُحسناً إليه مُنعماً عليه، ولم يحبه لذاته ضعفت محبته إذ تتغيّر بتغيّر الإحسان، فلا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة النعماء، وأما من يحبه لذاته ولأنه مُستحق للحبِّ بسبب كماله

(١) سقطت من الأصل، واستدركت من المختصر.

وجَمَالِهِ، فإنه لا يتفاوت حُبُّه بتفاوت الإحسان إليه، والتفاوت في المحبة سببٌ للتفاوت في سعادة الآخرة.

## بيان السبب في قُصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى

اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى، كما قال القائل:  
لقد ظهرت فما تخفى على أحدٍ إلا على أكمه لا يبصر القمر  
وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسهلها على المقول، وترى الأمر بالضد، فلا بُدَّ من بيان السبب فيه.

وإنما قلنا: إنه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنى لا يفهم إلا بمثال، وهو: أنا إذا رأينا إنساناً يكتب أو يخطط مثلاً كان كونه حياً عندنا من أظهر الموجودات، فحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخياطة أجلّ عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة، إذ صفاته الباطنة كشهوته وعُضبه وخُلُقه وصحّته ومرضه وكلّ ذلك لا نعرفه، وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها وبعضها نشكُّ فيه كمقدار طولِه واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته، فأما حياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيواناً، فإنه جليٌّ عندنا من غير أن يتعلق حسُّ البصر بحياته وقدرته وإرادته، وإن هذه الصفات لا تُحسُّ بشيءٍ من الحواس الخمس، ثم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته، فلو نظرنا إلى كلّ ما في العالم سواه لم نعرف به صفته، فما عليه إلا دليلٌ واحد وهو مع ذلك جليٌّ واضحٌ، ووجود الله وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كلّ ما نشاهده ونذكره بالحواس الظاهرة والباطنة من حجرٍ ومدبرٍ ونباتٍ وشجرٍ وحيوانٍ وسماءٍ وأرضٍ وكوكبٍ وبرٍّ وبحرٍ ونارٍ وهواءٍ وجوهرٍ وعرضٍ، بل أول شاهدٍ عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلُّب أحوالنا وتغيّر قلوبنا، وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا، وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس، ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة.

وجميع ما في العالم شواهدٌ ناطقةٌ وأدلةٌ شاهدةٌ بوجود خالقها ومدبرها ومُصرِّفها

ومُحرَكها، ودالة على علمه وقُدْرته ولُطفه وحِكمته، والموجودات المُدرَكَةُ لا حَصْرَ لها، فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يَشْهَدُ لها إلا شاهدٌ واحدٌ وهو ما أَحْسَسْنَا به من حركة يده، فكيف لا يَظْهَرُ عندنا ما لا يُتَصَوَّرُ في الوجود شيءٌ داخلَ نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله، إذ كل ذرَّة تُنادي بلسانِ حالها أنه ليس وجودها بنفسها، ولا حركتها بذاتها، وأنها تحتاج إلى مُوَحِدٍ ومُحرَكٍ لها، يَشْهَدُ بذلك أولاً تركيب أعضائها وائتلاف عظامنا ولُحومنا وأعصابنا ومَنابِتِ شعورنا وتشكُّل أطرافنا وسائر أجزاءنا الظاهرة والباطنة، فإننا نعلم أنها لم تَأْتَلِفْ بأنفسها، كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها فلما لم يَبْقَ في الوجود شيءٌ إلا وهو شاهدٌ ومُعْرَفٌ عِظْمَ ظهوره، فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه، فإن ما تَقْصُرُ عن فَهْمِهِ عَقُولُنَا فله سَبَبان:

أحدهما: خَفَاؤُهُ في نَفْسِهِ وَغُمُوضُهُ.

والآخر: ما يتناهى وضوحه، وهذا كما أن الخفّاش يُبصر بالليل ولا يُبصر بالنهار لا لخباء النهار واستتاره، ولكن لشدة ظهوره، فإن بَصَرَ الخفّاش ضَعِيفٌ يبهره نورُ الشمس إذا أشرقت فيكون قوة ظهور النهار مع ضَعْفِ بَصَرِ الخفّاش سبباً لامتناع إِبصاره، فلا يرى شيئاً إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره، فكذلك عقولنا ضَعِيفَةٌ وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستنارة، وفي غاية الاستغراق والشمول، فصار ظهوره سَبَبَ خَفَائِهِ، فسبحان من احتجب بإشراق نوره، واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره.

ولا يُتَعَجَّبُ من اخْتِفَاءِ ذلك بسبب الظهور فإن الأشياء تُسْتَبَانُ بأضدادها، وما عمّ وجوده حتى إنه لا ضِدُّ له عَسَرَ إدراكه، فلو اختلفت الأشياء فدلَّ بعضها دون بعضٍ أدركت التفرقة على قُرب، ولَمَّا اشتركت في الدلالة على نَسَقٍ واحدٍ أشكل الأمر، ومثاله: نور الشمس المشرق على الأرض، فإننا نعلم أنه عَرَضٌ من الأعراض يحدث في الأرض ويزول عند غيبة الشمس، فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غُرُوبَ لها لَكُنَّا نَظُنُّ أن لا هَيَاةَ في الأجسام إلا ألوانها، وهي السواد والبياض وغيرهما، فإننا لا نَشاهد في الأسود إلا السواد وفي الأبيض إلا البياض، فأما الضوء فلا نُدرِكه

وحده، ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين، فعلمنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوئه وأتصفت بصفة فارقتها عند الغروب، فعرفنا وجود التور بعدمه، ولم نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد، وذلك لمشاهدتنا الأجسام مُتشابهة غير مُختلفة في الظلام والتور، هذا مع أن النور أظهر المحسّات، إذ به تدرك جميع المحسّات.

فانظر إلى ما هو ظاهر في نفسه وهو مُظهر لغيره كيف تُصور استبهاً أمره بسبب ظهوره لولا طرياًن ضده، فالله تعالى هو أظهر الأمور، وبه ظهرت الأشياء كلها، ولو كان له عدم أو غيبة لبطل الملك والملكوت ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين، ولو كان بعض الأشياء موجوداً به، وبعضها موجوداً بغيره لأدركت التفرقة بين الشئيين في الدلالة، ولكن دلالاته عامة في الأشياء على نسقٍ واحدٍ، ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافه، فلا جرم أورثت شدة الظهور خفاءً.

فهذا هو السبب في قُصور الأفهام.

فأما من قويت بصيرته ولم تضعف مُنته<sup>(١)</sup>، فإنه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى وأفعاله، وأفعاله أثرٌ من آثار قُدرته، فهي تابعة له، فلا وجود لها بالحقيقة دونه، وإنما الوجود (لِلواحد الحق)<sup>(٢)</sup> الذي به وجود الأفعال كلها، ومن هذه حاله فلا ينظر في شيءٍ من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل، ويذهل عن الفعل من حيث أنه سماء وأرض وحيوان وشجر، بل ينظر فيه من حيث إنه صنع (الواحد الحق)<sup>(٣)</sup>، فلا يكون نظره مُجاوزاً له إلى غيره، كمن نظر في شعر إنسانٍ أو خطه أو تصنيفه فرأى فيه الشاعر والمصنف ورأى أثره من حيث إنه أثره، لا من حيث إنه جبرٌ وعَفْصٌ وزاجٌ<sup>(٤)</sup> مرقومٌ على بياضٍ، فلا يكون قد نظر إلى عين المصنّف.

وكلّ العالم تصنيفُ الله عزّ وجلّ، فمن نظر إليه من حيث إنه فعلُ الله وعرفه من

(١) المُنته: بضم الميم: القوة.

(٢) سقط من الأصل، واستدرك من الإحياء.

(٣) سقط من الأصل، واستدرك من الإحياء.

(٤) العَفْصُ والزاج: مادتان يُركَّبُ منهما الجبر.

حيث إنه فعل الله، وأحبه من حيث إنه فعل الله لم يكن ناظراً إلا في الله، ولا عارفاً إلا بالله، ولا محباً إلا الله، وكان هو الموحّد الحق الذي لا يرى إلا الله، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه، بل من حيث إنه عبد الله، فهذا الذي يُقال فيه: إنه فنيّ في التّوحيد، وإنه فنيّ عن نفسه.

فهذه أمورٌ معلومةٌ عند ذوي البصائر أشكلت لضعف الأفهام عن دركها وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعبارة مفهومة موصلة للغرض إلى الأفهام، أو باشتغالهم بأنفسهم، واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يعنهم.

فهذا هو السبب في قُصور الأفهام عن معرفة الله تعالى، وانضم إليه أن المُدرّكات كلّها التي هي شاهدة على الله إنما يُدرّكها الإنسان في الصبأ قبل حضور العقل عنده، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلاً قليلاً، وهو مُستغرقُ الهمّ بشهواته وقد أنسَ بمُدرّكاته ومُحسّاته وألفها فسقطَ وقُعها عن قلبه بطول الأُنس، ولذلك إذا رأى فجأةً حيواناً غريباً، أو نباتاً ظريفاً، أو فعلاً من أفعال الله تعالى خلافاً للعادة عجبياً، انطلقَ لسانه بالتّعجب، فقال: سبحان الله! وهو يرى طول النّهار نفسه وأعضاءه وجميع الحيوانات المألوفة، وكلها شواهد قاطعة، ولا يُحسُّ بشهادتها لطول الأُنس بها.

ولو فرضَ أعمى بلعَ عاقلاً، ثم انقشعت غشاوة عينيه، فامتدَّ بصره إلى السّماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة لخيفَ على عقله أن يَنبَهَرَ لعظم تعجبه من شهادة هذه العجائب لخالقها.

فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشّهوات هو الذي سدَّ على الخلق سبيلَ الاستبّضاءِ بأنوار المعرفة والسّباحة في بحارها الواسعة، فالناس في معرفة الله تعالى كمن في يده شيء وهو يطلبه.

وقد بيّنا أن الجليّات إذا صارت مطلوبةً صارت مُعتاضةً.

## بيان معنى الشوق إلى الله تعالى

اعلم أن من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى، فلا بُد أن يُنكر حقيقة الشوق، إذ لا يُتصور الشوق إلا إلى محبوب، ونحن نُثبت الشوق إلى الله تعالى، وكون العارف مُضطراً إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر، وبطريق الأخبار.

فالاعتبار، فيكفي في إثباته ما سبق في إثبات الحب، فكل محبوب يُشتاق إليه في غيبته لا محالة، فأما الحاصل الحاضر فلا يُشتاق إليه، فإن الشوق طلبٌ وتشوقٌ لنبيل أمر، والموجود لا يُطلب، ولكن بيانه أن الشوق لا يُتصور إلا إلى شيء أُدرِك من وجه ولم يُدرِك من وجه، فأما ما لا يُدرِك أصلاً فلا يُشتاق إليه، فإن من لم يرَ شخصاً ولم يسمع وصفه لا يُتصور أن يُشتاق إليه، وما أدرك بكماله لا يُتصور أن يُشتاق إليه، وكمال الإدراك بالرؤية، فمن كان في مُشاهدةٍ محبوبه مُداوماً للنظر إليه لا يُتصور أن يكون له شوق، ولكن الشوق إنما يتعلق بما أُدرِك من وجه ولم يُدرِك من وجه.

ولا يَنكشفُ إلا بمثالٍ من المُشاهدات، فنقول مثلاً: من غاب عنه معشوقه وبقي في قلبه خياله، فإنه يشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية، فلو أُنحى عن قلبه ذكره وخياله حتى نسيه لم يُتصور أن يُشتاق إليه، ولو رآه لم يُتصور أن يشتاق إليه في وقت الرؤية، فمعنى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال خياله، وكذلك قد يراه في ظلمةٍ بحيث لا تَنكشفُ له حقيقة صورته، فيشتاق إلى استكمال رؤيته، وتام الانكشاف في صورته بإشراق الضوء عليه، وقد يرى وجه محبوبه ولا يرى بعض محاسنه كشعره مثلاً، فيشتاق إلى رؤية ذلك، وقد يكون ما رأى ذلك من حبيبه غير أنه يعلم أن له محاسن جميلة لم يدركها بالرؤية، فيشتاق إلى أن يَنكشفُ له ذلك.

والوجهان مُتصوران في حق الله سبحانه وتعالى، ونحن نُبينُ فنقول: ما أتضح للعارفين من الأمور الإلهية وإن كانت في غاية الإيضاح، فكأنه من وراء سترٍ رقيق، فلا يكون مُتضحاً غاية الوضوح، بل يكونُ مشوباً بشوائب التَّخيلات، فإن التَّخيلات لا تفتُر في هذا العالم عن التَّمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات، وهي مُكدراتُ

للمعارف ومُنْعَصَات، ثم يَنْضَافُ إليها شِوَاعِلُ الدُّنْيَا، وإنما كَمَالُ الوُضُوحِ بالمشاهدة، وتَمَامُ إِشْرَاقِ التَّجَلِّي، ولا يكون ذلك إلا في الآخرة، وذلك بالضرورة يوجب الشُّوقَ، فإنه مُنْتَهَى مَحْبُوبِ العَارِفِينَ، فهذا أحدُ نَوْعِي الشُّوقِ، وهو استكمال الوُضُوحِ فيما اتَّضَحَ إيضاحاً ما.

والثاني: أن الأمور الإلهية لا نهاية لها، وإنما يَنْكَشِفُ لكل عبدٍ من العباد بعضها وتبقى أمور لا نهاية لها غامضة، والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى، ويعلم أن ما غابَ عن علمه من المعلومات أكثر مما حَضَرَ، فلا يزال متشوقاً إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلاً، ولا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة.

والشوق الأول ينتهي في الدار الآخرة بالمعنى الذي يُسَمَّى رؤية ولقاء ومشاهدة، ولا يُتَصَوَّرُ أن يَسْكُنَ في الدنيا، وقد كان إبراهيم بن أدهم من المُشْتاقِينَ، فقال يوماً: يا رب، إن كنت أعطيت أحداً من المحبين لك ما يسكنُ به قلبه قبل لقائك فأعطني، فقد أضربَ بي القَلَقُ. قال: فرأيتُه عَزَّ وجلَّ في النوم فقال لي: يا إبراهيم، أما استحييت من أن تسألني أن أعطيك ما يسكنُ به قلبك قبل لقائي؟ وهل يسكنُ قلبُ المُشْتاقِ قبل لقاء حبيبهِ؟ فقلتُ: يا رب، تُهتُّ في حُبِّكَ فلم أذُرِ ما أقول. فهذا الشُّوقُ يَسْكُنُ في الآخرة.

فأما الشوق الثاني فيُشبهه أن يكون لا نهاية له لا في الدنيا ولا في الآخرة أيضاً؛ لأن نهايته أن ينكشف للعبد من جلال الله تعالى وِصْفَاتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَأَفْعَالِهِ ما هو معلومٌ لله تعالى، وهو محال، لأن ذلك لا نهاية له، ولا يزال العبد عالماً بأنه قد بقي من الجلال والجمال ما لم يتَّضَحَ له، فلا يسكن قطُّ شوقه، لا سيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة، فهو يتشوق<sup>(١)</sup> إلى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال، فهو يجد لذلك شوقاً لذيذاً لا يظهر فيه ألمٌ، ولا يبعد أن تكونَ أَلْطَافُ الكَشْفِ والنُّظَرِ متوالية إلى غير نهاية، فلا يزال النعيم واللذة متزايداً أبداً الأبد،

(١) تحرفت في الأصل إلى: «للشوق».

وتكون لذة ما يتجدد من لطائف التعميم شاغلاً عن الإحساس بالشوق إلى ما لم يحصل، فهذا القدر من أنوار البصائر كاشفٌ لحقائق الشوق ومعانيه.

وأما شواهد الأخبار والآثار فأكثر من أن تُحصى؛ أخبرنا هبة الله بن محمد الشيباني قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو المغيرة قال: حدثنا أبو بكر قال: حدثنا ضمرة بن حبيب عن أبي الدرداء عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ علمه دعاءً، وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم فذكر فيه: «أسألك اللهم الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الممات، ولذة نظير إلى وجهك، وشوقاً إلى لقائك...»<sup>(١)</sup>.

وفي التوراة: يقول الله عز وجل: طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً.

وقال تعالى في أخبار داود عليه السلام: إني خلقت قلوب المُشتاقين من نوري، ونعمتها بجلالي.

وفي بعض ما أوحاه عز وجل إلى بعض من أوحى إليه: إن لي عباداً من عبادي يُحبوني وأحبهم، ويشتاقون إليّ وأشتاق إليهم، ويذكروني وأذكرهم، فإن حدوتَ طريقهم أحببتك، وإن عدلت عنهم مَقَّتْكَ. قال: يا رب، وما علامتهم؟ قال: يُراعون الظلالَ بالتهار كما يُراعي الراعي الشفيع غنمه، ويحتون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها عند الغروب، فإذا جنهم الليل واختلط الظلام وفُرِشت الفُرش وخلا كل حبيب بحبيبه، نصبوا إليّ أقدامهم، وافتَرشوا لي وجوههم، وناجوني بكلامي، وتملقوني بإنعامي، فبين صارخ وبالك، وبين مُتأوهٍ وشاك، وبين قائم وقاعد، وبين راعٍ وساجد، بعيني ما يتحمّلون من أجلي وبسمعي ما يشكون من حُبِّي.

(١) أخرجه أحمد (٢١٦٦٦)، والطبراني في الكبير (٤٨٠٣)، والحاكم (٥١٦/١).

## بيان محبة الله تعالى للعبد ومعناها

اعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على أن الله تعالى يُحب عبده، فلا بد من معرفة ذلك، ولنقدم الشواهد على محبته: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بَيْنَ مَرْصُوصٍ﴾ [الصف: ٤]، ونَبَّه على أنه لا يُعَذَّب من يُحبه إذ ردَّ على من ادَّعى أنه حَبِيبه بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ [المائدة: ١٨]، واشترط للمحبة عُفْران الذنب، فقال: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحِبِّكُمْ الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾ [آل عمران: ٣٩].

وفي أفراد البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى يقول: ما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبته، فإذا أحببته كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأُعِذَّنه»<sup>(١)</sup>.

وقد ذكرنا أن محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز، إذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق، والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط.

وقد بيئنا أنَّ الإحسان موافقٌ للنفس، والجمال موافق أيضاً وأنَّ الجمال والإحسان تارة يُدرَك بالبصر وتارة بالبصيرة، والحب يتبع كل واحدٍ منهما، فلا يختص بالبصر.

فأما حبُّ الله تعالى للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلاً، بل الأسماء كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله تعالى لم تنطلق عليهما بمعنى واحدٍ أصلاً حتى إنَّ اسمَ الموجود الذي هو أعم الأسماء اشتراكاً لا يشمل الخالق والخلق على وجهٍ واحدٍ، بل كل ما سوى الله تعالى فوجوده مُستفاد من وجود الله تعالى، والوجود التابع لا يكون مساوياً للوجود المتبوع، وإنما الاستواء في إطلاق الاسم،

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

وهذا التّباعد في سائر الأسماء أظهر، كالعلم والإرادة والقُدرة، فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق المخلوق، وواضع اللغة إنما وضع هذه الأسماء أولاً للمخلوق، فإن الخلق أسبق إلى العُقول والأفهام من الخالق، فكان استعمالها في حق الخالق بطريقي الاستعارة والتّجوّز والنّقل.

والمحبة إنما هي في وضع اللسان عبارة عن ميل النَّفس إلى موافقٍ ملائم، وهذا إنما يُتصور في نفسٍ ناقصة، فإنها تَلْتَدُّ بِنَيْلِ ما يُوافقها وتَسْتَفِيدُ بِنَيْلِهِ كمالاً، وهذا مُحالٌ على الله عزَّ وجل، فإن كل كمالٍ وجمالٍ وبهاءٍ وجلالٍ ممكنٌ في الإلهية، فهو حاضرٌ وحاصلٌ وواجبُ الحصولِ أبداً وأزلاً، ولا يُتصوّرُ تَجَدُّدُهُ ولا زواله، فلا يكون له إلى غيرهِ نَظَرٌ من حيث إنه غير، بل نظره إلى ذاته وإلى أفعاله، ولهذا قال بعضُ المشايخ: ﴿مُحِبُّهُمْ﴾ أي: يحبُّ نفسه؛ لأنه ما أَحَبَّ إلا أفعاله فما جاوز حُبَّهُ ذاته وفعل ذاته، فهو إذن لا يُحب إلا نفسه، وما وَرَدَ من الألفاظ في حُبِّه لعباده فهو مُتَأَوَّلٌ، ومعناه يرجع إلى إرادته القديمة التي أوجبت كَشْفَ الحجاب عن قلب العبد حتى يتقَرَّبَ من رَبِّه، وقوله: «لا يزال العبدُ يتقَرَّبُ إليَّ بالتَّوافلِ حتى أُحِبَّهُ» أي: حتى يكون تقَرُّبه بالتَّوافلِ سبباً في إضفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه، وحصوله في درجة القُرْبِ من رَبِّه، وكل ذلك فعل الله تعالى ولُطفه بعبده، فهو معنى حُبِّه.

ولا يُفهمُ هذا إلا بمثال، وهو: أن المَلِكَ قد يُقربُ عبده من نفسه ويأذن له في كل وقتٍ في حُضورِ بساطه لميلِ المَلِكِ إليه، إما لِيَنْصُرَهُ بقوَّته، أو ليَسْتريحَ بمشاهدته، أو لِيَسْتشيرَه في رأيه، أو لِيُهَيِّئَ أسبابَ طعامه وشرابه، فيقال: إنَّ المَلِكَ يُحبُّه، ويكون معناه مَيْلُهُ إليه لما فيه من المعنى الموافقِ الملائم له، وقد يُقربُ عبداً ولا يَمْنعه من الدخولِ عليه لا للارتفاع به والاستنجاج، ولكن لكون العبد في نفسه موصوفاً من الأخلاق المَرْضِيَّةِ والخِصالِ الحميدة بما يليق به أن يكون قريباً من حَضرةِ المَلِكِ وافرِ الحظ من قُربه، مع أن المَلِكَ لا غرضَ لديه أصلاً، فإذا رفعَ المَلِكُ الحجابَ بينه وبينه قيل: قد أَحَبَّهُ، وإذا اكتسبَ من الخِصالِ الحميدة ما اقتضى رفعَ الحجاب، قيل: قد توَصَّلَ وحبَّبَ نفسه إلى المَلِكِ فحبُّ الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثاني لا بالمعنى الأول، وإنما يصح تمثيله بالمعنى الثاني

بشروط أن لا يسبق إلى فهمك دخول تغييرٍ عليه عند تجدد القرب، فإن الحبيب هو القريب من الله تعالى، والقرب<sup>(١)</sup> من الله تعالى يكون بالتخلُّق بمكارم الأخلاق، فهو قربٌ بالصفة لا بالمكان، ومن لم يكن قريباً فصار قريباً فقد تغيّر، فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعاً، إذ صار قريباً بعد أن لم يكن، وهو محال في حق الله عزَّ وجلَّ، إذ التغيُّر عليه مُحالٌ، بل لا يزال في نُعوتِ الجمال والكمال على ما كان عليه في القَدَم.

ولا ينكشف هذا إلا بمثالِ القرب من الأشخاص؛ فإن الشَّخصين قد يتقاربان بتحركهما جميعاً، وقد يكون أحدهما ثابتاً فيتحرك الآخر فيكون القرب بتغيرٍ في أحدهما من غير تغيرٍ في الآخر، بل القرب في الصفات أيضاً، كذلك فإن التلميذ يطلبُ القربَ من درجة أستاذه في كمال العلم وجماله، والأستاذ واقفٌ في كمال علمه غير متحرك بالنزول إلى درجة تلميذه، والتلميذ متحركٌ مُترقٌ من حضيض الجهل إلى ارتفاع العلم، فلا يزال دائماً في التَّغير والتَّرقِّي إلى أن يقرب من أستاذه، والأستاذ ثابتٌ غير متغير، فكذلك ينبغي أن يُفهم ترقِّي العبد في درجات القرب، فكلما صار أكملَ صفةً وأتمَّ علماً وإحاطةً بحقائق الأمور وأثبت قوةً في قهرِ الشيطان وقمعِ الشَّهوات، وأظهر نزاهةً عن الرذائل صار أقرب من درجة الكمال.

ومُنتهى الكمال لله تعالى، وقربُ كل واحدٍ من الله تعالى بقدرِ كماله، إلا أنه قد يقدر التلميذ على القرب من الأستاذ وعلى مُساواته وعلى مُجاوزته، وذلك في حق الله تعالى مُحالٌ، فإنه لا نهايةً لكمالهِ، وسلوكُ العبد في دَرجاتِ القربِ مُتناهٍ إلى حدِّ محدود، فلا مَطْمَع له في بلوغه نَهايةَ الكمال، ولا في المساواة، ثم درجاتُ القربِ تَتفاوت تَفاوتاً لا نهايةً له أيضاً لأجلِ انتفاءِ النِّهاية عن ذلك الكمال.

فإذن محبةُ الله تعالى للعبدِ تَقريبُه من نفسه بدفعِ الشَّواغل والمعاصي عنه، وتطهيرِ باطنه عن كُدورات الدنيا، ورفعِ الحجاب عن قلبه حتى يُشاهده كأنه يراه بقلبه.

(١) تحرفت في الأصل إلى: «القريب»، والمثبت من الإحياء.

فإن قيل: فبم يعرف العبد أنه حبيبُ الله؟

فالجواب: أنه يستدلُّ بالعلامات، وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا ابْتَلَاهُ»<sup>(١)</sup>. ومن أقوى العلامات حُسْنُ التَّدْبِيرِ له، فتراه يَرُبُّهُ<sup>(٢)</sup> منذ الطفولة على أحسن نظام، ويكتب الإيمان في قلبه، ويُنور له عقله فيتبع كل ما يقربه إليه وينفر عن كل ما يبعده عنه، ثم يتولاه بتيسير أموره من غير ذلٍّ للخلق، ويُسدّد ظاهره وباطنه، ويجعل همّه واحداً، فإن زادت المحبة شغله به عن كل شيء.

فلنذكر الآن علامات محبة العبد لله تعالى، فإنها أيضاً علامات حبِّ الله تعالى للعبد.

### القول في علامات محبة العبد لله تعالى

اعلم أن المحبة يدعيها كل واحدٍ وما أسهل الدعوى، وما أعزَّ المعنى، فلا ينبغي أن يغترَّ الإنسان بتلبس الشيطان وخداع النفس إذا ادَّعت محبة الله تعالى ما لم يمتحنها بالعلامات ويطالبها بالبراهين، والمحبة شجرة أصلها ثابت وثمارها تظهر على القلب واللسان والجوارح، وتدلُّ تلك الآثار<sup>(٣)</sup> الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار، والثمار على الأشجار وهي كثيرة.

فمنها: حُبُّ لقاءِ الله تعالى في الجنة، فإنه لا يتصور أن يُحب القلب محبوباً إلا ويحب مُشاهدته ولقاءه، وهذا لا ينافي كراهة الموت، فإن المؤمن يكره الموت، ولقاء الله تعالى بعد الموت يكون، وفي السلف من أحبَّ الموت؛ لأن لقاء الله تعالى يكون بعده، ومنهم من كرهه لضعف محبته، أو كونها مشوبة بحب شيء من الدنيا، أو لحبِّ الولد والأهل، ومنهم من كرهه مع قوة محبته؛ لأنه يرى ذنوبه فيحِبُّ أن يبقى ليتوب، كما قال أبو سليمان الداراني: إني لأكره الموت وأقول: أبقى لعلي أتوب.

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨).

(٢) ربّه: أي وليّه وتعهده بما يغذيه ويُنميه ويُؤدبه.

(٣) في الأصل: «الآيات»، والمثبت من الإحياء.

ومنهم من يرى نفسه في ابتداء مقام المحبة فيكره عجلة الموت قبل أن يستعد للقاء الله تعالى، وهؤلاء كالمُحِبِّ الذي يصله الخبرُ بقدم حبيبه عليه، فيحبُّ أن يتأخر قدومه ساعةً ليُهَيِّءَ له داره ويُعدَّ له أسبابه، فيلقاه كما يهواه، فارغ القلب عن الشواغل، خفيف الظهر عن العوائق، فالكراهة بهذا السبب لا تُنافي كمال الحب أيضاً، وعلامةُ هذا الدؤوبُ في العمل واستغراق الهمِّ في الاستعداد.

ومنها: أن يكون مؤثراً ما أحبه الله تعالى على ما يُحبه في ظاهره وباطنه، فيجتنبُ أتباع الهوى، ويُعرضُ عن دعة الكسل، ولا يزال (مواظباً على طاعة الله)<sup>(١)</sup>، ومُتقرباً إليه بالنوافل وطالباً عنده مزايا الدرجات، كما يطلبُ المحبُّ مزيدَ القربِ في قلب محبوبه، فأما من استمرَّ على مُتابعة هَواه، فمحبوبه ما يهواه، بل المحبُّ يترك هوى نفسه بمُراد حبيبه، كما قال القائل:

أريدُ وصاله ويُريدُ هَجْرِي فَأتركُ ما أريدُ لما يُريدُ

بل الحبُّ إذا غلبَ قمع الهوى، فلم يبقَ تنعمٌ بغيرِ المحبوب، قال سهل: علامةُ الحبِّ إثارُ الحبيب على النفس.

ثم إنَّ مَنْ أَحَبَّ اللهُ تعالى لا يعصيه، قال ابنُ المبارك:

تَعْصِي الإلهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ هَذَا لَعَمْرِي فِي الْفِعَالِ بَدِيعُ  
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقاً لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لَمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

إلا أنَّ العِصْيَانَ لا يُضَادُّ أَصْلَ المحبةِ، إنما يُضَادُّ كمالها، فكم من إنسانٍ يُحِبُّ الصِّحَّةَ ويأكل ما يضرُّه مع علمه بأنه يضرُّه، وسببه أنَّ المعرفةَ قد تَضَعُفُ والشَّهْوَةَ قد تَغْلِبُ، فيعجز عن القيام بحق المحبةِ، ويدلُّ عليه حديثُ نُعَيْمان<sup>(٢)</sup> أنه كان يُؤْتَى به إلى رسولِ الله ﷺ فيحده<sup>(٣)</sup> إلى أن أُتِيَ به يوماً فحده، فلغنه رجلٌ وقال: ما أكثرَ

(١) سقط من الأصل، واستدرك من الإحياء والمختصر.

(٢) هو نُعَيْمان بن عمرو بن رفاعة الأنصاري رضي الله عنه، توفي في خلافة معاوية رضي الله عنه. الإصابة (٩١٣٧).

(٣) أي يُقيم عليه الحدَّ لما كان يُصيب من الشراب.

ما يُؤْتَى به رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «لا تَلَعْنَهُ، فَإِنَّهُ يَحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ»<sup>(١)</sup>. فلم يُخرجه بالمعصية عن المحبة، وإنما تُخرجه المعصية عن كمال المحبة.

ومنها: أن يكون مُسْتَهْتَرًا<sup>(٢)</sup> بذكر الله تعالى لا يفتر عنه لسانه، ولا يخلو عنه قلبه، فمن أحب شيئاً أكثر بالضرورة من ذكره وذكر ما يتعلق به، فعلاقة حُبِّ الله تعالى حب ذكره وحُبِّ القرآن الذي هو كلامه، وحُبِّ رسول الله ﷺ، وحُبِّ كل ما يُنسب إليه، فإن من يُحب إنساناً يحب كَلْبَ مَحَلَّتِهِ، فالمحبة إذا قويت تعدت من المحبوب إلى كل ما يكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه، وذلك ليس شركة في الحب، فإن من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله، وكلامه لأنه كلامه، فإنه ما جاوز حُبِّه إلى غيره، بل هو دليل كمال حُبِّه، ومن غلب حُبُّ الله تعالى على قلبه أحب جميع خلق الله؛ لأنهم خلقه، وكيف لا يحب القرآن والرسول ﷺ والصالحين، وقد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب الأخوة والصُّحبة، ولذلك قال تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال بعض السلف: كنتُ قد وجدتُ حلاوة المناجاة، فكنتُ أذمنُ قراءة القرآن، ثم لحقتني فترة، فانقطعت، فرأيت في المنام قائلاً يقول:

إِنْ كُنْتَ تَزْعُمُ حُبِّي فَلِمَ جَفَوْتَ كِمْتَابِي  
أَمَا تَدَبَّرْتَ مَا فِيهِ مِنْ لَطِيفِ عِتَابِي

قال ابن مسعود: من يحب القرآن فهو يحب الله تعالى.

ومنها: أن يكون أنسُهُ بالخلوة ومُناجاة الله تعالى وتلاوة كتابه، فيواظب على التَّهجد، ويَعْتَنِمُ هُدوءَ اللَّيْلِ وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، فأقل درجات الحُبِّ التَّلذُّذُ بالخلوة بالحبيب، والتَّعْنَمُ بمناجاته.

(١) أخرجه البخاري (٣١٦) و(٦٧٧٤) و(٦٧٧٥) بذكر الحد فقط من حديث عقبة بن الحارث، وأخرجه (٦٧٨٠) من حديث عمر رضي الله عنه وذكر أن اسم الرجل عبد الله وكان يلقب حماراً، وكان يضحك رسول الله ﷺ.

(٢) أي مولعاً بذكر الله تعالى.

قيل لإبراهيم بن أدهم وقد نزلَ من الجبل: من أين أقبلت؟ فقال: من الأنس بالله عزَّ وجل.

وعلى قدر الأنس بالله تعالى يستوحش من الخلق، ومتى أنس بالخلق نزل عن درجة المحبة لله بقدر ذلك، وفي قصة بُرخ العابد الذي استسقى به موسى عليه السلام أن الله تعالى قال لموسى: إن بُرخاً نعم العبد إلا أن فيه عيباً. قال: يا رب، وما عيبه؟ قال: يعجبه نسيم الأسحار فيسكنُ إليه، ومن أجني لم يسكن إلى شيء.

وروي أن عبداً عبد الله تعالى في غيضة<sup>(١)</sup> دهرأ، فنظرَ إلى طائرٍ قد عَشَشَ في شجرةٍ يأوي إليها ويصفرُّ عندها، فقال: لو حوّلتُ مسجدي إلى تلك الشجرة كنت أنس بصوت هذا الطائر، ففعل، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: قل لفلان العابد: استأنستُ بمخلوق! لأحطتكَ درجةً لا تنالها بشيءٍ من عملك أبداً.

فإذن علامة المحبة كمال الأنس بمناجاة المحبوب، وكمال التنعم بالخلوة، وكمال الاستيحاش من كل ما يُنغض عليه الخلوة ويعوق عن لذة المناجاة.

وعلامَةُ الأنس أن يصير العقل والفهم كله مستغرقاً بلذّة المناجاة، كالذي يُخاطب معشوقه ويُناجيه، وقد انتهت هذه اللذّة ببعضهم حتى كان في صلاته ووقع الحريقُ في داره فلم يشعر به<sup>(٢)</sup>.

ومتى غلب الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرة عين تدفع جميع الهموم، بل يستغرقُ الأنس والحبُّ قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا ما لم تتكرر على سمعه مراراً، مثل العاشق الولهان، فإنه يُكلّم الناس بلسانه وأنسه في الباطن بذكر حبيبه.

ومنها: أن يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عزَّ وجلَّ، ويعظم تأسفه على

(١) الغيضة: المكان فيه شجرٌ كثيرٌ مُلتف.

(٢) قيل: هو عروة بن الزبير، وقيل: إنه أصيبت رجله بمرضٍ فأرادوا قطعها، فعرضوا عليه أن يشرب شيئاً يُغيب عقله حتى لا يُحسَّ بالألم فأبى، وأمرهم أن يقطعوها وهو مستغرقٌ في صلاته. البداية والنهاية (١٢/٤٧٧-٤٧٨).

فَوَتْ كُلَّ سَاعَةٍ صَلَّى مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ، فَيَكْثُرُ رَجُوعُهُ عِنْدَ ذِكْرِ الْعَفَلَاتِ إِلَى الْاسْتِعْطَافِ وَالْاسْتِعْتَابِ وَالتَّوْبَةِ.

ومنها: أَنْ يَتَنَعَّمَ بِالطَّاعَةِ وَلَا يَسْتَتْقِلُهَا، وَيَسْقُطُ عَنْهُ تَعَبُهَا، كَمَا قَالَ ثَابِتُ الْبُنَانِيِّ: كَابَدْتُ الصَّلَاةَ <sup>(١)</sup> عَشْرِينَ سَنَةً، وَتَنَعَّمْتُ بِهَا عَشْرِينَ سَنَةً.

وقال الجُنَيْدُ: عَلَامَةُ الْمَحَبَّةِ دَوَامُ النِّشَاطِ وَالذَّوُّوبُ بِشَهْوَةٍ يَفْتَرُ بَدَنُهُ وَلَا يَفْتَرُ قَلْبُهُ.

وقال غيره: الْعَمَلُ عَلَى الْمَحَبَّةِ لَا يَدْخُلُهُ فُتُورٌ، وَمَا اسْتَقْفَى مُحِبُّ اللَّهِ مِنْ طَاعَتِهِ.

وكل هذا موجود المِثَالِ فِي الْمُشَاهَدَاتِ؛ فَإِنَّ الْعَاشِقَ لَا يَسْتَتْقِلُ السَّعْيَ فِي هَوَى مَعْشُوقِهِ، وَيَسْتَلِدُّ خِدْمَتَهُ بِقَلْبِهِ وَإِنْ كَانَ شَاقِقًا عَلَى بَدَنِهِ، وَإِذَا عَجَزَ بَدَنُهُ كَانَ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ أَنْ تَعَاوَدَهُ الْقُدْرَةُ وَأَنْ يُفَارِقَهُ الْعَجْزُ، فَكُلُّ حُبٍّ قَاهِرٌ لَا مَحَالَةَ، فَمَنْ كَانَ مَحْبُوبَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الْكَسَلِ تَرَكَ الْكَسَلَ فِي خِدْمَتِهِ، وَإِنْ كَانَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الْمَالِ تَرَكَ الْمَالَ فِي حُبِّهِ، وَكَانَ بَعْضُ الْمَحِبِّينَ لِلَّهِ تَعَالَى قَدْ بَدَّلَ نَفْسَهُ وَمَالَهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ، فَسُئِلَ عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ، فَقَالَ: سَمِعْتُ يَوْمًا مُحِبًّا وَقَدْ خَلَا بِمَحْبُوبِهِ وَهُوَ يَقُولُ لَهُ: أَنَا وَاللَّهِ أَحَبُّكَ بِقَلْبِي كُلِّهِ، وَأَنْتَ مَعْرُضٌ عَنِّي بِوَجْهِكَ كُلِّهِ. فَقَالَ لَهُ الْمَحْبُوبُ: إِنْ كُنْتَ تُحِبُّنِي فَأَيُّ شَيْءٍ تُنْفِقُ عَلَيَّ؟ فَقَالَ: يَا سَيِّدِي أُمَّلِكُكَ مَا أَمْلِكُ، ثُمَّ أَنْفَقْتُ رُوحِي عَلَيْكَ حَتَّى تَهْلِكَ. فَقُلْتُ: هَذَا خَلَقَ لَخَلْقٍ، فَكَيْفَ بَعَبِدَ لِمَعْبُودٍ؟ وَكَانَ هَذَا السَّبَبُ <sup>(٢)</sup>.

ومنها: أَنْ يَكُونَ مُشْفِقًا عَلَى جَمِيعِ عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى، رَحِيمًا بِهِمْ، شَدِيدًا عَلَى أَعْدَائِهِ، وَعَلَى كُلِّ مَنْ يُقَارِفُ شَيْئًا يَكْرَهُهُ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَشَدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وَلَا تَأْخُذْهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، وَلَا يَصْرِفُهُ عَنِ الْغَضَبِ لَهُ صَارِفٌ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى أَوْلِيَاءَهُ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ فَقَالَ: يَكْلَفُونَ بِحُبِّي كَمَا يَكْلَفُ الصَّبِيُّ بِالشَّيْءِ، وَيَأْوُونَ إِلَى ذِكْرِي كَمَا تَأْوِي النَّسُورُ إِلَى أَوْكَارِهَا، وَيَغْضَبُونَ

(١) فِي الْإِحْيَاءِ: «اللَّيْلِ».

(٢) يَعْنِي سَبَبَ بَدَلِهِ نَفْسَهُ وَمَالَهُ فِي حُبِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

لمحارمي كما يَغْضَبُ النَّمِرُ إِذَا حَرَبَ<sup>(١)</sup>.

فانظر إلى هذا المثال، فإن الصبي إذا كلف بالشيء لم يفارقه أصلاً، فإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يُرَدَّ إليه، إن نام أخذه معه في ثيابه، فإذا انتبه تمسك به، ومتى وجده ضحك ومتى فارقه بكى، ومن أعطاه إياه أحبه، ومن نازعه فيه أبغضه، وأما النمر فإنه لا يملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من غضبه أن يهلك نفسه.

فهذه علامات المحبة، فمن تمت فيه فقد تمت محبته، وصفا في الآخرة شرابه وعذب مشربه، ومن امتزج بحبه حب غير الله عز وجل تنعم في الآخرة بقدر حبه، فيمزج شرابه بشيء من شراب المقربين، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يُنظَرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣، ٢٢]، ثم قال: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتْمُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَرَجُهُ مِنْ سَنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٨، ٢٥] وإنما طاب شراب الأبرار بما شيب<sup>(٢)</sup> به من الشراب الصّرف الذي هو للمقربين، فقوئل الخالص بالصرف، والمشوب بالمشوب، وشوب كل شراب على قدر ما سبق من الشوب في حبه وأعماله، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨٧] فمن كان حبه في الدنيا ورجاؤه لنعيم الجنة والحوار العين والقصور مكن من الجنة يتبوا منها حيث يشاء يتمتع، ومن كان مقصده رب الدار ولم يغلب عليه إلا حبه بالإخلاص والصدق أنزل في مقعد صدق عند مليك مقتدر، والأبرار يرتعون في البساتين، ويتنعمون في الجنان مع الحور والولدان، والمقربون ملازمون للحضرة عاكفون عليها يحتقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذرة منها، فأولئك بشهوتي البطن والفرج مشغولون، وللمجالسة قوم آخرون.

ومنها: أن يكون في حبه خائفاً متضائلاً تحت الهيبة والتعظيم، وقد يظن أن

(١) حرب: اشتد غضبه، وفي الإحياء: «حرد» وهما بمعنى.

(٢) شيب: خلط.

الخوف يُضاد الحبَّ، وليس كذلك، بل إدراك العظمة يوجب الهيبة، كما أن إدراك الجمال يوجب الحبَّ.

ولخصوص المُحبِّين مَخَافٍ في مقام المحبة ليست لغيرهم، وبعض مخاوفهم أشدُّ من بعض، فأولها: خَوْفُ الإِعْرَاضِ، وأشدُّ منه خوف الحجاب، وأشدُّ منه خوف الإبعاد، وهذا المعنى من سورة هود هو الذي شَيَّبَ سَيِّدَ المُحَبِّينِ إِذْ سَمِعَ قَوْلَهُ ﴿أَلَا بُدًّا﴾ [هود: ٦٨]، وإنما تعظم هيبة البُعدِ وخوفه في قلب من أَلْفَ القُربِ وذاقه وتنعم به، فحديث البُعدِ في حق المُبْعَدِينَ يُشَيِّبُ سَمَاعُهُ أَهْلَ القُربِ في القُربِ، ولا يَجِئُ إِلَى القُربِ من أَلْفِ البُعدِ، ولا يَبْكِي لَخَوْفِ البُعدِ من لم يُمَكِّنْ من بِسَاطِ القُربِ، ثم خَوْفُ وَقُوفِ الحَالِ وَقَطْعِ المَزِيدِ، فقد بيَّنا أنَّ درجَاتِ القُربِ لا نِهَآيَةَ لَهَا، ولا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي كُلِّ نَفْسٍ حَتَّى يَزِدَادَ فِيهِ قُرْبًا، ومن هذا ما رواه الحَسَنُ البَصْرِيُّ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَنَامِي فَقَالَ لِي: مَنْ اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ، وَمَنْ كَانَ يَوْمُهُ شَرًّا مِنْ أَمْسِهِ فَهُوَ مَغْبُونٌ.

وفي أفراد مُسلمٍ من حديث الأَعْرَبِ المُزَنِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّهُ لَيَعَانُ<sup>(١)</sup> عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ مِئَةَ مَرَّةٍ»<sup>(٢)</sup>. وإنما كان استغفاره من القَدَمِ الأَوَّلِ فَإِنَّهُ كَانَ بُعْدًا بِالإِضَافَةِ إِلَى القَدَمِ الثَّانِي.

وقد يكون قطعُ المَزِيدِ عَقُوبَةً، كما روي أن الله تعالى يقول: إِنَّ أَدْنَى مَا أَصْنَعُ بِالعَالَمِ إِذَا آثَرَ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِي أَنْ أَسْلُبَهُ لِذِيذِ مَنَاجَاتِي. فَسَلْبُ المَزِيدِ بِسَبَبِ الشَّهَوَاتِ عَقُوبَةٌ العَمُومِ. فَأَمَّا الخُصُوصُ فَيَحْجُبُهُم عَنِ المَزِيدِ مُجَرَّدُ الدَّعْوَى وَالرُّكُونِ إِلَى مَا ظَهَرَ مِنْ مَبَادِيءِ اللُّطْفِ، وهذا من الأُمُورِ الخَفِيَّةِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَى الاحْتِرَازِ مِنْهَا إِلَّا ذَوُو الأَقْدَامِ الرَّاسِخَةِ.

ثم خَوْفُ قُوَّةٍ مَا لَا يُدْرِكُ بَعْدَ قُوَّتِهِ، سَمِعَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهْمٍ قَائِلًا يَقُولُ:  
كُلُّ شَيْءٍ مِنْكَ مَغْفُورٌ رِ سِوَى الإِعْرَاضِ عَنَّا

(١) العَيْنُ: مَا يَتَغَشَّى القَلْبَ، وَالْمَرَادُ هُنَا: الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه، فإذا فتر عنه أو غفلَ عَدَّ ذَلِكَ ذَنْبًا. شرح مسلم للنووي (١٧/٢٤٢٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) (٤١)، وأحمد (١٧٨٤٨)، وأبو داود (١٥١٥).

قَدْ وَهَبْنَا لَكَ مَا فَاتَ فَهَبْ مَا فَاتَ مِنَّا

ثم خوف السُّلُو عن المحبوب، فإنَّ المحبَّ يُلازمه الشوق والطلب الحثيث، (فلا يفتُر عن طلبِ المزيد)<sup>(١)</sup>، وقد يدخل عليه السُّلُو من حيث لا يشعر كما يدخل عليه الحبُّ من حيث لا يشعر، فإن هذه التقلُّبات لها أسبابٌ خفيَّةٌ ليس في قوة البشر الاطلاعُ عليها، فإذا أراد الله تعالى به مكرًا واستدراجًا أخفى عنه ما وردَ عليه من السُّلُو، فيقفُ مع الرجاء، ويغترُّ بحسن الظَّنِّ، أو تغلبه العفلة.

وكما أنَّ من أوصافِ الله تعالى ما يقتضي هيجانَ الحبِّ وهي أوصافُ اللُّطفِ والرَّحمةِ، فمن أوصافه ما يورثُ السُّلُو، كأوصافِ الجبرية والعزَّة.

ثم خوف الاستبدال بالمحبوب بالانتقال من محبته إلى محبة غيره، والسُّلُو مُقدمة هذا المقام، والإعراض والحجابُ مقدمة السُّلُو، وانقباضُ الصِّدرِ عن دوامِ الذِّكرِ وملايه الأوراد أسبابُ هذه المعاني ومُقدماتها، فظهور هذه الأسباب دليلٌ على الثقلِ من مقامِ الحبِّ إلى مقامِ المقتِ، وملازمةُ الخوفِ وشدةُ الحذرِ دليلٌ صدقِ الحبِّ، فإنَّ من أحبَّ شيئاً خافَ فقده.

ومنها: كتمانُ الحبِّ، واجتنابُ الدَّعوى، والتَّوقِّي من إظهارِ الوجد والمحبَّة تعظيمًا للمحبوب، وإجلالاً له، وهيبَةً منه، وغيرَةً على سرِّه، فإنَّ الحبَّ سرٌّ من أسرارِ الحبيب، ولأنه قد يدخل في الدَّعوى ما يتجاوز حدَّ المعنى ويزيد عليه، فيكون ذلك من الافتراء، فيوجبُ الابتلاء في الدنيا والعقوبة في الآخرة.

وقد يقعُ المحبُّ في سُكْرِ ودَهْشٍ فيظهر عليه حبه من غير قصدٍ منه، فهو في ذلك معذور، (كما قال بعضهم)<sup>(٢)</sup>:

وَمَنْ قَلْبُهُ مَعَ غَيْرِهِ كَيْفَ حَالُهُ وَمَنْ سِرُّهُ فِي جَفْنِهِ كَيْفَ يَكْتُمُ

قال بعضُ العارفين: أكثرُ الناسِ إشارةً به، أبعدُهم منه. وأرادَ بذلك: مَنْ يُكثرُ التعريضَ به في كلِّ شيءٍ، ويُظهرُ التَّصنُّعَ بذكره عند كلِّ أحدٍ.

(١) غير واضحة في الأصل، وأثبتت من الإحياء.

(٢) ليس في الأصل، واستدرك من الإحياء والمختصر.

فإن قيل: لماذا تُنكرُ على المُحبِّ إذا أظهرَ المحبَّةَ؟

فالجواب: أن الإظهار مذمومٌ لوجوه: منها: أنه تصنعٌ للخلق ولا يخلو الإظهارُ من دعوى ومن تكبرٍ على الغيرِ بذلك، ثمَّ الخوف من تغيرِ الحال، وأعظمها أن الحبيب يُحبُّ كتمانَ حُبِّه.

ومن العلامات الأُنس والرضا على ما سيأتي.

وفي الجملة: جميعُ محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثَمرةُ الحُب، وما لا يثمره الحب فهو اتباع الهوى، وهو من رذائل الأخلاق، إلا أن من المحبين من يُحبُّ الله تعالى لإحسانه إليه، ومنهم من يحبه لجماله وجلاله.

قال الجُنيد: الناسُ في محبةِ الله تعالى عامٌّ وخاصٌّ؛ فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم في دوام إحسانه وكثرة نِعَمه، فهؤلاء تَقِلُّ محبتهم وتكثرُ على قدر النعم والإحسان، وأما الخاصةُ فنالوا المحبةَ في معرفتهم بعظيم قدره وعِلْمه وحِكْمته وتقرُّده بالملك، فلما عرفوا صفاته الكاملةَ وأسماءهُ الحُسنى لم يمتنعوا من أن أحبَّوه؛ لأنه استحقَّ المحبةَ بذلك، ولو أزال عنهم جميعَ النعم.

### بَيَانُ مَعْنَى الْأُنْسِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

قد ذكرنا أن الأُنْسَ والخَوْفَ والشَّوْقَ من آثارِ المحبة، إلا أن هذه آثارٌ مختلفةٌ تختلفُ على المُحبِّ بحسبِ نَظَرِهِ وما يغلبُ عليه في وَقْتِهِ، فإذا غلبَ عليه التَّطَلُّعُ من وراء حُجُبِ الغَيْبِ إلى مُنتَهَى الجَمال، واستشعرَ قُصُورَهُ عن الاطِّلاعِ على كُنْهِ الجَلالِ انبعثَ القلبُ إلى الطَّلَبِ، وانزعجَ له وهاجَ إليه، وتُسمَّى هذه الحالةُ في الانزعاجِ شَوْقاً، وهو بالإضافة إلى أمرِ غائبٍ، فإذا غلبَ عليه الفَرَحُ بالقُربِ ومُشاهدةِ الحُضورِ بما هو حاصلٌ من الكَشْفِ، وكان نَظَرُهُ مقصوراً على مُطالعةِ الجَمالِ الحاضرِ المكشوفِ، غير ملتفتٍ إلى ما لم يُدرِكه بعد، استبشَرَ القلبُ بما يلاحظه فيسمى استبشاره أنساً.

وإن كان نَظَرُهُ إلى صفاتِ العَزِّ والاستِغناءِ وعدمِ المُبالاةِ وخطرِ إمكانِ الزَّوالِ

والبُعد تألم القلب بهذا الاستشعار، فيُسمى تألمه خوفاً، وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات، والملاحظات تابعة لأسباب تفتّضها لا يمكن حصرها.

فالأنسُ معناه: استيشارُ القلب وفرحُه بمطالعة الجمال، حتى إنه إذا غلب وتجرّد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرّق إليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذّته، ومن ها هنا نظر بعضهم حيث قيل له: أنت مشتاق؟ فقال: لا، إنما الشوق إلى غائب، فإذا كان حاضراً معي فإلى من أشتاق.

وهذا كلامٌ مستغرقٌ بالفرح بما ناله، غير ملتفت إلى ما بقي من مزايا اللطف. ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة؛ لأن الأنس بالله يُلازمه التوحّش من غير الله، ويكون أثقل الأشياء على القلب كل ما يعوق عن الخلوة، قال عبد الواحد بن زيد: قلت لراهب: لقد أعجبتك الخلوة. فقال: لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك. قلت: متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى؟ قال: إذا صفاً الوُدّ خلصت المعاملة. قلت: متى يصفو الوُدّ؟ قال: إذا اجتمع الهمُّ فصارَ همّاً واحداً في الطاعة.

وقال بعضُ العارفين: عجباً للخليفة كيف أنست بسواك عنك.

فإن قيل: ما علامة الأنس؟

فاعلم: أن علامته الخاصة ضيقُ الصدر من معاشرَةِ الخلق، والتبرم بهم، واستهتار المستأنس بالذکر، فإن خالط، فهو كمنفردٍ غائبٍ في صورة شاهدٍ في غيبته، مخالطٍ بالبدن، منفردٍ بالقلب.

وقد أنكر بعض من لم يترق فهمه وجود الشوق والأنس والحُب؛ لظنه أن ذلك يدلُّ على التشبيه، وجهله بأن جمال المدركات بالبصائر أكمل من جمال المبصرات بالنواظر، وهؤلاء وقفوا مع صور التعبّد، ولم يترقوا، فمثلهم كمثل من رأى قشور الجوز فظنَّ الجوزَ كله حَسْباً، فاستحالَ عنده خروج دهنٍ منه

## بيان معنى الانسباط والإدلال الذي يُثمره الأنس

اعلم أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم، ولم يهوشه قلق الشوق ولم يُنغصه خوف التغيير والحجاب، فإنه يُثمر نوعاً من الانسباط في الأقوال والأفعال، والمناجاة مع الله تعالى، وقد يكون مُنكر الصورة لما فيه من الجرأة وقلة الهيبة، ولكنه يُحتمل ممن أقيم مقام الأنس، فإما إذا صدر ممن لم يقم ذلك المقام أشرف به صاحبه على الكفر، فالحالة الأولى مثل ما يروى من مناجاة بُرخ العابد أنه خرج يستسقي فقال: يا رب، أنت بالبخل لا تُرمي، أنفذ ما عندك أسقنا الساعة فجادت السماء.

وروينا عن الحسن قال: احترقت أخصاص<sup>(١)</sup> بالبصرة وبقي في وسطها خُص لم يحترق، وأمير البصرة يومئذ أبو موسى الأشعري، فأخبر بذلك، فبعث إلى صاحب الخُص فأتي به، فقال له: يا شيخ، ما بال خُصك لم يحترق؟ فقال: إني أقسمت على ربي أن لا يحرقه.

وكان أبو حفص<sup>(٢)</sup> يمشي يوماً فاستقبله رجلٌ مدهوش، فقال: مالك؟ فقال: ضلّ حماري ولا أملك غيره، فوقف أبو حفص وقال: وعزتك لا أخطو خطوة ما لم تردّ عليه جماره. فظهر الجمار.

ولا يُستبعد أنه قد يُحتمل من شخص ما لا يُحتمل من غيره، فإنه قد احتُمل من موسى عليه السلام قوله: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فَنَنُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] ما لم يُحتمل من يونس<sup>(٣)</sup> عليه السلام، وقد عُفي عن إخوة يوسف وعوقب عزيز في مسألة سأل عنها من القدر<sup>(٤)</sup>، فأميت، وكان بلعام<sup>(٥)</sup> من العلماء، فطلب الدنيا، فقيل عنه: ﴿مَشَلُهُ كَثَلُ الْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

- (١) الأخصاص: جمع خُص، وهو البيت يبنى من القصب.
- (٢) هو عمر بن سلم الحداد النيسابوري، شيخ الجُند.
- (٣) يريد بذلك ذهابه عليه السلام مغاضباً لقومه قبل أن يُؤمر.
- (٤) وهو ما ورد في قوله عز وجل: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ...﴾ الآية [البقرة: ٢٥٩].
- (٥) هو بلعام بن باعوراء، أحد علماء بني إسرائيل.

## القول في معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقة ما ورد في فضيلته

اعلم أن الرضا ثمرة من ثمار المحبة، وهو من أعلى مقامات المُقَرَّبِينَ، وحقيقته غامضة، ولا يَنكشِفُ الأمر فيه إلا لمن فَهَمَهُ اللهُ في الدين، فقد أنكر مُنكرون تصوُّر الرضا بما يُخالف الهوى، ثم قالوا: إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعلُ الله تعالى، فينبغي أن يُرضى بالكفر والمعاصي. وانخدع بذلك قومُ فرأوا الرضا بالفُجور والفسق وترك الإنكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى، ولو انكشفت هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشَّرع لما دعا رسولُ اللهِ ﷺ لابنِ عباسٍ حيثُ قال: «اللهم فَهِّمُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمُهُ التَّأْوِيلَ»<sup>(١)</sup>.

فلنبدأ ببيان فضيلة الرضا، ثم بحكايات أحوال الراضين، ثم بذكر حقيقة الرضا وكيفية تصوُّره فيما يُخالف الهوى، ثم بذكر ما يُظنُّ أنه من تمام الرضا وليس منه، كترك الدعاء والسكوت عن إنكار المعاصي.

## بيان فضيلة الرضا

قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وقال: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

أخبرنا الكروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر العورجي قالوا: أخبرنا الجراحي قال: حدَّثنا الترمذي قال: حدَّثنا سعيد بن نصر قال: أخبرنا عبدُ اللهِ بن المبارك قال: أخبرنا مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ. فيقولون: لبيك ربَّنَا وسعديك. فيقول: هل رَضِيتُمْ؟ فيقولون: ما لنا لا نَرْضَى، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أَحَدًا مِّنْ خَلْقِكَ. فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك. قالوا: وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك؟ قال: أحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم أبداً». أخرجاه في الصَّحيحين.

(١) أخرجه أحمد (٢٣٩٧) و(٢٨٧٩) و(٣٠٣٢) و(٣١٠٢)، والطبراني في الكبير (١٠٦١٤).

واعلم أن سؤالهم الرضا بعد النظر دليل على غاية فضله، وإنما سألوا الرضا لأنه سبب دوام النظر، فكأنهم راعوا غاية الغايات لما ظفروا بتعظيم النظر. فأما رضا العبد فسندكر حقيقته.

وأما رضوان الله تعالى عن العبد، فهو بمعنى آخر مما ذكرناه في حب الله تعالى للعبد، أخبرنا عبد الوهاب قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا أبو طالب العشاري وأبو بكر الخياط والتهرواني قالوا: أخبرنا ابن دؤست قال: حدثنا ابن صفوان قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثنا حمزة بن العباس قال: حدثنا عبدان بن عثمان قال: حدثنا ابن المبارك قال: أخبرنا عبد الله بن بجير قال: حدثني أبو العلاء بن الشخير حديثاً يرفعه، أن النبي ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبد خيراً أرضاه بما قسم له، وبارك له، وإذا لم يرد به خيراً لم يرضه بما قسم له، ولم يبارك له فيه»<sup>(١)</sup>.

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود؛ إنك لن تلقاني بعمل هو أَرْضَى لي عنك، ولا أحط لوزرك من الرضا بقضائي.

ونظر علي بن أبي طالب إلى عدي بن حاتم كئيباً، فقال: يا عدي، مالي أراك كئيباً حزينا؟ فقال: وما يمنعني وقد قتل ابنائي، وفُقِئت عيني؟ فقال: يا عدي، إنه من رضى بقضاء الله جرى عليه، وكان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه، وحبط عمله.

ودخل أبو الدرداء على رجل وهو يموت، وهو يحمد الله، فقال له أبو الدرداء: أصبت، إن الله إذا قضى قضاءً أحب أن يرضى به.

وقال ابن مسعود: إن الله تعالى بقسطه وعلمه جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط.

وقالت أم الدرداء: إن الراضين بقضاء الله تعالى ما قضى لهم رضوا به، لهم في الجنة منازل يعططهم بها الشهداء يوم القيامة.

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٩٤٦).

وقال علقمة: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، قال: هي المُصيبة تُصيب الرجل، ليعلم أنها من عند الله فيسلم لها.

وقال أبو معاوية الأسود في قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، قال: الرضا والقناعة.

وفي الحديث<sup>(١)</sup>: إِنَّ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ شَكَا إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْجُوعَ وَالْفَقْرَ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا أُجِيبَ إِلَى مَا أَرَادَ، ثُمَّ أُوحِيَ إِلَيْهِ: كَمْ تَشْكُو؟ هَكَذَا كَانَ بَدْوُكَ عِنْدِي فِي أَمِّ الْكِتَابِ قَبْلَ أَنْ أُخْلِقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَهَكَذَا سَبَقَ لَكَ مِنِّي، وَهَكَذَا قَضَيْتُ عَلَيْكَ قَبْلَ أَنْ أُخْلِقَ الدُّنْيَا، أَتُرِيدُ أَنْ أُعِيدَ الدُّنْيَا مِنْ أَجْلِكَ؟ أَمْ تُرِيدُ أَنْ أُبَدِّلَ مَا قَدَرْتُ لَكَ، فَيَكُونُ مَا تُحِبُّ فَوْقَ مَا أُحِبُّ، وَيَكُونُ مَا تُرِيدُ فَوْقَ مَا أُرِيدُ؟ وَعَزَّتِي وَجَلَالِي لَنْ تَلْجَلِجَ<sup>(٢)</sup> فِي صَدْرِكَ هَذَا مَرَّةً أُخْرَى لِأَمْحُونُكَ مِنْ دِيْوَانِ الثُّبُوتِ.

وفي زبور داود عليه السلام: هَلْ تَدْرِي مِنْ أَسْرَعِ النَّاسِ مَرًّا عَلَى الصَّرَاطِ؟ الَّذِينَ يَرْضُونَ بِحُكْمِي، وَأَلَسْتُهُمْ رَطْبَةً مِنْ ذِكْرِي.

وقال داود عليه السلام: يَا رَبِّ، أَيُّ عِبَادِكَ أَبْغَضَ إِلَيْكَ؟ قال: عبد استخارني في أمرٍ فخرتُ له، فلم يرضَ.

وقال ابن مسعود: مَا أَبَالِي إِذَا رَجَعْتَ إِلَى أَهْلِي عَلَى أَيِّ حَالٍ أَرَاهِمَ، أَبَسْرَاءَ أَمْ بِضُرَّاءَ، وَمَا أَصْبَحْتُ عَلَى حَالٍ فَتَمَّيْتُ أَنِي عَلَى سِوَاهَا.

وقال عمر بن عبد العزيز: مَا بَقِيَ لِي سُرُورٌ إِلَّا فِي مَوَاقِعِ الْقَدَرِ. وقيل له: مَا تَشْتَهِي؟ فقال: مَا يَقْضِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وقال الحسن: مَنْ رَضِيَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ، وَسِعَهُ وَيُبَارِكُ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ، لَمْ يَسَعُهُ، وَلَمْ يُبَارِكْ لَهُ فِيهِ.

وقال عبد الواحد بن زيد: الرضا بابُ الله الأعظم، وجنةُ الدنيا، ومُستراح العابدين.

(١) هكذا في الأصل، وفي الإحياء: «وفي الأخبار السالفة».

(٢) تَلْجَلِجَ: تَرَدَّدَ.

ودخلوا على زيد الياحي وهو مريض، فقالوا: شفاك الله. فقال: أستخير الله.  
وقال الفضيل: الراضي لا يتمنى فوق منزلته، ومتى استوى عنده المنع والعطاء  
فقد رضي عن الله تعالى.

وقال بعض أصحاب الفضيل: صحبته ثلاثين سنة، فما رأته ضحك إلا يوم  
مات ابنه، وقال: إن الله أحبّ أمراً فأحببت ما أحبّ.

وتذكروا عند رابعة عابداً كان في بني إسرائيل ينزل من متعبده، فيأتي مزبلة على  
باب الملك فيتمّم<sup>(١)</sup> من فضول مائدته، فقال رجل: وما على هذا إذ كان في هذه  
المنزلة أن يسأل الله عز وجل أن يجعل رزقه من غير هذا؟ فقالت رابعة: يا هذا؟ إن  
أولياء الله إذا قضى لهم قضاء لم يتسخطوه.

وسئلت رابعة: متى يكون الإنسان راضياً عن الله تعالى؟ فقالت: إذا كان سروره  
بالمصيبة مثل سروره بالنعمة.

وقال ابن المبارك: الراضي لا يتمنى خلاف حاله.

وقال أبو سليمان الداراني: أرجو أن أكون قد رزقت طرفاً من الرضا، لو  
أدخلني النار لكنت بذلك راضياً.

وقال أبو عبد الله البرائي: لن يرد الآخرة أرفع درجات من الراضين عن الله على  
كل حال، فمن وهب له الرضا فقد بلغ أفضل الدرجات.

وقال سهل: حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا.

وأصبح أعرابي وقد مات له أباعر<sup>(٢)</sup> كثيرة، فقال:

لا والذي أنا عبد في عبادته لولا شماتة أعداء ذوي إحن<sup>(٣)</sup>  
ما سرّني أن إيلي في مباركها وأن شيئاً قضاه الله لم يكن

(١) يتمّم: يتتبع القمامة.

(٢) الأباعر: جمع بعير.

(٣) الإحن: جمع إحنة، وهي الحقد والضغينة.

## بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى

أما من قال: ليس فيما يخالف الهوى إلا الصبر، وإن الرضا بذلك لا يتصور. فإنما أتى من ناحية إنكار المحبة، فأما إذا تصور الحب لله تعالى واستغراق الهمة به، فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال المحبوب، ويكون ذلك من وجهين:

أحدهما: أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجري عليه المؤلم ولا يحس، وتُصيبه جراحة ولا يدرك ألمها، ومثاله الرجل المحارب<sup>(١)</sup>، فإنه في حال غضبه أو في حال خوفه قد تُصيبه جراحة وهو لا يحس بها حتى إذا رأى الدّم استدّل به على الجرح، بل الذي يغدو في شغل مهم قد تُصيبه شوكة في قدمه ولا يحس بالألم ذلك لشغل قلبه؛ لأن القلب إذا صار مُستغرقاً بأمر من الأمور لم يدرك ما عداه.

وكذلك العاشق المستغرق الهمة بمشاهدة معشوقه أو بحبه، قد يُصيبه ما يؤلم، غير أن عشقه يمنعه الإحساس به، هذا إذا أصابه من غير حبيبه، فكيف إذا أصابه من حبيبه؟

وإذا تصور هذا ألم يسير بسبب حب خفيف تصور في الألم العظيم بالحب العظيم، فإن الحب أيضاً يتصور تضاعفه في القوة، كما يتصور تضاعف الألم، وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر، فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة، وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال، فمن ينكشف له شيء منه يبهره بحيث يدهش ويُغشى عليه ولا يحس بما يجري عليه، كما روينا أن امرأة فتحت الموصلي عثرت فانقطع ظفر إبهامها فضحكت، فقيل لها: أما وجدت ألمه؟ فقالت: إن لذة ثوابه أنستني مرارة وجعه.

والوجه الثاني: أن يحس به ويدرك ألمه، ولكنه يكون راضياً به راغباً في زيادته، وإن كان كارهاً بطبعه، كالذي يلتمس من الحجاج الحجامّة والفضد، فإنه يدرك ألم ذلك إلا أنه راضٍ به وراغب فيه ومُتقلد من الفصّاد به مئة بفعله.

(١) تصفحت في الأصل إلى: «المخازن».

فهذا حال الراضي بما يجري عليه من الألم، وكذلك كل من يُسافر في طلبِ الربح، فإنه يُدرك مشقة السفر، ولكن حبه لثمرة سفره طيّب عنده مشقة السفر، وجعله راضياً بها، وكلُّ من أصابته بليّة من الله تعالى، وكان له يقين بأن ثوابه الذي أدخَرَ له فوق ما فاتته، رضي به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه، هذا إن كان يلاحظ الثواب والإحسان الذي يُجازى به عليه.

ويجوز أن يغلب الحبُّ بحيث يكون حطُّ المحبِّ في مراد حبيبه ورضاه لا لمعنى آخر، وربما يكون مراد حبيبه ورضاه محبوباً عنده ومطلوباً، وكل ذلك موجودٌ في المشاهدات في حُبِّ الخَلقة، وقد وصفها الواصفون في نظمهم ونثرهم، ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر، فإن نُظِرَ إلى الجمال فما هو إلا جلدٌ على لحم ودم مشحونٍ بالأقدار، بدايته من نُطفةٍ مَدْرَةٍ<sup>(١)</sup>، ونهايته جيفةٌ قَدْرَةٌ، وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة<sup>(٢)</sup>، وإن نُظِرَ إلى المُدْرِكِ للجمال فهي العين التي تغلظُ فيما ترى كثيراً، فترى الصَّغيرَ كبيراً والكبيرَ صغيراً، والقبیحَ جميلاً، فإذا تُصوِّرَ استيلاءً هذا الحب من أين يستحيل ذلك في حُبِّ الجمال الأزلي الأبدي الذي لا مُنتهى لكمالهِ المُدْرِكِ بعينِ البصيرة التي لا يعترها الغلط، ولا يدركها الموت، بل هي حيةٌ عند الله تعالى، فَرِحَةٌ برزقه، مُستفيدةٌ بالموت مزيدَ تَبُّهِ واستكشاف.

وهذا أمرٌ واضحٌ من حيث النَّظَرِ بعين الاعتبار، ويشهد لذلك الوجود حكايات أحوال المُحِبِّين وأقوالهم؛ قال الجُنيد: سألتُ سرياً: هل يجد المحبُّ ألم البلاء؟ فقال: لا.

وقد روينا عن خلقٍ كثير من أهل البلاء أنهم كانوا يقولون: لو قَطَعْنَا إزباً إزباً ما ازدَدْنَا له إلا حَبّاً.

وروينا أن يونس عليه السلام قال: يا رب؛ دُلَّنِي على أَعْبَدِ أَهْلِ الأَرْضِ. فدَلَّهُ على رجلٍ قَطَعَ الجُذامُ يديه ورجليه وذهبَ بعَيْنَيْهِ، فسمعه يقول: مَتَّعَنِي بِهِنَّ

(١) يقال: مَدَّرَتِ البَيْضَةَ: أي فسدت.

(٢) العذرة: الغائط.

ما شئت، وسلبتنيهن ما شئت، وأبقيت لي فيك الأمل يا بُرِّ يا وصول.

وكان بالرَّبِيعِ بنِ حَيْثَمِ فَالْحِجِّ، فكان يقول: حُبُّهُ يُقَرِّبُنِي إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

وابتلي سُوَيْدُ بنُ مَثْعَبَةَ حَتَّى ضَنِّيَ وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا سَرَّنِي أَنَّ اللَّهَ يَنْقِصُنِي مِنْهُ قَلَامَةً ظُفْرًا.

وقال بعضُ السَّلَفِ: رَأَيْتُ رَجُلًا قَدْ ضُرِبَ أَلْفَ سَوْطٍ وَهُوَ صَابِرٌ ثُمَّ أَمْرٌ بِهِ إِلَى السُّجَنِ فَتَبِعْتُهُ فَقُلْتُ: لِمَ ضُرِبْتَ؟ قَالَ: لِأَنِّي عَاشِقٌ. قُلْتُ: وَلِمَ سَكَتَ؟ قَالَ: لِأَنَّ مَعْشُوقِي كَانَ بِحِذَائِي يَنْظُرُ إِلَيَّ. وَيُؤَكِّدُ هَذَا قِصَّةَ النَّسْوَةِ حِينَ شَاهَدَنَ يَوْسُفَ، فَإِنَّهُنَّ قَطَعْنَ الْأَيْدِي وَمَا أَحْسَسْنَ بِالْم.

قال سُمْنُونُ: كَانَ فِي جِيرَانِنَا رَجُلٌ لَهُ جَارِيَةٌ يُحِبُّهَا، فَاعْتَلَّتْ، فَجَلَسَ يُصَلِّحُ لَهَا حِسَاءً، فَبَيْنَمَا هُوَ يُحَرِّكُ الْقِدْرَ قَالَتْ: آه، فَدَهَشَ وَسَقَطَتِ الْمِلْعَقَةُ مِنْ يَدِهِ وَجَعَلَ يُحَرِّكُ الْقِدْرَ بِيَدِهِ حَتَّى تَسَاقَطَتْ أَصَابِعُهُ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ.

فقد بان بما ذكرنا أنَّ الرضا بما يُخالفُ الهوى ليس مُستحيلاً، بل هو مقامٌ عظيمٌ من مقامات أهل الدين، وإذا كان ذلك مُمكنًا في حُبِّ الخلق وحُظوظهم، كان مُمكنًا في حَقِّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَحُظُوظِ الآخِرَةِ، كيف لا وَجَمَالَ الحَضْرَةِ الرِّبَانِيَةِ أَوْ فِي مَنْ كُلِّ جَمَالٍ، وإمكانه من ثلاثة أوجه:

أحدها: علم المؤمن بأن تدبير الله تعالى خيرٌ من تدبيره، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «ما قضى الله لمؤمنٍ قضاءً إلا كان خيراً له»<sup>(١)</sup>.

وقد أخبرنا عبد الوهاب الحافظ قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا محمد ابن علي بن الفتح قال: حدثنا أبو عبد الله بن دُوسْت قال: حدثنا ابنُ صَفْوَانَ قال: حدثنا أبو بكر القُرْشِيُّ قال: حدثنا حَمَزَةُ بن العباس قال: حدثنا عبدان قال: حدثنا ابنُ المبارك قال: حدثنا عمارة عن مكحول قال: سمعتُ ابنَ عمر يقول: إن

(١) أخرجه أحمد (١٢٦٠) و(١٢٩٠٦)، وهناد في الزهد (٣٩٩)، وأبو يعلى (٤٢١٧) و(٤٢١٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٩٥١)، والقضاعي في مسند الشهاب (٥٩٦)، والضياء في المختارة (١٨١٦) و(١٨١٨) من حديث أنس بن مالك.

الرجل يَسْتَحِيرُ اللهَ فيختار له، فيتسَخَطُ على رَبِّه، فلا يَلْبَثُ أن يَنْظُرَ في العاقبة، فإذا هو قد خَيْرَ له .

قال القُرشي: وحدثني إبراهيم بن سعيد الجوهري قال: حدثنا أبو أسامة قال: حدثنا الأعمش عن مسلم عن مسروق قال: كان رجلٌ بالبادية له كلبٌ وحمارٌ وديكٌ، فالديكُ يوقظهم للصلاة، والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خبأهم، والكلبُ يحرسهم، فجاء الثعلبُ فأخذ الديكَ فحزَنوا، فقال الرجلُ: عسى أن يكونَ خيراً، ثم جاء ذئبٌ فخرقَ بطنَ الحمار، فقتله، فحزَنوا، فقال الرجلُ: عسى أن يكونَ خيراً. ثم أُصيبَ الكلبُ، فقال الرجلُ: عسى أن يكونَ خيراً. ثم أصبحوا ذاتَ يومٍ فنظروا فإذا قد سُبِيَ من حولهم وبقوا هم، وإنما أخذ أولئك بما كانَ عندهم من الصُوتِ والجلبةِ ولم يكن عند أولئك شيءٌ يُجلبُ<sup>(١)</sup>، قد ذهبَ كلُّهم وحمارهم وديكهم.

قال القُرشي: وحدثني أحمد بن إبراهيم بن كثير العبدي قال: حدثنا خلف بن الوليد عن عبد الرحيم بن زيد العمي عن أبيه عن سعيد بن المسيب قال: قال لقمانُ لابنه: يا بُني، لا ينزلن بك أمرٌ رضيته أو كرهته إلا جعلتَ في الضمير منك أن ذلك خيرٌ لك. قال: أما هذه فلا أقدرُ إن أعطيكها دون أن أعلم ما قلتَ أنه كما قلتَ. قال: يا بُني، إن الله قد بعثَ نبياً، هلمَّ حتى نأتيه فعنده بيانٌ ما قلتَ لك. قال: اذهب بنا نأته. قال: فخرج على حمارٍ وابنه على حمار، وتزوَّدا ما يصلحهما ثم سارا أياماً وليالي حتى تَلَقَّتْهُمَا مَفَازَةٌ<sup>(٢)</sup> فأخذا أُهْبَتَهُمَا لها ودخَلاها، فسارا ما شاء الله أن يسيرا حتى ظهرا، وقد تعالى النهار واشتدَّ الحرُّ ونفدَ الماء والرَّادُ، فاستَبَطَا حماريهما، فنزل لقمان ونزل ابنه فجعلا يَشْتَدَانِ على سَوْقِهِمَا فبينما هما كذلك إذ نَظَرَ لقمانُ أمامه، فإذا هو بسوادٍ عظيمٍ ودُخانٍ، فقال في نفسه: السَّوادُ شَجَرٌ، والدُّخانُ عمرانٌ وناسٌ. فبينما هما كذلك يَشْتَدَانِ إذ وطىء ابنُ لقمانَ على عَظْمِ نابٍ على الطَّرِيقِ فدخل في باطنِ القَدَمِ حتى ظَهر من أعلاها، فخرَّ ابنُ لقمان مَغْشِيًّا

(١) جَلَبٌ وأجلبٌ: أصدر جلبةً وهي الصوت والصياح.

(٢) المَفَازَةُ: الصحراء.

عليه، فحانت من لقمان التفاتة فإذا هو بابنه صريع، فوثب إليه فضمه إلى صدره، واستخرج العظم بأسنانه، وشقَّ عمامةً كانت عليه فلاث<sup>(١)</sup> بها رجله، ثم نظر إلى وجه ابنه فذرفت عيناه، فقطرت قطرةً من دموعه على خدِّ الغلام فانتهبه لها، فنظر إلى أبيه وهو يبكي، فقال: يا أبة، أنت تبكي وأنت تقول: هذا خيرٌ لي، كيف يكون هذا خيراً لي وأنت تبكي، وقد نَفَدَ الطعامُ والماءُ وبقيتُ أنا وأنت في هذا المكان، فإنْ ذهبتَ وتركتني على حالي ذهبتَ بهمَّ وعَمَّ ما بقيتَ، وإنْ أقمتَ معي مِننا جميعاً، فكيف يكون هذا خيراً لي؟ قال: أما بُكائي يا بني فوددت أني أفتديك بجميع حظي من الدنيا، ولكني والد، ومتي رقةُ الوالد، وأما ما قلتَ: كيف يكون هذا خيراً لي؟ فلعلَّ ما صُرفَ عنكَ يا بُني أعظم مما ابتليتَ به، ولعلَّ ما ابتليتَ به أيسرُ مما صُرفَ عنكَ. فبينما هو يُحاروه إذ نظر لقمانُ هكذا أمامه فلم يرَ ذلك الدُخانَ والسَّوادَ، فقال في نفسه: لم أرَ. ثم قال: قد رأيتُ ولكنَّ لعلَّه يكونُ قد أحدثَ ربِّي بما رأيتُ شيئاً. فبينما هو يفكرُ في هذا إذ نظر أمامه فإذا هو بشخصٍ قد أقبلَ على فرسٍ أبلقٍ<sup>(٢)</sup> عليه ثيابٌ بياضٌ وعمامةٌ بيضاء تمسحُ الهواءَ مسحاً، فلم يزل يرمقه بعينه حتى كان منه قريباً، فتوارى عنه، ثم صاح به، فقال: أنت لقمان؟ قال: نعم. قال: ما قال لك ابنك هذا السَّفيه؟ قال: يا عبدَ الله من أنت؟ أسمعُ كلامك ولا أرى وجهك. قال: أنا جبريلُ، لا يراني إلا ملكٌ مُقَرَّبٌ أو نبيٌّ مُرْسَلٌ، لولا ذلك لرأيتني. قال: فما قال لك ابنك هذا السَّفيه؟ قال: قال لقمانُ<sup>(٣)</sup>: إن كنتَ أنتَ جبريلُ فأنتَ أعلم بما قاله ابني مِنِّي. فقال جبريلُ: ما لي بشيءٍ من أمركم علمٌ، إلا أنَّ حَفَظْتُمَا أتوني وقد أمرني ربِّي بحَسَفِ هذه المدينة وما يليها ومن فيها فأخبروني أنكما تُريدان هذه المدينة، فدعوتُ ربِّي أن يحبسكما عني بما شاء، فحبسكما عني بما ابتلى به ابنك، ولولا ما ابتلي به ابنك لخشفتُ بكما مع من خسفتُ. قال: ثم مسح جبريلُ يده على قَدَمِ الغلام فاستوى قائماً، ومسح يده على الذي كان فيه الطَّعام فامتلاً طعاماً، ومسح يده على الذي كان فيه الماء فامتلاً ماءً،

(١) لاث: لفَّ وعصب.

(٢) فرسٌ أبلقٌ: فيه سوادٌ وبياض.

(٣) بعدها في الأصل: «في نفسه»، ولا داعي لها، والمثبت من المختصر.

ثم حملهما وحماريهما فرحل بهما وحماريهما كما ترحل الطير فإذا هما في الدار التي خرّجا منها بعد أيام وليالٍ.

والوجه الثاني: الرضا بالألم لما يتوقع من الثواب الموجود، كالرضا بالفصد والحجامة وشرب الدواء انتظاراً للشفاء.

والثالث: الرضا به لا لحظ وراءه، بل لكونه مُراد المحبوب ورضى له، فقد يغلب الحبُّ بحيث ينغمّر مُرادُ المحبِّ في مُرادِ المحبوب، فيكون ألدَّ الأشياء عنده سُرور قلب حبيبه ورضاه ونفوذ إرادته ولو في هلاك نفسه، وكما قيل:

فَمَا لَجُرْحِ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلْمٌ<sup>(١)</sup>

وهذا ممكنٌ مع الإحساس بالألم.

وقد يستولي الحبُّ بحيث يدهش عن إدراك الألم على ما سبق بيانه، ولا ينبغي أن يُنكره مَنْ فَقده من نفسه؛ لأنه إنما فَقده لَفَقْد سَبَبٍ وهو فَرَطُ حُبِّه، وَمَنْ لم يَدُقْ طَعَمَ الحُبِّ لم يعرف عَجَائِبِهِ، ولَعَمْرِي إِنْ من فَقْد السَّمْعِ أنكر لَذَّةَ الأَلْحَانِ والتَّغَمَاتِ، فمن فَقْد القلبِ فلا بدَّ أن يُنكر هذه اللذات التي لا مَظَنَّةَ لها سوى القلب.

بيان أن الدعاء لا يُناقض الرضا وكذلك كراهة المعاصي

ومقت أهلها وأسبابها والسعي في إزالتها

قد عَلِطَ في ذلك بعضُ البَطَّالين المغترين، وزعم أن الكفر والمعاصي من قِضَاءِ الله تعالى وقدره، فيجب الرضا به، وهذا جهلٌ بالتأويل وغفلةٌ عن أسرار الشَّرع، فأما الدعاء فقد تعبدنا به، ودُعَاءُ رَسولِ الله ﷺ وغيره معلوم، كما ذكرنا في كتاب الدَّعوات، ورسولُ الله ﷺ في أعلى مقامات الرضا، وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله: ﴿وَيَدْعُونَكَ رَعْبًا وَرَهْبًا﴾ [الأنبياء: ٨٩].

وأما إنكارُ المعاصي وكراهتها وعدمُ الرضا بها فقد تعبد الله تعالى به عباده

(١) عجز بيت للمتنبي وصدرة: (إِنْ كَانَ سَرَّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا).

وَدَمَّهَم عَلَى الرِّضَا بِهِ، فَقَالَ: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾ [يونس: ٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٩٣]. وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كِفَاعِلُهُ»<sup>(١)</sup>، وَقَالَ فِي رَجُلٍ يُنْفِقُ مَالاً وَآخِرُ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مِثْلَ مَا لِهَذَا عَمِلْتُ مِثْلَ عَمَلِهِ: «هُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ»<sup>(٢)</sup>.

وَأَمَّا بُغْضُ الْكُفَّارِ وَالْفُجَّارِ وَالْإِنكَارِ عَلَيْهِمْ وَمَقْتَهُمْ فَمَا وَرَدَ فِيهِ مِنْ شَوَاهِدِ الْقُرْآنِ وَالْأَخْبَارِ لَا يُحْصَى، مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكٰفِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ﴾ [المائدة: ٥١].

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «المرءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»، وَقَالَ: «أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللَّهِ وَتُبْغِضَ فِي اللَّهِ»<sup>(٣)</sup>.

وَقَدْ ذَكَرْنَا شَوَاهِدَ هَذَا فِي كِتَابِ الصُّحْبَةِ، وَفِي كِتَابِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، فَلَا نُعِيدُهُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ وَرَدَتْ الْأَخْبَارُ بِالرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنْ كَانَتْ الْمَعَاصِي بغير قَضَاءِ اللَّهِ فَهِيَ مُحَالٌ، وَإِنْ كَانَتْ بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى فَكِرَاهَتُهَا وَمَقْتُهَا كِرَاهَةٌ لِقَضَاءِ اللَّهِ، فَكَيْفَ الْجَمْعُ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا مِمَّا يَلْتَبِسُ عَلَى الْقَاصِرِينَ عَنِ الْوُقُوفِ عَلَى أَسْرَارِ الْعِلْمِ حَتَّى التَّبَسَّ عَلَى قَوْمٍ فَرَأُوا السَّكُوتَ عَنِ الْإِنكَارِ مَقَاماً مِنْ مَقَامَاتِ الرِّضَا وَسَمَوَهُ: حُسْنَ خُلُقٍ، وَهُوَ جَهْلٌ مَحْضٌ، بَلْ نَقُولُ: الرِّضَا وَالْكِرَاهَةُ يَتَضَادَانِ إِذَا تَوَارَدَا عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى وَجْهِ وَاحِدٍ، وَلَيْسَ مِنَ التَّضَادِ<sup>(٤)</sup> فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ أَنْ يُكْرَهَ مِنْ وَجْهِ وَيَرْضَى بِهِ مِنْ وَجْهِ، إِذْ قَدْ يَمُوتُ عَدُوُّكَ الَّذِي هُوَ أَيْضاً عَدُوٌّ بَعْضِ أَعْدَائِكَ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٨٩٣) وَأَحْمَدُ (٢٢٣٣٩) وَ(٢٢٣٦٠)، وَابْنُ حِبَانَ (١٦٥٦٨) مِنْ حَدِيثِ أَبِي مَسْعُودِ الْأَنْصَارِيِّ.

(٢) سَيَأْتِي بِتَمَامِهِ بَعْدَ قَلِيلٍ فِي كِتَابِ النِّيَّةِ.

(٣) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٨٥٢٤)، وَالطَّيَالِسِيُّ (٧٤٧) وَابْنُ أَبِي عَرَابَةَ (١٤) مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ.

(٤) تَحَرَّفَتْ فِي الْأَصْلِ إِلَى: «المتضاد».

وساع في إهلاكه، فتكره موته من حيث إنه مات عدوً عدوك، وترضاه من حيث إنه مات عدوك.

وكذلك المعصية لها وجهان: وجه إلى الله تعالى من حيث إنها فعله واختياره وإرادته فترضى بها من هذا الوجه تسليماً للملك إلى مالك الملك ورضاً بما يفعله فيه.

ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة كونه ممقوتاً عند الله تعالى وبغضاً عنده حيث سَلَطَ عليه أسباب البعد والمقت، فهو من هذا الوجه مُنْكَرٌ ومذمومٌ.

ولا ينكشف هذا لك إلا بمثال؛ فلنترض محبباً من الخلق قال بين يدي محبه: إني أريد أن أميز بين من يحبني ويُبغضني، وأنصب معياراً صادقاً وميزاناً ناطقاً، وهو أني أقصد إلى فلان فأؤذيه وأضربه ضرباً يضطره ذلك إلى الشتم لي، حتى إذا شتمني أبغضته واتخذته عدواً لي، فكل من أحبه فأعلم أنه أيضاً عدوي، وكل من أبغضه فأعلم أنه صديقي ومحبّي، ثم فعل ذلك وحصل له مراده من الشتم الذي هو سبب البغض، وحصل البغض الذي هو سبب العداوة، فحق على كل من هو صادق في محبته وعالم بشروط المحبة أن يقول: أما تدبيرك في إيذاء هذا الشخص وضربه وإيعاده، وتعريضك إياه للبغض والعداوة فأنا محبٌ له وراضٍ به، فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك، وأما شتمه إياك فإنه عدوانٌ من جهته إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم، ولكنه كان مُرادك منه، فإنك قصدت بضربه استئطاقه بالشتم الموجب للمقت، فهو من حيث إنه حصل على وفقٍ مُرادك وتدبيرك الذي دبرته، فأنا راضٍ به، ولو لم يحصل لكان ذلك نقصاناً في تدبيرك وتعويقاً لمُرادك، وأنا كارهٌ لفوات مُرادك ولكنه من حيث إنه وصف لهذا الشخص وكسب له وعدوانٌ وتهجمٌ منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك، وإذا كان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم فأنا كارهٌ له من حيث نسبته إليه، ومن حيث هو وصف له لا من حيث هو مُرادك ومقتضى تدبيرك، وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راضٍ له ومحبٌ له؛ لأنه مُرادك وأنا على موافقتك أيضاً مُبغض له؛ لأن شرط الحب أن يكون حبيب المحبوب حبيباً وعدوه عدواً، وأما بغضه لك فإني أرضاه من حيث أنك أردت أن

يُبغضك<sup>(١)</sup> إذ أبعدته وسلَّطت عليه دواعي البُغض، ولكن أبغضه من حيث إنه وصفُ ذلك المَبغوض وكسبه وفعله، وأمَّقتَه لذلك، فهو مَمقوتٌ عندي لمقتِه إياك وبُغضه، وممَّقتَه لك أيضاً مكروهٌ عندي من حيث إنه وصفٌ له، وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مَرضيٌّ، وإنما التناقضُ أن يقول: هو من حيث إنه مُرادك مرضي ومن حيث إنه مرادك مكروه.

فأما إذا كان مكروهاً لا من حيث إنه فعله ومراده، بل من حيث إنه وصفٌ غيره وكسبه، فهذا لا تناقضٌ فيه، ويشهد لذلك كل ما يُرضى من وجهٍ ويُكره من وجهٍ، ونظائر ذلك كثيرة.

فإذن تسليطُ الله تعالى دواعي الشَّهوة والمعصية عليه حتى يجره ذلك إلى حُبِّ المعصية، ويجره حُبُّ المعصية إلى فعل المعصية يُضاهي ضَرْبَ المحبوب للشَّخص الذي ضَرَبناه مثلاً ليجره الضربُ إلى الغَضبِ والغَضْبُ إلى الشَّتْمِ.

ومقتُّ الله تعالى لمن عصاه، وإن كانت معصيته بتدبيره يُشبه بُغضَ المشتوم لمن شتمه وإن كان شتمه إنما حصل بتدبيره واختياره لأسبابه، وفعلُ الله تعالى ذلك لكلِّ عبدٍ من عبده. أعني تسليطُ دواعي المعصية عليه. يدل على أنه سَبقت مَشِيئته بإبعاده ومقتِه، فواجبٌ على كل عبدٍ مُحِبِّ الله تعالى أن يُبغضَ مَنْ أبغضه اللهُ تعالى ويممَّقتَ من ممَّقتَه اللهُ تعالى، ويُعادي من أبعدَه اللهُ عن حَضْرَتِهِ وإن اضطرَّه بقهره وقدرته إلى مُعاداته ومُخالفته، فإنه بعيدٌ مطرودٌ ملعونٌ عن الحضرة، وإن كان بعيداً بإبعاده قهراً، ومطروداً بطرده اضطراراً.

والمُبعدُ عن درجاتِ القُربِ يَنْبغي أن يكون مَقِيماً بغيضاً إلى جميع المحبين موافقاً للمحسوب بإظهار الغَضْبِ على مَنْ أظهر المحبوب الغَضْبَ عليه بإبعاده.

ولهذا يتقرَّر جميع ما وردت به الأخبارُ من البُغضِ في الله والحُبِّ في الله، والتَّشديد على الكُفار، والتَّغليظ عليهم، والمبالغة في ممَّقتهم مع الرِّضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عزَّ وجل، وهذا كلُّه يُستمدُّ من سِرِّ القَدَر الذي

(١) في الأصل: «أبغضك»، والمثبت من الإحياء.

لا رُخْصَةً في إفشائه، وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة، ولكن الشر مرادٌ مكروهٌ والخير مرادٌ مرضيٌّ به .

فمن قال: أليس الشرُّ من الله؟ فهو جاهلٌ، وكذا من قال: إنهما جميعاً منه . من غير افتراقٍ في الرضا والكراهة، فهو أيضاً مُقْصِر .

وكشفُ الغطاء عنه غير مأذونٍ فيه، والأولى السكوت والتأدبُ بآدابِ الشرع والوقوفُ مع ما تعبد به الخلق من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي، مع أنها من القضاء وقد ظهر الغرضُ بما كشفنا، وبهذا تعرفُ أيضاً أنَّ الدعاء بالمَغْفِرَةِ والعِصْمَةِ من المعاصي وجميع الأسباب المعينة على الدين غير مُناقِضٍ للرضا بقضاء الله تعالى .

فإنَّ الله تعالى تعبدَ العبادة بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكرِ وخُشوعَ القلبِ ورقةَ التَّضَرُّعِ، ويكون ذلك جلاءً للقلب، ومفتاحاً للكشف، وسبباً لتواصل مزايا اللطف كما أن حملَ الكوزِ وشربَ الماء ليس مُناقِضاً للرضا بقضاء الله تعالى في العطش، وشرب الماء طلباً لإزالة العطش مباشرة سببٌ رَبَّتَهُ مُسَبِّبُ الأسباب، فكذلك الدعاء سببٌ رَبَّتَهُ اللهُ تعالى وأمر به .

وقد ذكرنا أنَّ التَّمَسُّكَ بالأسباب جرياً على سُنَّةِ اللهِ تعالى لا يُناقِضُ التوكل واستقصيناهُ في كتاب التوكل، فهو أيضاً لا يُناقِضُ الرضا؛ لأن الرضا مقامٌ مُلَاصِقٌ للتوكل ومُتَّصِلٌ به، إنما الشكوى تُناقِضُ الرضا، فلو قال القائل: الفَقْرُ بلاءٌ ومحنةٌ، والعيال هم وتعبٌ فذلك يَقْدَحُ في الرضا، بل ينبغي أن يُسَلِّمَ التَّدبيرَ لمالكه .

## بيان الفرار من البلاد التي هي مَظَانُّ

### المعاصي ولا يقْدَحُ في الرضا

ربما ظنَّ ظانٌّ أنَّ نَهْيَ رسولِ اللهِ ﷺ عن الخروجِ عن بلدٍ قد ظهر فيه الطاعون يدلُّ على النَّهْيِ عن الخروجِ عن بلدٍ ظَهَرَتْ فيه المعاصي؛ لأن كل واحد منهما فرار عن قضاء الله تعالى، وذلك مُحالٌ، بل العلةُ في النَّهْيِ عن مُفارقةِ البلدِ بعد ظُهور

الطَّاعُونَ أَنَّهُ لَوْ فُتِحَ هَذَا الْبَابُ لَارْتَحَلَ عَنْهُ الْأَصِحَّاءُ وَبَقِيَ فِيهِ الْمَرْضَى مُهْمَلِينَ لَا مُتَعَاهِدَ لَهُمْ، فَيَهْلِكُونَ هَزْلاً وَضُرّاً.

فأما الفرار من أماكن المعاصي فمأمورٌ به، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]، ومن لم يقدر على الفرار فليكن منكراً بقلبه غير مطمئن، خائفاً من عقوبة تعم.

ومما يتعلّق بالمحبة قيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: لو يعلم المُدْبِرُونَ عني كيف انتظاري لهم، ورفقي بهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لماتوا شوقاً إليّ، وتقطعت أوصالهم من محبتي، يا داود، هذه إرادتي في المُدْبِرِينَ عني فكيف إرادتي في المقبلين عليّ، يا داود أحوج ما يكون العبدُ إليّ إذا استغنى عني، وأرحم ما أكون لعبدٍ إذا أدبر عني، وأجل ما يكون عبدي إذا رجع إليّ.

وكانت امرأة متعبدة تقول: والله لقد سئمت الحياة حتى لو وجدت الموت يُباع لاشتريته شوقاً إلى الله تعالى وحباً للقائه. قال: فقيل لها: فعلى ثقة أنت من عملك؟ قالت: لا، ولكن بحبي إياه، وحسن ظني به، أفتراه يُعذّبي وأنا أحبه.

آخِرُ كِتَابِ الْمَحَبَّةِ وَالشُّوقِ

\* \* \*

## كتاب النية والإخلاص والصدق

الحمد لله مُنَجِّي العارفين، ومُرَجِّي الخائفين، اختار من العالمين العالمين، ثم اصطفى من العالمين العاملين، وجعل صحة أعمال الدين موقوفة على حُسن قصد القاصدين ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

أحمده حمدَ الشاكرين، وأؤمن به إيمان الموقنين، وأقرُّ بوحدانيته إقرارَ الصادقين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد المرسلين، صلى الله عليه وعلى أصحابه أجمعين.

أما بعد: فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أنه لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة، فالناس كلهم هلكت إلا العالمون، والعالمون هلكت إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكت إلا المخلصون، والمخلصون على خطرٍ عظيم.

فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، والإخلاص من غير تحقيق هباء وقد قال عز وجل فيما لم يُردَّ به وجهه: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وليت شعري كيف يُصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية، أو كيف يُخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص، أو كيف يُطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه، فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولاً لتحصل المعرفة، ثم يُصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والإخلاص.

ونحن نذكر معاني الصُّدق والإخلاص في ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في حقيقة النِّيَّة ومعناها.

الباب الثاني: في الإخلاص وحقائقه.

الباب الثالث: في الصُّدق وحققيقته.

\* \* \*

## الباب الأول

### في النية

وفيه بيان فضيلة النية، وبيان حقيقة النية، وبيان كون النية خيراً من العمل، وتفصيل الأعمال المتعلقة بالنفس، وبيان خروج النية عن الاختيار

### بيان فضيلة النية

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢] والمراد بتلك الإرادة النية.

أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أعين الشاشي قال: حدثنا الفيربري قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا محمد بن كثير عن سفيان قال: حدثنا يحيى بن سعيد بن محمد بن إبراهيم التيمي عن علقمة بن وقاص قال: سمعتُ عمر بن الخطاب قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنية، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»<sup>(١)</sup>.

أنبأنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا الأعمش عن شقيق عن أبي موسى قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ

(١) أخرجه البخاري (١) و(٥٤) و(٢٥٢٩)، و(٣٨٩٨) و(٥٠٧٠) و(٦٦٨٩) و(٦٩٥٣)، ومسلم (١٩٠٧)، وفي بعض الروايات «ينكحها» بدل: «يتزوجها».

فقال: يا رسول الله، أرايت الرجل يقاتل شجاعةً ويُقاتل حَمِيَّةً ويُقاتل رياءً، فأَي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «من قاتل لتكونَ كلمةُ الله هي العليا، فهو في سبيل الله»<sup>(١)</sup>. أخرجاه في الصحيحين والذي قبله وقبله.

أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدَّثني أبي قال: حدثنا كثير. يعني ابن هشام. قال: حدثنا جعفر. يعني بن بُرقان. قال: حدثنا يزيد بن الأصم عن أبي هُريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»<sup>(٢)</sup> انفرد بإخراجه مسلم، وإنما نظر إلى القلوب لأنها محل النية.

أنبأنا ابن الحُصَيْن قال: أخبرنا ابن المُذْهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدَّثنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدَّثني أبي قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا الأعمش عن أبي سُفيان عن جابر قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لقد خَلَقْتُم بالمدينة رجالاً ما قَطَعْتُم وادياً ولا سَلَكْتُم طريقاً إلا شَرَكُوْكُمْ في الأجر، حَبَسَهُم المَرَضُ» أخرجهم مسلم<sup>(٣)</sup> من حديث جابر، وأخرجه البخاري<sup>(٤)</sup> من حديث أنس بن مالك.

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ هَمَّ بحسنةٍ فلم يَعْمَلْهَا كُنِيتَ لَهُ حَسَنَةً»<sup>(٥)</sup>.

أنبأنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا التَّمِيمِي قال: أخبرنا القَطِيعِي قال: حدثنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدَّثني أبي قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن أبي كَبْشَةَ الأَنْمَارِي قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَثَلُ هذه الأُمَّةِ مَثَلُ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مالاً وعِلْماً، فهو يَعْمَلُ به في ماله يُنْفِقُهُ في حَقِّهِ، ورجلٍ آتَاهُ اللهُ عِلْماً ولم يُوْتِهِ مالاً، فهو يقول: لو كانَ لي مِثْلُ مالِ هذا عَمَلْتُ فيه

(١) أخرجه البخاري (١٢٣) و(٢٨١)، ومسلم (١٩٠٤)، وأحمد (١٩٤٩٣) و(١٩٥٤٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) (٣٤)، وأحمد (٧٨٢٧) و(١٠٩٦٠).

(٣) صحيح مسلم (١٩١١)، وأحمد (١٤٢٠٨).

(٤) صحيح البخاري (٢٦٨٤).

(٥) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

مثل الذي يعمل» قال رسول الله ﷺ: «فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْماً، فَهُوَ يَخْبِطُ فِيهِ يُنْفِقُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ اللَّهُ مَالاً وَلَا عِلْماً، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ مِثْلُ هَذَا عَمَلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَهُمَا فِي الْوَزْرِ سَوَاءٌ»<sup>(١)</sup>.

وروى أبو داود في سننه من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ، وَأَبْغَضَ اللَّهَ، وَأَعْطَى اللَّهَ، وَمَنَعَ اللَّهَ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ».

أبنا محمد بن أبي منصور قال: أخبرنا جعفر بن أحمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني علي بن مسلم قال: حدثنا سيار قال: حدثنا جعفر قال: حدثنا أبو عمران الجوني قال: تصعدُ الملائكة بالأعمال، فينادى الملكُ: أَلْقِ تِلْكَ الصَّحِيفَةَ، أَلْقِ تِلْكَ الصَّحِيفَةَ. قال: فتقول الملائكةُ: رَبَّنَا، قَالَ خَيْرًا وَحَفِظْنَاهُ عَلَيْهِ. فيقول تبارك وتعالى: لَمْ يُرِدْ بِهِ وَجْهِي. قال: وَيُنَادِي الْمَلِكُ: اكْتُبْ لِفُلَانٍ كَذَا وَكَذَا. مرتين. فيقول: يَا رَبِّ، إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْهُ. فيقول عزَّ وجلَّ: قَدْ نَوَاهُ، قَدْ نَوَاهُ.

وقال إسماعيل بن أبي حبيبة: أصابت بني إسرائيل مَجَاعَةً، فَمَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَمْلِ، فَقَالَ: وَدِدْتُ أَنْ هَذَا الرَّمْلَ دَقِيقٌ فَأُطْعِمَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَأُثِيبَ عَلَى نِيَّتِهِ. وأما الآثار: فإنه كان من دُعاءِ أبي بكر الصديق رضي الله عنه: اللَّهُمَّ هَبْ لِي إِيْمَانًا وَيَقِينًا وَمَعَاوَةَ وَنِيَّةً.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ أَدَاءُ مَا افْتَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى، وَالْوَرَعُ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى، وَصَدَقَ النِّيَّةُ فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

وقال سالم بن عبد الله: مَنْ تَمَّتْ نِيَّتُهُ تَمَّ عَوْنُ اللَّهِ لَهُ.

وقال داود الطائي: رَأَيْتُ الْخَيْرَ كُلَّهُ يَجْمَعُهُ حُسْنُ النِّيَّةِ، وَكَفَاكَ بِهِ خَيْرًا وَإِنْ لَمْ

تَنْصَبَ.

(١) أخرجه أحمد (١٨٠٢٤)، وهناد في الزهد (٥٨٦)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٦٣)، والترمذي (٢٣٢٦)، وابن ماجه (٤٢٢٨).

وقال الثوري: كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل.

وكان بعضهم يقول: ذُلوني على عملٍ لا أزال به عاملاً لله تعالى. فقيل له: انوِ الحَيْرَ، فإنك لا تزال عاملاً وإن لم تعمل، فالنيةُ تعمل وإن عُدِمَ العملُ، فإنه من نوى أن يُصلي بالليل فنام، كُتِبَ له ثوابٌ ما نوى أن يفعله.

أخبرنا أبو القاسم الكاتب قال: حدثنا أبو علي بن المُذهب قال: حدثنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا وكيع، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن محمد بن المُنكَدر، عن سعيد بن جُبَيْر، عن عائشة قالت: قال النبي ﷺ: «ما من رجلٍ تكون له ساعةٌ من الليل يقومُها، فينام عنها، إلا كُتِبَ له أجرُ صلاتِهِ، وكان نَوْمُهُ عليه صدقةٌ تُصدَّقَ به عليه»<sup>(١)</sup>.

ولذلك إذا نوى المعاصي عازماً عليها، فإنه يَأْتُم لإصراره، سُئِلَ ابنُ المبارك عن المُدْمِنِ للخمر، فقال: الذي يشربها اليوم ثم لا يشربها ثلاثين سنةً، ومن رأيه أنه إذا وَجَدَهَا شَرِبَهَا.

### بَيَانُ حَقِيقَةِ النِّيَّةِ

اعلم أن النيةَ والإرادةَ والقصدَ عبارات متواردة على معنى واحدٍ، وهو حالةٌ وصِفَةٌ للقلب يكتنفها أمران: علمٌ وعَمَلٌ، فالعلم يقدِّم العمل؛ لأنه أصله وشرطه، والعمل يتبعه؛ لأنه ثمرته وفرعه، وذلك لأن كلَّ عملٍ - أعني كلَّ حركة وسكونٍ اختياري - فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور: علم وإرادةٌ وقُدرةٌ؛ لأنه لا يُريدُ الإنسانُ إلا ما يَعلمه، فلا بد أن يعلم غير أنه لا يعمل ما لم يُرِدْ، فلا بد من إرادةٍ، ومعنى الإرادة انبعاثُ القلب إلى ما يراه مُوافقاً للغرض إما في الحالِ أو في المآلِ، فقد خُلِقَ الإنسانُ بحيث توافقه بعضُ الأمور وتلائم غرضه، وتُخالفه بعضُ الأمور، فاحتاج إلى جلبِ المُلائمِ الموافق إلى نفسه، ودفعِ الضارِ المُنافي عن نفسه فافتقر بالضرورة إلى معرفةٍ وإدراكٍ للشيءِ المُضِرِّ والنافع حتى يجلبَ هذا ويهرب من هذا،

(١) أخرجه أحمد (٢٤٣٤١)، والنسائي في الكبرى (١٤٥٨) وفي المجتبى (٢٥٨/٣)، وابن

فإن من لا يبصر الغداء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناوله، ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها، فخلق الله الهداية والمعرفة، وجعل لها أسباباً، وهي الحواس الظاهرة والباطنة، وليس ذلك من غرضنا. ثم لو أبصر الغداء وعرف أنه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه مئيلٌ إليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه، إذ المريض يرى الغداء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل، ولفقد الداعية المحركة إليه، فخلق الله تعالى له الميل والرغبة والإرادة، أعني بذلك نزوعاً في نفسه إليه وتوجهاً في قلبه نحوه. ثم ذلك لا يكفيه، فكم من مُشاهدٍ طعاماً راغبٍ فيه مُريدٍ تناوله عاجزٍ عنه لكونه زَمناً، فخلقت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم له التناول، والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة، والقدرة تنتظر الداعية الباعثة، والداعية تنتظر العلم والمعرفة والظن والاعتقاد، وهو أن يقوى في نفسه كون الشيء موافقاً له.

فإذا جَزَمَتِ المعرفة بأن الشيء موافقٌ ولا بد أن يفعل، وسَلَمَتِ من معارضةٍ باعثٍ آخر صارفٍ عنه، انبعثت الإرادة وتحقق الميل، فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء، فالقدرة<sup>(١)</sup> خادمةٌ للإرادة، والإرادة تابعةٌ لحكم الاعتقاد والمعرفة.

فالنَّيةُ عبارةٌ عن الصِّفةِ المتوسطة وهي الإرادة، وانبعثت النَّفسُ بحكم الرِّغبة والميل إلى ما هو موافقٌ للغرض إما في الحال وإما في المآل، فالمحرك الأول هو الغرض المطلوب، وهو الباعث، والغرض الباعث هو القصد المنوي، والانبعث هو القصد والنية، وانتهاضُ القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل.

إلا أن انتهاضَ القدرة للعمل قد يكون بباعثٍ واحدٍ، وقد يكون بباعثين اجتماعاً في فعلٍ واحدٍ، وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحدٍ بحيث لو انفردَ لكان كافياً بإنهاضِ القدرة، وقد يكون كل واحدٍ قاصراً عنه إلا بالاجتماع، وقد يكون أحدهما كافياً لولا الآخر لكان الآخر انتهضَ عاضداً له ومعاوناً، فيخرجُ من هذا التقسيم

(١) في الأصل: «بالقدرة».

أربعة أقسام؛ فلنذكر لكل واحد مثلاً واسماً:

أما الأول: فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرّد، كما إذا هجم على الإنسان سبعٌ فحين رآه قام من موضعه، فلا مُزعج له إلا غرضُ الهربِ من السبع، فإنه رأى السبع وعرفه ضارّاً، فانبعثت نفسه إلى الهرب، ورغبت فيه، فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث، فيقال: نيته الفرار من السبع ولا نية له في القيام غيره، وهذه النية تسمى خالصة، ويُسمى العمل بموجبها إخلاصاً، بالإضافة إلى الغرض الباعث، ومعناه: أنه خلص عن مشاركة غيره وممازحته.

وأما الثاني: فهو أن يجتمع باعثن كل واحدٍ مستقل بالإنهاض لو انفرد، ومثاله من المُحسّ أن يتعاون رجلان على حمل شيءٍ بمقدار من القوة كانت كافية في الحمل لو انفردت، ومثاله في غرضنا: أن يسأله قريبه الفقيرُ حاجةً فيقضيها لفقره ولقربته، وقد علم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القربة<sup>(١)</sup>، ويعلم ذلك من نفسه بأن يحضره قريب غني فيرغب في قضاء حاجته وفقير أجنبي فيرغب أيضاً فيه، وكذلك من أمره الطبيبُ بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حميئاً، ولولا الحمية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة، وقد اجتمعا جميعاً فأقدم على الفعل، وكان الباعثُ الثاني رفيق الأول، فلنُسَمَّ هذا موافقة البواعث.

الثالث: أن لا يستقل كل واحد لو انفرد، ولكن قوّي مجموعهما على إنهاض القدرة، ومثاله: أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد أحدهما به، ومثاله من غرضنا: أن يقصده قريبه الغني فيطلبُ درهماً، فلا يعطيه، ويقصده الأجنبي الفقير، فيطلبُ درهماً، فلا يعطيه، ثم يقصده الفقير القريب فيعطيه فيكونُ انبعاثُ داعيته بمجموع الباعثين وهو القربة والفقر، وكذلك الرجل يتصدق بين الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء، ويكون بحيث لو كان منفرداً لكان يبعثه مجرد قصد الثواب على العطاء، ولو كان الطالبُ فاسقاً لا ثواب في التصدق عليه لكان لا يبعثه مجرد الرياء على العطاء، ولما اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب، ولنُسَمَّ هذا

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الفقر»، والمثبت من الإحياء.

الجنس مشاركةً.

والرابع: أن يكون أحد الباعثين مستقلاً لو انفرد بنفسه، والثاني لا يستقل، ولكن لما انضاف إلى الأول لم ينفك عن تأثير الإعانة والتسهيل، ومثاله: أن يُعاون الضعيف الرجل القوي على الحمل، ولو انفرد القوي لاستقل، ولو انفرد الضعيف لم يستقل، فإن ذلك بالجملة يُسهل العمل ويؤثر في تحقيقه<sup>(١)</sup>، ومثاله من غرضنا: أن يكون للإنسان وزد في الصلوات وعادة في الصدقات، فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس فصار الفعل أخف عليه بسبب مُشاهدتهم، وعلم أن عمله لو لم يكن طاعةً لم يكن مجرد الرياء يحمله عليه، فهو شوبٌ تطرق إلى النية، ولُتسم هذا الجنس: المُعانة، فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقاً أو شريكاً أو معيناً، وسنذكر حكمها في باب الإخلاص، والغرض الآن بيان أقسام النيات، فإن العمل تابع للباعث عليه، فيكتسب الحكم منه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنية».

### بيان قوله عليه الصلاة والسلام:

«نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ»<sup>(٢)</sup>

هذا الحديث يُروى مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ من وجوه، وجميع جهاته لا تثبت، ولا يصح رفعه بحال، إلا أن الناس تكلموا في معناه على خمسة أقوال:

أحدها: أن النية سرٌّ، والعمل ظاهر، وعمل السرِّ أفضل، ولعمري إن عمل السرِّ في الجملة أفضل، غير أن ما قالوه يقتضي أنه إذا نوى أن يذكر الله أو يتفكر اقتضى عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيراً من التفكير وليس هذا بصحيح.

والثاني: أن النية تدوم إلى آخر العمل والأعمال لا تدوم، وهذا ضعيف؛ لأن معناه يرجع إلى أن العمل الكثير خيراً من القليل، وربّ قليل كان خيراً من كثير، ثم إن نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات، والأعمال تدوم، والحديث عام.

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الحقيقة»، والمثبت من الإحياء.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٨٥/٦).

والثالث: أن النية بمجرد ما خير من العمل بمجرد دون النية، وهذا بعيد؛ لأن العمل إذا خلا عن نية لم يكن فيه خير أصلاً، وظاهر الترجيح للمشاركين في أصل الخير.

والرابع: أن المؤمن ينوي العمل الكثير فلا يساعده الوقت ولا القوى، فيعمل مما في نيته، ونيته أعظم مما يعمل. قال الحسن البصري: إن المؤمن تبلغ نيته وتضعف قوته.

والخامس: أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل، فإن النية خير والعمل خير، إلا أن النية خير من وجهين:

أحدهما: أنها من عمل القلب، وعمل القلب خير من عمل الجوارح، فإن القلب أمير الجوارح، وبينه وبينها علاقة، فإذا تأثرت الجوارح بجراح ألم، وإذا ألم تأثرت الجوارح فتغير اللون وارتعدت الفرائص؛ لأنه الأمير الراعي، والجوارح خدم ورعايا، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «إن في الجسد مضعفة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسدت لها سائر الجسد، ألا وهي القلب»<sup>(١)</sup>.

والثاني: أن المقصود من عمل الجوارح أن يعوّد القلب إرادة الخير ويؤكد فيه الميل إلى ذلك ليتشاعل بالذكر والفكر، فإذا ما يتحرك به القلب من الخير يكون أنفس؛ لأنه نفس المقصود، ومثال هذا: أنه قد تألم المعدة فيطلى الصدر والدواء الواصل إلى المعدة بالشرب خير من طلاء الصدر؛ لأن الطلاء إنما أريد به أن يسري أثره إلى المعدة، فإذا لاقى عينها فهو المقصود.

وقد علم أن المراد من جميع الطاعات إصلاح القلوب وتبديل صفاتها دون الجوارح، فلا تظن أن المراد من السجود وضع الجبهة فقط، بل المراد منه توكيد صفة التواضع في القلب، ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيداً قط، فإنه لو سجد غافلاً لم يتأثر بذلك قلبه، فكان وجوده كعدمه، بل زاده شراً؛ لأنه يؤكد الصفة المطلوب قمعها وهي الرياء، فهذا الوجه أحسن الوجوه في تفسير الحديث، وبه

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

تبين معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ»<sup>(١)</sup>، لأنَّ هَمَّ القلب هو مَيْلُهُ إِلَى الْخَيْرِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: «مَا قَطَعْتُمْ وَايْدِيًا إِلَّا وَقَدْ سَبَقَكُمْ إِلَيْهِ»<sup>(٢)</sup> وَذَلِكَ بِنِيَّتِهِمْ.

## بَيَانُ تَفْصِيلِ الْأَعْمَالِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالنِّيَّةِ

اعلم أنَّ الْأَعْمَالَ وَإِنْ انْقَسَمَتْ أَقْسَامًا كَثِيرَةً مِنْ فِعْلٍ وَقَوْلٍ وَحَرَكَةٍ وَسُكُونٍ وَجَلْبٍ وَدَفْعٍ وَفَكْرٍ وَذِكْرٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَهِيَ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٍ:

القسم الأول: المعاصي، وهي لا تتغير عن موضعها بالنية، مثل أن يبني مسجداً بمالٍ حرامٍ يقصدُ بذلك الخَيْرَ، فإنَّ النِّيَّةَ لَا تُؤَثِّرُ فِي كَوْنِ ذَلِكَ ظُلْمًا وَمَعْصِيَةً، بَلْ قَصْدُهُ الْخَيْرَ بِالشَّرِّ عَلَى خِلَافِ مُقْتَضَى الشَّرْعِ شَرٌّ آخَرٌ، فَإِنْ عَرَفَ ذَلِكَ فَهُوَ مُعَانِدٌ لِلشَّرْعِ، وَإِنْ جَهَّلَهُ، فَهُوَ عَاصٍ بِجَهْلِهِ، إِذْ طَلَبَ الْعِلْمَ فَرِيضَةً عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَالْخَيْرَاتُ إِنَّمَا تَبَيَّنُ كَوْنُهَا خَيْرَاتٍ بِالشَّرْعِ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الشَّرُّ خَيْرًا؟ هِيَئَاتِ! بَلِ الْمَرْجُوحُ لِذَلِكَ عَلَى الْقَلْبِ خَفِيُّ الشَّهْوَةِ وَبَاطِنُ الْهَوَى، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا كَانَ مَائِلًا إِلَى طَلَبِ الْجَاهِ وَاسْتِمَالَةِ قُلُوبِ النَّاسِ وَسَائِرِ حُظُوظِ النَّفْسِ تَوَسَّلَ الشَّيْطَانُ بِهِ إِلَى التَّلْبِيسِ عَلَى الْجَاهِلِ، وَلِذَلِكَ قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: مَا عُصِيَ اللَّهُ بِمَعْصِيَةِ أَعْظَمٍ مِنَ الْجَهْلِ. قِيلَ لَهُ: فَهَلْ تَعْرِفُ شَيْئًا أَشَدَّ مِنَ الْجَهْلِ؟ قَالَ: نَعَمْ الْجَهْلُ بِالْجَهْلِ. وَهَذَا كَمَا قَالَ؛ لِأَنَّ الْجَهْلَ بِالْجَهْلِ يَسُدُّ بَابَ التَّعَلُّمِ بِالْكَلِيَّةِ؛ لِأَنَّ مِنْ ظَنَّنَ نَفْسَهُ أَنَّهُ عَالِمٌ فَكَيْفَ يَتَعَلَّمُ؟ وَكَذَلِكَ أَفْضَلُ مَا أُطِيعَ اللَّهُ بِهِ الْعِلْمُ، وَرَأْسُ الْعِلْمِ الْعِلْمُ بِالْعِلْمِ، كَمَا أَنَّ رَأْسَ الْجَهْلِ الْجَهْلُ بِالْجَهْلِ، فَإِنَّ مَنْ لَا يَعْلَمُ الْعِلْمَ النَّافِعَ مِنَ الْعِلْمِ الضَّارَّ يَشْتَغَلُ بِمَا قَدْ أَكْبَّ النَّاسُ عَلَيْهِ مِنَ الْعُلُومِ الْمَزْخَرَةِ الَّتِي هِيَ وَسَائِلُهُمْ إِلَى الدُّنْيَا، وَذَلِكَ هُوَ مَادَّةُ الْجَهْلِ وَمَنْعِبُ فَسَادِ الْعَالَمِ.

والمقصودُ: أَنَّ مَنْ قَصَدَ الْخَيْرَ بِمَعْصِيَةٍ عَنِ الْجَهْلِ فَهُوَ غَيْرُ مَعْدُورٍ إِلَّا إِذَا كَانَ قَرِيبَ الْعَهْدِ بِالْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَجِدْ بَعْدَ مُهَلَّةٍ لِلتَّعَلُّمِ.

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

واعلم أن تَقَرَّبَ من تَقَرَّبَ من السُّلَّاطِينِ ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام، كتقرب علماء سوء بتعليم العلم للسُّفهاء والأشرار المشغولين بالفسق، فإن هؤلاء إذا تعلَّموا كانوا قُطَاعَ طريقِ الله، وانتَهَضَ كُلُّ واحدٍ نائِباً عن الدُّجَالِ يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى، ووبال ذلك راجع إلى معلِّمهم الذي علَّمهم مع علمه بفساد نياتهم ومقاصدهم، فكان كمن أعطى سيفاً قاطع طريق، وكيف يجوز الإمداد بالعلم لمن يتَّخذه سلماً إلى شَهَوَاتِهِ؟ ومن هذا القبيل تعليم القُصَّاصِ اليوم القُصَصِ، فإن مقاصد أكثرهم مَعْرُوفَةٌ، وقصدهم اجتلاب الدنيا وأخذ الأموال كيف أتفق، وتعليمهم إعانة لهم على الفساد، وقد ذكرت آفاتهم في كتاب القُصَّاصِ والمُذَكِّرِينَ.

فإذن قوله عليه الصلاة والسلام: «الأعمال بالنية» يختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصي، إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد، وتكون طاعة بالقصد، والمباح ينقلب طاعة ومعصية بالقصد، فأما المعصية فلا تنقلب طاعةً بالقصد أصلاً، بلى للنية دخول فيها؛ وهو أنه إذا انضاف إليها قُصُودٌ خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها كما ذكرنا في كتاب التَّوْبَةِ.

القسم الثاني: الطاعات، وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها، أما الأصل، فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية، فأما تضاعف الفضل، فبكثرية النيات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن يُنَوَى بها خيرات كثيرة، فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة منها حسنة، ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها، ومثاله القعود في المسجد، فإنه طاعة، ويمكن أن ينوي به نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المُتَّقِينَ:

أولها: أن يقصد بدخوله زيارة الله تعالى في بيته، وحق على المَزُورِ إكرام زائره.

وثانيها: أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة.

وثالثها: التَّرهَبُ بكفِّ الجوارح، فإن الاعتكاف كفٌّ، وهو نوع ترهَّبٍ.

ورابعها: عكوفُ الهمِّ على الله تعالى ولزومُ السِّرِّ للفكر في الآخرة، ودفع

الشواغل الصارفة عنه بالانقطاع إلى المسجد.

وخامسها: التجرد لذكر الله، أو لاستماع ذكره، أو للتذكير به.

وسادسها: أن يقصد إفادة علم، مثل أن يأمر بمعروف وينهى عن المنكر، إذ المسجد لا يخلو عمَّن يُسيء صَلَاتَهُ أو يَتَعَاطَى ما لا يَحِلُّ له، فيأمره بالمعروف ويُرشده إلى الدين، فيكون شريكاً له في خيره الذي تعلَّمه منه، فتضاعف خيراته.

وسابعها: أن يستفيد أخاً في الله، فإن ذلك غَنِيمَةٌ وذخيرة للدار الآخرة، والمسجد عش أهل الدين.

وثامنها: أن يترك الذنوب حياءً من الله تعالى وخشيةً أن يتعاطى في بيته ما يقتضي هَتْكَ الحُرْمَةِ، وقد قال الحسن بن علي: من أَدَمَّنَ الاختلاف إلى المسجد رزقه الله تعالى إحدى سَبْعِ خِصَالٍ: أَخاً مُسْتَفَاداً في الله تعالى، أو رَحِمَةً مُسْتَنْزَلَةً، أو عِلْماً مُسْتَرْفِئاً، أو كَلِمَةً تَدُلُّه على هُدًى أو تَصْرِفُه عن رَدًى، أو يترك الذنوب خشيةً أو حياءً.

فهذا طريق تكثير النيات، وقس به سائر الطاعات والمباحات، إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة.

القسم الثالث: المباحات؛ وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصيرُ بها من محاسن القربات، ويُنالُ به معالي الدرجات، فما أعظم خُسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة عن سهوٍ وغفلةٍ.

ولا ينبغي أن يحتقر العبد الخَطرات والخَطوات واللحظات، فكل ذلك كان يُسأل عنه في القيامة لم فَعَله؟ وما الذي قَصَد به؟ وقد يَتَطَيَّبُ فينوي بالطيب اتباع السنَّة واحترام المسجد ودفع الرِّوَايح<sup>(١)</sup> الكريهة عن نفسه التي تؤدي إلى إيذاء مُخالِطيه، ومعالجة رأسه لتزيد به فِطْنَتُهُ وذكَاؤُهُ، فيسهل عليه إدراك مُهمَّات دينه، فقد قال الشافعي رحمه الله: من طابَ ريحُه زاد عَقْلُه.

وقد يقصد بالطيب إظهار التَّفَاخُر بكثرة المال ورياء النَّاس والقرب إلى قلوب

(١) تحرفت في الأصل إلى: «التراويح»، والمثبت من الإحياء والمختصر.

الأجنيبات إلى غير ذلك، فيأثم.

وقد قال بعض السلف: إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي الحلاء. وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به القرب إلى الله تعالى؛ لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات الدين فهو معين على الدين، فمن قصد من الأكل التَّقْوِيَّ على العبادة ومن النكاح تحصين دينه وتطبيب قلب أهله والتوصل إلى ولد يعبد الله تعالى بعده أئيب.

فلا تحتقر شيئاً من حركاتك وكلماتك، فإنه ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَبِيدٌ﴾

[ق: ١٨].

وقد روينا أن رجلاً قال للثوري: أرى إزارك مقلوباً. فمدّه ليصلحه ثم قبض يده، فقيل له: لِمَ لا تُصلحه؟ فقال: لبسته لله تعالى فلا أسويه لغيره.

ودخل رجل على سُفيان وهو يأكل فما كلمه حتى فرغ فقال: لولا أنه بدين لأحببت أن يأكل منه.

فحاسب نفسك قبل أن تُحاسب وصحح نيتك قبل أن تفعل ما تفعله، وانظر في نيتك فيما تركته، فإن ترك الفعل فعل.

### بيان أن النية غير داخلية تحت الاختيار

ربما سمع ما أوصينا به من تحسين النية جاهلاً فقال عند أكله: نويت أن أكل الله تعالى، أو أن أتجر الله، أو أن أقرأ الله. وظن أن ذلك نية، وهيهات! فإن ذلك حديث نفس أو لقلقة لسان، والنية بمعزل عن ذلك، وإنما النية انبعث النفس وتوجُّهها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلاً وإما آجلاً، والميل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة، كقول الشبعمان: نويت أن أشتهي الطعام وأميل إليه. أو قول الفارغ القلب: نويت أن أعشق فلاناً وأعظمه بقلبي. وذلك محال، إذ لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه، وذلك قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه، وإنما تنبعث

النفس إلى الفعل إجابةً للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها .

وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه منوطٌ بفعلٍ من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده، وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين، فإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغاً غير مصروف عنه بغرضٍ شاغلٍ أقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت .

والدواعي والصّوارف لها أسبابٌ كثيرةٌ بها تجتمع، ويختلف ذلك بالأشخاص وبالأحوال وبالأعمال، فإذا غلبت شهوةُ النكاح مثلاً ولم يعتقد غرضاً صحيحاً في الولد ديناً ودنياً، لا يمكنه أن يواقع على نية الولد، بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة، إذ النية هي إجابة الباعث، ولا باعث إلا الشهوة، فكيف ينوي الولد؟ وإذا لم يغلب على قلبه أن إقامة سنة النكاح أتباع لرسول الله ﷺ فلا يمكن أن ينوي بالنكاح أتباع السنة، إلا أن يقول ذلك بلسانه، وهو حديث محض ليس بنية . بلى طريق اكتساب هذه النية مثلاً أن يقوي إيمانه أولاً بالشرع ويقوي إيمانه بعظيم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد ﷺ، ويدفع عن نفسه جميع المنقرات من ثقل المؤنة وطول التعب، فإذا فعل ذلك ربما انبعثت من قلبه رغبةٌ إلى تحصيل الولد للثواب، فتحركه تلك الرغبة وتحرك إعضاءه لمباشرة العقد، فإذا انتهزت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعةً لهذا الباعث الغالب على القلب كان ناوياً، فإن لم يكن كذلك فما يقدره في نفسه ويردده في قلبه من فضل الولد وسواس وهذيان، ولهذا امتنع جماعةٌ من السلف من جملةٍ من الطاعات إذ لم تحضرهم النية، وكانوا يقولون: ليس يحضرنا في هذا نيةٌ .

قيل لطاوس: ادعُ لنا . فقال: حتى أجد لذلك نيةً . وكان لا يحدث إلا بنية .

وقال عيسى بن كثير: مشيت مع ميمون بن مهران، فلما انتهى إلى باب داره انصرف، فقال ابنه: ألا تعرض عليه العشاء؟ فقال: ليس من نيتي .

ونادى رجل امرأته وهو يسرح شعره: هات المِدرى<sup>(١)</sup> . فقالت: أجيء بالمرأة؟ فسكت ساعةً ثم قال: نعم . فسئل عن ذلك فقال: كان لي في المِدرى نيةٌ، ولم

(١) المِدرى: ما يعمل من حديد أو خشبٍ على شكل سنٍ من أسنان المشط أو أطول منه يسرح به الشعر المتلبّد .

يَحْضُرُنِي فِي الْمَرَاةِ نِيَّةً، فَتَوَقَّفْتُ حَتَّى هَيَّأَهَا اللَّهُ تَعَالَى .

وَمَاتَ حَمَادُ بْنُ أَبِي سُلَيْمَانَ، فَقِيلَ لِلثَّوْرِيِّ: أَلَا تَحْضُرُ جَنَازَتَهُ<sup>(١)</sup>؟ قَالَ: لَوْ كَانَ لِي نِيَّةٌ لَفَعَلْتُ .

وَقِيلَ لِنَافِعِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ: أَلَا تَشْهَدُ الْجَنَازَةَ؟ فَقَالَ: كَمَا أَنْتَ حَتَّى أَنْوِي .  
فَفَكَّرَ هُنَيْهَةً ثُمَّ قَالَ: امْضِ .

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: مَا عَالَجْتُ شَيْئاً أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نِيَّتِي؛ لِأَنَّهَا تَقَلَّبُ عَلَيَّ .

وَقَالَ يَوْسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ: تَخْلِيصُ النِّيَّةِ مِنْ فَسَادِهَا أَشَدُّ عَلَى الْعَامِلِينَ مِنْ طَوْلِ  
الاجتهاد .

وَقَدْ كَانَ السَّلْفُ لَا يَعْمَلُونَ عَمَلاً إِلَّا بِالنِّيَّةِ، لَعَلَّمَهُمْ بِأَنَّ النِّيَّةَ رُوحُ الْعَمَلِ، وَأَنَّ  
الْعَمَلَ بِغَيْرِ نِيَّةٍ صَادِقَةٌ رِيَاءٌ وَتَكَلُّفٌ، وَذَلِكَ سَبَبٌ مَقْتٌ لَا سَبَبٌ قُرْبٌ، وَعِلْمُ الْقَوْمِ  
أَنَّ النِّيَّةَ لَيْسَتْ قَوْلُ الْقَائِلِ: نَوَيْتُ، وَإِنَّمَا هِيَ انْبِعَاثُ الْقَلْبِ، يَجْرِي مَجْرَى الْفُتُوحِ  
مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَدْ تَتَبَّرَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ، وَقَدْ تَتَعَدَّرَ، وَإِنَّمَا تَتَبَّرُ فِي الْغَالِبِ  
لِمَنْ غَلَبَ عَلَى قَلْبِهِ الدِّينَ، وَأَمَّا مَنْ مَالَ قَلْبُهُ إِلَى الدُّنْيَا فَيَبْعُدُ تَبْرَهُ لَهَا .

فَأَمَّا طَاعَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نِيَّةِ إِجْلَالِ اللَّهِ لِاسْتِحْقَاقِهِ الطَّاعَةَ وَالْعُبُودِيَّةَ، فَلَا تَتَبَّرُ  
لِلرَّغْبِ فِي الدُّنْيَا، وَهَذِهِ أَعَزُّ النِّيَّاتِ وَأَعْلَاهَا، وَيَعَزُّ مَنْ يَفْهَمُهَا فَضْلاً عَنِ مَنْ  
يَتَعَاطَاهَا .

وَنِيَّاتُ النَّاسِ فِي الطَّاعَاتِ أَقْسَامٌ: إِذْ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ عَمَلُهُ إِجَابَةً لِبَاعِثٍ  
الْخَوْفِ، فَإِنَّهُ يَتَّقِي النَّارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْمَلُ إِجَابَةً لِبَاعِثِ الرَّجَاءِ، وَهُوَ الرَّغْبَةُ فِي  
الْجَنَّةِ، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ نَازِلاً بِالإِضَافَةِ إِلَى قَصْدِ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمِهِ لِذَاتِهِ  
وَلِجَلَالِهِ لَا لِأَمْرِ سِوَاهُ، فَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ النِّيَّاتِ الصَّحِيحَةِ؛ لِأَنَّهُ مَبِيلٌ إِلَى الْمَوْعُودِ فِي  
الْآخِرَةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ جِنْسِ الْمَأْلُوفَاتِ فِي الدُّنْيَا .

وَأَعْلَى الْبَوَاعِثِ بَوَاعِثُ الْفَرْجِ وَالْبَطْنِ، وَمَوْضِعُ قَضَاءِ وَطَرَهُمَا الْجَنَّةُ، فَالْعَامِلُ  
لِأَجْلِ الْجَنَّةِ عَامِلٌ لِبَطْنِهِ وَفَرْجِهِ، وَعِبَادَةُ دَوِيِّ الْأَبْيَابِ لَا تُجَاوِزُ ذِكْرَ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ

(١) فِي الْأَصْلِ: «جَمَاعَتُهُ»، وَالْمَثْبُوتُ مِنَ الْإِحْيَاءِ .

والفكر فيه حباً لجماله وجلاله، وجميع الأعمال تكون مؤكدات وروادف وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعموم في الجنة، فهم يرون المتشاغلين بالخور عن الله تعالى كما يرى العقلاء الصبيان المتشاغلين بالصور من الطين، وقد حكي عن أحمد بن خضرويه أنه رأى رب العزة في منامه فقال له: كل الناس يطلبون مني، وأبو يزيد يطلبني.

وحكى أبو يزيد أنه رأى ربه عز وجل في المنام فقال: يا رب، كيف الطريق إليك؟ فقال: اترك نفسك وتعال.

وعرضنا أن هذه النيات متفاوتة الدرجات، ومن غلب على قلبه واحدة منها فربما لم يتيسر له العُدول إلى غيرها، ومن حَضرت له نية في مباح، ولم تحضر في فضيلة، فالمباح أولى، وانتقلت الفضيلة وصارت الفضيلة في الفاضل نقيصة، لعدم النية له، مثل أن تحضره نية في الأكل والنوم ليقوى على العبادة ويريح بدنه، ولم تنبعث نيته في الحال للصلاة والصوم، فالأكل والنوم أفضل له، بل لو ملَّ العبادة لكثرة مواظبته عليها، وعلم أنه لو ترفه ساعة بلهو مباح وحديث عاد نشاطه، فاللهو أفضل له من التَّعبد حينئذٍ.

قال علي بن أبي طالب: رَوَّحُوا الْقُلُوبَ وَابْتَغُوا لَهَا طُرْفَ الْحِكْمَةِ، فَإِنَّهَا تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ. وفي لفظ آخر عنه: إن هذه القلوب تملُّ كما تملُّ الأبدان، فالتمسوا لها من الحكمة طرفاً.

وقال أبو الدرداء: إني لأستجِمُّ<sup>(١)</sup> نفسي ببعض الباطل كراهية أن أحمل عليها من الحق ما يملُّها.

وكان ابن عباس يقول لأصحابه: أحمضوا بنا<sup>(٢)</sup>.

وقال قسامة بن زهير: رَوَّحُوا الْقُلُوبَ تَعِي الذِّكْرَ.

وهذه دقائق لا يدركها إلا سَماسرة العلماء، فإن الحاذق بالطب قد يُعالج

(١) أستجِمُّ: أطلب جمام نفسي، أي: راحتها.

(٢) أحمض القوم: أفاضوا فيما يؤنسهم من الحديث والكلام.

المحرورَ باللحم مع حرارته، ويستبعد ذلك القاصرُ في: الطبِّ، وإنما ينبغي به أن يُعيدَ أولاً قُوَّته ليحتمل المعالجة، وكذلك الخبير بالقتال قد يقرُّ من بين يدي قِرْنِه<sup>(١)</sup> حيلةً منه ليستجره إلى مَضيقٍ.

فسلوكُ طريقِ الله تعالى كلُّه حربٌ مع الشيطان ومعالجة للقلب، والبصير الموقِّف يقف في تلك الطريق على لطائف من الحيل يستبعتها الضُّعفاء، فلا ينبغي لهم استبعاد ما خفي عليهم، بل يُسلمون لهم أحوالهم إلى أن تنكشف لهم أسرار ذلك، أو ينالوا ذلك المقام.

\* \* \*

(١) قِرْنُ الإنسان: مثله في الشجاعة والشِّدَّة والقتال وغير ذلك.

## الباب الثاني

### في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

فضيلة الإخلاص : قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] ، وقال : ﴿ إِلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر : ٣] ، وقال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ [النساء : ١٤٦] ، وقال : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] ، قال سعيد بن جبیر : لا يرائي .

وقال الحواريون لعيسى : ما الإخلاص لله عز وجل ؟ فقال : الذي يعمل العمل لا يحب أن يحمده عليه أحد . وقال نبينا ﷺ : « طوبى للمخلصين ، أولئك مصابيح الهدى تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء » .

وقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل : « أخلص دينك ، ويكفك القليل من العمل » .

وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا كان يوم القيامة جاءت الملائكة بصحف مُخْتَمَّة ، فيقول الله عز وجل : ألقوا هذا واقبلوا هذا . فتقول الملائكة : وعزَّتْكَ ما كتبنا إلا ما كان . فيقول : إن هذا كان لغيري ، ولا أقبل اليوم إلا ما كان لي » .

وقال ﷺ : « إن الملائكة يرفعون عمل العبد فيكثرونه ويُرَكِّونَه ، فيوحى الله تعالى إليهم : أنتم حَفَظْتُمْ عَلَى عَمَلِ عَبْدِي ، وَأَنَا رَقِيبٌ عَلَى مَا فِي نَفْسِهِ ، إِنْ عَبْدِي هَذَا لَمْ يُخْلِصْ لِي عَمَلَهُ ، فَاجْعَلُوهُ فِي سَبْتَيْنِ ، وَيَصْعَدُونَ بِعَمَلِهِ يَسْتَقْلُونَهُ ، فيوحى الله تعالى : إنكم حَفَظْتُمْ عَلَى عَمَلِ عَبْدِي ، وَأَنَا رَقِيبٌ عَلَى مَا فِي نَفْسِهِ ، فَضَاعِفُوهُ وَاجْعَلُوهُ فِي عِلَيْنِ » (١) .

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد : (١٥٣) .

وقد ذكرنا في كتاب الرِّياء حديثَ الثلاثة: المجاهد والعالم والمنفق كيف تُسَعَّرُ بهم جهنَّم أول الخلق لموضع رِيائهم.

وكتبَ عُمر إلى أبي موسى: مَنْ خَلَصَتْ نِيَّتُهُ كَفَاهُ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ.  
 أنبأنا إسماعيل بن أحمد السَّمَرَقَنْدِي قال: أَخْبَرَنَا عَاصِمُ بْنُ الْحَسَنِ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ بْنِ بِشْرَانَ قَالَ: أَخْبَرَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ صَفْوَانَ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ الْقُرَشِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ سَعِيدُ بْنَ سَلِيمَانَ يَحْدُثُ عَنِ الْمُبَارَكِ بْنِ فَضَالَةَ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: كَانَتْ شَجَرَةٌ تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، فَجَاءَ إِلَيْهَا رَجُلٌ فَقَالَ: لِأَقْطَعَنَّ هَذِهِ الْجَشْرَةَ، فَجَاءَ إِلَيْهَا لِيَقْطَعَهَا غَضَباً لَلَّهِ تَعَالَى، فَلَقِيَهُ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ، فَقَالَ: مَا تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ قَطْعَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْبُدْهَا فَمَا يَضُرُّكَ مِنْ عِبَادَتِهَا؟ قَالَ: لِأَقْطَعَنَّهَا. فَقَالَ لَهُ الشَّيْطَانُ: هَلْ لَكَ فِيهَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ؟ لَا تَقْطَعُهَا وَلَكِ دِينَارَانِ كُلِّ يَوْمٍ إِذَا أَصْبَحْتَ عِنْدَ وَسَادِكِ. قَالَ: فَمَنْ لِي بِذَلِكَ؟ قَالَ: أَنَا لَكَ. فَرَجَعَ فَوَجَدَ دِينَارَيْنِ عِنْدَ وَسَادِهِ، ثُمَّ أَصْبَحَ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْ شَيْئاً فَقَامَ غَضَبَانَ لِيَقْطَعُهَا فَتَمَثَّلَ لَهُ الشَّيْطَانُ فِي صُورَتِهِ فَقَالَ: مَا تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ الشَّجَرَةَ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: كَذَبْتَ مَا لَكَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلٌ. فَذَهَبَ لِيَقْطَعُهَا فَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ وَخَنَقَهُ حَتَّى كَادَ يَقْتُلُهُ. قَالَ: تَدْرِي مَنْ أَنَا؟ أَنَا الشَّيْطَانُ، جِئْتُ أَوَّلَ مَرَّةٍ غَضَباً لَلَّهِ تَعَالَى فَلَمْ يَكُنْ لِي عَلَيْكَ سَبِيلٌ، فَخَدَعْتُكَ بِالْدِينَارَيْنِ فَتَرَكْتَهُمَا، فَلَمَّا فَقَدْتَهُمَا جِئْتُ غَضَباً لَلدِينَارَيْنِ فَسَلَّطْتُ عَلَيْكَ.

وكان عابداً في بني إسرائيل قد عبد الله في سِرِّ أربعين سنة، فكانت الملائكة ترفع عمله ولا يقبل، فقالت الملائكة: وَعِزَّتِكَ مَا رَفَعْنَا إِلَيْكَ إِلَّا حَقًّا. قال: صدقتُم، ولكنه أحبُّ أن يُعرفَ مكانه.

وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢٢] قال: أَخْلَصَهُ وَأَصْوَبَهُ. قلتُ: مَا أَخْلَصَهُ وَأَصْوَبَهُ؟ قَالَ: إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصاً وَلَمْ يَكُنْ صَوَاباً لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَاباً وَلَمْ يَكُنْ خَالِصاً (لم يقبل) <sup>(١)</sup>، وَالْخَالِصُ إِذَا كَانَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّوَابُ إِذَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ.

(١) في الأصل: «صواباً».

وقال محمد بن واسع: إذا أقبل العبد إلى الله عزَّ وجلَّ أقبل الله بقلوب العباد إليه.

وكان معروف الكرخي يضرب نفسه ويقول: يا نفس أخلصي وتخلصي.

وقال أبو سليمان: طوبى لمن صحَّحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى.

وقال بعضهم: كنتُ مع أبي عبيد البُسري وهو يحرق أرضه بعد العصر من يوم عرفة، فمرَّ به بعض إخوته من الأبدال فسارَه بشيءٍ، فقال أبو عبيد: لا، فمرَّ كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عيني، فقلتُ لأبي عبيد: ما قال لك؟ فقال: سألتني أن أحجَّ معه فقلتُ: لا. قلتُ: فهلا فعلت؟ قال: ليس لي في الحج نية، وقد نويتُ أن أتمم هذه الأرض العشيَّة فأخاف إن حَجَّجتُ معه أن أتعرض لمقتِ الله تعالى؛ لأنِّي أدخل في عمل الله تعالى شيئاً غيره.

وحكي أنَّ رجلاً كان يخرج في زِيِّ النساء فيحضر حيث يحضر من عرسٍ أو مآتم فاتفق أن حضر يوماً موضعاً فيه مجمع للنساء، فسُرقت دُرَّة، فصاحوا: أن أغلقوا الباب حتى نُفتش. فكنَّ يُفتشْنَ واحدةً واحدةً حتى بلغتِ التوبة إلى الرجل وإلى امرأةٍ معه، فدعا الله بالإخلاص وقال: إن نجوتُ من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا. فوجدتِ الدُرَّة مع تلك المرأة، فصاحوا: أطلقوا الحرَّة، فقد وجدنا الدُرَّة.

### بيان حقيقة الإخلاص

اعلم أن كل شيء يُتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سُمِّي: خالصاً، ويسمى الفعل المصْفَى المخلص: إخلاصاً، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ بُنَاً خَالِصًا﴾ [النحل: ٦٦]، وإنما خلوص اللبَّن أن لا يكون في شوبٍ من الدم والفَرْث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به.

والإخلاص يُضادُّه الإشراك، فمن ليس مُخلصاً فهو مُشرك، إلا أنَّ الشُّرك درجات، فالإخلاص في التوحيد يُضادُّه الشُّرك في الإلهية.

والشُّرْكُ منه حَفِيٌّ ومنه جَلِيٌّ، وكذا الإِخْلَاصُ .

والإِخْلَاصُ وَضِدُهُ يتواردان على القلبِ، فمحلُّهُ القلبُ، وإنما يكون ذلك في القُصُودِ والنِّيَّاتِ، وقد ذكرنا حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث، فمهما كان الباعث واحداً على التَّجَرُّدِ سُمِّيَ الفعلُ الصادر عنه إخلاصاً بالإضافة إلى المَنَوِي، فمن تصدق و غرضه مَحْضُ الرِّياءِ فهو مخلص<sup>(١)</sup>، ومن كان غرضه محض التقرب لله تعالى فهو مخلص .

ولكنَّ العادةَ جاريةً بتخصيص اسم الإِخْلَاصِ بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب، كما أن الإلحاد عبارة عن الميل، ولكن خَصَّصْتَهُ العادةَ بالميلِ عن الحق، ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو مُعَرَّضٌ للهلاك، وقد ذكرنا ما يتعلق بذلك في كتاب الرياء، وإنما نتكلم فيمن انبعث لقصد التقرب، ولكن امتزج بهذا الباعثِ باعثٌ آخر إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس .

ومثال ذلك: أن يصومَ لينتفعَ بالحماية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب، أو يعتق عبداً ليتخلص من مؤونته وسوء خلقه، أو يحجَّ ليصحَّ مزاجه يحركة السفر، أو يتخلص من شرٍّ يعرض له في بلده، أو ليهربَ عن عدوٍّ في منزله، أو يتبرَّم<sup>(٢)</sup> بأهله وولده، وبشغلٍ هو فيه فأراد أن يستريح منه، أو يغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابها، أو يُصَلِّيَ بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه ليراقب رحله أو أهله، أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يفي به من المال أو ليكون عزيزاً بين العشيِّرة، أو ليكون عقاره وماله محروساً بعز العلم عن الأطماع، أو يشتغل بالتدريس ليفرح بلذة الكلام، أو يشتغل بخدمة الرفقاء لتتوفر حرمة عندهم أو لينال رفقا في الدنيا، أو يكتب مصحفاً ليجودَ خطُّه، أو يحجَّ ماشياً ليربح مؤنة الكراء، أو يتوضأ ليتبرَّد أو يتنظف، أو روى الحديث ليعرف بعلو الإسناد، أو اعتكف في المسجد ليخفَّ عليه كراء المسكن، أو صام ليخفف عن نفسه التردُّد في طبخ الطعام، أو تصدَّق على السائل ليقطع إبرامه في السؤال عن نفسه، أو عادَ مريضاً ليعاد إذا مرض، أو شيعَ

(١) أي مخلص لريائه لهذا الاعتبار .

(٢) يتبرَّم: يتضجَّر ويسأم .

جنازة لتُشيع جناز أهلها، أو يفعل شيئاً من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به، ويُنظر إليه بعين الصلاح والوقار.

فمتى كان باعته هو التقرب إلى الله تعالى ولكن انضاف إليه خاطر من هذه الخواطر حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور، فقد خرج عمله عن حد الإخلاص، وخرج عن أن يكون خالصاً لله تعالى، وتطرق الشرك إليه، وقد قال تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك».

وفي الجملة: كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس، ويميل إليه القلب، قلّ أم كثر، إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه.

والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته فلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس، فلذلك قيل: من سلم له في عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله تعالى نجا. وذلك لعزة الإخلاص وعسر تنقية القلب من هذه الشوائب؛ لأن الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى.

وهذه الحظوظ إن كانت هي الخالصة وحدها فلا تخفى شدة الأمر على صاحبها، وإنما نظرننا فيما إذا كان القصد الأصلي هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور.

ثم هذه الشوائب؛ إما أن تكون في رتبة الموافقة، أو في رتبة المشاركة، أو في رتبة المعاونة.

وبالجملة فإما أن يكون الباعث النفسي مثل الباعث الديني أو أقوى منه أو أضعف، ولكل واحد حكم على ما سنذكره، وإنما الإخلاص تخلص العمل عن هذه الشوائب كلها حتى يتجرد فيه قصد التقرب، فلا يكون فيه باعث سواه، وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستهتر به، مستغرق الهمة بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار حتى لا يحب الأكل والشرب أيضاً بل تكون رغبته فيه كرهته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلة، فلا يشتهي الطعام لأنه طعام، بل لأنه

يُقَوِّيه على عبادة الله تعالى، ويتمنى أن لو كُفِيَ شرَّ الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل، فلا يبقى في قلبه حَظٌّ من الفضول الزائدة على الضرورة، ويكون قدر الضرورة مطلوباً عنده؛ لأنه ضرورة دينه، فلا يكون له هَمٌّ إلا الله تعالى، فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العملِ صحيح النية في جميع حركاته وسكناته، فلو نام مثلاً ليُريح نفسه فيتقوى على العبادة كان نومه عبادةً، وكان له درجة المخلصين فيه، ومن ليس كذلك فبَابُ الإخلاص في الأعمال مسدودٌ عليه إلا على الثدور.

وكما أن من غلبَ عليه حبُّ الله تعالى وحبُّ الآخرة، فاكتمت حركاته الاعتيادية صفة هَمِّه وصارت إخلاصاً، فإن<sup>(١)</sup> الذي يَغلب على نفسه حب الدنيا والعلو والرئاسة قد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة، فلا تسلم له عباداته إلا نادراً.

فإذن علاجُ الإخلاص كَسْرُ حُظوظِ النَّفسِ وقَطْعُ الطمع عن الدنيا، والتَّجرد للآخرة بحيث يَغلب ذلك على القلب فيتيسرُ الإخلاص، وكم من أعمالٍ يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة ويكون فيها مغروراً؛ لأنه لا يرى وجه الآفة فيها، وقد روينا عن بعض السلف أنه كان يُصلي في الصفِّ الأول، فجاء يوماً وقد سبق فصلى في الصفِّ الآخر فحَجَل، فأعاد صلاته سنين، فهذا الرجل لما اعترته خجلةٌ من تأخره علم أن نظر الناس إليه في الصفِّ الأول كان مَسْرَتَه وسبب استراحة قلبه من حيث لم يشعر.

وهذا دقيقٌ غامضٌ وقلماً تسلم الأعمال عن أمثاله، وقلٌّ من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى، والغافلون عنه يرون حسناتهم كلها في الآخرة سيئات، وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ [الزمر: ٤٧].

وأشد الناس تعرضاً لهذه الفتنة العلماء، فإن الباعث. للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء، والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يُلبس عليهم

(١) في الأصل: «كما أن»، والمثبت من الإحياء.

ذلك ويقول: غرضكم نشر دين الله والنضال عن شرعه. وترى الواعظ يمتن على الله تعالى بنصحه للخلق ووعظه للسلطين، ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه، وهو يدعي أنه فرح بما يسر له من نصرة الدين، ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظماً، وانصرف الناس عنه ساءة ذلك وعمه، ولو كان باعته الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه هذا المهمم بغيره. ثم إن الشيطان مع ذلك لا يخليه، بل يقول له: إنما عمك لانقطاع الثواب عنك، لا لانصراف وجوه الناس إلى غيرك؛ لأنهم إذا اتعظوا بقولك كنت المثاب، فاغتمامك لقوت الثواب محمود. ولا يدري المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر للأفضل أجزل ثواباً وأعود عليه في الآخرة من انفراده.

وليت شعري لو اغتم عمر بتصدي أبي بكر للإمامة، أكان عمه محموداً؟ كلاً بل لا يستريب ذو دين أن عمه كان يكون مذموماً؛ لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصلح أعود عليه في الدين من توليه على من هو أولى منه بالأمر، فالفرح ووعد النفس بذلك بعيد الوفاء، فليكن العبد متفقداً لهذه الدقائق، فإن الإخلاص بحر عميق.

### ذكر جملة من أقوال المشايخ في الإخلاص

قال السوسى: الإخلاص فقد رؤية الإخلاص، لأن من شاهد في إخلاصه الإخلاص، فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص. وما ذكره إشارة إلى تصفية الفعل من العجب بالفعل، فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب، وهو من جملة الآفات، والخالص ما صفا من جميع الآفات، فهذا تعرض لآفة واحدة.

وقال سهل: الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة. وهذه كلمة جامعة محيطه بالعرض.

وقيل لسهل: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص، إذ ليس لها فيه

نصيب.

وقال رُويم<sup>(١)</sup>: الإخلاصُ في العمل أن لا يُريد صاحبه عليه عَوْضاً في الدارين . وهذا إشارة إلى أن حُظوظِ النَّفْسِ آفة، والعابدُ لأجلِ تَنَعُّمِ النَّفْسِ بالشَّهواتِ في الجنة مَعْلُولٌ، والصَّديقون إنما يُريدون بالأعمالِ وَجَهَ الله تعالى، فأما من يَعْمَلُ لرجاءِ الجنةِ وخَوْفِ النارِ، فهو مخلصٌ بالإضافةِ إلى الحُظوظِ العاجلةِ، وإلا فهو في طلبِ حَظِّ البَطْنِ والفرجِ .

فإن قيل: ما من أحدٍ قط يعمل إلا لحظًّا، فإن البراءةَ من الحُظوظِ صِفَةُ الإلهيةِ . فالجوابُ: إن الإشارةَ بتركِ الحُظوظِ في حقِّ المخلصِ إلى ما يُسميه الناسَ حَظًّا وهو الشَّهواتِ الموصوفاتِ في الجنةِ، فأما التَّلذُّذُ بمجردِ المَعْرِفةِ والمناجاةِ والنَّظَرِ إلى الله تعالى، فهذا حَظٌّ هؤلاء، وهذا لا يعده الناسَ حَظًّا بل يتعجبون منه .

### بيان درجات الشوائب والآفات المُكَدِّرة للإخلاص

اعلم أن الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص بعضها جلي، وبعضها خفي، وبعضها ضعيف مع ظهوره، وبعضها قوي مع خفائه، ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والظهور إلا بمثال، وأظهر مُشَوِّشَاتِ الإخلاصِ الرياءَ، فلنذكر منه مثلاً، فنقول:

الشیطانُ يُدخِلُ الآفَةَ على المُصلِّي إذا كان مُخلصاً في صلاته ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخلٌ، فيقول له: حَسَنَ صَلَاتِكَ حتى يَنْظُرَ إليك هذا الحاضرُ بعينِ الوَقارِ والصلاحِ، ولا يَزِدْرِيكَ ولا يَغْتَابُكَ، فتخشعَ جوارحه وتَسْكُنَ أطرافُهُ ويُحسِنَ صلاته، فهذا هو الرياءُ الظاهرُ، ولا يخفى ذلك على المُبتدئين .

الدرجة الثانية: أن يكون المرید قد فهمَ هذه الآفَةَ وأخذَ منها حَذَرَهُ، فصار لا يُطِيعُ الشیطانَ فيها ولا يلتفت إليه، ويُشمر في صلاته كما كان، فيأتيه في معرضِ الخیرِ فيقول: أنتَ متبوعٌ ومُقتدى بك ومنظورٌ إليك، وما تفعله يُؤثِّرُ عنكَ، فيتأسى بك غيرك فيكون لك ثوابُ أعمالهم إن أحسنتَ، عليك الوزرُ إن أسأتَ فأحسِنُ

(١) هو رُويم بن أحمد البغدادي، كان جامعاً بين الفقه والتصوّف توفي سنة (٣٠٣هـ).

عملك بين يدي هذا الذي يراك، فعسأه يقتدي بك في الخُشوع وتَحسين العبادة. وهذا أغمضُ من الأول، وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول، وهو عين الرياء؛ لأنه إذا رأى حُسْنَ التَّعبد خيراً لا يَرْتضي لغيره تركه، فلم ارتضى لنفسه ذلك في الخلوة، ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعزَّ عليه من نفسه، فهذا محض النفاق والتليس، فمن اقتدى به فقد أئيب، وأما هو فمطالب بتلبيسه معاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفاً به.

الدرجة الثالثة: أدق مما قبلها وهو أن يعرف الإنسانُ فُبح زيادة الخشوع في الجلوة على الخلوة، فيأخذ نفسه بتجويد الصَّلَاة في الخلوة ليتعود التجويد في الجلوة، فهذا من الرياء الغامض، وإنما الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة، فكأن نفس هذا ليست تَسْمح بإساءة الصَّلَاة بين أظهر الناس، ثم يستحيي من نفسه أن يكون في صورة المرآتين، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوي صلَّاته في الخَلَا والمَلَا، وهيئات! بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخَلَا والمَلَا، فهذا شَخْص<sup>(١)</sup> مشغولُ الهَمِّ بالخلق في الملا والخلا جميعاً، وهذا من مكايد الشيطان الخَفِيَّة.

الدرجة الرابعة: وهي أدق وأخفى، أن ينظر إليه الناس وهو في صلَّاته، فيعجز الشيطان عن أن يقول له: اخشع لأجلهم، فإنه قد عرف أنه تَفَقَّن لذلك، فيقول له الشيطان: تفكَّر في عظمة الله وجلاله، ومن أنت واقفٌ بين يديه واستح من أن ينظر إلى قلبك وهو غافل عنه، فيحضر بذلك قلبه ويخشع جوارحه، ويظن أن ذلك عين الإخلاص، وهو عين المَكْرِ والخِدَاع، فإن خُشوعه لو كان لنظره إلى جلَّاله لكانت هذه الخَطْرة تلازمه في الخلوة، ولكان لا يختص حضورها بحالة حضور غيره، وعلامة الأَمْنِ مِنْ هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يَأْلُفه في الخلوة كما يَأْلُفه في الملا، ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر، كما لا يكون حضور البهيمة سبباً، فما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسانٍ ومشاهدة بهيمة، فهو بعدُ خارجٌ عن صَفْوِ الإخلاص مُدْتَسِّ الباطن بالشَّرْكِ الخَفِيِّ من الرياء.

(١) تحرفت في الأصل إلى: «شخص».

وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من ديب التَّملة، ولا يسلم من الشَّيطان إلا مَنْ دَقَّ نَظْرُهُ وسِعِدَ بعِصمةِ الله تعالى وتوفيقه وهِدايته، وإلا فالشَّيطان ملازمٌ للمشمَّرين لعبادة الله تعالى لا يغفل عنهم لحظةً حتى يحملهم على الرياء في كل حركة حتى في كَحْلِ العَيْنِ وقَصِّ الشارب والطيب، فهذه سُنَنٌ وللنفس فيها حَظٌّ خَفي لارتباط نَظَر الخلق بها واستئناس الطبع بها، فيدعو الشَّيطان إليها ويقول: هذه سُنَّة. ويكون انبعاث القلب باطناً لها لأجل تلك الشهوة الخفية، أو تكون بشَوِّب يُخرج عن حدِّ الإخلاص بسببه، وما لا يسلم من هذه الآفات كلها فليس بخالص؛ بل من يعتكف في مسجدٍ مَعْمورٍ ونَظيف حَسَن العِمارة يأنس الطبع به، فالشَّيطان يُرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف، وقد يكون المحرك الخفي في سِرِّهِ الأُنس بحُسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه، ويتبيَّن ذلك في مِيلِهِ إلى أحد المسجدين إذا كان أحسن من الآخر، وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع وأكدار النفس مُبطل حقيقة الإخلاص.

ولعمري إن الغش الذي يُمزج به الذهب الخالص له درجاتٌ مُتفاوتة منها ما يَغلب، ومنها ما يَقل، ولكن يسهل دَرَكُهُ، ومنها ما يدق بحيث لا يُدرکه إلا الناقدُ البصير، وغشُّ القلبِ وحُبثُ النَّفس ودَعَلُ الشَّيطان<sup>(١)</sup> أغمض من ذلك وأدق كثيراً، ولهذا قيل: رَكَعتانِ من عالم أفضل من سبعين من جاهلٍ. وأريد به العالمُ بدقائق آفات الأعمال حتى يخلُصَ عنها، فإن الجاهلَ يَنظر إلى ظاهر العبادة ويَعترُّ بها اغترار السَّوادي<sup>(٢)</sup> بحُمْرة الدِّينار المموَّه واستدارته، وهو مَعشوشٌ، وقيراط من الذهب الذي يرتضيه الناقدُ خَيْرٌ من دينار يرتضيه الغرُّ الغبي.

فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشدُّ وأعظم، ومداخل الآفات المتطرقة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها فليُتَنع بما ذكرناه مثلاً، والفطنُ يُغنيه القليل، والبليد لا يَنفعه التَّطويل.

(١) دَعَلُ الشَّيطان: مكره.

(٢) السَّوادي: منسوبٌ إلى السَّواد، وهو ما حول المدينة من القرى والريف.

## بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

إذا لم يكن العمل خالصاً لله تعالى بل امتزج به شوبٌ من الرياء أو حظوظ النفس، فقد اختلفَ في ذلك هل يقتضي ثواباً أو عقاباً؟ أو لا يقتضي شيئاً أصلاً فلا يكون له ولا عليه؟

أما الذي لم يُردْ به إلا الرياء فهو على الإنسان لا له قطعاً، وهو سبب المقتِ والعقاب، وأما الخالص لوجه الله تعالى، فهو سبب الثواب، وإنما النظر في المشوب، وظاهرُ الأخبار يدلُّ على أنه لا ثواب فيه، وليس تخلو الأخبارُ عن تعارضٍ، والذي ينقدح لنا فيه، والعلم عند الله، أن ينظر إلى قدر قوة البواعث، فإن كان الباعثُ الديني مُساوياً للباعثِ النَّفسي تَقاوَمًا فَسَقَطًا، وصار العملُ لا له ولا عليه، وإن كان باعثُ الرياء أغلب وأقوى أَضْرَّ وأوجب العقاب أيضاً، لكن عقابه أخف من عقاب العمل الذي تجرَّد للرياء، ولم يمتزج به شائبة التَّقرب، وإن كان قصدُ التَّقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر، فله ثوابٌ بقدر ما فَضَلَ من قوة الباعثِ الديني، لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ [الزلزلة: ٨٧]، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير، بل إن كان غالباً على قصد الرياء حَبِطَ منه القدرُ الذي يساويه، وبقيت زيادة، وإن كان مغلوباً سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد.

وكشفُ الغطاء عن هذا: أن الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكد صفاتها، فداعية الرياء من المهلكات، وإنما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه، وداعية الخير من المنجيات، وإنما قوتها بالعمل على وفقها، فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما مُتضادتان، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء، فقد قَوَّى تلك الصِّفة، وإذا كان العمل على وفق مُقتضى التَّقرب فقد قَوَّى أيضاً تلك الصِّفة، وأحدهما مهلك والآخر مُنَجِّج، وإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تَقاوَمًا، فكان كالمُستَضْرَّ بالحرارة إذا تناول ما يضره، ثم تناول من المبردات ما يُقاوم قَدْر قوته، فيكون بعد تناولهما كأنه

لم يتناولهما، وإن كان أحدهما غالباً لم يخل الغالبُ عن أثرٍ، فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والأدوية، ولا ينفك عن أثرٍ في الجسد بحكم سُنة الله تعالى، فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخيرِ والشرِّ، ولا ينفك عن تأثيره في إنارة القلب أو تسويده أو تقريبه من الله تعالى أو إبعاده، فإذا جاء بما يُقَرِّبه شبراً مع ما يُبعده شبراً فقد عادَ إلى ما كان، فلم يكن له وعليه، وإن كان الفعلُ مما يُقَرِّبه شبرين والآخر يُبعده شبراً واحداً فَضَّلَ له لا محالة شيء، وفي الحديث: «أتبع السيئة الحسنة تمحها».

فإذا كان الرياءُ المحضُ يَمْحوهُ الإخلاصُ المحضُ عَقِيْبِهِ، فإذا اجتمعا فلا بُدَّ أن يتدافعا بالضرورة، ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خَرَجَ حاجاً ومعه تجارة صَحَّ حَجُّهُ وأُثِيبَ عليه، وقد امتزج به حَظٌّ من حُطُوظِ النَّفْسِ، إلا أنه متى كان الحجُّ هو المحرك الأصلي، وكان غرض التجارة كالتابع لم ينفك السَّفَرُ عن ثواب، وكذلك الغزاةُ إذا قَصَدُوا الغزاة والغنيمة، فإن كان قَصْدُ الغنيمة على سبيل التَّبعية حصلَ الثواب بالغزو، ولكنه لا يُساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلاً.

\* \* \*

## الباب الثالث

### في الصدق وفضيلته وحقيقته

فضيلة الصدق: قال الله عز وجل: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:

. [٢٣]

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَالْبِرُّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا»<sup>(١)</sup>.

وقال بشر الحافي: مَنْ عَامَلَ اللَّهَ بِالصَّدْقِ اسْتَوْحَشَ مِنَ النَّاسِ.

وقال محمد بن سعيد المروزي: إِذَا طَلَبْتَ اللَّهَ تَعَالَى بِالصَّدْقِ أَفَادَكَ مِرَاةَ بِيَدِكَ حَتَّى تُبْصِرَ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَجَائِبِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

### بيان حقيقة الصدق ومراتبه

اعلم أن لفظ الصدق يُستعمل في سِتَّةِ معانٍ: صدقٌ في القول، وصدقٌ في النية، وصدقٌ في الإرادة، وصدقٌ في العزم، وصدقٌ في الوفاء بالعزم، وصدقٌ في العمل، وصدقٌ في تحقيق مقامات الدين كلها، فمن اتَّصَفَ بالصدق في جميع ذلك فهو صديق؛ لأنه مبالغة من الصدق ثم هم أيضاً على درجات، ومن كان له حظٌّ من الصدق في شيء من الجملة، فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه.

### الصدق الأول: صدق اللسان

وذلك لا يكون إلا في الإخبار، أو فيما يتضمَّن الإخبار ويُنَبَّه عليه.

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤٣)، ومسلم (٢٦٠٦) و(٢٦٠٧).

والخبر إما ان يتعلّق بالماضي أو بالمستقبل، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه، وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه، فلا يتكلم إلا بالصدق، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها، فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه، فهو صادق.

ولكن لهذا الصدق كمالان: أحدهما الاحتراز عن المعارض<sup>(١)</sup>، فإنها تُجانس الكذب؛ لأن المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه، إلا أن ذلك مما تمس الحاجة إليه وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال، وفي تأديب الصبيان والتسوان ومن يجري مجراهم، فمن اضطرَّ إلى شيء من ذلك فصدقته فيه أن يكون نُطقه فيه لله تعالى فما يأمره الحقُّ به ويقتضيه الدين، فإذا نطق به فهو صادق، وإن كان كلامه مُفهماً غير ما هو عليه؛ لأن الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحقِّ والدعاء إليه، فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه، وقد كان رسول الله ﷺ إذا أراد سراً ورى بغيره، وذلك لئلا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيتهيؤوا لقتاله، وقال عليه الصلاة والسلام: «ليس بكاذبٍ من أصلح بين اثنين خيراً أو نَمَى خيراً»<sup>(٢)</sup>.

وقد شرحنا هذا في كتاب آفات اللسان.

فالصدق هاهنا يتحول إلى النية، فلا يُراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير، فمتى صحَّ القصد، وصدقَّت النية، وتجرَّدت للخير الإرادة كان صادقاً كيف ما كان اللفظ، فالكمال الأول في اللفظ أن يُحترز في صريح اللفظ وعن المعارض إلا عند الضرورة.

والكمال الثاني: أن يُراعى معنى الصدق في ألفاظه التي يُناجي بها ربّه، كقوله: وَجَّهْتُ وَجْهِي. فإن كان قلبه مُنصرفاً عن الله تعالى مشغولاً بالدنيا، فهو كاذب.

(١) المعارض: التورية والفحوى.

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٤٦)، ومسلم (٢٦٠٥).

## الصّدقُ الثاني: في النّية والإرادة

ويرجع هذا إلى الإخلاص، وهو أن لا يكون له باعثٌ في الحركات والسكنات إلا الله تعالى، فإن ما رَجَهُ شَوَّبَ من حُظوظِ النَّفسِ بطل صدق النّية، وصاحبه يجوزُ أن يكون كاذباً، كما رُوي في حديثِ الثّلاثة حين سُئِلَ القاريء: لمَ قرأتَ القرآن؟ فقال: لأجلك. قيل: كذبت. فإنه لم يكذبه في قوله: قرأتَ القرآن، وإنما كذّبه في إرادته ونيّته، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

## الصدق الثالث: صدق العزم

فإن الإنسان قد يعزم على العمل، فيقول في نفسه: إن رَزَقني الله مالا تصدّقتُ بجميعة أو بشطره، وإن لقيتُ عدواً في سبيل الله قاتلتُ ولم أبال، وإن قُتلتُ، وإن أعطاني الله ولايةً عدلتُ. فهذه العزيمة قد تكون صادقة وقد يكون فيها تردّد.

## الصدق الرابع: في الوفاء بالعزم

فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم، والمؤنة فيه خفيفة، فإذا تحقّقت الحقائق وحصل التمكّن وهاجّت الشّهوات انحلت العزيمة وغلبت الشّهوات، ولم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا يضاؤ الصدق فيه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وفي الصحيحين عن أنس بن النّضر قال: لئن أشهدني الله مشهداً ليرين الله ما أصنع. فشهد أحداً، فقاتل حتى قُتل، فوجد في جسده بضع وثمانون من بين رمية وضربة وطعنة.

ووقفَ ثعلبةٌ على ملاء، فقال: لئن آتاني الله من فضله آتيت كل ذي حقّ حقّه، وفعلتُ كذا وكذا. فاتاه الله من فضله فأخلف ما وعد، فنزلت: ﴿ومنهم من عاهد الله﴾ إلى قوله: ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧.٧٥]، فجعل العزم عهداً، وجعل الخلف فيه كذباً.

وهذا الفنُّ من الصّدقِ أشدّ مما قبله من الصدق، فإن النفس قد تسخو بالعزم ثم

تَرَجِعَ عَنِ الْوَفَاءِ لَشِدَّتِهِ، وَلِذَلِكَ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: لِأَنَّ أُقَدَّمَ فَتُضْرَبُ عُنُقِي لَا يُقْرَبُنِي ذَلِكَ مِنْ إِثْمٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَأَمَّرَ عَلَى قَوْمٍ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ، إِلَّا أَنْ تُسْأَلَ لِي نَفْسِي عِنْدَ الْقَتْلِ شَيْئاً لَا أَجِدُهُ. وَإِنَّمَا خَافَ أَنْ يَثْقُلَ ذَلِكَ عَلَيْهَا فَيَتَغَيَّرَ عَزْمُهَا، وَهَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى شِدَّةِ الْوَفَاءِ بِالْعَزْمِ.

وَقَالَ أَبُو سَعِيدِ الْجَزَّارِ: رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ مَلَكَيْنِ نَزَلَا مِنَ السَّمَاءِ فَقَالَا لِي: مَا الصَّدَقُ؟ فَقُلْتُ: الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ. فَقَالَا لِي: صَدَقْتَ، وَعَرَجَا إِلَى السَّمَاءِ.

### الصدق الخامس: في الأعمال

وَهُوَ أَنْ يَجْتَهِدَ حَتَّى لَا تَدُلَّ أَعْمَالُهُ الظَّاهِرَةَ عَلَى أَمْرٍ فِي بَاطِنِهِ لَا يَتَّصِفُ بِهِ، لِأَنَّ يَتْرَكَ الْأَعْمَالَ، وَلَكِنْ بَأَنَّ يَسْتَجِرَّ الْبَاطِنَ إِلَى تَصَدِيقِ الظَّاهِرِ، فَرَبَّ وَاقْفِ فِي الصَّلَاةِ عَلَى هَيْئَةِ الْخُشُوعِ لَيْسَ يَقْصِدُ بِهِ مَشَاهِدَةَ الْخَلْقِ، وَلَكِنْ قَلْبَهُ غَافِلٌ عَنِ الصَّلَاةِ، فَمَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهِ يَرَاهُ قَائِماً بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ بِالْبَاطِنِ قَائِمٌ فِي السُّوقِ بَيْنَ يَدَيِ شَهْوَةٍ مِنْ شَهْوَاتِهِ.

فَهَذِهِ أَعْمَالٌ تُعَرِّبُ بِلِسَانِ الْحَالِ عَنِ الْبَاطِنِ إِعْرَاباً هُوَ فِيهِ كَاذِبٌ، وَهُوَ مُطَالِبٌ بِالصَّدَقِ فِي الْأَعْمَالَ، وَكَذَلِكَ قَدْ يَمْشِي الرَّجُلُ عَلَى هَيْئَةِ السُّكُونِ وَالْوَقَارِ وَلَيْسَ بَاطِنُهُ مَوْصُوفاً بِذَلِكَ الْوَقَارِ، فَهَذَا غَيْرُ صَادِقٍ فِي عَمَلِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُلْتَفِتاً إِلَى الْخَلْقِ وَلَا مُرَائِباً إِيَّاهُمْ.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: إِيَّاكُمْ وَتَخَشُّعِ النَّفَاقِ؛ أَنْ يُرَى الْجَسَدُ خَاشِعاً وَالْقَلْبُ لَيْسَ بِخَاشِعٍ. وَلَا نَجَاةَ مِنْ هَذَا إِلَّا بِاسْتَوَاءِ السَّرِيرَةِ وَالْعَلَانِيَةِ بِأَنَّ يَكُونَ بَاطِنُهُ مِثْلَ ظَاهِرِهِ أَوْ خَيْراً مِنْ ظَاهِرِهِ، وَمِنْ خِيْفَةِ هَذَا كَانَ أَيُّوبُ السَّخْتِيَانِيُّ<sup>(١)</sup> فِي ثَوْبِهِ بَعْضَ التَّذْيِيلِ لِثَلَا يُرَى بَعِينَ الزُّهْدِ فِي تَشْمِيرِهِ.

فَإِذَنْ مُخَالَفَةُ الظَّاهِرِ لِلْبَاطِنِ إِنْ كَانَ عَنْ قَصْدٍ سُمِّيَ رِيَاءً وَفَاتَ بِهِ الْإِخْلَاصُ، وَإِنْ كَانَ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ فَاتَ بِهِ الصَّدَقُ.

(١) تحرف في الأصل إلى: «السَّجِسْتَانِيُّ».

قال مُطَرِّف بن عبد الله: إن العبد إذا استوت سريرته وعلايته فذلك النَّصَف<sup>(١)</sup>، ومن كانت سريرته أفضل من علايته فذلك الفضل، ومن كانت علايته أفضل من سريرته فذلك الجور.

وقال عبد الواحد بن زيد: كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أعمل الناس به، وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له، ولم أر أحداً قط أشبه سريرة بعلايته منه.

### الصدق السادس

وهو أعلى الدرجات وأعزها: الصدق في مقامات الدين

كالصدق في الخوف والرجاء، والزهد والرضا، والحب والتوكل، فإن هذه الأمور لها مبادئ ينطلق الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق، والصادق المحقق من نال حقيقتها، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سُمي صاحبه صادقاً فيه، قال الله عز وجل: ﴿وَلَكِنَّ الْإِيمَانَ مِنَ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

ولنضرب الخوف مثلاً، فما من عبد يؤمن بالله إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم، ولكنه غير بالغ إلى درجة الحقيقة، ألا تراه إذا خاف سلطاناً كيف يصفر ويرتعد وقد يهرب فيستبدل الوحشة بالأنس والتعب بالراحة، كل ذلك خوفاً من درك المحذور، ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند فعل المعصية، ولذلك قال عامر بن عبد قيس: عجبْتُ للجنة نامَ طالبها، وعجبْتُ للنار نامَ هاربها.

والتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً، ولا غاية لهذه المقامات حتى يُنال تمامها، ولكن لكل عبد منه حظٌ بحسب حاله؛ إما ضعيف وإما قوي، فإذا قوي سُمي صادقاً

(١) النَّصَف: العدل.

فيه قال ﷺ: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي وَجَبْرِيلَ كَالْحِلْسِ الْبَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى»<sup>(١)</sup>.

وقد كانت الصحابةُ تخاف، ولكن ما بلغوا خوفَ رسولِ الله ﷺ.

وقال مُطَرِّفٌ: ما أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ إِلَّا وَهُوَ أَحْمَقُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ غَيْرَ أَنْ بَعْضُ الْحُمَقِ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ.

وقال يوسف بن أسباط: لَأَنْ أُبَيَّتَ لَيْلَةً وَاحِدَةً أَعْمَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالصَّدَقِ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُقَاتَلَ بِسَيْفِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَإِذَا عَلِمَ اللَّهُ مِنْ عَبْدٍ صَدَقًا صَنَعَ لَهُ، وَمَا أَظَنَّ الصَّدَقَ إِلَّا قَدْ رُفِعَ.

والصادقُ إِذْنٌ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ عَزِيزٌ، ثُمَّ دَرَجَاتُ الصَّدَقِ لَا نَهَايَةَ لَهَا، وَقَدْ يَكُونُ لِلْعَبْدِ صَدِيقٌ فِي بَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ، وَمِنْ عِلَامَاتِ الصَّدَقِ كِتْمَانُ الْمَصَائِبِ وَالطَّمَامَاتِ جَمِيعًا، وَكَرَاهَةُ إِطْلَاعِ الْخَلْقِ عَلَى ذَلِكَ.

تَمَّ كِتَابُ النِّيَّةِ.

\* \* \*

(١) تقدم في كتاب الرجاء والخوف.

## كتاب المحاسبة والمراقبة

الحمدُ لله الذي صَفَتْ بِإِرَادَتِهِ الْهِمَمُ وَتَكَدَّرَتْ، وَوَفَّتْ بِمَشِيئَتِهِ الْعُزْمُ وَتَعَيَّرَتْ، وَاسْتَقَلَّتْ بِقَضَائِهِ الْقَدَمُ وَتَعَثَّرَتْ، وَقَلَّتْ بِبِلَائِهِ النَّعَمُ وَتَوَفَّرَتْ، عَمَّتْ عَوَاطِفُهُ فَعَمَّرَتْ وَسَرَّتْ، وَأَمَرَتْ تَكَالِيفُهُ فَتَنَّبَهَتْ وَأَمَّرَتْ، فَلَوَّعِدِهِ وَوَعِيدِهِ بَكَتِ الْعُيُونُ وَسَهَّرَتْ، فَإِذَا قُرَّبَ الْأَحْبَابَ وَسُدَّ الْبَابَ فِي وَجْهِهِ تَأَخَّرَتْ، عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ.

أَحْمَدُهُ حَمْدَ نَفْسٍ تَدَبَّرَتْ عَلَى الْأَحْوَالِ كَيْفَ دُبِّرَتْ، وَأَقْرُبُ بُوْحْدَانِيَّتِهِ عَنْ أَدْلَةٍ قُرَّرَتْ، وَأَصْلِي عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي يَسَّرَتْ، وَعَلَى أَصْحَابِهِ وَاتِّبَاعِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَشْيَاعِهِ إِلَى أَنْ تَطْيِرَ الصُّحُفَ وَقَدْ نُشِرَتْ.

أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْتَضِرًا وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وَقَالَ: ﴿ثُمَّ تَوُفَّى كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وَقَالَ: ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوزِنُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]، وَقَالَ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ﴾ (١) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) [الزلزلة: ٨٦].

فَعَرَفَ بِهَذَا أَرْبَابُ الْبَصَائِرِ أَنَّهُمْ سَيُحَاسَبُونَ وَيُطَالَبُونَ بِمِثْقَالِ الذَّرِّ مِنَ الْخَطَرَاتِ

واللحظات، وتَحَقَّقُوا أَنَّهُمْ لَا يُنْجِيهِمْ مِنْ هَذِهِ الْأَخْطَارِ إِلَّا لَزُومَ الْمَحَاسِبَةِ وَصِدْقِ  
 الْمِرَاقَبَةِ، فَمَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا خَفَّ فِي الْآخِرَةِ حِسَابُهُ، وَحَسُنَ مُنْقَلَبُهُ وَمَأْبَهُ،  
 وَمَنْ أَهْمَلَ الْمُحَاسِبَةَ دَامَتْ حَسْرَاتُهُ وَقَادَتْهُ إِلَى الْخِزْيِ سَيِّئَاتِهِ، فَلَمَّا عَلِمُوا أَنَّهُ  
 لَا يُنْجِيهِمْ إِلَّا الطَّاعَةُ وَقَدْ أَمَرَهُمُ بِالصَّبْرِ وَالْمِرَابِطَةِ، فَقَالَ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا  
 أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فَرَابَطُوا أَنْفُسَهُمْ أَوَّلًا بِالْمُشَارَظَةِ، ثُمَّ  
 بِالْمِرَاقَبَةِ، ثُمَّ بِالْمَحَاسِبَةِ، ثُمَّ بِالْمُعَاقَبَةِ، ثُمَّ بِالْمَجَاهِدَةِ، ثُمَّ بِالْمُعَايَنَةِ، فَكَانَتْ  
 بِالْمِرَابِطَةِ سِتَّةً مَقَامَاتٍ، وَلَا بَدَّ مِنْ شَرْحِهَا، وَبَيَانِ حَقِيقَتِهَا، وَتَفْصِيلِ الْأَعْمَالِ فِيهَا،  
 وَأَصْلُ ذَلِكَ الْمَحَاسِبَةِ، وَلَكِنْ كُلُّ حِسَابٍ فَبَعْدَ مُشَارَظَةٍ وَمِرَاقَبَةٍ وَيَتَّبِعُهُ عِنْدَ الْخُسْرَانِ  
 الْمُعَاتَبَةُ وَالْمُعَاقَبَةُ، فَلَنَذَكُرْ شَرْحَ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ:

\* \* \*

## المقام الأول

### من المرابطة: المشاركة

اعلم أن مطلب المتعاملين في التجارات المشتركة في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح، وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه، فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة، وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس؛ لأن بذلك فلاحها، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (١٠٩) وقد خاب من دسَلها [الشمس: ١٠٩] وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة، والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة، إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكّيها، كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله.

وكما أن الشريك يكون خصماً منازعاً يجاذبه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولاً، ويراقبه ثانياً، ويحاسبه ثالثاً، ويعاتبه ويعاقبه رابعاً، وكذلك العقل يحتاج إلى مشاركة النفس أولاً فيوظف عليها الوظائف، ويشرط عليها الشروط، ويرشدها إلى طريق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة، فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال، كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال.

ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطلبها بالوفاء بما شرط عليها، فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيراً من تدقيقه في أرباح الدنيا مع أنها مُحْتَقَرَةٌ بالإضافة إلى نعيم العقبى، ثم كيف ما كانت فمصيرها إلى التصرّم والانقياض، ولا خير في خير لا يدوم، بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم؛ لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائماً، وقد انقضى الشر، والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائماً، وقد انقضى

الخير، ولذلك قال الشاعر:

أشدَّ الغمِّ عندي في سُرورٍ      تَيَقَّنَ عنه صاحبُه انتقالا

فَحْتَمُّ عَلَى كُلِّ ذِي حَزْمٍ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ لَا يَغْفَلَ عَنْ مُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ  
والتَّضْيِيقِ عَلَيْهَا فِي حَرَكَاتِهَا وَسَكَنَاتِهَا وَخَطَرَاتِهَا وَخَطَوَاتِهَا، فَإِنَّ كُلَّ نَفْسٍ مِنْ أَنْفَاسِ  
العُمَرِ جَوْهَرَةٌ نَفِيسَةٌ لَا عِوَضَ لَهَا يُمْكِنُ أَنْ يُشْتَرَى بِهَا كَنْزٌ مِنَ الْكَنْوُزِ لَا يَتَنَاهَى  
نَعِيمَهُ أَبَدَ الْأَبَادِ، وَانْقِضَاءَ هَذِهِ الْأَنْفَاسِ ضَائِعَةٌ أَوْ مَصْرُوفَةٌ إِلَى مَا يَجْلِبُ الْهَلَاكَ  
خُسْرَانٌ عَظِيمٌ هَائِلٌ لَا تَسْمَعُ بِهِ نَفْسٌ عَاقِلٌ.

فَإِذَا أَصْبَحَ الْعَبْدُ وَفَرَّغَ مِنْ فَرِيضَةِ الصُّبْحِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُفْرغَ قَلْبُهُ سَاعَةً لِمَشَارَطَةِ  
النَّفْسِ، كَمَا أَنَّ التَّاجِرَ عِنْدَ تَسْلِيمِ الْبِضَاعَةِ إِلَى الشَّرِيكَ الْعَامِلِ يَفْرغُ لِمَشَارَطَتِهِ،  
فَيَقُولُ لِلنَّفْسِ: مَالِي بِضَاعَةٌ إِلَّا الْعُمَرُ، وَإِذَا فَنِيَ فَنِيَ رَأْسُ الْمَالِ، وَوَقَعَ الْيَأْسُ مِنَ  
التَّجَارَةِ وَطَلَبِ الرِّيحِ، وَهَذَا الْيَوْمَ الْجَدِيدِ قَدْ أَمَهَلَنِي اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ وَأَخَّرَ أَجْلِي وَأَنْعَمَ  
عَلَيَّ بِهِ، وَلَوْ تَوَقَّانِي لَكُنْتُ أَتَمْنَى أَنْ يَرْجِعَنِي إِلَى الدُّنْيَا يَوْمًا وَاحِدًا حَتَّى أَعْمَلَ فِيهِ  
صَالِحًا، فَاحْسَبِي أَنَّكَ قَدْ تُوَفِّيتِ، ثُمَّ رُدِّدْتِ، فَيَايَاكَ ثُمَّ يَايَاكَ أَنْ تُضَيِّعِي هَذَا الْعُمَرَ،  
فَإِنَّ كُلَّ نَفْسٍ مِنَ الْأَنْفَاسِ جَوْهَرَةٌ لَا قِيَمَةَ لَهَا، وَاعْلَمِي يَا نَفْسُ أَنَّ الْيَوْمَ وَاللَّيْلَةَ أَرْبَعُ  
وَعِشْرُونَ سَاعَةً، وَأَنَّ الْعَبْدَ يُنْشَرُّ لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ أَرْبَعُ وَعِشْرُونَ خَزَانَةً مَصْفُوفَةً،  
فَيُفْتَحُ لَهَا مِنْهَا خَزَانَةٌ فَيَرَاهَا مَمْلُوءَةً نُورًا مِنْ حَسَنَاتِهِ الَّتِي عَمَلَهَا فِي تِلْكَ السَّاعَةِ،  
فِيْنَالَهُ مِنَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ بِمَشَاهِدَةِ تِلْكَ الْأَنْوَارِ الَّتِي هِيَ وَسِيلَةٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَالُو  
وُزَعَّ عَلَى أَهْلِ النَّارِ لِأَدْهَشَتَهُمْ ذَلِكَ الْفَرَحُ عَنِ الْإِحْسَاسِ بِالْمِ نَارِ، وَيُفْتَحُ لَهَا خَزَانَةٌ  
أُخْرَى مُظْلَمَةٌ يَفُوحُ نَتْنُهَا وَيَغْشَاهُ ظَلَامُهَا، وَهِيَ السَّاعَةُ الَّتِي عَصَى اللَّهُ فِيهَا، فَيِنَالَهُ  
مِنَ الْفَرْعِ وَالْحُزْنِ مَا لَوْ قُسِمَ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ لِنَعْصَ عَلَيْهِمْ نَعِيمَهُمْ، وَيُفْتَحُ لَهَا خَزَانَةٌ  
أُخْرَى فَارِغَةٌ لَيْسَ فِيهَا مَا يَسْرُهُ وَلَا مَا يَسُوءُهُ، وَهِيَ السَّاعَةُ الَّتِي نَامَ فِيهَا أَوْ غَفَلَ أَوْ  
اشْتَغَلَ بِشَيْءٍ مِنَ الْمُبَاحِ فَيَتَحَسَّرُ عَلَى خُلُوقِهَا وَيِنَالَهُ مَا يِنَالُ الْقَادِرَ عَلَى الرِّيحِ الْكَثِيرِ  
وَالْمَلِكِ الْكَبِيرِ إِذَا أَهْمَلَهُ حَتَّى فَاتَهُ، وَعَلَى هَذَا تُعْرَضُ عَلَيْهِ خَزَائِنُ أَوْقَاتِهِ طَوَّلَ  
عُمُرِهِ، فَيَقُولُ لِنَفْسِهِ: اجْتَهِدِي الْيَوْمَ فِي أَنْ تَعْمَرِي خَزَائِنَكَ وَلَا تَدْعِيهَا فَارِغَةً مِنْ  
كَنْوُزِكَ الَّتِي هِيَ أَسْبَابُ مَلِكِكَ، وَلَا تَمِيلِي إِلَى الْكَسَلِ وَالِدَّعَةِ وَالِاسْتِرَاحَةِ، فَيَفُوتَكَ

من درجات عليين ما يُدرکه غيرک، وتَبقى عندک حَسْرته لا تُفارقک، وإن دخلت الجنة فإن ألم العُبن وحسرتَه لا تُطاق.

وقد قال بعض السلف: هَبْ أَنْ المُسيءَ قد عُفي عنه أليس قد فاتَه ثواب المُحسِنين؟

وإنما أشار بهذا إلى العُبن، وقد قال الله عزّ وجل: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النُّعَابِ﴾ [التغابن: ٩].

فهذه وصيةٌ لنفسه في أوقاته، ثم ليستأنف لها وصيةٌ في أعضائه السبعة وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، ويسلمها إليها، فإنها رعايا خادمة للنفس في هذه التجارة، وبها تتم أعمال هذه التجارة، وإن لجهنم سبعة أبواب وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء فيوصيها بحفظها عن معاصيها.

أما العين: فيحفظها عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه، أو إلى مسلم بعين الاحتقار، بل عن كل فضولٍ مُستغنى عنه، فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر، كما يسأله عن فضول الكلام، ثم إذا صرفها عن هذا لم يقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها، وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله تعالى بعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة، وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضوٍ عضوٍ لا سيما اللسان والبطن.

أما اللسان؛ فإنه مُنطلقٌ بالطبع، ولا مؤنة عليه في الحركة، وجنابته عظيمة بالغيبة والكذب والتميمة وتزكية النفس ومدمة الخلق وغير ذلك مما ذكرناه في آفات اللسان، فهو بصدد ذلك كله مع أنه خُلِقَ للذكر والتذكير، وتكرار العلم والتعليم، وإرشاد عباد الله إلى طريق الله، وإصلاح ذات البين إلى غير ذلك من الخير، فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول نهاره إلا في الذكر والخير، فنطق المؤمن ذكراً، ونظره عبرةً، وصمته فكرةً، ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وأما البَطْنُ: فيكَلِّفُهُ تَرْكَ الشَّرِّهِ واجْتِنَابَ الشُّبُهَاتِ والشَّهَوَاتِ، ويقتصر على قدر الضرورة، ولا يشترط على نفسه إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالَمَنعِ من شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهوتها.

وهكذا يشترط عليها في جميع الأعضاء، واستقصاء ذلك يطول، ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها.

ثم يستأنف وصيَّتها وظائف الطاعات التي تتكرَّرُ عليه في اليوم والليلة، ثم في النوافل التي يقدر عليها، ويقدر على الاستكثار<sup>(١)</sup> منها، ويُرتَّبُ لها تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها.

وهذه شروطٌ يفتقر إليها كل يوم، ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك على نفسه أياماً وطاوعته نفسه في الوفاء بجميِّعها استغنى عن المشاركة فيها، وإن أطاعت في بعضها بقيت الحاجة إلى تجدد المشاركة فيما بقي، ولكن لا يخلو كل يوم من همٍّ جديد وحادثة لها حكمٌ جديد، والله تعالى عليه في ذلك حقٌّ، ويكثر هذا على من يشتغل بشيءٍ من أعمال الدنيا من ولايةٍ أو تجارةٍ أو تدريسٍ، إذ قلَّ أن يخلو يومٌ عن واقعةٍ جديدةٍ تحتاج إلى أن يقضي حقَّ الله تعالى فيها، فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحقِّ في مجاريها، ويحذرها مَعَبَّةُ الإهمال، ويعظها كما يوعظ العبدُ الأبقُّ المُتَمَرِّدُ، فإن النفسَ بالطبع مُتَمَرِّدةٌ عن الطاعات، مستعصية عن العبودية، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها، فقد قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

فهذا وما يجري مجراه هو أول مقام المُرَابطة مع النفس، وهي محاسبةٌ قَبْلَ العمل، والمحاسبة تارة تكون بعد العمل، وتارة قَبْلَهُ للتَّحذِيرِ، قال الله عزَّ وجل: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وهذا للمستقبل، فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة، والعامل من إذا عرض له أمرٌ نظر في عاقبته قَبْلَ فعله، فإن علم أنه يحمَدُ العاقبةً وإلا كفَّ عنه، فليميز بين

(١) تصحفت في الأصل إلى: «الاستكبار».

مُكثِ التَّدَامَةَ فِي الْقَلْبِ وَمُكثِ لَذَّةِ الشَّهْوَةِ.

أَبَانَا أَبُو بَكْرٍ بِنَ أَبِي طَاهِرٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو يَعْلَى مُحَمَّدُ بِنَ الْحُسَيْنِ قَالَ: أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بِنَ عُمَرَ السُّكْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بِنَ الْحَسَنِ الصُّوفِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا الْحَارِثُ بِنَ شَرِيحٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بِنَ الْمُبَارَكِ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ بِنَ عَبْدِ اللَّهِ بِنَ أَبِي مَرْيَمٍ قَالَ: حَدَّثَنِي ضَمْرَةُ بِنَ حَبِيبٍ عَن شَدَّادِ بِنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَتَّى عَلَى اللَّهِ». وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسِبُوا، وَزِنُوهَا قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَتَهَيَّؤُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ.

وَكَتَبَ إِلَى أَبِي مُوسَى: حَاسِبْ نَفْسَكَ فِي الرَّخَاءِ قَبْلَ حِسَابِ الشَّدَّةِ.

\* \* \*

## المراقبة الثانية:

### المُراقِبَة

إذا أوصى الإنسان نفسه وشرطَ عليها ما ذكرناه، لم يبق إلا المُراقِبَة لها عند الخوض في الأعمال، وملاحظتها بالعين الكالِثة<sup>(١)</sup>، فإنها إن تُركت طَغَت وفسدت. ولتذكر فضيلة المُراقِبَة، ثم درجاتها:

أما الفضيلة: فقد قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وفي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ، أنه يوماً كان بارزاً للناس، فأتاه رجلٌ فقال: ما الإيمان؟ قال: «الإيمانُ أن تُؤمنَ بالله وملائكته وكتابه وولقائه ورسله وتؤمن بالبعث» فقال: ما الإسلام؟ قال: «الإسلامُ أن تُعبُدَ الله ولا تُشركَ به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤدِّي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان». قال: ما الإحسان؟ قال: «الإحسان أن تُعبُدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»<sup>(٢)</sup>.

وقال أبو عثمان<sup>(٣)</sup>: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة والمُراقِبَة وسياسة عمله بالعلم.

وقال ابن عطاء<sup>(٤)</sup>: أفضل الطاعات مُراقِبَة الحق على دوام الأوقات.

وقال الجُريري<sup>(٥)</sup>: أمرنا هذا مَبْنِيٌّ على أصليين: أن تُلزِمَ نفسك المُراقِبَة لله عزَّ

(١) الكالِثة: الحافظة.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠) و(٤٧٧٧)، ومسلم (٩).

(٣) هو سعيد بن سلام المغربي.

(٤) هو أبو عبد الله أحمد بن عطاء الروذباري، شيخ الشام في وقته، توفي سنة (٣٦٩هـ).

(٥) هو أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الجُريري، توفي سنة (٣١١هـ).

وجل، ويكون العلم على ظاهره قائماً.

قال أبو عثمان: قال لي أبو حفص: إذا جلست للناس فكن واعظاً لنفسك وقلبك، ولا يغرّنك اجتماعهم عليك، فإنهم يُراقبون ظاهره والله رقيبٌ على باطنك.

وقال رجلٌ للجُنيد: بِمَ أَسْتَعِينُ عَلَى غَضِّ الْبَصْرِ؟ فقال: بعلمك أنْ نظر الناظر إليك أسبق من نَظركَ إلى المَنظور إليه.

وقال مالك بن دينار: يقول الله عزَّ وجل: إِنَّمَا يَسْكُنُ جَنَاتِ عَدْنِ الَّذِينَ إِذَا هَمُّوا بِالْمَعَاصِي ذَكَّرُوا عَظَمَتِي فَرَأَبُونِي، والذين انثنت أصلابهم من خشيتي، وعزّتي وجلالي إني لأهّمُّ بعداب أهل الأرض، فإذا نظرتُ إلى أهل الجوع والعطش من مخافتِي صرفتُ عنهم العذاب.

وسئِلَ المُحاسِبِي<sup>(١)</sup> عن المراقبة فقال: أولها علم القلب بقرب الله تعالى.

وقال محمد بن علي الترمذي: اجعل مُراقبتك لمن لا تغيّب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه.

وسئِلَ ذُو النُّون: بِمَ يَنَالُ الْعَبْدُ الْجَنَّةَ؟ فقال: بخمس: استقامة ليس فيها روغان، واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة لله تعالى في السرّ والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له ومحاسبة نفسك قبل أن تُحاسب.

وقد قال ابن عمر لراع: بعنا من غنمك. فقال: إنها ليست لي، إنها لمولاي. قال: وما عسى أن يقول لك مولاك إذا قلت: أكلها الذئب؟ فولّى الراعي وهو يقول: فأين الله؟!

وخلا رجلٌ بامرأةٍ وقال لها: ما يرانا إلا الكواكب. فقالت: فأين مكوّكبها؟ وأنشدوا:

(١) يعني الحارث المحاسبي.

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ      خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبٌ  
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً      وَلَا أَنْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

### بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها

اعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه، فمن احتزر في أمر من الأمور بسبب غيره قيل: إنه يُراقب فلاناً ويُراعي جانبه.

وَنَعْنِي بِهَذِهِ المُرَاقِبَةَ حَالَةً لِلْقَلْبِ يُثْمِرُهَا نَوْعٌ مِنَ المَعْرِفَةِ، وَتُثْمِرُ تِلْكَ الحَالَةَ أَعْمَالًا فِي الجَوَارِحِ وَفِي القَلْبِ.

أما الحالة: فهي مُراعاة القلب للرقيب، واشتغاله به، والتفاتة إليه، وملاحظته إياه.

وأما المعرفة التي تُثمر هذا الحال، فهي العلم بأن الله مُطَّلَعٌ عَلَى الضَّمَائِرِ عَالِمٌ بِالسَّرَائِرِ، رَقِيبٌ عَلَى أَعْمَالِ العِبَادِ، قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، وَأَنْ سِرَّ القَلْبِ فِي حَقِّهِ مَكْشُوفٌ كَمَا أَنَّ ظَاهِرَ البَشَرَةِ لِلخَلْقِ مَشْكُوفٌ بَلْ أَشَدُّ، فَهَذِهِ المَعْرِفَةُ إِذَا صَارَتْ يَقِينًا، أَعْنِي أَنهَا خَلَّتْ عَنِ الشَّكِّ ثُمَّ اسْتَوْلَتْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى القَلْبِ وَقَهَرَتْهُ، فَربَّ عِلْمٍ لَا يُشَكُّ فِيهِ لَا يَغْلِبُ عَلَى القَلْبِ، كَالعِلْمِ بِالمَوْتِ، فَإِذَا اسْتَوْلَتْ عَلَى القَلْبِ اسْتَجَرَّتْ القَلْبَ إِلَى مِرَاعَاةِ جَانِبِ الرَّقِيبِ، وَصَرَفَتْ هَمَّهُ إِلَيْهِ، وَالمَوْقِنُونَ بِهَذِهِ المَعْرِفَةِ هُمُ المَقْرَبُونَ، وَهُمُ يَنْقَسِمُونَ إِلَى الصَّدِيقِينَ وَإِلَى أَصْحَابِ الِيمِينِ، فَمُرَاقِبَتُهُمْ عَلَى دَرَجَتَيْنِ:

الدَّرَجَةُ الأُولَى: مِرَاقِبَةُ المَقْرَبِينَ مِنَ الصَّدِيقِينَ، وَهِيَ مِرَاقِبَةُ التَّعْظِيمِ وَالإِجْلَالِ، وَهُوَ أَنْ يَصِيرَ القَلْبُ مُسْتَغْرَقًا بِمِلَاحِظَةِ ذَلِكَ الجَلَالِ، وَمِنْكَسِرًا تَحْتَ الهَيْبَةِ، فَلَا يَبْقَى فِيهِ مُتَسَعٌّ لِلتَّلَاتِفَاتِ إِلَى الغَيْرِ أَصْلًا، وَهَذِهِ مِرَاقِبَةٌ لَا تُطَوِّلُ النَّظَرَ فِي تَفْصِيلِ أَعْمَالِهَا، فَإِنَّهَا مَقْصُورَةٌ عَلَى القَلْبِ، وَالقَلْبُ هُوَ الرَّاعِي، فَإِذَا صَارَ مُسْتَغْرَقًا<sup>(١)</sup> بِالإِقْبَالِ عَلَى المَعْبُودِ، صَارَتِ الجَوَارِحُ مُسْتَعْمَلَةً عَلَى السَّدَادِ وَالإِسْتِقَامَةِ مِنْ غَيْرِ

(١) فِي الأَصْلِ: «مُسْتَوْفِي».

تكلّف، فيتعطل التلّف إلى المباحات فضلاً عن المحظورات، فلا تحتاج إلى تدبير، ومن وصل إلى هذه الحالة غفل عن الخلق حتى قد لا يدري من بحضرته، حتى قد قال بعضهم لرجل: إذا مررت بي فحرّكني. ولا يُستبعد هذا، فإنك تجد في حدم الملوّك من يُعظّمهم فلا يُحسُّ بما يجري عليه في مجالسهم لاستغراق التعظيم قلوبهم، بل قد يشتغل القلب بمهمّ حقيرٍ من مهمّات الدنيا فيغوصُّ الرجل في الفكر فيه ويمشي، وربما تجاوز الموضوع الذي قصده وينسى الشغل الذي نهض له.

وقد روينا عن يحيى بن زكريا أنه مرّ في طريقه بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها، فقيل له: لم فعلت هذا؟ فقال: ما ظننتها إلا جداراً.

وقيل لعبد الواحد بن زيد: هل تعرف في زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله عن الخلق؟ فقال: ما أعرفه إلا رجلاً سيدخل عليكم الساعة. فدخل عتبة<sup>(١)</sup> الغلام، فقال له عبد الواحد: من أين جئت يا عتبة؟ قال: من موضع كذا. وكان طريقه على السوق، فقال: من لقيت في الطريق؟ فقال: ما رأيتُ أحداً.

قال بعض السلف: مررتُ بجماعة يترامون ورجلٌ جالسٌ بعيداً منهم؛ فتقدمتُ إليه فأردتُ أن أكلمه، فقال: ذكر الله تعالى أشهى. فقلتُ: أنت وحدك؟ فقال: معي ربّي وملكاي. فقلتُ: من سبق من هؤلاء؟ فقال: من غفر الله له. فقلتُ: أين الطريق؟ فأشار نحو السماء وقام يمشي ويقول: أكثر خلقك شاغل عنك.

فهذا كلامٌ مُستغرقٌ بمشاهدة الله تعالى لا يتكلّم إلا منه، ولا يسمع إلا فيه، فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فإنها لا تتحرك إلا بما هو فيه.

ودخل الشُّبلي على أبي الحسين الثوري وهو قاعدٌ ساكنٌ لا يتحرك من ظاهره شي، فقال له: من أين أخذت هذه المراقبة والسكون؟ فقال: من سنّور<sup>(٢)</sup> كانت لنا، وكانت إذا أرادت الصّيد رابطت رأس الجحر حتى لا تتحرّك لها شعرة.

(١) هو عتبة بن أبان بن تغلب.

(٢) السنّور: الهرة.

الدرجة الثانية: مُراقبة الوَرعين من أصحاب اليمين: وهم قَوْمٌ غلبَ يَقين<sup>(١)</sup>؛ أَطْلَعَ اللهُ على ظاهريهم وباطنيهم على قلوبهم، ولكن لم تدهشهم مُلاحظة الجلال؛ بل بقيت قلوبهم على حَدِّ الاعتدال<sup>(٢)</sup> مُتَّسعةً للتلفت إلى الأحوال والأعمال، إلا أنها مع مُمارسة الأحوال لا تخلو عن المُراقبة؛ بلى قد غَلَبَ عليهم الحياءُ من الله تعالى فلا يُقَدِّمون ولا يُحْجِمون إلا بعدَ التَّثَبُّتِ، ويمتنعون عن كلِّ ما يفتضحون به في القيامة، فإنهم يرون الله تعالى في الدنيا مُطَّلِعاً عليهم ولا يحتاجون إلى انتظار القيامة.

وتعرف اختلاف الدَّرجتين بالمُشاهدات، فإنك في خلوِّكَ قد تَتَعاطَى أعمالاً فيَحْضُرُكَ صَبِيٌّ أو امرأةٌ فتعلمُ أن ذلك الشَّخص مُطَّلِعٌ عليك فَتَسْتَحْيِي منه، فتُحسِنُ جُلوسَكَ وتُرَاعِي أحوالك لا عن إجلالٍ وتعظيم بل عن حياءٍ، فإن مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تَسْتغرِقُكَ، فإنها تُهَيِّجُ الحياءَ منك، وقد يدخلُ عليك مَلِكٌ من الملوِكِ أو كبير من الأكابر فيَسْتغرِقُكَ التَّعظيم حتى تترك كلَّ ما أنت فيه شُغلاً به لا حياءً منه.

فهكذا تَخْتَلِفُ مراتب العباد في مُراقبة الله تعالى، ومن كان في هذه الدَّرَجَة احتاج أن يُراقِبَ جميع حركاته وسكناته وخَطراته ولَحظاته، وبالجملة جَميع اختياراته، وله فيها نَظْران: نَظْرٌ قَبْلَ العمل، ونَظْرٌ في العمل.

أما قبل العمل؛ فليَنظُرْ أن ما ظهر له وتحركَ بِفِعْله خاطِرُهُ أهو اللهُ خاصَّةً أو في هَوَى النفس ومُتابَعَةِ الشَّيْطان؟ فيتوقَّفُ فيه وَيَثَبُّتُ حتى ينكشفَ له ذلك بنور الحق، فإن كان اللهُ تعالى أمضاه، وإن كان لغير الله تعالى استحيا من الله وانكفَّ عنه، ثم لَمْ<sup>(٣)</sup> نَفْسُهُ على رَغْبته فيه وهمَّه به ومِيلِهِ إليه، وعَرَفَهَا سوءَ فِعْليها وسَعِيها في فضيحتها، وأنها عَدُوَّةٌ نَفْسِها إن لم يتداركها اللهُ تعالى بعصمته.

وهذا التَّوقُّفُ في بداية الأمور إلى حدِّ البيان واجبٌ محتوم لا لأحدٍ مَحْيِصٌ

(١) سقطت من الأصل، واستُدركت من الإحياء.

(٢) في الأصل: «الاطلاع»، والمثبت من الإحياء.

(٣) تحرفت في الأصل إلى: «الأمر».

عنه، وقد قيل: إنه يُنشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين: الديوان الأول: لم؟ والثاني: كيف؟ والثالث: لمن؟ ومعنى لم، أي: لم فعلت هذا؟ أكان عليك أن تفعله لمولاك، أو ملت إليه بشهوتك وهواك؟ فإن سلم من ذلك سُئِلَ من الديوان الثاني، فقيل له: كيف فعلت هذا؟ فإن الله تعالى في كل عمل شرطاً وحكماً لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا بعلم. فيقال له: كيف فعلت؟ أبعلم محقق أم بجهل وظن؟ فإن سلم من هذا نُشِرَ الديوان الثالث، وهو المطالبة بالإخلاص، فقيل له: لمن عملت؟ أوجه الله خالصاً، وفاء بقولك: لا إله إلا الله فيكون أجرك على الله أو لمراة خلقٍ مثلك؟ فخذ أجرك منه، أو عملته لتنال عاجلةً دنياءً، فقد وفيناك نصيبك من الدنيا، أو عملت بشهوة وغفلة؟ فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيتك، وإن عملت لغيري فقد استوجبت مقنتي وعقابي إذ كنت عبداً لي تأكل رزقي وتترفه بنعمي، ثم تعمل لغيري! أما سمعتني أقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، و﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]، أما سمعتني أقول: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن يطالب، وأعد للسؤال جواباً، فلا يُبدىء ولا يُعيد إلا بعد التثبت ولا يحرك أنملة إلا بعد التأمل.

قال الحسن: رحم الله عبداً وقف عند هممه، فإن كان لله مضي، وإن كان لغيره تأخر.

فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة، ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكائد الشيطان، فمتى لم يعرف نفسه وربّه وعدوّه إبليس، ولم يعرف ما يوافق هواه، ولم يميز بينه وبين ما يحب الله ويرضاه في نيته وهيمته وفكرته وسكوته وحركته فلا يسلم في هذه المراقبة، بل الأكثرون على الجهل وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

ثم إن الجاهل لا يُعذر؛ لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم، ولهذا كانت

رَكَعَتَانِ مِنْ عَالِمٍ أَفْضَلَ مِنْ أَلْفِ رَكَعَةٍ مِنْ غَيْرِ عَالِمٍ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ آفَاتِ النُّفُوسِ وَمَكَايِدِ الشَّيْطَانِ وَمَوَاضِعِ العُرُورِ، فَيَتَّقِي ذَلِكَ، وَالجَاهِلُ لَا يَعْرِفُهُ فَكَيْفَ يَحْتَرِزُ مِنْهُ؟ فَلَا يَزَالُ الجَاهِلُ فِي تَعَبٍ وَالشَّيْطَانُ يَشْمُتُ بِهِ وَيَفْرَحُ، فَنَعُودُ بِاللَّهِ مِنَ الجَهْلِ وَالغَفْلَةِ، فَهُوَ رَأْسُ كُلِّ شَقَاوَةٍ وَأَسَاسُ كُلِّ خَسْرَانٍ.

فَحَكَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَنْ يُرَاقِبَ نَفْسَهُ عِنْدَ هَمِّهِ بِالفِعْلِ وَسَعِيهِ بِالجَارِحَةِ، فَيَتَوَقَّفُ عَنِ الهَمِّ وَعَنِ السَّعْيِ حَتَّى يَنْكَشِفَ لَهُ بِنُورِ العِلْمِ أَنَّهُ اللَّهُ فَيُمِضِيهِ، أَوْ هُوَ لَهْوَى النَّفْسِ فَيَتَّقِيهِ وَيَزْجُرُ القَلْبَ عَنِ الفِكْرِ فِيهِ وَعَنِ الهَمِّ بِهِ، فَإِنَّ الخَطَرَةَ الأُولَى فِي البَاطِلِ إِنْ لَمْ تُدْفَعْ أَوْرَثَتْ الرِّغْبَةَ، وَالرِّغْبَةُ تَوْرَثُ الهَمَّ، وَالهَمُّ يَوْرَثُ جِزْمَ القَصْدِ، وَالقَصْدُ يَوْرَثُ الفِعْلَ، وَالفِعْلُ يَوْرَثُ البَوَارِ وَالمَقْتَّ، فَيَنْبَغِي أَنْ تُحْسَمَ مَادَةُ الشَّرِّ مِنْ مَبْتِغِيهِ الأَوَّلِ وَهُوَ الخَاطِرُ، فَإِنْ جَمِيعَ مَا وَرَاءَهُ يَتَّبِعُهُ.

وَإِذَا أَشْكَلَ عَلَى العَبْدِ ذَلِكَ وَأَظْلَمَتِ الوَاقِعَةُ فَلَمْ تَنْكَشِفْ لَهُ فَلْيَتَفَكَّرْ فِي ذَلِكَ، وَلْيَسْتَفِدْ مِنْ مَكْرِ الشَّيْطَانِ، فَإِنْ عَجَزَ عَنِ الاجْتِهَادِ وَالفِكْرِ بِنَفْسِهِ اسْتِضَاءَ بَعْلَمَاءِ الدِّينِ لَا بَعْلَمَاءِ السُّوءِ، فَإِنْ قُلُوبُهُمْ مَحْجُوبَةٌ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلتَكُنْ هِمَّةُ المُرِيدِ فِي إِحْكَامِ العِلْمِ أَوْ فِي طَلْبِ عَالِمٍ مُعْرِضٍ عَنِ الدُّنْيَا، أَوْ ضَعِيفِ الرِّغْبَةِ فِيهَا.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَعْرِفَةَ آفَاتِ الأَعْمَالِ قَدْ انْتَدَرَسَتْ فِي هَذِهِ الأَعْصَارِ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ هَجَرُوا هَذِهِ العِلْمَ وَاسْتَغْلَوْا مِنَ العِلْمِ بِمَا يُوَفِّرُ لَهُمُ الدُّنْيَا، وَأَعْظَمَ نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ العِلْمَ وَكَشَفُ الحَقِّ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مِنَ التَّوْفِيقِ التَّوَقُّفُ عِنْدَ الحَيْرَةِ.

فَإِذَنْ النَّظْرُ الأَوَّلُ لِلْمُرَاقِبِ نَظْرُهُ فِي الهَمِّ وَالحِرْكَةِ أَهِيَ اللَّهُ أَمَ لِلهَوَى.

النَّظْرُ الثَّانِي لِلْمُرَاقِبَةِ: عِنْدَ الشُّرُوعِ فِي العَمَلِ، وَذَلِكَ بِتَفْقُذِ كَيْفِيَةِ العَمَلِ لِيَقْضِيَ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ، وَيَتَعَاطَاهُ عَلَى أَكْمَلِ مَا يُمْكِنُهُ، فَإِنْ كَانَ قَاعِدًا فَيَنْبَغِي أَنْ يَقْعُدَ مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ لِقَوْلِهِ ﷺ: «خَيْرُ المَجَالِسِ مَا اسْتَقْبَلَ بِهِ القِبْلَةَ». وَإِنْ نَامَ اسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ، وَقَدْ ذَكَرْنَا الأَدَابَ فِي مَوَاضِعِهَا، فَإِذَنْ لَا يَخْلُو العَبْدُ إِذَا أُنْ يَكُونُ فِي طَاعَةِ

أو معصية أو مُباح، فَمُرَاقَبْتَهُ فِي الطَّاعَةِ بِالْإِخْلَاصِ وَالْإِكْمَالِ وَمُرَاعَاةِ الْآدَابِ وَحِرَاسَتِهَا عَنِ الْآفَاتِ، وَمُرَاقَبْتَهُ فِي الْمَعْصِيَةِ بِالتَّوْبَةِ وَالتَّدْمِ وَالْإِقْلَاعِ وَالْحِيَاءِ وَالِاسْتِغْثَالَ بِالتَّفَكِيرِ، وَإِنْ كَانَ فِي مُبَاحٍ فَمُرَاقَبْتَهُ بِمُرَاعَاةِ الْأَدَبِ بِشُهُودِ الْمُنْعَمِ فِي النُّعْمَةِ وَبِالشُّكْرِ عَلَيْهَا.

ولا يخلو العبد في جُملة أحواله من بَلِيَّةٍ لا بدَّ له من الصبر عليها، ونعمة لا بدَّ له من الشُّكر عليها، وكل ذلك من المراقبة، بل لا ينفكُّ العبدُ في كل حال من فَرَضِ اللَّهِ عَلَيْهِ، إما فعل يلزمه مباشرة، أو محذور يلزمه تركه، أو نَدْبٌ حَثٌّ عَلَيْهِ لِيُسَارِعَ بِهِ إِلَى مَغْفِرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيُسَابِقَ بِهِ عِبَادَ اللَّهِ، أَوْ مُبَاحٌ فِيهِ صَلَاحٌ جِسْمِهِ وَقَلْبِهِ، وَفِيهِ عَوْنٌ عَلَى طَاعَتِهِ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ ذَلِكَ حَدُودٌ لَا بَدَّ مِنْ مُرَاعَاتِهَا بِدَوَامِ الْمُرَاقَبَةِ ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١]، فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَفَقَّدَ الْعَبْدُ نَفْسَهُ فِي جَمِيعِ أَوْقَاتِهِ فِي هَذِهِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ، فَإِذَا كَانَ فَارِغًا مِنَ الْفَرَائِضِ وَقَدَّرَ عَلَى الْفَضَائِلِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَلْتَمَسَ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ لِيَشْتَغَلَ بِهَا، فَإِنَّ مِنْ فَاتِهِ مَزِيدٌ رِيحٌ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى دَرْكِهِ فَهُوَ مَغْبُونٌ، وَالْأَرْبَاحُ تُنَالُ بِمَزَايَا الْفَضَائِلِ، فَبِذَلِكَ يَأْخُذُ الْعَبْدُ مِنْ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُمْكِنُ بِصَبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، فَإِنَّ السَّاعَاتِ ثَلَاثَةٌ: سَاعَةٌ مَضَتْ لَا تَعْبُ عَلَى الْعَبْدِ فِيهَا كَيْفَ مَا انْقَضَتْ فِي مَشَقَّةٍ أَوْ فِي رَفَاهِيَةٍ، وَسَاعَةٌ مُسْتَقْبَلَةٌ لَمْ تَأْتِ بَعْدُ، لَا يَدْرِي الْعَبْدُ أَيْعِيشُ إِلَيْهَا أَمْ لَا؟ وَلَا يَدْرِي مَا يَقْضِي اللَّهُ فِيهَا، وَسَاعَةٌ رَاهِنَةٌ يَنْبَغِي أَنْ يُجَاهِدَ فِيهَا نَفْسَهُ، وَيُرَاقِبَ فِيهَا رَبَّهُ، فَإِنَّ لَمْ تَأْتِ السَّاعَةُ الثَّانِيَةَ لَمْ يَتَحَسَّرْ عَلَى فَوَاتِ هَذِهِ السَّاعَةِ، وَإِنْ أَتَتْهُ السَّاعَةُ الثَّانِيَةَ اسْتَوْفَى حَقَّهُ مِنْهَا، كَمَا اسْتَوْفَى مِنَ الْأُولَى، فَيَكُونُ ابْنَ وَقْتِهِ، كَأَنَّهُ فِي آخِرِ أَنْفَاسِهِ، فَلَعَلَّهُ آخِرَ أَنْفَاسِهِ وَهُوَ لَا يَدْرِي، وَإِذَا أُمْكِنَ أَنْ يَكُونَ آخِرَ أَنْفَاسِهِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَى وَجْهِ لَا يَكْرَهُ أَنْ يُدْرِكَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ وَتَكُونُ جَمِيعُ أَحْوَالِهِ مَقْصُورَةً عَلَى مَا أَخْبَرْنَا بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ نَاصِرٍ قَالَ: أَبْنَاءُ أَحْمَدَ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ: أَخْبَرْنَا الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ قَالَ: أَخْبَرْنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ أَحْمَدُ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ أَبِي الْأَعْرَجِ عَنْ وَهَبِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ: فِي حِكْمَةِ دَاوُدَ: حَقُّ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ لَا يُشْغَلَ عَنْ أَرْبَعِ

ساعات: ساعة يُناجي فيها رَبَّهُ، وساعة يُحاسب فيها نفسه، وساعة يُفضي إلى إخوانه الذين يُخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه، وساعة يُخلي بين نفسه وبين لذاتها يحل ويحمل، فإن هذه الساعة عَوْنٌ على هذه الساعات وإجمامٌ للقوة، وحقٌّ على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه، حافظاً للسانه، مُقبلاً على شأنه، وحقٌّ على العاقل أن لا يظعن إلا في إحدى ثلاث: زادٍ لمعادٍ، ومروءةٍ للمعاش، أو لذّةٍ في غير مُحَرَّم.

### فصل

وهذه الساعةُ التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغي أن تخلو عن عملٍ هو أفضل الأعمال، وهو الذُّكر والفِكر، فإن الطَّعام الذي يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكَّر فيه وقطن له كان ذلك أفضل من كثيرٍ من أعمال الجوارح، والناسُ فيه أقسام:

قسمٌ ينظرون إليه بعينِ البصيرة والاعتبار، فينظرون في عجائبِ صنّعتِه، وكيفية تقدير الله تعالى لأسبابه، وخلق الشَّهوة الباعثة عليه، والآلات المُسخِّرة للشَّهوة فيه كما ذكرنا في كتاب الشُّكر، وهذا مقام ذوي الألباب.

وقسمٌ ينظرون إليه بعينِ المقتِ والكراهة، ويلاحظون وجه الاضطرابِ إليه، وبودِّهم لو استغنوا عنه، ولكنهم يرون أنفسهم مقهورين فيه، وهذا مقام الزاهدين.

وقوم يرون في الصنعة الصانع، ويترقَّون منها إلى صفات الخالق، فتكون مشاهدة ذلك سبباً لتذكُّر أبوابٍ من الفكر تفتح عليهم بسببه، وهو أعلى المقامات، وهو من مقامات العارفين وعلامات المحييين، إذ المحبُّ إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع، وكلُّ يتردّد فيه العبدُ صنُّعُ الله تعالى، فله في النَّظر منه إلى الصانع مجالٌ رحبٌ إن فُتحت له أبواب الملكوت، وذلك عزيزٌ جداً.

فهذه هي المُرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال، وشرح ذلك يطول، وفيما ذكرنا تنبيهً على منهاج لمن أحكم الأصول.

## المرابطة الثالثة:

### مُحاسبة النفس بعد العمل ولنذكر فضيلة المحاسبة، ثم حقيقتها

أما الفضيلة: فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الأعراف: ١٠٢]، وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا، وقد رويناه آنفاً.

وينبغي للعاقل أن تكون له ساعة يحاسب فيها نفسه، قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] والتوبة نَظْرٌ في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه، وقد قال النبي ﷺ: «إني لأستغفرُ اللهَ تعالى وأتوبُ إليه في اليومِ مئةَ مرَّةٍ».

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وقال الحسن: المؤمن قوَّامٌ على نفسه يُحاسب نفسه لله، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شقَّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير مُحاسبة، إن المؤمن يُفجؤه الشيءُ يُعجبه، فيقول: والله إنني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من صلَّةٍ إليك، هيهات حيلَ بيني وبينك. ويفرطُ منه الشيءُ فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردتِ إلى هذا؟ ما لي ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله. إن المؤمنين قوَّامٌ، وبفهم القرآن حيل<sup>(١)</sup> بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسيرٌ في الدنيا يسعى في فكاك رقبته،

(١) في الأصل: «وحوال».

لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله، يعلم أنه مأخوذٌ عليه في سَمِعِهِ، وفي بَصَرِهِ، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذٌ في ذلك كله.

وقال: إن العبدَ لا يزال بخيرٍ ما كان له واعظٌ من نفسه، وكانت المحاسبة من هِمَّتِهِ.

وقال ميمون بن مهران: لا يكون الرجل تقياً حتى يكون أشدَّ محاسبةً لنفسه من الشَّريك لشريكه.

وقال مالك بن دينار: رحمَ الله عبداً قال لنفسه: ألسنتِ صاحبةٌ كذا؟ ألسنتِ صاحبةٌ كذا؟ ثم زَمَّها ثم، حَطَمَها<sup>(١)</sup>، ثم أَلَزَمَها كتابَ الله عزَّ وجل فكان لها قائداً.

وقال إبراهيم التيمي: مَثَلت نفسي في الجنة أكلُ من ثمارها وأشربُ من أنهارها، وأعانقُ أبقارها، وتمثَّلت نفسي في النار أكلُ من زقومها، وأشربُ من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلَّالها، فقلتُ لنفسي: أيُّ نفسُ، أيُّ شيءٍ تُريدان؟ قالت: أريدُ أن أُرَدَّ إلى الدنيا فأعمل صالحاً. فقلتُ: فأنتِ في الأمانةِ فاعملي.

### بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أن العبدَ كما يكون له وقتٌ في أول النهار يُشارِط فيه نفسه على سبيل الوصية، فينبغي أن يكون له آخر النهار ساعة يُطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم، حرصاً منهم على الدنيا، وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في قوائمه، ولو حصل ذل لهم لم يبق إلا أياماً قلائل، فكيف لا يُحاسبُ العاقلُ نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد، ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق، نعوذ بالله من ذلك.

ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح وفي الخسران

(١) زَمَّها: وضع لها زماماً، وهو الحبل الذي يُقاد به البعير، وحَطَمَها: وضع لها خطاماً، وهو كل ما وضع في أنف البعير ليقتاد به.

ليتبين له الزيادة من التَّقْصان، فرأس مال العبد في دينه الفرائض، وريحه التَّوافل والفضائل، وخُسرانه المعاصي.

وموسم هذه التجارة جُملة النَّهار، ومعاملة نفسه الأمانة بالسوء، فليُحاسبها على الفرائض أولاً، فإن أدتها على وجهها شكرَ الله تعالى على ذلك، ورعَّبها في مثلها، وإن فوّتها من أصلها طالبها بالقضاء، وإن أدتها ناقصةً كلَّفها الجُبران، وإن ارتكبت معصيةً اشتغلَ بعقابها ومعاتبتها ليستوفي ما يتدارك به ما فرط، كما يصنع التاجر بشريكه، وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والتَّقْصان حتى لا يُغبنَ بشيءٍ منها، فينبغي أن يتقي غيبته<sup>(١)</sup> النَّفس ومكرها، فإنها خداعة مُلبَّسةٌ مكارة، فليطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة، وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه حتى عن سكوته لم سكت، وعن سكونه لم سكن.

فإذا عرف مجموع الواجب على النَّفس وصحَّ عنده قدرُ أداء الواجب فيه كان ذلك القدر محسوباً له فيظهر له الباقي على نفسه فليُثبته عليها وليكتبه على صحيفة قلبه، كما يكتب الباقي على شريكه على قلبه وعلى جريدة حسابه.

ثم النَّفسُ غريمٌ يمكن أن يستوفي منه الديون<sup>(٢)</sup>؛ أما بعضُها فبالعرامة والضمان، وبعضُها بردَّ عينه، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك، ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء.

ثم ينبغي أن يُحاسب النَّفس على جميع العُمر يوماً يوماً وساعةً ساعةً في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة، كما أخبرنا محمد بن ناصر وعلي بن أبي عُمر قالاً: أنبأنا رزقُ الله وطرادُ قالاً: أخبرنا أبو الحسين بن بشران قال: أخبرنا ابن صفوان قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثني رجلٌ من قريش ذكر أنه من ولد طلحة بن

(١) غبته يغينه: خدعه، والاسمُ الغيبة.

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «الديوان».

عُبِّدَ اللهُ، قال: كان تَوْبَةُ بِنِ الصُّمَّةِ بِالرَّقَّةِ، وكان محاسباً لنفسه، فحسبَ فإذا هو ابن ستين سنة، فحسبَ أيامها فإذا هي أحدٌ وعشرون ألفَ يومٍ وخمس مئة يوم، فصرخ وقال: يا ويلتا! ألقى المليك بأحدٍ وعشرين ألفِ ذنب! كيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب! ثم خرَّ مغشياً عليه، فإذا هو ميت، فسمعوا قائلاً يقول: يا لكِ رَكُضَةٌ إِلَى الفِرْدوسِ الأعلى<sup>(١)</sup>.

فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس، وعلى معصية القلب والجوارح في كل ساعة، فإن الإنسان لو رمى بكلِّ معصيةٍ يفعلها حجراً في داره لامتلات داره في مدةٍ يسيرة، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي، وهي مُثَبَّتَةٌ عليه ﴿أَحْصَنَهُ اللهُ وَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]

\* \* \*

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٧٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٤٤).

## المُرَابطة الرابعة

### في مُعاقبة النَّفس على تقصيرها

إذا حاسبَ المریدُ نفسَه فرأى معاصي وتقصيراً، فلا ينبغي أن يُهملها، فإن فعل سهلتَ عليه مُقارفةً<sup>(١)</sup> الذنوب، وأنستَ بها نفسُه، وعَسُرَ عليه فِطامُها<sup>(٢)</sup>، فينبغي أن يُعاقبها، إلا أن العقوبة ينبغي أن تكون مُباحةً، وكيف لا يُعاقبُ ولو صدر من ولده وأهله تقصيراً لم يحتمله ولعاقبهم أشدَّ العقاب.

إلا أنه ليس له أن يجلدَها بسوطٍ، ولا أن يمنعها ما يُقيمها، ولا يَغْتَرَّ بما يسمع أن رجلاً من بني إسرائيل وَضَعَ يدهُ على فَخْذِ امرأةٍ فَوَضَعَهَا فِي النَّارِ حَتَّى يَبْسَتْ، وأن آخرَ حَوَّلَ رِجْلَهُ لِيَنْزِلَ إِلَى امْرَأَةٍ ثُمَّ تَفَكَّرَ فَقَالَ: مَاذَا أَرَدْتُ أَنْ أَصْنَعُ؟ فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يُعِيدَ رِجْلَهُ قَالَ: هِيَهَاتُ! رِجْلٌ خَرَجَتْ إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ لَا تَرْجِعُ مَعِي. فَتَرَكَهَا حَتَّى تَقَطَّعَتْ بِالْمَطَرِ وَالرِّيَّاحِ، وَأَنْ آخَرَ نَظَرَ إِلَى امْرَأَةٍ فَقَلَعَ عَيْنَهُ، فَهَذَا كُلُّهُ رُبَّمَا كَانَ جَائِزاً فِي شَرِيعَتِهِمْ، فَأَمَّا فِي شَرَعِنَا فَمُحَرَّمٌ، وَقَدْ سَلَكَ نَحْوَهُ خَلْقٌ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِنَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْجَهْلِ بِالْعِلْمِ، مَعَ كَوْنِ أَكْثَرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ، وَلَكِنَّ الْعِلْمَ شَيْءٌ آخَرَ، وَذَلِكَ مَا رَوَيْنَا عَنْ غَزْوَانَ الزَّاهِدِ أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى امْرَأَةٍ فَلَطَمَ عَيْنَهُ حَتَّى نَفَّرَتْ، وَقَالَ: إِنَّكَ لِلْحَاظَةِ إِلَى مَا يَضُرُّكَ.

وقد رويْنَا عن ابنِ الكَرَنْبِيِّ<sup>(٣)</sup> أَنَّهُ أَصَابَتْهُ جَنَابَةٌ، وَكَانَ الْبَرْدُ شَدِيداً، وَأَنَّهُ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ تَوَقُّفاً عَنِ الْعُغْسِلِ، فَآلَى<sup>(٤)</sup> أَنْ لَا يَغْتَسِلَ إِلَّا فِي مُرَقَّعَتِهِ، وَأَنْ لَا يَنْزِعَهَا

(١) تصحفت في الأصل إلى: «مفارقة».

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «فطلبها»، والمثبت من الإحياء.

(٣) هو أبو جعفر ابن الكَرَنْبِيِّ البغدادي الصوفي، شيخ الجُنيد، تأدب أكثر نُسَّاك بغداد بآدابه، ترجمه الخطيب في تاريخه ٤١٣/١٤.

(٤) آلى: حلف.

ولا يعصرها، وكانت شديدة الكثافة تزيد على عشرين رطلاً<sup>(١)</sup>، وهذا جهل بالعلم؛ لأنه ليس للإنسان أن يتصرّف في نفسه بمثل هذا وقد ذكرت كثيراً من هذا الفن الصادر من المتعبدين على الجهل في كتابي المسمّى تبليس إبليس.

وإنما المعاقبة للنفس مثل حديث عمر: أخبرنا محمد بن أبي منصور قال: أخبرنا جعفر بن أحمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله ابن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أسباط قال: حدثنا ليث عن نافع عن ابن عمر قال: خرج عمر إلى حائط له، فرجع وقد صلى الناس العصر، فقال: إنما خرجت إلى حائطي فرجعت وقد صلى الناس، حائطي على المساكين صدقة. قال ليث: إنما فاتته الجماعة.

وكذلك روينا عن عمر أنه شغله أمرٌ عن المغرب حتى طلع نجمان، فلما صلاها أعتق رقتين.

وأخبرنا محمد بن أبي منصور، وعلي بن أبي عمر قالوا: أنبأنا رزق الله وطراد قالوا: أخبرنا ابن بشران قال: حدثنا ابن صفوان قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثني محمد بن الحسين قال: حدثني يونس بن يحيى عن مُنكدر بن محمد عن أبيه أنّ تميم الداري نام ليلة لم يقم يتهجّد فيها حتى أصبح، فقام سنة لم يتمّ فيها عقوبة للذي صنّع.

قال القرشي: وحدثنا خالد بن خدّاش عن حمّاد بن زيد، عن رزيق بن رذّيح عن سلمة بن منصور عن رجل كان يصحب الأحنف بن قيس، قال: كنتُ أصحابه فكان عامة صلواته بالليل الدعاء، وكان يجيء إلى المصباح فيضع إصبعه فيه، ثم يقول: حسّ<sup>(٢)</sup>. ثم يقول: يا حنيف، ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟

قلت: فهذا إذا قرّب يده إلى النار وجد حرّها من غير كبير أذى فيحصل من ذلك تذكّر العقاب لا الألم.

(١) تاريخ بغداد ٤١٤/١٤.

(٢) حسّ: كلمة تُقال عند الألم.

قال القرشي: وحدثنا الحسين عن عبيد الله بن محمد عن عبد الجبار بن النضر السلمي قال: مرَّ حسانُ بنُ أبي سنانَ بعُرْفَةَ، فقال: متى بُنيتَ هذه؟ ثم أقبل على نفسه، فقال: تسألين عما لا يعينك، لأعاقبتك بصومِ سَنَةِ: فصامها.

\* \* \*

## المُرَابطة الخامسة

### المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصيةً، فينبغي أن يُعاقبها على ما سبق ذكره، وإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيءٍ من الفضائل أو وُرِد من الأوراد، فينبغي أن يُؤدبها بثقل الأوراد عليها جبراً لما فات، وتداركاً لما فرط.

وقد ذكرنا عن عمر أنه فاتته صلاةٌ في جماعةٍ فأخيا تلك الليلة<sup>(١)</sup>.

فإن قال قائل: فإذا لم تطاوعني نفسي على الأوراد، فما سبيل معالجتها؟.

فالجواب: تكررُها ما استطعت، أخبرنا محمد وعلي قالوا: أخبرنا رزق الله وطراد قالوا: أخبرنا ابنُ بشران قال: حدثنا ابنُ صفوان قال: حدثنا أبو بكر بن عبيد قال: حدثني أبو عبد الرحمن قال: حدثني معدانُ بنُ سَمرة قال: سمعتُ أحمد بن الزبير قال: سمعتُ ابن المبارك يقول: إن الصالحين كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفواً، وإن أنفُسنا لا تكاد تُواتينا إلا على كره، فينبغي لنا أن نُكرهها.

ومما يُستعان به على النَّفس أن تُسمِعها ما ورد في فضل المجتهدين وتصحَب من تقدِر عليه منهم فتقتدي بأفعاله، قال بعضهم: كنتُ إذا اعترتني فترةٌ في العبادة نظرتُ إلى وجهِ محمد بن واسعٍ وإلى اجتهاده، فعملتُ على ذلك أسبوعاً. إلا أن هذا علاجٌ قد تعذَّر لفقْد المُجتهدين، فينبغي أن تعدل إلى سماع أخبار القوم، كما قال الشاعر:

فاتني أن أرى الديارَ بطرفي فلعلي أرى الديارَ بسَمعي

وقد كان عامرُ بن عبد قيس يُصلي كل يوم ألفَ ركعة، وكان الأسودُ بن يزيد

(١) الذي تقدم أن عمر رضي الله عنه تصدَّق بحائطه حينما فاتته صلاة العصر، والذي أحيا الليلة هو ابنه عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

يصومُ حتى يَخْضِرَ وَيَصْفَرَ، وَحَجَّ مَسْرُوقٌ فَمَا نَامَ إِلَّا سَاجِدًا، وَقِيلَ لِرَجُلٍ: صِفْ لَنَا الْأَحْنَفَ. فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَعْظَمَ سُلْطَانًا عَلَى نَفْسِهِ مِنْهُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَا الْمَجْتَهِدُ فِيكُمْ إِلَّا كَاللَّاعِبِ قَبْلَكُمْ. وَكَانَ دَاوُدَ الطَّائِي يَشْرَبُ الْفَتِيثَ<sup>(١)</sup> مَكَانَ مَضْغِ الْخُبْزِ، وَيَقُولُ: بَيْنَهُمَا قِرَاءَةُ خَمْسِينَ آيَةً. وَكَانَ كُرْزُ بْنُ وَبَرَةَ يَخْتَمُ كُلَّ يَوْمٍ ثَلَاثَ خَتَمَاتٍ، وَكَانَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَقَتَّحَ الْمُوصِلِي يَبْكِيَانِ الدَّمَ، وَصَلَى أَرْبَعُونَ نَفْسًا مِنَ الْقُدَمَاءِ الْفَجْرَ بَوْضُوءَ عِشَاءِ الْآخِرَةِ.

وَجَاوَرَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْجُرَيْرِيُّ سَنَةً فَلَمْ يَنَمْ، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ، وَلَمْ يَسْتَنْدِ إِلَى حَائِطٍ، وَلَمْ يَمُدَّ رَجْلَيْهِ، فَمَرَّ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ الْكِنَانِيُّ فَقَالَ: بِمَ قَدَرْتَ عَلَى هَذَا؟ فَقَالَ: عَلِمَ صَدَقَ بَاطِنِي فَأَعَانَنِي عَلَى ظَاهِرِي.

وَكَانَ بَيْتُ الْمُقَدَّسِ رَجُلٌ قَدْ بَكَى حَتَّى عَمِشَ، فَقِيلَ لَهُ: كَمْ تَبَقَى الْعَيْنُ عَلَى هَذَا الْبُكَاءِ؟ فَقَالَ: كَمْ شَاءَ رَبِّي فَلْيَكُنْ، وَإِذَا شَاءَ فَلْيَذْهَبْ، إِنَّمَا أَبْكِي رَجَاءَ الْفَرَحِ فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّ تَكُنَ الْآخِرَى، فَهُوَ وَاللَّهُ شَقَاءُ الدَّهْرِ وَحُزْنُ الْأَبَدِ. ثُمَّ غُشِيَ عَلَيْهِ.

وَدَخَلُوا عَلَى زُجَلَةَ<sup>(٢)</sup> الْعَابِدَةِ فَكَلَّمُوهَا فِي الرَّفْقِ بِنَفْسِهَا، فَقَالَتْ: إِنَّمَا هِيَ أَيَّامٌ مُبَادِرَةٌ، فَمَنْ فَاتَهُ الْيَوْمَ شَيْءٌ لَمْ يُدْرِكْهُ غَدًا، وَاللَّهُ يَا إِخْوَتَاهُ لِأَصْلِيِّنَ اللَّهُ مَا أَقَلَّتْنِي جَوَارِحِي، وَلَأَصُومَنَّ لَهُ أَيَّامَ حَيَاتِي وَلَأَبْكِيَنَّ مَا حَمَلَتِ الْمَاءَ عَيْنَايَ.

وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ فِي سَيْرِ الْقَوْمِ وَيَتَفَرَّجَ فِي بَسَاتِينِ مُجَاهِدَاتِهِمْ، فَلْيَنْظُرْ فِي كِتَابِي الْمَسْمُومِ بِصِفَةِ الصَّفْوَةِ، فَإِنَّهُ يَرَى مِنْ أَخْبَارِ الْقَوْمِ مَا يَعُدُّ نَفْسَهُ بِالْإِضَافَةِ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمَوْتَى، لَا بَلْ يَرَى مِنْ أَخْبَارِ الْمُتَعَبِّدَاتِ مِنَ النَّسْوَةِ مَا يَحْتَقِرُ نَفْسَهُ عِنْدَ سَمَاعِهِ، وَرُبَّ أَنْفَةٍ حَدَّثَتْ لِلْعَاقِلِ بَعْدَ تَفْرِيطِهِ إِذْ تُبَلِّغِي عَلَيْهِ حَدِيثَ أَوْلِي الْعَزْمِ.

فَإِنَّ قَالَتِ لَكَ النَّفْسُ: إِنَّمَا تَيْسَّرَ هَذَا عَلَى الْقُدَمَاءِ لِكَثْرَتِهِمْ وَتَأَسَّى بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، فَأَمَّا فِي هَذَا الزَّمَانِ فَإِنَّكَ إِنْ خَالَفْتَهُمْ رَأَوْكَ مَجْنُونًا وَسَخِرُوا بِكَ.

(١) الفتيت: كسر الخبز المفتوت، وقد تكون مُشربة بماء اللحم.

(٢) تصحفت في الأصل إلى: «رحلة»، وهي زُجَلَةُ الْعَابِدَةِ مَوْلَاةٌ لِمَعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَتْ

فقل لها: أرأيت لو هَجَمَ سَيْلٌ جَارِفٌ وثبتَ أهلُ البلدِ وقَدِرتِ على سَفِينَةٍ  
أفتتوقِّقين؟ كلاً بَلْ تأخُذِينَ الحَدَرَ وتستهزئين بالقاعِدين، فكيفَ لا يقع الهَرَبُ من  
نارِ الأَبَدِ وأنتِ مُتعرِّضَةٌ لها بسوءِ أفعالِك؟! .

\* \* \*

## الضَّرَابَةُ السَّادِسَةُ

### في توبيخ النفس ومعاتبتها

أنبأنا محمد بن أبي منصور وعلي بن أبي عمر قالوا: أخبرنا رزق الله وطراد قالوا: أخبرنا أبو الحسين بن بشران: قال: أخبرنا ابن صفوان قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثنا الحسين بن حماد قال: حدثنا إبراهيم بن عيينة قال: سمعت أبا الصباح يذكر عن أبي نصير عن مولى لأبي بكر قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: من مَقَّتْ نفسه في ذات الله آمنه الله من مَقَّتِهِ.

قال القرشي: وحدثنا داود بن عمرو بن محمد بن الحسن الأسدي عن جعفر بن سليمان قال: قال مالك بن دينار: إذا ذُكِرَ الصَّالِحُونَ فَأُفِّ لِي وَتُفِّ.

قال القرشي: وحدثنا هارون بن عبد الله قال: حدثنا معن بن عيسى عن مالك عن أنس عن إسحاق بن عبد الله عن أنس بن مالك قال: سمعتُ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه ودخل حائطاً، فسمعتَه يقول، وبينني وبينه جدار: عمرُ بن الخطاب أمير المؤمنين، بَخِ بَخِ، والله لتتقين الله بُنَيَّ الخَطَابِ أو ليعذَّبَنَّكَ.

قال القرشي: وحدثنا محمد بن يزيد العجلي قال: حدثنا أبو عامر العقدي قال: حدثنا فُرَّةُ عن الحسن: ﴿وَلَا أُقِيمُ بِالنَّفْسِ اللُّؤَامَةِ﴾ [القيامة: ٢] قال: لا تلقى المؤمن إلا يُعَاتِبُ نفسه: ماذا أردتُ بكلمتي؟ ماذا أردتُ بأكلتي؟ ماذا أردتُ بشربي؟ والفاجر يَمْضِي قُدماً لا يُعَاتِبُ نفسه.

قال القرشي: وحدثنا الحسن بن عرفة قال: حدثنا المبارك بن سعيد عن نُسَيْرِ بنِ دُغْلُوق قال: حدثنا عبد الله بن قيس الغفاري قال: كُنَّا فِي غَزَاةٍ لَنَا فَحَضَرَ عَدُوَّهُمْ، فَصِيحَ فِي النَّاسِ فَهَمَّ يَثُوبُونَ إِلَى مَصَافِهِمْ، إِذَا رَجُلٌ أَمَامِي رَأْسُ فَرَسِي عِنْدَ عَجْزِ فَرَسِهِ، وَهُوَ يُعَاتِبُ نَفْسَهُ، فيقول: أَيُّ نَفْسٍ، أَلَمْ أَشْهَدْ مَشْهَدَ كَذَا وَكَذَا، فَقُلْتِ لِي: أَهْلَكَ وَعِيَالَكَ، فَأَطَعْتُكَ فَرَجَعْتُ، وَاللَّهِ لَأَعْرِضَنَّكَ الْيَوْمَ عَلَى اللَّهِ أَخَذَكَ أَمْ تَرَكَكَ.

فقلتُ: لأرْمُقَهُ اليومَ، فَرَمَقْتُهُ، فحمل الناس على عدوهم فكان في أوائلهم، ثم إن العدو حمل على الناس فأنكشفوا فكان في حُماتهم، ثم إن الناس حملوا فكان في أوائلهم، ثم حمل العدو فأنكشَفَ الناسُ فكان في حُماتهم، فوالله ما زال ذلك دأبه حتى رأته صريعاً، فعددتُ به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة.

وقال البُخْترِيُّ بنُ حارثة: دخلتُ على عابدٍ فإذا بين يديه نارٌ قد أجبَّجها، وهو يعاتب نفسه، فلم يزل يعاتبها حتى مات.

واعلم أن أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمانة بالسوء مبالغة إلى الشر، وقد أمرت بتزكيتها وتقويمها وطمأنتها عن مُراداتها، وأن تقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها، وإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لزمها بالتوبيخ والمعاتبة رجونا أن تصير مُطمئنة، فلا تغفلن عن تذكيرها، وسبيلك أن تُقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها، وتقول: يا نفس، ما أعظم جهلك، تدعين الذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحماقة، أما تعلمين أنك صائرة إلى الجنة أو إلى النار، فكيف يلهو من لا يدري إلى أيتهما يصير؟ ربما اختطف في يومه أو في غده، أما تعلمين أن كل آت قريب وأن الموت يأتي بغتة من غير موعد، ولا يتوقف على سنٍ دون سن، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة، وإن لم يكن فيه الموت فجأة كان المرض فجأة، ثم يُفضي إلى الموت، فمالك لا تستعدين للموت وهو قريب منك، يا نفس، إن كانت جراتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك! وإن كانت مع علمك بأطلاعه عليك، فما أشد وقاحتك وأقل حياءك! ألك طاقة على عذابه؟ جربي ذلك عليك بالعود ساعة في الحمام، أو قربى إصبعك من النار، أتغترين بكرم الله تعالى، فمالك لا تُعولين على كرمه في مهمات دنياك فإذا قصدك عدو فلم تستنيطين الحيل<sup>(١)</sup> في دفعه ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى؟ ويحك يا نفس! كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب، أتظنين أنك إذا متَّ تخلصت؟ هيهات! لو أخبرك طفل أن في ثوبك

(١) تصحفت في الأصل إلى: «الجبل».

عقرباً لرميت ثوبك في الحال من غير مطالبةً بدليل وبرهان، أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء أقلّ عندك من قول صبي غبي؟ أم جهنّم وأغلالها أحقر من عقرب لا تحسّن بألمها إلا بعض يوم؟ ما هذه أفعال العقلاء، بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك، فإن كنت يا نفس قد عرفت ذلك وآمنت به فمالك تُسوفين بالعمل والموت بالمرصاد؟ أتأمنين استعجاله؟ ثم قدري أنّ الاجتهاد في آخر العمر موصلٌ إلى كلِّ مقصود فلعلّ اليوم آخر أيامك، فما هذا التوقّف؟ أفتنتظرين يوماً يأتيك لا تعسُرُ فيه مخالفة الهوى؟ أو ما الجنة محفوفةٌ بالمكاره؟ هيهات! إنّ ما تعجزين عنه اليوم أنت غداً عنه أعجز؛ لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبّد العبد بقلعها، فإذا عجز عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن عجز عن قطع شجرة وهو شاب قوي وأخرها إلى سنةٍ أخرى، مع العلم بأن طول المدّة يزيد الشجرة قوةً ورُسوخاً، ويزيد القالع ضعفاً ووهناً، فما لا يُقدّر عليه في الشّبَاب كيف يُطاق في المَشِيب؟ والقضب الرطب يقبل الانحناء، فإذا جفّ وطال عليه الزّمان لم يقبل ذلك.

فإن كان المانع لك من الاستقامة حُبّ الشهوات، فاطلبي الشهوات الباقية الصافية عن كدرها، وإن كنت ناظرةً لشهواتك فانظري لك بمخالفتها، فربّ أكلةٍ منعت أكالات.

وما قولك في عقلٍ مريضٍ أشار عليه الطبيبُ بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصحّ ويتهنأ بشربه طول عمره، فما مُقتضى العقل في قضاء حقّ الشهوة أيسر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر أم يقضي شهوته في الحال ثم يلزمه الألم أبداً؟ وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر، بل أقل من لحظةٍ بالإضافة إلى عمر الدنيا. وليت شعري ألم الصبر عن الشهوات أشدّ وأطول أم ألم النار في الدركات؟ فمن لا يطيق الصبر على المجاهدة كيف يطيق ألم العذاب في الآخرة؟

ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفرٍ خفي أو لحُمقٍ جلي، أما الكفر الخفي؛ فهو ضعفُ إيمانك بالجزاء، وأما الحُمق الجلي؛ فاعتمادك على العفو

والكُرم من غير التيفات إلى المَكْرِ والاستِدراج .

أما علمت أن كلَّ من يلتفتُ إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموتَ من ورائه، فإنما يستكثر من الحسرة عند المُفارقة .

واعجباً لمن يبني قصراً مرفوعاً إلى السماء وقبره محفورٌ تحت الأرض، يعمرُ الدنيا وهو مُرتحلٌ عنها يقيناً، ويُخربُ الأخرى وهو صائرٌ إليها قطعاً .

أشعلك حُبُّ الجاه؟ أما بعدَ ستين سنة لا تبقين أنتِ ولا مَنْ كان لك عنده جاه، هلاً تركتِ الدنيا لِحسنةٍ شركائها، وكثرةِ عنائها، وحذراً من سرعةِ فنائها، أتستبدلين بجوار ربِّ العالمين صفَّ النعال في صُحبةِ الحمقى؟ قد ضاع أكثرُ البضاعة، وقد بقيت من العمرِ صُبابة<sup>(١)</sup>، فلو استدركتِ ندمتِ على ما ضاع، فكيف إذا أضفتِ الأخير إلى الأول؟ أما الموتُ موعداً، والقبرُ منزلِك، والترابُ فراشك، والدُّود أنيسك، والفرعُ الأكبر بين يديك، وعسكرُ الموتى في انتظارك، أما علمتِ أنهم يتمنُّون الرجوعَ ولو يوماً ليستدرکوا ما فرطَ من تفریطهم، وها أنتِ في أمنيتهن تعجبين بعملك، وفيه من الآفات ما لو نجوت منها رأساً برأسٍ كان الرِّيح في يدك، أي وجهٍ للعُجب مع كثرةِ الخطايا وبوادةٍ منها أخرجَ أبوك؟ تفرحين بزيادة مالك ولا تحزنين لنقصانِ عُمرِك، تُعرضين عن الآخرة وهي مُقبلة عليك، وتُقبلين على الدنيا وهي مُعرضةٌ عنك، وكم من مُستقبلٍ يوماً لا يستكملُه، وكم من مُؤمِّلٍ غداً لا يبلُغُه، اعلمي في أيامِ قصارِ طِوال، وأعدِّي للسؤالِ الجواب، اخرجي من الدنيا خُروجَ الاختيار قبل أن يكون خُروجُ اضطرار، إنه من كانت مَطِيئته الليل والنهار سيرَ به وإن لم يسر، تفكرِّي في هذه الموعظة، فإن عَدمت تأثيرها فابكي على ما أُصبت به، فمستقى الدَّمع من بحرِ الرَّحمة .

آخر كتاب المحاسبة والمراقبة

\* \* \*

(١) الصُّبابة: البقية القليلة من الماء ونحوه .

## كِتَابُ التَّفَكُّرِ

الحمدُ لله الذي لم يطرُق إلى ساحةِ صمديّته وهماً ولا فِكْراً، ولم يجعل للحسَّ في حلّبةِ أحديّته سبيلاً ولا مجرى، فكلما أسرى الفكرُ نحو عزّته رُدَّ في السرى موثقاً أسيراً، وكلما جال الوهمُ في عَظْمته عادَ ربحه خُسْراً، وكلما رامَ العقلُ فهمَ حكمته قيل له: لقد جنّت شيئاً إمراً، وكلما دخلت الثُفوس مع معرفته حَيْزاً وقفت حَيْرِي، وكلما عطشت سُقيت من كأسِ الدّهش فأصبحت سَكْرِي، فإذا صحّت شاهدت بحارَ الأقدارِ فائضةً على الخلقِ خيراً وشرّاً، ونفعاً وضرّاً، وإيماناً وكُفْراً، عُرْفاً ونُكْراً، لا يشاؤون إلا أن يشاء فقد ملكهم قهراً، فلما عرفت عجزها وعلمت أنها لا تملك أمراً، همّت بالانصراف آيسَةً فنوديت من سُرادِقاتِ الجلالِ: صبراً صبراً، فإن مع العسرِ يُسرأ، إن مع العسرِ يُسرأ.

أحمدُه على نعمِ جمّةٍ تتوالى وتُتَثَرِي، وأقرُّ بواحدانيته إقرار من يرى الدارين إلا منه قفراً، وأصلي على رسوله محمدٍ الذي به إلى قابِ قوسين أسرى، وعلى أصحابه كل منهم في سماءِ الدين بَدْراً، ولطوائف المسلمين صدراً، وتابعيهم بإحسانٍ صلاةً تعيد على من أجرى ذكرهم أجراً، وسلّم، أما بعد:

فإنَّ الله عزَّ وجلَّ قد حثَّ على التَّدبُّرِ والاعتبارِ والنَّظَرِ والافتِكَارِ، وجاء في الحديث: «فِكْرَةُ سَاعَةٍ خَيْرٌ من عِبَادَةِ سَنَةٍ».

ثم لا يخفى أن الفكرَ هو مفتاحُ الأنوارِ ومبدأُ الاستبصارِ، وشبكةُ العلومِ ومصيدةُ الفهومِ، وأكثرُ الناسِ قد عرفوا فضلَه ورُتبتَه ولكن جهلوا حقيقته وثمّرتَه، ومصدرَه وموردَه، ومجرَاهِ ومسرّحِه، وطريقه وكيفيته، فلا يدري أحدهم كيف يتفكّر، ولماذا يتفكّر، وفيماذا يتفكّر، وما الذي يطلب به، أهو مرادٌ لعينه أم لثمره

تُستفاد منه، وإن كان لثمرةٍ فما تلك الثمرة؟ أهي من العلوم أو من الأحوال أو منهما جميعاً؟

وكشفُ جميع ذلك مهمٌ، ونحن نذكرُ الآن فضيلةَ التَّفكُّر، ثم حقيقةَ التَّفكُّر وثمرته، ثم مجاري الفكر ومسارحه إن شاء الله تعالى.

\* \* \*

## فضيلة التَّفَكُّر

قد أمر الله عزَّ وجل بالتفكُّر والتدبُّر في كتابه العزيز في مواضع كثيرة، وأثنى على المتفكرين فقال عز وجل: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ [الروم: ٨]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ خَلْقِكُمْ أَتَفَكَّرُونَ﴾ [سبأ: ٤٦]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١].

أبنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا عاصم بن الحسن قال أخبرنا ابن بشران قال: أخبرنا ابن صفوان قال: أخبرنا أبو بكر القرشي قال: حدثنا شجاع بن الأشرس قال: حدثنا حشرج ابن نباتة عن الكلبي، يعني: أبا جناب، عن عطاء قال: انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة، فقال ابن عمر: أخبرينا بأعجب شيء رأيت من رسول الله ﷺ. قال: فبكت وقالت: كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال: «ذريني حتى أتعب لربي عز وجل» فقلت: والله إني لأحب فربك، وإني لأحب أن تعبد ربك. قالت: فقام إلى القربة فتوضأ منها ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكي حتى بلَّ لحيته، ثم سجد حتى بلَّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه يبكي حتى أتاه بلال يوقظه لصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله، ما يُبكيك وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم منه وما تأخر؟ قال: «ويحك يا بلال، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل علي هذه الليلة»: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها».

قال القرشي: وحدثنا إسماعيل بن عبد الله بن زُرارة قال حدثنا علي بن ثابت قال: حدثنا الوازع بن نافع عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَفَكَّرُوا فِي آيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة ٣/٥٢٥، وأبو الشيخ في العظمة ١/٢١٠.

قال القُرشي: وحدثنا عبد الأعلى بن واصل الأسدي قال: حدثني أحمد بن عاصم العباداني قال: حدثني حفص بن عمر بن ميمون بن عنبسة بن عبد الرحمن الكوفي عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطوا أنفسكم حظها من العبادة» قالوا: يا رسول الله وما حظها من العبادة؟ قال: «النظر في المصحف، والتفكير فيه، والاعتبار عند عجايبه».

قال القُرشي وحدثني إسحاق بن حاتم المدائني قال: حدثنا يحيى بن سليم عن عثمان بن أبي دهرس، قال: بلغني أن رسول الله ﷺ انتهى إلى أصحابه وهم سُكُونٌ لا يتكلمون فقال: «ما لكم لا تكلمون؟» قالوا: نتفكر في خلق الله عز وجل. قال: «فكذلك فافعلوا، تفكروا في خلقه ولا تفكروا فيه، فإن بهذا المغرب أرضاً بيضاء نورها بياضها وبياضها نورها مسيرة لشمس أربعين يوماً، بها خلق من خلق الله لم يعصوا الله طرفة عين قط» قالوا: فأين الشيطان عنهم؟ قال: «ما يدرون خلق الشيطان أم لم يُخلق»، قالوا: من ولد آدم هم؟ قال: «ما يدرون خلق آدم أم لم يُخلق».

قال القرشي: وحدثني أحمد بن عيسى المصري، قال: سمعت رشدين بن سعد قال: تفكر ملك في ربه عز وجل فصيح به، فهام فسُمي: المفكر.

أخبرنا ابن ناصر قال: أخبرنا جعفر بن أحمد قال: حدثنا الحسن بن علي التميمي قال: حدثنا أبو بكر بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

قال الإمام أحمد: وحدثنا وكيع عن مالك بن مغول عن عون قال: سُئِلت أم الدرداء: ما كان أفضل عمل أبي الدرداء؟ قالت: التفكير والاعتبار.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: ركعتان مُقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة والقلب ساه. وقال: لأن أقرأ البقرة في ليلة وأنفكر فيها أحب إلي من أن أقرأ القرآن هَذْرَمَةً<sup>(١)</sup>.

(١) الهَذْرَمَةُ: الإسراع في القراءة.

وقال أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ: ما شَهِدْتُ جَنَازَةً قَطْ فَحَدَّثْتُ نَفْسِي بِغَيْرِ مَا هِيَ إِلَيْهِ صَائِرَةٌ.

وقال الحَوَارِيُّونَ: يَا رُوحَ اللَّهِ، هل في الأَرْضِ مثلك؟ قال: نعم، من كان مَنطقه ذَكَراً، وَصَمَتُهُ فِكْراً، ونظره عِبْراً، فإنه مثلي.

وكان لُقْمَانُ يَجْلِسُ وَحْدَهُ فَسُئِلَ عَن ذَلِكَ، فقال: طُولُ الوَحْدَةِ أَفْهَمُ لِلْفِكْرَةِ، وطُولُ الفِكْرَةِ دَلِيلٌ عَلَى طَرِيقِ الجَنَّةِ.

قال الحسن: الفِكْرَةُ مِرَاةٌ تُرِيكَ حَسَنَاتِكَ وَسَيِّئَاتِكَ. وقال: أَفْضَلُ العِبَادَةِ التَّفَكُّرُ وَالوَرَعُ. وقال: من لم يَكُنْ كَلَامُهُ حِكْماً فهو لَعْوٌ، ومن لم يَكُنْ سُكُوتُهُ تَفَكُّراً فهو سَهْوٌ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ نَظْرُهُ عِتْبَاراً، فهو لَهْوٌ. وقال: ما زال أَهْلُ العِلْمِ يَعودون بالتَّفَكُّرِ عَلَى التَّذْكَرِ، وبالتَّذْكَرِ عَلَى التَّفَكُّرِ، وَيُنَاطِقُونَ القُلُوبَ حَتَّى نَظَّمَتْ، فإذا لها أَسْمَاعٌ وَأَبْصَارٌ، فنظمت بالحكمة، وضربت الأمثال، وأورثت العلم.

وقال سَعِيدُ بْنُ المَسِيَّبِ: العِبَادَةُ التَّفَكُّرُ فِي أَمْرِ اللَّهِ، وَالكَفُّ عَنِ مَحَارِمِ اللَّهِ.

وقال وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: ما طالت فِكْرَةٌ أَمْرِيَّ قَطَّ إِلَّا فَهِمَ، وما فَهِمَ إِلَّا عَلمَ، وما عَلمَ إِلَّا عَمِلَ.

وقال عامر بن عبد قيس لرجل: عليك بالصمت والحزن والفكر، فإنك إن نلت ذلك لم تدع للعابدين مقاماً.

وقال سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: الفِكْرَةُ نُورٌ تُدْخِلُهُ قَلْبَكَ. وكان يُشَدُّ:

إِذَا المَرءُ كَانَتْ لَهُ فِكْرَةٌ فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ عِبْرَةٌ

وقيل لإبراهيم بن أدهم: إنك لتُطِيلُ الفِكْرَةَ. فقال: الفِكْرَةُ مُخُّ العَمَلِ.

وقال بِشْرُ الحَافِي: لو تَفَكَّرَ النَّاسُ فِي عَظْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَمَا عَصَوْهُ.

وقال الفِرْيَابِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ

الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، قال: أَمْنَعُ قُلُوبَهُم مِّنَ التَّفَكُّرِ فِي أَمْرِي.

وقال أبو عبيدة الخواص: الحزنُ جلاءُ القلوب، به تستنير مواضع الفكرة.

وقال غيره: ما جُلِيَتِ القلوب بمثل الأحزان، ولا استنارت بمثل الفكرة.

وقال صالح المُرِّي: للبكاءِ دَواع: الفكرةُ في الذنوب، فإن أجابت على ذلك القلوب، وإلا نقلتها إلى الموقف وتلك الشدائد والأهوال، فإن أجابت إلى ذلك وإلا فاعرض عليها التقلُّب في أطباق النيران.

بات هَرَم بن حَيَّان عند حُمَمَة، فبات حُمَمَة يبكي إلى الصُّباح، فقال له هَرَم: ما أبكاك؟ فقال: ذكرتُ ليلةً صبيحتها تنأثر نُجوم السماء.

خرج الربيعُ بن خيثم يمشي مع ابن مسعود، فمرَّ على حداد فوقف الربيع ينظر إلى الحديدية في النار، فتمايل ليسقط، ثم مرَّ على أتون<sup>(١)</sup> فلما رأى ابن مسعود النار تلتهب فيه قرأ ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]، فصعق الربيعُ بن خيثم، فحمل إلى أهله، فلم يفق إلا في الليل.

وكان عمرو بن عُتبة يخرج على فرسه ليلاً فيقف على القبور، فيقول: يا أهل القبور، قد طويت الصحف، قد زفعت الأعمال، ثم يبكي ثم يصف قدميه<sup>(٢)</sup> حتى يصبغ.

وقال أبو عاصم الحَبْطي: كنتُ أمشي مع محمد بن واسع فمررنا على المقابر، فقال: لا يغرنك ما ترى من حمودها، فكأنك بهم قد وثبوا فمن بين مسرورٍ ومغمومٍ.

وكان طاووس إذا مرَّ بالرؤوس المشوية في السوق لم يتعش تلك الليلة.

وقام زيد ليلةً ليتهدج، فأدخل يده في مطهرة فوجد برد الماء، فلم يزل كذلك حتى أصبح، فقالت الجارية: لم تصل الليلة؟ قال: إني ذكرتُ ببرده الزمهير فما شعرتُ ببرده.

ووقف مالك بن دينار ليلةً في صحن داره إلى الفجر، وقال: ما زال أهل النار يعرضون عليّ بسلاسلهم وأغلالهم إلى الصُّباح.

(١) الأتون: الموقد الكبير، كموقد الحمام.

(٢) يصف قدميه، أي: يقف قائماً يصلي.

وكان بعض السلف يقول: زوروا القبور كل يوم بفكركم، وشاهدوا الموقف كل يوم بغيوبكم، وانظروا إلى مُنصَرَفِ الفَرِيقِينَ بَتَّوْهِمِكُمْ، واشعروا عذاب النار ومقاميها، فمختارٌ لنفسه من جَنَّبَها دخولها.

وكان عمر بن عبد العزيز يوماً ساكناً، وأصحابه عنده، فقالوا: مالك لا تتكلم؟ قال: كنت أتفكر في أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وفي أهل النار كيف يتشاجرون فيها. وجمَعَ الناس يوماً فَحَطَبَهُمْ وقال: إني فَكَّرْتُ في هذا الأمر الذي أنتم إليه صائرون (مجتمعون، فمن صادقٍ ناجٍ ومكذب هالك)<sup>(١)</sup>.

وكان داود الطائي على سَطْحٍ في لَيْلَةٍ فَمَرَّاء فَتَفَكَّرَ في ملكوت السماوات والأرض، فوقع إلى دار جارٍ له، فوثب الرجل عرياناً وبیده سَيْفٌ، فلما رآه قال: يا داود، ما الذي ألقاك؟ قال: ما شعرتُ بذلك.

وقال يوسف بن أسباط: إن الدنيا لم تُخَلَقْ لِيُنظَرَ إليها، بل لِيُنظَرَ بها إلى الآخرة. قال: وكان سُفيان من شِدَّةِ الفِكرةِ يبولُ الدَّم.

وقال ابنُ المبارك يوماً لسهل بن علي ورآه متفكراً: أين بلغت؟ فقال: السراط. وقرأ عليه يوماً فأطال القراءة، فقال عبد الله: ما تظنون به؟ قالوا: حُبُّ القِرَاءَةِ. قال: أما الذي أظنُّ فيه أنه ما يعلم أن بحضرته أحداً.

وكانت امرأةٌ تسكنُ البادية تقول: لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قد اذخر لها في حُجْبِ الغيوب من خير الآخرة لم يَصِفَ لهم في الدنيا عَيْشٌ ولم تَقَرَّ لهم في الدنيا عَيْن.

وبينا أبو شُرَيْح<sup>(٢)</sup> يمشي إذ جلس فتقنَّع بكسائه فجعل يبكي، فقيل له: ما يُبكيك؟ فقال: تفكَّرتُ في ذهابِ عُمرِي واقترابِ أَجَلِي.

حدثنا أبو بكر بن حبيب قال: أخبرنا أبو سعيد بن أبي صادق قال: حدثنا أبو عبد الله بن باكوية قال: حدثنا محمد بن داؤويه قال: حدثنا عبد الله بن سهل قال:

(١) غير واضح في الأصل.

(٢) هو أبو شريح عبد الرحمن بن شريح المعافري، توفي سنة (١٦٧هـ).

سمعتُ يحيى بن مُعَلَّى الرازي يقول: لو سمعَ الخَلَاتِقُ صوتَ النياحةِ على الدنيا في الغيب من ألسنةِ الفناء، لمِلَّتِ القلوبُ منهم حزناً، ولو رأتِ العقولُ بعيون الإيمان نزهة الجنة لذابتِ النفوسُ شوقاً، ولو أدركتِ القلوبُ كُنْهَ المحبَّةِ لخالقها لتخلَّعت مفاصلها ولهاً، ولطارتِ الأرواحُ إليه من أبدانها دَهْشاً، سبحان مَنْ أغفلَ الخليفةَ عن كُنْهِ هذه الأشياءِ، وألهاهم بالوصفِ عن حقائقِ هذه الأنبياءِ.

وقال أبو بكر الكناني: رَوْعَةٌ عند انتباهةٍ من عَقْلَةٍ، وانقطاعٍ عن حَظِّ نَفْسَانِي، وارتعادٌ من خَوْفِ قَطيعَةٍ أَفضَلُ من عبادَةِ الثَّقَلَيْنِ.

أنبأنا إسماعيل قال: أخبرنا عاصم قال: أخبرنا ابنُ بشران، أخبرنا ابنُ صفوان قال: حدثنا عبد الله بن محمد قال: حدثني هارون بن سفيان، قال: حدثني عبد الله بن صالح قال: سمعتُ محمد بن النَّضْر الحارثي يقول: إن رجلاً تعبَّد في بني إسرائيل وكان الرجل منهم إذا تعبَّد ثلاثين سنةً أظَلَّتْهُ غمامةٌ، فتعبَّد الرجلُ ثلاثين سنةً فلم يَرِ شيئاً يُظِلُّهُ، فَشَكَى ذلك إلى أمه فقال: يا أماه إني قد تعبَّدتُ ثلاثين سنةً ولا أرى شيئاً يُظِلُّني. فقالت: يا بُنَيَّ، فَكَّرْ هل عملتُ ذنباً منذ أخذت في عبادتك. قال: لا أعلمه. قالت: يا بُنَيَّ، فَكَّرْ هل هَمَمْتُ؟ فَفَكَّرْ ثم قال: ولا هَمَمْتُ. فقالت: يا بُنَيَّ، بَقِيَتْ خَصْلَةٌ إن نجوت منها رجوت أن يُظَلِّكَ، قال: وما هي؟ قالت: رَفَعْتُ طَرَفَكَ إلى السماءِ ثم رَدَدْتَهُ بغيرِ فِكرةٍ؟ قال: كثيراً (فقالت: هي تلك) (١).

وقال جنْدُب بن سُفيان: دخلتُ ديراً فيه رُهبانٌ فقلت: مَنْ هاهنا أشدُّ اجتهاداً؟ فأشاروا إلى موضعٍ في الدير، فدخلته فإذا فيه قومٌ جلوسٌ، فقلتُ: أيُّ شيءٍ تعملون؟ قالوا: نُصَفِّي. فقلتُ: أيُّ شيءٍ تُصَفُّون؟ قالوا: نتفكَّر.

وقال بعضُ الحكماء: مَنْ نظر إلى الدنيا بغيرِ العبرةِ انطمسَ من قلبه بقَدْرِ تلك العَقْلَةِ.

أنبأنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا عاصم بن الحسن قال: أخبرنا أبو

الحُسَيْن بن بِشْران قال: حدثنا ابنُ صَفْوان قال: حدثنا أبو بكرِ القُرشي قال: كان رجلٌ من أهلِ النُّعْمَةِ واليَسارِ له جاريةٌ كان بها مشغوفاً وكان يتمنى الولدَ منها، فمكثت عنده سنين ثم إنها اشتملت على ولدٍ فاشتدَّ سروره بذلك وطالت عليه الأيامُ لشوقه إلى ولدِها حتى إذا استكملت شهورها وضربها الطلقُ عرضت له علةٌ فمرضَ أياماً يسيرةً، وهي في طلقها، ثم إن الموتَ نزلَ به، وولدت الجاريةُ غلاماً في الليلة التي ماتَ فيها، فقال رجلٌ من قُرَيْشٍ يَعْتَبِرُ بذلك:

فِيمَنْ مَضَى لَكَ إِنَّ فَكَّرْتَ مُعْتَبِرٌ      فِي الْيَالِي فِي الْأَيَّامِ مُزْدَجِرٌ  
بَيْنَا الْفَتَى بِلَذِيذِ الْعَيْشِ مُغْتَبِطٌ      إِذْ صَارَ فِي الْقَبْرِ لَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ  
لَوْلَمْ يَرِ الْمَرْءُ إِلَّا مَا يُعَايِنُهُ      لَكَانَ فِيهِ لَهُ وَعَظٌ وَمُدَّكِرٌ  
أَمَا رَأَيْتَ ابْنَ حَفْصٍ يَرْتَجِي ذِكْرًا      مِنْ مُنِيَّةِ زَانِهَا مَعَ دَلِّهَا خَفْرٌ  
لَمَا دَنَا ذَاكَ مِنْهَا وَامْتَلَا فَرَحًا      وَمَدَّ عَيْنَيْهِ لِلْمَوْلُودِ يَنْتَظِرُ  
إِذَا الْمَنِيَّةُ قَدْ وَافَقَتْهُ مِنْ كَثَبٍ      وَالصَّفْوُ لَا بُدَّ مَقْرُونٌ بِهِ الْكَدْرُ  
فَهُوَ يُعَالِجُ كَرْبَ الْمَوْتِ مُشْتَغَلًا      وَتَلَكَ فِي الطَّلُقِ قَدْ حَلَّتْ بِهَا الْغَيْرُ  
لَمْ يَلْبِثِ الْمَرْءُ حَتَّى مَجَّ مُهَجَّتَهُ      وَأَتْبَعَ الْمَيِّتَ مَوْلُودٌ لَهُ ذَكْرٌ  
يَا يُتَمَّهُ قَبْلَ أَخْذِ الْقَابِلَاتِ لَهُ      أَضْحَى يَتِيمًا وَلَمْ تُقَطَعْ لَهُ السَّرْرُ  
مَنْ ذَاتَهْنَا بِهِ مَنْ ذَا يُسَرُّ بِهِ      لَا يَعْرِفُ الْأَبُ إِنْ أَلْفَى لَهُ عُمُرُ  
يَا لَهْفَتِي لِلَّذِي وَلَّى بِحَسْرَتِهِ      وَرَحْمَتِي لِلَّذِي لَمْ يُنْجِهِ الصَّغْرُ  
هَذَا قَضَاءُ إِلِهِ النَّاسِ فَاضْطَبِرِي      فَالصَّبْرُ أَفْضَلُ شَيْءٍ نَالَهُ بَشَرٌ

قال القُرشي: هذه الجاريةُ كانت لنا ثم صارت لغيرنا.

قال: وأنشدني أبو جعفر القُرشي:

وَإِذَا نَظَرْتَ تُرِيدُ مُعْتَبِرًا      فَانظُرْ إِلَيْكَ فَفِيكَ مُعْتَبِرٌ  
أَنْتَ الَّذِي يُمَسِّي وَيُصْبِحُ فِي الْـ      دُنْيَا وَكُلِّ أَمُورِهِ غَرْرٌ

أنت المَصْرَفُ كان في صِعْرِ      ثم استقلَّ بِشَخِصِكَ الكِبَرُ  
 أنت الذي تَنَعَاهُ خِلْقَتُهُ      يَنَعَاهُ مِنْهُ الشَّعْرُ والبَشَرُ  
 أنت الذي تُعْطَى وتُسَلَبُ لا      يُنْجِيهِ مِنْ أَنْ يُسَلَبَ الحَذَرُ  
 أنت الذي لا شَيْءَ مِنْهُ لَهُ      وَأَحَقُّ مِنْهُ بِمَالِهِ القَدْرُ

### بيان حقيقة الفكر وثمرته

اعلم أن معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة .

ومثاله: أن من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة، فله طريقتان:

أحدهما: أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا، فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر، وهذا لا يسمى معرفة .

والطريق الثاني: أن يعرف أن الأبقى أولى بالإيثار، ثم يعرف أن الآخرة أبقى، فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهي أن الآخرة أولى بالإيثار، ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين، فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكراً، واعتباراً، وتذكراً، ونظراً، وتأملاً، وتدبراً.

أما التدبر والتأمل والتفكير؛ فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معانٍ مختلفة، وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر؛ فهي مختلفة المعاني وإن كان أصل المسمى واحداً، كما أن اسم الصارم والمهتد والسيف يتوارد على شيء واحد ولكن باعتباراتٍ مختلفة؛ فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع، والمهتد يدل عليه من حيث نسبته إلى الموضع، والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعارٍ بهذه الزوائد، فكذلك الاعتبار ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث إنه يعبرُ منهما إلى معرفة ثالثة، فإن لم يقع العبور ولم يكن إلا التوقف على المعرفتين فينطلق عليه اسم التذكر، لا اسم الاعتبار .

وأما النظر والتفكير فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة، فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يُسمى ناظراً، فكل مُتفكّر فهو مُتذكر، وليس كل مُتذكر مُتفكّر.

وفائدة التذكّر تكرار المعارف على القلب لتترسخ وتثبت ولا تنمحي عن القلب، وفائدة التفكّر تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلّة، فهذا هو الفرق بين التذكّر والتفكّر.

والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوّجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر، وهكذا يتمادى النتاج، وتتمادى العلوم، ويتمادى الفكر إلى غير نهاية، وإنما ينسُدُّ طريق زيادة<sup>(١)</sup> العلوم بالموت أو بالعوائق، هذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدي إلى طريق التفكير، وأما أكثر الناس فإنما مُنعوا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال، وهي المعارف التي منها تُستثمر العلوم، كالذي لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الرّبح، وقد يملك البضاعة ولكن لا يُحسن صناعة التجارة، فلا يربح شيئاً، وكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكنه ليس يُحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج المُفضي إلى النتاج فيها.

ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور إلهي في القلب يحصل بالفطرة، كما كان للأنبياء صلوات الله عليهم، وذلك عزيز جداً، وقد تكون بالتعلّم والممارسة وهو الأكثر.

ثم المُتفكّر قد تحضّره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها، ولا يقدر على التعبير عنها لقلة ممارسته لصناعة التعبير في الإيراد، فكم من إنسان يعلم أنّ الآخرة أولى بالإيثار علماً حقيقياً، ولو سُئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيرادها والتعبير عنه، مع أنه لم تحصل معرفته إلا عن المعرفتين السابقتين، وهو أن الأبقى أولى بالإيثار، وأن الآخرة أبقى من الدنيا، فتحصل له معرفة ثالثة وهي أن الآخرة أولى بالإيثار، فرجع حاصل الفكر إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة.

(١) سقطت من الأصل، واستدركت من الإحياء.

وأما ثمرة الفكر؛ فهي العلوم والأحوال والأعمال، ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير، بلى إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح، فالعمل تابع الحال، والحال تابع العلم، والعلم تابع الفكر، فالفكر إذن هو المبدأ أو المفتاح للخيرات كلها، وهذا هو الذي يكشف لك عن فضيلة التفكر، وأنه خير من الذكر والتذكر والتذكر أفضل من جملة الأعمال، وإنما فضل التفكر لأنه ينقل من المكاره إلى المحاب.

وإذا أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر، فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة، فإن الفكر فيه يُعرفنا أن الآخرة أولى بالإيثار، فإذا رسخت هذه المعرفة يقيناً في قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا، وهذا ما عيّنناه بالحال إذا كان حال القلب قبل هذه المعرفة حُبّ العاجلة والميل إليها وقلة الرغبة في الآخرة، وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت إرادته ورغبته، ثم أُمّر بتغير الإرادة أعمال الجوارح في أطراح الدنيا والإقبال على أعمال الآخرة.

فها هنا خمس درجات:

أولها: التذكر، وهو إحضار المَعْرِفَتَيْنِ في القلب.

وثانيها: التفكر، وهو طلب المعرفة المقصودة منهما.

والثالثة: حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها.

والرابعة: تغير حال القلب عما كان بسبب حصول المعرفة.

والخامسة: خدمة الجوارح للقلب بحسب ما تجدد له من الحال، فكما يضرب الحجر على الحديد فتخرج نارٌ يستضيء بها المكان فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة، وتنتهض الأعضاء للعمل، فكذلك زناد<sup>(١)</sup> نور المعرفة هو الفكر، فيجمع بين المَعْرِفَتَيْنِ كما يُجمع بين الحجر والحديد ويؤلف بينهما تأليفاً مخصوصاً، كما يضرب الحجر على الحديد ضرباً مخصوصاً، فينبعث نور المعرفة،

(١) الزناد: العود الذي تقدح به النار. وقد تصحفت في الأصل إلى: «زيادة».

كما تنبعث النار من الحديد، ويتغير القلبُ بسبب هذا النور حتى يميل إلى ما لم يكن يميل إليه، كما يتغير البصرُ بنورِ النار فيرى ما لم يكن يراه، ثم تَنْتَهَضُ الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب، كما ينتهض العاجزُ عن العمل بسبب الظُّلْمَة للعمل عند إدراك البَصَر ما لم يكن يُبصره.

فإذن ثمرةُ الفكرِ العلومُ والأحوال، والعلوم لا نهايةَ لها، والأحوال التي يُتصور أن تتقلَّب على القلب لا يمكن حصرها، ولهذا لو أراد مريدٌ أن يحصر فنونَ الفكرِ ومجاريه، وفي ماذا يتفكر لم يقدر عليه؛ لأن مجاري الفكر غير محصورة، وثمراته غير متناهية ولكننا نجتهد في ضَبْطِ مجاريه بالإضافة إلى مُهمّات العلوم الدينية وبالإضافات إلى الأحوال التي هي مقامات السالكين، ويكون ذلك ضبطاً جُملياً، فإن تفصيل ذلك يَسْتَدْعِي شرحاً<sup>(١)</sup> العلوم كلها، فلنُشير إلى ضبط المجامع فيها، فَبِهِ يحصل الوقوف على مجاري الفكر.

### بيان مجاري الفكر

اعلم أن الفكر قد يجري في أمرٍ يتعلق بالدين، وقد يجري في أمرٍ يتعلق بغير الدين، وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين، فلنترك القسم الآخر.

ونعني بالدين المعاملة التي بين العبد وبين الربِّ تعالى، فجميع أفكار العبد إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله، وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله، ولا يمكن أن تخرج عن هذين القسمين، وما يتعلق بالعبد إما أن يكون نظراً فيما هو محبوبٌ عند الربِّ تعالى أو فيما هو مكروه، ولا حاجة إلى الفكر في غير هذين القسمين، وما يتعلق بالربِّ تعالى إما أن يكون نظراً في ذاته وصفاته وأسمائه الحُسنى، وإما أن يكون في أفعاله ومُلْكِهِ ومَلِكُوته.

ويتكشف لك انحصار الفكر في هذه الأقسام بمثالٍ، وهو: أن حالَ السائرين إلى الله تعالى والمشتاقين إلى لقاءه يَضاهي حالَ العُشاق، فلنتخذ العاشق المُسْتَهْتَر

(١) سقطت من الأصل، واستدركت من الإحياء.

مثلاً، فنقول: العاشق المستغرق الهم بعشقه لا يعدو فكره من أن يتعلق بمعشوقه أو يتعلق بنفسه، فإن تفكر في معشوقه، فإما أن يتفكر في جماله وحسن صورته في ذاته ليتنعم بالفكر فيه وبمشاهدته، وإما أن يتفكر في أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مُضعفاً للذَّته ومُقوياً لمحَبَّته، وإن تفكر في نفسه، فيكون فكره في صفاته التي تُسقطه من عين محبوبه حتى يَتَنَزَّه عنها، أو في الصفات التي تُقربه منه وتُحِبِّبه إليه حتى يَتَّصِفَ بها، فإن تفكر في شيءٍ خارج عن هذه الأقسام، فذلك خارجٌ عن حَدِّ العِشْق وهو نُقْصَانٌ فيه؛ لأنَّ العِشْقَ التَّامَّ الكَامِلَ: ما يستغرقُ العاشقُ ويستوفي القلبُ حتى لا يترك فيه مُتَسَعاً لغير المعشوق، فَمُحِبُّ الله تعالى ينبغي أن يكون كذلك، لا يعدو نَظْرَهُ وتَفَكُّرَهُ مَحْبُوبَهُ.

ومتى كان تفكره محصوراً في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجاً عن مُقتضى المحبة أصلاً.

فلنبداً بالقسم الأول: وهو تفكره في صفات نفسه وفعالها، ليميز المحبوب منها عن المكروه، فإن هذا الفكر هو الذي يتعلق بعلم المعاملة الذي هو مقصود هذا الكتاب، وأما القسم الآخر فيتعلق بعلم المكاشفة.

ثم كل واحدٍ مما هو مكروهٌ عند الله أو محبوبٌ ينقسم إلى ظاهرٍ، كالطاعات والمعاصي، وإلى باطنٍ، كالصفات المُنجيات والمُهْلِكَات التي محلها القلب، وقد ذكرنا تفصيلها في رُبع المُهْلِكَات والمُنْجِيَّات، والطَّاعَات والمَعَاصِي تنقسم إلى ما يتعلَّق بالأعضاء السَّبْعَة وإلى ما يُنْسَبُ إلى جميع البدن، كالفرار من الزَّحْف، وعُقُوق الوالدين، والسُّكْنَى في المَسْكَنِ الحرام.

ويجب في كل واحدٍ من المكاره التفكر في ثلاثة أمور:

الأول: في أنه هل هو مكروهٌ عند الله أم لا؟ فرب شيء لا يظهر كونه مكروهاً، بل يدرك بدقيق النَّظَر.

والثاني: التفكر في أنه إن كان مكروهاً، فما طريق الاحتراز منه؟

والثالث: أن هذا المكروه هل هو مُتَّصِفٌ به في الحال، فيتركه، أو هو متعرض

له في الاستقبال فيحترزُ عنه أو قارفه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه، وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم هذا الانقسام، فإذا جُمعت هذه الأقسام زادت مجاري الفكر في هذه الأقسام على مئة، والعبء مدفوعٌ إلى التفكير إما في جميعها أو في أكثرها، وشرحُ آحاد هذه الأقسام يطول، ولكن انحصر هذا القسم في أربعة أنواع: الطاعات، والمعاصي، والصفات المَهْلِكات، والصفات المنجيات، فلنذكر في كل نوع مثلاً لَيَقِيسَ به المُريد سائرَها، وينفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه.

### النوع الأول: المعاصي

ينبغي أن يُفتش العبد صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلاً، ثم بدنه على الجملة هل هو في الحال مُلابِسٌ لمعصية بها فيتركها، أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والنَّدَم، أو هو مُتَعَرِّضٌ لها في نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد منها، فينظر في اللسان ويقول: إنه متعرض للغيبة والكذب وما لا يعني إلى غير ذلك مما يكره، فيقرر أولاً في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى، وينظر فيما ورد في القرآن والسنة في الوعيد عليها، ثم يتفكر في أحواله كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر، ثم يتفكر كيف يحترز منها، ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة أو بأن لا يجالس إلا صالحاً تقياً يُنكر عليه إذا تكلم بما يكرهه الله، وإلا فيضع في فيه حجراً إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكراً له، فهكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز.

ويتفكر في سَمِعِهِ أنه يُصْغِي به إلى الغيبة والكذب وفُضُول الكلام وأن ذلك إنما يسمعه في مجالسة الناس، فينبغي أن يحترز منهم بالاعتزال أو بالتَّهْي عن المنكر إذا سَمِعَهُ.

ويتفكر في بَطْنِهِ أنه إنما يعصي الله فيه بالأكل والشرب، إما بكثرة الأكل من الحلال فإن ذلك مكروه؛ لأنه مُقَوٌّ للشهوة التي هي سلاح الشيطان، وإما بأكل الحرام أو الشبهة، فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه وما يكتسبه<sup>(١)</sup>، ويتفكر في

(١) في الأصل: «ما سكبته».

طريق الحلال ومداخله ثم يتفكّر في وجوه الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام، ويقرر على نفسه أنّ العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام، وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها.

فهكذا يتفكّر في أعضائه، ففي هذا القدر كفاية عن الاستقصاء فمتى حصلت بالتفكير حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طوال النهار حتى يحفظ الأعضاء عنها.

وأما:

### النوع الثاني: وهو الطّاعات

فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه كيف يُؤدّيها، وكيف يحرسها عن التّقصان والتّقصير، وكيف يجبر نُقصانها بكثرة التّوافل، ثم يرجع إلى عُضْوِ عُضْوٍ فيتفكّر في الأفعال التي تتعلّق بها مما يُحبه الله، فيقول مثلاً: إن العين خُلقت للنّظر في ملكوت السماوات والأرض عبرةً، ولتستعمل في طاعة الله، وتَنْظُر في العلم، وأنا قادر على أن أشغل العينَ بمطالعة القرآن والسنة، فلم لا أفعله؟ وأنا قادرٌ على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التّعظيم فأدخل السرور على قلبه، وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الإزراء فأزجره بذلك عن معصيته، فلم لا أفعله؟ وكذلك يقول في سَمعه أنه قادر على استماع كلام مَلهوفٍ، واستماع علم وحكمة وقراءة وذكرٍ، فما لي أُعْظله؟ وقد أنعمَ اللهُ تعالى عليّ به وأودّعنيهِ لأشكره، فما لي أكَفُر نعمة الله فيه بتضييعه وتعطيله؟

وكذلك يتفكّر في اللسان، ويقول: إني قادر على أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودّد إلى قلوب أهل الصّلاح بالسؤال عن أحوال الفقراء، وإدخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة، وكل كلمة طيبة فإنها صدقة.

وكذلك يتفكّر في ماله فيقول: أنا قادر على أن أتصدقَ بالمال الفلاني فإني مُستغنٍ عنه، ومهما احتجّت إليه رزقني الله مثله، وإن كنت محتاجاً الآن فأنا إلى

ثواب الإيثار أحوج مني إلى ذلك المال، وهكذا يُفتش عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله، بل عن دوابه وغلماينه وأولاده، فإن كل ذلك أدواته وأسبابه، ويقدر على أن يُطيع الله تعالى بها، فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها، ويتفكر فيما يُرغبه في البدار إلى تلك الطاعات، ويتفكر في إخلاص النية فيها، ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله، وقس على هذا سائر الطاعات.

وأما:

### النوع الثالث: فهي الصفات المهلكة التي محلها القلب

فيعرفها مما ذكرناه في رُبُع المهلكات، وهي: استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك.

ويتفقد من قلبه هذه الصفات، فإن ظن أن قلبه مُنزّه عنها، فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه، فإن النفس أبدأ تعد بالخير من نفسها وتُخلف، فإذا ادّعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغي أن تُجرب بحمل حزمة حطب في السوق، وإذا ادّعت الحلم جُربت في كظم الغيظ، وكذلك في سائر الصفات، وهذا تفكر في هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا؟ ولذلك علامات قد ذكرناها في رُبُع المهلكات، فإذا دلّت العلامة على وجودها ففكر في الأسباب التي تُنبئ تلك الصفات عنده وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة، كما لو رأى في نفسه عُجباً بالعمل، فيتفكر ويقول: أنا عملي ببدني وجارحتي وإرادتي، وكل ذلك ليس مني ولا إليّ، وإنما هو من خلق الله وفضله عليّ، فهو الذي خلقني وخلق جوارحي وقدرتي، وهو الذي حرّك أعضائي بقدرته، وكذلك قدرتي وإرادتي، فكيف أعجب بعلمي ولا قوام لنفسي بنفسي؟

وإذا أحس من نفسه الكبر قال: إنما الكبير من هو كبير عند الله، وكم من مسلم يموت كافراً وشقيماً، وكم كافر يموت مسلماً، وكم يتغير الحال عند الموت بسوء الخاتمة. ثم يتعاطى أفعال المتواضعين.

وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشرهه، تفكر في أن هذه صفة البهائم، ولو

كان في شهوة الطعام والوقاع كمالاً لما زاد حظُّ البهائم منه، وكلُّ من غلبَ عليه الشَّرُّ فهو بالبهائم أشبه، وعن الملائكة أبعده.

وكذلك يقرر على نفسه في الغضب ثم يتفكَّر في طريق العلاج. وقد سبق ذكر هذه الأشياء، فلينظر في ذلك.

وأما:

### النوع الرابع: وهو المنجيات

فهو التَّوْبَةُ والنَّدَمُ على الذُّنُوبِ، والصَّبْرُ على البلاء، والشُّكْرُ على النِّعماء، والخَوْفُ والرجاء والرُّهْدُ والإِخْلَاصُ والصَّدْقُ وغير ذلك مما قد ذكرناه في هذا الربع، وذكرنا أسبابه وعلاماته، فليتكفِّر العبد كل يوم في قلبه ما الذي يُعَوِّزُه من هذه الصِّفَات التي هي مُقَرَّبَةٌ إلى الله تعالى؟ فإذا افتقرَ إلى شيءٍ منها، فليعلم أنها أحوالٌ لا تُثمرها إلا علوم، وإن العلوم لا يُثمرها إلا أفكار، فإذا أراد أن يكتسب لنفسه حال التَّوْبَةِ والنَّدَمِ، فليفتش ذنوبه أولاً، وليتكفِّر فيها وليعظمها في قلبه، ثم لينظر في الوعيد الوارد فيها، وليتحقق أنه مُتَعَرِّضٌ لمَقْتِ اللَّهِ بذلك حتى يَنبَعثَ له حال النَّدَمِ.

وإذا أراد أن يستشير من قلبه حال الشُّكْرِ، فلينظر في إحسانِ الله تعالى إليه وأياديه عليه، وفي إنباله جميل ستره عليه على ما شرَحنا بعضه في كتاب الشُّكْرِ، فليطالع ذلك.

وإذا أراد حالَ المحبَةِ والشُّوقِ فليتكفِّر في جلالِ الله وجماله وعظمتِه وكبريائه، وذلك بالنُّظَرِ في عجائبِ حِكْمَتِهِ وبدائعِ صُنْعِهِ، كما سنُشير إلى طرفٍ منه في القسم الثاني من الفكر.

فإذا أراد حالَ الخَوْفِ، فلينظر أولاً في ذنوبه الظاهرة والباطنة، ثم لينظر في الموت وسكراتِهِ، ثم فيما بعده من سؤال مُنْكَرٍ ونَكِيرٍ، وعذاب القَبْرِ وأهواله، ثم في هَوْلِ النَّدَاءِ عند نَفْخَةِ الصُّورِ، ثم في هَوْلِ المحشَّرِ عند جَمْعِ الخَلَائِقِ في صَعِيدٍ واحد، ثم في الحِسَابِ والمُضَايِقَةِ في النَّقِيرِ<sup>(١)</sup> والقِطْمِيرِ<sup>(٢)</sup>، ثم في الصُّرَاطِ، وغير

(١) النَّقِيرُ: غلاف البذرة، ويضرب به المثل للشيء لا قيمة له.

(٢) القِطْمِيرُ: القشرة الرقيقة التي على نواة التمرة كاللغافة، والشيء الهين الحقير.

ذلك إلى أن يحل دار الإقامة، وليُصوّر صورة جهنّم وعذابها.

وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء، فليُنظر إلى الجنة ونعيمها ومُلْكها الدائم، فهكذا طريق الفكر الذي تطلب منه العلوم التي تُثمر اجتلاب أحوالٍ محبوبةٍ أو التنزه عن صفاتٍ مذمومةٍ، وقد ذكرنا في كل واحدٍ من هذه الأحوال كتاباً مفرداً يُستعان به على تفصيل الفكر، فأما ذكرُ مجاميعه فإنه لا يُوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكير، ففيه ما يحرك إلى كل محمود، ويزجر عن كل مذموم، فينبغي أن يقرأه بالثبوت والتدبر ويُردّد الآية التي هو محتاجٌ إلى الفكر فيها، فإن قراءة آية بتفكير خير من ختمه بغير تدبر، وكذلك مطالعة أحاديث رسول الله ﷺ فإنه أوتي جوامع الكلم، فانظر إلى قوله: «إنَّ روحَ القدسِ نَفَثَ في رُوعي: أَحِبَّ من شِئتَ فإنك مُفارقة، وعِشْ ما شِئتَ فإنك مَيّت، واعمل ما شِئتَ فإنك مَجْزِيٌّ به». فإن هذه الكلمات جامعةٌ حكم الأولين والآخرين تكفي من تدبرها من كلِّ موعظة.

فهذا هو طريقُ الفكر في علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله أو مكروهة والمُبْتَدِي يَنْبَغِي أن يكون مُستغرق الوقت في هذه الأفكار حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودّة والمقامات الشريفة، ويُنزّه باطنه وظاهره عن المكروهات، وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من جميع العبادات، فليس هو غاية المطلوب، بل المشغول به محجوبٌ عن مَطْلَب الصّديقين وهو التّنعّم بالفكر في جلالِ الله تعالى وجماله، واستغراقِ القلب بحيث يَفَنَى عن نفسه، أي ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته، فيكون مُستغرق الهمّ بالمحجوب، كالعاشق المُستَهْتَر عند لقاء الحبيب فإنه لا يتفرغ للنظر في أحوال نفسه وأوصافها، بل يبقى كالمبهوت الغافل عن نفسه، وهو منتهى لذّة العُشاق.

فأما ما ذكرناه فهو تفكّر في عِمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال، فإذا ضيَع جميع عُمره في إصلاح نفسه فمتى يتنعّم بالقرب؟ فالفناء في الواحدِ الحقِّ هو مقصد الطالبين، ومُنْتَهَى نعيم الصّديقين.

وأما التنزه عن الصفات المُهلكات فإنه يجري مجرى الخروج عن العِدَّة في النكاح، وأما الانّصاف بالصفات المُنجيات فيجري مجرى تهيئة المرأة جهازها

وتنظيفها وجهها ومَشطها شَعْرها لتصلح للقاء زوجها، فإن استغرقت جميع عُمرها في تَبْرئة الرَّحِم وتزيين الوَجْه كان حجاباً لها عن لقاء المحبوب.

فهكذا ينبغي أن تفهم طريق الدين إن كنت من أهل المُجالسة، وإن كنت كالعبدِ السَّوء لا يتحرك إلا خوفاً من الضَّرْب وطمعاً في الأجرة، فدونك وإتعب البدن، فإن بينك وبين القلب حجاباً كثيفاً، فإذا قضيت حقَّ الأعمال كنت من أهل الجَنَّة، ولكن للمجالسة أقوامٌ آخرون.

وإذا عرفت مجالَ الفكر في علوم المعاملة التي بين العبد وبين رَبِّه، فينبغي أن تتخذ ذلك عادتك وديدتك صباحاً ومساءً، فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المُبعدة من الله تعالى وأحوالك المُقرَّبة إليه سبحانه وتعالى، بل كل مُريدٍ فينبغي أن تكون له جريدة يُثبت فيها جملة الصِّفات المُهلِكَات، وجملة الصفات المُنجيات، وجملة المعاصي والطَّاعات، ويعرض نفسه عليها كل يوم.

ويكفيه من المُهلِكَات النَّظَر في عَشْرَة، فإنه إن سلِمَ منها سلِمَ من غيرها، وهي: البُخْل والكِبْرُ والعُجْب والرِّياء والحَسَد وشِدَّة العَضْب وشَرَّه الطَّعام، وشَرَّه الوِقَاع، وحبُّ المال، وحبُّ الجاه.

ومن المُنجيات عَشْرَة: النَّدم على الذنوب، والصَّبْر على البلاء، والرِّضا بالقضاء، والشُّكْر على النِّعماء، واعتدالُ الخَوْفِ والرَّجاء، والزُّهد في الدُّنيا، والإخلاص في الأعمال، وحُسن الخُلُق مع الخَلْق، وحبُّ الله تعالى والخشوع له.

فهذه عشرون خَصْلة، عَشْرُ مذمومة، وعَشْرُ ممدوحة، فَمَتى كُفِيَ من المذمومات واحدة خَطَّ عليها في جريدته، وترك التفكير فيها وشكر الله تعالى على كفايته إيَّاه وتنزيه قلبه عنها، ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه، ولو وَكَّله إلى نفسه لم يقدر على مَحْوِ الرَّذائل عن نفسه، فَيُقبل على التَّسعة الباقية، وهكذا يفعل حتى يخطَّ على الجميع، وكذلك يُطالب نفسه بالأتصاف بالمُنْجيات، فإذا اتَّصَفَ بواحدةٍ منها كالتوبة والندم مثلاً خَطَّ عليها واشتغل بالباقي، وهذا يَحْتَاجُ إليه المُريد المُشَمَّر، وأمَّا أكثر الناس من المعدودين في زُمرَة الصالحين، فينبغي أن

يُثبتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة كأكل الشبهة وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة والمراء والثناء على النفس والإفراط في معاداة الأعداء وموالاتة الأولياء، والمداهنة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه، وما لم تُطهر الجوارح من الآثام لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره، بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية، فينبغي أن يكون تقدمهم لها وتفكرهم فيها، لا في معاصيهم بمعزل عنها.

مثاله: العالم الورع، فإنه لا يخلو في غالب الأمر من إظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت، إما بالتدريس، أو بالوعظ، ومن فعل ذلك فقد تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون، فإنه إن كان كلامه مقبولاً حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء والتزئيم والتصنع، وإن ردّ كلامه لم يخل عن أنفة وغيظ وحقد على من يرده هو أكبر من غيظه على من يرد كلام غيره، وقد يلبس الشيطان عليه فيقول له: إن غيظك من حيث إنه ردّ الحق. فإن وجد تفرقة بين أن يردّ عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان، ثم متى كان له ارتياح بالقول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد، لم يخل عن تكلف وتصنع حرصاً على استجلاب الثناء، والشيطان قد يلبس عليه فيقول: إنما حرصك على تحسين الألفاظ لتشر الحق ويحسن موقعه من القلوب إعلاء لدين الله تعالى. فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرجه من ثناء الناس على بعض أقرانه، فهو مخدوع، وإنما يُدندن حول طلب الجاه، وهو يظن أن مطلبه الدين، ومتى اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر ذلك على ظاهره حتى إنه يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر احتراماً، ويكون بلقائه أشد فرحاً ممن يعلو في موالاته غيره وإن كان ذلك الغير مستحقاً للموالاتة.

وربما ينتهي العلم بأهل العلم إلى أن يتغايروا كما تتغايّر النساء فيشق على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره، وإن كان يعلم أنه منتفع من ذلك ومستفيد منه في دينه، وكل هذا من رشح الصفات المهلكات المستكنة في سر

القلب التي قد يظن العالم النجاة منها، وهو مغرور فيها، وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات، ففتنة العالم عظيمة، وهو إما مالك وإما هالك ولا مطمع له في سلامة العوام ما لم يسلم هو من الصفات الدائمة.

ومن أحس من نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه الانفراد، والعزلة، وطلب الخمول، والمدافعة للفتاوى، فقد كان الصحابة يتدافعون الفتوى، وكل منهم يؤد لو أن أخاه كفاه، وعند هذا ينبغي أن يتقي شياطين الإنس فإنهم يقولون: هذا سبب لا ندراس العلوم. فليقل لهم: إن دين الإسلام مستغن عني، فلو ميت لم ينهدم، وأنا غير مستغن عن إصلاح قلبي، وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم فخيال فاسد، فإن الناس لو حبسوا في السجون، وقيدوا بالقيود، وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرئاسة والعلو يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان السجون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم، فالعلم لا يندرس ما دام الشيطان يحبب إلى الخلق الرئاسة، وقد ينهض لنشر العلم أقوام لا نصيب لهم في الآخرة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»<sup>(١)</sup>.

فلا ينبغي للعالم أن يعتر بهذه التلبسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى في قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم، فإن ذلك بذر التفاق، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حب المال والشرف في دين الرجل المسلم»<sup>(٢)</sup>.

ولا ينقلع حب الجاه من القلب إلا بالعزلة وترك كل ما يزيد به جاهه عند الناس، فليكن فكر العالم في التفتن لخفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منها، وهذه وظيفة العالم المتقي، فأما أمثالنا فينبغي أن يكون تفكرنا فيما يقوي إيماننا بيوم الحساب، إذ لو رأنا السلف الصالحون لقالوا قطعاً: إن هؤلاء

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (١١١) (١٧٨)، وأحمد (٨٠٩٠)، وابن حبان (٥١٩)، وعبد الرزاق (٩٥٧٣) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (٥٧٨٤) و(١٥٧٩٤)، وابن حبان (٣٢٢٨)، والطبراني في الكبير (١٨٩/١٩) من حديث كعب بن مالك.

لا يؤمنون بيوم الحساب، وذلك لأن من صدق بشيءٍ عمل بمقتضاه، وما نراه حصل لنا من ثمرة العلم إلا أنه يُتدى بنا في الحرص على الدنيا، ويُقال: لو كان هذا مذموماً لكان العلماء أولى باجتنابه، فليتنا كُنَّا كالهوام إذا ماتت معنا دُنوبنا، فنسأل الله الصلاح بفضله.

فهذه مجاري أفكار العلماء الصالحين في علم المعاملة، فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتقوا منها إلى التفكير في جلال الله وعظّمته والتّنعّم بمشاهدته بعين القلب، ولا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع المهلكات، والاتّصاف بجميع المنجيات، فإن ظهر شيءٌ منه قبل ذلك كان مدخولاً مُكدرًا ضعيفاً كالبرق الخاطف لا يثبت، ويكون كالعاشق الذي خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه عقاربٌ تلدغه، فننغصُ عليه لذة المشاهدة، فلا طريق له إلى إكمال التّنعّم إلا بإخراج العقارب من ثيابه، وهذه الصّفات المذمومة عقاربٌ وحيّات، وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيّات.

فهذا القدرُ كافٍ في التّنبية على مجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عند ربّه تبارك وتعالى.

القسم الثاني: الفكر في جلال الله تعالى وعظّمته وكبريائه:

وفيه مقامان:

المقام الأعلى: الفكر في ذاته وصفاته، وهذا مما مُنع منه، وقد روينا أنّاً أن النبي ﷺ قال: «لا تفكروا في الله»، وذلك لأنّ العقول تتحيّر فيه، (وحين يُزحم العقل عند التفكير يتكدر)<sup>(١)</sup>، وإنما يعظّم عند العوام من يشبههم في الصورة، فأعظم حال العاَمي أن يُقدّر نفسه جميل الصورة جالساً على سريرٍ وبين يديه غلمانٌ يمثّلون أمره، فلا جرّم يُقدّر ذلك في حقّ الله سبحانه، حتى يفهم العظّمة، ولو قيل للعوام: إنه لا يحويه قُطرٌ، لا ندهشت عقولهم، فاقتضت حكمة الشرع النهي عن التفكير في الله تعالى، وأمروا أن يعدلوا إلى التفكير في أفعاله وعجائب صنّعته، فإن

(١) غير واضحة في الأصل.

ذلك يدلُّ على جلاله وعظمته، وجميع الموجودات أثرٌ من آثارِ قُدْرته، وقد جرت العادةُ أن يوضع طستٌ فيه ماءٌ لنرى فيه الشمس، لعجزِ الأبصارِ عن النَّظرِ إلى ذاتها، فلنشاهد أفعاله فإنها واسطة.

### بيان كيفية التَّفكُّر في خَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

اعلم أن كل ما في الوجود ممَّا سوى الله عَزَّ وَجَلَّ، فهو فعله وخلقه، وفي كل ذرة من الذرات عجائب، ولا وجه للتفكير فيما لم نره من الملائكة والجن، فلنعديل إلى ما نراه من السماوات والأرض وما بينهما، فالسماوات مُشاهدةٌ بكواكبها وشمسها وقمرها وحركاتها، والأرضُ مشاهدةٌ بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها وتبَاتِها، وما بين السماء والأرض، وهو الجوّ، مُدرِكٌ بغيومه وأمطاره وثلوجه ورعده وبرقه وصواعقه ورياحه.

فهذه هي الأجناسُ المُشاهدةُ، وكل جنسٍ منها ينقسم إلى أنواع، وكل نوعٍ ينقسم إلى أقسام، ويتشعب كل قسم إلى أصناف، ولا نهاية لأنشعب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهياته ومعانيه الظاهرة والباطنة، وجمع ذلك مجالٌ للفكر، فما تتحرك ذرَّةٌ من ذلك إلا والله تعالى مُحركُها، وفي حركتها حكْمٌ تشهد له بالوحدانية، تدلُّ على جلاله وكبريائه.

وقد وردَ القرآنُ بالحثِّ على التَّفكُّرِ في هذه الآيات، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقوله: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وقوله: ﴿وَمَنْ آيَاتِهِ﴾.

فلندكر كيفية الفكر في بعض الآيات: فمن آياته الإنسان المخلوق من التُّطفة، وأقرب الأشياء إليك نفسك، وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشرٍ عشيره وأنت غافلٌ عنه، فيما من هو غافلٌ عن نفسه وجاهلٌ بها، كيف تطمع في معرفة غيرك؟ وقد أمرك الله تعالى بالتدبُّر في نفسك، فقال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، فانظر إلى التُّطفة، وهي

قطرة من الماء مُستقدرة، لو تُركت ساعة فَضربها الهواء فسدت وأنتت، كيف جمع بين الأبوبن بالمحبة والشهوة حتى خرجت مستورة عن الهواء، ثم نقلها إلى علقه حمراء، ثم جعلها مُضغّة، وقسمها مع تساوي أجزائها إلى عظام وأعصاب وعروق وأوتار ولحم، ثم دَوَّرَ الرأسَ وشقَّ السَّمْعَ والبَصْرَ والأنفَ والفَمَ وسائر المنافذ، ثم مدَّ اليدَ والرَّجْلَ، وقَدَّرَ الأنايِلَ، ورَكَّبَ الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والأمعاء، كل واحد على شكل مخصوص لعمل مخصوص، وركب العين من سبع طبقات، لكل طبقة وصف مخصوص، وانظر إلى العظام القوية كيف خلقها من نُطفة سخيقة رقيقة، ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له، ثم قَدَّرَها بمقادير مُختلفة وأشكالٍ مُختلفة، فمنها المُستطيل والمُستدير والصغير، والكبير والمُصمّت، والمُجوّف، والعريض والدقيق، ولما كان الإنسان مُحتاجاً إلى الحركة بجُملة بدنه وبعض أعضائه للتّردد في حاجاته لم يجعل عظامه عظماً واحداً، بل عظماً كثيرة، بينها مفاصل حتى تتيسر لها الحركة، وقَدَّرَ شكل كل واحد منها على وفق الحركة المطلوبة، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظام وألصقه بالطرف الآخر كالرباط له، ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر حُفراً غائصة فيه مُوافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها، فصار الإنسان إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه، ولولا المفاصل لتعذّر عليه ذلك.

ثم انظر كيف خلق عظام الرأس، وكيف جمعها وركبها من سبع خرزات مجوفات مُستديرات، فيها تحريفات، ثم ركب خرز الصُّلب، وركب عظم العُجْز، ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر، فمجموع عدد العظام في البدن مئتان وثمانية وأربعون عظماً سوى الصغار التي حشى بها خلل المفاصل.

فانظر كيف خلق ذلك كله من نُطفة سخيقة رقيقة، وليس المراد أن يُعرف عددها، وإنما العَرَضُ أن ينظر إلى قدرة خالقها ومدبرها كيف خلقها ودبرها وقَدَّرَ أشكالها وخصها بعدد مخصوص، فلو زاد واحداً كان وبالاً على الإنسان، ولو نقص لكان نقصاناً في حقه يحتاج إلى جبر، فالطبيب ينظر فيها ليعرف العلاج، وأهل

البصائر ينظرون فيها ليستدلوا على جلال خالقها، فشتان بين النظيرين .

ثم انظر كيف خلق آلاتٍ لِتَحْرِيكِ العظام، وهي العضلات، فخلق في بدنِ الأدميِّ خمسمائة عَضَلَةٍ، وتسعاً وعشرين عَضَلَةً، والعَضَلَةُ مركَّبةٌ من لحمٍ وعَصَبٍ ورُبُطٍ وأغشِيَةٍ، وهي مُختلفة المَقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها، فأربع وعشرون عضلة منها لتحريك حُدقة العين وأجفانها، لو نقصت واحدة من جُملتها اختلَّ أمرُ العَيْنِ، وهذه العين كالعدسة، وتظهر فيها صورة السماوات، وهكذا لكل عَضْوٍ عضلاتٍ بَعْدِ مَخْصُوصٍ وَقَدْرٍ مَخْصُوصٍ، وشرحُ ما في البَدَنِ يَطُولُ، وما فيه من عجائب المعاني والصفات التي لا تَظْهَرُ لِلْحَسِّ أعجب وأعظم .

فَمَنْ هذا صُنْعُهُ في قَطْرَةِ ماءٍ، فما صُنْعُهُ في ملكوت السماوات والأرض؟ أترى لو اجتمع الخلقُ على أن يخلُقوا لِلنُّظْفَةِ سَمْعاً وَبَصَراً، أو جِلْداً، هل كانوا يقدرُونَ؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كُنْهَ حَقِيقَةِ ذلك وكيفية خَلْقِهِ بعد أن خُلِقَ، هل كان يُمكنهم؟ بل لو نظرت إلى صورة إنسانٍ مُصَوَّرٍ على حائِطٍ تَأْتِقُ النَّقَاشُ في تَصْويرِها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان، فإنه يَعْظُمُ تَعْجِيبُكَ من صَنْعَةِ النَّقَاشِ وَجِدْقِهِ وتَمَامِ فِطْنَتِهِ، وَعَظْمِ في قلبك محلُّهُ مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تَمَّتْ بِالصَّبْغِ وَالْقَلَمِ وَالْحَائِطِ وباليَدِ والقُدْرَةِ وبالعِلْمِ والإِرَادَةِ، وشيءٌ من ذلك ليس من فِعْلِ النَّقَاشِ ولا خَلْقِهِ، بل هو مِنْ خَلْقِ غَيْرِهِ، وأما مُنتَهَى فِعْلِهِ الجَمْعُ بين الصَّبْغِ والحائِطِ على تَرْتِيبٍ مَخْصُوصٍ، فيكثر تَعْجِيبُكَ مِنْهُ وَتَسْتَعْظِمُهُ، وَأَنْتَ تَرَى النُّظْفَةَ كانت مَعْدُومَةً فخلَقها خالِقها في الأَصْلابِ والتَّرائبِ، ثم أخرجها وشكَّلها فأحسنَ تَشْكِيلَها وتَقْدِيرَها، وَرَتَّبَ عُرُوقَها وأَعْضَاءَها، ومجاري غذائها، ليكون سبباً لبقائها، وجعلها سَمِيعَةً بَصِيرَةً عالِمَةً ناطقةً، وخلق لها الظَّهْرَ أساساً لبدنِها، والبَطْنَ حاوياً لآلاتِ غذائها، والرَّأْسَ جامعاً لحواسِّها، وَحَمَى العَيْنِ بالأجفان لتسُتْرِها وتحفظها، وَشَقَّ الأذْنَ وأودعها ماءً مُراً لِحَفِظِ سَمْعِها ودَفَعِ الهَوامِ عنها، وحاطها بصدفةٍ لتجمع الصوتَ فتردَّه إلى صِماخِها ولتَحَسَّ بِدِيبِ الهوامِ إليها، وأودع في الأنفِ حاسَّةَ السَّمِّ ليستدلَّ باستنشاقِ الروائحِ على المَطاعِمِ، وليستنشِقَ بمنفذِ المنخرين رُوحَ

الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه، وأودع الفم اللسان ناطقاً ومُعرباً عمّا في القلب، وسوّى الشفتين لتتم بهما حروف الكلام مع كونهما غطاء للفم، ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة والصلابة والرخاوة حتى اختلفت الأصوات، فلا يتشابه صوتان، وزيّن الرؤوس بالشعور والعين بالهدب، وقوّس الحاجب، وخلق الأعضاء الباطنة، وسخر كل واحد لفعل مخصوص؛ فسخر المعدة لإنضاج الغذاء، والكبد لإحالة الدم إلى الطحال والمرارة والمرارة والكلى لخدمة الكبد، فالطحال يخدمها بجذب السوداء عنها، والمرارة تخدمها بجذب الصفراء عنها، والكلى تخدمها بجذب المائية، والمثانة تخدم الكلية بقبول الماء عنها، ثم تُخرجه من طريق الإخليل، والعروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى جميع أطراف البدن.

ثم خلق اليدين<sup>(١)</sup> وطولهما لتمتدا إلى المقاصد، ووضع الأصابع الأربع في جانب والإبهام في جانب ليدور الإبهام على الجميع، ولو اجتمع الخلائق على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجهاً آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع وتفاوت الأربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدرُوا عليه، إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء، فإن بسطها كانت طبقاً يضع عليه ما يُريد، وإن جمعها كانت آلة للضرب، وإن ضمّها ضمّاً غير تام كانت معرفة له، وإن بسطها وضمّ أصابعها كانت معرفة له، ثم خلق الأظفار على رؤوسها زينةً للأنامل وعماداً لها من ورائها، ولتلقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل، وليحكّها بها بدنه عند الحاجة، فالظفر الذي هو أحسن الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكمة كان أعجز الخلق وأضعفهم ولم يقدّم أحد مقامه في حكّ بدنه.

هذا كله مخلوق من النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث، ولو كُشف الغطاء وامتدّ البصر لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليه شيئاً فشيئاً، ولا يرى المصور، فهل رأيت مصوراً لا يمسّ مصنوعه وهو يتصرف فيه؟ سبحانه ما أعظم

(١) تحرفت في الأصل إلى: «البدن».

شأنه، ولما ضاق الرَّحْمُ عن الصَّبِي ألهمه أن يَتَنَكَّس وَيَطْلَبَ الخُرُوجَ، فلما خرج محتاجاً إلى الغذاء هَدَاهُ الثَّدْيَيْنِ، وَدَرَّ لَهُ اللَّبَنَ؛ لأنَّ جَسَدَهُ لا يَحْتَمِلُ الأَغْذِيَةَ الكَثِيفَةَ، وَأُنْبَتَ مِنَ الثَّدْيِ حَلْمَةٌ بِقَدْرِ مَا يَسَعُ فَمُ الصَّبِيِّ، ثم جعل فيها ثُقُوباً، ولا يخرج منها اللبن إلا بعد الجذب بالمَصِّ، وأخَّرَ خَلْقَ الأَسْنَانِ<sup>(١)</sup> إلى وقت حاجته إلى ما يَمَضُغُ، ثم حَتَّنَ قلوب الوالدين عليه في حالِ عَجْزِهِ، ثم نقله من حال الصِّبَا إلى الشُّبَابِ إلى الكُهُولَةِ إلى الشَّيْخُوخَةِ.

فالعجبُ ممن يرى خَطَأً حَسَنًا أو نَقْشاً حَسَنًا على حائطٍ يَسْتَحْسِنُهُ فَيَنْصَرِفُ هَمُّهُ كَلَّهُ إلى التَّفَكُّرِ في النِّقَاشِ والخَطَّاطِ كَيْفَ نَقَشَ هَذَا، ولا يزال يستعظمه، ويقول: ما أَحَدَقَهُ! ثم ينظر إلى العجائب في نفسه وفي غيره، ثم يغفل عن صانعه ومُصَوِّرِهِ، فلا تُدهِشُهُ عَظَمَتُهُ، ولا تُحَيِّرُهُ حِكْمَتُهُ.

فهذه نُبْدَةٌ من عَجَائِبِ بَدَنِكَ وَأَنْتَ مَشْغُولٌ عَنِ هَذَا بِيَطْنِكَ وَفَرْجِكَ، لا تعرف من نَفْسِكَ إلا أن تَجُوعَ فَتَأْكُلُ، وتَشْبَعُ فَتَنَامُ، والبَهَائِمُ كُلُّهَا تُشَارِكُكَ في معرفة ذلك، وإنما خاصية الإنسان التي حُجِبَتْ البَهَائِمُ عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السماوات والأرض، وليس هذه المنزلة للبَهَائِمِ ولا لإنسانٍ رضي من الدنيا بشهوات البَهَائِمِ، فإنه شَرٌّ من البهيمة بكثيرٍ إذ لا قُدْرَةَ للبهيمة على ذلك، وأما هو فقد خُلِقَتْ لَهُ القُدْرَةُ ثُمَّ عَطَّلَهَا وَكَفَرَ نِعْمَةَ اللَّهِ فِيهَا ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

وإذ قد عرفت طريقَ الفكرِ فيكَ فَتَفَكَّرْ في مَفْرَكِ، فإنه أَمْسَكَ الأَرْضَ بِالْجِبَالِ أن تتحركَ، ووسَّعَ أكنافها ثم إنها تَهْتَزُّ وتَرَبو بعجائب النَّبَاتِ، وأسأل الأنهارَ وفَجَّرَ العيونَ، ثم أخرج بهذا الماءَ ألوانَ النَّبَاتِ، ومتى كان في النَّوَاةِ نَخْلَةٌ مطوقةٌ بأعْدَاقِ<sup>(٢)</sup> الرُّطْبِ، ومتى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلةٍ مِئَةٌ حَبَّةٌ؟.

ثم أودعَ العَقَاقِيرَ المَنَافِعَ الغريبةَ، فهذا النَّبَاتُ يُغْذِي، وهذا يُقَوِّي، وهذا يُبَرِّدُ،

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الإنسان».

(٢) العِدْقُ من النَّخْلِ كالعنقود من العنبِ والجمع أعْدَاقٌ وعِدوق.

وهذا يُسَخَّن، وهذا يُسْتَخْرَجُ من أعماق العروق الصفراء، وهذا يَقْمَعُ البَلْغَمَ والسُّوداءَ، وهذا يُسْتَحِيلُ إليهما، وهذا يُفْرَحُ، وهذا يُنَوِّمُ، وهذا يُحْيِي وهذا يَقْتُلُ، فما تَنْبَتُ في الأرض ورقةٌ إلا وفيها منافع لا يَقْوَى البَشَرُ على الوقوف على كُنْهَها، وكلُّ واحدٍ من النباتِ يَحْتَاجُ الفلاح في ترتيبه إلى عملٍ مخصوص؛ فالنَّخِيلُ تُوْبَّرُ<sup>(١)</sup> والكرمُ يُكْسَحُ<sup>(٢)</sup>، والزَّرْعُ يُنْقَى عنه الحَشِيشُ والدَّغْلُ، وبعضُ ذلك يُسْتَنْبَتُ بِبَثِّ البذرِ في الأرض، وبعضُه بغيرِ الأغصان، وبعضُه يُرْكَبُ في الشَّجر، وهذا يطول شرحه ولا نبلغ الغرض، فلنكتفِ بهذه التُّبذة.

ومن آياته الجواهرُ المودَّعة في الجبال، والمعادنُ من الذهب والفضة والفيروزج وغيرها، فبعضُها ينطبع تحت المطارقِ كالذهب والرَّصاص، وبعضُها لا ينطبع كالفيروزج، وكيف هَدَى اللهُ تعالى الناسَ إلى استخراجِها وتَنْقِيتها واتِّخاذا الأواني والآلاتِ والثَّقودِ والحليِّ منها، ثم انظر إلى معادنِ النَّفْطِ والكِبْرِيتِ والقَارِ<sup>(٣)</sup> وغيرها، وأقلها المِلح ولا يُحْتَاجُ إليه إلا لتطيبِ الطعام، ولو خلت عنه بلدةٌ لتسارعَ الهلاكُ إليها، فانظُرْ إلى رحمةِ الله تعالى كيفَ خلقَ بعضَ الأَرْضِينَ سَبْخَةً بجواهرها بحيثُ يجتمعُ فيها الماءُ الصافي من المطرِ فيستحيلُ ملحاً، فما من شيءٍ إلا وفيه حِكْمٌ، وما من شيءٍ خُلِقَ لَعَبَثٍ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبَةٍ﴾ ﴿٢٨﴾ مَا خَلَقْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴿[الدخان: ٣٨، ٣٩].﴾

ومن آياته أصنافُ الحيواناتِ وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يمشي، وانقسام ما يمشي إلى ما يمشي على رجلين، وإلى ما يمشي على أربع، وعلى عشرٍ، وعلى مئةٍ، ثم انقسامها في المنافع والصُّور والأشكال والأخلاق والطُّباع، فانظر إلى طيورِ الجَوِّ، وإلى وحوشِ البرِّ، وإلى البهائمِ الأهليةِ ترى فيها من العجائبِ ما لا تُشكُّ معه في عَظْمَةِ خالِقِها، وقُدْرَةِ مُقَدِّرِها، وحكمِ مصوِّرها، وكيف يمكن أن نستقصي ذلك، بل لو أردنا أن نذكرَ عجائبَ البَقَّةِ أو النَّمْلةِ أو النُّحْلةِ، وهي من صغار

(١) تُوْبَّرُ: أي تُلْقَحُ حيثُ توضع شماریخ النخلة الذكر على شماریخ النخلة الأنثى.

(٢) يُكْسَحُ: أي يُقَطَّعُ وَيُنْقَى وَيُقَلَّمُ.

(٣) القار: الزَّفت.

الحيوانات في بنائها بيتها، وفي جمع غذائها، وفي إلفها لزوجها، وفي ادخارها لنفسها، وفي حذقها في هندسة بيتها، وفي هدايتها إلى حاجاتها لم تقدر على ذلك، فترى العنكبوت تبنى بيتها فتطلب أولاً موضعين مُتقاربين بينهما فُرجة بمقدار ذراع فما دونه حتى يمكنها أن تصل الخيط بين طرفيه، ثم تبتدي فتلقي اللعاب الذي هو خيطها على جانب ليلتصق به، ثم تعدو إلى الجانب الآخر فتحكم الطرف الأخير من الخيط، ثم تتردد ثانياً وثالثاً، وتجعل بُعد ما بينهما متناسباً تناسباً هندسياً حتى إذا أحكمت معاقد القمط ورّبت الخيوط كالسدى<sup>(١)</sup> اشتغلت باللحمة، فتضع اللحمة على السدى وتضيف بعضها إلى بعض، وتحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى، وتراعي في جميع ذلك تناسب الهندسة، وتجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب، وتقع في زاوية مترصدة لوقوع الصيد في الشبكة، فإذا وقع الصيد في الشبكة بادرت إلى أخذه وأكله، فإن عجزت عن الصيد كذلك طلبت لنفسها زاوية من حائط ووصلت بين طرفي الزاوية بخيط ثم علقت نفسها فيه بخيط آخر وبقيت منكسة في الهواء تنتظر ذبابة تطير، فإذا طار ذباب رمت نفسها إليه فأخذته ولقت خيطها على رجليه وأحكمته، ثم أكلته.

وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من هذه العجائب ما لا تُحصى، أفتراه يعلم هذه الصناعة من نفسه، أو من آدمي، أو لا هادي له ولا معلم؟ أفيشك ذو بصيرة في أنه مسكين ضعيف عاجز، بل الفيل العظيم شخصه الظاهرة قوته عاجز عن أمر نفسه، فكيف هذا الحيوان الضعيف، أو لا يشهد شكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعه لفاطره الحكيم وخالقه العليم؟ فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدره وحكمته ما تتحير فيه الألباب والعقول، فضلاً عن سائر الحيوانات.

وهذا الباب أيضاً لا حصر له، فإن الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة، وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهدة، بل إذا رأى

(١) السدى: الخيوط التي تُمدّ طولاً في النسيج، مفردها سداة، واللحمة: الخيوط التي تُمدّ عرضاً، وتلحم بها السدى.

الإنسان حيواناً غريباً تجدد تعجبه، والإنسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه، بل لو نظر إلى الأنعام التي أَلْفَهَا ونظر إلى أشكالها وصورها، ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباساً لخلقه وأكناً لهم في ظعنهم وإقامتهم، وأنية لأشربتهم، وأوعية لأغذيتهم، وصواناً لأقدامهم، وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم، ثم جعل بعضها زينة للركوب، وبعضها حاملةً للأثقال قاطعةً للبوادي والمفاظات، لأكثر الناظر التّعجب من حكمة خالقها ومصورها، فإنه ما خلقها إلا بعلمٍ محيطٍ بجميع منافعها سابقٍ على خلقه إياها.

فَسُبْحَانَ من الأمور مكشوفةً في علمه من غير تفكير، ومن غير تأمل وتدبر، ومن غير استعانةٍ بوزيرٍ أو مُشيرٍ، فهو العليمُ الخبير الحكيم القدير، فلقد استخرج بأقلِّ القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده، فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته، والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته.

ومن آياته البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض، حتى إن جميع المكشوف من البوادي والجبال عن الماء بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحرٍ عظيم، وبقية الأرض مستورةً بالماء، وعجائب ما في البحر أضعاف عجائب ما تُشاهده على وجه الأرض، وربما كان فيه الحوت فيظن جزيرة فينزل الركاب عليها فيحسُّ بالنيران إذا اشتعلت فيتحرك فيعلم أنها حيوان، وما من صنّف من أصناف حيوان البرّ من فرسٍ أو طيرٍ أو بقرةٍ أو إنسانٍ إلا وفي البحر أمثاله وأضعافه، وفيه أجناس لا يُعهد لها نظير في البر، وقد جمع عجائبه جماعةٌ عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه.

ثم انظر كيف خلّق اللؤلؤ ودوره في صدفة تحت الماء، وانظر كيف أنبت المرجان من صمّ الصُّخُور تحت الماء، وإنما هو نباتٌ على هيئة شجرٍ ينبت من الحجر، ثم تأمل ما عدها من العنبر وأصناف ما يقذفه البحر.

ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسيّر فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم، وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم، ثم أرسل

الرياح لتسوق السُنْفَن، ثم عَرَفَ المَلاحين موارد الرياح ومهابها ومواقيتها.

وأعجبُ من الكُلِّ قطرةُ الماء وهو جسمٌ رقيقٌ لطيفٌ سيال، لطيفُ التركيب مُسَخَّر، وبه حياةٌ كلُّ ما على وجه الأرض من حيوانٍ ونباتٍ، فلو احتاج العبدُ إلى شربةٍ ماءٍ ومُنِعَ منها لَبَدَلْ جميع خزائن الأرض وملك<sup>(١)</sup> الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك، ثم إذا شربها، فلو مُنِعَ من إخراجها لَبَدَلْ جميع خزائن الأرض ومُلك الدنيا في إخراجها.

فالعَجَبُ من الآدمي كيف يَسْتَعْظِمُ الدِّينَارَ والدَّرْهَمَ ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله تعالى في شربةٍ ماءٍ إذا احتاجَ إلى شربها والاستيفراغ عنها بذل الدنيا كلها فيها.

وكلُّ ما ذكرناه شواهد مُتظاهرة وآياتٌ مُتناصرة ناطقةٌ بلسانِ حالها، مُفصِّحةٌ عن جلال بارئها، معرِّبةٌ عن كمال حكمته فيها، مناديةٌ أربابَ القلوبِ بِنِعَمَاتِها<sup>(٢)</sup>، قائلةٌ لكلِّ ذي لُبٍّ: أما تراني وترى صورتِي وتركيبِي ومنافِعِي؟ أتظنُّ إنِّي تكوِّنتُ بِنَفْسِي، أو خَلَقْتَنِي أَحَدٌ من جِنْسِي؟ أو ما تستحيي وأنت تنظر إلى كلمةٍ مَرْقومةٍ من ثلاثةٍ أحرفٍ فتقطعُ بأنها كتابةٌ آدمي عالمٍ قادرٍ مريدٍ، ثم تنظر إلى عجائبِ الخُطُوطِ الإلهيةِ المرقومةِ على صَفحاتٍ وجهي بالقلمِ الإلهي الذي لا تُدركُ الأبصارُ ذاته ولا حركته، ثم يغفل قلبك عن جلال صانعه، وهذه النُّطفة تقولُ لمن ألقى السَّمْعَ وهو شهيدٌ: توهُمَنِي في ظلمةِ الحشا مغموسةً في دَمِ الحَيْضِ في الوقت الذي يظهر فيه التخطيطُ والتَّصويرُ فينقشُ النَّقْاشَ حدقتي وأجفاني وجبهتي وخَدَي وشَفَتِي، فترى النَّقُوشَ تظهر شيئاً فشيئاً على التَّدرِيجِ ولا ترى داخلَ النُّطفةِ نَقَاشاً ولا خارجها، ولا داخلَ الرَّحِمِ ولا خارجها، ولا خَبِرَ من ذلك عند الأمِّ ولا الأب، ولا عند النُّطفةِ ولا الرحم، فما هذا النَّقْاشُ أعجب ممن تُشاهده ينقشُ بالقلمِ صورةً عجيبةً لو نظرتَ إليها مرةً أو مرتين لتعلمته، فهل تقدر على أن تتعلم هذا الجنس من النَّقْشِ والتَّصويرِ الذي يعم ظاهر النُّطفةِ وباطنها وجميع أجزاءها من غير ملامسةٍ للنُّطفةِ،

(١) ليست في الأصل.

(٢) تصحفت في الأصل إلى: «نغمأ بها».

ومن غير اتصال بها لا من داخل ولا من خارج؟ فإن كنت لا تتعجب من هذه العجائب، ولا تفهم بها أن الذي صور ونقش وقدر لا نظير له ولا يساويه نقاش ولا مٌصور، كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع، فبين الفاعلين من المباشرة والتباعد ما بين الفعلين، فإن كنت لا تتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك، فإنه أعجب من كل عجب، فإن الذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنعك من التبين مع هذا البيان جدير بأن تتعجب منه، فسبحان من هدى وأضل وأشقى وأسعد، ففتح بصائر أحبائه فشاهدوه في جميع ذرات العالم وأجزائه، وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلائه، فله الخلق والأمر لا راداً لحكمه، ولا معقب لقصائه.

ومن آياته الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض لا يدرك بحسّ اللمس عند هبوب الريح جسمه، ولا يرى بالعين شخصه، فهو مثل البحر، والطيور محلقة في جوّ الهواء ومستقبلة سباحة فيه بأجنحتها، كما تسبح حيوانات البحر في الماء، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر، فإذا حرك الله الهواء وجعله ريحاً هابئة، فإن شاء جعله نشراً بين يدي رحمته كما قال: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنبات فتستعد للئماء، وإن شاء جعله عذاباً على العصاة من خليقته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩].

ثم انظر إلى لطيف الهواء، ثم انظر إلى شدته وقوته إذا ضبط في الماء، فإن الزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوي ليغمسه في الماء فيعجز عنه، والحديد الصلب يوضع على وجه الماء فيرسب فيه، فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوته مع لطافته، وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه الماء، وكذلك كل مجوف فيه هواء لا يغوص في الماء؛ لأن الهواء ينقبض عن الغوص في الماء فلا ينفصل عن السطح الداخل من السفينة، فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة في الهواء اللطيف كالذي يقع في بئر فيتعلق بذيل رجل قوي ممتنع عن الهوي في البئر، فالسفينة بمقعرها تتشبث بأذيال الهواء القوي حتى تمتنع من الهوي والغوص في الماء، فسبحان من علّق المركب الثقيل في هواء لطيف من غير علاقة تُشاهد وعقدة تُشدّ.

ثم انظر إلى عجائبِ الجَوِّ وما يظهر فيه من العُيوم والرَّعد والبرق والمَطَر والثَّلج والشُّهْب والصَّواعق وغير ذلك من العجائب المُشاهدة بين السَّماء والأرض، فإن لم يكن لك حَظٌّ من ذلك إلا أن ترى المطر بعينك وتسمع الرعد بأذنك فالبهيمة تُشارِكك في هذه المعرفة، فارتفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم الملائ الأعلى، فقد فتحت عينك فأدركت ظاهرها، فغمض عينك الظاهرة وانظر ببصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها، فتأمل السحاب الكثيف المُظلم كيف تراه يجتمع في جَوِّ صافٍ لا كَدْر فيه، وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء، وهو مع رَخاوته حاملٌ للماء الثَّقيل وممسكٌ له في جَوِّ السَّماء إلى أن يأذن الله في إرسال الماء وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذي أَراده الله تعالى، وعلى الشكل الذي شاء، فترى السحاب يرشُّ الماء على الأرض ويُرسله قطرات منفصلة لا تُدرِك قطرةٌ منها قطرةً، ولا تتَّصلُ واحدةٌ بأخرى، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رُسِمَ لها لا تُعدُّلُ عنه فلا يتقدم المُتأخِّر ولا يتأخَّر المُتقدم، فلو اجتمع الخلق كلهم على أن يخلقوا منها قطرةً أو يعرفوا عدد ما ينزل منها في بلدةٍ واحدةٍ أو بُستانٍ واحدٍ لعجزوا، ولا يعلم عددها إلا الذي أوجدها.

ثم كل قطرةٍ منها عُيِنَتْ لجزءٍ من الأرض ولحيوانٍ معروفٍ مكتوبٍ على تلك القطرة بخطٍ إلهي لا يُدرِك بالبصر الظاهر: إنها رِزْقٌ كذا وكذا.

ثم انعقادُ البردِ الصَّلب من الماء اللطيف وتناثر الثلوج كالفُظن النَّديف، وربما قال الجاهل: إنما ينزل الماء لأنه ثَقِيلٌ بطبعه. ولو قيل له: ما الطَّبعُ ومن خلق الماء الذي طبعه الثَّقَلُ؟ وما الذي رَفَى هذا الماء إلى قلبِ الشَّجرة حتى انتشر في جميع الثَّمَر والورق؟ فتراه يجري في عروقِ صغار يروي منها العرق الذي هو أصل الورقة، ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود في طول الورقة عروقٌ صغار، فكأنَّ الكبير نَهْرٌ وما انشعب عنه جداول، ثم ينشعب من الجداول سواقي أصغر منها، ثم تنتشر منه خُيوطٌ عنكبوتيةٌ دقيقةٌ تَخْرُجُ عن إدراك البصر حتى تنبسط في جميع عرض الورقة فيصلُ الماء في أجوافها إلى جميع أجزاء الورقة ليُغذيها ويُنمِّيها، وتبقى طراوتها ونضارتها، فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل، فكيف

تحرك إلى فوق؟ فإن كان ذلك بجذبٍ جاذبٍ فمن المُسَخَّرِ لذلك الجاذب؟ فإن كان ينتهي في الآخرِ إلى خالقِ الخلقِ فلم لا يُحالُ عليه في أول الأمر؟! فنهاية الجاهل بداية العاقل.

ومن آياته ملكوت السماوات وما فيها من الآيات، فإن كل جسم سوى السماوات بالإضافة إلى السماوات كقطرة في بحرٍ أو أصغر، ولذلك عظّمها الله تعالى في كتابه، فقال: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]، وقال: ﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١]، وقال: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْكُتُبِ﴾ [الذاريات: ٧]، وقال: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: ٥]، وذمّ المعرضين عن التفكير فيها، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

فانظر إليها، وليس النّظر بأن تَمُدَّ البصرَ فترى زُرْقَةَ السَّمَاءِ وضوء الكواكب وتفرّقها، فإن البهائم تُشاركك في هذا النظر، وإنما تقدر على النظر فيها إذا نظرت إلى نفسك، ثم إلى مقرّك وهو الأرض، ثم إلى الهواء المُكتنّف لك، ثم إلى الثّبات والحيوان، ثم إلى عجائب الجوّ، ثم تنظر في السماوات، ثم الكرسي، ثم العرش، ثم حملة العرش، ثم تُجاوزُ النّظر إلى ربّ العرش، فبينك وبين هذه الحالة المفاوز الفِيح<sup>(١)</sup> والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة، وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة، وهي معرفة ظاهر نفسك، ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدّعي معرفة ربّك وتقول: قد عرفته، وعرفتُ خَلْقَهُ ففماذا أتفكّر؟ فانظر إلى السَّمَاءِ وكواكبها ودورانها، وشمسها وقمرها وحركتها من غير فتور، بل تجري بحساب مُقدّر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها الله تعالى كطيّ السّجلّ للكتاب، وتدبّر<sup>(٢)</sup> كواكبها فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللّون الرصاصي، ثم انظر إلى كيفية أشكالها وما منها كوكبٌ إلا والله تعالى فيه حكم كثيرة في لونه وشكله وموضعه، ومسير الشمس<sup>(٣)</sup> وغروبها ليتميز وقت الضّوء عن وقت

(١) المفاوز: جمع مفازة، وهي الصحراء، والفيح: جمع فيحاء وهي: الواسعة الأطراف.

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «مدبر».

(٣) أي تدبر في مسير الشمس.

الظلام، فيتميّز زمان المعاش عن زمان النوم، وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل، وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص، وانظر إلى إمالته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف، فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء في مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء، وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ<sup>(١)</sup>، وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان.

وقد قيل: إن الشمس مثل الأرض مئة ونيفاً وستين مرة، وأصغر الكواكب مثل الأرض ثمان مرات، فإذا كان هذا قدر كوكب واحد، فانظر إلى كثرة الكواكب وإلى السماء التي فيها الكوكب مركوز، ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لا تحس بحركتها فضلاً عن إدراك سرعتها، لكن لا تشك في أنها في لحظة تسير مقدار عرض كوكب.

وانظر إلى إحاطة عينك بالسماء مع صغر هذه وكبر تلك، فانظر إلى بارئها كيف أمسكها بغير عمد ولا علاقة من فوقها.

والعجب منك تدخل بيت غني فتراه مزوّقاً بالصبغ مموهاً بالذهب، فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره باقي عمرك، وأنت أبداً تنظر إلى هذا البيت العظيم، وإلى أرضه وسقفه وعجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه، ثم لا تلتفت نحوه بقلبك، ولا تتفكر في بناء الخالق له، فلقد نسيت نفسك وربك، واشتغلت ببطنك وفرجك، وغاية حشمتك أن يقبل عليك جماعة ينافقونك بألسنتهم، ويضمرون خباث الاعتقاد في حقك، ولو صدقوك في مودتهم فإنهم لا يملكون لك ضرراً ولا نفعاً.

وما مثلك في غفلتك إلا كمثله نملة تخرج من بيتها الذي حفرته في قصر الملك فتلقى أختها فتحدث معها حديث بيتها، وكيف بنته، وما جمعت فيه، ولا تذكر قصر الملك، ولا من فيه، فهكذا أنت في غفلتك عن بيت الله تعالى، فما تعرف من

(١) القيظ: الحر.

السَّماءِ إلا ما تعرفه النَّملة من سقف بيتك إلا أن النَّملة أَعَدَّ إذ لا طريقَ لها إلى تَعْرِفِ ذلك، (أما أنتِ فلك) <sup>(١)</sup> طريقٌ، وما تَسْلُكُه .

فهذا بيانُ مَعَاقِدِ الجَمَلِ التي يَجُولُ فيها فِكْرُ المتفكرين، وإلا فالأعمارُ تَقْصُرُ والعلومُ <sup>(٢)</sup> تَقِلُّ عن الإحاطة ببعض المخلوقات، إلا أنك كلما استكثرت من معرفة عجائب المصنوعات كانت معرفتك بجلال الصانع أتم، كما أنك لو عَظَّمْتَ عالماً بسبب معرفته ثم أطلعت على تصانيفه لزاد قَدْرُه في قلبك، فتفكر فيما أشرنا إليه ها هنا مع ما أشرنا إليه في كتاب الشُّكْرِ، فإننا نظرنا فيما يتعلَّق بهذا الكتاب من حيث إنه فعلُ الله تعالى فقط، ونظرنا في كتاب الشُّكْرِ في فعل الله تعالى من حيث إنه إنعامٌ علينا، ومن نظر في هذه الأشياء من حيث إنها فعلُ الله تعالى وصُنْعُه استفاد المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته، ومن قَصَرَ النظرَ عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لا من حيث ارتباطها بمُسَبِّبِ الأسباب، فقد شَقِيَ .

فنعوذ بالله من مَزَلَّةِ أقدام الجُهَّال، ومن الرُّكُونِ إلى أسبابِ الضَّلال .

آخر كتاب التَّفَكُّر

\* \* \*

(١) سقط من الأصل .

(٢) في الأصل: «والأمور»، والمثبت من المختصر .



## كتاب ذكر الموت وما بعده

الحمد لله الذي جعل الدنيا قنطرة العبور، وحكم على كل من فيها أن يتوَى<sup>(١)</sup> ويَبور، وبنى الصُّورَ ليُعرف المُصوّر ثم صَيَّرها إلى الدُّثور، وحبسها في مضائق البلى إلى أن يُنفخ في الصُّور، فالعجب لمتوطنٍ في مَبْرِك رَحْلِهِ أو للعب مأسور ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَعٌ الْفُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

أحمده وهو المحمود المشكور، وأقرُّ بوحدانيته عن دليلٍ عن اليقين يدور، وأصَلِّي على رسوله محمدٍ أشرف من دلَّ على صدقه بأجلى نور، وعلى أصحابه وأتباعه وأزواجه وأشياعه إلى يوم الحشر والحضور.

أما بعد: فجديرٌ بمن الموتُ مَصْرَعُهُ، والثرابُ مَضْجَعُهُ، والدُّودُ أُنَيْسُهُ، ومُنْكَرٌ ونَكِيرٌ جَلِيْسُهُ، وبطنُ الأرضِ مَقْرَهُ، والقَبْرُ مُسْتَقْرَهُ، والقيامةُ مَوْعِدُهُ، والجنَّةُ أو النارُ مَوْرِدُهُ، أن لا يكون له فِكْرٌ إلا في الموت، ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تَدَبُّرٌ إلا فيه، ولا تطلُّعٌ إلا إليه، ولا تعريجٌ إلا عليه، ولا اهتمامٌ إلا به، ولا انتظارٌ إلا له، وحقيقٌ بأن يُعَدَّ نفسه من الموتى، ويَراها في أصحاب القبور، فإن كل ما هو آتٍ قريب، وقد قال ﷺ: «الْكَيْسُ من دانَ نفسه وعمل لما بعد الموت».

ولن يتيسَّر الاستعدادُ للشَّيءِ إلا عند تجدّد ذكره على القلب، ولا يتجدّد ذكره إلا عند التذكّر بالإصغاء إلى المذكّرات له والنظر في المُنبّهات عليه.

(١) يتوَى: يهلك.

ونحن نذكرُ من أمرِ الموتِ ومُقَدَّماته ولِوَاجِهِه وأحوال الآخرة والقيامة والجنَّة والنار ما لا بدَّ معه من تذكُّره، ليكون ذلك مُستحثاً له على الاستعداد، فالعمر يسير وهو يسير ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

ونحن نذكر ما يتعلَّق بالموتِ في شطرين:

الشطْر الأول: في مُقَدَّماته، وتوابعه إلى نفحةِ الصُّور، وفيه ثمانية أبواب:

البابُ الأول: في فضل ذكر الموت والتَّربُّغ فيه.

الباب الثاني: في ذكر طول الأمل وقِصره.

الباب الثالث: في ذكر سَكَرات الموت، وشِدَّتِه وما يُستحب من الأحوال عند الموت.

الباب الرابع: في ذكر وفاة رسول الله ﷺ، والخلفاء الراشدين بعده.

الباب الخامس: في كلام المُحتَضِرِينَ من الخلفاء والأُمراء والصالحين.

الباب السادس: في أقوال العارفين على الجنائز والمقابر، وحُكم زيارة القبور.

الباب السابع: في حقيقة الموت، وما يلقاه الميت إلى نفحةِ الصُّور.

الباب الثامن: في ذكر ما عرف من أحوال الموتى بالمُكاشفة في المنام.

\* \* \*

## الباب الأول

### في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره

اعلم أن المُنْهَمِكَ في الدنيا، المكبَّ على غُرورها، المُحِبَّ لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت، فلا يذكره، وإذا ذُكِّرَ به كرهه ونَفَرَ منه .  
ثم إنَّ الناسَ إمَّا مُنْهَمِكٌ، أو تائبٌ مُبْتَدِيءٌ، أو عارفٌ مُتَّبِعٌ .  
فأما المُنْهَمِكُ؛ فلا يذكر الموت، وإن ذكره فيذكره للتأسف على دُنياه ويشتغل بدمه، وهذا يزيده ذكر الموت من الله تعالى بُعداً .

وأما التائب فإنه يُكثر ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيُقيي بتمام التوبة، وربما يكره الموت خيفة أن يختطفه قبل تمامها، وقبل إصلاح الزاد، وهو معذورٌ في كراهة الموت، ولا يدخل هذا تحت قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»<sup>(١)</sup> . فإن هذا لا يكره الموت ولقاء الله، وإنما يخافُ قُوتَ لقاء الله لقُصوره وتقصيره، وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مُشتغلاً بالاستعداد للقاءه على وجه يَرْضاه، ولا يُعدُّ كارهاً للقاءه، علامةُ هذا أن يكون دائمَ الاستعداد له، لا شُغْلَ له سِوَاهُ، وإلا التحقَ بالمنهمك في الدنيا .

وأما العارف؛ فإنه يذكر الموت دائماً؛ لأنه موعِدُ لِقائه لحبيبه، والحبيب لا ينسى موعِدَ لقاء الحبيب، وهذا في غالب الأمر يستبطنه مجيء الوقت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار ربِّ العالمين، كما قال حذيفة: حبيبٌ جاء على فاقة .

فإذن التائب معذورٌ في كراهة الموت، وهذا معذورٌ في حُبِّ الموت وتمنيهِ،

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣) من حديث عبادة بن الصامت .

وأعلى منهما رتبةً من فَوَضَّ أمره إلى الله تعالى، فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياةً، بل يكون أحبَّ الأشياء إليه أحبها إلى مولاه، فهذا قد انتهى بفرط الحُبِّ والولاء إلى مقام التَّسليم والرِّضا، وهو الغاية والمنتهى.

وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثوابٌ وفضل، فإن المنهمك في الدنيا يستفيد بذكر الموت التَّجافي عن الدنيا؛ لأن ذكره يُنَعِّصُ عليه نعيمه، ويُكَدِّرُ صَفَاءَ لَذَّاتِهِ.

### بيان فضل ذكر الموت كيفما كان

أخبرنا أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله البيضاوي قال: أخبرنا أبو الحسين بن عبد الجبار قال: أخبرنا أحمد بن علي التَّوْزِي قال: أخبرنا محمد بن عبد الله ابن أخي ميمي قال: أخبرنا الحُسَيْن بن صفوان قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثنا محمود بن غِيلان قال: حدثنا الفَضْل بن موسى عن محمد بن عمرو عن أبي حازم عن أبي هُريرة قال: كان رسولُ الله ﷺ يُكْثِرُ أن يقول: «أَكْثَرُوا ذِكْرَ هَازِمِ اللَّذَاتِ»<sup>(١)</sup>. يَعْنِي الموت.

قال القرشي: وحدثني محمد بن إدريس قال: حدثنا سُنَيْدُ بن داود قال: حدثنا هُشَيْم قال: حدثنا كوثر بن حكيم عن نافع عن ابن عمر قال: خرج رسولُ الله ﷺ إلى المسجد، فإذا قوم يتحدثون ويضحكون، فقال: «اذكروا الموت، أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً».

قال القُرشي: وحدثني إبراهيم بن سعيد الجوهري قال: حدثنا وَهَيْب بن محمد قال: حدثنا جعفر بن سُلَيْمان قال: حدثنا ثابت عن أنس أن رجلاً ذُكِرَ عند النبي ﷺ فأحسنوا عليه الثناء، فقال النبي ﷺ: «كَيْفَ كَانَ ذِكْرَ صَاحِبِكُمْ لِلْمَوْتِ؟» قالوا: ما كُنَّا نَكَادُ نَسْمَعُهُ يَذْكُرُ الموت. قال: «فإن صاحبكم ليس هُنَالِكَ»<sup>(٢)</sup>.

وروى ابنُ عمر عن النبي ﷺ أنه سُئِلَ: أيُّ المؤمنين أكيس؟ فقال: «أَكْثَرُهُم

(١) أخرجه أحمد (٧٩٢٥)، والنسائي (٤/٤)، وابن ماجه (٤٢٥٨)، والترمذي (٢٣٠٧)، وابن حبان (٢٩٩٢) و(٢٩٩٤)، و(٢٩٩٥). وقوله: «هازم» بالذال المعجمة، أي: قاطع.

(٢) عزاه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٤/٤٥١) لابن أبي الدنيا في الموت.

ذكرًا للموت، وأحسنهم استعداداً له قبل أن ينزل به، أولئك الأكياس»<sup>(١)</sup>.

وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «أكثرُوا ذِكْرَ الموت، فإن كثرة ذكر الموت يمحّصُ الذنوب ويؤهّد في الدنيا»<sup>(٢)</sup>.

وكان عيسى ابنُ مريم إذا ذكر الموت يقطر جلده دماً، وكان يقول للحواريين: ادعوا الله أن يخففَ عني سكرة الموت، فلقد خفتُ الموتَ خوفاً وقفني على الموت. وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة والنار بكى حتى تنخلع أوصاله، فإذا ذكر الرحمة رجعت إليه نفسه.

وقال الحسن البصري: فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فرحاً، وما ألزم عبد قلبه ذكر الموت إلا صغرت الدنيا عنده، وهان عليه جميع ما فيها. وكان ابنُ سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كلُّ عضوٍ منه على حدة.

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل: أكثر ذكر الموت، فإنك لا تذكره عند واسع من الأمر إلا ضيقه عليك، ولا عند ضيق من الأمر إلا وسعه عليك. وكتب إلى أهل بيته: أما بعد، فإنك إن استشعرت ذكر الموت في ليلك ونهارك بغض إليك كل فان؛ وحبب إليك كل باقٍ، والسلام.

وكان عمر<sup>(٣)</sup> إذا ذكر (الموت انتفض)<sup>(٤)</sup> انتفاض الطائر، وكان يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة، ثم يكون حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وكان خُلَيْدُ العَصْرِي يقول: كلنا قد أيقن بالموت وما نرى له مُستعداً، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفاً، فعلام تُعرّجون؟ وما عسيتم تنتظرون؟ الموت، فهو أول واردٍ عليكم من الله بخيرٍ أو شرٍّ، فإيا إخواته، سيروا إلى ربكم سيراً جميلاً.

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٩).

(٢) عزاه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٤٥١/١) لابن أبي الدنيا في الموت.

(٣) يعني ابن عبد العزيز.

(٤) سقط من الأصل.

وقال شَمِيطُ بْنُ عَجْلَانَ: من جعلَ الموتَ نُصبَ عينيه لم يُبالِ بضيقِ الدُّنيا ولا بسَعَتِها.

وقال يزيد بن تميم: من لم يردعه القرآن والموت ثم تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع.

### بيان الطَّرِيقِ إِلَى تَحْقِيقِ<sup>(١)</sup> ذِكْرِ الْمَوْتِ فِي الْقَلْبِ

اعلم أن خطر الموت عظيم، وإنما غفل الناس عنه لقلّة فكرهم فيه وذكّره لهم، ومن تذكّره منهم فإنما يذكره بقلبٍ غافلٍ مشغولٍ بشهوات الدنيا، لا بقلب فارغ، فلهذا لا ينجع<sup>(٢)</sup> ذكر الموت فيه.

والطريق في ذلك: أن يُفرغَ العبدُ قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه كالذي يُريدُ أن يُسافرَ إلى مغارةٍ مُخْطِرةٍ، أو يركب البحر فإنه لا يتفكّر إلا في ذلك، فإذا باشر ذكر الموتِ قلبه فيوشك أن يؤثّر فيه، وعند ذلك يقلُّ فرحه وسروره بالدنيا، وينكسر قلبه.

وأوقع طريق<sup>(٣)</sup> فيه أن يُكثِرَ ذكْرَ أشكاله وأقرانه الذين مَضَوْا قَبْلَهُ، فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب، ويتذكّر صورهم مناصبهم وأحوالهم، وتأمّل كيف مَحَى الترابُ الآنَ حُسْنَ صورهم، وكيف تَبَدَّدتْ أجزاءهم في القُبورِ وانقطعت آثارهم، فيذكر رجلاً رجلاً، ويتفكر في أمله وانخداعه بالقُوَّةِ والشَّبَابِ، وميله إلى الضَّحْكِ واللَّهْوِ، وغَفْلته عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ الذَّرِيعِ، والآلِ فَقَد تَهَدَّم بِنَاؤُهُ وَأَكَل لِسَانُهُ، وكيف كان يُدبِّرُ لِنَفْسِهِ مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ إِلَى عَشْرِ سِنِينَ فِي وَقْتٍ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَوْتِ إِلَّا شَهْرًا، وهو غافل عَمَّا يُرَادُ بِهِ حَتَّى جَاءَ الْمَوْتُ فِي وَقْتٍ لَمْ يَحْتَسِبْهُ، وانكشفت له صُورَةُ الْمَلِكِ، وَقَرَعَ سَمْعُهُ التَّبَشِيرُ بِالْجَنَّةِ أَوْ بِالنَّارِ، فليعلم أن عاقبته كذلك.

(١) تحرفت في الأصل إلى: «طريق»، والمثبت من الإحياء.

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «ينهج»، والمثبت من الإحياء.

(٣) أي أكثر طريق وقعاً في القلب.

قال ابن مسعود: السَّعِيدُ من وُعِظَ بغيره .

وقال أبو الدرداء: إذا ذكرتَ الموتَ فَعُدَّ نفسك أحدهم .

وقال عمر بن عبد العزيز: في كلِّ يوم تُشَيِّعونَ غادياً ورائحاً إلى الله، فقد قضى نحبَه وانقضى أجلُه، حتى تَضَعوه في صَدْعٍ من الأرض في بطنِ صَدْعٍ، قد خَلَعَ الأسبابَ، وفارقَ الأحبابَ، وواجهَ الحسابَ .

فمُلازِمَةٌ هذه الأفكارِ وأمثالها مع دُخولِ المقابرِ ومُشاهدةِ المَرَضَى هو الذي يُجددُ ذَكَرَ الموتِ في القلبِ حتى يغلبَ عليه بحيثُ يصيرُ نصبَ عينيه، فعند ذلك يوشكُ أن يستعدَّ له، ويتجافى عن دارِ العُرورِ، وإلا فالذكرُ باللسانِ قليلُ الجدوى، ومتى سكن قلبه إلى شيءٍ من الدنيا فينبغي أن يتذكَّرَ في الحالِ أنه لا بد من مُفارِقَتِهِ .

\* \* \*

## الباب الثاني

### في طول الأمل وفضيلة قصره، وسبب طوله، وكيفية معالجته

ذكر طول الأمل :

أنبأنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يحيى بن شعبة قال: حدثنا قتادة عن أنس عن النبي ﷺ، قال: «يهرمُ ابنُ آدم، وتبقى منه اثنتان: الحرصُ والأمل»<sup>(١)</sup> أخرجاه في الصحيحين.

وفيها من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قلبُ الشيخِ شابٌّ على حُبِّ اثنتين: طولِ الحياة وكثرة المال»<sup>(٢)</sup>.

أنبأنا ابنُ الحصين قال: أخبرنا ابنُ المُذهَّب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يحيى عن سُفيان قال: حدثني أبي عن أبي يعلى عن ربيع بن خيثم عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه خَطَّ خَطًّا مَرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا وَسَطَ الخَطِّ المَرَبَّعِ، وَخَطَّ طَوًّا إِلَى جَنْبِ الخَطِّ الَّذِي فِي وَسَطِ الخَطِّ المَرَبَّعِ، وَخَطًّا خَارِجًا مِنَ الخَطِّ المَرَبَّعِ، قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذَا؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «هَذَا الْإِنْسَانُ؛ الخَطُّ الأَوْسَطُ، وَهَذِهِ الخُطُوطُ الَّتِي إِلَى جَنْبِهِ: الأَعْرَاضُ، تَنْهَشُهُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، إِنَّ أخطأه هَذَا، أَصَابَهُ هَذَا، وَالخَطُّ

(١) أخرجه البخاري (٦٤٢١)، ومسلم (١٠٤٧)، وأحمد (١٢٤١٢) و(١٢٢٠٢) و(١٢٧٢١)، و(١٢٩٩٨) و(١٣٦٩٤) و(١٣٩١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٢٠)، ومسلم (١٠٤٦) و(١١٣) وأحمد (٨٢١١) و(٨٦٩٩) و(٩١٢٣) و(٩٧٢٠) و(٩٧٧٦).

المرَّبَع: الأجل المحيط به، والخَطُّ الخارجُ: الأمل»<sup>(١)</sup> انفرد بإخراجه البخاري.  
 أنبأنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحُسين بن علي قال: أخبرنا أحمد بن  
 جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يزيد قال: أخبرنا  
 حمَّاد بن سَلَمَة عن عُبَيْد الله بن أبي بكر، عن أنس بن مالك، أن رسولَ الله ﷺ  
 جمعَ أصابعه فَوَضَعها على الأرض، فقال: «هذا ابنُ آدم». ثم رَفَعها فَوَضَعها خلفَ  
 ذلك قليلاً، وقال: «هذا أَجَلُه» ثم رَمَى بيده أمامه قال: «وَتَمَّ أَمَلُه»<sup>(٢)</sup>.

وكان الحسنُ يقول: يا ابنَ آدم، النار تسعر، والتَّنور يُسَجَّر، والكَبش يُعْتَلَف.  
 وكان عَوْنُ بن عبد الله يقول: ما أنزل الموتُ مَنْزلته، فكم من مُستقبل يوماً  
 لا يستكملُه، وكم من مؤمِّلٍ غداً لا يُدرکه، إنكم لو رأيتم الأجلَ ومسيرَه، لأبغضتم  
 الأملَ وغُرورَه.

#### فضيلة قصر الأمل:

أنبأنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابنُ أعين قال: حدثنا الفِرْبَري  
 قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا عليُّ بن عبد الله قال: حدثنا محمد بن عبد الرحمن  
 الطُّفَاوي عن الأعمش قال: حدثني مجاهد عن عبد الله بن عُمر قال: أخذ  
 رسول الله ﷺ بِمَنْكِبِي فقال: «كُنْ في الدنيا كأنَّكَ غريبٌ أو عابِرُ سَبِيلٍ». وكان ابنُ  
 عمر يقول: إذا أمسيتَ فلا تَنظُر الصباح، وإذا أصبَحْتَ فلا تَنظُر المساء، وخُذ من  
 صحَّتِكَ لمرَضِكَ، ومن حياتِكَ لموتِكَ. انفرد به البخاري<sup>(٣)</sup>.

أنبأنا ابن الحُصَيْن قال: أخبرنا ابن المُذهب، قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال:  
 حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا علي بن عاصم قال: حدثنا  
 عبد الله بن عثمان ابن خُثَيْم عن عثمان بن جُبَيْر عن أبي أيوب الأنصاري قال: جاء

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٧)، وأحمد (٣٦٥٢)، والترمذي (٢٤٥٤)، وابن ماجه (٤٢٣١)،  
 والدارمي (٣٠٤/٢)، وأبو يعلى (٥٢٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٢٣٨) وابن المبارك في الزهد (٢٥٢)، والترمذي (٢٣٣٤)، وابن ماجه  
 (٤٢٣٢)، وابن حبان (٢٩٩٨)، والطبراني في الأوسط (٧٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤١٦)، والترمذي (٢٤٣٥).

رجل إلى النبي ﷺ فقال: عِظْنِي وَأَوْجِزْ. فقال: «إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُودَعٍ، وَلَا تَكَلِّمْ بِكَلَامٍ تَعْتَدِرُ مِنْهُ غَدًا، وَأَجْمِعِ الْيَأْسَ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ»<sup>(١)</sup>.

أنبأنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا رِزْقُ الله بن عبد الوهاب قال: أخبرنا الحسن بن أحمد بن شاذان قال: أخبرنا أبو جعفر عبد الله بن إسماعيل بن بُرَيْه، قال: أخبرنا أبو بكر القُرشي قال: حدثنا الحسن بن محمد الرِّعْفَرَانِي قال: حدثنا محمد بن معاوية قال: حدثنا علي بن علي قال: حدثني محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافَ عَلَى أُمَّتِي الْهَوَىٰ وَطُولُ الْأَمَلِ، فَأَمَّا الْهَوَىٰ فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طَوْلُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ»<sup>(٢)</sup>.

قال القُرشي: وحدثنا العباس بن جعفر قال: حدثنا محمد بن المصْفَى قال: حدثنا محمد ابن حسين قال: حدثنا أبو بكر ابن أبي مريم عن عطاء بن أبي رباح عن أبي سعيد الخدري قال: اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وُلَيْدَةً بِمِئَةِ دِينَارٍ إِلَى شَهْرٍ، فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ أُسَامَةَ الْمُشْتَرِي إِلَى شَهْرٍ! إِنَّ أُسَامَةَ لَطَوِيلُ الْأَمَلِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا طَرَفَتْ عَيْنَايَ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنْ شَفْرِي لَا يَلْتَقِيَانِ حَتَّى يَقْبِضَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ رُوحِي، وَلَا رَفَعْتُ طَرْفِي فَظَنَنْتُ أَنِّي وَاضِعُهُ حَتَّى أُقْبِضَ، وَلَا لَقِمْتُ لُقْمَةً إِلَّا ظَنَنْتُ أَنِّي لَا أُسَيِّغُهَا حَتَّى أُغْصَ بِهَا مِنَ الْمَوْتِ» ثم قال: «يَا بَنِي آدَمَ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ فَعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الْمَوْتِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّمَا تَوَعَدُونَ لَأَتَّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ».

قال القُرشي: وحدثنا عصمة بن الفضل قال: حدثنا يحيى بن يحيى عن عبد الله بن لهيعة عن أبي هُبَيْرَةَ عَنْ حَنْشٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُهْرِيقُ الْمَاءَ فَيَتَمَسَّحُ بِالثَّرَابِ، فَأَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ الْمَاءَ مِنْكَ قَرِيبٌ. فيقول: «وَمَا يُدْرِينِي، وَلِعَلِّي لَا أَبْلُغُهُ».

قال القُرشي: وحدثنا سلمة ابن شبيب، قال: حدثنا مروان بن محمد عن ابن

(١) أخرجه أحمد (٢٣٤٩٨)، وأبو الشيخ في الأمثال (٢٢٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/٣٦٢).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٦٩/٧)، وأبو نعيم في الحلية (١/٧٦).

لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول الله ﷺ: «نجا أولُ هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل».

قال القرشي: وحدثني أحمد بن عبد الأعلى قال: حدثنا أبو سعيد عن مالك بن مغول عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أكلكم يحبُّ أن يدخل الجنة؟» قالوا: نعم يا رسول الله. قال: «قَصِّروا الأمل، وأثبِّتوا آجالكم بين أبصاركم، واستحيوا من الله عزَّ وجلَّ حقَّ حيائه».

قال القرشي: وحدثنا أبو خيثمة قال: حدثنا جرير عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن الحارث بن سويد قال: قال ابن مسعود: هذا المرء، وهذه الحُتوف حوله شوارعُ إليه، والهرمُ وراء الحُتوف، والأملُ وراء الهرم، وهو يأمل، وهذه الحُتوف شوارعُ إليه، فأيتها أمرُ به أخذه، فإن أخطأته قتلته الهرم وهو ينظر إلى الأمل.

قال القرشي: وحدثنا محمد بن عبّاد قال: حدثنا غسان بن مالك، قال: حدثنا حمادُ بن سلمة عن داود بن أبي هند وحميد قالوا: بينما عيسى ابنُ مريم جالسٌ وشيخٌ يعمل بمسحاته<sup>(١)</sup> يُثِيرُ الأرضَ، فقال: اللهم انزع منه الأمل. فوضع الشيخُ المسحاةَ واضطجع، فلبث ساعةً، فقال عيسى: اللهم اردد إليه الأمل. فقام فجعل يعمل. فقال له عيسى: مالكَ بينما أنتَ تعملُ أقيتَ مسحاتك واضطجعت ساعةً، ثم إنك قُمتَ بعدُ فعملتَ؟ قال الشيخُ: بينما أنا أعملُ قالت لي نفسي: إلى متى تعملُ وأنت شيخ كبير؟ فألقيتُ المسحاةَ واضطجعتُ، ثم قالت لي نفسي: والله لا بدَّ لك من عيشٍ ما بقيتَ، فقمْتُ إلى مسحاتي.

قال القرشي: وحدثنا خالدُ بن مِرْداس قال: حدثنا خالد بن يحيى عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن سلمان الفارسي قال: ثلاثٌ أعجبتني حتى أضحكنتني: مؤمِّلُ الدنيا والموتُ يطلبه، وغافلٌ ليس بمغفولٍ عنه، وضاحكٌ ملءٌ فيه لا يدري أساخطُ ربُّ العالمين عليه أم راضٍ عنه.

(١) المسحاة: أداة للجرف تستخدم في الفلاحة.

قال القرشي: وحدثنا محمد بن إدريس عن أبي زكريا التميمي قال: بينا سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام إذ أتني بحجرٍ منقورٍ فطلب من يقرؤه، فأتني بوهب بن مُنَّبه فقرأه، فإذا فيه: ابن آدم، إنك لو رأيت قُرْبَ ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك، ولرغبت في الزيادة من عملك، ولقصرت من حرصك وحيلك، وإنما يلقاك ندمك لو قد زلت بك قدمك، وأسلمك أهلك وحشمك، فبان منك الولد القريب ورفضك الوالد والنسيب، فلا أنت إلى دُنياك عائد، ولا في حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة.

قال القرشي: وحدثني محمد بن العباس قال: حدثنا وكيع عن سُفيان قال: الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا لبس العباء.

وكان عمر بن عبد العزيز يقول: والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسي بعد صباحه، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا.

وكان شَمِيطُ يقول: أيها المُعْتَرُ بطولِ صحته، أما رأيت مَيِّتاً قط من غير سُقم؟ أيها المُعْتَرُ بطولِ المهلة أما رأيت مأخوذاً من غير عِدة؟

### بيان السبب في طول الأمل وعلاجه

اعلم أن طول الأمل له سببان: أحدهما: الجهل. والآخر: حُب الدنيا.

أما حُب الدنيا؛ فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه، والإنسان مشغوف بالأمانى الباطلة يمضي نفسه أبداً بما يوافق مراده، وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا، فلا يزال يتوهمه ويُقدِّره في نفسه، ويُقدِّر توابع البقاء، وما يحتاج إليه من مالٍ وأهلٍ ودارٍ وأصدقاء ودواب، وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفاً عليه، فيلهو عن ذكر الموت، فلا يُقدِّر قربَه، فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوف، ووعد نفسه وقال: الأيام بين يديك، فإلى أن تكبر ثم تتوب. وإذا كبر قال: إلى أن تصير شيخاً.

فإذا صار شيخاً قال: إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار أو عمارة هذه الضيعة، أو ترجع من هذه السفرة، أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكنه، أو قهر هذا العدو، فلا يزال يسوف ويؤخر، ولا يخوض في شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغالٍ أخرى، وهكذا على التدرج يؤخر يوماً بعد يوم، ويفضي به شغل إلى شغل بل إلى أشغالٍ إلى أن تختطفه المنيّة في وقت لا يحسبُه، فتطول عند ذلك حسرته، وأكثر أهل النار صياحهم من «سوف» يقولون: واخزناه من سوف.

والمسوف المسكين لا يدري أن الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غداً، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورُسوخاً، ويظن أنه يتصور أن يكون للخائض في الدنيا والحافظ لها فراغ، هيهات! ما فرغ منها إلا من أطرحها.

فما قضى أحدٌ منها لبانتَهُ ولا أنتهى أربُّ إلا إلى أربٍ وأصل هذه الأمانى كلها حُب الدنيا والأنس بها، والغفلة عن معنى قول النبي ﷺ: «أحب من شئت، فإنك مفارقة»<sup>(١)</sup>.

وأما الجهل؛ فهو أن الإنسان قد يعول على شبابه، فيستبعد قرب الموت مع الشباب، وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا كانوا أقل من عشر رجال البلد، وإنما قتلوا لأن الموت في الشباب أكثر، فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب، وقد يستبعد الموت لصحته، ويستبعد الموت فجأة، ولا يدري أن ذلك غير بعيد، فإن كان ذلك بعيداً فالمرض فجأة غير بعيد، فكل مرضٍ فإنما يقع فجأة، وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً، ولو تفكر هذا العاقل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شبابٍ ومشيب<sup>(٢)</sup> وكهولة، ومن صيفٍ وشتاءٍ وخريفٍ وربيع، ومن ليلٍ ونهارٍ لعظم استشعاره واشتغل بالاستعداد له، ولكن الجهل بهذه الأمور وحُب الدنيا دعاه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب، فهو أبداً يظن أنه يشيع الجنائز ولا يُقدّر أن تُشيع جنازته؛ لأن هذا قد تكرر عليه وألفه،

(١) أورده المصنف في العلل المتناهية (٢/٨٨٦)، وقال: هذا حديث لا يصح.

(٢) في الأصل: «شيخ»، والمثبت من الإحياء.

وهو مُشاهدة موت<sup>(١)</sup> غيره، وأما موتُ نفسه فلم يألفه، ولا يتصور أن يألفه، وإذا وقع لم يقع دفعةً أخرى بعدها، فهو الأول وهو الآخر، وسبيله أن يقيس نفسه بغيره، ويعلم أنه لا بدَّ أن تُحَمَل جنازته ويُدفن في قَبْره، ولعلَّ اللَّبَن الذي يُعْطَى به لَحْدُهُ قد ضُربَ وُقِرغَ منه وهو لا يدري، فتسويفه جهلٌ مَحْضٌ.

وإذا عرفت أن سببه الجهلُ وحبُّ الدنيا، فعلاجه دَفْعُ سببه.

أما الجهلُ؛ فيُدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر، وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة.

وأما حبُّ الدنيا فالعلاجُ في إخراجِه من القلب شديدٌ، وهو الداءُ العُضالُ، أَعْيَا الأوَّلِين والآخِرِينَ علاجُه، ولا علاجٌ له إلاَّ الإيمانُ باليومِ الآخر، وبما فيه من عظيم العقوبة وجزيل الثواب، ومهما حصلَ له اليقينُ بذلك ارتحلَ عن قلبه حُبُّ الدنيا، فإن حُبَّ الخطير هو الذي يمحو من القلبِ حبَّ الحقيق، فإذا رأى حَقارةَ الدنيا ونفاسةَ الآخرة استنكفَ أن يلتفتَ إلى الدنيا كلها، وإن أُعْطِيَ مُلْكَ الأرض من المَشْرِقِ إلى المَغْرِبِ، فكيف وليس لكلِّ عبدٍ من الدنيا إلاَّ قَدْرٌ يسيرٌ مُكَدَّرٌ مُنْعَصُ؟ فكيف يفرح بها؟ أو يترسَخُ في القلبِ حبُّها مع الإيمانِ بالآخرة، فنسألُ الله تعالى أن يُرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده.

ولا علاجٌ في تقديرِ الموتِ في القلبِ مثل النظرِ إلى من مات من الأقران والأشكال، وكيف جاءهم الموتُ في وقتٍ لم يَحْتَسِبُوهُ، ولينظر في أن من كان منهم مُستَعِداً فقد فازَ فوزاً عظيماً، ومن كان مَغْروراً بطولِ الأملِ فقد خَسِرَ خُسْراناً مُبيناً.

ولينظر الإنسانُ في أعضائه كل ساعةٍ، وليتفكر كيف يأكلها الدود، وليتفكر في عذاب القبرِ وسؤالِ مُنكِرٍ ونَكيرٍ، وفي الحَشْرِ والنَّشْرِ وأهوالِ القيامة، فالفِكرُ في هذه الأشياء هو الذي يُجَدِّدُ ذِكْرَ الموتِ على القلب، ويدعوه إلى الاستعداد له.

(١) سقطت من الأصل، واستدركت من الإحياء.

## بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره

اعلم أن الناس يتفاوتون؛ فمنهم من يأمل البقاء إلى زمان الهرم، ومنهم من لا يتقطع أمله بحال.

أنبأنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا رزق الله قال: أخبرنا أبو علي بن شاذان قال: أخبرنا جعفر بن بریه قال: حدثنا أبو بكر بن عبيد قال: حدثنا محمد بن عباد بن موسى قال: حدثنا عبيد الله بن محمد القرشي، عن حماد بن سلمة عن حميد عن أبي عثمان النهدي قال: قد بلغت ثلاثين ومئة سنة، وما من شيء إلا قد عرفت فيه التقصان إلا أمني، فإنه كما هو.

ومن الناس من يقصر أمله حتى كأنه إنما يعيش سنة، ومنهم من يقصر أمله حتى كأنه لا يبقى إلى المساء، ومنهم من يقصر أمله حتى لا يظن أنه يبقى ساعة، ومنهم من زاد قصر أمله حتى يخال أن الموت يختطفه في أسرع طرف.

وقد روينا أن رسول الله ﷺ كان يهريق الماء فيتمسح بالتراب فيذكر له الماء فيقول: «لعلّي لا أبلغه».

وقد روينا عن ابن عمر أنه قال لمجاهد: إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح.

أنبأنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا رزق الله بن عبد الوهاب قال: أخبرنا ابن شاذان قال: أخبرنا ابن بریه قال: حدثنا أبو بكر بن عبيد قال: حدثني محمد بن العباس قال: حدثنا أبو عبد الرحمن بن عائشة قال: حدثني أبو زكريا قال: قالت امرأة حبيب أبي محمد: كان يقول لي: إن مت اليوم فأرسلني إلى فلان يغسلني، وافعلي كذا وافعلي كذا، واصنعي كذا. فقيل لامرأته: أراى رؤيا؟ قالت: هكذا يقول في كل يوم.

قال القرشي: وحدثني أبو علي الجروي، قال: حدثنا أبو حفص الثنيسي قال: حدثنا رجاء أبو الأشيم عن إبراهيم بن نسيط، قال: قال أبو زُرعة: لأقولن لك قولاً ما قلته لأحد سواك: ما خرجت من المسجد منذ عشرين سنة فحدثت نفسي أنني أرجع إليه.

قال التَّيْسِي: وحدثني قاسم بن عبد الله بن هشام بن يحيى عن . . . . (١) قال: ما نِمْتُ نوماً قط فحدثتُ نفسي أنني أستيقظ منه .

قال القُرشي وحدثني محمد بن عباد بن موسى قال: حدثني عبید الله بن محمد القُرشي عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن الحسن أن ثلاثة غلمان اجتمعوا، فقالوا لأحدهم: ما أملك؟ قال: ما أتى عليَّ شهرٌ إلا ظننتُ أنني سأموتُ فيه . قال: فقال صاحبه: إن هذا الأمل . فقالوا للآخر: ما أملك؟ قال: ما أتت عليَّ جمعة إلا ظننتُ أنني سأموتُ فيها . قال صاحبه: إن هذا الأمل . فقالوا للآخر: ما أملك؟ قال: ما أملُ من نفسه في يد غيره .

قال القُرشي: وحدثني سعدويه وإسحاق بن إبراهيم عن أبي معاوية عن هشام عن الحسن قال: قيل: يا أبا سعيد، ألا تغسل قميصك؟ قال: الأمرُ أعجلُ من ذلك .

قال القُرشي: وحدثني محمد بن الحسين قال: حدثني عثمان بن زفر قال: حدثني مسكين بن دينار قال: كان في تيم الله شيخٌ متعبدٌ يجتمع إليه فتیان الحي ونساکهم، فيذکرهم، فإذا أرادوا أن يتفرقوا قال: يا إخوانه، قوموا قيام قوم قد يئسوا من المعاودة إلى مجلسهم خوفاً من خطفات الموكل بالنفوس . قال: فيبيكي والله ويبكون .

قال القُرشي: وحدثني محمد بن قدامة قال: حدثنا أيوب بن سليمان قال: سمعتُ أبا سهل النهدي يقول: سمعتُ سُفيان الثوري يقول: رأيتُ شيخاً في مسجد الكوفة يقول: أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنةً أنتظر الموت أن ينزل بي لو أتاني ما أمرته بشيءٍ ولا نهيته عن شيءٍ، ولا لي على أحدٍ شيءٍ، ولا لأحدٍ عندي شيءٍ .

قال القُرشي: وحدثني محمد بن الحسين قال: حدثني محمد بن عبد الحميد الأسدي قال: حدثني عقبة بن إسحاق عن عتبة بن عبد الله قال: قالوا لعون بن عبد الله: ما أنفع أيام المؤمن له؟ قال: ما ظنُّ أنه لا يدرك آخره .

قال القرشي: وحدثنا أحمد بن إبراهيم قال: حدثني السري بن يوسف الأنصاري عن محمد بن أبي توبة قال: أقام معروف الصلاة ثم قال لي: تقدم فقلت: إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها. فقال معروف: أنت تحدث نفسك أن تصلي صلاة أخرى؟ نعوذ بالله من طول الأمل، فإنه يمنع خير العمل.

وقال الضحاك: كان أولكم أخوف ما يكونون من الموت أصح ما يكونون.

وقد روينا عن إبراهيم بن أدهم أنه قال: دخلت حصناً من حصون الساحل من قرى الشام، وقد أخذتني السماء بالليل، فدخلت إلى أتون، وقلت: أقعد ساعة حتى يهدأ المطر، فإذا أسود يوقد فيه، فسلمت عليه وقلت له: ائذن لي إلى أن يسكن المطر. فأوما إلي أن أدخل، فدخلت فجلست، وهو يوقد ولا يكلمني، وهو يحرك شفته ويلتفت يمينا وشمالاً لا يفتر، فلما أصبح قال: لا تلمني إن لم أحسن ضيافتك، إني عبد مملوك قد وكلت بما ترى، فكرهت أن اشتغل عن ما وكلت به.

قلت: فما كان التفاتك يمينا وشمالاً لا تفتر؟ فقال: خوفاً من الموت، وقد علمت أنه نازل بي ولكن لم أعلم من أين يأتيني. قلت: فما الذي كنت تحرك به شفتك؟ قال: أحمد الله، وأهلله، وأسبحه.

فهذه أحوال الزهاد في قصر الأمل، وكلما قصر الأمل جاد العمل؛ لأنه يقدر أن يموت اليوم فيستعد استعداداً ميت، فإذا أمسى شكر الله على السلامة، وقدر أنه يموت تلك الليلة فيبادر ويجتهد، ولا يتهاى هذا إلا لمن لم ينظر في غد.

على أنه قد ينتفع بطول الأمل أقوام، كالعالم فإنه إذا قصر أمله لم يدرس العلم ولم يتشاغل بتصنيف، وكذلك العابد المحقق الذي يقلقه ذكر الموت، فإنه إن لم يقع له نوع أمل هلك، فهذان يعملان عمل قصير الأمل مع تحديث النفس بنوع أمل، فأما غيرهما ممن عنده غفلة فقصر الأمل أولى به، لأنه يحته، كما أن الرجاء للعالم ينفعه لئلا يحرقه الخوف بخلاف الجاهل.

أبنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا رزق الله قال: أخبرنا ابن شاذان قال: حدثنا ابن بربيه قال: حدثنا عبد الله بن محمد القرشي قال: حدثني محمد بن

الحُسَيْن قال: حدثنا داود بن مُحَبَّر عن عبد الواحد بن زَيْد عن الحسن قال: السَّهْوُ والأمل نعمتان عظيمتان على ابن آدم.

قال محمد: وحدثني عمرو بن محمد بن أبي رَزِين قال: حدثنا سُهَيْلُ أَخُو حَزْمٍ عن غالب القَطَّان عن بكر بن عبد الله قال: قال مُطَرِّفُ بن عبد الله: لو علمتُ متى أَجَلِي لَخَشِيتُ على ذهاب عقلي، ولكن الله تعالى منَّ على عباده بالغفلة عن الموت ولولا الغفلة ما تَهَيَّأوا بعيش، ولا قامت بينهم الأسواق.

قال القُرشي: وحدثني محمد بن العباس قال: حدثني محمد بن معمر قال: سأل المُفَضَّلُ بنُ فضالة رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أن يرفع عنه الأمل، فذهب منه حُبُّ الطَّعامِ والشَّرَابِ، ثم دعا رَبَّهُ فَرَدَّ عليه الأمل، فرجع إلى الطَّعامِ والشَّرَابِ.

### بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير

اعلم أن من له أخوان غائبان ينتظر قُدوم أحدهما في غدٍ، و ينتظر قُدوم الآخر بعد شهر أو سنة، فإنه لا يستعد للذي يقدم إلى شهر وسنة، وإنما يستعد للذي ينتظر قُدومه غداً، فالاستعدادُ نتيجةُ قُرب الانتظار، فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدَّة، ونسي ما وراء المدَّة، ثم يُصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكما لها، لا ينقص منها اليوم الذي مضى، وذلك يمنعه من المُبادرة بالعمل أبداً، فإنه يرى لنفسه مُتَّسَعاً في تلك السنة، فيؤخر العمل، وقد ورد الشَّرْعُ بالحثِّ على المُبادرة خوفَ النَّوازل والآفات.

أبنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابنُ أعين قال: حدثنا الفِرْبَرِيُّ قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا مَكِّي بن إبراهيم قال: حدثنا عبدُ الله بن سعيد بن أبي هند، أنه سمع أباه يُخبر عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الصَّحَّةُ والفَرَاغُ نعمتان من نِعَمِ الله عَزَّ وَجَلَّ مَعْبُودٌ فيهما كثيرٌ من النَّاسِ»<sup>(١)</sup>. انفرد بإخراجه البخاري.

أبنا الكَرُوخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر العُوْزجي قالا: أخبرنا

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٢).

الجَرَاحِي قال: حدثنا المحبوبي قال: حدثنا الترمذي قال: حدثنا أبو مُصَعَب عن مُحَرِّز بن عَوْن، عن عبد الرحمن الأعرج، عن أبي هُرَيْرَةَ أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمالِ سَبْعاً، هل تَنْتَظرونَ إلَّا فِقْراً مُنْسِياً، أو غَنِيَّ مُطْغِياً، أو مَرَضاً مُفْسِداً، أو هَرَمًا مُفْتَدًّا، أو موتاً مُجْهَذاً، أو الدَّجَالِ فَشْرُ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أو السَّاعَةَ، فالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ»<sup>(١)</sup>.

أُنْبَأنا أبو القاسم الحريري قال: أخبرنا أبو طالب العشاري قال: حدثنا أبو الحُسَيْن بن سَمْعُون قال: حدثنا محمد بن مَخْلَد العَطَّار قال: حدثنا عَنبَس بن إِسْماعِيل قال ابن سَمْعُون: وهو جَدُّ أَبِي قال: حدثنا أَصْرَم، يعني ابن حوشب، قال: حدثنا قُرَّة بن خالد وغيره عن الصُّحَّاح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الرَّهْأُنُ، وغداً السَّبَّاقُ، والغايةُ الجَنَّةُ، والهالكُ من دخلَ النَّارَ».

أُنْبَأنا إِسْماعِيل بن أحمد قال: أخبرنا رِزْقُ الله قال: أخبرنا ابن شاذان قال: حدثنا أبو جَعْفَر بن بُرَيْه قال: حدثنا عبد الله بن محمد قال: حدثنا إِسْحاق بن إِبراهيم قال: حدثنا عبد الله بن المبارك قال: أخبرنا عبد الله بن سعيد بن أبي هند عن أبيه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لرجلٍ وهو يَعْطُهُ: «اغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَقِرَاعَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»<sup>(٢)</sup>.

وقال عُمر: التَّوَدُّةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ خَيْرٌ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ.

وقال ابن مسعود: ما منكم من أحدٍ أصبحَ إلَّا وهو ضَيْفٌ وماله عارِيَةٌ<sup>(٣)</sup>، فالضَيْفُ مُرْتَجِلٌ، والعارِيَةُ مُؤَدَّاةٌ.

وقال الحسن: ليس من يومٍ يأتي من أيام الدنيا إلَّا يتكلم ويقول: أيها الناس،

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٧).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٤١/٤)، والفضاعي في مسند الشهاب (٤٢٥/١)، وابن المبارك في الزهد (ص٢)، وَصَحَّحَ ابن حجر إسناده في فتح الباري (٥١٣/١١)، وحسنه الألباني في اقتضاء العلم العمل (ص١٧٠).

(٣) تحرفت في الأصل إلى: «رعاية».

إني يومٌ جديد، وأنا على ما يُعملُ فيَّ شهيد، وإنني لو قد غربت شمسي لم أرجع إليكم إلى يوم القيامة.

وكان الحسن يقول: عجباً لقوم أمروا بالزاد، ونودي فيهم بالرحيل، وحبس أولهم على آخرهم، وهم قعودٌ يلعبون. وكان يقول: تصبروا وتشددوا، فإنما هي أيامٌ قلائل.

وقالت رابعة لسفيان: إنما أنت أيامٌ معدودة، فإذا ذهب يومك ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل، وأنت تعلم فاعمل.

وقال شميطة: يا ابن آدم إنما الدنيا غداءٌ وعشاء، فإن أخرت غداءك لعشاءك أمسى ديوانك في ديوان الصائمين.

وقال سحيم مولى بني تميم: جلستُ إلى عامر بن عبد الله وهو يُصلي، فأوجز في صلاته، ثم أقبل عليّ فقال: أرحني بحاجتك، فإني أبادر. قلت: وما تُبادر؟ قال: ملك الموت. وكان يُصلي كل يوم ألف ركعة.

ومر داود الطائي على رجلٍ فقام فسأله عن حديث، فقال: دعني، إنما أبادر خروجٌ روحي.

وقد كانوا يُبادرون الأعمال غاية ما يمكن، فكان ابن عمر يقوم في الليل فيتوضأ ويُصلي، ثم يُغفي إغفاء الطير، ثم يقوم، يفعل ذلك في الليل مراراً.

وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يخضر جسده ويصفر، ويختم في رمضان في كل ليلتين، وفي غير رمضان في كل ست ليالٍ، وحج ثمانين حجةً.

وكان أبو مسلم يصوم في السفر ويقول: إن الخيل لا تجري الغايات وهي بدينة، وإنما تجري وهي ضممر<sup>(١)</sup>، إن بين أيدينا أياماً لها نعمل.

وكان سعيد بن جبير يختم القرآن في كل ليلتين.

(١) ضممر: جمع ضامر ومضممر، يقال: ضممر الفرس للسباق، أي: ربطه وعلفه وسقاه كثيراً مدة، وركضه في الميدان حتى يخف ويدق، ومدة التضمير عند العرب أربعون يوماً.

وكان عمير بن هانيء يُسبح كل يوم مئة ألف تسيحة.

وصام منصور بن المعتمر<sup>(١)</sup> أربعين سنة يقوم ليلها، ولم يضع سُلَيْمان التيمي جنبه على الأرض عشرين سنة.

وقال أبو بكر بن عيَّاش: ختمتُ القرآن في تلك الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة.

وقال الثوري: بتُّ عند الحجاج بن فرافصة اثنتي عشرة ليلة، فما رأيته أكل ولا شرب ولا نام.

وكان كُرْزُ بن وَبْرَة يختم كل يومٍ وليلةٍ ثلاث ختمات.

وكان للشافعي رحمه الله في كل شهرٍ ثلاثون ختمةً، وفي رمضان ستون ختمة.

وكانت رابعة العدوية إذا جاء النهار قالت: هذا يومي الذي أموتُ فيه. فما تنام حتى تُمسي، وإذا جاء الليلُ قالت: هذه ليلتي التي أموتُ فيها. فلا تنام حتى تُصبح.

ودخلوا على أبي بكر النهشلي وهو في الموت، وهو يركع ويسجد، فقيل له: على هذه الحال؟ فقال: أبادرُ طَيِّ الصَّحيفة.

أبنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا رِزْقُ الله بن عبد الوهاب قال: أخبرنا أبو علي بن شاذان قال: أخبرنا أبو جعفر بن بُرَيْه قال: حدثنا عبدُ الله بن محمد بن عُبَيْد قال: حدثني أحمد بن أبي أحمد قال: حدثنا عبد الوهاب بن بَجْدَة قال: حدثنا أبو العباس - يعني الوليد بن مسلم - قال: قال بعضُ الخلفاء على المنبر<sup>(٢)</sup>: اتَّقُوا اللهَ عبادَ الله ما استطعتم، وكونوا قوماً صِيحَ بهم فانتَبَهُوا، وعلموا أنَّ الدنيا ليست لهم بدارٍ فاستبدلوا، واستعدُّوا للموت، فقد أظَلَّكُمْ، وترَحَّلوا فقد جدَّ بكم، وإن غايةَ تُنقصها اللَّحظة وتهدمها السَّاعة لجديرةٌ بقصرِ المدَّة، وإنَّ غائباً يحدُّوه الجديدان اللَّيْلُ والنَّهار لِحَرِيٍّ بسُرعة الأوبة، وإن قادمًا يحلُّ بالفوز أو الشَّقوة لمستحق لأفضَلِ العُدَّة، فالتَّقِيُّ عند ربِّه من ناصح نفسه وقَدَم توبته وغَلَبَ شهوته، فإنَّ أجَلَه

(١) تحرفت في الأصل إلى: «المعتم».

(٢) يُنسب لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه.

مَسْتَوْرٌ عَنْهُ، وَأَمَلَهُ خَادِعٌ لَهُ، وَالشَّيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ يُمَتِّيهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَهَا، وَيُزَيِّنَ لَهُ  
 الْمَعْصِيَةَ لِيَرْتَكِبَهَا، حَتَّى تَهْجُمَ مَنِيَّتُهُ عَلَيْهِ أَغْفَلَ مَا يَكُونُ عَنْهَا، وَإِنَّهُ مَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ  
 وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ إِلَّا الْمَوْتُ يَنْزِلُ بِهِ، فَيَالِهَا حَسْرَةٌ عَلَى كُلِّ ذِي غَفْلَةٍ؛ أَنْ يَكُونَ  
 عَمْرَهُ عَلَيْهِ حُجَّةٌ، وَأَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَى شِقْوَةٍ، جَعَلْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ لَا تُبْطِرُهُ نِعْمَةٌ،  
 وَلَا تُقْصِرُهُ بِهِ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ مَعْصِيَةً، وَلَا تَحُلُّ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ حَسْرَةً، إِنَّهُ سَمِيعُ  
 الدُّعَاءِ.

وكان بعض العلماء يقول: إنما هما شيئان: قَلْبُكَ وَوَقْتُكَ، فإذا أهملت قَلْبَكَ  
 وَضَيَّعْتَ وَقْتُكَ ذَهَبَ مِنْكَ الْفَوَائِدُ.

\* \* \*

## الباب الثالث

### في سكرات الموت وشِدته وما يُستحبُّ من الأحوال عنده

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كربٌ ولا هَوْلٌ<sup>(١)</sup> سوى سكرات الموت، لكان جديراً بأن يتنصَّص عليه عَيْشه، ويتكدَّر عليه سُورته، وحقيقٌ أن تطول فيه فِكْرته، ويعظم له استعدادُه.

والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهُو، فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته، وفسد عليه عَيْشه، وهو في كُلِّ نفسٍ بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النَّزع، وهو غافلٌ عن ذكر ذلك، وليس لهذا سببٌ إلا الجهلُ والغرور.

واعلم أن شِدَّة الألم في سكرات الموت لا يعرفها على الحقيقة إلا من ذاقها، ومن لم يذُقها إنما يعرفها إما بالقياس إلى الأمور التي أدرَكها، وإما بالاستدلال بأحوال الناس في النَّزع على شِدَّة ما هم فيه.

فأما القياسُ الذي يشهد له؛ فهو أن كلَّ عضو لا رُوحَ فيه لا يُحسُّ بالألم، فإذا كان فيه الروح، فالمُدرك للألم هو الروح، فمتى أصاب العضو جرحٌ أو حريقٌ سرى الأثر إلى الرُّوح فيقدر ما يسري إلى الروح يتألم، والمؤلم يتفرق على اللحم والدمِّ وسائر الأجزاء، فلا يُصيب الروح إلا بعض الأثر، فإن كان في الآلام ما يُباشر نفسَ الرُّوح ولا يلاقي غيره، فما أعظم ذلك الألم وما أشدَّه.

والنَّزعُ عبارةٌ عن مؤلم نزلَ بنفسِ الرُّوح فاستغرق جميعَ أجزائها، حتى لم يبقَ جزءٌ من أجزاء الروح المنتشرِ في أعماق البدنِ إلا وقد حلَّ به الألم، فلو أصابته

(١) تحرفت في الأصل إلى: «حول».

شوكة فالآلام التي يجدها إنما تجري في جزء من الروح يلاقي ذلك الموضع الذي أصبته الشوكة، وإنما يعظم أثر الاحتراق؛ لأن أجزاء النار تغوص في أجزاء البدن، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهراً إلا وتُصيبه النار فتُحسُّه الأجزاء الروحانية المنتشرة في جميع أجزاء اللحم، أما الجراحة فإنما تُصيب الموضع الذي مسه الحديد فقط، فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار، وألم التزع يهجم على نفس الروح، ويستغرق جميع أجزائه، فإنه المنزوع المجذوب من كل عرق وعصب من الأعصاب ومفصل من المفاصل وجزء من الأجزاء، ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم، فلا تسأل عن كربيه وألمه، فقد قالت عائشة: لا أغبط أحداً يهون عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله ﷺ.

أنبأنا محمد بن عبد الله البيضاوي قال: أنبأنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا أحمد بن علي التّوّزي قال: أخبرنا أبو الحسين بن أخي ميمي قال: أخبرنا ابن صفوان قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثني محمد بن العباس قال: حدثنا روح بن عبادة قال: حدثنا حريث بن السائب عن الحسن أن رسول الله ﷺ ذكر الموت وعمّه وعلزّه<sup>(١)</sup>، فقال: «هو قدر ثلاث مئة ضربة بالسيف».

قال القرشي: وحدثنا خالد بن خدّاش قال: حدثنا حماد بن زيد عن حفص الضّبّعي عن ابن أبي مليكة قال: لما قبض إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، قال الله تعالى: كيف وجدت الموت؟ قال: يا رب كأن نفسي يُنزع بالسّلاء<sup>(٢)</sup>. قال: هذا وقد هوّنا عليك.

قال القرشي: وحدثني محمد بن العباس قال: حدثنا يحيى بن إسحاق قال: حدثنا شريك عن أبي إسحاق قال: قيل لموسى عليه السلام: كيف وجدت طعم الموت؟ قال: وجدته كسُفودٍ أُدخِل في جزة صوفٍ فامتلخ<sup>(٣)</sup>. فقال: يا موسى لقد هوّنا عليك.

(١) أعلزه الوجع: أقلقته.

(٢) السّلاء: شوك النخل، أو نصل على شكله.

(٣) امتلخ الشيء: استلّه واجتذبه.

وقال عليُّ بنُ أبي طالب: والذي نفسي بيده، لألْفُ ضربةٍ بالسَّيفِ أهونُ من موتِ عليِّ فراشٍ.

وقال عمرُ لكعبٍ: أخبرني عن الموت. فقال: يا أمير المؤمنين، هو مثل شجرة كثيرة الشوك في جوفِ ابن آدم، فليس منه عرقٌ ولا مَفْصِلٌ إلا فيه شوكة، ورجلٌ شديدُ الذراعين يُعالجها يَتَرَعُها. فبكى عمر.

وكان عمرو بن العاص يقول عند الموت: والله لكَأَنَّ جَنبِيَّ تَحْتَ<sup>(١)</sup>، وكأني أتَنَفَّسُ من سَمِّ إِبْرَةٍ، وكأَنَّ عُضُنْ شَوْكٍ يُجَزُّ بِهِ من قدمي إلى هامتي، ثم قال: ليتني كنت حَيْضاً<sup>(٢)</sup> عَرَكْتَنِي الإِماءُ بِذَرِيرِ الإِذْخِرِ.

وقال أنسُ بن مالك: لم يلقَ ابن آدم شيئاً قط منذ خلقه اللهُ تعالى أشدَّ عليه من الموت، ثم إن الموت لأهون مما بعده.

وقال وهبُ بن مُنَبِّه: الموت أشدُّ من ضربٍ بالسيوف، ونشرٍ بالمناشير، وغلي في القدور، ولو أن ألمَ عرقٍ من عروقِ المَيِّتِ قُسم على أهل الأرض لأوسَعُهُم أَلَمًا.

واعلم أنه إنما زادت شدة الموتِ على الضربِ بالسَّيفِ؛ لأن قطع البدنِ بالسَّيفِ إنما يؤلم لتعلقه بالروح، فكيف إذا كان المتناولُ المباشِرُ نفسَ الرُّوحِ؟ وإنما يصيحُ المضروبُ ويستغيثُ لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه، وإنما انقطع صوتُ الميت وصياحه مع شدة ألمه؛ لأن الكَرْبَ قد بالغ فيه وتَصاعد على قلبه، وغلبَ على كل موضع منه فهددَ كل قوةٍ ووضَعَفَ كلَّ جارحةٍ، فلم يبق له قوة للاستغاثة. أما العقلُ فقد غَشِيَه وهَوَّشَه، وأما اللُّسانُ فقد أبكَمَه، وأما الأطرافُ فقد أضعفها، ويود الشخص لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة، ولكنه لا يقدر على ذلك، فإن بقيت له قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خواراً وغرغرةً من حلقه وصدره، وقد تغيَّرَ لونه وارتدَّ<sup>(٣)</sup> حتى كأنه ظهر من التراب الذي هو أصل فطرته،

(١) التخت: وعاء تُصان فيه الثياب.

(٢) غير واضحة في الأصل، والمثبت من تاريخ دمشق لابن عساكر ٥٥/٢٦٠. تحقيق سكيئة الشهابي

(٣) ارتدَّ وجهه: احمرَّ حمرةً فيها سواد عند الغضب.

وقد جُذِبَ كل عرقٍ منه على حِياله، فالألم منتشرٌ في داخله وخارجه حتى ترتفع الحَدَقَتان إلى أعالي أجنانه، وتتقلص الشفتان واللسان إلى أصله، وترتفع الأنثيان إلى أعالي مَوْضِعِهما، وتخضّر أنامله، فلا تسأل عن بَدَنِ يُجذِبُ منه كلُّ عرقٍ من عُروقه، ولو كان المجدوب عرقاً واحداً لكان ألمه عظيماً، فكيف والمجدوب نفسُ الروح المتألم لا من عرقٍ واحد بل من جميع العروق؟

ثم يموت كل عضوٍ من أعضائه تدريجاً، فتبرد أولاً قدماه، ثم ساقاه، ثم فخذاه، ولكل عضوٍ سكرةٌ بعد سكرة، وكربةٌ بعد كربةٍ حتى يبلغ بها إلى الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره إلى الدنيا وأهلها ويغلقُ دونه بابُ التوبة، وتُحيط به الحسرةُ والندامة، قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرَغْ»<sup>(١)</sup>.

ولهذه الشدة التي علمها الأنبياء خافوا من الموت، حتى قال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين، ادعوا الله أن يُخَفِّفَ عَنِّي هذه السَّكْرَةَ. يعني الموت. فلقد خِفْتُ الموتَ خوفاً وَقَفَنِي على الموت.

وقد كان عمر بن عبد العزيز يقول: ما يَسْرُنِي أن تُخَفِّفَ عَنِّي سَكَراتِ الموت؛ لأنه آخِرُ ما يُوجِزُ عليه المسلم.

وقال النَّحَّي: كانوا يستحبون شِدَّةَ النَّزْعِ، ونحنُ نَسْأَلُ اللَّهَ اللُّطْفَ، فإنه إذا كان الأنبياءُ قد خافوا من سَكَراتِ الموت، فكيف حالنا، ونحنُ المُنْهَمَكُونَ في المعاصي؟

وللموت دَوَاهٍ ثلاث:

الأولى: شِدَّةُ النَّزْعِ، كما ذكرنا.

والثانية: مُشاهدة مَلِكِ الموت، ودخول الرَّوعِ منه والرعبُ في القلبِ، فلو رأى صورته التي يقبض فيها رُوحَ المُذنبِ أعظمُ الرِّجالِ قوَّةً لم يُطِقْ.

وقد روينا أن ملكَ الموتِ زار إبراهيم الخليل، فقال له: أرني كيف تَقْبِضُ

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٣١) وابن ماجه (٤٢٥٣)، والحاكم (٢٥٧/٤) من حديث ابن عمر.

أرواح الكفار. قال: لا تُطيقُ ذلك. قال: بلى. قال: فأعرض. فأعرض، ثم تصوّر برجلٍ أسود ينالُ رأسه السماء، يخرج من فيه لهبُ النار، ليس في جسده شعرة إلا في صورة رجلٍ يخرج من فيه ومسامعِه لهبُ النار، فغشي على إبراهيم، ثم أفاق، فقال: لو لم يلقَ الكافرُ من البلاء إلا صورتك لكفاه، فأرني كيف تقبضُ أرواح المؤمنين. قال: أعرض. فأعرض، ثم التفت فإذا برجلٍ شابٍ أحسن الناس وجهاً وأطيبه ريحاً في ثيابٍ بيض، فقال: لو لم يرَ المؤمنُ عند موته إلا صورتك هذه لكان يكفيه.

وقد برزَ ملكُ الموتِ لخلقٍ كثيرٍ فسألوه التَّوَقُّفَ، فقال: هيهات فزادت حسراتهم إذ آيسهم من إمكان التَّدَاوِكِ، وأعلمهم بقُربِ التَّلَفِ، وقد روي أن الإنسانَ يرى ملكيه الحافظين أيضاً حينئذٍ.

فأنبأنا عبد الوهاب الحافظ قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا أحمد بن علي التَّوَزِي قال: أخبرنا ابنُ أخي ميمي قال: حدثنا ابنُ صفوان قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثنا أبو يحيى عبد الكريم قال: حدثنا عُبيد الله بن محمد بن يزيد بن حُنَيْس قال: حدثنا أبي عن وهيب قال: بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه اللذان كانا يحفظان عليه عمله في الدنيا، فإن كان صحبهما بطاعة الله، قالوا له: جزاك الله من جليسٍ خيراً، فربّ مجلس صدق قد أجلسناه، وعملٍ صالحٍ قد أحضرناه، وكلامٍ حسنٍ قد أسمعناه، فجزاك الله عتاً من جليسٍ خيراً. وإن كان صحبهما بغير ذلك مما ليس لله فيه رضى قالوا: لا جزاك الله عتاً من جليسٍ خيراً، فربّ مجلس سوءٍ قد أجلسناه. قال: فذلك شخوصٌ بصير الميت إليهما، ولا يرجع إلى الدنيا أبداً.

أنبأنا عبد الله بن علي قال: أخبرنا غانم بن أحمد الحداد قال: أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بن أحمد عن عبد الرحمن قال: أخبرنا عمر بن محمد بن جعفر المعدل قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن إسماعيل التَّميمي قال: حدثنا موسى بن عامر قال: حدثنا عيسى بن خالد قال: حدثنا عثمان بن مطر قال: حدثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَلَّ

بعبدِه المؤمن ملكين يكتُبان عمله، فإذا مات قال المَلَكُان اللذان وكُلا به: قد مات أفتأذن لنا أن نصعدَ إلى السماء؟ قال: فيقول الله: إن سمائي مملوءة من ملائكتي يُسَبِّحونني. فيقولان: فتأذن لنا أن نُقيم في الأرض؟ فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: أرضي مملوءة من خلقي يُسَبِّحونني. فيقولان: فأين؟ قال: فيقول: قوما عندَ قَبْرِ عبدي فَسَبِّحاني واحمَداني وكَبِّراني وهَلِّلاني واكْتُبا ذلك لعبدي إلى يومِ القيامة»<sup>(١)</sup>.

الداهية الثالث: أن صاحب النار يُبشِّر بها، وهو في تلك الأحوال:

أنبأنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابنُ أعين قال: أخبرنا الفَرَبْرِي قال: حدثنا البُخاري قال: حدثنا حَجَّاج قال: حدثنا هَمَّام قال: حدثنا قَتادة عن أنس عن عبادة ابن الصامت عن النبي ﷺ قال: «إنَّ المؤمنَ إذا حَضَرَ الموتُ بُشِّر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحبَّ إليه مما أمامه، وإن الكافر إذا حضره بُشِّر بعذابِ الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه»<sup>(٢)</sup> أخرجاه في الصَّحِيحِين.

وقد كان خَلقٌ من السَّلَفِ يخافون سوء الخاتمة خَوْفَ تَقَطُّعِ نِياطِ قُلُوبِهِمْ، وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة في كتاب الخَوْفِ، وهو لائقٌ بهذا المكان ولكننا لا نُعيدُه.

### بَيَانُ مَا يُسْتَحَبُّ مِنْ أَحْوَالِ الْمُحْتَضِرِ عِنْدَ الْمَوْتِ

المحِبُّوبُ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ صُورَةِ الْمُحْتَضِرِ الْهُدُوءُ وَالسَّكُونُ، وَمِنْ لِسَانِهِ النَّطْقُ بِالشَّهَادَةِ، وَمِنْ قَلْبِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى.

أما السَّكُونُ، فَكَأَنَّهُ مِنْ عِلَامَاتِ اللُّطْفِ وَهُوَ أَمَارَةٌ عَلَى أَنَّهُ قَدْ رَأَى الْخَيْرَ، وَقَدْ رَوَى بُرَيْدَةُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِيَمُوتُ بَعْرَقِ الْجَبِينِ»<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجَه البيهقي في الشعب (١٨٤/٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٩٧٩/٣)، والديلمي في الفردوس (٣٨٣/٤).

(٢) أخرجَه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣).

(٣) أخرجَه أحمد (٢٢٩٦٤)، وابن ماجه (١٤٥٢)، والترمذي (٩٨٢)، والنسائي (٦٥/٤)، وابن حبان (٣٠١١)، وأبو نعيم في الحلية (٢٢٣/٩)، والحاكم (٣٦١/١).

قال ابن مسعود: مَنْ شَهِدَ مِيتاً فَلْيَمَسَّ جَبِينَهُ، فَإِن رَأَاهُ يَرِشِحْ عَرَاقاً فَلْيَرْجُ لَه، فَإِن رُوحَ الْمُؤْمِنِ تَخْرُجُ رَشْحاً، وَإِن رُوحَ الْكَافِرِ تَخْرُجُ مِنْ شِدْقِهِ كَمَا تَخْرُجُ نَفْسُ الْحِمَارِ، وَلْيُلْقِنَهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنهَا لَا تَكُونُ آخِرَ كَلَامِ عَبْدٍ عِنْدَ مَوْتِهِ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ.

وأما النُّطْقُ بِالشَّهَادَةِ؛ فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي أَفْرَادِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ قَوْلَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»<sup>(١)</sup>.

وينبغي للملِّق أن لا يُلَخَّ فِي التَّلْقِينِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ بَعْدَ الشَّهَادَةِ أَعَادَ التَّلْقِينِ عَلَيْهِ، لِيَكُونَ آخِرَ كَلَامِهِ، أَنبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبِيضَاوِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنَا الْمُبَارَكُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ التَّوْزِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ بْنِ أَخِي مِيمِي قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ صَفْوَانَ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ الْقُرْشِيُّ قَالَ: حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ بْنُ حَاتِمٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَجِيدِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ مِرْوَانَ بْنِ سَالِمٍ عَنْ أَبِي حَسَنِ الْبُرْجُمِيِّ رَفَعَهُ قَالَ: «احْضَرُوا مَوْتَاكُمْ وَلَقِّنُوهُمْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَبَشِّرُوهُمْ بِالْجَنَّةِ، فَإِنَّ الْحَكِيمَ الْعَلِيمَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ يَتَحَيَّرُ عِنْدَ ذَلِكَ الْمَصْرَعِ، وَإِنَّ إِبْلِيسَ عَدُوَّ اللَّهِ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنَ الْعَبْدِ فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ عِنْدَ فِرَاقِ الدُّنْيَا وَتَرْكِ الْأَحْبَبَةِ، وَلَا تُقْنَطُوهُمْ، فَإِنَّ الْكَرْبَ شَدِيدٌ، وَالْأَمْرَ عَظِيمٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لِمَعَالِجَةِ مَلَكِ الْمَوْتِ أَشَدَّ مِنْ أَلْفِ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ، وَمَا مِنْ مِيتٍ يَمُوتُ إِلَّا وَكُلُّ عَرَقٍ مِنْهُ يَأْلَمُ عَلَى جِدَّتِهِ»<sup>(٢)</sup>.

وأما حَسَنُ الظَّنِّ؛ فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي أَفْرَادِهِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحَسِّنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ»<sup>(٣)</sup>.

وروي أن النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى رَجُلٍ وَهُوَ يَمُوتُ، فَقَالَ: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟» فَقَالَ: أَرْجُو اللَّهَ وَأَخَافُ ذُنُوبِي. فَقَالَ: «مَا اجْتَمَعَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ الَّذِي يَرْجُو، وَأَمَّنَّهُ مِنَ الَّذِي يَخَافُ»<sup>(٤)</sup>.

(١) أخرجه مسلم (٩١٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٨٦/٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).

(٤) أخرجه الترمذي (٩٨٣)، وابن ماجه (٤٢٦١).

وإنما كان الرجاء عند الموت أفضل؛ لأن الخوف سَوِّطٌ يُسَاقُ به، وعند الموت يقف البصير، فينبغي أن يتلطف به، ولأن الشيطان يأتي حينئذٍ فيسخطُ العبدَ على الله فيما يجري عليه، ويخوفه مما بين يده، فحَسُنُ الظَّنُّ أقوى سلاح يُدفع به العدو، قال سليمان التيمي لابنه عند الموت: يا بُنَيَّ، حَدَّثَنِي بِالرُّخْصِ لَعَلِّي أَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى وَأَنَا حَسَنُ الظَّنِّ بِهِ.

\* \* \*

## الباب الرابع

### في ذكر وفاة رسول الله ﷺ

### والخلفاء الراشدين بعده

اعلم أن في رسول الله أسوة حسنة في كل أحواله، ومعلوم أنه ليس في المخلوقين أحب إلى الله منه، وما أمهله حين انقضى أجله، فلقي من الموت شدة، فروى البخاري في صحيحه من حديث عائشة قالت: كان بين يدي رسول الله ﷺ ركوة<sup>(١)</sup> أو علبه فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء ويمسح بهما وجهه ويقول: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات»<sup>(٢)</sup>.

وفي صحيحه من حديث أنس قال: لما ثقل رسول الله ﷺ جعل يتغشاه الكرب، فقالت فاطمة: واكرب أبتاه. فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم»<sup>(٣)</sup>.

أنبأنا محمد بن عبد الله البيضاوي قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا أحمد بن علي التوزي قال: أخبرنا أبو الحسين ابن أخي ميمي قال: أخبرنا ابن صفوان قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثني محمد بن الحسين قال: حدثنا حسين الجعفي قال: حدثنا طعمة بن غيلان قال: قال النبي ﷺ: «اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل، اللهم فأعني على الموت، وهونهُ علي».

(١) الرّكوة: إناء صغير من جلد يُشرب فيه الماء، والدلو الصغيرة.

(٢) أخرجه البخاري (٨٩٠) و(٤٤٤٩).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٦٢).

وكان عليه الصلاة والسلام قد خرج في مرضه فقال: «إنما أنا بشر، فأياً رجل أصبْتُ من عرضي، فهذا عرضي، أو من بشره فهذا بشري، أو من ماله فهذا مالي، واعلموا أن أولاكم بي رجلٌ كان له من ذلك شيء فأخذه وحلّني، فلقيتُ ربِّي وأنا مُحلّلٌ لي، ولا يقول أحدكم إنني أخافُ العداوةَ والشَّحناءَ من رسولِ الله ﷺ، فإنهما ليستا من طبيعتي».

قال ابن مسعود: اجتمعنا في بيتِ أُمنا عائشة، فنظر إلينا رسولُ الله ﷺ، فدمعت عيناه، فنعى إلينا نفسه، فقال: «مرحباً، حَيَّاكُم اللهُ بالسَّلام، حَفِظَكُم اللهُ، رَعَاكُم اللهُ، جمعكم اللهُ، نصرَكُم اللهُ، وفَقَّكُم اللهُ، نَفَّكُم اللهُ، رَفَعَكُم اللهُ، سَلَّمَكُم اللهُ، أوصيكم بتقوى الله، وأوصي بالله بكم، وأستخلفه عليكم» قلنا: يا رسول الله، متى أجلك؟ قال: قد دنا الأجل، والمُنقَلَبُ إلى الله، وإلى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى، وَجَنَّةِ المَأْوَى، والفِرْدَوْسِ الأعلى». قلنا: يا رسول الله، مَنْ يُغَسَّلُكَ؟ قال: «رجالٌ أهل بيتي الأدنى فالأدنى». قلنا: يا سول الله، ففيم نُكفُّكَ؟ فقال: في ثيابي هذه إن شئتم، أو يَمَنِيَّةٍ أو بياضِ مِصرٍ» قلنا: يا رسول الله، مَنْ يُصَلِّي عليك؟ وبكينا. فقال: «مهلاً رحمكُم اللهُ، وجزاكم عن نبيكُم خيراً، إذا غسلتموني وكفّتموني، فضعوني على سريري هذا على شفير قبري، ثم أخرجوا عني ساعةً، فإن أوَّلَ مَنْ يُصَلِّي عليَّ خليلي وحبيبي جبريل، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم ملك الموت مع ملائكة كثير، ثم ادخلوا عليَّ فوجاً فوجاً، فصلّوا عليَّ وسلّموا تسليمًا، ولا تُؤذوني بتزكية ولا برئة ولا بصيحة، وليبدأ بالصلاة عليَّ رجال أهل بيتي، ثم نساؤهم، ثم أنتم بعد، واقرأوا السَّلامَ علي من غاب عني من أصحابي، وعلى من تبعني على ديني إلى يوم القيامة، ألا وإنني أشهدكم أنني قد سلّمت على كل من دَخَلَ في الإسلام»<sup>(١)</sup>.

ولقد نزلَ عليه جبريل قبل موته بثلاثة أيام فقال: يا أحمد، إن الله أرسلني إليك يسألك عما هو أعلم به منك يقول: كيف تجدك؟ فقال: «أجدني يا جبريل مغموماً، وأجدني يا جبريل مكروباً» فاتاه في اليوم الثاني، فأعاد الكلام عليه، فأعاد

(١) أخرجه الحاكم (٦٢/٣)، والطبراني في الدعاء.

الجواب، ثم جاءه في اليوم الثالث، فأعاد الكلام عليه وأعاد الجواب، فإذا مَلَكَ الموتِ يستأذن، فقال جبريل: يا أحمد، هذا مَلَكَ الموتِ يستأذنُ عليك، ولم يستأذن على آدمي قبلك، ولا يستأذن على آدمي بعدك. فقال: «أذن له». فدخل فوقف بين يديه فقال: إِنَّ الله أرسلني إليك، وأمرني أن أُطيعَكَ، فإن أمرتني أن أقبِضَ نَفْسَكَ، قَبِضْتُهَا، وإن أمرتني أن أتُركها تركتها. قال: «وتفعل يا ملك الموت؟» قال: كذلك أمرت أن أُطيعَكَ. فقال جبريل: يا أحمد، إِنَّ الله قد اشتاق إليك. قال: «فامض لما أمرت به يا مَلَكَ الموتِ». فقال جبريل: السلامُ عليك يا رسولَ الله، هذا آخرَ موطني في الأرض، وإنما كنتُ حاجتي من الدنيا<sup>(١)</sup>.

فتوفي ﷺ مستنداً إلى صدرِ عائشةَ في كساءٍ مُلبَّدٍ وإزارٍ غليظٍ، وقامت فاطمة تندب فتقول: يا أبتاه، أجابَ رَبّاً دَعاه، يا أبتاه، جَنَّةَ الفردوسِ مأواه، يا أبتاه، إلى جبريل أنعاه، يا أبتاه، مِنْ رَبِّه ما أدناه. فلما دُفِنَ قالت: يا أنس، أطابتِ أنفُسُكم أن تحنوا على رسولِ الله ﷺ الترابَ<sup>(٢)</sup>!

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

لما رأيتُ نبيَّنا مُتَجِدِّلاً  
وارتَعْتُ روعةَ مُسْتَهَامٍ والهِ  
أعتيقُ<sup>(٣)</sup> ويحك إنَّ حَبَّكَ قد ثوى  
يا ليتني مِنْ قبل مَهْلِكِ صاحبي  
ضاقَتْ عليَّ بعرضهنَّ الدُّورُ  
والعَظْمُ مِنِّي واهنَّ مَكسورُ  
وبقيتُ مُنفرداً وأنتَ حَسيرُ  
غُيِّبْتُ في جَدَثِ عليٍّ ضُخورُ

(١) أوردته الهيثمي في المجمع (٣٥/٩)، وقال: رواه الطبراني، وفيه عبد الله بن ميمون القداح وهو ذاهب الحديث.

(٢) هو حديث أنس المتقدم قبل قليل.

(٣) عتيق: هو لقب أبي بكر رضي الله عنه قيل: لجماله، وقيل: لقوله ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى عتيقي من النار فليُنظر إلى أبي بكر».

### وفاةُ أبي بكر الصّديق رضي الله تعالى عنه

أنبأنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن هبة الله الطّبري قال: أخبرنا أبو الحسين بن بشران قال: أخبرنا ابن صفوان قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثنا خَلْف بن هشام قال: حدثنا أبو شهاب الحنّاط<sup>(١)</sup> عن إسماعيل بن أبي خالد عن البهي<sup>(٢)</sup> قال: لما احتضِرَ أبو بكر جاءت عائشة فتمثلت بهذا البيت: لَعْمُرُكَ مَا يُغْنِي الثَّرَاءَ عَنِ الْفَتَى إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ فكشف عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قولِي: ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾ [ق: ١٩]، انظروا ثوبَيّ هذين، فاغسلوهما وكفّنوني فيهما، فإنّ الحيّ أخرج إلى الجديد من الميّت.

### وفاةُ عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنه

أنبأنا إسماعيل قال: أخبرنا أبو بكر الطّبري قال: أخبرنا ابن بشران قال: حدثنا ابنُ صفوان قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثنا عليُّ بن الجعد قال: أخبرنا شعبة عن عاصم بن عبد الله قال: سمعتُ سالمًا يُحدث عن ابنِ عُمر قال: كان رأسُ عُمرَ في حجري في مرضه الذي تُوفّي فيه، فقال: ضَعُ حَدْيِي عَلَى الْأَرْضِ. فقلتُ: وما عليك إن كان في حجري أم على الأرض؟ فقال: ضَعُهُ لَا أُمَّ لَكَ. فوضَعْتُهُ. فقال: وَيَلِي وَيَلِي وَأُمِّي إِنْ لَمْ يَرْحَمْنِي رَبِّي.

وفي أفراد البخاري من حديث عمرو بن ميمون أن عمر بن الخطاب كَبُرَ وقال: قَتَلَنِي الْكَلْبُ، أَوْ أَكَلَنِي الْكَلْبُ. وَذَلِكَ حِينَ طَعَنَهُ<sup>(٣)</sup>، ثُمَّ حُمِلَ إِلَى بَيْتِهِ، فَأَتَى بَلْبِنَ فَشَرِبَهُ، فَخَرَجَ مِنْ جَوْفِهِ، فَعَرَفُوا أَنَّهُ مَيِّتٌ، فَجَاءَ النَّاسُ يُثْنُونَ عَلَيْهِ وَجَاءَ رَجُلٌ شَابٍ فَقَالَ: أَبَشِرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِبُشْرَى اللَّهِ لَكَ مِنْ صَحْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدَّمَ فِي الْإِسْلَامِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، ثُمَّ وُلِّيتَ فَعَدَلْتَ ثُمَّ شَهِدْتَ. فقال: وَدِدْتُ أَنْ ذَلِكَ كَانَ كَفَافًا

(١) تصحفت في الأصل إلى: «الخياط».

(٢) هو عبد الله بن يسار، يُلقب بالبهي.

(٣) يعني حين طعنه أبو لؤلؤة المجوسي بالخنجر.

لا عَلِيٍّ ولا لي . ثم قال : يا عبد الله بن عُمَرَ انطلق إلى عائشة أم المؤمنين ، فقل : يقرأ عليك عُمَرُ السلام ، ولا تقل : أمير المؤمنين ، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً ، وقل : يستأذنُ عمرُ بن الخطاب أن يُدفنَ مع صاحبيه . فمضى وسَلَّمَ واستأذَنَ ، ثم دَخَلَ عليها فوجدها قاعدةً تبكي ، فقال : يقرأ عليك عُمَرُ السلام ويستأذن أن يُدفنَ مع صاحبيه . فقالت : كنتُ أريده لنفسي ولأوثرتهُ به اليوم على نفسي . فلما أقبل قيل : هذا عبدُ الله بن عُمَرَ قد جاء . قال : ارفعوني . فأسنده رجلٌ إليه فقال : ما لديك؟ قال : الذي تُحِبُّ يا أمير المؤمنين ، أذنت . قال : الحمدُ لله ، ما كان شيء أهِمَّ إلي من ذلك ، فإذا أنا قُبِضْتُ فاحملوني ثم سَلِّم وقلْ : يستأذنُ عُمَرُ بن الخطاب ، فإن أذنتُ لي فأدخلوني ، وإن ردّتي فرُدوني إلى مقابر المسلمين<sup>(١)</sup> .

وفي أفرادهِ من حديثِ المِسْوَرِ بن مَحْرَمَةَ أنَّ عمرَ قال : والله لو أنّ لي طلاع الأرض ذهباً لافتديتُ به من عذابِ الله قبل أن أراه<sup>(٢)</sup> .

### وفاة عُثمان بن عفان رضي الله عنه

أنبأنا المبارك بن علي قال : أخبرنا شُجاع بن فارس قال : أخبرنا أبو طاهر محمد الأُسْثَانِي قال : أخبرنا علي بن أحمد بن عمر الحَمَامِي قال : أخبرنا علي بن محمد بن أبي قيس قال : حدثنا أبو بكر القُرْشِي قال : حدثني الفضل بن إسحاق قال : حدثنا شَبَابَةُ بن سَوَّار قال : حدثني يحيى بن أبي راشد عن عُقْبَةَ بن أسيد ويحيى بن عبد الرحمن كلاهما عن الثُّعْمَانِ بن بَشِير قال : حدثتني نَائِلَةُ بنتُ الفَرَاغِصَةِ امرأةُ عثمان رضي الله عنه ، قالت : لما كانَ اليومُ الذي قُتِلَ فيه عُثمانُ ظلَّ في اليوم الذي قبله صائماً ، فلما كان عند إفطاره سألتهم الماء العذب فقالوا : دونك ذلك الرَكِيَّ<sup>(٣)</sup> .

قالت : ورَكِيَّ في الدار يُلقَى فيه التَّنُّنُ ، فبات من قبل أن يُفطر ، فلما كان في وجه السَّحَرِ أتيتُ جاراتِ لي على أجاجير<sup>(٤)</sup> مُتَّصِلَةً ، فسألتهُم الماء العذب ، فأعطوني

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٠) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٩٢) .

(٣) الرَكِيَّ والرَكِيَّةُ : البئر .

(٤) الأجاجير : جمع إجار ، وهو السطح ليس عليه ما يرد الساقط عنه .

كوزاً من ماءٍ، فَأَتَيْتُهُ فحركته فاستيقظ، فقلتُ: هذا ماءٌ عذبٌ. فرَفَعَ رَأْسَهُ فنظر إلى الفجرِ، فقال: إِنِّي قد أَصْبَحْتُ صائماً، إِنَّ رسولَ الله ﷺ أَطَّلَعَ عَلَيَّ من هذا السَّقْفِ ومعه ماءٌ عَذْبٌ، فقال: اشْرَبْ يا عُثْمَانُ. فشربتُ حتى رويْتُ، ثم قال: ازدَدْ. فشربتُ حتى نَهَلْتُ، ثم قال: أَمَا إِنَّ القَوْمَ سَيَكُفُّونَ عَلَيْكَ، فَإِنْ قَاتَلْتَهُمْ ظفرت وَإِنْ تَرَكْتَهُمْ أَفْطَرْتَ عِنْدَنَا. قالت: فَدَخَلُوا عَلَيْهِ مِنْ يَوْمِهِ فَقَتَلُوهُ<sup>(١)</sup>.

### وفاةُ علي رضي الله عنه

أَبَانَا إِسْمَاعِيلُ بن أحمد قال: أَخْبَرْنَا أَبُو بكر الطُّبْرِي قال: أَخْبَرْنَا أَبُو الحُسَيْنِ بن بِشْرَانَ قال: أَخْبَرْنَا ابن صفوان قال: حَدَّثَنَا أَبُو بكر بن عُبيد قال: حَدَّثَنِي عَبْدُ الله بن يونس بن بُكَيْرٍ قال: حَدَّثَنِي علي بن أَبِي فاطمة العَنَوِي قال: حَدَّثَنِي الأَصْبَعُ الحَنْظَلِي قال: لَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ التي أُصِيبَ فِيهَا عَلِيٌّ رضيَ اللهُ عنه أَنَاهُ ابن النَّبَّاحِ حين طَلَعَ الفَجْرُ يُؤذِنُهُ بالصلاة، وهو مُضْطَجِعٌ مُتَثاقِلٌ، فعاد الثانية، وهو كذلك، ثم عاد الثالثة، فقام عليٌّ يمشي وهو يقول:

شُدَّ حَيَازِمُكَ لِمَوْتِ فَإِنَّ المَوْتَ لا قِيكَ  
ولا تَجْزَعُ مِنَ المَوْتِ إِذَا حَلَّ بِوَادِيكَ

فلما بَلَغَ البابَ الصَّغِيرَ شَدَّ عَلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بن مُلْجَمٍ فَضْرَبَهُ<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١٠/٣٠٢٣٠١).

(٢) البداية والنهاية (٥/١١) وما بعدها.

## الباب الخامس

## في ذكر نبذة من كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين

## ذكر كلمات نُقلت عن جماعة من الخلفاء عند موتهم

قد ذكرنا عن أبي بكرٍ وعُمر وعُثمان وعلي رضي الله عنهم كلماتٍ، وقد روينا عن الحسن بن علي أنه لما نزل به الموتُ قال: أخرجوا فراشي إلى صحن الدار. فأخرج، فقال: اللهم إني أحسبُ نفسي عندك، فإني لم أصب بمثلها.

أنبأنا إسماعيل قال: أخبرنا أبو بكر الطَّبري قال: أخبرنا ابنُ بشران قال: حدثنا ابن صفوان قال: حدثنا أبو بكر بن عبَّيد قال: حدثني محمد بن عبَّاد قال: حدثنا هشام بن محمد عن أبي السائب المخزومي قال: جعل معاويةٌ يقول وهو يوجد بنفسه:

إِنْ تُنَاقِشَ يَكُنْ نِقَاشُكَ يَا رَبِّ عَذَابًا لَا طَوْقَ لِي بِالْعَذَابِ  
أَوْ تُجَاوِزَ فَأَنْتَ رَبُّ صَفْوَحٍ<sup>(١)</sup> عَن مُسَيِّءٍ ذُنُوبُهُ كَالثُّرَابِ

وكان عبدُ الملك بن مروان يقول عند مَوته: والله لو ددتُ أني عبدٌ لرجلٍ من تِهامة أرعى غنمات في جبالها وأني لم أكُ.

وقال عُمر بن عبد العزيز عند مَوته: أَمَرْتَنِي فَلَمْ أَتَمَّرْ، وَرَجَرْتَنِي فَلَمْ أَتَزَجِرْ، وَلَكِنْ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

وكان الرشيدُ يقول عند مَوته: وَسَوَأَتَاهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ.

وكان المعتصم يقول: ذَهَبَتِ الْحِيلُ فَلَا حِيلَةَ.

وقال المُتَّصِرُ عند مَوته: لَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا وَأَقْبَلَتِ الْآخِرَةُ.

(١) في الأصل: «رحيم»، والمثبت من البداية والنهاية (١٢/٣٩٦).

## ذكر كلمات نُقِلَتْ عن جماعةٍ من الصحابة

أنبأنا ابن ناصر قال: أخبرنا جعفر بن أحمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا شجاع بن الوليد عن عمرو بن قيس عَمَّنْ حَدَّثَهُ عَنْ مُعَاذٍ أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ: انظُرُوا هَلْ أَصْبَحْنَا؟ فَأُتِيَ فَقِيلَ: لَمْ نُصْبِحْ. حَتَّى أَتَى فِي بَعْضِ ذَلِكَ، فَقِيلَ لَهُ: أَصْبَحْنَا. فَقَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ لَيْلَةٍ صَبَّاحَهَا النَّارُ، مَرْحَبًا بِالْمَوْتِ مَرْحَبًا، لَزَائِرُ مُغَبِّ، حَبِيبٌ جَاءَ عَلَى فِائِقَةٍ، اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ كُنْتُ أَخَافُكَ، وَأَنَا الْيَوْمَ أَرْجُوكَ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَحِبُّ الدُّنْيَا وَطَوَّلَ الْبَقَاءَ فِيهَا لِكُرِّي<sup>(١)</sup> الْأَنْهَارِ، وَلَا لَغَرَسِ الْأَشْجَارِ، وَلَكِنْ لِيُظَمَّ الْهَاجِرِ، وَمُكَابِدَةِ السَّاعَاتِ، وَمَزَاحِمَةِ الْعُلَمَاءِ بِالرُّكْبِ عِنْدَ جِلْقِ الذُّكْرِ<sup>(٢)</sup>.

قال عبد الله بن أحمد: وحدثني أبي قال: حدثنا زيد بن يحيى الدمشقي قال: حدثنا سعيد بن عبد العزيز قال: حدثنا إسماعيل بن عبد الله: أن أبا مسلم قال: جِئْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَقَالَ: أَلَا رَجُلٌ يَعْمَلُ لِمِثْلِ مَصْرَعِي هَذَا؟ أَلَا رَجُلٌ يَعْمَلُ لِمِثْلِ يَوْمِي هَذَا؟ أَلَا رَجُلٌ يَعْمَلُ لِمِثْلِ سَاعَتِي هَذِهِ؟ ثُمَّ قُبِضَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال<sup>(٣)</sup>: وحدثني أبي قال: حدثنا هارون بن معروف قال: حدثنا ضمرة عن ابن المسيب قال: لما حضرت أبا هريرة الوفأة بكى، فقيل له: يا أبا هريرة، ما يبكيك؟ قال: بُعِدُ الْمَفَازَةِ، وَقَلَّةُ الزَّادِ، وَعَقَبَةُ كَوْوُدِ الْمَهْبِطِ مِنْهَا إِلَى الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ.

وقيل لحذيفة في مرضه: ما تشتهي؟ قال: الجنة. قيل: فما تشتهي؟ قال: الذُّنُوبُ. قالوا: أفلا ندعوا لك الطيب؟ قال: الطَّيِّبُ أَمْرَضَنِي. ثم قال: أَصْبَحْنَا؟ قالوا: نعم. فقال: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ صَبَاحِ النَّارِ.

وبكى سلمان عند موته، فقيل: ما يبكيك؟ فقال: عَهْدَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ

(١) كُرِّي الْأَنْهَارِ: حَفَرُهَا وَإِجْرَاؤُهَا.

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي الزَّهْدِ (١٨٠).

(٣) يَعْنِي عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَحْمَدَ، وَالْخَبْرُ فِي الزَّهْدِ (١٧٨).

يكونَ زادٌ أَحَدِنَا كزادِ الرَّاكِبِ، وَحَوْلِي هَذِهِ الْأَسَاوِدُ. قَالَ: وَإِنَّمَا كَانَ حَوْلَهُ إِجَانَةٌ<sup>(١)</sup> أَوْ جَفْنَةٌ<sup>(٢)</sup> وَمِطْهَرَةٌ<sup>(٣)</sup>.

وكان عمرو بن العاص يقول عند موته:

لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدَّ بَدَأَ لِي فِي قِلَالِ الْجِبَالِ أَرعى الوُعُولَا

### ذِكْرُ كَلِمَاتٍ نُقِلَتْ عَنِ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّالِحِينَ

لَمَّا احْتَضَرَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسِ بَكِي، وَقَالَ: لَا أَبْكِي جَزَعًا مِنَ الْمَوْتِ، وَلَا حِرْصًا عَلَى الدُّنْيَا، وَلَكِنْ لَمَّا يَفُوتُنِي مِنْ ظَمَأِ الْهَوَاجِرِ، وَيَقَامُ لَيْلُ الشِّتَاءِ.

وَدَخَلُوا عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ: يَا إِخْوَتَاهُ، تَدْرُونَ أَيْنَ يُذْهَبُ بِي؟ يُذْهَبُ بِي وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَى النَّارِ أَوْ يَعْفُو عَنِّي.

وَبَكِيَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ عِنْدَ مَوْتِهِ، وَقَالَ: أَنْتَظِرُ مِنَ اللَّهِ رَسُولًا يُبَشِّرُنِي بِالْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ.

وَقَلِقَ يَوْسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ عِنْدَ الْمَوْتِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا هَذَا أَوْ أَوَّانَ الْقَلِقِ! قَالَ: وَكَيْفَ لَا، وَلَا أَعْلَمُ أَنِّي صَدَقْتُ اللَّهَ فِي شَيْءٍ مِنْ عَمَلِي.

وَرَوَى الْمُزَنِّيُّ عَنِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ فَقَالَ: أَصْبَحْتُ مِنَ الدُّنْيَا رَاحِلًا، وَلِلْإِخْوَانِ مُفَارِقًا، وَلِسَوْءِ عَمَلِي مُلَاقِيًا، وَلِكَأْسِ الْمَنِيَّةِ شَارِبًا، وَعَلَى رَبِّي وَارِدًا، وَلَا أَدْرِي أَرُوحِي تَصِيرُ إِلَى الْجَنَّةِ فَأُهَنِّيهَا، أَمْ إِلَى النَّارِ فَأُعْزِيهَا. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

وَلَمَّا قَسَى قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي جَعَلْتُ رَجَائِي نَحْوَ عَفْوِكَ سَلِّمًا  
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوِكَ أَعْظَمًا  
وَمَا زِلْتُ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ تَجُودُ وَتَعْفُو مِنِّي وَتَكْرُمَا

(١) الإِجَانَةُ: إِنَاءٌ تُغْسَلُ فِيهِ الثِّيَابُ.

(٢) الجَفْنَةُ: القَصْعَةُ الَّتِي يُوَضَعُ فِيهَا الطَّعَامُ.

(٣) المِطْهَرَةُ: كُلُّ إِنَاءٍ يُنْظَرُ مِنْهُ كَالِإِبْرِيْقِ وَالسُّطَلِ وَالرُّكُودِ وَغَيْرِهَا.

## الباب السادس

### في أقوال العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور

اعلم أن الجنائزَ عبرةٌ للبصير لا للغافل، فإن البصيرَ يرى نفسه على الجنائزِ، فيبكي، والغافل يراها جنازةً غيره، فأحسن أحواله أن يبكي على الميتِ .  
قال أسيد بن حُضير: ما شهدتُ جنازةً قط فحدثتُ نفسي بشيءٍ سوى ما هو مفعولٌ به، وما صائرٌ إليه .

وكان أبو هريرة إذا رأى جنازةً يقول: امضِ فإننا على الأثر .  
ومن آداب حضور الجنائز: التَّفكُّر والتَّنَبُّه، والمشي أمامها على هيئة التَّواضع، والرَّجاء للميت المسلم .

وقد روينا عن عُمر بن ذرٍ أنه صَلَّى على جنازة رجلٍ مُسرفٍ على نفسه وكان خلق كثيرٌ قد تَجافَى حُضورَها، فلما دُفن الميت وَقَفَ على قَبْرِهِ، فقال: رَحِمَكَ اللهُ يا أبا فلان، فقد صَحِبْتَ عمرك بالتوحيد، وَعَفَّرْتَ وَجْهَكَ بالسُّجود، فإن قالوا: مُذِيبٌ . فمن مَنَّا غَيْرُ مُذِيبٍ؟

### بيان حال القبر وأقوالهم على القبور

أنبأنا ابن حُصين قال: أخبرنا ابن المُذْهَب قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثنا يحيى بن معين قال: حدثنا هشام بن يوسف قال: حدثني عبد الله بن بَحِير القَاصِّ عن هانئ مولى عُثْمان، قال: كانَ عُثْمان إذا وَقَفَ على قَبْرِ بكي حتى يَبُلَّ لحيته، فقيل له: تذكُر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا؟! فقال: إن رسولَ الله ﷺ قال: «القَبْرُ أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخرة، فإن ينجُ منه،

فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه، فما بعده أشد منه»، قال وقال رسول الله ﷺ: «ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أظع منه»<sup>(١)</sup>.

جاء عمرو بن العاص بمقبرة، فنزل وصلى ركعتين، وقال: ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه، فأحبت أن أتقرب إلى الله تعالى بهما.

وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور، ف قيل له في ذلك، فقال: أجلس إلى قوم يُذكرونني معادي، وإن قُمتُ لم يغتابوني.

وكان عطاء السلمي إذا جنَّ الليل خرج إلى المقابر، ثم يقول: يا أهل القبور، متُّم، فَوَا مَوَاتَاهُ، وعايَنتُم أعمالكم، فواعملاه، ثم يقول: غداً عطاء في القبر، غداً عطاء في القبر، فلا يزال هذا ذأبه حتى يُصبح.

وقال ميمون بن مهران: خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة، فلما نظر إلى القبور بكى، ثم أقبل عليّ فقال: يا ميمون، هذه قبور آبائي بني أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشتهم، أما تراهم صرعى، قد حلت بهم المثلات، واستحكم فيهم البلى، وأصابته الهوام مقيلاً في أبدانهم؟ ثم بكى، وقال: ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور، وقد أمن من عذاب الله تعالى.

ووجد على قبر مكتوب:

وَقَفْتُ عَلَى الْأَحِبَّةِ حِينَ صَفَّتْ قُبُورُهُمْ كَأَفْرَاسِ الرَّهَانِ  
فَلَمَّا أَنْ بَكَيْتُ وَفَاضَ دَمْعِي رَأَتْ عَيْنَايَ بَيْنَهُمْ مَكَانِي

فالبصير إذا نظر إلى القبور رأى مكانه بينهم، فاستعدَّ قبل أن يُستلب، وليتحقق أنه لو عرَّض عليهم يومٌ من أيامه التي يُضيِّعها، لكان أحب إليهم من الدنيا كلها؛ لأنهم عرفوا قدر الأعمال، وانكشفت لهم حقائق الأمور.

قال بعض السلف: رأيت رجلاً من الموتى في النوم، فقلت له: يا فلان، عشت

(١) أخرجه أحمد (٤٥٤)، وابن ماجه (٤٢٦٧)، والترمذي (٢٣٠٨)، والحاكم (٤/

٣٣١.٣٣٠)، والبزار (٤٤٤)، والبيهقي في الشعب (٣٩٧).

الحمد لله فقال: لأن أقدر على أن أقولها يعني الحمد لله أحب إلي من الدنيا وما فيها.

## فصل

ومن مات له ولدٌ، فينبغي أن يُقدَّرَ أنهما كانا في سفرٍ، وأن الولدَ قد سَبَقَه إلى المنزلِ، وليسَلَ عنه بثوابه، فقد رَوَى مسلمٌ في أفرادِه من حديث أبي حسان قال: توفي ابنان لي، فقلتُ لأبي هريرة: سمعتُ من رسولِ الله ﷺ حديثاً تحدثنا به فَتُطِيبَ أنفسنا عن موتانا؟ فقال: نعم: «صِغارهم دَعَامِيصُ»<sup>(١)</sup> الجنة، يَتَلَقَى أحدهم أباه، أو قال: أبويه. فيأخذ بثوبه. أو قال: بيده. كما أَخَذُ أنا بِصَنْفَةِ<sup>(٢)</sup> ثوبك هذا، فلا يتناهى حتى يُدخله اللهُ وأباه الجنة»<sup>(٣)</sup>.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «ما منكنَّ من امرأة يموتُ لها ثلاثةٌ من الولد إلا كانوا لها حجاباً من النار». فقالت امرأة: أما أنا فقد ماتَ لي اثنان؟ فقال: «واثنين»<sup>(٤)</sup>.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مسلم يموت له ثلاثةٌ من الولد لم يبلغوا الجنة، فتمسه النار إلا تجلَّه القَسَمُ»<sup>(٥)</sup>.

## فصل

وتُسْتَحَبُّ زيارةُ القبور، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «زوروا القبور، فإنها تُذكركم الآخرة»<sup>(٦)</sup>.

(١) دعاميص الجنة: صغار أهلها، والمفرد: دعموص.

(٢) صنفه الثوب: طرفه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٣٥).

(٤) أخرجه البخاري (١٠١) و(١٢٤٩) و(٧٣١٠)، ومسلم (٢٦٣٣).

(٥) أخرجه البخاري (١٢٥١)، و(٦٦٥٦)، ومسلم (٢٦٣٢).

(٦) أخرجه مسلم (٩٧٦)، وأبو داود (٣٢٣٤)، وابن ماجه (١٥٦٩) و(١٥٧٢)، والبيهقي في

السنن (٧٦/٤)، والبخاري (١٥٥٤) من حديث أبي هريرة.

وتكره زيارة القبور للنساء، وذلك لقلّة صبرهنّ ووقوع الفتنة بخروجهنّ.  
ومن زار قبراً فلستقبل وجه الميت، وليُسلّم، ولا يمس القبر، وليقرأ شيئاً من  
القرآن بنية إهداء الثواب إليه، ولتكن الزيارة يوم الجمعة.

أبنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا محمد بن هبة الله الطبري، قال: أخبرنا أبو  
الحسين بن بشران: قال: أخبرنا ابن صفوان، قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال:  
حدثني محمد بن الحسين قال: حدثنا يحيى بن بسّطام قال: حدثني مسمع بن  
عاصم قال: حدثني رجل من آل عاصم الجحدري، قال: رأيتُ عاصماً في منامي  
بعد موته بستين، فقلت: أليس قد متّ؟ قال: بلى. قال: فأين أنت؟ قال: أنا والله  
في روضةٍ من رياض الجنة أنا ونفّر من أصحابي، نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها  
إلى أبي بكر بن عبد الله المُرزي نتلقى أخباركم. قلت: أجسامكم أم أرواحكم؟  
فقال: هيات! بليت الأجسام، وإنما تتلقى الأرواح. قلت: فهل تعلمون بزيارتنا  
إياكم؟ قال: نعلم بها عشية الجمعة، ويوم الجمعة كله، ويوم السبت إلى طلوع  
الشمس. قلت: وكيف ذلك دون الأيام كلها؟ قال: لفضل يوم الجمعة وعظمه.

قال يحيى بن بسّطام: وحدثني عثمان بن سواد الطُفاوي، وكانت أُمّه من  
العابدات، وكان يقال لها: راهبة. قال: لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء،  
وقالت: يا دُخري ويا دُخيرتي، ومن عليه اعتمادي في حياتي وبعد مماتي،  
لا تخذلني عند الموت، ولا توحشني في قبري. قال: فماتت، فكنّت آتيها كل  
جمعة، وأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور. قال: فرأيتها ليلة في منامي، فقلت  
لها: يا أُمّه، كيف أنت؟ فقالت: يا بُني، إنّ للموت لكرّب شديد، وأنا والحمد لله  
في برزخ محمود، نفترش فيه الرّيحان، ونتوسّد فيه السندس والإستبرق إلى يوم  
النُّشور. فقلت: ألك حاجة؟ قالت: نعم. فقلت: ما هي؟ قالت: لا تدع ما كنت  
تصنع من زيارتنا والدُّعاء لنا، فإني لأسرُّ بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك،  
فيُقال لي: يا راهبة، هذا ابنك قد أقبل. فأسرُّ، ويُسرُّ بذلك من حولي من  
الأموات.

قال محمد بن الحسين: وحدثني محمد بن عبد العزيز بن سلمان قال: حدثنا

بِشْرُ بِنِ مَنصُورٍ قَالَ: لَمَّا كَانَ زَمَنُ الطَّاعُونَ كَانَ رَجُلٌ يَخْتَلِفُ إِلَى الْجَبَانَةِ<sup>(١)</sup>، فَيَسْهَدُ الصَّلَاةَ عَلَى الْجَنَائِزِ، فَإِذَا أَمْسَى وَقَفَ عَلَى بَابِ الْمَقَابِرِ، فَقَالَ: أَسَنَ اللَّهُ وَحَشْتُكُمْ، وَرَحِمَ غُرْبَتَكُمْ، وَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِكُمْ، وَقَبِلَ اللَّهُ حَسَنَاتِكُمْ. لَا يَزِيدُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ. قَالَ: فَقَالَ ذَلِكَ الرَّجُلُ: فَأَمْسَيْتُ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَانصَرَفْتُ إِلَى أَهْلِي وَلَمْ آتِ الْمَقَابِرِ فَأَدْعُو كَمَا كُنْتُ أَدْعُو، فَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذَا بِخَلْقٍ كَثِيرٍ قَدْ جَاؤُونِي، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتُمْ؟ وَمَا حَاجَتُكُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ أَهْلُ الْمَقَابِرِ. قُلْتُ: مَا جَاءَ بِكُمْ؟ قَالُوا: إِنَّكَ كُنْتَ قَدْ عَوَّدْتَنَا مِنْكَ هَدِيَّةً عِنْدَ انصِرَافِكَ إِلَى أَهْلِكَ. قُلْتُ: وَمَا هِيَ؟ قَالُوا: الدَّعَوَاتُ الَّتِي كُنْتَ تَدْعُو بِهَا. قُلْتُ: فَإِنِّي أَعُودُ لَذَلِكَ، فَمَا تَرَكْتُهَا بَعْدُ.

قال محمد بن الحسين: وحدثني أبو البهلول قال: حدثني بشار بن غالب البَحْرَانِي قَالَ: رَأَيْتُ رَابِعَةَ الْعُدُويَّةِ فِي مَنَامِي وَكُنْتُ كَثِيرَ الدُّعَاءِ لَهَا، فَقَالَتْ لِي: يَا بَشَارُ، هَدَايَاكَ تَأْتِينَا عَلَى أَطْبَاقٍ مِنْ نُورٍ مُخَمَّرَةٍ بِمَنَادِيلِ الْحَرِيرِ. قُلْتُ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَتْ: هَكَذَا دُعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الْأَحْيَاءِ إِذَا دَعُوا لِلْمَوْتَى وَاسْتَجِيبَ لَهُمْ، جُعِلَ ذَلِكَ الدُّعَاءُ عَلَى أَطْبَاقِ الثُّورِ وَخُمُرٍ بِمَنَادِيلِ الْحَرِيرِ، ثُمَّ أَتَى بِهِ الَّذِي قَدْ دُعِيَ لَهُ مِنَ الْمَوْتَى، فَقِيلَ لَهُ: هَذِهِ هَدِيَّةٌ فَلَانَ إِلَيْكَ.

قال أبو بكر القرشي: وحدثني الحسين بن علي العجلي قال: حدثني محمد بن الصلت قال: حدثنا إسماعيل بن عياش عن ثابت بن سليم قال: حدثنا أبو قلابة قال: أقبلت من الشام إلى البصرة، فنزلت الخندق فتطهرت وصليت ركعتين بليل، ثم وضعت رأسي على قبر فنمت، فإذا صاحب القبر يشتكيني يقول: أذيتني منذ الليلة. ثم قال: إنكم لا تعلمون ونحن نعلم، ولا نقدر على العمل. ثم قال: للركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها. ثم قال: جرى الله عنا أهل الدنيا خيراً، أقرئهم منا السلام، فإنه يدخل علينا من دعائهم نوراً مثل الجبال.

فالمقصود من زيارة القبور اعتبار الزائر، وانتفاع المزور بالدعاء له، وإنما يقع الاعتبار بالتفكر في حال الميت، وكيف قد بلي وكيف يُحشَر، وفي حال الزائر أنه سيلحق به قريباً.

كانت عابدةً من عبد القيس تزور القبور تقول: إن القلب القاسي إذا جفا لم تليئه إلا رسوم البلى، وإني لآتي القبور فكأني أنظر إليهم وقد خرجوا من بين أطباقها، فيالها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم، ما أنكل مرارتها للأنفس، وأشدّ إتلافها للأبدان.

ويستحب تلقين الميت على ما سيأتي ذكره، ويستحب الثناء على الميت، وأن لا يُذكر إلا بالجميل.

أنبأنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي قال: حدثنا شعبة عن الأعمش عن مُجاهد عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا الأموات، فإنهم قد أفضوا إلى ما قَدَّموا»<sup>(١)</sup>. انفرد بإخراجه البخاري.

\* \* \*

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٣) و(٦٥١٦).

## الباب السابع

### في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور

#### بيان حقيقة الموت

اعلم أن للناس في حقيقة الموت ظنوناً كاذبةً، فظنُّ البعض أن الموت هو العدم، وأنه لا حَشْرَ ولا نَشْرَ، ولا عاقبة للخير والشرِّ، وأن موتَ الإنسان كموت الحيوان وجفافِ النبات، وهذا رأيُ الملحدين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر. وظنُّ قومٌ أنه ينعدم بالموت، ولا يتألم بعقاب، ولا يتنعمُ بثواب ما دام في القبر إلى أن يُعادَ في وقت الحشر.

وقال آخرون: إن الروح باقية لا تنعدم بالموت، وإنما المثابُّ والمعاقب هي الأرواح دون الأجساد، وإن الأجساد لا تُبعث ولا تُحشر أصلاً. وكل هذه ظنونٌ فاسدة مائلة عن الحق، بل الذي تشهد له طرق الاعتبار وتنطقُ به الآيات والأخبار: أن الموت معناه تغيُّر حالٍ فقط، وأن الروحَ باقية بعد مفارقة الجسد إما مُعذِّبة وإما مُنعمَّة، ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد لخروج الجسد عن طاعتها، فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها، فتَبطش باليد، وتسمع بالأذن، وتُبصر بالعين، وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب، والقلب هاهنا عبارة عن الروح، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة، وكذلك فقد تتألم بنفسها بأنواع الحُزنِ والعَمِّ والكمَدِ، وتتنعمُ بأنواع الفرح والسرور، وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء، فكل ما هو وصف للروح بنفسها، فيبقى معها بعد مفارقة الجسد، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطلُّ بموت الجسد إلى أن تُعاد الروح إلى الجسد، ولا يبعدُ أن تُعاد الروحُ إلى الجسدِ في القبر، ولا يبعدُ أن تؤخَّر إلى يوم البعث، والله أعلم بما حَكَمَ به على كل عبد من عباده.

وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهي تعطل أعضاء الزّمن بفساد مزاج يقع فيه، وبسدّة تقَع في الأعصاب تمنع نُفوذَ الروح فيها، فتكون الروح العالمة العاقلة المُدرِكة باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها بعضها، وكل الأعضاء آلات والروح هي المستعملة لها، ونعني بالروح: المعنى الذي يدرك من الإنسان العلوم والآلام الغموم ولذّات الأفراح، ومتى بطل تصرفها في الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات، ولا تبطل منها الأفراح والغموم، ولا يبطل منها قبولها للآلام واللذّات.

والإنسان في الحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم والآلام واللذّات، وذلك لا يموت، أي: لا ينعدم، وإنما معنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون آلة له، كما أن معنى الزّمانة خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة، فالموت زمانة مطلقة في الأعضاء كلها، وحقيقة الإنسان نفسه وروحه وهي باقية، ولكن قد تغيّر حاله من جهتين:

إحدهما: أنه سُلبت منه جوارحه وأمواله وأهله، ولا فرق بين أن تُسلب هذه الأشياء من الإنسان وبين أن يُسلب الإنسان من هذه الأشياء، فإن المؤلم هو الفراق، والفراق يحصل تارة بأن يُنهب مال الرجل، وتارة بأن يُسبى الرجل عن ماله، والألم واحد في الحالتين.

ومعنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بإزعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم، فإن كان له في الدنيا شيء يفرح به ويستريح إليه ويعتد بوجوده عظمت حسرته عليه بعد الموت، وإن كان لا يفرح إلا بذكر الله عزّ وجل ولا يأنس إلا به عظمت نعيمه وتمت سعادته إذا خلّي بينه وبين محبوبه، وقُطعت عنه العوائق والشواغل، إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله تعالى، فهذا أحد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة.

والثاني: أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفاً له في الحياة، كما ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً في النوم، والناس نياماً، فإذا ماتوا انتبهوا.

وأول ما ينكشف له ما يضرُّه وينفعه من حسناته وسيئاته، وقد كان ذلك مسطوراً في كتاب مطوي في سرِّ قلبه، وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا، فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله، فلا ينظر إلى سيئةٍ إلا ويتحسّر عليها تحسراً يؤثر أن يخوضَ غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة، وكل ذلك ينكشف عند الموت، وتشتعل في القلب نيران فراق الدارِ الفانية.

فأما من أخذَ منها البلعة فإنه إذا بلغ منها المقصد فرح بمفارقتها بقية الزاد؛ لأنه لم يكن يريد الزاد لعينه، وهذه حالة من لم يأخذ من الدنيا إلا قدر الضرورة، وكان يود أن تنقطع ضرورته ليستغني عنه، فقد حصل ما كان يوده واستغنى عنه، فهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة تهجم عليه قبل الدفن.

ثم عند الدفن تُردُّ روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب، وقد يُعفى عنه ويكون حال العاصي كحال<sup>(١)</sup> من دخل دار الملك في حال غيبة الملك، فتصرف في ملكه وحرّمه ظناً منه أن الملك يتساهل في أمره، أو على أن الملك ليس يدري ما يتعاطاه من قبّيح أفعاله، فأخذَه الملك بغتةً، وعرضَ عليه جميع فواحشه وجنباياته، والمملك قاهرٌ مُتسلطٌ غيور على حرّمه، منتقمٌ من الجناة على ملكه، غير مُلتفتٍ إلى من يتشفع إليه في العصاة عليه.

فانظر إلى حال هذا المأخوذ كيف يكون قبل نزول عذاب الملك به من الخوف والخجل والحياء والتّدم، وذلك أعظم من تعذيب الجسد، فهذا حال الميت الفاجر، وهذه حالة شاهدها أولو الأبصار بمشاهدة باطنة أقوى من مُشاهدة العين، وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة.

إلا أنه لا يمكن كَشْفُ الغطاء عن كُنْهِ حقيقة الموت، إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة، ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح في نفسها، وإدراك ما هية ذاتها، وما أذن للرسول عليه الصلاة والسلام أن يزيد على أن يقول: ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، وإنما المأذون ذكرُ حال الروح بعد الموت.

(١) تحرفت في الأصل إلى: «كمال».

ويدل على أن الموت ليس بعبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها آيات وأخباراً:

أما الآيات: فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وروى مسلم في أفراده من حديث مسروق قال: سألتنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ فقال: أما إنا قد سألتنا عن ذلك فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تَسْرُحُ من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعةً فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نَشْتَهِي؟ ونحن نَسْرُحُ من الجنة حيث شئنا. ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب، نريد أن تُردَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتل في سبيلك مرةً أخرى. فلما رأى أن لا حاجة لهم تُركوا»<sup>(١)</sup>.

أبنا الكروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر الغورجي قالوا: أخبرنا الجراحي قال: حدثنا المحبوبي قال: حدثنا الترمذي قال: حدثنا يحيى بن حبيب بن عربي قال: حدثنا موسى بن إبراهيم بن كثير الأنصاري قال: سمعت طلحة بن خراش قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: لقيني رسول الله ﷺ فقال لي: «يا جابر، مالي أراك مُنكسراً؟» قلت: يا رسول الله، استشهد أبي، وترك عيلاً وديناً. قال: «أبشرك بما لقي الله به أباك؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كِفاحاً»<sup>(٢)</sup>، وقال: يا عبدي، تمنَّ عليَّ أعطِكَ. قال: يا رب، تُحييني فأقتل فيك ثانيةً. قال الرب تعالى: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يُرجعون. وأنزلت هذه الآية: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أَمْوَاتًا﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٧).

(٢) كِفاحاً: أي مواجهةً دون حجاب.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٩٠) و(٢٨٠٠)، والترمذي (٣٠١٠)، وابن أبي عاصم في السنة =

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، فأخبر أنهم يُعذَّبون بعد الموت.

أنبأنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا السرخسي قال: حدثنا الفريبري قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا إسماعيل قال: حدثني مالك بن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ لَهُ مَقْعَدُهُ بِالْعِدَاةِ وَالْعَشِيِّ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة» أخرجاه في الصحيحين<sup>(١)</sup>.

وفي الصحيحين من حديث أبي طلحة أن النبي ﷺ أمر يوم بدرٍ بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فُقذوا في طَوِيٍّ<sup>(٢)</sup> من أطواء بدر، كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليالٍ، فلما كان ببدرٍ اليوم الثالث أمر براحلته فشدَّ عليها رحلها ثم مشى وتبعها أصحابه حتى قام على شفة الركي، فجعل يُناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أظعنتم الله ورسوله؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟» فقال عمر: ما تكلم يا رسول الله من أجسادٍ لا أرواح فيها؟! فقال: «والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»<sup>(٣)</sup>. وهذا نص في بقاء الروح وبقاء إدراكها ومعرفتها.

أنبأنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المذهب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثني محمد بن حميد عن معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب عن كعب. يعني ابن مالك. قال: قال:

= (٦٠٢)، وابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٨٩٠)، وابن حبان (٧٠٢٢)، والحاكم (٣/

٢٠٣)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٩٨)، والواحدي في أسباب النزول: ٨٦.

(١) أخرجه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

(٢) الطوي: البئر.

(٣) أخرجه البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٥).

رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُسْلِمِ طَيْرٌ تَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى جَسَدِهِ»<sup>(١)</sup>.

وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا تَفْضَحُوا مَوْتَاكُمْ بِسَيِّئَاتِ أَعْمَالِكُمْ، فَإِنَّهَا تُعْرَضُ عَلَى أَوْلِيَائِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ»<sup>(٢)</sup>.

وكان أبو الدرداء يقول: اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملاً أُجزي به عند عبد الله بن رواحة<sup>(٣)</sup>.

وقال عبد الله بن عمر: إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه مثل رجل كان في سجن فأخرج منه، فهو يتفصح في الأرض ويتقلب فيها. وهذا صحيح فإن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من فضل الله تعالى وكرامته ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن، فيكون كمحبوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف، فيه أنواع الأشجار فلا يسره الرجوع إلى الدنيا، كما لا يسره العود إلى بطن أمه.

وقال مُجاهد: إن المؤمن ليُشَرَّ بِصَلاَحِ وَلَدِهِ مِنْ بَعْدِهِ، لِيَتَقَرَّ بِذَلِكَ عَيْنُهُ.

وقال عبيد بن عمير: أهل القبور يتوكلون<sup>(٤)</sup> الأخبار، فإذا أتاهم الميت قالوا: ما فعل فلان؟ فيقول: صالح. فيقولون: ما فعل فلان؟ فيقول: ألم يأتكم؟ فيقولون: لا، إنا لله وإنا إليه راجعون، سلك به غير سبيلنا. وفي لفظ: ذهب به إلى أمه الهاوية. وقد روي هذا مرفوعاً ورواه أبو رهم السَّمْعِي عن أبي أيوب الأنصاري عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ نَفْسَ الْمُؤْمِنِ إِذَا قُبِضَتْ تَلَقَّاهَا أَهْلُ الرَّحْمَةِ كَمَا يُتَلَقَّى الْبَشِيرُ فِي الدُّنْيَا، فَيَقُولُونَ: أَنْظِرُوا أَحَاكِمَ حَتَّى يَسْتَرِيحَ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي كَرْبٍ شَدِيدٍ، فَيَسْأَلُونَهُ: مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ وَمَاذَا فَعَلَتْ فُلَانَةٌ، وَهَلْ تَزَوَّجَتْ فُلَانَةٌ؟ فَإِذَا سَأَلُوهُ عَنْ

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٧٦) و(١٥٧٧٨) و(١٥٧٨٠) و(١٥٧٨٧) و(١٥٧٩٢)، وابن ماجه (١٤٤٩)، والطبراني في الكبير (١٢٢/١٩)، والبيهقي في البعث والنشور (٢٢٦).

(٢) نسبه العراقي لابن أبي الدنيا في الموت، وفي الباب عن أنس عند أحمد (١٢٦٨٣)، وعن أبي أيوب الأنصاري عند الطبراني في الأوسط (١٤٨).

(٣) لأن عبد الله بن رواحة خاله.

(٤) يتوكلون: يتوقعون ويتربحون.

رجل مات قبله قال: إنه قد مات قبلي. قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهب به إلى أمه الهاوية فبُئِسَتِ الأمُّ، وبُئِسَتِ المرِيَّةُ»<sup>(١)</sup>.

### ذكر تلقين الميِّت

روى سعيد بن عبد الله الأودي قال: شهدتُ أبا أمامة الباهلي وهو في التَّنَزُّعِ فقال: يا سعيد، إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسولُ الله ﷺ فقال: «إذا مات أحدكم فسويُّتم عليه التُّراب، فليُتمَّ أحدكم على رأسِ قبره ثم يقول: يا فلان بن فلانة، فإنه يسمع ولا يُجيب، ثم ليقل: يا فلان بن فلانة، الثانية، فإنه يستوي قاعداً، ثم ليقل: يا فلان بن فلانة، فإنه يقول: أرشدنا رَحِمَكَ اللهُ، ولكن لا تسمعون، فيقول: أذكُرُ ما خَرَجْتَ عليه من الدنيا: شهادة أن لا إله إلا اللهُ، وأنَّ محمداً رسولُ اللهُ، وأنتَ رَضِيتَ باللهِ رباً، وبالإسلامِ ديناً، وبمحمداً نبياً، وبالقرآنِ إماماً، فإنَّ مُنكَرٌ ونكيرٌ يتأخِرُ كل واحد منهما فيقول: انطلق بنا، ما يُقعدنا عند هذا وقد لُقِنَ حُجَّتَهُ؟ ويكون اللهُ عز وجل حَجيَّجَهُ دَوْنَهُمَا» فقال رجلٌ: يا رسولَ اللهُ، فإن لم يعرف اسم أمه؟ قال: ينسبه إلى حَوَاءَ.

وأوصى العلاء بن اللَّجلاج إذا دُفِنَ أن يُقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة وخاتمتها، وقال: سمعتُ ابنَ عمرَ يُوصي بذلك.

### بيان كلام القبر للميت وكلام الموتى

أبنا الكروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر الغورجي قالوا: أخبرنا الجَزَّاحي قال: حدثنا المحبوبي، قال: حدثنا الترمذي قال: حدثنا محمد بن أحمد بن مَدُوِيَّة قال: حدثنا القاسم بن الحكم العُرَني، قال: حدثنا عبيد الله بن الوليد الوصافي عن عطية عن أبي سعيد قال: دخل رسولُ اللهُ ﷺ مُصَلِّاه، فرأى ناساً كأنهم يكتشرون<sup>(٢)</sup> فقال: «أما إنكم لو أكثرتم ذِكْرَ هَازِمِ اللَّذاتِ، لَشَغَلَكُم عَمَّا أرى، فأكثرُوا ذِكْرَ هَازِمِ اللَّذاتِ الموتِ، فإنه لم يَأْتِ على القبر يومٍ إلا تكلم

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٤٣) و(٤٤٤).

(٢) يكتشرون: أي تظهر أسنانهم من الضحك.

فيقول: أنا بيتُ العُربَةِ، وأنا بيتُ الوَحْدَةِ، وأنا بيتُ التُّرابِ، وأنا بيتُ الدُّودِ، فإذا دُفِنَ العَبْدُ المؤمنَ قالَ له القبر: مَرحباً وأهلاً، أما إن كنت لأحبّ من يمشي على ظهري إليّ، فإذا وُلِّيتكَ اليومَ وصرتَ إليّ، فسترى صنيعي بك. فيتسع له مدٌّ بصره، ويُفتح له بابٌ إلى الجنة، وإذا دُفِنَ العَبْدُ الفاجر أو الكافر، قال له القبر: لا مرحباً ولا أهلاً، أما إن كنت لأبغض من يمشي على ظهري إليّ، فإذا وُلِّيتكَ اليومَ، فسترى صنيعي بك. قال: فيلتئم عليه حتى تختلف أضلاعه»، وقال رسولُ الله ﷺ بأصابعه فأدخل بعضها في جوفِ بعض قال: «ويَقْيِضُ له سبعون تيناً<sup>(١)</sup>، لو أن واحداً منها نَفَخَ في الأرض ما أنبتت شيئاً ما بقيت الدنيا، فينهشُهُ ويخدشُهُ حتى يُفْضي به إلى الحِسابِ» وقال رسولُ الله ﷺ: «إنما القَبْرُ رَوْضَةٌ من رياضِ الجَنَّةِ، أو حُفْرَةٌ من حُفْرِ النَّارِ»<sup>(٢)</sup>.

وربما تعجب من يَسْمَعُ حَصْرَ العَدَدِ بسبعين تيناً، فإن أعداد ما يُسَلِّطُ على العاصي من العذاب على أعدادِ خِصاله المذمومة، وقد تتشعب الخصلة إلى خِصالٍ كالكِبَرِ والحَسَدِ والغِلِّ والرِّياء وغير ذلك، فالقوي منها يلدغ لدغَ التَّينِ، والضعيفُ يلدغ لدغَ العَقْرَبِ، وما بينهما يُؤْذِي إيذاء الحَيَّةِ.

وروينا عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول القبر للميت حين يُوضَعُ فيه: وَيحك يا ابن آدم، ما غرَّكَ بي؟ ألم تعلم أني بيتُ الظُّلْمَةِ، وبيتُ الوَحْدَةِ، وبيتُ الدُّودِ، ما غرَّكَ بي إذا كنتَ تمرُّ بي فدَّاداً<sup>(٣)</sup>. فإن كان مُصلِحاً أجابَ عنه مجيبُ القَبْرِ، فيقول: أرايتَ إن كان يأمرُ بالمعروفِ وينهى عن المنكر. فيقول القَبْرُ: إني إذنُ أتحوّلُ عليه خضراً، ويعودُ جسدهُ نوراً، وتصعدُ روحُه إلى الله عزَّ وجل<sup>(٤)</sup>.

وقال عُبيد بن عُمير اللَّيثي: ليس من ميت يموتُ إلا نادتهُ حُفْرتهُ التي يُدفنُ فيها: أنا بيتُ الظُّلْمَةِ والوَحْدَةِ والانفرادِ، فإن كنتَ في حَيَاتِكَ لله مُطيعاً، كنتُ

(١) التين: ضرب من الحيات.

(٢) أخرجه الترمذي (٤٤٦٢).

(٣) الفداد: هو الذي يمشي يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، يعني مشية المُتَبَخَّرِ.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٢٣٥).

عليك اليوم رَحمة، وإن كنت عاصياً، فأنا عليك اليوم نِقمة، أنا الذي مَن دَخَلني مُطيعاً خَرَجَ مَسروراً، ومن دَخَلني عاصياً خَرَجَ مَثُوراً.

وقال كَعْب: إذا وُضِعَ العَبْدُ الصَّالِحُ في قَبْرِهِ اِحْتَوَشْتُهُ<sup>(١)</sup> أَعْمَالِهِ الصَّالِحَةُ: الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالْحَجُّ وَالجِهَادُ وَالصَّدَقَةُ، قال: وتجيء ملائكة العَذَابِ من قِبَلِ رِجْلَيْهِ، فَتَقُولُ الصَّلَاةُ: إِلَيْكُمْ عَنْهُ، فَلَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، فَقَدْ أَطَالَ بِي الْقِيَامَ لِلَّهِ عَلَيْهِمَا، فَيَأْتُونَهُ من قِبَلِ رَأْسِهِ، فيقول الصِّيَامُ<sup>(٢)</sup>: لَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، فَقَدْ أَطَالَ ظَمَاهُ لِلَّهِ تَعَالَى فِي دَارِ الدُّنْيَا، فَيَأْتُونَهُ من قِبَلِ جِسْدِهِ، فيقول الحَجُّ وَالجِهَادُ: إِلَيْكُمْ عَنْهُ، فَقَدْ أَنْصَبَ نَفْسَهُ وَأَتَعَبَ بَدَنَهُ وَحَجَّ وَجَاهَدَ لِلَّهِ عِزَّ وَجَلَّ، لَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، فَيَأْتُونَهُ من قِبَلِ يَدَيْهِ، فَتَقُولُ الصَّدَقَةُ: كُفُّوا عَن صَاحِبِي، فَكَمْ من صَدَقَةٍ خَرَجَتْ من هَاتِيْنِ اليَدَيْنِ حَتَّى وَقَعَتْ فِي يَدِ اللَّهِ عِزٌّ وَجَلَّ ابْتِغَاءً وَجْهَهُ، فَلَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ قال: فيقال له: نَمَّ هَنِيئاً طِبَّتْ حَيًّا وَطِبَّتْ مَيِّتاً. قال: وتأتيه ملائكة الرَّحمة فَتَفْرَشُهُ فِرَاشاً من الجَنَّةِ، وَدَثَاراً من الجَنَّةِ، وَيُفَسِّحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، وَيُؤْتِي بِقَنْدِيلٍ من الجَنَّةِ، فَيَسْتَضِيءُ بِنُورِهِ إِلَى يَوْمِ يَبْعَثَهُ اللَّهُ من قَبْرِهِ.

وقال محمد بن صَبِيح: بلغنا أن الرجل إذا وُضِعَ في قَبْرِهِ فَعُذِّبَ وَأَصَابَهُ بَعْضُ ما يَكْرَهُ ناداه جيرانُهُ من المَوْتَى: أَيُّهَا المَخْلُوفُ فِي الدُّنْيَا بَعْضَ أَخْدَانِهِ<sup>(٣)</sup>، أَمَا كَانَ لَكَ فِينَا مُعْتَبِراً؟ أَمَا كَانَ لَكَ فِي تَقْدُمِنَا إِيَّاكَ فِكْرَةً؟ أَمَا رَأَيْتَ انْقِطَاعَ أَعْمَالِنَا وَأَنْتَ فِي المُهْلَةِ؟ فَهَلْ اسْتَدْرَكَتْ ما فَاتَ إِخْوَانُكَ؟ وَتُنَادِيهِ بِقَاعِ الأَرْضِ: أَيُّهَا المُعْتَرِّ بِظَاهِرِ الدُّنْيَا، هَلَا اعْتَبَّرْتَ بِمَنْ غُيِّبَ من أَهْلِكَ فِي بَطْنِ الأَرْضِ مِمَّنْ عَرَّتَهُ الدُّنْيَا قَبْلَكَ، ثُمَّ سَبَقَ بِهِ أَجَلُهُ إِلَى القُبُورِ، وَأَنْتَ تَرَاهُ مَحْمُولاً تَهَادَاهُ أَحَبُّهُ إِلَى المَنْزَلِ الَّذِي لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ.

وكان الحسن البصري يقول: يومان وليلتان لم يَسْمَعْ الخلائقُ بِمِثْلِهِنَّ: لَيْلَةُ تَبِيَّتْ مع أَهْلِ القُبُورِ وَلَمْ تَبَيِّتْ لَيْلَةَ قَبْلُهَا، وَلَيْلَةُ صَبِيحَتُهَا يَوْمَ القِيَامَةِ، وَيَوْمَ يَأْتِيكَ البَشِيرُ من اللَّهِ إِمَّا بِالْجَنَّةِ وَإِمَّا بِالنَّارِ، وَيَوْمَ تُعْطَى كِتَابُكَ إِمَّا بِيَمِينِكَ وَإِمَّا بِشِمَالِكَ.

(١) اِحْتَوَشْتُهُ: أَحاطت به وجعلته وسطها.

(٢) سقط من الأصل، واستدرك من الإحياء.

(٣) الأخدان: جمع خَدْن، وهو الصاحب.

## بيانُ عذابِ القبرِ وسؤالِ مُنكرٍ ونكيرٍ

أما عذابُ القبرِ؛ فأخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا السرخسي قال: حدثنا الفِرْبَرِيُّ قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا عثمان بن أبي شيبة قال: حدثنا جرير عن منصور عن أبي وائل عن مسروق عن عائشة قالت: دخلتُ عليَّ عَجُوزان من عَجُزِ يهود المدينة، فقالتا: إنَّ أهلَ القُبورِ يُعذَّبون في قُبورهم. قالت: فكذَّبْتُهما، ولم أنعم أن أصدقهما، فخرجتا، ودخلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ، فقلتُ له: يا رسول الله، إن عَجُوزَيْن من عَجُزِ يهود المدينة دخلتا عليَّ فزَعمتا أنَّ أهلَ القُبورِ يُعذَّبون في قُبورهم. فقال: «صَدَقْتا، إنَّهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم». قالت: فما رأيتُه بعدُ في صلاةٍ إلا يتعوَّذُ من عذابِ القبرِ<sup>(١)</sup>. أخرجاه في الصَّحيحين.

وفيهما من حديث أبي أيوب الأنصاري قال: خرج رسولُ الله ﷺ بعد ما غربت الشمسُ، فسمع صوتاً، فقال: يَهُودٌ تُعذَّبُ في قُبورها<sup>(٢)</sup>.

وفيهما من حديث ابن عباس قال: مرَّ رسولُ الله ﷺ بقَبرين فقال: «إنَّهما ليُعذبان، وما يُعذبان في كبيرٍ، أما أحدهما فكان لا يستبرئُ من بولِهِ، وأما الآخرُ فكان يمشي بالنَّميمة»<sup>(٣)</sup>.

وفي أفراد البخاري من حديث أم خالد قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يتعوَّذُ من عذابِ القبرِ<sup>(٤)</sup>. وفي أفراد مسلم من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «لولا أن لا تدافنوا لدعوتُ الله أن يُسمعكم عذابَ القبرِ»<sup>(٥)</sup>.

فإن قيل: كيف نُؤمن بعذابِ القبرِ ولو كشفناه لم نَرِ لذلك أثراً.

فالجوابُ من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه يجب الإيمان به لإخبار الصادق، وإن لم تره هذه العين، فإن

(١) أخرجه البخاري (٦٣٦٦)، ومسلم (٥٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٥)، ومسلم (٢٨٦٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٥٢)، ومسلم (٢٩٢).

(٤) أخرجه البخاري (٦٣٦٤).

(٥) أخرجه مسلم (٢٨٦٨).

الصحابة كانوا يؤمنون بنزول جبريل وإن لم يروه، ويعلمون أن النبي ﷺ يشاهد ما لا يُشاهده غيره، وكذلك الميت قد خرج عن حالة الدنيا، فهو يُدرك ما لا يُدركه غيره.

**والثاني:** أن يتذكّر حالة النائم وأنه قد يرى أن حيةً تلدغه، فيصبح في نومه ويفرق وأنت تراه ساكناً.

**والثالث:** أن الحية لا تؤذي بنفسها بل السّم، والسّم لا يؤذي بنفسه، بل التعذيب بالأثر الذي يحصل عن السّم فإذا حصل ذلك الأثر لا عن سُمّ كان العذاب قد توفّر، فالصفات المهلكات تنقلب مؤذيات للنفوس، ويكون إيلاها كإيلام الحيات، وقد ينقلب المحبوب مؤذياً كإنقلاب العشق مؤذياً عند موت المعشوق، ومن كان يحب الدنيا لدغها فراقها لدغ الحيات، وقد بينا أن المعنى المُدرك للآلام لا يموت بل عذابه بعد الموت أشدّ، وجميع هذه الأحوال الثلاثة تُتصوّر ولا تُنكر، وربما جُمعت على شخص واحد.

### ذكر السؤال في القبر

أبنا ابن الحُصين قال: أخبرنا ابن المُذهب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يوسف قال: حدثنا شيبان عن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالك أن نبي الله ﷺ قال: «إنَّ العبدَ إذا وُضِعَ في قَبْرِهِ وتولّى عنه أصحابه، حتى إنه لَيَسْمَعُ قرعَ نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان له: ما كُنتَ تقول في هذا الرجل؟ لمحمدٍ عليه الصلاة والسلام. فأما المؤمن فيقول: أشهدُ أنه عبدُ الله ورسوله، فيقال: انظر إلى مقعدك من النار فقد أبدلكَ اللهُ عزَّ وجل به مقعداً من الجنة». قال رسول الله ﷺ: «فيراها جميعاً، وأما الكافر والمنافق، فيقال له: ما كُنتَ تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كُنتُ أقول ما يقول الناس. فيقال له: لا ذرّيتَ ولا تليّتَ، ثم يُضربُ بمطراقٍ من حديدٍ ضربةً بين أذنيه، فيصيح صيحةً فيسمعها كلُّ من يليه غير الثقلين»<sup>(١)</sup> أخرجاه في الصّحيحين.

(١) أخرجاه البخاري (١٣٣٨) و(١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠) و(٧١).

وفيها من حديث أسماء بنت أبي بكر عن النبي ﷺ أنه قال: «أوحى إلي أنكم تفتنون في قبوركم مثل . أو قال: قريباً . من فتنة المسيح الدجال، يُقال: ما علمك بهذا الرجل؟ أما المؤمن والمؤمن، فيقول: هو محمد، هو رسول الله؛ جاءنا بالبينات والهدى فأجبنا واتَّبَعْنَا. فيقال: ثم صالحاً، قد علمنا إن كنت لموقناً به، وأما المنافق أو المرتاب، فيقول: لا أدري، سمعتُ الناس يقولون شيئاً فقلته»<sup>(١)</sup>.

وفيها من حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ أنه قال: «المسلم إذا سُئِلَ في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿بشيت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾»<sup>(٢)</sup> [إبراهيم: ٢٧].

أبنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو عامر قال: حدثنا عبّاد يعني ابن راشد عن داود بن أبي هند عن أبي بصرة عن أبي سعيد الخدري قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ جنازة، فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، إن هذه الأمة تُبتلى في قبورها، فإذا الإنسان دُفِنَ فترق عنه أصحابه جاءه ملك في يده مطراق<sup>(٣)</sup> فأقعده، وقال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمناً قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. فيقول: صدقت. ثم يفتح له باب من النار، فيقول: هذا كان منزلك لو كفرت بربك، فأما إذ آمنت فهذا منزلك، فيفتح له باب إلى الجنة، فيريد أن ينهض إليه، فيقول له: اسكن، ويُفسح له في قبره، وإن كان كافراً أو منافقاً يقول له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، سمعتُ الناس يقولون شيئاً. فيقول: لا دريت ولا تليت ولا اهتديت. ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقول: هذا منزلك لو آمنت بربك، فأما إذ كفرت به فإن الله أبدلك هذا ويفتح له باب إلى النار، ثم يقيمه قمعاً بالمِطْرَاقِ يسمعها خلق الله عز وجل كلهم غير الثقلين» فقال بعض القوم: يا رسول الله، ما أحد يقوم عليه ملك في يده

(١) أخرجه البخاري (٨٦) و(١٨٤) و(٩٢٢)، ومسلم (٩٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١).

(٣) المِطْرَاق: آلة يُضْرَبُ بها.

مِطْرَاقٍ إِلَّا هَيْلٌ<sup>(١)</sup> عِنْدَ ذَلِكَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

### ذِكْرُ ضَغْطَةِ الْقَبْرِ

أَنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ نَاصِرٍ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْأَنْبَارِيُّ قَالَ : أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ بَشْرَانَ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو حَفْصٍ بْنُ شَاهِينَ قَالَ : حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ صَاعِدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ : سَمِعْتُ أَبِي قَالَ : أَخْبَرَنَا أَبُو حَمْزَةَ عَنْ سُلَيْمَانَ الْأَعْمَشِ عَنْ سُلَيْمَانَ . يَعْنِي التَّمِيمِي . عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : لَمَّا تُوفِّيتْ رَئِيبَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَكَانَتْ امْرَأَةً مِسْقَامَةً<sup>(٢)</sup> ، فَتَبِعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَاءَ نَا حَالُهُ ، فَلَمَّا دَخَلَ الْقَبْرَ التَّمَعَ وَجْهَهُ صُفْرَةً ، ثُمَّ أَسْفَرَ وَجْهَهُ ، فَقَلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، رَأَيْنَا مِنْكَ امْرَأً سَاءَنَا ، فَلَمَّا دَخَلْتَ الْقَبْرَ التَّمَعَ وَجْهَكَ صُفْرَةً ، ثُمَّ أَسْفَرَ وَجْهَكَ ، فَمِمَّ ذَاكَ ؟ قَالَ : «ذَكَرْتُ ضَعْفَ ابْنَتِي وَشِدَّةَ عَذَابِ الْقَبْرِ فَأَتَيْتُ فَأُخْبِرْتُ أَنَّهُ قَدْ خُفِّفَ عَنْهَا ، وَلَقَدْ ضُغِطَتْ ضَغْطَةً سَمِعَ صَوْتَهَا مَا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ»<sup>(٣)</sup> .

قَالَ ابْنُ شَاهِينَ : وَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سُلَيْمَانَ ابْنُ الْأَشْعَثِ قَالَ : حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مِهْرَانَ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رُشَيْدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ وَهُوَ مُجَاعَعَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنِ أَبِي حَازِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا أُخْرِجَتْ جِنَازَةُ سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ وَسَوَّيْنَا عَلَيْهِ التَّفْتَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : «مَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا وَلَهُ ضَغْطَةٌ فِي قَبْرِهِ ، وَلَوْ كَانَ مُنْفَلِتًا مِنْهَا أَحَدٌ لَأَنْفَلَتَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ» ثُمَّ قَالَ : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَيْتَهُ وَرَأَيْتُ اخْتِلَافَ أَضْلَاعِهِ فِي قَبْرِهِ» .

\* \* \*

(١) هَيْلٌ : أَوْقَعَ فِي الْهَوْلِ وَالْفَرْعِ عَلَى بِنَاءِ الْمَفْعُولِ ، مِنْ : هَالَهُ هَوْلًا : إِذَا أَفْرَعَهُ .  
 (٢) مِسْقَامَةٌ : كَثِيرَةُ الْأَمْرَاضِ .  
 (٣) نَسَبُهُ الْعِرَاقِيُّ فِي الْمَغْنِيِّ عَنِ حَمَلِ الْأَسْفَارِ لِابْنِ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ الْمَوْتِ .

## الباب الثامن

### في ذكر ما عُرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام

اعلم أن أنوار البصائر المُستفادَة من كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ ومن مناهج الاعتبار تُعرِّفنا أحوال الموتى على الجملة، وانقسامهم إلى سُعداء وأشقياء، ولكن حال زيد وعمرو بعينه لا ينكشف؛ لأننا إن عوَّلنا على إيمان زيد فلا ندري على ماذا مات؟ وما الذي خُتم له؟ وإن عوَّلنا على صلاحه الظاهر، فمحلُّ التَّقوى القلب، وذلك غامضٌ يخفى على صاحب التَّقوى فكيف على غيره؟ فلا حكم لظاهر الصَّلاح دون التَّقوى الباطنة، قال الله عزَّ وجل: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ [المائدة: ٣٧]، فلا يُمكن معرفة حكم زيد وعمرو إلا بمشاهدته ومُشاهدة ما يجري عليه، فإذا مات فقد تحوَّل من عالم المُلْك والشَّهادة إلى عالم الغيب والمَلَكوت، فلا يُرى بالعين الظاهرة، وإنما يدرك بعينٍ أُخرى حُلِّقت تلك العين في قلب كل إنسان، لكن عليها غشاوة الشَّهوات الدُّنيوية، ولا يتصور أن يُبصر بها شيئاً من عالم الملكوت ما لم تنقش تلك الغشاوة عن عين قلبه.

ولما كانت الغشاوة مُنقَشِعة عن أعين الأنبياء عليهم السلام نظروا إلى الملكوت وشاهدوا عجائبه، والموتى في عالم الملكوت، فشاهدوهم وأخبروا، ولذلك رأى رسول الله ﷺ ضَغْطَه القبر في حقِّ ابنته، وفي حقِّ سعد بن معاذ، ومثل هذه المشاهدات لا مَطْمَع فيها لغير الأنبياء، وإنما ينال المؤمن مرتبة الرؤيا التي هي جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة وهو أيضاً انكشافٌ لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب، فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرُّجُل الصَّالح، ومن كثر كذبه لم تُصدِّق رؤياه، ومن كثر معاصيه أظلم قلبه، فكان ما يراه أضغاث أحلام، ولذلك أمر رسول الله ﷺ بالطَّهارة عند النَّوم، وفي ذلك إشارة إلى تطهير الباطن أيضاً؛ لأنه

الأصل، وطهارة الظاهر بمنزلة التَّيْمَةِ والتَّكْمَلَةِ لها، ومتى صَفَا الباطن انكشَفَ في حَدَقَةِ القلب ما سَيَكُونُ في المُسْتَقْبَلِ، فتكون الرؤيا صادقة.

ومعرفة الغَيْبِ في النَّوْمِ من عَجَائِبِ صُنْعِ الله تعالى وبدائع فطرة الأدمي، وهو من أوضح الأدلة على عالم المَلَكُوتِ، والخلقُ غافلون عنه لِعَفْلَتِهِمْ عن جميع عَجَائِبِ القَلْبِ وعجائب العالم.

والقولُ في حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المُكاشَفَةِ، فلا يمكن ذكره علاوةً على علم المعاملة، ولكن القَدْرُ الذي يمكن ذكره هاهنا مثالٌ يفهمك المقصود، وهو أن تَعْلَمَ أَنَّ القَلْبَ مثاله مثال مرآةٍ تَتَرَاءَى فيها الصُّورُ وحقائق الأمور، وإن كان ما قَدَّرَ اللهُ تعالى من ابتداء خَلْقِ العالمِ إلى آخره مَسْطُورٌ ومُثَبَّتٌ في اللُّوحِ، واللُّوحُ في المثالِ كمرآةٍ تظهر فيها الصُّورَ، فلو وُضِعَ في مُقَابِلَةِ المرآةِ مرآةٌ أُخْرَى لكانت صورة تلك المرآة تَتَرَاءَى في هذه إلا أن يكون بينهما حجاب، فالقلبُ مرآةٌ تَقْبَلُ رسومَ العلوم، واللُّوحُ مرآةٌ رسومَ العلوم، كأنها موجودة فيها، واشتغال القلب بشهواته ومقتضى حواسه حجابٌ مُرْسَلٌ بينه وبين مُطالعة اللُّوحِ الذي هو من عالم الملكوت، فإن هَبَّتْ رِيحٌ حَرَكَتْ هذا الحجابَ وَرَفَعَتْهُ تَلْأَلًا في مرآةِ القَلْبِ شَيْءٌ من عالم المَلَكُوتِ، كالبرق الخاطف، وقد يَثْبِتُ ويدوم، وقد لا يدوم، وهو الغالب، وما دام مُتَقَيِّظًا فهو مشغولٌ بما تُورِدُهُ الحواسُ عليه من عالم المُلْكِ والشَّهَادَةِ، وهو حجابٌ من عالم الملكوت، ومعنى النوم أن تَرَكَّدَ الحواسُ فلا تُورِدُ على القلب، فإذا تَخَلَّصَ منه ومن الخيال، وكان صافياً في جَوْهَرِهِ ارتَفَعَ الحجابُ بينه وبين اللُّوحِ المحفوظ، فوَقَعَ في قَلْبِهِ شَيْءٌ مما في اللُّوحِ، كما تَقَعُ الصُّورَةُ من مرآةٍ في مرآةٍ إذا ارتَفَعَ الحجابُ بينهما، إلا أن النوم مانعٌ لجميع الحواس عن العمل، وليس مانعاً للخيال عن عمله وتحركه، فما يقع في القلب يَبْتَدِرُهُ الخيالُ فيُحَاكِيهِ بِمِثَالٍ يُقَارِبُهُ، وتكون المتخيلات أثبت في الحفظ من غيرها فيبقى الخيال في الحفظ، فإذا انتبه لم يتذكَّرْ إلا الخيال، فيحتاج المعبرُّ أن ينظر إلى أن هذا الخيال حكاية أي معنى من المعاني، فيرجع إلى المعاني بالمناسبة التي بين المتخيَّل والمعاني، وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر في علم التَّعْبِيرِ، ويكفيكَ مثالٌ واحدٌ؛ وهو أن رجلاً قال لابن

سيرين: رأيتُ كأنَّ بيدي خاتماً أختَم به أفواه الرُّجال وفُرُوجِ النِّساء. فقال: أنتَ مُؤدِّنُ تُؤدِّنُ قَبْلَ الصُّبْحِ في رَمضان. فقال: صَدَقْتَ. فانظر إلى أن رُوحَ الخَتَم هو المنع ولأجله يُراد الختم. وإنما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه، وهو كونه مانعاً للناس من الأكل والشُّرب، ولكن الخيال ألف المنع عند الختم بالخاتم فتمثَّله بالصورة الخيالية التي تتضمَّن رُوح المعنى، ولا يبقى في الحفظ إلا الصورة الخيالية.

فهذه نُبذةٌ يسيرةٌ من بحر علم الرُّبُيا الذي لا تنحصرُ عجائبه، وكيف لا وهو أخو الموت، وإنما أشبهه من وجهٍ ضعيفٍ أثر في كَشْفِ الغِطاء عن عالم الغيب حتى صار النَّائم يعرف ما سيكون في المُستقبل، فماذا تقولُ في الموت الذي يخرق الحجاب ويكشف الغطاء بالكلية؟ حتى يرى الإنسان عند انقطاع النَّفس من غير تأخيرٍ نَفْسَه إما محفوفةً بالأنكال والمخازي والفضائح، وإما مكنوفاً بنعيمٍ مُقيمٍ لا آخرَ له، فلو لم يكن للعاقل همٌّ وعَمٌّ إلا الفكرة في حَظَر تلك الحال وعن ماذا يرتفع الحجاب، وما الذي ينكشف عنه الغطاء من شقاوةٍ لازمةٍ أو سعادةٍ دائمةٍ، لكان ذلك كافياً في استغراق جميع العُمر، فالعجب من غَفَلتنا وهذه العظام بين أيدينا وأعجب من ذلك فَرَحنا بما سنُفارقه ويفارقنا!

ولما كانت الحقائق مُنكَشفةً لنبينا ﷺ كان في الدنيا كعابِرِ سَبيل، لم يَصْغ لِبَنَةِ على لبنة، ولا قَصَبَةَ على قَصَبَةٍ، ولم يُخَلِّفَ ديناراً ولا درهماً، ولم يتخذ خَلِيلاً، وَبَيَّنَّ أن خَلَّةَ الرحمن تَخَلَّتْ باطن قلبه فلم تترك فيه مُتَسَعاً لخليل ولا حبيب، وقد قال لأُمَّته: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١]، وما اتبعه إلا مَنْ أَعْرَضَ عن الدُّنيا وأقبل على الآخرة، وهيئات! كَم بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَتْبَاعِهِ! فَإِنَّكَ ما تَكادُ تتحرَّكُ إلا لعاجِلِ الدُّنيا.

### بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة في الآخرة

فمن ذلك رؤيا رسول الله ﷺ، وفي الصحيحين من حيث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه البخاري (٦٩٩٣)، ومسلم (٢٢٦٦) (١١).

وقال عمر بن الخطاب: رأيتُ رسولَ الله ﷺ في المنام فقال: ألسْتَ المُقْبَلُ وأنتِ صائمٌ؟ قال: فوالذي نفسي بيده لا أُقبَلُ امرأةً وأنا صائمٌ أبداً.

وقال العباس: كنتُ جاراً لعمر بن الخطاب، فما رأيتُ أحداً من الناس كان أفضل من عُمر، إنَّ لَيْلَهُ صلاةٌ، وإنَّ نهارَهُ صيامٌ وفي حاجاتِ الناس، فلما تُوفِّي عُمر سألتُ اللهَ عزَّ وجلَّ أن يُرينيه في النَّومِ، فرأيتُهُ في النومِ مُقبِلاً مُتَشِحاً من سوقِ المدينة، فسَلَّمْتُ عليه وسلَّمَ عليَّ، ثم قلتُ له: كيفَ أنتِ؟ قال: بخير. فقلتُ له: ما وجدتُ؟ قال: الآنَ حينَ فرغتُ من الحسابِ ولقد كاد عرشي يهوي بي لولا أني وجدتُ رباً رحيماً.

ورئي ابنُ سيرين فقيل له: ما صنَعَ الحَسَنُ؟ فقال: رُفِعَ فوقِي بسبعين درجة. قيل: وبِمَ ذلك؟ قال: بطولِ حُزْنِهِ.

أنبأنا أبو منصور القَرَاز قال: حدثنا أبو بكر بن ثابت قال: أخبرنا محمد بن البزار قال: حدثنا رشيقي المصري قال: حدثنا أحمد بن سعيد الوراق، حدثنا عمر بن سعيد عن عبد الرحمن بن مهدي قال: رأيتُ سُفيانَ الثَّوري في المنام فقلتُ: ما فعلَ اللهُ بك؟ قال: لم يكن إلا أن وُضِعْتُ في اللَّحْدِ حتى وُقِفْتُ بين يدي اللهُ تعالى فحاسبني حساباً يسيراً، ثم أمر بي إلى الجَنَّةِ، فبينما أنا أدورُ بين أشجارها وأنهارها، ولا أسمع حِسّاً ولا حركةً إذ سمعتُ قائلاً يقول: سُفيان بن سعيد؟ فقلت: سُفيان بن سعيد. فقال: تَحْفَظُ أنكَ آثرتَ اللهُ على هَواك يوماً؟ قلتُ: إي والله. فأخذتني هواتف البشائر من جميع الجنة.

قال قبيصة: رأيتُ سُفيانَ في النَّومِ فقلتُ: ما فعلَ اللهُ بك؟ فقال:

نَظَرْتُ إلى رَبِّي كِفاحاً وقال لي هَنِيئاً رضائي عنكَ يا ابنَ سَعِيدِ  
فقد كُنْتَ قَواماً إذا أَظْلَمَ الدُّجَى بِعَبْرَةِ مُشْتاقٍ وَقَلْبِ عَمِيدِ  
فدُونَكَ فَاخْتَرِ أَيَّ قَصْرِ أَرَدْتَهُ وَزُرْنِي فَإِنِّي مِنْكَ غَيْرَ بَعِيدِ

أنبأنا عُمر بن ظَفَر قال: أخبرنا يحيى بن أحمد السَّيبي قال: أخبرنا محمد بن المظفر الدَّينوري قال: حدثنا أبو إسحاق المُزَكِّي قال: حدثني عبد الله قال: سمعتُ

حوثرة بن محمد المقرئ يقول: رأيت يزيد بن هارون في المنام بعد موته بأربع ليالي، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: تقبل مني الحسنات، وتجاوز عن السيئات ووكّل التبعات. قلت: وما كان بعد ذلك؟ قال: وهل يكون من الكريم إلا الكرم؟ عفر لي ذنوبي، وأدخلني الجنة. قلت: بما نلت الذي نلت؟ قال: بمجالس الذكر، وقولي الحق، وصدقني في الحديث، وطول قيامي في الصلاة، وصبري على الفقر. قلت: منكّر ونكير حق؟ قال: إي والله، إي والله الذي لا إله إلا هو، لقد أقداني وسألاني: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فجعلت أنفص لحيتي البيضاء من التراب وقلت: مثلي يسأل؟ أنا يزيد بن هارون الواسطي، كنت في دار الدنيا ستين سنة أعلم الناس. فقال أحدهما: صدق، هو يزيد بن هارون، نم نومة العروس، فلا روعة لك بعد اليوم. قال أحدهما: كتبت عن جرير بن عثمان؟ قلت: نعم، وكان ثقة في الحديث. قال: ثقة، ولكنه كان يغيض علياً أبغضه الله.

أبنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا محمد بن هبة الله الطبري قال: أخبرنا أبو الحسين بن بشران قال: حدثنا أبو علي البردهي قال: حدثنا أبو بكر بن عبيد قال حدثني محمد بن الحسين قال: حدثني عيسى بن مرحوم قال: حدثني عبدة بنت أبي شوال، وكانت من خيار إماء الله وكانت تخدم رابعة قالت: كانت رابعة تُصلي الليل كله، فإذا طلع الفجر هجعت في مُصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك فرعة: يا نفس، كم تنامين؟ وإلى كم تقومين؟ يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور. قالت: فكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت، فلما حضرتها الوفاة دعنتني فقالت: يا عبدة، لا تؤذني بموتي أحداً، وكفني في جبتي هذه؛ جبة من شعر كانت تقوم بها<sup>(١)</sup> إذا هدأت العيون، قالت: فكفناها في تلك الجبة وخمار صوف كانت تلبسه. قالت عبدة: فرأيتها بعد ذلك بسنة أو نحوها في منامي وعليها جبة إستبرق خضراء، وخمار من سندس أخضر لم أر شيئاً قط أخضر منه، فقلت: يا رابعة، ما فعلت الجبة التي كفناك فيها والخمار الصوف؟ قالت: إنه والله نزع عني وبُذلت به هذا الذي تربته،

(١) سقطت من الأصل.

وطويت أكفاني، وختم عليها، ورُفعت في عِلِّين ليكمل لي بها ثوابها يوم القيامة. قالت: فقلتُ لها: لهذا كنتِ تَعْمَلين أيامَ الدنيا؟ فقالت: وما هذا عندما رأيتُ من كرامةِ الله عزَّ وجلَّ لأوليائه؟! فقلتُ: فما فَعَلتِ عبْدَةُ بنتِ أبي كلاب؟ فقالت: هيهاتَ هيهات! سَبَقتنا والله إلى الدَّرجات. قُلْتُ: هي سبقت، وقد كُنْتَ عند الناس أكبرَ منها؟! قالت: إنها لم تكن تُبالي على أيِّ حال أصبحت من الدنيا أو أَمَسْتُ. فقلتُ: فما فَعَلَ أبو مالك؟ يعني ضَيْعَمًا. قالت: يَزُورُ الله عزَّ وجلَّ متى شاء. قلتُ: فما فَعَلَ بِشْرُ بنِ السَّرِيِّ؟ قالت: بَخَّ بَخَّ، أُعْطِيَ والله فوقَ ما كان يَأْمَل. قلتُ: فَمُرِنِي بأمرٍ أَتَقَرَّبُ به إلى الله تعالى. قالت: عليكِ بكثرةِ ذِكْرِ الله عزَّ وجلَّ، فيوشك أن تُغَبِّطِي بذلك في قَبْرِكَ.

وقال يزيد بن مَدْعُور: رأيتُ الأوزاعيَّ في المنام، فقلتُ: يا أبا عمرو، دُلَّنِي على عملٍ أَتَقَرَّبُ به إلى الله عزَّ وجلَّ. فقال: ما رأيتُ هناك درجةً أرفع من درجةِ العلماء، ثم درجةِ المَحْزُونين.

وقال أحمد بن أبي الحواري: رأيتُ في النوم جاريةً ما رأيتُ أحسنَ منها، وكانَ وَجْهُها يَتَلَأَلُ نوراً، فقلتُ لها: مِمَّاذا ضَوْءٌ وَجْهِك؟ فقالت: أتذكرُ الليلةَ التي بَكَيْتَ فيها؟ قلتُ: نعم. قالت: أخذتُ دمعَتَكَ فمسحتُ بها وَجْهِي فَمِنَ ثَمَّ ضَوْءٌ وَجْهِي كما ترى.

وقال علي الطَّلحي: رأيتُ في المنام امرأةً لا تُشْبِهُ نساءَ الدنيا، فقلتُ: مَنْ أَنْتِ؟ فقالت: حَوْرَاء. قلتُ: زَوْجِي نَفْسِكَ. فقالت: اخطبني إلى سَيِّدِي وأمَّهْرِنِي. قلتُ: ما مَهْرُكَ؟ قالت: حَبْسُ نَفْسِكَ عن مألوفاتها.

وقال الربيع بن سُلَيْمان: رأيتُ الشافعيَّ في المنام فقلتُ: ما صَنَعَ اللهُ بِكَ؟ قال: أَجْلَسَنِي على كُرْسِيِّ من دَهَبٍ، ونَثَرَ عَلَيَّ اللُّؤْلُؤَ الرَّطْبَ.

وقال المَرُودِيُّ: رأيتُ الإمامَ أحمدَ بن حنبلٍ في النوم كأنَّه في رَوْضَةٍ وَعَلَيْهِ حُلَّتَانِ خَضِرَ، وعلى رَأْسِهِ تاجٌ من النُّورِ، وإذا هو يَمْشِي مِشْيَةً لم أكن<sup>(١)</sup> أعرفها له،

(١) تحرفت في الأصل إلى: «مشية المراكن».

قلت: يا أحمد، ما هذه المشية التي لا أعرفها لك؟ فقال: هذه مشية الخُدام في دار السلام. فقلتُ له: ما هذا التَّاجُ الذي أراه على رأسِك<sup>(١)</sup>؟ فقال: إنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَقَفَنِي، فَحَاسِبْنِي حَسَاباً يَسِيراً، وَكَسَانِي وَحَبَانِي<sup>(٢)</sup> وَقَرَّبَنِي وَأَبَاحَنِي النَّظَرَ إِلَيْهِ<sup>(٣)</sup> وَتَوَجَّنِي بِهَذَا التَّاجِ، وَقَالَ لِي: يَا أَحْمَدُ، هَذَا تَاجُ الْوَقَارِ، تَوَجَّحْتُ بِهِ كَمَا قَلَّتَ الْقُرْآنُ كَلَامِي: غَيْرَ مَخْلُوقٍ.

\* \* \*

(١) تحرفت في الأصل إلى: «نفسك».  
 (٢) حَبَانِي: أعطاني، والجِباءُ: العطاء.  
 (٣) سقطت من الأصل:

## الشَّطْرُ الثَّانِي مِنْ كِتَابِ ذِكْرِ الْمَوْتِ

نذكر فيه أحوال الميت من وقتِ نَفْخِ الصُّورِ  
إلى حين الاستقرار في الجنة أو النار

فدخل في ذلك: حديثُ نَفْخِ الصُّورِ، والحشر، وطول القيامة ودواهيها، وصفة الحوض والشفاة، والصراط، وصفة جهنم، وصفة الجنة، وصفة النظر إلى الله تعالى، ثم نختم الكتاب ببيان سعة رحمة الله تعالى.

### ذكر النَّفْخِ فِي الصُّورِ

قد أشرنا إلى أهوال الموت والقبر، وأن أشد من ذلك نفخ الصور والبعث، والحساب ونصب الميزان لمعرفة مقادير الأعمال، وجواز الصراط على دفته وحدته ثم النداء بالسعادة أو الشقاوة، فهذه أحوال يجب الإيمان بها وينبغي تطويل الفكر فيها لتنبهت من القلب دواعي الاستعداد لها.

وجمهور الناس لم يتمكن من قلوبهم الإيمان بالآخرة كما ينبغي، بدليل تسميرهم للدنيا وتهاونهم بالعمل للآخرة، إنما ينطقون بالإيمان من غير عمل بمقتضاه، فمثلهم كمثل من قيل له: لا تأكل هذا الطعام فإنه مسموم. فقال للمخبر: صدقت، ثم مَدَّ يده ليأكل، فهذا مُصدِّقٌ بلسانه، مُكذِّبٌ بفعله، وإنما تفتُر البواطن إذا قلَّ اليقين، ويصعبُ التصديقُ بالبعثِ لقلَّةِ الفهمِ لمثل ذلك، ولو أن الإنسان لم يُشاهد توالد الحيوانات، ثم قيل له: إن صانعاً يصنع من هذه النطفة القادرة مثل هذا الأدمي المصور العاقل المتكلم المتصرف، لاشتدُّ نُفور باطنه عن التصديق بذلك، فخلقُهُ على ما فيه من الأعاجيب يزيدُ على بعثه وإعادته، فكيف يُنكر ذلك من قُدرة الله وحكمته من يُشاهد البداية؟

فإن كان في إيمانك ضعفٌ فقوِّ الإيمان بالنظر في النشأة الأولى، فإن الثانية

مثلها وأسهل منها، وإن كنت قويّ الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار وأكثر فيها التفكر والاعتبار ليحثك ذلك على الجِدِّ والتَّشْمِيرِ .

وتفكر في أول ما يقرعُ أسماعَ الموتى فيثورون في دفعةٍ واحدةٍ، وهو صوت النَّفخِ في الصُّورِ، فتوهم نفسك وقد قُمتَ ذاهلاً مبهوتاً شاخِصاً نحو النداء، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

أنبأنا الكروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر العُورجي قالاً: أخبرنا الجَرَّاحي قال: حدَّثنا المحبوبي قال: حدَّثنا الترمذي قال: حدَّثنا ابن أبي عُمر قال: حدَّثنا سُفيان عن مُطَرِّف عن عَطِيَّةِ العَوْفي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «كيف أنعمَ وقد التَّقمَ صاحبُ القَرْنِ القَرْنِ، حَتَّى جَبَهْتَهُ، وَأَصْغَى سَمْعَهُ يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤَمَّرَ أَنْ يَنْفِخَ فَيَنْفِخَ» قال المسلمون: فكيف نقولُ يا رسولَ الله؟ قال: «قولوا: حَسْبُنَا اللهُ ونعمَ الوَكِيلِ، وتوكلنا على الله»<sup>(١)</sup>.

فتفكر في حالة القيام حينئذٍ، والمُتَجَبِّرون كالدَّرِّ يَطُوهُمُ النَّاسُ، وحُشِرَتِ الجَنُّ والإنسُ والطَّيْرُ والهوامُ والوحوشُ كلها ذليلةً من غير خَطِيئَةٍ تَدْنَسَتْ بها.

### صِفَةُ أَرْضِ المَحْشَرِ وَأَهْلِهِ

ثم انظر كيف يُساقون بعد البعث حُفَاءَ عُرَاءَ إلى أرضِ المحشر، وهي قاعٌ ليس فيها رِبْوَةٌ يَخْتَفِي الإنسانُ وراءها، وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعدٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ أَرْضٍ بَيَضاءَ عَفْرَاءَ، كَقَرْصَةِ النَّقِيِّ»<sup>(٢)</sup>.

وفيها من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم تُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاءَ عُرَاءَ عُرْلًا». قالت عائشة: يا رسولَ الله، الرجالُ والنساءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟! قال: «يا عائشة، إن الأمرَ أشدُّ من أن يُهَمَّهُمْ ذَلِكَ»<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠). وقوله: «عَفْرَاءَ» أي: بياضها يضرب إلى حمرة قليلة، وقوله: «كقَرْصَةِ النَّقِيِّ» أي كالحَبْزِ النَّقِيِّ عن القشر والنخالة.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩) (٥٦)، وأحمد (٢٤٢٦٥)، وقوله: «عُرْلًا»

أي: غير مختونين.

وفيهما من حديث أنس أن رجلاً قال: يا نبيَّ الله، كيف يُحشَر الكافرُ على وجهه؟ فقال: «ليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرٌ على أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة؟»<sup>(١)</sup>.

أبنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يحيى بن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدِّه عن النبي ﷺ قال: «إنكم محشورون رجلاً وركباناً، وتجرّون على وجوهكم»<sup>(٢)</sup>.

ثم تفكّر في ازدحام الخلائق، وقرب الشمس من رؤوس الناس، وشدة العرق مع ما في القلوب من الفلق، فأقدام الناس في ازدحامها كالنبل في الجعبة.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يُعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم»<sup>(٣)</sup>.

وفيهما من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ: «يَوْمُ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» قال: «يَقُومُ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أذُنَيْهِ»<sup>(٤)</sup>.

أبنا ابن الحُصَيْن قال: أخبرنا ابن المُذْهَب قال: أخبرنا أبو بكر بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا إبراهيم بن إسحاق قال: حدثنا ابن المبارك عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال: حدثني سليم بن عامر قال: حدثني المقداد قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا كان يومُ القيامة أُذِنَتْ الشَّمْسُ مِنَ الْعِبَادِ حَتَّى تَكُونَ قَيْدَ مِيلٍ أَوْ مِيلَيْنِ» قال: «فَتَضَهُرُهُمُ الشَّمْسُ، فَيَكُونُونَ فِي الْعَرَقِ كَقَدَرِ أَعْمَالِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى عَقْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ،

(١) أخرجه البخاري (٤٧٦٠) و(٦٥٢٣)، ومسلم (٢٨٠٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٠٣١) و(٢٠٠٥٠)، والترمذي (٢١٩٢) و(٢٤٢٤) و(٣١٤٣)، والطبراني في الكبير (٩٧٦/١٩)، والحاكم (٥٦٤/٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٤٢)، ومسلم (٢٨٦٣).

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٣٨) و(٦٥٣١)، ومسلم (٢٨٦٢).

ومنهم من يأخذه إلى حَقْوِيهِ، ومنهم من يُلجِمُهُ إجماماً. انفرد بإخراجه مسلم<sup>(١)</sup>.  
واعلم أنه من لم يعرق في التَّعب في طاعة الله، فسيعرق في مقام النَّدم والحُجل في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

قال الحَسَن: ما ظنَّكَ بقوم قاموا على أقدامهم خمسين ألف سنة، لم يأكلوا ولم يشربوا، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشاً، واحترقت أجوافهم جوعاً، أنصرف بهم إلى النار، فسُقوا من عين آنية.

فتفكَّر في طول ذلك اليوم ليهون عليك الصبرُ عن المعاصي في أيام قصار، على أن ذلك اليوم الطويل يهونُ على المؤمن، فيكون كمقدار صلاة مكتوبة، ويروى من الحوض إذا عطش الأثرون، فإنه حوضٌ عظيم، آنيته عدد نجوم السماء، أول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين؛ لأنهم عطشوا من مشارب الهوى فصبروا فسُقوا، فيآله من يوم ترى السماء فيه قد انفطرت، والكواكب قد انتشرت، والنجوم الزواهر قد انكدرت، والشمس قد كورت، والجبال قد سيرت، والبحار قد سُجرت، والجحيم قد سُعرت، وظهرت الفُضائح، وشهدت الجوارح، فواعجباً لمن يؤمن بالآخرة ويعلم قُربها، ثم يسكن إلى الدنيا ويؤثر الهوى!

### ذكر المسألة

ثم تفكَّر يا مسكين في سؤال ربِّك إياك عن أعمالك بغير واسطة، فقد روى أبو موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «يُعرض الناس يوم القيامة ثلاث عَرَضَات: فأما عَرَضتان؛ فجدالٌ ومَعَاذِير، وأما الثالثة؛ فعند ذلك تطيرُ الصُّحفُ في الأيدي، فأخذُ يَمِينِهِ، وأخذُ بِشِمَالِهِ»<sup>(٢)</sup>.

وفي الصحيحين من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ نُوقِشَ يومَ القيامةِ عُدْبٌ»<sup>(٣)</sup>.

أبأن الكروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر العُورجي قالا: أخبرنا

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٤)، وأحمد (٢٣٨١٣)، والترمذي (٢٤٢١)، وابن حبان (٨٣٣٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٢٥)، وابن ماجه (٤٢٧٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦).

الجَرَاحِي قَالَ: حَدَّثَنَا الْمَحْبُوبِي قَالَ: حَدَّثَنَا التِّرْمِذِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: أَخْبَرَنَا الْأَسُودُ بْنُ عَامِرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُرَيْجٍ عَنْ أَبِي بَرزَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا فَعَلَ فِيهِ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ»<sup>(١)</sup>.

أَنْبَأَنَا هَبَةُ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيِّ التَّمِيمِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا وَكَيْعٌ قَالَ: حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ عَنْ خَيْثَمَةَ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ عَنْ أَيْمَنِ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا شَيْئاً قَدَّمَهُ، وَيَنْظُرُ عَنْ أَشْأَمٍ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا شَيْئاً قَدَّمَهُ، وَيَنْظُرُ أَمَامَهُ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَلْيَفْعَلْ»<sup>(٢)</sup>.

قَالَ أَحْمَدُ: وَحَدَّثَنَا عَفَّانٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا هَمَّامٌ قَالَ: حَدَّثَنَا قَتَادَةُ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرَزٍ قَالَ: كُنْتُ أَخِذًا بِيَدِ ابْنِ عَمْرٍ إِذْ عَرَضَ لَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى<sup>(٣)</sup> يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنْفَهُ<sup>(٤)</sup> وَيَسْتُرُهُ مِنَ النَّارِ، وَيُقَرِّرُهُ<sup>(٥)</sup> بِذُنُوبِهِ، وَيَقُولُ لَهُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ» قَالَ: «ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، فَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ ﴿يَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]»<sup>(٦)</sup>.

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٣٩)، ومسلم (١٠١٦) (٦٧)، وأحمد (١٨٢٤٦)، والترمذي (٢٤١٥)، وابن ماجه (١٨٥) و(١٨٤٣).

(٣) أي في النجوى بين الله تعالى وبين العبد.

(٤) الكنف: الحرز والستر.

(٥) يُقَرَّرُهُ: أي يحمله على الإقرار.

(٦) أخرجه البخاري (٢٤٤١) و(٦٠٧٠) و(٧٥١٤)، ومسلم (٢٧٦٨).

## فصل

وإذا قالت الملائكة للشخص: قُمْ يَا فُلَانٌ إِلَى الْحِسَابِ. ارتعدت الفرائض<sup>(١)</sup>، واضطربت الجوارح، وتمنى أقوامٌ أن لو حُمِلوا إلى النار ولا تُعْرَضُ قبائحهم على خالقهم، ثم يُوتَى بجهنم فتزفرُّ، فيَجْثُو الناسُ على رُكَبِهِمْ، ويقول كل نبي: نفسي نفسي. تَبْلُغُ القلوبُ الحَنَاجِرَ، وتَذْهَلُ العقولُ، فتوهَّمُ نَفْسُكَ يَا مَسْكِينٍ وقد أَخَذَتْ الملائكةُ بِيَدِكَ وَأَقَامَتْكَ بَيْنَ يَدَي رَبِّكَ، فيقول: ألم أُنعم عليك؟ ألم أفعل بك؟ ألم أفعل بك؟ فإن أنكرتْ شَهِدَتْ جوارحُكَ، ومن الناس مَنْ يقول: لا أُجِيزُ عليَّ إلا شاهداً مني. فيُخْتَمُ على لِسَانِهِ وتَنْطِقُ أركانُهُ، ثم يُخَلَى بينه وبين الكلام، فيقول لجوراحه: بُعْداً لَكِنَّ وَسُحْقاً، فعنكُنَّ كُنْتُ أَنَاضِلٌ، يا لَيْتَ شعري بأيِّ قَدَمٍ تَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ؟ وبأيِّ لِسَانٍ تُخَاطِبُهُ؟ وماذا تقولُ إذا قال: ما استَحْيَيْتَ مِنِّي، أَظَنَنْتَ أَنِّي لا أراك؟

## صفة الميزان

ثم تفكر في الميزان، فقد قال عز وجل: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقد روينا عن عائشة رضي الله عنها أنها بكت يوماً عند رسول الله ﷺ فقال لها: «ما يبكيك؟» قالت: هل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال: «أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحدٌ أحداً: عند الميزان حتى يُوضَعَ حتى يعلم أثقل موازينه أم تخف؟ وعند الكتاب حين يقال ﴿هاؤم اقرؤا كتابيه﴾ [الحاقة: ١٩] حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه أم في شماله، أم وراء ظهره؟ وعند الصراط حين يُوضع بين ظهراي جهنم حتى يعلم أينجو أم لا ينجو».

واعلم أن الناس يفترقون بعد السؤال إلى ثلاث فرق:

فرقة ليست لهم حسنة، فتأخذهم النار، وفرقة لا سيئة لهم، فيدخلون الجنة، والفرقة الثالثة هم الأكثرون، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فيُعرَّفُهُمُ العدل بالميزان.

(١) الفرائض: جمع فريضة، وهي لحمة بين الكتف والصدر ترتعد عند الخوف.

## صِفَةُ الْخُصَمَاءِ وَرَدُّ الْمَظَالِمِ

أما من رَدَّ الْمَظَالِمِ فِي الدُّنْيَا وَتَنَزَّهَ عَنْهَا فَقَدْ سَلِمَ، وَأما من ماتَ قَبْلَ رَدِّهَا، فَإِنَّ خُصَمَاءَهُ يُحِيطُونَ بِهِ فِي الْقِيَامَةِ، فَهَذَا يَقُولُ: ظَلَمَنِي. وَهَذَا يَقُولُ: اسْتَهْزَأَ بِي. وَهَذَا يَقُولُ: أَسَاءَ جَوَارِي. وَهَذَا يَقُولُ: غَشَّنِي. وَلَا خِلَاصَ لَكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ، فَإِذَا تَوَهَّمَتِ الْخِلَاصَ مِنْهُمْ قِيلَ: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [المؤمنون: ١٧].

أَبَانَا أَبُو الْقَاسِمِ الْكَاتِبُ قَالَ: أَخْبَرْنَا أَبُو عَلِيٍّ الْوَاعِظُ قَالَ: أَخْبَرْنَا أَبُو بَكْرِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا رُوحٌ قَالَ: حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي الصُّدَيْقِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقْتَضُونَ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ مَظَالِمٍ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُدُّبُوا وَنُقُوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ»<sup>(١)</sup>.

قَالَ أَحْمَدُ: وَحَدَّثَنَا سَلِيمَانُ بْنُ دَاوُدَ قَالَ: أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ قَالَ: أَخْبَرَنِي الْعَلَاءُ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «تَدْرُونَ مِنَ الْمُفْلِسِ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ. قَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيَقْضَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»<sup>(٢)</sup>.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَتُؤَدَّنَ الْحَقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»<sup>(٣)</sup>. هَذَا الْحَدِيثُ وَالْحَدِيثُ الَّذِي قَبْلَهُ انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِمَا مُسْلِمٌ، وَانْفَرَدَ بِإِخْرَاجِ الَّذِي قَبْلَهُمَا الْبُخَارِيُّ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٥٣٥)، وَأَحْمَدُ (١١٠٩٥) وَ(١١٠٩٨) وَ(١١٥٤٨) وَ(١١٦٠٣) وَ(١١٧٠٦).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٥٨١)، وَأَحْمَدُ (٨٨٤٢)، وَابِيهَقِي فِي السَّنَنِ (٩٣/٦).

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٥٨٢)، وَالْجَلْحَاءُ: الَّتِي لَا قَرْنَ لَهَا. وَالْقَرْنَاءُ: ذَاتُ الْقُرُونِ.

فانظر وفقك الله تعالى بعد سلامة حسناتك لدخول آفات الرِّياء عليها، فإذا سلمت حسنة أخذها الخصوم، وأي يوم صُمتَ وما اغتبت فأخذت الغيبة ثواب الصَّوم، غير ما يجري يومئذٍ من الزَّلَّات.

### ذكر الصَّراط

وتفكَّر فيما ينزل عليك من الجَزَع<sup>(١)</sup> إذا رأيت دِقَّة الصَّراط وشاهدت جهنَّم تحته، وقد كُلفت أن تمشي عليه، والناس بين يديك يتعثَّرون ويُسْتَلَبُونَ بخطاطيف. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يُضْرَبُ جِسْرٌ عَلَى جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ»<sup>(٢)</sup>.

وفيهما من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «يُؤْتَى بِالْجِسْرِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ» قالوا: يا رسولَ الله، ما الجِسْر؟ قال: «مَدْحَضَةٌ مَزَلَّةٌ، عَلَيْهِ خَطَّاطِيفٌ وَكَلَالِيبٌ وَحَسَكٌ، الْمُؤْمِنُ عَلَيْهِ كَالطَّرْفِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلِّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، حَتَّى يَمَرَ آخِرَهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا»<sup>(٣)</sup>.

وفي أفراد مسلم من حديث حُذَيْفَةَ وَأَبِي هَرِيرَةَ قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحْمُ، فَتَقْوِمَانِ جَنْبَيْ الصَّراطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوْلَكُمُ كَالْبَرْقِ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَشَدِّ»<sup>(٤)</sup> الرِّجَالِ تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيِّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصَّراطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ. حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا» قال: «وَفِي حَافَتِي الصَّراطِ كَلَالِيبٌ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أَمَرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوشٌ فِي النَّارِ»<sup>(٥)</sup>.

فإن كنتَ غير مؤمنٍ بهذا فما أطول مقامك مع الكُفَّار، وإن كنتَ مؤمنًا مُتْهَوِّنًا،

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الجوع».

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٢) (٢٩٩)، وأحمد (٧٧١٧).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) (٣٠٢).

(٤) أي كعدو الرجال وجريهم.

(٥) أخرجه مسلم (١٩٥).

فما أعظم خُسرانك، فانتبه لنفسك، وخَف ما بين يديك، فإن الله لا يجمع على عبده خوفين، ولَسنا نُريد بالخوف رِقَّةَ النَّساء، فتبكي ساعةً ثم تترك العمل لذلك اليوم، وإنما نُريد وجود خوفٍ يمنع عن المعاصي ويحثُّ على الطاعة، فأما خوفُ الحمقى، فإنهم اقتصروا على سماع الأهوال على أن يقولوا: استعنا بالله، نعوذُ بالله، يا رب سلِّم. وهُم مع ذلك مُصرون على القبائح، والشيطانُ يسخرُ بهم، كما يسخرُ بمن يقصده سُبُعُ ضارٍ وهو إلى جانبِ حصنٍ، فإذا رآه قال: أعودُ بهذا الحصنِ الحصين، وأستعيذُ بشدةِ بُنيانه. يقول هذا، ولا يبرح من مكانه.

### فصل

وكن في الدنيا مُحباً لرسولِ الله ﷺ، حريصاً على تعظيم سُنَّته، لعله يشفعُ فيك في الآخرة، فله شفاعَةٌ يتقدمُ فيها على الأنبياء كلهم، ويسأل في أهل الكبائر فينجيهم، واستكثر من الإخوان الصالحين، فلكلِّ مؤمنٍ شفاعَةٌ، ولا تحملنك العزَّةُ على التواني، ويُسمَّى هذا رجاء، فإن من رجا شيئاً طلبه.

### ذِكْرُ جَهَنَّمَ

قال الله عزَّ وجل: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، فقد تبينت أنك واردٌ على كلِّ حالٍ، والنَّجاةُ بعدَ الورودِ إنما هي للمتقين، وما تدري هل أنت منهم، يبعدُ ذلك في حقك.

أنبأنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا حُسين بن محمد قال: حدثنا خلف يعنى ابن خليفة عن يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: كُنَّا عند النبي ﷺ يوماً فَسَمِعْنَا وَجِبَةً، فقال النبي ﷺ: «أتدرون ما هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا حَجَرٌ أُرْسِلَ في جهنم منذ سبعين خريفاً، فالآن انتهى إلى قعرها»<sup>(١)</sup> انفرد بإخراجه مسلم.

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٤).

أنبأنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: حدثنا ابن أعين قال: حدثنا الفربري قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا إسماعيل قال: حدثنا مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ناركم هذه ما يؤقّد بنو آدم جزءاً واحداً من سبعين جزءاً من حر جهنم» قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله. قال: «فإنها فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً، كلهن مثل حرّها»<sup>(١)</sup>. أخرجاه في الصحيحين.

وفيهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «اشتكت النار إلى ربّها عز وجل، فقالت: ربّ أكل بعصي بعضاً فتفّسني، فأذن لها في كل عام بنفّسين، فأشد ما تجدون من البرد من زمهرير جهنم، وأشد ما تجدون من الحرّ من حرّ جهنم»<sup>(٢)</sup>.

وفيهما من حديث الثعمان بن بشير عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّ أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل يوضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه»<sup>(٣)</sup>.

وفي أفراد مسلم من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»<sup>(٤)</sup>.

وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «أوقد على النار ألف سنّة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنّة حتى ابيضّت، ثم أوقد عليها ألف سنّة حتى اسودّت، فهي سوداء مظلمة»<sup>(٥)</sup>.

وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لو أنّ قطرة من الزقوم قطرت في الأرض لأمّرت على أهل الدنيا معيشتهم، فكيف بمن هو طعامه وليس له طعام غيره؟!»<sup>(٦)</sup>.

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٧) و(٣٢٦٠)، ومسلم (٦١٧) (١٨٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٦١)، ومسلم (٢١٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٤٢).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٥٩١)، وابن ماجه (٤٣٢٠).

(٦) أخرجه أحمد (٢٧٣٥)، وابن ماجه (٤٣٢٥)، والترمذي (٥٢٨٥)، وابن حبان (٧٤٧٠)،

والطبراني في الكبير (١١٠٦٨)، والحاكم (٢٩٤/١) و(٤٥١).

وقال أبو موسى: يا أيها الناس، ابكوا، فإن لم تَبْكُوا فْتَبَاكُوا، فإن أهل النار يكون الدموع حتى تنقطع، ثم يكون الدماء حتى لو أرسلت فيها السُّفْنُ لَجَرَتْ.  
وقال كعب: لو فُتِحَ من جَهَنَّمَ قَدْرٌ مِنْخَرٍ ثَوْرٍ بِالمَشْرِقِ، وَرَجُلٌ بِالمَغْرِبِ، لَعَلَى دِمَاعِهِ حَتَّى يَسِيلَ مِنْ حَرِّهَا.

أبْنَا عَبْدَ الخَالِقِ بنِ عَبْدِ الصَّمَدِ قَالَ: أَخْبَرْنَا أَبُو الحَسَنِ بنِ النَّقُورِ قَالَ: أَخْبَرْنَا أَبُو طَاهِرِ بنِ المُخَلَّصِ قَالَ: حَدَّثَنَا البَغَوِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو رَوْحِ البَلْدِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو شِهَابِ الحِطَّاطِ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنِ عَمْرِو بنِ مَرَّةٍ، عَنِ شَهْرِ بنِ حَوْشَبٍ عَنِ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: يُلْقَى عَلَى أَهْلِ النَّارِ الجُوعُ، فَيَعْدَلُ عِنْدَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ العَذَابِ، فَيَسْتَغِيثُونَ بِالطَّعَامِ، فَيُعَاثُونَ بِالصَّرِيحِ، لَا يُسَمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنَ جُوعٍ، فَيَسْتَغِيثُونَ فَيُعَاثُونَ بِطَّعَامِ ذِي غُصَّةٍ، فَيَذَكُرُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُجِيزُونَ العُصَّةَ بِالشَّرَابِ، فَيَسْتَغِيثُونَ بِالشَّرَابِ فَيُعَاثُونَ بِالحَمِيمِ يَنَالُونَهُ بِكَلَالِيْبٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَإِذَا دَنَا مِنْهُمْ شَوَى وَجُوهُهُمْ، وَإِذَا دَخَلَ فِي بَطُونِهِمْ قَطْعٌ مَا فِي بَطُونِهِمْ، فَيَطْلُبُونَ إِلَى حَزَنَةِ جَهَنَّمَ أَنْ ﴿أَدْعُوا رَبِّكُمْ يُحَقِّقْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ العَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]، فَيَجِيبُونَهُمْ: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رِسَالُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَاءُ الكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٥٠]، فَيَقُولُونَ: سَلُوا مَالِكًا، فَيَقُولُونَ: ﴿يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَيْبًا﴾ فيقول: ﴿إنكم ما كثون﴾ [الزخرف: ٧٧]، فَيَقُولُونَ: لَا أَحَدٌ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، فَيَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِن عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، فعند ذلك ييأسون من كل خير، ويأخذون في الشَّهيقِ وَالوَيْلِ وَالتَّبُورِ<sup>(١)</sup>.

وَتَفَكَّرَ فِي حَيَاتِهَا وَعَقَارِبِهَا، فِي الحَدِيثِ: إِنَّ حَيَاتِهَا أَمْثَالُ أَعْنَاقِ البُخْتِ<sup>(٢)</sup>، وَعَقَارِبِهَا كالبِغَالِ المَوْكِفَةِ<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٨٩).

(٢) البُخْتُ: الإبل الخراسانية، واحداها بُخْتِي.

(٣) المَوْكِفَةُ: التي عليها الوكاف، وهو البردعة، والحديث أخرجه أحمد (١٧٧١٢)، وابن حبان (٧٤٧١)، والحاكم (٥٩٣/٤) من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي.

وقال الحسن: تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة، كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا. فيعودون كما كانوا.

واعلم أن صفة جهنم تطول، وأيسر اليسير من ذلك ينبغي أن يكفي في التخويف، فالمسكين من أثر لذة منقطعة، فاشترى بها عذاباً شديداً دائماً.

### ذِكْرُ صِفَةِ الْجَنَّةِ

أبانا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الصمد قال: حدثنا أبو قدامة الحارث بن عبيد، قال: حدثنا أبو عمران عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «جَنَانُ الْفِرْدَوْسِ أَرْبَعٌ: ثِنْتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، حَلِيَّتُهُمَا وَأَيْتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَثِنْتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، أَيْتُهُمَا وَحَلِيَّتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَلَيْسَ بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ عَزٌّ وَجَلٌّ إِلَّا رِذَاءَ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»<sup>(١)</sup> أخرجاه في الصحيحين.

وفيهما من حديث أبي موسى أيضاً عن النبي ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَخِيْمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ مَجْوُوفَةٍ عَرْضُهَا سِتُونَ مَيْلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرُونَ الْآخِرِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ»<sup>(٢)</sup>.

وفيهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ»<sup>(٣)</sup>.

وفيهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ

(١) أخرجه البخاري (٤٨٧٨) و(٤٨٨٠) و(٧٤٤٤)، ومسلم (١٨٠)، وأحمد (١٨٩٦٨٢) و(١٩٧٣١)، والترمذي (٢٥٢٨)، والنسائي في الكبرى (٧٧٦٥) و(١١٤٤١)، وابن ماجه (١٨٦)، وابن حبان (٧٣٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٧٩)، ومسلم (٢٨٣٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٤٤) و(٤٧٧٩)، ومسلم (٢٨٢٤) (٢) و(٣).

صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يمتخطون، ولا يتغوّطون، آتيتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضّة، ومجاميرهم الألوّة<sup>(١)</sup>، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد يُسبحون الله بكرة وعشيّاً<sup>(٢)</sup>.

وفيهما من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال في حديث المعراج: «... ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ<sup>(٣)</sup> اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»<sup>(٤)</sup>.

وفيهما من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أهل الجنة يتراءون أهل العرف من فوقهم، كما تتراءون الكوكب الدرّي الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم. قال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»<sup>(٥)</sup>.

وفيهما من حديث سهل بن سعد<sup>(٦)</sup> وأبي سعيد<sup>(٧)</sup> وأبي هريرة<sup>(٨)</sup> وأنس<sup>(٩)</sup> كلهم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها».

وفي أفراد مسلم من حديث أنس عن النبي ﷺ، قال: «إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال، فتحترق في وجوههم وثيابهم، فيزدادوا حسناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً، فيقول لهم أهلهم: والله لقد ازددتم

(١) الألوّة: العود الذي يُبخّر به.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤٥) و(٣٢٤٦) و(٣٢٥٤) و(٣٣٢٧)، ومسلم (٢٨٣٤).

(٣) الجنابذ: جمع جنبذة، وهي القبة.

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٩) و(١٦٣٦) و(٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣).

(٥) أخرجه البخاري (٣٢٥٦) و(٦٥٥٦)، ومسلم (٢٨٣١).

(٦) أخرجه البخاري (٦٥٥٢)، ومسلم (٢٨٢٧).

(٧) أخرجه البخاري (٦٥٥٣)، ومسلم (٢٨٢٨).

(٨) أخرجه البخاري (٢٣٥٢) و(٤٨٨١)، ومسلم (٢٨٢٦).

(٩) أخرجه البخاري (٣٢٥١)، ولم يخرجهم مسلم كما ذكر المصنف.

بَعَدْنَا حُسْنًا وَجَمَالًا! فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَاللَّهِ لَقَدْ ازْدَدْتُمْ بَعَدْنَا حُسْنًا وَجَمَالًا»<sup>(١)</sup>.

أَبَانَا أَبُو الْقَاسِمِ بْنِ الْكَاتِبِ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ بْنِ الْمَذْهَبِ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو النَّضْرِ قَالَ: حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ قَالَ: حَدَّثَنَا سَعْدُ أَبُو مُجَاهِدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْمُدَلِّجَةِ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَدَّثْنَا عَنِ الْجَنَّةِ، مَا بِنَاؤُهَا؟ قَالَ: «لَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ، وَمَلِطُهَا»<sup>(٢)</sup> الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللَّوْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزَّرْعَفْرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ لَا يَبُؤُسُ، وَيَخْلُدُ لَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ»<sup>(٣)</sup>.

وَفِي حَدِيثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ يَوْمًا وَذَكَرَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «أَلَا مُشَمِّرٌ لَهَا؟ هِيَ وَرُبُّ الْكَعْبَةِ رِيحَانَةٌ تَهْتَرُ، وَنُورٌ يَتَلَأَلُ، وَنَهْرٌ مُطَّرِدٌ، وَزَوْجَةٌ لَا تَمُوتُ، فِي حُبُورٍ وَنَعِيمٍ مُقَامٌ أَبَدًا» فَقَالُوا: نَحْنُ الْمُشَمِّرُونَ لَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «قُولُوا: إِنْ شَاءَ اللَّهُ»<sup>(٤)</sup>.

وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ أَنَّهُ أَخَذَ عُودًا صَغِيرًا، ثُمَّ قَالَ لَجَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: إِنَّكَ لَوْ طَلَبْتَ فِي الْجَنَّةِ مِثْلَ هَذَا لَمْ تَجِدْهُ. فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، فَأَيْنَ النَّخْلُ وَالشَّجَرُ؟ قَالَ: أَصُولُهَا اللَّوْلُؤُ وَالذَّهَبُ وَأَعْلَاهَا الثَّمَرُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ نَعِيمَ الْجَنَّةِ مَبْسُوطًا فِي مَوَاضِعَ فِي الْقُرْآنِ، ثُمَّ جَمَعَهُ فِي آيَاتٍ، مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢]. فَهَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثَةُ قَدْ جَمَعَتْ كُلَّ نَعِيمٍ، ثُمَّ زَادَ عَلَى الْكُلِّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قُرْآنٍ آيَاتٍ﴾ [السجدة: ١٨].

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٣).

(٢) المِلَاطُ: الجِصُّ ونحوه مما تتصل به اللَّبِنَاتُ.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥٢٦)، وأحمد (٨٠٤٣)، وعبد بن حميد (١٤٢٠)، وابن المبارك في

الزهد (١٠٧٥)، وابن حبان (٧٣٨٧).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٣٣٢).

وصفات الجنة والنار كثيرة، فلنقتصر على ما ذكرنا.

وأفضل ما يُنال في الجنة رؤية الله عز وجل، وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قيل له: يا رسول الله، هل ترى ربنا؟ فقال: «هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا. قال: «فهل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه حجاب؟». قالوا: لا. قال: «فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك»<sup>(١)</sup>.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد نحوه<sup>(٢)</sup>.

وفيها من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»<sup>(٣)</sup>.

وفيها من حديث جرير عن عبد الله قال: كُنَّا عند رسول الله ﷺ ليلة البدر، فقال: «إنكم سترون ربكم عز وجل كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته»<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

(٣) تقدم في ذكر صفة الجنة قبل قليل.

(٤) أخرجه البخاري (٤٨٥١) و(٧٤٣٤) و(٧٤٣٥)، ومسلم (٦٣٣) (٢١١) و(٢١٢).

## نختم الكتاب في ذكر سعة رحمة الله تعالى نترجى بذلك فضله إذ ليس لنا أعمال نرجو بها العفو

قال الله عز وجل: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظِلْمَ نَفْسَهُ تَمَّ يَسْتَعْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

أنبأنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الرزاق قال: حدثنا معمر عن همام قال: حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي»<sup>(١)</sup>. أخرجاه في الصحيحين، وفي بعض ألفاظ الصحيح: «سبقت غضبي»<sup>(٢)</sup>.

أنبأنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أعين قال: حدثنا الفريزي قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا قتيبة قال: حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن عن عمرو بن أبي عمرو بن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل خلق الرحمة يوم خلقها مئة رحمة، فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن النار»<sup>(٣)</sup>.

أنبأنا أبو القاسم الكاتب قال: أخبرنا أبو علي التميمي قال: حدثنا أبو بكر بن

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١) (١٤)، وأحمد (٧٥٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١) (١٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٦٩).

جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يحيى عن عبد الله عن عطاء عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لله عز وجل مئة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الإنس والجن والهوام، فيها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على أولادها، وأخر تسعاً وتسعين إلى يوم القيامة، يرحم بها عباده»<sup>(١)</sup>.

قال أحمد وحدثنا عَفَّان قال: حدثنا جعفر بن سليمان قال: حدثنا الجعد أبو عثمان عن أبي رجاء العطاردي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم تبارك وتعالى رحيم، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا إلى سبع مئة، إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له واحدة، أو يمحوها الله، ولا يهلك على الله تعالى إلا هالك»<sup>(٢)</sup>.

قال الإمام أحمد: وحدثنا أبو معاوية قال: حدثنا الأعمش عن المَعْرور بن سُوَيْد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: مَنْ عَمِلَ حَسَنَةً فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا أَوْ أَزِيدُ، وَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَجَزَاؤُهَا مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ، وَمَنْ عَمِلَ قُرَابَ الْأَرْضِ خَطِيئَةً، ثُمَّ لَقِينِي لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا جَعَلْتُ لَهُ مِثْلَهَا مَغْفِرَةً، وَمَنْ اقْتَرَبَ إِلَيَّ شِبْرًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَمَنْ اقْتَرَبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً»<sup>(٣)</sup>.

قال أحمد: وحدثنا يزيد قال: أخبرنا هَمَّام بن يحيى عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن عبد الرحمن بن أبي عمرة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن رجلاً أذنب ذنباً، فقال: رب، إني أذنبت ذنباً فاغفره. فقال تبارك وتعالى: عبيدي عمل

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٢) (١٩)، وأحمد (٩٦٠٩)، وابن المبارك في الزهد (٨٩٣)، وابن ماجه (٢٤٩٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٣١) (٢٠٨)، وأحمد (٢٥١٩)، والطبراني في الكبير (١٢٧٦٠)، والبيهقي في الشعب (٣٣٤) و(٣٣٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٨٧)، وأحمد (٢١٣٦٠)، وابن ماجه (٣٨٢١).

ذنباً، فعلم أنّ له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرتُ لعبدي. ثم عملَ ذنباً آخر، فقال: ربّ، إنّي عملتُ ذنباً فاغفره، فقال عزّ وجلّ: عبدي علم أنّ له ربّاً يغفرُ الذنبَ ويأخذ به، أشهدكم أنّي قد غفرتُ لعبدي، فليعمل ما شاء»<sup>(١)</sup>.

هذه الأحاديث كلها صحاح.

وفي الصحيحين من حديث عُمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قُدمَ على رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تسعى إذا وجدت صبيّاً في السبي أخذته فألصقتُه بطنها فأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: «أترونَ هذه المرأة طارحةً ولدها في النار؟» قلنا: لا والله، قال: «للهُ أرحمُ بعباده من هذه المرأة بولدها»<sup>(٢)</sup>.

وفي الصحيحين من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من عبدٍ قال: لا إله إلا الله. ثم مات على ذلك إلا دَخَلَ الجنة» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق». ثم قال في الرابعة: على رَغم أنفِ أبي ذر»<sup>(٣)</sup>.

وفيهما من حديث عثبان بن مالك عن النبي ﷺ، أنه قال: «إنَّ الله قد حرّم على النار مَنْ قال: لا إله إلا الله. يبتغي بذلك وجهَ الله»<sup>(٤)</sup>.

وفيهما من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ، أنه قال: يُخرجُ من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزنُ شعيرةً، ثم يُخرجُ من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزنُ بُرةً، ثم يُخرجُ من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزنُ ذرّةً»<sup>(٥)</sup>.

وفيهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا فرغَ اللهُ عزّ وجلّ من القضاء بين العباد، وأراد أن يُخرجَ من النار من أراد أن يرحم ممن كان يشهدُ أن لا إله إلا الله، أمرَ الملائكة أن يُخرجوهن، فيعرفونهم بعلامة السجود، وحرّم اللهُ

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨)، وأحمد (٧٩٤٨) و(٩٢٥٦) و(١٠٣٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٢٧)، ومسلم (٩٤).

(٤) أخرجه البخاري (٤٢٥) و(٤٠٠٩) و(٤٠١٠)، ومسلم (٣٣)، وأحمد (١٦٤٨٢).

(٥) أخرجه البخاري (٤٤)، ومسلم (١٩٣) و(٣٢٥).

على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السُّجود، فيُخرجوهم قد امتَحَشُوا<sup>(١)</sup>، فيُصَبُّ عليهم من ماء يُقال له: ماء الحياة؛ فينبُتون نَبَاتَ الحِبَّةِ<sup>(٢)</sup> في حَمِيلِ السَّيْلِ<sup>(٣)</sup>، ويبقى رَجُلٌ يُقْبَلُ بوجهه إلى النار، فيقول: يا رَبُّ قد قَسَبَنِي<sup>(٤)</sup> ريحها وأحرقني ذكاؤها<sup>(٥)</sup>، فاصرف وجهي عن النار، فلا يزال يدعو الله حتى يقول: فلعلني إن أعطيتك ذلك أن تسألني غيره؟ فيقول: لا وعزَّتْكَ، لا أسألك غيره. فيصرف وجهه عن النار، فيقول بعد ذلك: يا رَبُّ، قَرَّبَنِي إلى باب الجنة. فيقول: أوليس قد زعمت أن لا تسألني غيره ويلك يا ابن آدم ما أعدرك! فلا يزال يدعو حتى يقول: فلعلني إن أعطيتك ذلك أن لا تسألني غيره؟ فيقول: لا وعزَّتْكَ لا أسألك غيره. ويُعطي الله من عهوده وموآثيقه أن لا يسأله غيره، فيُقَرَّبُه إلى باب الجنة، فإذا دنا منها انفهقت<sup>(٦)</sup> له الجنة، فإذا رأى ما فيها من الحَبْرَةِ والسَّرور سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: يا رَبُّ، أدخِلني الجنة. فيقول: أوليس قد زعمت أن لا تسألني غيره؟ وقد أعطيت عهودك وموآثيقك أن لا تسألني غيره؟ فيقول: يا رَبُّ، لا تجعلني أشقى خَلْقِكَ، فلا يزال يدعو الله عزَّ وجلَّ حتى يضحك، فإذا ضحك منه أذن له بالدخول فيها، فإذا دخل، قيل له: تَمَنَّ من كذا، فيتمنى، ثم يُقال: تَمَنَّ من كذا، فيتمنى حتى تنقطع الأمانى، فيُقال: هذا لك ومثله معه<sup>(٧)</sup>. قال: وأبو سعيد جالس مع أبي هريرة لا يُغير عليه شيئاً من قوله حتى انتهى إلى قوله: «هذا لك ومثله معه» قال أبو سعيد: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «هذا لك وعشرة أمثاله معه». قال أبو هريرة: «حفظت: «ومثله معه» وقال أبو هريرة: وذلك الرجلُ آخرُ أهل الجنة دُخولاً الجنة.

(١) امتحشوا: احترقوا واسودوا.

(٢) الحِبَّة: بذور الصحراء مما ليس بقوت.

(٣) حَمِيل السَّيْلِ: ما يحمله السَّيْلِ من البذور والطين وغيرهما.

(٤) قَسَبَنِي: أهلكني.

(٥) ذكاؤها: لهبها واشتعالها.

(٦) انفهقت: انفتحت واتسعت.

(٧) هو حديث أبي هريرة في الرؤية، وقد تقدم قبل قليل في ذكر صفة الجنة.

أبنا أبو القاسم بن عبد الواحد قال: حدثنا أبو علي التميمي قال: حدثنا أبو بكر بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو المغيرة قال: حدثنا يزيد عن أبي بردة عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة لم يبق مؤمنٌ إلا أتى بيهوديٍّ أو نصراني حتى يُدفع إليه، يُقال له: هذا فداؤك من النار»<sup>(١)</sup>.

قال أحمد: وحدثنا إبراهيم بن إسحاق الطالقاني قال: حدثنا ابن المبارك، عن ليث بن سعد قال: حدثني عامر بن يحيى عن أبي عبد الرحمن الجُبلي قال: سمعتُ عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ يَسْتَخْلَص رَجُلًا من أمتي على رُؤوسِ الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعةً وتسعين سِجلاً، كلُّ سِجَلٍ مَدَّ البَصَر، ثم يقول له: أتُنكرُ من هذا شيئاً؟ أَظَلَمْتَكَ كَتَبْتِي الحَافِظُونَ؟ قال: لا يا رَبِّ. فيقول: ألك عُذْرٌ أو حَسَنَةٌ؟ فَيُبْهَتُ الرَّجُلُ، فيقول: لا يا رَبِّ. فيقول: بلى، إنَّ لك عندنا حَسَنَةً واحدةً، لا ظلم اليوم عليك. فُتَخْرَجُ له بِطَاقَةٌ فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. فيقول: أحضروه. فيقول: يا رَبِّ، ما هذه البِطَاقَةُ مع هذه السِّجَلَاتِ؟ فيقال: إنك لا تُظلم. قال: فتوضع السِّجَلَاتُ في كِفَّةٍ والبِطَاقَةُ في كِفَّةٍ، قال: فَطَاشَتِ السِّجَلَاتُ وَثِقَلَتِ البِطَاقَةُ، ولا يثقل شيءٌ اسمَ الله»<sup>(٢)</sup>.

وكان الفضيل بن عياض يقول: ما من ليلةٍ اختلطَ ظلامُها إلا نادى الجليلُ جلَّ جلاله: مَنْ أعظمُ متي جوداً؟! عبادي لي عاصون وأنا أكلؤهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني، وأتولى حفظهم كأنهم لم يُذنبوا، أجود بالفضلِ على العاصي، وأتفضلُ على المُسيءِ، من ذا الذي دعاني فلم ألبه؟ أو من ذا الذي سألتني فلم أعطه؟ أنا الجوادُ، ومثي الجود، أنا الكريمُ، ومثي الكرم، فأين عني يهربُ الخلق؟ وأين عن بابي ينتجى العاصون؟

ونظر الفضيل إلى تسبيح الناس وبكائهم يوم عرفة، فقال: رأيتم لو أن هؤلاء

(١) أخرجه أحمد (١٩٦٠٠) بلفظه، وأخرجه بنحوه مسلم (٢٧٦٧) (٥٠).

(٢) أخرجه أحمد (٦٩٩٤)، والترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وابن حبان (٢٢٥).

صاروا إلى رجل فسألوه دانيقاً<sup>(١)</sup>، أكانَ يردهم؟ قيل: لا. فقال: والله للمغفرة عند الله عز وجل أهون من إجابة الرجل لهم بدانيق.

أنبأنا ابن ناصر عن أبي القاسم بن البُسري عن أبي عبد الله بن بطة قال: حدثنا أبو بكر بن المطيري قال: حدثني عبد الله بن عبد الرحمن عن محمد بن عمرو بن حنّان الحمصي قال: حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد عن إبراهيم بن أدهم قال: خلا لي الطَّوَّافُ في ليلةٍ مُظلمةٍ شديدةِ المَطَرِ، فلم أزل أطوفُ إلى السَّحَرِ، ثم رَفَعَت يَدَي إلى السماء، فقلتُ: اللهمَّ إني أسألكَ أن تعصمني عن جميع ما تكره، فإذا قائلُ يقولُ من الهَوَاءِ: أنتَ تسألني العِصمةَ، وكلُّ خلقي يسألني العِصمةَ، فإذا عصمتكم فعلى مَنْ أنفضِّل؟

فهذه الأحاديثُ مع ما ذكرناه في كتاب الرِّجاء تُبشِّرنا بسعةِ رحمةِ الله تعالى وجوده، ونحن نرجو من الله عز وجل أن لا يُعاملنا بما نَسْتَحِقُّه، وأن يتفضَّل علينا بما هو أهله، ونحن نَسْتَغْفِرُ الله عز وجلَّ من أقوالنا التي تُخالف أعمالنا، ومن كلِّ تصنع تزيَّنا به للناس في كلِّ كتابٍ أَلْفناه، أو علم أَدنناه، ومن كلِّ علم وعَمَلٍ قَصَدناه به ثم خالطه ما يُكدره، فبِكْرِهِ نَسْتَشْفَعُ إلى كَرَمِهِ، وبوجوده نَسألُ من جُودِهِ، إنه قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

تمَّ الكِتَابُ، والله الحمدُ والمِثَّةُ، ونحنُ نَسألُ الله عز وجلَّ أن يَنْفَعنا به والمسلمين أجمعين، فمن قرأ فيه أو انتفع به، فليدعُ لمؤلفه بالعفوِ قَرُبَ دعاءٍ لا يُردُّ.

وصلَّى اللهُ على سيِّدنا محمدٍ المُصطفى وآله وصحبه وسلَّم<sup>(٢)</sup>.

(١) الدانيق: سُدس الدرهم.

(٢) ورد هنا في آخر نسخة الأصل ما نصه: «وقد وقع الفراغ من كتابة هذه النسخة الشريفة عن يد الفقير الحقير أحمد بن عمر الشهير بحافظ كلام الله القديم في شهر ربيع الأول من هجرة من له العزُّ والشرف، ولسنة أربع وثمانين وألف، راجياً من الله تعالى لطفه الخفي والجلّي».

## فهرس الموضوعات

٧	فصل: [في المحذوف من كتاب الإحياء]
٨	فصل: [في تصنيف كتاب بأغلاط الإحياء]
٨	فصل: [في ذكر السبب الباعث على حذف أكثر الأسانيد]
٨	فصل: [في بيان أهمية العلم لإصلاح النفس والتحذير من أهل الأهواء]
١٣	<b>ربع العبادات</b>
١٥	<b>كتاب العلم</b>
١٥	<b>الباب الأول: في فضيلة العلم والتعلم والتعليم</b>
١٧	ذكر الآثار في فضل العلم
٢٢	الشواهد العقلية
٢٤	فصل: [الاشتغال بالعلم خير من الاشتغال بالنافلة]
٢٥	فضيلة التعلم
٢٨	فضيلة التعليم
٣٣	<b>الباب الثاني: في بيان العلم المحمود والمذموم وما هو فرض عين</b>
٣٤	بيان العلم الذي هو فرض كفاية
٣٧	فضل: [في بيان علم المعاملة]
	<b>الباب الثالث: فيما يعده العامة من العلوم المحمودة وليس منها وفيه بيان الوجه الذي يكون به بعض العلوم مذموماً وبيان تبديل أسامي العلوم وهي: الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة، وبيان القدر المحمود من العلوم الشرعية والقدر المذموم منها</b>
٣٨	
٤٠	بيان ما بدّل من ألفاظ العلوم

- ٤٣ . . . . . بيان القدر المحمود من العلوم المحموده
- ٤٦ . . . . . بيان الكتب المهمة لطالب العلم
- الباب الرابع: في سبب إقبال الناس على علم الخلاف وتفصيل آفات المناظرة
- ٥١ . . . . . والشروط وإباحتها
- بيان التلبيس في تشبيه هذه المناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات
- السلف . . . . .
- ٥٢ . . . . .
- ٥٣ . . . . . فصل: في بيان آفات المناظرة ومذموم أخلاق المناظر
- ٥٥ . . . . . الباب الخامس: في آداب المتعلم والمعلم
- ٦٠ . . . . . بيان وظائف المرشد المعلم
- ٦٦ . . . . . الباب السادس: آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة وعلماء السوء
- ٧٠ . . . . . فصل
- ٧٥ . . . . . الباب السابع: في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه
- ٧٥ . . . . . بيان شرف العقل من جهة النقل
- ٧٧ . . . . . بيان شرف العقل من جهة المعنى
- ٧٧ . . . . . بيان حقيقة العقل وأقسامه
- ٧٩ . . . . . بيان تفاوت الناس في العقل
- ٨١ . . . . . **كتاب قواعد العقائد**
- ٨١ . . . . . الفصل الأول: في ترجمة عقيدة أهل السنة
- ٨٢ . . . . . الفصل الثاني: في وجه التدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد
- ٨٣ . . . . . الفصل الثالث: في الإشارة إلى أدلة العقيدة التي ذكرناها
- الفصل الرابع: في ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما ووجه زيادة الإيمان
- ٨٤ . . . . . ونقصانه
- ٨٥ . . . . . **كتاب أسرار الطهارة ومهماتهما**
- ٨٧ . . . . . فصل
- ٨٧ . . . . . فصل
- ٨٨ . . . . . الفصل الأول: فيه آداب قضاء الحاجة

٩٠	..... الفصل الثاني: في ذكر الوضوء
٩٤	..... ذكر ما يشتمل عليه الوضوء من واجبٍ وسنةٍ
٩٤	..... ذكر فضائل الوضوء
٩٦	..... فصل
٩٧	..... فصول في ذكر الغسل
٩٧	..... فصل فيما يوجب الغسل
٩٧	..... فصل: في ذكر كيفية الغسل
٩٨	..... ذكر الأغسال المستحبة
٩٨	..... ذكر التيمم
١٠١	..... فصل
١٠١	..... فصل
١٠٣	..... فصل
١٠٧	..... كتاب أسرار الصلاة ومهماتها
١٠٨	الباب الأول: في فضائل الصلوات والركوع والسجود والجماعة والأذان وغير ذلك
١٠٨	..... فضيلة الأذان والمؤذنين
١٠٩	..... رفع الصوت بالأذان
١٠٩	..... إجابة المؤذن بمثل قوله
١١٠	..... ذكر ما يقال عند الأذان من الدعاء
١١٠	..... الدعاء بين الأذان والإقامة
١١١	..... فضيلة المسجد
١١٢	..... فضيلة الخطأ إلى المساجد
١١٣	..... فضيلة الصف الأول
١١٣	..... فضيلة المكتوبة
١١٤	..... فضيلة الجماعة
١١٦	..... فضيلة السجود
١١٧	..... فضيلة الخشوع وجمع الهم في الصلاة

- ١١٩ ..... الباب الثاني: في كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة
- ١٢٢ ..... ذكُر ما تُشتمل عليه الصلاة من واجبٍ ومَسْنون
- ١٢٣ ..... فصل
- ١٢٤ ..... الباب الثالث: في الشروط الباطنة من أعمال القلب
- ١٢٥ ..... بيان المعاني الباطنة التي بها تَتِمُّ حياة الصلاة
- ١٢٥ ..... ذكر التفاصيل
- ١٢٦ ..... بيان أسباب هذه المعاني السَّتَّة
- ١٢٧ ..... بيان الدواء النافع في حُضور القلب
- ١٢٩ ..... بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل شيء من الصلاة
- ١٣١ ..... الباب الرابع: في الإمامة والقُدوة
- ١٣٢ ..... الباب الخامس: في فضل الجمعة ووجوبها وآدابها
- ١٣٢ ..... فضيلة الجمعة
- ١٣٣ ..... ذكر وجوب الجمعة
- ١٣٣ ..... بيان آداب الجمعة
- ١٣٧ ..... بيان الآداب والسنن الخارجة عن الترتيب السابق الذي يعم جميع النهار
- ١٤٠ ..... الباب السادس: في مسائل متفرقة تعم بها البلوى ويحتاج المُريد إلى معرفتها
- ١٤٢ ..... الباب السابع: في ذكر التوافل من الصلوات
- ١٥٤ ..... فصل
- ١٥٤ ..... فصل
- ١٥٧ ..... كتاب أسرار الزكاة ومهماتها
- ١٥٩ ..... فصل
- ١٥٩ ..... الفصل الأول: في أنواع الزكوات وأسباب الوجوب
- ١٦٤ ..... الفصل الثاني: في الأداء وشروطه الظاهرة والباطنة
- ١٦٦ ..... بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة
- ١٧٢ ..... الفصل الثالث: في القابض وأسباب استحقاقه ووظائف قَبْضه
- ١٧٣ ..... بيان وظائف القابض

- ١٧٥ ..... الفصل الرابع: في صدقة التَّطَوُّعِ وَفَضْلِهَا وَأَدَابِ أَخْذِهَا وَإِعْطَائِهَا
- ١٧٥ ..... بيان فضيلة الصدقة من الأخبار والآثار والحثُّ على الصدقة
- ١٧٦ ..... فضيلة الصدقة
- ١٧٨ ..... التصدق بما حَضَرَ
- ١٧٨ ..... بيانُ أن الباقي ما أُخْرِجَ اللهُ تعالى
- ١٧٨ ..... ذكر أفضل أوقات الصدقة
- ١٧٩ ..... فصل
- ١٨١ ..... **كتاب أسرار الصوم ومهمَّاته**
- ١٨١ ..... الفصل الأول: في بيان فضل الصوم
- ١٨٣ ..... الفصل الثاني: في الواجبات واللوازم بالإفطار والسنن الظاهرة
- ١٨٥ ..... ذِكر اللّوازم بالإفطار
- ١٨٦ ..... ذِكر السُّنن
- ١٨٩ ..... الفصل الثالث: في أسرار الصوم وشروطه الباطنة
- ١٩١ ..... الفصل الرابع: في التطوع بالصيام وترتيب الأوراد فيه
- ١٩٧ ..... **كتاب أسرار الحج ومهمَّاته**
- ١٩٨ ..... **الباب الأول**
- ..... الفصل الأول: في فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة وشد الرحال
- ١٩٨ ..... إلى المشاهد
- ٢٠٠ ..... ذكر فضيلة حَجِّ الماشي
- ٢٠٠ ..... فضل البيت
- ٢٠١ ..... فضل الحجر الأسود
- ٢٠١ ..... ذِكر الركن اليماني
- ٢٠٢ ..... فضائل الطّواف
- ٢٠٣ ..... ذكر فضل مكَّة
- ٢٠٣ ..... ذكر قبول الحاج
- ٢٠٤ ..... ذكر المُجاورة بمكة

- ٢٠٥ ..... فضل المدينة
- ٢٠٦ ..... فضيلة مسجد رسول الله ﷺ
- ٢٠٧ ..... فضل الرّوضة
- ٢٠٧ ..... فضل صلاة الجمعة وصيام رمضان بالمدينة
- ٢٠٧ ..... الفصل الثاني: في شروط وجوب الحج وأركانه وواجباته ومحظوراته
- ٢١٣ ..... الباب الثاني: في ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السّفر إلى الرجوع
- ٢٣١ ..... فصل: في سنن الرجوع من السّفر
- ٢٣٣ ..... الباب الثالث: في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة
- بيان الأعمال الباطنة ووجه الإخلاص في النية وطريق الاعتبار بالمشاهد الشريفة وكيفية الافتكار فيها والتذكّر لأسرارها ومعانيها من أول الحج إلى آخره
- ٢٣٦ ..... آخره
- ٢٤٣ ..... كتاب آداب تلاوة القرآن
- ٢٤٥ ..... الباب الأول: في فضل القرآن وأهله وذمّ المقصّرين في تلاوته
- ٢٤٩ ..... الباب الثاني: في ظاهر آداب التلاوة
- ٢٥٤ ..... الباب الثالث: في أعمال الباطن في التلاوة
- ٢٥٩ ..... الباب الرابع: في فهم القرآن وتفسيره بالرأي
- ٢٦١ ..... كتاب الأذكار والدعوات
- ٢٦٢ ..... الباب الأول: في فضيلة الذكر على الجملة والتفصيل من الآيات والأخبار والآثار
- ٢٦٣ ..... فضيلة مجالس الذّكر
- ٢٦٥ ..... ذمّ المجلس الخالي عن الذّكر
- ٢٦٥ ..... فضيلة التّهليل
- ٢٦٦ ..... فضيلة التّسبيح والتّحميد وبقية الأذكار
- ٢٦٩ ..... تسبيحات سليمان التّيمي
- ٢٧١ ..... الباب الثاني: في فضيلة الدّعاء وآدابه وفي فضل بعض الأدعية المأثورة
- ٢٧٤ ..... فضيلة الصلاة على رسول الله ﷺ
- ٢٧٥ ..... فضيلة الاستغفار

- ٢٧٨ ..... الباب الثالث: فيه أدعية مأثورة عن رسول الله ﷺ
- ٢٨٢ ..... الباب الرابع: في الأدعية المأثورة عند الحوادث
- ٢٩٣ ..... كتاب ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل
- ..... الباب الأول: في فضيلة الأوراد وترتيبها، وبيان أن المواظبة عليها هو الطريق
- ٢٩٥ ..... إلى الله عز وجل
- ٢٩٥ ..... بيان عدد الأوراد وترتيبها
- ٢٩٥ ..... أوراد النهار
- ٢٩٩ ..... أوراد الليل
- ٣٠٣ ..... بيان اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال
- ..... الباب الثاني: في الأسباب الميسرة لقيام الليل، وفي الليالي اللواتي يستحب
- ٣٠٨ ..... إحيائها، وفي فضيلة إحياء الليل، وما بين العشاءين، وكيفية قسمة الليل
- ٣٠٩ ..... بيان الأسباب التي بها يتيسر قيام الليل
- ٣١٣ ..... بيان طرق القسمة لأجزاء الليل
- ٣١٥ ..... فصل
- ٣١٦ ..... فصل
- ٣١٦ ..... بيان الليالي والأيام الفاضلة
- ٣١٩ ..... **رُبْعُ الْعَادَاتِ**
- ٣٢١ ..... كتاب آداب الأكل
- ٣٢٢ ..... الباب الأول: فيما لا بد للمنفرد بالأكل منه
- ٣٢٦ ..... الباب الثاني: فيما يزيد من الآداب بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل
- ٣٢٨ ..... الباب الثالث: في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين
- ٣٣٠ ..... الباب الرابع: في آداب الضيافة
- ٣٣٥ ..... فصل: يجمع آداباً ومنهاى شرعية وطبية
- ٣٣٧ ..... كتاب آداب النكاح
- ٣٣٨ ..... الباب الأول: في التّرعيب في النكاح
- ٣٣٩ ..... ذكر فوائد النكاح

- ٣٤٦ ..... ذِكْرُ آفَاتِ النِّكَاحِ
- ٣٤٧ ..... البَابُ الثَّانِي: فِيمَا يُرَاعَى حَالَةُ الْعَقْدِ مِنْ أَحْوَالِ الْمَرْأَةِ وَشُرُوطِ الْعَقْدِ
- ٣٥٠ ..... البَابُ الثَّلَاثُ
- ..... فِي آدَابِ الْمَعَاشِرَةِ وَمَا يَجْرِي فِي دَوَامِ النِّكَاحِ وَالنَّظَرِ فِيمَا عَلَى الزَّوْجِ وَفِيمَا عَلَى
- ٣٥٠ ..... الزَّوْجَةِ
- ٣٦١ ..... كِتَابُ آدَابِ الْكَسْبِ وَالْمَعَاشِ
- ٣٦٢ ..... البَابُ الْأَوَّلُ: فِي فَضْلِ الْكَسْبِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ
- ..... البَابُ الثَّانِي: فِي عِلْمِ الْكَسْبِ بِطَرِيقِ الْبَيْعِ وَالرِّبَا وَالسَّلَمِ وَالْإِجَارَةِ وَالْقِرَاضِ
- ..... وَالشَّرْكَةِ، وَبَيَانِ شُرُوطِ الشَّرْعِ فِي صِحَّةِ التَّصَرُّفَاتِ الَّتِي هِيَ مَدَارُ الْكَسْبِ فِي
- ٣٦٥ ..... الشَّرْعِ
- ٣٧٣ ..... البَابُ الثَّلَاثُ: فِي بَيَانِ الْعَدْلِ وَاجْتِنَابِ الظُّلْمِ فِي الْمَعَامَلَةِ
- ٣٧٦ ..... البَابُ الرَّابِعُ: فِي الْإِحْسَانِ فِي الْمَعَامَلَةِ
- ٣٨٠ ..... البَابُ الْخَامِسُ: فِي شَفَقَةِ التَّاجِرِ عَلَى دِينِهِ فِيمَا يَخْصُهُ وَيَعْمُ آخِرَتَهُ
- ٣٨٣ ..... كِتَابُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ
- ٣٨٥ ..... البَابُ الْأَوَّلُ: فِي فَضِيلَةِ طَلَبِ الْحَلَالِ وَدَمِّ الْحَرَامِ: وَدَرَجَاتِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ
- ٣٨٨ ..... دَرَجَاتِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ
- ٣٩١ ..... البَابُ الثَّانِي: فِي مَرَاتِبِ الشُّبُهَاتِ وَمَثَارَاتِهَا وَتَمْيِيزِهَا: عَنِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ
- ٣٩٧ ..... البَابُ الثَّلَاثُ: فِي الْبَحْثِ وَالسُّؤَالِ وَالْهَجُومِ وَالْإِهْمَالِ وَمِظَانِهِمَا
- ٤٠٠ ..... البَابُ الرَّابِعُ: فِي كَيْفِيَةِ خُرُوجِ التَّائِبِ عَنِ الْمِظَالِمِ الْمَالِيَةِ
- ٤٠٢ ..... البَابُ الْخَامِسُ: فِي إِذْرَارَاتِ السُّلْطَانِ وَصِلَاتِهِمْ
- ..... البَابُ السَّادِسُ: فِيمَا يَحِلُّ مِنْ مُخَالَطَةِ السُّلْطَانِ الظَّالِمِ وَيَحْرَمُ، وَحُكْمِ غُشْيَانِهِمْ
- ٤٠٤ ..... وَإِكْرَامِهِمْ
- ٤١١ ..... كِتَابُ آدَابِ الصَّحْبَةِ وَالْأَخُوَّةِ وَالْمَعَاشِرَةِ مَعَ الْخَلْقِ
- ٤١٢ ..... البَابُ الْأَوَّلُ: فِي فَضِيلَةِ الْأَلْفَةِ وَالْأَخُوَّةِ وَشُرُوطِهَا وَدَرَجَاتِهَا وَقَوَائِدِهَا:
- ٤١٢ ..... فَضِيلَةُ الْأَلْفَةِ وَالْأَخُوَّةِ
- ٤١٥ ..... بَيَانُ مَعْنَى الْأَخُوَّةِ فِي اللَّهِ تَعَالَى وَتَمْيِيزِهَا عَنِ الْأَخُوَّةِ فِي الدُّنْيَا
- ٤٢٥ ..... البَابُ الثَّانِي: فِي حُقُوقِ الْأَخُوَّةِ وَالصُّحْبَةِ

- الباب الثالث: في حقوق المسلم والرَّحْم والجوار والملك، وكيفية المعاشرة مع  
 ٤٣٧ من يُدلي بهذه الأسباب .....
- ٤٥٩ كتاب الغزلة .....
- ٤٦٠ الباب الأول: في نقل المذاهب والحجج فيها .....
- ٤٦٤ الباب الثاني: في ذكر فوائد الغزلة وعوائلها، وكشف الحق في تفضيلها .....
- ٤٧٣ آفات الغزلة [وفوائد المخالطة] .....
- ٤٨١ كتاب آداب السفر .....
- ٤٨٣ الباب الأول: في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع .....
- ٤٨٣ الفصل الأول: في فوائد السفر وفضله وثبته .....
- ٤٨٩ الفصل الثاني: في آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه .....
- الباب الثاني: فيما لا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر، وأدلة القبلة  
 ٤٩١ والأوقات .....
- ٤٩٩ كتاب السماع والتوجد .....
- ٥٠٣ كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .....
- الباب الأول: في وجوب الأمر بالمعروف وفضيلته والنهي عن المنكر والمذمة في  
 ٥٠٥ إهماله .....
- ٥١٠ الباب الثاني: في أركان الأمر بالمعروف وشروطه .....
- ٥٢٣ بيان: آداب المحتسب .....
- ٥٢٧ الباب الثالث: في المنكرات المألوفة في العادات .....
- ٥٣٣ الباب الرابع: في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف: ونهيه عن المنكر .....
- ٥٥١ كتاب آداب المعيشة: وأخلاق النبوة .....
- ٥٥٣ بيان: تأديب الله عز وجل حبيبه محمداً ﷺ بالقرآن .....
- ٥٥٥ بيان: جملة من محاسن أخلاقه ﷺ .....
- ٥٦١ ربع المهلكات وهو الربع الثالث من هذا الكتاب .....
- ٥٦٣ كتاب شرح عجائب القلب وهو الأول من ربع المهلكات .....
- ٥٦٥ بيان معنى النفس، والروح، والقلب والعقل، وما المراد بهذه الأسماء .....

- ٥٦٧ . . . . . بيانُ جنودِ القلبِ
- ٥٧٠ . . . . . بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة
- ٥٧٣ . . . . . بيانُ خاصِّيةِ قلبِ الإنسانِ
- ٥٧٦ . . . . . بيان مجاميع أوصافِ القلبِ ومثاله
- ٥٧٩ . . . . . بيان مثال القلب بالإضافة إلى العلوم خاصةً
- ٥٨٣ . . . . . بيانُ حالِ القلبِ بالإضافة إلى أقسام العلوم العقلية
- ٥٨٥ . . . . . بيان الفرقِ بين الإلهام والتَّعليمِ
- ٥٨٦ . . . . . بيان تسلُّطِ الشَّيطانِ على القلبِ بالوسواسِ
- ٥٨٧ . . . . . بيان تفصيل مداخل الشَّيطانِ إلى القلبِ
- ٥٩٠ . . . . . بيان ما يؤاخذ به العبدُ من وساوسِ القلوبِ وخَواطرها وما يُعفى عنه
- ٥٩١ . . . . . بيان سرعة تَقَلُّبِ القلوبِ
- ٥٩٥ . . . . . كتاب رياضةِ النَّفسِ وتهذيب الخُلُقِ ومعالجة أمراض القلبِ
- ٥٩٧ . . . . . بيان فضيلة حُسنِ الخُلُقِ ودَمِّ سوءِ الخُلُقِ
- ٦٠٣ . . . . . بيان قبول الأخلاق للتَّغيير بطريق الرِّياضةِ
- ٦٠٥ . . . . . بيان السبب الذي به يُنال حُسنُ الخُلُقِ في الجملة
- ٦٠٦ . . . . . بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاقِ
- ٦٠٨ . . . . . بيان علامات مَرَضِ القلبِ وعلامات عوده إلى الصَّحَّةِ
- ٦١١ . . . . . بيان الطريقِ الذي به يتبيَّن الإنسانُ عُيوبَ نفسه
- ٦١٣ . . . . . بيان الشواهد على أنَّ الطريق في معالجة أمراض القلوب تركُّ الشَّهواتِ
- ٦١٥ . . . . . بيان علامات حُسنِ الخُلُقِ
- ٦١٨ . . . . . بيان الطريق في رياضة الصِّبيان في أولِ النُّشوءِ
- ٦٢٢ . . . . . بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدرُّج المُريد في سلوك سبُل الرِّياضةِ
- ٦٢٥ . . . . . كتاب كسرِ الشَّهوتَيْنِ شهوةِ البطنِ وشهوةِ الفرجِ
- ٦٢٧ . . . . . بيانُ فضيلةِ الجُوعِ ودَمِّ الشَّبَعِ
- ٦٢٨ . . . . . فصل
- ٦٣١ . . . . . بيانُ طريقِ الرِّياضةِ في كسرِ شهوةِ البطنِ
- ٦٣٢ . . . . . بيان اختلاف حُكمِ الجُوعِ وفضيلته باختلاف أحوال الناسِ

- ٦٣٣ ..... بيان آفة الرِّياءِ المتطَرِّقِ إلى من يترك أكلَ الشَّهواتِ أو يُقَلِّلَ الأكلَ
- ٦٣٤ ..... القَوْلُ في شهوةِ الفَرْجِ
- ٦٣٥ ..... فصل
- ٦٣٧ ..... بيان ما على المُريدِ في تركِ التَّزويجِ وفِعله
- ٦٤١ ..... بيان فضيلة من يُخالِفُ شهوةَ الفَرْجِ والعينِ
- ٦٤٥ ..... كتاب آفات اللِّسانِ وهو الكتابُ الرابعُ من رُبْعِ المهلكاتِ
- ٦٤٧ ..... بيان عِظَمِ خَطَرِ اللِّسانِ وَفَضيلةِ الصَّمْتِ
- ٦٥٢ ..... ذِكرُ آفاتِ الكلامِ
- ٦٥٢ ..... الآفةُ الأولى: الكلامُ فيما لا يعني
- ٦٥٣ ..... الآفةُ الثانيةُ: فُضولُ الكلامِ
- ٦٥٤ ..... الآفةُ الثالثةُ: الحَوْضُ في الباطلِ
- ٦٥٤ ..... الآفةُ الرابعةُ: الجِراءُ والمجادلةُ
- ٦٥٥ ..... الآفةُ الخامسةُ: الخُصومةُ
- ٦٥٦ ..... الآفةُ السادسةُ: التَّقَرُّرُ في الكلامِ
- ٦٥٨ ..... الآفةُ السابعةُ: الفُحْشُ والسَّبُّ والبَداءُ
- ٦٥٩ ..... الآفةُ الثامنةُ: اللُّعْنُ
- ٦٦٠ ..... الآفةُ التاسعةُ: الغِناءُ والشُّعرُ
- ٦٦٠ ..... الآفةُ العاشرةُ: المُزاحُ
- ٦٦١ ..... الآفةُ الحادية عشرةُ: السُّخريَّةُ والاستهزاءُ
- ٦٦٢ ..... الآفةُ الثانية عشرةُ: إفشاءُ السُّرِّ
- ٦٦٣ ..... الآفةُ الثالثة عشرةُ: الوعدُ الكاذبُ
- ٦٦٥ ..... الآفةُ الرابعة عشرةُ: الكَذِبُ في القَوْلِ واليمينِ
- ٦٦٩ ..... بيان ما رُحِّصَ فيه من الكَذِبِ
- ٦٧٢ ..... ذِكرُ الكلامِ في المعارِضِ
- ٦٧٤ ..... الآفةُ الخامسة عشرةُ: الغِيبَةُ
- ٦٧٨ ..... بيان مَعنى الغِيبَةِ
- ٦٨٠ ..... بيان أنَّ الغِيبَةَ لا تَقْتَصِرُ على اللِّسانِ
- ٦٨٣ ..... بيان الأسبابِ الباعثةِ على الغِيبَةِ

- ٦٨٥ ..... بيان العلاج الذي به يُمَع اللسانُ من الغيبة
- ٦٨٧ ..... بيان تحريم الغيبة بالقلب
- ٦٨٩ ..... بيان الأعدار المُرخَّصة في الغيبة
- ٦٩١ ..... بيان كَفَّارة الغيبة
- ٦٩١ ..... الألفه السادسة عشرة: النَميمة
- ٦٩٢ ..... فصل
- ٦٩٢ ..... فصل
- ٦٩٤ ..... الألفه السابعة عشرة: كلامُ ذي اللسانين
- ٦٩٥ ..... الألفه الثامنة عشرة: المدح
- ٦٩٧ ..... بيان ما على الممدوح
- ٦٩٧ ..... الألفه التاسعة عشرة: في الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام
- ٦٩٨ ..... الألفه العشرون: سؤال العوام عن صفات الله سبحانه وكلامه
- ٧٠١ ..... كتاب ذم الغضب والحقد والحسد
- ٧٠٣ ..... بيان ذم الغضب
- ٧٠٥ ..... بيان حقيقة الغضب
- ٧٠٩ ..... بيان هل يمكن إزالة أصل الغضب بالرياضة أم لا ؟
- ٧١٤ ..... بيان الأسباب المُهيِّجة للغضب
- ٧١٧ ..... بيان علاج الغضب بعد هيجانه
- ٧٢١ ..... فضيلة كظم العيظ
- ٧٢٢ ..... فضيلة الحلم
- ٧٢٣ ..... ذكر طرف من أخبار الحكماء
- ٧٢٧ ..... بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشقي به من الكلام
- ٧٢٨ ..... القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرَّفق
- ٧٢٩ ..... ذكر فضيلة العفو
- ٧٣١ ..... فضيلة الرَّفق
- ٧٣٣ ..... القول: في ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه ومُعالجته وغاية الواجب في إزالته
- ٧٣٣ ..... بيان ذم الحسد

- ٧٣٧ . . . . . بيان حقيقة الحسد وحكمه ومراتبه
- ٧٣٩ . . . . . بيان أسباب الحسد والمنافسة
- ٧٤٣ . . . . . بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة وبنو العم وذوي القربى وتأكده وقلته في غيرهم وضعفه
- ٧٤٧ . . . . . بيان الدواء الذي به يُنقى مرض الحسد عن القلب
- ٧٥٣ . . . . . بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب
- ٧٥٥ . . . . . كتاب دم الدنيا وهو الكتاب السادس من ربيع المهلكات
- ٧٥٧ . . . . . بيان دم الدنيا
- ٧٦٢ . . . . . بيان صفة الدنيا بالأمثلة
- ٧٧١ . . . . . بيان حقيقة الدنيا وما هيئتها والمذموم منها والمحمود
- ٧٧٥ . . . . . كتاب دم البخل ودم حب المال
- ٧٧٧ . . . . . بيان دم المال
- ٧٧٩ . . . . . بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم
- ٧٨٠ . . . . . بيان تفصيل آفات المال وفوائده
- ٧٨٣ . . . . . بيان دم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس مما في أيدي الناس
- ٧٨٧ . . . . . بيان علاج الحرص والطمع والدواء الذي تكتسب به صفة القناعة
- ٧٩١ . . . . . بيان فضيلة السخاء
- ٧٩٢ . . . . . حكايات عن الأشقياء
- ٧٩٧ . . . . . بيان دم البخل
- ٨٠٠ . . . . . حكايات عن البخلاء
- ٧٠٤ . . . . . بيان الإيثار وفضله
- ٨٠٧ . . . . . بيان حد السخاء والبخل وحقيقتهما
- ٨٠٩ . . . . . بيان علاج البخل
- ٨١١ . . . . . بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله
- ٨١٣ . . . . . بيان خطر الغنى وسلامة الفقر
- ٨١٧ . . . . . كتاب دم الجاه والرياء
- ٨٢٠ . . . . . بيان دم الشهرة وانتشار الصيت

- ٨٢٣ ..... بيان فضيلة الخمول
- ٨٢٦ ..... بيان دم الجاه
- ٨٢٧ ..... بيان معنى الجاه وحقيقته
- ٨٢٨ ..... بيان سبب كون الجاه محبوباً بالطبع
- ٨٣٢ ..... بيان الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لا حقيقة له
- ٨٣٣ ..... بيان ما يُخمد من حب الجاه ويُدم
- ..... بيان السبب في حب المدح والثناء، وارتياح النفس به، وميل الطباع إليه وبُعْضِها  
للذم ونفورها منه
- ٨٣٤ ..... بيان علاج حب الجاه
- ٨٣٧ ..... بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهية الذم
- ٨٣٩ ..... بيان علاج كراهية الذم
- ٨٤١ ..... بيان اختلاف أحوال الناس في الذم والمدح
- ٨٤٢ ..... الشطر الثاني من الكتاب
- ٨٤٣ ..... في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات وهو الرياء
- ٨٤٤ ..... بيان دم الرياء
- ٨٤٤ ..... بيان حقيقة الرياء وما يُرائى به
- ٨٤٧ ..... بيان درجات الرياء
- ٨٥٥ ..... بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من ديب النمل
- ٨٦٢ ..... بيان ما يُحيط العمل من الرياء الخفي والجلي وما لا يُحيط
- ٨٦٧ ..... بيان دواء الرياء، وطريق معالجة القلب فيه
- ٨٦٩ ..... بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات
- ٨٧٦ ..... بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس على المذنب، وكراهة ذمهم  
له
- ٨٧٩ ..... بيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء والآفات
- ٨٨١ ..... بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح
- ٨٨٤ ..... بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه
- ٨٨٦ ..... كتاب دم الكبر والغضب
- ٨٨٩

- ٨٩١ ..... الشَّطْرُ الْأَوَّلُ مِنَ الْكِتَابِ
- ٨٩٢ ..... بَيَانُ ذَمِّ الْكِبْرِ
- ٨٩٥ ..... بَيَانُ ذَمِّ الْاِخْتِيَالِ وَإِظْهَارِ آثَارِ الْكِبْرِ فِي الْمَشْيِ وَجَرِّ الثِّيَابِ
- ٨٩٨ ..... بَيَانُ فَضِيلَةِ التَّوَاضُّعِ
- ٩٠١ ..... بَيَانُ حَقِيقَةِ الْكِبْرِ وَأَنَّهُ
- ٩٠٣ ..... بَيَانُ الْمُتَكَبَّرِ عَلَيْهِ وَأَقْسَامِهِ وَدَرَجَاتِهِ وَثَمَرَاتِ الْكِبْرِ فِيهِ
- ٩٠٦ ..... بَيَانُ مَا بِهِ التَّكْبُرُ
- ٩١٣ ..... بَيَانُ الْبَوَاعِثِ عَلَى التَّكْبُرِ وَأَسْبَابِهِ الْمُهَيِّجَةِ لَهُ
- ٩١٥ ..... بَيَانُ أَخْلَاقِ الْمُتَوَاضِعِينَ وَمَجَامِعِ مَا يَظْهَرُ فِيهِ أَثَرُ التَّوَاضُّعِ وَالتَّكْبُرِ
- ٩١٨ ..... بَيَانُ الطَّرِيقِ فِي مُعَالِجَةِ الْكِبْرِ وَاِكْتِسَابِ التَّوَاضُّعِ
- ٩٣٠ ..... بَيَانُ غَايَةِ الرِّيَاضَةِ فِي حُلُقِ التَّوَاضُّعِ
- ٩٣١ ..... الشَّطْرُ الثَّانِي مِنَ الْكِتَابِ فِي الْعُجْبِ
- ٩٣١ ..... بَيَانُ ذَمِّ الْعُجْبِ وَأَفَاتِهِ
- ٩٣٣ ..... بَيَانُ أَفَةِ الْعُجْبِ
- ٩٣٣ ..... فَصْل
- ٩٣٣ ..... فَصْل
- ٩٣٤ ..... بَيَانُ حَقِيقَةِ الْعُجْبِ وَالْإِذْلَالَ وَحَدُّهُمَا
- ٩٣٥ ..... بَيَانُ عِلَاجِ الْعُجْبِ عَلَى الْجُمْلَةِ
- ٩٣٨ ..... بَيَانُ أَقْسَامِ مَا بِهِ الْعُجْبُ وَتَفْصِيلِ عِلَاجِهِ
- ٩٤٣ ..... كِتَابُ ذَمِّ الْغُرُورِ وَهُوَ الْكِتَابُ الْعَاشِرُ مِنْ رِبْعِ الْمَهْلَكَاتِ
- ٩٤٥ ..... بَيَانُ ذَمِّ الْغُرُورِ
- ٩٤٥ ..... ذِكْرُ غُرُورِ الْكُفَّارِ
- ٩٤٨ ..... فَصْل
- ٩٤٩ ..... فَصْل

## رَبْعُ الْمَنْجِيَّاتِ

- ٩٨١ ..... كِتَابُ التَّوْبَةِ
- ٩٨٣ ..... الرُّكْنُ الْأَوَّلُ: فِي نَفْسِ التَّوْبَةِ

- ٩٨٣ . . . . . بيان حقيقة التوبة
- ٩٨٤ . . . . . بيان وجوب التوبة
- ٩٨٦ . . . . . ذكر الأمر بالتوبة
- ٩٨٦ . . . . . ذكر فرح الله عز وجل بتوبة التائبين
- ٩٨٩ . . . . . بيان وجوب التوبة على الفور
- ٩٩٠ . . . . . بيان أن وجوب التوبة عام لا يتفك عنه أحد
- ٩٩٢ . . . . . بيان أن التوبة إذا اجتمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة
- ٩٩٥ . . . . . الركن الثاني: فيما عنه التوبة وهي صغارها وكبارها
- ٩٩٥ . . . . . بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد
- ١٠٠٣ . . . . . بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة إلى الحسنات والسيئات في الدنيا
- ١٠٠٨ . . . . . بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب
- ١٠١٣ . . . . . الركن الثالث: في تمام التوبة وشروطها في دوامها إلى آخر العمر
- ١٠٢١ . . . . . بيان أقسام العباد في دوام العبادة
- ١٠٢٣ . . . . . بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إذا جرى عليه ذنب
- ١٠٢٥ . . . . . الركن الرابع: في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقد الإصرار
- ١٠٣٧ . . . . . كتاب الصبر والشكر
- ١٠٣٨ . . . . . الشطر الأول: في الصبر
- ١٠٣٨ . . . . . بيان فضيلة الصبر
- ١٠٣٩ . . . . . بيان حقيقة الصبر ومعناه
- ١٠٤١ . . . . . بيان كون الصبر نصف الإيمان
- ١٠٤٢ . . . . . بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر
- ١٠٤٣ . . . . . بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف
- ١٠٤٥ . . . . . بيان مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغني عنه في حال من الأحوال
- ١٠٥٠ . . . . . ذكر المصائب في البدن وثوابها
- ١٠٥١ . . . . . ذكر الحمى
- ١٠٥١ . . . . . ذكر الصداع
- ١٠٥٢ . . . . . ذكر الطاعون

- ١٠٥٢ ..... ذكر ذهاب البصر
- ١٠٥٢ ..... ذكر موت الولد
- ١٠٥٣ ..... فصل: من آداب الصبر
- ١٠٥٤ ..... فصل: من حسن الصبر
- ١٠٥٥ ..... فصل
- ١٠٥٦ ..... فصل
- ١٠٥٩ ..... فصل
- ١٠٦٠ ..... فصل
- ١٠٦٠ ..... بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه
- ١٠٦٨ ..... الشطر الثاني في الشكر
- ١٠٦٩ ..... الركن الأول: في نفس الشكر
- ١٠٦٩ ..... بيان فضيلة الشكر
- ١٠٧٠ ..... بيان الشكر وحقيقته
- ١٠٨٠ ..... بيان تميز ما يحبه الله عز وجل عما يكرهه
- ١٠٨٨ ..... الركن الثاني: ما عليه الشكر
- ١٠٨٨ ..... بيان حقيقة النعمة وأقسامها
- ..... بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وفروجهها عن حد الحصر
- ١١٠١ ..... والإحصاء
- ١١٠٢ ..... الطرف الأول: في نعم الله في خلق أسباب الإدراك
- ١١٠٥ ..... الطرف الثاني: في أصناف النعم في خلق الإرادات
- ١١٠٦ ..... الطرف الثالث: في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة
- ..... الطرف الرابع: في نعم الله تعالى في الأصول التي منها تحصل الأطعمة وتصير
- ١١١٣ ..... صالحة لأن يصلحها آدمي بعد ذلك بصنعبته
- ١١١٧ ..... الطرف الخامس: في نعم الله عز وجل في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك
- ١١١٨ ..... الطرف السادس: في إصلاح الأطعمة
- ١١١٩ ..... الطرف السابع: في إصلاح المصلحين
- ١١٢٠ ..... الطرف الثامن: في بيان نعمة الله في خلق الملائكة

- ١١٢١ . . . . . بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر
- الركن الثالث: من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط
- أحدهما بالآخر . . . . . ١١٢٧
- ١١٢٧ . . . . . بيان اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد
- ١١٣٣ . . . . . بيان فضل النعمة على البلاء
- ١١٣٤ . . . . . بيان الأفضل من الصبر والشكر
- ١١٤٣ . . . . . كتاب الرجاء والخوف
- ١١٤٤ . . . . . الشطر الأول: بيان حقيقة الرجاء
- ١١٤٨ . . . . . بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه
- ١١٤٩ . . . . . بيان دواء الرجاء والسبب الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب
- ١١٥٣ . . . . . الشطر الثاني: في الخوف
- ١١٥٣ . . . . . بيان حقيقة الخوف
- ١١٥٥ . . . . . بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف
- ١١٥٦ . . . . . بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه
- ١١٥٨ . . . . . بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه
- ١١٦٢ . . . . . بيان الأفضل من غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما
- ١١٦٣ . . . . . بيان الدواء الذي به يستجلب حال الخوف
- ١١٧١ . . . . . بيان معنى سوء الخاتمة
- ١١٧٤ . . . . . ذكر خوف الملائكة
- ١١٧٦ . . . . . ذكر خوف الأنبياء المتتبعين
- ١١٧٦ . . . . . ذكر خوف آدم وبكائه
- ١١٧٦ . . . . . ذكر خوف نوح
- ١١٧٦ . . . . . ذكر خوف إبراهيم الخليل
- ١١٧٧ . . . . . ذكر خوف داود وبكائه
- ١١٧٩ . . . . . ذكر خوف عيسى عليه السلام
- ١١٧٩ . . . . . ذكر خوف يحيى بن زكريا وبكائه
- ١١٨٠ . . . . . ذكر خوف نبينا ﷺ
- ١١٨١ . . . . . ذكر خوف الصحابة وبكائهم

- ١١٨٣ ..... ذكر خوف التابعين من بعدهم
- ١١٩١ ..... كتاب الفقر والزهد
- ١١٩٢ ..... الشطر الأول: من الكتاب في الفقر
- ١١٩٢ ..... بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقر وأساميهم
- ١١٩٤ ..... بيان فضيلة الفقر مطلقاً
- ١١٩٦ ..... بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين
- ١١٩٧ ..... بيان فضل الفقر على الغنى
- ١٢٠٠ ..... المقام الثاني في نسبة حال الفقير الحريص إلى الغني الحريص
- ١٢٠٢ ..... بيان آداب الفقير في فقره
- ١٢٠٣ ..... بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال
- ١٢٠٥ ..... بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه
- ١٢١٠ ..... بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال
- ١٢١٠ ..... بيان أحوال السائلين
- ١٢١٢ ..... الشطر الثاني: في الكتاب في الزهد
- ١٢١٢ ..... بيان حقيقة الزهد
- ١٢١٢ ..... بيان فضيلة الزهد
- ١٢١٥ ..... بيان درجات الزهد
- ١٢١٧ ..... فصل
- ١٢١٨ ..... بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة
- ١٢١٩ ..... فصل
- ١٢٢٥ ..... بيان علامات الزهد
- ١٢٢٧ ..... كتاب التوحيد والتوكل
- ١٢٢٨ ..... بيان فضيلة التوكل
- ١٢٣٠ ..... بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل
- ١٢٤١ ..... الشطر الثاني: من الكتاب في أحوال التوكل وأعماله
- ١٢٤١ ..... بيان حال التوكل
- ١٢٤٥ ..... بيان ما قالوه في التوكل

- ١٢٤٥ ..... بيان أعمال المتوكلين
- ١٢٤٦ ..... الفن الأول في جلب النافع
- ١٢٤٧ ..... بيان توكل المعيل
- ١٢٤٧ ..... الفن الثاني في التعرض للأسباب بالادخار
- ١٢٤٨ ..... الفن الثالث في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر
- ١٢٥١ ..... الفن الرابع: السعي في إزالة الضرر كمدادوة المريض ونحو ذلك
- ١٢٥٥ ..... كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا
- ١٢٥٧ ..... بيان شواهد الشرع في حب العبد لله عز وجل
- ١٢٥٨ ..... بيان حقيقة المحبة وأسبابها
- ١٢٦٦ ..... بيان أن المستحق للمحبة هو الله تعالى وحده
- بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم وأنه لا يتصور أن يؤثر على ذلك لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة
- ١٢٧٢ ..... بيان السبب في زيادة لذة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا
- ١٢٧٨ ..... بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى
- ١٢٨١ ..... بيان السبب في تفاوت الناس في الحب
- ١٢٨٤ ..... بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى
- ١٢٨٥ ..... بيان معنى الشوق إلى الله تعالى
- ١٢٨٩ ..... بيان محبة الله تعالى للعبد ومعناها
- ١٢٩٢ ..... القول في علامات محبة العبد لله تعالى
- ١٢٩٥ ..... بيان معنى الأنس بالله عز وجل
- ١٣٠٣ ..... بيان معنى الانبساط والادلالات الذي يثمره الأنس
- ١٣٠٥ ..... بيان فضيلة الرضا
- ١٣٠٦ ..... بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى
- ١٣١٠ ..... بيان أن الدعاء لا يناقض الرضا وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها وأسبابها
- ١٣١٥ ..... والسعي في إزالتها
- ١٣١٩ ..... بيان الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ولا يقدر في الرضا
- ١٣٢١ ..... كتاب النية والإخلاص والصدق

- ١٣٢٣ ..... الباب الأول: في النية
- ١٣٢٣ ..... بيان فضيلة النية
- ١٣٢٦ ..... بيان حقيقة النية
- ١٣٢٩ ..... بيان قوله ﷺ (نية المؤمن خير من عمله)
- ١٣٣١ ..... بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية
- ١٣٣٤ ..... بيان أن النية غير داخله تحت الاختيار
- ١٣٣٩ ..... الباب الثاني: في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته
- ١٣٤١ ..... بيان حقيقة الإخلاص
- ١٣٤٥ ..... ذكر جملة من أقوال المشايخ في الإخلاص
- ١٣٤٦ ..... بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص
- ١٣٤٩ ..... بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب عليه
- ١٣٥١ ..... الباب الثالث: في الصدق وفضيلته وحقيقته
- ١٣٥١ ..... بيان حقيقة الصدق
- ١٣٥١ ..... الصدق الأول صدق اللسان
- ١٣٥٣ ..... الصدق الثاني في النية والإرادة
- ١٣٥٣ ..... الصدق الثالث صدق العزم
- ١٣٥٣ ..... الصدق الرابع في الوفاء بالعزم
- ١٣٥٤ ..... الصدق الخامس في الأعمال
- ١٣٥٥ ..... الصدق السادس وهو أعلى الدرجات الصدق في مقامات الدين
- ١٣٥٧ ..... كتاب المحاسبة والمراقبة
- ١٣٥٩ ..... المرابطة الأولى: المشاركة
- ١٣٦٤ ..... المرابطة الثانية: المراقبة
- ١٣٦٦ ..... بيان حقيقة المراقبة
- ١٣٧٣ ..... المرابطة الثالثة: محاسبة النفس بعد العمل
- ١٣٧٤ ..... بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل
- ١٣٧٧ ..... المرابطة الرابعة: في معاينة النفس على تقصيرها
- ١٣٨٠ ..... المرابطة الخامسة: المجاهدة
- ١٣٨٣ ..... المرابطة السادسة: في توبيخ النفس ومعاتبتها

- ١٣٨٧ ..... كتاب التفكير
- ١٣٨٩ ..... فضيلة التفكير
- ١٣٩٦ ..... بيان حقيقة الفكر وثمرته
- ١٣٩٩ ..... بيان مجاري الفكر
- ١٤٠١ ..... المعاصي
- ١٤٠٢ ..... الطاعات
- ١٤٠٣ ..... الصفات المهلكة التي محلها القلب
- ١٤٠٤ ..... المنجيات
- ١٤١٠ ..... بيان كيفية التفكير في خلق الله عز وجل
- ١٤٢٥ ..... كتاب ذكر الموت وما بعده
- ١٤٢٧ ..... الباب الأول: في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره
- ١٤٢٨ ..... بيان فضل ذكر الموت
- ١٤٣٠ ..... بيان الطريق إلى تحقيق ذكر الموت في القلب
- ١٤٣٢ ..... الباب الثاني: في طول الأمل وفضيلة قصره وسبب طوله وكيفية معالجته
- ١٤٣٦ ..... بيان السبب في طول الأمل
- ١٤٣٩ ..... بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره
- ١٤٤٢ ..... بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير
- ١٤٤٧ ..... الباب الثالث: في سكرات الموت وشدته وما يستحب من أحوال عنده
- ١٤٥٢ ..... بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت
- ١٤٥٥ ..... الباب الرابع: في ذكر وفاة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين بعده
- ١٤٥٨ ..... وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه
- ١٤٥٨ ..... وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه
- ١٤٥٩ ..... وفاة عثمان بن عفان رضي الله عنه
- ١٤٦٠ ..... وفاة علي بن أبي طالب رضي الله عنه
- الباب الخامس: في ذكر نبذة من كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء
- ١٤٦١ ..... والصالحين
- ١٤٦٢ ..... ذكر كلمات نقلت عن جماعة من الصحابة

- ١٤٦٣ ..... ذكر كلمات نقلت عن جماعة من الصالحين
- ١٤٦٤ .. الباب السادس: في أقوال العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور
- ١٤٦٤ ..... بيان حال القبر وأقوالهم على القبور
- ١٤٧٠ ... الباب السابع: في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور
- ١٤٧٠ ..... بيان حقيقة الموت
- ١٤٧٦ ..... ذكر تلقين الميت
- ١٤٧٦ ..... بيان كلام القبر للميت وكلام الموتى
- ١٤٧٩ ..... بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير
- ١٤٨٠ ..... ذكر السؤال في القبر
- ١٤٨٢ ..... ذكر ضغطة القبر
- ١٤٨٣ ..... الباب الثامن: في ذكر ما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام
- ١٤٩٠ ..... أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى حين الاستقرار في الجنة أو النار
- ١٤٩٠ ..... ذكر نفخة الصور
- ١٤٩١ ..... صفة أرض المحشر وأهله
- ١٤٩٣ ..... ذكر المساءلة
- ١٤٩٥ ..... صفة الميزان
- ١٤٩٦ ..... صفة الخصماء ورد المظالم
- ١٤٩٧ ..... ذكر الصراط
- ١٤٩٨ ..... ذكر جهنم
- ١٥٠١ ..... ذكر صفة الجنة
- ١٥٠٥ ..... ذكر سعة رحمة الله تعالى نترجى بذلك فضله
- ١٥١١ ..... فهرس الموضوعات